مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الأول — المحرم سنة ١٣٧٩ هـ — يوليو سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادي والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلة في سنتها الحادية والثلاثين

قطعت هذه المجلة في سبيل الله ثلاثين مرحلة من مراحل عمرها المقدور ، تحمل القرآن وتبلغ ، وتعلن الأذان وتدعو ، وترفع المنار وتدل .

ولكنها كانت في مراحلها الثلاثين كالسائر في فدافد الأرض ، تجد الري حينا فتقوى وتنشط ، وتفقده أحيانا فتضوى وتكل .

وها هي ذي تبدأ بعون الله مرحلتها الحادية والثلاثين وقد توفر لها الزاد والعتاد والقوة : وفرها لها الإمام الصالح المصلح محمود شلتوت ، فهي عسية ألا تشكو بعد اليوم طوى ولا ضوى ولا كلالة . ستسير في المقدمة من ركب الإصلاح الثوري الصاعد ، تنشر نور الله في كل طريق ، وتبث روح النبوة في كل عمل ، وتقوّم لسان العروبة في كل قطر ، وتجمع كلمة المسلمين على كل أمر . والأمة العربية فيما تكابد اليوم من أخطار الشيوعية والصهيونية والاستعمار ، أحوج ما تكون إلى هذا التوجيه . والأزهر هو الباب المفتوح على السماء ، يتنزل عليه منها الرُّوح والروح والهداية ، فلا يفعل فعله في جهاد العدو جيش ، ولا يحل محله في جهاد النفس قانون .

وهذه المجلة هي كلمته ودعوته . وكلمته ستبقى ما بقيت الأرض . ودعوته ستسير ما سارت الشمس . والله متم نوره ولو كره الكافرون .

رئيس التحرير

قوى الإسلام الثلاث

بقلم : أحمد حسن الزيات

الإسلام دين القوة ، وكيف يكون غير ذلك وشارعه هو الجبار ذو القوة المتين ، ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ، وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ، ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ، وقواده (الخالديون) هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ، وخلفاؤه (العمريون) هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب ؟

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .

هو قوة فى الرأس ؛ لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

وهو قوة فى اللسان ؛ لأن البلاغة هى معجزته وأداته ، والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد ؛ لأن موحيه وهو الحكيم الخبير ، قد علم أن العقل بسلطانه ، واللسان ببيانه ، لايغنيان عن الحق شيئا إذا ما أظلم الحس ، وتحكمت النفس ، وعميت البصيرة ؛ فجعل من القوة المادية ذائداً عن كلمته ، وداعيا إلى حقه ، ومنفذاً لحكمه ، ومؤيداً لشرعه . كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه ، وفرض عليهم إعداد القوة والخيل إرهابا لعدوهم وعدوه ، وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح ؛ لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وهذه القوى المتفرقة إنما تتضام وتتجمع فى قوى ثلاث ذوات صيغ ثلاث : قوة الفرد بالإيمان وصيغتها : (الله أكبر) ، وقوة الجماعة بالوحدة وصيغتها : (لا إله إلا الله) ، وقوة العالم بالألفة وصيغتها : (السلام عليكم) ، فالتكبير والتهليل والتسليم هى هتاف المسلم فى أذانه وصلاته ، وهى شعاره فى أعماله ومعاملاته ، ولا أجد للإسلام خلاصة تستوعب أسراره ومعانيه ومغازيه ، خيراً من هذه الصيغ الثلاث . !

فالله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد ، وسر الجهاد ، وسر الفداء ، وسر النصر . ولاشتمالها على هذه الأسرار كانت ركنا جوهرياً فى الصلاة : يدخل بها المصلى إلى الله ، ثم يرددها فى ركوعه وسجوده، وفى قيامه وقعوده ، ثم كانت هتافا حماسياً فى الحرب ، يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر فى نفسه النصر ، ويصغر فى عينه الخطر . وكان غالبا ما يكون هذا الهتاف : الله أكبر ! فتح ونصر . فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوى نشيداً قوميا ينشده المجاهدون فى كل مسجد ، ويردده المصلون فى كل عيد : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ، وأقدر من كل قدير ، وأعلى من كل علىّ . فهو فى حمى هذا الاعتقاد ، يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ، ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالى . وكيف يخشى ضرراً أو يبالى خطراً ، والله الذى تفرد بالسلطان الأعظم ، واختص بالقدرة العليا ، يحميه من ورائه ويكفيه من أمامه ؟ .

والتكبير فى حقيقته إعلان عما يجيش بالنفس من إجلال للمثل الأعلى ، وإعجاب بالعمل الأرفع : فنحن نكبر الله حين يملأ قلوبنا جلاله ، وحين يملك شعورنا صنعه ، ونحن نكبره كل يوم فى الأذان والإقامة والصلاة ؛ لأن الإسلام قائم بأركانه الخمسة على القوة أو على ما تحصل به القوة : فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة . والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية للمال بالتطهير ، وتمكين للمجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف ، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق ؛ فلولا قوته الروحية فى الصلاة ، وقوته الاقتصادية فى الزكاة ، وقوته الاجتماعية فى الحج ، وقوته المادية فى الجهاد ، لما استطاع المسلمون أن يفتحوا أكثر الدنيا القديمة ، فيملكوا معظم أفريقيا وأطراف أوربا من الغرب ، ومعظم آسيا وأطراف أوربا من الشرق.

ولا إله إلا الله ، هى كلمة التوحيد . والتوحيد ركن من أركان الإسلام وعنوان بارز من عناوينه . يقصد به فى الأصل توحيد الله ، ثم قصد به من طريق اللزوم توحيد الكلمة ، وتوحيد القبلة، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ،وتوحيد الدين والدنيا . فهى من الكلم الجوامع ، التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل جماعة وأمة

ذلك لأن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال ، الوحدة والجماعة ، وهما لباب الدعوة الإســـلامية .

فالوحدة هي الأساس الذى حمل ، والجماعة هي البناء الذى قام . ومن ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوه بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة . فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل ، والطائفة التي تبغى على جماعة المسلمين تقاتل ، والحاكم الذى يضل قومه السبيل يعزل ، والصلاة إنما يعظم أمرها ، ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة . وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة على الأقل فى كل عمر .

أما السلام عليكم ، فهى الصيغة للمعنى الإسلامى الذى يقابل معنى الجاهلية قبل الرسالة ، ومعنى الجهاد بعد الدعوة ، ومعنى التكبير فى أول الصلاة . ومقابلة التكبير وهو رمز القوة ، بالتسليم وهو رمز الرحمة ، دليل على أن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والعدل ، لا قوة السفه والجور ، فهى قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان : قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس . فالمصلى يدخل فى الصلاة إلى الله بالتكبير وهو خشوع وعبادة ، ويخرج منها إلى الناس بالتسليم وهو أمان ورحمة و (السلام عليكم) ، بعد أولئك كله تحية المسلم لنبيه فى الصلاة ، وتحية المسلم لأخيه فى كل وقت . يلقيها عليه حين يلقاه فيضمن له الأمان من نفسه ، ويحمله على أن يطمئن إليه بأنسه .

فأنت ترى أن القوة الحكيمة التى تصدر عنها العزة والمروءة ، والحرية والعدالة ، هى طبيعة الإسلام ووسيلته ، على ذلك كان إسلام محمد وأبى بكر وعمر ، وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق ، والسيف للباطل ، وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة : أن فعل كتاب الرشيد فى (نيقفور) ما لا يفعل الجيش ، وبلغوا من المروءة أن سير المعتصم جيشا إلى (عمورية) لإنقاذ امرأة . !

فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، يؤمن بالوحدة ، ويحرص على الجماعة ، ويخلص للقومية ، كان مسلما من غير إسلام ، وعربيا من غير عروبة .

أحمد حسن الزيات

الإيمان: بين التفكير والفلسفة

للأستاذ عباس محمود العقاد

ينسب إلى المعرى أنه قال فى اللزوميات :

قلتم لنا خالق حكيم
صدقتم ، هكذا نقول
زعمتموه بلا زمان
ولا مكان ، ألا فقولوا :
هذا كلام له خبىء
معناه ليست لكم عقول

ويروى « قديم » بدلا من حكيم فى البيت الأول ، وهى رواية ضعيفة متناقضة ؛ لأن من يقول بقدم الخالق لا يستغرب بعد ذلك أن يكون بلا زمان . فإن أقرب معانى القدم إلى الذهن ألا يكون مسبوقا بما هو أقدم منه إن لم يكن سابقا للزمان .

ونحن على كلتا الروايتين نتردد فى نسبة الأبيات إلى أبى العلاء لسبب يتعلق بالصيغة فى اللزوميات على الخصوص ؛ فإن أبا العلاء إنما نظم قصائده التى التزم بها ما لا يلزم فى القافية ، ليتقيد بأكثر من حرف واحد فى الروى ، فليس من المناسب لهذا القيد أن ينظم ثلاثة أبيات : اثنان منها منتهيان بنقول وقولوا ، وهما مضارع فعل واحد ، ولم يكن عزيزاً عليه أن يتجنب هذا الإيطاء الذى يتجنبه الشعراء ممن لا يلتزمون فى الروى والقافية ما كان يلتزمه رهين المحبسين .

وأيا كان قائل الأبيات فهو ولا ريب من المفكرين الذين يتعرضون للفلسفة بغير أداتها ، وقديما كان التفكير والفلسفة لفظين بمعنى واحد يحل أحدهما محل الآخر بلا اختلاف فى رأى الكثيرين . ولكن موضوعات التفكير قد تخصصت بعد تصنيف العلوم على أوضاعها الحديثة ، فتعددت ملكات التفكير على حسب الموضوعات والعلوم التى يتصدى لها المفكرون .

هناك التفكير العلمى ، ويكفى فيه أن تكون للباحث قدرة على ملاحظة التجارب المحسوسة والمقابلة بين المتشابه منها والمختلف ، والإفضاء من هذه المقابلة إلى نتيجة عامة محسوسة قلما تتعدى الوصف والإحصاء .

وهناك التفكير الرياضى ، ويكفى فيه أن يتفهم الباحث علاقات المدركات الذهنية التى

يسلمها العقل فرضا وتقديراً ولو لم يكن لها وجود فى الخارج، وأكثر ما تكون الحقائق الرياضية تقديرات ذهنية لا ترى بالحواس بل لا يتصورها العقل نفسه إلا من قبيل التسليم بالفرض الذى لا بد منه، كالنقطة الهندسية التى لا طول لها ولا عرض ولا عمق ولا امتداد على الإطلاق، وكالبسيط الذى يخالف المركب فى الأشكال والأبعاد. فإن الذهن الرياضى يعقل من هذه الفروض ما لا وجود له فى الطبيعة، ولا دليل عليه، إلا أنه مستلزم بحكم البداهة، وليس هذا الفرض من ضروب التفكير التى يطبع عليها من طبع على جمع المعلومات بالمشاهدة والتجريب.

والتفكير الفلسفى ملكة أخرى لا تشبه كل الشبه ملكة العلم التجريبى وملكة الفروض الرياضية، ولكنها تشترك فيهما بنصيب لا غنى عنه، وقوامها الأكبر أن تحسن الفهم فى المسائل المجردة، أو المفارقة، كما يقول المتقدمون. وهى بهذا قد تشبه الرياضة إلى حد بعيد، لولا أن الرياضة تنتهى إلى الفرض ولا يعنيها أن تتصوره أو تحوم حوله بوجدان أو إلهام.

وصاحب الأبيات الثلاثة مفكر يعتمد على المشاهدة التجريبية فى فهم الحقائق الفلسفية، فيستغرب البديهيات التى تنتفى بها الغرابة عند الفيلسوف وهى استقلال وجود الخالق عن الزمان والمكان.

إن الذى استغربه قائل الأبيات الثلاثة هو الفهم الوحيد الذى يستطيع الفيلسوف أن يفهم به وجود الخالق المبدع لجميع الموجودات، ومنها الزمان.

فليس فى وسع العقل الفلسفى أن يتصور خالق يسبقه زمان ويحيط به مكان، ولا بد للخالق من استقلال عن الوقت وعن الحيز المحدود، ولن يكون الحيز إلا فى حدود، ولن يكون الخالق الأبدى إلا منزها عن جميع الحدود.

وإنما استغرب قائل الأبيات أن يتنزه الخالق عن الزمان؛ لأنه لا يفهم بالمشاهدة الحسية كيف يفرق بين الوجود فى الزمن وبين الوجود بلا زمن، وهو الوجود الأبدى السرمدى: وجود الخالق المنزه عن الحدود والأشكال.

أما العقل الفلسفى فإنه يستطيع على الأقل أن يفرق بين الوجودين، وأن يدرك أنهما نقيضان متقابلان فى أهم الصفات، ولا يلزم من إدراكه الفرق بينهما أنه يحيط بهما تصوراً وتصويراً للحس أو للبديهة؛ لأن التناقض بين الوجود والعدم - مثلا - معقول وإن لم يكن فى وسع العقل أن يحيط بماهية

الوجود كله أو يدرك العدم على أى حال من أحوال الإدراك، غير إدراك الفارق بينه وبين الوجود.

وكذلك الأبد والزمن نقيضان : فالأبد لا يتصور مع الحركة، ولكن الزمن لا يتصور إلا مع الحركة.

الأبد لا تعقل له حركة فى مكان ، لأنه بلا بداية ولا نهاية، وبلا أول ولا آخر، وبلا حيز ينتقل من بعد إلى بعد ومن موضع إلى موضع.

والزمن على نقيض ذلك لا يتصوره العقل إلا مع الحركة التى لا يخلو منها مكان.

وهنا يشترك العقل الرياضى والعقل الفلسفى فى ملكات التقدير الصحيح. فالعقل الرياضى يستلزم أن يفرق بين الزمن والأبد، ويستلزم أن يكون الزمن مبتدئا، وأن يكون الأبد بغير ابتداء، ولا يستلزم أن يكون معهما ثالث بين هذا وذاك.

وعلى هذا النحو يدركهما العقل الفلسفى كما أدركهما حجة الإسلام الغزالى رضوان الله عليه. فإنه استلزم أن يكون أبد، وأن يكون زمن لا زمن قبله، ولم يستلزم بينهما شيئا ثالثا، لأن هذا الشيء المقتحم من أغاليط الأوهام كما قال رحمه الله.

ويقال عن المكان ما يقال عن الزمان، وغاية الفرق بينهما أن أحدهما امتداد مع الحركة، والآخر امتداد مع السكون. وإذا كان العقل الفلسفى لا يحيط بحقيقة المكان إدراكا وتصوراً فإنه ليستطيع أن يتبعها إلى مقتضاها فيغنيه ذلك بعض الغنى عن الإدراك الشامل والتصور المحيط، إذ هو يستطيع أن يتبعه فيدرك أن وراءه شيئا غير الامتداد الذى يتراءى للإنسان. فلابد من شيء وراء النقطة الهندسية التى هى حقيقة من الحقائق، ولكننا لا نفرض لها امتداداً على الإطلاق، وكذلك الخط الذى هو مجموعة من النقط على هذه الصفة، وكذلك النهاية الصغرى التى لا نصل إليها بالحساب فى الأبعاد ولا فى الأرقام.

هنالك شيء وراء امتداد الحركة ووراء امتداد السكون.

ما هو على التحقيق ؟.

لا ندرى، ولا يمكن أن ندرى، ولكنه هناك !.

وننتهى الآن إلى السؤال الذى لا مناص منه وهو : كيف إذن يكون الإيمان بالحقائق الأبدية ؟ وكيف إذن يكون الإيمان بالخالق الذى لا أول له ولا آخر ولا زمان ولا مكان ؟.

إن العقل لا يستطيع أن يحيط به إدراكا وتصوراً على وجه من الوجوه، ولكنه

يستطيع أن يدرك ضرورة الإيمان بغير شك وبغير محال .

إن الخالق الذى يستحق أن نؤمن به لا تكون له حدود ولا يحصره إدراك ، ومن كان كذلك فهو أعظم من أن تحيط به العقول .

فماذا يكون حكم العقل فى هذه الحقيقة التى يقررها ولا يسعه أن يقرر غيرها ؟ .

هل يكون سبب الإيمان مانعاً للإيمان ؟

هل تكون «الأبدية» مبطلة لوجود الخالق ومبطلة للإيمان به أو الإيمان بوجوده وهى هى شرطه وسببه وداعيه ؟ .

العقل يدرك على الأقل أن الإيمان ضرورة « عقلية » ؛ لأن سبب الشيء لا يكون مبطله وسبب إلغائه و نقضه .

والعقل إذن يستلزم التسليم بالإلهام والهداية الدينية فى الأمور التى تمتنع الإحاطة بها ؛ لأنها بطبيعتها وراء متناول العقول .

هل معنى ذلك أن العقل لا عمـــل له فى الإيمان ، ولا قدرة له على بلوغ الهداية ؟ .

كلا ! فإن القول . بترك المجهود العقلى غير القول ببذل المجهود إلى غاية مـداه والانتهاء من هذا المدى إلى ما يليه .

فرق بين أن يقال : إن الإيمان ضرورة عقلية ، وأن يقال : إن الإيمان يناقض العقل أو أن العقل لا يعمل شيئاً فى السعى إلى الإيمان .

وحسب العقل « أولا » أن يعلم أن الوجود الأبدى ضرورة عقلية ، وأن الإيمان به كذلك ضرورة عقلية ، وأن هناك مطلباً يسعى إليه ليدرك منه ما وسعه إدراكه وينتهى منه إلى الملكة التى تهدى إليه ؛ فإنه يدرك هذه الحقائق « عقلا » ولا يتسنى له « عقلا » أن يهملها ويدع البحث عنها ، ومتى آمن بذلك فقد أسقط الإنكار من حسابه ، فليس فى وسعه أن ينكر لسبب معقول . وقد جاء فى الأثر أنه « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » وما خطر على البال فهو موجود ، وإن لم يكن له مثيل فى الوجود ؟

عباس محمود العقاد

الإسلام كنظام للحياة

للدكتور محمد البهى

الإسلام هو رسالة الله للبشرية كافة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ؛ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ؛ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » هو رسالة الله للعرب والعجم ، سواء من كانوا وقت إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم : أم من جاءوا بعده إلى يوم الدين « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

هو رسالة الله لتوجيه الإنسان : كطبيعة أعدها الله على خلق خاص وميزها على سواها مما خلق . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » هو للطبيعة البشرية ، سواء عاشت هذه الطبيعة فى الصحراء ، أم على قمم الجبال أم على شواطئ البحار والأنهار ، أم فى الشرق أم فى الغرب أم فى الشمال أم فى الجنوب : هو رسالة الطبيعة البشرية أينما كانت ومتى وجدت ؛ ليهديها الطريق السوى ، ويجنبها الوهم والخرافة فيما تتجه إليه « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

والإسلام فى توجيهه للإنسان إذن يجب أن يكون متفقا مع خصائص طبيعته : يعترف بأنها طبيعة إنسان ، ويعمل على أن تبقى طبيعة إنسان . لا يحاول أن ينقل الإنسان من طبيعته إلى طبيعة ملك ، كما يحول دون أن تتحول إلى طبيعة حيوان . الإنسان فى الإسلام بشر ، ويبلغ بالإسلام أعلى درجة البشرية .

لهذا كان الإسلام نظاما لحياة الإنسان الذى لا يستطيع أن يبلغ مبلغ الألوهية ، حتى لو كان رسولا مصطفى من ربه « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . . . » « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » . ونظاما لحياة الإنسان الذى لا ينبغى أن ينحط عن طبيعته التى يتميز بها عن غيره .

وهنا نرى الإسلام يدخل بتوجيهه جميع جوانب الحياة الإنسانية . يدخل بتوجيهه :

(ا) فى نظافة الإنسان فيحمله على غسل بعض أعضاء جسمه عدة مرات فى اليوم ، وعلى غسل جميع جسمه فى مناسبات خاصة ، ويحثه على أن يحتفظ بنظافة ثوبه وبدنه وفمه عند الاجتماع واللقاء ، على نحو ما يحدث فى صلاة الجمعة . يدخل بتوجيهه :

(ب) فى غذاء الإنسان وشرابه . فيحرم عليه بعض ألوان الطعام ، كما يحرم عليه بعض أنواع الشراب « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . ينصح الإنسان عندما يبتغى أن يتناول طعاما أو شرابا أن لا يتناوله إلا إذا شعر بالحاجة إليه ، وبالمقدار الذى يسد به حاجته « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . يتدخل بتوجيهه :

(ج) فى ملبس الإنسان . فيحرم على الرجل لبس الحرير وأن يختم بالذهب . ويحرم على المرأة أن تثير الفتنة فى ملبسها وزينتها « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن . . . » . يتدخل بتوجيهه :

(د) فيما يتسلى به الإنسان . فيحرم عليه ما يثير أعصابه أو يتلفها ، كالقمار فى صوره المختلفة « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . بينما ينصحه بما ينشط بدنه وعقله ويزيل عنه السآمة والملل ، كمباشرة الرمى والعدو ، فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يرمون بالسهام فقال : « ارموا بنى اسماعيل ، إن أباكم كان راميا » وقال « كل لهو ابن آدم باطل إلا مداعبته أهله ، وتأديبه فرسه » . وكان صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة رضى الله عنها فيسبقها مرة ، وتسبقه أخرى . يتدخل بتوجيهه :

(هـ) فى معاملة الإنسان للإنسان ، فإن كان الإنسان أبا أو أما نصحه بعدم الافتتان بالولد . « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ... » وإن كان ابنا نصحه برعاية علاقته بأبيه وأمه رعاية تقوم على الوفاء ، وعلى المحافظة على الشعور الكريم نحوهما ، وتجنب ما يؤذى نفسهما من قرب أو بعد « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، « ... فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما

قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

وإن كان زوجا نصحه بالإحسان فى المعاشرة وفى المفارقة على السواء « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وإن كانت زوجة نصحها بأن تؤدى مايجب عليها لقاء مايجب لها . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن كان ذا قرابة نصحه بتقديم المساعدة لقريبه مهما نازعته فى ذلك نفسه « وآتى المال على حبه ذوى القربى » . وإن كان ذا جوار نصحه بمشاركة جاره فى سرائه وضرائه ، وعلى الأقل بأن يؤمنه من أذاه : عن ابن أبى شريح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن : قيل : ومن يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه (شروره وأذاه) » .

وعنه صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وإن كان راعيا حمله مسئولية الرعاية والقيادة « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » .

وإن كان ذا عهد أمره بالوفاء بالعهد « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .

وإن كان ذا تجارة أمره بالقسطاس المستقيم وبالعدل فى المبادلة « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » ، « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وإن كان ذا شهادة أو قضاء أمره بالعدل مهما كانت الدوافع والظروف . . . « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ... » .

يتدخل الإسلام بتوجيهه :

(و) فى عبادة الإنسان لله فيوجهه إلى أن المعبود إله واحد لاشريك له « قل الله أعبد مخلصاً ، له دينى » « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

يتدخل بتوجيهه أخيرا :

(ز) فى رفع الإنسان نحو أسمى صورة من صور الإنسانية . وهى صورة الإنسان الذى لا تتحكم فيه شهوة المال والفرج . ومن لا تتحكم فيه شهوة المال والفرج ، هو الذى خشى ربه، وآمن بجزائه، وعبد ربه دون

انقطاع ، وأعطى دون أن يسأل ، وحفظ حرمة الغير سراً وعلانية ، وأوفى بعهده إن عاهد ، وصان الأمانة إن اؤتمن عليها ، وأدى الشهادة فى غير مواربة . « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عــذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنات مكرمون » .

* * *

نرى الإسلام هنا يتدخل بالتوجيه فى حياة الإنسان الخاصة والعامة . ينهاه عن هــذا ويأمره بذاك . يتدخل فى أمر نظافته ، وفى غذائه وشرابه ، وفى ملبسه ، وفى وسائل تسليته ، وفى معاملته لغيره ، وفى عبادته لربه . وحياة الإنسان أينما كان وفى أى مكان وجد ، هى تلك الحياة ذات الألوان العديدة : فلماذا كانت عناية الإسلام بالإنسان إلى هذا الحد ؟

أكان يوجد هناك خطر على الإنسان لو تخلى عنه الإسلام كلية ، أو لم يبد له النصح والتوجيه فى بعض جوانب حياته ؟ . لماذا لم يدعه الإسلام مثلا يفعل ما يريد فى خاصة نفسه : فى شأن نظافته ، وغذائه ، وكسائه ، وما يتسلى به ؟ أهناك ضرر عليه وحده أو على غيره معه لو تركه بدون توجيه فى حياته الخاصة ؟ .

كل هذه أسئلة يجاب عنها ، لو تبين أن توجيه الإسلام كان ضرورة للإنسان وفق طبيعته الخاصة .

الإنسان يشتهى ، وأعد فى الوقت نفسه لأن يكون ذا قيادة يقود بها ذاته ويقود بها ما عداه من الكائنات الأخرى . الإنسان طبيعة لها دوافع الأنانية ، ومع ذلك لها ميل إلى الاجتماع .

الإنسان يشتهى ، وما يشتهيه لبطنه وفرجه ، والإنسان ذو قيادة ، ومركز قيادته الفؤاد وهو سره وسبب تميزه . فلو استرسل الإنسان فى طلب ما يشتهيه لعاش لبطنه وفرجه ، وأخضع ماله من ميزة القيادة لتحقيق شهوة البطن والفرج . وعندئذ يصبح إنسانا يشتهى فقط . يحاول أن يملأ البطن ويلبى رغبة الفرج . لا يتخير ما يملأ به بطنه ولا ما يلبى به رغبة فرجه . وإنسان يندفع ولا يختار يجنى على نفسه أولا ، لا لأنه فقد خاصة الاختيار بين

الضار والنافع ؛ بل لأنه لا يستطيع الآن أن يقف عند حد . يسلك مندفعاً كل طريق معوج أو مستقيم ، ويستخدم مضطراً كل وسيلة ضارة أو نافعة . لا يعرف خطا معيناً لسيره ، ولا يسأل عن صالح وغير صالح فيما يتناوله من أكل وشرب ، ولا عن ضار وغير ضار فيمن يتصل به اتصالا جنسيا . يرى الهلاك فيما يذهب إليه وليست لديه مقاومة : يرى فى نوع معين من الأكل والشراب حسب إحساسه الباطنى وتجربته الشخصية ، أنه مزعج له إن أكله أو شربه ، ومع ذلك لا يستطيع أن يمتنع عن أكله وشربه . ويرى فى اتصال جنسى معين أنه يسبب له ضرراً فى صحته ، ومع ذلك لا يستطيع أن يغالب رغبته الجنسية . هو إنسان ضعيف المقاومة والمغالبة فى مواجهة شهوته . استكان لشهوته فوهنت إرادته وعزيمته ، وخضع لبطنه وفرجه ، وأغفل أمر القيادة فيه فخلا قلبه إلا من الشهوة ، وتحرك تفكيره كما تحركت قدماه فى سبيلها وحدها . هو إنسان ميت فى صورة حى ، وعليل فى صورة مصح ، وهزيل فى صورة قوى .

هذا من جانب . من جانب آخر الإنسان أيضا له طبيعة تدفعها الأنانية ، ولكن مع ذلك لها ميل إلى الاجتماع بالآخر ، إذ المجتمع للإنسان وحده ، دون غيره من الكائنات التى تتحرك بدافع الغريزة وحدها ، وهى كائنات الحيوان ، فلو ترك الإنسان نفسه لدوافع الأنانية وحدها عندما يتصرف أو يأتى بعمل ، لكان إنسانا لا يعترف بوجود غيره وعندئذ لا يفقد حاجته عند غيره فحسب ، بل سيصطدم بوجود هذا الغير معه ؛ لأن وجوده معه حقيقة واقعة غير منكرة ، وهو الآن إنسان يعتدى كما يعتدى عليه . يعتدى على غيره ، لأنه لا يعترف به ، ويعتدى عليه ؛ لأن غيره كذلك لا يعترف بوجوده .

والنتيجة التى تترتب على ترك الإنسان من غير توجيه ومن غير تدخل فى رسم خطوط السير لحياته الخاصة والعامة - هى فقدان الإرادة والشخصية الإنسانية . فقدان المقاومة والمغالبة ، وفقدان التميز والاختيار ، ثم الخصومة والاحتكاك والاعتداء المستمر .

ولذا - لأن الإنسان قد أعد من طبيعته وخلقه لأن يكون ذا شخصية وإرادة من جانب ، وذا ميل اجتماعى من جانب آخر - كانت رسالة الإسلام لمعاونة هذه الطبيعة ، ولإنماء ما لها من ارادة وميل اجتماعى . كانت رسالة الإسلام تخطيطا للطريق الذى يوصل الإنسان الى أن يكون ذا إرادة وذا قوة واستطاعة للمقاومة والمغالبة ، وذا مشاركة اجتماعية . كانت رسالة الإسلام لإيقاظ الوعى بالذات ، والوعى بالمجتمع معا . إذ أضرار البشرية

هى فى فقدان إرادة الأفراد ، وانعدام المشاركة الاجتماعية بينهم .

والإسلام إذن جاء لاتقاء هذه الأضرار البشرية . واتقاؤها - كما ذكرنا - فى تنمية إرادات الأفراد وتأكيد روابط المجتمع بينهم . وهو بذلك رسالة توجيه ذى شقين : الفرد والمجتمع .

وهنا نسأله كيف يدفع الإسلام هؤلاء الأفراد عن طريق التوجيه ؟ . كيف يجعل الفرد ذا إرادة ، وكيف يجعله ذا مشاركة قوية بمجتمعه ؟ .

لنستعرض صور العبادة فى الإسلام . لنستعرض الصلاة والصوم ، والزكاة والحج. لنستعرض الصلاة والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم ، والصوم شهرا فى العام من الفجر إلى غروب الشمس . ولنستعرض الزكاة وهى اقتطاع جزء من مال المزكى عن اقتناع إلى صاحب الحاجة . والحج وهو اجتماع لعشرات الآلاف من المسلمين فى مكان واحد وفى وقت واحد ، على جبل عرفات عند غروب شمس اليوم التاسع من ذى الحجة ، متجردين من كل ما يميز بينهم من مظاهر الدنيا ، ومتجهين بدعاء واحد إلى رب واحد ، مشتركين فى إيمان واحد . أجسامهم عديدة ولكن قلوبهم قلب واحد، وأبصارهم شاخصة إلى الله وحده ، فإذا ما نزلوا من عرفات وطافوا بالكعبة أحاطوا بقبلتهم جميعا ، التى تنمحى فيها فواصل الشرق والغرب ، والجنوب والشمال فى المكان والاتجاه .

فإذا استعرضنا الصلاة والصوم من صور العبادة التى جاء بها الإسلام . أدركنا أنهما عبادتان لتنمية شخصية الفرد ، لتقوية إرادته واستطاعته على المقاومة والمغالبة . فالصلاة وهى مناجاة لله وحده خمس مرات فى اليوم ، فى واقع أمرها تفريغ القلب من زخرف الدنيا وزينتها ، لأن لقاء المصلى بالله جل جلاله فيها لا تعدله متعة من متع هذه الدنيا ، وما فى الدنيا هو شهوة البطن والفرج . وهنا ندرك قول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وليس هناك فحش ولا منكر إلا فيما تشتهيه البطن والفرج . وإذا استخف المصلى بمتع هذه الدنيا فى مواجهة لقاء المولى سبحانه وتعالى فى مناجاته وصلاته ، فى تكبيره وتسبيحه ، فى ركوعه وسجوده - فإنه لا شك سيحد من رغباته وشهواته ، وإذا مالت نفسه عن الانطلاق إلى الحد ، فإنه سيتخير عند ما يشتهى . سيتخير عندما يأكل ويشرب . وسيتخير عندما يريد أن يتصل اتصالا جنسيا بغيره . وعندئذ يصبح إنسانا ذا اختيار وتحديد ، يصبح إنسانا يأخذ النافع ويترك الضار .

وتلك نتيجة الصلاة : « تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم – وهو حرمان البطن والفرج فى الدرجة الأولى – حرمانا تاما فى فترة معينة – هو العبادة المباشرة لتنمية الاختيار والإرادة، وقوة المغالبة والمقاومة، إذ الصوم صراع بين ما تلح فيه شهوة البطن والفرج وبين حرمانهما من ذلك . هو صراع فيه مقاومة ومغالبة . فإذا صام الإنسان شهر رمضان من كل عام انتصر فى مقاومته ومغالبته . وانتصرت معه الإرادة على شهوة البطن والفرج . وانتصر العزم والتصميم على التردد والضعف والتبعية . وهنا ندرك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تقدير الصوم فيما يرويه عن ربه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

وإذا استعرضنا بعد ذلك عبادتى الزكاة والحج نجدهما – على نحو ما وصفنا – تطبيقا عمليا لروح الجماعة التى أيقظتها صلاة الجماعة فى الأوقات الخمس كل يوم ، وفى الجمعة كل أسبوع ، وفى العيدين كل عام . كلتاهما ينطوى على هذه الروح ، وكلتاهما يزيد فى قوتها وتأكيدها بالسعى والعمل .

وإذن صور العبادة التى رسمها الإسلام وفرضها على المسلمين فى فترات الزمن التى حددها ، أو فى المكان الذى عينه من صلاة وصوم وزكاة وحج – هى صور لتدريب النفس البشرية على أن تحصل ما أعد لها بطبيعتها من قوة الإرادة وسبيل الاختيار من جانب ، وما كان لها من خاصة الاجتماع وروح المشاركة الجماعية من جانب آخر . وبذلك تتمكن من الحد من الاندفاع فى طريق شهوة البطن والفرج ، فتقى نفسها أخطار الاسترسال والتبعية ، كما تتمكن من رؤية الغير فتعترف بوجوده وتؤاخيه بدل أن تحتك به وتخاصمه .

العبادات كما حددها الإسلام هى لتنمية الفرد كإنسان ، وبالتالى هى لوقايته من أضرار نفسه ، ومن عدوان غيره عليه أو عدوانه هو على غيره . هى لتهذيب الفرد وصقله ، وإقامة المجتمع وبقائه .

وربما لا يبدو واضحا أن المجتمع يقام ويبنى ، وأنه وضع طارئ على وجود الأفراد . وأن إقامة المجتمع وبناءه يتوقف على إيقاظ الروح الجماعية وتقوية الميل إلى الاجتماع عند الأفراد . وطالما لا توقظ روح الجماعة بين أفراد من الناس ، فهم مجموعة من البشر لم يرتق أمرهم إلى أن يصير مجتمعا . ولذلك وجود المجتمع آية على تحضر أفراده ، آية على أن وعيهم الجماعى تيقظ ، وأن شعور

المشاركة عندهم فى الغاية والمصلحة قد أخذ طريقه إلى الظهور فى الحياة العملية . وغاية ماتسعى إليه البشرية الخالصة هى إقامة مجتمع لايرتكز على القبلية ، ولا على الشعوبية ، وإنما على خصائص الإنسانية وحدها ، التى تتمثل فى السلم فى العلاقات العــامة ، والاطمئنان وعدم الاضطراب فى الحياة الخاصة .

والإسلام بتوجيهه - كما رأينا عن طريق العبادة - يسعى إلى إقامة المجتمع الإنسانى ، وإلى نزع العدوان والاعتداء من العـلاقات العامة ، وإلى تمكين الاطمئنان فى الحيـاة الخاصة . ولهذا كانت نظرته إلى الناس نظرة واحدة « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وكانت رسالته إلى الناس جميعا « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » . وكانت عبادته متجهة بالأفراد إلى اطمئنانهم أولا ، وإلى سلمهم فى علاقات بعضهم ببعض ثانياً .

وبعد ما أيقظ الإسلام روح الجماعة فى الأفراد عن طريق العبادة ، وأقام بذلك بينهم مجتمعه - وهو المجتمع الإسلامى - أحاط هذا المجتمع بسند قوى كى يبقى ، وكى يستقر فى بقائه . أحاطه بتأكيد النهى عن الاعتداء والعدوان « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وكى لاتصل النفس إلى التفكير فى الاعتداء ، فضلا عن مباشرته ، أمر بالعدل ، والإحسان ، وبإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . أمر بالعدل فى جميع صوره : فى الشهادة وفى الرواية ، وفى الحكم والفصل . وأمر بالإحسان فى جميع صوره : بالمـال ، والصحة ، والعلم والجاه . ونهى عن الظلم فى جميع صوره : وهى كل مايؤذى النفس والبدن والملك والحرمة الشخصية . ونهى عن الفحشاء والمنكر فى جميع صورهما : وهى كل ما لا ترضى عنه النفوس ويستقبحه العرف والوضع فى المجتمع .

وبهذا : المجتمع الإسلامى مجتمع سلم ، وعدل ، وإحسان . مجتمع يستقبح الفواحش والرذائل والعدوان . فهو مجتمع خلقى فاضل .

ولـكنه ليس بمجتمع استسلام ، ولا مجتمع طغيان . ليس مجتمع استسلام يقبل اللطمة ، فيسلم ، ولـكنه مجتمع يدفع اللطمة باللطمة « فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وليس مجتمع طغيان ، يغريه الانتصار على مجتمع آخر فينسيه مبادئ الإنسانية فى معاملته « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم

فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . « لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » .

* * *

وهنا نرى أن رسالة الإسلام إطار للإنسان الحى والمجتمع القوى . للإنسان ذى الإرادة والعزم ، وللمجتمع العطوف المتواد المتآخى ، ولكنه المجتمع الأبى الذى لا يقبل الضيم والذل .

للإنسان المسلم رسالة فى الحياة هى أن يكون ذا إرادة ، وللمجتمع الإسلامى رسالة هى أن يحقق العدل والسلم ، ويدفع الأذى والعدوان . ورسالة المسلم مقدمة لرسالة المجتمع الإسلامى . إذ لا يتحقق عدل ولا سلم فى مجتمع ، ولا يدفع أذى وعدوان من مجتمع إلا إذا كان أفراده ذوى إرادة . ذوى مراس على الكفاح ، ذوى قوة على المثالية .

ليست رسالة المسلم ـ من وجهة نظر الإسلام ـ أن يعيش ليأكل وينسل ، وإنما رسالته أن يأكل وينسل ، ليكون ذا قوة وغلبة « أخشى أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

وليست رسالة المجتمع الإسلامى أن يعيش للترفيه ، وإنما رسالته أن يكافح فى سبيل القيم : يكافح فى سبيل العدل ، ودفع الظلم والاعتداء ، يكافح فى سبيل الترابط والتآخى ، ورابطة الإسلام فوق رابطة القبيلة ، وأخوته فوق لحمة الدم . هى قبل كل شىء رابطة المبادئ وأخوة الأهداف والغايات المشتركة .

* * *

إن رسالة الإسلام ليست تخطيطاً اجتماعياً من إنسان ، وليست طريقاً من طرق التربية وضعه فرد من البشر . لو كان كذلك ما صلح هذا التخطيط الاجتماعى للناس كافة ، وما صلح هذا الطريق من طرق التربية لغير فئة من الناس : هى تلك التى أقام فيها ذلك المربى . فالإنسان هو الإنسان . محدد ببيئته ، وبوراثته ، وبنشأته ، وبعوامل التأثير فى جو إقامته . ولذا تفكيره يعبر عن محدوديته ـ ومن هنا كانت صلاحيته ـ إن صلح ـ لمن عاش فى هذه البيئة ، وتأثر بعوامل الوراثة الخاصة والنشأة المعينة .

إن الإسلام وحى الله العليم بكل شىء « وهو بكل شىء عليم » هو تعاليم الله الخالق لكل موجود ، وفوق كل إنسان « وهو القاهر فوق عباده » إنه ممن وسع كرسيه

السموات والأرض . فصلاحيته إذن للناس جميعاً .

إن الإسلام ليس معرفة . إنه إيمان وتقوى ، إنه إيمان بالله ، وخشية من الله ، وتقوى الله . وهذا الإيمان هو مصدر الدفع فى الإنسان نحو اطمئنان نفسه ، ونحو وعيه بالمجتمع ، ونحو إسهامه فى بقاء المجتمع واستقراره .

الإسلام منحة إلهية « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . هو منحة الله لعباده لا يكفر بها إلا الجاحدون .

هذا هو الإسلام كنظام للحياة . هو نظام للحياة الإنسانية الفاضلة المطمئنة المستقرة . هو نظام لحياة الفرد والمجتمع معا . أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى ولكن لها قيادة ، وتستجيب لدوافع الأنانية ولكن لها ميل إلى الاجتماع وقابلية نحو المشاركة الجماعية .

وتوجيه الإسلام يقوم على تنمية إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده ، فلا يندفع اندفاعا كما يندفع الحيوان والآلة . ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع ، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال والتدهور والضعف ، حتى يكون مجتمعا قويا فاضلا .

نظرة واحدة هى أساس تعاليم الإسلام وأهداف ثلاثة هى الغاية من توجيه الإسلام .

* * *

الإسلام بعد ذلك ليس مسئولا عن ضعف المسلم وخضوعه لشهوته ، وليس مسئولا عن ضعف روابط المجتمع الإسلامى أو انحلاله ، وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الإسلام ، والانحراف فى تطبيقه .

كتاب الله ليس مسئولا عما يستورد من الشرق والغرب من فكر فى التوجيه . وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الإسلام والانحراف فى تطبيقه .

وسوء فهم الإسلام والانحراف فى تطبيقه لا يسأل عنه نفر معين من المسلمين ، إنما المسلم ما دام قد ارتضى لنفسه أن ينتسب إلى الإسلام — عليه أن يؤمن أولا بقلبه بالله ، فإذا آمن حقا بالله عرف الطريق الصحيح إليه « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

ترد بضاعة من الشرق وأخرى من الغرب . بعضها يدعو إلى الإلحاد ويكفر بالإنسانية وبقيمها .

وبعضها الآخر يدعو إلى الطغيان : طغيان المال على القيم الإنسانية ، وطغيان النار والحرب والقوة المادية على حق الشعوب فى الحرية والحياة .

وإسلامنا لا يتصل بالشرق أو الغرب ؛ لأنه يقوم على الإيمان بالله ، وعلى تمجيد القيم الإنسانية ، وعلى مكافحة الطغيان فى أية صورة . إننا لسنا شرقيين ولا غربيين ، إننا مسلمون . إننا دعاة الإيمان بالله وحده وبالقيم الإنسانية الفاضلة . إننا مجندون من ديننا لمقاومة الطغيان ، وإحلال العدل والسلم محله .

إن إسلامنا لا يعرف طبقات فى مجتمعه . لا يعرف مجتمعا يقوم على أرستقراطية المال والشرف ، كما لا يعرف مجتمعا يقوم على خصيصة العمل البدنى وحده . ولكن يعرف التفاضل بين أفراده على أساس من توجيه . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولذا لا يقر أن تتحكم طبقة فى طبقة ، ولا طائفة فى طائفة ؛ لأنه لا وجود لطبقة أو طائفة فيه .

إسلامنا يعتمد على الضمير فى الإنسان . ولذا لا يعرف الإرهاب فى دفع الأفراد . إسلامنا يعتمد على الخشية من الله . ولذا لا يخشى طغيانا فيه ، من مجموعة على مجموعة ،

للمستورَد من الغرب أو الشرق بريق . ولكنه بريق خادع ، وإسلامنا هو الذهب الذى لا تتغير قيمته . ولكننا فى حاجة إلى أن نزيل عنه ما لابسه من سوء الفهم ، وانحراف التطبيق ، حتى يروج بين غيرنا بعد أن يسد حاجتنا ويغنينا عن التبعية لدخيل . يوم أن نكون كما ـ وصف كتاب الله المؤمنين به « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » ـ نكون بالفعل أغنياء .

إننا بإسلامنا خير أمة أخرجت للناس ، ولينا الله ورسوله والذين آمنوا « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . ؟

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

مقدمة:

١ — لم يكن عمر بن الخطاب مجرد مجتهد عادى ، أو فقيه له فهم وتصرف فى الشريعة ، ولكن ظروف حياته جعلت منه شخصية فذة فى محيط الفقه والشريعة والدين ، كما جعلت منه شخصية فذة فى السياسة والإدارة ، وذلك أنه منذ أول اتصاله بالإسلام كان يتبوأ منزلة عملية هامة، وصدارة بجانب الرسول والأصحاب. وكان إحساس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منذ أول الأمر مهيأ لذلك ، ودالا عليه ، إذ كان يشعر بأنه لو أسلم عمر لكان لإسلامه أثر كبير فى نجاح الدعوة وقوتها ، وكان لذلك يدعو الله أن يؤيد الإسلام به ، ولما أسلم فرح بذلك ، وفرح معه المؤمنون ، ولا شك أن شعور عمر بمركزه فى هذه الدعوة بعث فى نفسه ما يحس به المسئول عن فكرة ومبدأ ، وذلك إحساس يعرفه الذين يتصلون بالأعمال اتصالا شخصيا ، ويجابهونها بأنفسهم وجها لوجه فإنه يفترق عن إحساس الذين يجتلبون لينظروا فى المشكلات ، أو الذين يحاولون حلها على الورق أو من الكتب ، أو على الجملة : فى غيبة عن المسئولية الذاتية ، والمجابهة العملية للواقع .

وابن الخطاب عاش طول حياته منذ أسلم فى هذا الوضع العملى الواقعى الذى يشعر فيه بأنه مسئول ، ويجعله مطالبا بأن يتصرف تصرف المباشر للسلطة ، المواجه للأعمال فى الخارج ، ولحساب ما يؤمن به ، لا فى الذهن فحسب ولا لحساب من يعمل باسمه وينفذ توجيهه.

هذه الحياة هى بعض ما هيأ عمر بن الخطاب تهيئة خاصة على غير ما تهيأ عليه المجتهدون الذين نعرفهم أو يعرفهم تاريخ الفقه الإسلامى .

ولسنا ننسى طبيعته الشخصية إلى جانب ذلك ، فإن هناك أفرادا لهم خلق البت فى المسائل ، والقدرة على مواجهة المشاكل ، والرغبة فى إنهائها وحسمها ، لا فى تأجيلها ومحاولة التملص منها ، والتنصل عنها - أو بعبارة أخرى : هناك أفراد خلقوا متهيئين لتحمل التبعات ، والبت فى الأمور ، كما أن هناك أفرادا خلقوا على طبيعة من التهيب للأمور ، ومحاولة الابتعاد عن اقتحام المشكلات ، ومواجهة ما لا عهد لهم أو للناس به ، ومن شأن هؤلاء الآخرين أن يكونوا مقتفين لآثار غيرهم ، متحرجين من الابتكار والإقدام على الجديد ، أما الأولون فمن شأنهم الإقدام دون تردد أو ضعف ، والقوة فى تحمل المسئولية والاضطلاع بالأعمال والتبعات .

وطبيعى أن أخطاء المتريثين أو المترددين قد تكون قليلة ، ولكن ذلك ليس راجعا فى حقيقة الأمر إلى أنهم فى حصانة ومناعة عن الخطأ ، لشدة ذكائهم ، أو بعد نظرهم ، ولكن إلى أنهم لم يباشروا إلا عدداً قليلا محصوراً من التبعات ، استقلوا بالنظر فيه ، ولو شئنا أن نوازن بين فرد وفرد من هؤلاء وأولئك لكان علينا - لكى تكون الموازنة صحيحة منصفة - أن نعد أولا عدد القضايا التى أقدم عليها واضطلع بها كل منهما ، ثم ننظر فى نسبة النجاح .

لهذا أصاب عمر فى كثير ، وأخطأ فى كثير ، وكان بحاجة أحيانا إلى أن يستشير ، واضطر أحيانا إلى أن ينفرد بالرأى .

— ٢ —

وعمر شخصية قوية ، خلق ليكون قائداً متبوعا ، لا جنديا تابعا ، وهذا المعنى كان يدفعه فى كثير من الأحيان إلى أن يعارض الرسول نفسه ، وإلى أن يعتبر أن لرأيه وزنا ، وأنه شريك فى تقدير الأمور ، وفى توجيه السياسة العامة للدعوة الإسلامية ، وحتى لما ينبغى أن يكون عليه الرسول فى شخصه ، وفى بيته وبين نسائه ، وشىء من الموازنة بينه وبين أبى بكر يرينا أن أبا بكر كان مثال الصاحب الممتثل امتثالا تاما ، الذى يؤمن من أعماق قلبه بأن له قائداً هادياً مهدياً من الله ، لا يمكن أن يصدر منه إلا ما هو حق وصواب وخير ، فإذا رأى ما لا يفهم لم يعجل ، بل تريث وصبر حتى ينجلى له الأمر دون أن يتطلب هو جلاءه ، أو يتشوف إلى بيانه ، أما عمر فكان يحب أن يفهم كل شىء ، ويحب أن يؤمن بكل شىء ، إيمانا عمليا نابعا من درسه للأمور ، ومعرفته بالحقائق ، وتفسيره للغوامض ، ولذلك كان يعارض أحيانا ، ويثور أحيانا ، وربما خرج فى بعض هذه الأحيان عن الرفق والهدوء الواجبين بإزاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [1] ، ولكن هذا كله لم يكن الدافع إليه ضعف الإيمان بالرسول — حاشاه ، ثم حاشاه — ولا الغرور بالقوة الشخصية التى هو عليها ، والتى يرى من حوله جميعا يقرون له بها ، وإنما كان دافعه شخصيته نفسها ، وما طبع عليه من استقلال ، وما يحس به من أنه مسئول أو مشارك فى المسئولية ، ومن أنه حامل

---

(١) أخرج البخارى من كتاب اللباس فى صحيحه بسنده إلى عبد الله بن عمر قال : لما توفى عبد الله ابن أبىّ ، جاء ابنه فقال يارسول الله أعطنى قيصك أكفنه به ، وصل عليه ، واستغفر له ، فأعطاه قيصه ، وقال له إذا فرغت منه فآذنا ، فلما فرغ منه آذنه به ، فجاء صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فجذبه عمر فقال له : أليس قد نهاك الله أن تصلى على المنافقين فقال لك : « استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال ابن عمر فنزلت « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم بعد نزولها .

للتبعة فى شأن الدعوة التى آمن بها ، ومن أنه ليس بمجرد مستشار نظرى يبدى رأيه وينتهى الأمر ، ولكنه مستشار يحس بأن له شأنا فيما يستشار فيه ، وبأنه يحمل من أعبائه مثل ما يحمل الذين استشاروه ، فكان يتحمس للرأى ويحاول أن يفرضه فرضا ؛ لشدة إيمانه به ، وثقته بأنه الحق والصلاح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرف ذلك فيه ، ولا يكاد يغضب لشدته أو تحمسه ، أو مخالفته أو معارضته ، ثم كان يحاول أن يأخذه بالإقناع ، وأن يلزمه بالرأى أو بالعمل عن طريق بيان ما فيه من الخير والمصلحة فى كثير من الأحيان ، أو عن طريق إخباره بأنه مأمور بذلك من الله فى أحيان أخرى ، فكان عمر فى الحالين يذعن إذعان المؤمن المطمئن ، إما عن طريق المعرفة والاقتناع إذا عرف ، وإما عن طريق الثقة والإيمان إذا لم يكن الوقت قد حان لأن يعرف .

وينبغى ألا يغيب عنا أن اختلاف عمر عن أبى بكر رضى الله عنهما ، ليس اختلاف الإيمان والشك ، ولا القوة والضعف ، وإنما هو اختلاف ملامح الشخصيتين ، ولذلك نرى الصوفية يستخلصون من صفات هاتين الشخصيتين مقامين من مقامات الإيمان ، فيقولون : هناك مقام يسمى مقام (الصديقية) فإن من الأمة من يكون فى صفاء فطرته شبيها بالأنبياء ، فنفسه قريبة المأخذ من النبى كالكبريت بالنسبة إلى النار فكلما سمع خبرا ممن آمن به وقع فى نفسه بموقع عظيم ، وصار كأنه علم هاج فى نفسه من غير تقليد ، وإلى هذا المعنى الإشارة فيما ورد من أن أبا بكر الصديق كان يسمع دوى صوت جبريل حين كان ينزل بالوحى على النبى صلى الله عليه وآله وسلم — والمراد أنه من شدة التلبية والاتباع والاقتداء ، كان بمثابة من يسمع ذلك بنفسه لنفسه . وهناك مقام آخر هو (المحدثية) ومظهره التأمل والتجوال بالفكر فى ملكوت العلم والنظر ، ومن كان هذا شأنه مع الإخلاص فى البحث والتطلع تواردت عليه الحقائق فكأنه يحدث بها ، وربما وافق فى الحوادث والأحكام ما ينزل به الوحى وإن لم يوح إليه .

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة (الصديقية) لأبى بكر ، وعرف أنه صاحبه المصافى الوفى الذى طبع حواسه بطابع قلبه من الإيمان المطلق ، فلا يشادى ولا يمارى فلذلك قال : (لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا) وقال : (أبو بكر أمنّ الناس على فى ماله وصحبته) . كما عرف مقام المحدثية لعمر ، فقال : (لقد كان فيمن قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر) ، ولما عرف له هذه المنزلة ، ورأى الوحى فى بعض الحوادث ينزل برأيه لم يكن يعبأ بأسلوب عمر المنبعث عن قوته فى الحق ، والذى قد يلابسه أحيانا شىء من الشدة أو العنف والإصرار .

هـذا مركز عمر من الرسـول الكريم صلوات الله عليه ، ومع ذلك كان هذا المركز يحول بينه وبين أن يطلق لشخصيته القوية الجريئة عنانها ، ولـكنه انطلق حين كان بجانب أبى بكر بعد وفاة الرسول انطلاقا أوسع وأبعد ، فكان ربما رد على أبى بكر أمراً ، وربما عنف فى هذا الرد كما فعل فى حادثة المؤلفة قلوبهم (١) . وكان أبو بكر لثقته بإخلاصه وحسن نيته ،ولمعرفته بطابعه الشخصى ، وتأثرا بما كان يعامله به حبيبه رسول الله ـ كان أبو بكر لهذا كله ؛ ولأنه لا يبتغى إلا الخير ،ولا يحركه عامل التعصب لرأيه ، ولا يعانى النزعة التسلطية التى عهدناها فى الحكام والملوك ، حين يكبر عليهم أن يراجعوا فيما قرروا أو يرجعوا عنه ولو كان خطأ ؛ حفظا لمهابتهم وردا على من تحدثه نفسه بأنهم ضعفاء فى رأيهم ، أو متخبطون فى سياستهم ـ أقول كان أبو بكر لهذا كله، يسمع من عمر ، ويقبل من عمر ، ويرجع أحيانا إلى رأى عمر ، وكان مع ذلك إذا رأى عمر قد أخطأ ولم يتبين وجهة الصواب وقف له ورده وبصره بالأمر ، ولم يعـول على معارضته فيراجع عمر نفسه،وقد يعلم خطأه، وقد يصبر على ما لم يتبينه ثقة بصاحبه ، واطمئنانا إليه ، لا يدفعه الى الغضب أو الشغب أو انطواء النفس على شهوة الفلج دافع .

— ٣ —

ثم بانت ووضحت شخصية عمـر تمام الوضوح بعد أن تم له الاضطلاع بالمسئولية كاملة .وهنا نراه يأخذ فى نسق آخر قد يبدو مخالفا لطبيعته فيكثر من الشورى،ويستعين فى درسه للمسائل بالسؤال والبحث ومعرفة رأى غيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر ما يرى على بصيرة من الأمر سواء أوافقهم على ما رأوا أو خالفهم.

وقد قلت : إن هذا يبدو مخالفا لطبيعة عمر؛ لأن طبيعته التى تحدثنا عنها طبيعة استقلالية ولـكن المتأمل يعرف أن الشورى والبحث ، والفحص ، من أهم الملامح التى تـكون الطبيعة الاستقلالية وليست تنافيها ؛ فإن القوى يريد أن

(١) روى ابن أبى الحديد وغيره : أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس جاءا إلى أبى بكر فقالا له : إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعل الله ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمـن حوله : ما تقولون ؟ . فقالوا : لا بأس فـكتب لهم كتابا بها ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهم فيه ، فأخذه منهم ثم تفل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا له مقالة سيئة ، ثم ذهبا إلى أبى بكر وهما يتذمران . فقالا : والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر ؟ ! ـ فقال بل هو . وجاء عمر حتى وقف على أبى بكر وهو مغضب . فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هـذين أهى لك خاصة أم بين المسلمين؟؟ فقال : بل بين المسلمين فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين ؟ قال : استشرت الذين حولى . فقـال : أو كل المسلمين وسعتهم مشورة ورضى ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : فقد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا الأمر منى لـكنك غلبتنى .

يصدر رأيه قويا ، لأنه يريده حاسما لا تردد فيه ولا رجوع عنه ، فتراه قبل أن يصدره يدرسه ويطمئن إليه ثم يعزم فيصمم — والقوى ليس عنده تلك العقدة النفسية من الشعور بالضعف وبأن الآخرين أقوى منه ، فهو لذلك لا يأبى أن يستشير ، ولا يدور بخلده أن أحدا سيتصور أن استشارته ضعف أو قصور ، ولا يدور بخلده أنه لو أخذ برأى فلان أو ترك رأيه لفلان ، فإن ذلك سيحسب عليه ، ويؤخذ على أنه ضعف فى شخصيته أو أفن فى رأيه .

— ٤ —

يضاف إلى ما ذكرناه أن عمر يعتبر هو المؤسس العملى للدولة الإسلامية ، لأنه أول حاكم عام نهض بأعباء الدولة فى وقت كان لها فيه كيان داخلى وخارجى ، وصلات وإدارة ودخل وخرج على نظام متناسق ، وكان لها عمال وولاة وفتح ومصالح هنا وهناك . فهذا كله جعل عمر يدخل فى معركة حامية الوطيس ، وجعله مضطرا إلى إعطاء عمله جميع مواهبه ودقته وفكره ، ولم يمنحه فرصة التمهل وترك الأمور ، ولا كان هناك سوابق يمكنه أن يعتمد عليها فى كل شىء ؛ لهذا كان دوره دور المنشئ المؤسس الواضع للتقاليد الذى عليه أن يدرس كل مشكلة ويكون فيها رأيا ، ويضع لها حلا ، ولم تكن المشكلات قليلة ولا محصورة ولا كانت فى دائرة دون دائرة ، ولا كان له أعوان يستقلون بالبت فى بعض الألوان من دونه ، كما نعهد فى عصرنا الحاضر ، وما يشبهه من أن يكون بجانب الملك أو الحاكم العام ، وزراء لهم اختصاصات وسلطات ، تمكنهم من البت فى بعض الأمور .

لهذا صار عمر كأنه عقل وفكر ، وتمحص للتدبير ومرن عليه .

وإلى هذا ترجع أوليات عمر .

— ٥ —

ولم يكن عمر يفهم الإسلام فيما وراء العقيدة ، وما رسمه الله من شئون العبادة إلا على أنه نظام يستهدف المصلحة ، ويرمى إلى تنظيم شئون المجتمع على صورة مؤلفة من العدل والخير والتعاون ، ومعرفة الحقوق لأصحابها وأخذ الحقوق ممن وجبت عليهم ، ولم يكن حرفيا نصيا فى كل ما يعرض عليه ، ولذلك تراه أحيانا يواجه بالنص ويروى له فعل أو قضاء للرسول ، ومع ذلك يتمسك بما قضى هو ، ورأى هو ، إما لأنه لم يكن يثق تمام الوثوق بصحة ما روى له ، وإما لأنه لا يراه معارضا أو صالحا لأن يقف معارضا لنص آخر أوثق منه أو أدل منه ، أو لأنه يرى أن فعل الرسول كان معللا بعلة ، أو مرتبطا بنوع من أنواع المصلحة والنظر الخاص ، وأن ما لديه من الحال الواقعة ليس على نفس الصفة ، ولا مرتبطا بتلك المصلحة ، فكأنه يرى نص الرسول أو فعله أو حكمه خاصا غير عام ، أو مقيدا غير مطلق ، أو أنه قضى به باعتباره رئيسا

وإما ما قدر ظروف وقته ، فله باعتباره رئيسا وإما أن يقدر أيضا ظروف وقته .

وإذا كان عمر يبيح لنفسه والرسول قائم حى يوحى إليه أن يراجعه ويناقشه ويثير عليه ، وكان الرسول يقبل منه ، ويقبل عنه ، ويرجع أحيانا إلى رأيه ، فإنه ليس مما يتوقف فيه عمر أن يراجع ويناقش ويفهم ما روى عن الرسول بعد حياته ، ومرجع ذلك إلى أنه فى الحالتين ـ حالة حياة الرسول وبعد مماته ـ لا يعتبر نفسه مطبقا فحسب ، ولا ينظر إلى أفعال الرسول على أنها فى كل صغيرة وكبيرة تعاليم دينية ، لا فرق فى ذلك بين ما هو من شئون التبليغ عن الله ، وما هو من شئون النظر والاجتهاد والتطبيق العملى لما يصلح عليه المسلمون أفرادا وجماعة ، ولم يكن يعقد عليه الأمر فى نفسه هذا التعقيد الذى يبعث على التحرج والتخوف والتزمت ، وإنما كان كما قلنا : ينظر إلى الشريعة فى جوانب المصالح والمعاملات وسبل الحياة على أنها قواعد مفهومة وأحكام معقولة ، وطرق عملية ينبغى أن تقدر الواقع وتقدر على أساس من الواقع ، وأن تكون لها مرونة وقدرة على مواجهة كل حالة ، وعلى أن تتقدم أحيانا وتتأخر أحيانا وتتشدد أحيانا وتتسامح أحيانا ، وقد روى عنه أنه حكم فى قضيتين موضوعهما واحد ، بحكمين مختلفين فقيل له فى ذلك ، فقال ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى .

وإلى هذا الجانب يرجع كثير مما وجه إلى عمر من النقد ولاسيما من إخواننا الشيعة .

— ٦ —

وكان عمر شديد الحرص على أن يلتزم المسلمون كتاب الله ، وعلى أن يكون هو الدستور الأول ، والأساس الذى لا يبنى إلا عليه ، حين يعارضه غيره ، ولذلك ورد عنه أنه كان يكره التحديث أو الإفراط فى التحديث والرواية ، وأنه نهى عنهما بعض الذين أولعوا بذلك من الصحابة ، وأنه كان يستشهد على الحديث بغير راويه ، مع أن القاعدة التى أخذ بها علماء الحديث والأصول تقضى بقبول رواية الصحابى كائنا من كان ؛ لأن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم ، بل تقضى عند بعض العلماء بقبول رأى الصحابى والاستدلال به فى كثير من الصور ، فالذى كان عمر يفعله هو الاستيثاق حتى على الصحابى ، بل روى عنه أنه كان يترك أحيانا رواية يرويها أحد الصحابة إذا رآها معارضة لنص قرآنى أو لسنة أخرى ، كما فعل فى رواية فاطمة بنت قيس فقال : لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لامرأة لا نعرف أحفظت أم نسيت ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

من هدى الكتاب العزيز

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة

المسلمون اليوم فى أمر مريج ، فى أمر له مابعده ، فقد غزاهم المذهب الشيوعى فى عقر دارهم واحتاز بعض أبنائهم وهو الآن جاهد فى أن يضم اليه رقعة المسلمين كلها ، والمذهب الشيوعى مذهب مادى ينكر الأديان ، ويراها ملهاة بالنعيم المنتظر فى الآخرة عن النعيم الحاضر فى الدنيا . والمسلمون اليوم فى موقف الاختيار أيختارون البقاء على دينهم ومثلهم العليا ويرفضون المادية الشيوعية ، أم يقبلون الشيوعية ويرفضون دينهم ؟ . وكأن هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها أنزلت اليوم غضة لتفصل فى هذا النزاع وهى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (آل عمران : ١٠٣) .

أتت الآية بحكم فصل فى هذه القضية العتيدة ، ولم يكن قولا خاليا من الدليل وإنما بينت دليله من تاريخ العرب فى جاهليتهم وتاريخهم ، بعد أن دخلوا فى الإسلام .

وخلاصة هذا الدليل أن الدين الإسلامى فى الأمة الإسلامية بمنزلة الروح من البدن ، به حياتها كاملة وبه بقاؤها . وما كان كذلك يجب أن يحتفظ به ويجعل بين الحشا والفؤاد . والدليل على أن الدين الإسلامى بهذه المنزلة ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، وتاريخهم بعد الإسلام . فقد كانوا متباغضين أعداء . فجاء الإسلام فألف بين قلوبهم ، وصاروا إخوانا وتبع ذلك العز والمنعة والقوة وملك الأرض .

أشارت هذه الآية إلى مكان الدين الإسلامى من الأمة الإسلامية . أهو زخرف لها وحلى ؟ أم حاجة من حاجتها وضرورة من ضروراتها ؟ أهو الشىء الذى تستغنى عنه وتعيش دونه ؟ أم هو الشىء الذى لاغنى لها عنه ولم توجد إلا به ولا بقاء لها بدونه ؟ .

أبانت الآية أنه ليس عضوا ثانوياً فى جسم الأمة الإسلامية ، فليس كطرف من الأطراف التى تحيا دونه ، بل هو كالروح السارى فيها

لا وجود لها إلا به ولا بقاء لها دونه . ليس هو من بناء الأمة بمنزلة شرفة من الشرفات ، أو طلاء يطلى به البناء ، وإنما هو بمنزلة القواعد والأساس من هذا البناء . فإذا انهارت القاعدة انهار ما عليها من بناء .

بينت ذلك في عبارة موجزة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . ذكرهم حالهم التي كانوا عليها قبل الإسلام من العداوة والبغضاء ، وحالهم بعد الإسلام من المحبة والإخاء ، وما تبع المحبة والإخاء من التعاون والتناصر على دفع الأعداء والمغيرين ، وما تبع ذلك من العز والقوة والغلب ، ولم يزد عليهم شيء إلا الإسلام . لم تمدهم أمة من الأمم المجاورة بمال ولا سلاح ولا عدة ، ولم تعززهم بجنود وفرسان . ولم يكن إلا أن جاءهم الإسلام فعزوا بعد ذل وقووا بعد ضعف ، وكثروا بعد قلة . فهو سبب هذا كله . به قام المجتمع الإسلامي وبه ظفر وانتصر وعز وغلب .

ليس ذلك حكما خطابيا بل هو حكم برهاني مقدماته ضرورية ، ترجع إلى الموازنة بين ما كانوا عليه قبل الإسلام وما كانوا عليه بعده ، فما حدث من ألفة وأخوة بعد عداوة وبغضة ، إنما هو بما جد عليهم وهو الإسلام . وقد أمرت الآية بأن يذكروا هذه النعمة ليعلموا للإسلام قيمته في توحيد الأمة وتأليف القلوب ، وجعلهم إخوانا فيما حفظوا عليه ما حافظوا على وحدتهم واجتماعهم ، وعزهم وقوتهم . وما أجدر المسلمين في هذا العصر أن يذكروا للإسلام ذلك فيعلموا أنه كون المجتمع الإسلامي الذي عز وعظم ، ولولاه ما تكون . وأنه هو الذي حافظ على وجوده وبقائه ولولاه لما بقي . يجب أن يعلموا ذلك وأن تختفي تلك النظرة التي ينظر بها إلى الإسلام من أنه علاقة بين العبد وربه فحسب ، وأن الدين في المساجد والكنائس . هذه نظرة خاطئة ! وهي سبب إهمال الإسلام اليوم .

إن الإسلام هو الذي بث في الأمة الإسلامية الفضائل الاجتماعية التي بها عزت وسادت ، من الألفة والمحبة والتعاون والنصرة والفداء ، والعدل والقيام بالقسط . لقد بنيت فضائلها كلها عليه ، فإذا ضعف في نفوس المسلمين أو زال ، ضعف أو زال ما بني عليه من فضائل ، ويتبع ذلك ضعف المجتمع الإسلامي . والمسلمون في هذا العصر أحوج ما يكونون إلى ما يبث فيهم القوة والتعاون والتناصر ، وما يفعل ذلك هو الإسلام .

أي شيء أسنى قيمة ، وأولى بأن تحفظوه ، وتدفعوا عنه دفاعكم عن أموالكم ، وأبنائكم ، وحريمكم ، من شيء جاءكم وأنتم أجوع الناس بطونا ، وأعراهم جلوداً ، وأذلهم ذلا ، وأشقاهم عيشا ، وأبينهم ضلالة ، فأطعمكم وكساكم ،

وأعزكم وبسط لكم فى الرزق ، وهداكم من ضلالتكم ؟ .

أى شىء أولى بأن تجعلوه بين الحشا والفؤاد ضنا به ، وحفاظا عليه ، من شىء جاءكم وأنتم أصغر أهل الأرض حظا ، وأدقهم شأنا ، فجعلكم شيئا مذكوراً ، ورفع قدركم فوق الأقدار ، واسمكم فوق الأسماء ؟ .

أى شىء أولى بأن تدفعوا عنه دفاع من يعلم أنه إذا حرمه هلك ، من شىء جاءكم وأنتم رعاة غنم ، وحداة إبل ، فجعلكم رعاة أمم ، وساسة ممالك ؟ .

أى شىء أعظم فى نفوسكم من شىء . علمكم الكتاب والحكم ، بعد الجهل والأمية ؟ .

أى شىء أعظم من شىء جاءكم وأنتم يغير بعضكم على بعض ، فتقتتلون وتنهبون حتى قال شاعركم :

وأحيانا على بكر أخينا
إذا ما لم نجـــد إلا أخانا

فجعلكم أعف الناس وأعدلهم ، تقومون فى الناس حكاما مقسطين ، حتى قال أحد خلفائكم : عمر بن الخطاب لعامله على مصر عمرو بن العاص ، وقد ضرب ابنه ابن أحد سكانها القبط متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ؟ ؟ .

تعلموا أيها المسلمون أن الذين يخادعونكم عن دينكم يسلبونكم أسمى شىء فى حياتكم ، يسلبونكم أرواحكم ، ومقومات وجودكم .

وإن المرء لا يسعه أن يمر على هذه الظاهرة التى أشار إليها القرآن ، وهى : أن العرب كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا إخوة متحابين ، دون أن يتساءل ما الذى منحهم الألفة بعد التفرق والأضغان والإحن ؟ . وما الذى عمد إلى صدورهم فمحا ما فيها من غل وضغن ، وإلى عقولهم فأنساها العداوات والترات ، وعادت صدوراً بريئة طاهرة لا غل فيها ولا ضغن ، بل المحبة والطهر ، وعادت لا تذكر الترات والماضى المضرج بالدماء ، وإنما تذكر الحاضر وما فيه من نعمة الأخوة . وهذا شىء كان صعب المنال ، بعيد الاحتمال؟ كما قال الله تعالى: «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» (الأنفال: ٦٣) ، أهذا أمر إعجازى خارج عن الأسباب الاجتماعية فليس لنا أن نطمع فيه ثانية ، لأنه خارج عن القوى والقدر؟ أم هو أمر يرجع إلى أسباب طبيعية هدى إليها الله ، فاذا رجع المسلمون إلى تلك الأسباب وأخذوا بها ارتدت إليهم ألفتهم وعاد إليهم تعاونهم ؟ كذلك ينبغى أن ننظر إلى هـــذه الظاهرة التى أشار إليها قتادة وهى أن العرب كانوا أذل الناس ذلا وأشقاهم عيشاً ، وكانوا يؤكلون . فلما جاء الإسلام صاروا أعزاء أقوياء وملوكا على رقاب الناس ، وبسط لهم فى الرزق وفى أسباب الحضارة والرقى . ما هذه الأسباب الخفية فى الإسلام التى جعلت من

الضعف قوة ، ومن الجهل علما ، ومن التوحش مدنية ؟ ، ما هذه الأسرار الكامنة التي فعلت فعل السحر ، وربت هذه القبائل في زمن وجيز ، لا يتسع لتربية فرد ، وتهذيبه وتثقيفه ؟ . إنه ينبغي البحث في ذلك كله لتعلم علل ذلك وأسبابه ، ومعرفة العلل والأسباب للأشياء هي العلم الحقيقي . ولتعلم أسرار القوة في الإسلام فنحافظ عليها ونجتلبها إن كنا قد ضيعناها ، وأسباب الضعف التي طرأت على الإسلام فننحيها ونعود بالدين غضا كما كان ؛ ليكون مناراً للعزة والمنعة والقوة والخير ، كما كان . إنه يجب أن نعرف وضعنا في هذا الوجود ، ونعرف الأفاعي التي حولنا ، والتي تنفث فينا سمومها ، والتي حذرنا إياها القرآن منذ نزل . وكل ذلك من التفسير بل هو صميم التفسير ؛ لأنه ليس الغرض من التفسير أن تعرف مدلولات الألفاظ اللغوية والجمل ، ولا نطبق ذلك على أنفسنا وعلى مجتمعنا . وإنما الغرض أن نتدبر القرآن ونفقهه ، والفقه أعلى منزلة من الفهم ، ونطبقه على أنفسنا ومجتمعنا ، فنعتبر به ونهتدي ، ولهذا أنزل القرآن « الم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » (البقرة : ١ ، ٢) .

سر ذلك كله كامن في الإيمان بهذا الدين الجديد ، الذي هو الإسلام . آمنوا بهذا الدين إيمانا انعقدت عليه قلوبهم ، واطمأنت به نفوسهم ، فصاروا يعملون حسب أوامره وينتهون عند نواهيه . وقد جاءهم بمكارم الأخلاق وأحاسن الصفات ، وأمرهم بما يوحد مشاعرهم وآراءهم في الحياة ، وأغراضهم ومثلهم العليا وأهدافهم ، وفرض عليهم أخوة إسلامية جعل لها حقوقا مثل الحقوق في أخوة النسب ، بل أكثر . فقد كان المؤمن يقاتل أخاه في النسب ، حماية لإخوانه في الدين . وبذلك زالت العداوات والإحن القديمة ، وحل محلها الإخاء الإسلامي والتعاون .

لولا الإيمان اليقيني بهذا الدين لما أطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، ولولا أن الدين جاء بخيرهم في الدنيا مع خير الآخرة لما تم هذا الصلاح العظيم . نقول لولا اليقين بهذا الدين الذي جاءهم لما أطاعوا ؛ لأن العرب كان فيهم خلق الأنفة والعناد والإصرار ؛ لما فيهم من بداوة وتوحش . فكانوا لا يستجيبون بعضهم لبعض ، ويصعب على المرء قيادهم . فلما كان الأمر أمر سماء قبلوه وأطاعوه ، وصاروا يراعونه في السر كما يراعونه في العلن .

ولولا أن الأوامر التي يجب أن يأتمروا بها ، والنواهي التي يجب أن ينتهوا عنها تضمنت الخير والصلاح : من المحبة والتعاون والصدق والعدل وبذل النفس والنفيس في سبيل النفع عن جمعهم ، والدفاع عن عقيدتهم ؛ لما بلغوا هذا الشأو من الصلاح ؛ فإننا لا نعلم أمة من أمم الأرض في القديم كان لها مثل هذا الملك الواسع والمجد الباذخ . ؟

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

تنظر الديانة اليهودية إلى الزواج على أنه واجب دينى على كل قادر عليه . ويقرر فقهاء اليهود أن جريمة من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه تعدل جريمة القاتل ؛ لأن كليهما « يطفئ » نور الله . وينتقص ظله فى أرضه ، ويبعد رحمته عن إسرائيل » . بل لقد ذهب كثير منهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فقرروا أن من يبلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج .

ومن أهم الأسباب التى جعلت اليهود يعلون من شأن الزواج إلى هـذا الحد ، أن تخليد اسم الأسرة وتخليد شعائرها ووظائفها الدينية وتوثيق صلتها بالرب ، كل ذلك كان يتوقف فى عقيدتهم على إنجاب البنين . وليس ثمة وسيلة مشروعة لإنجاب البنين إلا الزواج ، وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الكريم حكاية عن زكريا : « وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب ... » (١) .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الشرعية نفسها إذا لم ترزق ذكرا تتنازل لجارية زوجها أو لجاريتها عن فراشها ؛ ابتغاء أن يأتى منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة . ومن الغريب أن من كانت تأتى به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعد ولداً للزوجة الأصيلة لا للجارية التى ولدته . فكانت الزوجة هى أمه الشرعية ؛ على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت للإتيان به . وقد طبق هذا النظام على اسماعيل الذى جاء به ابراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجه الأصيلة بابنها اسحق ؛ وطبق على « دان » و « نفتالى » Dan,nephthali اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلها Bilha قبل أن ترزق زوجه الأصيلة راحيل بيوسف وبنيامين (٢) .

---

[١] آيتى ٥ ، ٦ من سورة مريم

[٢] سفر التكوين إصحاح ١٦ وفقرات ١ ــ ١٤ من إصحاح ٣٠ .

ولم يشذ عن ذلك من فرق اليهود جميعا إلا فرقة الحسديين أو الإيسينيين أو الآزيين Esséniens (١) فقد كان من أهم مبادئ هذه الفرقة ، حسب ما يحدثنا به المؤرخ الشهير يوسف Josephe « الرغبة عن جميع متع الجسم ، والنظر إليها على أنها شرور . واعتبار التبتل (٢) والبعد عن النساء من أمهات الفضائل . ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج (٣) » .

ومع أن هذه المبادئ الحسدية لم يكن لها أثر كبير فى الديانة اليهودية نفسها ، ولم تطبق إلا فى نطاق جماعة الحسديين وحدهم ، وفى مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال فى الديانة المسيحية التى جاءت بعد ذلك . فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج ، وأن الحصور (٤) أدنى إلى الله ممن يقرب النساء . وفى هذا يقول : بولس الرسول فى رسالته إلى أهل قورنثة (٥) : « من زوج ابنته يأت عملا طيبا ، ومن لا يزوجها يأت ما هو خير (٦) ، و « إنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع

---

[١] انقسم بنو إسرائيل فى العصور الأخيرة السابقة للميلاد إلى ثلاث فرق : فرقة الفروشيين «فروشيم pharisiens » وفرقة الصادوقيين «صادوقيم saducèens » وفرقة الحسديين أو الإيسينيين أو الآزيين « حسديم essèniens ، ومعنى حسديم : المشفقون ، والياء والميم علامة الجمع فى العبرية » . وقد امتازت هذه الفرقة الأخيرة عن سائر فرق اليهود فى الشئون الاقتصادية باتجاهاتها الشيوعية المتطرفة ، وفى الشئون الدينية بالإكثار من الغسل والوضوء ، وبتحريمها تقديم الأضحية والقرابين ، وبالدعوة إلى الزهد والتقشف ، ومحاربة البذخ والترف والحياة الناعمة ، وفى الشئون العائلية بتحريم الزواج واعتبار التبتل من أمهات الفضائل . وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت . وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه الفيلسوف فيلون philon ، والمؤرخ اليهودى يوسف josephe . وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادى .

[٢] تبتل إلى الله وبتل بتشديد التاء انقطع وأخلص ، أو ترك النكاح وزهد فيه . ا هـ . قاموس . وبهذا المعنى الأخير سنستعمل هذا الفعل ومشتقاته فى هذا المقال .

[٣] Josephe : De Bello Judaico, II, 8, 2.

[٤] الحصور : من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك ، والممنوع منهن ، ومن لا يشتهيهن ، ولا يقربهن « من القاموس المحيط » وبالمعنى الأول وحده تستخدم هذا الوصف فى مقالنا هذا .

[٥] انظر بحثنا فى هذه الرسائل وغيرها من أسفار العهد الجديد فى مقالنا بعدد شوال ١٣٧٨ هـ من مجلة الأزهر .

[٦] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، فقرة ٣٨ من الإصحاح السابع .

فى الخطيئة (١) » و « إنى لأنصح الأيامى (٢) من الرجال والنساء أن يقتدوا بى ؛ فيظلوا على ماهم عليه . فإن لم يقو أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج ؛ فلأن يتزوج خير من أن يكون وقودا لنار جهنم » (٣) .

ويعلق ترتوليان (٤) Tertullien على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيراً فى ذاته ؛ فلأن يفقد الإنسان عيناً واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه . ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير فى شىء - فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم ، ولكن الخير أن يتق الإنسان الأمرين معا : فلا يتزوج ، ولا يعرض نفسه لعذاب النار . وإن قصارى مايحققه الزواج أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتى بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان Jean Baptiste (يحيى بن زكريا) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم فى سفر الخلود ، آثروا التبتل وحثوا الناس عليه . وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى (٥) أن تعبر البحر هى وجميع من كن يسرن خلفها من النساء ، فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات . والقديسة البتول تكلا Thècle قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها وخرت جاثية تحت قدميها (٦) ... وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ؛ لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء . . . ولو أن آدم لم يعص ربه

---

[١] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، فقرتى ١ ، ٣ من الإصحاح السابع .

[٢] الأيم - بتشديد الياء المكسورة - : العزب رجلا كان أو امرأة والجمع فيهما أيامى اهـ . المصباح .

[٣] الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة فقرتى ٨ ، ٩ من الإصحاح السابع .

[٤] من كبار رجال الكنيسة المسيحية « ١٦٠ ، ٢٤٠ م » .

[٥] هى التى ورد ذكرها فى القرآن فى قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل : فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ » [آيتى ١١ ، ١٢ من سورة القصص] .

[٦] تذكر القصص المسيحية أن الشهيدة تكلا كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية فى القرن الأول الميلادى على يد الرسول بولس ، وأن الله قد نجاها بمعجزة منه من كثير من أنواع العذاب التى امتحنها بها الوثنيون ؛ ليثنوها عن عقيدتها ، ويحتفل المسيحيون بذكراها فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

لعاش طاهرا حصورا ولتكاثر النوع الإنسانى بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين » (١) .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لايجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى إن مجمع مديولانتس Médiolanense المسيحى قد حكم فى أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب جوفينيان Jovenien بالطرد من الكنيسة ، لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج . وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنسانى ولصيانة الفرد من الفاحشة . ومن ثم لاينبغى فى نظرهم للمسيحى أن يطلق لنفسه العنان فى إشباع شهواته ، بل ينبغى أن يفيد من ذلك بقصد واعتدال ، وفى الحدود التى تحقق الذرية والنسل، « فيكون شأنه شأن الزارع الذى إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذوراً أخرى » (٢) .

وقد ذهبت فرقة المارسيونيين Marcionies (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون) (٣) إلى ماهو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد

---

[١] Tertullien, de Monogamia 3, atépar Westermarck, Idées Morales, II, 395, 396 ، وقد وافق ترتوليان على ماتضمنته الفقرة الأخيرة الخاصة بآدم ونسله جريجوار النيسى Grégoire de Nysse, Jean de Damas ويوحنا الدمشقى ، وخالفه فى ذلك توماس الإكوينى St Thomas d'Aquin الذى يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسى . ولكن هذا الاتصال — فى نظر توماس الإكوينى — لم يكن فى بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التى امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة Westermarck, op. cit. 396 .

[٢] Westermarck op. cit. 396 .

[٣] ولد مارسيون Marcion هذا ببلدة سينوب Sinop « ميناء على البحر الأسود فى تركيا » فى أوائل القرن الثانى الميلادى وكان أبوه قسيسا ، ونشأ هو قسيساً كذلك ، ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية ، ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلى من صنع الإله العادل Dieujuste أو الإله ديميورج Démiurge وهذا الإله هو الذى اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً وأنزل عليهم التوراة ولكن سلطان هذا الإله قد انتهى عند ماظهر الإله الخير Dieu Bon متمثلا فى المسيح ، وخلص الإنسانية من خطاياها ، فحينئذ بطلت كل أعمال الإله السابق . ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم « كتب اليهود المقدسة » فى جمله وتفاصيله . أما العهد الجديد « كتب المسيحيين المقدسة » فإن هذا المذهب لا يعترف منه إلا بسفرين: وهما إنجيل لوقا ورسائل بولس وبعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة . وعلى الرغم من الحرب الشعواء التى شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير، فى إيطاليا وإفريقية ومصر . وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ، ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضا تاما فى القرن الخامس الميلادى .

نحلتها ، كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود ، وأوجبت على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجه ، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى ، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على الرهبان ، وعلى القسيسين فى المذهب الكاثوليكى ، فمنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة متوفى عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته .

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى أصدر مجمع إلفيرا Elvira (فى أسبانيا) قرارا بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة . وفى أواخر القرن الحادى عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمرا بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان : كبارهم وصغارهم «حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسى» ، ومع أن هذا القرار قد لاقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة فى كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكد ينتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان نظاما مقررا فى الكنيسة الكاثوليكية ومطبقا على جميع القساوسة والرهبان من الرجال والراهبات من النساء .

* * *

وكان العرب فى الجاهلية ينظرون إلى الزواج على أنه واجب اجتماعى وعائلى ، ويحرصون على إتمامه فى سن مبكرة لذكر والأنثى على السواء ، بل لقد كانوا يزوجون الأنثى أحيانا وهى فى سن الطفولة . ومع ذلك فقد كان منهم من يترك الزواج تبتلا ، وكانوا يطلقون فى الجاهلية على كل رجل من هذا النوع اسم «الصَّرُورَة» . ولعل هذا النوع كان يتألف ممن اعتنق المسيحية من العرب أو ممن تأثر بعقائدها .

* * *

وأما الشريعة الإسلامية فإنها تحث على الزواج وتنظر إليه على أنه الحالة المثلى ، والوضع السليم الطبيعى للمسلم والمسلمة . بل لقد ذهب الظاهريون من فقهاء المسلمين ، وعلى رأسهم داود الأصفهانى وابن حزم ، إلى أن الزواج فرض عين على كل مسلم قادر عليه ، وعلى مختلف أعبائه . فهو للمسلم فى نظرهم بمنزلة الصلاة والصوم وما إليهما من الفروض العينية حتى إنهم

يرون أن من تركه مع القدرة عليه وعلى أعبائه يكون إثمه إثم من ترك ركنا من أركان الإسلام ، ويستدلون على ذلك بعدة آيات وأحاديث ورد فيها طلب النكاح بصيغة الأمر ، ذاهبين إلى أن الأمر المطلق للفرضية والوجوب . وذلك كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (١) وقوله : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » (٢) وكقوله عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » ؛ وقوله : « من استطاع منكم الباءة (٣) فليتزوج ، ومن لم يستطع فليصم ؛ فإن الصوم له وجاء » (٤) وقوله : النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » ؛ وقوله : « تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » (٥) .

وحتى معظم فقهاء المسلمين الذين لم يذهبوا إلى حد القول بفرضية الزواج على الإطلاق ، ينزلونه منزلة تقرب من منزلة الواجب ، ويقولون بوجوبه إذا خشى الفرد الوقوع فى المحرم .

فلا خلاف بينهم جميعا فى أن العزوبة تتنافى مع الأوضاع الإسلامية الصحيحة ، وفى هذا يقول عليه السلام : « من تزوج فقد أحرز نصف دينه » ؛ ويقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، والولد الصالح لا يكون إلا ثمرة لزواج مشروع . وعن أنس بن مالك أنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته . فلما أخبروا كأنهم تقالوها (أى عدُّوها قليلة) ، فقالوا : أين نحن من رسول الله ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟! . قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ؛ وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله

---

[١] آية ٣ من سورة النساء . [٢] آية ٣٢ من سورة النور

(٣) الباءة والباء النكاح ، وبوأ تبوئا نكح ، من القاموس المحيط . والمعنى من قدر منكم على أعباء الزواج فليتزوج

(٤) يطلق الوجاء على رض عروق الخصية من غير إخراج . فيكون شبيها بالخصاء ؛ لأنه يكسر الشهوة ، اهـ . من المصباح ، والمعنى : من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم ؛ فإن فى الصيام إضماقا للنزوات ، ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع فى المحظور .

(٥) انظر فى هذا الموضوع « بدائع الصنائع » للكاسانى ، باب الزواج .

أنجع وسائل الدعوة

للأستاذ محمد الغزالي

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان .

وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب ...

أتظن جمال الباطن أضعف أثرا من وسامة الملامح ؟ .

كلا ، إن طبيعة البشر محبة الحسن والالتفات إليه .

وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والركون إليهم .

ومن ثم فإن الداعية الموفق الناجح هو الذى يهدى إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة ؛ لأنه مثل حى متحرك للمبادئ التى يعتنقها .

وقد شكا الناس فى القديم والحديث من دعاة يحسنون القول ويسيئون الفعل ! !

والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم ؛ لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان ويصيبها فى الصميم ...

ولا يكفى – لكى يكون المرء قدوة –

عليه وسلم إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ؛ ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١).

وأما ما ينسب إلى الرسول عليه السلام من أحاديث ترغب فى التبتل ، كقوله : « خيركم من لم يتزوج بعد المائة أو بعد الألف » أى من التقويم الهجرى ، فهى أحاديث موضوعة تتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه . ويظهر أنها تعبر عن اتجاهات مسيحية تسربت إلى بعض بلاد المسلمين أو عن اتجاهات الغلاة من المتصوفين .

دكتور علي عبد الواحد وافي

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

أن يتظاهر بالصالحات أو يتجمل للأعين الباحثة ، فإن التزوير لا يصلح فى ذلك الميدان ، ولا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة وامتداد الزمن وتمحيص الأحداث .

وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية ...

ذلك أن النفس المتحركة بروح الإيمان كالآلة الدائرة بما يعمر خزانها من وقود ، أما النفس المحرومة من هذا الروح فهى كالآلة التى تدفع باليد حينا ثم لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب فتتوقف وتسكن ...

والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج إلا إلى شىء من التكلف والمصانعة ، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشىء من إدمان الرسوم وإتقان الهمهمة .

وهذا ضلال بعيد فالأمر أخطر مما يظنون .

إن التدين الحقيقى صورة لجوهر النفس بعد ما استكانت لله ونزلت على أمره ، واصطبغت بالفضائل التى شرعها ، وترفعت عن الرذائل التى حرمها ، واستقامت على ذلك استقامة تامة .

هذا التدين وحده هو الذى تلتمس منه الأسوة ويقتبس منه الهدى ، ويؤسفنى أن أقول : إن هذا الضرب من التدين العالى نادر الآن ، وأن أشعة الكمال المنبعثة من وهجه لا تكاد ترى .

بل إن نفراً من الناس الذين لا ينميهم دين أقرب إلى المسلك الصحيح ، وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من آخرين انتسبوا إلى الدين ، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرب لروحه ... !

وعندما ينكب الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار ، فالمجال واسع لشيوع الإلحاد وانتشار المعصية والعدوان .

قال لى صديق : إن فلانا « الأوربى » إذا وكلت إليه مهمة خرجت من بين يديه متقنة الأداء ، ظاهرة الجودة. أما فلان الذى يكثر الصلاة فقلما يرعى فى إحسان عمل أو أداء واجب ... !

لقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين ، ولم يسؤنى منها أنها باطل - إذ هى أحيانا حق - وإنما ساءنى منها أن ذلك « المتدين الكسول » دعاية شنيعة ضد الصلاة ، إنها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادئ الفاضلة . !

وقد لاحظت أن الأجنبى - فى أغلب الأحيان - يرى خدشا لكرامته ، وطعنا

فى كيانه أن يصدر العمل عنه ناقصا ، فهو يجوده احتراما لنفسه ، وصيانة لشخصه .

على حين تجد مواطنا ينتمى إلى الدين - كما يزعم - ثم هو يقوم بالعمل على أسوأ الوجوه ، ويبسط لسانه بالجدل الطويل فى تسويفه وإقناع الآخرين بقبوله ... !

ولعلنا لم ننس قصة المهندس الذى أشرف على بناء جسر السلطان أبى العلاء ، وكان أجنبياً .

فإنه لما رأى عمله لم يصل إلى درجة الكمال التى ينشدها ، رمى بنفسه من فوق الجسر العالى ، فهوى بين أمواج النيل ، وكاد اليم يبتلعه لولا إسعاف المنقذين .

لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعد ما فشل فى إحسان العمل الذى كلف به ...

وإنما أثبت هذه القصة لأنى أعرف أناسا مثله ، وقعوا فى شر من تفريطه وخرج العمل من بين أيديهم مبتورا مشوها ، فلما عوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقيا التبعة على غيره ...

ولعله بعد ذلك جلس إلى مكتبه يجرع القهوة فى كبرياء !

أيصلح هؤلاء أمثلة للإسلام ؟ ؟ .

قل لى بالله : كيف يهوى سلوك الفرد منا إلى هذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الناس الإسلام ويقبلوا عليه ؟ .

إن الدعوة إلى الاسلام تكون أولا بعرض ثماره فى الأخلاق والأحوال ، أعنى : ثماره فى أتباعه المؤمنين به ، ويومئذ ترجى الإجابة ، ويرتقب الاهتداء ...

ولنعد إلى أسباب انتشار الإسلام أيام السلف الصالحين . . .

إن « خلق » الدولة ، وصلاح أنظمتها وكفالتها أكبر حظ من العدالة والسعادة للأفراد ، كان الباعث الأعظم على دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الإسلام .

بل غبطتهم لأن دائرة هذا الدين بلغت من الرحابة حداً جعلتهم يأوون إليها وهم وافرون أعزاء . . .

حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم فى الدولة الإسلامية وقصورها ، عن التحليق مع المثل الرفيعة التى نشدها الإسلام فى اختيار الحكام .

إن هذا القصور لم يقدح فى مدى الخير الذى يحرزه الناس تحت علم الدولة الجديدة !! ذلك أنه أعلى درجة ألف مرة

من الخير الذى رأوه فى ظل أكاسرة فارس وقياصرة روم .

وحين تتابع أوصاف المسلمين الفاتحين - كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين - نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظافرة بشىء من الدهشة ، ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل ، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها ! !

أجل : زاحموهم عليها ، ونافسوهم فيها ، واعتنقوها ليعملوا بها مثل أو أجل من أصحابها الذين نقلوها ، مصداق قول الرسول الكريم : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

الإعجاب بالإسلام فى أحوال الفرد ، والإعجاب بالإسلام فى أحوال الدولة ، هو وحده السبب الفعال فى تزاحم الخاصة والعامة على هذا الإسلام ، وارتضاؤهم له ...

والإعجاب لا ينبت فى النفس خبط عشواء .

أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخرفة ؟ .

أتظن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة ؟ .

أتظن المتقدم فى أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف فى هذه وتلك ؟ كلا كلا ....

إن المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم ، وأن ينسجوا على منوالهم ، وأن يقلدوهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وأن يهجروا لغاتهم الأصلية إلى اللغة العربية الوافدة ، لأن المسلمين كانوا يمثلون فى العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة .

والمعجب بك قد يذوب فيك ، وذلكم هو ما حدث فى « المستعمرات » التابعة للشرق والغرب ، أعنى : لفارس والروم ، يوم زحف عليها الإسلام ، وانساب فى جنباتها .

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحداً يؤمن بك عقب انتصار فى معركة جدل ، أو انتصار فى ميدان حرب .

إن المقهور فى أحد الميدانين قد يستسلم راضيا أو ساخطا .

بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص ، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدا .

ومن ثم نرى لزاما علينا التوكيد بأن القدوة وحدها ، وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب ، هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة فى أوسع نطاق .

محمد الغزالى

نفحات القرآن

— ٦٨ —

الهجرة – « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

(ا) ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة .
(ب) ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما .

١ — حادث الهجرة النبوية الذى نحن بصدده اليوم : لم يكن الأول فى بابه – فيما نفهم من التاريخ – فقد هاجر إبراهيم – عليه السلام – بدينه ودعوته من العراق إلى الشام ، بعد أن تحداه الفرس ، وحاولوا أن يحرقوه بالنار .

وهاجر موسى – عليه السلام – مع المؤمنين به من بنى إسرائيل ؛ فراراً من فرعون وجنوده بمصر ، واستدراجا لهم إلى البحر ؛ لينجو موسى ومن معه ، ويغرق فرعون وجنوده

ويشبه ذلك أن تحول عيسى عليه السلام من بلده ومولده – بيت لحم – إلى أورشليم ، حيث انتهت حياته فى بنى إسرائيل .

ولكن هذه الهجرة ونحوها لم تأخذ ما أخذته هجرة محمد – عليه وعلى صحبه الصلاة والسلام – من الأهمية فى ميزان التاريخ ، ولم تحمل واحدة منها اسم الهجرة كما حملته هجرة النبى والمسلمين من مكة إلى المدينة ؛ حتى أصبحت هذه الكلمة كعنوان خاص : فيه من المعانى ، والذكريات ، والمقاصد ، ما يحتاج إلى بسطة فى القول ، وفسحة فى الزمن ، على نحو ما نرى من عناية الكاتبين سلفاً وخلفاً ، وحتى صارت الأذهان تنشط – عند ذكر كلمة الهجرة – إلى استشعار قصص حق ، فضفاض ، رائع ، خطير عن شأن من شئون الإسلام الهامة .

فمن الحق الذى صرنا إليه أن نعتبر هجرة محمد والمسلمين حادثا أول فى نوعه ، ومبدأ جديداً فى بابه ، وعبرة شاخصة على الزمن ، وأن يعتبره المسلمون الأولون صدر التاريخ .

٢ — كانت دعوة محمد – صلوات الله عليه وسلامه – سلمية رفيقة ؛ لأنها حق ، وللحق مع

هدوئه صولة تبدو وضيئة رحيمة . ولكنها لقيت خصومة باطلة عارمة .

وللباطل دولة ، يبدو فيها متجهما عاتيا .

فما يكاد الحق ينبثق نوره حتى تبهت جهامة الباطل . . ولا يكاد الحق ينشر رحمته ، حتى يذل جبروت الباطل ، ويستقر الأمر على خير ما أراد الله ، ويعيش الحق فى سلطان الله ورعايته ، ويذهب الباطل ، أو يعيش فى غير محبة الله ، حتى يزهق يوما ما ؛ « إن الباطل كان زهوقا » .

٣ - اشتد اللجاج من قريش مع محمد ، وبقدر ما كان شغوفا بهدايتهم ، ووفيا لقرابتهم ، كانوا ينفرون من نصحه ، ويتجهمون لشخصه ، وينسون ما بينه وبينهم من لحمة ، ودم ، ورحم .

ومع ما لقى من عنتهم له ، وإيذائهم لمن يتابعه ، كان مأمورا بالتجاوز عن مساءتهم ؛ « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

ولم يكن يستطيع غير الصبر والمصابرة ، فإذا اشتد به الضجر من مهاتنهم لاذ بالصبر كما علمه ربه ، ولم يكن مأذونا له - حتى بعد انضمام أناس إليه - أن يحاول الدخول معهم فى حرب ؛ لأنها مجازفة بالقلة العارية عن قوة ، أمام الكثرة المستعصية .

وإذ بلغ الشر مبلغه كان جائزا أن يأخذ الله قريشا بعذاب من عنده ، كما فعل بأمم سابقة ، فسلط عليها الأعاصير المحرقة ، أو الغرق المبيد أو الصيحة والصواعق الماحقة ، ولكن الله أكرم محمدا حتى فى خصومه ، فأعفاهم من هلاك عاجل ، وأمهلهم إلى عذاب آجل ، واستجاب فيهم لدعوة محمد لهم « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ، أو لعل الله يخلق من ظهورهم من يعبده .

٤ - ثم لما استجاب لدعوته أناس من حجاج المدينة ، وكثر بهم عدد المؤمنين من أبناء مكة أذن الله لمحمد بالمقاتلة ، دون إيجاب لذلك ؛ « أذن للذين يقاتلون ، بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، ثم تدرج الإذن بالقتال إلى تكليف به ، إذ أصبحت للمسلمين كثرة ؛ « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » .

ولكن : كيف يقاتل محمد وهو مع القلة من مؤمنى مكة يعيشون فيها بين جمهرة ساحقة من كفار قريش ؟؟ ليس ميسورا أن يحضر إليه الأنصار من المدينة ، ويتخلفوا عن وطنهم ، وأموالهم ؛ ليهاجموا قوما أشداء فى بلدهم .

وليس سهلا أن يظفر المحارب الدخيل على مواطنين يعرفون مداخل بلدهم ومخارجها . وكما يقال : أهل مكة أدرى بشعابها .

لذلك : كانت السياسة الرشيدة التى رسمها الإسلام ، وجعلها منهجا متبوعا لنا إذا اقتضت الحال فى موقف كهذا — أن يهاجر محمد وأصحابه إلى المدينة بلد الأنصار الكثيرين الذين دخلوا فى الإسلام ، وحالفوا محمدا صادقين على التضحية معه فى سبيل الله .

٥ — وقد أذن الله لمحمد أن يسمح لراغبى الهجرة من أصحابه أن يبادروا إليها ، فصاروا يتتابعون إلى المدينة أرسالا أرسالا .

أما هو : فقد بقى متطلعا إلى إذن الله له ، وأبقى على أبى بكر معه ، فلم يسمح له بالخروج قبله .

أحست قريش من هجرة أصحاب محمد أن الأمر جد لاهزل ، وأن من وراء ذلك خطرا جماعيا سيحدق بهم ، فأخذوا يحزمون رأيهم ، ويدبرون كيدهم ، ويبيتون شرا ، ويرجفون به ، وهم فى وجل مما وراء ذلك التجمع فى المدينة ، حتى رتبوا مكيدة القتل للنبى ، أو الإيقاع به على أى نحو يكون ، وفاتهم أن الله محيط بما هم عليه ، وكاشف لنبيه مايخفون « وإذ يمكر بك الذين كفروا ؛ ليثبتوك - يمنعوك من مواصلة دعوتك - أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين » ، « أم يقولون: شاعر، نتربص به ريب المنون . قل تربصوا ، فإنى معكم من المتربصين »

ولما اقتربت ليلة المؤامرة التى دبرتها قريش للفتك بالنبى ، وأعدت لها طائفة من شبابهم الأشرار أذن الله لنبيه بالهجرة .

وهنا تبتدئ المواقف الحاسمة ، ويكون الرأى ، والتدبير ، والحيلة فى إحباط مكر قريش وتغلب مكر الله سبحانه .

فأبو بكر فى داره يترقب نبأ الخروج من يوم إلى يوم ، غير كاره لمكة ، ولكن إيثاراً لصحبة الرسول ، وشغفا بالانضمام إلى الأنصار ، وفى ساعة الهجير من يوم جمعة ، وحين غفوة الناس من حر الظهيرة يخرج النبى - صلوات الله عليه - نحو بيت أبى بكر ، ويسر إليه نبأ الهجرة ، ويأذن له بالخروج معه ، ويتفقان على التنفيذ من ليلتهما ، على أن يكون ارتحالهما - أولا - إلى غار فى جبل ثور ، بعيداً عن مكة ، وعلى شرف منها .

ولم يكشفا ذلك إلا لنفر قليل : عائشة ، وأسماء ، وأخوهما عبد الله ، ثم عامر بن فهيرة خادم أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط ، وهو قرشى على دين قومه ، ولكنه أجير ، دليل على الطريق أمين ، وقد أسلمه أبو بكر راحلتين ليحضر بهما إلى الغار بعد ثلاث ليال .

وإذ انتهى النبى وصاحبه إلى الغار اختفيا فيه ، وظل عبد الله بن أبى بكر يقضى نهاره فى قريش ، ويرقب تدبيرهم ، ويسمع أخبارهم

ثم يأتى ليلا إلى الغار ويروى ماعرف ، وفى الصباح يعود إلى مكة كما كان .

وظل عامر بن فهيرة يغدو بأغنام أبى بكر ، يرعاها قريبا من الغار . وفى رواحه مساء يمر بها على الصاحبين ، ويحلب لهما مايحتاجانه من لبن .

وقريش تجهد نفسها فى البحث وتعقب محمدا وصاحبه هنا ، وهناك ، حتى وقفوا يوما على باب الغار ، واشتد الهلع بأبى بكر خوفا على حياة الرسول ، فكان النبى يهدئ من روع صاحبه ، ويقول له : يا أبا بكر « لاتحزن ، إن الله معنا » ، وقدضلت قريش ، وحجب الله أبصارهم عمن فى الغار ، وجعل من نسج العنكبوت على بابه ، ومن تفريخ الحمام على مدارجه صارفا لقريش عن الإمعان فى داخل الغار « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

فلما كان موعد عبد الله بن أريقط بعد الليلة الثالثة حضر بالراحلتين ، وحضرت أسماء بالزاد والماء ، وحينما أرادت تعليق الزاد بالرحل واحتاجت إلى رباط شقت نطاقها ـ حزامها ـ نصفين فعلقت بأحدهما قربة الماء ، وبالثانى جراب الطعام ، فسميت من ذلك الحين بذات النطاقين ؛ مفخرة لها ، وتقديراً لموقفها ، ثم سار محمد وصحبه على بركة الله وفى رعايته .

٦ ـــ وهنا عجيبتان من مكارم الله لنبيه :

إحداهما ـ : فى حادث سراقة بن مالك ـ ثانيتهما : ـ فى قصة أم معبد بنت كعب الخزاعية .

أما سراقة فكان مشركا ، سمع أن قريشا فرضت على نفسها عطاء ماليا جزيلا لمن يأتيها بنبأ محمد ، وإلى أين ذهب .

وكان سراقة ذا أمل فى أشباح مرت من بعيد ، فامتطى فرسه ، واتجه إلى وجهة الأشباح ، فرآها محمداً وأصحابه ، وعند اقترابه منهم ساخت قوائم فرسه ، وثبتت مكانها عاجزة عن النهوض ، فاستغاث بالنبى وطلب إليه أن يعفو عنه ويدعو له ، فإذا ما انطلقت فرسه فسيعود كما أتى ، ولن يفضى بشىء من ذلك ، وقد استجاب له النبى صلى الله عليه وسلم ، وقبل وعده ، ودعا له ، فنهضت فرسه ، وعاد الرجل ، ووفى بوعده ، ولم يتحدث بهذا ؛ إلا بعد أن استقرت الأمور وأسلم .

وأما أم معبد بنت كعب الخزاعية ، فكانت فى نأى عن القوم ، تقيم فى خيمتين لها ، وزوجها يغدو ويروح بالغنم ، وهى فى مقرها ، وكانت تسقى وتطعم من يمر بها من المسافرين ، فمر بها المهاجرون وهم فى حاجة إلى طعام وشراب ، فسألها النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهى لا تعرفه ـ عن شىء من القوت ، فاعتذرت وأقسمت له آسفة .

وكان عندها شاة هزيلة متخلفة عن الرعى ، لا لبن فيها ، ولا يرجى منها ، فاستأذنها النبى

فى حلب الشاة فأذنت له ترضية ومروءة ، ولم تكن تأمل فى الشاة لبنا ، فسمى النبى باسم الله ، ومسح ضرع الشاة بيده فدر منه اللبن الغزير ، فشربت أم معبد وشرب السفر ، وبقى عندها شىء كثير ، ثم غادروها ، وظلت فى عجب ، حتى عاد زوجها بغنماته ، ووجد عندها بقية اللبن ، وسألها فقصت عليه النبأ فعرف الزوج أن هـذا شأن الرجل الذى سمع به فى قريش ـ محمد ـ وأيقن أن تلك الأوصاف أوصافه التى يتحدثون عنها فى الأندية والأسفار .

٧ ـ وإلى هنا كانت قريش فى يأس من الوقوف على أثر محمد ، وفى جزع من فشلها فيما دبرت ، وفى حيرة مما تصنع .

وعلى حين غفلة سمع الناس فى مكة هاتفا ينشد أبياتا من أناشيد العرب وهم لا يرون شخصه .

وما زالوا يتبعونه ويسمعون غناءه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول وهم يسمعون :

جزى الله رب العرش خير جزائه
رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر . وارتحلا به
وأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
فإنكمو إن تسألوا الشاة تشهد

ومن ذكر أم معبد فى هذه الأبيات ، وذكر محمد ورفيقه ، أيقنت قريش أن محمدا وصحبه قصدوا إلى المدينة لأن سبيلها تمر بخيمتى أم معبد .

٨ ـ وما كاد النبى وصحبه ينتهون من سفرهم ، ويستقرون بين الأنصار حتى تهيأت للمسلمين حياة أرحب ، وأخذت قوتهم تزداد ، ورهبتهم تشيع .

وأخذوا ينشئون المساجد ، ويوثقون الصلة بين الأنصار والمهاجرين ، وينظمون حياتهم الجماعية ، ويقيمون أركان دولتهم الناشئة على أحكام القرآن ، وانبعثت من جانبهم إلى الآفاق سيرة عطرة .

وبدأت غزواتهم تشق للدعوة طريقها ، وتفسح لسلطانهم أن يمتد ، حتى تهيأ لدين الله الحق أن ينشر لواءه ويركز قواعده فى بلاد غمرتها الضلالة ، وهزها الطغيان .

ومن ذلك الحين تأكدت قريش أن شمسهم آفلة ، ودولتهم زائلة ، وكم حاولوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وسلاحهم ، ولكن الله أتم نوره ، فأصبح للإسلام دولة ، ولأمته أمجاد ، وصار لها فى سجل الحضارة ومجال العلم صفحات مشرقات .

٩ - فإن يكن حادث الهجرة فى أوله صراعا بين الحق والباطل ، أو محاولة من محاولات البطولة الصامدة فى وجه الكثرة الباغية فهو فى نهايته نصر مؤزر للمجاهدين الصادقين وهو فى قدره منقبة من مناقب الإسلام ، وسيظل مفخرة لأهله ، حتى يلتقى عند الله محق ومبطل ، ويقضى الله بين الخصمين أمراً كان مفعولا .

١٠ - وليس الحديث عن الهجرة مجرد قصص لما كان ، وإنما هو تجديد لمأثرة من مآثر أسلافنا نستمد منها العبرة ، ونتأسى بما فيهم من عزيمة ، وما كان لهم من ثبات على الحق ؛ لتظل راية الإسلام كما أقامها الأوائل خفاقة ، ولتظل أمجاد الإسلام مشهودة ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

١١ - ثم ما حكم تلك الهجرة فى أمسها ويومنا ؟؟ فى أولها كانت مفروضة ؛ لعجز المسلمين فى مكة عن القيام بدينهم فى أمان .

وبعد أن قويت شوكة المسلمين وفتحوا مكة لم تعد واجبة لزوال أسبابها .

ومن كلام النبى فى ذلك « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » يعنى إذا دعيتم للجهاد ، فاخرجوا إليه .

ويرى بعض العلماء بقاء الهجرة واجبة إذا تجددت أسبابها ، وغلب المسلم على أمره فى بلده ، وهذا معقول فإن الحكم يدور مع علته .

وعلى أى القولين فهناك هجرة واجبة ، دائما ، وهى هجرة المعاصى ، حضراً وسفراً ، وهى جهاد أكبر كما قال الرسول لمن سأله عن الجهاد : فسمى جهاد النفس الجهاد الأكبر ، والمجاهد لنفسه هو المهاجر لما نهى الله عنه .

١٢ - وبعد : فعند ما أذن الله للنبى أن يسمح لأصحابه بالهجرة ، وأمره بعد ذلك أن يبرح مكة لم يكن النبى زاهدا فى بلده ، بل كان يحبه أكثر مما يحب أى إنسان وطنه ، ولكنه يؤثر دينه على وطنه ، إذ ضاق به أهله ، ويؤثر أنصاره على قومه حبا فيمن أحبوا الله ، ورسوله واتبعوه ، وإن صاروا حربا على قومه .

ولقد كان من حبه لمكة أن يسأل عنها من قدم إليه من أهلها ، وكان يذرف الدمع إذا هاجه الحنين إليها ، وكان من قوله فيها « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت» وكيف كان يكره مكة وهى البلد الذى رفع الله من شأنه ، ومازه بمناقب لم تكن فى بلد من الدنيا مما يطول بنا ذكره .

ولكن حب الوطن شيء ، والقيام بنصرة الدين شيء آخر . وحب الأهل شيء ، وحب الحق شيء آخر .

١٣ — غير أن ناسا من المسلمين بمكة غلبهم حب وطنهم ، فتخلفوا عن الهجرة ، وظلوا فى قريش يكثر بهم سوادها ، وتجرى على مشهد منهم منكراتها ، فنزلت الآيات فى فرق ثلاث .

الأولى : أولئك المتخلفون بغير عذر « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا - يعنى يقول لهم الملائكة يوم القيامة - فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . . قالوا - الملائكة - : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ذلك جزاؤهم لأنهم متظاهرون بالإسلام .

الفرقة الثانية : العاجزة لكبر أو لمرض أو نحو ذلك من الموانع ، فهؤلاء غير مؤاخذين، وهذا قول الله فيهم «إلا المستضعفين من الرجال ، والنساء، والولدان ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » فهم آمنون من عذاب الله إن ظلوا على إيمانهم .

الفرقة الثالثة : المهاجرون فعلا ، فلهم فى أرض الله فسحة ، ورغام - تراب يعيشون عليه ، ويستثمرونه ومن هؤلاء المهاجرين من يخرج ثم يموت قبل أن يصل إلى مهجره ، وهذا فى حكم المهاجر الذى وصل ، له الأجر ثابت عند ربه ، وفيه قول الله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

هذه آيات الله فى بيان الهجرة وجزائها ، ولكنها الهجرة فى سبيل الله ، لا فى مفاتح الدنيا ، والتماس المتاع فى جنباتها ، فإن ذلك يجر إلى الانحراف ، ويبعد عن مقاصد الخير ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله - يعنى محسوبة له - ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » يعنى غير محسوبة له هجرة ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

ذو النون المصرى

١٥٥ - ٢٤٥ هـ

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم ، لقب بذى النون ، وقيل : ذو النون المصرى ؛ لأنه ولد بمصر وعاش فيها . واختلفوا فى أصل موطنه أهو من مدينة إخميم بصعيد مصر ، أم من بلاد النوبة فى أقصى الجنوب من الاقليم المصرى ؟ وتروى فى سبب تسميته بذى النون حكاية طريفة نذكرها عن الطبقات الكبرى للشعرانى : « قال - أى ذو النون - قد جاءتنى امرأة فقالت : إن ابنى أخذه التمساح ، فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل ، وقلت : اللهم اظهر التمساح ؛ فخرج إلى ، فشققت عن جوفه ، فأخرجت ابنها حيا صحيحا ، فأخذته ومضت ، وقالت : اجعلنى فى حل ، فإنى كنت إذا رأيتك سخرت منك ، وأنا تائبة إلى الله عز وجل » .

ساق الشعرانى هذه القصة فى معرض حديث السخرية بالمتصوفة وهم الفقراء ، فذكر قبل الرواية السابقة مباشرة مانصه :

وسئل رضى الله عنه عن السفلة من الخلق من هم ؟ فقال : من لايعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرفه .

وكان يقول : سيأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمق على الأكياس . (قلت : - وهذا استطراد للشعرانى - والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله تعالى الأمانى ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) .

وكان يقول : لم يزل الناس يسخرون بالفقراء فى كل عصر ليكون للفقراء رضى الله عنهم التأسى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال : قد جاءتنى امرأة ... « الخ » .

حديث التمساح إذن كرامة من كرامات ذى النون ، جعلت تلك المرأة تتأدب فى حق الفقراء من المتصوفة ، وتقلع عن السخرية بهم ، ولم يشر عبد الوهاب الشعرانى أى إشارة يفسر بها هذه القصة : التفسير الذى يستفاد منه أن لقب ذى النون إنما يرجع إلى هذه القصة ، والشعرانى لم يتعرض أبدا لتفسير لقبه ، وإنما اعتمد بعض المحدثين على هذه القصة

فى الموازنة بينها وبين قصة يونس الواردة فى القرآن ، والذى ابتلعه الحوت ، والحوت هو « النون » ، ولذلك سمى يونس ذا النون وسمى ثوبان بن ابراهيم ذا النون كذلك .

قد يكون فى هذا التأويل بعض الصواب ، ولكنه تأويل متعسف ، ولم يعرض أحد من قدماء المؤرخين لتفسير هذه التسمية ، كما أن قصة التمساح هذه لم يذكرها القدماء ، وإنما وردت عن بعض المتأخرين ، ونحن نشك فى صحة وقوعها .

ونحن إذا تتبعنا أخبار ذى النون عند المؤرخين الأقدم فالأحدث ، وجدنا ظاهرتين تحيطان بحياته : الأولى أننا كلما رجعنا للمتأخرين من أمثال الشعرانى وغيره ، وجدنا تزيداً فى الروايات ، ورأينا قصصا جديداً لم يذكره المتقدمون . والظاهرة الثانية أن كل مؤرخ يذكر الجانب الذى يهمه من ذى النون وقد كان متعدد الجوانب ، فهو محدث ، وهو عالم بالكيمياء ، وهو ممن اشتغل بحل طلاسم الكتابة الهيرغليفية ، وهو صوفى .

فابن النديم فى الفهرست يذكره من جملة علماء الكيمياء ، ويذكر أن له كتابين فى هذا العلم ، كتاب « الركن الأكبر » ، وكتاب « الثقة فى الصنعة » .

والقفطى فى أخبار الحكماء ينعته بصفتين ، أنه عالم كيمائى من أكبر العلماء فى هذه الصنعة، وأنه عالم بآثار مصر القديمة . وهذا نص ما جاء فى أخبار الحكماء للقفطى : « ذو النون ابن إبراهيم الإخميمى المصرى ، من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء ، وتقلد علم الباطن ، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة . وكان كثير الملازمة ابربا بلدة إخميم ، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة ، وفيها التصاوير العجيبة ، والمثالات الغريبة ، التى تزيد المؤمن إيماناً ، والكافر طغياناً . ويقال : إنه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية وكانت له كرامات » .

وليس ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب حجة يستدل منها على معرفة ذى النون بالكتابة الهيرغليفية . فقد سمع المسعودى من أهل إخميم أن ذا النون : « كان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى ودورها ، وامتحن كثيراً مما صور فيها ، ورسم عليها من الكتابة والصور . قال : رأيت فى بعض البرابى كتابا تدبرته ، فإذا هو : « احذروا العبيد المعتقين ، والأحداث المغتربين ، والجند المتعقدين ، والنبط المستعمربين » ، قال: ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدرى
ورب النجم يفعل ما يريد

ومن الواضح من هذه النصوص المترجمة أن ذا النون لم يكن يعرف اللغة الهيرغليفية ، ولذلك شك المسعودى نفسه فى علمه بها ، فقال : «وزعم» . وبذلك نستبعد من ثقافة ذى النون المعرفة بآثار قدماء المصريين ، التى حاول كأى شخص ينشد استطلاع المجهول حل طلاسمها ، ولكنه لم يوفق .

وتبقى من هذه الثقافة العلم بالحديث والفقه ، والعلم بالكيمياء والفلسفة ، ثم علم التصوف .

— ٢ —

وأفضل من كتب عن ذى النون حتى الآن وحلل شخصيته من جملة الروايات المذكورة والمتناثرة فى كتب التراجم والطبقات ، هو الأستاذ نيكلسون ، فى كتابه (فى التصوف الإسلامى وتاريخه) وهو الكتاب الذى نقله إلى العربية الدكتور أبو العلا عفيفى (١) .

غير أن هذه الدراسة على عمقها وأصالتها انزلق فيها صاحبها إلى الأخذ بالروايات على لسان ذى النون دون أن يمحصها ، ودون أن يعرضها على ميزان النقد العلمى والتاريخى ، فيقبل ما يتفق مع العقل ، ويرفض ما لا يتفق معه ، وبخاصة إذا خلت الرواية من السند ، وجرت على ألسنة المتأخرين .

مثال ذلك أن نيكلسون يقبل رواية القفطى ويقول فى ذلك : (وتبدو شخصية ذى النون الحقيقية فى وضوح فيما يذكره عنه ابن القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء حيث يقول) : ثم أورد رواية القفطى بتمامها ، وبعد ذلك تكلم عن المسعودى الذى (توفى بعد ذى النون بمائة سنة كاملة ، وكان أول مصدر تكلم عنه ، فيخبرنا بأنه جمع معلوماته عن ذى النون من أهل إخميم عندما زار هذا البلد . . .) .

ثقة نيكلسون إذن فى رواية المسعودى ترجع إلى أنه جمع أخباره من أفواه أهل إخميم ، الذين حدثوه عن ذى النون من أنه كان يطيل الوقوف برسوم البرابى وما فيها من تصاوير ، وأنه حل رموز هذه الرسوم . وقد حدثتك من قبل أن المسعودى نفسه شك فى قيمة معرفة ذى النون بآثار قدماء المصريين ، والنصوص المترجمة التى أوردها تشهد بما لا سبيل إلى الريب فيه أنه لم يبلغ من العلم بها شيئا .

ولكن الأستاذ نيكلسون لا يثق فقط فى علم ذى النون بلغة قدماء المصريين وأسرارهم ، بل يرتب على ذلك الصلة بين علم الكيمياء وبين علوم الأسرار المدونة فى رسوم قدماء المصريين ، اعتمادا على ما ذكره أصحاب المقالات عن هرمس ، وهو النبى إدريس ، وهو أخنوخ ، وأنه أول من بنى هياكل

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٧ — ٢١ .

الأهرام ومدائن البرابى . ثم رتب نيكلسون على ذلك أنه ، يظهر من كل ما تقدم أن ذا النون كان من أصحاب الكيمياء والسحر ، (١)

ثم تكلم نيكلسون بعد ذلك كلاما كثيراً عن الصلة بين السحر ، والكرامات ، والتصوف ، ليصل من ذلك إلى أن المتصوفة وصلوا إلى هذا السلوك من باب الكيمياء والسحر .

نقول : الاستدلال الذى يقدمه نيكلسون لا يستند إلى أساس صحيح . ذلك أن علم الكيمياء نقل إلى العرب فى عصر الترجمة ، بل قبل عصر الترجمة ، ويقال إن خالد بن يزيد الذى عاش فى آخر القرن الأول الهجرى كان أول من نقل كتابا فى الكيمياء . ولكن مما لا شك فيه أن القرن الثانى للهجرة شهد كثيراً من المترجمات عن اليونانية والفارسية والهندية فى هذا الفن ، الذى يتصل بالمعادن والسوائل وخصائصها ، وفائدة ذلك كله فى الصناعات ، مثل : صناعة السكر والورق والحبر والألوان والعطور والروائح ، وأهم من ذلك صلة الكيمياء بالعقاقير وتحضير الأدوية النافعة فى العلاجات ، فهناك صلة وثيقة بين الطب والكيمياء ، وقد كان الأطباء المشهورون البارزون ، من علماء الكيمياء المشهورين كذلك ، مثل الرازى وابن سينا .

حقا اقترنت الكيمياء بالسحر والطلسمات ولكن ذلك عند المشعوذين لا عند العلماء بمعنى الكلمة . ويبدو أن فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وهى الفكرة التى سادت فى عصور متأخرة بعد القرن الرابع ، هى التى وصمت الكيمياء بهذه الوصمة الباطلة ، ولذلك كان المشتغلون بالكيمياء ، أى: بتحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة ، يعملون فى الخفاء ولكن الرازى وابن سينا وغيرهما لم يتجهوا هذه الوجهة السرية الباطنية ، وهم الذين وضعوا أسس ذلك العلم بمعنى الكلمة .

نحن إذن أمام أحد أمرين ، إما أن يكون ذو النون عالماً حقيقياً بالكيمياء لامشعوذا ، وهذا يقتضى النظر فى كتابيه اللذين أوردهما صاحب الفهرست وهما : الركن الأكبر ، وكتاب الثقة فى الصنعة . ولكن يبدو أن الذين قرنوا بينه وبين جابر بن حيان ، وهو الذى كشفت كتبه عن شخصيته ، إنما يصفونه بالعلم فى هذه الصناعة .

وإما أن يكون ذو النون من المشعوذين ، وهذه أيضاً قضية لانستطيع الفصل فيها دون الرجوع إلى كتبه .

أما ماقيل من أن جابراً كان يلقب بالصوفى ، فليس هذا دليلا على أن كل مشتغل بالكيمياء

(البقية بصحيفة ٥٥)

(١) المرجع السابق ص ١١ .

القومية فى عهد الأيوبيين

للأستاذ شفيق جبرى
العميد السابق لكلية الآداب بدمشق

كثر فى أيامنا هذه استعمال كلمة : القومية العربية ، فلا تكاد تخلو خطبة أو مقالة أو قصيدة من هذه اللفظة ، وعلى ما به رأينا من الضرورة أن نبحث عن أصول هذه القومية فى تاريخنا ، حتى نستطيع أن نصل حاضرنا بماضينا ، ولكننا لا نقف إلا على عصر واحد من هذا التاريخ وهو عصر الأيوبيين .

لم يحدد العصر الذى نعيش فيه معنى القومية تحديداً شاملا ، فلهذه اللفظة معان تختلف على اختلاف الأذهان التى تستفيض فيها ، غير أنا ننظر إلى القومية فى مقالنا هذا من زاوية واحدة ، فالقومية فى نظرنا إنما هى تعلق الناس بآثار قومهم فى الماضى ، فلا نريد أن نتخطى هذا المعنى البسيط حتى لا نضيع فى مهاب التعريفات فإذا كان هذا هو معنى القومية فى نظرنا فكيف كان نظر التاريخ إلى هذا المعنى على أيام الأيوبيين .

لا شك فى أن القومية لم يكن لها فى القديم المعنى الذى اصطلحنا عليه فى الحديث ، إلا أنهم لم يجهلوا روح هذه القومية وإن كانوا يطلقون عليها اسماً آخر ، فستجد بعد سطور قليلة أن القومية فى عصر الأيوبيين كان اسمها النخوة العربية :

كنت أعتقد أن النزعة التى غلبت على عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته إنما هى نزعة دينية لا غير ، وقد رسخ فىَّ هذا الاعتقاد زمناً طويلا حتى كنت من أيام يسيرة أناقش جماعة أرادوا أن يجعلوا صلاح الدين رمز القومية العربية ، والذى حملنى على هذا الاعتقاد ما كنت أعلمه من أن الصليبيين لما غزوا هذه البلاد كان همهم فى الظاهر تخليص قبر السيد المسيح من أيدى المسلمين ، ولست أنسى زيارتى لأستاذ من أساتذة جامعة « سياتل » فى الولايات الأمريكية المتحدة ، ولما ودعت هذا الأستاذ فى جامعته دفع إلى كتاباً عن الصليبيين للاطلاع عليه ففتحت هذا الكتاب فوقع نظرى عرضاً على قصيدة فرنسية من أيام الصليبيين اسم صاحبها : Eustache Deschamps وفيها بيتان يحث فيهما الشاعر قومه على جمع الكلمة وتأليف القلوب لإنقاذ الأرض المقدسة ، وأذكر أنى قلت لذلك الأستاذ فى حينه : اقرأ هذين

البيتين، اقرأهما فى الليل والنهار، لأنكم معاشر النصارى أولى الناس يومنا هذا بإنقاذ الأرض المقدسة !.

أجل ، كنت أعتقد أن الصبغة فى زمن الأيوبيين كانت صبغة دينية ليس إلا ، ولكنى اليوم عدلت اعتقادى بعض التعديل، فقد كنت أطالع رسائل ابن الأثير التى نشرها الأستاذ أنيس المقدسى بعد تحريرها وتحقيقها ، فقرأت فى مقدمة الناشر ما يلى :

« ونحن فى نشرنا لرسائله ، لا نقصد فقط إلى الناحية اللغوية والأدبية منها ، بل ننظر أيضاً إلى ما تلقيه من أضواء ، على أحوال عصر من أهم العصور فى التاريخ نعنى به عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته ، ولأجل هذه الغاية عنينا قبلا بنشر ديوان ابن الساعاتى وهو من كبار شعراء ذلك العصر » .

لا ريب فى أن رسائل ابن الأثير ألقت بعض الضياء على عصر صلاح الدين وأسرته من الناحية القومية ، فقد تصفحت طائفة من هذه الرسائل ، وظهرت لى فى خلال ما تصفحته منها نزعة أحب أن أسميها نزعة قومية ، فمن كتب ابن الأثير كتب كتبها إلى الملك الأشرف عند نزول العدو الخوارزمى على مدينة خلاط ، فى هذه الكتب صبغة دينية لا شك فيها ، فإن كلمة الإسلام لا تكاد تفارق السطور ولكن إلى جنب هذه الصبغة صبغة قومية عربية واضحة .

فقد جاء فى أحد كتب ابن الأثير :

« ورجال العرب هم المسلطون فى مجال الحرب على رجال فرسه ورومه ، وإن ارتاب بذلك مرتاب فليسأل عنه أهل النهر ، وأهل الخليج ، وما منهما إلا من هو من آثار تلك الحروب المتقدمة فى أمر مريج » .

فإذا كانت القومية على نحو ما عرفها أحد الكتاب الفرنسيين إنما هى التغنى بآثار القوم فى الماضى ، فابن الأثير فى تفضيله العرب على الفرس والروم فى مجالات الحرب يتغنى بنزعة قومية صريحة ، إلى جنب تغنيه بنزعة دينية تناسب عصر الأيوبيين .

وجاء فى كتاب آخر كتبه إلى الأمير حسام الدين نائب الملك الأشرف وقد رحل الخوارزمى عن خلاط خائباً :

« وقد رأى الأعاجم منه نخوة عربية تهز الأهوال هزاً ، وتبزها بزاً ، وتأبى الحياة ما كانت ذلا ، وتهوى الموت ما كان عزاً ، وهى التى نقضت عليهم مافتلوه ، وأبطلت ما عملوه، وعرفتهم ما جهلوه » .

فهذه النخوة العربية التى وصفها ابن الأثير إنما هى أبرز صورة من صور القومية العربية ، هذه النخوة التى تهز الأهوال ، وتأبى الذل هى أشرف ما يتغنى به العرب .

وآخر ما أحب الاستشهاد به فى رسائل ابن الأثير فى هذا المعنى كلام جاء فى كتابه إلى الأمير حسام الدين :

« ومتى كان كسرى بن كسرى كفؤاً للنعمان بن مقرن أو لسعد بن أبى وقاص...».

ومن أين للعجم رماح العرب التى ترد سهامهم إلى وفاضها وتحيل بسمرتها ما بوجوههم من صفة بياضها ، وتوردهم حياض المنايا فلا يستطيعون صدراً عن حياضها وقد أعوزهم أن يمتطوا ما خصهم الله به من العتاق الشوازب التى صهواتها معاقل عاصمة لامراكب ، وإذا صدم أحدها قرنه من العجم طاح من بين عوديه ، وخر لفمه ويديه ، وصار برذونه لقى كلحم على وضم ، أو كصوفة فى فم جلم ، وتبين حينئذ بسطة العرب وخيلها على العجم وخيل العجم » .

من هذه السطور القليلة يتبين لنا أن عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته لم يخل من مظاهر نزعة عربية ، كما لم يخل من مظاهر نزعة دينية ، فإن الحرب التى كانت تجمع بين المسلمين وبين الصليبيين كانت حربا دينية لا شك فيها ، ولكن النزعة الإسلامية فى تلك الحرب كانت تنطوى بطبيعتها على نزعة قومية ، فالنزعتان منسجمتان ، فقد كان الأيوبيون فى دفاعهم عن الإسلام ، يدافعون فى الوقت نفسه عن لغة العرب وآثار العرب وديار العرب . ولو قدر للصليبيين أن يستولوا على هذه البلاد لمحوا فيها كل مظهر من مظاهر القومية ، وأكبر هذه المظاهر اللغة والأدب .

فإذا بحثنا بعد اليوم عن عصر صلاح الدين الأيوبى وأسرته فإننا لا نستطيع أن نجرد هذا العصر من نزعتين متلازمتين متناسقتين : نزعة دينية ونزعة قومية فى وقت واحد .

وإنى أرى عصر صلاح الدين فى هذا المعنى امتداداً لعصر سيف الدولة ، فكما كان فضل الأيوبيين عظيما فى رد الصليبيين عن هذه البلاد وحفظ الدين ولغة العرب وأدب العرب ، فكذلك كان فضل الحمدانيين فى ردهم الروم عنها ، لقد كانت نزعة الروم فى محاربة سيف الدولة ، والتفكير فى الاستيلاء على بلاده وما وراءها نزعة دينية ، فكان ملك الروم إذا غزا بلاد المسلمين جهز رجاله بالصليب الأحمر ، وإذا رجعنا إلى الشعر الذى شاع فى عصر سيف الدولة وجدنا على هذا الشعر آثار صبغة دينية ، مجاراة لطبيعة الحرب بين المسلمين والروم ، ولكن الشعراء وهم ألسنة الأمة الناطقة فى كل زمن من الأزمان ، جمعوا فى مدائحهم فى سيف الدولة ، وفى وصفهم لحروبه ومغازيه بين النزعتين الدينية والقومية فكانت كلمة العرب لا تفارق قصائدهم .

وفى جملة أولئك الشعراء السرى وابن نباتة وأبو فراس وغيرهم ، فما أكرم هذه الصرخة التى صرخها أبو فراس على لسان نساء بنى كلاب ، وذلك أن سيف الدولة اصطنع بنى كلاب وأدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم ، إلى أن بدت منهم هفوة أحفظت سيف الدولة فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ، ثم صفح عنهم وكرم، وجمع الحرم، ووكل بهن الخدم، وحملهن وأفضل عليهن . وأحسن إليهن فكتب إليه أبو فراس فى تلك الحال قصيدة يقول فيها :

ينادين بين خـــلال البيوت
لا يقطع الله أصل العرب !

ولكن الشاعر الذى غلبت على شعره النخوة العربية، إنما هو المتنبى . فقد كان فى شعره يباهى بكل شىء عربى ، يباهى بلسان العرب ، وبتيجان العرب ، وبسيوف العرب ، وقد صحبته هذه العاطفة الشريفة حتى آخر نفس من أنفاسه الذكية .

فإذا أردنا أن نبعث أصول القومية فى أدبنا وتاريخنا ، لزمنا أن نعنى العناية كلها بعصرين من عصور هذا التاريخ : عصر سيف الدولة ، وعصر صلاح الدين ؛ فلولاهما لما كانت لنا فى هذه الأيام لغة وأدب ولما كان لنا إسلام .

شفيق جبرى

التعصب الكريم

فى نهج البلاغة : إن كان لابد من العصبية ، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور التى تفاضلت فيها النجداء من بيوتات العرب .

فتعصبوا لخلال الحمد من الوفاء بالذمام ، والطاعة للبر ، والأخذ بالفضل ، والإنصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض .

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثُلات لسوء الأفعال . فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم .

أسباب اختلاف الرأى بين المسلمين

للأستاذ محمود أبو رية

بعث الله محمداً صلوات الله عليه بدينه القويم الذى أرسل به من سبق محمداً من الرسل، وأخرجه فى صورة كاملة سمحة أتم بها نعمته على خلقه ؛ ليكون هذا الدين دستوراً صالحا للناس كافة فى حياتهم الدنيوية وما بعدها ، على مد العصور والأجيال ، وقد أمر الله سبحانه عباده أن يلتزموا الصراط المستقيم فى اتباعه ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا فى الأخذ به ؛ فلا يتفرقون ولا يختلفون ، فقال سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

ولتوكيد هذا الأمر بيّن لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه : ليس فى شىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . ولكن ما لبث المسلمون أن وقعوا فيما نهاهم الله عنه ، فتفرقوا واختلفوا فى عقائدهم وعباداتهم من بعد ما جاءهم العلم .

ولقد كان لهذا الاختلاف أسباب كثيرة ، منها ما هو سائغ مقبول ، جاء من ناحية الاختلاف فى فهم النصوص ومنها ما هو ممقوت يغص به الحق مما كان مبعثه الأهواء المختلفة وما تخفى الصدور .

« بقية ذو النون »

صوفى، وأن الاشتغال بالصنعة مطية إلى سلوك طريق الصوفية ؛ إذ ليس ما يمنع من أن يكون الإنسان عالماً يسلك المناهج العلمية فى بحوثه ، ويكون فى الوقت نفسه صوفيا فى معرفته بالله . فهذا طريق ، وهذا طريق آخر . وكذلك فعل ابن سينا فى أواخر حياته إذ كان طبيبا وعالما، ومع ذلك سلك طريق التصوف النظرى كما يتضح من كتابه الإشارات .

لا سبيل لنا إذن أن نتحقق من أمر ذى النون من الناحية العلمية التى أشار إليها ابن النديم والمسعودى والقفطى ولم يوضحوا لنا أمرها .

فلم يبق إلا أن نتناول شخصيته من جهتين : هما اشتغاله بالحديث ، ثم انغماسه فى التصوف ، متبعين فى دراسته نفس المنهج العلمى الذى اتبعناه عند النظر فى أمره العلمى .

وهذا ما سنفعله فى المقال المقبل إن شاء الله .

دكتور أحمد فؤاد الأهوانى

وقد تكلم العلماء فى أسباب هذا الاختلاف وأكثروا ، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، ولم نجد أحداً قد استقصى أسباب هذا الاختلاف بعلم ، ولا بينها أوفى بيان بفهم ، مثل الإمام البطليوسى[1] ، فقد ألف فى ذلك كتابا نفيساً جاء كما وصفه هو أصدق وصف بقوله : إنه « كتاب فى أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قليل النظير ، نافع للجمهور ، عجيب المنزع ، قريب المقتطع يشبه المخترع ، وإن كان غير مخترع » .

وقد رأيت أن أوانى إخوانى المسلمين فى أقطار الأرض بفوائد من هذا الكتاب القيم تنفعهم ولا ريب فى علمهم ودينهم ، وأن أنشرها على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، بعد أن أصبحت - بحق - تحمل رسالة الإسلام على حقيقتها ، إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، بين المؤلف غرضه من تأليف كتابه فقال : « إنما غرضى أن أذكر الأسباب التى أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا - الحنيفية - التى جعلنا الله من أهلها ، وهدانا إلى أوضح سبلها حتى صار من فقهائهم المالكى والشافعى والحنفى والأوزاعى ، ومن ذوى مقالاتهم الجبرى والقدرى والمشبه والجهمى ، ومن شيعتهم الزيدى والرافضى والسبكى والغرابى والمخمسى والمحمدى وغير ذلك من الفرق - وأن أنبه على المواضع التى منها نشأ الخلاف بين العلماء حتى تباينوا فى المذاهب والآراء » .

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم عن « الأسباب الموجبة للخلاف كم هى ؟ » فقال : « إن الخلاف عرض لأهل ملتنا من ثمانية أوجه ، كل ضرب من الخلاف متولد منها ومتفرع عنها » .

الأول : منها اشتراك الألفاظ والمعانى .
الثانى : الحقيقة والمجاز .
الثالث : الإفراد والتركيب .
الرابع : الخصوص والعموم .
الخامس : الرواية والنقل .
السادس : الاجتهاد فيما لا نص فيه .
السابع : الناسخ والمنسوخ .
الثامن : الإباحة والتوسيع .

وقال : إن الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة - ينقسم إلى ثلاثة أقسام : (أحدها) اشتراك فى موضوع اللفظة المفردة . والثانى : اشتراك فى أحوالها التى تعرض لها من إعراب وغيره . والثالث : اشتراك يوجبه تركيب الألفاظ

---

(١) هو الإمام الكبير أبو محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطليوسى ، سكن مدينة بلنسية من جزيرة الأندلس ، له مؤلفات جليلة فى الدين واللغة والأدب ، وكل شىء تكلم فيه كان غاية فى الجودة توفى سنة ٥٢١ هـ .

وبناء بعضها على بعض ـ ثم مضى فقال : فأما الاشتراك العارض فى موضوع اللفظة المفردة فنوعان : اشتراك يجمع معان مختلفة متضادة ، واشتراك يجمع معان مختلفة غير متضادة ، فالأول كالقرء ـ ذهب الحجازيون من الفقهاء إلى أنه الطهر ، وذهب العراقيون إلى أنه الحيض ، ولكل واحد من القولين شاهد من الحديث واللغة ، أما حجة الحجازيين من الحديث فما روى عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت رضى الله عنهم أنهم قالوا . الأقراء الأطهار ، وأما حجتهم من اللغة فقول الأعشى :

أفى كل عام أنت جاشم غزوة
تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالا وفى الحى رفعة
لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأما حجة العراقيين من الحديث فقول النبى صلى الله عليه وسلم للمستحاضة : اقعدى عن الصلاة أيام أقرائك . وأما حجتهم من اللغة فقول الراجز :

يارُبَّ ذى ضغن علىَّ قارض
يرى له قرء كقرء الحائض

وحكى يعقوب بن السكين وغيره من اللغويين أن العرب تقول : أقرأت المرأة إذا طهرت . وأقرأت إذا حاضت ، وذلك أن القرء فى كلام العرب معناه الوقت، فلذلك صح للطهر والحيض معاً .

ومن الألفاظ المشتركة الواقعة على الشىء وضده ، قوله تعالى : « فأصبحت كالصريم » قال : بعض المفسرين معناه : كالنهار المضىء ، بيضاء لا شىء فيها ؛ وقال آخرون كالليل المظلم سوداء لا شىء فيها ؛ وكلا القولين موجود فى اللغة ؛ أما من قال كالنهار المضىء فحجته قول زهير :

بكرت عليه غدوة فرأيته
قعوداً لديه بالصريم عواذله

يعنى الصباح . وأما من قال كالليل فحجته قول الراجز :

تهوى هوى أنجم كالصريم وقال آخر :

كأنا والرحال على جوار
برمل خزاف أسلمه الصريم

قال بعضهم: معناه : انحسر عنه الرمل وقال قوم : معناه : خرج من الليل وانقضى عنه . كما قال النابغة :

حتى غدا فى بياض الصبح منصلتا
يقرو الأماعز من لُبْنان والأكَمَا

وإنما سمى كل واحد منهما صريما ؛ لأنه ينصرم إذا رأى الآخر ـ والمعنى أيضا يشهد لكل واحد من القولين؛لأن العرب تقول لك

بياض الأرض وسوادها ، يعنون بالبياض ما لا عمارة فيه ، وبالسواد ما فيه العمارة ـ فهذا ما يحتج به لمن ذهب إلى معنى البياض . وأما من ذهب إلى معنى السواد فإنما أراد أنها احترقت بريح صر أو نار كقوله تعالى: « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » .

وعند ما تكلم عن الخلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب قال : « إنه باب ظريف جداً ، وقد تولدت منه بين الناس أنواع كثيرة من الخلاف . وهو باب يحتاج إلى تأمل شديد وحذق بوجــوه القياس ومعرفة تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض ـ وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد، فلم تحوجك إلى غيرها كقوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم » . وقوله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » فإن كل واحدة من هاتين الآيتين قائمة بنفسها مستوفية للغرض المراد منها ، وكذلك الأحاديث الواردة كقوله صلى الله عليه وسلم : « الزعيم غارم » وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد وورد تمام الغرض فى آية أخرى كقوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب » فظاهر هـذه الآية أنه من أراد حرث الدنيا أوتى منها . ونحن نشاهد كثيراً من الناس يحرصون على الدنيا ولا يؤتون شيئاً منهـا ، فهو كلام محتاج إلى بيان وإيضاح ، ثم قال فى آية أخرى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » . فإذا أضيفت هـذه الآية إلى الآية الأولى بان مراد الله تعالى .

ووجه الخلاف العارض من هذا الموضع أنه ربما أخـــذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو بمفرد الحديث . وبنى آخر قياسه على جهة التركيب الذى ذكرنا بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين أو بمجموع آيات أو بمجموع أحاديث فيفضى بهما الحال إلى الاختلاف فيما ينتجانه ، وربما أفضت بهما الحال إلى التناقض فأحل أحدهما ما يحرمه الآخر . وربما أفضى بهما إلى الاختلاف فى الأسباب فقط كاختلافهم فى سبب تحريم الخمر » .

وفى الباب الخامس الذى عقده على (الخلاف العارض من جهة الرواية) قال :

« هذا الباب لا تتم الفائدة التى قصدناها منه إلا بمعرفة العلل التى تعرض للحديث ، فتحيل معناه . فربما أوهمت فيـه معارضة بعضه لبعض ، وربما ولدت فيه إشكالا يحوج العلماء إلى طلب التأويل ، ثم أنشأ يبين هذه العلل فقال:

« إن الحديث المأثور عن النبى صلى الله عليه

وسلم وعن أصحابه والتابعين لهم ، تعرض له ثمان علل :

أولها : فساد الإسناد .

والثانية : جهة من نقل الحديث على معناه دون لفظه .

والثالثة : من جهة الجهل بالإعراب .

والرابعة : من جهة التصحيف .

والخامسة: من جهة إسقاط شىء من الحديث لا يتم المعنى إلا به .

والسادسة: أن ينقل المحدث الحديث ويغفل نقل السبب الموجب له ، أو بساط الأمر الذى جر ذكره .

والسابعة: أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه .

والثامنة : نقل الحديث من الصحف دون لقاء المشايخ » .

وأخذ يتحدث عن هذه العلل فقال عن العلة الأولى وهى فساد الإسناد : « إنها أشهر العلل : عند الناس حتى إن كثيراً منهم يتوهم : أنه إذا صح الإسناد صح الحديث وليس كذلك ؛ فإنه قد يتفق أن يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة ، معروفين بصحة الدين والأمانة غير مطعون عليهم ولا مستراب بنقلهم ويعرض مع ذلك أعراض على وجوه شتى فى غير قصد منهم إلى ذلك ـ والإسناد يعرض له الفساد من أوجه ، منها الإرسال وأن يكون بعض رواته صاحب بدعة، أو متهما بكذب وقلة ثقة ، أو مشهور ببله وغفلة، أو يكون متعصبا لبعض الصحابة منحرفا عن بعضهم ، فإن من كان مشهوراً بالتعصب ثم روى حديثا فى تفضيل من يتعصب له ولم يرد من غير طريقه لزم أن يستراب به .

ومما يبعث على الاسترابة بنقل الناقل أن يعلم منه حرص على الدنيا ، وتهافت على الاتصال بالملوك، ونيل المكانة والحظوة عندهم فإن من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب حرصاً على مكسب يحصل عليه .

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو هذا الذى ذكرناه بقوله: « إن الأحاديث ستكثر بعدى كما كثرت عن الأنبياء قبلى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله .

وقد روى أن قوما من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الإسلام قد ظهر وعم ، ودوخ وأذل جميع الأمم، ورأوا أنه لاسبيل إلى مناهضته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة ، فأظهروا الإسلام من غير رغبة فيه وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف ، فلما حمد الناس طريقتهم ولدوا الأحاديث والمقالات وفرقوا الناس فرقا .

وإذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتشدد فى الحديث ويتوعد عليه ، والزمان

زمان، والصحابة متوافرون، والبدع لم تظهر، والناس فى القرن الذى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بالحال فى الأزمنة التى ذمها وقد كثرت البدع وقلت الأمانة؟».

ثم أخذ يصف العلة الثانية وهى نقل الحديث (على المعنى) دون اللفظ بعينه فقال: «إن هذا الباب يعظم الغلط فيه جدا، وقد نشأت منه بين الناس شغوب شنيعة، وذلك أن أكثر المحدثين لا يراعون ألفاظ الشىء التى نطق بها وإنما ينقلون إلى من بعدهم (معنى) ما أراده بألفاظ أخرى، ولذلك تجد الحديث الواحد فى المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى، ولغات مختلفة، يزيد بعض ألفاظها على بعض.

ووجه الغلط الواقع من هـــذه الجهة: أن الناس يتفاضلون فى صورهم وألوانهم، وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم، فربما اتفق أن يسمع الراوى الحديث من النبى صلى الله عليه وسلم أو من غيره فيتصور معناه فى نفسه على غير الجهة التى أرادها ـ وإذا عبر عن ذلك المعنى الذى تصور فى نفسه بألفاظ أخر كان قد حدث بخلاف ماسمع من غير قصد منه إلى ذلك ـ وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة، وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التى تقع على الشىء وضده، كقوله صلى الله عليه وسلم: «قصوا الشارب وأعفوا اللحى». فقوله أعفوا يحتمل أن يريد به كثروا ووفروا، ويحتمل أن يراد به قللوا وخففوا، فلا يفهم مراده من ذلك إلا بدليل من لفظ آخر، وفى مثل هذا يجوز أن يذهب النبى صلى الله عليه وسلم إلى المعنى الواحد ويذهب الراوى عنه إلى المعنى الآخر، فإذا أدى معنى ماسمع دون لفظه بعينه كان قد روى عنه ضد ما أراده غير عامد، ولو أدى لفظه بعينه لأوشك أن يفهم منه الآخر مالم يفهم الأول، وقد علم صلى الله عليه وسلم أن هذا سيعرض بعده فقال محذراً من ذلك. نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع.

ومن علل الحديث أن يغفل المحدث عن نقل السبب الموجب للحديث، فيعرض من ذلك إشكال أو معارضة لحديث آخر كنحو مارواه قوم من أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بالعرينيين الذين ارتدوا عن الإسلام وأغاروا على لقاحه فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم وتركوا بالحرة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا، وقد وردت عنه الروايات من طرق شتى أنه نهى عن المثلة ـ وإنما عرض هـذا التعارض من أجل أن الذى روى الحديث الأول أغفل نقل سببه الذى أوجبه ورواه غيره فقال: إنما فعل ذلك لأنهم مثلوا برعائه فجازاهم بمثل فعلهم.

أما العلة السابعة وهى أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه فتدضرب لذلك، مثلا ما روى من أن عائشة رضى الله عنها أخبرت أن أباهريرة حدث أن رسول الله قال : إن يكن الشؤم ففى ثلاث : الدار ، والمرأة ، والفرس . وهذا الحديث معارض لما روى فى أحاديث كثيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التطير - فغضبت عائشة وقالت : والله ما قال هذا رسول الله قط وإنما قال : أهل الجاهلية يقولون إن يكن الشؤم ففى ثلاث : الدار ، والمرأة ، والفرس . فدخل أبو هريرة فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله ! - وهذا غير منكر أن يعرض ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يذكر فى مجلسه الأخبار حكاية ، ويتكلم بما لا يريد به أمراً ولا نهياً ، ولا أن يجعله أصلا من دينه وشيئاً يستسن به ، وذلك معلوم من فعله ، ومشهور من قوله » .

وختم البطليوس كلامه عن علل الحديث فقال: « وإنما ذكرت هذه العلل العارضة للحديث ؛ لأنها أصول لنقاد الحديث الممتثلين بمعرفة صحيحه من سقيمه ، فإذا ورد عليهم حديث بشع المسموع أو مخالف للشهور نظروا أولا فى سنده فإن وجدوا فى نقلته ورواته رجلا متهما ببعض تلك الوجوه التى ذكرناها استرابوا به ، ولم يجعلوه أصلا يعول عليه ، وإن وجدوا رجاله الناقلين له ثقاة مشهورين بالعدالة معروفين بالفقه والأمانة ، رجعوا إلى التأويل والنظر فإن وجدوا له تأويلا يحمل عليه قبلوه ولم ينكروه ، وإن لم يجدوا له تأويلا إلا على استكراه شديد نسبوه إلى غلط وقع فيه من بعض تلك الوجوه المتقدمة الذكر ، فهذه جملة القول فى هذا الباب والله أعلم ا هـ » .

* * *

هذا جزء قليل من فوائد هذا الكتاب الجليل، وحبذا لو نشر فى طبعة جديدة ؛ ليعم النفع به ، لأنه كتاب جامع ، لا يستغنى عنه مفسر ولا فقيه ولا أديب ، رحم الله الإمام البطليوسى وجزاه على فضله خير الجزاء .

محمود أبو رية

وقفة على رأس الخمسين

للأستاذ علي الطنطاوي

مهداة إلى الأستاذ الزيات ، الذى رافقته فى [رسالته]
نصف عمرى وصببت فيها شطر أفكارى وعواطفى .

نظرت فى التقويم ، فوجدت أنى استكملت من ثلاثة أشهر إحدى وخمسين سنة قرية ، فوقفت ساعة أنظر فيها فى يومى وأمسى . أنظر من أمام لأرى ماهى نهاية المطاف ، وأنظر من وراء لأرى ماذا أفدت من هذا المسير .

وقفت كما يقف التاجر فى آخر السنة ، ليجرد دفاتره ، ويحرر حسابه ، وينظر ماذا ربح وماذا خسر .

وقفت كما تقف القافلة التى جنَّ أهلوها . وأخذهم السُّعار ، فانطلقوا يركضون لا يعرفون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون ، ولا يهدءون إلا إذا هدهم التعب فسقطوا نائمين كالقتلى .

وكذلك نحن إذ نعدو على طريق الحياة ، نستبق كالمجانين ولكن لا ندرى علام نتسابق — نعمل أبداً من اللحظة التى نفتح فيها عيوننا فى الصباح ، إلى أن يغلقها النعاس فى المساء ، نعمل كل شىء إلا أن نفكر فى أنفسنا ، أو ننظر من أين جئنا ، وإلى أين المصير .

وجردت دفاترى ، أرى ماذا طلبت ، وماذا أعطيت .

* * *

طلبت المجد الأدبى . وسعيت له سعيه ؛ وأذهبت فى المطالعة حدة بصرى . وملأت بها ساعات عمرى . وصرمت الليالى الطوال أقرأ وأطالع . حتى لقد قرأت وأنا طالب كتباً ، من أدباء اليوم من لم يفتحها مرة لينظر فيها . وما كان لى أستاذ يبصرنى طريقى . ويأخذ بيدى . وما كان من أساتذتى من هو صاحب أسلوب فى الكتابة يأخذنى باتباع أسلوبه . ولا كان فيهم من له قدم فى الخطابة ، وطريقة فى الإلقاء ، يسلكنى مسلكه ويذهب بى مذهبه . وما يسميه القراء أسلوبى فى الكتابة ويدعوه المستمعون طريقتى فى الإلقاء . شىء من الله به على . لا أعرفه لنفسى . لا أعرف

إلا أنى أكتب حين أكتب . وأتكلم حين أتكلم . منطلقا على سجيتى وطبعى . لا أتعمد فى الكتابة إثبات كلمة دون كلمة . ولا سلوك طريق دون طريق . ولا أتكلف فى الإلقاء رنة فى صوتى ولا تصنعاً فى مخارج حروفى ...

... وكنت أرجو أن أكون خطيباً يهز المنابر . وكاتباً تمشى بآثاره البرد . وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب . فلما نلته زهدت فيه . وذهبت منى حلاوته . ولم أعد أجد فيه مايشتهى ويتمنى .

وما المجد الأدبى ؟ أهو أن يذكرك الناس فى كل مكان . وأن يتسابقوا إلى قراءة ماتكتب ـ وسماع ماتذيع ـ وتتوارد عليك كتب الإعجاب ، وتقام لك حفلات التكريم ؟ لقد رأيت ذلك كله ، فهل تحبون أن أقول لكم ماذا رأيت فيه ؟ رأيت سراباً . سراب خادع ، قبض الريح ! .

وما أقول هذا مقالة أديب يبتغى الإغراب ، ويستثير الإعجاب ، لا والله العظيم ـ أحلف لكم لتصدقوا ـ ما أقول إلا ما أشعر به . وأنا من ثلاثين سنة أعلو هذه المنابر ، واحتل صدور المجلات والصحف ، وأنا أكلم الناس فى الإذاعة كل أسبوع مرة ، من سبع عشرة سنة إلى اليوم ، ولطالما خطبت فى الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا خطباً زلزلت القلوب ، وكتبت مقالات كانت أحاديث الناس ، ولطالما مرت أيام كان اسمى فيها على كل لسان فى بلدى ، وفى كل بلد عشت فيه أو وصلت إليه مقالاتى ، وسمعت تصفيق الإعجاب ، وتلقيت خطب الثنـــاء فى حفلات التكريم ، وقرأت فى الكلام عنى مقالات ورسائل ، ودرس أدبى ناقدون كبار ، ودرس ماقالوا فى المدارس ، وترجم كثير مما كتبت إلى أوسع لغتين انتشاراً فى الدنيا . الانكليزية والأردية . وإلى الفارسـية والفرنسية ... فما الذى بقى فى يدى من ذلك كله ؟ لاشىء . وإن لم يكتب لى الله على بعض هذا ، بعض الثواب ، أكن قد خرجت صفر اليدين .

إنى من سنين معتزل متفرد ، تمر على أسابيع وأسابيع لا أزور فيها ولا أزار ، ولا أكاد أحدث أحدا إلا حديث العمل فى المحكمة ، أو حديث الأسرة فى البيت ، فماذا ينفعنى وأنا فى عزلتى إن كان فى مراكش والهند وما بينهما من يتحدث عنى ويمدحنى ، وماذا يضرنى إن كان فيها من يذمنى ، أو لم يكن فيها كلها من سمع باسمى ؟ .

ولقد قرأت من المدح لى ما رفعنى إلى مرتبة الخالدين ، ومن القدح فى ما هبط بى إلى دركة الشياطين ، وكرمت تكريما لا أستحقه

وأهملت حتى لقد دعى إلى المؤتمرات الأدبية وإلى المجالس الأدبيـة الرسمية المبتدئون وما دعيت منها إلى شيء، فألفت الحالين، وتعودت الأمرين، وصرت لا يزدهيني ثناء ولا يهز السب شعرة واحدة في بدني.

وأسقطت المجد الأدبي من الحساب، لما رأيت أنه وهم وسراب.

* * *

وطلبت المناصب ثم نظرت فاذا المناصب تكليف لا تشريف، وإذا هي مشقة وتعب، لا لذة وطرب، وإذا الموظف أسير مقيد بقيود الذهب. وإذا الجزع من عقوبة التقصير أكبر من الفرح بحلاوة السلطان. وإذا مرارة العزل أو الإعفاء من الولاية، أكبر من حلاوة التولية. ورأيت أني مع ذلك كله قد اشتهيت في عمري وظيفة واحدة. سعيت لها وتحرقت شوقا إليها. هي أن أكون معلماً في المدرسة الأولية في قرية حرستا (١) وكان ذلك أكثر من ثلاثين سنة. فلم أنلها فما اشتهيت بعدها غيرها وطلبت المال وحرصت على الغنى. ثم نظرت فوجدت في الناس أغنياء وهم أشقياء. وفقراء وهم سعداء. ووجدتني قد توفي أبي وأنا لا أزال في الثانوية. وترك أسرة كبيرة. وديوناً كثيرة. فوفى الله الدين، وربى الولد، وما أحوج إلى أحد. وجعل حياتنا وسطاً ما شكونا يوماً عوزا ولا عجزنا عن الوصول إلى شيء نحتاج إليه. وما وجدنا يوماً تحت أيدينا مالا مكنوزاً لا ندري ماذا نصنع به. فكان رزقنا والحمد لله كرزق الطير: تغدو خماصاً وترجع بطاناً.

فلم أعد أطلب من المال إلا ما يقوم به العيش. ويقي الوجه ذل الحاجة.

وطلبت متعة الجسد. وصرمت ليالي الشباب أفكر فيها. وأضعت أيامه في البحث عن مكانها وكنت في سكرة الفتوة الأولى. لا أكاد أفكر إلا فيها. ولا أحن إلا اليها. أقرأ من القصص ما يتحدث عنها، ومن الشعر ما يشير إليها. ثم كبرت سني وزاد عملي. فذهبت السكرة وصحت الفكرة. فرأيت أن صاحب الشهوة الذي يسلك إليها كل سبيل، كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر، وكلما ازداد شربا ازداد عطشا. ووجدت أن من لا يرويه الحلال يقنع به ويصبر عليه. لا يرويه الحرام ولو وصل به إلى نساء الأرض جميعا.

ثم ولى الشباب بأحلامه وأوهامه. وفترت الرغبة. ومات الطلب. فاسترحت وأرحت.

* * *

وقعدت أرى الناس. أسأل: علام

---

(١) قرية في طرف الغوطة، كان منها الإمام محمد صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة.

يركضون ؟ وإلام يسعون ؟ وما ثم إلا السراب !

هل تعرفون السراب ؟ إن الذى يسلك الصحراء يراه من بعيد كأنه عين من الماء الزلال تحدق صافية فى عين الشمس . فإذا كد الركاب . وحث الصحاب ؛ ليبلغها لم يلق التراب .

هذه هى ملذات الحياة . إنها لا تلذ إلا من بعيد .

يتمنى الفقير المال . يحسب أنه إذا أعطى عشرة آلاف ليرة فقد حيزت له الدنيا . فإذا أعطيها فصارت فى يده لم يجد لها تلك اللذة التى كان يتصورها وطمع فى مائة الألف . إنه يحس الفقر بها وهى فى يده كما يحس الفقر إليها يوم كانت يده خلاء منها . ولو نال مائة الألف لطلب المليون . ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لابتغى له ثانيا ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب [1] .

والشاعر العاشق يملأ الدنيا قصائد تسيل من الرقة ، وتفيض بالشعور ، يعلن أنه لا يريد من الحبيبة إلا لذة النظر ومتعة الحديث ، فإذا بلغهما لم يجدهما شيئاً وطلب ما وراءهما ، ثم أراد الزواج فإذا تم له لم يجد فيه ما كان يتخيل من النعيم ، ولذابت صور الخيال تحت شمس الواقع ، كما يذوب ثلج الشتاء تحت شمس الربيع ، ولرأى المجنون فى ليلى امرأة كالنساء ، ما خلق الله النساء من الطين وخلقها (كما كان يخيل إليه) من القشطة ، ثم ملها وزهد فيها وذهب يجن بغيرها .

ويرى الموظف الصغير الوزير أو الأمير ، ينزل من سيارته فيقف له الجندى وينحى له الناس ، فيظن أنه يجد فى الرياسة أو الوزارة مثل ما يتوهم هو من لذتها ومتعتها ، لحرمانه منها ، ما يدرى أن الوزير يتعود الوزارة حتى تصير فى عينه كوظيفة الكاتب الصغير فى عين صاحبها أوهام . ولكننا تتعلق دائما بهذه الأوهام .

* * *

وفكرت فيما نلت فى هذه الدنيا من لذائذ وما حملت من عناء . طالما صبرت النفس على إتيان الطاعة واجتناب المعصية ، رأيت الحرام الجميل فكففت النفس عنه على رغبتها فيه ، ورأيت الواجب الثقيل فحملت النفس عليه على نفورها منه ، وطالما غلبتنى النفس فارتكبت المحرمات وقعدت عن الواجبات . تألمت واستمتعت ، فما الذى بقى من هذه المتعة وهذا الألم ؟ لاشىء . لقد ذهبت المتعة وبقى عقابها وذهب الألم وبقى ثوابه .

ولم أر أضل فى نفسه ولا أغش للناس

(١) حديث آخره (ويتوب الله على من تاب) .

ممن يقولون لك ، لاتنظر إلا إلى الساعة التى أنت فيها ، فإن :

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التى أنت فيها

لا والله. مافات ما مضى ، ولكن كتب لك أو عليك ، أحصاه الله ونسوه ، والآتى غيب ولكنه غيب كالمشاهد ، وما مثل هذا القائل إلا كمثل راكب سفينة أشرفت على الغرق ولم يبق إلا ساعات ، فما أسرع إلى زوارق النجاة إسراع العقلاء ، ولا ابتغى طوق النجاة كما يبتغيه من فاته الزورق ، ولكنه عكف على تحسين غرفته فى السفينة الغارقة يزين جدرانها بالصور ، ويكنس أرضها من الغبار ، يقول لنفسه : مادامت السفينة غارقة على كل حال ، فلم لا أستمتع بساعتى التى أنا فيها ؟ .

يفسد عمره كله بصلاح هذه الساعة ، وإذا عرض له العقل يسفه عمله فليضرب وجه العقل بكأس الخمر التى تعمى عينيه فلا يبصر ولا يهتدى ، وإن من الخمر لخمرة المال وخمرة السلطان .

هذا مثال من يجعل هذه الدنيا الفانية أكبر همه ، ويزهد فى الآخرة الباقية ، ولو عقل لزهد فى الدنيا . لا يحمل ركوته وعصاه ويسلك البرارى وحيدا ، ولا يقيم فى زاوية ويمد يده للمحسنين - فإن هذا هو زهد الجاهلين - وهو معصية فى الدين . إن الزهد الحق هو زهد الصحابة والتابعين ، الذين عملوا للدنيا ، واقتنوا الأموال ، واستمتعوا بالطيبات الحلال وأظهروا نعم الله عليهم ، ولكن كانت الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وكان ذكر الله أبداً فى نفوسهم وعلى ألسنتهم ، وكانت الشريعة نبراسهم وإمامهم ، وكانت أيديهم مبسوطة بالخير ، وكانوا لا يفرحون بالغنى حتى يبطروا ، ولا يحزنون للفقر حتى ييأسوا ، بل كانوا بين غنى شاكر ، وفقير صابر ، ومن يحصل المال وينفقه فى الطاعة خير ممن لا يحصل ولا ينفق ، بل يسأل ويأخذ ، ومن يتعلم العلم ويعمل به خير ممن يعتزل الناس للعبادة فى زاوية أو مغارة ، ومن يكون ذا سلطان ومنصب فيقيم العدل ، ويدفع الظلم ، خير ممن لا سلطان له ولا عدل على يديه . وليست العبادة أن تصف الأقدام فى المحاريب فقط ، ولكن كل معروف تسديه إن احتسبته عند الله كان لك عبادة ، وكل مباح تأتيه إن نويت به وجه الله كان عبادة ، إذا نويت بالطعام التقوى على العمل الصالح ، وبمعاشرة الأهل الاستعفاف والإعفاف ، وبجمع المال من حله القدرة به على الخير ، كان كل ذلك لك عبادة ، وكل نعمة تشكر الله عليها ، وكل مصيبة تصبر لله عليها كانت لك عبادة .

والإنسان مفطور على الطمع ، تراه أبداً كتلميذ المدرسة ، كلما بلغ فصلا كان همه أن يصعد إلى الذى فوقه ، ولكن التلميذ يسعى إلى غاية معروفة إذا بلغها وقف عندها ، والمرء فى الدنيا يسعى إلى شىء لا يبلغه أبداً ؛ لأنه لا يسعى إليه ليقف عنده ويقنع به ، بل ليجاوزه راكضاً يريد غاية هى صورة فى ذهنه ما لها فى الأرض من وجود .

وقد يعطى المال الوفير ، والجاه الواسع ، والصحة والأهل والولد . ثم تجده يشكو فراغا فى النفس ، وهما خفياً فى القلب ، لا يعرف له سببا ، يحس أن شيئا ينقصه ولا يدرى ما هو ، فما الذى ينقصه فهو يبتغى استكماله ؟ .

لقد أجاب على ذلك رجل واحد ، رجل بلغ فى هذه الدنيا أعلى مرتبة يطمح إليها رجل : مرتبة الحاكم المطلق فى ربع الأرض فيما بين الأطلسى والصين ، وكان له مع هذا السلطان الصحة والعلم والشرف ، هو عمر بن عبد العزيز الذى قال :

« إن لى نفسا تواقة ، ما أعطيت شيئا إلا تاقت إلى ما هو أكبر ، تمنت الإمارة ، فلما أعطيتها تاقت إلى الخلافة ، فلما بلغتها تاقت إلى الجنة ! .

هذا ما تطلبه نفس كل بشر ، إنها تطلب العودة إلى موطنها الأول ، وهذا ما تحس الرغبة الخفية أبدا فيه ، والحنين إليه ، والفراغ الموحش إن لم تجده .

فهل اقتربت من هذه الغاية بعد ما سرت على طريق العمر ، إحدى وخمسين سنة ؟ .

يا أسفى ! لقد مضى أكثر العمر وما ادخرت من الصالحات ، ولقد دنا السفر وما تزودت ولا استعددت ، ولقد قرب الحصاد وما حرثت ولا زرعت ، وسمعت المواعظ ، ورأيت العبر فما اتعظت ولا اعتبرت ، وآن أوان التوبة فأجلت وسوفت .

اللهم اغفر لى ما أسررت ، وما أعلنت ، فما يغفر الذنوب إلا أنت .

اللهم سترتنى فيما مضى فاسترنى فيما بقى ، ولا تفضحنى يوم الحساب .

« دمشق » على الطنطاوى
مستشار محكمة النقض
فى الجمهورية العربية المتحدة

المطالع والمقاطع في شعر شوقي

للأستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

— ١ —

تعد إجادة المطالع والمقاطع ، أي : المبادئ والخواتيم من أمارات براعة الشاعر ، وبعد غوره ، ودقة صناعته ، ورهافة حسه الموسيقى ، وكبر حظه من الإلهام والألمعية . وقديما سئل بعض النقاد عن أحذق الشعراء ، فقال : من تفقد المطلع والمقطع . وحكمة ذلك : أن المطالع أول ما تصافح أذن السامع ، وبها يستدل على ما يعقبها من الكلام ، ويعرف منها مدى قوة الشاعر وانطلاقه . والنقاد يقولون : الابتداءات دلائل البيان . وقالوا : الشعر قفل أوله مفتاحه . وإذن فليس من سلامة الذوق ، ولا صفاء الشعور ، ولا سجاحة الطبع ، ولا جمال البيان ، ولا مراعاة مقتضيات الأحوال : أن يصك الشاعر آذان مستمعيه بالغث أو الجافى ، أو القبيح ، أو المستكره من القول ؛ فإنه لا فرق - إذ ذاك - بينه وبين من يقذفهم بالحصى ، ويرميهم بالطين ، ويحثو فى وجوههم الغبار . وذلك من أكبر دواعى النفور منه ، والرغبة عنه ، والزراية عليه .

ولا يصدر هذا إلا من عتل فظ غليظ الشعور ، جامد العاطفة ، لا يحترم قراءه ولا سامعيه .

ويروون فى ذلك أن « ديك الجن » الحمصى أنشد « دعبلا الخزاعى » مطلع قصيدة ، وهو :

كأنها ما كأنه خلل الخلة وقف الهلوك إذ بغما

ومعنى البيت إجمالا : أن عشيقته فى حسن جيدها ، وحلاوة عينيها ، تشبه الغزال الذى هو بين نبات الخلة ، مثل سوار الجارية المترفة ، الحسنة المشية ، المتهالكة فيها .

فما كان من دعبل إلا أن صاح فى وجهه : أمسك ! ! فوالله ما ظننتك تم البيت إلا وقد غشى عليك ؛ أو تشكيت فكيك ! ولكأنك فى جهنم تخاطب الزبانية ، أو قد تخبطك الشيطان من المس ! ! .

وقول دعبل أشبه بما يقوله العامة : أول القصيدة كفر ، وأول الدن دردى .

أما المقاطع فهى أسس القصائد ، وخاتمة الأشواط ، ونهاية الرحلة ، وهى أبقى من غيرها

في السمع، وألصق بالنفس، وآخر ما يتصل بالأذهان، لقرب العهد بسماعها، وربما حفظت دون سائر الكلام، فمن الحق أن تكون الغاية في الإبداع والإحكام، والنهاية في الجمال والجلال، وأن يتركز فيها مغزى القصيدة، وتلتقى فيها روافدها؛ لتغطى على ما عسى أن يكون قد سبقها من العيوب، وليبقى أثر الشاعر حيا نابضا فى النفوس، وإنما الأعمال بخواتيمها - كما جاء فى الأثر - .

وهناك شاعران محدثان حازا قصب السبق فى هذين اللونين من البيان: أولهما: أبو تمام الذى عرف بروعة المطالع، وفخامتها، وجلالها، والآخر: المتنبي الذى فاق كل شاعر قبله فى حلاوة مقاطعه، وبداعتها، ومناسبتها للمقام، فكان إمام المحدثين - غير منازع - فى حسن الخاتمة التى عنوا بها دون المتقدمين.

والآن نريد أن نعرف ماذا كان شوقى فى مطالعه ومقاطعه؟.

إن من يقرأ شعره يخرج منه بما يأتى:

١ - يصرف مطالعه بين الجزالة والفخامة، وبين اللين والوداعة، تبعا للمناسبات، فهو تارة يجزل ويضخم فيها كقوله:

أقدم فليس على الإقدام ممتنع
واصنع به المجد فهو البارع الصنع

قف ناج أهرام الجلال وناد
هل من بناتك مجلس أو ناد

ما القرى بين تكبير وإهلال
وللمدائن هزت عطف مختال

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا
مشت على الركب أحداث وأزمان

يا راكب الريح حى النيل والهرما
وعظم السفح من سيناء والحرما

وتارة يسلس ويرق - وهو اللون الغالب عليه - وبخاصة فى مطالعه الغزلية - كقوله:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعل على الجمال له عتابا

علمت بالقلم الحكيم
وهديت بالنجم الكريم

وطن يرف هوى إلى شبانه
كالروض رقته على ريحانه

جبريل أنت هدى السماء
وأنت برهان العنايه

بالله يا نسمات النيل فى السحر
هل عندكن عن الأحباب من خبر

قلب يذوب ومدمع يجرى
ياليل هل خبر عن الفجر

بمحسنه بين الحسان
فى شكله إن قيل بان

فتى العقل والنعمة العاليه
مضى ومحاسنه باقيه

٢ - يتجنب الحروف البغيضة النافرة فى القوافى، وهى على الترتيب: الثاء والخاء

والذال والزاى والشين والصاد والطاء والظاء والغين . وأشدهن قبحا - عند ابن الأثير - الخاء والصاد والظاء والغين .

فلم يقع فى هذا المحظور كما وقع غيره من الشعراء السابقين ، ومنهم شعراء يشار إليهم بالبنان كأبى تمام والمتنبى وابن هانئ الأندلسى، فجاءوا بالفج الركيك ، أو المتعاظل المستغلق ، أو الجهم الثقيل الوخم ، زهواً بالقدرة وفخرا بالتفاصح ، فقال أبو تمام :

قف بالطول الدارسات علاثا

وقال المتنبى :

كفى أرانى ويك لومك ألوما
هم أقام على فؤاد أنجما

وقال ابن هانئ فى مطلع قصيدة أطول من ليل السليم !! :

سرى وجناح الليل أقتم أفتخ

بل إن شوقى لم يرض أن يتأثر إمام الشعراء فى العصر الحديث « البارودى » فهو على ما نعرف له من جمال الذوق وحسن الاختيار دعته كثرة محفوظه وغزارة مادته - رحمه الله - إلى النظم من هذه الحروف الوحشية كلها ، ماعدا حرف الغين فوقع فيما لا يصح أن يقع مثله فيه .

٣ - يختار شوقى مطالعه من البحور الطوال والمتوسطة فى الأمور الجدية التى يحتفل لها ، ويشاركه غيره من الشعراء فيها ؛ مثل قصائد : ٢٨ فبراير ، ومشروع ملنر ، والهمزية النبوية ، ونهج البردة ، وصدى الحرب العثمانية ، والأزهر ، ونكبة بيروت ، ونكبة دمشق ، وزلزال اليابان ، والحرية الحمراء ، وشهيد الحق إلخ ...

فإذا تغزل ، أو داعب ، أو وصف المراقص ، ومجالس الأنس ، نظم من البحور القصيرة والمجزوءات ، مثل قصائد : العمال ، والمطرية ، ومملكة النحل ، والصحف ، والحجاب والسفور ، وغاب بولونيا ، والبسفور إلخ ...

كذلك كان يسلك ذلك غالبا فى مرائيه فإذا رثى كبار السن والمقام من الرجال - مثل سليمان أباظة ، وإسماعيل أباظة ، ومصطفى فهمى ، ومصطفى رياض ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وأبى هيف ، وعمر المختار ، وحافظ إبراهيم ، وثروت ، وجاويش ، وعاطف بركات - اصطنع البحار الطويلة وما يدانيها ، وإذا رثى الشباب مثل : محمد تيمور ، وعمر لطفى ، وعلى أبو الفتوح ، أو رثى الفنانين وأشباههم فى غير المحافل مثل الشاعر الموسيقى « فردى » ، والعالم النباتى عثمان غالب ، أو رثى النساء مثل الأميرة فاطمة إسماعيل ، وأم عباس الثانى ، أو عزى فى عزيز مثل تعزيته للبارودى فى ابنته ،

ولهيكل فى ابنه ، ولحامد خلوصى فى أبيـه ، جنح إلى البحور القصيرة والمجزوءات ، وكان البحر الكامل ، أحب البحور إليه ، ولا يزيد عنه فى هذا الحب إلا محمود غنيم .

(٤) توخيه قوة التآخى وشدة الملاءمة بين شطرى البيت ، حتى لتستدل من المصراع الأول منه على المصراع الثانى ، وحتى يستطيع السامع أن يتم البيت مع المنشد ، مصداقا لقول من قال :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب
صدورها عرفت منها قوافيها

وهذا يدخل فيما يسميه البلاغيون تمكن القافية ، وهو يدل على سخاء الهبة ، وخصب القريحة ، وثراء الطبع ، وقوة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، ومعرفة الصلات الدقيقة بين الألفاظ والمعانى والأوزان ، كما يدل على عناية الشاعر بإحكام البنـاء ، وإحسان الصياغة ، والحفاوة بالتنغيم والتطريب ، والاحتفال بالقافية ، وكل هذه السمات عرفت عن شوقى وعرفت فى شعره ! .

انظر إليها كيف تطالعك فى مطالعه بغررها السائلة الوضاحة :

همت الفلك واحتواها المـاء
وحداها بمن تقـل الرجاء
ولد الهـدى فالـكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا
وفاز بالحق من لم يأله طلبا
اثن عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه
الناس للدنيـا تبع
ولمن تحالفـــه شيع
رمضان ولى هاتها يا ساق
مشتاقة تسعى إلى مشتاق
طال عليها القــدم
فهى وجـود عـدم
يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
منك يا هاجر دائى
وبكـفيـك دوائى
صريع جفنيك ينفى عنهما التهما
فما رميت ولكن القضاء رمى
من صور السحر المبين عيونا
وأحله حدقا لهـا وجفونا
يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف
سماؤك يا دنيا خداع سراب
وأرضك عمران وشيك خراب
انظر إلى الأقمار كيف تزول
وإلى وجوه السعد كيف تحول
حلوه كـيف بجفو لجفا
ظـالم لاقيت منـه ما كفى

(البقية على صفحة ٧٩)

الديانات الجديدة

الغرم الفادح الذي تحمله البشرية للوفاء بضريبة الفطرة

للأستاذ محمد فتحي عثمان

كتب جوليان هكسلى Julian Huxley الذى لايعترف بالديانات السماوية ، فى ثنايا كتابه (دين بغير وحى Religion without Revelation) يقول :

« كل الحقائق الحيوية فى الحياة الدينية تبق وتستمر .... إنها لا تحتاج إلا إلى معاودة تعريفها فى اصطلاحات جديدة . إن الحقيقة الحية لن تستغنى عن تبديل أزيائها ـ هذا هو كل الأمر !! » .

ولقد حاول هكسلى أن يعرض طرازه الجديد للدين المنشود .... الدين الذى يستمد أصوله من الطبيعة الكونية والإنسانية ، لا مما وراء الطبيعة . الدين الذى لا يرضى بالإله (المشخص) فى سماواته العلى ، ويلتمس إلهه فى القوى الملموسة، والنواميس المرصودة. الدين الذى يساير عصرنا العلمى ومنهجنا التجريبى ، حتى لا تتمزق حياتنا بين الحس والغيب ، بين الخالق والكون ، بين الله والإنسان ، بين الدنيا والآخرة ... !!

ولست أحاول الآن أن أعرض لمحاولة هكسلى وحظها من التوفيق ، فهى ليست المحاولة الأولى من نوعها فى هذا الباب ، وقد لا تكون أنجح المحاولات . وإنما الذى يعنينى هنا أن أتساءل عن الثمار التى جنتها البشرية من هذا الاتجاه :

هل عاشت بغير دين ؟ . . . وهل تحررت فلم تخضع لإله ؟ ؟ .

وإذا كانت قد اعتنقت طرازاً آخـــر من (الدين) ! .

ترى هل كلفها الدين الجديد ، التزامات أقل .... وحقق لها مكاسب أكثر ، مما كانت تجنيه من ديانات السماء ؟ ؟ .

• • •

فلنستمع من هكسلى .... بعض الجواب :

« لقد ظهرت من قبل مذاهب اعتقادية غير إلهية non-theistic belief-systems وأتيح لها أن تغلب على قطاعات كبيرة من البشرية . وأبرز هذه المذاهب : النازية فى ألمانيا ،

والشيوعية الماركسية فى روسيا . وحملت النازية فى طبيعتها جرائيم انحلالها بحكم دعواها فى تسلط فئة قليلة على العالم أجمع ، كما كانت مدعاة للسخرية بالنسبة للفساد والقصور فى تفسيرها لقدرها الرفيع المتعال ، حتى ماثلت فى ذلك بعض الصور البدائية للآلهة : من حيوان معبود أو رب قبيلة متعطش للدم أو إله جبار منتقم ! ! .

وكانت الشيوعية الماركسية أكثر تنسيقا وملاءمة ، لكن أساسها المادى المحض قد حد من فاعليتها ، فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية . وهذه القيم موجودة قائمة ، لذا كان على الشيوعية أن تتقبل نتائج هذا الخطأ الإيديولوجى ، فأقبلت فى غيظ وحنق تفتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية التى انتبذها النظام الشيوعى » (١) .

إن هذه المذاهب الجماعية بما تحويه من نظرات كلية أرادت أن تكون دين المستقبل ، لها نبوءاتها ، ولها عقائدها المستترة المتأصلة التى لا تقبل جدلا ، وهى بذلك تحاول أن ترضى فى الإنسان كل دوافعه ونزعاته ، وتمد نفوذها إلى الفجوات التى عراها تطرف النزعة المادية منذ عصر النهضة الأوربية .

« وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعموا أركان ذلك (التوجيه المنظم) الذى أقرته فلسفتهم الجديدة والذى عرفه النازيون باسم Weltanschauung ومعنى ذلك على حد قول الدكتور دنكان جونز Duncan Jones : تلك الفلسفة التى تفرض على صاحبها إدراكا خاصا لمعنى الحياة، ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة العقيدة الدينية لديه ، فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص ، وتشعل فى نفسه جذوة التحمس الشديد لإذاعتها فى كل مكان ، دون أن تعتاق نشاطه الحدود السياسية وغيرها من الحواجز التى تفصل بين بلدان العالم ، كأنما مهمته فى الواقع التبشير بدين جديد ... وقرأ القساوسة البروتستنت من فوق المنابر احتجاجا ضد تلك الوثنية الجديدة التى أراد النازيون أن يستعيضوا بها عن الأديان جميعها » (١) .

« وليست البلشفية مجرد برنامج سياسى بل هى كذلك فلسفة وعقيدة ، إذ يمتد مجالها إلى أعمال الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ... ولقد استطاعت البلشفية أن تبث فى قلوب أتباعها ومريديها الإخلاص وشدة الولاء لمبادئها إلى أبعد حد مما يذكرنا بولاء أتباع الديانات والعقائد المتحمسين لها » (٢) .

---

(١) Religion without Revelation pp. 62-63 .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : ألمانيا النازية ص ١٩٦ ، ٢١٢ .

(٢) محمد فؤاد شبل : الدستور السوفييتى (رسالة ماجستير) ص ٤٢٤ .

إن الطاقة النفسية والغرائز الاجتماعية تنفس عن نفسها منذ أن حاول الإنسان العصرى أن يتنكر لفطرته ويجحد أشواقه، ويتجاهل منطق العمليات العقلية العليا فلا يسلم لغير التجربة الحسية المباشرة . وما فتئت هذه الطاقة الإنسانية التى أريد إهمالها تعمل عملها وتعبر عن وجودها بصور متباينة ، تصرخ مشيرة إلى الصخب المستعر فى كوامن الوجدان ينشد الإرضاء أو التعويض . وهذا لوبون الفرنسى يتحدث عن مفخرة أمته التاريخية (الثورة الفرنسية) فيقول :

ولم يقم سلطان الثورة الفرنسية على ما كانت تنشره من المبادئ ، ولا على ما كانت تضعه من الأنظمة ؛ إذ الأمم لا تبالى بالمبادئ والأنظمة إلا قليلا (؟ !) وإنما السبب فى قوة هذه الثورة وفى رضا فرنسا بما أتته من المذابح والهدم والهول، وفى مدافعتها الظافرة حيال أوربا المدججة بالسلاح هو إقامتها ديانة جديدة ـ لا نظاما جديدا ، ولقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوى من القوة التى لا تقاوم . . . حقا إن مصدر المعتقدات سياسية كانت أو دينية لمشترك ، وهى خاضعة لسنن واحدة ـ أى إنها لا تتكون بالعقل وكثيرا ما تتكون خلافا لما يقتضيه العقل ! ؟، فالبوذية والإسلام والإصلاح الدينى واليعقوبية والاشتراكية وإن لاحت على شكل فكرى ظاهر هى بالحقيقة قائمة على عواطف وتدينات متماثلة . . .

وحماسة مؤسسى الثورة الفرنسية تعدل ناشرى دين محمد (! ؟) فقد كانت تلك الثورة ديانة اعتقد رجال الطبقة الوسطى فى المجلس الاشتراعى الأول أنهم أسسوها وقضوا بها على المجتمع القديم ، وأقاموا بها حضارة أخرى على أنقاضه ، وما وجد خيال فاتن شغل قلب الإنسان أكثر من ذلك الخيال ! ! فكان أولئك الرجال يقولون: إن مبدأ الإخاء ومبدأ المساواة اللذين أعلنوهما يمنحان الأمم سعادة أبدية ، وإنه لما قطعت العلائق بالماضى المظلم الموحش أصبح المجتمع الجديد سائرا على نور العقل المطلق ...

توصف روح التدين بإسنادها قدرة عظيمة إلى قوى علوية ... وهذه الروح هى أساس المعتقدات الدينية كلها وكثير من المعتقدات السياسية ، والمنطق الدينى مشبع من المشاعر وسائر العواطف ، والفتن الشعبية الكبيرة تنال قوتها منه ... ولم تلبث مبادئ الثورة الفرنسية أن ألقت فى قلوب الناس حمية دينية كالتى ألقتها المعتقدات الدينية السابقة ، ولم تفعل بذلك غير تحويلها وجهة النفس الموروثة المتكاثفة مع الزمن ...

إن الأمة ـ عند المتقدمين والمتأخرين من اليعاقبة ـ كالآلهة ، ذات شخصية سامية ، لا تسأل عما تفعـــل ، ولا تخطئ أبدا ، فالجميع مسئول عن إطاعتها وإن جاز لها أن تقتل وتنهب وتحرق وتأتى أقسى المظالم وتطرح غـدا فى الدرك الأسفل من رفعته اليوم إلى مصاف الأبطال ، ولا يعدل رجال السياسة عن السجود أمام حكامها ، مسبحين بحمد فضائلها وحكمتها العالية ؟!

وقد فصلت نفسية رسلنا السياسيين الدينيين فى الوقت الحاضر فى مقالة نشرت فى إحدى الجرائد الكبيرة عن أحد وزرائنا السابقين : يسألون عن الفرقة التى ينتسب إليها مسيو فلان ، هل هو من فرقة الملحدين ؟ . . . إنه لا يختار أى إيمان وضعى ، ويلعن روما وجنيف، ويجحد بالعقائد التقليدية . ويكفر بالكنائس المعروفة !! إنه إن جعل الصحيفة هكذا ملساء ، فذلك ليقيم عليها كنيسته الخاصة التى هى ذات بدع أكثر من كل كنيسة ولن تقل محكمته التفتيشية فى شدة تعصبها وعدم تسامحها عن أشهر محاكم تور كمادة !! (١)

ولسنا فى معرض مناقشة تفصيلية لآراء جوستاف لوبون ، وإنما نأخذ منها هنا دلالتها على الأعماق البعيدة فى النفس الإنسانية التى تثبت وجودها بما يفيض على سطح المجتمع من أحداث وظواهر . . . مهما تنكر الناس لنفوسهم !! .

وبمثل هذه الفلسفة يناقش لوبون الشيوعية أيضا فى كتبه ، فدعاتها قساوسة متدينون لم يغيروا سوى اسم آلهتهم ، ومن مظاهر هذا التدين ما جاء فى جريدة (الأومانيتيه) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ من أن الأستاذ الشاب فى السوربون ألقى فى حفلة افتتاح مدرسة ، موعظة حماسية استغاث فيها بآلهة العقل . . أولئك الزعماء متدينون لاعتقادهم انقلابا يخرج منه عالم جديد ، هم يفخرون بإنكارهم الأساطير مع تمسكهم بأسطورة من فصيلة أساطير القرون الأولى ، فالخوارق عندهم بدلت شكلها فقط ، أى : أنها تبدو لهم على وجه قادر على تغيير طبيعة البشر وتجديد المجتمعات فجأة . إن النصرانية تقول بثواب فى جنات الآخرة ، وهذه لا تفتأ تعد بسعادة دنيوية لم تتحقق بعد ! » (١) .

ولكن لوبون لا يناهض الاشتراكية كاتجاه عام لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وإنما يناهض النظريات والتفاصيل « .. لا نكون

(١) روح الثورات : ترجمة زعيتر ص ١٧ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(١) روح السياسة : ترجمة زعيتر ص ٢٠ ، ١١٤ ، ١٢٥ ولزيادة التفصيل : كتاب المؤلف نفسه روح الاشتراكية .

بمناهضتها مقاومين لحركة التضامن الاجتماعى التى لا يدور فى خلد أحد أن يحول دونها ، فتتقدم طبقات العمال مادة ومعنى من المسائل التى تهم جميع الناس ، والدليل على ذلك ارتياح الكل لمشروعات التأمين ضد حوادث العمل وإنشاء بيوت للعمال . ومنح العمال رواتب تقاعد وتعليم العمال والاعتناء بصحتهم وفتح اعتمادات مالية للزارعين . الخ »(١) .

هكذا بزغت الديانات الجديدة ، فى العصر الذى لا يرضى بالدين ! .

وهكذا أقيمت آلهة الهوى . . . بعد أن رفض الناس أن ينقادوا للإله الذى تحدث عنه الأنبياء ! .

إن نزعات الإنسان فى التطلع للمستور ، والتحمس لعقيدة ، والانقياد لقوة عليا ، والانخراط مع الزمرة . كلها نزعات لا تريد أن تموت ! .

* * *

وأقبل العلم يعالج هذه النفس البشرية . . هذا الكيان الغامض الذى يأتى بالعجب العجاب ! .

وتقترن صياغة الديانات الجديدة بدراسة النفوس . . . حتى تأتى الديانات مفصلة موافقة على علم ونور ، وتتحقق (الراحة الإنسانية) بغير دين ! ! .

ومضت الدراسات النفسية قدما، وانفجرت كلمات فرويد تكشف عن متاهات (اللاشعور) ! . اللاشعور ! . . . . وهل هناك غير الحس المباشر القريب، وهل هناك غير العقل الفاحص الرشيد ؟ .

وأقبل علماء النفس ينقبون فى أغوار اللاشعور بنفس مناهج التجريب . . . واستعملوا أساليب التأمل الذاتى (الاستبطان) والملاحظة الخارجية والتحليل النفسى . . . وتتابعت الأبحاث والفحوص، وأعد الناس أنفسهم لعهد جديد : تتماس فيه (السعادة) و (الراحة) و (الاتزان) فى المعامل بالعدادات ! ! وبدأت الثمار تينع .

« يصارح فرويد الناس بأن كل صنوف النشاط التى تصدر عنهم تعود إلى ما يوجد فى أعماقهم من فطرة توجه التفكير والسلوك على اختلاف أشكاله وأساليبه ، مع أن الناس بطبيعتهم يميلون إلى الفخر بقوة إرادتهم وإلى إظهار الحزم فى تقرير سلوكهم بأنفسهم ، وينكرون أى أمر فى أعماق نفوسهم يوجه نشاطهم دون وعى منهم ! ! .

وأغلب النقد وجه إلى نظريته عن الميول الجنسية وكان نقداً لاذعا قويا دفعه هو إلى

---

(١) روح السياسة ص ١٢٠ .

توضيح كثير مما قال به وإلى توسيع معنى الميول الجنسية عند الإنسان حتى وسعت الحياة الوجدانية كلها بل الحياة الخلقية والجمالية والفكرية أيضاً . . . . حتى لقد اعتبر بعضهم مذهبه نظرية للقيم لها صفة (الواحدية) مثل المذاهب الفلسفية التي ترجع كل ضروب النشاط إلى غريزة البقاء والتناسل . وقالوا إن نتيجة الفرض الذي وضعه فرويد (هو أنه يمكن التطبيق على كل شيء) ولهذا لا يمكن أن يثبت أي شيء !! .

ومن ألوان النقد التي وجهت إلى التحليل النفسي أن فرويد وأتباعه — على صواب كثير من آرائهم ، وعلى الجهد الذي يبذلونه لاصطناع الطريقة العلمية في أبحاثهم — يعرضون لدراسة النفس ويبحثون في أمراضها بفكرة سابقة في أذهانهم وبغرض يلتمسون له الإثبات فحسب !! .

ويطول بنا الحديث جداً لو أردنا أن نفصل أوجه النقد التي يمكن أن تؤخذ على فرويد فإن ما كتب في تحليل النفس وما كتب ضد هذا المذهب قد يسع مكتبة بأكملها !! .

على أن أهم من نقد فرويد وعمل على استكمال مذهبه اثنان هما آدلر ويونج ... وكان مصدر الخلاف الأساسي بين فرويد ويونج هو السيطرة الكاملة التي كان يقول بها فرويد حينذاك عن الميول الجنسية وحدها في الحياة النفسية ، سيطرة شملت كل نواحي النشاط وتفاصيله في النفس ، على حين رأى يونج أن الجنس على ماله من السيطرة في حياة المرء لا يتفق مع رغبة الإنسان في الحياة الموفورة التي لا يمكن أن تقتصر عليه ولا أن تشتق منه دون غيره !!

كذلك قال يونج برأي خاص عن اللاشعور ذلك أنه يزعم أنه قد كشف عن وجود (لاشعور جمعي) في النفس الإنسانية تشتق منه الحياة الشعورية واللاشعورية في الفرد ، وهذا اللاشعور الجمعي موروث يحوي الغرائز كما يحوي الأفكار الأولى ، ولا تصدر عن هذا اللاشعور الجمعي معان بينة واضحة بل ميول إلى التفكير على منحى معين قد تظهر في الأحلام أو في مخاوف الأطفال أو أوهام المعتوهين ، بل في حياة الأسوياء من الناس حين يجبه الواحد منهم موقف لا تغيثه في تفهمه المعارف العلمية التي ألم بها منذ قريب !! .

أما آدلر فقد وجد أن الغاية من كل مرض نفسي هي تمجيد الشعور بالشخصية الذي يظهر على أكثر أشكاله سذاجة في مبالغة المرء في إظهار الرجولة واعتزازه بكل ما يتصل به من سمات ومميزات ، وهو يخطئ فرويد في تعليله الجنسي للأمراض العصابية ... الخ »(١) .

---

(١) دكتور إسحق رمزي : علم النفس الفردي ص ٥٢ : ٦٩ .

وعادت المشكلة التي أردنا أن نحلها بعلم النفس ، تسخر منا ...

وتشعبت فروع علم النفس: نظري وتطبيقي وتحليلي ، مرضي وعلاجي ، تربوي واجتماعي وصناعي وحربي ، فردي وجماعي ... فروع لا تنتهي تغشى كل آفاق الحياة .

وتعددت المدارس : فرويد وآدلر ويونج ومكدوجل ، السلوكيون والارتباطيون (الجشتالت) والبراجماتزم . . . واقترنت الفلسفة بالعلم ، وتجاوز التجريبيون الحدود الصارمة للملاحظة والاستقراء إلى الآفاق المرنة للتعميم والاستنباط ... ودخلت الأهواء مع نفوس العلماء إلى معامل الاختبار وعيادات التحليل ! ! ! .

ومع هذا كله ، فقد كشف علم النفس آفاقا هامة للمعرفة ، وأشار إشارة واضحة إلى الطريق حين تجرد من القوالب التي يجمدها تعصب صناعها ... إن آفة العلم في الذين يتصايحون به لغير العلم ، ومن هنا استغلت آراء دارون فيما لم يكن يدور بخلد دارون ، ووجهت نظريات فرويد إلى أبعد مما تصوره فرويد ! .

أما العلم الرصين الناضج فتقرأ في صفحاته « لا بد لكل كائن حي من أن يتحرك صوب اكتماله الخاص ، فكمال الحياة هو هدف الحياة ، والحافز إلى الاكتمال هو أقوى محرك ملزم فيها ، والاكتمال في علم النفس هو تحقق الذات ، وكما تكره الطبيعة كل فراغ فإن الكائن الحي يكره عدم الاكتمال كذلك ، ونحن نجد السعي إلى الاكتمال والإحساس بعدم الاكتمال ظاهرين بشكل واضح في الدين والذات المنتظمة يمكن أن تعرف بأنها تنظيم لجميع العواطف والاتجاهات المستساغة .... والإرادة هي الذات المنتظمة عاملة وهي الذات متحركة . . . . وإن المنبه المناسب للإرادة - ذلك المنبه الذي يصلح لإثارة الذات بصفة خاصة إلى النشاط - هو المثل الأعلى ، أي هو الفكرة أو الشيء الذي يؤدي إلى التحقق الكامل للفرد كله .

إن الكائن الحي إذا كان مدفوعا بالغريزة والبيئة وحدها فإننا نسمي ما ينتج (سلوكا) أما إذا اشترك مع القوى الوراثية والقوى البيئية مثل أعلى شعوري أو غاية يتجه إليها الكائن الحي سمينا النتيجة (مسلكا) ولهذا نذكر السلوك ونقصد به سلوك الحيوان ، ونذكر المسلك ونقصد به سلوك الإنسان ، وكل عمل غريزي يؤدي إلى نتيجة ما ، أو إلى (غاية) معينة ، ولكن هذه الغاية إذا أدركها الإنسان إدراكا شعوريا وسعى إليها بمحض اختياره فإنها تسمى غرضا ، والمثل الأعلى الصائب من الناحية السيكلوجية هو المثل الذي يستطيع جلب التوافق للنفس باجتذاب

الانفعالات الغريزية جميعا وهو الذى يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصب الفرد باعتباره وحدة سيكلوجية فى قالب كائن حى وهو الذى يضمن تحقق الذات والسعادة وذلك بإشباع السعى إلى الاكتمال... والرجل السعيد هو ذلك الذى يجد فى الحياة تعبيرا متوافقا عن غرائزه كلها - عن غرائز الطموح وإثبات الذات فى مهنته ، وعن غرائزه الجنسية فى الزواج ، وعن غرائزه الوالدية فى أسرته أو فى عمل الخير ، وعن استطلاعه فى البحث ، وعن حبه للظهور فى الكلام ، أو الكتابة ، أو الرسم . وعن غرائز المقاتلة والغضب فى دفاعه عن معتقده .. هذه الغرائز وغيرها حين توجه نحو غرض مشترك عام كأن يعيش من أجل بنى جلدته تكون قمينة بأن تمنحه سعادة لا حد لها (١) ، هنا يسجل العلم تسجيلا أمينا ، لا يتورط ، ولا يتعدى .

والدين لا يضيق بهذا العلم الأمين ، بل إنه يتعزز به ، إذ تتعاون أدوات الله التى استودعها فى الإنسان من حواس وعقل مع أدوات الله التى أرسلها مباشرة من وحى وهدى ، ويركب الإنسان كل مركب لاجتلاء آيات الله فى الآفاق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » أما أن ينصرف الإنسان عن الله الواحد لينحت لنفسه آلهة تسد الفراغ ولا تطفىء الظمأ ولا تعفى من الالتزام ، فهذه صفقة خاسرة لا تقدم للعقل جديدا وتزيد قرا بين الجهد والدم أى مزيد ؟

فتحى عثمان

(١) هادفيلد : علم النفس والأخلاق ترجمة أبو العزم ص ٨٠ - ٦ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٢١،٦ :

ذلك أن شوقى كان يعتز بآثار أسلافه الشعراء فى الوزن والتقفية ، ويرى أن التجديد الصحيح : لا يهدم الأساس ، ولا يذهب بالأصل ، وأن الفن تعب وعناء ، والعبقرية جد متواصل ، وأن الشعر ليس لهواً ولعبا كما ينظر إليه بعض الشعارير فى هذه الأيام بل هو كما يقول نقاد العرب : عمله على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وهو كالبحر أهون ما يكون على الجاهل به أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته . وهو كما يقول أكثر شعراء العرب اختراعا وتوليدا ابن الرومى :

مطلبه كالمغاص فى درك اللـجة من دون درها الخطر

وكما يقول بعض نقاد الغرب « تين » : لأن أقود جيشا أسهل على من أن أكتب ستة أبيات جميلة من الشعر .

(له بقية)

على الجندى

من وحي الأخبار
إلى المشتغلات بالشئون النسوية

للأستاذ أبو الوفا المراغي

خبر صغير لكنه خطير، خطير في معناه ودلالته وفيما ينشده من أهداف وغايات بعثه الأقدار في وقته المناسب وحين الاحتياج إليه، نسوقه إلى من يشتغل بالشئون النسوية ويتزعم بزعمه الدفاع عنها، نسوقه إلى هؤلاء ثم نشرح ما فيه من مغزى ودلالة عسى أن يكون فيه مقنع للبيب أو منصح لرشيد.

نشرت بعض الصحف «أن الملكة اليزابيث استأجرت لابنها ولي عهد انجلترا أبا بدلا من أبيه الذي قام برحلة طويلة إلى الخارج حيث لم يبق مع ولي العهد رجل بين أفراد الأسرة المالكة فكلهن من الفتيات والسيدات، وقد رأت الملكة أنه لابد من وجود رجل مع ابنها الصغير، ولهذا استأجرت له أبا، وسيرافق الأب الجديد ولي العهد في كل مكان يذهب إليه».

هذا هو الخبر وإنه لخبر غريب بل ربما كان من أغرب الأخبار. سيدهش له كثير من القراء وسيذهبون في تفسيره مذاهب، وسيكون تأويل أكثرهم بعيداً عن المغزى المقصود منه، وسيجد فيه الدارس المتفحص معنى جديراً بالتقدير والاعتبار لما فيه من فلسفة سياسية واجتماعية وحكمية، ذلك أن ولي العهد الحالي سيكون في المستقبل القريب أو البعيد ملكا لدولة من أكبر دول العالم وأهمها مشاركة في توجيهه وقيادته ولا بد لمن يلي هذا المنصب من أن يعد إعداداً يناسب مسئوليته وخطره ومسئولياته متشعبة، فهي مسئوليات سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية، وهذا الإعداد لابد له من جو خاص يسوده الحزم والصرامة، ويمزج فيه بين اللين والشدة ليكون ذلك الجو صورة لواقع الحياة، وواقع الحياة عبوس وابتسام، وسلام وخصام وشدة ورخاء واكتئاب وهناء.

ومن قبل هيأت الأقدار لأصحاب الرسالات العظمى في الحياة هذه الأجواء، وقل أن تجد في أصحابها من لم يمتحن في تاريخه، ومن لم

تمخضه الحوادث حتى استبانت مواهبه وملكاته وأكثر هؤلاء نجاحا أطولهم فى فترة الاختبار والتمحيص ، وهذا الجو أو هذه البوتقة التى يصاغ منها الرجال وأصحاب الرسالات لايمكن أن تهيئه امرأة أو مجموعة من النساء مهما كانت حظوظهن الثقافية والخلقيـة فالجو النسائى بطبيعته جو مرح ومجانة ، وقلق واضطراب تسوده العاطفة المتقلبة والحنان المفرط وتسوده الرخاوة والليونة ، والناشئ فى هذا الجو لابد أن يكون صورة له ومطبوعا على غراره ـ لاجرم أن يكون واهى الأركان مزعزع البنيان ، لايثبت لحادث ، ولا يستقر على حال ، لايغالب الأقران ، ولا يركض فى ميادين الأبطال ، ومن الغريب أن تكون هذه الحقيقة متقررة فى نفوس الشعوب حضريها وبدويها متقدمها ومتخلفها وإنا لنسمع فى أقاصى الريف بعض العبارات التى تترجم عنها ، نسمعهم يقولون فى معرض وصف بعض الأشخاص بالضعف والتخاذل : « هو تربية مجالة » والمجالة فى عرفهم اللغوى من مات عنها زوجها وتولت بعده تربية أبنائها . لقد أثار هـذا الخبر الذى ذكرناه أشجانا بما تطالب به بعض الهيئات النسائية فى مصر وتنشره الصحف ويشتغل به الرأى العـام وجعلنا نربط بينه وبين هذه المطالب لنكشف عن وجه الخطأ فيها ونتخذ من مغزاه الذى يلتق مع بعض مقرراتنا الدينية حجة حديثة على ذلك الخطأ والحديث عند هؤلاء اعتباره وتقديره وبخاصة إذا كان الغرب مطلعه وأنه لمطلع نحس فى بعض الأحيان.

لقد أخذت بعض الهيئات النسائية تطالب بامتداد مدة الحضانة للأبناء. وسلب حق الرجال فى ضمهم إليهم لعلل أقل مايقال فى أدب الجدال عنها إنها واهية متهافتة ، ومما يقلنه : إن الأمهات أصلح لهـذه المهمة من الآباء لمكان الحنـان والعطف فى نفوسهن ولخبرتهن بشئونهم وتوافر أوقات الفراغ لرعايتهم ولأشياء أخرى تدور حول هـذه المعانى ، ونحن لانستطيع أن ننكر بعض هـذه الأشياء ولكننا نناقش ونناقش كثيراً فى بعضها وبأيدينا أن ندحضها .

إن الحنان والحب قدر مشترك بين الآباء والأمهات وهبته الطبيعة لهؤلاء وأولئك بالأبناء ووقاية لهن من العواصف والقواصف وقديما قال العربى البـدوى سليل الصحراء :

إنمـا أولادنا بيننا
أكبادنا تمشى على الأرض

ولم يقـل إنما أولادهن بينهن أكبادهن أما أن الأمهات أخبر بشئون الأبناء وأدرى بوجــوه مصالحهم فتلك دعوى دونها النجم ولعل فى الواقع والمقرر فى نفوس العقلاء مايغنى عن الحديث فيه . إن تهيئة الأبناء لرسالاتهم فى الحياة تحتاج إلى الحنان والحب وتحتاج أكثر من هـذا إلى القسوة والحزم . والحنان المحض ، والعطف الدائم ، طريق لاتحمد مغبته .

قفسا ليزدجروا ومن يك حازما
فليقس أحيانا على من يرحم

والأبناء فى فترة خاصة فى حاجة شديدة إلى سلطان الأب يقفهم دون نزواتهم ، ويقيم خطواتهم ، والمرأة ضعيفة السلاح فى هذا الميدان . وكل أب وكل أم يحس بذلك وما أكثر ماتهدد الأمهات الأبناء عند الزلل بسلطان الأب فيرعون ويرتدعون .

والشريعة الإسلامية كانت فى هذا الشأن حكيمة راشدة شأنها فى كل ماترسم وتقرر فقد قسمت فترة تربية الطفل بين الرجل والمرأة قسمة عادلة فجعلت الفترة الأولى منها للمرأة وذلك حين يكون الطفل فى حاجة إلى الجانب العاطفى الخالص وإلى الرعاية الجسمية المحضة ، وهى الفترة التى بين الولادة وسن السابعة أو قريب منها ووكلت الطفل فى الفترة الثانية ـ وهى الفترة الخطيرة فترة تكوين الشخصية من الناحية العقلية وإعدادها لمستقبلها ـ إلى الرجل ينفق فيها خبرته وتجاربه ويمارس فيها سلطانه وقوته ليجعل من أبنائه خلفا صالحا جديرا لحمل مشاق الحياة فى رحلتها الطويلة .

وربما يقال : إن الرجل قد تعوزه الصلاحية لضم أبنائه إليه ورعايتهم وخصوصا حين يتزوج بأخرى لما يتعرض له من توزيع عواطفه بينهم وبين زوجه الجديدة أو بما تسلبه الزوج الجديدة من عطفه عليهم ، فتضطرب حياتهم وتقسو معيشتهم ونحن نسلم بذلك إلا أنا نرى أنها حالات نادرة لاتسوغ سلب حق الآباء فى ضم الأولاد إليهم فى الفترة الخطيرة فى حياتهم ، ويعوض هذه الخسارة على الأبناء بمجموع مافى الرعاية الأبوية من الفوائد التى أشرنا إليها ، وأهمها هيمنة الرجل وسلطانه اللذان لابد منهما لحماية الناشئة فى عصر تنوعت فيه أسباب الغواية والفتنة .

هذا وتعرض الأبناء للخطر فى حالة زواج الأب بأخرى قد يحصل لهم مثله مع الأمهات وذلك حين ينزلقن فى تيار المدنية فيسلكن بهم مسالك اللهو والخلاعة ، ويفسدن عليهم مستقبل حياتهم وما أكثر الأمهات اللاتى انزلقن فى ذلك التيار فوردن بأبنائهن الموارد الوخيمة .

وعلى كل فحالات الشذوذ التى تعرض لبعض الآباء لاتدعو إلى تغيير أحكام الحضانة الحالية التى قررتها الشريعة وجرى بها العمل منذ أرسى الله قواعدها على أسس اجتماعية صحيحة ، ولم يستمسك بها الفقهاء والمفتون للهوى والعصبية ولكن لما انطوت عليه من مصالح واضحة وحكم معقوله .

إن المطالبة بتغيير هذه الأحكام قضية يغلب عليها الجانب العاطفى وينقصها الدراسة المتأنية الواعية كأكثر القضايا التى تتعلق بالإصلاح الاجتماعى المتصل بالدين فى هذا العصر . وحبذا لو اقتصد القائمون على الحركات الإصلاحية فى المطالب ثم استعانوا بذوى البصر بها فإن خطواتهم حينئذ تكون أكثر سداداً وتوفيقا .

أبو الوفا المراغى

استقبال شهر المحرم

للأستاذ عز الدين على السيد

طالعنا هلال المحرم بهلاله السعيد ، يعلن عاما هجرياً جديداً بعد أن تنفس عام مثله آخر الأنفاس . وقد انطوى عنا بجليل من الأحداث فى حياة الإسلام والعرب ، ينبغى على العرب والمسلمين أن يقفوا منها موقف التاجر الكبير عند رأس السنة ، يحصى ماله وما عليه ليعلم إخفاقه أو نجاحه ، وليتعرف فى حذق سر كل منهما ، وليدخل كامل الأهبة لاستقبال الزحام السنيف ، وصراع الحياة القاسية وهو قابض بيديه كلتيهما على عجلة القيادة . هادفا إلى نصر لا تبعده الأخطاء ولا تستحيل به عبادة الهوى ، أو تنحرف به عن الوصول الرذيلة .

انصرم هذا العام بآيات لقوم يتفكرون . فرأينا العراق الحبيب يفور فيحرق الأصنام ويهنئ بعضنا بعضاً بانتصاره ، ورأينا لبنان العزيز تنفجر فيه البراكين فتطيح بمعاقل العدوان الحاقدة على الحق ورأينا الجزائر الصابرة تضاعف جهودها فى جهادها . فتحالف النصر ، ويؤازرها النجاح ، وتؤيدها الملائكة فى كل خطوة ، كما رأينا الكثير من بقاع الأرض العربية والدنيا المسلمة يهتز أو يميد فيفزعنا اهتزازه ، لأن السادة العبيد من حكامه غمرتهم المطامع فطمرتهم ، فتوارت عنهم أضواء الفضيلة الممثلة فى حقوق إخوانهم وواجبات بلادهم ومقدسات تاريخهم وحرمات أمتهم فرأينا النكسة التى أصابت العراق فى حكامه الثائرين ، وإذا فرحة الأمس قد شربها الأسى والألم ، والنار فى العراق تلتهم الأبرياء والدم يسفحه السفهاء ، والأمن تسلبه الرذيلة والخير يقتله الشر ، فنحزن للعراق كما فرحنا للعراق ، وتغلى دماؤنا بالغضب لمقدساتنا فيه ولإخواتنا منه ، والعروبة شىء واحد لا يتجزأ ، والعقيدة جامعة توحد المفترق ، وتؤلف المتناثر ، ما دامت ثابتة صافية ، لم تختلعها من المكامن عواصف الشك ، ولم تكدرها عناصر الإلحاد .

وولد مع هلال المحرم حادث الهجرة إلى يثرب الذى ارتبط بالمولد الأول مولد الرسول عليه السلام أوثق الربط وتوالت بعده فتوح الإسلام ومغازيه وحيا يوحى للهداية والرشد والفضيلة ، أو سلاحا يشهر فى وجه الباطل والضلال والرذيلة حتى يستقيم المعوج ويعتدل المنحرف ، وتؤمن

الحياة بأن رحمة الله من السماء شملتها ، فاجتثت من الأعماق جذور الغضب فى الأرض حتى يكون فيها أمثال الملائكة أخلاقا ، « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » ، « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » ، « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ، « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وما نبت على هذا الثرى قبل ذلك بكثير من يتحامى الفجور فضيلة أو يتحاشى الرذيلة عفة أو يجنح للسلم إجلالا للسلام ، أو يؤمن بالإنسان على أنه أخ يرحم ويعان حسبة لله أو تلبية لنداء العاطفة .

وقد صاحبت الهجرة إلى يثرب حجج النبوة الدامغة ، وعلائم الرسالة الصادقة لا تترك لمنصف أن يشك فى محمد فيقول : « ساحر كذاب » ، « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » ... إلى آخر الاتهامات التى نسجها الحقد أو الحسد أو التهكم المولود فى ثرى الجهل والضلال « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » . « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ » .

فليس ذهول الساهرين حول الدار عن الخارج المرتقب - وهم رصد لقتله ، من أجلد فتيان قريش وأذكاهم وأحقدهم - أمرا تلده الصدفة ، أو تحكم به الظروف العابرة دون قصد من الإرادة والقدرة الإلهيتين ، هدفه دفع الباطل بالآية المبينة « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وليس الدرع الواقى تحوكه العناكب الضعيفة على باب الغار من نسيجها الواهن يسكنه الرفيقان الحبيبان ومن فوقه الجناح المرقش يحضن الغار فى حنان ويهدل على رأسه فى سكينة تنبعث من الضعف والوهن أقوى سلاح فى الوجود للضيفين النازلين ، ليس ذلك أمرا تحدثه الموافقة فى الظروف دون العناية الهادفة من رب الرسالة الهادية ؛ صونا لحياة القائمين بها وبرهنة على صدق ما يدعون .

وليس أحد المارة لو نظر تحت قدميه لرأى الرسول والصديق مع كثرة العيون وشدة الطلب تنصرف أنظارهم عن الهدف

أقرب ما يكونون من الفرصة السانحة فيرجعون بخيبة الفشل ـ ليس ذلك من الأمور التي يمكن أن تكون عادية في حياة الناس؛ إذ العقل يوحي باختفاء الخائف المتسلل في هذه المهاجر ليضلل الطالب . والأثر المقتفي يؤكد أنه مأواه : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » .

هذه الآيات إلى حديث سراقة كانت جديرة بإجماع أهل الدنيا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في قضية الرسالة ، ولكن طابع البشرية على اختلاف أفرادها لانسجام الحياة جلت حكمته ، فعمى عن هذه الآيات وعن غيرها من بصَّرته الرماح البارقة ، وحاد عنها من هدته مصارع الطغاة الحامية ، أو تضاعفت في قلبه أنوار الوحي الباهرة ، وظل على كفره « من أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ » .

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

هلال المحرم يحمل تلك المعاني ، ويحمل معها معنى عزة المؤمن ينشد مكانها في أي بلد أو وطن ، لا يبالي بالغربة إباء للضيم . وتشدانا للقوة ، وبناء للأمل ولا يحفل بالأهل والولد يخرجون على فكرته ، ولا يؤمنون بدعوته ، يضع الحنين إليهم وعاطفة الحب لهم تحت صرامة الحق الذي حاربوه وصراحة الوحي الذي كذبوه ، فلا يلبث الحنين الرفيق ، وعاطفة الحب أن يستحيلا غضبا ثائراً على المارق « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . .

كان في الهجرة رضا النبي وأصحابه كل الرضا بالله فتركوا فيه الأهل والمال والوطن ضنا بالعقيدة وطلبا للعزة وتلبية لنداء الله « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » .

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن رام الغنى متحول

وفي الهجرة إلى ذلك انكشاف لجوانب الإيثار والفداء في صحابة الرسول ، ولشدة ارتباطهم به وانصباب روحه في أرواحهم وانطباع عقيدته في عقائدهم فعَـلِيٌّ الفتى الباسل يتسجى برد الرسول المهاجر ، وينام في مرقده المطلوب ثابت الجأش رابط القلب مؤمنا بالله يخرج على القوم في الصباح فيخنهم لا يهاب بطش طيشهم للمفاجأة ، وما تركه النبي الحاني إلا احفاظا للذمة وردا للأمانة وإيصالا للوديعة، لم يمسه ذلك ما يكتنفه من المشاق وما يحيط

به من الصعاب ، وأبو بكر الرفيق الصديق يصحب النبي المهاجر يعرض نفسه للقتل المحتمل وإن كان لا يشك فى نصر الله ، يعز عليه الرسول أكثر من نفسه فيتقدمه إذا ذكر الراصد ، ويتخلف عنه إذا تصور الطالب ليكون فى الحالين دون الرسول والأذى ، وأسماء الفتاة الوديعة تذهب وتجيء إليهما بالطعام لا تخشى أن يدركها من الأمر المفزع ما تضيق به دفعا عن الروح ، كل هذه صور يحملها المحرم ويوحى بها هلاله ، لترتسم فى إطار من الروعة تشهده القلوب المؤمنة فى جلال ، تتخذ منه عتادا وتعتز به زادا .

يحمل هذا هلال المحرم وفوق هذا يحمل هلال المحرم فإذا كان فى الذكريات من نفع وإذا كان فيها من دفع فلتنفعنا هذه الذكرى بالأمل فى عامنا الجديد ولتدفعنا إلى الظهور على الأهل والنفس والمال والولد فى سبيل العزة والمجد ، والوحدة والكرامة ، لنقتل العدو الكاشح الذى يناوئنا فى كل قطر ويحاربنا فى كل بقعة ويحاصرنا فى كل سوق ؛ دعاية لا يضن عليها بمال أو وقت ، واقتصادا لا يبخل عليه بعرق أو دم ، وحربا لا يغلى عن ميدانها ملكة ولا ممتلكا ، وأعجب العجب أنه الباطل يدفعه فى عنف وأنه الحق تفترق عليه فى تخاذل ، ولا يؤسف ولا يحزن شر من ذلك فى حياة الآمل الحالم ؟

عز الدين علي السيد
إدارة المعاهد الدينية

خصائص قوميتنا

١ - هى قومية بالمعنى الحضارى الشامل ولكنها ليست عنصرية .

٢ - وهى اشتراكية تدعو إلى تدخل الدولة لزيادة الدخل وتحقيق العدل فى التوزيع ، ولكنها ليست شيوعية .

٣ - وهى « شورى » تؤمن بسيادة الأمة ، وتضع مصلحتها فوق كل شيء . وترى فى الديمقراطية الصحيحة السليمة الطريق السوى الذى يكفل الحرية والكرامة والخير العام للأمة العربية .

٤ - وهى ترى أن كل نظام استبدادى يناهض طبيعة الأمة العربية من حيث الأساس ويعارض الحقائق النهائية التى ترسبت لهذه الأمة من تاريخها المجيد .

٥ - وقوميتنا بعد هذا « تقدمية » تجديدية تأخذ بكل وسيلة مجدية لإعلاء شأن العرب ورفع مستواهم الاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

قصص الأنبياء في السينما

للأستاذ محمد على ناصف

اعترضت مشيخة الأزهر على فكرة إنتاج فيلم سينمائي يتناول حياة يوسف عليه السلام. وحاول الأستاذ محمد التابعي في مقالين بجريدة « الأخبار » أن يثبت :

أولا : أن رأى رجال الدين في هذا الموضوع لم يتطور ، ولم يختلف عن آراء لهم قديمة .

ثانيا : أنهم ناقضوا أنفسهم فلم يحتجوا على حديث نشرته صحيفة « الأهرام » في عام ١٩٥٥ جاء فيه أن « سيسيل دى ميل » يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل « صوت الله » باللغة العربية في الطبعة التي ستوزع على البلاد الإسلامية من فيلم « الوصايا العشر » الذي يخرجه .

* * *

ويبدو لى أن الأستاذ التابعي على قدر اتصاله بالمشتغلين بصناعة السينما ليس لديه الوقت لمشاهدة إنتاجهم ؟ وإلا كان حكمه ـ وهو الناقد الأريب ـ أن صناعة السينما عندنا لم تتطور هي الأخرى ، حتى تتطور الآراء بالنسبة إليها ، وحتى يطمئن ويثق رجال الدين والدنيا في مهارة القائمين بها ، وفي ائتمانهم على إخراج موضوع جدى عن حياة أحد الأنبياء ! لقد عاصر الأستاذ التابعي صناعة السينما في مصر خلال الثلاثين سنة الأخيرة ؛ ولعله لا يعترض كثيرا حين أذكر أن تسعين في المائة من الإنتاج الحالى يهبط في مستواه الفنى عن أول فيلم أخرجه « ستديو مصر » مثلا ! وإذا كانت هذه حال السينما عندنا فيجب أن نتردد و نتريث طويلا عن طلب إقحام قصص الأنبياء والرسل في سوق تضرب فيها الفوضى والجهل والارتجال بأوفر سهم .

إن الأفلام الدينيـة : لا يجب الترخيص بموضوعاتها بمثل البساطة التي نرخص بها لموضوعات الأفلام الأخرى لأسباب كثيرة أولها : مكانة مصر في العالم الإسلامي واعتبار ما يصدر عنها مثلا يحتذى . ولقد سمعت من أحد الدبلوماسيين أن بعض الأفلام المصرية التي عرضت في أندونيسيا كان لتفاهتها أسوأ الأثر في نفوس الذين شاهدوها ؛ لدرجة اضطرت معها سفارتنا هناك إلى التدخل

والنصح ؛ باتباع سياسة معينة فى هذا الشأن. فما بالك إذا كانت هذه الأفلام تعالج موضوعات لها قداستها وجلالها ؟ ! إن بعض الأفلام الدينية التى رخصنا بصنعها، ولا تزال تعرض حتى الآن لا يرغب أعداء المسلمين فى أكثر من الحصول على حق توزيعها ! ولست أشك فى إخلاص معظم منتجى هذه الأفلام ؛ ولكن الإخلاص وحسن النية لا يعالج بهما القصور الفنى ! ولقد حشدنا كل الإخلاص والنيات الحسنة فى فيلم « خالد بن الوليد » مثلا .. ولكنى أعتقد أننا نلنا من شخصية خالد فى هذا الفيلم ما عجز عن نيله الروم والفرس ! .

وقد يقال: إن قصة الفيلم مكتوبة فى أسلوب وهيكل رائعين ، ولكن الكتابة الممتازة لا تكفى وحدها ، فمسرحيات « شكسبير » هى هى بنصها على مسرح « الأولدفيك » وعلى مسرح « الانشراح » فى بغداد ، ولكن الفارق بين الأداءين هو نفس الفارق بين ترجمة حياة ينتجها للسينما كل من ستديو « مترو جولدوين » وستديو « شبرا » .

والتمثيل الممتاز لا يكفى كذلك وحده ؛ ولا يكفى الإخراج ، أو التصوير . . لخ .. فإن العمل السينمائى يتألف من عشرات الحلقات المتصلة التى يجب أن تكون جميعها قوية متماسكة وفى مستوى متقارب . . ونحن للأسف لم نصل بعد إلى الدرجة التى ننتج فيها فيلما خطيراً تصل نسبة الكمال فيه إلى درجة عالية . ولذلك يجب أن تقتصر تجاربنا على الموضوعات العادية ، ولا نقحم الدين فى هذه التجارب . إن أفلام « الوصايا العشر » و « الرداء » و « كوفاديس » التى ضرب الأستاذ التابعى المثل بها قد تكلف الواحد منها بين ستة ملايين و ١٢ مليونا من الدولارات وعبئت من أجلها أقوى الطاقات الفنية . ولا يزال أناس يتصدون بالقول إننا نصنع أفلاما ممتازة على مستوى الأفلام العالمية ؛ والدليل على ذلك أن أصحاب هذه الأفلام لا يجدون متفرجين لها حتى فى بلادنا ، ويطالبون الحكومة بأن توفر لهم جمهورا بقوة القانون ! والدليل الآخر أن فيلما واحدا من هذه الأفلام لم ينل جائزة من الدرجة الثالثة فى أى مهرجان دولى أو شبه دولى ! .

ويقول فريق أكثر اعتدالا أن علينا أن نستعين بالخبراء الأجانب فى إخراج أفلام عن ظهور الإســـلام وفتوحاته وحضارته وأبطاله ، وهذا رأى غير مدروس ؛ فقد ثبت بالتجربة أن العمل الفنى عن دين ما ، يجب أن يضطلع به رجل يعتنق هذا الدين ويؤمن به فى قرارته ، ولقد كنت فى الولايات المتحدة عند عرض فيلم « الوصايا العشر » والذى لا يعرفه أكثر الناس أن النقاد اليهود قابلوا الفيلم بجفوة ، ووصفوه بأنه جنسيا Sexy أكثر منه دينيا ، ونقموا على مخرج الفيلم

اختيـاره لتمثيل دور فرعون نجماً محبوبا « بول برينر » أكثر من الذى قام بدور موسى « شارلتون هستون » ، ولو أن سيسيل دى ميل كان يهودياً لتلافى هذا النقد ، أو لما كان عمله موضع شبهة .

وشبيه بذلك ما قرأته أخيرا عن رفض مدينة « سلبى » Selby بمقاطعة « يوركشير » الانجليزية تمثالا ضخما للسيد المسيح من صنع المثال اليهودى « ابشتاين » بحجة أن ملامح التمثال تدل على القسوة والفظاظة !.

إننى أول من يمنى النفس بكتابة قصة عمر رضى الله عنه للسينما ، ولكننى فى الوقت ذاته أعتقد أن قصورنا الفنى لن يحقق فى الوقت الحالى مثل هذه الأمنية . وحينما نستطيع أن نخرج أفلاما عن أمجادنا الدينيـة فى نفس المستوى الذى تخرج فيه الغرب أمثال هـذه الأفلام عن أمجاده ، فإن التردد والاعتراض يكونان وقتئذ خطأ كبيرا .

من أجل ذلك أعتقد أن مشيخة الأزهر كانت موفقة فى رأيها الخاص فى قصة « يوسف الصديق » ، كما كانت كذلك غير متناقضة مع نفسها حينما لم تبادر فتعترض على حديث نشر فى « الأهرام » عام ١٩٥٥ جاء فيه أن سيسيل دى ميل يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل « صوت الله » باللغة العربية فى الطبعة التى ستوزع من فيلم « الوصايا العشر » فى البلاد الإسلامية . لأنه ونحن الآن فى عام ١٩٥٩ لم يعرض الفيلم المذكور بعد فى أى بلد إسلامى وأعتقد أنه لن يعرض أبدا فى جمهوريتنا ، لأسباب أخرى غير الدين ، وأغلب الظن أن « حديث الأهرام » المشار إليه لم يكن صحيحا ؛ لأننى ـ بالمصادفة ـ لازمت مستر دى ميل ، خلال السنوات الثلاث التى أنتج فيها هذا الفيلم ووقفت على خطته ورأيه فى هـذا الشأن ؟

محمد على ناصف

أثر الفرقان في تحرير الفكر الإنساني

للأستاذ عباس طه

لم يكن الفكر الإنساني في عهد الخليقة الأولى على قسط من التقبل لما توحي به الفطر السليمة والآراء المستقيمة ، بل كان يخبط في جهالة جهلاء وعماية عمياء ، كان يخبط في مهمه قفر لا يأتي البصر الحديد على أطرافه ، تكتنفه الظلمة من كل جانب وتحيط به الكثافة من كل سبيل ، وقد غطى ذلك المهمه بغمام فتكاثف ركاماً ركاماً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ؛ لأن قواد الفكر في تلك العهود الحوالك أحالوا عقل البشر إلى مأكلة رتع فيها قادة الدين واستحلوا لأنفسهم الصدارة الزائفة ، فقلبوا الأوضاع ومسخوا الطباع وبدلوا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين .

فانطفأت شعلة الهداية الدينية من نفوس روادها ؛ لأن النصرانية من جهة والوثنية من جهة أخرى كانت لها الصدارة الأولى في تلك العصور المظلمة القاتمة ، فأول ما وجد الإنسان على أديم تلك الرقعة السوداء كان جاهلا كل الجهل ، وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ ، فلم تشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يوائم الحالة العقلية التي كانوا عليها . ولا تزال على الأرض قبائل ممعنة في التوحش تقوم مثلا محساً على ما كان عليه الإنسان في وجوده الأول - ومما انعقد عليه إجماع المؤرخين الأول أن الخالق سبحانه لم يحرم الإنسان وهو في ذلك الدرك الأسفل من مطلع وجوده من رسل يهدونه إلى الحق بالقدر الذي يطيقه تعقله .

ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوهامه ، فيؤله قوى الطبيعة أو يتخيل وراء ظواهرها روحا أو أرواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه وتقذفه بالشر متى نقمت عليه ، فكان يستدر رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها ولا ريب أنه كان يصدر في كل ذلك عن رجال نحلوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة . فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على ما يدعون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ؛ فكل شيء كان في تقديره

صحيحا ما دام يصدر عن المهيمنين على دياناته والمسكين بخطامه شأن المقلد إذا وقع فى آفاق رجل مضلل يعبث به كما يعبث الريح القاصف بكومة من الهشيم .

فلما استبان للإنسان شىء من العلم بالوجود الذى يعيش فيه وجعلت قواه العقلية تشعره شعوراً ساذجاً بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل ازداد ثقة بقادته وركوناً إليهم واحتفاظاً بما يفضون به إليه .

انتقل الإنسان درجة بل درجات فى باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه العلمية والأدبية وما يحيط به من ظاهرات هذا الوجود وتأهبت للقيام بحصتها من حياته العقلية ، ولم يؤثر فى خضوعه لأوليائه وقادته لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه إلى التطور فيوفونه حاجته من المدد العقلى فيضطر إلى الانقياد لهم كلما حفزته الحاجة الملحة إلى المزيد منه فيظل أسيراً فى قبضتهم .

تتابعت القرون والأجيال والناس سواسية على هذه الحال حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين أحضانها رجال وقر فى نفوسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فى نظرياتهم وقضاياهم وفيما يدلون به إلى الناس من عقائد فكان جزاؤهم القتل . وأكبر من ذهب منهم ضحية لرأيه الفيلسوف سقراط الحكيم عمدة الفلسفة اليونانية ولكن ما لبث هذا الحجر الشديد على الفكر أن خفت وطأته وخمدت جذوته فتمكن فلاسفة كثيرون من الإفضاء بمذاهبهم إلى الناس وفى بعضها ما يخالف عقائد عامتهم بل منها ما يفضى إلى المادية البحتة .

غير أن هذا العهد لم يطل أمده ، فلما شملت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ما ليس للملوك المتوجين فوضعوا حدوداً للنظر لا يسمح لأحد بتعديها فوقفت حركة الفكر أكثر من عشرة قرون أو تزيد لم ينبغ فى غضونها على ما يقول المؤرخون عالم واحد فى أى فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الأوائل مكدسة فى المكتبات ترتع فيها الهوام والحشرات .

وكان العالم لا يخلو فى خلال تلك القرون الراكدة الجامدة من نبوغ عقول نيرة تبحث فى العوالم الكونية وتجوب فى آفاقها بعيون بصائرهم فتأتى بما يعتبره القائمون بالشئون الدينية زيغاً وانحرافا وإلحاداً فكان هؤلاء النوابغ المفكرون يحاسبون على ما ما رسوه وأبرزوه للعيان حساباً دونه كل حساب فيستتابون ويعزرون تعزيراً حاسماً إن كانت خطاياهم هينة فإن عادوا إلى مثل ما أخذ عليهم فجزاؤهم القتل على أفظع صورة .

هذه الشدة البالغة فى القسوة لم تحجب العقول القوية النيرة المستبصرة عن الظهور رويداً رويداً فكان تجار العقائد يلتقطون أصحابها واحداً إثر واحد ويخمدون أنفاسهم

حتى لا تسرى عدواهم إلى سواهم ، ظلت الحال جارية على هـذا المنوال حتى بلغ عدد ضحايا الفـكر الحـر أكثر من ثلثمائة ألف على ما رواه المؤرخون ، أحرقوا بالنار أو ألقوا فى البحار أو ماتوا وخزاً بالسفافيد المحماة .

ومن عجب أنه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون لخطاهم ، والمستهدون بهديهم ، وكلما أوغل رجال الدين فى عنادهم ، استبسل رجال الفـكر فى جهادهم ، واستيقظ الناس من سباتهم ، وبعد أن كان النزاع محصوراً بين رجال الدين ورجال العلم جاوزهم إلى رجال الدين أنفسهم ، وما هى إلا نهزة قصيرة من الزمن حتى انصدعت وحدتهم وتفرقت كلمتهم وتبددت أشمالهم ، فأعلن سوادهم عزلتهم عن البقية الباقية من زملائهم ، ثم أسسوا مذهباً جديداً للمسيحية باسم البروتستانتية فيها تسامح كبير بالقياس إلى غيرها ، ومجال فسيح للفـكر المنطلق غير الحبيس والرأى المستقل وكان ذلك فى القرن السادس عشر أى : بعد ظهور الإسلام بنحو عشرة قرون .

الناظر فى هـــذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات أدبيـــة محلية ، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التى أحدثها القرآن فى الشرق اتصالا وثيقاً ، فإن المسلمين اتصلوا بأوربا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادى بفتحهم للأندلس ، فأسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأى على مايقضى به الدستور القرآنى فتوصلوا إلى مدى بعيد من المعارف والفنون وصارت جامعات قرطبة وأشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين ، فنهلوا من معينها الصافى ما لا يصلون إلى مثله فى بلادهم ومرنوا على الأسلوب الذى كان يجرى عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال فتشبعت به نفوسهم وارتاحت إليه عقولهم ، فلما عادوا إلى بلادهم جعلوا يبثون فى مواطنيهم هـذه الروح الجديدة ، فسرت فى أذكيائهم سريان النور فى الظلام ، وفتحت أمامهم آفاقا من النظر والتأمل وبصرتهم بمواطن الفساد فى نظمهم التعليمية ، وسلطانهم الاستبدادية - ومتى أشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتـكميله فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر غير معتدين بالحدود التى أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا .

ولا شك أن مؤرخى أوربا قد اعترفوا بأن دخول العلوم الإسلامية فى أوربا وغزوها آفاقها كان عن طريق الأندلس وطريق إيطاليا إذن فاستمدادهـا روح نهضتها من النهضة الإسلامية أمر لا مراء فيه ، وقد أطبق على ذلك مؤرخو أوربا وفلاسفتها وأهل الرأى فيها على أن المدنية التى ترتع فيها أوربا اليوم والمجال الفكرى الذى تستوحى فيه حقائق وجودها العلمية ، إنمـا هى من صنع العلوم الإسلامية ، والفلسفة القرآنية ، فبيـان الأسلوب الذى تمكن به القرآن من تحطيم

الأصفاد المنيعة التى كان يرسف فيها الفكر الإنسانى فى مدى سنين معدودة بعد أن لبث عليها قروناً كثيرة يحمل فى طياته أجل العبر للسائلين والمستبصرين .

أنزل الله الفرقان والناس عاكفون على عبادة الأهواء والجمود على تقليد الآباء ، والطاعة للزعماء ، فلو كان قد جرى على النمط البشرى فى بعث هذه العقليات الخامدة ، وتنبيه هذه النفوس الهامدة ، لاستتبع كل ذلك قروناً وآماداً . ولكنه طلع على البشرية فى هذا الموطن بآية الآيات ، ومعجزة المعجزات ؛ لتكون فى هذا الوجود الصاخب قبساً يستضاء به فى الظلمات الحوالك إذا عميت السبل على الحكماء وشملت الحيرة قلوب أهل الخبرة .

لقد حرر الإسلام العقلية البشرية من طريق غير مباشر ؛ لجاءها من الناحية التى يقوى شعورها بها ، وهى ماستئول إليه بعد الموت ، فأفاض مثلا فى التهويل من العذاب الذى ستصلى به النفوس الجاحدة الكافرة فى حياة الجزاء إفاضة لم تؤثر عن أسلوب سواه مؤكداً ، أن الإنسان وهو فى هذا الطور لا تجديه شفاعة شفيع ولا وساطة وسيط ، حتى ولو كان ملكا مقربا أو رسولا مكرماً ، بل لا يجد من يتطوع أو يسخر نفسه لنجدته وانتشاله من وهدته : من أب أو أم أو صديق ؛ لشغل كل امرئ يومئذ بما كسبت يداه « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » ، « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » .

فالنفوس متى أيقنت بأن لا شىء ينجيها من عذاب يوم الجزاء غير عملها الذاتى ، تأملت فى وجه خلاصها من هذا الهول المستطير ، وطالما تحققت أن شفاعة الشفعاء ، ووساطة الوسطاء ، لا ينجيها من مصيرها المحتوم مقتت الجمود على الموروثات ، وأيقظت فى نفسها الاستجابة إلى النقد الذى يوجهها إلى الصراط السوى ، والتمحيص فيما يعرض لها من علوم وآراء ، فلم تعد أسيرة أحد فيما يخامرها من عقائد وموروثات .

وذلك هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأى الذى سعى لإقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا فى تشييدها دماءهم رخيصة على حين أن الإسلام أقامهما فى سنين معدودات ، لقد أنشأ الإسلام أمة تنظر وتتأمل وتفكر ، وتدعو كل فرد منها النظر والتمحيص والبحث .

عباس طه
المحامى

ما يقال عن الإسلام

القدر والمصادفة في الإسلام والفلسفة المادية

للأستاذ عباس محمود العقاد

موضوع هذا المقال كتاب باللغة الانجليزية ألفه كاتب مسلم متخصص لهذه الدراسات الفلسفية هو الأستاذ «مجيد فخرى» وسماه

Islamic Occasionalism and its Critique by Averros and Aquinas.

أى «مذهب المصادفة الإسلامى ونقده عند ابن رشد وتوما الأكوينى».

ويراد بمذهب المصادفة عند الأوربيين إنكار الأسباب الطبيعية واعتبارها مصادفة أو مناسبة تستدل بها على إرادة الله المباشرة للحوادث؛ لأنها المؤثر الحقيق فى كل شىء وراء ظواهر الأسباب.

وإذا ذكر هذا المذهب عندهم بين مذاهب الفلسفة انصرف الذهن إلى فيلسوف اشتهر به وتخصص له وقضى حياته فى الدعوة إليه وتفيد أقوال خصومه وهو نقولا ملبرانش malebranche المتوفى سنة ١٧١٥ ميلادية، مؤلف كتاب «البحث عن الحقيقة» أشهر تصانيفه فى هذا الموضوع.

ورأى ملبرانش فى تعليل الحوادث بالأسباب الطبيعية على اعتبارها المؤثرات الحقيقية فى ظواهر الوجود أنها صورة أخرى من صور الوثنية تدين بآلهة أخرى مع الله تشاركه فى الخلق والإرادة، وأن المؤثرات الحقيقية ليست مما تحدثه الحوادث المخلوقة وليست مما يفيدنا المعرفه بالأشياء؛ لأن المادة أدنى من العقل والنفس، ولا يتأتى أن يؤثر الأدنى فيما هو أعلى منه وأرفع بطبيعته، وإنما يتأثر عقل الإنسان بعقل أرفع منه وأعظم وأقدر على التأثير فيه، وكل ما نراه من هذه الأسباب المادية فإنما هو

عوارض ظاهرة توافق ظهور الإرادة الإلهية لحواسنا وعقولنا ، ولا يلزم منها أن تكون علة مؤثرة فى جميع الأحوال ، كما لا يلزم من تتابع شيئين فى الترتيب أن يكون أسبقهما سببا محققا لحدوث تاليه .

والمؤلف الفاضل - الأستاذ مجيد فخرى - يعرض فلسفة ملبرانش فى سياق الآراء التى تناولتها أقوال الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين ، ولا يفوته أن يتعقب هذه الآراء إلى مصادرها الأولى من كتب الأشاعرة على الخصوص ، ويتوقف طويلا عند المعركة الكبرى التى نشبت حول هذه المسألة - مسألة الأسباب والمصادفات - بين الغزالى وابن رشد قبل أن تصل إلى علماء اللاهوت وأقطاب الفلسفة الأوربية فى القرون الوسطى .

فالحقيقة أن مناقشات الغزالى وابن رشد حول هذه المسألة لم تدع للفلسفة الأوربية بقية تزيدها عليها فى بابها . فكل ماجاء فى أقوال الأوربيين المتأخرين عن السببية فهو معروض بتفصيلاته على الوجه الأتم فى أقوال الطرفين اللذين اختلفا عليه بين مفكرى الإسلام ، وأشهرهم صاحب تهافت الفلاسفة وصاحب تهافت التهافت ومن عقب بعدذلك على الكتابين .

وعنى المؤلف بعض العناية بإزالة اللبس الذى لحق بالأفكار عن مذهب الإمام الغزالى على جليته ، فإن حجة الإسلام رضى الله عنه لم ينكر الأسباب ولا أنكر نتائج البحث فيها ولا وجوب هذا البحث لتحصيل المعرفة المناسبة لمعلوماتنا عن المادة وظواهرها ، وإنما قال : إن هذه الأسباب ونتائجها عوارض تتقابل وتتوافق وتحصل الأشياء عندها أو معها ، ولكنها لا تحصل بها ولا تتوقف فى أصولها عليها ، ولم يكن من المعقول أن يبطل الحكيم الكبير حكمة النظر فى مخلوقات الله وما تنجلى عنه من دلائل النظام والتدبير ، ولكنه لم يكن من المعقول أيضا أن يؤمن بإرادة الله الفعال لكل شىء ثم يقيد الإرادة الإلهية بنظام الحوادث على نحو لا يستطاع فيه التغيير والتبديل ، كما يريده الله .

ونحسب أن فلسفة ابن رشد فى الرد على أقوال الغزالى فى السببية ، كانت خليقة أن تتسع للمزيد من الإيضاح والدفاع ، ونقول : « الدفاع » ، لأنها فى الواقع قد تعرضت للهجوم المتلاحق من النقاد المغربيين وبعض الشرقيين سواء منهم أصحاب المنطق وأصحاب الإيمان ، وبولغ جدا فى تأويل أقواله بما يوهم نزوع الرجل إلى الإلحاد والإنكار ، حتى أصبحت الرشدية فى الغرب مرادفة للكفر والجحود ، وحتى خطر لبعض الشرقيين أن الفيلسوف الكبير يمنع القول بقدرة الله على التغيير والتبديل ، متى تعلقت بهما إرادته على الوجه الذى تقتضيه .

أما فلسفة ابن رشد كما نراها أمامنا مبسوطة في أقواله فليس فيها ما يسوغ هذا الاتهام ، وليس في كلامه ما ينفي قدرة الخالق في خلقه ، بل كل ما هنالك أنه يفهم أن الله لا يصنع الشيء على وجه من الوجوه إلا لحكمة عالية تستدعي أن يكون ذلك الشيء مخلوقا على هذا الوجه دون غيره ، وأن خلقه على هذا الوجه أحكم من خلقه على سواه ، فلا يجوز أن يقال : إن اختياره سبحانه وتعالى لسننه في خلقه عبث يتساوى فيه الاطراد والاختلاف ، وليس من الممتنع على قدرة الله أن تكون له سنن يختارها غير هذه السنن ، ولكنه لا يختار السنة وينقضها في حالة واحدة ولا يخلو عمله من نظامه المأثور حيثما ارتضى لخلقه هذا النظام .

والمذهبان من ثم ملتقيان على أساس واحد ، وهو التسليم بالقدرة الإلهية وأثرها في أسباب الحوادث ونتائجها ، ولولا أن الجدل يغري بالناحية المخالفة لما اتسع الخلف على السببية كل هذا الاتساع بين القائلين بحصول الأشياء مع هذه الأسباب والقائلين بحصولها من أثر هذه الأسباب .

* * *

ونحن ندع الكتاب وموضوعه القديم عند هذا العرض الموجز وننتقل منه إلى الجانب الحديث من هذه المسألة في الفلسفة المادية الأخيرة عند الغربيين ، وهي فلسفة المادية الثنائية « الجدلية » التي يسمونها أحيانا بالفلسفة المادية الاقتصادية ، ويفسرون بها ظواهر الوجود جميعا وظواهر التاريخ الإنساني الذي تحكمه القدرية الاقتصادية كما يقولون .

* * *

إن الحملة على عقيدة المسلمين في القضاء والقدر قد استنفدت كل ما في جعبتها من السهام التي فوقها إليها فلاسفة القرون الوسطى ثم عاد الساسة المستعمرون إلى تفويقها مرات خلال القرن التاسع عشر ؛ لأنهم أرادوا أن يجعلوا استعمارهم ضرورة محتومة في البلاد الإسلامية ، تمهيدا في زعمهم لإصلاح تلك البلاد وتعليم أهلها وإنقاذهم من جمود « التواكل » الذي فرضته عليهم عقيدتهم في « القسمة » وفي « المكتوب » .

نفدت سهام الفلسفة الأوربية في القرون الوسطى وأعقب الحملة على الإسلام بهذا الصدد مذهب على يؤيد آراء الحكماء المتكلمين والأشاعرة ، ويتفق عليه علماء العصر كما يتفق عليه فلاسفته ، وهو : تقريرهم أن العلم يصف الظواهر الطبيعية ويسجل أوصافها التي يقترن بعضها ببعض على صورها الظاهرة

ولكنه ينتهي عند ذلك فلا يدعى أنه قد نفذ إلى أصول العلل والأسباب من ورائها .

ونفدت سهام الاستعمار وأعقبت حملته على « القدرية المتواكلة » حملة مناقضة لها تحاول أن تثير المخاوف من خطر الإسلام المهاجم وخطر « الجهاد » كما يصورونه في حملتهم الجديدة على غير معناه .

أما الحرب القائمة اليوم في هذا المجال فهي الحرب الضروس بين عقيدة الإسلام في القضاء والقدر وعقيدة الكفر والإلحاد التي يبشر بها الماديون الاقتصاديون ، وهم زمرة الشيوعية بزعامة ماركس وأنجلز ولينين .

هؤلاء الماديون ورثوا «القدرية» المادية من أسلافهم في الإنكار والدعوى العلمية : أنصار القوانين الآلية في الطبيعة وفي حياة الإنسان وفي تواريخ الأمم الإنسانية .

فهؤلاء الماديون « الميكانيكيون » ينكرون الخلق الإلهي ، ويفسرون كل حركة في هذا الوجود كما تفسر حركات الآلات المسيرة على نظام لا يقبل التغيير والاختلاف ، ومن هنا كانت تسميتهم بالميكانيكيين أو الآليين .

وتلاهم الماديون الماركسيون فنقضوا هذه الفلسفة بما وسعهم من العنف والسخرية مخافة أن يتسلل من الفكر إلى القول بالحاجة إلى « المهندس » المدبر وراء هذه « المكنة » الأبدية المحكمة ، تسليما بأن « المكنات » لاتدير نفسها ولا تتركب باختيارها ،ولابد لها من تركيب ومن إدارة ، يتولاها مهندس لا يحسب في عداد المكنات .

قال الماديون الاقتصاديون : كلا . كلا . إن الوجود يتلقى الحركة من طبيعة تكوينه ، ولا يتلقاها من قانون مسلط عليه ، دخيل على حركاته وسكناته .

فالحركة في المادة ضرورة مستمدة من طبيعتها الأبدية، وطبيعتها الأبدية أنها تشتمل على نقيضين يتبع كلاهما الآخر إلى غير انتهاء .

هذا في العالم المادي منذ كان بلا ابتداء .

أما في العالم الإنساني فالضرورة الأبدية تمثلها الظروف الاقتصادية ، فهي القوة المسيطرة على الأمم والآحاد ، وهي الدافع الغالب الذي لا تقاومه إرادة الفرد ولا إرادة الجماعة ، فلا حيلة لإرادة إنسان قط مع ظروف الاقتصاد أو وسائل الإنتاج ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تخطر لإنسان فكرة علمية أو لمحة فنية مالم يكن لها محرك من ضرورات الاقتصاد الممثلة في وسائل الإنتاج.

نعم . لاسبيل إلى فكرة قط لم تخلقها وسائل الإنتاج ، ولم تبعثها حاجة مادية في ظروف الجماعة التي تنبعث منها ، وتدخل في ذلك علوم الرياضة وبديهيات المنطق والهندسة والحساب

وأول الأباطيل فى هذا المذهب أن يسموه بمذهب « التفسير » المادى للتاريخ ، ولا تفسير فيه للمادة ولا للتاريخ ؛ لأن التفسير هو حل مشكلة التناقض فى الأشياء ، فلا يحتاج الذهن إلى التفسير إلا إذا حيرته مشكلة من مشكلات التناقض يحاول أن يخلص منها إلى التوفيق المعقول .

أما هذا المذهب فقد جعل النزاع نفسه حكما فى قضية النزاع، وجعل التناقض حلا للإشكال وهو عين الإشكال .

المادة مركبة من نقيضين ، وهذا هو تفسير المادة عند الماديين ، وهذا هو الحل الذى يبطل عندهم حيرة العقول .

وأشد من ذلك إمعانا فى الهرب من الحقيقة والتعمية على الفكر أنهم لا يصورون لنا مادة الوجود كيانا واحداً يمضى فى سلسلة النقائض إلى نهايتها على وتيرة واحدة فى هذا الكون المنتظم ، الوحيد .

بل ننظر إلى المادة على قولهم فنرى أمامنا أكوانا متفرقة كل قطعة منها تركب رأسها إلى نقائضها المزعومة كأنها منفصلة عما حولها . فهنا فى الفضاء الرحيب دخان يتحول إلى كوكب وإلى جانبه فى أجواز الفلك كوكب يتحول إلى دخان ، وبينما تنتهى الدولة الرومانية من نقائضها ، تبتدئ الدولة العثمانية فى نقائض أخرى ، وتلحق بهما ثالثة ورابعة وخامسة ، كأنها تستمد أصول مادتها من ألف كون لا من كون واحد .

وتعود إلى النقائض المزعومة فلا ترى حالة واحدة منها تعتبر نقيضا لما قبلها أو لما بعدها ، فلماذا يعتبر عنصر الحديد مثلا مناقضاً لعنصر النحاس أو عنصر الهدروجين ؟ ولماذا يعتبر عهد الصناعة مناقضا لعهد الفروسية ؟ وعهد الكهرباء مناقضا لعهد البخار ؟ أو عهد الذرة مناقضاً لهذا وذاك ؟ .

إنها تختلف نعم ! .

إنها تختلف ، لأنها أشياء كثيرة وليست بشىء واحد ، وقد تختلف فى وقت واحد ولا يقال إن اختلافها متولد من نقيض يجر إلى نقيض على تتابع الأزمان ، وفرق بعيد بين القول باختلاف الأشياء وبين القول بأن النقيض منها ينتج النقيض بعده ويسبقه فى الزمان .

وهذا هو معنى تناقضهم الذى لا يفسر شيئا من الاختلاف فى الزمان الواحد ولا من الاختلاف فى الأزمنة المتعاقبة .

هذا هو التفسير الذى لا يوجد فى الدنيا شىء أحوج منه إلى التفسير .

ونرجع إلى «وسائل الإنتاج» التى يفسرون بها كل دور من أدوار التاريخ الإنسانى فماذا نفهم منها كما يصورونها ؟ .

نفهم منها أن القوم يتخيلون « وسائل الإنتاج» هذه ماردة هائلة تكمن وراء التاريخ لكي تنقله من دور إلى دور إلى نهاية الأدوار .

ولكن ما الذي يغير وسائل الإنتاج ؟ ما الذي يغير هذه الماردة الهائلة التي تغير جميع الأدوار ؟ أتغيرها حاجات الناس بين حقبة وحقبة وبين جيل وجيل ؟ فما الذي يغير حاجات الناس فيطلبون اليوم غير ماطلبوه قبل سنوات .

وإذا كانت حاجات الناس هي أساس النظم والأديان والعلوم والمعارف والفنون فلماذا لم يعرفوا علاج السرطان حتى الآن ؟ ولماذا لم يعرفوا علاج الأوبئة وهم قد احتاجوا إلى علاجها قبل مئات القرون ؟

وإذا كانت بديهيات الرياضة نفسها وليدة الحاجة إليها فلماذا عرفت حضارة «المكسيك» رسم الدائرة الرياضية ، ولم تعرف صناعة «العجلة» أو الإطار الدائر ؟ مع أنها هي الدائرة المفيدة التي يحتاجون إليها في الزراعة وفي الصناعة وفي القتال ؟ .

وانظر إلى ما شئت من تفسير «مادي» عند القوم فلن تجد فيه إلا التعمية والزيغ في التفكير والهرب من المشكلة باتخاذ المشكلة في عقدتها الكبرى حلا للإشكال .

وهذه هي النواميس الفعالة التي أسقطوا أمامها حرية الإنسان واختياره ، وحسبوا أنهم قد استردوا هذه الحرية من القضاء والقدر في عقائد الأديان ولا سيما عقيدة الإسلام وأنهم قد انتزعوا الحرية الإنسانية من ظلمات الدين وأسلموها إلى أنوار العلم تحت شمس النهار .

والآن نتحرى الفرق العلمي - ولا نقول الديني أو الفلسفي - بين تفسير «المادية الماركسية» لحرية الإنسان وتفسير الإسلام لهذه الحرية على حسب العقيدة الإسلامية المتفق عليها بين الحكماء والمتكلمين والفلاسفة من المسلمين .

وخلاصة هذا الفرق في كلمات معدودة أننا أمام تفسير معقول ، بل أمام التفسير المعقول دون غيره ، لا أمام تعمية وروغان في الحقيقة ، ولا أمام مشكلة نستريح منها - كرها - فنحسبها حلا للمشكلات .

يعتقد المسلم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال المريد لكل شيء ، والإنسان وما يعمل بعض هذه الأشياء .

ويعتقد المسلم أن الإنسان مسئول عن عمله محاسب عليه ، ولا تناقض بين العقيدتين . لأن المسلم يعتقد أيضاً أن الله خلق له حريته ، وأن الله متى خلق للإنسان «حرية»

فهى حرية وليست بقيد ، وكون الله خالق للحرية وللقيد لا ينفى أنهما شيئان مختلفان ، وأن الحرية اختيار وأن القيد اضطرار ، فهكذا يصنع الصانع الخشبة التى لا تتحرك ويصنع المحرك الذى يحمل تلك الخشبة ، ولا يكونان مع ذلك صنعة متشابهة لأنهما خارجان فى قدرة واحدة .

فالحرية حين يخلقها الله للإنسان هى الحرية التى يحتاج إليها للنهوض بالتبعة الملقاة عليه .

وفهم الحرية الإنسانية على هذه الصفة هو الفهم الوحيد الذى يقبله العقل ولا يتطلب له حرية سواها .

وإلا فما هى الحرية التى يريدها إن لم تكن هذه الحرية كافية لحمل التبعة والمحاسبة عليها ؟

أتراها تكون حرية تسمح لكل إنسان أن يصنع ما يشاء بنفسه وبغيره من الناس وسائر الموجودات ؟ .

تلك حرية مستحيلة عقلا ، لأن حرية فرد واحد على هذه الصفة تعطل كل ما عداها من الحريات .

أتراها تكون حرية متماثلة بين جميع المخلوقات فى كل زمن وكل مكان ؟ .

تلك قيد من القيود الآلية لا محل معها لاختلاف المساعى والأعمال واختلاف التبعة والحساب .

فالقدرية الإسلامية هى القدرية الوحيدة التى يقبلها العقل علما ومنطقا وتفكيراً على نهج المؤمنين أو نهج المتشككين .

الله خالق كل شىء يريد كل شىء ويخلق كل شىء .

ومما يخلق الله هذه الحرية الإنسانية ، فهى حرية توافق ما عليه من تكاليف .

وغير ذلك إحالة فى العقل وفى فهم النواميس والحـــدود .

غير ذلك هو « التعمية » المادية التى تسول للإنسان أن يلغى حريته أمام الأضداد والنقائض ، وأن يكره عقله على تصور المحال وهو لا يتصوره مفتوح العينين ، فما من بصر ينظر ليرى يستقر بالنظر عند مشكلة من النقائض تحتاج إلى كل تفسير ، ثم يقول لنفسه ولغيره : هذا هو التفسير .

ولقد آمنوا بالمادة وهم لا يفهمونها ، ووهبوا لها حريتهم وهم لا يعاتبونها ولا يلومونها .

هل ماتت الوثنية العمياء كما قيل ؟ كلا . هذه هى الوثنية فى ثوبها القديم ، وستذهب كما ذهبت وثنيات من قبلها فى شتى الأثواب .

ولا بقاء لغير الله وما أراد له البقاء ؟

عباس محمود العقاد

قصة الفداء

للدكتور أمجد الطرابلسي
وزير التربية والتعليم بالإقليم الشمالي

شعَّ من بسمة الصباح الضياء وأفاقت من نومها البطحاء
وتبدت ذُكاء فانتفض الرمـــلُ ابتهاجا لما تبدت ذُكاء
فمن الشمس والرمال نُضارٌ ومن الظل واحةٌ غناء
الشُّهوب الفساح والأفق الزا هى ، وتلك الغمائم الشقراء
والخِضمُّ الموّاج بالماس والتبـــرِ المصفى والقبة الزرقاء

صورةٌ تفجر العيون وسحر عبقرى ، ومتعة ، ورُواء
ووَحشة ملؤها الجلال وصمت خاشع لا تشوبه ضوضاء
أيها الشاعر اتئد ! هل تؤدى ما تؤدى الطبيعةُ الخرساء
إن صمت الرمال عودٌ ومزما رٌ ونايٌ ومزهرٌ وحُداء
نغم يُفحِم المسامع سحراً وغناء ، هيهات منه الغناء !

• • •

من هو السالك القفار وئيداً للأسى فى جبينه سيماء
مطرقا رأسه الصديع تبدّى فى أسارير وجهه البأساء
وإلى جنبه ابنهُ حائر اللب ـتنزّى فى صدره الأهواء
يتأسى خُطى أبيه والحمـ ـلان بالشاة أسوة واهتداء

يسأل الرمل عن وجوم أبيه   فإذا الرمل منصت والفضاء
يسأل الأرض والسماء. فما تنـ   ـبيه أرض ولا تجيب سماء
وتراه يهم يسأل عن ذا   ك أباه الحزين لولا الحياء
يا إلهى ! هـذا خليلك إبرا   هيم يغدو لما أراد القضاء
وإلى جنبه ابنه البر إسما   عيل سلواه فى الدنى والعزاء
جاءه وحيك المقدس فى الليـ   ـل وقد عمت الدنى الظلماء
هب من نومه الشرود مروعا   ونأى عن جفونه الإغفاء
إنما تطلب السماء فتاه !   ليس عما تبغى السماء نجاء !
قد قضى الله ما أراد وأمضى   وقضاء الله الرحيم مضاء
ليكن ما أراد سوف يضحى   بابنه وهو عيشه والهناء
يارحيم الأكوان ! حكمتك الغرا   ء ، حارت فى كنهها الحكماء
إن أقسى الجراح يا رب ما عا   ناه فى الأرض رسلك الخلصاء
أنت قدرت أن يعذب فى الأر   ض نبى ، ويسعد الأغبياء
طال سير الفتى وخارت قواه   وعراه بعد النشاط وناء
أين يمضى به أبوه ولا زا   د لديه ، وليس فى القفر ماء
وتجرا وقال يستطلع السر   وقد آده الونى والظماء
د أتى طال سيرنا وعرانى   نصب منه مرمض وعناء
أين نبغى ؟ لعلنا قد ضللنا   نهجنا ! أين قصدنا والرجاء ؟
أبتاه كلت يداى ورجلا   ى ، وأدمت أصابعى الحصباء
مل إلى الظل نستجم قليلا   فلقد هد قوتى الإعياء !
فأجاب الأب الرحيم يوا   سيه وقد شفه الأسى والشقاء
باسما يمنع المدامع أن تجـ   ـرى وأن تستفزه البرحاء :
د يا صغيرى الحبيب ، كيف خبا   عزمك ، أين الثبات أين المضاء ؟
غاية السير ذروة التل هذا ،   وعليه المقيل والإرساء
فوقه يا بنى توسى الجراحا   ت وتلقى الجهود والأعباء
فاستحى الطفل من أبيه وأغضى   منتهى البث والأسى الإغضاء

ثم سارا وفى الفؤادين نار وأحاديث جمة وبكاء ! . .
سكنت خطرة النسائم فالأر ض لهيب والأفق والأجواء
فبكى الطفل لا يحير شكاة والفيافى عن بثه صماء
مطرقا رأسه الصغير ليخفى عن أبيه البكا ، وكيف الخفاء ؟
وأبوه الساجى يسارقه اللحـ ـظ فتنزو فى صدره الأدواء
مشهد يمنع القوافى من الجر ى وتعيا عن وصفه الشعراء !
ابنِ كمع البنين ماذا يعانى ويقاسى من سكبك الآباء ! ؟
رحمة للأب الشفيق وللأم إذا ما تباكت الأبناء !

* * *

مسح الطفل أدمعا فوق خديـه وأهدابه لها لألاء
قائلا والشحوب فى وجه با دكن قد براه داء عياء :
« يا أبى قد دنا المكان وفيه للبهيض الهناء والنعماء
هو ذا المذبح المقدس والحبـ ـل ، وهذى سكينك العوجاء
وعلى منكبى محرقة الذبـ ـح ، فأين الضحية القرناء ؟
أترى قد نسيتها أم تراها سبقتنا بها إليه الرعاء ؟ »
صعق الوالد الوجيع وسالت عبرة فوق خده عصماء
وأجاب ابنه مشيحا بوجه غضنته السنون والأرزاء :
« يا صغيرى هناك يرقبنا القر بان ، لا يقعدن بنا الإبطاء
إيه يا موكب الجلال الذى ما دت له من خشوعها الصحراء
إن هذى الدموع ضجت لها الدنـ ـيا ، ورجت لسكبها الأرجاء
وأجل الدموع ما يذرف القلـ ـب ، وتعيا عن حبسه الكبرياء
الفتى خافت الأنين صموت قد براه طول المدى والحفاء
وأبوه يبكى عليه حنانا بالدمع تسحه الأنبياء !
ذاك إبليس فتنه الشر والآ ثام ، من كل همه الإغواء
ساءه أن يفوز ما أمر اللـ ـه ، وأن يخذل الخنا والرياء
فأتى هاجراً ينبئها الأمـ ـر ، وإبليس ساعداه النساء

قال : « فيم الثواء يا أم إسما عيل ، والشكل بيِّنٌ والشقاء
لست تدرين ما يحيك لك المقـــدار ، نامت عن حظها الأشقياء !
قد غدا بابنك المحبب إبرا هيم تحدوه جُنة هوجاء
زاعما ـ والإله أعدل من أن تصطلى نار سخطه الأبرياء ـ
أن وحيا أتاه ، فى الليل ، والنا س نيام ، والأرض والآناء
ودعاه ليذبح الطفل صبرا ! تلك رؤيا مكذوبة شنعاء
أسرعى ! أنقذيه ! من قبل أن تر وى بقانى دمائه الغبراء ... »
فأجابته وهى تخفى أساها ولظاها : « لن يكذب الإيحاء !
إن يكن ذاك ما أراد إلهى فهو الخير كله والهنـــاء »

* * *

إيه إبليس ! خاب فألك يا مســـكين ! ما كل غادة حواء !

* * *

وصل الوالد الحزين ، ولكن ود لو طال سيره والعناء
وابنه من ورائه مثقل الخطـــو ، تلظى فى صدره الصعداء
حط عن منكبيه وهو يجيل الـــطرف : أين الخراف ، أين الظباء !
وتحرى فلم يجد حوله الذّبح ولا هز مسمعيه ثغاء
فرنا ثائر الشكوك ، وفى عينـــيه شوق للسر واستقصاء
وأبوه يحار فى فمه النطـــق ، وفى الرزء تبكم البلغاء
شد من حزنه على قلبه الوا هى ، وغشت عيونه الضراء
قال يا نور مقلتى ويا من هو عيشى وسلوتى والرجاء
طال ما قد كتمت عنك من السر وقد شاق سمعك الإصغاء
يا رجائى ! ماذا أقول ؟ وهل للنطـــق فى زحمة الدموع غناء ؟
كلما هم بالكلام لسانى أيبسته المصيبة السوداء !
جاءنى الوحى فى المنام بأمر ليس فيه دفع ولا إرجاء
قال لى : اذبح غداً وحيدك ، يا للـــهول تنزو لذكره الأحناء
يا بُنَىَّ ! انظر ما تراه ، ولا تأ خذك بى غضبة ولا استهزاء

فاقشعر الفتى كما انتفضت فى ... خطرة الريح وردة حسناء
وسرت رهبة الرَّدى فى مُحيا ... ه ، ورنّت غمامة صفراء
ود لو يكتم الأسى عن أبيه ، ... كيف يخفى عن العيون الداء ؟
رعدة الموت ماتخلص منها ... فقراء قضوا ولا أمراء
إنما الموت حيثما حل فى الكو ... خ وفى القصر غمة وبلاء
هو للشيب مثلما هو للأط ... فال ، غول ، وحية رقطاء
وأجاب الفتى يواسى أباه ... لو يفيد العزاء والتأساء !
أبتاه ! افعل ما أمرت ولا تأ ... خذك بى رحمة ولا أهواء
أنفذ الوحى يا أبى ! هل يطيع الله ... إلا المعاشر السعداء ؟
أينا خالدٌ على هذه الأرض ... ، وما للحياة فيها بقاء ؟
لاتهن يا أبى هلمّ فاضجعـ ... ـنى من قبل أن يدب المساء
ثم عصّب عينى رفقا بمنديـ ... ـل ، فللموت سحنة نكراء
واشحذ الخنجر المظمأ حتى ... تتلظى شباته الحمراء
ثم ضعه على خناق واذبحـ ... ـنى كما تذبح الظبا والشاء ...
فإذا ما ذبحتنى وتروت ... من دمى هذه الرمال الظماء
فاحترس أن يصيب كفك شىء ... منه ، أو أن يبلّ منك الرداء
وتجنب رشاشه ، لايهن أجـ ... ـرك فيه ، ولا يقلّ الجزاء
دعه للرمل يتسرب فى حنايا ... ه ، ففيه لحرها إطفاء
دعه يذهب كما تبدد عطر ... فى الفضا أو تغيبت أصداء ...
وإذا مافرغت منى وحالت ... بيننا ظلمة الردى الشحناء
وأردت الرجوع بعدى إلى الدا ... ر ، فلى يا أبى إليك رجاء
ذاك ثوبى فانزعه عنى إذا مُـ ... ـت ، وقد خضبته منى الدماء
واحبُه إذ تعود ذكرىً لأمى ... فبه سلوة لها وعزاء
إيه ! أماه لو علمتُ مصيرى ... وتبينتُ ما تريد السماء
لتمليتُ منك لثمـاً وتقبيـ ... ـلا ، ولكن هيهات منا اللقاء !
لست آسى إلا عليك من الدنيـ ... ـا ، ولولاك لم يرعنى العفاء
عذب الموت فى سبيلك يارب ... وساغ البلى وطاب الفناء

فمرور السكين فى العنق لثم ولهيب النيران ظل وماء . .

* * *

أضجع الوالد ابنه مثلما تضـ ـجع شاة وديعة خرساء
والفتى ساكن كما نام فى المهـ ـد تغنيه أمه الحسناء
والأب الواله المعذب تدوى ثائرات فى صدره الأنواء
قبّـل الطفل ثم عَصَّبَ عينيه وقد ينفع البصير الغطاء
تؤلم المبصر الدياجى وتنجو من قذاهن مقلة عمياء
وانتضى الخنجر الرهيب بكف أرعشتها الفجيعة الحمـراء
كاد يردى فتاه لولا هتاف فى السموات مطرب ونداء
وإذا بالسماء تلتمع الأ نوار فيها وتسطع الأضواء
رفـع الوالد المعذب عيناً ملأتها المـدامع الوطفاء
فإذا بالدموع تضحك فى عينيه بشرا وتنجلى الضـراء
ملك فى الفضاء يحمل كبشا قد تعالى فى السحب منه الثغاء
هبط الأرض مثلما تهبط الرو ض اشتياقا حمـامة بيضاء
فدية للصبى أرسلها الله تهـادى يحملها البشراء
رحمة الله كم تداركت الخلـ ـق وقد أعوزتهم الرحماء !

* * *

يا خليل الرحمن هيا ارفع الطفـ ـل فقد ردته إليك السماء
واذبح الكبش يا نبىّ فداء عظم المفتدى وطاب الفداء
واسجدا خاشعين شكراً لمن عم البرايا نداه والآلاء
رحمة الله تغمر المجرم العا صى ، فكيف الخلائق الأبرياء
إيه شعرى قد تيمتك البطولا ت وأغواك نورها الوضاء
غنها فهى للجراحات ملهى وعزاء وبلسم وشفاء
وارو‌ها فالشباب مصغ لما تنشـ ـد قد هده الأسى والداء
والزمان الشقى ساد به الشر وأخنى على بنيه الشقاء
عذبت فى جحيمه العبقريا ت كما فاز بالنعيم الرياء . . .
غنها ربما تعزى جريح أو تجافت عن ذلها الجبناء
سير الخالدين كم شب فى أحـ ـضانها الخالدون والعظماء

دمشق أمجد الطرابلسى

آراء وأحاديث

كان من فضل الله على الأزهر ، علمائه وطلابه ، أن أبل شيخه الجليل من مرضه ، وأن استأنف عمله فى الإدارة العامة بعد غياب شق مداه ، ويسرنا - بين يدى هذه العودة ، وقبل أن نسرد ما ألقاه الأستاذ الأكبر من كلمات موجهة ، وتصريحات هادية أن نثبت هذه التهنئة الآملة كما كتبها الأستاذ محمد كامل الفقى المدرس بكلية اللغة العربية .

تهنئة وأمل

بعد غيبة طال مداها ، ومحنة امتحن بها السيد الإمام فكان عليها من الصابرين ، أشرقت طلعته ، وكرمت وفادته ، وتندت بالشكر ألسنة المسلمين ، أن أبرأ الله قدوتهم ، الذى هو منهم فى موضع الحب والإجلال والتكريم .

إن الأستاذ الأكبر « الشيخ محمود شلتوت » رجل صنعه الله على عينه فذا متميزاً فى صفاته وغاياته ، فهو ذكى لماح ، جرىء هادف ، لم يعش حياته - فى شتى مراحلها - كما يعيش الناس ، إذ لم يدرج لحظة واحدة فى مدارج الخمول ، أو يرض بما تفرضه الحياة إن تجافى مع أسمى الغايات وأكرم الأمثال .

فهو الثائر طالباً وأستاذاً ، وهو الناقد لما حوله من حياة رتيبة غير نابضة بالحس والحركة والتوثب ، وهو الناشئ فى مدرسة الإمام « محمد عبده » والمعاضد للأستاذ « المراغى » والمناصر للرجل العظيم « الشيخ عبد المجيد سليم » بل هو خاصة أوليائه وأصفيائه .

وهو المتمرد على فنون من أساليب التعليم فى الأزهر إذ رآها صارفة له عن رسالته التى خالطت دمه ، وامتزجت بإيمانه ومشاعره .

بلغ الشيخ فى الفقه المتبصر مرتبة المجتهدين ، وعرف بندائه إلى الإصلاح مؤمناً مصراً مكافحاً لا ترده عن الذود عن الأزهر والمسلمين صعاب ، ولا يبالى فى الجهر برأيه بما يرتصد له من عنت أو أذى .

والحقيقة التى يلتقى فيها محبو الشيخ وحاسدوه أنه أمد العلماء صوتا ، وأقربهم من قلوب المسلمين مكانة وأذيعهم صيتا .

وقد كان الأزهريون إلى قريب يستخذون من بعض ما يعيرون به ، وينفرون من الصور المرتسمة لهم من بعض قادتهم ، أما اليوم فهم يكتسبون مزيداً من التكريم والرفعة، مما يجده شيخهم الجليل من توقير يلائمه ، وإجلال يتسق مع علمه وكفاحه فى رد العاديات عن الأزهر والمسلمين .

ومنذ حين تنادى أعداء الأزهر اللدّ ، وخصومه العتاة بالخلاص من هذه الجامعة ، وزعموا لتبرير دعوتهم الفاجرة أن الأزهر لم يعد صالحا للحياة لجافاته للنهضة ، ولعكوفه على رجعية تعوق الركب ، ودعا هؤلاء إلى الخطوة الثانية ، وبرروا دعوتهم بفيض من الأدلة المارقة ، وجرؤ بعض الناس على ما يراه « شيخ الأزهر » من فتوى ، فسفهوا الفتوى فى غير ما استحياء ، ودفع الاستهتار « درية شفيق » مثلا إلى تغليط « شيخ الأزهر » فى رأيه ولعل بعض المنحلين انتصر لها « مفتية موفقة » .

وقال بعض كبار المشرفين على التعليم : إن مناهج الأزهر لا تساوق القومية العربية أو نهضة العرب الصاعدة .

وكان علماء الأزهر والمشفقون عليه يأسفون أشد الأسف لهذا التهافت ويشفقون على « أبى الجامعات » أن تتكاثر عليه السهام . وأن يمسى هدفا لحملة ظالمـــة لا تبصر فيها ولا رشاد .

ولكنا اليوم نحس بأن هذه الألسنة قد خرست ، وبأن تلكم السهام قد ارتدت إلى نحور أهلها ، وبأن الأزهر قد أمسى صاحب الفضل فيما أعده الله له ، وسمت بين المسلمين مكانة إمامه وأساتذته وطلابه .

ولعل من يمن الطالع أن يمسى الأزهر أمل المسلمين شعوبا وحكومات فى أن يقهر مبادئ الزيغ التى كادت تدخل إلى بعض النفوس والعقول ، وأن يصد عن مصر بل عن المسلمين عامة ما تسلل من الشرق إلى عقائدهم مما يهدم أصول الإيمان ، ويمحو - لا قدر الله - رسالة الإسلام وكتاب الله المجيد.

فالعلماء اليوم جند يقفون صفا لصيانة المسلمين من الشرك الزاحف والضلال الذى يدق أبوابهم فى شره وإصرار .

ولقد أتيحت للأزهر فى عهد شيخه الحالى فرصة يثبت فيها وجوده العامل ، وفضله القوى الذى لا يغنى غناءه فى الذود عن الإسلام وكتاب الله قوة مهما اشتد خطرها وطال صيالها .

ويقيني أن هذه الفرصة هي حلم من أحلام « الشيخ » وأمل من أسمى آماله التي تغنى بها ، فهو لا يرى نفسه سعيداً باسما قرير العين إلا يوم أن تتاح للأزهر فرصة يؤدى فيها واجبه وينهض فيها برسالته ، ويشهد الناس جميعا سهره على هذه الغاية المقدسة وفناءه فيها ، وبلاءه في سبيلها بلاء مؤمنين أبطال حراص على مجد الإسلام ورفعة شأنه وإعزاز أهله .

لقد كنت بالأمس القريب أمر بقاعة المحاضرات الأزهرية فيشجيني ما غشاها من ظلمة ، وأسأل نفسي متى أراها مشرق الفكر ومنبع الأدب والعلم ؟ .

وقد سجدنا لله شكراً أن انقشع عنها ذلك الصمت الرهيب فباتت منبراً لفحول الأدب والعلم ، وأئمة البيان والفكر ، واجتذب الأزهر الأندية إليه ، وعادت الجامعة العملاق بتلك الوثبة قبلة وكعبة .

وأقيمت أسس جديدة نزيهة لشئون شتى في الأزهر ترقى عن الشبهات ، وتتنزه عن الأهواء ، ودبت الحياة الجادة الكريمة في أروقته مما يبشر بالأمل في نهضة مباركة إن شاء الله .

هذه خواطر سريعة تتألق في عقولنا وقلوبنا بمناسبة إبلال الأستاذ الأكبر وقيامه على شئونه من منبر هذه الجامعة نمزجها بفرحتنا الكبرى ضارعين إلى الله أن يمكن له وللعلماء العاملين من النهضة التي تعز شأن الإسلام وتؤيد ركب العرب ، وتمضي بالمسلمين جميعا إلى غايات طالما تطلعوا إليها ؟ .

محمد كامل الفقي
مدرس بكلية اللغة العربية

* * *

ذلك ، وقد أدى الشعر حق هذه المناسبة ، وكنا نود لو اتسعت صحائف المجلة لاستيعاب القصائد الجيدة التي ألقيت ، وفي طليعتها قصيدة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة ، وقصيدة الأستاذ أحمد شفيع السيد ، والأستاذ محمد أمين جمال الدين ، والأستاذ حسني مهدي هداهد ، والأستاذ يوسف ابراهيم خليل . .

* * *

أما الصحافة فقد أحصت ما ألقاه الأستاذ الأكبر من كلمات ونصائح ، بعد ما صورت مشاعر الأزهريين قاطبة في استقبال إمامهم العظيم .

قالت الأهرام :

فتحت غرفة مكتب شيخ الأزهر أمس لأول مرة بعد ٢٢٢ يوما وجلس فضيلة الشيخ محمود شلتوت إلى مكتبه يزاول عمله من داخل الأزهر . كانت أوامر الأطباء تفرض

على فضيلته عدم مغادرته للبيت الذى يسكنه فى مصر الجديدة ، واستسلم الرجل لأوامر الأطباء وراح يزاول مهمته من مكتبه داخل البيت ، وظل مكتبه فى الأزهر مغلقا خلال هذه المدة ، وأمس انتهت أوامر الأطباء ، ولأول مرة يغادر فضيلة الشيخ محمود شلتوت بيته فى طريقه إلى مكتبه

كان أول قرار لشيخ الأزهر الجديد هو موافقته على مشروع تسجيل القرآن المرتل الذى اشتهر بمشروع المصحف المسموع . قال شيخ الأزهر إن رسالة جماعة كبار العلماء هى : الاجتهاد فى فقه الإسلام واستنباط الأحكام من المصادر الأولى وهى القرآن والسنة . والذين يغلقون باب الاجتهاد هم فى الوقت نفسه يجتهدون ويرجحون ويختارون والترجيح والاختيار نوعان من الاجتهاد ونحن نعد الأزهر ليكون أبناؤه أئمة مجتهدين .

أول برقية من بطريرك الأقباط

كانت هناك مئات البرقيات تلقاها شيخ الإسلام من كل مكان . من الدول ومن الهيئات ومن الأفراد .

كانت أول برقية من غبطة البابا كيرلس السادس بطريرك الكرازة المرقسية والتى يقول فيها « شكراً لله على شفائكم . الله يحفظكم فى صحة تامة وعافية كاملة »

بين الأستاذ الأكبر والعقاد

وبعث الأستاذ العقاد هذه البرقية

صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر . مصر .

رضاكم آية الرضى من الله وعباده الأكرمين وفقنا الله لاستحقاقه بالعمل النافع والجهاد الصالح والهداية التى تديم لنا العطف فى فضيلتكم ومريديكم .

عباس العقاد

وقد بعث الأستاذ الأكبر بهذا الرد

السيد الأستاذ الكبير عباس العقاد :

حياتكم الحافلة بالخير المليئة بالإنسانية تبشرنا بأنكم ستخدمون البشرية عقلا وعاطفة فى اللاحقة بأضعاف ماخدمتموها فى السابقة أطال الله بقاءكم وأمد حياتكم وعم النفع بكم .

محمود شلتوت

وأول شىء فعله شيخ الإسلام عند وصوله إلى مكتبه هو رده على حفاوة مستقبليه من العلماء والطلاب بكلمة قال فيها :

« السلام عليكم بعد ابتلاء اشتدت وطأته على ، وكنت أتجه خلاله إلى الله وقت محنتى أن يصون الأزهر ، وأن يوفقه لأداء رسالته والنهوض بأعبائه . فشلتوت لا يعيش إلا إذا عاش الأزهر وأدى أبناء الإسلام رسالتهم

فى جميع الأوطان ، وأنتم يا أبنائى وإخوانى من الطلاب والعلماء والأخوة والبنوة هى الشعار بينى وبين الأزهريين جميعا ـ ولا أجد ما أستطيع أن أعبر به عن شكرى سوى أن أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى أن يؤيد رئيسنا المؤمن الموفق الرئيس جمال عبد الناصر راعى الأزهر ، والمدافع عن دين الله والقومية العربيـــة وأن يزيده توفيقـا إلى توفيقه .

وإنى فى هذه اللحظة أعاهدكم ـ والله شهيد على ما أعاهد ـ أن أضحى بنفسى وأبنائى فى سبيل الإسلام والأزهر .

وقد كان من حسن حظ الأزهر فى هـذه الأيام أن ولى الأمر فى هذا البلد شاب مؤمن يعرف للأزهر كرامته ورسالته ، ويؤمن بأن حياة العروبة متوقفة على النهوض برسالة الأزهر .

فسيروا على بركة الله واستعينوا بالله فى أداء رسالتكم ، واعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .

هتف شيخ الأزهر بحياة الرئيس ورددت الجماهير الهتاف خلف الشيخ الأكبر .

وقالت الشعب :

أروقة الأزهر تدب فيها حركة غير عادية ، ورجال الأزهر أتوا من كل مكان ، وعلى شفاههم ابتسامة واسعة ليهنئوا فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت بشفائه من مرضه وحضوره إلى مقر عمله الرسمى لأول مرة منذ تعيينه شيخا للأزهر فى ٢٣ أكتوبر الماضى .

وقد ألقى السادة عبد الحكيم سرور مدير الشئون العـامة بالأزهر ، ومحمد محمد المدنى عميد كلية الشريعة ، والدكتور محمـــد البهى مدير عام الثقافة ، وصادق كمال الدين المراقب بكلية الشريعـة ، ومحمد البطاوى المدرس ، وأحـد الطلاب الأكـراد كلمات ترحيب بالأستاذ الأكبر .

ثم تحدث الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى « الشعب » حديثا ضافيا :

العبء الـكبير

وأعرب الأستاذ الأكبر عن تقديره للدور الـكبير الذى تقوم به جريدة « الشعب » وقال إن هديتى للشعب بمعناه الواسع ، ولجريدة « الشعب » خاصة ، هى العمل متعاونين جميعا لافرق بين شخص وشخص ، ولا إنسان وإنسان ، على تركيز الإيمـان فى القلوب ، والوقوف صفا واحداً أمام التيارات الجارفة الهوجاء ، التى لا تريد إلا قتل المعانى السامية والمثل العليا التى أودعها الدين قلوبنا ، وربى عليها شعبنا . إن هذه التيارات الجارفة ـ مع إيماننا وثقتنا فى الله ثم فى التفافنا حول بطل هـذه الأمة ،

وقائدهذا الشعب الرئيس جمال عبد الناصر - لن تجد مكانا تثبت فيه ، ولا خصوبة تعيش بين أجزائها ، ولن تجد ثغرة تتسلل منها ، وإذن سنقف قوة أمامها نردها ونصدها لنعيش فى أمن واستقرار نخدم ديننا وشعبنا وأمتنا ، وعلى الصحافة العبء الأكبر فى ذلك ، وإننا مع الإخلاص والسير فى الطريق المستقيم نستطيع أن نصل إلى أهدافنا إن شاء الله : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وهذا تسجيل منى لجريدة « الشعب » لما لمسته فيها من عمل على تركيز لقوة الإيمان فى القلوب وتشتيت شمل الإلحاد والشيوعية ، وخدمتها المستمرة للحركة الإسلامية .

وإنى أدعو الله تعالى أن يوجه الصحافة التوجيه الرشيد ، والعمل السديد ، لتخدم شعبنا وأمتنا .

ثم سأل مندوب الجريدة فضيلة الأستاذ الأكبر عن دور الأزهر فى المعركة التى تدور بيننا وبين الموجات الإلحادية والعملاء ..؟

فأجاب فضيلته :

إن مركز الأزهر من العالم الإسلامى مركز القطب من الرحا ، وأن شمس الأزهر تسطع على العالم الإسلامى بنشر مبادىء الدين ، وتقوية عقيدة الإيمان ، وإن اليوم الذى يمكن الأزهر فيه من أداء رسالته لهو أسعد أيام حياتنا وتاريخنا ... لا أقول تاريخ أشخاصنا ، ولكن تاريخ القومية العربية والرسالة الإسلامية . وإن ثقتنا وإيماننا بكفالة السيد الرئيس جمال عبد الناصر للأزهر والرسالة الإسلامية ليجعلنا بالغى الإيمان بوصول الأزهر إلى مهمته ، وأداء رسالته فى تبديد غيوم الشك والشبه ، ورد إلحاد الملحدين إلى نحورهم فى صدورهم ، أبقاه الله وحفظه للأزهر والعروبة والإسلام .

وفد الأساتذة والطلاب

وفى وفد الأساتذة والطلاب ألقى فضيلته هذه الكلمة :

إن السعادة إنما تكون بتحقيق الأهداف وبلوغ الغاية التى نرجوها لخير أمتنا الإسلامية وأن ذلك مرتبط كل الارتباط بأداء الأزهر لرسالته ومهمته ، وإنى بالله ثم بكم نستطيع أن نصل جميعا إلى هذه الغاية ، إنه التعاون الذى نرجوه والإيمان الذى ننشده ونسعى إليه ، كل ذلك سنصل به إلى الغاية ونحقق الأمل المرجو .

إن على الأساتذة والمدرسين والموظفين والطلاب مهمة يجب أن تملأ قلوبهم ، وأن تظل دائما فى نفوسهم وألا يشغلهم عنها

النشاط الثقافي للأزهر

كلمة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في الحفل الختامى للموسم الثقافى الأول لعام ١٩٥٨ / ١٩٥٩

من يوم أن أكمل بناء هذه القاعة، وأتم الله علينا نعمته فتسلمها الأزهر وأنا فى شوق شديد، ورغبة قوية إلى أن تفتح هذه القاعة وتنبعث منها آثار الحركة العلمية الدينية بمحاضرات وبحوث يلقيها أهل العلم من أزهريين وغير أزهريين، وطالما حاولت بنفسى تحقيق هذه الرغبة، فكانت تحول دون ذلك الحوائل، وتقام الصعاب، وظلت هذه القاعة خاوية خالية ينظر إليها الغادون والرائحون، ويتندر بها المتندرون حتى لقد

شاغل، هذه المهمة علمية دينية اجتماعية، هى رسالة الأزهر، وما رسالة الأزهر إلا رسالة الإسلام التى حققت للبشرية الخير وأمدتها بالنور والعرفان، فلنتعاون جميعاً على بلوغ هذه الغاية، وعلى الطلاب ألا يضيعوا فرصة فى سبيل الفهم الصحيح للعلم والحياة، وأن يكونوا لبنات قوية فى بناء نهضتها وفى عصرنا الذهبى عصر الشاب المؤمن القوى الرئيس جمال عبد الناصر، فإن عنايته بالأزهر ورعايته له لتبشر بالخير الوفير الذى يعيد إليه مجده ويعاونه على أداء رسالته.

وفى وفد ضم زعماء المسلمين باليونان، وأعضاء هيئة التدريس بكلية اللغة العربية قال: يا أبنائى: إن حياتنا بحياة الأزهر وحياة الأزهر بأدائه لرسالته وتمكنه من أداء مهمته. ورسالته تحتاج فى تحقيقها إلى التعاون والتضامن وأنا بكم ولكم أضحى بنفسى وبأبنائى فى سبيل الأزهر؛ لأن رسالته هى رسالة محمد ابن عبد الله - ومن حسن حظ الأزهر أنه يريد تحقيق نهضته فى عهد رجل يؤمن بالله وبرسالة محمد بن عبد الله ويؤمن بالأزهر؛ لأنه هو الحامل لهذه الرسالة، ذلكم هو الشاب المؤمن القوى السيد الرئيس جمال عبد الناصر، فسيروا على بركة الله، واعملوا فى البحث والاجتهاد، واحرصوا على أن يفيد الشعب منكم، كما أود أن تقفوا دائماً بجانب الخير، وتعملوا له وأن تكونوا سدوداً مانعة للشر والمبادىء الهدامة، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله.

سمعت اليوم من أحد إخوانى أعضاء جماعة كبار العلماء أن إشاعة سرت عن هذه القاعة الخاوية ، تقول إنها مسكونة بالأفاعى كما سمعت عن أحد أساتذة الجامعة الذين حضروا بعض المحاضرات فيها أخيرا أنه يقول ، أين كانت هذه القاعة ، وكيف ظهرت لجأة ؟ إنها اكتشاف جديد يشبه اكتشاف هرم خوفو .

وها هى ذى قاعة المحاضرات الأزهرية ، الكبرى قد فتحت والحمد لله رب العالمين ، وها هى ذى قد ألقيت فيها المحاضرات ، ويسرنى ويسركم أن نعلم أن هذه المحاضرات كانت على نوعين : محاضرات علمية ذات بحث عميق ومبادىء قيمة فى الحياة الاجتماعية متصلة بخطوط قوية بأصول الإسلام وأخرى توجيهية تبسط السبيل أمام الواعظ والمرشد ، وهى محاضرات التعبئة الروحية الأخيرة اختص بإلقائها بعض أساتذة الأزهر نذكر منهم الدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية ، والأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى شيخ كلية الشريعة ، وأخانا الدكتور على عبد الواحد وافى العالم الاجتماعى الكبير .

ومما زاد فى سرورى - وأعتقد أنه يزيد من سروركم أيضا - فى هذه المحاضرات أنها تناولت معظم النواحى الاجتماعية الحية التى كان للإسلام فيها الرأى الواضح مع ظهور الروح الإسلامى فى كل محاضرة منها ، ومن حسن التفاؤل أن النوع الأول من المحاضرات بدأ بمحاضرة جامعة منبعها القرآن وحده وهى : « فى العلم ومجالاته ومكانته فى القرآن الكريم » وكان صاحبها قد قصد السير على مبدأ وحى الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان أول ما نزل عليه (اقرأ) .

وقد بلغ عدد المحاضرات من النوع الأول ثلاث عشرة محاضرة .

وبلغ عدد محاضرات النوع الثانى التوجيهى تسعا وأربعين محاضرة .

وبذلك كان مجموع ما ألقى فى هذه القاعة من محاضرات علمية وتوجيهية اثنتين وستين محاضرة .

والذى ملأ نفسى من هذه الحركة كلها شىء آخر وراء هذه المحاضرات وبحوثها ونتائجها ذلكم هو اجتماع رجالى الثقافتين الدينية والمدنية فى صعيد واحد والتقاؤهم - إخوة متعاونين - ينشرون كلمة الله وينقبون عن أسرار الإسلام وعن مقدار صلته بالصالح العام ، ففيها :

(الإسلام دين المستوى الكامل فى الإنسانية) وفيها : (المسلمون أمة واحدة) . وفيها : (المواريث الثقافية فى حياتنا) . وفيها : (الخطوط الكبرى للنظام الاقتصادى فى الإسلام) وفيها : (القرآن يخلق المجتمع المتفائل) . وفيها : (ميثاق الأمم والشعوب

فى الإسلام) . وأخيراً : محاضرة الليلة التى نستمع إليها من الدكتور أحمد ثابت عويضه المستشار المساعد بمجلس الدولة : وهى (الإسلام وضع الأسس الحديثة للتربية) .

التقى الفريقان المثقفان فى الإقليم المصرى بعد تقاطع طويل ظن معه كثير من الناس مختلف الظنون ، فالحمد لله الذى جمع الإخوة وردهم إلى عنصرهم الأول ونسبهم الحقيق وصار الكل يرمون عن قوسه وهو « القرآن الكريم والإسلام » .

ونرجو أن يزيد هذا الاجتماع قوة على قوة وأن يمد الله فى حياة الجميع ليخرجوا للناس من هذه القاعة ومن محاضراتهم فيها الأسرار الكامنة فى الإسلام ومبادئه ، والنظم القويمة التى بها حياة الأمم وسعادة الأفراد .

وهذا عهد يأخذه الأزهر على نفسه بلسان شيخه فى آخر ليلة من ليالى هذا الموسم العظيم وإنا نوثقه بقراءة سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

ونبتهل إلى الله تعالى بهذه المناسبة العلمية الإسلامية السعيدة أن يكلأ بعين رعايته رئيس الجمهورية العربية المتحدة الشاب المؤمن جمال عبد الناصر لقاء ما هيأ للعلم والدين والعروبة من عوامل القوة والازدهار والبيان والهداية .

والله تعالى يشكركم جميعا ويجمع بيننا وبينكم دائما فى كل ما يرضيه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

النشاط العسكرى الرياضى

يهتم فضيلة الأستاذ الأكبر منذ ولى منصبه الخطير بالعمل على أن يتبوأ الأزهر مكانته وأن يعود إليه مجده وألا يقتصر على التفوق العلمى فحسب ، وإنما تكون له الميزات التامة فى كل ناحية وباب ، فمن سبق علمى ، إلى فوق عسكرى إلى امتياز رياضى وثقافى واجتماعى ؛ إيمانا من فضيلته بأن العقل السليم فى الجسم السليم ، وحرصا على تنفيذ سياسته التى رسمها لإصلاح الأزهر والنهوض به :

والأزهر الآن يسير بخطى واسعة نحو المجد الذى يريده المسلمون له ويعلقون فيه الآمال الكبار على السيد الرئيس جمال عبد الناصر .

وإعدادا لهذا كله جعل فضيلته التربية العسكرية مادة إجبارية يختبر فيها الطلاب تحريريا وشفويا وقد أدى أربعون ألف طالب امتحانهم هذا الشهر فى هذه المادة ، وسيقام معسكر التدريب العسكرى

بسيدى بشر لطلاب المعاهد الدينية ويشترك فيه أربعة آلاف طالب .

كما سيقام معسكر التدريب الراقى بمرسى مطروح لطلاب الجامعة الأزهرية ويشترك فيه خمسمائة وألف طالب وذلك فى منتصف الشهر القادم لاستكمال التدريب .

هذا وسيختار من بين الطلاب المتفوقين فى هذه المعسكرات مع اللياقة الصحية من يلتحقون بمدارس الجيش التى تؤهلهم تأهيلا خاصا يخدمون به وطنهم العربى والإسلامى ، ويذودون به عن حياض القومية العربية الممكنة فى الأزهر .

ثم يلتحق هؤلاء الطلاب المتفوقون بالمدارس التى تنمى فيهم روح التضحية والفداء وإنكار الذات وذلك بمدرسة الضفادع البشرية ومدرسة الهابطين بالمظلات ومدرسة الصاعقة إلى غير ذلك بما يتناسب والقوى الكامنة فى أجسام الطلاب ، حتى يكونوا نواة صالحة وبذرة طيبة. ويقام كذلك معسكر الرواد والقادة بمرسى مطروح للأساتذة والطلاب ويضم خمسمائة أستاذ وطالب .

كما يشترك الأزهر فى مشروع ناصر لتوسيع قناة السويس بالإسماعيلية ، بخمسمائة طالب كذلك .

من كلمة الأستاذ عبد الحكيم محمد سرور فى حفل توزيع الشهادات على طلبة الأزهر من خريجى الخدمة الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الذى أرسله بشريعة ذات مثل وقيم اشتملت على الصلات الاجتماعية السليمة والأصول البناءة العظيمة.

وبعد : فإن الخدمة الاجتماعية والنهوض بها أصل من أصول النهضة فى المجتمع الذى نعيش فيه ، وليست الخدمة الاجتماعية ولا شئونها بدعا فى العصر الحديث ، وإنما هى دعوة للدين الإسلامى وهدف من أهدافه ؛ إذ أن الدين الإسلامى دين بالمعنى العام الشامل فكما يحدد العلاقة بين الإنسان وربه يعنى ببناء الجماعة وتنظيم شئونها العامة .

ونحن إذ نريد الخير لمجتمعنا والسعادة لأمتنا يجب علينا أن نلتمس ذلك فى الإسلام الذى يقوم على الأخوة الصادقة والرحمة المتبادلة والتعاون العام والمحبة العميقة والشعور الموحد ، الأمر الذى يجعل الفرد لبنة من لبنات المجتمع فيبذل من نفسه وماله وراحته وعلمه ومعارفه ما يحقق الخير .

ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ أهو عن طريق القانون ؟ إن القوانين سنة لازمة لحياة المجتمع لكن لا خير فى قانون لا يحظى بتقديس القلب

ولا يسكن فيه سكن العقيدة الصالحة فى قلب المؤمن ، فإن القانون لا يملك من الإنسان إلا ظاهرا ، فما بالك بما نأخذه فجأ من الغرب غير مدروس ولا معروف ، أم هو بالدين ؟ نعم إن الدين هو الكفيل بذلك ، لأنه الذى يخلق فى الإنسان قوة فى ضميره وإيمانا فى قلبه بما فرضه الله على المؤمن من عبادات ومعاملات تعمل على تطهير القلب من الحقد والحسد كما تعمل على تقوية أواصر الألفة والمحبة بين الأغنياء والفقراء وبين الناس جميعا . وهذه النواحى كلها تخلق الرقابة على كل التصرفات ، فلا يترك أخ أخاه حيث تجب خدمته وإنما يقبل الإنسان على خدمة أخيه بوازع من قلبه ورقيب من ضميره ولا يصلح مجتمع نام فيه الرقيب القلبى أو الوازع النفسى ، ويوم ينام الرقيب القلبى فى الجماعة يضطرب حبلها وتسوء أخلاقها وتتفكك الأواصر فيها فتحيا حياة هزيلة يسودها الحسد والحقد الذى يقضى عليها القضاء الأكيد .

فحاجتنا إلى إيجاد الضمير الدينى أمر ضرورى فى كياننا الجماعى .

ولقد عنيت الشريعة الإسلامية العناية الكاملة بالخدمة الاجتماعية عناية تشد أوصال المجتمع على أساس قويم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، ويقول المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) فأى تعاون أعمق وأبعد أثراً من هذا التعاون الذى يجعل حياة كل فرد مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الآخرين ، بل إن الأخوة الدينية الناشئة عن رباط العقيدة الصالحة والإيمان الصحيح لأقوى ما يبعث فى النفوس معانى التراحم والتعاطف والتعاون وتبادل الشعور والإحساس ، يتجلى ذلك فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويتضح فى قوله صلى الله عليه وسلم :(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله) وبهذه المبادئ تصير الأمة جميعا جهازا واحداً يتقاسم الفرح والحزن والملذة والألم والسعادة والشقاء والرحمة والعطف والإرشاد والمعونة .

لقد عنى القرآن بأمر اليتامى ورعايتهم بل جعلها من ضمن الوصايا القيمة التى أوصى بها القرآن « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

كما عنيت الشريعة بالصدقة التى لا ينقطع أثرها بالبذل وانتقال المال من يد إلى يد ، كإنشاء المرافق الدائمة النفع مثل المستشفيات والملاجئ ودور التعليم ، ومأوى الغرباء وعابرى السبيل وتأمين الثغور وإماطة الأذى عن الطريق وغير ذلك من وسائل النفع العام بما يحقق لنا سلامة الخدمات الاجتماعية .

والقرآن دائماً يحقق معنى الأخوة الإسلامية مقترنا بكل بذل وعطاء لإشعار الباذل أنه إنما يبذل لأخيه .

هذا وإننا لنأمل إن شاء الله أن تتسع هذه الدراسات وتنمو لتخرج لنا أبطالا يؤمنون بالله ثم بمجتمعهم ووطنهم ويلتفون حول كل مصلح يؤمن بالله وبمبادئ الإسلام ؟

الكتب

جدد حياتك

تأليف الأستاذ محمد الغزالى

بقلم الأستاذ محمد رجب البيومى

لا يمكن لكتاب يظهر فى النصف الثانى من القرن العشرين باحثا عن طريق السعادة فى الحياة إلا أن يكون ثمرة ناضجة لتجارب عميقة، وعصارة صافية لقراءات بصيرة، فموضوع حى كهذا الموضوع يتطلب من الجلد والموهبة، نصيبا كبيرا يعين على سيره واكتشافه، فهو فى حاجة ماسة إلى دراسات متشعبة لعلوم النفس والتربية والاجتماع من ناحية، وإلى نفس حية خصبة المشاعر قوية الأحاسيس من ناحية ثانية، ثم إلى عقل بصير يزن ويحلل وينقد من ناحية ثالثة، وبهذه الأضلاع الثلاث يمكنك أن تجد فائدة صادقة فيما تطالع من بحث وما تنشد من تسديد.

وقد قدمت الأستاذ الغزالى لقراء مجلة الرسالة من عشر سنوات، وأحب أن أتخذ من كتابه «جدد حياتك» سببا لتقديمه على صفحات هذه المجلة.

فالكتاب بموضوعه ومؤلفه جدير بالنقد والتحليل، على أننا لا نحتاج إلى إيضاح هدفه للقراء، فعنوانه الدقيق «جدد حياتك» يكفى كفاية تامة فى بيان مرماه، ولكننا نوضح الأسس التى ارتفع عليها بناء هذا الإنتاج، ولعلها تنحصر فى شمول النظرة، وتنوع الثقافة وبلاغة التعبير، وثلاثتها تسد سدا حيدا فى الإقناع والتوجيه. إن النظرة المحدودة لشىء ما لا تستطيع أن تبرزه على حقيقته، فأنت إذا نظرت من زاوية خاصة إلى لوحة حسية أمام عينيك لا تقدر أن تكشف جوانبها المختلفة، بل تعود منها بفكرة جزئية تصدق فى أمر وتكذب فى أمور، والنظرة المحدودة فى المعنويات أشد خطرا على الحقيقة، وأبعد مدى عن الواقع فلا بد لمن يسبر أغوار النوازع والخوالج أن يقلب الرأى على شتى وجوهه، وأن ينظر إلى موضوعه

نظرة المتفرس الذى لا يدع زاوية فى منحنى أو مسربا فى اتجاه ، وإذ ذاك يستطيع أن يقدم مايقنع ويمتع ، فلايترك نقدا يتردد فى العقل ، أو استدراكا يفد إلى التفكير ، وإذا بلغ الكاتب هذا المبلغ فقد سلك الطريق القويم .

وأنت تجد شمول النظرة فيا تطالع من سطور هذا الكتاب ، فما يلم مؤلفه بناحية إلا وشفعها بإيضاح ما تنطوى عليه من غوامض ، ولا يجيز لقلمه أن يجلو منها وجها واحدا ، فقد يكون الوجه الآخر أدعى إلى استكمال الرأى ونضوج المذهب ، ونحن فى حياة محيرة متشعبة فلا بد أن يتشعب إزاءها طريق العلاج ، ومناحى التشخيص !!

لقد تكلم الكاتب - مثلا - عن إحساس المرء بنفسه ، فمجّده وعظّمه وذكر أن النفس التى تمتلئ بالثقة واليقين تقدم على المصاعب آملة مستبشرة وتحتقر المكايد مترفقة مستعلية ، « فالرجل العظيم حقا كلما حلّق فى آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم والتمس المبررات لأغلاطهم ، فإذا عدا عليه غر يريد تجريحه نظر إليه من قمته ، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعيشون فى الطريق وقد يرمونه بالأحجار ، وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون عند ما تقتحم عليهم نفوسهم ! أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم على هذا النحو ؟ كلا ، إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها البعيد » ص ١٢٤ .

فهذه زاوية أولى من زوايا الثقة بالنفس ، ولو اقتصر الكاتب عليها لفقد ما تميز به من شمول النظرة ، وتشعب الاتجاه ، ولكنه يعرض لك الزاوية الثانية فيقول :

« وإحساس المرء إذا زاد عن حده يحجبه عن الآخرين ، ويحصره فى علم خاص به ، ولا يزال ماضيا فى تكبير شأنه ، وتهوين غيره ، ولا تزال نفسه تعجبه وتنسج حوله غلالة سميكة من الغرور والشراهة ، ولا تزال أنا تنمو فيه ويتضاعف ورقها وتضخمها حتى يقول : أنا ربكم الأعلى ، إن حب الذات والعيش فى إفرازاتها منته حتما إلى الاختناق وهو اختناق أدبى ، وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان » .

بعد هذه الزاوية الثانية يسير بك الكاتب إلى زاوية ثالثة يحمل فيها حب النفس ، وتظهر « أنا » فى محيطها عظيمة قوية : تلك هى زاوية الأهوال والمحن حين تدلهم الخطوب ، ويتطلع الناظرون إلى منقذ بطل يحمل روحه على كفه ويقول ، أنا ، الحبيبة بملء شفتيه ، ويالها من كلمة قوية تدعو إلى الإجلال والإعجاب ، « فأنا فى هذه المناسبات صيحة القوة

لنصرة الحق ، وفاتحة العمل لدعم الإيمان والتعهد بأداء الواجب إن بهظت تكاليفه ، والشعور الحاد بأن المرء قبل غيره مفروض عليه أن يقوم بما ندب إليه ، أنا التي يقولها امرؤ في مجال الطمع غير أنا التي يهتف بها رجل في مجال الفزع وبين الاثنين بعد المشرقين » .

هذا مثل واحد من أمثال النظرة الشاملة في الكتاب ، وأنت تجد نظائره في جميع ما تقرأ ، فهناك مثلا فرق بعيد بين الصبر حين يصبح ينبوعا تسيل منه مخايل الرجولة ، وحين يكون بلادة تنحرف إليها الطباع المريضة .

وهناك التفكير في المستقبل إذ يسلم إلى وساوس قلقة ، وأوهام ضجرة ، فيكون داء يعضل . وإذ يكون استعداداً وتأهبا وحيطة فيكون شفاء يريح ، وهناك العودة إلى الماضي حين تكون مجال العظة وموضع الاعتبار والاستفادة فتسعد ، وحين تصير تجديداً للحزن ونكأ للجروح وإظلاما للعين فتشقى ، وهناك مركب النقص حين يحفز إلى الكمال ويحدو المجد فيثمر ، وحين يجنح إلى الرياء والتظاهر الكاذب فيجدب ويمحل ، وهناك عشرات الأمثلة من هذه الألوان المتقابلة تلفت إليها الأنظار في اهتمام وتقدير .

أما تنوع الثقافة في الكتاب فيستشفه القارئ استشفافا دون أن يجد ما يدل عليه من ثبت المصادر ، وحشد للمراجع ، ومباهاة بالتنقيب والاطلاع فأنت ترى عصارة مهضومة لعلوم متنوعة ، دون أن تصدم بمصطلحات علمية ، يحشدها المتعالمون أو قضايا ذهنية يعرضها الباحثون ، بل أجزم أنك لا تكاد تحس بأصول هذه الثمار اليانعة ؛ لأن الكاتب قد هضم قراءاته المختلفة هضما صحيحا ، فتحولت على أسلات قلمه مادة أخرى ، كما تتحول الطعوم والمشارب إلى دماء تجرى في العروق ، فهي وإن استمدت خلاصتها مما أكل وشرب إلا أنها في شرايينها المتدفقة ذات لون خاص وحيوية خاصة ، فأنت إذا قرأت قوله مثلا — ص ٧٧ — « وقد علم أولو النهى من تجاربهم ، أن هناك أشياء تبدر من الإنسان وهو غير آبه بها ولا يقظ لما يعدها الآخرون عليه ، ويستنتجون منها أفكاراخاصة ويرون وراءها نيات غريبة » . أقول إذا قرأت ذلك فإنك ستنتقل إلى العقل الباطن في علم النفس ، وتعرف كيف يفصح عن رغباته المكبوتة بهذه البوادر الضئيلة ، فتكون على صغرها المنكمش أبلغ في افتضاح صاحبها من ألف مذياع ، والمؤلف يستمد نظرته تلك من دراسته النفسية ، ولكنه يأبى أن يحشد المقررات النظرية في اصطلاحاتها

العلمية ، بل يحيلها بأسلوبه الخاص إلى عبارة واضحة متواضعة !! وهو أحيانا يأتى بالظاهرة النفسية دون أن يتعالم بتحليلها العلمى ، بل يتركه للمتخصصين ، وقد كشف كل شيء عنه دون أن يلجأ إلى مصطلح غريب ، وإذا قرأ القارئ مثلا قوله « ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة فى سلوك شخص ما فيقيم الدنيا ويقعدها من أجلها ، ثم هو يعمى أو يتعامى عما تمتلئ به حياة هذا الشخص من أفعال حسان وشمائل كرام ، فليس بعد هذا الوضوح البديهى فى حاجة إلى لغة خاصة ترجع بهذه الصورة إلى قاعـــدتها العلمية فى دنيا الاصطلاحات والتعاريف ، وهكذا تقطف الثمرة دون أن تتكلف الغراس والرى والتشذيب ، وقد دفعه هذا التنوع الثقافى إلى أن يقتبس أقوالا عديدة لأئمة المفكرين فى الشرق والغرب والمسيحية والإسلام مع مقارنة لذيذة بين نتاج العلوم وحصاد القرائح وكثيرا ما يشفع النص بتحليل عميق يضيف إليه الرائع الطريف .

فلديك قول المسيح عليه السلام « أحبوا أعداءكم » فقد نقل الغزالى أولا تعقيبا عليه قول « ديل كارنيجى » إنه ليس تقويما للخلق فقط وإنما هو تقويم للبدن أيضاً ، إذ أن العداوة تذيب الجسم وتفرى الضلوع » ثم أتبع ذلك بقوله « أما محبة الأعداء فلعلها تعنى إيثار العفو عنهم ، وتنقية القلب من الضغائن عليهم ، وترك الاشتغال بما أسلفوا من سيئات !! أما أن تكون عواطف الإنسان سواء تجاه من يحسن إليه ومن يجور عليه فذلك يستحيل !! » ، وهذا صحيح وإذا كان الكتاب للتربية والتهذيب فقد خاطب الجانب الوجدانى من النفس وسرد الشعر الرائع عربيا وأجنبيا ليثير به الأحاسيس ، وقد هزتنى الأبيات الجميلة المختارة هزة عاطفية ، جعلتنى أنقل أكثرها فى أوراقى الخاصة ، وإن كنت لا أوافق على الاستشهاد ببعضها فيما حدده الكاتب من مجال ، فهو ينقل مثلا قول الشاعر « والت هويتمان » :

« ما أجمل أن أواجه الظلام والأنواء والجوع والمصائب والمآسى واللوم والتقريع كما يواجهها الحيوان وتواجهها من الأشجار الجذوع » فالقياس بين الإنسان وغيره مع الفارق ، لأن الحيوان بله النبات لا يدرك العواقب فيبتئس ، أما العاقل فيشقى فى النعيم بعقله ، ولعل مما يشفع لوالت هويتمان أنه شاعر ينظر بإحساسه وحده ، ولكن ماذا يشفع للمؤلف وهـو مفكر يمزج الحس بالعقل .. ويمضى مع الخيال إلى مدى محدود ! هذه وجهة نظر فقط ولعلها تكون مداعبة أكثر منها معارضة فالخيال شهى حبيب .

وعلى ذكر الاقتباسات والاستشهادات نسجل للكاتب سعة الصدر لدى خصومه فى الرأى ، فقد استدل بكلام كثير للدكتور زكى مبارك وأيد ما نقله عنه من الآراء فى استحسان وتحبيذ مع أنه فى كتابه عن الاستعمار قد حارب الدكتور زكى مبارك حربا طاحنة وعقب على آرائه فى النثر الفنى بما يطمس لألاءها الخلوب !! ولكنه حين يجد الإصابة لديه فى كتاب التصوف يستقى من معينه ويفرق فرقا جليا بين الرأى والشخص ، سائرا طريقة معتدلة حبذا أن يسلكها الباحثون. ننتقل بعد ذلك إلى الضلع الأخير وهو التعبير المطبوع فقد ترقرق الأسلوب كالجدول الهادىء الشفاف حافلا بكثير من الصور والأخيلة التى ترسم جوا من الجمال الفاتن ! وهو فى صوره الأدبية لا يعمد إلى المبالغة المتكلفة ، بل يهدف إلى الفكرة القوية فيلبسها كساء أخاذا تزدهى به فيوضح تقاطيعها ورشاقتها دون أن يصبغها بتمويه خداع ، ولا أدرى لماذا يذكرنى بابن المقفع ، فكلا الكاتبين يتخذ من الخيال البلاغى إطاراً زاهيا لأفكاره ولكن الجزالة لدى الأديب العباسى تخلى الطريق للرقة لدى الأديب المعاصر ، ولكل عصر مقال ، فما أجمل أن نستروح عبير البيان التصويرى من مثل قوله :

« والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وصبر لا تخضعه الظروف السيئة المحيطة به ، إنما يستفيد منها ويحتفظ بخصائصه أمامها ، كبذور الأزهار التى تطمر تحت أكوام السبخ ، ثم هى تشق الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائحتها المنعشة ! لقد حولت الحمأ المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح ! ! » .

أو مثل قوله «الأفراد والجماعات منطلقون فى سباق رهيب لإحراز أكبر حظ مستطاع من حطام الدنيا ، وقواهم البدنية والنفسية تدور كالآلة الدائبة وراء هذه الغاية إلا أن الآلات قد يقطر عليها من الزيت ما يرطب حدة الاحتكاك أو يمنع الشرر المتولد من إحراقها ، أما أعصاب الناس فى عراك المادة ، فكثيراً ما تفقد هذا العنصر الملطف ، وتمضى مستثارة يستبد بها القلق والضيق حتى تشتعل فتأتى على الأخضر واليابس » .

أليس فى أمثال هذه الصور الجميلة ما يقرع الأسماع الغافلة فيوقظ النائمين ! ! لقد كان القلم فى يد الغزالى ناقوسا يجلجل ، ورعداً يرن ، فهل من سميع ! ؟

محمد رجب البيومى

أنباء الأزهر

وزير الدولة يزور الأزهر

قال السيد كمال رفعت وزير الأوقاف : إن المسلمين فى أنحاء العالم ليعلقون على الأزهر آمالا كباراً ، وخاصة فى هذه الفترة التى نرجو أن يستكمل الأزهر فيها كل نواحيه ؛ لينهض برسالته ويؤدى الأمانة التى وضعت بين يديه .

وقال : إن الأزهر لعريق فى قوميته العربية وفى رسالته الإسلامية ، ويسرنا جداً أن يظل قائماً بهذه الأمانة ، وأن يتزايد ولا سيما فى عهد النهضة الحديثة .

وكان السيد الوزير قد زار كليات الأزهر يرافقه مدير مكتبه السيد/ محمود عبد الناصر ، وكان فى استقباله فضيلة الشيخ محمد نور الحسن وكيل الأزهر والدكتور محمد عبد الله ماضى مدير المعاهد الدينية ، والدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية وغيرهم . . .

ورحب السيد الوكيل بالسيد الوزير باسم فضيلة الأستاذ الأكبر والأزهريين وطاف الوزير بالكليات ، وقاعة المحاضرات الكبرى والملاعب ، وميدان التربية العسكرية للجامعة الأزهرية ، وسر مما رأى من وسائل النهوض ، ووعد باستكمال الأسس التى تمكن الأزهر من القيام بأعباء رسالته الاجتماعية والثقافية والرياضية ، والتربية العسكرية . . .

كما أبدى إعجابه بما عرض عليه من المشروعات الإصلاحية بشأن الدراسة ، والمكتبات ، والبعثات الداخلية والخارجية .

ووزير الشئون الاجتماعية :

زار فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر السيد محمد توفيق عبد الفتاح وزير الشئون الاجتماعية والعمل التنفيذى للإقليم المصرى ورئيس بعثة الحج فى منزله مهنئا لسيادته بالحج ، وقد دامت الزيارة مدة طويلة تناولت الحديث فى شئون إسلامية شتى .

وقد قال السيد الوزير إننى أحمل إليكم تهنئات المسلمين وسرورهم بتوجيهاتكم وخطوطكم الرئيسية فى الإصلاح الذى ستمتد آثاره إلى جميع الآفاق الإسلامية ، وإننى

لا زلت أذكر يا فضيلة الأستاذ الأكبر هذه الأحاديث الدينية الموجهة للسلمين فى شئون دينهم ومجتمعهم وأذكر أننا كنا دائما نهرع إلى الاستماع إليها .

وقد قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننا حريصون دائما على أن نعيد للأزهر مكانته فى العالم الإسلامى وخاصة فى عهد النهضة المباركة التى تتمثل فى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وقائد العروبة ، والحريص على كل ما يحقق للأزهر رسالته ، كما أننى أشعر بذلك فى كل اتجاهاتى نحو الإصلاح فى الأزهر ، وإن شعورى بمحبتكم جميعا للإصلاح ليدفعنى إلى التفانى والإخلاص فى سبيل دين الله ، وفى سبيل الأزهر الذى يعلق عليه المسلمون آمالا كباراً ، حقق الله آمالنا جميعا وزادكم خيراً وبركة .

نشاط البعثة الأزهرية

فى الكويت

أرسل الأستاذ مدير الإذاعة الكويتية هذه البرقية :

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن جلال رئيس البعثة الأزهرية المحترم .

يسرنى أن أبعث لفضيلتكم باسم حضرة الرئيس الأعلى لدار الإذاعة صاحب السمو الشيخ عبد الله المبارك الصباح خالص الشكر على ما قمتم به ، وأعضاء البعثة الأزهرية بالكويت من إذاعة الأحاديث القيمة التى كان لها أعظم الأثر فى بث الروح الإسلامية الصحيحة فى نفوس المستمعين وشرح مبادئ الدين الحنيف .

محمد توفيق الغصين

المذهب الجعفرى

بعث السيد/محمد جواد سرى من بيروت إلى فضيلة الأستاذ الأكبر بالبرقية الآتية :—

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر « القاهرة » .

صلوات الله وسلامه عليكم « وبعد »

« فإن الفتوى التاريخية التى أعلنتم فيها للعالم صحة المذهب الجعفرى ومساواته للمذاهب الأربعة قد أدخلت العالم الإسلامى فى باب تاريخ جديد ودفعته ألف سنة إلى الأمام ، وسيبقى صدى هذه الفتوى إلى الأبد ، لقد سجلتم بهذه الفتوى وجودكم وبرزتم شامخين فى سجل الخالدين . »

وفد علماء جامعة فولى

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه وفد علماء جامعة فولى باكنج بأمريكا وقد قال رئيس الوفد لفضيلته : إننى أحمل إليكم أطيب تحية وأعمق تقدير من أحدث جامعة فى أمريكا إلى أقدم جامعة « الأزهر » التى تتشرف

مقتطفات من الصحف والمجلات

تسامح الإسلام :

كان المسلمون يحتملون من العلماء ما لا يطيقونه من سواهم ؛ فكان العلم يغفر لهم كل زلة ، ويمحو كل خطيئة ، حتى لو كانت هذه الزلة تتناول الخليفة نفسه ؛ فقد كان الطبيب بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه ، وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ، ودار الكلام بينهما حتى سأله

بكم موجها لها ، وإماما للمسلمين فى أنحاء العالم . وإننا ليسرنا جميعا أن نسير على ضوء القيادة الروحية فى كل ناحية من أمثال فضيلة الأستاذ الأكبر .

كما انتهزها فرصة مباركة بعد ما سمعت من بيان فضيلتكم الذى يدفع العالم جميعا إلى السلام يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة فأوجه لفضيلتكم دعوة لتشريف وطننا الذى يسعده أن يراكم وتشريف جامعتنا الحديثة . فقال فضيلة الأستاذ الأكبر ، أرجو أن يكون لنا ذلك الحظ ، وأرجو أن تحملوا دعوتى هذه إلى السلام ، وأن توجهوها لرجال العلم والدين عندكم فإننا لو تضافرنا جميعا ، وأخلصنا النيات لعم السلام ربوع المعمورة ، وهدأ الناس واستقروا ، وعملوا لخير البشرية جمعاء .

ثم قال رئيس الوفد « إننى وقد علمت من فضيلتكم أن للجامعة الأزهرية مندوبا فى واشنطن فأبلغ فضيلتكم إننى سأذهب إلى مسجد واشنطن لأستعرض آثاركم أيضا فى بلادنا ، ثم قال أحد الأعضاء موجها كلامه إلى فضيلة الأستاذ الأكبر : سيدى إننى متأثر جدا وسعيد جداً ، وكلى غبطة وسرور منذ استمعت إلى إمام المسلمين فى تلكم الرسالة التى ناشدتم العالم فيها السلام » .

فقال فضيلته : « هذه رسالتنا ونحن نعمل لها طـــول حياتنا جاهدين ؛ لأنها رسالة الإسلام كما نعمل فيها معتمدين على الله ، ثم على أمثالكم من رجال العلم والنهضات وفقنا الله ووفق كل مخلص أمين محب للسلام .

ورعى الله المجاهد الراعى للسلام الذى بعث الوحى قويا فيه السيد الرئيس جمال عبد الناصر »

وانصرف الوفد شاكراً مؤكدا الدعوة لفضيلة الأستاذ الأكبر بضرورة زيارته لأمريكا .

المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخلط فى عقله) يحتاج إلى الشد ؟ - يعنى شد الوثاق عليه حتى لا يؤذى الناس - فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه (يعنى كما فعل المتوكل) فضحك المتوكل حتى استلقى ، ولم يغضب المتوكل ولا أصاب طبيبه العالم المسيحى بأذى ؛ لأن نفسه تأبى أن تؤذى العلم أو تعصف بكرامة العالم . « عن لواء الإسلام » .

وحشية الاستعمار :

وكتب أحد الضباط (بجيندى) فى مذكراته يقول : (وبتنا تلك الليلة وكنا حراسا على المسجد الجامع فى دلهى ، نمضى أكثر أوقاتنا فى قتل الأسرى الذين قبضنا عليهم صباحا : نقتلهم بالرصاص أو بالشنق ، ولكن كان يظهر على وجوههم آثار الشجاعة والصبر بالرغم من ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لهدف عظيم ، ولذلك كانوا لا يخافون من الموت أو القتل) .

ويذكر مستر « تومسن » للمستر هنرى كوتن عن أحوال بعض المسلمين المسجونين فى بنجاب فيقول : (أتانى ذات ليلة عسكرى من طائفة السيك وبعد أن حيانى بالتحية العسكرية خاطبنى قائلا : لعل الرئيس يحب أن يشاهد المسجونين ، فقمت وهرولت مسرعا إلى السجن ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، وأحرقت أجسامهم من رءوسهم إلى أقدامهم بالنحاس الملتهب ، وتفوح منهم الروائح الكريهة ، فلما رأيت هذا المنظر المفزع أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليهم الرصاص من « الطبنجة » التى كانت معى) .
فلما سمع « كوتن » هذه القصة المؤلمة سأل « تومسن » : وماذا فعلت بالذين تولوا كبر هذا التعذيب الشنيع ؟ قال : ما فعلت شيئا .

ويعلق المؤلف الأمريكى « إدوارد توماس » على هذه الحادثة فيقول : (منظر فاجع ؛ أناس يحرقون أحياء بالنار المشتعلة ، والانجليز والسيك قائمون حولهم يتلذذون برؤيتهم كأنهم فى منتزه عام) .

نعم ... لقد فقد الانجليز بعد انتصارهم كل إحساس بمعانى الإنسانية ، وتجاوزوا فى انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان : رأوا أن القتل بالرصاص سهل على المقتولين فاستعملوا المشنقة ، وكانوا يشنقون فى كل مكان ، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ثم يطلقونها فتتناثر أضلاعهم فى كل مكان ،

وكانوا يلفون أجساد الضحايا بجلود الخنازير ويخيطونها عليهم أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونهم، وكانوا يجبرونهم على فعل الفاحشة بعضهم ببعض، ويحشرون الناس فى البيوت ثم يشعلون النار فيها فيتحول المساكين إلى رماد: رجالا ونساء وأطفالا، ولم يتركوا وسيلة للتنكيل والتعذيب يتفنن العقل فى إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم، ولم يفرقوا بين ثائر ومهادن؛ فالكل عندهم ثائر.

هذه الصور المخزية تمت على أيدى مدعى الحضارة، وستظل على مر التاريخ وصمة عار على جبينهم، وكم على جبينهم من وصمات.

«عن مجلة الحج».

حاضر العالم الإسلامى:

من المؤسف أننا نرى أنفسنا مقصرين تقصيراً كبيرا فى هذه الناحية على حين نرى أعداءنا ـ شرقيين أو غربيين ـ يتولون هم تدوين حاضرنا، فتراهم يتتبعون أمورنا، ويمكثون السنين الطوال فى بلادنا، فيعرفون كل شىء عنا ويكتبونه، لا من وجهة نظرنا بل من وجهة نظرهم، ووفق ما تقتضيه مصالحهم.

ولقد ألف هؤلاء الكتب، وأنشئوا المجلات الدورية التى تبحث عن شئون العالم الإسلامى: ماضيه وحاضره، وتتنبأ بمستقبله.

وفى هذه المناسبة علينا أن نذكر بإجلال واحترام المرحوم العلامة أمير البيان شكيب أرسلان حينما كتب شروحه وتعليقاته الضافية على كتاب «حاضر العالم الإسلامى» للمستشرق الأمريكى «لوتروب سوارد».

فكانت هذه الأبحاث دائرة معارف؛ إذ أنه أرخ لكل بلد فيه مسلمون، وبحث تاريخ دخول الإسلام فى كل بقعة من بقاع العالم، وتسلسل مع الحوادث التاريخية، ولكنه توقف عند سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م وهو تاريخ إخراج الطبعة الثانية لكتاب «حاضر العالم الإسلامى» وكان رحمه الله يحرص على أن يؤرخ للبلدان النائية التى لا يعرف عنها مسلمو الشرق الأوسط إلا النزر اليسير، فسد بذلك ـ رحمه الله ـ فراغا لم يملأه أحد قبله، وقدم لقراء العربية معلومات قيمة عن كل بلد فيه إسلام ومسلمون، غير أن الأمور قد تبدلت منذ ذلك التاريخ (تاريخ إصدار الكتاب).

وجدت حوادث لا حصر لها، وبرزت للوجود دول إسلامية عظيمة كإندونيسيا وباكستان والمغرب وتونس وليبيا ودول أخرى فى طريقها إلى الاستقلال، فمن الضرورى جدا ملء هذا الفراغ، وسد هذه الفجوة، وتسجيل أحوال كل بلد إسلامى منذ ذلك الوقت حتى الآن، وعمل ملحق لكتاب العلامة شكيب أرسلان.

«عن البعث الإسلامى»

الفهرس

In the name of God, the compassionate, The Merciful

This is the second issue of al-Azhar Review with an English supplement. It is an honest attempt to start a new era in the history of this review to satisfy the dear desires of our English readers. We most sincerely hope that this humble attempt will meet with their kind satisfaction.

All suggestions will be received with utmost warmth, and we invite our readers to write to us with their impressions and serious remarks to help keep this review constantly improving and continually progressive.

Hammudah Abd al Ati

CONTENTS

much of their despotism but ultimately awake from slumber to resist and to oppose them. These nations, however, can become resisting and their voice can be listened to and their dispute may be propagated allover the world.

Conversly, when the Russians exploit a country there is no place for resistance or uprising save the sword of the exploitors.

Their policy, then, of annhilation and extirpation will not be more merciful than their's in their own homeland. Where is Bulganin ? where is Peria ? Where is Malinkove ? Where is Molotove ? where are the hundreds and thousands of the ex-colleagues and compeers whose reckoning and resistance were feared of some day ?

Such a ruler who removes those persons out of his way in the day-light can not leave in the conquered countries even a single head to be raised against him asking for reckoning and desiring for resistance ; but he will paralyse their activities and make them cripples.

This is a brutal and devilish monster that besests countries in this age, and they will not be safe unless they put it to death. That will be " the liquidation of the last vestige " of the doctrine which infulunced a nation by means of terror and misleading, and desires to impose its control upon all nations ! God forbid such a thing.

be exercised by a govermmental machinary based on terror and misleading by which machinary the sole ruler will be endowed wih powers which will never exist and had never been granted to the most despotic rulers as Nyron and Jankiz khan.

This is a fact exposed to us by the actions and words of the rulers in Russiaa, needless to refere to the opinions of the antagonist or the critics from other countries.

Upon the foundations of such a doctrine a whole nation, from the baby to the old man over fifty, was built. Nevertheless, its rulers are still traitors and unjust, and terror and cheating are still smoothing the way for its absolute dictator to execute souls, to discredit honour and to distribute sustenance just the way he likes.

It is abvious that misleading here depends upon terror and does not depend on the subtle tactics which may deceive those who are not abliged to accept submission or capitulation. That is bcause their assumption, the unjust and the subdued alike, is weak enough to be rejected by a listener free from fear nnd foolishness. And this is not the reality which has been unveiled by the result of the Communist rule in Russian countries only, but it is also the fact exposed in all nations influenced by Russia and considered as its satellites. A quick glance on the Russian colonies and quasi Russian colonies is sufficient to prove that Russians do not inpose their domination over a country which is seperated by a geographical barrier.

All their colonies and their semi-colonies in Asia and Europe are situated close to them to be within the reach of the armed terror, and they could not replace the armed terror or the armed spying with misleading only.

Thus Tito in Yogoslavia got out of their grasp and even criticised and mocked at their systems and teachings. He challenged them and acheived success in his challenge, thongh he holds the principles of another social ideology.

So long as these "anti imperialism and exploitation Communists," as they pretend to be, are able to subjugate a foreign country by the force of weapons, they will impoee frustrations and terror upon it in such a manner that could not be tolerated by the worst imperialists in the past centuries nor in this twentieth century.

All the nations encroached by non- Communist imperialists suffer so

His contemporary succcssor, Khrushcheve, claims that Stalin was a despotic tyrant and unjust strangler who shed the blood of innocent people and fabricated lies against the honest servants of the nation. But, paradoxical enough, this very successor to Stalin, Khrushcheve who is making these accusations against Stalin did the same as soon as he got into power.

Shortly afterwards he did with his collaborators in government what Stalin did with his own. Killing, exciling, dismissing and hurling accusations of treachery are very popular elements in Khrushceve's treatment of his colleagues and collaborators, although his compaign against Stalinism, which he accuses of the same crimes, is still going on.

Was his leader Stalin just or unjust? And is his successor Khrushcheve truthful or otherwise? Both cases are the same. If Stalin were just, there were thousands of traitors, wicked and corruptive from amongst Communist leaders. On the other hand, if he was unjust there existed a ruling government which resorted to a policy of terror, cheating and misleading. As regards Khrushcheve, truthfulness, if it ever happens, is an agony, and his dishonesty, which often happens, is a horrid calamity. And his blind imitation of Stalin, who has been severly accused and condemned by him, gives an add proof of the evil which has subterranian roots in all machinaries of the Communist government. Because his truthfulness refutes the basic principles of the Communist doctrine, it enables us to see that the Communist reign empowers the despotic ruler with such tyranny that had never been granted to the most oppressive caesars in the darkest reigns of oppression and exploitation. The worst is that Khrushcheve ejects lies against a leader to a nation and to a government without being disclosed or ashamed.

Thus, it is not difficult for him to continue, shomelessly, the very policy of all these men which he, contradicting himself and truth, disapproved.

However, it is inevitable to conclude that Communism bonkrupted thoroughly in its social policy; because it is a strange and inpractical doctrine. And because the Communists in a whole Communist nation failed to introduce, after fory years of control, a just ruler but a tyrant, a liar and a murderer whether he is in power or is deposed. And that the Communist system is, fundamentally worse than all systems ever known in the history of despotism and capitalism. This is because it is to

because the Communist Revolution declared from the very beginning a slogan:

"Whoever is not with Communism is against it", and annihilated all those who hesitated to support it although they showed no resistance to it. But whether this assumption is probable or otherwise it does not lead to any effective result. All it can lead to, however, is that the number of the heartedly opponents of Communism is limited to a few thousaands cut from all means of authority and influence among millions of men and women with strong control over all actions and opinions.

More than a hundred and fifty millions, all born in the domain of Communism and isolated from the world's doctrines, have been living in the Communist atmosphere for a period over forty years

This "ideological uniformity" is unprecedented in the whole history of nations, and this is a chance given to the Communist Revolution the similar to which chance has never been accorded to any other social or political movement. And had the Communist doctrine been validly based on the pillars of freedom and security of rights, it should have now been in an utmost state of stability and self-confidence, and all its leaders should have been effecient, capable in their leadership, sincere in carrying it out and truthful in their belief in it and in managing its affairs. Otherwise how much time would be sufficient to supply effecient, sincere and faithful leaders? And from what ideology would Communism borrow them if it is unable to bring them up in its own land among people ranging from the age of twenty to that of sixty years?

Yes, the Communist doctrine should have to-day a free and stable government run by effecient and sincere rulers. But is this the actual situation in the Russian countries? Is this the real case taken from the statements of the Russian people themselves or of their rulers, not to mention the statements of their enemies and opponents?

No, that is not the actual situation or the obsrevable reality in Russia, as has been constantly described by the Russian rulers from the Stalin reign to that of Khrushcheve the first and the last.

Stalin put to death hundreds and thousands because he accused them of treachery, sinister intentions against the people, tresspassing on their interests and violation of their constitution.

A Doctrine in BanKrupcy

Communist Materialism Incapable
of Survival
by
ABBAS MAHMOUD EL-AQQAD

Forty - two years ago, just before the end of the first World War, Communism prevailed in Russia. All Russians to - day, men and women, were born and brought up in the Communist environment and influenced by the Communnist principles and beliefs. They were isolated, from their infancy to their adulthood, from any other doctrine opposing or obstructing Communism except those who are about or over sixty years old.

Those of them who reached forty years were born two years after the declaration of the doctrine, so they did not know any doctrine other than Communism since they learnt how to speak.

And those who reached fifty years were, at the declaration of the doctrine, eight years old, so they were first educated in the Communist schools, and the first thing to hnow was how to learn the doctrine and live up to it. Likewise, thoes approaching sixty years were, at that time, eighteen years old of which they spent three years during the first World War, and when they were forty, years old and then fifty and over, they were implicitly and exciplicitly Communist. They were taught and educated in such a manner as to live a Communist life and konw nothing about any doctrine different from or contradictory to Communism.

A nation with all its population, men, women, old, young and children, is in a state of absolute submission to the Commumist call and education, and hears nothing against Communism.

So if we assume that the Communist Revolution spared the lives of its non - supporters, this would be true only of some unorganized individuals of sixty years old or over, who cannot oppose the doctrine by introducing any alternative to it or by exerting any influence against it or having any effective and practical means of competition with Communism. Yet this assumption is hardly probable

guidance. Likewise, that which raises to the Most Sublime Value in existance, namely God, is the religion. And Islam is both the religion and the guidance. It is very probable that a society may advance in material civilization, yet the very society stands, from the human point of view, underdeveloped. Science may make progressive steps in the fields of physics and mathematics, while the human values of scientists and their society retrogess.

When egoism and individuality dominantly prevail, and when the social ties and belief in God weaken or disappear, there will be no qualities of any high standard of humanity. And if the material and industrial civilization leads to conflicts and clashes, to aggression, there will be no virtuous standard of humanity among the people of such civilization. And if the physio - mathematical science is used for destruction and annihilation and to originate fear and instability, then the people of this science are not of any virtuous or high standard of humanity.

Surely, man is different from the tool. Unlike the tool he is endowed with freedom and will. The tool cannot work by itself without craftsmanship, without the conductorship of man. And his conductorship becomes a good one when he comprehends values, knows good and evil, appreciates brotherhood and co-operation, and, finally, when he knows God.

Piety, which is the keeping of duty to God, is also different from the physio-mathematical science. The former consists in kindness, mutual mercy, patience, persistence in good and other valuable ideals. But the latter is useless except when it is accompanied by piety as explained just now.

Islam guides man to reach the virtuous standard of humanity wherever he happens to be : in a desert or in a city, in a materially civilized society or in an uncivilized one. Islam, as God has described it, is the mission of chasteness and purification from the domination of animality. It is the mission of wisdom represented in the conception of values and ideals. It is the mission of development from deviation to straightforwardness in the human behaviour. Islam is all that everywhere and all the time for all people, whether they are Arabs or non Arabs, lived in the past or will come to life in the future generations. "He it is Who has sent among the unlettered ones a messenger of them, to recite to them His revelations and to purify them, and to teach them the Scripture and wisdom, though heretofore they were indeed in error manifest. Along with others of them who have not yet joined them, He is the mighty, the wise" (Surah. 62, V. 2-3).

education guides man to these values, then it is Islam taking an educational formula.

And if education guides him to values other than the unity of God, it does not raise him to the highest values, and so he falls short of reaching the virtuous, perfect standard of humanity.

Besides that, Islam is not only a conductive system but is also a religion. It stimulates man first by belief in God and, secondly, by the fear of his anger and requiting. Through such fear of God, man develops in himself a conscience by which he is intrinsicly motivated to conceive values and be thoughtful of them, and to act according to this thoughtfulness, so that his action will be a good one.

Here in religion, man's heart is filled with faith, and then his mind sets off to conceive values "And observe your duty to God, and God will teach you," (S. 2, V. 282). But in education guidance is to the mind and conception, not to the heart, and rarely does it develop a heart filled and occupied by faith. So educational systems cannot be a substitute for Islam; they are insufficient.

<u>Islam and the Civilized Society :</u>

It may also be said, as has been frequently said, that Islam is a religion suitable only to the primitive people, for it helps them in their development to reach a comparatively high standard of humanity. And this is why it was good for the tribal communities of the desert, while the civilized society is in no need for it.

But let us ask this question : What is the civilized Society referred to here ? Is it, for example, our contemporary society of material and industrial civilizatin ?, the society of physio - mathematical science ? Truly, material and industrial civilization helps man to attain a high standard of living, but it is incapoble of elevating him to a high standard of humanity. That is because it does not exercise its influence in the sphere of values but in the range of matter and tool. Physio - mathematical science plays its role in discovering the univrsal forces and does not treat human values. It may even attract people with material power to ridicule the obstract values and make mock of them.

There is no necessary connection between the standard of material civilization and that of virtuous and revered humanity. Nor is there any necessary connection between the physio - mathematical science and the human values. That which elevates to the concception of human values is

All forms of duty and worship that Islam has enjoined aim at ascertaining these three values : Liberty, the sound conception of society and the unity of God. So if we reflect on fasting, we shall realize that it is the worship which leads to liberty and choice, because it results in freedom from the domination of the instincts and bodily desires and makes room for the will.

Likewise, giving alms and pilgrimage are two forms of worship which lead to the awakening in their performers of the sound conception of society and its survival. Prayer, on the other hand, is the worship that emphasises belief in the unity of god' The praying person's utterance : "God is the greatest" together with his spiritual and sentimental experience of what he says in both loud and silent expressisn of belief in the unity of God.

So we find that Islam guides man to all ualues and abstracts and puts in its guidance emphasis on the values of freedom and human will, the sound conception of society and finally the value of the unity of God. These three values portray the virtuous, sublime standard of humanity, and without their attainment man remains humanly immature, because he will be then either under-developed or in constant conflict and fluctuation between his instincts, egoism and animality on the one hand, and his elevation to the high standard of humanity on the other hand.

The Glorious Qur'an most eloquently describes the effects of the Islamic guidance in elevating man from a lower position to a higher and more magnificent standard. It says : " Is he who was dead and We have raised him to life, and set for him a light wherein he walks among people, as him whose similitude is in utter darkness whence he cannot emerge ? " (Surah. 6, V. 122).

Thus the person who has not been raised to the virtuous human standard is dead and has no human life, whereas the one who has been raised to such a standard is alive and active, and walks among people in the light of this standard.

Is Education Sufficient ?

It may be argued that education can replace Islam and produce the same results in elevating man to the virtuous standard of humanity and the sublime values.

But let us ask : What sublime values does education guide man to ? Does it guide him to liberty and choice ? to the sound conception of society ? to the unity of God ? If

reproduces, begets and is begotten. It exhalts the aim of his worship for above all material ends.

Islam advocates the unity of God: " And your God is One God. There is no God but He, the Beneficient, the Merciful " (Surah 2, V. 163).

" And He is God; ther is no God save Him. His is all praise in this life and Hereafter, and to Him you will be brought back " (Surah 28, V. 70).

The attitude of Islam in this point is not demonstrated only in positive terms as just mentioned, but it is demonstrated in negative terms as well. It emphatically rejects belief in more than one God as the Qur'an says: " They surely disbelieve who say: God is the third of three; when there is no God save One God" (Surah. 5, V. 73). It also rejects the belief that He has a child: " The Originator of the heavens and the earth ! How can He have a child ? when there is for Him no consort, when He created all things and is aware, of all things ? " (Surah. 9, V. 101). "And say : ' Praise be to God, Who has not taken to Himself a son, and Who has no partner in the Sovereignty, nor has He any protecting friend through dependenc. And magnify Him with all magnificence " (Surah 17, V. 111). God, according to this point of view of Islam, is neither tangible nor is He visible. " Vision comprehends Him not, but He comprehends all Vision" (Surah 6, V. 104). The Glorious Qur'an summarizes the qualities of Goodhood in this respect as follows: " Say: He is God, the One ! God, the eternally besought of all ! He begets not nor was begotten. And there is none comparable to Him" (Surah 112, Vs. 1 - 4). Thus the unity of God the worshiped is pure and absolute, and His difference from the tangible and the visible is plain.

We have already mentioned that the distinctive quality of man is mamifested in his apility to conceive, and that this conception develops from sense perception of the tangible and ends up with the conception of values and abstracts. So if man attains by his conception to a sublime value, which is the assembling centre of all values, and believes in it as the ultimate culmination of all values and sensible objects, then his conception rises to the highest level, and then his human standard reaches the highest grade. At this stage he would have comprehnded the whole being. He would have comprehended the basis of being represented in the tangible scattered particles and also what is beyond these particles of values. Finally, he would have comprehended the most sublime value in existence represented in God, the One.

faces towards the East and the West; but righteous is he who believes in God and the Last Day and the angels and the Scripture and the prophets; and gives wealth, in spite of his love of it, to kindred and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slaves free; and observes proper worship and pays the poor-due. And (righteous are) those who keep their treaty when they make one, and the patient in distress and adversity and time of stress. Such are the dutiful" (Surah 2, V. 177).

Mutual help, therefore, in belief in God and the rest of the invisible ideals, in giving wealth, in spite of one's love of it, to those who need it and performing prayer, in paying the poor-due and keeping the treaty, in patience at times of distress and adversity, - such help leaves no place for conflict and clashing among individuals. Nay, it develops in them brotherhood, love and solidarity. Then the believers stand like the bricks of a solid structure with each one sustaining the other. And this is the farthest distance that man can reach away from the effects of his individuality and egoism to approach the sublime standard of humanity.

Conversely, man's acceptance of the prohibition of extending help in sin and aggression represents the same thing, namely, turning away from egoism and individuality and reaching the high standard of humanity. This is because rash leaning towards sin and aggression is one of the most specific features of human childhood. If somebody points to another and shouts a "thief"!, this will be sufficient to summon all the boys of the district and make them unconsciously hasten to the person pointed to as a thief and hurt him. But such boys can hardly assemble and hasten to abdicate their possessions or allow others to share these possessions with them.

(3) Islam and Godhood:

It has been clear so far that the Islamic guidandce helps man in reaching the purely human standard; as it helps him to excercise his liberty and choice, and to become a member of a co-operative society in which egoistic conflicts and individualistic clashes cease. This is even clearer and more vivid in the sphere of Divinity and belief. In this respect Islam helps man to be of pure and unstained humanity. It keeps him away from being a worshiper of any tangible object, from being a pagan or polytheist. It makes him inaccessible to wrong imaginations with regard to Divinity and the ultimate aim of worship. It keeps him safe from imagining his God as a personfied being, who eats, drinks, marries,

(2) Islam and the Conception of Society :

By now it has become clear that Islam guides man in such a manner as to draw his attention to abstract meanings and make him desirous of ideals, so that his rash leaning towards the instinctive behaviour of individuality and egoism may be mitigated. Among these abstract meanings is the conception fo society, its rise and preservation. The conception of society consists of solidarity among a group of people who mutually recognize their co-existence and jointly endeavour for common aims. The rise of society is possible only with the emergence of a vivid consciouaness of solidarity among the individuals, and with a faith deep enough to prevent conflicts and aversion. The preservation of society is dependent upon the maintenance of this faith and consciousness together.

The purpose of the Islamic society is clearly defined in the Holy Qur'an. It is a pure faith in God and devotion of one's life to Him and for His sake. " The Believers are those only who believe in God and His messenger, and they doubt not and struggle hard with their wealth and their lives in the way of God. Such are the truthful onse " (Surah. 49, V. 15).

By so defining the purpose of society and life, the Holy Qur'an does not derive its definition from any material source or base it on any tangible thing or view it with any sensible object. But it defines this purpose as the most sublime value in the whole being, namely, God, golorified be He, Who is the centre of absolute perfection in all forms represented in the highest values: in His ability and Mercy, His creativeness and kindness, His goodness and righteousness, His wisdom and powefulness, etc.

Through the Qur'anic definition of society in this manner, Islam elevates individuals to the high standard of humanity. The first step is the very making of the definition of society as such, and the second is the explanation of the conception of society in immaterial and intangible terms.

Not only does the Qur'an define the conception of society but also the means of its foundation and survival. This is explained in the words of God: " And help one another in sin and aggression, and keep your duty to God. Surely God is severe in requiting (evil) " (Surah 5, V. 2).

Moreover, the Qur'an defines righteousness as follows: It is not righteonsnss that you turn your

ease as well as in adversity and those who restrain (their) anger and pardon men . . . " (Surah. 14 V. 132 - 133).

So it calls upon the believers explicitly to be of free will and choice. And as long as the effects and domination of the instincts cease, there is free will which is the result of choice.

Thus we see that Islam's attitude towards individuality and egoism is to guide man in such a way that his human quality in its highest form masters his behaviour' This quality is the ability to conceive the invisible and the unseen, the abstract values and the human ideals represented in justice, the doing of good, and refraining from indecency, evil and wickedness. They also include the safeguarding of honour, observing the consecration of the property and respecting rights of self.

Islam with its guidance to man awakens his conscience and conducts his attention to these values, so that he may attain them by both his conceptional and perceptional qualities. And when he attains them he is no longer cofined to the sphere of sense perception but will also approach the sphere of valus and abstracts. Here man can conceive *Kind* and *Quality* in addition to his perception of *size* and *quantity* which he has already acquired, Besides that, he can comprehend the *general principle* in addition to the particles scattered in his physical environment and already in mind.

At this stage of his development man stands fluctuating and uncertain between the tangible and the intangible. And here comes the decisive moment in his life with regard to his liberty and freedom of choice: Will he be inclined to the tangible or otherwise ? If he is attracted to *kind*, *quality* and *the general principle,* he naturally gives them preference. And by so doing he turns his back to the sphere of human childhood, the sphere of the tangible, and marches on to approach the purely human sphere, the sphere of values.

Thus Islam, by glorifying ideals and values, guides man to them. So it enables the human adolescent to mak his humanity triumph over his instincts in the current struggle between them in this stage of his life. And if Islam helps the adolescent to emerge out of this struggle victorious, it is helping him to become a *man* of liberty and free choice, and to be no longer dominated by his instincts.

in the way of God. Such are the truthful ones" (Surah. 49, V. 15), it strongly exhorts the believer not to submit to his individuality or egoism. This is because the one who sacrifices his wealth and life in the way of God is not the one who is dominated by his egoism or individuality. Such a sacrifice of such a man is based on liberty and choice.

When he has restrained his individuality and resisted the domintion of his instincts refusing to exert any response to them, he then becomes a free, willing man who stands against his individuality and egoism. He becomes liberal.

And so the Glorious Qur'an, when it says: "Surely God enjoins justice and kindness and the giving to the kindred, and forbids indecency and evil and wickedness" (Surah. 16, V. 90), it urges the believer in God to be free and enjoy his liberty and choice.

This is so because man does not act gustly unless he recognizes the existence of others and regards their rights. Such recognition originates in him from his being self-controled and a master of his instincts. In this we see an impressive demonstration of liberty and choice.

Moreover, kindness mentioned above is not only giving money to others or being charitable, but it is giving money as well as extending magnanimity, knowledge and prestige from one to another without return. Kindness, therefore, is more than mere justice, and so it is based upon freedom and choice and mastering one's individuality or egoism.

Furthermore, the giving to the kindred also manifests liberty and choice; because the giving to the kindred, who are in most cases spiteful, is not only a giving without return but also a giving that there may be reasons to suspend it. Thus he who gives his kindred clearly illustrates his choice and freedom of action, and consequently shows his firm command over his egoism and individuality.

If man yields to these principles and refrains from indecency, evil and wickedness, his yielding will be expressive of his free will and choice because he, then, will be ultra egoism and not subjected to his individuality.

Islam urges the believer to restrain his anger and to pardon others in spite of his ability to retribute, and emphasises that by the verse "And hasten to forgiveness from your Lord and a garden, as wide as the heavens and the earth; it is prepared for those who keep their duty: Those who spend (in the way of God) in

the instinct and the perception is that of adolscence or adulthood, it is the decisive phase in man's life which leads him either to maturity or continuance of the stage of childhood which is nothing but animality in human disguise.

The adolescent man is in pressing need for help to make the conception, the specific quality of man, triumph over instinct and its influence. He needs help to be trasferred:

a — From acting and being motivated by instinct to a free man having the liberty of choice.

b — From an individualistic and egoistic to a sociable man participating with others in the course of life.

c — From an incessant controversial to a co-operating and brotherly person.

e — From a pagan and polytheist to a believer and monotheist.

F — From being an adorer of world lust or self-guarding against material harms to a sacrificing man, who devotes himself and his property to God.

The Role of Islam in This Improvement:

Whatever assists the adolescent to attain this improvement is that which elevates him to the highest standard of humanity.

Thus if there is a conductive motive to stimulate him to become (a) a free man of choice; (b) a useful member of a brotherly and co-operative society; and (c) a monotheist whose God is invisible, has no associate and neither begets nor is begotten, then and then only that motive is man's assistant in reaching a sublime level of humanity. It is the assistant that leads him to his very human and natural quality, which quality distinguishes him from animals.

Here the question arises: Is Islam that assitant? The answer to this may be found in the following pages.

The Attitude of Islam towards Freedom and Choice:

Freedom and choice, as we have mentioned earlier, are not libertinism or unrestrictedness, but they are the ability to make judgements and give preference. The evidence of such ability is not to be blindly induced by one's individual and selfish interests. When the Qur'an describes the Believers by saying: "The Believers are those only who believe in God and His Messenger, then they doubt not, and struggle hard with their wealth and their lives

or orders, and giving preference to what he chooses.

So long as the instinct prevails and since perception is limited by sense, man misses the power of conceiving the quality, not to speak about taking it in to consideration and giving preference to it. And what looks like liberty and choice in the sphere of the childish man's behaviour is nothing but the rashness of instinct taking the form of liberty and choice. And this is not liberty, and it is better to call it libertinism.

The handsome demonstration of what we mentioned is that man of the primitive tribes is mor motivated and agitated by explicit motives than by his free will which is the result of analysis, comparison and preference.

The primitive man who is a mere child does not sacrifice himself or give what he possesses unless he has been obliged and enforced to do so.

Similarly, the child in the mature society does not give what he has out of conviction because he admist no conviction as it is erected on comparison and preference, liberty, choice and free will.

"Perception," the spicific quality of man and the cause of his superiority to animal, begins in the child's life in an immature form, but it may get advanced and promoted if there is a means to help in its growth and advancement to overcome the mighty and mastering instinct. That is why the sophesticated or the civilized society interfers to make a proper atmosphere concerning the environment, home and school to cultivate quickly the perception on the one hand, and to weaken the effect of the instinct, or rather, to sublimate it on the other hand.

And when man's perception is elevated beyond the tangible entities of size and quantity, to the Abstract, Kind and Quality, then this man traverses the stage of his childhood to face a new one of conflict between instinct and perception in its highest form and that is abstraction

The transformation of man's perception from the tangible to the abstract can be judged by the answer he gives when asked "who is the father?", and if he answers by saying that the father is he who has the quality of fatherhood, then he is a mature man. But if he answers by pointing to his father, then he is still in the stage of human childhood, and if he continues keeping this behaviour he will be considered as a backward and primitive man.

The stage of conflict between

too, worshiped animal and fire, and the same was the case with ancient Greeks.

Thus the primitive man tied his belief to the tangible, and as the tangible surroundings had been multitudinous, the primtive man was polytheist. And because he deified tangible objects to gain something from them or protect himself by their aid and against harms, the primitive man's worship was pragmatic and for material aims. So when the ancient Egyptians worshiped the desert, they aimed at avoiding the harmful effects of sands carried by the hot, southerly and seasonable winds. And when they worshiped the Nile, their sole aim was to get the water flood in order that they might grow plants and breed anim ıls.

When tying his belief to the tangible, the primitive man makes no distinction between the human and the non-human. He worships man, male and female alike, as well as animal. He approaches his human deity through desirable offerings of food and the like, and feels no embarrassment or shame of having a deity of human nature who eats and drinks, marries and reproduces children, etc.

In the sphere of art, the primitive man illustrates, through his art, only the tangible things of his environment such as human beings and animals. His art is characterised by simplicity because the scattered tangiblething which he can illustrate are not complicated, and he illustrates them as they are.

Similarly, in the sphere of language we find the names of human individuals derived from names of tangible things like flowers, trees birds, animals and the rest of such things, beyond which the primitive man's perception cannot reach.

Thus the aspects of human childhood can be abridged in two items.

1 — Prevalence and domination of instinct, egoism and individuality.

2 — The perception can be applied only to the tangible and visual entities. According to these two aspects friction and chaos increase among individuals. And the vigilance for mutual affinties comes to an end and Paganism, represented in multiplication of deity and creed, prevails. Such deity may have qualities similar to those of the man who deifies them and who may even deifies beings inferior to him.

Man in the stage of human childhood cannot excersise the liberty of the mature man, because human liberty is nothing but man's "choice" which is built upon making dstinction between many mattess or things

ability to conceive, or as the Greeks called it rationality. But, as said previously, this quality is not well-balanced with the instinct at this stage. It is something comprised in perception and feeling and is the motive of conceiving the mutual relations between man and his fellow-man, in additian to his conception of his selfishness and individuality. It is the motive that replaces, in man's life, accidental relation of animals with purposeful aims. It is the motive that makes man founds his relation with others according to his will and choice, not at the instance of any external force as in the case of animal aforementioned.

Perception begins to be effective in the life and behaviour of the human being from his childhood, but it is only a certain kind of perception that appears and excercises influence upon him at an early stage of his life. And that is the sense perception which is connected with sensible and substantial things.

This kind of perception transmits to the human being's mind the impressions of what is perceptible in his environment. Then he behaves according to the impressions of these perceptible surroundings, which are transmitted to his mind. And the more the perceptible thing is attractive and effective, the quicker and stronger the human being responds to it. The strong colour, the red for example is more attractive to him than the white or the grey, and so he is more attracted to it than to the others. Likwise, objects of big size are more impressive and more appealing to his perception than those of small size. Hence, he responds to the former more than he does to the latter. Unlike the perceptible objects, the abstract values play no role whatsoever in the life and behaviour of the infant human being; for he acts according to his instincts first and then in accordance with his sense perception which has less impact upon him than his instincts.

Primitive tribes represent in the human society life the infancy of man, and the primitive human being is like a child in his behaviour and perception. He behaves at the instance of his instincts, and his perception is limited to material things only. All this is manifested in the primitive man's beliefs, art and language.

In the sphere of belief, the primetive man deifies tangible, creatures, human or natural. He deifies man and animal, fire and desert, rivers and the like. Ancient Egyptians, for example, deified Isis, Ausoris, the snake, the Nile and the desert. The ancient Arians of India and Persia,

The quarrel arising then among males is good evidence of the fact that nothing but selfishness drove them to quarrel with each other.

As a result of this selfishness of the animal behaviour no ties among the individuals are conceived to be regarded, and no common objectives or joint ends to be aimed at. If afterwards an animal meets another, it is nothing done on purpose but an accident. And if the reproduction of animals contenues, it is because that a male meets a female by chance in a sexual operation. Another result of this selfishness is the continuation of quarrels and struggles among selfish individuals when they meet accidentaly, or when they are driven to meet each other by a mature human being.

In short, the animal is in possession of nothing but instincts, and its instincts are depicted in selfishness and individuality.

The beginning of Man:

Man in the very beginning, or in the starting point of his development is an animal having the potential qualities of a mature, human being. He is actually an animal but well-prepared to be distinguished from animals. Nevertheless, he cannot in fact be distinguished from animals unless his human characteristics appear gradually one after another.

In the beginning of his life man is a child, and the starting point of his maturity is the "human" infancy. The human child behaves almost like an animal. He is both selfish and individualistic. He turns to his mother only for egoistic purposes as to satisfy, for example, his hunger or his need for care. And this is why he turns to his mother more than he does to his father; because his father does not response to any of his direct needs in this period.

The human child is he who quarrels with others as a result of his egoism and individuality. If, supposedly, two toys of the same kind and size were put together before two children and you asked them to take one toy each, the two children would quarrel and each one would try to take the two toys for himself. And if a third person interfered to take a toy from the child who has taken the two and give it to the other, the one from whom the toy was taken would cry and weep, and would probably show gestures of anger, although he is not the owner of the two toys.

Because the child is by nature a human being, a certain human quality gradually manifests itself in him besides his instinctive behaviour, and that is apprehension or the

animality; because the animal is motivated only by the instincts. Thus the animals' behaviour is merely a reflection of their simple and instinctive motives; while man's behaviour is motivated by both his human and instinctive motives. The Greeks defined man as a rational being, a reasoning animal, and this definition is a clear expression of the two motivating and entangled powers in man. Thus the behaviour of man is neither a reflecion of only one of these two powers nor of the two separated from each other. But it is a reflection of both powers amalgamated together. Therefore, it is said that man is originally of a dual nature and animal is of a simple one. So the bringing up of man aims at making his dualistic nature harmonious unlike the taming of animal which takes care of only some of its instincts.

This is because the difference between savage animal and the tame is that the latter's instinct of self-defense weakens by the effect of taming and inherited qualities, and thus becomes easily controlled by man and irresistably subservient to him. Conversely, the very instinct of the former animal grows stronger and freer out of man's control and away from his observation. That is because the savage animal, unlike the tame, has not yet been taught by man or brought under his command; for man is the only tamer of the animal.

The instinct of self-defense in the savage animal is the same as that of the tame, and there is no difference between them, so far as behaviour motive are concerned, except in the instinctive sphere. And if the behaviour of the animal clearly depicts an instinctive motive, then the instinctive behaviour is the animal behaviour and vice-versa.

The most peculiar quality in the animal's behaviour is individuality or selfishness. It does not recognize kinship ties nor fatherhood nor sonhood nor the like relations, not to mention family or community bonds. And in all the animal's instinctive actions the animal nature discloses its character which is selfishness and individuality.

This character appears also in the sexual intercourse, as the male animal does not communicate the female for the sake of species preservation but for selfish ends and individual purposes. The female stimulates the male which hurries to it and then pays no attention to the intercourse they had some moment ago. Such selfishness is clearly demonstrated when the female animal agitates more than one male at the same time and in the same place.

Islam The Religion of the virtuous standard of Humanity

by

Dr. Mohammad El-Bahay

Director General of the Islamic Cnlture Department

al-Azhar University

---

(1) The Childhood of Humanity:

Man undergoes evolution in his humanity as well as in his physical growth. But his physical growth is not necessarily followed by improvement in his humanity. Often a man may be physically well-built and become a father of more than one child and a husband of more than one wife, nevertheless the same man remains, from the human point of view, under-developed.

Man's development in humanity is subject to the degree of ridding himself of his instinctive, primitive behaviour on the one hand, and his adaptation to the human characteristics on the other. The development of man's humanity represents ebb and tide at the same time. It represents ebb and shrinking in the instinctive realm, and represents tide and expansion in the sphere of human values. Development of humanity is like abstracting the human values from instincts.

Human values and instincts of the human nature are not balanced in the beginning of man's life. The human values during the childhood of man are like a seed covered by instincts of very wide expansion and very deep effect.

The development of these values is nothing but to help them in their growth and expansion. And the more these values grow in man the more his instincts subdue and cease expansion until the scale of values overweighs that of insticts.

The instincts and human characteristics of man however are not balanced in his infancy as well as in his adulthood. In the farmer stage the instincts overbalance his human characteristics, whereas these characteristics overweigh the instincts in the latter, when he reaches adulthood and maturity.

It should be borne in mind that when we speak of instincts we mean

co-operation and reciprocal exhortation to truth and endurance. It demands mutual responsibility between the individual and the community in the sense that each of these is both responsible to and for the other. In this connection the Qur'an says: "Surely God enjoins justice and the doing of good (to others)." (Surah, 17. V, 79). "Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you" (Surah 49, V.13) "And help you one another unto righteousness and pious duty" (Surah, 5. V. 2.)

As regards common responsibility the Qur'an says: "And from among you there should be a party who invite to good, enjoin the right and forbid the wrong. And these are they who are successful"[Surah.3,verse.103] In addition to that, the prophet, peace be upon him, says:"Each one of you is a guardian responsible (for his dependents) and will be questioned (by God) ", and "the attitude of a believer to his fellow-believer should be helpful like the two hands of man which assist each other".

Thus we conclude by pointing to the fact that the world has been driven to destruction and misery as a result of its desertion of this honourable and divine reformation. This desertion has led the world to be strained between the hot, bloody and destructive war-which by nature annihilates everything and destroys all fruits of civilizaiton -, and the terrifying cold war which fills the heart with fear and horrors.

World leaders and statesmen have experienced all ways of reformation in various methods and constant attempts, nevertheless they have not been able to even mitigate human sufferings, fears, chaos and feelings of insecurity.

So I, in the name of faith and for the sake of humanity introduce these Islamic principles of reformation to the conscious hearts and sound minds of religious authorities, social reformers and political leaders, hoping that they will devot their efforts to the service of humanity and its deliverance from pains and terror. I am appealing to these authorities, refomers and leaders alike to renew their pledge to God, follow wholeheartedly His way and restore human relations in a good order; so that mankind may enjoy peace and security, and may joyfully lead a course of dignified life with pleasant excercise of God's blessings of free thinking, free will and free action. And in this field fair competition is strongly demanded. "I desire nothing but reform so far as I am able. And with non but God is my success. In Him I trust and to Him I turn (repentant)" (Surah, 11, V. 88).

And peace be upon those who follow the right path.

Likewise, he may replace water with pure earth when performing his ablution if he fears disease or agravation of disease. Moreover, he may do his prayer at his convenience; i.e., if he cannot stand or sit he is allowed to pray by symbolic gestures by virtue of moving his eyes, or head or heart.

Islam founds its reforms on reality as already mentioned, and reality ascertains that no knowledge is obtainable without good health, and that no noble struggle can be carried out without maintaining this health. This is because health is man's capital and the source of his happiness. And this maxim is so popular that it is often said : "Maintenance of health is preferrable to prerformance of rituals".

Since Islam commands the maintenance of good health in the material aspect, it exhorts man to exert unflagging efforts to attain property through legal means as well. This is meant to help in the establishment of civilization and consolidation of human relations, and at the same time to provide man with fair satisfaction of his wants through agriculture, commerce and industry.

Islam has a sound financial system by which, when strictly follow -ed,man can protect himself against the evils of fiscal tyranny, lavishness and extravagance. It accords man, in the meantime, to enjoy the good provisions he procured as regards diet, adornment and lodging without falling into vicious extremes. It does not escape Islam to draw man's attention to the fact that he is the vicegerent and trustee of property which is God's own and which He grants to whom He pleases, because He is the sole Sustainer.

Hence Islam ordains a portion of the rich's wealth to the benifint of fhe needy classes and common welfare. The Qur'an says in this connection. "And in whose wealth there is a destined right. For the beggar and the destitute" (Surah, 70. V, 24. 25) " And Spend in the way of God and cast not yourselves to perdiction with your own hands and do good (to others). Surely God loves the doers of good " (Surah, 2. V, 195).

Besides this harmonious combination of spiritual and material reformation of man's independent personality, Islam, as regards his social personality, ordains that right and duties should be mutual between the individual and the community, whether it is a private community like that of the famliy and workfield, or a general community, like that of the national society and the human community at large. And to achieve this aim Islam enjoins justice, eqnality,

by the tyranny of rulers and the oppression of the religious authorities. And so man has been given the liberty of thinkiug to understand himself, to appreciate life and to discover the secrets of the universe for his own interest and for the benifit of mankind.

All this is strengthened by the religious duties meant to keep man always thoughtful of God in words and deeds. The result of this is the creation, in man's heart, of mercy and kindness to the poor, the afflicted and the weak. Mercy and Kindness are essential bonds so long as they befriend man with man. Besides kindness, through the worship of God, man is taught to bear patiently the difficulties and pains of life. This patience encourages the Muslim to welcome the physical difficulties of pilgrimage for he goes on pilgrimage with a fervent desire to meet there the kind-hearted, the good doers and the virtuous. Such a convention takes place once a year in a land of glorious past and honourable history as it was the sphere of conveying God's message to His bondmen by the Divinely chosen prophets to fulfill this function. The Qur'an refers to that by saying: "Our Lord, I have settled a part of my offspring in a valley unproductive of fruit near your sacred House, our Lord, that they may keep up prayer, make the hearts of some people yearn towards them and provide them with fruits; haply they be grateful" (Surah 14, verse 37).

These duties of worship are: (I) the five daily prayers; (II) giving alms to the poor; (III) fasting during the glorious month of Ramadan and (IV) making pilgrimage to the sacred Mosque of God.

Thus Islam has introduced faith and worship as a means of spiritiual reformation directed to man's heart and mind, guiding him to the straightest path. And by acheiving this goal, man is completely devoted to God in words and actions to gain His content without going astray. In regard to this point the Qur'an says: "Say: my prayer and my sacrifice and my life and my death are surely for God, the Lord of the worlds. No associate has He. And this am I commanded, and I am the first of those who submit" (Surah 6, verses 163-164).

The Material Aspect:

As for the material aspect, Islam demands the maintenance of good health and enjoins remedy and immunity. It has gone so for in this direction as to commute the religious obligations in cases of disease or disability. For example, a Muslim may break his obligatory fast of Ramadan if he feels unable to continue.

Scripture. Wherby God guides him who seeks His contentedness into paths of peace, and brings them out of darkness into light by His will, and guides them to the straight path" (Surah 5, Verses 15 - 16). "Surely. this Qur'an guides to that which is most upright, and gives good tidings to the believers who do good deeds that theirs will be a great reward" (Surah 17, V. 9).

To achieve the destined happiness of mankind, the message of Muhammad has founded its human reformation on the bases of the actual nature of man as composed of soul and body each of which is entitled to a certain share of enjoyment, and as endowed with an independent personality by which he is tasked with self-responsibility and is a solid brick in the structure of society (his own patriotic society and the human community at large), and finally as having rights and bearing duties according to the logic of his dual personality.

There is no doubt that the happiness of man, according to his nature, cannot be realized without the spiritual and bodily enjoyment, nor without the excercise of both his personal and social functions. And Islam has brought what provides man with happiness in all these aspects. All beliefs, creeds, morals and legislations, laid down by Islam, are a means of this wonderfully harmonised reformation by which Islam has overcome both pure materialism and pure spiritualism. In this point the Qur'an says: "But there are some people who say, Our God, give us in (this) life. And for such people there is no portion in the Hereafter" ;(Surah 2, V. 200).

"O you who believe, forbid not the good things which God has made lawful for you". (Surah 5, V. 87) "Say: Who has forbidden the adornment of God which He has brought forth for His bondmen and the good provisions" (Surah 7, V. 32).

The Spiritual Aspect:

Concerning the spiritual aspect, Islam calls upon man to believe in God, the Creator of life, the source of goodness and the goal that to Him, and to Him alone, man should devote his worship, and on Him, and on Him alone, man should depend for help and rescue. And by so doing man feels his dignity and rejects being submitted to none but God.

Moreover Islam asks man to follow the right way approved by God, which way leads him to happiness both in this life and the Life to come.

Islam by this attitude has freed man's mind from the fetters caused

The Reform of Humanity in Islam

by

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of al-Azhar University

People of this world have two different ways of life : One is that of pure materialism dealing only with the explicit affairs of life such as acquiring property, power and influence regardless of the means of their attainment and use; the other is the way of pure spirituality solely concerned with solitude, cellacy, fasting, asceticism and the like with complete cutting from the material life. Each of these two different ways, if exclusively adopted, hinders humanity from reaching its aim for which it was prepared by the law of creation, the material elements which are made subservient to it and the wisdom according to which it has been chosen as the manifestation sphere of God's glory and loveliness.

Pure materialism, as we have learned, is the principal factor of tyranny, slavery, humiliation and drastic subjugation committed against souls properties and honours.Similarly, pure spiritualism, as we have experienced, comes to nothing but destruction and disintegration. It impedes the counstructive powers of man by which humanity is honoured from functioning in the fields of thought, will and action. This impediment deprives man of his natural qualities and values, and makes the secrets of the universe remain hidden in the folds of the earth and space of the sky. It causes the loss of the wisdom by which God created the world and man in the form He has chosen and for the purpose He has decided.

Hence, in order that man may not fall a prey to either pure materialism or pure spiutuality, God wisely provided him with complete, comprehensive reformation so as to preserve his prestige, achieve the goal of his creation, enjoy his freedom of thought and will and rejoice at the results of his work armed with faith, assured of justice and protected by security and stability.

The Message of Muhammad :

With such reformation, for which humanity had waited long and had been well-prepared, the message of Muhammad has come ; as the Qur'an says : " Indeed, there has come to you light from God and a plain

word of Arabs would have remained one, and the Califate of muslims would have continued to be unifying. Yet the realization of Arab unity was an achievement of which no one had been capable before except Muhammad, and of which no one will ever be capable except a man who follows the guidance of Muhammad : a man who is for others, not solely for himself, for his nation before his family and for humanity after his patriotism, a man on whose tongue the word " I " dies but lives in his conscience to join, in his mind· the entity of his personality to that of his people. Thus he feels the pain of his people because they are the focus of his conscience, conceives their needs because they are the manifestation of his mind, and holds their leadership because they are the expression of his wil.

Such a man with decent self and disinterested inclination is above sins of the people and dirts of the earth. He is not greedy because his aim is far beyond material life, does not hate because his goal is higher than hatred and gives no favouratism for his kindness is broader than kinship. In his shrewdness, persistent personality and high aspirations he proves greater than events and stonger than mishaps. And whenever he takes a decision he carries it out, and whatever object he aims at he attains it.

This is the man who was expected by Arabs for a long time to be for them the shephered who drives out the wolf, the thread that holds the necklace, the guide who carries the light, the leader who raises the flag, the instructor who trains them how to manufacture the needle and the cannon, how to dig the mine and plow the field and how to hormonize between public and private interests.

The man on whom God has conferred all these virtues and merits is the leader. Where, by your Lord, do you find them ? Are they in Abd al-Nasir or in Abd al-Karim ?.

religion, hostile to each other as regards life, with each group claiming to be the safe one. We are three Caliphs at the same time, one Abbaside in Bagdad, one Omayade in Gordova and a Fatimite in Cairo. Each Caliph has his own troubles and offenses supported by evil-doers against his own brother,

The tribal fanaticism which is hooting in Iraq to day, declares, according to the statments of the evil-doers: "Qasim is the only leader" and "The Republic of Abdul Karim can never be a province". By this they mean that the leader is Qasim and not Abdul-Nassir, and that Iraq is too great to be a third province in the United Arab Republic with Egypt and Syria.

The passion for power and desire for authority are the worst diseases of tribal fanaticism and the Communist in both old and modern Orient.

And if we examine the factors of disunity and conflict among Arabs in all stages of their history and all places of their countries, we shall find these factors in the natural desire for fame, autocracy and vice of envy on the part of rulers and leaders.

So if we sincerely wish to expel Communism away from our religion and out of our homeland, we had better remedy tribal fanaticism in the same way as Islam has done.

This means that we should silence in ourselves that voice of egoism, calm down in our minds the stormy caprices and renew our conception of the Islamic principles of altruism, brotherhood, sacrifice and manliness. These Islamic principles are unequivocally stated in the Qur'an and prophetic tradtions: "The believers are brothren" (Surah 29, verse 10), "And they decide their affairs by council among themselves" (Surah 42, verse 38), "And help one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression". (Surah 5, verse 2), "The believer for his fellow-believer is like a solid structure; each part sustains the other", "People are equal like comb teeth", etc. These are sublime examples of peace, order and govenment. They are desired by unhappy and exploited people who aspire to them through revolution after revolution and war after war but do not attain them because of conflicting powers and interests.

Whenever fantical kinship is gone, unity prevails as was the case in the time of the Prophet and his two successors (Abu Bakr and Umar). And had not been for Mu'awiyah who returned this fanatical kinship to strengthen his own power, the

It is nothing but evil ambitions which the devil whispered in the heart of a group of Russian adventurers who suffered Caesarian dictatorship and endured aristocratic enslavement. And as soon as these adventurers brought down the throne of their depostic dictators and destroyed the tower of their subjectors they developed an inferiority complex and were overtaken by hunger for revenge. Consequently, they shared equally the practice of Caesarian oppression and the feeling of nobles' arrogance. They moblized all kinds of production, intellectual, industrial and agricultural for military purposes in order that they might be able to enslave all God's bondmen and make all God's land a fief of their own.

A part of six million Caesars has prepared iron, fire, intranquility, horror, disturbances and chaos to put this plan into practice and attain this aim. Is it possible that benevolent powers may be defeated by this evil and that virtuous principles are overcome by this corruption ? No, our cousins in Iraq and brothers in faith in every country! Arab mentality is long-lived and imperishable.

Islamic faith is so illuminous that it admits no misleading.

The destructive doctrines, whose darkness once prevailed in Iraq were alien to Islam and extraneous to Arabs. The Arab homeland will remain, by its virtue of mentality and faith, insured against every evil and armed against every dissension.

The danger of Communism is not that it is a system or orgnization which rivals the religion of God for there is great differance between light and darkness, sight and blindness.

The danger of Communism lies in that its principal method of propagation, beyond atheism and corruption, is to mortify nationalism and revive tribal fanaticism which is the inhirted disease of Arabs and which has been throughout their eventful history the main cause of all evils, i.e., disunity, controversy and multitudinousness of states.

This same tribal fanaticism motivated the Muslims of Madina (AL ansar) to say on the day of "Saqifah": " One prince from us and one from you ".

It was the evil voice that hovored between Uthman's grave and the centre of Caliphate to instigate Muslims to say: "We are hashimites, Omayades. We are Qaysis or Yamanis, We are Alawis or Abbasids. We are Arabs and cosmopolitanists.

We are seventy two groups boycotting each other as regards

at the price of Islam ?, preferred isolation to unity ?, become subject to a layman, who is puffed up by devil and elated by authority ? and thus. following his whim, as a stubborn horse, who does not pay any attention to the respectable appeal or yield to the restraining briddle ?.

May God forbid you from being, as the Communist say about you, lewd after having been faithful since the believer does not apostatize as long as he has a sound mind. If it is possible for an individual to be foolish, this possibility cannot be applicable to the whole country.

Moreover if you are deceived by the comparison between two systems, then let us remind you, if you have forgotten, that Islam is a Divine system revealed from the Creator of the whole universe. Islam is a perfect constitution for the reform of both the individual and the community of all races, in every time and everywhere. It is a system that advocates the unity of God and ascribe no partner to Him in his creation. It sanctifies all divine revelations, does not make distinction between any of his messengers, fraternises all human beings in spirit and faith rather than in race or native place. It puts on the same level brothers in rights and duties.

Islam does not privilege a class of the society over another nor does it prefere a race or colour to another. It entitles the poor to a certain percentile right in the wealth of the rich payable willingly or otherwise to establish social justice. It adopts a consultative form of government conducted by serious people of sound judgement ; so that no despot would be free to rule capriciously and no dictator would insist on his error. It liberates mind, concience and spirit and does not restrict research or restrain thinking. It rejects blind imitation, opposes slavery and enjoins upon Muslims justice and righteousness to non-Muslims who hold beliefs or opinions different from those of Muslims. It joins religion to life to give the concience the upperhand in dealings and empowers faith with the effective role in behaviour.

Islam, in an abstract, is the system that realises human unity and grants no recognition of restricted kinship or limited racialism or narrow nationalhood. It makes brotherhood in faith and gives preference to goodness and cooperation on righteousness and pity.

As for communism, it is not a belief based upon goodness, nor a method founded on truth, nor a message conveyable in a fair manner.

Our Religion in Tribulation and our Homeland in Danger

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in Chief

The Red rulers of Iraq opened wildely the eastern door of the Arab land to Communism and invited it to come in publicly, not in secret. They paved the way for Communism through dragged bodies, hoisted its flag on hanged gallows and placed it higher than the religion of God by means of: tearing the Qur'an into pieces in the streets, murdering learned Muslims (ulama) in the mosques, buying the conscience with gold and terror and fabricating lies and doubts against beliefs.

They made the word of Communism the uppermost with the aid of careless rulers, shameless judges, unsatisfied executioners, cannons sowing death, daggers ejecting poison and horror that make the heart tremble.

The enemies of Communism (the nationalists) whose number is estimated at nine tenths of the Iraqi people, who struggle for Arab Unity and who are loyal to Arabism, have been reached by the Communist fierce wind, which left some of them killed in the streets and others driven to prison or detained indoors or vagranted in wilderness. The Iraqi rulers aim, through these human offerings, at making the religion pure for the Communist " prophet " (Lenin) whose words to Maxim Gorki read : " We do not mind if we kill three fourths of mankind in order that the remaining fourth may become Communist".

Yes, O Red of Iraq ! you have exaggeratingly made the religion pure for the gods of fire, destruction and evil.

Your deeds in Bagdad have been more terrible than those of the most subversive movements that Iraq had ever known, like that of Mazdak, Babik, al-Muqanna, Leader of the Zang, Hulakou and Ibn al-Sabbah.

Thus you are on the verge of diverting the whole country into a prison or a carnage !.

Is it true, O our cousins in Iraq ! that you have purchased Communism

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني — صفر سنة ١٣٧٩ هـ — أغسطس سنة ١٩٥٩ م — المجلد الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد فضيلة في العرب وفريضة في الدين

بقلم : أحمد حسن الزيات

تسألني متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد إذا لم يؤدها اليوم ؟ دينه يتقحم عليه الكفرُ محاربيه مع الشيوعية ، ووطنه تتفجر على جوانبه الدواهي من الاستعمار ، وإخوته في فلسطين أخرجتهم دول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب من سلائل يهوذا . وقومه في الجزائر تتخطفهم المنايا السود والحمر على متون الجبال وفي بطون الأودية وهم يجاهدون على قلة عددهم ونقص عُددهم ثلاثة أرباع المليون من جنود مستكلبين زودهم الطبع الفرنسي بالرعونة والقسوة ، وسلحهم الميثاق الأطلسي بالصواعق والبراكين ، فهم يدكدكون بها القرى الجزائرية على من فيها من يتامى وأيامى وعجزة . وشعبه في أقطار العروبة وديار الإسلام لا يزال في معترك الخطوب ومشتبك المطامع يجأر بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحق ، فلا ينال من الضمير الدولي إلا ما تنال هبّة الريح من الصخر الأصم .

هذه روسيا تريد أن تدفق في سهول

الشرق لتنسخ بمذاهبها دياناته وفلسفاته ، وهذه أمريكا تقيم من دونها السدود لتظل مستأثرة بخيراته .

وهـــذه انجلترا تحاول بالقتل والختل والاستبداد والاضطهاد أن تخلى الجنوب العربى من أهله لتستبدل بهم عبدانا من الآفاقين يضمنون لها بقاء الاحتلال ودوام الدولة .

وهـذه فرنسا تطمع بكثرة العديد وقوة الحديد وسطوة النـار أن تفرنس الشعب الجزائرى ليستظل بغير عَلمه ، ويتكلم بغير لغته ، ويؤمن بغير دينه .

وهـذه الأرض كلها أمامك تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة فهل تجد العيون تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على هذا الجزء الذى انبثق منه النور وعرف به الله وكرم فيه الإنسان ؟ .

* * *

وجوابى أن المسلم المؤمن لايزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتاريخه فتح وحضارة ، وشرعـه دين ودنيا ، وحربه جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهـد أبداً ، لاينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره . فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه ، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ، والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الأولى أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستعباد والاستعمار إنما هى اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل . وأصـل ذلك الضعف ، والضعف يجافى طبيعة العربى ، وينافى حقيقة المسلم . فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة بلسان الأدب وإلهام الروح ووحى العقيدة إلى العمل سراً وعلنا للاستقلال الذى يحرر ، ثم إلى الألفة التى تجمع ، ثم إلى الوحـدة التى تقوى ، ثم إلى القوة التى تدافع . وهـذه المراحل الوعرة المهلكة التى تؤدى إلى الحرية والعزة لا يقطعها إلا الجهاد الفدائى الذى فرضته شريعة الله واقتضته طبيعة العرب .

ذلك الجهاد الفدائى هو بذل المال والنفس فى سبيل فكرة سامية ، كإعلاء كلمة الله ، أو تكريم ذات الإنسان ، أو تحقيق حرية الوطن . وهو فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون فى خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية . والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس . مثله فى ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام ، ولكنه يختلف عنها فى أمر دقيق ، ذلك أن المسلم قد تضعف فى نفسه الدواعى إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ، ويهمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أو حثه عليها خطيب ، جعل قوله

دُبُر أذنه ، ولعل السبب فى هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها إلا من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهى لا تزال حية فى نفسه على تراخى الزمن وشدة الترك ، كالنار فى البركان الهادئ ، تسكن ولا تنطفئ ، وتكمن ولا تظهر ؛ حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان ، أو لوطن يهاجم ، انفجرت فى نفوس المسلمين انفجار الحمم فما تذر من شىء أتت عليه إلا دمرته . بذلك نفسر تلك الصيحة الإسلامية العامة التى أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس . وبذلك نفسر هذه الغضبة العربية الشاملة لما يصيب الجزائر اليوم من بغى الاستعمار الفاجر وطغيان المحتل الواغل وعدوان الطامع المغير ، وما تبع هذه القضية من تعاون العرب على إمدادها بالمال والعتاد فى ميادين الحرب ، وتأييدها بالرأى والصوت فى مجالس الحكم . ولم يكن عطف المسلمين على مصر ولا غضب العرب للجزائر لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما كانا لتلك الحفيظة الدينية التى أوحاها الله فى الكتاب ، وبينها الرسول فى السنة ، وفصلها الفقهاء فى الفقه .

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم ، وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب فى الإسلام كسورتى التوبة والأنفال .

ومن المغازى الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ؛ لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة . « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

وللجهاد الفدائى درجة على الجهاد المطلق ؛ لأن الفدائى يبذل ولا يطمع فى العوض ، ويضحى ولا يفكر فى الثواب . وحسبه أن يشعر وهو يسبل عينيه على آخر شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه مطمئنة إلى لقاء ربه .

أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشترى من الله الجنة ، فالتضحية فى ذهنه بيع وشراء ، وعمل وأجر .

أما سر القوة فى المجاهدين فعلمه عند الإسلام وحده . كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة

ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاهم الله لأداء رسالته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت الكلمة « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر فقال لنبيه صلوات الله عليه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز بإحدى الحسنيين : النصر الذى تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للإنسان ، أو الشهادة التى يعقبها البقاء فى الدنيا بالذكر ، والخلود فى الجنة بالروح .

بهذه الروح الإلهية خرج البدريون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف فكبكبوهم قتلى فى وادى بدر ، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى .

وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق القفر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف العدة إلى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر .

وبهذه الروح الملتهبة فى دماء المجاهدين ثبتت بور سعيد بالأمس لمائة وستين ألفا من أعقاب الصليبيين ، وتثبت اليوم الجزائر لسبعمائة وخمسين ألفا من أحفاد نابوليون .

وبهذه الروح القدسية التى تشع فى قلوب المجاهدين الصبر والصدق والثبات والإقدام والإيثار والتفدية كانت قوة المجاهد ضعف قوة عدوه . « فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » .

والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لإكرام خلقه وإعزاز حقه وإصلاح أرضه . وقد سماهم الله الشهداء ، وجعل مقامهم فى الجنة مع الصديقين والأنبياء . هؤلاء هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وهم الذين فتحوا الفتوح للإسلام ، ومهدوا المهود للدنية ، وسقوا الأراضى المفتوحة بدمائهم الزكية فأنبتت تلك الحضارة التى طهرت النفوس وعمرت الدنيا وثقفت العالم .

فما أسعد أولئك الذين ادخرهم الله ليعز بجهادهم وطنا ، ويحيى باستشهادهم أمة !

أحمد حسن الزيات

المساواة
فى الإسلام وفى المذاهب الهدامة

للأستاذ عباس محمود العقاد

المساواة خير ومصلحة إذا أريد بها أنها تعطى كل ذى حق حقه ، وأنها تحول بين كل إنسان وبين العدوان على حق غيره ، وتسوى بين جميع الناس فى حدود المعاملة .

ولكنها شر ومضرة إذا أريد بها أن تمنع المزايا والكفايات ، وتجعل الناس جميعا كأنهم فرد متكرر لا فرق بينهم فى الصفات ، ولا اختلاف بينهم فى الأعمال والأخلاق ، ولا تمييز بينهم فى التبعة والغاية .

وهذه المساواة على كونها شراً ومضرة هى استحالة تامة من جهة ، وحالة لا يتمناها العقلاء الراشدون لو جاز تحصيلها من جهة أخرى .

فهى استحالة تامة لأن عوامل الاختلاف بين الموجودات جميعا ولا سيما الموجودات المركبة - أعمق جداً من أن يحيط بها سبب واحد أو جملة أسباب محدودة ، ولا سيما تلك الأسباب التى يسمونها فى مذهب الماديين بالأسباب الاقتصادية .

وحسبنا مثل واحد من كواكب الفضاء ونجومه وأجرامه المختلفة ، فليست هناك أسباب اقتصادية كالأسباب التى تعمل فى المجتمعات الإنسانية ، ولكننا لا نرى بين ملايين الملايين من الكواكب نجمين اثنين يتساويان فى الحجم والضوء والسرعة والموقع والتركيب وسعة المدار .

فإن لم يكن هذا المثل كافيا فلننظر إلى مثل آخر من عالم النبات الذى يحسب من الكائنات العضوية .

خذ من الغابة الواحدة شجرة واحدة ، وخذ من الشجرة الواحدة غصنا واحدا ، ومن الغصن الواحد فرعا واحدا ، ومن الفرع الواحد ورقة واحدة ، فإنك لن ترى لهذه الورقة شبيها قط فى طولها وعرضها ، وشكل استدارتها أو استطالتها وخطوط نقوشها وحوافيها ، ولن ترى ورقتين تتشابهان فى الصبغة أو فى توزيع اللون بين أجزائها .

فإذا كانت أسباب التنوع بين الكائنات بهذا العمق الذى لا يسبر غوره ، وبهذه الأصالة

التى لا يحصرها سبب واحد ، ولا جملة من الأسباب المحدودة ، فمن المسخ المشوه لتكوين الأحياء الإنسانية على الخصوص أن تقصرها على شبه واحد ، وهى على تركيبها المتشعب أحق بالاختلاف من أجرام الكواكب وأوراق الأشجار .

ولهذا تعتبر المساواة استحالة بعيدة كما تعتبر مصابا حيويا غير مرغوب فيه إن تأتى ، وما هو بالمتأتى على وجه من الوجوه .

وكل ما هو مستطاع ومرغوب فيه فإنما هو منع الاختلاف الظالم بين الناس ، وإطلاق عوامل الحياة الحرة التى تؤدى إلى تنويع مزايا الحياة وتوفير نصيبها من الكفايات والصفات ، وتوسيع مداها من الحقوق والواجبات .

وهذا ما صنعه الإسلام ، ولم يصنعه ولن يصنعه مذهب هدام .

* * *

يسوى الإسلام بين الناس جميعا فلا تمييز بينهم فى حقوق الإنصاف وحقوق المعاملة ، ولا فضل لأحد على الآخرين بغير أعماله وأخلاقه التى تجمعها كلمة التقوى ، وهى كلمة تجمع فيها كل ما ينطوى فى أداء الواجب ورعاية الحدود واجتناب المحظورات .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

[الحجرات : ١٣]

وهذا هو الإنصاف أصدق الإنصاف ، وأنفع الإنصاف .

وأما ما عدا ذلك فالمساواة فيه ظلم وبخس للحقوق .

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

[الزمر : ٩]

* * *

« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

[النساء : ٩٦]

* * *

« لا يستوى الخبيث والطيب » .

[المائدة : ٩]

* * *

وينشأ عن هذا التفاوت فى الصفات ما لابد أن ينشأ عنه من التفاوت فى الأرزاق ولكنه لا يبيح لصاحب المال أن يحسبه حكرا له ، ولا يأذن لطائفة من الناس أن تحصر الأموال بين يديها .

* * *

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء » .

[النحل : ٧١]

* * *

« كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

[الحشر : ٧]

* * *

هذه المساواة ، هي الحق الواجب ، وهي الرضا للناس آحادا وجماعات ، فما من مصلحة الإنسانية جمعاء أن يتساوى فيها العلم والجهل ، والسعي والكسل ، والطيبة والخبث ، والفطنة والغباء . وما من أحد يرضى عن هذا التساوي ويطلبه ويجعله أساسا للمعاملة في المجتمعات الإنسانية ، إلا أن يكون من أراذل الخلق الذين وطنوا أنفسهم على الإخلاد إلى الضعة واستراحوا إلى نصيبهم من الجهل والعجز ، وأضمروا الحسد والضغينة على من يسمو بهمته إلى نصيب فوق هذا النصيب .

* * *

والمسألة هنا ليست بمسألة الأصلح الأنفع فحسب ، ولكنها مع هذا مسألة الممكن الذي لا يتأتى غيره على طول الزمن ، وما تأتى قط ، ولو في زمن قصير .

فالمساواة التي يدعيها أصحاب التفسير الاقتصادي للتاريخ ، لا تتم في مجتمع من المجتمعات الإنسانية ولو قبض على زمامه أصحاب هذا التفسير عشرات السنين ، بل هم كلما تقدموا في مجتمعهم سنة بعدوا به عن مساواتهم الموهومة ، واضطروا على الرغم منهم إلى التسليم بالعوامل الحيوية والعوامل الكونية ، التي لا تسمح لحظة واحدة بإلغاء الفوارق والمزايا بين الأحياء .

فلم يمض جيل واحد على مجتمع من المجتمعات التي يفرضون عليها مبادئهم المادية إلا ظهرت فيه طبقات من الرؤساء والخبراء والمديرين والمدبرين يتفاوتون قبل كل شيء في أحوال المعيشة الاقتصادية من مسكن وملبس وطعام ورياضة ونفوذ وحظوظ من المال والمتاع .

وكل ما يستفاد من تلك المساواة الموهومة أنها سلبت عشرات الملايين قدرتهم على التقدم ، لأنها قتلت فيهم عوامل الأمل والحذر التي تستحث الخاملين والكسالى إلى السعي والطموح ، إذ كان الباعث الأكبر على نفض الكسل والخمول أن يشعر الخامل الكسلان بالخوف من عاقبة الضعة ، وبالحافز إلى التقدم واستثارة ما فيه من حسن الاستعداد للعمل وطلب المزيد . وإن الملايين من الخلق ليفقدون هذا الحافز الطبيعي إذا أيقنوا أنهم مطمئنون إلى مصيرهم ، عاملين أو غير عاملين .

وينتهي الأمر بتلك المساواة المادية إلى ظلم محيط لا تفلت الأمم ولا الآحاد من سوء عقباه . وأول المظلومين ، أولئك الذين يتخيلون أنهم هم الموعودون بالإنصاف والعدل والرعاية ، فإن العاجز الذي يحرمه المجتمع حوافز الهمة لهو المظلوم المسكين الذي يبلغ من ظلمه أن يجهل أنه مظلوم ويرضى عن ظالميه .

وأقبح ما فى هذا الظلم أنه نزول يأبى النازل أن يصعد باختياره ، وأنه يسوى الأعلى بالأدنى حيثما استطاع ، فاذا نظر المتساوون إلى حضيضهم الذى يسمونه المساواة لم يجدوا دونه منزلة يهبطون إليها ، فهى مساواة ليس دونها مكان يتسع للمزيد من الهبوط ، وهم يتجنبون فيها الأعلى على الدوام ولا يتجنبون ما هو أدنى .

وإنما المساواة شرف حين ترتفع بالأدنى إلى ما هو أعلى منه ، وحين تعطى الرفيع حقه وتأبى عليه أن يجور على حق غيره ، وحين تكون إنصافاً للعاجز ؛ لأنها تستنهضه إلى القدرة ، وإنصافاً للقادر ؛ لأنها تكافئه على المزية ولا تعاقبه عليها بحرمانه من جزائها . وحين تكون فى أعماقها إنصافاً للفطرة السليمة التى فطرت على التفاوت والتنوع من أجرام الفضاء إلى ذرات العناصر فى المادة الصماء ، وذلك هو إنصاف الحق والخير ، وهو إنصاف الإسلام .

ذلك هو الإنصاف الذى لا يحرم الإنسان العاقل روحه وضميره ولا يلغى فيه بواعث الهمة والطموح إلى الكمال ، ونترجمه بلغة الاقتصاد فنقول : إنه يفتح ميدان العمل للعاملين ويحميه غوائل الإفراط والتفريط من جانبيه فيأبى على القادرين أن يحصروا الثروة بين أيديهم ، ويأبى للعاجزين أن يفقدوا نصيبهم فيوليهم من ثروة الأمة كلها أكثر من ثلاثة فى المائة بين زكاة ومعونة وكفارة ونافلة ، محسوبة فى كل عام من الثروة كلها لا من ربحها الزائد فى ذلك العام .

نوعان من المساواة تختار بينهما الإنسانية فلا تحار فى الاختيار وفيها بقية من الخير .

عباس محمود العقاد

رأى

أعتقد مخلصاً أن العروبة إن اتحدت كانت بقوميتها أساساً لنهضة الشرق ، وأن الشرق إذا نهض كان بطبيعته أضمن للسلام من الغرب ، وأن الإسلام إذا تجدد كان بسياسته أصلح لإقرار العدل من كل نظام ، وأن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أى جامعة .

الرسالة سنة ١٩٣٩ م

الزيات

مع المذاهب الإسلامية

للأستاذ الدكتور محمد البهى

إن المذاهب الإسلامية هى ضروب من الفكر الإسلامى ونحن بحاجة إلى توضيح الفرق أولا بين الفكر الإسلامى والإسلام نفسه .

الفكر الإسلامى ليس هو الإسلام . هو صنعة المسلمين العقلية فى سبيل الإسلام ، وبمشورة مبادئه ، والإسلام هو رسالة الوحى الإلهى إلى رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . والقرآن هو كتاب هذه الرسالة . وفى حكمه ما انضم إليه من أحاديث شفاهية للرسول ، توضح بعض ما طلب توضيحه منه .

الفكر الإسلامى مستحدث ، ويخضع لقانون التطور ، ولعوامل الاضمحلال على السواء ، وكتاب الإسلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد . الفكر الإسلامى غير معصوم عن الخطأ والوهن ، والإسلام معصوم عن ذلك كله . وكتاب الإسلام (وهو القرآن) ـ لأنه معصوم عن الخطأ والوهن ـ له قداسة وله حق الطاعة المطلقة على المؤمنين به . والفكر الإسلامى لا تجب الطاعة له إلا بقدر ما فيه من تمثيل لكتاب الله ولرسالة السماء . ذلك أن هذا الفكر أصالة يخضع للنقد والمخالفة .

الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى هو الفرق بين ما لله وما للإنسان . والصلة بين الأمرين هى الصلة بين شيئين : أحدهما قام على الآخر واستند إليه فى قيامه ووجوده ، ولكن لا على أنه يصوره تماما ، ويكون معبرا عنه تعبير المثل للمثل .

هناك إذن إسلام نزل به الوحى الإلهى . وهناك إذن مسلمون آمنوا بهذا الإسلام ، وترجموا تعاليمه فى سلوكهم وحرصوا على أن يبقوا على إسلامهم فى جيلهم ، كما حرصوا ـ لأعقابهم فى الأجيال المتتابعة ـ أن تظل هذه الأعقاب على هذا الإسلام ، وعلوهم كيف يكونون مؤمنين ، كيف يترجمون إيمانهم بالصورة التى ارتضوها ، كيف

يحرصون على بقاء الإسلام فيهم ، وبقائهم هم أمة مسلمة ؟ .

وتهيئة هذه الكيفيات ، وتحديد معالمها فى عباراتها التى تورث من جيل إلى جيل فى كتبها المتداولة — هى الفكر الإسلامى .
وهذه الكيفيات فى تهيئتها وتحديد معالمها وصياغتها — تختلف حتما حسب اختلاف الأفراد ، والأجيال ، والظروف المحيطة . وربما يصل الخلاف فيما بينهم إلى درجة الفجوة أو المقابلة الواضحة . يقول ابن خلدون فى مقدمته ـ فى الحديث عن الفقه : « الفقه معرفة أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر ، والندب ، والكراهية ، والإباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة . فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : فقه ـ وكان السلف الصالح يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم . ولا بد من وقوع الاختلاف بينهم ؛ ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص ، وهى بلغة العرب . وفى اقتضاءات ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف . وأيضا فالسنة مختلفة الطرق والثبوت ، وتتعارض فى الأكثر أحكامها ، فتحتاج إلى الترجيح ، والترجيح مختلف أيضا ، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها ، وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص ، وما كان منها غير ظاهر فى المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما ، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم » .

ولهذا الاختلاف فى الفكر الإسلامى — لا يعبر رأى مفكر فى اتجاه من اتجاهاته ، ولا رأى صاحب مذهب من مذاهبه ، وكذا لا يعبر رأى المفكرين فى الاتجاهات المختلفة جميعا عن الإسـلام تمام التعبير وسيظل الإسلام نعمة السماء ، وسيظل الفكر الإسلامى صنعة الإنسان المسلم على أرض المسلمين . ومن يجعل إذا من الفكر الإسلامى إسلاما كأنه يجعل فى الواقع إسلامات عديدة مختلفة لدين الله الواحد .

ولأن الفكر الإسلامى هو الصنعة العقلية للإنسان المسلم ، كان الفكر الإسلامى فى جملته مستحدثا بعد نزول القرآن والسنة النبوية الشفاهية ؛ دفعت إلى استحداثه عوامل ، لا تنحصر فى طبيعة نصوص القرآن ، ولا فى تقييم الحديث من جهة سنده بل تتجاوز ذلك إلى اتساع رقعة المسلمين . وسيادتهم على بلاد كانت لها مدنية ثقافية وحضارة مادية ، وكذا إلى التطلع إلى السيادة والزعامة فى الأمة . وإلى

غير ذلك من العوامل التى من شأنها أن تدعو إلى المحاولات الفكرية لتبرير أمرما أورفضه ، أو تدعو فى الجملة إلى الجدل العقلى والمناقشة .

دفع الإنسان المسلم إلى وضع التفسير ، ففسر القرآن أولا بالرواية ، مستندا إلى الآثار المنقولة عن السلف . وهى معرفة الناسخ من المنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى واشتمل التفسير بالرواية - كما يقول ابن خلدون على الغث والثمين ، والمقبول والمردود . وفسره ثانيا متأثرا فيه بلون معين من الحزبية المذهبية كتفسير « الكشاف » للزمخشرى ، وتفسير « الكبريت الأحمر » لمحيى الدين بن عربى ويمثل رأى الكشاف مذهب الاعتزال ويمثل « الكبريت الأحمر رأى المتصوفة المتأخرة فى التجلى والحلول ، والوحدة فى الوجود .

ودُفع الإنسان المسلم إلى وضع الفقه تحت تأثير أحداث الحياة السياسية والاجتماعية وتحت زيادة أمصار الإسلام ودخول غير المسلمين من أرباب المدنيات والحضارات السابقة على الإسلام . وانقسمت مذاهبه المعروفة بين جمهور المسلمين إلى ثلاثة مذاهب : إلى مذهب أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ؛ لأن الحديث كان قليــــلا بينهم فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه . ولذلك قيـل فى شأنهم : أهل رأى . وهم أبو حنيفة وأصحابه .

ومذهب أهل الحديث . وهم أهل الحجاز وإمامهم مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة . ومن بعده محمد بن إدريس الشافعى الذى مزج فقه أهل المدينة بفقه العراق بعد أن ارتحل إليه .

ومذهب الظاهريين . وإمامهم داود بن على وابنه من بعده : ومذهبهم يقوم على إنكار القياس وإبطال العمل به . وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص القرآنية والسنية ، وكذا فى الإجماع . وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ؛ لأن النص على العلة - فى تقديرهم - نص على الحكم فى جميع محالها .

وبجانب هذه المذاهب الفقهية التى عرفت لجمهور المسلمين يوجد لأهل البيت - وهم الشيعة - فقه انفردوا به . وأقاموه على أساس من اعتقاد : أن أهل البيتُ نصٌ على أن تكون « الإمامة » فيهم . ولذلك سميت الشيعة بالإمامية أيضا .

ولا تختلف أصول الفقه عندهم عنها عند جمهور المسلمين فالقرآن هو القرآن ، والسنة

هى السنة . إنما الخلاف فى السنة مثلا فى ثبوت مروى أو عدم ثبوته . وهذا ليس خاصا بالسنة والشيعة . وإنما يوجد بين مذاهب السنة بعضها وبعض . فكم من مروى ثبت عند الشافعى ولم يثبت عند غيره .

وإذن إذا سميت طائفة بالسنة وطائفة أخرى بالشيعة فليس هذا إلا اصطلاحا ، فإن الشيعة يعملون بالسنة ، وأهل السنة يحبون آل البيت ويجلونهم .

كما وجد فقه الخوارج ، راعوا فى استنباط الأحكام من النصوص موقفهم الخاص فى الإمامة والتزامات الإمام نحو الرعية ، وواجب الرعية نحو الإمام .

ودفع الإنسان المسلم - عند ما زاحمت العقائد الأخرى العقيدة الإسلامية ، أو عند ما حاولت أن تنال منها - إلى الدفاع عن عقيدة الإسلام ، فوضع علم الكلام .

فالتفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام تصور اتجاهات الفكر الإسلامى الأصيل . وهى تمثل الفكر الإسلامى الأصيل ، لأنها منبثقة عن الإسلام ، باستخدام المسلم تفكيره فى تفريعها عنه . ومهما اختلف تفكير المسلم فى تفريعها عن الإسلام فإن اختلاف التفكير لم يخرجها جميعها — قبل غزو الفكر الإغريقى الوثنى للمجتمع الإسلامى عن الاعتدال فى اتصالها بالإسلام ، ولا عن التسامح بين المختلفين فى التفكير ؛ لأن الجميع أصدروا فى تفكيرهم عن مبدأ واحد ، هو : من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . فالكل مأجور ؛ لأنه يهدف إلى الحق . وإلى حيطة فى الوصول إلى هذا الحق . الكل يهدف إلى أن يكون مسلما فى إيمانه وعمله . والاجتهاد كما يعبر عن حيوية المسلم إزاء الإسلام والحياة معا — أو كما يعبر عن طاقة الملاءمة التى يحملها المسلم ؛ ليوفق دوما بين الحياة التى يعيشها الآن وبعد الآن وبين الإسلام الذى يؤمن به - يعبر من جانب آخر عما يصاحبه من روح اليسر وروح الحرية فى التفكير ، وإن كانت حرية محدودة .

فبدأ الاجتهاد الذى قام عليه الفكر الإسلامى الأصيل مبدأ بناء ، ومبدأ حركة ، ومبدأ حرية ، وبالتالى مبدأ تيسير ، وفى الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح ؛ إذ الخصومة النفسية إنما تقع عند ما تشتد أزمة النفس وضيقها ، وعند ما يفرض عليها الإلزام والاتباع ، وهكذا عند ما ابتدأ الفكر

الإسلامى الأصيل على أساس من الاجتهاد والاختلاف فى التفكير والنظر .

نجد طابع هذا الفكر الطابع البنائى ، السائر إلى الأمام . ولا تكاد تلمس فيه تنابزا ولا خصومة خارجة عن روح النظر السليم بين المختلفين فى التفكير فيه . ونجد المسلمين آنئذ أصحاب رأى وأصحاب حجة وأصحاب علم فيما باشروه من ضروب التفكير المختلفة .

ولكن الوقوف بالاجتهاد والركون إلى التقليد هو الذى حول ملكة الاستنباط والاستخراج إلى التأسى واتباع ما وضعه إمام المذهب . وإذا حيل بين المقلدين وبين الاختيار فى التقليد ، وبين التنقل فى التبعية - فالمنتظر أن تصبح المذاهب الفقهية أشبه بالديانات المختلفة ، فى التعصب لها والجدل حول قيمها بين الأتباع .

إن الخلاف فى الرأى سنة الحياة ، ولكن التعصب للرأى مصدر الفرقة والضعف ، وأساس الحقد والغل . « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

اللهم إن دينك دين الوحدة والقوة ، دين الحياة ، دين الأخوة فى الإنسانية . اللهم هيىء لنا من أمرنا رشدا ، بالرجوع إلى كتابك وسنة رسولك ، وأبعد عنا سوء الفرقة باتباع الهوى ، والتمادى فى استغلال الفرقة المذهبية .

دكتور محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

النفوس القوية

كتب عقيل بن أبى طالب إلى أخيه يسأله عن حاله فكتب إليه أمير المؤمنين يقول :

فإن تسألنى كيف كنت فإننى جليد على عض الزمان صليب

عزيز علىّ أن ترى بى كآبة فيفرح واش أو يساء حبيب

وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

لقد عجبت منه الليالى لأنه صبور على عضلاء تلك البلابل

إذا نال لم يفرح وليس لنكبة ألمت به بالخاشع المتضائل

الأزهر ومذاهب الفقه الإسلامي
للأستاذ محمود الشرقاوي

قرأ الناس ويقرءون فى هذه الأيام الأخيرة أحاديث تطيب بها نفوس المثقفين الفاقهين من رجال الدين وغيرهم من الذين يحرصون على أن تقوم العقيدة وأن يقوم رجالها بما يجب عليها وعليهم نحو الحياة العامة للمسلين فى هذا العصر. أحاديث تطيب بها نفوس الفاقهين المثقفين وتسعد قلوبهم لما فيها من الصدق والإيمان والإدراك العميق الشامل لمشاكل العقيدة ومشاكل المسلمين فى نواح كثيرة من حياتهم الحاضرة.

وهذه الأحاديث التى تدل على الصدق والإيمان والإدراك الصادق ليست جديدة يسمعها الناس من شيخنا الأكبر شيخ الأزهر ويتلقونها عنه لأول مرة، فقد سمعناها وتلقيناها منه وقرأناها له منذ سنين طويلة. وهو أستاذ فى كلية الشريعة، أو عضو فى جماعة كبار العلماء، أو غيرها من اللجان العلمية أو الجماعات التى تعمل للتقريب بين المسلمين ومذاهبهم أو وكيل للأزهر. ولكن الجديد هو أن ما سمعناه من أستاذنا الشيخ شلتوت من قبل. نسمعه الآن منه وهو شيخ للأزهر بوصفه هذا.

وهذه ناحية أخرى يجب أن نشير إليها ونسجلها فى مطلع هذا المقال. وقد أعرف أكثر من غيرى بعضاً من العلماء الكبار يقولون هذا الذى يقوله شيخنا الأكبر ويؤمنون به ويعملون به أيضا، ولكنهم يؤمنون ولا يعلنون. ويقولونه بينهم وبين أنفسهم، ويعملون به كذلك بينهم وبين أنفسهم ولكنهم يجدون من الحكمة أو من المداراة والتقية وإيثار السلامة ألا يظهروا بذلك على الناس ولا أن يعلنوه لهم ولا أن يعرف عنهم ذلك ويفشو.

وهذا الذى أجد أن لابد من الإشارة إليه وتسجيله فى بدء الحديث، والإشارة أيضا لما فى تصريح الأستاذ الأكبر، برأيه هذا وبوصفه هذا، من دلائل الشجاعة والصدق وإيثار المصلحة العامة للمسلمين والإخلاص للرأى وحده وللعقيدة.

وأعتقد أن القارىء أدرك أنى أقصد بهذا الذى نقرأ ونسمع: التصريحات التى صرح بها شيخ الأزهر فى شأن بعض المذاهب الإسلامية وما يدعو إليه من دراستها وتمحيصها والعناية ـ والاعتراف بها قبل ذلك ـ

والأخذ بما تطمئن إليه نفوس الباحثين من آرائها وأدلتها وألا يتقيد الناس بما ألفوا أن يتقيدوا به من حدود هذه المذاهب الأربعة المعروفة .

ولم يكن حديث شيخ الأزهر فى هذا دعوة مجردة ، بل هو مصحوب بالحزم والإقدام والعمل على أن يقوم الأزهر فعلا بهذه الدراسة وما يتبعها . وهذه ناحية ثانية جديرة بأن تذكر وتسجل لشيخ الأزهر ، وأن تحمد له أيضاً .

الثقافة الإسلامية

الأزهر قوام على الثقافة الإسلامية والعربية، وعلى كفالة التوجيه الدينى للسلين فى كل بقاع الأرض ، ولمن يريد أن يعرف الإسلام أو أن يعرف عنه من غيرهم . والثقافة الإسلامية والعربية هما ذلك الإنتاج الفكرى والعلمى والأدبى الذى يشمل ثقافة هذه الرقعة الفسيحة من الأرض التى انتشرت فيها لغة القرآن وثقافته ، من حدود الصين إلى شاطئ إفريقيا الغربى منذ عرفت هذه البلاد الإسلام — بل من قبل ذلك — إلى هذا العصر الذى نعيش فيه . وتلك الرقعة من أرض أوربا ، شرقا وغربا وجنوبا ، وقد عرفت دين الإسلام وثقافته ، أو بعضا منها ، زمنا طويلا أو غير طويل .

هذه هى الثقافة الإسلامية شاملة كاملة . وهى خضم هائل من المعرفة ، ومن الآداب يجب أن يعرفها الأزهر كلها ، وأن يحيط بها، وأن يدرسها أهله دراسة عميقة دقيقة مستوعبة بصيرة .

ولا أستطيع ، بطبيعة الحال ، أن أعدد ألوان هذه الثقافة وفنونها وآدابها ولكنى أذكر أمثلة من ذلك تكفى لتحديد ما أقصد .

ففى المذاهب الفقهية ، مثلا يدرس الأزهر كتبا ، فى مذاهب الأئمة الأربعة ولكنه لا يعرف شيئا عن مذهب الأوزاعى . وقد كان يسود فى وقت من الأوقات البلاد الإسلامية فى المغرب الإفريقى ، وفى الأندلس؛ ولا يعرف شيئا عن مذهب الزيدية ، وقد كان ولا يزال يسود بلادا إسلامية هى اليمن ، ولا يعرف شيئا عن فقه الشيعة وقد ساد قطعة عظيمة من البلاد الإسلامية ، ولا يزال . وهى بلادها عراقة فى حياة الإسلام وثقافته ولها قيمة كبرى كذلك فى مقومات الحياة العامة للسلمين . ولا يكاد الأزهر يعرف إلا شيئا قليلا من فقه المذهب الوهابى وهو يسود الآن البلاد التى هبط فيها الوحى ونزل القرآن .

ولبعض الطوائف الإسلامية الأخرى مذاهب وآراء فى الفقه والفهم الدينى لا يعرف الأزهر عنها شيئا ولا يدرس طلبته

وأساتذته منها شيئا ، أى شىء ، ناهيك بما جد من مذاهب ونحل ، سليمة أو سقيمة منحرفة أو مستقيمة ، كالبابية ، والبهائية وغيرهما .

ليس واجبا على الأزهر أن يدرس هذه المذاهب وغيرها ليدرك ألوان هذه الثقافة الفقهية وما بينها من فوارق وما تستند إليه من دليل ؛ ولكن ليجد فى كثير منها كذلك نبعاً من المعرفة والإدراك والعلم قد لا يجده فى هذه المذاهب التقليدية التى يقف نشاطه ودرسه عليها . وقد يجد فيها من الآراء المقبولة ما يعينه على وضع الحلول لمشكلات لا نهاية لها يلقاها الناس كل يوم فى حياتهم الحاضرة، ويريدون أن يعرفوا حكم الشرع فيها. وبعض هذه المذاهب ـ كما قال فضيلة الأستاذ الأكبر ـ بحق ـ يستند فى حكمه إلى القرآن الكريم والحديث الصحيح ، ويبدو للتأمل الذى انسلخ من التعصب والتبعية المذهبية رأيا واضح الرجحان .

أما المذاهب المنحرفة فما أرى إلا أن الأزهر يفيد من درسها بيان انحرافها ودفع شرها عن الناس وعن العقيدة .

المعرفة والألفة :

ليس هذا الذى يدعو إليه شيخنا الأكبر ـ وندعو إليه معه ـ رأياً علميا مجردا ، بل هو ـ مع ذلك ـ ليس مقطوع الصلة بالحياة العامة للمسلمين جميعا ، وليس مقطوع الصلة بمستقبلهم وأهدافهم التى يحرص عليه وعليها المخلصون من حكامهم والمثقفون الفاقهون من رجالهم . فالمعرفة ـ كما يقولون ـ طريق الألفة . وهذه الشعوب الإسلامية على هذه الأرض يدعوها ـ بل يأمرها ـ دينها أن تتعارف وتتآخى وتتآزر ، وأن تكون على الدوام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر كما جاء فى بعض الحديث الشريف ، وكذلك تدعوها مصالحها العليا إلى هذا التآخى والتآزر والتساند .

والأزهر ـ وهو على ما وصفنا من القوامة على حياة المسلمين الروحية ـ من حقه أو من واجبه أن يذكر المسلمين على الدوام بهذه الوحدة التى يأمرهم بها الدين وتدعوهم لها مصالحهم العليا ، ومعرفة المذاهب الإسلامية المختلفة التى يعتقدها ويعمل بها المسلمون ـ سبيل لتخفيف هذه الحدة القائمة من الخلاف بين طوائف المسلمين وبلادهم ، ودراسة هذه المذاهب دراسة نزيهة مخلصة مجردة خالية من التعصب المذهبى والتبعية الفكرية منهج لاشك فى جدواه لتخفيف هذه الحدة وإزالة هذه الجفوة ثم الانتقال منها إلى التصافى والتساند والمؤازرة والحرص على الخير المشترك .

ومصائر الأمم فى هذا العصر أصبحت رهينة بتوجيه السواد الأكبر من الناس . أى بتوجيه الشعب ، وهذه ظاهرة لا شك فى وجودها ولا فائدة من المكابرة فيها ، وليس بد من الاعتراف بها حقيقة واقعة فى حياة الأمة العربية والشعوب الإسلامية الآن ، وحقيقة أخرى يجب التسليم بها : هى أن هذه الشعوب تهفو بقلوبها وعواطفها إلى الوحدة وتعمل فى سبيل أن تصل إليها ، وهذه الشعوب ، كما نعرف ، ما يزال للدين والعقيدة الأثر الأول والتوجيه الأقوى بين أفرادها وسوادها ومن هنا كانت أهمية الدور الذى يجب على الأزهر أن يقوم به فى توجيه هذه الشعوب عن طريق العقيدة نحو مصائرها العليا وأهدافها . وفى أحداثنا القريبة جداً أكبر شاهد على ذلك وأقوى دليل . فقد رأينا أن الشيوعية الباغية توشك أن تنقض لتقوض الإيمان الراسخ فى بلد إسلامى قريب لنا . وتحاول أن تهدم المقدس من آدابه وتقاليده ومثله ، فلما أحس أهل هذا البلد بما يحاول البغاة أن يوقعوه بدينهم ومقدساتهم ، توجه علماؤه من الشيعة إلى الأزهر يستصرخونه ، وآزرهم الأزهر وشيخه الأكبر ونصرهم بكل ما يستطيع . ولم يمنع الخلاف فى المذهب والعقيدة أن يلجأ علماء الشيعة فى العراق إلى الأزهر السنى . ولا أن يلبى الأزهر السنى دعاء النصرة من علماء الشيعة لأنهم جميعاً مسلمون ، والإسلام ، كالعلم ، رحم بين أهله . ولأن الخطر الأكبر يريد أن يقضى على العقيدة من أصولها والشر واقع ، عندئذ ، على الجميع .

لا أريد أن أتحدث فى السياسة العامة فليس هذا من شأنى اليوم ولا هذا مجالها . ولكنى أريد أن أنبه إلى أن التقارب الذهنى والمذهبى سبيل إلى المعرفة . والمعرفة سبيل إلى الألفة وما يتلوها من الأخوة . وسبيل هذا التقارب الذهنى والمذهبى هو الدرس المخلص النزيه . وهذه ، على ما أعتقد ، هى دعوة شيخ الأزهر التى يؤيده فيها المخلصون الفاقهون وتؤيده فيها إيماننا ويقيننا وأقلامنا ، إن الحق لا يعرف بالرجال :

وهناك أحاديث أخرى أريد أن أقولها وأفيض فيها لولا خشيتى أن أطيل . ولعلى أقولها فى وقت قريب ، غير أنى لا أريد أن أخلص من هذا الحديث قبل أن أقول للذين قد لا ترضيهم هذه الدعوة أن ما يحرصون عليه من رأى أو قول قد لا يكون خير الآراء ولا أسلم الأقوال . وأن هذه الآراء والأقوال لعلها قد نالت شيئاً كثيراً من القداسة القائمة على الألفة وإدمان النظر لا غير .

كما أريد أن أذكرهم بأن هذه الدعوة لتحكيم الرأى والدليل وتسويده على النقل والمتابعة

نفحات القرآن

الفنون الجميلة فى نظر الإسلام

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) بديع السموات والأرض
(ب) صنع الله الذى أتقن كل شىء

فى القرآن الكريم آيات وآيات، يراد بها تذكير الناس بما أسبغ الله عليهم من فيضه ونعمائه.
وفى القرآن الكريم توجيهات بينة إلى ناحية الإبداع والجمال فى كل ما خلق الله من كائنات، فأسلوب الكتاب العزيز لم يقف بنا عند الامتنان بسرد النعم للاحتجاج بها فحسب،

ليست شيئا جديدا فى الحياة الإسلامية ولا أمرا طارئا على التفكير الإسلامى والفقهى أيضا. ويكفينى أن أذكركم بهذه الكلمة القوية المخلصة التى كتبها أبو الفرج الجوزى قبل ثمانية قرون وقد كانوا يسمون أبا الفرج واعظ العراق وعالم الآفاق «واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال، وهذا عين الضلال، لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل. كما قال على رضى الله عنه للحارث بن حوط وقد قال له: «أيظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل؟ فقال يا حارث: إنه ملبوس عليك. إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله» (١).

كما أريد أن أذكركم بأن هذه الدعوة المخلصة كانت مصر منبتا لها ومنبرا، وكان رجال مصريون هم دعاتها وروادها والمبشرون بها حتى قال شاعرهم أبو الحكم ابن سعيد البلوطى المصرى هذا البيت الصارخ المستجير من الشعر.

عذيرى من قوم يقولون ـ كلما
طلبت دليلا ـ : هكذا قال مالك

محمود الشرقاوى

---

[١] ص ٨٦ — ٨٧ من كتابه: «نقد العلم والعلماء. أو تلبيس إبليس» طبع القاهرة ص ١٣٤ الخانجى ومنير الدمشقى.

بل أهاب بنا كثيرا ، ونبهنا فى قوة إلى تقصى ما فيها من جمال قد يبلغ مبلغ الروعة فى كثير منها ، وطالبنا بالالتفات نحو إبداعها ؛ ليكون من تقديرنا لها استلهام للإيمان من سبيل جديدة غير السبيل التلقينى ، هى سبيل الوجدان والبصيرة ، والاهتداء بما لله من عجائب .

وليكون هذا التقدير غارسا لمحبة الجمال فى وعى الإنسان ، وحافزا على الأخذ بسنة الله فى خلقه ، من الإجادة فى عملنا ، والانتفاع بمواهبنا فى كل ما نتصدى له من شئون .

وفى الآيتين السابقتين - فى مطلع حديثنا - تعريج صريح بالثناء ، والمباهاة بالجانب الفنى - كما نسميه نحن - فيما صنع الله .

فالسموات والأرض آيتان من آيات الله الكبرى ، تشهدان بقدرته - لا شك - وتنبهان العقول والأذهان على عظمته .

والتعبير فى شأنهما تجاوز الإفادة والمباهاة بخلقهما إلى المباهاة بإبداعهما ، وحسن تنسيقهما على نحو ما نراهما من الروعة الباهرة .

ولذلك لم يقل : خلق ، كما قيل فى مواطن أخرى .

بل قال : « بديع السموات والأرض » .

وهذا الإبداع من صفات الله سبحانه ، وذلك مناط المباهاة والتعاظم بالنسبة للجانب الإلهى .

وهو أيضا مثار الاستنهاض إلى الاقتباس من سنة الله فيما صنع ، وفيما يجب أن نحاكى صنيعه فى حدود طاقتنا البشرية - ولله المثل الأعلى .

وكأنه تعالى يزيدنا إيضاحا وتوجيها إلى هذا بقوله : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى (جبالا) أن تميد بكم » .

فإذا روعى ما يقترن بالسموات من عوالم أخرى ، وما يتصل بالأرض من كائنات ، وروعى ما قامت عليه تلك الخلائق من تنسيق ونظام رتيب ، وضح لنا من ملامح القدرة ما يزيدنا إجلالا ومهابة للذى خلق وأبدع ، وانقادت مداركنا إلى التسليم بأن هذا - حقا - هو صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وواضح أن هذا توجيه قوى إلى تذوق الفن الجميل ، وحض على الأخذ منه بما يستطاع ؛ فإن الجمال فى كل شىء من تمام النعمة به ، وليس مظهراً ثانويا فيه .

والدنيا كلها نعمة منثورة فى عوالمها ، وتمامها فى جمالها .

ومن هذا كان الامتنان بها وبكل ما فيها حقا لله على عباده ، وأمرا معترفا به فى شرعة العقول الواعية .

هذا - ومما يقال حديثا : إن الفنون الجميلة ضرورة من ضرورات الحياة المتحضرة ، ونحن نسبق غيرنا إلى تقرير هذه القضية ،

وإلى الاعتراف بما للفنون الجميلة من أثر فى إبهاج الأنفس ، ومن شأن فى ترقية الذوق ، وتنبيه المشاعر إلى التجديد فى مناهج الحياة ما استطعنا .

غير أننا نخالف غيرنا - إلى حد ما - فى تفسير هذه القضية ، وفى تطبيقها كمبدأ مسلم به ، فنحن نعتبر الفن الجميل دوحة تتجلى فيها مواهب الإنسان ، ومرآة صافية تتمثل فيها أسرار الطبيعة المكنونة ، وتنعكس عليها حضارات الشعوب الغابرة والحاضرة ونعتبرها كذلك دروسا حية يتلقنها الخلف ليتبينوا منها كيف كانت حياة أسلافهم ، وكيف قامت حضاراتهم فيما قامت عليه من آثار ومآثر ؛ ليتاح للأجيال اللاحقة أن تتخذ من ماضى الأسلاف معالم طريق تسير فى ضوئها نحو أهداف سامية فى تركيز يجدم التالد والطريف.

هذه نظرتنا إلى الفنون الجميلة ، وبهذا الاعتبار يصح أن تكون صدى لدعوة القرآن فيما نفهم .

ولكن غيرنا ممن خالفناهم يتوسعون فى مفهوم القضية ، وفى تطبيقها ، حتى أقحموا فيها ما ليس منها ، وانحرفوا بها إلى غير أهدافها .

فتراهم يجاهرون بالدعوة إلى الرقص دون تحرج ، ويصغون إلى الغناء الماجن فى إسراف ، أويتهافتون على الصور المثيرة حتى فى أخس أوضاعها المرذولة ، بل يتجاوزون هذا كله إلى استعراض الأجساد العارية ورسمها بالألوان المغرية ، إلى آخر ما هنالك من مخزيات فاضحة يعافها الذوق ، ولا تعتبر فنا جميلا إلا فى مقاييس الغواة .

فإذا وقفنا من غيرنا موقفا إيجابيا فى تقدير الفنون الجميلة ، واعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة ؛ فنحن نقف منهم موقفا سلبيا فيما شطحوا إليه من هذا القبيل ! ! .

نوافقهم لأننا نستقى علمنا بهذا ورأينا فيه من جانب الدين ، ومن الذوق البرئ من لوثة الهوى .

ونسير فى تطبيق المبدأ سيراً بصيرا نتوخى فيه المنافع المشروعة ، ونفصح بدعوتنا إلى الفنون الجميلة الكريمة عن رغبتنا فى استغلال المواهب ، وعن مقاصد الإسلام من إشادته بالجمال الفنى ، ومن الدعوة إلى النشاط فى ميدانه العلمى والتطبيقى جميعا ونخالف غيرنا فيما توسعوا فيه ؛ لأنهم يقلدون سوانا من ذوى النزعات المنحرفة الذين لا يتحرجون من سقطات ، ولا تحكم عليهم بيئة متزنة ، وإنما تدفعهم غرائز طائشة ، وينشطون فى تحصيل الرغبات ولو كانت فيما يعافه الحياء الإنسانى .

ثم : مادام الدين الذى شرع لنعيش فى ظلاله قد تكفل بتوجيهنا إلى أهداف صحيحة نأخذ منها حظنا ، وترقى بها حياتنا ، وتسلم عليها

أخلاقنا ومجتمعنا فلماذا نبعد عنه إلى غير ما اختار لنا فيما تمليه الغواية ، وتتهدم به قوميتنا التي نحاول شد أركانها بأوثق مايضمن لها القوة والتغلب على محاولات الماكرين بها؟؟

ولكي تفهم مكانة الفن في نظر الإسلام أوضح مماسلف تنظر في ثنايا الآيات بعد ـ وفيها الكفاية للتدليل .

وأول مايبدو هنا من هذه النظرة ويبهرنا من روائها أن القرآن نفسه نموذج أدبي من الفن الرائع في نمطه كله : لفظا ، ونغما ، وفواصل

فليس هو شعراً ، ولا زجلا ، ولا سجعا ، ولا نثرا مما يعهده الناس، وإنما هو منهج علوي له طابعه الخاص في تنسيقه ، وله موسيقاه التي يسمو بها على قدرة الإنس والجن ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا .

وليس هذا وحده ـ بل يمتزج ما في القرآن من رواء بلاغي بحسن عرضه للآيات الكونية وتجلية ما تحتويه من بواعث الإجلال ... ولديك أمثلة : ـ

١ ـ « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم: كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج » .

٢ ـ « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين » .

٣ ـ « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .

٤ ـ « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا » .

٥ ـ « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .

٦ ـ « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » .

٧ ـ « وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه » .

٨ ـ « ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، (غصون متدلية) ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » .

٩ ـ « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

فأنت ترى ما في الآيات من تنسيق الأوصاف، وذكر البهجة والزينة ، واختلاف ألوان الزروع والثمار والأزهار ما يشهد بتقدير الإسلام للجمال في تلك المخلوقات ونحوها وابتعاثه لنزعة التأمل فيها من جانبنا حتى نقتبس منها منهجا ننسج على غراره .

وقد يكون التفصيل المسهب في مثل ذلك كله مجموعا في نحو قوله: « الذي أحسن كل شيء خلقه » ، على أن هناك توجيها ذاتيا لنا إلى تجميل أنفسنا واتخاذ الزينة في وقت العبادة ومكانها ، « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» ، « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» ، إلى آخر آية الوضوء .

وكان النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، يتجمل بترجيل شعره ،وتنسيق هندامه وكان يقول: «إن الله جميل يحب الجمال» وكان يطرب لسماع الصوت الجميل في تلاوة القرآن ، ويحث على تجميله في القراءة كما كان يطرب لسماع الصوت الجميل . في أهازيج العرب من حداة الإبل أثناء السفر .

وحسبنا بمحمد قدوة لنا في الاتجاه ، ومطاوعة الفطرة المصقولة في التأثر بالجمال في كل شيء ، وما يمكن للجمود أن يتغلب على الفطرة حتى نتجهم للجمال ، أو نجحد جانب الإبداع، وتفاوت المواهب في آثارها الفنية:

ولو أن الدنيا كلها لم تكن عوالم متنوعة : من بحار ، وزروع ، وجبال ، ورمال أو : لو أن كل عالم من هذه العوالم لم يكن متفاوتا في وحداته ، كأن تكون الجبال ذات لون واحد ، أو تكون الزروع غطاء واحدا ، في شكله ولونه ، أو تكون الثمار كذلك : لو لم يكن هذا التفاوت لانعدم فيها الإبداع ولكانت دنيا مملولة وكانت الحياة فيها جافة مزهودا فيها ، حتى ولو كانت كلها بساتين مزهرة مثمرة وبهذا التنوع وهذا الإبداع استحقت الدنيا أن تكون مثار المباهاة بها من جانب الله ، وتهيأت لأن تكون فتنة لنا ، واقتضت أن يساق إلينا التحذير منها خشية الغرور بها ، والإسراف في التهالك عليها .

فإذا وعينا ما تحدث به القرآن عن دنيانا ، وما احتوته تعاليم الإسلام عن الجمال في كل موطن من مواطنه ، أدركنا أن الله يحب الجمال ، وينبهنا على قدره ، وشأنه ، والأخذ به في كل ما نحن بسبيله .

غير أن جمال الفن ، كما أسلفنا ، ومهما أفسحنا فيه الخطى ، لا يتسع للهازل ، ولا يمتد إلى الجانب التشريعي في الدين بتغيير أو تبديل في أحكامه أو المساس بشيء مما تلقيناه صحيحا من تعاليمه ، وآدابه ، وما رسمه لتنظيم المجتمع في إطار سليم .

فليكن إبداعنا الفني فيما نضع من نظم اقتصادية ، وفيما نهيئ من أسباب القوة . وإعداد الجيش ، وفيما نبني ونزرع،ونخترع ، ونصنع ، وفي كل ما يفتح لنا منافذ الدنيا كشفا ، وانتفاعا ، واقتباسا ، وتعاونا جديا

وليس الفن إطلاقا في إهدار الخلق، وهتك الآداب ، وشيوع المجون ، وقتل الأنبياء وترويج الرذائل .

وإن هذا التجديد الذي نشكو منه لأخطر على مقومات الحياة ، وأنكى من حروب العدوان.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والله نسأل التوفيق والسلامة ؟

عبد اللطيف السبكي
عضو جماعة كبار العلماء

المستشرقون والإسلام

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

لست أنكر أن للمستشرقين حق أن يبحثوا فى الإسلام وعلومه ، فالإسلام وهو رسالة الإنسانية كلها ، ليس فهمه وتفهمه من حق فريق دون فريق ، ولا طائفة دون طائفة. ولكنى لست أجهل أن لبعض المستشرقين جهودا لا تعرف الملل ، وصبرا لا يعرف النفاد ، وفراغا هادئا طويلا عريضا ، خصصوها كلها للكيد للإسلام والنيل منه .

ولهم فى ذلك وسائل متنوعة ، منها الظهور بمظهر المسلمين وإثارة الشبه والشكوك فى نفس من يلتقون به منهم ، ومنها الكتابة المغرضة المضللة.

لقينى منذ أيام — وأنا أركب ترام الأزهر - واحد منهم ، جلس على الكرسى المقابل لى وفى يده كتاب بدأ يقلب صفحاته فى عصبية واضحة ، ويحملق فيه بعينين لا تطرفان ، وينفخ النفس ويجذبه بأنف عريض يسمع لحركة النفس فيه دوى ، وكانت صفحات الكتاب الذى فى يده مزيجا من سطور افرنجية وسطور عربية . كانت كل هذه المظاهر توحى لرائيها برغبة فى الاستطلاع ، فدفعنى الفضول إلى أن أبدأه الحديث ، ولعلى لا أجانب الصواب إذا قلت : إن ملامحه كانت تدل على رغبة منه فى أن يشترك معى فى حديث ، ولكنه كان يفضل أن أكون البادئ فعلت . سألته عن اسم الكتاب الذى فى يده ، فمال إلى برأسه وأعطانى أذنه فى عناية واهتمام ، ولما فرغت من السؤال الذى ألقيته إليه باللغة الإنجليزية ، عقب فى لهجة عربية متكلفة وصوت جهورى تشوبه - رغم أنفه - لكنة أعجمية قائلا : نعم ! ! فقلت له : يبدو أنك تعرف العربية جيدا فنسب إلى نفسه نسبا طويلا ، كان يقرب فيه من العرب والإسلام حينا ، تطمينا لى وتأليفا لقلبى ، ويبعد عنهما فى زهو خفى ينم عن كراهية وبغض ، حينا آخر ، وأخيرا انتهى من سلسلة النسب هذه بأنه مسلم من أبوين مسلمين .

فعدت أسأله عن اسم الكتاب ، فقال : إنه « معجزات محمد » فقلت له : ما دمت تجيد العربية فلم لا تقرأ عن موضوع المعجزات كتبا عربية ؟ فارتمى فى كرسيه إلى الوراء فى زهو واعتداد ، وقال : لقد

قرأت كثيراً جداً ، ولكن يا أستاذ - وهنا أشار بإصبعه إشارة الاهتمام ، وجعد مواضع من وجهه علامة مَن أمل فى شىء فخاب رجاؤه - ما كل ما يقرأ يصدق ، ولقد خلق الله لنا عقولا ، ولا بد أن نستعملها ، وإن المستشرقين قد أجادوا اللغة العربية ، حتى أصبحوا فى مصاف أهلها دراية وفهما ، وهم فوق ذلك أحرار الرأى ، أقوياء الحجة ، ولابد أن ننتفع بكتبهم ، وأن نفيد من بحوثهم .

وهنا قدرت أن الكتاب الذى فى يده لا بد أن يكون لمستشرق ، فسألته عن اسم مؤلفه ، فأجاب فى اعتداد وفخر : إنه لفلان الجزائرى الذى كان مسلما وتنصر .

وعند هذا الحد كانت صورة واضحة للرجل قد ارتسمت فى نفسى ، فلم تعد بى حاجة إلى أن أطيل معه أكثر من هذا فى الحديث عن نفسه وعن كتابه ، فهو مستشرق يعلن الإسلام ويبطن الكفر ، وسواء صح ما قدرت أم لم يصح ، فما كنت لأستطيع أن أتركه يغادرنى دون أن يعلم أنه كان سيئ الحظ بلقائى هذا الصباح ، فقلت له - رغم أن الترام كاد يصل إلى نهاية الخط - إنك قوى الثقة فى المستشرقين ، فهل تظن أنهم قد فرغوا من وضع حلول لمشاكل دينهم الذى يدينون به ، قبل أن يتبرعوا بوضع حلول لمشاكل دين لا يؤمنون به ؟ هل تظن أنهم وضعوا حلا لمشكلة التثليث ؟ وهنا هب الرجل واقفا ، ووضع يده على كتفى ، وأولانى نصف نظرة بينما النصف الآخر كان يتحسس بها باب الترام تأهبا للانصراف ، وقد استولى عليه من الفزع والرعب ما جعله يظهر فى صورة المتعجل ، وقال وهو على هذه الحال : ونحن أيضا نقول بالتثليث ، ألسنا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يريد أن كلمات « الله » و « الرحمن » و « الرحيم » تدل أيضا على آلهة ثلاثة ، وأراد أن يولنى ظهره لينصرف ، فانتهضت واقفا أشعره أننى نازل معه ، وأننا ينبغى أن نظل معا بعض الوقت حتى نفرغ من الحديث الذى بدأناه ، وهنا نزلنا من الترام .

فقلت له : إن « الله » و « الرحمن » و « الرحيم » ألفاظ ثلاثة : اسم وصفتان لمسمى واحد ، مثل ما إذا كان يقال لى أولك فى البيت « زوزو » ولكن الاسم المكتوب فى شهادة الميلاد هو « زكريا » فكان تعليقه : وكذلك الحال عندهم ، فقلت له : فهل الأب والابن وروح القدس أسماء ثلاثة لمسمى واحد ؟ قال : نعم ، قلت فهم إذن يقولون بالتوحيد المطلق ؟ قال نعم : قلت خير .

ثم قلت له : فما شأن هذا الإله الواحد عندهم ؟ هل صلب حقيقة ؟ فمد يديه معاً إلى

الأمام فى صورة تخاذل واستسلام ، وقال فى صوت متهدج خافت : أتريدنى أن أتكلم فى هذا الأمر فى الطريق العام ؟ فقلت له لنشرب معا فنجانا من القهوة هنا ، وأشرت إلى أحد المقاهى بالعتبة ، فتخلف عنى بعض خطوة ، ووربت على كتفى وقال : كلها ثلاثون أو أربعون سنة ، ونلقى الله أنا وأنت ونعرف أينا على حق ، ومع ذلك فإنى أسأل الله لك الجنة ، ثم انفصل عنى مهرولا فى شارع الجيش ، فقلت له مع السلامة . وما أدرى أسمع تحيتى ، أم كان قد سبقها .

* * *

هذه صورة من صور دعايات المستشرقين ضد الإسلام ، وليست هى أول الصور ولا آخرها ولكنها أحدثها ، أكتفى بذكرها هنا ، لأنتقل إلى لون آخر من ألوان دعايتهم الكتابية ، ومن صور هذا اللون ما كتبه المستشرق « ولفرد كانتول سميث » الأستاذ فى جامعة « ماجل » فى مجلة جمعية المستشرقين الأمريكيين يقول : « إن الدين الإسلامى آلى جامد » .

وإنى لأسائله : ماذا فى الإسلام من جمود ؟.

هل الإسلام جامد فى عقيدته ؟ عقيدته التى تقرر أن الإله واحد ، له وحده الكمال المطلق ، ليس به حاجة إلى خلقه ، ولكن الخلق كلهم هم المحتاجون إليه ، والناس لديه سواسية لا يتفاضلون من جهة الحسب ولا من جهة النسب ، ولا المال ولا المنصب ، إنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، لا وسطاء بين عامة الخلق وبينه ، بل الكل يتصل به ويناجيه ويطلب منه العون والمساعدة « ادعونى أستجب لكم » ، « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ، أمور الخلق كلها بيده ، فهو الذى يغفر الذنوب ويستر العيوب ويقيل من العثرة ، فى سرية تحفظ الكرامة ولا يقف معها أحد على زلة أحد أو جريرته ، ولا ثمن للمغفرة فى الإسلام أكثر من أن يستشعر المذنب الندم ويثوب إلى رشده ويعقد العزم على الاستقامة .

فماذا يا ترى فى هذه العقيدة من جمود ؟ .

هل تصور الأستاذ « سميث » عقيدة الإسلام تصوراً صحيحا ، كما جاء بها الإسلام وكما يعرفها المسلمون ، ثم لم ترقه ورآها جامدة غير طيعة ولا مسايرة لما تقضى به الفطر السليمة ؟ إذن فليحدثنا عن العقيدة التى يراها غير جامدة وغير آلية . أهى التى تنزل بمستوى الإله إلى مستوى البشرية ؟ أم التى تجعل من بعض الناس طائفة ممتازة تتحكم فى بقيتهم ، وتملك من السلطة ما يخولها غفران الذنوب والوقوف على أسرار العباد ؟ فليرشدنا الأستاذ « سميث »

إلى العقيدة التى اختارها لنفسه والتى رآها طيعة غير جامدة ، تساير العقول وتلائم الفطر ، وليطمئن إلى أننا على استعداد لأن نشاركه إياها متى كشف لنا عن لياقتها للقبول؛ فإن دين الإسلام يحتم على أهله طلب الحقيقة ويأمرهم باتباع الحق متى ظهر وأين ظهر ، أليس يقول نبى الإسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » .

* * *

أم الإسلام جامد فى شريعته ؟ شريعته التى اعتبرت العرف ، والعادة ، وجعلت لهما دخلا فى تقدير الأحكام ، كما اعتبرت البواعث والدوافع وجعلت لها دخلا فى تحديد المسئولية .

خذ مثلا قطع يد السارق ، فبينا ينص القرآن نفسه على هذه العقوبة ؛ لما لجريمة السرقة من خطر على كيان المجتمع يزعزع أمنه ويسلب طمأنينته ، والأمن والطمأنينة هما كل شىء فى حياة الجماعة ، لذلك سن الإسلام هذه العقوبة لتكون كفيلة بالقضاء على الجريمة وتحقيق الأمن والطمأنينة (١) للمجتمع أقول بينا ينص القرآن على قطع يد السارق نصاصريحا ، إذا بالقوامين على تطبيق شريعة الإسلام ، وتنفيذها يحددون السرقة بالعمل العدوانى الذى من شأنه أن يسلب الجماعة أمنها وطمأنينتها ، ولذلك لم يحكم عمر على سارق عام المجاعة بالقطع ؛ لأن زعزعة أمن الجماعة لم يكن هو الباعث له على السرقة ، وإنما الحاجة الملحة والضرورة القاسية هى التى دفعت به إليها .

كذلك لما سرق بعض الخدم بعيراً وذبحوه وعلم الحاكم الإسلامى أن الخدم لم يفعلوا ما فعلوا ، إلا لأن سادتهم يجيعونهم ، لم يحكم عليهم بالقطع ؛ لأن باعث السرقة ، الذى من أجله قضى القرآن بقطع اليد ، منتف هنا ، فقد تتبع الحاكم الإسلامى باعث هذه السرقة ، فوجده فى إجاعة السادة لخدمهم ، فأعفى الخدم من المسئولية ، وأنزل بالسادة عقوبة فادحة ، هى دفع أضعاف ثمن البعير لصاحبه ، حتى لا يتسببوا بإجاعة الخدم فى إحداث مثل هذه الجريمة مرة أخرى .

فانظر يا أستاذ « سميث » كيف أن الإسلام لا يجمد على الظواهر ولكنه يغوص وراء النوايا والسرائر ، ويوقع الجزاء على المتسبب فى الجريمة ، لا على من ظهرت على يديه الجريمة .

---

(١) وإذا أراد الأستاذ « سميث » أن يعرف المزيد من فضل هذه العقوبة على المجتمع ، فليقرأ رسالتنا « الدين والعقل » ليرى أن هذه العقوبة التى هول من أمرها المستشرقون تشنيعا على الإسلام هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

وأزيدك من أمر عقوبة السرقة فى الإسلام بيانا فأقول : إن فقهاء الإسلام قرروا « أنه ليس على الأجير ولا على الرجل يكونان مع القوم يخدمانهم ـ إن سرقاهم ـ قطع ؛ لأن حالها ليست بحال السارق ، وإنما حالها حال الخائن ، وليس على الخائن قطع (١) لأن الخيانة لا تستتبع من زعزعة أمن الجماعة ما تستتبعه السرقة ؛ لذلك لم يكن جزاؤها القطع .

ولولا خشية الإطالة يا أستاذ « سميث » لأريتك ألوانا أخرى من التشريعات الإسلامية تتبين منها أن الإسلام مرن طيع لا جمود فيه ولا آلية ، ومع ذلك فمبدؤنا ـ كما قلنا سابقا ـ « أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » فدلنا ـ إن كان لديك ـ على شريعة أكثر طواعية من الإسلام ومرونة ، ونحن على استعداد لأن نأخذها منك ، بشرط أن تلاحظ أن مبدأ الإسلام فى بناء المجتمعات أن يقيمها على أسس غير مائعة ولا منهارة ؛ فإن فى الإسلام جدية تأبى الهزل ، وصرامة تجافى الميوعة فإن كانت جدية الإسلام التى تباعد بينه وبين الهزل ، وصرامته التى تجافى التخاذل والميوعة هما مثار شبهتك التى من أجلها قلت عن الإسلام : إنه جامد ، فنحن لا نخالفك فى أن التخاذل والميوعة ليسا من طبيعة الإسلام فى شىء ، ولكن هذه من الآن نقطة خلاف بيننا ؛ فإن الهزل والتخاذل والميوعة ليست من الحكمة التى قال فيها رسول الإسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » .

* * *

أم الإسلام جامد فى سلوكيته ؟ وكيف وقد بنى الإسلام السلوكية الأخلاقية على أساس من الفطرة السليمة ، والضمير الإنسانى المتيقظ المتحرر المتفهم الواعى ، ولم يقم للسلطات الخارجية كبير وزن فقال رسول الإسلام : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

فهل بعد هذا يحق للأستاذ « سميث » أن يقول عن الإسلام : إنه آلى جامد ؟ ليقل لنا الأستاذ « سميث » أين يكون التحرر فى السلوك إن لم يكن فى القاعدة التى أقام عليها الإسلام سلوكيته ؟ اللهم إلا أن يعنى الأستاذ « سميث » بالتحرر ، الانطلاق الحيوانى ، فنحن لا نخالف فى أن الإسلام ليس فيه تحرر بهذا المعنى ، ولا يخجلنا أن نعلن أن الإسلام حرب على هــذا النوع من التحرر ؛ فإن الإسلام حريص على أن يقيم مجتمعا إنسانيا لا مجتمعا حيوانيا ، وليست هذه الحيوانية من الحكمة التى قال عنها رسول الإسلام

---

(١) الموطأ ص ١٧٦ ج ٦ .

« الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ولو من فم كافر » فليعذرنا الأستاذ « سميث » إذا كنا لا نوافق على أن فى الإسلام حرية حيوانية بل فيه حرية إنسانية فقط .

ثم إن الإسلام يجعل باعث السلوكية وهدفها روحيا صرفا هو حب الله تارة ، وحب الخلق تارة أخرى . يقول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « ما تقرب عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ثم لا يزال يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وليس المراد الحب المجرد ولكن ما يصحبه العمل ، والمقصود بالأخ فى الحديث – كما يرى رجالات الإسلام الذين نال منهم الأستاذ « سميث » فى مقاله نيلا غير كريم – ليس هو الأخ فى النسب ، ولا الأخ فى الإسلام ، ولكنه الأخ فى الإنسانية ، فبمقتضى هذا الحديث يصبح حقا على كل مسلم أن يحب لكل إنسان – مهما تكن جنسيته ونحلته ووطنه – مثل الذى يحبه لنفسه من الخير . ويتوقف على هذه المحبة صدق إيمانه وسلامة عقيدته فأى جود فى دين يرى بلوغ كل فرد من أهله سعادته مشروطا بأن يعمل لسعادة الآخرين بمثل ما يعمل لسعادة نفسه ؟ وعلى أساس من هذا المبدأ يحرص المسلمون على أن يبلغوا دعوة دينهم إلى غيرهم تحقيقا لمبدأ المحبة الذى أكده دينهم وجعله شرطا ضروريا لبلوغ مرتبة الخير الأعلى . فالمسلمون إذ يبلغون الناس دعوة دينهم إنما يريدون أن تبلغ الإنسانية كمالها ورشدها . وهم يفعلون ذلك بوازع من حب الخير للغير بنفس المقدار الذى يحبونه لأنفسهم . فأين يا أستاذ « سميث » هذا الاتجاه الإنسانى الكريم من الاتجاهات الاستغلالية الأنانية التى تدفع بالقوى إلى أن يمتلك الضعيف ويستذله ويعتصره ، ويستنزف دماءه وأمواله ؟ قل لنا أى الاتجاهات هو الآلى الجامد ، وأيها هو الروحى الخالد ؟ .

عجبا لأمثال هذه المحاسن كيف تجحد ويساق القول جزافا فى ذمها ، ممن يقولون : إنهم درسوا وعرفوا وقدروا وفكروا ووازنوا ؟ أين هى الدراسة وأين المعرفة ؟ وأين التقدير والتفكير والموازنة ؟ .

هل عرف أولئك الدارسون أن الإسلام قد جاوز نطاق عطفه ورحمته حدود الإنسانية ، فجعل للحيوان الأعجم حقوقا ، وجعل التفريط فى هذه الحقوق جريمة تستوجب العذاب ، يقول رسول الإسلام : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ، ولا

هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ثم يرسلها قاعدة كلية يقول : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أهذا هو الجمود الذى يعاب على الإسلام ؟ أهذه الأحكام هى نتيجة الدراسة والتفكير والتقدير والموازنة ؟ تالله للجهل أكرم للنفس من معرفة ضالة مضلة .

* * *

أم الإسلام جامد فى نظر الأستاذ «سميث» لأنه لا روحانية فيه ؟ إذا كان هذا هو المقصود من قوله : « إن الإسلام آلى جامد » فليفسح لنا الأستاذ « سميث » صدره لنرفع إليه شكوى الإسلام من الماديين الذى يعيبون على الإسلام أنه روحانى مسرف فى الروحانية حيث يجعل متاع الدنيا المادى تافها بالقياس إلى متاع الآخرة الروحى . وليفسح لنا الماديون - بدورهم - صدورهم لنرفع إليهم شكوى الإسلام من الأستاذ « سميث » حيث يرميه بتهمة الجمود والمادية .

إن الذى يقف بين تهمة الماديين للإسلام بأنه روحانى ، وتهمة الأستاذ « سميث » له بأنه جامد لا روحانية فيه ، ربما يتسرع فيحكم بأن إحدى التهمتين كاذبة لا محالة ، وفى الحق أن فى الإسلام جانبا روحيا هو وحده الذى كان موضع اهتمام الماديين ؛ لأنه الذى يختلفون معه فيه ، فعابوا الإسلام بأنه روحانى ، وفيه جانب مادى ، هو وحده الذى وقف عنده الأستاذ « سميث » ليعيبه على الإسلام .

والإسلام يعلن فى صراحة تامة أنه مادى روحانى معا ، لأنه شرع الله للإنسان المكون من عنصرى المادة والروح . والملاءمة بين الشريعة والمشرع له تقتضى أنه مادام الإنسان روحا ومادة فلا بد أن يعنى الإسلام به من حيث هو روح ومادة معا ، لأن تحقيق بعض ما تتطلبه طبيعة الكائن الحى ، دون البعض الآخر ، تحيف من حقوق هذه الطبيعة ، وعلى هذا الأساس جاء الإسلام ماديا وروحيا معا ، بمعنى أنه يوفر للإنسان ما يتطلبه وجوده المادى ، ويوفر له ما يتطلبه وجوده الروحى .

ومما جاء فى هذا المعنى قول رسول الإسلام: « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . فماذا بعد أن يوصى الرسول بأن يعيش المرء للدنيا عيش من يخلد فيها لا يموت أبدا ، وأن يعيش للآخرة عيش من يتأهب لقائها غدا ، من اعتراف بأن الإنسان مادة وروح ، وأن السعادة روح ومادة .

ثم إن فى التكليف بالأمرين معا دليلا على أن العناية بالدنيا لا تتعارض فى نظر الإسلام مع العناية بالآخرة ، وأن العناية بالآخرة لا تتعارض مع العناية بالدنيا ؛ وذلك لأن الدنيا ليست تعنى حياة الفرد ولا حياة

الأنانية ، وإنما الحياة التي يأمرنا الرسول بأن نعيش لها عيش من لا يفارقها أبدا . تعني حياة الجماعة الإنسانية الكاملة المهذبة وإذن يكون الوفاق بين التكليفين واضحا : التكليف بالعمل للدنيا كأنما هي باقية لا تزول ، والتكليف بالعمل للآخرة كأنما بدايتها الغد القريب ، لأن العمل للدنيا باعتبارها حياة الجماعة كلها تعيشها عيشة كاملة مهذبة لا يقوم إلا على أساس من تمكين العدل والرحمة والإخاء والمحبة بين الجميع . والعمل لتمكين مبادئ العدل والرحمة والإخاء والمحبة هو نفسه عمل من صميم أعمال الآخرة ، لأنه تسام عن الأنانية الفردية البغيضة . وفي عمل الفرد لتثبيت مبادئ العدل والرحمة والإخاء والمحبة بين الجماعة البشرية إقامة لدنيا الجماعة كلها ولدنيا الفرد أيضا الذي لا بد أن يغمره فيض هذه المبادئ وإن كان هو بازر بذورها ، وفي هذا العمل إلى جانب الأعمال الأخروية الصرفة ، تمكين لإقامة الحياة الآخرة ، وبذلك يصبح الجمع متأتيا بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة في حياة الفرد الواحد .

والنظرة الفاحصة في هذا التوجيه النبوي الكريم تكشف عن أن نصيب الآخرة - من غير إجحاف بحق الدنيا - هو الأوفر ، فيبدو الإسلام أشبه شيء بروحانية صرفة . فأين إذن من الحق قول الأستاذ « سميث » : إن الإسلام مادي لا روحانية فيه .

• • •

وبعد : فبأي معنى من المعاني يرمي الأستاذ « سميث » الإسلام بأنه آلي جامد ؟ لقد بان لكل ذي عينين أن الإسلام ليس جامدا بأي معنى من المعاني .

يالله ما أصدق قولك : « إن الإنسان لظلوم كفار » أي يظلم نفسه ويكفر نعم الله عليه .

هـذا وإني أقول للأستاذ « سميث » ما علمنا الله قوله في هذا المقام :

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

الدكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
في كلية أصول الدين

حاجتنا إلى التشريع الإسلامي والاحتكام إليه

للأستاذ محمد سلام مدكور
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — التشريع هو سن القوانين : سواء أكانت هذه القوانين آتية عن طريق الأديان ويسمى تشريعاً سماويا أم كانت من وضع البشر وتفكيرهم ويسمى تشريعاً وضعياً .

والتشريع السماوى : هو مجموعة الأوامر والنواهى والإرشادات والقواعد التى يشرعها الله تعالى للأمة على يد رسول منها ليعملوا بها ، ويهتدوا بهديها ، وهو تشريع لجميع من وجه إليهم ، من نوى منهم إطاعته ، ومن نوى معصيته دون إكراه فى اتباعه ، ومن خالفه تعرض للجزاء فى الدنيا والآخرة وغضب الله ، ومن اتبعه نجا من ذلك واستحق الثواب الأخروى ورضا الله .

أما التشريع الوضعى : فهو مجموعة الأوامر والنواهى والقواعد التى يضعها فرد أو جماعة وتختارها الأمة بواسطة من له السلطان لتحتكم إليها وتسير على ضوئها فى الحياة ، وهى تهدف إلى إقامة التوازن بين عديد الحريات المتعارضة ومختلف المصالح المتضاربة .

وإن كان كل تشريع ـ سماويا كان أو وضعيا ـ يقصد به تنظيم الروابط بين الناس إلا أن التشريع السماوى تشريع إلهى بمصادره وأحكامه الأولى ، بينما التشريع الوضعى يستمد أحكامه من سلطة الدولة .

حاجة الناس إلى تشريع يحتكمون إليه :

٢ — الناس بطبيعتهم فى حاجة إلى تشريع يحدد لهم علاقاتهم ، ويبين لهم حقوقهم وواجباتهم ، ويحد من أنانيتهم ، وينظم صلاتهم والتزاماتهم ، وإلا لكان الأمر فوضى بين الناس يأخذ القوى كل ما يريد بقوته ، ويفقد الضعيف كل ما يحتاج إليه بضعفه ، خصوصا أن النفوس قد جبلت على الأثرة وحب الذات ، واندفعت تحت تأثير ميول غرائزها المختلفة ، ولذا فإن حقوق الفرد وحرياته تتأثر تأثراً واسعا بهذه الدوافع مما يجعله ميالا بطبعه إلى الرغبة فى إيجاد نظام يحدد له الحدود ، من أجل هذا قال علماء الاجتماع : « إن الإنسان اجتماعى بطبعه ، إن الحياة الجماعية لازمة له » ، وهذا يستتبع ضرورة وجوب الشرائع فى المجتمع لتحكم

العلاقات بين الناس ، وتدفعهم إلى القيام بالواجب ، وإذاً فصلاح المجتمع منوط بحكم قائم على نظام واجب الاحترام .

٣ — والقصد من وضع الشرائع إخراج المرء المكلف بأحكامها من داعية هواه وبعده عن الأنانية ، فاتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة ، عمل مذموم تهدف الشرائع إلى محاربته فى النفس ، وقد جعل الله تعالى اتباع الهوى مضادا للحق قسيما له وفى القرآن . . . « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (١) » وفيه « وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى (٢) » وفيه « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن (٣) » وفيه « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (٤) » .

وما ذكر الهوى فى القرآن إلا فى معرض الذم ومقابله بالحق الواجب الاتباع ، وهو شرع الله ولذا فإن السلف قالوا (٥) : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته دنياه .

(١) سورة ص الآية ٢٦ .
(٢) سورة النجم الآية ٣ ، ٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٧١ .
(٤) سورة محمد الآية ١٤ .
(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ١٣٦ .

٤ — والمفروض فى المشرع ألا يتأثر عند وضع تشريعه بالهوى ، وألا يقصد الوصول إلى غرض فردى ، أو مصلحة خاصة وإنما القصد منه حماية المجتمع، وحماية الأفراد من الهوى الجامح والأثرة ، وحب الذات ، وهذا متحقق واضح فى التشريع السماوى ؛ لأنه من عند الله المنزه عن الخطأ والغرض والهوى، بينما التشريع الوضعى يستمد أحكامه من سلطة الدولة التى تسنه وتعدله وتلغيه حسب الظروف وكثيرا ما يتحكم فى هذا الغرض والهوى وتراعى حالات فردية يكون قد تأثر بها رجال التشريع ، سواء أكانت مادية بإيحاء من يملكون التوجيه ، أم بدوافع نفسية خاصة .

مميزات التشريع السماوى :

٥ — القول بوجود إله قوى قادر على خلق كل الأحياء والأشياء فكرة اشتركت فيها كل الأمم القديمة التى بلغت غاية رفيعة من الحضارة ، والعلم الحديث فى الواقع لا ينفى أن هناك قوة خارقة فوق طاقة المخلوقات تهيمن على هذا الكون ، فتشريع يأتينا عن هذا الطريق لا شك فى أن الناس فى أشد الحاجة إليه ؛ لأنه من عند عالم الغيب والشهادة الذى يعلم ما توسوس به النفس يعلم خائنة الأعين ،

وما تخفى الصدور . ولذا فإننا نستطيع أن نقارن بين التشريع السماوى والتشريع الوضعى ونخرج ببعض مميزات التشريع السماوى التى تجعله أحق بالاتباع .

أولا : التشريع السماوى يحيط بكل شىء ؛ لأن المشرع مطلع على كل شىء . أما التشريع الوضعى فلا يمكن أن يرقى إلى هذا أو بعضه مهما قوى سلطان واضعه فالإنسان لا يعرف شيئا عن سوأة أخيه إلا إذا كانت ظاهرة أو قام عليها الدليل .

ثانياً : تشريع من الحكيم الخبير المنزه عن الخطأ الذى لا يضل ولا ينسى يستحيل أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما الإنسان فمهما قوى شأنه فهو قاصر فى تفكيره محدود فى إدراكه ، ولذا فإن ما يضعه من تشاريع سرعان ما يظهر قصورها وخطؤها ويأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها .

ثالثا : التشريع السماوى منزه عن الغرض والهوى بعيد عن المؤثرات ، والانفعالات ، أما التشريع الوضعى فقد يلاحظ عند وضعه أغراض معينة ، ومصلحة أشخاص معينين .

رابعاً : التشريع السماوى فوق ذلك يربى فى النفس طهارة القلب ويقظة الضمير ورقة الشعور ، وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة . فهو يعمل على تكوين المرء على مثال حسن ويعنى بتوثيق العلاقة بين المرء وأخيه وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين ربه ، ولذا فقد نص على أحكام للعبادات كما نص على أحكام للمعاملات وغيرها ، أما القوانين الوضعية فإنها قاصرة على علاقة الفرد بالآخرين أو علاقته بنفسه بقدر ما يعود على المجتمع فقط .

خامساً : التشريع السماوى سن لكل عمل من أعمال الإنسان حكمين ، حكما فى الدنيا يتعلق بمظهر العمل وأثره بين الناس ، وحكما فى الآخرة يتعلق بالقصد الحقيق والباعث عليه ، وأثره المترتب عليه فى الآخرة من ناحية الحل والحرمة ، أو بمعنى آخر حكما ينظم الصلة بين الإنسان وغيره من البشر . وحكما فى نفس المسألة ينظم صلته بربه وهذا ينظر فيه إلى حقيقة قصده ونواياه . فالتشريع السماوى يحاسب على الأعمال الداخلية حتى التحضيرية كما يحاسب على الأعمال الخارجية بخلاف الوضعى فإنه قاصر على بعض الأعمال الخارجية .

سادساً : التشريع السماوى ، فيه ناحية إيجابية وناحية سلبية ، فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أى : أنه يعمل على جلب المصالح ودرء المفاسد فكلاهما مقصود فى

التشريع بذاته ، وبالجملة فهو متفق فى أحكامه مع قانون الأخلاق ومتصل بالضمير الإنسانى اتصالا وثيقا ، أما التشريع الوضعى فيغلب على طابعه الناحية السلبية فقط إذ يعنى فى الغالب بدرء المفاسد والنهى عن الأذى .

سابعا : التشريع السماوى فوق ذلك تشريع رادع له من القوة والبطش ما لا يمكن أن يكون لغيره ، إذ أن كل من يؤمن بالأديان السماوية يؤمن بالبعث والحساب ، وهذا حق لا شك فيه ، وقد اهتدى تفكير البشر إلى الحياة الآخرة من قديم الزمن ، وكان المصريون القدماء هم أسبق الأمم إلى معرفة هذا والتنبؤ به ، فمن نحو ستة آلاف سنة تقريبا كان أساس العبادة أن كل إنسان مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا أمام محكمة إلهية ، ثم بعد ذلك بأكثر من ألف سنة عرف الكلدانيون شيئا عن الآخرة ، ومن بعدهم الفرس والإغريق والرومان ، حتى الهندوكيون والبوذيون فإنهم يؤمنون بأن الروح تنتهى أخيرا إلى وجود آخر .

والعقل يقبل هذا ويستسيغه ، فالفرد يقضى فترة فى الدنيا يعمل فيها ما توجهه إليه مواهبه ورغباته ، ثم يمضى من الحياة تاركا وراءه أعمالا وآمالا وخلطاء فيهم المحب ، وفيهم المبغض ، ويزول الإنسان من الوجود وتبقى ذكراه وأعماله ، ومنها ما هو ظاهر معروف ، ومنها ما هو سر دفين ، ومنها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ، والناس فى كل هذا متفاوتون ، فهل ينتهى كل شىء بوفاة الإنسان وينمحى أثره فلا حساب ولا عقاب ، يستوى المصلح والمفسد ، والعامل على إحياء الرذيلة مع الخيّر المتمسك بأهداب الفضيلة؟ هل يستوى الحاكم الظالم المنغمس فى شهواته وملاذه ، المستهتر بأرزاق الناس وأعراضهم وحرياتهم لا يعنيه إلا أن يكون السيد المطاع ، سواء أكانت الطاعة خوفا من جوره ، أو اتقاء لبطشه وظلمه أم انقيادا له وحبا لعدله ، هل يستوى هذا وذاك مع الصالحين أعمالا المتفانين فى أداء الواجب ، وإعطاء كل ذى حق حقه ؟ وهل بانتهاء حياة الفرد انتهى كل شىء وزال حق المظلوم وفاز الظالم بما اقترفت يداه ؟ ! .

وهل يقبل العقل أن يكون مصير الجنس البشرى الذى عمر الأرض واكتشف بعض ما فيها من نعم وما فى الكون من أسرار ، زائلا إلى الأبد دون رجعة أو جزاء ؟ هل يقبل العقل هذا أم يرى أنه لا بد من عالم آخر توفى فيه كل نفس ما كسبت «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء . . .» لا شك أن العقل يتجه إلى أن الموت يخفى من ورائه شيئا آخر ، وأن الروح إنما تنتقل من وجود إلى وجود . «فمن يعمل

مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فالإنسان مع هذا إن استطاع أن يتنكر لجريمته ويتنصل من عقاب الدنيا فلن يستطيع ذلك فى الآخرة . « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وبذا تكون أحكام الشرائع السماوية رادعة قوية يخشاها الإنسان فى السر والعلانية ، ولا يستطيع أن يتهرب منها أو يحتال عليها ، ولا مفر للمؤمن بالله من طاعتها . « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ! » .

بقى أن نقول : إن التشريع السماوى شجع على الطاعة وبشر الصالحين أعمالا ووعدهم بالثواب « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى هذا من الحث على الطاعة والتحذير من الآثام ما فيه ، لأن المطيع سوف لا يتخلص من عقاب العصيان فقط ، بل سيأخذ أجرا على طاعته . . . فتشريع يكافئ المطيع أولى بالاتباع من تشريع يقول للمحسن : لا فضل ولا أجر على ما أديت من واجب .

يتتج من هذه الموازنة والمقابلة : أن التشريع الوضعى له اتجاه إلى هدف واحد هو تنظيم الروابط الاجتماعية بين الناس ، أما الشرائع السماوية فهى توقظ فى الإنسان الضمير وتدخل بين الإنسان ونفسه وبينه وبين خالقه ، وتوجه فى مجموعها توجيها محموداً فى صلاته بالناس ، فهذا التشريع الإسلامى وهو خاتم الشرائع السماوية يهدف إلى أمرين : —

تنظيم رابطة الإنسان بربه ، وتنظيم رابطة الناس بعضهم ببعض ، وهذا مبنى على أن كمال ربط مصالح الناس ببعض يكون بتنظيم علاقاتهم بالرب ، وأن القوانين التى تنظم أمور الناس لا توصل إلى كمال المقصود إلا إذا سايرتها قوانين تنظم رابطة الإنسان بربه كما أنه مبنى أيضا على أن للإنسان حياة فى الدنيا وحياة فى الآخـــرة . ولذا فإنه سن أحكاما تتعلق بالعبادات ولا نظير لها فى التشريع الوضعى ، وأنه وضع لكل منها حكما على الصورة الظاهرة وهو ما يحكم به القاضى نتيجة إقرار أو بينة أو قرائن ، وحكما آخر من جهة وصف الشرع للمسألة تبعا لنية الشخص التى يعلمها الله وهو حكم أخروى .

وفوق ذلك فالتشريع السماوى تشريع إلهى بمصادره وأحكامه الأولى ، بينما التشريع الوضعى يستمد أحكامه من سلطة الدولة التى تسنه وتعدله وتلغيه حسب الظروف وقد يتحكم فى هذا الغرض والهوى .

ما قدمناه هو عرض موجز سريع لمميزات الشرائع السماوية ووجوب اتباعها والاحتكام إليها ، وأحق هذه الشرائع بالاتباع هو الإسلام ؛ لأنه خاتم الشرائع وأعمها ، وهو فوق كونه دينا يتعبد به فقد جاء وافيا بحاجة الناس أفرادا وجماعات ، عادلا سهلا من غير إفراط ولا تفريط ، لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق ، فكل مسلم فى أطراف الأرض ، وفى لجاج البحر يستطيع بمفرده أن يتصل بالله ، وهو فوق هذا أبدى صالح لكل زمان ومكان يقول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » . «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا» ، « تبارك الذى نزل الفرقان على بعده ليكون للعالمين نذيرا » ، ويقول: « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» ويقول عليه السلام: « بعثت إلى الناس كافة إلى الأحمر والأسود » ، وقد أرسل فعلا دعوته إلى امبراطور الروم وملك الفرس وحاكم مصر ، وملك الحيرة وملك اليمن ونجاشى الحبشة ، لقد كان الرسول حكيما فى مسلكه ؛ لأن الحاكم أو الزعيم إذا قبل الدعوة لنفسه فإنها ستجد رواجا فى منطقة نفوذه لأنها تأمن مصادرة السلطان ، فوق سهولة أخذ الناس بها من بعده وما دفع الرسول إلى هذا إلا ثقته من قوة رسالته ، وأنها دعوة الحق ، وأنه يبلغ ما انزل إليه من ربه .

والإسلام لم يفصل بين الدين والدنيا ، وإنما جمع بين الروحانيات والماديات وجعل الأولى طريقا للثانية . فما كانت العبادات فى الإسلام مجرد شعائر وطقوس آلية ، وإنما جاءت لتتقرب بها إلى الله ، ولتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، واعتبر الإسلام كل عمل من أعمال الخير فيه عبادة ، فقد ربط الإسلام بين الدين والدنيا وبين العبادات والمعاملات « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ..» ومن منا أصدق فهما لطبيعة الإسلام من محمد بن عبد الله الذى قال : (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار) ، ويقول فى الحث على العمل : (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه) وقال : (طلب الكسب بعد الصلاة المكتوبة هى الفريضة بعد الفريضة) .

ولقد قال عمر بن الخطاب : أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، والقليل فى رفق خير من كثير فى عنف ، من له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها ، ولا تؤخروا عمل اليوم إلى الغد فإنكم إن فعلتم ذلك تداءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدءون ولا بأيها تأخذون .

وقد مر عمر على قوم من القراء فرآهم جلوساً ناكسى رءوسهم فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا له هم المتوكلون . فقال كذبوا هم المتآكلون يأكلون أموال الناس . إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى التراب وتوكل على رب الأرباب ثم قال : يا معشر القراء ارفعوا رءوسكم واكتسبوا لأنفسكم . وقال : لأن أموت وأنا أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله أحب إلى من أقتل مجاهدا فى سبيل الله، يقول الله : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » من هذا يبين أن الإسلام يدعو إلى العمل والكفاح ويحارب البطالة والكسل ، ويهدف إلى التسامح والمساواة والحرية ، جاء يخاطب العقل ، ويعلن عدم الواسطة بين الخلق والخالق ، قد أحاط العقيدة بالأخلاق الفاضلة المهذبة للنفس ، وآخى بين الدين والدنيا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر جاعلا الشورى أساس الحكم فى الإسلام والمشاهد الذى لا ينكره حتى الجاحد المغرض أن التشريع الإسلامى إذا حسنت الدعوة إليه جذب الناس إليه بسرعة خاطفة ، وتقبله الناس باطمئنان ويسر ، وما ذلك إلا لأنه قائم على دعائم وأسس متينة فقد يسر على الناس ونفى الحرج عنهم . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وروعى فيه قلة التكاليف كى لا يرهق كاهل الناس، ويسهل عليهم امتثالها يقول عليه السلام : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ولعل هذا يفيد أن الأصل فى الأشياء الإباحة ولا يحرم إلا ما ورد نص بتحريمه .

كما روعى فى التشريع الإسلامى مسايرته لصالح الناس فقد شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها ، لما اقتضت المصلحة هذا التبديل . ولما كانت مراعاة مصالح الناس فى أمور معاملاتهم المالية أساساً فى التشريع الإسلامى بدليل توسع الشارع فى بيان عللها ليدور بالحكم مع علته وجوداً وعدما ، وليبنها إلى أن نسلك هذا الطريق ، ونسير بمعاملتنا فى وادى المصالح ولا نجمد على ماقد يكون روعى فيه مصلحة خاصة وطائفة خاصة وإقليم خاص .

ولما كان المسلمون فى كل فجاج الأرض مخاطبين بالشريعة لزم أن يكون التشريع قد راعى مصالحهم رغم اختلاف أجناسهم ، فإن تضاربت هذه المصالح ، وكان أساس تحقق بعض المصالح الإضرار بالغير لوحظ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ودفع الضرر الأكبر بالضرر الأدنى .

من أجل هذا نجد القرآن وإن فصل أحكام العبادات وما يتعلق بنظام الأسرة فإنه لم يتناول بالتفصيل أحكام المعاملات المالية والجنايات وما يتعلق بالقضاء وعلاقات

الدولة الإسلامية بغيرها فى السلم والحرب ، وما شابه ذلك مما يتغير بتطور البيئة ، وإنما دل عليها بوجه عام حتى يكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن من غير اصطدام بحكم جزئى .

والتشريع الإسلامى وإن كان لم يتناول أكثر الأحكام العملية بالتفصيل وإنما أشار إليها وبين أسسها وقواعدها إلا أنه لم يترك ناحية من النواحى التى تهم البشر وتنظم حياتهم إلا وجاء بها فقد تناول الأحكام الاعتقادية وجاء بمبدأ التوحيد: «قل هو الله أحد ...» كما تناول الأحكام الخلقية فحارب الفوارق بين الناس إلا فى طاعة الله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ، وبعث محمداً ليتمم مكارم الأخلاق ، كما تناول أحكام العبادات وأحاط بكل الأقسام فى القانونين العام الخارجى والداخلى والخاص بنوعيه أيضا .

وقد انعقد إجماع الفقهاء رغم اختلاف مذاهبهم على أن للشريعة الإسلامية حكما فى كل فعل يصدر من الإنسان وهذه الأحكام بعضها بينتها نصوص القرآن والسنة لحوادث وخصوصات اقتضت بيان أحكامها حين وقوعها وبعضها لم تبينه تلك النصوص ، وإنما قامت عليها الدلائل لتظهر أحكامها وتبينها حين الحاجة فيهتدى بها أهل الذكر من العلماء ، ويسترشدون بها لتعرف حكم كل ما يقع ويحدث .

ومع هذا فتشريعنا بحمد الله غنى بمصادره المرنة ، ومنها الإجماع والقياس وهما ينبوع القوة التى تجعل الفقه الإسلامى يتحرك ويتطور بكل حرية ،ومنه اعتبار ما تعارف عليه الناس إذا أعوزنا النص من الكتاب والسنة ، ولا ضير من اختلاف الحكم الذى يبتنى على العرف تبعا لاختلاف العرف فى البيئات المتباينة بل فيه ما يدل على قوة التشريع واتساع أفقه وصلاحيته للتطبيق دائما ، كما أن هناك الاستحسان والمصالح المرسلة وكلاهما فيه يسر ورحمة .

من كل هذا يبين لنا مقدار حاجة البشرية إلى الشرائع السماوية ،وأن التشريع الإسلامى خاتم الشرائع وأعمها وأقدرها على رعاية مصالح الناس ومسايرة أحوالهم ،وأنه أفضل قانون ينظم حياة المجتمع الإنسانى بما فى أحكامه من قوة وبطش ، وسعة ويسر . وقد كانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم وأرقاها حينما كانت أحكام الإسلام هى السائدة ، وحينما أخلص المسلمون لدينهم وتعلقوا به .

وإنا لنسأل الله أن يرشدنا إلى فهم الإسلام الفهم الحق ، ويوفقنا للإخلاص له والدعوة إليه ، اللهم جنبنا الزلل واهدنا إلى طريقك الحق المستقيم .

محمد سلام مدكور
أستاذ الشريعة بكلية حقوق القاهرة

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٢ —

حدث مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرج عبد الله، وعبيد الله، ابنا عمر ابن الخطاب، فى جيش إلى العراق، فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى، وهو أمير البصرة، فرحب بهما وسهل، ثم قال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال: بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون الربح لكما، فقالا: وددنا ذلك! ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال، فلما قدما باعا فأربحا، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال: أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما؟ قالا: لا، فقال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما! أديا المال وربحه! فأما عبد الله فسكت، وأما عبيد الله فقال: ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص المال أو هلك لضمناه، فقال عمر: أدياه! فسكت عبد الله، وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا، فقال عمر: قد جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه، وأخذ عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب نصف ربح المال» .

• • •

اتصلت هذه القصة بفقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما ورد فى آخرها من قضائه بأن يكون مال الدولة الذى حمله إليه ولداه: عبد الله، وعبيد الله قراضا: للدولة نصف ربحه، ولهما النصف.

وفى هذه القصة جوانب من الفقه:

الأول: أن أبا موسى أمير البصرة أراد أن يكرم عبد الله وعبيد الله، ففكر فى الوسيلة التى يتوسل بها إلى هذا الإكرام. فرأى أن ينفعهما نفعا ماليا.

وإنما اتجه إلى إكرامهما لمعنى شريف يصح أن يقصده ولى الأمر، ذلك هو أن عبد الله وعبيد الله كانا فى أمر متصل بصلاح المسلمين، إذ كانا جنديين فى جيش بالعراق، فلما انتهى عملهما وقفلا راجعين؛ كان من

الطبيعي أن ينظر إليهما الأمير نظرة الرضا والإعجاب بما قاما به من خدمة عامة للمسلمين، فإذا انضم إلى ذلك أنهما شخصيتان لامعتان بمالهما من العلم والفضل والتبريز ؛ ظهر المعنى النفسي الذي سيطر على الأمير ووجهه إلى الترحيب بهما والتفكير في تكريمهما، وتدبير الوسيلة إلى تحقيق هذا التكريم .

وهذا الصنيع من أبي موسى لا ينبغي أن يحمل على الرغبة في إيثارهما بالنفع ؛ تقربا لهما أو لأبيهما ، فما كان أبو موسى بالذي يقصد إلى ذلك وهو الصحابي الجليل ولكنه أمير تصرف في بساطة وسماحة ؛ لأنه لا يعاني أية عقدة نفسية تجعله يتردد فيما فعل ، أو يخشى أن يؤول صنيعه تأويلا سيئا ، ومما يدل على ذلك ، وعلى أن الأمر قد أخذ بروح السماحة واليسر أن عبد الله وعبيد الله لم يترددا في قبول ما عرض عليهما أبو موسى بل قالا في صراحة وددنا ذلك ، فإذا عرفنا سيرتهما ، وأنهما كانا من الورع والتقوى بمكان عظيم ، وأن كلا منهما كان من المثل القوية للشباب العف النزيه المجاهد المضحي في عهد الإسلام الأول ؛ كان لنا أن ننظر إلى الأمر من ناحيته السهلة الفطرية : أمير أراد أن يكرم شابين أبليا بلاء حسناً في خدمة المسلمين ، فعرض عليهما أمراً لا يضر بالصالح العام ، وفيه نفع لهما ، فقبلاه بالروح الذي أملاه ، ولم يجدا في ذلك العرض ولا في هذا القبول ما ينافي المصلحة العامة أو يكون شبهة عليهما .

وهذا يعطينا فكرة صالحة في السياسة الحكمية ، وهي أنه لا مانع عند حسن القصد ونبل الغاية من أن يكرم من يستحق التكريم بما لا ضرر فيه على الصالح العام .

هذا هو التحليل الصحيح لموقف أبي موسى وموقف عبد الله وعبيد الله .

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد نظر إلى الأمر من زاوية أخرى فوقف موقف المتشدد المتحفظ ، وهو حقيق بهذا الموقف كرئيس عام للدولة ، يرى من واجبه أن ينأى بنفسه وبولديه عن كل شبهة ، ويترفع بسمعته وسمعتهما عن كل مقال ، ولقد كان صريحا في الإعراب عن ذلك ، إذ قال لابنيه مقررا إياهما بما يعرف : « أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ » فلما أجاباه بالنفي قال : « ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ! أديا المال وربحه ! » . وإنما أراد بذلك أن يبين لابنيه مظهر المحاباة في فعل أبي موسى كما لعله يرد على خواطر من يريدون النقد ، ولا يحسنون الظن ، وهو في الواقع يعرف حسن نية أبي موسى ، وحسن نية ابنيه ، غير أنه كان شديد التورع في كل ما يتصل بنفسه

أو أهله ، لمكانه من رياسة الدولة ، ولذلك كان يقسم لعبد الله بن عمر أقل مما يقسم لغيره من المهاجرين الأولين ، وكان يعطى حفصة ابنته مما يصلح أزواج النبي صلى الله عليه وسلم آخر من يعطى ، فإن كان نقصان فى حصتها ، وما عرف عنه أنه خص نفسه أو أحداً من أهل بيته أو ممن ينتمى إليــه بمنفعة من مال الله .

وبهذا يتبين أن موقف عمر كخليفة ورئيس عام للدولة يحمد له ، كما أن موقف أبى موسى وصاحبيه موقف لا يذم .

وقد كان لكل من هذين الولدين الصالحين موقف من أبيه عند ما طالبهما بالمال وربحه فأما عبد الله فسكت وأمسك عن مراجعة أبيه برأيه وانقيادا له ، واتباعا لمراده ، وقد جرى فى ذلك على طبيعته وخلقه المعروف عنه من عدم المشاحة ، ومن إيثار التى هى أقرب إلى المودة والسلام ، وأما عبيد الله فراجع أباه طلبا لحقه ، واحتج عليه بأن قال: هذا مال قد ضمناه ولو دخله نقص لجبرناه .

وكلاهما موقف مقبول من صاحبه ، فعبد الله يمدح لأدبه وبره ، وعبيد الله لا يذم على استمساكه بحقه ، ودفاعه بالحجة عما استباحه لنفسه ، بل لعله أولى بالمدح من أخيه ؛ لأنه جمع الشجاعة والأدب والاستمساك بالحق .

هذا هو ما يستخلص من تلك القصة ، أو بعض ما يستخلص منها ، من «فقه الأدب» أو من «أدب الفقه» .

ويبقى بعد ذلك ما يستخلص منها من فقه الأحكام ، وذلك هو الجانب الثانى من الجوانب الفقهية فى هذه القصة :

فمن ذلك أن يقال : ماهو التكييف الفقهى لصنيع أبى موسى مع عبد الله وعبيد الله ؟ هل أراد بذلك إحراز المال فى ذمتهما على أنه وديعة وأمانة ؟ أو أراد منفعتهما بالسلف ؟ .

فإذا قلنا بالأول كان من مقتضاه أنه لو ضاع المال وهلك لما كانا ضامنين ؛ لأن المودع أمين فلا ضمان عليه .

وإذا قلنا بالثانى كان من مقتضاه أنهما ضامنان .

والواقع أن الصورة القانونية أو الفقهية لهذا الصنيع إنما هى صورة سلف أريد به منفعة المتسلف ، وقد صرحت الرواية بذلك حيث يقول لهما أبو موسى : « فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا .. الخ » . وقواعد الشريعة تفرق بين السلف الذى يقصد به منفعة المسلف ، والسلف الذى يقصد به منفعة المتسلف ، فالأول غير جائز ، والثانى جائز .

ويتصل بهذا مسألة تعرف عند الفقهاء ، بمسألة « السفاتج » لها شبه بمعاملات تقع في عصرنا :

والسفاتج جمع « سفتجة » وهي أن تعطى مالا لرجل فيعطيك صكا يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له ، أو منه هو ، في مكان آخر ، وهي تشبه ما تدفعه لتاجر في القاهرة لتأخذه منه أو من عميل له في سوريا أو في لندن مثلا .

وقد نظر المالكية في هذا اللون من التعامل فقالوا : إن كان قد أسلفه المال قاصداً الانتفاع من ذلك لنفسه بإحراز المال في ذمة المتسلف إلى بلد القضاء ؛ فالمشهور من المذهب أن ذلك غير جائز ، وروى أبو الفرج جواز السفاتج ، قال الباجي في شرح الموطأ : ولعله أراد ما لم يقصد المسلف منفعة نفسه ، والأظهر منعها إذا قصد ذلك .

والذي أراه أن مجرد قصد المسلف أن يحرز ماله إلى بلد القضاء ليس هو السر في تحريم هذه المعاملة ؛ لأن مجرد هذا القصد ليس منافياً لأصل في الشريعة ، بل هو موافق لما تقرر فيها من أن للإنسان أن يعمل على المحافظة على ماله ، فإذا كنت في بلد ما ، ومعي مال ، وقد خشيت أن يضيع مني هذا المال إذا سافرت به ، فلي أن أعطيه لشخص ثم آخذه منه أو من عميله في بلد آخر ، ولا أكون بذلك قد ظلمت أحداً إنما هي وديعة أودعتها أميناً .

إنما السر في هذا التحريم هو ما يصحب هذه المعاملة من خصم شيء من هذا المال في نظير الضمان ، فهو من باب الضمان بأجر ويسميه الفقهاء « الضمان بجعل » والشريعة لا تأذن به ؛ لأنه من باب أكل أموال الناس بالباطل ، وهو يؤدي إلى قيام فريق من الناس لا كسب له إلا عن طريق جاهه أو قوته أو حيلته أو قدرته على التهريب أو نحو ذلك .

ولهذا ينبغي أن يكون التعليل لما رواه أبو الفرج من جواز « السفاتج » عكس ما قاله الباجي، فيقال : لعله أراد ما لم يقصد المتسلف منفعة نفسه بإسقاط بعض ما تسلفه عند القضاء لأنه حينئذ غير متسلف في الحقيقة ، بل هو ضامن بجعل .

وبعض الفقهاء يكيف صنيع أبي موسى على وجه آخر فيقول : إن أبا موسى إما أن يعتبر في هذا الصنيع أميرا رأى أن ينفع بشيء من مال الدولة بعض أبناء الدولة أو أبناء الشعب ، وحينئذ يكون متصرفا في هذا المال بحكم الولاية عليه ، فلو فقد المال ولم يكن عند عبد الله وعبيد الله ما يوفي به لما ضمنه أبو موسى ، وإما أن يكون أبو موسى قد تصرف

هذا التصرف باعتباره الشخصى فتسلف المال ثم أسلفهما إياه ، وحينئذ يكون متضامنا معهما فيما لو هلك .

ونظرة عمر تدل على أنه خرج صنيع أبى موسى على التكييف الأول ، لا على الثانى ، لأنه تعقب فعله على أساس أن هذا المال بقيت له صفة أنه مال الدولة ، فطالب به وبربحه ، فكأنه قال لابنيه : إن هذا المال على وصفه الأول : « مال الله » ، فلم يتغير عنه هذا الوصف ، وإذن فربحه لاحق به كالشجرة تلحق بها ثمرتها ، أو كالشاة يلحق بها سخلها ، وإذن فعليكما أن ترداه إلى مع ربحه .

أما نظرة ابنه عبيد الله فليس فيها إقرار لنظرة عمر ، ولذلك يقول له : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص المال أو هلك لضمناه ، وهو يقصد لضمنته أنا وأخى ولكان أبو موسى ضامنا لنا ، فليس للدولة إذن إلا أصل المال ، وليس لها حق فى ربحه ، وإنما الربح تابع للمخاطرة ، والمضمون لا مخاطرة فيه ، أو كما يقول الفقهاء « الخراج بالضمان » .

ويتبين من هذا كله أن المسألة كانت ذات وجهين ، أو تحتمل احتمالين .

ولذلك لم يستمسك عمر برأيه فى أخذ المال كله ، ولم يرض بما طالبه به ابنه من ترك الربح كله له ولأخيه ، ولكنه قبل الرأى الذى أشار به أحد جلسائه بجعله « قراضا » ، وهو نوع من الشركة يكون المال فيه لأحد الشريكين والعمل من الثانى .

وبذلك توسط عمر ، كأنما استقر نظره على أن ابنيه عملا فى هذا المال بوجه مشروع ، وعلى وجه يعتقدان فيه الصحة دون أن يبطلا بذلك مقصودا لمن يملكه ، فلم يجز أن يبطل عليهما عملهما ، فردهما إلى قراض المثل بالنصف وهو أن يكون الربح بين صاحب المال ، وصاحب العمل نصفين .

ومن المعروف عن عمر أنه كان يقضى بمشاطرة عماله فى أموالهم ، ونظرته فى ذلك قريبة من نظرته هنا ، ولذلك كان الحكم واحدا ، فإن أمرهم دائر بين أن يكونوا قد ثمروا أموالهم بجهودهم الشخصية ، فكانت لهم إبل أو غنم أو أفراس نتجت مثلا ، أو يكونوا قد ثمروا هذه الأموال معتمدين على جاههم فى العمل والولاية ، فلم يحكم بتجريدهم من جميع المال ، ولم يتركه كله لهم ، ولكن توسط فترك لهم نصفه ، وأخذ للدولة نصفه .

وينبغى أن يفهم أن هذا إنجاز لرئيس الدولة ، فإنما يجوز له إيثارا للمصلحة العامة عند الإشتباه ، ولو أن عمر كان شخصا عاديا

ليس له صلة بالدولة لما كان له أن يشاطر أو يقاسم ، أو يحكم له بذلك ، لأنه حينئذ يكون إيثارا له بمال لم يقم دليل على استحقاقه إياه ، وإنما قامت شبهة على ذلك فقط ، والأموال لا تنزع من أيدى أصحابها وتعطى لغيرهم بمجرد الاشتباه .

• • •

وقد بقى بعد ذلك جانب من الجوانب الفقهية التى تثيرها هذه القصة :

ذلك أنها تضمنت إباحة « القراض » وهو : تلك المعاملة التى تقوم على أساس المشاركة بين رأس المال والعمل ، وأهل العراق يسمونها المضاربة أما تسميتها بالقراض فهو لغة أهل الحجاز ، وسر التسمية بهذا وذاك مذكورة فى كتب الفقه .

والذى يهمنا ذكره هنا هو أن العلماء مجمعون على أن تلك المعاملة لا تستند إلى نص مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما أجيزت ، لأنها كانت معاملة معروفة فتعامل بها الصحابة فكان ذلك إجماعا منهم على صحة التعامل بها .

وفى ذلك يقول الشوكانى فى كتابه « نيل الأوطار » (١) :

« هذه الآثار تدل على أن المضاربة كان الصحابة يتعاملون بها من غير نكير ، فكان ذلك إجماعا منهم على الجواز ، وليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا ما أخرجه ابن ماجة من حديث صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فيهن البركة : البيع إلى أجل ، والمقارضة ، وإخلاط البر بالشعير للبيت لا للبيع » . لكن فى إسناده نصر بن القاسم عن عبد الرحيم بن داود ، وهما مجهولان » ، « وقال ابن حزم فى مراتب الإجماع ، كل أبواب الفقه فلها أصل من الكتاب والسنة حاشا القراض ، فما وجدنا له أصلا فيهما البتة ، ولكنه إجماع صحيح مجرد . وهذا مثل لما قلناه فى بحث سابق من أن المعاملة يكفى فى جوازها عدم ورود النص بالتحريم لها ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

---

[١] ص ٢٦٧ ج ٥ طبعة المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥٧ هـ .

ذو القرنين في القرآن والتاريخ

للأستاذ نور الحق تنوير

دار نقاش على صفحات جريدة الأخبار الغراء بين الأستاذين العقاد والغزالى . فنفى الأستاذ العقاد الرأى الذى ذهب إليه عامة المفسرين من أن يكون الإسكندر المقدونى هو المقصود بذى القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف . وتابع الأستاذ الغزالى رأى المفسرين . (أخبار اليوم الصادر فى ٢٠ فبراير و ٢ مارس سنة ١٩٥٩ م) .

لقد استهل القرآن المجيد الحديث عن ذى القرنين بقوله : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ...) ويتضح من ذلك أن السؤال كان موجها إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وأجمعت المصادر المختلفة أن أصحاب السؤال كانوا من اليهود ، ومن البديهى ألا يكون سؤالهم إلا عن رجل له أثر عظيم فى تاريخهم .

ولكى يمكن القطع برأى فى شخصية ذى القرنين يجدر بنا أن نتدبر أولا ـ الأوصاف التى نعته بها القرآن الكريم ، ومدى انطباقها على أى من الشخصيات التاريخية التى يهم اليهود أمرها .

وصف القرآن المجيد ذا القرنين بالصفات التالية :

١ ــ كان ملهما من الله تعالى ويحظى بالرؤيا الصادقة .

٢ ــ كان فاتحا عظيما إذ خرج من وطنه وغزا الأراضى غربا حتى وصل إلى عين حمئة حيث كانت الشمس تغرب من ورائها .

٣ ــ اتجه شرقا وفتح بعض البلدان .

٤ ــ ثم ركز سيره إلى المنطقة التى كانت معرضة لهجمات وأقام سداً تلبية لطلب الأهالى ليصد عنهم هجمات المغيرين «يأجوج ومأجوج» .

فهل هذه الصفات كلها تنطبق على الإسكندر المقدونى وبخاصة صفة الإلهام من الله تعالى أو الرؤيا الصادقة ، والقبولية عند الله ، طبعا لا ، كما قرر ذلك الأستاذ عباس العقاد .

فمن هو إذن ذو القرنين ؟!! ثم إذا أنعمنا النظر فى التاريخ نجد أن هذه الأوصاف تنطبق على أحد ملوك فارس ـ واسمه بالفارسية : «خورس» وبالعربية «قورش» أو «كورش» (Cyrus) .

هذا ويساعدنا سفر دانيال من التوراة فى تعيين هذه الشخصية إلى حد كبير . إذ جاء فى الإصحاح الثامن الفقرة ٣ - ٥ . « ورأيت فى الرؤيا وأنا عند نهر أولاى فرفعت عينى ورأيت ، وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان ، والواحد أعلى من الآخر . . وللأعلى طالع أخيرا . رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ، ولا منقذ من يده ، وفعل كمرضاته وعظم » ثم يفسر دانيال هذه الرؤيا فى الفقرة العشرين من نفس الإصحاح حيث يقول : « أما الكبش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادى وفارس » .

ومن هذا نفهم أن المراد من ذى القرنين أحد ملوك « مادى » أى : « ميديا » و « فارس » حسبما ذكر فى رؤيا دانيال .

وبقى علينا أن نبحث عمن ينطبق عليه الوصف القرآنى من بين هؤلاء الملوك !! .

أولا : نجد أن أول وصف فى القرآن ينطبق على « قورش » (٥٥٣ - ٥٢٨ قبل الميلاد) إذ أنه كان يحظى بالإلهام ويتمتع بسمعة طيبة وكان متمسكا بالورع والتقوى كما روى عن بعض الأنبياء . فقد جاء فى سفر أشعيا « هكذا يقول الرب لمسيحه ، لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما ، وأحقاء ملوك أحل ، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق ، أنا أسير قدامك والهضاب أمهد ، أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد أقصف ، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابى لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك إله اسرائيل لأجل عبدى يعقوب . وإسرائيل مختارى ، دعوتك باسمك ، لقبتك وأنت لست تعرفنى » (إصحاح ٤٥ الفقرة من ١ إلى ٥) .

ومن هذا يتجلى بوضوح أن قورش كان قد بورك من الله تعالى ولذا سمى بالمسيح ثم نجد أن ما أوتى من الملك والسلطان كان من فضل الله فحسب . وهذا الوصف ينطبق على ما جاء بالقرآن الكريم فى حق ذى القرنين . « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » . كذلك ورد فى سفر أشعيا : أنا أسير قدامك والهضاب أمهد « مما يشير إلى أسفاره الطويلة ، وهو ما يؤكده القرآن الكريم ، ثم نقرأ فى إلهام أشعيا » أنى أنا الرب الذى يدعوك ، باسمك إله إسرائيل وهذا يطابق عبارة القرآن الكريم « قلنا ياذا القرنين » ثم جاء فى هذا الإلهام « لقبتك وأنت لست تعرفنى » وفى ذلك إشارة إلى أن ذا القرنين . ما كان يعبد الله حسب أسمائه وصفاته التى وردت فى التوراة ، بل كان يعبده بأسماء أخرى وهذا ثابت من التاريخ إذ أن

قورش كان من متبعي زرادشت ، ومن المعلوم أن الديانة الزرادشتية أقرب إلى الإسلام من الديانات الأخرى فيما يتعلق بالإيمان بالبعث ويوم القيامة .

ومن الناحية التاريخية نجد ذكر قورش مشفوعا بالخير والمعرفة ، وأنه كان محبوبا من رعاياه وأعدائه على السواء ، وكان عندما يغزو أي بلد من البلاد فإن أهل ذلك البلد كانوا يفتحون له الأبواب لسمعته الطيبة وتمسكه بالعدل ، فإلى جانب ما سبق من بيان مقامه فى التوراة نلخص ما رأى التاريخ فيه وما ذكره عن أخلاقه الحسنة وسيرته الطيبة نقلا عن كتاب :

(Historians history of the world)

قال أجزنوفون : « لقد فكرت ذات مرة . وخطر لى أن من السهل السيطرة على أي نوع من المخلوقات عدا الإنسان ، ولكن عند ما تدبرت أمر قورش الذى جعل كثيرا من الناس والمدائن والشعوب يدينون له بالطاعة اضطررت عندئذ إلى أن أعدل عن وجهة نظرى ، وأن أرى أن حكم الناس ليس من الأمور المستحيلة بل وليس من الأمور الصعبة إذا ما مارس الإنسان الحكم بتفهم ومهارة فأنا أعلم أن من الناس من أطاعوا قورش عن طيب خاطر مع أنه يبعد عنهم مسيرة أيام عديدة ، بل منهم من كان يبعد عنه عدة شهور ومن هؤلاء الناس من لم يروه . بل ومنهم من كانوا على يقين من أنهم لن يروه ، ومع ذلك فقد كانوا يسارعون إلى الخضوع لسلطانه وذلك لأنه بز جميع الملوك الآخرين ، كما بز أولئك الذين ورثوا السلطان عن آبائهم ، أو نالوه بجهودهم .

وبعد ما عدد أجزنوفون البلاد التى سيطر عليها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا قال : « لقد كان بمقدوره أن يبث فى الآخرين شدة الرغبة فى إرضائه ، حتى أنهم ليبغون أن يظلوا محكومين بأفكاره ... » (صفحة ٥٩٦-٥٩٧ ، من المجلد الثانى من كتابه المذكور) .

هذا وقد ساق نفس المرجع الآراء الحديثة عن قورش . والتى نجملها فيما يلى :

« إذا عد قورش عظيما فذلك لأنه أحرز انتصارات لم يسمع بها من قبل بواسطة وسائل لا يؤبه لها ، ولقد كان عظيما أيضاً إذا ما قدرنا أن الحرب فى سبيل العدالة تعد من العظمة حتى لو أدت إلى الهزيمة . . . وفضلا عن ذلك فقد علا إلى أوج مدارج الإنسانية إذ لم يلطخ درعه بقطرة دماء سفكت بوحشية أو أريقت لدافع الانتقام المخيف أو القسوة كشأن فال ابن أوليمب - الإسكندر - المشينة كما عفا عن أعدائه المهزومين ووهب لهم

حياتهم - وبذل لهم من عطاياه ... أنه لم يقتل بخسة أهل بلده كما فعل الإسكندر - الإله المجنون . . . وفوق هذا كله فقد حيته جماعة اليهود الصغيرة ورحبت به عند مياه بابل بما لم يفعلوه لأى مخلوق آخر من قبل ومن بعد ولقبوه بالمنتصر والمنقذ والمحرر والمخلص وحبيب الله وسيد الأرضين . . . (راجع الصفحات من ٥٩٧ إلى ٦٠٠ من المرجع المشار إليه آنفا) .

أما أن قورش كان يتلقى الإلهام فقد ورد بصفحة (٥٩٤ - ٥٩٥) من نفس المرجع أنه رأى فى الرؤيا أن أكبر أبناء هيستابس - ابن أخيه - قد امتدله جناحان على كتفيه أحدهما يظل آسيا والآخر أوروبا . وقد أول قورش هذه الرؤيا على أنها تشير إلى أن ذلك الولد - أى داريوس - يدبر مؤامرة ضده . ومع أن هذا التأويل كان خاطئا إلا أن تعبير الرؤيا الصحيح ظهر فيما بعد عندما تسنم داريوس الملك وشملت فتوحاته آسيا وأوروبا .

هذا وتشير التوراة أيضا إلى أن قورش كان ملهما إذ جاء فى سفر عزراء « وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم أرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا ، هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض - دفعها لى الرب إله السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا » - راجع الإصحاح الأول ، الفقرة من ١ إلى ٣) .

ويتجلى من هذا بوضوح أن الله تعالى ميزه وكرمه وأعطاه كثيراً من البلدان ومكنه منها وأخبره عن طريق الإلهام أن يطلق سراح اليهود الذين أسروا زمن نبوخذ نصر ويسمح لهم بالعودة إلى أورشليم ، وقد نفذ قورش ذلك فعلا .

الثانى — والوصف الثانى الذى نعرفه من القرآن الكريم فى شأن ذى القرنين هو امتداد فتوحاته نحو الغرب إذ قال الله تعالى : (فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) ... أى أنه اتجه غربا إلى أن بلغ منطقة مياه ذات لون أسود ، أى ماء ممتزج بالطين وهذا الوصف ينطبق على البحر الأسود Black Sea .

وبالفعل حدث ذلك لقورش ، حينما قوى بفضل الله تعالى وبسط سلطانه على بلاد ميديا وازداد نفوذه حتى أثار حقد الأعداء . ثم هاجمته بعض البلاد الغربية فاضطر قورش للدفاع عن وطنه ومعاقبة المعتدين وهكذا خرج فاتحا واستولى على بابل ونينوا وبعض

المستعمرات اليونانية التى كانت فى آسيا الصغرى . الممتدة إلى بحر مرمرة . إلى أن وصل إلى البحر الأسود (عين حمئة) وهذه الفتوحات كلها ثابتة من التاريخ . (راجع المرجع السابق ذكره . وصفحة ٤٠٣ من المجلد الرابع من دائرة المعارف اليهودية) .

الثالث : أما الوصف الثالث الذى جاء فى القرآن الكريم . . . فهو أنه حينما استولى ذو القرنين على البلاد الغربية اتجه نحو الشرق كما قال الله : (ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) . والتاريخ يؤيد ذلك أيضا إذ أن قورش بعد أن أنهى فتوحاته فى الغرب واصل غزوه فى الشرق حتى استولى على بخارى وسمرقند وأفغانستان وبلوخستان وضمها إلى مملكته ، وجدير بالإشارة أن هذه الجهات وعلى الأخص بلوخستان الصحراوية تعد من المناطق التى تلحفها الشمس ويتعرض أهلها لقسوة لهيبها دون حجاب من مزروعات أو غابات . وهو ما يشير إليه القرآن (لم نجعل لهم من دونها سترا).

(راجع كتاب Historians History of the werld) صفحة ٥٩٣ من المجلد الثانى .

الرابع : ـ والصفة الرابعة التى وصف بها ذو القرنين فى القرآن الكريم هى أنه بعد أن واصل فتوحاته غربا وشرقا اتجه اتجاها آخر حيث أقام سداً منيعاً حسب طلب أهالى تلك المنطقة للدفاع عن هجمات يأجوج ومأجوج (ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما . . .)

وفى هذا الصدد يشير التاريخ والعهد القديم إلى الأمور التالية .

١ ـ أن قورش حارب يأجوج ومأجوج ودافع عن بعض مناطق مملكته من غاراتهم .

ويجدر بنا بادئ ذى بدء أن نعين أولا القبائل أو الأقوام التى سميت يأجوج ومأجوج ، وتساعدنا التوراة فى تعيين يأجوج ومأجوج إلى حد ما حيث جاء فى سفر حزقيال : « يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه » . (الإصحاح ٣٨ الفقرة الثانية) .

ويفهم من هذا أن يأجوج ومأجوج كانوا من سكان المناطق الشمالية وأن موطنهم روس وما شك وتوبال . كذلك يفهم من التوراة أن أحد ملوك الفرس يحاربهم كما ورد فى حزقيال (الإصحاح ٣٨ الفقرة الخامسة) ويستنتج من ذلك أيضا أن فى وقت هذا النبأ كانت منطقة من مناطق أرض فارس تحت سيطرة يأجوج .

أما من الناحية التاريخية فنجد أن يوسفيوس

وهو من المؤرخين القدماء يقول بأن يأجوج ومأجوج من قبائل سيثين (Siythien) كما أن التوراة أيضاً تؤيد هذا القول إذ جاء فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين فى الفقرة الثانية « بنو يافث جومر ويأجوج وما داى وياران وتوبال وماشك وتيراس » ولفظ جومر يعبر عن السومريين (Cimmerions) والذين كانوا يقطنون شرق آسيا الصغرى ، وما داى يقصد به الميديون والمنطقة بين جومر وميديا تسمى بالسومريين .(Cimm-erions

هذا ويقول جيروم المؤرخ العظيم أن قبائل مأجوج تسكن فوق جبال قوقاز وبحيرة قزوين وهذه المنطقة الشمالية التى كان يقطنها السيثيون (Siythiens) . راجع صفحة ١٩ من المجلد السادس من دائرة المعارف اليهودية) .

وبعد تعيين يأجوج ومأجوج يجدر بنا أن نبحث عما إذا كانت هذه القبائل قد غلبت الفرس فى عصر من العصور كما ذكرت التوراة أم لا ! .

إن التاريخ أيضا يؤيد احتلال السيثيين لمنطقة الميديين . فقد جاء فى صفحة ٥٨٠ من المجلد الثانى من كتاب Historians History of the world ·

« كما وأننا بينا قبل ذلك أن فارس وقعت فى أيدى السيثيين أو بعبارة أخرى استولى عليها ملك ميديا (والميدية كانت تحت سيطرة السيثيين) وعاصمة ذلك الملك كانت اكبتانا (Ecbatana) ثم حررها قورش الأعظم من أيدى السيثيين .

ويتجلى من هذا بوضوح أن جزءى فارس وقعا تحت أيدى يأجوج ومأجوج ويثبت أيضا أن قورش هزم يأجوج ومأجوج وحرر ما كان فى أيديهم من أرض فارس ، وثابت من التاريخ أيضا أن هجمات هذه القبائل تكررت على الأقوام الجنوبية إذ يقول هيرودوت أن قبائل السيثيين كانت تهاجم البلاد الجنوبية من الشمال بعد اختراق المنطقة ما بين جبال القوقاز وبحر قزوين .

٢ - بقى بعد ذلك ما جاء فى القرآن الكريم من أن ذا القرنين أقام سدا منيعا لصد هجمات يأجوج ومأجوج وهنا يجدر بنا أن نبحث أولا عما إذا كان بهذه المنطقة سد أم لا ! فنجد أن التاريخ يؤيد وجود سد فى المنطقة التى عينها هيرودوت كطريق لهجمات يأجوج ومأجوج (أى السيثيين) وهو ما عرف لدى المؤرخين باسم (دربند) كما أن هناك مدينة بهذا الاسم فى داغستان على ساحل بحر قزوين ومعنى هـذا الاسم بالفارسية يشير إلى ما اشتهرت به من الأسوار التى كانت تسد

الممر بين الجبل وبحر قزوين . ولعل تسمية هذه المنطقة « بدربند » يرجع إلى وجود الحاجز أو السد الذى كان يمنع السيثيين عن الهجمات .

هذا وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « دربند » لقد كان هناك سد علوه تسعة وعشرين قدما وعرضه عشرة أقدام وطوله خمسين ميلا وكانت تتخلله بعض الأبواب الحديدية كما كانت توجد فيه أبراج للمراقبة على مسافات قصيرة ؛ للإشراف منها على المنطقة وكان هذا السد ممتدا (بين جبال قوقاز وبحر قزوين) . . واشتهر هذا الجدار باسم سد الإسكندر ثم إن « قياد » أحد ملوك الساسان أجرى فيه بعض الإصلاحات .

من هذه التفاصيل كلها يتضح أنه كان هناك سد بين بحر قزوين وجبل القوقاز الذى أقيم لمنع السيثيين (قبائل يأجوج ومأجوج) من الإغارة على الأقوام الجنوبية إلا أننا لا نعرف بالضبط من الذى أقام هذا السد بيد أن القول بأنه بنى فى عصر الإسكندر المقدونى يعد بعيدا عن المعقول إذ أننا نعرف من التاريخ أن الإسكندر هزم دارا ـ ملك الفرس وقتله فى صيف عام ٣٣٠ قبل الميلاد ومع ذلك لم يستول على إيران كلها ، بل كانت هناك بعض المقاطعات الأخرى التى قاومته بجيوشها وقد واصل الإسكندر تقدمه دون أى توقف ولكن ما أن تقدم فى تلك المناطق حتى بدأت بعض الاضطرابات فى بعض الجهات المقهورة . فاضطر إلى العودة لإخمادها .

ولما تم له قمع هذه الحركات تقدم نحو « كابل » لإخماد الاضطرابات التى حدثت فى جيوشه هناك . ثم واصل سيره فى شتاء عام ٣٢٩ قبل الميلاد نحو الهند حسبما يقوله المؤرخون (راجع صفحة ٥٩٦ من المجلد الأول من دائرة المعارف البريطانية) .

على كل فهو قد قطع هذه المسافات كلها بغاية السرعة . حتى إن بعض المؤرخين ليتشككون من ذلك ، ومهما يكن من أمر فإن الإسكندر لم يمكث فى أية منطقة أثناء غزواته ، بل واصل سيره إلى أن بلغ الهند ثم رجع عن طريق البحر ووصل إلى إيران عام ٣٢٤ قبل الميلاد ومكث هناك فترة قصيرة كما أنه اضطر إلى إخماد الثورة التى حدثت فى جيوشه ثم واصل عودته إلى بلاده غير أن الأجل وافاه فى الطريق فى ١٣ يونيو من سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .

ومن هذا نفهم أنه ما كان بوسع الإسكندر أن يبنى مثل هذا السد العظيم وربما اختلط هذا الأمر على بعض المؤرخين الغربيين فنسبوا هذا السد إليه ، متأثرين بما ذهب إليه المفسرون المسلمون من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى .

وبالطبع لا يكفينا ما ثبت من أن الإسكندر لم يقم هذا السد، بل إننا نحتاج أيضا إلى بعض الأدلة الأخرى التي وإن كانت لا تثبت بصورة قاطعة قيام هذا السد في عصر قورش إلا أنها تدل على أنه هو الذي أقام هذا البناء وترجح ذلك بما يقرب من اليقين.

أولا — نعرف من التاريخ أن داريوس الأول تولى زمام ملك فارس بعد ابن قورش الذي كان قد رآه قورش في الرؤيا مسيطرا على الغرب والشرق على السواء، كما نعرف أيضا أن الامبراطورية الإيرانية قويت فعلا في عصر داريوس الأول، وأنه حدث مرة أن هاجم داريوس قبائل السيثيين لإضعافهم وإخماد ثوراتهم واختار طريق الهجوم من الناحية الأوروبية. أي أنه اخترق منطقة اليونان، ثم أغار عليهم ولا نجد هناك أي مبرر معقول لاختيار هذا الطريق الطويل لتأديب السيثيين مع أنهم كانوا يقطنون بالقرب من بلاده نحو الشمال. ومن الممكن أن نستنتج من هذا الحدث بسهولة أنه لما أقام قورش سدا بين الجبل وبحر قزوين، كان من الصعب على داريوس الهجوم عن طريق بعض الأبواب الصغيرة في السد، وبخاصة حينما كانت ترافقه جيوش كبيرة إذ أن مثل هذا الهجوم ما كان ليخلو غن الخطر كما وأن تحطيم السد كان أخطر، ولذا سلك داريوس ذلك الطريق الطويل بعد أن تحمل كثيرا من الصعوبات والعوائق في هذا السبيل لكى يهاجم السيثيين من ناحية ويحصرهم خلف السد من ناحية أخرى.

الثاني : — والأمر الثاني الذي يمكن استنباطه في هذا الصدد هو أنه إذا كان السد غير قائم في عصر داريوس الأول فإننا لا نتوقع من ملك عظيم مثله اشتهر بالعقل والحكمة أن يترك الطريق السهل بين الجبل وبحر قزوين مفتوحا للأعداء. ويختار الطريق الطويل الذي يبلغ حوالى ألف ميل لمعاقبة هذه القبائل. ويعرض بلاده لغارة هؤلاء الناس.

فمن الواضح إذن أنه لابد وأن السد كان قائما وإلا لهاجم السيثيون بلاد الفرس أثناء مسير داريوس في ذلك الطريق الطويل . . . ثم حينئذ ما كان بمقدوره أن يحافظ على دولته لبعده عنها كما أن الدولة ما كانت تقدر أن ترسل بعض النجدات إليه، فاختيار داريوس الأول هذا الطريق الطويل من جهة أوروبا بكل اطمئنان يدل على أنه ما كان يخاف من منطقة « دربند » (أي ما بين جبل قوقاز وبحر قزوين) لأنه كان يعرف أن قبائل السيثيين لا تقدر أن تهاجم بلاده ؛ لوجود السد في طريقهم.

إن الأوصاف الأربعة التي ذكرها القرآن

الكريم فى شأن ذى القرنين تنطبق بجلاء على قورش الملك العظيم ، وإذا كان التاريخ لم يتضمن نصا صريحا على أن قورش هو الذى بنى سد « دربند » إلا أن نسبة بناء السد إلى هذا الملك تبلغ حداليقين عن طريق الاستنباط ، وعلى الرغم من قلة الأنباء التى وصلت إلينا عن ذلك العصر فقد ثبت من التاريخ قطعا أن السيثيين احتلوا بلاد قورش قبل توليه زمام الملك ، وأن هجماتهم كانت متوالية ومتعاقبة على الفرس والبلاد الجنوبية من تلك المنطقة ، ثم يدلنا التاريخ بالأدلة القاطعة على أن هجمات السيثيين عن طريق « دربند » (الطريق ما بين جبل قوقاز وبحر قزوين) انقطعت تماما بعد عصر قورش .

والنتيجة التى نصل إليها من هذا البحث الطويل هى أن المراد من ذى القرنين الذى ذكر فى القرآن الكريم هو قورش (٥٥٣ - ٥٢٨ قبل الميلاد) مؤسس الامبراطورية الفارسية والذى استولى على بلاد ميديا وآسيا الصغرى وبابل والذى امتدت رقعة ملكه شرقا وغربا على السواء .

ومما يعزز هذا الرأى أننا لا نجد فى التاريخ من تنطبق على سيرة حياته تلك الأوصاف التى ذكرت فى القرآن الكريم بمثل ما تنطبق على قورش .

نور الحق تنوير

هذا ظلم ... !

أعلنت محاكمة الزعيم ناظم الطبقجلى عن براءة الجمهورية العربية المتحدة من افتراءات المهداوى ، بقدر ما أبانت عن شجاعة زعيم حر من أبطال ثورة ١٤ تموز العراقية العربية .

فأمام سفاح لا يرحم ، ومحكمة لا تعدل ؛ نفى الزعيم ناظم الطبقجلى كل ما قيل عن تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى ثورة الموصل - وأضاف فى حدة وانفعال :

إن اتهام الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل ظلم صارخ وافتراء محض ... ثم شرح الأسباب الحقيقية للثورة .

أحفاد القرامطة

للأستاذ علي العماري

ليست هذه أول مرة ينزل فيها الوباء الشيوعي أرض الرافدين ؛ فقد اكتوى العراق في فترة من فترات التاريخ بنار الإباحية ، وأوشكت هذه النار أن تنتشر لولا أن صدتها مصر ، وحالت دونها ودون الوصول إلى معقل الإسلام ، ولولا أن نشطت الخلافة العباسية وتنبهت للأخطار المحدقة بها وبالإسلام فقضت على القائمين بها بعد أن بذلت كثيراً من الرجال والأموال .

وإذا كانت الأمم والأفراد ، تأخذ العبر من الماضي ، وتهتدي في حاضرها بما جرى في تاريخها القديم فإن علينا أن نمعن في الأحداث والمخاطر التي حاولت أن تقضي على كل جميل في تاريخ ديننا وأمتنا .

وقد يعييك أن تقنع صاحبك بخطورة مبدأ من المبادئ إذا اعتمدت في محاجته على النظريات والجدل ، ومهما بلغت من ذلك فلن تصل في إقناعه - إن كان على استعداد لأن يقتنع - إلى ما تصل إليه حين تضع يده على حادثة واحدة يتأملها ، ويرى فيها التطبيق العملي لهذا المبدأ .

وربما كان من الإسراف في حسن الظن أن يعتقد عاقل أن أصحاب العقائد الذين يدخلون في دين جديد رهبة أو رغبة يتخلون كلهم عن عقائدهم القديمة .

بل الحقيقة الكبرى التي تؤيدها طبائع النفوس ، وتؤكدها أحداث التاريخ أن هذه العقائد تظل عميقة الجذور في بعض النفوس ، تراودها من حين إلى حين ، وتدفعها أحيانا إلى الثورة على الدين الجديد - إن استطاعت - فإذا خافت تلمست الوسائل للإعلان عن هذه العقائد ، وإبرازها بصورة أو بأخرى على مسرح الحياة .

وقد يخدع باحث أو مؤلف فيدافع عن أعمال واضحة صدرت عن أصحاب العقائد المدخولة يخدع بمواقف محمودة ظهرت منهم في تأييد الدين الجديد ، ولكن الذي لاشك فيه أن من يدخل دينا راهبا من سلطان أهله أو طامعا فيما عندهم لايبالي أن يقوم بأعمال تخدم هذا الدين ، وهو يقوم بها كارها ، ولكنها المجاراة ، والمبالغة في البعد عن الشبهات .

وأخص بالذكر أولئك الفارسيين الذين دخلوا فى الإسلام ، فلا أشك فى أن جمهرتهم تقبلت الدين الجديد ، وأحبته ، وبذلت أعز ماتملك فى سبيل نصرته ، ولكن بعضا منهم - كثروا أو قلوا - ظلوا خاضعين لعقيدتهم الأولى واقعين تحت سيطرتها حتى لتظهر على فلتات ألسنتهم أو تبدو فى أعمالهم ، وإننا لنجد كثيرا من الشواهد حين تقلب صفحات التاريخ أو نطالع تراجم الرجال .

ولقد روى أن بعضا ممن دخل فى الإسلام منهم احتال على إعادة عبادة النار فقالوا للمسلمين ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن يكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها السند والعود أبدا ، وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة عليها للعود فعلم الرشيد أنهم يقصدون من ذلك أن تكون الكعبة بيت نار ، فكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى القبض عليهم وقتلهم(١)

ومما لا ينكره مطلع على التاريخ أن جماعة من الفرس - ومن غيرهم - حاولوا فى أزمنة متطاولة أن يكيدوا للإسلام ، وهم فى الظاهر مسلمون ، وأن طرقا شتى سلكوها لهذا الغرض ، فكان وضع أحاديث لم ترد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أساطير جازت على بعض المفسرين فأدخلوها فى كتب التفاسير ، وكانت فتن بين المسلمين أوقد نارها وحضأها أعداء للإسلام ممن دخل فيه بنية سيئة ، وعقيدة فاسدة ، وحينا كان يتخذ التدين ، أو التشيع لأهل البيت وسيلة سهلة للغض من الإسلام ، بل للقضاء عليه .

ومن أبرز العقائد التى عملت على هدم الإسلام وتدمير معالمه ، وأرادت أن تحل محله المجوسية ، ولهذه العقيدة أصول حاولت أن تسيطر على العالم الإسلامى فى فترة من فترات التاريخ .

وكان سدنة هذه العقيدة ، والصادون عنها طائفة اتخذوا من الإسلام شعارا ، وعرفوا فى التاريخ باسم (القرامطة) وكان من أبرز تعاليمهم (لاحقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح) . وقول أحدهم : « إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها » .

وقد كانت فكرة التساوى فى الأموال راودت بعض الكتاب المسرحيين فى عهد قديم ولكن الكاتب ما لبث أن طردها من خياله وأعلن طردها فقد ورد أن أرستوفاش كتب منذ ٢٣٠٠ سنة مسرحية جاء على لسان بطلتها : « أريد أن يكون للجميع نصيب فى كل شىء فلا يكون غنى يملك الأراضى الواسعة ، وفقير لا يملك شبرا من الأرض يدفن فيه ، ولا بد أن يستظل جميع الناس بحالة واحدة فى الحياة لا يعتريها التفاوت » .

---

(١) كتاب الفرق بين الفرق لعبدالقاهر التميمى ص ٢٧٠ .

غير أن شخصية أخرى فى المسرحية تسأل البطلة قائلة: « ولكن من سوف يؤدى الأعمال الحقيرة فى الدولة ؟ » فتجيب البطلة : أوه . ينبغى أن يكون لناعبيد !.

ثم جاء (مزدك) ، فتأثر بمذهب (مانى) أحد أنبياء الفرس، ولكنه خالفه فى الناحية الاجتماعية ، كان مانى يرى أن التخلص من الشر مستحيل ، وأن استمرار العالم فى الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هى تدمير هذا العالم ، فلما جاء مزدك حوالى نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، رأى أن القضاء على الشر ممكن ، وأن الوسيلة لذلك هى (الشيوعية) قال : إن الحقد الذى يأكل قلوب بنى الإنسان، والحرب التى تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لا مصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فإذا ألغيت الملكية ، وأبيح الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ، ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود (١) .

وقضى أنو شروان على مزدك ، ولكن تعاليمه بقيت حتى ظهرت فى إبان قوة الدولة الإسلامية ، فأعلنها بابك الخرمى فى أول القرن الثالث فى عهد المأمون العباسى، وكانت نحلة الخرمية نسخة من المزدكية ، يتناولون اللذات ، ويعكفون على الشهوات ، ولهم مشاركة فى الحرم والأهل لا يمنع واحد منهم الآخر عن شىء ، وإذا استضاف أحدهم صديق لم يمنعه من شىء يريد حتى زوجته ، وكان للبابكية فى جبلهم (جبل بدين بناحية أذربيجان) ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، ويختلط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم أخذ كل من يقدر عليه .

وهم ينكحون المحارم ، ثم قضى عليهم الخليفة المعتصم بعد جهادهم عشرين سنة ، ولكن الكارثة الكبرى التى حلت بالإسلام والمسلمين هى الكارثة التى جاءت على يد القرامطة .

وينسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط (٢) ، وكان فى ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة ، والقرامطة طائفة من الباطنية ظهرت دعوتهم فى خلافة المأمون ، وانتشرت فى خلافة المعتصم ، وأول من أسس الباطنية ميمون بن ديصان

---

(١) انظر كتاب الفلسفة الشرقية للدكتور غلاب جـ ١ ديانات الفرس

(٢) لأنه كان قصيرا ، يقارب بين خطواته ، وقيل لأنه كان أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت فى لغة الروم الآجر فعرب إلى قرمد ثم الى قرمط .

المعروف بالقداح ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق ، انتقل من أصبهان إلى الأهواز ثم إلى البصرة ، وأظهر دعوته فتبعه جماعة من أكراد الجبل ، ثم رحل إلى المغرب ، وانتسب أولا إلى عقيل بن أبى طالب ، ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مع أن ثقات النسابين يجمعون على أن محمد بن اسماعيل مات ولم يعقب .

ومن مشهورى القرامطة أبو سعيد الجنابى ، ملك البحرين واليمامة والأحساء ، ومنهم ابنه أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد ، وهو الذى اقتلع الحجر الأسود من الكعبة فى سنة ٣١٧ هـ فقد حدث فى تلك السنة ـ على ما جاء فى النجوم الزاهرة ـ أن سير المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمى فوصلوا إلى مكة سالمين ، فوافاهم يوم التروية عدو الله أبو طاهر القرمطى ، فقتل الحجيج قتلا ذريعا فى فجاج مكة وفى داخل البيت الحرام ـ لعنه الله ـ وقتل ابن محارب أمير مكة وعرى البيت ، وقلع بابه ، واقتلع الحجر الأسود وأخذه ، وطرح القتلى فى بئر زمزم وفعل أفعالا لا يفعلها النصارى ولا اليهود بمكة ، ثم عاد إلى هجر ومعه الحجر الأسود فدام الحجر الأسود عندهم إلى أن رد إلى مكانه فى خلافة المطيع ، وجلس أبو طاهر على باب الكعبة والرجال تصرع حوله فى المسجد الحرام يوم التروية الذى هو من أشرق الأيام وهو يقول :

أنا لله ، وبالله أنا
يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ودخل رجل من القرامطة إلى حاشية الطواف وهو راكب سكران فبال فرسه عند البيت ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره ثم اقتلعه ، وكانت إقامة القرمطى بمكة أحد عشر يوما ، فلما عاد القرمطى إلى بلاده رماه الله تعالى فى جسده حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وتناثر الدود من لحمه ، قلت هذا ما عذب به فى الدنيا ، وأما الأخرى فأشد إن شاء الله ـ وأدوم عليه [١] .

ثم قال هذا المؤرخ فى وصف أبى طاهر هذا : وكان زنديقا ملحدا لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، مع أنه كان يظهر الإسلام ، ويزعم أنه داعية المهدى عبد الله .

وبعض المؤرخين يذكر أن الذى قلع الحجر الأسود أبو سعيد الجنابى وينسبون إليه شعرا قاله فى هذه المناسبة وهو :

ولو كان هذا البيت لله ربنا
لصب علينا النار من فوقنا صبا

---

[١] جـ ٣ ص ٢٢٤ . ط . دار الكتب .

لأنا حججنا حجة جاهليـــة
بجلـلة لم تبق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا
جنائز لاتبغى سوى ربها ربا

وكان عدد الذين قتلوا فى هذه الحادثة ثلاثه عشر ألفا .

ومنهم على بن فضل الجدنى ، بنى مسجدا وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائما وليله قائما فأحبه الناس وافتتنوا به وقلدوه أمرهم فلما قويت شوكته وأجابه مالا يحصى عدده من قبائل اليمن ، وظفر على أعدائه الذين نهضوا لقتاله ، لما بلغ ذلك ادعى النبوة، بل زاد عليها ، فكان عنوان كتبه إلى أتباعه كما رواه البهاء الجندى ، « من باسط الأرض وداحيها ، ومزلزل الجبال ومرسيها على بن فضل إلى عبده فلان » ثم إنه أحل البنات والأخوات ، وهى نحلة عامة عندهم ، وأقوى حجة فى ذلك ماجاء فى رسالة (١) عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن سعيد الجنانى القرمطى ، فكان من قوله : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى » وفى ذلك يقول شاعرهم :

خـذى الدف ياهـذه والعبى
وغنى هـزاريـك ثم اطربى
تولى نبى بنى هـــاشم
وهـــذا بنى بنى يعرب
أحل البنـات مع الأمهـــا
ت ، ومن فضله زاد حل الصبى
وقـد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيـــام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى
وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عنـد الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين
من الأقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهذا الغريب
وصرت محـــرمة للأب
أليس الفراش لمن ربه
ورواه فى الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء
حلالا فقدست من مذهب

ولا غرابة فى هذه التعاليم ، ولا داعى لتكذيب هذه الروايات بحجة أنها أمور شنيعة لا تتفق وطبائع البشر ، والمنكرون

---

(١) هذه الرسالة من الوثائق الخطيرة ففيها جماع نحلة القرامطة ، وقد أوردها صاحب الفرق بين الفرق وناهيك به .

لهذه ونحوها إنما أتوا من قلة الخبرة بأحوال المجتمعات الإنسانية ، وربما كانت رحلة قصيرة إلى بعض الأقطار المتخلفة أخلاقيا كافية لردهم عن أفكارهم ، وإنى لأعلم أن فى بعض أقطارنا الإسلامية ما لا يقل شناعة عن أقبح ما ورد فى هذا الشعر ، ولا حاجة بى إلى ضرب المثل .

ودعوة هؤلاء تترقى فى درجات ، وفى الدرجة الخامسة يصل المدعو إلى هذه النحلة ، إلى أن يباح له أن يبيت مع زوجة الداعى فى بيته ، فإذا كان الصباح جاء الداعى إلى الضيف وأنبأه أن هذا من فضل مولاهم أمير المؤمنين ، وعليهم أن يشكروه ولا يكفروه على ما أطلق من وثاقهم ووضع عنهم من أوزارهم ، وأحل لهم بعض الذى حرمه عليهم جهالهم ، ثم قال : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ولقد ذكرنى فعل هؤلاء الدعاة بزوجاتهم بهذه القصة التى تدل على مدى فعل الإسلام بالنفوس ، ومدى إحساس هذه النفوس بحرمة الزوجة ، وحرصها على كرامتها .

حضر مجلس القاضى موسى بن إسحاق قاضى الرى ـ فى سنة ٢٨٦ هـ ـ وكيل امرأة ادعى على زوجها صداقها بخمسمائة دينار فأنكر الزوج ، فقال القاضى : البينة . فأحضرها الوكيل فى الوقت ، فقالوا : لا بد أن تنظر المرأة ، وهى مسفرة لتصح معرفتها فتتحقق الشهادة ، فقال الزوج : ولا بد ؟ فقالوا : ولا بد ، فقال الزوج : أيها القاضى ، عندى الخمسمائة دينار . ولا ينظر هؤلاء إلى امرأتى ، فأخبرت المرأة بما كان من زوجها ، فقالت إنى أشهد القاضى أننى قد وهبت له ذلك وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة ، فقال القاضى تكتب هذه الواقعة فى مكارم الأخلاق .

قلت : وهذا هو الفرق الكبير بين تعاليم الإسلام الذى كرم بنى آدم ، وبين تعاليم الذين يدوسون الكرامة الإنسانية تحت أقدامهم .

وقد اتفق الكاتبون فى هذا الموضوع على أن النحلة القرمطية تمت بصلة قوية إلى المجوسية ومن أوثق الصلات بين النحلتين هذا الأمر من تزوج البنات ، وهو إحدى الدعائم فى المجوسية ، ولا غرو ، فبدأ الكون على ما ترويه دياناتهم كان عن هذه الطريق ، ذكروا أن البرهمية الأولى زعمت أن الإله (براجاباتى) أحس يوما بشغف شديد نحو ابنته (أوشاس) آلهة الفجر الجميلة ، فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعا شديداً وفرت من وجهه مذعورة ، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها ، فكلما تشكلت بأنثى كائن من

الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن ، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ، ونال منها بغيته فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود .

ونلمح إلى بعض تعاليم القرامطة الأخرى لنرى مدى خطرهم - كان - على الإسلام والمسلمين ، وهم دعاة أول شيوعية فى بلاد الإسلام ، فمن تعاليمهم تشكيك الناس فى القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ليصلوا من ذلك إلى إبطال الشرائع كلها ، وهم يسخرون من أهل الشرائع من أمثال قولهم : إن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ، ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم ، وأن الأنبياء يحرمون عليهم الطيبات ويخوفونهم بغائب لا يعقل ، وهم - أى الأنبياء فى زعمهم - يستعبدون أتباعهم ، ويستبيحون أموالهم ، ويبيعونهم الجنة ، وهى أمل لا يكون بأرواحهم وأموالهم ، فكان أمرهم معهم نقداً فى حين أن ما يوعدون به نسيئة .

ومن أصولهم التأويل ، وهو باب واسع عندهم ، أولوا كل الآيات ، وكل الفرائض ، فالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة ، والطهارة طهارة القلب ، والجنابة الجهل ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا . وهكذا .

والأنبياء - عندهم - أصحاب مخاريق ومناقضات ، وأنهم قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة ، ومحمد بن عبد الله - عندهم - هو صاحب الأمة المنكوسة ، وأنه حين سئل عن الروح قال الروح من أمر ربى لما لم يحضره جواب المسألة .

وكان التحمس لهذه المبادئ يختلف من مضل إلى آخر ، فيبالغ بعضهم ، ويكتفى آخر بمجرد إحلال المحرمات ، فمثلا أبو زكريا القرمطى الذى غلب على البحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسين كان يوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد الفجور به ، فى حين اكتفى على بن فضل المار ذكره بمجرد الإحلال وقد أمر هذا القرمطى أبو زكريا بقطع يد من أطفأ نارا بيده ، وبقطع لسان من أطفأها بنفخة .

والجنة - عندهم - هى هذه الدنيا ونعيمها ، أما النار وعذابها فليس إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج .

أما ناحيتهم السياسية فقد ذكرت طرفا منها عند الكلام على الجنابى الذى فعل ما فعل بالمسلمين يوم التروية ، وكتب التاريخ حافلة بما ارتكبوه من جرائم ، وما كان على أيديهم من تذبيح الرجال والأطفال والنساء ، وهدم

المساجد وتحريقها ، وتبريرهم هذه الأعمال الوحشية ، ولهم مع حجاج بيت الله فظائع تقشعر منها الأبدان ، حتى لقد امتنع الناس عن الحج ما بين سنتى ٣١٧ هـ و٣٢٦ هـ خوفا منهم .

وجماع القول فيهم ما قاله ابن خلكان: وعلى الجملة فالذى فعلوه فى الإسلام لم يفعله أحد قبلهم ولا بعدهم من المسلمين .

وربما توهم من لا بصيرة له أن دعوة القرامطة لآل البيت ، وتشيعهم لهم جعل آل البيت يغضون العين على مخازيهم ، ولكن الحقيقة أن آل البيت كانوا من أشد المسلمين تبرما بأفعالهم ، وقد كتب الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله ، وهو ثانى خليفة فاطمى إلى داعية القرامطة يقول له : « والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ، ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

(وبعد) : فهذه أول تجربة شيوعية اكتوى بنارها المسلمون ، واليوم يعيد التاريخ نفسه ويدنس أرض العراق أحفاد هؤلاء القرامطة ، وعلى المسلمين أن يأخذوا العبرة من التاريخ ، ولقد صدت مصر القرامطة حين هاجموها وبلغ عسكرهم إلى عين شمس ، وهى القاضية على أحفادهم ، إن شاء الله ؟

على العمارى

المثابرة على الدرس

كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه فعزم على تركه ، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة قد أثر فيها . فقال : الماء على لطافته قد أثر فى صخرة على كثافتها ، والله لأطلبن . فطلب فأدرك .

معارك دمياط والمنصورة في العصر الصليبي وأثرها في الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

قلم صلاح الدين أظافر الصليبيين، ولم يدع لهم قبل موته إلا شريطا ضيقا على الساحل، كان بوده أن يجليهم عنه، وأن يطهر البلاد منهم، ولكن كثرة المعارك أتعبت جنده، فآثر أن يريحهم إلى حين، ثم يعود إلى نزال العدو ليلقى به إلى البحر، لولا أن المنية عاجلته، فلم تبلغه مأربه.

واتخذ الصليبيون هذا الجزء الضيق موطئ قدم لهم، وأقبلوا يريدون أن يستعيدوا ما فقدوه من أرض الشام، وأن يستخلصوا بيت المقدس، وكان الملك العادل قد حمل العبء بعد صلاح الدين، فتجنب لقاءهم في معركة حاسمة، حتى يجمع جيشه المتفرق في أجزاء امبراطوريته، ورأى الصليبيون أنهم لم يظفروا من حربهم معه بشيء ذي قيمة، ورأوا أن أفضل طريق للتغلب عليه هو أن يضربوه في مكان حيوى، وكانت مصر هي ذلك المكان الحيوى، فقد طمعوا في امتلاكها حتى يأمنوا جانبها، ويستطيعوا الاستيلاء على الشام، من غير أن تمد مصر يدا إلى معونة أهله: فيصفو لهم الجو، وتثبت أقدامهم في الأرض؛ فما إن قوى الصليبيون بأسطول وأمداد جديدة، حتى وجدوا في أنفسهم الشجاعة للنزول على دمياط في صفر سنة ٦١٥هـ وهم في جيش لجب.

* * *

كانت مدينة دمياط محصنة تحصيناً قويا؛ ففضلا عن المزايا التي منحتها إياها الطبيعة، فجعلتها شبه جزيرة يحيط بها الماء من الشرق والغرب والشمال، عنى حكام مصر بتحصينها، ووضع حامية قوية فيها تدفع عنها غارات الفرنج الذين هاجموها مرارا عدة في عهد صلاح الدين فردهم على أعقابهم، وعنى بأمر تقويتها، وزارها ليتفقد أمورها مع ولديه سنة ٥٧٢هـ وكانت إحدى موانئ الأسطول المصرى في عهده، وبنى ابنه الملك العزيز لها سوراً، وكان لها برج ضخم على النيل بالقرب من شاطئ البحر في غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، تمتد في النيل؛ لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل إلى برج

آخر حصين مقام فى وسط النيل ، وكانا مشحونين بالمقاتلة والعدد .

نزل الصليبيون بالبر الغربى للنيل ، وجعلوا هدفهم الأول الاستيلاء على البرج المقام فى وسط النيل ، فأقاموا لذلك أبراجا على سفنهم ، ولكن نيران الحامية معززة بجيش الكامل بن العادل على الشاطئ الشرق ردت هجماتهم الأولى ، ولم يستطع الصليبيون امتلاك هذا البرج ، وظلوا كذلك أربعة أشهر جمع فيها الفرنج مراكب بعضها إلى بعض ، وأقاموا عليها قلعة كبيرة أسندوها إلى البرج وقاتلوا من فيه ، حتى اضطروهم إلى التسليم . وكانت الحسرة على سقوط هذا البرج سبباً كافياً لموت العادل كمدا .

لم ييئس الملك الكامل ، بل نصب عوض السلاسل جسراً عظيما امتنع به الفرنج من سلوك النيل ، وقاتلوا عليه قتالا شديداً متتابعا حتى قطعوه ، فأخذ الكامل عدة مراكب كبار ، وملأها وغرقها فى النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا كان النيل يجرى فيه قديما ، فحفروا ذلك الخليج وعمقوه ، وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح ، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى مكان يقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ، وكان قد جمع جيوشه ، ونزل إلى جنوب دمياط فى مكان لا يزال يعرف باسم « العادلية » ، وهاجموا الكامل غير مرة ، ولم يظفروا منه بشىء ، واجتمع عنده من الجند مالا يكاد ينحصر عدده .

غير أن أمراً حدث غير اتجاه الحرب ، ذلك أن مؤامرة دبرت للملك الكامل ، كان يراد بها خلعه عن العرش ، فاضطر الكامل إلى ترك ميدان الحرب ليلا ، وأصبح الجند فلم يجدوا سلطانهم ، فمضوا لايلوون على شىء ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله ، وتركوا الباقى بحاله من مسيرة وسلاح ودواب وغير ذلك ، ولما لم ير الفرنج أحدا عبروا النيل إلى بر دمياط آمنين فى ٢٠ ذى القعدة سنة ٦٢٥ هـ ، وغنموا ما فى عسكر الكامل ، فكان عظيما يعجز العادين ، ومضوا إلى دمياط وأحدقوا بها ، وحاصروها براً وبحرا ، وأقاموا عليهم خندقا ، وبنوا عليه سورا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين ، وألحوا على أهل دمياط بالقتال ، ومنعوا عنهم الأقوات فقلت ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح

والشعير ؛ ومع هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله . وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى فكتب هذه الأبيات ليرسلها إلى الملك الكامل ، وهى :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت
شرفاته ، كادت تجث أصوله
يغريك من أزكى السلام تحية
كالمسك : طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع
حتى كأنك جاره ونزيله :
يأيها الملك الذى ما إن يرى
بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى
ما ليس يمكننى لديك أقوله

ويمضى الكتاب فى وصف الحالة السيئة لدمياط ، فيقول :

أشكو إليك عدو سوء أحدقت
بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه
والبحر عز لنصره أسطوله
لخضوعه باد على أبراجه
وحنينه ، وبكاؤه ، وعويله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت
علاته ، ونحا عليك نحوله
وبقى له رمق يسير ، يرتجى
أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها
داء بمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله
ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه
ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق
ما إن يمل من الدموع هموله
لئن قعدت عن القيام بنصره
جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت
صلبانه ، وتلى به إنجيله
هذا وحقك وصف صورة حاله
حقا ، وجملته ، وذا تفصيله

وكان لهذه الرسالة من الشعر أثرها فى نفس الكامل ، فنادى بالجهاد العام فى مصر والقاهرة ، وأرسل الى إخوته بالشام أن يقبلوا للدفاع عن دمياط ، ولعل تأثره بالشعر قد أوحى إليه ، وهو يكتب إلى أخيه الملك الأشرف ، يستنجد به ، ويحثه على الحضور — أن يصدر رسالته إليه بهذه الأبيات :

يامسعدى ، إن كنت حقا مسعفى
فانهض بغير تلبث وتوقف

واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا
بتجشم فى سيرها، وتعسف(١)
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ
إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له
متوقع لقدومه متشوف (٢)
وإذا وصلت إلى حماه فقل له
عنى بحسن توصل وتلطف:
إن تأت عبدك عن قليل تلقه
ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه
بك فى القيامة فى عراض الموقف

وأثر الخطاب أثره، إذ أقبل الأشرف موسى على عجل، وقوى بقدومه أمر الملك الكامل، كما قدم الملك المعظم من دمشق أيضا، واشتد به ساعد أخيه الكامل؛ ويقال: إن بنى أيوب لم يلتئم شملهم منذ صلاح الدين، ولم تتحد كلمتهم مثلما كانوا فى معركة دمياط.

وأخذ الكامل يهاجم الصليبيين، ويحرق جسورهم، ويتلف آلات حصارهم، ولكن برغم كل هذه الجهود ظل الحصار مضروبا على المدينة، وبدأ الجوع يفعل فعله فى أهلها فلم يبق من حاميتها التى كان يقدر عددها بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين.

لم يستطع أهل دمياط الجياع المنهوكو القوى، ولا حاسيتهم الضعيفة قتالا، فسلم البلد إلى الفرنج فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ، ودخل الفرنج دمياط بروح كهذه الروح التى دخل بها أجدادهم بيت المقدس، فوضعوا السيف بدون رحمة فى بقية الحامية البائسة، وفى الناس؛ حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم؛ ومضى الصليبيون يحصنون أنفسهم بدمياط، ويجعلونها معقلا منيعا، وأقبل الفرنج يهرعون إليها من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم.

كان لسقوط دمياط أثر بالغ فى نفس المسلمين، ولا سيما أن الإسلام يومئذ كان يمر بفترة حرجة ضاق لها صدور أهله، ذلك أن التتار كانوا قد قاموا فى ذلك الحين بجموعهم الجارفة يقوضون بلاد الإسلام فى المشرق، حتى وصلوا إلى نواحى العراق وأذربيجان، وهاهم أولاء الفرنج من الغرب يملكون دمياط، ويعدون العدة لامتلاك مصر والشام.

(١) القلوص من الإبل: الطويلة القوائم. والمرقل: المسرع. ووجف الفرس: عدا مسرعا وتجشم الأمر: تكلفه على مشقة، وتعسف الأعلى: ركبه بلا روية.

(٢) تشوف إلى الشىء: تطلع إليه.

أعلن الكامل فى مصر الجهاد العام، وعسكر على البر الشرقى أمام طلخا فى المنزلة التى عرفت بالمنصورة، وشرع فى بناء الدور والفنادق، والحمامات والأسواق، واجتمع بها من المسلمين عالم لا يقع تحت حصر.

ظل الفرنج عاما ونصف عام فى دمياط يتنازعون أمرهم بينهم، ولم يحاربوا المسلمين إلا فى معركة « البرلس » التى التقوا فيها بالكامل فى شهر رجب سنة ٦١٧ هـ، وانهزموا فيها هزيمة منكرة، حتى ليقال: إنه قتل منهم عشرة آلاف، وغنم المصريون خيولهم وسلاحهم، وعادوا إلى دمياط مهزومين، فلما قدمت عليهم الإمدادات خرجوا للحرب، وظلوا يتقدمون حتى وقفوا أمام عقبة المنصورة، وحدثت بعض مناوشات انتصر فيها المسلمون، فاستبشروا وتفاءلوا، وقويت روحهم المعنوية، وانتشرت فرق الجيش المصرى خلف العدو وحوله، وقطعوا سداً للنيل، فانفجر الماء وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة، ووجد الصليبيون أنفسهم فى شبه جزيرة يحيط بهم الماء والأعداء، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر. وفى ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط فحال المسلمون دون ذلك، وملكوا الطريق الوحيد الذى يمكن أن يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وحاولوا الزحف والقتال فلم يستطيعوا، فأرسلوا إلى الملك الكامل وإخوته يسألون الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط، ورأى الكامل إجابتهم، ورأى غيره من إخوته مناهضتهم واجتثاث أصلهم البتة؛ فخاف الملك الكامل - وهو رجل سياسى كأبيه - إن فعل ذلك، أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها، ويحتاج الأمر إلى منازلتها مدة، فإنها كانت ذات أسوار منيعة، وزاد الفرنج عندما استولوا عليها فى تحصينها، ولا يؤمن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها، وطلبا لثأر من قتل من أكابرهم؛ هذا، وقد ضجرت عساكر المسلمين، وملت من طول الحرب، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهراً.

تم الصلح، وتسلم المسلمون دمياط فى يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ، فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وعشرين يوما. وفى أسبوع كانت الحملة الصليبية التى عسكرت منذ أربعين شهرا يملؤها الأمل فى النجاح قد غادرت الشواطىء المصرية يجللها الخزى والعار، ودخل الملك الكامل إلى دمياط بجنده وأهله.

كان الاستيلاء على دمياط يهدد العالم الإسلامى كله ، فلا غرابة إن احتفل الأدب احتفالا قويا بعودتها إلى الإسلام . ولعل من خير الشعر الذى يمثل شعور المسلمين فى هذه الوقعة خير تمثيل قصيدة البهاء زهير التى أهداها إلى الملك الكامل ، وقد بدأها مشيداً بفضله فى حفظ الدين ، ورد المعتدين من الفرنج ، إذ يقول :

بل اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت ، والحمد لله ، نعمة
يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شيء من النذر

وهذان البيتان يدلان على مقدار ماكان يشعر به المسلمون من نعمة فى جلاء الفرنج عن المدينة .

ويمضى البهاء فى مدح الكامل ، ثم يتحدث عن الموقعة ، فيذكر أن النصر الذى ظفر به المصريون لم يخص مصر وحدها ، بل سعد به العالم الإسلامى كله ، ولولا هذا الفوز لسرى الذعر فى أرجائه ونواحيه ، وفى ذلك يقول البهاء :

وما فرحت مصر بذلك وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم تقم لله حق قيامه
لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لو لا همة كاملية
لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله : إن سميه
حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

ونلمس فى هذه الأبيات الوحدة العاطفية التى كانت تربط العالم العربى والإسلامى ، وتجاوب الشعور فى أرجاء هذا العالم بما كان يحدث فى جزء من أجزائه .

ويصف الشاعر طول المعركة ، وما أجراه الكامل فيها من الثبات والصبر ، وكيف انتهى ذلك بحصار العدو فى البر والبحر حصاراً دفعه إلى الاستسلام ، وإن كنت آخذ على الشاعر إغفاله لمن أعانوا الكامل فى هذا الجهاد ونسبته الفضل كله للكامل ؛ وإذا كان من الحق أن للقائد أثره الكبير فى نفوس الجند وفى بث الروح المعنوية فى صدور جيشه ، فمن الحق كذلك ألا يغفل الشاعر ماكان لمساعدى الكامل من أثر كبير فى هذا النصر ؛ بل إن الشاعر ، إذا كان قد أشاد بذلك ، لأظهر التضامن الإسلامى بمظهر رائع إزاء ماكان هناك من تضامن بين ملوك مصر والشام فى رد الخطر عن جزء من الوطن

العربي الكبير . ولذلك لا أجد البيت الأول مصوراً للحقيقة إذ يقول :

ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا
تجاهد فيهم ، لا بزيد ولا عمرو
صبرت إلى أن أنزل الله نصره
لذاك قد استحققت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها
لا غرو إن سميتها ليلة القدر

ثم يصور الشاعر المعركة التي دارت ، وكيف حوصر العدو من البر والبحر ، فلم يستطع الإفلات ، وكيف هاجمه جيش المصريين في قوة وعنف ، حتى طلب الفرنج الأمان أذلاء صاغرين ، وذلك في قوله :

سددت سبيل البر والبحر عنهم
بسابحة دهم ، وسابحة غبر
أساطيل ليست في أساطير من مضى
بكل غراب[1] راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل : هولا ، وهيبة
وإن زانه ما فيه : من أنجم زهر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضاحها تغني السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامئ البيض والقنا
وأشبعت منهم طاوي الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعا
تجرجر أذيال المهانة والصغر
فمن عليهم بالأمان تكرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر

ويتحدث البهاء عن تقدير المسلمين لدمياط ، فيدعو لها ألا تمس بسوء ، ويعلل لعذوبة النيل تعليلا رقيقا ، إذ يقول :

كفى الله دمياط المكاره ، إنها
لمن قبلة الإسلام في موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الثغر

وأما اليوم الذي دخل فيه الكامل والجيش المصري دمياط بعد خروج الفرنج منها ، فيصفه الشاعر بقوله :

فلله يوم الفتح ، يوم دخولها
وقد صارت الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها
وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر
ويا سعد قوم أدركوا فيه حظهم
لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر

ويمضي بعدئذ يحدثنا عن شوقه إلى سماع أحاديث هذا الفتح ، وفرحه بهذه الأحاديث ، وهو بذلك يعبر عن شعور المسلمين في أرجاء العالم العربي ، وشوقهم إلى سماع أنباء هذا النصر المبين إذ يقول :

(1) الغراب : اسم نوع من السفن في ذلك العصر.

وإنى لمرتاح إلى كل قادم
إذا كان من تلك الفتوح على ذكر
فيطربنى ذاك الحديث وطيبه
ويفعل بى ما ليس فى قدرة الخمر
وأصغى إليه مستعيدا حديثه
كأنى ذو وقر ، ولست بذى وقر
يقوم مقام البارد العذب فى الظما
ويغنى عن الأنواء فى البلد القفر

ثم يعود مثنيا على الكامل ، متخيلا المصير المشئوم لهذا البلد الأمين ، إذا كان قد قدر للفرنج أن ينتصروا ، فيقول مخاطبا الكامل :

لك الله ، من أثنى عليك فإنما
من القتل قد أنجيته : ومن الأسر

وتحدث ابن عنين شاعر الشام عن معركة دمياط أيضا ، وعنى فى قصائده بالحديث عن جيش الفرنج ، وكيف أقبل كثيفاً كثير العدد والعدة ، ولكنه لم يلبث أن انهار تحت ضربات جيش المسلمين ، وتنبه ابن عنين إلى الموازنة بين ما يفعله المسلمون عند ما ينتصرون من الرفق فى المعاملة ، والصفح ، والعفو ، وبين ما كان الفرنج المغيرون يأتون : من سفك الدماء ، والإسراف فى القتل .

وهذه إحدى قصائد ابن عنين ، بدأها بفخر قوى يقول فيه :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آياتنا ، والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا
من الروم ، لا يحصى يقينا ، ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة
ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأقبلوا
إلينا سراعا بالجياد ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
بأطرافها ، حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا
طويلا ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا
فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية
توارثها عن صيد آبائنا الابنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا
ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنا (١)
فكم من مليك قد شددنا إساره
وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قداع سيوفنا
لما ركبوا قيدا ، ولا سكنوا سجنا

(١) أسجح : أحسن العفو .

وقد تحدث فى هذه القصيدة عن أحد قواد هذه المعركة ، وهو المعظم عيسى ، وعن أثر فتح دمياط فى قلوب المسلمين ، وقد امتلأت بهجة ، ثم ختمها مهددا بقوله :

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
مواقعها فيها ، فإن عاودوا عدنا

أما ابن النبيه فبعد تغنيه بيوم دمياط يراه مقدمة تدفع إلى اقتلاع بقايا الفرنج من الشام ، فيقول مخاطبا الأشرف موسى :

عكا ، وصور إلى رؤياك عاطشة
فانهض ، فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها ، إذ تسيره
إليك ، فهو سلام أو تحيات
الله أكبر أن تمسى مزارهم
تتلى ، وتنسى من القرآن آيات
وأن يخرون على القرآن مجلهم
جهرا ، ويخفى أذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها
ووافقت سعيه فيها سعادات

وقد كان الملك الكامل حريصا على تسجيل هذه المعركة فى النصر ، حتى تضم إلى هذه المعارك الخالدة فى تاريخ هذه الحروب الطويلة. روى صاحب النجوم الزاهرة : أن الملك الكامل جلس مجلسا عظيما ، فى خيمة كبيرة عالية ، وقد مد سماطا عظيما ، وأحضر ملوك الفرنج والخيالة ، ووقف المعظم والأشرف (أخو الكامل) والملوك فى خدمته ، وقام الحلى الشاعر ، فأنشد :

هنيئا ، فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا
مبينا ، وإنعاما ، وعزا مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشر بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الطغـ
ـاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل سيفه
صقيلا ، كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو (١) مجدل
ثوى منهم ، أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا
عقيرته فى الخافقين ، ومنشدا :
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا يخدمون محمدا

وفى البيت الأخير تورية فى المعظم عيسى ، والأشرف موسى لما وقفا فى خدمة الكامل محمد

وكان المعظم عيسى والأشرف موسى حريصين من ناحيتهما كذلك على أن يسجلا دورهما فى هذه المعركة ؛ فلما رحل الفرنج إلى ديارهم ، حبس الكامل بقصره فى المنصورة وبين يديه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف

(١) الشلو : العضو .

موسى ، وغيرهما من أهله وخواصه ، فأمر الملك الأشرف جاريته ، فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه
وجاء إلى مصر ؛ ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى ، وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف ؛ ثم أمر الكامل جاريته ، فأخذت العود ، وغنت :

أيا أهل دين الكفر ؛ قوموا ، لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا ، وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمداً

فأعجب ذلك الملك الكامل ، وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار .

ولا بد أن يكون كلا الملكين قد أعد جاريته لتغنى بما يرفع من شأنه وعما يسجل بلاءه فى هذه المعركة ، وقد نهض شعراؤهم بهذه المهمة ، وأشبعوا رغبتهم فيها . وهوجمت دمياط من جديد .

وكان الصالح أيوب بالشام مريضا عندما جاءته أنباء حركة الفرنج قاصدين دمياط ، فى حملة يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، فقدم الصالح أيوب من دمشق وهو مريض ، فى محفة ، فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ ، وجمع فى مدينة دمياط من الأقوات والأزواد والأسلحة وآلات القتال شيئا كثيراً ، خوفا أن يجرى على دمياط ما جرى فى أيام أبيه الكامل ، وأمر أن يجهز الأسطول بالرجال والسلاح ، استعدادا للمعركة المقبلة ، وأرسل إلى دمياط جيشاً ضخما نزل فى مقابل دمياط فى البر الغربى وصار النيل بينه وبينها .

وفى يوم الجمعة ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هـ وردت سفن الصليبيين تحمل جموعهم الضخمة وقد انضم إليهم فرنج الساحل ، وأرسوا بإزاء المسلمين ، وأرسل مليكهم إلى السلطان كتابا جاء فيه : أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس ، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل الرجال ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فإما أن تكون البلاد لى ، فيا هدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة إلى ، وقد عرفتك وحذرتك ما قلت لك ، وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء .

وكانت هذه الرسالة ترمى إلى تحطيم القوة المعنوية فى نفوس المسلمين وبث الرعب والخوف فى قلوبهم، بوضع صورة شوهاء لمسلى الأندلس أمام أعين المصريين، تحذر هؤلاء مصيراً مشئوما كمصير أولئك، وبوصف ضخامة الجيش الغازى الذى يملأ السهل والجبل؛

فلما قرئ الكتاب على السلطان، وقد اشتد به المرض، بكى واسترجع، ولكنه رد تهديداً بتهديد، وكتب إليه البهاء زهير جواب هذه الرسالة قائلا:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين. أما بعد، فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا بد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسوء الظنون «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل: «أتى أمر الله، فلا تستعجلوه»، وتكون أيضا على آخر سورة ص: «ولتعلمن نبأه بعد حين»، ونعود إلى قوله تعالى، وهو أصدق القائلين: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين» وقول الحكماء: (إن الباغى له مصرع)، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يسلمك والسلام.

وهو كتاب يدل على أن الصالح كان كبير الأمل فى النصر، ومع ضخامة أمله كان ينبوع قوته اعتماده على ربه الذى يهزم الفئة الكثيرة بالطائفة القليلة. وكما وضع كتاب ملك فرنسا أمام الصالح صورة مسلى الأندلس، وضع الصالح أمام ملك فرنسا صورة المعارك التى هزم فيها الفرنج بالشام، ودمرت حصونهم، وفتحت بلادهم، ويستشهد له بآى القرآن، ليؤكد له صلابة إيمانه، وقوة يقينه، وليوحى إليه بأن الكتاب الذى يعتقد صحته يكفل له النصر، ويضمن له النجاح، وهو لذلك يتقدم إلى المعركة ثابت الجنان مطمئن القلب، كله ثقة ويقين.

ولما نزل الفرنج وحطوا خيامهم ناوشهم المسلمون القتال، ولكن لم يكد الليل يرخى سدوله حتى رحل أمير جيش الصالح أيوب وسار إلى حيث يقيم سيده، فلما رأى أهل دمياط رحيل الجند خرجوا بأطفالهم ونسائهم؛ وعد هذا العمل من القائد من أقبح الأعمال؛ فقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل عند ما هاجمها الفرنج أقل ذخائر وعددا منها فى هذه المرة، ومع ذلك لم يأخذها

الفرنج إلا بعد أن كاد أهلها يفنيهم الوباء والجوع .

ولما أصبح الفرنج ساروا إلى مدينة دمياط ، فرأوا أبوابها مفتوحة ، فخشوا أن يكون ثمة مكيدة ، فتريثوا حتى تبينوا ، فعبروا على الجسر الذي حال الإسراع في الهرب بين المسلمين وبين تدميره ، ودخلوا مدينة دمياط بلا مشقة ، واستولوا على جميع ما بها من آلات حربية وأسلحة عظيمة ، وعدد كثيرة ، وأقوات وأزواد وذخائر وأموال وأمتعة ، وسرى الخبر في أرجاء المملكة ، فعم الفزع النفوس ، ولا سيما أن المرض كان يشتد بالسلطان ، الذي رحل إلى المنصورة ، وشرع الجند في تجديد الأبنية للسكنى بها ، ونصبت فيها الأسواق ، وأصلح سورها ، وقدم الأسطول المصري ، وجاء المتطوعون للجهاد من كل الانحاء .

أما الفرنج فقد حصنوا أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة ، وظلوا بدمياط ستة أشهر ينتظرون قدوم إمدادات ، فلما تلقوها قر رأيهم على المسير إلى القاهرة ، ومات الصالح أيوب والصليبيون لا يزالون بدمياط .

ومن الممكن أن الصليبيين علموا موت السلطان فخرجوا من دمياط ، ونزلوا بفارسكور ، وأسطولهم في نهر النيل يحاذيهم ، وورد إلى القاهرة من المعسكر كتاب يحض الناس على الجهاد ، وكان كتابا بليغا فيه مواعظ جمة ، فقرئ فوق منبر جامع القاهرة وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف وخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم ، والتقى المصريون بالفرنج وأظهروا من ضروب البطولة في اشتباكهم مع الأعداء برا وبحرا طوال شهرين كاملين .

ومن أشد ما استخدمه المصريون للفتك بأعدائهم في هذه المعركة النار اليونانية ، وقد كتب عنها الأستاذ عبد الله عنان في كتابه : « مواقف حاسمة » حديثا طويلا عن نشأتها وتطورها ، ونقل قول مؤرخ شاهد عيان في تلك المعركة من الفرنج هو : « دى جوانفيل » الذي وصف هذه النار بأنها تثب مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جدا من جراء عظم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء ، حتى إنك ترى كل ما في المعسكر كما ترى في ضوء النهار ، ويصف هذا المؤرخ ما أحدثته هذه النار من تدمير في معسكرهم ، ورعب في قلوبهم ، ولم يستطع الصليبيون في ذلك الحين معرفة سر تركيب هذه النيران .

ولكن حدث أن عرف الفرنج مخاضة في بحر أشموم ، فلما كان يوم الثلاثاء خامس

ذى القعدة خاض الفرنج هذه الخاضة ، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر ، وقتلوا قائد جيش المصريين ، وانتشر الفرنج فى الفرق المبعثرة للجيش الإسلامى ، واندفعوا لا يبصرون ما وراء اندفاعهم ، وخاطروا حتى رغبوا فى الاستيلاء على قصر السلطان ، على شاطىء النيل بالمنصورة .

غير أن الجيش المصرى لم يكن من السهل هزيمته بمثل هذه السرعة ، فتجمع الجند حول القصر ، وثبتوا ، وهجموا على الفرنج ، فانهزم هؤلاء إلى شوارع المنصورة ، وكانت مليئة بالسدود . فاستقبلهم بها رماة السهام ، وكانوا يملئون النوافذ وأسقف المنازل ، وتناثر الجيش الفرنسى قطعا ، ولم ينج منه إلا القليل ، وكان انتصار المسلمين مثارا للإعجاب ، لأنه لم يكن على رأسهم ملك يقودهم ، وإنما كانت شجرة الدر تنظم الشئون باسم السلطان ، حتى إذا حضر المعظم توران شاه أدار المعركة فى مهارة ، وكان أول ما عمله نقل أجزاء سفن على ظهور الجمال ، حتى وصل بها إلى فرع دمياط جنوبى الأسطول الفرنسى ، ثم ضم بعضها إلى بعض هناك . وكانت نتيجة هذه المكيدة أن أسرت ثنتان وثلاثون سفينة فرنسية ، وأن حرم جيش الصليبيين كل مئونة وذخيرة ، وأصبح موقف لويس موقفا حرجا لا أمل فيه ؛ فلم تكن لديه قوة يستطيع بها أن يشق طريقه إلى القاهرة ، كما كان مقطوعا من جميع الإمدادات ، فبدأ الجيش يشعر بقلة التغذية . يضاف إلى هذا ما انتشر فى المعسكر من الحمى .

بدأت المفاوضات بين الطرفين ، وعرض الصليبيون أن يسلموا دمياط على أن يأخذوا بدلها مملكة بيت المقدس ، فلم يقبل المصريون ذلك ، ورأى الفرنج أن لا مناص من التقهقر إلى دمياط ؛ ففى ليلة الأربعاء ثالث المحرم سنة ٦٤٨ هـ رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم ، يريدون مدينة دمياط ، فمضى المصريون خلفهم ، واتبعوهم ، فما أصبح الصباح ، حتى أحاطوا بالفرنج ، وأعملوا فيهم السيوف ، واستولوا عليهم قتلا وأسرا ، وكان معظم الحرب فى « فارسكور » . ويبالغ المؤرخون فى عدد القتلى والأسرى وما غنمه المسلمون من أدوات القتال والأموال ، والتجأ ملك فرنسا وعدة من أكابر قومه إلى قرية « منية عبد الله » القريبة من « شرمساح » ، وطلبوا الأمان ، فبذل لهم ، وأخذوا إلى « المنصورة » ، وقيد الملك بقيد من حديد واعتقل فى دار القاضى « ابن لقمان » كاتب الإنشاء التى كان ينزل بها فى المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى : « صبيح » ؛ وأمر الملك المعظم بقتل الأسرى ، فضربت أعناقهم ، وأرسل إلى دمشق رسالة يبشر نائبه بها بهذا

الفتح المبين ، ورحل من المنصورة ، ونزل بفارسكور ، ولكنه لم يعش حتى يستمتع بثمرة هذا النصر ، وصعدت على العرش شجرة الدر . وفى عهدها تم الاتفاق على أن يسلم الفرنج دمياط ، وأن يخلى عن الملك الفرنسى ليذهب إلى بلاده بعد أن يؤدى نصف ما عليه من المال الذى قرر عليه ، وأفرج عنه بعد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، وأفرج كذلك عن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه ، وسلمت دمياط فى يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٦٤٨ هـ فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرا وتسعة أيام . وركب الملك البحر فى اليوم التالى يجر أذيال العار والهزيمة .

وإذا كانت المعركة الأولى قد تركت صدى كبيراً فى الشعر كما رأينا ، فإن هذه المعركة الثانية لم تجد من عناية الشعر ما لقيته المعركة الأولى ، وربما كان مرجع ذلك إلى ما حدث فى المعركة وبعدها : من اضطرابات ؛ فقد مات الصالح فى أثنائها ، ولم يعش ابنه المعظم « توران شاه » ، وجلس على العرش شجرة الدر من غير سابقة عهد بأن تجلس امرأة على العرش فكانت هـذه الأحداث ، سيما فى الانصراف إليها دون العناية بالتغنى بالمعركة وتمجيد أبطالها .

ولكن يظهر أنه بعد هذه المعركة الثانية ، وتحطيم جيش الصليبيين تحطيما كاملا ، وأسر ملكه وأمرائه ، وحبسهم فى بيت « ابن لقمان » خضدت شوكة هؤلاء الفرنج ، وأفل نجمهم ، وأصبح المسلمون ينظرون إليهم نظرتهم إلى عدو ضعيف المنة من المستطاع التغلب عليه فى يسر وسهولة ، فانتقل المسلمون إلى التهديد والوعيد ويمتاز هذا التهديد بالسخرية والتهكم ، يبدو ذلك فى شعر « ابن مطروح » ، وقد قيل إن ملك فرنسا يتهيأ لغزو مصر ، فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته
مقال صدق من قئول فصيح :
أجرك الله على ما مضى
من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغى أخذها
تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح [1]
رحت ، وأصحابك أودعتهم
بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم
إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها
لعل عيسى منهم يستريح

---

(١) الحين : الهلاك ، ويريد بالادهم : القيد .

وقل لهم ، إن أضمروا عودة
لأخذ ثأر أو لقصد صحيح :
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشى صبيح

وهى قطعة مليئة بالتهكم والسخرية والتهديد معا ؛ فهو يدعو الله له أن يجزيه خير جزاء عما أسدى من قتل جنده ، ويتهكم بسوء ما تعرض له من نتيجة ما كان ينتظرها حين قدم إلى مصر ، ظانا أنها قريبة المنال سهلة الأخذ ، ولم يكن يدرى أن خاتمة ذلك قيد من حديد يمسكه ، فلا يستطيع الانطلاق . فتضيق الدنيا فى عينه ، ولم يكن يعلم أنه سيعود منهزما وحيدا ، قد خلف أصحابه فى القبور تحت ثرى مصر . أما جيشه الضخم اللجب ذو الخمسين ألفا فلم يفلت منه أحد ، ومضى بين قتيل وأسير أثخن بالجراح . والشاعر يدعو أن يعود الملك إلى حرب أخرى ، عسى أن يصيبه ما أصابه فى الأولى ، والبيتان الأخيران فيهما تهديد الواثق المطمئن الذى لا يخاف .

وقد ألم بهذا المعنى شاعر آخر إذ قال :

قل للفرنسيس : إن كلا
له من المسلمين شاكر
لأنه محسن إلينا
بقوده نحونا العساكر
ساق إلى مصر ما اقتنته
أمة عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب
مصدره بالمنون آخر
أوردهم أدهما خضما
ورائج الشر فهو خاسر
وأذهل القوم هول حرب
تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ، ولكن
قد عميت منهم البصائر
فإن يعد طالبا لثأر
من أرض دمياط فليبادر
فذلك البحر تعرفوه
والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب
لمثلها ، إنه لقادر

وهى قطعة لا تقل فى السخرية والتهكم والتهديد عن سابقتها ، وتكاد تنهج نهجها ، مما نرجح معه أن واحدة منهما قد أخذت عن صاحبتها .

أحمد أحمد بدوى
وكيل كلية دار العلوم

المطالع والمقاطع
فى شعر شوقى
للأستاذ على الجندى

— ٢ —

وكثيراً ما يرتبط المطلع بجملة أبيات ، فيؤلف معها صورة جميلة فاتنة متكاملة كأنما هى منظر مرئى ، أو قطعة موسيقية منسجمة ، كقوله فى لبنان :

السحر من سود العيون لقيته
والبابلى بلحظهن سقيته
الفاترات وما فترن رماية
بمسدد بين الضلوع مبيته
الناعسات الموقظات للهوى
المغريات به وكنت سليته
القاتلات بعابث فى جفنه
ثمل الغرار معربد أصليته
الشارعات الهدب أمثال القنا
يحيى الطعين بنظرة ويميته
الناسجات على سواء سطوره
سقماً على منوالهن كسيته

وكقوله فى توت عنخ آمون :

درجت على الكنز القرون
وأتت على الدن السنون
خير السيوف مضى الزما
ن عليه فى خير الجفون
فى منزل كمحجب الغيب
استترً عن الظنون
حتى أتى العلم الجسور
ففض خاتمه المصون
والعلم بدرى أحل
لأهله ما يصنعون
هتك الحجاب على الحضارة
والخدور على الفنون
واندسّ كالمصباح فى
حفر من الأجداث جون
حجر بمردة المعا
قل فى الثرى شم الحصون
لا تهتدى الريح الهبو
ب لها ولا الغيث الهتون
خانت أمانة جارها
والقبر كالدنيا يخون

وقد تمتد الصورة إلى أكثر من ذلك كما

فى قصيدته النيل فقد ارتبط مطلعها بخمسة عشر بيتاً سادتها الوحدة والانسجام، حتى كأنها صورة شمسية لا قطعة منظومة.

٦ - سار فى أكثر مطالعه على النهج السوى الذى يجب أن يسلك فى هذا الشأن، وهو أن يكون المطلع دالا فى جملته على الغرض المقصود من القصيدة، مشيراً إلى مغزاها الكلى، كأنه عنوان مختصر لها، كما يلمح منه الجو الذى أحاط بالشاعر حينما أخذ فى نظمها وهو ما يسمى عند البلغاء فى معناه الضيق: براعة الاستهلال.

يقول فى بدء قصيدته «كبار الحوادث» التى ألقيت فى المؤتمر الشرقى بجنيف عام ١٨٩٤.

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

فنعلم منه أن السفينة كانت أكبر وسيلة إلى المؤتمر، ونستطيع أن نلمح من هذا الذى يحدو من تمله إشفاق الشاعر من ركوب البحر الذى لم يكن موطأ الأكناف، لبنات البحار فى هذه الأيام.

هذا إلى ما عرف عن شوقى من حب الحياة، وكراهية الموت، حتى لقد ملأ أشعاره بالسؤال عن حقيقته وما يكمن وراءه، سؤال الخائف المترقب، لا المطمئن المستسلم.

ويقول فى ذكرى كارنارفون:

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرئ رهن بطى كتابه

وفى هذا يشير إلى ما أشيع من أن لعنة الفراعنة حلت عليه لكشفه قبر توت عنخ آمون، فلدغته بعوضة سامة وثبت إليه من القبر، ثم يقرر أن الموت وأسبابه مما يدق فهمه على العقول ويلطف عن تناول الأفكار، وكل ما نعرفه أن لكل نفس أجلا، وأن لكل أجل كتابا!!

ويقول فى حفلة مبايعته وكانت فى أوائل فصل الربيع:

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه

وليس هناك مطلع أنسب من هذا المطلع فى هذا الموقف، فربيع الفصول يقابله ربيع الشعر. والشعر ربيع، والشعراء بلابلة، والقصائد ألحانه وأزهاره وأنواره، فشوقى حين قال: مرحبا بربيع الطبيعة كان يقول أيضا: مرحبا بربيع الفن!! ويقول فى وصف مرقص:

حف كأسها الحبب
فهى فضة ذهب

وهل تفتتح قصيدة فى مرقص بأليق من هذا المطلع الخمرى النواسى الراقص المرقص معا، وهل يتصور رقص بدون شراب يكلله حباب!!

ويقول فى وصف النفس :

ضمى قناعك يا سعاد أو ارفعى

تلك المحاسن ما خلقن لبرقع

والبيت يمثل لنا اللهفة الإنسانية الحارة المتوثبة إلى معرفة هذه اللطيفة العلوية المخبوءة فى تجاليدنا ، تلك هى الروح التى أعيا كشفها الفلاسفة والعلماء من قديم الزمان ، وفيها يقول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

ويقول فى زلزال اليابان :

قف بطوكيو وطف على يوكهامه

واسأل القريتين كيف القيامه

ولو أنك اكتفيت بهذا البيت عن سائر القصيدة ، لوجدت فيه التصوير الشامل لما نزل بالبلدتين من الفواجع والمواجع ! كيف القيامة ، ليست القيامة إلا أن تزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج أثقالها ، وتبرز الجحيم ـ ويحيط سرادقها بالناس ، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وهذه الصورة المفزعة ، نستجليها من هذا البيت الذى زاد فى قسوته ، جمعه بين أربع أدوات طلبية ! قف ـ طف ـ اسأل ـ كيف .

فإذا وصلنا إلى مراثيه ، ظهرت المناسبة أدق وأعمق ، وبراعة الاستهلال أدل وأوضح .

يقول فى رثاء المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع

ونعاك فى عصف الرياح الناعى

فنعرف أن حادثا جللا وقع يوم وفاته ، أذهل الناس عن المصاب به . وصغر لجيعتهم فيه ، وشغلهم عن تشييعه إلى مقره الأخير ، وقد كان ذلك ، فقد لحق المنفلوطى بالرفيق الأعلى فى اليوم الذى حاول شاب مفتون أن يغتال الزعيم سعد زغلول بإطلاق الرصاص عليه ، وهو فى طريقه إلى انجلترا للمفاوضة ، وقد فصل ذلك شوقى بقوله :

هتف النعاة ضحىّ فأوصد دونهم

جرح الرئيس منافذ الأسماع

من مات فى فزع القيامة لم يجد

قدما تشيع أو حفاوة ساع

ثم يعقب بهذه الأبيات التى تكمل ذلك الإطار الإنسانى البديع ، الذى يجمع بين الأسى والتأسى :

ما ضر لو وقفت ركابك ساعة

كيف الوقوف إذا أهاب الداعى

خل الجنائز عنك لا تحفل بها

ليس الغرور لميت بمتاع

واصعد سماء الذكر من أسبابها

واظهر بفضل كالنهار مذاع

ويقول فى رثاء ثروت :

يموت فى الغاب أو فى غيره الأسد

كل البقاع وساد حين تتسد

فما الذى نفهم منه ؟ نفهم أن ثروت مات مغتربا ، وهذا ما حدث ، فقد وافاه الأجل المحتوم فى باريس بعيداً عن وطنه . وهناك

شىء آخر أهم من هذا يجب أن نفهمه ، فقد كان ثروت من زعماء الساسة وله أعداء فى القصر ، وفى الأحزاب المختلفة ، فأراد شوقى بهذا المطلع الرائع المنطوى على حكمتين أن يصوره فى أروع صوره ، صورة الأسد الذى لايزرى به أن يقضى فى غيله أو فى غيره ، بل ربما كان موته فى غيره أشرف وأكرم ، وأنه لا تفاضل بين بقعة أمام الموت ، فالأرض جميعاً لأبنائها مهاد ووساد ، « منها خلقناكم وفيها نعيدكم » ، فجد الميت من جهة ، وكبت خصومه من جهة أخرى ، وقد أفصح عن ذلك بقوله بعد ذلك :

لم يبق للضاحكين الموت ما وجدوا
ولم يرد على الباكين ما فقدوا

وراء ريب الليالى أو فجاءتها
دمع لكل شمات ضاحك رصد

ويقول فى رثاء عاطف بركات :

خفضت لعزة الموت اليرعا
وجد جلال منطقه وراعا

وقد كان عاطف رجلا صارما جاداً مر الحفاظ ، قوى الشكيمة ، شديد المراس ، كثير الاعتداد بنفسه والحرص على كرامته ، فكان من المناسب وصف الموت بهذه العزة والجلال والروعة ، ليتمثل فى النفوس أن الذى قهر عاطفاً هو قاهر كل حى ، وغالب كل غلاب ! .

ويقول فى رثاء عبده الحمولى :

طوى البساط وجفت الأقداح
وغدت عواطل بعدك الأفراح

فلو لم يعرف أن الميت عبده الحمولى المغنى لعرف على كل حال أنه مغن مرموق المكانة ، سنى المنزلة ، وإلا فهل يطوى بساط الراح ، وتجف الأقداح وتعطل الأفراح ، لغير بلبل صداح ! ! .

على الجندى

اعتذار

تعتذر إدارة المجلة إلى السادة القراء من تأخير هذا العدد ، فإن الورق الصالح للطبع قد نفد من السوق فلم نستطع الحصول على هذا النوع الوسط إلا بعد وقت ومشقة .

والرجاء فى الله أن تزول أمامنا العقبات فتصدر المجلة دائماً فى موعدها المقرر .

مناقشة

الدين

هل أدى دوره وانحسر مده ؟

للأستاذ محمد فتحى عثمان

قالوا . . . وهم يتظاهرون بالحياد والإنصاف : الدين شيء جليل حقا ، من ينكر أثره فى التطور التاريخى ؟ من يتجاهل فضله على التقدم الإنسانى ؟ ؟ . .

ما أبلغ آثار المسيحية فى تاريخ أوربا ؟ !

ما أروع فضل الإسلام على تاريخ العرب ؟!

هل يتسنى لمخلوق أن يدير ظهره لدور الدين التاريخى ، إلا أن يغمض عينيه عن الدلالات القاطعة لعلم الاجتماع ولتاريخ الفن ، تلك الدلالات التى تشهد للدين بأنه كان الوقاية الأولى للمجتمع بما يؤله وما يرمز Totem ، وما يحل وما يحرم Tabou ، وبأنه كان الدافع والحافز لكثير من الآثار الفنية الأولى من نقوش ورسوم ، ثم من تماثيل ومعابد ومقابر .

ثم . . . ماذا ؟ ؟ .

ومن هنا تظهر الغاية من الحياد ومن الإنصاف .

ثم . . تحكم الإنسان فى الطبيعة ، وأصبح يق نفسه بعقله وفكره ، وأصبح يستلهم نفسه فى أدبه وفنه . . ومعنى هذا الأسلوب الرقيق المهذب . المحايد المنصف ، أن الدين قد أدى دوره المشكور ، ومكانه الآن أن يعرض فى المتاحف أو يؤرخ فى السطور ! !

* * *

ومناقشة هذه الدعوى العريضة تقتضى أن نتعرف على حضارتنا العصرية : على مدى كمالها ، ومدى استغنائها بذاتها عن الدين وعن غير الدين . .

ثم نتعرف على (الدين) : على مهمته الإنسانية ، لنتبين : هل نراه حقا قد أدى رسالته واستنفد أغراضه ؟ ؟ .

ونحن ننبه أولا إلى خطر النبوءات المطلقة والأحكام العامة الشاملة فى حقل الدراسات الإنسانية والدينية . . . إن الذين ينادون بالمنهج العلمى ، ويريدون تطبيقه على هذا

النوع من الدراسات ، ينبغى ألا يندفعوا فى إصدار الأحكام واصطناع النظريات بغير روية ، ظانين أن شيئا من الحدس والتخمين ، بجانب بعض الملاحظات الجزئية القاصرة ، مع كثير من التحمس والتعصب للرأى ـ كل أولئك كفلاء بحل معضلات السلوك الإنسانى . . أمثال هؤلاء الجهابذة يرفضون فى الدين معنى الإيمان بالغيب ، بينما هم يعرضون قضايا خطيرة من مغيبات المستقبل كل سندهم فيها مجرد إيمانهم الشخصى . . . وشتان بين الإيمان بالله واليوم الآخر فى سلامته وعمقه ، وبين إيمانهم الذى يريدون أن يجعلوه العوض والبديل ، باسم العلم والبحث الرصين ! .

يقول بول فالرى (١٨٧١ : ١٩٤٥ م) :

« . . . إنى لأتساءل الآن ماذا كان يمكن التنبؤ به سنة ١٨٨٧ مما وقع فعلا منذ ذلك العام ؟ .

لاحظوا أننا فى خير الظروف للتجربة التاريخية ، فلدينا كمية هائلة ، لعلها أكثر مما يجب ، من المعلومات : كتب ، صحف ، صور شمسية ، ذكريات شخصية ، شهود لا يزالون كثيرين ، والتاريخ لا يبنى عادة بهذا القدر الوفير من المواد .

إذن ماذا كان يمكن توقعه ؟ . . .

فى سنة ١٨٨٧ هذه كان الجو مخصصا للطيور وحدها دون سواها ، ولم تكن الكهرباء قد فقدت أسلاكها ، والأجسام الصلبة كانت لا تزال صلبة والأجسام المعتمة كانت لا تزال معتمة ، ونيوتن وجاليليو يحكمان فى سلام ، وعلم الفزياء هانئ وقواعده مطلقة ، والزمان يجرى بأيامه الهادئة ، والساعات كلها كانت سواسية أمام الكون ، وتمتع المكان باللانهاية والتجانس لا يتأثر أبداً بشىء مما يجرى فى داخل أحضانه العظيمة . والمادة تحكمها قوانين حكيمة عادلة ، ولم يخطر ببالها أبداً أنها ستعدل منها شيئا مهما يكن ضئيلا حتى فقدت فى هذه الهوة من التجزؤ فكرة القانون نفسها .

ولكن هذا كله لم يعد اليوم إلا حلما ودخانا ، لقد تغير هذا كله كما تغيرت خريطة أوربا وكما تغير مظهر الشوارع . . .

إن أعلم العلماء وأعمق الفلاسفة وأبرع السياسيين سنة ١٨٨٧ ، هل كان فى وسعه أن يحلم ـ مجرد حلم ـ بما نراه اليوم ؟ إنه ليس من الممكن مجرد تصور ماهى العمليات العقلية التى يبحثها فى كل المادة التاريخية المتجمعة عن سنة ١٨٨٧ ، كان يمكنها أن تستنتج من معرفة الماضى ـ أياكان رسوخ هذه المعرفة وإحاطتها ـ فكرة ولو تقريبية جدا عما عليه الآن . . . ! ! !

ولهذا فإنى أتحاشى التنبؤ . . . إن التاريخ هو العلم بالأشياء التى لا تتكرر أبداً . فالأشياء التى يمكن تكرارها ، والتجارب

التي يمكن إعادتها ، والملاحظات التي يعلو بعضها بعضا - كل أولئك من شأن علم الفيزياء وإلى حد ما علم الأحياء .

لكن لا تخالوا أن تأمل الماضي بما فيه من غابر لن يعود أمر لا غناء فيه . إنه يبين لنا خصوصا إخفاق التنبؤات البالغة الدقة إخفاقا متواصلا ، وعلى العكس يكشف عن الفوائد الكبرى للإعداد العام المستمر الذي يسمح للإنسان بالعمل في وقت مبكر ضد المتوقع - دون أن يدعي خلق الأحداث أو تحديها لأنها دائما مفاجآت ، أو تنطوي على نتائج تثير الدهشة والذهول ..... » . (المجلة التاريخية ١٩٥٦) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف الكبير أرنولد توينبي :

« إن الحقبة التي نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم (العصر الحديث المتأخر) ومدته قرنان ، ونصف ، مبدؤه حوالى سنة ١٧٠٠ وهو عصر السيطرة الأوربية على العالم ، وعصر سيطرة الطبقة الوسطى على أوربا ، ومن ثم على شعوب العالم . ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدل المفكرون — وبصفة خاصة مفكرو القرن الثامن عشر - النظرية العامة للتاريخ العام ، وهي نظرية الأديان السماوية وقوامها حصر ذلك التاريخ بين بداية هي خلق الله العالم ونهاية هي قيام الساعة ... حاول فلاسفة القرن الثامن عشر أن يحذفوا الخلق والساعة وأوجدوا للتاريخ العام صورة أخرى - صورة حركة تجرى فى خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو أسبانيا أو انجلترا أو الأمة التي ينتسب إليها الكاتب !! ... وهي صورة لا يستطيع أن يدبر أصحابها مكانا للهند أو لصين ، أو حتى لروسيا أو أمريكا !!

والواقع أننا لا نستطيع أن نتقبل حركة تاريخية تجرى فى خط واحد . إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ففي التاريخ تتعاصر الحضارات إما فعلا وإما فلسفيا فى تفكير المؤرخ ، هذا والعلوم الإنسانية تتبادل المعلومات وتستخدمها فى عرض الظواهر الاجتماعية عرضا معقولا .

ومع هذا فللسير بالمنهج العلمى حدود ، فإنى أومن مثلا بأن اصطداما يقع بين شخصيتين إنسانيتين لا يمكن أبدا التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج فهو لا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعرا أو إلهام أنبياء لا يخضع أيضا لأى قانون فهي ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التى رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنسانى ... لقد أصبح (للدين) المكانة الأولى فى تصويرى للتاريخ العالمى ، وليس هذا الدين هو الدين المسيحى

الذى نشئت عليه بل أصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها فى المكانة التى أتصورها للدين فى المستقبل ، على إنى أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آبائه وأجداده » (المجلة التاريخية سنة ١٩٥٧) .

هذا تنبيه أساسى لا بد منه . . . لمن يريد أن يسير خطوات فى دراسة الدين ودوره وتاريخه ، وفى كل دراسة إنسانية ودينية على وجه العموم .

* * *

هل الحضارة الغربية حقاً قد اهتدت إلى تحقيق طمأنينة النفس واستقرار المجتمع بغير دين ؟ ؟ .

ما أكثر ما كتب الغربيون فى نقد حضارتهم . . . وهذا هارولد لاسكى المفكر البريطانى الاشتراكى المعروف يقول :

« إن عالم اليوم يعانى من الشعور العميق بخيبة الأمل ، وقد انتشر هذا الشعور فى أماكن كثيرة ، ويبدو أن جيلنا فقد قيمته لقد حل الشك السافر محل اليقين ، وحل اليأس محل الأمل ، ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقى لا تعترف بالتراث الذى أبدع روائع الماضى . . . والحرب قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياسا دائما للسلوك ، ويبدو أن الكنائس أصبحت وسيلة للقيام بطقوس شكلية بدلا من التأثير على معتقدات الناس .

إن رغباتنا تتسم كلها بطابع السرعة المحمومة وبطابع التهور والافتقار إلى الطمأنينة . لقد انتصرت روح الإنكار على روح اليقين . . إننا عدمنا فى كل مكان - تلك السكينة أو الثقة بالنفس التى تجعل الأفراد يختارون حلا من الحلول ليجعلوه موضع عبادة .

إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار ، وتحولت العلوم - سواء علوم الطبيعة أو علوم الأحياء - إلى معلومات ميتافزيقية ، وإذا ما كانت قد صارت فى يد إدنجتون وجينز مثلا جزءا من رد الفعل شبه التلقائى ، إلا أنها تفتقر إلى الهدف . فهى لا تقدم لنا شيئا غير تلك القيم التى تشيع الفوضى فى كل جزء من أجزائها . وفى مقدور هذا العلم أن يتيح الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنه عاجز عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحى ، وعلى الشرق العريق فى الوقت الحالى أن يتحدى هؤلاء الذين يسعون إلى الاحتفاظ بظروف الوصاية . . لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ولكن يبدو أنها لم تستفد سوى درس الاستعمار ! لقد اكتشفت سر المهارة

فى لندن وبرلين ، فى باريس ونيويورك ، ولكن يبدو أنها تفتقر إلى الهدف الكبير الذى تهب له هذه المهارة !! » .

(Democracy In Crisis)

هذه كلمات دقيقة فى وصف سيكلوجية المجتمع الغربى . . .

وصاحب هذا الوصف ليس من دعاة الدين ـ ومن أجل هذا أوردنا تقريره ـ إنه يقول « ومنذ قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى ، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل !! ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الطاقة الصناعية الجديدة ، والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا ـ دون أن يساندها مبدأ ما ـ لن يصبح لها أى معنى ، إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف ! » .

وأخذت الحضارة الغربية تحاول أن تسد الثغرات فى بنيانها الشامخ .

والتمست فى بعض المذاهب الشاملة الكاملة totalisme شيئا يكون دينا أو كالدين . . . ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد فى قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع القلوب والعقول من قرون وقرون !!

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها فى ميدان علم النفس .. تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية ، ونجح علم النفس حين تواضع ، وأخفق حين جمح ينشد (فلسفة نفسية كاملة) أو دينا جديدا ، وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب إلى الدين !! .

وحسبت الحضارة الغربية أنها عثرت على الضالة المنشودة والعلاج الشافى الذى يليق بالمتحضرين ، فأقبلت تستمد غذاء الروح وشفاء النفس من إلهامات الفنون : فنون القول والتعبير والتشكيل كلها .

وانطلقت الأرواح الهائمة تعربد فى الواقعية والسريالية وماإليهما . ولكن هذا التجديف هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوى الهادية حين يقول : « الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من فهم للحياة فى أى عصر من العصور ، وفى أى مجتمع من المجتمعات ؛ ولذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير العواطف الإنسانية ، فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من المثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاوبه ولا تناقضه فهى مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه

فهى مشاعر رديئة . . . لقد اتجه الفن إلى طلب المتعة فى أوربا بضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد إحياء العلوم ، وهذا الاتجاه حرم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله ينزع إلى إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس وهم الطبقة الارستقراطية . وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور وغلب عليه الغموض والتكلف وصار فناً متكلفاً غير طبيعى وإعراض الفن عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة فى حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود . . . والإدراك الدينى يتجدد كلما تجددت علاقاتنا بالعالم من حولنا ، وهو لذلك يقدم الفن مشاعر طريفة ترجح المشاعر المنبعثة عن حب المتعة المحدودة القديمة . وقد لحظ تولستوى أن أكثر الروايات والقصص من عهد بوكاشيو حتى عهد مارسل بريفو تدور حول مشاعر الكبرياء والشموخ والأحاسيس الجنسية ومشاعر الملل من الحياة والتبرم بها ، (على أدهم — مقال بالمجلة ديسمبر سنة ١٩٥٨) .

حضارة الغرب إذن ليست راضية عن نفسها وليس أعلامها راضين عنها . . .

وحضارة الغرب ليست كما يتصورها أهل الشرق المتطلع للنهوض ، بناء كاملا ليس به ثغرات ، جنة خالدة على الأرض لا يمس المرء فيها نصب ولا لغوب ! ! والإنسان فى هذه الحضارة العصرية لم يعد ذلك (الإله) الذى توهمه عصر النهضة : يقوم وحده ، ويستغنى عن غيره ، ويسخر الطبيعة بعقله ، ويفجر ينابيع الحكمة من نفسه وفكره .

لقد انكشف القناع ، فإذا به إنسان الأمراض والعقد النفسية والاضطرابات العصبية والضعف البشرى بكل صوره الروحية والجسدية الفردية والجماعية !! .

والحضارة الغربية مع ذلك قد أفادت الإنسانية فوائد جليلة ، والذين ينقدون اليوم هذه الحضارة إنما ينقدونها بما أخذوه عنها من علم وما تعلموه من نهج وما اكتسبوه من منطق ! .

والحضارة الغربية هى التى أحسنت إطلاق قوى الإنسان كما أحسنت الكشف عن نقط الضعف فيه ! ! ونحن نريد — فى هذه الفترة الدقيقة من تاريخنا — أن نتعرف على الحضارة الغربية تعرفا صحيحا ، وأن نتبين خيرها وشرها قفزاتها ومآزقها ، وأن نجتهد كى نتوقى رد الفعل الذى وقع فيه القوم يوم شدهتهم النهضة والكشوف والتجارب والآلات .

ولدينا من دروع الوقاية وأسباب التوازن

دين يختلف تاريخه معنا عن تاريخ الدين مع الغرب .

ثم لدينا تجربة كاملة قدمها الغرب بين أيدينا حيث أسمعنا أول الأمر تسبيحات التقديس للحضارة الإنسانية المادية الجديدة حيث لا مكان لإله أو لعالم آخر مغيب ، وما لبث أن أطلق بعد ذلك صرخات البلبلة والشكاية من الحضارة القائمة . . . ثم فى آخر الأمر باح الغرب بأشواقه المكبوتة وهفا إلى الإيمان من جديد .

وعلى الجيل الواعى قبل أن يسلم نفسه تماما إلى معابد الحضارة الغربية فى شرقنا ، أن يراجع عنها تقارير اشبنجلر وتوينبى ، ورسل ولاسكى ، وبرجسون ولوبون . . . وغيرهم فإنها أقوم وأوثق لبيان الحقيقة فى هذا الباب .

فإذا استقام لنا الطريق . . . وعرفنا أن الحضارة الغربية تشكو الثغرات والشقوق .

فهل ما زال الدين صالحا لممارسة معجزة أخرى تبرئ الفرد والجماعة ؟ ؟ .

هذا ما نناقشه فى العدد القادم ؟

فتحى عثمان

العلم

فى (نهج البلاغة) : الناس ثلاثة : عالم ، ومتعلم ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . المال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق .!

العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الخير فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته .

النّابغة الشّيبانى : مسلم لا نصرانى

للأستاذ محمد رجب البيومى

لا أدرى لماذا خمل ذكر النابغة الشيبانى ونبه سواه : مع أن شعره يشير إلى موهبة عالية ، وقريحة صافية ، وطبع أصيل ، فقد كان الرجل فذا بين الشعراء فى اتجاهه الأدبى والاجتماعى معا ، فقد نشأ فى عصر النقائض والمهاجاة حيث دارت رحى العراك واللجاج فلم يشأ أن يخوض معركة تعود على سمعته الطيبة بالظنة والإرجاف ، وما كان ذلك عن عجز فى القول ، أو قصور فى الإفصاح ، فقصائده المثوية فى مختلف الأغراض الشعرية تشهد بمهارة حصيفة ، وقدرة ممتازة ، ولعل نكوله عن هذا الميدان الصاخب قد ساعد على ركود شعره ، وقلة رواته ، حتى جاءت دار الكتب المصرية منذ ربع قرن فقدمت ديوانه الشعرى للقراء ، فعرفوا مكانته ، وأنزلوه بين معاصريه أطيب منزل وأرضاه ، واستطاع أساتذة النقد أن يزنوا الرجل بميزان منصف أمين ، والحق أن المتبع لقصائده الرائعة يرى فيه مثالا كريما لحكيم الجاهلية زهير بن أبى سلمى ، فقد أولع الحكمة الفطرية التى تنضجها التجربة وتصوغها التؤدة والاعتبار ، كما رزق خبرة دقيقة - تكاد تكون عجيبة من مثله - بطوايا النفوس ، وخبايا الصدور ، فهو يعلم لحن القول من كل كاشح ، ويقرأ ما وراء البسمات من شجون وأحزان ، ويستشف الكذب المقنع خلف الصدق المصطنع ، والسذاجة المزعومة ، وهو فوق ذلك ناقد أدبى يفصل محاسن الشعر فى قصائده فيتحدث عن مزايا الشعر الجيد وتأثيره ويشن الحملة على الشتامين والهجائين من النظامين ، ويوازن بين الحرون الذى لا يمضى فى حومة ، أو يكر فى ميدان ، وبين السابق المجلى تحت العجاج ، كما يستطيع أن يطيل ويطيل فى غير إسفاف حتى لتتجاوز القصيدة الواحدة مائة بيت ! ! وشاعر هذه بعض سماته لا بد أن يجد من يقدره قدره الرفيع ! ! ولكن الحظ العاثر قد رماه بكوارث دامية ، فمع ما ناله من الخمول فى الأجيال السالفة قبل طبع الديوان ، نجد أن أكثر شعره ينسب زورا وبهتانا إلى غيره ، ويزيد القدر فى مداعبته فيوجه النسبة إلى أناس لا يعقل أن تصدر عنهم هذه الأبيات ، لبعدها عما

اشتهر عنهم من صفات ! فأنت مثلا تجد رواة الأدب ينسبون إلى الحطيئة قول النابغة الشيبانى :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا
وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد منه سوف يأتى
ولكن الذى يمضى بعيد

فإذا قلت لبعض هؤلاء : إن روحا خبيثا كروح الحطيئة الشره الشحيح لا يمكن أن يرشح بهذا النمير المستطاب ، وجدت من يتكلف الرد فيفرق بين القول والعمل تارة . ويتمحل التعليل النفسى تارة أخرى . فيزعم أن النفس البشرية فى ساعة ندمها المفرط تطمح إلى سلوك مضاد ، ينأى بها عما ارتطمت فيه ، ولذلك جاء الزهد من أبى نواس الخليع !! ونحن بهذه المناسبة نقول لهؤلاء : خففوا من الفروض العقلية والتأويلات النفسية بعض الشىء !! فبين الفرض العقلى والواقع العملى آماد ، وآماد !! .

وأعنف كارثة نزلت بالرجل فوق ما تقدم هى بدون شك نسبته إلى غير دينه فقد تضافر كثير من الكتاب على عده نصرانيا لا مسلما ، وأول من أرجف بهذا الحدث الهائل أبو الفرج الأصبهانى فى أغانيه ، وآخر هؤلاء هو الأب لويس شنجو اليسوعى صاحب شعراء النصرانية ! ومع اعترافنا بأن نصرانية الشاعر أو إسلامه لا يغيران شيئا من مكانته الأدبية ، فإننا نجد من الإنصاف للرجل أن نضعه فى مكانه الصحيح ، فلا يعرف عنه غير الواقع الأكيد !!

وأبادر فأقول : إن اكتشافى هذا الخطأ كان مصادفة محضة ، فقد قرأت قديما قول أبى الفرج فى ترجمته للنابغة بالأغانى - وقد نقلت فى مقدمة الديوان - « وكان فيما أرى نصرانيا ، لأنى وجدته فى شعره يحلف بالإنجيل والرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى » اهـ ثم بدا لى بعد عشر سنوات أن أقرأ ترجمة النابغة فى الجزء الثالث من مهذب الأغانى فوجدت أستاذنا الخضرى - رحمه الله - يقول تعقيباً على قول أبى الفرج المتقدم ؛ وقد وضعه فى الأصل بين قوسين : « يقول محمد الخضرى : قرأت على ديوانه بخط أستاذنا الشنقيطى - رحمه الله - هذا ديوان النابغة الشيبانى عبد الله بن المخارق بن سليم رحمه الله تعالى ورضى عنه » اهـ . . . فقلت فى نفسى كأن الشيخ الخضرى يتشكك فى نصرانية الشاعر مستندا إلى عبارة العلامة الشنقيطى إذ خص النابغة بالرحمة والرضوان !! فلا بد إذن من فحص هذه المسألة لنحسم الشك باليقين.

ولم أشأ أن أتعقب مؤرخى الأدب من

ترجموا للنابغة فذلك عناء مديد يزيد الشك ولا يحسمه ! ! فقصدت إلى الديوان أقرؤه قراءة التأمل الفاحص ، لأجد ما قد يزيل الظنة من شعره الصريح ، وكانت دهشتى عجيبة حين وجدت نصوصا متعددة تنطق بإسلامه نطقا لا يحتمل أدنى خلاف أو تشكك . فعجبت جدا لمن قام فى دار الكتب بشرح الديوان وتفسيره ! كيف ترك عبارة أبى الفرج فى المقدمة المنقولة دون تعقيب ! مع أنه شرح من أبيات الشاعر ما يقلبها رأسا على عقب !! ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد نسيم ـ رحمه الله ـ مع دقته الممتازة فى الشرح وجهوده المضنية فى الإيضاح ، قد كلف بذلك فقط دون كتابة دراسة تاريخية محققة ! ! فلم يعمد إلى أبى الفرج بشىء ! ! ولكن السكوت عن الباطل منزلة نكراء .

لقد وجدت الشاعر مثلا يقول فى ص ١٧ :

وتعجبنى اللذات ثم يعوجنى
ويسترنى عنها من الله ساتر
ويزجرنى الإسلام والشيب والتقى
وفى الشيب والإسلام للمرء زاجر
ألا أيها الإنسان هل أنت عامل
فإنك بعد الموت لا شك ناشر
ألم تر أن الخير والشر فتنة
ذخائر مجزى بهن ذخائر

فقلت هذا اعتراف صريح بالإسلام ، ثم يليه تضمين بليغ لبعض آيات القرآن ، فهو دليل أول بلا جدال .

ثم وجدت الشاعر يهنئ الوليد بن عبد الملك بفتح مدينة « طرندة » وتضييق كنيستها ، وبناء مسجد بها ، إذ يقول ص ٥٢ :

أخزى طرندة منه وابل برد
وعسكر لم تقده العزل الجوف
حتى علوا سورها من كل ناحية
وحان من كان فيها فهو ملهوف
تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية
والله يعلم ما تخفى الشراسيف
قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا
فصخرها عن حديد الأرض منسوف
كانت إذا قام أهل الدين وابتهلوا
باتت تجاوبنا فيها الأساقيف
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة
وصادق من كتاب الله معروف
فيه المثانى وآيات مفصلة
فيهن من ربنا وعد وتخويف

فقلت : إن الشاعر الذى يهنئ بتضييق الكنيسة ، ثم يقول : تدعو النصارى لنا ، ويتبع ذلك بقوله عن جوف مسجدنا ، ثم يصف صلاة المسلمين بصلاة الحق ، ويشيد بالمثانى والآيات القرآنية . إن شاعراً يقول : ذلك لهو مسلم لا مراء فهذا دليل ثان .

ثم وجدت الشاعر يقول ص ٢٢ :

ولولا الله ليس له شريك
إله الناس ذو ملك وعرش
لبـا كرنى من الخرطوم كأس
تكاد ستور نفحتها تنشى

فقلت : لو كان الشاعر نصرانياً كالأخطل مثلا ما حرم على نفسه الخمر وقد أباحتها النصرانية فهذا دليل ثالث .

ثم وجدت الشاعر يقول فى مدح الخليفة الأموى ص ٢٨ :

دانت له عرب الآفاق خشيته
والروم دانت له جمعاء والفرس
هم الذين سمعت الله أوعدهم
المشركون ومن لم يهوكم نجس

فقلت فى نفسى : إن الروم نصارى ، والشاعر النصرانى لا يرضى أن يجعلهم نجسا كالمشركين !! فالشاعر مسلم إذن ، كما أنه يستدل بنص صريح من القرآن لا يعتقده غير مسلم صريح فهذا دليل رابع .

وفوق ما تقدم من الأبيات فقد قرأت للرجل حكما قرآنية نظمت فى ثنايا شعره ، مما يشير إلى ثقافة إسلامية عريقة لا تتاح لغير متعمق دارس فضلا عن شاعر حالم ، ولولا أن المقام لا يسمح بالاستشهاد لضربت الأمثال . . .

بقى أن نناقش دليل أبى الفرج على نصرانية النابغة فقد زعم أنه فيما يرى نصرانى لأنه يحلف بالرهبان والإنجيل ، والأيمان التى يحلف بها النصارى !! وهذا الحلف وحده لا يخرج الشاعر عن إسلامه ، لأن النصارى أهل كتاب يؤمنون بالله ، وفيهم من ترهب خشية وتقوى ، فإذا حلف بما يحلفون به شاعر مسلم يؤمن بالله كما يؤمنون فلا يخرجه حلفه هذا عن الإسلام !! ونحن فى هذا العصر نرى شوقيا المسلم يكثر من مديح عيسى ، ومطران المسيحى يحيى مولد محمد وهجرته فهل سيجىء بعد عشرات السنين أبو فرج آخر فيزعم أن شوقيا مسيحى ومطران مسلم !! لو كان ذلك لا حتاج الأمر إلى تصحيح !! وأظن أن النابغة قد اتجه هذا الاتجاه بتأثير عدى بن زيد ، فقد قرأ شعره وعارض بعض قصائده ، فأثر فى كلامه تأثيراً ظهر فى بعض الصور والمعانى والقوافى . . . والحلف أيضا . . !! وذلك مما يجوز .

هذا ويجب أن أشير إلى حادثة رواها أبو الفرج ، وقد تكون دليلا على ترجيح نصرانيته فى رأيه !! فقد حدث أن النابغة دخل على عبد الملك بن مروان فمدحه بقصيدة صرح فيها بتفضيل نجله الوليد فى ولاية العهد على شقيقه عبد العزيز بن مروان ، فلما علم بذلك عبدالعزيز غضب غضباً شديداً ، وقال : « لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقا فأوردها مورداً خطراً ، والله لئن ظفرت به لأخضبن قدمه بدمه » .

ونحن نقول إن قول عبد العزيز : « لقد أدخل ابن النصرانية » لا يؤخذ منه أن الرجل نصرانى ، لأنه فى هذه القصيدة قد حلف براهب يظل يقرأ الإنجيل ! ! مع أن المحلوف عليه هو تفضيل الوليد على عبد العزيز فى البيعة ، فكان طبيعياً أن يتضايق عبد العزيز من القسم والمقسم به معا ، ثم يتهكم بما يريد .

على أننا نجيز — من باب الفرض الجدلى فقط — أن تكون أم الشاعر نصرانية ، عربية أو أعجمية ، حرة أو مولاة ، فلن يضير ذلك إسلام النابغة فى شىء ، فقد كانت أم الأمير خالد بن عبد الله القسرى حاكم العراق والمدينة فى العصر الأموى نصرانية صليبية ، وقد بنى لها كنيسة خاصة بها ، ولم يقل أحد : إن نجلها خالدا نصرانى تبعاً لأمه . . . وإنى لأحفظ بعض أبيات يقولها شاعر فى أم خالد : ومنها :

يقولون نصرانية أم خالد
فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد
فقد صورت فى صورة لا تشينها
أحبك أن قالوا بعينك زرقة
كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ولعل من سماحة الإسلام أن تبنى كنيسة شاهقة فى مدينة عامرة ، لامرأة واحدة ! ! دون اعتراض ، ولكننا لا نجد من السماحة لدى أبى الفرج ومن لف لفه أن يستنبطوا أوهاماً خاطئة تنتقل بالشاعر من دين إلى دين دون دراسة فاحصة أو نظر بصير .

محمد رجب البيومى
(المدرس بالمنصورة الثانوية)

السجن الشريف

[مهداة لأحرار العراق]

قالوا : حبست . فقلت : ليس بضائرى — حبس وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله — كبرا ، وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه السِّرار فتنجلى — أيامه وكأنه متجدد
والحبس ما لم تغشه لدنية — شنعاء ، نعم المنزل المتودد
بيت يجدد للكريم كرامة — ويزار فيه ، ولا يزور ، ويحمد

هل تعلم شيئاً عنا ؟

للأستاذ محمد بن سالم البيحانى
رئيس الجمعية الإسلامية للتربية والتعليم بعدن

يزور القاهرة فى هذه الأيام الأستاذ الشيخ محمد سالم البيحانى مؤسس المعهد العلمى بعدن ، وهو رجل مثقف الفكر واللسان ، مخلص القلب للإسلام والعروبة . جاء يظهر بنى قومه فى الجمهورية العربية المتحدة ، على ما يكابد إخوتهم فى عدن من سوء الحال وطغيان الاحتلال ، عسى أن يمدوه بالعون المادى والأدبى ليستطيع أن يجعل للدين واللغة مكانا فى بلد كاد المستعمر يسلخه من قوميته ويفتنه عن دينه ، وهو خليق بأن يسمع له (المؤتمر الإسلامى) وأن يعينه على أداء رسالته .

« المحـــرر »

يا سيدى القارئ الكريم : نحن إخوانك فى العروبة والإسلام ، إخوانك فى الدم واللغة والعادة والتقاليد ، نحن فى جنوب الجزيرة العربية ، فى عدن المحتلة التى دخلها الاستعمار الانجليزى فى سنة ١٨٣٩ ، واتخذها قاعدة حربية ، ومركزاً تموين البواخر الآتية من الهند والذاهبة إليها ، وذلك قبل أن تكون قناة السويس ، وكان يرى فيها المركز الحربى والسوق التجارية لملتقى طرفى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ويستمد منها لغزو اليمن ، ويفكر أن يجعل منها الهند الثانية ، وحالت الأقدار بين الانجليز وبين ما يشتهون ، وبقى الاحتلال قاصراً على منطقة لا تزيد على ثمانية عشر ميلا ، ولكنهم أخذوا يعقدون الصداقة والأحلاف مع جماعة من رؤساء القبائل وأمراء الجنوب ، ويدفعون لهم مرتبات شهرية يزعمون أنها لحفظ الطرقات ، ولصد غارات البدو المجاورين لعدن ، وأكثر أولئك المتعاقدين مع المستعمر كانوا فقراء جهالا ، لا يدرون ولا يعرفون ماذا يراد بهم ، يملئون بطونهم بتلك المنح المالية ، ويأخذون السلاح ليقتل بعضهم بعضا ، ولكى يتغلب تضعيف المستسلم على القوى المتمنع .

وكان معظم أصدقاء الانجليز غير محببين إلى شعوبهم ، وليست لهم شوكة قوية ، ولا يعبأ بهم رؤساء العشائر المعترف لهم بالرياسة والإمارة . وأنا لا أتحدث فى الناحية السياسية بأكثر من هذا ، فالتاريخ كفيل بكل شىء ،

والأحداث كل يوم تملأ العيون والآذان ، والمختصون لايحتاجون إلى زيادة بيان ، والعامة لا يهتمون بهذا الشأن ، ولكنه على فرض لازم أن أذكر القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، ما نحن عليه من سوء الحال فى اليمن المحتلة : من الجهل والفقر والمرض ، والظلم واختلال الأمن ، ومزاحمة الجاليات الأجنبية فى جميع مرافق الحياة ، ووسائل العيش ، فهم الذين يديرون الحركة الاقتصادية ، ويتقلدون المناصب العالية ، وتوظفهم الجهات المختصة فى دوائر الحكومة ، ومكاتب الشركات التجارية .

ولمواليد عدن ولرعية المملكة المتحدة من أبناء « الكومنولث » حق التصويت والانتخاب ، وترشيح أنفسهم لعضوية المجالس البلدية والتشريعية ، وليس لليمنى شىء من ذلك ، لأنه أجنبى فى نظر المستعمر ، والفارسى ، والهندى الوثنى ، واليهودى الصهيونى أحق بالخيرات ومصالح البلاد من أبنائها الشرعيين المرتبطين بالحكومة المتوكلية باليمن ، يا لله ! ، وفى المدارس لاحق لهم ، ولا توجد لهم مقاعد إلا ما فضل وبقى بعد أبناء « الكومنولث » .

ثم لأحدثك ياسيدى عن السكان وأحوالهم العامة فهناك نحو ثلاثمائة ألف فى مدينة عدن والمدن التابعة لها : المعلا ، التواهى ، الشيخ عثمان ، والبريقة . ودينهم الإسلام ، ولغتهم العربية . والأجانب لايزيدون عن ثلاثين ألفا . والمساجد فى هذه المدن ما بين ستين وسبعين ، وتقام الجمعة فى المساجد الكبيرة ، ويؤم الناس فيها جماعة من علماء حضرموت واليمن ، أما المدارس الأهلية والحكومية للبنين والبنات فأظنها خمساً وعشرين ، وهى : ابتدائية وثانوية متوسطة ، وعند نهاية التعليم فيها يقف معظم الطلاب ويخرجون لطلب العيش ، وتوضع الأشواك فى طريق الوصول إلى الأقسام العالية ولا شىء منها إلا كلية عدن ولا يزيد طلابها فى جميع أقسامها على أربعمائة وخمسين شخصا ، مع ملاحظة أن عدد التلاميذ فى جميع المدارس يقاربون تسعة عشر ألفاً .

والمعهد العلمى الإسلامى الذى فتح أبوابه فى آخر سبتمبر سنة ١٩٥٧ يتسع بحمد الله لألف وخمسمائة طالب ، وفيه الآن نحو خمسمائة ، وفى السنة الدراسية القادمة سيكونون أكثر من سبعمائة ، وقد اجتمع لبناية المعهد وتأثيثه وشراء عمارتين موقوفتين عليه من تبرعات المحسنين مائة وخمسة وعشرون ألف جنيه استرلينى ، وذلك من أهالى عدن ، وإمام اليمن ، والمملكة العربية السعودية ، والكويت ، والبحرين ، وقطر ، والحبشة ، وأريتريا والصومال الفرنسى ، وهو يحتاج إلى المعلمين

والأساتذة الأكفاء من حملة الشهادات للتدريس فيه باللغتين العربية والانجليزية ، وإلى معلمين متخرجين من المعاهد الدينية .

والحكومة الانجليزية لا تسمح بدخول واحد من أبناء الجمهورية العربية المتحدة ، لأنها تخاف منهم وتحسب أنهم يأتون غزاة فاتحين ، وفي هذه الجولة التي أقوم بها في الأقطار العربية أرجو مساعدة المؤتمر الإسلامي والوزارات المختلفة للتربية والتعليم ، والأوقاف حتى يتم هذا المشروع ويؤدي رسالته العلمية في جميع مراحل التعليم ، وذلك بالمال والكتب والأدوات المدرسية وتدبير المعلمين اللازمين .

ولا بد قريباً من تحسن العلاقات بين الانجليز والجمهورية العربية المتحدة فتأتي البعوث لمعرفة الأوضاع ولدارسة الأحوال عندنا ، وعلى رجال الأزهر الشريف وعلمائه الأفاضل أن يولوا قضيتنا مزيد اهتمامهم ، فما نحن بأضعف حق ولا بأتعس حظ من البلاد الأخرى ، حيث يصل إليها الأزهريون ويقومون فيها بواجب العلم والعلماء .

وعودة إلى الموضوع أقول : إنها توجد في عدن خمسة مستشفيات وليس لها طبيب عربي واحد إلا الممرضون ، وإلا شاب تخرج في لندن منذ أربعة أشهر .

والمحامون والمهندسون والصناعيون والفنيون لا يوجد منهم إلا الأجانب من الطليان والمنادكة ، والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه ، ولا شك أن الناس قد استيقظوا من نومهم ودبت فيهم الحياة ، وأخذوا يفكرون في الأمر ويرون أنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالعلم وقوة الربط بينهم وبين إخوانهم العرب في كل مكان .

وهم الآن بمثابة الفريق المستنجد أو الهالك المستغيث يمدون أيديهم ويقولون . كما قال يونس عليه السلام : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » .

محمد بن سالم البيحاني

إمام وخطيب جامع العسقلاني ومؤسس المعهد العلمي الإسلامي بعدن ـ بلاد العرب

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتاب الإسلام والعرب « Islam and The Arabs » ، تأليف الأستاذ روم لاندو Rom Landau واحد من هذه الكتب التى تصدر فى اللغات الأوربية بالعشرات عن الإسلام والعرب منذ الحرب العالمية الثانية ، ويسلك مؤلفوها فى الوصف والتعليق مسلكا يخالف المسلك الذى درج عليه سماسرة التبشير والمطامع السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ولن تزال له بقية تتردد من خير إلى خير فى بعض الكتب « الرسمية » والشبيهة بالرسمية .

فكتب التبشير والسياسة وغيرها تتعمد التشهير والبحث عن المساوئ فى روايتها عن أحوال الأمم الإسلامية والعربية ، وقراؤها يتطلبون منها هذا التشهير ويستريحون إليه على سنة التقليد التى توارثوها من القرون الوسطى .

وعلى غير هذا النمط يكتب الرحالون والمعلقون من المحدثين الذين نلمح فى مصنفاتهم نزوعا إلى الإنصاف وإعراضا عن التلفيق ، فإنهم يحاسبون أنفسهم ويشعرون بمحاسبة قرائهم الذين نشئوا بعد الحرب العالمية متشككين فى كل تقليد قديم ، ومنه تقليد الطعن فى الأمم الأخرى ، وبخاصة أبناء الأمم الشرقية والغرباء عن أوربة على التعميم .

ويعزى هذا التحول إلى أسباب منوعة كما ذكرنا فى مقال سابق : منها نشوء تلك الطبقة الحديثة من القراء المتحررين من سلطان زعمائهم الأقدمين ، والمتشككين فى كل عرف موروث يمليه أولئك الزعماء .

ومن أسباب التحول غلبة الأسلوب العلمى وما يلازمه من مناهج التقرير والتحقيق فى عقول الكتاب والقراء على السواء . فإن هذه المناهج بطبيعتها تفضح من يصطنعها ولا يتحرى الأمانة فى اتباعها ، وقد يحرص الناشرون كما يحرص الكتاب على سمعة

بضاعتهم بين جمهرة القراء العصريين ، وهم يطلبون غير ما يطلبه قراء التبشير وسماسرة الاستعمار .

ومن أهم أسباب التحول سهولة الانتقال بين الأقطار والاختلاط بين الأمم ، وصعوبة الإصرار على الأكاذيب فى عالم تتردد عليه أخبار الإذاعة والصحافة من كل طرف وعلى كل صبغة ، ويوجد فيه المروجون والمفندون لكل دعوة يتنازعها الأضداد المخلصون وغير المخلصين ، ومثل هذا العالم يفرض على رواته ومؤرخيه أسلوبا لم يكن بالمفروض على الرواة والمؤرخين فى العصور الغابرة ، إذ كان الراوية يلق الخبر وتمضى عليه الشهور والأعوام قبل أن يتبعه من يؤيده أو ينفيه ، وربما قيل يومئذ عند تكذيب الخبر أن الأمور خليقة أن تتبدل فى مدى الشهور والأعوام فلا يشهد المؤرخ فى هذه السنة ما كان يشهده سابقوه قبل بضع سنوات .

وأهم أسباب التحول فى أسلوب الرواة والمعلقين على أبناء الشرق والإسلام أن الأمم الشرقية والإسلامية قد أصبحت فى عداد القوى العالمية التى يحسب لها حسابها ويتحرج المسئولون وأصحاب الآراء من إغضابها والإساءة إليها . وقد يكون الإنصاف تمحيصا علميا ومصلحة سياسية فى وقت واحد ، فلا يعدم من الناشرين والقراء من يقبلون عليه ، ولا يعدم من الساسة وذوى الآراء من يشجعونه ويميلون إليه .

إلا أن هذا التحول يوشك أن يخدعنا عن الحقيقة كلها إن لم نعرف دلالته بغير مبالغة فى قيمته وأثره .

فليس قراء الغرب جميعا منصفين ، وليس كل المنصفين منهم مشغولين بأمور الشرق والإسلام ، وقد يكون فى عالم النشر والتأليف عندهم من يغضبهم إنصاف المسلمين والعرب على التخصيص دون أبناء الأمم الشرقية الأخرى ، الذين يدينون بغير الإسلام ويتكلمون بغير العربية ، وقد يعمد هؤلاء المغرضون إلى الإنكار الصامت إذا أنسوا بين القراء نفوراً من الإنكار الصريح والافتراء المكشوف .

وينبغى أن نذكر جيداً أن الصهيونية بالمرصاد ، وأنها فى ميادين النشر والإعلان أخطبوط لا تسلم من أيديه الظاهرة والخفية شعبة من شعب الثقافة ، أو الدعوة فى القارات الأوربية والآسيوية والإفريقية ، ولا نخال أن هذا العدو اللئيم يرى خبراً واحداً مرضيا عن العرب والإسلام ثم يتركه للنشر والإذاعة إذا تمكن من طمسه وإخفاء معالمه ، وهذا هو الإنكار الصامت الذى نعنيه ونحسبه ميسراً للصهيونية العالمية وأذنابها فى دور النشر والإعلان ، إذ هو ولا ريب أيسر عليها

من الحملة الصريحة التى لا تتيسر فى جميع الأوقات حيث تقضى السياسة أحيانا بمجاملة العرب وأصدقائهم فى المعاملات الدولية .

وبين أيدينا مراجع شتى نلمس فيها أصابع هذا العدو اللئيم بينة واضحة تنم على أصحابها ، ولا يعقل أن تحدث عفوا ! ولا أن تنسب إلى مصدر غير المصادر الصهيونية .

فمن المراجع التى ظهرت حديثاً موسوعة شاملة لأصول الأدب والبلاغة فى اللغة الفرنسية ، تتوسع فى الكلام عن حركات الثقافة ومدارس الشعر بين القرن الخامس للميلاد ومنتصف هذا القرن العشرين ، ولكنها تقتضب القول فجأة كلما انتهى بها البحث إلى فضل الأدب الأندلسى على مدارس الشعر والغناء فى أقاليم فرنسا الجنوبية ، فتسكت عن كل إشارة إلى هذا الفضل ولو من قبيل الإلمام بمختلف الأقاويل، وتذكر كل أثر مظنون أو مفهوم إلا ما كان فيه اعتراف بوجود العرب الأندلسيين ، أو المشابهة بين منظوماتهم وأغانيهم وبين منظومات الفرنسيين الجنوبيين ، وقد اتفقت الآراء مع هذا على تأثير الأدب العربى فى الأوزان والموضوعات ، بل فى الأزياء والشارات التى شاعت بين طائفة « التروبادور » المشهورين ، ولم تكن لهم شهرة قبل ظهور الآداب الأندلسية ، وشيوع طرائقها فى الغزل والتشبيب .

ويشعر القارئ بمثل هذا الاقتضاب ، كلما وصل البحث إلى أثر الفلسفة أو الفقه أو مقتبسات الحضارة وفنونها ، مع إقحام أسماء اليهود لغير مناسبة هنا وهناك كما تقحم الرقعة المستعارة ، وربما كان منهم تلاميذ معترفون بتلمذتهم لأساتذتهم الأندلسيين المسلمين .

وإذا احتاجت هذه العداوة المدسوسة وأمثالها من العداوات الصامتة إلى كشف وتنبيه فلا حاجة بالحملات الصريحة إلى من يكشفها وينبه إليها ، وكل ما يصح أن يقال عنها فى هذا الصدد : إنها اليوم أقل وأهون من نظائرها قبل الجيل الحاضر ، وإنها عرضة للاتهام والريبة بين خيرة القراء .

* * *

ولا يخفى أن معرفتنا بالعالم لا تغنينا عن معرفة العالم بنا ، وأننا كلما أحسسنا بأعبائنا فى مشتبك العلاقات العالمية وجب علينا أن نتثبت من مكاننا بين الأمم على أساس الفهم والإنصاف ، وبخاصة فى تلك المسائل التى يرتبط بها كيان الأمة كمسائل العقيدة والثقافة ، ومسائل التراث السلفى والغاية التى تنساق إليها على هدايته فى سعينا إلى المصير المنظور .

فإذا نظرنا إلى كتابات الأقوام الغربية عنا فقصارى ما نفهمه من نزعة الإنصاف

عند بعضهم أن هنالك استعدادا لقبول صورة صحيحة عن الإسلام تؤديها نحن ولا يملك أحد غيرنا أن يحسن أداءها ، وأننا لا نزال مطالبين بالعمل الحثيث لندفع مكائد الصامتين والناطقين من أعدائنا ، وقد صنعوا كثيراً ولم نكد نحن نصنع شيئا يحبط مكائدهم ، كأنما نلقى العبء كله على أولئك الكتاب الغرباء الذين نزعوا منزع الإنصاف .

* * *

ونعود إلى الكتاب موضوع هذا المقال ، فنوفيه كل حقه من التقريظ من وجهة النظر الإسلامية إذ نقول : إنه على مثال الكتب التى يؤلفها الغرباء عن الإسلام وتنوب عن كتابة أهله فى إبراز محاسنه وتصفية تاريخه من شوائب المسخ والتشويه ، لوجاز للسلمين أن يقتنعوا بالإنابة دون الأصالة فى هذا المقصد على التخصيص ، وهو مما لا يجوز ولا ترتضيه لنفسها أمة تأنف أن تكون عالة على الغرباء فى أمر من الأمور ، وتدع منها أمر الدفاع عن العقيدة والتاريخ .

فالأستاذ « روم لاندو » مثل صالح للمستشرقين الذين يقيمون فى البلاد الإسلامية ويذكرون لها عهد الوفاء بحقوق الصحبة والضيافة ، وهو فى هذه الخصلة على نقيض أولئك الطراق المسخرين للاستعمار والتبشير الذين يزورون بلادنا ويعيشون فيها وكأنهم يطيلون الإقامة فيها ليبحثوا عن شىء واحد : وهو أسباب التشهير والانتقاص وخفايا العيوب والمثالب ، يبالغون فيما يجدونه منها ويختلقون ما لم يجدوه ، ومهما تكن من حسنة لهذه البلاد فهى مستترة عنهم أو هم يسترونها بأيديهم ، ولا يذكرونها - إن ذكروها - إلا ليجعلوها سبيلا للذمه وحجة مموهة ، لدعوى الإنصاف والاستقلال .

والأستاذ « لاندو » جوالة رحالة يطوف حول جوانب الأرض ويجعل الله قبلة له فى مطافه ، كما قال فى كتابه الذى أودعه خلاصة رحلاته وزياراته وسماه « الله وجهة مطافى » God is my Adventure ولم يدع فيه معتقدا من معتقدات الأمم يوصل إلى الله إلا اتبعه ومضى معه ليبلغ به غاية مداه .

وهذا الكتاب عن الإسلام والعرب ثمرة السنوات التى قضاها زائرا أو مقيما فى البلاد الإفريقية الإسلامية وأخصها بلاد المغرب الأقصى حيث أطال المقام وكافأه ملكها بوسام العلويين تنويها بموقفه من التاريخ الإسلامى والقضايا الإسلامية ، وأوجز ما يقال عن هذا الموقف : إنه شمل الماضى والحاضر فى عرض القضايا والمشكلات ، وإنه يعرض منها وجهة النظر الإسلامية على أوفاها فإن لم تكن وجهة نظره بتفصيلاتها

فهو يبدى تلك التفصيلات ولا يخفى شيئا منها .

ولقد ألم فى هذا الكتاب بعجالة حسنة عن نشأة الإسلام وسيرة النبى وبلاغة القرآن ووسائل نشر الإسلام ومشكلات العالم الإسلامى السياسية والفكرية ، ومنها مشكلة الفلسفة اليونانية والفرق الدينية وحروب الدول ، ثم حروب الصليبيين وغزوات الاستعمار والصهيونية ، وقد ندل على منهج الكتاب بنقل طائفة من آرائه نكتفى بترجمتها عن التعليق عليها ؛ لأنها تكاد أن تكون تردادا لآراء المسلمين فى مناقشة خصوم الإسلام وقل فيها ما يلجىء القارىء المسلم إلى تصحيح أو استدراك .

* * *

قال عن إخلاص النبى عليه السلام فى دعوته : « كان محمد مفطوراً على التدين مستعداً بطبيعته لرسالة الإصلاح التى تلقاها فى رؤاه ومشاهداته الخفية ، وكان مع هذه الفطرة الروحانية رجلا عمليا يفطن ببديهته لما انطوى عليه المزاج العربى من قوة وضعف ، ويدرك أن الأناة واجبة فى تلقينهم آداب الإصلاح سواء منهم أهل المدر والوبر من الحاضرة والبادية ، وقد تأصل فى روعه إيمان بالتوحيد لا يتقبل الهوادة ولا المصانعة ، وعزيمة صادقة على استئصال كل أثر للوثنية التى فشت فى الأمة العربية ، وقد كانت رسالة محمد مهمة هائلة جسيمة لا يقدم عليها إنسان يصدر فى أعماله عن بواعث المنفعة والأنانية ويرجو أن يحققها بمجهوداته أو بمساعيه الذاتية ، ولا شك البتة فى بطلان تلك الأكاذيب التى تزعم أن الآيات الموحاة إليه وليدة نوبات من الصرع كانت تنتابه بين آونة وأخرى . إذ ليس فى وسع المصاب بتلك النوبات أن يتلقى فيها نسقا من الكلام له ما للقرآن من العمق وانتظام التركيب . وإن الإخلاص الذى أدى به رسالته ، واليقين الراسخ فى نفوس أتباعه بصدقه ، والامتحان الذى اختبرت به رسالته مدى السنين والأجيال ، لهى من الدلائل على أن محمدا ـ عليه السلام ـ براء من شبهة الخداع والادعاء ، فما حدث قط أن خادعا مدعيا ـ ولو كان من أصحاب العبقرية ـ بقيت له رسالة بعد ذهابه ، وهذا هو الإسلام باق بعد ثلاثة عشر قرنا يجتذب إليه المؤمنين عاما بعد عام ، وقد خلا التاريخ من مثل واحد على دعوى من دعاوى الخداع أفلحت فى إقامة دولة شامخة وحضارة من أنبل الحضارات الإنسانية » .

* * *

وقال المؤلف يعلل للقراء الغربيين حيرتهم فى فهم بلاغة القرآن وسر ذلك السلطان

العجيب الذى يملك به قلوب المسلمين ، فكانت خلاصة تعليله : « أن الغربيين يجهلون مناسبات النزول ، وأن ترتيب الآيات على حسب مواقعها سبب من أسباب حيرة القارئ الغربى عند تلاوة القرآن . . . وأن السور المطولة تنزلت فى أخريات أيام النبى وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدبير الشئون العامة ، مما يتتبعه القارئ الغريب فلا ينشط لقراءته وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتاب فى قصار السور التى تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير » .

* * *

وقال عن الحروب الصليبية : « إن أوربة كانت بحاجة إلى منفس لما أصابها من الفقر والمرض ، وجاءتها الدفعة إلى الهجرة من المغرب إلى المشرق من قبل شعوب النورمان والفرنجة ، ويبدو أن الوحدة الأوربية إنما كانت حركة من حركات الاستعمار تمضى فيها البواعث الاقتصادية إلى جانب البواعث الدينية ، وإذا قيل : إن الحروب الصليبية كان لها أثرها فى ترويج التجارة بين المشرق والمغرب فالتجارة قد كانت خليقة أن تروج بغير هذه الوسيلة .

إن الصليبيين وجدوا فى الشرق حضارة مادية وثقافية أرفع جداً مما كانوا يعهدونه فى معيشتهم . وعادوا إلى بلادهم بثمرات شتى من الحضارة المادية كالسكر والحرير والعطور والأبازير والأصباغ ، كما أخذوا من الشرق تأسيس نظام العملة الذهبية ، ومعاملات المصارف ، واستفاد الغرب والشرق معا من تبادل الخطط فى المسائل الحربية .

على أن العرب لم يستفيدوا كثيراً من اتصالهم بالصليبيين ، وكل ما عرفوه من معاملتهم أنهم جشعون متعصبون متهوسون بجنون القتال والتدمير » .

* * *

وقال عن فضل المسلمين فى إحياء الفلسفة :

« إن قصة كشف المسلمين عن الفلسفة اليونانية ونقلها إلى الغرب لهى فصل من أجمل فصول التقدم الإنسانى من الجهالة إلى المعرفة ، وما كانت المخطوطات اليونانية بالشىء النادر فى أرجاء القارة الأوربية قبل ذلك ، ولكن تلك المخطوطات كانت ـ أو معظمها ـ مدفونة منسية يجللها الغبار فى الأديرة ، ويقول لنا روجر باكون : إن حفاظ تلك الودائع بلغ بهم الجهل وقلة الاكتراث ألا يلتفتوا إليها ولم تكن لها ترجمات لاتينية ، وقد امتازت القسطنطينية على رومة بوفرة هذه المخطوطات ومنها ـ ومن بلاد فارس ـ عرف العرب ما عرفوه عن الإغريق » .

* * *

وقال عن مسألة العرب واليهود : « إن العرب ـ وهم ساميون ـ قد عاشوا فى سلام مع اليهود الساميين عطفوا عليهم لما ابتلوا به من مظالم النازية ، ولكنهم لا يفهمون لماذا يقضى عليهم وهم شعب فقير أن يحملوا وحدهم أعباء الغيرة الإنسانية التى يصطنعها الغرب لرعاية اليهود » .

* * *

هذه أمثلة من نظرة الكاتب إلى العالم الإسلامى فى مسائل متعددة تبتدئ من تاريخه منذ صدر الإسلام إلى تاريخه الحاضر عند منتصف القرن العشرين ، ولسنا نوليها قيمة فوق قيمتها حين نقول : إنها دليل من أدلة الاستعداد لاستماع القوم عن الإسلام من مصادر غير مصادر التبشير والاستعمار ، وإن أحق المصادر أن يستمع إليه العالم شرقا وغربا لهو المصدر الإسلامى بكفالة أهله وذويه ، فليس من إنصاف المسلمين لأنفسهم أن يجيء إنصافهم كله عند القوم مجاملة من الغرباء .

عباس محمود العقاد

سل التاريخ . . . !

سل التاريخ عن رحمة العرب وعدلهم ، وروح التسامح التى كانت تسودهم . . . !

سله ينبئك أن العرب لم يستذلوا شعوب العالم إبان قوتهم وبأسهم ، ولكنهم نشروا رسالة المحبة والتعاون والإخاء ، وقضوا على التفرقة العنصرية ، والاستبداد الطبقى ، وحققوا الديمقراطية الصحيحة .

فالعرب ـ بحق ـ هم الذين ضربوا للعالم المثل فى كيفية سياسة الشعوب والأمم ، عن طريق المساواة ، وكفالة الحريات ، وسيادة العدل ، وتأكيد الطمأنينة والأمن ، وتحكيم الاشتراكية العادلة .

مختار من الشعر القديم والحديث

ذكرى تأميم القناة

نحن العرب!

للأستاذ ابراهيم محمد نجا
المتخرج فى كلية اللغة العربية

أيها السائل عنا ، إننا ... وحدة تجمع شمل العرب
كلنا فى حومة المجد يد ... تجعل النجم قريب المطلب
والذى يطمع أن يرهبنا ... سوف يمضى ، وهو عبد الرهب
كم تحدينا لجاءات الردى ... وثبتنا فى وجوه النوب
فى طريق المجد نمضى موكباً ... تخشع الدنيا لسير الموكب
نطأ النار لهيباً عاتياً ... لا تذود النار بأس اللهب
ونحيل الجدب روضاً مزهراً ... حين نمشى كالربيع المخصب
فملكنا الأرض من مشرقها ... وازدهت راياتنا فى المغرب
وجعلنا الدين نوراً لم يزل ... ساطعاً يمحو ظلام الريب
وجعلنا العلم نهراً صافيا ... سائغ المورد ، عذب المشرب
وجعلنا الحب زهراً ناضراً ... يشتهيه كل قلب مجدب
وجعلنا الحكم عدلا شاملاً ... وإخاء كإخاء النسب
عاش فيه كل شعب هانئاً ... عيشة الأبناء فى ظل الأب
هكذا كنا ، وهذا مجدنا ... قمة قد توجت بالشهب
سطر التاريخ من أيامه ... عجباً يأسر قلب العجب

ثم مرت ليلة مظلمة عصبت أنظارَنا بالحجب
وخضعنا للكَرَى عن غفلة وسعى الغدْرُ تخَفٍّ المأرب
فإذا الأغلال فى أعناقنا سمة العار على الحر الأبى
وإذا الفرقةُ تمشى بيننا رأس أفعى ، وذنابى عقرب
فاطمأنَّ الغدر إذ لاح له أننا عن جِدِّنا فى لعب
نحسب الباطل حقاً خالصاً حين يبدو فى إطار الكذب
ونرى الأغلال أبهى حلية حينما تطلى بماء الذهب
ثم جاء الصبح خفاق السنا مثلما تخفق رايات النبى
بعث القوة فى أرواحنا فسرت مسرى السنا فى الغيهب
فانتَفضْنَا مرة واحدة وهتفنا : يا لمجد العرب
ومضينا موكبا ، فى خطوه عزة النصر ، ومجد الغلب
نطرد الغاصب عن أرض الحمى كيف تعنو أرضنا للأجنبى ؟
هذه الليلة كانت عظة وعظتنا ببليغ الخطب
علمتنا أن فى وحدتنا قوة الجيش الكثيف اللَّجِب

* * *

يا رعاه الله يوما خالداً لم نُطَالِعْ مثله فى الحُقَبِ
يوم نادينا على سمع الدنى أيها التاريخ سجل واكتب :
نحن أممنا قناة شقها عزم أجداد كرامٍ نُجُبِ
بذلوا أرواحهم فى حفرها بعد ماجادوا لها بالنشب
أرعد الأحلاف لما راعهم منطق الحق القوى الأغلب
زعموا أنا اغتصبنا حقهم ليس بانى الدار بالمغتصب
وتنادوا وأعدوا جمعهم وبدا أسطولهم عن كثب
حسبوا أنا نَتَخَشَّى بأسهم كيف تخشى النارُ بأسَ الحطبِ ؟

فرأوا تصميمنا لا يَنْثَني — دون أن يحظى بنيل الأرَبِ
ورأونا أمة واحدة — وقفت فى يقظة المرتقب
تحمل الغصن لمن سالَمها — وتصافيه بقلب طيب
وتثيرُ الحرب فى وجه العِدى — وتوافيهم ببأس مغضب
هكذا نحن ، وهذا مجدنا — قمة قد توجت بالشهب
أيها السائل عنا ، إننا — وحدة تجمع شمل العرب

ابراهيم محمد نجا

وَحدة فى سَبيل الحَق

لشاعر عدن الأستاذ عبد المجيد محمد الأصنج

وحدة المخلصين فى الإنشاء — هزت النجم فى الربا والسماء
وحدة شد ذو الجلال عراها — بجليلين من بنى العرباء
وحدة قام صرحها شامخ الأركان — فيه دنيا السنى والسناء
وحدة كان نبعها من ضمير — العرب لا من وساوس الدخلاء
وحدة تخلق السلام سليما — طاهراً من جراثم الأدواء
وحدة ظلها المديد يضم — العرب شعباً موحد الأهواء
وحدة لا ضمان للعرب إلا — فى حماها ذى العزة الشماء
وحدة تطبع الزمان على — الإيمان بالمخلصين فى الزعماء
وحدة شأنها القضاء على البغى — على عصبة الوحوش الضراء

في حماها دنيا العروبة نشوى — مُحْمَيًّا الجهاد لا الصهباء
وحدت صف أمة الضاد من بعد — عناء ومحنة وبلاء
ولدت في دمشق في مصر غراء — كما شاء عصر غزو الفضاء
وحدة رن في السماء وفي الأرض — صداها في عزة وإباء
يلفت الدهر نحوها باسم الثغر — فخوراً في نشوة وولاء
فهي بالحق بغية الوحي والإلها — م والأنبياء والحكماء
وهي شمس منيرة تتعالى — عن مساس النواظر العمياء
عانق النيل في ضحاها أخاه — بردى صادق الوفا والإخاء
وحدة في جبينها كتب التا — ريخ — عدلا — براءة الرؤساء
تنشر الفضل والعدالة دستو — راً على دفتيه رسم الوفاء
فسلام من كل لب عليها — في سلام الخلود والعلياء
وسلام على الذين بنوها — عزة للأحفاد والأبناء
فهي أنشودة البواسل والأبطال — قد حرمت على الجبناء
وهي طود الحياد قام على — الإيجاب رغم العواصف الهوجاء
وحدة كبرياؤها في سبيل الحق — نصل في أكبد السفهاء
في يديها القويتين أضاءت — شعلة الحق منهج الأصفياء
فهي تتلى في النابهين كتاباً — نوره في صحائف الشهداء
وهي سيل من شاهق المجد يجرى — جريان الحياة في البسلاء
فهلموا نمجد الوحدة الكبرى — بآي الإخلاص للأولياء
وهلموا نسدد الصعدة السمراء — في قلب ناشر الفحشاء
وهلموا نجدد فيها جنوداً — بنفوس معدة للفداء

عبد المجيد محمد الأصنج

الكتب

كارثة فلسطين

للكولونيل عبد الله التل قائد معركة القدس

نقد وتعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان

هذا كتاب ضخم هو أشبه مايكون بالسجل، أودع الكولونيل عبد الله التل بين دفتيه الجزء الأكبر من مذكراته عن كارثة فلسطين.

والمؤلف من خيرة الشباب المؤمن الغيور على دينه ووطنه، وقد لعب خلال معركة فلسطين دوراً مهما خطيراً، وهو ضابط فى صفوف الجيوش العربية، ثم وهو قائد لمعركة القدس حيث أبلى بلاء حسناً للاحتفاظ بالشرف العربى، وبالمقدسات الإسلامية والمسيحية. ثم بعد ذلك وهو حاكم عام لمنطقة القدس، حيث شهدت هذه المنطقة حكما ديمقراطيا صحيحاً تمثلت فيه قيم العدالة والمساواة وحرية الرأى.

ولا يخيل إلى القارئ وهو يقرأ هذه الصفحات العديدة، أن المؤلف قد سجل مذكراته ليتحدث عن نفسه، شأنه شأن كل من لعب دوراً فى معارك سياسية كانت أم عسكرية، بل سيتأكد لديه. أنه هدف إلى إزاحة الستار، وإماطة اللثام عن جانب من الخيانة فى كارثة فلسطين، هذه الخيانة التى لم يشهد التاريخ منذ بدء الخليقة أخس ولا أدنأ منها، فالمؤلف فى مقدمة كتابه يقول:

«... وحين انتهت المعارك فى فلسطين عينت لوظيفة مدنية هى حاكم منطقة القدس، فأتيح لى - بحكم عملى السابق فى الجيش وعملى اللاحق فى الحكومة - أن أطلع على خفايا السياسة التى سيرت الحرب الفلسطينية. وكنت منذ ابتداء الحرب متمرداً على قائدى جلوب فى ظروف قاسية مريرة، يعرفها من له علم بأحوال شرق الأردن والجيش العربى فى ذلك الحين. وحين أمسكت بطرف الخيانة، أخذت أجمع الأدلة، وأسجل الجوانب السرية من تاريخ الكارثة...»

فأنت ترى أن الدافع إلى تسجيل المذكرات

هو فضح هـذه الخيانة ، وما أضاع فلسطين وسفك دماءها العصابات الصهيونية وما تدفق عليها من عتاد وسلاح ورجال ، وإنما الخيانة المتعمدة من بعض حكام العرب أنفسهم ، أولئك الذين أعمتهم المطامع فأسلوا جزءاً من أنفسهم لأعدى أعدائهم ، بل أعداء الإنسانية بأسرها .

لقد قسم المؤلف مذكراته إلى تسعة عشر فصلا . فبدأ بالأحداث العسكرية والسياسية التي وقعت بعـــد قرار التقسيم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وقبل نهاية الانتداب ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وكشف عن المؤامرات التي دبرها الانجليز ، وكان حكام الأردن مطاياها ، ثم عقد فصلا عن دخول الجيوش العربية فلسطين تحوطها الدسائس والمهازل ، ثم فصلا عن معركة القـدس والهزيمة التي حاقت باليهود فجرحت كبرياءهم ، ثم فصـلا عن الهدنة الأولى وكيف كانت عاملا مهماً في الـكارثة ، ثم فصـلا عن الحرب الثانية بعد الهدنة ، وكيف غدر بعض الجيوش العربية بالجيش المصرى ، ثم فصـلا واسعا عن الاتصالات السرية بين الملك عبد الله واليهود للتعاون معا في نسج خيوط المؤامرة على فلسطين ، ثم فصلا أخيراً عن التفـكير في التخلص من الملك عبد الله ، وهجرة المؤلف إلى مصر للإقامة بها .

وفي هذه الفصول وغـيرها رسم المؤلف صورة واضحة المعالم لـكارثة فلسطين ، وسرد قصتها سردا جعلها أشبه ما تـكون بالمسرحية، وأبرز أبطالها بطلان : أحدهما « جـلوب » ممثل الانجليز في الـكارثة ، و « الملك عبد الله » ممثل المطامع والتخاذل أمام الممثل الانجليزى « جلوب » ، والمؤلف سـلط معظم الأضواء على هـذين البطلين ، وبقية الأضواء سلطها على بطانة الملك ، التي دفعها حرصها على مناصبها إلى تنفيذ الرغبات الملكية بكل دقـة وإخلاص ، على رغم علمها أنها إنما تسهم في الخيانة وطعن الشرف العربي في الصميم ؛ لأن مناصبها كانت أعز لديها من العروبة والإسلام وفلسطين والشرف العربي نفسه ، هذه البطانة الهزيلة كانت تنفـــذ الرغبات الملـكية لأنها كانت تعلم ، أن الملك « المبجل » كان أمينا على تنفيـذ الرغبات الانجليزية ، متوهما أنه إنما يعمل من أجل مطامعه ، ولم يكن يدور بخلده أن الانجليز إذا تصدقت عليه بلقمة من فلسـطين فإنها ستمنح اليهود ألف لقمة منها .

واستوعبت المـذكرات جانبا من الخلق اليهودى ، وجانبا من الخلق العربي ، فالخلق العربي ، لا يتخلى عن قيم العـدل والشهامة والمروءة ، فحين يستسلم اليهود في القـدس القديمة، يؤخذ المحاربون منهم أسرى حرب،

حيث يلقون ما تقتضيه قوانين الحروب النظامية ، ويسلم الباقون دون أن يمسهم ذرة من الأذى ، وحين تقع معركة اللد والرملة، ومعركة دير ياسين،لا يستطيع القلم أن يصف ما لقيه العرب من صنوف الوحشية ، مذابح لا تفرق بين الأطفال والنساء والرجال ، وهمجية تتنزه عنها الوحوش الضارية .

والقارئ للمذكرات ربما سأل نفسه : أما وقد تكشف للكولونيل عبد الله التل خيوط المؤامرة على فلسطين ، وأحد طرفيها الانجليز ، والطرف الآخر الهاشميون فى الأردن والعراق ، فلم لم يقم بأى عمل إيجابى للقضاء عليها ، أو الانسحاب من مهمته ، ليتولى فضح المؤامرة فى المحيط العربى ، ولم قبل أن يشهد الاجتماعات السرية بين الملك عبد الله ، واليهود ، ويمهد لها بنفسه ويعين عليها ؟؟ .

ويجيب صاحب المذكرات : « وفى تلك الأيام العصيبة التى تكشفت لى فيها الخيانة ، لم أغدر بالملك أو بحكومته ، بل كان دأبى إبداء النصح والمعارضة الصريحة الشريفة وتبصيرهم بعواقب السياسة التى كانوا يسيرون عليها . . . » .

ولعل القارئ لا يقنعه مثل هذا القول ، فلو أن الكولونيل عبد الله التل ، انسحب معلنا فضح المؤامرة الدنيئة لاغتصاب فلسطين، ولو بعد انتصاره فى معركة القدس ، لتغير وجه التاريخ فى فلسطين ، ولكنه ظل فى خدمة حكومة الأردن إلى ما بعد انتهاء المعركة، وقد رأى بعينيه وشهد بنفسه تارة اجتماعات الملك عبد الله مع اليهود .

ويظهر أن القائد العربى كان يبيت أمرا لينتقم لفلسطين الشهيدة ، وقد ذكر فى نهاية مذكراته إشرافه على تدبير انقلاب عسكرى فى شرق الأردن ، ولكن الرياح أتت بما لم تشته السفن كما يقول الشاعر العربى .

وقد يلمس قارئ آخر أن المذكرات ــ وإن كانت قد جاءت تسجيلا لكارثة فلسطين إلا أن بها بعض الفجوات التى تتمثل فى أحداث تركت وهى أضخم من أن تترك ، ولن يغفر هذا القارئ لصاحب المذكرات أن كل ما فى الجعبة لم تسمح الظروف بإخراجه ، إذ أن الأمانة التاريخية تقتضى تسجيل التاريخ بدون فجوات ،وفى الظروف التى يتوفر فيه كل الإمكانيات لنشره كاملا .

والكولونيل عبد الله التل يعترف فى مذكراته أنه إنما عنى بالحوادث التى أحاطت بمنصبه كضابط فى الجيش الأردنى ، وكقائد للمعركة ، ثم كحاكم لمنطقة القدس ، وإن كان الواجب التاريخى كان يحتم عليه الإلمام بكل ظروف الكارثة حتى يأتى تصويره لها كاملا ،فالخيانة لم يقم بها الملك عبد الله وحده،

ولا الانجليز ممثلين فى « جلوب » وإنما أسهم فيها كثير من حكام العرب ، وبعض من الجيوش العربية وقيادتها .

والجيوش العربية لم تقم بالمعركة وحدها ، وإنما سبقها إلى فلسطين آلاف من الشباب العربى المؤمن متطوعا ، لا يبغى من الحرب إلا إحدى الحسنيين : الشهادة فى سبيل الله .. أو النصر .

وبعد :

فإن كارثة فلسطين تمس كل إحساساتنا ومشاعرنا نحن العرب والمسلمين ، وحين أهدى إلى الصديق الوفى كتابه « كارثة فلسطين » ورأيت لزاما على أن أقرأه قراءة تدبر وإمعان ، كنت أحسب لقراءته ألف حساب ، لقد كنت واثقا من أنى سأقضى أياما ثلاثة على الأقل فى خضم الكارثة ، أعيش معها بقلبى وبدون أعصابى ، وأشهد أنى لم أستطع قراءة فصلين معاً ، فالخيانة التى صنعت الكارثة من خيوطها كان شبحها يتراقص أمام عينى فيعتريهما الجمود ، ولم أكد أنتهى من قراءة المذكرات حتى تنفست الصعداء ، وأخذت أمر بمرحلة عصيبة أسترد خلالها أعصابى .

فالقائد العربى : عبد الله التل لم يدون مذكراته ليصف معارك ، وإنما دونها ليسجل تاريخا للجيل المعاصر والأجيال القادمة ، ليرى الجميع ، أن كارثة فلسطين لم يكن فى استطاعة أمريكا وانجلترا أن تخلقها لو لم تشمّا رائحة الغدر والخيانة من بعض الحكام العرب وفى مقدمتهم : المنتسبون إلى سلالة الرسول .

وبعد مرة أخرى :

فإن أبرز مواضع العبرة من الكارثة انتقام الله من الخونة حيث أصبحوا - كما يقول - صاحب المذكرات : « فى عالم آخر تلفهم صفحات سود من تاريخ الكارثة ، فملك الأردن قضى صريع رصاصة على عتبات المسجد الأقصى ، ورئيس حكومته « أبو الهدى » شنق نفسه ، وملك مصر ومن ورائه أكداس من الأوزار والآثام قد اندثرت معه بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وطغاة العراق الذين ساعدوا على خلق الكارثة قد مزقتهم ثورة ١٤ يوليو عام ١٩٥٨ . . . . . »

وإن ربك لبالمرصاد - وحسبنا الله وحده .

محمد عبد الله السمان

آراء وأحاديث

بين السنة والشيعة:

كانت الخطوة التى خطاها الأزهر نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية ذات أثر بعيد المدى . لقد صححت أخطاء قديمة ومهدت لمستقبل طيب ، ومحت ما بذره الشيطان من شرور الفرقة ، وسدت على أعداء الإسلام منافذ طالما تسربوا منها لتمزيق أمته وتفريق كلمته .

والحقيقة أن الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، بتوصياته الأخيرة فى دراسة فقه الشيعة ، والاعتراف بأن أتباع أهل البيت جزء له حرمته من الأمة الإسلامية الواحدة ، قد أصبح من بناة التاريخ الإسلامى ومن رجاله المرموقين .

ونحن ننشر فيما يلى تصريحات الأستاذ الأكبر فى هذا الموضوع الخطير مقرونة بما حفها من استقبال نبيل هنا وهناك .

قالت جريدة الحياة تحت عنوان «الدين واحد»

كان فضيلة شيخ الأزهر محمود شلتوت قد أدلى منذ بضعة أشهر بحديث عن عزمه على التقريب بين المذاهب ، والمباشرة بتدريس الفقه الشيعى فى كلية الشريعة ضمن برامجها الجديدة .

وقد حان الآن وقت إعداد البرامج الجديدة فى كليات الأزهر ، ولهذه المناسبة أدلى أمس فضيلته إلى السيد محمود سليمة مندوب جريدة (الشعب) بحديث قال فيه : لقد أدخلنا على كلية الشريعة منهجا جديدا قوامه دراسة الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية على الأسس الآتية :

أولا : تكون الدراسة على مختلف المذاهب لا فرق بين سنة وشيعة ، ويعنى بوجه خاص ببيان وجهة النظر الفقهى حكما ودليلا لكل من مذاهب السنة وهى الأربعة المعروفة والإمامية الاثنا عشرية والزيدية .

ثانياً : يستخلص الحكم الذى يرشد إليه الدليل دون التفات إلى كونه موافقا أو مخالفا لمذهب الأستاذ أو الطالب ، حتى يتحقق الفائدة من المقارنة ، وهى وضوح الرأى الراجح من بين الآراء المتعددة وتبطل العصبيات المذهبية المذمومة .

وفى أصول الفقه ـ يعنى بوجه خاص ببيان

المواضع الأصولية التى وقع الاختلاف فيها بين المذاهب الستة السابقة الذكر مع بيان أسباب الخلاف .

وفى علم مصطلح الحديث ورجاله تشمل الدراسة ما اصطلح عليه السنة وما اصطلح عليه الإمامية والزيدية ، كما تشمل دراسة الرجال المشهورين وأصحاب المسانيد ومسانيدهم فى كل من الفريقين .

هذا بالإضافة إلى التوسع فى هذه الدراسة تفصيلا فى الدراسات العليا بكلية الشريعة وهناك قلت لفضيلته :

إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه ، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مثلا ؟

فأجاب فضيلته : أولا : يجوز لمن ليس من أهل الاجتهاد والنظر أن يقلد أى مذهب من مذاهب العلماء الموثوق بعلمهم وصلاحهم ، يشترط أن يصل إليه ذلك المذهب من طريق منضبط يطمئن إليه سماعا أو نقلا .

ولا عبرة بما يكتب فى بعض الكتب من انحصار المذاهب التى يجوز تقليدها فى الأربعة المشهورة ، ولا بما يقال من أن من قلد مذهبا ، فليس له أن ينتقل إلى غيره .

وفى ذلك يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق ، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من ذوى الألباب .

ثانيا : أن لفظ الشيعة الذى اشتهر به أتباع (على) وآل بيته خاصة ، هو فى الأصل مأخوذ من المشايعة بمعنى المتابعة ، فشيعة الرجل أصحابه وأتباعه ، وقد أطلق هذا الاسم على طوائف كثيرة تخالف الإسلام فى كثير من العقائد الأساسية والأحكام ، وهذه لا يباح تقليدها لخروجها عن دائرة الإسلام .

ثالثا : أن هناك فرقا أخرى تنسب إلى (على) وهم شيعته المهتدون الذين يبرءون من هذه الفرق الضالة ويحكمون بكفرهم ويلعنونهم . ومن هؤلاء الشيعة الصالحين الطائفة المعروفة (بالجعفرية) أو (الإمامية الاثنا عشرية) .

رابعا : أن لهذه الطائفة المعروفة أصولها المستندة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله

المروية عن أئمتهم ، فى العقيدة والشريعة وليس الخلاف بينهم وبين مذاهب السنة إلا كالخلاف بين مذاهب السنة بعضها وبعض

فهم يدينون بأصول الدين ، كما وردت فى القرآن الكريم ، والسنة المتواترة ، كما يؤمنون بكل مايجب الإيمان به ويبطل الإسلام بالخروج عنه ، من الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

خامسا : أن مذهبهم الفقهى مدون محرر له كتبه وأسانيده وأدلته ، وأن موظنى هذه الكتب ومن استمدوا منهم معروفون محفوظة سيرتهم العلمية ومكانتهم الفقهية بين العلماء

ومن هذا البيان يتضح جليا :

١ — أن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين ، بل يقرر أن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ، ولمن يقلد منهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أى مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء من ذلك .

٢ — أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثناعشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا ، كسائر مذاهب أهل السنة .

فينبغى للسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية لغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله ، ولا كانت شريعته تابعين لمذهب ، أو مقصورين على مذهب . فالكل مجتهدون مأجورون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم لا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات .

ولقد رحب الكثيرون من علماء ومشايخ السنة فى لبنان بقرار الأستاذ الأكبر حول تخصيص كرسى فى الجامعة الأزهرية لتدريس الفقه الشيعى وعدم الاعتراف بالفوارق بين المذهبين السنى والشيعى .

ووصف الشيخ محمد جواد شرى رئيس المراكز الدينية بأمريكا هذا القرار بأنه يعيد إلى المسلمين وحدتهم ، ويبدد مخاوف الشيعة ويجعلهم يشعرون بأنهم انصفوا .

وصرح الشيخ محمد علايا مفتى السنة فى لبنان أن المتعمق فى دراسة الشريعة الإسلامية لا يرى من الفوارق بين السنة والشيعة إلا كما يرى الفرق بين مذاهب السنة الأربعة .

وقال الشيخ محمد الصادق المرجع الدينى للشيعة فى لبنان : إن الإسلام وحدة متكاملة لا مكان لتجزئتها ، والمذاهب ما هى إلا اجتهادات علمية للوصول إلى الحقيقة .

ثم أضاف قائلا : إن قرار علامة مصر شيخ الأزهر استمد قوته وجرأته ومضاءه من قائد

العروبة وحامل لوائها الرئيس جمال عبد الناصر.

وأكد الشيخ شفيق يمور رئيس المحكمة السنية العليا ببيروت أن قرار شيخ الأزهر قضى على التعصب المذهبي وأزال الفوارق بين السنة والشيعة التي لا تستند حقيقتها إلا على خلافات سياسية قديمة زالت أسبابها.

وقال الشيخ مصطفى الرافعي رئيس محكمة بيروت الشرعية السنية: إن القرار أزال الجفاء القائم بين مذهبي السنة والشيعة.

وقال الشيخ حسين الخطيب رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية: إن القرار استحق شكر الطوائف الإسلامية جميعها لأنه دعوة إلى وحدة الصفوف وإزالة الفوارق التي خلفتها لنا العصور القديمة.

أما الشيخ عبد الله نعمه رئيس محكمة بيروت الشرعية الجعفرية فقد وصف القرار بأنه سيؤدي إلى إشاعة روح الثقة بين الطوائف الإسلامية، وسيكون له صدى كريم في النجف الأشرف بالعراق، كما سيسوء الاستعمار والمستعمرين، الذين يعيشون على حساب الطائفية، وبث الكراهية والبغضاء بين المسلمين.

وقد علق العلامة اللبناني الشيخ عبد الله العلايلي على القرار قائلا: «إن القرار جاء ونحن في حاجة إليه».

رأي الأستاذ محمد المدني:

أدلى الشيخ محمد المدني عميد كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية بحديث لوكالة أنباء الشرق الأوسط بمناسبة احتفال الجمهورية العربية المتحدة بذكرى استشهاد الإمام الحسين قال فيه: إن العلاقة بين السنة والشيعة هي علاقة الأخوة وأن الشيعة والسنة مذهبان من مذاهب الإسلام التي تستمد من كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، والخلاف بينهما ليس خلافا في الأصول التي يجب الإيمان بها، وإنما هو خلاف في بعض المعارف الكلامية والفلسفية.

ولا يوجد من بين أهل السنة من ينكر فضل آل البيت عليهم السلام، ولا يعترف بما لهم من أثر جليل في خدمة الإسلام، بل إن أهل مصر خاصة وهي بلاد الأزهر ومصدر إشعاعه للعالم كله مشهورة بحب آل البيت والتردد على مزاراتهم. واستطرد فضيلة الشيخ يقول: إن الحاذقين من أهل التاريخ والسياسة العارفين بأساليب الاستعمار يجمعون على أن أسباب القطيعة بين السنة والشيعة ليست دينية وإنما هي تطبيق بارع لسياسة فرق تسد. فهم يقولون للشيعة: إن السنة تنكر استحقاق علي الخلافة قبل أبي بكر

ويقولون السنة: إن الشيعة تفضل عليا على أبى بكر وعمر، ثم يقولون الشيعة : إن أبا بكر منع ميراث السيدة فاطمة من أبيها ويؤلفون فى ذلك كتبا كالكتاب الذى ألفه أحد المستشرقين وكان عضوا بمجمع اللغة العربية بعنوان - فدك - وهو اسم الضيعة التى كانت تطالب بها فاطمة ومنعها أبو بكر منها كأنهم يغارون على فاطمة أكثر من المؤمنين. وما يريدون إلا استغلال العاطفة وإحياء عوامل البغضاء، ولكن إخواننا المحققين من الشيعة لا يعبئون بذلك. وإذا كان أبو بكر وفاطمة قد وقع بينهما خلاف فهو خلاف طبيعى فى كل عهد وليس له ضرر على المبادئ الرئيسية والأصول المشتركة التى يؤمن بها الجميع.

وختم فضيلته الحديث بقوله : إن الأزهر قد مد يده وما زال يرحب بالأخوة الخالصة من العصبية المذهبية. وإن إخواننا الشيعة الإمامية والزيدية أيضا قد مدوا أيديهم وما زالوا يرحبون بهذه الأخوة وبهذا التعاون.

ثم علق مندوب الوكالة على هذا الحديث بقوله :

عن القاهرة تصدر القرارات الحاسمة فى تاريخ العروبة والإسلام، فالقاهرة هى قبلة القومية العربية اليوم — وهى التى تصنع التاريخ فى ظل الرئيس العظيم جمال عبد الناصر، وبالتعاون مع العواصم العربية المتحررة الأخرى.

وعن القاهرة صدر قرار التأميم فأصبحت القناة عربية مائة بالمائة.. أليس هذا حدثا من أعظم أحداث القرن العشرين ؟.

وعن القاهرة صدرت الدعوة العارمة إلى القومية العربية بشكل غير مسبوق من حيث القوة والحماسة والتركيز المتين.

وعن القاهرة ودمشق انبثقت الجمهورية العربية المتحدة فكتب عبد الناصر أعظم صفحة من تاريخ الوثبة العربية الكبرى حين بدأ بقطرين تفصل بينهما اسرائيل ووحدهما غير مكترث بالمصاعب الجغرافية.

وعن القاهرة صدرت أعظم خطوة دينية لتوحيد الصف الإسلامى حين أعلن شيخ الأزهر وعميد كلية الشريعة أن لا فرق بين الشيعة والسنة، فأصبح المذهب الجعفرى يدرس رسميا فى الأزهر ويحق لكل مسلم أن يعتنقه.

قال شيخ الأزهر : إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل يقرر أن لكل مسلم الحق فى أن يقلد أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحاً والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره أى - مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء من ذلك.

وجاء أيضا من بيروت :

كان حديث شيخ الأزهر عن الشيعة موضوع خطبة الجمعة فى جميع مساجد لبنان وقد أذيع من محطة إذاعة لبنان . وكان قد نشر حديث شيخ الأزهر فى معظم الصحف اللبنانية منها الكفاح وبيروت المساء والسياسة والحياة والصحافة والحوادث .

كان للحديث أثر طيب فى أوساط الشيعة حتى وصفه البعض بأنه أعظم حدث فى تاريخ الإسلام بعد الخلفاء الراشدين :

وتلق مكتب الأستاذ الأكبر البرقية التالية من رئيس مجلس نواب بيروت :

فضيلة الشيخ محمود شلتوت المحترم شيخ الجامع الأزهر - القاهرة .

الحق الذى جاهرتم به حول جواز التعبد شرعا بالمذهب الجعفرى كسائر مذاهب أهل السنة ، والفتوى الحكيمة التى أصدرتموها مؤيدة بالرأى السديد والمنطق الرشيد، والقرار الحصيف الذى اتخذتموه بتجديد مناهج تدريس الشريعة والفقه المقارن ، كلها أحداث اغتبطت بها قلوب المسلمين لأنها تؤذن بحسم الفوارق ومحو العصبيات المذهبية وتبشر بقيام وحدة نفسية وروحية شاملة راسخة يحصد العرب منها الخير والمنفعة ، إننا نكبر موقفكم الحميد ، وندعو لكم بدوام العزة والتوفيق .

رئيس مجلس النواب - عادل عسيران .

كما تلق فضيلته البرقية الآتية من السيد محمد جواد شرى :

فضيلة الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

صلوات الله وسلامه عليكم ، إن الفتوى التاريخية التى أعلنتم فيها للعالم صحة المذهب الجعفرى ومساواته للمذاهب الأربعة ، قد أدخلت العالم الإسلامى فى تاريخ جديد ، ودفعته ألف سنة إلى الأمام ، وسيبق أثر هذه الفتوى إلى الأبد ، لقد سجلتم بهذه الفتوى وجودكم وبرزتم شامخين فى سجل الخالدين .

* * *

ذلك . وقد عقب الأستاذ الأكبر على استقبال علماء المسلمين لسعيه فى التقريب بين المذاهب بهذه الكلمة :

محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر يحيى جميع إخوانه علماء لبنان على اختلاف مذاهبهم ، ويشكر لهم تلك الروح الطيبة التى استقبلوا بها دعوة الوحدة التى يحققون بها قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

(البقية على صفحة ٢٥٦)

بريد المجلة

يلقى إلينا البريد كل يوم طائفة من الرسائل الكريمة يحيي بها كاتبوها هذه المجلة ويثنون على القائمين بها والعاملين فيها وسنقتصر فى النشر منها على ما يشتمل على اقتراح أو توجيه .

هذه المجلة !..

لم أقرأها منذ أمد طويل . . ثم وقع بين يدى العدد الأخير ! .. أخذت أعد صفحاته بنظرة وئيدة على موضوعاته ! . . وكان أن قرأتها « مجلة الأزهر » فى جلسة واحدة ! . .

هذه المجلة . . ! يجب أن تدخل إلى كل بيت ، وإلى كل مدرسة ، وإلى كل مكان . . !

هذه المجلة . . ! يجب أن تكون بين يدى كل إنسان ! . .

نريد جيلا جديداً على علم ، وعلى أدب ، وعلى خلق .. وهذه المجلة هى الوسيلة ، وهى الكتاب الذى تقرأ صفحاته ، فتجد العلم والأدب والأخلاق ! . .

لا يوجد سواها ، وليس غيرها من يحمل الرسالة ، ويؤدى الأمانة نحو جيل جديد ، نريد أن ينشأ قوياً فى علم ، وفى أدب ، وفى خلق ! . .

سلوها الزمام ، وسترون كيف يكون بناء الجيل على أساس من علم وأدب وخلق ! . .

إنى أفكر كقارئ ، كيف تصل هذه المجلة إلى الأسماع ، فى مصر ، وفى الشرق ، بل فى العالم أجمع ؟ . ،

وليسمح لى رئيس التحرير أن أتقدم بما أرى :

الغلاف بألوان براقة ، أو بصورة من فنان ؛ لا ريب سيجد القارئ فى الانتظار !.

وهذا القارئ ، نريد أن نلقى عليه شبكة ، فماذا نفعل ؟ . . وأرى أن تكون الشبكة على هيئة مسابقة بين القراء فى أدب وعلم ! ولن نبخل على الفائزين ببعض المال ، أو بتكريم ! . .

وباب أسئلة القراء . .

وباب للتربية ، من أجل الأمهات والآباء والأبناء . . .

وباب للمرأة ، وهى نصف المجتمع . .

وباب من الخارج . . نعرض فيه أدب الغرب ، وعلم الغرب ، وأخلاق الغرب ! ..

والغرب لديه صور خالدة من أدب وعلم وخلق ! . .

هذه أفكار عرضت بها ، ومرت بالخاطر ، وأسجلها على القرطاس ، لأنى أحببت المجلة ، وأود أن تكون المجلة الأولى فى التداول بين الناس ، وفى الذيوع والانتشار ، فى كل بلد ، وفى كل قطر وعلى كل لسان ! . .

والآن . . تحية تقدير إلى السادة المحررين الأعلام ، وإلى السيد رئيس التحرير الأديب الفنان ، وإلى العقل المفكر الأستاذ العقاد .

محمد فريد طاهر
٢٧ شارع منصور باشا بمحرم بك باسكندرية

(المجلة) نشكر السيد الفاضل تقديره وتوجيهه ونعده أن ننفذ من اقتراحاته مايلائم روح المجلة .

نحو ندوات على مستوى أعلى :

عشرات الندوات السياسية والاجتماعية والأدبية تعقد فى القاهرة بين ليلة وأخرى ، وأتلفت يمينا وشمالا فلا أجد ندوة إسلامية على مستوى أعلى تناقش المعانى الإسلامية التى تشغل الأذهان .

وأقول : ندوة إسلامية على مستوى أعلى ؛ لأن هناك ندوات إسلامية تقام فعلا : فى مجلة لواء الإسلام ، وفى الشبان المسلمين ، وفى مجلة الإسلام والتصوف ، ولكن يخيل إلىّ أن مثل هذه الندوات إنما يغلب عليها الطابع الخطابى والأساليب الإنشائية ، مع احترامى لبعض من العلماء لهم أقدارهم يحضرون هذه الندوات ويدلون بآراء لها قدرها ، إلا أنها آراء تكاد تختنق وسط خضم من آراء الكثرة الساحقة التى هى أشبه ما تكون بالخطب المنبرية ، ولا سيما أن جل الموضوعات التى تناقشها هذه الندوات مكرر معاد ، ولا يتجاوب كثيرا مع حاجات العصر الذى نعيش فيه .

ولا ريب أن الأزهر نفسه يشغل هذه الندوات بعدد وفير من علمائه ، ولكن لم لا تعقد ندوات شهرية فى إحدى قاعاته ، تناقش المعانى الجديدة والأفكار الحديثة وصلة الإسلام على مستوى أعلى ، ويدعى العلماء من الجامعات على اختلافها مع مراعاة التخصص فى المعانى التى تناقش ، ثم تعم الفائدة حين تنشر المناقشة على صفحات مجلة الأزهر التى هى المرجع الوحيد المعتمد لدى المسلمين فى الآفاق الإسلامية الدانية والقاصية.

إن هناك عشرات من المعانى الجديدة نحن فى حاجة إلى دراستها على ضوء الإسلام ، لنقطع الطريق على كثير من الألسنة التى تتناولها على المنابر ، وكثير من الأقلام التى تعرضها على صفحات المجلات الإسلامية المتواضعة ، وهذه الألسنة والأقلام تخبط

ذات اليمين وذات الشمال دون أن تعنى بدراستها لأن كل منها أن تسد فراغا . وكفى .

إنه مجرد اقتراح . . أرجو أن يكون موضع دراسة وعناية أستاذنا الدكتور محمد البهى مدير الثقافة بالأزهر . . . !

محمد عبد الله السمان

الى الدكتور على عبد الواحد :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد . .

١ — قرأت فى مقالكم ـ موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة ـ عبارتين يحتاج الأمر فيهما إلى إيضاح يزيل ماشعرت به من لبس قد يشعر به غيرى ، فأرجو التكرم بالإفادة على صفحة المجلة حيث إنى بالريف بعيدا عن القاهرة ولا أستطيع القيام بهذا نيابة عنكم .

٢ — العبارة الأولى قولكم فى صفحة ٣٢ :

والقديس يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) ونحن لا نقر أن يحيى بن زكريا هو يوحنا المعمدان ، بل نعرفه رسولا ابن رسول وقد قال الله فيه « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » وقال الله ليحيى نفسه « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » .

٣ — العبارة الثانية قول الأستاذ : وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى الخ .

ونحن نعرف أن مريم البتول أم عيسى وهى من آل عمران وتعتبر أختا لموسى فى النسبة إلى عمران فقط ، لا أختا شقيقة لموسى كما هو الظاهر من كلام الدكتور ، وبين مريم وموسى أحقاب .

٤ — وكذلك عبارة ثالثة فى صدر المقال صفحة ٣٠ خاصة بإسماعيل عليه السلام تفيد أن إسماعيل كانت تدعيه لنفسها سارة زوجة إبراهيم ، وهو ولده من الجارية هاجر ، حيث كان نظام البيئة كذلك ، والذى نعرفه أن إسماعيل كان مع أمه هاجر ، ولم ينسب إلى سارة ، وأنه لم يفارق أمه حتى بعد أن ضاقت به وبأمه الزوجة الأصيلة سارة ، فاقترحت إبعاده مع أمه وقد استجاب إبراهيم تنفيذاً لرغبتها ظاهرا ، ومطاوعة لوحى الله واقعيا ، فإذا كان الأستاذ الدكتور يتكرم بإزالة الشبهة أكون شاكرا له فضله .

عبد اللطيف السبكى

بيان من الشئون العامة للأزهر :

نشرت بعض الصحف أن لجان تعديل المناهج فى الأزهر اقترحت تدريس الحقوق والطب والهندسة والكيمياء والعلوم السياسية ، وعقب على ذلك أحد السادة المحررين بأنه يرجو من الأزهر أن يتدبر مثل هذه التيارات ، لأن دراسة هذه العلوم تقتضى ثقافة خاصة .

وإدارة الشئون العامة تعلن أن هذا الخبر نشأ فى دار الصحيفة لا فى إدارة الأزهر، وأن هذا الاتجاه العجيب لم يخطر لأحد من رجال اللجان على بال.

موقف بعض الصحف من الأزهر ومجمع اللغة:

السيد الأستاذ مدير مجلة الأزهر:

دأبت صحف معينة وكتاب معينون على اختراع الأخبار الحازلة حول المجمع اللغوى معقل اللغة، والجامع الأزهر حصن الدين فتقول مثلا: إن المجمع اللغوى قضى أسبوعا يبحث ويناقش فى اسم يضعه للظلات الهابطة ثم انتهى بعد المجادلة العنيفة إلى أن يسميها (القفف) ثم نشرت منذ أيام أن المجمع سمى البواب أمين العمارة، والشيال مساعد مسافر، وبائع البليلة تاجر قمح مبلول (وهى نكتة قديمة للمرحوم الريحانى)، مع أن المجمع فى عطلته السنوية منذ ثلاثة أشهر. وكلمتا البواب والحمال من الكلمات الأصيلة فى العربية فلا داعى لتغييرهما.

ثم نشرت أخيرا أن الأزهر قد قرر تدريس الطب والهندسة وعلوم الذرة، نشرت ذلك كله وهى تعلم يقينا أنه كذب واختلاق، ولكنها تريد إثارة القارئ وإضحاكه على حساب جامعة جليلة يكن لها العالم كله عواطف القداسة والاحترام.

واقتراء الأحاديث على الناس أصبح أمراً مألوناً فى جميع الصحف له أبواب وله محررون، لأنهم علموا بحكم اتصالهم بالجمهور أنه يستريح للشائعات ويطرب للنكت، فهى تمعن فى هذا الباب اجتذابا له واستفادة منه، وهى بذلك تسىء إلى نفسها لأنها تحمل القارئ على أن يعتقد أن ما تنشره من الأخبار هو من هذا النوع. والصحافة مادة التاريخ ومنبر الهداية ومعلم الشعب فهى جديرة بأن ترفع الجمهور لا أن تنزل إليه، وأن تطالعه بالحقائق لا أن تزورها عليه.

وفق الله العاملين إلى خدمة الأمة العربية من طريق الحق والخير والصدق.

عبد المولى محمد السيد

تصويب فى الجزء السابق

فى الصفحة رقم ٩٦	السطر ١٤	من العمود الثانى	ـ لإصلاح تلف	صوابها	: لإصلاح تلك .
« « « ٩٧	« ٢٤	« « الأول	ـ من الفكر	«	: منها الفكر .
« « « ١٠٠	« ٧	« « «	ـ خارجان فى	«	: خارجان من .

وفود رجال الإسلام على الأستاذ الأكبر

يفد إلى إدارة الجامع الأزهر وفود غفيرة من أنحاء العالم الإسلامى لتحية الأستاذ الأكبر والتحدث إليه فى شئون المسلمين وتلقى مايسديه فضيلته من نصائح وتوجيهات.

وفد سيلان :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيدين الدكتور الحاج جويا عضو مجلس النواب فى سيلان وزعيم المسلمين بها .

فقال لفضيلة الأستاذ الأكبر : إن تعداد المسلمين فى سيلان نصف مليون مسلم وعدد السكان ثمانية ملايين ومع ذلك فهم ذوو قوة وإيمان وإخلاص لأنهم لا يعتزون إلا بالله ولا يثقون إلا فى الله .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر ليفرح كثيراً بزيارة زعماء المسلمين له ؛ لأن هذا التزاور محبة ومودة وتعاهد فى الله وكل ذلك أقوى رباط فى الإنسانية ؛ فالروابط بين الناس لها أسباب شتى فقد يكون سببه القوة أو الصناعة أو أى لون من ألوان الاختراعات ، ولكن أقواها إنما هو الإيمان بالله ، وإذ يوجد الإيمان توجد المحبة والتعاون والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وأفضل الدرجات عند الله خشيته وتقواه » .

والله يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والإسلام لا يعرف لوناً ولا جنسا ولا دولة ولا قطراً فإنه بمبادئه يتخطى كل هذه الاعتبارات ، ومن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وواجب المسلمين جميعاً فى أنحاء الأرض أن يلتفوا حول كتاب الله الذى حمل لهم مبادئ الخير والسعادة ، ولذا فإننى أسارع فأهدى إليكم كتاب الله ، أقدم إليكم هدايته ومثله العليا وقيمه التى تحيا بها الإنسانية :

وقد قال السيد الدكتور : هذه القوة فى سيلان تتبع أخبار الأزهر فإنها تعتبره العماد الأول الآن فى الإسلام وتعتبره المنارة التى تحمل الهداية للناس ، وقد استمعنا فى كلمة لكم أنكم قلتم أن رسالة الأزهر هى رسالة محمد بن عبد الله ، فالأزهر حينئذ حصن هذه الرسالة ولذا فإننا نرجو أن يعاوننا الأزهر فى تقويتنا :

وجئنا إلى وزارة التربية والتعليم نطلب

منها بعض المدرسين ونحن حريصون أن نأخذ المدرسين من الأزهر فإننا نطمئن إليهم دينا وخلقا وعملا .

فقال لهم الأستاذ الأكبر : إننى حريص على أن ألبى جميع طلبات المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ لذلك عقدنا اختبارا فى اللغة الانجليزية لنختار أوائل الناجحين فنرسلهم إليكم وإلى غيركم فى البلاد التى لا تتكلم اللغة العربية وها أنتم أولاء ترون أننا نفكر فى المسلمين جميعا.

مع زعيم مسلمى السنغال :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر اليوم السيد/ الشريف مكى زعيم المسلمين فى السنغال ، وقد قال لفضيلته « إننا جميعا فى السنغال نحب علمك ونحب فيك القوة والصراحة والإخلاص ؛ ونحن نعتقد أن هذه من أسس الإيمان الصحيح والعقيدة الحقة والإيمان القوى ؛ لذلك جئت لأروى نفسى وأشبع نهمى بالالتقاء بكم والاستماع إليكم حتى أعقد بينى وبينكم الصلة الوثيقة ، وإننى إذ جئت إليكم الآن فإننى أنتهز فرصة أقدم فيها شكر السنغاليين الذين يدرسون فى الجامعة الأزهرية ؛ فقد حدثونى أن فضيلتكم ترعاهم رعاية خاصة وتعنى بهم عناية الأب بأبنائه ، وقد قالوا لى : إن الوحشة قد زالت عنهم فى الأزهر منذ وليت أمره ، وإننى أطلب التكرم بالالتفات إليهم من حيث التعليم والنصح وحسن التوجيه والتربية الدينية .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر وهو يشد على يد ضيفه ، هذه هى تحية الإسلام ، التحية التى تجمع وتوحد وتؤلف وتجعل من الناس قوة واحدة لا يعتريها ضعف ، وليس فيها ثغرة يصل منها الفساد ، ولا تدخل منها يد الإثم والطغيان . إننى أحييكم أيها المسلمون جميعا فى السنغال وفى سائر أنحاء الأرض ، وأتمنى أن يجمعنا الله على محبة دينه وعلى الاتجاه إليه والسير فى طريقه المستقيم ، وأن نكون أمة واحدة ونحن جديرون بها إذ نعبد ربا واحدا ونصلى إلى قبلة واحدة ونقف فى صف واحد متراصين ، وتلك كلها أسس الوحدة ودعائم القوة ، فلنتجه جميعا إلى الله أن ينصرنا ويشد أزرنا ويعلى كلمته وينصر دينه .

وإن الرجل القوى الذى يمد يده إلى العالم أجمع فيأخذ بيده إلى بر الحرية والأمان السيد الرئيس جمال عبد الناصر يفتح للأمة الإسلامية هذا الباب واسعا ، ليدخل منه الجميع

وقد أهدى إليه فضيلة الأستاذ الأكبر مصحفا ليكون العهد بينه وبين المسلمين جميعا.

ومع البحرين :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ علماء البحرين السيد عبد اللطيف بن محمد

السعدى وقال لفضيلته « إن للمسلمين آمالا كبارا فيكم ، وإن الأنظار لطامحة إليكم وإننا لنرجو أن يكون شكرك هو العمل الإيجابى لخير الإسلام والمسلمين » رزقنا الله وإياكم الشكر على هذه النعم . فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننى أدعو الله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين ،وأن يجعل من الأزهر المصباح المنير لهذه الأمم الإسلامية ، والضوء الذى لا يخبو شعاعه ، والحصن الذى يحمى للأمة الإسلامية مبادئها وقيمها وجوانب السلم منها ، وأرجو كل عالم من علماء المسلمين أن يعمل على ذلك وأن يبصر الناس بمواطن القوة فى الدين حتى لا يجد المستعمر ولا صاحب المبدأ الهدام ثغرة ينفذ منها إلينا .

مع سفير إيران :

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد سفير إيران فقال فضيلته : « إن الإسلام لا يعرف أمكنة ولا يفصل بين دولة ودولة ، إنما المعمورة كلها رقعته ومكان دعوته فى وحدة شاملة وقوة متينة وأمة واحدة وهو لا يعرف الفرقة ولا يدعو إليها ولا يحبها ؛ لأن المبادىء القويمة لا تحملها الشيع والأحزاب إنما تحملها اليد القوية . لقد ظن الجاهلون أن المذاهب الإسلامية لون من ألوان الفرقة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إنه الاجتهاد الذى يغترف من منبع لا ينضب معينه ولا يظمأ وارده ، فلتنتشر الألفة بيننا والوحدة بين أمتنا ، فإنى كما قلت وأقول غير مرة : إننا نتجه إلى رب واحد ونعبد ربنا متجهين إلى قبلة واحدة فى صف واحد ، غير أن بعض العوائق إلى التفاهم الحقيقى قد أوجدها الاستعمار الذى أراد أن يفصم عرى الألفة والمحبة بين الأمة الإسلامية فدخل عن طريق تفكيك اللغات وطغى على اللغة العربية لغة القرآن لغة الدعوة الإسلامية فلم يعد التفاهم موجودا بين بعض المسلمين وبعض .

أذكر أننى عندما أديت فريضة الحج كان يجتمع بى كثير من إخواننا الإيرانيين والأفغانيين والأندونيسيين وغيرهم وما كان يتم التفاهم بيننا إلا عن طريق الوسطاء من الذين يجيدون لغتين اثنتين،وذلك كله لون من ألوان الضعف ، ولذا فإننى أدعو دعوة المؤمن إلى إزالة هذه العوائق بأن تقبل الدول الإسلامية على نشر اللغة العربية بين أبنائها ، وأنا من طريق قد عملت فعلا على إزالة هذه العوائق بإدخال لغات ست تدرس فى الأزهر على مستوى عال من الدراسات هى اللغة الأندونيسية ، والأردية ، والسواحلية والانجليزية، والألمانية ،والفرنسية،حتى لا يجد رجل الأزهر فى دعوته أى عائق يعوقه بل يبث دعوة الإسلام فى كل مكان، وها هو المعهد يخرج

دفعته الأولى فى أول الشهر ، وأنا أدعو الله أن يوفقنا . وبهذا الطريق الذى يرعاه السيد الرئيس جمال عبدالناصر ويحيطه بعنايته نعمل على إزالة الفوارق فأنا أقول دائماً كما قال الرسول : (لا عصبية فى الإسلام) ولا جنسية ولا إقليمية ؛ فإن خصوم الإسلام والمسلمين قد استغلوا جهل المسلمين فى فترة الضعف وراحوا يفرقون بين بعضهم وبعض فى كل قطر إسلامى ؛ فالم تتحد وتتعلم لغة واحدة فسيظل المسلمون فرقاً يضرب بعضهم رقاب بعض ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، ونحن فى طريقنا إلى جمع كلمة المسلمين فى أنحاء العالم بإزالة الشوائب وتقريب وجهات النظر ، وعلى العلماء جميعاً أن يقبلوا على هذا الاتجاه لنحيا حياة سعيدة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وأنا يا أخى : أريد أن تتجه بالأمة الإسلامية إلى الخلق القويم وأريد أن أجعل من الصحف والإذاعة أداة لذلك ، ولا يستقيم هذا الأمر ولا يصلح إلا بما صلح به أول هذه الأمة من اتجاه إلى الخلق القويم والعقيدة الصحيحة والإيمان السليم ، إننى أطالب الصحف والإذاعة بأن يتجها إلى الخير والفضيلة وأن تكون وجهتهما معنا تربية جيل صحيح نظيف لا يعرف ضعف الخلق ولا الاستعانة بالمثل ولا الانحدار فى مساوى الرذيلة . » ذلك واجب على كل مسلم فإن الرسول يقول : « المسلم أخو المسلم » والأخوة تقتضى حسن الرعاية وسلامة التوجيه وإن الصلة بين المؤمنين بعضهم وبعض لأقوى جانباً من صلة الأنساب .

وقال السيد السفير : « أنا معتز وفخور بمقابلة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، كما إننى فخور بما سمعت من كلمات تجمع القلوب وتدعو إلى الاتحاد وتمنع الفرقة وقد عرفت ذلك فى آرائكم وعلمكم وفى مقالاتكم ، ولقد استنار قلبى بهذه المقابلة - والحمد لله - فرأيت أن أهرع مسرعاً إلى شكركم إن سرورى يزداد حين أجدكم دائماً تتجهون إلى الطريق الإيجابى الفعلى ، والمسلمون اليوم أحوج إلى رجل فعال منهم إلى رجل قوال .

وهكذا انتهت المقابلة وودع السيد السفير بمثل ما استقبل به من حفاوة وترحيب .

مع أمير الكويت والشارقة

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر سمو الأمير عبد الله الجابر الصباح وبصحبته سمو الأمير صقر بن سلطان أمير الشارقة والشيخ عبد العزيز حمادة شيخ علماء الكويت .

وقد قال سمو الأمير لفضيلة الأستاذ الأكبر

إننا نحييكم لأن صوتكم الذى يحمل إلينا العلم والهدى والنور ، يجمع بين قلوبنا ويؤلف بيننا .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر: إنكم عرب ، وإنكم لبنات قوية فى الوحدة العربية ، وإن الإسلام إنما انتشر عن طريق العروبة ، فالقرآن عربى والرسول محمد صلى الله عليه وسلم عربى ، فالعروبة والإسلام كل منهما يتصل ببعض اتصالا وثيقا ويشد بعضه أزر بعض ، والإسلام اليوم يطلب من الناس جميعا أن يكونوا أمة واحدة متراصة البناء قوية العمد والأطراف، ومن أولى بهذا منكم ؟. قواكم الله وجعلكم فى خدمة الإسلام والمسلمين، وإن الأزهر اليوم لا يضن على أحد من المسلمين فى أنحاء المعمورة بعون ولا مساعدة ، وإنما يقدم للعرب والمسلمين جميعا كل ما يحتاجون إليه من مدد علمى وثقافى سواء أكان عن طريق رجاله أم عن طريق كتبه . وإنه لمن حسن الحظ أن يكون مع سموكم مدير المعارف عندكم وهو أحد الأزهريين الأستاذ عبد العزيز حسين . إننا إخوة فى الله فلنخدم دين الله فقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين ينصرون دينه بالنصر والقوة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

واعتبروا أننى واحد منكم أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى .

فرد سمو الأمير قائلا : لا ، أنت إمامنا ونحن جند نعمل معك .

وقد أهدى فضيلة الأستاذ الأكبر سمو الأمير والمرافقين له المصحف ليكون عهد الله بين الجميع يهتدون بهديه وينهجون منهاجه ويسيرون على طريقه .

من لبنان :

واستقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الأستاذ أسعد المقدم سكرتير تحرير جريدة السياسة اللبنانية ، وقد حمل إلى فضيلته تحية السيد عبد الله اليافى رئيس الوزاراة اللبنانية الأسبق وتحية جميع اللبنانيين وقال : يا فضيلة الأستاذ الأكبر لقد جمعت الناس على كلمة واحدة وقد فرحوا جميعاً لأن فضيلتكم تعمل لتوحيد الكلمة بين المسلمين ، فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إننا نعمل على ألا يكون للعصبية أثر فى المسلمين فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا عصبية فى الإسلام » ، كما نحرص على ألا يكون للهوى ولا للشهوة ولا للغرض أى أثر فى نفوسنا ، وإنما نكون أمة واحدة تستمد كيانها ومبادئها وعقائدها من كتاب الله ومن سنة رسول الله ، وأن نطرح الخلافات وراءنا ظهرياً فنصبح أمة

واحـــدة متناسقة قوية لا ثغرة فى بنائنا ولافرقة بيننا ، أقول هذا ولساننا يقرأ قوله تعالى : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » قلت هـــذا ونادينا به فاستجاب لها من استجاب وند عنها من ند ونرجو أن يتدبر الذين لم يستجيبوا إلى آثار هـــذه الدعوة ونتائجها من وحدة شاملة وقوة تترتب عليها ، ليفيئوا إلى أمر الله .

مع قائد الجيش الأول :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد الفريق جمال فيصل قائد الجيش الأول بالجمهورية العربية المتحدة .

وقد قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الحق والقوة حينما يجتمعان يحقق الله بهما الخير ويؤكد بهما النصر ويعلى بهما الشأن وها أنذا أرى معنى القوة ماثلا فيكم مجتمعا لكم ، وقـــد لمست ذلك فى ضباطكم ورجالكم وهذه القوة العتيدة هى التى تدفع دائما الحق إلى الأمام ، وأنا أعتبر أن الأمة لابد لها من شحنتين قويتين ، شحنة معنوية تتمثل فى الهدى والحق والإيمان ، وأخرى مادية وكلتاهما مذكورة فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وقد اجتمعت الشحنتان اليوم فى الجيش وفى الأزهر .

وإن أمة تجتمع فيها هذه القوة لتعلو قيمة وتعز جانباً ، والأزهر والجيش هما القوتان اللتان تسعد بهما الجمهورية العربية المتحدة ، بارك لنا الله فى جمال القائد والرائد ورئيس الجمهورية ، وفى جمال قائد الجيش الأول قواكم الله وشد عضدكم وبارك فيكم ، وأرجو أن تبلغوا ذلك إلى إخوانكم وأبنائكم من جند هذه الأمة .

فقال السيد الفريق جمال فيصل : إننا نقدر رسالة الأزهر وفضل الأزهر وقوته فى التوجيه وأنا سعيد جـــدا بزيارته وإننى أحس حين أسعى إلى الأزهر بكل المعنوية التى أحس بها عندما أسعى إلى الحرم المقدس ، فإننا نعرف جميعا أن الأزهر هو حصن هذه الشريعة ، وعماد هذه اللغة وهو النبراس الذى نهتدى بهديه ونسير على ضوئه ، ويمدنا بقبسه ، وجزاكم الله خيرا حينما تعملون جاهدين على إيقاظ هـذه المعانى حتى يعود إليه مجده ، وإن إهداءكم كتاب الله للجيش لعهد نقطعه على أنفسنا بأن نرعى أمانة الله وأن نصون حدود جمهوريتنا ، ونحفظ المثل العليا وذلك عن طريق الإيمان القويم ، لأن الإيمان هو كل شىء . وإن زيارتى للأزهر

أعتبرها شرفا سعدت به فى حياتى ؛ لأنه الجامعة التى حافظت على العروبة والإسلام ولقد أصبحتم يا فضيلة الأستاذ الأكبر فى كل قلب من قلوب المسلمين ، بما تمدونهم من علم ، وتبصرونهم فى شئون دينهم ولذا فأكون سعيدا حين أتقدم إليكم مكررا دعوتى لكم ولمن تختارونه من السادة العلماء لتكونوا ضيوفا على الجيش الأول ، ويسعدنى أن أقول لكم : إننى تلمذت فى الأزهر بصورة غير مباشرة فلقد درست القرآن والشريعة وأصول اللغة العربية على شيخى وأستاذى الشيخ ناجى أديب من كبار علماء الإقليم الشمالى ، وإننى مهما جلست مع فضيلتكم فلن أروى الظمأ ولن أشفى الغلة ولذا فإننى أستأذن منكم راجيا لكم دوام التوفيق للنهوض بالأزهر الذى نحبه ونخلص له .

وقد قدم لسيادته فضيلة الأستاذ الأكبر مصحفا أهداه إلى المتحف الحربى وكتب له إهداء خاصا نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لابد للقوة من حق يوجهها ويرسم لها طريق حياتها وعزتها ـ ولابد للحق من قوة ترفعه وتعمل على نشره واستقراره . وقوة الشعب فى جيشه وجنوده ، ولا شىء يهدى إلى الحق الذى تعتمد عليه القوة بعد كتاب الله . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، وقد دفعنا هذا وذاك إلى أن نتقدم بكتاب الله منبع الحق والفضيلة هدية للمتحف الحربى للجيش الأول بالجمهورية العربية المتحدة ؛ ليكون بمثابة عهد بين القوة والحق ـ ضارعين إلى الله أن يوفق رجال الجيش إلى قيادته والسير به على مقتضى ما رسم الله فى كتابه العزيز ـ وفق الله الجميع إلى رفع شأن العروبة وإعلاء راية الإسلام ، وأدام توفيق قادة الأمة المصلحين بإرشاد قائدها الأول ناصر الإسلام والعروبة ، الشاب المؤمن القوى جمال عبد الناصر ـ إنه سميع مجيب الدعاء .

ثم أهدى فضيلته السيد الفريق جمال فيصل مصحفا خاصا به كتب له إهداء هذا نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لى عظيم الشرف أن أقدم كتاب الله لقائد الجيش الأول للجمهورية العربية المتحدة الفريق جمال فيصل ـ وهو بمثابة عهد يتضامن على تنفيذ ما فيه من أحكام ـ الأزهر منبع الدين والهداية ، ـ والجيش منهج القوة والجلاد ـ وفقنا الله وإياكم للعمل بما يرضيه والسلام عليكم ورحمة الله .

وفد غانا :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر وفدا من مسلمى غانة ، وقد تحدث إليهم فقال : إن خير ما يقوى المسلمين هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله والالتفاف حول مبادىء الدين الإسلامى والوقوف على قيمه ، وبذلك

يكون المسلمون كتلة واحدة متراصة فلا تعمل فيهم معاول الاستعمار ولا مبادئه الفاسدة ولا تجد المذاهب الهدامة مكانا تنبت فيه فإن أراضي الإسلام أراض تلفظ السموم ولا تبقى عليها .

وقد قرأ أعضاء الوفد كثيرا من آيات القرآن الكريم قراءة صحيحة أمام فضيلته فقال لهم :

« إنكم وأنتم لا تعرفون اللغة العربية ولا تتكلمون بها ، فإن حفظكم للقرآن إنما هو جذب الدين لكم بمبادئه وقيمه ومثله العليا .

وحين قال لفضيلته بعض أعضاء الوفد : إننا نرجو أن يعاون الأزهر المسلمين فى غانة . قال لهم : إن الأزهر لن يألو جهدا فى سبيل معونتكم ومعونة كل مسلم ، وخاصة فى عهد نهضتنا الحديثة التى يرعاها ويرفع لواءها ويدفعها قدما إلى الأمام السيد الرئيس .

وقد قدم إليهم فضيلته المصحف هدية وقال لهم : ليست هذه هدية فردية ، إنما هو عهد الله بينى وبينكم ، وبين المسلمين جميعا نسأل الله تعالى أن يؤلف بيننا وأن يوحد بين قلوبنا وأن يجعلنا على كلمة الحق وأن يسلك بنا الطريق المستقيم .

بقية المنشور على صفحة ٢٤٤

وكنتم على (شفا حفرة) باختلافكم وتفرقكم وتعصبكم ونظرتكم الشخصية الأنانية ، (فأنقذكم منها) بالاستجابة إلى دعوة التوحيد وإلى الرجوع إلى أصل رسالتكم الإلهية : كتاب الله وسنة رسوله . ويحمل السيد الأستاذ أسعد المقدم سكرتير تحرير جريدة السياسة تحياته إليكم جميعا ، وذلكم عندما زارنا فى القاهرة وتلكم تحيتنا لكم جميعا ولكل من ينتمى إلى الإسلام ويؤمن بالله ورسوله .

وهذه يدى أبسطها إليكم أبايعكم بها على تلك الدعوة .

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وفقنا الله إلى الخير والسير على الطريق المستقيم « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

Immigrants especially and to two only of the Supporters of Medina (al - Madinah). His purpose was to establish a kind of approximate equality between the properties of the Immigrants and those of the Supporters, and achieve a sort of equilibrium in the ownership of property among those two groups of which was formed the frist Islamic society. To this effect God, may He be exalted, says : " That which God gives as spoil to His Messenger from the people of the townships, it is for God and His Messenger, i.e., for the State, and for the near of kin and the orphans and the needy and the wayfarer, that it become not a commodity between the rich among you " (59, V. 7).

This means that the aim was to avoid the accumulation of properties in the hands of the rich only to exchange them among themselves, and the rich in this reference means the Supporters. Right after this verse the Qur'an goes on to say : " And whatsoever the Messenger gives you, take it. And whatsoever he forbids you, abstain (from it). And keep your dupy to God. Surely God is stern in reprisal. And (The spoil is) for the poor fugitives who have been driven out from their homes and their belongings, who seek bounty from God and help God and His Messenger. They are the loyal" (Ibid, Vs. 7-8).

8 — The Eighth Means is represented in the exhortation of Islam which made it desirable for the rich to give alms to the poor and considered this giving one of the best and most rewarding deeds that bring man close to God. On the other hand, it considers the hoarding up of wealth and not spending it in the way of God one of the worst sins. It warns such hoarders of the severest punishment on the Day of Judgement.

The Qur'anic verses concerning this matter are countless and found almost in every chapter of the Qur'an. Read, for exmple, the verse which says : " And they who hoard up gold and silver and spend it not in the way of God, to them give tidings (O Muhammad) of painful doom. On the day when it will (all) be heated in the fire of hell, and their foreheads and their flanks and their backs will be branded therewith (and it will be said to them) : Here is that which you hoarded for yourselves. Now taste of what you used to hoard " (S, 9, Vs. 34-35).

Moreover, Islam has made this kind of spending a right due to the poor. In His description of the true believers God says : " And those in whose wealth there is a right acknowledged. For the beggar and the destitute " (S. 70, V s . 24 — 25).

(To be Continued)

the contented helps the needy to satisfy his needs. Islam has gone in this direction to such an extent that Ibn Hazm, the great jurist, and his followers held the opinion that if a dweller of any city or town dies of hunger, the whole people of that city or town are responsible for his death, and have to pay jointly his blood-money (diyah) as if they were party in the cause of his death. In this connection, the Messenger, may the mercy and peace of God be upon him, says : " Whenever the people of any district pass a night with a hungry person among them, they will have no claim to the mercy and honour of God and His Messenger ".

In many verses of the Qur'an and many traditions of the Messenger the Muslim is emphatically recommended to be kind to his neighbours, relatives and non relatives. Islam tasks the Treasury with the expenses of people who are unable to earn their living or very advanced in age and of women who have no relatives to take care of them. In this kind treatment Islam makes no distinction between Muslims and non - Muslims. It is reported that Umar, the Second Calif may God be pleased with him, was passing one day by a door of some people. He saw a begger who was a blind old man, and who seemed a non - Muslim. Umar came to him, held his upper arm and asked him to what people of the Scripture he belonged. The man said that he was a Jew. Then Umar tenderly took him to his home and gave him of what he found there. Soon afterwards Umar sent to the Treasurer and said to him : " Look after this and the like people. By God, said Umar, we have not been fair to him. We took tribute from him when he was young and left him pauper when he got old. The alms, continued Umar, are only for the poor and the needy, and this is one of the needy belonging to the people of the Scripture". Then Umar ordered a regular salary for him from the Treasury.

7 — The Seventh Means is represented in the authorization granted by Islam to the Head of State to distribute the common wealth in such a manner as to establish economical equilibrium among the various classes of society even though it may result in giving properties to some classes and depriving some other ones. This wise rule was introduced and put into practice by the Messenger of God, peace be upon him, after it had been revealed to him from God in the Glorious Qur'an. As a practical application of this wise principle, the Messenger of God, peace be upon him, gave all the spoils gained from the antagonistic tribe of al - Nadir to the

the magistrate of Bahrayn and Amr Ibn al-As the magistrate of Egypt.

3 — The third means : Is represented in the various kinds of taxes and alms ordained by Islam. It demands that these kinds of taxes and alms are to be taken from the different sorts of properties and from the revenue of the economic enterprise in order to guarantee the realization of social justice, and satisfy the needs of paupers and prevent the immense accumulation of wealth.

Alms is distinguished in that it is not only imposed on the products of capitals but imposed on mobile capitals as well. So if the movable capital becomes unproductive it will be gradually consumed as alms within a course of forty years ; and this is true of properties whose alms is estimated at one-fortieth per year, and such properties include gold, silver and merchandise. Even if the capital remains productive, the successive taking of the decided alms will make it shrink and prevent it from developing to a big wealth in the hand of its owner.

4 — The fourth means : is represented in seasonal charity ordained by Islam which demands the rich Muslims to distribute, out of their properties, alms to the paupers on certain occasions every year such as the Small Feast " Eid al-Fitr ", the offerings slautered on the occasion of the Corban Bairam " Eid El Adha " and the offerings which the pilgrimes offer and from which they are to eat and feed their people, and most of which is to be distributed among the poor and needy.

5 — The fifith means: is represented in retaliations imposed by Islam on the doers of sins and transgressions. Islam stipulated that sins and transgressions frequently happen should be amended by gifts to be given to the poor and the needy. Such gifts retaliate perjury, the most cases of breaking fast during the month of Ramadan, the divorce of " *Zihar* i. e., when a man says to his wife " You are sexually forbidden for me like my mother ", which means separation between him and his wife. Also they retaliate some violations of the rituals of pilgrimage as explained in detail in the books of jurisprodence.

6 — The sixth means is represented in what Islam has ordained as regards social solidarity. It has enjoined upon the rich to undertake the expenses of their poor and unable relatives according to the detailed explanation in the juristic books. It has also ordered the residents of every district to live with one another in a manner of social solidarity where the rich treats the poor kindly and

prohibited all ways that lead to the accumulation of capitals by usurbing people, or decieving them, or monopolizing the necessities of their lives, or exploiting their poverty and needs or by the abuse of influence and authority. Islam has taken this attitude because these ways are the major causes that create wide differences among properties of individuals, and by forbidding these ways the economical equilibrium can be realized in the best form.

Islam has forbidden unequivocally all operations of usury and made them amongst the most heinous sins, and threatened their committers by war from God and His Messenger. It has also forbidden all dealings which imply deception, or bribe, or taking unjustly the properties of others or cheating men when taking the measures.

Similarly, it has taken the same attitude towards the monopolization of the necessities of people; in this connection the Prophet, peace be upon him, says: " Whoever monopolizes food for forty days he will break off association with God and God will break off association with him ". Islam has forbidden the misuse of authority and influence for gaining wealth, and allowed the confiscation of properties acquired through such ways, and authorised the Treasury to take this wealth to be utilised for the common interest of Muslims and their needy. The Prophet himself has laid down this perfect principle. It is said that a man of Al-Azd Tribe, who was employed to administer alms, some day came to the Prophet with alms and divided the alms into two parts and said to him: " This is for Muslims and this was presented to me ". The gestures of anger appeared on the Prophet's face and being disappointed he stood up and made a speech in which he said: " I employ men from among you to run some affairs with which God has tasked me, then some one of you comes to say this is yours and this was presented to me; would he confine himself to his father's or mother's house and see whether he would be presented to or not ? ". The man, then left untouched what was, allegedly presented to him and the Prophet, peace be upon him, added it to the Treasury of Muslims.

This principle was applied on a larger scale by Umar Ibn al Khattab during his caliphate. He Confiscated what the magistrates had gained through improper means for them such as commerce and the like, and also what they had attained in the form of presents or properties resulting from the exploitation of their influance and their offices. Umar did so with his magistrate of Basra as well as with Abu Hurayrah

Prophet, peace be upon him, "Special will is unlawful", nor did it allow him to excell one-third of his property when making " will " to none of his heirs. By doing so Islamic law aims at safeguarding the principles of the perfect socialism which it has introduced for inheritence, and at protecting them from the abuse and caprices of bequeathers.

How wide is the gap between this wise social institution of inheritence laid down and fortified by Islam with strong protection, and the modern systems of the West some of which make all the property of the deceased a primogeniture while others authorise the owner with complete freedom to bequeath all his property to whom he pleases !!.

As a result of this system, large properties were gathered in the hands of a limited group of persons, such a result aroused the hatred of the poor and implanted in their hearts the spite against the Community and its institutions. Thus destructive and extremist doctrines as well as corrupt and Communist trends developed from these systems and disturbed chaoticly the economic life, and led to the most violent revolutions and rebellions which Europe has been facing in modern times.

Islam has differentiated between male and female in inheritence ; it often gives the male a share equal to that of two females who stand with him on the same level of kinship. This distinction is based on classification of life responsibilities shouldered on both male and female. From the Islamic point of view, man's financial responsibilities in this life are so much heavier than those of the woman.

Man, sooner or later, married or unmarried, is the guardian responsible and sustainer of his family. He is tasked with satisfying all needs of all his relatives. Unlike that, woman is released from all financial responsibilities even her own expenses.

Therefore, it was only fair that man should take a share larger than that of the woman to enable him to bear these heavy burdens enjoined by Islam upon his shoulders, wheras woman is exempt by Islam from these burdens to show its mercy and care for her, and to secure the happiness of family. Nay, Islam is too genrous and kind to woman as it gives her one half of man's share in inheritence when exempting her from the burdens of life and putting all these burdens on man's shoulders.

2 — The second means : Islam forbade the aquirement of wealth through illegal means. It has absolutely

disobeys God and His Messenger and goes beyond His limits, He will make him enter fire to abide in it and for him is an abasing chastisement" (Surah 4, Verses 13 - 14).

Hence many of the muslim jurists hold the opinion of forbidding "the personal mortmain" which means that the owner confines the outcome of his property to a certain group of his relatives or non-relatives according to conditions and shares made by him just the way he pleases. Such kind of mortmain is forbidden because it constitutes the detention of property from being used and utilised normally, and also because it infringes the rules of inheritence. Ibn Abbas was one of those jurists who forbade this kind of mortmain. He said that when the Surah (chapter) of Women was revealed regulating the legal shares of heirs, the Prophet, peace be upon him, said "There should be no detention from the injunctions of God", i.e., the prevention of the property of the deceased from being distributed among due heirs is forbidden. Likewise, Justice Shurayh of Kufa adopted the same opinion of Ibn Abbas. (Justice Shurayh was one of the great Followers, of the most well known amongst Muslim jurists and the judge appointed by Umar to Kufa for a long period). He forbade that Kind of mortmain and stated that the Islamic law eradicated this system. The text of his statement reads: "Surely Muhammad has permitted the sale of mortmain". This is a narration ascribed to the traditions of the prophet, peace be upon him, permitting the sale of mortmain. There is also Ismail Idn El Kendi the Judge of Egypt on behalf of Caliph Al Mahdi, who adopted the same opinion of Ibn Shurayh.

There is also Abu Hanifah al-Numan the great jurist who forbade the personal mortmain in all its familiar forms. He decided that when the testator conditions the mortmain on his death (as by saying: when I die my house, for instance, goes to such and such), then it will become a "will" not a mortmain, and should be taken from one-third of his property. Conversely, when the testator does not condition mortmain on his death, it should be distributed among heirs after his death according to every one's share. The Egyptian law number 180 of 1952 has depended on all these bases when it repealed all sorts of personal mortmain and forbade its proceedings, and stipulated that any personal mortmain would be considered invalid.

For all this, Islam did not allow the owner to give by will any one of his heirs more than his legal share in conformity with the saying of the

Islamic Socialism, The Best

Safeguard Against Communism

By

Dr. Aly Abdul Wahid Wafi

Islamic law restricted the rights of owner in his property by many restrictions, and in return for his ownership it tasked the owner with many obligations in order to preserve, by these restrictions and obligations, the rights of the Community and to mitigate the influence of capitalism. Through this, Islamic law means to obstruct the growth of any influence or despotism of capitalism, to realize the equality of chances among people, to tighten the differences between social classes and bring them near each other, to prevent the accumulation and centeralization of properties in the hands of the few and, finally, to constitute a kind of moderate socialism in the best form possible.

The most important means which Islam has adopted to achieve these noble aims read as follows :

1 — The first mean : Islam has codified wise rules regarding inheritance and its connections. It has introduced a wonderful social system of inheritance by which it secures the fair distribution of properties among individuals, prevents the accumulation of properties in the hands of the few and break big capitals into mall properties. This is done by dividing the legacy of the deceased among a large number of his relatives in order to enlarge the sphere of use of this property on the one hand, and to prevent the accumulation of big properties in the hands of a limited group of people, on the other hond.

By virtue of this wise system, the big properties which happen to be in the hands of some individuals will be divided within a few generations among many individuals and will be transferred into small ones. This is the best method for reducing social differences between classes and realizing the fair socialism in a most harmonious form. And because Islam is so earnest to achieve these purposes it prohibits all actions that lead to the violation of those rules of inheritance. After having laid down these rules God Says " These are God's limits. And whoever obeys God and His Messenger, He will admit him to gardens wherin flow rivers, to abide in them. And this is the great achievement. And whoever

Easterners nor Westerners; we are just muslims. We are advocates of belief in God alone and of virtuous human values. We are mobilized at the instance of our religion to resist tyranny and replace it with justice and peace.

Islam does not recognize social classes with its structure. It is alien to the society which is based on the aristocracy of wealth and nobility as it is alien to the society which is based only on bodily labour. It recognizes distinction among its followers only in their adherence to its guidance. " Surely the noblest of you with God are the most dutiful of you." (Surah. 49. V. 13). So it does not tolerate the subjugation of a certain class to another as is allows no social classes.

Islam trusts the conscience of man; it does not resort to terror in stimulating its followers. It relies on man's thoughtfulness of God, and therefore no tyranny of a group over another is feared of. The imported ideologies from the East and the Weast have sparkling appearances. But Islam is the religion of genuinely brilliant ideology, which needs only to be purified from accretions and innovations.

When it is so purified, it will satisfy our needs and make us independent and self-sufficient. Then, it will be easy to popularize it among out-siders and even export its principles which will find warm reception. When we rightly deserve the description of us by God in His Book, " The believers are those only who believe in God and His Messenger, then they doubt not, and struggle hard with their wealth and their lives in the way of God. Such are the truthful ones " (Surah 49, V. 15), then we really become self-sufficient,

With Islam, we are the best nation raised up for men. Our allies are God, His Messenger and those who believe : " Only God is your friend and His Messenger and those who believe, those who keep up prayer and pay the poor-rate, and they bow down. And whoever takes Cod and His Messenger and those who believe for friend-surely the party of God, they shall triumph " (Surah. 5, Vs. 55-56). " You will not find a people who believe in God and the Latter Day loving those who oppose God and His Messenger, even though they be their fathers, or their sons, or their brothers, or their kinsfolk. These are they into whose hearts He has impressed faith and strengthened with a spirit from Himself, and He will cause them to enter Gardens wherein flow rivers, abiding therein. God is well-pleased with them and they are well-pleased with Him. These are God's party, Now surly it is God's party who are the successful! " (Surah. 58, V. 22).

the earth. So, it is suitable and good for all people.

Islam is not mere knowledge but is faith and piety. It is faith in God, observance of duty and thoughtfulness of Him. And this faith is the source of self-security in man, of his awareness of society and of his contribution to the stability and survival of that society.

Islam is a Divine grant. " That is the grace of God ; He grants it to whom He pleases. And God is the Lord of mighty grace " (Surah 62, V. 4).

This is Islam as a system of life. It is a system of virtuous, stable and humane life for the individual and society alike. Its foundation is based on the fact that man has a desiring nature but endowed with leadership. It realizes that this nature responds to egoistic motives, though it inclines to association and sociability.

The guidance of Islam is meant to develop the will of the individual to give him the power of mastership in order that he may not behave like the machine or the animal. It is also meant to awaken the social conseience in order that society may survive protected from disintegration, deterioration and weakness, to remain a virtuous and strong society.

Having laid down these principles, Islam is not responsible for the weakness of the Muslim and for his submission to passions. Nor is it responsible for the weakness of the bonds of the Muslim society or for the dissolution of that society. What is responsible for that, however, is the misunderstanding of Islam and misapplication of its principles. Thus the Scripture of God is not to blame for the ideas from the east and west imported supposedly for guidance.

The responsibility for misunderstanding and misapplying the principles of Islam is not to be shouldered on certain Muslims. But as long as the Muslim embraces Islam, he has first to believe whole - heartedly in God to know the right path to Him. " And keep your duty to God. And God teaches you. And God is Knower of all things " (Surah 2, V. 282).

The imported ideologies of the East advocate atheism and disbelief in humanity and its values. Similarly the ideologies imported from the West call for the tyranny of *matter* over human values, the tyranny of war and material power over the rights of peoples in liberty and survival.

The principles of Islam are distinguished from the ideologies of the East and the West. This is so because Islam is based on belief in God, honouring human values and on the resistence of tyranny in all its forms. Consequently we are niether

Here we find that the message of Islam is the framework of the active man and the strong society. It is the framework of the resolute individual and of the befriended, kind and fratermized society which does not accept humiliation and subjugation.

The Muslim has a mission in this life which mission is to be of will. Likewise, the Islamic society has a mission which is to establish Justice and peace, and to prevent harm and aggression. This mission of the individual Muslim is a prerequisite to the mission of the Islamic society. This is because no justice and peace can be achieved, and no harm and aggression can be prevented In any given society unless its individuals have strong wills, experience in struggling and belief in ideals.

The mission of the Muslim, from the Islamic point of view, is not to live for food and reproduction only, but to make these a means of power and sovereignty. "I am afraid," the Prophet said, "that nations will exhort one another to encroach upon you just like the eaters call one another to food. Is it because we shall be small in number O Messenger of God," the Prophet was asked? He said : nay, you will be enormous, but your enormity will be effectless". Similarly, the Islamic mission of society is not just for fun or amusement but to struggle for values, establish justice and prevent injury and aggression.

It is to struggle for association and brotherhood; because the kinship of Islam is surperior to that of tribalism, and its brotherhood is above that of blood relationship. The kinship of Islam, firsr of all, is that of principles, of joint aims and common ends.

Surely the message of Islam is not a social planning laid down by man nor is it an educational method drawn by any human being. If it were as such, it would not have been so suitable for all people, but it might have been good only for a certain environment in which that particular social planner or educationalist lived. This is so because man is what we know, affected by inherited qualities and environmental circumstances. Thus man's thinking reflects his limitedness, and his goodness, if he be good, is for his environment and those who live with him.

Islam is the revelation of God, the Aware of everything. It is the teachings of God, the Creator of every being and the Supreme above all. " And He is the Supreme, above His servants " (Surah 6, V. 18). It is coming from Him whose knowledge extends over the heavens and

O mankind, surely I am the messenger of God to you all" (Surah, 7, V, 158). Likewise, its worship was meant to provide the individuals first with security and then with peace in their relations to one another.

After Islam had awakened the social spirit in individuals through worship and formed of them the Islamic society, it strengthened it with formidable protection to make it survive. Islam consolidated its society by firmly prohibiting it from aggression, "And help you one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression" (Surah 5, V. 2).

To prevent contemplation of, not to mention aggression itself, Islam enjoins justice and the doing of good to others and the giving to the kindred, and forbids indecency, evil and rebellion. It enjoins justice in every way : in bearing witness and giving narration, in judgement and decesion. It enjoins the doing of good to others in all its forms : through wealth and health, through knowledge and authority. It forbids oppression in its forms which can be defined by whatever hurts the soul or the body, ownership or personal consecration. It forbids indecency and evil in all their forms which are disliked by good selves and spited according to the standards of society and usage. The Glorious Qur'an emphasizes these principles by saying "Surely God enjoins justice and the doing of good (to others) and the giving to the kindred, and He forbids indecency and evil and rebellion" (Surah 16 V. 90).

The Islamic society, therefore, is one of peace, justice and kindness. It is a society which distastes indecencies, vices and aggression. It is a virtuous and moral society. Yet it is not an aggressive society nor is it a passive one which tolerates humiliation. On the contrary, it is an active society which meets aggression with a like retaliation. "Whoever then acts aggressively against you inflict injury on him according to the injury he has inflicted on you" (Surah 2, V. 194).

The Islamic society is not of the aggresive type which is tempted by victory to encroach on the human principles. "God forbids you not respecting those who fight you not for religion, nor drive you forth from your homes, that you show them kindness and deal with them justly. Surely God loves the doers of justice" (Surah 60, V. 8). "O you who believe, be upright for God, bearers of witness with justice and let not hatred of a people incite you not to act equitably. Be just; that is nearer to observance of duty.' (Surah. 5. V. 8.)

annual Feasts of Islam. Both these two forms of alms and pilgrimage include this social spirit and increase its force and certainty by means of endeavour and work.

Thus, the forms of worship laid down by Islam and enjoined upon Muslims in the periods and places aforementioned are meant to train the human self to attain what it is naturally prepared for of the power of will and the means of choice, on the one hand, and of what it has of the sociable spirit, on the other. By this, the self can master the passions of the stomach and sex and protect itself from the dangers of indulgence in and subjugation to these passions. The self will also be able to recognize the existence of others, observe their rights and fraternize them instead of being in conflict and antagonism with them.

Worship, as defined by Islam, is to elevate the standard of humanity in man and protect him from his own evils. It is to prevent agression either from him against others or from others against him. It is to moralize the individual, establish society and guarantee its survival.

It may not seem clear that *society* is established as a second stage precedented by the existence of individuals, and that the very establishment of society depends upon the awakening of the social spirit and consolidating the inclination in individuals to sociability. As long as social spirit is not awakened in individuals, they will remain as an unorganized group of people to whom the term society is inapplicable. And for this reason the existence of society is a proof of the civilization of its individuals, and demonstration of the awakening of their social conscience. Moreover, it means that the joint feeling of common aims and mutual interests has manifested itself in the practical life. The ulimate end of pure humanity is to found a society not on tribalism and cosmopolitanism, but on the true qualities of humanity represented in peace, in the course of common relations, and in tranquility and stability in the private life.

Islam, as we have observed, endeavours through its guidance to build the human society, to remove aggression from common relations, and to ascertain stability in the private life. This is why it treats all people in an equitable manner. " O mankind, surely we have created yon from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you" (Surah. 49, V. 13). And for the same its message has been sent to all people. " Say :

in greatening God and extolling Him, in bowing and prostration, he will undoubtedly restrain his desires and passions. And when he commands his desires and passions, he will be in a position to choose his diet and sexual intercourse in the most upright manner. Then, he becomes a man of choice and limtis, a man who knows the beneficial and the harmful. And this is the result of prayer which "keeps (one) away from indecency and evil ".

As for fasting, which occupies a full month of the year starting from dawn upto sun - set and which absolutely deprives the stomach and sex of having their satisfaction, it is the direct means of worship to develop the faculty of choice and will, the power of struggle and resistence. Fasting is a struggle between the pressing passions of the stomach and sex, on the one hand, and the endeavour of man to overcome these passions, on the other band. So, if man fasts the whole month of Ramadan every year, he will emerge from his struggle triumphant, and his will will also triumph over the passions of his stomach and sex. Similarly, his resolution and determination will overcome hesitation, weakness and dependence. Here we can appreciate the meaning of the Divine Revelation in the Messenger's words : "All man's deeds are his except fasting which is Mine. It is purely for me, and I only reward him for it ".

Having examined these two forms of worship in Islam, we find that they are meant to improve the personality of the individual and to strengthen his will and ability of resistence and struggling.

Concerning alms, it is the extraction of a certain percentage of the alms-giver's wealth out of his conviction to be distributed to the needy. Pilgrimage, on the other hand, is the gathering of tens of thousands of muslims in one place and one time on the Mount of Arafat, at the sun - set of the nineth day of the month of Dhi Al-Hijjah. At this annual convention all pilgrims stand in uniform thoughtless of their distinguishing appearances of wealth, ranks and positions. They ask One God in one petition with one heart and one faith. When they descend from Arafat and go round the *Kaabah* they face their *Qiblah (prayer-niche)* - wherein differences . of east and west, north and south, disappear in place and direction.

If we reflect on the worships of alms and pilgrimage in the manner we have described, we shall find them a practical application of the social spirit, already awakened by congregation prayers performed five times every day and especially urged for on Fridays, and more especially demanded on the two

because the existence of theirs with him is an undeniable fact. consequently, there will be a violation of mutual rights. He will violate the rights of others and they will in turn violate his own.

The result of leaving man unguided and of leaving his private and social life undisciplined is the loss of will and human personality, resistence and the spirit of strife, the ability to make distinction and choice. Besides all this, animosity, conflict and constant transgression will prevail.

Because man is prepared by nature to be of personality and will, on thé one hand, and of sociable inclinations, on the other hand, the message of Islam has come with the purpose of helping this nature and improving its will and sacial inclination. The message of Islam has come to lay down the solid foundations of the right way which elevates man to be of will, power, ability to resist and struggle, and social reciprocity. It has come to awaken the conscience of one's own personality and of his society as well; because all harms inflicted upon humanity originate from the absence of the individual will and social conscience.

Islam, then, has come to prevent these human harms whose prevention, as we have already mentioned, is in the improvement of the individual will and in the ascertainment of the social bonds among individuals. Thus it is a guiding message of two sides: one is for the individual and one for the society. And here we may ask: How does Islam drive man through guidance? And how does it make the individual of will and effective participation in the social course of his society?

To answer these questions, let us examine the forms of worship in Islam. Let us examine fasting, prayer, alms and pilgrimage.

In prayer, the Muslim faces God five times a day during which he confers in private with God. Prayer, in fact, delivers the heart from the temptations and adornments of life, because the presence of the true worshipper before God is such a happiness that is incomparable to any other pleasure of this world in which there is only the passion of stomach and sex. Here we can appreciate the wisdom of God's words: "Surely prayer keeps (one) away from indecency and evil" (Surah. 29, V. 45),

And there are no indecency and evil except that which the stomach and sex desire. When the worshipper sacrifies the ejnoyment of this life for the sake of his presence before God in petition and prayes,

that the guidance of Islam is a necessity to man agreeable to his human nature.

Man is Passionate, yet he is prepared to have control over himself and creatures other than himself. Man is a nature with egoistic motives, althongh he is inclined to sociability. He has passions to satisfy the needs of his stomach and his sexual desires. He is caPable of leadershiP the centre of which is his mind which is the essence and cause of his distinction. So, if man were left free to seek his Pleasures, his endeavours would have been restricted to the demands of his stomach and sexual Passions, and the quality of leadershiP in him would have been subjugated to the aforementioned demands. Then, man would be of Passions only trying to sate his stomach and satisfy his sexual desires with whatever he finds.

And the impulsive man who has no power of choice destroys himself not because he has lost the quality of choice between the useful and the harmful, but because he cannot control his passion. He impulsively wanders on every path straight or otherwise, and compulsorily uses every means beneficial or malicious. Such a man knows no destination to his wandering, and does not care whether his diet is nourishing or not, and is interested only in having his sexual entercourse with any body he meets. He may see his destruction in what he does, though he cannot resist his inclinations. He may be sure, out of his own experience, that a certain diet is harmful to him, yet he cannot refrain from it. Likewise, he may be certain that a particular sexual entercourse is disasterous, nevertheless he cannot restrict his indulgence. He humiliatingly yields to his passions, and submits to his stomach and sexual desires. As a result, his will weakens, and his command over passions gets loose, and instead of being, as he should be, the master of his passions he becomes in thinking as well as in doing enslaved to these passions. He is a dead person even though he may appear in a disguise of an alive man, and morbid in the form of a wholesome person, and weak in the shape of a strong man.

On the other hand, man has a nature motivated by egoism though it is inclined to sociability which is the prerogative of man excepted from among other beings that are instigated by instincts alone, namely, the animals. And if man surrenders his behaviour to the egoistic motives only, he is a man who does not recognize the existence of beings other than himself. Then, he will not only lose his rights upon those others but also will be in conflict with them. This is

things; therefore serve Him, and He has charge of all things. Vision comprehends Him not, and He comprehends [all] visions; and He is the Subtle, the Aware" (Surah 6, Vs. 103 - 104). "And certainly We raised in every nation a messenger, saying: serve God and shun the devil" (Surah 16, V. 36).

VI. Finally, Islam extends its guidance to elevate man to the most supreme standard of humanity; it is the standard at which man is not enslaved by his passion for wealth or sex. And he who is not enslaved to wealth and sex is the man who observes his duty to God, believes in His reckoning, worships Him incessantly, gives the poor without being asked, honours the consecrations of others in public as well as in secret, keeps his covenant when he has made a covenant, maintains trusts to which he is intrusted, and above all bears witness honestly. "Surely man is created impatient — fretful when evil afflicts him, niggardly when good befalls him — Except those who pray, Who are constant at their prayer, And in those wealth there is a known right for the beggar and the destitute, And those who accept the truth of the Day of Judgement; And those who are fearful of the chastisement of their Lord — Surely the chastisement of their Lord is (a thing) not to be felt secure from — And those who restrain their sexual passions, Except in the presence of their mates or those whom their right hands possess — for such surely are not to be blame, But he who seeks to go beyond this, these are the transgressors. And those who are upright in their testimonies, And those who keep a guard on their prayer, These are in Gardens, honoured" (Surah 70, Vs. 19 - 35).

It is clear from what we have mentioned that Islam is concerned with the life of man in its individual aspects as well as its social ones. It prohibits him from doing certain things. It deals with his cleanliness, his dressing, his diet, his enjoyment, his dealings with others and his service to God.

The life of man wherever and whenever he happens to be is that life of enormous aspects. Why then does Islam pay attention to man to such a great extent? Would it have been dangerous for man if Islam had entirely deserted him or left him guideless? Why did Islam not let him do, for example, what he pleases as regards his cleanliness, his diet, his dressing and his amusements? Would there be any harm to him or to him along with others if Islam left him without guidance in his private life? All these questions are answerable when it is made clear

Likewise, if the man has relatives Islam calls upon him to offer his help to his kinsmen even though this help may be against his will; "But righteous is the one who believes in God and gives away wealth in spite o its love to the near of kin ... " (Ibid. 177).

To the neighbour Islam pays a great attention. It urges man to assure his neighbour's happiness and distress, or at least, to assure him his security from his side · It is reported, on the authority of Ibn Ali Shuragh, that the Prophet, peace be upon him said : " By God he is a disbeliever! by God he is a disbeliever! by God he is a disbelieer! Then it was asked : whom do you mean ? O messenger of God! He replied : The one whose neighbour is not safe from his injuries and evils". It is also narrated that the Prophet, peace be upon him, said : the angel Gabreil recommended the neighbour to such an extent that I thought he would give him a share in heritage".

If man is a ruler or in charge, Islam takes him with the responsibilities of leadership. The prophet said : " Everyone of you is a guardian responsible and will be questioned for his dependents".

When man makes a covenant or takes a pledge, Islam orders him to keep his covenant and be faithful to his pledge. "And fulfill the covenant of God, when you have made a covenant, and break not the oaths after making them fast, and you have indeed made God your surety " (Surah. 16, V. 91).

Concerning the merchant, Islam commands him to be just and fair in dealing. " And, O my people, give full a measure and weight justly and defraud not men of their things" (Surah. 11, V. 85). Similarly, if man acts as a wittness or a judge Islam orders him to establish justice with whatever motives he has and in whatever circumstances he may be "And when yon speak, be just, though it be [against] a relative " (Surah. 6, V. 153). " O you who believe, be upright for God, bearers of witness with justice ; and let not hatred of a people incite you not to act equitably. Be just ; that is nearer to abseruants of duty. And keep your duty to God. Surely God is Aware of what you do" (Surah. 5, V. 8).

V. Islam inteferes to guide man and correct his worship. It guides him to worship One God Who has no associate him with " Say : God I serve, being sincere to Him in my obedience " [Surah 39, V. 14].

" That is God, your Lord. There is no God but He ; Creator of all

and to display of their adornment only that which is apparent, and to draw their viels over their bosoms, and not to reveal their adornment save to their own husbands or fathers or husbands' fathers, or their sons or their husbands' sons, or their brothers or their brother's sons or their sisters' sons, or their women, or their slaves, or male attendants who lack vigour, or children who know not of women nakedness. And let them not stamp their feet so as to reveal what they hide of their adornment" (Surah 24, V. 31).

IV. Even the amusements and funs of man are dealt with by Islam. It prohibits all that which aggravates his nerves or inactivates them like gambling in all its forms. (See above, Surah 5, V. 90). Yet it exhorts man to refresh his mind and body, and remove his aversion and dullness by good sports like running and the shooting of arrows. Once the Prophet, Peace be upon him, was passing by a group of people shooting arrows for sports. He said to them : " Shoot O sons of Ismail (Ishmael) ! Your father was a good shooter. On another occasion he said that all funs and amusements of man are no good except playing with his family and sublimating his horse. The Prophet himself competed in running with his wife Aishah. Sometimes he surpassed her and sometimes she did him.

V. Regarding the treatment of man to his fellow man Islam has a lot to do and say. It teaches the parents not to be wrongly tempted by the love of their children, and teaches the children to be good and grateful to their parents and to refrain from whatever action or thing likely to hurt their feelings in any way. " Your wealth and children are only a temptation, whereas God ! with Him an immense reward " (Surah 64, V. 15). " And Serve God. Ascribe nothing as partner to Him. (Show) kindness to parents. (Surah 4, V. 36). "Say not 'Fie' to them (Parents) nor repulse them, but speak to them a gracious word. And lower to them the wing of submission through mercy, and say : My Lord ! Have mercy on them both as they did care for me when I was little " (Surah 17, V. 23 - 24).

If the man is a husband Islam ordains him to treat his wife gently and kindly whether they maintain their marriage life or disperse by divorce "Divorce may be (Pronounced) twice; then keep (them) in good fellowship or let (them) go with kindness" (Surah 2, V. 229).

As for the wife it commands her to carry out her responsibilities and duties in return for the rights she enjoys. " And women have rights equal to the duties burdened upon them in a just manner" (Ibid. 224).

Islam in its guidance of man, then, is by necessity harmonious with the very qualities of the human nature. It accepts it as a human nature and endeavours to maintain it as such without making any attempt to change it to an angelic nature. It takes all measures to prevent the human nature from turning to an animalist one. From the viewpoint of Islam man is a human being and by Islam he can reach the highest standard of humanity.

This is why Islam is a sound system of life for man who should not degrade himself from his natural position, by which he is distinguished from other beings, and who cannot attain the degree of Divinity even if he be a Divinely chosen messenger. " Say (O Muhammad) : I am only a mortal like you. My Lord inspires me that your God is only One God " (Surah 18, V. 110). " Say (O Muhammad) : My Lord be glorified. Am I aught save a mortal messenger " (Surah 17, V. 94).

Here we find that Islam embraces with its guidance all aspects of human life and includes rules to organize man's life.

I. It deals with cleanliness and enjoins upon man the ablution of some parts of his body a few times a day and the washing of all his body in certain circumstances. It urges him to keep clean his dress, his body and mouth especially in gatherings like that of the Friday cogregations.

II. In regard to food and drinks Islam forbids man from having certain kinds of food and drink. " Forbidden unto you (for food) are carrion and blood and swineflesh, and that which has been dedicated unto any other than God " (Surah 5, V. 3). "O you who believe! Strong drink and games of chance and idols and divining arrows are only an infamy of Satan's handiwork. Leave it aside in order that you may succeed " (Ibid., V. 90). Moreover, Islam exhorts man not to eat or drink unless he really feels a need for food or drink, and advises him to be moderate as to satisfy his needs with the minimum quantities of food and drinks. " Eat and drink, but be not prodigal. Surely He loves not the prodigals " (Surah 7, V. 31). Furthermore, the Prophet says : ' We are people who do not eat unless we feel hungry, and when we eat do not sate. "

III. In view of man's dressing Islam prohibits him from wearing clothes made of gold. Similarly, it forbids woman from instigating man's sexual temptation by her dresses and adornments and make up. " And tell the believing women to lower their graze and be modest,

Islam as a System of Life

by

Dr. Mohammad El-Bahay

Diretor General of the Islamic Culture Adminstration

al-Azhar University

Islam is the message of God to all mankind as He says in the Glorious Qur'an: "He it is who has sent among the unletterad ones a messenger of them, to recite to them His revelations and to purify them and to teach them the Scripture and wisdom, though heretofore they were indeed in error manifest" (Surah 62, V. 2). "Now has come to you light from God and a plain Scripture. Whereby God guides him who seeks His good pleasure to paths of peace. He brings them out of darkness to light by His decree, and guides them to a straight path" (Surah 5, V. 15 - 16).

Islam is the message of God to Arabs and non - Arabs alike whether they were contemporaries of the Messenger of God, peace be upon him, or came or will come in subsequent generations until the Day of Judgement. "And along with others of them (the unletterd ones) who have not yet joined them. He is the Mighty, the Wise" (Surah 62, V, 3. See above, Surah 62, V. 2).

It is the message of God which He sent to guide man whom He created as a nature of certain characters and made him superior to His other creatures. "Verily we have honoured the children of Adam. We carry them on the land and the sea, and have made provision of good things for them, and have preferred them above many of those whom we created with a marked preferment" (Surah 17, V. 70). It is just the right message for human nature be that nature in the desert or on the tops of mountains, on the banks of rivers or in coastal regions, in the east or in the west, in the north or in the south. This message is the message of human nature whenever and wherever it happens to be. It was sent to guide that natur to the straight path and protect it from illusions and superstitions in what it intends to do. "He it is who has sent His Messenger with the guidance and the Religion of Truth, that He may cause it to prevail over all religion..." (Surah 9, V, 33).

The Speech of the Reverend Robert Avery Lee

HEAD OF THE DELEGATION OF AMERICAN CLERGY WHO CALLED ON HIS EMINENCE SHEIKH MAHMOUD SHALTUT RECTOR OF AL-AZHAR UNIVERSITY, ON SATURDAY JULY 4, 1959.

Your Eminence, Gentlemen.

May we express to you our pleasure and gratitude for the welcome and hospitality you have exteneded to us in this great University, which is unique in its history, in the position it holds in the world and the influence it has on Muslims and the Muslim Faith.

We agree with you in our belief in the unity of God, and, as Christians, we stand by your side, in preaching God's message. We believe in Jesus Christ and we strive to carry out His teachings, as we possibly can. If we see tyranny or oppression our conscience inspires us to act according to our creed and faith. Our civic traditions are founded on individual freedom. We claim freedom of conscience and of opinion for all men. We pledge ourselves to spare no effort and to do everything we can to establish the principles of religion and of human freedom wherever we are.

If you are to come to America we shall endeavour to show you how grateful we are for your hospitality. we promise to offer you as good coffee as yours and we shall express to you our pleasure with equal oratory and fluency,

we extend our hands to you and vow to you we shall work together in the name of friendship and faith in God for the good of humanity and of world peace.

The speech of his Eminence the Rector

OF AL-AZHAR UNIVERSITY TO THE GROUP OF AMERICAN CLERGY WHO VISITED HIM ON SATURDAY JULY 4, 1959.

The University of Al-Azhar, which is more than ten centuries old, welcomes you in its precincts and prays the Almighty Lord to make this visit of yours the beginning of a new era, in which men of religion all over the world cooperate, each on his part seeking to plant the tree of faith and of God's unity deep in the hearts of all men so that humanity may be purified of paganism, of the false conception that God is not one, of tyranny and oppression and so that it may achieve inward peace and outward happiness.

Al-Azhar fully appreciates your visit as men of religion meeting with Azharites in one place, aiming at the same objectives and working to save the weak from the tentacles of the strong, to relieve those who have been expelled from their mother-country and restore them to their homeland, where they grew whose water they drank and whose crops they ate.

The Holy Kor'an has esteemed men of the church for their kindness of heart and their tenderness of feeling. This is expressed in the following words addressed by the Lord to his prophet.

" Thou wilst find that those who are closest to the faithful as friends are those that proclaim they are Christians. Of these are priests and monks for they are not haughty and when they listen to what has been revealed to the Messenger their eyes overflow with tears as they realise the truth thereof. They say : " Our God; We now believe in Thee and may You include us among those who have given testimony ".

happiness of the individual and of the society in this life and in the Hereafter. All elements of good and success, elements of decent life and everlasting happiness are demanded, propagated and urged for by Islam. Similarly, all elements of evil and corruption, elements of indignant life and constant unhappiness are forbidden and warned against by Islam.

To this general principle God refers by these verses: "Surely this Qur'an guides to that which is straightest, and gives good tidings to the believers who do good works that theirs will be a great reward. And that those who disbelieve in the Hereafter for them we have prepared a painful doom" (Surah 17, Vs. 9-10). "O you who believe! Obey God, and the messenger when He calls you to that which quickens you..." (Surah 8, V. 24). "And if they had observed the Torah and the Gospel and that which was revealed to them from their Lord, they would surely have been nourished from above and from beneath their feet" (Surah 5, V. 66). "Whosoever does right, wether male or female, and is a believer, him verily we shall quicken with good life, and we shall pay them a recompense in proportion to the best of what they used to do" (Surah 16, V. 97). "We verily sent Our messengers with clear proofs, and revealed with them the Scripture and the Balance, that mankind may observe right measure..." (Surah 58, V. 25).

The Bases of Islam for the Reform of Humanity:

This is being so because Islam has established its order of the world on actual considerations. It is aware of the fact that man is composed of soul and body each of which is entitled to a certain share of enjoyment, and that he has a dual personality of two aspects: one is individual by which he is independent of his people, and one is social on the basis of which he is a solid brick in the structure of his community and of the human society at large. This dual personality or, in other words, each of these two aspects endows man with certain rights and tasks him with certain duties,

And the happiness of man cannot be fully realized unless both his body and soul enjoy their moderate share of enjoyment without going to extremes, and unless he adjusts his rights and duties in the light of his relation to God, his compatriots and mankind in a balanced manner without going to extrems.

Should we go through all that which Islam has brought of beliefs and morals, worships and laws, we shall find that they all lay within this sphere, the sphere of care for the body and the soul of man as an individual and as a member of society.

wise, the Knower, the Aware of what is in the hearts of men, the Master of the selves and the Designer of good and happiness, would reveal contradictory and conflicting religions which no mind can possibly harmonize or reconcile neither as regards their truth nor as regards the behaviour of people under their rules. In connection with the story of Creation and Formation God has told us that whatever comes from Him to His bondmen is guidance and mercy. And there can be no mercy in contradictory and conflicting revelations. Mercy generates from propagating the truth and giving its right picture. But truth does not oppose or contradict truth. What contradicts truth and opposes it, however, is falsehood. In this respsct and after giving the account of Adam and his repentance, God said: "Go down hence, both of you and the devil hostile one to the other. But when there comes to you from me a guidance, then whoso follows My guidance, he will not go astray nor come to grief. But he who turns away from remembrance of Me, his will be a difficult life, and I shall bring him blind to the assembly on the Day of Resurrection" (Surah 20. Vrs. 123 - 124).

The Immortality of Islam

So far it has been established that Islam is the religion of God and His guidance to His creatures designed for their sake from the very beginning of the creation and sent to them with His messengers to call the people to it and warn them against opposing it or turning away from it. It is also established that God is *the* Alive and *the* Eternal, and that eternity and intrinsic mercy belong to Him. So Islam, regarding its source and ordainer, namely, God, Who sent His messengers with it when it was first revealed and when it was finally perfected, is as everlasting as the mercy of God upon His people. And since the mercy of God upon His people is everlasting and incessant, it is only natural that Islam which is the manifestation of God's mercy cannot be but everlasting and incessant. This is the first conceivable thing in search for the element of immortality in Islam.

Islam Guarantees Personal and Social happiness :

So if we believe in this conclusion and are convinced of it as an element in the immortality of Islam, as emanting from God, *the* Merciful, *the* Eternal and Everlasting, we are to reflect upon the teachings of Islam and find out the extent of thier relation to the happiness of man. Thus if we take this view and examine the teachings of Islam in general or in detail, we shall see that Islam is the best system to guarantee the

It is appropriate for us to consider these verses in the light of the other ones in which God says: "O you who believe! Observe your duty to God with right observance, and die not save as those who have chosen to be muslims" (Surah 3, V. 102). This contrast is to show us that the word of the early messengers of God is the same as that of the later of them and that their way is the same, and *the* religion is Islam. "say: O people of the Scripture (Jews and christians)! come to an agreement between us and you: that we shall worship none but God, and that we shall, ascribe no partner to Him, and that none of us shall take others for lords besides God. And if they turn away, then say: Bear witness that we are they who have chosen Islam" (Surah 3, V. 64).

In addition to these verses we may mention others by which God makes reference as to how Judaism and Christianity were invented and how the religious bond of unity between them was dissolved. He says: "Abraham was not a Jew, nor was he a Christian; but he was an upright man, a Muslim, who had surrendered (to God), and he was not of the idolaters" (Surah V. 67). * And they say: Be Jews or Christians, then you will be rightly guided. Say (to them O Muhammad): Nay, but (we follow) the religion of Abraham, the upright, and he was not of the idolaters. Say (O Muslims): We believe in God and that which was revealed to us and that which was revealed to Abraham, and Ishmael, and Isac, and Jacob, and the tribes, and that which Moses and Jesus received, and that which the prophets received from their Lord. We make no distinction between any of them, and to Him we have surrendered (become Muslims). And if they believe in the like of that which you believe, then they are rightly guided. But if they turn away, then they are in Schism, and God will suffice you (for defence) against them. He is the Hearer, the Knower. (We follow) the way of God, and who is better than God at guiding to the right way? We are His worshippers" (Surah 2, Vrs. 135 - 138).

These verses and many like in the Glorious Qur'an unequivocally explain to us that the religion with God is Islam which was advocated by the first messenger of God and the last one alike. In the beginning it was voiced by the first messenger and later was perfected by the last one "This day have I perfected your religion for you and completed my favour unto you, and have chosen for you as religion Islam" (Surah 5, Vrs. 3).

It is inconceivable that God, the

wondered saying: had it not been for the place of that particular brick, (the house would have been perfect). I am the missing brick, and I am the last prophet".

In the Qur'an there are many arguments to prove the sameness of religion. God made a covenant with every prophet to support his successors as well as his predecessors by virtue of confirming their messages as true and the same as his own message, so that every prophet could do his share in the advocation of the same call. The Qur'an says: When God made (His) covenant with the Prophets, (He Said): Behold that which I have given you of the Scripture and knowledge. And afterward there will come to you a messenger, confirming that you possess. You shall believe in him and you shall help him, He Said: Do you agree, and will you take up My burden (which I lay upon you) in this (matter) ? They answered: We agree. He Said: Then bear you witness and I will be a witness with you. Then whosoever after this shall return away they will be miscreants. How do they seek other than the religion of God, when to Him submitts whosoever is in the heavens and the earth, willingly or unwillingly, and to Him they will be returned. Say (O Muhammad): We believe in God and that which is revealed to us and that which was revealed to Abraham and Ishamel and Isac and Jacob and the tribes, and that which was vouchsafed to Moses and Jesus and the prophets from their Lord. We make no distinction between any of them, and to Him we have submitted. And whoso seeks as religion other than Islām it will not be accepted from him, and he will be a loser in the Hereafter (Surah 3 Verses 81 - 85).

It is clear from this very vers that the religion of God is one and the same, and that the religion of God is Islam. " Surely the religion with God is Islam. And those who formerly received the Scripture differed only after knowledge came to them through transgression among themselves. (Surah 3, V. 19).

" And who forsakes the religion of Abraham save him who befools himself ? Verily We chose him in the world, and surely in the Hereafter he is among the righteous. When his Lord said to him: Surrender (be a Muslim) ! he said: I have surrendered to the Lord of the Worlds. The same did Abraham enjoin upon his sons, and also Jacob, (saying): O my sons ! Surely God has chosen for you the (true) religion; therefore die not save as men who have surrendered (to Him ", viz., been Muslims. Surah 2, Vrs. 130 - 132).

understood and how its course is to be conducted has made the people lose their personality and miss their prestige. Likewise, the difference of opinions concerning the understanding of religion as regards its truth, its purpose and its source has dissociated the people. Nay, it has created antagonism and caused war as well as spite among all mankind. Hence they have broken off the human, common kinship and turned the one guidance of God, which He revealed to rightly guide His creatures, into different trends and conflicting religions. To create these different trends and conflictfng religions they arbitrarily subjugated the one guidance of God to traditions which they fabricated or nationalities to which they fanaticaly adhered or to policies which they adopted. The inescapable product of this was the emergence in the minds of people of Judaism, Christianity and Islam which God revealed to Moses, Jesus and Muhammad respectively. Each of these three faiths have certain teachings adhered to by zealous followers who have faught for it and antagonized others for its sake.

As a result there have existed various religions on earth and the one guidance of God has been given by man disharmonious forms, in spite of the fact that the Divine religion of God is one with no specific Judaism or particluar Christianity in it. It is one religion and one guidance with one system derived from one source which is God, the Master of the heavens and the earth and the Lord of all mankind.

Islam is the Religion in the Sight of God

Contray to what many people think, Islam is not a new religion. According to the Glorious Qur'an it is the religion of God which He successively revealed to all His messengers from the very first to the very last to awaken the people of different mentalities and organize their communities in the light of their various circumstances.

When humanity was mentally and intelligently prepared, God sent Muhammad to renew the call of his previous brother-messengers, to confirm its truth and perfect it with what human adulthood and mental maturity required. Thus the messengers of God were, as Muhammad attested, like masons of one house, seekers of the same kind of happiness and advocates of the same call. Muhammad said: "My position compared to that of the prophets before me is like the position of a man who built a house; completed it and gave it the final touch except a place of one brick which was left untouched. Then people came in and

The Source of Immortality in Islam

by
His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout
Rector of al-Azhar University

It is indispensable for the nation to have a moral personality to maintain its moral entity just as it is to have a tangible personality to preserve its tangible existence. The latter personality derives from the fact that the natives of the nation settle on its territories, utilize its land and air and bear its name; whereas the former personality goes back to the feeling of the natives concerning their position and rule in life and to their attitude toward this rule.

There is no doubt that when the moral personality of the nation weakens or ceases to exist the very moral entity of that nation also weakens or ceases to exist. Consequently the nation falls down to humiliation even in its own territories, suffers from poverty even if the *manna* and *quails* be sent down on it, and gives a little impression even if its inhabitants be enormous. Such a nation, as the Messenger of God rightly said, will be too weak to stand any encroachment and will be an easy temptation to other nations of moral personality.

How to maintain the Personality of the Nation:

The danger of disunity of opinions and dissociation of hearts, when inflicted upon nations, make the people lose their personality and lead them to utter destruction, even though they may be going and coming, moving and standing. And there can be no protection against such a danger unless the wise leaders and intelligentsia of the nation hasten to harmonize the opinions of the people and endeavour to make them unanimous in such a manner as to feel genuine participants in one kinship which they jointly admit its rights and willingly undertake its duties. As a result of this the feelings and opinions of the people will become united and their hearts will be closely associated. Also their goal, which is the dignity and strength of the nation and maintenance of its personality and for which they all endeavour, will become concrete and clear.

In our present age the difference of opinions as to how life should be

the form ot the Islamic principles which stand opposite to the heinous actions and prevailing traditions of the Pre-Islamic era. It is the parellel of war justifiably ordained after the declaration of Islam. It is equivalent to greatening God as most Magnificent at the opening of prayers. The combination by Islam of greatening God, which is the symbol of power, and saying peace, which is the symbol of mercy, is good evidence that this kind of power which Islam demands is the power of wisdom and justice, not of insanity and injustice. It is a dual power or a power inclusive of two implicit sub-powers of which one combats tyranny and aggsession while the other resists egoism and injustice.

Thus the Muslim opens his prayers with greatening God which means devotion and submission to Him, and ends them with a declaration of peace which means security and mercy. After all, " peace be upon you ", is the greeting of the Muslim to his Prophet in prayers and to his co-religionists whenever he meets them. He utters this greeting to assure them of security from his side and make them, through his affection, have confidence in him.

So you see that the sane and useful power, which produces dignity and manliness as well as liberty and justice, is the nature and course of Islam. The concept of Islam in Muhammad and his successors Abu Bakr and Umar was based on this principle, and the concept of Arabism in Khalid, Saad and Amr (all were Muslim commandors) was consistent with this rule. Arabs and Muslims of that time bore the Qur'an for the sake of truth and carried the sword for the sake of right. Their califs were leaders of prayers as well as commandors in battle-fields. In the sphere of power they reached a high degree that made them respectable and counted for and made the Letter of Haroun al-Rashid to Nechfour more effective than a formidable army. Conversely, in the sphere of manliness they reached such a standard that obliged al-Mutasim, the Abbasid Calif, to send an army especially for the rescue of a frightened woman in a remote place.

So whoever is not strong in his will and his self, not well-prepared to meet the enemy not, a firm believer in unity, and not careful about his society and nationalism, is a nominal Muslim without Islam and an artificial Arab without Arabism.

bodily cleanliness by ablution, a spiritual purification through the remembrance of God and a physical exercise by motion. Likewise, alms-giving strengthens the weak through charity, increases the wealth by its purification and consolidates the community by virtue of co-operation. Moreover, pilgrimage is a social force originating from getting acquainted and being friendly with other pilgrims. It is a political force based on making consultations and alliances. It is also an economical foree built on purchasing and marketing. Had Islam not been empowered with spiritual force in prayers, with economical force in olms - giving, with soeial force in pilgrimage and with material force in war, Muslims would not have been able to conquer most parts of the Antient World and become sovereign in the major areas of Africa and Asia, and in the frontiers of West and East Europe.

The second slogan, "There is no deity but God", is the expression of monotheism which is a substantial principle in Islam and one of its major beliefs. It is originally meant to declare the unity of God and then, by necessity, establish the unity of Muslims and their *Qiblah* (prayer niche), their aims and their language, their government and their constitution, and finally to combine life and religion. It is one of the most comprehensive expressions which maintain the substance of reform and the secret of success of societies and nations; because the most effective means of power and conformity is unity and association which are the essence of the Islamic call.

Unity is the foundation on which solid societies are built. So the policy of Islam wss drawn in such a way as to preserve power through unity and be keen on keeping the survival of society. Hence the individual who disbelieves in the unity of faith and of the nation is to be killed, and the group which transgresses against the Muslim society is to be faught, and the ruler who misleads his people is to be deposed. And because of this conception of unity and association, prayer is best and most rewarding when performed in groups which are summoned five times every day, and which grow larger on the Friday's congregations and become still much larger on the occasion of the two annual feasts of Islam. These groups devotedly gather in services throughout the year on the mentioned occasions and reach the utmost possible enormity in the season of pilgrimage which takes place once a year and which every able Muslim should make one time, at least, in his life.

Let us now consider the third slogan, "peace be upon you". It is

These scattered forms of power gather and centralize in three formulas with three slogans: The power of the individual through faith the slogan of which is " God is Most Great", the power of community by means of solidarity the slogan of which is " there is no deity but God " and the power of the world through affection the slogan of which is " peace be upon you ". The utterance fo glorifying God as Most Great and of extending peace is the appeal of the Muslim in his prayers as well as in his calls for prayers (al - adhan). It is his principle in actions and dealings. And one does not find a short representation of the meanings and aims of Islam better than these three slogans.

The sentence " God is . Most Great " implies the secrets of belief, of holy and justifiable war (al-jihad), of sacrifice and of victory. And because it implies all these secrets it has been a fundamental pillar of prayers with which the Muslim opens his worship and which he repeats in his bowing (ruku') and prostration (sugud), in his standing and sitting. It is also a cry of enthusiasm which the warrior in the way of God utters when he launches an attack to make him aspire to victory and disdain danger. The cry has often been as follows: " God is Most Great ! He helped in conquest and gave victory". But when victory is attained and conquest is achieved, this cry turns to be a national anthem uttered by warriors in every mosque and recited by worshippers on every feast as they chant: ' God is Most Great. Much praise be to Him. There is no deity but God only. He has fulfilled His promise and given victory to His bondmen, and only He has defeated the clans ".

The Power in this statement is derived from the Muslim's belief that God is most great, most powerful and most sublime. So, in custody of this belief the Muslim attacks formidable armies and undertakes dangerous tasks without fear, — and how can he be afraid of harm or perplexed by danger while God, who has utmost power and authority, defends him from behind and guards him from before ?

The declaration that God is Most Great is in reality an expression of what is in the mind of glorifying the highest ideal and admiring the most perfect action. Thus we glorify God when our hearts are filled with His greatness and when we are deeply impressed by His creation we glorify God everyday when we call for prayers and when we pray; because Islam with its five pillars is based on power or on what produces power. Hence prayer is a means o

THE THREE POWERS OF ISLAM

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in - Chief

Islam is the religion of "power". It cannot be otherwise; because its promulgator is the Almighty God, and its conveyer is Muhammad, the determined and faithful patient messenger, and its Scripture is the inimitatable Qur'an which stands as an undefeatable challenge to everybody, and its tongue is the Arabic tongue which eloquently silences every other tongue, and its courageous commandors, who took after Khalid Ibn al-Walid the ever triumphant commandor, defeated with their sword the Roman and Persian emperors, and its caliphs, who followed the example of Umar Ibn al-Khattab, built their thrones on the sumits of the East and the West.

Islam is power in the mind, power in the tongue, power in the hand and, finally, power in the spirit. It is power in the mind because it enjoins upon it to hold monotheism by proof, to correct the law with evidence, to broaden textual meanings with sound judgement and to deepen faith through meditation.

It is power in the tongue because eloquence is its miracle as well as its instrument, and eloquence itself gives power to ideas, sentiments and expressions.

It is power in the hand because its Revealer is the Wise and the Aware, who knows that the mind with its intrinsic power and the tongue with its spontaneous eloquence cannot substitute for truth, if the perception be vague and the self be arbitrary and the sight be blind. So He has rendered material power a safeguard to His word, a summoner to His truth, a realization of His verdict and a supporter to His law. He commands Muslims to fight in the way of His and their religion, to prepare force and frighten His and their enemy, and to meet aggression with a like action.

Besides all that, Islam is power in the spirit because it purifies its essence by virtue of fasting, prayers, training in self-denial and solitude for worship and meditation.

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث — ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ — سبتمبر سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادي والثلاثون

الفهرس

ذكرى مولد الرسول

من المهود المظلمة أشرق نور الله

بقلم: أحمد حسن الزيات

ولد الكليم موسى بن عمران فى مهد قلق يساوره الخوف والترقب، ثم أخفته أمه عن عيون فرعون فى تنور، ثم ألقته فى الماء وتركته للأقدار فى صندوق، ثم نجاه الله من الحرق والغرق والتيه؛ ليتلقى الألواح منه على جبل الطور.

وولد المسيح عيسى بن مريم فى العراء تحت جذع النخلة على الثرى المرمل، ثم وضعته أمه الهاربة فى مهد خشن من مذود بهيم، ثم آتاه الله الكتاب والنبوة والبركة فنشرها فى المشرقين من فوق جبل الزيتون!.

وولد المصطفى محمد بن عبد الله فى مهد اليتم والعدم لا يجد الدفء كن له أم، ولا العطف كن له أب، ولا اللبن كن له مال، ثم رعى على بعض أهله، وسعى بمال زوجه، ودعا إلى سبيل ربه، ثم نزل عليه الروح الأمين بالرسالة الخالدة فى غار حراء من جبل النور!.

* * *

تبارك الله ما أجل شأنه وأعز حكمه! شاء لنوره وبرهانه أن يشرقا من هذه المهود المتواضعة، ولمجده وسلطانه أن يظهرا فى هذه النفوس الوادعة، لتكون آيته أبهر للعيون، ودعوته أبرع فى العقول، وكلمته أعلق بالأفئدة، ولو اتخذ رسله من الملوك العواهل لاتهمت المعجزة، والتبس على الناس فعل القدرة.

من المهود الفقيرة النابية اختار الله ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ـ أنبياءه ورسله، ثم أيدهم بالمعجزات إيجابا للحق، وأمدهم بالآيات إرهابا للباطل، فجاهدوا الشرك، وحاربوا الفساد، وهيئوا الأرض لغراس الخير ووجهوا الإنسان إلى طريق الكمال، وأعدوا الأذهان لتقبل الرسالة الأخيرة والدعوة العامة: رسالة الحقائق والبراهين، لا رسالة الخوارق والقرابين. ودعوة العالم المعمور والزمان المؤبد، لا دعوة المكان المحصور والزمان المحدد.

والمعجزات إنما كانت الدليل على الحق والسبيل إلى الله أيام كان الحس أقوى من العقل، والسذاجة أغلب على الفكر، فلما

انجابت عن البصائر أغشية الجهل من طول ما وعظ الأنبياء وعلم الحكماء ومحصت العبر، أصبح الوحي علما والإلهام حكما والبينات فهما والدعوة منطقا والرسالة شريعة ، وأصبح محمد اليتيم العديم الأمى مثلا للإنسانية الصاعدة فى طورها المفكر المعبر، يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة والمجادلة اللينة ، ولا برهان إلا كتاب ربه ، ولا سلطان إلا إيمان قلبه : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى ! هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ » .

والواقع المأثور أنك تقرأ سير الأنبياء وتواريخ الرسل فلا يروعك فيها إلا سلسلة من المعجزات والآيات تؤيد النبى أو تصدق الرسول فى مواقف إقناعه أو دفاعه أو شدته ؛ إلا محمدا صلوات الله عليه فقد آتاه الله مواهب الكمال الإنسانى فميزه بالخلق العظيم والرجولة الكاملة والشخصية المهيمنة ، فكان فى ذاته معجزة وفى صفاته آية . تألبت عليه عناصر الشرك فأصيب فى بدنه ، واتهم فى عقله ، وأوذى فى أهله ، وعذب فى صحبه ، وحورب فى دعوته ، فما قابل ذلك العدوان الباغى إلا بعزمة الإنسان الأعلى ، فجاهد بالصدق ، وجالد بالصبر ، وجادل بالمنطق ، وصاول بالرأى ، وأثر باللسان ، وقهر باليد ؛ وكل هذه الأمور إنما تصدر عن براعة الذهن وإعجاز البطولة . وتلك مزيته الظاهرة على أصحاب الرسالات ؛ إذ كان كل نبى وكل رسول إنما يبين شأوه على قومه فى بعض المزايا إلا الرسول العربى فقد تم فيه ما نقص فى غيره من كمال العبقرية ، فكان رسولا فى الدين ، وعلما فى البلاغة ، ودستورا فى السياسة ، وإماما فى التشريع ، وقائدا فى الحرب .

ثم كان فى غار حراء ، وفى دار الأرقم ، وفى جبل ثور ، وفى دار أبى أيوب ، وفى المسجد الجامع ، مظهرا صحيحا لروح الله ، وإعلانا صريحا لسر الدين ، ومثالا عاليا لصدق الجهاد ، واحتمالا ساميا لمكاره الدعوة ، وأسوة حسنة لجميع الناس .

* * *

إن حياة الرسول قانون إلهى خالد لصاحب الدين وصاحب الدنيا ، وإن وسائل الجهاد التى جدد عليها أسلوب العيش ، وأقام بها ميزان المجتمع ، لا تزال عناوين ضخمة فى صفحات العلم والسياسة والخلق .

كانت حياته صلوات الله عليه قائمة على الزهد والجهد ، وزعامته دائرة على التضامن والتعاون . ملك الحجاز ونجدا واليمن ، وجبى

الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالى طاوين لا يجدون العشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون نارا ، إن هو إلا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم فى الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، وإذا أقبل على أصحابه فقاموا له إجلالا قال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

وكان ذات مرة فى سفر ، فأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : علىَّ ذبحها ، وقال ثان : علىَّ سلخها ، وقال ثالث : علىَّ طبخها ، فقال الرسول عليه صلاة ربه وسلامه : وعلىَّ جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله ، إنا نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفوننى إياه ، ولكننى أكره أن أتميز عليكم . ولما استعز دين الله بقاسم الفىء وزعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن إنما هى سر الخالق العظيم . استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ، ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

أما شخصيته فكانت أبلغ ما فى رجولته . خضعت لها الرءوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ من صناديد العرب ، فكانوا يسمتون سمته فى الخلال ، وينهجون نهجه فى العيش ، ويأخذون إخذه فى المعاملة ، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعا لا يخرقه إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، وأحكامه أقضية تنفذ .

لذلك نذكره فى كل أذان وفى كل صلاة من كل يوم . نذكر اسمه مع اسم الله لا تعبداً به ، فإن الشرك معاذ الله لا يكون غير هذا . إنما نذكر الله ونذكر بعده محمداً كما تذكر القاعدة ومعها المثل ، أو النظرية وبعدها العمل . لأن الله يوحى والرسول يبلغ ، ويأمر وهو ينفذ ، ويشرع وهو يطبق . فذكر الله استحضار لأوامره ونواهيه وتلك هى القدرة . وذكر الرسول استحضار لأقواله وأفعاله وتلك هى القدوة .

* * *

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة . فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة .

أحمد حسن الزيات

تحدي الإله ومعناه

للأستاذ عباس محمود العقاد

من أنباء الملاحدة الماركسيين أن أحدهم وقف فى إحدى محطات الإذاعة فنادى «الله» ، إنه ليتحداه إن كان موجوداً لينسفن هذا البلد وليمحون تلك الدولة ، أو فليعلم الناس جميعاً أنه خرافة ليس لها وجود .

إن هذا الملحد المتحدى لا يفهم ما يفهمه الناس من كلامه بغير حاجة إلى التأويل الطويل .

إنهم يفهمون منه مبلغ ما يدركه الملحد الماركسى من معنى الربوبية ومعنى القدرة ومعنى « السلطة » على التعميم .

فهو لا يفهم من تحديه الإله على هذا الوجه إلا أن الإلهية سلطة غاشمة يثيرها التحدى فلا يسعها إلا أن تظهر قدرتها أو تنزل عن كل حق فى إثبات وجودها .

فهذا الملحد الماركسى لا يعقل أن يوجد الإله ويقدر على كل شىء ثم يترك من يتحداه سليما بعد ذلك طرفة عين ، دون أن ينكل به ويعجل برد تحديه إليه .

وما الذى يمنع السلطة الغاشمة أن تبطش بمن ينكرها ؟ .

لا يمنعها عنده إلا مانع واحد، وهو أنها كما قال ذلك الملحد الماركسى خرافة ، ليس لها وجود.

هذا الفهم الوحيد الذى يفهمه لمعنى الإلهية من يفوه بذلك التحدى على مسمع من العالم ، وهو يحسب أنه قد أفحم به من يؤمنون بالله .

وإلا فكيف يفوه بذلك التحدى عاقل يفهم أن الإلهية « سلطة » لها نظام ولها حكمة ولها مشيئة تتبعها ولا تنحرف عنها لاستثارة أو استرضاء ؟ .

من كان يؤمن بأن الإلهية سلطة لها نظامها وحكمتها فمن اليسير عليه أن يعلم أنه لا يهزها بتحديه فيخرجها من ذلك النظام ويذهلها عن تلك الحكمة .

وقد يسع الطفل الصغير أن يكف عن مثل هذا التحدى لأبيه إذا عرف له صفة من صفات العقل والحكمة ، فليس بالطفل الذكى من يقول لأبيه : إن كان لك قدرة فاضرب فلاناً حتى يهلك أو انهض بهذا الحمل حتى آذن لك بإلقائه . !

فمن اليسير على الطفل الذكى أن يدرك أن أباه خليق ألا يجيب هذا التحدى على هواه ، ولا ينفى ذلك عنه أنه ذو قدرة وأنه يستطيع أن يهلك بها فلاناً وأن ينهض بالحمل المقصود إذا أراد .

فالملحد الماركسى أسخف من الطفل حين يخطر له أن يتحدى إلها حكيما يضع الأشياء فى مواضعها كما يقدرها فيزعم أنه «غير موجود» ، لأنه لو كان موجوداً لأبطل تلك الحكمة وأوقع الخلل فى ملكه ، خوفاً من الريب فى وجوده ، وفراراً من الملحدين أو المؤمنين أن يظنوا به الظنون .

ومن كان يفهم الإلاهية على أنها سلطة رشيدة فلن يتحداها أن تفعل غير ما أرادت أن تفعله منذ الأزل ، وغير ما تريد أن تفعله إلى آخر الزمان ، لأنه إذا استطاع بكلمة من كلمات التحدى والاستثارة أن يغير ما تأبى تغييره فذلك هو البرهان الذى ينفى وجودها أو ينفى حكمتها على أقرب الفروض .

فلو شاء الله أن ينكشف وجوده للفكر والضمير كما تنكشف الأشياء لجميع الأبصار لفعل ذلك بإرادته منذ وجدت الأفكار والضمائر والأبصار ولم ينتظر حتى يفعله منقاداً للخوف من الاتهام أو طمعاً فى التمليق والثناء .

ولقد يحق للملحد الماركسى أن يسأل فى هذا المقام : ولم لا يشاء ؟ ولم يترك الناس ينكرون ويثبتون أو يحشون ويرتابون ؟ ولم لا يكشف لنا جميعاً حقيقة وجوده على نحو يبطل فيه الخلاف وتزول الفوارق ويمتنع الشك والضلال ؟ .

إن هذه الأسئلة أقرب إلى العقل من ذلك التحدى الأحمق الذى يثبت حماقة صاحبه ولا ينفى حكمة الإله .

ولكنها أسئلة لا تحتمل اللجاجة فيها بعد قليل من التبصر والروية ، بل بعد قليل من التصور إذا استطاع السائلون أن يتصوروا كيف يكون هذا الإيمان ، وكيف تكون الضمائر التى تهتدى إليه .

إنها لا تكون إلا كما تكون الآلات أو كما تكون العجماوات .

إن العلم بوجود الله كالعلم بوجود المنظورات بالعين يلغى الضمائر والعقول ، ويبطل جهود النفس الإنسانية فى امتحان الخير والشر والهداية والضلال .

والمعرفة بحاسة البصر معرفة يتساوى فيها الإدراك كما يتساوى إدراك الآلة وإدراك الحيوان ، فهل هذه هى المعرفة التى تليق بالإنسان المسئول عن ضميره ، الباحث عن هدايته المترقى بسعيه واجتهاده ؟ وهل يطلبون أن يتساوى الناس فى مدركات الضمير وحدها أو يطلبون أن يتساووا فى مدركات الحواس وملكات الأجسام والأفهام ومقادير الأعمار والأيام ؟ وهل هذا العالم الإنسانى الذى يتألف من نسخة واحدة متكررة هو عندهم عالم المثال المنشود ، وهو العالم الذى تثبت به حكمة الله ووجوده ويستقيم عليه أمر الوجود ؟

إن أهون ذرة من التراب لا تعطينا حقيقتها

الكاملة فى لمحة عين ، ولا نستغنى فى عرفانها والانتفاع بها عن جهود العمل والتفكير والتحليل لندرك منها بعض مايدرك ولا نقول كل ما يدرك ، لأننا نجهل كنه الذرة الترابية وغير الترابية حتى الآن ، ولعلنا سنجهل هذا الكنه فى قراره ومداه إلى أن يشاء الله .

ويحدث هذا ولا يرى فيه الملحدون الماركسيون عجبا منكرا ولاشذوذا عن الوضع الصحيح والرأى السديد ، بل يقيسون التقدم الذى يدعونه بمقدار ما حصلوه ويحصلونه من هذه الحقائق ولو كانت معلقة بأهون الأشياء .

وإن الشمس على جلائها لتخفى عليهم الآن بعد أن خفيت على الأقدمين دهورا بعد دهور ، ولقد كانوا يحسبونها كقرص الغربال فأصبحوا يعرفون اليوم أنها أكبر من الأرض والقمر والسيارات ، وكانوا يحسبونها تدور فأصبحوا يعلمون أن الأرض هى التى تدور ، وكانوا يجهلون سرعتها ومسافاتها فأصبحوا يعلمون الآن كم هى بالدقائق وكم هى بالأميال .

إلا أنهم لا يزالون يجهلون منها أضعاف ما عرفوه ، ولا يزالون يبحثون عن مصدر حرارتها فيخلطون بين النقيضين ويزعمون مرة أنه من تكوين العناصر ومرة أخرى أنه من تفتيت العناصر وانشقاقها ، ولايدرون على التحقيق هل يندفع اللهب من باطنها إلى ظاهرها أو يرتد من ظاهرها إلى جوفها ، ولا يستغربون من نظام الكون أن تكون شمسه الساطعة بهذا الخفاء وأن تحار فيها العقول هذه الحيرة ، وهى أم الضياء .

فما بالهم يريدون من الحقيقة الإلاهية أن تكون أقرب منالا من حقائق هذه الكائنات التى لا يدعون لها عظمة الربوبية ولا جلالة الأبدية !.

وما بالهم ينتظرون من حقيقة الحقائق أن تحيط بها لمحة عين ، ويستكثرون السعى إلى غاية الحقائق ولا يستكثرون السعى إلى أقرب الحقائق من متناول الأسماع والأبصار ! .

إن العلم بوجود الله مطلوب ، ولكنه علم لا قيمة له إذا كان يلغى العقول ويعطل الضمائر ويبذل لمخلوق لا فضل له فى إدراك أقرب الحقائق وأبعدها على الآلة والحيوان .

وقبل أن ينتقد الناقد ما ينتقد من هذه العظائم الجلى عليه أن يتعلم كيف يقترح وكيف يصحح ما ينقده ولا يرتضيه .

إن بحث العقول والضمائر عن الله منتقد عندهم وغير مفهوم .

فلنقل ما يقولون هنيهة لنسألهم : وما هو المفهوم المنزه عن الانتقاد ؟ أهو إدراك الله بغير بحث ؟ أهو الاستغناء عن البحث فى أمر الله وحده أو فى جميع الأمور ؟ وهل عندهم أن الإله الموجود الحكيم هو الإله الذى تقاد

مخلوقاته إلى الحقائق الكبرى أو الصغرى بحبال الغريزة على غير فهم ، ولا محاولة ولا تمييز بين ما يظهر وما يخفى ، وبين ما يكبر وما يصغر ، وبين ما تتصرف فيه المدارك وما يسلبها التصرف والاختيار ؟ .

أهذا عندهم هو الإله الموجود الحكيم ؟ تعالى الله عما يصفون ! .

فما من شيء هو أثبت لوجود الله من تنزيه مخلوقاته عن هذا العطل في العقول والضمائر ، وما نتحداهم أن يؤمنوا وهم غير أهل للإيمان ، وإنما نتحداهم أن يتصوروا إلها حقيقا بالعبادة على الصورة المرتضاة لديهم . فإنهم ليعلمون إذا راغمين أن الإله الذى لا يستحق البحث هو الإله الذى يأباه العقل السليم ، وأن الإله الذى نبحث عنه لهو هو الإله الموجود ؟

عباس محمود العقاد

العرب قبل مبعث الرسول

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ، وأحياء من غير غرض . فاضت فى نفوسهم الحياة ، وزخرت فى صدورهم القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر . فحمل إليهم وحده رسالة الله لا يسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا يمهد له مال ، فنفروا منها نفور الوحش المروع ؛ ثم رأوا فيها سيادة لأسرة ، وخضوعا لقانون ، وخروجا على عرف ، فقابلوها بالفساد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالكيد ، آذوا الرسول فى أهله وفى صحبه وفى نفسه فما وهن عزمه ولا لانت قناته ، وإنما قابل الأذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة باللين ، وهذا هو الخلق . ثم قارع الجدال بالتحدى ، والمكابرة بالسيف ، وهذه هى الرجولة .

وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب . وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم .

ا . ح . الزيات

الدين فى حياة الإنسان

للأستاذ الدكتور محمد البهى

١ ــ تطور الإنسان من حياة الغابة والغاب ، إلى حياة القانون أو حياة المدنية ، تطور من حياة القوة المادية ، وتحكيمها فى فض الخصومات واستقرار الأوضاع ، إلى الالتجاء إلى القانون فى الفصل فى النزاع وتحديد العلاقات .

فالنقطة الأولى التى منها بداية الحياة الإنسانية كانت الغلبة عن طريق العصبية فى الأسرة والقبيلة والكثرة العددية فى الجماعة . والنقطة التى تسود حياة اليوم هى موازين العدل الإنسانى التى تمثلها فكرة القانون البشرى . وبين هاتين النقطتين فى تطور الحياة الإنسانية كان الدين ، وكانت الفلسفة ، كل منهما مثل الدور الأول فى فترة معينة فى تاريخ الإنسانية ، ولم يزل يمثل دوراً ما للآن .

انتهت مرحلة الغاب بسيطرة الدين ، ثم نازعت الفلسفة سيادة الدين ، ثم قيض للقانون أن يشترك فى الصراع بين الدين والفلسفة فى توجيه الإنسان ، وأصبحت فى حياة الإنسان المعاصر ثلاثة اتجاهات ، تتنازع أولا البقاء بينها ، ثم يحاول بالتالى كل واحد منها أن يسود فى تقرير مصير الإنسان . أصبح الدين ، والفلسفة ، والقانون ثلاثتهم جميعاً هى المصادر التى يحارب بعضها بعضاً من أجل البقاء والسيادة . والفرق بينها يتركز : فى أن الدين ينسب إلى الله المعبود ، بينما الفلسفة والقانون كلاهما يعد من صنعة الإنسان .

أما غاية كل واحد من الثلاثة فلا تكاد تختلف عن غاية الآخر : فالدين يهدف إلى توضيح الطريق الذى يرى فيه سلامة البشرية فى التعايش معاً . والفلسفة تحاول ذلك ، والقانون بدوره يقوم على حفظ الحال التى تراها الجماعة الخاصة ، أو المجموعة الدولية ، كفيلة بصيانة التعايش المشترك ، والتعاون المثمر .

ولكل مصدر من هذه المصادر التوجيهية نفر خصص وقته وحياته لتوضيح القيمة الذاتية للمصدر الذى ينتسب إليه ، على اعتبار أنه وحده كفيل بالتوجيه السليم ، وبتحقيق الغاية المرجوة فى حياة الجماعة الإنسانية : للدين طائفة تبين مزاياه ، وللفلسفة طائفة توضح مزاياها ، وللقانون

طائفة تحرص على بيان مزاياه فى التوجيه العام .

الدين قد يصبح فلسفة ، وقد يصبح قانونا وتشريعا :

الدين قد يصبح فلسفة إذا حاول العقل الإنسانى أن يبرر ويعلل مبادئه من الوجهة النظرية العقلية . فليست الفلسفة إلا التعليل العقلى للموجود . فإذا علل الموجود من مبادئ الدين ، فقد دخلت هذه المبادئ فى نطاق العمل الفلسفى .

وقد يصبح الدين أيضا قانونا إذا أخذ فى تطبيق مبادئه على أحداث الحياة ،وسلوك الإنسان ، ووصفت الأحداث ، أو وصف السلوك الإنسانى بأنه يطابق تلك المبادئ . وعندما يؤخذ فى تطبيق مبادئ الدين على أحداث الحياة وسلوك الإنسان ، لا يكتفى فى التطبيق بحكم مجرد عن التعليل . بل لابد من التفقه ، وشرح المبادئ نفسها ، ثم شرح النوع الملائم وغير الملائم لها من أحداث الحياة وسلوك الإنسان . فهذا التفقه أو هذا الشرح هو القانون الذى ينتزع من الدين . أو صار الدين إليه .

والدين إذا أصبح فلسفة أرضى رجال العقل والفلسفة ، وإذا أصبح قانونا جذب إليه رجال الفقه والقانون . ومع أنه يمكن أن يصبح فلسفة ، فإنه لا يتحول إلى فلسفة كتلك التى أنشأها الإنسان بصنعته العقلية بادئ ذى بدء . ومع أنه أيضاً يمكن أن يصبح قانونا فإنه لا يتحول إلى قانون كهذا الذى شرعه الإنسان ووضعه بتقديره الخاص منذ البداية . بل تبقى لفلسفة الدين ، وقانون الدين ، خصائص الدين أو طابعه العام . وخصائص الدين أو طابعه العام أنه موحى به من الله ،وأن على الإنسان أن يؤمن به ، وأن يطيعه فى غير تردد ، وفى غير شك . عليه أن يرضى به رضاء نفسياً ، وإن لم يدرك كل أسراره وعلله ؛ لأنه من الله الذى يختلف عن الإنسان ، وفوق الإنسان ، هو من صاحب الأمر ، وصاحب الرعاية العامة ، والذى لا يستطيع الإنسان أن يحدده ويدرك حقيقة ذاته عند ما يتصوره .

والفلسفة قد تصبح عقيدة ، وقد يصبح القانون عقيدة أيضاً ، ولكن إذا أصبحت الفلسفة أو القانون عقيدة ، فإنه لا يصير إلى طبيعة الدين السابقة ، وإنما يصير إلى طبيعة التقليد أو « العرف » فى الجماعة ، لا يصير أحدهما إلى طبيعة الدين لأنه صنعة الإنسان وسيبقى كونه من فعل البشر مصاحبا له فى صيرورته . وإنما يصير فقط إلى طبيعة

التقليد ، أو طبيعة العرف فى الجماعة من حيث إنه واجب الاتباع . فقد أصبح عندئذ من المتوارث والمألوف فى الجماعة .

وإذن هناك فرق جوهرى بين الدين من جانب ، والفلسفة والقانون من جانب آخر . هناك فى جانب الدين كونه من الله ، وهنا فى جانب الفلسفة أو القانون كون كل واحد منهما من الإنسان . وإذا طلب الدين من الإنسان أن يفعل الخير ، وناشدت الفلسفة ، أو هدف القانون فى تطبيقه إلى الخير فى فعل الإنسان ، فالفرق مع ذلك باق بين الدين من جانب ، وبين الفلسفة والقانون من جانب آخر ، إذ مطلوب الدين ـ وهو فعل الخير ـ قائم على أنه من هداية الله ، بينما مطلوب الفلسفة أو القانون يرجع إلى أنه من تأمل الإنسان .

وهنا تنحصر الموازنة بين الله والإنسان فى تحديد الخير ، ورسم طريقه ، وتحديد الجزاء الذى يناط بفعله أو تركه : والله باعتبار أنه رب الجميع ، ومستغن عن الجميع ، ومستعل على الجميع ـ يحدد الخير بما فيه مصلحة الجميع ، ويرسم طريقه ، بما يكون ميسراً للجميع ، ويحدد الجزاء على فعله وتركه ، بما يناسب أثر هذا الخير فى صالح الناس جميعا ، ويلتئم مع طبيعة أنفسهم الغالبة .

وليس لله غرض ، وليست له حاجة قريبة أو بعيدة فى تحديد الخير الذى ينصح باتباعه . وكذلك لم يتأثر بأى مؤثر فى هذا التحديد . ولأنه يعلم طبيعة البشر حق العلم ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . يكون فيما يرسمه لطريق الخير ، متفقا تمام الاتفاق مع إمكانيات هذه الطبيعة ، كما يكون تحديده الجزاء ملائما كل الملاءمة لنفع هذه الطبيعة من فعل الخير ، ونفعها أيضاً من تجنب الضرر الذى نهى عنه .

أما الإنسان فى فلسفته وتقنينه فهو محدود بالبيئة ، ومحدود بالوراثة ، وبنوع الثقافة ونوع المعرفة ، فإنسان القرية غير إنسان المدينة فى إدراكه للحياة وتعبيره عنها . وإنسان الأسرة الصالحة غير إنسان الأسرة التى عاشت فى الانحراف أو الإجرام فى تصور القيم الأخلاقية والروابط الاجتماعية . والإنسان الجاهل فى تصوره واعتقاده غير المستنير فى إدراكه وفى إيمانه . وإنسان المعرفة من نوع خاص غير إنسان المعرفة من

نوع آخر : فالطبيب غير المهندس ، وكلاهما غير صاحب الثقافة الزراعية ، وجميعهم غير رجل المحاسبة . وهلم جرا . . .

وإذا كان محدودا بهذه المصادر فهو منفعل بها ، وتنعكس هي بالتالي في سلوكه ، وفي تفكيره ، وفي تحديده للحياة وأهدافها . هو وليد هذه العوامل الثلاثة . فما يصدر عنه في أي جانب ، في التصرف والسلوك ، أو التفكير والحكم ، يكون تبلورا لهذه العوامل الثلاثة . وعليه : فالإنسان صاحب الفكر الفلسفي في تحديد الخير : ما هو ؟ يتأثر بحياته الخاصة والعامة . وكذلك الشأن في رسم الطريق لتحصيل الخير ، ومن هنا نجد بين الفلاسفة تحديدات متنوعة للخير ، وكثير منها يناقض بعضه بعضا ، كما نجد رسمهم لطريق تحصيل الخير ، لا يقل اختلافا في التحديد ، عن تحديدهم الخير نفسه .

نجد من بين الفلاسفة من يفهم الخير على أنه ما لاءم المصلحة الشخصية . وتبعا لذلك : الإنسان نفسه مقياس الخير . هذا الإنسان يرى الخير في تحصيل المتعة البدنية ، وإن صاحبها اغتصاب لما يملكه غيره ، أو ترتب على تحصيلها انتهاك حرمة عرض غيره .

وذاك الإنسان الآخر يرى أن الخير في عزلة الناس والبعد عنهم ، وفي عزلة هذه الحياة عامة ، والاعتكاف عن ملذاتها وعما يتنافس فيه الناس من متعها .

فبمقدار ما يندفع الأول إلى تحصيل متع هذه الحياة ، التي يراها متعا من زاوية وجوده الشخصي ، بمقدار ما يقف الثاني موقفا سلبيا من هذه المتع ، والإنسان الأول هو الإنسان الشخصي أو الوجودي ، والثاني هو الزاهد البرهمي (أو الصوفي) .

وبينما نجد بين الفلاسفة أيضاً من يحدد الخير ، بأنه ما أصابت منفعته أكبر عدد ممكن من الناس ، وهو الفيلسوف المثالي ، إذا بنا نجد فيلسوفا آخر يحدد الخير ، بأنه : ما أصابت منفعته الجماعة الخاصة به أو بأمته وهو الفيلسوف الواقعي .

نجد من بين الفلاسفة من يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن توقف تحصيل المنفعة على الوشاية والمؤامرة ، أو على القتل جزافا وجملة ، أو انتهاك العرض ، فالوسيلة مشروعة : فحرب الإبادة في الجزائر مثلا مشروع في نظر المستعمر الفرنسي لأنه سيوصل إلى تمكين استعماره

هناك من استغلال ثروة البلاد الجزائرية الاقتصادية والبشرية . فتمكن الاستعمار غاية ، وهى غاية مشروعة لمصالح الاستعمار الفرنسى فالوسيلة لهذا التمكن الاستعمارى مشروعة كذلك بالتالى . وتأخذ مشروعيتها من النفع المترقب . إذ نجد مثل هذا الميكيافيللى ، نجد فيلسوفا آخر ينصح بعمل الواجب لذات الواجب ، بعمل ما يجب على الإنسان لصالح نفسه وصالح جماعته وصالح الإنسانية ، دون ترقب جزاء عليه ، ودون ترقب ثناء أدبى أو مكافأة مادية ، وهذا هو الفيلسوف الواجبى .

ترى من الفلاسفة من ينصح بإفناء الفرد فى الجماعة فتكبت حرية الفرد ، ويصادر ملكه ، ويجبر على تصرفه لصالح الجماعة التى هى الأمة . فالحياة إذاً للجماعة لا للأفراد . ثم ترى فى مقابل هذا فيلسوفا آخر يرى أن الجماعة يجب أن تكون فى خدمة الفرد ، وأن تعمل فى سبيل سعادة الفرد . فللفرد حريته فى التجارة ، وفى الاقتناء وفى إبداء الرأى وفى العقيدة وفى التمذهب بالمذهب الذى يراه فى حياته. له أن يعيش فى ظل عرف المجتمع وعاداته وله أن يخرج عن هذا العرف ، وهذه العادات. وسيان ، بعد ذلك فقر غيره ، أو شقوته ، أو جرح عواطفه ، وإحساساته . والرأى الأول يعرف بالمذهب الاجتماعى أو الاشتراكى ، والثانى يعرف بمذهب الحرية الفردية .

هذه أمثلة لاختلاف الفكر الفلسفى ، واختلاف المذاهب الفلسفية . ويرجع هذا الاختلاف إلى كون المفكر محدودا ، بحياته الخاصة والعامة .

وفى القانون لا يختلف الأمر عنه فى الفلسفة. لأن التقنين يقوم على أسس وفكر فلسفية . يقوم على نظرة المشرع (والمشرع هو الدولة فى العصر الحديث) إلى الحياة . ونظرة الدولة إلى الحياة تختلف باختلاف نظام الدولة نفسها:

هذه دولة شيوعية لها قانون يحفظ الوضع الشيوعى بين أفراد الأمة . وهذه دولة رأسمالية لها قانون يصون الحرية الفردية إلى أبعد حد فى استخدام رأس المال . وهذه دولة اشتراكية اجتماعية لها قانون ودستور يحدد علاقة الأفراد بالدولة والدولة بالأفراد ، على أساس من الفكرة الاشتراكية الاجتماعية ، وهى رعاية العدالة الاجتماعية بين الطبقات . وهذه دولة ملكية ، يقوم قانونها على صيانة العرش وتقديسه . وهذه دولة جمهورية يقوم قانونها على تأكيد حقوق الأفراد فى الوصول إلى رياسة الجمهورية .

هذه الجماعة يهودية يقوم قانونها على رعاية

التقاليد والعادات والمعتقدات اليهودية فى الأحوال الشخصية وتحديد العطلات السنوية وأنواع المأكول والمشروب ، والطريقة التى يتناول بها الأكل والشرب ، إلى غير ذلك فى الحياة العملية .

وهذه الجماعة مسيحية ، أو بوذية ، أو وثنية ، أو إسلامية ، لا بد أن يتضمن قانون كل منها تقاليدها الخاصة وعاداتها ، ومعتقداتها ، التى لها وحدها .

وإذن سبب هذا الاختلاف فى الدساتير والقوانين هو كون الإنسان « محدوداً » كذلك . ومن هنا نشأ فى القانون ما يسمى بالقانون الخاص ، وما يسمى بالقانون الدولى العام . والقانون الدولى مع ذلك يغلب عليه طابع التحيز للدولة القوية وعاداتها وغاياتها ، وأهدافها فى الحياة .

وكذلك المؤسسات الدولية ، كعصبة الأمم سابقا ، والأمم المتحدة فى حاضرنا ، فإن قوانينها وإن اتسمت بالطابع الدولى العام ، فإنها تقوم وتهدف إلى تحقيق غايات الدول الكبرى ، وهى الدولة القوية . فعصبة الأمم كانت وسيلة مشروعة من الوجهة القانونية لتحقيق استعمار الدول الضعيفة أو الصغيرة عن طريق الأمم الكبرى . وما جاء به قانونها مما عرف بـ « الانتداب » أو « الوصاية » على بلد ما لدولة كبرى هو نموذج عملى على تحقيق غايات الدول العظمى باسم القانون العام ، وهذه الغايات هى استذلال واستغلال الدول الصغرى لحساب الدول الكبرى ؛ هى انتقاص لحياة الشعوب الضعيفة لرفع مستوى حياة الشعوب القوية .

وهيئة الأمم المتحدة القائمة ليست إلا صورة مكررة لعصبة الأمم السابقة فى قانونها ، وفى أهدافها ، ولذلك يوم أن رأت بعض الدول الكبرى فى الماضى القريب ، أن مصالحها الاستعمارية لم تحقق - لأن أغلبية الدول الأعضاء فى هذه الهيئة عارضت هذا الجشع الاستعمارى - أعلنت أنها لم تعد صالحة للفصل فى القضايا الدولية ، والمشاكل بين الشعوب . ويتجلى هذا فى مشكلة قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

ولأن الفلسفة نشأت عن محدودية الإنسان ، ولأن القانون نشأ على هذا النحو أيضا — كانت الخصومة المذهبية طابعا

للفلسفة ، وكانت المفارقات الواضحة فى القوانين الخاصة ، والتفسيرات المتباينة للقانون الدولى العام ، ظاهرة مصاحبة للقانون الوضعى .

يضم إلى هذه النتيجة ـ وهى أن الله غير محدد وغير محدود فيما يوحى به لصالح البشرية وأن الإنسان على عكس ذلك ـ شىء رئيسى آخر يلحق الفلسفة ، ويلحق القانون . وهو أن من يتبع المذهب الفلسفى ، أو من يجب عليه أن يطيع القانون ، يسير فى اتباعه ، وفى طاعته ، على أساس أن مايتبع ومايطاع هنا ليس إلا صنعة البشر . ومعنى ذلك ليس فيهاعصمة . وليس فيهاتوكيد للحق أوللعدل . إن هو إلا ظن إنسان ، قد أخلص فيما أتى به من صنعة فلسفية ، أو قانونية ، وهذا الشعور لدى التابع أو المطيع يؤدى إلى عدم التحمس فى التزام التبعية ووجوب الطاعة ، أو يؤدى إلى توقيت التبعية ، وتوقيت الطاعة ، ومن شأن هذا التوقيت التراخى فى السير نحو هدف المذهب الفلسفى ، ونحو غاية القانون . وبما أن هدف الفلسفة ، وغاية القانون ، هى الحرص على فعل الخير ، ففعل الخير سيصير حتما إلى التوقف ، كلما كثر التراخى فى التبعية والطاعة ، إما للمذهب الفلسفى أو القانون :

١ ــ فمحدودية الإنسان إذن عيب فى الفلسفة والقانون .

٢ ــ وصنعة الإنسان فى الفلسفة والقانون أيضا سبيل إلى عدم العصمة . وعدم العصمة سبيل إلى التراخى فى التبعية والطاعة .

والنتيجة أن قوة الفلسفة ليست فى ذاتها ، بل فى تكرار الدعوة إليها .

وقوة القانون ليست فى ذاته ، وإنما فى السلطة القائمة على تنفيذه .

* * *

أما الدين فقد خلا من هذين العيبين ، فالله بعيد عن المحدودية ، وبعيد عن الخطأ ، فقيمة الدين إذن ، بالنسبة إلى الفلسفة والقانون ، قيمة ذاتية .

ويوم يستحيل الدين إلى فلسفة أو قانون ، فهناك إمكان لعودته إلى دين مجرد عن الفلسفة والقانون ، طالما مصدره الأصيل مصون عن التحريف والتبديل . وعندئذ تبقى له قيمته الذاتية ، كدين ، ومعنى ذلك أن الخطر الذى يلحق الدين بصنعة الإنسان ، يمكن أن يبعد عنه ، بإبعاد تلك الصنعة عن أن تأخذ قداسته ، وعصمة أصوله .

وهناك شىء آخر ، وراء عصمة الوحى فى الدين ، ووراء عدم محدودية الله فى رسالته للبشر ، مما يتميز به الدين عن الفلسفة والقانون.

هناك فى الدين أيضاً ضمير الإنسان الذى ينشأ عن الخشية من الله ، وهو بمثابة السلطة التنفيذية للقانون ولكنها سلطة تنفيذية ذاتية ، وليست خارجة عن ذات الإنسان صاحب الضمير الدينى .

أما المتبع للقانون فإنه يتبعه لسلطان الدولة المشرفة على تنفيذه . وعندئذ إذا خفت رقابة الدولة زال أثر القانون ، وانكمش وجوده بالتالى . وهنا فى دائرة القانون يحتاج الأمر إلى شيئين معاً : إلى نص القانون ، والسلطة التنفيذية ، بينما فى دائرة الدين يتوقف الأمر كله على الإنسان المعتقد وحده .

أما الفلسفة ، فلأنها لا تصحب برقابة خارجية ، ولا تكون ضميراً أو رقابة داخلية فشأنها فى الحياة العملية أهون من القانون وأخف . ومن ثم تكون أشد هوانا فى مواجهة الدين .

هــــذا حديث عن الدين ، والفلسفة ، والقانون فى حياة الإنسان بوجه عام ، ومنه يتبين أن الدين له مكانته الأولى فى حياة الإنسان ، وفى توجيهه . إنه مصدر توجيه لا يخضع لنقص ، التحديد ، ولا لاحتمال ، الخطأ ، ولا إلى وجود السلطة التنفيذية . ورقابتها المباشرة ، ولذلك يقول الشيخ محمد عبده : « فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم ، وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل فيهم ، من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة ، وإن كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص ، أو الشامل له ولمن يتصل به ، وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم ، وبيئتهم ومناشئهم ، وجميع ما يكتنف بهم . فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه : إنما يطلب نافعا ! فالعقل البشرى وحــده . ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة (١) » » .

ويقول أيضا :

---

(١) رسالة التوحيد ص ٤٨ .

« لهذا كله كان العقل البشرى محتاجا فى قيادة القوى الإدراكية ، والبدنيـة ، إلى ما هو خير له فى الحياتين ، إلى معين . . وذلك المعين هو النبى (١) » .

ويقول كذلك فى شأن الأمم :

« العقل وحده ـ فى القانون ـ لا يستقل بالوصول إلى ما فيـه سعادة الأمم ، بدون مرشد إلهى . كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ! بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا . كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات . والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة ، وتصريفها فيما منحت لأجله ، والإذعان لما تكشف له من معتقدات ، وحدوث أعمال (٢) » .

فضل الإسلام كدين:

فإذا انتقل الحديث بعد ذلك من الدين عامة إلى الإسلام ، فضرورة الدين فى حياة الإنسان ستكون أشد وأقوى .

[١] رسالة التوحيد ص ٥١ .

[٢] رسالة التوحيد ص ٨٢ .

إذ الإسلام ـ كما يعرف من القرآن والسنة الصحيحة ـ يتضمن العقيدة والإيمان ، كما يتضمن التشريع ، للتهذيب والمعاملات .

وكل هذه الأنواع ليس بعضها متولدا عن بعض ، بصنعة الإنسان ، وإنما كلها وحى منزل ، وكلها مجتمعة تهدف إلى غاية واحدة : إلى « التوازن » ، إلى الاستقامة : إلى « الاعتدال » .

فى العقيدة :

١ ـ فعقيدة التوحيد هى المثل للتوازن ، والاستقامة ، والاعتدال : إذ كون المعبود واحداً ، كعقيدة ، يوحى بأن الوحـدة منشودة ، وهى الغاية الأخيرة فى الإسلام ، وفى هـذا يقول الشيخ محمد عبده : « أما اعتقاد الجميع بإله واحد فهو توحيد لمنازع النفوس إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه . وفى ذلك نظام أخوتهم ، وقاعدة سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما اعتقدوا وإن طال الزمن (١) » .

(أ) وهى بدورها توحى بالوحـدة فى ذات الإنسان .

[١] رسالة التوحيد ص ٥١ .

(ب) وبالوحدة فى علاقة الإنسان بالإنسان : فى الأسرة ، والمجتمع ، وفى مجتمع إسلامى مع مجتمع آخر .

والوحدة فى ذات الإنسان منهج مرسوم . وتشريع التهذيب أو العبادات هو سبيل وحدة الإنسان . والوحدة فى العلاقات بين الأفراد والمجتمعات منهج مرسوم كذلك . وتشريع المعاملات هو سبيل وحدة العلاقات :

يقول الله لرسوله الكريم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . ومعنى ذلك : الله المعبود واحد ، وهو الرب والسيد ، ووحدته وحدة خالصة ، فلم يأت عن طريق غيره (فلم يولد) ولم يكن غير عنه يشبهه ، (فلم يلد) ولذا فليس هناك معادل له فى الوجود (فلم يكن له كفوا أحد) .

وبهذه السورة القصيرة تحددت وحدانية الله ، بالواحدانية الخالصة عن المثل والشبيه ، ثم لأن المعبود هو من يتجه إليه الإنسان فى حياته ـ كانت هذه الوحدة الخالصة هى غاية الإنسان فى سعيه فى الحياة وفى سلوكه فيها .

على الإنسان إذن أن يحمل نفسه على الوحدة ، وعليه أن يسلك طبقاً لهذه الوحدة التى تحققت بسعيه . فإن لم يسع نحو هذه الوحدة ، لم يدرك فى عبادته وحدة الله جل شأنه . وإن سلك سلوكا متضاربا فى حياته ، كان تضاربه فى سلوكه أمارة على أ[نه لم] يحقق الوحدة فى نفسه .

وكذلك الشأن فى علاقته بغيره . عليه أن يسعى لتقريب الاثنينية بين نفسه وغيره ، إلى وحدة ، أو إلى ما يقرب إلى الوحدة على سبيل الحقيقة . وكذلك سلوكه مع غيره يجب أن ينبئ عن هذا التقريب بين اثنينية نفسه مع غيره .

فإن لم يسع فى دائرة العلاقات مع غيره ، نحو تقريب هذه العلاقات نحو الوحدة ، لم يدرك فى سعيه فى هذه الدائرة وحدة الله تعالى . وإن سلك سلوكا متضاربا فيها ، كان تضاربه فى هذا السلوك أمارة على أنه لم يصل إلى ما يقرب من الوحدة فى علاقته بغيره .

وإذن هدف العبادات فى الإسلام تحصيل الوحدة فى ذات الإنسان ، وجعل السلوك طبقا لها . وهدف المعاملات فى الإسلام محاولة تقريب العلاقات بين « الاثنين » إلى وحدة ، وتكوين السلوك وفقا لهذا التقريب.

٢ – فى العبادات :

والإنسان بحكم تكوينه موزع بين أمرين متقابلين . وهو لذلك له اتجاهان فى الحياة : أحد هذين الاتجاهين يصدر عن النفس الأمارة بالسوء ، والاتجاه الثانى يصدر عن النفس المطمئنة . أما النفس الأمارة بالسوء فهى التى تميل بالإنسان إلى أن يكون صاحب غرض وهوى ، وصاحب شهوة خاصة . وأما النفس الأخرى المطمئنة فهى التى تميل بالإنسان إلى أن يكون صاحب « عدل » وتوازن ، واستقامة . وجاء الإسلام بالعبادات : جاء بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، كى يكون الإنسان صاحب اتجاه واحد ؛ كى يكون صاحب نفس مطمئنة راضية ؛ كى يكون صاحب توازن ، وعدل ، واستقامة .

* * *

جاء الإسلام بالصلاة – وهى أن يتجه الإنسان فى خشوع نحو الله ونحو جلاله ، وأن يناجى هذا الجلال بقوله : الله أكبر – ليحصل فى الإنسان قيمة الوجود كله . وقيمته عندئذ : أن شيئا واحدا فيه كله له العظمة والجلال ، وأن ما عداه تضمحل قيمته وتتضاءل ، فإذا ثبتت هذه القيمة فى نفس المصلى كانت نفسه نفسا مطمئنة ، لأنه يستبعد من المصلى ، بعد أن يدرك هذه القيمة ، أن تميل نفسه وتحرضه على تحصيل شىء فى الوجود دون الله ، وليست النفس الأمارة بالسوء إلا تلك النفس التى تخضع الإنسان إلى غير الله فى الوجود ، وهى لا تفترق عندئذ عن الشيطان فى الهدف والغاية .

وإذن الصلاة عبادة قصد بها أن تكون نفس المصلى نفسا مطمئنة ، قصد بها أن يكون الإنسان صاحب اتجاه واحد ، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان ، ويرتفع فوق التردد بين النفسين .

* * *

وجاء الإسلام بالزكاة ليسعى المزكى عن طريق زكاته ، كعبادة فيها قربى إلى الله ، نحو اتجاه واحد فى سلوكه ، وهو اتجاه المعطى المانح ، وبذلك يكبت الاتجاه الآخر فى الإنسان وهو اتجاه الاستيلاء ، والطمع ، والجشع . وهنا أيضا تكون الزكاة عبادة لتحصيل وحدة الإنسان . بدلا من توزيعه وتردده ، أو بدلا من أن يتردى فى ذلك الاتجاه الآخر ، الذى يبعده عن السمو والتشبه بالله فى منحه وعطائه وهو اتجاه التردى فى الطمع والجشع .

وجاء الإسلام بالصوم . والصوم ليس فقط تقرير الجلال لله وقيمته فى الوجود وليس فقط متضمنا أيضا عدم الحرص على

الاستيلاء والأخذ ، لأنه يقوم على الإمساك والترك - هو ليس فقط هذا وذاك ، وإنما هو كبت لذات الإنسان ، وحرمان لهذه الذات ، طواعية لامتثال أمر الله ، والحرمان فيه أكثر من المنح والعطاء ، كما فى الزكاة ؛ لأن المانح والمعطى لا يستلزم أن يحرم ذاته ، ولكن إذا حـــرم ذاته تجاوز عندئذ حد المانح المعطى .

* * *

وإذن عبادة الصوم فيها امتثال لله ، وذلك إقرار بوجوده وبقيمته فى الوجـود ، وفيها أكثر من المنح والإعطاء ؛ فيها المقابل للاستيلاء وهو الحرمان . والاستيلاء أخذ ، والحرمان ترك . والصوم لذلك خطوة أخرى فى طريق توجيه الإنسان وسعيه نحو وحدة ذاته ؛ نحـو تحصيل النفس المطمئنة ، التى لا تخضع لمـا عدا السمو ، والتشبه بالله .

* * *

وجاء الإسلام بالحج ، وفى الحج عود بالإنسان إلى حالته الطبيعية ، فيه ترك ، ومنح معا ، فيـه ترك للظاهر الزائدة على الطبيعة الإنسانية . وفيه منح عن طريق الأضحية . وبذلك تصب عبادة الحج فى نفس الغاية التى تهدف إليها عبادات : الصلاة والزكاة والصوم .

* * *

فإذا تحقق للإنسان اتجاه واحـــد ، كان سلوكه سلوكا متزنا مستقيما ، معتـدلا لأنه لا يتأرجح عندئذ بين شيئين متقابلين . لا يلبس اليوم وجها ، وغدا وجها آخر ، فهو مستقيم إذن . ولا يفعل اليوم هذا ، ويفعل نقيضه غدا ، فهو متزن إذن ؛ ولا يخضع الآن يمنة ثم فى آونة أخرى يجنح يسرة ، فهو معتدل إذن ؛ واعتـداله واتزانه واستقامته ، تدل على أنه أصبح واحدا ، وبذلك تأثر فى حياته بعبادته لله الواحـد . وأمارة الاعتدال ، والاتزان ، والاستقامة فى السلوك والتصرف أن يكون مصداقا لقوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

* * *

فإذا سار الإنسان فى سلوكه وفق وصايا هـذه الآية القرآنية - فإنه لا شك يكون معتدلا ، ومتزنا ، ومستقيما .

* * *

فإذا سعى الإنسان فى حياته لأخذ نصيبه من الدنيا - لا لأخذ الدنيا كلها - وفى الوقت نفسه قصد وجه الله فيما حصله من الدنيا ، فأحسن إلى غيره كما أحسن الله إليه ، ولم يقصد إلى العبث والفساد فيما تفضل الله به عليه ، كان معتدلا ، ومتزنا ، ومستقيما : لم

يتواكل ؛ لحصل حظه من نعم الحياة ، ولم يغتر ويفرح بما حصله من هذه النعم ؛ فلم يتخذ هذه النعم وسيلة للعبث فى حياته الخاصة وحياة جماعته العامة ؛ لم يرتكب إثما ولا محرما ، لم ينتهك عرضا ولا حرمة لغيره عن طريق هذه النعم ، ثم مع ذلك لم يحرم من هذه النعم مستحقا آخر فيها ؛ لم يحرم ذا قرابة ، وذا جوار ، وذا متربة ، وصاحب حاجة - إنه عندئذ متزن فى تصرفه ، ومعتدل فى سلوكه ، ومستقيم فى اتباعه طريق الله ووصاياه .

٣ - فى المعاملات :

والإنسان مع إنسان آخر، بمثابة الإنسان الفرد المردد بين اتجاهين متقابلين : اتجاه النفس المطمئنة واتجاه النفس الأمارة بالسوء. فكذلك الإنسان مع الإنسان. هذا له اتجاه ، وذاك له اتجاه آخر . هذا له عادات وآمال ، وذاك له عادات وآمال . هذا نشأ تنشئة خاصة وذاك نشأ تنشئة مغايرة . فإذا كثر عدد أفراد الناس تعددت وجوه المغايرة بينها ، وكثرت ضروب المفارقة والمقابلة .

الجماعة العامة :

وعلى نحو ما أراد الإسلام للإنسان الفرد من وحدة اتجاه فى سعيه وسلوكه - أراد للكثرة العديدة من الناس ، وهى الجماعة ، نفس الغاية ، ونفس السبيل ؛ أراد لها أن تكون أمة واحدة ، وأن يكون سعيها لذات الهدف أو الغاية ، وهى أن تكون أمة واحدة ، وما شرع باسم المعاملات هو السبيل لتحقيق هذا الهدف

* * *

إن وحدة الجماعة والأمة لا تتوقف - فحسب - على الأسباب التى تحيط بأفرادها بحكم البيئة ، أو الموطن . أو إمكانيات العيش ، بل لا بد فى تحقق وجود أية جماعة ، وجوداً قوياً ظاهراً ، من وحدة الغاية والهدف . لأن وحدة الغاية والهدف هى المركز الذى يتجمع الأفراد حوله . ويتكتلون من أجله ، وتشتد الروابط بينهم بسببه ، وتصير هذه الروابط إلى أخوة فى النفس والروح ، بعد التقاء على الفكرة والمبدأ .

والقرآن الكريم ، فيما أوصى به من أخلاق للجماعة ، لم يوص إلا بعد أن حدد الغاية للجماعة التى يريدها ، والتى عمل على تكوينها ، ووصاياه هنا بعد ذلك هى وصايا لحفظ توازن هذه الجماعة ، وبالتالى لحفظ علاقات الأفراد فيها من التفكك والتلاشى .

والغاية التى حددها القرآن لجماعته هى عبادة

الله وحده ، يقول الله جل شأنه فى كتابه الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » ويقول : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » . ويقول : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . ويقول : « إن هـــذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

والإسلام إذ يحدد غاية الجماعة بعبادة الله وحده ، يدفع أفرادها إلى الشعور بالكرامة والسير فى الحياة دون عائق من أوهام الوثنية فى أية صورة من صورها ، والشعور بالكرامة والانطلاق فى الحياة من قيود الخرافة والشعوذة ، واقتحام الصعاب فيها ، دون انتظار لوضع خاص لكوكب من الكواكب كما كانت عادة العرب قبل الإسلام ، ودون إذن وصى أو سيد ، كما هى عادة العبيد والأرقاء ، كل هذا مظهر لعبادة الله وحده .

وأصحاب هـذا الشعور ، أولئك الذين انطلقت نفوسهم من قيود الخرافة والشعوذة والوثنية فى صورها المختلفة — من عبادة الأحجار إلى عبادة الأشخاص — يضيفون إلى قوتهم ، كأصحاب سعى وحركة ، قوة توجيه ويقظة . وهم ، لهذا وذاك ، لا بد أن ينجحوا إذا كافحوا ، ولا بد أن ينتصروا إذا خاصموا .

* * *

ولكى لا يدخل عامل يضعف علاقات هذه الأفراد فى الجماعة ، فتتجه نظرتهم إلى هذه العلاقات ، بعد أن ارتفعت نظرتهم جميعا إلى الله وحده سبحانه ، وكذلك يتجه كفاحهم إلى صلات بعضهم ببعض ، بعد أن تركزت فيما وراء أشخاصهم وذواتهم — لأجل هذا أوصى القرآن الكريم بما يحفظ قوة هذه العلاقات ، وبما يديم نظرة الأفراد إلى الله وبما يوجه كفاحهم لصالح أنفسهم ، كجماعة تريد السيادة لأجيالها المتابعة جيلا بعد جيل

١ — أولا : أوصى القرآن باحتفاظ الجماعة بسيادتها . وذلك بأن لا يكون لأفرادها ولاء لغير بعضهم بعضا ، أى لا يكون للدخيل بينهم طاعة عليهم ، ولا يرقى هذا الدخيل فى نفوسهم درجة أن تكون له وصاية ، أو إلى أن يعد مرجعا فى إبرام شئونهم . يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

فعلل الله سبحانه وتعالى تفضيل ولاية المؤمنين بعضهم على بعض وبالتالى إبعاد ولاية الأجنبي عليهم - بالاشتراك فى خصائص وصفات ؛ هى مقومات الجماعة الإسلامية : بالاشتراك فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله . وولاية أجنبي عليهم ستذهب بهذه الخصائص ، وبالتالى ستذهب بشخصية الجماعة الإسلامية ، فيومئذ لا يكون لها وجود ، كجماعة إسلامية . لأن هذا الأجنبي الذى يتولى أمرها لا يشاركهم فى هذه الخصائص ، وإذا لا يقررها ، وربما يعاديها ويعمل على إفنائها .

* * *

يوصى القرآن بذلك لأنه إن قبلت ولاية الأجنبي ووصايته ، ابتعدت الجماعة عن الهدف والغاية التى اجتمعت حولها من قبل ، وأصبحت أفراداً فقط مختلفى النزعة والغرض ، لا جامع يجمعهم ولا رابط يؤكد الصلات بينهم.

٢ — ثانيا : أوصى القرآن كذلك - بعد إحاطة الجماعة الإسلامية بهذا السور الخارجى ، وهو إبعاد ولاية الأجنبي عليهم - باتباع سبيل «العدل» فى الحكم بين الناس ، فيقول : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» .

يوصى القرآن بالعدل فى القضاء والفصل بين الناس ، لأن أساس الاطمئنان بين الأفراد على أنهم سواء فى ظل الجماعة . وأن الجماعة لذلك ليست حزبا تفصل بين فريق موال وفريق مخاصم ؛ بل هى رعاية عامة . وهذا الاطمئنان بالمساواة فى العدل يوحى بدوره إلى تمسك الأفراد بجماعتهم ، وإلى الكفاح فى سبيل بقائها ، وإلى مؤازرتها ضد عدوها الخارجى .

* * *

٣ — ثالثا : أوصى القرآن بالتريث فى قبول الأخبار المغرضة ، ونحص شائعات السوء . يقول الله تعالى : «يا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» .

أوصى القرآن بذلك للإبقاء على العلاقات سليمة صافية . فإن سرعة التصديق للأخبار والشائعات المغرضة ، سواء فيما يتصل بفرد وفرد ، أو بأسرة وأسرة ، أو فيما يتصل بالأفراد والحكومة ، لا تقف عند حد تمزيق وحدة الجماعة ، بل من شأن هذه السرعة أن تثير فتنة قد تنتهى بخصومة عنيفة بين أبناء الجماعة . وبذلك تتحول الجماعة إلى طوائف متباينة القصد والسعى . وعندئذ تصير إلى فنائها ، كجماعة .

٤ ـــ رابعاً : أوصى بعدم استغلال الضعيف : أوصى بعدم استغلال اليتيم ، ومن على شاكلته ، كالأجير ، والخادم ممن عليه رياسة بوجه ما . يقول الله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً » .

* * *

ولفظ الآية وإن كان نصا فى طلب تسليم أموال اليتامى ــ وهم القصر ــ إليهم بعد بلوغ الرشد ، بدون مماطلة . . لكنه يتجاوز ذلك إلى طلب تسليم الحقوق إلى أصحابها ، الذين لهم وضع يشبه وضع اليتيم من الوصى عليه . فصاحب الرياسة مطالب بتسليم حقوق عماله إليهم ، ورب الأسرة مطالب بتسليم حقوق زوجته وأولاده إليهم . وهكذا . ثم يصف سبحانه وتعالى إمساك تسليم الحقوق إلى أصحابها الضعاف باستبدال الخبيث بالطيب أى بترك الطيب وأخذ الخبيث بدلا منه ، ثم يصفه كذلك بأنه أكل ، ثم بأنه ظلم ، ثم بأنه ظلم غير عادى ، بل هو ظلم كبير .

* * *

أوصى القرآن بذلك ؛ لأن استغلال القوى الضعيف يدل على أن الجماعة التى جمعتهما ، جمعت القوى والضعيف على هذا الوضع ، ليست إلا وسيلة لتحقيق الأغراض الخاصة وليست رعاية عامة لحقوق كل فرد منها . وإنما وجدت الجماعة للترابط فى وحدة واحدة ، والتعلق بهدف واحد ، والاحتكام إلى ميزان واحد ؛ هو العدل والتوازن .

٥ ـــ خامسا : أوصى الإسلام بتقريب الفروق بين الأفراد ، حتى لا يشعر الفقير بحرمانه ولا المريض بعجزه ، ولا الجاهل بحمقه وسوء تصرفه ، ولا الصغير بضعفه وحداثة عهده ، ولا الشيخ بوهن شيخوخته .

* * *

فأوصى صاحب الثروة بالإنفاق ، وصاحب الصحة بالمعاونة ، وصاحب المعرفة بالتوجيه ، والكبير برحمة الصغير ، والصغير بتوقير الكبير . أوصى بذلك وبمثله . ولكنه شدد كثيراً فى طلب بذل المال والإحسان لصاحب الحاجة من ذوى اليسار . وذلك لأن المال ، من جانب ، من شأنه أن يغرى صاحبه على عدم الإنفاق ، كما أن الحرمان من المال . من جانب آخر ، من شأنه أن يثير القلق النفسى ، والحسد والبغضاء فى نفوس المحرومين ضد غيرهم من الموسرين . يقول الله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » ويقول : أولئك يؤتون أجرهم

مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون » .

والإنفاق هنا ليس الزكاة . وإنما هو إعطاء ، وراء فريضة الزكاة ، سرا أو علانية . وقد ربط الله سبحانه هنا بين الصفات التى تدعو إلى التحمل من صاحبها ، فى سبيل استقامة الأمور ، وعلاج المشكلات فالصبر فى المحنة والأزمات . وإقامة الصلاة التى من شأنها أن تمسك المصلى عن الفحشاء والمنكر ، والإنفاق فى سبيل الخير وسبيل الله ، وإبعاد السيئة عن طريق الحسنة ـ كلها خصائص تبعد الأزمات وتسد طريق الشر ، ولكنها تتطلب الاحتمال وضبط النفس .

أوصى القرآن بهذا كله ، وبغيره مما يتصل بشأن الجماعة العامة، هى الأمة ، قاصداً أن يبقى على التكتل والتجمع ، وأن يحول دون العوامل المخربة . والعوامل المخربة ترجع جميعها إلى اختلال العدل ، أو اختلال التعادل والتوازن فى الجماعة .

فالولاء للأجنبى ، والتحيز فى الفصل بين الناس ، والمسارعة فى قبول الوشايات ، واستغلال القوى للضعيف ، وعدم تقرب الغنى لصاحب الحاجة : صاحب المال من الفقير ، وصاحب المعرفة من الجاهل ، والسليم من المريض . إلى غير ذلك ـ كل هذه أمور تؤدى إلى اختلال فى توازن الجماعة . لا محالة . فرسالة القرآن للجماعة العامة هى رسالة توازن وتعادل ، كرسالته للفرد نفسه التى هى توازن وتعادل بين القوتين اللتين من شأنهما السيطرة عليه .

الأسرة :

تلك هى وصايا القرآن الكريم للجماعة العامة . فإذا انتقلنا فى نطاق هذه الجماعة إلى الأسرة الصغيرة ـ وجدنا وصايا القرآن نفسه إلى هذه الأسرة لا تخرج عن الهدف والغاية التى حددها للجماعة العامة ، كما حددها من قبل للفرد الواحد ، وهى رسالة العدل ، والتوازن ، والاستقامة .

بين الزوجين :

فأخلاق القرآن للزوجين فى الأسرة هى مجموع :

(ا) أخلاق القرآن للفرد نحو نفسه .

(ب) وأخلاقه للفرد نحو مجتمعه .

(ج) وأخلاقه للفرد ، كزوج أو كزوجة ، بالنسبة للطرف الآخر .

إذ الزواج اجتماع بين فردين ؛ هو تزاوج يجب أن يكون هدفه الانسجام ، حتى يبدو أن تصرف كل واحد من الزوجين نحو الآخر تصرف ناشئ عن فرد واحـــد ، ولغاية واحدة ، وفى طريق واحدة .

وهذه الحال درجة فى السلوك والمعاملة ، فوق درجة سلوك الفرد نحو مجتمعه على العموم يقول الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » .

فجعلت هاتان الآيتان غاية الزواج : أن يسكن كل من الزوجين إلى الآخر ويطمئن إليه ، ويستريح لوجوده معه . ولا تكون حالة السكن هذه ، وحالة الاطمئنان والراحة فى اجتماع فرد بآخر ، إلا إذا كان هناك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بسلوكه وطريقه فى الحياة .

والطريق إلى هذا الانسجام أمران :

الأول : أن يحفظ الرجل على المرأة حياءها وخفرها . وبالتالى يحفظ عليها كرامتها كأنثى ويتجلى ذلك فى أن يعبر الرجل عن تقديره للمرأة بمنحة يتقدم بها إليها حين الرغبة فى إتمام الزواج بها . وذلك هو ما يؤخذ من قول الله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » . وتوكيداً لأن لهذه المنحة أثرها فى معنوية المرأة ، وفى وضعها بعد ذلك من الزوج ، جعل القرآن الكريم هذه النحلة — وهذه المنحة — حقا للمرأة لا يسترد الرجل شيئا منه إلا عن طيب نفس من المرأة ورضاء خالص منها .

هذه المنحة ، وهى التى تعرف بالمهر — مهما قلت فى قيمتها ، تشعر الزوجة فى حياتها مع الزوج بأن الزوج هو الذى سعى إليها . ولذلك تشعر بالتالى بأنها موفورة الكرامة ، وليس لأنوثتها عندئذ دخل فى النقص من قيمتها كإنسان ، كما كان الحال قبل الإسلام . وهى تعيش الآن فى وضع متساو مع زوجها فى الإنسانية .

وإذا استقر شعور المساواة فى الإنسانية بين الزوجين سارت حياتهما إلى الانسجام ، وأثمرت الزيجة المحبة وعدم الفرقة ، ونتج عنها خلف صالح ترعاه محبة الاثنين ، ويعيش هذا الخلف فى ظل وئامهما ووفاقهما .

الأمر الثانى فى الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين : أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما :

للزوج حقوق وواجبات ، وللزوجة حقوق وواجبات . وكل واحد من النوعين ،

من هـذه الحقوق والواجبات ، متكافئ ومتعادل مع الآخر. ومعنى التكافؤ والتعادل هنا أن الحياة الزوجية ـ كى تصل إلى غايتها . وهى السكن والاطمئنان ، والانسجام ـ لابد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء . ولابد من إفادة كل منهما معا بهذه العلاقة : لا يضار الرجل بالعلاقة الزوجية فيؤدى ما عليه دون مساهمة من المرأة فى هذه العلاقة ، ولا تضار المرأة فتؤدى ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ فى الحقوق والواجبات هو الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما أنفقوا من أموالهم » . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

والمراد بالتماثل فى الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما . وليس بلازم أن تكون كل حقوق الرجل وواجباته هى ذات حقوق المرأة وواجباتها بالشخص . فالرجل عليه الإنفاق مثلا ، بينما دور المرأة فى مقابل هذا فى رعاية ولدها . وهكذا .

أما درجة الرجال على النساء فى الآية الثانية وهى القوامة والقيادة فى الآية الأولى ـ فنسبتها إلى الرجل لا تخرج دوره فى الحياة الزوجية عن أن يكون بها مسهما لتعادل هذه الحياة وانسجامها . وهى لذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجية ، وليست مظهرا عارضا على حسابها ، وفى سبيل تقويضها .

إذ لم يقصد القرآن مطلقا ، فيما أوصى به فى علاقة الزوجين بعضهما ببعض ، إلى هدم السكن والاطمئنان ، الذى جعل غاية الزواج وإلا كان غير منطقى مع مبادئه ، وكان غير مستقيم بعد ذلك أن يحث على عدم الإضرار ، وعلى الصبر والتؤدة إذا ما تعرضت الحياة الزوجية لأزمة طارئة ، على نحو ما يوصى به فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . فمطالبة الإسلام الرجال بعدم الإضرار فى العشرة ، وبالصبر عند الضيق بالزوجات ينبئ عن حرصه على بقاء السكن بين الزوجين .

والقرآن الكريم بعد ذلك ، فيما يتصل بالزواج وإن هدف إلى الانسجام ، لكنه لم يقصد إلى إلغاء أحـد الطرفين فى صلة الزوجية ، بل أبقى على فردية الاثنين ، ونظم الحياة بينهما ، بحيث تكون حياة مثمرة لصالحهما وصالح الإنسانية . ومن أجل إبقائه على فردية الاثنين لا يسلب من أحدهما كفرد حقوقه الشخصية بعد الزواج . ولهذا كانت للفرد حقوق شخصية وحقوق أخرى زوجية بعد الزواج ، وعليه واجبات متنوعة

كذلك . فالزوجة مع يسارها نفقتها فى مال زوجها . ومع ارتباطها فى عقد الزوجية بزوجها فلها وحدها حق استثمار مالها الخاص بالطريقة التى تراها ، ولها حق ممارسة عقيدتها الخاصة ، واتجاهها السياسى الخاص ، وحق التعبير عما ترى .

ولكن كفالة هذه الحرية ، لها أو لزوجها ، فى حدود عدم الإضرار بأحد الطرفين فى الزوجية .

وإذن رسالة القرآن فى علاقة الزوجين ، بعضهما ببعض ، هى التوازن ، والتعادل ، والانسجام ، على نحو رسالته فى سلوك الفرد مع نفسه ، ونحو مجتمعه .

أما الإضرار فى المعاشرة فالنهى عنه ليس وقفا على العلاقة الزوجية ، بل هو منهى عنه فى أية علاقة أخرى بين إنسان وإنسان . ولكنه هنا أشد وألزم ، لأنه يتنافى تماما مع الزواج وهدفه .

صلة الأولاد بالوالدين :

والقرآن الكريم فى صلة الأولاد بالوالدين هدف أيضاً إلى التعادل ، والتوازن ، والانسجام . نظر إلى هذه الصلة فى صورتها الواقعية : نظر إليها على أنها صلة مرجوحة من جانب وراجحة من جانب آخر . نظر إليها على أن الطرفين فى علاقة أحدهما بالآخر ليسا فى درجة متساوية ، ولا فى وضع واحد : علاقة الوالدين بأولادهما أشد وأقوى من علاقة الأولاد بوالديهم . فالوالدان ، حسب الفطرة السليمة ، يتفوقان فى ميلهما ومحبتهما لأولادهما أكثر من هؤلاء فى ميلهم ومحبتهم لوالديهم .

والصلة بين الأولاد والوالدين فى دائرة الميل والحب إذن صلة غير متكافئة ، وتعلق أحد الجانبين بالآخر تعلق غير متعادل .

ويشير إلى عدم التكافؤ والتعادل هذا أن القرآن فى مخاطبة الآباء لم يذكر أولادهم ـ فى آية من الآيات التى ذكرهم فيها ـ إلا على أنهم زينة ومتعة فى حياة والديهم .

ومن أجل أنهم زينة ، أى زينة ، ومتعة أى متعة جعلهم بالنسبة لوالديهم فتنة وموضع إغراء . ثم مع ذلك فيما ذكرهم لم يذكرهم إلا مقترنين بالمال ، الذى هو أيضاً زينة ومتعة ، وموضع فتنة وإغراء . بل فى بعض الآيات كاد يقصر القرآن الكريم الدنيا وزينتها على الأولاد والمال : يقول الله تعالى فى سورة الكهف :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . ويقول فى سورة التغابن : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . ويقول فى سورة الحديد : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد » .

ومنطق التعبير عن الأولاد بأنهم زينة الحياة ، أو فتنة الدنيا ، أو موضع التفاخر فيها - أن تعلق الوالدين بأولادهم تعلقا شديداً ، بحيث يجعلهما لا يريان فى الحياة الدنيا - سواء فى مظهرها أو مخبرها - إلا الأولاد إما بجانب المال أو فى منزلة بعده .

بينما القرآن نفسه — فى ذكره للوالدين لم يعبر عنهما بأنهما فى حياة الأولاد زينة ، أو موضع فتنة وتفاخر لهم ، بل فى ذكره لهما ذكرهما على أنه يجب أن يكونا موضع رعاية من أولادهم : فقال فى سورة النساء : « وبالوالدين إحسانا » . وفى سورة البقرة يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين . . . » وفى سورة لقمان « ووصينا الإنسان بوالديه » . وفى سورة العنكبوت: « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا» . وفى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » .

وهذا الفرق فى تعبير القرآن الكريم عن الأولاد والوالدين يدل على أن الصلة فى سيرها العادى بين الطرفين ليست متماثلة ، وأنها فى جانب الوالدين أقوى منها فى جانب الأولاد .

ورسالة القرآن فى هذه الصلة تهدف إلى أن تبلغ الطرفين إلى مستوى التكافؤ والتعادل فى سلوك كل واحد منهما نحو الآخر : تهدف إذن إلى أن تغير مجرى سيرها العادى حتى تصل إلى نقطة التقاء بين الاثنين ، بحيث لا يمل أحدهما الآخر ولا يزهد فى لقائه .

وبما أن الدافع إلى هذا الالتقاء الوسط متوفر لدى الوالدين بحكم الطبيعة والفطرة أو بحكم الإلف والعادة ، أكثر من توفره عند الأولاد - كانت وصايا القرآن فى الصلة بين الطرفين تكاد تكون موجهة إلى الأولاد وحدهم ، وفى صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التى لا يغتفر التخلف فيها بحال .

ومظهر ذلك فى تعبير القرآن الكريم ، أنه يقرن طلب الإحسان من الأولاد إلى الوالدين بطلب عدم الشرك فى العبادة ؛ يقول الله تعالى « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا . . . » ويقول فى سورة الإسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا» . ويقول فى سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا» .

ثم إن القرآن بينما لم يحدد تفصيل السلوك والتصرف الذى يتصرفه الوالدان نحو أولادهم اعتمادا على الدافع الطبيعى الفطرى القوى عندهم - يعنى بتحديد المطلوب من الأولاد نحو والديهم : يقول تعالى فى تكملة آية الإسراء السابقة ، وفى آية أخرى بعدها : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ».

وهو إذ يطلب من الأولاد هذه المعاملة الرقيقة المهذبة فى صلاتهم بوالديهم ، فطلبه منهم رعايتهما بالإنفاق والسكنى أوجب وأشد ضرورة .

وقد يضيف القرآن إلى اقتران طلب الإحسان إلى الوالدين بطلب عدم الشرك فى العبادة ، الأسباب والدوافع التى من شأنها أن تدفع الأولاد أصحاب الفطرة السليمة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ لأن هذه الأسباب منتزعة من تطور الأولاد أنفسهم ؛ يقول الله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » . ويقول : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه كرها ، ووضعته كرها » . ويقول : « وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

بينما لم يطلب القرآن من الوالدين فى صلاتهما بأولادهما إلا عدم الافتتان بهم ، إذ الافتتان بالأولاد من شأنه أن يلهى الوالدين عن ذكر الله ، وتنفيذ تعاليمه فى حياة الإنسان ؛ يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم عن ذكر الله » . وإذا تلهى الوالدان بالأولاد عن ذكر الله ساء تقديرهما الحياة . وعاقبة ذلك الانحراف فى توجيه الأولاد ، وبالتالى الانحراف فى الاستمتاع بهم . فتكون حياة الطرفين حياة خالية من الاستقرار النفسى ، مليئة بالأحداث المفاجئة المزعجة .

هذا ما يطلبه القرآن فى صلة الوالدين بالأولاد ، سواء من جهة الوالدين أو من جهة الأولاد أنفسهم . وما يطلبه هنا وهناك قائم على اعتبار الفطرة الإنسانية ، التى لم يلحقها شذوذ ولا تخلف فى نموها وتطورها وتلك هى حال الإنسان السائدة ، وهذه الحال هى دائما الأساس فى فهم توجيه القرآن لصلة الوالدين بالأولاد ، والأولاد بالوالدين .

أما نهى القرآن الآباء عن قتل أولادهم خشية الفقر ؛ كما فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا » ، وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم » . وكذلك حديث القرآن عن عداوة بعض الأولاد لوالديهم . أما هذا وذاك فإنه لا يقوم على الطبيعة الإنسانية السائدة ، ولا يرسم منهجا لطريقها العادى ، إنما هو علاج لحالة

طارئة ، علاج لانحراف غير شائع فى طبيعة الآباء أوطبيعة الأولاد ، هو علاج لانحراف تخلقه البيئة المنحرفة إذا طال انحرافها .

فالإحسان من جانب الأولاد إلى الآباء ، وعدم افتتان الآباء بالأولاد هو الطريق الأمثل إلى التكافؤ والتعادل فى العلاقات بين الطرفين . وهذه سنة القرآن فى كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

صوْ الأَقارب بعضهم ببعضه :

وعلى نحو ما سبق فى صلة الفرد بنفسه ، وصلته بمجتمعه العام ، وصلته بأحد طرفى الزوجية ، وصلته بأحد طرفى الأبوة والبنوة يعالج القرآن الكريم صلة الأقارب بعضهم ببعض، وما ابتغاه هناك يقصده هنا . والذى ابتغاه هناك : التعادل،والتكافؤ ، والانسجام وذلك هو الهدف هنا أيضا .

فأقارب الإنسان مصدر قوة للإنسان إن هم أخلصوا له . لأنهم عندئذ بالنسبة له أكثر من الإنسان العادى ، هم شركاء له فى الدم ، وفى الطبائع الموروثة ، وفى العادات المألوفة ، وفى الميول والاتجاهات ، هم عصبته عندئذ ، وعدته ، وقومه بالمعنى الخاص .

ولكن هم أنفسهم قد يكونون مصدر ضعف وقلق له ، إن هم حقدوا عليه ؛ لأن السبب الذى كانوا له قوة ؛ هو بعينه السبب الذى يكونون من أجله مصدر ضعف له .

تلك هى سنة الإنسان مع أقربائه : إما أن يقوى بهم ؛ أو يضعف بسببهم ؛ والقرآن الكريم أفصح عن هذين الجانبين فى صلة الإنسان بأقاربه فى الدم والنسب : يقول الله تعالى فى بيان الجانب الأول : على لسان موسى عليه السلام مناجيا ربه : « وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون . قال: سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون » . فطلب موسى أخاه هارون عليهما السلام ؛ من مولاهما جل شأنه ليكون فى صحبته وليعينه ويحميه فى رسالته .

وقد أجابه المولى سبحانه وتعالى إلى ماطلبه وشد عضده بأخيه وقوى به سلطانه وأمره، ووعدهما بعد ذلك بالغلبة والنصر هما ومن يستجيب لدعوتهما . فالقرابة هنا كانت قوة ؛ لأنها بقيت فى صون من الانحراف : لازمها الإخلاص، ونقاء السريرة، ووحدة الاتجاه .

أما الجانب الآخر فتمثله قصة يوسف عليه السلام مع إخوته . انحرفت علاقة القرابة بينه وبينهم ، فحقدوا عليه ، وحاولوا أن يكيدوا له فى أبشع صور الكيد ، وهى العمل على قتله ، والتخلص منه لتخلو لهم الحياة

مع أبيهم . وينفردوا بصحبته ، يقول الله تعالى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عُصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ، يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين » . ثم هم قد ندموا بعد ذلك على ما عقدوا عليه العزم وحاولوا تنفيذه ، كما يدل عليه قوله تعالى : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » . وقوله : « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين » . ولكن مع ذلك موقفهم كإخوة من أخ لهم أول الأمر قبل ذلك ، يعطى أن الأقارب قد يدفعهم الحقد والانحراف فى علاقة بعضهم ببعض إلى أن يكونوا مصدر ضعف وإزعاج وقلق ، بدلا من أن يكونوا ، مصدر قوة ، وعون ، وجاه .

إذا كانت هذه سنة الإنسان فى علاقته مع أقاربه ، وكانت قوته بهم أو ضعفه عن طريقهم ، أمراً غير عادى ـ كان من السلامة فى توجيه الإنسان نحو أقاربه أن تزداد علاقته بهم ، كما تقضى طبيعة صلتهم به . وأن يكون هناك تعادل وتكافؤ بين أساس هذه الصلة ورعاية شأنها ، وهذا التوجيه هو ما يوحى به القرآن الكريم فى هذا الجانب . فالقرآن يعنى بهذه الصلة من الجهة النفسية والزوجية ، ثم من الجهة المادية :

يقول الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » . ويقول : « ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل : لا أسألكم عليه أجرا ، إلا المودة فى القربى » . ففى هاتين الآيتين الكريمتين أبرز القرآن : مدى حرصه على أن يعنى الأقارب بعضهم ببعض فى صلاتهم . فعبر فى الآية الأولى بأن كون الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض فى رعاية العلاقات والترابط ـ أمر مسطور فى كتاب الله ، ولم تخلُ عنه رسالة من رسالات السماء ، حتى القرآن الكريم . ودلالة هذا التسجيل زيادة الحرص من قبل الله تعالى على أن يعنى الناس بعلاقة القربى عناية شاملة ، لا تقل فيها العناية بترضية النفوس والإبقاء على صفائها ، العناية بمساعدة المعوزين ، عند القدرة ، من الأقوياء مساعدة مادية ، تقيهم شر الحقد على الأغنياء فيهم ؛ وشر الذل للحاجة نفسها .

ثم بجانب هاتين الآيتين اللتين تدلان على طلب الرعاية فى صـــورها المتنوعة لعلاقة القرابة ـ نجد آيات أخرى تطلب إلى الموسرين أن يعنوا بأقربائهم ويسهموا

فى سد حاجاتهم ، لا بعنوان أنهم فقراء أو مساكين ؛ بل بعنوان أنهم أقرباء ، يقول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب . » .

ويدل على زيادة اهتمام القرآن بطلب العناية بعلاقة الأقرباء بعضهم ببعض ، حتى تتكافأ مع منزلة هذه العلاقة فى أصل وضعها ، وفى آثارها الطيبة إذا استقام أمرها ـ تقديمه الأقرباء فى استحقاق الحصول على أموال البذل والعطاء ـ الذين ليس لهم يسار وبهم حاجة ، على غيرهم ممن هم خارج الأسرة : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين » . « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى » . « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى » . وسئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصدقة على القريب فقال : « له أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة » . ولفظ الحديث فى رواية النسائى والترمذى : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة » .

هذا هو الدين فى حياة الإنسان ، إن قورن بالقانون والفلسفة .

وهذا هو الإسلام على الخصوص فى حياة الإنسانية بعد ذلك ! وحدة فى المعبود . وانسجام فى سلوك الإنسان .

وتعادل فى الأسرة بين الزوجين ، وتكافؤ فى علاقة الأبناء بالآباء ، وتوازن فى علاقة الأقارب بعضهم ببعض ، إنه رسالة الله ، لتوجيه الإنسان . وطريقه هو الطريق المستقيم . اللهم اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ؟

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات في فقه عُمَر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٣ —

قال الله تعالى فى سورة الأنفال :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

وللمفسرين عدة روايات فى سبب نزول هذه الآيات ، وكلها ذات صلة بموقف وقفه عمر رضى الله عنه ، فيما تروى هذه الروايات .

فمن ذلك ما رواه ابن أبى شيبة ، والترمذى وابن المنذر ، والطبرانى ، والحاكم وغيرهم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول قومُك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله ، كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك ! قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمك ؟ فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ برأى عمر ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » .

مَثَلك يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيم عليه السلام قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام : قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

ومثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » . ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » أنتم عالة فلا يَنْفلتنّ أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

فقال عبد الله : يا رسول الله : إلا سهيل ابن بيضاء ، فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة منى فى ذلك اليوم : حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلا سهيل بن بيضاء » ، فأنزل الله تعالى: « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » إلى آخر الآيتين .

وروى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنه ـ والتفصيل لأحمد ـ قال : لما أسروا الأسارى ـ يعنى يوم بدر ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماترى يابن الخطاب ؟ فقال : لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل ـ أى أخيه ـ فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ـ نسيبا لعمر ـ فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان ـ قرابته ـ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، قال عمر : فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت يا رسول الله : أخبرنى، من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى للذى عَرض علىّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرة قريبة منه ـ وأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .

هذه هى القصة التى ذكرتها الروايات فى سبب نزول هذه الآية والتى تأثروا بها فى شرح معناها ، وقد اتصلت بها بحوث كثيرة ومشكلات عويصة، وصار المفسرون يجتهدون فى تتبع هذه البحوث ، وحل هذه المشكلات .

فمن هذه البحوث : الموازنة بين ما أشار به أبو بكر من سياسة الترفق واللين ، وما أشار به عمر من سياسة العنف والشدة : أيهما خير وأجدى على المسلمين ؟ فمن الناس من رأى موقف أبى بكر أصلح وأرشد بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم مال إليه وارتضاه وعمل به ، وأن القرآن مع نقده له قد أقره بعد وقوعه ولم يأمر بنقضه ، ومن الناس من رأى موقف عمر أصلح ، وقال : لو أن المسلمين أخذوا به يومئذ لكسروا شوكة الشرك نهائيا ولما قامت للمشركين قائمة بعد ذلك اليوم ، ولكنهم لم يأخذوا برأى عمر فلم يمض عام واحد حتى قام المشركون بحربهم فى يوم أحد وهزموهم

يومئذ شر هزيمة ، ويؤيدون ذلك بأن القرآن نقد موقف المسلمين فى قبول الفداء ، ولوح لهم بأن القتل كان أولى حيث ذكر الإثخان فى الأرض ، وقرر أنه لولا قضاء من الله سبق بالرحمة لمسهم فيما أخذوا من الفداء عذاب عظيم .

ومن المشكلات التى أثيرت فى هذا المقام : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مال إلى رأى أبى بكر وأصحابه وكانوا هم الكثرة . فكيف يميل الرسول إلى رأى خاطئ وهو المعصوم المؤيد من ربه ؟ لئن كان قد تصرف فى ذلك بدون وحى من الله وكان عليه انتظار الوحى فإنه يكون مذنباً - وحاشاه - ولئن كان قد اجتهد بعد المشاورة والتدبر فاختار جانبا رأى فيه المصلحة بحسب رأيه ، فهو لا يعدو أن يكون مجتهدا أخطأ ، وقواعد الإسلام المُسَلمة عند جميع العلماء تقضى بأن المجتهد المخطئ غير ملوم ، فكيف يلوم الله تعالى رسوله والمؤمنين هذا اللوم الشديد حتى يقول لهم وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى » - أى ما كان ينبغى ذلك وما يليق ، وحتى يقول لهم وفيهم رسول الله - : « تريدون عَرَض الدنيا والله يريد الآخرة » ، وحتى يقول لهم وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ، وحتى يجلس الرسول وأبو بكر - من أجل ذلك - مجلس الباكين النادمين على النحو الذى تذكره الروايات .

وتفرعت على ذلك بحوث فى جواز الخطأ على الرسول أو عدم جوازه ، وفى إقرار الله لهذا الخطأ أو عدم إقراره .. إلى غير ذلك .

وقد عدّ ذلك فى موافقات عمر وهى المواضع التى نزل القرآن فيها مؤيدا لرأيه .

ومما يلاحظ أن البخارىّ لم يورد فى صحيحه شيئا من هذه الروايات وإن كانت قد وردت من طرق أخرى من رجال السنة والشيعة .

ولبعض العلماء المعاصرين من إخواننا الإمامية - وهو المغفور له البحاثة العلامة الشيخ شرف الدين الموسوى من علماء لبنان - رأىٌ فى معنى هذه الآيات يخالف ما رواه الشيعة والسنة من سبب نزولها ، وهو رأى يستحق النظر ، ذكره فى كتابه « النص والاجتهاد » ص ١٨٢ .

وخلاصته أن المسلمين كانوا حين ندبوا لغزوة بدر مترددين ، وكان كثير منهم قد أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع بعد أن فاتتهم عير أبى سفيان ، فقد صح فيما رواه أصحاب السير ، أن النبى صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه فقال لهم : إن القوم قد خرجوا على كل صعب وذلول فما تقولون ؟ العير أحب إليكم أم النفير ؟ قالوا :

بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ! وقال بعضهم حين رآه صلى الله عليه وسلم مصرا على القتال : هلا ذكرت لنا القتال لنتأهب له ؟ إنا خرجنا للعير لا للقتال ! فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . وحيث أراد الله عز وجل أن يقنعهم بمعذرة النبى صلى الله عليه وسلم فى إصراره على القتال وعدم مبالاته بالعير وأصحابه قال عز من قائل : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . أى تلك سنة الأنبياء والمرسلين قبل نبيكم محمد ، فهو على سنة إخوانه ولذلك لم يبال إذ فاته أسر أبى سفيان وأصحابه حين هربوا بعيرهم إلى مكة ، لكنكم أنتم تريدون - إذ تودون أخذ العير وأسر أصحابه - عرض الدنيا والله يريد الآخرة باستئصال ذات الشوكة من أعدائه، والله عزيز حكيم ، والعزة والحكمة تقتضيان يومئذ اجتثاث عز العدو ، وإطفاء جمرته ،

وهذا هو المعنى الذى يتفق مع قوله تعالى قبل هذه الآيات : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين » - أى طائفتى العير أو النفير - « أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » - والمراد بها العير وأصحابها ، « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . فهناك شبه واضح بين قوله تعالى : « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، وقوله تعالى : « تريدون عرض الدنيا » ، كما أن هناك شبها واضحا بين قوله جل شأنه : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » ، وقوله جل ذكره : «والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم» ثم قال الله تعالى تنديداً بهؤلاء « لولا كتاب من الله سبق » ، فى علمه الأزلى بأن يمنعكم من أخذ العير وأسر أصحابه ؛ لأسرتم القوم وأخذتم عيرهم يومئذ ، ولو أنكم فعلتم ذلك « لمسكم فيما أخذتم » ، قبل أن تثخنوا فى الأرض « عذاب عظيم » - ويصح أن يكون المراد بهذا العذاب العظيم : هو ما يصير إليه حالهم من الضعف والتخاذل والذل والخنوع والعار بعد أن يصبحوا فى المدينة ولا هم لهم إلا سلب أعدائهم ما يمرون به عليهم من تجارة وأموال ، فإن ذلك سيجعلهم يركنون إلى الاستمساك بالأموال والمكاسب من طريق الأسر والغنيمة ، بدون حرب وإثخان فى الأرض فيكون لهم وضع أشبه بوضع قطاع الطرق ، وسيدفع ذلك أعداءهم إلى أن يعتقدوا فيهم أنهم أصحاب أغراض وأعراض دنيوية لا أصحاب مبادئ ورسالة إصلاحية ، ومن ثم يقوون عليهم وتضيع هيبتهم من صدورهم - هذا هو معنى قوله تعالى: « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض» الخ .

ولا يصح حمل الكلام على غير ذلك ، وأحرى من زعم أن رسول الله اتخذ الأسرى وأخذ منهم الفداء قبل أن يثخن فى الأرض ، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما فعل ذلك بعد أن قتل صناديد قريش وطواغيتها كأبى جهل ابن هشام ، وعتبة ، وشيبة بن أبى ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والعاص بن سعيد ، والأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وأمية ابن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وعقيل ابن الأسود ، ونبيه ، ومنبه ، وأبى البخترى ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وطعيمة بن عدى ابن نوفل ، ونوفل بن خويلد ، والحارث ابن زمعة ، والنضر بن الحارث بن عبد الدار ، وعمير بن عثمان التيمى ، وعثمان ومالك أخوى طلحة ، ومسعود بن أمية بن المغيرة ، وقيس ابن الفاكه بن المغيرة ، وحذيفة بن أبى حذيفة ابن المغيرة ، وأبى قيس بن الوليد بن المغيرة وعمر بن مخزوم ، وأبى المنذر بن أبى رفاعة ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وأوس ابن المغيرة بن لوزان ، وزيد بن مليص ، وعاصم بن أبى عوف ، وسعيد بن وهب حليف بنى عامر ، ومعاوية بن عبد القيس ، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث ابن أسد ، والسائب بن مالك ، وأبى الحكم ابن الأخنس ، وهشام بن أبى أمية بن المغيرة .

إلى سبعين من رءوس الكفر وزعماء الشرك كما هو معلوم ، فكيف يمكن بعد هذا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ الفداء قبل أن يثخن فى الأرض ؟ وأى إثخان بعد هذا الإثخان ؟ وكيف يتناوله هذا اللوم الإلهى بعد إثخانه إلى هذا الحد ؟ تنزه رسول الله ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وبهذا يتبين أن قوله تعالى: «ما كان لنبى» . إلخ... مرتبط بما كان من المؤمنين قبل الغزوة ، من رغبتهم فى العير دون النفير ، لا بما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من التشاور فى الأسرى بعد انتهاء الغزوة بنصر المؤمنين ، وإذن فلا يشمل الكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تثريب عليه ، إذ لا خطأ منه . وإذا صحت واقعة التشاور فى أمر الأسرى هذه فلا ضير من صحتها فى هذا الإطار ، ولا ضير من اعتبارها اجتهاداً من الرسول والمسلمين ، أخذ الرسول فيه بما هو أشبه بخلقه من الصفح والترفق والرحمة ، واتجه عمر فيه إلى ما رآه مصلحة أصدر فيها عن طبيعته الراغبة فى حسم الفساد ودرئه بالقوة ؛ احتياطا من أن يستفحل الخطر على المسلمين ، ولم يتصل بهذا الشأن الشورى المصلحى قرآن بالتخطئة والتصويب . والله أعلم ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

نفحات القرآن

ذكرى ميلاد الرسول

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) إن الله وملائكته يصلون على النبى !! .
(ب) يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

(ا) بلغ من تكريم الله لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يحفه بالصلاة عليه من جانبه تعالى ومن جانب الملائكة ، وأن يأمر عباده المؤمنين أمر تكليف بالصلاة وبالتسليم عليه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ومعنى الصلاة من الله على رسوله : رضوان يزداد ، ورحمات تتجدد ، ومعناها من الملائكة استغفار له ، وطلب المزيد من الرفعة ، وكذلك من المؤمنين : معناها الضراعة إلى الله أن يضاعف تكريمه لمحمد ، وأن يزيده طمأنينة ، وسلامنا عليه معناه : التحية له ، وطلب الأمان له من جانب ربه ليظل مقامه فى صعود ، وليظل آمنا على أمته أن تكون خير أمة ، وأن تكون شفاعته مستجابة لها .

ومتى بلغ الكمال بمحمد أن يصلى عليه ربه والملائكة فقد يمر بالخاطر أنه لم يعد بحاجة إلى صلاة أو تسليم من جانب الناس !! .

ولكن درجات الكمال تتصاعد عند الله إلى حد لا يعلمه غيره سبحانه .

ومحمد يستحق عند ربه أن يصعد فى الكمال أقصى مما تقدره عقولنا ، فالله - تعالى - يمنحه ذلك الفضل ، ويفرض علينا أن ننشد له بكثرة الصلاة والتسليم تحقيق ما هيأه له ؛ لنكون - نحن - مأجورين على ذلك ، ولتكون ذكريات الرسول عامرة لقلوبنا ، وجارية على ألسنتنا ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى حديثه - ما من كامل إلا وعند أكمل منه - .

وإذا كان تكريم الله لمحمد يأخذ صفة التشريع بالنسبة لنا ، فمن الحق علينا أن نستجيب لأمر الله ما استطعنا .

فاللهم صل وسلم على رسولك محمد ما دام فضلك ممدوداً ، ونعمتك سابغة ، واجعل حبه فى كل قلب ، وذكره على كل لسان ، حتى نبرأ من عهدة التكليف ، ونكون أهلا لشفاعته يوم لقائك .

وبعد :ــ

ففى ذكريات الميلاد للأبناء إحياء وتمجيد لتاريخ استقبلنا لهم فيه ، وتجديد لفرحة غمرتنا بمولدهم واستجابة لعاطفة مشبوبة دائما بحب الولدان وبالحدب عليهم ، والتماس الخير لهم ، وارتقاب الأمل فيهم .

فإذا شب الوليد ، وبلغ مبلغ الرجولة لم يعد حسابنا معه حسابا عاطفيا ، فقد تخطينا به عهد الترفق ، وتجاوزنا معه زمن التدليل .

بل أصبح موقفنا منه موقف المقاصة .

فإذا صدق أملنا فيه ، وكان لأهله وقومه ، أعطيناه من تقديرنا له كفاء ماله من فضل فى أهله وبين قومه . وحق علينا تكريمه ، والإشادة بمآثره ليكون قدوة متبوعة ، ولتكون ذكراه منار الاهتداء ، ومثار الاستلهام فيظل نفعه موصولا ، وحياته خالدة حتى بعد مماته ــ والذكر للإنسان عمر ثان . . . . ــ

وقد كانت الذكرى قديما أمنية إبراهيم عليه السلام « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » ، بذلك شأننا مع أبنائنا فى ذكريات الميلاد ، ومايحف بها ، أو يعقبها من خواطر وآمال ، ونتائج .

فأين من هذا كله ما لقيه محمد من حفاوة قومه بمولده ــ أولا ــ ومن تقديرهم له ــ أخيرا ــ ؟؟ .

كان مؤسفا لقريش ولعبد المطلب خاصة ، أن يفقده ولده عبد الله فى سفره إلى المدينة ، إذ لم يكن هذا الشاب أثيرا على إخوته عند والده فقط ، بل كان شابا مرجو الخير بين شباب مكة ، وكان مرموقا أكثر من سواه . ولكنه عوجل بالموت مأسوفا عليه . . . وترك زوجته ــ آمنة بنت وهب ــ حاملا فى أول أيامها . . فتعلق أمل الجد وأمل بيته أن يجئ الحمل غلاما ، ليكون عوضا عن أبيه ، وسلوة لأهله .

وما كادت البشرى ــ بعد ــ تطرق مسامع عبد المطلب بمولد الغلام ، حتى هاجه الفرح وانتعش فيه الأمل ، واقترح أن يكون اسم المولود ــ محمدا ــ .

وكانت هذه تسمية مفاجئة غريبة عند قريش ؛ لأنه اسم جديد عليهم ، لم يعهدوه فيما مر بهم ، فاعترضوا على عبد المطلب لاختياره اسما يخالف ما تعارفوه عن أسلافهم

فأجابهم عبد المطلب : سميته محمدا ، راجيا أن يكون على صفات يحمدها الناس له .

وكأن عبد المطلب كان ملهما فى اختياره ، أو كأنه كان مقتنعا بصدق منام رأته آمنة أنها ستلد مولودا يكون محمدا .

وقد صدقت الأيام إلهام عبد المطلب ، أو منام آمنة ، أوهما جميعا : إذ أن محمدا أخذ يتدرج فى طفولته وشبابه على نمط من سمو الخلق لم يألفوه ، ولم يعهدوه فى غيره . وأخذت حياته تتبلور فى إهاب من الكمال يثير العجب من وقت إلى وقت عند شيوخ مكة وشبابها ، إذ كانوا يجتمعون للسمر أو يشربون ، ويمرحون ، ويأخذون من اللهو بضروب غير محدودة ، ومحمد وحده بنجوة من هذا كله .

وكلما مرت به الأيام تبينوا من محمد فى كلامه وتفكيره ونزعاته ، ومعاملته : ما يشعرهم أن لهذا الفتى شأنا فوق ما يظنون ويقدرون . حتى كان من جنوحه إلى العزلة أن يذهب حينا بعد حين إلى الجبل ليخلو بنفسه ، ويفكر فيما حوله أو فيما يشهد من مظاهر الكون : فهذا نهار وليل يتعاقبان ، وشمس وقمر يختلفان ، وهذه نجوم تبدو ثم تغيب ، ورياح تهب وتسكن وأمطار تنهمر وتكف ، وكل هاتيك المشاهد ونحوها آيات مسطورة ، وعجائب منثورة : ومحمد يتابعها بنظراته ، وتأملاته ويدرك من أمرها أن هذا الوجود صادر عن قدرة جبارة قاهرة ، وأن تصريف هذا الكون عن إرادة باهرة ، ولا يستسيغ عقل أن يكون لهذا الإبداع إله معبود غير خالقه الذى أحكم تدبيره ، وسيره .

فما هذه الأصنام التى تحتفى بها قريش وهى أحجار منحوتة ، وما هذا الضلال الجاثم على عقول خلقت للتمييز وحسن الإدراك ، ولكن ما السبيل إلى التخلص من هذه الورطة وترك هذه الأباطل ، والاتجاه إلى الحق من طريقه المأمونة ، هذه سورة عارمة تثور فى نفس محمد ، وتستبد بخواطره فى صبحه ومسائه وفى غدوه ورواحه ، وفى وحدته واجتماعه وهو يود لو تكشفت له تلك الأسرار ليعرف ما لا يعرفه وليشفى نفسه من هذا القلق اللاعج؟

وفى ليل ساج أو ظلمة موحشة ، وخلوة رهيبة فى رأس الجبل ، وبينما محمد تغمره خواطره تلك ، ويستفزه الألم ، ويخامره الأمل بين جدران الغار - غار حراء - إذ يهبط عليه الملك أمين الوحى - جبريل عليه السلام ويبلغه أمر ربه أن يقرأ .

وماذا يقرأ محمد ، وكيف ، وهو لم يجلس إلى معلم ، ولم يتعود أن يمسك قلما ، ولا يستطيع أن يقرأ كلمة ؟ .

ولكنه بمعونة الله - الذى اختاره أميا - يتابع جبريل ، فيردد ما أوحى إليه « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

وإن تكن الأمية مانعا من القراءة فقدرة الله تغلب كل مانع ... وإن تكن الأمية نقيصة أدبية فهى بالنسبة لمحمد وحده كمال، وتزكية ... إذ هى سياج له من تشكيك المكذبين - بعد - فيما يوحى به إليه.

وهى الحجة الدامغة على أن علمه كله من عند ربه، لا من علم الناس، ولا من طريق الناس «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده».

ومنذ ليلة الوحى بالقرآن خرج محمد عن عزلته، وجاهر بدعوته، وثابر على جهاده واستهان بكل ما لقى من عناء وصعاب حتى نهض فى الدنيا دين حق تقوم عليه الحياة، وتوافر فيها علم يهتدى بنوره الأحياء، وارتسم للعالم نهج خلق صحيح يسمو بالناس إلى مشارف الإنسانية الكريمة.

وإنه لعجب: أن تكون القراءة والكتابة والإشارة بالقلم، وبالعلم هى التوجيهات الأولى فى رسالة هذا النبى الأمى! وأن تكون دعوته قائمة على امتداح العلم والترغيب فيه، وتمجيد أهله حتى كانت مكانتهم فوق مستوى الناس من غير أهل العلم ولو كانوا ملوكا «قل: هل يستوى الذين يعلمون، والذين لا يعلمون؟».

ثم إذ كانت رسالة محمد بهذه المثابة فى إصلاح بيئته، وإنقاذ البشرية من ضلالتها.

وإذ كانت - ثانيا - بعثة محمد فخرا ذاتيا لقريش وللعروبة كلها! فهل تلفت قومه إلى ما ينبغى من تقديرهم له: كما يقتضى الوفاء، وكما هو المظنون فى وفاء العرب خاصة؟ كان محمد بارا بقومه، وبالناس جميعاً، وكان قدوة الدنيا بأسرها فى هداه وإصلاحه.

فلماذا انحرف عنه أكثر أهله، وطرحوا عصبيتهم له، ووفاءهم نحوه، ولم يحفلوا بذكرى ميلاده بعد - كما نحفل نحن بذكريات الميلاد لأبنائنا على ما بين المقامات من بعد سحيق؟؟.

تحكمت فيهم الضلالة، واستبد بهم الحقد، وتغلغلت الأنانية وحب السيادة، فكانت جفوتهم لمحمد فوق كل جفوة، وكان إسرافهم فى النكال به، حتى اعتزموا قتله ليطفئوا نور الله الذى انبثق فى دنياهم برسالة محمد، ولكن الله أحبط كيدهم، وأخزى وجوههم، وأبدله منهم قوما آخرين عاهدوه على النصرة، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، والله متم نوره ولو كره المشركون.

نعم! لم تكن من قريش حفاوة بمولد محمد - لا: أولا - ولا: أخيرا -.

ولكن الله تكفل لمحمد بأبلغ حفاوة

فنصره عليهم ، وجعل قدره فوق الأقدار وكرمه على الناس جميعاً . وأوجب علينا الحفاوة به فى مداومة الصلاة عليه والتسليم ، وأن خير ما يرضى محمدا من تكريمنا له أن تكون أخلاقنا من أخلاقه ، وسيرتنا على هداه ، ومعاملاتنا وحياتنا كلها مستمدة من توجيهاته . وحينذلك نكون كرمنا نبينا تكريماً عملياً مشكوراً عنده وعند الله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » .

هذا ـ وقد أوجزنا القول فى حدوده المقبولة ... ولكننا نلحظ فى ملامح الأحداث التى لها بروز فى حياة الرسول أن أكثرها وقع فى يوم الاثنين ، ولابد لهذا من حكمة ونحن نذكرها ، ولعل فى اتجاه القراء إليها ما يحفز بعضهم على بيان ما لم نعرفه من حكمة هذا التوافق :

١ ــ ولد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الاثنين ١٢ من ربيع الأول عام الفيل سنة ٥٧١ م .
٢ ــ أول منام رآه من منامات النبوة ليلة الاثنين من ربيع الأول سنة ٦١١ م .
٣ ــ نزل عليه القرآن ليلة الاثنين من رمضان سنة ٦١١ م .
٤ ــ خرج من غار حراء يوم الاثنين من ربيع الأول سنة ٦٢٤ م سنة ١٣ من الرسالة .
٥ ــ وصل إلى قباء يوم الاثنين من ربيع الأول سنة ٦٢٤ م سنة ١٣ من الرسالة .
٦ ــ خرج لغزوة بدر يوم الاثنين ثامن رمضان سنة ٢ هـ وكانت الموقعة فى ١٧ .
٧ ــ كان الإسراء والمعراج ليلة الاثنين ـ على الأرجح ـ قبل الهجرة بسنة .
٨ ــ كانت وفاته صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ١٠ من الهجرة
هذا وفوق كل ذى علم عليم ؟ .

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

محاولات شيوعية فاشلة في العصر القديم

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

لم يخل العصر القديم من محاولات لتطبيق النظام الشيوعي ومن مذاهب فلسفية اجتماعية تقوم على أساس هذا النظام . ولكن هذه المحاولات جميعاً قد كتب عليها الإخفاق ، سواء في ذلك العملي منها والنظري ، وذلك لما ينطوي عليه النظام نفسه في جوهره من فساد ذاتي . ولتعارضه مع اتجاهات النزعات الفردية . ومع السنن التي يقوم عليها العمران الإنساني ، وتعتمد عليها العلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض . وكانت الدوافع لهذه المحاولات ترجع دائماً إلى اضطراب الحياة الاقتصادية ، واختلال توازنها ، وسوء توزيع الثروة ،واتساع الفروق بين الطبقات، واستعلاء بعضها على بعض ، وشدة الفقر والعوز في الطبقات الدنيا ، وهي التي تتألف منها في العادة الأغلبية الساحقة من الشعب .

ومن أشهر هذه المحاولات محاولة «الحسديين» في بني إسرائيل ، ومحاولة «ليكورغوس» و «أفلاطون» عند قدامى اليونان .

* * *

أما فيما يتعلق ببني إسرائيل ، فقد أتيحت لهم في العصر القديم فرص كثيرة للإثراء واستثمار الأموال . وقد أفاد من هذه الفرص أكبر إفادة بعض طبقات وبعض أفراد من بني إسرائيل ، فملكوا الضياع والقصور ، وغرقوا هم ونساؤهم وأولادهم في الترف والنعيم ، وظهرت الفروق واسعة صارخة بينهم وبين سائر أفراد الشعب في مآكلهم ومشاربهم وزينتهم ومساكنهم وسائر شئون حياتهم ، واستعلوا على غيرهم استعلاءً كبيراً [١] . وكان لابد لهم ، لكي يبقوا على مستواهم المعيشي والاقتصادي ، أن يمعنوا في ابتزاز الطبقات الدنيا وتجريدها من كل شيء . ولم يكونوا ليخشوا من جراء ذلك جزاء ولا حساباً . فقد كانوا هم الصفوة المختارة ، الذين يراقبون الناس ولا يراقبون، ويحاسبونهم ولا يحاسبون ، وكانوا قادة الشعب وحكامه ، بيدهم الحل والعقد ، وعن طريقهم تساس الأمور . وكانوا لا يتورعون في سبيل الإثراء

---

(١) انظر أوصاف طبقة المترفين في معظم أسفار «الأنبياء» من العهد القديم ، وخاصة في الإصحاح الثالث من «أشعياء» Essaïe , Isaïe حيث يصف الترف في نساء هذه الطبقة في فقرات ١٦ــ ٢٤ .

عن الالتجاء إلى أخس الوسائل . فكانوا يأكلون السحت ، ويمدون أيديهم للرشوة ، ويسلبون أموال الضعفاء واليتامى والأرامل، ويقرضون المعوزين من بنى إسرائيل وغيرهم بربا فاحش (١) ثم يستولون على أراضيهم سداداً لديونهم أو يبيعونهم ويبيعون أولادهم وزوجاتهم بيع الرقيق .

فاستحالت من جراء ذلك معظم الأراضى إلى إقطاعيات كبيرة يملكها عدد محدود من الأفراد والطبقات ، وتكدست كذلك معظم الثروات الأخرى فى أيدى هؤلاء ، حتى لقد ضاقت بها بيوتهم ، ولم يقـــو البشر على حراستها ، فلجئوا إلى بيت الله ، إلى المسجد الأقصى ، واتخذوا فيه أنفاقا ومغارات وخزانات يحفظون فيها نقودهم وتحفهم وأحجارهم الكريمة والثمين من أموالهم ، حتى تكون فى حراسة الإله نفسه ورعايته . فاستحال بذلك المعبد إلى « بنك » يهودي لحفظ ودائع بنى إسرائيل ، وكان من نتائج ذلك أن اختفت الملكيات الصغيرة أو كادت وأن هوت دهماء الشعب إلى أحط منزلة فى البؤس والشقاء . وقد وصف ذلك النبى أشعياء فى أبلغ عبارة إذ يقول : « ألا تعسا لأولئك الذين يمدون ملكياتهم من منزل إلى منزل ، ومن حقل إلى حقل ، حتى لا يكون ثمة موضع قدم لغيرهم ، وحتى يستأثروا وحدهم بسكنى هذه البلاد » (١) .

وقد أدت هذه الأوضاع الاقتصادية الفاسدة إلى ظهور اتجاهات شيوعية حمل لواء طلائعها فى القرن الثانى ق م جماعة الإيسينين أو الآزيين أو الحسديين Esseniens (٢) .

فقد نددت هذه الجماعة بنظام الملكية الفردية وما يجره هذا النظام على المجتمع من نتائج وخيمة ، ونادت بالملكية الجماعية ، ووجوب المساواة بين الناس ، وأن يعيش العالم فى سلام دائم ، وحاربت البذخ والترف والحياة الناعمة التى كان يحياها الأغنياء ، ودعت إلى الزهد والتقشف ، وطبقت مبادئها على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت . فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ،

---

(١) مع إن الربا كان بحسب شريعتهم محرما التعامل به بين الإسرائيليين بعضهم مع بعض : « لك أن تحصل على فائدة من الأجنبي ؛ ولكن لا يحل لك أن تفعل ذلك مع أخيك . . » . (التثنية ، إصحاح ٢٣ ، فقرة ٢٠ وإصحاح ١٥ ، فقرة ٣) .

(١) أشعياء Essaïe الإصحاح الخامس ، فقرات ٨ ــ ١٠ .

(٢) انظر التعليق الاول بصفحة ٣١ من عدد المحرم سنة ١٣٧٩ من مجلة الأزهر فى مقالنا عن « موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة » فقد ذكرنا فى هـذا التعليق ترجمـة موجزة لهذه الجماعة .

وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعيا شائعا يحفظ ما يزيد منه على الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، ويشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه . وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعيا ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل « رفيق » من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم قادما من خارجها .

وكما ألغوا نظام الملكية الفردية فيما بينهم ألغوا كذلك نظام الرق . فجميع أفراد جماعاتهم كانوا أحرارا متساوين . وقد حرموا على أنفسهم الاشتغال بالتجارة ، لما تبعثه فى النفوس من جشع ، وحرص على جمع المال ، وجنوح لابتزاز الناس ؛ كما حرموا الاشتغال بصناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب ، لتنافر الغاية التى تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم ، وهى أن يعيش العالم فى سلام دائم . ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه ويتصل بهما من الصناعات . واقتضت مبادئهم فى التقشف والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءهما والتعامل بهما . وبالغ معظمهم فى تطبيق هذه المبادئ فحرموا على أنفسهم الزواج .

ولم يكن لهذه النظم الإسينية المتطرفة أثر ما فى حياة بنى إسرائيل . فلم تطبق إلا فى نطاق جماعة الإسينيين أنفسهم ، وفى مواطن منعزلة عن الناس . وهكذا يكون مصير كل نظام يحاول علاج أمر فاسد بما هو أشد منه فسادا .

* * *

وأما فيما يتعلق بقدامى اليونان فقد حدث لديهم فى هذا الصدد ما حدث لدى بنى إسرائيل سواء بسواء . فقد أتيحت لهم كذلك فرص كثيرة للإثراء واستثمار الأموال ، وأفاد من هذه الفرص أكبر إفادة بعض طبقات وبعض أفراد ، حتى ظهرت الفروق واسعة صارخة بينهم وبين بقية طبقات الشعب وأفراده . وكان لا بد لهم . لكى يحافظوا على مستواهم أن يمعنوا فى ابتزاز الطبقات الدنيا وتجريدها من كل شىء . وكانوا لا يتورعون فى سبيل الإثراء عن الالتجاء إلى أخس الوسائل . فكانوا يأكلون السحت ، وينهبون أموال الضعفاء ، ويقرضون المعوزين بربا فاحش ، ثم يستولون على أراضيهم سدادا لديونهم أو يبيعونهم ويبيعون أولادهم وزوجاتهم بيع الرقيق . وبالجملة أصبحوا كما وصفهم

أرسطو ، يحرصون على جمع المال أكثر من حرصهم على الشرف . فاستحالت من جراء ذلك معظم الأراضى إلى إقطاعيات كبيرة يملكها عدد محدود من الأفراد والطبقات ، وتكدست كذلك معظم الثروات الأخرى المنقولة فى أيدى هؤلاء . حتى إن أراضى لاكونيا Laconie التى كانت عاصمتها إسبرطة كانت فى عهد الملك أجيس الثالث Ajis III. ملكا لنحوا مائة شخص فحسب ، وبجانبهم عشرات الألوف لا يجدون الكفاف من العيش . وفى أثينا ، كما يقول أرسطو نفسه ، تكدست الثروات فى يد عدد محدود من الأفراد ، بينما كان السواد الأعظم من الشعب يتجرع كئوس البؤس والشقاء ، ويعيش أحراره فى منزلة لا تزيد كثيرا على منزلة الرقيق ، بل لقد كان كثير منهم يحسد جماعة الرقيق على ما هم فيه .

وقد أدت هذه الأوضاع الاقتصادية الفاسدة إلى ظهور اتجاهات شيوعية يرجع أهمها إلى اتجاهين : أحدهما نظام عملى حاول المشرع الشهير ليكورغوس تطبيقه فى إسبرطة ؛ والآخر مذهب فلسفى نادى به فى أثينا كبير فلاسفتهم أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » .

أما ليكورغوس (القرن التاسع ق ـ م) فقد حقق فى إسبرطة نظاما شيوعيا مبتكرا لم يسبق إليه . وذلك أنه ألغى نظام الملكية الفردية للأرض وأعاد تقسيم أرض لاكونيا إلى ثلاثين ألف قطعة متساوية القيمة بعدد الأسرات الإسبرطية حينئذ ، وأعطى كل أسرة قطعة منها . فأصبحت ملكية الأرض جماعية وأصبح جميع الأسرات سواسية كأسنان المشط . وجعل للدولة نفسها ، أى للمجتمع العام ، نصيبا كبيرا من غلة الأرض ودخل الناس فى مختلف مظاهر الإنتاج . وفى مقابل ذلك تنفق الدولة على جميع الشئون العامة وأعمال الحرب وتأخذ على عاتقها تربية جميع الأطفال الذكور وتنشئهم تنشئة عسكرية على نفقتها وفى دورها الخاصة . وكان كل وليد من الذكور تختبر بنيته وقواه الجسمية على يد أمه أولا وعلى يد رؤساء عشيرته ثانيا ، ولا يسمح ببقائه إلا إذا ثبت من هذين الاختبارين خلوه من جميع مظاهر المرض والضعف والعاهات . فلكى تتأكد الأم من صلاحية ولدها للحياة فى نظر مجتمعه كانت تغمسه عقب ولادته فى دن من النبيذ وتتركه مغموسا وقتا ما : فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه التربية ؛ وإن مات أدت الأم واجبها نحو المجتمع بأن خلصته من كائن ضعيف لا يستحق الحياة فى نظره . وكان الولد الذى تبقى عليه أمه يعرض على مجمع شيوخ القبيلة ورءوسها : فإن وجدوا أنه سليم معافى أقروا بقاءه نهائيا ؛ وإلا حكموا

بقذفه فى خارج الحدود . والوليد الذى يجتاز بنجاح هذين الاختبارين كان يعهد بحضانته إلى أمه تحت إشراف الدولة نفسها حتى إذا تجاوز سن الحضانة تسلمته الدولة وقامت بتربيته تربية عسكرية وإعداده لشئون الحرب فى معسكرات عامة وعن طريق مربيين ومعلمين ومدربين من الجيش. فإذا بلغ سن الجندية التحق بالجيش العامل ، وظل به حتى يبلغ السن التى لا يقوى فيها على مباشرة أعمال الحروب. وهكذا كانت دولة إسبرطة كلها أشبه شىء بمعسكر محارب أو متأهب للحرب . ومن ثم خضعت جميع نظمها الاجتماعية ومختلف شئون حياتها لمقتضيات الحروب . فكان نظامها الاقتصادى أدنى إلى ما نسميه الآن بالنظام الشيوعى: تملك الدولة بمقتضاها قسما كبيرا من ثروات البلد ومنتجاته ودخله ؛ وتقوم هى نفسها بتربية قسم كبير من أهله وتسخيرهم فى شئونها العامة.

وأنشأ ليكورغوس بجانب ذلك نظام « الموائد الجماعية » . ويقوم هذا النظام على تناول الرجال الأطعمة فى جماعات صغيرة تتألف كل جماعة منها من خمسة عشر شخصا على نظام العشائر، ولكل جماعة ردهة خاصة تتناول فيها طعامها . وكان يجب على كل إسبرطى الاشتراك فى هذه الموائد وحضورها . فما كان يسمح لأحد، كما يقول بلوطارخوس Plutarque ، أن يسمن وحده خفية وفى الظلام كما تفعل البهائم الجشعة.

وعلى الرغم من أن إسبرطة لم تكن مجتمعا طبيعياً مستقراً ، بل كانت أشبه شىء بمعسكر فى حالة حرب بالفعل أو فى حالة تأهب للحرب، ومع أن هذا النوع من المجتمعات غير المستقرة يمكن أن يحكم وقتاً ما بنظم تختلف عن قوانين الاجتماع المستقر العادى ، على الرغم من هذا كله فإن نظم ليكورغوس الشيوعية قد أخفقت إخفاقاً مبيناً ، حتى لقد اضطر هو نفسه إلى تعديلها وإعادة توزيع الأرض أكثر من مرة. وقد اختل التوازن كذلك من بعده عدة مرات ، وكان كلما اختل التوازن يفكر ولاة الأمور فى إعادة تقسيم الأرض أو يشرعوا فعلا فى إعادة تقسيمها على النحو الذى فعله ليكورغوس .

* * *

وأما أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٨ ق . م) فقد ود لو أصبحت أثينا « مدينة فاضلة » تسير على نظام شيوعى قريب من النظام الذى طبقه ليكورغوس فى إسبرطة . وقد رسم فى كتابه « الجمهورية » ما ينبغى أن تكون عليه الحياة ونظم الحكم وشئون التربية وسائر فروع الاجتماع فى هذه المدينة الفاضلة. فذهب إلى أن المجتمع ينقسم ثلاث طبقات : طبقة الزراع والصناع ، وهؤلاء قد خلقهم الله للعمل الجسمى فحسب فلا يصلحون لأى عمل آخر ؛ وطبقة المحاربين وهؤلاء

يضطلعون بشئون الدفاع عن الأوطان ؛ وطبقة الفلاسفة ، وهؤلاء يتولون شئون الحكم ويديرون سياسة البلاد .

وتقسيم الناس إلى هذه الطبقات بحسب استعداد كل منهم ووفق نظام معقد فصله فى كتاب « الجمهورية » ، ولا يتسع المقام لبيانه الآن ، والقيام بتربيتهم وإعدادهم لوظائفهم المستقبلة ،كل هذا تقوم به الدولة نفسها وعلى نفقتها ، وبدون تفرقة بين الذكور والإناث . فالنساء ـ كل واحدة منهن حسب استعدادها ـ يشاركن الذكور فى جميع شئون الحياة . فتكون منهن الصانعات ، ومنهن المحاربات ، ومنهن المتخرجات فى مدارس الفلسفة العالية اللائى يضطلعن بشئون الحكم .

وغنى عن البيان أن نظاما كهذا يقتضى أن تكون الدولة نفسها هى المالكة لمعظم الثروات ومصادر الإنتاج فى البلاد ، وأن تجرى الحياة على نظام شيوعى تنمحى فيه الملكية الفردية أو لا يكون لها فيه شأن ذو بال . وقد رأى أفلاطون أن يطبق هذا النظام الشيوعى فى أدق معانيه على طبقة المحاربين . وأما طبقة المزارعين والصناع فيبدو أنه يسمح لهم بشىء من الملكية الفردية وبشىء من حرية التصرف فى ثروتهم ، على أن يدفعوا للدولة ضرائب تستعين بها فى شئونهم وشئون الطبقات الأخرى . ولكنه لم يعطهم حق توارث الملكية ؛ فملكية كل واحد منهم تئول إلى الدولة بعد وفاته .

ولم تحاول أثينا تطبيق نظام أفلاطون ولا الأخذ بأية ناحية منه ؛ بل كان موضوع سخرية مفكريها وشعرائها . ففى قطعة تمثيلية لشاعر الملهاة (الكوميديا) الشهير أريستوفان Aristophane (قصصى كوميدى فى القرن الخامس ق ـ م) عنوانها « جماعة النساء » L'assemblée des Femmes يصور الشاعر ما يكون عليه الحال فى هذا المجتمع الشيوعى الغريب ، فيظهر مواطنا يونانيا يخفى جميع أمواله ولا يقدم اشتراكه فى الموائد الجمعية ، ولكنه يتسلل إلى هذه الموائد يأكل منها حتى يبشم ثم يدلف إلى منزله ساخرا من حمق بعض المواطنين وسفههم إذ يقدمون أموالهم وكدح أياديهم إلى ما يسمونه « مخازن الموائد العامة » .

وقد تبين لأفلاطون نفسه فى أواخر حياته أن نظام جمهوريته هذه متعذر التطبيق فى بلاده بل فى أى بلد آخر كذلك ، نظرا لما ركب فى طبيعة الناس من نوازع وشهوات . فعدل فى كتابه « القوانين » عن معظم آرائه هذه ، وأقر الملكية الفردية فى حدود أوسع من الحدود التى أقرها فى كتابه الأول « الجمهورية » ورأى أن ينال أفراد الشعب جميعا ـ بما فى ذلك طبقة الزراع والصناع ـ قدرا مشتركا من التعليم العام .

على عبد الواحد وافى

خواطر من الحجاز

كنوزنا في طريق الضياع

للأستاذ سعيد الأفغاني

الأستاذ بجامعة دمشق

بلغت دمشق بعد غياب أربعين يوماً فى الحجاز، وحططت عن كاهلى من مشاق الحياة هناك وتكاليف الإجراءات وعنتها فى الإدارات والشركات ما كان أشد على النفس من حر الهواجر ولهيب الصخور المتوهجة، وعانى غيرى من الحجاج أكثر مما عانيت بكثير.

وواجب على كل عائد أن يلفت النظر إلى بواعث الشكوى وما ينبغى بذله لإزالتها، فإن الداء لا يذهب بالسكوت عليه، بل برفع العقيرة وهز المسئولين حتى يقوموا ببعض ما عليهم من الإصلاح - وهم عليه جد قادرين - فيعالجوا قضايا الحل والترحال وإقامة الحجاج بمكة ومنى وعرفات، بيعض الرفق بالإنسان الذى تشتد حاجته هناك إلى ظل وماء غير مغلى وهواء غير ملوث كما يحسن أن نشعره أحياناً - ولو قليلة - بأنه شىء آخر غير كونه مستغلا للمطوفين والموظفين والباعة والشركات.

وودت لو تفرغ بعض القادرين لعلاج هذه القضايا وأمثالها وبسط شكاوى مئات الألوف وعرض الحل . . . فإن الناس فى المسئولين هنالك آمالا عراضاً فى حسن الاستماع وسلوك الجادة متى وضحت لهم. ولقد بلغنى أن مهرجانات دولية تقام فى المدن الأوروبية فيبلغ زوارها فى بعض الأحيان الملايين لا يضام منهم أحد فى إقامة ولا تنقل ولا حصول على ما يجب له من غذاء ورعاية صحية ومسكن صالح وما إلى ذلك . . . ولولا أملى باستعداد العربية السعودية للخير لشايعت ظريفاً: مذهبه ألا يحج حتى يدخل الألمان فى الإسلام فينسقوا لنا شئون الحج بما عرفوا به من عقلية منظمة لا يستعصى عليها شىء. وقد - والله - بالغ هذا الظريف، فى تشاؤمه ونسى أن النظام والنظافة والرفق بالناس معان إسلامية تحققت فى المجتمع الإسلامى يوم كان الإسلام يحكم، يعرف هذا كل منصف ألم بالتاريخ الإلمام الواعى.

وبعد: فليس حديثى اليوم متعلقا بشىء من هذا، لكنها كلمة على الهامش كما يقولون،

ولعل لى إليه رجعة ، فلآخذ الآن فيما أنا بسبيله ؟.

* * *

فى الحجاز كنوز نادرة من تراثنا المجهول ، عليك لكى تتصوره أن تطرح عنك فكرة خاطئة تجعل الحجاز قطرا كهذه الأقطار التى تعرف : إقليما محليا يضطلع بالتبعة فيه مسئولون محليون .

إنك اليوم تدرك أن عصبة الأمم لما كانت فى (جنيف) جعلت من هذا البلد عاصمة للعالم كله وخرجت به عن بلد إقليمى من سويسرا إلى محط للأنظار من كل الأقطار ، إليه يتجه زعماء العالم لحل مشاكلهم وحوله تحوم أمانى الشعوب قاطبة، وذهبت عصبة الأمم،وخلفتها هيئة الأمم المتحدة فنقلت هذا الاعتبار مضخما مفخما إلى نيويورك ، وأنت تذكر أفرادا ومؤسسات قدمت لهذه الهيئة ولتلك القديمة تبرعات سخية جدا .

تصور الآن أن الحجاز لبث أربعة عشر قرناً مهوى أفئدة العالم الإسلامى كله من الصين إلى المحيط الأطلسى ، وأن قدسيته فى النفوس فوق ما لعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة بكثير ، وأن هبات الأمراء والسلاطين والملوك والأثرياء تدفقت عليه من كل صوب لتنشأ فيه المدارس والمساجد والربط والزوايا والمكتبات العامة ، وتصلح الطرق وتسيل فيه المياه العذبة ، ثم حبّست الأوقاف الدارة على هذه المؤسسات الخيريه والعلمية ، وأن أمنية المتمنى أن يجاور فى مكة أو المدينة فيختم حياته بالخير والصلاح فى ديار مقدسة ، الحسنة فيها تفوق مثلها فى غيرها أضعافاً مضاعفة فإن حظى بالدفن فى البقيع فقد استوفى أمانيه كلها .

ثمة أمر آخر هام ، ذلك أن اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية الأولى يكاد يكون ميدانها هذه البقاع التى كانت مجال الخطباء والشعراء والحكماء فى الجاهلية، ثم شهدت حياة الرسول وأصحابه ودولة الراشدين والأمويين والعباسيين. منها صدر القواد والفاتحون والعلماء والقضاة والقراء والمحدثون والأمراء ، ثم حرص كل ذى سلطان فيما بعد أن يكون الحجاز فى حوزته ليرضى طموحه ويستحق التبجيل فى قلوب الناس ، والتاريخ يشهد أن سلاطين بنى عثمان على سعة امبراطوريتهم لم يرض طموحهم أن ينعتوا : (ملك البرين والبحرين) حتى يضيفوا (وخادم الحرمين الشريفين) !! وليس فى الحجاز بقعة إلا خلدها شاعر أو أديب أو خطيب أو إخبارى ، أو شهدت حدثا من أحداث التاريخ المشهورة ؛ فكان كل مسلم بل كل مثقف حريصا على زيارتها ليستكمل استيعابه وفهمه لما قرأ .

هذه العالمية الموغلة فى القدم المتفردة

بالاستمرار تشرك دول العالم الإسلامى كله فى التبعة ولا تجعل العربية السعودية وحدها المسئولة عما حصل بما أقص عليك :

* * *

حرص المحسنون فى أقطار العالم الإسلامى على أن يهدوا أثمن مايقدرون عليه من تحف إلى المدينة وحرمها ، وكان من ذلك نفائس الكتب: مخطوطها ومطبوعها . وقدسية المدينة وساكنها عليه الصلاة والسلام فى نفوس الأمراء والعلماء والأثرياء حدتهم على أن يؤسسوا فيها دور العلم والعبادة ، وينشئوا المكتبات الفخمة ويزودونها بالنفائس من كتب العلم والمصاحف ، وبقيت المدينة عاصمة من عواصم العلم قرونا متطاولة ، يرحل إليها المتخصصون ليزيدوا علمهم ويتلقوا عن علمائها والعلماء المجاورين فيها وهم كثيرون من جميع الأقطار .

وحدثنى خبير من أهل العلم بالمدينة أنه كان فيها نحو (١٢٤) مكتبة موقوفة على القراء ، وأن الظاهر منها اليوم نحو (٨٠) فقط ، وفيها من النوادر ما لا يعرف خبره أحد لضن أصحابها أو أمنائها بها على أنظار الناس ، بل لضنهم أحيانا بأخبارها على الأسماع .

فالمكتبة المحمودية كان فيها - على ما قال - نحو (٢٢) ألف مخطوط ، فلما نقلت قبل هدم المدرسة المحمودية فى مشروع توسيع الحرم وتفريغ ما حوله وكانت فى الساحة الغربية منه ، لما نقلت إلى الحرم كانت دون (١٥) ألف كتاب .

ومكتبة الشيخ أحمد عارف حكمة ، فيها اليوم نحو (١١) ألف كتاب ، وكان فيها عشرون ألفا ، ومكتبة عادل (العرفانية) فيها اليوم نحو (٨٠٠) كتاب وكان فيها (١٢٠٠) ، ومكتبة الحرم ليس فيها اليوم أكثر من (١٠) آلاف ، ومكتبة مظهر فى رباط مظهر ، كان فيها أكثر من (٢٠) ألفا أكثرها مخطوط وزعت على ثلاث غرف كبيرة والموجود منها اليوم لا يملأ الغرفة الواحدة وهلم جرا . . .

هذا فى مكتبات الوقف العام ، فأما مكتبات الوقف الخاص والمكتبات التى هى ملك خالص لأصحابها فلا تسل عما تسرب منها إلى خارج البلاد فذلك شىء يستعصى على الحصر » .

قد يكون فى تقدير الشيخ المحدث شىء من المبالغة ومهما حذفت فإن ما يبقى كاف لأن يكون نذير الخطر على ثروة هى مفخرة تاريخنا وحضارتنا .

ولقد زرت بعض هذه المكتبات ولبثت فيها أياما وأفدت منها :

فمكتبة شيخ الإسلام : أحمد عارف حكمة ، رحمه الله ، هى خيرها وأحفلها بالنفائس وأنظفها ، ولقيمها اليوم عناية بها مشكورة ،

ولها فهارس منظمة على الفنون ، ولقد جلب لها واقفها - عليه رضوان الله - أجود ما قدر عليه من النسخ . وأذكر أنى طبعت العام الماضى (توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب[1]) عن نسخة - زعموا - فريدة فى باريس معزواً للرمانى ، ولم أعثر فى فهارس المخطوطات المطبوعة على نسخة له ثانية ، ثم أخبرت بوجود نسخة فى دار الكتب المصرية أجود من الباريسية دلت على أن اسم الكتاب (شرح الأبيات المشكلة الإعراب للحسن ابن أسد الفارق) فبادرت بإلحاق بيان بنسخ الكتاب يصحح اسمه ونسبته ؛ فلما عرضت فهارس هذه المكتبة : مكتبة شيخ الإسلام وجدت له نسخة أصيلة جيدة مشكولة كتبت سنة (٦٠٢ هـ) ، فلو كان لها ذكر فى فهرس من الفهارس المطبوعة لوفرت عناء كثيراً وصانت من الخطأ وأغنت عن التصحيح . فهذا مثال واحد مما يضيع على الباحثين من إبقاء هذه المكتبات فى عالم المجهول .

ومزية مخطوطات مكتبة (أحمد عارف حكمة) على أمثالها مما رأيت فى مكتبات انجلترا وفرنسا وأسبانيا وتونس أن النسخة التى بها تفوق أمثالها فى غيرها من المكتبات فى الجودة والنفاسة والصحة غالباً . والظاهر أن صاحبها - وهو شيخ إسلام - تحرى أن يجعل فيها من كل كتاب أعلى نسخة ضبطاً وأناقة وأصالة ، وبذل فى ذلك ما قدر عليه ، فجاءت مكتبة منتقاة تشبه فى ندرة نسخها المتاحف . وقد رفق - رحمه الله - بالمطالعين فبنى المكتبة فى رباط قبالة دار أبى أيوب الأنصارى ، ليس بينها وبين قبلة الحرم المدنى غير الشارع ، جعلها فى قاعة فسيحة تعلوها قبة جميلة على الطراز التركى البديع .

ورباط مظهر الذى قال محدثى (كان فيه أكثر من عشرين ألف كتاب أغلبها مخطوط) يقع فى ناصية شارع حديث أوله شرقى الحرم وآخره قرب البقيع حيث بنى الرباط واسعاً جميلا يشرح الصدر ويقر العين ، تدخل إليه من دهليز يؤديك إلى صحن كبير تتوسطه حديقة فيها مجلس وقد حفت غرف المجاورين بالصحن من جهاته الأربع ، وفوقها طابقان يطل ممشى كل منهما على الصحن والحديقة ، والغرف تحف الممشى من خلفه . وفى الرباط نحو ستين غرفة ، أما المكتبة فحوتها غرفة كبيرة والكتب مكدسة فى الخزائن يعلوها الغبار وتعيث فيها الإرضة لقلة من يطلب كتابا فى العام كله ولذا قل أن تفتح المكتبة . ولها فهرس على الفنون ، وفهرس للإعارة الخارجية التى أرادها الواقف رحمه الله نشراً للعلم وإعانة لطلابه .

(١) طبعته الجامعة السورية فى مطبعتها سنة ١٩٠٨ م .

أسس هذا الرباط أحمد مظهر المجددى من أسرة المجددى المعروفة فى الأفغان (١) والهند ونسبها يتصل بعمر بن الخطاب (ويعرف أهل القاهرة منها الأستاذ محمد صادق المجددى سفير الأفغان فى مصر سابقاً وهو اليوم مجاور فى المدينة المنورة عاكف على العلم وعمل الخير). وقد رتب الواقف رحمه الله للرباط والمكتبة أوقافا واسعة وحال الرباط اليوم صالحة فى الجملة.

دخلت المكتبة أتصفح فهرسها المرقم وقد أعجبنى أن الكتب مرتبة على هذه الأرقام بحيث كان استخراج المطلوب سهلا على كل أحد، وقد أحصيت ما فى فهرسها فإذا هو لا يبلغ الألفين، ولعلك لم تنس أن محدثى جاوز بعضمونها العشرين ألفا وهاك بيان ما أحصيته:

٩٦	المصاحف.
٢٢٩	التفاسير.
٤٥٣	الحديث.
١٥	الفقه.
٤١٢	أصول الفقه.
٣٣٣	التصوف.
٢٢٥	السيرة.
١٧٢	النحو والصرف
١٩٣٥	المجموع

جلب انتباهى بقوة ودهشة فى فهرسها هذه الجملة (تاريخ ابن شبة بخط مؤلفه - رقم ٤٥ سيرة). فصحت أطلبه بلهفة عَجَّبَتْ منى رفيق الشيخ الوقور صلاح الدين الزعيم، إذ كانت وفاة ابن شبة فى المائة الثالثة (٢٦٦هـ). فأى كنز هذا إذا كان جميعه بخط مؤلفه !؟. فتش حفيد القيم وفتشت معه فوجدنا الأرقام التى قبله والتى بعده وأعجزنا هذا الرقم أن نجد له أثراً، فلا تسل عن حسرتنا وأسفنا، ثم رجوت الشاب النابه حفيد القيم أن يعيد التحرى ويوسع دائرته ولو نبش المكتبة ورقة ورقة فوعد وكان لطيفاً أريحياولاعجب، فهو حفيد من طابت نفسه للأمة بهذا الرباط المعجب وتلك المكتبة الحافلة الثمينة.

وحدثت عشية اليوم نفسه صاحبى الخبير بما وقع لى فقال: « ارسلوا إلى القيم لايتعب نفسه بالعبث فلن يجد الكتاب، لقد أتلف عمداً ». فأنسانا والله بكلمته هذه ألم الحسرة وغصة الأسف وقلنا « ما الخبر؟ » فقال: « اطلع على هذه النسخة فلان قاضى القضاة (وسماه) وقد ذهب إلى ربه يحاسبه، فرأى فى أخبار الكتاب ما ظن أنه يخالف مذهبه الخاص فى العقيدة، فاستعار النسخة فأتلفها،

(١) عرفت بالعلم والصلاح منها العلامة المشهور شاه ولى الله الدهلوى صاحب التصانيف المشهورة والذى أحيا الله به وبأولاده السنة بالهند.

ولما أبطأت العارية على القيم ذهب يطالبه المرة تلو المرة وهو يتعلل ثم ادعى ضياعها وكان القيم رجلا كل الرجل - وهو اليوم جليس فراشه فى المائة والعشرين من سنه - عافاه الله - فشكاه إلى الملك الراحل عبد العزيز بن سعود رحمه الله فأرسل إلى القاضى فحضر فعاتبه على المطل وسأله عن الكتاب فأقر بإتلافه وأنه تقرب بذلك إلى الله !!.

ثم قص صاحبى قصصاً عن مخطوطات نفيسة تسربت إلى الهند ولندن وغيرهما على يد سماسرة أو أجانب يدعون الإسلام ، وآخر ما عرف خبره (مسند عمر بن عبد العزيز) كان فى إحدى مكتبات المدينة وكان يتردد عليها هندى عليه سيما الصالحين يطالع فيها ويستعير منها ويرد ما استعار حتى ألفوا ذلك منه ثم خفى عن الأنظار ، وبعد مدة عرف أن المسند مفقود . قال الشيخ : «وقبل أشهر كنت أستمع إلى برنامج إذاعة لندن فكان إحدى مواده . حديث لفلان : كيف وصلت مخطوطة مسند عمر بن عبد العزيز إلى المتحف البريطانى بطريقة عجيبة !! » .

هذا فى المكتبات العامة الموقوفة وقفا حراً فأما ما اشترط فيه أن يكون القيم من ذرية الواقف وما كان ملكا خالصاً فخبره أعجب والأمر فيه أدهى وأمر . وقد زرت إحدى هذه المكتبات الخاصة وهى المكتبة العلمية البساطية لآل البساطى ، فذكر لى قيمها أن فيها ثمانية آلاف كتاب ٩٠٪ منها مخطوط . ولعله ظن بادى الرأى أننا من شراة النفائس فذكر لنا أن عنده نوادر ثمينة جدا منها تذكرة الصلاح الصفدى بخطه ، فلما دهشنا متسائلين : «بخطه ؟!» قال : «نعم» ثم أرانا بعض النفائس الشكلية وتبادلنا حديثاً عرف منه أننا طلاب علم هواة لا شراة ، فلما طلبنا رؤية تذكرة الصلاح الصفدى تعلل بصعوبة الوصول إليه الآن ولم نظفر برؤيته . والحال فيما لم نطلع عليه من المكتبات العامة والخاصة كحال ما اطلعنا عليه .

أعود الآن بعد هذا السرد إلى حيث بدأت ، فإذا كان فى المدينة (١٢٤) مكتبة لا يظهر منها اليوم إلا نحو (٨٠) على ما قال محدثى ، وكان ما تحتويه آخذاً فى التسرب والضياع فما الواجب علينا نحو تراثنا وحضارتنا وثقافتنا ؟ ولا أقول نحو ديننا .

إن ما رأيته بعينى فى المكتبات التى أتيح لى زيارتها فى مكة والمدينة يعصر العين ويملأ القلب أسى وحسرة ، فالدود والإرضة من من تحت التراب المتراكم تعيث فى هذه الكنوز ، وما كان منها بمنجاة من ذلك كمكتبة أحمد عارف حكمة فإلى حد ، والكثرة الكاثرة من المخطوطات تتآكل وتبلى ،

ولينظر من شاء على سبيل المثال فى مستودعات المكتبة فى الحرم المكى وفى رباط مظهر .

أعتقد أن الداء الآن وضح للعيان ، فتراثنا فى الحجاز عرضة لعدوين لدودين لا يألوان فيه فتكا بالليل والنهار على مر السنين وهما الدود والتهريب .

أما العلاج فسهل يسير ينحصر فى أمرين أيضاً :

أولها : ضم هذه المكتباب كلها فى دار واحدة ، والحكومة العربية السعودية التى لها بكل ريع آية ، لا تعجز عن إقامة مبنى مستقل لائق يتسع لضم هذه المكتبات الثمانين الباقية والتعويض على أصحاب المكتبات الخاصة منها ، ثم العهد بإدارة هذه المصلحة إلى عالم حازم بصير غيور ، وعندها منهم عدد غير قليل بحمد الله وتستطيع أن تستعين ببعض ذوى الخبرة على تدريب شباب الحجاز المثقفين وإرسال نفر منهم إلى حيث يتلقون فن المكتبات فى الغرب أو الشرق (١) . وقد دللت على مبنى يقام الآن قبلى الحرم المدنى ، قالوا : إن النية أن يكون بعضه مكتبة وبعضه محكمة وبعضه دار ! وهذا تضييع للمصالح الثلاث ، فالمبنى كله بطوابقه لا يكاد يتسع للمكتبة العامة كما أتصورها إذ تحتاج إلى بقعة أبسط (١) تدور بها الشوارع وتخصص فيها قاعات، فساح للخزائن ، وقاعة للفهارس المختلفة ، ثم قاعات لمختلف طبقات المطالعين ، وقاعة للإدارة ، وأخرى لأجهزة التصوير ، وقاعة للنسخ ، وأخرى للعرض . . . الخ .

وأمر هام لا يفطن إليه إلا الأقلون وهو أن محتويات هذه الدار - متى نشرت فى فهرس واف على دور العلم والجامعات والعلماء - ستكون فريدة فى العالم ، وستتكاثر عليها طلبات النسخ والتصوير ، وزيارات البعثات من الدراسين والباحثين بحيث تصبح كعبة علمية للقصاد من كل ملة ونحلة ، وتكون مركزاً من مراكز الإشعاع العلمى فى العالم كله .

أما ثانيهما فالحزم يقضى بالإسراع فيه منذ هذه اللحظة بأن تقوم الحكومة بإحصاء

---

(١) لم أجد فيما دخلت من مكتبات عامة فى أوربة وشمالى إفريقية مكتبة اتقن مديرها بتنظيم فهارسها أفانين، كدار الكتب العامة فى تونس فإن اجتماعا واحدا بمديرها الأستاذ الجليل العالم السيد عثمان الكعاك وجولة معه فى دار الكتب يشرح لك تنظيماتها تجعلك فى هذا الفن — إن كان لديك استعداد — كأحسن ما يتخرج عليه متخرج من معاهد هذا = الشأن من الناحية العملية على الأقل ، ونحن فى دمشق أنفقنا أموالا طائلة فأرسلنا موفدين لذلك إلى فرنسا فلم نحصل إلا على شهاداتهم وذهبت الأموال بددا ، ولو كانت الجامعة العربية تسن قانونا بمصادرة النافعين لاقترحت عليها أن تصادر السيد عثمان الكعاك سنة فى كل قطر عربى وعشر سنين فى الحجاز .

(١) لا تقل عن مساحة قصر من القصور الملكية بحدائقه وتوابعه .

ها فى المكتبات الخاصة والعامة دون استثناء مع وصف واف لكل نسخة ، ومتى استنفرت معلمى المدينة مثلا فوزعتهم على المكتبات الخاصة أولا فأحصوا ما فيها من كل مخطوط ذاكرين اسم الكتاب وفنه ومؤلفه وعدد أوراقه وتاريخ نسخه ثم صفة المجلد عامة ، رجونا أن ينتهى الإحصاء فى شهرين ثم يطبع الفهرس طبعة موقتة إلى أن ينتهى ضم المكتبات فى دار عامة فيشرع حينئذ فى تنظيم فهرس مفصل واف مصور لها .

والإسراع بالإحصاء والطبع الموقت يضع حدا للتهريب على الأقل ، فإن فقدت نسخة من كتاب فيما بعد كان القيم أو المالك مسئولا عنها لأن إثباتها فى فهرس مطبوع منشور على الناس داع إلى طلبها ومعرفة موطنها . ولو أن هذا أخذ به قبل مائة عام ما تسرب من الحجاز ما تسرب ولبقى هذا الذخر المبعثر اليوم فى المتاحف والمكاتب الأوروبية والأمريكية والهندية مصونا فى موطنه مفخر الأجيال ومثلا من تراث حضارة ما رأى الناس مثلها .

هذه كلمة عجلى أرسلها على صفحات مجلة (الأزهر) ذات الصبغة العالمية ليضع المسئولون حدا لجرائم شنيعة مثلت على أقدس حرم سنين طوالا ، وهى مستمرة حتى الآن فى الخفاء . ومع أن التاريخ لا يعرف حضارة أمجد من حضارة الإسلام ولا سلفا أنبل إنسانية من سلفنا ، فإنه أيضا لا يعرف خلفا فرط بمقدساته وعبث بها تفريطنا وعبثنا .

ومن التناقض البين والمفارقة الصارخة أن تكون قصور المسئولين المبعثرة فى كل بقعة ، فى اتساعها وفخامة بنيانها ونضرة حدائقها الفيح وأناقة أثاثها ورياشها وما ينفق عليها ، أن يكون كل ذلك على ما تعجز عن النفقة على مثله حكومات أوروبة وأمريكا اليوم بل بعد عشرات السنين ، ثم يعيش تراثنا العلمى فى خانات متخلفة من مئات السنين تحت الغبار يعيث فيها الدود وينهبها جياع النفوس . إنه ظلم ما بعده ظلم أن يحيا المسئولون (فى القرن الحادى والعشرين) (العشرين) تكاد تنقلاتهم لأتفه الأسباب تكون بالصواريخ سرعة يبذخهم وتعانى المكتبات الموت الحثيث فى عصور الظلمات ، فإن فكر فى بصيص من الإصلاح كان أبطأ من سير السلاحف فى عصر لا ينعم بخيره متوان .

إن هذه الكنوز المشرفة على البوار أبقى لكم - إن عنيتم بها العناية الكافية - من ثروات البترول ومناجم الذهب التى لم تفد البلاد شيئا مع سوء التصرف ، وربحها على كل حال إلى نفاد . أما ربح تلك فيزداد على كثرة الإنفاق باطراد فيا أيها المسئولون هذه نفثة نذير وإنى قد بلغت . اللهم اشهد .

سعيد الأفغانى

١- وجود الله يتحدى الشيوعيين
٢- إلى الصحافة المصرية

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

— ١ —

نشرت الأهرام الصادرة فى ١٦ من يولية سنة ١٩٥٩ تحت عنوان بالخط العريض فى واجهتها الأولى ، الخبر التالى :

« تحدى راديو موسكو الله أن يأتى بمعجزة يثبت بها وجوده » . قال الراديو - فى إذاعة محلية التقطتها أجهزة الاستماع فى لندن ليلة أمس - : « أى إله هذا الذى يعبده الناس ويصلون له إذا لم يستطع حتى إثبات وجوده ؟ إذا كان هذا الإله موجوداً حقاً فلماذا لا يأتى بمعجزة حقيقية واحدة على الأقل ، حتى لا يشك أحد فى حقيقة وجوده ؟ » .

والشيوعيون إذ يقولون هذا القول إنما يضحكون على أنفسهم ، ويظنون أنه لو شاركهم الناس فى هذيانهم لانقلب هزلهم جدا وباطلهم حقا . ولكن أنى للعقلاء من الناس أن يتورطوا فيما يتورط فيه المخمورون.

إن النقطة الفاصلة بين المؤلهين (الذين يؤمنون بوجود الإله) وبين الملاحدة (المنكرين لوجود الإله) هى تفسير طريقة وجود هذا الكون ، فقد ثبت لدى المؤلهين عدم إمكان أن تكون المادة هى المصدر الحقيقى الأول والأخير لجميع أصناف الموجودات : أحيائها وغير أحيائها ، عاقلها وغير عاقلها ، وحيث صح ذلك ، كان من الضرورى الاعتراف بوجود قوة وراء المادة ، يعزى إليها وجود ما لم يمكن عزوه إلى المادة الجامدة .

ومن البديهى أن منكرى وجود الإله لا مناص لهم من أن يفسروا كل كائن فى هذا الوجود تفسيراً ماديا بحتا ، فإذا تم لهم إمكان أن تكون المادة هى مصدر إيجاد الكائنات بجميع أنواعها ، لم يكن ذلك كافيا فى أن يرفع الهدامون عقيرتهم معلنين انتصارهم . ففى مثل هذه الحال يقول العقلاء: إن الأدلة متعارضة : أدلة المؤلهين ، وأدلة غير المؤلهين . وحين تتعارض الأدلة

يكون الأمر متوقفا على جولة أخرى وأخيرة تفحص فيها الأدلة، ليتبين الجيد من الردىء، وعند ذلك يقال: إن هذا الرأى قد انتصر على ذاك، وإن هذا الرأى حق وذلك باطل.

والشيء الذى ينبغى النظر إليه بجد واهتمام هو أن الشيوعيين لم يعلنوا أنهم اهتدوا إلى تفسير وجود جميع الكائنات تفسيراً ماديا لأنهم لم يهتدوا إلى ذلك التفسير. ومن بين الأمور التى أعجزهم تفسيرها تفسيراً ماديا، الحياة، والمعرفة. وما دامت الحياة والمعرفة أموراً يعترف الشيوعيون بوجودها، وما داموا لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً ماديا، فلا بد لهم — على الأقل إلى أن يهتدوا إلى تفسيرهما تفسيراً ماديا — أن يعترفوا بالتفسير غير المادى لها وهذا التفسير يقتضيهم إثبات وجود الإله. فما دام الشيوعيون لم يهتدوا حتى الآن إلى تفسير مادى للحياة والمعرفة، يلزمهم أن يعترفوا بمصدر آخر غير المادة يفسرون به الحياة والمعرفة.

فإنكار الشيوعيين لوجود كائن غير مادى، فى نفس الوقت الذى يعلنون فيه عجزهم عن تفسير الحياة والمعرفة تفسيراً ماديا، هو مكابرة محضة وعناد يسلكهم فى عداد المتعجرفين الذين لا ينشدون الحق ولكن يريدون إحداث جلبة وضوضاء فقط.

ومطالبة الشيوعيين للمؤمنين بأدلة على وجود الله — مع قيام الحياة والمعرفة، وتكرار حدوث أحياء جدد ومعارف جديدة فى اليوم الواحد بما يبلغ ألوف المرات، وكل حدث من هذه الأحداث هو وحده دليل على وجود الإله. ما دام تفسير ذلك تفسيراً ماديا لم يزل غير ممكن حتى الآن — تعتبر لونا من هذيان المغلوب الذى يعز عليه أن يستخذى ويستسلم أمام خصمه الغالب.

وما دامت أدلة الحياة والمعرفة أدلة قوية تفيد — على الأقل إلى أن يتم تفسيرهما تفسيرا ماديا — وجود قوة غير مادية، ومع ذلك ينكر الشيوعيون معها الاعتراف بوجود الإله، فليس هناك ما يدعو إلى أن ينزل الله تعالى وتقدس، عند إرادة هؤلاء المهاترين ويخرق لهم سنن الوجود ويختصهم بإحداث أدلة خاصة مع أن الأدلة القائمة قد هدت من أخلص فى طلب الحق.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أجل وأعظم من أن ينزل عند إرادة مكابرين معاندين، فيدللهم بفنون من الأدلة يعلم جل شأنه أنهم سوف يلتمسون الوسائل لردها بمثل ما ردوا به غيرها، فإن المكابر المعاند لا يعجزه أن يلتمس قولا يصيح به فى وجه الحق. حكوا أن اثنين اختلفا فى عد عشرة من الأوز فقال أحدهما: إنها عشرة، وقال الآخر:

بل هى تسعة ، ولما طال خلافهما احتكم أحدهما إلى طريقة وافقه عليها خصمه . تلك الطريقة أن يستحضرا عشرة رجال، ويأمراهم بأن يأخذ كل واحد منهم أوزة . فإن وفت الأوز بالرجال العشرة ، وأخذ كل واحد واحدة ،كانت الأوز عشرة كاملة . وإن أخذ تسعة من الرجال أوزا ، ونفدت الأوز قبل أن يأخذ العاشر، كانت تسعة فقط . فكان أن أخذ تسعة رجال فقط ، ولم يبق للعاشر شىء يأخذه ، فقال المحق للمبطل ها هى ذى تسعة لأن العاشر لم يجد ما يأخذه ، فقال المبطل للمحق ، ما منعه أن يأخذ وقد كان أمامه ما يستطيع أخذه ؟ .

فالله سبحانه وتعالى الذى يعلم طبائع البشر ويعلم ما عاناه أنبياؤه ورسله من سلف أولئك الشيوعيين الذين لم يكفهم ما أقام الله لرسله وأنبيائه من أدلة تثبت صدق ادعائهم أنهم رسل من قبل الله ، بل طالبوا بسواها عنادا ومكابرة ، قد وضع حدا لهذه المهازل التى يريد دعاتها كسب الوقت وإطالة مدة الجدل والمكابرة وتشكيك من آمنوا واطمأنوا ، وأخذوا يضعون أسس حياتهم الجديدة ، فى الإصلاح والهداية والإرشاد، فقطع جل شأنه الرجاء فيهم وصرف أحباءه وأصفياءه عن التعلق بهم وعن المضى معهم إلى نهاية الطريق ، وعن الرغبة فى الاستجابة لمطالبهم أملا فى أن يؤمنوا قائلا : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » وقائلا : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » ثم شرح لأحبائه وأصفيائه سبب تيئيسهم من التعلق بهؤلاء المصرين على ضرورة إنزال أدلة جديدة قائلا : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت ، أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » . فالذين يبلغ بهم الإصرار على العناد إلى هذا الحد ، يكون من العبث مطاولتهم وملاطفتهم وملاينتهم .

وحسبهم ما كفى غيرهم من الأدلة إن أرادوا الهداية لأنفسهم ، وعساهم يظنون أن الأدلة أمور تنزل من السماء كما تنزل الصواعق فتأخذ الناس كرها إلى حيث تريد ، إن كانوا يظنون ذلك فهم معذورون فى انصرافهم عما أقام الله على وجوده من أدلة فى الأنفس والآفاق ؛ فإن واحدا من هذه الأدلة لم يبلغ مبلغ الصاعقة التى تهلك وتدمر من يقف فى طريق سيرها . إن حكمة الله جلت قدرته قد اقتضت أن تكون الأدلة مرشدات وموجهات لمن وجد عنده أصل الاتجاه إلى الحق .

إن مثلها مثل الصوى التى تنصبها البلدية فى الطرقات ترشد بها السائرين فتكتب عليها مثلا هذا هو الطريق إلى القناطر الخيرية ، وذاك إلى قليوب ، فمن حرص على أن يصل اجتهد وسأل وسار ، ومن تحجر تفكيره ،

وقال لن أتنقل حتى يحضر إلىَّ وزير البلدية نفسه ويقنعنى بأن هـذا الاتجاه هو الطريق إلى قليوب ، وذاك هو الطريق إلى القناطر ، بقى فى مكانه ، وتخلف عن القافلة . إن إرادة الله اقتضت أن تـكون الأدلة توجيها وإرشاداً ، لا إلجاء وإكراها ، ليتحقق معنى الاختيار ، وتتحقق الحكمة فى المسئولية والجزاء . فالله موجود رغم أنف كل مكابر . وأحـداث الكون كلها شواهـد على وجوده ، ولـكن لا إلجاء ولا إكراه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

— ٢ —

نشرت جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ من يولية سنة ١٩٥٩ فى واجهتها الأولى وبالخط العريض الكلمة التى عزتها أجهزة الالتقاط فى « لندن » إلى إذاعة « موسكو » ، ومنذ قرأتها وقر فى نفسى إحساس قوى بضرورة أن يتعرض لها باحث بنقد . ولم أشك فى أن حقنا فى الرد ثابت يطوق عنق جريدة الأهرام التى غزت بنشر هذه الكلمة أهم مقدسات العرب جميعا بين مسلمين ومسيحيين ، وآذت شعـورهم فأولى عقائد المسلمين والمسيحيين على السواء وجود الإله الواحد الكامل ، فأى طعن فى هذه العقيدة هو افتيات على مقدساتنا خصوصا إذا كان هذا الطعن غير نابع من بيئتنا ولا ناتج من ظروفنا المحلية ، ولـكنه وافد علينا من بيئة خارجية ليس من الضرورى أن نستوفد منها عقائدهـا .

ولقد تساءل الكثيرون منا عن مبررات إقدام جريدة الأهرام على نشر خبر كهذا بين العرب ، وهى للعرب تنشر ومن أجلهم تصدر . وكل ما استطعنا أن ندافع به عنها هو اللجوء إلى حرية الرأى ؛ مع التوسع فى فهم هـذه الحرية ؛ فإن الشأن فى الحرية التى تمنح للفرد أو للجماعة أن لا تسىء إلى الآخرين .

وأيا ماكان الحال ؛ وسواء وجد لجريدة الأهرام العربية مبرر لنشر خبر يسىء إلى العرب جميعا أم لم يوجـد ؛ فإن حق العرب فى الرد على ما نشرته جريدة الأهرام فى نفس جريدة الأهرام أمر تقره حرية الرأى التى تذرعت بها الأهرام لنشر ما يضر ولا يفيد ؛ مع أن من شأن حرية الرأى أن لا تسىء إلى الغير ؛ ويقره أيضا حق الدفاع المشروع ضد العدوان الواقع على المرء أو على ما يتصل به من معتقدات وممتلكات .

وفى حماس مزيج من التبرم بالرأى المنشور الذى لم يكن من الضرورى أن تعمل له الأهرام « بروباجندا » على نطاق واسع ؛ ومن الشعور بالحق الواضح فى الرد الذى هو دفاع مشروع ، تقدمت إلى المسئولين فى جـريدة الأهرام بكلمة موجزة ؛ ناقشت فيها هذا الرأى الذى لا يحوج لـكثير من الجهد لتوهينه وتزييفه

فلقيت منهم استعدادا ظاهريا للنشر، وضربوا لذلك موعدا أقصاه يوم الجمعة التالى ؛ فكان أن طلعت علينا أهرام الجمعة خلوا من الرد ؛ وفيها فضلا عن ذلك كلمة لقارئ غيور وجهها إلى العلماء عاتبا عليهم أن يغضوا عن طعن على عقيدتنا كهذا ؛ ولا ينشروا على الملأ من قراء الأهرام التى نشرت الطعن ردا قويا يكشف عن زيفه وبطلانه .

فكان لهذا التصرف الغريب من الأهرام وقع أليم فى نفسى ، وشعور بأن أداة هامة من أدوات النهوض والتقدم - أعنى الصحافة - تنحرف عن غايتها ، وتسير فى طريق ملتوية لا يستبين الشعب معالمها ولا أهدافها . خصوصا أن محررا من محررى «أخبار اليوم» زارنى على غير معرفة وتناول معى بالحديث الطعن الذى نشرته الأهرام على عقيدة الألوهية ، وأظهر تبرمه من أن تقف الأهرام هذا الموقف العدائى من العرب جميعا ، وأبدى استعداد صحيفة «أخبار اليوم» لنشر رد على هذا الطعن . وبالمصادفة البحته كان معى صورة من الكلمة التى أعطيتها للمسئولين فى جريدة الأهرام - وعللت نفسى بأنه إذا فات الأهرام نشر الرد ، ففى نشر أخبار اليوم له تدارك لما فات وتصحيح للوضع - رغم أن لكل جريدة قراءها - وكان من الضرورى فى نظرى أن من قرأ الطعن ينبغى أن يقرأ الرد ، ولقد كانت مفاجأة أليمة - بعد طول انتظار وتكرار ووعود - أن يعاد المقال إلى بحجة أن «الرقابة» منعت نشره ، مع أنه ليس فى المقال ما يمكن أن يكون سببا فى منع نشره .

فبربك يا أخى فى الوطن قل لى : لحساب من تعمل صحافة مصر بخاصة وصحافة العرب بعامة هذا العمل الذى من شأنه أن يقوض دعائم الروح المعنوية العربية من أساسها ؟ .

إن سياسة زعيم العروبة الرئيس جمال عبد الناصر ، سياسة واضحة كل الوضوح ، ظاهرة كل الظهور لا لبس فيها ولا خفاء . ولا غموض وهى تقوم فى أساسها على بناء الفرد والجماعة بناء قويا سليما ، ماديا ومعنويا . وسيادته يعلم كل العلم أن النفوس المنهارة المتخاذلة المترددة المتشككة هى نفوس لا غناء فيها ولا جدوى معها ، فالروح والجسد جزءان فى الإنسان متكاملان ، يؤدى ضعف أحدهما إلى ضعف الآخر ، وقوته إلى قوته والتاريخ شاهد عدل على أن قوة الإيمان ورسوخ العقيدة الدينية من أهم عوامل النصر ، ولولا أن عصرنا الحاضر قد مكن لبعض الأمم من أن تسبق غيرها بالعدد والآلات ، لظل الحال فى الحاضر كما كان فى الماضى ، واحد صادق الإيمان أقوى من عشرة مزعزعى الإيمان فاقدى الثقة بأنفسهم وبربهم . ويوم تتساوى الأمم فى العدد والآلات ، يصبح

النصر للمؤمنين على الكافرين ، ولن يجعل الله الكافرين على المؤمنين سبيلا .

وصدق الله إذ يقول : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . فالله جل شأنه يجعل الواحد المؤمن فى مقابل عشرة ممن استبد بهم القلق ، وطوحت بهم الشكوك فى مهاوى الحيرة والضلال . وإنه حين يستكمل المؤمنون عدتهم ويصبح لهم من القنابل وسواها مثل ما لغيرهم يعود لهم تفوقهم وتظهر ثمرة إيمانهم واضحة جلية إن شاء الله .

وما أظن إلا أن سيادة القائد العام المشير عبد الحكيم عامر حين قال ـ وهو يتفقد وحدات الجيش بالقيادة الشرقية ـ : « إننا واثقون من أنفسنا وإننا نعد الجندى العربى ليكون الجندى بعشرة جنود » ـ الشعب ١١ / ٨ / ١٩٥٩ ـ قد عنى هذا الذى عناه الله سبحانه حين قال : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » فالعدد والآلات حين تتساوى بين الطرفين المتقابلين ، لا يبقى للتفاضل مجال إلا فى القوى الروحية والمعنوية ، وتلك هى الإيمان بالمثل العليا : الإيمان بالوطن ، وحب الوطن من الإيمان . والإيمان بالفضيلة التى تكسب النفوس جلدا وصبرا وقوة احتمال . والصبر نصف الإيمان .

والإيمان بالجزاء على الفدائية التى تريق الدم وتزهق الروح دفاعا عن الوطن ، ومن أقدر على توصيل الجزاء للمستشهدين بعد استشهادهم ممن خلق الإنسان من العدم ، وأبقاه إلى أجله المقدر له ، وخلق له ما لابد لحياته منه ، من الأجهزة الكثيرة التنفسية والبصريه وغيرها ، التى لو اجتمع العلماء من أولهم إلى آخرهم ما استطاعوا أن يخلقوا واحداً منها ، أو أن يصلحوه إذا فسد ، ثم يحييه بعد موته ويوفيه الجزاء الأوفى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقا » .

فمن لا يؤمن بإله قادر على كل هذه الأمور ، لا يؤمن بوقوع هذه الأمور ، ومن ثم يشعر أن بذل دمه وروحه دفاعا عن غيره ، هو بذل من غير عوض ، فتتقاعس همته ، وتتضاءل عزيمته . أما المؤمن بالله وبكل هذه الأمور فهو صلب الإرادة قوى العزيمة كبير الأمل فى الله وفى لقائه وجزائه .

فالإيمان الصحيح بالله هو الذى يعلم حب الوطن ، وهو الذى يعلم الصبر وقوة الاحتمال وهو الذى يشجع على الفدائية والتضحية والاستشهاد .

فالصحافة التى تدأب على توهين شأن الإيمان فى نفوس الشعب ، إنما توهن من حب الوطن ، الذى هو من الإيمان ، وتوهن من شأن الصبر وقوة الاحتمال ، وهما من الإيمان ، وتوهن من شأن بذل الأرواح والجهاد والاستشهاد التى يشجع عليها الإيمان .

والذى يوهن من شأن حب الوطن بيننا ، ومن شأن الصبر وقوة الاحتمال فينا ، ومن شأن الجهاد والاستشهاد دفاعا عنا ، هو عدو لدود لنا ولوطننا ، وعدود لدود لسياسة رسمها لنا زعيمنا ؛ لأن سيادة الرئيس جمال عبد الناصر يحرص كل الحرص على سلامة البناء الروحى للفرد والجماعة ، بنفس الدرجة التى يحرص بها على سلامة أجسادهم .

وحكومته حكومة رشيدة تقوم على تنفيذ سياسته بعناية ودقة وحزم ، فلا يعقل أن يبلغ بالرقابة المصرية على الصحف - وهى جزء من حكومة الرئيس جمال - احترام حرية الرأى حداً يبيح لها أن تنشر رأيا يتحدى العرب فى أهم معتقداتهم ثم يبلغ بها - فى نفس الوقت - الاستبداد حداً يمنع من نشر رد عليه ، إن هذه إلا فرية ضالة كاذبة ، وستار يتستر به المغرضون الذين تأبى عليهم طبائعهم المنحرفة أن يوافوا الشعب بحاجته فى الوقت المناسب . فلوثوقهم من أن الكتاب لن يذهبوا إلى الرقابة يسألونها عن كلماتهم هل عرضت عليها أم لا ، يمسحون عارهم فيها ، وهى من رجسهم وعارهم براء .

ثم يالله من هذا العمل الذى تورطت فيه جريدة الأهرام :

فهى أولا : نشرت خبراً كان أولى بها أن لا تنشره - لأنه هجوم لا مبرر له ضد أعز مقدسات العرب - ثم نشرته بصورة توحى بأن لها فى نشره غرضا ، فهو فى واجهة الجريدة وهو على عمودين ، رغم أنه بضع كلمات . فهل إذا تقدم واحد منا إلى أوسع جرائد الاتحاد السوفيتى شيوعا ، وأكثرها نفوذا ، بخبر يهاجم فيه المذهب الشيوعى ، ينشر له ؟ الجواب معروف لنا جميعا هو النفى القاطع ، فلماذا - إذن - نهاجم فى عقر دارنا بأيدينا ؟ ونسخر أنفسنا لعون خصومنا - فى الرأى - علينا ؟ هل معنى ذلك أننا مفككون لا يأبه بعضنا بمصلحة بعض ؟ أم أننا مأجورون نخون وطننا نظير مغنم مالى ؟ إن كل واحد من هذين الأمرين جد خطير ، ينبغى أن يحسب له ألف حساب وحساب .

وهى ثانيا : تسلمت فى الوقت المناسب ردا على هذا الخبر فأهملته ، وفى هذا الإهمال افتيات على حرية الرأى التى - إن أحسنا الظن بجريدة الأهرام - لا نجد لها عذراً

مظاهر إسلامية كريمة فى إندونسيا

للأستاذ محمد محمود رضوان

كنت أعرف ـ قبل أن يسعدنى الحظ بزيارة أندونيسيا ـ أنها أكبر بلد إسلامى فى عالمنا الحاضر مساحة وسكانا ، وكنت قد لقيت فى مستهل حياتى بعضا من إخواننا الأندونيسيين المسلمين ؛ منهم من سعدت بالتعرف عليه زميلا فى كلية دار العلوم بالقاهرة ، ومنهم من قابلت فى مكة والمدينة فى خلال زيارتى للحج فى سنة ١٩٤٢ م .

وكنت دائما تواقا إلى معرفة المزيد من حال المسلمين فى أندونيسيا ، كيف يعيشون ؟. كيف يؤدون شعائر الدين وأغلبهم لا يعرف العربية ؟ كيف يتفقهون فى الدين والثقافة الإسلامية ؟ كيف تصل أحكام العقيدة وتعاليمها إلى المواطنين فى أطراف الجزر النائية ؟ العقيدة الدينية راسخة فى قلوب مسلمى هذه البلاد أم أنهم مسلمون بالاسم فقط كما هو الحال فى بلاد أخرى هل استطاع الاستعمار الطويل بجبروته وسطوته أن ينال من عقيدتهم على مر القرون أو أنهم صمدوا له ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التى تدور فى ذهن كل مسلم تجاه إخوانه المسلمين فى مشارق الأرض أو فى مغاربها ؟

وأحمد الله ... لقد أسعدنى الحظ فجئت إلى أندونيسيا بنفسى ، ومع أننى لم أقض

سواء فى نشر الخبر . وليس فى هذا العمل من الأهرام افتيات على حرية الرأى فقط ، بل فيه حرمان الشعب من حاجاته الضرورية . وقد اعترفت الأهرام نفسها بأن نشر رد على هذا الخبر هو حاجة من حاجات الشعب بما نشرت من عتاب بعض القراء على العلماء أن يدعوا خبرا كهذا يفلت دون أن يعقبوا عليه بنقد .

وهى ثالثا : بمنعها نشر رد العلماء على هذا الخبر قد أظهرتهم أمام الشعب ـ الذى بعث لها يستنجدها فى حث العلماء على نشر رد على هذا الخبر ـ بمظهر المقصر فى أداء واجبه ، وهو تزوير على العلماء وتدليس على الشعب .

* * *

أيتها الصحافة : رفقا بالشعب !! كونى له ولا تكونى عليه !!! إنك رائد رشيد ، لا طاغية مستبد ؟

الدكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
فى كلية أصول الدين

بها إلا شهورا قلائل ، ومع أنى لم أشهد إلا مناطق معدودة منها ، ومع أنى لا أزال أدرس وأستطلع وأرى فى كل يوم جديدا - مع كل أولئك أستطيع أن أقرر الجواب عن معظم ما كان يحيك فى صدرى من الأسئلة ، وأستطيع أن أقول فى عبارة قصيرة : إن الإسلام بخير فى أندونيسيا . .

نعم . . إن الإسلام بخير فى أندونيسيا . . بل إنى أستطيع أن أقول متنبئا : إن أندونيسيا - بقليل من الصبر والجهد - ستحمل لواء الإسلام يوما ما ، وستكون مصدر إشعاع له فى هذا الجزء من العالم - أعنى الشرق الأقصى - كما أن القاهرة كانت ولا تزال - مصدر الإشعاع فى الشرق الأوسط ؛ ومنها سينبثق نور الإسلام ليضىء بتعاليمه السمحة التى تدعو إلى سلام العالم أجمع إن شاء الله .

ولست أستطيع فى هذه العجالة الموجزة أن أعدد المظاهر التى جعلتنى أنتهى إلى هذه النتيجة ، ولكننى سأكتفى ببعض ما شاهدت فى أندونيسيا فى هذه الفترة القصيرة من مظاهر إسلامية أثلجت قلبى ، وجعلتنى أهتف مرارا بالآية الكريمة : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وأول هذه المظاهر ما تلقاه واضحا كل الوضوح من رسوخ العقيدة الدينية وتأصلها فى قلوب المثقفين من أهل أندونيسيا ، وربما لا يكون مستغربا أن تلمس هذه الظاهرة فيمن تثقفوا بالثقافة الدينية فذلك أمر متوقع مألوف . وإنما المستغرب الذى يجعلك تهتز طربا أنك تقابل الشاب الأندونيسى الذى تعلم فى المدارس المدنية أو الفنية ، ثم تراه قوى العقيدة ، صادق الإيمان ، يرى الله فى كل عمل يؤديه ، ويذكره أينما حل ، ويحرص على أداء الفريضة أينما كان . .

كان أول من صادفته فى طريقى إلى أندونيسيا شاب يعمل مضيفا فى الطائرة التى أقلتنى من (ميدان) إلى (جاكرتا) ، ولما عرف أنى عربى مسلم تهللت أساريره ، وأخذ يحدثنى - باللغة الانجليزية - عن الإسلام وتعاليمه حديث العارف المتيقن ، ثم أخرج من جيبه مصحفا صغيرا وأخذ يتلو من سورة (ياسين) تلاوة جيدة ، وناقشته فى بعض المعانى فأجاب إجابات صحيحة ، ثم ذهب وعاد بعد قليل وفى يده قطعة قماش صغيرة أخبرنى أنها من كساء الكعبة الشريفة ، وأنه اقتناها حينما كان فى الحج ، وأنه يحملها - مع المصحف - وهو فى الطائرة تبركا واستبشارا . ولقد لقيت فيما بعد مئات ومئات من أمثال هذا الشاب . . مهندسين وأطباء ومعلمين وتجارا ، وكلهم ممن تثقفوا بالثقافة المدنية ، ومع هذا فإن إلمامهم بدينهم كبير ، مع صعوبة الوسيلة ، ووعورة الطريق . .

والظاهرة الثانية التى تسترعى انتباه المسلم

الزائر لأندونيسيا هي احتفال إخواننا الأندونيسيين بالقرآن الكريم ـ وخاصة بتلاوته وتجويده ـ احتفالا قل أن تجد مثله في بلد إسلامى آخر ، هذا بالرغم من صعوبة اللغة العربية عليهم ، وتعقد الأساليب المستخدمة في دراستها . وقل أن تجد مسلما في أندونيسيا إلا ويحفظ آيات من القرآن الكريم يستعين بها في أداء صلواته ، أما إذا قرئ القرآن فثمت اللهفة والرغبة والخشوع وحسن الإنصات ولا يزال الناس يتحدثون هنا عن الحفاوة التي قوبل بها المقرئان المصريان اللذان زارا أندونيسيا في العام الماضي ، وكيف كانت الجماهير تتسابق آلافا مؤلفة إلى المكان الذي يتلوان فيه — ثم يتبعونهما من حي إلى حي ومن بلد إلى بلد .

ومنذ شهور دعيت مع السيد السفير لحضور مسابقة في قراءة القرآن الكريم ، أقامتها رابطة القراء في جاكرتا ، وذهبنا إلى مكان المسابقة فإذا نحو ثلاثة آلاف مستمع ومستمعة — شبابا وشيوخا وأطفالا ـ قد حضروا لهذه المناسبة ، ولم يتسع المكان لجلوسهم جميعاً فوقف عدد كبير منهم ، وظل الجميع الجالسون منهم والواقفون في أماكنهم لا يبرحونها ، من الساعة الثامنة مساء إلى الثانية صباحا ، يستمتعون بالقرآن الكريم أكثر مما يستمتع شباب اليوم بأغاني المغنين والمغنيات ، ولو قد امتد الحفل إلى الصباح لأقاموا ، هذا وقد استمعنا ليلتئذ إلى نحو أربعين قارئا وقارئة ، (ومنهم أطفال في السادسة والسابعة) يتلون القرآن كأحسن ما تكون التلاوة ، والحق أنه كان مظهراً اهتزت له نفسي طربا ورددت الآية الكريمة « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

هذا وقد حدثني أحد الناشرين أن الناس يتخطفون المصاحف تخطفاً ، وأنه كلما طبع مليون نسخة منها وأخرجها إلى السوق نفدت في أيام قلائل ، وتستأنف المطبعة العمل فلا تستطيع أن تسد حاجة الناس إلى كتاب الله .

وذات مرة كان الدكتور علي فهمي العمروسي سفيرنا في أندونيسيا يزور منطقة من المناطق ، ونزل ضيفا عند أسرة مسلمة ولما حانت ساعة الرحيل سأل أطفال الأسرة ماذا تودون أن أحضر لكم على سبيل الهدية حينما أزوركم في المرة القادمة ؟ فكان جواب الأطفال : نريد مصاحف القرآن الكريم .

ومن المظاهر الإسلامية الرائعة في أندونيسيا حرص المسلم العارف على أداء الصلاة ، وصحيح أن المساجد قليلة ، ومن أجل هذا يصلي أغلبية الناس في بيوتهم ، ومن التقاليد الجميلة فيها تحبيب الأطفال في فريضة الصلاة وهم في سن مبكرة فآباؤهم

يصطحبونهم إلى المساجد وخاصة فى يوم الجمعة ، وحينما يصل الإمام فى قراءته إلى كلمة « ولا الضالين » ترتفع أصوات الأطفال فوق أصوات المصلين جميعا هاتفين (آمين) ؛ كأنما يجدون فى ترديدها لذة لا تعادلها لذة ، ومن عادات الأندونيسيين المألوفة أن يحمل كل مصل سجادته معه إلى المسجد - ولو كان مفروشا - ليصلى عليها ، بل إنه يحملها معه فى حقيبته إذا سافر من بلد إلى بلد باعتبار أنها لازمة من لوازم السفر كالمنشفة أو الفرجون مثلا ، وقد سافرت مرة لحضور مؤتمر فى بلد آخر ونزلت مع رفقاء من أعضاء المؤتمر فى حجرة واحدة ، فكان كل منهم يخرج سجادته من حقيبته ليؤدى الصلاة أينما كان .

على أن هذا الغرام لا يقف عند الصلاة وحدها ، وإنما هو غرام بشعائر الدين جميعا تلقاه واضحا فى مناسبات عدة ، فالقوم هنا يحتفلون بالحج احتفالا ، وكلمة (حاج) تقرن بأسماء الناس كأنها جزء من الاسم يعتز به المسمى ويزيده تشريفا ، ويبعث الناس على احترامه وتقديره ، ويذكر اللقب فى الأوراق الرسمية كما تذكر كلمة (الدكتور) مثلا . . . ولقد كنت أرى اسم (محمد الياس) وزير الشئون الدينيـة مقرونا بلقب (حاج) فى قرارات مجلس الوزراء .

وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية الخانقة التى تعانيها أندونيسيا فى الوقت الحاضر ويقاسى منها أفراد الشعب ، ترى تلهف كل مسلم ومسلمة على أداء فريضة الحج ، وتتقدم ألوف مؤلفة كل عام لأداء الفريضة ، ومن تتحقق منهم أمنيته فهو أسعد السعداء ، وقد زرت مرة مع القائم بأعمال المفوضية السعودية سفينة تحمل فوجا من حجاج الجزر قبل إبحارها من ميناء جاكرتا ، فرأيت نحو ألف وخمسمائة أغلبهم من الفقراء السعداء ، انتشروا على ظهر السفينة والتقوى تملأ قلوبهم ، واللهفة إلى بيت الله تفيض فى وجوههم ، وعلمت أن كلا منهم دفع نحو ثمانية وعشرين ألف روبية رسوما للحج ، وهو مبلغ ضخم لا ريب أنهم قضوا سنوات طوالا يدخرونه من قوتهم ، حتى حقق الله أخيرا أمل الحياة كلها فى زيارة بيته الكريم ، وأشهد لقد وقفت على سطح السفينة أتجه بناظرى عبر البحر الطويل ، وأسبح فى فكر عميق . . أى سر يكمن فى هذا النداء الربانى فيسارع إلى تلبيته هؤلاء المسلمون من جزرهم النائية ، على فقرهم وإملاقهم ، وبعد الشقة ووحشة الطريق ؟.

ومن المظاهر الإسلامية فى أندونيسيا اتجاه الناس إلى الله فى أمور معاشهم ، والالتجاء إليه فيما يعزمون من أمر ، أو ينوون من سفر ، وحينما ذهبت إلى المطار لتوديع الوفد الأندونيسى الذى زار الجمهورية العربية المتحدة وعلى رأسه السيد أدم خالد نائب رئيس الوزراء - كان هناك آلاف من المودعين ارتفعت عقائرهم بالتسبيح والتكبير ، ولما

حانت ساعة قيام الطائرة إذا بصوت يرتفع بالأذان ثم يقرأ الجميع الفاتحة . وقد تكرر هذا المظهر فى مناسبات أخرى شهدتها عند توديع بعض كبار المسافرين .

وعند عقد القران ينقلب الحفل إلى حلقة دينية رائعة ، يذكر فيها اسم الله كثيرا ويتوجه المأذون بالوعظ والإرشاد والتفقيه والتفسير ويقدم المصحف الشريف مع المهر تبركا .

وليست هذه الظواهر قاصرة على الرجال وحدهم ، فإن النساء يشاركن فيها مشاركة كاملة وفى مسابقة القرآن الكريم التى ذكرتها آنفا كان نحو نصف الحاضرين من النساء ، وقد يتوقع المرء أن يكن من العجائز ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقد كانت أغلبيتهن من الفتيات والبنات الصغيرات ، وحضرت الحفل طائفة من سيدات المجتمع على رأسهن السيدة فاطمة واتى حرم الرئيس سوكارنو .

وكان بين المتسابقين كثير من الفتيات . . بل إن الجوائز الثلاث الأولى كانت من نصيب ثلاث فتيات ، ولست أنسى الطفلة (فتحية) ـ وعمرها ست سنوات ـ وقد وقفت تتلو فى صوت جميل التجويد آيات من سورة (لقمان) لم تلحن فيها لحنا واحد .

وفى يوم عيد الأضحى كان عشرات الألوف من المصلين قد اصطفوا لصلاة العيد فى أحد ميادين جاكرتا الفسيحة ، وكان ثمت بضعة آلاف من السيدات يحتللن الصفوف الخلفية ويلبسن البياض كأنهن الملائك الأطهار ، أو كأنما يلبسن الإحرام فى عرفات . . وكان المنظر رائعا دمعت له عيناى رهبة وخشوعا .

ومنذ أيام كنت أجلس فى شرفة منزلى مساء ، فإذا بى أسمع صوت ترتيل ينبعث من المطبخ ، فتسللت لأجد الخادمة تمسك المصحف وتقرأ فى سورة (المزمل) فى صوت غنائى جميل ، ومع أنها لم تدرس العربية فهى تستطيع قراءة الآيات بالنظر أو بصورتها الكلية العامة . وقد أسفت حينما عرفت أنها تقرأ لمجرد التبرك ، وأنها لاتدرك من المعانى إلا قليلا . وبديهى أنها حضرت سنوات فى إحدي المدارس الدينية التى تشرف عليها الجمعيات ، وثمت أكثر من ثلاث عشرة ألف مدرسة من هذا القبيل فى ربوع أندونيسيا تقوم بخدمات جليلة للإسلام وإن كان ينقصها المدرسون الأكفاء ، والكتب المناسبة .

ومع أن الجمهورية الأندونيسية قد نالت من المدنية الحديثة قسطاً كبيراً ، ومع أن الحياة الاجتماعية فيها قد تأثرت إلى حد كبير بمظاهر هذه المدنية ـ إلا أن الأندونيسيين يعتزون بتقاليدهم الأصيلة الاعتزاز كله ، ويحاربون كل دخيل ممجوج ، ويثورون ثورة عنيفة على كل تقليد زائف . ولست أنسى ثورة الصحافة والجمعيات المختلفة على رقصة (هولاهوب) و (روك أندرول)

وغيرهما مما دعا السلطات فى كثير من المقاطعات إلى تحريمهما . ومنذ أسابيع ظهرت دعوة إلى إقامة مسابقة لاختيار ملكة للجمال فى أندونيسيا فهبت الهيئات المختلفة - وعلى رأسها الهيئات الإسلامية - تحارب هذه الدعوة الغربية وتحتج عليها بما أنها تتعارض مع دين البلاد وتقاليدها ، وكان لهذه الاحتجاجات أثرها فماتت الفكرة قبل أن تولد . ومن أمثلة ذلك أيضاً تلك التقاليد المنافية للدين والفضيلة والتى خلفها الاستعمار بين طلبة الجامعات الأندونيسية إبان الاحتفال بأول العام الدراسى ، وقد هبت الطوائف والهيئات تنعى هذه العادة الخرقاء ، وعابتها وزارة التربية والثقافة ، ووزارة الشئون الدينية ، والآباء والأمهات ، بل والطلبة أنفسهم ، وفى شهر يونيو الماضى اجتمع اتحاد الطلبة بجامعة أندونيسيا وقرر إلغاءها ، وأن تستبدل بها عادات وتقاليد قومية .

والإسلام دين التسامح ، ودين التعايش السلمى مع سائر الأديان . وظاهرة التسامح الدينى يضرب بها المثل فى أندونيسيا ؛ فالمسلمون - وهم الأغلبية العظمى - يعيشون مع إخوانهم أصحاب الأديان الأخرى معيشة مودة وإخاء ، وإنك لتجد القبيلة فى بعض المقاطعات وأغلبها مسلمون ، وفيها أقلية نصرانية ويعيش هؤلاء وأولئك إخوانا متحابين ، إذا احتفل النصارى بعيد لهم كان المسلمون أول المهنئين ، والعكس صحيح ، وإذا تزاورت الطائفتان امتنع المضيف عن تقديم الطعام المحظور فى ملة الضيف احتراما لمشاعره وعقيدته ، وإذا بنى المسلمون مسجداً فى قرية هب أهل الأديان الأخرى يعاونون فى البناء بأموالهم وبأيديهم ، وهكذا يفعل المسلمون حينما تبنى الأقلية المسيحية كنيسة أو معبداً . وفى شهر أبريل الماضى قررت جمعية الشباب المسيحى فى جاكرتا أن يتطوع أعضاؤها فى أوقات فراغهم للمعاونة فى بناء مسجد الاستقلال الذى سيشيد فى مكان قلعة هولاندية قديمة ، وبلغ عدد المتطوعين أكثر من ستمائة مسيحى ، يحملون أنقاض القلعة القديمة ، ويمهدون الأرض للبناء الجديد .

وبعد : فهذه بعض المظاهر الكريمة التى اجتذبت انتباهى واستحوذت على إعجابى كمسلم يطأ أرض أندونيسيا لأول مرة ، سقتها على سبيل المثال لا الحصر ولا الاستقصاء .

بيد أن أندونيسا بلاد فسيحة ، تشتمل على بضعة آلاف من الجزر المتباعدة ، ولها تاريخ طويل زحفت إليه كثير من الثقافات والعادات والتقاليد المتباينة ، فلم يكن هناك

مفر من أن تقتحم المسلمين فى كثير من المناطق بعض العادات التى قد تتنافى مع العقيدة الإسلامية ، فقد سمعت مثلا - أن بعضاً من المسلمين فى مناطق معينة يأكلون لحم الخنزير ، وأن بعض النساء فى مناطق أخرى لا يرين فى الزواج من غير المسلم غضاضة أو حرجا ، وأن آخرين يكتنزون دماء الذبائح ويستخدمونها فى طعامهم وأغلب الظن أن الاستمرار فى تبنى مثل هذه العادات يرجع إلى جهل بأحكام الدين وتعاليمه ، لا إلى استهتار به أو عدم مبالاة باتباعه .

ومن هنا كانت المسئولية الملقاة على عواتق المسلمين المثقفين - أندونيسيين كانوا أم غير أندونيسيين - مسئولية جسيمة حقا ، ووزارة الشئون الدينية الأندونيسية تبذل جهودا طيبة فى هذا المضمار ، ولكنى أعتقد أن على الهيئات الإسلامية الأخرى كالأزهر الشريف والمؤتمر الإسلامى والجمعيات - أن توفد المبعوثين والأساتذة لتفقيه الناس فى عقيدتهم ، وتنقيتها من الشوائب الدخيلة ، وشرح دقائق الشريعة الإسلامية السمحة ، وإمداد المواطنين فى أندونيسيا بالكتب والمراجع والصحف الدينية باللغتين الأندونيسية والعربية ، وبين يدى آلاف الرسائل يلح أصحابها إلحاحا فى طلب هذه المراجع حيث انقطع استيرادها من البلاد العربية لأسباب اقتصادية منذ عهد بعيد .

هذا ويقع معظم عبء التربية الدينية فى الوقت الحاضر على أكتاف المواطنين الأندونيسيين الذين درسوا فى الأزهر أو فى الحجاز ، وعلى تلاميذهم الذين تخرجوا فى المعاهد الدينية فى أندونيسيا ، ولكنه عبء باهظ ثقيل نظرا لاتساع البلاد وتنائى جزرها من ناحية ، ولتيار المدنية الحديثة الجارف من ناحية أخرى . وحبذا أن يقتدى كل بلد إسلامى بالجمهورية العربية المتحدة فيوفد عددا من الوعاظ والأساتذة إلى أندونيسيا ، ويستقبل عددا من الطلاب الأندونيسيين كل عام يدرسون فى معاهده ليفقهوا قومهم إذا رجعوا إليهم .

أما اللغة العربية فى أندونيسيا ، باعتبار أنها لغة القرآن الكريم ، ولغة الثقافة الإسلامية العريقة - فإن لها حديثا آخر أرجو أن يكون فى المستقبل القريب إن شاء الله ؟

محمد محمود رضوان

الملحق الثقافى للجمهورية العربية المتحدة بجاكرتا

التوازن بين العقل والقلب

للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومى

التصوف الأصيل فلسفة روحية تجمع إلى إلهام القلب ، نور العقل ، وحركة اليد . وبهذا كانت فلسفة مشرقة، وعاقلة، وقوية !!.

قالت السيدة عائشة : كان عمر خير الزاهدين ، ولكنه كان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع !.

وليس معنى هذا أن هذه العناصر الثلاثة تسير جنباً إلى جنب بقوة واحدة ، شبرا بشبر، وذراعا بذراع . فتلك طاقة لا يستطيعها إلا المصطفون الأخيار !.

إنما الذى نريده أن لا يقوى العقل جداً ويضعف القلب جداً ، أو يقوى القلب كثيراً ويضعف العقل كثيراً .

فإن هناك أزمة حادة بين علماء الكلام ، والصوفية منذ القرن الثالث الهجرى ، والتاسع الميلادى ، لا زلنا نعانى منها الآثار السيئة ، والفجوة الكبيرة .

لقد سار العقل والقلب فى صدر الإسلام ، صديقين حميمين ، يتعانقان وجه النهار وآخره ! فكان زهد بلال وجهاده ، وكانت رحمة أبى بكر وشدته ، وكانت عقلية عمر وكراماته ، وكان فقه على وتصوفه ، وكان غنى عثمان وسخاؤه ، وكل يجد فى القرآن مبتغاه معناه ، ويلتقى فى النبى شخصية متكاملة أبرز ما فيها اعتدال جميع العناصر البشرية سواء كانت نباتية أو حيوانية أو عقلية أو روحية !!.

فهو يبكى فى المحراب ، ويخوض المعركة ويقودها ، ويأكل ويشرب ، ويرسم السياسة العامة والخاصة ، بأعظم كياسة ، ويعطى للبيت حقه أعظم عطاء !! وإلى ذلك كله اجتمعت فيه القوة الإلهامية والذكائية والروحية على أتم ما يكون وأصفاه ، حتى كان صلوات الله وتسليماته عليه فى كل هذا سماء ما طاولتها سماء !! .

ونهج المسلمون الأولون هذا النهج القويم ، فكانت الفروسية وكان الفتح بالنهار ، وكان الخشوع والبكاء ، والضراعة إلى الله ، إذا جن الليل . وكانت سوق المعاملات فى هدوئها وصخبها ، خالية من الاستغلال والاحتكار

مطعمة بالروحانية التى تذهب بجفافها فى كثير من الأحايين . . . ولما كان هذا التوازن بين القوى المادية والروحية ، دقيقا وصعبا ، لم يكن من السهل أن يفهمه المستشرق العالم جولد تسيهر . . . فإنه يرى أن فكرة الفتح الإسلامى دعا إليها أول ما دعا ، التحول عن الزهد والرغبة الجامحة فى الدنيا ، وفى هذا يقول عندما تكلم عن الزهد والتصوف فى كتابه « العقيدة والشريعة » : بل قبل أن يغمض النبى عينيه ، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرة ، تحول المبدأ السائد إذن إلى مبدأ آخر ، ففكرة الزهد فى العالم ، حلت محلها فكرة فتح العالم . . . ولم يكن هذا الفتح موجها نحو المثل الأعلى وحده ؛ لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف . . . وكانت البواعث الغالبة التى دفعت بالعرب إلى القيام بالفتوحات هى الحاجة المادية والطمع كما فصل ذلك فى دقة عظيمة ، ليونى كايتانى فى عدة فقرات من كتابه عن الإسلام وقد هش العرب للدين الجديد ورحبوا به على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه التى كانت تدعو إليها الضرورات الاقتصادية الخ الخ . . .

ولست هنا فى مجال مناقشة مستشرقنا أو الرد عليه ... فنشأته فى حضارة مادية منحرفة وبيئة متعصبة حاقدة ، جعلته كالرجل الذى نشأ فى مملكة عميان وكان بصيرا . . فحدثهم عن السماء وجمالها فكذبوه ، وحدثهم عن النجوم وضيائها فاستثقلوه ، وحدثهم عن القمر وبهجته فاسترذلوه وهددوه ، فإما أن يقيم معهم فى مملكتهم التى تحدها الجبال الأربع ولا سماء ولا نجوم ولا قمر ، وإما أن يخلعوا من وجهه هاتين العينين اللتين تجلبان عليه الجنون والخبال . . . أقول : صعب على المستشرق العالم أن يدرك التوازن الذى كانت تسير عليه الدعوة الإسلامية أول أمرها ، فذهب إلى ما ذهب إليه . ومن الذى قال : إن الإسلام زهد فى الدنيا أو فى العالم زهادة كلية .. وقرآنه يأمر : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . ورسول الله يستجوب عبد الله بن عمرو ابن العاص استجوابا صريحا قاسيا ، حينما اتهمه أهله بالعزوف عن الدنيا . . يا عبدالله ابن عمرو : بلغنى عنك أنك لا تنام ! قال : أردت بذلك الأمن من الفزع الأكبر ، قال : وبلغنى أنك لا تفطر ، قال : أردت بذلك ما هو خير منه فى الجنة ، قال : وبلغنى أنك لا تؤدى إلى أهلك حقهم . قال : أردت بذلك نساء خيرا منهن . . فقال النبى صلى الله عليه

وسلم : يا عبد الله : إن لك فى رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ، ويؤدى إلى أهله حقوقهم ، يا عبد الله : إن لله عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا » .

إن الإسلام دين الإنسان ، والإنسان مادة وروح ، وعقل وقلب ، وفكر وعاطفة ؛ وذكاء وإلهام ! فكيف يستغنى الإسلام عن الدنيا ...

انطلقت الدعوة الإسلامية قوية ؛ حين ساندها العقل والقلب والذراع أو الإسلام والإيمان والإحسان .

فلما كان القرن الثالث الهجرى ساد الجدل بين العقل والقلب ؛ بين علماء الكلام والفقهاء من ناحية ؛ والصوفية من ناحية أخرى .

ويكون الجدل العقيم دائما عند ما تفرغ العقول من الأفكار الجيلة ؛ وعند ما تخلو القلوب من العواطف والمشاعر الراقية .

ولقد تعقدت العقلية الفقهية والفلسفة الكلامية فى هذا القرن ، فأركان الصلاة تدرس تدريسا جافا ، والأمور الفقهية تملى إملاء ميتا ، والبحوث الكلامية تنحصر فى زيادة الإيمان ونقصه، ورؤية الله وعدم رؤيته. والجنة والنار ، هل وجدتا أم لا ، وهل هما فى السماء أم فى الأرض أم فى الفضاء ، وهل فى العالم الأعلى دواب أم لا . . وهل صفات الله عشرون أم ثلاثة عشر . . وهكذا . . لا تنتهى من جدل إلا إلى جدل ، ولا من كلام إلا إلى كلام . . المعتزلة لهم رأى ، والأشاعرة لهم رأى ، وأهل الحديث لهم رأى والمتأولون لهم رأى . . والآراء تنبع من العقل ، ولذلك فهى وإن كانت علمية ، إلا أن فيها جفافا ملحوظا ،وفتورا كثيرا .

وهنا انفصل عن الدعوة الإسلامية عنصر القلب . فأصبحت فلسفة كلامية بحتة لا روح فيها ولا حياة . ولعل الذى أفقد العقلية الإسلامية أو الروح الإسلامية توازنها ، ما قابلها من عوامل أجنبية متنوعة ، كحضارة النصارى واليهود والفرس ، وكالفلسفة اليونانية والأفلاطونية والهندية . فتكونت فلسفة أخرى ، هى فلسفة القلب ، وهى فلسفة التصوف . وأصبح للفلسفة الكلامية أنصار ، وللفلسفة الصوفية أنصار . والدين الإسلامى يسع الفلسفتين فى بساطة واتزان . فهو يقر أن هناك عالما للغيب فيه نبوة ورسالة وولاية وملائكة ، ووحى وإلهام وكشف ، وبعث وحساب ونشور ، وجنة ونار . وإذا كانت هناك مجموعة ضوئية على رأسها الشمس ويليها القمر فالكواكب ، فعالم الغيب على رأسه النبوة ثم إلهام الأولياء ، وكشف الصالحين ، وهناك عالم الشهادة ، ويشمل المادة بجميع أجزائها ، من حبة

الرمل إلى خلية المخ ، ومن تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وغير ذلك .

ولذلك كم كان غريبا على الإسلام انفصال الفلسفة الكلامية عن الفلسفة القلبية . . ومناصبة هذه العداء لتلك . لقد كان الخلاف بينهم فى كل شىء ، الكلاميون تكلموا عن الإلهيات من زاوية علمية بحتة، والصوفيون تكلموا عنها من زاوية عاطفية بحتة ، وأطلقوا على تاج العقل « علما » . وعلى تاج القلب « معرفة » .

وفى الحق أننا كسبنا من وراء هذا الخلاف عقليات ناضجة فى العلم ، وبحوثا ضافية فيه ، واستنتاجات واستنباطات وقياسات كنا فى أشد الحاجة إليها كما اكتسبنا أدبا عاطفيا رقيقا ، وإلهامات صوفية صادقة ، وفيوضات ربانية قيمة ، وإشارات رمزية عالية .

ولكن انفصال العقل عن القلب أوجد لنا جدلا فقهيا ، وصورا كلامية حشيت بها الكتب أضرت العقلية المسلمة ضررا بالغا ، وانفصال القلب عن العقل أوجد لنا شطحات وهيامات صوفية ، أخرت المسلمين قرونا من الزمان . فالدعوة إلى البتولة والعزوف عن الزواج دعوة دخيلة على الإسلام ، والدعوة إلى الفناء أو الحلول أو الاتحاد دعوة دخيلة على الإسلام . وسواء كان الفناء بإفناء ميول النفس ورغباتها جميعا ، أو بإفناء العقل عن المدركات والأفكار والأفعال والأحاسيس ، أو إبطال جميع قوى الفكر الواعى ، فإن المستشرق الفاضل نيكلسون قد أرجع هذه النظرية إما إلى النرفانا البوذية ، أو المسيحية أو التنويم الذاتى . . . وأنا لا أسوق هذا الكلام لإيمانى به أنه صادق كل الصدق ، فنيكلسون عندى فى قفص الاتهام ، بالنسبة لما نسبه إلى الإسلام . وإنما لأنى أرى أن ذلك فعلا دخيل على الإسلام والاعتقاد بأن جميع الأديان من بوذية ووثنية وكتابية طرق موصلة إلى الله . دعوة دخيلة على الإسلام… وهكذا .

فلو كان عمق الفكر مطعما بروحانية القلب ، لوصل إلينا نتاج أضخم وعلم أجسم ، وشطحات أعقل ، وأدب أجمل .

إن العلم اليوم تقدم ووصل إلى قانون الذبذبة والجاذبية ووصل إلى أحدث الاختراعات والاستكشافات ، وكذلك عندنا فى مصر وفى غيرها عقول علمية جبارة . ولكننا نشكو مع ذلك فراغا روحيا كبيرا . وما قيمة العالم إذا كان قلبه أفرغ من فؤاد أم موسى .

ولقد قرأت قصة هندية تقول : إن الإيمان والرجاء والحب تشكلوا بشكل حمامات ثلاث ، فلما نزلت إلى الأرض لم يعجبها أهلها ،

فطلبت من ربها الرجوع إلى السماء ، فقال المولى : للإيمان والرجاء : لا مكان لكما فى السماء ، أما أنت يا حمامة الحب . فماشئت تنقلى بين الأرض والسماء . وأنا آمل الآن أن تنتقل حمامة الحب بين عقولنا وقلوبنا ، أى بين فقهائنا وفلاسفتنا ، وعلماء الصوفية أى بين الشريعة والحقيقة ! ! .

إن الحب إذا عشش فى القلوب أذاب الأحقاد بناره ، وصهر الحزازات بلهبه .

ما أحوج أمتنا ودعوتنا الآن إلى أن يتعاون القلب والعقل واليد على العمل والفكر والكشف .

ولقد ذكروا أن ابن سينا العالم تقابل مع أبى سعيد الصوفى . . وتناقشا فسئل ابن سينا فقال : ما أعلمه يراه ... وسئل أبو سعيد فقال : ما أراه يعلمه .

ويسرنى أن أختم المقال بفيضة من الأدب الصوفى ، قال جلال الدين الرومى :

مجهول أنا عند نفسى
بربك خبرنى ما العمل ؟
لا الهلال ولا الصليب معبودى
ولا أنا كافر أو يهودى
ولافى الشرق ولافى الغرب موطنى
ولا لى قريب من ملاك ولا جن
ولا طينتى من تراب ولا طل
ولا صورتى من ماء ولا زبد
ولا بالصين ولا سقسين
ولا ببلغار مولدى
ولا بالعراق ولا خراسان
ولا الهند ذات الخمسة أنهار منبتى
ولا بهذا الكون ولا ذاك
ولا فى الجنة والنار موطنى
ولا طردى من عدن ولا يزدان
ولا من آدم أخذت نسبتى
بل من مقام ما أبعده من مقام
وطريق خفى المعالم
تجردت عن بدنى وروحى
فمن جديد أحيا فى روح محبوبى ...

ولقد نفر العلم الحديث من الشطحات الصوفية أول أمره ، ولكنه فى الأيام الأخيرة أخذ يصطلح مع علم التصوف ، خصوصاً بعد أن آمن « بالتلباتى » . والتلباتى كلمة يونانية تقابل تقريباً ما يسمى بالكشف عند الصوفية ، ومعناها الحرفى : انفعال من بعيد ... ولا زلنا ننتظر من العلم الحديث تلاقيا أوسع مع الصوفية ، كما لازلنا نرجو وجود غزالى القرن الرابع عشر الهجرى يقوم مقام غزالى القرن الخامس فى التوفيق بين الصوفية وعلماء الفقه والكلام .

اللهم املأ عقولنا علما ، وقلوبنا حبا ، وأيدينا حركة ، إنك على كل شىء قدير .

أحمد عبد الجواد الدومى

مع الشيوعيين فى سجونهم

للأستاذ أحمد الشرباصى

يتعرض المجتمع العربى فى هذه الآونة الفاصلة الحاسمة من تاريخه المعاصر لمحنة شديدة قاسية ، تتطلب من الأساة الطب والعلاج ، وهى محنة اندلاع لهب الشيوعية الحمراء فى رجا من أرجائه ، وناحية من نواحيه ، وما يحسب عاقل أن تقنع الشيوعية بما نالت أو تنال ، فإن لها من أطماعها الأشعبية وأحلامها الثورية ما يقض المضاجع ويقلق الخواطر ؛ ولعل الشيوعية هى أكبر خطر يهدد عقائدنا الدينية ، ومواريثنا الروحيــة ، وقوميتنا العربية ، ونزعتنا التحررية ، وجهادنا لجمع الكلمة ووحدة الصف ، وتطلعنا إلى إقامة مجتمع فاضل على أساس الاشتراكية التعاونية الديمقراطية فى ظل العقيدة السمحة والعروبة الأصيلة . . .

وإنما كانت الشيوعية أكبر الأخطار على هذه المواريث والمقدسات ؛ لأنها ترى أن الكون والحياة والإنسان مادة ، وأن القيم الروحية والأخلاقية خيال أو افتعال ، وأن الدين خرافة ، وهو أفيون للشعوب ومخدر للجماهير ، وأن الله لا وجود له ؛ وهى تثير حرب الطبقات وتبتعث الأحقاد والضغائن فى صدور الأفراد والجماعات ، وتلغى الملكية الفردية ، وتزهق الحرية الشخصية ، وتتخذ من الشعب هرما ضخما تتربع على قمته الدولة فى استبداد مقنع واستعباد مستور ، وقد يكون لها من البريق الظاهر ، أو الزخرف الخارجى ، ما يخــدع القابلين للخداع عن حقائق فى الداخل تذهل وتروع .

ومن هذا التركيز المضغوط لمبادئ الشيوعية نستطيع أن ندرك بسهولة مسافة الخلف ومدى البعد بينها وبين دين نؤمن به ، وبين قومية نصطبغ بها ، ولا أحب أن أستشهد هنا بكلام لرجل دين ، بل بعبارة صريحة واضحة قالها الرئيس جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٥٤ ، وصدر بها كتاب « حقيقة الشيوعية » وفيها يقول عن الشيوعيين :

« قد كفروا بالدين ؛ لأن الدين فى عرفه الشيوعية خرافة . وكفروا بالفرد ؛ لأن الفرد فى دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده ، وإنما الكيان للدولة . وكفروا بالحرية ؛ لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته ، وليس للفرد فى النظام الشيوعى ذات ولا إرادة . وكفروا بالمساواة فى نظام الدولة ؛ لأن الدولة فى دستور الشيوعية طبقات تنتظم فى هرم يتربع على قمته فرد ،

وبعتقد ملايين الشعب فى القاعدة . . . ألا ما أبعد واقع الشيوعية عن دعوة دعاتها . .

ونحن المصريين . . نحن العرب . . نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم ، نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كيانا فى ذاته ، وكيانا فى أهله ، وكيانا فى قوميته العامة وفى بلده . . . ، ! .

والأحداث الدامية الموجعة التى شهدتها أرض العراق على يد الشيوعية فيها عبرة للمعتبرين وعظة للدارسين ، ومن العجب أن كتابا كبيراً صدر فى العراق منذ عام ، وقبيل ثورة ١٤ يوليو بقليل ، يسجل جوانب من مآسى الشيوعية ومكائدها فى بلاد الرافدين ، وهذا الكتاب بعنوان « مع الشيوعيين فى سجونهم » ، كتبه ضابط عراقى كبير ، هو الأستاذ عبد الجبار أيوب الذى كان مديراً لسجون بغداد والموصل ونقرة السلمان « بلدة فى البادية الجنوبية من العراق » والحلة وكركوك . . وظل يقوم بهذه المهمة عهداً طويلا حتى اعتزل الخدمة ، وأصدر هذا الكتاب بعد اعتزاله الخدمة ، فليس هناك مؤثر فيه أو مطمع يرتجيه ، ولذلك يلوح من كتابته الصدق والاعتدال ، وقد نشره قبيل قيام ثورة العراق ، فكأنه كان النذير العريان بما سيقع فى هذا الجزء العزيز من أرض العروبة المؤمنة ، ولذلك ينص على أنه قام بهذا المجهود ليحذر به أمته ، « وخاصة هذه النبتة الزكية من رجالات البلد العاملين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم لخدمة هذا الكيان القائم ودعمه والذب عن حياضه ، والدفاع عن المبادئ والعقائد السماوية التى تعتنقها هذه الأمة وتقدسها ، وتبذل حياتها ودماءها وأموالها فى سبيلها ، كما يسعون فى دأب واستمرار إلى الارتفاع بها إلى المكانة التى تليق بها وبتاريخها وبشرفها بين الأمم الحرة العزيزة المستنيرة » ! . . .

ولقد كان هذا الضابط مختصاً بسجون الشيوعيين ومراقبتهم داخل سجونهم وحل مشكلاتهم ، ولذلك تكونت عنده خبرة بأساليبهم ووسائلهم لنشر مبادئهم وتحقيق مآربهم ؛ فهم يعمدون إلى التخفى والاحتيال المستور فى بث آرائهم فهذا مثلا رجل يسمى « بطرس » ينزل بغداد على أنه خياط ماهر ويعلم الناس من حوله فنون الخياطة والتطريز وفى طيات ذلك يتحدث بلباقة وتلميح مع من يجتمعون به حول أساليب الحكم والإقطاع وجهل الفلاح وانتشار الأمراض بين الطبقات الفقيرة ويشير فى حذر وبراعة إلى ما قامت به روسيا من تحقيق المساواة والرخاء ، وهو يصطفى أصدقاءه عادة من العمال والطبقات الفقيرة ، ويتفنن فى الحديث فلديه معلومات كثيرة وعنده ثقافة واسعة ، وتحوم الشبهات بعد حين طويل حول « بطرس » ، وبعد أن نفث الكثير من سمومه

وتكشف القوم حقيقة أمره فإذا هو رجل عسكرى برتبة رئيس فى الجيش الروسى ، أجاد التنكر والاحتيال والاستغلال ! ! .

ويستبين لنا من مساعى الشيوعية المبكرة فى العراق أن دعاتها السريين كانوا يستغلون فى محاولاتهم الآثمة طائفة العمال والفلاحين الأميين ، والطلاب المبتسرين ، كما كانوا يستغلون مآثم الاستعمار التركى والغربى فى هذه البلاد فيحدثون البله من هؤلاء عن النعيم الخيالى العجيب إذا صار للشيوعية دولة وكيان ! . . .

ويقول الكاتب الذى صاحب الشيوعيين فى سجونهم : « إن الحزب الشيوعى العراقى السرى الذى يدعى أنه يبنى نظرياته على الواقع المادى كرس كثيراً من نشاطه لتغذية وإنعاش الروح الطائفية فى العراق ، فقام بطبع ونشر الكثير من الكراريس والكتب والنشرات لتحقيق هذا الغرض الوضيع وبصورة خاصة بين الطوائف الإسلامية كما عمد إلى تجسيم العداء بين السكان فى جنوب العراق وشماله ، فتبنى نظرية استقلال كردستان لعزل الأكراد عن إخوانهم العرب والأدهى من هذا أنه تبنى نظرية تقسيم فلسطين لمجرد أن موسكو هى التى قالت بالتقسيم وأيدته .

ويضيف : « أما الشيوعيون فيريدون بمطالبهم أن يحرروا مزاولة النشاط الشيوعى فى العراق ، وتنفيذ الأوامر والخطط التى ترسمها وتحددها لهم موسكو ، وهم يريدون الحريات البربرية والفوضوية الجنسية الحقيرة التى شاع أمرها عنهم فى السجون ، يريدون حرية المظاهرات لصرف الطلاب عن دروسهم ، والعمال عن مكاسبهم وعيشهم يريدون حرية الإضراب عن العمل لخلق البلبلة والتذمر وشل الحياة الاقتصادية العامة ، يريدون حرية الفوضى للقضاء على نظام الحكم القائم ، إنهم يريدون تحقيق قيادة شيوعية فى هذه البلاد ، تقود الشعب وتسيره إلى تحقيق أغراض سادة موسكو ، فى حين أن قيام مبدأ شيوعى فى هذا البلد الإسلامى يعد من أحلام الفاشلين فى الحياة ، والشيوعية فى هذا البلد معناها التصيد بالماء العكر للوصول إلى كراسى الحكم والقبض على مقاليد الأمور » ! ! .

هذا الكلام قد كتبه كاتبه ونشره على الناس منذ عام ، فتأمل فيه ثم تطلع إلى الأحداث الجارية الآن ! ! .

* * *

وعلى الرغم من أن نظام الحكم العراقى قبل ثورة ١٤ تموز كان يرى فى الشيوعية المرعب الأكبر له ، نجد أن الشيوعيين فى سجونهم كانوا يتمتعون بميزات كثيرة لا يتمتع بها غيرهم فى بلادهم وسوى بلادهم ، فالماء متوافر عندهم ، والموظف الصحى يزورهم يوميا ، والأطباء المختصون يترددون عليهم ، كما تزورهم كل أسبوعين لجنة طبية للفحص العام ، والمصابيح متوافرة ، والأطعمة ملائمة وتوزع بوساطة لجنة من المسجونين أنفسهم ،

والصحف تأتيهم ، ومكتبة السجن مفتوحة لهم ، ومع ذلك لا يقنعون ولا يرتدعون ، حتى يتمثل فى شأنهم بقول الشاعر :

إصلاحهم أعيا العقول لأنهم
خلقت مفاسدهم لغير صلاح
من كل مرتكب الشنيع ولم يكد
يثنيه عنه إذا لحاه اللاحى
أهدى بطرق المخزيات من القطا
وأضل ممن آمنوا بسجاح !

فهم يتحينون الفرص لتنظيم الإضراب داخل السجن ، وهم يتجمعون ويقومون بالتخريب والتحطيم واستعمال قنابل مولوتوف وغيرها من وسائل العدوان والهدم ، وفى سنة ١٩٥٣ قاموا بحركة تمردية عنيفة فى سجن بغداد ، واعتدوا على الشرطة والضباط ، وكان من جراء ذلك أن صدرت الأوامر باستعمال القوة ضدهم فسالت دماء وأزهقت أرواح !!.

وبينما كان الشيوعيون داخل السجون يحاولون بهذه الحركات التمردية أن يشغلوا الدولة فى بغداد ، حدثت كارثة الفيضان سنة ١٩٥٤ ، وتعرضت بغداد دار السلام للغرق وهم أهلوها بمغادرتها لولا حزم وزير الداخلية الذى قدر العواقب الوخيمة للجلاء عن بغداد وبينما الدولة مشغولة بكل أجهزتها لإنقاذ العراق من الكارثة ، كان الشيوعيون يدسون السفلة الأوغاد ليحدثوا ثغرات فى ضفاف دجلة لكى يتسرب منها الماء ويزداد الخطر وتغرق بغداد بمن فيها وما فيها : وقد قبضت الدولة على هؤلاء وأنالتهم جزاء خيانتهم وغدرهم بوطنهم ومواطنيهم .

والصلة وثيقة بين الشيوعية والصهيونية ، وكل عربى وكل مسلم يدرك ماصنعته الصهيونية بأبناء العروبة والإسلام ، والكاتب الذى يحدثنا عن الشيوعيين فى سجونهم يذكرنا بأن « كارل ماركس » مؤسس الشيوعية وفيلسوفها من أصل يهودى .

ثم يحدثنا عن كثير من اليهود والصهاينة الذين اندسوا فى صفوف الشيوعيين السريين بالعراق ، ويعلل نشاط اليهود فى حقل الشيوعية الخطير بقوله : « فى الحق إن اليهود كان لهم القدح المعلى فى هـذا الميدان ، لأنهم كانوا يريدون من وراء نشر هذا المبدأ الخطر صرف الأنظار عن إنشاء الوطن القومى الذى كانت تعمل له إسرائيل ، وتسعى لإقامة هذه الدولة التى يريدون أن تكون لهم ملجأ يستظلون بظلالها ، ويعيشون فى حدودها التى يتخيلونها لها من أنها ستتحدد فيما بين الفرات والنيل ، وبناء على هذا فقد نشطوا نشاطاً عظيما فى الترويج لهذا المبدأ الذى يخدم قضيتهم التى لا تتعدى إنشاء وطن قومى لإسرائيل . لذلك وجدناهم يتبنون الفكرة الشيوعية فى العراق ، ويقدمون لها الأموال لتغذيتها ، ويبذلون فى سبيلها دماءهم وأولادهم

ونساءهم وكل ما يستطيعون أو يملكون من قوى . »

وهذه أسماء يهودية كثيرة تنضم إلى الحزب الشيوعى العراقى السرى ، وتتفنن فى محاربة العروبة والإسلام ، وفى خدمة الصهيونية وإسرائيل ، وفى تحطيم المقومات الروحية والأدبية والوطنية فى نفوس الشباب والعمال.
ولقد أقام الشيوعيون فى سجنهم ذات ليلة حفلة رقص وغناء... أتدرى أية ليلة كانت ؟ إنها ليلة الذكرى لتأسيس « دولة إسرائيل » !! . . .

ومن أخطر الأسلحة الفتاكة التى تستخدمها الشيوعية بالتعاون مع حليفتها الصهيونية سلاح « المرأة » فهاتان امرأتان حسناوان على غاية من الفتنة والجاذبية ، تحاولان بإغرائهما ووسائلهما التأثير فى المشرف على السجن حتى لا يمانع فى نقل بعض الشيوعيين المسجونين من مكان إلى مكان ، ثم يصور الكاتب خطورة سلاح المرأة فى هذا المجال فيقول عن هؤلاء الشيوعيين : « وقد ضحوا فى سبيل هذه الحركة تضحيات كثيرة ولم يتركوا سلاحا إلا استخدموه فى سبيل إنجاحها ، وقد كان أمضى سلاح استخدموه هو المرأة ، فقد لعبت المرأة فى هذه الحركة دورا من أبرع الأدوار وأشدها فتكا وأكثرها تنوعا ؛ فقد استعملت المرأة فى هذه الحركة سلاح الإغراء الذى أغوى الكثيرين من شباب هذا الوطن فمضوا يشدون أزر الشيوعية فى جميع آرائها ومقاصدها ، مندفعين لا يلوون على شىء ، فقد تذامروا على الجهاد فى سبيلها والذب عن حياضها ، ولم تمنعهم مطاردات الشرطة وتنكيلاتها ولا الحبوس وغلظ العيش فيها ، وكانوا كلما دب إليهم بعض الفتور برزت لهم غوانى اسرائيل وغاداتهم الفاتنات فدفعنهم فى السبيل المرسوم ، وأعدن إليهم نشاطهم ، وأحيين فيهم بالكلام المعسول ميت الآمال» .

وأما الشذوذ الجنسى فى حقول الشيوعية فله حديث أليم ، فالشيوعية لا تقيم ميزانا للعرض والعفة والفضيلة ، وهى ترى أن الاتصال الجنسى عملية جسدية يراد بها الترفيه والتنفيس ولا عيب فيها إذا أتاها أهلوها بأية صورة وبلا قيد من القيود ، ومؤلف « مع الشيوعيين فى سجونهم » يقص مخازى فظيعة فى هذا الباب ، فالشيوعيون يأتون من صور الشذوذ الجنسى ما لا يقره دين أو عقل أو إنسانية ، وهم لا يخجلون من التصريح بهذا الشذوذ والمعالنة به ، ويعتبر الحياء من الحديث عن هذه الشئون بقية من بقايا الرجعية والتأخر ، وهم يصدرون أوامرهم الحزبية الشيوعية فى كثير من الأحيان إلى بعض الشبان الذين لهم وسامة

وقسامة كى يقوموا « بالترفيه » عن زملائهم ويعتبرون هذا قياما بالواجب !! . . . وقد ذكر المؤلف طائفة من الوقائع المخزية المخجلة ذكرها بأماكنها وتواريخها وأشخاصها ، ونتائجها . . .

والشيوعيون فى سجونهم يطالبون أن يكون الرجال والنساء فى مكان واحد ؛ لأن الرجل لا يستغنى عن المرأة ، والمرأة لا تستغنى عن الرجل ، وحديث الأفاعى فى هذا الباب طويل المدى !! . .

ولقد فزع العالم الإسلامى أخيراً لما تردد فى الأنباء من أن الشيوعيين فى العراق قد أهانوا القرآن وأحرقوا المصحف ، وهذه المأساة قد حدثت على أيدى الشيوعيين من قبل ، فهذا شيوعى تائب ، يدلى بشهادة له عن مآسى زملائه الشيوعيين (سابقا) ، فيقول ضمن شهادته فى سنة ١٩٥٤ ببغداد .

إن هذا القرآن الكريم الذى حلفت به قد أهين أبلغ الإهانة من هؤلاء الشيوعيين ، فقد استعملوا أوراقه (للتمسح بها) أثناء قضاء حاجتهم بالمراحيض ، وكثيراً ما كانوا يدوسونه بأرجلهم تحقيراً وازدراء ، وأنا ياسيدى رجل متدين خدعونى للدخول فى زمرتهم وزينوا لى وجهة نظرهم ، فلم أشعر إلا وأنا معهم أنفذ أغراض الحزب وأنا فى السجن ، وقد ضقت يا سيدى ذرعا بهم وبأوامرهم التى لا يفتأون يصدرونها باسم القيادة فى السجن ، وأخرى باسم القيادة الخارجية » .

ويمضى الشيوعى التائب فى تفاصيله فيذكر كيف كان هؤلاء الشيوعيون يشتمون الأنبياء والرسل ويسخرون من الدين ، ويتطاولون على مقام الرسول محمد والصحابة الكرام ، ويمنعون المتدينين من القيام بالصلاة ، ويغلقون أجهزة الإذاعة إذا بدأت تلاوة القرآن ، ويأتون الفواحش جهاراً بلا استحياء !! . .

ولو أردت أن أعرض ولو بالتلخيص ، والتركيز كل المآسى التى يأتيها الشيوعيون فى سجونهم وخارجها لامتد سبب الحديث وطال ولكن حسبنا ما تقدم ليعطينا فكرة عن أهداف الشيوعية ووسائلها ، وليقفنا على الخطر الأكبر الذى نتعرض له الآن بسبب الاستعمار الشيوعى الذى يتلاقى فى أكثر من ميدان مع الاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى ، ونحن قوم قد كفرنا بكل استعمار ؛ لأننا نؤمن بالله واهب الحياة والحرية ، فإذا كنا نبذل مجهوداً ضخماً لكيلا نقع فريسة للاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى فيجب أن تكون جهودنا أضخم لكيلا نقع فريسة للاستعمار الشيوعى ؛ لأنه احتلال وإلحاد ، وبلاد العروبة المؤمنة قد آلت على نفسها وعاهدت ربها أن تحيا حياة كريمة متوائمة مع هدى الإسلام لائقة بمواريث العروبة !! . . .

أحمد الشرباصى

صوتية الأدب *

للدكتور تمام حسان

الحواس أبواب المعرفة ما فى ذلك شك . فنحن نتصل بالعالم الخارجى بواسطتها ، ونتعلم عن طريقها ، بل نحيا حياتنا كلها بفضل هذه الحواس .

ولو تصورنا إنسانا لا سمع له ولا بصر ، ولا قدرة له على الشم والذوق واللمس ، لتصورنا مسخا أقرب ما يكون إلى الجثة لا إلى الإنسان الحى ، وإن مجرد الحركة لا يمكن أن يقوم دليلا على الحياة ، لأن الحركة صفة الآلة ، وصفة الأجرام السماوية ، ولا يمكن أن ندعى الحياة للآلة ولا للأجرام .

وكل حاسة من هذه الحواس تصلح طريقا للمعرفة ، فنحن نكتسب المعرفة برؤية الأشياء وسماعها وشمها وذوقها ولمسها . وقد يقول قائل : إننا نتعلم كذلك عن طريق التفكير المنطقى المجرد ، وذلك قول صحيح لا غبار عليه ولكنه لا يصلح للطعن فى صحة دعوى التعلم عن طريق الحواس ، لأن التفكير المنطقى إن كان استقرائيا ، فالحواس عماد الاستقراء ، وإن كان قياسيا فشأنه أن يقيس المعقول على المحسوس ، والمحسوس مجال الإدراك بالحواس ، ومن هنا يمكن القول : إن الحواس عماد القياس أيضا .

ولكل حاسة من هذه الحواس لغتها ، فلغة السمع الكلام ، ونقرات التلغراف وأبواق الجيش وصفارات الإنذار ، وطبول القبائل البدائية فى الغابات والأحراج وما يشبه ذلك .

* * *

ولغة البصر الكتابة والإشارات المرئية كأضواء المرور والتلويح بالرايات فى سلاح الإشارة ، وإشارات الهليو والألوان المختلفة على الخرائط وألوان الفرح والحداد وأعلام الدول وهلم جرا . . . وأشهر مثال للغة اللمس كتابة بريل للمكفوفين . فهم يقرءونها باللمس ، وكثيراً ما يصطلح الناس على مذاق خاص أو رائحة خاصة ، فيكون ذلك لغة للذوق أو الشم . على أن استخدام كلمة «لغة» هنا فيه شىء من التوسع من وجهة نظر الدراسات اللغوية ، لأن هذه الدراسات لا تطلق تلك الكلمة إلا على اللغة بالمعنى الأخص أى بمعنى الكلام والكتابة .

وأهم هذه الحواس فى التعلم السمع والبصر: أما الأول فلأنه طريق إدراك الكلام ، وأما الثانى فلأنه طريق إدراك الكتابة والموضوعات المعلومة . ولقد فطن العلماء من قديم إلى أهمية هاتين الحاستين بالنسبة لتقدم الإنسان وقدرته على معرفة الظواهر والموضوعات فصرفوا كل همهم إلى العناية بهما . فهم وجدوا أن للسمع مدى لا يصل الصوت من ورائه إلى الأذن ، وأن للبصر مدى لا تصل المرئيات من ورائه إلى العين ، فحاولوا أن يطيلوا مدى السمع ومدى البصر بالطرق العلمية وانصرف همهم إلى هذه المحاولة منذ زمن طويل .

فأما إطالة مدى السمع فقد اخترعوا لها التليفون ومكبر الصوت والأسطوانة المسجلة والشريط المسجل ، وهذه الوسائل جميعاً لا تعترف بحدود المكان وبعضها لا يعترف حتى بحدود الزمان . وإما إطالة مدى البصر فقد وجد العلماء أن الأشياء التى تتعذر رؤيتها بعضها لا يرى لأنه بعيد وإن كان ضخما فاخترعوا له التلسكوب ، وبعضها لا يرى لأنه دقيق وإن كان قريبا فاخترعوا له الميكرسكوب .

وهكذا وجدنا السمع والبصر يحتلان المكان الأول فى عناية العلماء ؛ لأنهما يعتبران أهم الحواس الإنسانية من حيث اكتساب المعارف .

وحتى اللغة الإنسانية لم تخل من إعطاء عناية خاصة للسمع والبصر ، فوجدناها تنقسم بحسب هاتين الحاستين إلى قسمين : أولهما الكلام ويتجه إلى السمع ، والثانى الكتابة وتتجه إلى البصر .

وإن كل لغة من لغات العالم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا ، إما أن تكون قد قصرت اهتمامها على السمع فظلت لغة الكلام فحسب ، وإما أن تكون قد دخلت فى مسالك المدنية فشملت باهتمامها البصر وأصبحت لغة كتابة كذلك .

والذى نلحظه الآن أن اللغات المكتوبة ، فى العالم هى فى مجموعها لغات مشتركة قومية . فأما اللهجات المحلية الداخلة تحت كل لغة من هذه اللغات فلم يتح لها من الانتشار والتقدم ما يحتم أن تصبح مكتوبة برغم ضخامة عددها إذا قيست إلى اللغات المكتوبة .

ولا شك أن التاريخ البشرى يكشف دون مراء عن أن لغة السمع وهى الكلام قد سبقت لغة البصر وهى الكتابة . بل إن عمر لغة الكتابة إذا قيس إلى عمر لغة الكلام لا يمكن أن يبدو شيئاً مذكوراً ، فعمر الكتابة عمر التاريخ ، ولكن عمر الكلام عمر البشر

وعمر التاريخ قد يبلغ حوالى خمسة آلاف عام ، فأما عمر البشر فلا يعرف مبدؤه على وجه التحديد . وإن كل لغة فى العالم نعرفها أو لا نعرفها ، لا بد أن تكون قد مرت بمرحلة الكلام قبل أن تصبح لغة كتابة . وهـــذا صادق على كل اللغات المعاصرة والمنقرضة . وليست اللغة العربية بدعا بين هذه اللغات . فعمر الكتابة العربية لا يكاد يذكر إلى جانب عمر اللغة العربية . وإن الرواة ليختلفون فى تحديد أصول هذه الكتابة العربية ولكنهم يكادون جميعاً يتفقون على أن هذه الأصول لا تضرب جذورها فى القدم إلى ما يزيد على حوالى قرنين من الزمان قبل ظهور الإسلام .

على أن الكتابة العربية لم يكن مجالها تقييد الثقافة العربية ، وإنما انصرفت إلى تقييد التجارة العربية والمعاهدات والوثائق ، فأما الأدب فلم يكن حتى وقت متأخر موضوعا من موضوعات التدوين ، حتى إن رواية كتابة المعلقات وتعليقها على أستار الكعبة لتلقى معارضة شديدة من بعض الباحثين . وكان لا بد والحالة هذه أن يتسم الأدب العربى بسمات النص المنطوق ، أكثر مما يتسم بسمات النص المكتوب . وقد اصطلحنا فى عنوان هذا المقال على أن نسمى سمات النص المنطوق « صوتية الأدب » .

قلنا : إن الأدب العربى اتسم بسمات النص المنطوق ولم يتسم بسمات النص المكتوب .

ومرجع ذلك إلى أن هذا الأدب كان أدب إلقاء ورواية ومشافهة . وهذا الإلقاء وتلك الرواية يظهران فى خطب العرب وأشعارهم وأرجازهم وحكمهم وسجعهم ووصاياهم فكان الإلقاء فى هذه النواحى نتيجة الارتجال حينا ونتيجة التعمل أحيانا ، ومن أشهر التعبيرات العربية قولهم : إن فلانا يقول الشعر ، وقال الشاعر ، والأقوال عندهم الحكم والأمثال ، ولأحد شعرائهم :

وقصيدة تأتى الملوك رصينة
قد قلتها ليقال من ذا قالها

فالأدب عندهم فى عمومه أدب قول لا كتابة . ومن مظاهر التأثر بهذه القولية فى الأدب أننا نفضل عند الاقتباس من نصوص القرآن أن نقول : « قال الله تعالى » لا أن نقول : « أوحى الله تعالى » برغم ما يحمل التعبير بالقول من دلالات لا تتمشى كثيراً مع الاعتبارات الإلهية .

ولقد استتبعت هذه الظاهرة وجود نظام الرواية وشخصية الراوية ؛ فأما نظام الرواية فلم يكن يكتفى بالاطمئنان إلى أن رغبة الناس فى الأدب واحتفالهم به ستدفعهم إلى تناقله بالمشافهة ، بل كان يتعدى ذلك إلى أن يكون لكل شاعر راوية ولكل ناحية

من النواحي الثقافية راوية كالأساطير والأخبار المتصلة بالغابرين وكأنساب العرب وأيامهم، وكالحكم والأمثال وغير ذلك من التراث الثقافي المتواتر .

ولقد جاء الإسلام فانتفع بهذا النظام أكبر انتفاع وأشمله ، فجعل للقرآن حفاظا وللحديث رواة ، وزاد في توسيع نظام الرواية وأصوله حتى نشأ لرواية الحديث علم خاص يتناول السند والرجال ، فجعل الإسلام صدور الرجال مستودع أمانة الله ولم يأنف النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وإذا كان راوية القرآن حافظا وراوية الحديث محدثاً فإن الراوية الذي استقل بهذا اللقب هو راوية الأدب حتى إن بعض رواة الأدب قد جعل هذا اللقب في اسمه الذي يدعى به كحماد الراوية .

فلما جاء عصر التدوين قضى على نظام الرواية فلم يعد الناس يتناقلون الأدب ولا الحديث ولا غيرهما بالمشافهة ، ولكن كل كتاب يدون خبراً أو حديثاً كان يأتي بسند هذا الخبر أو الحديث إلى الوقت الذي تم فيه التدوين ، وكان معنى ذلك أن التدوين إن كان قد ألغى الرواية في المستقبل ، فقد احتفظ بها في الماضي ، وكان معناه أيضاً أن رجال عصر التدوين كانوا من الثقة بالرواية والارتباط بنظامها بدرجة لم تمكنهم من تجاهلها فيما كانوا يدونون ، ومن ثم كان المثل الأعلى للكتاب في نظرهم أن يكون كل شيء فيه مشفوعا بسند صحيح يذهب به موغلا في القدم إلى مصدره الأصيل .

نعود فنكرر أن الأدب العربي كان يتسم بسمات النص المنطوق ، ونضيف هنا أنه لا يزال كذلك يرمى إلى أن يلذ اللسان حين النطق ، ويهدف إلى أن يلذ الأذن حين الاستماع ؛ لأنه ورث ذلك من تاريخه الحافل الطويل .

ومن مظاهر صوتية الأدب هذه انتقاء الألفاظ بحيث تتوافر لها شروط معينة تهيء لها القبول في النطق والخفة على اللسان . فمن ذلك أن الكلمة يجب أن تكون سلسلة . ومعنى سلاستها ألا يكون فيها صوتان متجاوران من مخرج واحد ، أو مخرجين شديدى القرب كالخاء والقاف وكل منهما مع العين ، وكالصاد والسين وكل منهما مع الشين ؛ لأن اتحاد مخرج الصوتين المتجاورين أو قرب مخرجيهما قربا شديدا يجعل الكلمة ثقيلة على النطق .

فالسلاسة إذاً اصطلاح نطقي يتصل بحلاوة النطق لا بلذاذة السماع ، أي أن السلاسة صفة الصوت حين نطقه ، وقبل أن يصل إلى الأذن . فلم يكن الواضع العربي يحب أن

يضحى بسهولة الكلمة على اللسان عند وضعها ومن ثم لم يجعل الأصوات فى الكلمة الواحدة بعيدة عن السلاسة . فأما حين تلحق بهذه الكلمة ملحقات صرفية كأداة التعريف والضمائر المتصلة ونحوها ، فللنطق العربى فى ذلك مسالك جميلة حقا .

وذلك كأن يلجأ النطق العربى عند تقارب مخرج لام التعريف مع ما يليها من الأصوات أن يجعل اللام شمسية تتحد مع ما بعدها فى صورة التشديد ، ويتفادى العربى بذلك انعدام السلاسة . والنطق العربى فى الضمائر المتصلة الملحقة بالكلمة بل وفى بداية كل كلمة لاحقة حين تقارب نهاية الكلمة السابقة وسيلة لضمان السلاسة هى المماثلة بين النطقين كنطق الدال فى صورة التاء فى قولنا « عاندت » أو « اجتهد تنجح » .

فسلاسة الكلمة عدم استعصائها على النطق كما أن الرجل يكون سلس القياد إذا كان طيعا سهلا .

ومن ذلك أيضا أنهم يقسمون هذه الكلمة السلسة إلى كلمات شعرية وأخرى غير شعرية ، وهذا التقسيم الأخير قد يقتضى وجود السلاسة ، أى سهولة النطق باعتبارها شرطا أساسيا له إلا أنه ينبنى دون شك على اعتبارات سمعية تتوخى لذة الكلمة فى السمع ، فالكلمة الشعرية سلسة لذيذة فى الأذن ، والكلمة غير الشعرية قد تكون سلسة ولكنها لا تفضلها الأذن على غيرها فى الشعر .

وستجرنا الإشارة إلى هذه الكلمات الشعرية إلى الكلام فى مذهب الرمزية فى نهاية هذا المقال .

ولا شك أن كون الكلمة شعرية أو غير شعرية متروك فى كثير من الأحيان لاختيار الشاعر نفسه ، وما أكثر ما ينبنى هذا الاختيار على اعتبارات ذاتية بحتة تتصل بتقدير الشاعر لما فى الكلمة من جمال وحلاوة .

ولكن النقاد إلى جانب ذلك حاولوا أن يحددوا حدود الكلمة الشعرية بمعايير موضوعية كوجوب توفر السلاسة لها ، وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل ، ثم قالوا : إن هذه الكلمة يجب ألا تكون غريبة على الاستعمال العام ، وألا تكون سوقية مسفة ، فإن الكلمة السوقية ترتبط دلالتها بشئون الحياة اليومية فتفقد طاقتها على تحمل الدلالات الشعرية الطاغية غير المحدودة ، التى تستعين العاطفة فى التحليق بعيداً عن قيود الزمان والمكان .

وإلى جانب الاعتبارات الصوتية التى فى اللفظ يحرص الأدب العربى على اعتبارات صوتية فى الجملة كالفقرات القصار ، وكالسجع والمزاوجة ، وما يسمونه تعاقب الألفاظ وهلم جرا . . .

وإذا صح أن تكون الجملة المكتوبة طويلة الفقرات ، لأن القارئ يستطيع أن يعود إليها من أولها إذا فاته أن ينشئ العلاقة الصحيحة بين هذه الفقرات فى الذهن ، فإن الجملة المنطوقة يلزم فيها أن تكون قصيرة الفقرات ، ليفهمها السامع بمجرد النطق ، ويلم بالعلاقة الصحيحة بين فقرات هذه الجملة . وظاهرة قصر الفقرات هذه ظاهرة جداً فى الأدب الجاهلى وأدب ما قبل التدوين .

انظر مثلا إلى سجع الكهان وخطب الجاهليين فى عكاظ وغيرها ، ثم إلى سور القرآن وخصوصاً ما نزل منها بمكة .

وإن محسناً بديعياً كالسجع ليتجه أولا وآخراً إلى مخاطبة الأذن ، وهذه الناحية الصوتية واضحة فى الأدب العربى فى عصوره المختلفة وفى أشهر نصوص هذا الأدب ، بل إن المحسنات البديعية كلها تتجه هذا الاتجاه ، وإن واحداً منها كالجناس لا يمكن أن يتصور الإنسان اتجاهه إلى العين ، لأن الكلمتين تتجانسان فى الأذن وتتباينان فى الكتابة ، كما يبدو مثلا فى قول القائل :

كلكم قد أخذ الـ ... جام ولا جام لنا
ما الذى ضر مدير الـ ... جام لو جا ملنا

فلا جناس للعين فى هذا النص ، وإنما الجناس هنا للأذن ، ويظهر أنه حين يوجد الجناس لهما معا يلحق الغموض بالنص كما فى الألغاز نحو :

أى شىء تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله
فإذا ما قبلته وأخذت الثلا ... ث منه يكون لى ثلثاه

فليس المقصود بلفظ « لى » هنا أن تكون اللام حرف جر وبعدها ياء المتكلم ، وإنما المقصود أن اللام والياء يمثلان ثلثى حروف كلمة « ليف » التى هى مقلوب كلمة « فيل » ، وهو الحل المطلوب للغز . ونحن نرى أن الجناس هنا للعين والأذن معاً ، ومن هنا يلحق الغموض بالنص فيصير لغزاً . ومثل ذلك نلحظه فى كلمة « القلب » فى البيتين الآتيين :

يأيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قل فى سومك
تراه بالعينين فى يقظة ... كما يرى بالقلب فى نومك

فليس المقصود بالقلب هنا ما يتبادر إلى ذهن القارئ وهو قلب الإنسان الذى فى صدره وإنما المراد أن تقلب كلمة « نومك » فتصير « كمون » ، وإنما نبيح لأنفسنا هنا أن نسمى ذلك جناسا لوجود خاطر مخطئ وحل مصيب ، فالجناس هنا بينهما لا بين كلمتين فى النص .

وإن الناظر فيما كان العرب يطلقون عليه «عمود الشعر» ليجده أيضا يتجه إلى الأذن، فالوزن والقافيــة وهما أشهر عنصرين من عناصر مفهوم هــذا الاصطلاح أمران صوتيان .

أما الوزن فهو إيقاع والإيقاع جوهر الموسيقى والموسيقى للسماع لا للقراءة ، وأما القافية فهى وحدة صوتية بين أجزاء القصيدة لولاها ما ارتبطت أجزاؤها هـذا الارتباط الذى لها فى النفس حتى إن الشاعر لو جعل الشركة فى القافية بين كل بيتين منها على حـدة لخرج العمل الشعرى ، وكل بيتين منه وحدة بعينها من الناحية النفسية ؛ ولهـذا أثر على إدراك الناحية الجمالية فى القصيدة باعتبارها نصا مسموعا .

نخرج من هـذا جميعه بأن الأدب العربى أدب يعنى أشد العناية بالناحية الصوتيـة المسموعة وأن ذلك يرجع إلى تاريخه وتاريخ الأمة العربية نفسها ، فلم تكن الأمة العربية أمة قارئة ولا كاتبة ، وإنما كانت أمة ناطقة فصيحة، ولا يزال العرب يتسمون بهذه السمة إلى يومنا الحاضر فلا يكاد الناس فى أية أمة من أمم الأرض إلا العرب يجتمعون فى قاعة ويقيمون بها ثلاث ساعات أو أربع بقصد الاستماع إلى عدد من القصائد . ثم إنهم حين يستمعون إليها يتحمسون للجيد منها ، فيصفقون عن انفعال وإعجاب صادقين، وهم بذلك يروحون عن النفس ويستمتعون بمنبع من منابع الجمال

تلك خاصة من خواص العرب وميزة من ميزات أدب العرب لا يكاد يشاركه فيها أدب من الآداب .

قلنا : إن ذكر الكلمات الشعرية يقودنا إلى الكلام عن الأدب الرمزى الذى هو أدب صوتى أيضا ، ولكن على طريقته الخاصة. ولقد كان الإغريق القدماء يتناولون بالدراسة ظاهرة سموها ، OnomatoPea ويقصدون بها دلالة الكلمة بصوتها على معناها العرفى الذى فى المعجم، وتبعهم العرب فى الكلام عن هـذه الظاهرة وكانوا يمثلون لها بكلمات مثل فحيح وحفيف وخرير وزئير، تدل بما لها من جرس فى الأذن على معناها المشروح فى المعجم .

وكانت دراسة اليونان لهـذه الظاهرة أول التفات إلى الرابطة الطبيعية بين صوت الكلمة وبين مدلولها فى مقابل الرابطة العرفيــة بينها وبينه .

فالكلمة حين تدل بصوتها على المعنى تلعب نفس الدور الذى تلعبه النغمة الموسيقية حين يفسرها سامعها بمعنى خاص ، ولكن الظاهرة المذكورة عثرت على عدد من الكلمات رأت أن دلالتها الطبيعية تنطبق انطباقا تاما على دلالتها العرفية ، فاعتبرت ذلك شيئا يلفت النظر ؛ ولكن اللغويين لم يستطيعوا أن

يقيموا منه حجة على أى شىء بعينه ، وبقيت جمهرة كلمات اللغة بعد ذلك لا تتفق دلالتها الطبيعية التى با لصوت على دلالتها العرفية التى بالوضع ، إلى أن جاء الرمزيون فقالوا : إن خير ما تعامل به الكلمات الشعرية أن تدل دلالة طبيعية بصوتها لادلالة عرفية بوضعها ، وعاملوا الكلمة معاملة النغمة الموسيقية حتى إن معناها فى القاموس قد يكون قوة ومعناها فى النغمة قد يكون ضعفا ، والأهم عندهم معنى النغمة .

وهذه الصوتية فى الأدب الرمزى تختلف عن صوتية الأدب العربى التى شرحناها من قبل من نواح هامة :

أولها : أن صوتية الأدب العربى تقليدية ؛ أما صوتية الرمزية فثورة على التقاليد الأدبية ، ثم إن صوتية الأدب العربى هدفها الجمال ، وصوتية الأدب الرمزى الإحساس الغامض ولا تؤثر صوتية الأدب العربى على وضوح الفكرة . أما صوتية الرمزية فهدفها الغموض وعدم التحديد فى الفكرة أى أن هدفها خلق إحساس غامض عند سماع الكلمة شبيه بما تحدثه النغمة الموسيقية .

وبعد : فإن الأدب العربى يسر الأذن بما فيه من جرس محبب ، وبما فيه من إيقاع وقافية واختيار كلمات ، وتوافق مخارج ، وهو أدب يسر النفس بما فيه من تجارب وجدانية إنسانية لا تقصر دون الاستحواذ على النفس . ثم هو أدب يسر العقل بما فيه من جمال الفكرة وسرعة البديهة النادرة ، وهو بكونه متعة للنفس والعقل أدب يقرأ ، وبكونه متعة للأذن أدب يسمع ؟

دكتور تمام حسان

أستاذ مساعد فى كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

صونوا أخلاقكم

وفد أهل العراق على معاوية وفيهم زياد والأحنف فقال لهم .

مرحبا بكم (معشر العرب) إن الله اختاركم من الناس ، وصفّاكم من الأمم كما تُصفّى الفضة البيضاء من خبثها ؛ فصونوا أخلاقكم ، ولا تدنسوا أعراضكم ؛ فإن الحسن منكم أحسن لقربكم منه ، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه .

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

وصف الجمع والخبر عنه

المعروف فى وصف الجمع أو الخبر عنه أن يكون جمعاً أو مفردا مؤنثا . تقول : عندى كتب نافعات ونافعة . وفى الكتاب العزيز: «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة» . ويتبع هذا الحكم فى ضمير الجمع . تقول : الكتب اشتريتها ، واشتريتهن .

وقد جاء فى العربية ما خرج عن هذا الحكم . وهو عماد هذا الحديث .

١ — جاء قوله تعالى فى سورة النحل : «وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين» . وترى فيه ضمير الأنعام مذكراً فى (بطونه) ، وكان المكان لبطونها أو لبطونهن .

وقد يكون أول من تنبه إلى هذا سيبويه ، وقد رأى فى الجواب أن ما وازن أفعالا من الجموع يجوز أن يعامل فى العربية معاملة المفرد ، فجاء تذكير ضمير الأنعام على هذا الوجه . وهو يقول فى الكتاب ١٧/٢ : «وأما أفعال فقد يقع للواحد . من العرب من يقول : هو الأنعام . وقال الله ـ عز وجل ـ : «نسقيكم مما فى بطونه» . وقال أبو الخطاب : سمعت العرب يقولون : هذا ثوب أكياش» . والثوب الأكياش : الذى أعيد غزله ، أو هو الردىء ، كما فى القاموس .

وقد عرض للكلام فى الآية الكريمة الفراء فى كتابه معانى القرآن ١٣٠/١ . وقد ذهب فى الجواب مذاهب غير ما ذهب إليه سيبويه . فهو يذكر أنه ذهب بالأنعام مذهب النعم ، والنعم مذكر ، فلذا ذكر الضمير فى «بطونه» فكأنه قيل : وإن لكم فى النعم لعبرة نسقيكم مما فى بطونه ، واستدل على تذكير النعم بقوله .

فى كل عام نعـــم تحوونه
يلقحـــــه قوم وتنتجـــونه

وقد بحث فى هذا بأن النعم غير الأنعام . فالنعم عند العرب الإبل فقط . والأنعام

الإبل والبقر والغنم ، فهما مختلفان ، فأنى يذهب بأحدهما إلى الآخر ! وقد أجيب عن هذا بأن تخصيص النعم بالإبل غير راجع إلى الوضع بل إلى الاستعمال ، وخير من هذا أن يقال : إن أكثر ما يشرب العرب وتقوم عليه حياتهم هو ألبان الإبل لغزرها، فكانت الإبل من هذه الناحية موطن المنة الكثيرة ، فروعى فى الأنعام عند الحديث عن اللبن النعم وهى الإبل تنبيها على هذه النكتة ، ويشبه هذا الاستخدام عند البديعيين ، كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا

ذكر السماء يريد المطر ، وأعاد الضمير عليها فى معنى ما ينبت عن المطر فيرعى ، وهو الكلأ .

وذكر الفراء وجها آخر فى الجواب ، وهو أن جمع التكسير يصح أن يعامل معاملة المفرد المذكر ، وهو يعبر عن جمع التكسير بالجمع الذى لم يبن على واحده ، أى لم تبق فيه بنية واحدة ، وهو يقابل جمعى التصحيح ، ومما ذكره فى الاحتجاج لهذا قوله : « مثل الفراخ نتقت حواصله » (١) وهو يقول : « ولم يقل : حواصلها ، وإنما ذكر لأن الفراخ جمع لم يبن على واحده ، فجاز أن يذهب بالجمع إلى الواحد . قال الفراء : أنشدنى المفضل .

ألا إن جيرانى العشية رائح
دعتهم دواع من هوى ومنازح

فقال : رائح ، ولم يقل رائحون ؛ لأن الجيران قد أخرج مخرج الواحد من الجمع إذ لم يبن جمعه على واحدة . فلو قلت : الصالحون فإن ذلك لم يجز ؛ لأن الجمع منه قد بنى على صورة واحدة ، وكذلك الصالحات تقول ، ذلك غير جائز ؛ لأن صورة الواحد فى الجمع قد ذهب عنه توهم الواحدة » .

٢ — وجاء قوله تعالى فى سورة يس : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم » فأخبر عن ضمير العظام برميم وهو مفرد مذكر ، والمكان لأن يقال : رميمة أو رميمات . وللعلماء آراء مختلفة فى تخريج الآية . فيرى بعضهم أن الرميم بمعنى مفعول من رمت الإبل الكلأ : أكلته ، وإذا أكلته فقد أبلته وأحالته عما هو عليه ، فالرميم المحال والمغير عن أصله ، وذلك فى العظام بلاؤها ، وفعيل فى معنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كما هو معروف . ويذهب الأزهرى اللغوى مذهبا آخر ، وهو أن الجمع إذا كان على بناء الواحد ساغ معاملته معاملة الواحد ، ويذكر من شواهد هذا قوله :

يا عمر جيرانكم باكر
فالقلب لا لاه ولا صابر

فلما كان جيران بمنزلة حرمان ونسيان أخبر عنه بباكر المفرد ، وكذلك العظام لما كان فى زنة كتاب أخبر عنه برميم المفرد المذكر . وهذا الرأى كأنه أخذه من رأى الفراء

---

(١) نتقت : سمنت

وقيده ، فقـد سلف أن الفراء يسوغ أن يعامل جمع التكسير معاملة الواحـد ، وأطلق فى جمع التكسير ، والأزهرى يقيده بمـا كان على زنة الواحد ليخرج ما كان على صيغة أقصى الجمع كمساجـد ومصابيح . ويقول الشهاب الخفاجى فى كتابه على البيضاوى ٧/٢٠٤ : وقال الأزهرى : « إن (عظاما) لكونه بوزن المفرد ككـتاب وقراب عومـل معاملته . وذكر له شواهد . وهو غريب » وإذا عرفت أن الفراء قال بأكثر من قول الأزهرى لم يكن رأيه غريبا ، لا سيما وقد ساق شواهد .

٣ — وجاء وصف الجمع بالمفرد فى كثير من شعر العرب ، فمن ذلك قول زهير :

فأصبح يحـدى فيهم من تلادكم
مغانم شتى من إفال مزنم

الإفال : جمع أفيل وهو الفصيل ، والمزنم الموسوم بعلامة خاصـة عندهم ، وترى فيه وصف الإفال به وهو مفرد مذكر . ويقول الزوزنى فى شرحـه للمعلقات : ولم يقل : المزنمة وإن كان صفة لإفال حملا على اللفظ ؛ لأن فِعالا من الأبنية التى يشترك فيها الآحاد والجموع ، وكل بناء انخرط فى هـذا السلك ساغ تذكيره حملا على اللفظ ، وتراه فى هذا يقفو أثر الأزهرى ، وقد نحا ابن سيده — كما فى اللسان — هذا النحو ، هـذا وقد روى : من إفال المزنم ، وهذه الرواية هى التى جاءت فى الديوان بشرح ثعلب المطبوع فى دار الكتب وفى الشرح ١٧ : « وقال أبو عبيدة : المزنم : فحل معروف نسبها إليه » .

وقال الفرزدق [1] :

إذا القنبضات السود طوّفن بالضحى
رقَـدن عليهن الحجال المسجف

القنبضات : القصار من النساء . وترى فيه وصف الحجال بالمسجف ، والحجال جمع حجلة وقد ذكر الوصف لأن الموصوف على زنة المفرد ، كما سبق .

وجاء قول المتنخل (٢) الهزلى .

ذلك ما دينك إذ جنبت
أحمالها كالبكر المبتل

دينك أى دأبك وعادتك . يقـول : إن عادته البكاء عند فراق الأحبـة واستعدادهم للسفر وتهيئة الأحمـال والأمتعة وتجنيبها ووضعها على الإبل ، وهى فى هـذه الحالة تشبه النخيل وهى البكر ، والبكر جمع بكور وهى التى تدرك أول النخل والمبتلة من النخيل : النخلة تنشق منها فسيلة فتستغنى عنها ، فترى فيه وصف البكر بالمبتل ، والوجه : المبتلة وإنما جاز هذا أن البُكُر على زنة العُنُق المفرد فجاء الوصف مفردا على هذا .

والقارئ يخرج من هـذا البحث بجواز وصف الجمع بالمفرد المذكر فى الاختيار من الكلام ، ويدرك بحق سعة العربية وشجاعتها وكثرة مذاهب القول فيها فى حكمة ونظام ؟

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

---

(١) انظر ديوانه ٢ ٥٥٥ .

(٢) انظر ديوان الهزليين ٢ — ٣ .

ما يقال عن الإسلام

العالم الإسلامى والجغرافيا الدينية

للأستاذ عباس محمود العقاد

تفرع من العلوم العصرية مباحث مستقلة، يطلق عليها بعضهم اسم العلوم لاستقلالها بموضوعاتها الخاصة، ولكنها أحرى أن تسمى بالمباحث كما سميناها، أو تسمى بالدراسات العلمية، لأنها أقرب إلى التطبيقات التى تبنى على العلوم المتفرقة منها إلى العلم المنفرد بقواعده وتجاربه وأصوله.

وعلى سبيل المثال نذكر فى هذه الدراسات ما يسمونه بعلم السياسة الجغرافية وهو غير الجغرافية السياسية، وقد شاع شيوعا كبيراً بعد الحرب العالمية الأولى لأن هذه الحرب قد أظهرت بالأمثلة الجلية فعل الموقع الجغرافى فى توجيه السياسة الدولية وتوحيد خططها وإن تبدلت حكوماتها بين امبراطورية وجمهورية أو بين حكومة مطلقة وحكومة دستورية.

ولا يلتبس موضوع الجغرافية السياسية وموضوع السياسية الجغرافية geopolitics فإن الجغرافية السياسية مبحث قديم يعلم الناس موضوعه المفصل منذ زمن بعيد، وينتظرون منه ما هو من بابه بغير التباس بين أبواب المباحث المتعددة، وكل ما ينتظره الناس من مباحث الجغرافية السياسية أن تزودهم بالمعلومات عن بقاع الأرض من جانب أحوال الدولة ونظم الحكم وعلاقات البلد بما حوله وبسائر بلدان العالم المعمور.

أما السياسة الجغرافية فالذين يدرسونها يهتمون قبل كل شىء بموقع البلد وما يفرض هذا الموقع على سكانه من خطط الدفاع والهجوم ومن أساليب الإدارة والحكومة، ويريدون أن يثبتوا بدراسة هذا الموقع الجغرافى أنه هو الذى يملى على الدولة سياستها فى جميع أطوارها. فلا تستطيع ألمانيا - مثلا - أن تغير قواعد سياستها ما دامت فى موقعها من أوربة الوسطى وما دامت محدودة فى البر والبحر بحدودها المعروفة، ولا تستطيع روسيا من عهد الخانات إلى عهد بطرس الأكبر إلى عهد الثورة الشيوعية أن تسلك

فى علاقاتها بالشرق والغرب مسلكا يخالف مسلكها المرسوم فى جوهره ، وإن اختلفت الذرائع والأسماء .

وقياسا على هذا المبحث الذى نسوقه على سبيل المثال نشأ فى العهد الأخير مبحث طريف خطير يسمونه بالجغرافية الدينية أو بجغرافيـة الدين geografhy of religion ويدل اسمه على موضوعه بغير حاجـــة إلى الإسهاب فى شرحه . فإن هـذا الاسم يوحى بالعلاقة بين الدين ومواقع البلاد ويدل على اعتقاد الباحثين فى هذا الموضوع أن للموقع شأنا فى انتشار دين من الأديان أو فى إعراض السكان عنه ، أو حاجتهم إلى وسائل الإقناع أو وسائل الإكراه فى قبوله ، وأن للموقع شأنا فى تقديم بعض هذه الوسائل على بعضها وتغليب الإقناع أحيانا على الإكراه أو تغليب الإكراه أحيانا أخرى على الإقناع .

وقد تأخر ظهور هـذا المبحث إلى الفترة الأخيرة من القرن العشرين ولم يكن من المستطاع أن يتقـدم بالظهور قبل ذلك ولو بزمن قصير ؛ إذ كان من اللازم قبل ظهوره أن تستوفى المعلومات الجغرافيـة عن بقاع الأرض وعن سكانها وعن عقائدهم من قديم عصورهم إلى حديثها ، وكان من اللازم أن تنعقد المقارنات المفصلة على حسب الإحصاءات الدقيقـة بين أدوار التاريخ وأطوار العقائد ودرجات الزيادة والنقص فى عـدد المتدينين بالدين الواحد مع تقلب الأدوار والأطوار .

ولم يكن علم ذلك كله ميسورا قبل هـذا القرن العشرين ، وإن كان بعض هذا العلم قد عرف فى العهود الماضية ، وقيل على أساسه ما قيل من أن أديان التوحيـد تناسب البلاد التى يقل فيها اختلاط العناصر الطبيعية ، وأن قوى الطبيعـة إذا تعددت فى بعض الأقاليم كان لها أثرها فى اعتقاد أهلها أن القوى الإلهية متعددة من ورائها .

بل على أساس البحث فى الجغرافية الدينية جرى الحوار ـ بين السيد جمال الدين وأرنست رينان ـ فى أثر الإسلام وأثر المسيحية بين الصحراء وبلاد الخصب والعمران .

إلا أن المعروف من هذا البحث قبل القرن العشرين لم يكن ليزيد على المعروف يومئذ من تفاصيل الجغرافيـة والتاريخ وإحصاءات الحوادث والسكان ، فلم يكن على أوسعه وأعمه كافياً لاستقلال المبحث بموضوعه ذلك الاستقلال الذى سوغ لبعضهم أن يحسبه علما بين سائر العلوم .

ولا نرى أن المعارف والإحصاءات التى تعتمد عليها دراسات الجغرافيـة الدينية قد ختمت اليوم أو آذنت بالختام ، ولكنها قد وصلت ـ ولا ريب ـ إلى الحـد الذى يقنعنا بقيام موضوع البحث وارتقاب النتائج

الصحيحة من تطبيقه ، ولو لم تثبت هـــذه النتائج حتى الآن كل الثبوت .

وقد توسع الباحثون فى تطبيق هذه الدراسة على الديانات الكبرى وفى مقدمتها الديانة الإسلامية ، فكتب علماء الفرنسيين والألمان والأسبان والانجليز وغيرهم كتبا منوعة عن الإسلام والحياة المدنية ، وعن خصائص الإسلام وطبائع البلدان ، وعن الإدارة الإسلامية فى القارات المختلفة ، وعن أثر الإسلام فى الثروة والحكومة ، وعن الإسلام والبيت والحاضرة ، وعن الإسلام وتثمير التربة والزراعة وعن علاقة المواقع الجغرافية بكثرة الحجاج وقلتهم وأثر هذه الفريضة فى الشعوب التى ينتسبون إليها ... إلى أشباه ذلك من مطارح البحث وزواياها المتشعبة ، ومن أسمائها فى ذيل كل كتاب يلم بها تتبين أنها مكتبة ضافية ، لم يصل إلينا فى لغتنا العربية غير القليل منها .

* * *

وآخر ما اطلعنا عليه من هذه الدراسة كتاب ألفه الأستاذ إكسافييه بلانهول xavier de planhol بالفرنسية منذ سنتين وترجم إلى الانجليزية فى هذه السنة فظهر فيها باسم عالم الإســـلام : The world islam ودار البحث فيه على موضوعين من أهم موضوعات هذه الدراسة الحديثة : أحدهما عن التجمع وأحوال المعيشة المستمدة من الدين فى الأقطار الإسلامية ، والآخر عن العوامل الجغرافية التى ساعدت على انتشار الإسلام .

* * *

ونحن لا نكتب هذا المقال عن هذا الكتاب لنبسط القول فى آرائه وتقديراته فإنها (أولا) أكثر من أن يشملها مقال واحد مع ارتباطها بقواعد البحث فى جغرافية الدين كما وردت فى الكتب الأخرى وهى (ثانيا) لا تحسب من العلوم المقررة التى بلغت نضجها وسرت بين الباحثين سريان المبادئ المتفق عليها ، ومعظمها لا يزال فى الواقع أقرب إلى التخمينات المحتملة التى قد يعدل عنها أصحابها ويعيدون تخمينها على وجه آخر فى مناسبات أخرى .

وإنما نذكر الكتاب لنورد مثلا من آرائه أو نظرياته ، ومثلا من أخطائه ومغالطاته ، ومثلا من عيوب هذه الدراسة الجديدة كيفما كان تطبيقها على الإسلام أو على غيره من الأديان .

فمن أمثلة آرائه التى تستند إلى أصل صحيح فى أحكام الإسلام : أن الإسلام يناسب الأمصار ويطلبها ويبحث عنها لأنه يقيم فيها الأحكام ويتم فيها فريضة الصلاة الجامعة ومراسم الدين التى يتولاها الأئمة ، فهو أدنى

إلى طبيعة المدن وإن كان منبته فى الصحراء .

ومن أمثلة آرائه عن الدين الإسلامى خاصة بين الأديان أنه ينتشر حيث تتوازن العوامل السياسية والعوامل الطبيعية ولا يحتاج الأمر إلى مجهود صناعى لتغليب إحداهما على الأخرى ، وقد ينتشر بالوسائل السلبية فى الأقاليم التى تتصل فيها المدن والمزارع والغابات كما حدث فى الجزر الأندنيسية .

ولنا أن نتقبل هذه الآراء على أنها ملاحظات تاريخية تصف الواقع فيما مضى ولا تتعرض للأسباب والتعليلات ، ولكن مؤلف هذا الكتاب ومن يجارونه من الباحثين فى هذه الدراسة الجديدة يخطئون كثيراً كلما انتقلوا من وصف الواقع إلى تعليله وتفسيره ، ثم ينقادون للخطأ طواعية على الرغم من قدرتهم على كشفه وتصحيحه لو كلفوا أنفسهم بعض الجهد فى المقارنة ، والمقابلة بين نظائر هذه الأحوال فى ظل الديانات الأخرى .

يقولون مثلا : إن الإسلام قد احتل فى عصر من العصور شواطئ البحر الأبيض حول البحر كله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولكنه تراجع عن الشواطئ الأوربية لسبب يتعلق بطبيعة الدين الإسلامى ولا ينحصر فى أسباب السياسة ولا فى المقاومة من جانب الأمم الأوربية .

وهذا السبب الذى يتعلق فى رأيهم بطبيعة الدين الإسلامى هو أن الإسلام ينظر إلى الزراعة نظرة الترفع والإهمال وينكر حق الزارع فى بعض مذاهبه إلى جانب حق المالك أو حق الدولة ، وأن النبى عليه السلام نشأ فى بيئة تجارية بين علية قومه من التجار ورويت عنه أحاديث ينذر فيها بالذل من يشتغلون بالسكة والمحراث .

قالوا : وهذا هو سبب الفشل الذى منى به المسلمون فى الشواطئ الأوربية لأنها لا تستغنى عن الزراعة ، ونجوا منه فى الشواطئ الإفريقية لأن الزراعة فيها لا تحتاج إلى مجهود ولا تزال الصحراء من ورائها تعتمد على المطر والمرعى .

والعجيب فى هذا الرأى أن يتفق عليه جملة من الباحثين فى الجغرافية الدينية مع سهولة الاهتداء إلى وجه الصواب فيه لو أنهم يشاءون أن يلتفتوا إليه .

فالإسلام قد بقى فى وادى النيل وهو أرض زراعية يعمل فيها الفلاحون عملا مجهداً يشق على الفلاحين فى غيرها ، ولهذا عرف عن زراعها أنهم أقوياء الجماجم لطول تعرضهم لأشعة الشمس التى لا يقوى غيرهم على إطالة المكث تحتها ، وروى هيرودوت فيما رواه أنه زار ميدان المعركة بين الفرس والمصريين فوجد بقية الجماجم الفارسية تتفتت من اللمس

اليسير ، ولا يتفتت شيء من الجماجم المصرية وإن اشتد الضغط عليها .

وقد اختلت الزراعة في الشواطئ الأوربية بعد جلاء المسلمين عنها ، وكانت في عهدهم أصلح حالا مما صارت إليه بعد ذلك في عهد أمراء الإقطاع ، ثم انقضى هذا العهد كله لاختلال أمور الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية في أيامه ، ثم صلحت شئون الفلاحين بعد ظهور الآلات الحديثة وتقدم الفنون الزراعية وانتظام الثروة على أسس الصناعة وتبادل الواردات والصادرات إلى البلاد الشرقية والغربية ، وقد زال أمراء الإقطاع وزالت دولة الإقطاع كله بعد مقاومة من أبناء وطنهم تهون جداً إلى جانب المقاومة التي لقيها المسلمون لأسبابها الدينية والوطنية والسياسية.

وشبيه بهذا الخطأ عن الإسلام والزراعة خطأ آخر من أخطاء هؤلاء الباحثين عن الإسلام والحضارة أو الإسلام وتنظيم المدنية.

فعندهم أن المدنية الإسلامية في العصور الماضية ، قبل اتصال المسلمين بالحضارة الأوربية ، قد خلت من « الإدارة البلدية » municipal وكان خلوها هذا دليلا على الخلو من الشعور بالبنية الواحدة والتركيب الاجتماعي ، ولم تخل المدن الأوربية قط من المجالس البلدية وما يقوم بوظيفتها من الهيئات المعنية بأمر الحكومة أو الهيئات المنتخبة وهم لا يعرفون لذلك علة غير قيام المدن الإسلامية برعاية الوالي دون غيره وقلة الشعور في نفوس السكان بالرابطة « المدنية » التي تربط أبناء المسكن الواحد كما يرتبط الأعضاء في « شخصية حية » مشتركة .

والعجب في هذا الخطأ أيضا أنه من الأخطاء التي يسهل تصحيحها لولا اتجاه الرغبة إلى الاتهام وانصرافها عن الإنصاف .

فالمدنية الأوربية وجدت فيها « الإدارة البلدية » إلى جانب السلطة الدينية التي كانت تتولاها الكنيسة وتفرض بها مشيئتها على المجتمع في شئون الأعراس والمآتم والرقابة على المدارس والحفلات وشعائر التطويب ، عند عقد الزواج وعند الإذن بالدفن وعند الاعتراف وسماع المواعظ وإعطاء البركة وما إليها من مراسم السلطة الدينية التي لا وجود لها في الإسلام .

وفيما عدا هذا الإشراف من السلطة الدينية لم يخل البلد الإسلامي قط من التنظيم الذي يدل على الشعور بالرابطة المدنية في أضيق نطاق وأوسعه على السواء ، ومن العجب أن يتحدث الجغرافيون الدينيون عن زوال الرابطة المدنية في حواضر الإسلام وهم يذكرون من خصائص هذه الحواضر أنها تقيم لكل صناعة حيا مستقلا تأوي إليه ،

إن أحياء الحاضرة تتعدد على حسب الروابط الدينية والعنصرية كما تتعدد على حسب الصناعات والنقابات ، وما كان لقوم يفقدون شعورهم بروابط المسكن أن يشعروا بروابط الحرفة أو يشعروا بروابط « الحى » الواحد حيث يقيمون .

وقد حفلت كتب الأدب العربى بمفاخر المدن وعيوبها حتى بين الفلاسفة والحكماء فضلا عن المجانين من الشعراء والأدباء ، وحتى بين أبناء المدن الأندلسية التى يحسبها الجغرافيون الدينيون حجة من حجج الفشل فى حضارة الإسلام وزراعة الإسلام ، وقد تفاخر ابن رشد وابن زهر يوما بمدينتيهما فى حضرة المنصور بن عبد المؤمن من خلفاء الموحدين فقال ابن رشد لزميله الفيلسوف : « ما أدرى ما تقول . غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى أشبيلية » .

ولا يقع هذا الفخر بالمدن بين فيلسوفين طبيعيين ثم يقال : إن الشعور « بالشخصية المحلية » مفقود فى تلك المدن بين عامة الناس الذين تشغلهم هذه العصبيات .

بل نحن لانحتاج إلى أكثر من نظرة سريعة فى الأسماء المشهورة لنعلم أن النسبة إلى البلدة سابقة لكل نسبة محلية فى ديارنا الإسلامية ، فلم يمض زمن بعيد على اقتران كل علم من أعلام الناس بعلم من أعلام المدن ، ولا تزال بقية من تلك الأعلام تذكر ثم تذكر بعدها نسبتها إلى الإسكندرية أوطنطا أو المنصورة أو أسيوط أو جرجا أو قنا أو أسوان ، وغيرها وغيرها من القرى والبلدان ، ولم ينس الناس عندنا هذه النسبة إلا فى العصر الذى اتصلوا فيه بالأوربيين والغربيين خلافا لما يزعمه الجغرافيون الدينيون .

* * *

والخطأ الذى نختم به هذا المقال خطأ عام يتعرض له الباحثون فى هذه الدراسة حيثما كان موضع البحث وكيفما كان تصويره للعلل العامة التى لايختصون بها الإسلام والمسلمين .

وذلك الخطأ العام أنهم يبالغون فى الرجوع بالخصائص الروحية إلى أصول مزعومة من الخصائص الجغرافيه وخصائص المدنيـــة والبادية فكثيرا ماتكون الظاهرة الروحانية مناســـبة للإقليمين النقيضين فى جميع الأوضاع وفى الأوضاع الجغرافية والسياسية على الخصوص .

إن اعتقاد « التوحيد » مثلا يناسب أبناء البادية لأنهم يطمئنون إلى الإله الواحد الذى يعتصمون به فى كل مكان رحلوا إليه ، ولا يلقون كل اعتمادهم على إله محدود فى بقعة

(البقية على صفحة ٣٥٨)

مختار من الشعر القديم والحديث

مولد رسول وأمة

للأستاذ الشاعر محمود غنيم

سائلِ الكون هل عرفتَ الوليدا هزّ في مهده الصغير الوجودا !

الوليد الذي استهلّ فأمسى يومُهُ في السماء والأرض عيدا

أيُّ بشرى إلى السموات زُفّت ردّدتها أملاكها ترديدا

غرّدي في الجنان ياحور نشوى واجرِ يا نجم في السماء سعودا

يالواء التوحيد في الأرض رفرف لَقِيَ الشركُ يومَهُ الموعودا

وُلِدَ المصطفى سلام عليه ما حَبَا أو مشى ، أو اشتدَّ عودا

هتفت باسمه « حليمة » طفلاً فغدا في فم الزمان نشيداً

لم تلِد أُمُّهُ غلاماً سواه قيمة الدُّر أن يكون فريداً

هل درت يوم وضعه بنتُ وهبٍ أنها أطلعت صباحاً جديداً ؟

هل درتْ أيُّ دولة وسرير آذنا يومَ وضعه أن يميداً ؟

هل درت أنها على هامةِ التاريخ شادت للعُرْبِ مُلْكاً وطيدا ؟

صاحَ في مهده الوليدُ فهل كا نَ هزيجاً صياحه أم رعودا ؟

صيحةٌ زلزل الضلالَ صداها ووعتها أذنُ المدى تغريداً

* * *

وُلِد الصادق الأمين فيا شمـ ـس أطلّي وباركي المولودا

واقرئي في جبينه سورة الخلـ ـد إذا كنتِ تبتغين الخُلودا

وخذي عنه كيف تحيين في الأر ض مواتاً وتوقظين رقوداً

واسلكى إن ضللت فى الأفق يوما نهجه تسلكين نهجاً رشيدا
واقبسى النور والهداية منـــه إن من يهتدى به لن يحيدا
نور طه من وجه رب البرايا وحده جل وجهه معبودا

* * *

الوليد الذى ترقى يتيما علّم العُرْبَ كلها أن تسودا
شاحذاً عزمهم وكان كهاماً جامعاً شملهم وكان بديداً
لابساً للأذى من الصبر درعا ومن الصبر ما يفلّ الحديدا
ساحراً لا بحبله وعصاه بل بخُلُقٍ سمح يروض الأسودا
وبيان من ذاق حلو جناه عاف بنت العنقود والعنقودا
النبى الأمى جاء بآى تركت سادة البيان جمودا
أخرست كل ناطق تركت كل لسان من عيّه معقودا
حرّك الصمّ إذ تلاها عليهم وتغالى فحرّك الجلمودا
وألانَ القلوبَ وهى غلاظ يشبه الصخرَ طبعُها والبِيدا
فإذا عابدو التماثيل ؛ لله يخرّون رُكّعاً وسجودا
النبىّ الأمىّ لم يدرك العلـ ـمُ قراراً لبحره أو حُدودا
كم تحدّت عقلا تعاليمُه السمـ ـحةُ فارتدّ حائراً مكدوداً
شِرْعَةٌ ظلّلت بأدواحها مَن حلّ بيداً أو حلّ قصراً مَشيدا
كلما مرّت العهودُ عليها أثبتت أنها تجارى العهودا
الحضاراتُ منذ قُمْنَ على الأر ض تفيّأت ظلّها الممدودا
كان فى الشرق روضُها يانعَ الزهـ ـرِ ، وفى الغرب حوضها مورودا
سائل الغربَ عن كنوزٍ من الفكـ ـر بجيدِ الزمان كانت عقودا
قدّمتها « غرناطةُ » ، وهى تبكى بدل الفحم للحريق وقودا
شرعة تكفل الحياتين فى كلّ (م) زمان جديدة لن تبيدا
باسمها صار قائداً كلُّ من يحـ ـلب شاةً وصار كِسرى مقودا

باسمها ثلّت العروش « قريش » وغدا أهلها ملوكا صيدا
قسم العالم « الرشيد » فنصف في يديه ، والنصف يخشى الرشيدا

* * *

دين « طه » كانت مبادئه السمـ حة في الحرب شكة وجنودا
إن من يفتح القلوب ابتداء لم يصادف حواجزاً وسدودا
لن ترى في الحروب كالمثل العلـ يا جيوشاً وعدة وبنودا
فتقلد إن رمت في الحرب نصراً : مبدءاً سامياً ورأياً سديدا
أيها الشرق قد ركدت طويلا يأسن الماء إن أطال الركودا
لك عند النجوم إرث مضاع لا تقل كيف أستطيع الصعودا ؟
لك ماض زاه فما ضر لو نلـ ت طريفاً من العلا وتليداً ؟
لك في سيرة النبي عظات بالغات ؛ هل تريد مزيداً ؟
قل لأبناء يعرب وحدوا الشمـ ل كما وحد النبي الجهودا
إن أولى الورى بتوحيد شمل أمة كان دينها التوحيدا

محمود غنيم

(بقية المنشور على ص ٣٥٥)

من البقاع ينقلونه معهم إذا استطاعوا ، وهم لا يستطيعون .

ولدولة الامبراطورية أبعد شيء عن بادية الصحراء ، لأنها مجموعة من مدن عامرة وأقطار متداخلة وشعوب متعددة ، ولكنها تنتهي آخر الأمر إلى الإيمان بإله واحد كما تدين بسلطان واحد يحيط بشعاب الحكم في جميع الشعوب .

وإذا تساوى الموقع ونقيضه في قبول العقيدة فليس المرجع كله إذن إلى الخصائص الجغرافية ولا إلى هذا المكان وذاك المكان وإنما المرجع وراء المراجع جميعا إلى مكان مكنون لا تراه العيون .

المرجع إلى أعماق الصدور ؟

عباس محمود العقاد

آراء وأحاديث

حكم الله فى حكم قاسم

أصدر الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بيانا للناس بحكم الله فيما يصدر عن حكام العراق من المظالم والمآثم هذا نصه :

من المعلوم أن حكم الشرع الشريف فى مثل تلكم المذابح التى يقوم بها حكام العراق أنها قتل للنفس بغير حق ، واعتداء صارخ بغير ما جرم ، وأن هذه الأعمال تزعزع الثقة بين الناس بعضهم وبعض ، وأنا لا أشك أن هؤلاء الذين يقومون بهذه المذابح هم فى مقدمة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، ولو كانت هناك سلطة شرعية عليا تطبق حكم الله عليهم لطبقت عليهم ونفذت فيهم ذلك العقاب الذى تضمنته آية : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وقد سبق لنا أن نادينا باسم الإسلام وباسم الأخوة الدينية والعربية أولئك الذين يعيثون فى الأرض فسادا أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يمدوا يد السلم والتعاون والتعارف وأن ينضووا تحت لواء واحد هو لواء الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وإننى مرة أخرى أعود اليوم فأكرر ذلكم النداء نفسه راجيا أن تكون هناك بقية من إيمان فادفعوا حكام العراق إلى أن يعودوا إلى عقل يمنعهم من ارتكاب هذه الجرائم ، وإلى إنسانية تحفظ إخوانهم من أيديهم وبطشهم ، وليتذكروا قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وفقنى الله وإياكم وجميع المسلمين إلى ما يرضى الله وإلى ما يكف عنا أعداءنا وإلى ما يصلح شأننا فى الدنيا والآخرة « يا قومنا أجيبوا داعى الله » ؟ .

شيخ الأزهر يقول :

- الزكاة فريضة الإسلام ولا بأس من جبايتها بقوة القانون .
- سنطبق مذهب الشيعة فيما لا يخالف الكتاب والسنة .
- لقد بدأنا ثورة فى برامج الأزهر وستظهر نتائجها قريبا .
- انتشار الوعى الدينى يحل مشكلة الزواج .

نشرت مجلة المجتمع العربى فى عددها الثانى والثلاثين هذا الحـــديث المستفيض للأستاذ الأكبر ، بعد أن قدمت له بهذه الكلمات ...

التحول الهائل الذى طرأ على حياتنا حمل معه قضايا جديدة لم تكن معروفة من قبل .. وآثار قضايا قديمة لم يكن يعنى بها أحد .

وبين القديم والجديد يندفع زحفنا المقدس نحو غاياتنا العليا وأهدافنا الاجتماعية ... فأين نحن الآن من الطريق ؟ .

ما هو موقفنا من مشاكلنا القـديمة التى خلقها الاستعمار ليفتت مجتمعنا ويهدر طاقتنا ؟.

وما هو موقفنا من مشاكلنا الجديدة التى خلقتها الحركة ومحاولة الوصول إلى الكمال .

كيف نجند كل إمكانياتنا الاجتماعية لخلق مجتمع سليم أساسه الدين والأخلاق والأسرة الفاضلة ؟ .

أسئلة كثيرة تتردد هذه الأيام وتحتاج الإجابة عليها إلى عقل كبير وعلم غزير ، وإلى صاحب العقل الكبير والعلم الغزير ذهبت أحمل الأسئلة الكبيرة : إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

تطوير برامج الأزهر :

قلت للأستاذ الأكبر :

ـ إن برامج الأزهر معروفة بالغزارة والتركيز ، وقد نشرت بعض الصحف أن النية متجهة إلى تطوير هذه البرامج . فما هو الهدف من هذا التطوير ؟ وهل سيترتب عليه دخول دراسات جديدة إلى الأزهر .. وما نوع هذه الدراسات ؟ .

وبدأ شيخ الأزهر يجيب فى صوت هادئ متزن وعبارات محددة مستقيمة قال :

إن رسالة الأزهر رسالة ضخمة ، فهى ليست رسالة محلية وليست وقفا على تنشيط الدراسة فى بعض نواحى المعرفة الإنسانية العامة ، التى يتناولها الناس جميعا والتى لا تكون شخصية معينة ، وإنما هى رسالة تتجاوز ظاهر الحياة

إلى باطنها ، وتتجاوز مجرد توصيل المعرفة إلى الفرد والجماعة إلى تنمية العلاقات بين الشعوب العربية والأمم الإسلامية عن طريق القلب والإيمان ، وعن طريق اللغة العربية وتاريخها المشترك .

فإذا كانت هذه هي رسالة الأزهر في ضخامتها وسموها ، فإن من الواجب أن يعمل الأزهر ويعاونه المخلصون على تخريج العالم الكفء الذي يستطيع حمل هذه الرسالة ، وليست العبرة في كثرة ما يدرس ولا في مقدار ما يحصل ، ولا في الارتباط بكتب معينة ، ولكن العبرة بالطريقة التي تمكن من تخريج أئمة في الفقه وأصوله واللغة وفروعها ؛ فقد وطدت العزم إن شاء الله على أن يكون التخريج في الأزهر أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمي ، الذي يكون الشخصية الفقهية الممتازة والشخصية الدينية التي تزدان بالعقيدة السليمة الخالية من شوائب البدع وآفات المجتمع ، وكذا الشخصية اللغوية العربية الرصينة الممتازة .

إنني لست مؤمنا بالتخريج الذي نلتزم فيه مخلفات الماضي من آراء ومذاهب ، بل أومن بضرورة الاجتهاد فإن حاجة الناس اليوم في الفقه واللغة غيرها بالأمس ، كما أن فضل الله الذي أنعم به على سلفنا لم يكن وقفا عليهم ، وليس صحيحا ما يقال : إن السابقين حللوا المصادر وقعدوا القواعد وطبقوها على كل ما يمكن أن يجيء به الزمن ويحدث للناس من أقضية وحاجات !.

وهذا هو القصد من تطوير الدراسة في الأزهر تطويراً يتعمق فيه الأستاذ في بحثه ، والطالب في فهمه ، فيخرج الأزهري صالحا لأن يلتقي مع الأفكار السليمة ، محققا لآمال الناس فيه ، وسواء في بلاد عربية تنطق بالعربية أو بغيرها ، وتحقيقا لذلك أدخلنا اللغات الأجنبية وجعلناها إجبارية ، وتلك خطوة جديدة على الأزهر نرجو من ورائها الخير للإسلام والمسلمين ، وهي رباط قوي بين علماء الأزهر الذين يحملون دعوة الحق إلى جميع بقاع الأرض ، ولم نقتصر على ذلك بل فتحنا معهداً للإعداد والتوجيه على مستوى عال يدرس فيه المتخرجون من أبناء الأزهر - المجيدون اللغات والناجحون في مسابقات تعقد لهم - دراسات خاصة تزيد في ثقافتهم اللغوية وصلتهم بالعالم الإسلامي أجمع على اختلاف دوله ؛ لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، كما ألفت لجان المناهج التي انتهى بعضها من إعداد المناهج التي تناسب هذا التقدم أو التطوير ، ولتسميه ما شئت ، فإننا إنما نعنى دائما بالنتائج ، والبعض الآخر ما زال يبحث ويجد في البحث ليحقق الغاية التي نرجوها ويرجوها المسلمون ويأملها المصلحون . وقد يلزم لهذا التطوير إدخال بعض العلوم التي تفيد ؛ فذلك لا مانع منه

ما دام القصد الإصلاح وتحقيق الأهداف .

إنها ثورة فى المناهج نريد منها الإبقاء على الماضى العظيم ، والتطلع إلى مستقبل باسم يصل لأمة الإسلامية بعضها ببعض عن طريق حصن الدين واللغة ، الأزهر ذى المجد والرسوخ العلى . أريدها ثورة توحد الروابط العقلية واللسانية والعاطفية فيما بين الشعوب العربية ، ويتحقق بذلك امتثالهم لقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . أريدها ثورة تصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الإسلامى الأصيل يوم أن كان خالصا فى موقفه من القرآن . وفى تعبيره عن تعاليم القرآن وهو فى الوقت نفسه يربط العقلية الأزهرية أو الفكرة الإسلامية السليمة بالحياة الواقعية التى يعيش فيها العالم اليوم ، ويتطور فى مراحلها والتى تتحرك بسرعة قوية ، والتى تتجاذبها تيارات فكرية متعارضة يجب أن يقف العقل الأزهرى أمامها ليقى الجماعة الإسلامية شرها ، وليحفظها من الانحلال والذوبان فى غيرها . « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » ، « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . والله المستعان .

الأزهر ومذهب الشيعة :

وعلى ذكر التطور فى برامج الأزهر سألت فضيلة الأستاذ شلتوت :

ـ هل يعنى تدريس مذهب الشيعة فى الأزهر أنه جائز التطبيق أم أنه يدرس لمجرد العلم والتحصيل وزيادة معارف رجل الدين ؟ .

وأجابنى العالم الكبير والأستاذ المحقق :

ـ لسنا حريصين على أن تكون دراستنا فى الأزهر لمجرد العلم والتحصيل إنما نحن ندرس للاستيعاب والفهم ثم للتطبيق والعمل بكل ما يمكن العمل به ، وفقه الشيعة مأخوذ ببعض أحكامه فى كثير من القانون عندنا ، وكثير من علمائنا عمل ببعض أحكام العبادات عندهم ، ونحن إنما نرجع إلى القرآن والسنة ، فمتى لم يخالف الرأى أصلا من الأصول الإسلامية الصحيحة ولم يتعارض مع نص شرعى فلا بأس من تطبيقه والأخذ به ، وذلك هو التقريب المنشود والتيسير المرجو ، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والسداد فى ديننا ودنيانا ، وهذا هو رأينا فى كل مذهب من المذاهب الإسلامية ، ومتى خالف المذهب هذه الأصول فى مسألة ما ، فلا نبالى به ، وكل الأئمة أثر عنهم « إذا صح الحديث فهو مذهبى » . وليس فى كتاب الله ولا سنة الرسول ما يوجب على المسلم التزام مذهب

معين ، وقد تكلم على المسألة وحققها علماء الأصول فى الكتب المتداولة بين الطلاب والأساتذة فليرجع إليها من شاء وليرجع من شاء كذلك إلى مقدمة كتاب المقارنة ، فى كتابنا الذى بأيدى طلاب كلية الشريعة الإسلامية ، فقد أفضنا فى الكلام فى هـذا الموضوع عند الكلام عن فائدة دراسة المقارنة .

الأزهر والمجتمع الجديد :

وعدت أسأل الأستاذ الأكبر الذى يحمل أمانة الأزهر الحديث :

ـ لقد تتلمذت على الأزهر القديم ورأيت رجاله وهم يقودون معارك الحرية . وحملت أمانة الأزهر الحديث بعد أن حصلنا على حريتنا الكاملة ، والآن ونحن نتجه إلى بناء مجتمع قوى سداه الدين ولحمته الأخلاق وأساسه الأسرة الفاضلة هل لدى الأزهر « خطة » للمساهمة فى تحقيق الأمل الجديد ؟. وما هى ؟

وصمت الأستاذ الأكبر بضع لحظات ولحت نظراته القوية وهى تتجه إلى بعيد كأنما تستعرض ميادين الكفاح التى اشترك فيها ضد جحافل الظلم والاستعباد ، ولم يلبث أن أقبل على ليقول فى صوت شاب وعبارات واثقة :

إن الجمهورية العربية أصبحت بفضل الله مركز التوجيه السياسى والدين الإسلامى فى وقتنا الحاضر ، ثم نرجو أن تصل باتجاهها الصناعى إلى مركز الزعامة الاقتصادية ، وهى ذات ماض عظيم فى الزعامة الثقافية الإسلامية والعربية . والسبيل إلى حفظ هذه الزعامة إنما هو الإعداد القوى لمكافحة كل فكرة وافدة إلينا عن طريق الاستشراق والإلحاد التى من شأنها أن تزعزع القيم الإسلامية فى النفوس ، وتهبط بمستوى الأمة وتفكك أواصر الصلة بين أفرادها وجماعاتها ، ثم هى معول هادم لكيان الأسرة فى شتى نواحيها ، وما الخلل الذى تراه من مجون كامل ونفور بين الزوج وزوجه والوالد وولده والأخ وأخيه ، إلا لأن مجتمعنا يأخذ بكل ما يفد إليه من نواح لا تتفق معنا ولا تناسب مبادئنا ، وقد تكفل كتابنا : « منهج القرآن فى بناء المجتمع » ببيان كثير من أصول هـذا البناء من المصادر الأولى للتشريع الإسلامى : كتاب الله وسنة رسوله . فإن أردنا الإصلاح وصدقنا فيه وأخلصنا النية من أجله ، فإن أنجع دواء وأهدى سبيل إليه هـو أن نعود بأبنائنا وبناتنا ، شبابنا وشيبنا إلى قواعد ديننا الحنيف ، نغرسها فى النفوس ونجمل بها العقول فيعرف كل مكانه فى مجتمعه فيقف عنـده لا يطغى ولا يستبد ولا يعتدى ولا يظلم ، فتستقر أمور الأسرة وتهدأ وتطمئن إليها ، لقد عاهدنا الله فى عهد

هذه النهضة الإصلاحية على أن نأخذ بيد مجتمعنا إلى الطريق السوى . وعاهدنا أخى فى الله السيد وزير التربية والتعليم المركزى كمال الدين حسين على ذلك، وأسأل الله أن يهيء لنا السبل ، وأن نأخذ كل سبيل للإصلاح من كتاب الله العزيز الحميد « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

مهمة إمام المسجد :

وتطرق حديث المجتمع إلى إمام المسجد ودوره الخطير الذى ينبغى أن يقوم به ، قلت لرائد المسلمين :

ـ هناك إحساس عام بضرورة التوسع فى واجبات إمام المسجد بحيث يقوم بدور الرائد الاجتماعى ولا يقتصر على الأمور التعبدية فما هى فى رأى فضيلتكم الوسيلة لتحقيق ذلك ؟. وهل تقترحون نوعا من التنسيق فى العمل بين الأزهر ووزارة الأوقاف ؟ .

أجاب فضيلته :

ـ تحدثت كثيرا عن وجوب توحيد منبع الإرشاد والتوجيه ، فإمام المسجد والواعظ والرائد الاجتماعى يجب أن يتقاربوا فى المنهج وخطط العمل الذى يقومون به فى القرية والمدينة والمجتمع بجميع ألوانه واستعداداته . ثم من قال: إن امام المسجد مهمته مهمة تعبدية فقط إن مهمته هى مهمة القائد والرائد والموجه والداعى والمرشد وهذه المهام كلها تحتاج إلى علم ومعرفة: علم بأحوال الناس وأمراض المجتمع والدواء الذى يقدم إليه ليكون شافيا لأمراضه، آخذا بيده ولذا فإننا نرى ـ أنه مع تطوير برامج الأزهر وإنشاء معهد الدعوة الذى أحرص على إنشائه بإذن الله ـ أن يكون متخرج الأزهر محققاً لكل ذلك ،وتحقيقاً لهذه الناحية فى هذا العام المنصرم ألقيت محاضرات سريعة على السادة الوعاظ والأئمة. ألقاها عدد من خيرة الأساتذة الذين جمع بعضهم بين الثقافتين الغربية والعربية ، ولذا فقد تطور الوعظ فى المسجد وغدا توجيها فى الدين والدنيا، وسنعمل على الزيادة من هذه المحاضرات بإذن الله ليظل التوجيه لهم مستمراً واطلاعهم على كل تطور حديث موجودا .

وأما نوع التنسيق بين الأزهر ووزارة الأوقاف فهو موجود والحمد لله ، وقائم فعلا بين الأزهر ووزارة الأوقاف فى جو إخلاص وحسن نية وصدق عزيمة ، وتلكم مقومات الإصلاح والنهضة . وطريق الخير والحمد لله.

علاقة المرأة بالرجل :

وانتقل الحديث من المسجد إلى المصنع ، قلت للأستاذ الكبير علما ومقاما :

لقد ترتب على التطور الصناعى وازدياد كفاية المرأة يوما بعد يوم أن أصبحت تزامل الرجل على قدم المساواة فى أعمال كثيرة ، والمعروف أن علاقة الرجل بزميله الرجل

تتطور من زمالة إلى صداقه ثم إلى حب أحيانا ، فما هو المدى الذى ينبغى أن تسير إليه علاقة المرأة بزميلها الرجل؟ وما هى فى رأى فضيلتكم الضمانات التى تكفل لهذه العلاقة أن تقف عند حد معين ؟ .

وجاءنى الجواب راشدا حكيما . .

قال الأستاذ شلتوت :

ـ الدين يعمل على تقوية أواصر المحبة والصداقه بين جميع أفراد المؤمنين ، ويرى أن كل هذه المعانى وسيلة قوية للتعاون الصادق والبناء الخلق الكريم وهو لذلك يحرص الحرص كله على غرس المبادىء الأخلاقيه الفاضلة فى نفوس أبنائه بنين وبنات ، شباب وشيوخ ، ومتى تركز الخلق الفاضل فى أبناء الشعب كنا فى مأمن من شر الاختلاط وفتنة الفوضى فعليكم بالأخلاق حصنوها بالمثل العليا والقيم الفاضلة والدين الصحيح ، وكونوا صادقين فى هذا التحصين أقوياء فى المراقبة ، فبالمراقبة تستقر الأخلاق وتقوى فى النفوس وتثمر ثمرتها الطيبة فى الفرد والجماعة وتؤتى خيرها فى الاختلاط والانفراد . وإن المنهل العذب الذى ننهل منه هذه المبادىء والقيم إنما هو فى الرجوع إلى ديننا وإلى كتاب الله وسنة رسوله، نعلمها الأبناء والبنات فتقوى نفوسهم وتقف سدا منيعا ضد النوازل الخلقية التى تنتاب مجتمعنا وتقتل المثل فينا . لنعد إلى الدين ولنعمل على أن يكون طريقنا ووسيلتنا إلى كل هدف وغاية .

الزكاة والموضوع الاجتماعى .

وتداعت الخواطر حول المرأة فقلت للأستاذ الذى يحمل لواء الإسلام ويعرف مشاكل المجتمع :

ـ لفضيلتكم رأى سابق فى مشكلة انهيار الأسرة خلاصته أن الطلاق ليس هو السبب الرئيسى لها ، وأنه يجب تأليف لجنة لدراسة الأمر دراسة مستفيضة صريحة ومعرفة السبب الحقيق لهذا الانهيار .

وقد ألفت بالفعل لجان فى الهيئة العليا لمعونة الشتاء ، وانتهت إلى أن السبب الأول لانهيار الأسرة يمكن فى علتين : هما الفقر والبطالة . فما هو فى رأى فضيلتكم العلاج الناجع لهاتين العلتين ؟ وهل ترون تنفيذ فريضه الزكاة إجباريا لمحاربة الفقر والإسراع ببرامج التصنيع ؟ .

قال الإمام العلامة :

ـ إن الفقر والبطالة داء أزمن كثيرا وطال أمره واشتدت فى كثير من الأمم الإسلامية حالته ، فأما الفقر فقد جعل الله له دواء ناجعا وبلسما شافيا إذ جعل للفقير حقا فى مال الغنى فهو شريكه فى ماله : وفيما يكسب وأوجب العمل على القادرين فى الزراعة والتجارة والصناعة فمن تأخر فى سداد هذا

الحق فهو آكله ومضيعه وظالمه، ومن ثم وجب تنظيم هذه الفريضة تنظيما يكفل للمجتمع الصيانة والأمان. والآيات كلها متضافرة على إثبات حق الفقير «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم» «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه». «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون». ويقول بعدها: «أولئك هم المؤمنون حقا» ومبدأ التعاون يقضى أن يقسم أهل القرية أو المدينة أنفسهم أقساما، ويعملوا على التعرف للفقراء من أهل الحى، ثم تجمع الزكاة من الأغنياء وتوزع على الفقراء. لو أتيح للناس ذلك لجمعوا من الأغنياء وأعطوا الفقراء لحققوا اشتراكية الإسلام التى تناديهم بحق إخوانهم فى العيش والعمل، فإن لم يتقبل الناس على ذلك فلا بأس من أن يعمل أولو الأمر على جباية الزكاة وتوزيعها فيما يعود على الفقراء وعلى الأمة بالنفع العظيم، وبذلك يقضى على الفقر وعلى البطالة بما تقيم من مصانع وآلات، هذا توجيهى إلى الأمة جمعاء وإلى كل فرد على حدة: الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرءوس، كل فى دائرة اختصاصه، كل فى حقله الذى يعمل فيه، أخاطب فيه شعوره ووجدانه وعاطفة الأخوة الإسلامية فيه. «ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما».

أزمة لقاء:

ونقلت إلى شيخ الأزهر حديثا يتردد على ألسنة الشباب، قلت لفضيلته:

هناك شكوى من أزمة الزواج ويقول بعض الباحثين إنها فى الحقيقة «أزمة لقاء»: إن الخاطبة لم تعد موضع ثقة، كما أن الشباب من جانبه لا يثق بالفتاة التى يعرفها عن طريق الحدائق والسينمات، فما هى فى رأى فضيلتكم الوسيلة «المحترمة» لإيجاد أرض لقاء بين الزوج المحتمل وفتاته المفضلة؟.

الطريق ما تحدثنا به فى التكوين الخلقى، فبالخلق يطمئن الفتى إلى الفتاة كما تطمئن إليه ويأمن كل منهما صاحبه، ولا يرى الفتى ما ينفره من الزواج بالفتاة كما لا ترى الفتاة ما ينفرها من الزواج بالفتى.

مستوى الكلمة المذاعة:

واتجه الحديث إلى الكلمة المذاعة، سألت المحدث الإذاعى الفياض:

إن أغانينا المذاعة حائرة بين رأيين.

رأى يقول: إنها «تجربة شعورية» مرت بمؤلفها ومن حقه أن يصورها كما أحسها.

ورأى يقول: إن التجربة الشعورية متى أذيعت فقد وجب أن تحدو عواطف الشباب وتحمى قيم المجتمع.

وقد غلب الرأى الأول حتى أصبح أكثر أغانينا صورا مكررة من المشاعر الفردية

بطريقة هابطة. فاهى الوسيلة لنرتفع بأغانينا إلى مستوى أحداثنا ونقيم منها حراسة على حدود أحلامنا الاجتماعية فى إطار من المتعة الرفيعة والفن الجميل؟.

وعالج الأستاذ الأكبر الموضوع فى شمول وإحاطة قال: إن كل ما ينمى العاطفة ويهذب الوجدان ويرق بالشعور أمر تبيحه الشريعة الإسلامية ولا تمنعه، ومن ذلك الأغانى الرفيعة ذات المستوى العالى التى تدفع بالمجتمع إلى رقى خلقى وإلى تهذيب عاطفى أو إلى قوة حربية أو فكرة وطنية أو ناحية من النواحى الدينية. فكل ذلك جائز ومباح، أما الأغانى التى تهبط بالمستوى وتحرك الشهوة وتقتل معنى الرجولة وتقضى على الغيرة فى شبابنا وتدفعهم إلى التخنث الممجوج أو تلهب العواطف فيما بينهم، بما يرد المجتمع إلى مستوى هابط دنىء، فذلك كله أمر لا يقبله العقل ولا يرضاه، وبذا يجانب مبادىء الشريعة فلا تقره ولا ترضاه. ومن ذلك مثلا هذه الأغانى التى تداولتها الإذاعة اليوم التى أصبحت على لسان كل فتى وفتاة يتجاوبون بها وينادى كل منهم بما تمليه هذه الأغانى - والنظريات التربوية تجعل الإنسان دائما حريصا على تطبيق ما يسمع أو يقول - فالشاب والفتاة يحرص كل منهما على تطبيق ذلك وهذا هو الانحلال الذى يسود المجتمع فيجعله هزيلا غير منتج. والإذاعة وسيلة قوية من وسائل التوجيه وطالما قلت: إنه متى أحسن توجيهها حققت الأهداف التى نريدها لمجتمعنا. ويوم نريد الإصلاح الصحيح والتوجيه السليم يجب علينا أن نتخلع من هذه الأغانى الخليعة الهابطة بالمستوى إلى أغان تمجد ما لنا من ماض، وتوجه آمالنا إلى مستقبل باسم وتذكرنا بأيام المسلمين الأولى، أو تدفعنا إلى نهضة آبائنا الأولين. ولقد أباح النبى صلى الله عليه وسلم للجوارى أن يغنين يوم العيد أغنية يوم من أيام العرب الأولى، واستمعت إليهن عائشة رضى الله عنها، ذلك اليوم هو يوم بعاث. ولنا فى حاضرنا الآن أيام يجب أن نتغنى بها، وأن نذكر أمجادها هى أيام ثورتنا وأيام هدم عروش الطغاة الذين نشروا بيننا الفوضى والفساد، لنا أيام العيد المجيدة إلى غير ذلك من هذه الأيام، وذلكم كله خير وأجدى مما يسمع الناس ويطربون له طربا عابرا ثم تكون نتيجته السوء والفساد.

الآباء والأبناء:

قلت: سؤال أخير ولكنه جوهرى بالنسبة للشباب وللأسرة.

قال تفضل ...

قلت: إن بعض الكتاب ومؤلفى الإذاعيات والصحفيين يؤمنون جدا بحق الأبناء فى الانطلاق والتحرر، ولا يؤمنون كثيراً بحق الآباء فى القيادة والتوجيه. فما هو

رأى الدين فى علاقة الآباء بالأبناء. وما هو المدى الذى يحق للابن عنده أن ينفصل عقليا عن والديه .

وأجاب الأستاذ الجليل :

نحن نؤمن بكل دعوة إصلاحية تبنى المجتمع وتشد من أزره وتحرص على بقائه ، وترابط الأسرة من أهم ما ينبغى أن نحرص عليه لبناء المجتمع سليما ، ومن الدرجات القوية فى بقاء الأسرة علاقة الولد بأبيه ، والوالد بابنه . وهذه العلاقة قد دعمها القرآن وبينها فى آيات كثيرة : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر : أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما . وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، والإحسان إلى الوالدين شرعة لله عامة أنزلها فى كل الكتب وبعث بها جميع الرسل وأخذ بها العهد علينا وعلى من تقدمنا من الأمم : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » . ثم إن الإحسان إليهما عنوان النفس الفاضلة التى تقدر النعمة قدرها ، وتعرف الفضل لصاحبه وهو أساس الخلق الكريم الذى يحفظ البيوت ويصون كرامة الأسر ، ومنه تنبت ظواهر الألفة والمحبة والرحمة بين أعضاء الأسرة ثم تمتد إلى سائر الأقارب والأرحام ، وتمتد إلى الجيران وسائر المواطنين : « وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » . وبهذا الترابط العام تسمو معنوية الأمة وتقوى أواصرها ، فتشعر بالوحدة التى لا تعدد فيها ، وبالقوة التى لا يلحقها ضعف ، وهكذا نريد أن تكون الأمة . وأنا لست ضد تمكين الأولاد من حرية تمكن من إيجاد شخصية قوية لأنفسهم ، أما الحرية التى تجعل الولد يخرج على أبيه حتى لتنعدم الصلة بينهما ، فأنا ضدها لا أبيحها فإن ترابط الأسرة أساس كل نجاح للأمة . وإن الولد الذى تترك له الحرية فيسىء استعمالها إنسان لا يرجى منه الخير لأحد فى أمته ، ومثله ينبغى ألا يكون عضوا فى أسرة المجتمع الإنسانى. فليأخذ الكتاب والمفكرون المسائل بهوادة ولين ورفق لنصلح من شأن أمتنا وفق ماجاء به الدين الحنيف ، فترقى الأمة أيما رقى وتحلق فى سماء المجد بأبنائها وأسرها وأفرادها وجماعاتها ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . وبعد :—

فهذه هى كلمة الدين والعقل والتجربة . نهديها إلى القلوب المؤمنة التى تحاول فى صبر وأمل أن تتجه بخطواتنا إلى الطريق الصحيح .

خلاف عسكر

الكتب

الملاحة العربية في القرون الوسطى

كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد

لأحمد بن ماجد العماني

يجرى العمل حالياً، في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، لنشر دائرة المعارف البحرية العربية التي ألفها سنتي ١٤٧٥ - ١٤٩٠ الربان العربي أحمد بن ماجد العماني وقد سماها «كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد».

وهو كتاب يتضمن تعاليم مفيدة تتعلق بمبادئ وقواعد العلوم البحرية ويعرف باسمه المختصر «كتاب الفوايد». ويتألف من ١٢ بابا:

١ - أصل الملاحة والإبرة المغناطيسية.
٢ - الصفات المهنية والأخلاقية للربان.
٣ - منازل القمر.
٤ - دائرة الرياح والحواز (١).
٥ - علماء الجغرافية والفلك القدماء.
٦ - الطرق البحرية.
٧ - رصد النجوم.
٨ - قيادة السفن.
٦ - السواحل المختلفة، ثلاثة أصناف من الربابنة.
١٠ - عشر جزر كبرى في العالم، شبه جزيرة العرب، مدغسكر، سومطرة، جاوة وتايوان، وسيلان، وزنجبار، والبحرين، وسقطرة، وابن جفان، في الخليج الفارسي.
١١ - الرياح الموسمية، والأسفار.
١٢ - دليل طرق البحر الأحمر.

إن مثل هذه الدراسة المفصلة لقضايا الملاحة تشهد بالمستوى الرفيع عند العرب في العصور الوسطى. وهذه النظرية هي ثمرة ممارسة الملاحة المتعددة الأشكال التي قام بها العرب الذين كانوا في ذلك العهد، يمارسون علاقات

(١) جمع حاز وهي الكلمة التي أطلقها العرب على الكمية الزاوية المتضمنة بين قسمين من الأقسام الـ ٣٢ لدائرة الرياح ويساوي الحاز ١١ درجة و ١٥ دقيقة.

وثيقة مع الشعوب الأخرى . وهكذا فإن « كتاب الفوايد » يمثل تعميما للتجربة والملاحظات لدى شعوب المحيط الهندى ، وإفريقيا الشرقية ، حتى الصين الجنوبية .

إن مخطوطين فقط لهذا المؤلف قد وصلا إلى العلم المعاصر وأحدهما محفوظ فى باريس ، فى المكتبة الوطنية . وقد قام العالم الفرنسى غبريال فران فى عام ١٩٢١ - ١٩٢٣ بطبع عدة نسخ فوتوغرافية عن هـذه الموسوعة . وإحدى هـذه النسخ موجودة لدى المكتبة العامة التابعة للدولة ، بلينتغراد . وقد نسخ الأصل فى عام ١٥٧٦ . والمخطوطة الثانية ، التى يعود تاريخها إلى عام ١٥٩٢ ، توجد فى مكتبة المجمع العلمى العربى فى دمشق . وقد عرف بوجودها فى سنة ١٩٢١ ، من نبذة صغيرة نشرت فى نشرة هذا المجمع .

ويملك معهد الدراسات الشرقية فى لينتغراد نسخا عن المخطوطتين تستخدم كأساس لنشر « كتاب الفوايد » .

ويقول المستشرق الفرنسى البارز « دى سيلين » ومن القرن الماضى ، عن لغة موسوعة أحمد ابن ماجد أنها لا يمكن أن يفهمها إلا بحارة المحيط الهندى ، معتبرا إياها على هذا النحو بمثابة عقبة كئود تحول دون دراسة « كتاب الفوايد » وكان مواطنه « فران » الذى أرسى القواعد العلمية لدراسة مؤلفات الأدب البحرى العربى ، يستعد لنشر الأقسام الجغرافية من دائرة المعارف هذه . وكان يعتقد أن دراسة الفصول الأكثر صعوبة والمتعلقة بالملاحة والفلك ، فى « كتاب الفوايد » لا يمكن القيام بها إلا فى مستقبل بعيـــد .

إن وفاة العالم ، التى حدثت فى عام ١٩٣٥ قد حالت دون تحقيقه مشروعه . والواقع هو أن لغة المؤلف الذى وضعه بحار لرجال البحر هى بالغة الصعوبة ، وذلك بصورة رئيسيه لأنها تزخر بمصطلحات خاصة بالملاحة لم يحفظ المعنى الحقيقى لها ، فى جميع الأحوال ولا يمكن تفسيرها إلا إثر دراسة متأنية لمواد هائلة الضخامة .

إن العديد من الأسماء الجغرافية من الملايو والهند وإفريقيا قد طرأ عليها تغيرات كبيرة عند ترجمتها إلى العربية ، وبعضها قد بطل استعماله ، وهكذا فقد توجب القيام بعمل كبير لتفسير هذا الشطر من مفردات « كتاب الفوايد » . إن الفن العربى للقياسات الفلكية لتحديد سير السفن ، وكذلك خارطة السماء ، كما كان يفهمها الربابنة العرب ، كان موضوع دراسة طويلة . وفى الوقت الحاضر تم التغلب على الصعوبات ، بصورة أساسية وقد أعدت فعلا ، فى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتى ، الترجمة

الروسية الكاملة لدائرة المعارف البحرية العربية . وكتبت حواش لها ووضعت الجداول : وينوى المعهد أن ينشر فى عام ١٩٦٠ ، طبعة مستقلة من هذا المؤلف العلمى النفيس .

أحمد بن ماجد :

وكما هو معروف ، فإن مؤلف « كتاب الفوايد » أحمد بن ماجد كان ملاحا عربيا كبيراً . وقد ولد فى عام ١٤٤٠ فى أسرة من البحارة ، وبدأ وهو بعد صبى ، فى العمل على متن إحدى السفن . وأصبح بمرور الزمن خبيراً بالمحيط الهندى وعرض معارفه وملاحظاته فى العديد من أدلة الطرق . لقد وصلت إلينا خمسة وعشرون من مؤلفاته وهناك ثلاثة عشر مؤلفا أخرى ورد ذكرها فى ما وصل إلينا ، وكلها تقريبا منظومة شعرا . إن موسوعة « كتاب الفوايد » هى أبرز وأنضج عمل من أعمال أحمد بن ماجد . ويكمن مغزاه العلمى ليس فقط فى غنى المواد من الناحية العملية ، بل أيضا فى واقع أن المعطيات الواردة فى هذه الموسوعة هى نتيجة تجارب المؤلف الخاصة . وفى عام ١٤٩٨ ، قاد أحمد بن ماجد ، بوصفه ربانا ، مراكب بعثة فاسكو دى غاما البرتغالية ، من الساحل الشرقى لإفريقيا حتى الساحل الغربى للهند . وحتى الوقت الحاضر كان يعتقد ، فى العلم الأوربى ، بأن هذا الملاح قام بهذا العمل بملء رضاه ، نظراً لحبه للملاحين الأجانب . إلا أن المعطيات الأخيرة تحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن رجلا حراً كما كان يعتقد ، بل هو عبد رقيق معتوق ، كان يعمل لحساب سيده ، أحمد بن الجمال . وهذا يبرر بعض تصرفاته وبعضاً من أقواله التى تتخذ معنى أوضح ولا سيما العبارة الشهيرة : « آه لو علمت من قبل ماذا يقدرون أن يفعلوا : (الأوربيون) » هذه الجملة الواردة فى أحد مؤلفاته التى كتبها فى أواخر أيامه . إن دراسة عمل أحمد بن ماجد تبرز الوجه الكبير لهذا الملاح المرموق ، الممثل المشرف للأمة العربية الموهوبة التى أسهمت كثيراً فى تطوير الحضارة العالمية . وليس سراً أن الفضل يعود إلى الملاحين العرب لمعرفتنا للرياح الموسمية وإمكانية سير السفينة الشراعية ضد مجرى الريح . ومن المفيد التذكير بأن عدداً كبيراً من المصطلحات والمفردات البحرية والفلكية فى اللغات الأوربية هى من أصل عربى .

إن دراسة وتحضير نشر الموسوعة البحرية العربية ، فى معهد الدراسات الشرقية ، يقوم بالإشراف عليها تيودور شوموفسكى ، المرشح فى العلوم ، وتلميذ المستعرب السوفياتى الشهير أغناطيوس كراتشكوفسكى . وحين

أنهى شموفسكى فى عام ١٩٤٦ دراسته فى جامعة لينينغراد ، قام تحت إشراف أستاذه ، بإعداد أطروحة دافع عنها فى عام ١٩٤٨ . وهذه الأطروحة مكرسة لدراسة أدلة الطرق الثلاثة المجهولة لأحمد بن ماجد . إن النسخة الوحيدة لهـــذه الأدلة تملكها مجموعة مخطوطات لينينغراد . وهـذا البحث ، الذى يسجل بداية نشر مؤلفات الملاح العربى الشهير ، قد طبع عام ١٩٥٧ من قبل أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفياتى . إن نشر الموسوعة البحرية العربية ستتيح التعرف بصورة أفضل على تاريخ الشعب العربى .

* * *

اشتراكية الإسلام

للدكتور مصطفى السباعى

أصبحت الأحـوال الاجتماعية فى العـالم كله وثيقة الروابط بالأوضـاع الاقتصادية السائدة . وأصبح لزاما على المصلحين أن يواجهوا حاجات الأفراد والأمم بمـا يقر السكينة والرضا فى شئونهم العامة ، وما يلبى طبيعة التطور الإنسانى فى هذا العصر المور بالحركة والطموح . .

وقد تعددت البرامج التى تقدمت بهـا شتى المذاهب السياسية والاجتماعية ، من رأسمالية إلى شيوعية إلى اشتراكية ، واختلفت كذلك الأسس والأهداف التى يقوم عليها كل مذهب وتصطبغ بها كل فلسفة .

وكان طبيعيا أن يتقدم الفاقهون للإسلام بمنهاج الحيـاة التى اختطها لهم دينهم ، وأن يبرزوا وصاياه فى المـال والحـكم وعلاقة الفرد بمن حوله ، وموقفه من الدولة والمجتمع وموقف الدولة والمجتمع منه .

ولا غرو ، فالإسـلام دين شامل لحقائق الحياتين ، منظم للمعاش والمعاد جميعا ، كافل لأسباب السعادة فى الأولى والآخرة . .

وكتاب « اشتراكية الإسلام » الذى ألفه الدكتور مصطفى السباعى يعـد فى طليعة البحوث الفنية بمـا احتواه الإسلام من تعاليم فى هذا المضمار . . بل يمتاز بانتظام مقدماته ونتائجه ، واطراد الفكرة فيه على نسق وترتيب متكامل ، يلمح القـارىء فيه دقـة الروح التشريعية ووفرة الثروة الفقهية ، والبعد عن المجازفات والفضول .

فى مقدمة الكتاب حـديث صادق عن عناية الأديان والكتب السماوية بحل مشكلة الفقـر ، وأحاديث مع المستشرقين وكبار الموظفين السوفيات عن الإسلام والشيوعية . ثم رأى المؤلف فى الحضارة الغربية بنوعيها : الرأسمالى والشيوعى ، وفى مقدمـة الكتاب كذلك أن الاشتراكية الإسلامية تطبق على المسلمين والمسيحيين جميعا .

والحق أن ما نسمعه يتردد الآن على ألسنة الزعماء من شروح للديمقراطية الاجتماعية والتعاونية والاشتراكية ، ليس إلا سرداً لعناوين مبتكرة سبق الإسلام من قديم إلى تفصيل موضوعها ، وبناء المجتمعات المؤمنة على ضوئه .

حسبنا أن نفهم ديننا كما نزل به الوحى وأن نرجع البصر إلى التطبيقات الأولى كما عرفت أيام الخلفاء الراشدين لندرك أننا فى غنى بمواريثنا عن اجتلاب أى نظام إنسانى آخر .

والدكتور مصطفى السباعى فى كتابه اشتراكية الإسلام يفيض الكلام حول المنهاج الإسلامى المتضمن لأعدل اشتراكية عرفها التاريخ فيذكر فى تسعة أبواب مفصلة .

معنى هذه الاشتراكية الإسلامية ، فيبدأ بالكلام عن الحقوق الطبيعية . حق الحياة والحرية والعلم والكرامة والتملك .

ثم يعقد فصلا خاصا بمبادئ التملك . ثم يردفه بإحصاء قوانين التكافل الاجتماعى مستقاة من كتاب الله وسنة رسوله فى استيعاب حسن .

ويتلو ذلك بالمؤيدات الاعتقادية والأخلاقية والمادية والتشريعية ، ويستطرد بعد هذا البحث الفقهى إلى مقارنات تاريخية وعصرية يرجح بها هذا النظام الإلهى الذى ارتضاه الله لنا ووقى به البلاد الإسلامية شروراً كثيرة .

أجل ، فإن العالم وصل إلى بعض المناهج الاشتراكية الحالية على أنقاض من الثورات المهدمة وأشلاء من الضحايا الكثيرة .

أما الإسلام فكما يقول عنه الأستاذ السباعى :

إن تفكير الدول الغربية فى التكافل الاجتماعى ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك فى حل المشكلة من أساسها إنما كان تحت ضغط التطور الصناعى ، وانتشار موجات السخط فى أوساط العمال وأفراد الشعب ، بينما أعلن الإسلام نظامه الكامل للتكافل الاجتماعى قبل ثلاثة عشر قرنا ودون أن تكون هنالك فى البيئة العربية عوامل اقتصادية تضطر الإسلام لإعلان هذا النظام ، ودون أن يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة .

بل هى نزعة إنسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى العباقرة إلى قريب منه بعد ثلاثة عشر قرنا .

ويسرنا أن تمتلئ المكتبة العربية ، بل الإسلامية بهذا اللون من الكتابة التى يحتاج إليها العصر ، والتى يفتقر إلى التزود منها أبناء الإسلام .

بريد المجلة

يوحنا المعمدان هو يحيى بن زكريا :

إلى صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى

وعليكم السلام ورحمة الله وبعد : ففيما يلى بيان للأمور الثلاثة التى استوقفت نظركم فى مقالى عن « موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة » :

١ — إن « يوحنا المعمدان » و « يحيى ابن زكريا » عليهما السلام اسم واحد لمسمى واحد . فاسم يحيى هو مجرد تعريب لاسم يوحنا Yean (أصل الاسم بالعبرية « يوحانن » مأخوذ من « يهوحانن » بمعنى الله رحيم أو شفوق) . وقد أوردت الأناجيل قصة يوحنا المعمدان فى الصورة نفسها التى وردت بها فى القرآن الكريم فى سورتى مريم وآل عمران (انظر الإصحاحات الثلاثة الأولى من إنجيل لوقا ووازن بينها فى هذا الصدد وبين الآيات الثلاثة والثلاثين الأولى من سورة مريم والآيات ٣٣ - ٦٠ من سورة آل عمران) .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلة الأستاذ فى أن يوحنا المعمدان غير يحيى بن زكريا وهو « أنه يعرف أن يحيى ابن زكريا رسول ابن رسول ، وأن الله قد قال فيه « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ؛ مع أنه لو عرف قصة يوحنا المعمدان فى الأناجيل لتبيّن له أن ما ذكره دليل عليه لاله ، ومع أنه لم يرد فى مقالى ولا فى كلمة ترتوليان التى علقت عليها ما يفهم منه أن يوحنا المعمدان لم يكن رسولا ابن رسول .

والمسألة بعد ذلك يا سيدى من أوليات المسائل المعروفة للمطلعين على تاريخ الأديان ، وما كان ينبغى أن تكون موضع مناقشة .

٢ — إن مريم البتول التى يتحدث عنها ترتوليان والتى شقت للنساء الإسرائيليات طريقاً يبساً فى البحر فى أثناء خروج بنى إسرائيل من مصر هى أخت موسى عليه السلام . وهى التى ورد ذكرها فى القرآن فى آيتى ١١ ، ١٢ من سورة القصص ، وفى آية ٤٠ من سورة طه . وقد ذكرت أنا ذلك بصراحة فى تعليق على كلمة ترتوليان (انظر التعليق الخامس بصفحة ٣٢ من العدد الذى نحن بصدده) .

ولو أن فضيلته رجع بصره فى التعليق

المشار إليه ، أو وقف قليلا عنـد قولى فى وصف مريم هذه أنه اتشق لها ولمن كن يسرن خلفها من النساء الإسرائيليات « طريق يبس فى البحر » ورجع إلى الآية التى اقتبست منها هذا التعبير (آية ٧٧ من سورة طه) ، لو أنه فعل ذلك لوفر علينا عناء المناقشة فى أمر بدهى .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلته فى أن مريم هـذه لا يمكن أن تكون أخت موسى ، وهو « أنه يعرف أن مريم البتول هى أم عيسى عليه السلام ، وأن بين مريم وموسى أحقاب » ؛ كأنه يظن أن ليس ثمـة من سمى باسم مريم من المتبتلات ، إلا أم عيسى ، أو أن ثمـة من يجهل أن بين موسى وعيسى عدة قرون !!

٣ — لم يعرض القرآن الكريم لموضوع نسبة اسماعيل إلى سارة أو عدم نسبته إليها . ومن المقرر أنه لا مرجع لنـا فيما لم يرد له ذكر فى القرآن ولا فى النقوش الأثرية الثابتة من قصص العبريين السابقة للتاريخ إلا أسفار العهد القديم وشروحها ، وأسفار العهد القديم صريحة فى أن إسماعيل كان ينسب لسارة ويعتبر ابناً لها ، وأنه ظل كذلك إلى أن غضبت سـارة على هاجر وطلبت إلى إبراهيم إبعادها مع إسماعيل انظر الفقرتين الأولى والثانيـة من الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين » ، وقد ورد فيهما على لسان سارة مخاطبـة إبراهيم : « لقـد جعلنى الله عاقرا ، فأرجوك أن تقرب جاريتى هاجر ، فعسى أن يكون لى أولاد عن طريقها » .

وقد استوقف نظرى الدليل الذى اعتمد عليه فضيلة السائل فى أن إسماعيل لم ينسب إلى سارة ، وهو « أن إسماعيل قد ظل مع هاجر ولم يفارقها ... » ؛ كأنه يظن أنه يلزم من بقاء طفل مع امرأة وعدم مفارقتها له أن ينسب إليها . ولو كان الأمر كذلك لنسب الطفل إلى مرضعته أو إلى مربيتـه . ولو أن فضيلته كلف نفسه الرجوع إلى أسفار العهد القـديم ، وإلى بحوث علم الاجتماع فى الأسرة وخاصة كتابنا « الأسرة والمجتمع » لعلم صحة ما قلناه بصدد إسماعيل وهاجر وسارة ، ولتبين له أن النظم الاجتماعيـة فى الأسرة كثيرا ما تتعارض مع الأوضاع الطبيعية ومع صلات الدم . هذا ، وربما عدنا إلى تفاصيل هذه المسائل وما يتصل بها فى مقال تال إن شاء الله ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

خطاب مفتوح إلى الأستاذ الأكبر :

السيد المصلح الكبير فضيلة الشيخ الأكبر شيخ الأزهر الشريف .

أحييكم بتحية من عند الله مباركة طيبة وبعد

فقد وضح أن فضيلتكم تعملون جاهدين من أجل إصلاح الأزهر علما وعملا وإنه لعمل مشكور وجهد محمود أجزل الله لكم والساعين فيه موفور الأجر وحسن الجزاء.

ثم لى رأى أعرضه على مسامع فضيلتكم وهو:

وقف تدريس المذاهب كلها ونهائياً فى القسمين الابتدائى والثانوى بالأزهر. وتدريس الفقه، من كتاب الله وسنة رسوله فى هاتين المرحلتين.

وبعد ذلك يمكن التخصص فى دراسة جميع المذاهب أو المذهب الذى يختاره الدارس.

ومن هنا ينشأ جيل مسلم بعيد عن التفرقة المذهبية والطائفية والتعصب البغيض وبذلك يثبت فى نفس كل دارس أن المذهبية إنما هى بحث علمى فقط وليست أساساً فى الدين وبهذا العمل وحده تتجه الوحدة الإسلامية نحواً تبتعد فيه عن التفرقة المذهبية والعصبية الجدلية وعدوانها.

أستاذنا الجليل: أعتقد أن هذا هو الإصلاح الدينى الشامل الذى سيخلده لفضيلتكم الأزهر والتاريخ ويدخلكم فى زمرة المجددين لهذه الأمة دينها، وفقكم الله لصالح العلم والعمل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.؟

المنصوره محمد أحمد الشامى

تشييع جنازة أهل الكتاب:

السيد الأستاذ مدير مجلة الأزهر:

السلام عليكم ورحمة الله وبعد:

فإن هناك شيخا وقوراً وقف فى حشد من الناس يردد فى ثورة وغضب أن السير وراء جنازة الكافر حرام وأن الإسلام منع ذلك وحرمه تحريما أبديا.

وقد قال الشيخ هذا الكلام بعد أن رأى جماعة من المسلمين يسيرون خاشعين وراء جنازة امرأة يونانية عاشت بيننا منذ زمن بعيد:

فرأينا أن نكتب إلى الأزهر الشريف كى يفتينا فى هذه القضية.

رمضان الفيتورى

درنة: ميدان النصر ليبيا

(المجلة)

إن الإسلام دين يقوم على السماحة فى معاملة الآخرين، وعلى احترام أواصر الإنسانية التى تجمع بين بنى آدم قاطبة.

وقد امتاز الإسلام بهذا المسلك النبيل فى أيام كان التعصب الدينى الأعمى يسود أهل الأرض.

فلما بعث نبى الرحمة سن للمسلمين مكارم الأخلاق ومسالك البر والفضل فعن طريق

البخارى عن جابر قال : « مرت بنا جنازة فقام لها النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا فقلنا يارسول الله إنها جنازة يهودى ؟ قال إذا رأيتم الجنازة فقوموا . وفى رواية أخرى « أليست نفسا ؟ » .

وروى سفيان سمعت عن حماد بن أبى سليمان يحدث عن الشعبى أن أم الحارث بن أبى ربيعة ماتت وهى نصرانية فشيعها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم :

وعن سعيد بن جبير قلت لابن عباس رجل فينا مات نصرانياً وترك ابنه قال : ينبغى أن يمشى معه ويدفنه .

والأثران الأخيران أثبتهما ابن حزم فى كتابه المحلى « باب الجنائز » .

ونحن نحب أن نبنى علاقتنا بالآخرين على هذه السماحة ، معتقدين أن ديننا هو الذى يأمرنا بهذا البر لمن عايشنا مسالما ولم يعتد علينا أو يظاهر المعتدين .

الذكر على أصوات الموسيقى والغناء :

وجاءنا من محمد حسين عبد الله القماطى بقصر خيار بطرابلس الغرب يسأل عن :

(١) اشتمال حلقات الذكر على آلات الموسيقى وأصوات الغناء .

(٢) اختلاط الرجال والنساء حول أضرحة الأولياء .

(١) أما اشتمال حلقات الذكر على آلات الطرب فهذا ضرب من اتخاذ الدين لهواً ولعبا ولا يجوز لمن يعبد الله راجيا ثوابه وخاشيا عقابه أن يجنح إلى هذه البدع المنكرة فإن الإسلام شرح طرق الطاعات المقبولة : وبين أن التزيد عليها مردود على أصحابه .

(٢) وأما عن التقاء النساء والرجال حول الأضرحة المقامة على بعض قبور الموتى فذاك ما لا يسوغ . وأغلب هذه الزيارات لا ينبعث عن طلب العظة والاعتبار بل ينطوى على مفاسد ينبغى سد ذرائعها .

المجلة وقراؤها

ترحب المجلة بما يرد إليها من السادة القراء من أسئلة وردود .

أنباء الأزهر

العام الدراسي الجديد بالأزهر :

انتظمت الدراسة منذ الصباح الباكر فى الجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية ، وما إن انتهى الدرس الأول حتى تجمع الطلاب فى ساحات كليتى اللغة العربية والشريعة وفى فناء معهد القاهرة ، وأخذ خطباؤهم يلقون الكلمات والقصائد الشعرية فى تحية العام الدراسى الجديد وفى تهنئة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر مبتهجين بالأنظمة والمناهج الجديدة .

ثم تكلموا فى موقف حكام العراق وشعبه الحر الأبى ، ثم قرروا القيام بمظاهرة صامتة متجهين إلى ميدان الجمهورية ، وقد حيا الطلاب أثناء مرورهم بالإدارة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمناسبة العام الدراسى الجديد ، وهنالك صلوا جميعا صلاة الغائب وكان فضيلة الأستاذ الأكبر قد أوفد مدير مكتبه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحكيم سرور فألقى فى الطلاب كلمة ، وقد أم الصلاة فضيلة الشيخ سيد الشال وكيل معهد القاهرة وتكلم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ ابراهيم جاب الله شيخ معهد القاهرة الدينى كلمة ضافية ، هذا وقد اتخذ الطلاب القرارات الآتية :

١ — الاحتجاج الصارخ على حكام العراق وزعيمهم الأحمر الأحمق .

٢ — الوقوف جميعا ونحن نمثل الأمة الإسلامية جميعا صفا واحدا وراء موقظ الوعى العربى الإسلامى ومحرك المثل العليا والقيم الذاتية فى شعب العروبة والإسلام الرئيس جمال عبد الناصر .

٣ — مشاركة شعب العراق وأبنائه الأحرار والقيادات الصحيحة فيه شعورهم ووجدانهم وليعلموا جميعا أن نصر الله قريب وليتجهوا إلى الله متمسكين بدينه « ولينصرن الله من ينصره » .

كلية الشريعة تستنكر :

اجتمعت هيئة التدريس بكلية الشريعة فى حضور عميدها ووكيلها بمناسبة ابتداء العام الدراسى الجديد وقررت :

استنكار ما يقوم به الطاغون فى العراق من سفك الدماء البريئة وتسليط سيف

الإرهاب والتعذيب على رءوس الأحرار .

« إن الله لا يرضى عن البغى والإفساد فى الأرض وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ثم بعثوا بهذه البرقية إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر ونصها :

السيد الرئيس جمال عبد الناصر :

باسم كلية الشريعة : عميدها ووكيلها وأساتذتها وموظفيها وطلابها ، ترفع إلى السيد الرئيس الموفق بمناسبة العام الدراسى الجديد أزكى التحيات وأخلص الدعوات ونعاهده على أن نكون مثلا طيبا فى القيام بالواجب ورعاية حق الله والوطن والعمل على تحقيق الأهداف القومية التى تتشرف بقيادته الحكيمة الموفقة ، عاشت الجمهورية العربية المتحدة وعاش قائد العروبة ورمز الإصلاح والتقدم .

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة
بالجامعة الأزهرية

مؤتمر الرواد :

لأساتذة الكليات والمعاهد الدينية

بمناسبة انتهاء انعقاد جلسات المؤتمر الأول للرواد من الأساتذة الأزهريين المنعقد فى الإسكندرية من أول أغسطس سنة ١٩٥٩ إلى الحادى والعشرين منه يوصى المؤتمرون بما يأتى :

١ — التوجه بالشكر والتأييد إلى السيد الرائد الأول وزعيم الأمة العربية وقائد العالم الإسلامى شكراً له على إيقاظه الوعى العربى والإسلامى إيقاظاً أدى إلى الحركة والنشاط فى كل ألوان الحياة عندنا ، مما جعل أمتنا فى طليعة الأمم الناهضة والدول العاملة . والتأييد لسياسته الرشيدة فى الحياد الإيجابى والتعايش السلمى الذى جعل الجمهورية العربية صاحبة سياسة موجهة ونهضة كبرى لفتت بها أنظار العالم إليها وحققت آمال العرب والمسلمين فيما يرجون ويؤملون فى أن يعود إليهم مجدهم وعظمتهم ، وإن الرواد الأزهريين الذين لم من دينهم الحنيف قواعد الريادة الثابتة الموجهة ليرون فى سيادة الرئيس الرائد الأمين الذى يؤمن بهذه القواعد ويطبقها تطبيقاً صحيحاً ، ليجعل من هذا الجيل جيلا ذا قوة فى إيمانه وعقيدته وثقته فى الله ثم فى نفسه ووطنه فلا تلين له قناة ولا يهن له عزم ولا يستكين .

٢ — ولما كانت جمهوريتنا عربية إسلامية ولا تزال مقومات الدولة الإسلامية هى اللغة العربية والدين واللغة يقوى بها اللسان المعبر ويعلو بها الأسلوب ، تذكر به الحاجات ويرفع ظلم الظالمين واستغلال المستغلين فى حجة دامغة

ومعان جزلة تؤثر فى النفوس وتخط معانيها فى القلوب ، والدين والشريعة تقوى القلوب وإن أمة قوى البيان فيها وتفتحت القلوب عند بنيها أمة جديرة بالنهوض ، وأن تتبوأ مقعد العزة والكرامة التى تليق بها وبأبنائها ، لذا ولما كانت القومية العربية هى التى نعمل من أجلها الآن ونحرص عليها ؛ فتحقيقاً للهدف الأول يوصى المؤتمر بتركيز دراستها والعناية بها ويرجو أن لا يكون للعامية مكان بين دول القومية العربيـة ، وأن نعمل كذلك على ألا تسرى إلى إذاعتنا ولا إلى صفوفنا ولا إلى مؤلفاتنا لنجعل من أبنائنا جيلا تغلغت فيه العربية فآمن بها وعمل من أجلها .

٣ — وتحقيقا للهدف الثانى يوصى المؤتمر بضرورة العناية بدراسة الشخصيات الإسلامية العربية العظيمة التى كان لها الأثر فى إيقاظ الوعى الإسلامى والعربى ، وكذلك دراسة مبادئ الدين الإسلامى البارزة التى تكون الشخصيـة المعنوية الممتازة حتى نستطيع أن نفيد من هؤلاء فى إيصال الدعوة الإسلامية ودعم الوحدة التى نرجوها ونهدف إليها ، وإن الرواد الأزهريين ليتوجهون إلى السيد المربى الكبير كمال الدين حسين مخاطبين إيمانه القوى وعبقريته الفـذة راجين منه أن يعمل على تقرير الدين الإسلامى كمادة أساسـية فى الشهادات والكليات ، وأن تكون درجاته ضمن الدرجات التى يحاسب عليها الطالب نجاحا ورسوبا ؛ لنستطيع بذلك أن نجعل من الجيل الجديد جيلا مؤمنا بربه محباً لوطنه محيطا بالأسباب التى تكفل النجاح له ولأمته كما يجب العناية بالتوجيـه الإسلامى للطلاب داخل المدرسة .

٤ — توجيه الطلاب فى جميع نواحى التعليم بصفة خاصة إلى النواحى التى تدفعهم دفعا إلى التضحية والبذل والفداء وإلى التعاون على البر والتقوى لنجعل منهم مجتمعا تعاونيا منهاجه اشتراكية الإسلام القوية ومبادئه الموجهة ومثله العليا .

٥ — مناشدة المسئولين فى أن يقفوا حائلا دون نشر الأفلام الماجنة التى لا تعود على شبابنا إلا بالميوعة والخنوثة وعدم وزن الأمور وتقديرها بما يحقق صالح وطننا الأكبر . وكذلك الكتابات المتحللة والصور الخليعة والمجلات والأغانى المبتذلة الرخيصة ، فان هذه كلها لو أحسن استعمالها وخلصت النيات فى توجيهها لكانت أدوات فعالة فى بناء مجتمعنا وجيلنا بناء قويا مؤمنا .

ومرة أخرى يناشد المؤتمرون أصحاب الصحف والمجلات أن يسهموا فى بناء هذا الجيل بأقلامهم وأفكارهم بناء سليما بعيداً عن كل فكرة هادمة أو مقوضة فإن للجمهورية العربية زعامة روحية وثقافية واجتماعية بين العالم العربى والإسلامى يجب المحافظة عليها ودعمها .

٦ — ويوصى المؤتمر بالتوسع فى الرحلات

المشتركة بين الأساتذة والطلاب الأزهريين لتقوى المعارف الحقيقية المكونة عن طريق المدركات الحسية التى تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها ، كما تقوى الروابط بين الأساتذة والطلاب إخوانهم فى مختلف البلاد فتقوى الروابط والصلات بين أبناء أمتنا العربية الإسلامية.

٧ - شكر فضيلة الأستاذ الأكبر إمام المسلمين الشيخ محمود شلتوت على ما بذل ويبذل فى سبيل الدعوة الإسلامية والنهوض بالأزهر ليعيد إليه مجده وليبنى له مجدا جديداً يحقق به مهمته ويمكنه من أداء رسالته ، والرواد يعاهدون الله على أن يكونوا جنوداً مخلصين يعملون فى إيمان بكل ما يحقق للأزهر الجديد أمجاده تحت لواء فضيلة الأستاذ الأكبر الذى يؤمن بأنه الرجل الذى يحقق للأزهر والعرب كل خير فى عهد الشاب المؤمن القوى الرئيس جمال عبد الناصر .

٨ - يوصى المؤتمر بتكوين نقابة عامة لأساتذة الكليات والمعاهد تجمع كلمتهم وتوحد شملهم وتحقق مصالحهم ومصالح أسرهم.

كما يوصى المؤتمر بأن يتخذ من الشريعة الإسلامية ومبادئها موجها ومقوما للجميع : العامل فى عمله والتاجر فى متجره والزارع فى حقله والتلميذ فى مدرسته حتى يكون الجيل متضامناً قوياً متراصاً مؤمناً بالله ثم بوطنه فلا يكون من ورائه إلا الخير يحقق به الأمجاد لأمته ودينه والله المستعان .

تعديل المناهج :

بكلية أصول الدين

انعقدت لجنة تعديل مناهج كلية أصول الدين يوم الاثنين ١٩ من صفر سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٥٩ م برئاسة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد نور الحسن وكيل الجامع الأزهر وعضوية السادة :

١ - الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهورى
وزير الأوقاف الأسبق

٢ - الأستاذ محمد شفيق غربال
وكيل وزارة التربية والتعليم الأسبق

٣ - الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى
المدير العام للمعاهد الدينية

٤ - « الدكتور محمد محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

٥ - « الشيخ محمد محمود الدينارى
وكيل كلية أصول الدين

٦ - « « أحمد أحمد على
الأستاذ بكلية أصول الدين

٧ - « الشيخ السنوسى أحمد يوسف
الأستاذ بكلية أصول الدين

وبعد أن نظرت اللجنة فى الموضوع قررت تأليف لجان فرعية من أساتذة المواد والسادة أعضاء مجلس إدارة الكلية للنظر فى المناهج واقتراح ما تراه بشأن تعديلها أو إقرارها .

هذا وقد نظمت اللجان الفرعية على النحو الآتى :

١ — لجنة التوحيد والمنطق القديم والحديث وتاريخ الفرق .

٢ — لجنة التفسير والحديث وأصول الفقه .

٣ — لجنة الفلسفة وعلم النفس والأخلاق .

٤ — لجنة التاريخ واللغات الأجنبية .

٥ — لجنة العلوم الدينية .

٦ — لجنة الوعظ والإرشاد .

وسيراعى فى تعديل لجان الوعظ والإرشاد علاقة المواد بالرسالة التى يقوم بها الواعظ والمبعوث حتى تؤدى على أكمل وجه ، كما ستنظر اللجنة حسن اختيار طالب الوعظ من حيث الخلق وقوة الشخصية ، ومدى استعداده للقيام بهذه الرسالة كما يرجى . والنية متجهة أن تبدأ الدراسة بقسم الوعظ والإرشاد من أول فرقة بكلية أصول الدين حتى يستطيع طالب الوعظ أن يتخصص فى هذا الشأن .

امتحان الدراسات العليا لكليات الأزهر :

عقد صباح السبت ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ (١٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٩ م) امتحان الدراسات العليا لكليات الأزهر ورأس هذا الامتحان فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

وقد ناقش فضيلة الأستاذ الأكبر أول الطلاب الممتحنين نقاشا دار حول أصول الدين وحول أصول الشريعة والمصدر الذى يؤخذ منه هذه الأصول ، كما تناول فضيلته مناقشة الطالب فى عموم الأدلة وخصوصها وتطبيق هذه المسائل على الأوضاع الموجودة فى مجتمعنا فى هذه الفترة .

هذا والامتحان يعقد لطلاب المرحلة الثانية . والدراسات العليا مكونة من ثلاث مراحل إذا رسب الطالب فى مرحلة منها فصل نهائيا . وتتكون المرحلة الأخيرة من امتحان شفهى ومحاضرة عامة ورسالة فى موضوع يتصل بدراسة الطالب .

والمتخرجون فى هذا القسم أهل للتدريس فى الجامعات .

لجنة الامتحان مكونة من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد نور الحسن وكيل الجامع الأزهر رئيساً لها وعضوية الأساتذة :

١ — الدكتور محمد الفحام عميد كلية اللغة العربية .

٢ — الشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة .

وعضوية اثنين يمثلان الكلية التى ينتسب إليها الطالب .

مقتطفات من الكتب والمجلات

شيخ الأزهر والمنهج العلمي :

أدلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى جريدة «اطلاعات» كبرى الصحف الإيرانية بحديث جامع أداره على منهجه السديد لمحاربة الرجعيـــة فى الدراسات الإسلامية ، وتحرير تفكيرها من العصبيات الموروثة التى كانت تشكل أخطر عناصر الجمود وعوامل التأخر ، وقد أقام منهجه على أساسين يعيد بهما ركنين من أركان الإسلام كانت قد أخلت بهما الأوضاع السابقة : الأول إعادة الوحدة وسبكها مشاعر المسلمين السبك الحى الملائم لمبادئ الإسلام .

الثانى : إعادة التفكير الإسلامى إلى موضوعيته وحريته الأساسيتين فى تركيبه الأصيل ، ومن ثم دفعه موحد الصفوف نحو أهدافه الإنسانية فى طريق الحضارة يدعمه العلم .

وقد أجاب على سؤال وجهه إليه مندوب الجريدة حول الخلافات المذهبيـــة بين الشيعة والسنة فقال : الخلاف فى الرأى ظاهرة اجتماعية لامندحة عنها ، وهو فى حد الاجتهاد ضرورى لا غناء عنــه فى إغناء الشريعة وتطويع قوانينها للحياة ، وهو بين السنة والشيعة مثله بين عالم وعالم من مذهب واحد .

وتجدر الإشارة إلى أن سماحته من أقطاب « جماعة التقريب » التى أسسها قبل سنوات عشر أو تزيد العلامة الكبير الشيخ محمد تقى القمى الشيعى الإيرانى ولفضيلة شيخ الأزهر من قبل آراء جمة خالف بها المذاهب السنية ، ووافق بها المذهب الشيعى منطلقا من الأدلة فى موافقته ومخالفته جميعا ، وقبله كان المغفور لهما الشيخ المراغى والشيخ عبد المجيد سليم لا يمتنعان عن الأخذ بمذهب جعفر الصادق فى المسائل الخلافية كلما أدى اجتهادهما إلى الأخذ بمذهب وللإمامين عبده والبشرى سابقة إصلاحية حرة كانت النواة رضى الله عن الجميع وأرضاهم .

إن الخطوة العظيمة المتوقعة الآن هى إقرار منهج واحد للدراسة الإسلامية تتفاعل وتتحد فيه الشيعة والسنة . إننا بمزيد من الغبطة والفرح نستقبل هذا التحول المبدع ونذكره بأعظم التقدير للإمام الجليل « شلتوت » أخذ الله بيده .

«المطوعات»

الإيمان بالله :

امتاز الإسلام بأنه جعل الإيمان بالله مبنياً ؛ على أساس من التأمل والتفكر فى خلق السموات والأرض وليس على المعجزات والعجائب كما تفعل الديانات الأخرى . وقد عاد المفكرون الحديثون إلى هذا الأسلوب القرآنى الحق ، فمن ذلك ما نشره الدكتور كرونين فى مجلة المختار (يناير ١٩٥٦) تحت عنوان (لهذا آمنت بالله) وهو طبيب وروائى كبير بدأ حياته ملحداً إلى أن وضع أصابعه على ينابيع الإيمان فأصبح مؤمنا بالله قال : « ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر فى إله خالق . من الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صافية ويرى النجوم اللانهائية وهى تتألق بعيداً ، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء .

اطرح عن رأسك ، إن شئت ، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم ، وأن الله قد سوى العالم بيديه فى ستة أيام ، واقبل إن شئت نظرية التطور كاملة ، وتتبع الخليقة منقوشة على الحفريات ، وتتبع سير الأنواع وترقيها حتى بلغت صورة الإنسان واقبل كل النظريات العلمية التى قامت عليها ، فإنك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً لا يمكن أن تقول : إن هذا كله قد صدر من العدم ، فلا شىء يخرج من لا شىء .

ومنذ بضع سنوات ، عندما كنت فى لندن ، نظمت نادياً للشبان ، ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحيـــاة ليلقى محاضرة للأعضاء . وقد اختار هـذا الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن (بداية عالمنا) وتحدث بأسلوب العالم الملحد ، وجعل يصف عصور (الأيون) السابقة على التاريخ وكيف تحولت الأرض على مر هذه العصور من الغازية إلى السيولة إلى الصلابة وكيف أن الأرض كانت مطمورة فى مياه المحيطات ، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية ، وكيف أن القشرة الأرضية تكونت نتيجة تفاعلات كيميائية طبيعية ، وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التى نعيش عليها ، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتوبلازم . وعندما فرغ المتحدث من محاضرته صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذبا . ولكن تلميـــذاً وقف فى صورة عصبية وسأله : لا تؤاخذنى يا سيدى ، لقد حـــدثتناعن الأمواج الهائلة التى كانت تضرب الشواطىء ، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر ؟ وساد صمت كله حرج ، واحمر وجه الأستاذ المحاضر ، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة أغرق الموجودون فى الضحك . لقد انهار منطقه الحديدى بسؤال من تلميذ صغير .

« المختار »

Contents

what is certain to benefit the society. The financial systems ardained by the Islamic Law are indeed wise socialist sysetms. They encourage enterprise and give to every earnest person a fairly rewarding return of the products of his endeavour. They widen the scope of honest competition and distinction as well as aspiration, and pave the way for all such good principles. But they, on the other hand, give equal chances to all people and aim at establishing economical equilibrium and mitigating the differences among the social classes to bring them close to one another and prevent the accumulation of wealth in the hands of the few. They found the economical relations among people on solid bases of co-operation and solidarity and of exhortation to righteousness, goodness, justice and kindness. They lay down the best systems of social solidarity, assure every individual of a decent and dignified life, and protect the world from the evils of the Communist trends and their subversive doctrines.

"that is the perfect Religion, but the majority of people know not"

This call of Abu Dharr was extreme only in one sense : it almost enjoined upon the rich to spend all their surpluses in the way of God to satisfy the needs of the destitutes ; whereas Islam has recommended this conduct as previously mentioned, and has not made it necessary. On the contrary, Islam considers the Muslim dutiful, so far as financial duties are concerned, as long as he does not fall short of what is enjoined upon him by the Islamic Law as regards alms, taxes and the financial rights of his relatives. Nevertheless, this is the least that a Muslim can do, and beyond it are in Islam high steps that are graded in their highness and nearness to God until the Muslim approaches the most supreme ideal for which Abu Dharr appealed and which is inspired by the sound idealism of Islam.

Some studious are mistaken when they consider the teachings of Abu Dharr and its like as Communist trends. The truth is that these teachings are in absolute contradictoin with Communism. When these teachings urge the landlords to pay the religious taxes (the alms) of their properties and be kind to the poor and the needy, they aim to affirm the right of individual ownership and protect it against all threats of revolt and violation from the side of the deprived and the poor. They also aim to prevent the class struggling between the rich and the poor.

Different from that is Communism, which endeavours to abolish the very principle of individual ownershp, and advocates the transfer of all holdings into communal units governed by the State, and achieves its aim by means of provoking class-stuggling. And for this reason the call of Abu Dharr and the similarly generous teachings are considered among the bitterest enemies of Communism and the most irremovable obstacles in the way of its expansion.

Now we come to the conclusion. It has been established, from all that which is already mentioned, that Islam with its injunctions in this respect means to make ownership a social employment, not a personal enjoyment for the owner, and to render the scale of its obligations overweigh that of its rights. It also means to make the owner of properties a mere trustee to spend them in the common interest and

Islamic Socialism, The Best

Safeguard Against Communism

by

Dr. Aly Abdul Wahid Wafi

(*Continued from P. 64*)

" So give to the kinsman his due, and to the needy, and to the wayfarer. This is best for those who seek God's " countenance, And such they who are successful " (Surah, 30 V, 38).

Furthermore, many verses of the Qur'an show that Islam considers the ownership as a merely social employment to which the appointed person spends the wealth on those who deserve it. It also looks upon the owner just as a trustee appointed by God to administer the wealth and spend it in the way of His. In this connection God says : " Believe in God and His Messenger, and spend of that whereof He has made you trustees : and such of you as believe and spend (aright), theirs will be a great reward " (Surah. 57, V. 7).

9 — The nineth Means is represented in the exhortation by Islam to spend in the way of God whatever surplus is there. Islam has recommended people to give away whatever wealth, which they do not need for pressing purposes, and spend it all in the way of God. It is reportod that Abu Dharr al-Ghaffari said: " The Messenger of God, peace be upon him, went towards the mountain of Ohud and I was with him. He said : O Aba Dharr. I said : yes, I ransom you with my father and my mother, O messenger of God He said : If I had as much gold as this mountain to spend in the way of God and died with only two carats left, I would not be happy, I said you mean two cantars, O messenger of God ? He said : no, I mean two carats." The Messenger meant that he would not be happy if he died before he could spend in the way of God the whole sum even the two carats.

And for this reason, Abu Dharr urged the rich, during the Caliphate of Uthman Ibn Affan, to spend in the way of God and give to the poor, the destitute and the needy all the surplus of their Properties. He also warned the rich to shun luxury, prodigality, the hoarding of Property and disabling the feeble and poor of people.

one. Religion is consistent with the nature of man as well as with the nature of the whole universe. It is ardently desirous for the realizatian of intimacy and brotherhood in man's life in conformity with what is seen of affection and brotherhood among the non-humans.

Communism, on the other hand, is a call for "revolution," chaos, disturbance and fear. Its peace means war, its liberty means slavery, its equality means plunder, and its security means agitation and anxiety.

It is founded on the principle of antithesis. So contradictian plays the dominant role in its society, and its adherent is wavering between the two contradictory extremes. He is neither alive nor is he dead. He is fluctuating between restriction in humanity and libertinism in animality, between manhood and non-manhood.

Religion reconciles the soul and body in individuals. But Communism makes the body dominante the soul and imposes on mind the mastery of the stomach. It is suitable only for animals and absolutely inconvenient for man.

---

and to realize justice, brotherhood and co - operation among individuals.

The achievement of man, therefore, the knowledge he attains, the society and state he stablishes, all of them should be for the service and mastery of human values. If this system is upset and the human values as well as the whole of mankind are made subservient to knowledge, society and state, then there will be no peace, no justice, no brotherhood and no co - operation. In such a condition the devil, caprices, chaos and anxiety prevail. The prevalence of these evils is not the mistake of hunmanity; but it is the shortcoming of nature which fails to express itself and show its real values.

The value of nature is manifested in its submission to man whose value is shown by his attaining a high virtuous human standard. Likewise, the value of the whole universe lies in the assertion of its Creator whose Entity is proved by perfection and harmony that are regulated by normal rules, the oddness of which lies in man's disability to understand them. All the aforementioned values are the aim of the religious message.

Decline of Communism :

Communism converts the worship of man to an idol that is exploited, yet does not have the power to exploit or direct others. It also converts the nature of man from acting mastery into an enslaved one; from a free self - determined and honoured nature into another one dominated by that which has no independent will or freedom. It equalizes between good and evil in guidance and turns the human values into empty moulds to fill with whatever it pleases and not what is good for humanity.

The god of Communism which is science is a changable one that changes from day to day. So its holiness is but a mere illusion and false imagination, and its worship is but a superstition.

The Difference Between Religion and Communism

The difference between religion and Communism is the difference between a normal call and an abnormal

and eat of His sustenance" (Surah 67, V. 15).

" And he has made subservient to you the sun and the moon, pursuing their courses; and He has made subservient to you the night and the day, and He gives you of all you ask of Him" (Surah 14, Vs. 33-34).

According to the message of religion man endeavours to attain " Knowledge": " Say: Are those who know and those who know not alike?" (S. 39, V. 9). The purpose of this attainment is to make man master the nature, not to deify and worship " knowledge", to make him try hard to establish the material and industrial civilization: " And We sent down iron wherein is great force and advantages" (Surah. 57, V. 25). But This material and industrial civilization are meant to expand the sPhere of human and spiritual values.

The message of religion accordingly urges man to partake in the formation of society not to be absorbed in it: " And the believers, men and women, are friends one of another" (Surah. 9, V. 71). According to the message of religion, man is to work for the foundation of the state: to establish justice, to maintain thc rights of its individuals, to live and protect their most valued thing's: life, wealth and honour; yet it is not to be unquestionably obeyed and surrendered to, if it is tyrannic or violating the personal rights.

Religion does not ask man to overturn the system of life and thus worship what is man-made of "science," "society" and " state". Religion requires of man to remain normal and behave within the framework of natural laws. So lsng as he gives to beings other than himself life growth and development, is proper then for these other peingr- to be in his service and follow him.

3 — The supremacy of Human values:

The mastery of man for which religion calls is not, In fact, that of his physical constitution and his animal growth. It is rather that of the human values, namely, justice, liberty, brotherhood, equality and the maintenance of personal rigits. This is because religion evaluates man only on the basis of his humanity and his human qualities which are represented in the human values.

Throngh this mastery of man and human values religion aims at the settlement of peace among people,

O mankind, surely I am the messenger of God to you all " (Surah. 7. V. 158). It is this message of religion only which defines good and evil; " Surely this Qur'an guides to that which is most upright " (Surah. 17, V. 9). It is this messenger who calls for good only; " And (know) that this is my path, the right one, so follow it, and follow not other ways, for they will lead you away from His way" (Surah 6, V. 154).

The good for which religion calls is co-operation for the attainment of a better life; " And help one another in righteousness and piety, and help not one another in sin and aggression " (Surah. 5, V. 2). It is brotherhood in humanity: "O mankind, surely We have created you from a male and female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful " (Surah 49, V.13). It is the non-deviation from the right way and non-inclination to evil : "And follow not the footsteps of the devil, Surely he is your open enemy " (Surah, 6, V, 143).

God the Lord of religion, then, knows good and evil as well as the overt and the concealed, and He wishes good only because good Secures security, co-operation and brotherhood to humanity. In brotherhood and co-operation lies the elements of prosperity and progress of humanity.

2 — The Supremacy of Man

God the Lord of religion knows all about the earth and the whole nature, and from among its creatures He honours the human nature as it submits to and worships Him only. This human nature worships Him alone and doing so it surrenders to good and acts upon its principles. It also knows evil and shuns it. It accepts the harmony and peace and aims at them, It knows animosity and disorder and tries to evade them.

As God values the human nature for warshipping Him alone, He endows it with mastery over all creatures other than man ; " And Surely We have honoured the children of Adam, and We carry them in the land and the sea, and we provide them with good things, and We have made them to excel highly most of those whom We have created " (Surah 17, V. 70). " And He it is who has made the sea subservient that you may eat fresh flesh from it and bring forth from it ornaments which you wear. And you see the ships cleaving through it, so that you seek of His bounty and that you may give thanks " (Surah 16, V. 14). " He it is who made the earth subservient to you, so go about in the spacious sides thereof,

existence of man. This trinity therefore is man-made, not self-made. When man abandons this trinity it will cease to exist, then it will shrink until it dies away.

So this deity is incapable of creation even though it may appear a giant creator. It is not self-sustained even though it may be seen to give life to others. By actual need disability cannot guide humanity to its welfare. It is not only that it lacks the power to distinguish between good and evil but also the initiative power to direct either to good or to evil.

Science, which is a pillar in the sanctified trinity, is pushed by man toward either good or evil but not by itself. Likewise, the state and society are directed in the same manner by man, who is the leader and guide.

Thus man who was to be deified has become in this case the worshipper. By this attitude Marxism does not only encourage the "relapse" of humanity and the enslavement of man to an "idol," incapable to live or to continue to exist independent of others, not to guide and lead others. But when it renders the Communist's heart void of faith in God, the Creator, and so depriving him of dread, it tries to make it up for him with another religion and faith that lead him to good and evil alike. The deity of that faith, i.e., science, as defined by Marxism. has no intrinsic or natural relationship to good or evil because its nature is "neutral".

The religion or faith which equalizes good and evil does not give assurance to humanity against the prevalence of evil among its followers. Such followers may offer to their neutral god evil more than good as an oblation. But it is Marxism which agitates people to revolt in the name of the principle of antithesis. It cannot face the inevitable "revolution" in the Communist society if circumstances lead to it. It uses the principle of "evolution" to instigate people to reject the human values and deny the virtuous standard of humanity, and at the same time gives aspirations, through its philosophy, to a better life and a happier society. It also encourages people to deny God and religion, and place them before a man-made god and religion, a god who is himself ignorant of the destiny of humanity in spite of the fact that he is called "science".

1 — *The Religious Call*:

In contrast to Marxism, religion calls for faith in God the Creator, the Independent of others, the Ever-Lasting, the Changeless and the Most Supreme. He is for all people and His message is sent to the whole of mankind; "Say"

and the industrial civilzation, therefore, is the real one on the basis of which man should continue his efforts to establish a better life.

In order to bestow on science a halo of sacredness and ascribe to it the qualities of the adored, to whom believers offer their sacrifice, which, in this respect, is their contribution to the advancement of industrial civilization, Marxism demanded "faith" anew and enjoined upon its followers to believe in different " trinity ": science, " society " and " state ". Thus Marxism has become a " religion " and a " faith ".

It is realized here, however that Marxism, by its assertion of the principle of "reality" in order to destroy religion and faith, ended through this very principle, in a religion and it is not that of God but of nature, and a faith in man - mad objects not in God.

The sanctification of science and its deification make it man's master rather than his subservient. Likewise, this sanctification and deification of society calls for sacrifice and devotion from individuals without their expecting any reward. This implies that there is no other deity but this new trinity which, Marxism claims, is from the actual nature which is seen and perceived, though the deity is neither seen nor perceived. We do not see science as such but conceive it; nor do we see society as such hut conceive it as a combination of mutual relations among Its individuals. We do not see the state but trace its marks in the achievements; we only see experiments. These experiments are not science. What we see are individuals leading a life in which they have firmly believed, and following a certain course in that life whether willingly or unwillingly. Individuals, therefore, are not society; they are mere bricks in its structure. Of these individuals some are legislators and law makers, while others are only guardians and executives. Both legislators and executives are in the service of the state and not the state itself.

Thus the new deity of the new Marxist religion is not found in the tangible reality, althaugh Marxism, as we have seen, denies the existence of God because He is not a tangible: thus it denies His existence on a certain basis and then believes again in what is built on this same basis.

In the new religion of Marxism there is no dread of any deity except the deity of science, the society and the state which are the production of man : for the primitive man lives without science and without state, and thus the existence of the Marxist trinity (science, the society and the state) is after accurence to the

of metaphysics, as represented in revelation, and the influence of mind on nature itself to be a means of Knowledge, of planning the human behaviour and of defining the proper aim of the human society. This is because it considers the revelation of God and the mission of religion as a mere superstition. It also considers conceptional ideas by which the mind tries to describe nature as an illusion.

Thus it is " reality " only, not religion or mind, which must be dictated upon man and prompted to him, and from which man has first to learn and then abey what he learns. The reality in which we live is the nature which we feel, see, touch and on which we tread.

So we have, accordingly, to let this nature speak and give us guidance instead of God's guidance and the light of the mind. From this point of view, God absolutely has no existence, and the mind has no light except that which it receives from the logic of the tangible nature. God is not existent, because there is no existence beyond the material existence; and if He had a material existence we should have seen Him but actually we do not see Him. So He is not existent. The mind also has no existence independent of the material body, and its existence therefore is bound to the material existence. It has no such independence to possess any light or radiation apart from that of the material nature. It has no logic distinct from the logic of nature. but nature empowers it with its own logic and urges it to think in a certain way and it thinks.

It is held that the material nature is the existence and its logic is the only expressive logic, then the Knowledge acquired through the logic of nature is sound and authentic Knowledge. Consequently, Knowledge is not metaphysics, religious revelation or rational conceptions. But Knowledge is reality and the tangible nature. Such Knowledge, then, is worthy of worship not God, as the religious authorities believe, nor man as a conceptive power, as the rationalists claim. The altar of the worshipper is not the church nor the theoretical research but it is the " laboratory " where experiments are held on the properties of the material nature.

Human civilization is not in the least constituted by the intellctual and spiritual heritage of the past but only by that which comes out from these natural experiments. It is rather formed by science with its material effect on human life. It is the machine. then, which is the most conspicuous of these results. Industry, in all its aspects, is one of the many virtues of machine on man,

It is clear from the development of man and his move from stage to stage in humanity till he reaches the stage of human maturity that values are the highest standards in the human behaviour. This is because the infant human is like the animal in his behaviour when acting according to his instincts. In this behaviour the human mind, which is the distinguishing character of man, has little influence. But gradually the mind takes its place besides the instincts in man's behaviour and his development.

At a certain stage of his development the mind commands man's behaviour through the making of good customs and the sound understanding of the nature of life which includes the nature of society. When the mind dominates the instincts, man becomes in possession of the quality of humanity and differs clearly from animals.

The most important character of the instinctive behaviour is " egoiam, " and the most distinctive quality of humanity is "aggregation" or the recognition of soeiety in a manner manifest in practical application corresponding with the inner feeling of the aggregate. Egoism denies the rights of others in life. whereas aggregation consolidates these rights by virtue of co-operation on what brings about a better life for all and what protects all from injuries and aggression.

The human values are nothing but practical " samples " of aggregation and the various forms of co-operation on achieving a better human life. And if it be granted that values are the standard of the human behaviour, the expressions of the human quality of man, which he gradually attains, and the proof of the human mind's maturity and mastership over the animalist instinct in man, it should therefore be granted that these values are unchangable. This is because man either develops into a humane standard or remains in the sphere of animality. And values, as already mentioned, are the only means by which it can be seen whether man has ascended to the standard of humanity or still 'remains in the circle of animality.

It is man himself who changes and develops in his march towards humanity. But values, which are the expression of humanity, are unchangable and ever - lasting.

The Principie of Reality :

Marxism ascertained the Principle of " reality " which had been used by August Comte, Feuerbach and Steinthal, to resist by it, first of all and Particularly, the opposing and " reactionary " forces espicially religion and the idealist moral philosophy. This principle denies the effect

When Marxism uses the Principle of "antilhesis," it means to convince people of the necessity of the change of societies, however long it may take, into the proletarian form which is the inavoidable destiny of humanity. It means, further. by the use of the principle of "evolution" to convince people that this proletarian society is better than any other one. So the aspiration of people to the establishment of this society, if it Is not already established, and their endeavour to make it a reality, will not be because it is the inavoidable destiny of humanity at large but because it is better than and incomparable to any other preceding society.

Marxism, furthermore, means by the phenomenon of change to falsify the religious and idealist values, and to accuse both religion and the idealist philosophy of stupidity and misunderstanding of the universal laws and consequently of disharmoniousness with the nature of life. Religious authorities and idealist philosophers are considerd by Marxism rectionaries who confine life to a limited line. They, Marxism thinks, look backward unconscious of the marching progress of life; while others, so Marxism claims, look forward in conformity with the laws of nature. On these said arguments Marxism evaluates the Communist society in as much as it destroys the forces which hinder people from following its ways and at the forefront of which are religion and rational idealism. When it evaluates in one side and destroys in the other, it does not resort only to such an allegation but also uses terminology which tempts people to side with it and makes them depart from what is against it. It applies "progressive", an attractive term, to what it advocates while it applies "rcactionarism" to what it tries to destroy represented in religion and the idealist ethical philosophy.

The application of the phenomenon of "change" to the human values proves that Marxism, in fact, tries to be deceptive and cunning, just as it did before when it applied the principle of antithesis to society. There, Marxism terminated the application of this principle at the Communist society and so arbitrarily ended the logical process of the principle, and limited its function as a universal law having an incessant application.

The human values are the highest standards in the human behaviour and the ultimate ends of the human improvement. So these values, after reaching the end of their development, do nor permit increase or change, but become then a plain phenomenon which dictinguishes man from animals.

that Marxism fights theoretical or "conceptional thinking" and concentrates on "reality".

If the Communist society, i. e., the proletariat, does not expect its absorption by and transformation to another absolutely opposite society, it will then have either to be inconsistent with the logic of Marxism on which it was established and which it used to justify its existence and the transformation of any other society to it, or return, after its new form approved by the Bulchivic Revolutionists of 1917, to the "belief" which cannot be interpreted by philosophy and Logic. So it will become a society of indisputable belief. Then, it will not be the aspired to society which Marxism desired, and which replaces belief with "science," demands its individuals to fight "reactionarism" represented in faith and belif as such, and urges them to emancipate themselves from faith and belief.

The principle of Evolutien

As to the principle of *evolution* Marxism borrowed it from Darwin and used it to prove that the present condition of the being is better than the former state of that being, and that it is more valuable and more chireshed. Society as an entity will go through a process of change from a certain condition to another, and then its new condition is to be preferred to the previous one, more valuable and worthy of maintaining. The logical conclusion of this argument is that the proletarian society, i. e., the Communist society, is better than the preceding society of capitalism, and this latter is better than that of feudalism which s also better than that of the royal society. The principles of "antithesis" and "evolution" produced an attached result as a universal phenomenon which is the "change', of every being from its position to another opposite one. By the production of this phenomenon and by the claim that it is applicable to every thing, Marxism tries to pretend that the unchangability of the moral "values" in the human life is contradictory to the nature of things and nature of being. It tries to conclude that values, therefore, change just like anything does. Thus the human virtues differ from time to time and what is considered virtuous at a certain time is not to remain such forever. On the contrary, it may be the opposite of virtue. The Marxist allegation based on the phenomenon of change means that whatever religion and the moral idealist philosophy have established like "justice," personal "liberty" and the maintenance of the consecration of soul, property and honour - all may change into vices and become opposite to virtue according to the circumstantial changes of life.

with the industrialists and the majority of the labourers. The Process of strife between these two extremes will continue to produce the Proletarian society which is the ultimate aim of Marxism.

The transformation of the capitalist society to a proletarian one, according to the logic of the principle of " antithesis," means that the ownership of properties represented in factories will go to the labourers, who will become in turn industrialists.

The Marxist philosophy, when using the priniciple of " antithesis " in the social sphere, did not limit it to the logical conclusion which stipulates that it is inevitably going to its extreme opposite, and that the present form of society is going to be absorbed by a new from. Marxism, instead, went further to add that the transformation of society from one shape to another opposite one is achieved step by step until it reaches a certain point at which *revolution* is indispensable to complete this transformation. This change is like water in its becoming vapour after a process of change affected by heat till the water abruptly transforms completely to vapour.

The Marxist doctrine, therefare, does not wait for the intrinsic forthcoming transformation of society, especially that of the capitalist, to the proletarian shape. But it advocates the tactics of *revolution* and the intervention of the Communist adherents to hasten the happening of the desired *revolution* in the society.

The question that may be raised now by any examiner of the use by Marxism of the principle of "antithesis" to justify the transformation of society to a proletariat is as follows : Is it true that the proletariat has become the owners of industries and the landlords in the Communist society as Marxism had happily advocated while employing the philosophy of " antihesis " ? Is the transfomation of society, according to the principle of " antithesis, " is confined to its becoming a proletariat ? Or do determinism and necessity conceived by Marxism in the principle of "antithesis"- as a general character, instigate the observers of the conditions of so ciety to expect the emergence of another society from the proletariat which will be quite opposite to it, and out of which comes forth another society and so on ?

So if the ownership of factories is plundered from the proletariat in the Communist society leaving them mere paid labourers or the like, then what Marxism gladly advocated, through the application of the principle of " antitheeis " to the transformation of societies, will remain in the *theoretical* and *conceptional* realm, not in the realm of reality. This is an inavoidable result in spite of the fact

by necessity apply to the society as it is necessarily applicable in " conception " and " idea". This is so because if we examine the different froms of the human society we shall find that the " Royal " form of society was the first of them followed by the " feudalist " and then by the " capitalist " one.

By analysing the structure of the " Royal " society as an entity it will be seen that it was formed of tow opposite sides : the King on the one side, and the executive officials of his government and his subjects or slaves on the other side. Through the conflict between the two opposite sides, one of them represnted in the king transformed to the other side represented in the government officials and subjects. By such diversion the second from of society manifested in feudalism took shape. That is because the land, which belonged to the king only — and to which ownership was confined ; since idustries were personal crafts undeveloped by the technical evolution as known later in the second half of the nineteenth century in Germany - went to the officials' hands, and the ex - sub jects of the king as well as his serfs became farmers and tenants of this land.

But this feudalist society did not remain just the way it was, and it is impossible for it, according to the neceesity of the principle of antithesis, to continue just the way it is ; so it transformed into the capitalist society. By analysing fhe structure of feudalism it was found that its society consisted of two opposite sides : the big landlords and the tenants of the land. Through the conflict between these two sides, one of then represented in the feudalists was diverted into the other opposite side represented in the tenants. This was brought about by the flight of the feudalists with their properties and by the investment of these properties in industries while leaving behind the land for the tenants. As a result of this change the capitalist society emerged from the feudalist one. This new form of society was made of the capitalists who invested their capitals in big industries.

If the feudalist society, up to this stage, transformed from a certain Position to another oPPosite one, the caPitalist society will be changed into another form of society; and this new form is in accordance with the principle of " antithesis " which is a universal principle. The new Position to which the caPitalisf soeiety will come is that of the proletariat. This is because the industrial or the capitalist society consists of two extremes : the minority of the capitalists togethe

already converted the former society into a one - class society.

Communism as a doctrine :

Communism in this respect advocated Marxism as a philosophical doctrine depending on a number of principles already used in the iedalism of the eighteenth century, the naturalism and the positivism of the first half of the nineteenth century. These principles embody the antithesis of the German idealism, the *evolution* and the *reality* of positivism. Each one of these three principles has been employed by Marxism to prove, on the one hand, the ultimate value of Communism and the triviality of the "reactionary" values, especially those of religion, in the pre - Communist society, on the other hand. So it took a hostile and incomplacent attitude towards the Christian Church as an authority in particular and towards religion at large.

The Principle of Antithesis :

The German philosopher Fichte had used this principle to prove the originality of the human mind and its precedence in existence, and consequently its abiity of creation together with its absolute freedom which cannot be limited by "sense" or " revelation " or any other " unseen power ". He also used this principle to prove that the human mind is to dictate not to be dictated upon ; and that the human society, the law, the State and the morality are among its under ; and that the lives of all people, in their brotherly ties and acheivements in the patronage of a universal state, are an ultimate aim of its creativeness.

The other German philosopher Hegel used the same principle to ielucidate the value of the human mind and the value of God, and to show that the place of God in the universe is that of the Absolute out of which comes forth the limited, viz., the visible nature, and towards which move the somewhat unlimited such as the " State," the " law," and the " morals." Therfore God reveals and it is incumbent upon man to obey what He reveals.

Hegel concluded, through the use of this principle, that the authority of the "revelation" is above that of the " mind," and that both are above nature, above what is called the real or the tangible.

This very principle was also used by Karl Marx, the philosopher of Communism and the German thinker of Jewish faith, to prove that society would inevitably change into a proletarian society, i.e., the Communist society. He employed history to illustrate that this principle would

another one. A society as such can not be achieved except by the ultimate prevalence of the working class because this class does not rely, in its livelihood, on anything other than its own human activity and the exercise of that activity in a direct way.

To make the society a purely proletarian one the Communist Revolution hurried to adopt the *revolutionary* tactics in the conversion of the Russian society and annihiliated the other two classes : the class of business men, or the capitalists, and the class of the owners of fiefs or the feudalists. It also terminated the government system, viz., the Caeserian system, which had prevailed in Russia on the basis of the existence of those two classes. Moreover, the Communist Revolution, eradicated all sources of support to tho Caeserian regime, particularly the Orthodox Church or the Eastern Church. And because it adopted the revolutionary tactics in enhancing the transformation of the Russian society from a multiple class society to a one of proletariat, it perpetrated violence, despotism and bloodshed against tens of thousands of the society. Therefore it was a Red Revolution and made *blood* its emblem ; because it was against its principles to give up the *revolutionary* tactics and what this demands of bloodshed.

Communisn combated feudalism, capitalism, Caeserianism and Church ; and abrogated both feudalism and capitalism. It transformed the ownership of land and factories to what it called the *State*. Thus the Russian society in the economical aspect became a Communist one. It abolished the Caeserian system of government and made it a people or a proletariat rule ; so this society in the political aspect became a democratic or a proletarian one. It abolished the Church authority and declared secularism as the State character. Thus it separated the Church from the State and made the latter sovereign over the former.

After these radical changes the Communist Russian society has become in its policy and derectives entirely contadictory to the former society, and the 1917 Revolution realized its existence as a historical fact. But in order to maintain this society and keep it away from agitations which may be incited by the social remainders of the past resulting from the elements of Caeserianism, capitalism feudalism and church authority, which remainders are called " reactionary " forces - Communism paid its utmost attention to the Marxist philosophy from which it emanated, propagated its call and tried hard to convert it to a " religion " or a " faith " as it had

COMMUNISM AND RELIGION

by

Dr, Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

Communiom as Revolution :

The Communist Revolution started before the end of the First World War in 1917 to destroy the social system of the Caeserian Russsia and establish another social system more balanced and more harmonious, from this revolution's point of view, or a society in which the causes of friction and conflict between the classes and the individuals disappear.

The sociey at which the Communist Revolution was aiming was the proletarian society which consists of one class. And if the causes of friction and conflict vanish wherein, there is no longer any need for the maintenance of the police force which is usually appointed to preseve the internal security of the society.

The Communist Revolution does not only aim at the establishment of a one-class society in which the factors of friction and strife disappear, but also aims at the creation of a society of high morality and sublime value. In such society the special guarding force to protect individuals, which force has superior authority over their existence, is no longer needed. This high morality results only from the transformation of the society into one class. This class should be neither the capitalist class nor the feudalist one ; because both of them live and depend on the use of capitalism and feudalism respectively, not on the private human activity of the individuals belonging to both classes .

The employment of capitals and fiefs necessitates, in turn, the exploitation of the human energy which is exercized by the labouring class, which is obliged to continue working to earn its bread and butter.

Thus we see that to depend in forming the hoped society on either of these classes will inevitably lead to the rising of another class, that is the proletarian class. Hence the formation of a one-class society must depend upon a class whose existence does not necessitate the presense of

which he tastes nothing but fear and hunger, tyranny and oppression, evil and corruption.

It is hoped that in the light of the aforesaid proofs, we could easily realise the immortal traits of the instructions of Islam. Such teachings are irreplacable by man - made laws and constitutions which make him vain and arrogant, and which are built on capricious intentions and overwhelming passions, and on the basis of love for domination and suppression.

In its injunctions Islam shuns excessiveness and carelessness. And it is worth mentioning here to refer to the fact that Islam demands its people to be moderate in all aspects ot life and in deciding their common interest, and to stand in the middle without swinging to either extreme. This perhaps is a third angle through which we may conceive a third element in the immortality of Islam. Such elment is referred to in the holy Qur'an in the following verses: "Thus We have appointed you a middle nation, that you may be witnesses against mankind . .." (Surah 2, V. 134). " And (He commands you, saying): This is My straight path, so follow it. Follow not other ways, lest you be parted from His way" (S. 6, V. 153).

In fine, this is Islam, and that is its *idealism* which bears the elements of its immortality. It is the religion of God which He has chosen for His bondmen to organize thereby their lives and make happy themselves and their society. He sent down its principles, as we said, with His honourable messengers, explained them in His Scriptures and then perfected them, with that which was needed for the progress of man, in His last Scripture, viz., the Qur'an, and on the tongue of the last of the prophets and messengers, Muhammad, may the peace and blessings of God be upon him.

It is incumbent upon the intellectuals and people of knowledge and opinion, who are interested in the affairs of their nations, to continue their search for and presentation of these Islamic principles, so that the demarcation lines between the truth which is revealed by God and the deviation into which the world has fallen and by which Muslims have disintegrated may become clear.

May God guide to the right path those who are striving to attain the blessings of God and to achieve the happiness of the people.

Moreover, on the treatment of non - Muslims who are in peace and on good terms with Muslims, the Qur'an says : " God fordids you not those who warred not against you on account of religion and drove you not from your homes, that you should show them kindness and deal justly with them. Surely, God loves just dealers " (Surah 60, V. 8).

The Basis of Government and Sources of Legislation :

We have already mentioned the general principles which Islam has laid down and which are the common Divine guidance to the decent life and the true happiness. Let us now know that Islam maintains these principles by means of justice and consultation which Islam takes as a basis of government and legislation, and authorizes the specialized people of sound opinions to decide upon details and particulars branching from these general principles. This is to be done in the common interest of the nation and when there is no definite text to decide upon the matter in question. Through this Islam secures for the human mind its dignity and, at the same time, saves it from uncertainty and disorder resulting from caprices and personal inclinations. Islam, furthermore, by so doing guarantees the ever - lasting and cotinuance of its principles. It makes no restriction upon the specialized thinkers, who are authorized to give decisions on unsolved problems, except the maintenance of the general framework of these general principles which ensure the security of people's life and the safety of their society from dissolution and deterioration.

From this brief presentation it is plain that the principles by which Islam has organized the life of mankind are the most sublime principles that life can ever seek for the progress and advancement of the world and for the achievement of the common good. It is also plain that by laying down these principles Islam, as we have already said, has included therin all conceivable elements of good and urged for their attainment. On the other hand, it has warned of and cautioned against all conceivable elements of evil.

It is inconceivable that these values can be neglected or replaced with others made by man and dictated by his passions and personal inclinations which are incapable of realizing the sequence of the human nature. The world will remain in uncertainty and fluctuation, without any meaterial and spiritual comfort and without breathing the air of salvation, as long as it cherishes man - made systems on which his life is based and from

And by this fascinating Principle Islam has established a system of exchange of rights and duties between the individual and society, and has made the happiness of life dependent on co-operation and balance between the two sides without either of them overweighing the other. So if society refrains from carrying out its duties, things will turn bad, and life will change into unbearable hell and will confront danger and humiliation.

Ethical Morals :

Islam has extended its support to the moral Principles, which are indispensable for life, by a combination of individual and ethnic morals which confer on man in himself as well as in his society a form of human magnificence and psychological beauty. And for this aim Islam has dealt with the virtue of humbleness, manners of walking, man's interest in that which does not concern him, and his pursuit of unfounded thoughts and vicious ideas. In this respect the Qur'an says : " Turn not your cheek toward People, nor walk with Pertness in the land. Surely, God loves not each baggart boaster " (Surah. 31, Verse. 18) . " (O man) , follow not that whereof you have no knowledge. Surely, the hearing and the sight and the heart - of each of these it will be asked " (Surah. 17, V. 36). " O you who believe ! Shun much suspicion ; for surely some suspicion is a crime. And spy not, neither backbite one another " (Surah. 49, V. 12).

As regards visits to somebody else's home the Qur'an says : " O you who believe ! Enter not houses other than your own without first announcing your Presence and invoking peace upon the folk thereof " (Surah. 24, V. 27). The Qur'an also shuts the doors of sexual disorder by taking precautionary measures described in the verses which read : " Tell the believing men to lower their gaze and be modest . . . . And tell the believing women to lower their gaze and be modest, and to disPlay of their adornment only that which is apparent " (Ibid, Vs. 30 - 31).

Regulating the manner in which man shauld receive news, the Qu'ran says: " O yon who believe ! If an evil -liver pring yon tidings, verify it ... (Surah 49, V, 6). Likewise, one of the important social virtues is stated in the Qur'an as follows: "Oyou who believe! Let not a folk deride a folk who may be better than they (are), nor let women (deride) women who may be better than they are ; neither defame one another, nor insult one another by nicknames" (Ibid, V. 11).

good and evil in this life. Islam has unequivocally forbidden all things that may spoil it or cause its weakness.

Power in Islam :

To consolidate society and protect it from aggression Islam stipulates that power should be acquired and force must be prepared. Power in Islam is not desired as a means of humiliation and destruction, or of driving people out of their homes and property and hardening their lives. But it is desired as an instrument of reform and peace when used to frighten mischief - makers. The Qur'an says : " And make ready for them whatever force you can and horses tied at the frontier, to frighten thereby the enemy of God and your enemy and others besides them, whom you know not - God knows them " (Surah 8, V. 60).

Needs of Life :

In Islam man is entitled to bodily enjoyments and good provisions of life without falling into vicious extremes of excessiveness or carelessness. He is also entitled to spiritual enjoyments by virtue of knowledge attained through self - purification and training, meditation and reflection on the marvels of glory and beauty of the Creator and the Wonderful Originator of the universe.

Islam gives man, as an individual, an independent personality and makes him, at the same time, a brick in the structure of society. As an individual entity, Islam assures man of the right of ownership of his wealth and his blood, and enterprise for his own interest without violating the rights of others. And as a social unit, Islam enjoins upon him a duty by which he is obliged to give guidance, to share in fight, and to make utmost contributions in all aspects of life. Similarly, Islam enjoins upon him a fiscal duty to be spent on the common interest and be taken from his surplus after satisfying his needs and those of his dependents. Moreover, it encourages him to establish a sound married life on solid bases to reproduce a healthy generation which can participate in the foundation of society.

In return for these duties enjoined upon the individual for the interest of society, Islam tasks the society with obligations and rights towards the individual. The society represented in rulers and people of authority is demanded to preserve the blood, honour and property of the individual. And to secure these rights and insure the observance of these duties Islam has ordained punishments decided upon by accredited people or defined by textual instructions.

obtained, Islam ordains that it should be maintained and not wasted or spent lavishly or used as a means of exploiting the conditions of the needy. It gives the disable poor as well as the common weal a right to such wealth. Besides that, Islam has stipulated that prodigality is the source of all evils and destruction of everything in this life.

For all this Isiam does not tolerate extravagance, except when aiming at the commo welfare and prosperity of the nation. Hence, it fights prodigals, ruling or ruled, owners or trustees. It authorizes the Muslim rulers to be watchful to prevent prodigality in order to preserve the wealth of God to which people are mere trustees. This is meant to purify the hearts of the destitute from spite and envy originating from the sight of tokens of lavishness surrounding them while they are deprived of their necessities and enjoyment of a comfortable and peaceful life.

By virtue of this general principle which Islam has introduced, the fiscal problem caused by miserliness which threatens the peace and security of the world is solved and put an end to. This principle of Islam eradicates fiscal tyranny, protects the society from destructive Communism and other subversive movements, reserves the rights of the individuals and the fruits of their endeavours, and, finally, opens widely the door of fair competition in the quickening and progress of life.

Honour In Islam :

Islam demands the maintenance of honour as a manifestation of dignity and honesty and for the extirpation of sexual libertinism which destroys the family system and dissipates the unity of society.

Health in Islam :

Reservation of good health is emphatically demaded by Islam which fights diseases by means of remedy and immunity. Islam founds its policy on reality, and reality ascertains that no knowledge is obtainable without good health, and that no noble struggle can be carried out without maintaining this health. This is because health is man's capital and the source of his happiness. And this maxim is so popular that it is often said : " Maintenance of health is preferable to performance of rituals".

Mind in Islam :

Mind, from the Islamic point of view, should be kept revived and lively, because it is the measure of

bondmen. In this connection God, may He be exalted and glorified, says: " It is not righteousness that you turn your faces towards the East and the West, but righteous is the one who believes in God, and the Last Day and the angels and the Books and the prophets " (Surah. 2, V. 177).

Worship :

Islam has drawn the lines of worship to foster this belief and maintain observance of the orders of God. It has ordained some forms of worship varying between fiscal and physical duties. Thus, fasting and prayer, alms and pilgrimage were ordained. Islam has intoduced these forms of worship and explained every detail concerning their performance, quantities and times, through the voice of its Messenger. By this Islam has equated its followers in order that their inclinations and opinions may not differ, and their hearts, their souls and their aims may be harmonized.

Necessities of Life :

Islam has also urged the acquisition of science and knowledge and emancipated the human mind from the fetters of blind imitation and immutability, encouraging it to penetrate into the unknown aspects of the universe to unveil the secrets of God in the earth and the skies, sea and air, simple or compound. All this is meant to strengthen faith in God and make people rejoice at the employment of their discoveries of the universe, which God has made subservient to man. To this we read a reference in the Qur'an, which says : " In the creation of the heavens and the earth, and the alternation of night and day, and the ships that run in the sea with that which profits men, and the water that God sends down from the sky, then gives life therewith to the earth after its death and spreads in it all (kinds of) animals, and the changing of the winds and the clouds made subservient between heaven and earth, there are surely signs for a people who understand " (Surah 2, V. 169).

It is sufficient for the beliver to read the chapter of the Bee in the Qur'an to appreciate the insturctions of God to His bondmen to look in and search through the various aspects of this universe and what it contains of marvels and wisdom, blessings and signs. It is due to this attitude that Islam has elevated the rank of the learned people, and for this purpose it combats illiteracy, demands the learning of wrting and places high the value of the pen.

Islam and Property :

Islam commands the earning of wealth and considers it to be the substance of life. When wealth is rightly

The Source of Immortality in Islam

PART II

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout
Rector of Al-Azhar University

In the previous part of this article under the same heading we discussed some aspects of Islam, from our point of view, concerning its injunctions and its source which make logical the immortality of Islam and its validity without being confined to any particular limit. We then said that Islam is the ever-lasting message which is not linked to any certain epoch of history, and that it is the religion of God.

We declared, furthermore, that Islam was not an entirely new religion but a religion whose beliefs and aims were voiced by all messengers from the first one to the very last of them, viz., Muhammad, son of Abd Allah, may the blessings and peace of God be upon him.

In this respect we cited some Qur'anic verses as indisputable evidence of these general principles. It may be usful in the Friday sermon to summarize in simple words the creed of Islam, its worships and its attitude towards the necessities as well as the needs of life.

Creed :

Islam enjoins the belief in the Origin of being and good, and devotion of worship and glorificatiou to Him alone. So that man may not submit to another in order to enjoy his dignity and may not stray by taking mediators and interceders between him and God, and may not fall in perplexity and wavering between them while neglecting God the source of existence and good. Moreover, Islam demands the belief in the Day of Judgement and in the knowledge of the right path which He chose for His bondmen and conditioned their happiness on it in this life and the Hereafter. This right path is the belief in the angels of God who receive from Him laws and injunctions to deliver to His messengers who, in turn, convey to their people, and the belief in the Scriptures which are God's message to His

you could do it, but I resent to be distinguished in this respect ".

In spite of the fact that he was the distributor of spoil, the leader of the Arabian Peninsula and the master of kings, he died with his shield mortgaged to a Jew for a loan which he had needed for the expenses of his family. In this phenomenon there is no surprise because the policy of God in giving His treasures does not recognize peculiarity or limits of space and time. But it is the secret of the Supreme Creator, which emerged from the stillnees of the desert on the tongue of the great Messenger, and resounded in the far - reaching horizons, to be forever the light guiding every wanderer and the call awakening every inadvertent person.

As to his personality, it was the most fascinating quality of his manhood to which surrendered the despotic heads, the aggressive souls and the pitiless amongst the hearts of the valiants of the Arabs. After elevating them through his teaclings they changed their characters and followed his example in conduct and behaviour and unanimously agreed on his love, obedience, and protection. To them his sayings were traditions to follow, his deeds were treaties to keep, his opinions were orders to obey, and his decisions were verdicts to observe.

That is why we Muslims mention his name in every call for prayer and in every prayer throughout the day. We mention his name with the name of God not because we worship him, God forbid that, for this would mean associating others with Him the One. We mention the name of God followed by that of Muhammad just like the mention of a rule followed by an example or of a theory succeeded by an application, because God reveals and the Messenger conveys the revelation, God gives orders and he executes them, God legislates and he applies the Divine legislation. So the mention of God is a remembrance of His orders and interdictions, and this is the demonstration of His power, and the mention of the Messenger is a remembrance of his sayings and deeds - and that stimulates the following of his example.

The anniversary of the Messengr's birthday is the anniversary of the emancipation of humanity from the bondage of illusions, the tyranny of rulers and the domination of ignorance.

It is very proper, then, for the free and conscious hearts of various inclinations and tendencies to venerate the anniversary of the Messenger of monotheism and unity, the Prophet of freedom and the advocate of peace and love.

with the resolution of a superman. He struggled armed with truth, persisted with patience, argued with logic, confuted with sound opinion, impressed with eloquence and defeated by hand. such qualities emanate only from the shrewdness of mind and inimitatable heroism, which were his clear distinction from all other messengers; because every prophet and each messenger showed superiority to his people only in some characters except the Arab Messenger who was *unique* in his ingeniousness. He was a messenger in religion, an authority in eloquence, a constitution in politics, a ledear in legislation, and a commandor in war.

Muhammad, throughout the difficult circumstances which he faced, was a sound manifestation of the spirit of God, an explicit declaration of the essence of religion, a supreme ideal of the truthfulness of struggle, a superior endurance of the hardships of the *call*, and a good example to all people.

The life of this Messenger is an ever-lasting Divine law for men of both religious and mundane concern. The means of struggle through which he reconstructed the scale of living and by which he set up the balance of society are still headlines in the records of knowledge, politics and morals. His life, may the blessings of God be upon him, was based on self-denial and spiritual training. His leadership was founded on solidarity and co - operation. He was the ruler of Hejaz, Nejd, and Yeman, and to him came the tributes of the whole Arabian Peninsula and of the neighbouring countries of Iraq and Syria. Yet his bed continued to be made of palm - fibre, and he with his famliy passed countless nights starving or satisfying themselves with little diet of dried dates and water. He wore rough and uncomfortable clothes while he distributed among people silky clothes decorated with gold.

It was the habit of his companions to stand up when they saw him approaching to show their respect for him. But he told them not to do so because that was the habit of the Persians, and that he was only an oridinary human being who eats and sits just like others do. Once he was travelling with his companions. He invited them to prepare an ewe for dinner. Immediately one of the companions said that he was to slaughter it; another said that he was to skin it, and the third said that he was to cook it. Then the Prophet said that he was to gather the shrubs. They all said: " We could do that on your behalf, O Messenger of God ". He replied: " I knew that

for the implantation of good. They guided man unto the path of perfection and sharpened his wit to receive the last Message and the Universal Call ; a message of truth and proof, not established by miracles and oblations ; a call directed to the whole populations of the universe at all times and not to a limited group and at a certain time.

Miracles were only the proof of truth and the way to God when the sense of perception was stronger than the intellect and simplicity more dominant than deep reflection.

When sights were cleared and covers of ignorance were unveiled through the long and uniting preaching of prophets, the widespread of the knowledge of the sages and the scrutinizing study of the annals, the revelation was developped into a science, the inspiration into wise judgement, the signs into conceptions, the call into logic and the message into law. Muhammad, the illiterate orphan and the have - not, became an example of the advancing humanity in its thoughtful and expressive stage With utmost wisdom, good exhortation, peaceful arguing, and with no proof except the Book of his Lord and no power but his firm faith he advocated truth. " They (the disbelievers) say : We will not put faith in thee till thou cause a spring to gush forth from the earth for us ; Or thou have a garden of date - palms and grapes, and cause rivers to gush forth therein abundantly ; Or thou cause the heaven to fall upon us piecemeal, as thou hast pretended, or bring God and the angels as a warrant ; Or thou have a house of gold ; Or thou ascend up into heaven, and even then we will put no faith in thine ascension till thou bring down for us a book that we can read. Say (O Muhammad) : My Lord be glorified ! Am I aught save a mortal messenger ? (Surah 17, Vs. 90 - 93).

It is a well attested fact that whenever you read the biographies of prophets and messengers you will be struck to see that the miracles and signs of God are given to back such a prophet or a messenger in a critical position wherein his argument or his pleading fails to convince and needs a heavenly support. Such was the case with all the prophets with the exception of Muhammad, may peace be upon him. Unlike other prophets God bestowed upon him the gifts of human perfection and distinguished him by sublime morals with complete manliness and overwhelming personality, and made him a miracle in himself and a sign in his characters. All elements of evil were mobilized against him ; he was physically attacked and mentally accused, his people were harmed, his companions were tortured, and his call was fought against. Nevertheless, he met these aggressive assaults

FROM THE DARK CRADLES THE LIGHT OF GOD DAWNED

by

AHMED HASSAN EL ZAYAT

Editor - in - Chief

The *Speaker* Moses, son of Imran, was born in an unstable cradle. He had feelings of fear and perplexing expectations. His mother hid him in an oven from the eyes of Pharaoh and threw him into sea. She put him in a box and left him to Destiny. Then God saved him from burning and drowning to receive the *tables* from Him on the Mount Sinai.

Jesus, son of Mary, was born in the open air under the trunk of the palm - tree on the sandy earth. His fugitive mother delivered him in a rough cradle, and God gave to him the Scripture and the prophethood and the blessing which he propagated from the Mount of Olive in the East and the West.

The Chosen Muhammad, son of Abd Allah, was also born in a cradle of orphanhood and poverty. He did not find the warmth which the children who have mothers enjoy, nor the care which the children who have fathers find, nor the milk which the children of rich people get. He was brought up by some of his kinsmen, invested his wife's wealth and called to the way of his Lord. Then the Truthful Spirit Gabriel came down to him in the cave of Hiraa of the Mount of Light to reveal the ever-lasting message.

Blessed be God! How great He is! And how mighty His will! He wanted His light and evidence to dawn from these humble cradles, and His glory and soverignty to emanate from these tranquil souls in order that His sign might be more glaring to the sight, His call more appealing to the mind and His word more attached to the heart. Had He chosen His messengers from among sovereign kings, the miracle would have been suspected and the omnipotence of God would have been confused.

From these poor cradles God, Who knows best where to put His message, chose His prophets and messengers, and supported them with miracles to affirm truth and provided them with signs to terrify falsehood. So they fought polytheism, combated corruption and prepared the ground

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزءان الرابع والخامس ـ جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ ـ نوفمبر سنة ١٩٥٩ م ـ المجلد الحادى والثلاثون

الفهرس

يا حسرتا على العراق!

بقلم: أحمد حسن الزيات

كان العراق يوم كان حكامه ناسا كالناس، وعربا كالعرب مظهرا للقومية العربية، ومصدرا للقوة الإسلامية، ومجمعا للقيادة الروحية والثقافية والحضارية للشرق والغرب. نمى فى وجوده العارم الخصب كل جنس فلم يبق متميزا غير العرب، وكل دين فلم يبق ظاهراً غير الإسلام، وكل لسان فلم يبق حيا غير العربية، وكل سلطان فلم يبق قاهرا غير الخلافة، ثم كان الفلك حينئذ يدور عربيا على ملكوت محمد من شرق آسيا إلى غربى أوربا، فتشرق شمس الحياة والمعرفة من أفق الرشيد وابنه المأمون فى بغداد، لتلقى أضواءها الهادية على ملك العزيز بالله وابنه الحاكم فى القاهرة، ثم ترسل من هناك أشعتها المحيية على سماء الناصر وابنه الحكم فى قرطبة، ومن هذه الخلافات الثلاث التى انبثقت من العراق فى القارات الثلاث ظهرت كلمة الله، وبهرت حقيقة العلم. وازدهرت مدنية الإنسان، واتسعت دنيا العرب.

كذلك كان العراق أيام كان من خلفائه هرون والمأمون، ومن وزرائه الفضل وجعفر، ومن فقهائه أبو حنيفة وأبو يوسف، ومن أدبائه الأصمعى وأبو عبيدة، ومن شعرائه بشار وابن الرومى، ومن متصوفيه الحسنان البصرى وابن سيرين. فلما غربت الشمس وجزر المد ووهن السلطان واستعجم اللسان وجفت مشارع الرافدين فنقت فوقها الضفادع وسعت حولها الأفاعى، آل الحكم فيه إلى عبد الإله ونورى، ثم استوخم الأمر واستفحل الشر فآل بعدهما إلى قاسم والمهداوى، ومنذ يومئذ غامت سماء العراق بركام من السحائب الجون، لا تحمل الماء ولكن تحمل الدم، ولا ترسل الغيث ولكن ترسل السم. وتحت رعودها القاصفة وبروقها الخاطفة تنساب فى الظلام الداجى زمر من شياطين الإنس، يمجون الكفر، ويشيعون الفحش، وينشرون الإرهاب، ويلحون على المؤمنين الآمنين بالقتل والسحل والتعذيب، ليخرجوهم من الإسلامية إلى الشيوعية، ومن العربية إلى الشعوبية، ومن شعب له كون بارز فى الوطن العربى الأكبر، إلى مجتمع من أخلاط كردية وتركمانية وعربية لا يجمع بينها لسان ولا مجد ولا تاريخ.

****

وارحمتا للعراق الحبيب! بلغ به ذل الحال وسوء المآل أن يستبد بأمره رجلان من الطراز الأدنى أحدهما يحكمه بالنار والدمار والتفريق والفوضى ويزعم أن المجزر حكومة، والآخر يحاكمه بالطيش والفيش

والتهريج والسفه وبزعم أن الملعب محكمة ! ولولا الظلام لما أبصر البوم ورفرفت الخفافيش ، ولولا الانقسام لما تسلط (الزعر) وحكمت (الحرافيش) .

خلت الرقاع من الرخاخ
فقرزنت فيها البيادق !

لقد ابتلى العراق من قبل بالحجاج والقرامطة والزنوج والتتار والترك والانجليز فما صنعوا به جميعا ما صنع به قاسم وحده ! لم يستطيعوا بما أوتوا من ملكوت وجبروت أن يطفئوا نور الإسلام ولا أن يخفتوا صوت العروبة ، ولكنه استطاع فى أقل من عام أن يحمل بعض المسلمين العرب على أن يصيحوا هاتفين فى شارع (الرشيد) وفى ساحة (المأمون) : لا إسلام ولا عروبة !

وقوة هذا الرجل إنما أتته من ضعفه ، فلو لم يكن ضعيفا لما احتلت فراغه قوى غيره ، فهو كالصنم شىء حقير فى ذاته ، ولكن الصنم - كما كانوا يتوهمون - تحل فيه الشياطين فينظرون بعينه وينطقون بلسانه ويبطشون بيده ، ولذلك كان يعبد . وقاسم صورة من الإنس الأنيس ركب كل جارحة فيه عفريت . وللعفاريت أهواء متباينة تظهر آثارها فى قوله وفعله ؛ فهو كافر ومؤمن ، وشيوعى ورأسمالى ، وروسى وانجليزى ، وصهيونى وعربى ؛ وهو أهل لأن يكون أى شىء إلا أن يكون عراقيا ، لأن هذه القوى المتضاربة التى تجمعت فيه إنما كانت إلبا على العراق وحده ! فبفضل هذه القوى عق الابن أباه ، وقتل الأخ أخاه ، وكفر المسلم بربه ، وبغى العربى على قومه . وبفضل هذه القوى قسم القاسم العراق على نفسه ، وزعزع بالفتنة الحمراء (والكراسة الرمادية) الإيمان والاطمئنان فى نفوس أهله ، وقتل الناس بعضهم ببعض حتى زهقت فى سبيل روحه خمسة آلاف روح .

وأصبحت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ذلك قاسم ، أما المهداوى ، أو هامان فرعون ، فعلى النقيض من زعيمه : زعيمه قادر بغيره وهو قادر بنفسه . وزعيمه جهاز تسجيل يستقبل ، وهو محطة إذاعة ترسل ، وزعيمه رأس حكومة «الثورة» سنة وبعض السنة فهدم ولم يبن ، وانفعل ولم يفعل ، ورأس هو محكمة «الشعب» دون هذه المدة ، فأتى بما لم يأت به أحد فى تاريخ الإنسان : اخترع محكمة لم يخطر مثالها على بال عاقل ولا مجنون : مسرح فى ملهى رخيص ، فى صدره منصة جلس عليها العداة والخصوم وقالوا إنهم القضاة ، وعن اليمين منضدة جلس إليها الأفاكون السفاكون وقالوا إنهم المدعون ، وعن الشمال قفص حشر فيه الشرفاء الأبرياء وقالوا إنهم المتهمون ، وفى الساحة مقاعد اقتعدها المجرمون الحقيقيون وقالوا إنهم المتفرجون ! فاذا بدئت المحاكمة افتتحها الرئيس الصخاب السباب بخطبة حمقاء يسب فيها الخلصاء من ضباط الجيش ، والعلماء من رجال الدين ، والزعماء من قادة العرب . ثم يفرغ للبرىء المتهم فيفرغ

عليه كل ما فى فمه من بذاء. وكل ما فى صدره من حقد ، ثم يغتصب حق الادعاء فيفند الحق، ويؤيد الباطل ، ويفتعل الوقائع لتتساوق الأسباب إلى تبرير الحكم الذى أعده من قبل أن يفتح الجلسة ويسمع القضية . ثم تنقلب المحكمة سوقا للمدح والهجاء على نحو ما كان « المربد » فى البصرة ، فينهض الشعراء الحمر فينشدون فى الزعيم « الأوحد » والقاضى الفرد ما تنشده الصراصير القذرة فى المستنقع العفن ، وفى الختام يقوم المهداوى فى هوسة من الزمر والرقص والتصفيق والهتاف فيشنق العدل والقانون والخلق فى ساحة المحكمة شنقا حتى الموت !

****

والهفتاه على أبطال العراق وشبابه ! ثاروا على البغى والفساد والاستبداد فى الرابع عشر من تموز فطهروا الأرض وحرروا الناس ، حتى إذا أخذوا يعوضون ما فقد ، ويصلحون ما فسد ، ويجمعون ما شت ، قامت قيامة الشيوعية المحلية فانبعث عبد الإله فى عبد الكريم ، وحلت روح « نورى » فى جسد « فاضل » وآزرتهما عناصر الشر جمعاء ، فأطفأوا الثورة بدماء من شبوها من الضباط الأحرار ، وفجعوا الوطن العربى كله فى صفوة من بنيه الأبرار ، وأغلقوا بيوت الموصل وكركوك وبغداد على أيامى ويتامى وعجزة ، قتلوا عائليهم أو اعتقلوا أهاليهم ، وتركوهم للدموع والجوع والقلق والخوف كالأغصان الأماليد والأزهار النواضر اجتثت أصولها من فوق الأرض فما لها من قرار .

أزمة وتنفرج ، وغمرة وتنجلى ، وأمة يصهرها القــدر فى بوتقة الخطوب ، وستنكشف إما عن حديد خبث وإما عن ذهب خالص . وخلوص الجوهر هو المعهود فى طبع العراق والمعروف من تاريخه . لم يغمض أبدا على قذى ، ولم يصبر طويلا على ضيم ، إنما يصبر بمقدار ما يتحفز للوثوب ، فإذا وثب كسر القيود وحطم الأغلال وأدب الطغاة .

إن العراق يعوق ولكنه لا يضل ويستذل ولكنه لا يذل . فالخوف عليه من خطر الانحلال السياسى الذى يفقده الإرادة ويسلبه الاختيار ويحرمه الأمن ليس له محقق من ماضيه ، إنما الخوف المحقق عليه هو من عقبى هذه الظاهرة المخيفة التى بدت فيه بعد أن قتل الثوار وزيفت الثورة . هذه الظاهرة هى ارتداد فريق منه عن عقيدته وعروبته استجابة إلى دعوة هدامة . ومثل هذه المحنة التى تصيب الشعب فى دينه أو ضميره لا يكشف ضرها غير الله ، ولله فى العــراق جنود وأولياء يتولاهم علماء السنة وفقهاء الشيعة ، وقد أهاب بهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعلنوا الجهاد الروحى فى سبيل الله والوطن ليردوا الضوال الشوارد إلى القطيع ، ويرجعوا الآراء المتفرقة إلى الرأى الجميع . والله رب العالمين وولى المؤمنين قد تكفل بالحفظ لخير دين أنزل بالحق ، وبالنصر لخير أمة أخرجت للناس ؟

أحمد حسن الزيات

المذاهب الهدّامة تهدم نفسها

للأستاذ عباس محمود العقاد

يكتب الماركسيون كثيراً عن الأديان وعلة نشوئها وتطورها، ويخصون الإسلام بقسط وافر من هذه الكتابة، ويبنونها كلها على فكرة واحدة يكررونها على نسق واحد في كل دين، فلا يدرى القارئ ما هو الفارق بين دين ودين سواء وفيهما من النقائض ما لا يصدر عن علة واحدة، أو علل متشابهة. بل كثيرا ما يكون أحدهما هادما لغيره فى عقائده وفرائضه وآدابه، قاضيا ببطلانه وتكفير القائلين به وإخراجهم من عداد المؤمنين بالإله الحق والرسل الأبرار، وليس من المفهوم أن تكون أسباب النقيضين على اتفاق.

ولم أفرغ من قراءة فصل من فصولهم هذه عن الأديان عامة، وعن الدين الإسلامى خاصة، إلا ورد على خاطرى هذا السؤال: أى الفريقين أولى بنشر هذا الكلام! أم أنصار المذهب الماركسى أم أنصار الدين الذى ينتقدونه ويشرحون علة نشوئه ويريدون أن ينقضوه بشرحهم لهذه العلة؟.

إن فضائل الدين قد تحتاج إلى مجهود لشرحها وتوضيح أسرارها أو توضيح الأسباب العميقة التى تنبعث منها العقائد وتتخذ لها من الأشكال والرموز ما يلائم كل زمن ويوافق كل طور من أطوار التفكير والمعرفة.

إن وضوح هذه الفضائل لا يتكشف على جلائه بغير شرح وبرهان، ولكن وضوح السخف المطبق فى أقوال الماديين الذين ينقدون الأديان ويبسطون أسباب ظهورها أمر لا يتردد فيه الذهن بعد نظرة عابرة، ولا يعاد فيه النظر مرة بعد مرة إلا ازداد وهنا على وهن وتهافتا على تهافت، وأصبح حجة للدين على ناقديه، ولم تبق منه حجة للناقدين على الدين.

ولقد جاوز الماديون حد التوفيق فى كراستهم «الرمادية» التى نشروها بالعراق وجمعوا فيها أقوال القدماء منهم والمحدثين عن نشأة الدين الإسلامى وبواعث الدعوة المحمدية، فما من مقدار من الأخطاء المتلاحقة يجتمع فى صفحات كراسة واحدة كهذه الكراسة الرمادية إلا بتوفيق كتوفيق الإلهام ... لولا أنه إلهام معكوس يتنحى فيه الصواب لنقيضه من الخطأ والزيغ والكذب الصراح.

لقد كانت هزيمة كسرى مثلا فى وقعة ذى قار سببا لثورة العرب على فارس، ولكنك تقرأ بعد سطور أن قريشا كانت تعتز بسلطان كسرى فى رفضها لدعوة النبى العربى وأنه

« كان من أسباب إذعان القرشيين وفاة كسرى ملك الفرس فى سنة ٦٢٨ ميلادية ـ إذ كان هذا الشاه معروفا بحمايته لعباد الأوثان، ففقدوا بوفاته كل أمل للحصول على مساعدة من الخارج . . . » .

وخلال ذلك تقرأ أن سبباً من أقوى أسباب ظهور الإسلام أن إله قريش « أحرز التفوق على سائر الآلهة . أما أرباب العشائر الضعيفة ... فقد دعوا أولاد الله » .

ولا تقول لنا الكراسة الرمادية : لماذا يا ترى كانت قريش تنقم على التبشير باسم الله وتعاند الداعى إليه ذلك العناد الذى لم ينكسر ولم يتراجع إلى التسليم إلا بعد اليأس من حماية الشاه المشهور بعبادة الأوثان ؟ ... ولا تقول لنا الكراسة لماذا هاجر النبى من موطن قريش عباد الإله الأكبر ليستعين عليهم بأعداء ذلك الإله من أبناء يثرب الذين يعبدون غير الله ؟ .

وتقرأ فى الكراسة أن انتصارات العرب « لم تكن نتيجة حماسهم الدينى بل كان سببها انحلال الدولتين العظيمتين بزنطية وإيران بعد حرب طويلة أنهكت قواهما ، وكان رعايا هاتين الدولتين قد عانوا كثيراً من الضرائب المتزايدة والاضطهادات الدينية فلم يبدوا الرغبة فى الكفاح ضد الفاتحين ، وعدا ذلك لم يكن لديهم قوة للكفاح » .

ولا نريد أن نسأل : لماذا دخل الفرس المنهزمون فى الإسلام وأقبلوا على الدخول فيه مختارين ؟ ولماذا تبعهم فى القارة الآسيوية أضعاف أضعافهم من البوذيين والمجوس والوثنيين الذين لم يشتبكوا فى حرب قط مع العرب الفاتحين ؟ » .

لا نريد أن نسأل هذا السؤال بل نريد أن نأخذ على اللجاجة طريقها الطويل فنسأل : ولماذا استطاع العرب المسلمون أن يهزموا المشركين من العرب وقد بلغوا عشرة أمثالهم فى بعض الحروب ؟ .

إن المحاربين من الفريقين كانوا يتألفون من طبقات متشابهة فى الغنى والفقر وفى الحرية والعبودية ، وفى الرئاسة والاتضاع .

ففى جيش المسلمين سادة وعبيد ، وفى جيش المشركين سادة وعبيد .

وليس المشركون جميعاً من أصحاب الإقطاعات ولا المسلمون جميعاً من الفقراء المرهقين بالديون .

وقد كان أبو بكر وعثمان وخالد بن الوليد من ذوى اليسار ، وكان فى جيش المشركين ألوف من الأرقاء والمحرومين ، فما هى القوة التى غلب بها الأقلون الأكثرين غير حماسة الدين ؟.

ويقودنا ذلك إلى سؤال آخر يستلزمه إكثار الماركسيين من ذكر الاستغلال تارة وذكر الصعاليك تارة أخرى فنسألهم : هل

قام الإسلام لأن المستغلين أقاموه أو هو قد قام لأن الصعاليك أقاموه ثائرين على أولئك المستغلين ؟

والنبي عليه السلام ما مصلحته « الاقتصادية » في تأييد الإقطاعيين ؟ وماذا استفاد لنفسه أو لأهله من تأييدهم إن صح أنه كان يختصهم بالتأييد ؟ ولماذا يثير عليهم المستضعفين ليعيش هو نفسه بعد ذلك عيشة المستضعفين ؟.

إن كان « الاقتصاد » يفعل كل ذلك فهذا الاقتصاد مخلوق عجيب من عجائب الجان يتشكل على جميع الأشكال ويتلون بجميع الألوان ، بل هو مخلوق متناقض يعدو مع الذئب ويهرب مع الأرنب ، ولا يحمد الغنيمة في الحالتين !.

* * *

والجهل وحده لا يكفي للاهتداء المظلم إلى هذا التوفيق المعكوس من الأخطاء والأكاذيب في خلق الأغراض والعلل . فلابد مع الجهل من سوء النية لهذا الانحراف المتعمد عن محاسن الأديان ، إصراراً على حب التشويه والتشهير بغير دليل غير هوى النفس الخبيث .

فلا بد من سوء النية لإنكار تحريم الربا في الإسلام استنادا إلى تعاطي الربا أحيانا في البلاد الإسلامية واعتبار هذا العمل دليلا على أن الإسلام ديانة « إقطاعية » تخدم الإقطاعيين ، فما من عاقل يزعم أن القانون لم يحرم جريمة من الجرائم لأن الناس يقترفون تلك الجريمة ، وآخر من يحق له أن يزعم هذا الزعم جماعة الماركسيين الذين يعلمون أن تطبيق الماركسية لم يمنع اتهام الألوف من زعماء المذهب وخدامه بجرائم استغلال النفوذ وخيانة الشعب والخروج على المبادئ المقررة فيه ، ولم يمنع ثورة العمال والأجراء في المجر لأنهم يطلبون الخبز والكساء ، ولم يمنع سلب الحرية في الكتابة والتفكير لإكراه الناس على اعتقاد لا يعتقدونه ، ورأى لا يصبرون عليه بغير ذلك الإكراه .

وإذا كان مؤلف الكراسة الرمادية جاهلا بالإسلام وتاريخ الجزيرة العربية ، فالعربي الشيوعي الذي نشرها أجهل منه بتاريخ بلاده بل بتاريخ ما حصل في بغداد وعلى مقربة منها قبل الإسلام وبعد الإسلام ، فهو يجهل تاريخ اللخميين ويسميهم الخمديين متابعة للكلمة الأجنبية على غير علم بمعناها ، وهو يذكر ثورة الزنج فيسميها الزنجة ويتكلم عن قبيلة ثقيف ومنها الحجاج الذي حكم العراق زمناً واشتهرت أفعاله وأقواله هناك ، فيسمى تلك القبيلة بقبيلة السقيف ، بل هو لم يقرأ القرآن الكريم ولم يقرأ سورة الفتح خاصة وهي مدار التشهير بالجهاد في سبيل الله وبما زعموه من فتوح المسلمين لغير حماسة في الدين ، فالمترجم العربي يترجم الصراط المستقيم في أول السورة وفي بعض آياتها فيقول : « إن الحرب قد سميت في القرآن بالطريق الأعلى » .

ومثل هذا النقل قد تكرر فى كل كلمة مفردة نقلت من القرآن الكريم كالحنفيين وهى لم تذكر فى الكتاب ، وإنما ذكر فيه الحنيف والحنفاء ، ومثله تسمية الأشهر الحرام بالأشهر « المقدسة » ، ومثله تسمية قريش بالقريشيين خلافا للقاعدة واللفظ المسموع . ومثله ذكر العرب الرحل فى مكان « الأعراب » كلما وردت الإشارة إليهم فى الكراسة . ومثله أن النبى عليه السلام كان « يحول » وجهه فى السماء ترجمة لقوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك » إلى كثير من أمثال ذلك فيما عدا الآيات التى ذكرت فى اللغة الأجنبية بأرقامها فعرف المترجم مكانها من المصحف ونقلها بحروفها على غير علم بمعناها .

وأول مايفهم من ذلك أن أدعياء العربية والإسلام الذين نشروا تلك الكراسة بين أبناء قومهم كانوا كفاراً متطوعين الكفر قبل أن يقرءوا كتابهم ، ويطلعوا على تاريخ دينهم ، وينظروا فى نقده وتجريحه نظر العارف بما يقوله الناقدون ويقوله المخالفون لهم فى الجواب عليهم ، وإنما طبعت قلوبهم على الضغينة والتمرد حسداً للناس وذهاباً مع الشر والنقمة فكفروا وهم لا يعلمون ما الإيمان ، وما وجه الإنكار على الإسلام أو على غيره من الأديان .

وتلك شنشنة مألوفة فى هؤلاء الماركسيين على اختلاف نصيبهم من العلم بما يكتبون فيه زاعمين فخورين بأنه كتابة علمية أو كتابة « تحليلية » ، وهم لا يزيدون فيها على أسبابهم « الاقتصادية » التى يثبتونها على أسلوبهم بكلمات يبعثرونها هنا وهناك تتخللها ألفاظ محفوظة عن الاستغلال والجشع والأجور والكدح والكادحين والأموال التى تحسب بالملايين ، ويكفى مجرد الإيماء إليها لإثارة الحسد والضغينة فى نفوس السامعين أو القارئين ، وكل من تقبلها منهم فهو قبل الكفر الذى يعلله بأسبابه « البيغاوية » كافر متطوع بلا سبب معقول غير طوية الحقد واللؤم وشهوة الافتراء على عباد الله وعلى « الله » الذى يقولون عنه إنه « غير موجود » وكل ما قالوه شاهد ناطق بأنهم حاقدون عليه ، حقدهم على الموجود الذى يصرف القضاء وبيده المنع والعطاء .

إن أبعد الناس عن الدين لهو ذلك القارئ الذى تذهب بدينه حجة كحجة هؤلاء المنكرين فى كراستهم الرمادية ، وإن أضعف الناس إيمانا لتعيده إلى التفكير فى الإيمان تلك الكراسة التى تهدم الباطل بيديه وتنقض البهتان بلسانه ، فما لم يكن متطوعا للكفر ببرهان من الضغينة والعناد ، فكل ما فى الكراسة الرمادية من برهان فهو هباء يطير مع الريح ، أو هو برهان للدين على المنكرين ، ولولا أنه برهان معكوس لوجب على المسلمين أن ينشروه ويتركوه لمصيره فما هو بقادر على تشكيك أحد يطلع عليه وفى لبه ذرة من يقين .

عباس محمود العقاد

صور اجتماعية :

الدين المعاملة

وضع رجله على سلم الترام الذاهب إلى ميدان السيدة فربط له السائق حتى ركب . وفسح له الواقفون حتى دخل ، وقام له الجالسون فاختار مجلسه فى آخر الصف من جهة الشمال . وكان منظر الشيخ فى الواقع يبعث المهابة فى الأعين والجلالة فى الأنفس : عمامة خضراء ضخمة ، ولحية شهباء مرسلة ، وسبحة سوداء طويلة ، وجسم سمين رخو يترجرج فى جلباب رقيق مخلق . وعليه كاكولة غليظة مفتوحة ! ثم أخذ يسبح الله ويستغرق فى ذكره ، وكلما مر عليه المحصل غض من بصره ورفع من صوته وساقط الحب سريعا من سبحته . فإذا ابتعد عنه شيعه بمؤخر عينه ثم اطمأن فى مقعده .

وعاد المحصل فتلكأ عند أول الصف الذى هو فيه . فأشاح الشيخ بوجهه إلى اليسار وتشاغل بالحوقلة على صبى نط على سلم الترام المقابل !

فرفع حامل الزمارة صوته ينبه من غفل عن شراء تذكرته من الركاب ويكرر التنبيه ، فأصم حامل السبحة أذنيه عن المحصل وسبح لله وانهمك فى التسبيح .

وأخيراً لم يجد المحصل بدا من أن يوجه الخطاب إلى الشيخ ويقول :

- تذكرة يا سيدنا الشيخ !

ولم يجد الشيخ كذلك بدا من أن يبتسم ويرفع السبحة فى وجه المحصل ويقول :

- إن فى ذلك « تذكرة » لأولى الألباب .

فانفجر الركاب بالضحك وقالوا والله ظريف !

ولم يشاركهم المحصل فى استظراف الشيخ ، بل قال له فى حدة وحزم :

- التذكرة عندنا يا مولانا ورقة بعشرة مليات لا تجد فى القرآن الكريم كله آية تعفيك من أدائها إلى المصلحة ، قال هذا وهو يقطع ورقة من الدفتر ويقدمها إليه . ولكن الشيخ تبلد وتباله وقال له فى برود وشرود : سأعوضك خيراً منها : فاتحة الكتاب فى ضريح أم هاشم !

ولا أطيل عليك فقد أوقف المحصل المركبة وأصر على إنزال الشيخ ، وهز الشيخ لحيته وسبحته وأصر على تحدى المحصل . وتهور المحصل بالطعن على الورع الكاذب والتسبيح الخادع والإيمان المغشوش والدجل باسم الدين . واحتج الشيخ على تهجم الجهلاء على أهل (العلم) ، واحتقار السفهاء لرجال (الطريق) ، ونسب إلى ذلك غش الغلاء فى السوق ورفع البركة من الأرض .

وهنا تدخل الركاب وانتصروا للمحصل ، لأن الشيخ بقبح عناده قد عطل الترام ، ولأنه بسوء سلوكه قد فضح التصوف وأهان الإسلام .

ا . ع . الزيات

المبشّرون والمستشرقون

في موقفهم من الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد البهي

— ١ —

مقدمة :

إذا كان من دواعى استقرار الحكم الوطنى فى مصر الحديثة الثائرة عزل عملاء السياسة وإبعادهم عن مجال الحياة السياسية ـ فإن من صالح قيادة الأمة كشعب موحد الاتجاه ، قوى فى أحاسيسه المشتركة ، أن ينحى عملاء التبشير والاستشراق من جوانب التوجيه العام ، سواء فى التثقيف ، أو النشر ، أو الصحافة ، أو الإذاعة .

إن عملاء التبشير والاستشراق ـ وهم عملاء الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى ـ هم الذين دربتهم دعوة التبشير على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى هذه الأمة ، وعلى التنديد والاستخفاف بها ، وهم الذين وجههم كتاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف فى صورة البحث ، وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش فى الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة .

إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية ، والغض من اللغة العربية الفصحى ، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية ، وكذا بين الشعوب الإسلامية ، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة ، والازدراء بها فى المجالات الدولية العالمية .

١ ـ فهناك الدعوة إلى أن القرآن :

ا) كتاب مسيحى يهودى نسخه محمد .

ب) وأن الإسلام دين مادى لا روحية فيه ، يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة.

ج) وأنه أى الإسلام يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين عامة .

د) كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق فى الملذات الدنيا .

٢ ـ وهناك الدعوة إلى :

(ا) أن الفلسفة العربية فكر يونانى ، كتب بأحرف عربية .

(ب) وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم ، وبدلا منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة ، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضا عن الأحرف العربية .

٣ - وهناك الدعوة إلى :

(ا) إحياء الفرعونية فى مصر .

(ب) والآشورية فى العراق .

(ج) والبربرية فى شمال إفريقية .

(د) والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان .

(ه) وإلى تفضيل الفارسية - كلغة آرية - على العربية كلغة سامية .

(و) وإلى أن الذى حمل أمارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكذا فى الشرق الإسلامى ، وحمل مظاهر الحضارة عامة - هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الأمريكيين فى سوريا .

(ز) وإلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمال إفريقية والأندلس .

٤ - وهناك الدعوة إلى :

(ا) التنفير من حياة المسلمين الحاضرة ؛ لأنها حياة بدائية ذليلة .

(ب) وإلى أن السبب فى ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها .

والتبشير والاستشراق فى ذلك سواء ، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى » بينما بقيت دعوة التبشير فى حدود مظاهر « العقلية العامة » وهى العقلية الشعبية .

استخدم الاستشراق : الكتاب ، والمقال فى المجلات العلمية ، وكرسى التدريس فى الجامعة ، والمناقشة فى المؤتمرات « العلمية » العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء . كما سلك سبيل العمل « الخيرى » الظاهرى فى المستشفيات ، ودور الضيافة ، والملاجئ للكبار ، ودور اليتامى واللقطاء ولم يقصر التبشير فى استخدام « النشر والطباعة » وعمل « الصحافة » فى الوصول إلى غايته .

إن البلاد العربية والإسلامية فى يقظتها الحالية تتعثر فى خطاها نحو التماسك الداخلى ، ونحو تقوية العلاقات بينها ، بسبب الرواسب التى تخلفت عن التبشير والاستشراق ، وبسبب آخر له وزنه وأثره فى هذا التعثر وهو « ضعف المواجهة » التى يلقاها فى البلاد الإسلامية هذان العاملان القويان فى تركيز الاستعمار ، وبعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عربى وإسلامى .

والمؤسسات الإسلامية - على تعددها

وتنوعها - لم تعرف تماما حتى الآن «وضعية» التبشير والاستشراق فى توجيه الشعوب العربية والإسلامية ، حتى تحاول أن تلقاها ، فضلا عن أن يكون لقاؤها إياها قويا أو ضعيفا .

١ — فالأزهر - وهو أكبر المؤسسات الإسلامية فى الشرق العربى والإسلامى - لم يخرج برسالته عن أن يكون ترديداً لتفكير القرون الوسطى فى مواجهة بعضهم بعضا كأحزاب وأصحاب مذاهب فقهية وكلامية أو شعوبية (سنة وشيعة) أو ترديدا لتفكير المتأخرين الذين سلبوا الإنسان أخص مقوماته فى الدنيا وهى ميزة الحياة .

٢ — وجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، هى تقليد لجمعية الشبان المسيحيين فى جانب ، وابتعاد عنها فى أهم جانب من جوانب رسالتها ، تقلدها فى ممارسة الرياضة ولكنها لا تقلدها فى جعل الرياضة وسيلة من وسائل التربية والإيمان ، كما تفعل جمعية الشبان المسيحيين اما ما يلقى فيها من محاضرات ، أو يعقد فيها من ندوات ، فينقص هذه وتلك عنصر الإيمان ...

٣ — وجمعية التعريف الدولى بالإسلام (التى تعقد اجتماعاتها بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة) هى جمعية طابعها شخصى ، أكثر من أن يكون حملا لرسالة وبعثا لها ، أو نشراً لمبادئها فى بلاد العالم ، كما هو المفهوم من اسمها وصفاتها .

٤ — ومعهد الدراسات الإسلامية (بالروضة بالقاهرة) معهد حديث النشأة لم يتميز اتجاهه بعد ، هل هو علمانى على نحو أسلوب الدراسة العلمانية فى التراث الإسلامى التى أدخلها علماء التبشير والاستشراق فى الجامعات المصرية ، أم هو تقليدى على نحو مايفعل الأزهر فى طريقته .

* * *

إن رواسب التبشير والاستشراق التى أشرنا إليها فيما مضى لا تتمثل فقط فى المؤسسات التبشيرية المختلفة الظاهرة فى مصر والبلاد العربية والإسلامية . بل هناك أيضاً مؤسسات أخرى فى مصر لا يرى منها التبشير وإن كانت لا تخفى هدف الاستشراق . ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر - المؤسسات الآتية :

١ — المعهد الشرقى بدير الدومنيكان ، بشارع مصنع الطرابيش .
٢ — ندوة الكتاب ، بشارع سليمان باشا .
٣ — دار السلام ، بكنيسة دار السلام بمصر القديمة .
٤ — المعهد الفرنسى بالمنيرة .

فكل هذه المؤسسات تخضع للاتجاه الكاثوليكى فى بحث الإسلام وتراثه وتخضع كذلك للنفوذ الفرنسى . والذين يعاونونها من المصريين هم أصحاب الثقافة الفرنسية

ممن درسوا فى فرنسا الآداب الشرقية والثقافة الإسلامية ، ويرعاها ، كأب روحى ، المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقية .

والذين يعاونون هذه المؤسسات من المصريين المثقفين فى فرنسا والدارسين للآداب الشرقية العربية أو للتراث الإسلامى الثقافى - يزداد خطرهم كلما اتصل شأنهم واتصلت مشورتهم بتوجيه الأدب ، أو الثقافة فى مصر . ولذا كان من السهل أن نفهم الغاية من عملهم إذا قرأنا هذا الخبر التالى فى جريدة يومية ، صادراً عن مصلحة حكومية ، يسيطر عليها بعض هؤلاء ممن وصفنا . وعنوان الخبر : «إصدار سلسلة كتب عن تاريخ الدين الإسلامى» وتحت هذا العنوان كتبت جريدة الأخبار بتاريخ ١٥ أكتوبر من عام ١٩٥٧ ما يلى :

« وضع المجلس الأعلى للفنون والآداب مشروعا لإصدار سلسلة من الكتب : بعضها مترجم عن كتب المستشرقين والبعض الآخر يؤلفه كتاب مصريون عن تاريخ الدين الإسلامى والأطوار التى مر بها فى عهود الاستعمار . وسيبحث المجلس الأعلى للفنون والآداب فى جلسته يوم السبت القادم هذا المشروع للبدء فى تنفيذه » .

إنه من غير شك أن هناك من له نفوذ فى هذا المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وهو من عملاء التبشير والاستشراق ، ويروج لرسالة التبشير والاستشراق . وهى رسالة الاستعمار . دون أن يكون فى نفسه أى أثر وطنى يعوقه عن هذا الترويج . فنحن سنرى فى الكلام عن الاستشراق ، فى هذا البحث ، ما يؤكد أن هدف المستشرقين فى كتبهم عامة وقاطبة هو التوهين للقيم الإسلامية ، وتفتيت الشعوب العربية والإسلامية فى علاقاتها وصلات بعضها ببعض .

ما نقترحه على المؤتمر الإسلامى :

إن المؤتمر الإسلامى - كمؤسسة إسلامية ناشئة - عليه إزاء التبشير والاستشراق .

أولا : أن ينقى الحياة المصرية والعربية والإسلامية من رواسب هذين العاملين فيبعد عملاءهما من حياة التوجيه فى مصر فى جوانبها المتعددة ، ويكون ذا صلة وثيقة بوزارة التربية والتعليم فى الإشراف على حياة مصرية إسلامية أفضل فى مدارس المبشرين - وهى المدارس الدينية التابعة للفاتيكان فى طوابعها المختلفة ، من فرنسية وإيطالية وأسبانية وألمانية وهلم جرا . . . ، وعلى صلة وثيقة بالصحافة ووزارة الإرشاد القومى فى توجيه القلم والكتاب .

ثم عليه ثانيا : أن يصوغ من المؤسسات التعليمية الإسلامية ـ كالأزهر ـ جهازاً قويا يلقى به كتب المستشرقين ، وبحوثهم فى مجلاتهم ومؤتمراتهم ، فى الرد عليهم وشرح القيم الإسلامية ، وتقوية أواصر القربى بين الشعوب العربية والإسلامية .

ثم عليه ثالثا : أن يخرج للمسلمين عاجلا فى مشارق الأرض ومغاربها :

١) « دائرة معارف إسلامية » يكتبها علماء مسلمون متمكنون فى فهم التراث الإسلامى من جميع بلاد العالم الإسلامى ، وتكون مرجعا للجوانب الثقافية العديدة .

٢) وأن يقر « ترجمة » فى كل لغة من اللغات التى ترجم إليها القرآن فعلا ، بعد مراجعتها مراجعة دقيقة ، من علماء لهم سعة اطلاع فى التفسير والعلوم الإسلامية .

٣) وأن يخرج « قاموسا » للفقه الإسلامى ، على نمط القواميس العلمية الحديثة فى الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والاقتصاد . . . يكون مرجعا سريعا لمعرفة المصطلحات الفقهية ومدلولاتها فى المذاهب الفقهية المختلفة .

والفرق بينه وبين « دائرة المعارف الإسلامية » أن هذه لا تقصر موضوعاتها على الفقه ، بل تعالج جوانب التراث الإسلامى كلها كموسوعة علمية عصرية . أما القاموس فمهمته التعريف فى صورة مجملة سريعة ، علمية منظمة بالفقه الإسلامى . والمسلم المعاصر وبالأخص فى البلاد التى تعرف اللغة العربية ، فى حاجة ماسة إلى مثل هذا القاموس .

٤) وأن يصدر « مجلة » تتتبع بحوث الاستشراق التى يوردها الغرب الصليبى للشرق الإسلامى فى الوقت الحاضر ، سواء فى كتبه عن التراث الإسلامى أو فى بحوث مجلاته العديدة التى تعنى بهذا التراث ، وبوضعية المسلمين وتوجيههم . وحركة الغرب فى توريده لهذه البحوث حركة ضخمة وسريعة ، كما يرى من الدوريات التى تنشرها الجمعيات الاستشراقية فى مختلف بقاع العالم بلغات مختلفة ، ومن الكتب التى تصدرها دور الطباعة الكبيرة فى عواصم أمريكا الشمالية وانجلترا وفرنسا . والكشف المرفق بالفصل الثانى فى هذا البحث يعطى صورة تقريبية ولكنها صورة مزعجة للموجهين فى العالم الإسلامى .

وإذا ابتدأ المؤتمر الإسلامى بالقاهرة فى مواجهة « الاستشراق » مواجهة سافرة ـ وليس هناك حتى اليوم أية مؤسسة إسلامية فى العالم الإسلامى تقوم بهذا الدور ـ فستظهر له سبل أخرى يرى لزاما عليه أن يسلكها كى يصل إلى هدفه وهو :

إعادة تقييم القيم الإسلامية فى نفوس المسلمين ، وفى نفوس الرأى العام العربى .

التبشير

(أ) هدف التبشير :

سنرى فيما بعد أن الاستشراق لون من ألوان التبشير لاءم نفسه مع ظروف الحياة. وإذا كان الاستشراق نوعا من أنواع التبشير فتعرف هدف التبشير نفسه يعطينا بالتالى صورة عن هدف الاستشراق. ولن نحاول هنا أن نذكر شيئا مستنتجاً من قراءة أو دراسة لهذا الموضوع. وإنما سندع النصوص الثابتة لزعماء المبشرين تعبر عن هذا الهدف :

١ — يقول لورانس براون Lawrance brown « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا. أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير »(١).

ويفصح القس « كالهون سيمون » عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين التى عبر عنها « براون » فيما قبل ، بقوله : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية. ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات. ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها »(١).

فوحدة المسلمين إذن فى نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن ، ويجب أن يكون هدف التبشير هو التفرقة فى توجيه المسلمين واتجاهاتهم. والتبشير ، إذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين ، يرى بالتالى درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوربية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين. وفى هذا المعنى يقول لورانس براون Lawrance brown : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قوته على التوسع والإخضاع وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى »(٢).

وتقول مجلة العالم الإسلامى الانجليزية The Muslim world : « إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب منها : أن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا ، بل دائما فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام

---

(١) فى كتابه « الإسلام والإرساليات Islam and missions » ص ٤٤ — ٤٨.

(١) كتاب « التبشير والاستعمار » ص ٣٢.

(٢) فى كتاب أصدره فى عام ١٩٤٤.

ليس دينا فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعبا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيا » [١] .

٢ — وهناك بجانب تفتيت وحدة المسلمين — كهدف للمبشرين — هدف آخر هو التنفيس عن الصليبية وعن الانهزامات التى منى بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان أنفقوهما فى محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدى المسلمين الهمجيين !! . يقول اليسوعيون : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح ؟ [٢] » .

٣ — وبجانب هذا وذاك يرى المستشرق الألمانى بيكر Becker : « أن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » [٣] .

وإذن هدف التبشير هو تمكين الأوروبى المسيحى من البلاد الإسلامية . والأسباب التى ذكرها هؤلاء المبشرون هنا توصل جميعها إلى هذا الهدف . فسواء أكان التنفيس عن هزيمة الصليبية ، أم الرغبة فى الانتقام من الإسلام لأنه قام فى القرون الوسطى فى وجه المسيحية . أم توهين المسلمين وتمزيقهم فى التوجيه والاتجاه — هو السبب المباشر فى التبشير فإن نتيجته حتما وعلى أى وضع هى ما ذكرنا من تمكين الأوروبى المسيحى من المسلم الشرقى ومن وطنه .

وهنا يبدو واضحاً أن التبشير مقدمة أساسية للاستعمار الأوروبى ، كما أنه سبب مباشر لتوهين قوة المسلمين . « ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق لأنهـا تمدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها إلى تلك البلاد . بل لقد كان ثمت ما هو أعظم من هذا عندها : لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلا على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسط الأجنبى » [١] .

(ب) تصوير المبشرين للإسلام والمسلمين :

وطريق التبشير لتوهين المسلمين لم يكن الدعوة إلى المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين إلى النصرانية مباشرة ، وإنما كان طريقه تشويه الإسلام ، ومحاولة إضعاف

---

(١) عدد يونية سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « الجغرافيا السياسية لعالم الإسلامى » .
The political geogrephy of the Mohammadan world

(٢) « التبشير والاستعمار » ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

قيمه ، ثم تصوير المسلمين فى وضعهم الحالى بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضارى فى عصرنا الحاضر .

فالمونيسنيور كولى فى كتابه « البحث عن الدين الحق » يصور الإسلام على هذا النحو : « الإسلام : فى القرن السابع للميلاد ، برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب.

لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق.

ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب .

ووعد الذين يهلكون (يستشهدون فى سبيل الله) فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات (الجنة) .

وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له ، حتى إيطاليا هددها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا .

لقد أصيبت المدنية .

ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول فى الأكثر كلاب النصارى ...

ولكن انظر ! ها هى النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سدا فى وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه (٧٥٢ م) . ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) فى سبيل الدين ، فتدجج أوروبا بالسلاح ، وتنجى النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الإنجيل على القرآن ، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة » [١] .

ويقول و . س . نلسون W.S. Nelson « وأخضع سيف الإسلام شعوب إفريقيا وآسيا شعبا بعد شعب » [٢] .

هذا فى وصف الإسلام ووصف مبادئه أما محمد رسوله فيقول عنه أديسون Addison « محمد لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن فى خياله منها إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذى جاء به للعرب » [٣] .

وفى وصف المسلمين يقول هنرى جيسب Henry Jessup المبشر الأمريكى: « المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها ... إنهم لصوص ، وقتلة ، ومتأخرون ، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم » [٤] كما يقول فى وصفهم جوليمين H. Guillimain فى كتابه « تاريخ فرنسا » : إن محمدا ، مؤسس دين المسلمين ، قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو .

---

(١) ص ٢٢٠ طبع ١٩٢٨ . وقد نال هذا الكتاب رضا البابا ليون الثالث عشر فى سنه ١٨٨٧ وعاش فى المدارس المسيحية فى الشرق والغرب إلى اليوم.

(٢) « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر السابق فى نفس الصحيفة .

ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين (المسلمين) وبين النصارى ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم .

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين ، [1] .

وهكذا : المسلمون متأخرون ، ولصوص وقتلة .

وهكذا : رسولهم سارق ومحرف فيما سرق.

وهكذا : الإسلام دين السيف، وليس دين الإيمان . هو دين مادى وليس دينا روحيا لأنه يسمح لأتباعه بالفجور والسلب والقتل.

هذا ما يصور به التبشير الإسلام والمؤمنين به والتابعين لرسوله . على أنه لم يفت المبشرين كذلك — بجانب تشويه الإسلام والمسلمين بغية توهينهم وإضعاف وحدتهم — أن يثيروا للغاية نفسها النزعات الشعوبية ، مثل الفرعونية فى مصر ، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان ، والآشورية فى العراق ، والبربرية فى شمال إفريقيا وهكذا ...

(ح) سبل المبشرين إلى بلوغ غاياتهم :

وتنوعت أساليب التبشير فى توصيل هذا التصوير المشوه للإسلام ورسوله والمسلمين ، إلى أجيال المسلمين جيلا بعد جيل منذ أن استقر فى الشرق العربى والإسلامى . فكانت :

١ — المدرسة ـ الكلية ـ الجامعة .

٢ — الندوة ـ الرياضة .

٣ — المنزل .

٤ — الكتاب .

٥ — الصحافة .

٦ — المخيم .

٧ — المستشفى .

٨ — دار النشر والطباعة .

وإن من أشهر المؤسسات التعليمية فى الشرق العربى جامعة القديس يوسف فى لبنان ، وهى جامعة بابوية كاثوليكية ، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ، .

والجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت من قبل تسمى « الكلية السورية الإنجيلية » ، ثم كلية بيروت . وقد أنشئت فى عام ١٨٦٥ ، وهى جامعة بروتستانتية .

والكلية الأمريكية بالقاهرة التى أصبحت فيما بعد « الجامعة الأمريكية » ، وقد كان القصد من إنشائها أن تكون قريبة من المركز الإسلامى الكبير وهو الجامع الأزهر .

وكلية روبرت فى استنبول التى أصبحت تسمى « بالجامعة الأمريكية » هناك .

والكلية الفرنسية فى لاهور ، وأسست

---

(١) ص ـ ٨ — ٨١ من كتابه .

فى لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامى فى تكوينه فى شبه القارة الهندية.

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى بيروت فى عام ١٩٠٩، رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة — يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها. ونص هذه المادة ما يلى:

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى. هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية. وهم أنشئوا المستشفى وجهزوه. ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء، ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده. فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ... وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه ».[1]

كما أعلن مجلس أمناء الكلية فى هذه المناسبة: « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى، ولا لبث الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحى، وللتأثير المسيحى، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به »[2].

« يتبع »

(١) « التبشير والاستعمار »، ص ١٠٨.

(١) المصدر السابق ص ١٠٩.

وكما يستخدم المبشرون دور التعليم — بعد أن يموهوا بأسمائها على الرأى العام — للتبشير، يستخدمون كذلك الوسائل الأخرى التى أشرنا إليها هنا سابقاً، للغاية نفسها، وبالأخص الصحافة. فكتاب « التبشير والاستعمار » يذكر نقلا عن مصادر التبشير ما يلى:

« يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر. لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة فى أكثر الأحيان أو بلا أجرة فى أحوال نادرة »[1].

والمبشرون يسيرون فى تحقيق هدفهم وفق خطط معينة مدروسة يجتمعون من أجلها بين الحين والحين. ولذلك نرى أنهم عقدوا عدة مؤتمرات لهذه الغاية. فعقدوا مثلا:

(١) مؤتمر القاهرة فى عام ١٩٠٦.
(٢) ومؤتمر بيروت فى عام ١٩١١.
(٣) ومؤتمر القدس فى عام ١٩٢٤.
(٤) ومؤتمر القدس فى عام ١٩٣٥.

وفى كل مؤتمر من هذه المؤتمرات تدرس المشروعات وتوضع الخطط ثم يجرى تنفيذها فى سرية تامة وبهمة دائبة.

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني

— ٤ —

من القضايا الهامة التي اختلف فيها «الفاروق» مع «الصديق» رضي الله عنهما، قضية قتال مانعي الزكاة، وهي قضية مشهورة، ذكرها أصحاب السير كما ذكرها أصحاب المسانيد في كتبهم، والظروف التي وقعت فيها هذه القضية كانت ظروفا عصيبة، إذ كان الخطر يتهدد فيها كيان الدولة الإسلامية، وكانت بمثابة أول تجربة يمر بها الإسلام بعد وفاة الرسول وتولى أبي بكر الخلافة من بعده:

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، وتحركت رءوس النفاق بالمدينة، وظن حزب الشيطان الذين كانوا يتربصون بالمسلمين دوائر السوء، أن الفرصة قد واتتهم، ويحدثنا التاريخ بأن بني حنيفة وخلقا كثيراً باليمامة قد انحازوا إلى مسيلمة الكذاب، وأن بني أسد، وطيأ، وكثيرا من الناس التفوا على طلحة الأسدي.. إلخ. فعظم الخطب، واشتد على المسلمين الأمر، وصادف ذلك أن الصديق رضي الله عنه كان قد أنفذ جيش أسامة، فقلَّ الجند في المدينة وساورت المطامع فيها كثيرا من الأعراب، وراموا أن يهجموا عليها، وجعلوا يتحينون الفرصة لذلك، بل جعلوا يعملون على خلقها.

فماذا كان موقف الصديق رضي الله عنه من ذلك؟ إنه استيقظ لهذه الفتنة، وشمر لها عن ساعد الجد، فلم ينم عنها ولم يضعف!.

وكان أول ما فعله أنه جعل على مداخل المدينة حراسا يبيتون بالسلاح حولها، وجعل على كل حرس منهم أميرا، وكان من هؤلاء الأمراء علي بن أبي طالب، والزبير ابن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود.

ثم ألزم أبو بكر أهل المدينة بحضور المسجد، والمرابطة فيه، حتى يكونوا مستعدين للدفاع عن المدينة في كل وقت، ولا يحتاجوا إلى قضاء زمن طويل في التجمع ربما ضاعت معه الفرصة، وهذا أشبه بما نسميه اليوم «بالتعبئة العامة» التي يعلنها رئيس الدولة عند الإحساس بقرب الخطر.

وقد صح ظن أبى بكر ، وصدق إحساسه ، إذ قدمت وفود العرب إلى المدينة ، كأنها تريد أن تستكشف أحوالها ، وتعرف مدى تأهبها ، وتحاول أن تعمل على خلق الفتنة فيها ، فجعلوا يقرون بالصلاة ، ويمتنعون من أداء الزكاة ، وإنما يريدون بإقرارهم بالصلاة التمويه على جمهور المسلمين بالظهور بمظهر المؤمنين المصلين ، وأن يتحرج المسلمون من قتالهم وقتالهم ، إذ كان معروفا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأبى أن يقتل المصلين[1] .

كما كانوا - إمعاناً فى التمويه - يُخَرِّجُونَ امتناعهم عن أداء الزكاة لأبى بكر ، لأن الله لم يوجب علينا أداء الزكاة إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » فالمخاطب بهذه الآية هو رسول الله ، والذى صلاته سكن لنا هو رسول الله ، فنحن لا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا .

دخلت المدينة هذه الوفود ، وأذاعت فيها هذه القالة الماكرة ، فجمع أبو بكر الناس - وكان من عادته التى اقتبسها عمر عنه من بعده ، أن يجمع الناس ويشاورهم - فوجد القوم متأثرين بروح هو مزيج من الإشفاق على الإسلام فى هذه الظروف العصيبة ، ومن التقبل لهذا التخريج على وجه ما ، ومن إيثار الصبر على هؤلاء المتمردين حتى يشتد أمر الدولة ، وتثبت قدم الخلافة ثم يأتى الوقت المناسب لتأديبهم وردهم إلى الطاعة .

هكذا كان رأى الكثرة ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وطبعا لم يكن هناك تسجيل لما قيل فى هذا الاجتماع ، حتى نعرف منه عدد الموافقين لأبى بكر والمخالفين له ، والوجهة التى كانت لكل من الفريقين ، غير أن العبارات التى جاءت بها الرواية المشهورة التى رواها الجماعة فى كتبهم سوى ابن ماجة تثبت أن عمر بن الخطاب قال موجها الكلام لأبى بكر : علام تقاتل الناس وقد قال رسول

---

(١) أخرج البخارى فى باب بعث على وخالد إلى اليمن من صحيحه : أن رجلا قام فقال : يا رسول الله اتق الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك : ألست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ فقال خالد : يا رسول الله . ألا أضرب عنقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ، لعله أن يكون يصلى .

ونقل العسقلانى فى ترجمة سرجون المنافق فى الإصابة أنه أتى به ليقتل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يصلى ؟ قالوا : إذا رآه الناس ! قال : إنى نهيت عن قتل المصلين .

وأخرج الذهبى فى ترجمة عامر بن عبد الله بن يسار من ميزانه عن أنس رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقيل : ذلك كهف المنافقين ! فلما أكثروا فيه رخص لهم فى قتله ، ثم قال : هل يصلى ؟ قالوا : نعم ، صلاة لا خير فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى نهيت عن قتل المصلين .

الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ » .

فهذا الأسلوب من عمر رضى الله عنه فى الاعتراض على أبى بكر لا بد أن يكون ذروة وصل إليها النقاش والجدال فى الأمر ويغلب على الظن ، أنه سبق بمحاولات كثيرة لإقناع أبى بكر .

ومما يدل على ذلك ترجيحاً ، مارد به أبو بكر رضى الله عنه إذ قال : « والله لو منعونى عناقا » — وفى رواية « عقالا » كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

فهذا القسم الصارم ، وهذا القول الحاسم ، لا بد أن يكون فى مقابلة رأى بدا له أن الكثرة تميل إليه ، وأن أمر هذا الرأى سيعظم ويقوى بوجود مثل عمر فى جانبه ، وهذا هو مادعا أبا بكر إلى أن يحسم الخلاف بإصدار قراره الخطير الذى كان له أعظم الأثر والبركة فى حفظ دين الله ، وتوطيد دولة الإسلام ، ولولاه لتغير وجه التاريخ ! .

* * *

ولنا بعد هذا العرض أن نلقى على الموضوع النظرة التى عقدنا لها هذا الفصل ، فنقول : هل يلتئم موقف كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى هذه القضية مع شخصيتيهما ؟ .

وبأسلوب آخر : كيف وقف أبو بكر فى هذه القضيــة موقفاً شديداً فيه عنف وقسوة ، وهو ذلك الرجل الحليم الوديع اللين القلب ؟ وكيف وقف عمر فى القضية نفسها موقف المشير باللين مع هؤلاء المانعين للزكاة ، والرضا منهم بذلك ، وهو الرجل القوى فى الحق ، الذى لا يخاف فى الله لومة لائم ؟ .

وبأسلوب ثالث : إن عمر لم يكن فى يوم من الأيام أسيراً لحرفية النصوص ، بل المعروف عنـــه أنه يغوص فى أعماقها ، ويستكشف روحها وسرها ثم يقضى قضاءه ، فكيف غاب عنه ما عرفه أبو بكر من أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » . إلخ . لا يتعارض مع قتال قوم منعوا الزكاة التى هى ركن من أركان الإسلام ، وكيف غفل عما فطن له أبو بكر من المعنى الذى ينطوى عليه قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إلا بحقهـا » ، وهو يدل على استثناء مثل هؤلاء الذين منعوا الحق المالى من عصمة النفس والمال المذكورتين نصا فى الحديث ؟ .

والجواب الذى يمكن أن يتخذ أساساً فى الرد على هذا كله هو أن يقال :

إن نظرة هذين الإمامين الجليلين فى هذه القضية قد اختلفت بسبب اختلافهما فى تكييف المقصود من الزكاة ، وتكييف الصنيع الذى ارتكبه المانعون لها :

فمن الجهة الأولى نرى أن الزكاة فريضة مالية لها شبه بالعبادة من وجه واضح ، وهو كونها ركنا من أركان الدين ، يقصد وجه الله بها ، ويتقرب إليه بأدائها كما يتقرب إليه بالصلاة والصيام والحج والإقرار بالوحدانية له ، والرسالة لنبيه ، ولها شبه من وجه آخر بالحقوق التى تجب على الأفراد والتى تلزمهم بها الدولة إن لم يؤدوها .

ويدل على المعنى الأول قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، فقد ذكر الله تعالى التطهير والتزكية جوابا للأمر فى قوله « خذ » ، والتطهير والتزكية هما المقصودان بالعبادة ، ولذلك قال بعض الفقهاء إن الزكاة لا تقع صحيحة إلا إذا أخرجها المزكى بنية ، لأنها عبادة والعبادات يشترط فيها النية .

ويدل على المعنى الثانى مثل قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها » .. الآية وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حينما بعثه إلى اليمن : « وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم » ، فالآية فيها التعبير باللام التى تدل على الملكية : « والحديث فيه التعبير بلفظ « تؤخذ » و « ترد » الذى يدل على أن هذه وظيفة على المال يتقاضاها ولى الأمر من قوم ، ويردها إلى آخرين ، وذلك شأن الحقوق .

فعمر بن الخطاب نظر إلى شبهها الواضح بالعبادة ، ورأى أن العبادات موكولة إلى الأفراد ، كل منهم مسئول عنها أمام الله ، ويسر له هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .. إلخ . فهنا غاية للقتال مصرح بها ، ثم أكدت باستئناف كلام آخر هو قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فهو تصريح آخر بعصمة الدماء والأموال لمن يشهد بكلمة الإسلام ، ثم جاء بعد ذلك تأكيد ثان لهذا المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « وحسابهم على الله » فهذه الجملة الأخيرة دالة على أن من قال كلمة الإسلام فقد عصم بها دمه وماله ويترك حسابه على الله ، أى أن حسابه على صدقه فى هذه الكلمة أو كذبه إنما يكون على الله ، لا على الدولة ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » .

وقد يسأل سائل فيقول مثل ما قال أبو بكر رضى الله عنه : أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إلا بحقها » ؟ .

فيجاب بأن الضمير فى قوله : « إلا بحقها » راجع إلى كل من الدماء والأموال ما فى ذلك شك ، ولكن على المعنى الذى يلائم كلا منهما ، فالدماء معصومة إلا بحقها ، أى أنها لاتهدر إلا بما شرعه الله لإهدارها كالقصاص أو البغى مثلا ، وكون منع الزكاة موجباً لإهدار الدم كان محل النزاع يومئذ بين أبى بكر ومن خالفه ، وما زال محل النزاع فى الفقه حين يكون المنع مع الإقرار بالوجوب ، لا جحدا ، وكذلك الأموال معصومة إلا بحقها ، أى أنها لا تستباح إلا بما أباحه الله ، كتقاضى الديون قهرا ، أو أرش الجنايات ، أو عوض المتلفات . . إلخ . وليس منها فى رأى هؤلاء : الزكاة التى هى عبادة موكولة إلى العبد بينه وبين ربه ، وحسابه فيها على الله .

هذه هى وجهة الرأى الذى كان يقول به عمر ومن وافقه ، ولذلك نجد عمر متمشياً مع هذا الروح فيما رواه مالك فى الموطأ عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم من أنها قالت : « مر على عمر بن الخطاب بغنم من الصدقة فرأى فيها شاة حاملا ذات ضرع عظيم ، فقال عمر : ما هذه الشاة ؟ فقالوا : شاة من الصدقة ، فقال عمر : ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون ، لا تفتنوا الناس ! لا تأخذوا حزرات المسلمين » جمع حزْرة ، وهى من كل شىء خياره .

وهذا يتلاقى أيضا مع ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصيته لمعاذ : « وإياك وكرائم أموالهم » ومع قول عمر لمن بعثه : « ولا تأخذ الأكولة ، ولا الرُّبَّى ، ولا الماخض ولا فحل الغنم » قال مالك : « الربى هى التى وضعت وتربى ولدها ، والماخض هى الحامل ، والأكولة هى شاة اللحم التى تسمن لتؤكل » .

كل هذا يدل على نظرة عمر إلى الزكاة وأنها عبادة تعتمد السماحة ، وليست محض وظيفة على المال تتقاضى بعنف وتعسير .

أما أبو بكر رضى الله عنه فمع عرفانه بصفتها العبادية نظر إلى أمرين : أولهما : شبهها مع ذلك بالحقوق التى تجب فى الأموال وكونها حقا فى مال الغنى للفقير فلا بد أن يؤخذ ، وثانيهما : كونها شعيرة من الشعائر الإسلامية التى يقاتل الناس على تركها كالأذان مثلا فإن الأذان مع كونه سنة ، هو شعيرة من شعائر الإسلام ، ولذلك يقرر المالكية أنه إذا اتفق أهل محلة على ترك الأذان قوتلوا ، وهذا شبيه بما هو معروف فى عصرنا الحاضر من أن للدول شعارات لا تفرط فى أمرها ، فقد تقع الحرب مثلا لأن علم دولة من الدول قد أهين .

وفى بعض ما يروى عن أبى بكر نفسه :

أن مما أوصى به مبعوثيه فى حروب الردة قوله : « والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ماعليهم فإن أبوا فعاجلوهم » (١) .

ثم إن أبا بكر رضى الله عنه نظر إلى الأمر من ناحية أخرى بعين رئيس الدولة اليقظ ، وبحاسة رجل الحكم الذى يشعر بما حوله من مؤامرات وتدبير ، وقد قدمنا الظروف التى كانت تحيط بالمدينة فى ذلك العهد ، وأن المنافقين والطامعين نشطوا للعبث ، واتخذوا لإثارة الفتنة عدتهم فكان منها أنهم يثيرون مثل هذا التشكيك فى وجوب الزكاة عليهم لأبى بكر كوجوبها للرسول الذى صلاته سكن لهم ، وهم أدرى الناس بأن هذا كلام ساقط لايمليه إلا الرغبة فى الجدال ، وصرف الأذهان عما يبتغونه من الفتنة ، لحصافة أبى بكر كحاكم مجرب فطن ، وفراسته كمؤمن ، وحرصه على محق عناصر هذه الفتنة التى بكرت على المسلمين بعد وفاة الرسول ، كل ذلك جعله يقرر قتال المانعين للزكاة ، فإن ذلك إذا لم يكن حقا عليه دفاعا عن فريضة دينية ، فإنه حق لاستقرار الدولة ، ولاستقرار شعار الإسلام فيها :

ولهذا أرجح أن رجوع عمر إلى رأى أبى بكر كان بعد أن أقنعه بذلك ، وهو ما جاءت به الرواية الصحيحة فى آخرها كمرحلة أخيرة للنقاش بينهما ، إذ تقول : قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

ونستطيع أن نقول بعد ذلك : إن عمر كان على طبيعته وأسلوبه وشخصيته ، حين خالف أبا بكر وهو الخليفة ، لأنه كان مؤمنا بمعنى غير المعنى الذى فى نفس أبى بكر ، فلما تجلى له المعنى الذى رمى إليه صاحبه ، لم يمنعه عن قبوله كبر ولا شعور بحرج ، لأنه قوى ، والقوى لا تتولد فيه عقدة الضعف التى من شأنها أن تثنيه عن قبول الحق إذا تبين ، خوفا من أن يقول الناس عنه : لقد كان مخطئا .

ثم نقول أيضا : إن أبا بكر كان على سجيته وأسلوب شخصيته ، إذ أنه كان قوى الإيمان حين يؤمن ، وكان فى تمهله وتريثه كثيرا ما يقف من عمر موقف المثبت له ، المطفئ لجذوة حماسته حين تدعو المصلحة إلى هذا الإطفاء والتثبيت ، كما كان يفعل معه أستاذهما الأعظم وأستاذ الإنسانية كلها ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ؟

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

---

(١) ص ٣١٦ ج ٦ من البداية والنهاية لابن الأثير .

نفحات القرآن

فى وصايا القرآن دعم لنظام المجتمع

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

> (١) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ـ لا نكلف نفسا إلا وسعها .
> (ب) وإذا قلتم فاعدلوا ـ ولو كان ذا قربى .
> (جـ) وبعهد الله أوفوا ـ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

هذه أوامر ثلاثة ، وردت فى سياق الوصايا العشر ـ من سورة الأنعام ـ لتربية الناس تربية قيمة ، فيها صلاح الدين والدنيا ، وفيها توجيه للإنسانية أن تنهض إلى مستواها المثالى : لو أن الناس حرصوا على هذه التوجيهات وأخذوا بها .

(١) الأمر الأول ـ يتعلق بنظام الكيل، والميزان ، فهما فى التعامل الشائع وسيلة الإيفاء والاستيفاء فى الحقوق المتبادلة كيلا ، أو وزنا ..

وتعلق الناس بالأموال ، وتحفظهم عليها ، ورغبتهم فى التكثر منها ، خصائص طبعنا عليها ، فهى نزعات تلازمنا فى كل حال ، ولا تكاد طبيعتنا تتخلى عن حب المزيد من المال ، ولو كان فى ملك الغير ، ولا تتخلى كذلك عن الضن بالمال ، والإمساك عليه ، ولو كان حقا عندنا للغير .

وقد استبدت هذه النزعات بأمم سابقة حتى أوردتها موارد الهلاك ، وأصبحت مثلا سيئا فى الأولين والآخرين ، وهذه ـ مدين ـ أمة شعيب عليه السلام ـ طاوعت نزعتها ، وأمعنت فى بخس الكيل والميزان ، وفى تطفيفهما ؛ لتشبع من الأموال رغبتها ، وعصوا رسول الله ـ شعيبا ـ فيما بلغهم عن ربه ، وفيما نصحهم به من العدل فى الإيفاء ، والاستيفاء ، وسخروا من شعيب ، حتى عاجلهم الله فى دنياهم بصيحة سماوية ، غشيتهم بصواعقها ، فتركت أجسادهم كأكوام من تراب محترق ، بل تركتهم أكواما حقا ، وتركت ديارهم أنقاضا خاوية على عروشها ،

كأن لم تكن بالأمس آهلة بسكانها ، ولم تكن مغانيهم حافلة بهم يطربون ويمرحون .

والقرآن يحيد بنا عن متابعة مدين فى نهمها وجشعها ، والافتتان بالمال ، ونهبه من الغير ببخس الكيل والميزان إذا أعطينا ، أو بتطفيفهما إذا أخذنا .

ولا يحسبن امرؤ أن التلاعب فى الكيل والميزان أمر هين يمكن التسامح فيه ، أو أنه أمر يمكن دائما درؤه بسلطة القانون ، وفرض العقوبات ؛ فإن القوانين لا تخلق فى الناس ضمائر تراقبهم ، ولا تنتزع من نفوسهم غرائز تتحكم فيهم ، فإن لم يكن من جانب الله ردع زاجر فى الدنيا كما صنع بمدين ، وكما يبتلى غيرهم بالفقر والحرمان ، وربما يقتص منهم بأمور أخرى فى دنياهم ، وبعذاب أشد فى أخراهم ؛ نقول : إن لم يكن من جانب الله ردع ، لغلت الأموال فى تيار جارف من شهوات الجامحين ... ولا ريب فى أن مدار التعامل بين الناس على الكيل والميزان فى أكثر ما يتبادلون .

فبقدر ما يهتز أحدهما عن مستواه الوسط العدل ، يكون الجور فى التعامل ، ويقع الظلم على أحد الجانبين ، ويهتز تبعا لذلك نظام المجتمع من ناحية خطيرة ، هى ناحية التعامل ، أو هى : الجانب الاقتصادى ، وهو الجانب الحساس فى تكافل الجماعة ، وهو جانب لا يقبل المهوادة .

إذ تكون النتيجة الحتمية لهذه المهوادة أن تنعدم الثقة ، أو تضعف بين كل متعاملين ، فتتعثر الحياة الاقتصادية عن نشاطها المرغوب فيه ، وتكون المعاملة مقرونة دائما ، أو غالبا بالتشكك ، وبالحذر ، أكثر مما ينبغى .. وهذا بعيد عن مقاصد الإسلام فيما يريده لأمته من نهوض .

لذلك التعليل الذى قد يغيب عن كثيرين لم ينظر الإسلام إلى مسألة الكيل والميزان على أنها مجرد مسألة روحية ، بل نظر إليها على أنها دعامة ركيزة فى نظام الاقتصاد وميدانه ، وأنها ركن أصيل فى بناء المجتمع .

وما دام الإسلام فى تشريعه لنظم الحياة يحض على العمل المنتج ، ويحث على الأخذ بأسباب القوة : من علم وابتكار ، وكسب واستثمار فهو يعتبر التلاعب فى الكيل والميزان مساسا بمقياس العدالة ، وتطويحا بالثقة التى يجب توافرها ، وصدا للناس عما يتطلع إليه الدين الإسلامى فى أهله من نشاط فى دنياهم ، وأن يقنعوا بما يسر الله لهم من حلاله عن حرامه .

فلا غرو ـ أن يسخط الله على من تعدى حدوده ، وأن يمنع البركة عما كثر عنده ولو تراكم المال عنده ، حتى ينتهى الحرام على كثرته إلى ضآلة ، ثم إلى بوار .

ونحن نشهد بأبصارنا فى واقع الحياة بين الناس ما يؤيد هذا فى غير شبهة ، فكم من متاجر أغلقت!! وكم من مصانع تعطلت!!. وكم من ثروات ذهبت ، وذلك بسبب ما تسرب إلى جميعها من بخس ، أو تطفيف فى الكيل أو الميزان .

ولو أنك تتبعت آيات الكتاب فى شأن الكيل والميزان لوجدتها فى كثرة كاثرة ، ووجدتها مبثوثة فى عدة سور ، حتى إنك لتجد ذكر الميزان أربع مرات فى آية واحدة من سورة الرحمن « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

ومع هذه العناية بشأن الكيل والميزان ، والحض على القسطاس فيهما - وهو تمام العدل - فقد خفف الله عنا ما لا نستطيعه من الضبط حين العجز عن التحكم فيها ، عند التساوى بالدقة ، فقال تعالى عقب ذلك : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » .

وبيان هذا - أن فى صفقات المبيع ما يثقل أو يخف عن المساواة نوعا فيهتز الكيل أو الميزان صعوداً ، أو هبوطا ، دون قدرة على تمام التحرى - وهنا يكون الحرج بين الأخذ بالقسطاس ، وبين التسامح فيما زاد أو نقص ، وهو فى ذاته يسير .

فكان من فضل الله على عباده أن تجاوز لنا عما لا يمكن ، وعما يشق التحرز منه : زيادة أو نقصا .

(ب) الأمر الثانى فيما نحن بصدده - قوله تعالى : - « وإذا قلتم فاعدلوا . . ولو كان ذا قربى » - لم يكن العدل منشوداً فى المبادلة المالية وحدها ، بل فى كل شأن آخر .

وقد جاءت فى هذا التعميم آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » يعنى فى كل شىء .

غير أن الكتاب الكريم أمرنا فى هذا المقام بالعدل فى القول ؛ لأن القول أكثر ما يجرى بين الناس ، فمجاله أفسح ، والألسن دائما فى تخاطب ، وفى أخذ ورد ، وفى مغالبة ، وحوار .

فأمر الله بالعدل فى القول على وجه الإطلاق ، حتى لا تكون أقوالنا متأثرة بالغرض ، ولا يكون للعصبيات أو الخصومات سيطرة على الضمير ، فلا يطغى باطل على حق ، وحينئذ يكون الأدب الإسلامى هو الطابع الواضح ، ويكون الإخاء الإنسانى سائداً بين الناس وتكون هذه الظاهرة كفيلة ببقاء المحبة أو أحفظ لروح التعاطف بين الجماعة من كل محاولة أخرى تراد للمجاملة .

ورعاية العدل فى القول دون تأثر بقرابة ، أو عداوة تدلنا على أن الإسلام يحرص على جانب العدل العام أكثر من حرصه على

البر بالقرابة ، مع ما بلغ من وصيته بذوى القربى ، فهو لا يبيح أن يكون العطف على القرابة خادشا للنظام العام ، بل تطرح العصبيات جانبا ما دام العدل فى غير جانبها ، وكم كان لهذا التوجيه من أثر طيب فى حياة الجماعة يوم كان المسلمون يستمعون ويستجيبون .. فأين نحن الآن من هذا المسلك الذى جذب إلى الإسلام قلوبا متحجرة ؟ .

حـ ـ الأمر الثالث ـ وبعهد الله أوفوا ـ

والعهد معناه : اتفاق بين طرفين على عمل جائز ، فإذا اقترن بفسخ ، أو إشهاد لله فهو عهد الله .

ومعنى العهد كذلك : ما شرع الله للناس من دين يتعبدون به .

وكل ما يلتزمه المرء لله من طاعة كنذر صدقة أو نحوها فهو عهد الله .

وليس من العهد مطلقا ما يكون فساداً أو إضراراً بالغير دون سبب مشروع وفى الوفاء بالعهود منافع للناس وتوثيق للروابط بينهم ، ولذلك شدد القرآن كثيراً فى تكليفنا بالمحافظة على العهود ، حتى اعتبر الإسلام الوفاء بالعهد أمارة الإيمان الصحيح ، واعتبر الغدر بالعهد نفاقا وخروجا عن الإيمان .

ومن البداهة أن امرءا لا يلتزم عهده الصحيح أو لا يخجل من الغدر به لا يكون امرءا كريم النزعة ، ولا مستجيبا لضمير ، ولا مأمونا على شرف .

وأضرار هـــذه النقائص ليست فردية وإنما هى ماسة بصالح المجتمع ، وحسبه ما ورد فى شأنه من تشنيع وتهديد .

ونحن نرى نقض العهد مخزاة فاشية كان يجب أن يتنزه عنها المسلمون .

ولكن الجهل وسوء البيئة أوقعا كثيراً من الناس فيما لا يتفق مع أخلاق دينهم حتى خيل لغير الفاهمين أن هذه النقيصة من ناحية التربية الإسلامية .

والإسلام برىء من هذا ونحوه ، وإنما الذنب ذنب من تسموا بالمسلمين، ولم يتعرقوا روح دينهم ولا آدابه .

هذا وقد اعتبرت الأوامر الثلاثة التى تحدثنا عنها ـ وصايا ـ وحينما تحدث عنها القرآن قال : (ذلكم وصاكم به) وحكمة هذا أن الأمر قد يكون فى المندوب غير المحتم .

وأما الوصية فإنها تكون فيما يكون أمراً محتما لا تسامح فيه كهـذه الأمور التى تحدثنا عنها والله المسئول أن يذكرنا ما أوصانا به وأن يعلمنا ما جهلنا ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

التشريع الإسلامى بين التشريعات الحديثة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

تمهيد :

يعرف الباحثون عن تاريخ الأمم والشعوب أنه كان لكل مجتمع ، مهما كانت درجته من الفكر والحضارة ، حظه من قواعد قانونية يجرى عليها فى معاملاته وتصرفاته المالية ، وفى الأحوال الشخصية التى تقوم عليها الأسرة من الزواج وما يتصل به ، وفى علاج جرائم المجتمع بوضع العقوبات الزاجرة الرادعة ، وفى غير هذا كله من الشئون ومسائل الحياة ومشاكلها .

نعم . إن هذه المعاملات التى تقوم بين الناس فى أى مجتمع ، وعلاقات بعضهم ببعض ، لا يمكن أن تترك فوضى ينظمها كل فرد وفق رغبته ومشيئته ، وإلا حقت قولة الفيلسوف الفرنسى (بوسويه) : « حيث يملك الكل فعل ما يشاءون ، لا يملك أحد فعل ما يشاء ، وحيث لا سيد ، فالكل سيد ، وحيث الكل سيد ، فالكل عبيد ، وتلك حال لا يتصور أن تكون ، وإن كانت فهى لا تدوم ، إذ ينتهى الأمر إلى أن يكون الحكم للقوة تقضى فى الضعفاء بما تشاء » .

والمجتمع العربى ، فى شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، لم يشذ طبعاً عن هذا الأصل الذى يقوم عليه بقاء الشخص والنوع والاجتماع والعمران . من أجل ذلك ، نعرف من التاريخ أن العرب عرفوا فى جاهليتهم قواعد قانونية كثيرة قام عليها مجتمعهم ، وكان ذلك فى نواح شتى من النواحى التى عالجها الإسلام فيما بعد ، فألغى منها ما لا يتفق والعدل والصالح العام ، وأبقى ما وجده خيرا ، فما كان الإسلام ليغير كل ما كانت عليه الأمة العربية ، حتى ما كان صالحا لبناء مجتمع صالح للحياة الطيبة .

على أنه مهما كان حظ العرب قبل الإسلام من القواعد والمبادئ القانونية فى هذه الناحية أو تلك من نواحى الحياة العملية ، فإننا لا نستطيع أن نزعم أنهم وصلوا من ذلك إلى ما يكفى لتقوم عليه أمة صالحة الحياة ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة للإسلام وشريعته .

أجل ! ظهر الإسلام والعرب - بل العالم كله - فى أشد الحاجة إليه فآتاهم العقيدة الحقة ،

والشريعة الصحيحة ، والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة ؛ لتسهم فى بعث العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور ، وكان هذا ما نسميه اليوم بالفقه أو التشريع الإسلامى .

شموله وغناؤه :

والتشريع الإسلامى نظام شامل بلاريب ، فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته ، فى خاصة نفسه ، وفى صلاته بالله تعالى ، وفى علاقاته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى علاقة الأمة أو الدولة الإسلامية بالدول الأخرى. إنه ينظم كل هذه العلاقات ، وذلك ببيان القواعد التى تهيمن عليها وتحكمها على اختلاف أنواعها .

وذلك يرجع إلى أن الإسلام - على خلاف غيره من الأديان التى سبقته - ليس عقيدة دينية فحسب ، بل هو دين وأخلاق ودولة بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى ومدلول .

والواقع يؤيد هذا الذى نقول . فكان لابد إذن من أن يكون فى التشريع الذى جاء به جميع النظم والأحكام التى تقوم عليها كل هذه العلاقات ، من عامة وخاصة ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالفرد أو المجتمع أو الدولة .

ولذلك ، نجد فى هذا التشريع العبادات وأحكامها ، وهذا ما لا يوجد فى أى تشريع آخر قديم أو حديث ، والمعاملات وأحكامها على اختلاف ضروبها ، وبعبارة أخرى ، نجد فى التشريع الإسلامى - فضلا عن أحكام العبادات التى تنظم صلة العبد بربه وخالقه - كل ما يشتمله القانون بقسميه الكبيرين : القانون الخاص ، والقانون العام .

ففيه القانون المدنى الذى يعتبر أصل القانون الخاص بجميع فروعه الأخرى ، وفيه القانون التجارى ، وقانون المرافعات ، والدولى الخاص ، ثم فيه القانون الدولى العام ، والقانون الدستورى ، والقانون الإدارى والقانون المالى الذى يلحق به ، ثم القانون الجنائى[1] .

ومن هذا نرى بوضوح أن التشريع الإسلامى قد عرض لكل مسائل القانون بأقسامه وفروعه العديدة المختلفة ، وهذا أمر بدهى لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليل ؛ مادام أنه كان تشريعاً كاملا للأمة الإسلامية فى كل أحوالها الداخلية والخارجية ، وكذلك لكل أمة أخرى تريد الخير لنفسها .

على هذا التشريع الشامل لكل أبواب وفروع التشريعات الحديثة ، والغنى بأصوله القوية وأحكامه الصالحة لكل زمان ومكان ،

---

(١) من الخير الرجوع فى هذا كله إلى كتابنا «الفقه الإسلامى - مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه» ص ١٠٣ - ١١٥ من الطبعة الثانية ، فقد تكلمنا عن ذلك بتفصيل .

قامت الأمة الإسلامية قروناً طويلة ، وأفاد منه الغربيون أنفسهم فى قوانينهم الوضعية أيام كانوا يعتبرون المسلمين عباقرة ومثلاعليا فى كل شيء ، وبخاصة فرنسا ، فقد استمد القانون المدنى الفرنسى الذى وضع عام ١٨٠٥م الكثير جداً من أحكامه من التشريع الإسلامى على مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه .

وذلك ، بأنه لم تأت سنة مائتين من الهجرة حتى كان مذهب مالك قد ساد فى الأندلس فى الحكم والقضاء ، وهو لا يزال سائداً فى المغرب الإفريقى حتى اليوم ، وكانت بلاد الأندلس مثابة يفد إليها علماء أوربا يغترفون من العلم الإسلامى ويستضيئون بنوره ، وهى مع هذا قطعة من أوربا ، وبذلك يكون التشريع الإسلامى قد حكمت به أقاليم من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا .

وكان من هذا أن انتشر مذهب مالك فى تلك الأصقاع ، وأن استمرت قواعده وأحكامه معروفة فى تلك البلاد بعد خروج المسلمين منها ، فأفاد منه واضعو القانون المدنى الفرنسى حين آن لفرنسا أن تضع لها قانونا مستقلا ، وليس على من يريد التأكد من ذلك الذى نقول إلا أن يقوم بشيء من المقارنات بين التشريع الإسلامى وبين القانون المدنى الفرنسى، هذا القانون الذى هو الأصل الأول لقوانيننا الوضعية الحديثة [1] .

ولكن بعد أن تزحزح المسلمون فى الأزمان الماضية عن قيادتهم للعالم ، وأخذ علماء الفقه الإسلامى بالتقليد فى الأحكام الشرعية ، وقف الاجتهاد فى التشريع ، وانزوى الفقهاء عن الحياة العامة قليلا أو كثيراً حسب الأزمان المختلفة ، ولولا ذلك ما كنا بحاجة أبدا لاصطناع قوانين لا تتفق وديننا وتقاليدنا ، قوانين يبين من المقارنة أن التشريع الإسلامى يفضلها فى كثير من النواحى .

مقارنات :

يطول بنا الحديث إذا دخلنا فى المقارنات الكثيرة بين التشريع الإسلامى وبين التشريعات الوضعية القديمة والحديثة ، ولأن حيز هذا المقال ضيق محدود نكتفى بالبعض منها ، وبذلك يتبين لنا سمو التشريع الإسلامى على غيره من القوانين الوضعية فى نواح كثيرة ليس من اليسير عدها وإحصاؤها .

---

(١) هذا رأى بدأ يأخذ قوة فى أوساط علماء تاريخ القوانين والشرائع المنصفين ، ومع هذا راجع « المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية المدنية والتشريع الإسلامى » للأستاذ سيد عبد الله حسين ، ج ١ ص ١٢ ومابعدها .

(أ) يرى الأستاذ الدكتور على بدوى، وهو أحد المصريين الأعلام فى القانون - بحق - أن التشريع الإسلامى له استقلاله عن غيره من التشريعات القديمة، وأنه يفوق فى كثير من النواحى غيره من التشريعات الحديثة، ومن ذلك نظام «الحسبة» وهى وظيفة اجتماعية قانونية إسلامية تقابل وظيفة النيابة العمومية اليوم، ونظام العقاب بالتعزير وهو ترك تحديد العقوبة نوعا ومقدارا للقاضى فيحكم بما يراه تبعا لما يراه من ظروف الجريمة وحالة المجرم ونفسيته، وهو نظام، يمتاز به الفقه الإسلامى وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث (١).

(ب) والدكتور شفيق شحاته الأستاذ بكلية الحقوق يقول فى بعض ما كتبه، وإذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظم القانونية، وجدنا التشريع الإسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير بعض المبادئ العظيمة، ومنها مبدأ انتقال الملكية لمجرد الاتفاق (أى بلا حاجة لإجراءات رسمية وأمور شكلية) ومبدأ سلطان الإرادة (أى إرادة كل من المتعاقدين) (١).

ومبدأ النيابة التعاقدية، كما يقول وهو بصدد بحث نظرية النيابة فى العقد بطريق الوكالة أو الفضالة، ومبدأ النيابة هذا لم يصل إليه التشريع الرومانى إلا بعد جهاد عنيف وهو قد بقى مجهولا من التشريع الفرنسى القديم، أما الفقه الإسلامى فقد قال بالنيابة التامة، وبالنيابة التامة إلى حدود بعيدة جدا (٢).

ج - والأستاذان الدكتور عبد الرزاق السنهورى والدكتور أحمد حشمت أبو ستيت يقولان فى المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى، ما يحسن أن ننقله حرفياً أيضاً «: لم تسلك الشريعة الإسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى، فإن هذا القانون بدأ عادات كما قدمنا، ونما وازدهر من طريق الدعوى والإجراءات الشكلية. أما الشريعة الإسلامية، فقد بدأت كتابا منزلا ووحياً من عند الله، ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطقى والأحكام الموضوعية... إلا أن الفقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء

(١) راجع مجلة القانون والاقتصاد، العدد الخامس من السنة الأولى الصادر فى نوفمبر ١٩٣١ م ص ٧٣٣ وما بعدها.

(١) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الإسلامية، ج ١، ٢٠١.

(٢) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الإسلامية ج ١، ١٦١.

الرومان ، بل امتازوا على فقهاء العالم ؛ باستخلاصهم أصولا ومبادئ عامة من نوع آخر ، هي أصول الأحكام من مصادرها ، وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه [١] .

د ــ هذا ونكتفي في ناحية المقارنات ببيان أن التشريع الإسلامي تسوده النزعة « الجماعية » التي تهدف إلى صالح الفرد والمجتمع معاً ، وهذه النزعة تجدها واضحة في تشريعات العبادات والمعاملات معاً فكل التشريعات في هاتين الناحيتين تهدف إلى تهذيب الفرد وتحقيق ما فيه خيره وخير المجتمع بأسره ، والمثل لذلك واضحة ندركها بسهولة ويسر وتكفينا فيها الإشارة .

نشير مثلا ، إلى حكمة تشريع الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ وحل البيع وتحريم الربا ، والأمر برعاية الجار والوفاء بالعقود وتحريم الزنا ، وإقامة الحدود صيانة للمجتمع ، إلى آخر ما نعرف من الأحكام التي جاءت بالأمر والنهي والحل والحرمة ، ففيها كلها تهذيب للفرد وخير له وللمجتمع معاً .

وبعد هذا التعميم لا بد من التخصيص ، وذلك بالإتيان ببعض المثل المحدودة الواضحة الدلالة على ما نقول ، أي على أن الطابع العام السائد في التشريع الإسلامي من أول أمره هو الطابع الجماعي ، وذلك بعكس التشريعات الوضعية .

أوجب الله تعالى في أموال الأغنياء حقا معلوماً للسائل والمحروم ، وهذا ما نسميه بالزكاة التي تؤخذ من الأغنياء لتعطى للفقراء ، ثم جعل في أموال الأغنياء حقوقا أخرى غير الزكاة ، ولهذا نرى الله تعالى يقول : « سورة البقرة آية ١٧٧ » « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة » . . وإذن ، ففي المال حقوق أخرى غير الزكاة وهذه الحقوق تعطى لذوي القربى واليتامى والمساكين ونحوهم .

ومثال ثان . وهو من المعروف ، كما رواه الإمام أبو يوسف [١] ، أنه لما فتح الله العراق والشام على المسلمين أيام عمر بن الخطاب أراد فريق كبير من المسلمين قسمة الأرض وما عليها بين أصحاب الحق الفاتحين ، لكن الإمام عمر رأى أن يترك الأرض بيد ملاكها على أن يدفعوا الخراج والجزية لصالح المسلمين جميعا . وكان هذا توفيقا من الله لعمر بن الخطاب كما عوده في كثير من الحالات .

وأوجب التشريع الإسلامي من ناحية أخرى ، النفقة اللازمة في بيت المال لكل

(١) أصول القانون ، ص ١٣٢ .

(١) كتاب الخراج ، ص ١٤ ــ ١٥ .

فقير عاجز عن العمل وليس له قريب تجب عليه نفقته ، لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم الذى يعيش تحت ظل الإسلام ، وفى هذا يروى التاريخ أن عمر بن الخطاب أمر برفع الجزية عن كل ذمى لا يقدر على أدائها وبأن يفرض له فى بيت المال ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام .

ومثال آخر ، بل مثل أخرى نأخذها من تطبيقات القاعدة الإسلامية المعروفة ، وهى : « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » هذه القاعدة التى عرفها التشريع الإسلامى منذ وجوده ، والتى عرفتها التشريعات الحديثة بعد ذلك بقرون وقرون تحت عنوان « نظرية سوء استعمال الحقوق » .

فطبقا لهذا الأصل العظيم يجب ألا يسىء المرء استعمال حقه لدرجة أن يكون فى ذلك ضرر كبير لآخر ، ولهذا ، يكون للزوجة أن تطلب تطليقها من زوجها إذا نالها بضرر غير مشروع ، وللجار أو الشريك أن يطالب بالشفعة فيما باعه شريكه أو جاره الآخر لأجنبى ، مع أن من خصائص الملكية حرية المالك فى التصرف فيما يملك ، وللإنسان أن يحفر فى أرض غيره مجرى ماء ليروى أرضه البعيدة عن مجرى الماء ، ويجبر صاحب الأرض الأخرى المجاورة للماء على ذلك .

تلك المثل ، ولو شئنا لأتينا بأخرى كثيرة، فيها الكفاية لإثبات النزعة « الجماعية » للتشريع الإسلامى ، هذه النزعة التى نجد مصدرها الأصيل فى القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم وأحكام وآراء كبار الصحابة والتابعين ؛ وذلك - كما قلنا - لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لصالح الفرد وحده ، بل لصالح المجتمع كل فى أوسع حدوده .

أما التشريعات التى هى من صنع البشر ، فلم تلاحظ فى أول أمرها بخاصة هذه النظرة الجماعية أو الاجتماعية السامية ، بل كانت تسودها الروح الفردية العنيفة ، ولنأخذ مثلا لذلك القانون الفرنسى الذى صدر فى مفتتح القرن التاسع عشر .

لقد ساد هذا القانون روح فردية قوية تلتئم مع الروح التى أملت حقوق الإنسان ، وهى تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها ، وتنظر إلى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة ، وقد كان من نتائج ذلك ، أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى ، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره [1] .

(١) راجع « مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الإسلامية ، والقانون المدنى الحديث » ، للأستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد ، ص ٥ .

ومن الحق أن التشريعات الوضعية فى هذا العصر الحديث أخذت فى الحد من استعمال المرء لحقوقه، فنشأت نظرية سوء استعمال الحقوق التى أشرنا إليها آنفا، ولكن بقى من الثابت الذى لا ريب فيه أن نظر التشريع الإسلامى إلى حقوق الأفراد وتقييدها بما يحقق مصلحة الجماعة ولا يضر صاحب الحق، أوسع مدى وأبعد أثرا من نظر التشريعات الحديثة إلى اليوم فى هذه الناحية.

ونعتقد أن هذه التفرقة الواضحة، بين طابع التشريع الإسلامى الإلهى وبين طابع التشريعات الوضعية، ترجع إلى تفرقة أساسية فى أصل حقوق الفرد فى الشريعة الإسلامية والقوانين البشرية.

إن القوانين الوضعية تعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له، فهو يملكها ويتصرف فيها كما يرى، فلا حرج عليه ولا تثريب إن أساء استعمالها، أما الشريعة السماوية الإسلامية فترى أن الفرد نفسه وكل ما يعتبر له عادة من حقوق ملك لله وحده، والله لا يمنح ما يمنح لعبيده من حقوق إلا لغرض حكيم هو تحقيق الخير للفرد والمجتمع معا؛ ولذلك نجد تقييد استعمال الحقوق فى نواح مختلفة وكثيرة جدا، ومن ثم، وجب أن يكون الإنسان فى عمله واستعماله لحقوقه متفقا مع قصد الله من التشريع، وإلا كان عمله باطلا لمناقضته للشريعة ومقاصدها.

الحاجة دائما لهذا التشريع:

يتبين من هذا الذى قلناه، أن حاجتنا للتشريع الإسلامى، وذلك مبلغ علوه على التشريعات الوضعية وغناه فى كل ناحية من نواحى القانون، لا تزال اليوم أمراً ضروريا كما كانت فيما مضى، إنه تشريع صلحت به أمة عظيمة سادت البشرية قرونا طويلة، ولن تصلح فى هذا العصر وفى كل عصر إلا إذا أخذت به وأقامت حياتها على أسسه ومبادئه وأحكامه.

وإذاً، لنا الحق فى أن نريد أن يكون هذا التشريع الأساس الأول والمصدر الرسمى لقوانيننا الحديثة، ولا بأس علينا مع هذا فى أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأى أمة من الأمم الأخرى، بل لعل هذا يكون واجبا، فما كانت أمة لتستغنى عن غيرها فى كل شئونها.

ونحمد الله تعالى على أنه وجد وعى قوى فى مصر والبلاد العربية والإسلامية، أخذ يطالب بتخليص قوانيننا من الاحتلال الأجنبى، وهو احتلال فرنسى فى الأكثر من نواحى القانون، كما أخذ كثير من رجال القانون وأعلامه ينادون بما نطالب به، وكان من هذا أن دخل فى القانون المدنى الجديد كثير من الأحكام والنظريات المستمدة من الفقه

الإسلامى وذلك أمر معروف .

على أن هذه بداية طيبة نرجو أن تصل بنا إلى مانريد؛ ويسرناهنا أن ننقل عن الأستاذ الدكتور السنهورى هـذه الكلمة القيمة على وجازتها :

« والهدف الذى نرمى إليه هو تطوير الفقه الإسلامى ، وفقاً لصناعته ، حتى نشتق منه قانوناً حديثاً يصلح للعصر الذى نعيش فيه ، وليس القانون المصرى الجديد أو القانون العراق الجديد ، إلا قانوناً مناسباً فى الوقت الحاضر لمصر أو العراق ، والقانون النهائى الدائم لكل من مصر والعراق ، بل ولجميع البلاد العربية ، إنما هو « القانون المدنى » الذى نشتقه من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطورها . وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحدت ، فيأتى القانون ليدعم وحدتها ، وقد تكون فى طريقها إلى التوحيد ، فيأتى القانون عاملا من عوامل توحيدها ، ويبقى على كل رمزاً لهذه الوحدة »[1] .

أما كيف نصل لهذا الذى نريد ، من سيادة الشريعة الإسلامية فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية ، وما هى الوسائل التى تؤدى بنا إلى مانرجو فى المستقبل القريب . هذا ، وذاك ، لا يتسع له نطاق هذا المقال ، ولعلنا نتكلم عن ذلك فى مقال آخر ، والله المستعان ؟

الدكتور محمد يوسف موسى

---

(١) راجع العالم العربى مقالات وبحوث ، الكتاب الثانى ، بحث القانون المدنى العربى ص ٢٨ و ٢٩ ، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية مطبعة مصر سنة ١٩٥٣ م .

الصديق المهذب

أخ لى ، عنده أدب ، مودّة مثله نسب
رعى لى فوق ما يُرعى وأوجب فوق ما يجب
فلو سُبكت خلائقه لبُهرج عندها الذهب

في دعوة الإسلام قضاء على الإلحاد

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

إن دعاة الهدم والتخريب يحرصون الحرص كله على هدم الدين ونشر الإلحاد ، ليطيب لهم الجو في إذاعة مذاهبهم المضللة ، وآرائهم المنحرفة ، ذلك لأن دعاة الإلحاد يرفعون عن ضمير الفرد شعوره بالمسئولية في أخطائه ، ويلقونها على المجتمع . فهم يهدمون الأساس الذي لا قوام للأخلاق بغيره ، ويقولون للمذنبين والمقصرين : إنكم جميعاً أبرياء من التهمة منزهون من الوصمة ، لأن اللوم كله على المجتمع في عجز العاجز وفساد الفاسد وإجرام المجرم وتقصير المقصر .

أما الدين فهو يلقي التبعة على الفرد ويشرك معه المجتمع إذا لم ينهه عن فعل المنكرات ، ويمنح الحرية الفردية في أجمل صورها واستقلال الشخصية في أدق معانيها ، ولكنه لا يتركها فوضى ، فللمجتمع حسابه وللإنسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها .

فغاية الملحد أن يطعن في الدين ويصد عن سبيله بقلمه ولسانه . فيبالغ في الدعوة إلى حرية الرأي ، والتخلص من التشريعات والأوامر والنواهي ، ليصير الإنسان مطلق العنان لا تقيده حدود ولا تحده واجبات بل يسلم نفسه للشهوات والانطلاق في الإباحية للملذات .

فالملحد لا يحافظ على عرض أحد ولا على ماله ولا على حرمه وإنما هو خاضع لسلطان الهوى على النفوس ، وحب إرضاء الغرائز الدنيا والرغبة في النزول على حكم الشهوات ، والتحرر من كل القيود والمسئوليات . هذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسع نطاق إلا في جو من الإلحاد ينكر القوانين السماوية ، ويسخر من كلمة الأديان ويرفع من القلب شعور الاستحياء من الله ؛ لأن الذي يريد أن يعطي لنفسه هذه الحرية الخلقية المطلقة ، لا يمكنه أن يتجنب وخز ضميره ما دام هذا الضمير يقظاً واعياً ، وما دامت فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية في هذا الضمير ، فلابد إذن أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس لإخفاء هذه الصورة المرسومة في لوحة ضميره ، ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق النوافذ التي يرى منها نور الله ، والتي يسمع منها داعي الله .

لذلك حرص دعاة الإلحاد ـ وهم الشيوعيون ـ على إلقاء التصريحات التي تقلل من شأن الدين ، وتصفه بأنه خرافة ورجعية ؛ جاء في خطبة لوزير المعارف ، في حكومة السوفييت :

نحن نكره الأديان لأنها تبشر بحب الجيران

والعطف والرحمة ، وهذا يخالف مبادئنا فليسقط حبنا لجيراننا . فإن ما نريده هو الكراهية والعداوة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم .

ويقول الماديون الملحدون :

إن الدين نفثة المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها ، إنه أفيون الشعوب الذى يخدرها لتسهل سرقتها ، والدين ـ جملة ـ هو الغذاء الخادع للضعفاء لأنه يدعوهم إلى احتمال المظالم ولا يزيلها .

وجاء فى الخطاب الذى ألقاه (لينين) فى اتحاد الشبان الشيوعيين سنة ١٩٢٠ : أنه ينكر صراحة وجود الله عز وجل فيقول :

« إننا ننكر ما يدعيه المتدينون من أن مبادئ الأخلاق هى أوامر من عند الله ، فنحن بالطبع لا نؤمن بالله ونعلم تمام العلم أن رجال الأديان نسبوا إلى هذا الاسم (الله) هذه الأمور لتحقيق مآربهم الاستغلالية .

إلى أن قال :

ولكى يتسنى لنا بلوغ الأهداف الشيوعية لابد لنا من الاتحاد وأن نوجد هذا الاتحاد بأيدينا فإن الله لن يخلقه .

أما الإسلام فيقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام الشرع ، وأمام الله ، فى الدنيا والآخرة ، لا فضل إلا للعمل الصالح ولا كرامة إلا للأتقى . قال تعالى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنظرة الإلحاديين إلى الإسلام نظرتهم إلى مزاحم خطير يخشون منه أن ينازعهم السلطان على عقول الأمم وضمائرهم فى مسائل الأخلاق والمعاملات .

فالإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ، ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، ويعيد هذا الأمر فى آيات متعددة من القرآن الكريم قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » « يأيها الناس آمنوا كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .

ولا يستطيع الإلحاديون أن يتخذوا من الإسلام فى تشريعاته حجة لتسخير المجتمع فى خدمة أصحاب الأموال ، كما يقول المفسرون الماديون للأديان . فقد ظهر الإسلام فى مكة ، وكان سكانها مصدر ثروتهم وقوتهم هى التجارة ، فالمال إذن كان فى مكة له شأن أى شأن ، وأعظم دليل على ذلك هو وجود فئة كبيرة من المرابين ، وشيوع تعاطى الربا فيما بين تجار مكة ، حتى صار مصدراً ثانياً من مصادر ثروتهم « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا » .

فكان الربا فى مكة فاحشا جدا يتراوح بين ٤٠ و ١٠٠ فى المائة كما ذكر (بندلى جوزى)

فى بحثه عن الإسلام . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وكان عدد المرابين فى مكة كبيراً جداً فى عصر النبوة ، ولذا كان ضررهم على المجتمع، وأضرارهم بالفقراء والبائسين لا حد لها مما نراه مصورا تصويراً واضحا فى موقف القرآن من الربا، وحملاته القاسية على المرابين؛ لأن هذه الطبقة من الناس لم يكن يهمها من الدنيا إلا جمع المال ، فحمل القرآن على هذه الطائفة ، حملة شعواء ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وفى صحيح مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ... وفيها وأكل الربا) .

ثم أخذ الإسلام يتدرج مع الأغنياء فحثهم على التصدق وأعلمهم أن للسائل والمحروم حقوقا فى أموالهم ، وجعل ذلك شرطا من شروط المتقين الصادقين ، فقال تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون » إلى أن قال : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

بل جعل ذلك وسيلة من وسائل النجاة يوم القيامة فقال تعالى : « كلا إنها لظى نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى. وجمع فأوعى. إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل . والمحروم » .

ثم أخذ الإسلام يتتبع الأغنياء والموسرين فى كل مناسبة يطالبهم بالإنفاق ومد يد المساعدة للمعسرين ، فجعل إطعام الفقراء والتصدق على المساكين كفارة لكثير من الهفوات : فى حنث اليمين وفى إفطار رمضان عمدا أو بعذر ، وفى محظورات الحج وفى يوم عيد الفطر والأضحى، وفى كل المواسم الدينية .

ومن عجيب ما جاء فى الإسلام بصدد معالجة الفقر ومعاونة البائسين بما يقطع حجج الملحدين ويلقمهم حجرا ، ولا يستطيعون أن يدعوا أنهم خير من الإسلام فى معالجة هذه الظاهرة فى المجتمع . وذلك بما توجه به القرآن إلى الوارثين الذين يجلسون لتقسيم الميراث والأموال الطائلة ، ويحضرهم أقاربهم واليتامى والمساكين ممن ليس لهم نصيب فى ذلك الميراث فقد حثهم الإسلام على أن يعملوا على سل سخائم النفوس ، وتفريج حقد الصدور بأن يمنحوهم شيئا مما ورثوه فما المال الذى ورثوه إلا رزق ساقه الله إليهم عفواً من غير كسب ، فلا ينبغى أن يبخلوا به على المحتاجين . بل يجب أن يتراحموا عليهم بجزء يسير مع تطييب خاطرهم ، والتلطف إلى قلوبهم بالكلام الجميل قال تعالى : « وإذا حضر القسمة

أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

هذا وإن القرآن فى علاجه للفقر لم يكتف بأن توجه إلى الأغنياء بالإنفاق والمسارعة إلى البر ، بل توجه أيضا إلى الفقراء يؤدبهم ويحثهم على الصبر وقوة العزيمة والسعى فى الرزق وتطهير قلوبهم من الحقد على الأغنياء والاضطغان عليهم .

فتوجه إلى الفقراء يخبرهم أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وهو الذى يغنى ويفقر بيده الخير وعنده مفاتح الرزق ولا ينزله إلا بقدر معلوم « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم» ، « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » .

فالمجتمع الإسلامى يقوم على المساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والألوان والأجناس ، ولا تمنعه المساواة أن يعطى المزايا النافعة حقها من الإنصاف لمصلحة المنتفعين بتلك المزايا فى جميع الطبقات ، ولا يفاضل فى الحقوق بالمال أو بالوراثة فإنما يكون التفاضل بينهم بالعلم والعمل «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ؛ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

روى البخارى (أن رجلا مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يستمع لقوله ، فسكت صلى الله عليه وسلم ، ثم مر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون فى هذا ؟ قالوا حرى إن خطب أن لا يزوج ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) .

والإسلام ضد الاحتكار والكنز، قال تعالى: « يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

أما الاحتكار فقد ضرب الإسلام بيد من حديد على أيدى المحتكرين المتحكمين فى الأسواق ، وذلك ليجنب المجتمع شرور الرأسمالية التى يخوف الناس بها دعاة الإلحاد

فقد روى معقل بن يسار رضى الله عنه . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من

دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغلبه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة) يريد بمكان عظيم من النار .

وروى عن عمر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما (من احتكر الطعام أربعون ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه) .

فأنت ترى أن الإسلام لم يترك لدعاة الإلحاد وهم الشيوعيون بابا يدخلون منه إلى نشر مذهبهم بحجة رفاهية المجتمع وإقامة دعائم المساواة والحد من شره الرأسمالية فقد تكفل الإسلام فى تشريعاته بما هو أوفى من ذلك وأقوى وأكثر صلاحية وأجلب للإنسانية سعادة .

والداهية الدهياء فى هذه الدعوى المنكرة أن دعاتها لا يؤمنون إلا بالمادة ويكفرون بما وراءها، فهم يرجعون كل ما يقع فى التاريخ من حركات إلى أسباب اقتصادية ولا مرجع لها غيرها وما دامت الأسباب الاقتصادية - دون غيرها - هى التى تملى على التاريخ حركته وسيره حيث تشاء فلا مجال إذن للاعتراف بإله خالق مدبر للكون بقدرته وإرادته ،أما الإسلام فهو يطلب من الإنسان أن يعترف بأن من فوقه إلها له قدرة عليا ، توجه الكائنات وتسخرها حسب قوانين منظمة نافعة وتعصمه من اليأس فى ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء . « قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

يريد أنه أعطى مخلوقاته سبحانه كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ثم هدى إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه ،وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه، وقال تعالى : « ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » . « ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

فالإسلام هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً ،وعاملا لروحه وجسده ،وناظرا إلى دنياه وآخرته ، مسالماً أو محارباً ، معطيا حق نفسه أو معطياً حق حاكم ولا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة .

وبعد : فالحلال بين والحرام بين فمن شاء فليكن ملحداً ومن شاء فليكن مسلماً « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » .

عبد الوهاب حمودة

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد على غريب

حفظ الأزهر طوال ألف عام الدين واللغة والمعرفة ، وهذه الأبنية التى أنشئت على غراره ، كانت بمثابة البيت الذى بناه « أبرهة » ؛ ليصد به الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام .

ولئن صح ما رواه المؤرخون من أن « المعز لدين الله » أقام الأزهر الشريف ؛ ليذيع رسالة « الفاطمية » ، فهذا المعهد الجليل الخالد ، نفض يديه من عبث العصبية الدينية ، وأذاع رسالة الله .

ومن شتى بقاع الأرض ، كان الشباب المسلم يفد على الأزهر ، مزوداً بالقليل من المال ، والكثير من الإيمان : من الهند ، والصين ، والملايو ، وجاوه ، والتركستان ... من عشرات الشعوب الإسلامية التى يكتب كل شعب منها اسمه على خريطة الدنيا بالدم والجهد والتضحية .

كانوا يحضرون إلى القاهرة ؛ ليجلسوا على أرض الأزهر ، وليستمعوا إلى شيوخه وهم يصاولون الكلمات والحروف ؛ ابتغاء أن يستخرجوا منها ، من الأسرار ما يملأ بقاع الأرض ، ولم يكن الشيوخ أوفر نعمة من طلابهم ؛ فإنهم جميعاً سواء فى خشونة العيش ، وربط الأحجار على البطون ، وطعامهم الحقيق : هو العلم ، وهو أقسى على أسنانهم من الخبز الجاف .

ولم يكن أهل الدين فى عزلة عن الحياة ؛ رغم كل ما هم فيه من زهد وقناعة ... كانوا هم الطبقة المثقفة ، وشيخ الأزهر الذى قد لا يخرج إلى الدرس فى يومه ؛ لأنهم يغسلون له قميصه ، وهو لا يملك سواه ! .

إذا ما وقفت بين يديه امرأة من السوقة ، تمسح دموع عينيها بطرف ردائها ، وتشكو إليه من أن الوالى استلب منها بضعة قروش .

شيخ الأزهر هذا الجائع المحروم ، الذى يعتبر نفسه مترفا ؛ من يفطر على بصلة ! ينقلب إلى عملاق ، قدماه فى الأرض ، ورأسه فى السماء يمضى إلى الوالى ، وهو يقود أعظم جيش من إيمانه وتقواه ، فينهره ويغلظ له فى القول ، وقد يمسك به من تلابيبه ، ويهزه هزاً عنيفاً ؛ حتى يستخلص منه حق المرأة الشاكية .

كذلك كان الأزهر ، وهذه حال شيوخه وطلابه ، وما من دعوة إلى الجهاد فى سبيل الوطن إلا ارتفع الصوت بها من الأزهر ؛ فالحياة عند هؤلاء الذين يعمرون بيت الله : هى الكرامة الإنسانية ، ولا شىء يوازيها ،

ورغائب الجسد فسوق ، والتحرر من الخوف فضيلة ، والموت فى سبيل الحق ، هو وحده الشهادة العليا . . . ! .

هذه الصور الجميلة الرائعة ، كانت تتوارد فى مخيلات القرويين ومن إليهم من أهل الحضر ، فيبعثون بأبنائهم إلى ذلك المعهد ، ليصبحوا خليقين بالانتماء إلى الفضيلة الإنسانية ...!. وما من شىء يمكن أن يصرفهم عن هذا الغرض السامى النبيل ، فهم يقصدون إلى الأزهر على الدواب ، وفى السفن التى تجوب البحار والأنهار ! .

وكان والدى قرويا مستور الحال فى أقصى بلاد الصعيد ، وينفق على أسرة أبناؤه فيها عشرة ، وكان فى صباه قد تعلم القراءة والكتابة ولكنه لم يقنع بهذا القدر من المعرفة ؛ فنى أوقات فراغه ، يحضر الدرس على المرحوم الشيخ الدردير صالح ، وهو رجل يعتبر أعلم العلماء ؛ لأنه أمضى بضع سنوات فى معهد دينى أهلى بجرجا .

ثم راح والدى يعلم نفسه بنفسه ؛ اشترى الكتب الدينية وقرأها ، ثم قرأها ، وأخيراً جلس ليلقى درسه على أخى الأكبر وعلىّ ، ثم أذن للناس بعدذلك بأن يتلقوا عليه الدروس فى « المضيفة » أو فى المسجد .

وكان والدى حر الفكر إلى حد ، ولم أفطن لهذه الحقيقة إلا بعد سنوات طويلة ، فكان يطربه أن يقرأ فى كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » قول مؤلفه المفكر الإسلامى العظيم ابن رشد :

« أخطأ أبو حنيفة فى هذا الرأى » ، و « جانب مالك التوفيق لهذه المسألة » ، و « شذ الشافعى عن الجماعة فى هذا الأمر » .

والعجيب أن أخى الأكبر كان يغضب أشد الغضب ، حين يصغى إلى مايتهجم به ابن رشد على الإمام مالك ، فقد كان مالكى يغالى فى تعصبه للإمام مالك ، أما أن يتعرض ابن رشد لبقية الأئمة المجتهدين فذلك ما لا يعنيه ! .

وقرأت على والدى كذلك «رسالة التوحيد» للإمام محمد عبده ، وثلاثة أجزاء من تفسير الفخر الرازى ، ولم أكن أفهم الكثير مما أسمعه ، برغم أن والدى يحاول جاهداً أن يدخل هذه الفلسفات العويصة فى رأسى ! .

وفجأة راح يقرأ علينا « حديث عيسى ابن هشام » للمويلحى . وقد أعجبت كثيراً بهذه الحكايات الحديثة ، التى تتناول حياتنا فى مصر ، وبطلها أحد الباشوات ، شاء المؤلف أن يبعثه من مرقده ؛ ليرى ما لم يكن يراه من قبل من تغير وتبذل وانحلال .

وكان أخى الأكبر قد أمضى عاما فى الأزهر ، وعاد إلينا مزهوا بما درسه ، كما لو أن القمر يطلع من كمه ! . وجاء أهل القرية جميعاً يرحبون بقدومه ، ويلثمون يده ، ثم هم

يسألونه عن أنباء الدنيا ، وأحاديث السياسة . ولكنه لم يكن يدرى عن ذلك شيئا ، فهو يمضغ كلمات ويدمدم ، فيخيل إلى هؤلاء القرويين السذج أن هناك أحداثا خطيرة ومثيرة ، يحاول أن يخفيها دونهم هذا الشيخ الأزهرى الصغير ! .

وقال لى والدى : ستذهب إلى الأزهر الشريف فى العام القادم ، ولم أكن فكرت فى شىء من أمر مستقبلى ، فنى هذه البيئة الريفية الفقيرة ، يصعب على أمثالى أن يفكروا فى أمر المستقبل ، وإنهم ليدعون ذلك للأقدار ، تقرر فيه ما تشاء ! .

وكان على أن أحفظ نصف القرآن الكريم فإن ذلك هو الحد الأدنى لقبولى طالبا فى الأزهر ، فقد دخل « النظام » إلى هذا المعهد ، ونسقت الدراسات فيه ، وإنى لأشك فى أن هذا كان إصلاحا ، بل هو الإفساد الحقيقى ، إذ أن الدراسة فى الأزهر القديم كانت أقرب إلى الدين ، وإلى المعرفة ، وأدعى إلى الجد فى سبيل تحصيل العلوم ! .

وكان هؤلاء الشيوخ الفقراء ، يؤلفون الكتب ويواصلون البحث . ومهما قيل عن هذه الكتب « الصفراء » ، فإن فيها مظهرا واضحا للدراسة العميقة ، ولسلامة الإدراك ، ولجودة الفهم . ومنذ وُجِدَ « النظام » فى الأزهر لم يعد ثمة وجود لهؤلاء المؤلفين العظام ، وإن كنا سمعنا عالماً من الأزهر لم يجد ما يؤكد به علمه الفياض ، إلا أن يفتى بأن الرقص حلال فى حلال ! .

والمسألة أن المبشرين ومن إليهم من أشباه المثقفين ، شنوا حربا ظالمة على الأزهر ، واتهموه بالرجعية وبالتأخر وبالجمود . ولم تضع هذه الحرب أوزارها أبداً ، حتى العامة تأثروا بهذه الحرب وخاضوها ، وهذه المحاولات التى بذلت لما وصفوه بالإصلاح ، كانت بمثابة رد على هذه التهم البشعة ! .

وغالى الأزهريون فى دفع تهمة الجمود عنهم ، حتى إنهم نقلوا المسرح إلى معهدهم ، وقد ينفر الكثيرون من رأيى هذا ، ولكننى أومن به .

فالأزهر القديم الذى قدم لنا فلتات من البطولة والعبقرية كان فى نظرى أجمل ؛ وإنى لأتمثل الشيخ حسن العدوى واقفاً أمام محكمة عسكرية انجليزية ، فى مؤتنف عهد الاحتلال بمصر ، ورئيسها الذى صدعته الخمر فى أمسه ، يسأل الشيخ بلسان المترجم ، عما إذا كان قد أمضى « منشوراً » ينادى فيه بخلع الخديو توفيق ، لأنه خان وطنه؟ .

وأجاب الشيخ :

ـ أنا لم أوقع على هذا « المنشور » ، ولكن هاتوه لى الآن ، فأوقع عليه ؛ لأن الخديو توفيق خان وطنه ودينه ! .

وأعود إلى ما كنت فيه . . .

كان حفظى لنصف القرآن مستحيلا

وإليكم السبب ، لست أدرى إلى اليوم ، كيف أمكن لنسخة من كتاب « تاريخ الصحافة العربية» لمؤلفه «الكونت فيليب دي طرازي» أن تتسلل من القاهرة عام ١٩١٧ إلى بيت ريفي في قرية اسمها : «العسيرات » من قرى نجع حمادي ؟ .

لم أسأل والدى عن كيفية حصوله على هذا الكتاب ، ولماذا اشتراه ؟ وقد وجدته في إحدى الغرف فقرأته . . . لا بل كدت آكله ، وشغلت نفسي به إلى درجة أنى عاودت قراءته عشرات المرات ، ولعل هذا يفسر انتمائي بعد ذلك إلى مهنة الصحافة المتعبة . . !.

على أنه كان قد تقرر سفرى إلى القاهرة ؛ لأنتسب إلى الأزهر . وسألني والدى ، عما إذا كنت أحفظ نصف القرآن ، فكذبت وأكدت له أنني أحفظه ولست أدرى لماذا لم يختبرني ؟ على أنه لم يفعل ، وانتابني الهم والفزع من أن أرسب في الامتحان ، وأفضيت بما يخامرني إلى أختى فطمأنتني .

وشغل منزلنا أسبوعا كاملا بإعداد الزاد لنا ، كل شيء أعدوه : اللحم ، والخبز ، والأدم ، والفاكهة ، حتى الملح لم تنس جدتي - يرحمها الله - أن تدس في متاعنا كمية كبيرة منه ؛ بسبب سوء رأيها في ذوق القاهريين ؛ إذ كانت تعتقد أنهم من الرفاهية والترف بحيث لا يضعون في الطعام ملحا ! .

وركبنا الدواب إلى محطة السكة الحديد في « بندر فرشوط » والطريق إلى « البندر » كالطريق إلى الجنة ؛ محفوف بالمكاره وإنك لتسلكه اليوم وهو معبد ميسور ، وفي الغد لا تقوى على السير فيه ؛ فإن القروى الذى يملك قيراطين من الأرض إذا جاء يرويهما ملأ الطريق بالماء ، فاستحال عبوره ، وأية كلمة تقال نقدا لهذا التصرف ، قد تؤدى إلى نشوب معركة يزهق فيها كثير من الأرواح !.

هذا القروى الذى يملك القيراطين ، لم يكن قد رواهما بالماء والحمد لله ، فمشينا نذرعه ونحن نثرثر ونضحك وعلى شاطئ المصرف كان نبات الحلفاء يتمايل مع الريح ، والهوام والحشرات والفيران - وربما كانت الثعابين تختفى في هذا النبات وتجرى إلى غاياتها . والطيور في الجو ترقبنا ثم تضحك من سخافتنا بأغاريدها المشجية ، فليس أسمج في مجال الطبيعة في الريف من هؤلاء الريفيين أنفسهم !.

وجاء أكثر أهل القرية يودعوننا على المحطة ، وفيهم الراكب والراجل ، وكنا نحس ما يصنعون من صنوف التوقير والاحترام ، كما لو أننا أصبحنا عضوين في هيئة كبار العلماء ، فهذه الروح العجيبة الواضحة ، روح التقدير والإجلال للأزهر تجعلهم يعاملون كل من ينتسب إليه بفيوض من التقدير والإكبار .

وركبنا الدرجة الثالثة لأنه ، كما قال غاندى : لا توجد درجة رابعة ! .

فكان علينا أن نمضى في القطار إحدى عشرة ساعة . ولست مستطيعا أن أقدم إلى

القارئ* صوراً لما يجرى فى الدرجة الثالثة من قطار الصعيد. فقد اختفيت تحت أكوام المتاع ورحت أتسلى بالعبث مع خواطرى وأحلامى.

كانت لدى فكرة غير واضحة المعالم عن القاهرة، المدينة التى لا يأكل أهلوها الطعام بأيديهم، بل بأدوات معدنية، ولا يركبون الحمير ولا البغال، بل إن مطيتهم الكهرباء ... !.

وكنت مقتنعا - لفرط سذاجتى - أنه لا يوجد فيها فقير واحد فمن أين يجيئها الفقر على ما فيها من غنى ورفاهية وترف، وهى تسبح فى الأضواء، ويرتاض أبناؤها فى حدائق يملأ عبيرها الجو، ولا بد أنهم يأكلون اللحم مرتين فى الأسبوع، وربما أكلوه ثلاث مرات، فإننا نحن القرويين نشق ونبصق الدم لتثقل بالذهب جيوب أهل هذه المدينة العامرة ؟.

وعندما دخلتها تحطمت فكرتى التعسة عنها بين يدى، وذهلت، فما كان ينبغى أن أرى ما رأيت : الزحام على أشده كأن الناس يساقون إلى الحشر، الأكتاف تلامس الأكتاف، والأيدى تتدافع، والرءوس تتواثب على سطح هذا الموج المتلاطم، والصرخات تنبعث من كل فم. !.

ورأيت الفقر ممثلا فى صبية حفاة عراة، يسجدون على الأرض بين لحظة وأخرى، يلتقطون شيئاً لا أعرفه، والأوحال تملأ هذه الدروب التى سلكناها فى طريقنا إلى المنزل والنسوة جالسات على الأرض، أمام أبواب المنازل، يتقاذفن الشتائم أو يثرثرن بلهجة لم أوفق إلى فهمها، وثمة شيخ محنى الظهر واهن الصوت يدعو للمحسنين بالعز والتأييد !.

قال لى أخى الأكبر والبهجة تملأ صدره :
- كيف رأيت القاهرة ؟.

وماتت الكلمات على شفتى، ولم أجد لعابا أصنع لها منه كفنا ! ولم نكن سلكنا الطرقات التى يقيم فيها كبار الموسرين من الأجانب والمصريين، بل رحنا نضرب فى الأحياء الفقيرة التى لا بد أن تنتهى بنا إلى « الباطنية » حيث يقطن أخى . . !. وذهلت أكثر عندما وجدت هؤلاء التعساء يضحكون ويقهقهون غير مبالين بما هم فيه من بؤس وشقاء.

وفهمت - بعد وقت طويل جدا - أن الفكاهة والنادر والضحك، اتخذها المصريون وسيلة من أقوى وسائل الدفاع، وأنهم يحاربون الظلم بالنكتة، ويقاومون العدوان بالسخرية وما من حاكم نجا من هذه الألسن التى تطول وتطول، حتى تلتف حول عنقه وتجذبه إليها، وليس القصد من هذا إتاحة الفرصة للأفواه أن تضحك على الطاغية المستبد، بل القصد أن تنزله من سمائه إلى الأرض، وتجعله فى مستوى الخلائق التى يرهبها ويعذبها فلا تعود تخشاه ... !.

وقبل أن نقترب من المنزل تفقدنا متاعنا فإذا جانب منه مفقود ، ووقف سائق العربة يكاد يمزق ثيابه وهو يقسم بأغلظ الأيمان على أنه ما رأى شيئا ، وكان يرفع يديه إلى أعلى ويدور حول العربة باحثا منقبا ، وهو يدمدم ويظهر الغيظ ، ليؤكد براءته من السرقة .

على أن واحدا من الأزهريين القدامى كان معنا ، فتقدم إلى سائق العربة ونظر فى وجهه ، وفجأة رأيناه يمسك بتلابيبه ويهم بضربه ، فصرخ الرجل وكان قميئا نحيلا ، والأزهرى القديم عملاق ، وسمعناه يقول له :

ـ أنا أعرفك ...! . عد بنا إلى القهوة الصغيرة وأرجع ما سرقته ..! .

وعاد الرجل بنا طائعا ذليلا إلى القهوة الصغيرة المنزوية فى درب ضيق ، ولم يكن يجلس عليها أحد ، ورد إلينا متاعنا ، وفهمنا أن الرجل لص يتصيد الأزهريين ، ويسطو على ما يجلبونه من قراهم من زاد ، على أنه لم يخجل بعد أن أفرغ حمله ، أن يستجدى الخبز منا وكنا كراما فأعطيناه .

وهممت بالدخول إلى المنزل الذى كان يجاور منزل « أسرة طموم » وهى التى اشتهر بعض أفرادها بالعلم ، وواحد منها ألف كتبا يدرسه فى الأزهر ، وقد أنسانيه الشيطان ، والعجيب أن مدرس الخط لنا فى السنة الأولى كان من هذه الأسرة ، وهو إنسان رقيق مهذب .

قلت : إننى هممت بدخول المنزل ، وإذا بى أجد نفسى أمام سيدة نصف عارية ، فتحت باب غرفتها الأرضية ، وراحت تنظر إلينا وكانت جميلة ، أو على الأصح لم تقع عيناى على أجمل منها ، وكانت تبتسم وتحاول أن تخفى وجهها بطرف ثوبها ، ويبدو أنها كانت تتوقع أن ترانا على ما رأتنا فيه ، وإن كانت رغم ذلك أصرت على أن تستعرض موكبنا فى فضول ....! .

أما أخى الأكبر فقد أغمض عينيه وراح يضرب الأرض بحذائه ، كما لو أنه أراد أن يؤدب بحذائه « إبليس » ، وبعضنا تظاهر بأنه لم ير شيئاً ، وإن كان قد راح يتابعها بعينيه . أما أنا فلم أجد من الكياسة أن أتجاهل هذه الإنسانة ، فطفقت أحملق فيها كما لو أنها هبطت من السماء ....! .

وعاقبنى أخى بعد ذلك عقابا شديداً ....! .

وبعد العشاء اقترح بعضهم أن نذهب إلى الأزهر الشريف ، فراقت لى الفرجة عليه ، واستطلاع أمره . وخرجنا نخب فى كساوانا ، وقد ألفت نفسى هذه المشاهد المتنافرة وإنى لأحفظ إلى اليوم الصورة المطبوعة على قلبى لهذا المعهد الجليل ، فقد أحسست له رهبة ، وسرت فى بدنى قشعريرة ، وأنا أخطو إلى داخله . وثمة شبان مثلنا يخرجون منه ويدخلون إليه فى غير احتفال ولا مبالاة ،

غير أن عدواهم لم تصبنى . فمشيت على أرضه وكأنما أمشى على جمرات من نار . . ! .

لقد بدا لى شيئا هائلا مروعا ، لا حد لهيبته . ورحت أتطلع إلى مشارفه ، ونحن فى الفناء. فتعثرت فى أولئك الذين يجلسون هناك،ويأكلون ويسمرون ويضحكون ..!.

وجلسنا على « الحصير » والأضواء القليلة المتناثرة تتمايل . وفى ذلك الوقت كان يضاء بـ(غاز الاستصباح) ولا أدرى هل استبدلوا به الكهرباء ؟ .

ونسينا الوقت فلم نعد نهتم له ، وجاء طلاب كثيرون يسلون على معارفهم من جماعتنا . وفى فناء المسجد رأيت أحدهم يدخن ، فأنكرت ذلك إنكاراً شديداً . وهؤلاء المقيمون فى الأزهر لكل واحد منهم خزانة من الخشب يودعها ثيابه وطعامه وحذاءه وذهبت أسأل عن كل ما أراه . . . كنت مشوقا إلى أن أستوعب كل شىء عن الأزهر الذى أتاحت لى الظروف فرصة الانتساب إليه .

وفى الصباح جاء يوم الجمعة ، فتشاور كبار الجماعة فى الذهاب إلى حديقة الحيوان ، ولا تسل عما غمرنى من فرح وغبطة ، فإننى كنت سمعت عن هذا المكان الذى استطاع الآدميون أن يحبسوا فيه الحيوانات المفترسة، وكان فرحى أشد لأننى سأركب ـ لأول مرة ـ الترام ... ! .

وأعاذك الله من أزهريين فى عام ١٩١٨ اتفقوا على أن يرتاضوا فى حديقة الحيوان ؛ فإنهم قرروا أن نمشى إلى هناك على أقدامنا ، وقالوا : إنها رياضة . وقالوا : إنها « فركة كعب » وهكذا سرنا من الأزهر إلى الجيزة راجلين ... ! .

بلغت الحديقة وأنا ألهث ، فارتميت على مقعد هناك ورفضت الفرجة ، ورأيتهم يتسكعون حول هذه الأسوار التى تحجب الحيوانات ، وعادوا إلىّ وكنت قد استرحت قليلا ، فمشيت معهم وأنا أعانى من التعب والإرهاق . . ! .

ولما اقترب موعد الخروج هممنا بالانصراف ، وكان معنا طالب بمزاح خفيف الروح ، فنظر إلىّ ورأى ما أنا فيه من جهد وتعب ، وكان منظرى كئيبا مغرقا فى البشاعة لما أصبت به من نكدوهم . وعندئذ رأيته يوصى زملاءنا بأن يتجمعوا حولى ، ويخفونى عن الأنظار ، ولما سألوه عن السبب قال ضاحكا :

ـ أخشى ما أخشاه أن لا يسمحوا بخروجه من حديقة الحيوان . ! .

وعدنا إلى الأزهر سيرا على الأقدام . ؟

« للحديث بقية » **محمد على غريب**

النحو الجديد

للأستاذ علي العماري

تهذيب النحو أو تيسيره أو تحريره أو تجديده — على حسب اختلاف المهتمين بالدراسات النحوية فى التعبير — فكر يبدو أننا سنظل زمنا طويلا ندور حولها قبل أن تقف أقدامنا على أرض صلبة نبدأ منها الطريق .

والحديث فى النحو - على هذا النحو - ليس وليد يومنا هذا وإنما تمتد جذوره إلى أوائل هذا القرن .

وقد فزعت لهذا الحديث بيوت كثيرة ، وتصاولت فيه أقلام كتاب كبار ، وصغار أيضا. وكانت الصحف والمجلات - فى أول الأمر - هى الميدان ، ثم ألفت الرسائل والكتب ، وألقيت المحاضرات ، وقامت المناظرات .

وكانت الآراء تشتجر وتعترك ، ويحتدم بينها الخصام والنضال ، ثم ينفرج غبار المعركة عن وجهات نظر ثلاث :-

ففريق يرى - وهم الأكثرون - أن نلتمس طريقاً - أى طريق - لنيسر النحو على الدارسين ، ولا سيا المبتدئون منهم ، وفريق يرى - وهم أصحاب النيات المدخولة - أن نلغى النحو العربى جملة وتفصيلا ، ونبدأ فى وضع قواعد للعامية ندرسها للطلاب ونعممها فى جميع الأقطار العربية ، أما الفريق الثالث - وهم الراقدون مع أصحاب الكهف - فرأيهم الذى لا يحيدون عنه أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! .

وأصحاب الرأى الأول ليسوا على درجة واحدة، بل منهم المعتدل الذى يكتفى بالتيسير دون أن يمس القواعد والأصول الثابتة فى النحو القديم ، ومنهم المتطرف الذى يرى أن نهدم بعض الأصول ونقيم أصولا أخرى مكانها ، وبين هذين الفريقين طوائف على درجات فى هذا الأمر .

ومهما يكن من أمر، فقد كان من الواجب أن تقوم هذه المعارك ، وما نشك أن العربية استفادت منها كثيراً ، حتى الآراء المتطرفة كشفت لنا عن نواح استفدنا من إلقاء الأضواء عليها، والحركة - دائماً - من أقوى

أمارات الحياة . ولا ضير على النحو من استمرار هذه الخصومات ، أو على وجه الدقة هذه المصاولات التي يكون الوصول إلى الحق رائدها فى أغلب الأحيان .

وقد رأيت أن أعيد فتح هذا الباب فى مجلة الأزهر بسبب ما ظهر من كتب فى السنوات الأخيرة تعالج هذا الموضوع ، منها كتاب النحو المنهجى ، وكتاب تحرير النحو ، وقد كان لهذين الكتابين شأن علمى ، وشأن آخر تربوى ، ولذلك سنناقشهما ـ أولا ـ ثم نلقى نظرة على الكتب الأخرى .

وقبل أن أعرض لمناقشة ما فى الكتابين من مادة علمية أحب أن أقدم بعض المسائل العامة .

القواعد والأصول المقررة فى العلم ـ أى علم كان ـ أمانة تجب المحافظة عليها ، وليس معنى ذلك أن نقدسها فلا نبيح لأحد أن ينالها بنقد أو تجريح ، ولكن معناه أن نزن كل نقد يوجه إليها بميزان منصف عادل ، وأن ندافع عنها وتناضل دونها إذا رأينا أن الناقدين يحيدون عن المحجة عامدين ظالمين .

وربما كان من الحفاظ على هذه الأمانة وحسن الرعاية لها أن نعين من ينقدها بحق وأن نشد أزره ؛ لأن الذين تركوا لنا هذه الأمانة قضوا أعمارهم فى خدمتها وتهذيبها ، ولم يحظروا علينا أن تنظر فيها وأن تقوم ما قد نراه من اعوجاج لم يروه فى بنائها .

هذه واحدة . أما الثانية ، فنحن لا ننكر أنه من حق كل إنسان أن ينقد ، وأن يقول ما حلا له من القول، على أن يكون قوله موضع نظر العلماء ، ولكن الذى لا يقره منصف أن يجعل الإنسان ـ مهما كانت مكانته ـ من نفسه ناقدا وحكما ، وأن يعطى لنفسه الحق فى أن يفرض آراءه على الآخرين. فقد كانت الآراء الجديدة فى النحو أو فى البلاغة ، أو فى أى علم آخر تطالعنا فى المجلات أو فى الكتب فلا نرى بأسا ، بل نحمد لأصحابها غيرتهم ونأمل أن تكون لهذه الأبحاث نتائجها الطيبة، ولكن الذى حدث فى الأعوام الأخيرة أن وزارة التربية والتعليم فرضت على التلاميذ دروسا فى النحو هى مجرد آراء فردية ، وكان الواجب ألا تبيح الوزارة هذا حتى ترجع إلى المجامع اللغوية وإلى الهيئات العلمية التى تعنى بدراسة النحو العربى ، وأنا لا أعتقد أن هيئة ما تستطيع أن تغير فى علم من العلوم دون أن ترجع إلى ذوى الاختصاص فى هذا العلم ، فهل يكفى فى نظر وزارة التربية والتعليم أن يقوم جماعة من الأساتذة بوضع آراء جديدة فى التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء حتى تبيح لنفسها فرض هذه الآراء فى مدارسها ؟ . وإذا كان ذلك لا يكفى فى نظر الوزارة بالنسبة لهذه المواد ـــ وهو ما نعتقده ـــ فكيف كان كافيا فى النحو العربى ؟ .

إن الآراء الجديدة التي تضمنتها كتب الوزارة في حاجة شديدة إلى البحث من جديد وبعضها عورض من علماء لهم مكانتهم في العلم، وكان على الوزارة أن تأخذ عبرة من كتاب (إحياء النحو) فإن هذا الكتاب أحدث دوياً في الأوساط العلمية ولكن أحداً لم يأخذ بالنظريات التي جاءت فيه، ولم تستطع هذه النظريات أن تأخذ طريقها إلى أي هيئة علمية فتدرس فيها دراسة رسمية. على أننا لو أبحنا لكل أستاذ أن يتناول مادته على الطريقة التي تنوول بها النحو لأشعنا الفوضى في العلم، ولشككنا الدارسين فيما يدرسون!.

لا بأس أن يناقش الأستاذ مع طلابه المتقدمين في الدراسة بعض ما يعن له من آراء ولا بأس أن ينشر هذه الآراء على الناس ليروا فيها رأيهم، أما أن أستاذاً أو مجموعة من الأساتيذ يفرضون آراءهم على آلاف مؤلفة من المتعلمين الناشئين ليقولوا لهم: إن هذا هو العلم ولا علم سواه، فذلك أمر خطير، جد خطير.

والمسألة الثالثة تتعلق بكتاب النحو المنهجي، ذلك أنه يجب على كل من يحاول أن يهدم قديما، ويقيم مكانه جديدا - ضرورة إشاعة الثقة به في نفوس القراء - ألا يلجأ إلى المغالطات، ولا إلى التجاهل، فإذا أخطأه التوفيق في هذه المسألة كان موضع تهمة من القراء، وقلما يفلح في إقناع أحد.

وقد وقفت على أمرين في كتاب النحو المنهجي لم أحمدهما للمؤلف، وأخشى أن يكونا سبباً في الغض من قيمة الكتاب، وفي رمي صاحبه بما أظن أنه منه براء.

أول الأمرين: أنه عاب على النحاة المتقدمين إهمالهم صيغ التعجب السماعية. فقال في صفحة (٣١): «وأسلوب التعجب لا يعرف النحويون منه إلا الباب التقليدي المتوارث الذي هو باب ما أفعله وأفعل به، ويتحدثون عنه، ويفيضون فيه، ويضعون له الشروط الكثيرة التي تبيح للمتكلم أن يتعجب أو تحرم عليه ألا يتعجب، وتحدد الصور التي يتعجب بها تعجبا مباشرا أو بالواسطة، ولعله يكون أجدى من هذا كله على أبنائنا أن تقدم إليهم أساليب التعجب الأدبية التي تفيدهم فيما يقرءون أو يكتبون، ولست أريد أن أهدر صيغة (ما أفعله وأفعل به) ولكني أريد أن أقدم للمتعلمين إلى جانبها قول الله تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم»، وقول عنترة:

لله در بني عبس لقد نسلوا
من الأكارم ما لا تنسل العرب

وقول المتنبي في سيف الدولة:

وكيف تعلك الدنيا بشيء
وأنت لعلة الدنيا طبيب

وقولهم: (واها لك، ولله دره فارسا) ... وهكذا نجد كثيرا من الأمثلة فى الأساليب الأدبية تفيد التعجب، ولم يتعرض لها النحاة، ودراستها للبادئين أولى».

فأولا: متى أهمل النحويون الأساليب التعجبية؟ وكيف يحكم عليهم عالم أطال النظر فى كتبهم بأنهم لم يعرفوا من التعجب إلا الباب التقليدى؟!.

بين يدى الآن ـ وأنا أكتب هذا المقال ـ كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لمؤلفه جمال الدين بن هشام، وهو من أكثر الكتب تداولا، ومن الكتب المقررة دراستها فى المعاهد الدينية التابعة للأزهر، وفى كثير من دور التعليم خارج مصر، وهو متن عليه شرح كبير، يقول مؤلفه (باب التعجب) هذا هو عنوان الباب، وفى أول سطر يقول: «وله عبارات كثيرة نحو كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم؟ سبحان الله، إن المؤمن لاينجس. لله دره فارسا. والمبوب له منها فى النحو اثنتان، فكيف يسوغ بعد ذلك أن يقول رجل هو من دارسى النحو والمؤلفين فيه أن النحويين لايعرفون منه إلا الباب التقليدى، وأن النحاة لم يتعرضوا للصيغ السماعية؟!.

على أن المطولات فى النحو، وكتب البلاغة، تعرضت للأساليب التى تفيد التعجب، وكلها مما يدرس فى دور العلم.

وثانيا: هل صحيح إن دراسة هذه الصيغ السماعية أجدى على التلاميذ من دراسة ما سماه بالباب التقليدى؟ وهل صحيح ـ كذلك ـ أنها أولى بالدراسة؟ لقد وصف المؤلف الباب التقليدى فقال: إن النحويين أفاضوا فيه وأضافوا إليه الشروط الكثيرة التى تبيح للمتكلم أن يتعجب أو تحرم عليه ألا يتعجب، وتحدد الصور التى يتعجب بها مباشرة أو بالواسطة ... فأيهما أجدى على الطالب الناشئ أن تضع فى يده قاعدة وتمرنه على استخدامها، وهذه القاعدة يستطيع بها أن يستخرج من المادة الخام مادة صالحة للاستعمال كلما أراد، أم أن تحفظه عدداً من الصيغ؟!.

أظن الجواب واضحا، بل أعتقد أن هذا المنطق لا يسعفنا فى النحو وحده بل فى كل علم وفى كل فن، بل وفى شئون الحياة نفسها.

القياس، والسماع، أيهما أكثر فائدة؟. وأيهما أعون على القراءة الصحيحة، والكتابة القويمة؟.

وثانى الأمرين أن المؤلف أراد أن يثبت أن أكثر النحو غير محتاج إليه، ولو قال هو هذا الكلام لكان قولا، ولكنه أراد أن ينسبه للمتقدمين، وبالضرورة لا تكون له الأهمية البالغة إلا إذا كان رأى المتقدمين كلهم، وعلى ذلك ساق كلامه موهما أنه رأى

المتقدمين وهو فى الحقيقة رأى واحد من متأخريهم ، قال فى صفحة (٥٠) : « وقد اعترف المتقدمون بأن النحاة أدخلوا فى النحو ما لا يحتاج إليه ، بل قرروا أن أكثره غير محتاج إليه ، قال ابن الأثير فى النحو : « وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن ، ومع هذا فإنه وإن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض بضرورة الإفهام فإن الواضع لم يخص شيئا منه بالوضع ، بل جعل الوضع عاما ، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعنى » .

فأنت ترى أن الرأى رأى ابن الأثير وحده ، ولكن المؤلف نسبه إلى المتقدمين جملة (وقد اعترف المتقدمون) لا أحدهم (بل قرروا) وهم المتقدمون أنفسهم وأعينهم بجملتهم وتفصيلهم ، وإلا فما هذا الإصرار على نسبة القول إليهم ، فقد عاد فى صفحة (٥٢) - وقد كان هذا الرأى لابن الأثير فيما صرح به - فقال : « وقد فكر المتقدمون فى مسائل النحو ، ورأوا أن لا يدرس منه إلا الضرورى ورأوا أن أكثره غير محتاج إليه ، وقد تقدم رأى ابن الأثير فى هذا » على أن فى العبارة اضطرابا (وقد اعترف المتقدمون بأن النحاة أدخلوا) . فمن هم المتقدمون ؟ ومن هم النحاة ؟ أهم المتقدمون أم غيرهم ؟ .

وإذا تجاوزنا عما هو واضح من قصد الإيهام فى كلامه وأنه لم يجد من المتقدمين أحدا ينسب الرأى إليه غير ابن الأثير ، وقد كان يمكنه أن يقول : ورأى ابن الأثير من المتقدمين إلخ . إذا تجاوزنا هذا نجد أن المتقدمين أو أكثرهم - على الأقل - يرون أن النحو كله ضرورى وإلا ففيم أفنوا أعمارهم ؟! .

وقد نقل الجاحظ فى كتاب الحيوان عن الخليل بن أحمد أنه قال : « لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شمر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه » .

وابن الأثير يتكلم - فقط - فى إفهام المعنى . وليس الغرض من النحو منحصرا فى هذا المقصد ، بل للنحو أغراض كثيرة لا يجهلها أحد من المهتمين بدراسته ، ونلفت النظر هنا بصفة خاصة إلى ما كتبه إمام البلاغة والنحو الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز) عن النحو .

هذا . وموعدنا بمناقشة هذا الكتاب ، وصنوه « تحرير النحو » مناقشة علمية المقال الآتى (إن شاء الله) ؟

على العمارى

هل ينتفع الميّت بعمل الحيّ ؟

للأستاذ عمر عبد الوهاب الجندى

إن القرب سواء كانت عبادة بدنية محضة كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن . أو مالية كالصدقة أو مركبة منهما كالحج والجهاد لا تتحقق ويعتد بها ويجازى عليها إلا بالنية « إنما الأعمال بالنية ، ولكل امرئ ما نوى » ، وثمرتها تقوية الإيمان ، وإيقاظ القلوب ، وتطهير النفوس من الأمراض كالحسد والحقد ، وإعدادها لاتقاء سخط الله وغضبه باتباع سبيل الحق مع الخالق والخلق « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » . « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . فعمل القرب ونيتها من الحى لا من الميت فثمرتها وثوابها يكونان له ولا ينتقل ثوابها منه إلى الميت بالإهداء أو الهبة ، لأن الإهداء بعث المهدى به إلى المهدى له تكريما له ، والهبة تمليك الموهوب للوهوب له بلا عوض ، ولا يتم كلاهما إلا بالتسليم والقبض وهذا يقتضى أولا أن يكون المهدى به ، والموهوب من الموجودات كالذهب والفضة والتمر والزبيب . والثواب ليس من الأعيان الموجودة بل معنى من المعانى فهو عدم ، ويقتضى ثانيا أن يكون المهدى له أو الموهوب له موجوداً وهو هنا الميت معدوم فلا يتم التسليم والقبض بين الطرفين ؛ لذا لم يثبت أن النبى عليه الصلاة والسلام فعل قربة من القرب ، وأهدى أو وهب ثوابها إلى الأموات تشريعاً لأمته التى كان رءوفا رحيما بها حريصا عليها ولو فعل ذلك ولو مرة لتوفرت الدواعى على نقله ، والعمل به من الصحابة لأنه من الشعائر الدينية التى يشهدها الجم الغفير منهم وكانوا أحرص الناس على الاقتداء به فى فعل ما لم يكن من اختصاصه فى العبادات والمباحات التى أتى فيها بما يدل على مشروعيتها ، كمواظبته على الإتيان بها بكيفية مخصوصة كالأكل والشرب واللبس والنوم . والمتفق عليه أنه لم يرد عن أحد من السلف أنه فعل قربة من القرب كتلاوة القرآن وأهدى أو وهب ثوابها إلى الأموات . وهم القدوة للأمة فى نقل التشريع إليها من النبى عليه الصلاة والسلام والعمل به فى العبادات ، فليس لغيرهم التعبد

بما لم يتعبدوه ، ففى سنن أبو داود عن حذيفة ابن اليمان « كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله فلا تعبدوها فإن الأول لم يدع للآخر مقالا ، فاتقوا الله يا معشر القراء ، وخذوا طريق من كان قبلكم » . ولم يشرع الله من القرب للميت إلا أمرين : أحدهما الدعاء له فى صلاة الجنازة وزيارة القبور وغيرهما كما شرعه للأحياء بعضهم لبعض كما ورد فى الكتاب والسنة ، لا ليكون ثوابه للمدعو له حيا أو ميتا بل ثوابه للداعى لأنه عبادة بدنية محضة له وإنما شرعه الله رجاء تفضله على المدعو له برحمته وتجاوزه عن سيئاته ، فهو من قبيل الشفاعة التى يأذن الله بها لمن يشاء ويرضى من عباده وهو المختار فى قبوله ، وعدم قبوله ، وثانيهما الصدقة من الأولاد عن الوالدين بالاتفاق .

وقد تصدق سعد بن عبادة بمخرف « بستان » له عن أمه ، وحفر بئرا بالمدينة المنورة لسقى الماء صدقة أيضاً عن أمه ، ويسمى إلى الآن بئر أم سعد ، وذلك بإرشاد النبى عليه الصلاة والسلام له بأن صدقته عن أمه نافعة لها ، فالصدقة من الأولاد عن والديهم فى الحقيقة من سعى الوالدين ؛ لأن أولادهما من عملهما وسعيهما وكسبهما كما ورد فى الأحاديث الصحيحة فهى داخلة فى عموم الآية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ولا يقاس على الصدقة من الأولاد عن والديهم صلاتهم لهما وصيامهم لهما وحجهم وجهادهم عنهما ؛ لأنها أعمال بدنية محضة صادرة من الأولاد بنية منهم ولا دخل للوالدين فيها بعمل ونية ، بخلاف الصدقة فإنها ليست عملا بل هى تنازل عن مال للوالدين حق فيه « أنت ومالك لأبيك » .

وأما عمل القرب للميت من غير الأولاد من صدقة وغيرها فلم يرد بجواز فعلها نص من كتاب أو سنة ففعلها للميت عمل بالرأى وتشريع بما لم يأذن به الله وعدم انتفاع المرء حياً أو ميتاً بعمل الغير قربة له هو ما ترشد إليه الآيات القرآنية « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . « ثم توفى كل نفس ما كسبت » . « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » . « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وهذا التشريع هو ما تقتضية العدالة الإلهية وتستسيغه العقول السليمة وتقبله الطباع المستقيمة ، لأن به تنقطع طماعية العاثين فى الأرض فساداً فى حياتهم الدنيوية ، اعتمادا على شفاعة الشافعين لهم من الصالحين ، وما سيفعل لهم من القرب بعد وفاتهم غير تائبين كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن لهم وما يسمونه العتاقة وهى قراءة عدد مخصوص من سورة الإخلاص لعتق رقبة المذنب من النار ، وما يسمونه

السبحة ، وهي ذكر عـــدد مخصوص من التسبيحات والتهليلات له وغير ذلك من البدع التي لم يرد بها شرع وتمجها العقول الواعية ؛ لأن المريض لا يشفى بشرب غيره الدواء عنه ، ولا يشبع الجائع بأكل غيره الطعام عنه ، ولا يستريح الجسم المتعب بنوم غيره عنه بل نجاة المرء وفلاحه لا تكون إلا بتزكيته نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح الخالص لله كما أن شفاءه لا يكون إلا بانحرافه عن الطريق القويم الذي هدانا الله إليه لا بانحراف غيره عنه .

قال تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وقال «قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها» . إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو أزكى الخلق نفساً وأعظمهم خلقا وأتقاهم وأخلصهم لله عملا لم يجزم بقبـــول عمله ولا يدري عاقبة أمره . كما ورد في الكتاب والسنة قال تعالى : «قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين» وعنه عليه الصلاة والسلام «لا أدري - وأنا رسول الله - ماذا يفعل بي» ، وعنه عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» . فكيف نركن إلى رأي من يقول : إن عمل القرب من الحي للميت نافع له عند الله ، وهو ليس عملا له ولم ينوه ولا تعقل النيابة فيه لأنه عبادة لفاعله . إن هذا التشريع أقرب إلى الهزل منه إلى الجد لأنه يسوي في القبول عند الله بين من زكى نفسه ونهاها عن الهوى بمن اتبع نفسه هواها فضل وغوى ، وهذا تأباه العدالة الإلهية . قال تعالى : «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون» . «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» . «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» . إلى غير ذلك من الآيات التي تحقق العدالة الإلهية بين البار والفاجر . إن تشريع انتفاع الميت بعمل القرب له من الحي كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن والصدقة من غير الأولاد لم يرد به كتاب ولا سنة ، بل تشريع بالرأي كتشريع الأحبار والرهبان غفران خطيئات المخطئين من أهل ملتهم ، بصلاتهم لهم وصيامهم وترتيل المزامير من التوراة والإنجيل لهم والتصدق بالقرابين عنهم وما ورد من الأحاديث الظنية الثبوت التي تفيد انتفاع الميت بعمل القرب له من الحي كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن ، مخالفة لظاهر القرآن القطعي الرواية المحكم الآيات فإنه صريح في أن المرء لا ينتفع إلا بعمله وكسبه ، لا بعمل

« البقية في صفحة ٤٤٩ »

ذو القرنين فى القرآن والتاريخ

للأستاذ عمر الطيبى

نشرت مجلة الأزهر الغراء فى عددها الصادر فى شهر صفر ١٣٧٩ مقالا مطولا بتوقيع الأستاذ نور الحق تنوير عنوانه « ذو القرنين فى القرآن والتاريخ » ذهب فيه إلى القول بأن قورش الفارسى هو المقصود بذى القرنين ، وقد جاء المقال كما قال فى أوله ، تعليقا على نقاش دار على صفحات جريدة « الأخبار الغراء التى تصدر بالقاهرة بين الأستاذين العقاد والغزالى نفى فيه الأستاذ العقاد الرأى الذى ذهب إليه عامة المفسرين « كذا » من أن يكون الإسكندر المقدونى هو ذو القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف ، وتابع الأستاذ الغزالى رأى المفسرين فجاء الأستاذ نور الحق ليقول إن ذا القرنين هو قورش الفارسى .

لفت نظرى فى مقال الأستاذ نور الحق أمور رأيت أن أتحدث عنها رجاء أن يواصل أهل الذكر والاختصاص البحث حتى تتبين الحقيقة .

الأستاذ نور الحق استنتج ما قاله عن قورش مما جاء فى بعض أسفار التوراة المتداولة اليوم ، ومن أقوال بعض المؤرخين الغربيين ، وقد سبقه إلى هذا الاستنتاج مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف السابق فى الهند بمقالات طويلة نشرتها بمجلة « ثقافة الهند » الغراء فى أعدادها الصادرة عام ١٩٥٠ وقد زاد على ما قاله الأستاذ نور الحق بنشر صورة تمثال لقورش على رأسه صورة حية ممتدة من الوجه حتى مؤخرة الرأس كأنها تمثل قرنين ! . وعرف مكان السد تعريفا يخالف ما ذهب إليه الأستاذ نور الحق ، كما تحدث عن « دربند » أو « باب الأبواب » ليؤكد أنه مكان آخر غير السد .

فالأستاذان أبو الكلام ونور الحق ، اتفقا على القول بأن قورش هو ذو القرنين ، واستنتجا هذا القول من بعض أسفار التوراة ومن أقوال بعض المؤرخين غير المسلمين . واختلفا فى تعيين مكان السد ، وأسمى الأستاذ نور الحق بعض أصحاب الأسفار أنبياء مع أنهم ما ذكروا بين الأنبياء لا فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية ، وفى حين أن الذين يعترفون بنبوتهم ، ويحرصون على أن يقيموا دولة إسرائيل من بين الأموات بداعى أن هذا ما وعد الله به ؛ ينكرون نسبة تلك

الأسفار - التي نقل عنها - لأصحابها، ولا يقولون بما جاء فيها . ويطيلون الحديث عن خلاف بين نسخ الأسفار التي يعترفون بها ، ويعزونه لأسباب يطول شرحها ، تحدث عنها الذين فسروا التوراة أو ألفوا تواريخ لتأييد ما جاء فيها من حوادث وأحداث .

ويزيد بعضهم بالاستنكار فيؤكد أن كاتب سفر دانيال - وقد استشهد الأستاذ أبو الكلام ونور الحق ببعض ما جاء فيه - يهودي مجهول اسمه ، كتبه في آخر مدة الجلاء البابلي أو بعد صدور أمر قورش بعود بني إسرائيل (المطران يوسف الدبس في تاريخ سورية ص٥٦٠م٢ ج ١ وص٥٨٧ وقد تحدث في تاريخه عن الخلاف بين النسخة السبعينية وغيرها وعن الخلاف في سفر القضاة ومن كتبه ومتى كتب وعن القول بأن أسفار الملوك متعددة الأقلام وعن أخطاء النساخ) .

الكبش ذو القرنين :

نقل الأستاذ نور الحق الفقرات ٣ — ٥ من الإصحاح ٨ من سفر دانيال وفيها : « ورأيت في الرؤيا وأنا أعبر نهر أولاي فرفعت عيني ورأيت ، وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان ، والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر . . والأعلى طالع أخيراً . رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منقذ من يده » .

ثم يقول الأستاذ : إن دانيال فسر هذه الرؤيا في البقرة ٢٠ من نفس الإصحاح بقوله : « أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادي وفارس » .

يرى القارئ أن كاتب السفر لم يقل: « إن الكبش من ملوك مادي وفارس بل قال ملوك مادي وفارس ، فهل كل ملوك مادي وفارس يحملون لقب » « ذو القرنين » ؟! .

وقصة الكبش والاستدلال بها ، والاستنتاج منها ، معروفة قبل أن يستنتج منها الأستاذ فقد جاء في مقال للبرنس عمر طوسن نشر في عام ١٩٣٠ م ما نصه :

« ولفظ ذي القرنين كني به مؤلفو العرب الإسكندر المقدوني ، وقد أثبت الأستاذ برنشيا مدير المتحف الروماني بالإسكندرية في محاضرة ألقاها أخيراً أن هذه الكنية صحيحة ، وأن الإسكندر لما فتح مصر وزار معبد الإله آمون بواحة سيوة ، وكان هذا الإله يرمز إليه بكبش ذي قرنين جعلته كهنته ابناً له فاتخذ هذا الشعار . وأيد الأستاذ برنشيا ذلك بما عثر عليه من قطع النقود التي عليها صورة الإسكندر بشعاره هذا » (مجلة السيدات والرجال ص ١٥٨ السنة ١١ في مارس ١٩٣٠ شوال ١٣٤٨) .

وإذن فأسطورة الكبش معروفة قبل دانيال،

قرناه يختلفان عن قرنى تمثال قورش الذى استشهد به مولانا أبو الكلام :

سفر عزرا أيضا :

أراد الأستاذ نور الحق أن يثبت أن قورش كان ملهما فنقل فقرات من الإصحاح الأول لسفر عزرا، وسفر عزرا من الأسفار التى استنكرتها طوائف مسيحية تلعب حكوماتها بالعالم ، فقد روى المطران دبس « ص ٦١١ ج ١ م ٢ من تاريخه استنكار من أسماهم أهل الانتقاد لهذا السفر ثم دافع عن صحته لأن طائفته تعترف به » .

وذهب الأستاذ نور الحق إلى أن قورش من معتنق الديانة الزردشتية وأنها أقرب إلى الإسلام من الديانات الأخرى . وقد أسهب أبو الكلام فى الحديث عن الزردشتية حتى كاد أن يقول بأنها من الأديان السماوية ! وهذا ما نسمعه وما نقرؤه لأول مرة .

من هم يأجوج ومأجوج ؟ .

وليعين الأستاذ نور الحق القبائل والأقوام التى سميت يأجوج ومأجوج ، يرجع إلى سفر حزقيال فينقل عنه الفقرة ٢ من الإصحاح ٣٨ ونصها : « يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه » .

وقد رجعنا إلى سفر حزقيال (طبعه لمنفعة الكنائس الشرقية وليم واطسن فى لندن سنة ١٨٦٠ م على النسخة المطبوعة فى روسية سنة ١٦٧١ م باسم « كتاب المقدس المشتمل على كتب العهد العتيق الموجودة فى الأصل العبرانى وأيضا كتاب العهد الجديد ») فإذا بنص الفقرتين الأولى والثانية من الإصحاح ٣٨ هكذا : « وكان إلى قول الرب قايلا . يا ابن البشر اجعل وجهك على أجوج أرض ماجوج ريس راس ماساخ وتوبال » .

ثم نقل الأستاذ نور الحق الفقرة الثانية من الإصحاح العاشر من سفر التكوين وهى : « بنو يافث جومر ويأجوج وماداى وياوان وتوبال وماشك وتيراس » .

وقد رجعنا إلى كتاب المقدس « الذى نقلنا عنه ما جاء فى سفر حزقيال فإذا بالفقرة الثانية من الإصحاح العاشر هذا نصها بالحرف : « فبنو يافث غامر وماجوج وماداى وياوان -بالواولا بالزاء- وتوبال وموشوخ وتيرس » .

فإذا لجأنا إلى التأويل وقلنا أن « جومر » ترجها بعضهم « غامر » و « مادى » رسمها بالألف بعد الدال ، و « ماشك » تعنى « موشوخ » أو « ماساخ » وتيراس تحريف روس أو روش أو راس فما نقول فى يأجوج كما نقل الأستاذ ، وماجوج كما نقلنا عن « كتاب المقدس » فى حين أن حزقيال زعم كما جاء فى النصين أن الرب قال له : اجعل وجهك

« على جوج » أرض ماجوج فجعل جوج اسم أرض لا اسم قبيلة ، ولا اسم أمة ولم يذكر لفظة ياجوج البتة ! .

على أن أبا الكلام نقل نص نبوة حزقيال كما يلي :

وصلني كلام الرب قائلا : يا ابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضده ، نعم شطر جوج الذي هو رئيس أرض ماجوج ، ومسك ، وتوبال فقل له إلخ .

ثم فسر بقوله : « وصف جوج بأنه رئيس مسك » و « توبال » فكأن النبوة صورت موقع « سي تهين » الجغرافي بهذا الوصف فليس « مسك » إلا ما نسميه الآن بموسكو أما توبال فهي بلاد البحر الأسود المرتفعة . (ص ٣٠ - ٣١ العدد الثالث من ثقافة الهند الصادر في سبتمبر عام ١٩٥٠) .

العرب عرفوا يأجوج ومأجوج :

والعرب عرفوا يأجوج ومأجوج دون توسط أسفار من التوراة لما حدثهم الله سبحانه وتعالى عنهم في سورة الكهف وحدثهم في السورة نفسها عن ذي القرنين ولما أنذرهم الله بخروجهم بقوله في سورة الأنبياء :

« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » - الآية ٩٦ - وسمعوا ورووا الأحاديث النبوية التي تتحدث عن أمتي يأجوج ومأجوج ، وأرسل الواثق بالله العباسي سلاماً الترجمان ليخبره عن السد وهل فتح كما رأى في الرؤيا أم لا . وقرأوا كتاب جنكيزخان قبل أن يغزو بلادهم إلى سلطان خوارزم لما هدده بالغزو وقد ذكر فيه بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله اتركوا الترك ما تركوكم وبما روي من فتح السد .

وقد نشر الأستاذ (طنطاوي جوهري) وعنه أخذنا ما تقدم عن كتاب جنكيز خان ، صورة خريطة لبلاد يأجوج ومأجوج وللسد ، قال : إن صديقه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة دار العلوم رسمها ، كما أن الأستاذ الجوهري قال : إن عالماً مسلماً روسيا من أوفا يدعى الشيخ عبد الله زاره وتعرف إليه ، وخاطبه باللغة العربية الفصحى ، وقال له : إننا نحن المغول يأجوج ومأجوج والتتر فريق من تلك الأمم « من ص ٢٠٠ إلى ٢٠٦/٩ تفسير طنطاوي جوهري وحديث الشيخ عبد الله في ص ٢٠٥ » .

والعرب اليوم في حاجة ماسة لمعرفة يأجوج ومأجوج وللاستعداد للطوارئ لا سيما إذا صح ما كانت كتبته بعض الهيئات العربية السياسية من أن الكثرة من اليهود الذين نزلوا فلسطين من الخزر الذين اعتنقوا اليهودية ، وبعد أن قرب وقت خروج يأجوج ومأجوج وبدت النذر ومنها ما يقع اليوم في العراق من الشعوبيين الذين

يتنكرون للدين الإسلامى وللقومية العربية أيضا ، ومعرفة يأجوج ومأجوج والوصول إلى السد واكتشافه من جديد سهل ميسور فى عهد الجمهورية العربية المتحدة .

المفسرون لم يجمعوا :

والغريب أن الأستاذ نور الحق بعد أن نفى أن يكون بوسع الإسكندر أن يبنى مثل هذا السد العظيم قال « وربما اختلط هذا الأمر على بعض المؤرخين الغربيين فنسبوا هذا السد إليه متأثرين بماذهب إليه المفسرون المسلمون من أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى(آخر الصحيفة ١٧٩ من مجلة الأزهر).

وإذا رجعنا إلى ما قاله مفسرو القرآن الكريم لا لنجد أنهم أجمعوا على أن ذا القرين هو الإسكندر . فالطبرى على الرغم من أنه روى حديثاً أن يهوداً جاءوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين فأخبرعما جاءوا يسألون وأجابهم أنه رومى بنى الإسكندرية إلى آخر ما فى تلك الرواية فالحديث فى سنده شيخان لم يسميا ، وقد استنكره ابن كثير وزاد أن ذا القرنين كان فى عهد ابراهيم الخليل عليه السلام وروى ما قيل من أنه عربى وتوسع فى هذه الرواية فى تاريخه ونقل أبياتاً لأحد الحميريين مطلعها :

قد كان ذو القرنين جدى مسلماً
ملكا تدين له الملوك وتحشد

وقال : وقد جاء فى حديث أنه كان من حمير وأمه رومية ص ١٠٤ : ٢ تاريخ ابن كثير « الطبعة الأولى » .

والزمخشرى قال : إسكندر ولم يزد ، والمؤرخون : يقولون إن هناك ملكين اسم كل واحد منهما اسكندر ، وفى الجلالين قال : إن اسمه اسكندر وبذا ينتفى الإجماع ، وقد ألف الشيخ راغب الطباخ عضو المجمع العلمى العربى فى الإقليم السورى المتوفى من بضع سنوات رحمه الله ، رسالة أيد فيها أن ذا القرنين من العرب ، ومعلوم أن العرب فى جاهليتهم كانوا أبرع منا اليوم فى معرفة جغرافية العالم فضلا عن أنهم جاسوا خلال الديار الروسية .

والمفسرون المعاصرون أيضاً :

والمفسرون المعاصرون قالوا بأنه اسكندر المقدونى فطنطاوى جوهرى قال : إن كثيراً من العلماء يقول : إنه اسكندر الرومى بن فيليش وهناك رأى آخر أنه من حمير واسمه أبو كرب بن إفريقش وإفريقش هو الذى رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فإلى تونس فسميت القارة كلها باسم إفريقيا .

والأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق قال : هو عبد صالح ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة

والسطان وقيل نبي كما يشهد له ظاهر قوله تعالى (ياذا القرنين) وسمي ذا القرنين لبلوغه المشرق والمغرب فكأنه حاز قرني الدنيا وليس هو الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو بل كان قبله بقرون .

والسيد قطب قال في كتابه « في ظلال القرآن » : لقد سأل سائلون عن ذي القرنين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم . وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين وينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير .

وصورة التمثال ليست بدليل :

وصورة تمثال قورش التي نشرها أبو الكلام آزاد في ثقافة الهند والتي قال : إنه عثر عليها في المرغاب على الحدود الإيرانية الفارسية لا تنهض حجة ولا تعد دليلا على أن قورش هو ذو القرنين وقد رأيت هذه الصورة قبل نصف قرن قبل أن أسمع أن أحداً يقول : إن قورش هو ذوالقرنين وممن نشرها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت المارونى فى تاريخ سوريا مقابل الصحيفة ٣٢٨ من الجزء الأول المجلد الأول وهذا التاريخ طبع في المطبعة العمومية الكاثوليكية فى بيروت سنة ١٨٩٣ ميلادية وقد قال المطران : إنها صورة ملك الفرس وجدت فى سهول مرغب « يعنى مرغاب » حيث كانت عاصمة الفرس وعلى رأسه تاج فى أسفله حية وعلى كتفيه أربعة أجنحة جناحان مرتفعان إلى ما فوق وآخران متدليان إلى أسفل إشارة إلى السلطة الملكية بحسب اصطلاح الأشوريين ويده الواحدة مرتفعة لدعاء أو إصدار أمر . ا هـ .

والناظر إلى الصورة يرى خطوطاً فى أعلاها تظهر فيها آثار حروف معدودة بينما الصورة التى نشرها أبو الكلام أشد وضوحا والأحرف ظاهرة والأسطر ستة ولكنه ما ترجم الكتابة أو لم يطلع على ترجمتها .

فأبو الكلام لم يكن أول من نشر صورة التمثال فى مجلة عربية ، وقد يكون أول من قال بأنها تدل على أن قورش هو ذو القرنين والقرنان فى الصورة أقرب إلى الوهم وهما يختلفان عن قرنى الكبش فى الاتجاه وفى أنهما صورة حية فوقها بعض الصور .

مكان السد :

أما مكان سد يأجوج ومأجوج فقد قال الأستاذ نور الحق تنوير أنه سد « دربند » التى يسميها العرب « باب الأبواب » فى حين أن أبا الكلام آزاد نفى أن يكون سد « دربند » هو السد الذى بناه ذو القرنين

ليحول دون إفساد يأجوج ومأجوج . ومهد لتعيين مكان السد يبحث عن يأجـــوج ومأجوج وعن أدوار سبعة أغاروا فيها على الأمم المجاورة لهم وقد أسمى هذه الأدوار « خرجات » ، وقال : إن الخرجة الخامسة كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد حيث تدفق سيل للقبائل المنغولية على الصين أسماهم مؤرخو الصين (هيونغ نوه) وحرف الاسم فأصبح « هن » ، وفى هذا العصر بنى امبراطور الصين « شين هوانغ تى » ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصدمجات هؤلاء المغيرين .

وقال : إن الخرجة الأخيرة كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا وخرجت بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد مدينة السلام وختم بقوله :

توجد فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال قوقاز كأنها جدار طبيعى ، وقد سد هذا الجدار الجبلى ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب إلا طريقاً واحـــداً بقى مفتوحا وهو مضيق فى وسط سلسلة الجبال يوصل بين الشمال والجنوب ، ويسمى هذا المضيق فى أيامنا هذه بمضيق داريال ، ويشار إلى موضعه فى الأطالس الحاضرة بين وادى كيوكز vadi kaukas وطفليس « تفليس كما كان يسميها العثمانيون » حيث يوجد إلى الآن جدار حديدى من قديم الأزمان . ولا ريب أن هذا الجدار الذى بناه قورش ، إذ تنطبق عليه الأوصاف التى وصف بها القرآن سد ذى القرنين قائلا إنه استخدمت فى بنائه زبر الحديد وأفرغ عليه النحاس بعـــد أن أذابوه لتتصل مفاصله ، فلا يبقى به خلل ، وقال إنه بنى بين جدارى جبلين . وهذا ما نراه فى مضيق داريال : جدارين جبلين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدى الذى أقفل باتصال الجدارين الطريق الذى كان مفتوحا بينهما .

وقال إن هناك كتابات أرمنية لها أهميتها لأنها بمنزلة الشهادة المحلية ، وهناك شهادة أخرى هى لغة بلاد جورجيا .

وبعد نحو صفحتين نفى أبو الكلام أن يكون (دربند) هو السد .

دربند معروفة حتى اليوم :

وبعد : فالعرب عرفوا « باب الأبواب » وعرفوا أن الفرس كانوا يسمونه « دربند » وتحدث ياقوت الحموى عن باب الأبواب وقال هو الدربند دربند شروان ، وعن فتحها ونسب إليها جماعة من المسلمين ونقل شعراً عربياً ذكرت فيه .

وتحدث عنها جغرافيو العثمانيين فقال شمس الدين سامى فى قاموس الأعلام مادة « دربند » أن العرب يسمونها (باب الأبواب)، و (الباب) وهى معروفة عند الأتراك بـ « دمير قبو » يعنى الباب الحديدى وقد

فتحها العثمانيون . واستولوا عليها فى محارباتهم مع الصفويين أكثر من مرة واستردها الصفويون . وعام ١٧٢٢ م ضبطها بطرس الأكبر العاهل الروسى وبعد ٦ سنوات استردها نادر شاه وعام ١٨١٣ تركت لروسيا

ونسب إليها أبو الوليد حسن بن محمد من علماء الحديث توفى عام ٤٥٣ هـ (مادة دربندى) ثم تحدث عن دولة صغيرة قامت فيها فى القرن العاشر للهجرة النبوية امتدحكمها نحو مائة سنة وعرفت بالدولة « الدربندية » وقد أسمى حكامها وأرخ لهم .

هذا وقد أذيع من نحو سنتين أنه اكتشف فى روسيا المكان الجبلى الذى كان يجلس فيه جنكيز خان ويشرب الشاى وفى أعلى الجبل صورة كأس فمن اكتشف الكأس يسهل عليه أن يكتشف السد وفى هذا بلاغ . .

« دمشق » عمر الطيبى

(بقية مقال : هل ينتفع الميت بعمل الحى ؟)

غيره له « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . الآية ، وقد قرر أئمة الحديث بأن من علامات وضع الحديث مخالفته لظاهر القرآن مع عدم إمكان التوفيق بينهما بتأويل تجيزه القواعد الشرعية والأوضاع اللغوية ، لذا لم يعول عليها إماما السنة رواية ودراية : مالك والشافعى رضى الله عنهما ، وذهبا إلى ماصرح به القرآن من أن المرء لا ينفعه إلا عمله وكسبه المنقطع بموته أو الباقى بعد وفاته ، ومنه ولده الصالح الذى يدعو له ويتصدق عنه فإنه من عمله وكسبه . كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فعنه عليه الصلاة والسلام: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وعنه عليه الصلاة والسلام ، « الولد من كسب أبيه » ، فمن أخطأه الصواب وحسنت نيته ووثق بصحة هذه الأحاديث مع مخالفتها لظاهر القرآن فعليه أن يحملها من قبيل المتشابه الذى استأثر الله بعلمه : كالروح ، ووقت الساعة . ويتمسك اعتقاداً وعملا بظاهر القرآن ، وصريحه دون غيره ، وإلا كان مبتدعا ومشرعا بما لم يأذن به الله ، فيكون عليه وزره ووزر من اتبعه ولا تقبل توبته ما دامت هذه البدعة . أسأل الله أن يجعلنا ممن يهتدون بصريح القرآن وصحيح السنة وما عليه الجماعة .

عمر عبد الوهاب الجندى
شيخ معهد دسوق الأسبق

طريق السعادة

للأستاذ علي الطنطاوي

المستشار بمحكمة النقض

« ورد على فى بريد هذا الأسبوع كتاب من أخ من أوساط الموظفين كتب إلى ثائراً فائراً ، يذم الدهر ، ويشكو الزمان لأن مرتبه وهو الذكى العالم المستقيم (كما يقول عن نفسه) لا يبلغ ربع ما يناله زميل له ، ليس له ربع ذكائه ولا علمه ، وكلما طالب منعوه ما هو حق له ، وحرموه منه ؛ فكان تحكم بشر مثله فى رزقه أشد عليه من ضيق الرزق — إلى آخر ما قال . » .

ولقد مرّ بى ، أنا ، مثل هذه المحنة ، حين خطبت أيام الحكم العسكرى فى الشام من نحو عشر سنوات (تلك) الخطبة التى حملها المذياع من منبر مسجد جامعة دمشق [1] إلى آفاق الأرض فأغضبت علىّ الحكومة ، وأثارت علىّ الجرائد ، وقسمت الناس إلى فريقين : فريق معى ينكر ما أنكرت من رقص البنات فى (الدوحة) واختلاطهن بالشباب فى الجامعة وتكشفهن فى الملعب وفى السينات والشوارع بحكم التقليد القردى لأوربة . الذى يسمى بلسان العصر «التقدمية» ، وفريق على ، يخشى أن تفوته هذه المتعة بينات الناس فهو يحارب كل داع إلى صيانة أوستر ، ونال منى الحاكمون فى منصبى وفى رزقى.

وقعدت عشية مغيظاً محنقاً ، لا من الجرائد وسبابها ، فما باليتها ولا قرأت ما فيها ، ولا بنقص المرتب وضياع المنصب ، بل غضباً لحريتى وكرامتى وأن يتحكم فىّ إنسان مثلى ، ويملك التصرف فى عملى وفى رزقى ، وأظلم على الليل وأنا مستغرق ذاهل أدارى من نفسى غضبة أخشى أن تنفجر تفجر القنبلة ، وكان فى غرفتى شعبة من الراد [1] فسمعت القارئ يقرأ حتى بلغ قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فتنبهت

---

(١) فى جامعة دمشق مسجد تقام فيه الجمعة .

(١) الراد كلمة وضعتها من قديم للراديو الذى يرد الصوت . أما محطة الإذاعة فهى المذياع .

إليها كأنى ما سمعتها قط ، وكأنما نزل بها جبريل الساعة على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحسست أنها جاءت برداً على كبدى وسلاماً ، فسكت عنى الغضب، وامّحت عن عينى الغشاوة ، ورأيت حقيقة القدر رأى العين وقلت : يا رب إن كنت أنت الذى قدر وقسم ، وأنت الذى أعطى ومنع ، فأنا راض بما قسمت لى .

نعم يا أخى الذى كتب إلى ...

. . . هو الذى قسم المعايش ، وهو الذى قدر الأرزاق ، وما يملك هؤلاء الناس عطاء ولا منعا ، ما الناس إلا وسائط . فهل تغضب على محاسب الدائرة ، فى أول الشهر إذا أعطاك مائة وأعطى الرئيس مائتين ؟ وما ذنبه حتى تغضب عليه ؟ أهو الذى وضع الملاكات[1] وحدد الرواتب أم هو منفذ لما قرر من قبل وأمضى ؟ .

هذا هو مثلك ومثل من تظن أنهم أعطوك أو منعوك ، وأنهم قدموا غيرك وأخروك . إن هم إلا (محاسبون) أما الذى قرر جداول الأرزاق من الأزل ، وحدد مقاديرها فهو الله رب العالمين ،فما كان لك فسوف يأتيك ، على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك أتستطيع أن تنال (ليرة) من راتب زميلك مهما كنت قويا وكان ضعيفا ؟ ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

فإذا لم يكن لك كل ما تريد ، فلماذا لا تريد كل ما يكون ، فتستريح وتريح ؟ .

وهذه هى نعمة الإيمان بالقدر . وليس معنى الإيمان أن تستلق على ظهرك وتنتظر أن ينزل عليك رزقك من السقف فإن السماء (كما قال عمر) لا تمطر ذهباً ولا فضة ، بل أن تعمل للدنيا عمل من يعيش فيها أبداً ، وأن تجمع المال من كل وجه حلال ، وأن تضرب فى آفاق الأرض ، وتأخذ بأسباب الرزق ، ولا تدخر جهداً هو فى طاقة البشر لا تبذله للغنى ، فإن لم تصل بعد ذلك كله إلى ما طلبت ، فلا يدفعك اليأس إلى الانتحار ولا يسلمك الغم إلى المرض ، بل تعز وارض وقل : لقد عملت ما على ولكن الله لم يكتب لى النجاح ، وأنا راض بقضاء الله .

هذه حقيقة الإيمان فى دين الإسلام ليست تسيباً وكسلا كما يظنها العوام وأشباه العوام . وأنت تعرف قصة الرجل الذى ترك ناقته على باب المسجد ودخل على الرسول فلما خرج لم يجدها ، فرجع ، فقال : يا رسول الله ، ناقتى ، تركتها وتوكلت على الله فضلت!

(١) الملاك فى الشام هو (الكادر) لا يعرف إلا بهذا الاسم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيدها وتوكل على الله ، هذا هو الإيمان ، إن الله قد جعل الكسب منوطاً بالعمل والنبات مقرونا بالحرث والزرع ، والشفاء موقوفا على الطب والعلاج ، فمن قعد وطلب الربح لم يربح ، ومن أراد الحصاد ولم يزرع لم يحصد ، ومن طلب الشفاء ولم يتداو لم يشف . والله لا يبدل قوانين الكون ، وسنن الوجود ، إرضاء لكسول أو خمول . فاعمل وادأب ، وخذ وطالب ولا تسكت عن حقك ولا تقصر فى ابتغائه ، ولكن لا تدع اليأس يدخل عليك ، والحقد الأسود يأكل قلبك . ولا تقل ما لفلان وفلان ! فلقد كنت أنا يوما مثلك أجد من هم دونى ، ومن كانوا تلاميذى قد حازوا الجاه والمال ، وبلغوا أعلى المناصب ، فأتألم . ثم قلت لنفسى : يا نفس ويحك ، لم الحسد ؟ ومن أعطاك العهد على أن تكونى أبداً فوق الناس ؟ أو ليس خيراً لك يا نفس أن أدخل على وزير أو كبير فيجلنى ويرانى مثله ، من أن أدخل على من يستصغرنى ويرانى دونه ؟ أو لست فى خير ؟ أوَلا أتقلب فى النعم ؟ وبرئت من مرض الحسد فاسترحت وصرت أنظر إلى نعم الله على فأرانى لا أستحق بعضها ، وها أنذا اليوم لا أشكو شيئاً وأعبُّ السعادة ـ والله ـ عباً .

وليس فى الدنيا أحد لا يجد من هو أفضل منه فى شىء ، ومن هو أقل منه فى أشياء ، إن كنت فقيراً ففى الناس من هو أفقر منك وإن كنت مريضاً أو معذباً ففيهم من هو أشد منك مرضاً وأكثر تعذيباً فلماذا ترفع رأسك لتنظر من هو فوقك ، ولا تخفضه لتبصر من هو تحتك ؟ إن كنت تعرف من نال من المال والجاه ما لم تنله أنت وهو دونك ذكاء ومعرفة وخلقا ، فإن فيمن لا تعرف من أنت دونه أو مثله فى ذلك كله وهو لم ينل بعض ما نلت ، وفلسفة الرزق أدق من أن تدرك وانظر إلى الناس تر منهم الغواصين الذين جعل الله خبزهم وخبز عيالهم فى قرارات البحار فلا يصلون إليه حتى ينزلوا إلى أعماق الماء ، والطيارين الذين وضع خبزهم فوق السحاب فلا يبلغونه حتى يصعدوا إلى أعالى الفضاء ، ومن كان خبزه مخبوءاً فى الصخر الأصم فلا يناله إلا بتكسير الصخر ، ومن رزقه فى مجارى المياه الوسخة أو المناجم العميقة التى لا ترى وجه الشمس ولا بياض النهار ، ومن يأخذه بيده ، أو برجله ، أو بلسانه ، أو بعقله ، ومن لا يصل إلى الخبز إلا ببذل روحه وتعريض مهجته للهلاك كلاعب (السيرك) الذى يترصده الموت من كل مكان فإن لم يدركه ساقطاً على رأسه ، أدركه وهو بين أنياب الأسد أو تحت أرجل الفيل .

فاحمد الله أن جعل رزقك على مكتبك تصل إليه وأنت قاعد على كرسيك لم يجعله في رءوس الجبال ولا في أعماق البحار ولا في مواجهة الأسد والنمر.

وهذه المزايا التي تقول أن الله أعطاكها، مزية الفهم والعلم والجد والدأب والاستقامة والأمانة أليست نعماً تستحق أن تحمد الله عليها؟ أو ترضى أن تزداد مالا، وأن تكون عيياً غبياً أو جاهلا أو خاملا أو لصاً أو مجرما؟ فلا تأسف إذا أعطيت هذه النعم كلها وحرمت المال الوفير، بل أتسف إن حرمتها وأعطيت أموال قارون!.

وهل السعادة يا أخي بالمال؟ ما المال إن لم تَشْرِ به متعة عيش أو لذة نفس، أو مكرمة يبقى ذِكْرها، أو صالحة ينفع أجرها؟. المال وسيلة. فإن لم يتوسل به إلى نعيم دنيا أو سعادة آخرة، كان ورقا مصوراً أو معدنا براقا. كالذي زعموا أنه كان له دعوتان مجابتان، فدعا ربه أن يجعل كل شيء تمسه يده ذهبا فأعطيها فكاد يطير عقله من الفرح، وانطلق يلمس كل ما يجد فيحوله ذهبا، حتى جاع فأخذ الصحن ليأكل فصار ما فيه من الطعام ذهبا، وعطش، فحمل الكأس ليشرب فصار ما فيها من الماء ذهبا، فقعد جوعان عطشان. فأقبلت ابنته تواسيه فعانقها فصارت تمثالا من الذهب، فدعا ربه الدعوة الثانية أن يعيد كل شيء كما كان لأنه أدرك أن الرغيف للجائع، والكأس للعطشان، والبنت للأب، خير من ملء الأرض ذهباً.

وأنت تستطيع بمرتبك القليل، إن أحسنت التصرف فيه، واشتشعرت الرضا به، أن تكون أسعد ممن له الآلاف المؤلفة من الليرات، وأنا أعرف رجالا يدخل على الواحد منهم في يومه، مالا يدخل على في السنة أو السنتين من المال، وأنا أعيش عيشا أرفه وأرغد مما يعيشون، لا آكل أطيب مما يأكلون، ولا ألبس أفضل مما يلبسون، ولا أمتع نفسي أكثر مما يستمتعون، ولكني أرضى أكثر مما يرضون. ولي بعد ذلك لذائذ، هم محرومون منها: لذة المطالعة أمام المدفأة في ليالي الشتاء، ولذة التفكير الحالم في الفراش قبل النوم، ولذة المناظرة في مجالس العلم والأدب، ولذة المحاضرة في النوادي والإذاعات، وهم محتاجون إليّ، يسألونني فأعلمهم، ويجيئون إلى فأحكم بينهم وأنا لا أحتاج إلى واحد منهم، لأنهم إنما يفضلونني بالمال وأنا لا أطمع في أموالهم ولا أرضى أن آخذ منهم، وأنا إن أردت القناعة والرضا، وجدت من المال ما يكفيني وإن لم أقنع ولم أرض لم تكفني أموال الدنيا.

وما يصنع بالمال من يدخل عليه فى شهره العشرة آلاف والعشرون والخمسون من كبار التجار والموسرين ؟ أيمكن أن يلبس الرجل عشر بذلات معا ؟ أو أن يأكل عشرين رغيفا فى غذاء ؟ أو ينام على خمسة أسرة فى وقت واحد ؟ إلا أن يكون الإنفاق فى السرف والترف والفسوق والعصيان ، وهذا شىء ليس له حدود ، ويمكن أن ينفق المرء فى ليلة واحدة ، على الخمر والعهر ، ما جمعه فى عشر سنين ويمكن أن يشعل دخينته (سيكارته) بورقة مائة الليرة ، ولكن هذه كلها أفعال السفهاء المجانين ونحن نتكلم عن العقلاء من الناس !.

ولقد بقيت مرة وحدى فى دار المحكمة القديمة فى دمشق فقعدت أمام البركة وأردت أن تمتلئ حتى يفيض الماء من جوانبها ففتحت (الأسباع [1]) كلها فتدفق الماء ولكنها لم تمتلئ فعجبت وقمت أفتش فوجدت (المارب) الكبير مفتوحا فسددته ففاض الماء ...

فقلت : إنه ليس العبرة بفتح (السبع) ولكن بسد (المارب) العبرة بتقليل المصروف لا بتكثير الوارد ، فلا تأس على نفسك إن قل مرتبك ، وارض فإن الرضا هو السعادة التى يفتش عنها الناس ويبحث عنها الفلاسفة ويهيم بها الأدباء ، وهى تحت أيديهم كالذى يفتش عن نظاراته فى كل مكان ، ويسأل عنها فى الدار كل إنسان والنظارات على عينيه .

السعادة بالرضا والإيمان :

واعلم بعد : أن كل حال إلى زوال ، فلا يفرح غنى حتى يطغى ويبطر ، ولا ييأس فقير حتى يعصى ويكفر ، فإنه لا فقر يدوم ولا يدوم غنى ، وكم من رجال نشئوا على فرش الحرير ، وشربوا بكئوس الذهب ، وورثوا كنوز المال ، وأذلوا أعناق الرجال ، وتعبدوا الأحرار ، فما ماتوا حتى اشتهوا فراشا من صوف يقى الجنب عض الأرض ، ورغيفا من خبز يحمى البطن من قرص الجوع ، وآخرون قاسوا المحن والبلايا وذاقوا الألم والحرمان ، وطووا الليالى بلا طعام فما ماتوا حتى ازدحمت عليهم النعم ، وتكاثرت الخيرات ، وصاروا من سراة الناس ، وهل فى الدنيا غنى لم يكن يوما أو لم يكن أبوه أوجده فقيرا ، وكم فى الدنيا من فقير صار أو صار ولده أو حفيده رب الملايين .

---

[1] السبع فى عامية الشام مصب الماء إلى البركة وكان يكون على صورة سبع — والمارب مخرج الماء منها .

فلا ييأس أحد ، فربما صار ابن آذن [١] المحكمة رئيسها ، وصار ابن الرئيس آذنها ، وغدا ولد الفلاح صاحب الأرض ، وولد صاحب الأرض فلاحا يشتغل بطعام يومه .

وإنما هي الأيام يداولها الله بين الناس ككرة الملعب ، ما تكون بيدك إلا ريثما تنتقل إلى غيرك والعمر كله ماض فهل يبقى لك المال إن ذهبت الحياة ؟ .

وسيسوى الموت بين الأحياء جميعا . الغنى والفقير ، فى نظر الدود سواء ، والعامل والأجير والصعلوك والأمير والكبير والصغير كلهم يصير إلى البلى والانحلال ثم يلقى السعادة الدائمة أو الشقاء الخالد .

قم فى المقبرة تلق قبرا يشمخ بأنفه كبرا على القبور ، يزهى بالرخام المجزع المنقوش ، ويضحك بالزهر والورد وآخر يكبو متعثرا بالطين ، تحت أقدام السائرين ، وقبرا ثالثاً قد مات كما مات من فيه فعاد القبر ترابا فى الأرض؟.

تفاوتت المظاهر ولكن اتحدت البواطن ، فما فيها كلها إلا رمم بالية ، وعظام نخرة ، لا تختلف رمة عن رمة ، ولا عظام عن عظام ولا تميز جمجمة الملك من جمجمة الصعلوك ، ولا ساق القاضى الذى حَكَمَ من ساق المجرم الذى حُكِمَ ، وما رد قبر الحياة على ميت ، ولو كان قبر الامبراطورة شاهجان (تاج محل) أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض .

ما يبق للميت إلا الذكر فى الدنيا والعمل للآخرة ، وما الذكر ـ إن حققت ـ وما الشهرة إلا خدعة كبرى ليس وراءها شيء ، والعمل الصالح هو وحده الباقى ؟

على الطنطاوى
مستشار محكمة النقض
فى الجمهورية العربية المتحدة

(١) الآذن فى الشام الفراش .

الإمام الزمخشرى والشعوبية

قال الإمام الزمخشرى :

أحمد الله على أن جعلنى من علماء العربية ، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميمهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين .

تطور النحو العربي

للدكتور عبد الله درويش

لقد خلع الدين الإسلامى على اللغة العربية ظلا من الإجلال والتقدير، والعناية، قاربت فى بعض الأحيان درجة القداسة وكانت العناية بها إبان نشأة الامبراطورية الإسلامية عناية تقوم على أنها جزء من مقومات الإسلام: ولذا رأيناها تغزو اللغات المحلية وتصرعها، حتى أصبحت اللسان فى أرجاء الدولة من المحيط إلى الخليج.

وقبل أن نغوص فى أعماق موضوع البحث يحسن أن ننبه على فرق كبير بين شيئين.

أحدهما اللغة: والثانى قواعد اللغة أو نحوها grammer فنصوص اللغة كما حفظت لنا ممثلة فى القرآن الكريم وفى الحديث وفى أدب العرب من شعر ونثر، لا نملك نحن أن نغير فيها شيئا، بل ليس من حقنا هذا، ذلكم هو الشأن بالنسبة للأمر الأول.

أما الأمر الثانى وهو النحو، فمن حيث إنه تحليل للتراكيب اللغوية ووسيلة لفهم الأساليب المختلفة: يمكن أن ينظر إليه من زوايا متعددة كل يختار الزاوية التى يستطيع بها أن يصل إلى هدفه.

كذلك نفرق بين شيئين آخرين.

بين النحو من حيث إنه تحليل للنص العربى المأثور وبينه من حيث إنه وسيلة لتعلم اللغة.

فالأول هو الذى يعنينا، أما الثانى فيعنى رجال التربية.

كيف دون النحو:

إذا استعرضنا الأدلة المادية التى ترشدنا إلى وضع النحو العربى لم نجد أسبق من «الكتاب» لسيبويه و «معجم العين» للخليل بن أحمد: فالأخير رغم أنه كتاب لغة إلا أنه يشتمل أحيانا على بعض قضايا النحو والصرف.

وفى الكثير الغالب يستعمل اصطلاحات كتلك التى استعملها كتاب سيبويه. ولكن هل كانت هناك كتب أخرى تتكلم فى النحو قبل ذلك؟.

لا نستطيع أن نجزم بهذا، رغم أن بعض الروايات تقول بوجود «الإكمال» و «الجامع» لعيسى بن عمر.

ولـكن الذى لاشك فيه أن هناك محاولات كثيرة سبقت كتاب سيبويه . والدليل على ذلك وورود أسماء علماء لغويين نقل عنهم سيبويه فى كتابه .

فإلى أى مدى كان بجهود هؤلاء الرواد فى النحو العربى ؟ .

لقد كان من البواعث القوية على النظر فى وضع قواعد للغة العربية ظهور اللحن ، وبالتالى للمحافظة على نص القرآن الكريم من أن يعتريه تصحيف أو تحريف .

فقد بدأ اللحن خفيفاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . واهتم بتدوين هذه الظاهرة اللغويون والنحاة .

فقد ذكر ابن جنى فى الخصائص (١٠/١-٨) أن قد لحن رجل بحضرة رسول الله فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .

والظاهر أن الخطأ اللغوى كان معروفا بهذا الاسم أيضاً « اللحن » فقد روى السيوطى « المزهر ٢ / ٣٩٧ » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا من قريش . ونشأت فى بنى سعد فأنى لى اللحن » .

وقد روت كتب الطبقات طرفا من لحن العامة والأمراء على السواء . . وكان أشد أنواع اللحن ما وقع منه فى القرآن الكريم عما يتغير معه المعنى . . أو يؤدى اعتقاده إلى الكفر ، كما يقول أهل العقيدة . مثل ما وقع فى آية : « أن الله برىء من المشركين ورسوله » . فى سورة التوبة .

ويظهر أن سورة التوبة كان فيها من المشكلات النحوية ما يجعل كثيرين يزلف لسانهم فيقعون فى اللحن .

فقد روى ابن عساكر «تاريخ دمشق ٤/٦٥ روضة الشام» أن الحجاج سأل يحيى بن يعمر « أتسمعنى ألحن على المنبر ؟ » فقال يحيى : « الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يروى الشعر» قال : « أتسمعنى ألحن حرفا ؟ » قال : « نعم . فى آى القرآن » قال « فذاك أشنع » وما هو ؟ قال فى قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله » . تقرؤها أحب . بالضم .

فأنف الحجاج أن يكتشف بعض رجاله أنه يلحن فأمر به فبعث إلى خراسان . كما نقلوا أن الوليد بن عبد الملك كان يلحن أيضا .

وهذا اللحن أدى إلى التفكير . فى عمل شىء ما لحفظ القرآن وصونه من أن يتطرق إليه اللحن .

فأول محاولة لذلك هى محاولة أبى الأسود الدؤلى «وكانت بالنقط» أى الدلالة على الضمة والفتحة والكسرة بنقط تكتب فى

المصحف ، فالفتحة نقطة فوق الحرف والضمة نقطة بين يديه والكسرة نقطة تحته : وكانت الحروف نفسها غير معجمة أي غير منقوطة فأمر الحجاج بنقط الحروف : فكان في المصحف نقطان أحدهما للحروف، والآخر لعلامات الإعراب. ثم كتبوا أحدهما بالمداد الأحمر حتى جاء الخليل بن أحمد فهداه تفكيره الثاقب إلى وضع الضمة كرأس الواو والفتحة كألف مائلة على الحرف والكسرة مبدأ الياء تحت الحرف .

فكانت محاولات . أبي الأسود هي الأساس لوضع قواعد يعرف بها المضموم والمفتوح والمكسور من الكلمات . أو بعبارة أخرى يعرف بها شيء مما نسميه الآن بقواعد النحو . .

ورغم أن الباعث ديني إلا أن المسألة لم تقف عند هذا الحد بل أخذ أتباع أبي الأسود يضيفون إلى ما ابتدأه مسائل أخرى: حتى انتهت إلينا في كتاب سيبويه .

وفي تلك الحقبة من الزمن كان للعرب وخصوصا في البصرة اختلاط كبير بالجاليات الأجنبية في تلك المدينة خصوصا من الفرس والروم ، وقد كان عدد كبير من الباحثين اللغويين من الموالي أي غير عربي النشأة فسيبويه نفسه كانت أمه فارسية . . ولم يكن العرب ـ خصوصا بيئاتهم العلمية ـ منعزلين بل أخذوا من الموالي وأعطوهم فتأثروا بالثقافة الإغريقية . . خصوصا بنظرية أفلاطون في مشكلة الوجود والعدم فقد رأى أن الموجودات نوعان: ذوات وأحداث فالذوات أمور مادية أو معنوية مثل الباب والمصباح والصبر والحكمة والأحداث أفعال تقع في زمن خاص مثل الضرب أو الكلام الذي يدل عليه بكلمات ضرب يضرب اضرب ... إلخ .

وهذا يسوقنا إلى التساؤل . هل كان النحو عربي النشأة ؟ ومن الذي وضعه ؟ .

أما السؤال الأول : فجوابه أن النحو نشأ عربيا خالصا وبمجهود العلماء العرب أو المستعربين من الموالي . ونشأ في مدينتين عربيتين هما البصرة والكوفة وبوازع ديني ، اشترك فيه كثير من القراء ، إذ كان أغلب القراء نحويين أيضا .

ولكنه تأثر بما كان معروفا لديهم من فلسفة اليونان إلى حد ما ولا يمكن أن ننكر تأثير الفلسفة اليونانية في مصطلحات العلوم العربية (راجع كتاب أوليري : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة الدكتور تمام) .

أما السؤال الثاني : فقبل أن نجيب عليه ينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن بين أبي الأسود الدؤلي وبين سيبويه سلسلة من الرواة بين كوفيين وبصريين منهم :

عنبسة الفيل ، ميمون الأقرن ، نصر ابن عاصم ، يحيى بن يعمر ، أبو عمرو بن العلاء ابن أبى إسحاق ، عيسى بن عمرو ، أبو جعفـــر الرؤاس ، أبو زيد يونس الأخفش ، الخليل بن أحمد ، الكسائى ، سيبويه ، الفراء ، الكسائى .

وقد وردت أسماء هؤلاء العلماء فى كتاب سيبويه ، فهذا يدل على أن النحو بدأ قبل سيبويه ، ثم اكتمل على يديه ، حتى أصبح يستحق أن يكون علما ذا منهج ، وله أبواب وفصول ومسائل ، تدون فى مؤلف خاص .

وهـذا يجرنا إلى التساؤل من جـديد هل الكتاب من وضع سيبويه وحده؟ لقد حاول بعضهم التشكك فى ذلك كما تشككوا فى نسبة كتاب العين للخليل وقد تصدى كثير من المؤلفين لبحث هـذه القضية . وآخر بحث واف فى هذا الموضوع هو كتاب « سيبويه إمام النحاة » لأستاذنا الكبير على النجدى .

وقد انتهى إلى أن الكتاب لسيبويه ، بمعنى أنه مؤلفه . وإذا أخذنا فى الاعتبار أن التأليف يعنى جمع المـواد والمسائل وتبويبها ، وذكر آراء العلماء السابقين ، ومناقشتها وإضافة جديد فى المـادة وانتهاج منهج خاص فى التأليف . فإذا أخذنا ذلك فى الاعتبار فإن سيبويه بهذا المعنى هو مؤلف الكتاب .

ولا يضيره فى ذلك نقله عن العلماء السابقين، حتى ولو كثر هـذا النقل عن عالم بالذات إذ قـد أكثر سيبويه النقل عن أستاذه الخليل بن أحمـد . واعتمد عليه فى ذلك اعتماداً كبيرا .

وإذا طبقنا مدلول التـأليف على كتاب المفصل مثلا نجد أن المسائل النحوية منقولة عن الكتب التى سبقته ولكن شخصية الزمخشرى واضحة فيـه فى التبويب وعرض المسائل ومناقشتها ، والإدلاء فيها ببعض الآراء . وما ينطبق على المفصل ينطبق على غيره من الكتب النحوية وغير النحوية ، بل على الأبحاث التى يقوم بها المختصون ، للحصول على درجات علمية كالماجستير والدكتوراه . وهذه لا ينازعهم فى نسبتها إليهم منازع .

هذا بالنسبة للكتاب . ولنعد إلى السؤال من الذى وضع النحو ؟ .

إن قواعد النحو أشبه ببيت كبير اشترك فى صنع مواده الأوليـة طائفة كبيرة من المختصين .

فليست نسبة وضعه إلى أبى الأسود وحده . ولا إلى الخليل وحده ولا إلى شخص واحد فى وسط سلسلة الرواية التى بينهما .

وهذا يجعلنا نأخذ بشىء من التحفظ رأى من ينسبه إلى أبى الأسود أو ابن أبى إسحق أو نصر بن عاصم أو الخليل .

وطبعاً لا ينبغى . حيث رفضنا أن يكون شخص بمفرده قد وضع النحو - لا ينبغى أن نحكم بأن الإمام علياً كرم الله وجهه هو واضع النحو - وإن كان أبو الأسود قد قام بالنقط بإيحاء منه وتحت رعايته .

فكما لا يصح فى عصرنا الحديث أن نقول إن الوزير الفلانى أو الحاكم الفلانى قد جدد الأدب أو الشعر الحـــر . أو حتى النحو الوصفى ، إذا ما تبنى الفكرة ورعاها وشجع الباحثين فيها فكذلك لا ينبغى من الناحية العلمية أن ننساق وراء الأهواء الشيعية التى تحاول نسبة النحو للإمام على كرم الله وجهه.

مدرستا الكوفة والبصرة :

لقد أفاضت كتب الطبقات فى ذكر المدرستين ورجالها وأوجه الخلاف بينهما وأوجه التشابه .

وكما نعلم - فمدرسة البصرة أسبق فى الوجود ، فقد وجدت الطبقة الأولى من الكوفيين مع الطبقة الثالثة من البصريين .

وقد جمع ابن الأنبارى من مسائل الخلاف إحدى وعشرين ومائة مسألة فى كتاب « الإنصاف » .

ويذكر العلماء أن البصريين قياسيون . أما الكوفيون فيذكرون أنهم سماعيون يغلبون جانب النص على جانب القياس .

وقد غالى فى ذلك الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام جـ ٢/٢٨٤ وبجانب هذا نرى أحد المستشرقين جوتولد فايل الألمانى - الآن يهودى فى إسرائيل - يقول بعدم وجود مدرستين بالمعنى العلمى المميز للمدرســة الكوفية ؟ .

فقد ذكر - فى مقدمة طبعته لكتاب الإنصاف أن الاتجاه الكوفى الذى وجد مخالفاً لاتجاه الخليل وسيبويه يرجع إلى تأثر الكوفيين ، وعلى الأخص الكسائى والفراء بيونس بن حبيب البصرى الذى كان له مذهب خاص وأقيسة تفرد بها ، خالف فيها الخليل وسيبويه .

ويستطرد فايل فيقول :

يغلب على الظن أن يونس بن حبيب كان صاحب التأثير الموجه فى الكسائى والفراء الكوفيين . فقد كان يونس هو الوحيد من القدماء الذى يمثل آراء الكوفيين فقد ذكره كذلك ابن الأنبارى . كما ذكره صاحب شرح المفصل ابن يعيش خمس مرات من سبع فى جانب الكوفيين . ثم ذكره السيرافى فى أخبار النحويين البصريين - كما روى . ذلك عنه السيوطى فى بغية الوعاة (٦٢٤) حيث قال « وله قياس فى النحو ومذاهب ينفرد بها . سمع منه الكسائى والفراء » .

لجوتولد فايل يرى أنه لم يكن هناك مدرستان متميزتان من ناحية التفكير اللغوى . ولكن كان هناك أفراد نشئوا فى البصرة وأفراد نشئوا فى الكوفة ـ وتتلمذ أفراد كل جهة على أفراد الفريق الآخر .

والحق أن أوجه الشبه بين المدرستين أكثر من أوجه الاختلاف ففى كتاب الإنصاف مسائل اعتمد فيها البصريون على السماع مع شهرتهم بالاعتماد على القياس . كما أن فيه بعض مسائل اعتمد فيها الكوفيون على القياس مع شهرتهم بالاعتماد على السماع .

ولكن هذا لا يمنع أن الأولوية لدى البصريين كانت للقياس فحكموا بشذوذ كثير من الشواهد التى أوردها الكوفيون . كما أن الكوفيين بحكم موقع مدينتهم وسط العراق . وكثرة القبائل العربية فيها التى نزحت مع الجيوش الإسلامية التى رابطت هناك . وكثرة عنايتهم بالقراءات . ووفرة روايتهم لأشعار العرب وحفظها كل ذلك قد أثر فى نظرتهم للنحو إلى حد كبير .

ولكن الفريقان ، البصريون والكوفيون : يعتمدون على منهج واحد هو منهج التأثر بالفلسفة والتعليل التى أدت إلى نظرية العامل والحذف والتعليل وعقدت كثيرا من مسائل النحو التى هى فى حد ذاتها بسيطة . وسنبين هذا فى مقالنا القادم إن شاء الله ؟

« للبحث بقية »

عبد الله درويش

مدرس النحو بكلية دار العلوم

الوطن

ولى وطن آليتُ ألا أبيعَهُ وألا أرى غيرى له الدهرَ مالكا

وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهم مآربُ قضّاها الشبابُ هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ عهودَ الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

مناقشة

ألا تزال للدين رسالة؟

للأستاذ فتحي عثمان

إيضاح منهج :

« فى أول الأمر » يمتد (الدين) إلى كل شيء ...

فكل ظاهرة اجتماعية ظاهرة دينية، وهذان اللفظان مترادفان . ثم تحررت الوظائف الاقتصادية والسياسية والعلمية من الوظيفة الدينية شيئاً فشيئاً . . .

والتفكير الحر ظاهرة لا بداية لها فى كل مكان، ولكنها تنمو دائما فى جميع عصور التاريخ » .

هكذا يقول دوركايم فى كتابه : (تقسيم العمل الاجتماعى) . وهو يعرف تطور الدين بأنه (تقهقر) . ويذكر ريناخ - من أتباعه - أن البدائى كان يشعر على الدوام بقوى رهيبة ، وأنه يعيش فى رعب مستمر . ولما حدد رجال الدين عدد الأمور المحرمة، وأعلنوا أنهم وسطاء بين الإنسان وبين القوى الإلهية ، صنفوا ضروب الفزع ، واختصروا عددها ، وقد شهدت الشعوب القديمة تحديد أيام النشاط الدينى وساعاته ، وهكذا وجد الفرد نصيباً أكبر من الحرية . وعندما قررت المسيحية عقائدها ساعدت على التعجيل بعصر الحرية ، لأن ريناخ يرى أن المسيحى متى سلم بالعقائد استطاع أن يتجه بنشاطه بعد ذلك نحو الأعمال الدنيوية ! ! ! .

وحدد أوجست كونت (قانون الأحوال أو الأطوار الثلاثة) ، « فنى بدء الإنسانية كانت الأفكار الدينية (فى عبادة الأصنام) متحدة اتحادا تاما ومباشرا بالإحساسات نفسها ... وكان مذهب تعدد الآلهة أول هبوط عام فى التفكير الدينى . . . وكان التوحيد سبباً فى ازدياد هذا الهبوط ، ففى الحياة الحقيقية سواء أكانت فردية أم اجتماعية يظل المذهب الكاثوليكى منصرفا على الدوام إلى زيادة نصيب الحكمة الإنسانية بالتدريج على حساب الإلهام الإلهى ، وأدى المذهب

البروتستنتي إلى انحلال التصورات الصوفية نهائياً . وهكذا فقانون التطور هو في نهاية الأمر قانون القضاء على الأفكار الدينية في العالم » ! ! ! .

• • •

هذه الفكرة يتناقلها أناس بغير وعي وبصيرة ، وعلى غير إلمام بالدراسة التاريخية والاجتماعية . فينبغي أن يراعى أولا ، ماينبغي مراعاته في كل دراسة إنسانية ، من التحفظ في إطلاق التعميمات ، وعدم مسايرة أهواء الحدس في اصطناع القوانين ، وقد أشرنا ، إلى ذلك في مقالنا السابق . وما أدق إشارة جوستاف لوبون في كتابه (روح الثورات) : « إن ما ألفه كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يثبت ما للمبادئ الدينية والأدبية المحتقرة الآن (!!) من الشأن في ذلك الزمن . فالمصلحون في كل زمن سعوا إلى إقامة المجتمعات الجديدة على مالا تقوم بغيره من المعتقدات الدينية والأخلاقية ! وإلى ماذا يستند المصلحون في إيجاب تلك المعتقدات ؟ ؟ إلى العقل !! فما دام العقل هو الذي يصنع الآلات المعقدة فلم لا يستعينون به على إيجاد معتقدات دينية أو خلقية !! . . إن أوجست كونت قد أسس (ديناً) وضعياً لم ينتحله سوى بضعة أشخاص حتى الآن ، ويأمر هذا الدين بتعيين كهنة ، يدير أمورهم حبر جديد غير الحبر الأعظم للمذهب الكاثوليكي !!! » .

وينبغي بعد ذلك أن تعرف الظروف التاريخية والنفسية التي صدرت عنها بعض الأحكام المعتسفة والتعميمات الساذجة والتقريرات الفطيرة . . . إن القوم كانوا (يدينون) بمحاربة الدين ، و (يتعبدون) ببناء صرح علم مادي لا يدع أي فراغ لشيء غيبي ، ولا يسمح بمقدار ذرة من سلطان للإلهيات والروحيات بعد أن ذاقوا من كهنتها الأمرين ، وبعد أن بهرتهم أضواء الكشوف والمخترعات . . . فلما هدأت الأعصاب ، ونشأت أجيال في ظل مدنية الآلات فلم تعد شيئاً جديداً فتانا ، وحققت هذه الآلات راحة ووفرت جهداً ووقتاً للتفكير ، وطحنت الناس الحروب العالمية ، والأزمات الاقتصادية والمتاعب النفسية للحضارة الآلية ، تغيرت النظرة فتغير المنظور ، وهفا الناس إلى حديث الروح . . . . « وقد اضطر أوجست كونت نفسه إلى الاعتراف ، في النصف الثاني من حياته بأن العاطفة تحتل المقام الأول وبأنه يجب إشباعها ، ومن ثم انتهى إلى ابتكار (دين تحقيق !) ليستعيض به عن الديانات الموحى بها ، وهو عبادة عظماء الرجال أو عبادة الإنسانية » ! ! (باستيد : مبادئ علم الاجتماع الديني ترجمة دكتور قاسم) !! . . .

ثم ينبغى أن تعرف المناهج الاجتماعية والتاريخية على وجهها، حتى يتحدد مدلول الألفاظ دون لبس أو خلط. إن اصطلاح الدين فى نظر علم الاجتماع أوسع من أن يقصد به الديانات السماوية، وهذا فريزر يرى أن الدين بدأ بظهور فكرة الآلهة، أو على أكثر تقدير بظهور أرواح الأفراد أو أرواح الطبيعة التى يتخيلها المرء على غرار أرواح البشر، ويقول دوركايم: إن العنصر المشترك حقيقة بين جميع الديانات هو معنى الأمور المقدسة، فتقوم على تصنيف الأشياء فى نوعين متضادين: قدسى ودنيوى، والأشياء المقدسة ليست مجرد الكائنات الشخصية من آلهة أو أرواح، بل قد تكون صخرة أو شجرة أو نبعا أو نهرا أو قطعة خشب، وقد يوجد هذا الطابع فى طقوس أو ألفاظ.

وعلم الاجتماع لا يهتم (بالتقويم)، وليس هو من العلوم المعيارية، فالعقيدة الصحيحة والخاطئة، والعبادة السليمة والمنحرفة، والوثنية والفتشية والحيوانية، والتعدد والوحدانية، والآلهة المشخصة والقوى المطلقة فى موازينه سواء. ومن هنا كلا غرابة أن يرى علم الاجتماع الروحانية الغيبية (تتقلص)، ويرى داعية الدين أن هذا التقلص المقصود هو تقلص الخرافة، وأن من الخير للإنسانية أن تتقلص الخرافة دون جدال.

ولذلك يدرس علم الاجتماع ظاهرة السحر، ويحلل العلاقة بينها وبين الدين، ويرى فريزر أن السحر كان سابقا على الدين، وأن الإنسان حاول إخضاع الطبيعة لرغباته بمجرد تأثير صنوف سحره قبل أن يحاول تدليل (!) إله متحفظ متقلب الهوى سريع الغضب بما تحتوى عليه الصلاة والقربان من حلاوة التلميح، !!! ويرى باستيد أنه «من المحتمل أنه كانت هناك مرحلة لم ينفصل الدين فيها عن السحر، ولكن أخذت تلوح فيها ضروب النزاع بينهما. ثم جاءت مرحلة ثانية كانت مفترقا لطريقين: يقود أحدهما نحو الجمود الذى ينتهى إلى السبات والركود، ويتجه الآخر نحو الجانب الروحى»، ... ولعل فى هذه النماذج اليسيرة من ألوان الدراسات الاجتماعية ما يدعو إلى تفهم مناهجها فى التأريخ للتطور الدينى.

وليس معنى ذلك أن الدراسات الاجتماعية التاريخية لا تسد حاجة عند الدارس المنصف لقضية الدين ... إنك إن طرحت منها أهواء الحدس والتعميم وشهوات المجازفة بالتقنين تقدم أبحاثا ذات قيمة كبيرة، لو فهمت على وجهها، وأحسنت الاستفادة منها؛ لنستمع إلى باستيد يقول: «تظهر الديانات وتتطور داخل الحضارات التى لا يمكن أن تسبقها

أو تتأخر عنها دون أن تتعرض للموت ، ومعنى هذا أن هناك علاقات بين النماذج الدينية وبين مختلف التراكيب الاجتماعية . ولنفحص تأثير المجتمع على الدين : إن كل تحول يطرأ على المجتمع يصحبه انقلاب مماثل فى النظم الدينية ، مثال ذلك الانتقال من نظام البدو إلى الحضر ، فالعرب الرحل الذين يوحد بينهم صراعهم المرير ضد الصحراء يقدسون أسلاف العشيرة ، أما لدى الزراع الذين استقروا فى بقعة من الأرض فإن تقديس الأولياء يحتل مكان تقديس الأسلاف ، وهو أقل اطرادا وأكثر تخلخلا منه ، وقد أدى استقرار الإسرائيليين فى يهوذا إلى أن يصبح (يهوه) إلها للزراعة على غرار (بعل) بعد أن كان إلها للرعاة . وقد انعكس الانتقال من جنى الثمار إلى الزراعة فى الانتقال من ديانة ساذجة تقول بحياة المادة إلى عبادة أقل سذاجة وهى عبادة الطبيعة ، ويؤدى تحول النظام الأسرى إلى مثل هذه التغييرات ويتجلى ذلك بمتابعة تاريخ الآلهة الإناث والذكور عند الإغريق . وبظهور المدن ينعكس التركيب الاجتماعى الجديد على التصورات الدينية والنظام الدينى ، وكانت أقدم ديانة فى الصين ديانة زراعية مصحوبة بأعياد الربيع ومواكبها ومبارزاتها وأغانيها ، وورث الشريف فى المدن الإقطاعية الطابع المقدس لهذه الأعياد . . وفى الثورات يؤدى انتصار السوقة فى نهاية الأمر إلى عودة الأفكار القديمة . ثم تفضى التجارة ، ونمو الزراعة إلى اختلاط الشعوب وتعبُر محاولة التوفيق بين المذاهب الدينية عن محاولة التوفيق بين الشعوب من الوجهة الاجتماعية . وإذا كان كل تعديل يطرأ على بنية المجتمع مؤديا إلى انقلاب مماثل فى الحياة الدينية ، فكذلك يؤدى بقاء حالة اجتماعية معينة إلى بقاء نموذج دينى بعينه ، على الرغم من التغير الطارئ على العقائد ، إن المسيحية احتلت محل الوثنية فى أيرلندا ومقاطعة الغال ، ولكن كان نظام الهيئة الدينية الجديدة مجرد نسخة مأخوذة عن نظام المجتمع القديم ، وأنشئت الأديرة أولا قبل تشكيل الأسقفيات والأبرشيات » .

قد يقرأ المتدين هذا الكلام فينفر ؛ لأن الدين يغدو وفق هذا المنطق نتيجة التطور الاجتماعى لا إلهام الوحى الإلهى ، ولكن الباحث الدراسى يستطيع أن يقيم موازين الحق ويخرج بالثمار النافعة من كل جهد .

• فينبغى أن يستوثق من صحة الوقائع التاريخية التى استخلصت منها النتائج ، ومن اطراد هذه الوقائع ، كيلا تكون الأحكام مبتسرة ترضى أهواء خفية . وينبغى أن ينظر إلى محاولات الاستنتاج والاستيطان فى دراسة

الوقائع التاريخية على أنها مجرد (محاولات) لا غير .

• فإذا تم ذلك فإن مثل هذه الدراسات الاجتماعية قد تفيد فى توضيح بعض الأمور، مثل تفسير ظهور بعض الديانات غير السماوية وتطورها ، وإبراز الأشواق والرغبات الإنسانية التى يسعى البشر لتحقيقها عن طريق الديانات المصنوعة . . . ومن هذا وذاك يمكن التوصل إلى ما ينتظر الإنسان أن يحققه الدين المنشود له من إرضاء ونهوض فى الوقت نفسه .

• ثم إن هذه الدراسات تعين على تدبر مجارى التفكير البشرى فى تلق الدين السماوى فالبشر يتصورون الدين وفق ظروفهم النفسية والعقلية والمادية ، وقد ينحرفون بأهوائهم عن سلوك الطريق الذى خطه الوحى مستقيما لا عوج فيه . . . ولما كان الفكر الدينى شيئاً غير (الدين) نفسه فى نصوصه المتناهية المحدودة المحكمة ، فإن الاستنارة بالدراسة الاجتماعية قد يعين على تحليل عوامل تكوين الفكر الدينى فى عصر أو بيئة أو عند شخص وما طرأ من تغيرات فى فهم الدين وتنفيذ أحكامه .

• كذلك تعين الدراسات الاجتماعية على تقدير أهمية (البيئة) فى الفكر والنفس ... ومن هنا يبدو رائعاً حرص الدين على تسلم زمام التوجيه فى الأسرة والمجتمع والدولة والعالم عن طريق التشريع ، وعدم الاكتفاء بالتقرير النظرى العقلى البحت للعقيدة ومن هنا لا يترك الدين للناس كنظرية حسابية يثبتها الإحصاء والتجريب . إن التكوين النفسى والاجتماعى ينبغى أن يصاغ بحيث يعين الفرد على الحياد العقلى ، ويرفع عنه الضغوط والمؤثرات التى تجعل (النظرية) التى تقررها العقيدة الدينية فى واد ، وإيحاء التربية والثقافة والتقاليد والسلطة فى واد آخر .

لكن الدين فى الوقت نفسه يجعل نظمه وشرائعه من المرونة بحيث لا تنحصر ولا تنغلق ولا تتجمد . فالدين - أخيراً - مجموعة من العقائد والعواطف أكثر من أن يكون مجموعة من النظم ؛ لأن النظم لما كانت تهدف إلى تنسيق العلاقات المادية بين الناس كانت تتوقف إلى حد كبير على الشروط العمرانية والخاصة بالتركيب المادى للمجتمعات ، وتخضع الهيئات الدينية لنفس هذه الشروط بالقدر الذى تكون فيه نظما اجتماعية ، ولكنها تفسح المجال للقلوب الطموحة وللحاجات العقلية ، وحينئذ نجد نصيب الأعمال الإلهية فيها أقل منه فى أى مجال آخر ، كما يقول باستيد .

• وتعين هذه الدراسات كذلك على

استيضاح تطور الديانات السماوية نفسها ، وتعليل افتراقها فى التفاصيل عن بعضها ... فالله تعالى قد أرسل كل رسول بلسان قومه ، يترجم عن مطالبهم وآمالهم ، ويشرع لهم ما يوافق احتياجاتهم . والقرآن لم يورد تفصيل الرسالات السابقة على الإسلام ، ولكنه أبرز أهم معالمها ، فإذا هذه المعالم المميزة تختلف ما بين رسول ورسول اختلاف الأقوام الذين جاءهم المرسلون: « ولوطاً إذ قال لقومه، أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » .. « وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم آية من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .. « وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » .

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون » ... « قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين » . . « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين » .

« وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم » .. « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون». وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » . . . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم

بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين» ... «فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه» ... «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً» .

تلك آيات نرى فيها جليا تباين الأوامر الإلهية التى ابلغها المرسلون لأقوامهم، نتيجة اختلاف ظروف هؤلاء الأقوام المادية واحتياجاتهم النفسية والاجتماعية ما بين نهى عن الفاحشة وأمر بوفاء الكيل، وصيحة بتحرير شعب، وهى تكشف أسلوب تقديم القرابين الذى جرى عليه ابنا آدم فى فجر البشرية، وكيف استوحى القاتل أسلوب الدفن من نبش الغراب .. وتبرز طابع القبيلة فى بنى إسرائيل وبيئتهم فى القرية وبجوار البحر والحظر المفروض عليهم يوم السبت، والأمر بدخول (أرض مقدسة)، ونزوعهم إلى التجسيم والتشبيه إلخ هذه الإشارات الموحية فى دراسة تطور المجتمعات والأديان ... !.

هذا هو الدين فى ماضيه ... فما بقى له ما يؤديه فى حاضره ؟ ؟ سوف نعرض لذلك فى الجزء القادم إن شاء الله

فتحى عثمان

من نعم الله

قال فيض بن إسحاق :

كنت عند الفضيل بن عياض يوما، إذ دخل رجل وسأله حاجة، وألح فى السؤال، فقلت للرجل : لا تؤذ الشيخ ! .

فقال لى الفضيل : اسكت يا فيض . . ! اما علمت أن حوائج الناس إلينا نعمة من الله علينا ؟ . فحذار أن نمل النعم، فتتحول نقما، ألا نحمد الله ؛ أن جعلنا موضع من يُسأل، لا موضع من يَسأل ؟ .

الانحلال شر من الشيوعية

للأستاذ محمد كامل الفقي

ليس من شك فى أن شرة الشيوعية قد انطفأت وأن حدتها قد انكسرت ، وأن خطرها على العرب عامة وعلى مصر خاصة قد زال إلى غير رجعة إن شاء الله ، « ومصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله » .

وغيرتنا على هذه الأمة الإسلامية ، وعلى أمجادها ، تدفعنا دفعا إلى التناصح والتعبير عن كل ما نرى الخوض فيه سبيلا إلى تصون المسلمين ، وبقاء رايتهم مرفوعة ، وكلمتهم عليا ، والمؤمن حكيم كيس لا يحكم على الأشياء من لمحات لبعض جوانبها فهو متفطن يهتدى بنور قلبه إلى ما فيه خير لنفسه ولأمته والبصيرة عين لا تنام .

لم تكن دعوة الشيوعية منذ حين وهى فى طغيانها لتثير فى نفسى خوفا وقلقا ، وقد فزع لها الناس وظنوها معاول تهدم قلاع الإسلام ، وتغزو ديار المسلمين ، وسخرت قوى الدولة جميعا لتبصر بخطر الشيوعية ، وتفتح الأعين على قبحها وشرها المستطير ، وجردت من علماء الأزهر سيوف مشرقية ، وبات الناس بين صبح واعظ ، وعشية منذرة ...

أما أنا فقد كان أمرى من هذه المحنة عجبا ، لقد قلت علام هذه الصيحات وفيم ذلكم الضجيج ؟ إن القلوب المؤمنة . والنفوس التى عمرها اليقين ، وجرى حب الإسلام فيها مجرى الدم هازئة بتلك الشيوعية ، ساخرة من الدعوة لها مهما برق أسلوبها ، وأحكم زيفها ، فمهما دقت طبول الشيوعية ، ومهما زعمت للناس بأن فيها المساواة والمن والسلوى ينزلان على الناس فهى كذب وزور وخداع وتضليل فى رأى المؤمنين الذين عرفوا الإسلام وحده قانونا سماويا لا ينازع فى إسعاد البشر فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة ، فالشيوعية فى أسماع هؤلاء المؤمنين طنين ذباب وطنين الذباب لا يضير .

والمائعون المنحلون من هذه الأمة المتفلتون من زمام الدين ، الناكصون على أعقابهم الذين خرجوا عن حدود الله ، فاستباحوا كل حرام ، وانطلقوا سادرين فى غيهم ، لا يستحون من كبيرة ، ولا ينفرون

من فاحشة ، هؤلاء وحدهم هم خلايا الشيوعية المستعدة لتلقى هذه المبادئ الفاجرة ، المرحبة بأهدافها ، الراغبة فى التمسك بما تهدف له ، وما تسعى إليه .

فإذا كانت الشيوعية تدعو إلى التخلص من الدين الإسلامى وتزعمه رجعية تتنافى مع ما يسمونه تقدما وحضارة ، فهؤلاء المنحلون المتميعون أسبق إلى الفرار من الدين من هؤلاء الشيوعيين ، وأكثر إلحادا منهم .

وإذا كانت الشيوعية تجاهد القرآن الحكيم وتنال من قدسه ، وتبذل الجهد البالغ للخروج من حدوده ، فالمتميعون المنحلون لا يحبون القرآن ولا يحبون أهله والمعتصمين به ، وينفرون من وارف ظلاله ، وفسيح جناته .

وإذا كانت الشيوعية تحطم الحدود التى تحمى العروبة والوطن العربى من أعدائه الذين يقرعون بابه بكل يد ، لتضيع الأمة العربية ، وتغوص فى الرمال أقدام العرب ولا تبقى لهم مقومات تعينهم ، ولا شخصيات تميزهم ، ولا استقلال يضمن لهم الكرامة والعزة والأمن ، فالمتميعون المنحلون من هذه الأمة أعدى أعداء هذه المعانى الكريمة التى تتسم بها العروبة ، ويتميز بها العربى فى سمته ، وصفته ، ووجهته .

إذن فالمتميعون المنحلون من هذه الأمة شيوعيون بغير عنوان أو شر من الشيوعيين وهم خلايا شيوعية أو شر منها بغير لقب ، والشر المستور أدهى وأمر من الظاهر المستعلن ، وهو يقتضى من الحذر والحيطة أضعاف ما يقتضيه المكاشف المجاهر ، فما هـو إلا سوس ينخر فى العظام دون أن يحس أثره إلا بعد أن يستفحل خطره .

لذلك لم تسكن فورة الشيوعية منذ حين لتقض مضجعى ، ولم يكن انطفاء شعلتها ليريح صدرى ويذهب موجدتى ، فالنظر القصير هو الذى ينخدع بهذه الظواهر التى لا تروج إلا عند السذج الأغرار .

هلموا إذن لنهتك الستار عن أعداء المسلمين هؤلاء ، هلموا إذن لنكشف القناع عن هذا الاستعمار المقنع الذى يدخل على وطننا بأيدى إخواننا من هذه الأمة ، وهو يتسلل إلى أبنائها وإلى الأجيال المقبلة - لا قدر الله - هينا رفيقا مستخفيا ، لا نتلقاه حذرين ، ولا نستقبله خائفين ، وكيف نخافه أو نخشاه وهو يغشى الصالح من أخيه وتسرى عدواه من الرفيق إلى رفيقه ، ومن الجار إلى جاره ، ومن القرين إلى قرينه دون أن ننبه إلى خطره ، أو ننفر من شره ، أو نبصر له سلاحا ، أو نسمع له قعقعة !!! .

تعالوا إلى هذه الفتن التى هى شر من جميع المبادئ لنرى كيف تغزو القلوب ، وتدخل إلى النفوس « منجمة » على دفعات فتفعل

فعل الخمر احتساها المخمور كأسا فكأسا حتى خر صريعا .

ذلك الانحلال لو كاشف الناس وفاجأهم دفعة ذات ضجة وصياح لارتدخاسئا مدحورا ، ولنبه صوته الصاخب أمتنا الإسلامية إلى دعاته والنافخين فى بوقه فحطموهم وحطموا أبواقهم ، ولكنه كان كالحمى لا تعرف بوادرها حتى تظهر عواقبها .

المرأة المنحلة لم تبدأ سفورها بلبس « الشوال » ، إنما كشفت عن وجهها أولا ووجدت منكرين مستغفرين من ذنبها العظيم ، وظلت تجمع أنصاراً ومؤيدين حتى وجدت عشاقا ومعجبين ، فإذا السفور تهتك وفجور ، وإذا كشف عن الساق وغير الساق ، وإذا كل ما فى المرأة ملك نفسها تعرضه أو تخفيه والملايين ترى ولا تنكر ، وتنظر وتستمتع ، والغيرة تموت وتموت حتى كأن عشرات الألوف أو مئاتها لم تخلق لها رجولة ولم تولد فيها غيرة .

وكان عجبا أى عجب أن يصحب الفتى فتاة فى الطريق ، وكان الفاجر الذى ينحدر إلى هذه المخالطة المعالنة يكابد من سخط الناس وألسنتهم الحداد ما يكابد ، حتى انتهى الأمر إلى مشاهدة الجريمة لا الاختلاط ، ومعاينة العشق وآثاره ، والفسق ومغباته ، فى العامل والتلميذ والموظف وفى المدارس والجامعات .

ومهما نثرت رائحة المسك على دور التعليم فمن خلالها نشم ريح الفاحشة ما ظهر منها وما بطن .

فالغريب بالأمس مألوف اليوم معتاد غداً ، وهو بعد غد عرف وظاهرة طبيعية ومازلنا حتى شهدنا من أبنائنا من يفعلون الفاحشة ويقولون « وجدنا عليها آباءنا » . ومن يتمثل عندئذ بقول الله : « سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين » .

لعلك إذن أيها القارئ أدركت معى مهما أوجزت لك القول أن الشيوعيين ما تطاول شرهم ، وما استفحل جرمهم ، ليسوا شيئا مذكورا بجانب هذه « الخلايا » التى تقوم فى أمتنا على سمعنا وبصرنا . وعلى رضا منا حينا ، وعلى سخط منا حينا . وهى ماضية فى طريقها لا تلوى على شيء .

وسنبين لك إن شاء الله فى مقال لاحق فصائل هؤلاء المنحلين وجرائمهم ، وواجب الوطن نحو هؤلاء المنحلين وثقتنا بالمجد العظيم للأمة إن هى كالحتهم وكانت جادة فى أخذهم بما لا يدع للفتنة دولة ولا جاها إن شاء الله ؟

محمد كامل الفقى
المدرس فى كلية اللغة العربية

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

وصف جمع المذكر غير العاقل بجمع المؤنث

١ — يقال فى العربية : عندى كتب قيمات وآثار نفيسات ، فإذا بحثنا عن مفرد قيمات ونفيسات هنا وجدناهما قيما ونفيسا ، إذ كانا وصفين لمذكرين : كتاب وأثر ، يقال كتاب قيم وأثر نفيس . وهذا موطن بعض الغرابة ، فإن المعروف فى الجمع بالألف والتاء أن يكون للمفرد المؤنث ، ومن ثم سمى جمع المؤنث السالم . والذى دعا إلى ارتكاب هذا مع غرابته أن القيم من الكتب لايجمع جمع المذكر السالم لاختصاصه بالعقلاء وذوى العلم ، فلا يقال : كتب قيمون ، فدعت الحاجة إلى جمعه بالألف والتاء ، وهو الجمع الذى يناظر جمع المذكر السالم ، وقد صار هذا منهجا مألوفا فى العربية ، وتنبه إليه النحاة ، فجعلوا مما يجمع بالألف والتاء وصف المذكر غير العاقل ؛ ويمثل له الشيخ خالد فى التصريح بقولهم : جبال راسيات .

ومما جاء منه فى الكتاب العزيز قوله تعالى : « واذكروا الله فى أيام معدودات » ، وقوله تعالى : « الحج أشهر معلومات » . فمعدودات فى الآية الأولى جمع معدود الذى هو صفة ليوم ، ومعلومات فى الآية الثانية جمع معلوم الذى هو صفة لشهر . ومنه قول الأجرد اليربوعى من شعراء الحماسة فى رثاء أخيه :

وسامى جسيمات الأمور فنالها
على العسر حتى أدرك العُسُرَ اليُسْرُ

وذلك أن جسيمات الأمور هى الأمور الجسيمات .

وقد فعل العرب هذا فى أسماء مالا يعقل المبدوءة بابن كابن عرس وابن آوى فقالوا فى جمعهما : بنات عرس وبنات آوى ، وهذا لأنه لايتسنى لهم أن يقولوا : بنو عرس وبنو آوى إذ كان البنون لا يقال إلا لذوى العلم . ومن هذا بنات نعش لعدة كواكب ، الواحد ابن نعش ، لأن الكواكب مذكر . وقد قال النابغة الجعدى فى الخمر :

وصهباء لا يخفى القذى وهى دونه
تصفق فى راووقها ثم تقطب[1]

تمززتها والديك يدعو صباحه
إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

فعاملها معاملة العقلاء لما أسند إليها الدنو والتصوب ، وقد خرجها سيبويه[2] على هذا ، وجعلها من قبيل قوله تعالى : « يأيها النمل ادخلوا مساكنكم » .

٢ — ويقال : عندى ثياب رقائق ، فيكون فيه أيضاً بعض الغرابة ، كالذى قبله . وذلك أن « رقائق » مفرده المعهود من أمره رقيقة لا رقيق ، فكيف ساغ أن يجمع رقيق الذى هو صفة ثوب، مفرد ثياب ، على رقائق وقد رأينا فى الوجه السابق فى « جبال راسيات » أن الذى أوقعهم فى الغرابة تعسر جمع المذكر السالم عليهم ، وقرابة ما بين جمعى المذكر السالم والمؤنث السالم ، وكأنهم هنا حملوا جمع التكسير على جمع التصحيح بالألف والتاء ، فلما كان وصف المذكر غير العاقل إذا أريد جمعه جمع تصحيح جمع بالألف والتاء ، فكذلك إذا أريد جمعه جمع تكسير ساغ أن يكسر تكسير المؤنث .

ومما جاء من هذا قول أعرابية[1] فى رثاء ولدها :

لئن كنت لهواً للعيون وقرة
لقد صرت سقما للقلوب الصحائح

فالصحائح جمع الصحيح الذى هو صفة القلب، وإنما الصحائح فى قياسها جمع الصحيحة ، ولكن الصحيح لما كان وصفا لما لا يعقل جمع على الصحائح . وقد تبع الأعرابية أبو العلاء المعرى إذ يقول فى لزومياته :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وجاء من هذا قوله تعالى : « فعدة من أيام أخر » . فأخر هنا جمع آخر الذى هو صفة يوم مفرد أيام ، وإنما يجمع آخر على آخرين ، فأما أخر فواحده أخرى ، ولكن لما كان آخر صفة ما لا يعقل جمع جمع أخرى.

وقد ذكر أبو حيان[2] قاعدة لخص بها ما قلناه فى جمعى التصحيح والتكسير فقال : « وأخر صفة لأيام . وصفة الجمع الذى لا يعقل تارة تعامل معاملة الواحدة المؤنثة ، وتارة تعامل معاملة جمع الواحدة المؤنثة . فمن الأول ، إلا « أياما معدودة» ، ومن الثانى أيام «معدودات» ، فمعدودات جمع لمعدودة ، وأنت لا تقول : يوم معدودة ، إنما تقول : معدود لأنه مذكر، لكن جاز ذلك فى جمعه» .

(١) فى اللسان عقب إيراد البيتين : « الصهباء : الخمر . وقوله : لا يخفى القذى وهى دونه أى لا تستره إذا وقع فيها لكونها صافية ، فالقذى يرى فيها إذا وقع ، وقوله : وهى دونه ، يريد أن القذى إذا حصل فى أسفل الإناء رآه الرائى فى الموضع الذى فوقه الخمر ، والخمر أقرب إلى الرائى من القذى : وتصفق تدار من إناء إلى إناء وقوله : تمززتها أى شربتها قليلا قليلا وتقطب : تمزج بالماء » .

(٢) الكتاب ١/٢٤٠ .

(١) من العقد الفريد فى التعازى والمراثى .

(٢) البحر المحيط ٢/٣٢ .

ويمكن تلخيصه على وجه آخر فيقال : إن وصف المذكر غير العاقل يعامل فى جمعه معاملة وصف المؤنث .

كلفته الأمر ، كلفته بالأمر :

الوارد فى المأثور من كلام العرب : كلفته الأمر . وفى الكتاب العزيز فى أواخر سورة البقرة : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ويقول علقمة الفحل فى قصيدة له فى المفضليات فى الحديث عن قلبه .

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيب
يكلفنى ليلى وقد شط وَلْيُهَا
وعادت عواد بيننا وخطوب

(شط وليها : بعد عهدها) .

وقد دون هذا الاستعمال صاحب الأساس والمصباح . ففى الأساس : « وكلفه الأمر فتكلفه » . وفى المصباح : « وكلفت الأمر ـ من باب تعب ـ : حملته على مشقة . ويتعدى إلى مفعول ثان بالتضعيف فيقال : كلفته الأمر فتكلفه ، مثل حملته وزنا ومعنى ، على مشقة أيضا » .

وقد اشتهر من قديم بين الأصوليين والفقهاء أن يقال : كلفه بالأمر ، وهو مكلف بالأمر ، والتكليف بالأمر . وفى المستصفى للغزالى ١/٨٦ : « ذهب قوم إلى أن كون المكلف به ممكن الحدوث ليس بشرط » . وفى مسلم الثبوت ١/٨٤ : « وثانيا : كلف أبا جهل بالإيمان » ، ومن مسائل الأصول المشهورة : لا تكليف إلا بفعل . ويقول البيضاوى فى تفسيره فى أواخر سورة البقرة عند قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » : « وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق » .

وقد عاب النقاد المحدثون ما وقع فيه عامة المصنفين وسرى إلى سائر الناس من تعدية التكليف ومتصرفاته إلى المفعول الثانى بالباء . ويقول اليازجى فى لغة الجرائد ٩٧ : « ويقولون : كلفته بالأمر فيعدون هذا الفعل إلى المفعول الثانى بالباء ، والصواب تعديته إليه بنفسه ، تقول : كلفته الأمر » .

على أن هذا الذى اشتهر يخرج على وجه سائغ صحيح . ذلك أن يضمن التكليف بالأمر معنى الإغراء به ؛ فإن من كلفك أمراً فقد أغراك به وأولعك به . والتضمين سائغ منقاس إذا روعى به غرض يراد . والغرض هنا إفادة الإغراء بالفعل والهيج له ، والتزيين ؛ ليكون المكلف أسرع إلى الامتثال. وللعلماء غرض آخر ، وهو التفريق بين وصفى الإنسان الذى يطلب منه الفعل والفعل نفسه ، وهذا لا يفى به الاستعمال الأصلى إذ كلاهما عليه مكلف ، وفى هذا ما ينأى عن غرضهم من الإيضاح والتمييز ، فأما على الاستعمال الآخر ، فالإنسان مكلف ، والفعل مكلف به ، وهذا أقرب إلى الإفهام ، وأنأى عن التعويص والإبهام .

محمد على النجار
الأستاذ فى كلية اللغة العربية
وعضو المجمع اللغوى

أثر الروح الإسلامية في النفس البشرية

للشيخ عباس طه

المقومات الاجتماعية :

الإسلام آخر الأديان السماوية نزولا ، وكتابه خاتم الوحي الإلهي للإنسانية ، وقد نص فيه على ذلك في غير موطن منه ، وأثبت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده إلى يومنا هذا ، اللهم إلا مذاهب لبعض الأفراد ادعى أصحابها أنهم رسل الله ، وبعضهم غلا فاعتبروا زعيمهم الخالق نفسه متجسدا.

ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث ؛ فلم تقم لتلك الأديان المزعومة قائمة ، ولو كانت من الله لبزت جميع الأديان في الاتباع ، ولكانت لها دولة وصولة في العالم ، ولم تكن على ما هي عليه الآن . وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل في كل نحلة .

بهذا الاعتبار جاء الإسلام حائزاً لمميزات الخواتيم ، وهي النهايات التي ليس وراءها مذهب ، سواء كان ذلك في المعتقدات والعبادات والمعاملات ، أم في الأخلاق والآداب وروابط الاجتماع . وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فإننا نبسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية فنقول:

كانت الروابط الاجتماعية قبل الإسلام لا تعدو دائرة القوميات ، فكان لكل قوم دعتهم الضرورة للحياة ، حياة مشتركة أساسها نعرة جنسية قائمة على المصلحة المادية دون سواها . فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك في الحياة دفعا لعاديات جماعات أخرى ، وتعاونا على مبدأ تقسيم الأعمال ، والإفادة من الميول المختلفة في المحاولات المعيشية .

على هذا الأساس ، قامت جميع الروابط الاجتماعية السابقة ، لم تشذ واحدة منها فتطلب غرضا أسمى من المصلحة المادية ، وهو إلى اليوم مدار الدعوة الرئيسية إلى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لغاية معينة . ولكن هل هذه النعرة القومية هي المثل الأعلى للدعوة إلى الاجتماع وإلى التضامن في الحياة والتساند في تذليل ما يعترضها من عقبات ؟ اللهم لا وإليك البيان :

الأمم تتطلب اليوم إبطال الحروب لما ثبت أنها تصبب الغالب والمغلوب على السواء

بسبب دخول الحياة العالمية فى ترابط اقتصادى تام ، فما يفسدهذا الترابط أويخل به تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء .

فقد انتصرت الأمم الأوروبية على الألمان فى الميدان ولكنها تحملت وإياها تبعات تلك الحرب الشعواء. فما من أمة منها إلا وقد اضطربت حياتها واختل توازنها ورجعت فى بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين ، وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدى على كيانها من الحرب السابقة وأشد إخلالا لتوازنها ، ولذلك تجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها .

ولكن تجنب الحرب لا يكون بالتمنى ، فهو يقتضى تحديد التسلح ، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتحاكم إلى العدل لا إلى السيف ، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة .

كل هذا لا يكفى ، فإن الجوع كما قيل كافر ، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقيت بها الزيادة فيها ، وإلا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات الملحة ، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب ، والضمير البشرى أصبح لا يطيق أن يضغط على أمة ويضيق على خناقها لتموت تحت تأثير حاجة طبيعية ليعضهم منها أوفى نصيب ، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة .

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعا عادلا بين الأمم حيث يعدم تطلعها للاستعمار والعدوان على غيرها من الأمم ، ولكن وصولها إلى هذه النتيجة من العسر بمكان ؛ فإن شراهة المحرومين وشح المستأثرين تمنع من الوصول إلى حل وسط .

ولكن الوصول إلى هذا الحل أمر لا محيص منه ، فإن الترابط بين الأمم تشتد عراه يوما بعد يوم ، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعاً على نسبة تقدم المدنية ، والمدنية تيار جارف يطغى فى طريقه على كل عقبة .

ولسنا ننسى أنه إلى جانب هذه العوامل الداعية إلى التعامل والتفاهم بين الشعوب ، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيرا ، منها ذيوع مبادئ الفلسفة بين الناس ، وهى تصور الحروب البشرية تصويراً لا قبل للضمير البشرى بقبوله ، وتلطف الشعور الإنسانى إلى حد النفور من كل عمل وحشى ، وتبطل الأوهام التى كانت تبنى عليها أمجاد الأمم من الانتصار فى الحروب ، واستئصال شأفة الأعداء ، أو تمزيقهم كل ممزق ، وتضعف التعصب للأديان إلى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية البشرية . وفوق هذه العوامل كلها عامل ذيوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل

النقض ، وتجليه للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحانى بحجج حسية تثلج الصـــدور ، ويشترك فى الخضوع لها الناس كافة .

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الإنسانية أنه لابد تحت تأثير جملة هذه العوامل المتضافرة ، من توحد الإنسانية فى المعتقدات الأولية . وفى الآداب النفسية ، وفى روابط الاجتماع أيضا .

نعم ، إن بلوغ هـذا الشأو يحتاج لوقت طويل ، ولكن الإنسانية متجهة إليه ولا يتخيل شىء يصدها عنه ، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعى ، وأنه لا محيص من تأثيره . فالروابط الاجتماعية ستنقلب من المادية البحتة ، التى تفضى إلى التزاحم والتنازع على العيش ، إلى مادية وروحية فى آن واحد ، تفرض على الكافة حقوقا تتناسب وترابط مصالحهم وتداخل مرافقهم ، ووصولهم إلى درجة من السمو الأدبى بحيث يستفظعون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء البعض . فالإسلام الذى جاء بالمثل العليا فى جميع الشئون الإنسانية جاء بالمثل الأعلى فى هـذه الناحية أيضا فلم يدع إلى اجتماع أساسه القومية ولا الجنسية ، ولم يعبأ بالأواصر اللغوية ولا التاريخية ، ولكنه تخطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها ، ودعا إلى المثل العليا للاجتماع التى ستنتهى إليها الإنسانية : وهى الوحدة النوعية والأصول الأدبية والمبادىء الخلقية ، فجاء مجتمعه ذا صبغة عالمية عامة ، لا قومية خاصة ، وأول أساس وضعه فى هذا الصرح الاجتماعى العالى قوله تعالى : « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير . » .

فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة ، ولا أمة بعينها ، وقد جاءت جميع آياته داعية إلى هـذا المبدأ السامى : مبدأ الوحدة الإنسانية . بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون . وهو لأجل أن يوحد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة ، لا خيالا شعريا ، دعا إلى الدين الجديد بأن يكون دينا عاما للإنسانية ، وهو دين الفطرة الذى يتجه إليه الإنسان محفوزا بمقتضيات فطرته لا بتعليم معلم ولا بتوريث مورث قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والفطرة تدعو إلى الاعتقاد بخالق الكون وبالروح وبقائها فى عالم وراء هـذا العالم ، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها فى هذا العالم وعلى حب الحق ، وكراهة الباطل ، وإيثار

العدل ومكارم الأخلاق وإقامة دولة الفضيلة فى الأرض .

يقول قائل : كل دين يدعو إلى هذا ، فأية مزية للإسلام عليها ؟ نقول نعم ، والإسلام يقرر أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى أول أنبيائه ، فحرفه الناس وأخرجوه عن أصوله ، وتفرقوا فيه ، وذهب كل فريق بما تخيله منه ، ينابذ به سواه ويستحل دمه . فجاء الإسلام لتنبيه الناس إلى هذا الخطأ البين والضلال البعيد . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم . (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير » . وقال سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

فالإسلام كما ترى لا يتوجه للأمم بوصف أنه دين جديد ، ولكن بوصف أنه دين الإنسانية كلها ، وإنما أعيد الوحى به نقيا خالصا ؛ ليرفع الخلاف الذى أوجده قادة الأديان بغيا بينهم ، ففرقوا الناس أحزابا وشيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

فالإسلام يدعو لتوحيد دين الإنسانية ، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعا ، وهو إنما تعددت صوره بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستغلوا الخلاف بين الناس ، مواتاة لمطامعهم ومسايرة لمزاعمهم ، فالدين فى نظر الإسلام كل لا يقبل التجزؤ ويشمل ما أوحاه الله إلى الناس كافة واعتبار كل من أرسلهم إليهم فى جميع العصور والأجيال وحدة قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

والإسلام لأجل أن يسد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخداع الشعوب وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض، أقام العقل حكما يرجع إليه فى التفرقة بين الحق والباطل، وجعل الدليل وسيلة من وسائل الوصول إلى لباب المسائل المتنازع عليها. وزاد الإسلام على هذا، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد وجعل كل إنسان مسئولا عن نفسه، وخلى ما بينه وبين ربه بإسقاط الوسطاء الذين انتحلوا لأنفسهم هذا الحق فى غفلة الحق، وفى دور طفولة الإنسانية.

فالأديان كما يقول المعترض تدعو كلها إلى عقائد واحدة، ولكنها ملتاثة بشوائب الآراء البشرية، مما لا مناص من التنابذ عليه، ولكن الإسلام يدعو إلى تلك العقائد خالصة من شوائب الآراء، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الإنسانية جمعاء، لا دين طائفة من الطوائف ولا أمة من الأمم؛ فدين الإنسانية لا يجوز أن يكون حاملا طابعا من قومية، ولا أثر من عقلية ولا شائبة من حالة نفسية. بل أصولا أولية، ومبادئ كلية وآدابا عالمية.

هذه الغاية سينتهى إليها العقل البشرى حتما، وإذ ذاك لا تجد الإنسانية فى طريق وحدتها حائلا يمنعها منها، وعند ذاك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين، وتكون العلوم قد بلغت شأنا تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة، وتخلص المدنية من آفاتها الموبقة فتقوم على سياسة رشيدة فى حكوماتها، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها، وإذ ذاك يتحقق ما وعد الله به فى قوله: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد».

فالإسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية والمبادئ الخلقية والعقائد الفطرية، قد وضع أساس مجتمع عالمى عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدها وتعرف حدها. وقد جرى فى ذلك على سنته من الدعوة إلى النهايات من كل الأمور والإهابة إلى الغايات فى جميع الشئون.

عباس طه

المحامى

مايقال عن المسلمين والعرب

الإسلام فى افريقيّة الغربيّة

للأستاذ عبّاس محمود العقّاد

كلما استراح دعاة التبشير والمطامع السياسية إلى سبب يعللون به انتشار الإسلام فى إفريقية وآسيا رجعوا عن هذا السبب بعد حين، وأحسوا أن انتشار هذا الدين له سبب آخر لم يهتدوا إليه. ثم هم يرجعون عن هذا السبب الآخر كما رجعوا عن السبب الذى استراحوا إليه من قبله. ولا يزالون كذلك ولن يزالوا على هذا التردد بين الأسباب وهذه الحيرة بين الأخطاء. ما داموا يتعمدون فى بحثهم أن ينكروا فضل الإسلام وأن يلتمسوا لانتشاره كله علة غير العلة التى يستحق بها الدين أن ينتشر بين الناس، وهى صلاحه للاعتقاد والعمل والتصديق.

إن علة انتشاره السيف !.

إن علة انتشاره السماح بتعدد الزوجات !.

إن علة انتشاره السذاجة فى أصوله وأحكامه ! إلى آخر هذه العلل المتشابهات !.

وكلها علل باطلة ظاهرة البطلان لا تثبت على النظرة الناقدة لمحة واحدة حتى يتبين بطلانها على الأثر فى لمحة تالية.

أما الانتشار بالسيف فالحكم فيه حكم الوقائع والأرقام.

إن حروب الإسلام فى الهند والجزر الهندية أقل الحروب فى تاريخه وفى تاريخ كل عقيدة دينية أو عقيدة من عقائد الإصلاح كائنة ما كانت، ولا يقل عدد المسلمين فى الهند وجزرها عن مائتى مليون.

أما تعدد الزوجات فقد ظهر من دراسة أحوال الزواج بين القبائل الإفريقية أنه ليس من الميسور لكل من يطلبه، وليس من الكثرة بحيث يتخيلون من أحوال المعيشة الإفريقية، وقد حرم الإسلام شرب الخمر وهى أيسر لمن أرادها من الوثنيين وأحب إليهم وأدنى إلى التناول فى كل يوم وكل ساعة ولم تحرمها الأديان الأخرى تحريم البتات كما حرمها الإسلام، فلم يكن ذلك حائلا دون

إقبال الإفريقيين عليه بغير جهد وبغير تبشير وبغير ترغيب بمختلف الوسائل التى يتوسل بها المبشرون وأصحاب المطامع السياسية .

أما سذاجة العقيدة فلا فرق فيه بين الإسلام وبين دين من الأديان عند النظر إلى المبادئ الأولى التى يعرضها الدعاة أول مرة على المستمعين إليهم ، وربما كانت تكاليف الفرائض اليومية فى الإسلام أكثر وأظهر من أمثالها فى الأديان الأخرى ، ومنها ما تخفى تكاليفه أياما قبل أن يدعى إليها الداخلون فى الدين .

كل هذه الأسباب لم تصلح لتعليل انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية على التخصيص وقد ناقضها الواقع فى أرجاء القارة حتى أوشك الباحثون من المبشرين وأصحاب المطامع السياسية أن يقنعوا بالتسليم للواقع ويكتفوا بتسجيل المشاهدات كما يلمسونها فى كل موطن من المواطن التى دخلها الدين الإسلامى ، فلا يزيدوا على إحصاء الدواعى أو الموانع المحلية حيث كانت ، مع الإشارة الخفية إلى وسائل توكيد هذه الموانع والاستفادة منها فى إقامة العقبات وتعسير أسباب التيسير والترغيب .

ويجرى على هذه الوتيرة كثير من المؤلفين المحدثين الذين يقصرون مباحثهم على أحوال القارة الإفريقية وما تشتمل عليه من العوامل المؤاتية أو المعارضة لنفوذ الأوربيين فيها ، ومن أهمها عوامل الترحيب أو عوامل النفور من الإسلام بين الإفريقيين الأصلاء والإفريقيين الواردين على القارة من غيرها .

ومن هؤلاء المؤلفين المشغولين جد الاشتغال بالتبشير فى القارة الإفريقية سبنسر ترمينجهام صاحب كتاب « الإسلام فى الحبشة » وكتاب « الاتصال المسيحى بالإسلام فى السودان » وكتاب « الإسلام فى إفريقية الغربية » . وهو الذى نعنيه بالنظر فى هذا المقال [1] .

يكاد هذا الكاتب أن ينسى خصائص الدين الإسلامى ليقبل بعنايته كلها على الظروف المحلية من جغرافية واقتصادية وطائفة عارضة من الظروف النفسية ، وعلى هذا الأسلوب يفسر أسباب المقاومة وأسباب القبول كما فعل فى النبذة التى كتبها بهذا العنوان إذ يقول ما فحواه :

« إن انتشار الإسلام وما ترتب عليه من توزيع السكان المسلمين فى هذه البقاع كان نتيجة لعوامل متعددة ، بين تاريخية وجغرافية ونفسانية وأهمها فى خطوطها العريضة عاملان تاريخيان : أحدهما سريانه المتمهل منذ القرن الحادى عشر إلى القرن السابع عشر على أيدى

---

(1) Islam in west Africa by P. Spencer Trimingham.

التجار ورجال الدين من البربر المرابطين ...

وقد أدى إلى قيام طبقة حاكمة في بيوت الإمارة وبيوت التجارة والوجاهة ، أما الآخر فهو الحركة التي اشترك فيها السود والفلانيون - رحالة بلاد النيجر - وأنشأوا بها نحلة ذات حكومات دينية أخذت في التجمع خلال القرن التاسع عشر بعد وفود الأوربيين على البلاد .

ولا يخفى أن الإسلام قد دخل إلى البلاد من الشمال حيث يقيم هؤلاء . وهؤلاء فكان من جراء ذلك أن سكان الإقليم اصطبغوا شيئاً فشيئاً بالصبغة الإسلامية ، وحالت عوائق الموقع دون وصول العقيدة إلى الجنوب كما حالت بقايا الوثنية دون تعميمها حيث وصلت من شمال الإقليم . وقد كان تغير المناخ من أسباب تعويقها ، إذ حدث غير مرة أنه وقف في الطريق سداً دون المغيرين ، وهنالك تتعذر المواصلات ويتفرق السكان فرقا صغاراً على مسافات متباعدة فيتوقف الزحف إلى الجنوب ، وقد كانت غابات غانة حائلا دون تقدم الوافدين الذين تعودوا المعيشة في السهول ، وضاعف الصعوبة عوارض الحمى الصفراء والملاريا ومرض النوم والقحط والمجاعة ، وراح الوثنيون يلوذون بما اعترض الوافدين من الهضاب والمستنقعات وبحيرات نهر النيجر . إلا أن أسبابا أخرى نفسية تحسب من العوارض التي تماثل تلك العوارض الجغرافية في قوتها ... فالإسلام خليق، أن ينتشر بين أبناء المدن لأنه حضارة لا بد لها أن تتوطد في مركز من المراكز المدنية يتلاقى فيه طلاب التجارة والمرافق والتعليم ويكون لهم أثرهم في القدوة الاجتماعية والتدين ، فهؤلاء المدنيون بما عهد فيهم من النزعة الفردية ومن التطلع ومن الانحصار في شئون السوق والمصنع يقبلون على العقيدة الإسلامية ، ومثلهم الرحالون المتنقلون في الإقبال على هذا الدين لخلوه من المراتب الكهنوتية وقلة ما يتطلبه من التغيير في المعيشة أو من تكاليف العبادة على بساطتها وسهولتها ... إلا أنه قليلا ما يستهوى أصحاب المعيشة الريفية الذين ترتبط أعمالهم بالزرع والعناية بتربية الأطفال والماشية . وقد يقبل عليه الرحل من أبناء القبيلة الواحدة ويعرض عنه إخوانهم المشتغلون بالزراعة ، فلا يعهد في هؤلاء الريفيين أن يقبلوا عليه إلا بعد فترة فراغ من العقيدة ... » .

وخلاصة الموانع « الريفية » التي تصد أصحاب المعيشة الزراعية عن الإسلام في رأى المؤلف أنهم يرتبطون كل يوم بشعائر التقاليد والقرابين والدعوات والتعاويذ التي تعترض الإسلام كما يعترضها ، فلا يسهل التغلب عليها بحكم العادة أو القدوة قبل استئصالها وتثبيت أركان العقيدة الجديدة مما يشق القيام به في نطاق محدود .

على أن المؤلف يذكر أمثلة من القبائل الوثنية طواها الإسلام فى عقيدته الكبرى - عقيدة الشهادتين والفرائض - وتركها بعد ذلك وما ورثته من تقاليد أسلافها التى درجت عليها فى معيشتها اليومية ، فأصبحت فى عداد المسلمين الذين يقاومون سياسة الغرب . بدافع من العقيدة ومن الوطنية أو عصبية القبيلة معاً ، وابتلى منها الغرب بعدو مزدوج العداوة صلب المراس على دعاة الفتح والتبشير .

* * *

وينتهى المؤلف من شروحه المطولة على هذه الطريقة « الواقعية العملية » إلى الخاتمة التى يقرر بها زبدة الكتاب ويصف الحالة فى العصر الحاضر ، فيوجزها فى نبذة خلاصتها : أن الديانات الباطنية التى تشبه فى العصر الحاضر الديانات العامة أو العالمية المشتركة لا تنفى ما عداها ولا تتصف بما اتصفت به المسيحية والإسلام من الشمول أو الإحاطة التى لا بد أن تصطدم بما تقدمها ، ولكن الإسلام قد سوى ما بينه وبين الشعائر المتقدمة من الخلافات التى تدفع إلى الصدام العنيف فاستطاع الإفريقى ، وهو مشتمل بسربال الدين الإسلامى أن يوفق بين الطرفين فى نطاق عقيدته الجديدة ، وجاءت السيطرة الأوروبية فلم يقتصر أثرها على تثبيت الإسلام حيث تزعزع واضطرب فى مواطنه ، بل ساعدته على الانتشار بين أرجاء إفريقية الغربية كلها ، ووجب على كل دارس للتغييرات الدينية أن يعلم أننا نواجه فى أقاليم شتى إسلاما ينشر دعوته ويستميل أبناء تلك الأقاليم إليه .

إلى أن يقول ما نترجمه بنصه بعد الإشارة إلى الثقافة الغربية : « إنها على ما أحدثته من أثر فى الجماعات الوثنية الكثيرة زعزع الأسس العتيقة وجنح بهم إلى البحث عن مستقر جديد قد لقيت بين الجماعات التى توطد فيها الإسلام حاجزاً لم يتزعزع إلا فى الوقت الحاضر بعد استدراج الشباب إلى اتخاذ الأطوار الغربية ، وليس إسلام إفريقية الغربية كإسلام القرن العشرين فى الشرق الأدنى حيث تسرى تيارات الحضارة الغربية فى نواح شتى وتؤثر أثرها فى أهله فيستجيبون لمطالب العالم الحديث ، بل هو إسلام القرون الوسطى ، وعزلة شيوخ الدين فيه عزلة جد حقيقية فليس لاتصالهم بالعالم الإسلامى فى شمال إفريقية والشرق الأدنى غير أثر هزيل .

وعلق المؤلف على ذلك فى هامش الصفحة قائلا : « إن فقهاء الدين العارفين باللغة العربية كما يطلعون عليها فى كتب الفقه لا يفهمون العربية العصرية إذا قرأوها فى صحيفة أو مجلة

مصرية ولا يهتمون بالتعلم على نمط جديد .
ولم تصادف المحاولات التى أريد بها إصلاح التعليم الدينى غير قليل من النجاح ، ولاحظ - مثلا - مصير الكلية القرآنيـة العليا التى أسسها فى باماكو - سنة ١٩٥٠ - أربعة من غلاة الخريجين الأزهريين . فإنهم اهتموا بتوكيد فهم القرآن على أسلوب غير أسلوب الاكتفاء بالحفظ والاستظهار وتناولوا فى دروسهم بعض الموضوعات الحديثة . فارتفع عـدد الطلاب إلى أربعمائة . بعد فترة وجيزة ، ولكن دراساتهم تعرضت للإنحاء عليها من جانب الفقهاء وجانب العصريين . فأمرت السلطة بإغلاق المدرسة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ لأن السلطة فى إفريقية الفرنسية ومثلها إفريقية الانجليزية تميـل إلى مناصرة المحافظين على المجددين، وقد عولجت تجربة أهون من هذه التجربة فى السودان الفرنسى على أيدى جماعة تسمى جمعية المرشدين أنشأت عدداً من المدارس تتوسع فى استخدام اللغة الدارجة وكذلك أنشئت فى (زرعة) Zaria مدرسة تصر على تعليم اللغة العربية ولكنها تلقى الإرشادات الدينية بلغة القبيلة » .

* * *

فى هذا القسط من الكتاب كفاية للتعريف بالغرض الذى تحوم حواليه هذه الطريقة « العملية الواقعية » فى التنبيه إلى أسباب انتشار الإسلام وأسباب مقاومته بين قبائل إفريقية الغربية ، ولولا أنه بحث يتصدى له أساطين التبشير المتفرغون له فى القارة الإفريقية لجاز لنا أن نقول : إنه بحث على برىء يتجشم الباحثون أعباءه ومغارمه طلباً للمعرفة الخالصة دون غيرها ، ولكن أساطين التبشير لا يشغلون أنفسهم بأسباب نشر الإســلام لينشروه أو ليقفوا حياله متفرجين مغتبطين ، وأقرب ما يخطر على البال بداهة بغير حاجة إلى الفطنة الثاقبة أنهم يعرفون هذه الأسباب ليعرفوا منها الأسباب « العملية الواقعية » لوقفه وصده وتحويل القبائل الإفريقية عنه والاستعانة بالعوائق القائمة لزيادة العقبات فى طريقه ، ومن هذه الوسائل أن تستعين السلطة بالجامدين من المسلمين المتأخرين على محاربة طلاب الإصلاح والتقدم ، فتبلغ ما تريد من التعويق والتعطيل وهى تغنم الشكر من أولئك الجامدين .

* * *

على أن الكتب السياسية أدنى إلى كشف الستار عن الخطط المبيتة من كتب التبشير ، وبخاصة كتب السياسة التى ينشرها أناس تابعون لدولة غير الدولة المسيطرة على الإقليم الإفريقى المحكوم ، فإن مؤلفى هذه الكتب قد يكشفون أسرار السلطة المزاحمة لهم حبا

الغلبة عليهم فى ميدانهم ، والتشهير بهم بين رعاياهم ، إن لم يكشفوها حباً للحقيقة وإنصافاً للمحكومين .

ومن الكتب التى ينبغى أن تقرأ فى هذه الأيام لبيان الأغراض التى يتوخاها المبشرون والمستعمرون من تلك البحوث « العملية الواقعية » عن أحوال الإسلام والمسلمين فى القارة الإفريقية كتاب ضخم عن « إفريقية الغربية الفرنسية » ألفه انجليزى وانجليزية ضليعان . فى هذه المباحث خبيران بأسرار السياسة التى يطلقون عليها فى الغرب اسم توريب إفريقيـة Eurafrica ، أى إدخال إفريقية فى الحظيرة الأوربية ، وهما ريشارد أدولف Richard Adolph ، وفرجينيا تومسون Virginia Thomson . وتزيد صفحات الكتاب على ستمائة صفحة من القطع الكبير .

وأصرح ما فى الكتاب كلام المؤلفين فى الفاتح السلمى زافير Xavier Coppolani الذى كان « أول من فطن لإمكان استغلال النفور الذى يشعر به البربر المرابطون فى علاقتهم بالعرب ، وأنه يستغل المنافسة بين زعماء البربر ، كما يستغل النفور بين العرب والبربر المرابطين ، ويدفع بعضهم بهذه الوسيلة إلى وضع أنفسهم » تحت الحماية الفرنسية ، لقهر خصومهم ومنافسيهم على الزعامة ، دون أن تنطلق فى الإقليم رصاصة واحدة أو تكلف الدولة من الغرم غير القليل من المال (صفحة ١٦٣) .

ويشبه ذلك فى الصراحة أن المستعمرين تيقظوا بعد فترة من الغفلة لخطر الإسلام فى زحفه على القبائل الوثنية : « وقليلا ما شجر النزاع بين الوثنيين ـ والمسلمين لأن الأولين متفرقون منقسمون نحلا وفئات لا تقوى على أكثر من المقاومة السلبية لمسالك الإسلام فى تقدمه . ولم يتنبه الفرنسيون عند قدومهم للمعنى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى الذى يدل عليه تقدم الإسلام وغلبته على القبائل الوثنية . فإنهم كانوا فى إبان المعارضة بسلطة الكهنوت يلتزمون الحيدة فى المسائل الدينية ولا يدركون أنهم بذلك يمهدون لنجاح المسلمين فى اكتساب الوثنيين الذين تأبى السلطة الحكومية على القسس أن يعملوا على تبشيرهم ... ولم يدركوا الحقيقة إلا بعد نشوب الفتنة فى كايس وستادوجو (سنة ١٩١١) وثبوت اتصالها بالدعاية الإسلامية من قبل صنهاجة . فعلموا يومئذ متأخرين أنهم يمهدون بسياسة الحيدة فى المسائل الدينية لتمكين الإسلام من إقامة سلطة سياسية إلى جانب السلطة الدينية » .

وشبيه بهذا فى الصراحة أن السلطة أذنت بتعليم المسلمين فى المدارس العصرية وحظرت على تلك المدارس أن تتعرض للدعوة الدينية

إذ كان مقصدها من هذه السياسة أن ترشح أبناء الزعماء والشيوخ لوظائف الحكومة فتلهيهم بها عن دعوة الوثنيين إلى الدخول فى الإسلام (صفحه ١٤٩) .

وقد يعتمد المسلمون على أنفسهم فى إدارة مدارسهم فلا تتاح لهم الفرصة لاستقدام المدرسين الأكفاء إليها ، ولا تنجح المدارس فى تخريج الشبان الصالحين لولاية الوظائف وإدارة الأعمال المستقلة مع اكتفائها بالبرنامج العتيق المعهود فى معاهد التعليم على أساليب القرون الوسطى .

* * *

وتمام هذه الخطط إنما هو تفصيلات لهذه الخطوط العريضة كما يقولون فى المصطلحات الأوربية ، ولبابها جميعا أن الطريقة الحديثة التى يتوخاها المبشرون والمستعمرون لتقرير أحوال المسلمين « الواقعية العملية » إنما تفضل فى هذا العصر على المناقشات « اللاهوتية » حول خصائص الإسلام لأنها أنفع للبشر والمستعمر فى « العمل الواقعى » ؛ لتجريده من وسائل الانتشار وإحاطته بالعوائق والعقبات وتعزيز ما يوجد منها فى طريقه من أثر الظروف الجغرافية أو الاجتماعية .

* * *

ولنا نحن أن نأخذ من دراساتهم هذه ما ينفعنا ويهدينا إلى العمل اللازم فى الواقع ، وخلاصته فى سطور قليلة : أن الإسلام لا تزال له فى القارة الإفريقية قدرته الطبيعية على التقدم والثبات ، وأن الحوائل فى سبيله إنما هى حوائل مصطنعة من فعل السياسة أو من فعل « الظروف الجغرافية » على الأكثر ، وفى وسع دعاة الإسلام أن يقابلوا تلك الحوائل بما تستدعيه من حيطة واجتهاد . ؟

عباس محمود العقاد

تصويب فى الجزء الماضى

فى العمود الثانى	من صفحة ٢٥٩	السطر ٢٥	: التضامن	، صوابها	: التطامن .
« الأول	« ٣٥٤	« ١٩	: المدنية	، «	: المدينة .
« «	« ٣٥٥	« ٢١	: طبيعيين	، «	: طبيبين .

وجهة نظر الشيوعية فى الاسلام

عن مجلة « صحيفة الميزان »

« صحيفة الميزان » صحيفة دورية تتبع ما يكتبه الروس عن الشرق عامة . وهى تصدر عن المركز الآسيوى الرئيسى للأبحاث بالاشتراك مع جماعة دارسى الشئون السوفيتية بكلية القديس أنطونى التابعة لجامعة أكسفورد بانجلترا .

وفيما يتعلق بوجهة نظر الروس عن الإسلام فى هذا العدد نجده واضحا فى المقالات التى ظهرت تحت عنوان « المادية والنقد التجريبى » ، وهذه المقالات قد انتشرت انتشارا واسعاً فى محيط الفلسفة السوفيتية وصحف الحزب الشيوعى الروسى . وعلى أى حال فإن النغمة المغرضة لهذه المقالات وإشاراتها المتكررة إلى « تخلف » الدراسات السوفيتية وإخفاقها فيما يتعلق بالدراسات الشرقية كل هذا يدعو إلى رسم برنامج يهدف إلى تحليل المذاهب الشرقية وإعادة تقديرها وتقييمها ، وهذا يستدعى بالضرورة اختباراً مباشراً للمذاهب التى قامت عليها الحركات القومية فى الشرق الأوسط من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ذلك البرنامج سوف يفحص ويختبر التقاليد الدينية والفلسفية لهذه المنطقة . . . والمقصود من هذه التقاليد والفلسفات هو الإسلام بالذات .

وجهة نظر الشيوعية عن الإسلام :

ووجهة نظر الشيوعية عن الإسلام تظهر فى دائرة المعارف الروسية الكبرى فى المجلد ١٨ لسنة ١٩٥٣ كما يلى :

« الإسلام ـ كغيره من الديانات ـ قد لعب دائما دوراً رجعياً وذلك بوضعه فى أيدى الطبقة المستغلة سلاح الظلم الروحى الذى يعانى من سطوته العمال . وقد استغل بواسطة المستعمرين الأجانب لاستعباد شعوب الشرق » .

وعلى أى حال فإن المقالة فى حديثها عن طوائف الإسلام ، تقول : إن هذه الطوائف كانت فى بعض الحالات تعبيراً عن احتجاج لا حول له ولا قوة ، صادراً عن الطبقات الكادحة ضد ظلم الطبقات وظلم الإقطاع .

ويقول « بيلايابيف » عن « الطائفية الإسلامية » سنة ١٩٥٧ : إن الحركات الشعبية التى ظهرت فى صورة نحل وطوائف إسلامية لا يمكن أن تكون ناجحة بطبيعة الحال :ـ

« إن الشكل الدينى لهذه الحركات يجب أن

يعتبر كواحد من الأسباب الرئيسية لفشل النهائى للحركات الطائفية التى حاول المشتركون فيها من الطبقات العليا أن يؤسسوا مملكة من الحق والعدل على ظهر هذه البسيطة. والواقع أنه لا يمكن لدين من الأديان أن يقوم بدور المحرر للشعب من الظلم والاستغلال. وعلى الرغم من هذا فإن الدين يعتبر من جهة أخرى - من وجهة نظر السوفييت - المعبر الذى يوصل إلى التغير الناجح».

وفى مقالها عن «الدين» تقول دائرة المعارف السوفييتية :-

«يدلنا تاريخ المجتمعات أنه فى حالة استبدال عقائد دينية معينة بأخرى يمكن — طبقا للشروط المحددة للهيكل الاجتماعى — أن يعتبر هذا الاستبدال متصلا بالمظاهر الناجحة فى حياة الشعوب كما هو الحال - مثلا - بالنسبة للمسيحية فى عصورها الأولى، وفى اعتناق الروس للمذهب الشيوعى إلخ. ولكن هذا لا يغير من أسباب انبثاق الأفكار الدينية وانبعاثها أو يغير من جوهرها».

إن هذه الثنائية فيما يتعلق بالموقف العلمى الروسى تجاه الدين هو مظهر للموقف الثانى فيما يختص بموضوع الدعاية اللادينية، وهذا الموقف محدد - على سبيل المثال - فى مقالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى ظهرت فى «برافدا» فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٥٤، وقد أوضحت هذه المقالة أن الحزب الشيوعى الروسى «يعتبر أنه من الضرورى توجيه دعاية علمية إلحادية منظمة وعميقة، وفى نفس الوقت عدم محاولة إيذاء المشاعر الدينية للمؤمنين بدين معين أو المتبعين لنحلة من النحل بأى حال».

والكاتب الروسى «ليتمان» كغيره من الكتاب الروس يوافق على المظاهر السياسية لبعض الحركات الدينية، ولكنه على خلاف غيره من الكتاب الروس لا يوافق على الهجوم التقليدى الروسى على الأديان كما هى، وبدلا من ذلك فإنه يقترح أن التصحيح الطبيعى للمثالية الدينية الشرقية إنما يوجد فى الشرق نفسه وفى التقاليد المادية الشرقية التى يجب على العلماء السوفييت عرضها وشرحها. ودراسة المادية الشرقية فى الظاهر يمثل خطوة جديدة بالنسبة للعلماء السوفييت، وسوف لا يكون مفاجئا إذا صحبت هذه الدراسة بموقف جديد بالنسبة للديانات الشرقية نفسها.

عبد المحسن البيلى
بإدارة الثقافة الإسلامية

مختار من الشعر القديم والحديث

صلوات روح ..! (*)

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

سموت بالروح إلى خالق ... فى ليلة نشوى بخمر الضياءْ
ذابت بها الظلمة حتى غدت ... أسطورة طال عليها العفاء
ورقّ فيها النور مسترسلا ... كهمس ناى هائم فى الفضاء
ما زلت أسمو ، والمنى فى يدى ... رفاقة مثل النجوم الوِضاء
وفى شعورى نشوة حلوة ... تسكب فى نفسى أرقّ الغناء
وملء نفسى فتنة ترتوى ... من روعة الليل ، وسحر المساء
حتى انتهت روحى بأشواقها ... لمنهل الغيب الذى فى السماء
فانتفضت فيها ضراعاتها ... وأطلقت فى الصمت هذا النداء :
يا منهل الغيب اسقنى قطرة ... من ذلك النور ، وهذا الصفاء
تجعلْ حياتى نغما شاديا ... فى عالم يهفو إليه الرجاء
أحسه صوتا عميق الصدى ... يهز أعماقى بسحر الدعاء
وصورة طال عليها المدى ... وما خبا فيها رفيف الرواء
يا منهل الغيب . . وبى حيرة ... قد صيرتْنى أستحق الرثاء
كطائر أُبعد عن عشه ... فهام فى إحدى ليالى الشتاء
وبى حنين يتحدى الثرى ... ويرتقى بى طائرا حيث شاء
ولى قيود تتمنى سدى ... لو أننى أنسى سبيل العلاء

(*) من ديوان « حياتى ظلال » المعد للطبع .

لبستها ثوبا إله الورى ... قد صاغه لى من تراب وماء
حتى يحين الأجل المرتجى ... فأنزع القيد ، وألقى الرداء
يا منهل الغيب .. وبى غربة ... تنبت فى عمرى هموم البقاء
لا الأرض دارى ، لا ، ولا أهلها ... أهلى، فكيف الصبر؟ كيف العزاء؟
غريبة بالحب فى عالم ... الحب فيه خدعة أو رياء
نسجته ظلا به يُحتمى ... وصغته نورا به يُستضاء
وطفت فى دنياى مسحورة ... تغمرنى إشراقة وانتشاء
أبحث عن روح أرى طيفه ... يفتن أيامى بحلم اللقاء
فلم أجده ، فألفت المنى ... حتى جفتنى ، فألفت البكاء
غريبة بالصمت .. من نايه ... يثير إلهامى أرق الحداء
أراه ظلا سابحا فى السنا ... كطيف عطر سابح فى الهواء
وأحتسيه خمرة عُتقت ... فى الغيب .. يدرى سرها الأنبياء
والصمت سحر هائم فى الدجى ... يهفو إلى الغيب ، ويبغى الخفاء
صاغت حياتى منه أسرارها ... فاستغرقت فى عزلة وانطواء
والصمت سر همت فى جوه ... على جناحى لهفة واشتهاء
والصمت بحر موجه نائم ... يحلم بالعودة من حيث جاء
عبرته وحدى على زورق ... يود لو يسرى لغير انتهاء
وعدت منه بشهىّ الرؤى ... وفى الرؤى رِىّ ، وفيها غذاء
فالصمت عندى بالرؤى حافل ... وعند غيرى حافل بالهباء
غريبة بالحزن ... نيرانه ... تلقى على ضوئى ظلال الفناء
وسره فى داخلى كامن ... محجب بالصمت والكبرياء
يدرى أساه من رمانى به ... ومن تولانى بطول العناء
إليه أشكو وحده غربتى ... وحيرتى فى الأرض . أرض الشقاء
ولهفتى الكبرى إلى موطنى ... فى عالم يهفو إليه الرجاء
أُبعدتُ عنه ، فعرفت الأسى ... ولست أدرى سر هذا الجزاء
خطيئة الجنة من آدم ... علام تكوى نارُها الأبرياء ؟

وأطرقت روحى بأشجانها　　لعلها تسمع صوت القضاء
فاهتز فى أعماقها هاتف　　يشع مثل البارق المستضاء
وقال فى صوت عميق الصدى　　تمازج الرقةُ فيه المضاء
يا هـذه الروح التى تشتكى　　من دائها ، والداء فيه الدواء
من يحمل الآلام يقعدْ بها　　إن لم يحملها بروح الفداء
فلتحملى الآلام فى قوة　　فإنها تخشع للأقوياء
ولا تضيق بحياة الورى　　وتهربى مما بها من بلاء
وجاهدى الليل بهذا السنا　　وكافحى الشر بهذا النقاء
فالبدر لا تظهر أنواره　　إن لم يُرقْها فى ظلام المساء
والخير ما جدواه إن لم يكن　　قد ألجأ الشر إلى الانزواء ؟
ورقرقى نورك من نبعه　　لكل ظمآن إلى الاهتداء
فالدر فى الأصداف مثل الحصا　　مادام لا يكشف عنه الغطاء
والبقلة الخضراء فى أرضها　　خير من البستان بين العراء
حتى إذا ناداك رب الورى　　وكنت قد أبليت خير البلاء
دخلت دنيا الغيب مزهوة　　لتغنمى فيها دوام البقاء
هذا قضاء الله فى خلقه　　لكل شىء محنة وابتلاء

* * *

وخيم الصمت سوى نبأة　　من الصدى قد آذنت باختفاء
فأذعنت روحى ، وعادت إلى　　دنيا الشقاء البكر ، والأشقياء
ولم تزل تعجب مما رأت　　فى ليلة نشوى بخمر الضياء
أكان وهما شاعرىّ الرؤى ؟　　أم كان حلما ساحرىّ البهاء ؟

ابراهيم محمد نجا

ثورة بيضاء من نور الإلـه..!

للأستاذ محمد هارون الحلو

بأذانِ الفجرِ طيرُ الخلدِ كبَّر ... وبنصرِ الله قــدْ هنَّى وبشّرْ
كيف لا يهتف بالنصرِ المُؤزّرْ شبتْ الثورةُ ، والشعبُ تحرَّرْ

* * *

ثورةٌ بيضاءُ من نورِ الإله تملأُ القلب بآمالِ الحياه
وتُشعُ الحبَّ لحناً فى الشّفاه سكِرَ القلبُ ، وقد لذَّ هواه

* * *

طهّرتْ مصر من العادى الدخيلِ فالتقَ الأحرارُ بالحُرّ الأصيلِ
تحتَ ظِلّ من رُبى الخلدِ ظليلِ وَصحَا الشّعبُ على الحُلمِ الجميلِ

* * *

فتحَ الخيرُ بها باباً فبابا فانطلقنا للأمانىّ عِذابا
نزرعُ الخيرَ ونجنيهِ ثواباً كيف لا نسرعُ لِلمجدِ طِلابا ؟

* * *

ثورةٌ كبرى على الشّرقِ خطاها تصرعُ الباغى ، وتسقيهِ لظاها
رايةُ الحقّ أذلتْ من عصاهَا واستضاءَ الكونُ من نورِ هُداها

* * *

موكب العزّةِ منها ، والطّماح بارقٌ كالنّجمِ ، مرهوبُ الجناح

ما غدا إلا على نصر مُتَاحِ بمضاءِ ، وبعــزم ، وكفاحِ

* * *

بَعَثَتْ فى الشرق شعباً أمجَدَا وتلاقت وَحْدَةُ العُربِ يَدَا
أمةٌ ترقبُ ذاكَ الموعِدَا باركَ اللهُ بها جُنْدَ الفِدَا

* * *

ثورَةٌ تذكو لهيبــاً ، وَضِراما كلّما رامَ بهــا باغٍ أثامَا
وَرِضاها يملأُ الدّنيا ســلاما ويُشيعُ الحُبّ صفواً ، ووِئامَا

* * *

وحّدت شعباً أبيّاً عربيّا عاش فى الشرق رســولاً ونبيّا
صيحةُ الحقّ بها دَوّتْ دوِيّا لم تذر فى الأرض جبارا عصيا

* * *

ومضى يدعــو بنورِ اللهِ داعِ ينقــذُ العالم من هولِ الصراع
وسرى النورُ إلى خــيرِ البقاع يحمل الرايةَ بالأمرِ المطاع

* * *

جاء نصرُ اللهِ والفتحُ المبينْ ومضى للشّط ربّانُ السفين
موكبٌ يحدوه جِبريلُ الأمينُ فتعالى اللهُ ربُّ العالمين

محمد هارون الحلو

أنباء الأزهر

من السيد الرئيس إلى الأستاذ الأكبر :

أرسل السيد الرئيس جمال عبد الناصر برقية إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر هذا نصها :

تلقيت بالغبطة برقيتكم المتضمنة أكرم المعانى وأصدق المشاعر بمناسبة المولد النبوى الشريف ، وفى هذه الذكرى المجيدة يطيب لى أن أدعو الله مخلصا أن يحقق للمسلمين مجدهم السالف، وأن يجمع قلوبهم على الخير والتآلف، حتى يعز الإسلام وتعلو راية العرب والله الموفق إلى مافيه سواء السبيل ، كما إنى أبعث إليكم بأخلص الشكر متمنيا لكم الصحة والسعادة .

جمال عبد الناصر

الدكتور طه حسين عند الأستاذ الأكبر :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه السيد الدكتور طه حسين والمستر رادولف سالات مدير الشئون الثقافية باليونسكو والدكتور تقى نصر ممثل مقيم فى مصر لمجلس المعونة الفنية للأمم المتحدة .

قال الدكتور طه حسين للأستاذ الأكبر :

ـ إننى أحب زيارة الأحرار والارتباط بهم وأقصد من الحرية ، حرية الفكر وحرية المعرفة ، الحرية الموصلة إلى السمو فى الهدف والنبل فى الغاية والتى تحقق آمال الناس جميعا فيما يهدفون إليه أملا يبنى ولا يهدم ويعلى ويرفع ولا يخفض ، وقد جئت فى صحبة المستر رادولف سالات ليقدم إليكم تحية هيئة اليونسكو جميعا مقدرين لكم جهودكم فى إثارة الوعى الدينى المنظم الذى يجمع ولا يفرق ، وإنه ليقدر هو والهيئة أن الأزهر أقدم جامعات العالم، وهو مصدر من مصادر الإشعاع العالمى فهوجدير بالتقدير ولذا رأى أنه من الواجب عليه أن يزور الأزهر جميعا ممثلا فى شخصكم .

قال الأستاذ الأكبر للدكتور طه حسين :

ـ إننا نضع يدنا فى يدك وفى يد كل محب لإعلاء شأن العقل الإنسانى حتى تتمكن جميعا بيد واحدة وبتماسك واحد أن نخوض خطر

الحياة الحرة الرتيبة ، وأنا أعتقد أن أول من يقدر الأزهر ويقدر جهاده ، إنما هى هيئة اليونسكو .

ونعتقد أيضا أن توجيه العالم إلى الخير إنما هو إلى الأزهر وإلى كل هيئة تنشد العلم ، وتسعى إلى المعرفة. ومن بينها هيئة اليونسكو وذلك بما يركز الأمن والاستقرار فى ربوع العالم ويمنع من وقوع مثل هذه المذابح الدامية التى تقع دائما صراعا بين الحق والباطل وبين الحرية والاستعباد . وأنا أرى أنه لا يصح أن تقف الهيئات العالمية على حد البحث العلمى الجامد ، وإنما يجب عليها أن تعمل دائما لتوطيد أركان الأمن وتركيز السلام ؛ فإنه لايجوز أن تستخدم النعم التى أنعم الله بها علينا من عقول مفكرة، وآراء سديدة، وقوة فى الإدارك ، لا يجوز أن تستغل هذه أو نوجهها إلى الشر وإلى إثارة الخواطر وتحطيم القوى ، وذلك كله إنما يكون من طريق التعارف الذى يبعث على الحب والتآلف ، فإن الروح والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وهنا قال الدكتور طه حسين :
ـ إن هيئة اليونسكو مشغولة فى هذه الحقبة من الزمن بمشروع هو فى غاية الخطورة وهذا المشروع يهدف إلى التعارف الحر وليس تعارف على أساس السياسة ، وإنما هو على أساس الحرية الصحيحة والعلم والمعرفة وهو ماتهدفون إليه، وهنا قال فضيلة الأستاذ الأكبر : لعلكم تذكرون يا أخى الدكتور أن الأزهر خطا خطوة واسعة فى سبيل التقريب بين المذاهب جميعا ، فخطا هذه الخطوة حتى فى التقريب بين أهل السنة والشيعة . وكلية الشريعة الآن تدرس الفقه المقارن بين المذاهب الأربعة ، وبين غيرها من المذاهب الأخرى ، وأنا حريص على أن يعرف الطلاب ، ويدرك العلماء الأصول ويقدروا المراجع ـ وأنا شخصيا ـ أرى أنه ليس فى الدين ما يلزم بمذهب معين . فكل الأئمة صح عنهم إذا صح الحديث فهو مذهبى ، وأنا حريص على أن يكون مرجعنا الكتاب والسنة ، نستقى منهما ، ونأخذ عنهما ، ونتهل من منهلهما العذب .

على أن كل مايخالف هذا الأصل ، ويخالف الكتاب والسنة . فنحن نرده ولا نقبله ، وأبو حنيفة يادكتور يقول : من لم يعرف من أين أتينا برأينا لا يصح أن يقلدنا ، ولقد سمعنا فى أوقات كثيرة أن ابن تيمية ضال مضل ، ونفر المرجفون الناس من مذهبه ولكنه تكشف لهم الأمر فعرفوا أنه هاد ومهدى . ثم سأل الأستاذ الأكبر الدكتور طه حسين : أتذكر يادكتور الموضوع الذى أسقطوك فيه فى الشهادة العالمية ؟ قال « نعم ،

إنه المطلق والمقيد » فقال « وكم سنة قضيتها فى الأزهر؟ قال: أنا دخلته سنة ١٩٠٢ وتركته سنة ١٩١٢ م وبقيت فيه عشر سنوات، أنا أحب الأزهر وأومن بأنه المشعل القوى - والقوى جدا - الذى ينير للعالم الطريق المستقيم، وأحب فيه العلم والمعرفة وأكره التزمت، أنا أذكر يا فضيلة الشيخ يوم أن كنت طالباً وكان معى اثنان من الزملاء وكنت أحضر النحو على الشيخ أبو النجا وكنت حريصاً على النقاش العلمى ولكن الشيخ لم يعجبه ذلك وكأننى قد أفرطت فى النقاش فطردنا من الدرس وأقسم ألا يدرس ونحن فى الفصل فامتثلنا وتركناه. ورحنا نحضر على الشيخ عبد المعطى الشرشيمى فى زاوية العميان، وكان ما كان

ثم قال الدكتور طه حسين، أتذكر فضيلتكم يوم أن جلسنا سويا أنا وفضيلتكم والأستاذ على عبد الرازق وأخذنا نبحث فيما يجب علينا أن نقدمه لخدمة الشريعة الإسلامية وللعقل البشرى، فاتفقنا يوم ذاك على أن يكتب الأستاذ على عبد الرازق فى العقيدة، وتكتبون فى الشريعة، وأكتب أنا فى تاريخ التشريع؟.

فرد فضيلة الأستاذ الأكبر فقال: « إنه لمن حسن الحظ أن تجيئوا اليوم وقد انتهت المطبعة من طبع كتابى فى العقيدة والشريعة تحت عنوان « الإسلام عقيدة وشريعة » فقال الدكتور طه حسين: وقد كتبت أنا أيضا فى قسم التاريخ كتابا باسم « مرآة الإسلام » وما زلنا فى انتظار ما يكتبه الأستاذ على عبد الرازق، ثم قال السيد المستر رادولف: إننى لأستحى أن أذكر النسبة بين عمر اليونسكو وعمر الأزهر المديد وبين عملها وعمل الأزهر المجيد.

واليونسكو، وإن كانت مؤلفة من جموع دول العالم فإننى أعتقد أن قدرتها على نشر السلام فى الأرض أقل بكثير من الأزهر، ولكننا نطمع فى الكثير من الأزهر وخاصة فى عهدكم الذى يؤمن المصلحون برسالتكم فيه.

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر: لا تنسوا أن ضغط الملوك والأمراء واضطراب موقفهم من الأزهر وقف عائقاً فى كثير من الأوقات أمام رسالة الأزهر وأمام آداء مهمته، حتى لقد وصل الأمر أن الضغط فى بعض الأحيان قد كبت حرية الفكر وحرية الرأى وحرية التعبير، فقضى الضغط بأن يفصل سبعون عالما من علماء الأزهر وكنت من بينهم، ومع ذلك فقد ظلت رسالة الكفاح إلى أن هيأ الله للأزهر هذه النهضة المباركة فى هذا العصر الحديث.

فقال الدكتور: إن الوقت الذى فصلتم فيه أبعدت كذلك أنا عن الجامعة، فكان الضغط على كل النواحى العلمية ومصادر النور والعرفان.

ثم قال الأستاذ الأكبر موجهاً كلامه

للدكتور طه حسين : إن عليك واجبا للأزهر وهذا الواجب كذلك على كل من تتلمذ فى الأزهر وأخذ عن الأزهريين وإذن لخدمة الأزهر واجب عليك فقد ركز الأزهر نواحيك العلمية، وأنا شخصيا أعتقد أن الأزهر إن شاء الله سيصل بمعونة الله ومعونة إخوانى المصلحين إلى جمع كلمة المسلمين ورجال الإنسانية على كلمة واحدة وهدف واحد .

- قال الدكتور طه حسين : وما شأن البعوث عندكم ؟ .

- قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الجمهورية معنية كل العناية بأمر هذه البعوث ، ومظهر ذلك إقامة هذه المدينة التى تتكون من إحدى وأربعين عمارة ضمت خمسين جنسية من مختلف الجنسيات الإسلامية، ليتفقهوا فى دينهم ويتعرفوا إلى نواحى الاجتماع والتعاون والديمقراطية الصحيحة فى إسلامهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وليكونوا رسائل حية لجمهوريتنا . يربطون بيننا وبين إخواننا فى جميع الدول . وهؤلاء يعد لهم الآن منهاج دراسى يتفق وطبيعتهم ، ويحقق الصلة بيننا وبين دولهم، ويساعدنا ويساعدهم على تحقيق رسالة الإسلام. ولقد وفد إلى الأزهر فى هذه الآونة أحد المسلمين الأمريكان ليدرس فى الأزهر ، وقد أمرت له بمنحة شهرية ، أدعو الله لهذا ولغيره أن يكون جهاده وتعلمه فى سبيل الله ، ثم فى سبيل الربط الحر المتين بين دول الأرض بما ينشر السلام ويحققه ، ومشيخة الأزهر تدعوكما لزيارة هذه المدينة المعدة على أحدث النظم فى العالم ، وقد استجابا للدعوة على أن يحدد موعد الزيارة .

هذا وقد طلب الدكتور طه حسين من الأستاذ الأكبر بناء على اقتراح مندوب اليونسكو ترجمة كتبه إلى اللغات الأخرى فوعد فضيلته بأنه سيتم ذلك قريبا. فقال السيد الدكتور : وأتمنى لو ترجمت إلى الأسبانية ، وأذكر بهذه المناسبة أننى عندما كنت وزيراً للمعارف أرسلت بعثة إلى أسبانيا فاشترك الأزهر بواحد وكنت أود أن لو انتفع به الأزهر وهو الآن أستاذ فى كلية دار العلوم ، وهنا سأل أحد الصحفيين الدكتور طه حسين : ما هى آخر مرة زرت فيها إدارة الأزهر ؟ فقال سنة ١٩٥٢ زرت فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم واليوم أزور فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت وهما العالمان اللذان دوت أفكارهما فى الشرق وفى الغرب: ثم استأذن فى الانصراف فودعه الأستاذ الأكبر شاكرا له هذه الزيارة .

وكيل وزارة خارجية بورما يزور الأزهر:

زار اليوم وكيل وزارة خارجية بورما

والسكرتير العام لمجلس الوزراء. فيها دار كلية الشريعة بالأزهر واستقبلهم فضيلة العميد الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى، وقد استمع هو ومرافقوه إلى محاضرة فى المقارنة بين المذاهب فى الأدلة القطعية والظنية، وأثر ذلك فى الخلاف فى المسائل الفقهية. ثم استمعوا إلى محاضرة أخرى فى القانون الإدارى ألقاها بالعربية ثم ترجمها إلى الانجليزية الأستاذ مصطفى درويش المستشار فى مجلس الدولة.

وبعد أن انتهوا من هذه الزيارة، زاروا مكتبة الأزهر، ثم زاروا فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه، وبعد أن حيوا فضيلته قال لهم: إن الأزهر ليسر كثيراً بزيارة عقلاء الإنسانية، والإسلام دائماً يقدس حقوق الإنسان ويضع الأسس السليمة له، تلكم الحقوق التى منها الحرية والاستقلال والنشاط فى العلم والاختراع. وأنا أعتقد أن مثلكم يعتبر من الصف الأول لرجال الإنسانية. والإسلام لا يرى العصبية ويمقت التعصب فى أى وجه من وجوهه، بل يعتبر أن الداعين للسلم والاستقرار من رجال الدعوة للإسلام، والأزهر يقوم بنصيب كبير فى خدمة الإنسانية، وكم كنت أتمنى أن أجد اليوم الذى تتجرد فيه هيئة الإنسانية العليا من جميع أطماعها ونزواتها للدفاع عن حقوق الإنسان تنفيذاً لما أمرت به جميع الأديان. ويوم ذاك لا نسمع بالمذابح التى تقض المضاجع فى جميع جهات الأرض، ولا نسمع يومئذ عن استغلال الاختراعات فى إيلام الإنسان وعدم استقراره. والدين يدعو دائماً إلى الوحدة الشاملة كما أنه يدعو إلى السلم والأمان والاستقرار، والإسلام يربط بين القلوب، ويجمع الناس إلى هدف واحد يتجلى ذلك فى قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »، ويقول تعالى: « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ».

لهذه الاعتبارات أنا أشكركم على تلكم الزيارة الطيبة وأعتبرها أثراً من آثار الربط الإنسانى الفاضل، وقال السيد وكيل خارجية بورما: أنا سعيد لهذه الزيارة وأشكر هذه الفرصة التى أتاحت لى التعرف بالأزهر وبشيخ الإسلام، وإننى لجد فخور بهذه الزيارة، وأنهى لفضيلتكم: أن المسلمين فى بورما، يتمتعون بحرية دينية كاملة؛ ولذا فإننى أزف إليكم هذه البشرى؛ لتدل على ما بيننا من صادق التعاون. وإن المسلمين عندنا أسهموا بنصيب كبير فى بناء مجتمع بورما؛ فلذلك أسسوا المدارس والمستشفيات وغيرها.

إننى ياسيدى لأقدر تماما، المجهود الذى

الكتب

نقد وتعريف

مع الله

للأستاذ محمد الغزالى

نقد وتعريف للأستاذ : محمد عبد الله السمان

إن التعرض للمؤلفات مشكلة لدى الكاتب الذى يسعى فى كتابته إلى إنصاف الحقيقة . لأن معظم الكتاب لا يكلف نفسه مشقة فيجنح إلى التقريظ ، والبعض يجنح إلى مجرد العرض ، وفى اعتقادى أن الهدف الأساسى من الكتابة عن الكتب يجب أن يكون النقد ؛ لأن مجرد التقريظ ومجرد العرض لا يؤديان إلا إلى الإعلان ، وربما كان هناك من أساليب الإعلان الصريح ما هو أكبر أثراً .

وإذا كانت الأمانة العلمية تقتضى المؤلف

يقوم به الأزهر فى بناء حضارة عظمى استمرت مدة من الزمن بلغت قرونا ، وإننا لنقدم دائما أخلص التعاون وأصدق المودة .

الموسم الثقافى للجامع الأزهر :

استأنفت قاعة المحاضرات الأزهرية نشاطها السنوى المعتاد ، وقد قصد إليها الرواد من شتى الطبقات لاستماع المحاضرات التى وجهت مشيخة الأزهر الدعوة إلى سماعها .

وبدأ الموسم بمحاضرة عن « واجب العلماء » ألقاها الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ثم ألقى الأستاذ عيسى عبده المحاضرة الثانية عن « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » .

وستظل القاعة مفتوحة طيلة الموسم الثقافى تستقبل زوارها وتقدم إليهم رجال الفكر الإسلامى ، فى شتى الموضوعات .

العرض العسكرى لطلاب الأزهر :

اشترك الأزهر فى يوم الجيش بنخبة من أبنائه المدربين ، شكلوا عدة طوابير عسكرية بدأت عرضها من ميدان صلاح الدين واخترقت أهم شوارع القاهرة ثم عادت إلى ميدان الأزهر حيث أطل عليها الأستاذ الأكبر مشجعا هذا الروح الحربى ، ومنوها بقيمته المعنوية .

حين يؤلف ، فإنها تقتضى أيضا الناقد حين ينقد ، وألا تكون للخواطر والعواطف مكان لديه وهو ينقد ، كانت هذه المعانى تمر بذاكرتى حين بدأت القراءة فى الكتاب الجديد « مع الله » لأخى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، ووجدتنى متحمسا - لا لمجرد القراءة والاستيعاب فحسب - ولكن للعثور على مواطن الضعف إن كانت هناك مواطن للضعف ، وعلى معالم الفجوات إن كانت هناك معالم للفجوات ، وقد طرحت جانبا المجاملة - لأنها فى رأيى أشبه بفرشاة طلاء تبعث بصفحات الكتاب فلا تمنحه إلا تشويها .

ولقد قرأت كتاب « مع الله » من أوله إلى آخره ، كما قرأت أخا له من قبل « كفاح دين » فلمست من هذين الكتابين الشقيقين أن الأستاذ الغزالى يمر بتجربة نفسية ، سداها الغيرة المتدفقة على الإسلام ، ولحمتها الإشفاق عما يخبئه المستقبل لهذا الدين من أحداث ، فأنت تحسب أن الأستاذ الغزالى لم يكن يمسك قلما ليكتب فحسب ، وإنما كان يحمل سيفا مصلتا يبعث القوة فى القلم ، ليغوص فى أعمق المعانى فيخرجها ، ويبحث عن أمتن القوالب ليصوغها فيه ، وهو مع ذلك حريص على أن يمسك بأفئدة القراء ليهتزوا مع اهتزازات سيفه وقلبه ، وكنت أحد القراء الذين لم تحتمل أعصابهم قراءة الكتاب جملة واحدة ؛ لأن المعانى التى طرقها تحتاج إلى أعصاب من فولاذ .

جعل الأستاذ الغزالى كتابه « مع الله » دراسات فى الدعوة والدعاة ، وكتبه للدعاة وليس للعامة لأن تكوين الدعاة - كما يقول - يعنى تكوين الأمة .

فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين ، وأثر الرجل العبقرى فيمن حوله كأثر المطر فى الأرض الموات ، وأثر الشعاع فى المكان المتألق ، وكم من شعوب رسفت دهرا فى قيود الهوان . حتى قيض الله لها القائد الذى نفخ فيها من روحه ريح الحرية فتحولت - بعد ركود - إلى إعصار يجتاح الطغاة ويدك معاقلهم » .

* * *

ولقد ربط الأستاذ الغزالى بين الدعوة والدعاة ربطاً متيناً ، فالدعوة رصيد ضخم من المعانى ، والدعاة هم المصارف التى يتفاعل بين جدرانها هذا الرصيد الضخم ، وإذا كان لابد أن يكون الرصيد عملة نظيفة . فأوجب أن تكون المصارف من النبوغ والعبقرية بمكان ، والإسلام بطبعه دعوة سليمة ، ولكن الدعاة هم الذين يكيفون هذه الدعوة بحسب إمكانياتهم ، فهم يستطيعون أن يرتفعوا بها ليستقروا فوق القمة ، كما يستطيعون أن يهبطوا بها ليستقروا فوق الحضيض ،

والمشكلة تنحصر فى الدعاة وحدهم ، فإذا أعدوا إعداداً سليما ، وتوافرت لهم شتى الإمكانيات ، ساروا بالدعوة إلى المكان اللائق بها .

قدم بحثا مسهبا للتعريف بالدعوة والحاجة إليها ، وأشعل معركة حامية الوطيس ضد من يحاولون العبث باللغة العربية ، أولئك الذين يهدفون إلى تهديد الإسلام ومحاولة التخلص منه ، وناقش مسألة كانت جديرة بالمناقشة هى قضية التبليغ عن الدعوة ، فكل مسلم مطالب بالإيمان وبحراسته ضد العدوان ، وبترغيب الناس فيه بالعمل وباللسان ،وهذا محور الركن الركين فى الإسلام . . . ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحقيقة المرة - كما يقول الأستاذ الغزالى - أن أمة الدعوة إلى الله فرطت فى جنب الله ، ولم تخلف رسولها العظيم فى طبيعة الإشعاع والإسعاد التى اقترنت ببعثه » .

وقدم الأستاذ الغزالى بحثا مسهبا أيضا عن السنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين ، وهى أنهم فى نظرتهم إلى جلال الله تتضاءل فى أعينهم شخوص المخلوقين ، ويذوب ما ينسب إليهم من بأس وإرهاب ، وما داموا هم دعاة حق ، فلا بد أن يوجد الصراع بين الباطل والحق ، والسنن العامة فى هذا الكفاح ، هو أن الزبد يذهب جفاء ، وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، وحمل الأستاذ الغزالى حملة قاسية على المستشرقين ففند مذاهبهم فى الكتابة عن الإسلام ، وكشف عن مخابئ أهوائهم فى النيل من دعوة الإسلام ، ووقف طويلا عند اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف ، وأكد أن الإسلام لم يخرج عن دائرة الحق والإنصاف فى حروبه ، وأن التعصب الأحمق فى غيره مما سبقه من الأديان لا زالت طلائعه إلى اليوم واضحة للعيان .

وفى بحث « الدعوة وحملتها » ناقش الأستاذ الغزالى قضية « الكهنة » وأن الدعوة فى الإسلام لا تقتضى وجود طبقة من الكهان ، فالإسلام فريضة شائعة وواجب عام كسائر الفرائض والواجبات التى نيطت بعنق الفرد ، وكان انعدام طبقة « الكهان والقساوسة » من المجتمع الإسلامى وإحساس كل تابع للإسلام بأنه رجل له محاسب أمام الله وحده عنه ، جعل انطلاق الإسلام فى المشارق والمغارب أثرا لهذا الشعور القوى ، وهذا لا يمنع من أن تؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافى واسع النطاق يقرب حقائق الإسلام من الشعوب المحرومة ، ويفند مئات الشبه التى روجها المفترون ضده ، وما أصاب دولة الإسلام ما أصابها من احتياجها فى السابق واللاحق ، إلا بسبب

هذه الفجوة التى لم يهتم بها فى ما مضى ، ولا نعنى بها الآن وبعد أن عدد الأستاذ الغزالى صفات الدعاة ، وهى الصلة بالله ، وإصلاح النفس ، ودقة الفهم للدين والدنيا ، والإخلاص الذى هو أساس أى داع إلى الله ، والشجاعة التى هى خلق أصيل فى الداعية إلى الله ، وغير ذلك من الخلال الجامعة ، أفرد بحثا عن « الدين والعلم » فالإسلام ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة، والعلم جزء لا ينفصل عن الدين ، ونحن حين نكتفى بدعاة ليسوا مزودين إلا بالعلوم الشرعية ، فإنما نحاول عبور المحيط فوق لوح من الخشب ، والواجب أن تسير العلوم الشرعية إلى جانب العلوم المدنية جنبا إلى جنب ، فإن الملاحدة والمارقين لا يستمعون إلى آيات تتلى من القرآن إلا إذا قارنها منطق على ، كما أفرد الأستاذ الغزالى بحثا آخر عن أساس الوحدة العظمى ، وهو الإسلام الذى يتضمن هذا الدستور الخالد « إنما المؤمنون إخوة » ، والأمر الإلهى الصريح « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

وفى الحديث عن وسائل الدعوة تحدث الأستاذ الغزالى عن : القدوة الحسنة ، والتعليم . . والتذكير ، والخطابة ، والترغيب والترهيب ، والقصص الدينى ، والكتابة ، وفى الحديث عن مقاومة الهدامين تحدث عن الهدم الروحى ، والهدم التاريخى ، والهدم العسكرى ، ونبه الداعية إلى الله إلى هذه الأنواع الثلاثة التى تعمل جنباً إلى جنب ، وغايتها أن تتلاقى فوق أنقاضنا ، وذلك ليتذوق الحقيقة المرة ، ويقف عليها ، ويستعد لمجابهتها .

وفى الباب الأخير من الكتاب ، قدم الأستاذ الغزالى نماذج حية من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن أقوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح ، والكتاب المعاصرين ، لتكون هذه النماذج الحية زاداً للداعية إلى الله فى المهمة الملقاة على عاتقه .

هذا هو الكتاب العشرون للأستاذ الغزالى « مع الله » مررنا به مروراً ، إذ من العسير أن يستعرض الكاتب استعراضاً كاملا لكتاب بلغت صفحاته نصف الألف ، وإذ غضضت الطرف عن جانب التقدير للكتاب ، فليس إلا لأجد فى هذه الصفحات القليلة مساحة لما لا حظته عليه ، كنت أود أن يلتزم الأستاذ الغزالى طريقة العناصر فى بحوثه جميعها ، فالعنوان مثلا يوحى بأن له عناصر ، ليتها رصدت فى أول البحث ليلتزم مناقشتها ، ولكنه تركها — دون أن يهملها — تمرح وتسرح فى خضم شرحه المسهب الثائر ، وكنت أود ألا يكثر من طريقة النقل المتكامل لمقال أو رأى لكاتب ، فقد نقل

رأى الإمام محمد عبده ، والشيخ رشيد فى تفسير آية « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ... » « فجاء فى أكثر من سبع صفحات ، ونقل رأيا للأستاذ فريد وجدى فى مجال : « الدين والعلم » فجاء فى أربع صفحات ، وأثبت مقالا — فى أزمة التدين — للأستاذ القمى جاء فى ست صفحات ، ومقالا للأستاذ محب الدين الخطيب فى أربع صفحات ونصف ، وكان الأجدر أن يكتفى بالإشارة الموجزة لإعطاء فكرة عن آرائهم ، لكن يظهر أن الأستاذ الغزالى كان يشفق على أعصاب القراء ، فهو فى كتابه ثائر يمتشق الحسام ، والقضايا التى تتصل بالإسلام جعل منها معامع ، فأراد أن يجعل مطبات بالمقالات التى نقلها بكاملها لتهدئة الأعصاب ، وقد نقل آراء للمستشرقين جاءت مسهبة ، وليس فى هذا ما يؤاخذ عليه ، لأنها مزاعم أراد تفنيدها ، ولابد من إثباتها ليستقيم تفنيدها .

ويظهر أن ثورة الأستاذ الغزالى جعلته يعتبر المستشرقين جميعا « نفراً من الناس جندهم الاستعمار ليكونوا فى ميدان العلم أداة للطعن فى الإسلام وتشويه حقائقه واصطناع الفتوق فيه ، وأسلوبهم الأثير أن يلبسوا الحق بالباطل ... » والواقع أن المستشرقين ليسوا كذلك كلهم ، فمنهم من أسلم وحسن إسلامه ، كالمسيو « إيتيه دينيه » الذى ترجم له الدكتور عبد الحليم محمود : « محمد رسول الله » والمسيو رينيه « الشيخ عبد الواحد » الذى كتب عنه الدكتور أيضا ، وقد شهد الأستاذ الغزالى نفسه للمستشرق سير « توماس أرنولد » بأنه « من أعدل إخوانه رأيا وأنفذهم بصراً ، وأميلهم إلى أدب اللفظ وإثبات الحق » والواقع أن القلة النادرة من المستشرقين العدول ، لم ينحرفوا عن قصد ، وإنما لأن الكتب الإسلامية التى وصلتهم لم تكن كاملة النضج .

وأنا لست مع الأستاذ الغزالى فى أن الحكومات تكون مقصرة إذا لم توفر الدعاة للغزو الثقافى ، فالشعوب الإسلامية وحدها هى المسئولة ، فهناك آلاف الأثرياء وقفوا أموالهم وأراضيهم على المساجد ، ونحن بحاجة إلى جماعات أهلية تتخذ مركزا عاما فى بلد إسلامى للدعاة ، له فروعه فى سائر بلاد العالم ، والمسلمون من عرقهم وكدهم ينفقون على مؤسسة الدعاة .. هذه المؤسسة التى يكون لها استقلالها الكلى ، وللدعاة امتيازات الدبلوماسيين حتى يؤدوا مهمتهم فى أمان ...

وبعد — فالكتاب سفر ضخم ولست أتجاوز الحق إذا قلت : إننى بحاجة دائما إلى قراءته كلما سنحت الفرصة لأعصابى بقسط من الهدوء . .

محمد عبد الله السمان

بريد المجلة

إن بعض الظن إثم

يقول السيد محمد فريد طاهر من الإسكندرية فى رسالة له :

(١) قال تعالى « اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم » : هل تفيد الآية أن هناك من الظن مالا يجتنب ، لأنه ليس إثماً ؟.

والمجلة تقول :

نعم هناك ظنون لا حرج فيها . إن الظن المحظور هو اتهام الناس بالشر لخاطر يهجس فى النفس ، وبناء أحكام شتى على مثل تلك الخواطر الشاردة وذلك ما عنته الآية ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » أما إسداء المعروف لامرئ تظن به الخير ، فلا شىء فيه ، وكذلك استخدام الذكاء فى كشف بعض الخفاء . كما قال الشاعر :

والألمعى الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا . . .

ثم هناك الظن العلمى الذى يقوم عليه كثير من النظريات ، وهذا الظن مرتبة من البحث قد يتبعها اليقين . . .

وهناك أيضاً الظن العلمى المعمول به فى أحكام الشريعة إذا كان الدليل عاما ، أو مستنداً إلى حجة غير قطعية . . .

فليس كل ظن محرما والآية تفيد ذلك .

الفصد والحجامة

ويقول السيد محمود أحمد السمان بمعهد الإسكندرية :

نشرت صحيفة أسبوعية « أن الفصد والحجامة والاستفراغ كلها وسائل بدائية ووحشية فى العلاج وليس لها مبررات ولا دواع فى دستور الطب الحديث » .

كيف يستقيم هذا الكلام مع ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتجم ولم ير بأسا بهذا العمل ؟

والمجلة تقول :

لا شك أن قلم الكاتب قد اشتط وهو يتناول الموضوع ، فقد يكون الطب الحديث استغنى عن الحجامة لوجود عوض يقوم مقامها كتوسيع الشرايين ببعض العقاقير أو

امتصاص الدم الزائد فى حالات الضغط العالى بطريق « العلق » الذى يمتص هذا الدم . . . أو بطريق اكتشاف أدوية أخرى تسكن الدم ، وتنظم سيره ، واهتداء العالم حديثا إلى هذه الوسائل لا يعنى أن الوسائل الأولى موضع الطعن والزراية . لقد أدت مهمتها يوم كان العلم قاصراً عليها ، فإذا وجدت وسيلة أكفل للصحة وأروح للبدن فلاضير من ترك الأولى ـ دون نكير ـ والأخذ بالأخرى ، والدين لا يمنع من هذا . . .

الرضاع المحرم :

ويقول السيد سيف الدين خطيب من دمشق :

امرأة أرضعت طفلة عدة رضعات متفرقة ، مع تغذيتها بما تيسر من الأطعمة الأخرى . هل تعتبر أما لها ويحرم على بنيها الزواج منها؟

والمجلة تقول :

إن الأئمة مختلفون فى قدر الرضاع المحرم ، فمنهم من يرى قليله وكثيره سواء فى وجوب التحريم : ومنهم من ذهب إلى غير ذلك كالشافعية والإمامية . فالشافعية يشترطون للتحريم خمس رضعات مشبعات .

والإمامية يقـــولون بعشر رضعات مشبعات متصلات ، فلو رضع تسعا ثم طعم شيئاً آخر ، وأرضعته امرأة أخرى لم يعد ذلك محرما .

ونحن لا نرى حرجا من اتباع أى مذهب إسلامى فى هذا الشأن .

الإسلام والمستشرقون :

كتب الدكتور سليمان دنيا فى العدد الماضى من مجلة الأزهر الغراء مقالا عن الإسلام والمستشرقين ، ناقش فيه مناقشة هادئة منطقية إفتراءات ذلك المستشرق الذى ادعى بأن الدين الإسلامى آلى جامد ، وكأنه يريد أن يقول ، إن تشبث المسلمين بدينهم هو علة تأخرهم وأنهم إن نفضوا أيديهم منه ، فلا بد أن يحققوا لبلادهم القوة والحضارة والسيادة ، ! وهذا المستشرق ليس إلا فرداً من جيش لجب قد أعد إعداداً كاملا للنيل من الإسلام وتاريخه والثقافة العربية وعلمائها ، ومما يؤسف له أن كثيراً من المثقفين عندنا قد آمنوا إيمانا عجيبا بآراء المستشرقين حول ديننا وحضارتنا دون تمحيص أو درس لها ، لأنها فى نظرهم فوق مستوى النقد والمناقشة ، فيجب أن تؤخذ قضية مسلمة ، وهذا لعمرى أشد بلاء من أغاليط المستشرقين وافتراءاتهم! والمستشرقون بوجه عام يكادون يجمعون على أن تعاليم الإسلام لا تصلح للعصر الحديث ولا تلائم طبيعة التطورات البشرية الراهنة وأن القوانين الإسلامية إن كانت قد لازمت الزمن الماضى واستجابت لمطالبه ، فإنها

اليوم عاجزة كل العجز عن تحقيق الحياة المستقرة للإنسان الحديث ، فالإسلام قد جاء لبيئة خاصة ولفترة زمنية خاصة فمن العبث أن ينادي اليوم إنسان باسترشاد الإسلام في مرافق المجتمع في القرن العشرين ؛ لأن هذا رجوع إلى حياة الصحراء وتقهقر بالمدنية إلى الوراء .

ومن ناحية أخرى فالمستشرقون إذا تحدثوا عن الإسلام فإنهم يطرقون موضوعات خاصة لمشكلة القضاء والقدر ، والمتشابه من الآيات القرآنيــة ، وزوجات الرسول وتعدد الزوجات والحدود ، والجنة ، والنار، وغير ذلك من الموضوعات ، التي يتسنى لهم أن ينفذوا عن طريقها باللف والدوران والكذب والاختلاق إلى النيل من الإسلام وعرضه في صورة مشوهة منفرة ، وأنه ليس الدين المنقذ للبشرية من ضلالاتها وخرافاتها. فالمستشرقون عامة يدرسون الإسلام والثقافة الإسلامية لغاية سياسية تبشيرية أكثر منها علمية ، ولهم أجهزتهم العلمية المختلفة التي تذيع آراءهم في كل مكان كما أن لديهم الإمكانيات المادية التي تساعدهم على مواصلة نشر مكائدهم وأباطيلهم .

والواجب علينا إزاء هذه الحملات المتتابعة من قديم أن نجند لها قوة تفند مزاعمها وتدحض أباطيلها لا باللغة العربية فحسب بل بلغات المستشرقين أنفسهم ، فقد آن لنا — بعد طول خمول وكسل وإهمال — أن نوقف هذا الزيف الذي أفسد العقول وضلل الأفكار وساعد على الإلحاد ، وفي أستاذنا الأكبر أمل كبير في أن يولي هذا الأمر عناية بالغة وهو خير من يدرك حقيقته ويعرف آثاره . ؟

محمد الدسوقي
ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة

إلى الدكتور على عبد الواحد وافى :

ومرة ثانية «السلام عليكم ورحمة الله» وبعد:

فقد قرأت لك ما قرأت في العدد السابق من مجلة الأزهر - عدد صفر - ثم بدا لى أن أعلق بالاستفسار عما اشتبه على في بعض عبارات ، وكنت أحسبك ترحب باستفهامي وتعرف منه أنني حريص على الاستفادة منك ولا سيما أنني - فيما أعتقد - لم أكن جافيا في كلمة واحدة مما كتبته إليك .

لهذا أسفت كثيراً حينما وجدتك في إيضاحك بالعدد الجديد (ربيع الأول) من المجلة تلذع بكلمات لا تكون إلا عن غضب، ولمن يكون مسيئا إليك .

فلماذا غضبت مع أنك - كما طلبت منك - حاولت أن توضح ؟ ؟ .

أتريد أن يكون كل قرائك مسلمين بما رجعت أنت إليه من أناجيل وإصحاحات ؟؟ أم تريد أن

نتحاشى الاستفهام وننسب إليك الخطأ ولا ننسب إلى أنفسنا قصوراً فى الفهم ؟؟ .

يا دكتور على ! ! هذه ظاهرة أدبية كنت أربأ بك عنها . .

أما احتجاجك - لما شرحته - بالأناجيل والإصحاحات فأمر له تقدير قد يكون راجحا عندك ومرجوحا عند غيرك وعلى كل حال: فقد زدتنا لبسا إذ رجعت بنا إلى أناجيلك وإصحاحاتك ، فقلت : مثلا إن هناك مريم بتول سوى أم عيسى، وتلك أخت شقيقة لموسى وهى التى شقت الطريق يبسا فى البحر لبنى إسرائيل ، ونحن نقرأ فى القرآن أن موسى ضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فهل نكذب القرآن ونتبعك فى الرجوع إلى الأناجيل ؟؟. ومرة ثالثة ، وأخيرة .

(السلام عليكم ورحمة الله)

عبد اللطيف السبكى

نحو آفاق واسعة :

لا نكران فى أن القرآن الكريم قد سجل وجهات النظر للمتمردين على الله من وثنيين ومتألهين ومارقين ، لا باعتبارها ذات قيمة منطقية — ولكن لأنها تعبير عن آرائهم وإن كانت فاسدة ، تقديساً لحرية الرأى نفسها ، وليتبين للناس الفرق بين الغث والسمين ، الغث الذى يتمثل فيه منطق المتمردين ، والسمين الذى يتجلى فيه منطق الحق تبارك وتعالى .

ونحن نلمس أن بعض الدول المسلمة يحرم فى بلاده أن تتسرب مجرد ألفاظ الشيوعية والوجودية والاشتراكية والفاشية والنازية إلى صحفها ، ولو كان الاتجاه فى هذه الكتب يبدو فيه التضخم الهجومى على هذه المذاهب ، وفى زعم هذا البعض من الدول ، أن هذا الإجراء خير وسيلة وأجدى طريقة للقضاء على مذاهب تلك الألفاظ .

ولم تكد الصحف تنشر نبأ تدريس فقه الشيعة فى محيط « الفقه المقارن » بكلية الشريعة ، حتى هاج بعض العلماء هياجا شديداً ، كأن الأزهر قد قرر إلغاء الإسلام من كيانه وحياته ، وهؤلاء العلماء لا يستطيعون أن ينكروا :

أولا : أن فقه الشيعة فقه إسلامى ، وأن ما خالف فيه مذهب السنة لم يكن بدون سند من القواعد المتفق عليها فى كتب الأصوليين.

وإذا فرض أن فقه الشيعة ليس من الإسلام فى شىء ، فأى نكران على تدريسه مقارنا بالمذاهب الإسلامية ، وكذلك تدريس غيره من التشريعات الوضعية ؟ .

إن التشريعات الوضعية التى أصبحت جزءاً من حياتنا حتى ليخيل إلينا أنه لا غنى لنا عنها ، هذه التشريعات لم يكن مقدراً لها أن تطأ بلادنا ، وتتحدى التشريع الإسلامى لو لم تقف عقليات علماء الدين عقبة كأداء فى سبيل الاتفاق على تشريع إسلامى موحد . فالمعروف أن الخديو عباس أبدى رغبة فى إعداد مشروع بتشريع فى المجالين : المدنى والجنائى ، وتجمع شيوخ المذاهب الفقهية ليؤكدوا أن اتفاقهم فى الآراء ضرب من المحال، وكان أن استوردنا التشريعات الوضعية بأيدينا — لا بيد عمرو .

إن الأزهر يحمل على عاتقه فكرة الإسلام وهو يواجه هذه الحياة بها . والعالم الإسلامى إنما ينظر إليه نظرة تقدير وإكبار لذلك ، فهل نطالبه أن يجمد على كتب الفقه والتوحيد القديمة وكفى ، ولا دخل له بعد ذلك بما يدور حوله من التيارات الفكرية الأخرى - ولا يملك التعرض لها أو مناقشتها ؟

إن الشيوعية خطر محدق بالدين والمجتمع والكرامة الإنسانية ، وتدرس فى الجامعات العالمية كفلسفة أو نظرية اقتصادية ، فلم لا تدرس فى الأزهر من الزاوية الإلحادية لا سيما فى كلية أصول الدين ؟ .

منذ بضعة عشر عاما لم يكن للشيوعية فى الشرق الإسلامى وجود يذكر ، والسبب فى أن لها بعض الوجود اليوم فيه ، هو أننا - باسم الإسلام - أعلنا كفرها دون أن تكون لدينا أسباب ذات قيمة ، واكتفينا بالبيانات الدينية الرسمية ، واستعداء خطباء المساجد عليها دون أن يقبل علماء الدين أنفسهم على دراستها مكتفين بحفظ بعض العبارات التقليدية عنها . .

إن فى العالم مذاهب فكرية قديمة ، وأخرى معاصرة ، وثالثة قد يأتى بها المستقبل ما دامت العقول البشرية تؤدى وظائفها ، والأزهر لا يقوى على البقاء إذا وقف مكتوف اليدين حيال هذه المذاهب بما فيها من منحرف أو مستقيم ، وإذا حاط نفسه بستار حديدى من التزمت والجمود .

منذ أكثر من عام ونصف صدر لى كتاب عنوانه : « محمد الرسول البشر » تضمن آراء اعتبرت جريئة فى نظر البعض ، ولسوء الحظ وقع الكتاب فى يد إيطالى مستشرق يعنى بالبحوث الإسلامية ، فأرسل إلى مجلة لواء الإسلام يرجو إبداء رأى محررها فى آراء الكتاب ، قبل أن يبدأ ترجمته :

لقد كتبت إليه المجلة على لسان محررها تقول: « نفيد سيادتكم ألا تعليق لنا على هذه

الآراء ، إلا أن ما وافق الكتاب والسنة فعلى العين والرأس ، وما لم يوافقهما نضرب به عرض الحائط . . والسلام » .

وكان لمحررى هذه المجلة منطق مؤداه أن الكتابة عن مثل هذه الكتب الجريئة من شأنها أن تسهم فى انتشارها .

وحين قرر الأزهر تدريس الرياضة فى معاهده ، ثار بعض العلماء أيضا لأن علامة + تشبه الصليب ، وكنت أعتقد أن مثل هؤلاء قد انتهوا حين توقفت عصا الشيخ عليش عن نشاطها فى مطاردة الإمام محمد عبده ، ولكن للأسف أثبتت الأيام أن عصا الشيخ لم تفتأ تزاول نشاطها ، لتفرض على الأزهر أن يظل بعيداً عن الحياة والاحياء .

محمد عبد الله السمان

من الأستاذ الأكبر

إلى رئيس تحرير الجمهورية :

جرى بين فضيلة الأستاذ الأكبر وبين الأستاذ كامل الشناوى حديث شفهى حول قوامة الرجل على المرأة قال عنه المحرر إنه لم ينته إلى نتيجة . فلما اطلع عليه الأستاذ الأكبر كتب إليه هذا البيان .

السيد الأستاذ كامل الشناوى :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد : فقد قرأت لكم بجريدة الجمهورية بتاريخ ٢٤ من أكتوبر ١٩٥٩ كلمة تمس ما جرى بيننا يوم زيارتكم لنا فى المكتب . ونحن نقرر :

أولا — أن قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء » مع قوله تعالى « وللرجال عليهن درجة » لا يتقابلان بقول إنسان ما « لا قوامة لرجل » . فهذه كلمة إنسان قد يكون متأثراً بمظاهر وظروف خاصة .

وتقرر ثانياً — أن الآيات الحكيمة الصريحة قد جاءت بيانا لمقتضى الشأن الذى جعله الله للرجل والمرأة بمقتضى الخلق والتكوين ، من جهة ما للرجل من الحول والقوة على العمل دون المرأة ، وبمقتضى التشريع الذى جعله الله للمرأة تكريماً لها ، وهو أن يقدم الرجل لها فى مبدأ الحياة الزوجية مبلغا من المال يعرف فى لسان الشرع بالمهر ، حفظا لكرامتها من الابتذال ، وتقديم نفسها للرجل بمال أو بغير مال .

وقد كررت بنفسك كلمة « الشأن » التى جاءت على لسانى فى هذه المناقشة بما جعلنى اعتقد أنك قد اقتنعت بما سمعت ، إذ لم تعد تسأل فى الموضوع ، واعتقد أن فى هذا القدر بعد هذا البيان ما يكفل لاقتناع مثل الأستاذ كامل بما قرره صريح القرآن وصار معروفا من الدين بالضرورة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

أخوكم محمود شلتوت

مقتطفات من الكتب والمجلات

القومية والإنسانية

إن النزعات القومية الصحيحة لا تعادى الإنسانية ، بل تؤمن بالصلة الوثيقة بين البعث القومى والبعث الإنسانى ، بين إذكاء المثل القومية لدى المواطن وبين تفتيح حياته الإنسانية عن طريق هذا الإذكاء القومى ، فتفتيح إنسانية الفرد لا يكون إلا عن طريق تربيته القومية وبنائه القومى ، عن طريق ربط مصيره بمصير شعبه . والفرد لا يزكو إنسانا إلا إذا زكا قبل ذلك مواطنا قوميا .

وطاقاته لا تؤتى أكلها إلا إذا عملت ضمن إطار حى محدود قائم فعلا فى كيان الأفراد إطار الأمة التى ينتسب إليها .

« العرفان »

القرآن ومحمد والإسلام :

فى دائرة المعارف السوفيتية

دائرة المعارف هذه تقع فى ٥١ مجلدا وهى المرجع الأساسى فى كل الموضوعات فى العالم الشيوعى كله ، أى أنها فيصل الحقائق والآراء لثمانمائة مليون نسمة ، أماهيئة دائرة المعارف فتتبع مجلس الوزراء السوفييتى رأسا .

والوصف التالى للقرآن مقتطف من الطبعة الثانية لدائرة المعارف السوفيتية ، المجلد رقم ١٢ ، صفحة ٥٦٤ :

« القرآن ... الكتاب المقدس الأساسى للمسلمين ، مجموعة من المواد الدينية المذهبية والأسطورية ، والقانونية . . وقد وضع القرآن وشرع خلال حكم ثالث الخلفاء العرب ، عثمان ثم أدخلت عليه فيما بعد ، حتى بداية القرن الثامن ـ وفق ما وصلنا من المعلومات ـ بعض التغييرات . ووفقا للتقليد الإسلامى التاريخى الدينى ، يعتبر محمد هو مشرع القرآن ، كما يعتبر مؤسس الإسلام ، على أنه وفقا للتحليل الموضوعى للقرآن ، هناك نظرية تقول : إن جزءا معينا منه فقط يرجع إلى محمد ، أما الأجزاء الأخرى من هذه المجموعة فلا بد أنها تنتمى لعصور متقدمة عليه أو متأخرة عنه .

« ويمكن أن نتبين هذا من وجود عدد من الأساليب المختلفة فى القرآن ، يمكن أن تعزى لتطور اللغة العربية ، ولزمن ظهور « السور » ومكانها . وتستخدم الطبقات الاستغلالية ، القرآن ورجال الدين الإسلامى الرجعيين كسلاح لخداع الجماهير الكادحة وكبحها

أما فيما يختص بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد وردت سيرته هذه فى البيانات التى نقتطفها من دائرة المعارف السوفيتية الضخمة ، الطبعة الثانية ، المجلد ٢٨ صفحة ٥٩٩ .

« محمد ... مبشر دينى ، يعتبر مؤسس الإسلام ، ويصور فى العقيدة الإسلامية على أنه « أعظم المرسلين وخاتمهم » ، وهو عربى نشأ فى مكة . وأبعد ما أمكن الوصول إليه فيما كتب عن سيرة محمد ، كتب فى النصف الثانى من القرن الثامن ، كتبه جامع للأساطير نشأ فى « المدينة » يدعى (ابن إسحق) وعنوان كتابه هو « حياة رسول الله » ، وقد ألف هذا الكتاب بناء على أمر من الخليفة فى بغداد .

وإلى جانب الحقائق الواقعية عن حياة محمد ، يشمل الكتاب عددا من الأساطير والخرافات . وفى كتب السيرة الأكثر حداثة طمست هذه الأساطير تماما صور محمد التاريخية ، وحتى يومنا هذا ما زالت سيرة محمد تبنى على المعلومات شبه الأسطورية الواردة فى القرآن والتى يتقبلها طلبة الإسلام البرجوازيون بغير مناقشة .

وتقول إحدى الأساطير : إن محمداً ينحدر من أسرة هاشم ، إحدى أسر قبيلة قريش التى كانت تعيش فى مكة . وقد طور محمد تعاليم الموحدين قبل الإسلام - الحنفاء - وراح يبشر بالإسلام فى مكة . وقد مكن لظهور الإسلام ، ظهور مجتمع طبقى بين العرب تكون تدريجيا . . . وقد تحول محمد فى نظر الأجيال التالية من المسلمين إلى « قديس » ، و « صانع معجزات » و « شفيع » للمؤمنين . ويحاول المدافعون عن الإسلام ، والطبقات الاستغلالية ، أن تستخدم صورة محمد لإضعاف الكفاح الطبقى .

أما عن الإسلام فنسوق هذه المقتطفات من موضوع عن الإسلام جاء فى دائرة المعارف السوفيتية ، الطبعة الثانية ، المجلد ١٨ ، من صفحة ٥١٦ إلى ٥١٩ :

ولقد لعب الإسلام دائما - شأنه شأن سائر الأديان - دوراً رجعيا ، إذ أصبح أداة فى أيدى الطبقات المستغلة لكبح الطبقة العاملة . روحيا . . . وقد نشأ الإسلام نتيجة لنمو مجتمع طبقى بين العرب .

ومن خلق مجتمع طبقى فى جزيرة العرب

نشأت أزمة اقتصادية واجتماعية بين قبائل العرب المحليين وانعكس هذا فى ظهور الإسلام ليبرر عدم المساواة اجتماعيا واقتصاديا وقيام جهاز الاستغلال .

وقد تأثر تكوين الإسلام إلى حد كبير بالمفاهيم الدينية البدائية لقبائل العرب ، كما تأثر بالمسيحية واليهودية والمجوسية فقد صورت العبودية وعدم المساواة الاقتصادية فى السور المكية بالقرآن على أنها ظواهر من صنع الله نفسه ، وأنها لهذا لا يمكن تبديلها ، والرأى الذى يبديه بعض المدافعين عن الإسلام حول « شيوعية الإسلام الأصلى » وزعمهم أن محمداً - الذى يعتبر مؤسس الإسلام - كان ثائراً ومصلحا اجتماعيا مهما ، يهدف إلى إخفاء حقيقة الإسلام . . . وليس أدعى إلى وصف هذا التزييف من أن القرآن يدافع عن العبودية فى إصرار ، ويبررها فى دأب ويعتبرها من صنع الله ، كما يدافع عن عدم المساواة اقتصادياً واجتماعيا بين الناس .

وكنتيجة لانتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات الاستغلالية ؛ فقد اقتلعت جذور الإسلام ، كما اقتلعت جذور أى دين آخر من الاتحاد السوفييتى ، ولم يعد الإسلام فى الاتحاد السوفييتى إلا مجرد أثر . . .

« الصداقة »

غاندى يبحث عن مثله العليا :

إنى لا أبيح لنفسى أن أعد فى مصاف النساك والقديسين أو الروحانيين ، ولكن اهتدائى بالمثل العليا فى إنجاز أعمالى وتصرفاتى قد ساعدنى على تنظيم شئون حياتى ، وأنار أمامى الطريق ، فأصبحت أرى الأشياء على حقيقتها وعلاتها . وفى وسع كل إنسان أن يحذو هذا الحذو ، وينهج هذا النهج ، فيتوصل بدوره إلى ما توصلت إليه من النتائج . ولقد وصلت إلى هدفى تدريجيا وعلى مراحل ، وكنت كلما أهم بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أهيئ كل الأسباب والوسائل اللازمة للوصول إلى هدفى المنشود ، وأفكر فى النجاح فى ذلك تفكيراً عميقا حتى أوفق إلى بلوغ المثل الأعلى . وإنى قد نجحت فى توجيه وقيادة نفسى نحو الخير ؛ أما شعارى فقد كان العفة ومعاملة الناس بالحسنى والرأفة وعدم العنف . ولقد توصلت إلى كل ذلك باختباراتى الشخصية وتجاربى اليومية وجهودى المتصلة ، وشعرت بأنه لا مندوحة لى من أن أقف نفسى وأكرس حياتى لخدمة المصلحة العامة والعناية بإصلاح المجتمع الإنسانى .

« ثقافة الهند »

thers to their other brothes indicates that relations may be motivated by envy and misbehaviour in their relations to one another to be a source of weakness and disturbance instead of being a source of strength, aid and influence.

Thus it is only logical that man should be guided in such a manner as to strengthen his relations with his relatives. This guidance is understood from the Qur'an which pays a considerable attention to this kind of relationship from the psychological as well as the spiritual and material aspects. God, exalted be He, says: "... And those related by blood are nearer to one another in the Book of God ..." (Surah. 8, V. 75). He also says: " That is the good tidings God gives to His servants who believe and do righteous deeds. Say: I do not ask of you a wage for this, except love for the kinsfolk . . ." (Surah 24, V. 22).

In these two glorious verses the Qur'an expersses how deeply concerned it is about the maintenance of good relations among relatives and how this course is prescribed in all the Divine messages and Scriptures. This prescription proves that God has ordained people to take serious interest in this kind of relationship to maintain the satisfaction and purity of self by means of extending aid to the needy who will then escape the evil of envy and humiliation.

Besides these two verses, there are others which command the wealthy people to take good care of their relatives and participate in satisfying their needs not because these latter are needy or poor but because they are simply relatives. The Qur'an says: " And give the kinsman his right, and the needy, and the traveller; that is better for those who desire God's Face; those - they are the Prosperous" (Surah. 30, V. 38. See Surah. 2' V. 177,215).

The Qur'an attaches more importance to this course of relations among relatives than it does to any other course. (See above).

When the Messenger was asked about giving charity to one's kinsman, he said: " Who gives his kinsman will receive two rewards one for the charity he did and one for caring for his kinsman ".

This is religion in the life of man when compared to law and philosophy And this is the role of Islam in particular in the life of man. It means unity of the Worshipped and harmony in the behaviour of man. It is justice and balance in the relations between couples, parents and children and relatives. It is the message of God to lead men aright, and its way is the straight way.

This is because man's relatives, if they are sincere to him, are the source of his power ; as they represent to him more than the non-relatives represent. They associate with in blood ties, in the inherited characters, in the familiar customs, in terendercies and trends. They are his company, his supporters and his private community.

Conversely, they themselves may become the source of his weakness and anxiety when they are spiting him. This is the state of man with his relatvies : he either becomes powerful or weak because of them. The glorious Qur'an elucidates these two opposite extremes concerning the relation of man with his relatives. As for the first side it says on the tongue of Moses appealing to his Lord " And my brother, Aaron, he is more eloquent in speech than I, so send him with me as a helper to confirm me. Surely I fear that they would reject me. He said: we will strengthen your arm with your brother, and we will give you both an authority, so that they shall not reach you.With Our signs,you two and those who follow you, will triumph. " (Surah 28, V. 34-35). Moses thus demanded his brother Aarom, on both of them be peace, from their Lord exaltad be He, to be in his company and to help him and Protect him in conveying His message.

The Lord, exalted be He, gave him what he asked. He strengthened his arm with his brother, consolidated his power and authority and promised them with victory, they and their followers. It is clear that kindred here was a power because it remained unspoiled. It was in a state of sincerity, purity and unity.

As for the other side it can be represented in the story of Joseph, on whom be peace, with his brothers. The relation of kinship was defiled between Joseph and his brothers ; they spited him, tried to device him to the most horrid form in the sense that they wanted to kill and remove him so that their father's regard might be exclusively for them. In this connection the Qur'an says:"Verily in Joseph and his brothers there are signs for the inquierers. When they said : Certainly. Joseph and his brother are dearer to our father than we, though we are a (strong) company. Surely our father is in manifest error - Slay Joseph or banish him to some (other) land, so that your father's regard may be exclusively for you, and after that you may be a righteous people ". (Surah 12, V. 7 - 9). Nay ! they repented for this erroneous intentions, and the following verses refere to their repentance " They said : By God ! God has indeed chosen you over us, and we are certainly sinners" (Ibid. V. 91). "They said: O our father, ask forgiveness of our sins for us, Surely we are sinners". (Ibid. V. 97). Yet the former attitude of those bro-

God the Almighty says : " And We have enjoined on man concerning his parents - his mother bears him with faintings upon faintings" (Surah 31, V. 14). He also says " And We have enjoined on man the doing of good to his parents. His mother bears him with trouble and she brings him forth in pain" (Surah 46, V. 15) And finally He says : "And say : My Lord, have mercy on them, as they brought me up (when) I was a little)" (Surah 17, V. 24).

On the contrary the Qur'an demands only the parents in their relation with their children not to be fascinated by those children ; because this fascination may divert the parents from the remembrance of God and from the excecution of His injiunctions in man's life. In this respect God says :"O you who believe, let not your wealth nor your children divert you from the remembrance of God " (Surah 63, V. 6). If the parents are overwhelmed by the love of their children then they misunderstand life, mislead their children and misuse the enjoyment of their love. Consequently, they will lead an abnormal life deprived of psychological repose and full of unexpected and horrible events.

This is what the Qur'an ordains concerning the relation between parents and children according to the human nature free from abnormality n its growth and development. The Qur'an always addresses the personality in this respect.

As for forbidding parents from killing their children, the Qur'an says: " And kill not your children for fear of poverty — We provide for them and for you. Surely the killing of them is a great wrong " (Surah. 17, V. 31), and says : " And slay not your children for (fear of) poverty —We provide for you and for them " (Surah 6, V. 152). Likewise, the Qur'an in its verses concerning the animosity of some children towards their parents does not indicate that all this is based on the uniform human nature nor does it draw a method to correct this nature, but it is only a remedy of an emergent condition ; a remedy of a rare abnormality in the human nature resulting from an abnormal environment.

Thus the doing of good to the parents and the control of their love to their children are the correct way to the equality in relations between both sides. And that is the Qur'anic method on all the aspects of human life.

Relatives :

The Qur'an treats the relations among relatives in a manner similar to that of the individual towards his society, his wife or husband and his parents or his children, and the very aim of the aforementioned relations is sought also here.

internal facts of the world except the children either side by side with wealth or in a later degree.

The attitude of the Qur'an towards parents is different from its attitude to children. It does not speak of parents as an adornment in the life of their children or as a source of temptation and boasting to them. It mentions parents in connection with the care due to them from their children. (See Ss. 2. 4, 29, 31, 46, Vs. 215, 8, 14, respectively.)

These expressive verses of the Qur'an prove that there is a difference between the relation of the parents to the children and the relation of these to the parents, and that the relation of either side is not identical with that of the other. Hence the message of the Qur'an in this respect aims at harmonizing and balancing the course of relations between the two sides. It endeavours to change the ordinary course of these relations and make a central meeting - point where neither side would averse to the other.

Because the parents naturally and instinctively or customarily have more and stronger motives to go to a meeting - point, the commandments of the Qur'an on this matter are almost addressed to the children only and presented in a formula the violation of which is unforgivable. This can be seen from the expression of the Qur'an which combines the demand of doing good to the parents with the demand of associating none with God in the course of worshipping. God, exalted be He, says: " And when We made a covenant with the children of Israel : You shall serve none but God, And do good to (your) parents " (Surah 2, V. 83 . See Ss. 17, 6, Vs. 23, 152).

The Qur'an, when neglecting the definition of the course of behaviour of the parents towards their children, depends on the strong, natural and instinctive motive of the parents. In contrast with this attitude it pays much attention to the duties of the sons towards their parents. God, exalted be He, says in the same chapter of the Israelites : "And your Lord has decreed that you serve none but Him, and do good to parents. If either or both of them reach old age with you, say not " Fie " to them, nor chide them, and speak to them a generous word. And lower to them the wing of humility and of mercy, and say : My Lord, have mercy on them, as they brought me up (when) I was little " (Surah 17, Vs. 23-24).

Moreover, the Qur'an may add reasons and motives to the association of doing good to the parents with serving none but God, which reasons and motives instigate the good - hearted sons to do rightousness and good to their parents ; beceuse these are taken from the development of the children themselves.

so far as marriage relations are concerned, is a message of balance, justice and harmony like what we observed in the behaviour of the individual toward himself and his society. As for the demand of the Qur'an to shun the doing of harm in treatment, it is not confined to marriage relation only but also includes the course of relation between man and his fellow man. Nevertheless, this is more emphatic and far more necessary in the former case than it is in the latter one because the doing of harm is tatally incoherent with marriage and its proper purpose.

The Relation Between Children and Parents :

Concerning the relationohip between children and parents, the Glorious Qur'an aims at justice, balance and harmony. The Qur'an views this relationship in its actual form and looks to the two sides of it as one overweighing the other because they in fact are not in the same position nor are they in the same degree. The relationship of parents to their children is much stronger and far deeper than that of the children to their respective parents. The parents are by normal nature more loving and more attached to their children than these are to them. So the relationship of children to parents is not equal to that of the latter to the former as far as inclination and love are concerned, and the attachment of either side to the other is not balanced or of the same degree.

The Qur'an refers to this inequality in the sense that whenever it addresses Parents with regard to their children it Portrays these as an adornment and a pleasure in their parents's lives. And because the children are an adornment and an enjoyment the Qur'an has described them as a trial and a temptation to their parents. Moreover, the Qur'an mentions children accomPanied by the mention of wealth which is also an adornment and an enjoyment, and which is a source of trial and temptation. Furthermore, in some verses it almost confines the adornment of life to the pleasure of having children and wealth. God exalted be He says in the Chapter of The Cave: "Wealth and childrdn are an adornment of the life of this world . . !" (Surah 18, V. 46). He also says in the Chapter of Mutual Disillusion : " Your wealth and your children are only a trial " (Surah 64, V. 15). Again He says in the Chapter of Iron : " Know that this world's life is only sport and play and gaiety and boasting among yourselves and a vying in the multiplication of wealth and children , . . " (Surah 57, V. 20).

The logic of these expressions, which speak of children as the adornment of life or the temptation of the world or the source of boasting, means that the attachment of parents to their children is very strong so much so that parents are not conscious of any external appearances or

man are the same as these of the woman; but it may be said that man, for instance, is to maintain his family and the wife, in return for this, is to look after her children and so on.

The degree of man above woman, to which the second verse cited above refers and which is described in the first verse as making men the maintainers of women," does not change the natural role of man as a subscriber to the harmony and equality in the marriage life. Actually this degree is a human necessity ordained to render marriage a success not to destroy it or accomplish any accidental purpose at the expense of the very principle of marriage.

When the Qur'an gives its advice as how the cople should treat each other, it does not certainly want to destroy the security and quietness of mind which the Qur'an has made the goal of marriage. Otherwise, the Qur'an would be illogical and inconsistent with its own principles by which it urges patience, endurance and the avoiding of harm, - if the marriage life onfronts any sudden crisis - as it says : " And treat them (women) kindly. Then if you hate them, it may be that you dislike a thing while God has Placed abundant good in it " (Surah 4, V. 19). So the demand by Islam that men should be harmless and kind in their treatment and be patient with their wives at times of aversion indicates the solicitude of Islam to maintain Peace and comfort among couples.

Although the Holy Qur'an makes harmony and mutual understanding the purpose of marriage, it does not mean to abolish or disregard the personality of any party to marriage. On the contrary, it maintains the personality and individuality of each one of the two sides concerned, and organizes their relation in such a way as to make it fruitful for their own good as well as for the good of humanity. And for the reason of maintaining the individuality of both sides the Qur'an does not deprive either side after marriage of the personal rights due to that particular side as an individual. This is why the individual has personal rights as well as marriage rights and is tasked with various obligations in the same way. Thus the expenses of the wife, although she may be wealthy, is to be paid from her husband's property. She is tied to her husband by the marriage contract, yet she has the right to invest her own money the way she Pleases and to exercise her own faith, political doctrine and free expression of her opinions. But it should be noted that this guaranteed liberty of the wife or of the husband must be restricted to the limits which do not cause any harm to either party of marriage.

The message of the Qur'an then

did He make, that he might find comfort in her." (Surah. 7, V. 189).

In order to attain this harmony there should be two things : (a) The husband must preserve the timidity and dignity of his wife through a practical action taken by him to express his appreciation to the woman to whom he Proposes marriage. This action means that man should offer a free gift to the proposed to wife for the accomplishment of the marriage. The following verse ascertains the attitude we are viewing ; " And give woman their doweries as a free gift. But if they of themselves be pleased to give you a portion thereof, consume it with enjoyment and pleasure." (Surah 4, V. 4). The Qur'an emphasizes this attitude by stating that this gift is the woman's right from which man can take no portion without her own consent to show that this gift affects deeply her morale and her position towards the husband after getting married.

This gift, viz., the dowery, however small, makes the wife feel that the husband he it is who wanted her and that the sex had no part in their marriage ; because if she realized that the sex played certain role in the marriage she would have felt inferoir to man as it was her situation before Islam. By virtue of the dowery the wife feels dignified and lives in a plane of equality in humanity with her husband.

When the feeling of equality in humanity between the couple is established, they will lead a harmonious and prosprous course of life which may produce good offsprings who will be brought up under the care and love of their coherent parents.

The second thing is that rights and obligations concerning the marriage life are equal according to the nature of each. Both husband and wife exchange equal rights and obligations. It is noteworthy to say that the meaning of equality here is that man and woman should contribute to the marriage life in order to reach its aim which is security, comfort and harmony. Likewise, the mutual benifit of the two parteners should prevail in their relation in the sense that none of them should not be exploited by the other,

The two glorious following verses refer to the equal rights and obligations already explained : " Men are the maintainers of women, with that God has made some to excel others and with what they spend out of their wealth" (Surah 4, V. 34). " And women have rights similar to those against them in a just manner, and men are a degree above them" (Surah. 2, V. 228).

The similarity referred to in the second verse means equality in rights and obligations. It is not necessary that all the rights and obligations of

and shut the door of evil, yet they demand endurance and self-control.

The Qur'an has given all these and other instructidns concerning the common society, viz., the nation, with the purpose of maintaining its solidarity and cohesion, and to take precautionary measures against the destructive factors which go back to the upsetting of justice or the disturbance of social balance.

Loyalty to foreign rulers, partiality in settling disputes, hasty yielding to slander, exploitation of the weak by the strong and indifference of the rich, of the learned, of the héaltly, etc., to the needy, the ignorant and the sick respectively - all these things inavidably lead to disturbance in the social scale and upset justice. Thus the message of the Qur'an concerning the common society is one of justice and balance just like its message to the individual which is meant to establish balance between the two forces dominating him.

Family :

These are the commandments of the Qur'an in connection with the common society. And if we move from this sphere to consider the comparatively small entity of society, namly the family, we shall find that these Qur'anic commandments are ordained for the same purpose, and that they are meant to establish the family system, like that of society and of individual bebaviour, on the basis of juctice, balance and uprightness.

Husband and Wife :

The morals of the Qur'an regarding the husband and the wife are the symposium of its morals relating to (a) the individuals towards himself, (b) the individual towards his society and (c) the individual, who is a partner in marriage life towards the other partner.

This is because marriage means association of two individuals whose principal aim should be the establishment of a harmonious life ; sothat the behaviour of the Couple may be consiatent, and look like that which emanates from a single Person, aiming at uniform end and going on the same way.

It should be born in mind that the states of this behaviour is beyond that of the individual towards his society at large. God, exalted be He, illustrates this meaning when He says " And of His signs is this, that He created mates for you from yourself that you might find quiet of mind in them, and He put between you love and compassion. Surely there are signs in this for a people who reflect ". (Surah. 30, V. 21), and He also says " He it is Who created you from a single soul, and of the same

the fulfilment of his children and wife's ritghts, and so on.

The Almighty God depicts the rejction of giving the rights to its owners by substitution of good for worthless, by absorption and by great sin.

The Qur'an ascertains this attitude because the violation of the weak by the powerful indicates that the society which gathers both of then is not but a means for the achievement of the personal purposes and does not act as a common guardiaship for the rights of every individnal.

It is clear that the society was set up to associate in one union, to aim at one target and to one balance represented in justice and equilibrium.

In addition to all these injunctions, Islam commands the differences among individuals should be tightened so that the poor may not feel his diprivation, the sick his disability, the ignorant his laziness and misunderstanding, the young his weakness and ripeness and the oldman the effect of his oldage. To realize this aim, Islam urges the wealthy to give, the healthy to help, the educated to guide, the senior to have mercy on the junior who, in return, holds the former in a great respect and esteem. But Islam paid much attention to the spendivg of money on one hand to the needy through the well off, and this because money has a certain power which induces its owner not to spend, and, on the other hand, the deprivation of money may lead to anxiety, envy and animosity of the deprived against the well off. God, Glorious be He, says " And those who are steadfast seeking the pleasure of their Lord. and Keep up prayer and spend of that which We have given them, secretly and openly, and repel evil with good ; for such is the (happy) issue of the abode (Surah 13, V. 22). Again He says: " These shall be given their wage twice over for that they patiently endured, and avert evil with good, and expend of that We have provided them " (Surah. 28, V. 54).

It should be noted that expending here is not the alms - giving, which is obligatory, but the voluntary charity in secret or in public, which is far beyond the injunction of alms - giving. God, Exalted be He, has in this point associated the qualities that urge man to endure with those which help him solve his problems. Patience in times of distress and crises, performing the prayer which forbids indecency and dishonour, expending in the way of God and for noble purposes, averting evil with good - all are protective measures to prevent the happening of crises.

does not share the believers is these qualities, and therefore does not state them or he might oppose and try to abolish them.

Moreover, the Qur'an Commands the believers to be just and to adopt policy of gustice amonge people; in this respect a Qur'anic verse says Surely God Commands you to make over trusts to those worthy of them and that when you judge between people, yon judge with justice."(Surah 4, V. 58) The Qur'an thus, Commands justice between people because the source of security among individuals in the feeling that they are all equal in the domain of the society, and that the society, therefore, is not a biased party that judges between a loyal group and an antagonist one. Thus the society acts as a Common guardian. The feeling of security, justice and equality urges the individuals to affirm the survival of their society as to protect it against its extrinsic enemy.

As for the reception of news, Qur'an commands the believers to think it over and not to accept it precipitant, but they should realize the good tidings from the purposeful and defamatory rumours. In this connection the Almighty God says " O you who believe, if an unrighteous man brings you news, look carefully into it, lest you harm a people in ignorance, then be sorry for what you did" [Surah. 49. V. 6]. The Qur'an wants, through this commandment, to keep the relations between the individuals sound and pure. This is because the harms caused by the precipitation of acceptance of bad rumours, whether they concern the individuals or the government, do not dissipate only the unity of society but rather foments dissinsion and agitation which may end with distaseteful animosity among the individuals. So the society dissolves into conflicting groups and consequently may be annihilated.

As for the weak, the Qur'an commands the believers not to exploit them ; it forbids the violation of the orphan, the labourer and the servant. God the Almighty says " And give to the orphans their property, and substitute not worthless [things] for [their] good [ones], and devour not their property [adding] to your own property. This is surely a great sin" (Surah. 4, V. 2). The verse quoted here, though it is aiming directly at the guardians to give the orphans, viz., the unripe, their own properties without delay after having become nature, but it goes beyond this particular case to demand that rights should be given to its owners whose position is like that of the orphans. Therefore the man who is in charge of an affair is demanded to give the labourers their rights, and the husband is responsible for

Islam by defining the aim of the adherents through the worshipping of God alone, endows them to appreciate their dignity and to lead the course of life without being hampered by any obstacle resulting from the idols of paganism in all its forms. The feeling of dignity, the emancipation from the fetters of superstition and the struggle against the hardships of life *without depending on any certain position of any star or planet*, as it was the custom of the Arabs before Islam, or without waiting for permission from a trustee or master, as it was the habit of slaves in the post-all this is a clear manifestation of the worshipping of God alone. And those who hold that feeling reinforce their struggle by guidance and vigilance, and they, therefore, must achieve success in their struggle and gain victory in their fight.

In order to prevent the interference of any factor which may subdue the relations among individuals or divert their attention and thinking from thinking on the Almighty God alone to struggle about those relations, the Qur'an ordains what keeps these relations strong, makes the individual constantly observe God's teachings and what directs their efforts to the realizations of their own good and the welfare of their society, which would lead to the souvereignity of the present society and also of the successive generations. The Qur'an commands the maintenance of the souvereignity of society in the sense that the individuals should not be loyal to any other than themselves. And this loyalty means that the status of the intrussive should not be raised in their hearts to that of regent or to that who is considered authority and to whom their affairs are resorted. God affirms this attitude when He says " And the believers, men and women, are frinds one of another. They enjoin good and forbid evil and keep up prayer and pay the poor - rate, land obey God and His Messenger. As for these, God will have mercy on them. Surely God is Mighty, Wise. " (Surah. 9, V. 71). God in this verse gave reason to the preference of frindship among the believers, and driving away the influence of the intruder. This reason lies in the joint qualities and manners which are the basic elements of Islamic society. The joint qualities mentioned is the verse are enjoining good, forbidding evil, keeping prayer, paying the poor - rate and obeying God and His messenger. It is obvious then that the guardianship of the intrussive foreigner will eliminate these qualities and consequently will erase the personality of the Islamic society. This is because the guardian intrussive foreigner

in adherence to God's commandments.

Dealings :

As we have seen, man is wavering between two opposite directions: that of the righteous self and the other of the self which is wont to command evil. This wavering of the individual is realized on a larger scale in the course of relations between man and his fellow man. People are unlike one another in the sense that every individual has his own customs and aspirations resulting from the certain environment in which he is brought up, and inasmuch as the number of individual increases, their differences grow larger.

Society :

The same course of unity, which Islam has ordained for the individual, is also demaned with regard to society, Islam guides the society in a way as to enable its individuals to get united. The dealings set up by Islam is the means to achieve this aim.

The unity of society does not depend only on the circumstances surrounding the individuals as a result of the environment and place in which they live or of the ways by which they make their living, but it is indispensable for the society in the course of realizing a solid and vivid unity to have one and the same goals, This is because the unity in aim is the centre around which the people gather and for which they consolidate their bonds to become brethren in feeling after having been united in aim.

The Glorious Qur'an took into consideration, before giving its moral commandments, the aim of the society which it seeks and the form in which that society should be. The role of these commandments, then, to keep balance of the society and secure the good relations among its individuals from disintegration and perishing.

The worshipping of God alone is the glorious end which the Qur'an has defined for its society. God, exalted be He, says in His Holy Book " And serve God, and associate naught with Him " (Surah 4, V. 36), Say: I am commanded to serve God, being sincere to Him in obedience". (Surah 39, V. 11), " That is God, your Lord. There is no god but He; the Creator of all things; therefore serve Him, and He has charge of all things. Visions comprehends Him not, and He conprehends (all) visions; and He is the Subtle, the Aware ". (Surah 6, V. 103—104) add " Surely this your community is a single community, and I am your Lord, so serve me". (Surah 21, V, 92).

not obliged to deprive himsef of lawful things.

The worship of fasting thus signifies man's resignation to God which means admitting the existence of God and His being the Lord of the universe. It is, therefore, a further step in guiding man to realize the unity of his essence and to make his self righteous so that he may not seek any ideal in the existence except the Supremacy and likness of God.

Moreover, Islam has ordained pligrimage to make man conduct a course of a simple and natural life in the sense that he refrains from the non - essential things in life and gives in the form of offering oblations. Thus pilgrimage leads to the same noble aims to which lead prayers fasting and alms - giving.

When man follows one uniform direction in life, his behaviour then becomes upright; he does not fluctuate between two opposite extremes, nor does he put on one face to-day and another to - morrow, nor does he do one thing to - day and its contradictory to - morrow, nor does he incline to the right to - day and to the left to - morrow.

Such uprightness proves that he has become logical with unity of his essence, and that he has benefited from his worship of God, The One. The proof of this uprightness in man's behaviour is established when this behaviour accords the verse which says: " And seek the abode of the Hereafter by means of what God has given you, and neglect not your portion of the world, and do good (to others) as God has done good to you, and seek not to make mischief in the land. God surely love not the mischief - makers " (Surah, 28, V. 77).

If man endeavours to take his portion of the world, not to usurp the portion of others, seeks at the same time God's contentedness in his portion by doing good to others as God has done good to him, and refrain from mischief; he then will be upright and moderate. He does not resort to passive dependence (tawakual) but follows the natural way of earnest work and thus attains his protion of life. He is neither exultant nor conceited by attaining what he has of God's favours. He appreciates these favours in the sense that he does not misuse them in any way as to harm himself or his society, to commit sin or do the forbidden, to descrate the honour of others or deprive them of the right to those favours, He gives of them to his relatives and his neighbours, the poor and the needy. With all these qualifications he, no doubt proves himself upright and sencere

The aim of worships in Islam, therefore, is the acquisition of unity in man and the making of his behaviour in conformity with it. The aim of dealings in Islam is also the attempt to lessen the effects of dualism in relations among people, make them as uniform as possible and render man's behaviour harmonious with the results of this attempt.

Worships :

Man by the nature of his creation is subject to two oppsite powers, and for this reason he has two opposite trends in life: One emanates from the self which is wont to command evil and the other from the righteous self. The former self is that which induces man to be capricious and passionate, while the latter is that which exhorts him to be moderate and upright. The worships of Islam, like prayers, alms - giving (zakah), fasting and pligrimage are mean to make man follow one trend and render his self righteous to be moderate and upright.

Islam has ordained prayers in which man stands in God's presence with deep veneration to express His greatness and glory by saying: " God is Most Great ", and to feel the real value of the whole existence in which there is only One Being to Whom belong greatness and glory. After this value is fixed in the worshiper's heart, his self will become righteous, and it is unexpected from him then to think of approaching anything in the existence other than God. This is because the self which is wont to command evil is only that which subjects man to other than God in the existence, and it is not different, then, in the aim from the devil himself.

Conversely, Islam has ordained the worship of alms - giving to make the believer, who observes this duty as a means of attaining God's contentedness, follow one straight trend which is that of the giver. In this way the inclination of man to the other opposite trend of greeds and usurpation can be suppressed. Consequently, it is established that alms-giving is a worship to achieve the unity of man and make him follow the example of God in granting instead of falling into the sins greed and usurpation.

Fasting is also ordained by Islam not only to ascertain the glory of God or to train man as not to be fond of making collections of things. It is meant to control the self and accustom man to deprivation in response to God,s instruction. Deprivation in fasting is actual and more effective, from the moral and practical point of view, than granting in alms-giving; because the giver here is

revelation, and are aiming at one end which is " the balance ", the uprightness and moderation.

Faith :

Faith in monotheism in the manifestation of balance, uprihtness and moderation. Faith is one God means that unity is desired and is ultimate end in Islam. In this respect Shaykh Muhammad Abduh says " As for the faith of all people in one God, it is meant to unite their inclinations and consentrate them in one Lord to whose authority all people submit. And in this faith lies the system of their brotherhood and the foundation of their happiness, and to it they will come even though this may take along time " (Ibid. P. 51).

The faith in one God also means unity in the essence of man and in his relations with his fellowman whether that man is a member of his family or his society, and in family or his own society or of another Islamic society.

The Unity in the essence of man has a designed course, and to his Unity the ordinance of sublimation and worships is the way. Likewise, the Unity in the relations among individuals and societies has a designed course, and to it the ordinance of dealings is the means. God says to His kind Messenger : " Say : He, God, is One. God is He on Whom all depend. He begets not, nor is He begotten ; And none is like Him " (Surah. 112. Vs. 1 — 4). This means that God, the Worshiped, is One and *the* Lord, His unity is absolute and produced by none other than Himself ; " He begets not, nor is He begotten, " and this is why there is in existence no equal to Him ; "And none is like Him. "

By this short chapter of the Qur'an, the unity of God was defined as pure from the equality and the likeness of others. And because the Worshiped is He to whom man heads in his life, this pure unity is the ultimate end of man in his efforts and behaviour. Man thus has to adapt himself to this unity and behave accordingly ; otherwise, he will not be able to appreciate the unity of the Exalted God. Similarly, if his behaviour is not systematically disciplined, it will be a sign of his failure to realize unity in himself. As regards his relations with others, he has to mitigate the dualism between himself and those others, and to develop it into unity or, at least, reconcile the two sides of taht dualism one to the other. The attempts at this mitigation or reconciliation should be demonstrated in his behaviour If he fails in this course, he will be far from the appreciation of God's unity.

of " erring " nor to the existence of the executive authority and its direct supervision. In connection with this point, Shaykh Muhammad Abduh says: " People are in agreement on that some deeds are beneficial and others are harmful. In other words, some deeds are good and some are bad. Some sages and those of sound thinking from among people can find the truth about that. People are also in agreement on that the good deed is the one which lasts longer as far as its benefit is concerned, even though it may be harmful at the present time, and on that the bad deed is a one which leads to corruption or disorder in the private or social life, even though it gives great pleasure in the beginning. But people differ in their opinion about any particular deed when taken by itself and as such according to their diffences in temper, nature, home-background and all surrounding circumstances. This is why they fall into all aspects of evil while every one of them thinks that he is seeking the useful thing. So the human minds alone is incapable of leading its owner to happiness in life " (Risalah el-Tawhid, p. 48).

He also says " Therefore the human mind was in need, to control the perceptive faculties and physical powers, to supporter or helper ; and this helper is the prophet himself " (Ibid. P. 51).

As regards nations he says: " The mind only is not sufficient to realize the happiness of the nations without a Divine guide. It is like the animal which cannot perceive all the tangibles by the sense of sight only ; but there must be with that sense, the sense of hearing, to perceive for example, what can be heared. Simirlarly, religion serves as a general sense by which the means of happiness, which means the mind is uncertain about can be discovered. Mind is the only authority to know that general sense, and to use it according to the purpose for which it was granted, and to submit to the beliefs and deeds revealed by that very sense ". (Ibid, P. 82).

The Merits of Islam as Religion

when the discourse moves from religion in general into Islam in particular, the need for religion in the life of man will be stronger, and more pressing.

This is Because Islam, as known from the Qur'an and the Genuine Traditions, includes faith and legislation concerning the sublimation of man's morals and his dealings.

All these contents are not manmade but all of them are Heavenly

is a defect in both philosophy and law, and the making of philosophy and law by man is a reason of their infallibility which leads to carelessness about following philosophy and obeying law. The conclusion is that the power of philosophy is not spontaneous but in the repeated appeal for it, and the power of law is not intrinsic but in the authority which executes it.

Unlike philosophy and law, religion is exempt from these two defects because God who revealed it is free from finiteness and error. So the value of religion in comparison with philosophy and law is intrinsic. And when religion changes into a philosophy or law, there is the possibility of return to its primary nature free from philosophy and law, as long as its original source is saved from interpolation and change. Then it will continue to maintain its intrinsic value. This means that the danger which may encroach upon religion through the accretion of man is removable by means of holding these accretions as human products without giving them the sacredness of religion or the infallibility of its sources.

Besides the infallibility of religious revelation and the indefiniteness of God in His message to mankind, there is another thing to distinguish religion from both philosoply and law There is on the side religion man's conscience which comes forth from man's fear of and dutifulness to God. This conscience in regarded as the executive authority of law,yet it is a spontaneous authority and not separate from the man of religious sonscience. With law the case is different; the follower of law abeys it out of his fear of the state authority which supervises its execution. So if the state slows down its supervision, the effect of the law will disappear, and its very existence will consequently shrink. Thus two joint things are needed in the sphere of law : the text of the law and the executive authority, while in the sphere of religion the whole thing depends on the believing person only.

As regards philosophy, it is not accompanied by external supervision nor does it create a conscience or internal supervision. So it is less singnificant in practical life than the law and therefore much less valuable in contrast to religion,

This is a speech about religion, philosophy and law in the life of man in a general way. It is clear from this speech that religion has the first place in man's life and his guidance. It is a source of guidance which is not subject to the defect of (finiteness) nor to the probability

in the past and the United Nations Organisation at present, though marked with international characters are designated to serve the interests of big and strong Powers only. The League of Nations was a presumably legal means fòr the occuPation of weak and small nations by the big Powers. What the charter of the League contained of authorizing the big powers to exercise Mandate and Trusteeship over the small nations was a Practical example of the achievement of the big Powers' ends under the Pretext of the international law, yet those ends were the humiliation and exploitation of the small nations by the big powers to raise the standard of living in the latter at the exPense of the former.

The United Nations Organisation is only a repeated form of the League of Nations as far as its charter and ends are concerned. That is why the big powers declared in the recent Past, when they could not realize their imPerialistic ends because of the opposition from the majority of member states of the Organization, that the Organizalion was no longer capable of solving the international disputes and cases. This attitude finds a handsome demonstration in the disprute of the Suez Canal in November of 1956.

Because philosoply and law were produced by the limited man, doctrinal conflicts have been the general character of philosophy, and obvious differedces between national laws and divergent interpretations of the international law have been the permanent character of the man-made law.

To the conclusion that God, unlike man, is indefinite and unlimited in what He reveals for the benefit of humanity, another essential thing is added concerning philosophy and law. This essential thing means that whoso follows philosophy or whoso must obey law is acting on the basis that what he follows or obeys is a man-made system which is not infallible and does not ascertain truth or justice. It is a mere conjecture of a sincere philosoper or legislator. The realization of this fact by the follower of philosophy or the loyal to the law leads to non-enthusiastic or temporary following and loyalty, The temporariness of following and loyalty means by nature carelessness about the accomplishment of the philosophical aim and the end of the law. And since the solicituous aim of philosophy and law is the doing of good, the realization of this aim will necessarily suspend inasmuch as there is carelessness about following the particular doctrine or obeying any given law.

The limitedness of man therefore

possession, in expressing his opinion and belief and in adopting any doctrine he pleases. The individual is also entitled to adhere to the customs and traditions prevailing in his society or to abandon those customs and traditions. He is indifferent to the poverty of other members in his society, to their misery and to the hurting of their feelings or sentiments. Such are the philosophers of individual liberty.

These are examples to show the difference of philosophical thought and doctrines, which difference is due to the fact that the thinker is influenced by his private as well as his puplic life.

As for law, the case is not different from that of philosophy because legislation is based on philosophical foundations and ideas. Law is based on the legislator's conception of life. The legislator in modern times is the state, and his conception of life varies according to the system of the state itself.

There is the Communist state with its own laws to maintain the Communist rule among its individuals. There is the capitalist state with its own laws to guarantee the utmost liberty of the individual in investing his capital. There is the socialist state with its own laws and constitution to set up the mutual relations between the state and individuals on the basis of the socialist ideology which aims at social justice among the classes of society. There is the monarchal state whose constitution is based on the idea of protecting and exalting the throne. There is the republican state whose constitution is based on the affirmation of the individuals' rights to be appointed to the office presidency.

There is also the Jewish society whose law is founded on the idea of maintaining the jewish traditions, customs and belifs concerning the " personal code", and on the idea of timing the jewish annual holidays, deciding the permissible diet and the manner of eating and drinking, etc. Besides this society, there are Christian and Budhist, pagan and Muslim societies the laws of which must include its own traditions, customs and beliefs.

Therefore, the cause of the difference in constitutions and laws lies in man's being limited. This is why there has been what is called " national law " and what is called "international law". The international law, however, is characterized by prejudice for the strong nation as regards its customs and ends of life. Similarly. the characters of the international organizatisms, like the League of Nations

that which suits the personal interest, and they, accordingly, hold man as the criterion of good. Some People see good in bodily enjoyment even though it may be accompanied by usurping the possessions of others or desecrating their honours. Some other people see good in solitude and cutting themselves from the enjoyments of life and the course of society. Inasmuch as people of the first category rush to attain the enjoyments of life which they think enjoyable from their point of view, people of the second category stand passive and adopt a negative attitude. The man of the former category is the individualist or the existentialist, whereas the man of the latter is the ascetic Brahmin or the mystic.

Moreover, while we find some philosophers, viz., the idealists, who define good by that which benefits as many people as possible, we find others, viz., the realists, who define good by that which benefits their own society. On the other hand, we find philosophers who helieve that the " end " justifies the " means." So if the achievement of their end depends on slander or conspiracy or heedless and total killing or desecration of honour, the means to that end is legitimate in their opinion. Therefore, the annihilation war in Algeria, for instance, is justifiable in the eyes of the French imperialists because it will enable them to exploit the human and economical resources of that nation. The establishment of imperialism therein is an end justifiable for the interest of the French imperialists and thus the means to that end is also justifiable and derives its justification from the prospective benefit.

Besides such instrumentalist philosophers of the Machiavellian character, there are others who exhort to the doing of duty for its own intrinsic value, to the doing of what man is obliged to do for the benefit of himself, of his society and of humanity at large without expecting any reward or praise. Such philosophers are those of "duty," who follow the Kantian example.

You see philosophers who advocate the abolishing of the individual's personality and its absorption by society. They justify the suppression of the individual's liberty and the confiscation of his property, and subject his behaviour to the interest of society which is the " state". Life, accordingly, is the right of society not of individuals. These are the philosophers of the Communist doctrine. In contrast to these, we see other philosophers who contend that society should be in the service of the individuals, and that the individual has complete liberty in commerce, in

good, it is established on the fact that this demand is guidance from God. But when philosophy and law demand the same, it is understood that this demand is the outcome of man's speculation. Therefore the difference between religion and philosophy together with law is constant.

The difference betweeu God and man lies in the manner in which the course of good is defined.God, the Lord of all,the Most Supreme, the Self-Sufficient, draws the course of good in such a way as to make it beneficial and attainable for all peaple. He defines the award of the doing and shunning of good in accordance with the result of that good, in conformity with the human nature and in the light of what this good can contribute to the weal of mankind.

God, in defining and ordaining good, has no particular interest and is not influenced by any factor. Because He knows the human nature and not even the weight of an atom in the earth or in the heaven escapes His konowledge, He ordains good in a way coherent with the potentialities of this nature. Also He decides the award of good with the purpose of benefiting mankind by doing good and shunning evil.

With regard to man in his philosoply and codification, he is limited to his environment, his legacy and cultural background. The rural person differs from the urban in understanding life and giving it an expression. The member of a pious family is distinguished, in his appreciation of the moral values and the social bonds, from that of a bad family. Similarly, the ignorant man is different from the enlightened man in understanding and belief, and the man of a certain department of knowledge is different from those who are especialized in other departments of it; the physician is not like the engineer, and both are unlike the agronomist, and all of them differ from the man of accountancy, and so on.

So if man is Limited to his environment, legacy and cultural background, it is only logical that he is influenced by these factors which reflect on his behaviour, his thinking and his conception of life and of its purposes, Man is the production of these three factors ; and his behaviour, his thinking and judgement are the crystalization of them. Thus the man of philosophical thought is influenced, in his definition of the quiddity of good and the way of its attainment, by both his private and common life. And this is why we find among philosophers various definitions of good and various ways of its acquisition, most of which contradict one another. We find some philosophers who conceive good as

efforts to explain the intrinsic value of the particular source to which they adhere, and to prove that it is the only guaranteed course of sound guidance and the only way to achieve the desired aims of human life.

Religion may become a philosophy or a constitution or a legislation. It may become a philosophy when the human mind attempts to justify and reason its principles from the rational point of view; because philosophy is nothing but the intellectual reasoning of the " being ". So if the principles of religion are explained through reason, they become included in philosophy. It may also become a constitution when its principles are applied to the events of life and the behaviour is said to be applicable to those principles. When this application is to take place, it is not sufficient to make judgements without sound justificaton, but there should be comprehensive understanding of the applied principles and the applied - to events. This comprehensive understanding deducted from religion is the form of law to which religion has developed.

When religion takes the shape of philosophy, it pleases the philosophers, and when it becomes a constitution, it attracts the jurists and legislators. Religion may become a philosophy but it does not change to be like the philosophy originaly produced by man. Likewise, when it becomes a law, it does not resemble the law initiated by man. Religion, philosophized and codified, still maintains the general characters of religion ; it remains religion.

The general character of religion is that it is revealed from God and that man has to believe in it and obey its ordinances without hesitation or doubt. Man has to be psychologically satisfied with religion even though he may not appreciate its wisdom, because it is from God who is different from man and Most Supreme and Whom man cannot define or conceive His essence. Philosophy and law may become a dogma but then they will not possess the character of religion as aforementioned ; they will be held as traditions or customs. Neithor philosophy nor law can acquire the nature of religion because both of them are the production of man and will remain so. What they can acquire, however, is the nature of traditions or customs which are to be followed as a familiar heritage.

Thus there is a fundamental difference between religion, on the one hand, and philosophy and law, on the other hand, in the sense that religion is from God whereas philosophy and law are man - made. And when religion demands man to do

RELIGION IN THE LIFE OF MAN

by

Dr. Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

Man has developed from the life of jungle to that of law and civilization, from the life of material power, to which he resorted to settle his disputes, to that where in law prevailed and was resorted to in ending controversies and defining the course of relations among people. The first point from which the human life started was victory gained through family and tribal realtionship and by the great in numbers of some communties in contrast with others. The dominant phenomenon in to - day's life is the prevalence of human justice represented in the conception of man - made law. And between the first point and the dominant phenomedon came religion and philosoply each of which played the principal role in a certain period in the history of humanity, and each of which is still exerting some influence in a certain manner.

The stage of jungle life ended with the supremacy of religion over man's life, then came philosoply to rival religion and afterwards law interfered to take part in this competition and play its role in guiding man. So religion, philosoply and law have become the distinguishing character of the contemporary man's life, and each one of these three conflicting powers is trying hard to gain survival, on the one hand, to ordain man's destiny, on the other hand. The difference between the three lies in that religion is ascribed to the Worshipped God, whereas law and philosoply are the production of man. nevertheless, the aim of each one of the three is hardly different from the aim of the rest; religion shows the way in which mankind conceive their security in peaceful co - existence; philosoply tries the same; and law, in turn stands for the maintenance of the measures which local and international societies adopt as means of securing co - existence and fruitful co - operation.

Each one of these three sources of gudidance has its own enthusiastic adherents who devote their lives and

innocent without mercy, and slaughter them to dye, with their pure and sinless blood, the earth of God which He created as a symbol of mercy upon His bondmen - that God has assimilated their hearts to rocks; nay He has made them worse in hardness than rocks: " Then your hearts hardend after that, so that they were like rocks, rather worse in hardness. And surely there are some rocks from which streams burst forth; and there are some of them which split asunder so water flows from them; and there are som of them which fall down for the fear of God. And God is not heedless of what you do „ (Surah. 2: 74). It is also a sufficient alarm to the cruel that the messenger, peace be upon him, said : " mercy is not rooted out save from the heart of the unhappy". And the most unhappy is he who stains the face of the earth with the blood of the innocent for no fault except that they believe in God, in His messengers, in the last day and in their responsibility to God and to themselves for combating the evil as well as corruption. The most unhappy is he who kills the fathers to make orphans their children, the husbands to make widows their wives, and the sons to make bereaved their mothers. The most unhappy are those upon whom God bestows His favours of dignity, authority and nobility, then they turn back upon their heels ingrate and associate others with God saying that there is no life but this life and that they shall not be raised again.

What we hear to-day about the current events in some Muslim countries is only the result of pitiless hearts.

The difference between the merciful and the cruel is the difference between the happy and the miserable, betwen the human and the non-human, between the believer and the disbeliever. So be merciful and exhort one another to mercy in order that your faith may become perfect, your happiness become great and humanity be proud of you and so that you may live in peace and security. Listen to what Abu Hurayray ascribed to th prophet, peace be upon him, concerning mercy which says :" He who does not pity will not be pitied"

May God guide you and me to exercise the virtue of mercy peace and mercy of God be upon you.

that, one of man's virtues motivated by noble sentiments and honest human feelings. So God calls Himself the Merciful and favours His people with the grace of mercy. He says : " Your Lord has ordained mercy on Himself, (so) that if any one of you does evil in ignorance, then turns after that and acts aright, then He is Forgiving, Merciful " (Surah 6, V. 54). He exalted in rank the faithful to Him and made them belonging to Him alone ; as the Qur'an says : " And the servants of the Beneficent are they who walk on the earth in humility, and when the ignorant address them, they say, Peace ! " (Surah 25, V. 63).

Moreover, God conferred on His Messenger the favour of mercy and made it the main factor of his people's faith in him and their adherence to his Call. The Qur'an refers to this favour in the following verse : "Thus it is by God 's mercy that you are gentle to them. And had you been rough, hard - hearted, they would certainly have dispersed from around you. So pardon them and ask forgiveness for them and consult them in (important) matters " (Surah 3, V. 158). Furthermore, as God made mercy a favour from Him to the Messenger He made the mercy of the Messenger a favour to the Believers in the sense that He sent to them a compassionate, merciful messenger : " Certainly a messenger has come to you from among yourselves ; grievous to him is your falling into distress, full of concern for you, to the believers (he is) compassionate, merciful " (Surah 9, V. 128).

This is mercy as described in the Book of God, and this is its place with Him ; " Surely the mercy of God is nigh to the doers of good " (Surah 7, V. 56).

Disbelief is the Source of Cruelty :

Cruelty is the character of disbelievers who have no faith in God and do not feal His glory or appreciate that His glory lies in His mercy, It is a character of ravenous and beastlike people who should not live with the virtuous of mankind whose proper attitude is to drive them away to bushes and caves.

It is a sufficient warning to the cruel - who desecrate the honours of people, shed their blood, murder the

tenfold the like thereof, while whoso brings an ill - deed will be awarded but the like thereof; and they will not be wronged" (Surah, 6, V, 160). Every blessing or gift, common and special, that God has bestowed upon His bondmen is only a fruit of His mercy. Sound health, property, the good wife, the righteous children and suceess in life all are signs of God's mercy. Similarly, knowledge, guidance, the comfort of conscience and the overcoming of difficulties and obstacles in the way of noble causes are made possible by the mercy of God. Moreover, inspiring the mind with what is useful and mighty in life, authority, influence and nobility are attainable through the mercy of God. So let us all reflect on the traces of His mercy and appreciate its effects which surround us and embrace all aspects of our lives. God, "The Beneficent has made known the Qur'an. He has created man. He has taught him utterance " (Surah. 55. Vs. 1 — 4).

God Likes His bondmen to Follow His Example

Mercy, after all, is one of the most magnificent attributes of God Who likes His bondmen to have such an attribute end to be, as He describes them in the Qur'an, " merciful among themselves", So that the old may show kindness to the young and the young may have respect for the old, the rich and powerful may help the poor and weak respectively, the learned and wise may guide the ignorant and the erring.

God likes the ruled people to enjoy the mercy of their rulers, the children to feel the mercy of the fathers, the pupils to experience the mercy of the teachers, the sick to have the mercy of the physicians, and the poor, to receive the mercy of the rich. Those who are the source of mercy to the servants of God will enjoy His mercy. He will favour them, make them happy with His pleasant company and save them from the troubles of life and death, because "the merciful are pitied by God."

It should be borne in mind that mercy is not confined to man only. God has ordered man to have mercy upon, his fellow man as well as upon animals for both man and the animals need mercy. In support of this injunction, it is reported that the Messenger, may the peace and blessings of God be upon him, said: "Be dutiful to God in treating animals; ride them when they are fit for riding and eat their meat when it is good for eating ".

Faith is the Source of Mercy:

Mercy is a fruit of faith. It originates in man's heart from his hope for God's mercy, and is in addition to

The Mercy of People Is the Way to the Mercy of God

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

One of the attributes of God, Who created and perfected His creation and Who gave the best guidance, is the attribute of mercy. He has made this attribute incumbent upon Himself and said: "And My mercy embraces all things" (Surah 7, V. 156). He has chosen for Himself two glorious names derived from the root of the word mercy (rahmah); He is called the Compassionate, the Merciful. His believing bondmen are requested to seek His help in the name of these two attributes since they are commanded to start all their actings "in the Name of God, the Compassionate, the Merciful".

God, may He be exalted, opened His glorious Book (the Qur'an) with the affirmation of Praise to Him for His being Lord of the world and for taking care of His creatures. Then the assertion of His Lordship was followed by these two excellent attributes, viz., the Compassionate and the Merciful, to point to the fact that His Lordship over the world and His guidance to mankind are not based on compulsion and tyranny but on mercy and mercifulness: "Praise be to God, Lord of the Worlds, The Beneficent, the Merceful" (Surah 1, Vs. 2 — 3).

Truly He brings us up with mercy by which He cares for us when we are foetuses and when we develop from stage to stage throughout our lives. He treats us with mercy when we are infants, during our youth and maturity, and when we become old. It is with mercy that He looks to us when we are dying and departing from our souls and even when we are standing in His presence to be judged, for what we have done, "On the day when every soul will find itself confronted with all that it has done of good, and all that it has done of evil (every soul) will long that there might be a mighty space of distance between it and that (evil)" (Surah 3, V. 30).

God judges us with mercy and shows us the good things to do and the bad things to shun. Thus He says: "Whoso brings a good deed will receive

disbelievers and heroes of Quraysh, whose number was about one thousand worriors. The Muslims won the battle and killed many of the disbelievers in the valley of Badr. They returned to Medina (al - Madinah) victorious with many prisoners and spoils in their hands. The numerous disbelievers, on the other hand, retreated to Mecca (Makkah) with defeat and injured victims. With the same Divine Spirit the Beduins of weak bodies, primitive weapons and small numbers emerged from the valleys and the desert of the Arabian Peninsula to fight against the two gigantic Persian and Roman empires which divided between themselves the domain of the world. The Muslims annihilated the power of the Persian Chosroes and destroyed the throne of the Roman Caesar.

It was with the very inflamatory spirit in the blood of the strivers that Port Said stood firm in 1956 against one hundred and sixty thousand descendants of the Crusaders, and that Algeria is now standing firm against seven hundred and fifty thousand descendants of Napoleon. It is due to this Divine Spirit, which empowers the strivers in the way of God with Patience, persistence firmness, courage, altruism and sacrifice ; and which makes the power of the Muslim striver double that of his enemy. The Qur'an confirms this Point by the verse which says : " So if there be of you a hundred steadfast, they shall overcome two hundred ; and if there be of you a thousand, they shall ovecome two thousand by God's help. And God is with the steadfast " (Surah 8, V. 66).

After all, *al - jihad* is a happiness that cannot be enjoyed except by those whom God chose to honour man, to support His truth and to establish justice and order on the earth. God calls such chosen people martyrs and places them in paradise with the truthful and the prophets. Those are whom God has bought their souls and properties — theirs in return is the Garden. They conquered the earth for Islam and paved the way for civilization which came as a result of their heavy sacrifices and the pure blood they shed on the conquered lands.

How happy are those whom God chooses to make, through their striving, the Muslim homeland powerful and to keep, with their martyrdom, the Muslim nation alive !.

says: " O you who believe, when you meet those who disbelieve marching for war, turn not your backs to them, And whoso turns his back to them on that day - unless manoeuving for battle or turning to join a company - he, indeed, incurs God's wrath and his refuge is hell. And an evil destination it is " (Surah 8, Vs. 15 — 16).

There are two kinds of jihad (striving): the valourous striving and striving as such. The former is superior to the latter because the valourous warrior gives without axpecting any compensation and sacrifies without thinking of reward. When this warrior takes the last glance at the world before his findal departure, he feels quite satisfied, as he has performed his duty, and is pleased because he is going to enjoy the company of God. As for the ordinary striver (mujahid) he exchanges his property and soul for the promised paradise of God. So, sacrifice in his opinion is like a commercial operation of selling and buying and means work and wage.

The source of strength in the strivers (mujahidin) is Islam alone. Before the advent of Islam the Arabs had been scattered entities on the vast and sandy desert with no unity or bonds amongst them. When God chose them to deliver His message to the world, He supported them with His Spirit Which brought them together, united their hearts and integrated their scattered communities: "And He has united their hearts. If you had spent all that is in the earth, you could not have united their hearts, but God united them" (Ibid., V. 63). Then God strengthened this spirit in the hearts of the Muslims by the beliefs of *al - Qadaa* which means that God knows all events before they take place and *al - Qadar,* which means that events occur according to what God knew. Through these two beliefs the Muslims became certain that they are not alone, and that God is always with them to guide them and ordain their course of life. He revealed to His messenger, peace be upon him, the verse which reads as follows: " Say: Nothing will afflict us save that which God has ordained for us " (Surah 9, V. 51).

In addition to all that, God guaranteed for the striver (mujahid) one of two most excellent things: victory, which is followed by the glorification of God, the freedom of the homeland and the dignity of man; or martyrdom, which is succeeded by commemoration in the world and immortality in paradise.

With this Divine Spirit the Muslim fighters, whose number hardly reached three hundreds, went to the Battle of Badr to meet the heads of

advisors to whose cermons he turns his back. Such failure is, perhaps, due to the fact that the observance of these duties is based on the relationship between man and God, and that man's own conscience is the only motive to undertake these duties.

With regard to the faith of al - Jihad (striving), it is based on a combination of relationships between man and his God, his motherland, his offspring, his property, his heritage, his remembrances and his aspirations. So this faith is constantly vivid in the Muslim's heart in spite of the elaps of time. It is like fire in a still volcano which fire may calm down but remains unextinguished. When the religion is disdained and the motherland is attacked, the enthusiasm of all Muslims arises, and the faith of jihad shows itself active and lively in the hearts of Muslims, who hasten to defend their religion, to protect their motherland and to destroy all antagonist elements,

In this phenomenon lies the explanation of the attitude of all Muslims in their different and distant countries against the imperalist powers during the Triprartite Aggression on Egypt. That attitude condemned the aggressors and proved the readiness of all Muslims to resist, with their money and lives, that aggression. It also explains the unanimous opposition of all Arabs to what is being inflicted upon Algeria by the brutal and barbarous imperialism. This opposition is so strong and deep that it led the Arabs to support the Algerians with money and equipments, and to back them before world forums.

The sympathy of the Arabs for Egypt and their support to the Algerians were not based on racial ties nor on the neighbourhood responsibilities, but on the faith of striving, which God revealed in His Book and the Messenger explained in his Traditions and which the jurists detailed in the sources of jurisprodence.

Like the other pillars of Islam, *al-jihaa* (striving) is authorized by the text of the Holy Qur'an some chapters of which, like those of Immunity (Al - Tawbah) and Spoils of war (Al - Anfal), deal with war, peace, spoils, prisoners, treaties and the general rules of war in Islam. One of the most significant meanings of the Glorious Qur'an is that it pays its utmost attention to the treatment of prisoners who are captured by the Muslims, while it almost neglects the Muslim prisoners who may fall in the hands of the enemy. This is because the Qur'an enjoins firmness in war and forbids retreat except for military tactics or for reinforcement. In reference to this rule the Qur'an

French language and to believe in a religion other than their own.

Look into the whole wcrld and search through any place you please, then you will find that all eyes and ambitions are focused only on this part of the world, viz., the East, from which God's light dawned, and by which God was known and in which man was honoured.

My reply to the question raised earlier is that the sincere Muslim is still aware of the fact that his religion means Qur'an and sword, his history includes victory and civilization, his constitution is concerned with both religious and mundane affairs, his war means *striving* and martyrdom, and his government has the character of both religious caliphate and popular leadership. The Muslim thus is ever striving and never abandons this duty. When he does not strive against his enemy he fights against his caprices to discipline himself.

Upon the tremors of the First World War the conscience of the Muslims woke. They began to realize the causes of their subjugation and their being occupied by their enemies. They became aware of the fact that their evils emanated from their reliance on truth only without paying any attention to force, and on words without taking interest in deeds. These evils led the Muslims to weakness which is inconsistent with the Aarb nature as well as with the essence of the muslim character.

when the Muslims woke, a popular call prevailed among them extending beyond the artificial boundaries and inspired by faith, intuition and language, and urging them to strive in public as well as in secret to attain their independence, their unity, their mutual affiction and Power. The hardships in the way of these noble yet difficult aims cannot be overcome except through valourous striving which is enjoined by the law of God and is demanded by the very nature of the Arabs. This valourous striving means giving money and sacrifying oneself in the way of God or for honouring man or for the achievement of the freedom of the motherland. Striving is a common duty incumbent upon every able Muslim when his co-religionists face a common danger the resistence of which requires the joint efforts of all Muslims such as the danger of imperialism and Zionism. The carrying out of this duty is not limited to a certain time or place or race. It is like the five Pillars of Islam with a minute difference from them. The Muslim may fail to observe these five pillars and abstain from prayers and fasting, and may neglect the alms-giving and pilgrimage, although he may be exhorted by preachers and

AL-JIHAD AN ARAB VIRTUE and a Religious Injunction

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT

Editor - in - Chief

You ask me: When, if not to-day, should the Muslim strive in the way of God? There are many good reasons for him to carry out this duty. His religion is confronted by intrusive and disbelieving Communism. His motherland is surrounded with intrigues engineered by imperialism. His brethren of Palestine were driven out from heir homes and properties by the Christian powers and replaced with the descendants of Judas, the makers of The Cross, and his fellow men in Algeria are dying by horrible means on the tops of mounts and in the bottoms of valleys while fighting, with their limited number and simple equipments, against three-quarters of a million of savage soldiers whose French character branded them with cruelty and stubborness, and who are being armed with the most destructive weapons supplied by the North Atlantic Treaty Organization and used to annihilate the Algerian towns with their inhabitants of orphans, widows and the helpless. His peoples in the Arab and Muslim countries are still struggling against the imperialist ambitions and tyranny, striving to secure their dignity and rights and appealing to world conscience for support without receiving any significant response.

There is Russia, on the one hand, trying to penetrate into the Eastern countries to abrogate their religions and philosophies in order to replace them with its own doctrines. There is America, on the other hand, trying to hamper the Russian efforts and monopolize the natural resources of these countries. There is also Britain trying - by means of killing, treachery, despotism and persecution - to vacate the southern region of the Arabian Peninsula from its people and populate it with fraudulent slaves who may guarantee the survival of the British occupation and rule over that region. Besides these three world Powers, there is France using its numerous troops and strong force in a bid to make the Algerian people French and compel them to live under the French flag, to speak the

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت ١ ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السادس — جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ — ديسمبر سنة ١٩٥٩ م — المجلد الحادي والثلاثون

الفهرس

قرآن الفجر

بقلم: أحمد حسن الزيات

سهرت بجانب المذياع ليلة استمع إلى أم كلثوم فى حفلتها الإذاعية الشهرية ، وكان صوتها ينبعث من الجهاز رخيما عذبا فيملأ جوانب نفسى وحسى كأنما كنت أسمعه بجسمى كله . فإذا انقطعت (الوصلة) أخذ المذيع يثرثر بالفارغ وبعض الملآن فينقلنى من نشوة النغم المرفه إلى صحوة السأم الممض، إلى أن أقبلت هوادى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغناء فى وصلتها الأخيرة ، وكان الشارع قد سكن ، والبيت قد نام ، والمذيع قد فتر ، فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب فى مسمعى نقيا كرنين الفضة، نديا كترجيع البلبل ، تقياً كتسبيح الملائكة، فاعترتنى حال من الصوفية الشاعرة ، فيها الحب والشوق ، وفيها الفناء والعبادة . حتى إذا انتهى الغناء الآسر ، وانفض السامر النشوان ، أويت إلى مضجعى ألتمس النوم فامتنع على ، ووجدت بى نزوعا إلى اجتلاء الطبيعة فى مجتلاها الرحب ، فصعدت إلى سطح البيت المنعزل وأرسلت عينى تجولان حول البيوت المظللة النائمة، ومن ورائهما خيالى ينفذ من وراء الجدر والستور إلى أنماط شتى من الناس تفاوتوا فى الحظوظ وتباينوا فى الأحوال ؛ فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعوده طيف ولا يزعجه حلم ! ومن شجى يسامره الهم ويساوره القلق فلم تكتحل عيناه بغمض ؛ ومن مريض يتململ على فراشه النابى فلا يسكن إلا ليتقلب ، ولا يسكت الا ليئن . ومن حبيب يخلو إلى حبيبه خلوة النوال بعد الرغبة ، أو الوصال بعد القطيعة ، وثالثهما شيطان يحرض أو ملك يحرس . ومن زوج يسكن إلى زوجه سكون المودة والرحمة . وتحت جناحيهما فراخهما الزغب ينعمون بالنوم السعيد فى العش الهادئ الدافى . ومن مجرم يطوى أحناء صدره على السوء ، فهو يبيت بليل ما سيقترف غداً من العدوان والإثم ، ولا يجد من ضميره الغافى حسابا على ما اقترف بالأمس من المنكر والبغى . ومن مؤمن قضى موهنا من الليل يتهجد بالصلاة ويتعبد بالذكر ثم غفا قليلا ليهب على نسيم السحر ودعاء المؤذن إلى بيت الله القريب ، كل هؤلاء ضمنتهم هذه البيوت

المتجاورة المتغايرة كما تضمن السرائر نوازع القلوب ونوازى الأنفس فلا يعلمها إلا الله الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم نظرت نظرة فى النجوم وهى تسبح فى أفلاكها بين متألق وخاب . ودان وقاص ، وصاعد ومنحدر ، فتواردت على خاطرى مختلف الآراء التى استقرت فى أذهان الناس عنها فى القديم والحديث ؛ فقد اختلفوا فى النظر إليها كما اختلفوا فى النظر إلى حقائق المعانى الثابتة كالحق والعدل ، كل يفهمها على حسب ما يستفيد منها أو يعلم عنها أو يتأثر بها ... فالمؤمن يراها مصابيح للدجى ومعالم للهدى ورجوما للشياطين . والشاعر يراها لآلئ قد رصعت رقيع السماء ، أو أزاهر بيضا قد طفت على وجه الماء . والبدوى يراها صوراً من الأحياء على هيئة الإنسان والحيوان والطير ، تحب وتبغض ، وتسالم وتحارب ، فهو يضع لها الأسماء ، ويسرج حولها الأحاديث ، ويؤلف عنها الأساطير ، ويقول فيها الشعر . والمنجم يراها مطالع للسعد والنحس ، ومفاتح للسر والغيب . والعالم يراها أجراما هائلة تجرى فى الفضاء بتقدير العزيز العليم ، فيها الجبال والأغوار والأخاديد ، وليس فيها الجمال ولا الحياة ولا التأثير ولا الأمل . فهل آن للعلم الروسى أو الأمريكى أن يجوس بالإنسان خلال هذه الكواكب فيرود المجهول ويعلم الغيب ويحتل السماء ، وتصبح العوالم الأخرى مدبرة بمشيئته مسخرة لأمره ؟.

• • •

كنت مشغولا بفكرى وخيالى فى الكونين الأدنى والأعلى حين وقع فى مسمعى تسبيح المؤذن على منارة (قايتباى) فعدت من التفكر فى الملكوت إلى التفكر فى الملك ، وانتقلت من التوجه إلى المخلوق إلى التوجه إلى الخالق . وانبعث آنئذ من جانب البيت الملاصق صوت خاشع يقرأ سورة الإسراء بتجويد بين وترتيل حسن ، وكان القارئ المتهجد قد بلغ فى قراءته قول الله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً » فأصغيت بسمعى وقلبى إلى كلمات الله وهى تصعد إليه من فم هذا الرجل فى جلوة السحر وخلوة المكان وقد سجا الليل ، ورق الظلام ، وعمق النوم . واختلط سنا (الزهرة) بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقى ابيضاض اللؤلؤ ، وتجاوب أذان المؤذن وترتيل المرتل تجاوب الوحى والدعوة ، فذكرت بالقرآن الله الذى أوحى ، وبالأذان الرسول الذى بلغ . واتحد الصوتان

فى نفسى بصوت إيمانى القوى بالموحى . والمبلغ ، ففنى وجودى المادى فى وجودى الروحى ، فلم أعد أشعر بالملك ولا بالزمن ولا بالعالم . وانمحى من مسمعى ماكان يشغلهما من الأصداء الملحة لشدو أم كلثوم ولحن السنباطى ونظم رامى . وبقيا فارغين خالصين لسبحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانهما بقوة ولذة واستيعاب فيسريان فى كيانى ووجدانى مسرى البرء فى السقم ، أو الروح فى البدن . أو الإيمان فى القلب ، لا لحسن الصوت ولا لجمال الإيقاع ، ولكن لشعور سماوى لا تدركه حاسة ، ولا تصفه لغة ، ولا يعرفه إلا من وقف هذه الوقفة مستحضرا فى ذهنه جلال الله ، مستشعراً فى نفسه جمال الطبيعة ...

انا لنسمع القرآن والأذان فى كل يوم وفى كل صلاة ، ولكننا حين نسمعهما لا نجد فى أنفسنا تلك الجلوة التى تنشأ عن الصفاء ، ولا ذلك الاستغراق الذى يصل ما بينها وبين السماء . ذلك لأن مشاعرنا تكون فى النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لمواحى الروح فى العالم الآخر .

أما الاستماع إليهما وقد هب المتقون من إغفاءة الفجر اللذيذة حين لا يكون المرء إلا روحا تمض وفكراً يجول وخيالا يحلق ونفساً تصلى ، فتلك هى ساعة التجلى ، ساعة يندمج فيها الشاهد فى المشهود ، وينفعل العابد بالمعبود ، ويشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور السطح أنه شعاعة من نور الله إذا انقطعت عن مدده خمدت ، وهباءة فى فضاء الكون إذا أفلتت من جذبه فقدت :

* * *

وقف القارئ عند قول الله تعالى اسمه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » حين قال المؤذن : حى على الصلاة : حى على الفلاح : الصلاة خير من النوم . الله أكبر ، الله أكبر لا إله إلا الله ثم غابت غرفة القارئ ، ومنارة المؤذن فى السكون الشامل ، وأخذ الفجر ينسج من خيوطه البيض غلالة شفة على وجه المشرق ، وأخذ الصبح الجميل يتنفس رويداً بين فرعى النيل الكبير والصغير من منيل الروضة ؛ وبدأت القاهرة الراقدة تتثاءب وتتمطى استعداداً لليقظة ، فسمعت من قريب سيارة نقل تتحرك ، ومن بعيد قطار حلوان يصفر ، فهبطت من السطح لأقيم صلاتى وأدرك قليلا من النوم ، قبل أن أبدأ عمل اليوم !

أحمد حسن الزيات

الثقافتان

للأستاذ عباس محمود العقاد

من مباحث اليوم فى دوائر الثقافة الانجليزية مسألة الثقافة الإنسانية فى العصر الحاضر ، وأصح من ذلك أنها مسألة الثقافتين التى يخشى منها على الثقافة الإنسانية ، ويريدون بهما ثقافة العلوم والصناعات من جانب وثقافة الآداب والفنون من جانب آخر . وكلتاهما نافعة إذا لم تنفرد بالفكر الإنسانى كل الانفراد ، ولكنها ناقصة النفع بل وشيكة أن تضر — إذا حجبت عن الفكر ما عداها من متممات التهذيب والتقويم ...

أثار هذه المسألة فى الأيام الأخيرة العالم الأديب (سير شارل سنو) فى محاضرة من محاضراته المسموعة القيمة ، ولخص فيها مشكلة الإنسان المتعلم فى القرن العشرين ، فإن اتساع ميادين المعرفة مع شيوع التخصص فى حدوده الضيقة قد شطر الإنسان كما يقول شطرين ، وجعله نصف إنسان لا يكتفى به فى حسن الفهم وحسن التقدير وحسن التصرف ، وقد عزله عن الفطرة التى تعتمد على العرف السليم ولم يعوضه عنها ما يغنيه ويهديه ، لأنه أعطاه النظر من ناحية واحدة ، وهو أخطر الأنظار .

ولم تسمع فى هذا العام محاضرة كان لها من الصدى ما كان لهذه المحاضرة منذ إلقائها إلى اليوم ، أو محاضرة تلاحق التعقيب عليها كما يتلاحق من تعقيبات الصحافة والإذاعة والأندية الفكرية فى موضوعها ، وهو موضوع الثقافتين .

قال الأديب جون شارب فى إذاعته : إنها أخطر بحث عن التعليم تناوله الباحثون منذ صدر تقرير هاداو Hadaw قبل ثلاثين سنة .

وقال ناقد الملحق الأدبى لصحيفة التيمس: إن الفراغ بين القوتين ليس من الأمور المزهود فيها ، فلولا الفراغ لما أمكن سريان الشرارة الكهربائية ، ولولاه لما تحركت السيارة التى نركبها ، فإذا وجد فراغ بين نوعين من التعليم فليس من الحتم أن يئول ذلك إلى ضرر أو خسارة ، وإنما الواجب أن يأتى الفراغ فى الموضع الملائم وبالقدر المطلوب .

ثم عاد الناقد المطلع إلى مسألة الفراغ بين الثقافتين العلمية والفنية فى العصر الحاضر فقال : إنها فى الحق من المشكلات الجسام يخففها إلى حين أن الإنسان المهذب فى زماننا — سواء كان من العلميين أو الفنيين — لا يكتفى

بنصيبه من العلم أو الفن ولا يستغنى عن شاغل من شواغل الرياضة البدنية أو من شواغل الموسيقى كالعزف على آلة من آلاتها والاستماع إلى أدوارها المحفوظة فى قوالبها المسجلة ، أو الاستماع إلى طرائف الإذاعة فى مختلف الموضوعات .

إلا أنه يتمنى على الرغم من هذا العزاء الموقوت لو تعالج هذه المشكلة بما يجمع الفائدة من كلتا الثقافتين ويكفل اللقاء للشطرين الإنسانيين فى بنية واحدة،لا تشتكى الزيغ والانحراف فى نظرتها إلى دنياها .

وقال الفيلسوف الرياضى الكبير برتراند رسل من كلمة نشرتها مجلة المساجلة Encounter إن القطيعة بين الثقافتين لم تبلغ فى الأزمنة الماضية ما بلغته الآن ، إذ كانت القنطرة بين العدوتين قائمة على طول أو على قصر ، ولكنها فى الحقبة الأخيرة يوشك أن تنفصم فلا تلتقى إحداهما بالأخرى ولا تسلم الثقافة من كامنة الادعاء والحذلقة ، كما يحدث دائما عند الشعور بالنقص والرغبة فى مداراة الجهل والسذاجة .

ويرى بعض المعقبين أن العلة ناشئة من تراكم الفضول والحشو على مواد الثقافة جريا مع التقليد والعادة ، فلو أعيد النظر فى برنامج التعليم لم يتعذر إصلاح الخطأ وتصفية الفضول وإبقاء البقية الصالحة من ثقافة العلم وثقافة الفن التى لا يصعب تحصيلها على المتعلم ، مع إعطاء التخصص حقه فى عصره .

والذى نراه من جملة ما طالعناه من مباحث هذه المشكلة أن العلة فيها عند الغربيين راجعة إلى سبب أصيل لم يبتدئ فى هذا القرن العشرين ولم تأت به الدراسة العلمية أو الحركة الصناعية فى هذه السنوات منذ أربعين أو خمسين سنة .

إن العلة فيما نرى راجعة إلى قسمة الثقافة عند القوم إلى ثقافة إلهية وثقافة إنسانية ، وراجعة قبل ذلك إلى قسمة الإنسان بين هذا العالم وبين العالم السماوى ، وإلى المقابلة بينهما كما تتقابل مملكة السماء ومملكة العالم الدنيوى ، أى مملكة الشيطان .

فمن قبل هذا العصر ـ عصر العلم والصناعة ـ كان الأوربيون يقسمون الثقافة إلى قسم العلوم اللاهوتية وقسم العلوم التى سموها بالإنسانية تمييزاً لها من علوم اللاهوت وما يلحق بها من دراسة تعين عليها ، وقد سرى هذا التقسيم منهم إلى الشرق مع سريان الحضارة إلينا من بلادهم ، فسمعنا بيننا من يتحدث عن العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، بعد أن كان العلم عندنا واحدا يطلبه المتعلم لدينه ولدنياه .

فالدين الإسلامى يأمر المسلم بالنظر فى السماوات والأرض ليعلم كل ما يؤدى إليه النظر فيهما وفيما بينهما ، ويأمره بأن ينظر فى سريرة الإنسان وفى أحوال الأمم فلا يفوته العلم بالإنسان الفرد ولا بالجماعات البشرية .

وأثر هذا الإحساس « بالوحدة الذهنية » أن تتم ثقافة المتعلم ويسلم العقل من داء

الفصام الثقافى الذى يفصل بين روحه وبدنه وبين دينه ودنياه.

وأثره فى تاريخ التفكير أن نرى تلك الثقافة الواحدة فى العالم الفقيه الفيلسوف الأديب، مع اشتغال بالطب أو بالوزارة أو بسياسة الأمور العامة، ولا نرى له نظيرا فى الأزمنة الحديثة، ولم نر له من قبل نظيرا فى الازمنة الغابرة، لأن الثقافة فيها بطبيعتها كانت تنحصر بين حدودها التى لا تتفرق ولا تدعو إلى التخصيص، لقلة محصولها فى مختلف العلوم.

ولم تتأثر قواعد هذه الثقافة التامة بانتقال المسلمين إلى البلاد الغربية، بل هى أثرت هناك فى تلاميذها من الغربيين فرفعت أمامهم أمثلة نادرة من «الإنسان المثقف» كما ينبغى أن يكون.

من هذه الأمثلة أبو بكر بن زهر الذى يقول فيه صاحب نفح الطيب: «هو عين ذلك البيت وإن كانوا كلهم أعيانا علماء، رؤساء حكماء وزراء».

ويقول فيه صاحب المطرب من أشعار أهل المغرب: «كان شيخنا الوزير أبو بكر ابن زهر بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب معين، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العلياء عند أهل المغرب، ومع سمو النسب وكثرة الأموال والنشب».

وصاحب هذه المعارف والرئاسات هو الذى يقول من الشعر فى شوقه إلى طفله الصغير:

ولى واحد مثل فرخ القطا
صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فيا وحشتا
لذاك الشُخَيْص وذاك الوُجَيْه
تشوقنى وتشوقته
فيبكى على وأبكى عليه

وهو الذى يقول وقد نظر فى مشيبه إلى المراة:

إنى نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاى كل ما رأتا
رأيت فيها شيخا لست أعرفه
وكنت أعهد فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل من هذا المكان متى ؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة
إن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أُخَىَّ وقد
صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

وهو الذى يقول فى إحدى موشحاته:

سلم الأمر للقضا
فهو للنفس أنفع
واغتنم حين أقبلا
وجه بدر تهللا
لا تقل بالهموم لا
كل ما فات وانقضى
ليس بالحزن يرجع

ومثل هذا الشعر يسلك بقائله فى عداد

النخبة من شعراء عصره وشعراء كل عصر، لو أنه تخصص للشعر ولم يزد عليه فضلا من أفضال العلم أو الحكمة أو الرئاسة ، ولكنه زاد عليه من كل فضل ما يسلكه بين خاصة أهله ، ولم يفرضه عليه واجب من واجبات المنصب ولا حاجة من حاجات النفس إلى المال والمتعة، بل ترك من المتعة بمقدار ما استفاد من حكمة وأدب : متعة لا يبذل فيها هذا الثمن من يجهل كيف يكون متاع الأرواح والألباب.

ولقد كان هذا التوسع فى المعرفة من نصيب البيوت والأسر ولم يكن من نصيب نابغة فيها يعدونه فلتة من الفلتات النادرة بين أبنائها ، فليس بالنادر بينهم أن يتعاقب على النبوغ ثلاثة أجيال ، يميزون بينهم باسم الأب والابن والحفيد ، لأنهم كلهم فى شهرة العلم والنبوغ سواء .

* * *

إن « الثقافة التامة » على هذه السنة مستطاعة فى كل زمن ، مستطاعة فى زماننا هذا على الوجه الأمثل مع وفرة علومه وتعدد ألوان الثقافة فيه ، لأنه كما تعددت فيه ألوان الثقافة تعددت فيه وسائل نشرها وتقريبها والوصول إليها فى مصادرها ، فمن لم يتسع وقته للاطلاع على المطولات لم يضق به الوقت عن الإلمام بالوسيط أو الوجيز فى ضروريات المعرفة ، ومن فاته الاطلاع لم يفته الشهود والاستماع ، ومن فاته كل ذلك لم تفته مراجعة الصحف ومناقشة العارفين ومتابعة الأخبار مع السؤال والاستفسار .

وليس المطلوب بالبداهة إلغاء التخصص ولا الوقوف بالمعرفة الخاصة دون الغاية من الاستقصاء . فإن الإجادة فى عمل الإنسان المثقف لا تنال بغير هذا الاستقصاء إلى غاية مداه المستطاع . ولكن إتقان التخصص هو الذى يوجب على صاحب العلم والفن أن ينطلق من قيوده ولا يغلق عليه أبواب علمه وفنه فلا سبيل إلى إتقان شيء من الأشياء وراء الجدران المحكمة والأبواب المقفلة ، ولا يعرف الحسن من يراه فى وجه واحد ، أو يعرف سكنى الدور من لم يخرج قط من داره ، أو يعرف عقله من لم يعرف عقولا أخرى لا مشابهة بينها وبينه .

فمن أجل التخصص نعرف ماحوله ، وقوام الأمر من المعرفة الصحيحة فى عصر « التخصص » أن نعرف كل مايعرف من علم واحد ، وألا نجهل الصلة بينه وبين سائر العلوم ، فلا نلتقى بأصحابها لقاء الغرباء من عالم آخر ، وما هو فى الحقيقة غير العالم الذى نعيش فيه .

وزينة الثقافة ، بل ضرورتها القصوى ، ألا يكون المرء عالما فى بابه وأميا فى سائر الأبواب ، فإن هذه الأمية فى نقصها وسوء مغبتها أجدر بالمحو من أمية الجاهل بالألف والباء ؟

عباس محمود العقاد

المبشرون والمستشرقون
في موقفهم من الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد البهي

— ٢ —

الفصل الثانى

الاستشراق والمستشرقون :

(١) نشأة الاستشراق :

يرجع تاريخ الاستشراق فى بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادى. وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك ، غير أن المصادر التى بين أيدينا لا تلقى الضوء الكافى على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر فى أوروبا بصفة جدية بعد فترة « عهد الإصلاح الدينى » ـ كما يشهد بذلك التاريخ فى هولانده والدانيمارك وغيرهما [١].

(١) راجع الصفحات ٣ ، ٨٦،٥٤ ، ٢٥٢ ، ٣٦٧ من المجلد الثالث الصادر فى عام ١٩٢٣ من « مجلة المجمع العلمى العربى » ، والصفحات ٦٤ ، ١٧٠ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ١٦٤ ، ٤٢٤ من المجلد الرابع الصادر فى عام ١٩٢٤ من المجلة نفسها .

(٢) أسباب الاستشراق :

والسبب الرئيسى المباشر الذى دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب دينى فى الدرجة الأولى. فقد تركت الحرب الصليبية فى نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة . وجاءت حركة الإصلاح الدينى المسيحى فشعر المسيحيون : بروتستانت وكاثوليك ، بحاجات ضاغطة لإعادة النظر فى شروح كتبهم الدينية ، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التى تمخضت عنها حركة الإصلاح . ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية . وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية ، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوى . وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية [١] .

(١) راجع المصدر السابق ، وكتاب المستشرقون لنجيب العقيقى ، ومجلة الإسلام بالإنجليزية al - Islam ص ١١٢ من عدد ١٥ فبراير سنة ١٩٥٨ .

ومن جهة أخرى رغب المسيحيون فى التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامى . والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم ، واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق . وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن « المسيحية » ستكون قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق . وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزودوهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب فى أن الاستشراق قام فى أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار .

وبجانب هذا وذاك ، كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق : أسباب تجارية ، وأسباب سياسية دبلوماسية ، وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة فى السفر أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم ، ويبدو أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء فى العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصا من مسئولياتهم الدينية المباشرة فى مجتمعاتهم المسيحية . أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم فى الدين ، وتغطية لعجزهم الفكرى ، وأخيرا بحثا عن لقمة العيش إذ أن التنافس فى هذا المجال أقل منه فى غيره من أبواب الرزق[1].

وهنالك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة . فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية ـ وهى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية ، فى نظرهم ، هى مصدر الإسلام الأول ، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولا ، ثم دولة ثانيا ، هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعا مكتوبا يؤيدها ، غير أن الظروف العامة ، والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى .

وقد تركزت أهداف الاستشراق ، مع تنوعها ، أخيرا فى خلق التخاذل الروحى

(١) راجع الصفحات ١٩ وما بعدها ، ٢٨ وما بعدها ، ٤٠ وما بعدها من كتاب « المستشرقون » وراجع المجلدين الثالث والرابع من مجلة المجمع العلمى العربى لعامى ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ وراجع مجلة الإسلام بالانجليزية Al - Islam فى أعدادها الصادرة فى فبراير وأبريل ومارس ومايو من عام ١٩٥٨ .

وإيجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية .

« ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم عما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التى يعدونها نصرانية ؛ لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية ، وبالتالى إلى إبراز نواحى النشاط الثقافى فى الغرب وتفضيلها على أمثالها فى تاريخ العرب والإسلام . وماغايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية[1] » .

٣ — من مظاهر نشاط المستشرقين :

حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل : ألفوا الكتب ، وألقوا المحاضرات والدروس ، و« بشروا » بالمسيحية بين المسلمين ، جمعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات ، وعقدوا المؤتمرات ، وأصدروا الصحف ، وسلكوا كل مسلك ظنوه محققا لأهدافهم .

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب .

(ا) فى عام ١٧٨٧ أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى فى عام ١٨٢٠ ، وإصدار « المجلة الآسيوية » .

(ب) وفى لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية فى عام ١٨٢٣ ، وقبل الملك أن يكون ولى أمرها ، وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » .

(ج) وفى عام ١٨٤٢ أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية الأمريكية » ، وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، وكذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

(د) ومن المجلات التى أصدرها المستشرقون الأمريكيون فى هذا القرن « مجلة جمعية الدراسات الشرقية » وكانت تصدر فى مدينة جامبير Gambier بولاية أهايو Ohio ولها فروع فى لندن وباريس وليبزج ، وتورونتو فى كندا ، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن ،

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٧ .

وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسى وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة فى باب الكتب .

(هـ) ويصدر المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر « مجلة شئون الشرق الأوسط » . وكذلك « مجلة الشرق الأوسط » ، وطابعها على العموم طابع الاستشراق السياسى كذلك .

(و) وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر هى مجلة « العالم الإسلامى » ،

The Muslim World أنشأها صمويل زويمر S. Zweimer فى سنة ١٩١١ ، وتصدر الآن من هارتفورد Hartford بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج K. Cragg وطابع هذه المجلة تبشيرى سافر .

(ز) وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة « العالم الإسلامى » فى روحها واتجاهها العدائى التبشيرى واسمها أيضاً :

• Le Monde Musulman

(ح) ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار « دائرة المعارف الإسلامية » بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة ، وقد بدءوا فى الوقت الحاضر فى إصدار طبعة جديدة تظهر فى أجزاء ، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم ، على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

(ط) واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوى فى مصر ، والمجمع العلمى العربى فى دمشق والمجمع العلمى فى بغداد .

(ك) ويعتمد المستشرقون – فيما يعتمدون – على عقد المؤتمرات العامة من وقت لآخر لتنظيم نشاطهم ، وأول مؤتمر عقدوه كان فى سنة ١٧٨٣ ، وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

(ل) وفى العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء فى الماضى من الإغداق على المستشرقين وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون فى حقل الاستشراق .

(م) واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية ، محاولين غرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس

المسلمين حتى يشبوا « مستغربين » فى حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الإسلامية (انظر ص١١٤ من مجلة «الإسلام» Al Islam الصادرة فى ١٦ مارس سنة ١٩٥٨) .

(س) وليس نشاط المستشرقين موجها فقط إلى المسلمين ، إنهم يفتحون عيونهم لكل الاتجاهات وهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم ، فإن حاول أحدهم أن يبدو محايدا أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون فى وجهه يطالبونه بأن يكون « موضوعيا » وأن يستخدم الطريقة العلمية ويلجأ إلى النقد ذى المستوى العالى وهكذا . ومثال ذلك ما كتبه الفردجيوم Alfred Guilaume تعليقا على كتاب « محمد فى مكة » من تأليف مونتجمرى وات M. Watt هاجم جيوم وات ؛ لأن وات خرج عن الخط التقليدى للمستشرقين فى بعض الاتجاهات (انظر ص١٣٨ من مجلة «الإسلام» Al-Islam الصادر فى ١٥ أبريل سنة ١٩٥٨) .

(ع) ولا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامى ، وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته ، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى لعبه الإسلام فى تاريخ الثقافة الإنسانية .

إن المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك فى هذا الجانب والتفاوت - إن وجد بينهم - إنما هو فى الدرجة فقط ؛ فبعضهم أكثر تعصبا ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه [1] .

وإذا كان الاستشراق قد قام على أكتاف الرهبان والمبشرين فى أول الأمر ثم اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين - فإنه ما زال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك ولو أن أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء .

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر

---

(١) انظر المجلات والكتب التى ورد ذكرها فى هذه النقطة ، وخاصة «العالم الإسلامى» «الانجليزية» The Muslim World ، «والإسلام» التى تصدر بالانجليزية فى كراتشى - باكستان فى أعداد فبراير ومارس وأبريل ومايو لسنة ١٩٥٨ و«موجز دائرة المعارف الإسلامية» .

رجة البعث الجديد في كلية الشريعة

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

— ١ —

إن الأزهر هو الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة بتاريخها وأهدافها ورسالتها فى العالم.

فهى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى فى عقائده ومبادئه العليا ، وفى شريعته الغراء أصولها وفروعها ، وفى لغته وتاريخه وآدابه وسائر ثمراته الفكرية التى انتجتها القرون المتوالية ، والعقول المثابرة المتضافرة فى ظلال كثير من المدنيات والحضارات والشعوب .

وهو بذلك جامعة غير متكررة ، ومن حقه على الأمة ، أن يبقى أبدا ؛ لأنه يحمل رسالة يجب أن تبقى أبدا ومن حقه أيضا أن يكون بقاؤه بقاء مثمراً نافعاً ، لا أن يكون مجرد بقاء رسمى ظلى .

وليس المخاطب بهذا الحق ولاة الأمر من الحاكمين وأصحاب التصريف فقط ، ولكن أهله أيضا مخاطبون بذلك ، بل لعل الخطاب إليهم أكثر توجها ، وأشد إيجابا .

وأهم ما يجب عليهم فى سبيل الاحتفاظ بمعهدهم الأكبر ، وكفالة الحياة المثمرة النافعة له أن يفكروا دائما فيما يجعله متطوراً متجاوبا مع الأمة فى حدود رسالته التى يحمل لواءها ، فإن التطور والتجاوب هما أبرز علامات الحياة ، كما أن الجمود والركود ؛ هما أظهر علامات الموت ، وأول مقدمات الانحلال الذى يعقبه الفناء .

— ٢ —

وكلية الشريعة هى أهم ركن من الأركان الأساسية العملية ، التى يقوم عليها صرح الجامعة الأزهرية .

وفيها معنى الانفراد برسالة معينة لا يشاركها فى القيام عليها كلية أخرى فى أية جامعة من جامعات العالم .

إنها الكلية التى تحتضن الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها ، والتى تدرسها دراسة عميقة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله والأصول العلمية والعقلية المستندة إلى هذين المصدرين الساميين ، وهى فى سبيل ذلك تدرس الفقه فى مدارسه المختلفة ، التى اصطلح الناس على تسميتها بالمذاهب ، وتدرس

أصول الفقه التى هى قوانين الفهم والاستنباط لدى أصحاب تلك المدارس ، وتدرس فقه القرآن والسنة ، الذى اصطلح الناس على تسميته بتفسير آيات الأحكام ، وأحاديث الأحكام وتدرس كل ما يعين على تسديد الخطوات المنهجية فى ذلك كله من ، منطق ، ورواية ، ومصطلح ، وتاريخ للمذاهب أو للرجال .

وكان ينقصها أمران أساسيان ، فلم ير العهد الجديد ، عهد الإصلاح فى الأزهر ، بدا من استكمالها . وهذان الأمران هما :

١ — استيفاء أركان المقارنة فى الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية .

٢ — والتزود من الدراسات القانونية بما يفتح للناظر فى الشريعة آفاقا جديدة تعينه على ما هو بصدده ، وتجعله ملما بما حول التفكير الفقهى الذى يزاوله من تيارات ملائمة أو معارضة .

إن الباحث فى الشريعة الإسلامية لا يسعه أن يغض النظر عن هذين الجانبين ، ولو أنه غض النظر عنهما لكان نظره ناقصا ومتحيزا ، لأن الفقه ليس هو مجرد تحصيل الفروع ومعرفة الأحكام المستقاة من المذاهب ، وإنما هو مجموع النظر والمقارنة والترجيح ، فلو عرف الناظر بعض الاتجاهات الفقهية وجهل بعضا لكان الركن الأكبر فى الفقه منهدما عنده ، لأن احتمالا قويا يبقى قائما أمامه كأنه يناديه ويلح عليه وتقول له : لعل الذى أعرضت عنه هو الحق والصواب ، ولعلك إذا قارنته بما عرفته تحول نظرك ، وتغير حكمك .

ثم إن الفقه فى واقع أمره إنما هو قانون تنظيم الحياة للفرد فى نفسه ومع غيره فردا أو مجتمعا ، وما سنت القوانين الوضعية إلا لذلك ، فكيف يعيش الفقيه الإسلامى فى دائرة فقهه وحده وهو يرى أوضاع الناس وقوانين حياتهم مصطبغة اصطباغا تاما بغير هذا الفقه ؟ أيظل معرضا عن هذا الواقع العملى جاهلا ، أو مغضيا عن مبادئه ، وأصوله ، وقواعده ، وإذن يعتزل الناس كما اعتزلوه ، ويسخر منهم كما سخروا منه ؟ أم يقف موقفا عمليا ، فيعرف ، ويدرس ، ويحيط بما حوله ، ويوازن بينه وبين ما عنده ، وإذن يكون متسلحا بالعلم والمعرفة ، قادراً على أن يقنع الناس بأسلوبهم ، وأن يخطو بالفقه الإسلامى خطوات تقربه من الناس وتحببه إليهم ؟ .

إن المدارس الفقهية المعروفة بالمذاهب الإسلامية ، إنما قامت على أساس دراسة أحوال الناس وأعرافهم وظروف مجتمعهم ، ثم استنبطت لذلك كله من الأحكام العملية

ما هو متمش مع الصالح العام الذى هو أساس شريعة الله ، فمن ظن أن الفقهاء قد انقطعوا فى نظرهم عن فقه الحياة ، أو عن المجتمع ، أو عن الظروف والملابسات التى توضع لها القوانين - من ظن ذلك فإنه لم يصب كبد الحقيقة .

ولذلك لم يكن بد من أن تستكمل كلية الشريعة هاتين الناحيتين .

— ٣ —

ولم يغب عنا أن اتجاه عهد الإصلاح فى الأزهر إلى استكمال هاتين الناحيتين ؛ سوف لا يمر مراً خفيفاً بفريق من الناس لهم من ظروفهم الاجتماعية أو الفكرية ، ما يجعلهم يسارعون إلى المعارضة فى كل ما لم يألفوه ، مع أنهم لو تدبروا الأمر منصفين لما وجدوا إلا الخير والصلاح .

ولذلك لم نعجب حين سمعنا أن من الناس من لا يرحب بإدخال فقه الشيعة فى كلية الشريعة ، وأن منهم من يقاوم إدخال الدراسات القانونية فيها .

بيد أننا نحب أن نكون صرحاء مع هؤلاء جميعا ، فنذكر وجوه اعتراضاتهم ، وما يدور فى أذهانهم وتفصح عنه ألسنتهم ، ثم نبين رأينا فيه :

* * *

١ - فمثلا نرى بعض الناس يقول : كيف تدخلون فقه الشيعة فى الأزهر ، مع أن هذا المذهب هو مذهب الذين يعتقدون أن جبريل إنما بعث بالرسالة إلى علىّ فأخطأه ونزل بها على محمد ، وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله ؟ .

وهؤلاء نقول لهم :

إن كلمة : « الشيعة » تطلق على عشرات المذاهب التى تنسب إلى الإسلام حقا أو باطلا ، وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلامية ، وبعضها مهتد مستمسك بما يجب الإيمان به ، مثله فى ذلك كمثل مذاهب السنة ، وإن خالفهم فى بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التى هى من قبيل المعارف الكلامية .

والفريق الأول من المسمّين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون ، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه ؛ لأن العبرة فى ثبوت الإسلام إنما هى بالإيمان بأصول العقائد الإسلامية ، وعدم إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، وليسوا منا ولسنا منهم ، وقد انقرضوا ولم يعد لهم أثر فى العالم الإسلامى ، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ، ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة .

أما الشيعة الذين تقرر إدخال فقههم فهم :

١ - الشيعة الإمامية الاثناعشرية ، وقد

لقبوا « بالإمامية »، لأنهم يقولون بأن إمامة على ثابتة بالنص ، ولقبوا « بالاثناعشرية »، لأنهم يسوقون الإمامة إلى اثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طالب ، وآخرهم محمد ابن الحسن العسكرى الملقب بالحجة .

وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان والباكستان والهند ، وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ، ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم ، وكل ما بينهم وبين السنة من اختلاف ، إنما هــو فيما وراء الأصول التى يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام ، وينسب فقههم إلى أئمتهم من أهل البيت النبوى ، واشتهر باسم الفقه الجعفرى نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة ، وهو جعفر الصادق بن محمد الملقب بالباقر .

وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة فى شأن على ، ويتبرءون منهم. ويحكمون بكفرهم ونجاستهم .

ولهم كتبهم فى العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف ، وعلوم اللغة العربية وغيرها ، وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء وأهل الحديث والرواية ، والأدباء والأصوليين والمتكلمين وغيرهم ، ولهم أثر واضح فى العلوم الإسلامية فى مختلف العصور .

٢ — الشيعة الزيدية ، وهم يسكنون اليمن غالبا ، ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد بن على زين العابدين ، وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب السنة .

ولا ينازع أحد فى شأنهم مع كونهم أيضا ملقبين بلقب « الشيعة » .

وإذن ، فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة على أو ألوهيته ، أو تغالى فى شأنه ، فإن هذا القول على إطلاقه خطأ ، ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين ، والشيعة الضالين أو المنحرفين ، كما يجب الحذر عند سماع أى نقل عن الشيعة ، والتحرى عن القائل منهم بذلك حتى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله .

٣ — ونرى بعض الناس يقول : إذا درس الأزهر المذهب الشيعى ليرد عليه ، ويبين زيفه وأخطاءه ، كان ذلك داعياً إلى الفتن وإيقاظ العداوات ، وإن درسه على أنه حق لا زيف فيه كان ذلك دعاية له وإلقاء للتعليين بين براثنه ، وهذا ما تؤيده الفتوى بجواز التعبد به .

ونحن نقول لهؤلاء :

ينبغى أن يفهم هنا الفرق بين دراسة مذهبى الإمامية والزيدية على سبيل الاستقلال، ودراستهما ضمن الفقه المقارن ، فليس الذى قرره الأزهر هو دراســة هذين المذهبين

استقلالا على معنى أن تكون المذاهب التى تدرس فى كلية الشريعة ستة ، هى الأربعة السنية المعروفة ، والاثنان الشيعيان : الإمامية والزيدية ، لا ، ولكن الذى تقرر من أول يوم ، والذى كان موضع البحث من أول يوم هو إدخال هذين المذهبين فى منهاج « الفقه المقارن » ، ودراسة الفقه المقارن تقوم على أساس ضرورى ، هو أن يدخل الباحثون فيها غير متأثرين بحكم سابق ضد هذا المذهب أو ذاك ، ولذلك يجب أن يخلع الباحث العلمى ثوبه المذهبى قبل أن يدخل قاعة الدرس ، وإلا كان الزعم بأن ما يفعله مقارنة بين المذاهب زعماً غير صحيح ، بل كان أشبه بالظهور بالمظاهر التمثيلية .

ولذلك لا نفهم السر فى التشقيق الذى أتى به المعترض فى قوله : « هل يدرس لبيان زيفه أو على أنه حق » ، ونقول له : كيف فاتك أن الدرس يجب أن يكون على أساس من الإنصاف والمعدلة وخلو الذهن من حكم سابق ، وإلا لم يكن درساً ، ولم يكن منهجا علميا محترما . إن البحث والدليل والبرهان هى الأساس فى الحكم ، وليس هناك من يزعم أن مذهباً ما من المذاهب الإسلامية حق كله ، وأن مذهبا آخر باطل كله ، ولكن كل مجتهد متعرض لأن يخطئ ويصيب ، ويؤخذ منه ويرد عليه .

وقبل أن نترك الحديث فى هذه النقطة نحب أن نقول : إن ما قرره الأزهر من الاكتفاء بدراسة مذهبى الإمامية والزيدية ضمن منهاج الفقه المقارن ؛ لم يكن مرجعه فى نظره أنه يستنكر دراسة هذين المذهبين على سبيل الاستقلال ، كلا ، ولكن لأن الدراسة الجامعية الحقة هى الدراسة المقارنة ، وليس مما يهم الأزهر أن يزيد مذهباً على مذاهبه الأربعة كى يدرس مثلها على سبيل الاستقلال ، بل لعله يرمى إلى مستقبل تكون فيه جميع الدراسات الفقهية فى كلية الشريعة وأقسام التخصص دراسات مقارنة .

ولعل قائلا يقول : ولماذا تحفلون بما تسمونه « الفقه المقارن » إلى هذا الحد ، وتعدون دراسته هى الدراسة الجامعية الحقة ، وترتكبون فى سبيله ما لم يرتكبه أحد من قبلكم ؟ فنقول له :

إن « الفقه المقارن » هو الفقه على الحقيقة ، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة ، أما الحافظ للفروع الذى لا يعرف إلا سرد الأحكام ؛ فما ذاك بالفقيه .

وهذا الذى نقرره هو ما تقرره كتبكم المعتمدة التى تدرسونها ، وتنقطعون لخدمتها ، ألا ترون أنهم يقولون : « الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية » ويقولون : « من لم توجد عنده ملكة العلم

بالأحكام على هذا الوجه فلا يعد فقيها ولو حفظ جميع أحكام الفروع ، ومن وجدت عنده الملكة ولو فى بعض المسائل فهو الفقيه. وقد سئل مالك عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع منها ، وقال فى ست و ثلاثين : لا أدرى! ولم يمنعه ذلك من أن يكون فقيهاً ؛ لأن ملكة الفقه وجدت عنده » .

ثم إن هذه الدراسة قائمة جارية على أيدى العلماء فى كل عصر ، وكتب المذاهب عامرة بها ، وكتب الحديث والتفسير والأصول الأمهات ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحاتها ، وكم رجح المالكى قولا للشافعى ، ورجح الحنفى قولا لغير أبى حنيفة ، وأصحاب أبى حنيفة وتلاميذه ومن ينتسبون إليه كثيراً ما يقررون غير ما قرره الإمام ، لضعف مأخذه عندهم ، أو لانكشاف دليل لهم لم ينكشف له . وكذلك كل أصحاب الأئمة وأتباع المذاهب .

ولا شك أن هذا منهج مستقيم من الناحية العلمية الفقهية ، ومن الناحية الإسلامية :

فأما استقامته من الناحية الفقهية فلأن الفقيه المنصف الذى لا هدف له إلا البحث عن الحق ؛ لا يسعه أن يغض الطرف عن قول قاله مجتهد ما فى المسألة التى يبحثها ، ما دام لا يصادم نصا قطعيا من كتاب أو سنة ، ولا يسعه أن يعرض عن دليله ، فقد يكون هذا الدليل سليما ، ولو أن فقيها باحثا ارتضى لنفسه أن يغض النظر عن قول غيره ودليل غيره ؛ لكان من الذين قال الله فيهم « ألا إنهم يستغشون ثيابهم ليستخفوا منه » . ولا شك أن منهجه حينئذ لا يكون إلا منهجا فاسداً غير معتد به من العلماء .

وأما استقامة هذا المنهج من الناحية الإسلامية ؛ فلأن المسلمين أمة واحدة لا ينبغى التفريق بينهم ، بل ينبغى أن ينظر كل فريق منهم إلى الفريق الآخر على أنهم جميعا إخوة متعاونون على معرفة الحق ، والعمل به ، ولا يستقيم ذلك إلا إذا كان أهل القبلة جميعا، وأهل الدين الواحد ، والأصول المشتركة ؛ أحراراً فى الإدلاء بآرائهم ما دامت فى الدائرة الإسلامية ، وقد قلنا من قبل : إنه لا فرق بين السنة والإمامية والزيدية فى أصل جوهرى من أصول الإيمان .

٣ — ونرى بعض الناس يقول : ياليتكم وقفتم عند تدريس الفقه المقارن بين المذاهب ومن بينها الشيعة ، ولكن فضيلة الأستاذ الأكبر صرح فى حديث له بأن مذهب الإمامية يجوز التعبد به ، مع أن هؤلاء الإمامية يعتقدون أن القرآن قد دخله النقصان ، ويروون عن فاطمة أن الذى بقى منه نصف الذى نزل ، أو ما فى معنى ذلك .

فكيف تجيزون تقليد غير الأربعة وكيف

إذ أجزتم ذلك — تجيزون تقليد هؤلاء الإمامية بالذات ؟.

ونحن نقول لهم :

١ — أما تقليد غير الأربعة لجائز شرعا، وفضيلة الأستاذ الأكبر قد أشار فى فتواه إلى ذلك ويحسن بنا أن نسجل هنا كلاما جاء فى كتابه « مقارنة المذاهب » الذى يدرس منذ سنة ١٩٣٦ فى كلية الشريعة ، فإنه فصل الخطاب فى هذا الشأن ، قال : « إن المتأخرين حينما تحكمت فيهم روح الخلاف وملكتهم العصبية المذهبية ، راحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفهاما يصح أن تناقش فترد أو تقبل ، إلى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها ، أو يعتنق غيرها ، وحرموا بذلك النظر فى كتاب الله وسنة رسوله ، أو حرموا العمل بثمرة النظر فيهما ونشأ عن ذلك أن فترت الهمم ، ووقف الفقه الإسلامى واشتغل علماء المذاهب بالانتصارات المذهبية ، واختصار المطولات ، وشرح المختصرات ، وهكذا حرم الناس الفقه ، وحرموا ملكة الفقه ، وقد وصف الشيخ عز الدين بن عبد السلام موقف هؤلاء المتأخرين فقال : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لا يجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة له ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده ، ثم قال : « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ، ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال ، كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق، وبعد عن الصواب، لا يرضى به أحد من ذوى الألباب » .

وقال الإمام أبو شامة : « ينبغى لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام ، ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا حصل العلوم المتقدمة (وسائل الاجتهاد) وليجتنب التعصب والنظر فى طرائق الخلاف المتأخرة ، فإنها للزمن مضيعة ، ولصفوه مكدرة ، فقد صح عن الشافعى أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ، قال صاحبه المزنى فى أول مختصره : « اختصرت هذا من علم الشافعى ومن معنى قوله لأقربه على من أراد، مع إعلامية نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط لنفسه » .

إن واجب المسلم إذا تعذر عليه أن ينال الأحكام من أدلتها أن يسأل أهل الذكر ، وليس عليه أن يلتزم مذهبا معيناً ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة ، قال شارح مسلم الثبوت : « فإيجابه تشريع شرع جديد » ثم قال : « ولك أن تستدل عليه بأن اختلاف العلماء رحمة بالنص ، وترفيه فى حق الخلق ، فلو ألزم العمل بمذهب معين كان هذا نقمة وشدة » اهـ .

٢ — وأما أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن فمعاذ الله ، وإنما هى روايات رويت فى كتبهم كما روى مثلها فى كتبنا ، وأهل التحقيق من الفريقين قد زيفوها وبينوا بطلانها ، وليس فى الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك ، كما أنه ليس فى السنة من يعتقده .

ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب « الإتقان » للسيوطى السنى[1] ليرى فيه أمثال هذه الروايات .

وقد ألف أحد المصريين فى سنة ١٩٤٨ كتابا اسمه « الفرقان » حشاه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة ، ناقلا لها عن الكتب المصادر عند أهل السنة ، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بين بالدليل والبحث العلمى أوجه البطلان والفساد فيه ، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب ، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضا ، فحكم القضاء الإدارى فى مجلس الدولة برفضها .

أفيقال : إن أهل السنة ينكرون قداسة القرآن ، أو يعتقدون نقص القرآن ، لقول قاله فلان ، أو لكتاب ألفه فلان ؟ ! .

فكذلك الشيعة الإمامية، إنما هى روايات فى بعض كتبهم كالروايات التى فى بعض كتبنا ، وفى ذلك يقول الإمام العلامة السعيد أبو الفضل ابن الحسن الطبرسى ، من كبار علماء الإمامية فى القرن السادس الهجرى ، فى كتابه « مجمع البيان لعلوم القرآن » ، وهو بصدد الكلام عن الروايات الضعيفة التى تزعم أن نقصا ما دخل القرآن - يقول هذا الإمام ما نصه: « روى جماعة من أصحابنا ، وقوم من حشوية العامة ، أن فى القرآن تغييراً ونقصانا ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء فى جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر فى مواضع : أن العلم بصحة نقل

---

(١) انظر ص ٣٠ من الجزء الثانى من كتاب الاتقان .

القرآن ، كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار والوقائع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت ، والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه ؛ لأن القرآن معجزة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيراً ، أو منقوصاً مع العناية الصادقة ، والضبط الشديد ؟ .

« وقال أيضا - قدس الله روحه - : إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه ، فى صحة نقله ، كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة ، ككتاب سيبويه والمزنى ، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما ، حتى لو أن مدخلا أدخل فى كتاب سيبويه بابا فى النحو ليس من الكتاب ؛ لعرف وميز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب ، وكذلك القول فى كتاب المزنى ، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء » .

« وذكر أيضا - رضى الله عنه - : أن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن ، واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان ، حتى عين جماعة من الصحابة فى حفظهم له ، وأنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويتلى عليه ، وأن جماعه من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وغيرهما ختموا القرآن على النبى صلى الله عليه وآله وسلم عدة ختمات ، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث ، وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم ، فإن الخلاف فى ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها ، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته » [1] .

فهذا كلام صريح واضح فى الدلالة على أن الإمامية كغيرهم فى اعتقاد أن القرآن لم يضع منه حرف واحد ، وأن من قال بذلك فإنما يستند إلى روايات ظنها صحيحة وهى باطلة .

وقد كتب فضيلة الأستاذ الشيخ محمد حداد مغنيه وهو من كبار رجال الشيعة الإمامية فى لبنان ، وقد ولى مناصب القضاء حتى وصل إلى رياسة المحكمة الشرعية العليا ، كتب فضيلته يقول :

---

(١) ص ١٨ من الجزء الاول من كتاب [مجمع البيان] طبع دار التقريب فى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م بالقاهرة .

« ألفت نظر من يحتج على الشيعة ببعض الأحاديث الموجودة فى كتب بعض علمائهم - ألفت نظره إلى أن الشيعة تعتقد أن كتب الحديث الموجودة فى مكتباتهم ، ومنها الكافى ، والاستبصار ، والتهذيب ، ومن لا يحضره الفقيه ، فيها الصحيح والضعيف ، وأن كتب الفقه التى ألفها علماؤهم ، فيها الخطأ والصواب ، فليس عند الشيعة كتاب يؤمنون بأن كل ما فيه حق وصواب من أوله إلى آخره غير القرآن الكريم ، فالأحاديث الموجودة فى كتب الشيعة لا تكون حجة على مذهبهم ، ولا على أى شيعى بصفته المذهبية الشيعية ، وإنما يكون الحديث حجة على الشيعى الذى ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية ، وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية ، فإن الاجتهاد يكون فى صحة السند وضعفه ، كما يكون فى استخراج الحكم من آية أو رواية ، ولا أغالى إذا قلت : أن الاعتقاد بوجود الكذب والدس بين الأحاديث ضرورة من ضرورات دين الإسلام ، من غير فرق بين مذهب ومذهب ، حيث اتفقت على ذلك كلمة جميع المذاهب الإسلامية »[1].

انتهى كلام الشيخ مغنيه .

* * *

هذه أمثلة مما يقال اعتراضا على إدخال فقه الإمامية والزيدية بين مناهج الفقه المقارن فى كلية الشريعة . ويتبين مما ذكرناه من الرد عليها أن الأمر يحتاج إلى تأمل من المعترضين ، ودرس للمسائل قبل الإقدام على النقد ، وما هذه المسائل إلا أمثلة يمكننا أن نسوق كثيراً منها ، وأن نبين وجه الحق فيه ، ولولا خوف التطويل لأتينا على كل ما عسى أن يراود الخائفين .

* * *

أما الذين يحاولون أن يشككوا فى جدوى الدراسات القانونية فى كلية الشريعة ، فمن العجيب أنهم ليسوا من الأزهريين ، ولا من علماء الدين ، وإنما هم أفراد من الذين يتخيلون أن إدخال هذه الدراسات فى الأزهر سيكون سببا فى مزاحمة خريجى كليات الحقوق بالجامعات الأخرى .

وقد كنا نعرف أن الأزهريين قد أتى عليهم عهد طلب إليهم فيه أن يصوغوا من الشريعة بعض القوانين فرفضوا ذلك احتجاجا بأن صياغة أحكام الإسلام على أسلوب القوانين الوضعية يجر إلى الاستهانة بها ، وتشبيهها بما هو غير مقدس من الأحكام .

كنا نعرف ذلك ونعرف أن الناس قد اتجهوا إلى قوانين أخرى غير مستمدة من الشريعة لما يئسوا من علماء الشريعة ، فكان ذلك هو السبب فى أن فقهنا القانونى كان وضعيا ولم يكن شرعيا .

(١) ص ٣٨٩ من المجلد الثانى من مجلة (رسالة الإسلام) .

والآن لا نجد فى الأزهر ـ والحمدلله ـ من يعترض على إدخال الدراسات القانونية ، لأنهم قدأدركوا أن هذا النوع من الدراسات يخدم الفقه الإسلامى ، ويعين على المقارنة بينه وبين غيره ، ويبرز مزاياه ، وأن من شأنه أيضا أنه يعرف الأزهريين بأسلوب جديد يستعينون بمعرفته على عرض ما عندهم عرضا جديدا ، وتنظيمه تنظيما يفيد فى تقريب الانتفاع به ، كما أن هذه الدراسات ستكون إلى جانب الدراسات الشرعية ، سلاحا لهم فى حياتهم المادية ، حيث يستطيعون أن يتقدموا إلى مناصب القضاء ، ومراكز التوجيه القانونى فى الدولة . ويومئذ لا يقال لهم إنكم غير أهل لها .

إن أبناء الأزهر قد عرفوا ذلك فرحبوا بهذه الدراسات ، وأصبحت كلية الشريعة تستقبل أساطين القانون فى كل فرع من فروعه وتستمع إليهم فى شغف وإقبال ، وتطلب كتبهم ومذكراتهم ومراجعهم ، كما تطلب مراجع الفقه وأصول الأحكام !

• فياله من بعث جديد ! .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

الصبر والشكر

ألم تر أن الصبر والشكر توءم ... وأنهما ذخران فى العسر واليسر

فشكرا إذا أوتيت خيرا ونعمة ... وصبرا إذا نابتك نائبة الدهر

فلم أر مثل الشكر حارس نعمة ... ولا ناصرا عند الشدائد كالصبر

فما طاب نشر الروض إلا لأنه ... شكور لما أسدت إليه يد القطر

ولا فضل الإبريز إلا لأنه ... صبور إذا ما مسه وهج الجمر

نفحات القرآن

موقف الإسلام من الوحدة والتفرق

تبرئة الله لرسوله من المفرقين

لفضيلة الأستاذ عبد اللطيف السبكي

(أ) إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شىء .
(ب) إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون .

تمهيد :

لم يكن تشريع الدين من جانب الله ليتشعب الناس فيه ، ويختلفوا حوله ، وإنما ليجمعهم تحت راية الإخاء فى الإنسانية ، وليكون هذا الإخاء دائما موثقا بحبل من الله سبحانه فيكون الناس على صلة بالله ، وعلى تضامن وتعاطف فيما بينهم ، حتى يتهيأ لهم أن يؤدوا رسالتهم فى دنياهم على أتم وجه من الكمال المنشود .

ومن هذه الإلمامة يكون واضحا أن التشريع السماوى من مظاهر تكريم الله لعباده ، حيث لم يتركهم سدى ، ولم يجعل همهم فى الحياة أن يملئوا بطونهم من بطاح الأرض ونجادها ثم يعودوا آخر النهار كما تعود الأطيار إلى وكناتها ، أو الأنعام إلى مرابضها .

بل ناجاهم ، وشرع لهم ، ووعدهم الثواب وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلا .

فكان طبيعيا فى ميزان الحكمة أن يكون الدين فى وضعه : عقيدة وشريعة ، وأن تكون العقيدة أصلا ، لا يختلف باختلاف العصور ، ولا يمسه تعديل فى عهد نبي بعد نبي ممن أرسل الله إلى الناس .

ويكون طبيعيا كذلك فى ميزان الحكمة أن يكون الجانب الثانى : وهو التشريع العملى مسايرا للعقول فى تدرجها ونضجها ، وملائما للحياة فى واقعها ، وملابساتها .

فالعقيدة إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالقضاء والقدر : خيره وشره ، وباليوم الآخر ، وهذا دين للأمم جميعا ، وعليه تطابقت رسالات الرسل ، وتوافقت كتب السماء .

والتشريع العملي هو النظام الذى يحدد رسوم العبادات وأشكالها ، فى الصلاة أو الصوم ونحوهما .

ويرسم طريق التعامل بين الناس فى الأموال وفى النظم الاجتماعية : كالميراث ، والزواج ، والقضاء ، ونحو هذا مما يتصل بالعلاقات ، ويتجه بالناس نحو العدل فيما بينهم دائما إلى زمن ما ، أو إلى الأبد .

ولا يضير العقيدة المتحدة أن يتطور فى ظلها التشريع بتطور الزمن وتجدد الرسالات آنفا .

فالدنيا كما أراد الله فى تجدد ، وحاجات الناس فى توسع ، وعقولهم فى تكامل ، فشرائعهم لا تقف بهم عند وضع واحد ، وإلا كانت حياة جامدة ، لا تتسع للتجديد ، وكان حجرا على المواهب أن تشرق ، والله ـ سبحانه ـ أمر عباده أن يفسحوا خطاهم بالسير فى مناكبها ، وأن يتخذوا من فجاجها مصانع وحقولا يستثمرونها بمواهبهم ، ويتمتعون بما يتاح لهم من ثمراتها ، وإنتاجها .

وإزاء هذا ـ وهو سياق يطول ـ يكون الدين فى أصله ـ من ناحية العقيدة ـ واحدا .

ولا يقال : إنه متعدد بتعدد شرائعه العملية ، فإن الشرائع بالنسبة للعقيدة كالأمر الإضافى ، واختلاف الأمر الإضافى لا يعتبر تعدداً فى الأصل القائم مقام المحور فى وسط الدائرة .

وقد جرت سنة الله فى خلقه ألا يواجهوا الدين فى أى عصر من عصوره بالقبول التام والاطمئنان ، بل كانت للأهواء الجامحة ، وللجهالات الفاشية ، وللعصبيات المتحكمة : كانت لهذه العوامل وسواها مشادة فى الدين ، ومناوآت للرسل ، وللأنبياء .

فأناس نبذوا التدبر جملة ، وكذبوا رسل الله وأنبياءه ، وقالوا ما قالوا من الكفريات

وآخرون تدينوا ، ولكن غيروا ، وبدلوا بالحذف ، والإضافة فيما شرع الله لهم ، بل وفى العقيدة نفسها ، وافتروا من بشائع الأكاذيب على الله ، وعلى رسله ما يظاهر أهواءهم الباطلة .

وفريق ثالث أخير : نشئوا على دين حق ، ثم طغت عليهم نزعات الإباحية ، والتقاليد الجريئة فأخذوا يتدخلون فى تشريع الله ، ويتعرضون لكتابه الكريم بالمناقشات المتبجحة ، وينكرون بعض أحكامه ، ويتجاهلون الكثير من آياته ، ظانين أنها حرية رأى ، وأن القرآن نفسه يرضى لهم بتلك الحرية الطائشة التى هى الكفر الصراح بعينه ـ وذلك سفه وجحود لا غير ـ وهذه النزغات على اختلافها تباين الوحدة فى العقيدة ، إذ فيها تكذيب للرسل ، أو لبعضهم ، وفيها تكذيب لكتب السماء أو لبعضها ، وبالتالى فيها تكذيب للدعوة الموجهة إلينا من عند الله .

وكان المفروض أن نستقبل الدين المبلغ إلينا فى كل عصر من عصوره بالقبول ، وأن نقول - آمنا به ، كل من عند ربنا - لا نفرق بين أحد من رسله .

(ا) ولكن شاءت حكمة الله كما سلف ، أن يوجد مفرقون، وأن يحاسب هؤلاء المفرقون على ما اجترحوا بميولهم ، واختيارهم .

وكان النبى - صلوات الله وسلامه عليه - يود أن لو آمن الناس جميعاً ، ويجهد نفسه كثيراً فى إقناع من يحاوره ، غير عالم بماسبق به القضاء فى شأن أولئك المتمردين ، حتى يخبره الله بما كان خافيا عليه ، ويصرفه عن مناقشتهم ويعزيه عن تخلفهم ، حتى لا يكون فى نفسه شىء من أسف على هؤلاء .

ومن هذا قوله فى الآية التى سقناها : « إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، لست منهم فى شىء » .

يريد الله - وهو الأعلم - تبرئة رسوله من تبعات المفرقين للدين على اختلاف منازعهم ، وأنه بنجوة من شأنهم كلهم ، فالمتشبثون بدين قديم ، وهم يجافون الدعوة الجديدة ، والمشككون فى الدعوة الجديدة ، أو ممزقوها وجاعلوها أبعاضا يأخذون ببعضها ويتركون بعضها ، والمتظاهرون بالقبول ، وهم يشقون لأنفسهم طريقا غير طريق الجماعة كل أولئك فى حيز غير حيز القرآن ، وهم فى قطيعة عن جانب الله ، ومحمد ليس ذا صلة بما هم عليه ، ولا هو متبوع لهم وإن زعموا ، ولا شافع فيهم ، وإن تعلقوا بالرجاء فى ذلك (لست منهم فى شىء) .

(ب) ثم يأتى ما بقى من الآية فيصرح بأن أمرهم إلى الله ، وأنه - تعالى - سينبئهم بما كانوا يفعلون .

وهذه الإحالة إلى الله ليست مظنة الرفق بهم ، وإنما هى لإعلانهم بالهول المرتقب لهم ، فإنهم فرقوا ما جمع الله ، وكذبوا وجحدوا ، وكفى بهذا خروجا على الله ، وانحيازا إلى غير جانبه .

فالأولى بهم أن يحرموا من رعاية الله ، وأن يتركوا فى قطيعة عن ربهم ، كمن يخر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

قد يقال : إن ذلك حديث معاد ، وليس فيه من توجيه جديد !! .

ولكن هذا شأن بالغ الخطورة ، والعود إليه من قبيل الجديد ، فإنا نلاقى فى عصرنا هذا شيئا من التفريق لا يهون خطره بجانب ما كان ، فإن كان للأولين عذر : من جهالة ، أو استسلام للدسائس فما عذرنا اليوم ؟ .

ونحن إذا رجعنا إلى الماضى فإنا نرى فى ضوئه من المخاوف لنا ما يثير عندنا رهبة من النكسة فى تلك الضلالات .

يحكى لنا القرآن : أن الناس كانوا أمة واحدة : على البداوة والجهالة .

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه إلخ » .

ونرى من خلال هذه الآية ، وأمثالها أن انقسام الناس حول دينهم ، وتفرقهم فيه ، ما وقع إلا من أهل الكتاب السماوى أنفسهم ، وقد ظل التفرق مسترسلا فى طوائفهم ، حتى رأيناهم بعد : لا يرضون إلا باحتكارهم الدين وتسميته باسم طائفتهم وما هو إلا دين واحد سماه الله بتسمية من عنده « إن الدين عند الله الإسلام » .

ونحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان - بعد رسل سبقوه - الدوحة التى تفرعت منها النبوات ، حيث جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب كله ، ولم يكن لإبراهيم كتاب ، وكانت رسالته للدعوة إلى التوحيد ، ثم كانت تراثا للأنبياء والرسل من بعده ، حتى كانت التوراة فى عهد موسى وفى بنى إسرائيل .

ومن عهد التوراة وما يليها ، تزلزلت الوحدة الدينية ، ونجم فى بنى إسرائيل ربانيون وقراءون ، وغيرهما وتعرضت التوراة لشىء يقال فيه ما يقال ، ثم جاء زمن عيسى عليه السلام فكانت دعـــوته مثار الانقسام والتفرق من جديد كما يفاد من الآيات السابقة ونحوها فى غير إسهاب من جانبنا ، فإن ذلك مجال فسيح .

ونحن نعلم أن العرب وأهل الكتاب جميعا يدينون لإبراهيم ، ويصدقون برسالته ، وأنهم يتسابقون فى الانتساب إليه ، فإذا كان فى الانتساب إليه فخار واعتزاز — وهو بحق فخار واعتزاز - فقد كان إبراهيم على دين هو - عند الله - الإسلام وليس الإسلام باسم جديد خاص بشريعة محمد صلوات الله عليه وإنما هو الدين السماوى الذى بعث به إبراهيم والأنبياء جميعاً ، إلى خاتمهم محمد بن عبد الله رغم المخالفين - وإبراهيم لم يحمل لدينه عنوانا غير الإسلام ، فلم يكن مبتدعا لاسم طائفى من الأسماء التى اخترعت بعد .

ولكن تعاقب الأزمان ، أفسح للأباطيل أن تمتد إلى دين إبراهيم ، فجثمت عليه فى بلاد العرب جاهلية وجثمت عليه فى غير بلاد العرب عصبيات ومن خلال هذه الفجوات التى أحدثتها الجهالة والعصبيات تسربت إلى دين إبراهيم تحريفات أو تسميات ، وشقاق ، ومنازعات ، ولم تعد للوحدة الدينية صبغتها . ولا وقفت المنازعات عند حدودها ، بل كانت وثنية ، وطائفية ولم تكن حقا إلا عند من عصمهم الله ، وكان الأولى - لو أراد الله ، ولم يغلب على الجماعات

تيار العصبية — أن يراعى الناس وحدتهم فى الدين كما كان إبراهيم ، وهم يحرصون على الانتساب إليه ! ! ؟.

وفى هذا يقول القرآن : « ما كان إبراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلما ، وما كان من المشركين » : ـ ويقول ـ إن أولى الناس بإبراهيم : للذين اتبعوه ، وهذا النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا » .

وهذا تسجيل سماوى فيمن انحازعن دعوة إبراهيم التى رددتها الكتب السماوية الحقة ، والتى نهض بها الرسل من العرب ـ إسماعيل ومحمد ـ ومن بنى إسرائيل .

فلا يكون من ابتلى بهذا الانحياز متحريا للحق فى الدين كما كانوا يتحرون فى الانتساب والأصالة فيه . ! ! .

ظلت هذه التشقيقات فى الجماعات المتعددة من أتباع الكتب السماوية ، حتى دبت فى ثناياها جميعاً تشقيقات فرعية ، فصارت الطائفة الواحدة متمذهبة بمذاهب متعددة ، يخالف بعضها البعض ، حتى فى أصل العقيدة : لا فى الشريعة العملية فحسب .

لا نتهم تلك الطوائف كذبا ، فلكل طائفة منها أربابها ، وآباؤها ، ومعابدها ومذاهبها وتقاليدها ، ولا يتأتى أن يكون كل ذلك أمرا واحدا ، كما هو الشأن فى الدين الذى جاء من عند الله ، وكان عليه إبراهيم والأنبياء .

ولا نلجأ فى الاستدلال على هذا كله إلى القرآن ، وفى القرآن غنية وفيرة بالأدلة ، حتى لا يقال : إنك تستدل على قوم بغير ما يؤمنون به .

ولكننا نتحدث إلى القراء من ناحية القرآن قليلا ، ومن ناحية العقل والواقع كثيراً . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ولا نخص تلك الطوائف وحدها بتهمة التشقيق أو الابتداع ، أو المساس بتشريع الله ! ! .

فقد أصاب الإسلام شيء كثير من ذلك ، منذ فجره الأول ، إلى ساعتنا هذه .

فما كاد ينبثق نور الإسلام . حتى تربصت له عصابات حانقة عليه من الفرس ، أو اليهود ، أو العرب أنفسهم .

وكان التظاهر بالإسلام سبيل التمكن من بث الدسائس ، وتمزيق الوحدة ، وحشر الأباطيل بين الحق ، حتى انتهى ذلك إلى الانقسام ، والتقاتل ، والخوض فى الدماء الزكية ثم نجمت عن هذا التطاحن اتجاهات مختلفة ، وتكاذب فى فهم الدين ، ومزاعم جريئة ، ومذاهب باطلة .

وليس منها ـ طبعاً ـ مذاهب الأئمة ، فإنها

لا تعــدو الاجتهاد فى تطبيق النصوص الصحيحة ، وتحرى المعنى المراد .

والاجتهاد أمر سائغ ما دام بعيداً عن جانب العقيدة ، والابتداع فى الدين .

وما زال الأمر بعد ذلك على إنكار التفرق ، وابتداع النحل ، والتدخل فى التشريع الدينى بتوجيهات غير مستقيمة فى ميزان العقل ، ولا سائرة على هدى البحث العلمى المتزن ، كمذهب البهائية ، وما يشابهه .

وكان الظن أن يكون للثقافة المدنية شىء من تقويم الأفكار ، ومؤازرة الدين فى تهذيبه للأنفس الجامحة ، وإيضاح الصواب للعقول الضالة ، فإن العلم كله : دينياً أو مدنيا أوشاج بين أهله ، ورحم متصلة ، واتجاهات تلاق على الحق ، إذا خلصت النيات ، وبحث العلم للعلم !! .

ولكن الثقافة المدنيـة : هى الأخرى ـ أصابها ما أصابها ، فأصبحت فى كثير من أنواعها بوقا مزعجا لنشر الإباحية ، ومعرضا لأنواع الضلالات ، ووسيلة إلى المغالطة فى بدائه المعلومات الدينية .

وإلى جانب هذه الثقافة الموبوءة نفوس مريضة ، تتحين الفرص ، وتتلمس المعذرة للمروق من الدين .

ومن كان يظن أن رجال الصف الأول فى المثقفين ثقافة مدنيـة يتطفلون على البحوث الإسلامية : لا ليفهموها ، ولكن ليثيروا فيها الشكوك ، ويهدموا قداستها عند الناس ، ويصرفوا المطمئنين إلى دين الله عن التجمع حول دين الله إلى مباذل الشيطان ومساقط الفجور ! .

فهذا إنسان يقلد الشيوعية فى إنكار الإله ، وفى الوقت نفسه يتظاهر ويقر معنا بخطر الشيوعية .

وذاك إنسان يجاهر بالدعوة إلى الأخذ بنظام الزواج المدنى ، وينكر الدين فى هذا ، وينكر القرآن !! .

وثالث يتساءل : هل صحيح أن الرجال قوامون على النساء ؟؟ والقصد من هذا هدم قاعدة القرآن !! .

ذلك كله ، وما يشاكله تفرق فى الدين ، ومفارقة له ، والقائمون به ينتسبون إلى الثقافة ، فهل من ثمرات الثقافة ومما تهدى إليه الثقافة ألا يكون دين ؟؟ .

وإذن : تكون ثقافتهم هذه مرادفة للجاهلية الأولى فيما تنزع إليـه ، وإن اختلف اللون بينهما بالطلاء والتمويه الجديد .

وإن المتهافتين على زعزعة العقيـدة عند النـاس ، أو تفريقهم فى المحيط الدينى إلى مذاهب متناكرة ، والحيدة بهم عن التسليم لله لا يقف شرهم عند هذا التفريق فى التدين بل

يمتد ، ويمتد حتما إلى المبادئ الوطنية ، وإلى تمزيق الوحدة الاجتماعية .

فإن الدين أول ما يكفل تربية الضمير ، ويغرس الخشية من الله فى قلوب النـاس ، ويذكرهم بأن القعود عن واجب الوطن خيانة عظمى للجماعة المتواطنة ، وتمكين للأعداء من كبت الدين وأهـله ، والتحكم فيهم بمـا يكرهون حتى لا يبقى للدين دولة ، ولا يبقى لدولة الدين كيانا ، ولا مهابة .

وقصارى الحديث : أن الدين أوثق رباط شرع من جانب الله لجمع الصفوف ، وحراسة الوطن .

والماضى الذى لا ينبغى تجاهله يذكرنا دائما بمـا بلغ المسلمون أولا من بأس وسلطان ، وبما أصابهم بعد ، بسبب التفرق ، واشتغالهم بالحزبيات ، ووقوف بعضهم فى وجه البعض

فالناعقون اليوم بأصوات الغربان حول الدين ، وتعاليمه يجنون على الوطن من حيث يقصدون ، أو لا يقصدون . وهؤلاء بحاجة إلى التنكر لهم ، والأخذ على أيديهم .

وإنهم لا يؤتمنون على مبدأ ، بعـد أن هـان عليهم الدين . . . وتبت أيديهم . . . ولعنوا بما قالوا. والله من ورائهم محيط . ؟

عبد اللطيف السبكى

عضو جماعة كبار العلماء

وأستاذ فى كلية الشريعة

مجـلة الأزهر

فى حديث مستفيض لصاحب الفضيلة مدير الشئون العامة بالأزهر عن ثورة الأزهر الإصلاحية تكلم عن مجلة الأزهر فقال : مجلة الأزهر واضح الآن نهضتها ونشاطها ، ونعرف كيف جمعت لهـا كبار الشخصيات التى يحترمها العـالم الإسلامى ، ويحرص على القراءة لهـا ، عـا أدى إلى الإقبال عليها ، كما لم تعد المجلة قاصرة على قراء العربية ، وإنمـا أصبحت مجلة عالمية بنشرها البحوث القيمة باللغة الانجليزية .

مُثُلٌ عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

نحن — معشر العرب والمسلمين — نعيش هذه الأيام فى إبان نهضة كاملة شاملة لكل نواحى الحياة وشئونها ، وذلك بعد أن أحسسنا حقا بأننا خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعمل لتحيا حياة العز والكرامة والمجد ؛ وبعد أن آمنا حقا بديننا الذى رضيه الله لنا والناس كافة ، لا فرق بين جنس وجنس ، إلى آخر الزمان .

وكان من هذا وذاك ، أن آمنا بقوميتنا إيمانا تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحول ، وعزمنا أن نسير سيرة أسلافنا الأمجاد من أبناء العروبة والإسلام عزما تتزايل الجبال الرواسي ولا يتزلزل ؛ وذلك فجر البعث ، وبداية النصر الذى يؤتيه الله المؤمنين الذين يعتقدون ويعملون وفق ما يعتقدون .

لقد نشأ العرب على صفات وأخلاق طبيعية أصيلة فيهم ، وهى أخلاق وخلال تؤهلهم حقا للمجد والشرف : من الشجاعة والنجدة ، والوفاء ورعاية الحقوق ، والكرم والإيثار والغيرة والشهامة ، ونحو هذا وذاك كله مما سجله التاريخ الأمين لهم .

وجاء الدين الحق فجعل من العرب أمة واحدة قوية خالدة ، وضمن لها البقاء على الزمان ، وأزال بها قوى الظلم والطغيان والاستعباد ، هذه القوى التى كانت ممثلة فى دولة الفرس من ناحية ودولة الرومان من ناحية أخرى ، وأنبتت من العرب قادة وهداة ومصلحين لا تزال البشرية تتطلع دون أن تصل إلى بعض ما كانوا عليه .

لذلك نرى أنه مما يثبت إيماننا بديننا وقوميتنا ، وبماضينا المجيد الذى ينبغى أن يكون التمثل به أساس حاضرنا ومستقبلنا الزاهر السعيد ، أن نتذكر بعض ما ضربه لنا أولئك القادة والهداة من مثل رائعة لا تزال خالدة على الزمان، فلعل فى هذا ذكرى لقوم يعلمون ويؤمنون .

صدق الإيمان وقوة اليقين :

إن المؤمن الصادق يوقن تماما بما يؤمن به حين يشتد الأمر ، ويتسلط الشك على قلوب كثير من الناس الذين حوله ، وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه على رأس من ضربوا لنا فى ذلك أروع الأمثال، وذلك بعد الرسول صلى الله عليه وسلم طبعا ؛ فإن

حياته وسيرته الشريفة كانت كلها مثلا رائعة منقطعة النظير من أى النواحى نظرت إليها .

لقد أسرى بالنبى الصادق الأمين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام كما جاء به القرآن العظيم ، فاستنكر المشركون ذلك وكذبوه ، وارتد بعض من لم يكن الإيمان قد استقر فى قلبه واطمأن إليه وأيقن به ، وذهب الناس - كما يذكر ابن هشام - إلى أبى بكر يقولون له :

هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هو ذا فى المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه ! .

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله : أحدثت هؤلاء القوم بأنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم ، قال : يا نبى الله فصفه لى . فإنى قد جئته . فأخذ الرسول يصفه له ، وهو يقول له كلما وصف له شيئاً منه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، حتى انتهى . وحينئذ قال له الرسول الصادق الأمين : وأنت يا أبا بكر الصديق ، فيومئذ سماه « الصديق » .

ومثل رابع آخر لقوة يقين أبى بكر رضى الله عنه ، وإيمانه حق الإيمان بكل ما يكون منه صلى الله عليه وسلم . ذلك أن المسلمين رأوا فى شروط صلح « الحديبية » إجحافا شديداً ، وبخاصة أنهم كانوا لا يشكون فى فتح مكة فى هذه السنة لرؤيا رآها الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلما جرى الصلح بين المسلمين والمشركين ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب وقال لأبى بكر : أليس برسول الله ؟ قال : بلى قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر ! الزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى عمر الرسول وسأله مثل ما سأل الصديق ، ولما قال له : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال له : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى . فكان عمر بعد هذا يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق عن الذى صنعت يومئذ ، مخافة لكلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا .

٢ — الثبات على العزم :

ومن صفات المؤمن الزعيم والقائد الأمين، أنه إذا عزم على ما يراه حقاً لم يرجع عن عزمه ، ومضى لما أراد متوكلا على الله الذى ينصر عباده المؤمنين به ، مصداقا لقوله تعالى: « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فقد ارتد كثير من الأعراب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من هؤلاء جماعة لم يخالط الإيمان قلوبهم حقا ، ومنهم من منعوا الزكاة أنفة منهم ، وكان رأى سيدنا عمر موادعة هؤلاء الآخرين والاستعانة بهم على قتال الأولين .

ولكن الصديق رأى غير هذا وعزم على قتال الفريقين ، وقال فى ذلك قولته المشهورة : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لجاهدتهم عليه ، وكانت عقل الصدقة على أهلها مع الصدقة نفسها كما يقول الطبرى فى تاريخه .

وكان بين الصاحبين العظيمين فى هذا محاورة يعرفها التاريخ وانتهى الأمر باقتناع الفاروق بما رأى الصديق ، وبانتصار الإسلام والمسلمين على المرتدين جميعا ، وذلك بفضل ثبات أبى بكر على ما عزم عليه واستنصاره بالله على الذين أرادوا أن يخالفوا عن أمر الله ورسوله .

ومثل رائع آخر فى هذه الناحية . فقد كان النبى قبل وفاته قد جهز جيشا لغزو الروم بالشام ومن والاهم ، وأمر عليه أسامة بن زيد وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره . فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى والجيش لم يفارق المدينة ، قال الناس لأبى بكر :

إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين .

فما كان من أبى بكر إلا أن قال : والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ! .

هكذا يصمم خليفة رسول الله على ما عزم عليه ، إذ كان فى إنفاذه تحقيق لما أمر به الرسول نفسه ، وذلك على أن الأمر كان شديدا ، وعلى أن الموقف كان رهيبا يوجب حقا النظر فيه وفى عواقبه المحتملة ، حتى إن أسامة كان الذى أرسل إلى الخليفة يستأذنه ـ بعد أن قبض الرسول ـ فى أن يرجع بالناس مخافة أن يتخطف المشركون المسلمين . ثم زاد الأمر حرجا حين رأى الأنصار أن يكون الأمير رجلا أسن من أسامة إن كان لا بد من إنفاذ بعثه .

فخرج عمر ـ وكان فى الجيش ـ بأمر أسامة

وأبلغ أبا بكر رسالاته والإذن له بالرجوع بجيشه ، فقال أبو بكر : لو تخطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أبلغه بعد ذلك رسالة الأنصار بأن يولى على الجيش رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر وقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه !.

وكان أن انتهى الأمر بإنفاذ البعث ، فذهب وعاد سالما منتصرا غانما ، وكان هذا توفيقا من الله لخليفة رسوله ، كما كان فاتحة خير للمسلمين . فإنه لو عدل الخليفة الأول عن إنفاذ ما أمر به الرسول قبل وفاته ، لكان ذلك سابقة خطيرة لها عواقبها الوبيلة ، وكان فاتحة لآخرين يجرءون على مخالفة بعض ما أمر به الرسول من غير نكير عليهم من أحد .

٣ — الإحساس بالمسئولية :

وتسير الأمور على ما ينبغى بالنسبة للأمة والدولة إذ أحس كل من أبنائها بما عليه من مسئولية ، وبخاصة الوالى الأكبر ، وفى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى هذه الناحية مثلا رائعة لا نجد فى تاريخ غير الإسلام والمسلمين لها مثيلا أو مقاربا .

يذكر ابن سعد فى طبقاته أن أول خطبة كانت لعمر بعد استخلافه أن قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد : فقد ابتليت بكم وابتليتم بى ، وخلفت فيكم بعد صاحبى ؛ فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة . فمن يحسن نزده حسناً ، ومن يسئ نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم .

كما يذكر الطبرى أنه خطب الناس فقال : والذى بعث محمداً بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ؛ يعنى بذلك نفسه .

ويروون أنه من فرط مراقبته نفسه ، وإحساسه بما عليه من تبعات جسام ، وخوفه من الله تجاه ما وليه من أمر المسلمين سمع يقول لنفسه وهو فى جوف حائط ، (أى بستان) ! عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ! والله ، بُنَىّ الخطاب ، لتتقين الله ، أو ليعذبنك !.

كما روى الزهرى ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، أن عمر كان إذا أراد أن ينهى الناس عن شىء تقدم إلى أهله فقال : لا أعلمن أحدا وقع فى شىء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة .

وكان مع رقابته الشديدة لولاته وعماله ، وأمرهم بالإحسان إلى من تحت أيديهم ورعاية شئونهم ، يحس تمام الإحساس أنه مسئول عما يعمله أولئك الولاة والعمال ، ولذلك يروى ابن سعد أنه قال : أيما عامل لى ظلم أحدا ، فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته !.

كما كان يقول : إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه .

وحرم على نفســه اللحم والسمن عام « الرمادة » الذى لقى منه الناس بلاء شديدا ، فكان إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت ، إلى أن نحروا يوما جزورا فأطعمها الناس وأبى أن يذوق شيئا منها ، وأمر غلامه يرفأ أن يأتيه بما تعوده من الخبز والزيت ، وأخذ يكسر الخبز بيده ويجعله فى الزيت ، ثم قال : ويحك يا يرفأ ! احمل هذه الجفنة حتى تأتى بها أهل بيت بثمغ فإنى لم آتهم منذ ثلاثة أيام ، وأحسبهم مقفرين ، فضعها بين أيديهم .

وبعد : تلك بعض المثل العليا ، وهى لا تحصى فى تاريخ العرب والإسلام ، المثل التى ينبغى أن نقاربها ، وفى الكلمة الآتية نأتى ببعض آخر منها والله ولى التوفيق ؟

الدكتور

محمد يوسف موسى

من هنا اتفقا . . . !

رأى مالك بن دينار يوما حمامة مع غراب ، فعجب من اتفاقهما وليسا من شكل واحد . فلما مشيا إذاهما أعرجان فقال : من هنا اتفقا ! .

اللجام لى . . . !

قال أبو عبيدة : أجريت الخيل ، فطلع منها فرس سابق ، فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح . فقال له رجل إلى جانبه : يا فتى ، هذا الفرس فرسك ؟ .

قال : لا ، ولكن اللجام لى . . . !

قصص الأنبياء

بين القرآن الكريم وأسفار العهدين الجديد والقديم

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

ذكرنا فى مقال سابق أن أسفار العهدين القديم والجديد ليست هى الكتب السماوية التى يذكر لنا القرآن أن الله أنزلها على من أرسله من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام (١) . وإنما هى أسفار من صنع اليهود والنصارى ، وقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى أنهم فى أسفارهم هذه قد حرفوا ما أنزل عليهم وبدلوه ، وزادوا عليه ، ونسوا حظا منه ، وأخفوا بعضه ، وحذفوا ما شاءت لهم أهواؤهم أن يحذفوه . ولم تقتصر أعمالهم هذه على العقائد والشرائع والعبادات ، بل تناولت كذلك القصص على العموم ، وقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بوجه خاص .

هذا ، وبالموازنة بين ما ورد فى أسفارهم من قصص الأنبياء والمرسلين ، وما ورد من هذه القصص فى القرآن الكريم ، يتبين أن ما ورد منها فى أسفارهم ينقسم خمسة أقسام : قسم لم يعرض له القرآن ، ويتضمن وقائع تتعارض مع المعقول أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، أو مع طبيعة النظام الاجتماعى العام ؛ وقسم لم يعرض له القرآن ولكنه لا يتضمن وقائع تتعارض مع أمر من هذه الأمور ؛ وقسم عرض له القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى وردت فى هذه الأسفار ، ونص القرآن صراحة على ما ورد فى روايتها له من تحريف ، وقسم عرض له القرآن فى صورة تختلف كذلك عن صورته فى هذه الأسفار بدون أن يشير القرآن إلى روايتها له ، وقسم لا تكاد تختلف روايتها له عن رواية القرآن (١) .

وسنضرب فيما يلى مثالا لكل قسم من هذه الأقسام ، مبينين ما يجب على المسلم اعتقاده بشأنه :

١ — فمن أمثلة القسم الأول ، وهو الذى لم يعرض له القرآن وينطوى على وقائع تتعارض مع المعقول أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء أو مع طبيعة النظام الاجتماعى

(١) انظر عدد شوال ١٣٧٨ .

(١) نقول « لا تكاد » لأننا لا نكاد نعثر على قصة من قصص الأنبياء والمرسلين تتفق رواية هذه الأسفار لها كل الاتفاق مع ما ورد بشأنها فى القرآن الكريم .

العام ، ما ورد فى العهد القديم عن قصة لوط من أن بنتيه قد تآمرتا عليه فأسكرتاه وتمكنتا بذلك من إغرائه وهو فى نشوة الخمر بالاتصال بهما ، وأنهما كانتا تقصدان بذلك ألا تنقطع ذريته بعد أن أهلك الله امرأته وأهل قريته جميعا ، وأنه قد تم لهما ما أرادتاه ، فحملت كلتاهما من أبيها ، وولدت كبراهما ابناسمته مؤاب وكان من نسله المؤابيون Moabites وولدت الصغرى ابنا سمته ابن عمون وكان من نسله العمونيون Ammonites (١) .

وغنى عن البيان أن هذا القسم من القصص يجب على المسلم اعتقاد بطلانه واختلاقه ؛ بل إن العقل نفسه وطبائع العمران الإنسانى ومناهج النظم الاجتماعية لتحكم بزيف كثير من أمثلته (٢) .

٢ — ومن أمثلة القسم الثانى ، وهو الذى لم يعرض له القرآن ولكنه لا يتضمن وقائع تتعارض مع المعقول أو مع طبيعة النظام الاجتماعى العام أو مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، وما ورد فى العهد القديم بصدد إسماعيل ونسبته إلى سارة فى مبدأ أمره .

فقد ورد فى العهد القديم ما يفيد أنه قد جرت العادة عند قدامى العبريين حينما لا ترزق الزوجة الشرعية ابنا أن تتنازل لجارية زوجها أو لجاريتها عن فراشها ابتغاء أن يأتى منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة ، وأن من كانت تأتى به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعد ولدا للزوجة الشرعية لا للجارية التى ولدته ، فكانت الزوجة هى أمه فى نظر القانون على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت للإتيان به ، وأن هذا النظام قد طبق على إسماعيل الذى جاء به إبراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجه الأصيلة سارة بابنها إسحق وطبق على دان ونفتالى اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلها قبل أن ترزق زوجه الأصيلة راشيل بيوسف وبنيامين (١) .

وفيما يلى نص ما ورد فى « سفر التكوين » بصدد إسماعيل عليه السلام : « لم تنجب سارة زوجة إبراهيم أولاداً له . وكانت لها جارية مصرية تدعى هاجر . فقالت سارة لإبراهيم لقد جعلنى الله عاقراً ، فأرجوك أن تقرب

---

(١) فقرات ٣٠ — ٣٩ إصحاح ١٩ ، سفر التكوين

(٢) نقول « كثير من أمثلته » ؛ لأن بعضها لا يتعارض مع العقل ولا مع طبائع العمران الإنسانى ولكنه يتعارض مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء . وهذا يجب على المسلم اعتقاد بطلانه لتعارضه مع ما يقرره الإسلام من صفات الأنبياء والمرسلين .

(١) سفر التكوين إصحاح ١٦ ، وفقرات ١ — ١٤ من إصحاح ٣٠ .

جاريتى ، فعسى أن يكون لى أولاد عن طريقها »(١) .

فالقرآن الكريم لم يعرض لموضوع نسبة إسماعيل لسارة أو عدم نسبته إليها . وكل ما ورد من قصص إسماعيل عليه السلام فى القرآن ، يتعلق بإسكان أبيه له مع أمه بواد غير ذى زرع (آية ٣٧ من سورة إبراهيم) واشتراكه مع أبيه فى بناء الكعبة (آية ١٢٧ من سورة البقرة) وعزم أبيه على ذبحه تصديقا لرؤياه وفدائه بذبح عظيم (آيات ١٠٢ - ١١١ من سورة الصافات) .

غير أن ما جاء فى العهد القديم بصدد نسبة إسماعيل إلى سارة لا يتعارض مع المعقول ولا مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء . ولا مع طبيعة النظام الاجتماعى العام . فمن بحوث علم الاجتماع يتبين لنا أن القرابة فى المجتمعات الإنسانية تعتمد أولا وبالذات على مصطلحات يرتضيها العقل الجمعى وقواعد تختارها الشعوب ، وأن هذه المصطلحات والقواعد قد تتعارض مع الوشائج الطبيعية وصلات الدم . وقد بسطنا هذه الحقيقة فى كتابنا « الأسرة والمجتمع » ، وذكرنا لها شواهد كثيرة من نظم الأسرة فى مختلف الشرائع وشتى الشعوب .

(١) فقرتى ١ ، ٢ إصحاح ١٦ من سفر التكوين .

فهذا القسم من القصص لا يمكن القطع باختلاقه ولا ترجيح اختلاقه ما لم يقم دليل على ذلك ولا بأس بقبوله ، وخاصة إذا كان ثمة أدلة أخرى تعضده كما هو الشأن فيما يتعلق بنسبة إسماعيل إلى سارة قبل أن ترزق بولدها إسحق . فمن البحوث التاريخية يتبين لنا أن نسبة ولد الجارية إلى السيدة فى حالة تنازل هذه لتلك عن فراشها كان نظاما سائدا عند قدامى العبريين .

٣ — ومن أمثلة القسم الثالث ، وهو الذى رواه القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى روى بها فى أسفار العهد القديم أو الجديد ونص القرآن صراحة على كذب روايتها له ، ما ورد فى أسفار العهد الجديد بصدد صلب المسيح عليه السلام . فقد أجمعت أناجيل النصارى الأربعة على هذا الصلب وبينت طريقة تنفيذه (١) . ولكن القرآن الكريم كذّب روايتهم هذه إذ يقول : « . . . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه

(١) متى ، إصحاح ٢٧ ، فقرات ٣٢ — ٥٦ — مرقس ، إصحاح ١٥ ، فقرات ٢١ — ٤١ — لوقا ، إصحاح ٢٣ ، فقرات ٢٦ — ٤٩ — يوحنا ، إصحاح ١٩ ، فقرات ١٧ — ٤٢ .

يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »[1] .

٤ — ومن أمثلة القسم الرابع ، وهو الذى رواه القرآن فى صورة تختلف عن الصورة التى روى بها فى أسفار العهد القديم أو الجديد بدون أن يشير إلى روايتها له ، ما ورد فى العهد القديم خاصا بمسلك داود مع أوريا الحثّى . فقد جاء فى الإصحاحين الحادى عشر والثانى عشر من السفر الثانى من سفرى صموئيل: أن داود أرسل إلى قائد جيشه يوآب Joab أن يضع أوريا الحثى Urie le Héthien فى أخطر منطقة فى جبهة القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل . وكان هدف داود من ذلك أن يحصل على زوجة أوريا الجميلة التى شغف بها حباً إذ وقع بصره عليها وهى تستحم بينما كان هو يمشى على سطح قصره الملكى المطل على بيتها . وقد أنفذ قائد الجيش ما أمر به ، وهلك أوريا فى الميدان ، وبنى داود على زوجه ، على الرغم من أنه كانت له زوجات وجوار كثيرات . فأرسل الله إليه ناثان Nathan وقص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعانا كبيرة العدد من الأبقار والنعاج بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة . وفى يوم قدم ضيف على الغنى فمد يده إلى نعجة الفقير واغتصبها منه وذبحها لضيفه . فغضب داود من فعلة هذا الغنى ، وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت . فقال له ناثان : إنك أنت نفسك هذا الرجل ؛ وأخذ يؤنبه ويتوعده بما سيحيق به وبأهله من عذاب ونكال . فاعترف داود بذنبه واستغفر ربه وتاب إليه فغفر له . إلى آخر ما ورد فى هذا السفر .

وقد أورد القرآن قصة احتكام الخصمين إلى داود فى صورة تختلف كل الاختلاف عن هذه الصورة ، وذلك إذ يقول : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم،قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ؛ وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ؛ وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ؛ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب[1] » .

وهذا القسم من القصص يجب على المسلم رفض ما جاء منه فى أسفار اليهود والنصارى

---

(١) آيتى ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .

(١) آيات ٢١ — ٢٥ من سورة ص .

واعتقاد بطلانه واختلاقه لتعارضه مع رواية القرآن له . هذا إلى أن بعضه تتعارض وقائعه كذلك مع مقام النبوة وعصمة الأنبياء ، كما هو الشأن فى القصة التى ضربناها مثالا لهذا القسم وهى قصة داود مع أوريا الحثى . ولذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » . أى ضعف حد القذف العادى ؛ لأنه قذف لنبى . وقد زل بعض المفسرين زللا كبيرا إذ حاول تفسير هذه القصة فى القرآن على نحو يتفق مع رواياتها فى الإسرائيليات ، فتعسف كل التعسف فى تأويل الآيات ، وحمل عباراتها العربية الواضحة ما لا تحتمله من مدلول .

٥ — ومن أمثلة القسم الأخير ، وهو الذى لا تكاد تختلف رواية أسفار اليهود أو النصارى له عن رواية القرآن ، ما جاء فى أسفار العهد الجديد خاصا بيوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليهما السلام [1] . فقد ذكرت أناجيل النصارى أن الله قد أرسل الملك إلى زكريا ليبشره بأن الله قد استجاب دعاءه ، وأن امرأته أليصابات ستلد له غلاما اسمه يوحنا (يحيى) ، وأن هذا الاسم لم يسم به أحد من قبل فى أسرته ، وأنه سيكون مصدر سرور وسعادة له وللشعب ، وسيكون تقيا زكيا مطهرا من الرجس ، فلا يشرب النبيذ ولا أى شراب مسكر . وسيعيد كثيراً من الضالين من بنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم . فقال زكريا للملك كيف يكون لى غلام وامرأتى عاقر وعجوز وقد تقدمت بى السن ؟ ! وما آيتك على ذلك ؟ فقال له الملك أنا جبريل أرسلنى الله لأبشرك بهذه البشرى ، وهذا الأمر هيّن على الله ، وإن آيتك أنك ستصاب بالبكم ، فلن تكلم الناس حتى يتم هذا الأمر ... فخرج زكريا على قومه من محرابه وهو لا يقوى على الكلام ، وأخذ يرمز إليهم بالإشارة ... وفى الشهر السادس من حمل أليصابات بيوحنا أرسل الله جبريل إلى عذراء من أقربائها اسمها مريم ليبشرها كذلك بغلام زكى هو المسيح عيسى بن مريم ... وأن مريم قد ذهبت إلى بيت قريبتها فكفلها زكريا ... ومكثت فى بيته نحو ثلاثة أشهر ثم رجعت إلى بيتها ... ولما بلغ يوحنا أشده أوحى الله إليه وهو فى الصحراء أن يجوب جميع البلاد الواقعة فى نواحى الأردن لينذر الناس ويرشدهم إلى الطريق القويم ، ويحثهم على التوبة من خطاياهم والرجوع إلى الله ويعمدهم بغسلهم فى مياه النهر (ومن ثم سمى المعمدان Jean Baptiste) ؛ وقد عمد المسيح

« البقية على صفحة ٥٦٠ »

(١) انظر تحقيقا لغويا لاسم يوحنا ويحيى فى عدد ربيع الأول ١٣٧٩ ص ٣٧٤ .

النحو الجديد

للأستاذ علي العماري

— ٢ —

يجب عند النظر في العلوم التي دونها القدماء، ومحاولة تبين ما فيها من صحة أو خطأ أن نفرق بين أمور : —

المصطلحات التي يحاول بها العلماء أن يوضحوا مسائل العلم بما تقتضيه الصناعة، والأصول التي يضعونها بناء على الاستقراء والتتبع، ثم التطبيق على هذه الأصول، فمثلا عند ما ينظر علماء البيان في التشبيه فيجعلون منه تشبيها خياليا وتشبيها وهميا إنما يضعون أسماء من عندهم - لها مناسباتها في نظرهم - ليميزوا بين الأقسام ونستطيع أن نقول : إن هذه الكلمات من أوضاعهم، ولا دخل للاستقراء فيها، ولكن عندما يقولون : إن الكلمة عند الاستعمال إما أن يراد بها تمام معناها الذي وضعت له، وإما جزء هذا المعنى، وإما لازمه، إنما يستندون إلى تتبع كلام العرب، ومعرفة طرق استعمالاتهم وبعد ذلك تأتي مرحلة التطبيق على مثل هذا الأصل.

والأمر كذلك في النحو : فالنحويون ينظرون في نوع من الأسماء ورد عن العرب بصور مختلفة، ويريدون أن يخرجوه حسب مصطلحاتهم، فيقول فريق مثلا في (هذا أبوك) : أبوك مرفوع وعلامة رفعه الواو، ويقول آخرون : بل الضمة الممدودة، ويقول فريق ثالث : بل الضمة والواو معا، وهم بذلك يضعون تخريجات من عند أنفسهم، ولكن عندما يقولون : إذا اجتمع شرط وقسم وجب حذف جواب المتأخر منهما، إنما يضعون أصلا من الأصول التي يستندون في وضعها على استقراء كلام العرب، والشواهد بعد ذلك هي التطبيق.

وهناك أصول عامة كتأصيلهم للمطرد والشاذ، والراجح والمرجوح، والقوى

والضعيف . فاذا أردنا أن نعقب على معارفهم كان سبيلنا فى الأمر الأول أن نعارض تخريجاتهم بتخريجات أخرى نراها ، ونستطيع أن نقول حينئذ أن هذا من كلام النحويين أنفسهم ، ولكن عندما نتعرض للأمر الثانى لا ينبغى أن نقف عند قولنا (هذا من مقررات النحويين) بل يجب أن نخطو خطوة أخرى ، فنناقش الأسس التى بنوا عليها هذا الأصل أو ذاك ، فإذا كنا أكثر إنصافا ، وجب إلينا أن نقترب من الحق نظرنا فى الكلام العربى الذى نظروا فيه وأخذوا منه ، فإذا تبين لنا صدق استقرائهم وقفنا عند ما وقفوا . وإذا بان لنا أن استقراءهم ناقص أتممنا فى غير جلبة ولا تبجح مافاتهم ، ولعل من حق أن أبادر هنا فأقول : إن كل الذين تعدوا علماء النحو وعلماء البلاغة لم يستندوا فى تقدمهم إلى إطالة النظر فى كلام العرب ، حتى يستخرجوا منه غير ما قال هؤلاء العلماء ، وإنما اكتفى المحدثون بالشواهد التى ذكرها النحويون والبيانيون ولم يتعدوها ؛ ثم راحوا يقولون : إنهم قصروا وخلطوا ، فمثلا بعض المعقبين على النحاة يقول إن النحاة خصوا اجتماع حرف النداء وأل بالضرورة ، والنحويون مخطئون . ثم لا يجيئون بشاهد واحد غير الشواهد التى ذكرها النحاة ، والتى تمسك بها الكوفيون فأجازوا هذا الأسلوب

ثم نعود إلى القصد فنقول : إن النحويين لم يقولوا هذا مطرد وهذا شاذ ، وهذا راجح وهذا مرجوح لمجرد مضغ الكلام ، وإنما بحثوا واستقروا ، فلو أردنا أن نحاسبهم لا يكفى أن نقول : إن هذا من مقرراتهم ، وإنما علينا أن نبحث الأساس الذى بنوا عليه هذا التفريق فسموا نوعا من الكلام مطرداً ونوعا شاذاً ، وسموا نوعا قليلا ونوعا كثيراً . . . وهكذا .

ولذلك عجبت من قول صاحب (النحو المنهجى) : « وإذا اختلف المتقدمون أخذنا من رأيهم بالأيسر غير ناظرين إلى مدرسة بذاتها أو إلى نحوى بعينه أو إلى راجح ومرجوح أو إلى قوى وضعيف أو إلى مشهور وغير مشهور أو إلى مطرد وشاذ ؛ لأن هذا كله ليس إلا من مقررات النحويين أنفسهم » .

فهل ظن أن مجرد قوله : إن هذا ليس إلا من مقررات النحويين يكفى فى طرح ماسموه شاذا أو ضعيفاً ؟ وهل يرى أنه كلام بعيد عن النظر العلمى الصحيح ؟ لو كان الأمر كذلك - وهو إنما يحتج لما يأخذ وينقد ما يدع - كان عليه أن يناقش الأصول التى بنوا عليها .

والمؤلف يعرف أن أكثر الشواذ فى نحو الكوفيين ، وهو - كما يقول - لا يتحرج من الأخذ بأى شىء منه إذا كان فيه التيسير الذى

ينشده ، ومع ذلك فقد ساق ما عاب به الأقدمون المذهب الكوفى ولم يدافع عنه بكلمة واحدة ، قال : « أما الكوفة فقد وقعت شمالى العراق فهى بعيدة عن البادية ، ولذلك قل نزوح الأعراب الذين صحت لهجاتهم وخلصت لغاتهم إليها ، وهؤلاء القليلون اختلطوا كثيراً بأهل السواد والنبط فتأثرت ألسنتهم ولم يستطيعوا أن يميزوا شعر الفحول، فدس عليهم شعر كثير منحول» « ولأن الأعراب فيها قلة لانت عربيتهم ، وفسدت ألسنتهم فجاء نحوهم مترفا حضريا » « أما الكوفيون فإنهم احتفلوا بكل ما روى لهم من شعر ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء التأويل ، واستنبطوا القواعد من ظاهر الكلام ، وأباحوا تقليد كل ما روى عن العرب مهما تعددت القواعد ، وطعن فى الشعر الذى روى لهم بأنه غير موثوق برواية راويه ، وبأنه منحول، فهم احتجوا بالشاهد غير المألوف وبالشاهد الواحد ، وبالشاهد المجهول قائله ، وقالوا كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه » .

ومعنى هذا الصنيع أن المؤلف يقول بصراحة تامة : إننا سنأخذ بالشاذ والضعيف ، والنادر والمرجوح ، مع إيماننا - ولا تنس ما قلته لك من أن هذا الكتاب كالمذكرة التفسيرية لكتاب تحرير النحو - بأن الذين قالوا ببعض هذا دس عليهم شعر كثير منحول ، وبأنهم أخذوا عن أعراب لانت عربيتهم وفسدت ألسنتهم ، فجاء نحوهم مترفا وبأن القائلين بهذه الشواذ كانوا يحتجون بالشاهد غير المألوف ، وبالشاهد الواحد ، وبالشاهد المجهول قائله .

ولو أن المؤلف أراد أن يخدم لغته ، ويسهل على المتعلمين الناشئين لقال : إننى سآخذ بالشاذ والضعيف والنادر إذا رأيت أن طريق ثبوته لا شبهة فى صحته ، وما كان ينبغى أن يبلغ حب التسهيل على المتعلمين أن نعطى لهم القاعدة ونحن نعلم أنها لم تبن على أصل صحيح أو على الأقل لم تؤيد بدليل مقبول عندنا ولا عند العلماء الغير على العربية من قبلنا .

ولا شك أن المؤلف يعرف أن الكوفة تأخرت عن البصرة فى النظر النحوى ، وأنها لذلك ارتكبت السهل والوعر لتنافس البصرة فجاء نحوها كما وصفه العلماء ، ولست أريد بذلك أن ألغى نحو الكوفة ، ولكنى أدعو إلى أن نقتنع أولا بصحة ما جاءنا من قواعد قبل أن نقدم على الأخذ به ، وبالتالى حمل المتعلمين عليه .

والسير فى هذا الاتجاه حمل أصحاب تحرير النحو على أمور أبعد ما تكون عن القبول ؛ فمثلا رأوا بعض النحاة يقول : بأن العلمية

كافية وحدها فى منع الصرف ، فقالوا : « لك فى كل علم أن تمنعه من الصرف اختيارا لا اضطرارا، دون نظر إلى ما ورد عليه أكثر الكلام وأفصحه ، فكيف يصنع التلميذ الذى درس هذه القاعدة حين ينظر فى القرآن الكريم ، فلا يجد فيه علما واحدا منع من الصرف إلا الأنواع الخاصة التى نوه بها علماء النحو ؟ وكيف يصنع إذا قرأ أكثر الجيد من الشعر والنثر فلم يجد أكثر الأعلام إلا مصروفة ؟ .

وحملهم على أن يخرجوا بعض آى القرآن على لغات ضعيفة ، فقد جعلوا قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » من باب قاما الرجلان ، وهى اللغة التى يعبر عنها النحويون بلغة (أكلونى البراغيث) . وإن كان صاحب النحو المنهجى سماها لغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) ثم ساق أصحاب تحرير النحو هذا الحديث شاهدا على هذه اللغة ، ومن عجب أن بعض العلماء حين يريدون أن يؤيدوا رأيا لا يألون فى سبيل ذلك شيئا ، ولا يحبون أن ينتفعوا بتحقيقات العلماء قبلهم إذا كان هذا التحقيق لا يتفق مع وجهة نظرهم .

فهذا الحديث الذى جعلوه عنوانا على هذه اللغة ، قصته معروفة فقد ساقه ابن مالك دليلا على هذه اللغة ثم جاء العلماء من بعده فأثبتوا أن الحديث هكذا - كما ورد فى صحيح البخارى، وكما رواه البزار - : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » . وهذه اللغة التى خرجوا عليها بعض آى القرآن ، وذكروها فى كتاب تحرير النحو ، يقول فيها صاحب النحو المنهجى : « لغة يتعاقبون فيكم ملائكة شائعة فى العامية المصرية ، ومع ذلك فنحن لا نحب أن يعلمها التلاميذ ، ويستعملوها فى كتاباتهم . وقد سقناها هنا لمجرد الاستشهاد وتعزيز الرأى » .

ومن ذلك قولهم : إن المسند إليه إذا كان جمع تكسير أو جمع مؤنث سالما لغير العقلاء جاز أن تراعى فيه المطابقة وأن يكون مفردا مؤنثاً فيقال : الرجال قوامون على أولادهم أو يقومون أو قوامة أو تقوم ، والنساء رحيات أو يرحمن أو راحمة ، فيبيحون للتلميذ أن يقول : الرجال قائمة ، والنساء راحمة . وهذا - وإن كان ورد فى كتب النحو - ولكنه غير الأكثر على كل حال . ونحن - باعترافهم لا نريد أن نبلبل أذهان التلاميذ فى هذا الدور المبكر .

ولو أن تيسير النحو اتجه إلى الأخذ - دائما - بالمذهب الراجح لكان فى ذلك غناء أى غناء ، ولتخرج التلميذ من المرحلة الثانوية وهو يعرف النهج الذى يسير عليه أفصح الكلام فى لغته ، أما تتبع المذاهب

للأخذ بالأيسر منها ، فهذا إبعاد للطالب عن النهج السليم فى اللغة ، وحسبنا من الضرر أن يخرج التلميذ وفى ذهنه صورة للغة غير الصورة التى كان عليها الأكثر من أصحابها ، وليس من شك فى أن التلميذ الذى استقر فى ذهنه هـذا المنهج الذى يتضمن الضعيف والشاذ ، يتنكر لما يراه من أساليب جرت على القوى والمطرد ، ولقد يكون من العسير أن تنزع من نفسه أن الذى استقر فيها إنما هو أضعف الأساليب ، وبذلك نخرج جيلا من المتعلمين يتعصبون فى بعض أساليب اللغة لما كان يجب أن يعرفوا مكانة الحق منها ، أما إذا عكس الأمر فلم نقدم للتعلمين إلا الراجح والمطرد فلا يضيره ولا يضير اللغة أن يجهل المرجوح والشاذ ، ولا يكون من الخطأ أن يتعصب لهـذا الذى تلقاه إبان الحداثة .

ولقد كتب الأستاذ الزيات منذ ثلاثين سنة يقترح أن يوحد النحو ، أو بمعنى آخر الرأى أن يقتصر فى التدريس للطلاب على الرأى الراجح حتى لا يقع المبتدئون فى فوضى الآراء والأقوال، وذكر أن النحويين أغرقوا القواعد فى الشواذ ، وأفسدوا الأحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة أو يطرد لهم قياس. ثم قال: « نحن اليوم وقبل اليوم إنما نستعمل لغة واحدة ، فلماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة ، وتقوم تلك اللهجة ، وندع ذلك الطم والرم لمؤرخى الأدب ، وفقهاء اللغة وطلاب القديم على ألا يطبقوه على الحاضر ولا يستعملوه فى النقد » ثم وصف الذين يتعلقون بالشواذ من اللغة بقوله : « يقعد بهم تخلف الذهن ، وضعف الملكة وكلال الذوق عند هـذه البقايا الأثرية ينبشون عنها قبور البلى ثم ينثرونها كالشوك فى طريق الأدباء الموهوبين ويتبجحون . فان هذا اللغو هو اللغة ! » فهل يريد أصحاب تحرير النحو أن نمكن هـذه العيوب التى عابها الأستاذ الزيات فى آحاد الناس ، أن نمكنها بطريقة رسمية فى أذهان الآلاف المؤلفة من أبنائنا حتى ينثروها كالشوك فى طريق الأدباء ! .

عجبت من هذا وعجبت كذلك من ترديده فى كتابه (النحو المنهجى) إن الإعراب والبناء والنواصب والجوازم لم تكن معروفة عند العرب . قال فى صفحة ٤٥ : « وأصحاب اللغة أنفسهم ، لم يفكروا فى إعراب ولا بناء ، ولكنهم نطقوا بألفاظ الضمائر كما وصلت إلينا واستعملوها استعمالا صحيحاً » . وقال فى صفحة ٤٦ : « واهتم النحاة بالعوامل اهتماما كبيراً ، وقسموا أبواب النحو متأثرين بهذه العوامل ، مع أن العرب كانت لا تعرف رافعا ولا ناصبا ولا جازما ، ولكنها كانت

تتكلم بالسليقة فترفع وتنصب وتجزم وتجر من غير أن تعرف أن عاملا لفظيا أو معنويا أثر فظهر أثره فى أواخر الكلمات المعربة » .

وقال فى ص ٤٧ « ولكن النحاة يفرضون لكل جار ومجرور ولكل ظرف متعلقاً من فعل أو مشتق فيتكلفون ذلك من غير حاجة إليه ، مع أن العرب نطقوا بمثل هذه العبارات وفهموا المراد منها فهما صحيحاً سليما من غير حاجة إلى تقدير متعلق » وقال فى ص ٧٥ : « والعرب — كما قلنا من قبل — نطقوا بأساليبهم معربة صحيحة جارية على النهج الذى اعتادوا أن ينطقوه ، فلم يقدروا أن حركة قامت مقام حركة أو أن حرفا ناب عن حركة ، ولكنهم تكلموا فأفهموا . وكفى » .

ولا أريد أن أتعرض هنا لحديثه عن العامل ولا عن متعلق الجار والمجرور والظرف ، فلذلك موضعه من هذا البحث ، وإنما أريد أن أعقب على تشبثه بالنص على أن العرب لم يكونوا يعرفون هذه المصطلحات النحوية وكأنه يريد أن يصل من ذلك إلى أنها لا تعنينا ولا قيمة لها ، وأن اللغة واضحة بدونها ، وهو أمر غريب حقا ، فهذه المصطلحات إنما وضعها النحاة لتكون أعلاما على مظاهر ترى فى اللغة ، وبهذا يمكن ضبط القواعد والوصول إلى الطريقة التى سلكها واضعو اللغة ، ومن قال بأنه يلزم فى أى علم أو فن أن يكون الذين تدرس لغتهم أو آدابهم عارفين بمصطلحات العلماء التى يتواضعون عليها عند تدوين العلم ؟ وهل نحن مخطئون حين نقول إن الشعر العربى غنائى ، لأن العرب لم يكونوا يعرفون معنى (شعر غنائى) ، وهل نحن مخطئون حين نقول : إن الاستعارة والكناية وردتا فى الشعر الإغريقى القديم وفى الشعر الجاهلى لأن هؤلاء وهؤلاء لا يعرفون كلمة استعارة وكناية ، وإذا كان العرب لم يعرفوا ناصباً ولا جازما فهل يمنعنا ذلك أن نقول : إن نواصب الفعل المضارع فى لغة العرب هى كيت وكيت ؟ .

على أننا حين نتتبع أخبار العرب نجد أنهم كانوا يدركون فى بعض الأحايين معانى بعض المصطلحات ، قال ابن جنى : سألت يوما أبا عبد الله محمد بن العساف العقيلى الجوثى التميمى ، فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ، فقال أقول ضربت أخاك فأدرته على الرفع فأبى ، وقال لا أقول أخوك أبداً ، قلت فكيف تقول ضربنى أخوك ، فرفع ، فقلت ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا ؟ فقال : إيش هذا ؟ ، اختلفت جهتا الكلام . قال ابن جنى بعد ذلك فهل هذا إلا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، وإعطائهم إياه فى كل موضع حقه وحصته

من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة ، وأنه ليس استرسالا ولا ترجيما . وبتعبيرنا أليس كان هــذا العربى يدرك الفرق بين الرفع والنصب وأن لكل منهما موضعا ، فإذا جاء النحويون وقالوا إن العرب ترفع وتنصب بناء على هـذا الأسلوب وما أشبهه نقول إن العرب لم تكن تعرف ناصباً ولا جازما ولا جاراً ، وعلى ذلك فنحن فى حل من طرح كلام النحويين ؟ .

وحكى الأصمعى عن أبى عمرو قال : سمعت رجلا من اليمن يقول فلان لغوب ، جاءته كتابى فاحتقرها . فقلت له : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليس بصحيفة ؟ .

فهذا أعرابى يحتج لتأنيث المذكر ، فهو يفرق بين التذكير والتأنيث ، ويعرف أن لكل مواضع ، بل ويعرف أن المذكر قد يؤنث إذا أريد به لفظ مؤنث ، فهل نصر بعد ذلك على أن نرد مصطلحات النحويين لأن العرب لم يعرفوها ، والنحاة إنما استخرجوها من كلامهم ، ومن أخبارهم أحيانا ؟ .

البقية فى الجزء القادم **على العمارى**

« باقى مقال قصص القرآن المنشور فى صفحة ٥٥٣ »

نفسه ... إلى آخر ما جاء فى هذه القصة (١) .

فبالموازنة بين هذه الرواية وما ورد فى الآيات الثلاث والثلاثين الأولى من سورة مريم والآيات ٣٣ - ٦٠ من سورة آل عمران بشأن قصة زكريا ويحيى : يتبين أن رواية الاناجيل لهذه القصة لا تختلف عن رواية القرآن لها إلا فى أمور قليلة كتحديد المدة التى ظل زكريا فى أثنائها عاجزا عن الكلام ؛ فالقرآن يحددها بثلاثة أيام على حين أن الأناجيل تذكر أنها « تمتد حتى يتم هذا الأمر » .

وفى اتفاق رواية الأسفار لهذا القسم من القصص مع رواية القرآن الكريم دليل على أن مؤلفيها قد توخوا كثيراً من الدقة فى نقلها عن كتبهم المنزلة أو فى قص ما شاهدوه من وقائعها . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم لم يجدوا فيها استحدثوه من عقائد وشرائع وعبادات ما يدعوهم إلى تحريف هذا القسم من القصص فسلم من جامح أهوائهم ونجا من زيف التبديل .

دكتور على عبد الواحد وافى

(١) انظر الاصحاحات الثلاثة الأولى من إنجيل لوقا .

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد علي غريب

— ٢ —

اقترب اليوم المشهود ، يوم الامتحان فى نصف القرآن الكريم ... جعل يقترب منى فى تؤدة وتمهل ، كما لو أنه مكلف بتعذيبى ، أو لعل الأمر كان كذلك ؛ لأننى رحت أحصى فى لهفة وخوف ، دقائقه وساعاته . ولم يكن أحد يدرى ما أعانيه من هم وقلق ، فقد حرصت على أن أشرب وحدى كأس السم ، ولن يحفل التاريخ باسمى كما حفل باسم (سقراط) فإن هناك فرقا ضئيلا بين صاحبى الاسمين ... سقراط جرع السم دفاعا عن رأيه ، وأنا أجرعه دفاعا عن بلادتى وخمول ذهنى ! .

والامتحان معناه أننى راسب فيه لا محالة، ويقتضى ذلك أن أعود إلى القرية لأشرب من ترابها الذى يملأ فمى وأنفى ، وهو الكحل الأسود الذى تحشى به العينان فى كل وقت ، وسيتبدد الحلم المشرق الباسم الذى عشت فيه طوال هذه الفترة .

إن القاهرة ـ رغم أننا نعيش فى حى فقير ـ حلوة ضاحكة . وفى كل يوم كنا نحرك أقدامنا فى طلاب نزهات جميلة إلى الأحياء التى توجب عليك أن ترفع رأسك وتميل به إلى الوراء حتى لتوشك أن تسقط ، فى سبيل أن ترى رءوس منازلها . وهذه المحال الفاخرة التى تعرض ما فيها بوسائل مثيرة ، وقد كنا نتسكع حول واجهاتها دون أن نشترى شيئا .

والناس يجيئون ويروحون ، وهم يثرثرون حول مشاكل الحياة المعقدة، وكأن مداركهم تهبط كثيراً عن مستوى أطماعهم ، فهم يشقون بهذا التناقض المرعب ، ويبذلون غاية جهدهم فى أن تصبح الرغبات المجنونة حقائق واقعة ! .

ونمضى نحن ـ الأزهريين ـ الذين نحمل على أجسادنا من الثياب ما يميزنا عن سوانا ... نمضى فى الطرقات بغير هدف سوى الفرجة على كل ما هو جديد طريف ، والناس ينظرون إلينا وفيهم من يبتسم ، وفيهم من ينكر على هذه الأسماك الضالة أن تغادر محيطها الأزهرى لتسبح فى الوديان المزدهرة ! .

وكنا لا نهتم بهذه النظرات التى نفهم معانيها جيداً . إذ أن الفقر والمظهر الدينى أورثانا كبرياء خليقة بأن تغمض عيون هؤلاء الفضوليين ، وما شأنهم بنا ؟ وما شأننا بهم ؟ إننا نبغى النزهة ، وهى كما يقول مفكر فرنسى نسيت اسمه (أولى الملذات التافهة) وربما قصدنا - دون أن نعلم - إلى الدراسة والتأمل . فأكثرنا قادم من القرية التى يستطيع وهو نائم أن يحصى جميع مشاهدها دون أن يخطىء ، وليس له عهد بهذه المباهج التى تقدمها الحضارة .

ونعود فى النهاية إلى منازلنا مسرورين ، كما لو أننا ابتعنا كل ما تحويه المحال التجارية من سلع . ونكون قد تعبنا من السير على الأقدام ، فنحس حين نجلس على الفراش نشوة ومتعة ، ويضحك أحدنا لمشهد رآه وحده ، ونروح نسأله : عم يضحك ؟ .

ويحدثنا الزميل عن الرجل الوقور الذى كان يسير فى الطريق ، وهيبته تفسح له مسالك قدميه ، وإذا بشاب أحمق ، راح يطوح ذراعيه فى الهواء عابثا مع رفيق له ، فيسقط (طربوش) الرجل الوقور على الأرض ، فلا يملك إلا أن يقف كالصنم . وقد جرى الشاب الأحمق وغاب فى الزحام ، وتبدد الوقار وزالت الهيبة ، وتجمع الناس وقد ذهلوا قليلا ، ثم انفجروا بعد ذلك فى ضحكات صاخبة ، ومد أحدهم يده إلى الأرض فالتقط (الطربوش) ومسح التراب الذى علق به بطرف كمه ثم أعطاه للرجل فوضعه فوق رأسه وسار بغير وقار وبغير هيبة ! .

وضحكنا من قلوبنا حين سمعنا رواية زميلنا الذى كان قد تخلف وراءنا . . . هل نعرف معنى الضحك من القلب ؟ معناه الحياة كلها . للقوة الدائمة التى لا يداخلها زيف ولا وهن ، ونحن اليوم نضحك . وتكاد قهقهاتنا تعلو على فسحة الطريق ولكننا نضحك من شفاهنا وقلوبنا راكدة ركود الرمال المبتلة .

وفى مساء الخميس نعرف أننا سنذهب فى رحلة إلى الهرم . وقد تكتموا جميعاً أمر المسافة بيننا وبين هذه الكومة من الحجارة . وخيل إلى أن الهرم ربما كان فى جوف القاهرة ومع ذلك فإنى لم أخرج لرؤيته كثيراً . فإننى عشت قرابة عامين فى مدينة الأقصر . أحاول فى مدرسة أولية أن أحفظ القرآن الكريم ، وشهدت هناك أكثر الآثار التى تنطق بمرارة خيبة هذا الشعب الذى ولد التاريخ على شاطىء نيله العظيم .

أيمكن أن تكون هذه الخوالد وجدت منذ آلاف السنين؟ لقد حدث هذا فعلا ، فالطلاء الذى يكسو هذا الجدار ويتعرض للشمس منذ آلاف السنين . لم يغير وهجها المحرق منه شيئا ، وتنظر إليه فتوقن أنه صنع منذ أيام.

وهذه روسيا التي يكاد يسجد الغافلون بين يدى علمائها العباقرة، وبهرت عقول الناس جميعا بما ابتدعته من مخترعات مذهلة وصلت بها إلى القمر، ما تزال فيها جثة (لينين) يعاد تحنيطها كل عام. وأجدادنا الذين لم يفتتوا الذرة. عرفوا سر التحنيط منـذ آلاف السنين.

ومع ذلك فإن هذا الشعب لم يسترح سنوات. من أهوال الغزو والاستعمار، وكلما دخلت فيه أمة طردتها أمة أخرى. فكان من المؤكد أن يفقد هذا الشعب قدرته على الإبداع فى صنع الحضارة والمدنية، ولا يبقى لنا من هذا الماضى المجيد الرائع سوى الذكريات.

وسألت فى خجل واستحياء عما إذا كان الهرم بعيداً عنا أم قريبا؟ فقالوا: إنها (فركة كعب) ولم أكن أثق كثيراً فى أقوال هؤلاء الزملاء الذين فرضوا العذاب على أنفسهم ليدخروا مليمات قليلة، ولكننى لم أكن أحسب أن (فركة الكعب) هذه تبلغ ثلاثة عشر كيلو مترا.

وفى صباح يوم السبت جاء الامتحان، وأكاد أذكر أضأل التفاصيل عن هذه اللحظات التى مرت بى منذ أكثر من أربعين عاما. فما أن تهيأت للخروج من المنزل حتى حسبتنى متهماً بريئاً يقاد إلى محبس محاكم التفتيش، ولو أننى كنت أحفظ القرآن الكريم فى ذلك الوقت كما أنزله الله وامتحنت فيه ما نطقت بحرف...

وأين هو اللسان الذى يستطيع أن يؤلف من الحروف كلمات... أين لسانى؟ أترانى ولدت بدونه؟ فقد غمرنى الخوف وهد كيانى وراح أخى الأكبر يسألنى عن حقيقة الأمر ولا أدرى حتى هذه الساعة كيف أمكننى أن أعترف له بأنى لا أحفظ شيئا.

وقال لى أخى، وهو يحاول أن يسرى عنى. إنه لا بأس على من ذلك، فإن الشيخ توفيق البقشى أحد مشاهير العلماء. سيكون معى أو أنه سيخاطب أعضاء لجنة الامتحان فى أن يكتبوا قرارهم بنجاحى.

ولم أكن مطمئنا كثيراً إلى جدوى هذا ولكننى أحسست كما لو أن القيد الذى يضغط على قدمى قد تحطم وبقيت على القلب غاشية من الخوف والاضطراب.

وكان الشيخ توفيق البقشى - يرحمه الله - من ذوى الأقدار الرفيعة فى محيطنا الأزهرى وهو من بلدة قريبة من بلدتنا، ووالدى يعرفه، فهما أخوان فى الطريق الخلوتى. وأباهما الروحى فضيلة السيد الجليل أبو الوفاء الشرقاوى.

وكان اسم الشيخ توفيق البقشى يحدث دويا فى الأزهر. فهو صاحب شخصية قوية عنيفة،

وعندما كان طالبا فى الأزهر جرت بينه وبين المرحوم الشيخ أحمد نصر الذى أصبح فيما بعد عضو هيئة كبار العلماء خصومة شديدة عرفها الأزهريون جميعا وتحدثوا بها كثيراً.

ويوم امتحن الشيخ توفيق البتشتى فى شهادة العالمية كان الشيخ أحمد نصر عضواً فى لجنة الامتحان، وجعل يفتش له بهذه الروح الأزهرية القديمة عن المعميات والطلاسم، وأحس بقية أعضاء اللجنة أن زميلهم الشيخ أحمد نصر يريد أن يفترس الطالب فقاوموه وكان أن فاز الشيخ توفيق البتشتى بشهادة العالمية وعندئذ قال له كلمته المشهورة.

- استوت الرءوس يا أبا نصر!.

أى أن كليهما أصبح عالما...

وأعود إلى امتحانى أنا.

كان يقع فى مبنى مشيخة القسم الأولى فى شارع التبانة، وما زلت أرى بوضوح كيف كان المشهد... لقد دخلت فى باب واسع إلى فناء مظلم، ثم ارتقيت بضع درجات من سلم يفضى إلى ردهة، جلس فيها على مقاعد من (القش) ثلاثة شيوخ أحدهم الشيخ البتشتى والآخران هما عضوا اللجنة، ولست أذكر الآن اسميهما ولا ملامح وجهيهما، ولكننى أذكر أنهما كانا يدخنان، وعلى كرسى بينهما ثلاثة أقداح من الشاى. وكان أحدهما يحمل فوق رأسه عمامة ضخمة، والعجيب فى الأمر أن منظر هذه العمامة شغلنى عن التفكير فى مأساتى، فجعلت أحملق فيها وفى صاحبها، ولم أعد أهتم بشىء آخر.

وقال أحد الشيخين، ولا بد أنه كان يواصل حديثاً جرى من قبل أن أحضر:

- طيب... نسأله عما يحفظه... ربما كان يحفظ فاتحة الكتاب!.

واندفعت فى تلاوة الفاتحة، فضحك الشيوخ الثلاثة ضحكا عاليا متصلا، وأحسست الخجل ينتابنى فصمت، وقال الشيخ توفيق:

- إنه يحفظ من القرآن الكريم أكثر مما تحفظ!.

وضحك الشيوخ مرة أخرى...

ونجحت...

ولم أحس حلاوة النجاح حينذاك، ولست أدرى لماذا؟ ولست أعتقد أنها كانت مسألة ضمير يثور على هذا الزحف، وربما كان لجلال الأزهر وهيبته وسموه فى نفسى أثر واضح فى حيرتى أمام هذا النجاح؛ إذ أننى كنت فى هذه الأيام أنظر إلى الحياة من الجانب الدينى وحده، وكنت متأثراً فى هذا بوالدى الذى أدبنى ذلك الأدب.

وبقيت أمامنا أيام، يحل بعدها يوم الدراسة، ولم أكن قد اشتريت الكتب المقررة، ولم أحتج إلى شرائها فإنها كانت عند أخى، وقد أعطانيها، وكانت كثيرة العدد

فى الفقه والنحو والتوحيد والأخلاق والخط والإملاء ، وكتب أخرى لا أذكرها .

وكنت أجلس فى المنزل وأتناول كتابا منها وأقرأ فيه فلا أكاد أفهم منه شيئا ، فإذا خامرنى من جهلى الضيق والهم . اتفقت مع زميل لى على أن نذهب إلى حديقة قصر النيل وهناك كنا نجلس على مقاعد خشبية ونتطلع إلى وجوه المتنزهين والمتنزهات .

وفى هذا المتنزه المشرق الضاحك ، كان يستحيل على الواحد منا ألا يحسب نفسه شاعرا ، وهو يتطلع إلى الأغصان وإلى الزهور وإلى الأطيار ، وفى ذلك الحين ، حاولت جادا أن أنظم شعرا فخبت ، وربما ترجع كراهيتى للشعر إلى هذه الخيبة ، فأنا لا أطيق أن أقرأ قصيدة بأكلها عدا بعض الشعراء القدامى ، ولا أحفظ من الشعر إلا عشرات الأبيات ...

وكنا نلتق فى هذا المتنزه بفيلسوف عظيم لعله من اليونان ... أى أنه دون ريب من أحفاد أفلاطون ، وكان الناس يعدونه مجنونا لأنه يهمل ثيابه ويدع شعر رأسه يتطاير فى الهواء ، وكثيرا ما يحادث نفسه بصوت مرتفع ، ولكنا مع ذلك كنا نأنس إليه ونستطيب مجلسه .

كان يحدثنا عن خصوم له فى (الأثينا) ــ هكذا كان ينطقها ــ ولم يكن يبدو من حديثه عنهم أنه غاضب عليهم . فهو لا يغضب قط ، ولكننا كنا نبغضهم من صميم قلوبنا . فهؤلاء الخصوم كانوا من القسوة والفظاظة بحيث جردوه من ثيابه ودفنوه فى الثلج الذى يتوج مشارف الجبال فى اليونان ...

الثلج ! قسم غير حانث إننى فى ذلك الوقت ما عرفت الثلج ولا رأيته ، ولكننى كنت أتخيل برودته ، وأنا أدرك اليوم لماذا جن هذا المسكين ...

والعجيب فى الأمر أنه كان يضحك وهو يقص علينا نبأ هذه الفاجعة ، ثم يمسك بعود أخضر من شجيرة صغيرة على مقربة من المقعد الخشبى الذى نجلس فوقه ، فيقضمه بأسنانه ، ويخلد إلى الصمت حتى يخيل إلينا أنه لا يحس منا وجوداً .

وهناك فى الحديقة أوغاد كثيرون ... أطفال أشقياء ، وشبان رقعاء ، وكهول سخفاء . يتجمعون من حولنا ويسبون الرجل سبا قبيحا ، حتى إنهم ليعيرونه بجنونه ، وهو يحملق فيهم وفى الفضاء ، ثم ينكس رأسه وتدمع عيناه ! .

وكان هذا المنظر المحزن الأليم يثير الضحك فى نفوس أولئك الجهلاء ، وقد تمتد إليه أيديهم فيهزونه وقد يلطمونه ، وهو لا يقوى على أن يصنع شيئاً إلا أن يبكى .

ونعود إلى المنزل مثقلين بالخزى والعار ، لأننا عجزنا عن أن نرد إساءات هؤلاء العابثين إليهم فنحن فتية صغار مهزولون لا نقوى على العراك والصراع .

فى هذه الأيام ذرعت أكثر أحياء القاهرة على قدمى ، وزرنا أهل البيت جميعا ، سيدنا الحسين والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة . والسيدة عائشة والسيدة سكينة ، ثم واصلنا مهمة زيارة الأولياء والصالحين .

وكان أخى الأكبر مالكيا فأدخلنى فى مذهبه . واليوم نزور ضريح « الخرشى » وغداً « سيدى أحمد الدردير » وفى الطريق نمضى إلى ضريح « العدوى » و « الصاوى » و ... عشرات من هذه الأضرحة جاهدنا فى سبيل الوصول إليها . فهؤلاء هم « السادة المالكية » وأخى يقدسهم جميعا .

وقبل أن أختم هذه الكلمة أود أن أشير إلى ظاهرة عجيبة شهدتها فى سماء الأزهر . وأرجو أن تكون قد تبددت اليوم حجب التعصب العنيف للمذاهب الفقهية . ولست أخلى من اللوم السادة العلماء فى ذلك الحين فإنهم كانوا ينفخون فى نار الخصومة .

كان المالكية يتهمون بالجمود والتأخر ، والشافعية يرمون بالغفلة والبلاهة . والحنفية يوصفون بالتحرر والابتذال : أما الحنابلة فكانوا قلة .

ويعود هذا التقسيم فى رأيى إلى طبيعة المناطق التى يفد منها طلاب هذه المذاهب ، فأكثر أبناء الصعيد من أتباع مذهب الإمام مالك وكذلك أهل المنوفية والجيزة والبحيرة والغربية . والأحناف من شتى البقاع ، ولكنهم كانوا يطمعون فى تولى القضاء الشرعى ، لذلك كانوا يتهمون بالتفريط والابتذال والتحرر ، والشافعية من أبناء الشرقية .

كذلك لاحظت التعصب الذميم من الناحية الإقليمية (الصعايدة) و (البحاروة) ، وقد وصل الأمر بينهما إلى إثارة معارك قتل فيها أبرياء .

* * *

وفى الساعة السابعة صباحا من يوم السبت ذهبت إلى مسجد ابراهيم أغا لأتلقى أول درس ! .

للحديث بقية

محمد على غريب

رسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه رسالة شرعت بها ؛ لإرسالها إلى صديق حبيب يدرس في بلاد الغرب ، ثم كسلت عن إكمالها ، فتركتها ، فلما قعدت أكتب مقالة هذا العدد ، أخرجتها فأتممتها ، وبعثت بها لتنشر لتعم منها الفائدة ، ويشمل النفع ، وليقرأها هذا الصديق مقالة في المجلة [1] إن فاته أن يقرأها رسالة في البريد .

أتذكر مقالي لك يوم ودعتك؟ لقد كنت خائفا عليك من هذه البلاد ؛ لأني أخافها - والله - على نفسي ، وقد شارفت حد الكهولة الأقصى ، وقد أعلنت خوفي يوم سفرك ، أعادك الله بالسلامة والنجاح ، فلما وردت كتبك ، رأيت فيها لسانا فصيحا ، وتفكيرا صحيحا ، وكلام رجل مؤمن . فاطمأننت عليك إلى حين - أقول إلى حين ؛ لأني أعلم أن المرء كالنبات ، يعيش بنفسه ، وبالأرض التي يمتص غذاءه منها ، والماء الذي يشربه والجو الذي يحيط به ، فإذا نقلته إلى أرض غيرها ، بدلته التربة التي انتقل إليها ، والجو الذي صار إليه ، ما لم يكن من النباتات التي أعطاها الله من القوة والتمكن ، ما يمنع عنها هذا التغيير والتبديل ، وذلك أندر من النادر ، وأقل من القليل .

وليس يظهر هذا التبدل من أول يوم ، بل يحتاج إلى الزمن الطويل ، إنه مرض في النفس شأنه شأن الأمراض كلها ، لابد لها من زمان تفرخ فيه (جراثيمها ...) وتنمو وتسيطر ، فترى الرجل تحسبه صحيحا وهو سقيم .

والمرء أبدا بين ماضيه وآتيه . يعيش بذكريات الماضي وبآمال المستقبل ، فإذا انتقل من مثل دمشق إلى باريز أو برلين مثلا ، ورأى لونا من الحياة جديداً ، وانطلاقا ميسورا بعد تقيد بقيود الدين والخلق ، ولهوا ممكنا بعد جد دائم ، لم يَبْدُ لهذه الحياة الجديدة أثر فيه وهو يعيش فيها ، بل ربما تنبهت في نفسه الذخيرة الدينية ، فازداد تمسكا إنما يبدو ذلك ويظهر ، ويعمل عمله ، إذا عاد إلى بلده ، فافتقد ذلك

---

[1] وانظر مقالتي (إلى أخي النازح إلى باريز) نشرت في الرسالة ٦ ديسمبر ١٩٣٧ وهي في كتابي (صور وخواطر)

الانطلاق ، وحن إليه ، وضاق بهذه القيود ، وثقلت عليه .

وقد شاهدنا هذا فى ناس من إخواننا عاشوا فى باريز مثل عيش الزهاد والعباد ، فلما رجعوا إلى دمشق هاموا على وجوههم ، كالحيوانات ، تسوقهم شهواتهم وحدها ، لا يهابون حراما ولا يخافون عارا ، ولا يحفلون بشىء . ولولا أنى لا أحب أن أعرض لأحد من الناس بعينه ، ولا يجوز لى أن أعرض لأحد ، لسميت لك رجالا بأسمائهم لتعرفهم .

وأنا ما سردت عليك هذه الفلسفة المزعجة ، إلا لتعلم أنك لا تزال تعيش بذخائر الماضى فى نفسك ، وبقايا آداب الصبا ، وأن الذى تدخره فى نفسك الآن من ذكريات هو الذى ستحيا به بعد عودتك ، فانتبه يا أخى ، بل يا ولدى ، لما ينطبع فيها ... واعلم أن لكل رفيق ترافقه ، وكل مكان تحله ، وكل كتاب تقرؤه ، وكل رأى تسمعه ، لكل من ذلك أثر فى نفسك ، لا تحس به ولكنه موجود كالبذرة الصغيرة فى الأرض : بذرة زيتون مثلا ، لا يراها أحد ولا يلتفت إليها ، ولكنها تصير يوما شجرة تضطر كل من يمر بها إلى أن يراها . وتبقى مائة سنة على حين يظن من ألقاها أنه نبذها ورماها . لذلك قال ابن عطاء الله السكندرى (١) .

« لا تمكن زائغ القلب من أذنيك ، فإنك لا تدرى ما يعلق بهما منه » .

وقد كنت عرضت لهذا المعنى ، فى بعض ما كتبت ، ولكنى أعيده عليك لأن من المعانى ما لابد فيه من الإعادة ، ولا يضر به التكرار .

ولقد ذهبت إلى مصر وأنا فى مثل سنك اليوم ، وأين مصر يومئذ (سنة ١٩٢٨) من باريس ؟ وكنت فى مصر مثلا مضروبا فى التشدد والبعد عن كل ما يحرم أو يشين ، وعدت منها وأنا أحسب أنى ازددت بسفرى إليها إيمانا وتمسكا ، وإذا المرض الذى داخلنى فيها عدواه قد تمكن منى ، حتى أنى لا أزال إلى اليوم أعانى أثر هذه الفترة فى عواطفى وفى أفكارى ، وما ذلك لفساد مصر بل لأننى غدوت فيها طليقاً . ليس فى الناس من يعرفنى فيراقبنى ، أو أعرفه فأتهيبه . وأنت فى بلد فاسد المحرمات فيه معلنة ، والمنكرات ظاهرة ، وإن إلف رؤية الحرام ، ودوام مشاهدته ، يهون على النفس اقترافه ، ويذهب منها هيبته ، نعرف ذلك من نسائنا المسلمات ، كان عهدنا بالواحدة من نسائنا ، أنها تضطرب وتجزع ، إن لمحها الأجنبى من فتحة الباب ، أو شق النافذة ، وتسرع فتتوارى . فصارت ترى الرجل فتقابل وجهه بوجهها ، وتثبت فى عينيه عينيها . وكان الرجل إذا رأى الأجنبى ينظر إلى زوجه ، استكبر ذلك واستنكره ، وهاج فى نفسه تصون المسلم ، ونخوة العربى . فتراخى الحبل حتى صار

---

(١) فى (الحكم) وهو كتاب لا يخلو من ضلالات ولكن هذه كلمة حق فيه .

الرجل يماشي امرأته في الشارع ، ويضاحكها في الطريق ، ويرافقها إلى السينما . وصار من العرب المسلمين ، من يقدم ابنته إلى الأجنبي ليراقصها ، يدني صدره من صدرها ، ويلف ذراعه على خصرها ، ويلامس بساقه ساقها ، وصار الأجنبي يأخذ الزوجة في هذه الحفلات الداعرة الفاجرة من زوجها ، ليرقص معها ، فلا تستعصم المرأة ولا تأبى ، ولا يغضب الزوج ولا يغار ، ولا يعجب الناس ولا ينكرون .

بل لقد سرى هذا الداء ، إلى نساء العلماء والصلحاء ، فصرن يكشفن الوجه حيث تؤمن الفتنة وحيث تخشى ، فإذا كشفنه لم يتحرجن من مسامرة الأجانب من الأقرباء في السهرة ، ومسايرة الأجانب من الأصدقاء في السفرة . يفعلن ذلك أولا بحضرة الزوج وإذنه ثم يفعلنه في غيبة الزوج وبلا علمه ، ثم يتبع الوجه الشعر ثم النحر ، والكف الذراع ثم الصدر ثم يكون هذا الحسور وهذا الفجور .

وهذا كله إنما كان تقليداً للإفرنج نفعله لأنهم يفعلونه . ولأن المستعمرين قد اغتنموا غفلتنا وهجوعنا ، في المائة سنة التي مضت ، وتأخرنا عنهم في طريق الحضارة المادية ، فلم يدخروا جهدا ، ولم يألوا وسعا ، في إشعارنا سبقهم إلى هذه الحضارة وتأخرنا ، وعلمهم بهذه العلوم وجهلنا ، وقوتهم بهذه الأسلحة وضعفنا ، حتى صار تعظيمنا إياهم ، وهيبتنا لهم ، حقيقة راسخة في نفوسنا ، اعترفنا بها أو أنكرناها .

وكان من نتائجها أن تركنا شريعتنا لقوانينهم ، وأخلاقنا لعاداتهم ، وفضائلنا لرذائلهم ، وكان هذا كله تقليدا على السماع ، ونحن في بلادنا ، فكيف إذا رآه الواحد منا بالعيان ، وهو في بلادهم ، وكيف إذا كان الرائي شابا متلهب الغريزة ، متوقد العاطفة ، يحمل بين جنبيه نفسا قد حشيت بالبارود ؟

ماذا يصنع الشاب الذي كان في بلاده ، يفكر في المرأة ليله ونهاره ، صورتها أبدا في خياله ، وحديثها أبدا على لسانه ، يثيره مرآها على بعد مائة متر ، فصار إلى بلد ، يرى فيه حيثما تلفت أسراب الحسان المثيرات ، كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، لا يكلفه نيلهن إلا أن يشير بيده ، فيترامين عليه ، لا يحجزهن دين ، ولا يمنعهن عرف ، ولا يمسكهن حياء . في معشر يرون من المدنية أن تستباح الأعراض ، ويتسافح الفتيان والفتيات ، قد هانت المرأة حتى صار عرضها يبذل في ملء بطنها وستر جسدها ، وصارت تنال بغذاء وكساء .

فماذا يصنع الشاب في هذه المحنة ؟ .

وكيف يغفل الآباء عن هذا البلاء ؟ .

لو سمع الأب أن في هذا البلد الذي يبعث إليه بابنه وباء فتاكا ، وأن (احتمال) إصابة ولده به واحد في الألف لما أرسله إليه ولو كان فيه علم الأولين والآخرين ، فكيف يرسله إلى بلد (احتمال) إصابته فيه بخلقه ، وتفريطه فيه بعفافه ، وتهاونه فيه بدينه تسعمائة وتسع وتسعون في الألف ؟ .

لقد حدثنى الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى عما رآه فى أوربا لما ذهب إليها للتداوى - عافاه الله وأتم عليه نعمة العافية - فسمعت والله شيئا أعجب من العجب ، وأيقنت أنه لو امتحن العجوز العابد بما يمتحن به شبابنا هناك لخيف عليه والله السقوط .

ذلك لأن النفس البشرية مفطورة على ابتغاء اللذة ، وقصد الراحة ، وترك العناء ، ميالة إلى الانطلاق ، ولأن الانحدار إلى المعصية أهون من التسامى إلى الطاعة ، كالماء أفلته ينحدر إلى قرارة الوادى ، وأصعده لا يصعد إلا بمضخة ، لذلك قل فى الناس الطائعون ، وكثر العاصون ، وكثرت جرائدهم ومجلاتهم وأماكنهم ووسائلهم إلى ماهم فيه ، إن الرجل الفاسد يلوح للشاب الصالح بالجميلات وما يقدر من اللذة بقربهن ، والخمر وما يتوهم من اللذة بشربها ، والقمار وما يؤمل من الربح بتعاطيه ويأخذه إلى المراقص والمشارب وكل مكان لذة فيفسده . فإلى أين لعمرى يأخذه الرجل الصالح ليصلحه ، وما الذى يغريه به ، إلا أن يعده الآخرة الغائبة بدلا من الدنيا الحاضرة ، وذلك مطلب عال لا يصعد إليه إلا بجهد دونه جهد السجن والضرب والقتال . لذلك جعل الله هذه المنزلة لمن يؤمن بالغيب ، وكرر الثناء عليه فى القرآن ، ولذلك أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن سبعة يظللهم الله بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، يوم الحشر للحساب ، منهم الشاب الذى نشأ فى طاعة الله ، وقاوم مغريات الشباب ، ومنهم رجل دعته امرأة ذات جمال حتى إذا تمكن منها ، ذكر الله فقام عنها .

* * *

إن سفر الشاب وحده إلى أوربة ، خطر مؤكد ، ولكن الآباء ، لا يتنبهون إليه ، ولا يفكرون فيه .

إنهم يربون الولد على العفاف ، ويحمونه من فتنة النساء ، حتى إذا ما ظنوا أنه استقام وصلح ، ووطن نفسه على العفة والتقى ، وطوى جوانحه على مثل النار الآكلة من لذع الشهوة . نقلوه إلى بلد كل شىء فيه مباح ، الفتن فيه تحف به من كل جانب ، وقد زالت الموانع ، وسقطت الحدود ، فليس دون المعصية حد ، لاحد الدين فى بلد لا يدين بدين الإسلام ، ولا حد العار فى بلد لا يرى العار عارا .

فهلا فكر الآباء ، فى مصير أولادهم حين يبعثون بهم ليدرسوا فى ديار الغرب ؟ .

* * *

وبعد ، فقد ذهبت - أنت يا أخى - وقضى الأمر ، فاجعل خوف الله بين عينيك ، وتصور دائما ذهاب لذة المعصية وبقاء عقابها ، وذهاب ألم الصبر عنها وبقاء الثواب عليه .

واسأل الله العون ، واستمد منه القوة ، والسلام عليك ورحمة الله ، وأستودع الله دينك وخلقك . ؟

دمشق **على الطنطاوى**
مستشار محكمة النقض

تشقيق المعنى [١]

للدكتور تمام حسان

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم

كل دراسة للغة لابد أن تتجه إلى الكشف عن المعنى مهما كانت طبيعة هذه الدراسة ومهما كان المنهج الذى تستخدمه . غير أن وجهة النظر قد اختلفت حيال المعنى باختلاف المفكرين وباختلاف نواحى تخصصهم . فللفلاسفة نظرة إلى المعنى وللنفسيين أخرى واللغويين ثالثة وهلم جرا . . . فأما الفلاسفة فيعالجون المعنى فى كلامهم فى الإبيستيمولوجيا وهى فرع من الفلسفة يدور حول نظرية المعرفة ويدخلون إلى الكلام فى مشكلة المعنى من مدخل العلاقة بين الدوال والمدلولات . وهذا الاتجاه واضح جداً فى كتاب من تأليف أوجدن وريتشار اسمه : The Meaning of Meaning أو يتخذون هذه الدراسة فرعا من فروع الإيجابية المنطقية Logical Positivism فيتكلمون عن المعنى فى معرض النظر فى تحديد دلالة الكلمات المستعملة فى قضايا المنطق ويتضح هذا الاتجاه فى كتاب ألفه كارناب وجعل عنوانه Logical Syntax كما يشرحه كتاب ألفه جود العالم الانجليزى وعنوانه :

A Critique of Logical Positivism

وأما النفسيون فإنهم يعالجون مسلك النفس فى الربط بين الرمز وبين مايقصد به فيجعلون دراسة المعنى دراسة لعملية عقلية خالصة . وأشهر المدارس النفسية التى ارتبطت برأى خاص فى هذا هى مدرسة السلوكيين . وأما اللغويون فما زالوا يتكلمون عن المعنى فى ظل الفلسفة حينا وفى ظل الدراسة النفسية حينا آخر حتى أهل فجر الدراسات اللغوية الحديثة ونشأت دراسة خاصة للمعنى تسمى السيمانتيك Semantics أو نظرية المعنى .

وإذا كان الكشف عن المعنى هو الهدف الذى تتجه إليه دراسة كل فرع من فروع البحث اللغوى على حدة ، فإن اللغويين قد شققوا المعنى إلى ما يسمى معنى الوظيفة ومعنى المعجم والمعنى الاجتماعى السيمانتيكى وجعلوا من قبيل معنى الوظيفة معنى الصوت فى المنطوق ومعنى الحرف فى الكلمة ومعنى المقطع والنبر والنغمة التى فى المنطوق ثم معنى

الصيغة الصرفية ومعنى الباب النحوى وجعلوا المعنى المعجمى هو معنى الكلمة بالنسبة لمدلولها الذى تدل عليه ، أى مع صرف النظر عن صيغتها وبابها وهلم جرا ... كما جعلوا المعنى الاجتماعى هو المقصود من المنطوق الذى قد يكون مركبا من كلمة واحدة ، أو من جملة طويلة تتألف من عدد كبير من الكلمات . وجعلوا الوصول إلى هذا المعنى الاجتماعى يتم بطريق التحليل الدقيق للملابسات المصاحبة للنطق والتى تسمى context of situation . ويرى القارئ كل ذلك مفصلا فيما بين صفحتى ١١٦ و ١٢٦ من كتابى « اللغة بين المعيارية والوصفية » فليرجع إليه إن شاء .

وهدفى من هذا المقال أن أضع تخطيطاً جديداً لتشقيق المعنى ينبنى فى أساسه على ما قال به اللغويون المحدثون ، وينفرد بمنهج خاص فى تحديد بعض المصطلحات العربية والانتفاع بها فى الأغراض العملية لهذا المقال . وأول شىء أننى أريد أن أتوقى استعمال لفظى الكلمة والجملة فى غير الكلام عن المعجم ؛ لأن هذين اللفظين محملان بحمل ثقيل ، من تقاليد الاستعمال فى النحو والبلاغة والمعجم . فلو أننا حولناهما إلى معنى اصطلاحى جديد يخالف ما جرى عليه الاستعمال فلربما وجد القارئ مشقة فى ملاحقة هذا المعنى فى غضون هذا المقال . ولهذا فإننى حين أتكلم عن المعنى الوظيفى من جهة وعن المعنى الاجتماعى من جهة أخرى سأستعمل اصطلاحا جديداً هو المنطوق ليدل على ما يشملهما معاً (أى الكلمة والجملة) وليدل كذلك على أن المعنى الذى ندرسه هو معنى نص حى يجرى على اللسان ولا يستخرج من كتاب . فكل ما يلفظه المتكلم بقصد الاستعمال اللغوى فهو منطوق بالمعنى الذى نقصده هنا . أما حين الكلام عن معنى المعجم فسأعود إلى استعمال لفظى الكلمة والجملة واستخدامهما بمعناهما التقليدى وأود الآن أن أدرس المعنى بواسطة تشقيقه إلى ثلاث نواح هامة هى :

(١) المعنى الوظيفى . . . أو الوظيفة .
(٢) المعنى المعجمى . . . أو الإطلاق .
(٣) المعنى الاجتماعى . . . أو المقصود .

وأنا أفضل بعد الآن أن أستخدم اصطلاحات « الوظيفة » و « الإطلاق » و « المقصود » على المعانى المقارنة لكل منها . وسأشرحها وأبين معناها الاصطلاحى حتى تتضح للقارئ .

فأما الوظيفة فهى معنى الصوت ومعنى الحرف ، ومعنى المقطع ومعنى الظاهرة الموقعية من ظواهر النطق ، ثم هى معنى الأدوات والملحقات والصيغ الصرفية ، ثم هى معنى الأبواب النحوية . فأما الصوت فإنه يؤدى وظيفة هامة فى المنطوق ، من حيث يتميز المنطوق عما يشبه بما به من أصوات وقد يكون معنى المنطوق متوقفاً

على صوت واحد من أصواته ، كالفرق بين «نال» و «مال» أو على صفة من صفات أحد أصواته كالفرق بين الجهر والهمس فى «زاد» و «ساد» . وإذا أمكن للصوت أو صفته أن يكون دعامة يقوم عليها معنى المنطوق ، فلا شك إذن أن الصوت ذو معنى فى نفسه ، وهذا المعنى هو وظيفته التى يؤديها فى المنطوق ويمكن تحديد هذا المعنى تحديداً سلبيا بذكر نواحى الخلاف بين الصوت وشبهه ، كما يمكن أن يحدد تحديدا إيجابيا بذكر مخرجه وصفاته مع ربط ذلك ربطا تاما بالنظام الصوتى فى اللغة التى ينتمى إليها هذا الصوت .

وإذا كان الصوت عملية نطقية تدخل فى تركيب المنظمة الصوتية للغة فإن الحرف وحدة فكرية دراسية أو وحدة نفسية (على خلاف بين العلماء) تدخل فى تركيب المنظمة الأبجدية لهذه اللغة . وإذا قام علم الأصوات phonetics على دراسة الصوت دراسة عملية تقوم على الاستماع والتسجيل فإن علم التشكيل الصوتى phonology يقوم على دراسة الحرف دراسة نظرية تقوم على التجريد والتقسيم . وإن الحرف الواحد كالنون مثلا ليضم تحته عدداً من الأصوات التى تختلف من حيث المخرج ، إذ يختلف نطق النون بين الإظهار والإخفاء والإقلاب والإدغام، وهذا مما يوضح لنا الفرق بين الصوت وبين الحرف بالمعنى الذى نقصده منهما فى هذا المقال .

وكما يفرق بين المنطوق والمنطوق بتحديد وظيفة الصوت يفرق بينهما بتحديد معنى الحرف ، بل إن وضع اللغة فى أساسه لم يقم إلا على أساس التفريق بين الحروف من حيث الوظيفة . ويتضح ذلك حين نستخرج حرفا من الكلمة (وليسمح لى القارىء باستعمال لفظ الكلمة هنا) أو نضيف إليها حرفا أو نحل حرفا فيها محل حرف منها فنجد المعنى المعجمى يتغير بهذا الإجراء . وإن المنظمة الأبجدية بكل لغة لهى أساس دراستها النظرية إذ تبنى من الحروف كلمات اللغة وصيغها الصرفية وموادها المعجمية وأصولها وزوائدها وهلم جرا... وكل ذلك تقوم دراسته على تعيين وظائف الحروف لا على وظائف الأصوات .

وللمقطع وظيفة فى تحديد حدود الصيغة الصرفية وفى خلق الإيقاع الخاص الذى يمتاز به النطق بلغة من النطق بلغة أخرى . فأما وظيفته فى تحديد حدود الصيغة الصرفية فتتضح فى التفريق بين «فعل» و «فاعل» مثلا إذ أن الفرق بين الصيغتين فرق بين المقطع الأول فى هذه وبينه فى تلك إذ هو قصير فى فعل متوسط فى فاعل . وإذا أراد القارىء معرفة المقاطع وكمياتها المختلفة فى اللغة العربية معرفة مفصلة فليرجع إلى كتابى «مناهج البحث فى اللغة» . وأما وظيفة المقطع فى خلق إيقاع خاص باللغة تتميز به عن سواها فهى وظيفة شديدة الصلة كذلك بالنبر، لأن النبر يرتبط ارتباطاً أساسياً

بترتيب المقاطع وكمياتها في النطق وسيأتي الكلام عن هذه الوظيفة عند ذكر وظيفة الظواهر الموقعية .

والمقصود بالظواهر الموقعية الظواهر النطقية التي يتوقف ورودها على الموقع الذي تقع فيه من المنطوق ، فهمزة الوصل مثلا تظهر في مبدأ المنطوق وتختفي في وسطه ، فظهورها مرتبط بموقع خاص وهي لهذا ظاهرة موقعية . ولقد فصلت الكلام في الظواهر الموقعية في اللغة العربية في كتابي « مناهج البحث في اللغة » أيضاً . وأشهر هذه الظواهر النبر والتنغيم وذلك لوجودهما في اللغات جميعها .

ويلاحظ القارئ حين يتكلم أن في المنطوق أجزاء معينة يعلو الصوت عند نطقها علواً خاصاً وهذا العلو نتيجة لازدياد ضغط الهواء المنبعث من الرئتين عند نطق هذه الأجزاء من المنطوق ضغطاً أشد مما مع نطق بقية الأجزاء . فحين تنطق لفظ الجلالة « الله » تلاحظ أن اللام الثانية أوضح في الأذن من بقية أصوات هذا المنطوق وحين تنطق « محمد » تكون الحاء أوضح الأصوات وكذلك الميم الثانية في « محمود » والهمزة في « أحمد » . وإن بعض اللغات ليتخذ النبر وسيلة صرفية للتمييز بين معاني الصيغ فإذا وقع النبر على الصوت الأول عند نطق الكلمة الانجليزية control فهي اسم وإذا وقع على صوت r كانت الصيغة فعلا والمنبور حينئذ هو المقطع الأخير . أما أشهر وظيفة للنبر فهي خلق الإيقاع الخاص باللغة والذي تفتقده الأذن العربية في كلام الأجانب باللغة العربية ، حيث لا يمكنهم أن يحددوا أطوال الأصوات تحديداً دقيقاً فيطيلون أصوات الحركات ويقصرون أصوات المد ويفردون المشدد ويشددون المفرد ومن ثم يختل البناء المقطعي للكلام وينتفي في كلامهم الإيقاع العربي المخصوص الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعنى .

والتنغيم رفع الصوت وخفضه بحسب المعنى أثناء الكلام ولكل نغمة في الكلام معناها الخاص ، ولو أخذنا منطوقاً مثل « ياسلام » ثم حاولنا أن نعبر به عن معنى التأثر ثم الشك ثم التأنيب ثم السخرية ، وغير ذلك من المعاني لوجدنا دلالتها على هذه المعاني المختلفة ترتبط بالنغمة ارتباطا تاما ، بل إن للاستفهام نغمة غير نغمة التقرير والنفي ، ولكل ذلك نغمة تختلف عن نغمة التأكيد ، ونغمة الغضب غير نغمة الغزل . والأمر يختلف في النغمة عن الرجاء والتوسل ، وهلم جرا أي أن النغمة الخاصة المرتبطة بموقع معين من الكلام يتحكم المعنى في ورودها .

والصيغة الصرفية معنى من حيث هي صيغة أي بقطع النظر عن الكلمة التي توضع على مثالها ، ويجد القارئ فصلا خاصا في كتب الصرف لتحديد معاني صيغ الزيادة على حين

يرد تحديد معنى الصيغ الأخرى فى عرض الكلام عن كل منها . والملاحظ أن المعانى المذكورة هى فى الحقيقة الوظائف التى تؤديها هذه الصيغ وليست معانى كالمعانى المعجمية العرفية التى تعطى الكلمات المفردة .

أما الأبواب النحوية فليست إلا وظائف تؤديها الكلمات فى السياق ونحن حين نعرب أى مثال من أمثلة النحو لا نقنع بكلمات المثال كما هى ، وإنما ننسب كل كلمة منها إلى باب نحوى خاص هو الوظيفة التى تؤديها فى السياق ، فنقول ضرب فعل ماض ، أى أن الوظيفة التى يؤديها لفظ ضرب هنا أنه يقوم بدور الفعل الماضى فى السياق ، ويقال نفس الكلام عند إعراب « زيد » بأنه فاعل و « عمراً » بأنه مفعول فكل هذه وظائف تؤديها الجزئيات التحليلية التى فى المنطوق ، ولا مهرب من جعل هذه الوظائف جزءاً من المعنى العام ؛ لأننا لو تجاهلنا لم نستطع تحديد هذا المعنى ولساد الغموض فى المنطوق تماما ، ولكان مثلنا مثل الذى يتصدى لتشريح الجسم وهو جاهل تماما بوظائف الأعضاء .

هنا ينتهى الكلام فى « الوظيفة » ويبدأ الكلام فى « الإطلاق » وهو الشق الثانى من المعنى ، ومعنى الإطلاق يختلف فى أساسه عن معنى الوظيفة من حيث : إن الوظيفة معنى الجزىء التحليلى كالصوت والحرف إلخ . وكل ذلك لا يمكن أن ينعزل عن السياق ويستقل عنه ولكن الإطلاق هو المعنى العرفى المعجمى الذى أعطى للكلمة بالوضع ويصلح لأن يسجله المعجم ، كما تصلح الكلمة لأن تستقل عن السياق ، ويمكن تحليل طبيعة هذا المعنى المعجمى الذى سميناه الإطلاق إذا نظرنا فى طبيعة العلاقة بين الكلمة وبين المدلول ونظرنا نظرة أعمق فيما يقصد بلفظ الدلالة هنا .

قلنا : إن العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها علاقة عرفية اعتباطية لا سند لها من الطبيعة ولا من المنطق . وإنما لم يكن لها سند من الطبيعة لأن العلاقة الطبيعية بين الرمز ومعناه محكومة إلى حد ما بطرق التأثير الطبيعية وما يتحكم فيها من قوانين ، وذلك كعلاقة النغمة الموسيقية بأثرها فى النفس ، وعلاقة تقلص المعدة بطريقة خاصة بما يفهم منه من معنى الجوع . وإنما قلنا إنها لا سند لها من المنطق ؛ لأن العلاقة المنطقية بين الرمز ومعناه تتحكم فيها قوانين الفكر ، وذلك كالعلاقة بين أثر الأقدام على الرمال وبين المعنى الذى يفهمه من ذلك قصاص الأثر إذ يصل إلى استنباط هذا المعنى بتفكير معين بسيط أو معقد ولكنه منطقى على أى حال .

أما العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها فهى علاقة عرفية اعتباطية لا يمكن تعليلها لا بعلة غائية ولا بعلة صورية ، وإنما تقبل قبول

تسليم لأنها جاءت نتيجة التعارف .

دعنا إذن نسم هذه العلاقة الاعتباطية بين الكلمة وبين معناها باسم الدلالة ثم نقل بعد ذلك : إن المعنى المستخرج بواسطة هذا الربط هو ما نقصده باصطلاح « الإطلاق » أو المعنى المعجمى . أى أن موضع الكلمة من المدلول والدلالة يكون على الوضع الآتى :

الكلمة	الدلالة	المدلول
(أى وحدة اللغة)	(أى العلاقة)	(أى المراد)

وهذا المعنى المعجمى « الإطلاق » معنى عام جدا يقوم على فرض استقلال الكلمة وإمكان دلالتها بمفردها . والكلمة وحدة اللغة (أما المنطوق وسيأتى ذكره فهو وحدة الكلام لا اللغة) ونقصد باللغة هنا مجموع الأنظمة النحوية والصرفية والمعجمية والصوتية . وإن نسبة أى معنى إلى الكلمة لابد أن يكون على أساس دراسى لغوى بحت محروم من العنصر الاجتماعى الذى لا بد أن يتوافر فى حياة اللغة اليومية أى أن المعانى التى ينسبها المعجم إلى الكلمات معان غير اجتماعية من جهة ، وعامة عموما كاملا من جهة أخرى . أما أنها غير اجتماعية فلأنها لا تستخرج من الكلمات وهى فى المنطوق وإنما تستخرج منها وهى منفصلة تماما عن النطق ؛ لأن الكلمة فى المعجم صامتة غير منطوقة . وأما أنها عامة فلأن الكلمة لا ينطقها الناطق (أى لا تصير منطوقا) فى العادة إلا وله منها مقصود واحد ، ولكن المعجم يسوق للكلمة الواحدة عدداً من المعانى لا يمكن بحال أن يقصد جميعه فى نفس الوقت .

ولتلافى هاتين الناحيتين من نواحى النقص فى « الإطلاق » نلجأ إلى دراسة « المقصود » وهو المعنى الاجتماعى المراد من المنطوق ، وإذا كان « الإطلاق » مطلقا بحكم تعدد المعانى فيه « فالمقصود » مقيد بما يصاحب تحليله من اعتبار الملابسات الخاصة التى هى « الماجريات » والعلاقة بين المنطوق وبين المقصود تختلف عن العلاقة بين الكلمة وبين المدلول من حيث إن العلاقة بين الكلمة ومدلولها علاقة اعتباطية ويسرى هذا التحديد على كل المعانى الواردة فى المعجم على حين نجد أن العلاقة بين المنطوق وبين المقصود به علاقة اجتماعية . ولو كانت العلاقة بين هذين الأخيرين اعتباطية لانعدمت دقة المعنى ولأصبح المعنى فى بطن الشاعر .

وهذا « المقصود » هو الشق الثالث من المعنى أى أن المعنى إما أن يكون وظيفة أو إطلاقا أو مقصوداً . ونود الآن أن

نقوم بتحليل منطوق تحليلا اجتماعيا لنستخرج منه المقصود أى المعنى الوحيد الذى قصد به ويتم هذا بتحليل « الماجريات » أو ما يسميه علماء اللغة context of situation ، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتى :

المنطوق .

التحليل اللغوى .

الماجريات .

نوع المناسبة .

الأثر .

والذى يوضع فى خانة المنطوق هو نص العبارة المنطوقة المراد تحليلها لمعرفة معناها ، وإن تحليل المنطوق تحليلا لغويا لينحصر فى خانة واحدة على حين تنفرد الاعتبارات الاجتماعية بثلاث من خانات الجدول ، ولن نعمد إلى المنطوق فنذكر كل شىء يمكن ذكره عن تحليله وإنما نختار من خصائصه اللغوية ما يستحق الذكر ، لارتباطه بالاعتبارات الاجتماعية المتقدمة الذكر ، ولاسيما الأثر الذى ترتب على النطق . كأن يكون بالنص خطأ يثير السامعين إلى التصحيح أو بالمتكلم لثغة تثيرهم إلى الضحك أو السخرية . والتصحيح والضحك يوضعان فى خانة الأثر من التوضيح السابق. والمقصود بالماجريات كل الملابسات المادية والاجتماعية المحيطة بنص المنطوق ويدخل فيها المتكلم والسامعون ، ونقصد بنوع المناسبة ما إذا كان الموقف موقف تعاون على عمل ما أو موقف زجر أو مدح أو ذم أو تحريض أو غير ذلك . أما المقصود بالأثر فنوع الاستجابة التى أعقبت نطق المنطوق .

ولقد حللت منطوقا معيناً فى ص ١٢٢ وما بعدها من كتابى « اللغة بين المعيارية والوصفية » وكان نص هذا المنطوق هو « قولوا له يسكت » وإن نوع التنغيم فى هذا المنطوق ليدل على معنى هو جزء من المعنى العام للمنطوق ولا بد أن يدخل فى تحليله . فقد يقال هذا المنطوق بصوت خافت فى مناسبة اجتماعية معينة هى الخوف من أن يستدل أحد بكلام هذا المتكلم المطلوب سكوته على مكان الجماعة التى هو منها . وإذا قيلت بصوت ساخر فقد تكون المناسبة هى المفاخرة بين شخصين وهلم جرا . ثم إننا نستطيع أن نحدد من الماجريات عدد هذه الجماعة على وجه التقريب فمنها المتكلم الذى نطق المنطوق ومنها الشخص الذى تكلم عنه ومنها المخاطبون وهم ثلاثة على الأقل بدليل واو الجماعة (اثنان فى العامية) كل أولئك إشارات إلى المعنى الاجتماعى المقصود وهو الذى قلنا : إنه أخص من المعنى المعجمى .

ولن يكون العنصر الاجتماعى فى المعنى إلا من خصائص النص المنطوق وأما النص المكتوب فهو داخل فى ماجريات أخرى

قد لا يجرى النطق فيها أبدا ، وقد تكون خلوا من العنصر الاجتماعى تماما كحين يقرأ المرء وهو صامت .

لنفرض إذن أن هذا المنطوق قد جرى فى معرض السخرية ولا بد حينئذ أن نضع فى خانة نوع المناسبة من الجدول السابق أن الموقف كان موقفا تطاول فيه رجل على رجل آخر بمحضر جماعة ولم يكن حقه أن يتطاول عليه ، فأراد هذا الآخر أن يرد عليه فلجأ إلى النطق بهذا المنطوق الساخر . الذى يوحى بأن السامعين يعلمون من نقائص هذا المتطاول شيئا كثيراً يجعلهم بموضع يمكنهم من الحكم عليه بالنقص ، وبهذا لا يكون الشخص الآخر بحاجة إلى الرد عليه بنفسه . وقد نضع فى خانة الماجريات أن السامعين لحرصهم على الوقوف موقف الحياد لم يقولوا للمتطاول شيئا بل صمتوا صمتا فيه شىء من الشعور بالحرج ، وتراوحت نظراتهم بين الإطراق والقلق والرجاء المتجه إلى المتخاصمين أن يكفا عن اللجاج . فماذا نضع فى خانة الأثر ؟ . قد نضع فيها منطوقا آخر يفوه به المتطاول كأن يقول : لا يستطيع أحد أن يسكتنى وليس عندى ما أخجل منه . وقد يقول موجها خطابه للسامعين : بل قولوا له هو يسكت حتى لا يندم على كشف أسراره ومخازيه . وقد يسكت فعلا مخافة أن يفضحه الشخص الآخر .

هنا يقع الفرق بين « الإطلاق » وبين المقصود ، أى بين المعنى المعجمى وبين المعنى الاجتماعى . فالمعجم يشرح معنى الكلمات وهذا التحليل يشرح معنى العبارات وحين يتناول المعجم الكلمات بالشرح لا يلتقطها من موقف اجتماعى معين وإنما ينظر إليها فى موقف دراسى بحت . وإذا كان لنا أن نفهم معنى عبارة « قولوا له يسكت » فى ضوء شرح مفرداتها شرحا معجميا لكان مجموع معنى المفردات هو : « اطلبوا إليه أن يكف عن الكلام » ، ولكننا قد رأينا أن المعنى الاجتماعى لهذه العبارة لا يقصر عند هذا الحد وإنما يشمل ما لا يؤخذ من النص أخذاً مباشراً مثل : أنتم تعلمون مقدار نقصه وتفوقى ولهذا أنا أسخر من تطاوله علىّ .

نخرج من هذا بنتيجة هامة هى أن المعنى هو وظيفة الجزىء التحليلى كالصوت والحرف والمقطع والظاهرة الموقعية والصيغة والباب ويضاف إلى ذلك الإطلاق الذى يعطى كل كلمة معناها المعجمى ولا بد لهذين الشقين فى المعنى من شق ثالث هو العنصر الاجتماعى الذى يكشف عنه بتحليل المنطوق منظورا إليه فى إطار الماجريات .

دكتور تمام حسان

وضع الربا في بناء الاقتصاد القومي

للأستاذ عيسى عبده ابراهيم

الأستاذ المساعد بكلية التجارة فى جامعة عين شمس

تمهيد : (١)

أما بعد ، فهذا حديث عن الربا ... الربا من حيث موضعه فى بناء الاقتصاد القومى . فما هو الربا ؟ وما هو الاقتصاد ؟ وما هو البناء ؟ .

البناء فى المجال الاقتصادى على وجه العموم، وفى المجال القومى على التخصيص .

هذه هى المفهومات التى يطالعنا بها عنوان المحاضرة ، ومن ثم فإنه يتعين عرضها بإيجاز حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نتلمس الموضع الذى يشغله الربا فى المجال المحدد لنطاق البحث .

وفى خصوص المعاملات الربوية ، وردت فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، طائفة من الأحكام .

(١) نص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ بقاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر .

ومن الطبيعى أن أتعرض لها بالقدر اللازم فى سياق هذا الحديث ...

وقبل أن أتخذ خطوة كهذه ، أود أن أبين رأيى فى هذا الأمر ... أى فى جملة الأحكام التى قررتها الشريعة الإسلامية بخصوص الربا ، وبخصوص المشكلات الاقتصادية وما يتصل بها من شئون تقع من بعيد أو من قريب فى المجال الذى شغلنى عشرات السنين .

وبالتالى فإن ما أقدمه فى هذه المحاضرة من قول لا هو عفو الساعة ، ولا هو مجرد فرض أتكهن به ، لعله يثبت على البرهنة . بل هو رأى بلغ مرتبة اليقين .

أحكام الإسلام :

فى رأيى أن الأحكام التى جاء بها الدين الحنيف ، لا تقبل التطور ولا التطوير ، لأن التطوير أسلوب تقدمى ، يستهدف الترقى إلى مستويات فوق ما هو كائن أو مألوف ولا يصح القول بالترقى إلا منسوبا لأمر مشوب .

بمعنى أنه لا بد من ظاهرة يكتنفها النقص أو العجز، ومن ثم يكون التكمل والاستيفاء. ولا بد من أمر أو حكم متواضع حتى يجوز عليه التهذيب والترقى.

ولما كانت أحكام الإسلام مستمدة من القرآن، أو تجد ضوابطها من آيات الله البينات، إذا كان مصدر الحكم بخلاف النصوص القرآنية، كالحديث والاجتهاد؛

ولما كان القرآن هو كلام الله القديم وأنه من عند عالم الغيب والشهادة، فإن أحكاما كهذه، بل هذه الأحكام على سبيل الحصر، قد تميزت على كل حكم أو رأى من قول البشر بأنها تنزلت كاملة شاملة، ومتفردة بالثبات الأبدى الذى يجعلها وحدها المعيار الصالح الذى تقاس به الظاهرات، وتوزن به الآراء والأحكام، لبيان ما فى اجتهاد الإنسان من توفيق أو من فساد:

أحكام الإسلام إذن بدأت منزهة عن النقص والعجز، وهى من أجل ذلك غير قابلة للتكمل ولا التوفية.

وأحكام الإسلام إذن بدأت رفيعة القدر، لتكفل للناس كافة مستوى من الحضارتين المادية والفكرية فوق كل مايخطر على قلب بشر، ولذلك لا يصح أن يضاف إليها دعوى التطوير بحجة الضرورة الملزمة أو تحقيق المصلحة، لعلها إذا تطورت، كانت مسايرة لمستويات من الحضارة ولأنواع من المعاملات لم تكن معروفة لعهد نزولها.

أما علم الإنسان فهو الذى يجوز عليه التطور والتطوير.

وأما المختزن من المعرفة من مشاهدات الإنسان وتجاربه، جيلا بعد جيل، فهو الذى يصح نسبة النقص إليه، ومن ثم يكون التكمل، ويكون الاستيفاء.

الاستدلال إنما يكون بالأسلوب العلمى:

ولنا أن نتساءل: كيف يستقيم الأسلوب العلمى فى البحث عن مدى الملاءمة بين مجموعة معينة من الأحكام، وبين التطور الحضرى الدائب، إذا كنا نبدأ القول برفع هذه الأحكام إلى مرتبة العقيدة؟.

ذلك أننا نتناول فى موضوعنا هذا بضعة أحكام خاصة بالمال، وهو بعض المتاع فى هذه الحياة الدنيا، وجاءت فيه آيات بينات، ولا نتناول فى بحثنا هذا حجية الكتاب وقدمه.

وأحكام الأموال، بما فيها أحكام الربا، هى فرع على أصل.

وحين نقول بثبوت الأصل، فإن الفرع يكون ثابتا بداهة،، ولا يجوز عليه التأويل

كما لا يجوز عليه التعطيل بحجة المصلحة أو الضرورة .

ومع ذلك فلننظر إلى بعض أحكام الأموال نظرة موضوعية خالصة ، دون أن نتأثر بجلال مصدرها ، قال تعالى فى سورة البقرة :

« ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو » .

وقال أيضا فى سورة الأعراف « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

فى هاتين الآيتين الكريمتين جاء ذكر « العفو » مقرونا بالإنفاق مرة ومقرونا بالأخذ أو بالتلقى والقبول مرة أخرى .

وقد صرفها المفسرون على وجوه كثيرة تشهد لهم بحسن النظر ، وبالإحاطة بفنون الكلام ، مع الحرص على جمع الروايات ما كان منها متواترا وما كان موقوفا وما كان محل إجماع أو دون ذلك .

ومن بين هذه الأقوال ما يصرف الحكم إلى فائض المال أو اليسير منه ... وحده امتناع الإرهاق .

وللمفسرين أقوال أخرى معلومة ، ومنها صرف القول إلى الصفح والمغفرة . وأن الآية الواردة فى سورة الأعراف قد جمعت مكارم الأخلاق ... وكل هذا حسن .

إلا أن الرأى البادء يصرف لفظة العفو فى كل من الموضعين إلى اليسير من المال ، أو الزائد على الحاجة ، بحيث إن إنفاقه لا يوجع ، وبحيث إن أخذه فى صورة زكاة أو مساهمة فى تجهيز غزوة ، مثلا ، لا يوجع أيضا . ولهذا الفهم سنده من أقوال المفسرين الأعلام وهو إن كان قد ورد مع غيره من وجوه التفسير إلا أننا سنصرف النظر عما عداه ، فنقول : الله جلت قدرته يعلم أن المال من زينة الحياة الدنيا ، وأن إخراجه بغير عوض معجل أو حاضر هو من الأمور التى لا تنشط إليها الهمة . ولذلك حث على الإنفاق ، ووعد بالأجر المضاعف فى عديد من الآيات .

إلا أن كلا من الأخذ (كأخذ الزكاة) والإنفاق (كالإنفاق فى سبيل الله من صدقة ونحوها) يجب أن يخضع لمعيار ثابت تطمئن إليه النفس البشرية ، فلا تجزع من تقرير الفرائض المالية التى تنتقص بحكم اللزوم من المال الخاص بغتة ومن غير ضابط .

فأما هذا المعيار الثابت فهو أن يكون حد المال المخرج « عفوا » بمعنى زائدا .

وفى القاموس أن العفو من المال هو أحله وأطيبه ، ومن الماء ما فضل عن الشاربة .

فأما قصر الأخذ على حل المال وأطيبه فلا يتفق مع بقية الأحكام الواردة فى القرآن ، ولا التطبيقات التى ارتآها السلف الصالح ...

قال تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

فإذا كان صاحب المال يخرج بعضه ليطهر نفسه وليزكيها - إذا شاء الله - فإنه ليس حتما أن يكون ماله فى الأصل ، هو أحل المال وأطيبه ... وفى سورة التوبة قوله تعالى « ... حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وفيما جمعه القاضى أبو يوسف فى كتابه (الخراج) قوله : « وأيما قوم من أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم ، وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة ، وأرضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ، ويوفى لهم ولا يزاد عليهم » .

إذن أخذ المسلمون الجزية كما أخذوا الخراج ، ولا محل للقول بأن المال الذى أخذت منه هذه الفرائض قد كانت من المال أحله وأطيبه .

وقد يحتج على هذا القول بأن الضمير فى قوله تعالى : « خذ من أموالهم ... وفى قوله تعالى ، ويسألونك « ماذا ينفقون » إنما ينصرف إلى أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

إلا أنه يلاحظ أن سيدنا عمر وهو أول من دون الدواوين ، قد اتبع مفهوم لفظة العفو بمعنى الزيادة أو البقية أو الفضل ، فى فرض الجزية فأعفى المسن والمرأة والطفل والمريض ، على أساس العجز أو امتناع توافر ما يؤخذ منه ، وهو العفو من المال كما اتبع فى فرض الخراج تدرجا يحقق من العدالة ما يتفق وأخذ الفريضة من فائض المال . ومن ثم فإن الحكم عام ، ويتعين النظر إلى فائض المال وهو « العفو » عند وضع المبادئ التى تعين الأوعية المالية ، سواء فى ذلك أكانت هذه الأوعية المالية لمسلم أم لذمى .

ومما تقدم يمكن القول باطراح أحد المعنيين الواردين فى القاموس ، وهو القول بأن العفو من المال هو أحله وأطيبه فى خصوص ما نحن بصدده من تحديد معنى العفو فى الآيتين الكريمتين .

ويبقى أخيرا المعنى البديهى الذى يتفق مع سياق القول فى كل من الآيتين الكريمتين ، والذى يتفق أيضا مع بعض الوجوه التى قال بها المفسرون ، وما فهمه سيدنا عمر ، وهو أن لفظة « العفو » فى الموضعين ، ترمز إلى فضلة من المال ، أو زيادة يكون أخذها أو الأخذ منها فى حدود الطاقة بحيث يكون الحرمان منها محتملا .

فلننظر إذن إلى لفظة واحدة وهى لفظة « العفو » لنرى ما انطوت عليه من تحديد الوعاء الذى يغترف منه ولى الأمر لتحقيق المصالح العليا للمجتمع ، ولتحقيق المصالح العامة أيضا ، وهذا الوعاء بذاته هو الذى

يندب الإنفاق منه فى سبيل الله ، وبيان ذلك : بقيت هذه الآية الكريمة بنصها ومحكمها أربعة عشر قرنا من الزمان دون إضافة أو حذف ؛ لتقرر حكما فى شئون المال ، وهذا الحكم هو المستقر فى مفهوم قوله تعالى فى وصف الوعاء الذى يؤخذ منه ، بلفظة مفردة هى « العفو » .

ولكن ما هى الأدوار التى مر بها الفقه المالى بعيداً عن حكم القرآن .

كانت الأموال الخاصة تصادر ، وكانت الفرائض تجبى بطرق بدائية فى ظل الإقطاع . وكانت الأرض ومن عليها تعهد إلى المقاولين (ويعرفون فى التاريخ بالملتزمين) لقاء عدد من أكياس الذهب أو الفضة تقدم إلى الخزانة العامة ، أو إلى جيب الوالى ، أو الأمير أو الحاكم به ... وليطلق الملتزم بعد ذلك عماله وأعوانه لتحصيل الفرائض والمكوس بالعنف وبالقسوة . ومن الصور التى حفظها التاريخ لهذا العنف ، الضرب بالسياط ومصادرة المنقول من قوت أو ماشية . ولذلك كانت الإدارة المالية نوعا من التخريب والفوضى . وسادت هذه الحال فى الغرب ، ومن أسف أنها عرفت فى بلاد المسلمين بعد أن مال الميزان حول القرن الرابع عشر ، وزادت لعهد المماليك فى ظل الدولة العثمانية .

ولكننا نريد أن نقترب من نور علم الإنسان ، وقد ظهرت أماراته فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أوائل القرن التاسع عشر ، بمناسبة التكتل الأوربى والبريطانى لملاقاة نابليون ، وعندئذ عرفت الضرائب المنظمة لأول مرة فى تاريخ الغرب ، ونشط علماء الاقتصاد لوضع نظريات الفرائض المالية فقالوا أولا « بنظرية المنفعة » .

وتتلخص هذه النظرية فى أن حق الدولة على الرعية إنما يقرره ذلك القدر من النفع الذى يعود على الفرد من مباشرة الدولة لوظيفة عامة معينة .

ولئن كانت هذه النظرية قد تخاذلت وأفسحت لما هو خير منها ، إلا أن لها بقية ورثها القرن العشرون ، ولنضرب مثلا يحدد ماهيتها ... وجدير بهذا المثل أن يكون واضحاً كل الوضوح لأنه يجلو واحداً من القيود الفكرية التى ورثها القرن العشرون من العصور الخالية .

ففى رسوم المرور يدفع صاحب سيارة النقل سبعين جنيها — تقريباً — فى السنة ، على تفاوت يسير لا يمس الجوهر . ويدفع صاحب السيارة الصغيرة عشرة جنيهات فى السنة . وهذه الرسوم تجد علتها فى انتفاع كل من الأول والثانى ، بالطرق وبتنظيم المرور .

وأساس الإثقال على سيارة النقل هو أنها تستهلك الطريق وتشغله بما يزيد أضعافا على ما يتأتى من السيارة الصغيرة .

إذن صاحب سيارة النقل ينتفع من الطريق العام بأضعاف ما ينتفع الآخر ، وتقضى العدالة — فى نظر المؤمنين بنظرية المنفعة — بهذا التفاوت فى أوزان الرسوم .

ولا يمكن لفقهاء المال أن يسكتوا عن تبرير هذا الأسلوب المجافى للعدالة ، ولذلك نراهم يقولون بأنه لا يجوز الخلط بين الرسوم وبين الضرائب .

فالرسوم تجبى لقاء خدمة أو منفعة معلومة بذاتها . على حين أن الضرائب تجبى دون نظر إلى مقابل معين بذاته . ويرتبون على هذا الجدل أن تأسيس الرسوم على نظرية المنفعة لا غبار عليه . وفى هذا الدفاع شبهة من الوجاهة ، ولكننا حين ندرس رسوم الجمارك نجد أنها تثقل على الضعيف ، وتخف عن الغنى ، وبالتالى تخرج عن مفهوم العدالة فى توزيع التكاليف فى بعض الحالات (كما فى رسوم التبغ) وإذا سئل فقهاء المال فإنهم يقولون هذا باب، هام من أبواب الإيراد لا يمكن أن نلتزم فيه بتطبيق نظرية المقدرة — وهى أحدث النظريتين — ويكفى لصبغ هذه الفريضة بصبغة العدالة اللفظية أن نطلق عليها هذه التسمية « رسوم » ، وبعد ذلك نكون فى حل من قيود العدالة المطلقة ...

وكل ما تقدم من أقوال فقهاء المال ، بخصوص رسم السيارة ورسم الجمرك ، لا يثبت على النقد حين يرد إلى المعيار الإلهى فى قوله تعالى : « خذ العفو » ولكن مجال الحديث لا يحتمل مزيداً من الإطالة فى هذا الخصوص، وإنما نضرب الأمثال على ثبات حكم الإسلام فى مستواه الرفيع من ضمان العدالة الاجتماعية، وتعثر العلماء فى اجتهادهم وفى هذا بلاغ .

لم تكن نظرية المنفعة إذن بقادرة على مواجهة النقد المؤسس على تفسير لفظة العدالة فوقف العمل بها — إلا فى حالات أشرنا لبعضها — وقال الفقهاء بنظرية القدرة ، أى قدرة الفرد على إمداد الخزانة العامة ، ببعض ماله الخاص .

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان الفقه المالى قد بدأ يتكون كما كان علم المالية العامة قد انسلخ من علم الاقتصاد ، وكان من قبل فرعا منه .

ونشطت الأقلام المقتدرة لتحديد الضوابط والمعايير التى تؤدى إلى تحديد قدرة دافع الضريبة ، خلال القرن التاسع عشر ، إعمالا لنظرية المقدرة .

واتجه الرأى بادئ ذى بدء إلى تقرير نسبة مئوية واحدة مثل ٥ ٪ . ثم تبين أن استقطاع خمسة جنيهات من صاحب المائة

فحسب ، هى أشد إيلاما من استقطاع خمسين من صاحب الألف ، مع وحدة النسبة المقررة للضريبة .

ومن ثم فإن النسبة الموحدة لا تحقق العدالة .

فقيل بالتصاعد والتدرج ، لتقريب وقع الضريبة على كل من الغنى والفقير .

... ثم تبين أن صاحب الألف قد يكدح ويشق فى سبيلها كصاحب المهنة مثلا ، على حين أن غيره من أصحاب الألف أيضاً (كإيراد سنوى) يحصل عليها بغير عناء لأنها تجىء من مورد ثابت كأرض أو عقار ...

وهكذا تبين مرة أخرى أن التصاعد وحده لا يحقق العدالة على وجهها الصحيح ، فدخل التفاوت على الفئات لإثقال التكليف على صاحب الإيراد الثابت ، وتخفيفه عن صاحب الإيراد المكتسب .

ولكن الظروف الاجتماعية لزيد من دافعى الضرائب ، لا تطابق حتما ظروف غيره . فمن الممولين من لا أسرة له ، ومنهم من ينوء بالتبعات للأهل والولد ... ومن ثم قيل بالتخفيف المعين المحدود ، على أساس تقرير ما يعرف بالإعفاءات من أجل نفقة ملزمة لوالد شيخ ، مثلا ، ولنفقة الزوج والولد ، على تفصيل لا يدخل فيما نحن بصدده .

ولئن كان آدم سمث ، أستاذ المنطق والاقتصاد فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر ، قد وضع أسس الضريبة العادلة ، وهو بصدد الكلام عن اقتصاديات الدولة — قبل تجنيب هذه الاقتصاديات فى فرع خاص يعرف بالمالية العامة — إلا أن القرن التاسع عشر كله قد شهد التطور الرتيب فى سبيل تحديد هذا المفهوم الذى تؤمله الإنسانية المتحضرة حضارة مادية خالصة ، ألا وهو العدالة فى توزيع التكاليف المالية على أفراد الرعية .

ولم يكن للأسرة حساب يذكر قبل السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان ذلك تحت ضغط الوعى الذى انتشر فى صفوف الجماهير ، وغالبيتهم من العمال والصناع الذين ذاقوا الأمرين فى مراحل التصنيع التى جرت بأوروبا وانجلترا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص .

ومن ثم نجد البحوث المبكرة فى شئون الأسرة وواجبات رب الأسرة وحقه فى المزيد من الإعفاءات والمزيد من الأجر ، تطالعنا فى مستهل القرن العشرين لا قبل ذلك .

فى خلال قرنين من الزمان ، إذن ، وفى عصر الحضارة المادية الحديثة والحضارة الفكرية الباهرة ، تطورت النظريات المالية لتصل إلى استكمال المعايير التى تؤدى إلى فهم النظرية المقدرة . أو نظرية القدرة على الدفع .

وجدير بالذكر هنا أن ما قال به العالم

الانجليزى آدم سميث ، وما زاده من بعد كثيرون من علماء الاقتصاد والمالية من أمثال جون ستيوارت مل ، وباستايل ، وسيد جوبك ، وهم جميعا بصدد استكمال هذه المعايير ، قد ورد بوضوح فى القواعد التى وضعها الخليفة الثانى سيدنا عمر . وقد جمع أبو يوسف فى القرن الثانى للهجرة ما انتهى إليه من آثار السياسة المالية لعمر فإذا بها تسبق الغرب بما يقرب من ألف عام .

ولم يكن لهذا الخليفة العظيم ، من معلم سوى القرآن ، فقد فهم ماهية « العفو » فى شئون المال ، فاهتدى بنور القرآن ، وعرف الإعفاءات ، كما عرف الضريبة الصاعدة .

ولو أننا عرضنا الفقه الضريبى والنظرية المالية ، فى أرقى المستويات التى وصلت إليها إلى الآن ، لوجدناها تكاد تقترب من المعيار الذى حددته الآية الكريمة « خذ العفو » ، لأن المال لايكون فائضاً عن حاجة من يخرج عنه طوعا أوكرها ، إلا إذا روعيت حاجته وحاجة عياله ، ووسائل تكسبه ، أهى رخصة هينة ، أم شاقة مجهدة ، وجملة إيراده ، أهى كافية لمواجهة ضروريات الحياة أم هى مقصرة عن الوفاء بها ... إلخ .

وإن المرء ، حين يتأمل قوة هذه اللفظة وثباتها وما توحى به من المعانى اللصيقة بها بحكم اللزوم ، حتى يتحدد المدلول الذى ترمز له ، وهو فائض المال الذى يكون محلا للفرائض ... أقول بأن المرء حين يطيل النظر على هذا النحو فإنه يقترب عندئذ من فهم وجه واحد من الوجوه التى يحمل عليها قول الله تعالى ، فى سورة لقمان .

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وقوله تعالى فى سورة الكهف :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » .

والحق أن كلمة واحدة وهى كلمة « العفو » فى موضعها من الآيتين الكريمتين ، لشديدة الإبانة عن كثير من كلمات ربى .

وما على القارئ إلا أن يصغى إلى الكلمة الواحدة ، فإذا هى تحدثه بكلمات تجل عن الحصر .

وعند هذا الحد من القول قد يبدو وكأن مفهوم الآية الكريمة « خذ العفو » قد تجلى على التلاوة بشىء من الإمعان . ولكن هذا الظن لا يخلو من التسرع ، فلا تزال المعانى العلمية الدقيقة تحف بالنص من كل جانب ...

إذن فلنرجع للتلاوة من جديد :

« خذ العفو » والعفو كما انتهينا إليه فيما تقدم ، هو الفائض الذى يكون الحرمان منه محتملا ...

فإن كان ولا بد من الأخذ الموجع فليكن بأقدار متساوية عند كافة أفراد الرعية . والتسوية فى الحرمان تقضى بتفاوت الفرائض من زوايا كثيرة ، كما تقضى بالتفاوت فى الإعفاءات كما قدمنا . وكل هذا حسن جميل، وتطمئن إليه النفس ، ولكن هنالك معيار آخر تدل عليه الآية الكريمة ، ولا يقل أهمية عن كل ما ذكرنا ، وبيان ذلك : أن المال لا يكون « عفوا » بمعنى : زائدا أو فائضا ، إلا إذا ارتفع فوق المستوى الحدى لتكلفة المعيشة على صورة إنسانية .

ومؤدى ذلك أن حكم الآية الكريمة يوحى بوجود مستوى من العيش لا هو بالكفاف ولا هو بالغ حد الإتلاف ، ولكنه وسط بين هذين الحدين .

والآية الكريمة تفسرها آية ، والقانون يفسره قانون ، والمادة من القانون تفسرها مادة أو مواد ، وإعمال بعض الأحكام مع بعضها الآخر أولى من إعمال كل منها فى معزل عن غيرها .

هذه أساليب مسلمة فى الاستدلال العقلى على المفهوم الصحيح للأحكام . ولذلك نتلو قول الله سبحانه وتعالى (من سورة الفرقان) « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » .

ثم نقف عند حد قوله تعالى : « قواما » ونجد أن هذه اللفظة فى موضعها من الآية الكريمة ، تضع المعيار الثابت لحد الاعتدال فى الإنفاق على الشئون الخاصة بالمعيشة العادية ، وهذا الحد من الإنفاق هو الذى يكفل المستوى الوسيط من العيش ، الذى يستنفد من المال قدرا يكون ما فوقه « عفوا » يؤخذ منه ، أو يؤخذ كله .

إذن الآية الكريمة : « خذ العفو » تحمل فى طياتها حكما بأن لكل إنسان مستوى من العيش الذى يحفظ عليه إنسانيته ، وهذا المستوى مصون بأمر الله ، ولا ينبغى لولى الأمر أن يمسه ، لأنه أمر بأن يأخذ العفو أى ما زاد (أو مما زاد) على القدر الضرورى لمواجهة تكاليف الحياة دون تقتير ودون إسراف .

فإذا سلمنا بأن الآية الكريمة تشير إلى المستوى المذكور ، فإن قضية هامة تجىء بالتبعية ، أو بالقياس العكسى ، وذلك أن ولى الأمر حين يأخذ « العفو » ويحفظ على الفرد ــ الذى يؤخذ منه ــ مستواه الإنسانى وذلك بالكف عن المساس بما دون العفو إنما يفعل هذا كله فى سبيل المصلحة العامة ، وصونا للمجتمع من فساد الإسراف وتمكينا

الدولة من مواجهة نفقاتها العامة ، وكل هذا جلي وصحيح .

إلا أن هـذا المستوى الذى حددته الآية الكريمة ليكون حصنا لما تحتـه من مال ، ما خبره عند الفقراء الذين لا ترقى مواردهم إلى مجرد مستوى الإعفاء ، أى الذين لاعفو عندهم ، ولا ما دون العفو ؟ .

وهل يجوز لنا أن نفهم بأن حكم الآية قد نزل لتنظيم الشئون المالية للقادرين على الدفع وحدهم ، ومن أموالهم يكون الأخذ ؟ .

أم هل يجوز لنا القول بأن المستوى المصون من العيش ، هو فى نظر ولى الأمر وقف على القادرين ، فأما من عداهم فهم كم مهمل .

وهل عرف عن أحكام الإسلام أنها تكيل بمكيالين ؟ .

معاذ الله . فإن عـدله سبحانه وتعالى يأبى ذلك ...

إذن ما دمنا قد وصلنا إلى القول بأن ولى الأمر ينظر بنفسه وبأدواته التى يستعين بها على الحكم فى الشئون المالية للناس حتى يطمئن إلى تحديد المستوى الإنسانى ، ومن الفائض فوق تكاليف هـذا المستوى يأخذ الفرائض ...

وما دمنا قـد قررنا بأن ولى الأمر يلتزم أيضا بدراسة هـذا المستوى ومدى توافره عند كل فـرد ، فإنه يترتب على ذلك أنه إذا كانت بأقوام منهم مسغبة أومتربة فإن علاج أمرهم يدخل فيما يدل عليه المفهوم الاصطلاحى « المصلحة العامة » التى كان تحقيقها قصدا ، وما الأخذ إلا وسيلة .

فكيف يفعل إلى ولى الأمر بالحالات التى ترقى المستوى الحـدى الذى تتعين عنده بداية الفائض ، أو بداية العفو ؟ .

هذه هى القضية الأخرى التى لا تقل عن كل ما تقدم ، من حيث الأهمية .

وهى بدورها ، بعض ما تحدثنا به الآية الكريمة الموجزة ، « خذ العفو » حين نحسن الاستماع إلى ما فى كتاب الله من حكم بين ثابت جامع مانع ، لا يقبل التطوير ولا التطور ، بل هو وحده الكفيل بتحقيق الخير فى الأولى وفى الآخرة .

قد يبدو أن ما تقدم من قول متصل بقوله تعالى « خـذ العفو » لا يمت إلى موضوع الربا بأية صلة . ومن ثم فإن القـدر الذى ذكرناه يحمل على أنه تقديم مطول ! !

وأبادر إلى إزالة هذا اللبس فأقول :

إن الحـكم الذى يقضى بأخذ العفو دون غـيره من أثمان الضروريات ، وما يتفرع عنه من كفالة ولى الأمر للمستوى الوسيط ، إنمـا هو مثل للأحكام القرآنية التى تستهدف

صيانة المجتمع من الهزات الاجتماعية ومن الآراء الهدامة ، كما أنه يستهدف كفالة التعاون فيما بين الناس .

أى أنه حكم يحقق الاستقرار ، ومن ثم التقدم والبناء فى ظل وارف من الأمن والطمأنينة ، إذا حسن تطبيق الحكم ... وذلك على حين أن التنظيم الربوى يزيد من الفروق بين الأرزاق ، ويزيد الضعيف ضعفا ، فيكون عبئا ثقيلا على المجتمع ، ومصدرا للتفكير الهدام ، أو للجريمة . كما يزيد الغنى غنى ، فيغريه المال على الفساد والطغيان .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة العلق « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » فإذا جلونا صورة واحدة من صور الأحكام التى تستهدف البناء الاقتصادى فى ظل الأمن ، فإن النقيض من ذلك يكون جليا واضحا بدوره .

والشاعر يقول : وبضدها تتميز الأشياء .

عند هذا الحد ، إذن ، سأترك الكلام عن مفهوم قوله تعالى « خذ العفو » مع التنبيه - بكل احترام - إلى أننى لم أزد على النزر اليسير ، وإلى أن هذه الآية الكريمة قد وسعت من علوم المال شيئا كثيراً ، مع فارق هام ، أكرر الإشارة إليه ، وهو أن النص القرآنى واضح وثابت ومرن ، ومن ثم فهو فوق مقتضيات التطوير من لزوم الجمود أو العجز أو النقص أو التخلف ... وهذه شوائب مألوفة فى صناعات البشر ، سواء أكانت هذه الصناعات عروضا ملموسة يجوز عليها التعديل والتحسين ، أم كانت من القضايا الفكرية التى تدركها الأفهام ، ومن ثم يجوز عليها النقد والتصحيح فى سبيل الترقى إلى مستويات الفكر الرفيع .

ماهية النظام الاقتصادى :

النظام الاقتصادى هو الهيكل العام الذى تجتمع فيه مقومات الحياة المادية للإنسان . ومن ثم يقال بأن الاقتصاد هو « العلم الذى يدرس سلوك الإنسان فى معيشته العادية ، أو فى شئون معاشه . وقد أوردنا لفظة المادية عن قصد للتنبيه إلى أنه من عصر النهضة ، واتجاه الفكر الغربى إلى التحرر من قيود تعاليم الكنيسة فى شئون المعاش ، توافرت فى الغرب ظاهرات تحررية (على ما يقولون) يهمنا منها فى مقامنا هذا الفصل التام بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد .

ليس هذا فحسب ، بل إن علم الاقتصاد قد فصل فصلا تاما عن جميع العلوم الفلسفية ومنها الاجتماع .

وكل ذلك نتيجة لثورة الفكر الغربى المتحرر من تضييق الخناق على النشاط الذى يحكم العقل بإجازته (بل يحكم بضرورته) ،

كالتجارة مثلا ، إذ كانت محرمة تحريما باتا ولم يجرؤ أحد من علماء اللاهوت على إباحتها حتى أن تعاليم الأب توما الأكوينى الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد (من سنة ١٢٢٥ إلى سنة ١٢٧٤) كانت تجمع بين الجرأة وبين التردد ، ولم يسلم من النقد ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

أما علم الاقتصاد فى يومنا هذا (بعد تطوره فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة) فقد وصل إلى القول بأنه لا يعنى إلا بدراسة الظاهرات الوثيقة الصلة بشئون الثروة ، على النحو الذى تتأتى عليه ، من غير تدخل من الباحث . بمعنى أن هذا العلم ينحصر فى القول بما هو كائن وبما سيكون من نتيجة منطقية إذا توافرت مقدمة معينة ، ولا شأن له بما ينبغى أن يكون .

فتقول مثلا : إذا زادت كمية النقود (وبقيت الظاهرات الأخرى على حالها) فإن الأثمان تميل إلى الارتفاع) .

ومعنى ذلك أنه ، إذا توافرت كميات جديدة من النقود ولم يحدث أن ازدادت سرعة تداولها ، كما لم يحدث أن توافر قدر إضافى من السلع والطيبات ، فإن مستوى الأسعار يميل إلى الارتفاع ، أو يرتفع حتى يبلغ المستوى الذى يتناسب مع زيادة النقود ، أما إذا زادت كمية النقود وزادت سرعتها فى التداول أيضاً ، فإن ارتفاع الأثمان يكون أسرع وأشد ، بفرض بقاء الظاهرات الأخرى على حالها .

قلنا بأن علم الاقتصاد لا يبحث فيما ينبغى أن تكون عليه الحال ، وهذه قاعدة مطردة مهما بلغت صلة المشكلة التى يبحثها الاقتصادى، بالأمور الإنسانية كمشكلات العمال مثلا ، أو عقد القرض .

هذا هو علم الاقتصاد البحت أو النظرية الاقتصادية ، وهى فى تطور مستمر ، وقد خضعت فى هذا القرن العشرين إلى التحليل الرياضى ، وآتت من النظريات ما هو جدير بالدرس والتمكن ، إلا أن بقاء هذا الفرع الخاص من فروع المعرفة فى برجه العاجى لم يمنع من قيام الثورة فى نفوس بعض المشتغلين به من المزج بين فلسفة الاجتماع وبين الاقتصاد البحت ، ومن ثم نشأت فروع خاصة ، يقال لواحد منها الاقتصاد الاجتماعى.

وأود التنبيه إلى أن عزل الظاهرات الاقتصادية عزلا تاما عن فلسفة الاجتماع ، وإخضاعها للرياضة (وهى مجموعة من القوانين الثابتة) تنطوى على خطر كبير يتمثل فى جمود العاطفة وإهدار الأمور الإنسانية . وقد ترتب على الأخذ بهذا النظر ، أن نشأت فروع أخرى من المعرفة ما كانت الحضارة الفكرية لتقرها لولا هذه النظرة المادية الخالصة

تطوّر النحو العربيّ

للدكتور عبدالله درويش

— ٢ —

الفلسفة والمنطق والتعليلات :

نرجو أن يكون واضحاً فى الأذهان أن كل فكرة لابد أن تعتمد على فلسفة ما ، وأن مسائل الموضوعات لابد أن تساير المنطق فى عرضها فلا يكون فيها تناقض . وأن الآراء حين تختلف ويراد ترجيح أحدها لابد من ذكر سبب أو تعليل لذلك . ولا نطلب من النحو أن يكون بدعا بين العلوم فيخلو من الفلسفة والمنطق والتعليلات بالمعنى الذى ذكرناه .

حتى المنهج الوصفى فى النحو له فلسفة ، وأفكاره منطقية غير مضطربة ويدعم حججه بالأسباب .

إذن فما مشكلة النحو ومزجه بالفلسفة والمنطق وإسرافه فى التعليل ؟

المشكلة هى أن النحاة بنوا تقسيماتهم فى القواعد على أساس من الفلسفة فاستعاروا الاصطلاحات الفلسفية ومدلولاتها وحاولوا تطبيق النحو عليها . . .

مثال : ذلك : الفاعل . فمعناه الفلسفى من قام بإحداث شىء ، ومعناه النحوى كذلك

فى دراسة الثروة . ومن ذلك تأسيسها على خيال سقيم يسمح بإقامة علم مستحدث فى دوائر الأعمال يقال له « الأخلاق العملية » .

Business Ethics.

هذه هى بعض النتائج التى ترتبت على فصل دراسة الثروة أو الأموال ـ وهى التسمية الثانية التى أقرها فقهاء الإسلام ، وهى الأصلح ـ عن دراسة الفلسفة . أو قل بعبارة صريحة : فصل الاقتصاد عن الدين .

وقبل أن نسرف فى الإعجاب بتطوير النظرية الاقتصادية وما وصلت إليه من تحقيق المادية الصرفة يجمل بنا أن ننظر إلى الأسباب التى أدت إلى العزل الذى أشرنا إليه ، أعنى عزل الاقتصاد عن الدين . وقد كان تحريم الربا فى تعاليم الكنيسة من أهم هذه الأسباب .

البقية فى العدد المقبل

عيسى عبده ابراهيم

فيقولون : كتب محمد ، بات على ، فما رأيهم فى ماقام أحمد ؟ فاعل ويستتبع ذلك ، أن نقول فلسفياً : كل فعل لا بد له من فاعل فيلزمنا أن نقول كتب وقام محمد . . . إن فى هذا الأسلوب تنازعا ، لأن الفعل كتب يحتاج إلى فاعل ، والفعل قام يحتاج إلى فاعل وكذلك مسألة الاشتقاق .

ماأصل المشتقات المصدر أم الفعل الماضى؟

أما أهل المنطق فقد بنوا قواعدهم فيه على أساس تكملة القسمة العقلية . فمثلا اجتماع الهمزتين فى كلمة واحدة ـــ مسألة صرفية ، إما أن يكون فى أول الكلمة أووسطها أوآخرها ، وعلى كل إما أن تكونا ساكنتين أو محركتين أو متخالفتين ، وعند محاولتهم تطبيق هذا افترضوا كلمات لم تنطق بها العرب واضطروا أن يقولوا مثلا .

إذا بنيت على مثال جعفر من قرأ

أو على مثال برثن من قرأ .

أو على مثال زبرج من قرأ الخ .

ولكن كما سبق نحن لا نملك أن نخترع اللغة بل نحللها كما وردت إلينا خصوصا فى أصواتها وفى مفرداتها . أما التركيب فنحلل منهجه ونقيس عليه .

وكان إغراق النحويين فى هذه الأشياء مدعاة لينذر الشعراء والعامة عليهم ، كما ذكر السيوطى فى بغية الدعاة ٢٦٥ روايات تشهد على ذلك فهذا أبو حاتم السجستانى فى بعض حلقات الدرس فى بغداد كان يتناول بالشرح اللغوى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » فذكر لتلاميذه أن الأمر للواحد : ق ، وللاثنين قيا ، وللجمع قوا ، فحين تضمها إلى بعضها تقول : ق قيا قوا .

وكان فى ناحية من المسجد رجل يسمع ما يدور بين الأستاذ والتلميذ فقال لصاحبه « احتفظ بثيابى حتى أرجع » وانطلق إلى صاحب الشرطة وقال له إنى ظفرت بقوم من الزنادقة يقرءون القرآن على صياح الديك ، فما شعر أبو حاتم ومن معه إلا بالشرطة يهجمون عليهم . وفى المحضر تقدم أبو حاتم يشرح القصة لرئيس الشرطة . . وقد اجتمع خلق كثير لينتظروا نتيجة المحاكمة . . فما كان من صاحب الشرطة إلا أن عنفه وقال له « مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا ؟ وأمر بأصحابه فضربوا بالسياط وقال لا تعودوا لمثل هذا .

فترك أبو حاتم بغداد ورحل إلى البصرة .

ولم يكن نصيب العروضيين من السخرية بأقل من نصيب النحاة . فهذا أبو جعفر بن النحاس العالم المصرى الذى انتقل على يديه علم البصرة والكوفة إلى مصر . كان يجلس فى جزيرة الروضة على درج المقياس يقطع أبياتا من العروض ويردد التفعيلات أثناء

التقطيع وكان ذلك مدة الصيف أثناء الفيضان فسمعه بعض العوام فقال : هذا يسحر النيل حتى لايفيض .. وبالتالى ينقص ماؤه فتقل المحاصيل فتغلو الأسعار وتزيد الرواية للقصة خاتمة بائسة فتذكر أن الرجل دفع ابن النحاس برجله فى النيل ، ولم يعثر له على أثر (أنباء الرواة حـ ١ ص١٠٢) .

وفى عصرنا الحاضر يعتبر العروض أشبه بكتابة الطلاسم والأحجية .

هذا ما كان من شأن العامة .

أما الشعراء فكلنا يدرك مدى الخصومة التى كانت بين الفرزدق وعبد الله بن أبى إسحق ، فقد كان هـذا العالم النحوى يتتبع سقطات الفرزدق حتى إذا كان قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من الناس إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن إسحق : علام رفعت مجلف فقال الفرزدق : على ما يسوءُك وينوءُك .

ثم هجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فغلطه ابن أبى إسحاق فى الكلمة الأخيرة وقال إنما هى « موالى » .

ولقد وقف أعرابى (أخبار النحويين ٥٤) على أبى زيد مستمعاً فظن أبو زيد أنه جاء يسأل مسألة فى النحو : فقال له أبو زيد هل لك حاجة إلى أن تسأل عن مسألة فى النحو ؟ . فقال الأعرابى على البديهة .

لست للنحو جئتكم
لا ولا فيه أرغب
أنا مالى ولامرئ
أبد الدهر يضرب
خل زيداً لشأنه
حيثما شاء يذهب

وهذا عمار الكلابى يهجو النحاة فيقول :

ماذا لقيت من المستعربين ومن
قياسهم هـذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكراً يكون لها
معنى خلاف الذى قالوا ، وما ذرعوا
قالوا لحنت وهـذا الحرف منخفض
وذاك نصب وهذا ليس يرتفع
وضاربوا بين عبد الله واجتهدوا
وبين زيد فطال الضرب والوجع
ما كل قولى مشروحا لكم ، فخذوا
ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

وهكذا كان إغراق النحاة فى الفلسفة والتعليلات مدعاة لنفور الناس من النحو . وزادوا على ذلك بأن عقدوا الأسلوب وصعبوا تراكيب الكلام فى تأليفهم حتى استعصى فهمه على كثير من الخاصة بله العامة .

ولسنا وحدنا الذين ندعى خلط النحو بالفلسفة وتعميق أسلوب التأليف فيه .

فهذا أحد الأساتذة المعاصرين يذكره فى مؤلف جليل له استمع إليه يقول :

« ولما أن استحصدت الفلسفة وأغرم الناس بها دخلت النحو وأثرت فيه كما دخلته

غيره وأثرت فيه ، ولكن على تفاوت واختلاف ، مطاوعة لظروف الحال والبيئة . فكان أبو زكريا الفراء ، وأبو الحسن الرمانى فيمن غلبت الفلسفة على كتبهم وكان كلاهما نحويا من أصحاب الاعتزال (يقصد الفلاسفة المتكلمين) وبحدث الفارسى عن نحو الرمانى ، فقال : إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرمانى فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله ، فليس معه منه شيء . وتحدث غيره عن نحويهما ونحو السيرافى قال : كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين ، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا . ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض . ومنهم من نفهم جميع كلامه . فأما من لا نفهم من كلامه شيئا فأبو الحسن الرمانى ، وأما من نفهم بعض كلامه فأبو على الفارسى . وأما من نفهم بعض كلامه فأبو سعيد السيرافى .

ويستمر هذا الأستاذ الجليل فيقول :

على أن هناك أسبابا أخرى خاصة كان لها فى غموض النحو الغامض عمل غير مردود . كجمود القريحة ، وضعف ملكة البيان ، وقلة نضوج الموضوع والرغبة فى الإبهام والتعمية ، لماذا ؟.

لئلا يهون شأنه ، وتقل الحاجة إلى أهله ، ولئلا يتيسر فهمه والإفادة منه على غير الخاصة من المنقطعين له وأصحاب المزية فيه .

قال الجاحظ : قلت لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ . قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلى ما فيها وإنما كانت غايتى المنالة ا هـ فالمسألة احتكار ! .

فهل نلتمس النحويين العذر فى ذلك لأن أكثرهم كان رقيق الحال معرضة عنه الدنيا ، حتى منزلته الاجتماعية كانت أقل من منزلة زملائه من رجال الدين . على أن بعض الفطاحل منهم كالخليل كان زاهدا فى الدنيا راغبا عنها ودعاه سليمان بن حبيب بن المهلب ابن على والى الأهواز لتأديب ولده فاعتذر قائلا :

أبلغ سليمان أنى عنه فى دعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال

سخا بنفسى أنى لا أرى أحدا يموت هزلا ، ولا يبقى على حال

(للبحث بقية) الدكتور

عبد الله درويش

عتاب على كاتب حرّف المعنى :

إذا بُليتم فاستتروا

للأستاذ الدكتور سليمان دنيا

إن البيان نعمة كبرى فضل الله بها الإنسان على كثير من خلقه ، وفضل بها بعض أفراد الإنسان على بعض قال تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » وقال عز من قائل على لسان بعض أنبيائه : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .

ونعم الله على الإنسان هى مزايا مكنه منها لتكون عونا له على ما يصادفه — كفرد وكجماعة ـ من صعوبات .

وإذا كان بعض الكتاب يفهم أن البيان ليس سوى أن يجيد المرء سبك العبارة وتزويق الأسلوب ، وليكن المعنى بعد ذلك ما يكون فهو واهم ؛ فإن البيان كالضوء الذى يكشف غوامض شىء كان يحجبه عنا الظلام ؛ وإذا كان الضوء لا يغير من حقيقة ما يكشفه فإن البيان الذى يستحق اسم البيان ليس إلا كاشفا عن حقيقة شىء كان يحجبه عنا الإبهام .

أقول ذلك عتابا على كاتب كبير كتب فى يوميات الجمهورية الصادرة فى يوم السبت ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٩ تحت عنوان « ساعات معى ... وأيام معه » العبارة التالية :

بطلة القصة فتاة تمردت على تقاليد عتيقة تسلب المرأة حقها فى حرية التفكير وحرية العاطفة ، فليس للمرأة رأى تعبر عنه ، ليس لها أن تحب أحدا أو يحبها أحد .

وهذه التقاليد لا تغفر للمرأة أن تعرف رجلا تحبه علنا ، وتغفر لها أن تزل فى الخفاء ، تطبيقا للقاعدة المعروفة : إذا بليتم فاستتروا .

ولن أقف مع الكاتب الكبير عند سخريته اللاذعة من التقاليد — وما أدراك ما يعنى بالتقاليد ؟ ! — التى تأبى على المرأة أن تحب أحداً أو أن يحبها أحد . والكاتب لا شك يعنى بالأحد من عدا زوجها وسائر محارمها ، ولا شك يعنى بالحب ما هو أوسع من الحب العذرى والعشق الصوفى ، إن الأنوثة الطاغية التى مدح بها الكاتبة قرينة قوية على أنه يريد من الحب الذى ينعى على التقاليد البالية أن تحرمه على المرأة ، الحب الذى يطفئ غلة الشوق ، ويرضى الأنوثة الطاغية .

ورغم ذلك فلن أقف مع الكاتب بجانب هذه المسألة خشية أن يرمينى بالجمود والتأخر والرجعية والتشديد والتصعيب والصلابة ! وما أغنانى عن أن أورط نفسى هذه الورطة

وإذا كنت لا أتفق معه على إباحة الحب بهذا المعنى ، فليكن ذلك سرا بينى وبين نفسى وإن يك أضعف الإيمان .

وإنما الذى أعتب على القارئ من أجله هو تخريجه القاعدة القائلة : « إذا بليتم فاستتروا » على أنها تبيح الرذيلة لمرتكبها ما دام يخفيها ولا يعلنها .

فهل هذا - يا سيدى الكاتب - هو معنى القاعدة ؟ لا ليس هذا معناها . وإنى لا أتهمك لا سرا ولا علنا بأنك لا تفهم معناها ، فمثلك ممن أوتى بيانا ناصعا مشرقا ، وعقلا مدركا راجحا ، لا يخفى عليه ما تتضمنه هذه القاعدة من معنى قوى وفكر سليم ، وإنما الذى أتهمك به أنك استعملت نعمة البيان التى من حقها عليك أن تؤيد بها الحق وتمكر الباطل فى تغيير معناها وحملها على غير ما يراد منها ، تفننا فى القول ، أو تفكها بالسخرية من قــول وقائله ، أو تأييداً لصاحبة « أيام معه » .

نعم ليس يخفى عليك معنى القاعدة ، ولو أردت إظهاره فى صورته الحقيقية لقلت فيه قولا أرق من النسيم وأعذب من السلسبيل كما يقولون .

إن معنى القاعدة يا سيدى أن الجريمة إذا أعلنت ، وجدت فى المجتمع من يحاول تجربتها فتشيع وتنتشر ، وفى شيوعها وانتشارها إغراء بالمزيد منها ، فيصبح المجتمع كله مجرما أو يكاد . أما إذا استترت فإنها تتقلص حتى تنعدم أو تكاد . ففشو الإجرام نتيجة إعلان الجريمة هو الذى ألهم المصلحين أن يقولوا : « إذا بليتم فاستتروا » .

وما أظن يا سيدى أن فى القول بأن فى إعلان الجريمة إغراء بها ، وفى إخفائها إماتة لها ، قابلية لإثارة جدل بينى وبينك ، فإن فيما تكتبون أنتم من أحداث فى جريدتكم التى أنتم رؤساء تحريرها شواهد مادية عديدة على ذلك ، ومن أقرب ما نشر حول ذلك حادثة الطفل الذى خرج من السينما فذهب لتوه إلى شجرة من أشجار حديقة منزله وربط بها حبلا ، ثم علق نفسه فيه وتأرجح حتى زهقت روحه ، قاصدا بذلك أن يمثل بعض أحداث الرواية كما تقول صحيفتكم .

وأوضح من ذلك أثرا ما نشرته صحيفتكم فى نفس اليوم الذى جاءت فيه كلمتك التى تسخر فيها من تقاليد وتهون من شأن قاعدة ، قالت صحيفة الجمهورية ص ٤ تحت عنوان : « احتضار الوجودية فى باريس وظهور القمصان السوداء » ما يأتى :

« . . . ومن جرائم عصابة القمصان السوداء سرقة العربات واستخدامها فى رحلات منحلة ، ثم تركها فى عرض الطريق .

وضرب الأزواج من أغرب هذه الجرائم

يتعرض أفراد العصابة للزوجات ، ويوجهون إليهن أقذع الشتائم وأسفلها حتى يثور الزوج وفى هذه اللحظة ينهالون عليه ضربا حتى يفقد وعيه ... ثم يخطفون زوجته .

إن صحف فرنسا وإذاعتها وعلماء النفس والتربية فى ذعر شديد ، إنهم يحاولون علاج هذا الشذوذ ، وهذا الانحراف، الذى هاجم المجتمع الفرنسى فى صورة هذه العصابة .

ثم قالت الصحيفة :

«ومن أفواه أفرادالعصابة تسمع الدوافع والأسباب التى قادت هؤلاء — وهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة — إلى هذا الانحراف والشذوذ .

سئلت فتاة عمرها ست عشرة سنةعن سبب انضمامها لعصابة القمصان السوداء، فقالت : إنها رأت أمها وقد تخلت عن كل المثل ، وعاشت الشذوذ والانحراف فقط،ولما عاتبتها ابنتها هددتها بأنها ستلقيها فى مدرسة داخلية .

ثم شكت الصغيرة لوالدها ، وجاء رد الوالد — وكان كالطعنة السامة فى قلب الصغيرة — قال والدها وكأس الخمر تترنح فى يده : كل النساء كذلك .

وانهارت المثل أمام الصغيرة ، وتقدمت بخطى ثابتة نحو الخطيئة وسرعان ما لبست القميص الأسود ، وخرجت فى جرأة إلى دنيا الليل والشذوذ والانحراف .

وشاب آخر صغير ـ فى الخامسة عشرة ـ سألوه عن سبب محنته فقال : إن والده سكير يعيش للكأس فقط ، لهذا السبب انتحرت والدته ، لم يحتمل الفتى الحياة مع والد سكير، فجرفه الشذوذ والانحراف .

ثم قالت الصحيفة :

« إن بعض علماء الاجتماع والنفس يرجعون أسباب هذه الكارثة إلى تحلل روابط المجتمع ، بالإضافة إلى ضيق المسكن وانتشار الخمر والقمار وازدحام المدن ، ومتاعب العمل ، وانشغال الأمهات فى العمل ، وعدم تفرغ الأب لمنزله ، وكثرة حوادث الطلاق.

وصور الانحلال التى تقع عليها عيون الأطفال الغضة البريئة تنتقل بسرعة لتكوّن كثيراً من الانطباعات فى نفوس الجيل الجديد من الأطفال . وأخيراً تطفو هذه الانطباعات على سطح هذه النفوس عندما تبدأ فى الإدراك والفهم والتمييز . ثم يبدأ الشذوذ والانحراف فى هذه السن المبكرة» .

يا لله !! لقد أردت ـ جلت عظمتك ـ أن تحمل نفس جريدة الكاتب ـ فى نفس اليوم الذى حمل فيه حملة مغرضة على مبدأ صحيح يريد أن يهدمه ـ ما هو برهان ناصع على صدق هذا المبدأ ؛ فإن فى هذه المآسى الأخلاقية التى تردت فيها عصابة القمصان السوداء ، وفيما صور به الشباب بأنفسهم

أسباب جريمتهم ، وفيما وضح به علماء النفس والاجتماع أسباب عدوى انتقال الجريمة من الكبار إلى الصغار حين ترتكب أمامهم علنا جهارا بغير اكتراث ولا مبالاة ، شرحا وتفسيرا وتوضيحا وتأييدا للقاعدة القائلة : « إذا بليتم فاستتروا » وإن ذلك لبرهان عملى وعلمى على صدقها .

إن الشىء الذى نأسف له كل الأسف ، والذى لا يختلف فيه اثنان هو أن الصحافة المصرية أصبحت - بما تنشره أقلام كتابها - دعوة صريحة جريئة إلى التحلل من تراثنا الإسلامى الأصيل .

لقد أبنت فى مقال سابق لى ، فى نفس هذا المكان من مجلة الأزهر ، كيف وقفت الأهرام موقفا عدائيا صريحا من الأديان كلها ، لا من الإسلام وحده — حين نشرت افتياتا شيوعياً على الألوهية ، وأبت أن تنشر لنا ردا عليه .

واليوم يؤسفنى أن أقف وقفا مماثلا من كاتب كبير من كتاب جريدة الجمهورية يستعمل قلمه القوى وبيانه الرصين فى السخرية مما سماه تقليدا ، أو قاعدة . وهو فى صميمه مبدأ إسلامى أصيل : فإن الإسلام يرى فى الجريمة المعلنة افتياتا على كرامة المجتمع كله إلى جانب ما يجر إعلانها إلى الإغراء بها ، وشيوع عدواها ؛ فإذا صارت الأقلام الكبيرة لا تبالى أن تقوض أمثال هذه الدعائم تأييدا لكاتبة - لا باحثة - لم تزد على أن صورت بعض أحداث وقعت لها ، كما يقول الكاتب نفسه : إن كتاب « أيام معه » ليس قصة ولكنه لوحات فنية أشبه بالاعترافات ، وقد استطاعت الكاتبة أن تعترف بصدق وحرارة وأنوثة .

أقول : إذا صارت أقلام الكتاب الكبار لا تبالى أن تقوض أمثال هذه الدعائم الأصيلة فى تراثنا الإسلامى المجيد تأييداً لكاتبة لم تزد على أن صورت لنا بعض ما كلفتها أنوثتها الطاغية من مغامرات فما أيسر أن نتصور أننا منجرفون بسرعة إلى الهاوية ؟ فإنه إذا أصبح الأفراد أغلى علينا وأعز من المبادئ ، فنحن إذاً أنانيون لامثاليون .

إن الشىء الذى لست أفهمه أن يجرد الكتاب الصحفيون أقلامهم للطعن على المثل الأخلاقية والمبادئ الإنسانية التى تدعو إليها الأديان ، وأن يحس الإنسان فى كتابتهم رغبة ملحة فى أن يتحلل الناس من دينهم ، فلماذا كل هذا ؟ فلو كان ما يكتبونه هو أبحاث ونظريات تؤيدها الدلائل والبراهين ، لقلنا إنهم فلاسفة ومفكرون ، فإما ناظرناهم وإما عذرناهم فإن البرهان حين يتسلط على مبدعه يكون من العبث ثنيه عن نتيجته مالم يتبين فساده . ولكنها حملات تشبه الحملات

السياسية التي يراد بها التشويش على المذهب المخالف بالافتراء عليه وخلق الشبه ضده ، وكثرة التشنيع عليه . وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى . إنى لأتساءل فى حيرة ودهشة عن السر فى تضافر رجال الصحافة على نشر ما من شأنه أن يزعزع العقيدة من نفوس الشعب ؟. فماذا فى الدين من عيب يتنافى مع ما يراد لنا من تقدم ورقى ؟ إن الدين يمكن تلخيصه فى كلمات :

(١) إيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

(٢) وحث على الفضيلة فى جميع صورها ومظاهرها .

(٣) وتحذير من الرذيلة بكل ألوانها .

فهل فى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر مايدعو إلى تأخر أو رجعية ؟ فماذا فى الإيمان بالله الذى يجعل من البشر كلهم مجموعة ليس من حق بعضها أن يطغى على بعض خوفا من الإله الخالق الذى يقدر أن يستذل الطاغية ويسلبه أسباب طغيانه؟ ماذا فى الإيمان بالله واليوم الآخر الذى من شأنه أن يحقق العدالة بين بنى البشر ويجعل كل إنسان ينصف من نفسه حتى فى الوقت الذى لا يطلع على جريمته أحد ، خوفا من المسئولية الأخروية ؟.

ماذا فى الإيمان برسل الله الذين يشهد تاريخ كل منهم بأنه سجل حافل بالتوجيهات الرشيدة والإصلاحات المفيدة لبنى البشر جميعاً .

فهبوا أن هذه العقيدة فى الله ورسله واليوم الآخر ، فى ذاتها ليست صحيحة ، أو هبوها صحيحة ، فما أثر الأخذ بها على المجتمع ؟ هل تستطيعون أن تقولوا لنا : إن هذه العقيدة يمكن أن تكون سببا من أسباب تأخر المجتمع حتى تستحق منكم حربا لا هوادة فيها ؟ بينوا لنا - إن كنتم تجدون - ما عسى يكون فى هذه العقيدة من أثر سيء على المجتمع . ونحن نلتمس لكم العذر فى هذه الحملة ضدها .

فإذا كانت العقيدة الإسلامية على العكس من ذلك - سواء افترضتموها حقيقة صادقة أو فرية كاذبة - إذهى عامل من أحسن العوامل لإصلاح المجتمع ، فلماذا إذن حربها حربا لا هوادة فيها ؟.

ثم هل فى الأمر بالصدق والوفاء بالعهد والرفق بالضعيف وبر الوالدين ... إلى آخر ما يقع تحت اسم الفضيلة ما يجر إلى عار أو نقيصة ؟.

أو هل فى النهى عن الكذب والنفاق والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والغش والقتل ... إلى آخر ما يقع تحت اسم الرذيلة ، ما يسلب الناس حاجات هى لهم ضرورية ؟ .

بالله قولوا لنا وكونوا صرحاء . فيما تقولون فإن وجدنا ما تقولونه صوابا ، تبعناكم ؟ فإن الصواب هدف كل عاقل ؛ وإلا دعوناكم

(البقية على صفحة ٦٠٤)

الفنون في تاريخ المسلمين

للأستاذ أحمد الشرباصي

للفنون فى تاريخ المسلمين مكانة جليلة ، ملحوظة ومع ذلك نجد أن الكتب التى وضعت عن الفنون الإسلامية وتاريخها قليلة نادرة فى المكتبتين الشرقية والغربية . إذ نجد فى الفرنسية كتابا واحداً فى هذا الموضوع لجاستون ميجون ، وفى الألمانية كتابين أحدهما لأرنست كوبل والثانى لجلوك ودير وفى الانجليزية كتابا واحداً لديماند . وإليه رجعنا فى استقاء المعلومات المتعلقة بتاريخ الفنون فى الإسلام ، وقد ترجمه الأستاذ أحمد محمد عيسى .

وفى العربية كتابا واحداً للدكتور زكى محمد حسن ؛ وكان يجب تأليف عشرات من الكتب فى مختلف الفنون الإسلامية . ما دامت هذه الفنون تحتل تلك المكانة الجليلة فى تاريخ المسلمين ، وكان يجب على المسلمين ، وعلى العرب منهم بوجه خاص ، أن يزودوا المكتبة العربية بكتب كافية فى دراسة هذه الفنون ، حتى لا يكون البحث فيها محتكراً أو شبه محتكر للمستشرقين الذين ظهرت بحوثهم عن الفنون الإسلامية خلال القرن التاسع عشر بشكل ملحوظ ، واتسمت بحوثهم بسمات الطريقة العلمية وإن كانت المغالاة فى الأحكام قد أصابت الكثير منهم.

وقد قيل : إن الفن الإسلامى قد أخذ عن غيره من الفنون كالفنين المسيحى والساسانى وهذا القول يحتاج إلى نظر وإيضاح ، فمن المسلم به أن الفنون كانت حين ظهور الإسلام ضعيفة ، وأخذت هذه الفنون تقوى شيئاً فشيئاً ، ويشتد ساعدها بمرور الأيام ؛ كما أن من المسلم به أن اقتباس فن من فن آخر سابق أو معاصر ظاهرة عالمية شائعة ، لا تقتصر على الفن الإسلامى ؛ لأن الفنون فى الواقع مواريث إنسانية تسرى بين جموع وارثيها سريان الماء والهواء ؛ وإذا كان الفن الإسلامى قد اقتبس فقد كان يقتبس عن فهم، ويهضم عن قدرة ، ويزيد عن شخصية متميزة، كما اتسم إلى جانب هذا كله بالحيوية والإبداع ؛ ولنضرب لذلك مثلا عاجلا .

لقد اقتبس الفنانون المسلمون شكل المروحة الساسانية بلا تغيير فى بعض الأوقات ولكنهم فى أحوال أخرى ابتكروا أشكالا جديدة مجردة ، وأدى هذا الابتكار إلى ظهور فن زخرفى إسلامى أصيل فى هذه الناحية . ومثل هذا يقال فى نواح فنية كثيرة .

* * *

لقد اتسع نطاق الفن فى البيئة الإسلامية وكلما انفسحت دائرة هذه البيئة اتسع فيها نطاق هذا الفن ، وما كاد المسلمون يفتحون الشام والعراق ومصر حتى فتحوا صدورهم لأنواع الفنون المختلفة ، فعنى الأمويون مثلا ببناء القصور والمساجد والمدن ، واستعانوا بالمهرة من الصناع المختلفى الجنسية ، كما استعانوا بالفنين البيزنطى والساسانى ، واقتبسوا منهما ، وعدلوا فيهما ، وزادوا عليهما .

ومنذ عهد الأمويين ظهر الرسم والتصوير على الحوائط فى كثير من البقاع الإسلامية ، كما ظهرت الأشكال الزخرفية الرمزية ، وصور الحيوانات والأشجار والنباتات . وفى العصر العباسى رسموا على حوائط القصور رسوما لنساء وحيوانات وطيور ، وكانت هذه الرسوم ذات طابع خاص دال على ملامح البيئة الإسلاميه التى ظهرت فيها ؛ وقد استخدم القوم فيها الألوان المختلفة كالأبيض والأحمر والأزرق والأصفر والأسود ، وكان من بين هذه الرسوم بعض اللوحات المتخيلة لشياطين وجاء الرسامون الإسلاميون بعد ذلك فى العصر التركى فرسموا صورا متخيلة للحوريات وعذارى الجنة ذوات الأجنحة .

ولم يقتصر الرسامون المسلمون على تصوير أجزاء الإنسان أو الحيوان ، بل رسموا الأشخاص كاملين منفردين ، كما رسموا الأشخاص كاملين فى مجموعات وطوائف ؛ وكان تصويرهم المتصوفين والنساك الهنود وهم يحادثون الأمراء والحكام ، أو يعظونهم ، من أحب الموضوعات إليهم .

ومنذ القرن التاسع الميلادى اشتهر بين المسلمين - وبخاصة فى مصر - تزيين الكتب القيمة عندهم بالرسوم والصور ، وقد أنشأ الفاطميون بمصر مدرسة خاصة لهذا التزيين ، وكانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم عدد كبيراً من المخطوطات المختلفة المليئة بالصور ؛ كما كانت هناك مدرسة للتصوير بشمال العراق ، وذلك فى عهد بدر الدين لؤلؤ (١٢٣٣ - ١٢٥٩ م) .

وعرفت المكتبة الإسلامية كتباً كثيرة مصورة ، وبخاصة فى علوم الطب والطبيعة والنبات والحيوان . ومن الكتب التى ازدانت بالصور كتاب : «مقامات الحريرى» . ويقول «ديماند» عن هذا الكتاب المصور ما يلى :

« وأهم نسخة من مخطوطات مقامات الحريرى موجودة فى المكتبة الأهلية بباريس ، كتبها وصورها - سنة ٦٣٤ هـ - ١٢٣٧ م - يحي بن محمود الواسطى ؛ وصور هذه المخطوطه بديعة رائعة تحوى رسوما آدمية كبيرة تذكرنا بالنقوش الحائطية ، وهى تصور مناظر الحياة الاجتماعية تصويرا واقعيا ، فنرى فيها عرب القرن الثالث عشر وهم فى المسجد ، أو الحقل ، أو الصحراء ، أو الخان ، أو المكتبة ؛ كما نراهم يحتفلون بأعيادهم المختلفة ؛ ووجوه كثير

من أشخاص تلك التصاوير غنية بالتعبير ، ويختلف بعضها عن الآخر ، فتبدو كأنها لأفراد بذاتهم ، وهى فى الوقت نفسه دراسة دقيقة للشخصيات المختلفة ، ومع هذا وبالرغم من محاولة الفنان التعبير عن الواقع ، فإن لهذه الصور طابعا زخرفيا واضحا ، ولا سيما تلك التى تكونت من عناصر كبيرة وسارت وفق الأساليب الفنية التى أرست قواعدها مدرسة بغداد فى القرن الثالث عشر ؛ ونجد فى هذه الصور كثيراً من الخطوات الأولى للتقاليد التى اتبعت فى التصوير الإيرانى ، فى العصرين المغولى والتيمورى مثل : تعدد صفوف الأشخاص وتراصهم وتجمعهم ، ومثل الخيول التى تظهر فى مقدمة المنظر ومؤخرته ، والملابس المرسومة بطريقة تخطيطية مقتضبة » .

ومن الكتب القديمة المصورة أيضا كتاب « كليلة ودمنة » لبيدبا الفيلسوف ، وكتاب « منافع الحيوان » لابن بختيشوع ، وكتاب « الشاهنامة » للفردوس ، ودواوين الشعراء الإسلاميين الفارسيين مثل نظامى وسعدى وجامى . وكتاب « جامع التواريخ » للمؤرخ رشيد الدين ، ومن لوحات هذا الكتاب الأخير لوحة تمثل قصة النبى يونس والحوت ، وهناك نسخة من ديوان جامى الذى يذكر قصة « يوسف النبى مع زليخا » ، وفيه أربع صور تمثل القصة ! .

وفى إيران استعمل المسلمون الرسامون ـ خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادين ـ ألوانا كثيرة فى رسوماتهم : استعملوا الوردى والزيتونى والزهرى والبنفسجى والبنى والذهبى والأخضر والأسود . وقد استعملوها ببراعة وإتقان فوق أرضية بيضاء أو زرقاء فيروزية ، فزاد ذلك فى جمال الألوان وتناسقها وروعتها .

وأنشأ كثير من حكام المسلمين فى بقاع مختلفة من بلاد الإسلام معاهد ودواوين للتصوير والتذهيب والخط والتجليد والزخرفة.

وتوسع الرسامون الإسلاميون فرسموا العازفين والعازفات ، والراقصين والراقصات ، حتى رسم بعضهم ستة وثلاثين وصفا موسيقيا راقصا ، وصوروا قصص الحب ، ورسموا الأزهار ، حتى رسم أحدهم مائة زهرة فى مائة لوحة ، ورسموا المئات من الطيور .

وعرف المسلمون منذ أقدم العصور فنونا من الخط ، فكتبوا بالخط الكوفى والخط النسخ ، والطومار ، والتعليق ، والنستعليق (أى الخليط من النسخ والتعليق) ، والفارسى ، والثلث ، والديوانى ، والطغراء . وكتبوا بالمداد الأزرق والأحمر والبنفسجى والأسود والذهبى .

وتفننوا تفننا رائعا فى كتابة المصاحف ، وزخرفوا صفحات المصحف ، كما زخرفوا عناوين السور . وتفننوا فى المدات وعلامات

الوقف ، وزخرفوا الأرضية التى امتدت عليها الحروف بتوريدات وتفريعات مذهبة .

وعرفوا فى الخط التذهيب بالضغط ، واستخدموا الزخارف المعقدة . والتزويق بالتخريم ، أو بالشف .

وفى تجليد الكتب زخرف المسلمون الوجه الخارجى لجلدة الكتاب ، كما زخرفوا باطنه ولسانه ، وجلدوا الكتب بالجلد والورق المضغوط المدهون بمادة « اللاكيه » ؛ وزخرفوا جلود الكتب بزخارف مضغوطة من وريدات وخطوط بجدولة ونقط ذهبية مضغوطة وزخارف هندسية متشابكة ؛ وقد نقل الإيطاليون عن المسلمين كثيراً من فنونهم فى تجليد الكتب وزخرفتها.

وعرفت العصور الإسلامية النحت على الحجر والجص والخشب ، نحتوا عليها الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية وسط تفريعات وزخارف ، ويظهر ذلك بوضوح فى قصور الخلفاء والأمراء ، وفى المساجد وأعمدتها ومنابرها ومحاريبها ، وعرفوا طريقة النحت المشطوف والمائل ... وعرفوا الحفر على الخشب منذ بداية العصر الإسلامى الأول ، ونشأ لهم أسلوب جديد متميز فيه ، وعرفوا فى هذا الحفر الحشوات المقسمة التى تزينها الزخارف الهندسية أو أشكال من النباتات أو الأزهار ، وظهر لهم مهارة فى إظهار التفاصيل ، وتنوع مستويات الحفر واستعملوا فى تلوين حفرياتهم الألوان الزاهيـــة .

كما حفر المسلمون منذ عهدهم الأول على العاج والعظم ، وزخرفوا هذا الحفر بنبات العنب ، مع تفريعات وتنسيقات لأوراقها ، وشاعت هذه الطريقة فى العصور الإسلامية والبيئات الإسلامية المختلفة .

كما عرفوا طريقة التطعيم ، والتجميع ، والترصيع . وهى أشكال هندسية تتكون من جمع قطع عديدة من الخشب أو العاج أو العظم أو الصدف . وعرف المسلمون منذ عصورهم الأولى صناعة الأطباق المزخرفة التى تزينها مناظر الصيد ، أو المناظر الأخرى التى تصور قصصا أو أساطير ، كما عرفوا صناعة الخزف والفخار الملون ، وكان لهم ابتكارات رائعة فى هذا الباب ، ووضعوا على قطع الفخار زخارف جميلة رائعة ، كما عرفوا فى صناعة الخزف أسلوب الفسيفساء الخزفية ، وعرفوا صناعة الخزف ذى الزخارف المصنوعة بالبريق المعدنى .

وعرف المسلمون منذ العصر الأول صناعة الزجاج والبلور ، فصنعوا القوارير والزجاجات والزهريات والأكواب وماشابهها .

وظهر للمسلمين أسلوب إسلامى متميز فى النسيج ، أخذ ينمو ويتطور وينتشر فى البلاد التى فتحها المسلمون ؛ وأنشأ المسلمون « دور الطراز » ، وهى مصانع الأنسجة المطرزة المزخرفة ، وصنعوا من النسيج

المزخرف المطرز أثوابا رائعة فاخرة كانت تقدم خلعا بمثابة أوسمة من الخلفاء .

وعرف المسلمون صناعة الأبسطة ذات الوبر ، التي ترسم عليها زخارف وصور ، أو تكتب عليها كتابات مختلفة .

وهذه لمحات خاطفة نعرف منها كيف شغلت الفنون جوانب كبيرة في تاريخ المسلمين ، وكيف ارتبطت في بعض هذه الجوانب بالناحية الدينية ، فرأينا ألوانا من الفنون تتعلق بالمساجد والمنابر والمحاريب والمصاحف وأبسطة الصلاة وغيرها ؛ كما نعرف منها أن المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم في ميادين الفنون ، بل سبقوا غيرهم كثيراً .

أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

(بقية المنشور على صفحة ٥٩٩)

إلى أن تكونوا معنا ، حتى لا تتفرق كلمتنا ولا يقع بعضنا في بعض ؛ إنا لا نجد فيما تنتهي إليه آراء المفكرين إلا تأييدا لفكرة الدين رغم أن بعض هؤلاء المفكرين هم أنفسهم ليسوا بمتدينين . خذ مثلا الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل ، فقد جاء في حديث له ترجمه له الأستاذ سعد مكاوي ونشرته له جريدة الجمهورية الصادرة في ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٩ ، ما يأتي :

« إن الإنسان إذا شاء أن تكون القوى الهائلة المتزايدة التي يكشفها له العلم نعمة لا نقمة ، فإن الأهداف التي يوجه إليها هذه القوى ينبغي أن تكون حكيمة ، وأن تسمو بنفس النسبة التي تتزايد بها هذه القوى ..

فالحياة ليست ذكاء ومعرفة فحسب ، بل تنطوي على الحكمة التي تجعل نمو الشعور الإنساني يسير جنبا إلى جنب مع نمو الذكاء والمعرفة ...

إن المعرفة وحدها لا تكفي ، كما زعم فلاسفة الإغريق ؛ فإن في الإمكان أن نتصور اجتماع عظمة المعرفة وشر القلب » .

هكذا يعتبر الفلاسفة الرحماء بالإنسانية ـ رغم أنهم غير متدينين ـ أن إصلاح القلب عنصر أساسي لصلاح المجتمع إلى جانب إصلاح العقل ، وليس كالدين يصلح القلب ويصقل المشاعر ، ويطهر الأحاسيس .

هاتوا لنا تربية للقلب خيراً من تربية الدين ، ونحن نقركم على مهاجمة الدين ، ونرى لكم في العزوف عنه مندوحة ، وإلا كنتم هادمين للمجتمع حين تهدمون الدين . ؟

دكتور سليمان دنيا
أستاذ الفلسفة المساعد
بكلية أصول الدين

القانون الدولى فى تقدير الإسلام

للشيخ عباس طه

لو جاز لنشأة علم من العلوم أن ترتبط باسم إنسان معين لارتبطت نشأة القانون الدولى العام باسم العالم الهولاندى جروسيوس فقد أخرج سنة ١٦٢٥ مؤلفه الذائع المسمى «فى قانون الحرب والسلم». ولقد كان لظهور هذا المؤلف الذى تضمن تنظيما يكاد يكون كاملا لما يقوم بين الدول من روابط وعلاقات تأثير بالغ فى النفوس لا يفوقه إلا ما أحدثه ظهور القرآن من تأثير فقد التزمت هذا الكتاب الدول دستوراً لعلاقاتها الخارجية.

فهل للإسلام سياسة دولية من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق الطبيعية المتفق عليها بين الأمم المدنية اليوم ؟ .

نقول نعم للإسلام سياسة دولية وهى أرق عما يعرف من الحقوق المتفق عليها اليوم ؛ لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثل العليا وتلك إلهية هى المثل العليا نفسها ولبيان ذلك الإجمال نقول :

أول أساس للسياسة الدولية فى الإسلام هو قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » فالإسلام يعلن بأن الناس جميعاً أبناء أبوين معروفين وهم سواء فى الحقوق ، وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت البيئات قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تذليل عقبات الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر فى سبيل البقاء ولا يجوز أن تكون الفروق فى الأديان والعادات واللغات والألوان بصادة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى فى مجال المعاملات ويكون أقربها إلى الله أخشاها له وأوقفها عند حدوده وهو وحده الذى يتولى السرائر .

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعبادات ومعاملات فقد جاءت كلها فى الإسلام إما رامزة إلى هذه الغاية الكريمة أو مهيئة لها ومطابقة لقواعدها العامة كل المطابقة .

أكثر ما تظهر هذه الروح الإسلامية السابقة هو فيما فرضه الكتاب على أهله فى المواطن الخطيرة من الدفاع لحماية أنفسهم أو الهجوم لكسر شرة عدوهم فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء

والعطف لا بروح الاصطدام والعسف كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لا متنازعة وإنما دفعتها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايرة لسنن الاجتماع قال الله تعالى: «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم». ولما كان قد يتوهم أن الإسلام يقضى بمقاطعة كل من لا يدين به من الأمم بين الله هذا الأمر على وجه يرفع كل لبس فقال عز من قائل: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

فإذا أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات إلى تحكيم السيف أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم وأن يستبسلوا فى القتال ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستبسال على العدوان والتجنى، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى فكان الإسلام أول من كاشف العالم بأن فى كل شىء عدلا يناسبه حتى فى التناحر المحض قال تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين». «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا (أى لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب».

فمن العدل فى الحرب فى شرعة الإسلام ألا تسرف فى القتل، وأن لا تتجنى على المحارب لك، وألا تتعقب المهزومين وألا تجهز على الجرحى، وألا تهين الأسرى، وألا تقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم فى الخطوط الخلفية، فإذا دخلت بلداً معاديا فلا تحرق أشجارها، ولا تهدم دورها، ولا تزهق روحا من شيوخها ونسائها وولدانها ورجال دينها. وقد تبرأ النبى صلى الله عليه وسلم ممن ارتكب شيئاً من ذلك حتى أنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون وتؤذون الأحياء. إلا أن البذاء لؤم». وهذا نهاية ما يؤثر من السمو لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله فى الأرض وأن يعمل على إقامة دولة الحق فى العالم كله — وإذا كانت هذه أصوله فى المواقف التى تغلى فيها الرءوس تحت تأثير ثورة الغضب والأسنة المدربة، تزهق الأرواح وتخمد الأنفاس فما ظنك به فى مواطن العافية والسلام ناشر

ألويته، والهمم تتبارى فى التكيف بعقائل المحامد لنيل الدرجات العلى والزلفى من الحق المطلق .

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات وإبرام الاتفاقات وتقرير المهادنات فإزاء هذه الحاجات قرر الإسلام أن يكون شعار أمته الوفاء المطلق بها من غير نظر إلى فائدة تبدو فى نقضها أو مصلحة تدعو إلى تأويلها فقال تعالى: « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وذكر جل علاه صفات المؤمنين الصادقين فقال: « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، وزاد ذلك تأكيداً فذكر وجوب الوفاء بالعهد ووجوب الصبر فى أشد المحن وأحرج المواقف فقال : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، وأوصى سبحانه وتعالى بالعهد حتى بالنسبة لمشركى العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم فى كل فرصة يظنونها مواتية لهم فى إيذاء المسلمين فقال جل شأنه : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » يوصى الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتحرجون من نقض عهدهم لأول بادرة من فائدة تبدو لهم فقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » . ولكى لا يؤثر غدر المشركين فى قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم فى رذيلة نقض العهد مقابلة للمثل بالمثل عاد فذكر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالإحسان وهو فوق العدل وبالبر بذوى القربى وأنه يحرم كل عمل خسيس وكل منكر وظلم باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الإيمان لا يجوز الهوادة فيها لأى اعتبار كان فقال تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » ، « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ، أى لا يحملنكم كراهتكم لقوم على ما يرتكبونه ضدكم من التعديات المنكرة على أن تتخطوا طريقة العدل فى معاملتهم .

هذه غايات من السمو السياسى لا يزال العالم بعيداً عنها وقد عمل بها المسلمون فى عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام المعاهد ؛ لأن غرض الإسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله فحسب ، ولكن تطهير قلوبهم من أقذاء الصفات الحيوانية وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المثل الخلقية العليا فى الأرض .

وقد ثبت من استقراء الحوادث التاريخية أن الاستقامة الخلقية فى السياسة كانت دائماً أعود على أهلها بالفوز فى مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والنزول على حكم القوة .

ومن الأخلاق السياسية التى بثها الإسلام فى أهله قبول السفراء واحترامهم والتفاوض معهم على قدم المساواة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفل بالوافدين عليه ويحبوهم بألطافه حتى روى أنه فرش عباءته لوفد نصارى نجران وأجلسهم عليها .

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه وتنشر بين الناس ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتمر أى يطوف بالبيت الحرام فى غير أوان الحج فاستنفر الناس لذلك فاجتمع إليه ألف وخمسمائة فخرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف فلما بلغ ، قريشاً ذلك هاج هائجها فأرسلت بديل ابن ورقاء ليتعرف مقصدهم فعاد إلى قومه وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين فقالت : أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف وأرسلوا إليه حليس بن علقمة فلما عاد إليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوه وما أراد : فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفى فقال له : « يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله بيده ، وكان المغيرة بن شعبة وهو أحد الصحابة يقرع عروة كلما هم بذلك ولما عاد إلى قريش أيد رأى صاحبيه فقالوا لا بأس من أن يجئ فى العام المقبل أما هذا العام فلا . وأرسلوا سهيل بن عمرو ليتفق مع النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك فقبل رسول الله هذا العرض وأخذ يملى على علىّ ابن أبى طالب نص العقد فأملاه : بسم الله الرحمن الرحيم : فقال سفير الجاهليين : لا نعرف الرحمن الرحيم .

اكتب باسمك اللهم . فقبل رسول الله

ذلك منه ثم مضى فى إملائه فقال يا على اكتب : هـذا ما صالح عليه محمد رسول الرحمن فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة وقال : لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك فأمر النبى صلى الله عليه وسلم كاتبه أن يمحو ما كتب فكره علىّ محوه فمحاه رسول الله بيده .

يتحكم الجاهلى فى وجوب حذف كلمتى الرحمن الرحيم وهما عربيتان والقصد منهما تمجيد الخالق ويأبى إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أن قريشاً لا تعتقد بصحة نبوته وإثبات هذه العبارة فى العقد لا يقتضى إيمانهم به ولكن الجاهليين لا منطق لهم . فاعجب من سمو منطق النبى صلى الله عليه وسلم فى حذفها لأن ذلك الحذف لا يقتضى سلبها منه.

هذه حكمة نبوية لا مرونة سياسية ورسول الله قدوة لأمته وقد جرى خلفاؤه فى أحفل عصور الإسلام بالعظائم على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاينة وتحدى المثل العليا فى المعاملة والمجاملة واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى فى المخاصمة والمقاتلة ، فوضعوا بذلك أصولا سياسية دولية هى أحكم قواعد وأرسخ وطائد وأجمع لمبادئ الإنسانية من أية سياسة فى الأرض من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم .

فالمتأمل فى أقوال أقطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير وإنما يجب أن تبنى على أصول تنازع البقاء ومحاباة الأقوياء ويقارنها بأصول السياسة الإسلامية يجد البون شاسعاً بين المذهبين ، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحن والأحقاد بين الأمم والشعوب وإثارة الحروب بينها مع ما تجره من خراب على العمران وهذه السياسة أساسها العدل المطلق وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية والقضاء على المنازعات المصلحية وردها جميعاً إلى دستور من التعاون والائتلاف جدير بكرامة الإنسانية وملىء بإيجاد زمالة عامة بين البشر كافة مصداقا لقوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

عباس طه

المحامى الشرعى

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

بحث فى فعل ظلّ

المشهور أن يقال : ظل محمد مثابراً على عمله أى ظل كذلك دائما على العمل فى النهار أو الليل . وقد كان جمهور اللغويين يرون تخصيص ذلك بالنهار ؛ إذ إن هذا الفعل مصوغ من الظل الذى يكون فى النهار ، ويقابل ظل فى هذا بات التى تختص بالليل .

وفى اللسان : « ولا تقول العرب : ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ؛ كما لا يقولون : بات يبيت إلا بالليل » . وفيه : « وقد سمع فى بعض الشعر : ظل ليله » . فترى كيف خص استعمال ظل فى العمل فى الليل بالشعر ، ومنعه فى النثر والاختيار . ويقول الحريرى فى درة الغواص (ص٧ من طبعة الجوائب) : « وقد خالفت العرب بين ألفاظ متفقة المعانى لاختلاف الأزمنة ، وقصرت أسماء أشياء على وقت دون وقت » . ثم قال بعد تعداد جملة ألفاظ : « ومما ينتظم فى سلك هذا السمط قوله : ظل يفعل كذا وكذا إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا وكذا إذا فعله ليلا » . وقد علق عليه الشهاب الخفاجى فى شرحه (ص ٢٧) بقوله : « هذا أصل وضعه وقد يأتى من غير دلالة على وقت معين مجازاً ؛ كما قالوه فى قوله — تعالى — : « فظلتم تفكهون » يريد قوله — تعالى — فى سورة الواقعة : « لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » ، ولا يخصص ذلك بوقت دون وقت . ومن هذا قوله — تعالى — فى سورة طه فى قصة السامرى : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » .

فأما قوله تعالى فى سورة النحل : « وإذا بشر أحدهم ، بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » فيجوز أن يكون (ظل) فيه بمعنى صار أو يراد أن ذلك فى النهار وفى البيضاوى « ظلّ وجهه : صار أو دام النهار كله » : وكتب الشهاب عليه ، يعنى أن أصل معناه : داوم على الفعل فى النهار . فإما أن يكون على أصل معناه ، كان أكثر الوضع يكون ليلا فيبشر به فى يوم ليلته فيظل نهاره مغتما وأنه بمعنى صار ؛ كما يستعمل أصبح وأمسى بمعنى الصيرورة » .

وفى الأشمونى : « وقد استعمل كان وظلّ

وأضحى وأصبح بمعنى صار كثيراً » .

وإنى أورد هنا بحثا كتبه ابن سعيد المغربى فى حاشيته على الأشمونى إذ يعلق على العبارة السابقة : « زعم لكدة (١) الأصبهانى والمهاباذى(٢) شارح اللمع ، وقبلهما السيرافى وغيرهم عدم كون ظل بمعنى صار ؛ لاختصاصها عندهم بفعل النهار . قال السيرافى : هى لما يستعمله المرء نهاراً ، وليست إلا ناقصة .

وقال ابن السرّاج : هى مشتقة من الظلّ ، وإنما تستعمل فيما للشمس فيه ظل من الطلوع للغروب . وقال هشام : « لما بين الصباح والمساء» وعاب لكدة قول الأعشى:

يظل رَجيما لريب المنُون
وللسُقْم فى أهله والحزَنْ

فإنه ليس الظلول إلا نهارا . قال : « أتراه يظل نهاره رجيما لريب المنون ، فإذا جاء الليل أمن ! . ومنع ظل فلان عمره سفيها ، وشهره سائرا إلا وسيره نهارا . ولم يرتض المحققون منهم ذلك » .

قال أبو حنيفة الدينَوَرىّ ردا على لكْدة : أفترى أنت أن السامرى الذى ظل عاكفا كانت عبادته نهارية فقط ... بل ينبغى على ذلك فى قوله جل ثناؤه : «ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من من بعده يكفرون» أن يكون كفرهم نهاريا لا غير ، وفى قول الشاعر (١) :

وإخوان صدق لست مطلع بعضهم
على سِر بعض غير أنى جماعُها
يظلون شتىً فى البلاد وسرهم
إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها

أن يكون هؤلاء شتىً بالنهار ، فإذا جن الليل اجتمعوا ، وأحدهم بالغَوْر والآخر بنجد . وقال ذو الرُّمة :

ظللِت تخفـق أحشائى على كبدى
كأننى من حذار البين موروود(٢)

أفترى حذاره نهاريا ، فإذا جَنّ الليل أمن ! .

أكثر من كتاب :

يقول الطيب الذكر الشيخ ابراهيم اليازجى فى « لغة الجرائد » (ص ٦١) : « ويقولون رأيته أكثر من مرة ، وجاءنى أكثر من واحـــد ، ومقتضاه إثبات الكثرة للمرة وللواحد ؛ لأن المفضل عليه لابد أن يشارك

(١) هو أبو على الحسن بن عبد الله ويقال لغدة ، كما ذكره صاحب القاموس فى لغد وكان معاصرا لأبى حنيفة الدينورى فى القرن الرابع الهجرى . وله كتاب الرد على الشعراء وقد ناقضه عليه أبو حنيفة الدينورى . وانظر معجم الأدباء ٨ — ١٤٨ .

(٢) هو أحمد بن عبد الله أخذ عن عبد القاهر الجرجانى .

(١) هو مسكين الدارمى وهــذا الشعر فى الحماسة .

(٢) موروود : محموم .

المفضل فى ذلك المعنى . فقولك : بكر أشرف من خالد يتضمن إثبات الشرف لخالد مع زيادة بكر عليه فيه » .

« والظاهر أن هـذا التعبير منقول عن التركيب الإفرنجى ، والعرب يستعملون هنا لفظ (غير) يقولون : رأيته غير مرة ، وجاء فى غير واحـد ؛ لأن غير الواحد لا بد أن يكون اثنين فما فوق » .

فتراه ينكر أن يقال : عندى أكثر من كتاب ؛ لأن الكتاب الواحد لا كثرة فيه ؛ على ما هو الأصل فى أفعل التفضيل ، ويذكر أن هذا الأسلوب لم يرد عن العرب ويستظهر أنه منقول عن اللسان الإفرنجى .

وأفعل التفضيل كثيراً ما يأتى على غير الأصل الذى ألف فيه ، وقد جاء فى اللسان (عشش) قول ذى الرمة :

لنـا الهـامة الأولى التى كل هامة
وإن عظمت منها أدق وأصغر

فقال ابن برى : إن فيـه جواز قولهم : زيد أذل من عمرو ، وليس فى عمرو ذل ؛ على حد قول حسان : فشركما لخيركما الفداء .

فهو لا يريد اشتراكهما فى الخير والشر ، وإنما الشر فى أحدهما والخير فى الآخر .

على أن هذا الاستعمال الذى أنكره اليازجى يفشو فى عبارات المؤلفين من قـديم . فى درة الغواص فى مبحث : (اجتمع فلان مع فلان) : « لأن لفظة اجتمع على وزن افتعل وهذا النوع من وجوه افتعل - مثل اختصم واشترك - وما كان أيضا على وزن تفاعل - مثل تخاصم وتجادل - يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد » .

وفى اللسان (عرا) من كلام إمامنا الشافعى فى العرايا : « والصنف الثالث من العرايا أن يعرى الرجل الرجـل النخلة أو أكثر من حائطه ليأكل ثمرها ويهديه ويثمره » . فقوله: أو أكثر أى من النخلة .

وكان الأب أنستاس الكرملى قد رد على اليازجى فى مجـلة المشرق (المجلد سنة ١٩٠٣ ص ٦٣) وذكر أن هذا التعبير ورد فى عبارة لعبد اللطيف البغدادى فى حديثه عن الأهرام إذ يقول : « وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول » .

وبعد فهذا الأسلوب ورد فى قصة تعزى لرجل جاهلى ، وهو سعد بن زيد مناة بن تميم الملقب بالفزر . فلقد عرض على أولاده أن يرعوا معزاه ، فأبوا عليه ذلك ، فوافى بمعزاه الموسم ، فدعا النـاس فلما اجتمعوا قال : انتهبوها ، ولا أحل لأحد أكثر من واحدة جاءت هـذه القصة فى اللسان : (فزر) فى الاشتقاق لابن دريد ص ٢٤٥ .

وترى أن اليـازجى ضيق واسعا من القـول ؟ .

محمد على النجار

ما يقال عن الإسلام

رماد ولا نار

للأستاذ عباس محمود العقاد

يقول الشيوعيون أنهم كفروا بالأديان لأنهم درسوا التاريخ وفسروه، ودرسوا الأديان وعرفوا خباياها .

فإذا ثبت من كلامهم أنهم لم يدرسوا التاريخ ولم يدرسوا الأديان فالأمر الذى لا شك فيه إذن أنهم أناس مأجورون مسخرون، وأنهم من أخس طغام الأجراء ، لأنهم لا يبالون قداسة الدين ولا شناعة الكفر فى سبيل المال الحرام .

وقد نشر بعض اللصقاء بالإسلام فى العراق رسالتهم التى سموها بالرسالة الرمادية وترجموها أو ترجمت لهم من لغة أجنبية فثبت منها أنهم أجهل خلق الله بتاريخ بلادهم وما جاورها فضلا عن تواريخ الأمم الأخرى، وثبت منها إلى جانب هذا أنهم لا يعرفون شيئا عن تاريخ مكة وتاريخ النبي عليه السلام، لأنهم يذكرون (اللخميديين) ولا يعرفون أنهم اللخميون أقرب العرب الأقدمين إلى وادى النهرين ، ويذكرون قبيلة (السقيف) وهى ثقيف قبيلة الحجاج أشهر من حكم العراق ، ويذكرون القريشيين ولا يوجد إنسان على شيء من الاطلاع على تاريخ مكة وتاريخ بيت النبي فيها يجهل من هم القرشيون أو ينسبهم تلك النسبة التى تنم عن جهل باللغة كالجهل بالتاريخ .

أهؤلاء مسلمون درسوا تاريخ دينهم فأنكروه بعد أن عرفوا خباياه ، أم هم أذناب فتنة مسخرون ، يهرفون بما لا يعرفون ، ويقترفون الكفر البواح وهم لا يبالون ما يفعلون ؟ .

لا حاجة إلى البحث عن التاريخ للعلم بحقيقة هذا الكفر وحقيقة هذه الدعوة ، فإن الحقيقة التى ينطق بها كل حرف من حروف الرسالة (الرمادية) أنهم كفار للبيع ... دراهم معدودات من كل باذل مال ، ولا بد أن يكون بيعا رخيصا

وصفقة خاسرة، لأنها صفقة جهل يصطفق عليها جهلاء.

وفيما يلى أمثلة شتى تدل على أن هؤلاء «الباحثين العلميين التقدميين العارفين بالتاريخ والدين»، لم يطلعوا على كتاب الإسلام ولم يكلفوا أنفسهم مداراة جهلهم بالرجوع إليه بعد وصول الرسالة الرمادية إلى أيديهم؛ لأن المهم فى الأمر أن تصل النقود إلى تلك الأيدى، وعلى الدين والدنيا بعدها العفاء!.

يقول الرماديون «واحتفظ الإسلام أيضا بعبادة الأرواح والجن فى حين أن أسماء الآلهة القديمة أصبحت نعوتا لله. وهكذا أصبح اسم الإله رحمانا الذى كانت تمارس طقوسه قبل أن ينشر مسيلمة تعاليم الحنفيين فى مكة ويثرب واليمن».

هكذا يقال بكل ثقة الجاهل المكابر، ولو كلف أصحاب هذا المقال أنفسهم نظرة فيما جاء من القرآن الكريم عن الجن لقرءوا فيه من سورة الأنعام «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون»... وقرءوا فيه من سورة الصافات. «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون».

ولم يقرءوا فيه كلمة واحدة عن الجن توجب لهم عبادة أو رعاية فى أعناق المسلمين.

أما تعاليم «الحنفيين» كما قالوا فمتى نشرها مسيلمة فى مكة والمدينة؟ ومتى دان المكيون باسم الرحمان وقد اعترضوا فى صلح الحديبية على ابتداء الكلام باسمه ولم يقبلوا البسملة فى مفتتح الكلام؟.

ومن هو هـــذا الإله صاحب الطقوس والشعائر التى استعارها النبى عليه السلام من اليمانيين؟ أكانت هذه الطقوس والشعائر عبادة وحدانية كالتى جاء بها الإسلام؟ فمن هو النبى الذى جاء بها إلى أهل اليمن، ولماذا أحجم هؤلاء عن الدعوة الإسلامية التى استعيرت منهم وجاءتهم باسم ربهم المعبود فيهم؟.

أم ترى كان (الرحمان) صفة مستعارة من اليمن، فمن أين ياترى استعيرت صفات الله التى جاوزت التسعين؟.

كل ما فى هذه الأسطورة أنها تخريفة من تخريفات اثنين من المستشرقين موردتمان ومولر Mordtmann and Muller يفهمان الأسماء العربية كما فهم بعضهم اسم أبى بكر رضى الله عنه فقال إنه سمى بذلك لأنه كان والد الفتاة البكر التى بنى بها النبى عليه السلام!. أو كما فهم بعضهم اسم الصعيد فقال إنه سمى بذلك لأنه مصر «السعيدة» أى Egypt Felix ... أو كما فهم بعضهم معنى القصيدة فقال إنها سميت بذلك لأنها معنى مقصود!.

هذان المخرفان خلطا فى قصة سخيفة عن البسملة يدعى رودويل Rodwell مترجم القرآن أنه فهمها من دراسته للكتاب وفهم من ثم ، لماذا بدئت السور بسم الله الرحمن الرحيم ثم عدل النبى عن ابتداء السور بها فى أخريات أيامه ، فقال رودويل هذا فى هامش الصفحة الحادية والسبعين بعد المائة من ترجمته (إن الكفار سمعوا محمدا يبتهل قائلا : يا الله . يا رحمن . فحسبوا أنه يدعو إلهين اثنين ، ولما سقط هذا الابتداء من سور القرآن الأخيرة أصبح مفهوما أن محمدا كان يريد أن يقرن اسم الرحمن باسم الله ثم خشى أن يحسبهما الناس إلهين اثنين فأمسك بعد ذلك عن ذكر الرحمن . » .

ثم قال برودويل « إن الحميريين كانوا يصفون أربابهم بهذا الاسم ، ولكن جذور هذه الكلمة غير موجودة فى اللغة الحبشية » .

أرأيت دراسة التاريخ ؟ أرأيت دراسة الدين ؟ أرأيت التحقيق العلمى التقدمى الذى يخرج المؤمن من دينه ويذهل الموقن عن يقينه؟.

إن محمدا قد ترك البسملة وأسقطها من السور الأخيرة لأنه خاف من اسم الرحمن المستعار أن يشارك اسم الله فى عبادات المسلمين ، فما هى السور الأخيرة التى سقطت منها اسم الرحمن؟ وكم سورة هى ؟ ولماذا لم يحذف هذا الاسم من بقية السور التى بدئت بالبسملة ولم تزل مقروءة محفوظة فى حياة النبى وبعد وفاته صلوات الله عليه ؟ .

إن العلامة اللبيب مترجم القرآن ودارس اللغات العاربة والمستعربة قد فهم كل هذا من ورود سورة واحدة هى سورة التوبة بغير بسملة ، وسببه كما يعلم كل مطلع على الكتاب أن النبى لم يأمر بها وقال ابن عباس رضى الله عنه : « إن البسملة فيها رحمة وأمان وهذه نزلت لرفع الرحمة والأمان عن المشركين » . فلما نزلت ولم يسمع المسلمون البسملة فى مستهلها تحرجوا من وضعها وحسب بعضهم أنها مكملة لسورة الأنفال كما هو معلوم .

ومثل هذا التحرج البالغ فى إثبات كلمات الكتاب المبين خليق أن يعلم المفترين أنه كتاب لا يزاد فيه حرف لم يسمع فى موضعه ولو سمع مثله فى كل سورة ، ولكن الافتراء أسهل شىء على هؤلاء الجهلاء المضللين ، فلا حرج عندهم بعد علمهم بهذه الأمانة الإسلامية فى نقل القرآن أن يهذروا فى كراستهم الرمادية قائلين : « إن هذا الكتاب يحتوى على ١١٤ فصلا بأطوال مختلفة ألف فى عهد الخلفاء ، فقد وجدت حتى فى القرن التاسع أو العاشر نسخ من هذا الكتاب تختلف عن النسخة الشرعية ... ولم يستطع مؤلفو القرآن إخفاء تلك الاعتراضات بل اكتفوا بحذف بعض الكلمات غير المقبولة . » .

ولا أدل على سهولة التهجم عنـــد هؤلاء النـاس من علمهم بهذا الحذر الشديد فى جمع آيات القرآن ثم ادعائهم أن الخلفاء يجترئون على تأليفه وأن المسلمين ظلوا إلى القرن العاشر للهجرة ينقحونه ويحـذفون منه ويضيفون إليه ، فلو كان لهم ذرة من التحقيق التاريخى الذى يزعمونه لما أقدموا على هـذه الدعوى بغير سند من الواقع يثبتونه ويثبتون حجته والبينة عليه ، وأقل ماينبغى من السند الصحيح فى مثل هذه الدعوى أن يكونوا على علم باسم الخليفـة الذى اشترك فى التـأليف المزعوم وعلى علم بنص الآية التى مسها التنقيح مع موجباته ودواعيه ، أو مع بيان الوسائل التى استطاع بها الخليفة (المؤلف) أن يخفى الأمر على قراء الكتاب المتـداول فى أيدى الملايين والمحفوظ فى صدور الألوف ... فأين هو هذا السند ؟ وأى سند أقل منه يكفى للاجتراء على تلك الفرية بتلك الثقة ؟ .

ومن سوء النية والإصرار على الاتهام والتخبط فى التهم بين المتناقضات أن هؤلاء الرماديين يعلنون أن القرآن الكريم غـير قاطع فى تحريم الربا ولا يسألون أنفسهم ولا يخطر لهم أن أحدا سيسألهم : وكيف يكون النص على تحريم أمر من الأمور إذا كانت نصوص القرآن فى أمر الربا غـير قاطعة فى تحريمه ؟ .

فالآيات القرآنية التى يعلقون عليها تقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

فـكيف تراهم يكتبون نص التحريم ليكون النص قاطعاً فيه ؟ .

إنهم يقولون فى كراستهم إن بعض آيات «القرآن تحرم المراباة حماية للفقراء والمحتاجين وكان ذلك جزءاً من سياسة الأنبياء لجلب رضى الفقراء . وتعتبر هذه السياسة ناقصة ، فما الفائدة من تحريم المراباة عند وجود الآية : « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ؟ . . » .

وتعجب حين تقرأ هذا التعليق فلا تدرى ماذا فهموا منه ؟ هل يفهم منه أحد أن القرآن يبيح الربا لأنه يزجر من يأخذه ولا يبيح له غير أخذ الدين من مدينه بغير زيادة ؟ أهذا هو النص الذى يبطل فائدة التحريم ؟ فما هو النص الذى يفيد فيه .

ولا يخفى تخبط القوم فى الاتهام بكل وسيلة ، بل فى الاتهام بالحجـة ونقيضها فى وقت واحـد .

فهل جاء الإسلام من إقطاعيين يحافظون على مصالح الاستغلال والمراباة بالأموال ؟ .

هل جاء الإسلام من هؤلاء أو هو قد جاء من الفقراء والمحتاجين ليرضيهم ويغضب المرابين والمستغلين ؟ .

ينبغي أن يكون قد جاء من هؤلاء ومن هؤلاء في وقت واحد ، وأن يكون الاتهام قائماً على كل حال ، ولا لزوم للدليل في أية حال ، بل لا لزوم للالتفات إلى التناقض بين الدليلين ؛ لأن الالتفات إلى تناقضهما يسقط الاتهام ، وماذا يصنع القوم بغير اتهام كيفما كان ، ببرهان أو بلا برهان ؟ .

* * *

ويوشك القوم أن يلحقوا بالقرآن كل خبر من أخبار الدول الإسلامية يدخل في شعائر الدين أو ينسب إلى ذي شأن أو غير غير ذي شأن من المسلمين .

قالوا عن ثروة الخلفاء « إنها لم تقتصر على المال فحسب ، بل شملت بعض المخلفات الثمينة كالسيف والعصا والعباءة التي قيل إنها كانت تعود إلى النبي محمد . وقد أثبت تحقيق علماء البرجوازيين أن تلك المخلفات كانت مزورة . فقد ذكر (بيريت) في كتابه الإسلام في صحيفة ١٤ مجلد ١٧ نشر في برلين سنة ١٩٢٨ بأن الأدلة تجعلنا نشك في صحة الأسطورة القائلة بإعطاء الرسول لعباءته إلى الشاعر كياجو بن ذكير والتي كانت الأساس لاعتبار الإسلام لتلك العباءة إحدى الذخائر ولا يوجد في أي من المراجع القديمة حتى في كتاب ابن هشام كلمة واحدة عن إعطاء العباءة أو تقديسها ، ولم نذكر هنا عن المضاربات التي دارت حول هذه الذخيرة . فقد بيعت عباءة الرسول عدة مرات بربح وعرضت للجمهور بعد احتراقها في بغداد على يد المغول سنة ١٢٥٨ م في مسجد العبادة المقدسة في اسطنبول ، وليست أسطورة هذه العباءة بفريدة بين غيرها من الطلاسم والمذاكير في الإسلام وفي غيره من الأديان الأخرى » .

فالذين نشروا هذه الكراسة الرمادية من الصفاء بالإسلام في العراق يجهلون اسم كعب ابن زهير الشاعر المشهور وينقلونه في مصادرهم المحققة باسم (كياجو بن ذكير) ويدلون بذلك حقاً على أنهم غربلوا التاريخ وفسروه ونفذوا إلى أسراره ومضامينه ولم ينكروا الدين إلا لأنهم فهموه حق فهمه من هذه الدراسة التاريخية على أوفاها ! ...

وهؤلاء هم الذين عرفوا تاريخ النبي عليه السلام وعرفوا كل ما روى عنه من الحقائق والأباطيل ، فعرفوا من بينها شاعراً لم يخلقه الله يسمى كياجو بن ذكير ، وعرفوا بعلمهم الزاخر أنه اسم عربي يتسمى به العرب في صدر الإسلام .

وهؤلاء هم أصحاب الإلحاد المفسرون

الماديون للتاريخ ولا شيء عندهم غير المادة والتاريخ .

فإذا صح كل ما قالوه ونشروه عن هذا (الكياجو) العربي فما هو ذنب الإسلام ؟ وما هو ذنب النبي عليه السلام ؟ وما هو ذنب المؤرخين أو ذنب مؤرخ النبي ابن هشام ؟ .

بردة قيل إن النبي خلعها على شاعر معلوم أو مجهول ، ولم يقدسها النبي ولا جاء في كتب دينه أنها من المقدسات أو المحفوظات للتقديس والتبريك . فماذا في وجود هذه البردة من مطعن في الكتاب أو في السنة أو في شرائع المسلمين ؟ .

وإذا ظهر أحد - مثلا - بخطاب صحيح أو مدسوس على كارل ماركس فتغالى به أتباعه وتوارثه المتاحف بأثمانه وما فوق أثمانه ، فماذا في ذلك من التفنيد للمادية والماديين ومن البرهان المتين على بطلان هذا الدين ؟ . وما الذي يوجب على المؤمنين بالمادية الاقتصادية أن يدحضوا هـــذه الإشاعة الشيوعية أو البرجوازية ؟ .

كان للنبي عليه السلام بردة خلعها على شاعر .

لم يكن للنبي عليه السلام بردة خلعها على شاعر .

كان بعض الناس يصدقون في هذه الرواية أو يكذبون فيها ، وكانوا يستغلونها على الحالين فيحسنون أو يسيئون استغلالها .

على كل فرض من هذه الفروض ، ماذا فيها جميعا من النقد العلمي الذي يتحراه طلاب الحقيقة عن دعوة الإسلام ؟ بل ماذا يصنع الشيوعيون اليوم في متاحفهم التاريخية إذا عرض عليهم أثر من تلك الآثار النبوية للشراء. أليس في متاحفهم ما يشترى لقيمته الأثرية بالمال الطائل والجهد الجهيد ؟ أليس الضريح الذي شيدوه للزعيم لينين تراثا له تكاليفه وله حجاجه وطلاب البركة لديه ؟ أليس في متاحف العلوم المادية حول الكرة الأرضية مخلفات وموروثات تحسب أثمانها بالألوف والمئات وتفتح أبوابها كل يوم للزائرين والزائرات والمعجبين والمعجبات ؟ فلماذا يضنون بشرف كهذا الشرف أو بخير كهذا الخير على المسكين كياجو بن ذكير ... ؟ .

أما إنه لشاعر بليغ هذا الكياجو الذي لا هو في الأحياء ولا في الأموات .

إنه لشاعر يكفى اسمه المختلق لتمزيق الكراسة الرمادية على رءوس ناشريها ، وإظهارهم بحقيقتهم التي يكتمونها وإن لم يجهلوها .

حقيقتهم أنهم تجار في سوق الجهل والضلال يبيعون جهلهم لمن هو أجهل منهم ، لأنه يشتريه بالمال ، وهو عندهم رب الأرباب وموئل الآمال ؟

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

مهبط الوحى

للأستاذ محمد على الحومانى

وقف الشاعر أمام جبل «حراء» فى مكة وثارت شجونه ففاضت عبراته بهذه القصيدة

مهبطَ الوحى ، صلاة وسلاما هرم الدهر ولم تبرح غلاما
يا قديما لم تزل جِدّته قبلة الكائن بدءاً وختاما
كلما ذاق أماليكَ فمٌ عبقرىٌّ ملأ الكون ابتساما

* * *

« جبل النورِ » أقم حيث نرى كل نور من أعاليك ترامى
فانجلى فى كل أفق قمراً وعلى كل فم ... دوّى سلاما
اتركونى أتبيّنْ فى ثرى « مهبط الوحى » أمانىّ الجساما
أسأل الأطلال عن فرقانه وعن الحكمة هاتيك الرماما
وأسائل تحته رهط « أبى طالب » كيف يُربُّون اليتامى ؟ ؟
كيف ينشقُّ عن اليُتم بهم فلق شق عن الفجر الظلاما ؟ ؟

* * *

أوثقونى ها هُنا أطلق فمى يلثم الصخر ويستفُّ الرغاما
أوثقونى أتنسم بدمى فى ظلال الوحى ، شيحاً وخزامى
ألصقونى بثراها واهمسوا بين جنبىَّ لياليه الوساما
أضجعونى وأهيلوا رملها فوق عينىَّ نجوداً وتهاما
دثرونى ، وأحيلوا وهدها ورُباها فىّ لحماً وعظاما
علنى أبصر فى أطلالها عِزةً قومتِ الكونَ فقاما

لبنات هتف العز بها ... فتسامقن بروجاً ودعاما
أوثقوني أذكر عهد الألى ... أوقظوا الموتى ولم تبرح نياما

* * *

يا جبالا أحدق القفر بها ... واستوت فيه شماريخ صماما
كيف أقفرت من الكرم الذى ... يكلأ الحى وأنبت الكراما ؟؟
أين « الحرة (١) » أن تندى ولم ... تر فى آفاقها حتى الجهاما ؟؟
أنبتت كل دم حـر وما ... نبعت أرضاً ولا اخضلت غماما

* * *

من أنادى وأناجى فى ثرى ... حالك من بثى حنيناً وهياما
ذكريات عصفت ثورتها ... ملء جنبى ضراماً واضطراما
كدت من تأريثها أن لا أرى ... وأعى إلا صليلا وقتاما
ذكريات حطم الشعر بها ... كل فكر ترك الشعر حطاما

* * *

يا بناة الدين حلت بعدكم ... نكبة سامته خسفاً وانهداما
هانت الأنفس منا فهوى ... شرف قام عليكم فاستقاما
لو أفقتم لرأت أعينكم ... أمة تزدرد الموت الزؤاما
الألى انقضوا على الشرق ظبى ... وانبروا فى أفق الغرب سهاما
والألى لما يزل ناموسهم ... قائماً فى كل أسلوب نظاما
صفقوا « بغداد » فى كل حشا ... وبنوا فى كل تاريخ « شآما »
خلفتكم بعدهم طائفة ... تخذت من كل طاغوت إماما
والأنوف الشم فى أعقابكم ... لبست من كل أقنوم خطاما
الحواريون ضاقت بهم ... رقعة الأرض صلاة وصياما
والطواغيت على أعوادكم ... يتبارون قعوداً وقياما
يا رسول الله ماذا نتقى ... من رزايانا ومن ذا نتحامى ؟؟؟

محمد على الحوماني

(١) الحرة أرض وعرة مقفرة والحرار موجودة بكثرة حول المدينة المنورة .

من المسرح الديني:

أسماء بنت الصدّيق

للأستاذ محمد ابراهيم نجا

المشهد الأول

« حجرة مؤثثة بالأثاث العربي في غير ترف . . . يظهر باب من الجهة اليمنى . . . أسماء تصلي ، وحين تنتهي من الصلاة ، تناجي ربها » .

أسماء : إلهي يا إله العالمينا وأكرم من يجيب السائلينا
سألتك أن تعين الخير حتى يرد الشر مخذولا مهينا
وترعى الحق في الدنيا ليقوى وتمنح أهله النصر المبينا
سألتك لا لنفسي . . . إن نفسي قد انصرفت عن الدنيا سنينا
ولا لابني ، فلست أراه إلا وديعتك التي استودعت فينا
ولكني أرى الضلال جاءوا يريدون الردى للمهتدينا
إلهي احكم بما ترضى ، فإنا بما يقضيه حكمك قد رضينا

« تسمع طرقا على الباب »

أسماء : تقدم أيها الطارق قد جئت على الرحب

« يدخل عبد الله ابنها »

عبد الله : سلام الله يا أمي

أسماء : سلام الله

ثم تهتف : واكربي !
لأمر هائل جلل تركت مواطن الحرب !
أذاك فرار منهزم ؟ فذلك أعظم الخطب !

عبد الله [في قوة] : معاذ الله . . . كيف يفر مثلى من الأعداء فى يوم النزال ؟
وكيف يخفينى بأس الأعادى ؟ وكيف يَروعُنى هول القتال ؟
ولكنى خُدعت ، وفر عنى رجالى . . آه من جبن الرجال
وصرت كأننى فى الحرب وحدى أقاتل باليمين وبالشمال
فجئتك أبتغى رأيا سديدا به أجد الهدى بين الضلال

أسماء : أتخشى القتل عبد الله ؟

عبد الله : كلا فليس القتل يوم الحرب عاراً
ولكن تعلمين بأن شأنى أحال ضغينة الحجاج ناراً
فلو أنى قُتلت لمزقونى كما مزقت ثوبا أو دثاراً

أسماء : أتخشى حين يقتلك الأعادى جراحات تكون بلا دماء ؟
وقبلك سيد الشهداء أودى فمزق جسمه حقد النساء
أتدرى الشاة بعد الذبح شيئا فتصرخ حين تُسلخ للشواء ؟

عبد الله : هذا هو الحق الصراح ، جلَوْته لىَ هادياً ، فعرفت ماذا أفعلُ
الآن أذهب للقتال ، وعزمتى أمضى من السيف الصقيل ، وأقتل

أسماء : الآن حق وداعى يا أكرم الأبناء
وضعتُ فيك رجائى وما فقدتُ رجاء
فكن صبوراً ، وقاتل بهمة وبلاء
وعد بأكرم نصر أو كن من الشهداء

« تعانقه فتلمس الدرع التى يلبسها ، فتقول فى إنكار »

أسماء : ما تلك عبد الله ؟

عبد الله : درع أتقى بحديدها ما جاء من أعدائى

أسماء : درع تقيك ضرابهم وطعانهم ؟ مهلا . فتلك وسيلة الجبناء
المؤمنون دروعهم إيمانهم ويقينهم بالله فى البأساء
وعزيمة طماحة لا تنثنى حتى تنال قلائد الجوزاء

عبد الله : أماه قلت صوابا يا أكرم الأمهات

« ينزع درعه »

الآن أنـــزع درعى مستهزئا بعـــدائى
وما نـــزعت مراسى ولا خلعت ثبـــاتى
حسبى يقينى وعـــزمى وصارمى وقنـــاتى
إنى نـــذرت لربى يوم النضال حيـــاتى
والآن أمضى بقـــلب مستأسد العـــزمات

أسماء : اذهب لأكـــرم غايه ورافقتك العنـــايه

« ينصرف عبد الله »

* * *

المشهد الثانى

« نفس الحجرة فى المشهد السابق . . . الوقت ليلا .
أسماء تمشى فى إعياء » .

أسماء : أين أيام زمانى الماضيه وشباب جملته العافيه
يوم أن كنت إذا الحرب دنت ثم دارت برحاها العاتيه
أحمل الماء لمن يشكو الصدى ثم أعنى بالجراح الداميه
ولقد يضرب سيفى فى العدا ضربات ساحقات قاضيه
وأنا الآن مشيب ضارب فى حياة كالغصون الذاويه
لا أطيق الخطو من ضعف ولا تحمل السيف ذراعى الواهيه
آه لو يحمل سـيفى ساعدى ضاربا تلك الجموع الباغيه

« تسمع صوتا من الخارج »

الصوت : يا أم عبد الله

أسماء : من !

الصوت : أنا وافد من جند عبد الله

أسماء : نعم الوافد
ادخـــل

الجندى : سلام الله للأم التى أعلى أمومتها الكريمُ الماجد

أسماء : وعليك من ربى السلام ورحمة فياضـــة بالخير والنعماء
ماذا وراءك ؟

الجندى (مترددا) : جئت بالنبأ الذى يا ليته ماكان من أنبائى

أسماء : وإذن فقد قُتل الأمير ؟

الجندى : تجلدى

أسماء : عجباً أتحسبنى من الضعفاء ؟

إن التجلد فى الشدائد شيمتى ودليل إيمانى ، ورمز إبائى

والصابرون ، جزاؤهم من ربهم خير الجزاء . فهل أضيع جزائى

« بعد لحظة »

والآن حدثنى . . . أقاتل جهده وسق الأباطح من دم الأعداء ؟

أفكان مثل أبيه صدق عزيمة وجلا دَمَرهفة ، وحسنَ بلاء ؟

الجندى : الله يشهد ما رأيت نظيره أحداً ، ولا أبصرت مثل قتاله

كانت جموع القوم تخشى بأسه فتفر فى فزع من استقباله

فإذا تعرض فارس لينالـه قهراً ، طواه الموت قبل مناله

عقروا الجواد ليعجزوه ، فما ونى أوحاد عن إقدامه ونضاله

بل ظل يخترق الصفوف مجندلا أعــداءه بيمينه وشماله

حتى أتاه الغدر يسترق الخطا فاغتاله ، تبت يدا مغتاله

أسماء : نعاك عبد الله ، عشت مجاهدا فى الله ، تركب هامة الأخطار

دافعت عن شرف العقيدة ، حاملا سيف العلا بعزيمة الأحرار

وقضيت فى ظل السيوف ، ومن يمت فى ظلها ، يخلد مدى الأدهار

قد كنت فى دنياك مبعث عزتى ولأنت فى منعاك رمز فخارى

عش فى جوار الله جل جلاله وانعم مع الشهداء والأبرار

[ســــــــــتار]

ابراهيم محمد نجا
المدرس بالمدارس الثانوية للبنات
وخريج كلية اللغة العربية

آراء وأحاديث

وفد أفغانستان فى الأزهر :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه صباح اليوم الوفد الثقافى الأفغانى ، وكان على رأس الوفد السيد شاه محمد رشاد مدير عام تنوير الأفكار بوزارة الصحافة ، والسيد محمد حيدر زويل المدير العام للعلاقات الثقافية بوزارة الصحافة والسيد محمد بنى كوه زاد مدير جريدة أفغانستان ، وكان يرافق الوفد السيد المقدم عبد العزيز هندى مدير العلاقات العامة بوزارة الثقافة والإرشاد والسيد ابراهيم محمد عيسى وكيل الإرشاد الثقافى .

وقد قال السيد رئيس الوفد : إنها لفرصة طيبة تلك التى نلتقى فيها بشيخ الإسلام وإمامهم وأستاذ الأساتذة فى العالم أجمع ، ولا تؤاخذنا إن عجز اللسان عن التعبير .

وهنا رد فضيلة الأستاذ الأكبر فقال : إنما تنطق القلوب وتصغى الأفئدة ، فكم من أفواه تحدثت ولم تنتج شيئا ، وأنا أحس بقلوبكم فإنكم إخوة لنا وأخوتكم صادقة ، فنحن جميعا أحفاد السيد الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى كان له من المبادئ فى التشريع وفى السياسة ما ربط بها أواصر الصلة بين أفغانستان وفيما بين القاهرة ودمشق ، ومن ثم كان هذا الجزء ميدانا خصبا يتثرفيه درره الغوالى.

إن لجمال الدين الأفغانى صلة وثيقة بالأزهر إلى اليوم ، وفى الأزهر رجلان خلدا ذكرى الإمام محمد عبده ، وهما بهذا الاعتبار حفيدان يؤمنان بالمثل والقيم العليا التى آمن بها جمال الدين ، وهما من خيرة أبناء الأزهر : الدكتوران محمد عبد الله ماضى مدير المعاهد الدينية ومحمد البهى مدير عام الثقافة الإسلامية بالأزهر.

وهنا قال الدكتور محمد البهى : إن فضيلة إمامنا الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت هو أصل هذه الصلة . فقد عرفنا السيد جمال الدين عن طريقه وعرفنا الشيخ محمد عبده بمعرفته ، فإن يكن فينا من خير فهو مستمد من فضيلته.

ثم قال الأستاذ الأكبر : إن هذه الصلات يجب أن نحييها على أساس من المحبة والتبادل الروحى ، وإن صلتى بأفغانستان لوثيقة ، فإننى لأذكر أنه فى عام ١٩٤٨ طلب منى أن أسافر إلى « كابول » لأشترك فى التقنين الشرعى الإسلامى ، ولكن ظروفا حالت دون ذلك ، ولعل فى المجمع العلمى الإسلامى ، المشروع الذى تقدمت به إلى سيادة الرئيس زعيم نهضتنا الحديثة الرئيس جمال عبد الناصر ما يحقق الصلة بين المسلمين جميعاً ويربط بعضهم ببعض عن طريق العلم والمعرفة والروح وإنى لأدع التفصيل فيه إلى حينه

داعيا المولى أن يحقق للمسلمين آمالهم فى زعيمهم جمال .

ثم أهدى لهم فضيلته كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » قائلا لهم : هذا بما اشتمل عليه من مبادئ الإسلام وفيه عهد نعاهد أنفسنا عليه فى أن نكون العاملين بدين الله المخلصين له .

هـــذا وقد زار الوفد قاعة المحاضرات الأزهرية وكلية الشريعة الإسلامية واستمعوا إلى بعض المحاضرات فى القانون المدنى وتاريخ الفقه الإسلامى وعلم الحديث .

وقد صحبهم إلى كلية الشريعة الشيخ محمد حجاب المدرس بالأزهر والمتخرج من معهد الإعداد والتوجيه وقام بترجمة المحاضرات التى ألقيت .

ثم انصرف الوفد شاكراً حسن استقبال الأزهر لهم .

مستر فيلبس يتحدث إلى الأستاذ الأكبر :

واستقبل فضيلته مستر فيلبس صاحب شركات فيلبس العالمية وكان يرافقه مستر هاير ومستر جيبان والسيد المهندس السيد عبد الرحيم .

وقد تناول الحديث علاقة الدين القوية بالعلم حيث قال فضيلة الاستاذ الأكبر : إن لمن الواجب أن يتفق العلم والدين فى توجيه الإنسانية والعمل على استقرار السلام العالمى وأن يكون دور العلم التعمير لا التخريب وأن يستخدم للنهوض بالإنسانية إلى مستوى أفضل يحقق لها الرخاء والسعادة ، وأن توجه جهود علماء الذرة إلى استخدامها من أجل صالح البشرية لا تدميرها .

كما تطرق الحديث إلى ثقافة المشرفين على الشباب الدينية فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن المشرفين على الشباب قد تربوا تربية دينية صالحة فمنهم من هم من أبناء الأزهر ومنهم الخريجون من وزارة التربية والتعليم الذين تلقوا تعليمهم الدينى من أساتذة متخرجين من الأزهر أو من غيره .

وإن جهود حكومة الثورة وعلى رأسها الشاب المؤمن الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، توحى بأن الشباب العربى ينالون من عظيم العناية ما يؤهلهم لخدمة وطنهم وأداء واجبهم خير أداء .

ثم أجاب فضيلته على سؤال مستر فيلبس نحو توجيه الشباب قائلا : إن إذاعات العالم والصحف ودور الكتب والأندية العلمية والرياضية يجب أن يكون لها أعظم الأثر فى توجيه الشباب توجيهاً صالحاً يقودهم نحو المثل العليا والأهداف السامية .

كما تناول الحديث نواحى مختلفة عن الجهود التى يبذلها الأزهر والجمهورية العربية المتحدة لأبناء المسلمين الذين يفدون إليه لدراسة الدين الإسلامى واللغة العربية ومدى ما يقدمه الأزهر لهؤلاء الطلاب الذين ينتمون إلى أكثر من خمسين جنسية من جميع أنحاء العالم من مختلف أسباب الراحة والاستقرار حيث أعد

لهم مدينة سكنية عظيمة بها إحدى وأربعون عمارة مقامة على الطراز الحديث وتكلفت حوالى مليونين من الجنيهات .

ثم تناول الحديث مشكلة اللاجئين الفلسطينيين فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه لمن الخير للإنسانية أن يتعاون العلماء من رجال الدين والسياسة فى أن يعملوا على إعادة هؤلاء اللاجئين إلى أوطانهم إذ أنها مشكلة الإنسانية التى تتطلب منا أن نمد لهم يد العون والمساعدة ، والأمل معقود على الجمهورية العربية المتحدة بزعامة رئيسها الشاب المؤمن الرئيس جمال عبد الناصر .

هذا وقد شكر مستر فيليبس ومرافقوه فضيلة الأستاذ الأكبر على سعة صدره وحسن ترحيبه بهم أثناء زيارتهم لفضيلته اليوم .

زيارة :

واستقبل فضيلته السيد السعدون وزير الأشغال بحكومة الملايو وبعد أن حياه قال له :

إنى آمل دائماً أن يكون الناس جميعا متعاونين على البر والتقوى والخير وأن يعم الناس جميعا محبة خالصة وود وصفاء « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وتلكم هى دعوة الإسلام تقوم على المودة والمحبة لا على الغطرسة وحب السيطرة . ولست أوجه الدعوة خاصة بأحد دون أحد ، فكل المسلمين دعاة دين وخير ، فوزير الأشغال صاحب دعوة إلى الحق كوزير التربية والتعليم كوزير العدل كلهم فى ذلك سواء ، إن كل من ولِىَ عملا من الأعمال يجب أن يقوم بأدائه خير قيام وأن يسلك به الطريق المستقيم وأبناء الملايو هم كأبناء أصلابنا فى الجمهورية العربية المتحدة نحرص على الخير لهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وقال السيد الوزير : إننى حين جئت إلى فضيلتكم جئت مدفوعا بحبى وحب أهل الملايو لكم فنحن أبناؤكم الروحيون وقد كلفت رسميا بأن أحمل إلى فضيلتكم تحيات السيد رئيس مجلس الوزراء وجميع إخوانى الوزراء وإنهم لينظرون إلى فضيلتكم نظرة الإمام والقائد .

وهنا قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه ليشرفنى أن أكون خادم الإسلام والمسلمين وقد وهبت نفسى طوال حياتى للدعوة الإسلامية بكل جهدى وما آتانى الله من قوة ، فلنكن جميعا دعاة حق وخير ولننتهز هذه الفرصة التى ينهض فيها السيد الرئيس جمال عبد الناصر بالأمة الإسلامية وبالأمة العربية للتعاون على الحق والخير والله يسدد خطانا ويوفقنا .

ثم أهدى فضيلته كتابه الجديد الإسلام عقيدة وشريعة ليكون عهد الله بينه وبين إخوانه المسلمين فى الملايو .

الكتب
نقد وتعريف

الإسلام : عقيدة وشريعة

لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

بقلم : الأستاذ محمد عبد الله السمان

هذا كتاب جديد قيم للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، جاء فى زهاء خمسمائة صفحة .

قدم له الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر ، بمقدمة مسهبة جاءت بمثابة تركيز لفكرة اتجاه الثقافة العامة إلى نشر البحوث الإسلامية القوية ، كى تؤدى رسالتها فى إيقاظ الوعى الإسلامى ، وتسجل للأزهر أنه عامل قوى فى اليقظة الإسلامية المعاصرة فى شتى البقاع الإسلامية .

وهذا الكتاب أولا : ليس مجرد كتاب عادى ، ضم بين دفتيه بحوثا عديدة تتصل بالإسلام من حيث هو عقيدة وشريعة ، لتكون خلاصة لما كتبه علماء الإسلام السابقون . وكفى . . ! .

وهذا الكتاب ثانيا : ليس آراء جريئة جاءت لتنقض آراء علماء الإسلام السابقين كما يتوهم بعض قاصرى الفهم من أدعياء العلم . . ! .

وهذا الكتاب ثالثا : ليس مجرد عرض للإسلام ومعانيه ، ليجد العامة وأنصاف المثقفين فيه حاجتهم ، دون أن يجهدوا أذهانهم ، أو يشقوا على عقولهم . . ! .

ولكنه كتاب اعتمد على أصول ثلاثة : منهج ، ودراسة ، وتفكير حر نزيه ، وهذه الأصول الثلاثة إذا تجرد كتاب منها أو من بعضها ، أصبح شبحا لا روح فيه ، وسجلا لألفاظ قضت نحبها فى إهابها قبل أن تتفتح أعينها للحياة . . ! .

وقد عودنا الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى كل بحوثه ، أن يرسم لها التخطيط أولا ، وأن يضع آراءه فى إطار من الدراسة الواعية العميقة ثانيا ، وهو فى مرحلتى التخطيط والدراسة ، المفكر الحر ، والعقلية الأصيلة ، التى لا تهتز لرغاء العقليات المتجمدة ، ولا لصرير الأقلام التى أخذت على عاتقها عبء مهمة التزمت فى دنيا التفكير .

مهد الأستاذ الأكبر لمؤلفه الضخم ببحث مركز عن الإسلام ، دين الله الذى أوصى بتعاليمه فى أصوله وشرائعه إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم إليه .

وعن القرآن كتاب الله ، الذى أصبح عند من آمنوا به مصدراً لعقائد الدين ولأصول أحكامه وشرائعه .

وعن الفهم الإنسانى — أى الاجتهاد فى الإسلام — أنه ليس دينا يلتزم إنما هو رأى يناقش ، ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر ، وتألقت حرية التفكير والنظر ، أما العقائد الأصلية ، وأصول الشريعة ، فإن نصوصها جاءت فى القرآن بينة واضحة لاتحتمل اجتهاداً ولا أفهاما .

وعن سماحة الإسلام ، الذى دلت طبيعته على أنه دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، ويساير أنواع الثقافات والحضارات الصحيحة النافعة . ! .

ثم عن الإسلام كعقيدة وشريعة ، وهاتان شعبتان أساسيتان للإسلام ، لاتوجد حقيقته ، ولايتحقق معناه ، إلا إذا أخذتا حظهما من التحقق والوجود فى عقل الإنسان وقلبه وحياته . والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا ، والشريعة هى الجانب العملى ، شرع الله أصول نظمها ، ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه ، وعلاقته بأخيه المسلم ، وأخيه الإنسان ، والكون والحياة .. ! .

هذا وقد عبر القرآن عن العقيدة بالإيمان وعن الشريعة بالعمل الصالح ، ومن هنا لم يكن الإسلام عقيدة فقط ، كما لم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، وإنما كان عقيدة ، وكان شريعة توجه الإنسان إلى نواحى الخير فى الحياة ، والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة ، ومن ثم فلا وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لا ازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة ، وإذاً فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى .

وتحدث فى نهاية هذا التمهيد عن المساواة بين بنى الإنسان بالنسبة للإسلام ، حيث يستوى فيه بالنظر إلى عقيدته وشريعته ، جميع بنى الإنسان ، تطالب به جميع الأجناس والطوائف ، ثم عن مساواة المرأة للرجل فى المسئولية الدينية ، وأن مسئولية المرأة مستقلة عن مسئولية الرجل تماما . . .

• • •

والكتاب كما هو واضح من عنوانه شطران :

وفى الشطر الأول : شرح الأستاذ الأكبر العقائد الأساسية فى الإسلام :

أولا : الإيمان بوجود الله ووحدانيته ..!.
ثانيا : « برسله وأنبيائه جميعهم .!.
ثالثا : « بالملائكة ..!.
رابعاً : « بالبعث والجزاء ..!.

ثم أصول الشرائع والنظم التى تضمنتها رسالات الرسل ، والتى ارتضاها الله لعباده .

ويرى الأستاذ الأكبر ، أن كلمة الشهادة تجمع عقائد الإسلام وأصول شرائعه : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » وهذه الشهادة هى المفتاح الذى يدخل به الإنسان فى الإسلام وتجرى عليه أحكامه . « فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة فى الله من جهتى الربوبية (الخلق والتربية) والألوهية (العبادة) ، والشهادة برسالة محمد تتضمن التصديق بكمال العقيدة فى الملائكة . والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام . » وطريق الإسلام إلى الإيمان ليس فيه إكراه ، لأن طبيعة الإسلام تأبى الإكراه ، ولا يتحقق إيمان بإكراه ، وحجته فيما يتعلق بعقيدة الإله : وجودا ووحدانية وكمالا » دائرة بين النظر العقلى حيث طلب من الإنسان النظر والتفكير فى هذا الكون : فى إحكام وجوده ونظامه ، وبين الوجود الفطرى ، حيث يرشدنا القرآن ويسترعى أنظارنا إلى حقيقة نفسية واقعية تعبر عن قبس الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته ، وعن فطرية الشعور الدينى فى نفس الإنسان .

والإيمان بالرسل لا يعطى فكرة تجريدهم من البشرية ، فهم بشر يتفقون مع سائر البشر فى أخص أوصاف البشرية ، وإن كانت قد لحقتهم عصمة الله فيما يبلغون عنه ، فإنهم فى غيرما يبلغونه عن الله من الآراء والأحكام أو الأحكام الشخصية - كغيرهم - يصيبون فيها ويخطئون .

وفى الفصل الثانى من الشطر الأول : ناقش الأستاذ الأكبر موضوعا دقيقاً ، هو « طريق ثبوت العقيدة » :

ففضيلته يقرر : أن العلماء متفقون على أن الدليل العقلى الذى سلمت مقدماته وانتهت فى أحكامها إلى الحس أو الضرورة ، يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب . أما الأدلة النقلية فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تفيد اليقين ، والذين يرون غير رأيهم ، شرطوا فى الدليل النقلى أن يكون قطعياً فى وروده ودلالته .

وعلى هذا الأساس ، لا تعتبر المسائل التى لم ترد بطريق قطعى ، أو وردت بطريق قطعى ولكن لابسها احتمال فى الدلالة ، لاتعتبر من العقائد التى يكلفنا بها الدين ويكفر منكرها وفى مقدمة هذه المسائل : رؤية الله بالأبصار ، وما يكون آخر الزمان من ظهور المهدى

والدجال والدابة والدخان ونزول عيسى ، وما إلى ذلك مما يذكر فى مثل : خريدة الدردير وجوهرة اللقانى .

وعلى هذا الأساس أيضا ، يعتبر القرآن هو الطريق الوحيد لثبوت العقائد ، فما كان من آياته قطعي الدلالة لا يحتمل معنيين فأكثر ، وثبوت العقيدة بالقرآن وعدمه مبنى على قطعية الدلالة وظنيتها ، أما قطعية الورود فهذا لا شك فيه .

هذا بالنسبة للقرآن ، أما بالنسبة للسنة ، فثبوت العقيدة بها ، لا يكون إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته ، لأن الظنية يلحقها من هذين الجانبين ، ومتى لحقت الظنية الحديث من جهة وروده أو من جهة دلالته أو منهما معا ، فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها .

وبعد أن عرض الأستاذ الأكبر لآراء العلماء الأقدمين ، وإجماعهم على أن الحديث الآحاد لا يفيد إلا الظن - لا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما ، وعرض أيضا لاختلافهم فى وجود الحديث المتواتر ، فذهب بعضهم إلى أنه لا يوجد حديث واحد متواتر فى الكتب المدونة ، كما ذهب البعض الآخر إلى أن المتواتر كثير فى هذه الكتب ، رأى فضيلته أنه لا يحكم لحديث بالتواتر إلا إذا أخرجته جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة ، وتعددت طرق إخراجه تعددا تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب ، وثبت هذا التعدد فى جميع طبقاته : أوله وآخره ووسطه .

* * *

أما الشطر الثانى من الكتاب فقد كان بحثا مطولا عن الشريعة .

والشريعة هى الجانب العملى فى الإسلام ، هى اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله أو شرع أصولها وكلف المسلمين إياها ، وعلى كثرتها ترجع إلى ناحيتين أساسيتين :

(١) العبادات : وهى ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون إلى ربهم ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم فى الإيمان به ومراقبته والتوجه إليه .

(ب) المعاملات : وهى ناحية العمل الذى يتخذه المسلمون سبيلا لحفظ مصالحهم ، ودفع مضارهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الناس على الوجه الذى به يسود الأمن والاطمئنان .

والعبادات : هى الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والمقصود منها مضمومة إلى الإيمان بالله ، هو تطهير القلب وتزكية النفس وقوة مراقبة الله ، ولذلك كانت العمدة التى يبنى عليها الإسلام .

وبعد أن شرح الأستاذ الأكبر العبادات

تفصيلا ، ، أبرز من خلاله فلسفة التشريع ، طرق جانب المعاملات ، تحدث عن نظام الأسرة ، « تكوينها - تعدد الزوجات - وضع المرأة فى نظر الإسلام » والمواريث ، ثم عن الأموال والمبادلات ، ثم عن العقوبات ومسلك الشريعة وهدفها فى تقريرها ، ثم عن وضع الأمة فى الإسلام .

ولقد أثار الأستاذ الأكبر فى هذا القسم كثيراً من المعانى :

١ - حمل كثير من العلماء آية : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ... » على مجرد التنفير من تزوج البغى ...

٢ - أن الإمام الذى تمنحه الشريعة الإسلامية هذا الحق العظيم ، ليس هو من يخلع عليه طائفته أو إقليمه أو طائفة من الناس لقب « الإمام » بل هو الحاكم الذى يعرف فى صدر الإسلام بلقب الخليفة .

٣ - لابد للأمة من إمام يحيى الدين ، ويقيم السنة ،وينتصف المظلومين ، ويستوفى الحقوق ، ويضعها موضعها ... ! .

* * *

ولقد ألحق الأستاذ الأكبر بالشطرين السالفين : العقيدة والشريعة قسما ثالثا تحت عنوان : « مصادر الشريعة » وإذا كان فضيلته قد اعتبر القرآن وحده مصدراً للعقيدة فى الإسلام بشرط أن يكون صريحاً حاسما فى معناه ، فإنه يقرر هنا أن مصدر الشريعة أوسع نطاقا ، وقد حصرها فى ثلاثة مصادر :

ا - القرآن نصه ومحتمله .

ب - السنة بشرط صحة نقلها .

حـ - الرأى عن طريق النظر فى محتمل القرآن والسنة .

وبعد أن عرض فضيلته للقرآن فى الوضع اللغوى ، وفى اصطلاح علماء الأصول ، ونهجه فى بيان الأحكام ، كما عرض السنة أيضا : معناها فى اللغة ، ومعناها فى صدر الإسلام ولسان الشرع ، ومعناها فى اصطلاح علماء الأصول ، ومعناها فى اصطلاح الفقهاء ناقش شبهة المخالفين فى أن السنة مصدر من مصادر التشريع ، وهم الذين رأوا فى القرآن كفيلا ببيان أحكام الله ، كما رأوا فى أن الأحاديث لو كانت تشريعا عاما كالكتاب لأمر الرسول بتدوينها وحفظها .

ورد فضيلته على المخالفين شبهتهم حين ذكر أن رأيهم مخالف لإجماع الذين يعتد بإجماعهم وأن المحققين من العلماء أثبتوا بالسنة قولا وعملا كثيرا من الأحكام التشريعية الدائمة، وأن العمل المستمر من عهد الرسول إلى يومنا هذا فى نزوع المسلمين فى تعرف أحكامهم إلى السنة المروية ، يجعل شبههم أوهى من خيوط العنكبوت .

على أن فضيلة الأستاذ الأكبر اعتبر أن

السنة كما هى تشريع قد تكون غير تشريع ، فما ورد من أحاديث مدونة من أقواله وأفعاله وتقريراته ، وكان سبيلها سبيل الحاجة البشرية : كالأكل والشرب والنوم وما إلى ذلك ، أو سبيلها سبيل التجارب والعادة الشخصية كشئون الزراعة والطب أو سبيلها سبيل التدبير الإنسانى أخذاً من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية ، هذه الأحاديث ليست شرعا ، وإنما هى من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول فيها تشريعا ولا مصدر تشريع .

وذكر فضيلة الأستاذ الاكبر عند الكلام عن الرأى — كمصدر للتشريع — أن عهد الرسول قد تركز فيه مصدران للتشريع هما القرآن والسنة وكان أصحابه من بعده يرجعون إلى القرآن ثم إلى السنة فإن لم يجدوا حاجتهم بحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وكان أخذ الرأى بطريق الاستشارة مصدراً جديداً ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، أو فيما فيه نص محتمل .

وترجع حجية الرأى فى التشريع إلى تقرير القرآن مبدأ الشورى ، وأمره برد المتنازع فيه إلى أولى الأمر ، ثم بعد ذلك إلى ثبوت إقرار النبى لأصحابه الذين كان يبعثهم إلى الأقاليم على الاجتهاد والأخذ بالرأى .

وعلى ذلك يكون « الإجماع » الذى يعتبر فى الإسلام مصدراً من مصادر التشريع هو اتفاق أهل النظر فى المصالح ، ولا عبرة فيه بموافقة من ليس أهلا للنظر ولا بمخالفته . أما الإجماع الذى يصور بأنه : اتفاق الأمة جميعها : مجتهديها وغير مجتهديها : خاصها وعامها ، فليس هو الإجماع المعتبر مصدرا من مصادر الشريعة ، وإنما هو إجماع على العلم بما أجمعت الأمة عليه .

والأستاذ الأكبر يقرر بأنه لا اختصاص لأحد بحق الفهم فى الإسلام، لأنه من حق كل مسلم حائز لأهلية البحث ، وبأنه ليس فى الإسلام من يجب الأخذ برأيه كالخليفة والإمام والقاضى ؛ لأن كلا منهم ليس معصوما من الخطأ ، وبأن فتوى المفتى ليست ملزمة لمن يستفتيه ، لأنه إما مجتهد يفتى برأيه أو مقلد يفتى برأى غيره .

وختم الأستاذ الأكبر هذا البحث بأن الإسلام فتح الباب للاجتهاد الفردى والجماعى لكل من آنس فى نفسه أهلية النظر ، وقد كان تعدد المذاهب مرده إلى الاختلاف فى طرق الاجتهاد ، كما كان فى تقرير حق الاجتهاد ما فتح لأهل البحث والاستنباط من علماء الشريعة الإسلامية أوسع الأبواب لتخير القانون الذى تنظم به شئون المجتمعات الإسلامية اختلاف ظروفها ، غير مقيدين إلا بشىء واحد هو عدم المخالفة لأصل

من أصول التشريع القطعية مع تحرى وجوه المصلحة ، وسبيل العدل ، وكان ذلك أساساً لدوام الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان . !

وبعد :

فإن هذا عرض يعتبر سريعاً لمؤلف الأستاذ الأكبر : الإسلام عقيدة وشريعة ، والذى أستطيع تأكيده .أن فضيلته أفاض فى عرضه للإسلام بشطريه. العقيدة والشريعة، بعقلية تحررية مدعمة بالدليل والمنطق ، وإن ماضى الأستاذ الأكبر وحاضره يشهدان بأنه فى طريقة عرضه للإسلام يعنى بالمنهج والدراسة والتحرر العقلى بينما نجد كثيراً ، من العلماء يكتفون بجمع آراء غيرهم دون أن يكون لآرائهم وجود ، وذلك إما لأن طريقة النقل ميسرة سهلة لا إجهاد للذهن فيها ، وإما لأنهم يؤثرون السلامة والهدوء . وتجنب مشاغبات أشياع الجمود والتزمت ، ولو سار الجميع على منوالهم لعجزت الشريعة الإسلامية عن مسايرة الحياة والتجاوب مع تطوراتها ، وأصبحت تراثا مجمدا من تراث الماضى . وكفى !.

إن كتاب الأستاذ الأكبر سيسد فراغا فى المكتبة الإسلامية ، فلأول مرة على وجه التقريب - يخرج إلى عالم الوجود كتاب مستقل يجمع بين دفتيه الإسلام فى عرض مركز ، ودراسة عميقة ، وبروح مشرقة ، وعقلية متحررة . !؟

محمد عبد الله السمان

حول كتاب المغير لابن الصديق :

اطلعت على كتاب المغير للشيخ أحمد ابن محمد بن الصديق الغمارى الطنجاوى نزيل القاهرة فوجدت مؤلفه يستعمل ألفاظاً لا تليق بالنقد العلمى الذى يراد به بيان الحقائق فهو ينسب الفلتة إلى الحافظ نور الدين الهيثمى كما أنه يرمى الفقهاء بأنهم (يوردون الأحاديث الموضوعة محتجين بها فى الأحكام) وأن كلامهم هذا (ليحسنوا به بدعة التقليد والمذاهب المبتدعة) وأن المناوى هو مصدر الأوهام والأغلاط وأن عقله السخيف ما أبلده - وان (الحنفية أصحاب هذا الرأى وأكثر المقلدة وضعا للحديث حُبّاً فى نصرة مذهبهم) وأن الحافظ السيوطى (لو كان عنده نقد للحديث لاستحى من إيراد مثل هذه الأباطيل) — كما أنه ذكر فى ص ٥٧ عن حديث عبادة (وهو من كذب الحنفية) وقال فى ص ٦٧ (وطالب العلم اليوم شر من الشيطان الرجيم) وقال فى ص ٧٧ (فهل بلغت بك الغفلة يا سيوطى لهذا الحد) والسيوطى المغفل فى زعم ابن الصديق هو الحافظ جلال الدين

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الإمام الباحث الحافظ الأديب المؤرخ الذى تورع عن مِنَح الملوك والحكام .

ولست أريد بهذه العجالة نقد الكتاب من جهة الصناعة الحديثية وإنما أريد أن أسأل المؤلف عن الفائدة التى تعود على الإسلام من تذيل السلف الصالح ورمى مذاهبهم المباركة المتبوعة على طول الزمان بالفساد والابتداع . وإذا انتهى الأمر إلى أن يسب المحدث أصحاب المذاهب ويقع الفقهاء فى الصوفية ويذم الوعاظ المفسرين - إذا انتهينا إلى هذا فهل يمكن لإذاعة إسرائيل أو لملايين الدولارات التى ينفقها المبشرون المستعمرون أن تنال من الإسلام أكثر من هذا - وما هى الفائدة التى تعود على المسلمين من هذا التنابذ والسباب ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى وحدة الكلمة وتأليف القلوب وإعادة اليقين إلى العقول التى تسلطت عليها أمواج الإلحاد والشيوعية . وهلا يمكن للنقد العلمى أن يقوم إلا بهذه الألفاظ البذيئة - وأذكر أنى سمعت المؤلف قبل خمس وعشرين سنة يقول : قال الحافظ فقلت له أى حافظ تعنى؟ فقال : إذا قلت الحافظ فهو ابن حجر ، لأنه بلغ شأوا سابقيه وعز على من جاء بعده أن يلحق به ثم هو يقول فى ص ٦ من المغير (ومن الغريب أن الحافظ ذكره فى مقدمة فتح البارى مع تصريحه فى كتاب آخر بأنه من الواهى) وهكذا نرى أن المؤلف لا يزال مصراً على استعمال لقب الحافظ دون أى تعريف ، ولكنه يرمى هذا الحافظ بالتناقض ، وبأنه يوهى حديثا ثم يذكره فى مقدمته التى تعتبر دستورا لعلم الحديث فى رأى كثير من المحدثين . فهل التناقض شيمة للحفاظ — أرجو أن يكون الرد على هذا فى مؤلف يفرد لتعقب المغير ونقد ما جاء فيه إن شاء الله تعالى - كما أن المؤلف ذكر فى ص ٩ من المغير حديث الورع عن ذكر الفاجر ، وأنه موضوع مع أن الشيخ نور الدين أبا الحسن على بن أحمد بن أبى بكر الجراح الشافعى - وابن الصديق أعلم الناس به - ذكر فى أول كشف الأستار المسبلة هذا الحديث والجراح المذكور من المحدثين بل من الحفاظ فكيف استشهد بحديث موضوع .

أرجو أن يكون فى هذه الكلمة الهادئة ما يردع الشيخ ابن الصديق عن لحوم العلماء فإنها سموم وأن يتفرغ لإقراء الحديث على طلبة أؤمل ألا يكونوا ببركته أسوأ من الشيطان الرجيم - والله ولى التوفيق والهادى لأقوم طريق .

أحمد خيرى

النشاط الثقافي للأزهر

افتتحت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية موسمها الثقافى الثانى بسلسلة قيمة من المحاضرات لصفوة من كبار المفكرين ألقيت فى قاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى ابتداء من ١٨ ربيع الآخر وهاك ملخصا لكل منها :

ألقى الأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية محاضرة عنوانها :

« واجب العلماء »

تحدث فيها عن أصحاب المعرفة الإلهية وأصحاب المعرفة الإنسانية ، وأبرز منهج كل فريق فى البحث . ودعا العلماء من الفريقين أن ينظر كل منهما فيما عند الآخر حتى تلتقى المعرفة الإلهية بمبادئها ومثلها العليا مع المعرفة الإنسانية واختراعاتها وتقدمها المادى .

كما أبان أن صاحب المعرفة الإلهية يعتمد فى تنظيم علاقات المجتمع وإرساء قواعد السلوك على أساس فاضل من الوحى الأعلى أما صاحب المعرفة الإنسانية فيعتمد على المعمل والتجربة وما تؤدى إليه من نتائج ثم دعا فى محاضرته أن يلتقى الفريقان ليتحقق سلام البشرية وأمنها .

* * *

وألقى الأستاذ عيسى عبده إبراهيم الأستاذ بكلية التجارة ـ جامعة عين شمس ـ محاضرة عن

« وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى »

بدأه بالكلام عن البناء فى المجال الاقتصادى على وجه العموم ، وفى المجال القومى على التخصيص . . .

وكان من رأى الأستاذ المحاضر : أن الأحكام التى جاء بها الدين الحنيف لا تقبل التطور ولا التطوير لأن التطوير ترق إلى فوق ما هو مألوف ولا يكون ذلك إلا فى أمر به شوائب . بينما أحكام الإسلام منزهة عن العجز وعن النقص .

ثم شرح مفهوم « العفو » فى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » وقوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » ثم بين قصور قانون المنفعة ، وقانون المقدرة بالنسبة لقانون « العفو » فى القرآن الكريم . ثم عرض لمشكلة الربا فى الديانات السماوية ، وكيف اتفقت كلها على تحريم الفائدة الربوية .

وتعرض بعدئذ للتنظيم الاقتصادى كما جاء فى بعض آيات الذكر الحكيم وملاءمته لحاجة

الناس فى كل زمان ومكان . وكيف أن فيها غناء لحياة الناس حياة سعيدة بدون أ كل الربا . وعرف الربا بأنه الذى يأكله القوى دون مبرر ، وهو استغلال حاجة الضعيف ، وانتهاز الفرص وتجارة الموت ، والكسب الفاحش ، وما يكسبه صاحبه بلا جهد .

وذكر من أضرار « الربا » أنه : يعتصر الفقير فيزيده فقراً ، ويستغل حاجة المحروم والكادح مما يترتب عليه ضعف المجتمع ، ويطغى الغنى ويبطره ، ويشيع الخوف بين الطبقات ، وينبت الجريمة ، ويزعزع العقيدة ، ويفسد المجتمع بالمادية المسرفة ، وذكر فى ختام حديثه بالحقائق والأرقام : أن الإنسانية فى مقدورها التخلص من الربا بتنظيم الائتمان المنزه عن العقد الربوى ، والدليل على ذلك أن جملة الفوائد الربوية فى السنة الأخيرة للمرابين تساوى ١٥ مليونا من الجنيهات . ولا قيمة لذلك القدر بالقياس إلى الدخل الذى يناهز ٩٠٠ مليون من الجنيهات .

وقد كان السيد حسين الشافعى وزير الشئون الاجتماعية والعمل حاضراً وطلب من السيد المحاضر أن يستمر فى بحثه ، وعلق بالتأييد والاستحسان على اتجاهه . وقد نشر فى هذا الجزء النصف الأول من هذه المحاضرات :

* * *

وألقى الأستاذ / سيد أبو المجد ـ المستشار الفنى للمؤتمر الإسلامى محاضرته عن « الملكات العقلية فى القرآن الكريم » .

ذكر فيها : أن الإسلام ليس بمعزل عن الحياة والأحداث . وليس بمجرد عقيدة فقط بل هو عقيدة وشريعة ، وعلم وعمل ، وعقل وخلق ، وعبادات ومعاملات ، وفى هذا الإطار تسلسلت المحاضرة عن الملكات العقلية والأسس العلمية التى خطها القرآن لاكتمال العقل ونموه ووظيفته فى الحياة . كما أضافت المحاضرة إلى القيم العلمية قيما أخرى فوق ما كتبه الفلاسفة والمفكرون .

* * *

وألقى الدكتور عثمان أمين . الأستاذ فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة . محاضرة فى فلسفة اللغة العربية .

بدأها بتمجيد هذه اللغة وذكر الأقوال التى قيلت فى فضلها وإيفائها بالغرض فى مقتضيات حياتنا كلها ، ثم عرض بعدئذ للميزات والخصائص التى بها فرضت اللغة العربية نفسها وخلدت .

ومن هذه الخصائص الإعراب وأثره ، والاشتقاق وفضله فى توسيعها وتشقيقها ومرونتها .

وعرض بعض صيغ الاشتقاق للتدليل على ثباتها وتنوعها وعدم تخلفها عما يساعد على سهولة تعلمها . ثم قارن المحاضر بينها وبين غيرها من اللغات الأجنبية ، وكيف أن العربية تفوقها جميعاً فى التراكيب ، والإيجاز ، والفائدة .

وعقد نماذج لهذه المقارنة ظهر فيها فضل

العربية وسر خلودها . ثم شرح كيف أن القوالب العربية تجيء على قدر المعنى المطلوب ومطابقة له تمام المطابقة .

وأن من إعجاز العربية أنها تستغنى عن الفعل أحيانا فى الربط بين المسند إليه والمسند ، بينما غيرها من اللغات لا يستغنى عن الفعل كرابطة فى الجملة لفهم المعنى . .

ندوة اتحاد خريجى الأزهر :

أقام اتحاد خريجى الأزهر ندوة عامة فى قاعة المحاضرات الأزهرية للبحث فى مشكلات الشباب دعا إلى التحدث فيها الأساتذة : الدكتور أحمد زكى وكيل وزارة التربية والتعليم ، ومحمد سعيد العريان مدير العلاقات الداخلية بوزارة التربية والتعليم المركزية ، والدكتورة بنت الشاطىء الأستاذة بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، والدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر وشهدها جمهور ضخم من الأساتذة والطلاب ومحبى المعرفة . فبدأ الحديث الدكتور أحمد زكى فقال ما ملخصه :

إن الشباب هو عماد الأمة ، وفخرها وذخرها ومناط أملها ...

والشباب الآن تحت قيادة حكيمة شابة زعامة السيد الرئيس جمال عبد الناصر . وإن أيامهم الآن خير من أيام سابقيهم من الشباب .

كما ذكر أن الشباب مرحلة خطرة تجب العناية به فلابد له من مثل عليا يتمثلها ، وقيادة حكيمة تقوده ، وهداة يهدونه سواء السبيل ، ويجنبونه الزلل والانحراف فلنوفر له القيادة والنماذج من التاريخ والمعلمين والأفراد والحكام . ليشب مثلهم .

لأن المثل هو الذى يسيره فى حياته .

وثورتنا تضع دائما المثل العليا أمام الشباب ليحتذيها متى اقتنع بسلامتها .

كما ذكر أن الشباب شفاف يستشف ما حوله ولا يستطيع أحد خداعه .

والواجب أن نهيىء القادة لحمل رسالة المثل الخطيرة . وأن نتيح المساواة لكل الطبقات، ثقافيا واجتماعيا وفى كل شىء لتزول الحواجز ويسود الإخاء .

ثم تحدث بعده الأستاذ محمد سعيد العريان

فذكر المجد العظيم للأزهر : ثم تحدث عن معنى الأمجاد فى مفهومها الواسع الشامل ... وكيف أن الإسلام فيما حقق من مكاسب إنسانية كبيرة للمجموعة ، لم يحققها لتحصيل مجد . وإنما حققها لأنها فرض إنسانى ، ولأن المكاسب التى حققها جزء من صورة إنسانية كاملة كما أرادها للناس

وقال : إن عظماء المسلمين إنما عملوا ابتغاء رضاء الله وفى سبيل الحق والخير والمثل العليا وسلام البشرية ، لا يبتغون شهرة أو سلطانا ، أو جاها ، أو مالا فى مقابل الأمجاد التى صنعوها .

وكيف أن المجد الذى كونه محمد وأصحابه كون تاريخا للإنسانية .

وتحدث أيضا عن التفاعل بين «الإسلامية» و «القومية العربية» و «الإنسانية» وكيف أن هذه المعانى الرفيعة لهذه الألفاظ يخدم بعضها بعضا ، وتخدم المثل الفاضلة التى تستهدف خير المجموعة البشرية ، ولا تحاول الإضرار بأى مبدأ أو مجتمع .

وختم حديثه بأن الإنسانية التى نعيشها لم تكن قبل محمد وتعاليمه وأصحابه .

ثم تكلمت الدكتورة بنت الشاطىء :

عن دور المرأة المسلمة فى تاريخ الإسلام الملىء بالأمجاد الخالدة .

وتكلمت عن حيرة الشباب ، وتعرضت لمشكلاته التى زادها تعقيدا اضطراب القيم ، واختلاط المثل العليا بمعانى الحضارة فى هذا العصر ، فلم يعد الشباب قادراً على التمييز بين النافع منها والضار .

وأخيراً تحدثت عن وجب العلماء والموجهين فى حل مشكلات الشباب ، والأخذ بيده نحو الوجهة السليمة ، والطريق القويم .

قالت : لا يجد الشباب الحائر من يأخذ بيده لأنه جاء بعد حربين كبيرتين أتت على الكثير من الأخضر واليابس ، وإذا راح يلتمس كنه غده وجد كبار الساسة يريدون حربا ضروسا لا تبقى ولا تذر .

وقالت : لا يجد الشباب من يأخذ بيده فى هذه الدوامة العلمية الهائلة التى تعاصره وتريه ما يشبه المعجزات ويقول له : إن ما تراه إنما هو آية من آيات الله الكبرى أتى بها العقل البشرى الذى فطره الله ، وكرم الإنسان حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم البشرى ، فأنت سيد فى هذه الأرض .

وقالت : إن من الخطأ أن نظن أن الإسلام مقالة أو خطبة أو محاضرة تقال للشباب فيكونوا صالحين ، بل لا بد من تمثل حياته فى عمره وتمثل الذى يعانونه وتقدير أخطاره القريبة والمحتملة ، ولذلك نريد قادة لهم قادرين على حمل الرسالة الكبيرة والخطيرة بما أعدوا لهذه المهمة الصعبة من وسائل تعين على الإنجاح .

وختمت الحديث بقولها : إن الأزهر مرجو منه أن يشارك وأن يفعل الكثير فى سبيل القيادة باعتباره البيئة الدينية العريقة ، وأكبر جامعة إسلامية فى العالم .

ثم تحدث الدكتور محمد البهى أخيرا فقال :

إن هناك عقبات تحول دون رؤية الشباب للدين .

وقبل أن يذكر كيف يتصل الشباب بالدين ذكر أن شبابنا فى وقت فصل فيه بين ماضيه

المجيد وقيمه العظيمة وبين حاضرة المغرق فى ماديته الآلية والطبيعية .

وذلك بما رسم الاستعمار من قبل ليظل الشباب تابعاً فى توجيهه لما يرسمه الغرب من فكر يقربه من الغرب ويبعده من مجده التليد . واستشهد على ذلك الأثر الاستعمارى بأقوال المستشرق « جب » الذى ذكر أن سياسة التعليم فى مصر جعلت فى الوطن فريقين بعيدين عن بعضهما : فريق يتبع مواريثه العقلية الروحية الإسلامية ، وفريق أبعد عن ذلك يتلقى نصحه وتوجيهه من الغرب ، واستخف بالقيم والأمجاد التى عند الفريق الأول وأنكر اعتبارها فى حياة الإنسان .

ثم ذكر أن الصحافة المعاصرة من عوامل الإبعاد عن قيمنا وأمجادنا لأنها تعرض مشاكلنا فى ضوء رأى مستورد لا عن دراسة وبحث وفهم واستشارة لمبادئ الإسلام .

فالتربية مثـــلا نريد أن نطبق فيها هنا ما يطبق فى انجلترا مع اعتراف قادة التربية والفكر هناك بأنها تربية لا تصلح لهم . فضلا عن أنها بتطبيقها هنا تحطم قيمنا ...

كما ذكر أن مشاكل الشباب لا تنحصر فى الجنس . إنما تكون أيضا فى تعريفه بالوجهة التى يتجه إليها ، وأزمة القلق والاضطراب فى حياته وذلك راجع إلى تذبذبه بين مرحلتين من حياته : الطفولة والرشد وكيف أنه يلتمس المعين ليتخلص من الطفولة وهنا تبرز قيمة الموجه ، وما يجب أن يتحلى به من خصائص وميزات تكفل له إنجاح مهمته ...

كما : ذكر أن الطبيعة والدين وكلاهما ضرورى للإنسان :

الطبيعة تدفعه لإدراك مظاهرها ، والدين يبصره بقيمة الإنسان نفسه . ويدفعه إلى أن يسخر الطبيعة ويسخرها بدلا من من أن تسخره وتسترقه .

وإذن فضرورة الدين فى حياة الإنسان أشد من ضرورة الطبيعة ، لأن قيمة الدين خالدة ، والضرورة آلية واضحة .

وقرر أن الذى يحول بين الشباب والدين إما عقبات توضع فى طريقه ، وإما قصور فى فهم تعاليم الدين . أو جمود من حاملى الرسالة وتخلفهم عن مسايرة أساليب العرض الحديثة .

أما : كيف يتصل الشباب بالدين فذلك يكون : متى تم الانسجام بين أجهزة التوجيه المتنوعة فى المجتمع ، وحسن الفهم لتعاليم الدين ، وحسن العرض ممن جعلوا دعوته رسالة لهم فى حياتهم ، حتى يكافح الشباب فى سبيل القيم والمثل العليا .

بريد المجلة

أصول الفقه الشيعي ومصادرها :

«فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» .

فكرة أضعها أمام الأزهر ... وأعرضها على الأستاذ الأكبر ، وقد سبق أن عرضتها من قبل على وزارة الأوقاف ، وفى الأزهر أهل الذكر، وقد تكون الأوقاف أغنى بالمال .

إن تقرير (الفقه المقارن) فى منهج دراسة الشريعة الاسلامية خطوة جليلة موفقة، وإن اعتبار (الفقه الشيعى) من بين المذاهب التى تجرى دراسة أحكامها والمقارنة بينها فيه سداد رأى وأمانة علم وسعة أفق. وأعتقد أن إنصاف (الفقه الشيعى) فى عقولنا وقلوبنا ، يحتاج إلى بحث أصوله كما يحتاج إلى الالمام بفروعه .

والقرآن الكريم أصل الأصول عند جميع المسلمين ...

وأما السنة المطهرة فللشيعة شروطهم فى توثيق الرواة ، وانبنى على ذلك أن تكون لهم كتبهم الجامعة للحديث .

ومن دواوين الشيعة الأساسية فى الحديث كتاب (الكافى) ... وهو بمنزلة (صحيح البخارى) عند أهل السنة .

وحبذا لو شكل الأزهر هيئة من علماء الحديث تقوم بطبع هذا الكتاب الهام ، مع تخريج أحاديثه وفقاً لدواوين أهل السنة إن كانت قد وردت فى شىء منها ، أو تقريبها من أحاديث أخرى أو من أحكام الشرع ومقاصده العامة إن لم تكن قد وردت بصورتها فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الحديث المعتبرة عند أهل السنة ، أو ابراز تفردها إن لم يكن فى تأويل مندوحة .

مثل هذا العمل أصيل سباق ... يرسى محاولات التقريب والمقارنات المذهبية على دعائم راسخة من العلم الصحيح والنهج القويم ، فلا يعادى الناس ما يجهلون ، ولا يهرفون بما لا يعرفون ، ولا يقفون ما ليس لهم به علم ، ومثل هذا العمل مقدمة بين يدى خطة أوسع وأشمل ، لتقديم نماذج من تفسير القرآن وتأويل السنة وأصول الاجتهاد لما يجد من أحداث عند الشيعة ، ولعرض

تاريخ التشريع والفقه حسب دراساتهم ... وهذه (المكتبة الشيعية) تجعل تبادل الفهم وتجاوب العلم بين أهل السنة والشيعة على علم وهدى وكتاب منير.

محمد فتحى عثمان

هجوم على الدين فى غير هوادة

إلى عهد قريب كان صاحب النزعة المنحرفة يحسب للرأى العام حسابه، ويستحى أن يعرف بالمروق من دينه، أو الجنوح إلى ضلالة.

ولكن بعض الغواة تدرج فيما يسمونه حرية الرأى، حتى أصبحت المحانة، واللادينية من المحامد التى يتباهون بها، ويجدون فى الصحافة متسعاً لترويجها.

وهذا - محام ... مسلم - يطالعنا بشىء جديد فى باب «الإلحاد» والزندقة» وجديد فى احتقاره للرأى العام، وما يدين به الناس فى قداسة واطمئنان منذ شرعت الديانات السماوية

كتب المحامى فى صحيفة صباحية كبرى يوم ١٣ / ١٠ يدعو لجنة الإصلاح لقانون الأحوال الشخصية ألا تعتبر تشريع الزواج والطلاق من مسائل الدين.

ويدعوها كذلك فى إلحاح أن تنزع من رءوس أعضائها تلك الأفكار القديمة التى تخيل إليهم وإلى الناس أن الدين تعرض لذلك.

بل هو يرى ويصرح بأن التعرض من الدين لأمر الزواج والطلاق لا يمكن أن يكون معقولا - عنده - وهكذا من الجرأة التى تثير العجب من محام دارس، ومثقف مسلم، يعيش فى بيئة مسلمة، إذ هو يعلم أن القرآن حافل بتنظيم العلاقة الزوجية. وبما يتصل بها من نظام العشرة والحقوق بين الزوجين، وبما يقوم عليها من أنساب مرتبة فى درجاتها وبما ينتج عنها من توارث، ونفقات للأقارب ونحو هذا مما لا يجهله مسلم أمى نشأ فى بيئة مسلمة.. كما نظم القرآن طريق الفرقة بين الزوجين إذا اقتضت الأسباب، وبين ما يتصل بذلك من أحكام. وهذا باب واسع تعرضت له الكتب السماوية من قبل، كما أتمها وأوضحها القرآن من بعد، فهل يبلغ التجديد بنا أن ننكر ما بين يدينا، وأن نقرر أنه غير معقول»؟

الحق أن الأستاذ يستهين بالأمر الواقع، ثم يجد متسعاً فى الصحافة لنشر هذا التهريج الذى لا يمكن أن يبلغ مبلغ الرأى حتى نسميه رأيا يطرح على الناس فى صحيفة الرأى كما زعموها.. وكان حقا علينا أن ننكر على المحامى، وأن نفند له ما اضطر فيه من خلط وتشكيك، غير أن حظنا فى نشر الصواب لم يشفع لنا عند صحيفة الأهرام، كما أفسحت صدرها للهذيان، بل وعدت بالنشر، ثم وعدت ثانيا، ثم أخلفت.. فما ترى!! هل تبدلت رسالة الصحف فأصبحت تناصر

الباطل ، وتحيد عن الإنصاف ، لتمشى مع أولئك المفتونين، ولو كان هما واحداً لاحتمله

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

خطأ مطبعى فى القسم الانجليزى

تحية واحتراما وبعد :

فإنى أحد قراء مجلتكم الغراء « مجلة الأزهر » تلك المجلة التى ولا شك أنها ستكسب كل من يساهم فى تحريرها أجراً كبيراً عند الله ، لما تستوعبه من مقالات قيمة تبث فيها العالم قاطبة التعاليم التى جاء بها الدين الحنيف ، وأن لسانى لعاجز عن وصف هذه المجلة ولذلك فإنى أكتفى بالقول بأنها كنز لا يفنى لمن يقتنيها ويعمل بمقتضى ما تتضمنه من منطق جاء به من لا ينطق عن الهوى ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لينقذ به البشرية من الظلمات إلى النور .

إن ما أريد أن ألفت نظركم إليه الآن هو أننى أطلعت على خطأ هو فى الواقع خطأ مطبعى ولا شك ، ولكنه يؤدى إلى عكس المعنى المراد به . وقد وقع هذا الخطأ فى القسم الانجليزى من عدد محرم (يوليو ١٩٥٩) فى مقال الدكتور محمد البهى فى الفقرة القبل الأخيرة من صفحة ٢٠ ، حيث تقرأ الجملة التى وقع فيها هذا الخطأ كما يلى :

" And help one another in Sin and Aggression ".

بينما الصحيح هو بإضافة كلمة Not بعد Help وقبل كلمة One لتكون الجملة ترجمة حرفية للآية الشريفة « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » لقد جاءت الترجمة الصحيحة لهذه الآية الكريمة فى أماكن أخرى من المجلة ، إلا أننى بالرغم من ذلك رأيت أن ألفت نظركم إلى الخطأ المشار إليه حتى لا يتكرر فى المستقبل فيظن القراء الذين لا يدينون بالاسلام — ولا سيما إذا أطلعوا على هذه الترجمة التى حصل فيها الخطأ ولم يطلعوا على الترجمة الصحيحة فى مكان آخر من المجلة — إن القرآن يأمر بالتعاون على الاثم والعدوان

وفى خطابى هذا لا أقصد مطلقاً نقد المجلة — بل أنى كعربى مسلم — فخور بأنها تقدم إلى جانب القسم الأكبر باللغة العربية مقالات باللغة الانكليزية على مستوى عال وتعبر فى ترجمة الآيات القرآنية بأحسن تعبير ، ولكن غرضى هو — كما ذكرت آنفاً — تفادى مثل تلك الأخطاء المطبعية وخاصة فى ترجمة الآيات القرآنية وذلك خشية أن يؤولها القراء الأجانب تأويلا مخطئا .

والله أسأل التوفيق لكم لتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وترفعوا راية الحق — دين الاسلام — والعروبة عالياً ... إنه سميع عليم مجيب الدعاء .

حسن سعيد مهدى
وادى العيدروس — عدن

ابن سعيد البلوطي أندلسي لا مصري

قرأت مقالة الأستاذ محمود الشرقاوي التي عنوانها (الأزهر ومذاهب الفقه الاسلامي) فرأيت الأستاذ يقول : « غير أني لا أريد أن أخلص من هذا الحديث قبل أن أقول للذين (قد لا ترضيهم هذه الدعوة إن ما يحرصون عليه من رأي أو قول قد لايكون خير الآراء ولا أسلم الأقوال) الخ ... وأنا أرى أن كل ما يكتب في مجلة الأزهر الزاهرة يجب أن يعتبر فتاوى من الأزهر نفسه يستوى في ذلك مسائل الدين واللغة والأدب والاجتماع وغيره ، ومن هنا نقول لأخينا الكاتب إن لفظ (قد) الحرفية لا يدخل على فعل منفى بل يدخل على الفعل المثبت ، وإذن فعربية العبارتين ربما لا يرضيهم وربما لا يكون خير الآراء . ورأيته يقول : أريد أن أذكرهم بأن هذه الدعوة المخلصة كانت مصر منبتاً لها ومنيراً ، وكان رجال مصريون هم دعاتها والمبشرين لها حتى قال شاعرهم أبو الحكم ابن سعيد البلوطي المصري هذا البيت الصارخ المستجير من الشعر :

عذيرى من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا هكذا قال مالك

وهنا يجدر بنا بمقتضى الأمانة العلمية أن نقول إلى الأخ الكاتب أن أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي ليس مصريا بل هو أندلسي أصله من (فحص البلوط) بالقرب من قرطبة ولد في العقد الثامن من القرن الثالث الهجري ونشأ وتفقه بالأندلس على عبيد الله بن يحيي بن يحيي الليثي وأضرابه ، ولم يدخل مصر إلا عندما رحل إلى المشرق بقصد الحج ولقاء العلماء كما كانت عادة علماء إخواننا المغاربة في تلك الأزمان ، ثم رجع إلى وطنه فقلده الخليفة عبد الرحمن الناصر الخطابة وصلاة الجماعة بالمسجد الجامع بمدينة الزهراء ، ثم توفى قاضي قرطبة فولاه الخليفة قضاءها .

والبيت الذي رواه الأخ الشيخ محمود الشرقاوي وحرفه هو من أبيات هكذا :

عذيرى من قوم إذا ما سألتهم
دليلا أجابوا : هكذا قال مالك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله
وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن قلت قال الله ضجوا وأعولوا
على وقالوا : أنت خصم مما حك

هذا ما عن لي أن أكتب به إلى مجلة الأزهر النافعة . جعلنا الله تعالى ممن يبحثون عن الحق للحق والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

ابو يعلى حافظ البطة
خان يونس — بفلسطين

من الدكتور علي عبد الواحد

إلى صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته : وبعد :

١ — فقد ذكرت فى كلمتك الأخيرة أن ردى على أسئلتك كان رد الغاضب على من أساء إليه ؛ مع أنه فيما اعتقد كان ردا هادئا يضع الأمور فى نصابها ، ويدعم كل حقيقة بأدلتها ومراجعها — وكل ما هنا لك أنى ذكرت أن بعض ما ورد فى إجاباتى يعد من أوليات المسائل المعروفة فى تاريخ الأديان كمسألة يوحنا المعمدان الذى قلت إنك لا تقر أنه يحي بن زكريا مع أننا بصدد اسم واحد بلغتين مختلفتين لمسمى واحد ، وكمسألة أخت موسى التى أنكرت أن يكون اسمها مريم مع أن مفسرى القرآن أنفسهم قد ذكروا ذلك . وليس فى الاشارة إلى ثبوت حقيقة ما واشتهارها ما ينم على غضب أو انفعال .

٢ — وذكرت ما يفهم منه أنى اعتد كل الاعتداء بما ورد فى الأناجيل والإصحاحات ، حتى لقد نسبتها إلى فقلت : « أناجيلك وإصحاحاتك » . مع أن مؤلفاتى وبحوثى تشهد بأنى من أشد الكتاب الاسلاميين عداوة لهذه الأناجيل والاصحاحات وأقوامهم إيمانا عن بينة بزيف كثير مما جاء فيها وتحريفه واختلاقه ، وأحرصهم على الكشف عما اشتملت عليه من زيف وتحريف واختلاق ، وقد عرضت لذلك بتفصيل فى كثير مما كتبت ، وخاصة فى كتابى « حقوق الانسان فى الإسلام » الذى طبعته وزارة الأوقاف ، وفى بحثى عن « أسفار العهد القديم والتلمود » بمجلة المجمع اللغوى وعن « أسفار العهد الجديد » بمجلة الأزهر عدد شوال من السنة السابقة ، وفى بحث آخر بعثت به إلى المجلة نفسها فى منتصف الشهر السابق ولم يتح نشره وربما نشر فى هذا العدد . ولعلك لم تنس ما نالنى من جراء مواقفى هذه ونال كتابى « حقوق الانسان فى الاسلام » من عنت وأذى . — وكل ما هنالك أنى ذكرت فى مقالى السابق أن بعض ما ورد فى هذه الأسفار من قصص لا تكاد تختلف روايته عن رواية القرآن كقصة يوحنا المعمدان أو يحي بن زكريا وقابلت بين فقراتها وآياته الكريمة — . وليس فى ذلك ما يدل على نسبته إلى من اعتداء بالأناجيل والاصحاحات .

٣ — أنكرت فى مقالك الأسبق أن يكون لموسى أخت تسمى مريم البتول ، « لأنك تعرف » على حدة قولك « أن مريم البتول هى أم عيسى عليه السلام ، وأن بين مريم وموسى أحقابا » . وقد بينت لك فى ردى أن أخت موسى كانت تسمى كذلك مريم ، وأنها كانت

بتولا أى لم تتزوج ، وأنها هى التى ورد ذكرها فى القرآن إذ يقول : « إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم » وإذ يقول : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » . وقد ذكر مفسرو القرآن أنفسهم أن أخت موسى هذه كان اسمها مريم ، فيقول البيضاوى فى تفسيره للآية الأولى : « فجاءت أخته مريم متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون مرضعة يقبل ثديها » . ويقول فى تفسيره للآية الثانية : « وقالت لأخته مريم قصيه أى اتبعى أثره » .

ولكنك بعد أن تبين لك وجه الحق فى جميع ما اعترضت عليه فى مقالك الأسبق عدت فى كلمتك الأخيرة فأوردت إشكالا جديداً فنسبت إلى أننى قلت إن أخت موسى هذه قد شقت طريقا يبسا فى البحر وذكرت أن هذا مخالف لما جاء فى القرآن ، مع أننى لم أقل هذا ، وإنما قاله « ترتوليان » الذى كنت أترجم عبارته . وقد اعتمد فيها على مراجع من أسفار اليهود وذكرها فى معرض الإشادة بالعزوبة وأنها موصلة إلى صفاء النفس وإلى الإتيان بالكرامات والمعجزات . وكنت أنقل أنا عبارته فى معرض التنديد بآراء رجال الكنيسة الكاثوليكية فى العزوبة وذهابهم إلى أنها الطريقة المثلى فى الحياة ، مع أنها منافية لقواعد العمران وبقاء النوع الإنسانى ، فما كان يعنينى أن أتعقب جميع ما جاء فى هذه العبارة ، لأن المفهوم من سياق حديثى أننا بصدد استدلالات فاسدة على نظرية فاسدة ـ وكل ما فعلته حيالها أننى بينت ما ورد فيها من أسماء الأعلام كيوحنا المعمدان ومريم البتول أخت موسى وما يقابلها فى اللغة العربية ومواطن ورودها فى القرآن إن كانت قد وردت فيه حتى يسهل فهم هذه العبارة . وكان هذا موقفى حيال جميع العبارات التى نقلتها عن آباء الكنيسة .

دكتور على عبد الواحد وافى

* * *

يا حسرتا على العراق !

السيد محرر باب بريد المجلة

قرأت فيما قرأت بالعدد الماضى من مجلة الأزهر المقال الرائع الذى كتبه أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات بعنوان « ياحسرتا على العراق » فحرك هذا المقال الرائع أو ثار قلبى وهاج كوامن نفسى فانسابت الدموع من عينى حزنا على شهداء العراق الأبرار الذين اغتالتهم يد حكام العراق الغاشمة لا لذنب جنوه إلا إيمانهم بدينهم الحنيف وإصرارهم على الاستمساك بعروبتهم وحريتهم من أجل هذا سحلوا وأزهقت أرواحهم الطاهرة لأنهم آمنوا بالله وبرسوله وبعروبتهم

« والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً » .

وعندما تعود بى الذاكرة إلى ذلك اليوم المنحوس الذى قتل فيه أبطال ثورة الرابع عشر من تموز تنساب الدموع من عينى حزنا على هؤلاء الأبطال الذين أبوا أن يبيعوا عروبتهم وشرفهم للأعداء. وفضلوا أن يعيشوا عربا كرماء شرفاء أو يموتوا عرباً أعزاء . إن هؤلاء الأبطال لم يموتوا بل هم أحياء فى قلب كل عربى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » سلام على شهداء العراق الأحرار سلام عليهم فى جنة الخلد والنعيم وصنع الله للعراق ولأهله أجمعين !

سعيد توفيق حمدى

قتل النفس

يقول السيد محمد فريد طاهر من الأسكندرية :

كلما قرأت سورة الكهف وبها قصة موسى مع الخضر ، أقف طويلا عند قتل الخضر للغلام !.

أنا مؤمن بما ورد فى القرآن تعليلا لهذا القتل ، ولكنى أريد أن أزداد إيمانا بما أسمع من شرح عن هذه الحادثة بالذات .

الحق أنى أرانى فى حاجة إلى أن تجلى لى هذه المسألة ، وهى قتل الخضر للغلام ، بشرح وإسهاب ، لأزداد علما ، وأزداد إيمانا ! .

* * *

والمجلة تقول

التفسير القريب لقصة الخضر عليه السلام أنه نبى ملهم ، حملته العناية العليا رسالة محددة ، لا تزيد على إيصال رحمة الله إلى بعض الفقراء إليها ، بأسلوب يتحقق فيه قول الله جل شأنه ، « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » أو كما قال العرب « رب ضارة نافعة » .

وصلتنا بقصة الخضر لا تعدو وعى هذا الأسلوب فى تلقى قدر الله . أما أن يزعم أحد بأنه نبى كلف بمثل ما كلف به الخضر ، فهذا ما لم يقل به عاقل ، وكذلك توهم أن الله يخص بعض الناس بمثل هذا العلم الذى خص به الخضر . .

فإن النبوات والرسالات انتهت ببعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قال بغير هذا فقد مرق من الإسلام .

صرف الزكاة للأولاد :

ويسأل السيد محمد حسين القماطى من طرابلس الغرب .

(١) هل تصرف الزكاة للأبناء الراشدين إذا كانوا فقراء ؟ أو كانت البنات متزوجات ؟

(٢) هل يصح أن يدفع ثمن الهدى للفقراء بدل ذبحه ، خصوصاً أن الذبائح لا تجد من يجمعها وينتفع بها ؟

(٣) من العلماء عندنا من يصر على إيقاع الطلاق ثلاثا إذا صدر بلفظ الثلاث ، فبم نأخذ؟

والمجلة تجيب :

(١) الأولاد إذا كانوا فقراء تجب لهم النفقة ، ولا يحل أكلهم من الزكاة - ويمكن إعطاء زوج البنت - إذا كان فقيراً - شيئاً من الزكاة ، على ألا يكون ذلك احتيالا لصرفها إلى الأولاد .

(٢) الذبح مقصود فى الحج مع إطعام الفقراء . . ولا يجوز إبداله بالثمن ، وعلى المسئولين تيسير الانتفاع منه طول السنة ، والوسائل لذلك كثيرة .

(٣) الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر طلقة واحدة . وإيقاعه ثلاثا تشديد لا مبرر له ، وخير لنا أن نتبع روح الشريعة ونصوصها فى هذا المجال .

* * *

مكتبة الأزهر ونشر الثقافة الاسلامية :

إلى الأستاذ الدكتور محمد البهى مدير الثقافة الإسلامية . السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإنك تعلم ما يحيط بالثقافة الاسلامية وما يدبر لها من مكائد على أيدى المبشرين والمستشرقين.

ومما لا ريب فيه أن الأزهر حصن الاسلام المنيع وهو أولى الهيئات والمؤسسات الاسلامية وغيرها على اختلافها بنشر ثقافة الاسلام والمحافظة عليها ، وإحياء التراث العلمى لرجالات الاسلام وفقهائه وأدبائه والعمل على نشر هذه الذخائر الحية فى أمم الأرض كلها ، وأن المكتبة الأزهرية تحوى من النفائس العلمية والذخائر الفكرية مالا يعد ولا يحصى - وأذكر أن المستشرقين كانوا قد قدموا تقريراً عنها بأنها ثانى مكتبة فى العالم لما تحتوى عليه من مخطوطات يندر العثور عليها ولا توجد فى غيرها أبداً .

فهل عمل الأزهر على نشر هذه المخطوطات وطبعها لينتفع بها المسلمون فى العالم الاسلامى؟ وهل نظم هذه المكتبة القيمة بما يتناسب مع روعتها وجلالها ؟ وهل أقام لها البناء الذى يناسبها فى العصر الحديث وعلى غرار المكتبات فى العالم ؟ .

لم لا يكون فى أزهرنا المعمور لجنة للتأليف والترجمة والنشر ، ورد شبهات المبشرين والمستشرقين التى يثيرونها حول الاسلام وثقافته ! ؟ وقد طالعتنا مجلة الأزهر الغراء فى عددها السابق فى جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هـ بمقالكم القيم عن هؤلاء المبشرين والمستشرقين ومواقفهم من الاسلام وقد كشفتم لنا عن نياتهم الخبيثة وطواياهم السيئة تجاه ديننا ووحدتنا فجزاكم الله عن الدين والأمة خير الجزاء ؟

حسن عمر عمر

schools and, consequently, widened the gap between their followers.

When the exercise of free judgement changes into blind imitation and the faculty of deduction and induction into mere adherence to the founder of any given school, and when the imitator is not even granted freedom to choose his course of imitation - it is only expected that juristic schools will become like different religions in the sense that fanaticism and disputes will dominantly prevail among the adherents. And this actually what heppened in the Muslim society and what gave rise to the so - called the science of " controversies," which was based on the arguments set by the followers of every school in favour of their doctrines and against those of other schools.

As a result of all these developments the Muslim society weakened in its thinking, faith and in its unity so much so that foreign invaders were tempted to march on the muslim land. Thus the Tatars invaded the Muslim world from the Eastward, and the Crusaders marched on it from the Westward.

This was the situation of the Muslim society in the seventh century after Hejrah. But is it likely that out of weakness springs vigour, and out of disintegration emanates unity, and out of darkness dawns the light of guidance, and out of despair emerges aspiration ? The answer to these questions is the thesis of our discussion of the advocates of unity in the Islamic thought.

the Mutazilite method and ideas. The Mutazilite school, while establishing itself - especially its doctrine of the *absolute unity* of God-fell under the influence of Aristotelian and NeoPlatonic thought. Likewise, Ibn Arabi's exegesis, as already mentioned, was influenced by the Brahman doctrine of consubstantiality and by the Christian conception of incarnation (hulul). Besides, there were the exegeses of Avicenna (Ibn Sina), Ikhwanul - Safa and other extremists who yielded to the foreign thought.

The translation of ascetical works and Eastern mysticism into Arabic made Islamic mysticism a rival of Islamic jurisprudence which was based on the human understanding of the religious texts, whereas Islamic mysticism depended, after faith, on intuition and self-questioning. Thus man's deeds were judged by two criteria : by the injunctions of jurisprudence concerning worships, customs and dealings ; and by intuition and self - questioning, This competition between Islamic jurisprudence and Islamic mysticism intensified and began to take the formula of opposition.

Cessation of The Principle of Dynamisn in the Genuine Islamic Thought

The influence of the rational sciences, which were translated into Arabic, upon the trends of the genuine Islamic thought produced an unhappy end. And besides the unfortunate end to which came some of those trends, Islamic thought was confronted by obstacles that made it unable to continue its creative movment by which it laid its original foundations and which reached the point of culmination at the end of the third century of Hijrah.

The genuine Islamic thought then suffered stagnation and non-creativeness, the exercise of free judgement to establish injunctions and understand the texts was forbidden. The overwhelming majority of Muslims, with the exception of the Prophet Family and the Seceders (Khawarij), came to conceive Islamic jurisprudence as meaning blind and unquestioning imitation. Jurisprudence itself became confined to the interpretation by the *jurist* of some minor points within the rigid framework of the very school which he followed without being capable of advancing anything new or genuine, and without going in his imitation beyond the traditional ranges of the school to which he adhered.

The prohibition of imitating the followers of these schools from interadoption and exchange of doctrines increased the barriers between the

basis of free judgement-was creative, dynamic and exempt from subjective denunciations and hatred. Further, we see that Muslims then were people of opinion, sound argument and knowledge in all the various fields of thought in which they were engaged. In connection with this Point Ibn Khaldoun says: " These religious and authoritative sciences were extremely popular among Muslim scholars who acquired comprehensive knowledge of these sciences, perfected their terms, and classified them in magnificent categories. Thus each science of them had its established rules and reliable authorities " (Ibid., P. 364).

The Developments of the Islamic Thought :

In the course of its development the genuine Islamic thought did not accompany the principle of " dynamism, " viz., the principle of free judgement, but fell into the other direction of foreign thought which invaded the Muslim society in the time of the Abbasi Calif al-Maamoun and imposed itself on the Muslim life then and afterwords. Consequently, the interest of Muslims in free judgement grew lesser and lesser, and its range became narrow. As a result, Islam was no longer the only source of Islamic thought but there were other interfering and influential sources. Also the dynamism of Islamic thought became slow and almost non-impressive.

At this stage of interaction between the Islamic thought and foreign culture, the intellectual trends and doctrines previously founded, and grown in the Muslim society had the stamps and traces of the invading foreign thought. Hence, to these known trends were accreted new ones hardly consistent with and often contradictory to the former.

Logic, theosophy, physics, asceticism and illuminism were introduced to the Muslim society through the translation into Arabic of the Greek thought of pagan and Philosophical foundations, and of the Eastern religious thought of illuminism and Brahmanism. Similarly, the introduction of this foreign culture to the Muslim society gave rise to mysticism, witchcraft, talesmanship and the science of the secrets of letters.

It should be noted here that the translated as well as the created sciences were not alien to the trends of the genuine thought of Muslims. In fact, all trends of the genuine Islamic thought represented in exegesis, jurisprudence, the origins of jurisprudence and theology were influenced by these translated and created sciences. The Mutazilite sholar al - Zamakhshari was influenced in his interpretation of the Qur'an, as recorded in the book al - Kashaf, by

purify these bliefs from innovations, doubts and uncertainties " (Ibid., P. 389).

So, exegesis, jurisprudence, origins of jurisprudence and theology are the representatives of the original trends of the Islamic thought. These trends were formed at the motivation of pressing needs and prevailing circumstances in which Muslims lived in different places and successive generations. They were formed to fill a void in the life of the Islamic society and to refute the accusations and doubts which were hurled in the way of Islam. In these trends lies the true picture of the healthy aspects of Islamic thought because they are derived from the original sources of Islam with the right use of the intellectual faculties of the Muslim thinker. The rise of these trends has not to this stage caused any deviation from the straight path of Islam or any conflict among Muslim thinkers however different their notions and approaches might have been.

The Principle of Dynamism in the Islamic Thought and its Result :

All Muslim thinkers were guided by one solid principle which can be expressed in the following words : Whosoever exercises free judgement (ijtihad) and is right will receive two rewards, and whosoever exercises free judgement and is mistaken will receive one reward. Thus all of them will be rewarded because they seek the truth and take the necessary precautions in their approach to such truth. All of them want to be true Muslims in their hearts and their deeds.

Free judgement expresses the active attitude of the Muslim toward both Islam and life, and illustrates his power to adapt his present and future life to Islam in which he believes. Likewise, free judgement bears the spirit of liberty of thinking and elasticity in Muslim thinkers, though it is not absolute.

So, the principle of free judgement's upon which the original Islamic thought was established, is a principle of construction, dynamism, liberty and facilitation and, at the same time, is a principle of magnanimity and leniency; because psychological animosity and extreme intellectual controversy happen only when the self is in a state of distress and agony, when it is forced to follow certain trends and be subjugated, when it is disregarded and treated unjustly, and when it is deprived of the right of free thinking. Thus we see that the genuine Islamic thonght- when it was first founded on the

Then the Muslim thinker re-interpreted the Qur'an under the influence of certain trends of doctrinal sectarianism as manifested in the al - Zamakhshari's book entitled al - Kashshaf and Ibn Arabi's book entitled al - Kabreet al Ahmar. The former book is representative of the Mutazilite school, whereas the latter rePresents the concepts of *manifestation*, *incarnation* and *consvbstantiality* advanced by late mystics.

Moreover, the Muslim thinker was made to establish the science of jurisprudence which is the knowing of God's injunctions concerning the deeds of responsible adults, at the instigation of socio - political conditions and in response to the expansion of Muslim territories and the spread of Islam among the People of old civilization. Out of this science sprang three famous schools : (a) the school of free judgement (raay) and analogy which was founded by Abu Hanifah and his disciples and which prevailed in Iraq, (b) the school of Traditionalists which was first founded by Malik Ibn Anas and to which adhered the people of Hijaz and out of which came the trend of Muhammad Ibn Idris al-Shafii, who combined the two schools of Medina (al-Madinah) and Iraq after his shift to the latter country, and (c) the school of the Zahiris whose leaders were Daoud Ibn Ali and his son, and who advocated rejection of analogy. They " confined all their concepts to the texts (of the Qur'an and the Traditions) and to consensus. They referred the clear analogy and the stated reason to the text only because the mention of the reason of injunction, from their point of view, means the statement of the very injunction in all its probabilities " (Ibid. , P. 372).

Besides these schools of law which prevailed among the majority of Muslims, there was another peculiar school set up by the Family of the Prophet (the Shiah) and established on the basis of belief in the infallibility of the *imam*, literally meaning the leader. In addition to all these schools, there arise another one of the Seceders (Khawarij) who built their derivation of injunctions from the texts on the basis of their own attitude with respect to the question of Califate and the mutual responsibilities between the Calif and his dependents.

When other creeds clashed with the faith of Islam, Muslims felt urged to defend their faith and so established the science of Muslim theology. "The subject of this science is the dogmatic beliefs which are eonsidered as authenticated by religion, and which can be proved by rational arguments to

These sciences in turn needed subsidiary means of comprehensive knowledge of the Arabic Language, of the rules of logic and the Principles of theology to defend the faith against innovations and disbelief. As a result, all these sciences acquired status of faculties, which demand to be taught, and became included in the category of professional works" (Ibid., Pp. 477, 479).

In the same reference we find another statement which says: "The origin of all these authoritative sciences (naqliyah) is the religious teachings of the Book and the Traditions as well as other relevant and suplimentary sciences. The authoritative sciences are of many categories because the responsible adult is ordained to know the injunctions of God, Exalted be He, which are derived from the text of the Book and the Traditions or from *consensus* (ijmaa) or *analogy* (qiyas).

So there should be an understanding of the Book of God and this understanding is called the science of exegesis (tafsir). The ascription of the reporting of the Qur'an to the prophet, peace be upon him, and the various forms of reading it narrated by reciters are called the science of intonation (qiraat). And attribriting the Traditions to the prohpet and examining the characters of their reporters to know whether they are true are called the sciences of Traditions (hadith). Besides that, in deducing the Divine injunctions from their source there should be a sound method on which such deduction is based. This is the science of the origins of jurisprodence. The application of this science by knowing the Divine injunctions is called the science of jurisprodence. Moreover, some duties are physical, whereas others are mental concerned with faith, eschatological and theological like the Essence and the Attributes of God, the Day of Resurrection, Paradise, Hell and Destiny. The affirmation of these eschatological matters by rational arguements is the science of theology" (Ibid., P. 3, 4).

These are the subjects of the genuine Islamic thought which were treated, and elucidated by Muslims in a rational manner. In this connection Ibn khaldoun refers in his Prologue by saying: "The Muslim individual was motivated to exegete the Qur'an and based his first interpretation on the narrations attributed to the authoritative reporters of the early Muslims (salaf). These narrations consisted of the knowledge of the abrogating and abrogated verses, the occasions of revelation and the significence of verses. This method of interpretation included the meagre and the valuable, the accepted and the rejected" (Ibid., P. 367).

in the land of Muslims. And those who take the Islamic thought for Islam look as if they are making many different kinds of Islam out of the one religion of God the One.

The Reason of the Advent of The Islamic Thoughts.

Because the Islamic thought is the intellectual production of Muslims it came after the coming of the Qur'an and the Tradition. This thought originated from factors which were not completely based on the textual sources of Qur'an and the Traditions. Among the factors which contributed to the building of the Islamic thought were the expansion of the Muslim territories, the rule of Muslims over nations of old cultural as well as material civilzation, the aspiration to mastery and leadership in the Muslim land, and other reasons which required intellectual attempts and rational dialectic.

The Islamic thought was known as such since the Arab Muslims began to have science and industry, and to exercise their power of conception and perception after depending only and thoroughly on the Qur'an and the Traditions. In connection with this point, Ibn Khaldoun says :

" The Muslim nation (millah) was first composed of simple bedouins and so there was no science or industry. The injunctions of the Divine Law (shariah) were then kept in the hearts of men who derived them knowingly from the Qur'an and the Traditions. The people were *Arabs.* They had no experience in education and authorship and were not guided to this direction by any motive or need. This phenomenon prevailed during the time of the Companions and their immediate successors. It was fashionable to call men who kept the Qur'an and the Traditon in their hearts reciters (qurra,) who could read the Qur'an and were not illiterate. In this atmosphere the Qur'an and the Traditions meant everything to the Arabs as the Messenger, peace be upon him said : To you I have bequeathed two things with which you shall never go astray : The Book of God and my Tradition.

" After the time of the four wise Califs (rashidin) there was a pressing need for written exegesis and for recording the Traditions lest they might be forgotten. Then it was demanded to know the attestations of the Traditions for judging their reporters to distinguish the genuine attestations from the otherwise. With elapse of time the deduction of injunctions from the Qur'an and the Traditions increased, and the religious sciences became faculties of deduction, induction and anology.

the faith of Islam and be true believers. The early believers taught their descendants how to depict their faith in a sound picture, how to keep Islam influential among them, and finally how to make themselves a Muslim nation

The preparation of these "hows," the definition of their course and the expression of their meanings in technical books bequeathed from generation to generation - are the substances of Islamic thought. The preparation, the definition and expression of these "hows" necessarily differ according to the different individuals, generations and surrounding circumstances. This difference may reach a point at which it appears in the shape of gap or clear contradiction.

With reference to this point and in connection with the science of jurisprodence, Ibn Khaldoun says in his Prologue : "Jurisprodence is the knowledge of God's injunctions concerning the deeds of responsible adults (mukallafeen) in relation to what is obligatory, forbidden, supererogatory, undesirable but not prohibted and the permissible. When those injunctions are derived from the Book (the Qur'an) and are deduced from the Traditions and other genuine sources ordained by Islam, they are called jurisprodence (fiqh).

The pious forefathers deduced those injunctions from the said sources and differed in their opinions. This difference was inevitable because they established their arguments on the Arabic texts which were commonly interpreted in many ways and gave various meanings. Likewise, the Traditions (Sunnah) were reported through different authorities, and their instructions were interpreted in various ways. Thus the arguments which are dedued from non-textual sources are a subject of difference in opinion. The recorded texts cannot give inequivocal interpretations of all new events. What can be done in such a case, however, is to interpret these new events in the light of other similar events which find clear explanations in the texts. All these facts point to the necessity of difference of opinion, and here lies the reason of difference between the intellectuals of the forefathers (the Salaf) and their supsequent leading thinkers (Imams) (Prologue, P. 372).

Therefore and because of this difference in the Islamic thought, no notion of any Muslim thinker in any trend is a true representative of Islam. Islam will remain a gift from God, and the Islamic thought will continue to be man's creation

ADVOCATES OF UNITY IN THE ISLAMIC THOUGHT

by
Dr. Muhammad El - Bahay
Director General of The Islamic Culture
Administration.

The Islamic thought is not Islam itself. It is the intellectual products of Muslims for the sake of Islam and in accordance with its principles. Islam is the Message of the Divine revelation to the Messenger of God i. e., Muhammad; son of Abdullah, the blessing and peace of God may be upon him. The Book of this message is the holy Qur'an, and in addition to this Book there are the Traditions of the Prophet which expound many of the principles of Islam.

The Islamic thought came after the propagation of the Call of Islam. So it is subject to the law of progression and the factors of retrogression. Conversely, falsehood cannot come at the Book of Islam from before or behind because it is the revelation from the Wise, the Praised One.

The Islamic thought is not beyond mistake or weakness. But Islam has absolute infallibility against all defects. The Book of Islam, viz., the Qur'an, accordingly, is sacred and its injunctions are to be completely obeyed by the believers. Unlike that, the Islamic thought should not be obeyed except inasmuch as it is representative of the Book of God and the Divine message. This is because the Islamic thinking, by nature, is subject to criticism and opposition.

The difference between Islam and Islamic thought is the difference between what belongs to God and what belongs to man, and the relation betweon these two sides is like that of two things of which one is based on and originating from the other not as a total picture of it but as an expression to it.

Thus there is Islam which was revealed from God, and there are Muslims who believed in it, translated its teachings in their behaviour and were solicitous for keeping their faith in their generation as much as they were solicitous to make their successive generations maintain the

The ugliest thing in this materialist injustice is that it does not allow the low to ascend voluntarily. It equalizes the highest and the lowest whenever possible. So if the equals look to their low standard which they call equality, they will find that they have descended to the lowest possible level. This form of " equality " therefore is the lowest point under which no body can ever go, and with it the materialists always avoid looking upwards and do not shun looking downwards.

Equality is an honour only when it elevates the low to a high standard and gives to the noble his right without allowing him to violate the right of others. Likewise, it is an honour when it means justice to the helpless, because it exhorts him to ability, and justice to the able since it prizes him for his merits and does not punish him by deprivation of the rewards of these merits. Moreover, equality is an honour when it in its profoundness means justice to the normal nature which is created on the basis of difference and variation in the space planets as well as in the atomic elements of the inanimate objects. This is the true and good justice, and it is the justice of Islam.

It is this kind of justice which does not deprive the rational being of his spirit and conscience, nor does it abrogate in him the motives of vigour and aspiration to perfection. We can translate it into economical terms and say that it opens the field of enterprise to all earnest people and insures it against the disasters of excessive carefulness and extreme carelessness. It prevents the wealthy from holding the wealth in their hands and the needy from losing their share by virtue of giving them three percent of the wealth of the whole nation. This share is distributed in the form of alms (zakah) or aid or expiation (kaffarah) or supererogatory charity (nafilah), and is taken every year from the total capital not from the surplus profits of that year.

* * *

There are two kinds of equality for humanity to choose. And as long as humanity exists, it will not be perplexing to make the right choice.

make it the basis of dealings in the human societies, except that who is among the meanest people who have accustomed themselves to lowness, and satisfied themselves with ignorance and incapability, and who have feelings of envy and hatred towards those whose capacity raises them to a standard higher than that of the envious.

The question here is not only that of the most useful and beneficial, but of is also that of the possible, the reasonable, which no opposite has ever happened - exen for a short period - and will never happen.

The equality which is claimed by those who approch history from a materialist point of view cannot be accomplished in any human society even if this society is ruled by such materialists for tens of years. On the contrary ; the longer these materialists rule, the remoter from their fictitious equality they become, and the more they feel obliged to yield to the organic and universal factors which do not permit for a moment the abrogation of differences and dexteries among the living beings. In all societies where they imposed their materialist principles, it did not require more than one generation for the shaping of new classes of leaders, experts and directors, who differed from one another first of all in the economical standard of living so far as lodging and clothes, food and sports, influence and fortune, wealth and enjoyment are concerned.

All the production of the fictitious equality is that it deprives the tens of millions of their ability to advance, because it kills in them the motives of hope and precaution which motives urge the stagnant and lazy people to aspire and endeavour. That is so, for the most powerful motive to get rid of stgnation and laziness is the fear by the stagnant of the result of being low as well as their desire to advance and to employ their efficient readiness for activity in acquiring more holdings. It is beyond doubt that millions of people lose this natural motive, when they become certain about a decided destiny irrespective of their being active or otherwise.

Such matirialist equality ends with a prevailing injustice the bad result of which no nations or individuals can escope. The first victims of this injustice are those who imagine themselves promised and assured of equality, justice and care. The unable person whose society deprives him of his energetic motives is the real poor and victim who is so wronged that he himself does not know about his being tyrannized, and feels pleased with those who inflict injustice upon him.

is considered a remote impossibility and an undesirible eventuality if it ever happens - and it will never happen in any case.

What is possible and desirable, however, is the prevention of the unjust classification among people and the permission of the ways of free life to play their role in varying its merits, in realizing dexteries and qualities, and in expanding the sphere of rights as well as duties.

This is what Islam has done, while all supversive doctrines have failed to achieve this aim and they will never do.

Islam makes people equal. It does not allow any distinction among them in their right of justice and transaction. In Islam no one excels others except through his good deeds and sound morals which are expessed in terms of dutifulness. This word embdies all principles concerning the carrying out of duty, observing the rules and limits, and shunning the forbidden. To this point the Qur'an refers by saying :" O mankind, surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you " (Surah 49, V. 13). This kind of justice is the truest and most beneficial justice. Equality in any respect beyond that means tyranny and diminution of rights:"Are those who know and those who know not alike ?" (Surah 39, V. 9), "God has made the strivers with their property and their persons to excel the holders - back a (high) degree (Surah 4, V. 95), and " Say : The bad and the good are not equal " (Surah 5, V. 100).

Such difference in qualities produces an indispensable difference in sustenance, but it does not allow the wealthy to consider his wealth a monopoly of his, nor does it permit any group of people to monopolize properties : " And God has made some of you excel others in the means of subsistence; so those who are made to excel give not away their sustenance to those whom their right hands possess, so that they may be equal therein " (Surah 16, V. 71). Further God says : " So that it (wealth) be not taken by turns by the rich among you " (Surah 59, V. 7).

This equality is the necessary truth. It means satisfaction to all people, individuals and groups, because it is not in the interest of the whole of humanity to make equal knowledge and ignornce, activity and laziness, goodness and badness, shrewdness and stupidity. There is no one who wants equality in these respects to

EQUALITY IN ISLAM AND SUBVERSIVE DOCTRINES

BY

Abbas Mahmoud El - Aqqad

Equality is good and profitable when it is meant to give everybody his right, to avoid everyone from violating the right of others and to equate all people in the sphere of dealings. But it is evil and harmful, if it is meant to oppress merits and dexteries to make all people uniform without realizing any difference amongst them in qualities, deeds and morals, and without respecting their distinctions in responsibilities and ends. Equality in the latter sense is an absolute impossibility on the one hand, and a condition which no sensible person wishes, if supposedly it becomes probable, on the other hand.

It is an absolute impossibility because the factors of difference among beings, especially the composed ones, are too profound to be comprehended by any means simple or compound, particularly those means which are by the materialists call economical. It is sufficient for an argument to give one example with reference to the planets, stars and celestial bodies. In these entities there are no economical factors like those working in human societies, yet we do not see among the millions of millions of planets two of them equal in size, light, velocity, position, composition and range of orbit.

If more illustration be needed, let us take the example of plants which are considered organic beings. Go to a forest and choose any tree, take a branch of that tree, pick up one leaf from the branch and examine it. Then you shall not find any similar to it in length, width, shape and construction. Likewise, you shall not find two leaves similar to each other in the variation of colour in their parts

So if the reasons of variation among beings are so deep that no one can approach them, and so genuine that no means can comprehend them, it would be a deforming distortion to confine all human beings in particular to one uninform, while their difference - with their complicated structures is more reasonable than the difference in planets and leaves of trees. This is why absolute equality

no avarice, no breaching to bonds, no falsehood, no fooling and no treachery as well in their dealings with other people.

The Qur'an depicts the true believers.

Nothing shaws the verity of religiousness more vivid than the following verses of the holy Qur'an. They depict as well most vividly the traits of the true believers :

"It is not righteousness that you turn your faces to the East and the West ; but righteous is he who believth in Allah and the Last Day and the Angels and the Scripture and the Prophets and giveth away wealth in spite of his love for it to the kinsfolks and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask and to set slaves free and keeps up prayer and pays the poor-rate ; and the performers of their promise when they make a promise, and the patient in distress and affliction and in the time of conflict. These are they who are truthful ; and these are who keep their duty" (Surah 2, V. 177). " They only are believers whose hearts are full of fears when God is mentioned, and when His messages are recited to them they increase them in faith, and in their Lord do they trust" (Surah 8, V. 2).

Such is *religion* : Pure faith, magnanimous soul, sound morals, faithful hearts and the like attributes which are included in this comprehensive statement : " Religion is how to deal with people ".

---

are far away from the blessings of God.

It is related that once a man came to the prophet Muhammad (peace be upon him). Advancing forward before him he said unto him " O ' prophet of Allah will you tell me what is religion ? To him the prophet said : " Religion is good behaviour. Again the man advaned to his right side and delivered the same Question to which the prophet gave the same answer. Once more the man turning to his left side asked the same question. Again the prophet gave the same answer emphasizing that religion is good behaviour: In a last effort the man moving to his back uttered the same question. The prophet may peace be upon him at once turned to face him and said " Have not you understood ? Religion is how to behave with others. It is to keep calm and not get excited " .

It is cited that on anther occasion somebody told the prophet (Peace be upon him) that a certain woman had kept fasting all her days long and praying all her night but she had always smitten her neighbours by her tongue. On answering him the prophet said " she is no good, she will be in hell " .

Ali Ibn Abu Talib (may God bless him) once said, " We have been sitting with the prophet one day when a highlander showed in and said unto the pophet. " O, Muhammad will you instruct me as to the toughest performance in religion (meaning Islam) and as the easiest one, To such question the prophet gave the following answer " The easiest O, brother is the declaration that there is no God but Allah and that Muhammad is his meesenger and the toughest O, brothr is to stick to honesty. " Verily the man who no honesty has no religion at all though he keeps Ramadan and says his prayers regularly.

Such is the place of those who misunderstood religions and took it to be false appearances without any impression upon their behaviours and dealings with their fellows.

The third division.

The third division comprises the true believer whose hearts are full of fear of God and His power. They are those who believe in His righteousness and fair justice. They are those who practise tenets of Islam.

Concious and influenced in their behaviours and dealings of the Divine revelation. Thus displaying no hatred, no jealousy, no spite, no anger, no parsimony, no renouncement, no cowardice and no selfishness in their behaviour. No forgery, no decepition, no trickery no adversity,

sharing in any charitable deed and often reluctant in paying their liabilities. They almost tend to bargaining in every transaction whether worthy or unworthy of such bargaining. They invariably undervalue other people's properties and never give them their right share. Harshly they treat their kith and kin, never care of their well-being and always sever the links of relationship. They deliberately renounce the poor and abstain from helping the needy out of avarice and selfishness. They are gold diggers amassing wealth in fear of poverty. In public calamities, whether religious, social or moral, they never share the responsibility of mitigating the misfortunes of the people. They prefer to live secluded unawares of the troubles of their countrymen. They would rather lead a life without a name than take an active part in their people's struggle for establishing truth.

The Qur'an's portrayal for such people

No portrayal for such people is more vivid and more expressive of their innate mischief than that mentioned in the following chapter of the holy Qur'an. It clearly indicates how far they are away from the right path enjoined by religion "Hast thou seen him who belies religion ? That is the one who is rough to the orphan, And urges not the feeding ones, who are unmindful of their prayer who do (good) to be seen, And of the needy. So woe to the prhying refrain from acts of kindness !" (Surah. 107, Vs. 1 — 7).

Allah adresses in this chapter his prophet Muhamad " may peace be upon him" as well as every reasonable man saying : If you do not know the unbelievers herein are their signs by which you could easily rcognise them. They are those whose hearts are deprived of pity and fear. They are those who do not heed to rights of others and try their best to get rid of them by illegal means. They are those who ignore that their prayers call them to [be fearful of God in all their actions, to be obedient to his orders, to be observant to the truth and to be equitable to the weak. They are those who betray people by deceptive piety and showy prayers to cover their depravity and envious hearts which never tend to good deeds or charitable actions.

All prophets have laid down in their traditions, which are the true guide and illuminating light to humanity in all ages, the real meaning of religion. They have as well indicated accordingly the status of such hypocrites in the order of religiosity. Doubtless they have nothing to do with religiousness. Consequently they

The offences of second division

The most serious offence of such people is that they show religion to be rigid, inactive and dreadful. Their portrayal of religion indicates that it neither allwos free thinking nor open discussion nor debating. To Such people the creed is only what so and so have said, the legislation is the compliance to what so and so have adopted, the interpretation of Qur'an is the submission to what so and so have written and the explanation of the traditions of the prophet is the following of what so and so have dealt with. According to them no body coming after our sage forefathers who have set down their ideas and conceptions in black and white is allowed to ponder upon the Qur'an to re - interpret or the traditions of the prophet to re - explain or derive from. Anyone other than those former theologians is forbidden to deal as they have dealt or to think as they have thought or even to give preponderance as they have given :

Their slogan is that " All good accrues from sticking to the views of our greet ancestors and all evils come out from following the novel ideas of the predecessors. Such policy has led to divrsion of thought amongst the believeres. Not only divsion of thought have they produced but also break and enmity amongst the adherents of one religion, the followers of one Prophet and the believers in one Book. They contend against each other and, exchange insults, and accusations of blasphemy and atheism.

In their discussions they have nothing to deal with but futile arguments for which Allah has revealed no warrent betraying themselves that their deeds are in close accord to religion going hand in hand with its fundamentals.

Traits of this division

The people of this division always pretend to have the guiding force to which the whole creatures must submit. It is up to them to decide who is the believer and who is the unbeliever. The blessed are those who follow their steps and stick to their ways complying with their whims. The cursed are those who refuse to be guided by their rules. Such people are incessantly trying to persuade people to believe that they are the source of illumination and guidance. Theoritically speaking the pre-mentioned traits are theirs, but practically speaking we can say that they are far from being impressed by true religiousness for they are slack to respond to any call urging to do good or to lend a hand to the needy. They are rather parsimonious, always shrinking from

and lusts, having no limit to stop at in their creeds, no bridle to their thoughts, no restraint to their vices and no curb to their whims. They behave as if there is neither God nor religion, nor prophets, no resurrection nor judgement nor punishment.

The link of such people to religion is merely a word to be said on occaisons and an attribution to be mentioned before their names on the lists of Census. They will remain as such all the span of their lives far from religion and its benefits, away from its guidance and deprived of its merit. On the dooms day they will be treated as aliens to this religion with no liniament to connect them to its adherents. They will be forbidden its protection when there is nothing to keep them but its shade. God has described such people in the Qur'an by saying : "And certainly We have created for hell many of the jinn and the men - they have hearts wherewith they understand not, and they have eyes wherewith they see not, and they have ears wherewith they hear not. They are as cattle ; nay, they are more astray. These are the heedless ones " (Surah 7, V. 179).

The signs of the first division.

As to the signs by which such division is to be recognised, they are again mentioned in the holy Qur'an as follows : " And when thou seest them, their persons please thee : and if they speak, thou listenst to their speech. They are like pieces of wood, clad with garments. They think every cry to be against them. They are the enemy, so beware of them. May God destroy them ! How they are turned back ! And when it is said to them : Come, the Messenger of God will ask forgiveness for you, they turn away their heads and thou seest them hindering (others) , and they are big with pride. It is alike to them whether thou ask forgiveness for them or ask not forgiveness for them- God will never forgive them, Surely God guides not the transgressing people " (Surah 63, Vs. 4 - 6) .

The Second divsion.

The second division comprises a group of people who takes religroussness to be a formal pattern of praying, fasting and utterance of certain hymns of praise and glorification in prescribed postures and chosen dresses affecting special movenents and casting certain looks. Such men understand religiosity to be only the repittion of set words during certain occaisons, the bewailing of lost morals, the lamentation of neglected religion and the censure to those who dare to secede from their prescribed limits of religiousness and their narrow conception of religion.

Religion is How to Deal with People

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

Men's order in the grades of religiosity does differ in the same manner as their conceptions of religion do. In evaluating a man's religiosity an old saying flashed to my mind. It is a true statement by which our ancestors used to weigh men's attitudes towards religion. It is an expression which shows the real objectives of religion as revealed by God to His servants. Accordingly religion is simply a manner of conduct towards the Creator and a way of dealing with other people. This illuminating saying is the heading which we have chosen to our discourse to - day namely " Religion is how to deal with people".

Such a saying if well-realized, thoroughly understood and minutely sifted with reference to Koranic verses and orthodox traditions of the Prophet everyone will surely stick to it, and adopt it as his motto in life and take it as a standard to weigh upon one's deeds and as a measure to fathom one's religious depth. The more one's knowledge of its significance is deepened the more one practices it as a way of salvation in the hereafter and as a means of securing success in this world. Most unforunately there are still some people who are unawares of its true significance.

Attitudes of Peoples towards religiosity.

To classify people according to their grades in religiousness bearing the above heading in mind. They will fall under three divisions.

The first division.

The People falling under the first division always take religion superficially. Their religiousness is an ostensible declaration of Islam's two fundamental articles : There is no God but Allah and Muhammad is His Messenger. They consider themselves by so doing to have accomplished their part as enjoined by heavenly guidance, and as called for by sound reason. Apart from such declaration they never bother themselves about good deeds and moral behaviour. They simply let loose their minds giving reins to their caprices

They inherited the legacies of Abraham, Moses and Jesus, the cultures of the Greeks, Arabs and Indians, and the civilization of the Egyptians, the Romans, and Persians. All these legacies, religions and civilizations were subjected to the influence of the Islamic genius wherein they were purified, corrected, clarified, and completed in such a way as to make them fit for Edification of intellects, encouragement of the hearts, extension of thougts and the formation of a strong and free society directed only by right and truth, and governed only by the word of God.

It was a great merit to human kind that the light of God has emerged in a central spot between east and west to enable the easterners as well as westerners lost in the darkness of ignorance to find their way to right and truth by the guidance of its illuminating light.

Nevertheless, the light of God in no time have flooded the whole east up to China, and the west up to Gaul. Those deprived the blessing of its guidance and leader ship were not forbidden the merit of enjoyning its cluture and civilization. The Christians of Egypt took the culture of the Arabs through Maghreb and Andoulsia during the Conquests of the Crescent. They too acquired the knowlege of Moslems through Egypt and Palestine during the crusades. Again Islam spread all over east Europe as a result of the Islamic Conquest of constantinople. Christian knowledge thereupon was shifted to the central part of the continent causing the renaissance movement.

The Renaissance was nothing but the intermarriage of the Latin culture which Sultan Mohamed the Conquerer liberated from the monasteries and churches, and the Greek culture which Mohamed El Mamoun revived in the mosques and the schools. Out of these two cultures and the other Islamic arts and sciences which were mixed with these legacies emerged the modern culture and the present civilization.

Thus the Islamic conquests were not for the sake of colonisation and collecting taxes, but they were means of guidance and liberation.

They were conquests for establishing freedom and construction, for calling to monotheism and true belief, for fostering truth and reason, for spreading justice and benevolence, for disseminating Arabic literature and rhetoric, for encouraging science to help reform and innovation, and for extending art to incite creation and novelty. It is in the hands of the merciful, the compassionate to give predominance to the religion of truth over all other religions, for Islamism is humanism, the Koran is the discriminator between right and wrong, and between truth and falsehood, and Islam is the peace.

all the civilised parts of the world, and completely seculded that no body ever heard of them and they never heard of anybody else.

Such was the state of affairs during these dark ages : misleading guidence and reigning ignarance full of menaces and impediments and opening the door for evil - doers to incite riots, dissiminate vices and corrupt religion by all means and not the less the feminine temptation.

However, God, the merciful, the omnipotent, did not leave his servants to be led astray in the wilderness of life and to grope in darkness all their life long, and thus ordained this night to terminate and the morning to dawn. It was his will that the break of day had to emerge out of the cave of Hiraa.

Therein God sent his revelation unto the mount of Light and thereupon the light of guidance flooded all over the land of Hegaz. Thus the chosen messenger descended from the cave with the divine light shed around him, and the Voice of the divine spirit (Gabriel) resounding in his ears, and called the bedouins, the shepherds whom the Almighty had chosen to guide His creatures and to keep the commandements of Islam. Later on the prophet extended the call to the whole caravan of humanity lost in wilderness, weary of long struggle in search of salvation, needful to a guide and a leader who can lead them to the right path.

As a result of his guidance the lost found his way, the renegade returned, the deserter was allured and the hopeless was given hope, and self confidence by reciting to him the words of God.

Thereupon those who had given themselves to struggle to maintain the way of God, started their battles of purification and liberation. They chastised the souls and got rid of all evils. They established the freedom of thought and liberated the minds from shackles of polytheism. They dethroned both Caesers an Chosroes, and demolished their palaces wherein they built upon their debris the minaret of Bilal and the pulpit of Muhammad. In these liberated and chastised countries, they applied the divine law that respects human dignity, keeps human rights, and puts an end to social prejudices and distinctions. Then they carried eastwards and westwards the torch of knowledge which they had lit by the heritage collected from remote religions and past cultures and civilizations. Thus they gave light and illumination to people who had never experienced such light before the advent of Islam.

rendered inaudible by the materialism of the Hebrews darkness beclouded the whole universe and ignornce spread all over the world. Consequently the caravan of life hit at random erroneously in the wilderness driven about eastwards by the persians and westwards by the Romans. Romans were then a disintegrated state embellished by wealth, and dipped in luxuries to the ears with Corrupted creeds and contended sects. Such corruption led to obstinate disputes about the nature of christ at Byzantine and arbitrary debates about the attributes of such nature reducing its religion to such trifle contests. Conversely their worldly affairs were materialised in hankering after Pleasures and indulging in lustful deeds and self - satisfaction to such an extent that silenced the call of reason and got rid of the guide of the spirit. As a result of the reign of a mutilated religion and a lustful way of life, the order of govermnent in both parts of the declining EmPire turned to be foolish, immoral and wasteful. People were overtaxed, the civil - servants took to bribery and the society at large became vicious and corrupted. The enslavement of the common People and their feeling of humilation, led them to glorify the leaders, to venerate the lords, and to deify the Caesars. The world was thus plunged in the abyss of degradation, and perdition. Similarily were the Persians at that time : they were the wreckage of a lost state and the chattered fragments of a broken generation affected by the same disintegration, immorality, the prevalanse of lust, the distinction of classes, the oppression of Kings and the corruption of religion as well as the Romans.

However it added to these drawbacks the rise of crooked beliefs and the predominance of abnormal behaviour, such as the symbolism of Zorasters who paved the way for the foolish Magianism, the Nihilism of Manes who prohibited marriage to hasten extinction, existionalism of Masdians which made people partners in fortunes and women, and a rotten state of affair wherein no man can live freely and no sovreignity can maintain its power.

People beyond these two states were living in a more disintegrated state suffering privation and drudgery. Arabs and Hebrews were leading a life so plainly depicted by the holy Koran needless to dwell upon. Indians and chinese were under the ferule of Budhism and Brahmanism in an unobstructed state of heathenism with no limit to the number of its idols, no restraint to its delusions and no panacea to its social and moral evils.

As to the nordic and western Europeans, they were utterly cut off of

The Advent of Islam USHERED In A New World

by
AHMED HASSAN EL-ZAYAT
Editor - in - Chief

Without trespassing upon historians we can take the advent of Islam as a line of division between an old world wherein people were suffering pangs of death, and a new world wherein people were inhaling the first breath of life. We can also call that old world reigning in both east and west the age of ignorance and call the new dawing world comprising both christians and mohamedans the age of Islam.

The fact that God has sent His messenger Muhammad to guide the whole uninverse to the way of Allah; Whereby it was his tradition before to send his chosen messengers particularly to the corrupted nation - and the straying community does support this demarcation.

When ignorance prevailed, falsehood wide - spread and humanity was doomed; God's will intervened to rescue his servants and lead them to the right path. Thus He send Muhammad to the whole world with a universal message and a comprehensive call. The nature of such uninversal legislation is to be integral, complete ever green and fit for all peoples and all times so as to afford panacea to every evil, a solution to every problem and a way of life to every community. Such are the characteristecs of the divine law after which the revelation ceased and such are the traits of its messenger who was the seal of all prophets.

The universal ignorance which preceded the universal Islamism was the reigning factor of a world groping in utter darkness and plunged in the abysmal chaos and misery.

Throughout this nocturnal nights glimpses of illumination doth appear from time to time as such caused by man's intellect in Thebes and Athens and as such inspired by God's revelation in sinai and Juraslem. But when the light of intellect was exitnguished by the bestiality of the Romans and the Voice of divine inspiration was

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السابع — رجب سنة ١٣٧٩ هـ — يناير سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادى والثلاثون

الفهـــرس

محمد رسول الله ﷺ

أول من أعلن حقوق الإنسان

بمناسبة الذكرى الحادية عشرة لإعلانها فى الأمم المتحدة

بقلم: أحمد حسن الزيات

فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩، وفى فورة من فورات النفاق الدولى، أعلن الساسة فى هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان. ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الحادية عشرة لهذا الإعلان منذ اثنين وعشرين يوما، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم، ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها فى سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١.

ومن السهل على الذهن الاجتماعى أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد الكهنة، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت حوت الشيوعية معترضا فى خضم الحياة وقد فغرفاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ. ولكن من الصعب على الذهن المنطق أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذى أعلنوا له هذه الحقوق، وظاهروا عليه هذا العطف! أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذى تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون! أما الإنسان الأحمر فى أمريكا فهو فى رأى أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق عليه كل واجب وليس له أى حق؛ وهذا الوجود المعدوم فى بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال فى رأى المسلمين أغلظ كذبة فى دستور الديمقراطية بواشنطون، وأكبر لعنة على تمثال الحرية فى (نيويورك)، وأما الإنسان الأسمر والأسود فى أفريقا، أو الأخضر والأصفر فى آسيا، فهو فى نظر الفرنسيين

والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخر ، ويروّض ليستثمر ، ويُنتج ليستهلك ، وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛ وهذا الحق المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال فى نظر المسلمين اتهاما لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير ، فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب هو على قدرة الإنسان وعجزه ، لا على إنسانيته وفضله ، فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ؛ والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق ،

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد ، ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله ، والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبين ، ولا من وطن معين : إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والترکى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو شرع الإسلام ، وتحت تاج واحد هو تاج الخلافة !

والإسلام الذى يقول شارعه العظيم « ولقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لونا دون لون ، ولا طبقة دون طبقة ؛ إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم . وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض ومن سواهم خدم ، وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان ومن عداهم عجم . وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى العالمى قائما كله على الامتياز بالجنس

أو بالدين، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال، حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه «إنما المؤمنون إخوة»، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وأكدها بقوله صلوات الله عليه: «الناس سواسية كأسنان المشط»، «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب».

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان، فضيق الإسلام حدود الرق، وجعل كفارة الذنوب بالصدقة والعتق، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب.

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى «لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى» «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟». واحترم عقائد أهل الكتاب وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم.

ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد، وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض. ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب. وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبيع ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن.

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل. وهذه هى جماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأديانه وألسنته.

أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن والأمر يومئذ للجهالة والرأى للضلالة والحكم للطغيان، فأنقذ الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة، ثم أكرمها ونعمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد. ولكن الإنسانية وا أسفاه أضلت هذا السبيل! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق؟

أحمد حسن الزيات

نداء الأستاذ الأكبر إلى العالم

بمناسبة الذكرى العالمية لإعلان حقوق الإنسان

أيها الاخوة فى الإنسانية :

ناداكم ربكم « يأيها الناس » ومنذ شرع لكم دينكم ، جمعكم على الأخوة فى الإنسانية ، ولم يناد طائفة منكم دون طائفة أو أمة دون أمة أو جنسا دون جنس أو لونا دون لون ، ولم يخص بالنداء الأغنياء دون الفقراء ولا الأقوياء دون الضعفاء ، ولا الكبار دون الصغار ، وإنما وجه نداءه إلى جميع البشر ، ولقد سوى بينكم فى أبوتكم لرجل واحد هو آدم حين ناداكم « يابنى آدم » ليذكركم بأنكم جميعاً من آدم وأن آدم من تراب . ثم أوصاكم ربكم بالتراحم فيما بينكم . « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، وأوصاكم بالتعاون والتساند بقوله : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ... ثم ميز بعضكم على بعض لا بظهر أو بطن أو لون أو عنصر ولكن بتقواه وطاعته ورعاية وجهه فى النفس والوالدين والزوج والمال والولد وذوى الرحم والجار والأخوة فى الإنسانية ، وفضل بعضكم على بعض بالتقوى ، فقال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« يأيها الناس » بهذا أمركم ربكم ، ولهذا أرسل رسله ، وبهذه الآيات المحكمات ناداكم على لسان خاتم النبيين منذ تسع وسبعين وثلاثمائة وألف سنة خلت .

ومنذ أحد عشر عاما بدت فى أفق الحياة الإنسانية بادرة طيبة مبشرة إذ أصدرت أمم العالم إعلاناً لحقوق الإنسان فى وثيقة تنادى بأن جميع الناس قد ولدوا أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

وثيقة تنادى « أن لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان بدون تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى أو المحتد سواء فى كل ذلك الرجل أو المرأة أو الثروة .

« لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه » .

ومنذ حوالى أربعة عشر قرنا وضعت شريعة الإسلام أصول تلك الحقوق ، وبينها القرآن فيما تلونا من آياته الحكيمة وغير ما تلونا ، وهو كثير فى القرآن .

وإنه لعيد جدير بالاعتبار ، عيد ذكرى إعلان حقوق الإنسان — حقيق بأن نتذكر فيه تعاليم الدين، وأن تعمل على تطبيقها لأسعاد البشر ، وأن تكف الدولة القوية عن زعزعة الشعوب الضعيفة وأن تجعل أمر هذه الشعوب بيدها ، وأن تعيد إليها حقها كاملا غير منقوص . عندئذ يكون هذا اليوم عيداً سعيداً جديرا بأن تفخر به البشرية وأن تحتفل كل عام بحلوله .

أيها الإخوة فى جميع بقاع العالم ، إن على المؤمنين أن يتذكروا دائما ما قطعوه على أنفسهم من عهد وما قطعته السماء عليهم من مواثيق التعاون والتضامن والأخذ بناصر الضعيف ، وأن يتدبروا ما تعانيه البشرية هنا وهناك جزاء النكث بالعهد والحنث بالوعد ، دم يراق فى الجزائر ، ونساء وأطفال ورجال بين شيخ مسن ، وطفل فى المهد قد شردوا من فلسطين وأخرجوا من ديارهم عنوة ، وغير أولئك وهؤلاء ممن يقاسون ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ألا فليعلم الناس قاطبة أن الوثيقة التى نحتفل بذكراها اليوم إن هى إلا رجوع إلى أمر الله قد نادى بها الإسلام ونادت بها سائر الأديان .

يا أيها الناس ، يا أيها المؤمنون ، يا أيها الذين يحترمون حقوق الإنسان عودوا إلى عهدكم ، عودوا إلى دينكم ، التمسوا النور من ربكم ، واسألوه التوفيق والسداد فى رأيكم وعملكم .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر

الأدبُ العربيّ والتخصيص

للأستاذ عباس محمود العقاد

كلمة الأدب فى اللغة العربية تشمل منظومها ومنثورها ودراسات النقد وشروحه فى هذا الموضوع ؟ .

والباحثون فى الآداب الغربية لا يجدون صعوبة فى فهم معنى الأدب من اللفظ الذى يدل عليه بلغاتهم ، وهو لفظ (لتراتور) بالفرنسية Littérature ولتراتشر Literature بالانجليزية ، وكلاهما مأخوذ من مادة الحرف أو الكلمة . فكل ما يتناول فن الكلام نظما ونثراً فهو أدب ، ولا تبعد الشقة ، بالباحث عندهم فى بحثه عن العلاقة بين فن الكلام وبين الشعر والنثر وأقوال النقاد والشراح فى هذا الموضوع بجملته .

ولكن ما هى العلاقة بين كلمة « أدب » وبين موضوع الشعر والبلاغة ؟ بل ما العلاقة بينها وبين السلوك الحسن إذا اعتبرنا أن الكلمة وضعت أصلا للدلالة عليه ؟ .

لماذا تدل كلمة مؤلفة من الهمزة والدال والباء على السلوك الحسن ؟ ولماذا تدل . بعد ذلك على الشعر والنثر والبلاغة إذا اهتدينا إلى الدلالة بينها وبين حسن السلوك ؟ .

هذه هى المشكلة فى رأى بعض الباحثين ممن يريدون أن يربطوا بين اللفظ ومعناه فى اللغة العربية بمثل العلاقة التى بين الكلمة الفرنسية أو الكلمة الانجليزية وما تدل عليه .

وقد حاول بعضهم أن يرد كلمة « الأدب » إلى المأدبة ، وحاول آخرون أن يجعلوها مقلوبة من « الدأب » ، ويستخرجوا من السعى معنى السعى إلى المعرفة والكمال ، فتقترب الشقة — من ثم — بين الأدب وبين معانى المنظوم والمنثور .

ولم نر بين الباحثين ، على هذا الرأى ، من هو أوفى بحثا فيه وأوفر استدلالا عليه من الأديب العالم باللغات السامية الأب « مرمرجى » صاحب المؤلفات المعروفة فى مباحث اللغة، ومنها كتابه المعجمات العربية السامية ، الذى يقول فيه تحت مادة أدب :

« يطلق لفظ الأدب على العلوم العربية ، وهو علم يحترز به من جميع أنواع الخطأ وتعرف به أساليب الكلام البليغ فى كل حال من أحواله ، ويكتسب بالدرس والحفظ والنظر فى الآثار الأدبية من منظوم ومنثور . . . ويراد بكلمة « أدب » معنى

صنع صنيعا ودعا النـاس إليه ويرادفه أقام ولمة وصنع غداء ودعا إليه دعوة .

فجميع هذه الفحاوى مع ما يظهر فيها من التباين عائدة إلى أصل واحد : وهو العمل أو الصنع أو الجهد فى عدة أحوال ، بيد أن لفظة أدب الثلاثية بحالتها هذه لا تتضمن حسب الاشتقاق معنى يدل على العمل والجد والكسب ، ولهـذا تضاربت الآراء فى تأصيلها حتى قال بعضهم بأنها دخيلة من اليونانية كأنما العربية مفتقرة إلى الأجنبية حتى فى قوام العلوم اللغوية والأخلاقيـة والحياة الاجتماعية ، على أننـا نرى هناك وسيلة لجعل هذا الاشتقاق منطبقا على تحديد الكلمة وتفرع معانيها فيصبح هذا الاشتقاق معقولا متساوقا منطبقا . ألا وهى وسـيلة الرجوع إلى الأصل الثنائى ... غير أنه يقتضى الفرض أولا أن كلمة أدب ليست بأصلية بل هى مقلوبة عن لفظة أخرى وهى (دأب) المراد بها (جد فى عمله مستمرا) ، والدأب العادة والشأن ، ممـا يتطلب المثابرة على العمل ... إلا أن (دأب) ذاته صادر عن الثنـائى (دب) ومدلوله مشى على هينة وسرى وجرى .

« إذن من المشى والجرى توسع المعنى إلى العمل بجد ومثابرة ، ومن ذلك تحصل العادة المتوقفة على تكرار الفعل ، ممـا ينجم عنه الملكات . فإذا كانت هذه الملكات حسنة صدرت عنها الأخلاق الحميدة . وإذا كانت هذه الملـكات مترسخة فى تصرف المـرء ومعاملته لأقرانه فى الحياة الاجتماعية تولد منها الظرف والكياسة ، وحسن المعاشرة ، وإذا جد المرء فى اقتباس العلوم اللغوية من منظوم ومنثور فى الكلام والكتابة والوقـوف على آثار الكتاب والأدباء نشأ عن ذلك علم الأدب أى مجمـل المعارف والآثار العـربية التى تولدت بعد الإسلام » .

* * *

وهـذه أقرب مرحلة بين لفظ الأدب ومعناه فى رأى الباحثين على هذه الوجهة ، وهى الوجهة التى تهديهم إلى أن كلمة الأدب مقلوبة من كلمة الدأب ، وأن المشابهة بينهما هى المشابهة بين العادة على حسنها وسوئها وبين الملكة الفنية أو اللغة .

وأبعد من هذه المرحلة مرحلة القائلين بأن الأدب من « المأدبة » ... وإنمـا ينبغى أن تكون المأدبة من الأدب على القياس المفهوم ، فلا تنطوى المـأدبة على معنى من معانى الفن والبلاغة إلا إذا كان هذا المعنى أصيلا فى كلمة الأدب قبل أن تؤخذ منها كلمة « المأدبة » .

والذى نعجب منه هو هذا الإبعاد فى التأويل والتخريج مع قرب المورد فى هـذه المـادة خاصة ووفرة الدلالة عليه بحروفها ومعانيها .

فمن هو الرجل المؤدب فى لغتنا العربية ؟ هو الرجل « المهذب » ، ولا زيادة عليه ولا حاجة إلى تأويل كثير أو قليل .

وهنا تتمثل لنا المادة بحروفها جميعا ودلالتها جميعا فى استعارتها لهذا المعنى المطرد بين كلمة « هذب » وكلمة « هدب » وكلمة « أدب » وهى مؤلفة من حروف يعرض لها الإبدال فى مئات من أصول الكلمات العربية .

يقال « هذب » الشجرة إذا أزال أشواكها وفضول أوراقها وسوى فروعها وغصونها ، ومن هنا يستعار التهذيب للإنسان الذى تزال عيوبه وتنتظم أحواله وأعماله ، وليس للتهذيب الإنسانى أصل غير هذه الاستعارة فى هذه المادة وفيما يشبهها من مواد اللغة لفظا ومعنى ، وأشهرها التثقيف من إزالة الزوائد والفضول من الأعواد والأغصان .

والتهديب كالتهذيب فى دلالته على إزالة الأهداب وتسويتها وتنظيمها ، وليس أسهل من إبدال الهمزة بالهاء أو إبدال الدال بالذال .

ويؤيد هذا من جانب النظر إلى المعنى أن صفة التأديب هى صفة التهذيب فى جميع تفصيلاتها ، فلا يمكن أن تكون المشابهة عرضية بين كلمات التهذيب والتهديب والتأديب ولا بد من شبه أصيل بينها فى النطق والمدلول والمجاز .

* * *

وإذا تبين لنا من المقابلة بين لفظ الكلمة ؟ معنى الأدب أصلا ومجازا فالمقصود بالأدب يتبين لنا من المقابلة بين أوصاف الإنسان المؤدب فى لغات الحضارة ، ومنها اللغة العربية .

والواضح لنا من المقابلة بين هـــذه الأوصاف فى جميع اللغات أن كلمة « المؤدب » مرادفة لكلمة « المتمدن » فى كل معرض من معارضها المتكررة ، ويعزز ذلك قول الشاعر البدوى عندنا :

وإنى على ما فى من عنجهية
ولوثة أعرابية لأديب

فالأديب إذن هو الإنسان الذى سلم من خشونة البداوة وتعود شمائل المعيشة فى الحاضرة ، وهو « المتمدن » أو المدنى بعبارة أخرى .

ويقابل ذلك فى لغات الحضارة الأوربية قديمها وحديثها أن شمائل الظرف والكياسة تنتسب عندهم إلى المدنية فى لفظها ومعناها ، فالمؤدب عندهم مرادف لابن المدينة أو ابن الحاضرة . وكلمة Civilised فى أصلها مأخوذة من كلمة Civis أى مدينة وإذا قيل عن رجل عندهم أنه ابن مجتمع .

Man of Society

فمعنى ذلك أنه مصقول مهذب ، وعلى هذا النحو يوصف الرجل فى اللغة الفرنسية بأنه

رجل صالون Homme de Salon ويعنون به أنه رجل مهذب صالح لمعاشرة الناس فى مجالس المهذبين . وهم يقولون عن الرجل إنه مصقول Polished أو إنه مؤدب Polite بلفظ متشابه فى النطق والدلالة ، ولعلهما - معا - يرجعان إلى الكلمة اليونانية بوليتكوس Politicos من المدنية أى « بوليس » Polis عند اليونان .

وعلى هذا نفهم علاقة الأدب بالمأدبة بل نفهم هذه العلاقة فى اللغات الأوربية بين التمدن والفنون المهذبة التى يطلقون عليها أحيانا كلمة Polite-Arts أى فنون الظرف والتهذيب ، وترجع الصفة « بولايت » فى اشتقاقها إلى الصقل أو إلى المدينة كما تقدم .

ونستطرد إلى المعانى المجازية فى هذا الباب فنرى أنها تتفق فى البداهة الإنسانية كما يظهر من اصطلاح الخاصة والعامة بلغتنا العربية الدارجة ، فهم يقولون عن إنسان من الناس إنه قادم من الريف « بعبله » أى أنه لم يهذب بتهذيب الحضارة ، أو يقولون عنه إنه « لم ينجر » من التنجير وهو علاج الخشب بما ينفى عنه القشور والزوائد . ولا فرق فى جوهر المجاز بين التهذيب والتهديب والتأديب وبين كلمة « التنجير » فى هذا الباب!

فالمقصود من التأديب فى مصطلحات اللغات كافة أن يصلح الإنسان للمعاشرة والتفاهم بين أهل المعرفة والكياسة ، ووسائل ذلك فى التربية العربية بإجماع الروايات أن يلقن الناشئ صفوة الأشعار والأمثال والحكم وأيام العرب وأصول الأنساب ، وأن يتفقه مع ذلك فى دينه وأن يقوم لسانه وفكره ويحترز من الخطأ فى عباراته وإشاراته . فهو بلغة المجاز - إذن - شجرة مثمرة بغير أشواك وبغير قشور ، وهو مهذب أو مؤدب أو مثقف بمعنى واحد فى الأصل والمجاز .

ونعود إلى التخصص فى التربية فنرى أن مذهب العرب فيها منذ صدر الإسلام أقرب إلى التعميم والإحاطة ، وأبعد ما يكون عن الحصر والتضييق فى مجال المعرفة والتعريف ، فمن تربى على رواية الشعر والمثل والحكمة وتربى مع ذلك على حفظ الأنساب والأيام وفقه الدين واللغة فهو فى عرف العصر الحديث قد تربى على العلم بالأدب والتاريخ والحكمة وجمع بين ثقافة الفكر والضمير ، وأصبح زميلا صالحا للمحادثة وتبادل الرأى والفهم فى كل مجتمع مهذب يتنزه المشتركون فيه عن إزجاء الوقت باللغو والثرثرة وفضول القول خوضا فى الأعراض وإسفافا إلى صغائر الأمور .

ونود أن نجيب هنا على ملاحظة بعض القراء علينا فيما كتبناه عن التخصص فى إحدى مقالاتنا الصحفية ، إذ قلنا : إن التخصص الذى يعزل المتعلم عن سائر فنون المعرفة غير فنه الذى يشتغل به ولا يتعداه

إنما هو مسخ للفكر وبتر للملكات الإنسانية لا تحمد مغبته فى حياة المجتمع ولا فى الحياة الفردية .

فنقول لأصحاب الملاحظة : إننا لا ننكر التخصص ولا نوصى باجتنابه ، بل نحذر من إهماله كما يحذر من ذلك الإهمال أشد المتخصصين ، ولكننا ننكر من التخصص ما يجعل المرء غريبا فى البيئة الإنسانية عاجزا عن التفاهم معها أو عن معاشرتها الفكرية على مشاركة فى الحس والعاطفة .

ونضيف إلى ذلك أن « التخصص » المدعى ليس بالفتح الحديث فى تاريخ الناس ، وليس بالمزية التى نتركها فنعود إلى الوراء متقهقرين مئات السنين كما قال أصحاب الملاحظة التى نشير إليها ... إذ الحقيقة أن هذا التخصيص عادة عتيقة جداً أشار إليها أقدم المؤرخين وقال هيرودوت كما قال غيره إن المصريين الأقدمين كانوا يتوارثون الصناعات فلا تشتغل الأسرة بغير صناعة واحدة ، وإن أطباءهم كانوا يقسمون بينهم أنواع العلاج فلا يعالج أمراض الرأس منهم من يعالج أمراض الجوف ولا يتعرض هذان لعلاج أمراض العين أو أمراض العظام . فليس هذا الحصر فى العلم والتعلم تقدما عصريا لم نسبق إليه ، ولكنه ضرورة من ضرورات العادة التى تتبدل من حين إلى حين ، وينبغى أن تتبدل كلما وضحت المصلحة فى تبديلها ، وهى واضحة على ما نرى من دواعى التقدم العلمى الذى يفرض « السعة العالمية » فى التفكير كما فرضها العصر فى كل مجال من مجالات الرأى والعمل ، وفى كل علاقة من علاقات ذوى الآراء والأعمال ؟ .

عباس محمود العقاد

التكافل الاجتماعى

أوجب الإسلام على الأغنياء من الأقرباء الإنفاق على الفقراء والعاجزين عن الكسب من أقربائهم ، وأوجب على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ؛ يرق غنيهم لفقيرهم ، ويسد شبعانهم حاجة جائعهم ، حتى لقد ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى مسئولية البلد الذى يموت أحد أفراده جوعا ؛ فيؤدى أهله جميعا الدية متضامنين كأنهم شركاء فى موته .

[من كتاب حقوق الإنسان فى الإسلام للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى]

كيف يتصل الشباب بالدين؟

للأستاذ الدكتور محمد البهي

أن هناك عقبات تحول دون أن يرى الشباب الدين كمصدر توجيه، وهناك حواجز كذلك توضع في طريق الشباب نحو الدين.

فشبابنا اليوم وجد في وقت برزت فيه آثار الاستعمار في السياسة التعليمية في مصر وفي الشرق الإسلامي على العموم. هذه السياسة هي الفصل بين ماضي الشباب من جانب وبين حاضره من جانب آخر. وبالتالي العمل على أن يظل النشء في توجيهه تابعا لما يرسمه الغرب في فكره الاستعماري، وبعيداً كل البعد عن أن يذكر ماضيه وعن الأمجاد والقيم التي تملأ صفحات تاريخ الأمة منذ أجيال.

وفي حديث للمستشرق الانجليزي «جب» في سنة ١٩٣٨ في وصفه لسياسة التعليم القائمة: مصر في محاضرة عامة ألقاها في جامعة هامبورج أشار فيها إلى أن سياسة التعليم القائمة في مصر جعلت في الوطن الواحد فريقين يبتعد أحدهما عن الآخر ويصارع أحدهما الآخر. فريق يسند ظهره إلى التراث العقلي والروحي للشعوب الإسلامية، وفي الوقت نفسه لا يعيش في حاضر الحياة ولا يستطيع أن يصل حاضره بأمسه، وفريق آخر ابتعد تماما عن المواريث وعن القيم الثقافية والروحية في تاريخ الشعوب الإسلامية، وولى وجهه نحو الغرب يسمع لتوجيهه ويتبع نصحه. وبينما الفريق الأول يجمد في مكانه في أرض الوطن، فإن الفريق الثاني لا يستطيع أن يضع قدميه على مكان فيه.

ويهمنا هنا في هذا الحديث أن نشير إلى أن الوضع الخاص بالفريق الثاني في إبعاده عن القيم والخصائص التي للتراث العربي الإسلامي ـ هو أثر لسياسة التعليم فيما مضى، منذ الاحتلال البريطاني لمصر. فقد رسمت هذه السياسة خطط التعليم على أساس انفصالي. وعرضت بذلك رواد المدارس في صورها العديدة للابتعاد لحسب عن تلك القيم التي يصورها تراثنا الثقافي وتلك الأمجاد التي يعرضها تاريخنا ـ بل عرضتهم فوق ذلك إما للاستخفاف بهذه القيم والأمجاد، وإما لإنكار اعتبارها في حياة الإنسان.

ومن بين هذه القيم، القيم الخاصة بالدين والتي ترتبط بتعاليمه ويطلب من الدين نفسه الحرص على تمثلها وتطبيقها في الحياة العملية. وهنا قامت على توالي الزمن عقبات في طريق الاتصال بالدين وهي عقبات نفسية؛ لأنها

تتصل بتقدير هذه القيم . فمن ينكر اعتبارها أو يستخف بها لا يتصل بها على الأقل . ومن يعرضها على تلاميذه على أنها عديمة الجدوى والقيمة فى الحياة فقد حمل تلاميذه بالتالى على الوقوف منها موقفا على الأقل هو عدم الرغبة فيها والإعراض عنها إن لم يكن الاستخفاف بها والحمل عليها .

وهكذا لم يكن تدخل الاستعمار فى سياسة التعليم إلا لتحقيق هذه الانفصالية . ولم تنضج ثمار هذه السياسة إلا بعد فترة تمتد إلى جيل أو جيلين .

وهناك عقبات أخرى بجانب هذه العقبات النفسية لم تكن من رسم سياسة المستعمر وإنما كانت وليدة عوامل داخلية . وهى عرض القيم الدينية وعرض تراثنا الثقافى والروحى عرضا يتمشى مع ما تتطلبه العقلية الحديثة والمعاصرة . فنحن نعلم أن العقلية العلمية التى سيطرت فى القرن التاسع عشر حملت معها عوامل الحقـــد والكراهية أو عوامل الاستخفاف والسخرية بالدين والقيم المثالية على وجه العموم . وهذه العقلية التى سيطرت فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر لم تبق فى نطاق الثقافة الغربية . بل باتصال الشرق بالغرب تجاوزت هذه العقلية كما تجاوزت آثارها وما حملته معها من مقاييس خاصة إلى بلاد الشرق الإسلامى . وموجة التشكيك التى أعقبت سيطرة هذه العقلية فى أوروبا بالنسبة إلى الدين والقيم المثالية أيضا تسربت ونفذت إلى الشرق الإسلامى واتجهت إلى الدين فيـه وإلى القيم الروحية كذلك .

ولكى تعرض القيم الدينية عرضا قويا وواضحا بحيث لا تنال منها موجة التشكيك ولا موجة الاستخفاف ـ يجب أن يكون أسلوب العرض أسلوبا حديثا على معنى أنه يسلك بهذا العرض المسلك الموصل للإقناع والاقتناع . والدراسات النفسية والاجتماعية لها وزنها فى هذا المسلك عند عرض الفكر المثالية أو القيم الأخلاقية والدينية . ولذا فالعرض الحديث لقيم الدين كان يجب أن يقوم على أســـاس سيكلوجى أو نفسى واجتماعى ، ولا يبقى فى حدود أساليب المنطق الأرسطى وهى أساليب الجدل والحجية التى سيطرت على أساليب العرض منذ أن دخل الفكر الإغريقى إلى الجماعة الإسلامية واستعان المسلمون بمنطق أرسطو من هذا الفكر على وجه خاص .

فتخلف العرض للقيم الدينية عن أن يكون متمشياً مع أساليب العقلية الحديثة وعن أن يستعان فيه بالدراسات النفسية والسيكلوجية والاجتماعية ـــ كان أيضاً من العقبات التى وقفت فى طريق الشباب إلى الدين .

وهنا اجتمع نوعان من العقبات : النوع النفسى والنوع المادى . أما النوع النفسى فهو الميل إلى الاستخفاف بهذه القيم نتيجة لسياسة التعليم الانفصالية كما ذكرنا . والنوع المادى وهو تخلف العرض القيم الدينية عن أن يكون داعيا إلى قبولها أو على الأقل داعياً إلى النظر فيها بدافع الرغبة فى البحث والدرس .

(٢) الحواجز :

ومع وجود هذين النوعين من العقبات — وإن كانت آثارهما قد خفت عن ذى قبل — نظراً لسياسة القومية العربية من جانب ، ونظراً للتعرف على أساليب العقلية المعاصرة فى العرض من جانب آخر — وإن كان فى نطاق ضيق — فإن هناك حواجز أخرى تقام فى صور مختلفة من شأنها أن تبقى على التقدير الذى كان للقيم الدينية على نحو ما أثمرت سياسة الاستعمار فى التعليم إن لم تزد فى أمره . وبذلك تبقى العقبات فى طريق وصول الشباب إلى الدين كما هى ، أو على الأقل يضعف أثر القومية العربية وأثر التعرف على أساليب العرض الحديث فى الحد من نتائج تلك العقبات .

أولى هذه الحواجز أسلوب الصحافة . فالصحافة المصرية مع تطورها ومع مسايرتها لأحدث أساليب الإعلام — تستخدم فى كثير من الأحايين هذه المسايرة لأحدث أساليب الإعلام فى التقليل من شأن القيم الدينية . وأقصد إلى نوع معالجتها لمشاكل الأسرة مثلا فى الزواج والطلاق وفى دفاعها عن حرية المرأة وفى عرضها لقضية المساواة. فإنها فى هذه الجوانب لا تعرض الرأى منتزعا من دراسة ولا منبثقا عن فهم أصيل لمبادئ الإسلام فى الطلاق والزواج وفى صلة المرأة بالرجل فى الأسرة على العموم . وإنما تميل الصحافة فى عرضها إلى حزبية معينة وتأييد رأى سابق على البحث والفهم لمبادئ الإسلام . ولا أعدو الصواب إذا ذكرت أن هذا الرأى الذى تميل إليه الصحافة والذى قد يكون سابقا قبل العرض والبحث والفهم هو رأى مستورد من الخارج ودفع به دفعا إلى مجتمعنا هذا ، قصد به تحطيم هذه القيم التى تعتبر المقوم الأساسى فى شخصيتنا الاجتماعية وفى قوميتنا كعرب مسلمين .

كذلك إذا ما تعرضت الصحافة لمشاكل الشباب فإنها تركز هذه المشاكل على نقطة معينة هى أقرب إلى الإباحية فى صلة الرجل بالمرأة منها إلى تنظيم الوضع الاجتماعى بينهما أو تربية النوعين تربية مهذبة فى صلة أحدهما بالآخر .

وفى دفاعها عن حرية المرأة مثلا ، تلوم التقاليد والعادات ، وقد يكون لها الحق فى

أن تلوم التقاليد والعادات ، ولكنها تخلط فى فهم التقاليد والعادات - وربما عن قصد - وتدخل فى مفهوم التقاليد والعادات والقيم والمبادئ الدينية ، وإذا تعرضت لهذه العادات والتقاليد فإنها تتعرض لها فى كثير من السخرية والاستخفاف دون أن تحاول أن تضع عادات وتقاليد أخرى بدلا منها تصلح أن تكون رباطا ومقوما من بين مقومات مجتمعنا الشرقى والعربى الإسلامى ، وعرضها للتقاليد والعادات على النحو المشار إليه يحول أيضا ويكون منه حاجز فى طريق اتصال الشباب بالدين ، وإذا هى حاولت أن تضع عادات وتقاليد أخرى بدلها فإنها تدعو فى غير احتياط إلى ما يجرى فى الغرب من عادات فى مجتمعه ، خيره وشره ، والغرب - كما تعلم - وخصوصاً بعد قيام هاتين الحربين العالميتين فى وطنه وبين أطرافه - اهتزت فيه القيم الإنسانية ، وتعرضت التقاليد والعادات لهزات عنيفة يئن منها الغرب نفسه الآن بالشكوى ويحاول أن يجد لهذه الحال علاجا ، ولكن الأمر يكاد يكون مستعصيا عليه ، وفى الأهرام الصادر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٩ فى الصفحة الثانية تحت عنوان : « فوضى الجنس بين طلبة المدارس الانجليزية ما يلى :

فى تقرير وضعه الدكتور طومسون من وزارة الصحة البريطانية أن الفوضى الجنسية قد انتشرت بين صغار المراهقين من طلبة المدارس ذكورا وإناثا بشكل ينذر بخطر جسيم . فى إقليم رويكفيلد حيث ركز طومسون بحثه الذى استغرق عامين ، اتضح أن طالبات فى الرابعة عشرة من عمرهن يترددن على عيادات خاصة للعلاج من الأمراض السرية ، وأن أخريات فى مثل عمرهن يحملن معهن أدوات منع الحمل .

ويقول طومسون أن الحال فى رويكفيلد ليست أسوأ ولا أفضل منها فى سائر أقاليم انجلترا » .

وإذا تحدث الكاتب عن انجلترا فإنه يتحدث عن بلد أوروبى عرف بالمحافظة على التقاليد التى له ، وهى تقاليد القرون الوسطى التى وضعتها ودعمتها الكنيسة ، وكان للتقاليد والعرف فيها دور رئيسى هو دور القانون ، ولها قيمة لا تهزها الأحداث المحلية والأحداث العالمية .

وبجانب الصحافة فى عرضها القيم الروحية والفكر المثالية ، لا تقل الإذاعة والكتب والدوريات فى تأثيرها بموقف الغرب من الإسلام ، فضلا عن أنه لا يوجد انسجام بين برامج الإذاعة المختلفة فإن بعض هذه البرامج يعرض القيم الدينية على نحو ما كان يقوم به بعض رجال الفكر فى أوروبا فى

القرن الثامن عشر. ذلك القرن الذى كان يسمى عصر التنوير، وأهم مظاهره تمجيد الإنسان فى خالقيته للقانون والأخلاق وللمجتمع والدولة فى مقابل الاستخفاف بالدين كمصدر لتحديد هذه النظم فى هذا العرض الذى تقوم به بعض برامج الإذاعة تعلو بالإنسان فوق مستوى النقد وتصل بالإنسان إلى درجة السيادة المطلقة فيما يخطه لنفسه ولمجتمعه، وتبرر عدم الحاجة إلى شىء آخر سوى عقل الإنسان وفكره، وفى بعض الأحايين تسخر بالمصادر الأخرى للتوجيه التى تأخذ لنفسها حق توجيه الإنسان، والذى يأخذ لنفسه حق التوجيه هو الدين وما اشتمل عليه من قيم وتعاليم.

* * *

هذه هى العقبات وتلك هى الحواجز التى توجد فى طريق الشباب إلى الدين، وهنا تحديد الوسيلة التى يتصل الشباب عن طريقها بالدين فوق إمكانيات الفرد أو بعض الأفراد أو بعض الهيئات، إن هذه الوسيلة يجب أن تكون جزءا من سياسة الدولة وسياسة المجتمع التوجيهية بحيث تستخدمها الأجهزة المختلفة فى التوجيه وتكون هذه الأجهزة على اختلافها فى الإرسال معبرة عن فكرة واحدة وهدف واحد، وإن كانت فى صور متنوعة تعبر عن القيم الدينية وعن أثرها فى التوجيه وتبعد فى هذا التعبير عبارات السخرية من هذه القيم التى درجت على أن يقوم عليها عرضها لتلك القيم.

وتكون هذه الأجهزة مساوقة للمدرسة فيما تهدف إليه من تهذيب الناشئة ومساوقة أيضا لما يهدف إليه المسجد من توجيه الرأى العام توجيها سليما. وإذا قلنا هنا المسجد فلا نقصد الأسلوب التقليدى من الترغيب فى الجنة والتنفير من النار وإنما نقصد بالمسجد ذلك المركز الإسلامى التوجيهى الذى يجب أن تشع منه القيم والتعاليم الإسلامية فى صفائها وأصالتها، وهى القيم والتعاليم التى تتصل بحياة الإنسان فرداً ومجتمعا، والتى تعطيه دوما الحلول فى ملاءمة نفسه مع أحداث الحياة ومستحدثاتها.

ولكن بجانب هذه السياسة التوجيهية الموحدة فى عرض القيم الدينية هناك طريق آخر يجب أن يسلكه رجال الدعوة إلى الدين كى يتصل الشباب به. ويؤمن بقيمه ويحصل على تمثل هذه القيم فى حياته اليومية. هناك الطريق لمعالجة مشاكل الشباب النفسية. وليست مشاكل الشباب هى مشاكل الجنس. نعم إن الغريزة الجنسية تلعب دوراً رئيسيا فى حياة الشباب فى سن المراهقة، ولكنها ليست على درجة من الخطورة إذا ما وجد الشباب توجيها سليما وتحديداً للطريق

الذى ينهجه فى حياته ، ويتغلب به على أزمة الحيرة والقلق ، ومن هنا مشاكل الشباب ليست مشاكل الجنس كما ذكرنا بل هى مشاكل تعريف الشباب بالوجهة التى يتجه إليها وإعطاؤه الحل لأزمة القلق والاضطراب عنده .

وأزمة القلق والاضطراب عند الشباب ، أو أزمة الحيرة ترجع فى واقع الأمر إلى تذبذبه ووقوفه بين مرحلتين متقابلتين من حياة الإنسان : مرحلة الطفولة ومرحلة الرشد الإنسانى . وإذا كانت مرحلة الطفولة ينم عنها ميل الإنسان الطفل إلى الحس ووقوعه تحت تأثير الحس من الأحجام والمقادير والألوان والنغمات والأصوات والصور والأشكال — فإن مرحلة الرشد يعبر عنها ميل الإنسان للفكر والمثل والقيم . ميل الإنسان إلى المبادئ وإذا تميزت مرحلة الطفولة بأن يكون الإنسان تابعا لما يدركه فى حسه وشاهده فإن مرحلة الرشد تتميز بخروج الإنسان عن هذه التبعية وباستقلاله وعدم الطواعية لها . إذا كانت مرحلة الطفولة يميزها إغراء الحس للطفل على نحو ما يرى الحس الحيوان فى حركته إذا تخلت عنه قيادة الإنسان — فإن مرحلة الرشد يميزها انجذاب الإنسان إلى المثل والقيم .

هناك فى حياة الشباب فجوة ، هى الفجوة بين مظاهر الطفولة ومظاهر الرشد . هناك فى حياة الشباب حيرة وتردد ، وهى البقاء تحت تأثير الحس أو الخلاص منه والاستقلال عنه وعدم الطواعية لكل ما يحس . هناك فى حياة الشباب تذبذب ، أإلى ماضى حياته وهو الطفولة يسكن وحوله يدور أم نحو حال اكتمال الإنسان ورشده يسير ويتجه ؟ هناك فى حياة الشباب أزمة ، أيبقى فى التبعية والطواعية التى لا خيار فيها ولا حرية أم يستقل ويصبح ذا سيادة فى حكمه وفى تأثر بها .

هذه هى مشكلة الشباب . هذه هى أزمة الشباب . هى أزمة الحدة والقلق والاضطراب بسبب الوقوع بين عاملين قويين متقابلين . وحل هذا المشكل — الذى يجب أن يقدمه له حاملو رسالة الدين — هو تبصير بالفصل بين المادية والروحية ، تبصيره بالفصل بين حياة الحس التى لطفولته وحياة العقل والقيم التى لرشده . والروحية ليست طلبا للابتعاد عن الحياة المادية وإنما هى فحسب تعريف بالقيم والمثل فى حياة الإنسان بجانب ما تدفع إليه الحياة الحسية من مظاهر الحس التى تغرى الإنسان فى طفولته ويقع هو تحت تأثيرها وإغرائها فترة من الزمن وهى فترة طفولته : الطبيعة والدين كلاهما إذن ضرورى فى حياة الإنسان ، الطبيعة تدفعه نحو إدراك مظاهرها والدين يبصره بقيمة الإنسان نفسه . لا تستطيع الطبيعة أن تبصر الإنسان بقيمة

حياته وقيمة مستواه لأنها ترغب دائما فى أن يكون خاضعا لها وواقفا تحت تأثيرها . ولذلك كانت ضرورة الدين فى حياة الإنسان واضحة لأنه سيوقفه على مستواه ، وبالتالى سيخلصه من إغراء الطبيعة وتأثيرها ويجعله سيداً على نفسه وذا سيطرة على الطبيعة . وبذلك يسخرها بدلا من أن تستخدمه هى . وبذلك ينتفع بها بدلا من أن تجعله فى خدمتها ورفيقا لها .

وفى واقع الأمر ضرورة الدين فى حياة الإنسان أشد من ضرورة الطبيعة نفسها لأن إنسانيته تطلب من يكشف عنها ويبصره بقيمتها حتى يكون الإنسان فى مكانه من الطبيعة ، وهو مكان المستقل وصاحب الشأن وليس مكان التابع المسخر.

إن تعاليم الدين هى تعريف بالمشاركة الوجدانية وتعريف بالتعاون ، وتعريف بالسلم ،وتعريف بتجنب الاعتداء ، وتعريف بالولاء والمودة ، وتعريف بالروابط والأخوة الإنسانية ، وتعريف بالتضحية فى سبيل الغايات العليا للوطن والمجتمع . وما يقوم به الدين إذن هو تعريف للقيم الإنسانية لأن القيم الإنسانية ليست أكثر مما يطلب فى علاقة الإنسان بإنسان كإنسان له خصيصة الإنسانية وقد باشر ممارستها فى حياته العملية .

إن الشباب إذا وقف على حدود إنسانيته وعلى قيمته فى الوجود رغب من غير شك فى الكفاح من أجل تحقيق مستواه الإنسانى ولكى تكون له قيمته الخاصة كإنسان . وبذلك يصمم ويعزم على أن يحقق هذه الغاية فى حياته ، وتضيع بعزمه وتصميمه حيرته ، ويذهب قلقه واضطرابه . وبذا تحل مشكلة الشباب ، وحلها هو الكفاح من أجل هدف سليم .

وليس هناك عوض عن الدين فى تعريف الشباب بحدود مستواه الإنسانى ، وفى الفصل بين المادية والروحية . وليس هناك من عوض فى فلسفة ولا فى دراسة تاريخية ونفسية ولا أى فرع من فروع العلوم الإنسانية الأخرى يستطيع أن يضع له هذا التعريف وضعاً واضحا لا حزبية ولا محدودية فيه .

فالفلسفة لم تسلم من أن تؤمن بالمادة دون المثل الروحية ، كما لم تسلم من أن تؤمن بالمثل دون المادية ، كما لم تسلم من إنكار المادية والمثالية معاً ، كما فى الفلسفة الصوفية . وإذا هى لم تسلم من ذلك فهى لا تستطيع أن تقوم المادية كما هى والروحية كما هى وبالتالى لا تستطيع أن تفصل بينهما . وهى لم تسلم من الضعف السابق فى هذا الجانب أو فى ذاك أو فى كليهما معا ، لأن صانعها هو الإنسان الذى تخرج فى بيئته وخضع لمؤثرات وضعه ومجتمعه . وهو لذلك لا يصلح أن يكون الإنسان العام

الذى يخطط للإنسان طريق توجيهه ويضع له معالم الطريق .

وكذلك الدراسات النفسية والتاريخية والدراسات الإنسانية الأخرى بوجه عام لا تسلم من الضعف فى تخريج الرأى وتفسير الحادث ورصد الملاحظات . وهى لذلك لا تستطيع بدورها أن توجه الإنسانية على مستوى يتجرد من المحدودية أو التأثر بالظروف الشخصية والمحيط الخاص .

* * *

إن مشكلة الشباب ليست مشكلة الغريزة الجنسية وإنما هى مشكلة الإنسانية والمستوى الإنسانى . تلك المشكلة هى : كيف يكون الشباب إنسانا ولا يعود طفلا ؟ كيف يتخلص الشباب من إغراء مظاهر الحس التى سيطرت على مراحل طفولته إلى إدراك القيم التى تمثل مستواه الإنسانى وتصور نضجه واكتماله ؟

هذه هى مشكلة الشباب فى صميمها . وحل هذه المشكلة رهن بما يقدمه الدين له فى تحديد المستوى الإنسانى الفاضل . وما يقدمه الدين فى ذلك مرهون بدوره بعرض علماء الدين ورجاله لتعاليم الدين . وكلما كانوا فى عرضهم متبعين وسيلة العرض الحديث ، وكلما كانو فى فهمهم لتعاليم الدين قريبين من روح الرسالة الإلهية وجوهرها ، كانوا أقرب إلى نفوس الشباب ، كان الشباب على صله بالدين .

إن قيمة الدين خالدة ، وإن ضرورة الدين فى حياة الشباب واضحة ، وإن صلة الشباب بالدين واجبة لضمان حسن توجيهه وتبصيره بمعانى إنسانيته . ولكن الذى يحول بين الشباب والدين هو إما عقبات أو حواجز يضعها الإنسان ، أو قصور فى فهم الإنسان لتعاليم الدين أو جمود من حاملى رسالة الدين عن مسايرة أساليب العرض التى يتطلبها العصر الحديث والعقلية الحديثة .

كيف يتصل الشباب بالدين ؟ جوابه الانسجام بين أجهزة التوجيه المتنوعة فى المجتمع ، وصحة فهم لتعاليم الدين ، وحسن عرض لقيمته ممن جعلوا دعوته رسالة لهم فى حياتهم .

ولا بد من الأمرين معا حتى يتصل الشباب بالدين . وبعبارة أخرى يكافح الشباب فى سبيل القيم والاستقلال والسيادة ؟

دكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نظرات في فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

— ٥ —

من المواقف المذكورة فى تاريخ عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه لم يقبل أن يعطى من الزكاة نصيبا للمؤلفة قلوبهم : وقال لهم : لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الإسلام ، وأغنى عنكم ، فإن أسلمتم وإلا فالسيف بيننا وبينكم .

وقد أثار هذا الموقف كثيراً من التعليقات والبحوث والأسئلة ، واختلف الناس فيه بين ناقد لعمر رضى الله عنه ، ومؤيد له ، ومخرِّج لفعله على وجه متفق مع أصول الفقه .

فمن الذين نقدوا عمر فى هذا بعض علماء الشيعة الإمامية ، وخلاصة نقدهم أن سهم المؤلفة قلوبهم ثابت بنص كتاب الله تعالى فى قوله « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ... الآية

فكيف ساغ لعمر أن يجئ إلى نص محكم فيجتهد فيه اجتهاداً يصادمه ويعطل حكمه ؟

وهل يجوز الاجتهاد المبنى على الاستحسان العقلى أو العلة المستنبطة بالظن فى مقابل مثل هذا النص الواضح ؟ ثم إن الحكم بعدم حاجة الإسلام إلى التأليف غير مسلم لعمر « فإننا لو أمنا شر المؤلفة قلوبهم فى عهد ما فإن دخولهم فى الإسلام بسبب إعطائهم لا ينقطع بذلك بل ربما اشتد بقوة سلطان الإسلام ، وكفى بهذا الأمل موجبا لتألفهم بالعطاء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤلف بعطائه هذا أصنافا متعددة : صنفاً ليسلموا ويسلم قومهم بإسلامهم ، وصنفا كانوا قد أسلموا ولكن على ضعف فى الإيمان فيريد تثبيتهم باعطائه ، وصنفاً يعطيهم لدفع شرهم ؛ فلو فرضنا أنا أمنا شر أهل الشر منهم ؛ فليعط هذا الحق لمن يرجى إسلامه أو إسلام قومه ، ولمن يقوى إيمانه ويثبته الله عليه بسبب هذا العطاء ، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحبُّ العباد إلى الله تعالى المتأسى بنبيه ، والمقتفى أثره ، على أن قوة الإسلام تلك التى قهرت عدو المسلمين وأمنتهم من شره قد تغيرت إلى الضد مما كانت عليه فاستحوذت

عليهم الأجانب فاضطرتهم إلى تألفها ومصانعتها بالعطاء وغيره كما هو المشاهد بالعيان فى هذا الزمان وما قبله، وبهذا يتبين أن إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم يوم كان الإسلام قويا ؛ إنما كان عن اغترار بحالتهم الحاضرة فى ذلك الوقت، لكن القرآن العظيم إنما هو من لدن عليم حكيم »[١] .

وهذا النقد يتلخص فى نقطتين :

إحداها : أنه لا يجوز الاجتهاد فى موضع النص ؛ لأن ذلك يؤدى إلى مصادمة النصوص بمخالفتها أو وقفها .

والثانية : أن رأى عمر فى استغناء الإسلام عن التأليف غير مسلم فالإسلام محتاج إلى التأليف حتى فى عهد قوته .

ونحن مع مخالفتنا للشيعة الإمامية فى هذه المسألة كما سنذكر فى هذا الفصل نود أن نلفت القراء من باب الإنصاف إلى الروح الذى يبدو فى هذا النقد ، فإنه روح الاستمساك بالنص والغيرة عليه ، والمناضلة دونه ، وعدم قبول الخروج عنه بمجرد الاستحسان والظن ، ولاشك أن هذا الروح من شأنه أن يؤنس إخوانهم أهل السنة إلى سلامة قصدهم ، ويبطل ما يتقوله أهل الرغبة فى إفساد ذات البين بين المسلمين .

وهناك من يؤيدون عمر ويدافعون عن تصرفه هذا ، لكنهم يختلفون فى منهج هذا التأييد .

فمنهم من يبيح للمجتهد أن يجتهد فى كل شىء حتى فى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى شروط الاجتهاد المبينة فى كتب أصول الفقه ، وهؤلاء هم قوم من الباحثين المعاصرين ظنوا إن الانطلاق بالشريعة إلى ميادين الاجتهاد الحر المطلق من القيود من شأنه أن يحل مشاكل المسلمين ، وأن يقنع الناس بمرونة الإسلام ومطاوعته للمصالح ، وتجاوبه مع العصور والحضارات والمدنيات ، وقد كتب المرحوم الدكتور احمد أمين فى ذلك ، ومن قوله « والذى يحل مشاكلنا هو فتح باب الاجتهاد بعد أن أغلقه العلماء... والاجتهاد الذى نريده هو الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد فى المذهب ، فهو يشمل كل شىء حتى تقييد النص ووقف العمل به متى استوفى المجتهد شروط الاجتهاد » ثم قال : « وإمامنا فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه » وذكر عنه أحكاما مصدرها ذلك الاجتهاد ، منها عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم سهمهم من الزكاة . . . »[١]

---

(١) ص ٢٣ من كتاب « النص والاجتهاد » لمؤلفه المرحوم الشيخ شرف الدين الموسوى الشيعى الإمامى

(١) الاجتهاد فى الإسلام — مقال منشور بالعدد الثانى من السنة الثالثة من مجلة رسالة الإسلام ص ١٤٦ .

ويقول الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه المسمى (الديمقراطية) ص ١٥٠ .

« ترك عمر بن الخطاب النصوص الدينية المقدسة من القرآن والسنة عندما دعته المصلحة لذلك ، فبينما يقسم القرآن للمؤلفة قلوبهم حظا من الزكاة ويؤديه الرسول وأبو بكر ؛ يأتى عمر فيقول : لا نعطى على الإسلام شيئا . . إلخ » [1] .

ويقول الأستاذ محمود اللبابيدى :

إننا نجد فى كل عصر على الأقل إماما من الأئمة أو أكثر يذهب إلى طريقة جديدة فى التخريج بقصد الوصول إلى التشريع العام لرفع الحرج عن الأمة ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك نجد أن عمر بن الخطاب أول من مشى إلى التشريع العام المباشر ، فاعتبر النصوص التشريعية معلولة بعلل مقصودة ، فإذا زالت منها هذه العلل ؛ اقتضى ذلك زوال حكمها ، وتبعا لهذه النظرية وجدت القاعدة العامة التى تقول « العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما » وقالوا : إن عمر « نسخ » نصوصا من القرآن وعددوها ، منها سهم المؤلفة قلوبهم الذى فرضه الله لهم بنص قاطع فى سورة التوبة « إنما الصدقات للفقراء و ... والمؤلفة قلوبهم . . فريضة من الله . . إلخ » .

(١) ص ١٥٠ من كتاب الديمقراطية المشار إليه.

ثم قال « إن ذلك هو من قبيل تعليق النص أو إيقافه لمصلحة عارضة متى زالت عاد العمل بالنص ، وما فعله عمر بن الخطاب ومن جاء بعده من الأئمة يجرى هذا المجرى من تعليق النصوص ليس إلا ، ولا ينسخها النسخ المعروف » [1] .

فهذا كله تأييد لمبدأ فهموه من صنيع عمر فى شأن المؤلفة قلوبهم ، يدور حول ارتباط النصوص بعلل وجواز وقفها إذا زالت هذه العلل ، وفتح باب الاجتهاد فى ذلك حتى يمكن للشريعة أن تكون مطاوعة مرنة .

وفى ذلك يقول العلامة الشيخ شرف الدين الموسوى رحمه الله تعالى - وهو من علماء الشيعة الإمامية كما ذكرنا - : « سبحانك اللهم ! إذا صح للمجتهدين ذلك فعلى أحكام الكتاب والسنة ونصوصهما السلام! » [2] .

وقد سلك الأستاذ معروف الدواليبي منهجا آخر فى تأييد عمر إذ يقول فى كتابه « أصول الفقه » :

« ولعل اجتهاد عمر رضى الله عنه فى قطع العطاء الذى جعله القرآن الكريم للمؤلفة قلوبهم كان فى مقدمة الأحكام التى قال بها عمر تبعاً لتغير المصلحة بتغير الأزمان رغم

(١) انظر رسالتنا « السلطة التشريعية فى الإسلام » ص ١٥ ، وفيها كلام الأستاذ اللبابيدى

(٢) أنظر هامش (١) فى ص ١٤٨ من كتاب النص والاجتهاد .

أن النص القرآنى لا يزال ثابتاً غير منسوخ : والخبر فى هذا أن الله سبحانه وتعالى فرض فى أول الإسلام وعندما كان المسلمون ضعافا عطاء يعطى لبعض من يخشى شرهم من أموال بيت المال الخاص بالصدقات فقال :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . . وهكذا قد جعل القرآن الكريم المؤلفة قلوبهم فى جملة مصارف الصدقات ، وجعل لهم بعض المخصصات على نحو ما تفعله الدول اليوم فى تخصيص بعض النفقات من ميزانياتها للدعاية السياسية ... غير أن الإسلام لما اشتد ساعده ، وتوطد سلطانه ؛ رأى عمر رضى الله عنه حرمان المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء المفروض لهم بنصوص القرآن ، وليس معنى ذلك أن عمر قد أبطل أو عطل نصاً قرآنيا ، ولكنه نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره ، واعتبر إعطاء المؤلفة قلوبهم معللا بظروف زمنية أى مؤقتة وتلك هى تألفهم واتقاء شرهم عند ما كان الإسلام ضعيفا ، فلما قويت شوكة الإسلام ، وتغيرت الظروف الداعية للعطاء ؛ كان من موجبات النص ومن العمل بعلته ، أن يمنعوا من هذا العطاء »[1] .

(١) ص ١٣٩ من كتاب أصول الفقه للأستاذ معروف الدواليبى .

هذا كلام الأستاذ الدواليبى ، وخلاصته أن هذا الحكم معلل ، ومتى ثبت ذلك فهو بمثابة أن يقول المشرع : جعلت للمؤلفة قلوبهم سهما من الزكاة فى حالة احتياج الإسلام إليهم أما إذا استغنى الإسلام عنهم فلا يعطون. فالإعطاء فى الحالة الأولى بالنص ، والحرمان فى الحالة الثانية بالنص ، فلا تعليق ولا نسخ

ويرد الإمامية على هذا التخريج بما يأتى[1] :

أولا : إن ظاهر أخذ وصف فى موضوع حكم ، دخالته فى الحكم وعليته له لا شىء آخر ، فالتأليف علة للحكم لا الحاجة إليه ، ولاهو فى ظرف الحاجة ، فالموضوع موجود بوصفه ولا معنى لرفع حكمه وقطع استمراره الزمانى إلا النسخ ، وهو من شئون المشرع لا يجوز لأحد سواه .

ثانيا . لو سلم ذلك وأن التأليف فعل مصلحى لا يلزم إلا فى ظرف الحاجة ، ولكن الحاجة المعتبرة فيه إنما هى بنظر المشرع للحكم ، فإن الأحكام الشرعية ـ كما هو الحق عند الإمامية ــ تدور مدار المصالح والمقاصد الواقعية ــ إن فى الحكم أو فى الموضوع ــ وذلك لا يكون إلا بنظر المشرع المطلع

(١) أنظر ما كتبه الأستاذ العلامة الشيخ محمد على ناصر من علماء الإمامية بلبنان الجنوبى فى مقاله المنشور بالمجلد الرابع من مجلة رسالة الإسلام ص ١٨٤

على الواقع ، والخبير بعواقب الأمور ، لا ينظر غيره مهما كان شأنه .

ومن الناس من يسلك مسلكا آخر فى تخريج صنيع عمر فيقول : إن عمر لم يخالف الآية حين لم يعط المؤلفة قلوبهم يومئذ ، فإن الله عز وجل إنما جعل الأصناف الثمانية فى الآية مصارف للصدقات على سبيل حصر الصرف فيها خاصة دون غيرها ، لا على سبيل توزيعها على الثمانية بأجمعها ، وعلى هذا فمن وضع صدقاته كلها فى صنف واحد من الثمانية تبرأ ذمته كما تبرأ ذمة من وزعها على الثمانية ، وهذا مما أجمع عليه المسلمون وعليه عملهم فى كل خلف منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأى بأس بما فعله عمر ؟

ولكن هذا مناف لأصل القضية فإن الثابت المروى أن عمر أبى أن يعطى المؤلفة قلوبهم ، واحتج بأن الإسلام قد عز وأن الله أغنى عنهم ، فهو لم يقع اكتفاء ببعض الأصناف الثمانية ، ولكن منعا مقصودا لواحد منها .

* * *

بعد هذا نذكر رأينا فى هذه المسألة فنقول : إن حقيقة الأمر فى ذلك أن عمر والصحابة الذين وافقوه ، ومن جاء بعدهم من العلماء ، لم يخرجوا عن دائرة النص ولم يعلقوه ، وإنما فهموا أن الله سبحانه وتعالى لما قال « والمؤلفة قلوبهم » أثبت لفريق من الناس نصيبا من الزكاة بوصف معين ، هو مناط الاستحقاق ووجوب الإعطاء ، ذلك هو كونهم « مؤلفة قلوبهم » ، ولما كان التأليف ليس وصفا طبيعيا يحدث للناس كما تحدث الأعراض الطبيعية بل هو شىء يقصد إليه ولى الأمر إن وجد الأمة فى حاجة إليه ، ويتركه إن وجدها غير محتاجة إليه ، فإذا اقتضت المصلحة أن يؤلف أناسا وألفهم فعلا ، أصبح الصنف موجوداً فيستحق ، وإذا لم تقتض المصلحة ذلك فلم يتألف أحدا ، فإن الصنف حينئذ يكون معدوما ، فلا يقال إنه منعه لأنه ليس معنا أحد يجرى عليه الضمير البارز فى « منعه » ، وبذلك يتبين أن النص لم يعطل ولم يعلق ، وإنما المحل هو الذى انعدم ، فلو أن ظرفا من الظروف على عهد عمر أو غيره من بعده قضى بأن يتألف الإمام قوما فتألفهم ، لأصبح الصنف موجودا فلا بد من إعطائه .

وقد رد على هذا أن المؤلفة قلوبهم كانوا موجودين فعلا على عهد عمر ، وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تألفهم ، فعمر منعهم مع وجودهم ، فلا يقال إذن إن عدم الإعطاء لعدم وجود الصنف ، وإنما هو لمعنى مصلحى قدره عمر ، وهو أن الإسلام قد أعزه الله ولم يعد هناك سبب

للتأليف ، وهذا يتفق ما يقرره بعض العلماء من أن إعطاء المؤلفة قلوبهم حكم معلل بحاجة الإسلام إلى التأليف ، فإذا انتفت علته انتفى لأن الحكم المعلل يدور مع علته وجودا وعدما .

قد يرد علينا هذا ، وربما كانت عبارة عمر المروية فى هذا الشأن وهى قوله « إن الله قد أعز الإسلام وأغنى عنكم » مؤيدة لهذا الإيراد .

ونقول فى الرد على ذلك : إن قول عمر للمؤلفة الذين كانوا يأخذون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أعز الإسلام وأغنى عنكم » معناه : أن رسول الله قد ألف قلوبكم لمصلحة الإسلام فصار لكم هـــذا الوصف وصف المؤلفة قلوبهم ، فأعطاكم ، لكن هذا الوصف لم يستمر لكم إلى الآن لأن الإسلام قد عز واستغنى فزالت الحاجة إلى التأليف فلم يبق بينتا « مؤلفة قلوبهم » ، بمعنى أنهم موصوفون بهذا الوصف الآن ، وإن كانوا « مؤلفة قلوبهم » باعتبار ما مضى ، وهذا الوصف مما يتغير ويتبدل كوصف الفقر ، فقد يكون المرء فيما مضى فقيراً ، فيكون له فى الزكاة نصيب ، ثم يصبح غنيا فلا يكون له فيها نصيب ؛ ولا ينبغى أن يتوهم أن هؤلاء الناس استحقوا هذا الوصف إلى آخر عمرهم أو أن الإمام يجب عليه أن يعدهم كذلك إلى آخر عمرهم ، وإنما الأمر أمر تقدير المصلحة فى نظر الإمام ، فإن أداه اجتهاده إلى أن يتألف فأعطى ، وإلا فلا .

وإذن فليس معنا نص وقف العمل به أو علق أو نسخ أو عدل ، ولكن معنا نص معمول به لأن معناه مقيد من أول الأمر بالقيد الطبيعى الذى لا يعقل انفكاكه عنه ، كأنه قيل : والمؤلفة قلوبهم إن وجدوا ، كما يقال مثل هـذا فى الفقراء والمساكين مثلا : إنما الصدقات للفقراء إن وجد فقراء ، والمساكين إن وجد مساكين ، وفى الرقاب إن وجدت رقاب مملوكة .

فإذا كان هناك من يريد أن يجادل عمر رضى الله عنه فى أن التأليف أى إيجاد صنف المؤلفة قلوبهم واجب على الإمام فى كل حال فهذا جدال فى موضع من مواضع الاجتهاد وليس فى محل النص ، والفرق بين وجوب التأليف ، ووجوب إعطاء المؤلفة قلوبهم حين يكون هناك تأليف ، واضح ، فالأول أمر مصلحى يختلف فيه النظر ، والثانى حكم نصى لا يمكن التصرف فيه بالإبطال أو التعديل أو التعليق .

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

رجل الدين بين المسايرة والمكابرة

للأستاذ محمود الشرقاوى

لابن الرومى جريج الشاعر العربى المبدع مطلع لقصيدته فى رثاء أبى الحسين يحيى بن عمر - من آل أبى طالب - لا أجد أصدق منه استهلالا لحديثى عن « رجل الدين بين المسايرة والمكابرة » وهذا البيت هو :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج
طريقان شتى : مستقيم وأعوج

وكذلك رجل الدين فى العصر الحديث : أمامه طريقان ، أحدهما أن يساير الحياة ويندمج فيها ويتعرف مايطرأ عليها من التحول أو يجد فيها من التطور ، وثانيهما أن يكابر هذه الظاهرة الطبيعية الضرورية من التطور والتحول ويستدبر الناس معتقدا أن ذلك كفيل بإصلاح حالهم ودفع الشر عن حياتهم ومجتمعهم .

فأى السبيلين هو المستقيم الذى يستطيع رجل الدين أن يؤدى عن طريقه واجبه للحياة وواجبه للدين ولنفسه أيضاً ... ؟

دلالة التاريخ وعبرة الأحداث هى التى نستطيع عن طريقها أن نجيب :

ولكن قبل أن نبدأ الحديث عن دلالة التاريخ وعبرة الأحداث ، نجد أنه لا بد من كلمة نقولها فى موقف رجل الدين حيال ما يستجد من الآراء ومن التحول فى حياة الناس ومجتمعهم .

* * *

الدين ، أو على وجه الدقة مفاهيم رجال الدين عن العقيدة ، تلقى فى العصر الحديث ، فى الغرب والشرق على السواء ، محنة قاسية . كما تجد هذه المفاهيم نفسها أمام طوفان من المذاهب والآراء قد لا يعنى أصحابها أنفسهم بالالتقاء مع المفاهيم الدينية ، بل لعل كثيراً منهم يجد فى نفسه رغبة خاصة ، أو يستر فى ضميره غاية خاصة ليكون رأيه هذا أو مذهبه مصادما للمفاهيم الدينية كما يعتقدها رجل الدين ، ولو لم تصادم الدين نفسه ، كأنما بين أصحاب هذه المذاهب والآراء وبين « رجل الدين » خصومة خاصة .

فما هو موقف رجل الدين عندنا فى الشرق إزاء هذه الأوضاع والمذاهب

والآراء . . . ؟ بعضهم ، أو أكثرهم وسوادهم ، يقف موقفا سلبياً ، كل جهده أن يتكلم أو يكتب أو يعظ ليقول إن العالم قد فسد ، وإنه يسير فى طريق الشر والإثم ، وإنه يجب على الناس أن « يعودوا » إلى ساحة الخير والبر والسلام والحق : أى أن يعودوا — لا أقول للدين — وإنما أقول لمفاهيم خاصة قائمة فى أذهان هؤلاء الخطباء والواعظين عن الدين ، ومدركات محدودة معينة سيطرت على عقولهم وعواطفهم . فالدين نفسه ، كحقيقه وجوهر ، لا يمكن أن يتأثر بتطور الحياة وتقدمها الذى جعله الله ناموسا لها .

ولكنى أعتقد أن هذه الدعوة خاطئة من أساسها ، فليس من الممكن أن « يعود » العالم إلى شىء مرّ به ، أو إلى طور تخطاه وتجاوزه فى طريق سيره الدائب المثابر ، وليس من الممكن أن « يرجع » الناس إلى هذه المفاهيم الخاصة عن الدين ، ولا إلى المدركات المعينة المحدودة القائمة فى أذهان هؤلاء الدعاة وعواطفهم . ليس من طبيعة الحياة ولا من الخير لها أن « تعود » ، وإنما طبيعتها التى لا تتحول والتى أرادها الله لخيرها هى أن تسير وتتقدم .

بعض رجال الدين عندنا ، فى الشرق ، أو أكثرهم يستدبرون الحياة ويتطلعون على الدوام إلى الماضى يرون أنه المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه حياة الناس وسلوكهم ومجتمعهم . والمثل الأعلى الذى نجده من فهم الدين نفسه فهما قويما هو بلا شك على هذا الوضع ، وبهذه المثابة . ولكن حياة الناس فى الماضى الذى ينظرون إليه ويتطلعون لم تكن فى الجملة كذلك عند من يدرسها ويتأملها من غير أن يتأثر بعاطفة ما .

وإلى هؤلاء الملتفتين إلى الماضى والمتعلقين به تعلقا عاطفيا نسوق كلمة حكيمة صادقة قالها رجل لم يكن من رجال الدين ، بل لقد نال فى عصره منهم كل سوء ونكر ، ولو أنه فى ضميره وإحساسه ودعوته أيضا لم يكن بعيدا عن جوهر الدين ولا عن فهمه فهما مستقيما . هذا الرجل هو قاسم أمين ، وكلمته الحكيمة الصادقة عن الماضى والمستقبل هى : « أى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال إنه « نموذج الكمال البشرى » . ؟

الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى ، بل إن أراد الله أن يمن به على عباده فلا يكون إلا فى مستقبل بعيد جداً » .

* * *

ليس أمام رجال الدين إذن إلا أن يسيروا هم مع الحياة — مع الاحتفاظ بجوهر رسالاتهم وغاياتها — ليس لهم إلا أن يسيروا مع الحياة ،

لا أن يحاولوا تعويقها أو التصدى لها والوقوف موقف العناد والمكابرة فى طريق سيرها وتقدمها . فإنها فى هذه الحالة ستخطاهم وتتركهم ؛ ثم لا يجدوا أحداً معهم ولا قريبا منهم . سيجدون أن جميع الأسباب والوشائج قد تقطعت بهم ، وانفصم ما بينهم وبين الناس والحياة ، وأنهم لم يبق لهم فيها أثر ، ولا يسمع لهم فيها صوت ، وليس لهم فى حياة الناس مكان ، ولا يحس بوجودهم أحد ، ولا يندم نادم على فراغ الحياة منهم ومن دعوتهم ووعظهم . ليس أمام أصحاب الديانات المدركين لحقيقة أهدافها وغاياتها إلا أن يطوّعوا مدركاتهم عن الدين ، ومفاهيمهم عنه ، يطوّعوها حتى تساير حياة الناس وتطورات زمنهم وحاجات بيئاتهم وثقافتهم . وأن يشاركوا بفهم وإدراك وسماحة فى تطوير مجتمعهم فى الجانب الذى لا غنى عنه للبشرية ، وهو الدين . وسنجد فى هذا البحث أن الإسلام وما فيه من مرونة وسعة كفيل بتحقيق ذلك .

إما المسايرة وإما المكابرة . والنهاية التى ينتهى إليها كل طريق واضحة بينة لمن يتأمل ويدرك ويخلص ويتشجع فينطق بكلمة الحق فهى وإن أغضبت المتزمتين والسذج والبسطاء والمتجرين بالعقيدة ، إن هى أغضبت هؤلاء وأزعجتهم ، فإنها سترضى المخلصين الواعين من المؤمنين . وعن طريقها يستطيعون أن يُسهموا فى تقدم الحياة وتطويرها ورعاية جانب الخير والإيمان فيها . وهم بذلك يحققون الغاية من الإبقاء على العقيدة فى ضمائر الناس وقلوبهم ، وفى قوانينهم ونظمهم وطرائق حياتهم أيضا ؛ وهذه الغايات هى التى تبرر وجود رجل الدين فى الحياة .

وهذه المقدمة أو « الكلمة » أعتقد أنها بديهية مسلمة عند من يدرك ؛ ولكن بعض القوم ما يزال يحتاج للمقدمات البديهية المسلمة .

* * *

الإسلام ، بما فى تشريعه من مرونة وسعة ورعاية لمصالح الناس ومطاوعة لتطور الزمن والبيئة كفيل بتحقيق هذه المسايرة . ولم تكن المكابرة التى جعلت الدين ، فى البلاد الإسلامية ، يعيش على هامش الحياة ويكتفى منه الناس ، المسلمون بهذه الحياة على الهامش — هو ورجاله — لم تكن هذه المكابرة من الدين نفسه ولكنها كانت من رجال الدين . وهذه كلمة أخرى هى التى نريد أن نقولها فى دلالة التاريخ وعبرة الأحداث ثم ننتقل منها إلى « المطاوعه » و « المسايرة » التى تميزت بها الشريعة الإسلامية .

* * *

عند ما دخل نابليون مصر أدخل على نظمها الاجتماعية وعلى تشريعاتها قوانين، للشريعة الإسلامية حيالها أحكام ومبادئ؛ ولكنه لم يخطر بباله أن يعرف رأى الشريعـة فى نظمه تلك وتشريعاته، ولا أن يستشير «العلماء» فيها مع أنه كان حريصا على إبراز مظاهر الاحترام لهم وتملقهم كما كان حريصا على مجاراة الشعور الدينى العام حتى إنه أعلن فى منشوره الذى أذاعه بين الناس قبل دخوله الإسكندرية أنه صديق الإسلام وحليف خليفة المسلمين بل أطلق إشاعة ترضى سكان مصر وتغبط نفوسهم بأنه أسلم وسيقيم فى القاهرة مسجداً ليس له نظير فى جميع بلاد الإسلام.

لم يستشر نابليون رجال الدين فى قوانينه تلك لأنهم — على رغم مكانتهم بين الناس وتقديرهم لهم — لم تكن عندهم الصلاحية لمسايرة ما يمكن أن يفيد الناس من هذه القوانين ولا يخرج فى نفس الوقت عن حدود الشريعة وقواعدها، أقول حدود الشريعة لا تلك الآراء الفقهية المذهبية الضيقة التى كانوا عاكفين عليها يظنون خطأ أنها شريعة الإسلام. وقد جاء كثير من نظم نابليون وتشريعاته التى أدخلها فى مصر متفقة مع أصول الشريعة الإسلامية، ولكن ذلك جاء بمحض المصادفة والاتفاق. ولأن أصول هذه الشريعة فيها كل المطاوعة والمسايرة التى تتحقق بها صوالح الناس على تباينها واختلافها.

وعندما أراد إسماعيل بعد ذلك أن يجعل مصر قطعة من أوربا كما قال، سلك المسلك نفسه حيال رجال الدين، فنقل إلى القانون المصرى مبادئ القانون الفرنسى والسويسرى دون أن يستأذن أو يستشير العلماء. والسبب واحد فى الحالتين موقف نابليون وموقف إسماعيل.

وكان من نتيجة الخلطة بين الأوربيين والمسلمين فى دار الخلافة العثمانية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن اشتبكت العلاقات التجارية والمعاملات المالية والقضائية بين الفريقين فأراد جماعة من وجوه الآستانة مجاراة العصر بالتطور التشريعى فى بعض الفروع الإسلامية التى تتعلق بذلك، واستطاع نفر من الأحرار أن يستميل بعضا من علماء دولة الخلافـة حتى قاموا بوضع قانون «التنظيمات» الذى عرف بعد ذلك «بالمجلة العدلية»، وكان ذلك العمل أول محاولة إصلاحية فى العصر الحديث لتحقيق المسايرة بين التشريع الإسلامى وضرورات الحياة المعاصرة، وكان ذلك فى سنة ١٨٣٩

(١٢٥٥ هـ) ، واستطاع هذا الفريق من الأحرار أن ينال موافقة الخليفة بعد موافقة شيخ الإسلام فى الدولة .

وكانت هذه المحاولة فى « قانون التنظيمات » و « المجلة » تحتوى قسطاً صغيراً من التحرر الذهنى والاجتهاد فى الشريعة ، أى المسايرة ، فأدخلت فى باب التعزير الحكم بالتغـــريم والسجن على درجات متفاوتة لجرائم معينة ، واعتبر فيها نظام « الكمبيالات » المالى و « خطاب الاعتماد » .

وقد كانت هذه الخطوة الصغيرة شذوذاً فى التفكير الدينى يوم ذاك ، لأن الذين قاموا بها لم يكونوا من « العلماء » بل من الأحرار المدنيين الذين استطاعوا أن ينالوا موافقة العلماء ولكنهم لم ينالوا رضاهم القلبى على هذه الموافقة ، لذلك لم تأخذ هذه الخطوة سيرها الطبيعى ، وكان من نتيجة ذلك أن سارت الحياة المدنية فى دار الخلافة إلى حيث تريد،وانفردت بالتشريع والتقنين والاقتباس والنقل عن القوانين الوضعية المدنية كقانون نابليون والقانون السويسرى ، وبقى رجال الفكر الدينى فى تركيا يضيعون جهدهم ويعنّون نفوسهم بالغضب والثورة لضياع دين الإسلام واستنزال غضب الله والملائكة على الذين هجروا شريعة الله وبدلوها .

ومثل آخر من مصر : نجد أصحاب الحكم فيها — لبعد قلوبهم عن الدين — ويأسهم من مسايرة رجاله ، نجد أصحاب الحكم فى مصر فى القرن الماضى يضعون سلطة الدولة وسلطانها فى يد نوبار باشا الأرمنى لوضع التشريعات الصالحة لحياة مصر وحياة الأجانب فيها خاصة .

وفى مصر كذلك حاول جماعة من أحرار الفكر المدنى الذين استناروا فى أوربا ولم ينسوا دينهم وقوميتهم ، حاولوا الانتفاع بالأزهر وترويض أهله فى معالجة العلوم الفقهية واللغوية ودراستها على أساليب جديدة وفهم جديد يمكنهم من تولى القضاء وتدريس اللغة فى المدارس . فلما كابروا واستعصوا أنشأ هؤلاء الرجال مدرسة دار العلوم ثم مدرسة القضاء الشرعى وعدلوا بهما عن الأزهر .

ولما احتاجت المحاكم المصرية إلى تقنين الفقه وصوغه فى مواد تشريعية كان الذى قام بهذه الصياغة رجل مدنى هو قدرى باشا .

وما لنا لا نقول إن مكابرة رجال الفكر الدينى فى تركيا أول هذا القرن ومقاومتهم لكل فكرة مقاومة الصد والجهالة هى التى كانت سببا فيما رأينا من خروج هذه الدولة لا على رجال الدين وحدهم ، بل على الدين نفسه . . . ؟

لقد كان موقف المكابرة هذا سببا من

أقوى الأسباب لهذا الخروج ولو أنه ليس السبب الأوحد.

وليست الشريعة الإسلامية ولا رجالها هي وحدها التي تعرضت لهذا الموقف، على فرق ما بينها وبين الشريعتين المسيحية والموسوية في الصلاحية والمطاوعة واليسر، فقد وجدت الشريعة اليهودية نفسها أمام هذا الموقف أكثر من مرة في تاريخها، وكان من هذه المواقف اصطدامها بالشريعة الرومانية. يومئذ لم يجد أحبار اليهود لأنفسهم بدأ من وضع فتاوى وتفسيرات للتوراة هي التي عرفت بعد ذلك « بالتلمود » وأصبحت هذه التفسيرات والفتاوى هي مرجعهم للحكم والتقاضي.

وكذلك وجدت الشريعة المسيحية نفسها في مثل هذا الموقف فوضع آباء الكنيسة الرومانية قانونا كنسيا عرف باسم « شريعة القانون »، ثم اصطدم هذا القانون نفسه بالقانون الروماني « وشريعة العادات الموروثة » في القرون الوسطى حتى جاء القرن الثامن عشر برجاله المقتحمين وثوراته فزحزح الكنيسة وتشريعها وقانونها عن مكانها وأخرجها من حياة الناس وتشريعهم.

ولكن هذا الموقف وهذه النتيجة لا تصدق ويجب ألا تصدق بالنسبة للشريعة الإسلامية

* * *

وأعتقد أننا قد بينا « دلالة التاريخ وعبرة الأيام » بما فيه الكفاية، ويبقى أن نبين ما في شريعة الإسلام من المسايرة والمطاوعة واليسر والسعة لكل ما يشمل تطورات الحياة ويحقق للناس سعادتهم أفرادا وجماعات في كل زمن وبيئة.

محمود الشرقاوي

من نوادر الأعراب

• قيل لأعرابي:

أتحب أن يكون لك مائة ألف وأنت أحمق؟

قال: لا.

قيل: ولم؟

قال: أخشى أن يجني عليّ حمقي جناية فتذهب مني ويبقى حمقي ... !

• وقال أبو جعفر لرجل من البادية:

أما عندكم في البادية طبيب؟

فقال: حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار.

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

— ٢ —

عرضنا فى الكلمة الأولى إلى بعض ما ضربه لنا القادة والهداة من رجالات العرب والإسلام من مثل رائعة فى هذه النواحى : صدق الإيمان وقوة اليقين ، الثبات على العزم والإحساس بالمسئولية ، واليوم نعرض لبعض هذه المثل الفريدة فى تاريخ الإنسانية فى نواح أخرى ، لعل فى ذلك تبصرة لقوم يعقلون ، وما يقوى إيماننا بديننا وتعاليمه ، وبقوميتنا العربية المجيدة ، وبأمتنا التى هى خير أمة أخرجت للناس .

العدل :

أقام الإسلام المجتمع على دعائم قوية ثابتة لا يستقيم أمر الأمة بدونها ، ومن هذه الدعائم العدل بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وأديانهم وطبقاتهم ، وبلا فرق بين القريب منهم وغير القريب من الحاكم أو القاضى .

وهو عدل مثالى لا نراه فى دين أو مجتمع آخر ؛ فإنه ما ينبغى أن يتأثر بالقرابة أو الصداقة ، أو الجاه والنفوذ والسلطان ، كما لا يجوز أن يتأثر قليلا أو كثيراً بالبغض أو العداوة ، أو لأى سبب آخر غير هذا وذلك كله .

ويكفى فى بيان هذا أن نذكر هذه الآية من سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

ثم هذه الآية من سورة المائدة ، فهى مكملة ومؤكدة لما جاء فى الآية للسابقة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ومن هاتين الآيتين يتبين لنا أن العدل المطلق فرض على المؤمن بالله ودينه وشريعته إذا كان صادق الإيمان ؛ ولهذا بدأ الله تعالى الخطاب فيهما بقوله : « يأيها الذين

آمنوا » ، أي إن هذا هو شأن المؤمن حقا ولهذا أيضا نجد من القرآن تحريم الظلم بكل أنواعه تحريما شديدا ، والوعيد بالعقاب الأليم للظالمين .

وبعد ذاك ، يروى الرسول الصادق الأمين عن الله تعالى أنه قال فى حديث قدسى طويل « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته محرما عليكم ، فلا تظالموا » .

وهذا العدل الذى أمر به الإسلام هو العدل الشامل للناس جميعا كما قلنا آنفا ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو عربى وأعجمى ، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهداً ، أو تنقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا خصمه يوم القيامة » ، وكذلك جاء عنه أنه قال : (من ظلم ذمياً كنت خصمه).

وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم ترى الخليفة الأول يقوم فى الناس خطيباً بعد أن تمت بيعته فيقول فيما قال : (الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه) ، وهكذا ينص الصديق على وجوب العدل الشامل فى أول خطاب له جعله دستوراً لحكمه ، وهكذا كان رضى الله عنه حقيقة طول مدة خلافته .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يضرب لنا بسيرته فى أهله والمسلمين عامة أحسن المثل فى العدل ، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، واتباعا لما أمر به الإسلام .

يروى الإمام شمس الدين الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ ، فى كتابه « تاريخ الإسلام » ، أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رجع من بعض الغزوات وقد ابتاع من الغنيمة بأربعين ألف درهم ، فلما قدم على أبيه أنكر عليه ما فعل ؛ إذ لعل أمير الجيش قد باع له بأرخص مما يبيع لغيره لكونه ابن أمير المؤمنين ،ولم يجد شيئا قول ابنه له بأنه قد اتجر كما يتجر غيره .

ثم قال له : إنى قاسم مسئول ، وإنى معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش ، لك ربح الدرهم درهم . ثم دعا التجار فاشتروا ما كان معه بأضعاف مادفع فيه ، فأعطاه ثمانين ألفا ودفع بالباقى إلى بيت المال ليقسمه بين الناس مع سائر الغنيمة !

ويروى الإمام البخارى فى صحيحه أن عمر ابن الخطاب قسم ثيابا بين بعض نساء أهل « المدينة » فبقى منها ثوب جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عندك ، يعنون أم كلثوم بنت على ، فقال عمر : أم سليط أحق به (وهى من نساء الأنصار وممن

بايع رسول الله) ؛ فإنها كانت تزفر (أى تحمل) القرب يوم أحد . فأى عدل فى قسمة المال بعد هذا ؟ !

ويذكر ابن سعد فى طبقاته ، وكذلك غيره من مؤرخى الإسلام ورجالاته ، أن عمر لما أراد إنشاء « ديوان العطاء » استشار بمن يبدأ ، فقيل له : إبدأ بنفسك فأنت الخليفة ، ولكنه رأى البدء بأقارب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم بآل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم يجىء سائر المسلمين حسب منازلهم فى السبق إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله ، ثم قال بعد ذلك : ضعوا عمر حيث وضعه الله .

وفى هذا الديوان فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال له عبد الله ابنه : فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة ! أى من المواقف فى الجهاد .

فقال له أبوه : زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله عليه السلام من أبيك !

وأخيراً جاء فى سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى أنه جىء إليه بمال ، فبلغ ذلك ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، حق أقاربك من هذا المال ، قد أوصى الله عز وجل إليك بالأقربين . فقال لها : يا بنية حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا ففىء المسلمين ؛ غششت أباك ، ونصحت لأقرباك ، قومى ، فقامت تجر ذيلها !

التسوية :

ومن العدل التسوية فى الحقوق والواجبات بين الوالى والذين تحت ولايته ، فى النواحى المالية وغيرها كالقصاص من الخاصة والعامة من الناس . ونجد فى هذا الخلق الإسلامى الرفيع مثلا عليا رائعة سجلها التاريخ لعمر بن الخطاب وغيره من العرب والمسلمين ولنكتف هنا بذكر القليل منها .

يروى ابن عباس رضى الله عنه أن عمر قدم حاجا فصنع له صفوان بن أمية طعاما ، فأخذ القوم يأكلون وقام الخدام ، فقال عمر مالى أرى خدامكم لا يأكلون معهم ، أترغبون عنهم ! ثم غضب غضباً شديداً وقال : مالقوم يستأثرون على خدامهم ! فعل الله بهم وفعل . ثم نادى الخدام وأمرهم بأن يجلسوا ويأكلوا ، ولم يأكل أمير المؤمنين !

قد يقال هنا إن هذا الذى فعله ابن الخطاب كان يناسب حال البداوة التى كانوا عليها فى ذلك العصر ، ولكنه يجب أن نقول مع هذا بأن صنيع أمير المؤمنين ذلك يدل على رسوخ

خلق المساواة ووجوب التسوية بين أناس جمعهم الإسلام بمن فوقهم فى المنزلة الاجتماعية . والإسلام قد استحدث مقاييس جديدة للتفاضل بين الناس ، فقد جاء فى القرآن : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال الرسول : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

والإسلام كما نعرف جميعا يوجب إعانة المحتاج من مال الدولة العام ، ما دام لا يجد المحتاج سبيلا للحياة إلا هذا ، ونجد التطبيق العملى الرائع من كثير من رجالات الإسلام والخلفاء والولاة ، وذلك ما نعتبره بحق سبقا فى سبيل التضامن الاجتماعى قبل أن يعرفه الغرب بقرون وقرون من الزمان .

هذا عمر بن الخطاب يرى رجلا غير مسلم يسأل الناس ، فسأله عما ألجأه إلى هذا ؟ فقال : السن والحاجة يا أمير المؤمنين. فقال : والله ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه عند الهرم ! ثم ذهب إلى بيت المال فأعطاه ما يكفيه حاجته ، وكتب كتابا عاما للولاة يقول فيه : أيما ذى ضعف عن العمل وصار أهل ملته يتصدقون عليه ، عُيّل هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . فأى مثل أروع من هذا فى التسوية فى الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين ؟ !

ومن التسوية الواجبة، الاقتصاص من الكبير للصغير ، ولو كان الأول واليا على الثانى ، والتطبيقات لهذا المبدأ كثيرة فى أيام الرسول نفسه وخلفائه من بعده .

يروى ابن الجوزى فى تاريخه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه أنه كان عند عمر ابن الخطاب لجاء رجل من أهل مصر يقول له : هذا مقام العائذ بك ، فقال له : مالك ؟ فذكر له أن عمرو بن العاص أمير مصر أجرى الخيل فأقبلت فرس ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسى ، ورب الكعبة ، فلما دنا منى عرفته فقلت : فرسى ورب الكعبة ، فقام إلى يضربنى بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين .

فما زاد عمر ، وقد سمع ما سمع ، على أن قال للمصرى : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو ابن العاص يقول له : إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد ، فلما وصله الكتاب دعا بابنه وقال له : أأحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟

ولما قدم على عمر أمير المؤمنين قال : أين المصرى ؟ فقال : هأنذا ، فأعطاه « الدرة » وقال له اضرب ابن الأكرمين ! فضربه حتى أثخنه ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك (أى ابنه) إلا بفضل سلطانه ، فقال : يا أمير المؤمنين :

قد ضربت من ضربني ، قال : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه .

ثم التفت عمر إلى ابن العاص وقال له : أيا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إلى .

إن هذه الكلمة الموجزة الرائعة من سيدنا عمر بن الخطاب ، وهى تترجم عن مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية فى هذه الناحية ، هى التى قدرت بحق للإنسانية جمعاء « الحرية والإخاء والمساواة » . وإنه لا ينسب ذلك إلى الثورة الفرنسية إلا جاهل بتاريخ العرب والإسلام ، أو معاند للحق مكابر فيه على علم !

وذكر عمر فى خطبته يوما من الأيام أن من ظلمه أميره فليرفع مظلمته إلىّ ، فإنه لا أمير عليه دونى ، حتى أقتص له منه ، فقام عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين ، أرأيت لو أدّب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه ؟ فقال عمر (كما يروى ابن سعد فى طبقاته) : ومالى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يُقص من نفسه !

وهكذا كان ، رضوان الله عليه ، يفعل ذلك دائماً إلا أن يعفو صاحب الحق ، ولم يكن ينشد بذلك إلا الانتصاف من القوى للضعيف ، والتسوية بين الكبير والصغير .

الأمانة

ونجد فى هذا الخلق الرفيع الذى لا يقوم مجتمع سليم بدونه مثلا أخرى رائعة كثيرة ، كما فى غيره من الأخلاق الإسلامية العربية التى تقوم عليها أمة العرب والإسلام ، ومن ثم كانت ولا تزال أهلا للحياة العزيزة المجيدة .

يقول الله تعالى فى سورة النساء : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الإيمان أمانة ، ولا دين لمن لا أمانة له » . وهكذا يشدد القرآن فى أمر الأمانة ويأمر بأدائها ، مهما كان نوعها إلى أهلها وإن كانوا غير مسلمين ؛ كما يقرر الرسول أنه لا دين لمن لا أمانة له .

وكان من المثل العليا التى ضربها لنا الرسول حتى نقتدى به فى كل أعمالنا وسلوكنا ، فنؤدى الحق لصاحبه ، أنه لما فتح الله له مكة المكرمة وأخذ مفتاح الكعبة ممن كانا يقومان بسدانتها ، وأنزل الله هذه الآية ، فدعاهما وكانا مشركين حينئذ ورد عليهما المفتاح ، وقال لهما : « خذاها (يريد

السدانة) خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وكان لأصحابه من بعده فى ذلك مثل عالية لا نجد لها شبيها أو مقاربا فى أمة أخرى غير الأمة العربية الإسلامية .

ها هو ذا عمر بن الخطاب يجيئه صهر له يطلب منه أن يعطيه شيئا من بيت المال ، فينهره ويقول له : أردت أن ألقى الله ملكا خائنا ! فلما كان بعد ذلك أعطاه - كما يقول ابن سعد - عشرة آلاف درهم من صلب ماله.

وإذا تركنا أشراف العرب المسلمين وخاصتهم ، هؤلاء الذين لهم حسب أصيل يعملون دائما على أن يظل شريفا نقيا ، فإننا نجد لأوساطهم وعامتهم كثيراً أيضا من المثل الطيبة العظيمة فى ناحية الأمانة ؛ وذلك لأن الدين قد أمر بها الناس جميعا .

يذكر الطبرى فى تاريخه أن رجلا استولى، فى حرب بلاد الفرس ، على بغلين وما كان عليهما وذهب بهما إلى «صاحب الأقباض» دون أن توسوس له نفسه بمعرفة ما غنم ، فإذا سفطان كانا على أحد البغلين فى أحدهما تاج كسرى مُفَسَّخا وكان لا يحمله إلا اسطوانتان وفيهما الجواهر .

وإذا على الآخر سفطان أيضا فيهما ثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، وغير الديباج منسوجا بالذهب ومنظوما بالجوهر أيضا .

وهذا رجل آخر يدفع إلى صاحب الأقباض «حُقا» كان معه ، فقال (أى من استلمه) هو والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، وما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . ثم قالوا له : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأنا .

ثم سألوه عن اسمه فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه !

ولما عرف سيدنا عمر بن الخطاب هذا ونحوه من المثل الأخرى التى ضربها فى الأمانة والعفة الجند الفاتحون، قال : إن أقواماً أدوا هذا لذو أمانة، فقال له على بن أبى طالب : إنك عففت فعفّت الرعية !

* * *

رضى الله عن هؤلاء الأبطال المجاهدين ، الذين جمعوا كل خلق جميل ، وضربوا الناس جميعا أروع المثل فى كل ما هو محمود ؟

(الحديث موصول إن شاء الله تعالى)

الدكتور محمد يوسف موسى

نفحات القرآن

من عدالة الإسلام
بيان الجزاء قبل المحاسبة

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

ا — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها

ب — ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون .

لو أن الله بسط علينا تكليفه ولم ينصح لنا عن جزاء نستوجبه بعد - لوجب أن نؤمن ونرضى ، ونقول : بيده الأمر وله أن يفعل بنا ما يشاء من عذاب أو مغفرة .

ولكن الله أعدل من أن يكون ذا سلطان دون رحمة ، وأكرم من أن يكون آمراً لنا دون عون من جانبه وتيسير .

وقد جعل من تكريمه للإنسان أن يتبسط فى هدايته ببيان الخير والشر ، وأن يفرض على نفسه تعالى جزاء طيباً لعبده إذا ما أحسن كما أنه يثأر لسلطانه ممن أساء .

وكان من بره بعبده أن يكاشفه بأن الجزاء الحسن لا يقف عند غاية قريبة ، كما كان من لطفه ألا يدفع بالمسىء بعيداً عن تكرمه ورفقه حتى مع إساءته .

وبهذا البيان يكون الله جعل للإنسان شأنا حريا بالتقدير والأخذ به ، إذ وضع له نظام المحاسبة فيما له وما عليه ، ولم يجعله فى مستوى غيره من دواب الأرض .

وبهذا البيان أيضا يكون التفاضل بين الناس ميزانا لأقدارهم ، وتحديداً لمنازلهم ، وهذا هو العدل الذى رضيه الله فيصلا بينه وبين خلقه ، وهو القسطاس الذى شرعه للعباد فيما بينهم تأسيا بسنته فيهم ، واقتباسا من توجيهاته لهم .

وكان مما حفل به القرآن فى هذا قوله سبحانه :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » .

فالله يوقظ عبده من غفلاته ، ويوثق له العهد من جانبه بأن له عند ربه عن كل حسنة يأتيها فى دينه ، أو فى شأن من شئون الدنيا جزاء طيبا : عشر حسنات .

وهـــذا عهد سيق فى جملة اسمية ، تؤذن

بتأكد جوابها ، إذا وقع مقدمها ، فكيف إذا كان سياق ذلك العهد عن لا يختلف وعده - سبحانه ؟ .

هذه مشارطة انعقدت بين الأعلى وهو الداعي ، أو هو الموجب ، وبين الأدنى ، وهو المدعو . فإذا - وهى ماللجانب الأول - جانب الداعي - من سمو لحسبنا بهذا بل ببعض هذا كفاية من الضمان والاطمئنان ، والترغيب في الإقبال على الوفاء من أهون الجانبين مع أعز الجانبين ، ولله المثل الأعلى .

على أن الله تعالى لم يقف بوعده عند عشر الحسنات فقط ، بل بسط لدينا طريق الرجاء الحق ، حتى وصل بنا إلى سبعمائة ضعف ، وضرب لنا المثل الذى نحسه ، ولا نرتاب فيه فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة » فهذه حبة أنبتت سبعا ، فى مائة ، وليس ذلك مما يستكثره تقديرنا من فيض الله ، بل تجاوز فضل الله ذلك التقدير فقال « والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » ، وهذه الكثرة مكررة فى غير مقام من آيات الله .

وفى هذا استنهاض للعبد أن يتدارك نفسه وألا يجهل مصيره ، حتى لا ينفق حياته فيما لا يجديه إلا تقلبا فى دنياه ، وتشاغلا بألوان زمانه .

وعجيب من الإنسان أن يتلقى هذا ، وأن يرى بعينيه فى غير خفاء مصداقه فى الحبة والسبع السنابل ، ثم لا ينشط إلى هذا الربح الكثير ولو بالعمل اليسير .

كأن الإنسان قد بلغت به الأنانية أن يطمع فى الثواب مضاعفا دون بذل من عمله ولو قليلا ، وما هكذا سنة الله فى التبادل وفى الأخذ والعطاء ، وفى استحقاق ما عنده من فضل .

ولا يستقيم فى تقدير العقل الذى وكلنا الله إلى الاهتداء به أن يكون حصاد بلا غرس ، أو كسب بلا مجادلة .

مع أن الإنسان قد أعطى من نفسه كثيراً لدنياه ، وأخذ منها ما أخذ ، قليلا أو كثيرا ، غير أنه لم يتحر حلالها من حرامها ، ولم يعدل مع نفسه فى شأن أخراه ، فاضطرب سيره ، وكان دائماً فى غير اعتدال .

والله تعالى لم يبخل عليه بنعمائه لا مع عصيانه ولا مع كفره ، وهى إن لم تكن تكريما له حينئذ فهى حجة عليه ، وتطويق له .

ولقد اقترن الوعد الكريم فى جانب الحسنات بإنذار رجيم فى جانب السيئات ، فلم يمدد الله يد البطش إلى عبده حين لا يفعل الخير كما بسط له يد الرحمة من قبل ، بل قابل صنيعه السيئ بمثله من جزاء دون زيادة ، حتى ذكر الله ذلك فى عبارة حاصرة « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » .

فمجال الأمل في الزيادة مفتوح في باب الخير ، والخوف الذي يقابله من زيادة العقوبة مدفوع ومأمون بهذا النفي الحاصر . فانظر كيف يصاغ الوعد الكريم في عبارات فضفاضة ، وكيف يصاغ الوعيد المخيف في عبارة محدودة ؟ وهذا لون من ألوان الفضل يجله العقل حينما يدركه .

وإذا كانت للمحسنين درجات مستحقة بعملهم ، ودرجات تمنح لهم فضلا من ربهم بجميعها صارت حقا لهم في تقـــدير الله ، وتفاضلهم ما بين عشر حسنات إلى ما هو أكثر من سبعمائة إنما هو بحسب تفاوتهم في صدق النية وتحري موضع البر ، وأهمية الأثر المترتب على العمل ، وما هنالك من دوافع خفية ، ومن مآرب يعلمها الله وحده . وعلى أي حال فأقلهم حظا صاحب العشر حسنات ، ولا حرج على منازلهم ألا يكونوا في وضع واحد « ولكل درجات مما عملوا » .

وتفاوت المسيئين ليس لزيادة في العقوبة من جانب الله ، بل لتفاوتهم أنفسهم ، في قبح مساوئهم وبشاعة خطاياهم ، والله تعالى قد طمأن الجانبين على ما أوضحه من تحديد في الجزاء فقال في نهاية الآية « وهم لا يظلمون » .

فالإحسان إلى تصاعد في الجزاء الحسن دون حرمان .

والإساءة غير متجاوزة مداها ، في العقوبة وقد تكتب حسنة إذا انصرف عنها من كان على نية فعلها .

هذه عدالة اقترن بها لطف وكرم شملت خلق الله ، حتى المسرفين فيهم ؛ فقد ذكر الله في الكتاب غير مرة أنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ...

ولكن كيف نتصور الإحسان في الآخرة إلى من كفر بالله في دنياه ؟

كيف وقد هدده القرآن بآيات العذاب والخلود فيه ؟ وبأن ماله من عمل طيب هنا يكون هناك هباء منثوراً ؟ ذلك إشكال ؛ ولكنه إشكال يبدده شيء مرسوم أمامنا في القرآن ! ...

فالنار دركات ولها سبعة أبواب ، ولكل باب من أهل النار جزء مقسوم . والعذاب في النار لا يكون من درجة واحدة ، بل هو دركات كما أن نعيم الجنة ليس سواء بين جميع من قسمت لهم الجنة .

وهذا ما اقتضاه شأن ربك ، وشهدت له الآيات ...

فصاحب الطيبات والمبرات من غير المؤمنين يكون في حالة أخف من سواه ، وعدل الله يأبى أن يكون أبو لهب وأبو جهل مثلا في جانب أبي طالب ، فهؤلاء جميعاً

لم يؤمنوا ، وحكم الله فيهم واضح ولكن أبا طالب آزر النبي وكفله ، وذب عنه ، وأبو لهب وأمثاله آذوه وآذوه ، فهل يكون الموقف هناك سواء ؟ على أن ذلك التفاوت لا يؤذن مطلقا بهوان العذاب على الكافرين مهما يكن ، وإنما هو تفاوت نسبي فيما بينهم ليؤمنوا وقد فاتهم الأوان بأن الله حقق وعده ووعيده ، وأنه بعدله حكم بين العباد .

هذا هو القسطاس الذى تهدى إليه الفطرة ويشهد به التنزيل « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير » .

وهذه كلها توجيهات من الله إلى ما يناط بنا من تكاليف ، وما يطلب إلينا من سياسة أنفسنا شعوبا وحكومات وأفرادا وجماعات ، وآخذين ومعطين ، وأتباعا ومتبوعين ، فما بقيت لنا بعد ذلك من حاجة إلى بيان ! ولم يبق إلا أن نعى وأن نأخذ أنفسنا بما وجه إلينا .

وما نكاد نجد ثقلا فى الأمر ولا بعدا عما ننشده من هناءة واحتمال فى يسر ، وإنما هو اقتناع وإقبال على ما دعينا إليه ، والسبيل معبدة ، والمحجة واضحة ، والأهداف كريمة مضمونة .

ولأن هذه السبيل أظلمت قديما فى وجه أناس ، وربما بقيت على ظلامها فى وجوه آخرين ، شاءت رحمة الله ألا تكون الموعظة فى كتابه على نمط واحد ، ولا للمرة الواحدة ، بل صاغها فى عبارات أخاذة ، ورددها فى أساليب رائعة لا يملها لسان ناطق ، ولا تسأمها أذن واعية ، وخلدها فى كتابه فبقيت على روعتها وقوتها منذ تلقاها سماعا وكلم بها ترتيلا محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وستظل على شأنها هذا إلى أن تدخل الدنيا بعوالمها فى عالم سوى هذا كله .

آية الموضوع تعتبر قولا فصلا بما عاهد الله به عباده ، وتعتبر بعد أن سبقها ما سبقها تمهيداً لما بعدها من آيات جاءت من مقاطع الكلام .

الأولى : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم : دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » فهنا مجاهرة من محمد لقومه وللناس بأن الله هداه بوحيه وتشريعه إلى الدين المستقيم الموصل إلى الإيمان الحق والعمل الحق والنجاح المنشود ، فهو دين إبراهيم الذى يؤمن به ولا يطعن فيه أولئك المخالفون المتهافتون على نسب إبراهيم من عرب ومن يهود ونصارى .

الثانية : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

مقتضى ما تقرر من حقية دينى أن تكون عباداتى وأعمالى فى الحياة وما يتصل منها بالممات كلها خالصة لوجه الله وحده لاشريك له

كما أمرت بذلك واقتنعت به ، وأنا أول مستجيب من المسلمين .

الثالثة : « قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شيء » .

يعني : إذا استقر الأمر على أن ديني هو الحق ، وأن عملي كله لله الحق ، فكيف أعدل عن ربي الواحد إلى غيره فأتخذه ربا وهو باطل مهما جعلتموه .

تدعونني يا كفار قريش إلى متابعتكم في أرباب باطلة ، وتزعمون أنكم تتحملون عني ما أرتكب، مع أن كل نفس تحمل مسئوليتها ، وكسبها لا يكون محسوبا على سواها ، فكله مكتوب في صحائفها ولا يعقل أن يرتكب الوزر إنسان ثم يتحمله عنه في الآخرة إنسان غيره ! هذه مزاعم شيطانية ، وتخريفات جنونيه . فكيف أستجيب لها ، وأعدل عن صراطي المستقيم ؟ كل نفس بما كسبت رهينة ، وكلنا راجعون إلى ربنا الحق ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

هذه معالم شاخصة ، وهي بينة الهدى لمن اهتدى ، ومن أغمض عينه عن ضوئها فلن يضير إلا نفسه ، وستزل قدمه في ظلمة جهله ويبقى نور الله لا يطفئه ضلال المخالفين :

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

هذا وقد عرضت الآية الأخيرة للقربات التي يعملها مسلم ويهبها لمسلم متوفى وهل يتفق أن يوهب عملي لغيري مع أن الآية صرحت بأن كل ما كسبته نفس فهو عليها لا يحمله غيرها ، ولا يكون للإنسان إلا ما سعى .

وقد أفاض فيها المفسرون قديما وحديثا .

والذي لا شك فيه أن عمل الأبناء ودعاءهم مقبول لأبويهم ، وأن الصدقات يصح أن يوهب ثوابها لأي مسلم ولو غير قريب ، وكذا الدعاء .

وأما القراءة والنوافل وجعلها من الأجنبي للأجنبي عنه ، فهي عند الباحثين ، بين نفي وإثبات ، إذ لم يرد في هذه الأخيرة دليل قاطع ، وربما كان الأمر بحاجة إلى الاقتصاد في هذه التوسعات ، والله يهدينا إلى سواء السبيل ؟

عبد اللطيف السبكي
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ في كلية الشريعة

السيد عبد الرحمن الكواكبى

للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومى

استكثر رئيس القرناء - أى كبير الأمناء باللغة الحديثة - على السيد جمال الدين الأفغانى أن يلعب بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد.

فلما خرج من عنده أخذ رئيس القرناء يؤنب جمال الدين على ما ارتكبه من جرم واقترفه من إثم.

وابتسم جمال الدين وقال كلمته :

« السلطان عبد الحميد يلعب بمقدرات الشعوب ويتصرف فى الملايين كيف يشاء، وجمال الدين لا يتصرف ولا يلعب بحبات سبحته ؟ ».

هذه القصة القصيرة من ورائها معان غزيرة، ومدلولات كثيرة.

وجمال الدين كان مثلا للأحرار، وقدوة للمصلحين، وقمة فى المجد، وصوتا مدويا بالحق . . ولكنه مع هذا كله لا يباح له أن يحرك حبات سبحته فى الحضرة السلطانية، وأمام العظمة التى يجب لها التقديس والإجلال !.

وكان ابتسام جمال الدين نوعا من السخرية التى يرسلها الرجل الحر، لتعبر عن احتقاره واشمئزازه من التصرف البعيد عن السداد، الغريب عن أودية العقل والفضيلة والرشاد. وبقدر ما فى هذه البسمة من تنفيث عن صاحبها، يكون فيها كذلك إغاظة وتأنيب خفى للذى توجه إليه، وتنصب عليه.

وإذا كان جمال الدين يعاتب على تحريك حبات سبحته، فكيف إذا كان يعامل الأفراد العاديون فى طول هذه السلطنة وعرضها !!.

كيف إذاً كانت تحيا هذه الملايين العديدة فى مصر وفى الشام وفى الآستانة وفى بقية هذه الولايات المتناثرة المترامية الأطراف الدانية القطوف !.

لقد كانت ركاما من البشرية يتحرك بإرادة السلطان، ويسكن بإرادة السلطان، ومن حول

السلطان حاشية فاسدة تزين له الظلم ، وتسول له الشر ، وتحول بينه وبين الرعية بكل حجاب صفيق وسدود كثاف !

فى هذا الجو الخانق ، ووسط هذه السحب والغيوم نشأ السيد عبد الرحمن الكواكبي من بيت عزيز كريم فى حلب ، تسنده أصالة النسب ، وتؤيده عراقة العز والجاه والمال!

ولقد انتفع الكواكبي بهذه الأصالة وتلك العراقة فى جميع مراحل حياته ، فعاش خافض الجناح ، متواضع الخلق ، سمح الوجه واليد للضعفاء والمساكين ، وفى الوقت ذاته يملؤه الشموخ والعناد ، ويدفعه الشمم والإباء إلى مقاومة طغيان السادة ، وصلف الكبراء . وهذا طبع نادر وقليل .

قلت طبع نادر وقليل ، لأن السجية الغالبة فى الناس أنهم يعكفون لإرضاء السادة ، ويستذلون الأقل منهم .

فأما الكواكبي فكان يعادى أصحاب البطش ، ويقاوم من يملكون البغى والظلم والعسف والجبروت ، فى ثبات قلب ، ورباطة جأش .

هذا هو عارف باشا والى حلب ، يأتم بالسلطان عبد الحميد فيظلم ، ويأتم به فينتهك الحرمات ، ويتأسى بأفعاله فيبغى ويجور ، والرعية خائفة ، تغلى دماؤها وعروقها ، ولكن أين اللسان الناطق ، والعاطفة المعبرة ، والرجل الجرىء ؟

ووجد الكواكبي نفسه وجها لوجه أمام هذه العاصفة الهوجاء فما طأطأ رأسه لتمر ، وما سد بابه أمام الريح ليستريح .

بل جمع رجال حلب وبث فيهم روح الحقد ، الحقد المقدس على أى ظالم مهما كان قدره ولو كان والى حلب ، والممثل للسلطان الأعظم عبد الحميد .

إنها الطبيعة الأصيلة العريقة التى تغلب صاحبها لو أراد الانحراف عنها ، أو الميل عن اتجاهها .

وثار عارف باشا وطلب محاكمة الكواكبي ، ورحب الكواكبي بهذه المحاكمة بشرط أن تكون بعيدة عن سلطته . . وتمت المحاكمة فى بيروت ، وظهرت البراءة الناصعة ، لأنه كان يقاوم لله ، ويدفع للحق ، وينتصر للضعيف .

* * *

كل عظيم فيه نقطة ضعف أو أكثر ، فالعصمة للأنبياء والمرسلين . . وبحثت عن نقط الضعف فى الكواكبي فأعيانى أمره وأهزلنى البحث فيه . . ومع ذلك فبحر الأمجاد الصادقة قد طغى على هذه النقاط حتى جعلها لا تكاد تظهر ولا تكاد تستبين .

لقد كان عميق الفكرة ، فارس النظرة ، حاد العاطفة ، نادر الخلق ، قوى الإيمان ، متحركا نشيطا ، لا يهاب ولا يخاف .

وهذه الصفات الأصيلة عادت عليه هو بالمجد العريض ، والذكر الخالد ، وعادت على أمته بالأثر الحسن ، والذكرى الطيبة !!

فلقد دلت التجربة على أن الشرق غاص بالخامات الصالحة والمناجم الكامنة ، وكل الذى ينقصه القادة المحركون ، والزعماء المصلحون .

فإذا وجـــد القائد ، وتوحد اللواء ، وصلحت الزعامة ، وجدت الأمة التى تزلزل الكيان ، وتعصف بالأحداث ، وتقاوم الطغيان .

ولذلك حين حرك الكواكبي شعب «حلب» ضد واليها ، اهتز كرسى الوالى ، وتخلخل عرش السلطان .

ولو وجد اليوم فى العراق «كواكبي» تتوحد حوله القيادة ، ويرفع بيده اللواء ، لذابت هذه الطغمة الظالمة ، فى ساعات قليلة ، وزمان محدود .

* * *

كانت «الشهباء» هى جريدة الكواكبي ، الناطقة باسمه ، والمعبرة عن آرائه وأفكاره. ولكن هذه الجريدة لم تكن وحدها كافية لبث هذه الأفكار الجريئة ، والمقالات الساخنة ، فكان يكتب فى غيرها من الجرائد والمجلات كتابة تزلزل أقدام الظلام ، وتملأ قلوب المؤمنين بالبرد والسلام .

من هذه المقالات والأفكار تكون كتاب الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ، ويقول المؤلف فى بقية اسم الكتاب : وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غداً بالأوتاد ! .

وكتاب «طبائع الاستبداد» ليس كتاباً كبيراً ، إن صفحاته لا تتعدى المائة والخمسين ، وإن أسلوبه ليس فريداً ، ولكنه مع ذلك كتاب يطوف بك فى آفاق واسعة ، وتجارب متنوعة ، ورحلات علمية مختلفة ... وأغلب الظن أنك لا تقتنع بقراءته مرة أو مرتين ! .

ولو عاصرنا الظـــروف التى عاصرها الكواكبي ، لعرفنا الصعوبة التى قاساها ، وهو يخرج لنا هذا الكتاب ! .

يقول الكواكبي فى الصفحات الأولى من كتابه :

«الاستبداد لغة : هو اقتصار المرء على رأى نفسه فيما تنبغى المشاورة فيه ! ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات !! وفى اصطلاح السياسيين : هو تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بلا خوف تبعة ! » .

وكان استبداد السلطان عبد الحميد شديد القسوة ، عظيم الفتك ، وهذا ما جعل الكواكبي يتعمق فى أوصاف المستبد حتى يقول فى صفحة ١٣ من كتابه :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدى ، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس ، يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته !!

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما ، والحق أبو البشر ، والحرية أمهم ... المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا ! » . .

وأكبر ظنى أنه لو عاش الكواكبي إلى اليوم ورأى ماذا يجرى فى العراق لأضاف إلى قائمة هذه التعاريف ، تعاريف وحدودا أخرى ، لم تكن تخطر له على بال ...

ثم انتقل الكواكبي إلى موضوع خطير ودقيق ، فهل هناك علاقة بين الاستبداد والدين كما يقول علماء الإفرنج ؟ فرجل الدين يتحكم فى عالم القلوب والأرواح ، ورجل الحكم يتحكم فى مملكة الأجسام ! .

وأفاض الكواكبي فى بيان المشاكلة بين الاستبدادين ، وتوضيح شبهات الغربيين ، ثم يرد هذه الشبه كلها ويدحضها فى قوة حجة وبلاغة منطق وترادف استشهاد !.

ولنستمع إليه وهو يقول فى ص ٢٢ :

« وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى ، حتى فى القصص منه ، ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبع تخاطب قومها : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » فهذه القصة تعلم كيف ينبغى أن يستشير الملوك الملأ ، وأن لا يقطعوا أمراً إلا برأيهم ، وأن تحفظ القوة والبأس فى الرعية ، وأن يخصص الملوك بالتنفيذ » .

واستطرد المؤلف فى ذلك فذكر مواقف مختلفة تنهى فيها الأديان الصحيحة عن أى مظهر للاستبداد ، أو أى أثر من آثاره !

وينتقل بك المؤلف فى كتابه إلى فصول هامة : الاستبداد والعلم ، الاستبداد والمجد ، الاستبداد والمال ، الاستبداد والتربية ، الاستبداد والترقى ، وهكذا .

وفى كل فصل يسبح بك فى أفكاره ويقفز بك إلى عالم من الصدق والحقيقة .

ولنقرأ له هذه الخاطرة :

« المستبد فى لحظة جلوسه على عرشه . . يرى نفسه كان إنسانا فصار إلهاً ، ثم يرجع النظر فيرى نفسه فى نفس الأمر أعجز من كل عاجز ، وأنه ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من الأعوان . ثم يلتفت إلى جماهير الرعية المتفرجين فيراهم مسحورين مبهوتين كأنهم أموات من حين ، وعندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلا : الأعوان . الأعوان ، أسلبهم القياد ، وأزودهم بجيش من الأوغاد،

وأحارب بهم هؤلاء الأمجاد، وبغير هذا الحزم لا يدوم استبداد ولا استعباد».

وبعد أن انتهى الكواكبي من فصوله التي صور فيها طبائع الاستبداد، لاح له على حد تعبيره أن يرشد قومه ويقف فيهم خطيبا، فقال لهم:

«ياقوم: أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل، وبداء الحرص على كل عتيق، فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والأمور السافلات، ولا تقلدونهم في محامدهم؟

أين الدين، أين التربية. أين الإحساس. أين الغيرة. أين الجسارة. أين الثبات. أين الرابطة. أين المنعة. أين الشهامة. أين النخوة. أين الفضيلة. أين المواساة. هل تسمعون أم أنتم نائمون؟.

يا قوم إلى متى هذا النوم؟ وإلى متى هذا التقلب على فراش البؤس ووسادة اليأس. يا قوم: قاتل الله الغباوة فإنها تملأ القلوب رعبا من لا شيء، وخوفا من كل شيء!».

ولقد طالت خطبة الكواكبي وتوجيهاته، حتى بلغت العشرين أو الثلاثين من صفحات الكتاب. وأشهد أنه كان يصور أدواء الأمة العربية تصويرا دقيقاً وبليغاً بأسلوب حكيم، وجرأة عديمة المثال.

والكواكبي لم يعش لنفسه، ولا لأهل حلب، ولا لأمته العربية فقط، بل عاش كذلك لعقيدته المسلمة، ومجموعته الإسلامية الكبيرة!

ولقد برز لنا هذا بوضوح في كتابه الثاني «أم القرى».

وأهم ما في هذا المؤلف أنه طواف سريع بالأمم الإسلامية وشعوبها الضعيفة المقهورة، وتقديم للدواء النافع لها.

فلقد صور لنا الكواكبي اجتماع مؤتمر عام للمسلمين في مكة. وكان أعضاء هذا المؤتمر يمثلون البلاد الإسلامية على شتى أوطانها واختلاف لغاتها، فاجتمع المدنى مع الشامى والمكى مع التونسى، والفارسى والمصرى مع المقدسى، واليمنى مع البصرى، والنجدى مع التركى، والأفغانى والهندى وهكذا.

وطريقة الحوار التي صورها لنا الكواكبي طريقة غاية في الإبداع والابتكار، فكان ينطق أشخاص روايته بما يناسب بلدهم وبيئتهم التي عاشوا فيها. فمثلا يتكلم الشامى عن أسباب الفتور بين المسلمين فيرجعها إلى العقيدة الجبرية التي تؤدى إلى الكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية ونزعات المجد والرياسة، ويتكلم المكى أو النجدى عن أسباب ضعف المسلمين فيرجعها إلى الخرافات التي دخلت في الإسلام والبدع والأهواء التي استحوذت عليه. ويتكلم المدنى عن هذه

الأسباب نفسها فيرجعها إلى تدليس رجال الدين والغلاة من المتصوفين .

وللمقدسي والأفغاني والهندي والتبريزي وغيرهم من المجتمعين أسباب أخرى للفتور والضعف اللذين يشملان المسلمين ، وأهم هذه الأسباب ترك المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحايل على التحرر من الواجبات وانتشار الدجل والخرافات .

وكذلك كان من الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية فقدانهم للحرية والكرامة وتوالي المصائب عليهم من كل صوب وحدب ، وفساد التعليم والإخلاد إلى الخمود والراحة والجبن في المطالبة بالحقوق العامة والغفلة عن تنظيم شئون الحياة . الخ . ثم قدم الكواكبي أنجع دواء ، وأحسن علاج !

وإذا كنت تخرج من طبائع الاستبداد وأنت ثائر النفس فائر الدم هائج العاطفة ، فأنت كذلك تخرج من أم القرى متحفز الهمة واسع التجربة عظيم الرجاء .

ولولا ضيق المجال لتوسعنا قليلا في الكتابة عن أم القرى ووفينا هذا الكتاب بعض حقه علينا .

والذي نريد أن نقوله باطمئنان : إن عبارة الكواكبي التي يقول فيها « وهي كلمات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت يوما مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد » . لذي نريد أن نقوله : إن هذه الكلمات وتلك الصيحة لم تذهب مع الريح وإنما ذهبت فعلا بأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد .

فأين السلطان عبد الحميد وأين الخديوي عباس وأين من بعده من خديوات وملوك ؟ وأين عارف باشا الذي حاكم الكواكبي ، وأين أبو الهدى الصيادي ؟ أين السلاطين وأصحاب العروش .؟ أين الظلمة والسفاكون ؟ لقد ذهبوا جميعا ونثرنا على قبورهم الرماد ، أما الكواكبي فها هي ذكراه تبعث في قلوبنا الأمل ، وتقوي في نفوسنا الرجاء ، وتأخذ بأيدينا إلى العزة والسؤدد والمجد والخلود .

ولئن مات الكواكبي موتة طبيعية أو بسبب تحريض من الأيدي الحاكمة الآثمة أو بسبب الأكلة التي أكلها مع الخديو عباس بالإسكندرية كما يذكر ذلك بعض المؤرخين فإن هذا كله لا يهمنا ولا يعنينا .

إن الذي يعنينا حقا هو ذلك التاريخ الشامخ والأثر الخالد الذي تركه الكواكبي لمن بعده .

لقد تمكن الحكام حين ذاك من تعطيل صحيفته الشهباء ومن كبت أنفاسه بعض الشيء ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا صرخته أن تلف الآفاق وتدوي في القلوب وأن تعمل عملها ولو بعد حين ! !

إن الوظائف الحكومية ضاقت بالكواكبي فلم يعبأ بها ، ولم يحرص على التمرغ فى ترابها « الميرى » بل تركها إلى التجارة ، وبذلك أعطى الحكومات الظالمة درساً مريراً ، فالحر من الرجال لا تستعبده المناصب ، ولا تستذله المطامع .

وإن والى حلب قد ضاق ذرعا بالكواكبي فقال له الكواكبي : ليس للأحرار وطن معين ، ولا أرض مخصوصة . إن حلب قطعة من الأمة العربية ، والوطن العربى كل لا يتجزأ وتظاهر بأنه ذاهب إلى استامبول ... وعندما وصل إلى أرض الكنانة - مصر الحبيبة - وجد فيها راحة قلبه ، وسلامة نفسه ونجوى فؤاده ، ورحب بالبقاء فيها ، فرحب به أحباؤه وأشقاؤه المصريون .

وعاش الكواكبي عامين فى مصر ، يراقب فيهما أحداث الأمة ، ويتجاوب مع حركات الإصلاح التى كان ينادى بها جمال الدين والشيخ محمد عبده .

وفى مساء الخميس ١٤ من يونية سنة ١٩٠٢ فارق الكواكبي الحياة ، وسافر إلى الآخرة بعد أن سافر إلى جملة بلاد ، وطاف بعدة شعوب !! .

ويذهب الذاهبون اليوم إلى باب الوزير بالقاهرة ليجدوا قبراً صغيراً اقد ضم رجلا كبيراً وعلى هذا القبر الصغير بيتان من الشعر كتبهما حافظ ابراهيم .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

رحم الله الكواكبي رحمة واسعة ، وألحقنا به فى الصالحين .

أحمد عبد الجواد الدومى

العـــرب

همُ قومى ، وهم أصلى ... وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى ، وهم شرفى ... وهم حصنى إذا أرهب
وهم رُمحى وهم تُرسِى ... وهم سيفى إذا أغضب

ابن مضاء وتحرير النحو

للأستاذ علي العماري

منذ ظهر كتاب ابن مضاء القرطبي (الرد على النحاة) بل منذ أن عرف، وبعض الأقلام تترسم خطاه، وتنهل من معينه، وتأخذ قضاياه مسلمة، لا شبهة فيها، وكان الإخلاص للعلم يقضي بأن ينعم الناظر البحث، ويطيل النظر، ويستعين بغيره، لا يرى في ذلك نقيصة.

وقد ظهر ابن مضاء القرطبي مرتين قبل ظهوره في كتاب تحرير النحو، وصنوه النحو المنهجي، ظهر في كتاب (إحياء النحو) فتناوله أستاذ كبير من أساتذة الأزهر هو الشيخ محمد عرفه بالدراسة والتمحيص، ورد نظرياته رداً علمياً دقيقاً، في كتاب أخرجه هو (كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة).

وظهر الكتاب نفسه (نشره أحد مدرسي كلية الآداب بجامعة القاهرة) وصدره بمقدمة طويلة ضمنها آراء ابن مضاء، وقد تناول الكتاب والمقدمة أستاذ كبير من أساتذة الأزهر في بحوث نشرتها مجلة الأزهر منذ عشر سنوات.

وكان على كل باحث بعد ذلك يريد أن يأخذ عن ابن مضاء أن يكون يقظاً حذراً، وأن ينتفع بما كتبه هذان العالمان الجليلان.

ولكن المؤسف حقاً أن التجربة أعيدت للمرة الثالثة، فظهرت نظريات ابن مضاء في كتابين اعتمدتهما وزارة التربية والتعليم، ولكي نضع الدليل أمام القارئ نلخص آراء ابن مضاء، ونحيله بعد ذلك على الكتابين اللذين أشرت إليهما ليرى ما رأينا، ويتعجب كما تعجبنا.

خالف ابن مضاء على النحويين في هذه المسائل:

١ — أنكر العامل، وكثيراً من المسائل التي تترتب عليه.

٢ — رأى إلغاء متعلق الجار والمجرور.

٣ — أخذ على النحويين ما يرونه من استتار الضمائر في المشتقات التي لا ترفع الاسم الظاهر.

٤ — وأخذ عليهم كذلك قولهم باستتار الضمير في الفعل في نحو محمد كتب

وكل هذه الآراء تجدها، وتجد أثرها في الكتابين اللذين تناقشهما في هذه البحوث، ولأكتف بمثل واحد، وأترك بقية الأمثلة لموضعها من رد العالمين الأزهريين الكبيرين.

رأت اللجنة التى ألفتها وزارة المعارف (التربية والتعليم) أن المتعلق العام للجار والمجرور لا يقدر ، وأن المحمول فى مثل عندك أو فى الدار هو الظرف ، أما المتعلق الخاص فهو كما قرر النحاة ، المتعلق هو المحمول ، والظرف تكملة ، وحين راجع المجمع اللغوى هذا القرار قال ما نصه : « يجب إرشاد المبتدئين إلى أن المتعلق العام الظرف والجار والمجرور فى نحو زيد فى الدار وزيد عندك محذوف ، وإن كانوا لا يكلفون كل مرة تقديره عند الإعراب ، بل يقبل منهم تخفيفا عنهم أن يقولوا فى إعراب زيد فى الدار : ـ فى الدار جار ومجرور مسند » .

وعلى الرغم من رأى لجنة الوزارة ، وقرار المجمع ، ومن قبل ذلك كلام جمهرة النحاة ، نرى أصحاب تحرير النحو يسيرون على أنه لامتعلق للجار والمجرور ولا للظرف فيقولون فى (لله الأمر) الأمر محدث عنه ولله (الجار والمجرور) هو المتحدث به ، وفى (الجنة تحت أقدام الأمهات) الجنة محدث عنه ، و « تحت ...) ظرف متحدث به .

ويحتج صاحب النحو المنهجى لهذا الصنيع بأن الكلام ـ فى الحقيقة ـ مستغن عن المتعلق ، وأنه بدون ملاحظته كلام تام ، فما جاء فى الكتاب قوله : « وبالرجوع إلى الأساليب العربية التى من هذا النحو نجد أن فهمها بلفظها ووضعها اللغوى لا يحتاج إلى هذا التقدير » وقوله » : « ولا شك أن هذا كله (زيد فى الدار) كلام تام مركب من اسمين دالين على معنيين بينهما نسبة ، وتلك النسبة دلت عليها (فى) ولا حاجة إلى غير ذلك » ، وقوله : « وهذا كله كلام تام لا يفتقر السامع له إلى زيادة كائن ، ولا مستقر ، وإذا بطل العامل والعمل فلا شبهة تبق لمن يدعى هذا الإضمار » .

ونلاحظ أن المؤلف خلط بين أمرين ، بين صحة أن يعتبر الظرف أو الجار والمجرور خبرا ، وبين ضرورة أن يلاحظ المتعلق حتى يصح المعنى ، وزعمه أن الكلام تام دون ملاحظة المتعلق إنكار للبدهى ، ذلك :

١ ـ لأن الخبر حكم على المبتدأ ، وهو صفة معنوية له فبأى شىء حكمنا على زيد فى قولنا زيد فى الدار ؟ هل حكمنا عليه (بفى) أو حكمنا عليه (بالدار) ؟ واضح أن واحدا منهما لا يصلح حكما . إذن لا بد أن يكون الحكم غيرهما ، ولا شىء إلا المتعلق ، إذ لا يصح أن نكون من شيئين لا يصلح واحد منهما حكما ولا يصح أن يكون مجموعهما حكما ؛ لأن هذا المجموع لم يختلط خلطا كيماويا حتى يكون صفة تصلح أن يحكم بها على المسند إليه .

٢ ـ وجدنا أن الجار والمجرور والظرف كثيراً ما يذكر معهما ما يعد متعلقا لهما ، تقول صليت فى المسجد ومكثت عند أخى

شهراً . . . وهكذا . ولا شبهة فى أن (فى المسجد) و (عند أخى) متعلق بالفعل قبله وشأن اللغة الاطراد ، فعلينا أن نقيس ما لم يذكر معه متعلق على ما ذكر معه .

٣ ـ أن الجار والمجرور فى منزلة المفعول من حيث المعنى ، فإذا قلنا (مررت بزيد) كان الفعل كأنه واقع على زيد فنى قولنا زيد فى الدار يكون المعنى على أن (فى الدار) تتمة الكلام ، ومرتبط به ، ولا يرتبط بذات زيد ، لأن الذوات لا ترتبط بها الذوات ، فلا معدى من أن يرتبط بمعنى ، وهذا المعنى هو المتعلق ، ونحن نقول زيد أسد فلا يصح الكلام إلا على تأويل أسد بشجاع ونحوها فإذا قلنا (فى الدار) فلا بد من مراعاة صفة تصلح لأن تسند إلى زيد .

أما أن النحاة ذكروا أن للجار والمجرور متعلقا ، فلهذا قصة ذكرها أستاذنا الشيخ محمد النجار فى رده على ابن مضاء القرطبى قال : « ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين تقديرهم متعلق الجار والمجرور فى نحو زيد فى الدار ، إذ يقولون : إن التقدير كائن أو استقر ؛ وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه من كل أثر إعرابى فلا بد له من عامل ، وأقول له : إن التقدير فى هذا الباب لا يعتقده جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئا ، فقد كان ينبغى أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ويعرض عن الرأى الآخر ، والذين قدروا دفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر فى الكلام العربى ، فقد وقفوا على قول كثير عزة :

فإن يك جثمانى بأرض سواكم ... فإن فؤادى عندك الدهر أجمع
إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتها ... فظلت لها نفسى تتوق وتنزع

فيرى أن أجمع توكيد مرفوع ، وليس فى الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعا لهذا التوكيد فكان أن ذهب النحاة ـ بحق ـ إلى أن الأصل ، كائن عندك ، وفى كائن ضمير مرفوع انتقل إلى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء توكيد هذا الضمير مرفوعا على نسقه ، وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربى ينوى متعلقا فى هذا الأسلوب ، ولولا هذا ما ساغ الإتيان بالتوكيد المرفوع ، ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء أن ابتغى شرعة الإنصاف [1] » .

قلت : وهذه المناقشة مقتصرة على ناحية الصناعة ، أما من ناحية المعنى ، فما أظن ابن مضاء ، ولا سلفه يرون أن الكلام تام دون ملاحظة المتعلق .

(١) مجلة الأزهر العدد السادس ص ٥٢٨ لسنة ١٣٦٧

وأصحاب تحرير النحو لا يتبعون منهجا واضحا موحداً ، وهذا مثل على اضطرابهم فى منهجهم ، ذكروا فى كلا وكلتا أنه إذا أسند إليهما أو عاد عليهما ضمير جاز فيهما :

(١) اعتبار اللفظ فيجرى الحديث عن كلا مفرداً مذكراً كما فى : « وكلا أنفيهما رابى» وعن كلتا مفرداً مؤنثا كما فى قوله تعالى: (كلتا الجنتين آتت أكلها) .

(ب) ـ اعتبار المعنى فيجرى الحديث عن (كلا) مثنى مذكراً ، كما فى (كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا) وعن كلتا مؤنثا فى مثل قولك (كلتا الشجرتين قد أثمرتا) .

فنلاحظ أنهم لم يأتوا بشاهد عند التمثيل لاعتبار المعنى مع إضافة كلتا إلى الاسم الظاهر ، ويبدو أنه لا شاهد لهذا ، وقد قال الأشمونى عقب ذكره جواز الأمرين ، مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، قال : « وخص إجراؤهما مجرى المثنى بحالة الإضافة إلى المضمر » ومعنى هذا أنهما إذا أضيفتا إلى اسم ظاهر لم يجز إلا مراعاة اللفظ ، وما إلى هذا الحكم سقت الكلام ، وإنما سقته لأن المؤلفين فى تحرير النحو لم يجدوا شاهدا ، وضربوا بنص الأشمونى عرض الحائط ، فى حين أنهم عند الكلام على معاملة كلا وكلتا معاملة المثنى إذا أضيفتا للضمير : ـ وهذا هو المشهور عند النحويين ـ رجحوا الرأى القائل بمعاملتهما معاملة المقصور مطلقاً ، واعتبروه رأيا جديراً بالقبول ، قالوا ـ وهذه عبارتهم ـ : « لأن النحويين لم يأتوا بشاهد من كلام العرب مأثور على إعرابهما إعراب المثنى إذا أضيفتا للضمير » فأولا : لماذا فرقوا بين هذه المسألة ومسألة مراعاة المعنى عند الإضافة للظاهر مع أنهم لم يجدوا شاهدا من كلام العرب فى الحالتين . ولذلك اضطروا أن يجيبوا بمثال من عندهم فى المسألة الأولى .

وثانيا : إذا كانوا مجتهدين فى النحو فلماذا لم يرجعوا إلى كلام العرب ويتدبروه حتى يثبت لديهم إذا كان هناك شاهد أولا ، فإذا لم يجدوا شاهدا كان موقفهم من النحويين قويا ، فيردون رأيهم الذى درجوا عليه منذ عرف النحو إلى يوم الناس هذا واشتهر عنهم .

وثالثاً : الشاهد موجود فى كلام العرب رأيت فى شرح درة الغواص ، ما يأتى : « وأما إدخال اللام على كل فنقل المقرى فى رسالة الغفران أن أبا على الفارسى كان يجيزه ، وينقله عن سيبويه ، وليس بشائع فى كلام العرب ، وأنشد لسحيم شاهدا عليه قوله :

رأيت الغنى والفقير كليهما
إلى الموت ، يأتى الموت للكل معمدا »

فهذا شاهد من كلام العرب يؤيد ما ذهب إليه النحويون ، وعلى هذا الاستعمال جاء قول أبي تمام في مدح عبد الله بن طاهر :ـ

سما للعلا من جانبيها كليهما
سمو عباب الماء جاشت غواربه

وقول المتنبي :

أسد يرى عضويه فيه كليهما
متنا أزل وساعداً مفتولا

وقد كان على أصحابنا إذا أرادوا أن يؤيدوا الاستعمال الآخر أن يجيئوا بشواهد وبشواهد كثيرة استعملت فيها كلا وكلتا استعمال المقصور مع إضافتهما للضمير ، أو على الأقل كان المنهج السليم يقتضيهما أن يقفوا في كل مسألة عند الشاهد فان وجد اعتمدوا الرأي الذي يتأيد به وإن لم يوجد قالوا ما يحلو لهم ، أما أن يفرقوا ، بل يعمدوا إلى مخالفة النحاة ، وفقط مخالفتهم فهذا ليس شأن من يريد أن يحمل الناس على رأى جديد ، وإن كان تأييداً لرأى مرجوح قديم

وهذا مثل نكتفي به في هذا الاتجاه ، وله في نحوهم نظائر وأشباه .

ثم نثني عنان القلم إلى صنيعهم الذي سموه (تحرير النحو) جاء في مقدمة الكتاب :

« كان الإصلاح من قبل متجها إلى تلخيص القواعد ، وتخليصها من التطويل أو الجدل ، أو إلى طريقة عرضها ووسائل توضيحها وفي هذه المحاولة اتجه الإصلاح إلى ذات القواعد ، ولم ينكل عن تغيير في ترتيبها »

فلننظر في التغيير الذي صنعوه في ترتيب القواعد . لنرى هل حرروا النحو حقيقة ؟ :

١ ــ كان القدماء يقسمون (المنادى) إلى علم مفرد ونكرة مقصودة ، وإلى مضاف وشبيه به ، ونكرة غير مقصودة ، ويجعلون الأولين مبنيين على ما يرفعان به ، ويجعلون الثلاثة الأخيرة منعوتة فجاء تحرير النحو ليهرب من هذا التقسيم فاتبع الطريق الآتية :

(ا) ـ إذا كان المنادى مضافا نصب نحو (ربنا لا تؤاخذنا) . (يا سائقي السيارات لا تسرعوا) .

(ب) ـ وإذا كان المنادى علما غير مضاف رفع ومنع التنوين نحو (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) . (يانوح اهبط بسلام منا).

(جـ) ـ وفيما عدا ما تقدم إذا نون المنادى نصب . وإذا منع التنوين رفع ، فمن أمثلة المنادى المنون يا مؤمنا لا تعتمد على غير مولاك ، يا رحيما بالعباد ، يا موقدا نار لغيرك ضوؤها .

فياراكبا إما عرضت فبلغن
نداماي من نجران ألا تلاقيا [١]

ومن أمثلة المنادى غير المنون (يا جبال أوبي معه) . يا شرطي أمامك اللص . يامتسابقان قفا . وأقول لهم : في أي منطق يسوغ أن نقول للتلميذ إذا نون المنادى

---

(١) مثل صاحب النحو المنهجي بهذا البيت للشبيه بالمضاف مع أن النحويين مثلوا به للنكرة غير المقصودة . وهو الصحيح .

نصب ، وإذا منع التنوين رفع ؟ وهل معنى ذلك إلا أن الناطق مخير فى كل مثال مما ذكرتم بين أن ينون وينصب، أو يمنع التنوين ويرفع، فله أن يقول مثلا: يارحيم بالعباد ،ويارا كب إما عرضت ، دون أن يختلف المعنى ، وإذا قلتم إن على المدرس أن يفهم التلاميذ متى ينون ومتى يمنع المنادى من التنوين قلت لامناص — حينئذ — أن يرجع إلى التقسيم القديم فيقول يمنع التنوين إذا كان نكرة مقصودة ، وينون إذا كان شبيها بالمضاف ، أو نكرة غير مقصودة .

ومثل هذا ما فعلوه فى اسم (لا) النافية للجنس ، فقد حرصوا على أن يتركوا التقسيم القديم أيضاً ، ولكن لم يتأت لهم ، فوضعوا القاعدة بحيث تضطرنا اضطراراً إلى الرجوع للتقسيم القديم .

وصنيعهم فى المندوب يدل على أن الدقة فى وضع القواعد لا وزن لها فى حسابهم ، وإلا فلننظر هذه القاعدة ، « وإذا استعمل المندوب من غير زيادة ألف الندبة نحو واعمر ، فاتح مصر ، واصلاح الدين كان له من الإعراب حكم المنادى » .

وليتأمل القارئ هذه القاعدة جيداً ، وليستحضر فى نفسه ما ذكروه فى حكم المنادى ، وليعلم أنهم لم يقيدوا المندوب بشرط من الشروط أكثر من أنه (اختص بنداء المتفجع عليه أو المتوجع منه) وبدهى أن الحكم هو : إذا كان المندوب علماً رفع من غير تنوين ، وإذا كان مضافا نصب ، وفى غير هذا إذا نون نصب ، وإذا منع التنوين رفع . !

أما تابع المنادى فجاء تقعيده — عندهم — بسيطاً سهلا مهلا ، إذا اتبعنا المنادى مضافا خاليا من أل وجب أن يكون التابع منصوبا على أن كلا من التابع والمتبوع منادى مستقلا ذكر حرف النداء فى الأول وحذف من الثانى ، وإذا أتبع بمفرد أو بمضاف فيه أل كان التابع مرفوعا .

فأولا : فرقوا بين نظيرين فجعلوا أحدهما منادى مستقلا ، وجعلوا الثانى تابعاً ، وثانيا لم يبينوا وظيفة الكلمة فى الجملة ، أهى نعت أو توكيد أو بدل ، ولعل ذلك مغزاه وقيمته فى الجملة ، وثالثا كيف تقبل أن تقول فى قولهم : يا زيد نفسه ، إن التقدير يا زيد يا نفسه ، وفى يا تميم كلكم ، إن التقدير يا تميم ياكلكم ، وما قيمة تكرار النداء حينئذ ؟ إن المغزى من التوكيد يذهب ، وهو مغزى لا يصح أن نهدره فى سبيل التيسير على المتعلمين ، لأننا نفقدهم أسرار لغتهم مقابل تدليلهم بعض الوقت .

٢ — قالوا فى فتح همزة إن وكسرها : « وتكسر همزة إن إذا وقعت فى ابتداء الجملة مثل (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) . (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) . (كلا إنها تذكرة) .

وكذا إذا حكيت بالقول مثل (قال إنى عبد الله) . (قل إن الله قادر على أن ينزل آية) ، وتفتح همزة إن فى غير ذلك مثل أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) . (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) . (ذلك بأن الله هو الحق) .

وقعد المتقدمون هذه المسألة ، وسنسوقها فى أوضح صورها وأبسطها فى نظم ابن مالك : —

وهمز إن افتح لسد مصدر
مسدها وفى سوى ذاك اكسر

فاكسر فى الابتدا وفى بدء الصلة
وحيث إن ليمين مكملة

أو حكيت بالقول أو حلت محل
حال كزرته وإنى ذو أمل

وكسروا من بعد فعل علقا
باللام كاعلم إنه لذو تقى

إن قاعدتهم قاصرة ، فهم لم يذكروا وقوع (إن) فى بدء الصلة ، ولم يذكروا وقوعها فى القسم ومن ناحية أخرى هم فى حاجة إلى أن يفهموا التلميذ ما معنى وقوع (إن) فى الابتداء ، وهى واقعة بعد (ألا) أو (كلا) أو (واو الحال) أو (حيث) أو واقعة (خبراً عن اسم الذات) ، وكيف يفهم التلميذ أنّ (إن) فى قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر » وفى قوله « حم ، والكتاب المبين إنا أنزلناه » .

فإذا قالوا : نقول له إذا وقعت فى الابتداء أو شبهه ونعدد له المواضع ، قلت إن قاعدة النحويين أيسر وأوجز وأحكم .

٣ — جمعوا باب المبتدا والخبر وباب الفاعل ونائب الفاعل فى باب واحد ، سموه باب المسند إليه والمسند ، ولعل هذا أبرز ما فى صنيعهم الجديد ، وكان هذا الصنيع جميلا لو استقام لهم أن يجعلوا الأحكام كلها واحدة فى هذه الأنواع الثلاثة ، ولكنهم اصطدموا بأحكام خاصة بالمبتدا وأحكام خاصة بالخبر ، لا تنسحب على الفاعل ولا على الفعل ، كحذف المبتدا والخبر وجوبا مثلا ، وحين جاءوا إلى هذا الموضع أهملوه ، وفى هذا تنكر للحقائق العلمية ، وظلم للعلم واللغة أن يكون جوابنا عن المشاكل التى تواجهنا إهمالها .

وقد عالج هذه المسألة من قبل أستاذنا الكبير الشيخ محمد عرفة فى كتابه (النحو

والنحاة) بما كان يجب أن يُسثنى هؤلاء عن معاودة الوقوع فيها ، ومن قوله معترضا على بعض قواعدهم التى عمموها على المبتدا والفاعل (أخ المحمدان ، أخ نكرة لا تصلح للابتداء فتعين أن يكون خبراً مقدما والمسند إليه المحمدان ، وهو مؤخر ، فدخلت تحت قاعدة المؤلف القائلة إذا تأخر المسند إليه وكان مثنى أو جمعا وجب التزام التوحيد فى المسند ، وهو باطل بل الواجب المطابقة فتقول أخوان المحمدان لا أخ المحمدان) .

(إن المؤلف اضطر تحت ضغط اختلاف الأحكام أن يقول المسند إليه إذا تقدم والمسند إليه إذا تأخر فقسمه إلى قسمين ، وهذا مثل قولهم مبتدأ وفاعل ، بل إن قولهم أخصر أو تسميتهم أقل حروفا) .

٤ — وجمعوا المنصوبات تحت اسم واحد هو (التكملة) وهذه أكثر تفاهة من سابقتها فإنهم لم يجدوا رابطة بين هذه المنصوبات إلا فى أنها فضلة ، وأنها منصوبة ، والنحويون قالوا بهذا ، ثم إنهم — أعنى نحاتنا الجدد — قعدوا كل تكملة بباب لا يقل كثيراً عما ذكره النحاة القدامى ، فأى تحرير فى هذا الصنيع ؟ ولا تزال القواعد هى القواعد ، ولم يفدنا جمعها تحت عنوان واحد أية فائدة جديدة ؟ ! .

٥ — وفى الكتاب بين مسائل وآراء خالف فيها المؤلفون النحاة المتقدمين ، ولكنهم أعرضوا عن مناقشة أدلتهم ، وكان الواجب يقضى على من يستدرك على غيره أو يخطئ من رأيه أن يذكر أدلته ويرد عليها ، ولكنه من غير المقبول أن يكون كل الدليل أننا نريد التيسير أو أننا نعفى تلاميذنا مما لا يروقنا من أدلة المتقدمين وقواعدهم .

من أمثلة ذلك اعتبارهم ضمائر الرفع المتحركة حروفا قالوا حتى لا يخلط التلاميذ بين ألفى الزيدان قاما وبين واوى الزيدون قاموا ، وبين تاء كتبت للمؤنثة (الساكنة) وتا كتبت للتكلم أو الخطاب (المتحركة) . فى الوقت الذى نبهوا فيه على أن (نا) إذا سبقت بناصب أو بجار كانت ضميرا ، فلا مانع عندهم أن يخلط التلاميذ فى هذه الآية « ربنا إننا آمنا » فيقولون إن (نا) الأخيرة حرف ، وأما الأولى والثانية فاسمان ، وكذلك لا مانع أن يخلط التلاميذ بين كافى (ذلك كتابك) فهى حرف فى الكلمة الأولى واسم فى الكلمة الثانية ، ولكن البأس كل البأس أن تختلط على التلاميذ التاءان فى أنت كتبت وهند كتبت.

ومن ذلك إنكارهم للضمير المستتر فى الفعل وفى المشتق ، وقد أشرت فيما سبق إلى هذه المسألة ، ولكنى أريد أن أبين سلبيتهم ، فهم لم يناقشوا دليل النحويين ، على استتار

الضمائر فى الأوصاف ، ومنه قول العرب : مررت بقاع عرفج كله ، ومررت بقوم عرب أجمعون . ألا ترى أن أجمعون توكيد مرفوع ولا وجه له إلا أن يجعل توكيداً للضمير فى عرب وهو مرفوع وكذلك كله توكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع فى عرفج ، وذلك على تأويل الجامدين (عرب وعرفج) بالوصف ، فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعروف ، وبالعرفج المندرج فى هذا الجنس من الشجر ، وإذا ثبت استتار الضمير فى المؤول بالمشتق فأولى أن يثبت فى المشتق المحض .

وإذا ورد عليهم قول جرير :

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ... ما لم يكن وأب له لينالا

وقيل إن جريراً عطف على الضمير المستتر فى (يكن) . وقول ابن أبى ربيعة :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى ... كنعاج الفلا تعسفن رملا

وقيل إن « زهر » ، معطوف على الضمير المستتر فى أقبلت ، إذا قيل لهم هذا قالوا : إن جريرا لم يعطف ، وإن عمر لم يعطف ، فنقول لهم : فكيف تخرجون هذا الأسلوب ، وطبعى أن يسكتوا ، ولكنهم لا يرضون بالسكوت ، فيقولون : نحن نعنى تلاميذنا ، ونعلمهم ألا يستعملوا مثل هذا الأسلوب إذا صادفهم . وهو - والله - أمر غريب . كأن الذى يقعد قواعد جديدة إنما يجعلها أثوابا يفصلها على تلاميذه ! .

هذه التقعيدات وأشباهها هى كل ما زادوه على النحو القديم ، مع طرحهم العلل وكثيراً من الخلافات ، فإذا كان هذا يعتبر تحريراً للنحو ، فأنا أهنئهم على هذا الفتح المبين ؟

على العمارى

الثعلبان

وقع ثعلبان فى شرك صائد ، فلما انتصف الليل ، قال أحدهما للآخر : يا أخى أين الملتقى ؟ قال : فى الفرَّائين [1] بعد ثلاثة أيام .

الذئب

أخذ رجل ذئبا فجعل يعظه ويقول : إياك وأخذ أغنام الناس فيعاقبك الله ، والذئب يقول : خفف واختصر ، فقدامى قطيع من الغنم - لئلا يفوتنى . . . !

---

(١) الفراء : صانع الفراء أى : إننا سنذبح وتتخذ من جلودنا الفراء .

نعم، ينتفع الميّت بعمل الحىّ

للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى

قرأت بمجلة الأزهر فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ تحت عنوان هل ينتفع الميت بعمل الحى ؟ للأستاذ عمر الجندى كلمة تحدث فيها فضيلته عن مدى انتفاع الميت بعمل الحى.

ولما كان فيما كتبه مجافاة عن الصواب أحببت أن أكتب كلمة أبسط فيها الموضوع من جميع وجوهه فأقول : للعامل ثواب ما عمل من الصالحات وقد أجازت الشريعة الإسلامية للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صدقة أو غيرها ، وقد استدل العلماء على ذلك بما جاء فى الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته ممن أقر معه بالوحدانية وشهد له بالرسالة ، بما رواه الدارقطنى: أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان لى أبوان أبرهما حال حياتهما فكيف لى ببرهما بعد موتهما فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن من البر بعد الموت أن تصلى لهما مع صلاتك وتصوم لهما مع صيامك ... » .

كما أجمع العلماء على أن الميت ينتفع من عمل الحى بأمرين :

الأول : ما تسبب فيه الميت حال حياته ، ودليله ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » ...

وما رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علم علمه ونشره أو ولد صالح تركه أو مصحف ورثه أو مسجد بناه أو بيت لابن السبيل بناه أو نهر أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته .

الثانى : دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج والصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ...

ودليل انتفاع الميت بهذا القرآن والسنة : أما القرآن فقوله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » .

وأما الحديث : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » .

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت عنها ؟ قال نعم ، قال فإني أشهدك أن حائطي «المخراف» صدقة عنها .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .

وروى البخاري عن ابن عباس أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء .

وصول ثواب قراءة القرآن للميت :

يقول ابن القيم : وأما قراءة القرآن ، وإهداؤها للميت فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

ويقول الشوكاني في نيل الأوطار ما نصه: وقد اختلف في غير الصدقة من أعمال البر هل يصل إلى الميت أم لا فذهب المعتزلة إلى أنه لا يصل إليه شيء .واستدلوا بعموم الآية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وقال أهل السنة : إن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة كان أو صوما أو حجا أو صدقة أو قراءة قرآن أو غير ذلك من جميع أنواع البر ، ويصل ذلك إلى الميت وينفعه .

وقال الشافعية في شرح الروضة في كتاب الإجارة : إن الذى دل عليه الخبر بالاستنباط أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه إذ قد ثبت أن القارئ لما قصد بقراءته نفع الملدوغ نفعته وأقر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله (وما يدريك أنها رقية) وإذا نفعت الحي بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات بغير إذنه ما لا يقع عن الحي .

وقال المالكية في الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل السلف الصالح لكن المتأخرين على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابهما للميت ويحصل له الأجر إن شاء الله وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف .

وذهب أحمد بن حنبل إلى أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى الميت .

وقال العلماء أيضا : إن قضاء الدين عن الميت يسقط من ذمته ، ولو كان من أجنبي

أو من غير تركتـه ، وإذا كان الميت ينتفع بالإسقاط والإبراء فكذلك ينتفع بالإهداء والهبة ، ولافرق بينهما لأن ثواب العمل من حق المهدى الواجب فإذا جعله للميت انتقل إليه كما أن ما على الميت من الحقوق من دين وغيره هو محض حق الحى فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته .

كما ورد عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال : (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليـه) بمعنى أنه يتألم كذلك فإذا كان الميت يعذب ويتألم بالبكاء أفلا ينعم ويسر بقراءة القرآن ؟ .

الشبه التي اعتمد عليها المانعون وردها :

قالوا إن هذا لم يكن معروفا فى السلف ولم ينقل عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير .

والجواب أنه قد ثبت وصول ثواب الحج والصوم والدعاء والاستغفار ، بالأحاديث الصحيحة فما هى الخصوصية التى دعت إلى وصول ثواب هذه الأعمال ومنعت من وصـــول ثواب قراءة القرآن وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات .

فإن قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة قلنا : إن ما ورد من أحاديث الحج والصوم والصدقة كان جوابا عن أسئلة السائلين فهذا سأله عن الحج عن ميته ، وذاك سأله عن الصوم ، والآخر سأله عن الصدقة. ولم يرد أن أحداً من الصحابة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن على الموتى ، كما أنه لم يرد عن الرسول عليه السلام منع لهذه القراءة .

على أنه قد وردت أحاديث تفيد جواز قراءة القرآن على الموتى .

فقد روى الدار قطنى عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ووهب أجرها للأموات كان له من الله أجر كبير .

وفى النسائى من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اقرءوا يس عند موتاكم ، وأخرجه أبو داود وأحمد فى مسنده وابن حبان وصححه .

وروى الشوكانى فى باب المحتضر عن شريح عن أبى الدرداء وأبى ذر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه .

ومما استدل به كاتبنا وغيره قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقوله « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » وقوله « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

والحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وولد صالح يدعو له وعلم ينتفع به بعد موته » .

وأقول لهؤلاء جميعا إن الآيات والحديث لا تثبت مدعاهم .

أما الآية الأولى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فيقول ابن القيم : إن رد الاستدلال بها من وجهين :

الوجه الأول : أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد وتزوج الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه واهدَوْا له العبادات وذلك من أثر سعيه كما ورد فى الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه) وأيضا فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاع نفسه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الأعمال التى يشتركون فيها كالصلاة فى جماعة والاشتراك فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نتيجة سعيه .

الوجه الثانى : أن الآية لم تنف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفت ملكه لسعى غيره ، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى ، فالآية تقول : إن الانسان لا يملك إلا سعيه أما سعى غيره فهو ملك له إن شاء أن يبقيه لنفسه أبقاه وإن شاء أن يبذله لغيره فعل .

يقول ابن القيم وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

أما الآية الثانية « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » والآية الثالثة « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » فالرد أن سياق الآيتين يدل على نفى عقوبة العبد بعمل غيره ولا يدل على نفى انتفاع غيره فالإنسان ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء وإنما على أنه صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل الله بها على يد بعض عباده .

وأما الاستدلال بالحديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . .) فاستدلال باطل أيضا ، فإن الرسول عليه السلام لم يقل انقطع انتفاعه ، وإنما أخبر عن انقطاع عمله ، وأما عمل غيره فهو لعامله ، فإن وهبه لغيره ، فقد وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالمنقطع شىء والواصل شىء آخر .

هذه هى أدلة المانعين وردها ، وإذا ثبت بطلانها فقد سقط مدعاهم وهو أن الميت لا ينتفع بعمل الحى .

وثبت مذهب الجمهور من أهل السنة والفقهاء ، وهو ما جرى عليه عمل المسلمين نسأل الله الهداية إلى فهم دينه والعمل بسنة نبيه ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

محمد عبد الحميد البوشى
المدرس بمعهد سوهاج الدينى

الأزهر منذ أربعين سنة

للأستاذ محمد على غريب

— ٣ —

احتاج الأمر إلى أن نقوم بطائفة من التجارب ، لنسلك سبيلنا إلى مسجد (إبراهيم أغا) على مقربة من القلعة ، وكنا خمسة طلاب فى السنة الأولى ، نخرج من منزل واحد ، وكنت وأخى الأكبر نسكن فى حجرة واسعة ، أجرها فى الشهر أربعون قرشا ، والطريق من (الباطنية) إلى المسجد عجيب ، فإن علينا أن نسير فى طرقات ودروب وأزقة متشعبة .

وفى أول يوم جاء معنا طالب كبير يرشدنا ويوصينا بألا ننسى معالم الطريق ، فكنا نتلفت فى فضول إلى هذه الأبنية القديمة المتخربة ، ونقرأ لافتات الدروب والحوارى والأزقة .

وفجأة برز من أحد المنعطفات صبية وأطفال صغار ، راحوا يقذفوننا بالطوب ويتغنون :

يا مجاور عمتك دابت
م الطرشى والفول النابت

ودهشنا كثيراً وغمرتنا موجات من الغضب والحزن والاضطراب ، فنحن لم نؤذ هؤلاء الصغار ولكنهم يهاجموننا فى عنف وقسوة ، وثمة قليل من السابلة ينظرون إلينا ويضحكون .

وجعل قائدنا يجرى وراء هؤلاء الأطفال ويحصبهم ويصرخ فى وجوههم وهم يحاورونه ويداورونه والابتسامات على شفاههم وأيديهم تعبث فى الأرض لتلتقط الحصى ، ولم يكن هناك مجال لأن ننسحب ونجرى هاربين فإن لنا نحن القرويين كبرياء تمنعنا من اقتراف هذه الخطيئة .

وأصابنا من هذه المباغتة فزع ورعب حقيقيان أرغمانا على أن نلوذ بالصمت ، وفى نفوسنا ثورة من الحنق والأسى والغم ، ولم يكن فى طوق أحدنا أن يرفع عينيه إلى زميله كما لو أننا ضبطنا متلبسين باقتراف إحدى الحماقات ، وفتحت النوافذ على رءوسنا وبرز منها النسوة ضاحكات عابسات ، والتقت كل واحدة منهن بجارتها التى يقع منزلها

قبالتها وراحتا تتخذان من ضعفنا وخزينا مادة للتبسط فى الحديث والثرثرة المجوجة .

وأعلنت الهدنة بعد أن شبع الأطفال من مزاولة مهنة الحرب التى هى هوايتهم المفضلة مع الطلاب الأزهريين فى هذه البقعة وفى البقاع المحيطة بالأزهر وفى المساجد التى يتلقى العلم فيها طلابها .

وفى الطريق لقينا (الشيخ مصايب) وهو من بلدة تجاور بلدتنا ولنا ببعض أهلها قرابة وكان يعرفنا ، ومظاهرنا القروية تكشف عن هويتنا ، فنحن نمثل خمسة من القرويين يسلكون طريقا بين الحقول إلى غايتهم فى فلاحة الأرض .

وقال لنا الشيخ مصايب :

- رايحين تقشروا درة فين يا مشايخ ؟

ورد عليه أخونا قائلا :

فى عزبة (العظايمة) !

والشيخ مصايب هذا كان طالبا أزهريا وفسد ، وأضحى يغشى مجالس الكبراء والأثرياء والعظماء ويطرفهم بنكاته وأمازيحه وكانوا يفتقدونه إذا غاب ، ويبعثون وراءه بالرسل ليحضروه ... فما ينبغى أن تخلو هذه المجالس الفخمة من مضحك يفتح أفواه هؤلاء السادة المترفين بالابتسامات والضحكات .

ولم يكن هذا هو اسمه . . . بل إنه انتحل اسم (الشيخ مصايب) من أزهرى مثله كان من جهينه وسمى نفسه بهذا الاسم وصار يخالط أهل الثراء والمقدرة ، ويفيد من وراء اتصاله بهم خيراً كثيراً لأنه كان خفيف الظل . . حاضر البديهة ، يملأ جعبته بقدر كبير من النكات والأضاحيك .

وانتهينا أخيراً إلى مسجد (إبراهيم أغا) الذى يدرس فيه طلاب السنة الأولى من القسم الابتدائى بالأزهر ، وصعدنا إليه فى سلم عتيق ، وعلى الباب استقبلنا شيخ ضخم الجثة اسمه بيومى وراح يسألنا عن أسمائنا وينظر فى أوراق مطبوعة بين يديه . ثم أشار إلى المكان الذى سنجلس فيه على الحصير وهو الفصل التاسع عشر .

هل قلت لك إن اسمى أصبح مطبوعا على الورق ؟ . . إننى لم أتأكد من ذلك ، ولكن زملائى راحوا يؤكدونه فداخلنى من السرور بقدر ما يداخل باحثا فى منجم عندما يرى أمامه جبلا من الذهب .

كنت أتمنى أن أرى اسمى مطبوعا ولو سجنت بعدها ثلاثة عشرة عاما ، ولعل هذه الرغبة الصبيانية التى خامرتنى فى ذلك الحين ، والتى أعنف نفسى عليها اليوم تعنيفا شديدا ، رغبة طبع اسمى على الورق ، أقول لعل هذه الرغبة هى من بين الأسباب التى قادتنى إلى امتهان الصحافة والعياذ بالله ! .

وجلسنا على الأرض حول مقعد خشبى ،

ورأينا إخواننا الذين بقوا فى الفصل من العام الماضى لأنهم رسبوا . . قد أحضر بعضهم حذاء خفيفا اسمه (المزج) واشتمل به فى داخل المسجد ، وبعضهم فرش على الحصير مكان جلوسه (فروة خروف) وكل ذلك لاتقاء الرطوبة التى تنبعث من الأحجار .

أما أنا فقد شربت هذه الرطوبة ، واكتويت بنيرانها ، وما تزال آثارها الأليمة عالقة ببدنى . . أحاول جاهدا أن أتخلص منها بالتردد على كثير من الأطباء وتعاطى أشتات من الأدوية .

وجاء الشيخ الذى سليقى علينا درس الفقه ، وجلس على الكرسى كما لو أنه يجلس على عرش بلقيس ، ومد إلينا يده فقمنا إليه جميعا ولثمنا هذه اليد ، وهو صامت لا ينطق بحرف .

ثم رحنا نصغى إلى درسه وقد فتحنا كتاب الفقه ، ومضى الشيخ يفسر ما عسى أن يغمض علينا ، ولم يكن الكثيرون منا يفهمون شيئا ، ولكنهم كذلك لم يستطيعوا أن يوجهوا أسئلتهم إلى الشيخ ، فقد عقدت هيبته ألسنتهم ومنعتهم من أن يبوحوا بما يخامرهم من طلب الاستفهام والاستفسار .

على أن زملاءنا الراسبين كانوا أوفر جرأة منا . . فراحوا يسألون . . وفضيلة الشيخ يجيبهم فى صبر وتؤدة ووقار . ولعل هذا قد أغراهم بأن يسرفوا فى الأسئلة فنهرهم الشيخ . . ثم صرخ فى وجوههم . . وهم لا يكفون عن توجيه الأسئلة إليه كما لو أن هذه الصرخات تذهب فى الهواء .

وانتهى درس الفقه ، وجاء درس النحو... وجلسنا فى أماكننا بعد فترة يسيرة من الراحة ، وجاء إلينا شيخ لا أدرى كيف أصفه ، فقد هممت بأن أضع يدى فى جيبى وأمنحه إحسانا ... حسبته مستعطيا غافل ملاحظ المسجد وهجم علينا يبتغى الإحسان .

كان جلبابه ممزقا . . وحذاؤه أشبه شىء بحبل من الخوص طغت عليه الأقذار ، وكانت عمامته يعلوها سواد لا أدرى من أين جاء إليها ؟ . . وهو بعد هضيم الوجه . . محدودب الظهر . . وفى عينيه بريق السخط والضجر والتحدى .

ورغم ذلك لثمنا يده وجلسنا . . فبدأ كلامه بالبسملة ... بسم الله الرحمن الرحيم ... ثم طلب إلينا أن نعربها ! وأصابنا وجوم مروع ، وأخفينا وجوهنا فى صدورنا ... فمن أين للطالب الذى يشهد درس النحو لأول مرة أن يعرف إعراب البسملة وكيف يتسنى له أن يدرك شيئا من ذلك وهو لا يعرف ما هو النحو وما هو الإعراب ؟ .

على أن الشيخ كان ماضيا فى سخطه واشمئزازه

دون أن ندرك لذلك سببا ... فنحن بين يديه فى موقف التلميذ الطيع ولم تبدر من أحدنا بادرة إزعاج له أو مضايقة ... حتى يمكن القول بأننا أثرنا حفيظته، وأغضبناه

وعرفنا أخيراً أن هذا الشيخ يشبه (أى) التى يقول النحاة عنها (أىّ هكذا خلقت) فهذه هى طبيعته الغالبة عليه ولعل ذلك من أثر حياته الشقية المعذبة التى يحياها ، فهو يقبض الجنيهات الكثيرة ، حيث كان علماء الأزهر قد رفعت مرتباتهم فى ذلك الوقت ، ولكنه يرفض أن يستأجر له مسكنا ، وهو يقيم فى الأزهر ، وينام على أرضه وله خزانة خشبية صغيرة تضم معاشه.

وليس فى استطاعة أحد أن يزعم بأنه يعرف ماينفقه هذا الشيخ على نفسه فى الشهر ، ومن المقطوع به أنه لا يزيد على ستين قرشا مع التسامح الشديد ، وما بقى من فلوسه الكثيرة يدخره ليشترى به أرضا فى قريته .

وانهالت الشتائم من فم هذا الشيخ علينا كقذائف المدفع ... شتائم مهينة مؤذية . . تمتد إلى الآباء والأجداد، وكان يردد بين لحظة وأخرى أننا (هاربون من السلطة العسكرية)!.

كنا فى ذلك الوقت فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وكان الانجليز يختطفون الرجال من قراهم ليعملوا فى معسكراتهم ، ويسمونهم (متطوعين) وكان بعض هؤلاء المساكين يهربون من قراهم ليحتموا فى الأزهر خشية أن تمتد إليهم يد (السلطة العسكرية) الآثمة ، وتقودهم إلى الموت .

غير أن أكثرنا لم يكن كذلك ، ومع هذا فإن الشيخ أصر على أننا هاربون من السلطة العسكرية وكأنما طاب له هذا التعبير فراح يردده بين كل كلمة وأخرى إمعانا فى إساءتنا وانتقاص كرامتنا ... حتى لم يعد لدينا ما يمكن أن نبذله فى هذا الصدد سوى أن نخنق فى قلوبنا جذوة الحقد على هذا الشيخ المسكين .

وبدأنا نقرأ ما فى إعراب البسملة من وجوه .

قرأنا :

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا
فالجر فى الرحيم قطعا منعا

وفهمنا أن هناك تسعة عشر وجها فى إعراب البسملة ، وحفظنا الشعر الذى حشيت فيه هذه الوجوه ، ولكننا لم نعرف شيئا منها .

وفارقنا أستاذ النحو هذا ... فتنفسنا الصعداء ، وحمدنا الله كثيراً ... وإن كان قد ترك وراءه شتائمه المقذعة الفاحشة تملأ علينا جو الفصل التاسع عشر .

وفى منتصف النهار ... أذن لنا بالغداء ، فعاد الكثيرون منا إلى منازلهم على أن يرجعوا إلى الدروس مرة أخرى ... وفينا من أحضر غداءه معه وتناوله فى داخل المسجد.

وعند خروجنا من باب المسجد لمحت عربة يجرها جواد مطهم ، ورأيت طالبين معنا

يركبان فيها فهى عربتهما الخاصة ، وسألت عنهما ... فقيل لى ... إنهما ابنا فضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية فى ذلك الحين .

ولما انفسح الوقت أمامنا ... تكشفت لنا ظاهرة غريبة ، جعلتنا نعجب من أن (مفتى الديار المصرية) يرسل ولديه أو اثنين من أقاربه إلى الأزهر ، مع أن القاعدة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت هى أن أكثر علماء الأزهر كانوا يبخلون بأبنائهم عليه ، ويبعثون بهم إلى المدارس المدنية ...

وكانت القاعدة الثانية . أن أبناء شيوخ الأزهر الذين يدرسون فيه هم أقرب الطلاب إلى التحلل والاندفاع فى مسالك اللهو والعبث .

كانوا يتخذون من نفوذ آبائهم ستراً يخفون تحته حماقاتهم ورذائلهم ، وكانوا وهم طلاب فى الفصول يرفهم أكثر الأساتذة لأنهم أبناء زملائهم . فيغضون الطرف عن مساوئهم وزلاتهم ، وكثيراً ما ترى الواحد منهم يحضر إلى الدرس ، وبعد قليل ينصرف منه بحجة أنه مريض ، وإن كان من الثابت أنه يغادر المسجد إلى المقهى أو إلى الحديقة التى تشرف على قصر النيل فيقضى أوقاته كلها لاهياً عن الدرس ، بعيداً عن محيطه.

مضينا إلى الغداء فى المنزل وأشد ما يخيفنا أن نجد هؤلاء الصبية الصغار يتربصون بنا . على أننا لم نجدهم فى هذه المرة ، وقد حمدنا الله كثيراً ، ولكننا فى العودة لقيناهم وقد اشتبكوا فى معركة مع اثنين من الطلاب الأزهريين الذين سبقونا فى المسير فلم نجد بداً من أن نركض بكل ما وسعنا جهدنا وقوتنا حتى تنجو من هذا العذاب الأليم .

إن هذه المهزلة التى كانت تتكرر فى طرقات العاصمة مع الطلاب الأزهريين دون سواهم كانت تحز فى نفوسنا فى ذلك الوقت وتخدش كبرياءنا ، وتلقى بكرامتنا فى الوحل . فلم يكن أمضّ على قلوبنا من أن نرى أنفسنا محاصرين بهذه الأغنية المتبذلة ، وبهذه الضحكات الوقحة، وبهذه النوافذ التى تفتح من فوق رءوسنا لتشهد مأساتنا المخزية ! .

أكان فى وسعنا أن نسلك طريقا آخر إلى المسجد يختفى من منعطفاته هؤلاء الأطفال المجرمون ؟ لم نكن نعرف لسوء حظنا سوى هذا الطريق ، على أنه ، ما الذى يؤكد لنا أننا فى الطريق الآخر لن نفاجأ بصبية آخرين يحفظون عن ظهر قلب هذه الأغنية الدنسة ويروحون يعذبوننا بسخرياتهم المقيتة؟.

ورغم هذا كله لم يكن ثمة مجال لأن نصل إلى المسجد طائرين فى الجو أو سالكين دروبا تحت الأرض ، فلا بد لنا من الظهور ولا بد لنا من أن تلتقى عقابنا على أننا طلبة أزهريون ؟

محمد على غريب

وضع الربا في بناء الاقتصاد القومي

للأستاذ عيسى عبده ابراهيم

— ٣ —

موضوع « الربا والثمن العادل » هو من الموضوعات البارزة ، التي ستظل دائماً من معايير التميز بين نظم الحياة في القرون الوسطى وبين أنظمة العصر الذي نعيش فيه .

فلننظر ، إذن ، إلى ما كانت عليه الحال في ذلك الوقت المبكر نسبياً ، في البلاد التي تطورت ووصلت بحضارتها المادية إلى حد جعل غيرها ينظر إليها على أنها صاحبة القيادة في كل من مجالات النشاط الاقتصادي ، وكذا الفكري ، فنجد مثلا أنه إلى القرن الثالث عشر تقريبا لم تكن انجلترا قد عرفت بعد ما هي الرأس مالية . بمعنى أنها لم تمارسها ؛ لأن الثروة المجمعة - عندئذ - لم تكن من الأهمية بحيث تثير هذا المفهوم الاصطلاحي ، بصورة تلفت نظر المجتمع ... بما في ذلك الجماهير ، والممولين والمصلحين أيضاً .

إلا أنه في جهات أخرى من أوروبا - ومنها فلورنسا والبندقية ولوبيك - وجدت عناصر من تجار ذلك الزمن ، الذين كانوا دائما على استعداد للمخاطرة بأموالهم الخاصة وبحياة الآخرين ... في طلب الثروة ، ومن ثم لم تكن تقف في سبيلهم أية عقبة مادية أو معنوية ، بل انحصر همهم في جمع المال ... وفي بعض المدن الانجليزية - على أية حال - ومنها لندن وبريستول وبلاد أخرى أقل أهمية ، ظهرت صور متواضعة ، وفي نطاق ضيق ، للرأس مالية .

وقد حفظ التاريخ نماذج لهذه الصورة المبكرة من صور الرأس مالية الباغية ، في المجتمع الانجليزي لرجال من الوافدين على الجزر البريطانية ، وبخاصة من الجهات التي كانت تتجر مع بريطانيا ، عندئذ . مثل لومبارديا وفلنج وهانزا ...

ومع ظهور البوادر المبكرة للرأسمالية ، زادت حدة مشكلة الربا ، وهي المشكلة التي تأخذ صوراً عديدة ... منها الإقراض بفائدة محددة سلفا ، ومنها صور أخرى أشد إيذاء للمجتمع ، على نحو ما سيتضح في الموضع المناسب .

* * *

وفي هذا المجال - كما في مجالات كثيرة أخرى - تدخلت سلطة الكنيسة بقصد الإرشاد ، ولكن في رأي الأستاذ كولتن - في كتابه : « تاريخ العصور الوسطى » كان تدخل الكنيسة أقل من حيث الأثر والشمول ، من الصورة المبالغ فيها ، التي عمد بعض المؤرخين إلى مطالعة الناس بها .

كان الآباء من رعاة الكنيسة ، يتجاهلون التجارة على وجه العموم أو يعلنون سخطهم عليها وعلى من يمارسها ، بمقولة : إنها خطيئة وكان موقفهم هذا من التجارة شبيها بموقفهم من إدخال الفنون إلى مبانى الكنائس ، لزخرفتها بالصور والتماثيل .

ولكن يلاحظ أنه فى هذه الآونة ، وفى الأجيال التالية لها ، كانت الكنيسة ، أو كان رجال الإكليروس يملكون بصفتهم هذه أكبر مساحات من الأرض ، وكانوا يحتلون قمة الإقطاع .

ومع ذلك كانوا يقفون من التجارة موقفا لا يكتفون فيه بمجرد الترك والإهمال أو الإنكار .

وإنما تطور موقفهم هذا إلى نوع من العداوة السافرة والاضطهاد .

هذا عن الصراع بين الرأسمالية المبكرة ممثلة فى التجارة وفى عقد القروض بالفوائد الربوية من ناحية ، وبين سلطة الكنيسة التى حرمت النشاط الاقتصادى فى صورته السالفة الذكر ، وأباحت الإقطاع وتربعت على عرشه المادى الخالص .

أما الجماهير ... أما الشعوب ، فإنها كانت بطبيعة الحال ، تحس أو تتجه بميولها وبرغباتها لمجابهة المصالح الخاصة الظالمة التى طالعتها من جانب الإقطاع ، ومن ثم كانت تميل مع التجار والمرابين إلى المجابهة والمعارضة لما يصدر عن هذه السلطات الدينية من تعاليم ومن آراء .

وكان المجتمع الذى يضم هذه الطبقات يرزح تحت السيطرة المادية والمالية لملاك الأراضى وعناصر الإقطاع من ناحية ، ويرسف من ناحية أخرى فى أغلال وقيود فكرية تتمثل فى سلطة روحية غامضة تسترهب العامة . ومن هذه السلطة الروحية موقف الكنيسة من التجارة ومن القروض الربوية على ما بينا .

ولقد تبلورت العقيدة التى تفشت فى الجماهير عندئذ بمعظم الدويلات والممالك الأوربية فى مقابلة غامضة بين فكرة التخليص أو الخلاص أى خلاص النفس من الخطيئة التى تنغمس فيها ، إن هى عارضت آراء الإكليروس ، ونشطت إلى الحرف والتجارة . هذا من ناحية وبين المجازفة بالتردى فى اللعنة التى تحل بالناس إذا هم جرءوا على مجابهة تعاليم الآباء من رجال الدين ، واشتغلوا بالحرف والصناعات وبالتجارة .

ولم تكن الخطيئة مجرد سيئة لا يجزى مقترفها إلا بقدر ما اقترف من ذنب ولكنها كانت ـ كما قيل آنئذ للناس ـ خطيئة أبدية ولعنة مقيمة فى الأرض وفى السماء ، فى الحياة الأولى وفى الحياة الآخرة ، ويقابل هذه

الصورة الموحشة التى ترتعد لها الفرائص ، سلام دائم ، وخلاص للنفس البشرية يدوم أبد الآبدين .

وبين هاتين الصورتين اهتزت نفوس الجماهير بفعل العقيدة التى تولى بثها والدفاع عنها رجال الدين وهم عندئذ من كبار ملاك الإقطاعيات التى كانت تدر عليهم إيرادات وفيرة تكفل لهم النعيم وهو نعيم حلال كما كانوا يقولون .

وإنه لمن المفيد أن ننظر إلى بعض نصوص التشريع السابقة والمعاصرة ذات الصلة بهذا المجال ، ومن ذلك أن القانون الامبراطورى لروما Roman Imperial Law كان ينظر إلى المجادلة عن الثمن (أو الفصال) على أنها مسألة جرأة فى المنافسة ، أو مسألة أسلوب بمجرد أسلوب ، فى ممارسة المنافسة الطليقة ، أو الحرة ، فكان يقول :

sell as dear and buy as cheaply as you can; all is fair, short of actual cheating.

إذا اشتريت فابخس الثمن ما استطعت ، وإذا بعت فضاعف الثمن ما وجدت سبيلا إلى المضاعفة ، ولا حرج ، فهذا وذاك عدل فى المعاملة بشرط ألا تدخل الغش ...

أما قانون الكنيسة (وقد تأثرت به قوانين الحكومات التى عاشت فى ذلك الزمن ، أعنى : القرون الوسطى) فقد جنح إلى شىء من الإنسانية حين قرر ما يلى : « كل فرد يرعى مصلحته الخاصة ، ولكنه (أعنى القانون الكنسى) لم يقف عند هذا الحد بل أضاف ضابطين للمعاملات قائلا :

كل يرعى جاره ، وكل فرد مطالب بأن يعامل الناس (أو الآخرين) بما يحب أن يعاملوه به ولكن هذه التعاليم التى جاءت بها قوانين الكنيسة لم تستمر من حيث التطبيق الشامل طويلا ...

وينسب السير وليام أشلى فى بعض مؤلفاته أقوالا لكل من توربليان وجيروم والقديس أو غسطين ..

فيقول الأخير ما يلى : إن ممارسة الأعمال business هى فى حقيقتها خطيئة ؛ لأنها تصرف النفس عن الحق وهو الله ، وفى الاتجاه إلى الحق وحده الراحة الحقيقية والسلام rest .

ويروى كولتون (المؤرخ العالم المشار إليه آنفا) فقرات أخرى لم يذكرها السير ويليم أشلى ، وقد تضمنتها مؤلفات أخرى ومنها ما هو منسوب إلى جون كيسستوم ، ومفادها من اشترى شيئا لا ليبيعه على هيئته (التى اشتراه عليها) وإنما ليكون مادة لإعداد شىء آخر ، فانه لا يعتبر تاجرا ... ولكن الشخص الذى يشترى شيئا ليعود فيبيعه على حاله وبغير تعديل يجريه عليه ، فإن هذا الشخص الأخير يدخل فى زمرة المشترين والبائعين المبعدين عن حظيرة

المعبد وقدسيته (هكذا فى الأصل) وواضح أن المقصود ، هو الإبعاد عن جانب الله ، أو الطرد من رحمة الله .

ومن ثم كان شراء السلعة لإعادة بيعها (كما هى) خطيئة لا تقل عن الربا من حيث جسامة الجرم ، سوى درجة واحدة .

وهذه الأقوال ، لا تخرج عن كونها امتدادا منطقيا لتعاليم بولس الرسول ، أو القديس بولس الذى قرر بأنه : من حيث إن المسيحى لا ينبغى له أن ينازع أخاه المسيحى نزاعا قضائيا فإنه يتعين ألا تكون بين المسيحيين تجارة ناشطة .

* * *

ولكن تعاليم الكنيسة تراجعت فى مواجهة التنظيم الوضعى للنشاط الاقتصادى ، ومن ثم نبتت فكرة الثمن العادل The just Price التى تبيح البيع والشراء على شريطة ألا يكون هنالك غلو فى الربح . وكل غلو يعتبر كسبا محرما . وكل تجارة تجىء لصاحبها بما يزيد على الكسب المشروع (فى نظر المجتمع) تعتبر بدورها تجارة محرمة ، كتحريم الربا وحد الكسب المشروع ، هو ما يحفظ على التاجر مركزه العادى فى الوسط الذى يعيش فيه .

إلى هذه الدرجة ، إذن ، تطورت التعاليم التى كانت تحكم التجارة فى أواخر القرون الوسطى ، المبكرة ، أى حول القرن الخامس عشر .

ويرى الأستاذ كولتون ، أنه عند هذا الحد ينبغى القول بأنه لم يكن من المستساغ أن تنسى هذه التعاليم وأن تطرح تماما ، وبالفصل بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد السياسى ؛ لأن الفصل بين العلمين فصلا تاما ـ فى رأيه خطأ ، كالفصل بين أى علمين آخرين ، ونقول بأن هذا الرأى صواب كما نقول أيضا بأنه عندما تراجعت الكنيسة عن التحريم القطعى للتجارة ، إلى القول بالثمن العدل . وعندما قالت بتحريم الكسب الفاحش وأنزلته منزلة الربا ، قد وصلت بالتأمل إلى رأى صائب ؛ لأن الربا فى حقيقته هو كل اعتصار للضعيف ، سواء أكان هذا الجرم يتخذ صورة القرض النقدى ، أم صورة من صور الحيل التى تضفى على العقد صورة البيع ، وهو فى حقيقته ربا ... أم كان الاعتصار بأساليب أخرى كاحتكار الأقوات .

* * *

على أن التطور الذى أشرنا إليه ، وقلنا بأنه قضى على التحريم القطعى للتجارة (وقد قالت به الكنيسة فى أوائل العصر الوسيط ، وعلى الخصوص فى كل من القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وأفسح المجال

لفكرة الثمن العدل) أنهى حالة الجمود والركود ، ومهد للتطوير من جديد ... فجاء « الأب توماس الإكوينى » - بدوره - بفلسفته عن الثمن العادل فى القرن الثالث عشر .

وفى رأيه أن التجارة فى حد ذاتها ليست من الخطيئة فى شىء ، لكنها تحمل بذور الشر بما تنطوى عليه من فرص الإغراء بالكسب الفاحش ، ومن ثم فرص الإغراء بالوقوع فى الخطيئة .

وكان الأب توما الإكوينى على شىء من العلم . ومن ثم فقد خشى أن يصطدم بالتعاليم التى وضعتها الكنيسة من قبل ، ولذلك حين تكلم عن التجارة دار دورة كبيرة وحاول أن يفرق بين المبادلة التى تستهدف مصلحة عامة ، وتلك التى تنصرف انصرافا تاما إلى تحقيق الكسب ، وانتهى إلى القول بأنها (أى التجارة) مشوبة فى أساسها بقدر من الوزر لأنها تغرى بالتزيد فى الكسب غير المشروع ، لأنها لا تستهدف ، على وجه العموم ، خدمة عامة أو فعلا خيرا ... ومع ذلك هى لا تحمل فى ثنايا تكوينها الطبيعى - إذا جردناها من طمع الإنسان - بذور الإثم والخطيئة ، ولا عوامل مناهضة الفضيلة .

وتأسيسا على ما تقدم - يقول الأب توما الإكوينى - بأنه ليس هنالك ما يمنع من القول بأن المتاجرة مأذون بها قانونا ، إن كانت تستهدف تحقيق غاية ضرورية ، أو هدفا نبيلا ...

وهنا بالذات نود التنبيه إلى أن فلسفة الأب توما وما يدور فى فلكها ، هى التى حلت الكنيسة فى القرون المتأخرة (أعنى الثامن عشر والتاسع عشر) على أن تسكت - على الأقل تسكت - حين وجهت أوروبا جهودها نحو الشرق البعيد والشرق الأوسط وشمال إفريقيا فى محاولات لتحقيق هدف ضرورى أو هدف شريف (عند الصليبيين) وهو انتقاص الأمم الإسلامية من أطرافها ، بكل وسيلة ، ومن هذه الوسائل ، بل من أهمها الإقراض بالربا الفاحش المضاعف ، وتحقيق الأرباح الخيالية . أو قل الاغتصاب والنهب المنظم لخيرات البلاد التى رزئت بنزول الفرنجة فيها .

وحين أهل القرن التاسع عشر ، اتخذت هذه الظاهرة سمتها إلى القمة ، فكانت أساليب المتاجرة مع الصين لنهب خيراتها تعتمد - فيما تعتمد عليه - على تخدير الشعب بتشجيع تعاطى الأفيون . وكانت القروض تمنح للولاة والسلاطين بالفوائد الفاحشة ، وكانت عقود الامتياز للتاجرة ولاستغلال الخيرات تصمم على أساس السلب المنظم ، بدعوى حق الامتياز ، ولم تحرك الكنيسة ساكنا . لأن الأهداف - فى نظر الفلسفة الإكوينية

وتطويرها - هي أهداف مشروعة أوشريفة أو هي على الأقل ضرورية للحد من خطر الإسلام الذى بقى على وجه الأرض نوراً للبشرية وقذى فى عيون المبطلين .

وفى جو هذا التنازع بين الفضيلة النظرية المتخاذلة المضطربة ، وبين الصعوبات العملية عند التطبيق فى النشاط الاقتصادى ، مع الوقوف عند حد الثمن العدل ، بقيت مشكلة الربا كواحدة من مشكلات الاقتصاد السياسى المعروف فى القرون الوسطى ، ولكنها تميزت باعتبارها شائكة قاسية ومحرقة. لايكاد الباحث يلمسها حتى تتنازعه تيارات الفضيلة الشفوية من ناحية ، والاعتبارات العملية من ناحية أخرى .

ومما ساعد على بقائها بغير حل ، ادعاء أوروبا فى إبان عصر النهضة أنها تتمسك بدين السيد المسيح عليه السلام ، وأنها صليبية على عهدها السابق ، وأنها تؤمن بالإنجيل الذى يقول بالنص الصريح ، بتحريم الربا والفائدة فى جميع صورها ، ويعرف هذه المعاملات التى يحرمها بأنها « أخذ أى قدر زائد على أصل القرض » .

ولفظة القرض فى لغة التمويل ، أو فى سوق رأس المال تنصرف إلى الدين والمشاركة والمساهمة . على خلاف لغة القانون التى تفصل بين المفاهيم فصلا يقتضيه وضع القواعد الضابطة لكل نوع من أنواع المعاملات والعقود .

ولا تزال لفظة القرض إلى وقتنا هذا — فى دراسة التمويل — تفيد الإمداد بالمدخرات ، بصرف النظر عن الشكل القانونى الذى تصب فيه عملية التمويل . ويظل هذا النظر صحيحاً فى دراسة التمويل ، عندما يكون التمويل فى داخل إقليم معين ، وعندما يكون فى المجال الدولى على السواء ، وهكذا يتضح أن رجال الكنيسة لم يتجنوا بقولهم بأن القرض محرم ، ولا بقولهم بأن المتاجرة والمرابحة والمشاركة والمضاربة كلها حرام ؛ لأن النص الذى يتلونه يحض المسيحى ، أن يعيش فى سلام ومن أجل السلام وراحة النفس ... ومن شأن النشاط الاقتصادى وحب المال ، أن يصرف النفس عن الله . والله وحده الحق .

كان طبيعياً إذن أن تبقى مشكلة الربا شائكة إلى القرون القريبة وإبان عصر النهضة . واستمرت الحال كذلك حتى ثارت المشكلات فى مناسبات دينية ، كالاعتراف . إذ كان القس يسأل المعترف ، والمعترف يجيب ، أو يلجمه الحرج . ولذلك رأت روما أن تصدر تعليماتها المشددة إلى الآباء الذين يخدمون كرسى الاعتراف ، بألا يمسوا

الناحية المالية فى أسئلتهم . بمعنى أن يغضوا الطرف تماما عن ماهية الاستثمارات التى مارسها المعترف بخطاياه . وصدر بهذه التعليمات منشور بابوى فى سنة ١٨٣٠ .

والمحصلة الأخيرة لهذه الأوضاع ، تتلخص فى أن تعاليم الأخوة والتراحم التى انتشرت فى الغرب الأوروبى ، بانتشار تعاليم السيد المسيح ومن تولى الدعوة إليها إلى أن كانت القرون الوسطى — حين بدأ نشاط التجارة يدب دبيبه الأول — قبل الاهتداء إلى الصناعة بمعناها المعروف خلال مائة وخمسين عاما مضت ... أقول بأن هذه التعاليم التى تفيض سماحة ، قد تحولت عندئذ مع تقدم النشاط التجارى والمالى إلى كلام عذب ، لا شأن له بمجالات التطبيق .

وعلى الرغم من النصائح والاحتجاج بين آن وآن ، فإن هذه الأوضاع سادت وبقيت المعاملات والأجور والأثمان وأساليب تثمير المدخرات لا تجد ضابطا فعالا إلا من العادات والتنظيمات الخاصة التى تعمل على حماية جماعة معينة أو أصحاب مهنة أو حرفة . ولم يصل التطور الاجتماعى عندئذ إلى هدفه الذى يتمثل فى قيام مجتمع متماسك ، وذلك بسبب ضعف المواصلات ومن ثم لم يكن هنالك رأى عام بأى قدر له وزنه ولم يكن هنالك أيضا ما يعرف بالضمير الاجتماعى ...

وفى ظروف كهذه لم تكن هنالك فكرة واضحة عن العدالة الاجتماعية التى تمثلها الغرب فيما بعد فى مذاهب اقتصادية دائمة التطور .

* * *

وبارتخاء قبضة رجال الدين عن شئون المال بل عن الشئون الدنيوية ، تقدمت الرأسمالية بخطوات ثابتة وأخذت فى تهذيب الوسائل العتيقة والتخفيف من قسوتها ، ومن ذلك تخفيف الربا ، إلى الفائدة ، على أنه يتعين التنبيه إلى أن فصل الدين والأخلاق عن الاقتصاد قد أفسح المجال أمام المغامرين لكى ينشطوا فى مجالات التنمية بغير ضابط من الخلق أو الضمير ، ولم يتورع أحدهم عن ظلم جاره أو شريكه أو منافسه ، وإن كان هذا الظلم يؤدى إلى تحطيم الخصم .

إلا أن الوقائع المحلية كانت فردية وغير خطيرة ، وإنما تمثلت وحشية الرأس مالية فى زحفها على كل من آسيا وإفريقيا من جهة وعلى أمريكا اللاتينية من ناحية أخرى .

بحيث نجد فى تاريخ استغلال موارد هذه القارات صفحات من التاريخ لا تدانيها وحشية المجوس والتتار .

ومن أقدر الأقلام التى تعرضت لوصف مصادر المدنية المادية الحديثة ، قلم الاقتصادى الأمريكى ثورشتين فبلن ، الذى لم يقف عند حد دراسة أصل الحضارة المادية ، الرأسمالية

الحاضرة ، بل عكف على تجريد الحضارة المعاصرة من زيفها وعرضها للقارئ على حقيقتها . فإذا بها ربا فاحش وتجارة بالعرض وبحياة الآخرين ، وقد كتب إلى آخر حياته فى سنة ١٩٢٩ ، وكان طبيعياً أن يعيش مضطهداً وأن يموت مغموراً فى وظيفة أستاذ للاقتصاد بجامعة صغيرة ، بعـد أن طارد أصحاب الصناعات وهم جبابرة المال ، وهم أيضا الممولون للجامعات الكبيرة .

إلا أنه وجد أيضا من يدافع عن الرأسمالية المؤسسة على المعاملات الربوية ، ومنهم آرثر لنك فى كتابه عن التطور الرأسمالى فى الولايات المتحدة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٥٥ .

ومن الاقتصاديين الأمريكيين أيضا من يرى أن الحياة الاقتصادية الحاضرة ، لا تقوم إلا على الربا ، وقد وصل بتحليل ظريف إلى أن إيجار الأرض والعقار ، فائدة ، والأجور والمرتبات ، فائدة ، وجزاء رأس المال الخالص ، فائدة ، وربح المنظم فائدة أيضا . وعنده أن الظاهرة الربوية المخففة هى علة النشاط وهى المعيار الأوحد للعدل فى توزيع الثمرات ، أى ناتج كل نشاط يباشره الإنسان بتسخيره لقوى الطبيعة وتوظيف رأس المال والجهد والكفاية ، ومن هؤلاء بول صامولسون الأستاذ ببعض الجامعات الأمريكية (الاقتصاد والتحليل سنة ١٩٥٣) .

خفت صوت الدين إذن فى الغرب ، من أربعة قرون على الأقل ، فى مشكلة الربا والفائدة والربح الفاحش ، وكلما اقتربنا من القرن التاسع نجد أن الرأسمالية قد استقلت بوضع أقيستها ومعاييرها للمعاملات ، وبخاصة بعد الثورة العلنية على السلطة البابوية فى شئون الدنيا ، وقد رفع رايتها نابليون فى حفل تتويجه على ما هو معروف ، عندما تناول التاج بيده وأقره على رأسه ، على خلاف التقليد الذى كان باقيا لإنقاذ الشكل ، بعد أن ضاع الجوهر ، والذى كان يقضى بأن يكون إسناد السلطة الزمنية إلى الامبراطور أو الملك ، بيد الكنيسة ممثلة فى رجل الدين.

ولذلك يتعين القول ، بأن البحث فى الربا والفائدة ، يعتبر عند علماء الغرب ، من القرن التاسع عشر إلى الآن ترفا تاريخيا أو بقية من التعصب الأعمى .

* * *

ووجه الخطورة فى هذه الجزئية أننا هنا فى الشرق ، قد تأثرنا إلى حد ما ، ونكاد نيأس من إخضاع النظم الاقتصادية لأحكام الدين الحنيف ، ولهذا أرى لزاما أن أختم هذا الجزء من المحاضرة بالتنبيه إلى إنعدام الشبه بين موقف السلطة الروحية من مشكلة الربا فى الغرب ، ومن ثم لجور الرأسمالية وتطورها إلى استعمار وحروب اقتصادية

وبيلة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى موقف الأحكام القرآنية من المشكلة الاقتصادية على وجه العموم ، وجزئية الربا على التخصيص وبيان ذلك :

موقف الكنيسة :

كان موقف الكنيسة ميئوساً منه ، ما فى ذلك شك ، ولهذا تراجعت ثم خسرت المعركة نهائيا بعد أن طال دفاعها . وأما الأسباب فتتلخص فيما يلى :

١ — نص الإنجيل : رأينا أن النص الصريح الوارد فى الإنجيل يحرم كل زيادة على القرض ، وعلمنا بأن القرض هو التمويل ، ومن ثم فهمت الكنيسة فهما صحيحا أن المتاجرة مشوبة على الأقل ، إن لم تكن محرمة قطعا فى كل صورها ، بما فى ذلك القرض الربوى بحكم النص .

ولم يكن فى وسعها أن تناقش صحة الرواية التى انتهت إليها الأناجيل الأربعة . ولم يكن فى وسعها أن تقول بأن كل إنجيل إنما يمثل ما فهمه كاتبه من تعاليم السيد المسيح .

ولم يكن فى وسعها أن تقول بأن كلام الله لا يمكن أن يجئ على العديد من الصور ، ولم يكن فى وسعها — وهذا هو الأهم — أن تقول بأن المسيحية دين سماوى ، ولكنه لفترة من الزمن ، وأنه يدعو إلى المحبة ، والسلام ، ولا يتعرض لتنظيم شئون الناس فى معاشهم ومن ثم فإن التعاليم التى تضعها الكنيسة هى قوانين وضعية يجوز عليها التطور والتعديل وأخيرا الإلغاء ... وقد كان .

٢ — موقف الكنيسة من التجارة :

حرمت الكنيسة على شعوبها أن تتجر وتوعدتهم باللعنة الأبدية إذا هم فعلوا .

إلا أن تاريخ القانون ، وتطوراته فى القرون الوسطى المتأخرة ، إلى الثامن عشر — وقد جمعته لجان بتكليف من نابليون عندما أراد أن يضع قانونه — قد حفلت بأصناف من العقود السرية ومنها عقد التوصية البحرى وفى كل عقد من هذه العقود طرف مستتر هو نبيل أو واحد من رجال الدين . وطرف ظاهر ، هو البحار الذى ينقل السلع والمحصولات فيجلب الربح ويقتسم مع الشريك المستخفى . وكانت أطراف العقود إما من الأفراد أو من الجماعات ، وكان الشريك المستتر دائما أو الشركاء ممن تقدم ذكرهم .

وكانت الجماهير تعلم ذلك ، وتتناقله ولكنها مع ذلك كانت فى حيرة من أمر العقيدة الغامضة من ناحية ، ونشاط رجل الدين فى مجالات يحرمها على الجماهير من ناحية أخرى ، ولكن فكرة خلاص النفس خلاصا أبدياً وخشية الطرد من رحمة الله ، خدرت الشعوب الأوربية طويلا ، إلى أن كان عصر الإصلاح .

وبالتالى ، حين فقدت الكنيسة سلطتها

الزمنية ، اندفعت الشعوب الأوربية إلى النشاط الاقتصادى بطاقة مكبوتة فانطلقت لا تلوى على شىء ، وكان من الطبيعى ألا يستمع الفرد منهم إلى فكرة تحريم المعاملات الربوية ، بل إن علماءهم يتحدثون عنها الآن بوصفها من آثار جبروت السلطة الروحية التى كانت تتجر وتحرِّم التجارة فى آن واحد .

أما عقد التوصية البحرى ، وقد كان عقداً سرياً كما قدمنا ، فقد هذبه قانون نابليون وطوره إلى عقد شركة التوصية البسيطة ، وفيها شريك مستتر إلى حد ما ، وفى هذا تفصيل واف فى تاريخ عقد الشركة .

٣ — سلوك بعض رجال الدين : يقول كيتشن فى كتابه عن الطلاق Divorce by ki-tchen بأن حياة النعيم التى كان يعيشها المترفون من رجال الإقطاع ، وكذا العصاة من المشتغلين بالتجارة فى القرون الوسطى ، قد كانت مذهلة .

ويقول فى معرض الكلام عن تعدد الزوجات بأن الترف الذى أغدقته إيرادات الإقطاع على السلطة الروحية فى القرون الوسطى ، قد أدت إلى انغماس البعض من رجال هذه السلطة فى ألوان من المتع الحسية تدق عن الوصف ويقول أيضا بأن الغزوات والحروب وإعادة تخطيط المدن ، قد أدت جميعا إلى تهدم بعض الأديرة ، والكشف عن آثار وعن وثائق ، كانت مادتها محل الحدس والتكهن فى القرون الوسطى وكانت تساهم فى خلق حالات القلق والارتياب والغموض التى كانت تتألف منها عقيدة ذاهلة تحمل على التسليم فى ضيق وارتياب .

ويقول أيضا بأن الكشوف المذكورة ، وقد نشرت فى وثائق استند إليها فى مؤلفه ، قد بينت أن بعضا من الرهبان ، الذين يحرمون على أنفسهم الزواج العلنى ، كان يتخذ الواحد منهم ، ثلاثا من الراهبات ، واحدة للأب ، والثانية للابن ، والثالثة للروح القدس ، وكان التأويل الذى تطمئن إليه نفوس الجماعات التى نمت على هذا النحو ، من الذكور ومن الإناث ، أن امتزاج الروح والبدن فى تنظيم ثلاثى للراهب الواحد ، هو امتداد لعقيدة التثليث ، وشهادة على التسليم بها .

أما ثمار هذا الاتصال البدنى الروحى ، فقد كانت تدفن فى أقبية الأديرة ، فلم يكن من المفروض أن يظهر الوليد ، وقد وجدت هذه الهياكل الآدمية فى أمكنتها حال الهدم والإزالة ... لم تكن هذه الحقائق مطوية تماما عن الشعوب ، ولكنها لم تكن معلنة كذلك ، على نحو ما ارتآه المؤرخون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وما وصل منها إلى علم الجماهير الساعية فى طلب البركة أو إلى كرسى الاعتراف ، كان كافياً لغض الطرف عن تضييق الخناق على المعترف ، وقد قامت بشأن المعاملات الربوية حال الاعتراف ، مشكلات كثيرة فى القرن الثامن عشر وفى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى أصدر البابا أمره الذى أشرنا إليه (فى سنة ١٨٣٠) .

ومن شأن سلوك بعض رجال الدين على النحو الذى يقول به كيتشن ، ألا يبقى مجال للقول فى يسر ، بقدسية تعاليم الكنيسة التى حرمت التجارة ولعنت الربا .

ومن ثم كان موقف الكنيسة من هذه المشكلة ، ميئوسا منه ، على ما قدمنا .

* * *

وإنه لأمر بالغ العجب ، أن نقول بأنه قياسا على يأس الكنيسة من مشكلة المعاملات الربوية ، واطراح رأى الدين عند النظر فى التنظيم الاقتصادى يحل لنا نحن أن نطرح حكما أو نؤوله لكى يتفق مع التنظيم الرأسمالى الجامح الذى قاد العالم إلى حروب مدمرة ، هى بعض الآثار الملموسة ، لقوله تعالى فى سورة البقرة : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وفى الجزء الأول من الآية وصف بليغ لاقتصاديات القرون الأخيرة ، التى تستنزف منها الحروب وأدوات التدمير ما يدلنا على لون من ألوان المحق ، ويكفى أن نلاحظ أن الاستعداد للحرب يكلف الشعوب فى البلاد الكبرى مايزيد على ٤٠ ٪ من الدخل القومى وأن هذا المال الذى يهلكه البشر طواعية واختياراً ، أو يمحقه البشر بفعلهم ، يبلغ مائة ألف مليون جنيه ، وأنه إذا وزع على سكان الأرض لخص كل فرد أربعين جنيها فى السنة ، وإذا كانت الأسرة تتألف من خمسة أشخاص ، فإن نصيبها من هذا القدر الممحوق يكون ٢٠٠ جنيه فى السنة ، فما هو إذن النصيب الحقيقى من المال المهدر لكل أسرة من الأسر فى البلاد التى تتحمل العبء الأكبر من تبعات الاستعداد للحرب ، خوفا من الحرب .

وهل صح قوله تعالى : « يمحق الله الربا » أم لم يصح بعد ؟ .

إن عصر المعجزات قد ولى مع الرسل ، ونحن البشر نتولى محق رءوس الأموال وقد شابها الربا . بفعلنا وبتنظيمنا الخارج على إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولكن لهذا القول موضع لا يجىء فى هذا الحديث .

« يتبع »

عيسى عبده ابراهيم
الأستاذ المساعد بكلية التجارة
جامعة عين شمس

هذا الرجل ... ماذا وراءه ؟؟

للأستاذ محمد عبد الله السمان

أهو نبي يدعو إلى دين جديد ... ولكن بدون برنامج ولا رسالة ولا أتباع ؟ .

أم هو مجتهد ... ولكن المجتهدين إنما يجتهدون فى الفروع ، ولا يمسكون بمعاول ليهدموا بها الأصول ، ويضربوا بعضها ببعض ، ويخلقوا منها عجينة لا شكل ولا طعم لها ؟ .

أم هو تاجر يهدف إلى الربح من مطبوعاته العديدة الضخمة ... ولكن هذه المطبوعات يوزعها بالمجان ؟ .

أم هو مجموعة من الاهتزازات العقلية ، تعيش معه منذ سنين ... ولكنه يشغل منصبا فنيا دقيقاً فى الدولة ؟ .

أم هو ممثل لاتجاه خطير هدام ، وموجه إلى الإسلام ... ولكن الدلائل كلها لم تثبت أن للرجل تابعاً واحداً تأثر به أو تشيع له ، رغم قيامه بدعوته منذ سنوات بعيدة ؟ .

أم هو عميل لجهة أجنبية تمول مشروعاته ، ولكن الرجل يتمتع بثراء عريض ؟ .

أم هو أخيراً ممن أصيبوا بمركب نقص ، يحاول عن طريق شذوذ الأفكار أن يعوض ما فاته ... ولكن الرجل يتولى منصباً كبيراً وليس بينه وبين كرسى الوزارة إلا بضع خطوات ؟ .

إننى فى حيرة ...

ثلاثة أيام كاملة وأنا عاكف على رسائله التى بلغت بضع عشرة رسالة ، وكتابه عن الصلاة الذى بلغت صفحاته أكثر من سبعمائة صحيفة ، وحاولت أن أخرج منها جميعها ببرنامج واضح للرجل ، أو اتجاه محدد ، فضاعت كل محاولاتى عبثاً ، ولكنى لم أشك لحظة ، فى أن الرجل كأنما كان يكتب لنفسه وحده ، وفى منطقة نائية عن العمران ، وهو على ثقة من أن إنسانا لن يلقاه ، ومن أن أحداً - كائنا من كان - لن يقرأ حرفا مما كتبه ... ولم يكن شيئاً غريباً منه أن يعتقد أنه لا وجود اليوم لأربعمائة مليون مسلم فى أنحاء العالم ، فقد سأله سائل عن سر استعباد المسلمين ، وأسباب الفقر الذى يهدد كيانهم ، فأجاب كما هو وارد فى الرسالة الأولى الصفحة الثالثة :

« السبب ياسيدى بسيط للغاية ، فلم يعد هناك مسلمون يسلمون لله حقاً ، ويخضعون لأوامر الله وحدها فى رسالته إليهم ، وليس هناك من يدين بالإسلام لله ويتخذ من الإسلام لله دينا له ... » .

إن للرجل ندوة يقيمها مساء مرتين كل أسبوع ، أطلق عليها « ندوة أنصار القرآن »

وتحت هـذا العنوان يحاول أن يظهر بمظهر المتحمس لنصرة القرآن . ولكن فى حدود قلب الأوضاع الإسلامية رأسا على عقب ، حتى ليتأكد للمطلع على حقيقة أفكار الرجل أنه إنما يدعو إلى دين جديد باسم القرآن ، ولا صلة له من قريب أو بعيد بالإسلام .

والدين الجديد الذى يدعو إليه الرجل يلغى شخصية الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلغاء تاما ، وينفى نفيا باتا أن الرسول قد نطق لسانه بغير القرآن ، وأن الأحاديث النبوية المنسوبة إليه هى من وضع أعداء الإسلام ، وأن من يعتقد أن الرسول قال ـ ولو حديثاً واحدا ـ يطعن فى أمانة الرسول نفسه ، لأن أمانة الرسول تقتضى ألا ينطق بغير القرآن ، الذى جاء كاملا ، وما فرط الله فيه من شىء ... وإزاء ذلك يتحتم علينا أن نترحم ألف مرة على الوضع الإسلامى منذ أن حمل رسالته محمد صلوات الله عليه إلى يومنا هذا ، وأن نترحم بجانب ذلك على فقهاء المسلمين وجهودهم فى خدمة التشريع الإسلامى.

العبادات كلها بوضعها الحالى كفر وخروج عن الإسلام الصحيح .

والصلاة المفروضة عشر :

صلاة التلاوة ، أى بعد تلاوة القرآن أو سماعه وصلاة إدبار السجود . أى عقب السجود ، وصلاة الفجر ، وصلاة الصبح ، وصلاة الأصيل قبيل الغروب ، ثم صلاة المغرب ، ثم صلاة العشاء ، وصلاة القيام أثناء الليل وصلاة الجمعة ، وصلاة التهجد ، والأخيرة نافلة .

أما صلاة الظهر فهى مدسوسة على الإسلام. وسند الرجل فى هذه الفرائض العشر التى اختلس المسلمون نصفها آيات من القرآن ، ففرضية صلاة التلاوة سندها : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

وصلاة إدبار السجود وسندها : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » .

وصلاة الفجر سندها : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر » .

وصلاة الأصيل هى العصر فى زعمه ، إلا أن أعداء الإسلام حرفوا وقتها .

وصلاة القيام سندها : « ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » .

وصلاة التهجد سندها : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » .

وصلاة العيد هى من وضع أعداء الإسلام وهى عود إلى عبادة الشمس ، لأنها تصلى وقت شروق الشمس .

وصلاة الجمعة تصلى فى أى وقت من نهار يوم الجمعة ، وكل الصلوات المفروضة لا يؤذن لها إلا الجمعة ، والخطبة قبل صلاة الجمعة من وضع مروان بن الحكم .

والصلوات كلها تصلى ركعتين ركعتين ، ركعتين لفريضة الصلاة ، وركعتين لفريضة

إدبار السجود ، والصلاة التى يقرأ فيها التشهد باطلة ؛ لأن التشهد بالطبع لم يرد فى القرآن .

أما الزكاة ، فتحديدها ليس من الإسلام ، فالمسلم بعد أن يحتفظ بقوته الضرورى يسلم أمواله لبيت المال .

وأما الصوم ، فالمسلم مخير بين أن يصوم ، أو يطعم مسكينا ولو كان قادراً على الصوم .

وأما الحج ، فهو أربعة أشهر كاملة : شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، يقضيها الحاج دون التخلف يوما ، وليس فرضاً إلا على القادة وأقطاب الصناعة والأعمال .

إن للرجل قـــدرة لا تطاق على تحميل القرآن ما لا يطيق ، وهو فى سبيل إصراره على إنكار الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله - صلوات الله عليه - يحمل القرآن كل شىء ، دونما مراعاة لقواعد اللغة والمنطق والفهم .

فهو مثلا ليدلل على عدم الجواز للمأموم أن يتقدم على الإمام ، يلجأ إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنو لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . » .

وليدلل على ضرورة أن يكون أمير المؤمنين رجلا ، يلجأ إلى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

وليدلل على ضرورة خلع المصلى حذاءه حين يبدأ الصلاة ، يستند إلى قوله تعالى : « فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » .

وللرجل آراء لا يمكن لعقل مهما كان ضعيفا أن يهضمها ، وهو فى سبيل تأييدها يلجأ للقرآن أيضا . وهو حين يلجأ للقرآن يعلن عن تضخم فى شذوذ هذه الآراء ...

فمثلا ، يقول : التأميم وسيطرة الحكومة على المرافق العامة حرام ، وسنده من القرآن : « وما كان لنبى أن يغل ... » .

وهو يقول : الوقف الخيرى حرام ، لأن الواقف يتعالى على الله ، فكما وهب لم من ملكه ، يهب هو من ملكه لله بعد وفاته ، وسنده من القرآن : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا : هذا لله بزعمهم ... »

وهناك خليط من الآراء لا طعم ولا لون لها ...

فمن معجزات الرسول : أن السماء قبل الإسلام لم تكن مزينة ، وزينت عند مجيئه ، لأن الله يقول : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ... » وبناء عليه يعتبر أن الله لم يرسل موسى إلى فرعون إلا بعد مجىء الإسلام ، لأن القرآن يقول : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ... »

وإذاعة القرآن نهاراً حرام . بل كفر ، والمذيعون كفار ؛ لأنهم يذيعون القرآن حيث لا يتمكن المسلمون من تأدية فريضة صلاة التلاوة .

والعمل ليلا حرام لأن ذلك تبديل

لكلمات الله الذى يقول : « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » .

والنطق بعبارة « السلام عليكم » كفر ، لأن ذلك اعتداء على قدسية القرآن ، فهذه العبارة وردت فى القرآن بدون « أل » ...

وأبو هريرة يهودى . وأبو حنيفة يهودى أما الأزهر فله أهمية كبرى لدى الرجل ...

فهو - كما يقول فى كتاب الصلاة ص ٨٤ - من أشهر المدارس التى أنشأها أعداء الإسلام لتدريس ما وضعوه للناس من خرافات على أنها إسلام .

وأول من وضع له البرامج اليهود ، وأول من ألقى الدروس فيه اليهود أيضا ...

وقد جعل مؤسسو الأزهر مواد الدراسة فيه وسيله لعيش الخريجين ، حتى إذا هاجم أحدهم ما يدرس فيه قام من يتخذه وسيلة لكسب العيش يدافعون عنه .

ولقد استمر الأزهر يخدم هذه الغاية وينشرها ، ويدرس ماوضعه أعداء الإسلام على أنه إسلام ، حتى استقر فى أذهان الناس بمرور السنين الطويلة التى بلغت ألف عام !

* * *

وبعد ...

فليست هذه الأفكار المضطربة ، الآخذ بعضها برقاب بعض والتى لا حاجة بنا إلى مناقشتها ، هى مصدر الحيرة ...

وإنما مصدر الحيرة ... هو كيف ظلت أفكاره منذ زهاء عشرين عاما ، يدونها فى كتيبات موجزة أو أسفارضخمة ، ويوزعها بالمجان ، ويؤجر لأفكاره مكانا فى شارع عام من شوارع القاهرة ليلتقى فيها بزواره مرتين كل أسبوع ، كيف ظلت هذه الأفكار هكذا دون أن تلفت الأنظار ، أو تجتذب الأسماع ... ؟ .

لقد لقيت الرجل الذى يتولى منصب السكرتير العام لإحدى الوزارات فى ندوته، وليس فيها سوى شخصين متواضعى الحال والثقافة ، فإذا هومهذب اللفظ كريم اللقاء ، وقد قرأت ما كتبه بتدبر وإمعان ، ولكنى فشلت فى أن أحدد اتجاهه ، وأستوضح برنامجه ، وأدرك حقيقته ...

إن الرجل يعيش فى قلب العاصمة الإسلامية وعلى بعد أمتار من الأزهر الشريف ، ولكن أية حصانة هذه التى تجعله لا يعبأ بأوضاع الدولة ، ولا مقدسات الإسلام ، ويعتبر الأزهر إحدى المدارس الدينية الخاصة التى أنشأها أعداء الإسلام ، ووضع برامجها اليهود ...

قد أعود للكتابة مرة أخرى عن الرجل ولكنى واثق من أنى سأخرج للمرة الثانية بدون نتيجة أيضاً لأقول من أعماق نفسى : هذا الرجل ... ماذا وراءه ؟ ؟ .

محمد عبد الله السمان

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

وصف اسم الجمع

ثار جدل بين مدرس فى إحدى المدارس وبعض المفتشين حول عبارة الشباب الحائر، فيرى المفتش أن هذا خطأ ، والصواب : الشباب الحائرون . وحجته فى هذا أن الشباب جمع ، فلا يوصف بالمفرد . وهو يعتمد على ما جاء فى القاموس : أن الشباب جمع كالشبان.

والحق أن الشباب إذ يستعمل فى معنى الشبان ليس جمعاً فى اصطلاح النحاة ، وإنما هو اسم جمع ، وإن دل على ما يدل عليه الجمع . وذلك أنه لم يأت على أوزان الجموع ، فليس فيها فَعَال ، وقد جاء فى اللسان مرة أنه جمع ، ومرة أنه اسم جمع ، وهو الموافق لأصول النحاة . واللغويون فى غالب أمرهم لا يفرقون بين الجمع واسم الجمع ، فعندهم أن كل ما دل على الجماعة جمع حتى اسم الجنس الجمعى كشجر وتمر .

فالشباب كالقوم والرهط والنفر مما ليس له واحد من لفظه . وهذا الضرب يجوز مراعاة معناه فيوصف بالجمع ويعود الضمير عليه جمعاً ، ويجوز مراعاة لفظه ، فيوصف بالمفرد ، ويعود عليه ضمير المفرد ففى الكتاب العزيز : يا « قومنا أجيبوا داعى الله » ، فهذا نظر فيه إلى المعنى ، وفى اللسان (قوم) « وحكى ثعلب أن العرب تقول : يا أيها القوم كفوا عنا وكف عنا على اللفظ وعلى على المعنى » ومن أسماء الجموع الجيش . وقد قال كعب بن مالك فى جيش أبى سفيان حين أراد غزو المدينة يستخف به ويغض من شأنه :

جاءوا بجيش لو قيس معرسه
ما كان إلا كمعرس الدئل

معرسه : مكان نزوله ، والدئل : دويبة تشبه ابن عرس — فترى كيف عامله معاملة المفرد ومن هذا الضرب الناس ويقول لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيدا !

ويقول عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليه
وإن كانا له نسب وخير

فقوله : « عليه » أى على الناس ، وفى حاشية الشيخ يس على التصريح فى مبحث الفاعل : « وتذكير ضمير عليه باعتبار أن الناس اسم جمع » . ومن ذلك الجميع والجمع ، وجاء فى سورة القمر : « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر . فانظر كيف عامل الجميع معاملة المفرد فوصفه بمنتصر ، وعامل الجمع معاملة الجمع فقال : يولون . ومن ذلك الركب يجوز أن يقال : الركب مضى والركب مضوا ، كما قال الرضى فى شرح الكافية (١٧١/٢) : وأنشد على ذلك قول الشنفرى فى لاميته يصف قطا وردت الماء بعده :

فعبت غشاشا ثم مرت كأنها
مع الصبح ركب من أحاظة مجفل (١)

ـ غشاشا : على عجلة وأحاظة : قبيلة من الأزد ، ومجفل : مسرع ـ فترى كيف وصف الركب بالمفرد .

ومما ينبغى أن ينبه عليه أن جواز الوجهين فى اسم الجمع إنما هو فيما يجرى على الآدميين ، كالأمثلة المذكورة . فأما اسم الجمع لغير الآدميين فالأغلب عليه التأنيث كالإبل والغنم والخيل ، فلا يقال : الإبل رعى ، وإنما يقال : رعت . وفى اللسان (أبل) عن الجوهرى فى الإبل : « وهى مؤنثة ، لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ، على أن هذا ليس مطرد القياس . فمن هذا الضرب الجامل لجماعة الجمال ، ويقول الحطيئة :

فإن تك ذا مال كثير فإنهم
لهم جامل لا يهدأ الليل سامره

ـ أراد بقوله : سامره الرعاء ، فهم لا ينامون لكثرتهم ـ .

ويخرج الباحث من هذا إلى أنه لا نكران فى عبارة « الشباب الحائر » ، وأن لا خطأ فى قول شوقى فى قصيدة المعلم :

أمعلمى الوادى وساسة نشئه
والطابعين شبابه المأمولا

ملىء :

يقال فى هذه الأيام : هذا البلد ملىء بالعلماء ، وهذه القرية مليئة بالأغنياء ، يريدون مملوءاً ، أو ملآن أو مملوءة أو ملأى .

وقد أنكر هذا الاستعمال . فيقول اليازجى فى لغة الجرائد ٦٣ : « ويستعملون كلمة

---

(١) انظر فى هذا البيت الخزانة ٣ / ٣٣٤ .

(مليء) بمعنى مملوء أو ملآن ، فيقولون فى وصف فتاة : وهى مليئة البدن . والملىء فى اللغة : المتمول » . وفى الحق أن الملىء فى المعاجم هو الموسر الغنى ، وفى الحديث : مطل الغنى ظلم ، وإذا أحيل أحدكم على ملىء فليتبع . ويقال فيه : ملؤ الرجل ملاءة فهو ملىء ، وهى مليئة .

وقد بدا لى تصحيح الملىء فى معنى المملوء بحمله على المجاز ، فالإناء إذا امتلأ ماء كان كالغنى به لوفرته فيه ، فصار الملىء ينبئ بالملاءة والوفرة ، فساغ أن يقال : القدح ملىء أى غنى بما فيه ، والفتاة مليئة البدن أى غنية البدن بالشحم واللحم ، وهو كناية عن السمن ، وحاصل هذا التجوز بالملاءة والغنى عن الامتلاء .

ووجه آخر فى تخريج هذه العبارة . وهو أن يكون من باب تحويل مفعول إلى فعيل ، فملىء فى معنى مملوء ، وعلى هذا لا يقال : الفتاة مليئة البدن ، وإنما يقال : ملىء البدن إذ كان فعيل فى معنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ إلا إذا لم يوجد فى اللفظ دلالة التأنيث .

وتحويل مفعول إلى فعيل يقيسه بعض النحاة إذا لم يكن فى المادة فعيل فى معنى فاعل . ولا يقال : إنه ورد ملىء فى معنى غنىّ ، وهو فى معنى فاعل ، لأن هذا من ملؤ وحديثنا فى ملأ .

على أن صاحب التصريح فى مبحث التعجب فى الكلام على قولهم : ما أملأ القربة ذكر أنه ورد فى نادر اللغات ملؤ فى معنى امتلأ . ولم أقف على هذا فيما لدى من المعاجم اللغوية ، فإن صح هذا كان استعمال ملىء فى معنى الممتلئ صحيحاً جاريا على القياس ؛ فإن الوصف من فَعُل فعيل من غير نكران .

العهدة :

أنكر اليازجى استعمال العُهدة فى المعاهدة تكون بين الرجلين أو بين الدولتين . فهو يقول فى لغة الجرائد ٤٥ : « ويقولون : بين الدولتين عهدة تجارية ، وجاء ذلك فى عهدة برلين ، ولا معنى للعهدة هنا ؛ لأنها بمعنى تبعة الأمر ودَرَكه . والصواب : المعاهدة » .

ونرى فى القاموس : « والعهدة : كتاب الحلف ، وكتاب الشراء » . وفى اللسان : « والعهدة : كتاب الحلف والشراء . واستعهد من صاحبه : اشترط عليه وكتب عليه عهدة وهو من باب العُهدة والعَهد ؛ لأن الشرط عَهْد فى الحقيقة » . فكتاب الحلف يسمى عهدة ، وهو الكتاب الذى يتحالف فيه قوم على النصرة والتعاون ، ويأخذ كلٌّ ما شاء لنفسه من الشروط والرغبات ، وهذا يدخل فى باب المعاهدة لا محالة . وكتاب الشراء ما يكتب المتبايعان فيه الشروط التى

يلتزمها كل منهما . وفى المصباح : « وتسمى وثيقة المتبايعين عُهدة ؛ لأنه يُرجع إليها عند الالتباس » .

وعهدة بر لين لاتخرج فى معناها عن كتاب الحلف والشراء ، فاستعمالها غير منكر فى العربية .

عموم الناس :

يشيع هـذا التعبير ، فيقال : هذا الأمر معروف عند عموم الناس . وقد انتقد هذا اليازجى ، فهو يقول فى لغة الجرائد ٩٨ « و يقولون : هذا أمر يهم عموم السكان أى يهم السكان عامة ، أو يهمهم بالعموم . وربما استغنوا بلفظ العموم وحده ؛ يقولون : أجمع العموم على كذا أى الجهور أو عامة الناس مثلا . وكل ذلك من استعمال العامة » .

وقد ورد قول الشاعر :

نصلى للذى صلت قريش
ونعبده وإن جحد العموم[1]

فهذا وفق الاستعمال الذى أنكره اليازجى ومرد الإنكار عنده إلى أن العموم مصدر عم الشىء ، فلا تجرى عليه أحكام الذوات والأعيان ، والعموم فى هذا الاستعمال جمع العم بمعنى الجماعة ، فعموم الناس : جماعاتهم ، وفى اللسان : « والعم . الجماعة . وقيل : الجماعة من الحى ؛ قال مرقش .

لا يبعد الله التلبب والغا
رات إذ قال الخميس : نعم
والعـــدو بين المجلسين إذا
آد العشى وتنادى العم

تنادوا : تجالسوا فى النادى ، وهو المجلس ومرقش يراد به الأكبر ، ولعم مرقش الأصغر والبيتان من قصيدة فى المفضليات ، والتلبب لبس شكة السلاح ، والخميس : الجيش وقوله نعم : أى هذا نعم وهى الإبل ، يذكر غارته مع الجيش ونهبهم إبل أعدائهم ، وقوله : آد العشى أى مال . ويريد بالعدو بين المجلسين الجرى عند نزول الأضياف لإنزالهم ، وجاء البيت الثانى فى المفضليات هكذا :

والعـدو بين المجلسين إذا
ولى العشى وقد تنادى العم

وهذه الرواية أوفى بالشعر ، فإن القصيدة من السريع ، ولكن يغلب فيها مثل هـذا العيب ، فلا يقدح هذا فى رواية اللسان وجاء جمع العم على العموم فى قول لبيد :

لكيلا يكون السندرى نديدتى
وأجعل أقواما عموما عماعما

أنشده فى اللسان ، وقال : « السندرى شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته

---

(١) ورد هـذا البيت فى شواهد الموصول من كتاب القطر .

فأبى ومعنى قوله : « وأجمل أقواما عموما عماعما » أى أجمل أقواما مجتمعين فرقا يريد أن الأقوام العموم : المجتمعون أو الجماعات والعماعم : الجماعات المتفرقون ، فهو يقول : إنى لا أدخل فى الهجاء رغبة عن أن يكون هذا الشاعر ندى فيها جبينى ، ورغبة عن أن أفرق بين الجماعات بالهجاء ، ومما جاء فيه العم بمعنى الجماعة قول أبى العلاء المعرى فى السقط أنشده صاحب المطول فى مبحث التورية :

إذا صدق الجد افترى العم للفتى
مكارم لا تخفى وإن كذب الخال

أراد بالجد الحظ وبالعم الجماعة من الناس وبالخال المخيلة .

نوال البغية :

انتقد هذا التعبير نقاد العصر ، والصواب أن يقال : نيل البغية أى إدراكها . وذلك أن النوال العطاء ، يقال . نلته أى أعطيته من نال ينول الواوى ، وأما إدراك الشىء وإصابته فيقال فيه نال ينيل نيلا .

ويرى الأمير [1] شكيب أرسلان أن النوال فى معنى الإدراك صحيح عربية . ويحتج بقول الحماسى :

أرى الناس يرجون الربيع وإنما
ربيعى الذى أرجو نوال وصالك

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

فنوال الوصال : إدراكه ، على أنه قد يكون النوال فى الشعر العطاء ، على ما هو المعروف عند اللغويين ، يريد أنه يرجو عطاء منها وهو وصالها ، فإضافة نوال إلى الوصال من إضافة العام إلى الخاص كما فى حبة البر وعلم النحو .

محمد على النجار

(١) انظر مجلة المشرق سنة ١٨٩٩ .

الحــق

ولم أر مثل الحق أمّا طريقُه ... فأمنٌ وأمّا جارُه فعزيز
إذا ما امرؤ آوى إليه فحصنه ... حصين ومأواه المباح حريز

دراسات لأسلوب القرآن الكريم

للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة

تمهيد :

وجه الفقهاء عنايتهم إلى مصدر الشريعة الأعظم وهو القرآن الكريم فأحصوا آيات الأحكام وأشبعوا القول فيها والحديث عنها :

فالدارس للفقه يستطيع بسهولة ويسر أن يهتدى إلى الأحكام التى مصدرها القرآن ، والأحكام التى مصدرها غيره . والقرآن الكريم حجة فى العربية بقراءاته المتواترة وغير المتواترة كما هو حجة فى الشريعة .

فالقراءة الشاذة (وهى ما فقدت شرط التواتر) لا تقل شأنا عن موثوق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأساليبها ، وقد أجمع العلماء على أن نقل اللغة يكتفى فيه برواية الآحاد ولو أراد دارس النحو أن يحتكم إلى أسلوب القرآن الكريم وقراءاته فى كل ما يعرض له من قواعد النحو والصرف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ذلك لأن الشعر قد استبد بجهد النحويين فركنوا إليه وعولوا عليه فى الاستشهاد ، بل جاوز كثير من النحويين حده فنسب اللحن إلى القراء فى بعض القراءات ورموهم بأنهم لا يدرون ما العربية (١) ..!

وكان اعتماد النحويين على الشعر ثغرة نفذ منها الطاعنون عليهم ؛ لأن الشعر موضع ضرورة كما أنه بروايات مختلفة ، لهذا مست الحاجة إلى إنشاء دراسة شاملة لأسلوب القرآن الكريم وقراءاته الكثيرة .

ففى هذه القراءات ثروة لغوية ونحوية جديرة بالدرس ، وفيها دفاع عن النحو تعضد قواعده وتدعم شواهده . بدأت هذه الدراسة منذ ثلاثة عشر عاما وبقيت عاكفا عليها مراعيا لها إلى اليوم ، كتبت فيها عشرة مجلدات سعة المجلد ألف صفحة .

وجدت المصنفين الذين عرضوا لفهرسة ألفاظ القرآن قد تناهت جهودهم عند حصر ألفاظ الأفعال والأسماء وإحصاء آياتها ، وتركوا جمع حروف المعانى وإحصاء آياتها ، كما تركوا هذا الإحصاء فى الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وبعض الظروف

---

(١) عرضت لهذا بإسهاب فى رسالتى عن المبرد وأثره فى علوم العربية .

الكثيرة الذكر، كإذ وإذا. أجل وقفت على كتاب أحصى لنا ألفاظ القرآن لم يترك منها لفظا، وهو كتاب مصباح الإخوان. غير أنه لم يذكر الآيات وإنما اكتفى بذكر أرقام صنعها بنفسه للآيات الكريمة، وهذه الأرقام مع الأسف يشيع فيها الاضطراب، ولا سيا في طوال المفصل. وقد اعتذر عن هذا في مقدمة كتابه التي كتبها باللغة التركية.

أحصيت حروف المعاني والأسماء المبهمة وجمعت آياتها فكملت هذا النقص.

ثم عهدت إلى كتب القراءات السبعية منها والعشرية والشاذة فأحصيت ما فيها.

ثم عمدت إلى أمهات كتب الإعراب والتفسير فاستقرأت ما فيها، ثم نثرت ذلك كله على أبوب النحو والصرف واستودعته بطون هذه المجلدات.

وإنما أهدف إلى أن أيسر لدارس النحو والصرف سبيل الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته.

فيستطيع أن يعرف متى أراد.

هل مثل هذا الأسلوب وارد في القرآن أو لا؟ وإذا كان ورد فهل ورد كثيرا أو قليلا؟ وفي قراءات متواترة أو غير متواترة.

كما أنه يستطيع أن يحتكم إلى أسلوب القرآن ويرجع إليه في الموازنة بين الآراء المختلفة، كما كان يفعل الصدر الأول في الاحتكام إلى كلام الفصحاء ومشافهتهم قبل أن يدب اللحن إلى الألسنة.

قلت: إن هذه الدراسات ترتكز على الاستقراء، وأتمنى أن يختبر هذه الاستقراءات حفاظ القرآن الكريم وقراء رواياته، فلعل أحدهم أن يستدرك عليها، فإن هذا مما يدخل السرور إلى نفسي إذ يكون أثرا من مظاهر الاهتمام بها.

وعلم الله - ما واتاني هذا الاستقراء عفوا صفوا، ولا واتاني رهوا سهوا، وإنما كان ثمرة جهود مضنية وصبر على عناء البحث والاستقراء.

وقد تيسر لي بعون الله أن استدرك على بعض أئمة النحو واللغة الذين عرضوا الأسلوب القرآن الكريم أوقاتهم أن يحتكموا إليه.

وإنه لمن أحلى أمانينا وأسمى آمالنا: أن يظفر علم النحو فيما بعد برعاية وزارة الثقافة والإرشاد فتضيفه إلى سجل العلوم والفنون التي تستحق بحوثها التقدير والتشجيع.

وها أنذا أعرض لمحات خاطفة عن هذه الدراسات.

لمحات عن مواقع نوني التوكيد في القرآن الكريم

الفعل الماضي لا يجوز توكيده بالنون

لأن معناه للمضى ، ومن شأن نون التوكيد أن تخلص الفعل للاستقبال ، وفعل الأمر يجوز توكيده مطلقاً لأنه للاستقبال ، قال سيبويه ، ٢ / ١٤٩ فأما الأمر والنهى فإن شئت أدخلت فيه النون وإن شئت لم تدخل .

ومثله فى المقتضب [1] للمبرد ٢١٩-٢٣١ وسائر كتب النحو وفى مغنى اللبيب أن التوكيد بعد الطلب كثير .

وجعل سيبويه توكيد المضارع الواقع بعد أداة الاستفهام محمولا فى التوكيد على فعل الأمر .

كما جعل المضارع الواقع بعد أداة العرض والتحضيض محمولا على الاستفهام ٢/١٥١ - ١٥٢ .

* * *

أفعال الأمر كثيرة جداً فى القرآن الكريم أحصيت مواضعها فتجاوزت ١٨٤٠ - أربعين وثمانمائة وألف موضع جاء فعل الأمر فى جميع هذه المواضع غير مؤكد بنون التوكيد ، لا فى رواية حفص فحسب وإنما جاء كذلك فى جميع القراءات العشرية المتواترة .

كما جاء كذلك فى الأربعة الشواذ المشهورة فيما بيننا وبذلك خلت القراءات الأربع عشرة من توكيد فعل الأمر ، وهذه ظاهرة لغوية جديرة بالتسجيل والدرس . وإنى أترك الكشف عن أسرارها لغيرى ممن يأنس فى نفسه القدرة على بيان أسرار التنزيل وخصائص أسلوبه .

وكل ما وصلت إليه عن طريق استقرائى لقراءات القرآن : أن وجدت أربع قراءات شاذة ، أكد فيها فعل الأمر ، وهذه القراءات ليست من الأربعة المشهورة فيما بيننا ، وإنما هى مما وراء ذلك .

تفرد أبو حيان برواية اثنتين منها ، وشارك ابن خالويه فى رواية اثنتين ، وفى بعضها شذوذ نحوى .

وها هى ذى القراءات .

١ - « فاتبعونى يحببكم الله » ، قرأ الزهرى فاتبعونّى بتشديد النون ألحق قبل فعل الأمر نون التوكيد وأدغمها فى نون الوقاية ولم يحذف الواو تشبيهاً بأتحاجونى وهذا توجيه شذوذ البحر المحيط لأبى حيان ٢ - ٤٣١ .

٢ - « ألقيا فى جهنم » ، قرأ الحسين ألقينْ بنون التوكيد الخفيفة وهى شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف . البحر المحيط ٨ - ١٢٦ شواذ القرآن لابن خالويه ١٤٤ . الكشاف ٤ - ٢٧ .

٣ - « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ، روى عن طلحة سبحنّ بنون مشددة من غير واو البحر المحيط ٦ - ١٧٦

---

[1] نسخة مكتوبة نسختها لمكتبتى .

٤ - «فدمرناهم تدميرا» قرأ على والحسن فدمراهم على الأمر
وعن على كذلك، إلا أنه بالنون الشديدة
شواذ ابن خالويه ١٠٥ الكشاف ٣ - ٩٧
البحر المحيط ٦ — ٤٩٨ .

* * *

هذا عن فعل الأمر وبقى علينا أن نستعرض أنواع الطلب الأخرى فى المضارع :

المضارع بعد لام الأمر :

جاء المضارع بعد لام الأمر فى أكثر من ٨٠ ثمانين موضعا من القرآن الكريم .
وجاء غير مؤكد بالنون فى القراءات الأربع عشرة فى جميع هذه المواضع .
وقد وقفت على قراءة واحدة أكد فيها المضارع بعد لام الأمر ، رواها ابن خالويه والزمخشرى وأبو حيان وهى :
«فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم»
قرأ أبى «لنسوءَنْ» بلام الأمر والنون التى للعظمة ونون التوكيد الخفيفة آخراً .
البحر المحيط ٦ - ١١ ابن خالويه ٧٥ الكشاف ٣ - ٣٥٢ .

* * *

المضارع بعد أداتى العرض والتحضيض :

ورد المضارع المثبت بعد ألا ولولا فى أكثر من ستين موضعا ، وجاء بعد لوما فى موضع واحد ، وكان المضارع خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .
ولم يقع من أدوات العرض والتحضيض فى القرآن هلا ، ألا .

المضارع بعد أداتى الترجى والتمنى :

جاء المضارع المثبت بعد لعل فى ١٢٤ موضع .
وجاء بعد ليت فى موضعين ، وكان خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .

* * *

المضارع بعد أدوات الاستفهام :

بعد همزة الاستفهام :
جاء المضارع المثبت بعدها فى أكثر من ثمانين موضعا وجاء خاليا من التوكيد فى جميع القراءات .

بعد أنى :
تجاوزت المواضع عشرين موضعا ومن غير توكيد أيضاً .

بعد أى :
تجاوزت المواضع أربعين موضعا ومن غير توكيد أيضا .

بعد كيف :
قاربت المواضع ثلاثين وكانت من غير توكيد أيضاً .

بعد ما الاستفهامية :
قاربت المواضع أربعين وجاء المضارع غير مؤكد أيضا .

بعد من الاستفهامية :

تجاوزت مواضع المضارع المثبت ثلاثين موضعا وجاء غير مؤكد فى جميعها .

كما جاء المضارع غير مؤكد بعد أين ، أيان الاستفهاميتين .

بعد هل :

جاء المضارع المثبت بعد هل فيما يقرب من خمسين موضعا لم يؤكد فيها إلا فى موضع واحد وهو قوله تعالى : « فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » .

فعلى كثرة أدوات الاستفهام فى القرآن ووقوع المضارع المثبت بعدها ، لم يؤكد المضارع إلا بعد هل فى الآية السابقة .

ولم يقع المضارع بعد متى الاستفهامية ولا بعد كم الاستفهامية فى القرآن الكريم .

المضارع بعد لا الناهية :

جاء المضارع بعد لا الناهية فى مواضع تجاوزت ٤٠٠ أربعمائة وإنما جاء مؤكدا فى بضع وأربعين موضعا .

كما قرئ فى السبعة بالتوكيد وبغير التوكيد فى قوله تعالى : « فلا تسألنى عن شىء » .

شرح الشاطبية ٢٢٢ غيث النفع ١٢٨ - ١٥٧ النشر ٢ / ٢٨٩ - ٣١٢ كما قرئ فى الشواذ بغير التوكيد فى بعض الآيات المؤكدة وبالتوكيد فى غيرها .

وجوب توكيد المضارع :

يجب توكيد المضارع إذا كان مثبتا مستقبلا واقعا فى جواب قسم غير مفصول من لام القسم بفاصل ، على هذا أجمع البصريون ، قال سيبويه ٢ / ١٤٩ ومن مواضعها الفعل الذى لم يجب الذى دخلته لام القسم فذلك لا تفارقه الخفيفة أو الثقيلة لزمه ذلك كما لزمته اللام فى القسم ، وكرر مثل ذلك فى ٢ / ١٥٣ .

فنصوص سيبويه صريحة لا تحتمل تأويلا فى وجوب توكيد المضارع إذا استوفى الشروط المذكورة .

ومن العجيب أن ينقل أبو على الفارسى وابن عطية عن سيبويه غير ما سجله سيبويه فى كتابه .

فى ابن يعيش ٩ / ٣٩ - ٤٣ .

وذهب أبو على إلى أن النون هنا غير لازمة وحكاه عن سيبويه ، وفى البحر المحيط لأبى حيان ٣ - ١٣٦ وقال ابن عطية : وقد لا تلزم هذه النون لام التوكيد قاله سيبويه - وما ذكره سيبويه هو ما سجل فى سائر كتب النحو .

* * *

المضارع المؤكد توكيداً واجبا جاء كثيرا جداً فى القرآن ، وهذه الحالة تفوق جميع الأحوال كثرة ، حتى بلغ من كثرتها أن وجد منها فى آية واحدة ستة أفعال مؤكدة .

قال تعالى : « وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » .

لزم المضارع التوكيد فى القراءات الأربع عشرة .

وقد وجدت قراءة واحدة تفرد بروايتها أبو حيان جاء فيها المضارع غير مؤكد .

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس » قرأ عبد الله ليبينونه من غير توكيد .

والبصريون لا يجيزون ذلك وإنما أجازه الكوفيون وجاء مثله فى الشعر . البحر المحيط ٣/١٣٦ وهذه القراءة ليست من الأربعة الشواذ كما أنها ليست من شواذ ابن خالويه .

المضارع بعد إما : جعل سيبويه توكيد المضارع بعد إن الشرطية المدغمة فى ما الزائدة جائزاً قال ٢/١٥٢ : وإن شئت لم تقحم النون .

وقال المبرد والزجاج توكيد المضارع بعد إما واجب ، لأنه لم يرد فى القرآن إلا مؤكدا

وقال ابن الشجرى فى أماليه ٢ / ٣٤٥ يلزمها فى أكثر الأمر نون التوكيد ، وقد تطرح نون التوكيد فى الشعر . ثم ذكر شواهد لذلك وقال ابن هشام التوكيد بعد إما قريب من الواجب .

جاء المضارع بعد إما المذكورة أو معطوفا على ما بعدها فى عشرين موضعا ، وجاء مؤكدا فى القراءات الأربع عشرة ، وجاء المضارع غير مؤكد فى قراءة رواها ابن مالك فى كتابه : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح . كما رواها أيضا أبو حيان وفيها شذوذ نحوى .

« فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت » .

قرأ طلحة فإما ترين قال ابن جنى هى شاذة لأنه لم يؤثر الجازم فيحذف النون البحر المحيط ٦ / ١٨٥ ؛ شواهد التوضيح ١٩ .

توكيد المضارع المنفى :

المضارع المنفى الواقع فى جواب القسم لا يجوز توكيده بالإجماع كما فى قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » واختلفوا فى غير ذلك .

فجمهور النحويين لا يجيز توكيد المضارع المنفى بلا ، ويحمل ما ورد من ذلك على الندور أو الضرورة ، واختار أبو حيان الجواز لوروده فى الشعر وفى قوله تعالى :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن منع جعل لا ناهية معمولة لقول محذوف هو الصفة . البحر المحيط ٤ /٤٨٤ - ٤٨٥ المغنى ١ / ١٩٤ ، ٢/٧١ - ١٨٣ .

جاء المضارع المنفي بلن مؤكداً فى قراءة شاذة .

قرأ طلحة بن مصرف قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » قرأ لن يصيبنا بنون التوكيد .

قال أبو حيان وجه هذه القراءة تشبيه لن بلا وبلم ، وقد سمع لحاق هذه النون بلا وبلم البحر المحيط ٥ - ٥١ ، شواذ ابن خالويه ٥٣ .

كما قرئ فى الشواذ قوله تعالى « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » بفتح ميم يعلم فقيل الفتحة إتباع أو على إرادة نون التوكيد الخفيفة كما فى قول الشاعر :

لا تهين الفقير علك أن
تركع يوما والدهر قد رفعه

الكشاف ١ - ٢٢٠ ، البحر المحيط ٣ - ٦٦ .

* * *

وقرئ فى الشواذ أيضا قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » . بفتح الحاء وخرجها ابن عطية وابن هشام على : أن الفعل مؤكد بالنون الخفيفة ولأبى حيان توجيه آخر ، البحر المحيط ٨ - ٤٨٧ .

نونا التوكيد الشديدة والخفيفة :

نون التوكيد الشديدة أكثر من الخفيفة فى جميع القراءات .

وقد قرأ يعقوب أحد القراء العشرة هذه الآيات بالخفيفة :

(١) « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد » .

(٢) « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

(٣) « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » .

(٤) « أو نرينك الذى وعدناهم » .

النشر فى القراءات العشر ٢ - ٢٤٦ - ٣٤٦ - ٣٦٩ .

اتحاف فضلاء البشر ١٨٤ - ٣٤٩ - ٣٨٦

كما قرئ فى الشواذ قوله تعالى :

وليكونا من الصاغرين - لنسفعا بالناصية بنون التوكيد الشديدة .

* * *

لا تقع نون التوكيد الخفيفة بعد الألف عند البصريين .

وقد قرأ ابن عامر أحد القراء السبعة قوله تعالى « ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » بكسر النون خفيفة ، الشاطبية ٢٢١ النشر ٢٨٦ ، وأجاز ذلك يونس والكوفيون محتجين بهذه القراءة .

والبصريون جعلوا لا فى هذه القراءة نافية والنون علامة الرفع والجملة حالية ، والتقرير فاستقيما غير متبعين . الإنصاف فى مسائل الخلاف المسألة ٩٤ ، البحر المحيط ٥ - ٨٧ .

محمد عبد الخالق عضيمة
المدرس فى كلية اللغة العربية

النبوات في تقدير الإنسان

للشيخ عباس طه

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شيء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها فى حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعاً حكيما قديراً ، وأن لهم روحا قدر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟ .

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها — وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وإيثارات وتضحيات — فلو كان الإنسان طيناً محضاً أو صلصالا بحتاً لما هفا إلى هذه التعاليم ولفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه .

وقد بلغت المجموعة الإنسانية التى تظلها المجموعة الشمسية اليوم وهى نحو ألف وخمسمائة مليون نسمة من المدنية شأوا لم تكن تقدره الجماعات التى سبقتها فى الوجود . ومع هذا فهى لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهداً نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين رغما عما كتبوا فى صرف الناس عن هذه النبوات أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئين ، مع أن فى تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يكره إلى النفوس الحياة الأرضية ويعد المتع الجسدية رجساً من الأرجاس ، فإن فيهم وليس من أقلهم أتباعا من يقول إن جميع المطالب البدنية أقذار لا تليق بكرامة الإنسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء فى الله — وفيهم من يقول — ولا يقل عن سابقه فى عدد الأشياع — من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطيه قميصك .

فما السر فى بقاء هذه الأديان إلى اليوم سائدة على الأمم المتمدينة رغماً عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؛ — السر غلبة عاطفة علوية على الفطرة البشرية

الأرضية ؛ فهى تدين بهذه الأديان على ما فيها ، لأنها تنعم من خلال تعاليمها عبير الوحى السماوى الذى تولاها فى طفولتها ، وقوّمها فى شبيبتها وعزاها فى شيخوختها ولا يزال ينفحها فى سويداء فؤادها بما ينشئها ويكملها .

ويشتد الكتاب الماديون فى ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الإنسانية بحجة منافاتها من ناحية، وعدم حاجة الاجتماع إليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض . وما حيلتنا فيمن جمدوا على ما هم عليه ولم يبالوا بما جد فى العلم من الفتوحات ، التى أقامت ألوفاً من العلماء وأقعدتهم فى أربعة أرجاء المعمورة ، ولا تزال تفعل فى النفسية الفلسفية الأفاعيل.

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع إلى النبوات ، فينم عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ؛ فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه — أما وهو لم ينف التعلق بالنبوات رغماً عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه — فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها فيجب على كل باحث فى أطوار الإنسان أن يدرك سر تمسكه بها رغماً عن جميع الشبهات التى أثيرت حولها .

وقصارى القول فى هذا الموضوع أن الماديين أنصار الشيوعيين وحلفاءهم يطرحون العقائد التى حملها الأنبياء إلى قومهم وتضمنت قيماً ومثلات تنذرهم إذا ندوا عنها أو سلكوا غير طريقها المستقيم .

من أجل ذلك قام الأستاذ الأكبر والعالم الأشهر والفقيه الأخر شيخ الجامع الأزهر بل شيخ المسلمين فى المشرقين وحامى حمى الإسلام بين المسجدين، فنادى بضرورة إرساء قواعد الدعوة الإسلامية على قول من الحق صريح وعلى عدالة مستقيمة تضع لكل شىء حده فى غير لدد ولا خصومة، وأرسل نصائحه السامية المدوية على متن الأثير مرة وبين أنهر الصحافة مرة ، وإلى وكالات الأنباء وإلى المنتديات العلمية فى حرم الجامع الأزهر مرة أخرى . نبه الناس فى كل هذه النذر إلى أن مبادىء الإسلام التى جاءت على رسل الله وأنبيائه يحملها الخلف عن السلف هى خير معوان على بقاء الإنسانية معافة من كل درن اعتقادى ، وكل مبدأ لا يمت إلى الأديان السماوية بسبب وثيق .

نسأل الله أن يجعل رسالة الأزهر على ألسنة أبنائه الصادقين عالية وكلمة شيخ الأزهر نبيلة مدوية إنه أكرم مسئول .

عباس طه

المحامى الشرعى

ما يقال عن الإسلام

ماذا يقولون؟ بل كيف يقولون؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا فى هذا الباب لأشتات من الكتب الحديثة التى يؤلفها الغربيون عن الإسلام والأمم الإسلامية، ورأينا فيها اختلافا بين الصواب والخطأ أو الصدق والكذب أو حسن النية وسوئها، يصح أن نخرج منه بنتيجة عامة كالميزان لآراء القوم نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال أو لموضوع المقال، وفيما تقدم من الملاحظات على الكتب التى عرضنا لها مادة كافية لتحرير هذا الميزان والانتفاع به فى تقويم الآراء وأصحاب الآراء، كلما وقفنا على مؤلف جديد لهم فيما يتحدثون به عن الدين الإسلامى أو عن الأمم الإسلامية.

وأهم ما يهم فى هذه الأشتات المتفرقة من المؤلفات هو محك الإخلاص فى كتابتها، فمن هم المخلصون منهم؟ ولماذا يخلصون؟.

كل ما اطلعنا عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة فى العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان: طلاب المعرفة وطلاب العقيدة، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا إنهم طلاب الحقيقة فى عالم العلم وفى عالم الضمير.

إن العلماء المتجردين للبحث العلمى عندهم يتحررون جهدهم من الأهواء النفسية التى تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه، ومنهم من يقرر مذهباً له فلا يفرق بين المشاهدات التى تؤيد مذهبه والمشاهدات التى تنقضه أو تشكك فيه أو تذره معلقاً بين النقض والتأييد، فينتهى إلى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله إن المذهب حتى الآن ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك فى جملة المشاهدات ... وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة، ومنهم من عرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الإسلام.

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فى عقائدهم التى ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم إليه فى الزمن الحديث كما كانوا يرجعون إليه فى الزمن القديم .

وإذا كان من هؤلاء من وقعت الجفوة بينه وبين رؤساء دينه فالغالب عليه فى كتابته عن الإسلام أن تصطبغ أقـــواله عنه وعن تاريخ الأمم الإسلامية بحماسة بينة تشبه حماسة المؤمن بدينه وإن لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين بالعقائد الإسلامية أو مبلغ الانتساب إلى الإسلام ، ومن هؤلاء الكاتب الأسبانى « بلاسكو أبانيز » الذى قال فى كتابه « تحت ظلال الكنيسة » ما لا يزيد عليه المسلم شيئاً من فضائل التاريخ الأندلسى ، ويشبهه « جوزيف مكاب » باللغة الانجليزية فى مقارناته بين التواريخ الأوربية والتواريخ الإسلامية ، فلا يكاد يقارن بين شيئين تشتمل عليهما هذه التواريخ إلا كان الرجحان بينهما للكفة الإسلامية ، مع الإطناب من ناحية والتنديد من الناحية الأخرى .

وفيما عدا طلاب العلم وطلاب العقيدة يندر الإخلاص فى مؤلفات القوم حيثما عرضوا للمسلمين أو عرضوا لما اعتقـــدوه أو تعودوه ، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات .

فهناك المتعصبون للغرب - وطنياً أو جنسياً - كما يتعصب الريفى الساذج لكل شىء فى قريته على كل شىء فى قرية سواه ، وأكثر ما يظهر هذا التعصب فيما يكتبونه عن المسلمين العرب ، لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا أن يقولوا إنهم من السلالة الآرية التى ينتمى إليها الأوربيون ، واستطاعوا أن يزعموا - مثلا - أن الإسلام قد أخذ التصوف من الفرس وأخذ الحكمة من الهند وتلقى فلسفة الكلام عن اليونان بما نقله النساطرة وسائر المترجمين ، وأن المسلمين العرب كانوا يعوّلون فى خدمة دينهم - بل فى خدمة لغتهم - على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يلج الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لأنه تبشير رسول « يهودى سامى » كما يقولون عن السيد المسيح . وبعضهم ينشئ لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التى يتبعها أصحاب العبادات ، ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم ؛ لأنهم لم يحرروا عقولهم من العبادات الشرقية أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة فى الأنساب وفى الأخلاق . . !

هذه طائفة من ذوى النيات السيئة بين كتاب الغرب يؤلفون عن المسلمين عامة

وعن المسلمين العرب على التخصيص ، ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاجتماع .

وطائفة أخرى هى طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون إلى هدم المجتمعات القائمة ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض « الإصلاح الاجتماعى » الذى يلغى « الروحيات » ويستبدل بها « الماديات » فى كل مطلب من مطالب الحياة الدنيا ، ولا حياة غيرها لإنسان .

ونصيب الإسلام عند هؤلاء الماديين الملحدين أوفر الأنصبة وأولاها بالتقديم فى خطة الهدم والتشويه ، لأن المسيحية لا تزاحم مذهبهم الاجتماعى بمذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعيـــة والحكومية ، ولكن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاسه ويحيط بشئون الدين والدنيا فى حياة الآحاد وحياة الجماعات ، ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم إلى إنكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات .

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة فى عداوتهم للإسلام جماعة « المؤمنين المحترفين » سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء فى البلاد الأوربية والأمريكية .

فهؤلاء أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الإسلامى وتمثيل المسلمين على الصورة التى تذكى عند القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والغفلة . فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم ولمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ، ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالدين كله ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلحاده أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التبشيرية فى بلاد المسلمين ؛ فهو كاذب متعمد متنفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى إلى علمها برضاه .

وينبغى أن نفرق بين هؤلاء « المؤمنين المحترفين » وبين المؤمنين المصدقين برسالتهم عند النظر إلى أقوال المبشرين .

فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر إلى الأشياء على غير وجهها وأخطأ الحكم عليها غير متعمد أن يخطئ أو يصر على خطئه وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين الذى ينكره أو من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ، ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيراً يوافق رأيه فى عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله فى زعمه . وكذلك فسر المبشرون الأقدمون

فضائل الديانات التى وجدوا عليها أبناء الأمريكتين الوسطى والجنوبية يوم ذهبوا إليها بعد كشف العالم القديم بقليل ، فقد شهدوا بفضائلهم فى بعض عقائدهم وشهدوا بصحة تلك الفضائل على مذهبهم ، ولكنهم قالوا إنها دسيسة من الشيطان أدخلها على عقول أولئك الأمريكيين الأصلاء ليزين لهم ضلالتهم ويزيف عليهم أباطيلهم ، ولا يخطرن لنا أن هذا الزمن قد ولى وانقضى بتأويلاته وتخريجاته التى يأباها العقل ويرفضها المنطق السليم ... فنى عصرنا هذا سمحت سيدة أوربية لعقلها أن يغض من فضائل رجل كالمهاتما غاندى الهندى فلم تنكر عليه تلك الفضائل ولم تجرؤ على ازدرائها عند أبناء أمته ، ولكنها قالت إنها صفات عارضة فى روح غير ناجية ولا عالية ومن هنا كما قالت لم تظهر لروح غاندى مسحة من السماحة على وجهه ... فلحقت به الدمامة وحومت على محياه . ! ولعل المبشر المثقف فى هذا العصر لا يرجع إلى تأويلات الأقدمين ولا يزعم أن فضائل الدين الذى ينكره دسيسة من كيد الشيطان ، ولكنه يقول كما قالت تلك السيدة إنها صفات عارضة لا تتغلغل فى أعماق الروح ولا تحسن سيماها فى الوجوه !

على أن الإخلاص فى الإيمان بدين من الأديان عصمة ولا ريب من التلفيق المتعمد والكذب المقصود . فإذا كتب المبشر المؤمن بدينه عن الإسلام والمسلمين فإنما يكتب الحقيقة كما يراها وتتمثل له فى هواه ، ثم ينم عليه جهله وينكشف للقارئ مصدر خطئه وبواعث انحرافه ، ويختلف أمر المبشرين المحترفين فيما يلفقونه على الأديان التى ينكرونها ويتجردون — على زعمهم — لهداية أصحابها ... فإن هؤلاء المبشرين المحترفين مهرة فى فنون الدعاية مدربون على تمويه الواقع وتلبيس الحق بالباطل ، فلا يشق على عقولهم ولا على ضمائرهم أن يعرضوا أحوال الأمم على الصورة التى تنفر الناس منها ولا سيما المتعصبين المستعدين للنفرة والراغبين فى اختلاقها ، ولا نبالغ فى التقدير إذا قلنا إن تسعة أعشار المبشرين المحترفين فى العصر الحاضر من هذا القبيل .

طائفة أخرى يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الإسلامية كما يشوبها الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون إلى سماع أخباره ويحبون أن توافق ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه ، ومعظم المتحدثين على هذا الأسلوب يسوقون أحاديثهم إلى قراء ألف ليلة ورباعيات الخيام ورحلات الرواد فى القرون الوسطى ، فلا يحبون أن يسمعوا خبراً يألفونه ويشبه ما تعودوه ، وهو اهم كله إلى الأحاديث الشرقية التى تعرض لهم شرقا فى الواقع كالشرق الذى

قرءوا عنه فى أساطير الخيال . وقد رأينا بعض كتاب الغرائب فى هذا القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل بضيافة شيخ فى الستين له فى مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة وله من الأبناء والبنات ما ليس يحصيه ، ورأينا غيره يزعم أنه زار فى العواصم الإسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسرارى لايهتدين فى الطريق بغير دليل من الخصيان ، ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين يثوبون شيئاً فشيئاً إلى الاعتدال فى رواية أخبارهم وأعاجيبهم بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه اللوحة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة ، ولم تبق للغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملئونها بالأعاجيب والمدهشات عن المسلمين والشرقيين وهى زاوية التاريخ والقصور الأثرية التى يعمرونها بأبطال العصور الغابرة ويلحقون بهم أحيانا أبطال العصر الحاضر فيما يؤلفونه عنهم من قصص البيوت والخدور .

وأخطر المغرضين جميعا طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين ، وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

ويهون خطب الصهيونية الساخرة فى دعايتها السياسية أو العنصرية ، فإن الغربيين يعرفون أكاذيب هؤلاء الصهيونيين ولا يساعدهم من يساعدهم هناك جهلا بما يفترون على ضحاياهم أجمعين ، وإنما يساعدونهم لأن خطر الإسلام عليهم أكبر من خطر الصهيونية وما يماثلها من الأخطار العنصرية ، ولعلهم فى الغرب لم يسلموا من دعاية صهيونية تحاربهم وتفترى عليهم فى مسائل الدين ومسائل السياسة كلما بدا للصهيونية العالمية مأرب عند هذا البلد أو ذاك ، فإذا أعلن الصهيونيون حملاتهم مصرحين بأسمائهم فلا ثقة بما يروجون ولا ضير على المسلمين منهم ولا غير المسلمين .

لكن الدعاية المقنعة أخطر ما يستطيعه هؤلاء الصهيونيون ، والحملات التى يشنونها فى أرجاء العالم بأسماء غيرهم هى فى الواقع سلاحهم الذى يعولون عليه ، لأن جمهرة القراء يصغون إليها ولا يتهمون قائليها ، بل لا يشعرون بداع إلى الاتهام فى أكثر الأحيان .

وقد عرف الصهيونيون فى عصرنا هذا مواطن القوة التى تسخرها الدعاية فاستولوا على الكثير من أدواتها وبرعوا فى تسخيرها وإخفاء مراميها . فهم يملكون شركات الإعلان فتحسب الصحف الكبيرة قبل الصغيرة حسابهم ولا تتورع عن خدمتهم أو السكوت عنهم على الأقل وكتمان سيئاتهم

ومآربهم . إذ كانت الصحف الكبيرة — خاصة — أحوج إلى الإعلانات لكثرة تكاليفها تبعاً لكثرة صفحاتها ، فلا تكاد أثمانها تفى بتكاليف الورق فضلا عن تكاليف التحرير لولا موارد الإعلانات .

ويملك الصهيونيون دور النشر فيحسب المؤلفون حسابهم كما يحسب الصحفيون ، وقد يتبرع المؤلف بمرضاتهم ونشر دعايتهم تمهيداً لقبول كتبه ، وإذاعتها بالترويج والتقريظ وخلق « الجو » الصالح للاهتمام بها واللغط حولها ، ولا تقصر وسائلهم أحيانا عن ترشيحها لأكبر الجوائز العالمية من قبيل جائزة نوبل بالسويد وجائزة بولتايزر بالولايات المتحدة ، لأن نوبل نفسه يهودى ولجان التحكيم فى الولايات المتحدة لا تخلو من اليهود أو من يسيطر عليهم اليهود بوسائل الإعلان والترويج .

ويملك الصهيونيون أسهما وافرة فى شركات الصور المتحركة وينتسب إليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح واللوحة البيضاء .

وإلى جانب هذه الوسائل الفنية أو المالية وسائلهم وراء الستار — وأمام الستار — بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الأصوات فى مواسم الانتخابات ، وليس استخدامهم لوسائل الجمال فى هذه المعارك وما إليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

والمغرضون فى خدمة الاستعمار قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية إن لم تزد عليها فى بعض الأحوال ، إذ هى قوة الدولة وقوة المال ، وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات .

إلا أن الاستعمار فى هذا العصر لم يقترن به الترياق على الرغم منه ، وأوله ترياق النزاع عليه بين المستعمرين .

فإذا جاءت الفرية من جانب المستعمر الفرنسى لم يبخل عليه المستعمر الانجليزى بالتفنيد والتجريح ، مزاحمة له وإحباطا لمسعاه ، وإذا اختلفت برامج السياسة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ففى مجال الخلاف متسع لظهور الغرض المستور إن لم يكن فيه متسع لإنصاف الأمة المفترى عليها وتصحيح الأباطيل التى يروجونها عنها .

وقيام المعارضين للاستعمار فى كل دولة من دوله المشهورة ضمان لتفنيد دعاواه أو الكشف عن خباياه ، فلا تخلو دولة من دول الاستعمار الكبرى من أحزاب تعارض الاستعمار ، إشفاقا من مغارم الضريبة ومجازر الحرب وغارات الهجوم والدفاع ، وزهدا فى مغانمه التى يستأثر بها الرعاة ولا نصيب للرعية منها غير الخسارة والشقاء .

وعلى قدر سموم الاستعمار يكثر الترياق لكل سم من هذه السموم .

فالرغبة فى كسب مودة الضعفاء أقوى اليوم من الرغبة فى احتلال بلادهم واستغلال مرافقهم ، لأن فوائد الاحتلال تنقص ، ومغارمه تزداد ولأن الحروب اليوم حروب عالمية تمتد إلى كل ركن من أركان العالم المعمور فلا تؤمن العاقبة أثناء القتال إذا فوجىء المقاتلون بالمقاومة الحربية أو الاقتصادية فى ركن منها ، كائنا ما كان شأنه من الضعف والانزواء .

وليس من المنتظر ولا من المعقول أن يتصدى المستعمرون لإعلان الحقائق المشرفة لضحاياهم الأولين وضحاياهم الباقين تحت نيرهم ، وهم غير قليلين . ولكن المستعمرين خلقاء أن يعلموا أن معرفة الحقيقة عن الأمم المطموع فيها أجدى عليهم فى معاملاتهم معها من كتمان الحقيقة وتضليل الأذهان عنها إذ كانوا يخدعون أنفسهم ويضللون أبناء بلادهم إذا وضعوا لهم تلك الأمم المطموع فيها على غير حقيقتها ، فيخسرون لا محالة كما يخسر التاجر الذى يجهل أحوال «زبائنه» من الغنى والفقر والأمانة والغش والوفاء والمطال ، وما دامت القوة الغاصبة سلاحا مغلولا فى أيدى الغاصبين فلا مناص لهم من معاملة الناس كما هم فى الواقع بدلا من التعويل على قهرهم وإرغامهم وقلة المبالاة بما يجهلونه من شؤنهم وأخلاقهم ، كما كانوا يفعلون يوم كان الحكم كله للعنف والإذلال .

إن سموم الدعاية الاستعمارية باقية وستبقى إلى حين ، ولكنها اليوم سموم يقترن كل سم منها بترياقه ، ولا تفعل عقاربها ما تفعله أمصالها بين ضحاياها ، بل لا يأمن المستعمر نفسه من جرائر تلك السموم .

والنتيجة التى نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الإسلام والمسلمين فى عصرنا هى تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين وحصر البواعث التى تدفع غير المخلصين إلى الجهل بالحقيقة وإخفائها إذا عرفوها .

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة ، وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية والمتعصبون للدين عن إيمان أو عن غش واحتراف ، وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار .

ويعوزنا نحن الشرقيين المفترى عليهم أن نحسن الوزن بهذا الميزان لنفهم ما يقال كما ينبغى أن يفهم ، ولكنها نتيجة سلبية قصاراها أن تنفى ما يقال ، فألزم لنا من هذه النتيجة السلبية أن نقول نحن ما يثبت وما يدفع ما يقال ؟

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

الكواكبي رائد العروبة

— بمناسبة ذكراه —

للأستاذ محمود غنيم

حركت فى النفس يا شهباء أشجانا ... يا وكر أحمد يا غيل ابن حمدانا

سألت نفسى أحقاً هذه حلب ؟ ... ورحت ألثمها أرضاً وجدرانا

يا بلدة كدت التاريخ سيرتها ... وقرحت من رواة الشعر أجفانا

وأخلقت جدة الأيام قلعتها ... ولم تمس لها الأيام صفوانا

كم عنك من خبر أصغى الزمان له ... وأرهف الفلك الدوار آذانا

حسبت تربك من مسك وغالية ... وخلت حصباءه دراً ومرجانا

هذا أديم على مرآته انعكست ... مناظر المجد تحكى الطيف ألوانا

فى كل زاوية من أرضه خبر ... عن بنت عدنان أو عن مجد عدنانا

إن العروبة لو خطت مفاخرها ... سفراً لكنت لهذا السفر عنوانا

هنا بموكب سيف الدولة ائتلقت ... تلك البقاع وسار الركب مزدانا

كم شع من أفقها علم ومعرفة ... وأنبتت أرضها خيلا وفرسانا

كم قبلت تربها من فارس شفة ... وسار فيه سراة الروم عبدانا

يا رب جارية من فوقه خطرت ... تنمى إلى عاهل من آل ساسانا

أبناء حمدان لسنا فى ضيافتكم ... إنا نزلنا على التاريخ ضيفانا

* * *

إنا ضيوف على ذكرى تفوح شذى ... بستانها الدهر نسرينا وريحانا

ذكرى ابن أحمد يروى الشرقُ سيرتها ... أنشودةً فيهز العِطف نشوانا
ذكرى التقيّ الذى يعنـو لخالقه ... ولا يقــدّسُ غيرَ الله إنسانا
ذكرى الكميّ الذى قد ثار منفرداً ... على الطواغيت من أبناء عثمانا
ذكرى الشهيد الذى ضحى براحته ... وقدّمَ الروح للأوطان قربانا
جئنا نمجّد شمسا ضمّها جدثٌ ... قد أيقظت كلّ طرف غير يقظانا
وبدّدَتْ بخيوط من أشعّتها ... غيما على الأفق الشرقيّ قد رانا
شمس ولكنها فى الشرق قد غرَبَتْ ... كأنّ موعدَ يوم الحشر قد حانا
جئنا نمجّد فى إبّان وحدتنا ... موحّداً بسوى التوحيد ما دانا
أين اليراع الذى قد كان يشهرُهُ ... كالسيف إن لان حد السيف ما لانا ؟
يراعةٌ كعصا موسى إذا نَفَثَتْ ... رأيتها فوق ظهر الطِّرس ثعبانا
كم من يراع إذا نار الوغى احتدمت ... صبّ المداد على القرطاس نيرانا
وكم أديب إذا ثارت صحيفتــه ... يوماً أثارت على المحتلّ بركانا
والشعرُ من زَهَرٍ تلقاه أو شرر ... لا تحسبوا الشعر تقطيعاً وأوزانا

* * *

أخا الكواكب فى ومض ومنزلة ... هل بتّ فى العالم العلويّ جذلانا
إن الذى كنت فى دنياك تغرِسُهُ ... قد صار روضا وريف الظل فينانا
فى مهرجانك يبدو صرح وحدتنا ... أرسى وأرسخ من أركان ثهلانا
أخا الكواكب قم وانفض ثراك فما ... كان الثرى للنجوم الزهر أوطانا
قم من ثراك وغرّد فى محافلنا ... وهات ماغاب عن قسٍّ وسحبانا
قم من ثراك وبارك صرح وحدتنا ... إنا بنيناه كالأهرام بنيانا
صرحاً تعانقَ روحانا به شغفا ... من قبل أن تتلاقى فيه كفّانا
قد كنتَ فى مشرق الدنيا ومغربها ... مثلَ الكواكب لا يأوِينَ بلدانا
ماكنت تعرف داراً للإقامة بل ... كانت لسعيك كل الأرض ميدانا
حتى ترحّلتَ لا جاهٌ ولا نَشَبٌ ... بل كان حظك من دنياك حرمانا

وآثرتْ نفسك الأخرى ولو خضعتْ يوما لكان لها دنيا سليمانا
ما حطَّ قدرَك سجنٌ أنزلوك به هيهات بل كنت للسجّان سجّانا
قد يرفع السجنُ من يغشاه منزلة ويعصفُ السّجنُ بالسجان أحيانا
صاولتَ فى مصرَ لما أن نزلتَ بها من عرشها ومن المحتلِّ ذُوْبانا
والله ما نسيت مسعاك فى زمن سهرت فيه وكان الكل وسنانا
حتى إذا غبتَ عنها ودّعتْ رجلا قد كان أرفعَ من أهرامها شانا
وغسّلتْك بصَوْبٍ من مدامعها مصرُ البريئةُ ترجو منك غفرانا
يا شارب السمِّ من كف ملوثة هل تشرب الآن من إبريق رضوانا ؟
لقد تحدّيت فى القبر الفناءَ فهل خلتَ الفناءَ على البسفور سلطانا ؟
والحرُّ يُنصفُهُ تاريخُهُ وكفى بالذكر خلداً وبالتاريخ ميزانا

* * *

أبناءَ يعرُبَ لا كانت عروبتُنا إن لم تُثِرْهُ عزمَنا ذكرى ضحايانا
يا قومُ تاهتْ لنا فى النجم مملكة قوموا نطالبْ بها الشعرى وكيوانا
مُلكٌ بنتْهُ بحدِّ السيف منصلتاً أيدى الأوائل من أبناء مَرْوانا
بنى بَنُوهُ بأيدى العُربِ دولتهم فاشتدَّ بنيانها أسّاً وأركانا
ما هجّنوا بموالى الروم نسبتها أو أيدوها بجُند من خراسانا
لم يرفعْ الصوتَ يوماً فى جوانبها مستعجمٌ أو يعدَّ الكف قرصانا

* * *

أبناءَ يعرُبَ هذا اليومُ يومُكمو هيّا بنا نستعيدُ الماضى الآنا
نقيمُها دولةً شمّاءَ باذخةً يعنو لها الدهرُ تسليما وإذعانا
تبنى الحضارة بنياناً على أُسس وتزرعُ السلم فوق الأرض بستانا
وتحفظُ الشرقَ إن شرٌّ أريدَ به ممّنْ يظنون أهل الشرق قطعانا
تزلزلُ البَرَّ فرساناً وأسلحة وتزحمُ البحر بعد البرِّ حيتانا
وتملأ الجوَّ أسراباً محلقة تبُثُّ فى الأرض تدميراً وعمرانا

إذا صحا الجوُّ طارت فى جوانبه ... وُرْقًا وإن غام طارت فيه عقبانا
إنى أظن وظنى ليس يكذبنى ... أن الزمانَ الذى نرجوه وافانا
اليومَ ما عاد يشكو النيلُ من رَنَقٍ ... أو يشتكى بَرَدَى المعسولُ أدرانا
يا طالما جَرَيا شهداً لمغتصب ... وابنُ الحمى بهما قد بات غصّانا
لا يعرف الضيمُ شَعْباً كان مغفرُهُ ... وسيفُهُ فى الوغى صبراً وإيمانا
إن الألى غصَبُوا سورْيا ومصر معاً ... زاروا القناة فكانوا بعض صرعانا

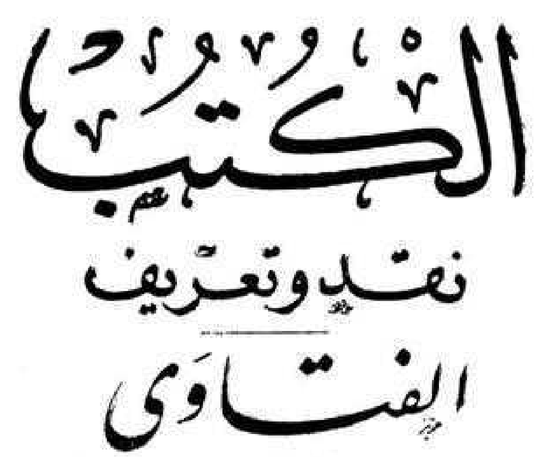
* * *

أبناءَ يعرُبَ لا كنّا إذا دَلَفَتْ ... بنا خطانا إلى العلياء وُحدانا
بغدادُ كم لك فى قلب العروبة من ... قدْرٍ إذا هانت الأقدارُ ما هانا
إخواننا فى ظلال الكرخ ويحكمو ... لقد أصبتم لنا فى الكرخ إخوانا
يا أهلَ بغدانَ راعوا الله فى رحم ... موصولة قطعَتْ يا أهل بغدانا
ماذا تقول ؟ أمَنْ صحْنَا به مَلكا ... بالأمس ندعوه هذا اليوم شيطانا ؟
هيهاتَ تقطعُ ما الرحمنُ واصلهُ ... يدُ المفرّق لا كانت ولا كانا
إن العروبة قد باتت مُوحّدة ... حسّاً وعاطفة أرضاً وسكانا
ما عاد يجرح أذْنَ الضاد جارحةٌ ... من ذكر لبنانَ أو من ذكر عمّانا
الله أكبر ساد الوعىُ وانديجّتْ ... تلك الحدودُ وصار الكل عربانا

* * *

قد سارت الفُلكُ عينُ الله تكلؤها ... فهللَ البحرُ أمواجا وشطآنا
سرْ يا جمال إلى شط السلام بها ... قد اصطفاك لها الرحمنُ ربّانا

محمود غنيم



الفتاوى

دراسة لمشكلات المسلم المعاصر فى حياته اليومية والعامة

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

محمود شلتوت

من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر
ويقع فى ٤١٠ صفحة من القطع المتوسط

وهذا كتاب آخر ظفرت به المكتبة الإسلامية من تأليف شيخ المسلمين الأستاذ الأكبر بعد كتابه القيم الذى قدمناه إلى قراء المجلة فى الجزء الماضى وهو (الإسلام عقيدة وشريعة) هذا الكتاب الجديد هو (الفتاوى) وهو مجموعة من الآراء الناضجة تتسم بالجدة والعمق فى تطبيق الفقه الإسلامى على مشكلات المجتمع ، وإنا نكتفى اليوم فى التعريف به بما كتبه الأستاذ الدكتور محمد البهى فى تقديمه . قال الأستاذ :

أى كتاب لـ « لفتوى » هو قاموس للمشاكل يختلف عن أى نوع آخر من أنواع الكتب مهمته — بجانب التبصير كمهمة أى كتاب فى جملته — التى ينفرد بها أنه يسعف صاحب الحاجة إسعافاً مباشراً وفى يسر وأنه يتناول ما يجرى فى الحياة اليومية من أحداث تجد أو تتكرر ، لا بانطوائها تحت مبادئ كلية أو نظرية عامة ، وإنما فى جزئياتها وفى تطبيق المبادئ والنظريات العامة على هذه الجزئيات والمبادئ .

وكتاب « القاموس » أصبح شيوعه اليوم فى حياتنا المعاصرة أكثر من ذى قبل ، لأن الحياة فى سيرها اليوم أكثر سرعة ، والوصول إلى الهدف من أيسر السبل وأقربها قبولا أكثر قبولا لدى النفس ، وأشد ضرورة لحياتها الخاصة .

وإذا كان من الواجب على الإدارة العامة للثقافة الإسلامية أن تراعى هذا الطابع الحياة المعاصرة ، بجانب ما تراعى حاجة المسلمين إلى التفقه وإلى إيجاد الحلول الإسلامية لأمورهم ومشاكلهم . وهنا أملى هذا الواجب عليها أن تسعى إلى سد هذه الحاجة .

ومن حسن الحظ أنها وجدت فى جوانب المعرفة العديدة التى يتميز بها شيخ الإسلام وشيخ الأزهر فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يسد هذا الفراغ فى حياة المسلمين اليوم ، ويلبى حاجتهم السريعة ، فأخرجت هذا الكتاب : « الفتاوى » .

وإذا كانت الضرورة تدعو إلى تنوير المسلمين فى حياتهم اليومية عن طريق « الفتاوى » ، وإذا كان شأن كتاب « الفتوى » يختلف عن أى نوع آخر من أنواع الكتب فإن فتاوى الأستاذ الأكبر – بجانب ما تحمله من طابع التيسير فى الوصول إلى حل المسائل اليومية الذى هو طابع الفتاوى بوجه عام تتميز بطابع خاص هو الإحساس القوى بالحياة اليومية وبأحداثها ، والعمق فى فهم الإسلام وتطبيق مبادئه .

فالأستاذ الأكبر عاش فى فتاواه بين المسلمين ، وفى صلات المسلمين بغيرهم ، ومرت عليه التطورات العديدة والقوية الأثر فى حياة الإنسان ، وهو مقدر لهذه التطورات التى دفع إليها تقدم العلم ، وكانت ثمرتها تلك الحضارة الصناعية والمادية التى يتمتع بها الإنسان حينا ، وتسد حاجته اليومية حينا آخر ، وقد تشق بها حياته أحيانا فهو لم يكن فى عزلة عن الحياة الإنسانية المعاصرة ، يوم حلل المشكل أى مشكل ، ووضح عناصره وآثاره على الفرد والمجتمع ، ثم استوحى القرآن والحديث الصحيح الرأى بما أفتى به .

ولذا فإن ما تقدم فيما مضى من فتاوى ، وما يوجد من كتب لهذه الفتاوى فى أجيال المسلمين المختلفة والمتعاقبة لا تسد بحال هذا الفراغ الذى يسده كتاب « الفتاوى » للأستاذ الأكبر الشيخ « محمود شلتوت » لسبب بسيط وهو أن ما سبق من فتاوى كان لعلماء عاشوا فى غير أيامنا ، ولم تمر عليهم تلك التطورات البشرية القوية الأثر . ولذلك فصلاحية ما أفتوا به تكاد تكون ذات اتصال مباشر بحياة المسلمين قبل عصرنا هذا .

نعم : كثير من الفتاوى التى قام بها قادة الرأى وأئمة الاجتهاد بين المسلمين قبل الآن ، لها اعتبارها وصلاحيتها اليوم ، وسيظل لها اعتبار ووزن كذلك فى حياة الغد . أما الاستيعاب لأحداث هذا العصر ، أو الاتصال المباشر بها وتطبيق الرأى الإسلامى عليها – فلا نجده فى غير كتابنا هذا الذى نقدمه باسم « الفتاوى » لشيخ المسلمين وشيخ الأزهر .

ومن ثم فكتب «الفتاوى» السابقة يكملها كتابنا هـذا ، ويتم فى سلسلة الفتوى حلقة أخرى ، تتضح صلاحيتها للمسلم المعاصر على وجه أخص فى حياته اليومية فرداً ومجتمعا على السواء .

وفوق هذا وذاك فإن العمق فى الدراسة والبحث ، الذى يتميز به أستاذنا الأكبر فيما يكتب وفيما يفهم من الإسلام بصفة عامة ، هو ميزة أخرى تتجلى فى كتاب اليوم : «الفتاوى» . والرأى الإسلامى الذى يعطيه الأستاذ الأكبر فى فتاواه هنا ليس ناضجا فحسب من الوجهة العلمية ، وإنما هو يعبر تعبيرا لا لبس فيه عن روح الإسلام وأهداف تعاليمه فيما يتعلق بتوجيه الفرد وتوجيه المجتمع .

فهم مستقيم لطبيعة الإنسان ، واستيعاب واسع لعناصر المشاكل والأحداث التى تجرى فى عالمنا اليوم ، وسلامة فى تحديد أهداف الإسلام وتعاليمه فى توجيه الإنسان ، واتصال قريب بالقرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الصحيحة ـ كل ذلك أساس «الفتوى» فى كتابنا الذى تقدمه هنا الإدارة العامة للثقافة الإسلامية .

وإذا كان كتاب الأمس : «الإسلام عقيدة وشريعة» قصدت به الإدارة العامة للثقافة الإسلامية أن توقظ الوعى الإسلامى بين المسلمين ، وتوقفهم على أهداف الرسالة الإسلامية ليجتمعوا حول الإسلام ويحققوا رسالته ـ فكتاب اليوم : «الفتاوى» يقدم الحلول للمسائل العملية التى تقع فى حياة المسلم المعاصر ، كى يسلك فى تصرفاته سلوكا إسلاميا ، وكى يبقى مستظلا بظل الإسلام ، يسير بمشعله فى حياته ، بعد أن يمتلئ قلبه بالإيمان به .

كتاب الأمس كان تنويرا لتفكير المسلم المعاصر بما فى الإسلام من قيم وتعاليم . وكتاب اليوم «الفتاوى» تنوير له فى سلوكه الخاص ، وفى أسرته ، وفى مجتمعه وفى صلته بربه ، وفى علاقته بغيره من مواطنيه أو من الشعوب الأخرى .

وميزة أخرى لهذا الكتاب أنه منذ عصر الركود الذهنى ، ومنذ عصر الجمود فى تأليف الكتاب الإسلامى بقيت أنواع المعاملات وبقى الرأى فيها على نحو ما كان معروفا للأئمة بين الفقهاء فى الأجيال الماضية . والفتوى التى كانت تجد بعد ذلك كانت أيضاً لا تخرج عن هذه الأنواع ، وإن لم تأخذ حينا بالرأى فيها على نحو ما رأى السابقون . أما شيخ الإسلام وشيخ الأزهر فى كتابه هذا فقد رأى من الواجب عليه ـ لأنه أراد تنوير المسلمين فيما جد من مشاكلهم العديدة ـ أن يبدى الرأى الإسلامى فى الأحداث التى جدت والتى لم يعرفها الأوائل من

الأئمة . فأبدى الرأى مستخدما فيه أصول الفقه التى استخدمها الأئمة من قبل ، ومستعينا بفهمه الدقيق لأهداف الإسلام ، وبتاريخ الدعوة الإسلامية فى مكة ، وتاريخ قيام المجتمع الإسلامى بالمدينة ، وبتاريخ الغزوات الإسلامية وما كان لها من نتائج فى علاقة المسلمين بغيرهم .

و « الفتاوى » التى نقدمها اليوم لذلك تميزت بعدة خصائص سواء بسعة الموضوعات والمشاكل التى تناولتها أو بالرأى الذى تحمله للمسلمين وهى خصائص أقل ما يقال فيها إنها تطمئن الإنسان على أنه يسير فى حياته طبقاً لها — سيرة المسلم الصحيح ، وإنه قد أرضى باتباعها ربه كما أرضى دينه .

والإدارة العامة للثقافة الإسلامية ترجو للمسلمين أن يطمئنوا دوما إلى إسلامهم ، وأن يزيد إيمانهم به على أنه المنهج القويم لسلوك الإنسان صاحب المستوى الرفيع . كما تدعو الله جل وعلا أن يبارك فى فضيلة الأستاذ ، الأكبر وأن يجزيه خير الجزاء على ما يقوم به من توجيه للمسلمين .

الدكتور محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

الإسلام وحاجة الإنسانية إليه

تأليف الدكتور محمد يوسف موسى

عرض ودراسة — الأستاذ محمد الغزالى

هذا موضوع يجب أن يطول فيه الحديث ، وأن تكثر فيه البحوث ، فإن تقدم العلم فى عصرنا هذا صحبه تجهم للدين ، وتنكر للإيمان ، ونظر إلى تراث السماء كله وكأنه بقايا من أساطير الأولين لا ينبغى الاكتراث بها .

وشملت هذه النظرة الإسلام بعدما بدأت من غيره ، وأعان عليها ما لحق المسلمين فى الآونة الأخيرة من تخلف وعجز يجران التهم جرا إلى دينهم الحنيف ، ويلصقان به ما هو منه برىء !.

وقد سرنى أن يتصدى الدكتور محمد يوسف موسى لإصدار كتاب حافل فى هذا الموضوع تضمنت أقسامه الخمسة أطراف البحث كله ، وطوت مراحله الشاسعة طياً يجمع بين الاستقصاء والإيجاز .

وأسلوب الدكتور فى كتابه هذا تتضح فيه خصائص نفسه ، ففيه عمق الفلسفة وليس فيه تعقيدها ، وفيه دقة القانون وليس فيه جفافه ، وإن كانت عباراته دانية يخيل إليك أنها لا تعلو عن لغة التخاطب المعتاد .. وهذه طريقة فى الأداء يستريح لها الكثيرون

وأظنها فى مجال النشر الفنى أوسع طرائق التعبير للإفهام والاستدلال . . .

وقد ألف الدكتور كتابه على نسق مزدوج فهو يجمع الحقائق ، ويضعها صفا صفا ، ويدعك تشركه فى استخلاص النتائج من المقدمات ، وتنتهى معه إلى حيث يريد .

وتجميع الحقائق من مظانها قد يبدو للفكر القاصر عملا سهلا .

كلا ، إنه فى ميدان البحث الدينى والتشريعى والتاريخى والكونى هو الجهد المضنى ، والعمل المشكور . .

ثم هو بالنسبة إلى الإسلام العمل الفذ الذى لا بد منه . فإن الدفاع عن هذا الدين يتطلب من رجاله أولا وآخراً ، أن يذكروا حقائقه المجردة ، وأن يحسنوا شرحها ، لا بجودة السبك وبهرج اللفظ ، بل بتمحيص الجوهر ، وتعريته عن أية إضافة أخرى .

وذاك ما اضطلع به فى وفاء وقوة مؤلف « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه » .

وصفحات الكتاب موزعة على خمسة أقسام نرى ضرورة ذكر عناوينها هنا كى يتعرف القارئ اتجاهات البحث فيه .

أولها : « الإسلام هو الدين الحق ، الحاجة إليه خصائصه » والثانى : « العقيدة ، الإسلام ، وعدالة الله ، ورحمته » والثالث : « النبوة والبعث وما يكون عنه » والرابع « الشريعة الإسلامية » والخامس : « مقاصد الإسلام وغاياته » .

ووراء كل باب من هذه الأبواب الخمسة كلام مستفيض زاخر بالحقائق العلمية والدلائل المورثة لليقين .

خذ مثلا ما كتبه تحت عنوان « من خصائص الإسلام » يقول : « لكل دين خصائصه التى يتميز بها عن الأديان الأخرى فما هى خصائص الإسلام الذى ندعو إليه جاهدين ، والذى لا خلاص للعالم إلا به بعد أن انقسم إلى معسكرات يتربص بعضها ببعض الدوائر ؟ » ثم يجيب على هذا التساؤل بعد تمهيد يسير . « نكتفى هنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض هذه الخصائص وهى أنه دين الوحدة الدينية ، والوحدة السياسية ، والوحدة الاجتماعية ، ودين العقل والفكر ودين الفطرة والوضوح ، ودين الحرية والمساواة ، ودين الإنسانية ، وهو لذلك كله دين ودولة ، وهو الذى قرر حقوق الإنسان ، وتحت كل فصل من هذه الفصول أخذ الدكتور يشرح قضاياه ويسوق براهينها سوقا سهلا يعتمد كما قلنا على تجميع الحقائق وإحسان ترتيبها .

ولا بأس من الإلماع إلى الطريقة التى يعالج بها المؤلف موضوعه ، فهو لكى يستدل على حب الإسلام للحرية ، وعلى

تشوف الشارع لرؤية البشر كافة متمتعين بها يثبت لك هذه السطور الصغيرة : «من عناية الإسلام بالحرية وقدرها حق قدرها أن الفقهاء يقولون : إذا وجد صبي غير معروف نسبه مع مسلم وكافر ، فقال الكافر هو ابنى وقال المسلم : هو عبدى ، يحكم بحريته وبنوته للكافر ! ! وذلك لأنه بهذا ينال الحرية حالا وينال الإسلام فيما بعد حين يكبر ويفهم الدلائل على وجود الله وبعثة رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام بأكمل الأديان » .

وفى هامش الصفحة يذكر مصدر هذا الحكم الرائع فيكتب « راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه المطبعة الأميرية : الثالثة سنة ١٣٢٥ هـ ج ٤ - ص ٤٦٥ - ٤٦٦ » .

إن هذا الحكم المنقول أجدى عندى من إنشاء صفحة مليئة بالثناء على موقف الإسلام من قضايا الحرية . . . واستخراجه من مكمنه الخفى جهد يستحق كل احترام . والدكتور موسى من أبرع المؤلفين فى هذه الخطة . إنه يخدم الإسلام بتسليط الأضواء على حقائقه ووضعها أمام الجاحدين ، أو وضع الجاحدين بإزائها . . .

وأعترف بأننى أحد الذين يستفيدون من هذا المنهج أعظم الفائدة .

وبلغة الخطاب العادى التى لا تلمح فيها أثراً لتجويد العبارة وتزيين اللفظ يقول الدكتور فى بيان أن الإسلام دين فطرة والوضوح :

« ... وكذلك فكرة أن الإنسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلا بالخطيئة الأصلية التى لا يستطيع منها فكاكا ، وتقول بها المسيحية ونعرفها نحن من كتبها التى بين أيدينا . وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه قربانها . وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه ، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو وازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بعقيدة « الصلب والفداء » .

أى صلب « المسيح الإله » تفدية للبشر عما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية .

وكيف يستطيع عقل أن يؤمن بأن « الإله » كما زعموا يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه وهو يستغيث ولا مغيث له على حين يقول القرآن ، كتاب الإسلام ، عن سيدنا آدم : « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، كما يقرر أنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

كما يقرر من ناحية أخرى أن الإنسان يولد بريئا من كل ذنب أو خطيئة وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وظاهر أن هذا العرض العلمى لا يعنيه شىء إلا سرد الحقائق فى بساطة تامة وكنت أود لو انضم إلى هذه القدرة العلمية شىء من الافتنان فى الأداء ... ! .

والكتاب مشحون بالمادة العلمية التى يشرح بها صدر المؤمن، وتستوقف فكر الجاحد، وترغمه على مزيد من التأمل والانعطاف إلى الحق .

وفى البابين : الثانى والرابع تلخيص للعقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية معا، والمؤلف فى هذين البابين يكتب بخبرة الإخصائيين .

وقد تابعت شرحه لقضايا علم الكلام ، وتنويهه بالدور الذى قام به فى العهد الأول ، ومطالبته بتجديد موضوعاته واستدلالاته حتى توائم حاجة المعاصرين ، وما جد من مشكلات ذهنية ونفسية. والتجديد الذى يقترحه. هو فى الحقيقة عود إلى منهج القرآن الكريم فى إثبات الوجود الأعلى ، ووصف الكمال الذى يستحقه . وإنه لواجب على المعنيين بالدراسات الدينية أن يلتفتوا إلى هذا الاقتراح ، وأن يمهدوا العمل به فإن دراسة القرآن لفهم العقائد الدينية والتدليل عليها أولى من دراسة كتب علم التوحيد أو الكلام اليوم ؛ لأن هذا العلم نشأ فى زمن كانت الحاجة ماسة فيه للرد على خصوم الإسلام من الدهريين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة . أما اليوم وقد ذهبت تلك الخصوم وجاء خصوم آخرون فلا يليق بنا فرض الذاهب حاضرا وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله إذا بيناه على وجهه . وليس من الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومين ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك ! ! وفضلا عن هذا فإن كتب علم الكلام فيها حجب كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة وربما قضت على اعتقاد ثابت صحيح . وهذا كلام حسن ، وقد طبقه المؤلف حين خاض فى البحوث المتصلة بالعقيدة ، أو المنبثقة عنها . فكان منهجه قرآنيا ، وكانت الشواهد التى استظهر بها للغزالى وابن رشد من هذا القبيل المحكم . وحبذا لو فكر الأزهر فى دراسة علم التوحيد على هذا النحو المجدى ، واطرح الكتب المعتمة التى ما زالت بين أيدى الطلاب . والفصول التى تناولت الفقه الإسلامى فى هذا الكتاب لامعة الفكرة وهى ثمرة كتابات مسهبة ألقاها المؤلف فى كلية الحقوق - جامعة عين شمس. وتمتاز بالتحرر المذهبى ، والإحاطة بوجهات النظر الخاصمة والمصادقة ، ودفع الشريعة إلى الأمام كى تحتل المكانة التى غصبتها منها القوانين الموضوعة .

وبعد : فهذا كتاب يشتمل على ثروة من المعارف الدينيه السليمه تجعله عملا عظيما فى خـــدمة الإسلام ورفع مناره ليهتدى به الحيارى والمدلجون .

محمد الغزالى

آراء وأحاديث

مبادئ الإسلام هى مبادئ السلام :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه صباح اليوم مستر كولاند لتر مدير مكتب الأمم المتحدة للإعلام ، وكان يرافقه السيد الأستاذ على خليل نائب المدير .

وقد دار الحديث حول أهداف الأمم المتحدة وما ينبغى أن تكون عليه هذه المنظمة العالمية التى تتطلع إليها جميع الشعوب فى الشرق والغرب .

وقد اقترح فضيلة الأستاذ الأكبر على سيادة الزائر أن تتخذ هيئة الأمم المتحدة مبادئها وأسسها من مبادئ الإسلام التى تدعو إلى التعاون والسلام بين جميع الأمم ، وهى تقوم على الأسس الآتية :

١ ـ قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٢ ـ وقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

٣ ـ قوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

وأضاف فضيلته قوله : إنه لو اتخذت الأمم المتحدة هذه النداءات الثلاث شعاراً لها لأفادت الهيئة من التمسك بهذه المبادئ ، والتف الناس حولها لأن ذلك يؤتى ثماره الطيبة ويكون له أثره الواضح بين جميع الأمم .

ثم قال السيد الزائر : (إننى لأشعر دائما ، وأعلم علم اليقين أن هناك صلات قوية بين مبادئ الإسلام والمبادئ التى تدعو إليها الأمم المتحده والتى تتفق مع النداءات الثلاثة التى ذكرها فضيلة الأستاذ الأكبر ثم قال إنها لفرصة طيبة أن سعدت بلقاء فضيلة الأستاذ الأكبر واستمعت إلى حديثه الطيب كما أنه لمن أهم الأشياء التى قامت بها الأمم المتحدة أن جمعت بين الناس من جميع الأجناس والألوان وإنى لسعيد لوجودى فى هذا البلد الإسلامى العظيم .

ثم اقترح على فضيلته أن يعلن هذه النداءات

على العالم يوم ١٠ ديسمبر وهو اليوم الذى تحتفل به هيئة الأمم المتحدة بذكرى إعلان حقوق الإنسان لنشرها على الملأ وليفيد منها الشرق والغرب فأجاب فضيلة الأستاذ الأكبر : إنه لمن دواعى سرورى أن ألبى هذه الرغبة المقترحة ، وإنى على استعداد تام أن أعلن للأمم المتحدة هذه المبادىء القويمة التى سوف تخطو بهذه الهيئة العالمية نحو تحقيق آمال الشعوب وخاصة الشعوب التى تتطلع إلى الحرية والاستقلال حتى يمكن التعاون الوثيق بينها إذ أنه لا يمكن التعاون بين جميع الأمم إلا إذا كانوا جميعا أحراراً.

ثم تحدث فضيلته عن شعب الجزائر وشعب فلسطين مهيبا بالأمم المتحدة أن تعمل من جانبها على تحقيق آمال هذين الشعبين . هذا وقد وعد السيد الزائر أن يحمل رأى فضيلته إلى أروقة الأمم المتحدة لتعلن على ممثلى العالم ، وليقفوا على النداءات التى اقترحها فضيلته شاكراً له حسن استقباله وسعة صدره وآراءه القيمة للنهوض بهذه المنظمة العالمية .

حول الإصلاح الدينى فى الأزهر :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد روبرت بود زيت الصحفى الألمانى الذى تحدث مع فضيلته فى الإصلاحات الدينية التى تنبعث من الأزهر ، فقال فضيلته : إن من بين ذلك رفع التحكم عن العقل الإنسانى وإطلاق الحرية للفكر كى يؤدى واجبه للصالح العام ثم تركيز المسئولية لكل إنسان فى حياته الخاصة أو العامة والرسول يقول : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ثم قال السيد الصحفى كيف تتحقق مسئولية الفرد والإسلام يقول : « إن الله صانع كل شىء » فقال فضيلته : إن الإنسان مسئول بما منحه الله من عقل ، فله الاختيار فى فعله وليس مجبرا على عمله .

وعند ذلك قال الضيف : هل هذا منهج تطورى فى الإسلام ؟ .

فقال فضيلته : هذه هى طبيعة الإسلام منذ بدأت دعوته .

ثم سأل الزائر عن الطلاق فى الإسلام ، وهل أعطى الإسلام حق التطليق للمرأة ؟ .

فأجاب فضيلته : إن الطلاق تخلص من سوء العشرة وللمرأة حق طلب التطليق من زوجها إذا أساء معاملتها ، أو اشترطت أن تكون العصمة بيدها .

ثم تطرق الحديث إلى الحال التى يكون لهما فيها أولاد ، فقال فضيلته : إذا كان الأولاد صغاراً فللأم الحق فى حضانتهم ، أما إذا كانوا كباراً فإن الرجل الحق فى ذلك ، إذ هو أقدر من المرأة على مطالب الحياة

ولما سأل السيد الضيف فضيلة الأستاذ الأكبر عن تعلم المرأة بالأزهر أجاب فضيلته : ليس هناك فكرة الآن لقبول المرأة فى الأزهر ،

غير أن الإسلام قد أعطى المرأة حق الدراسة، وأن تتفقه فى دينها ، وهى فى ذلك كالرجل سواء بسواء ، وذلك موجود فعلا فى دروس الوعظ التى يقوم بها السادة وعاظ الأزهر وأئمة المساجد وخطباؤها ، مما جعل كثيراً منهن يتفقهن فى دينهن ، ويقفن على كثير من جمال نظام المجتمع كطبيعة تكوين الأسرة ، وحقوق الزوج على زوجته والزوجة على زوجها ورعاية الأولاد — وما إلى ذلك — مما يجعل بناء الأسرة قويما.

حال المسلمين فى أمريكا :

ثم استقبل فضيلته السيد جيمس محمد خليل رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية بأمريكا وقد حيا السيد الزائر فضيلة الأستاذ الأكبر تحية إسلامية باللغة العربية وقال : إننى يا فضيلة الأستاذ الأكبر لا أجيد التكلم باللغة العربية وإنما أتكلم بها قليلا فقال فضيلته : إن القليل منكم كثير وإنما يهمنى الإيمان العميق والعقيدة الصالحة والحرص على الوصول إلى الفكرة السامية فيوم نخلص جميعاً فى الدعوة إلى الله يوم يسود السلام الأرض ونبلغ الأهداف جميعها، ثم سأله فضيلة الأستاذ الأكبر عن المدارس الإسلامية وهل توجد فى أمريكا فقال : لا ، ولكننا نعمد إلى بعض المساجد فنقيم بها بعض الدراسات الخاصة ، ثم سأله عن اجتماع المسلمين فى المساجد ، قال : إن صلاتنا الجامعة نعقدها يوم الأحد وذلك لأنه يوم عطلتنا وليس أحد يستطيع أن يجتمع فى غير هذا اليوم لارتباط المسلمين بالأعمال العامة يوم الجمعة ، ونحن فى انتظار الأئمة الأزهريين فوعده فضيلة الأستاذ الأكبر بسفرهم فى أقرب فرصة .

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه سيادة بطريرك القسطنطينية المسكوفو أثينا غوارس الأول ، ولما استقر المجلس بسيادته قال : إن لنا مزيد الشرف أن قدمنا لزيارة فضيلتكم معربين عن صادق تقديرنا نحو الدعوة إلى المبادىء الإنسانية التى تعملون جاهدين من أجلها .

فقال فضيلته : إنه لمن دواعى سرورنا أن تلتقى الأديان من أجل المبادىء الإنسانية كما أنه ليوم مشهود أن صادف ذكرى إعلان حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة ، وأن أملنا لكبير فى أن يكون مثل هذا اليوم عيداً حقيقياً جديراً بالاحتفال بعد أن تأمن الشعوب الصغيرة على مستقبلها ، وتنال حقها كاملا غير منقوص .

ثم أضاف فضيلته : إنها لمقابلة تاريخية تلك التى نرجو أن يكون لها أعظم الأثر فى مستقبل تضامن الأديان من أجل الإنسانية

وإنى أنتهز هذه الفرصة ليضع كل منا يده فى يد الآخر عاملين على خدمة الإنسانية والسلام.

وقد أبدى سيادة البطريرك سروره وارتياحه لاقتراح فضيلة الأستاذ الأكبر بإصدار بيان مشترك لدعوة رؤساء الدول إلى الوقوف فى وجه فرنسا لتحول بينها وبين تفجير القنبلة الذرية فى الصحراء الكبرى ، ولترفع يدها عن الجزائر ، ولتعمل على إنصاف الشعوب المهضومة الحق حتى تنال استقلالها ، وأن تهيئ للاجئين الفلسطينيين سبيل العودة إلى وطنهم فى أمان واستقرار فإن الأديان تدعو إلى الإنشاء والتعمير لا إلى الهدم والتخريب .

وأضاف سيادة البطريرك قائلا : إننى بعد العودة إلى تركيا سأعرض الأمر على المجمع الكنسى لاستصدار قرار بضرورة الاشتراك فى هذا البيان .

كما قال فضيلة الأستاذ الأكبر : « لا حرب ولا ذرية » وكررها مرارا مع فضيلته سيادة البطريرك .

وقد أكد فضيلته الدعوة إلى السلام بقوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا » ، ولقد ذكركم سبحانه وتعالى فى القرآن قال : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ومعنى ذلك أنهم لا يستكبرون عن قبول الحق ولا عن الرجوع إليه .

وهنا ابتسم البطريرك ابتسامة الرضا والابتهاج قائلا : هذا ما ينادى به الإنجيل أيضا .

وإننى لسعيد : بهذا اللقاء ، فإنك رجل مملوء بالخير ، وقد قرأت ذلك فى عينيك اللتين تتوقدان إيمانا وقوة ، وفى لسانك الذى ينطق بهذه العبارات التى تحمل أسمى معنى لخدمة الإنسانية ، وإننا لنشكر سيادة الرئيس جمال عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة جزيل الشكر ، ونعبر عن عظيم امتناننا للتضامن الذى لمسناه من جميع الأديان ، وتعاونها الوثيق ، والمعاملة الطيبة التى تلقاها الكنيسة المسيحية فى هذا البلد العظيم .

ثم قال الأستاذ الأكبر : لقد كانت فرصة طيبة أن اجتمعت الأيدى متصافحة متآزرة ، وإنى إذ أتقبل هذه التحية بصدر رحب ولسان صادق ، نشكركم على زيارتكم التاريخية ، وندعو الله أن يوفقنا وإياكم للعمل من أجل المبادئ الإنسانية التى تنادى بها جميع الأديان كما أعبر عن شعورى الأخوى الذى يحمل لكم أصدق التقدير على تعاونكم ، كما أدعو أن يحفظ قائدنا الهمام الرئيس جمال عبد الناصر الذى يعمل حريصاً من أجل هذه المبادئ .

هـذا وقد وجه سيادة البطريرك الدعوة إلى فضيلته لزيارة تركيا فأجاب فضيلته : إنه ليسعدنى أن ألبى هـذه الرغبة عندما تتاح الفرصة لذلك .

اللغة العربية هي لغة المسلمين كافة :

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد محمد خيرجوهرى وزير التربية والتعليم بالملايو والسيد شيد جعفر البـــار نائب وزير الاستعلامات بالملايو والسيد سيد ناصر مدير المجمع اللغوى بالملايو والسيد صالح عثمان مدير الشئون الثقافية والعربية بوزارة التربية والتعليم بالملايو .

وكان يرافق الوفد السيد ابراهيم حمودة مدير عام التخطيط بوزارة التربية والتعليم المركزية والسيد محمد محمد عبد الرءوف مبعوث الأزهر وعميد الكلية الإسلامية العليا بالملايو والسيد محمد بيوى ابراهيم العضو الفنى بالعلاقات الثقافية والخارجية بوزارة التربية والتعليم المركزية .

وقال فضيلة الأستاذ الأكبر مرحبا بالزائر الكريم : إن الصلة الوثيقة بيننا وبينكم تجعلنا مسرورين بهذه الزيارة ، ثم سأل فضيلته عمن يعرف اللغة العربية فيهم فأجاب اثنان منهم إننا نجيد هذه اللغة فقد تعلم أحدنا فى الأزهر وأما الآخر فقد تعلمها فى الملايو .

فقال فضيلته : مرحبا بكما فوق الترحيب يإخوانكما جميعا لأننى أرى من الضرورى أن توحد لغتنا جميعاً لنرتبط ارتباطا وثيقا ، فالرباط القلبى موجود ،ولكن ينقصنا أن نتفاهم ونتقارب ، والتقارب دعامة الاتحاد والقوة ، وثقوا أن الفضل كل الفضل للغة العربية إذ هى ثوب الإسلام الذى اكتساه ثم طاف به فى جميع أنحاء العالم فدخل فى القلوب وامتلأت به النفوس ناشراً العقيدة الصحيحة والإيمان العميق . ووزارة التربية فى أى شعب من الشعوب واجبها أن تعنى بتزكية الروح وتربية الخلق عن طريق هذه العقيدة ثم تبدأ فى تعليم الناس،وهذا هو الذى يشير إليه تعالى بقوله : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

وثقوا أن لا وجود لأية وزارة من وزارات التربية إلا إذا توفرت على التربية الروحية والخلقية ، ومن جهتنا نحن فإننى أقول لكم : إن الأزهر يعاهدكم على أن يتيح لكم تحقيق هذه الأغراض .

إن عليكم يا وزراء التربية فى أنحاء العالم الإسلامى والعربى ـــ واجبا مضاعفا لأنكم أنتم الذين تربون الجيل فأنتم أجيال فى أشخاص وأملى ألا تتهاونوا فى هذه النواحى ، خاصة وأنتم تدركون ما ينهال على البلاد الإسلامية من تيارات جارفة من وجودية خاوية ، إلى شيوعية متجردة من الروح ، إلى إلحادية تمشى

دون هدى أو إصلاح، وإنما تتخبط فى طريقها؛ فإن أسستم بنيانكم، وأقتموه على تقوى من الله أقتم الحصون القوية المنيعة التى لا تؤثر فيها العواصف ولا الصواعق ولا تصل إليها هذه المبادئ الهدامة .

تعالوا بنا ــ وعلى رأسكم أخى وزير التربية والتعليم بالملايو بنفسه الطيبة وقلبه الكبير ــ نعاهد الله (ثم التفوا جميعا حول فضيلته واضعين أيديهم فى يده، ثم قال : هذا عهد الله بينى وبينكم وبين الذين يقومون على تربية النشء، وقد تعاهدت قبلكم مع السيد كمال الدين حسين على ما نعاهد الله عليه الآن من إخلاص فى تربية الجيل على أساس من الإيمان والتربية الصالحة، وأنا مطمئن إلى أنكم يا أبناء الملايو منفذون لهذا العهد فإن هذا الخلق الهادئ والطبيعة السليمة إذا ما انضم إليها خلق الدين وتسامحه يصبح أسمى خلق وأقدر نوع من هذه الأنواع على التوجيه السليم .

ثم أضاف فضيلته قائلا : «كان الرسول صلى الله عليه وسلم ــ مع أصحابه إذا اجتمعوا على أمر هام لا يفترقون إلا إذا قرءوا قوله تعالى : «والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا» .

ثم قدم إليهم فضيلته كتابيه «الإسلام عقيدة وشريعة»، «والفتاوى»، وهنا وقف أحد الأعضاء فقال فليأذن فضيلة الأستاذ الأكبر فى أن أترجم هذين الكتابين إلى لغة الملايو فأذن فضيلته وقال هذه كتب المسلمين جميعا لا تحتاج إلى إذن فى الترجمة ولا فى القراءة، فهى مباحة كالماء والهواء .

ثم ارتجل السيد محمد خير جوهرى وزير التربية والتعليم بالملايو الكلمة الآتية : بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن الزملاء أغتنم هذه الفرصة لأقدم لفضيلتكم عظيم شكرى لتفضلكم بقبول زيارتنا لكم ولأشكركم على هذه الدرر والنصائح الثمينة التى نطقتم بها، وأنا من جانبى ومن جانب حكومتنا أعدكم بأن أنفذ هذه النصائح الكاملة، وأغتنمها فرصة لأقدم للأزهر فى شخص فضيلتكم أبلغ الثناء على ما قام به من مساعدة لأبناء الملايو، سواء فى مصر أو فى خارجها وإن سفيركم الرسمى وهو الأستاذ محمد عبد الرءوف عميد كلية الشوق فى الملايو ليشهد على ما نكنه لكم من حب وتقدير، كما أرجو من فضيلتكم أن تعملوا على جعل الشهادات التى يحصل عليها الطلاب من كلية الشريعة فى الملايو معادلة لقرينتها فى الجمهورية العربية المتحدة التى يمنحها الأزهر لطلابه، وقد وعدهم فضيلته بتحقيقها .

ثم انصرف الوفد شاكراً لفضيلته حسن استقباله لهم .

هدية شاه إيران إلى الأزهر:

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه السيد الوزير المفوض للسفارة الإيرانية نائبا عن السيد السفير الموجود فى رحلة خارج القاهرة ، وكان موضوع الزيارة حمله تحيات جلالة امبراطور إيران وهديته إلى الأزهر الشريف وهى أربعة كتب من القطع الكبير عن الفقه الجعفرى وهى : كتاب « جواهر الأحكام » ستة أجزاء ، « شرائع الإسلام » و « قواعد الأحكام » و « مدارك الأحكام » .

وحينما قدمها سيادة الوزير إلى فضيلته قال: « إن هذه الكتب رمز لتوطيد العلاقات الثقافية ، والعلاقات الناشئة من التقريب بين المذاهب التى أزالت الفرقة بين المسلمين جميعا ، وألفت بين قلوبهم ، فتقبل فضيلته هذه الهدية الغالية قائلا : إن الرباط القوى بين قلوب المسلمين جميعا فى أنحاء العالم إنما هو القوة التى سنهدف إليها ونحرص عليها ، وما شتت قلوب المسلمين ولا أضاع قوتهم إلا هذه الفرقة الناشئة عن العصبية التى يجب أن تزول عن المسلمين ، فإنه لا عصبية فى الإسلام ، إننا جميعا نستق من منهل واحد إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، وما أصاب المسلمين فى أنفسهم وفى دينهم إلا نتيجة لهذه الفرقة .

ثم تلا قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

ثم أضاف فضيلته قائلا : « ولقد أصبحت جماعة التقريب - التى أسهمت أيضا فى إنشائها منذ مدة طويلة مع فضيلة أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وقطعنا فى ذلك شوطا كبيرا لم نقصد فيه إلا خدمة الإسلام والمسلمين موئلا لجمع شمل المسلمين وكلمتهم فى عصر هذه النهضة الحديثة .

ثم قال سيادة الوزير : « لقد كان يسعد سيادة السفير أن يتشرف بزيارتكم ولكنه الآن فى رحلة خارج القاهرة، وإنى أقدم هذه الهدية نيابة عن جلالة الامبراطور الذى يرجو لكم دوام التوفيق حتى يصير المسلمون وحدة قوية متماسكة ضد كل استعمار واحتلال .

هذا وقد دعا السيد الوزير فضيلة الأستاذ الأكبر لزيارة إيران، ورجاه أن يزور السيد السفير فى منزله ليقيم له حفلا خاصا .

بريد المجلة

نداء من جماعة التبشير الإسلامي :
بالسودان

هل يعلم المسلمون ماذا تصنعه قوى الاستعمار بالإسلام كدين ؟ وبالمسلمين كمجموعة يجب أن تعيش ؟.

وهل يعلم المسلمون هذه الميزانيات الضخمة التي يرصدها التبشير الاستعماري للقضاء على الإسلام ولانحلال المسلمين ؟ .

وهل يعلم المسلمون هذه الاجتماعات المتوالية بين كبار البابوات والمستشرقين المنحرفين من أجل هدف واحد هو هدم العقائد في قلوب المسلمين والحيلولة بينهم وبين شريعتهم السمحة ودينهم الخاتم للإيمان .

إن صرختنا اليوم التي نتوجه بها إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من أجل ما عمله الاستعمار في السنين الطويلة الماضية عندنا في جنوب السودان .

إن الوثنية ببركات التبشير الاستعماري عششت وباضت وأفرخت في مديريات كاملة في الجنوب .

وإنا نطالب المسلمين أن يشدوا الرحال إلى مديرية بحر الغزال ، والمديريه الاستوائية ومديرية أعالي النيل ، وما جاورها في جنوب السودان ، وسيسألون هناك الركام المتراكم من المخلوقات البشرية عن الإله واسم الرسول وسوف يجدون ما يصعقهم ويدهشهم سوف لا يجدون رجلا واحدا يعرف اسم النبي محمد ، وسوف لا يجدون إنسانا واحداً يفقه حدود الدين ولا الإنسانية .

إنهم أناس يبلغون المئات من الألوف يعيشون معزولين عن الحياة وعن المجموعة المسلمة التي حولهم .

إنهم أشباح لا أرواح ، إنهم أنصاف ناس .

ومن أجل هـــذا قامت جماعة التبشير الإسلامي بالسودان ، أي واقه قامت تبشر بالإسلام في جنوب السودان .

فهل تركنا الاستعمار في السنين الماضية ؟ .

أقام أمامنا العقبات والعراقيل كلما طلب واحد من الجماعة أن يذهب إلى تلك البقاع منعه زبانية الاستعمار من الذهاب إلى هناك .

إن هؤلاء الزبانية لا يهمم إســلام ولا مسلمون .

واستطاعت الجماعة أن تتنفس وأن تعاود نشاطها رغم أنف الاستعمار وفى فترة وجيزة جداً دخل فى الإسلام ما يزيد على العشرة آلاف نفس من جبال متفرقة من سكان مديرية جبال النوبة .

ما أعظم فرحة الجماعة حين يدخل رجل واحد فى الإسلام فضلا عن عشرة آلاف وسيتبعهم العشرات من الآلاف .

ولقد رأت الجماعة أن تتصل بالأقطار الشقيقة والبلاد الإسلامية . فأوفدت بعضا من أعضائها ليطوفوا ويستنهضوا ويشحذوا العـزائم .

فيأيها المسلمون وأصحاب القلوب المؤمنة والنفوس التى تغار على الإسـلام وعلى حرمات الله . إنا نتوجه إليكم بهذه الصرخة المدوية إلى كل قلب مسلم . وإلى رؤساء الحكومات الإسلامية وإلى فضيلة الشيخ الأكبر نتوجه بهذه الصرخة لكى تمدوا إلينا العون . كل بما يستطيع وفى حدود الطـاقة .

ونذكركم بقصة واقعية حدثت فعلا فى مؤتمر عام للمبشرين حيث وقف رئيس المؤتمر ووبخ وفداً من المبشرين ضد الإسلام بأنه لم يستطع أن يجعل مسلماً واحـداً يتزحزح عن دينه فوقف الوفد وقال :

(أنا وإن عجزت عن هذا حتما فقد جعلت عامة المسلمين هناك لامسلمين ولامسيحيين) .

فأما فى جنوب السودان فالوثنية تزحف بخيلها ورجلها وأساليبها المختلفة ودهائها الخبيث .

وتصوروا أيها الإخوان أن هذه المجموعة الكبيرة تتلفت حولها فلا تجـد مسجداً واحداً عندها ثم تجد عشرات من الكنائس والصلبان .

إننا نريد غضبة عمرية للحق تهز النائمين وتحرك الجامدين ألا هل بلغنا اللهم فاشهد .

عبد الله شوقى الأسمر

السكرتير العام لجماعة التبشير بالإسلام والإصلاح بالسودان

اقتراح من زنجبار

نحن من طلبة الأزهر الوافدين إليه من زنجبـار .

نتشرف بأن ننهى إلى سيادتكم ما يعانيه الإسلام فى شرق إفريقيا من حملات المبشرين والقاديانيين تحت ستار الاستعمار .

ونرى أن بعض المقالات المترجمة إلى اللغة الانجليزية فكرة ناجحة غير أنها قليلة النفع بالنسبة لشرق إفريقيا ، ذلك لأن المسلمين فى هذه البلدان لا يعرف اللغـة الانجليزية إلا قليل منهم ، ومصر ولا ريب عاصمة الشرق على الإطلاق وبها الأزهر المعمور

قبلة الثقافة الإسلامية ، والعربية والمعقل الوحيد الذى ثبت لحملات المغيرين ، وقد انتهت إليه أمانة الرسول واستقرت فيه وديعة السلف فلا عجب أن يتلقى المسلمون كل ما يصدر عنه بالرضا والقبول .

وتحقيقا للنفع فى بلادنا نقترح أن تترجم المقالات التى تنشرها مجلتكم الغراء إلى اللغة السواحلية إذ هى المنتشرة فى شرق إفريقيا وأوسطها فى منطقة تشمل : تنجانيقا ، وكينيا ،وأوغندا، وروديسيا ، ونياسلاند ، والكنغو وتمتد إلى غانا وغينيا .

فسكان هذه البلاد جميعها يتكلمون بهذه اللغة وحبذا لو سمحت الظروف بإصدار عدد خاص من مجلتكم الإسلامية الهادية باللغة المذكورة يصد عادية الإلحاد والتبشير فقد اجتمعت على بلادنا والبلاد المجاورة لنا الدعوات الهدامة مثل القاديانية والأحمدية والبهائية والصهيونية والشيوعية .

فالأحمديون قد بلغ بهم الأمر أن أذاعوا ترجمة للقرآن الكريم باللغة السواحلية ودسوا فيها ما دسوا من أنواع الكذب والتضليل ومما قالوه أن عليا آخر نبى قد بعث بعد محمد كما حرفوا الكلم عن مواضعه فى هذه الترجمة هادفين بذلك إلى تأييد مذهبهم الضال ونشره فى تلك البقاع معتمدين على ضعف الوعى الثقافى والجهالة .

أما البهائيون ومركزهم فى نيروبى ومصدر وحيهم الهند فقد عملوا على نشر عقيدتهم الباطلة الرامية إلى إسقاط التكاليف الشرعية وفى اعتبارهم الباطل أن محمدا ليس بنبى إنما هو رجل عبقرى فذ فحسب . ويروجون لمذهبهم بالمال إذ كل من يسلك طريقهم وينضم إليهم يخصصون له مرتبا شهريا لا يقل عن خمسة وعشرين جنيها كل شهر ولقد نجحوا نجاحا ملموسا إذ أصبح بعض الإفريقيين الذين كانوا على الفترة ينادون بأن فى اعتناق الإسلام تمكين من الاستعمار العربى فى بلادهم ، ونحن لسنا عربا حتى نتبع نبيا عربيا جاء بقرآن عربى ولو أراد الله لنا الإسلام لأرسل إلينا رجلا منا يخاطبنا بلغتنا ومعه كتاب نفهمه .

ولقد استغل الصهاينة القارة البكر لنشر تعاليمهم الصهيونية ونجحوا فى خلق أحزاب برز اثنان منها فى تنجانيقا تنادى بأن الإسرائيليين هم أصحاب الدين الحق وتصف إسرائيل بالدولة الأم .

ويعتنق بعض الزعماء فى شرق إفريقيا المذهب الشيوعى ويتحينون الفرص للمجاهرة به والدعوة إليه . وفى اعتقادنا أن أقوى الوسائل لمقاومة هؤلاء الأعداء إيجاد صلة قوية بين الأزهر وبين الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام فى تلك البقاع ، وذلك بأن يزودهم الأزهر بالكتب والنشرات مكتوبة باللغة السواحلية ليستطيعوا بها إحباط ما ينشره

المضللون من أكاذيب وأضاليل حيث إن ما يصدر من الأزهر موثوق به عند جميع المسلمين وبخاصة مسلمى إفريقيا .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمد سليمان محمد العلوى الزنجبارى

وطاهر أحمد مولانا جمل الليل الزنجبارى

* * *

الحياد الإيجابى فى النقد الأدبى ...

للحياد الإيجابى مفهوم سياسى كلنا تقريباً فهمناه ... وهو باختصار عدم الانحياز إلى أى من المعسكرين المتنازعين، على ألا يعزلنا هذا الحياد عن إبداء رأينا فى المشاكل العالمية التى تثار ... وذلك بوازع من ضميرنا .

ولقد ظهرت فوائد تطبيق هذا المسلك الخلق فى عالم السياسة فيما أصبناه فى المجال الدولى من نجاح مائة فى المائة ... فلماذا إذن لا نفهم هذا المفهوم للحياد الإيجابى ولا نحصره فى هذا النطاق السياسى ...

فمثلا معركة النقد التى تنشأ عادة بين المؤلف والنقاد فور صدور عمل أدبى ...

إن القارئ كثيرا ما يضل بين النقاد ... ولا يستطيع أن يقف على الحقيقة لكثرة ما تتضاربها الآراء ... لعدم دراسة العمل الأدبى موضوعيا أو لتحامل الناقد أو لجوء البعض إلى التهكم المرذول ...

ولو أن كل ناقد التزم هذا المبدأ الحيادى الإيجابى . لاستطاع أن يقدم لنا شيئا قيما لأنه سيعالج العمل بطريقة موضوعية ... ولضاقت الهوة التى تعزل النقاد عن الأدباء .

الأدباء يشعرون أن النقاد خصوم لهم يجعلون من الحبة قبة ... والنقاد يعاملون الأدباء بالمسطرة والقلم الأحمر .. كما يعامل التلاميذ . ولو أنهم التزموا منهجا فى كتاباتهم النقدية فسيتعاون الجميع من أجل الجميع ... ولن تكون بينهم تلك الخصومات الدامية .

المسألة مسألة ضمير ... من الأديب إلى الناشر ... إلى الناقد إلى القارئ قبل وبعد كل شىء ... ؟

صلاح الدين اسماعيل

ديوان الموظفين

عيد القرآن

فى جماعة التربية الإسلامية

هناك فى حى شبرا قامت جماعة التربية الإسلامية منذ سنوات تحارب أعداء ثلاثة : الفقر والجهل والمرض . وهى أشد فتكا بالإنسانية ، وأكبر ضرراً بالقومية العربية من الاعتداء الثلاثى الذى وقع عام ١٩٥٦ على وطننا العزيز من : انجلترا ، وفرنسا ، وذيلهما إسرائيل .

تحارب الفقر ، بالمقررات المالية الشهرية للبائسين المعوزين ، وتحارب المرض ،

فى مستشفاها الخيرى بتيسير العلاج ، والدواء للمرضى والمحتاجين ، وتحارب الجهل ، بالوعظ فى المساجد ، والدروس الدينية ، والثقافية فى مدرستها : النهارية ، والليلية .

درجت هذه الجماعة منذ سنوات على إقامة حفل فى مستهل العام الدراسى لاختبار طلاب مدرستها لتحفيظ القرآن الكريم فيما حفظوه من المقررات القرآنية أثناء العام الماضى بمعرفة لجنة مختارة من أكابر العلماء .

وفى مساء الخميس الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ أقيم هذا الحفل بمسجد الجماعة مشمولا برعاية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وحضور ضيف الشرف فضيلة الشيخ محمد مصطفى أبو العلا المشرف العام على تحفيظ القرآن الكريم بالأزهر الشريف ، وحضور جمهور كبير من العلماء ، والوجهاء ، ورؤساء الجمعيات الدينية ، والسيد حكمدار العاصمة المساعد ، وكثير من أهل العلم والفضل ، وأولياء الأمور . ثم ألقى رئيس الجماعة الشيخ على المنصورى كلمة مختصرة فى فضل القرآن ووجوب العناية به حفظا ، وتجويداً ، ودراسة . وأشار إلى جهود الجماعة فى تحفيظه لطلاب مدرستها ، وقد نجح منهم فى امتحان القبول بالأزهر الشريف أثناء العامين الماضيين زهاء الثلاثين طالبا ، مما حمل معهد القاهرة الدينى على توجيه خطاب شكر إلى المدرسة والقائمين بشأنها ، وفى ختامها حث الحاضرين على تلاوة القرآن ومدراسته ، وافتتح الحفل بتلاوة من الذكر الحكيم ، من أحد طلبة المدرسة بدأها بقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » جمعت مع حسن الأداء ، وشرف المناسبة جميل الصوت وجودة الترتيل ، ثم أجرت لجنة الامتحان برياسة فضيلة الشيخ أحمد أحمد على الأستاذ بكلية أصول الدين ، وعضوية طائفة من العلماء امتحان الطلاب ، والطالبات فأظهر الجميع مهارة فى الحفظ ، ودقة فى الأداء مما يبشر بحسن المستقبل لهذه المدرسة وخريجيها ، وفى فترة الاستراحة قام الطلاب بإلقاء نشيد القرآن .

هل بين دنيانا أسمى من الذكر
نزجى تحايانا لسورة العصر

فحاز إعجاب الحاضرين ، ورضاهم ، ثم اختتم الحفل بتلاوة آى من الذكر الحكيم وانصرف المدعوون شاكرين للجماعة عظيم جهادها ولسان حالهم يقول : « لمثل هذا فليعمل العاملون » ، « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

أنباء الأزهر

حفل افتتاح الدراسات الاجتماعية بالأزهر

فى التاسع من جمادى الآخرة أقيم حفل ، افتتاح الدراسات الاجتماعية بالأزهر ، وقد تحدث فيه الأستاذ محمد صفوت المدير العام لإدارة التدريب ، فأشار إلى الغرض من هذه الدراسات وهو إعداد قادة اجتماعيين دينيين ، يلمون بمعرفة حلول المشاكل الاجتماعية ، وبذلك يقومون بالمسئولية الكبرى نحو مواطنيهم . وفى مقدمة القادة شباب الأزهر .

وقال : إن الأزهر احتل من قديم منزلته السامية فى القلوب ، وسيظل مدرسة الشعب كله ، بل والعالم الإسلامى كله .

وأعقبه الأستاذ الشيخ محمد المدنى ، فذكر أمثلة حية للتعاون الاجتماعى الصادق فى الإسلام ، وأوضح أن الإسلام ليس عبادات فقط وإنما هو عبادات ومعاملات وأخلاق وتعاون ومحبة .

ثم ألقيت كلمة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، وجاء فيها : إن مما يزيد فى سرورنا أن يشرف هذا الحفل أخى فى الله السيد توفيق عبد الفتاح وزير الشئون الاجتماعية ذلكم الرجل الذى عرفت فيه حبه للخير ، وأدركت إيمانه العميق بكل ما يعلى كلمة الإسلام .

وذكر أن الدراسات الاجتماعية إنما هى إبراز لما تعلمه الأزهريون من شريعتنا الغراء . وبتكوين الفرد تكوينا صالحا يتكون المجتمع الفاضل . ثم دعا الشباب إلى الفهم الصحيح الواعى ، وتركيز الخدمة للأمة لتسعد وترق ، وقد ذكر أن صلاح المجتمع وصلاح الأمم إنما هو بالتعاون والتعاطف والتواد (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) إنكم يا أبناء الأزهر مرجوون لأمتكم فى يومها وفى غدها فكونوا عند حسن ظنها ، وتمثلوا أنكم فى عصر نهضة إصلاحية يقودها الذى جمع قلوب العرب والمسلمين فى عقد واحد الشاب المؤمن القوى بالله الرئيس جمال عبد الناصر .

وأخيراً تكلم السيد محمد توفيق عبدالفتاح وزير الشئون الاجتماعية التنفيذى ، ومما قاله : حديثى إليكم حديث الأخ لأخيه لينفذ إلى الأعماق فى قلبى تجاوب بينى وبين رجال الدين الذين شربت من مبادئهم وتوجيهاتهم فكان لهم أكبر أثر فى حياتى . وذكر أن القرآن والسنة وفعل الرسول والصحابة هى المصادر الأولى لتعاليم الخدمات الاجتماعية والتعاونية .

والأمل كبير فى نهوض شباب الأزهر بالعبء الكبير فى حل المشاكل الاجتماعية بماله من حصافة ومكانة ، ولما يمتاز به من تربية دينية سليمة .

وفد اتحاد جامعة عين شمس يزور الأزهر :

زار وفد يمثل اتحاد جامعة عين شمس اتحاد الجامعة الأزهرية ، وهى فكرة تقوم على أساس التعارف بين الجامعات فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد بدأ الأعضاء بزيارة كلية الشريعة وألقى فضيلة الشيخ محمد المدنى عميد الكلية ورئيس الاتحاد كلمة عرفهم فيها عن الأزهر ونواحيه وأقسامه ثم تكلم فضيلة الشيخ عبد الحكيم سرور مدير الشئون العامة بالأزهر عن ميزات أخرى فى الأزهر على أساس أنه صاحب الدعوة للحرية الكاملة التى لا تعارض نصا من الكتاب أو السنة وأبان أن الناس فى هذه الحدود يستطيعون أن يخدموا الإنسانية خدمة كاملة ، فالأزهر الذى يكبح جماح الالحادية العمياء والوجودية الهزيلة الضائعة والشيوعية اللادينية ، وهو صاحب الدعوة إلى المساواة بين الناس جميعا لا فرق بين أبيضهم وأسودهم ولا أحمرهم وأصفرهم ؛ فإنه لا عصبية فى الإسلام فكلكم لآدم وآدم من تراب ومن أجل ذلك فإن الأزهر هو الجامعة الوحيدة التى تضم فوق ستين جنسية من مختلف بلاد العالم الإسلامى فهو هيئة الأمم الحقيقية التى تعمل عن هدى ومعرفة وصدق وإيمان . هى صاحبة الدعوة إلى احترام حقوق الإنسان لأن رسالتها هى رسالة محمد بن عبد الله .

ثم زار الوفد كلية اللغة العربية وشاهد ألوان النشاط فيها من جمعيات التصوير والكشافة والفرق الرياضية ، وتحدث إليهم فضيلة الدكتور محمد الفحام عميد الكلية عن تاريخ الكلية وأمجادها .

هذا وقد أقام لهم اتحاد الأزهر حفل تكريم بقاعة المحاضرات الأزهرية ثم زار الوفد بعد ذلك دار الكتب الأزهرية والجامع الأزهر ومدينة البعوث الإسلامية التى يقيم بها طلاب البعوث الإسلامية .



THE ENGLISH DIVISION

Contents

keeping the teachings of the Divine message and its moral commandments to deal with man's psychological problems. When they take this step towards " science " and the people of human knowlege take their described step towards the Divine message, both parties will meet and there will be no gap between them. They will adhere to one uniform and consistent kind of knowledge. They will be in agreement on (*a*) the belief in the Divine message and its universal laws, (*b*) the continuance of discovering the material aspects in the nature of the universe by means of modern " science " and (*c*) the perservation of the religious teachings to provide the selves with calm and security.

The mistake which should be shunned by all learned authorities, religious and secular, is that of making a " gap " between religion and science or between people of Divine knowledge and those of human knowledge. The people of Divine knowledge should not make the mistake of depriving themselves of discovering the nature of our universe. Likewis, the people of human knowledge must avoid the error of disregarding the Divine message and its universal principles.

It is clear by then that in the universe there is " dualism " but with no gap between its two sides. There is God the Creator by Whom the universe was created, but there is no void between the Creator and the creatures. Man consists of soul and body, yet he cannot survive withont the two together.

Because of the beblief in a split between God and man, contemporary people have strayed in their knowledge and have been non-disciplined in their behaviour. And because of the belife that man is made up of matter alone, people of this belief are more animal - like in their conduct.

Faith in God is the reliable source of every knowledge. The oneness of God is the standard which should be followed by the learned people in their search for harmony between the two apects in the dualistic nature of the universe, especislly with regard to the human nature of soul and body as well as with regard to the social relations of man to his fellow man. " God the One " should be the emblem of every learned investigator and explorer of the universe.

To avoid all mistakes, then, we must believe in God, and to be accurate in our knowledge we must believe in His Oneness.

Spirituality is an indispensable necessity of human nature, and religion is a prerequisite to accuracy in knowledge. A man with no spirituality is a like a meaningless void, and knowledge without religion is scarcely certain.

its inclusive consequences, they will be in agreement with those of Divine knowledge who started from the same point and understood this universal natural law with which the Divine message came to save them from tension and hostility. If they set off from this point, they will avoid errors and deception manifested in the bankrupcy of their ideas, because their guide will be the heavenly revelation at which falsehood cannot come from before or behind and which guides to that which is most upright in the life of man.

This universe is made subservient to man. " And He has made subservient to you whatsoever is in the heavens and whatsoever is in the earth, all, from Himself " (Surah 45, V. 13). "And He has made subservient for you the night and the day and the sun and the moon. And the stars are made subservient by His command. Surely there are signs in this for a people who understand. And what He has created for you in the earth is of varied hues. Surely there is a sign in this for a people who are mindful. And He it is Who has made the sea subservient that you may eat fresh flesh from it and bring forth from it ornaments which you wear. And you see the ships cleaving through it, so that you seek of His bounty and that you may give thanks " (Surah 16, Vs. 12-14).

These quoted verses mean that man should be the master in the universe instead of being subjugated to its powers. They also mean that the understanding of this natural law will enable the people of human knowledge to employ the modern science in a way as to realize the mastery of man and make him benefit from the things made subservient to him by God. When this is accomplished, " science " will not be used for destructive purposes but will do its natural service to man.

If the people of contemporary human knowledge follow the direction of the Divine message and start from this Divine basis, thier knowledge will be a means of developing man and improving his qualities which consist of dualistic elements, in which case his development will take its natural course as it will include both soul and body which make up the nature of man.

We have said that the people of contemporary human knowledge must derive from the Divine message to be correct and upright and to be in harmony with the people of Divine knowledge. But this should not stop at the belief in God as the Creator and in the universe as created by Him. Besides this belief and their religious knowlede, they must also use " science " to discover the material nature of the universe while

This " Science " has disregarded the spiritual qualities of man and has failed to Provide precautions and security even against its very laws and results. With this " science " man is insecure and subject to the tyranny of matter. And when the spiritual side in man weakens or stands inactive, this " science " - which controls the material nature of the universe-works in the wrong course and destroys man together with civilization.

The Duty of the people of Human Knowledge:

It is necessary, in the light of all what has been said, that people of human knowledge should discontinue their look to man as a mere material object to be tested by tubes and other experimental and laboratory instruments. They must understand man as comPosed of soul and body, and that he is a member in the category of the beings of the universe whose nature is based on dualism. When they do this, their solutions to man's problems and crises will be consistent with the logic of the natural law of existence, which law was brought forth in the message of God. But to attain such an aim, they have to seek help from the message of God and its teachings, because by virtue of that message they elude falsehood and deception in thier knowledge of the universe, and especially in their knowledge of man. It is beyond doubt that when they are guided by the teachings of the Divine message and become aware of the universal natural law, they will put an end to their errors and misleading and will come back to conformity with the law of existence. Then, what-ever solutions to man's problems they suggest will be effective for they will not be contradictory to the dualistic nature of man.

People of human knowledege may use the experimental method of knowledge in their research about the material nature of man. But when they deal with psychological problems and social relations, they have to derive guidance and seek help from the Divine message only to which there is no alternative. Thus if they wish to have a right start and avoid frustration in their knowledge, they must begin with belief in this universal natural law and its inevitable consequences. They must believe in God as *the* Creator and in the visible universe as created. They must also grasp that God is distinguished by being the Creator, the One on Whom all depend, whereas other beings are distinguished by their dualism and their dualistic nature.

If the peole of human knowledge start from this point and accept all

of human knowledge has contributed in the fields of philosophy, law, economy, and ethics — we shall find that these contributions have failed to provide man with stability, peace and repose. This failure is due to the very simple fact that people who made these contributions did not take into consideration the necessity of harmony between man's soul and body. They instead concentrated only on the material side of him.

The main objéct of man in his contemPorary knowledge in the fields of philosophy, economy. law and ethics, is to satisfy the requirements and caprices of the body and to facilitate life. In his knowledge he does not try to restore peace to the self when it is upset or make it steadfast when it confronts crises. Nor does he attempt to establish the relations among individuals on a basis of mutual confidence and useful co-operation. This is why we see in modern society only helpless and upset selves, and find egoism and individuality prevailing in the relations of individuals to one another.

Whenever the contemporary man observes the instability of self and the unfriendly relations among individuals, he endeavours to make a readjustment by modifying his philosophy, his thinking about man, legislation, economical conditions and ethical outlooks on life. Nevrtheless, whatever he produces out of this modification in the said spheres remains far from restoring stability to the self of individual and confidence together with co-operation to the course of relations among people. This is, again, the result of the contemporary man's failure to see the spiritual side of the human beings and to liberate himself from the conventional method of knowledge, namely, the testing - tube and laboratory which suit only the material part in the two sides of the dualistic nature of the universe.

If we leave the theoretical knowledge of the contemporary man in philosophy, economy, ethics and law, to consider his scientific knowledge which he acquired in the name of "science" and upon which he founded the present material civilization and industrial evolution in the twentieth century - we shall see that this "science" with its laws and results has been fruitful in developing the machine which is used foremost in destructive ways instead of being constructive and helpful to man in the various aspects of his life. This "science" with its laws and results has remained far from offering remedy to unstable selves or curing the psychological cirses.

and weakness. So if his testing - tubes and laboratory supposedly work well and be impartial, he himself cannot get away from his feelings and centiments while recording the result of experiments.

Man's knowledge is, therefore, subject to the law of "becoming" and changeability. To-day's knowledge is unlike yesterday's, and to-morrow's may be different from to-day's and so on. And however man of this knowledge is certain about its results, his certainty about these results does not outlive him and he lives a short period of time.

Man of this knowledge may get concited and boastful of the results he reaches. He may be motivated by his vanity to think that his testing-tube and laboratory are the only means to perceive the whole universe, and thus make himself blind to the nature of the Creator and deny his divinity. Because the nature of the universe is dualistic and because man of human knowledge can perceive of this nature only its explicit aspect, the material side, and neglects the significance of spirit as representing one part in the dualism of nature and denies the spirituality of man. Then he thinks that the whole existence is confined only to waht he can subjugate to his means of knowledge, i. e., the testing-tube and laboratory. And by so doing he misses the secret of the whole existence. He fails to understand the natural law - already mentioned - of dualism which necessarily results in faith in the Creator as such and the creatures as being created by Him.

Man of human knowledge, accordingly, rejects the quality of createdness in man and grant him the faculty of createdness. He is unaware of the principle of dualism which we have shown as the law of the whole existence. So he tries to depict man in a material framework only and establishes all his knowledge of the human beings on a materialist basis.

It is strange that while the man of human knowledge fails to perceive human nature as dualistic he accepts dualism with regard to many other things, such as electricity, his attitude is contradictory; when he perceives the principle of dualism in some beings other than man, he is right and his attitude is consistent with the universal law of existence. But when he rejects this principle of dualism with regard to man, he becomes illogical with himself and stumbles in the solutions he suggests to his problems.

If we carefully examine the theories and doctrines which the man

And if his faith in the sense of his existence, of life and death increased, he would undoubtedly gain victory in his struggle against imperialism, atheism and oppressive materialism.

It is incumbent upon us, the learned Muslims, to lead the battle of victory against egoism, the imperialistic powers and the tyranny of machine over man to make faith truimphant. We want our peoples to be realistic in accordance with the message of Islam. We want them to have sovereignty over their societies and mastery over themselvs. This is our duty because we are guides, leaders and authority. We are the followers of the first commander, the first believer, the first striver and the acquirer of the first victory in the battle of peoples life and the peace of humanity ; namely Muhammad son of Abdullah, may the blessings and peace of God be upon him.

The Human Knowledge :

In *contrast* with the Divine knowledge and its people there are the human knowledge and its possessors. The latter knowledge is that in which man tries to rely only on his mind, observation, experiences and experiments to discover his own nature and the nature of the whole universe in which he lives including the earth and the sky, the clouds and the seas, the air and all the creatures.

The subject matter of this human konwledge is this universe; namely, these beings in which matter is mixed with soul and which are based on the principle of "dualism" in their inner nature. This knowledge may be precise and truely representative of the reality of this universe and may be otherwise; because its source is not God the Creator of the universe and the Knower Who sent down His revelation to explain the law of the universe and the principle of existence, and to enlighten people obout both the Creator and the creatures. The source of this human knowledge is man who is limited by his heritage, environment, private and social circumstances. In his knowledge he tries in our contemporary age to get rid of this limitedness and not to be influenced by its factors. He wants to be free from limitedness and the effect of these circumstancial factors. This is why he uses testing - tubes and laboratories and adopts the method of synthasis and decomposition to acquire the knowledge he seeks without being affected by limitedness

At any rate, it is man who has different feelings and who fluctuates from moment between love and hatred, happiness and gloom, health

if they are considered self-controllers and conductors of their fellow patriots through their knowledge and deeds, they are also considered, on the same way, leaders of the sons of the whole Islamic nation throughout the world.

If it is possible for those who are close to them to see their deeds and then follow their example, their writings for the Muslims in the far countries should manifest a plain picture about their practical life and behaviour. That is because faith and clear conception do not rest only hidden in the heart and the mind but are also manifested in deeds and practices.

We, the learned Muslims, live in an era in which the spiritual values are shaking and the magnanimity of the spirit as well as faith in God has almost become immutable and stagnant. We are living in an age in which not only atheism conflicts with faith in God, but the immortal human values, love and fraternity among People, the internal psychological repose and external international peace have been also fluctuating as a result of the tyranny of caprices, individuality and egoism. We are facing an epoch in which machine is trying to replace God, Exalted be He, to be worshiped instead of Him and to be the master of the whole universe. We are living in an age in which the tendency to destruction by the machine is more prevalent than the inclination to construction by means of spirituality and religion.

There is in our society, that of the Muslim countries, beyond all this another sort of conflict. In these countries imperialistic powers as well as the tyranny of foriegn domination are in conflict with our rights of life, mastery on ourselves and sovereignty over our lands. If we awaken the conscience of Muslims, enlighten them with the guidance of God and make them aware of the principle of life, then not only their faith in God improve, but also they will be more prepared to conceive death as inevitable and as a shift from this temporary life to the immortal one. In this connection God says. "Whereever you are, death will overtake you, though you are in towers, raised high", (Surah 4, V. 78). They will know that whosoever dies in the way of God or martyrs because of the faith in the message of His messenger, may the blessings and peace of God be upon him, is expecting the immortal life of those who believe and struggle in His way : "And think not of those who are killed in God's way as dead. Nay, they are alive being provided sustenance from their Lord". (Surah 3, V. 168).

precise understanding of the message of God to His Messenger, peace be upon him, together with these he, to be successful, must apply this law and the teachings of the Heavenly message in his practical life in a clearer and more impressive manner so that he may be a standard example to follow, and his explicit conduct and practical behaviour may be true representatives of his inner nature and his conception. This is because the practical example and genuine application given by propagators of any call is the most effective medium through which the propagated call appeals to people who are invited to it. People are usually more attracted in the beginning by deeds than by words, and the logic of tangible objects has more impact upon them than that of pure rationalism. It is reported that Aishah the Messenger's wife, may God be pleased with her, said in her description of his characters: " His morals were the Qur'an". By this she meant that the Messenger, peace and blessings be upon him, followed thoroughly the teachings of the Qur'an and his behaviour was completely representative of the Qur'anic Call which he was commanded by God to convey to all people.

When the man of Divine knowledge becomes weak in his conception of the principles of that knowledge, or when there is a gap between what he conceives of it and what he practises, it will be difficult for him to impart his call to others or persuade them to accept it.

The duty of religious authorities or people of Divine knowledge, then, is to have a clear vision of the message of God and approach the source of that knowledge to derive therefrom opinions and solutions in a direct way without taking any intermediary or interceder between themselves and that source except those who have sincerely and impartially adhered to it. They have to live in the atmosphere of what they derive from the Book of God and the Traditions of His Messenger, may the blessings and peace of God be upon him. Because they are leaders and authorities, and possessors of virtue. They are to call people to the message of God by means of their knowledge together with their deeds. Their greatest leader Muhammad, may the blessings and peace of God be upon him, was following the morals of the glorious Qur'an as we have mentioned before.

The religious authorities as well as the possessors of the Divine knowledge have then responsibilitis towards themselves and towards the believers in the Book of God and the Traditions of His Messenger. And

society. In other words, it establishes the meaning of justice between body and soul in the one hand, and between the individual and his fellow man in the other hand.

These are the consequences of the principle of dualism, that natural principle of the universe, whose logic the message of God does not oppose or contradict in any means. And this is because when it ordains the belief in God and His oneness, it demands harmony and justice, and prescribes the virtuous morality as well.

After all this, if we see a call for atheism and the rejection of divinity as well as the creativeness of God, or if we see another call for evolving the body and centering all attention in it alone, or if we see a call for monkery and the retirement from the material life, or if we see a call for fomenting anxiety, disorder, hostility and conflict — if we see all this or some of it, we must know that it opposes the nature of the universe as well as the message of God and His revelation.

The aim of the Divine message is to act in accordance with that law. And the sign of God to man is to enlighten him about that principle. And the straight path of God which He drew for man is which that is in paralell with that principle and in complete coherence with it in all its stages.

Men of Divine Knowledge:

Men of Divine Knowledge, therefore, are those whose duty is to give enlightenment about this natural law. To be effective and clear in their prescribed endeavour they have to conceive this law vividly and adhere to it in their behaviour and practical life. People of this Divine knowledge, accordingly, are not isolated in their knowledge from reality nor are they alien to the natural course of existence.

Man of such knowledge is realistic and at the same time speaking in Divine terms so for as his message is concerned. He propagates the revelation of God to His Messenger, and his knowledge is Divine because it is not originally derived from the nature of the universe nor from his own mind. So, such knowledge is exempt from deception and treachery. Thus if he sometimes seems far from this law and goes astray, it is his own fault, not the responsibility of the knowledge to which he belongs.

It is not sufficient for the man of Divine knowledge to have clear conception of this natural law and

man alone or his spirituality alone is inharmonious with that principle and illogical with its consequences.

There are two things : The whole existence which must have Creator and in which existence all beings are created by Him. Hence, the belief in God the Creator, is not only derived from the necessities of the nature of the whole existence, but the belief in His oneness is also more attached to the conception of that nature and more logical and consistent with its necessities. God, the Creator, the One has absolute perfection and glory and He it is to Whom worship should be confined whereas the beings created by Him are linked with Him by the chain of need and worship. The Qur'an says " And I have not Created the jinn and the men except that they should serve me." (Surah. 51, V. 56). " And there is not a single being but glorifies Him with His praise " (Surah. 17, V. 44) " See you not that to God makes submission whoever is in the heavens and whoever is in the earth, and the sun and the moon and the stars, and the mountains and the trees, and the animals and many of the people ? " (Surah. 22, V. 18).

Secondly, the existence of the creatures which have dualistic natures and which, accordingly, should endeavour to attain harmony between the two opposite sides in their dualism, and must also be linked with the Creator Who is the source of their existence.

The principle of existence supplies us with many significent things. It inspires us with faith in God. It lays down before our eyes the fact that all beings other than God depend on Him to keep their existence and survival. It illustrates the need of the creatures for harmony among themselves individually and collectively ; harmony between body and soul in man and between male and female.

We have already mentioned that the message of God is the enlightenment of people about that principle and that it is an expression of its results. We have seen then that there are many verses of the glorious Qur'an attest the authenticity of that principle. Faith in God as a result of the said enlightenment guides man to be truthful to the Creator and try to realize in his behaviour God's perfection, and then attempts to adapt himself to the morals of God. The prophet, may peace and blessings of God be upon him, refers to that by saying " Follow the morals of God ". Belief in the necessity of man's endeavour to achieve harmony and erase antagonism realizes the sense of peace and tranquility in the life of man as well as in the life of his

God loves not the mischief-makers ", (Surah, 28, V. 77). In this respect and in many verses of the Qur'an God disaproves the attitude of those who endeavour to support the soul at the expense of the body; " Say: Who has forbidden the adornment of God, which He has brought forth for His servants, and the good provisions ? Say: There are for the believers in the life of this world, purely (theirs) on the Resurrection day. Thus do We make the messages clear for a people who know" (Surah 7, V. 32).

Moreover, the Qur'an came with an appeal to prevent hatred and antagonism between couples. It says " Divorce may be (pronounced) twice; then keep (the wives) in good fellowship or let (them) go with kindness " (Surah. 2, V. 229). " And when you divorce women and they reach their prescribed time, then retain them in kindness or set them free with kindness " (Ipid., V. 231).

Likewise, it called the alive human being to prepare himself to the reception of death, and to expect revival after his death; In this connection the Qur'an says. " Every soul will taste of death. And you will be paid your reward fully only on the Resurrection day. Then whoever is removed far from the Fire and is made to enter the Gardens, he indeed attains the object. And the life of this world is nothing but a provision of vanity". (Surah 3, V., 184).

" And speak not of those who are slain in God's way as dead. Nay, (they are) alive, but you perceive not ". (Surah 2, V. 154). "And think not of those who are killed in God's way as dead. Nay, they are alive being provided sustenance from their Lord. Rejoicing in what God has given them out of His grace, and they rejoice for the sake of those who (being lift) behind them, have not yet joined them, that they have no fear, nor shall they grieve ". (Surah 3, Vs. 168-169).

In addition to all this, the Qur'an tells us that strength may become weakness and vise versa. It says: " God is He Who created you from a state of weakness, then He gave strength after weakness, then ordained weakness and hoary hair after strength. He creates what He pleases and He is the Knowing, the Powerful ". (Surah 30, V. 54).

The principle of dualism is representative of the nature of the universe, the human nature and the nature of all other beings. And if the rejection by man of the Creator gives an expression of utter deficiency or negligence to conceive that principle, the belief in the materiality of

should be no vaccum between the Creator and the creatures, not to speak of any contradiction between the Creator and creatures.

It is unnatural to make man's life confined to his body only or to his soul alone. It is also unnatural if there is disbelief in God the Creator and belief in man the created. Belief in God is a necessary result of the natural law of existence whereas disbelief in Him is a failure to appreciate that law or is a sign of neglecting and disregarding it. This is why the message of the Almighty God which was brought by the messengers, may the peace and blessings of God be upon them all, aimed at enlightening mankind about this natural law and teaching them that this nature is created and has a Creator, and that the relation between the created and the Creator should be in this visible world between the soul and the body, the pairs of male and female, lif and death, strength and weakness, etc. The relation between the Creator and the created grows strong by means of endeavour from the latter's side to increase faith in the former. It also grows strong between the soul and the body by virtue of making them harmonious with each other without the domination of any of them over the other. The relation between the male and the female is made strong by avoiding causes of aversion, hostility and malice. Similarly, it is made strong relation between life and death through the readiness of the alive being to face death and through his preparedness to receive a new life after his death. The strength of relation between weakness and its opposite is rendered possible when the strong person realizes that he may get weak and the weak person conceives the possibility of his getting strong.

The enlightening of the youth about this natural law of "dualism" is the essence of the Divine knowledge and is the centre around which the Heavenly message goes. So, the glorious Qur'an, the Book of God in which He presented His last message to all people, came with the call for permanent faith in God; "O you who believe, believe in God and His Messenger and the Book which He has revealed to His Messenger and the Book which He revealed before" (Surah V. 136). It also came with the call for harmony between the soul and the body without making any of them grow or improve at the expense of the other. "And seek the abode of the hereafter by means of what God has given thee, and neglect not thy portion of the world, and do good (to others) as God has done good to thee, and seek not to make mischief in the land. Surely

may be otherwise. So, the criterion by which we can correctly judge the Divine knowledge must be derived from the source of revelation itself befor referring to the sayings or deeds of any of the followers of that message.

The Divine knowledge in itself is not new to man's nature nor is it strange to his existence. It is in complete harmony with the nature of the whole universe including the nature of man and his human course of life. In fine it is the same as the nature of existence. It is the guidance of God to man, and therefore it must be consistent with his nature as well as with the laws of nature and the rules of life.

The whole existence is based on the principle of "dualism," and the Creator of it is God, Exalted be He, and the created entities are the natures of the different beings. God the Almighty is a pure *mind* free from matter and personification, whereas the natures of other beings, which emanated from Him and which He wanted for His creatures, are a mixture of matter and *mind.* These other beings consist of *mind* and matter. It is a combinaton of visible and conceivable substances. The "dualism" in these beings is also represented in the existence of both male and femal "And that He creates pairs, the male and the female" (Surah 53, V. 45); of life and death "Who created death and life..." (Surah 67, V. 2); of strength and weakness "God is He Who created you from a state of weakness, then He gave strength after weakness, then ordained weakness and hoary hair after strength..." (Surah 30, V. 45) etc. The principle of "dualism", thus, is the natural law of the whole existence which is created and mixed with matter and which has a Creator Who is a pure *mind.*

So, if the principle of "dualism" is the law of existence and the basis of human life, it is only logical that the message of God the Almighty to man must aim at establishing harmony between the two sides of this "dualism" in the life of man. It would be illogical if the message of God aimed at strengthening or improving one of the two sides at the expense of the other. The purpose of the Divine message in the sphere of the human nature, then, is to harmonize the soul and the body, and its purpose in the whole existence is to make an adjustment between the Creator and the creatures.

There should be no vaccum in man's life so far as his soul and body are concerned. Nor should there be any contradiction between the soul and the body. Similarly, there

THE DUTY OF THE LEARNED
(al-ULAMMAA)

by

Dr. Muhammad El - Bahay

Director General of The Islamic Culture Administration.

The Learned Man:

The learned man is he who has knowledge. And knowledge in turn may emanate from the revelation of God to one of His messengers, may the blessings and peace of God be upon them all. It may also stem from man's attempt to be independent in his research to discover the nature of his own self and of the universe in which he lives. The former kind of knowledge is considered Divine or religious whose source is God, while the latter is described as human whose source is man himself.

The Divine Knowledge:

When the possessors of the Divine knowledge convey their knowledge to people, they in fact speak in accordance with what God ordained and in a truthful manner without any deviation. Nevertheless, their speech may more or less get mixed up with some of their own human characteristics, in which case they will not be true representatives of what God revaled to His Messenger. However, the Messenger, peace be upon him, is the only human being whose expression is in complete conformity with God's will. The contemporary companions of the Messenger and their successors differ among themselves in their representation of the Divine will. The more the propagator of the Divine message is cautious as to his expression of the will of God in that message, the closer he is to what God ordained to guide people. Likewise, the more he is affected by his subjective inclinations and his own limited environment, the remoter he is from the straight course of God's revelation.

The sayings of the possessors of the Divine knowledge, therefore, may express exactly the will of God in the teachings of His Message and

As for those who yield to these fallacious arguments in the Crey Note-Book and whose faith might be shaken thereafter, they are the farthest from the essence of religion. Nevertheless, this Note-BooK with its fallacies and contradictions may cause the most superficial and weak-hearted believes to reflect once again on their faith and might help them to uproot the malice with their own hands and refute the big lies with their tongues. If the case were not that the Arab Communist is a *voluntary* disbeliever depending on *evidence* inspired by rancour and stubborness, all the contents of the Grey Note- Rook would have been scattered motes. The Note-Book constitutes an argument in support of religion against those who reject it. The alleged poof in this Note-Book is inconsistent and illogical, and it will, however popular, now face its avoidless fate of disappearance; because it cannot affect a bit the certainty of any believer.

Note-Book mistranslates the verse " Indeed we see the turning of your face (Muhammad) to heaven", which means seeking the help from God, and explains it in a most literal and narrow sense to mean the mere aimless turning of the prophet's face to heaven. Besides that, there are many Qur'anic verses which the Arabic translator, after finding out their numbers in the foreign sources. reproduced without knowing their meanings.

The first thing we can understand, after viewing the Crey-Note Book, is that the pseudo Arabs and Muslims who propagaed it among their people were *voluntary* disblievers instead of reading their Book, the Qur'an, Comprhending the history of thier religion and refuting those who are trying to criticize and defame Islam with a retort reply and conscious attitude. Conversely, their hearts were sealed whit animosity and rebellion ; because they envy people and have an evil feeling against them. So they became disbelievers without Knowing what faith is or why the Marxist rejected Islam and the other religions.

All this is a well known unfounded propaganda repeated once and again by the Marxists, however dissimilar their intellectual standards may be, as they boastfully assume that their writings are scientific or "analytic". In these writings they have not produced anything new except the " economical " factors which they cite in their own way by means of statements scattered here and there with the aid of some deceptive words learnt by heart such as exploitaion, greed, wages, hard work and exhausted labourers which words are mentioned in comparison with bitter references to properties of capitalists estimated at millions. Obviously the mention of these words is quite sufficient to arouse the feelings of hatered and envy in the hearts of both audience and readers. And whoso accepets these words, he then is prepared to accept blasphemy which is jastified by *voluntary* disbelievers through reasons they parrot without any sound argument save their spite, meanness, and the lust of slander against God's bondmen and even against God Himself whom they conceive as non — existente. Actually all what they said against God is clear evidence that they spite Him simply because He is the Possessor of power over all things.

Ill intention is a necessary prerequisite to the Marxist rejection of the Islamic principle prohibting usury which rejection is based on taking usury sometimes in some Muslim countries. Accordingly, the Marxists consider Islam as a feudal religion serving the feudalists only. This is because no sound person dares to assume that law does not prohibit any crime whatsoever beause people simply commit that crime. The Marxists are the last to adopt such an assumption for Marxism has not prevented the accusation, hurled against thousands from amoag the spokesmen of and adherents to Marxism, of exploiting their offices, betraying the people and violating the established rules of the doctrine. Likewise, this application did not impede the uprising of Hungarian labourers and peasants because they called for bread and clothes. Nor has it avoided the plundering of freedom of thought and expression to impose on people what they do not believe in or to force them to accept an idea which they would not welcome otherwise.

The author of the Grey Note - Book is obviously ignorant of Islam and the history of the Arabian Peninsula. And the Arab Communist who spread it is more ignorant of the history of Baghdad and its outskirts both before and after Islam. He, for exemple, does not know the history of the Lakhmys (al-Lakhmiyeen) and calls them Lakhmeeds following the appellation of foreigners.

He speaks of the Zang (Black) Revolt in a wrong way and refers to it as the Zengah. When he mentions the tribe of Thaqueef, to which al-Hajjaj the famous ruler of Iraq belonged, he identifies it as the tribe of al-Thaqueef. He has not even read the Glorious Qur'an especially the Chapter of Victory which is the subject matter of launching attacks againct the Islamic principle of *al-jihad* (struggling in the way of God) and against the Muslim victories which have been ascribed to factors other than the religious enthusiasm of Muslims. He translates the words *al-Sirat al - Mustaqeem* which mean the right path, by al - Tareeq al - Aala, which mean the highway. This kind of misquotation in every single word from the Qur'an is often repeated in the Note-Book which mentions the word *al - Hunafeyeen* a word that never occured in the Qur'an - instead of the words *Haneef* and *Hunafaa* which mean the upright. Similarly, it speakes of the Sacred moths (in which war is forbidden) as "holy" months by using the epithet *Muqaddas* instead of using *Hurum* which is actually mantioned in the Qur'an. Moreover, the

heavy taxes and intolerable religious persecutions. So they did not show any desire to resist the *conquerors* besides they had no motive to struggle.

It is not our wish to ask why the defeated Persians hastened at their own will to embrace Islam, and why they were followed by countless numbers of their fellow Asians who had been Budhists or pagans or idolators, and who never engaged in any battle with the *invading* Arabs. What we wish to do, however, is to arrest the long fallacies of the materialists and raise this question: Why were the Arab Muslims able to defeat the Arab polythiests although the number of the latter was in some wars ten times as much in proportion to that of the former ? The warriors of both parties consisted of similar categories as far as wealth and poverty, freedom and enslavement, supremacy and lowness were concerned. In the Muslim army as well as in the army of th disbelievers there were masters and slaves.

The disbelievers were not all feudalists nor were the Muslims all poor and heavily burdened with debts. Among the well-to-do Muslims there were Abu Bakr, Uthman and Khalid Ibn al-Walid, whereas there existed in the army of disbelievers thousands of slaves and destitute people. What powrs then, except that of religious zeal, made the less in number gain victory over the numerous ? This quistion leads us to raise another imposed by the repeated mention of exploitation and weighless individuals throughout Marxist writings. We would like to ask them: Did Islam rise because the exploiters founded it or because the weighless people stablishad it by means of revolting against those exploiters ? What economical interest did the Prophet, peace be upon him, have to make him support the feudalists ? And what did he gain for himself or for his family through the alleged aid he extended to the feudalists ? Why did he arouse the weak against them in order that he himself might lead the same humble life as that of the weak ? If " economy " can give satisfactory answers to all these questions, it would then be an odd form of economy created by the supernatural power of the jinn. Nay, it is a self contradictory creature.

This materialistic compilation of mistakes and lies and the misleading course of materialists in connection with religions could not be the result of ignorance alone. But together with ignorance there must be evil intention to misinterPret the virtues of religions by means of persistent deformation and denunciation without any proof except the vicious caprices of self.

Success has certainly a ed the Materialists, the Marxists, in their "Grey Not-Book" which they publicized in Iraq and compiled therein all the sayings of the Materialist writers, old and modern, on the advent of Islam and the causes and circumstances of the rise of the Islamic Call. Never before has a great number of errors and contradictions been compiled in a note-book such as this. The embodiment of these errors and contradictions in such a note-book could not have been without misleading and false inspiration in which mistakes and deviation together with silly lies predominate over truth.

It is a historical fact that the defeat of Chosroes in the battle of Dhe Qar was the reason of the revolt of the Arabs against Persia. But after a few lines in the Marxist Note - Book you read that Quraysh in her objection to the Call of the Arab ProPhet was relying on the support of Chosroes the King of Persia " whose death in 628 A. C. was among the reasons of the submission of Quraysh because Chosroes was known as the protector of idolators. So the people of Quraysh lost upon his death every hope to receive any support from without.

While reading this, one is struck by a statement which says that one of the strongest reasons of the prevalence of Islam was the triumph of Quraysh's god over all the other gods. As for the followers of Muhammad, who were called the children of God, they belonged to the weak tribes, and this is why they followed him.

The Grey Note - Book does not reveal to us why Quraysh hatefully resisted the propagation of the Call of God and opposed the Propagator in a most inflexible way, and why those obstinate opponents did not surrender until they became desperate and hopless as to the protection of the Persian king who was a well known idolator. Moreover, the Note-Book does not say why the ProPhet was forced to leave the country of Quraysh, the worshiPpers of the supreme deity, to seek the help of the residents of Medina (al- Madinah) who disbelieved in Quraysh's deity and were not worshippers of God.

Furthermore, you read in the Note-Book that the victories of the Arabs were not a result of their religious enthusiasm, but were the outcome of the disintegration of the two great world powers, the Byzantine and Persian empires which were exhausted by long-standing wars.

The subjects of the two empires suffered so much from increasingly

SUBVERSIVE DOCTRINES DESTROY THEMSELVES

by

Abbas Mahmoud El-Aqqad

The Marxists write so much about religions, especially Islam, and the reason of their existence and development. In their writings they drive from one and the same idea and adopt their method without making any distinction between religions in spite of the fact that there may exist among the various religions some contradictions which cannot arise from one cause or from similar causes. Nay, it often happens that some religions bear elements which may destroy the beliefs, injunctions and morals of other religions, and may necessitate their invalidity, hold disbelievers their adherents and excommunicate them from the range of those who believe in the True God and the righteous messengers.

Whenever I finish reading a chapter of the Marxist writings on religion in general and on Islam in particular, the question comes to my mind: Which of the two parties is more entitled to speak up: the supporters of Marxism or the believers of religion which the Marxists criticize and wish to refute by their analysis of the cause of its existence?

The virtues of religion may require some effort to uncover its secrets and expound the profound reasons out of which beliefs emerge and take forms and symbols adaptable to every age and harmonious with every stage in the course of development of thinking and knowledge. The true appreciation of these virtues, however clear thay may be, is realized only through explanation and evidence. Contrary to that, the obviousness of stupidity and fallacies in the Marxist writings on religions is so clear that it needs no evidence or proof, and whenever these writings are re-examined they appear weaker and weaker and their fallacies become more vivid so much so that they constitute an argument for religion not against it.

be sequited for it and will not find for himself besides God a friend or a helper. And whoever does good deeds, whether male or female, and he (or she) is a believer - these will enter the Garden, and they will not be dealt with a whit unjustly " (Surah 4, Vs. 123-124).

Equality of Man and Woman In Religious Responsibilty:

The verses mentioned above indicate that Islam task man and woman with equal religious responsibilities. Both are equally demanded to have faith and do good deeds. Moreover, these verses indicate that woman's is a responsibility independent from that of man, and as long as she is righteous the evil deeds and corrupt faith of man cannot affect her. Similarly, if she is bad and her faith is corrupt, the righteousness of man cannot do her any good because everyone of them is self-responsible for his good or otherwise deeds and will accordingly be rewarded. In reference to this principle God says : " God sets forth an example for those who disbelieve - the wife of Noah and the wife of Lot. They were both under two of Our righteous servants, but they acted treacherously towards them, so they availed them naught against God, and it was said : Enter the Fire with those who enter. And God sets forth an example for those who believe — the wife of Pharaoh, when she said: My Lord, build for me a house with You in the garden and deliver me from Pharaoh and his work, and deliver me from the iniquitous people " (Surah. 66, Vs. 10 — 11).

In the same way the Qur'an stipulates that both father and son are equally entitled to religious independent responsibility from the day the latter reaches the age of maturity and adulthood. " O people, keep your duty to your Lord and dread the day when no father can avail his son in aught, nor the child will avail his father". (Surah. 31, V. 33).

(*Translated from the Arabic text which appeared in the book titled:*

ISLAM : BELIEF AND LAW

by His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout Rector of al-Azhar University.

Al-Azhar Press, Cairo, 1959).

* * *

who say, our Lord is God, then continue on the right way, on them is no fear, nor shall they grieve " (Surah 46, V. 13).

Therefrom it is proved that Islam did not come as a Belief only nor was it concerned merely with organizing the course of relations between man and God. But it came as a Belief and as a conductive law to guide man to all aspects of good in life.

Belief is the Source and Law is the Branch:

According to Islam, belief is the foundation uPon which the law is built, and law is the necessary result of belief. So law does not really exist or flourish apart from the existence of belief. This is because law without belief is like an edifice which has no ground; it lacks the backing of moral and spiritual power which instigates the believers to intrinsicly respect the law, apply its articles and follow its guidance.

The Relation Between Belief and Law:

Islam, therefore, demands the adhesion of belief and law in such a manner as to make meaningless the existence of either of them separate a from the other. Yet it ordains belief as a generating power leading to law which will then be a natural response to the interaction of the heart with belief. Such adhesion of belief and law is the way of salvation and gaining the reward promised by God for those who believe in Him. Thus whoso satisfies himself with belief and disregards the law or obeys the latter and neglects the former is not a true Muslim in the sight of God nor is he taking the straight path.

Equality of Human Beings In Islam:

This is Islam which in its belief and law equalizes all human beings. It is addressed to all races and parties irrespective of physical differences of sex, i. e., male and female, or of colour. i. e., white and black, and irrespective of social differences between the ruling authorities and the ruled, the rich and the poor. Man becomes close to God's favour inasmuch as he is firm in belief and sincere in obeying His law. In connection with this point the Qur'an says: " O mankind surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful" (Surah. 49, V. 13). " It will not be in accordance with your vain desires nor the vain desires of the people of the Book. Whoever does evil, will

human mind grows mature and the life becomes flourishing.

Islam : Belief (Aqeedah) and Law (Shareeah):

From God, Muhammad received the glorious Qur'an which is the comprehensive source of all beliefs and laws of Islam. With God as well as with Muslims the Qur'an is the principal source of knowing the basic teachiugs of Islam. It is a well-attested fact that through the Qur'an we know that Islam consists of two fundamental departments, namely, belief and law. Without the realization of these two departments in man's mind, heart and life, the essence of Islam and its significance alike are meaningless.

A — *Belief* :

Belief is the theoretical basis upon which the practical aspects of Islam were built and which all Muslims are demanded first of all to embrace whole - heartedly and undoubtedly. By its nature belief is established through unanimous and inequivocal texts as well as through the consensus of all Muslims from the beginning of the Islamic Call, though there have been different opinions in connection with matters other than belief. The first thing which the Messenger advocated and to which he called all people was belief. This call to belief was the mission of every messenger sent by God as stated in the Qur'an in its references to prophets and messengers.

B — *The Law* :

The law of Islam consists of the very regulations ordained by God or of the general rules made by Him for man to follow in his relation with God, with his co - religionist, with his fellow man, with the universe and with life at large.

The Qur'anic Conception of Belief and Law.

In many clear verses of the Qur'an belief is viewed as " faith " and law is interpreted in terms of "good deeds". It says : "As for those who believe and do good deeds, for them are Gardens of Paradise, an entertainment, to abide therein ; they will not desire removal therefrom " (Surah 18, Vs. 107-108). " Whoever does good, whether male or female, and is a believer, We shall certainly make him live a good life, and We shall certainly give them their reward for the best of what they did " (Surah 16, V. 97). " By the time ! Surely man is in loss, except those who believe and do good, and exhort one another to Truth and exhort one another to patience " (Surah 103, Vs. 1-3). "Surely those

not - and you can never do (it) — then be on your guard against the fire whose fuel is men and stones" (Surah 2, Vs. 23 - 24). " Say : If men and Jinn should combine together to bring the like of this Qur'an, they could not bring the like of it, though some of them were aiders to others" (Surah. 17, V. 88).

The Human Understanding of Islam Is Not a Religion to Be Followed :

After the death of Muhammad and his ascension to join the company of God, the notions of learned Muslim authorities as to the interpretation of some verses which bear more than one meaning became attached to the study of the Qur'an. Hence the field of human thought expanded and the opinions and doctrines related to theoretical as well as Practical matters multiplied. Yet those opinions and doctrines were not conceived as a religion to which adherence was obligatory but as mere opinions and notions concerned with some Qur'anic verses which might suggest more than one interpretaiton according to the different approaches of interpreters in the light of their understanding of the Qur'anic text with the aid of what they hold valid of the sayings and deeds of the Prophet or of what they conceived of general principles revealed by the common spirit of religion. This attitude taken by the learned authorities was only believed to be an exercise of personal judgement (ijtihad). None of those authorities imposed his own opinion upon others who were qualified to exercise a like, free judgement.

As for the fundamental beliefs of Islam such as the belief in God, the Day of Resurrection, the ordinance of prayer, alms - giving, and consecration of self, honour and property, the texts concerned with these articles came very clear in the Qur'an and were in no need to free judgement or explanation. This is why there have been many opinions and doctrines in connection with the supplmentary branches of the basic beliefs and in relevance to practice subordinate to the principles of laws and injunctions.

Adaptability to Islam :

The nature of Islam proves that it is a religion of reasonable intellectual freedom, and that, beyond its fundamental beliefs and principles of legislation, it does not confine itself to any particular kind of thinking or any special method of legislation. By virtue of this freedom Islam has been a religion to which all forms of sound cultures and beneficial civilizations are adaptable, however the

AN INTRODUCTION TO ISLAM

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

The Rector of Al-Azhar University

What is Islam ?

Islam is the religion of God Who revealed its teachings, principles and laws to the Messenger Muhammad, peace be upon him, and Who tasked him with conveying it to all peoPle and calling them to embrace it. Through Islam Muhammad received from his Lord the glorious Qur'an and made it known in the same way it was revealed. In response to the demand of God and by virtue of His guidance Muhammad expounded the non-detailed verses of the Qur'an and translated its texts into practice by his deeds. Then people received it from him generation after generation until it came to us, just as complete and perfect as it was revealed, through a chain of reporters without any doubt in it.

The Qur'an is the Book of God:

A conclusive argument has been established with those who studied the Qur'an, appreciated its style, reflected upon its meaning and contents and then aquired comprehensive knowledge of the life and environment of Muhammad - that the Qur'an could not have been the production of Muhammad nor of any other human being who might have received from him. Thus all those whose hearts incline to the truth believe that the Qur'an came from God Who revealed it to His chosen Messenger who in turn made it known to people, and so the Qur'an is - to those who believe in it - the source of religious beliefs, injunctions and laws.

God has ascertained in the Qur'an itself the failure of human beings to bring the like of it, a result which was proved by the fact that they fell short in their attempt to bring its like. God challenged those who gave their backs to the Qur'an by disclosing their perpetual incapability of imitating the Qur'an; He says: " And if you are in doubt as to what We have reveald to Our servant, then produce a chapter like it and call on your helpers besides God if you are truthful. But if you do (it)

has reserved for them of pleasant reward. This is expressed in fascinating speech and inequivocal metaphor.

The approach of Islam to the problem of poverty is not confined to what we have already mentioned. But there are other ways through which Islam tackles this problem. It ordains the restriction of passions, the moderation of ambitions and the avoidance of greed. So it recommends the rich to lead a life of self-denying, commands the haves to exercise satisfaction and praises the contented poor.

This is how Islam treats the incurable disease of poverty which puzzled humanity since the existence of the universe. This treatment-although comprehensive, simple and effective - is a sound argument against those who pretend that the Law of the Qur'an is inharmonious with civilization, and the Code of Napoleon is more suitable to mankind than the law of God, and the Marxist ideology is more useful to the world than that of Muhammad.

If every Muslim observes the right of God in his wealth and follows his kind nature as to give away of his surplus and console the miserable and behave in an altruist manner; and if all this finds rulers to administer it in the proper way - it will be easy then to establish peace in the earth, spread love among people. As a result, the ill feelings of hatred will calm in the envious, the tears of the miserable will dry, the stomach of the poor will be in peace, and the fears of the rich will cease. Prosperity then will prevail and people will enjoy the happiness of the earth and the bleessing of Heaven.

---

connection, if he deliberately and with no excuse breaks the fasting, he must feed sixty poor men or free a slave. Furthermore, if the pilgrim violates any rule of pilgrimage, he has to expiate by offering a slaughtered sacrifice, e.g., a ram, to the poor. The father celebrates the seventh day of his child's birth by offering a sacrifice to the poor. On the occasions of the Lesser Bairam (Ied al-Fitr) marking the end of the fasting month of Ramadan and the Corban Bairam (Ied-al-Adha) marking the end of pilgrimage, the rich people have to relieve the poor by means of distributing the alms of fast — breaking (zakatul - fitr) and offering the oblations.

When the Muslim makes a vow, religion enjoins upon him to be faithful to his vow in order that he may be kind to the poor and helpful to the needy. In the Islamic law there is a wise rule which sets a duty against every right. Accordingly, when a person fails to stand for the demands of his livelihood, religion tasks those who are entitled to inherit him after his death with his subsistence. Thus the wealthy son, brother and husband have to maintain the needy father, brother and wife respectively and vice - versa. The second Calif Umar Ibn al - Khattab once saw a completely disable Jew. He stood by him and said: We have not treated you justly O Jew. When you were able we took tribute from you and now in your weakness we must not let you down. Then he arranged a sufficient salary to be paid to that Jew regularly from the Muslim Treasury.

The Islamic law came with strong recommendations that when death draws nigh to anyone, he is to make will covering one - third of his property to be spent in charitable ways, besides his will to the parents and kinsmen. One of the blessings of the kind Messenger Muhammad is his praise of and exhortation to maintaining permanent sources of charity by virtue of mortmain to sustain the sick, the poor, the wayfarers, the pilgrims and the students. These people enjoy the benefit of this mortmain through the care and comfort they receive in benevolent hospitals, orphanages, hostels, monastry-like buildings, schools, and mosques. To appreciate the good and incessant results of the permanent sources of charity throughout the Muslim world one has only to cast a glance at the ways in which the revenue of mortmain is spent. In addition to all this, there are many verses in the Qur'an and numerous sayings and actions of the Messenger which urge the believers to spend in the way of God and endear what God

Then the first results of the Divine reform were clipping the nails of poverty, healing the wounds of the poor and suppressing the pains of misery. This Divine reform united the hearts of the people and fraternized them, equalized the various races, protected them from committing murders and purified the wealth from excessive usury. Finally it solved the same enduring disease of poverty in such a manner which, if adopted by reformers, will enable them to avoid the evils of these wars which disturb the peace of people and to save them from the defects of the ideologies which destroy the structure of human society. It solved the problem of poverty by creating a link between the rich and the poor on the basis of acknowledging the right of possession and maintaining the freedom of enterprise, so that no owner can be driven away from his property and no person can be opposed in his freedom. Accordingly, it entitles the poor to a certain right in the wealth of the rich whose religion is incomplete without giving that right. This right, i.e., alms-giving, is the third pillar in the five ones upon which Islam was built. It is not supplementary nor is it supererogatory or subordinate. Alms-giving has no insignificant effect in the life of the poor. It is estimated at one-fourtieth of properties,

If alms is collected, as estimated, with honesty and distributed with justice as prescribed, it will cure the souls from rancour and save the society from misery. Thus there will be no vagabons on the streets or hungry in homes or disqualified labourers.

Islam in its treatment of poverty did not stop at the injunction of alms-giving. It has in the sphere of worships and dealings ordained inexhaustible sources of kindness and charity. When a person commits perjury he expiates it by feeding ten poor men with the average food he feeds his family with, or by clothing them, or by freeing a slave. Likewise, if he swears not to do a certain thing but then discovers that its doing is better than its leaving, he may do it after expiation by feeding the poor. Similarly, if he declares his wife as forbidden for him as his mother(zihar) and then decides to go back on his declaration, he must feed sixty poor men or free a slave. And if he kills a self by mistake, he feeds the poor or free a slave besides paying a blood -money (diyah).

Moreover, when the person is unable to fast the month of Ramadan because of illness or decrepitude, he may break the fasting and feed a poor man against every day he breaks the fasting of. In the same

When Islam plays its proper rôle in the life of Muslims, the whole nation becomes one family and all people become brothren among whom you may find the *poor* but not the deprived, and the weak but not the wronged. This is because the law of God has ordained a link of kindness between the wealthy and the poor and established a relation of mercy between the strong and the weak.

Islam has prescribed the remedy of poverty with clear awareness of the fact that it is the source of every disease and the origin of all evils. This remedy is one of the most fundamental pillars of Islam which come in grade after the Oneness of God. If you examine the verses of the Qur'an and the sayings of the Messenger concerning the poor-duty and kindness, you may think that the message of Islem was sent from God through Muhammad the Last Prophet only to save humanity from the calamities of poverty and evils of hunger. It is good proof to know that the verses of fasting in the Qur'an are four, and those of pilgrimage are about fifteen, while the verses of prayer are less than thirty. But with alms-giving and charity the Qur'an takes a different and stronger attitude described in more than fifty of its verses.

It seems that God chose the poorest nation and the most barren land to combat poverty in its strongest fortress and vastest field; because if poverty is defeated in the desert of Hejaz (al-Hijaz), its defeat in the country of Egypt and that of Iraq would be far easier and much faster. Moreover, God chose His Messenger from among the poor to show more vividly His power in combating poverty, just as He chose him from among the illiterate to be a more conclusive argument in his support.

During the advent of the great Call of Islam the Arabian Peninsula was a deplorable example of what poverty afflicts upon mankind of savage instincts, dissolution of relations, aggressive assaults, suffering deprivation, slaying the children, excessive usury, devouring the forbidden things, cheating in measures, injustice of the heads, egoism of the rich, insecurity, the falling of man into the lowest depth of animal life, etc. But when God sent His Messenger with guidance and the true religion, his greatest miracle was the perfect Book (the Qur'an) which, made of those bleeding and disintegrated bodies a strong and powerful nation and abrogated those corrupt systems to replace them with a constitution of solid foundations and immortal wisdom,

HOW ISLAM TACKLES POVERTY

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT

Editor - in - Chief

Take off your eyes this magic glass made by literature and art, and look into the various aspects of life. You will find that life is a formidable struggle for food. This struggle never ceases or weakens. It is continuous and common, and has caused the death and injury of many people, who were let down by their weakness to die martyrs or live in poverty. As for death, it is irresistable and there is nothing to be done about it, but poverty is the incurable disease which has been befalling humanity since God created it with the dual nature of power and disability, perfection and deficiency.

This disease has been the subject of social treatment which tried to mitigate its pain by sedative means and relieve its acuteness by charms. But the effective tackling of poverty remained inaccessible to the social treatment until God described it in His religion and applied it in His law. Then the contagious effect of the disease was terminated and the danger was removed.

If you see in the Muslim world victims of poverty and preys to hunger, you must believe God and distrust your eyes ; because the world you see is not the one which shines with the light of God, nor is it the one which is perfumed with the breeze of Paradise. But it is Like a debris deserted by its people and a patient neglected by his comforters. The world you see is populated by " Muslims" who failed to appreciate the values of the Qur'an and - instead - glorified its words, and is governed by rulers who miss the solid foundations of sound government to satisfy themselves - instead - with its superficial forms.

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثامن — شعبان سنة ١٣٧٩ هـ — فبراير سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادى والثلاثون

المعركة التى أنقذت الإسلام والعروبة

بمناسبة احتفال الجمهورية بذكراها

بقلم : أحمد حسن الزيات

— ١ —

أيام النصر كواكب سعد تتألق فى ليل جهادنا الداجى الطويل، أو هى أعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنا الجليل الحفيل؛ فيوم بدر، ويوم مكة، ويوم اليرموك، ويوم القادسية، ويوم حطين، ويوم المنصورة، ويوم رشيد، ويوم بورسعيد، مراحل هادية فى طريق الركب البشرى نقلته كل مرحلة منها إلى منزلة من منازل الكمال الاجتماعى؛ من الشرك إلى الوحدانية، ومن الرق إلى الحرية، ومن همجية الفوضى إلى مدنية النظام، ومن فرقة الجهالة إلى ألفة السلام، ومن قيادة الهوى الحاكم إلى سياسة العقل الحكيم، فالاحتفال بذكرياتها احتفال بكرامة الإنسان، وغلبة العدل والإحسان، وسيادة العلم والنور.

وقد احتفلت الجمهورية منذ أسابيع بيومى رشيد وبورسعيد، وستحتفل فى الثامن من هذا الشهر: شهر فبراير بيوم المنصورة، وهو اليوم الأغر الذى صدق الله فيه وعده للمسلمين فانطفأت على مياه (البحر الصغير) آخر حرب أوقد نارها الاستعمار الكافر، باسم الصليب على أرض الكنانة فأنقذ الأمة الوسط من عاقبة كعاقبتها فى الأندلس مع الفرنج، ومن كارثة ككارثتها فى العراق من المغول.

— ٢ —

كان العرش العباسى فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قد زعزع المغول قوائمه وأوشكوا أن يقوضوه، وكان الوطن العربى قد مزقته المطامع وكاد أهله أن يفقدوه؛ وكان آل الصليب ممن وترهم صلاح الدين فى حطين يجمعون الأهبة ويتحينون الفرصة لاسترداد بيت المقدس بالعودة إلى غزو الشام وفلسطين؛ ورأى لويس التاسع ملك فرنسا

أن الفرصة قد واتته بهجوم التتار على العراق ، وعبث الحشاشين فى الشام ، وتنازع الأيوبيين فى مصر ، فاعتزم الغزوة الصليبية السابعة . ونصح له أصحاب رأيه ، وأركان حربه أن يستولى أولا على مصر ؛ لأنها معقل الإسلام وموئل العروبة ؛ والاستيلاء عليها يفتح الطريق إلى فلسطين وسورية والعراق فيدخلها من غير حائل ولا وائل . أليست مصر هى التى سحقت الصليبيين فى حطين فأنقذت دين الله ، وصدت التتار فى عين جالوت فأنقذت تراث محمد ؟ .

هنالك دعا القسيس لويس ومن شايعه من أقطاب النصرانية إلى الغزو - الأمراء والفرسان وعشاق المغامرات ممن يطمعون أن يكون لهم فى مصر إقطاعيات وإمارات على نحو ما كان لأسلافهم فى بلاد الشام وشمال العراق منذ قرن ونصف . فاجتمع إليهم من فجاج الأرض زهاء خمسين ومائة ألف فارس ، واحتشد لديهم من موانى البحر ألف وثلاثمائة سفينة ، وأبحروا إلى مصر بهذا الجيش العرمرم فى هذا الأسطول الضخم ، يسوقهم الإيمان الأعمى ، ويقودهم الطمع الجشع ، ويرشدهم ضلال من سبقوهم من الغزاة المغلوبين ، ويحرضهم الثأر لمن صرعهم صلاح الدين ، ولو أن الجد الناهض كان فى صف العدو لوقعت مصر والشرق العربى كله فى قبضة فرنسا منذ سبعة قرون ، ولا استحال على العرب وهم تحت سلطانها المميت المدمر أن يدركوا معنى الوجود إلى يوم الناس هذا ؛ ولكن موقعة المنصورة وهى حطين الثانية كانت كلمة من وعد الله الصادق بالنصر لحماة دينه ، فحولت مجرى التاريخ ، وغيرت وجه الأحداث ، وألقت إلينا بمقاليد القدر .

— ٢ —

فى أواخر سبتمبر من عام ١٢٤٨ م أرسى أسطول القديس لويس على شواطىء (ليماسول) ميناء قبرص ، فنزل منه الفوارس الغلاظ الشداد عليهم القمصان البيض والصلبان السود ، فسطعت فى أنوفهم من بعيد ريح الخمر القبرصية وما ينتشر حولها من وهيج الشواء وأريج النساء وفوحة الزهر ، فتلقاهم ملك الجزيرة (هنرى) بما يشتهون . فلبثوا يقصفون ويفسقون ثمانية أشهر جعلوا قبرص كلها فى هذه المدة ماخوراً كبيراً وحانة عظيمة ! وكان الملك القديس فى أثنائها يجمع المئونة ويكمل العدة وينتظر من تخلف عنه من هواة الإقطاع ، ويستقبل من وفد عليه من سفراء المغول ؛ ليحالفوه على قبض النفوذ المصرى من الشرق بعد أن استحال عليهم ذلك ، فلما قرروا الإبحار إلى مصر كتب لويس إلى ملكها الصالح نجم الدين أيوب كتابا ينذره فيه بالهجوم جريا على سنن الفروسية فى العصر الوسيط جاء فيه على ما روى المقريزى :

« أما بعد : فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما إنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنى غير مخف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ،

ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل وعددهم كعدد الحصى ».

فرد عليه الملك الصالح بجواب من إنشاء القاضى الشاعر بهاء الدين زهير نقتطف منه قوله :

« .. وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . وستعض أناملك ندما فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، ونعود إلى قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

— ٤ —

رسا الأسطول الفرنسى على ساحل دمياط فى اليوم الرابع من شهر يونيه من السنة نفسها وكانت غير محصنة فاحتلها ، ودخلها الفرنسيون دخول الطاعون الوافد ، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها وراء القائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ وتركوا منازلهم معمورة بالأرزاق ومتاجرهم مغمورة بالبضائع ، فرتعوا فيها رتوع الخنازير ، واشتعلوا بها اشتعال الجرذان ، وحول الجيش المدارس مواخير ، والساحات مراقص ، كما حول الملك لويس المسجد الجامع كنيسة للعذراء ، والمساجد الأخرى كنائس للقديسين ، وحصن القواد الأسوار ، وشيدوا الأبراج ، وأعدوا وسائل الدفاع . وظل القائد القديس يقيم القداديس ويقدم القرابين وجيشه يقيم المراقص ويأتى الفواحش أربعة أشهر ، ثم قرروا المسير إلى القاهرة عن طريق المنصورة .

وكان جيشنا يستعد فى القاهرة للدفاع ، وشعبنا يتجمع فى الدلتا للهجوم ، وآلاف المتطوعين يتقاطرون على معسكرات العدو يتغفلونهم بالليل ويتخطفونهم بالنهار .

ورأى القواد المصريون أن يحاصروا الغزاة فى الدلتا وألا يخلوا بينهم وبين القاهرة ، فتقدم الملك الصالح الجيش إلى المنصورة وهى قلعة مصر الشمالية ونزل بقصرها ليكون على مقربة من المعركة .

وبين عشية وضحاها انقلب هذا الشعب الأصيل الحر من فلاح يحرث وصانع يعمل وتاجر يبيع وعاطل يلهو ، كتلة واحدة من البأس تتسعر شوقا إلى الحرب ، وتفور حقدا على العدو ، وتبذل كل ما تملك فى سبيل الذياد عن الوطن ، والدفاع عن استقلاله . وأعجب العجب أن بلاء المتطوعين كان أشد وجهادهم كان أصدق ... !

— ٥ —

تجمع الجيش النظامى فى المنصورة وانتشر المتطوعون حول جيش العدو فى الموقع المثلث الذى اختاره بين الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة ، والشمال الغربى من فرع دمياط ، والجنوب الشرقى من بحر أشموم طناح ، وكانت قيادة العدو قد عسكرت فى شرمساح والبرمون ، فلم يكن بين الجيشين من فاصل

إلا (البحر الصغير) وكان النيل لا يزال فى فيضانه . وتعذر على الفرنسيين عبور البحر الصغير فظلوا يكابدون هجوم العصائب من المجاهدين المتطوعين فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . ولهؤلاء الفدائيين آيات من التضحية والبطولة سجلها مؤرخو هذه المعركة . منها أن أحدهم قور بطيخة ووضع رأسه فيها ثم سبح فى النهر حتى اقترب من الشاطئ الشرقى ، فنزل أحد الصليبيين ليأخذ البطيخة فسحبه المصرى وعاد به سابحا إلى المعسكر .

فلما أعيا الفرنسيين الأمر لجأ ملكهم إلى الصلاة ، فيقال : إن من (كراماته) أن أعرابيا خائنا طمع فى مالهم فدلهم على مخاضة فى النهر عند (سلامون) فخاضها فريق من الجيش بقيادة الكونت دارتوا أخى الملك ، وباغتوا المصريين بالمدينة فى اليوم الثامن من شهر فبراير عام ١٢٥٠ فوقع الاضطراب وعم الفزع واغتيل القائد فخر الدين حتى قال ابن واصل المؤرخ وكان فيمن جاهد وشاهد : « انزعجنا وغلب على الظنون بوار الإسلام ، على أنه كان من سعادة المسلمين تفرق الإفرنج فى الأزقة » . وتولى القيادة بيبرس فحصر بالماليك البحرية الجيش المهاجم فى شوارع المنصورة الضيقة ، وأخـــذوهم بالسيوف والدبابيس ، وتلقفهم الأهلون قذفا بالحجارة وضربا بالحديد وخطفا باليد ، فلم يدروا كيف يتقون المنايا وقد تخطفتهم من كل مكان ، فهلكوا جميعا وفيهم (دارتوا) . وطلب الجيش والشعب بقية الصليبيين جنوب النهر ، فالتحم الفريقان وتعاقب بينهما المد والجزر . وكان الأسطول المصرى قد شارك فى القتال فحصر مراكب العدو فى النيل وقطع ما بينها وبين جيشه ، فعز القوت وفشت المجاعة وانتشر الوباء . واستحر القتل ، ففقد الصليبيون أربعين ألف قتيل ومائة ألف أسير ، فلم ير ملك فرنسا بدأ من أن يتقهقر هو وأركان حربه إلى (منية أبى عبد الله) وأن ينزل فى بيت فرنسية كانت من ضواحى باريس ، ثم استسلم واستأسر . وتفاوض المصريون والفرنسيون فى شروط الهدنة ، فاتفقوا على أن يسلم هـؤلاء دمياط ، وأن يفدوا ملكهم بثمانمائة ألف دينار ، وأن يسجن حتى ينفذوا هذه الشروط .

— ٦ —

اقتيد الملك لويس التاسع هو والكونت أنجـو ، والكونت بواتو ، إلى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء ، وكلف الطواشى صبيح بالقيام على أمره ، فلبث فى السجن حتى ردت دمياط وأديت الفدية ، فحمل هو ومن معه على سفينة جنوية أقلتهم إلى عكا ، والمصريون يودعونه بهذه الأبيات التى قالها جمال الدين بن مطروح :

حديث الأستاذ الأكبر في عيد النصر

إخواني :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته – وبعد :

فإن لكل أمة فيما مضى من حياتها أحداث بارزة هيأت لها في حاضرها القوة أو الضعف ، والاستقرار أو الاضطراب .

وأن هذه الأحداث التي يسجلها التاريخ وتعرفها الأمم مرآة صادقة تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة أحداث الخير وأسبابها ، وأحداث الشر وعواملها ، ومن هنا استقر في ضمير المجتمعات البشرية الرجوع إلى الماضي واستحضار أحداثه وتقليب النظر في أسبابها ونتائجها لتمهد لنفسها سبل السير في حياتها المقبلة على ضوء ما عرفت من أحداث الماضي .

وإننا ونحن في هذه الآونة نذكر فضل الله علينا بالنصر في موقعة بور سعيد الخالدة حين تألبت قوى الشر على الحق وجنده ، فنذكر فضل الله علينا وعلى أمة العرب والمسلمين ، بتأييده لعباده ونصره لهم وهزيمة أولئك البغاة الطغاة .

قل للفرنسيس إذا جئته
مقال صدق من قئول فصيح

آجرك الله على ما جرى
من قتل عباد يسوع المسيح

أتيت مصرا تبتغي ملكها
تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم
ضاق به في ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح :

سبعون ألفا لا يرى منهم
إلا قتيل أو أسير جريح

ألهمك الله إلى مثلها
لعل عيسى منكمو يستريح

وقل لهم إن أزمعوا عودة
لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح

وقد أجاب الله دعوة الشاعر فعاد حفدة لويس إلى ديارنا يرتكبون الجرائر ، وانتقلت دار ابن لقمان وقيدها وطواشيها من مصر إلى الجزائر ! .

أحمد حسن الزيات

أيها المسلمون : أيها العرب :

إن اليوم الذى حطمت فيه هذه القوى فى بور سعيد ، جدير أن نتخذه عيداً نذكر به فضل الله علينا ؛ إذ أمكننا من عدونا فعادت إلينا كرامتنا كاملة ، ورجع إلينا حقنا كاملا غير منقوص .

هذا وللنصر مكانته عند الله ، سجله القرآن الكريم فضلا من الله العزيز الحكيم على عباده « وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ولقد أعز الله بالنصر النفوس ، وقرن به فتح القلوب لا فتح البلاد « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزاً . هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ؛ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وجعله تعالى نعمة من نعمه تستوجب من عباده تسبيحه وحمده « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » وإذا كنا بسبيل من ذكرى نصر بور سعيد فإننا نذكر بها يوماً آخر من أيام النصر ، ذلك هو ذكرى هزيمة الأحزاب على نحو ما هزم الله انجلترا وفرنسا وإسرائيل . إذ تجمعت فى كل منهما عوامل الحقد ، ونوازع الشر ، ثم بدد الله فى الحالتين شمل الجميع وفرق وحدتهم وفلّ جموعهم « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم . ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا » .

هذه ذكريات فى النصر ، والذى أريد الآن أن أسجله فى هذا المقام أننا لم نحصل على هذا النصر بكثرة العدد ولا بوفرة العتاد ، وإنما حصلنا عليه برعب قذفه الله فى قلوب أعدائنا كما قذفه بالأمس فى قلوب الأحزاب « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب، من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » . وهذا تحقيق لقوله صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالرعب » . والرعب ليس قوة إيجابية مادية ، وإنما هو أثر من روعة الإيمان واندفاعاته ، وأثر من قوة الاتحاد ، ومعانى الرجولة المجتمعة فى صدور المؤمنين من صبر وجلد . وسيظل هذا الإيمان يقذف الرعب فى قلوب الأعداء فلا تقوم لهم شوكة ، ولا تقوى لهم عدة .

الأدب والتاريخ
فى معرض النقد الحديث

للأستاذ عباس محمود العقاد

لا بد من حيلة ناجعة غير حيلة الرفض المطلق أو القبول المطلق أو الظن المتردد بين الطرفين ، كلما عرضت للناقد مشكلة من مشكلات الأخبار الأدبية أو التاريخية التى يختلط فيها الصدق بالكذب والخرافة بالواقع والحقيقة بالخيال ، ولا يخلو منها مرجع من مراجع التاريخ القديم أو من المراجع العصرية فى كثير من الأحيان .

فما هى هذه الحيلة الناجعة ؟ إن الظن فيها لا يغنى شيئا إلا إذا أخذناه مأخذ الظنون ولم نزعم له أنه يترقى إلى مرتبة القول الملزم أو الرأى المقبول .

ونعتقد أن النقد العلمى فى العصر الحديث وشيك أن يعتمد على وسيلة من أوثق الوسائل التى تستند إلى الحجة المقنعة ولا تكتفى بترجيحات الظن أو الذوق على ديدن النقاد قبل العصر الأخير ، ونود فى هذا المقال أن نجرب طريقة هذا النقد العلمى فى سيرة من أحوج السير إلى التمحيص ، وأكثرها قبولا لتطبيق هذه الطريقة على وجه واضح ...

واعلموا أن الفضل دائما فى القيادة التى يهيئها الله لهذه التجمعات الروحية القوية فى نفوس المؤمنين إذا قالوا . وإذا فعلوا

أيها المسلمون ، أيها العرب :

« قد جاءتكم آية من ربكم ، وآثارها قائمة ، ماثلة أمامكم ، كلما ذكرنا بور سعيد وكلما مر علينا اليوم الثالث والعشرون من ديسمبر . دلتنا هذه الآية على أنه لا نصر إلا بالإيمان بالله ، ولا إيمان إلا بحب الله ورسوله ، والعودة إلى فهم دينه والوقوف عنده ، والتمسك به والسير فى حدود ما شرع الله وبين ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وفقنا الله وأدام التوفيق لقادتنا ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

محمود شلتوت

وتلك هى سيرة « امرئ القيس » الذى أضل تاريخه الكثيرين قبل أن يلقبوه بالملك الضليل .

فمن اليسير عندنا أن نعرض أخباره على التفسير العلمى فنعلم منها يقينا ما ليس بالمختلق لاستحالة اختلاقه على مؤرخيه فى صدر الإسلام وبعد صدر الإسلام إلى الأزمنة المتأخرة ؛ لأن أولئك المؤرخين يجهلون التفسيرات العلمية التى يؤخذ من أخبارهم فيما يصححون روايته أو يتعمدون فيه التزيد والتلفيق .

وهذه أمثلة متفرقة من الأخبار التى تضم بعضها إلى بعض فيتم بها تفسير سيرة الشاعر على نحو لا يستطاع تلفيقه فى زمانه أو فى أزمنة مؤرخيه .

(١) يقول كتاب الشعر والشعراء : « كان امرؤ القيس جميلا وسيما ، ومع جماله وحسنه مفركا لا تريده النساء إذا جربنه ، وقال لامرأة تزوجها : ما يكره النساء منى ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر خفيف العجز ، سريع الإراقة ، وسأل أخرى فقالت : يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت براٸحة كلب ، فقال إنك صدقتنى وإن أهلى أرضعونى بلبن كلبة .

(٢) وروى غير مصدر من مصادر تاريخه « أنه تزوج امرأة من طيء فأبغضته من ليلتها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول له : يا خير الفتيان أصبحت ، فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو فتقول : أصبح ليل ! ... فلما أصبح قال لها : قد علمت ما صنعت الليلة فما الذى كرهت منى ؟ ولم يزل بها حتى قالت مثل ما تقدم .

٣ — وروى الميدانى أنه لما جاور فى طيء نزل به علقمة الفحل التميمى فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك ، فتحاكما إلى امرأته فقالت له : علقمة أشعر منك ، لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك وضربته بسوطك وأنه أدرك الصيد ثانيا من عنان فرسه . فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ، ولكنك هويته ، فطلقها فتزوجها علقمة وبهذا لقب علقمة الفحل .

٤ — وأجمع المؤرخون على أنه كان يلقب بذى القروح ، ولكنهم اختلفوا فى إصابته بالقروح فقال بعضهم : إنها مرض كالجدرى وقال آخرون إنها من حلة مسمومة خلعها عليه قيصر بعد سفره من القسطنطينية انتقاما منه ؛ لأن رجلا من بنى أسد كان على صلة بحاشية قيصر فسمع أن امرأ القيس يغازل بنت قيصر فوشى به وألقى إلى الملك أن امرأ القيس (غوى داعر) وسيفضح ابنته بشعره .

٥ — وغير هؤلاء الرواة يقولون : بل

كان قيصر راضياً عن الشاعر إلى ما بعد وفاته وأمر بإقامة تمثال له عند قبره شاهده الخليفة المأمون لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة .

* * *

هذه جملة أخبار متفرقة يؤخذ منها أن امرأ القيس كان مصابا بالتهاب جلدى يحدث من اجتذاب المواد الدهنية والسكرية لطائفة من الطفيليات ، ويفوح العرق فى هذه الحالة برائحة كرائحة الكلب ؛ لأن الكلب قليل المسام فى جلده ، فيشبه عرقه عرق جلد الإنسان المصاب .

ويضاف إلى ذلك أن العلاقة بين الأمراض الجلدية وأمراض الوظائف الجنسية معروفة ؛ ولهذه العلاقة يتخصص أطباء هذه الأمراض بعلاج الأمراض الجنسية كما هو معلوم .

فمن الواضح إذن أن أخبار الرواة عن الخلل الجنسى فى بنية امرئ القيس صحيحة لا يستطيع الرواة أن يلفقوها ويجمعوا بين دلالتها على هذه الصورة ، ومن الواضح كذلك أن تعليل رائحة العرق برضاع لبن الكلبة وهم باطل ؛ لأن هذا الرضاع لو حدث لم تحدث منه تلك الرائحة ، وتفهم من هذه القرائن بالبداهة أن قصة الحلة المسمومة وهم كهذا الوهم ؛ لأن القروح لابد أن تنشأ من ذلك المرض الجنسى بعد طول العهد بالإصابة ؛ ولأن الرجل الذى تبغضه زوجته لعيوبه الجنسية لا يبلغ من غوايته للمرأة أن يستهوى ابنة قيصر ، وأن يتعرض فى جريرة ذلك للوشاية والانتقام .

* * *

وننتقل من روايات زواجه ومرضه إلى روايات أخلاقه فنعلم من جملتها ما يفسر لنا سمعته وما اشتهر به من الإباحة وافتضاح السيرة فى أمور النساء .

(١) ظهر مذهب مزدك على عهد الملك الفارسى قباذ ، وهو مذهب يدعو إلى المشاركة فى الأموال والزوجات ، أراد الملك الفارسى أن ينشره بين العرب فأنكره المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وارتضاه الحارث بن عمرو ملك كنده .

(٢) وكان المهلهل الشاعر خال امرئ القيس ماجنا مشتهرا بمصاحبة النساء ولقب من أجل ذلك بالزير وهو الرجل الذى يكثر من مزاورة النساء .

(٣) وكان امرؤ القيس يبيح فى شعره ما لا يباح من التحدث بالفسوق والخيانة وغشيان الخدور ، فلا جرم يقال عنه أنه غوى داعر ويتردد وصفه بهذه الصفة على ألسنة رواته .

فهذه أخبار عدة تفسر لنا سمعة الشاعر

وتبين لنا البواعث النفسية التي تنبعث بها تلك الخليقة وتهيئ لها جوها الاجتماعي ولوازمها العاطفية (أولا) من خلائق القبيلة التي ولد فيها وسمحت لها أحوالها الاجتماعية بقبول مذهب مزدك ومطاوعة الملك الفارسي حيث خالفه ملك الحيرة .

ويأتي جو الأسرة بعد جـو القبيلة فلا يستغرب من امرئ القيس الناشئ أن يشبه خاله زير النساء من جانب الطبيعة ومن جانب الصناعة الفنية ، إذ كان خاله شاعرا يقول بفنه ما طبع عليه بوراثته ، وقد يزيد امرئ القيس تماديا في المجون والخلاعة أنه يدفع بهما شبهة النقص ويعوض بهما قولا ما ليس له في الحقيقة .

* * *

وعلى هذا النحو من المقابلة بين الروايات نعلم حدود الكذب أو حدود الوضع حتى عند ثبوت الوضع أو ثبوت التناقض بين الروايات في الخبر الواحد .

فإن كذب الوضاع ينتهي عند حدود الاستطاعة التي لا يقدرون على مجاوزتها ، فليس في مقدورهم أن يختلقوا العوارض الطبية التي تصلح دون غيرها لتفسير أخبارهم ونقائضهم واستخراج الحقائق الظاهرة أو المستترة بين طواياها .

وليس في مقدورهم أن يصنعوا بيئة القبيلة ولا بيئة الأسرة ولا بيئة الجو النفساني الذي نشأ فيه الشاعر وعاش فيه حتى اتفقت هذه البيئات جميعا على التمهيد لتكوين إنسان موجود ، ولا بد أن يكون موجودا إذا تلازمت مقدمات وجوده ونتائجها على وجه يمتنع فيه الكذب ؛ لأنه كذب لا يستطيعه من يأتي به ولو أراده وتحراه .

* * *

فالشخصية التاريخية الصادقة هي الشخصية التي تتوافق عناصرها ، وتتجمع ملامحها وتتلاقى أجزاؤها كما تتلاقى أجزاء الهيكل المتفرق بين حفائر الأرض ، فيركب كل منها في مكانه وتستوي الأعضاء من هنا وهناك كما تستوي في الكائن الطبيعي والصورة الحية .

وربما كان هذا الاستواء الذي لا حيلة فيه للرواة الكذبة ولا للرواة الأمناء أحق بالاعتماد عليه من ورود السيرة في كتب التاريخ من مصادر أخرى بعيدة من مصادرها العربية . فقد وردت سيرة امرئ القيس في كتب نونوز وكتب بروكوب من مؤرخي الروم ، وورودها هنالك دليل وثيق على شخصية تاريخية لم تنفرد بها المصادر العربية ، ولكن الصدق الذي تأتي به الأخبار على غير قصد من رواتها ووضاعها أصح في الدلالة من المكتوب المقصود الذي لا يستحيل عليه ظن التدبير ؟

عباس محمود العقاد

المجتمع الحديث

للأستاذ الدكتور محمد البهى

تمهيد :

المجتمع الحديث هو وليد النهضة الأوربية ، والثورات القومية لشعوب أوربا ، والتطور الصناعى فيها . والنهضة الأوربية كانت بدورها نتيجة لوضع الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى وسلطانها ، ليس على اتجاه التوجيه والمعرفة فى هذه الشعوب فحسب ، بل مع ذلك على سياستها الداخلية والخارجية ، وعلى السلم والحرب فى علاقاتها مع الشعوب الأخرى غير الأوربية . والحروب الصليبية - التى دامت قرابة ثلاثة قرون ، والتى قصدت الكنيسة فيها غزو الشرق الإسلامى والاستيلاء على بيت المقدس وتحريره من سلطان المسلمين - تمثل سلطان الكنيسة الكاثوليكية على توجيه الشعوب الأوربية فى ذلك الوقت .

حاولت أوربا بعد هذه الحروب الصليبية - بفضل الاتصال بالإسلام - أن تتخلص من نفوذ الكنيسة ، وتستقل على الأقل بالسلطة داخل شعوبها ، فكانت الثورات القومية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . كما حاولت أن تخفف من التزام توجيه الكنيسة فى المعرفة والبحث ، فكانت النهضة العلمية الأوربية . وهى نهضة تتميز بتركيز البحث فى الطبيعة ، والتخلى عن مجال الألوهية للمعرفة الدينية وحدها التى كانت من حق الكنيسة ورجالها ، ولم تزل حتى الآن .

وأفادت الشعوب الأوربية من هذه النهضة - أو بالأحرى من معارضتها لنفوذ الكنيسة - فى تحديد كيانها الداخلى ، وفى تقدمها فى الكشف عن الطبيعة وأسرارها . فكان من أثر تحديد كيانها الداخلى نمو القانون الوضعى ونمو ملكة التشريع عندها . وكان من أثر التقدم فى الكشف عن الطبيعة وأسرارها بدء قيام العلم الحديث ، وبدء تطور الصناعة ، وبدء استغلال الخامات والطاقات الكونية استغلالا منظما . وهنا جاء عصر « البخار » وحل فى توليد القوى المحركة محل الشراع فى البحر ، ومحل الخيل والإبل فى البر . ثم أعقبه عصر الكهرباء فى توليد هذه القوى ، حتى جاء عهدنا الحاضر وهو عهد الذرة . والذرة وإن لم يستخدمها الإنسان حتى الآن فى توليد قوى

الدفع فى نطاق واسع وبنفقات محتملة ، إلا أن استخدام الكهرباء بلغ الذروة فى يومنا هذا فى سعة النطاق ورخص التكلفة ، وأصبحت الكهرباء عاملا رئيسيا لا يستغنى عنه تدبير المنزل ، وإنتاج المصنع ، ولا تستغنى عنه حياة الإنسان فى صحته ومرضه ، وفى حله ورحيله .

ثم عند ما تقدم البحث فى الطبيعة وتعدد كشف الإنسان لأسرارها أو لقوانينها ، وتطورت الصناعة على أثر هذا التقدم ، وامتلك الإنسان الأوربى بهذه الصناعة ناصية الأمر فى تسخير قوى الكون - أخذ يعلن معارضته لقيم المعرفة الدينية التى استندت إليها الكنيسة فى بسط نفوذها على الشعوب الأوربية فى القرون الوسطى وبعدها بقليل . وبالتدريج شيئاً فشيئاً قام بنقد هذه القيم ومحاولة تقويضها . وكلما تطور « العلم » الحديث ، وكلما تطورت الصناعة فى شتى جوانبها ، وبالتالى كلما تمكن الإنسان الأوربى عن طريق العلم وطريق تطور الصناعة من الأرض التى يعيش فوقها ، ومن الفضاء الذى يظلله ، ومن البحر الذى يسير فيه ، كلما سعى إلى الحد من قيم التعاليم الدينية فى حياة الإنسان ، إن لم يسع إلى السخرية منها ومحاولة انتقاصها .

ظواهر المجتمع الحديث :

وهنا ظهرت فى المجتمع الأوربى عدة ظواهر تعتبر مقومات المجتمع الحديث :

١ - ظهر القانون الوضعى ، وبرزت معه ملكة الفقه والتشريع .

٢ - ظهر العلم الحديث ، وبرز معه نمو الصناعة وحضارة الآلة .

٣ - ظهرت معارضة القيم الدينية التى تتبناها الكنيسة ، وبرزت مع هذه المعارضة الرغبة فى انتقاص هذه القيم وفى محاولة إضعافها وإبعادها عن مجال الحياة الإنسانية .

والمجتمع الحديث إذن مجتمع انبثق من الصراع مع الكنيسة الكاثوليكية فى أوربا ، ويقوم على القانون الوضعى ، وعلى العلم الطبيعى ، وعلى إبعاد الدين عن مجال توجيه الإنسان .

وإذا قيل : الدين هنا ، فهو المسيحية بفهم الكنيسة الكاثوليكية . والكنيسة الكاثوليكية تحاول أن تستنطق رسالة المسيح عليه السلام بمبدأ التثليث ، ومبدأ الغفران والوساطة ، ومبدأ عصمة البابا فى قوله وفعله ، ومبدأ إنابته عن الله فى الأرض ومباشرته أمر الحكومة الإلهية عليها . والحكومة الإلهية حكومة لا تقبل النقد من البشر ؛ إذ هى منزهة عن الخطأ ،

وعلى جميع رعاياها طاعتها وتقديسها . والتاريخ البشرى لا يعرف حكومة استمدت تعاليمها من رسالة دينية على هذا النحو ، إلا حكومة « البابا » أو حكومة الكنيسة الكاثوليكية ، تلك الحكومة التى كانت النهضة الأوربية - كما أشرنا - مظهراً لمعارضة شعوب أوربا لنفوذها وسلطانها .

ويضل كثير من الكاتبين إذا ما حاول أن يقيس حكم الخلفاء المسلمين على الحكم البابوى . فالخلفاء لم يدعوا لأنفسهم ولحكومتهم العصمة لخطة ما ، ولم يدعوا إنابتهم عن الله فى الأرض حتى يكون لقولهم من القداسة ما لكتاب الله ووحيه . رسول الله كان بشرا ، وظل بشرا ، ومات بشرا ؛ « قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » .

« قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا » . وخلفاؤه من بعده أدخل فى البشرية منه . وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى - وهم الخلفاء الراشدون - لم يسلم واحد منهم من النقد ، ولم تسلم حكوماتهم من المعارضة ولم يدع أحد منهم العصمة لنفسه . فأبو بكر يخطب فى الناس عقب بيعته ويقول : « أيها الناس ، فإنى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » . ولما كانت الردة رأى أبو بكر قتال المرتدين وعارضه كثير من الصحابة - أول الأمر - وفيهم عمر حتى شرح الله صدورهم لما رآه أبو بكر . وقد وقف عمر ابن الخطاب - فى خلافته - على المنبر ينهى الناس عن المغالاة فى المهور فقامت امرأة وقالت كيف تنهى عن ذلك وقد قال الله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ، فقال رضى الله عنه أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ومعارضة كثير من المسلمين لعثمان ولعلى أيام خلافتهما معروفة مشهورة . وما قامت جماعة الخوارج ، وما قامت الشيعة ، وتألفت السنة ، إلا لنصرة رأى فى الحكم ومعارضة رأى فيه .

العلمانية : خداع فى المجتمع الحديث :

المجتمع الحديث إذن مجتمع يتميز بـ « العلمانية » فى التوجيه . والعلمانية فى التوجيه شعار يقصد منه أن الدولة العلمانية تبعد فى سياستها الداخلية والخارجية ، وفى توجيهها للناشئة - عن طريق المدرسة والجامعة ، وللرأى العام عن طريق الصحافة والإذاعة والنشر - تبعد الدين كما تبعد رجاله عن أن تكون لهم حظوة عند الشعب أو نفوذ عليه .

والمجتمع العلمانى أو الدولة العلمانية ، هو المجتمع أو الدولة التى تدخل فى اعتبارها من أول الأمر تتبع الاتجاهات الدينية وتنحيتها

عن مجال التوجيه ، أو على الأقل تجاهـل هذه الاتجاهات وتناسيها .

المجتمع الحديث فى أوربا مجتمع مسيحى :

وكان من المنتظر ـ والمجتمع الحديث وليد الصراع فى البيئة الأوربيـة ـ أن تكون المجتمعات والدول الأوربية مجتمعات ودولا « علمانية » . ولكن أوربا الحديثة وأوربا المعاصرة ، مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية ، هى مجتمعات ودول أخذت فى الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية . فانجلترا حامية البروتستنتينية ، وفرنسا حامية الكثلكة بل راعية التبشير بها خارج أوربا كلها ، فى آسيا وإفريقيا ، وعلى الأخص فى المستعمرات والشعوب الخاضعة لنفوذ هاتين الدولتين .

وليست حماية هاتين الدولتين المسيحية على هـذا النحو فحسب . وإنما حمايتهما للمسيحية كما يتمثل فى صون العقيدة الكاثوليكية والبروتستنتينية فى انجلترا وفرنسا ، وفى التبشير بها فى آسيا وإفريقيا ـ يتمثل أيضا فى مطاردة القوى الروحية التى تقف فى طريق التبشير بها فى آسيا وإفريقيا . يتمثل على وجه أخص فى مطاردة الإسلام فى هاتين القارتين ، بعدما قامت محاكم التفتيش فى إبعاده عن أسبانيا ، وامبراطورية النمسا فى دفعه عن حدود فينا إلى بلاد البلقان ، وروسيا القيصرية فى دفعه عن القرم ، ثم السياسة الأوربية الشرقية والغربية على السواء فى دفعه بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية من بلاد البلقان ومن بلاد القوقاز إلى الحدود المتاخمة جنوبا للبلقان والقوقاز .

مطاردة المجتمع الأوربى الحديث للإسلام

ومطاردة حماة المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتينية فى أوربا ، من الانجليز والفرنسيين للإسلام فى آسيا وإفريقيا لا تتجلى فى سياسة « الانفصالية » فى التعليم بين تعليم مـدنى وتعليم آخـر دينى التى رسمها ونفذها المستشارون الأجانب للتعليم فى البلاد الآسيوية والإفريقية ، التى خضعت للنفوذ الانجليزى أو الفرنسى ، من أمثال « المستر » دانلوب فى مصر ، وإنما تتجلى هذه المطاردة فى قوة وفى وضوح فيما كتبه المستشرقون ضد الإسلام مما سموه بحوثا ومعرفة ادعوا أنها أقيمت على منهج علمى ، ثم صدروه مرة إلى الشرق الإسلامى فى صورة كتب وفى صورة علماء وأساتذة ، أو لقنوه فى جامعاتهم مرة أخرى لمبعوثين من هـذا الشرق الإسلامى أرسلوا بهم إلى هناك ليقفوا على الدراسات الإسلامية ويتعلموا التاريخ والفلسفة الإسلامية . وهم لا يتعلمون إلا من قساوسة امتلأت صدورهم بالحقد الصليبى

على الإسلام ، وملئت عقولهم بالترويج للاستعمار فى بلاد المسلمين .

ورأوا أن إضعاف الإسلام بهذا الطريق أو بذاك لا يفسح الطريق فحسب ، لانتشار المسيحية فى القارتين الآسيوية والإفريقية ، وإنما سيمكن للنفوذ الأوربى السياسى ، كما سيمكن للاقتصاد الغربى من الاحتفاظ بمستواه أو بمستوى أرفع ، بفضل وفرة الخامات الأولية واليد العاملة فى أراضى هاتين القارتين ووفرة الخدمات البشرية ورخصها فى بلادهما .

وعنى حماة المسيحية فى أوربا بمطاردة الإسلام على وجه أخص فى أراضيه وبلاده فى آسيا وإفريقيا ، لأنهم وجدوه وحده بين أديان هاتين القارتين قوة إيجابية فى الحياة لا يدعو إلى الهرب منها واعتزالها ، وإنما يدعو إلى السيادة فيها ، يدعو المسلم إلى أن يسود على نفسه ليكون قوة فى الأزمة والرخاء على السواء ، ويدعو المجتمع الإسلامى إلى أن يحتفظ بسيادته فلا يماع فى مجتمع آخر سواه ، ويدعو المسلمين إلى أن يحتفظوا باستقلالهم وبكيانهم ، ويدعوهم إلى أن يكون ولاؤهم لبعضهم دون دخيل عليهم « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . يحرم عليهم أن ينقلوا ولاءهم لأجنبى عنهم ، دون إخوانهم الآخرين « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » . يدعوهم إلى استئصال بذور الفتنة فى الداخل ، كما يدعوهم إلى الذود عن استقلال مجتمعهم فى مواجهة اعتداء الغير عليهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . طلب إليهم إعداد القوة المادية لصون هذا الاستقلال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وطلب إليهم أن يكونوا باستمرار فى تعبئة روحية ففرض الجهاد عليهم بالإيمان والقلم والعلم ، والدعوة إلى الخير « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله » ، « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

لم يكن المجتمع الحديث فى أوربا — وقد خرج من المعارضة للكنيسة وتعاليمها — إذن مجتمعا علمانيا ، بل كان مجتمعا حريصا على الدين ومعنيا به ، إن لم يكن فى اتباع تعاليمه فعلى الأقل فى الارتباط به وفى التكتل

فى مقاومة الإسلام، وبسط نفوذ الاستعمار.

والمجتمع الأوربى فى وقتنا المعاصر الذى عادى المسيحية كدين وبقية الأديان الأخرى ولكن فى الوقت نفسه استعاض عنها بدين آخر جديد من صنع الأرض والإنسان ولم يكن من وحى السماء - هو المجتمع الشيوعى وبالرغم من ذلك فلا يجوز أن نسميه مجتمعا علمانيا ؛ لأنه مجتمع إيمان بدين وكفر بدين آخر . والمجتمع العلمانى فى تحديد مدلوله — من منطقه ، لا من واقع المجتمعات الإنسانية — هو الذى لا يقوم على دين ولا يدعو إلى دين . ينفر من العقيدة ، ويفتش عن التعليل .

المجتمع الحديث لم يبعد فى تشريعاته عن عرف الماضى وتقاليده :

وإذا كان المجتمع الأوربى الحديث ليس مجتمعا علمانيا فهو كذلك فى قانونه وتشريعاته لم يبعد عن العرف والتقاليد التى لماضى مجتمعاته السابقة . إذ لم يزل رجال القضاء فى انجلترا وفرنسا حتى الآن يحافظون — وهم فوق منصة الحكم — على التزى بزى أسلافهم فى القرون الوسطى ، وقد كان زى رجال الكنيسة فى ذلك الوقت ؛ لأن الكنيسة ، كما أسلفنا ، كانت صاحبة النفوذ والكلمة الأولى فى التوجيه فى تلك العصور.

حافظ المجتمع الأوربى الحديث إذن على الإبقاء على المسيحية والوقوف بجانبها ، رغم ما روجه المفكرون الأوربيون واليهود - من بينهم على وجه أخص - من اتجاه « العلمانية » فى هذا المجتمع . ومفكرو اليهود كان لهم دور كبير فى ترويج هذه « العلمانية » فى توجيه المجتمع الأوروبى ؛ تحقيقا لغاية يهدفون إليها . وهى إضعاف المقومات التى من شأنها أن تبلور المجتمعات الإنسانية من جانب ، والتنفيس عن عدائهم التقليدى للمسيح ورسالته وحوارييه من جانب آخر . فكل حركة ترمى إلى زعزعة الشعوب وإبعادها عن الارتباط بمقوماتها الضرورية نجد وراءها بعض المفكرين اليهود . والحركات التى ترمى إلى رفع الوطنية والقومية من أهداف الشعوب وإحلال « العالمية » أو « الدولية » مكانها تكاد تكون من صنع مفكرى اليهود وحدهم. فالحكومة « العالمية » واللغة « العالمية » وهى لغة الاسبرانتو ، والشيوعية الدولية تكاد تكون جميعها من وحى مفكرى اليهود وحدهم.

والمجتمع الأوربى الحديث إذا أعلنت فيه بعض المجتمعات الأخذ بتوجيه «العلمانية» وبفكرة « التطور » فى التشريع والقانون - فإن ذلك لا يعدو أن يكون أمراً نظرياً يعلو سطح الحياة الفكرية فى هذه المجتمعات دون أن يمس صميمها وجوهرها . ومن

يصدق إذن أن المجتمع الأوربي الحديث قد « تطور » بمعنى أنه تخلص من ماضي المجتمعات السابقة من عرف وتقاليد وابتعد عن المسيحية في توجيهه السياسي والثقافي والفكري - فإنه لم يصل بعد في دراسته لهذه المجتمعات إلى ما يجرى فيها من حقائق وما لها من واقع .

نعم هذه المجتمعات انفصلت عن سلطان الكنيسة إلى حد ما . وكما ذكرنا قد كان للكنيسة سلطان ونفوذ حكومي وتنفيذي . ولكنها لم تنفصل لحظة ما عن القيم المسيحية ولا عن التقاليد والعرف وغير ذلك مما كان للمجتمعات السابقة . وفرق بين الابتعاد عن الدين والانفصال عن سلطان الكنيسة . إذ الابتعاد عن الدين معناه إلغاء اعتباره ، بينما الانفصال عن سلطان الكنيسة معناه عدم الخضوع لرجال الكنيسة في سياسة الدولة وفي محيطها الداخلي وفي علاقاتها بالدول والشعوب الأخرى .

وحتى الانفصال عن سلطان الكنيسة لم يكن تاما ولا نهائيا من جانب المجتمع الأوربي الحديث . إذ لم يزل للكنيسة سلطان ولم يزل لها نفوذ في توجيه السياسة الداخلية للمجتمعات الأوربية الحديثة ، ولم يزل لرجال الدين رأى فيما يجرى داخل هذه الدول وفي علاقاتها بغيرها من الشعوب .

والأحزاب السياسية التي نشأت وتنشأ في هذه المجتمعات الأوربية الحديثة باسم الأحزاب الديموقراطية المسيحية ، على نحو ما هو موجود في بلجيكا وفي فرنسا ، وفي إيطاليا وفي ألمانيا - هي أحزاب تنتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية وتتلقى التوجيه منها ، كما تتلقى الأحزاب الشيوعية في المجتمعات الشرقية والغربية توجيهها من عاصمة الشيوعية وهي موسكو .

وما حصل من اتفاق الكنيسة الكاثوليكية في روما والسلطات المدنية في المجتمعات الأوربية على أن تستقل الحكومات الأوربية بالشئون المدنية بينما تختص الكنيسة بالشئون الروحية - لا يخلخل من نفوذ الكنيسة في الجانب المدني والسياسي إلا بمقدار يسير . وفي واقع الأمر تجرى الحياة الروحية والمدنية على السواء في كثير من الأحايين تحت تأثير السلطة البابوية في روما وطبقا لتوجيهاتها وبدافع الحرص على إرضاء تلك السلطة وعدم إزعاجها .

والمجتمعات الأوربية الأخرى ذات الحزب الواحد - كالمجتمع الأسباني الحديث - تسير فيه السلطة المدنية بمشاركة الكنيسة الكاثوليكية هناك في الرأى والتوجيه . وما نقرؤه أحيانا عن زيارة بعض رجال السياسة في أمريكا أو في أوربا للفاتيكان له في واقع الأمر صلة

وثيقة بمجريات الأحداث السياسية فى مجتمعات هؤلاء الرجال ، فزيارة ستيفنسون المرشح الديموقراطى السابق للرياسة فى الولايات المتحدة لها صلة وثيقة بموقف الكنيسة الكاثوليكية هناك من الانتخابات القادمة سنة ١٩٦٠ . ومحاولة بيرون ، دكتاتور الأرجنتين السابق - زيارته للفاتيكان فى هذه الآونة ، يقصد منها التكفير عن ماضيه السياسى الذى كان سببا فى لعنه وإخراجه من الكنيسة ؛ كى يستعيد نفوذه السياسى من جديد فى بلاده ، وما يرى الآن من اتصال رئيس الحزب الديموقراطى المسيحى فى ألمانيا ، أديناور ، ورئيس الجمهورية الفرنسية ديجول ، ثم زيارة كل منهما لرئيس وزراء إيطاليا ، لا يقصد منه إلا توثيق الروابط بين هذه البلاد الثلاثة ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، على أساس من إشراف الكنيسة فى الفاتيكان وبوحى منها . رغم أن العداوة التقليديه بين ألمانيا وفرنسا لم يكن من السهل التغاضى عنها فى وقت يسير .

والفاتيكان ليس دولة دينية بمعنى الانعزال عن الحياة السياسية وإنما لها نشاط سياسى توجيهى يقوم على تنفيذه النظام الكنسى فى المجتمعات العديدة ، وتنشره الإذاعة الخاصة به ، كما تنشره الصحيفة الرسمية له . ولدى الفاتيكان تمثيل سياسى لمعظم دول العالم ويعيش فى المحيط السياسى فى الفاتيكان مندوبون يراسلون جميع الصحف العالمية الكبرى ، ومحطة إذاعة الفاتيكان تخصص يوما من أيام الأسبوع لإفريقيا بالخصوص وهو يوم الثلاثاء ، ترسم فيه خطة التبشير كما توضح العقبات القائمة فى طريقه وتضع الوسائل الكفيلة بتذليلها . وبجانب رسم خطة التبشير تعلن تعليقاتها السياسية على الأحداث الدولية .

« البقية فى الجزء القادم »

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

من الشعر الموجه

والأمانى شر ما تمنى به همة المرء إذا المرء اعتزم

الكرامة والعزة فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدنى

١ - الكرامة

١ - القرآن الكريم يقرر مبدأ « الكرامة الإنسانية » ويجعلها حقا من حقوق بنى آدم التى فاض بها الجود الإلهى عليهم ، كما فاض بتقويمهم فى الخلق وتمييزهم بالعقل ، وتسخير كل شىء فى السموات والأرض لهم .

يقول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (٧٠ - الإسراء)

وهذه الآية مؤلفة من أربع جمل :

الجملة الأولى : قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » ونستطيع أن نستخلص منها الحقائق الآتية : -

١ - لبنى آدم كرامة ، وهذه الكرامة صادرة من الله تعالى ، فهى حق لهم وَهَبه الخالق ، فليس لمخلوق أن ينكره أو يهدره .

٢ - وهذا الحق مؤكد لا ريب فيه ، حرص القرآن على أن يقرره بعبارة قوية مشتملة على توكيدات ثلاثة هى « اللام » و « قد » والصيغة التى جاء عليها الفعل مؤذنة بتضعيف المعنى وتكثيره .

٣ - ثم هو تكريم شامل مستغرق لجميع أفراد هذا النوع من الخلق ، ولذلك اتخذ لهم فيه أعم عنوان ، وهو كونهم « بنى آدم » فلا تمييز فيه بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين آرى وسامى ، ولا بين شرقى وغربى ، ولا بين ذكر وأنثى ، ولا بين قوى وضعيف ، ولا بين غنى وفقير .

هذا هو مبدأ « الكرامة الإنسانية » تقرره هذه الجملة واضحا حاسما ، أما الجمل الثلاث بعدها فهى تذكر المظاهر الرئيسية لهذا التكريم الإلهى :

فقوله تعالى « وحملناهم فى البر والبحر » فيه تصوير لمظهر العلو ، وأن الإنسان مخدوم محمول حيثما حل ، سخر الله له فى البر ما يحمله ، وسخر له فى البحر ما يحمله .

وقد كانوا قديما يفهمون هذا « الحمل » بمعناه الضيق الذى لم يكن معروفا سواه يومئذ ، وهو الحمل على الحيوانات التى

تركب من الخيل والبغال والحمير والجمال وعلى السفن التى تجرى فى البحر بالشراع والهواء ، أما الآن فإننا نفهم هذا الحمل على المعنى الواسع الذى صارت إليه حياتنا ، وهدانا الله إليه بالعلم ، وهو يشمل الآلات المحركة من قطارات وسيارات وطائرات وسابحات فوق الماء وتحت الماء وغير ذلك مما يشير إليه قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » .

أما قوله تعالى « ورزقناهم من الطيبات » فهو تصوير للمستوى الرفيع الذى عليه الإنسان فى مطعمه ومشربه ومسكنه وملبسه وهو ما يمتاز به على ما سواه من الأجناس الحية .

وقوله تعالى : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » فيه إجمال للمزايا الإنسانية ، والمواهب التى فطر الله عليها هذا النوع ، مواهب العقل والقدرة على متابعة التفكير ، وإدراك الروابط الحسية والمعنوية ، والاستعداد للانتفاع بما فى هذا الكون ، وغير ذلك من ملكات انفرد بها ، أو امتاز فيها . فكان من أجل هذا مفضلا على غيره من أصناف المخلوقات الحية .

* * *

٢ — وإذا انتقلنا من هذه الآية إلى آيات أخرى ، فإننا نجد القرآن الكريم يقرر فى كثير من مواضعه أن الله جل جلاله قد خلق هذا الكون للإنسان وسخر له ما فيه من قوى . ومكن له فيه ، ويقرر فى بعض المواضع أنه جعله خليفة فى الأرض ، وأنه آثره بهذه الخلافة حتى على الملأ الأعلى من خلقه ، وأمرهم جميعا بأن يعترفوا بهذا الوضع ويخضعوا له .

(ا) فمما جاء فى الأمر الأول قوله تعالى فى سورة النحل :

« والأنعام خلقها . لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (٥ - ١٦)

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

(٦٦ — ٦٩)

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفسدة ورزقكم من الطيبات . (٧٢)

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

(٧٨ — ٨١)

وفى سورة الفرقان :

« وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيراً » .

(٤٧ — ٤٨)

« وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » .

(٥٣ — ٥٤)

ففى هذه الآيات وأمثالها تتجلى عناية القرآن بتعداد مظاهر التكريم الإلهى للإنسان فى جانب تسخير ما خلق من الأشياء والحيوان له ، ونراه حريصا على ترديد أسلوب الخطاب للناس حيث يقول « لكم » و « تحمل أثقالكم » و « سخر لكم » و « جعل لكم » إلى غير ذلك من التعبيرات المؤذنة بالتخويل

والتمليك للخاطبين وما كان ذلك إلا لكرامة هذا النوع على الله .

إنى لأقف كثيرا موقف التأمل من هذه الآيات ، وأمثالها فى كتاب الله الكريم فأحس بكرامتى كإنسان ، وأشعر فى أعماق نفسى بهذا الفضل الإلهى العظيم . حيث يعتد الله جل شأنه بهذا النوع الذى أنا واحد منه فيخاطبه ويستجلب عاطفته ويذكره ويناشد عقله ويفتح له آفاق النظر والتدبر ، ويعده بأسباب الاقتناع والتقبل ، تارة فى رحمة واستعطاف ، وتارة فيما يشبه العتاب الهادئ اللطيف ، وتارة فى صورة من التأنيب والحساب العنيف ، وهو فى كل حال لا يؤنسه ولا يقنطه بل يناديه بأنه التواب الرحيم ، « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويصف الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا الخلق الإلهى ، أو هذه الرحمة العظمى فيقول : « والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يفقد ضالته ثم لا يزال يطلبها حتى يجدها فيفرح بها فيقول من شدة فرحته اللهم أنت عبدى وأنا ربك » ـ أخطأ من شدة الفرح ـ هذا الوصف العاطفى الجميل ، الذى يدركه من وقف مثل هذا الموقف ، لو كان يوصف به إنسان لكان صورة من صور التلهف والرغبة الشديدة ، ولكنه فى جانب الله ، ولله المثل الأعلى ، يعطينا فكرة سامية عن مدى رحمة الله ، وعن مدى عناية الله بالإنسان ، وعن مدى اعتداده بهذا المخلوق ، وتكريمه لهذا المخلوق !

* * *

(ب) وفى معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض يقول عز وجل فى سورة البقرة :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون » (٣٠) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣٤ ـ ٣٩) .

وفى هذه الآيات بيان لشأن الإنسان من حيث قيمته ووزنه ومركزه فى هذا الكوكب وأن له رجحانا وأفضلية وصفات تجعله أولى من غيره بالخلافة فيه ، وأنه وضع فى مركز المسيطر الذى يجب أن يخضع له ما سواه ، وأنه حتى فى حالة خطئه مكرم بأنه حين يعتذر عنه ويندم عليه ، يقبل عذره ، وتطهره ندامته ويعود له وداد خالقه وإرشاده وهداه .

أليس هذا كله من مظاهر التكريم الإلهى للإنسان ؟ .

* * *

٣ - فإذا نظرنا إلى ما كرم الله به الإنسان فى جانب الاعتداد بعقله ، والسمو بمستواه الفكرى ، وجدنا آيات كثيرة فى الكتاب الكريم ترفع من شأن العقل ، وتحث على النظر والتدبر والتفكير ثقة بأن هذا العقل جوهرة صافية من شأنها أن تدرك الواقع ، وتستشف المجهول من المعلوم ، وتعتبر وتقيس وتستنبط ، وتخترع ، وتجدد ، وعلى الجملة ينظر القرآن إلى العقل على أنه هاد يهدى إلى الخير ، ويحذر من الشر ويدفع إلى الأمام ، ويضىء السبيل لصاحبه إذا استضاء بنوره .

(ا) فمن هذا أن القرآن كثيراً ما يناشد العقول بمثل قوله : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، « إنما يتذكر أولو الألباب » ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » « أفلا يعقلون » ، « أفلم تكونوا تعقلون » « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هدى الله ؛ وأولئك هم أولو الألباب » .

(ب) ومن هذا أن القرآن الكريم ينعى على الآخذين بالظنون والأوهام فيقول فيهم « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

ونراه يبين أن الله تعالى سائل كل ذى عقل وعلم عن اعتقاده الناشىء عن غير علم وعقل ، إذ يقول « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

فالسمع والبصر والفؤاد هى وسائل العلم ومنافذ العقل ، والقرآن يكرمها ويضعها فى موضع الاعتبار والمسئولية ، ولا شك أن المسئولية كرامة وتقدير .

(ج) ومن هذا أن القرآن يعظم شأن الحجة والبرهان ، ويطالب الناس بأن ينزلوا على حكم الدليل والنظر السليم ، وألا يقلدوا غيرهم « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

« البقية على صفحة ٨٠٦ »

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

من شئون الله فى خلقه أنه يرفع أقواما ويخفض آخرين

(ا) وهو الذى جعلكم خلائف الأرض .
(ب) ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم .
(جـ) إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم .

مقامات ثلاثة:
- الأول : مقام استخلاف الله لعباده فى أرضه .
- الثانى : مقام التفاوت فى درجات العطاء لابتلاء الناس .
- الثالث : مقام الجزاء على ما كان من صنيعهم .

(ا) استخلف الله عباده فى أرضه ليعمرها بهم ، ويعمروها بجهودهم ، وقد هيأ لهم أسباب العمل ، بما أوجد فيها من وسائل ، وأودع فيها وفى الكون كله من مؤهلات ، وجعل كل ما تحمله الأرض ، أو يجول فى الفضاء ، أو يبدو فى السماء مسخرا لمنفعة الإنسان ، وتوفير متاعه فى دنياه ـ سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ـ خلق لكم ما فى الأرض جميعا .

ثم طلب من عباده أن يعملوا ، بصيغة الإطلاق فى العمل ، دون أن يقصرهم على عمل خاص بالدين ، أو بالدنيا ، بل هو عمل إيجابى يشهد لهم به الله ، ورسوله ، والمؤمنون منهم ، ويقدره الله لهم فى حسابه ، ويقدره الرسول فى شهادته ، ويقدره المؤمنون فى الاعتراف به وإعطاء العاملين حظهم من الإجلال والثناء ، فيكون لهم من السؤدد ما ليس لذوى البطالة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ، ورسوله والمؤمنون » .

وتلك قضية مفروغ منها . . وإنما نذكرها لأنها فى مطلع الآية التى معنا ، ولتذكير القراء بأن الإسلام ينظر إلى الناس على أنهم سواسية كأسنان المشط ، وأنه يعتبرهم جميعا أمة دعوة إلى الأخذ به ، والإيمان بالله ، وبكل ما جاء على لسان رسوله الخاتم .

ولهذا الاعتبار يخاطبهم كثيرا بنداء

سواء - يأيها الناس . . يا بنى آدم . . يا عبادى - وبمثل هذه الدعوات يلقنهم مبدأ المساواة ، ويوقظ وعيهم إلى أنهم من أصل واحد وأن بينهم من وشائج القربى والنسب ما يكبح الأنانية أن تستبد ببعضهم على بعض ، ويذودهم عن التأثر بالعصبيات القبلية ، وعن المنازعات الإقليمية ، أو الطائفية .

وقد بادر الإسلام فأنكر على أهله ما كان فى العرب من شموخ بالأنساب ، ومن التراشق بالأهاجى والتنابذ بالألقاب .

لما فى هذا كله من تشاغل باللغو ، وتعرض للتقاطع وقعود عن العمل والتجديد فى الحياة ، وتلك رسالتهم فى دنياهم .

وأبدلهم الإسلام من ذلك الماضى المضطرب توجيها إلى المؤاخاة ، وغرس فى أذهانهم أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، وأنه لا فضل لعربى على غيره إلا بالتقوى والعمل ، ففى هذين سلم المجد لمن شاء الظفر بالمجد الصحيح .

وبهذه التوجيهات أدرك الفاقهون من الناس قديما أن التطاول مذموم ، وأن السيادة بين متبوع وتابع لم تعد مستساغة فى الحياة الإسلامية المشرقة بالتعاليم .

بل أصبحت بينهم مساواة رسمها الدين ، وكفلتها عدالته ، وهى تتمثل فى قضائه ، وفى سلطان حكامه ، وسياسة ولاته الحارسين لحدود الله ، ولحقوق الناس أن يعبث بها عابث .

وهذه أصول بجملة : تراها مبثوثة فى إطار واسع للنهج الصحيح الذى قامت عليه حياة مثالية سعدت بها الجماعة الإسلامية حينا من الزمن وكانت تسعد بها الدنيا جميعا لو قدر للناس ألا يحيدوا ، وأن يستجيبوا لأمر ربهم ، ويجنحوا إلى الإخاء والتراحم لا إلى المغالبة والتنازع .

(ب) ومع هذه المساواة التى يشيد بها الدين ويوصينا أن نتخذها طابعا لحياتنا لم يغفل القرآن جانبا آخر قد يتعارض مع هذا بتأثير النوازع المتباينة ، وما ينساق الناس إليه من مفاخرة يغريهم بها غرور ، ومن تعلق بحب الأرجحية ، ولو بسبب باطل أو تافه .

ذلك : هو جانب الاعتزاز بحظ فى المال أو كثرة العشيرة وقوتها أو بنصيب فى الجاه والسلطان ، أو بموهبة كريمة تتعلق بها الرغبات : كالعلم ، والذكاء ، والجمال ، وسوى هذا مما تتفاوت فيه الحظوظ المقسومة .

فقد يفطن الناس بأفهامهم إلى ما بينهم من مساواة فى الأوضاع والحقوق التى كفلها التشريع الإسلامى كالحرية والتعامل وبساط العدالة الاجتماعية ... ولكنهم ينحرفون عن هذه المساواة حينما يزهيهم الحظ الموفور

فى شىء من أعراض الدنيا ، أو فى موهبة شخصيـة .

وقديما كان فى الناس من فتنه حظه فى المال - مثلا - حتى نسى أن لله فضلا عليه ، وقرر أنه جـدير بهذا وفاخر وقال « إنما أوتيته على علم عندى » .

وكان فيهم من « دخل جنته وهو ظالم لنفسه فقال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ... ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا » .

فهذا لم يقف به غروره عند حدود دنياه بل زعم نفسه حريا بخير من ذلك إذا صح أنه سيموت ويرجع إلى ربه .

ولم تزل هـــذه النزعة الجامحة موروثة فى المجموع الإنسانى، ولم تزل بحاجـة إلى علاج وكان علاجها فى آيات : منها آية الموضوع ، « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » فالتعرض لرفع بعض الدرجات على بعض ، يقصد منه « والله الأعلم » أولا : التنويه على أن الله هو الذى أعطى ، وفاضل فى العطاء ، وبذلك ينتزع من الأنفس غرورها بأن لهـا فضلا خاصا عند الله يميزها عن سواها ، إذ الأنفس كلها متساوية فى الإنسانية وفى العلائق الاجتماعية ، وفى اعتبارهم عند الله عبادا ، وإخوة ، لا يرجح بعضهم على بعض إلا من ناحيـة عمله ، وكسبه للخير ، ونفعه للمجتمع : لا من ناحيـــة حظه فى المـال أو نحوه .

ويقصد ثانيا : من ذكر التفاضل فى الدرجات ، كما صرحت الآية - أن العطاء والتفاوت فيه ، بتمكين الناس أن يعملوا ، واختبـارهم فى نظرتهم إلى النعمـة التى أتيحت لهم :

هل هى فى اعتبارهم حق مفروض لهم على الله كما زعم أولئك المستكبرون قديما ؟ أوهى فضل يقتضيهم الشكر ، وأن يقدروا النعمة قدرها فيحسنوا التصرف فيها ، والانتفاع والنفع بها لأنفسهم ولغيرهم ؟؟.

تقصد الآية - والله الأعلم - هذين الغرضين وفى إدراك مقصدها كف للأنفس عن الفتنة بالنعمة ، وعن تجاهل الحكمة الصحيحة فى تفاوت الحظوظ الدنيوية ، بين الأفراد أو الجماعات ، فهى فوارق تتناسق بها الحياة بين البشر جميعا ، لتكون ميدانا للتسابق فى العمل بقـدر ما تهيأ لكل منا ، من تلك النعم التى هى وسائل العمل .

وليكون التفاضل نفسه جامعا بين الصفوف لا مفرقا بين الأنفس ، وباعثا على الشموخ إذ التفاضل هو الذى يجعل الحوائج متبادلة والجهود متكافلة ، والآمال متعاونة .

فالقوى بماله يحتاج إلى القوى بعضلـه ، والموهوب فى ذكائه أو علمه بحاجـة إلى من

يؤازره فى إبراز مواهبه . ومن هذا التفاوت فى الحظوظ ، وفى الجهود ، والإنتاج يكون الحظ من ثواب الله أو عقابه

فذلك هو التفاوت فى أدوات السعى فى الحياة ، ويقابله تناقص الحظ عند المحرومين وكلاهما مقدمة الحكم على ما صنع الناس من عمل يرضاه الله ويشكره ، أو يسخطه ويعاقب عليه ؟ . والله يقول فى الحض على الإمعان فى حكمته : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » .

وهناك آية تعزز هذه فى ذكر الحظوظ وحكمة التفاضل فيها ... غير أن الحكمة هنا هى ابتلاء الناس والحكمة فى تلك الآية هى حاجة الناس إلى التعاون .

وهى قوله تعالى ـ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ـ يعنى ليستخدم كل امرئ غيره بحكم تنوع المهن ، وتباين الأوضاع ، وتكافل الخلق فيما تكمل به حياتهم ، فكل يد بحاجة إلى تبادل النفع مع الأخرى ، ومهما يكن لإنسان من مال أو جاه فهو بحاجة قصوى إلى غيره فى عمله ، وإن يكن من أهون الطبقات .

وما يمكن عقلا أن يستقيم الأمر وتستقر أوضاع الحياة لو فرضنا الناس جميعاً فى ميزان متساو من كل ناحية ، والتساوى غير معقول فى ذاته ، فإنه لا يتضح ، ولا يتضح التفاوت إلا بالقياس بين الأشياء .

فما ينبغى إزاء وضوح الحكمة فى تفاوت الحظوظ أن يتعاظم إنسان على إنسان ، وأن يتخذ من فضل الله عليه وسيلة إلى إغفال ما فرض الله عليه .

وقد وضح كثيراً أن لكل إنسان حقا على غيره فيما وهبه الله ، وفى حدود مرسومة فكاتم العلم ملعون عند الله ، وإن العلم هبة تضىء للناس مسالك الحياة ، فعلى ذى العلم أن يبذله لينتفع به الناس فى ناحيته الخاصة به ، وليس له أن يؤذى بعلمه فإن الإيذاء به شر من كتمانه .

وعلى القوى ببدنه أن يعمل وأن يجعل لهذه النعمة أثرا إيجابيا فى دفع المعتدى على وطنه ، أو الباغى على ضعيف ، أو المتحكم فى سواه دون وجه من الحق .

وعلى ذى السلطة فى عمله أن يقسط ، ويتحرى . ويتقى : فإن السلطة محدودة بأيامها الموقوتة ، وهى إلى تقلص مهما اتسعت ، أو ضاقت جوانبها .

وما يكون الغرور بالسلطة إلا لونا من الحمق ، ونزعة من السفه ، وصاحب السلطة فى شأن شئون الناس كالمتحلى بثوب من غيره ، فهو خالعه حتما لصاحبه : إن قريباً أو بعيداً .

وربما كانت صولة النفوذ ، وأبهة السلطة

فى أبهج مناظرها وساعة شبابها كاشفة للناس عن عورات لا يعيها المتجمل ببهرجها .

فمن الحق على كل ذى نصيب من سلطان بين الناس أن يؤمن بأنه كمن يلبس ثوباً مستعاراً ، يتراءى به بين الناس :

ثوب الرياء يشف عما تحته

فإذا التحفت به فإنك عار

وكذا صاحب المال ، والإحسان بالمال فى غير حاجة إلى الحديث عنه ، فقد أخذ حظه من عناية القرآن به ، مما جعله بديهيا فى الأفهام .. حتى ليغلب على بعض الأذهان عند ذكر الإحسان أنه لا يتجاوز المال ، والإحسان بالمال لم يقف عند إيجاب الزكاة والنص على أنها حق يملكه الفقير فى أموال الأغنياء بل توسع الأمر به ، حتى طالب ببذله تطوعا ، وحث عليه كثيراً من الفاضل عن حوائج الإنسان - ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو -

بل فرض الإسلام فى أهله أن منهم الخير الذى لا يقف عند الزكاة الواجبة ، ولا عند الصدقة المستحبة من العفو ، بل يكون محتاجا لما بيده ، ثم يؤثر على نفسه من يكون أشد منه حاجة ، فامتدح من كان كذلك ، ليستنهض من يكون على غرارهم - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وتلك النعم - التى يتفاوت فيها الحظ ، والتى قصد منها ما أوجزناه من التمتع بها ، ومن امتحان الناس فيما يصنعون بها ، وفيما يتعلق بها من ربط الناس ببعضهم فى مجال الحياة والرجوع بنتائجها إلى الله - لا ينبغى أن تتأثر بزهادة أو تواضع : مما يخلع عليه بعض الناس اسم التصوف ، أو القناعة ، فإن شيئاً من ذلك التدين أو التعفف لا يتعارض مطلقاً مع النشاط فى الاستثمار والتحول مع الرضا بما قسم وقدر لتلك الجهود من نجاح أو غيره .

وإذا كانت الفطرة لم تترك الناس يقعدون عن طلب الرزق ، ويعتمدون على ما تمطرهم السماء من فضة أو ذهب ، أو المن والسلوى ، فقد جاء الإسلام معززاً لتلك الفطرة فى تطلعها إلى السعى ، وفاتحا أمامها مغاليق السبل ، وآفاق الفكر فى جنبات الكون وإبراز ما انطوت عليه أسرار الطبيعة .

وجاء الإسلام بتكليفه الحثيث أن ننظر ، ونجتهد ونستنبط ونتنج ، ولم يجئ بطلب الزهادة إلا بمقدار ما يكفنا عن الشره ، وعن مطاوعة الهوى فى ملاعب الدنيا .

فإنه يمتن علينا بما أنعم ، وبما نجد من نعماء جديدة ، لا بما نزهد ونحرم - « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » - « أولم

ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شئ » ـ .

« كلوا من طيبات ما رزقناكم ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ـ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ـ » .

فالعمل مطلوب ، حتى إن الإسلام ليعتبر العمل للدنيا خير مرغوب فيه ، ومثاب عليه ما دام فى حدود الجواز وبذلك يكون اجتهاد الناس حصانة للمجتمع الإسلامى من مظهر الفقر والمذلة فإن الله عزيز ، ولم يرض إلا العزة لرسوله وللمؤمنين ، فهى عزة بالخلق ، وبالتضامن . وبالعمل ولأن يحتطب المرء بالحبل على ظهره ، ثم يبيع ما جمع من حطب فيستغنى به عن الناس أحب إلى الله من متعبد يقعد عن السعى فى رزقه وهو يعتمد على معونة الناس .

ولقد أعجب النبى ـ صلوات الله عليه ـ ببيت قاله عنترة وقال : هذا أكرم بيت قالته العرب :

ولقد أبيت على الطوى ـ الجوع ـ وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

(ح) وإزاء ما عرفنا من رسالة الناس فى دنياهم ـ دينا ، وعملا ـ وما عرفنا من تفاضلهم فى العطاء ليجنح بعضهم إلى بعض ، ويتعاون بعضهم مع بعض : يكون واضحاً أن الأمر ليس فرطا ، ولا متروكا على مواهبه ، بل من وراء ذلك محاسبة ، ومجازاة « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » وإذا كانت المحاسبة والمجازاة لإحلال كل منهم فى مقعده المستحسن له بعد جهاده فى الدنيا ، وتحقيقا لوعد الله ووعيده من العدل بين خلقه ، وأنه يوفيهم أجورهم على عملهم أو تكاسلهم فإن التذكير بأن هناك جزاء ولا محالة : يعتبر ـ كما قلنا فى كلام سابق ـ عدالة معنا فى تنبيهنا فوراً ، وقبل فوات الفرصة إلى ما يجب أن نحتاط به ، حتى لا تكون لنا معذرة عند الله ، وهذا التنبيه فى نفسه استنهاض إلى التنافس ، والمسابقة لمن أراد السبق فاجتماع هاتيك المقاصد فى قوله تعالى ـ « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » ـ يشبه عناصر الدواء الناجع : تتألف من صفوف ثم يكون مجموعها دواءا واحدا ففى ذكر الجزاء تنبيه على أن الأمر جد لا هزل فيه ، وتنبيه على أن عدل الله يأبى التسوية بين العامل والمتقاعد ، وتنبيه على انتهاء الفرصة قبل إفلاتها واستنهاض إلى المسابقة فإن هناك درجات يطمع فيها أولو العزم من الناس وهناك حياة خالدة على ما استقرت عليه درجة الإنسان فى أخراه .

* * *

وانصراف الناس عن ذكر الجزاء ليس معناه أن التناسى له يبعده عنهم ، أو يفلتهم منه وليس تخلف الجزاء إلى معناه صرفه عنهم ، أو إرجاؤه إلى نسمة من الوقت بل الجزاء متوقع فى كل حين ، والمفاجأة به ، ليست مأمونة . . وشىء منه يصيب الناس فى دنياهم وإن لم يلحظه الكثير منهم ... وشىء منه وهو الأشد له وقت محدود فى علم الله وبهذا يكون العقاب المتوقع سريعا وإن طالت المهلة ، فإنها مقضية ولا ريب ، .

وبعد هذا البيان كله يظل باب التوبة مفتوحا ، والأمل فى عفو الله مرجوا ، وهذا ما انتهت به الآيات البينة - « إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » - .

ومهما يكن من ذكر وتذكير فإن رجاءنا إلى الله أن يجعلنا موفقين لما أراد . ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء
وأستاذ فى كلية الشريعة

(بقية المنشور على صفحة ٧٩٩)

« قل فلله الحجة البالغة » ، « إن عندكم من سلطان بهذا » ، « فأتونا بسلطان مبين » ، « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » ، « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » .

(د) ويصل أمر القرآن الكريم فى الاعتداد بالبرهان العقلى إلى أن يقول فى شأن العقيدة الأولى ، عقيدة التوحيد « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » فمن المعلوم أنه لا برهان أبدا على الشرك ولكن القرآن مع هذا يفرض المستحيل ، ويخرج القضية فى هذه الصورة التى تكرم شأن البرهان العقلى وتصوره هو الحكم وهو الفيصل « فمن كان له برهان حق فى هذا الشأن الخطير ينافى ما عليه الواقع ، فإنه يكون معذوراً ، وبديهى أن هذا فى الحقيقة مستحيل ، ولكن القرآن يفرضه احتراما للعقل وتكريما له وثقة بحكمه ، وفى ذلك اعتداد أى اعتداد بالعقل الإنسانى ، وبالتالى بالإنسان نفسه ؟

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

— ٣ —

الشجاعة :

كان العرب فى جاهليتهم وإسلامهم مضرب المثل حقا فى الشجاعة ؛ إذ كانت من غرائزهم الفطرية وسجاياهم الطبيعية ، ومن أخلاقهم التى عرفوا بها فى قديم الزمن وحديثه . فكانوا يتهافتون إلى الحرب والقتال ، أفراداً وجماعات، إذا دعا الداعى لحماية العرض والمال والدفاع عن الجار والشرف ، ويجدون فى ذلك الحياة العزيزة المجيدة الكريمة .

وكانوا يتمدحون بالموت تحت ظلال السيوف ، أو طعنا بالرماح ؛ كما يتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون فيمن يموت كذلك : فلان مات حتف أنفه . وفى هذا يقول بعضهم حين بلغه موت أخيه : إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ؛ والله إنا لا نموت حتفا ، ولكن قطعاً بأطراف الرماح وتحت ظلال السيوف كما يقول أحد شعرائهم فى الجاهليه :

وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا
وليس على غير الظباة تسيل

وربما كانت القبيلة منهم ـ لتأصل هذا الخلق القوى فى نفوسهم ، وغلبته على طباعهم ـ تندفع إلى القتال دون تعرف السبب الذى أهاجهم ، وتبيّن إن كان حريا بالحرب وما فيها من أخطار ، وفى هذا يقول قائلهم :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ما قال برهانا

إن الحياة لا قيمة لها عندهم إذا كانت حياة فيها شىء من الذلة ، وإن للمرء أجلا لا يعدوه متى جاء حينه سواء كان قتلا أو على فراش ناعم وثير ، وإن الإقدام على المكروه قد يكون سبب الحياة الماجدة ؛ ومن ثم كانوا ـ وما يزالون ـ سريعى الإقدام على المكاره متى وجب الأمر فى رأيهم .

وفى هذا يقول أحدهم ، وهو عنترة أحد فوارسهم الشجعان المشاهير :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهل
لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك ، لا أبالك ، واعلمى
أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

كما يقول الحصين بن الحمام المرى :

ولما رأيت الود ليس بنافعى
عمدت إلى الأمر الذى كان أحزما
فلست بمبتاع الحيـــاة بذلة
ولا مرتق من خشية الموت سلما
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ويقول المتنبى فى هذا المعنى أيضاً :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم
بين ظل القنا وخفق البنود

ويقول آخر ، وهو قيس بن الخطيم ، معبراً عن الإقدام فى الحرب :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فنضارب

هذا ، وقد سجل شعر العرب وتاريخهم المجيد مآثر فى الشجاعة لانجد مايدانيها عند غيرهم من الأمم الأخرى ، ولهم فى ذلك « أيام » معروفة فى كتب التاريخ والأدب لانرى حاجة إلى ذكر بعضها فى هذه الكلمة ، إلا أننا مع هذا نشير إلى يوم أغر من تلك الأيام ، وهو « يوم ذى قار » الذى انتصر فيه العرب على الفرس لأول مرة فى التاريخ .

وكان من خبره ، كما يذكر ابن الأثير المؤرخ المعروف فى كتابه الكامل ، أن كسرى غضب على النعمان بن المنذر واليه على الحيرة ، وأرسل إليه يستدعيه إلى حضرته بالمدائن عاصمة ملكه ، فعرف النعمان الشر فى ذلك ، ولكنه ذهب إليه فحبسه حتى مات .

وكان النعمان قد أودع ، قبل توجهه إلى كسرى ، أهله وسلاحه وما قدر عليه من ماله لدى هانئ بن مسعود الشيبانى وهو رئيس بيته وسيد من سادات العرب ، فأمره كسرى أن يسلم هذه الودائع والأمانات إلى واليه الجديد على الحيرة ، فامتنع هانئ من ذلك مدفوعا بما هو معروف عند العرب من الحمية والأنفة .

فأمر ملك الفرس عامله بحرب هانئ ومن معه ، وكان أن التقى الجمعان : جيش الفرس وجيش العرب « بذى قار » . وحينئذ أدرك هانئ أنه لا طاقة للعرب بحرب كسرى وجيوشه ، فأشار على من معه بالتفرق فى الصحراء طلبا للنجاة قبل أن يخوضوا معركة لا عهد لهم بمثلها ، ولا قبل لهم بها ولا طاقة .

ولكن رجلا معه ، وهو حنظلة بن ثعلبة العجلى ، وثب إليه وقال له : يا هانئ !

أردت نجاتنا فألقيتنا فى الهلكة ! وما كان إلا أن رد الناس إلى مواقعهم ، وقطع أحزمة الهوادج ، وضرب على نفسه قبة ، وأقسم ألا يفر حتى تفر القبة .

فزاد صنيعه الناس شجاعة ، ثم التقى الفريقان فى معركة هائلة ، فكان أن كتب الله النصر للعـــرب على العجم ، وذلك بفضـل شجاعتهم واستبسالهم وإقدامهم على الموت وهم ينظرون .

وعندئذ عرف العجم أن للعرب أحسابا ومثلا عليا يدافعون عنها ، وأن لهم قومية فى طور النمو والظهور متى جدت أسبابها ، وأن لهم يوما له ما بعده .

وفى هـــذه الموقعة يذكر ابن الأثير أن النبى صلى الله عليه وسلم لما عـرف بما كان من انتصار العرب نصراً مؤزراً ، قال : « هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم ، وبى نصروا » . وصدق الرسول الذى لا ينطق عن الهوى ، وكان بعد ذلك أن توالى نصر العـرب والمسلمين حتى أزال الله على أيديهم دولة الفرس ودولة الرومان ، والنصر بيد الله العزيز الحكيم يؤتيه من يراهم أهلا له .

* * *

وقد زاد الإسلام حين أشرق نوره على العرب هذا الخلق الأصيل فيهم قوة وذلك إذ جعل للقتال والإقدام على المكاره غاية هى أشرف الغايات ، وهى الجهاد فى سبيل الحق وإعلاء كلمة الله ودينه ، كما جعل لمن يقتل فى هذه السبيل شرف أن يكون شهيدا له عند الله الدرجات العلى فى الدار الآخرة ، فضلا عما يناله من المجد وحسن الذكر فى الدار الدنيا .

ها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر فى بعض أحاديثه أن من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد . كما يذكر فى حديث آخر : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » . ويقول الله تعالى فى القرآن : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

ومن ثم أتى العرب والمسلمون فى هـذه الناحية بالعجب العُجاب ، فقد أزالوا من الوجود دولة الأكاسرة والقياصرة من الوجود ، على ما كان لهم من القوة والمنعة وشدة البأس فى الحروب ، وعلى ما كان لهم من شديد السلطان على العرب وغير العرب قبل الإسلام .

وكان الواحد منهم يقدم على الخطر غـير هياب ولا وجل لا يبالى أمات أم عاد حيا . يروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار : أن عمر ابن الخطاب بعث الأحنف بن قيس على جيش

إلى خراسان ، فبيتهم العدو ليلا وفرقوا جيوشهم ، وأقبلوا معهم الطبل ففزع الناس منه ، فتقلد الأحنف سيفه ثم مضى نحو الصوت وهو يقول :

إن على كل رئيس حقا
أن يخضب الصعدة أو تندقا

ثم حمل على صاحب الطبل فقتله ، وكان ذلك سبب هزيمة العدو بعد أن فقدوا الصوت ، ثم حمل على الكتيبة الأخرى ففعل مثل ذلك وحده ، ثم جاء الناس وقد انهزم العدو بأجمعه هزيمة منكرة فاتبعوهم يقتلونهم فى كل ناحية ، ثم مضوا حتى فتحوا مدينة « قرو الروذ » .

كما كان الواحد منهم يستبسل فى القتال ويعرض نفسه للموت ، لا يبغى جزاء ولا شكوراً إلا من الله وحده ، بل لا يبغى أن يعرف اسمه فيذكر بالحمد والثناء .

يذكر صاحب عيون الأخبار أيضا أن « مسلمة » حاصر حصنا فندب الناس إلى نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله معرضا نفسه للموت ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة : أين صاحب النقب فما جاء أحد ، فنادى : إنى قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتى فعزمت عليه إلا جاء .

فجاء رجل ودخل عليه وقال له : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا ، ألا تكتبوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشىء ولا تسألوه من هو . قال مسلمة : فذاك له ، قال : أنا هو . فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب ! .

كما كانوا يستشرفون للموت قتلا ويتمدحون بذلك ، هذا سيف الله خالد بن الوليد يقول لقد لقيت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه طعنة أو ضربة أو رمية ، ثم ها أنا أموت على فراشى حتف أنفى (وفى رواية أخرى : ثم ها أنا ذا أموت حتف نفسى كما يموت العير) فلا نامت أعين الجبناء .

هكذا كانت شجاعة العرب والمسلمين مثلا فى التاريخ ، وهى ما تزال كذلك حتى اليوم لأن ما بالطبع لا يتغير كما يقال بحق ، ويكفى أن نشير إلى معركة « بورسعيد » التى انتصرنا فيها على الدول الثلاث العاتية ، وذلك بفضل الإيمان بالله وبحق الوطن ، وبفضل الشجاعة التى صارت مضرب الأمثال .

٨ - الكرم والإيثار :

وكذلك الأمر فى الجود والكرم فى الجاهلية والإسلام حتى اليوم ، فالكرم من الأخلاق التى تأصلت فى نفوسهم ، وتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، وربما نزل الضيف بأحدهم ولا مال له إلا ناقة واحدة هى قوام حياته وحياة ولده ، فلا يتردد فى ذبحها لضيفه

خشية أن ينال شيء من مروءته وعرضه ، وقديما قال قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو
ما سوف يحمد أو يلوم

هـذا حاتم الطائي الذي ضربت بجوده الأمثال ، وكان به كما يقول صاحب الأمالي : مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا أسر أطلق ، كما كان إذا أهل رجب ، وهو شهر كانت العرب تعظمه في الجاهلية ، نحر كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه .

وقد عرف بالكرم منذ صغره، فكان يخرج طعامه فإذا وجد أحدا أكل معه ، وإن لم يجد أحدا طرحه ، وكذلك كان يفعل حين ألحقه أبوه بالإبل ، فكان يبغي الناس حيث هو معها في المرعى فلا يجد أحداً ، فيأتي الطريق عساه يجد من يكرمه إلى أقصى الغاية .

ووجد ذات يوم ركباً سائرين في الطريق فأتاهم فقالوا له : يا فتى ! هل عندك من قرى ؟ فقال : تسألوني عن القرى وقد رأيتم الإبل انزلوا ، فنزلوا وكانوا ثلاثة ، فنحر لهم ثلاثة من الإبل .

فقال أحدهم له : إنما أردنا اللبن وكانت تكفينا بكرة إذ كنت لا بد متكلفا لنا ، فقال له حاتم : قد عرفت ، ولكني رأيت وجوها مختلفة وألوانا متفرقة ، فعلمت أن البلدان غير واحدة ، فأحببت أن يبقى لي منكم في كل بلد ذكر ، فقالوا فيه شعراً يمتدحونه ويذكرون فضله .

فقال لهم : إنما أردت أن أحسن إليكم ؛ فصار لكم علي الفضل ، وأخيراً وهب لهم الإبل كلها فأصاب كل منهم تسعة وثلاثين بعيراً ، ومضوا على سفرهم ، ولما سأله أبوه عن الإبل قال له : يا أبت ! قد طوقتك طوق الحمامة مجدا وذكرا ، لا يزال رجل يحمل لنا بيت شعر أبداً بإبلك .

وهـذا رجل آخر ، وهو سالم ابن قحطان ، يجيئه رجل يستمنحه ، فيعطيه بعيرا ويطلب من امرأته حبلا يربطه به ببعيره الذي جاء عليه ، ثم يعطيه ثانيا وثالثا وفي كل مرة يطلب حبلا من امرأته حتى لم تجد حبلا ، فقال لها هذه الكلمة التي ذهبت مثلا : عليّ الجمال وعليك الحبال ! فرمت إليه خمارها ليجعله حبلا لبعضها ، فقال :

لا تعذليني في العطاء ، ويسرى
لكل بعير جاء طالبه حبلا

فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن
ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

وقد زاد الإسلام هذا الخلق العظيم قوة ، ولذلك بحثه على إكرام الضيف وإعانة المحتاج ، ووعده على هذا بالخير الكثير

فى الدنيا والآخرة ، وهذا إلى أصالة هذا الخلق فى نفوس العرب كما هو معروف ، فكان من ذلك مثل رائعة فى الكرم والإيثار .

يذكر ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى اللغة والأدب » أن الأحنف بن قيس قال : كثرت على الديات فلم أجدها فى حاضرة تميم فخرجت نحو « تبرين » فسألت عن المقصود هناك ، فأرشدت إلى قبة فإذا شيخ جالس بفنائها مؤتزر بشملة محتب بحبل .

فسلمت عليه وانتسبت له ، ... ثم ذكرت له الديات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، فقال لى : أقم ، فإذا راع قد أراح ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح عليه آخر مثلها فقال : خذها ، فقلت : لا أحتاج إليها ؛ فانصرفت بالألف عنه ، والله ما أدرى من هو إلى الساعة !.

وفى صحيح الإمام مسلم أن رجلا نزل برسول الله وشكا إليه ما به من جهد ، فأرسل إلى أمهات المؤمنين فلم يجد عندهن شيئاً يقدمه له ، فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة وأخذه إلى رحله وطلب من امرأته إكرامه فأخبرته أنه ليس عندها إلا قوت الصبيان .

فطلب منها أن تعلل الصبية حتى يناموا ، وأن تطفئ السراج وتقرب للضيف ما عندها ، وهكذا أكل الضيف ما كان عندهم كله ، وباتا طاوِيَيْنِ وكذلك الصبيان . فلما أصبح غدا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة » !

وفى هذا نزل قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ونكتفى بهذا القدر ، وفى الكلمة الآتية نتناول مثلا رائعة أخرى ، ومن الله العون والتوفيق ؟

محمد يوسف موسى

الثناء بعد البلاء

قال الأحنف لزياد حين قدم البصرة وخطب خطبته المشهورة : أصلح الله الأمير ! إن الجواد بشده ، وإن السيف بحده ، وإن المرء بجده ، وإن جدك قد بلغ بك ما ترى . وإن الثناء بعد البلاء . ولسنا نثنى عليك حتى نبتليك ، فأول خيراً نثن به ... !

الشّريعة والنّاس

للأستاذ محمود الشرقاوى

دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله : كلمة من كلمات السيد المسيح اتخذها قوم شعاراً يرمزون به إلى مبدإ عرف فى ترجمته العربية المتداولة باسم : « فصل الدين عن الدولة » وكلمة السيد المسيح عند ما يتخذها بعض القوم شعارا ورمزا لمبدئهم هذا ، هى كلمة يصـــدق عليها المثل القديم : « حق يراد به باطل » .

قال السيد المسيح كلمته تلك ليرد كيد خصومه من اليهود عندما تقدموا إليه يسألونه عن تلك الصورة التى يجدونها منقوشة على « الدينار » الرومانى . وكانوا يتمنون لو أنه ثار به الغضب فقال كلمة سوء عن صاحب هذه الصورة المنقوشة : قيصر الإمبراطور، فيحاسب المسيح على كلمته تلك ويلقى جزاءه بسقطة لسانه .

ولكن الله ألهم نبيه المسيح أن يرد عليهم كيدهم بكلمته تلك التى يريد بها أنه لا شأن له بسلطان الدولة والتعرض لسطوة الحاكم . فإنما أرسله الله « لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة » كما جاء فى الإنجيل ، فلتكن دعوته لله وليترك ما لقيصر لقيصر .

وقد بدأنا نسمع ونقرأ هذا الشعار يردده ويكتبه قوم فى الآونة الأخيرة وهم يعلمون كما نعلم أن الجمهورية العربية المتحدة تفكر أو تعمل على تعديل قانون الأحوال الشخصية وللشريعة فى هذا القانون شأن ورأى يجب أن يكون هو الشأن الأول والرأى المقدم .

وقد رأينا مسلما من رجال الثقافة والقانون يرفع راية هذا الشعار علنا فى صحيفة كبرى فيطلب من الدولة أن تعتبر تشريع الزواج والطلاق من المسائل التى لا صلة لها بالدين[1] ورأينا من يناصره ويجهر بمثل ما يجهر .

ولا بأس فى أن نقول كلمة فى هذه الدعوة قبل أن نسوق ما يبطلها ويفندها .

* * *

الذين يدعون إلى أن « ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » يقولون أو يزعمون أن مكان العقيدة ومكان رجالها فى حياة الناس هو التوجيه السـديد ، القائم على الإدراك والوعى ، لأخلاق الفرد . والاتصال القائم على المحبة والبر والفهم لروحه وعواطفه .

---

(١) انظر كلمة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى فى عدد جمادى الآخرة من (مجلة الأزهر)

والاندماج القائم على التعاطف والمواساة فى الجماعة البشرية مكان العقيدة ومكان رجالها عندهم هو التربية الروحية والتوجيه الخلقى ، واستخدام العاطفة الدينية فى قلوب الناس ومشاعرهم لتمكين الفضائل النفسية والخلقية فى هذه القلوب والمشاعر . وليس من شأن العقيدة ولا من حق رجالها ، فى زعمهم ، أن يسيطروا ، ولا أن يوجهوا ، ولا أن يشاركوا فى السلطة الزمنية بأى وجه من الوجوه ، ولا من أى سبيل من السبل .

وهم يقولون : ما دمنا نقول إن العقيدة ضرورة من ضرورات الحياة للفرد والجماعة ، فإن واجب رجالها هو اتخاذها وسيلة ومتكأ لتهذيب الفرد وتربية الجماعة ، وليس لها ولا لرجالها أن يطمعوا فى شىء آخر من المشاركة فى السلطة الزمنية وقوانينها وما تفعل وما تدع لاستقامة حياة الناس وتنظيمها وتقدمها . وحسبهم أن يفعلوا ذلك ، وما هو بأمر يسير .

* * *

وهذه الدعوة ليست شيئاً جديداً فى حياة الناس ولا فى عالم الأفكار والدعوات .

فقد كانت صيحة مسموعة فى القرن الثامن عشر فى أوربا عامة وفى فرنسا خاصة . فهى بضاعة مجلوبة لن تجد لها عندنا سوقا . وهى صيحة كانت لها أسبابها ومبرراتها فى بيئتها وزمنها . وسنرى قبل أن ننتهى من هذا المقال أنها تبور فى غير زمنها وبيئتها .

ولكى نربط بين هذه الدعوة وبين بيئتها وزمنها نسوق رأيا فيها ، أو شرحا لها ، قاله رجل من أبرز الدعاة لها ومن أبرز الثائرين على الكنيسة وعلى الملكية فى القرن الثامن عشر هو : « فولتير » الذى كان قلمه وكانت سخريته من أقوى العوامل فى قيام الثورة الفرنسية التى زلزلت الملكية والكنيسة معا .

الواجب المقدس الذى تؤديه للأمة تلك الهيئة المنظمة فى داخلها ، الممثلة للدين والمهيمنة عليه ، ليس أن تتحد مع الدولة أو تندمج فيها ، ولا أن تغتصب سلطتها السياسية الزمنية ، ولا أن تملى على الرجال المسئولين فى شئون السياسة والاجتماع والفكر ، وترغمهم على الخضوع لهذا الإملاء . ولا أن تستخدم نفوذها وسلطتها على حياة الناس وعقولهم . مما لا تدعيه أية هيئة بشرية أخرى . كلا . إنما واجب الهيئة الدينية فى كل أمة أن ترشد الناس إلى الله فى طهر الحياة ونقاوة الفكر ، وأن تجىء بهم إلى معرفة الله الحقة ، حتى تتغلب روح الله وعدالته وحقه فى تصاريف الشئون ومناحى الحياة المختلفة . ومتى شهدت الهيئة الدينية شهادة أمينة صادقة لحق الله وتقدير الشئون الروحية ، فإنها — بطريق غير

مباشر — تملك أقوى سلطة فى حياة الشعب المدنية ، لأن الناس لا بد يطبقون مبادئها وآراءها وينفذونها عملا فى حياتهم اليومية . فتصبح الأعمال ترجمان الأفكار والمبادئ .

أما إذا أبت الهيئة الدينية أن تعمل فى دائرة اختصاصها ، وعجزت عن التفريق بين هذا وذاك ، فإن الناس — عاجلا أو آجلا — سيشعرون بشدة وطأة تدخلها ، أو مظالمها ، فيخلعون عنهم رداء الولاء لها ، ويعيشون حياة طليقة سائبة بعيدة عن الله . وهى فى نظرهم خير وأفضل من تلك الحياة المقيدة الضيقة (١) .

ومن يتأمل كلمة « فولتير » هذه - وهى من أقوى الدعوات وأسبقها وجوداً فى الجهر بفصل الدين عن الدولة - يدرك أنه كان يحارب سلطة الكنيسة الزمنية يوم كان « البابا » يجمع بينها وبين السلطة الروحية ، ويحرم من جنة الله ، ويتلقى رجال الحكم السلطة من يده ، ويتوج الملوك ويسقطهم إذا شاء . ويدرك من يتأمل أن « فولتير » وأصحاب دعوته كانوا يحاربون سطوة الكنيسة ، وسطوة رجال الدين وشططهم ومظالمهم التى يعرفها من يدرس تاريخ أوربا فى القرون الوسطى .

وشتان بين هذا وبين موقف الإسلام من الحياة . وبين الوضع فى القرن الثامن عشر فى أوربا ، وبينه وبين حاضرنا فى الشرق العربى ، أو الإسلامى .

وليس من الخير ولا من الكرامة ، ونحن نبنى قوميتنا العربية ، أن نتابع دعوات لا تصدق على ديننا ولا على بيئتنا وزمننا . بل بينها وبين ديننا من التنافر والتدابر ما يدركه كل منصف .

والذين يدعون أن يترك « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » يعززون دعواهم هذه بأن الدين لا يدعو إلى تغيير جوهرى فى حياة الناس ، بل يؤيد الأوضاع القائمة ويتصدى لظواهر الأمور دون أن يمس جوهرها . فهو ، مثلا ، يشجع التصدق والإحسان على الفقراء ، دون التفكير فى القضاء على الفقر ، أو على النظام الذى أدى إليه . وذلك - فى رأيهم - عمل رجل الاقتصاد والاجتماع . وهذا قد يصدق على غير دين الإسلام الذى فرض الزكاة وأوجبها وجعلها ركناً من أركانه التى بنى عليها ولكن أهل الشطط هؤلاء ، يقلدون الفكر الأوربى فى خروجه على المسيحية مع أن الفرق واضح بينها وبين الإسلام فى ذلك . فالمسيحية لم تتعرض لشئون الناس فى دنياهم ولم تتناول تنظيم المجتمع . ولكن الإسلام كما تضمن

---

(١) من بحث كتبته كاترين هنرى عن (فولتير) : كتاب « أعلام الفكر الفرنسى » ص ٦٧ .

« العقيدة » والهـــداية وألزم بالعبادات والتكاليف ، تضمن « الشريعة » فنظم بها حياتهم ومعاشهم ودنياهم . والفهم المستقيم للشريعة لا يجعل منها خصما ، بل ولا معارضا ، لاستقامة الحياة البشرية وهنائها على جميع المستويات البشرية ولا فى جميع العصور ، ولكل الأجناس .

ونضرب لهؤلاء الذين يقيسون الإسلام على المسيحية فى ذلك مثلا : فنحن نعرف أن الإسلام أمر بالطهارة ، أى بالنظافة ، عند كل صلاة ، أو عند صلاتين أو أكثر إذا دام وضوء المصلى .

ومعنى ذلك أن المسلم مأمور بأن يستعمل الماء فى الأصل ، إلا إذا لم يجده ، فى كل يوم مرة على الأقل لنظافة أعضائه الخارجية . ومأمور باستعماله لتحقيق غايات أخرى وفى أماكن أخرى من جسمه . وقد يكون هذا الاستعمال لأكثر من مرة فى اليوم . والمسلم مأمور بأن يغتسل ، أى ينظف جسده كله بالماء ، عند مباشرة المرأة بينما نجد الكنيسة فى العصور الوسطى كانت ترى من دلائل الصلاح وتمكن العقيدة المسيحية فى قلب أتباعها أن يبتعد المسيحى الصادق عن الماء ويمتنع عن الاستحمام حتى لا يزول عن جسده ماء المعمودية الطاهر .

وكان ملايين الناس فى أوربا فى القرون الوسطى يطيعون تعاليم الكنيسة هذه ، بل أوامرها ، ليكونوا مسيحيين صالحين محتفظين بطهارة المعمودية . وكم من الأمراض والأوبئة اجتاحتهم وأنهت حياة الآلاف منهم بسبب « طهارة الروح » على حساب طهارة الجسد .

ومن الحقائق التى نسوقها لهؤلاء القوم أن الكنيسة فى أسبانيا ، فى هذه القرون الوسطى حظرت على المسيحيين جميعا غسل أجسادهم ومنعته منعاً باتا . وأن الكردينال « سبينوزا » أحد رجال الدين المسيحى فى أسبانيا هدم فى سنة ٤٦٧ ميلادية الحمامات التى كان قد بناها المسلمون فى تلك البلاد .

وفى بلاد الحبشة يمتنع كثير من المسيحيين عن الاستحمام - إلى الآن - حتى لا يتشبهوا بالمسلمين .

فقياس الإسلام على المسيحية قياس غير قائم وغير صحيح .

وليس من همى ولا من غايتى أن أتعرض للديانة المسيحية ولا أن أوازن بينها وبين الإسلام ، فأنا مسلم يأمر دينى بالاعتراف بالمسيحية والإيمان برسالة عيسى عليه السلام . وأنا حريص على عواطف المسيحيين الذين يكونون فى هذا الشرق الذى نسكنه سواداً كثيرا كبير الأهمية فى تحقق هذه « القومية العربية » .

وبديهي أن الإسلام يثبت أن التوراة والإنجيل دخلهما تغيير وتبديل، كما نص القرآن الكريم على ذلك فى آيات كثيرة. والمثقفون من المسيحيين أنفسهم يعترفون بأن المسيحية بعد المائة الأولى لمولد السيد المسيح كانت مغايرة مغايرة كبيرة لمسيحية القرن الأول. ويعترفون بأن المسيحية كما يعرفها ويعتقدها المسيحيون الآن هى مسيحية بطرس الرسول وقسطنطين وليست مسيحية عيسى.

وهذا أمر لا يسيء - عند التأمل الهادئ - إلى المسيحية. بل لعله أن يرفع من شأنها، ويبعد عن « أصلها » المآخذ، كما كان يقول المصلح العظيم لوثر، مجدد المسيحية ومصلحها وعماد الكنيسة البروتستانتينية.

والذى أريد أن أقرره - وأنا أذكر قصة الطهارة والماء والوضوء قبل قليل - هو أن الإسلام يتضمن إلى جانب العقيدة « شريعة » تنسق حياة الناس وتشكل نظامهم فى هذه الدنيا. وأن الإسلام فى عقيدته نفسها يرعى مصلحة الناس ويحرص على خيرهم، فمع أن الصلاة عبادة، والغسل من الجنابة عبادة، فقد جعل الإسلام الطهارة بالماء شرطا لصحة الصلاة والغسل من الجنابة شرطا لها أيضاً. وهو فى ذلك يرعى صوالح الناس، ويحرص على خيرهم وسعادتهم وصحة أجسامهم فى هذه الدنيا، حتى فى أوامره بالعبادة المحضة التى لا صلة لها بمعاش الناس ونظم حياتهم وتشكيل مجتمعهم، وهو فى شريعته كذلك حريص على خيرهم وسعادتهم واستقامة حياتهم، وفيها من السعة والمرونة والمطاوعة ما يكفل تحقيق ذلك، لذلك كان من الخطأ المحض أن يقاس الإسلام على المسيحية فى تنحيته عن الحياة العامة، وعن التشريع والدعوة إلى « فصل الدين عن الدولة » أو « إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كما يقولون، فهذه دعوة صدقت فى أوربا على المسيحية لأسباب خاصة بها وبالمجتمع الأوربى، ولكنها لا تصدق على الإسلام.

ومن الأسباب التى قامت بسببها هذه الدعوة أو الثورة على المسيحية أنها تعرضت بآراء جازمة لبعض شئون الحياة والعلم. فهى، مثلا، قد نصت على أن الأرض ثابتة لا تتحرك، وأنها مركز الكون. وبسبب ذلك لقى كوبر نيكوس ولقيت مستكشفاته وآراؤه المعارضة لذلك ما لقى ولقيت من رجال الدين المسيحى، ثم تغلب العلم على رجال الدين بعد جهاد يعرفه من يدرس تاريخ الصراع بين العلم والدين فى أوربا، وأصبحت « تنحية الدين عن الحياة » شعارا لا يحيد عنه المفكرون فى الغرب ولا كذلك الإسلام، كما ذكرنا.

ولكن هذه الصيحة أو هذا الشعار إذا نقل إلى الشرق كان تقليداً يحمل فى طياته الشر لكل من الإسلام والحياة معا . وهو فوق ذلك دعوى لا أساس لها ولا سند ، بل هى فى خصوص الإسلام الصحيح ، دعوى متهارة .

فقد حفظت شريعة الإسلام ما لقيصر وأبقته له . وتركت له — أى للحاكم — شيئا كثيرا جدا يحقق به ما يرى من الخير للناس على مطاوعة من الشريعة نفسها ، وعلى أساس من الدين نفسه . وذلك أمر طبيعى لأن الله جعلها آخر الرسالات فلزم أن تصلح لحياة الناس فى جميع الأمكنة والأزمان ، وأن تتسع لحاجاتهم كلها ، وأن يكون فيها من المرونة ما يكفل ذلك . فهى لم تفرط تفريط المسيحية ولم تضيق تضييق اليهودية ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١)

* * *

وقد كنت أريد هنا أن أقول كلمة فى السياسة الشرعية ، أو فيما يعرفه فقهاء المذهب الحنفى « بالاستحسان » ، وفقهاء المذهب المالكى والحنبلى بالمصالح المرسلة.

كنت أريد أن أقول كلمة فى ذلك تدل على المدى الفسيح الذى يجده المشرع والمقنن فى شريعة الإسلام . ولكننى وقعت على كلمة للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر تغنى عن كل قول . فهو يقسم الحكم فى الشريعة الإسلاميه إلى نوعين : حكم نص عليه القرآن والسنة نصاً صريحا لا يحتمل التأويل ولا يحتمل الاجتهاد ، وهو قليل . والنوع الآخر : (حكم لم يرد به قرآن ولا سنة ، أو ورد به أحدهما ولم يكن الوارد به قطعيا فيه ، بل محتملا له ولغيره وكان ذلك محلا لاجتهاد الفقهاء والمشرعين فاجتهدوا فيه ، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره ، وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادى ، ثم يقول فضيلته :

(إذا علمنا هذا استطعنا أن نقول : إن الحكم فى النوع الثانى ـ وهو النوع الاجتهادى ، ولو خالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية ، ـ فإنه ما دام أساسه تحرى العدل والمصلحة لا اتباع الهوى والشهوة ـ فإن الإسلام لا يمنعه ولا يمقته ... ذلك أن الإسلام ليس له فى هذا النوع حكم معين ، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبنى على تحرى المصلحة والعدل ، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه)(١).

* * *

(١) ١٤٣ سورة البقرة .

(١) الفتاوى ص ٣٨ من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر

هذا رأى يجهر به الآن شيخ الجامع الأزهر وإمام المسلمين الآن . ونستطيع أن نضرب لذلك مثلا من أقدم الأمثلة وأقواها دلالة على عدم الالتزام الحرفى كأمر ملزم بات لا مفر منه ولا محيد عنه . وهو مثل يعرفه المؤرخون ويعرفه علماء السيرة وكتابها ومؤرخوها . فهؤلاء وهؤلاء يجمعون على أنه لما قتل العبد الأسود أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسرع ابنه عبيد الله فقتل الهرمزان وجفينة بالتهمة والظنة فى اشتراكهما أو تدبيرهما أو تحريضهما على قتل أبيه . وما كان خطأ أن يقتل عبيد الله أحداً لأنه قتل مسلما هو الهرمزان ، دون أن يستشهد عليه ودون أن يرفع أمره إلى الخليفة بعد اختياره وتنصيبه ، أو بعد شفائه لو أن الله أراد لعمر أن يشفى من طعنته . وكان من الممكن أن يقال إن حد الله فى هذا بين واضح لا شك فيه ولا ريبة عليه ولا لبس . فقد قتل عبيد الله الهرمزان قتلة جاهلية بغير حق ، أو بحق انفرد به لنفسه وأقرها عليه وأقدم على قصاص هو من حق ولىّ الأمر لا يقيمه إلا على قواعد وأسس تطمئن لها النفس ويستريح منها الضمير . وكتاب التاريخ وعلماء السيرة يقولون إن هذا كله تحدث به المسلمون يوم ذاك فغضبوا من تسرع عبيد الله وإقدامه على قتل رجل مسلم بلا إقرار ولا بينة ولا شهادة ولا محاكمة . وأن هؤلاء المسلمين أعلنوا غضبهم هذا إلى عثمان . وأن جماعة من أصحاب النبى ألحوا عليه فى أن يقتل عبيد الله فى الهرمزان ، وأن يقيم عليه حد من يقتل مسلما عامدا متعمدا بغير حق وذلك كان رأى على ، وكتاب التاريخ وعلماء السيرة يقولون إن عثمان لم ينكر عليهم ذلك ولم يحاججهم فى الحد ولا فى أن عبيد الله يستحقه. ولو أنه أمر به فأقيم ، لقتل عبيد الله جزاء قتله المرزبان . لم ينكر الخليفة عثمان على صحابة النبى ذلك ولا شيئاً منه . بل كان جوابه أن قال : أخشى إن قتلت عبيد الله أن يقول الناس : « قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ».

وعثمان حين يفعل ذلك لا يخرج عن حد الشريعة ـ وحاشاه ـ ولا يجاوز الإدراك السليم لمصلحة الجماعة الإسلامية . فهو ولى أمر المسلمين وقد رأى ـ وكان حكيما فى ذلك ـ أن يتجاوز عن شطط عبيد الله رعاية لمصلحة أعلى ، واتقاء لفتنة لم يكن يدرى أحد يوم ذاك إلى أى مدى يصيب شرها المسلمين جميعاً والعقيدة نفسها أيضاً .

وهذا هو السداد الذى يجعل « السبت للإنسان ولا يجعل الإنسان للسبت » كما تقول آية الإنجيل ؟

محمود الشرقاوى

الحرية الدينية فى الإسلام
وعلاقتها بالاجتهاد والتقليد

للدكتور على عبد الواحد وافى

سار الإسلام حيال الحرية الدينية على أسس سمحة نبيلة . فلم يلبث أن استقر ، وتبينت للناس تعاليمه ، حتى قرر فى هذا الصدد أربعة مبادئ هى أسمى ما يمكن أن يصل إليه التشريع فى حرية الأديان والمعتقدات :

١ — أحدها أنه لا يرغم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام . وفى هـذا يقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون فى معاملاتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى . فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة . وكانوا فى مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ، ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم . وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنـه فى معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيليـاء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ... لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ، لا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

ويقول عمرو بن العاص فى معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص » .

ومع أن الإسـلام يجعل الرجل قواما على امرأته فى كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، فإنه لا يجيز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغمها على ترك دينهـا ، بل لا يجيز له أن يمنعها من أداء عباداتها وشعائرها ؛ بل إن بعض المذاهب لترى أنه ينبغى له أن يصطحبها إلى حيث تؤدى هـذه العبادات والشعائر فى كنيستها أو بيعتها إذا رغبت فى ذلك .

٢ — والمبدأ الثانى الذى سنه الإسـلام فى هـذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية . ولذلك ينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا جادة العقل والمنطق فى مناقشاتهم مع أهل الأديان الأخرى ، وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله عليه السلام : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة

الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . ويقول مخاطبا أهل الأديان الأخرى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ؛ « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » ؛ « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ـ ولا يكتفى القرآن بذلك بل يغرى الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم، فيتظاهر جدلا بأنه لا يقطع بأنه على حق وأنهم هم على باطل ، فيقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

وكان الخلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيتناقشون فى شئون العقائد ، ويوازنون بين الأديان ، كل يدلى بحجته ، ويبين رأيه فى حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب، بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ، ويشتركون فيها بأنفسهم .

٣ ـــ والمبدأ الثالث الذى سنه الإسلام فى هذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع . وبذلك حطم الإسلام القواعد التى كان يسير عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله ، وهى قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتفكير الحر ، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير ، وحث على رفض ما لا يؤيده علم ، ولا يعززه دليل ـ ومن ثم ذهب بعض علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح ؛ وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير ؛ قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟! » ؛ « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون؟! » .

ـ ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ـ ولو صالحا ـ بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته » .

٤ — والمبدأ الرابع الذى سنه الإسلام فى هذا الصدد هو إباحة الاجتهاد فى فروع الشريعة لكل قادر عليه ، وهو المتمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط . فيباح لكل مسلم توافرت فيه هذه الشروط أن يجتهد ويستنبط الأحكام من أصولها وأدلتها ، ويعمل بما يراه ، ويجهر بما انتهى إليه رأيه . والإسلام يكفل له حرية الرأى ، ويحمى حريته ، ويحترم رأيه حتى لو كان خاطئا فى نظر غيره أو كان مجانبا للصواب . فمن المقرر فى الشريعة الإسلامية أن المجتهد مشكور ومأجور فى حالتى صوابه وخطئه : فإن أخطأ فله أجر ، وإذا أصاب فله أجران .

وعلى هذا المبدأ سار الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم . فكان كل منهم يعتمد على اجتهاده الخاص متى كان قادراً على ذلك ، ويبيح لغيره الاجتهاد ، ويحترم رأى غيره متى كان قائما على دليل من الكتاب أو السنة ، بل يرجع عن رأيه ويأخذ برأى غيره إذا تبين له رجحان هذا عن ذاك . ومواقفهم هذه — رضوان الله عليهم — كثيرة مشهورة قد زخرت بها كتب التاريخ الإسلامى مسجلة لهم أسمى مبدأ فى حرية الرأى والحث على الاجتهاد .

وقد اختلف أئمة المسلمين فى جواز التقليد فى فروع الشريعة لمن يقدر على الاجتهاد ، وانقسموا فى ذلك ثلاثة مذاهب :

(١) فيرى كثير منهم أنه يجب عليه الاجتهاد ولا يجوز له التقليد ، فالإسلام فى نظر هؤلاء لا يقتصر فى هذا الصدد على إباحة حرية الرأى ، بل يوجب العمل بها إيجابا على كل قادر ولا يجيز له أن يتخلى عن حقه فيها .

وإلى ذلك ذهب كثير من أئمة المذاهب الأربعة ، وفقهائها ، وغيرهم :

فذهب إليه كثير من فقهاء الحنفية على رأسهم العلامة أبو زيد الدبوسى (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) وقد أبان عن وجهة نظره هذه فى كتابه « تقويم الأدلة » إذ يقول : « أصل التقليد باطل لأن الله تعالى رد على الكفرة احتجاجهم باتباع الآباء ... من غير نظر واستدلال ... والمقلد فى حاصل أمره ملحق نفسه بالبهائم فى اتباع الأولاد الأمهات على مناهجها بدون تمييز . فإن ألحق نفسه بها لفقد آلة التمييز فمعذور ... وإن ألحق نفسه بها ومعه آلة التمييز فالسيف أولى به حتى يقبل على الآلة فيستخدمها ، ويجيب خطاب الله المفترض طاعته » وقد ذم تعالى الكفرة على قولهم اتبعنا أكابرنا وسلفنا ، ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب : « وكان الناس فى الصدر الأول أعنى : الصحابة والتابعين والصالحين رضوان

الله عليهم يبنون أمرهم على الحجة ، فكانوا يأخذون بالكتاب ثم بالسنة ثم بأقوال من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصح بالحجة . فكان الرجل يأخذ بقول عمر رضى الله عنه فى مسألة ثم يخالفه بقول على رضى الله عنه فى مسألة أخرى . وقد ظهر من أصحاب أبى حنيفة رحمهم الله أنهم وافقوه مرة وخالفوه أخرى على حسب ما تتضح لهم الحجة . ولم يكن المذهب فى الشريعة عمريا ولا علويا ، بل النسبة كانت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وذهب إلى ذلك كثير من فقهاء المالكية ومنهم الإمام القرافى نفسه ، فقد نقل عنه صاحب « إرشاد الفحول » أنه قال « إن مذهب مالك وجمهور العلماء : وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد ويعنى بذلك من يقدر على الاجتهاد وتتوافر له وسائله .

وذهب إلى ذلك أيضا كثير من فقهاء الشافعية وعلى رأسهم الإمام الغزالى فى كتابه « المستصفى » فبعد أن أورد فى كتابه هذا بعض الآراء فى موضوع التقليد ، أبان عما يرتضيه هو فقال : إن القادر على على تحصيل العلم والظن « ينبغى أن يطلب الحق بنفسه ... فكيف يبنى الأمر على عماية كالعميان وهو بصير ؟ ! » ثم استدل على ما ذهب إليه من وجوب الاجتهاد على القادر بآيات من كتاب الله كقوله عز شأنه « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله « أفلا يتدبرون القرآن » وقوله « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » وقوله « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله » .

وذهب إلى ذلك معظم أئمة الحنابلة وعلى رأسهم ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » .

وذهب إلى ذلك كثير من الظاهرية وعلى رأسهم ابن حزم ، بل لقد ادعى ابن حزم أن الإجماع قد انعقد على هذا المذهب .

وذهب إلى ذلك الشيعة الإمامية ، فهم يوجبون الاجتهاد على كل قادر عليه . ولا يزال لديهم إلى الوقت الحاضر أئمة مجتهدون فى النجف الأشرف وطهران وغيرهما .

(ب) والمذهب الثانى يجيز التقليد للقادر على الاجتهاد ، ولكنه يوجب عليه معرفة دليل الإمام الذى يقلده ، حتى يكون تقليده له عن بينة وحتى لا يعطل تفكيره تعطيلا تاما فى مسائل الفقه : ومن هؤلاء : ابن زروق المالكى : فهو يعرف التقليد بأنه « أخذ القول من غير استناد لوجه فى المقول ، وهو مذموم مطلقا لاستهزاء صاحبه بدينه » فهو إذن لا يرى بأسا من التقليد متى استند المقلد على دليل الإمام الذى يقلده : بل إنه لا يسمى هذه الحالة تقليدا ويلحقها بحالات الاجتهاد .

(ج) والمذهب الثالث مذهب جماعة من المتأخرين يبيحون التقليد للقادر على

الاجتهاد بدون أن يوجبوا عليه معرفة دليل من يقلده ، بل يتوسع بعض هؤلاء فيبيحون لهذا المقلد الفتوى متى كان حافظا لرأى الإمام فى الفرع الذى يفتى فيه .

وقد تصدى ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » للرد على آرائهم وخاصة على مايذهبون إليه من إباحة الفتوى للمقلد فقال : « لابد للعامى من تقليد عالم فيما جهله لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك ، ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله ، فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك وتصييرها إلى غير من كانت فى يده بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه ؟ .

فإن من أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع لزمه أن يجيزه للعامة . وكفى بهذا جهلا وردا للقرآن ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وقال : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » . وقد أجمع العلماء على أنه عند عدم اليقين والتبين لا يكون ثمة إلا الظن ، والظن لا يغنى من الحق شيئا .

* * *

وهذا كله فى القادر على الاجتهاد ، وأما غير القادر عليه لعدم توافر عدة الاجتهاد وثقافته لديه ، فيكاد الإجماع ينعقد على إباحة التقليد له . فعليه أن يستفتى ويرجع إلى العلماء ويعتمد فى عباداته ومعاملاته على مذهب إمام أو أكثر ؛ لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، ولإجماع الصحابة على هذا فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل رتبة الاجتهاد ، بل إن الصحابة أنفسهم لم يكونوا جميعا مجتهدين ؛ بل كان منهم المجتهد ومنهم المقلد ، وفى هذا يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته : « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبى ... وكانوا يسمون لذلك القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ؛ لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم » .

هذا إلى أن تكليف جميع المسلمين الوصول إلى رتبة الاجتهاد ينطوى على الحرج والعنت وشريعة الإسلام قائمة على دفع الحرج ؛ قال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . بل إن هذا التكليف تكليف بما يستحيل

تحققه لأنه يؤدى إلى تعطيل الحرف والصنائع وجميع أنواع الكسب وجميع العلوم الأخرى غير علوم الشريعة ؛ وهذا يؤدى إلى خراب المجتمع البشرى ، وحتى لو فرضنا جدلا أنه أمكن أن يقف جميع المسلمين حياتهم على التفقه فى الدين ، فإنه لا يمكن أن يصلوا جميعا إلى مرتبة الاجتهاد .

* * *

هذا ، وقد ظهرت طائفة من المتأخرين تقول : إن الأمة الإسلامية أصبحت اليوم معذورة فى تقليدها الأئمة الأربعة ؛ لأنها أصبحت غير قادرة على الاستنباط من الكتاب بل ذهب بعض هؤلاء إلى أن باب الاجتهاد قد أوصد وأنه قد أصبح واجبا على كل مسلم تقليد واحد من الأئمة الأربعة .

ويمثل هؤلاء اللقانى إذ يقول فى جوهرته : « وواجب تقليد حبر منهم » (أى من الأئمة الأربعة) ، وابن عابدين (من المؤلفين فى فقه أبى حنيفة) إذ ينقل عن بعض رسائل ابن نجيم « إن القياس بعد الأربعمائة منقطع » وقد عبر عن ذلك أيضا ابن خلدون إذ يقول فى مقدمته : « ولما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، وعاق ذلك عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء ، كل بمن اختص به من المقلدين ... ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم ... ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة » .

وهذا الاتجاه ينم على جهل بروح الشريعة الإسلامية وعمل الصحابة وآراء السلف ، وينطوى على تشجيع على إهمال البحث والتحقيق وتعطيل العقل فى فهم شئون الدين ، كما ينطوى على مخالفة صريحة لما يوجبه القرآن الكريم إذ يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » ، والتفقه لا يكون بالتقليد وإنما يكون بالوقوف على أدلة الأحكام واستنباط الفروع من الأصول .

غير أن ما نقلناه عن ابن خلدون ليدل على أن العلماء كانوا قد انتهوا فى عصره (القرن الثامن الهجرى) إلى الإذعان لهذا الرأى الفاسد والتسليم به ، وأن هذه النكسة قد ظهرت عند المسلمين منذ عهد بعيد ؟

الدكتور على عبد الواحد وافى

الخليقة والسليقة

للدكتور تمام حسان

يقول صاحب القاموس : الخليقة الطبيعة والناس . ويقول : والسلق أثر دبرة البعير إذا برأت وابيض موضعها كالسَّلَق محركة ، وأثر النسع فى جنب البعير ، والاسم السليقة. ثم يقول : ويتكلم بالسليقيه أى عن طبعه لا عن تعلم . وفى الصحاح أن الخليقة الطبيعة ، والجمع خلائق . ويقول ابن أبى سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإذا نظرنا فى معنى كل من هاتين الكلمتين أدركنا أن الاستعمال اللغوى العام لا يفرق بينهما فى المعنى تفريقا كبيراً . ولكن الاستعمال اللغوى من طبعه ألا يكون دقيقا ولا محددا بقدر ما نجد الدقة والتحديد فى الاستعمال الاصطلاحى . ذلك بأن المعنى اللغوى كما يحتمل الحقيقة يحتمل المجاز ، وكما يحتمل الإطناب يحتمل الإيجاز ، وكما يحتمل التصريح يحتمل الإيماء والتلميح ، وكما يحتمل المعنى الواحد يحتمل المعنيين . ففيه عدم الخصوص ، وعدم المحدودية ، وتعدد المعنى للكلمة الواحدة .

ويقابل هذا الاستعمال اللغوى استعمال آخر اصطلاحى للكلمات ، تتخذ الكلمة فى محيطه معنى ثابتا لا يعتوره مجاز ولا تلميح ولا تعدد ، وإنما يكون نصا فى الكلمة كما تكون الكلمة نصا فيه ، لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص . والاصطلاح الفنى كاسم العلم من حيث صلاحيته فى المبدأ للإطلاق على أكثر من واحد . فالفاعل فى اصطلاح النحو غير الفاعل فى اصطلاح الفلسفة ، وهما غيره فى اصطلاح القانون الجنائى ، ولكن لفظ الاصطلاح واحد فى هذه الحالات جميعا . بيد أن الاصطلاح الفنى يختلف عن اسم العلم من نواح معينة ؛ لأنه لا بد عند استخدامه من مراعاة الاعتبارات الآتية :

١ — أن هذا الاصطلاح المستعمل لا يدل إلا على مدلول واحد .

٢ — أن دلالته عليه إنما تكون بطريق الحقيقة العرفية لا المجاز .

٣ — أن هذه الدلالة لا بد أن تكون جامعة مانعة ؛ لا تحتمل التوسع ولا الحصر

على نحو ما يحــدث أحيانا فى المفردات والأساليب غير العلمية . أى أن الدلالة لا بد أن تحدد قبل الاستعمال الفعلى .

٤ أن يكون لفظ الاصطلاح مختصرا حتى يسهل تداوله .

٥ ـ أن يكون منسجما قدر الطاقة مع طرق صياغة الكلمات فى اللغــة التى يستخدم فيها .

تلك هى الاعتبارات التى لابد أن تتوافر فى فى استخدام الاصطلاح الفنى . ولقد رأينا العرب فى تحقيقهم لأول هذه الاعتبارات وهو ضرورة وحدانية المدلول ينصون فى تحديد كل اصطلاح قبل استعماله على المعنى اللغوى الذى يستخدم به أولا ، ثم على المعنى الاصطلاحى الوحيد الذى يساق له . وهم يشيرون عادة إلى المعنى اللغوى الذى لا يقصد من الاصطلاح إذا كان الاصطلاح قد خصصت دلالته بمعناه الفنى بعد أن كان مستعملا فى فسحة الاستعمال اللغوى العام . فهم يقولون مثلا : الصلاة لغة الدعاء ، واصطلاحا أقوال وأفعال مخصوصة ... الخ

يقول الجاحظ فى تبيان الفرق بين اصطلاحات المتكلمين وألفاظ الخطباء . « ولأن كبار المتكلمين ورؤساء الناظرين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء : وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ولذلك قالوا : العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك . وكما وضع الخليل ابن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف » .

فإذا كان صاحب القاموس وصاحب الصحاح وزهير بن أبى سلمى قد ذكروا أو حددوا لنا الاستعمال اللغوى للخليقة والسليقة فإننا نحاول هنا أن نرسم استخداما اصطلاحيا لأولاهما ونتقصى فى الثانية استعمالها الاصطلاحى قديما وحديثا ، ثم نستخلص لأنفسنا منها فهما اصطلاحيا مشتقا من هذه الاستعمالات ثم نبتدع تقابلا بين هذين الاصطلاحين يقوم على تخصيص معنى لكل منهما لا يلتقى مع معنى الآخر بالفهم العلمى .

فأما الخليقة فسنرتضى لها معنى شبيها بما فى استعمالها اللغوى ، فنقصد بها أن الإنسان

بطبعه مجبول على استخدام اللغة ، وأنه لا يستطيع أن يحيا فى مجتمع إلا بواسطة هذه الأداة الهائلة الخطيرة ، وما كان ليستطيع إلا بها أن يخرج من لعنة العزلة القاتلة التى كان يمكن أن تضرب ستاراً من الصمت والجهل التام حتى بينه وبين أمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وتحول بينه وبين نقل أفكاره إلى الآخرين أو استقبال أفكار هؤلاء الآخرين .

وقديماً لم يجد المناطقة تعريفا للإنسان إلا أنه حيوان ناطق . فجعلوا الناطقية من طبيعته كما جعلوا الحيوانية تماما . وفى القرآن أن الله تعالى بعد أن خلق آدم عليه السلام علمه الأسماء كلها فأعطاه بذلك ما لم يعط الملائكة الأخيار . ولقد اشتغل الناس منذ بدء المدنية بناحية الطبع اللغوى فى تكوين الإنسان وحاولوا أن يكشفوا بعض مظاهر هذا الطبع اللغوى فى تكوين الإنسان وحاولوا أن يكشفوا بعض مظاهر هذا الطبع عن طريق التجارب التى يقومون بها على الأطفال دون سن الكلام .

يروى بلو مفيلد فى الصفحة الرابعة من كتابه اللغة أن الإغريق كانت لهم ملكة التفكير فيما يقبله الآخرون قبول التسليم وأنهم كانوا يفكرون فى أصل اللغة وتاريخها وبنيتها . ويقول إن هيرودوت المؤرخ الإغريقى أخبرنا فى القرن الخامس قبل الميلاد أن أبسماتيك أحد فراعنة مصر قد ألقى بطفلين حديثى الميلاد فى عزلة لينظر بعد أن ينطقا ما إذا كانت لغتهما التى يتكلمانها هى هذه اللغة أو تلك . وكان يرى أنه أياما كانت هذه اللغة التى سيتكلمانها فهى لا بد أن تكون أصل اللغات جميعا لأن هذين الطفلين فى ظنه كانا مثالين لنشأة الإنسان الأول فلا بد أن تكون لغتهما لغة هذا الإنسان لهذا السبب . وتذهب الرواية إلى أن هذين الطفلين نطقا أول ما نطقا بإحدى لغات آسيا الصغرى وهى اللغة الفريجية .

ويبدو أن هيرودوت قد جانب الدقة هنا فى تحرى الحوادث التاريخية إما لكونه قبل الرواية عند سماعها قبول التسليم دون نظر فيها وإما لأنه أعطاها لونا من التعصب القومى . فقد تكون القصة فى أصلها ذات جانب من الصحة ولكن الذى أتصوره نتيجة لحدوثها أن ينشأ الطفلان على التفاهم بطريقة بدائية لا ترقى إلى مستوى لغة من اللغات المعاصرة حينئذ . ولكن هيرودوت قد استبعد المصرية أن تكون أصل اللغات الإنسانية وأحل محلها لغة هندية أوربية يتكلمها قوم يقعون ولو من الناحية الجغرافية على الأقل فى المجال الحيوى الإغريقى فى ذلك الوقت .

والذى يهمنا من هذه القصة سواء أكانت صادقة أم كاذبة أن هيرودوت وحده على أسوأ الفروض أو هو ومعاصريه على أحسنها كانوا يرون أن الطفل الوليد لو ترك وشأنه لأجبرته خليقته اللغوية التى فى تكوينه على الكلام أيا كانت لغة هذا الكلام .

ومرة أخرى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن ابن طفيل لم يجعل حى بن يقظان يتكلم فحسب وإنما جعل لغته من الغنى والنمو إلى درجة مكنته من أن يفكر بها تفكيراً فلسفيا . ويحسن هنا أن نلاحظ كذلك أن ابن طفيل جعل حيا يتكلم العربية .

ثمة إذن ما يمكن أن نسميه من الناحية الاصطلاحية « الخلقية اللغوية » ، ونقصد بهذا تلبس الإنسان بطبيعة الناطقية التى فى خلقه وتكوينه ولا نقصد بذلك أنه يتكلم لغة بعينها ، وإنما نعنى أن الإنسان وله هذه الخليقة صالح لأن يتكلم أية لغة من لغات هذا الكوكب الذى نعيش على سطحه . وإن الذى يحدد له اللغة المعينة التى يتكلمها إنما هو ما يصادفه من ظروف النشأة والاكتساب وهى الظروف التى تتصل بالسليقة لا بالخليقة .

يقول بلوخ وتريجر فى كتابهما « تخطيط عام للتحليل اللغوى » : « إن عملية اكتساب اللغة سواء أكانت فى الطفولة (إذ يكتسب الطفل لغة أسرته) أو فى الحياة المتأخرة (حين يتعلم المرء لغة أجنبية) هى عملية واحدة فى جوهرها . فلا بد للمرء فيها من أن يكون له منبع للمعلومات ولابد أن يتعلم المرء كيف يميز عمليات النطق ، ويعيد أداءها حين يعده هذا المنبع بها ، ويجب أن يكون المرء قادراً على تحليل عمليات النطق التى يتعلمها وعلى تقسيمها » .

والذى يهمنا هنا هو كيفية كسب الطفل اللغة ، لأنها هى العملية التى نستطيع بعد ذلك على أساسها أن نقرر معنى « السليقة » ، وأن نقابل بينه وبين معنى « الخليقة » ، ثم نرى ما إذا كان معنى السليقة يتصل بالطبع أو يتصل بالتطبع . والذى يبدو لأول وهلة أن عملية اكتساب اللغة من الناحية النفسية أكثر ما تكون شبها بعملية اكتساب العادات . وبهذا المعنى يصح أن نصف ما يقوم به المرء من حركات وسكنات أثناء التلفظ بلغته بأنه « عادات نطقية » . ولم يكن ابن فارس مجانبا للصواب حين قال فى الصفحة الثلاثين من كتابه « الصاحبى » : « تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبى العربى يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم وعلى مر الأوقات » .

وواضح أن عملية اكتساب اللغة هذه تستمر طالما كان الفرد عضوا فى جماعة . واكتساب الفرد للغة عملية تدوم ما دامت الحياة : فى الطفولة ، وفى المدرسة ، وفى الحياة العملية . يتعلم كل فرد كيف يتصل بزملائه ؛ فلا يكاد الطفل يلج باب الحياة حتى يبدأ فى الحصول على لغة الأم . ولأمر ما جعل الله المرأة أكثر من الرجل شغفا بالكلام . وقد يكون هذا الشغف فى نفسه خير معوان للطفل فى مراحل اكتسابه اللغة ؛ فهو ينتفع منها به فيسمع كثيرا ويشارك ويحاكى ويلاحظ الصواب فى الاستعمال . ولو أن العناية بالطفل كانت من نصيب أبيه وهو أميل إلى الصمت من أمه لكانت فرصة المحاكاة عنده أقل ، ومن ثم يقل تقدمه فى اكتساب اللغة . ويقول مرنجر : إن النساء والأطفال أشد محافظة من الرجال من وجهة النظر اللغوية . فيما يختص بتطور اللغة .

ويقول لويس فى كتاب له ترجمته عنه بعنوان « اللغة فى المجتمع » : « وفى خلال سنوات ثلاث أو حولها يستكمل (أى الطفل) المعرفة بمجموع أصواتها ونظام بنيتها ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحا فى التعبير عن حاجاته الملحة ، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون مما يتصل بهذه الحاجات . وكل هذا الدور الإعدادى فى التنشئة اللغوية يجرى فى البيت بأقل توجيه متعمد من هؤلاء المحيطين بالطفل » .

المسألة إذن مسألة تدريب مستمر على نطق أصوات اللغة وعلى الإحاطة بصيغها وما يكون ضروريا للفرد من مفرداتها وعلى معرفة طرق صياغة جملها المفيدة . وهذا التدريب شبيه بما يقوم به الراغبون فى اكتساب العادات . وليس صحيحاً أن اللغة العربية فى دم العربى تظهر على لسانه ولو ولد فى بيئة أجنبية . وليس مقبولا أن اللغة توقيفية من عند الله ، وأن الله تعالى قد أنزل على العرب لغة ذات أصوات معينة وصيغ ومفردات وجمل بعينها ثم أنزل عكس ذلك مفصلا على الفرس وغيره على الترك والروس والهند والإغريق وهلم جرا . وليس مستساغا أن المرء إذا نشأ على الكلام بلغة بقى أمينا على تمثيل هذه اللغة ونطقها برغم المؤثرات الخارجية ، بل إن الأدلة على عكس ذلك قائمة فى التاريخ العربى نفسه ، إذ أن نفوذ الموالى الفرس على لغة العرب فى صدر الإسلام ونفوذ الترك على لهجات العرب التى يتكلمونها فى عصرهم الحديث ثابتان وراء حدود الشك ويدلان على أن الناشىء فى لغة ما قد يلحق التعديل بعض عاداته النطقية إذا دفعه الاستعمال والاختلاط إلى عادات نطقية أخرى تحل محلها .

وإذا كان صحيحا أن الطفل يكتسب اللغة بالاحتكاك بمن حوله فيتعلم بالمشاركة والمحاكاة فإن المشاركة والمحاكاة تؤثران فى الكبير كما تؤثران فى الطفل . وإذا كان أثرهما فى الطفل يتمثل فى إعانته على مطابقة الاستعمالات اللغوية فى داخل الأسرة التى هى مجتمعه وعالمه فإن الكبير سيجد فى فسحة الاختلاط أسرة تشمل المتكلمين بلهجات أو ربما بلغات مختلفة ، ولن تكون المشاركة والمحاكاة هنا عاملين من عوامل المطابقة فحسب . وإنما تكونان كذلك عاملين من عوامل التشعب وعدم التجانس فى العادات النطقية للمتكلمين بلهجة واحدة . ومعنى ذلك أن العربى من تميم إذا كان قد رحل إلى مكة فأقام فى قريش مدة من الزمان فلربما رجع إلى أهله بعد ذلك وعلى لسانه نطق ما الحجازية فى مكان ما التميمية ؛ ولربما أقام بين بنى عمومته زمنا وهو يخالفهم فى هذا الاستعمال حتى يتعود لهجته القديمة من جديد . ولو ظفر به راوية أو لغوى فى ذلك الوقت لذهب عند سماعه إلى أن بعض بنى تميم ينطقون ما الحجازية ، وجعل ذلك من كشوفه اللغوية التى يبنى عليها القواعد . ولاشك أن ذلك لو حدث لكان خطأ منهجيا لا يغتفر .

ويظن الكثيرون أن اللغة العربية الفصحى كانت محصورة فى شبه الجزيرة وما تاخمه فى الشمال من إقليمى المناذرة والغساسنة وأن العرب لم يكونوا قبل الإسلام يخالطون غيرهم من الأمم ، وأن صلة الفرس والسريان والنبط والروم والقبط بالعرب صلة لم يأت بها إلا الفتح الإسلامى ؛ ومن ثم ظنت اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام مبرأة من نفوذ جاراتها لا تتأثر بهن ولا تؤثر فيهن ، وأن العربى قبل الإسلام كان ينطق الفصيح ولا يعلك بين شدقيه كلمة أجنبية مهما كانت الظروف ؛ ولكن العربى بعد الإسلام كما يظنون قد « لان جلده » على حد تعبير أبى عمرو حين قالها لأبى خيرة الأعرابى . وهذا خطأ لاشك فيه . وإن وجود بعض الكلمات ذات الأصل الفارسى أو الرومى فى القرآن نفسه لدليل على أن هذه الكلمات قد دخلت لغة العرب قبل الإسلام بمدة كافية لتعريبها وشيوعها فى الاستعمال حتى استحقت شرف الورود فى نص دينى عربى معجز كالقرآن الكريم . ثم هو دليل كذلك على أن التأثير والتأثر عمليتان قديمتان فى علاقة اللغات بعضها ببعض ، وأن ما تجربه اللغة العربية الآن من تعرض لنفوذ اللغات الأجنبية عن شرقها وغربها لا يستحق كل هذا الجزع من أحبار اللغة لأنه ظاهرة اجتماعية لغوية جربتها العربية فى الجاهلية والإسلام ولا تزال تجربها حتى اليوم . وهذا دليل أيضا على أن اللحن فى صدر الإسلام إن كان قد دفع إلى دراسة اللغة التى ورد بها القرآن فما كان ينبغى أن يتعدى ذلك

إلى أن يكون دافعا على تمجيد حالة اللغة العربية التي كانت عليها تمجيداً زاده سوءاً ما جربه العرب فى العصر التركى من جهل وانصراف عن البحث العلمى حتى شهدت الأيام الأولى من نهضتنا العلمية أناسا ذوى آراء غريبة فى اللغة يرون من صالحها أن تظل متحجرة لاتقبل التطور. وقد عادت آراؤهم على دراسة اللغة العربية وعلى هيبة أهل اللغة بأوخم العواقب.

إذن كان العربى دائما ولا يزال يتعلم لغة أسرته طفلا ثم ينمو ويضرب فى أرض الله ويخالط قوما على غير لهجته أو على غير لغته فيؤثر فيهم ويتأثر بهم، ثم يعود إلى أهله وقد عدل من عاداته اللغوية فيؤثر فيهم حينا ويصحح نطقه بصحبتهم حينا آخر.

ولم تكن الموجة التى سموها شيوع اللحن فى صدر الإسلام إلا واحدة من هذه الموجات التى التقى العرب فيها بالمتكلمين بلغات أجنبية. وأغلب الظن أن هذه الموجة لو لم تدفع العرب إلى دراسة اللغة فى ذلك العصر لكانت العربية التى ندرسها الآن على صورة أخرى أحدث عهدا فى التاريخ ولكان من بين مصادر قواعدها أشعار يمنعون الآن الاحتجاج بها فى النحو واللغة. بل لربما صح الاحتجاج بشعر البارودى وحافظ وشوقى وغيرهم من غير ذوى السليقة على نحو ما يفعل الغربيون من الاحتجاج بلغة المعاصرين من أهل الأدب من بينهم.

ولكن بعض علماء اللغة العربية يصورون الأمور فى صورة ملحمة جبارة يشتبك فيها العرب بالأجانب وقد نسبوا للعرب فيها من صدق الطبع فى لغتهم ما كان يجعلهم يعجزون حتى عن ترديد الكلمة التى أرادوا أن ينطقوها نطقا مغايراً للصواب.

يقول ابن جنى: «أخبرنا أبو إسحق ابراهيم بن أحمد القرميسينى عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى عن أبى حاتم سهل ابن محمد السجستانى فى كتابه الكبير فى القراءات قال: قرأ على أعرابى بالحرم «طيبى لهم وحسن مآب» فقلت له طوبى فقال طيبى فأعدت فقلت طوبى فقال طيبى فقلت طوطو قال طىطى. أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيا كزا لا دمثا ولا طيعاً كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء فلم يؤثر فيه التلقين، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين؟ وما ظنك به إذا خلى مع سومه وتساند إلى سليقته ونجره.

فنحن نرى أن السليقة كما راها ابن جنى قد منعت الأعرابى من نطق كلمة فى القرآن كما هى، وإن ابن جنى ليشيد بهذه السليقة على رغم هذه الحقيقة التى فى الخبر. فما هى تلك السليقة المدهشة؟ وأى نوع من السحر هى؟

بل فى أى قسم تقع من أقسام البطولات .

إن العلماء يختلفون فى معناها بين الطبع والاكتساب وإن كان القائلون بالطبع فيها كثرة . لقدم بنا الاقتباس الذى أخذناه من خصائص ابن جنى عن الأعرابى الذى لم يستطع أن يحول الخطأ الذى فى طبعى إلى الصواب الذى فى طوقى بسبب سليقته .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك اقتباسات أخرى من كتاب قدماء ومحدثين يرون أن السليقة طبع .

١ – قال عمار الكلبى :

ماذا لقينا من المستعربين ومن
قياس نحوهم هـذا الذى ابتدعوا

إن قلت قافية بكرا يكون بها
بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا

قالوا لحنت وهـذا ليس منتصبا
وذاك خفض وهذا ليس يرتفع

وحرضوا بين عبد الله من حمق
وبين زيد فطال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم
وبين قوم على إعرابهم طبعوا

ما كل قولى مشروحا لكم فخذوا
ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

لأن أرضى أرض لا تشب بها
نار المجوس ولا تبنى بها البيع

٢ – يقول صاحب المزهر فى صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى : « وإنما مكنت القول فى هذا الموضع ليقوى فى نفسك قوة حس هؤلاء القوم ، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع » .

٣ – قدمنا أن صاحب القاموس يقول فى مادة (س ل ق) :

« ويتكلم بالسليقة أى عن طبعه لا عن تعلم » .

٤ – يقول ابن فارس فى ص٢٣ من كتابه الصاحبى : « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

٥ – يقول الأستاذ ابراهيم مصطفى فى الصفحة الثانية من إحياء النحو :

« وتأليف الكلمات فى كل لغة يجرى على نظام خاص بها لا تكون العبارات مفهمة ولا مصورة لما يراد حتى تجرى عليه ولا تزيغ عنه .

والقوانين التى تمثل هذا النظام وتحدده تستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم وعنها يصدر الكلام ؟ فإذا كشفت ووصفت ودونت فهى علم النحو » .

٥ - يقول الدكتور ابراهيم أنيس فى ص ٧٤ ، ٧٥ من اللهجات العربية :

« ولا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لا يراعى فى حياته العادية حين ينطلق على سجيته » .

نحن نلاحظ أن الشاعر فى أول هـذه الاقتباسات يرى نفسه مطبوعا على الإعراب، فلو أراد أن ينطق بما يعارضه لما استطاع إلى ذلك سبيلا مثله فى ذلك مثل الذى جبل على أن يفرز جسمه العرق فلو أرا أوأراده إنسان أن يفرز من مسامه عطرا لحالت الطبيعة بينه وبين ذلك لأن الطبع يغلب التطبع كما يقولون ، فالعربى فى رأيه يعرب لأنه عربى لا لأنه اكتسب لغة العرب ، وليت هذا كان يعد من مبالغات الشعراء ، إذن لكان مقبولا وطريفا ، وكان يمكن أن يصبح مبالغة شعرية لو أن علماء اللغة لم يؤيدوه فيما ذهب إليه .

فالسيوطى يرى أن العرب فى كلامهم يلاحظون بالمنة والطبع ما لا نلاحظه نحن بطول المباحثة والسماع ، فهم يلاحظون رفع الفاعل ونصب المفعول وإعراب المضارع وبناء الماضى ، واتباع الوصف والعطف والتوكيد والبدل وهلم جرا . وتلك أمور تتطلب من متعلم العربية أن ينتبه إليها إذا أراد أن يكون كلامه صحيحا من الناحية النحوية، ولكنها لم تكن تتطلب من أصحاب السليقة مثل هذا الانتباه لأن هذه الأمور فى طبعهم . وصاحب القاموس لا يكتفى بإثبات الطبع ، وإنما يقوى ذلك بنفى التعلم ، والمقصود بالتعلم اكتساب اللغة فى الصغر أو فى الكبر على حد سواء ، ولا شك أن الناشئ العربى فى كل قبيلة كان كما يقرر ابن فارس يأخذ اللغة تعوداً أى تعلماً واكتسابا ، ولكن ابن فارس لم يحافظ على نقاء رأيه هذا حتى رأيناه يصف قريشاً بقوله : « فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها» وما كان أجدر ابن فارس بالبقاء على الرأى الأول الذى نقله عنه السيوطى وآخرون .

وقد رأينا أن أستاذين معاصرين من ذوى البصر باللغه قد انحازا إلى جانب الطبع . فأما الأستاذ إبراهيم مصطفى فى كلامه عن النظام النحوى للغة رأى أن هـذا النظام يستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم . وإن كلامه هذا وإن لم يركن صراحة إلى القول بالطبع ليبدو فى استعمال كلتى الملكة والنفس فى أثنائه من الغموض ما لم يجعلنى أطمئن اطمئنانا تاما إلى سلكه فى عداد القائلين بالاكتساب . وإنما نسبت الغموض إلى استعماله « الملكة والنفس » لتراوح استعمال هاتين الكلمتين بين دقة الاصطلاح ورخصة

التوسع . فلما لم يتضح لى مقصده بهما رأيت أن أضعه بين القائلين بالطبع وأنبه إلى موقفى منه . وأما الدكتور أنيس فيرى من غير المعقول أن يخطئ صاحب السليقة اللغوية . وإننى بعد أن نشأت على التكلم بلهجة بلدى « الكرنك » وبعد أن بقيت ببلدى هذا حتى الثانية عشرة من عمرى جئت إلى القاهرة فأقمت بها . وكنت أعود إلى الكرنك فى فترة محدودة من صيف كل عام تجعلنى أستعيد اللهجة إلى عاداتى النطقية ومع ذلك أجدنى الآن برغم هذا أقف فى كلامى وسطا بين لهجة الكرنك وبين لهجة القاهرة يخطئنى المتكلمون بكلتيهما فى بعض الأصوات والتراكيب والتعبيرات ، فإذا صح أن صاحب السليقة لا يخطئ فإننى إذن غير صاحب سليقة لا فى القاهرة ولا فى الكرنك ، إلا إذا قيل بأن لكل امرئ سليقته الخاصة ، وتلك مسألة أخرى على أى حال .

ولقد سبق أن قدمنا اقتباسات تقول إن اللغة تكتسب ، وكانت هذه الاقتباسات لكتاب أمريكيين وبريطانيين وعرب ، ونحب أن نضيف إلى ذلك اقتباسا من خصائص ابن جنى إذ يقول فى صفحة ٤٠٥ من الجزء الأول : « وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها . وعلى ذلك العمل فى يومنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا » ... فالفصاحة عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل. أى أن السليقة عنده اكتساب وتعود ، ولو أنها كانت فى نظره طبعا أو سجية أو نحيزة كما كانوا يقولون لما جعل ابن جنى بين أبواب خصائصه « بابا فى العربى الفصيح ينتقل لسانه . » والانتقال فى نظره إما أن يكون إلى لغة فصيحة أو أخرى فاسدة ، فإذا كان الانتقال إلى لغة فصيحة جرى الاحتجاج بكلامه بها وإن كان إلى لغة فاسدة لم يحتج بكلامه . وإن رأى ابن جنى هذا ليعطى الحق لمن تمكن من العربية من أدبائنا المعاصرين أن يحتج بكلامه لأن حكمه حينئذ حكم من انتقل لسانه من القدماء إلى لغة فصيحة .

ولو كانت السليقة طبيعة فى العربى ما وجد اللحن سبيلا إلى كلام العرب ولو تعاونت على خلقه عوامل الأرض والسماء . والذى لا جدال فيه أن اللحن كان معروفا قبل الإسلام وفى وقت ظهوره وأنه كان جائزاً حتى من سادة العرب وأشرافهم . ففى الجزء الأول من الجامع الصحيح للسيوطى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أعرب العرب ولدتنى قريش ونشأت فى سعد بن بكر فأنى يأتينى اللحن ؟ » وإن نفى اللحن عنه صلى الله

عليه وسلم ليعنى أن اللحن كان ظاهرة معروفة حينئذ وأن بعض سادة العرب كانوا يلحنون. ولذلك رأى عليه السلام أن ينص على أنه غير هؤلاء الذين يصدر اللحن منهم. ولقد لحن رجل فى حضرته عليه السلام فقال صلى الله عليه وسلم لمن حوله: «أرشدوا أخاكم فقد ضل». وإن شعراء العربية كانوا موضع اتهام فى الجاهلية والإسلام. فقصة بيت النابغة الذى بدا فيه الإقواء قصة شهيرة، وأشهر منها قصة الفرزدق وعبد الله ابن أبى إسحق الحضرمى النحوى. ويقول ابن فارس: «وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود. بلى للشاعر إذا لم يطرد له الذى يريده فى وزن شعره أن يأتى بما يقوم مقامه بسطا واختصاراً وإبدالا بعد ألا يكون فيما يأتيه مخطئا أو لاحنا». وكان عبدالملك يقول: «شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن». وقد عابوا على مالك بن أنس فى مخاطبة العامة: «مطرنا البارحة مطراً أى مطراً». وكان الحجاج يقول ليحيى بن يعمر النحوى: «أترانى ألحن؟».

نخلص من كل ذلك إلى أن السليقة هى اكتساب اللغة فى مرحلة خاصة من حياة الإنسان هى مرحلة الطفولة، أى أن تعلم الطفل لغة أمه هو السليقة التى كان العرب يتكلمون عنها، وإن أخطأ بعضهم بأن نحا بها منحى الطبع والجبلة. فأما مرد الطبع والجبلة فى اللغة فإلى أن الإنسان بطبعه حيوان ناطق من شأنه ومن طبعه أن يتخذ لنفسه لغة أى لغة فلا يتحتم أن تكون عربية أو فارسية أو هندية أو غير ذلك. وناحية الطبع هذه هى التى اصطلحنا من أول الأمر على أن نسميها الخليقة. فالخليقة إذن تدفع إلى السليقة، أى أن طبع الناطقية يدفع إلى اكتساب لغة بعينها. فالخليقة والسليقة معا هما العنصران اللذان تتكون منهما شخصية المتكلم. بل إننا لو جعلنا معنى الخليقة ينصرف إلى كل ما يولد المرء به من طبائع واستعدادات وصرفنا معنى السليقة إلى كل ما يكتسبه المرء من بيئته كالعادات والتقاليد والمعلومات لكانت الخليقة والسليقة معا ملاك شخصية الإنسان لا باعتباره متكلما فحسب وإنما باعتباره فرداً يعيش فى مجتمع. ودراسة الخليقة اللغوية من منهج الاجتماع ولكن دراسة السليقة اللغوية من منهج اللغة؟

دكتور تمام حسان

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

حول قضية المرأة

مسألة العصمة

للأستاذ منصور رجب

الحديث عن مسألة « العصمة » فى قضية المرأة – هذه القضية التى شغلت العالم من لدن آدم حتى الساعة . الحديث عنها يثير فى النفس مسائل كثيرة :

المسألة الأولى : ما هى العصمة ؟ ...

العصمة وردت فى القرآن الكريم بمعنى الحفظ . يقول الله تبارك وتعالى – فى سورة المائدة – : « والله يعصمك من الناس » [1] – أى يحفظك – ووردت كلمة العصمة أيضا فى القرآن الكريم بمعنى العقد أو السبب . فقال تعالى – فى سورة الممتحنة : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر [2]. الكوافر : جمع كافرة . والعصم جمع عصمة : وهو ما يعتصم به من عقد أو سبب . ولتجلية مدلول العصمة فى هذه الآية الكريمة نذكر سبب نزولها .

كان صلح الحديبية على : أن من أتى المسلمين من الكفار رد إليهم ، ومن أتى الكفار من المسلمين لم يرد . وكتبوا بذلك كتابا وختموه . فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها : مسافر المخزومى . وقيل : صيفى بن الراهب . فقال : يا محمد : أردد إلى امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا . وهذه طية الكتاب لم تجف . فأنزل الله تبارك وتعالى : يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا . . ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . . ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا . . ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

فجاءت هذه الآية الكريمة بيانا لأن الشرط إنما كان فى الرجال دون النساء . ولأن اختلاف الدين يقطع العصمة . ويحل العقدة عقدة النكاح – وعلى ذلك فالعصمة – هنا – هى عقدة النكاح . أو هى عقد الزواج . .

ولما كان الزواج من شأنه أن يحفظ الإنسان من الوقوع فى الفحش والخنا التى مدلوله

---

(١) آية – ٦٧ (٢) آية ١٠

هذه الآية الكريمة مع مدلول الآية الأولى. هذه مسألة .

المسألة الثانية : ما مدلول كلمة العصمة مضافة إلى المرأة حين تقول : عصمة هذه المرأة بيدها .

الطلاق فى الأصل حق الرجل . فهل إذا فوض الرجل امرأته فى أن تطلق نفسها متى شاءت . هل يعتبر هذا تنازلا من الرجل عن حقه فى الطلاق للمرأة ؟ .

كلا : لا يعتبر تنازلا بدليل أن له أن يطلق هو أيضا متى شاء . وإذا لم يكن تنازلا فماذا يكون ؟ .

إنه « تفويض » أو « تخيير » أو « تسليط » ولا يسلب حق الرجل فى الطلاق .

المسألة الثالثة : ما سند إعطاء المرأة حق أن تطلق نفسها متى شاءت ؟ ...

أولا : سندها الإجماع . . هـذا بعد الزواج . . أما قبله كشرط فى العقد . . فقد انقسم فيها الأئمة إلى قسمين : بعضهم أجاز وبعضهم منع .

ثانياً : احتجوا لها أيضاً بآية التخيير . . وهى قوله تبارك وتعالى ـ فى سورة الأحزاب ـ : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا .. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » [1] .

ولآية التخيير هـذه أيضاً سبب . . فقد تظاهر نساء النبى صلى الله عليه وسلم . . تظاهرن عليه يطلبن منـه أن يوسع عليهن فى النفقة والزينة . . تظاهرن عليه حتى أثرن غضبه وموجدته عليهن صلوات الله عليه . . فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال :

دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم . . فأذن لأبى بكر . ثم دخل عمر . فاستأذن فأذن له .. فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالساً حوله نساؤه واجما ساكتا . . فقال أبو بكر : لأقولن شيئاً أضحك النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله .. لو رأيت ابنة خارجة ـ زوجته ـ سألتنى النفقة لقمت إليها فوجأت عنقها ـ وجأعنقها لكزه بيده .. أو لواه ـ فضحك رسول الله وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة .. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها . . وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها .. كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده .. ثم اعتزلهن شهراً . . أو تسعا وعشرين يوما ثم نزلت الآية . . فبـدأ بعائشة . . فقال : يا عائشة : إنى أريد أن أعرض عليك أمراً

---

[1] آية ٢٨ ، ٢٩ .

أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك .. قالت : وما هو يا رسول الله . . فتلا عليها الآية . . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟ . . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . . فقال صلوات الله عليه : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها . . إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا . . ولكن بعثنى معلماً ميسراً .. ثم خيرهن كلهن فاخترن ماهو خيرلهن ـ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

يحتج قوم بآية التخيير هذه على جواز أن يفوض الرجل امرأته فى أن تطلق نفسها متى شاءت .

ويعترض معترض فيقول : إن هذه الآية ليس فيها تفويض الطلاق .. بل كل الذى فيها إنما هو التخيير بين المقام معه صلوات الله عليه وبين أن يفارقنه ، فإذا اخترن أن يفارقنه طلقهن رسول الله بنفسه بدليل قوله تعالى : فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا .

أجيب عن هذا بأنه لما فوض إليهن سبب الفراق ـ وهو اختيار الدنيا ـ جاز أن يفوض إليهن المسبب الذى هو الفراق . وهذا منطق معقول وتخريج مقبول .. وقياس صحيح .

المسألة الرابعة : من الناس من ينكر أو يشمئز من جعل العصمة للمرأة بحجة أن هذا ينافى مسألة القوامة ـ قوامة الرجل على المرأة ـ فالله سبحانه وتعالى يقول ـ فى سورة النساء: «الرجال قوامون على النساء» وبحجة أن المرأة مخلوق عاطفى .. فلو أعطيت لها العصمة لأساءت استعمالها .

مسألة العصمة هذه ليست أصلا فى التشريع الإسلامى .. وإنما هى كاستثناء من القاعدة للضرورة .. فالطلاق فى الأصل حق الرجل .. وللرجل أن يوكل فى حقه . . أو يملك . . أو يفوض . . على أن إعطاء المرأة حق أن تطلق نفسها متى شاءت فيه تحميل المرأة مسئولية هدم بيت الزوجية .. وبذلك تقطع حجتها إذا هى ألبت أهلها على الرجل وآله . وهذا لون من الأدب فيه رحمة بالمرأة.وحنان.. وما أكثر عطف الإسلام على المرأة . فلو قارنا بينه وبين غيره لرأينا أن المرأة لم تنصفها شريعة كما أنصفها الإسلام . . فالتبرم بآدابه وتعاليمه ومبادئه رجوع بالإنسانية إلى الوراء .

فالبرلمان الانجليزى فى عصر هنرى الثامن أصدر قرارا يحرم على النساء قراءة الأناجيل .. فأين هذا من وضع الصحابة المصحف الأول الذى كتب فى عهد أبى بكر رضى الله عنه عن امرأة هى .. حفصة . . أم المؤمنين رضى الله عنها

والبرلمان الإسكوتلاندى فى القرن السادس عشر أصدر قراراً بأن المرأة لايجوز أن تمنح سلطة على أى شىء من الأشياء . فأين هذا

من إعطاء المرأة فى الإسلام حق الملك . . وحق التصرف فى ملكها بما تشاء وكما تشاء .

وشريعة اليهود تفرض للمرأة مهراً لكنها لا تملكه بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقت . . لأنه ليس لها أن تتصرف فى مالها وهى متزوجة . . والإسلام يعطيها المهر ملكا تتصرف فيه متى شاءت وكيفما تشاء . والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين تقول : « المتوفى عنها زوجها إذا لم يترك أولاداً وكان له شقيق أو أخ لأبيه عدت زوجته زوجة له شرعا ولا تحل لغيره ما دام حياً إلا إذا تبرأ منها .

فأين هذا « الحبس » من حرية المتوفى عنها مثل هذا الزوج فى أن تتزوج بمن تشاء وتقول : « على الزوجة خدمة زوجها بشخصها خدمة لا يهينها بها .

والإسلام لا يوجب عليها أن تخدم الرجل مطلقاً بل يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرأة ريحانة ، وليست قهرمانة » .

وإذا كان لى من كلمة بعد هذا الاستطراد الذى جر إليه الحديث عن مسألة على هامش قضية المرأة فهى أن يتفهم الجنسان ـ الرجل والمرأة ـ روح التشريع الإسلامى . . وأن لا نصدر فى تصرفاتنا عن الأنانية البغيضة . فيتقى الله الرجال فى النساء كما أمر بانى المجتمع الصالح « محمد صلى الله عليه وسلم » ، ويتقى الله النساء فيعملن على تنشئة الجيل الذى يحيا . أو ينبغى أن يحيا كما تكون الحياة . والحياة نبوغ وخلق . نبوغ ينشأ فى سكون العزلة . وخلق يكون فى زحمة الدنيا وغمرات الحياة . وللمرأة فى هذه الحياة رسالة كبيرة خطيرة .

إن الإسلام يطلب أن نعرض آدابه وتعاليمه فى سلوكنا . وتصرفاتنا عرضاً يجعلنا نبدو أمة لها شخصيتها ولها إرادتها وكيانها : أمة أصيلة لا تابعة . أمة تحيا فى آدابها وبآدابها هى .

من محاسن الإسلام أنه لا تعتريه « شيوخة » ولا أقول « شيخوخة » فخاء وخاء أمر ثقيل فى النطق وعلى الأذن فى كلمة واحدة . أقول من محاسن الإسلام أنه أوجد لأهله « نوافذ » ينفذون منها أرجو أن تظل مفتوحة . فالإسلام صالح لكل زمان ومكان . فليس علينا إلا أن ننهل من أصوله لنعيش فى زماننا نحن . وبروح عصرنا نحن . وصدق رسول الله صلوات الله عليه : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

إن العصر الذى نعيش فيه ، والضرورات التى تحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم ... وإن الرواسب التى خلفها لنا عصر الاستعمار البغيض كل ذلك يتطلب منا انتفاضة إلى الاعتصام بتعاليم الإسلام الصحيحة لا بأفهام الناس فيه ... وكفى .

منصور رجب

الأستاذ فى كلية أصول الدين

الحلاج

منزلته الحقيقية ومبادئه الصوفية

للدكتور محمد غلاب

لا توجد شخصية من شخصيات صوفية المسلمين فى القرون الأولى للهجرة قد ظفرت من عناية الجماهير واهتمامها بمثل ما ظفرت به شخصية أبى عبد الله الحسين بن منصور الحلاج ، بل إن حياته وآراءه وعباراته وشطحاته قد استهوت ولا تزال حتى الآن تستهوى الجماهير فى جميع الأصقاع التى يسود فيها الإسلام ، وأكثر من ذلك أن الكافة فى عدد غير يسير من البقاع الإسلامية لا تزال مؤمنة بأن الحلاج من أئمة الأولياء ذوى الكرامات التى لا نزاع فيها ولا شحناء ، وذلك بخراسان والأهواز وما إليهما . وليس هذا فحسب ، بل إن العلماء والباحثين والكتاب والشعراء فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى ماضى العصور الإسلامية وحاضرها ، قد افتتنوا بهذه الشخصية العظمى افتتانا بالغا ، وألفوا فى نواحيها المختلفة مئات الكتب ، وأنشئوا مئات القصائد والمقطوعات بلغاتهم المتباينة ، وأساليبهم المتنوعة . فمن ذلك مثلا ما حدثنا به المستشرق الكبير الأستاذ ماسينيون من أنه قد ألف عن الحلاج أكثر من تسعمائة مؤلف ، منها خمسمائة باللغة العربية ، وأكثر من مائتين باللغات الأوروبية ، ومائة باللغة الفارسية ، وسبعون بالتركية ، والباقى بالهندية والسريانية والعبرية . وهذا فى منتهى العجب خصوصا وأن أشياع طريقته قد انقرضوا منذ القرن الخامس ، وأن خصومه من معاصريه قد سوغوا تعذيبه وقتله بمسوغ دينى محدد ، أو على الأقل ألبسوا هذا المسوغ رداء دينيا من شأنه أن يدفع المسلمين إلى إهمال الحلاج والاستهانة به ، بل إلى بغضه ومقته . ولا ريب أن هذه الظاهرة تحمل الباحث العصرى على الاستيقان بأن باب النقاش فى هذا الحادث العظيم لم يغلق بعد ، وتدفعه إلى العودة إليه فى قوة وعناية ، لعله يعثر بين ثنايا التاريخ على بواعث سياسية أو اجتماعية أو شخصية تكون هى التى دفعت أولئك المغرضين إلى اقتراف ما اقترفوا بإزاء هذه الشخصية العظيمة ، لكى يرضى هذا الباحث ضميره من ناحية ، ويبرز الضمير الإسلامى أمام العلماء المحايدين نقيا منزها عن شوائب

الظلم والوهم والتعصب والتسرع والسطحية من ناحية أخرى. وهذا هو الذى حدث فعلا، فقد تبين للمثقفين النزهاء واسعى الأفق أن الحلاج شخصية قوية قضت عليها بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية التى تمثل ذلك العصر أكثر مما تمثل روح الإسلام الحقيقية، ومبادئه التأسيسية. ومن آيات ذلك أن إجماع الأمة المشيد على التقوى الخالصة يوشك أن يكون منعقداً على أن الحلاج كان من الأولياء والصديقين، وأن علماء المسلمين النزهاء الذين لم يخضعوا للأهواء السياسية، ولم تستعبدهم الأحقاد الشخصية، ولم يعمهم التعصب عن إدراك الحقيقة، قد أيدوا هذا الإجماع، وبذلوا فى التدليل عليه جهوداً مقدرة مشكورة. ومما لا ينبغى إغفاله أيضاً فى هذا الصدد ذلك الأثر الأدبى الباهر الذى امتلأت به الأوساط الشعبية فى مختلف البلاد الإسلامية كما شع من آفاق الصفوة الممتازة من شعراء العرب والفرس والهنود والترك الذين اتخذوا من حادثة الحلاج المؤثرة منبعا صافيا انتهلوا منه أبدع نماذج الجمال والحب إلى حد أن الحلاج قد برز فى قصائد أولئك الشعراء كأروع وأكمل مثال للصوفى المسلم المدله فى الحب الإلهى، والذى قضى عليه بالإعدام لا لشىء إلا لأنه ثمل بخمرة هذا الحب، فصاح أثناء هذا الثمل قائلا: «أنا الحق»

ونحن، لكى نسجل هنا يقظة الضمير الإسلامى من جهة، ونسوغ موقف الباحث العصرى المسلم من جهة أخرى، يجب علينا أن نشير إشارة عابرة إلى أولئك الأعلام الذين جزموا بأن الحلاج كان على حق، بل أنه كان من أتقى صوفية المسلمين وأنقاهم، وأنه قتل ظلما، وأن الأهواء قد لعبت فى قضيته دوراً بارزاً، وأن من واجب كل مسلم نزيه أن يقف فى صفه، وأن يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ومن أولئك الأعلام الذين أعلنوا امناصرتهم للحلاج حجة الإسلام الإمام الغزالى وابن خفيف من الأشاعرة وابن عقيل والهروى وعبد القادر الكيلانى من الحنابلة، وعلى القارى من الحنفية ونصير الدين الطوسى، وصدر الدين الشيرازى من المتفلسفين، ونور الله الششترى من الإمامية وغيرهم.

ونحن نعلم علم اليقين أن أولئك الأعلام لا تربطهم بالحلاج صلات خاصة أو منفعة مشتركة، وإنما السبب الذى دفعهم إلى مناصرته فى وسط تلك الأجواء المكفهرة، وهاتيك الفتن الهوجاء العاتية، هو قصة حياته المؤثرة، وإعجابهم بثباته وصبره، وافتتانهم بتلك الصور الصادقة التى رسمها له نزهاء الكتاب والشعراء من معاصريه، ودراستهم الدقيقة. وتأملهم الطويل المتعمق فى منتجاته وأقواله وأفعاله التى تبينوا من خلالها أنها متفقة تمام الاتفاق

مع أسمى ما فى نظرياتهم الشخصية من حقائق تمثل المبادئ الإسلامية الصحيحة ظاهرها وخفيها أصدق تمثيل . ومن أروع العبارات التى أثرت عن أولئك الأعلام قول ابن خفيف : « إذا لم يكن الحلاج مؤمنا بالله ، فليس فى العالم مؤمن واحد » .

ومهما يكن من الأمر ، فإن اتجاهات البحوث الحديثة تكاد تكون مجمعة على أن الحلاج كان ضحية الأهواء والأحقاد وضيق الأفق . وأنه كان بريئا من الأغراض السياسية والثورة الاجتماعية والطعون الدينية براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأن المصدر الوحيد لكارثته ، هو أنه باح بالسر الربانى الذى احتفظ غيره من الصوفية بكتمانه فعاقبه الله على ذلك بأن سلط عليه أشرار خلقه فرموه بما هو منه براء .

كانت هذه النظرة العاجلة ضرورية لتحديد هذه المنزلة الخاصة التى تفرد بها الحلاج بين صوفية المسلمين والتى شغلت من صفحات التاريخ مكانا فسيحا بارزا ، ولنمر الآن مسرعين بتلك الحياة المائجة بالعواصف والأحداث ، مشيرين من تلك الأحداث إلى ما ساهم فى تكوين مذهبه الذى حددته عظاته وتعاليمه العامة تحديدا انتهى إلى تهيئة الفرصة لخصومه باتهامه بالكفر والزندقة على نحو ما سنراه . غير أن حياة الحلاج منذ نشأته إلى تاريخ اعتقاله قد وصلت إلينا فى صورة قصص متفرقة : إما عن طريق أصدقائه كابن خفيف ، وأحمد بن فاتك ، وعلى بن عبد الرحيم القناد ، وإما عن طريق خصومه كالديلمى ، والقاضى محاسن الطنوخى ، ومن إلى أولئك وهؤلاء . ومن ثم فإن تلك القصص المتباينة جاءت مفعمة بالتضارب والتناقض ، ولكن أكثر هذه الروايات اعتدالا وتحددا رواية ابنه حمد . ولذا اعتمد عليها الباحثون رغم أنها تحمل فى داخلها عناصر الحذر منها ، لأنها شهادة ابن لأبيه .

أما الأعوام العشرة الأخيرة التى تلت اعتقاله ، فقد عرفت معرفة واضحة بسبب تفاصيل القضية وما ورد فيها من تسجيلات رسمية حينا ، وملاحظات خاصة مؤسسة على مشاهدات العيان أحيانا . ومهما يكن من الأمر ، فهاك نبذة خاطفة عن هذه الحياة :

ولد أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج فى بيضا حوالى سنة ٢٤٤ هجرية . ولما شب تلقى العلم عن سهل بن عبد الله التسترى الذى اشتهر فى عصره بقوة مبادئه الأخلاقية ، فكان لذلك أثر بعيد فى تأسيس أخلاق تلميذه الناشئ .

وعند ما نفى سهل إلى البصرة تبعه الحلاج ولازمه زمنا . وفى سنة ٢٦٢ هـ ارتحل إلى بغداد حيث تتلمذ على عمرو بن عثمان المكى

زهاء ثمانية عشر شهرا ثم تزوج بابنة أبى يعقوب الاقطع ، سكرتير المكى . ولم يكن الأستاذ مسرورا من هذا الزواج ؛ لأنه كان يحس بأن لتلميذه آراء متعارضة مع آرائه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لم يلبثا أن افترقا . وفى سنة ٢٦٤ هـ التقى بالجنيد ، وكان يعرفه من قبل فتتلمذ عليه وتأثر به تأثرا بالغا ، بل كان أستاذه الأساسى ، ورائد وجدانه ، وهو الذى أرشده إلى الخلوة ، ومرنه على حياة العزلة ، وأمره بارتداء ثياب الصوف البيض التى كانت طابع الصوفية فى ذلك الحين . وفى هذه الحقبة اتصل بابن عطاء اتصالا متين الأواصر لم تنفصم عراه حتى الموت . وعلى أثر عودته من مكة فى سنة ٢٨٢ هـ قطع علاقته بالجنيد أولا ، ثم بأكثر أعلام صوفية بغداد بعد ذلك وارتحل إلى تستر فأقام بها سنتين قاسى أثناءهما عناء شديدا ؛ لأن صوفية هذه المدينة كانوا يهاجمونه فى عنف ولعل القراء الكرام يتعجبون من هذه القطيعة ويدهشون لذلك الهجوم ، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب كما يقولون . وبيان هذه الأسباب : هو أن الحلاج قد اتخذ أساتذته من بين أعلام المحدثين ، ومشاهير أهل السنة المتزمتين الذين كانت جهودهم مقصورة على إرجاع جميع الطقوس الإسلامية إلى ظواهر المأثورات النبوية ، والذين كانت نتائج الفيض الإلهى عندهم تنحصر فى إعداد المؤمنين لأداء واجبات العبادة على أكمل ما يمكن أن يكون ، والذين كانوا يحذرون أشد الحذر من كل انفعال نفسانى ، ويجحدون أتم الجحود قيمة ما يتخيل الإنسان أن قلبه يشعر به ، أو يتصور أن روحه تلمحه . وفى هذا يقول المكى والجنيد إن كل ما يحسب القلب أنه يتصل به من : لذة أو بهجة أو نور أو جمال أو كائن أو شبح ليس لله فيه أدنى دخل ولا أقل علاقة .

هذا هو أساس الأزمة الباطنية التى ألمت بالحلاج ، إذ أنه لم يكن يستطيع أن يحتمل هذا التصوف السلبى ، لأنه كان يعتقد أن ذلك الخمول المجدب ليس من روح الإسلام فى شىء من جهة ، وكان يشعر بانفعالات داخلية ، ويسمع أحاديث باطنية يعتقد أنها آتية من الله من جهة أخرى ، وأن هذه الأحاديث الإلهامية كانت تقدم إليه حلولا لمعضلات فى العبادات ، هى موضع جدل بين أهل السنة وغيرهم من المسلمين ، وأنه كان يقيد هذه الأحاديث الهامة حتى لا ينساها أو يحرفها عن مواضعها . وكما كانت تلك السلبية سببا فى نفور الحلاج من أساتذته ، كانت دعوى الإلهام من جانبه سببا فى نفور أساتذته منه . ومن ذلك ما يحدثنا به القشيرى من أن سبب القطيعة بين المكى والحلاج أنه

فاجأه وهو يسجل بعض تلك الإلهامات فسأله عما يكتب ، فأجابه الحلاج بأنه يكتب كلاما يمكن أن يشبه بالقرآن .

أما منشأ قطيعته مع الجنيد فإنه قد وجه إليه سؤالا عن قيمة الإلهام الباطنى بوصف أنه قاعـــدة من قواعد التقوى والعبادة ، فرفض الجنيد الإجابة على هذا السؤال ثم أطلق على الحلاج اسم المدعى ، أو رجل المطامع . ومنذ ذلك الحين اشتعل لهيب الحرب بين الحلاج وأكثر أهل الحديث وأعلام الصوفية المتمسكين بالظواهر فى بغداد ، فلما اشتدت هذه الحملة ، لم يسع الحلاج إلا أن ينزع ملابس الصوفية وأن يلقى بها جانبا ، وأن يختلط بأهل الدنيا (على حد تعبير بعض المؤرخين) لكى يرشدهم إلى مبادئه . وهكذا قذف بنفسه فى وسط أفكار العصر وثقافته ، فدرس الفلسفة الإغريقية ، ونبذ منطق الأشاعرة واعتنق منطق أرسطو الذى كان يبدو له أكثر مرونة ، وارتبط بالرازى الطبيب وأبى سعيد الجنابى المصلح الاجتماعى وبعض ذوى السلطان كالأمير الحسين بن على الروضى ، ثم ارتحل على أثر ذلك إلى خراسان والأهواز ، وظل يتنقل فى تلك الأصقاع ، وهو يزاول الحياة التنسكية غير مقيد بشعائرها ولا بمظهرها . وكان إذ ذاك متصلا بالجماهير التى تحبه وتلتف حوله ، فيعظها بمداومة الندم ومزاولة الزهد ، ويتحدث إليها عن الضمائر والوجدانات ، وجعل يكشف لمستمعيه ما يدور بخواطرهم وقلوبهم ، ولذا دعوه بحلاج الأسرار . وينبغى أن نسجل هنا أنه قد بقى على هذه الحالة خمسة أعوام كاملة ارتحل بعدها إلى مكة فأدى شعيرة الحج للمرة الثانية ، وكان ذلك فى سنة ٢٩١ هـ ثم عاد إلى بغداد فألفاها على ما كانت عليه من التجهم له والحنق عليه ، فارتحل منها إلى خراسان ، وهناك خطرت له فكرة اقتنع بها اقتناعا قويا وهى أن يرتحل إلى الأصقاع الوثنية ليهدى أهلها إلى الإسلام ، فاتجه إلى الهند ثم إلى التركستان ، وتغلغل فيها إلى حدود الصين . وفى هذه البلاد النائية عرفت قيمته ، ففى الهند كانوا يدعونه بالشفيع ، وفى الصين والتركستان كانوا يسمونه بالمطعم كما كان فريق من أشياعه فى بغداد يطلق عليه اسم المنجذب ، وفريق من أنصاره فى البصرة يلقبه بالمنبهر .

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن هذه الرحلة التى قام بها الحلاج إلى البلاد الوثنية كانت طليعة تلك الحلات الروحية التى وجهها صوفية الإسلام إلى الوثنيين ، فكان لها من النتائج السعيدة فى نشر الإسلام فى تلك الأصقاع أضعاف ما بذله الفاتحون من جهود كما شهد بذلك أعيان المستشرقين الأوربيين والسر

فى هذا النجاح الباهر هو أن أولئك الصوفية كانوا قدوة مثالية فى الفضيلة والتقوى والتضحية والفدائية .

عاد الحلاج بعد ذلك إلى مكة فأدى الحج للمرة الثالثة وأقام بها سنتين ثم ألقى عصا التسيار أخيراً فى بغداد فى سنة ٢٩٦هـ . وهنا غير تيار حياته العملية ، فبدأ سلسلة من العظات العامة أخذ رنينها يجلجل فى أنحاء بغداد ، وجعل يوجهها إلى الكافة ويعرض فيها مذهبه النهائى. ومما هو جدير بالذكر هنا، بل قد يكون هو الأول من نوعه فى البلاد الإسلامية هو أنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومهما يكن من الأمر ، فإن هذا المذهب الذى أعلنه الحلاج وأيده بتلك الخوارق ، تركز أخيرا فيما كان يبدو له أنه هو الغاية الحقيقية للصوفى ، وهو الاتصال بين الله وروح الولى. ومن ثم لم تكن الزهادة الجنيدية السلبية فى رأيه سوى إعداد أولىّ لهذه الغاية المثلى التى عند ما يصل إليها الصوفى يظفر بحظ وافر من الفيض الإلهى ، وبالتالى يستطيع دائما وفى كل شىء أن يعبر عن الإرادة الإلهية ، وأن يكون لسانها الناطق .

ومما تتحتم الإشارة إليه هنا هو أن الحلاج كان يجزم دائما بأن الإله هو الموجود الأسمى المفارق ، وهذا يبرئه تبرئة تامة من تهمة وحدة الوجود التى رماه بها السطحيون حين أساءوا تفسير عبارة « أنا الحق » وإنما كل ما كان الحلاج يؤمن به فى هذا الصدد هو أن الله يمثل فى أرواح أوليائه ، لا عن طريق الحلول التحيزى ، بل بوساطة فيضه التشريفى الذى يرفع أرواح الأتقياء إلى المراتب القدسية . وعنده أن أفعال التقى فى حالة هذا الاتصال ، أى « عين الجمع » تبقى مسيرة بإرادته الشخصية ، منظمة مترابطة بفعل عقله الخاص . ومعنى هذا أن ذلك الاتصال لا يهدف إلى هدم شخصية الصوفى ، بل هو يرمى إلى سموها وكمالها وفوزها بالمساهمة فى الفيض الإلهى .

كان الاتصال الإلهى الذى يقع للحلاج أثناء انجذاباته وغيبوباته ، يتمثل فى مناجاة أليفة ملتهبة مستمرة بين روحه ومحادثها الأسمى الذى تشعر بوجوده فى أعماقها دون كيف ولا انحصار ولا تحيز ولا حلول ، وهى تستعمل فى تلك المناجاة كلمتى : « أنت وأنا » وتتقدم إلى باريها بذاتها وبما تحتويه من آلامها وآمالها ورغباتها وتأسفاتها وندمها وتوبتها ، ولكن ذلك كله فى عبارات عفيفة طاهرة نقية مترفعة عن مواطن العلائق الدنيوية إلى أن قيل : إنه لا يوجد صوفى مسلم قد استعمل عبارات أطهر ولا أعفه

من عبارات الحلاج ، بل إنه لم يلجأ قط إلى المفردات التي تستعمل للتعبير عن الحب البشرى.

حسبنا اليوم هذه الوقفة الخاطفة التي نقفها عند مذهب ذلك الصوفى العظيم آملين أن تتيح لنا الظروف فرصة العودة إليه فى شيء من التفصيل .

بيد أن هذه العظات العامة التى كان الحلاج يعلن فيها ابتهاجه بظفره بالاتصال الإلهى ، لم تلبث أن اصطدمت بسيل من المعارضة فى أوساط الفقهاء والساسة والصوفية حيث أخذوا عليه إفشاء الكرامات والتصريح بالحب المتبادل بين الله والبشر ، ونسبوا إليه التزندق بادعاء الربوبية . وعلى أثر ذلك جعل أعداؤه يسعون سعيا حثيثا حتى ظفروا بفتوى من الفقيه ابن داود الظاهرى تنص على أن كل تصريحاته باطلة ، وأن الشرع يبيح قتله ، وعندما تم لهم ما أرادوا تقرر اعتقاله ، وقد حاول الفرار ، ولكن رجال الشرطة عثروا عليه فى مدينة سوس فاعتقلوه وأرسلوه إلى بغداد فى سنة ٣٠١ هـ .

غير أن الوزير ابن عيسى الذى كان مؤمنا معتدلا ، وتقيا واسع الأفق ، لم يجد ضده سببا محددا يثبت زندقته ، ويقتضى قتله ، فاكتفى بعقابه وإبقائه فى السجن فظل رهينه ثمانية أعوام وسبعة شهور ، وكان هذا السجن أول الأمر قاسيا على نفسه ، ولكن هذه القسوة لم تلبث أن تلاشت أمام صبره وتقواه ، فاعتاد هذه الحياة الجديدة ، وكان نموذجا من نماذج الورع والرضى بالقضاء والقدر وقد دفعت هذه الخطة القلوب إلى الالتفاف حوله رغم ذلك الحجاب الصفيق الذى أقامه السجن بينه وبينهم وكان من بين مقدريه وعارفى فضله نصر القشورى ، وهو إذ ذاك أحد كبار رجال القصر ، فكان يلقبه بالشيخ الصالح ، وقد شاءت الأقدار فى ذلك الحين أن يمرض الخليفة المقتدر ووالدته وأن يكون برؤهما على يد الحلاج لا عن طريق الأدوية والعقاقير ، بل بتلاوة آيات من القرآن الكريم عليهما ، فكان ذلك سببا فى عودة اسمه إلى السطوع فألهب هذا الامتياز قلوب خصومه بالحقد والحسد ، وكان ذلك فى سنة ٣٠٨ هـ ومن سوء حظه أن الوزير حامدا كان يمقت نصر القشورى مقتا شديداً وكان خصوم الحلاج يعرفون ذلك فأشعلوا لهيب القضية من جديد ووكلوا أمرها إلى هذا الوزير المغيظ المحنق الذى لا يعرف فى سبيل إرضاء شهواته السياسية خلقا ولا دينا ، فصمم على قتل الحلاج وسلك لذلك كل الوسائل الممكنة فحاول أن يظفر من القضاة بفتوى تنص على ادعائه الربوبية فلم يفلح ، فلجأ إلى حيلة تزييف مستندات تشهد بأن الحلاج قال بصحة تأدية فريضة الحج فى المنزل إذا

تعذرت تأديتها فى الحرم ، ثم عرض هذه التهمة على القاضى أبى جعفر ابن بهلول فأبى أن يفتى بقتله استنادا إلى أن ناقل الرأى الباطل إذا لم يكن يؤمن به ، فلا شىء عليه ، لأن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأن صاحب هذا الرأى لا يدان إلا إذا سئل فأصر على ما نسب إليه واستتيب فلم يتب ، ولكن الوزير المغرض سرعان ما وجد قاضيا آخر وهو أبو عمر بن يوسف الذى لم يتردد فى أن يفتى بأن تصريح الحلاج هذا زندقة تستوجب الإعدام وأن الحاكم ليس مكلفا باستتابة الزنديق .

وقد انتهز الوزير غيبة ذلك القاضى القوى النزيه ، فعرض هذه الفتوى على المحكمة فأقرتها وأصدرت الحكم بالإعدام على هذا الصوفى العظيم . ولم تنجح جهود نصر القشورى إلا فى تأخير التنفيذ بضعة أيام . وأخيرا تم ذلك فى ٢٤ ذى القعدة من سنة ٣٠٩ ه .

أما قصص تعذيبه الشهير المعروف، ولوحة التنكيل به فهى كثيرة ، وقد بقيت لنا منها روايات ابنه حمد وابن خفيف ، وابن زنجى كاتب المحكمة ، وشقيق أحمد بن فاتك ، وأبى بكر الشبلى ومن إليهم .

على أنه ينبغى لنا قبل مغادرة هذا الموقف أن نعلن أن قصص حياة الحلاج واتهامه ، وقضيته وتعذيبه وموته لم تكشف لنا إلا جانبا محدودا من جوانبه المتشعبة التى يعتبر من أهمها التغلغل إلى أعماق مذهبه والتمعن فى أسسه الرئيسية على ضوء عبارات « أنا الحق » و « ما فى الجبة إلا الله » وما شاكل ذلك ثم إبانة المنزلة الحقيقية التى شغلها الحلاج فى الأفق الإسلامى فيما يرى الفقهاء وأهل الحديث وأعلام التصوف الإسلامى وأفذاذ الباحثين المحدثين الذين صرح أحدهم بأن تاريخ الحلاج لم يبدأ إلا بعد وفاته .

الدكتور محمد غلاب

غنى النفس

قال محمود الوراق :

من كان ذا مال كثير ولم	يقنع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وإن	كان مقلا فهو المكثر
الفقر فى النفس وفيها الغنى	وفى غنى النفس الغنى الأكبر

وحي النصر

للأستاذ أحمد أحمد شلباية

أليست هذه القناة لنا ؟ أليست الأرض أرضنا ؟ أليس من حفرها هم آباؤنا وأجدادنا ؟ فما بال الذين لم يدفعوا فيها درهما يأخذون منها الملايين ، ما بال الذين لم يبذلوا فى سبيلها نقطة من عرق يتحكمون فى مصيرها ويحكمون ؟ ما بالهم عند ما سمعوا بتأميمها تكاد قلوبهم تتميز من الغيظ ، وأفئدتهم تنفطر من الهم ، وجوانحهم تتمزق من اللوعة.

كأنما كان علينا أن نظل هكذا : حياة بلا أمل ، وأملا بلا عمل ، وعملا بلا فائدة ، أو فائدة تعود على غيرنا ونحن ننظر ، وتحمل على ظهورنا ونحن نئن ، وتساق إلى عدونا ليقتلنا بها . كأنما كان علينا أن نكد .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

ونردد فى حيرة قول شوقى :

أحـرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس

ونتعثر فى جهالة :

كالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

كأنما كان علينا أن نؤمم الخطأ ، ونقنع بالضيق ، ونرضى بالكفاف ، ونقبل الهوان . ما دام آباؤنا قد قبلوه عن إكراه فيجب أن نقبله عن رضا . وما دام آباؤنا قد أجبروا عليه عن فاقة فيجب أن نجبر عليه عن غنى. وما دام آباؤنا قد التبس عليهم وجه الحق فيجب علينا أن نؤثر وجه الباطل عن عمد وقصد كأنما كان علينا أن نتابع السير ولو عن ضلالة ، ونغط فى النوم كأهل الكهف ، ونستلقى على ظهورنا إلى الأبد ، لا يصح أن نتحرك إلا بأدب ، ولا ينبغى أن نفتح عيوننا إلا بانكسار ، ولا يحق لنا أن نقول إلا ما يرضى السيد الآمر ويشرح صدر المستعمر وينم عن إحسان وعرفان .

كأنما كان علينا أن نزرع وغيرنا يحصد ، أن نشقى وغيرنا يسعد ، أن نبنى وغيرنا يسكن . أن نكد وغيرنا يجنى ثمرة الكفاح . لا يصح للمظلوم أن يرفع ظلامته إلا إلى الله ، ولا للمهموم أن ينفث همومه إلا فى صدره ، ولا ينبغى أن نرفع عيوننا إلا بالبكاء ،

ولا أن نمد أيدينا إلا باستجداء ، ولا أن نرفع أصواتنا إلا برجاء وتضرع وخشية .

كأنما كان علينا أن نقبل الظلم على أنه قضاء لا يرد ، على أنه كتاب لا يأتيه الباطل ، على أنه دستور له حرمته وله جلاله ، على أنه سنة من سنن الحياة ، على أنه زمن تولى وذهب والذاهب لا يعود ، على أنه قضية بديهية لا تقبل الجدال والشك ، على أنه خير ونعمة وبركة ، ورد الخير حماقة ، وغمط النعمة كفران ، وجحود البركة جهل ..! فإذا استرد صاحب الحق حقه صار مبطلا لأن حقه بمرور الزمن تحول إلى باطل ، وإذا قام المظلوم ونفض عن رأسه غبار الظلم صار ظالما ؛ لأن ظلمهم بتقادم العهد تحول إلى عدل . وإذا قام صاحب المال فأخذ المال من سارقه فقد صار سارقا ؛ لأن السرقة لها فى كل زمان تعريف ، وفى كل دولة رسم . وإذا قام المغتصب يطالب من غاصبه حقه المسلوب فقد صار غاصبا ، كافراً بالقيم ؛ لأن انتفاع الغرب بأرزاقنا قيم ، وامتصاصه لدمائنا دين . وإذا قامت مصر وأممت قناتها لأنها قناتها ، ولأن الأرض أرضها ، ولأن أهلها هم الذين حفروها بأيديهم فقد جاوزت الحد وتجرأت على المبادئ وخرجت على القانون ، وتعدت على اللوائح ، وأسرفت فى الظلم ، وأمعنت فى السرقة ، وبالغت فى الجريمة وهذا منطق ، منطق القوى مع الضعيف ، منطق الاستعمار عندما تنتفخ اوداجه ، وتتصلب عروقه ، ويحتدم وجهه ، فيذل الشعوب ويستعبدها ، ويغتصب أرزاقها وأقواتها ، ويتركها جثثا هامدة لا حراك بها .

ولكن تأميم القناة كان لطمة قوية أصابت العدو فى عقله فأخذ يهذى كمن به مس ويتخبط كالأعشى ، واختلط عليه أمره ، وفسد عليه تدبيره ، وأصبح أعجز من أن يرسم الطريق لنفسه .

وأصابته فى ضميره ، فنسى العهود والمواثيق ونسى الواجبات والحقوق ، ونسى المروءة وأصحاب المروءة ، ونسى الفضل وصاحب الفضل .

وأصابته فى عظمته ففقد كبرياءه وفقد ثقته فى نفسه ، واستعان بغيره واستجار بسواه ، ليهاجم دولة صغيرة جثم على صدرها كالكابوس أكثر من ثمانين عاما ،

وأصابته فى فلسفته وفى منطقه على حد سواء . فإذا بمكره ودهائه ، وإذا بقوته وجبروته وإذا باستعماره وإذلاله ، وإذا بخبرة العمر وتجارب الزمن ، إذا كل أولئك كأنها آلات دمرت نفسها بنفسها وصارت مخلفات ...

ونظر العدو فوجد نفسه أمام أمة صغيرة ولكنها أكبر منه ، أمة لا تزال فى المهد ولكنها أقوى من الشباب ، أمة لم يكد يخلو عنها عدوها حتى هبت كالعاصفة ، وانطلقت كالمارد تمسح العار عنها لتلطخ به جبينه ، وتسترد أموالها فى عزة ؛ لتلهب بالحرمان

جوفه . وتستمرئ أرزاقها فى سعادة لتقطع بالمرارة أحشاءه ، وتبنى سدها العالى فى عزم وهمة فى كرامة وعظمة ، ليموت فى حمأة الضلال بغيظه ، وتضيف إلى ميزانيتها كل عام أكثر من خمسين مليونا من الجنيهات كان بها العدو ينعم ويسعد ، ويشرب ويطرب ، ويزهو ويختال .

نظر العدو فوجد كل ذلك يحدث أمامه ، على مرأى منه ومسمع ، فأخذته العزة بالإثم وكبر على حكومة المحافظين أن ترى أسدها البريطانى يتجمد وكأنما أصيب بالشلل ، أمام الفريسة التى كان بالأمس القريب ينشب أظفاره فى لحمها ، وأن ترى شمسها التى كانت لا تغيب عنها وعن بلادها لحظة واحدة تغطيها سحابة سوداء .

وعز على جى موليه أن يرى تراث نابليون وقد أصبح أطمارا بالية اتسعت خروقها على الراقع ، وكشفت عن هزال شبه ناد أما يكون بالسل ، وأن يرى كل يوم جديد يجئ ومعه هم جديد .

وعظم على كلتا الحكومتين أن ينتهى حسابها فى القناة إلى هذا الحد ليتحول إلى رصيد عدوها فى الجزائر أو فى عدن أو فى عمان أو فى البحرين ، وأقض المضاجع الوثيرة وشتت الرقاد عن العيون الزرق أن يكون هذا أول البعث فى أمة العرب ، وأن يتبع تأميم القناة فى مصر تأميم البترول فى العراق وفى الكويت ، ويومها يقف الضجيج الهادر فى المصانع ، والهدير الزاخر فى المتاجر ، والتنافس الصاعد إلى أبواب المجد والمدنية والسيطرة ، ويومها تصبح كلتا الدولتين رهين العجز والضعف والفاقة ، ويومها بعد هذا وذاك تصبح كلتا الدولتين غير آمنة فى السلم والحرب ، فلن تسلم فى السلم من مرارة الانتقام ولن تنجو فى الحرب من غضبة الجبار .

وابتدأت المسرحية ووقف الأسد البريطانى يهز ذيله فى غرور ، ويميل برأسه فى خيلاء ويكشر عن أنيابه فى غضب ، وجلس العالم أمام المسرح يراقب باهتمام فصول المسرحية .

الأساطيل تتحرك ، هذه ناقلة الجنود وتلك حاملة الطائرات ، هذه تحمل المعدات الثقيلة وتلك تحمل الذخيرة ، هذا قائد القوات البرية وذلك قائد القوات البحرية ، هذه القطع قادمة من لندن وتلك قادمة من باريس ، وهذه الاجتماعات بعضها سرى وبعضها علنى وإيدن يطير إلى فرنسا ، وجى موليه يطير إلى لندن . وهذه جلسة تضم القيادة العليا فى قبرص ، الوزارة الانجليزية تعقد جلسة مستعجلة برئاسة إيدن ، والوزارة الفرنسية تنعقد إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكن كل هذه التجمعات كل هذه التحركات ، هذه الحرب الباردة لم تستطع أن تغير من اتجاه الشاب الأسمر ، ولا أن تزحزحه من مكانه ، ولا أن تطفئ الابتسامة التى تتلألأ على شفتيه .

وقالوا نجادلهم بالتى هى أحسن ، فتحاكموا إلى مجلس الأمن ، ومع أن المجلس مجلسهم ، يدين لهم بالولاء والطاعة ، فإنه لم يستطع أن يشوه وجه الحق ولا أن يزين وجه الباطل ، فردهم على أعقابهم .

وقالوا لا يحسنون إدارة القناة وسحبوا المرشدين الأجانب ، وألق فى روعهم أننا سنعجز لا محالة ، وأن العالم من حولنا سوف يضحك علينا ، فإذا بالمصريين يتقدمون ويعملون بالليل والنهار فى مهارة وإتقان ، وإذا بالعالم يصفق لنا .

وجلس العدو بعد هذه الجولة يلتقط أنفاسه المبهورة ، ويستجمع قواه المتفرقة ويراجع كشف الحساب الذى أعده بنفسه ، وجد المسكين أن الركائز التى أعدها تميد من تحته ، وأن القواعد التى بناها تنهال على رأسه ، وأن الآمال التى كان يشيد منها ناطحات السحاب ذهبت أدراج الرياح ، وبدلا من أن يكون سحب المرشدين وبالا على مصر أصبح والحمد لله خيرا لها ونعمة ، تم به تأمين العمل بالقناة وصار المصريون وحدهم هم الذين يملكون أمر المرور فيها ، وبدلا من أن يكون مجلس الأمن آلة طيعة فى يد الغرب وزرا كهربائيا يضغط عليه فى الوقت المناسب ، فقد تحول وجهه نحو الحق واستطاع أن يثبت وجوده وأن يبلغ رشده . وبدلا من أن تكون الحرب الباردة حركة بارعة يقصد بها تجميد القوى وترويع النفوس وإثارة المخاوف ووضع العالم على شفا الهاوية ، فقد تجردت الحرب الباردة من معناها ، فبدد أعاصيرها الوعى الحق ، ووزع ضبابها الفهم الصحيح ، وكسر حدتها الصمود الراسخ ، وأذاب جليدها الصبر والثقة والصلابة والإيمان .

ورأى المسكين أن الشبكة التى ألقاها تلتف حول عنقه ، وأن السهام التى ريشها قد ارتدت إلى نحره ، وأن المدفع الذى صوبه قد استدار إلى صدره ، فركب رأسه والرأس جموح ، وأطاع نفسه والنفس أمارة ، وتبع هواه والهوى أعمى ، وتمنطق بالحماقة والحماقة داء ، ولحق بالشيطان والشيطان مضل ، وحرك ذنبه الأبتر فتحرك إلى سيناء ، لتدفع إسرائيل ثمن وجودها ، لتدفع ضريبة بقائها ، لتؤدى رسالتها رسالة الخراب والدمار والقلاقل والفتن ، وتأخذ لقاء كل ذلك ملك سليمان . وأعلنت انجلترا وفرنسا أنهما سيقومان بعمل بوليسى ، يقف من الفريقين المتخاصمين . من أجل ذلك طيرت إلى مصر آلاف الطائرات فغطت وجه الشمس ، الشمس التى لا تغيب عن بلادها وأبحرت عشرات السفن الحربية فغطت البحار ، البحار التى نحن وراءها . وألقت مئات القنابل على الأهالى العزل وهذا هو العمل البوليسى ، وأشعلت

النيران فى المساجد والمعابد والمدارس وهذا هو السلام ، وقطعوا المياه عن الشيوخ والأطفال والعجزة وهذه هى الديمقراطية ، وغطوا وجه الأرض بالجثث والأشلاء وهذه هى الإنسانية وهذه هى الرحمة .

ومن بين اللهيب المرتفع والدخان الكثيف ، من تحت الأنقاض المتهدمة والأحجار المشتعلة من بين الدماء الغزيرة والعظام المتناثرة ، من دوى المدافع وانفجار القنابل ، ومن كل أولئك تكونت ملامح بورسعيد ، كعذراء تدافع عن شرفها بحرارة ، كقديسة تدافع عن عقيدتها بإيمان ، كأم تفتدى أكبادها بصدق ، كشواظ من نار أحال العدو إلى رماد ، كبركان ثائر يقذف بالردى والحمم ، كعاصفة هوجاء تدمر كل شىء بأمر ربها ، كبطلة تعرف تاريخها فى التاريخ ببسالة ، كأنشودة تهز أعطاف الزمان فى فخار ، كلحن أبدى يتخذه الخلود شعاره ، كحكمة بالغة ، كعظة ساطعة : أن زمن القوة قد راح ، وأن الحق أمضى سلاح ، وأن جواد العدوان عاثر ، وأن حظ الطغيان خاسر ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

وفى لذة ونشوة داعبت العيون الزرق أحلام وصور ، وفى متعة وحنان أمالت الشعر الأصفر نسمات رطبة من الآمال والأمانى ، وفى ثقة واعتزاز حدثت الثالوث المغرور نفسه : أن اللقمة سائغة لا تحتاج إلى عناء ، وأن الحمل وحده قد تخلف عن الراعى ، وأن البيت مفتوح ليس عليه حارس ، وأن الطريق معبد ليس فيه صعاب ، وأن مصر من طول ما قاست من ذلة واستعباد أصبح الانحناء فيها عبادة ، وصار الاستسلام فيها طبيعة ، وغدا الهوان فى أخلاقها كرامة ، وما هو إلا أن يطل الاستعمار بوجهه من جديد ـ ومصر لا تطيق فراقه ـ حتى تتخلص من حال بينها وبينه ، فعدل ظهرها المقوس ، ورفع ظهرها المنكس ، ومحا من قاموسها كلمات الذل والهوان والعجز وهكذا حدثت الثالوث نفسه ، وهذا آخر ما وصل إليه علم المخابرات والجاسوسية .

فكنت ـ يا بور سعيد الغصة القاتلة واللقمة المسمومة ، تساقط الأعداء دونك فكانوا كهشيم المحتظر أو كعصف مأكول ، وكنت ـ يا بور سعيد ـ العناية المهداة والرحمة الواسعة ، تجمعت من حولك أمة العرب ، واهتدى بهديك القطيع الضال ، واستيقظ على صوتك ضمير العالم ، وكنت ـ يا بور سيعد ـ رمز الكفاح المر والجهاد الحق ، حين وزعت حول العرين أسودك تنقض فى غير رحمة ، وطيرت فى السماء بزاتك ترمى بالصواعق والشهب ، وفجرت من تحت أطباق الماء الموت الأحمر حتى عرف العدو

إن للبيت ربا يحميه ، وكنت - يا بور سعيد - فى الطريق الذى ظنوه طريق الملذات جاءوا ليقضوا بين حواشيه الخضر نزهة قصيرة ، أو فترة سعيدة ، أو رحلة ميمونة يعودون بعدها إلى بلادهم وبأيديهم مقاليد الحكم فى الشرق ، ومفاتيح الأمر فى القناة ، والقول الفصل فى العالم . ولكنك كنت - يا بور سعيد - الطريق إلى النهاية ، النهاية المؤلمة الحزينة ، والألغام التى فصلت الرءوس عن الأجسام ، وأحالت الثقة إلى أوهام ، وردت الحقائق إلى خيبة ، وكنت الصخرة العاتية التى تحطمت عليها آمال الاستعمار ، وتكسرت سهام الأعداء .

لم أنس - يا بور سعيد - طائراتهم وهى تتساقط كالذباب ثم تصير رماداً ، ولا أساطيلهم وهى تهرب كالجرذان وقد كانت تمخر العباب فى ثقة وشمم ، ولا أبناءك الغر الميامين وهم يستقبلون الموت فيستحيل أمامهم إلى حياة ، ويبذلون دماءهم فتتحول هذه الدماء إلى عظمة ، ويقدمون أرواحهم فتطير إلى عالم المجد والخلود والنور . لم أنس أطفالك - يا بور سعيد - وهم يجاهدون فى الشوارع ، ولا نساءك وهن يقاومن فى البيوت ، ولا شبابك وهم يردون العار فى عزم وثبات . ولا جول جمال وهو يتقدم إلى غرنسا فيلطخ أمجادها بالخزى ، ويذل أنفها الأعز ، ويصرع باطلها المغرور ، وتهن أسطولها المتكبر ، ثم تعود روحه لتكون أول لبنة فى بناء الوحدة ، وأكبر شاهد على قومية العرب .

من بين ضجيج المدافع وانفجار الألغام لم أنس صوتك - يا بورسعيد - وهو يدوى فيهز أركان لندن وباريس وتل أبيب ، يتردد صداه فى جوانب الوطن العربى كله متدفقا مع البترول الذى يسيل على أرض سوريا بعد تحطيم الأنابيب ، قويا مع دماء الشهداء فى النجف وكربلاء بالعراق على أيدى الأذناب ، صادقا مع الشعور الجياش الملتهب أمام السفارة المصرية فى بيروت ، عزيزاً كإباء الملك العزيز وهو يمنع نزول الطائرات على أرض ليبيا ، أبيا مع النفوس الأبية للعمال العرب وهم يصرون ولو ضاقت بهم الحياة ، وانقطعت أرزاقهم وربطوا الأحجار على بطونهم من الجوع .

أليس هذا هو القومية العربية ، وإلا فما الذى جمع بالعرب ما تفرق ، وألف بهم ما تنافر ، وقرب بهم ما تباعد ، وزين إليهم الشهادة ، وحبب إليهم الزهادة ، وجعلهم إخوانا فى الله فى السلم والحرب ، فى الحياة والموت ، فى السراء والضراء .

ولم أنس فى زحمة الأفراح - يا بور سعيد - أصدقاءنا الذين وقفوا إلى جانبنا ساعة البأس .

لم أنس الإنذار الروسى وقد أصطكت له أسنان العدو رعباً وفزعاً ، ولا الحشد الصينى وهو يتدفق على السفارة المصرية للتطوع ، ولا استقالة همرشولد وهو يقدمها فى جد وحزم احتجاجا وسخطا ، ولا العالم كله يوم وقف فى هيئة الأمم ليحق الحق ويبطل الباطل ولم يكن مع أعدائنا وأسفاه إلا أصواتهم التى لا تكاد تبين .

ووقع الأعداء الثلاثة فى حيرة وارتباك : مصالحهم فى بلاد العرب قد توقفت وأصيبت بالشلل ، وسمعتهم أمام العالم قد دمغت بالعدوان وهم الذين زعموا أنهم قوة من البوليس ، وهيبتهم قد انتهت وأصبحت دولهم من الدرجة الثالثة أو الرابعة وقد كانت دولا عظمى ، ومدينة واحدة ردتهم على أعقابهم وهم الذين جاءوا فى نزهة قصيرة يعودون بعدها وبأيديهم مفاتيح الغيب ، أو هم الذين جاءوا ليحتلوا أرض مصر فى أربع وعشرين ساعة .

وسقطت الأقنعة الرثة البالية فكشفت عن وجوده كوجوده القردة الخاسئين ، وأذابت قطرات العرق والخزى والعار ما على الوجنات من مساحيق وأصباغ فبدت كأنها وجوه الشياطين ، فإذا بالجمال كان صناعيا ، وإذا بالسلام والحرية والديمقراطية ألوان زائفة ، وعناوين خادعة ، وألفاظ ليس لمعناها عندهم وجود ، وشباك من حرير ليقع فيها البله والمساكين ، وبيدك الصغيرة - يا بور سعيد - انتزعت الأنياب المذهبة نابا بعد ناب ، والتى كانت تشع من بعيد ، فيظن العالم أن الليث يبتسم .

ورجعت إسرائيل لا يملك سليمان وإنما بخفى حنين ، ورجع الأسد البريطانى يهز ذيله ولكن فى خيبة وانكسار ، وقد تأكدت القناة لأهلها ، وزاد عبدالناصر قوة وصلابة وعاد الجيش الفرنسى يضيف إلى هزائمه فى الجزائر هزيمة نكراء لا ينساها التاريخ ، ولا يمحوها الزمن .

واليوم تقف وفودهم فى استجداء تلح فى الاستغفار وتلحف فى الرجاء ، وتسرف فى الندم . فما رأيك - يا بورسعيد - أتتوب على من تاب ؟

ولكننا لم ننس ، ولن ننسى شهداءنا الأبرار ، ولا أبطالنا الميامين . لن ننسى أخواتنا الذين آزرونا ولا أصدقاءنا الذين وقفوا إلى جوارنا ، ولا العالم كله ، ولن ننسى عدونا يوم حجب عنا السماء بطائراته ، وغطى وجه الماء بأساطيله ، وألقى فوق رءوسنا آلاف القنابل ، لن ننسى ، وليحفظ الزمن ، وليشهد التاريخ ...

أحمد أحمد جلباية
مبعوث الأزهر فى لبنان

البابا السابق يعترف بالإسلام

ولكن المنية حالت دون إعلان هذا الاعتراف

للأستاذ محمد عبد الله السمان

« إن البابا السابق الراحل كان قد ألف لجنة لدراسة القرآن والدين الإسلامي ورسالة محمد ، وإن اللجنة رفعت لقداسته تقريرها .

وبعد مراجعة ودراسة طويلة اقتنع البابا السابق بأن رسالة محمد رسالة صحيحة سليمة من عند الله ، وقرر أن يعلن ذلك ولكن وافته المنية .

فلما خلفه البابا الحالي وجد البحث ووجد القرار ... فإذا أعلن ... فسوف يكون خبر العام الجديد » .

هذا هو الخبر الذي نشرته مجلة المصور القاهرية في عدد ٢٣ ديسمبر الماضي تحت عنوان : جاسوسيتنا تقول : والمعروف أن أخبار الجاسوسية في مجلة المصور إنما يحررها ويتحراها بدقة الأستاذ فكرى أباظه رئيس التحرير ، وهو من الأمثلة الطيبة لكبار الصحفيين الذين يحترمون رسالتهم الصحفية ويحوطونها بمزيج من النزاهة والدقة والضمير ...

والذين قرءوا هذا الخبر آلمهم أن المنية قد وافت البابا السابق قبل أن يعلن رأيه ، لا لأنهم كانوا يتوقعون دخول المسيحيين جميعا في الإسلام فيزداد عدداً وقوة ، ولكن لأن مثل هذا الإعلان كان سيسهم بنصيب كبير في حل مشكلة السلام حلا سريعا حاسما ، هذه المشكلة التي تقف المطامع لها بالمرصاد لتزيدها تعقيداً على تعقيدها .

فمن جانب : كان من الممكن أن يتحد العالمان : الإسلامي والمسيحي اتحادا صادقا ضد الشيوعية الإلحادية ، التي هي طرف له خطورته في مشكلة السلام ، وهذا الاتحاد لن يكون يوما ما صادقا إلا إذا اعترفت المسيحية بالإسلام كدين سماوي ، كما اعترف الإسلام من قبل بالمسيحية دينا سماويا ، وكل اتحاد لا يقوم على هذا الأساس لن يكتب له ذرة من النجاح ، والمحاولات التي تقتضيها ظروف سياسية هي محاولات يشوبها النفاق السياسي في أجلى مظاهره ، ويجعل منها بناء هشا لا يصمد أمام نسمات الهواء الوديعة .

إن أتباع كلا هذين الدينين الكبيرين يعيشون في ظل عقيدتهم ، ولا يمكن لاتحاد بينهما أن يكون ما دامت العقيدتان تعيشان إلى اليوم على طرفي نقيض .

ومن جانب آخر : كان من المؤكد بعد

إعلان اعتراف البابا السابق الراحل أن يزول التوتر العقيدى وأثره السياسى بين المسلمين والمسيحيين فى شتى بقاع العالم .

وهذا التوتر بدأ منذ ظهور الإسلام ولا زال إلى اليوم ، ونحن حين نحاول الزعم بتلاشى هذا التوتر فكأنما نزعم ألا وجود لهذا الوجود فى الحياة .

وقد بدأ بهذا التوتر العالم المسيحى أولا .

فالإسلام ظهر فى جزيرة العرب معترفا بكلتا اليهودية والمسيحية دينا كتابيا سماويا مع تحوير فى أصليهما اقتضته ظروف سياسية ، ومع ذلك فقد أعلن حرية العقيدة لأتباعهما فى ظل الإسلام بعيداً عن جزيرة العرب كمنطقة محرمة يجب أن تكون مؤمنة للدين الجديد .

ولم يفكر الإسلام فى غزو الروم التى هى مركز المسيحية حينذاك ، إلا بعد أن تأكد لديه سوء نية الروم وظهرت بوادرها حين أعدت العدة وجمعت الجموع لاغتيال دعوة الإسلام وهى فى خضرة العمر ... ومنذ ذاك الوقت إلى يومنا هـــذا لم تهادن المسيحية الإسلام يوما واحداً ، رغم أن الإسلام قد أعلن سياسته واضحة ، وهى تقوم على أساس التسامح مع أهل الكتاب جميعا فى ظل قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ، والعدل معهم فى ظل قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ... » ومع هذه السياسة الواضحة العادلة النزيهة لم تتخل المسيحية فى إطار دولها القوية عن أحقادها ضد الإسلام وبلاده يوما واحداً ، وما ذاقه الإسلام وشعوبه على أيدى الاستعمار الصليبي قد سجله التاريخ ـ ولا زال يسجل ـ صفحات سوداء هى بريئة من روح المسيحية الحقة ، وإن لم تبرأ من العقليات الصليبية المتحجرة ..

ونحن لا نحاول أن نقلب صفحات الحروب الصليبية السابقة التى استمرت من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر ، والتى كانت الكنيسة مدبرها وقائدها ، وباعت فى سبيلها صكوك الغفران للسذج البله لتجمع نفقات حملاتها البربرية باسم الصليب ، وقد اشترك فى الحرب الثانية منها جيش من الرهبان مكون من فرقتى : الداوية والاسبتارية ، مع أن الرهبان مهمتهم العزوف عن الدنيا بما فيها ومن فيها .

ونحن لا نحاول أيضا ، أن نقلب صفحات الحروب الصليبية الحديثة وهى امتداد لروح الحروب الصليبية القديمة ، ولكنها فى إهاب آخر اسمه الاستعمار ، الذى انقض ولا زال ينقض على ديار الإسلام بوحشية وجشع ووقاحة ...

ونحن لا نحاول ثالثا : أن نقلب صفحات الفكر الصليبي الذى هو تمهيد لهذا الاستعمار الصليبي الحديث ، ولكنه فى هذه الحال باسم التبشير ، وهو يمثل خطراً داهما محققا ...

ولكننا لا نجد بدآ من أن نؤكد من أن هناك فى كلا الميدانين : الاستعمار الصليبى والفكر الصليبى ، دافعاً واحداً وهدفا واحداً أيضاً ...

أما الدافع فهو العقيدة الصليبية . . وأما الهدف فهو السيطرة الصليبية على أنقاض الإسلام .. وإليك مثلا ولدينا منه الكثير ، وهو من إيطاليا قلب المسيحية :

فقد غزت إيطاليا ليبيا المسلمة عام ١٩١١م وليس بين البلدين أية روابط تذكر ، ولا أية مطامع إلا المطمع الصليبى ، وأنفقت فى هذا العام زهاء مائة مليون جنيه فى حملتها على ليبيا ، وحسبك أن تقرأ معى هذا النشيد الطليانى الذى ردده الشباب الإيطالى خلال الغزو :

« إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره أن لا يحارب فى سبيل وطنه مع دوام القتال فى طرابلس ، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة :

يا أماه ... أتمى صلاتك ولا تبكى . . بل اضحكى وتأملى .. ألا تعلمين أن إيطالية تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسروراً لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان .

سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن . . .

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليـًا حقا .

يا أماه أنا مسافر . . ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلق سفائننا المراسى ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى ، وذلك القطر تحت ظلها . .

لا تموتى لأننا فى طريق الحياة ، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك . . ولكن اذهبى فى كل مساء وزورى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك ، وإن سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبيه :

إنه مات فى « محاربة الإسلام . . »

وإليك مثلا آخر من فرنسا قلب الكاثوليكية المتعطشة :

ففرنسا لم تكن لتقنع بالاستيلاء على شمال إفريقيا ، ولكن لها هدفا صليبيا أكثر تعمقا فى الصليبية الجشعة ، وهو تنصير البربر المغربى لتضم إلى الكاثوليكية ثمانية ملايين من البربر المسلمين . .

وإليك مثلا ثالثاً من الدول الصليبية جمعاء على اختلاف مذاهبها المسيحية :

فالريف المغربى يثور فى وجه أسبانيا المسيحية ، ويفتك بزهاء ستة وعشرين ألفاً من جنودها ، واستصرخت أسبانيا النخوة الصليبية ، فاستجابت فرنسا وحشدت مع الأسبان ثلاثمائة ألف مقاتل ، وأدركتهما أمريكا بطائراتها المقاتلة ، وتم لهم محاصرة منطقة الريف البالغ عدد سكانها قرابة ثلاثة

أرباع المليون : براً وبحراً وجواً، واستطاعت أن تؤدى جمعية الصليب الأحمر دوراً فعالا .. أيضاً . .

وهولاندة فى إندونيسيا . . . يزعم أحد نواب برلمانها فخوراً ، أن الجيش الهولاندى استطاع أن ينصر حوالى مليون مسلم من مسلمى جاوة . .

وفى أفريقيا الجنوبية حيث التبشير الصليبي استطاع الاستعمار البلجيكى أن ينصر من الوثنيين أكثر من مليون ونصف ، ولكنه يضيق ذرعا بمائة وخمسين ألفا من المسلمين فيعمل فيهم تقتيلا وتشريداً . .

ويفزع الدكتور «دوجست دوجلاس رئيس أساقفة مدينة الكاب فى جنوبى إفريقيا ، فى سبتمبر الماضى ؛ لأن سياسة الاستعمار الصليبي تقوم على أساس التفرقة العنصرية ، بينما الإسلام يتوغل فى قلب القارة الإفريقية بمبادىء العدالة والمساواة . .

وخاتمة الأثافى من امبراطورية إفريقية يرأسها امبراطور صليبي :

فى امبراطوريته يمثل المسلمون ثلثى سكانها ، ولكنهم يعيشون فى إطار قاتم من الرعب والفزع ، وبدون وضع أو هدف ، أما الامبراطور (العظيم) فيصرح فى الكونجرس الأمريكى منذ سنوات ويقول متحدثا عن أهم أهدافه :

«إن أهم الأهداف التى نسعى إليها هو توحيد الدين واللغة فى بلادنا ، وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئا من التقدم» .

ولما سئل عن المسلمين فى بلاده أجاب بكل تبجح .

نعم : توجد هناك (أقلية مسلمة) فى الجنوب اعتنقت الإسلام بتأثير الأجانب التجار ، وقد وضعنا لها برامج منذ اثنى عشر عاما ، فلا يمضى وقت طويل إلا وقد عادت إلى حظيرة دين آبائها» .

ولك أن تعيد إلى مسامعك بعدئذ كلمة القائد الانجليزى اللورد اللنبى فى نهاية الحرب العالمية الأولى :

«الآن انتهت الحروب الصليبية» وكلمة الجنرال الفرنسى غورو حين زار قبر صلاح الدين فى دمشق : «ها قد عدنا يا صلاح الدين..!!»

وبعد ـ فقد كنا نود من صميم قلوبنا أن يعلن البابا السابق الراحل اعترافه بالإسلام، كما لا زلنا نأمل أن يكتب التاريخ الخلود للبابا اللاحق ، ولسنا نطمع فى أن يسلم العالم المسيحى، ولكنا نطمع فى أن يعيش العالمان الإسلامى والمسيحى فى ظل أخوة صادقة ، وتعيش الإنسانية بأسرها فى مأمن من الخوف والفزع وأساليب التوتر العقيدى، والاستعمار الصليبي المتعطش دائما إلى عقائد المسلمين ودمائهم . . !

محمد عبد الله السمان

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

حول « كلفته بأمر » :

كنت فى بعض « لغويات » عرضت لهذا الأسلوب والتمست له وجها يصححه ؛ إذ كانت التعدية بالحرف ذاعت عند المؤلفين وعلى ألسنة الناس من قديم ، وإن كان الذى جاء فى فصيح الكلام ومأثور القول التعدية إلى المفعول الثانى من غير صلة .

وقد كتب إلى الأستاذ ابراهيم عبدالمطلب بديوان وزارة التربية والتعليم أن تصحيح هذا الأسلوب يغرى الناس به ويذلل لهم الاستمساك به ، إذ يوافق ما ألفوه ودرجوا عليه ، وهو يقول : « وأعتقد أن الذى يحدث بعد قراءة مقالكم هذا هو أن الذين يكتبون هذا الفعل متعديا بغير باء يأتوا يتشككون فى ذلك ، وأن الذين يكتبونه متعديا بالباء ازدادوا إصرارا على خطئهم ، بعد أن وجدوا ما يؤيده ويزكيه ، وذلك لأن المقال لم يبين مثلا - كما كنا نود - حقيقة هامة ، وهى أن هذه الأمثلة على تعديه بالباء قليلة وتكاد تكون شاذة ولا يمكن الأخذ بها شأنها فى ذلك شأن كل قاعدة تتعدد فيها الآراء ولا تخلو من شواذ هى فى حد ذاتها مجرد آراء فى أذهان أصحابها » .

وإنى لأشكر الأستاذ وأقدر أدبه وفضله وأذكر أن سبيلى فى الحديث عن الأساليب المنحرفة عن الجادة أن أحاول تخريجها إذا وجدت لها وجها يسوغها ، وهذا لا يعنى تسويتها بالأساليب الأصلية فى الفصاحة والجودة ؛ فالأسلوب الأصلى أقوم وأسد ، والآتى به هو الذى استمسك بالعروة الوثقى فى القول ، وهو الذى لم تزل قدمه فيمن زل .

وفى مسألتنا هـــذه لا مرية فى أن تعدية « كلف » إلى مفعولين من غير وسط هو أفصح كلاما وأقوم قيلا . وأود أن يكون هذا المنهج معلوما عنى فيما آخذ بسبيله فى تصحيح ما جاء منحرفا عن السنن السوى .

استدراك على « ملى »

ذكرت فى « لغويات » الجزء الماضى من مجلة الأزهر الغراء أن مليئا بمعنى مملوء لم يجئ

فى اللغة ، وقـد بان أنه على انحرافه قديم فى ألسنة العامة .

فقد جاء فى تهذيب اللغة للأزهرى ـ وهو لما يطبع ـ : « وأخبرنى أبو الفضل المنذرى أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى عن كتاب العين ، فقال : ذاك كتاب ملىء غدد . قال : وهـذا كان لفظ أبى العباس ، وحقه عند النحويين : ملآن غددا . ولـكن أبا العباس كان يخاطب الناس على قدر أفهامهم ، أراد أن فى كتاب العين حروفا كثيرة أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف والتغيير ، فهى فاسدة كفساد الغدد وضرها آكلها » .

وأبو العباس أحمد بن يحيى هو الإمام ثعلب من أئمة الكوفيين فى النحو واللغة والأدب ؛ توفى سنة ٢٩١ هـ . وكتاب العين هو أول كتاب فى اللغة ، وينسب إلى الخليل والمنذرى يريد أن ثعلبا لحن فى موضعين : أن عبر بالملىء فى موضع الملآن ، وأن وقف على المنصوب المنون بالسكون فقال : غدد ، والوجه أن يقال : غددا ، والأمر الثانى له وجه صحيح فى العربية فإن الوقف بهذا يعزى إلى قبيلة ربيعة ، وهى لغة معروفة ، وجاء منها قول أعشى قيس ـ وهو من ربيعة ـ :

إلى المرء قيس نطيل السرى
وناخذ من كل حى عصم

وكان ثعلب ربعيا ، إذ كان من بنى شيبان بالولاء . فأما ملىء فلا يجرى على لغة تسنده ؛ على أنى قد قلت فيه قولا يمكن به تصحيحه ، فليرجع إليه من شاء .

وإذا كان الشىء يذكر بالشىء فإن ثعلبا روى عنه فيما كان يقع فيه من مجاراة العامة غير ذلك . وفى معجم الأدباء لياقوت ٥ / ١١٧ : « قال أحمد بن فارس : كان أبو العباس ثعلب لا يتكلف الإعراب فى كلامه . كان يدخل المجلس فنقوم له ، فيقول : اقعدوا ، اقعدوا ، بفتح الألف » . وجاء ذكر الغدة ، ويفسرها فى المصباح بأنها لحم يحدث من داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك .

النادى والنوادى :

أنكر اليازجى جمع النادى على النوادى . وهو يقول فى لغة الجرائد ٣٧ : « ويقولون : قد شاع هذا الخبر فى النوادى ، يريدون جمع النادى . وهو ـ مع كونه القياس ـ غير مستعمل ؛ وإنما يقال فى جمعه : الأندية . وهو فى الأصل جمع ندى بمعنى النادى ؛ استغنوا عن جمع النادى كما استغنوا بالأحاديث الذى هو جمع الأحدوثة عن جمع الحديث » ؛ وتبع اليازجى الأب أنستاس الكرملى فى مجلة لغة العرب (المجلد الرابع ص ١٠) .

وقد اعتمد اليازجى فى هذا القول على أن

المعاجم لم تذكر النوادى فى جمع النادى . ويقول فى الأساس : « جلس فى نادى قومه وندبهم وندوتهم ومتندام . ولهم أندية وأنديات ، قال كثير :

لهم أنديات بالعشى وبالضحا
بها ليل يرجو الراغبون نوالها

وناديتهم : « جالستهم » . وظاهر أن الأنديات جمع الأندية ، كالأعطيات جمع الأعطية جمع العطاء ، فهذا من باب جمع الجمع ، كما لا يخفى .

وجاء فى اللسان جمع النادى على الأنداء ، كما يقال : شاهدو أشهاد .

وكأن الذى دعاهم إلى إهمال النوادى والاستغناء عنه بالأندية جمع الندى أن النوادى استعملوها فى معان أخرى . فالنوادى : الحوادث ، ونوادى الإبل : شواردها ، ونوادى النوى : ما تطاير منها عند رضخها .

على أن هذا الذى قاله اليازجى رد عليه ، فتناوله الأمير شكيب أرسلان فى مجلة المشرق (سنة ١٨٩٩ ص ١١٦٦) وأثبت أنه جاء جمع النوادى للنادى فى شعر لمعاذ الخزاعى فى أمثال الميدانى يقول فيه :

ولست برعديد إذا راع معضل
ولا فى نوادى القوم بالضيق المسك

(المَسْك : الجلد . يقول : إنه فى مجالس القوم لا يضيق بما يحدث فيها من جدل ، فهو حليم واسع الحيلة ، ليس بضيق العطن) . فترى فى هذا النوادى جمعا للنادى .

على أن لقائل أن يقول : وما تنكر أن يكون نوادى القوم فى بيت معاذ يراد بها حوادث القوم وخطوبهم وما يعن من شئونهم ، كحمالات الديات والمغارم فى إصلاح ذات البين ! ولكن هذا تخريج بعيد ، والقريب المتبادر أن النوادى فى البيت جمع النادى للمجلس .

اللقانة والحرام :

اللقانة فى الريف إناء من الفخار يُعجن فيه وقد عنانى أن أبحث عن مأتى هذه الكلمة فى اللغة . وكان بدا لى من دهر مضى أن أصلها الإجانة ، وهى إناء يغسل فيه الثياب أو نحوه ، فنطقوا بالجيم كالقاف المعقودة وقربوها من الكاف ، وهى لغة لبعض أهل اليمن ، ينطقون بها كما تنطق الجيم الفارسية أو القاهرية فى هذه الأيام ، ونقلوا كسرة الهمزة فى إجانة إلى لام التعريف وحذفوا الهمزة ؛ كما يقال فى الإحسان : لِحسان ، وكان الواجب أن يقال بعد هذا : لِجَّانة أو فى ابتداء الكلام : ألجَّانة ، ولكن ظُنّ أن الكلمة الأصلية لجانة فأدخلوا عليها أداة التعريف فقالوا : اللجانة بالجيم الفارسية ، ويظنها بعض الكاتبين أنها بالقاف

فيقولون : اللقانة . ويقرب من هذا التخريج قولهم : الحرام لكساء من الصوف يلتحف به وأصله الإحرام ، وهو الإحرام بالحج أو العمرة ، أطلق على هذا الكساء لما كان يلتحف به عند الإحرام بدلا من القميص المخيط . وسوغ هذا الإطلاق أن الإحرام سبب فيه وحامل عليه ، ولو من إطلاق السبب على المسبب ، وقد قالوا : أجنّك يريدون : أمن أجل أنك ، فترى كيف حذف من والهمزة من أجل ، ومن أنك وغيرت الجيم من السكون إلى الكسر . وجاء فى اللسان فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه أن امرأته سألته أن يكسوها جلبابا ، فقال : إنى أخشى أن تدعى جلباب الله الذى جَلْبَبك . فقالت : وماهو ؟ قال : بيتك . قالت : أجنك من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم تقول هذا ، وعامة زماننا يقولون : أجرنك يريدون : أمن جراء أنك أى من أجل أنك . هذا وإعراب مصر مازالوا يقولون : هات لحرام ، ولا يقولون : الحرام ونطقهم هو الصحيح .

وقد وجدت فى اللسان فى لقن : « اللقن إعراب لكن : شبه طست من صفر » يريد أن اللقن معرّب وأصله لكن ، وهذا أقرب وأدنى أن يخرج عليه اللقانة فأصلها اللقن وتصرف فيه العامة حتى أصاروه إلى اللقانة ، وليس هذا ببعيد من فعلهم .

المخاتير :

يطلق فى سورية المختار على رئيس القرية ، ويقال له فى مصر : العمدة ؛ وكان يقال له فى فارس : الدهقان ، وإياه عَنى من يقول :

إنما الذلفاء يا قوتة
أخرجت من كيس دهقان

وقد رأيت جمع المختار فى بعض الصحف الدورية على المخاتير ، فورد فيها : « مخاتير القرى » .

وهذا الجمع تنبو به العربية وتجفو عنه . وذلك أن التاء فى المختار زائدة فهى تاء الافتعال ، فلا تقع بعد ألف الجمع ، فإنما يقع بعدها العين فى الكلمة ؛ ألا ترى أنك تقول فى جمع مقامة : مقاوم ، وفى جمع تجربة : تجارب .

والحديث فى جمعه يقضى بالبحث فى أصله فهو فى الأصل اسم مفعول ، وحقه إذ كان كذلك ألا يجمع جمع تكسير بل جمع تصحيح فيقال : المختارون . ولكن المختار لرئيس القرية صار اسما وانسلخ من الوصفية ، فساغ أن يجمع جمع تكسير . وجمعه على هذا : مخاير بذكر الياء فيه التى انقلبت ألفاً بعد ألف

الجمع وحذف التاء ، ويجوز أن يقال : مخايير بزيادة ياء تعويضاً عن التاء المحذوفة .

والقول فى تصغير مختار كالقول فى تكسيره ؛ إذ كان البابان يجريان مجرى واحداً . وقد كان تصغير مختار وتكسيره مدرجة للخطأ ، وقع فيه بعض أئمة اللغة ممن لايعنى بالقياس وقواعد النحو المستنبطة . وحسبك فى هذا أن الأصمعى — وهو من هو — وقع[1] فى هذا الخطأ ، استدرجه إليه نحوى ماهر هو الجرمى تلميذ سيبويه ، وكان الأصمعى أصاب الفلج والغلب على الجرمى فى لفظة لغوية ، فأراد الجرمى أن يثأر لنفسه من الأصمعى فى النحو ، فجاءه يوما فى مجلسه وقال له : كيف تحقر مختاراً ؟ فقال الأصمعى . مخيتير . فقال أبو عمر الجرمى : أخطأت ، إنما هو مخير أو مخيير ، تحذف التاء ؛ لأنها زائدة .

محمد على النجار

(١) انظر الخصائص ٣/٣٠٠ .

الدين كقانون ...!

لابد للناس من قوانين تساس بها شئونهم ، ولأجل أن تحقق القوانين غايتها المقصودة منها ، لا بد أن تقع فى نفوسهم موقع العقيدة ، والاحترام والتقديس ؛ فيكون لها بمكانتها فى النفوس ، وبهيمنتها على الجماعة قوة التفاعل بين وازع العقيدة ووازع الحكم فى التوجيه إلى الطريق السوى الذى يرضى الله ويعلى من شأن الجماعة ، ويطمئن المصلحين ، القائمين على الأمر ، المهيمنين على القانون .

من كتاب « منهج القرآن فى بناء المجتمع »

لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ . محمود شلتوت

محمد بن موسى الخوارزمى
واضع علم الجبر

للأستاذ سليمان فياض

بين العلماء العرب ، نجد اسم محمد بن موسى الخوارزمى منقوشا بحروف من نور ، فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى . وفى هذه الفترة كانت البداية الرائعة ، للنهضة العلمية الأولى للعرب ، وكانت الحياة راكدة خامدة فى أوربا التى كانت تمر بمرحلة معروفة فى التاريخ ، باسم العصور الوسطى المظلمة .

وفى هذا القرن التاسع للميلاد ، الذى عاصرته حياة محمد بن موسى الخوارزمى ، كانت الخلافة العباسية فى أوج مجدها ، وكان نظام الحكم نظاما امبراطوريا كاملا ، على نمط نظام الحكم الامبراطورى ، الذى عرفته فارس ، والهند واليونان ، والرومان ، والصين ، وكانت المرحلة الاجتماعية التى يمر بها العرب ، ويمر بها العالم كله معهم مرحلة إقطاعية ، بكل ما للإقطاع من ملامح وسمات . وهذا يعنى فى البداية والنهاية ، أن حياة الفكر والمفكرين كانت مشدودة إلى الحكام من خلفاء وأمراء وولاة ووزراء ، فهم الذين يساعدون العلماء والأدباء بالبذل والتقدير ، ويشجعونهم على على البحث والمعرفة والتفرغ للعلم أو الأدب .

وكان هذا القرن الذى عاش فيه الخوارزمى هو القرن الثانى لوقوف العرب على علوم الفرس والهنود والإغريق . فمنذ منتصف القرن الثامن الميلادى ، وأواخر القرن الثانى الهجرى ، بدأ العرب فى نقل معارف الفرس والهنود والإغريق العلمية إلى لغتهم ، بعد أن فرغوا من السيطرة على شعوب عديدة متجانسة طوتها الفتوحات العربية تحت راية الإسلام ، وكانت عملية النقل والترجمة لمعارف الإغريق والهنود والفرس ، تتم فى الأعم الأغلب بواسطة المترجمين غير العرب ، بسبب بصرهم بعدة لغات ، بينها اللغة العربية التى ينقلون إليها ، وكانت نتيجة حركة النقل والترجمة هذه ، هى هذا العلم العربى المعجز ، على حد تعبير ساراطون ، الذى أثر إلى حد بعيد ، فى تبديد ظلام القرون الوسطى عن الحياة والفكر فى أوربا ، بل وساعد إلى مدى أكثر بعدا فى نشوء عصر النهضة الأوربية الحديثة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك بعد أن توقف العلم الإغريقى عن النمو ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادى . بل لقد أثر هذا

العلم العربى « المعجز » ، فى حياة الدول البوذية فى شرق آسيا وجنوبها .

كانت حركة النقل والترجمة إذن فى ذروة وجودها ، بعد أن انقضى عليها ما يقرب من قرن ، وكانت بواكير الإبداع العلمى للعرب قد أخذت فى الظهور ، وراحت إرهاصاتها القوية تبشر بنهضة علمية عربية ، قدر لها أن تملأ فراغ ثلاثة قرون من الزمان وبرهن العلماء العرب منذ مطالع هذا القرن التاسع الميلادى ، على أنهم ليسوا مجرد نقلة لعلوم العالم إلى قومهم ، وليسوا مجرد دارسين وعالمين بهذه العلوم ، فقد راحوا يهضمون هذه العلوم ، ويتمثلونها ويعلقون عليها ، ويشرحون غوامضها ، ويقارنون بين نظائرها بل أخطر من ذلك أنهم راحوا يضمون أشتاتها المتفرقه بين الشرق والغرب ، وهذا العلم وذاك . ويصنعون من أمشاجها المتناثرة هنا وهناك علوما جديدة ، لم تخطر من قبل ببال الإغريق أو الفرس أو الهنود . وهكذا كان وجود عقلية إنسانية ، تستوعب علوم الهنود والفرس والإغريق ، ضرورة تاريخية بالنسبة لتقدم العلوم وتقدم الإنسانية معاً . وقدر للعرب أن يكونوا فى التاريخ أصحاب هذه العقلية الضخمة فى تلك المرحلة التى وقفت فيها الإنسانية والمعرفة على مفارق الزمن .

ومحمد بن موسى الخوارزمى واحد من هؤلاء العلماء العرب الذين وقفوا على مفارق الزمن ، ليحملوا راية التقدم العلمى من ناحية ويجنوا ثمرات المعرفة الإنسانية فى تلك الحقبة من الزمن من ناحية أخرى . وكان الخوارزمى متمتعا مثل أنداده من العلماء العرب بهذه العقلية الهاضمة والمبدعة فى الوقت نفسه .

ولما كان التاريخ القديم والوسيط فى العالم يحفل بتراجم الأدباء والفلاسفة ، أكثر بكثير من اهتمامه بتاريخ العلماء ، لأسباب عديدة لا تغيب عن بال متأمل . فقد ولد الخوارزمى وعاش ومات ، دون أن نعرف من تاريخ العلوم والعلماء شيئا عن ميلاده وموته ، بل دون أن نعرف شيئا يغنى عن حياته ومعيشته . فنحن لا نكاد نعرف عن الخوارزمى الإنسان شيئاً يذكر عن أسرته وأساتذته وعلاقاته . فكل ما نعرفه عن الخوارزمى أنه كان من خوارزم (خيوه) ، وأنه كان أحد أبناء بنى موسى الذين لهم على العلم أيادبيضاء . وأنه كان معاصرا للخليفة المأمون وأنه كان منقطعاً إلى خزانة الحكمة ، فى ظل المأمون ومعونته وتشجيعه إياه . ومعنى ذلك ، أن الخوارزمى كان يعيش فى القرن التاسع الميلادى الذى حكم المأمون أثناء ثلثه الأول ما يقرب من عشرين سنة .

ولكن محمد بن موسى الخوارزمى ، العالم نعرف عنه ، وعن آثاره العلمية ، وعن تأثيره العلمى فى الشرق والغرب شيئا كثيراً . فها هو ابن النديم يذكر فى الفهرست (ص ٣٨٤ ط القاهرة) : « وله من الكتب : كتاب الذيج نسختان أولى وثانية ، وكتاب الرخامة ، وكتاب العمل بالإسطرلابات ، وكتاب عمل الإسطرلاب ، وكتاب التاريخ » .

ولكن ابن النديم لم يذكر لنا أربعة كتب أخرى ألفها الخوارزمى ، وقدرلها أن تصل إلى أيدينا ، بين مترجمة إلى اللاتينية أو بنصها العربى . وهذه الكتب هى : الحساب ، والجبر والمقابلة ، وتقويم البلدان ، وكتاب آخر جمع فيه الخوارزمى بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك .

وإذن فمحمد بن موسى الخوارزمى يعتبر بهذه الكتب : مؤرخا بكتابه فى التاريخ ، وجغرافيا بكتابه فى تقويم البلدان ، وفلكيا بكتبه الفلكية ، ورياضيا بكتبه الرياضية . وفى رسالة للمستشرق الإيطالى « نلينو » يقول عن كتاب الخوارزمى « تقويم البلدان » وشرحه فيه لآراء بطليموس : « إن عمل الخوارزمى ليس مجرد تقليد للآراء الإغريقية ، بل هو بحث جديد مستقل فى علم الجغرافيا ، يمتاز امتيازاً ظاهراً عن كتابات المؤلفين الأوربيين فى ذلك العصر » . وقد ذكر بعض المتقدمين من مؤرخى العرب ، أن محمد بن موسى الخوارزمى قد اشترك بتكليف من المأمون فى قياس درجة من درجات محيط الكرة الأرضية . وهذا مايعتقد « سوتر » بناء على تحقيقاته الجغرافية . وبين كتب الخوارزمى نجد أن كتاب « الجبر والمقابلة » هو أعظم كتبه على الإطلاق ، وأكثرها تأثيراً وشهرة لاسمه فى عصره والعصور التى تلته ، فى الشرق وفى الغرب . بل إن الخوارزمى يعد بهذا الكتاب ، الواضع الأول لعلم الجبر .

ويدلنا على مدى تأثير الخوارزمى وشهرته فى الشرق ، أن كتابه « الجبر والمقابلة » قد شرحه كل من : سنان بن الفتح ، وعبدالله ابن الحسن العدنانى ، وأبو الوفا البزجانى . وفى القرن الحادى عشر الميلادى ، نجد أن البيرونى ، وهو أيضاً من خوارزم ، له ما لا يقل عن ثلاثة مؤلفات ، كلها شروح لكتب الخوارزمى . ونجد أن عمر بن إبراهيم الخيام ، صاحب الرباعيات المشهور ، قد اقتبس من جبر الخوارزمى . ونجد أن محمد بن الحسين الكرخى قد اعتمد على هذا الكتاب أيضا فى تصنيفه فى علم الجبر . أما فى القرن العاشر ، فقد كان الرجل العربى الثانى الذى كتب فى علم الجبر ، هو : أبو كامل الخوجه بن أسلم ، فله مؤلف مشهور فى علم الجبر ، اعترف فيه بأنه

اقتبس من جبر الخوارزمى ، وأشار إليه دائما كمرجع لعمله . وقد ذكر زكريا بن محمد بن محمود القزوينى، أن « الخوارزمى هو أول من ترجم علم الجبر للمسلمين . بينما ذكر ابن خلدون فى مقدمته التى كتبها فى القرن الرابع عشر الميلادى أن « الخوارزمى هو أول من كتب فى علم الجبر » . وبين النصين كما ترى تعارض واضح ، لايخفى على أحد . فثمرة النص الاول تعنى أن الخوارزمى لم يضع علم الجبر ، وأن علم الجبر كان معروفا لدى السابقين من غير العرب، وأن دور الخوارزمى فى معرفة العرب به ، لايجاوز أن يكون دور الناقل أو المترجم ، ولا يرقى إلى درجة الوضع والتأليف . وثمرة النص الثانى ، تعنى أن الخوارزمى هو الواضع الأول لعلم الجبر فى العالم كله . وهو تعارض له قيمته التاريخية التى سنقوم ببحثها بعد قليل . .

ويدلنا على مدى تأثير الخوارزمى وشهرته فى الغرب ، أن اسم الخوارزمى قد أصبح كلمة دخلت معاجم أكثر لغات أوربا ، بل وأصبحت هذه الكلمة تدل فى الاصطلاح اللغوى على الطريقة الوضعية فى حل المسائل فنحن نجد أيضا أن اسم علم الجبر فى جميع اللغات الإفرنجية مشتق من كلمة « الجبر » العربية ، التى استخدمها الخوارزمى ، ونجد أن الكلمة الأسبانية التى تعنى الأعداد والأرقام هى « جوارزمو » . وعن طريق الخوارزمى هذا ، تعلم الغربيون علم الحساب حتى القرن السادس عشر الميلادى عن طريق كتب أوربية ، بنيت على كتابه فى الحساب وبين هذه الكتب كتاب لإسكندر دى فيلادى فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد نظم كتابه ذاك فى أبيات من الشعر . على نمط ألفية ابن مالك . وكتاب لساكر وبوسكو فى القرن الثالث عشر أيضا وذلك بعد أن ترجم كتاب الخوارزمى فى الحساب إلى اللاتينية . ومن بين كتب الخوارزمى التى ترجمت إلى اللاتينية ،كتاب الزيج (وهو عبارة عن جداول رياضية) ، وقد ترجمه إديلارد البريطانى فى القرن الثانى عشر الميلادى وعلق عليه عالم دانمركى ونشره فى كوبنهاجن فى مطالع القرن العشرين .

ونعود إلى المسألة التى تدور حول الخوارزمى ، كعالم رياضى مبدع ، ابتكر الجبر كعلم ، لأول مرة فى التاريخ . فابن خلدون يذكر أن الخوارزمى هو أول من كتب فى علم الجبر ، والقزوينى المعاصر للقفطى ، يذكر أن الخوارزمى هو أول من ترجم هذا العلم للمسلمين . وبين هذين المؤرخين ، كما قلنا تعارض يضعنا أمام هذا السؤال : هل كان الخوارزمى هو الواضع الأول لعلم الجبر ، أم دور الخوارزمى فى تعريفه للعرب بهذا

العلم ، لا يجاوز دور المترجم الأمين ؟ ...
لا مفر إذن من الرجوع إلى التاريخ الخاص لعلم الرياضة ، لتحديد الإجابة على هذا السؤال . وهى إجابة يسرها لنا الدكتور على مصطفى مشرفة حين تحدث عن الخوارزمى وصلته بعلم الجبر .

من المعروف أن الحساب علم هندى ، وأن الهندسة علم إغريقى ، ومن المعروف أيضا أن العقلية الهندية كانت عقيمة فى الهندسة ، بقدر ما كانت العقلية الإغريقية عقيمة فى علم الحساب ، إلى درجة أن الإغريق كانوا يرمزون للأعداد من واحد إلى تسعة بالحروف الأبجدية . ومن المعروف أن حل المعادلات الجبرية يرجع إلى ما قبل الميلاد بألفى سنة ، أى إلى ما قبل الإغريق فى مصر ثم بابل . ومن المعروف أن قاعدة حل معادلات الدرجة الثانية كانت معروفة عند الإغريق والهنود . وإذن فإن مسائل علم الجبر ، كانت معروفة لدى الإغريق والهنود بل ولدى المصريين والبابليين والصينيين ، ولما كان الخوارزمى على علم بالحساب الهندى وألف فيه ، وعلى علم بالهندسة الإغريقية وألف فيها ، فمعنى ذلك ، أن الخوارزمى كان على علم بمسائل الجبر لدى الإغريق والهنود وهذا ما يؤكد أن الخوارزمى لم يأت كما يقول القزوينى ، فى الرياضة بجديد ، وأن دوره لا يعدو أن يكون دور المترجم الأمين .

ولكن الأبحاث العديدة فى تاريخ الرياضة عند الإغريق والهنود ، لم تتح لمؤرخ فرصة العثور على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى « الجبر والمقابلة » . ثم إن الجبر كعلم له أصوله وأسسه وقواعده وقوانينه ، لم يكن معروفا عند الإغريق ولا عند الهنود ، بل كان الجبر مسائل رياضية متفرقة بين علم الحساب الهندى وعلم الهندسة الإغريقية ، وقد جعله الخوارزمى علما بعد أن جمع هذه المسائل وقعدها وقننها وجعل منها علما جديدا ، عن الهندسة والحساب ، علما آخر يقوم على أساس الجمع بين الفكرة الهندسية والفكرة العددية . وإذن فعبقرية الخوارزمى العلمية ، تتجلى فى جمع شتات هذه المسائل وصياغتها فى صورة علم منسق موحد ، وإذن فإن دور الخوارزمى فى هذا العلم لا يمكن أن يكون هو دور المترجم ، بل دور الواضع المؤلف . ومن الطبيعى أن علماً ما لا يمكن ابتكاره من العدم ، ولا يمكن أن يأتى ثمرة لجهد مصطنع وتمرين عقلى منعزل .

و « نيوتن » مثلا ، وضع علم حركة الأجسام « الديناميكا » من أشتات موزعة ، وقد كانت معظم معلومات هذا العلم معروفة فى زمان نيوتن وقبل أهل زمانه ، وكان دور نيوتن فى هذا العلم كدور الخوارزمى فى علم الجبر ، فالخوارزمى بلا شك يعتبر واضعا لعلم

الجبر ، بقدر ما يكون نيوتن واضعا لعلم حركة الأجسام ، وكان كلاهما بهذا العمل ، عالما عبقريا ، وهل كانت العبقرية العلمية سوى قدرة على التجميع والتفريق ، والتمييز والاختيار ، والربط والتصنيف ؟ ! .

كان ضروريا إذن ، أن توجد الهندسة الإغريقية ، والحساب الهندى ، لكى ينشأ علم الجبر ، . وكان ضروريا أن توجد بذور علم الجبر فى هندسة الإغريق ، وحساب الهنود لكى يتحول إلى علم . ولما عرف العرب أرقام الهند ، وهندسة الإغريق ، وامتزج العلمان فى العقلية العربية ، أصبح من الممكن لعبقرى عربى من طراز الخوارزمى أن يضع علم الجبر لأول مرة فى تاريخ العلوم .

وإلى كتاب الخوارزمى « الجبر والمقابلة » يرجع الفضل الأول فى انتشار هذا العلم فى الشرق والغرب ، وفى تقدم العلوم الرياضية على مر القرون .

وهكذا كان الخوارزمى العالم الفلكى ، المؤرخ، الجغرافى رياضيا من الدرجة الأولى، فاستحق بذلك لقب عالم ، كما استحقه نيوتن بعده بقرون . وكان الخوارزمى فى ما كتبه وألفه ، كل هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تحدث عنهم فى مقدمة كتابه « الجبر والمقابلة » : « . إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فورثه من بعده . وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ماكان مستغلقا فأوضح طريقه ، وسهل مسلكه ، وقرب مأخذه . وإما رجل وجد فى بعض الكتب خللا فلم شعثه، وأقام أوده ، وأحسن الظن بصاحبه ، غير راد عليه ، ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه » .. فالخوارزمى كان الرجل الأول فى ما أبدعه فى كتابه الجبر والمقابلة ، وكان الرجل الثانى بما فعله فى الحساب والهندسة ، وكان الرجل الثالث بما فعله فى تقويم البلدان من شرح لآراء بطليموس الإغريقى .

سليمان فياض

من المبادئ التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والإخاء وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء ... ! .

ا . ح الزيات

العالم الروحى فى تقدير الإسلام

للشيخ عباس طه

نريد أن نوازن فى هذا البحث بين ما سلكه الإسلام فى مقومات الجسد وإشباع غرائزه فى حدود مثالية ليكون له عوناً على السمو الروحى الذى يرتفع إلى عالم الملكوت الأعلى فى بعض الأحايين - فالجوع والحرمان والعرى استهدافاً للسخية أولا ثم السمو بالروح إلى منزلتها العليا ثانيا ليس من خصائص الإسلام ومميزاته - بل من سمات الإسلام الظاهرة أن يمارس المسلم مزايا بناء الجسد وتطويره تطويراً يوائم التدرج الروحى فى حدود ما أمر الله به أن يُفعل وتلك أولى خصائص الإسلام وأفضاله وأسراره ومقدراته .

فقد عُنى الإسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية وهذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم ، على معنى أن الإسلام قد عُنى ببناء الجسد ليكون هذا الجسد محوراً تدور عليه التصرفات الروحية المنبثقة من الروح التى هى المدبرة المسخرة الآمرة لهذا الجسد يقول الله جل علاه : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . فالإسلام فى مدلوله ومراميه يحض على تطوير الأجسام تطويراً يحتمل مجاهدة النفس ومجاهدة العقل ومجاهدة الشدائد فى أوسع معانيها وفى الحديث الشريف « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً » أما الذى يعرف عن الأديان الأخرى أنها تهدر العناية بالجسد فى جانب السمو بالروح ولكل منها فى ذلك أسلوب خاص اشتهرت به فى هذا العهد .

فالبراهمة والبوذيون فى الهند يرهقون أنفسهم عسراً ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية كسرا لطغيان الجسم ومناهضة لسلطانه تذرعاً للوصول إلى السمو الروحى ، ويروى عن خاصتهم فى هذا المجال من ضروب التعذيب التى يعاملون بها أجسادهم طموحاً إلى هذه المنزلة فمنهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينضدونها متقاربة من أسفل أسرتهم لتلامس

أطرافها المحددة أبدانهم ومنهم من يقللون من طعامهم وشرابهم حتى يصيروا كالهيا كل العظمية هزالا ونحولا .

أما الإسرائيليون فإن فى ديانتهم إرهاقات جسدية لايتحملها إلا الأتقياء منهم ، وكانت سبباً فى خروج الكثرة من إسرائيلى أوربا عن تقاليدهم فى مسألة السبت والشئون الغذائية واتباعهم مايجرى عليه الناس هنالك .

ونظراً لفداحة التكاليف الجسدية فى الديانة اليهودية وعجز أكثر الناس عن القيام بأدائها قد كلف كل ربانى يتقدم إليه رجل طالبا الدخول فى هذه الملة أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد شهوده ، يقول المسيو جوليان ويل حاخام باريس فى كتابه عن « الديانة الإسرائيلية » - يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات لافتا نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها والتكاليف الشاقة التى سيتحملها والأخطار التى سيتعرض لها . فإذا أصر على طلبه وتحقق الربانى بأن الدواعى التى تدعوه للتهود سليمة أمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعة .

أما المسيحية فإنها وإن كانت لا تبلغ شأو اليهودية فى التكاليف الشاقة فهى بنص كتابها وشروح علمائها ديانة زهد وتقشف وتخلص من علاقات الدنيا واعتداد بالروح دون الجسد .

أما الإسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهو يحض على المتع المادية والملذات الجسدية ما دام تناولها من طريقها المشروع وفى حدها المعتدل .

لم يقم الإسلام على هذا الصراط السوى بين الروح والجسد ذهاباً إلى أنهما سواء فى الدرجة أو أن الحياة الدنيا تساوى الحياة الآخرة . لا ولكن لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنيا على قواعد العلم ونواميس الطبيعة . وقد قرر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم ، وأن السمو الروحانى لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات فى دائرة الاعتدال . وأن ذلك السمو ليس فى أن يعيش الإنسان حياة سلبية لا أثر لها فى الخارج ، ولكن فى أن يعيش حياة إيجابية تستفيد من الوجود علماً وحكمة ، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها فى الحياة .

نعم إن السمو الروحانى لا ينال بحرمان الجسد من حاجاته فإن قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال فى ترويض نفسه على الإقلال ذائدا إياها عن التطلع للمتع المادية باذلا فى هذا السبيل جميع ما أوتى من مذخور معنوى ثم يخرج من هذا الكفاح المضنى غير حاصل إلا على

ميزة واحدة وهى ضبط النفس عما سوى الضرورى من مقومات الحياة ولكن لا يكون حاصلا على السمو الروحى الذى يجد وراءه أهل الطموح العالى وهو أن يكونوا مالكين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم إلى حيث كرامة الحياة وشرف الوجود .

فالإسلام قصد من الدين أن يكون دستورا عمليا لا خيالا وهميا وأن تكون ثمرته إنشاء أمة تكون مثلا أعلا للأمم فى حماية بيضتها والذياد عن كرامتها والجرى على أكرم أصول العدالة وأشرف مبادئ الاجتماع لتصل إلى أبعد شأن من المدنية الفاضلة وينصرف آحادها إلى تحقيق مراد الله من تكميل الخليقة لا تصدهم عنه خاطرة من شهوة ولا بادرة من هوى ولا سانحة من وهن .

فإن الأمة الإسلامية فى صدر الإسلام كانت مثالا حياً لما نقول . ألم تتألف على أكرم المبادئ وأشرف الأصول طلبا للحق فى ذاته لا لدنيا تصيبها ولا لسيادة تحصلها . وكان آحادها من السمو الخلقى بحيث ضربت بهم الأمثال وتناقلت سيرهم الأجيال فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم وإعظام شأنهم ما حملها على الدخول فى ملتهم طوعا لا كرها فهل عهد فى تاريخ البشرية أن فئة من الناس تألفت فى أبعد بلاد الله عن الاجتماع وسياسة الشعوب تستهوى فضائلها مائة مليون من البشر فى مدى قرن واحد بدون دعوة غير السمت الصالح والمظهر الفاتن ؟.

أليس ما نقوله هو ما نطقت به الحوادث وقرره التاريخ وشهد به حتى الأجانب ؟ .

فالإسلام قد رمى بأصوله ومبادئه إلى إحداث مثل هذا الحدث الضخم فى العالم وما كان ليتأتى ذلك جريا على مبادئ رياضية سلبية تجرد النفس من أشرف نزعاتها الإيجابية وتميت فيها أكرم غرائزها الفطرية وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية . فما خلق الله فى الإنسان هـــذه القوى الغريزية عبثا أو لتستوعب رياضتها وقمعها حياة الإنسان كلها ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله فى أمة أو أمم برمتها إلا أن تصبح كالموميات المصبرة أو كالأشباح التى لا حياة فيها ، ولكنه خلق الإنسان على هذه الصورة من تباين القوى وتنوع الغرائز وتخالف الميول ليصـــل بامتلاك ناصيتها وتصريفها فيما خلقت له إلى مكانه من السمو وعدالة التصرف بحيث يصلح أن يكون خليفة الله فى أرضه .

الذى يراه الناس اليوم أن الجماعات البشرية قسمان : قسم على المبادئ السلبية وهى لا تفترق عن قطعان الماشية فى أيدى الأمم المتغلبة وقسم على الأصول الإباحية وهى قد حصلت

على حظ من القوة والبطش بيد أنها قد انحطت إلى الإباحة البهيمية التى لا تتناسب وكرامة الإنسانية وأنا لا أقول ذلك تعصباً لمذهبى ولكن هذا ما يقوله علماؤها وفلاسفتها حتى الماديون منهم .

ولو كانت هذه الإباحة سليمة من جراثيم العطب لأمكن أشياعها أن يدعوا أنها هى المثل الأعلى للحياة الأرضية ولكنها مبتلاة بجراثيم الأمراض الاجتماعية ومهددة بقارعة حرب عمومية لو حدثت لتصوحت زهرة المدنية وارتكست الإنسانية لأسوأ عهودها البربرية . وقد ارتكست أمم متمدنة مرات عديدة إلى البربرية الماحقة فمنها من أتيح لها الخلاص منها وفيها من بادت أو فنيت فى جثمان أمة أخرى .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحثة أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعى والاستقرار العالمى ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة فى تركيب هو غاية فى الحكمة غير التعاليم الإسلامية .

نعم : قرر الإسلام أن الآخرة خير من الأولى وأن الكمال الروحانى هو الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل مسلم ولكنه أمره ألا يغفل حظه من الكمال المادى حتى تكاد لا تجد فى القرآن تخصيصا على منزلة روحية إلا مقرونة بتخصيص على نيل مكانة مادية قال عز من قائل : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم أجرهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وقد دلنا على ما يجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة فقال تعالى : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق ولا حرمانه من متع الحياة واللذات المشروعة قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، « يا أيها

الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

ومما ينبغى التنبيه إليه فى هذه الآية الأخيرة أنه سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء . أى خروجاً عن صراط العدل بين الطبيعتين وهذه غاية فى عناية الإسلام بالناحية المادية من الحياة الإنسانية .

أما السنة فهى حافلة فى هذه الناحية بالحكم الباهرة من ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبدالله بن عمرو بن العاص وقد بلغه أنه يفرط فى التنسك : يصوم الدهر ويقوم الليل : « يا عبد الله أتصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عمرو : فقلت نعم يا رسول الله قال : فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك [1] عليك حقا وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . قال عمرو : فشددت فشدد على . قلت يا رسول الله فإنى أجد قوة قال فصم صيام نبى الله داود ولا تزد ، قلت وما صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال رسول الله نصف الدهر » فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول : ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم .

أرأيت أحكم من هذا ؟ رسول الله كان يعبد الله حتى تتورم قدماه ، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع ، ينهى آخذاً بدينه أن يبالغ فى العبادة [1] ؟ أتراه كان يصده عن خير ؟ لا ولكنها الحكمة الإسلامية ترشد أهلها إلى الكمال الإنسانى المنشود ، الذى لا ينال بإرهاق الأجسام ولكن بالعلم وتحرى الحق وتجنب الباطل وتطهير القلب وتهذيب النفس ، والوصول إلى درجة الرجولة الكاملة . ؟

عباس طه

---

[1] لزورك أى لزائريك جمع زائر .

[1] لا يعترض معترض بقوله : كيف ينهى النبى صلى الله عليه وسلم الناس عما كان يفعله هو من المبالغة فى العبادة فإن للنبوة باتصالها بالعالم الروحانى شأناً غير شأن الناس كافة .

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعصر الحديث

للأستاذ عباس محمود العقاد

تأليف الدكتورة إلس ليختنستادتر

ISLAM AND THE MSDERN AGE

BY. ILSE LICTENSTADTER

مؤلفة هذا الكتاب « الإسلام والعصر الحديث » سيدة ألمانية درست العلوم العربية والإسلاميه فى جامعة فرنكفورت ثم فى جامعة لندن وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرق الأدنى والشرق الأوسط وزارت إيران والباكستان وعنيت عناية خاصة بالمقابلة بين مذاهب السنة ومذاهب الشيعة ودعوات الاجتهاد والتجديد . كما استطاعت أن تفهمها أو تتلقاها من مصادرها التى عرفتها أثناء إقامتها بالمدن الإسلامية .

وخطتها فى دراسة موضوعاتها هى الخطة الغالبة على المؤلفين المعاصرين من الغربيين حين يكتبون عن الدين الإسلامى أو عن الأمم الإسلامية من وجهة دينية . فإن هؤلاء المؤلفين يتجنبون أسلوب الاستخفاف الذى اشتهر به كتاب القرن التاسع عشر ترفعا منهم عن علاج موضوعات الإسلام على خطة المساواة بينها وبين موضوعات العقائد أو المعارف التى تشيع بين الغربيين ، واعتزازاً منهم بسيطرة الحاكم الذى يتحدث عن محكوميه ورعاياه ومن هم دونه فى طبقة المحكومين والرعايا ، وتعصبا منهم لعقيدة يؤمنون بحروفها ومعانيها كما يؤمنون ببطلان العقائد التى تخالفها .

فالمؤلفون المعاصرون يتجنبون ذلك الأسلوب لأنه أسلوب زمن مضى بأسبابه ودواعيه ، وليس أقلها ولا أهونها أن سيطرة الأمس قد ذهبت بذهابه وأن العصبية قد تزعزعت بعد الرسوخ وترددت بعد المضاء ، وأن العالم الإسلامى قد أثبت له

وجوداً - سياسياً أو ثقافياً - يقدره أصحاب الرأى ويعرفونه فلا يتجاهلونه فى كتابتهم عنه ووصفهم لحاضره وماضيه .

والدكتورة صاحبة كتاب « الإسلام والعصر الحديث » تنهج هذا النهج وتعرض لشئون العالم الإسلامى والديانة الإسلامية بما ينبغى من الأدب والرعاية وتجتهد غاية اجتهادها فى تحقيق مسائل البحث وإدراكها على الوجه الصحيح . ولكنها كغيرها من مؤلفى الغرب قد تفهم أكثر هذه الشئون بما تحدثه من الصدى وتثيره من اللغط فى دوائر المستشرقين ، وقلما تفهم حركات التجديد بفهمها للحقائق التى تدور عليها أو بفهمها لحقائق الرأى عند المحافظين أو حقائق الرأى عند أصحاب الدعوة إلى الجديد ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الذين يحسبون من دعاة التجديد مقلدين يتحذلقون بمزاعم المستشرقين فيثيرون بها من اللغط ما ليس له علاقة بالدين ولا بالإصلاح ، وإنما هو تقليد كتقليد المتعالمين بما يجهلون . يصل حديثه إلى المشتغلين بالمسائل الإسلامية فى الغرب فيحسون صداه ولا يسبرون غوره أو يدركون مداه .

ويظهر أن معرفة الكاتبة بالبلاد الإسلامية فى أواسط آسيا أوسع وأوفى من معرفتها بغيرها من بلاد العالم الإسلامى ، لأنها لم تعول على المصادر العربية كما عولت على مصادر اللغات الأوربية واستعانت بمن يعرفها أو ينقلها إليها . ومنهم صاحب المقدمة الأستاذ ظفر الله خان الذى يعرفه المصريون .

على أن الفكرة التى لاحظتها الكاتبة فى جملة آرائها تقوم على أساس صحيح يرتضيه المسلم وإن لم يذهب مذهب الكاتبة فى تفصيل تلك الآراء والإشارة إلى أغراضها ومقاصدها ؛ فهى تقرر أن المسلم العصرى يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه ، وأن دعاة الإصلاح لم يعسر عليهم أن يجدوا السند القوى من القرآن لكل ما دعوا إليه من جديد ، وكل ما انتقدوه من تقليد ، وأن مزية القرآن - فى عقيدة المسلم - أنه متمم للكتب السماوية يوافقها فى أصول الإيمان ولكنه يختلف عنها فى صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضى مع مضى عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها . وكل ما يراد به الدوام ينبغى أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان.

وللكاتبة فى توضيح هذه الفكرة أسلوب يقتبس من أساليب التصوف كما يقتبس من أساليب الفلسفة الدينية ، فهى تقول فى فصلها عن أسس الإسلام : « إنه من الضرورى لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب دينى وكتاب اجتماعى أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسا

لأداة الحكم المعقدة التى تعالج مشكلات المجتمع الحديث . فإن النبى يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله فى كماله الإلهى وبين خليقته التى يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان ، وأن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الإلهى وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهى أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان ، وتلك هى الوسائل التى يضعها الله فى يد الإنسان لتحقيق نجاته ، فهو من ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره . . . » .

وترى الكاتبة ـ بحق ـ أن رد الفعل الأول للثقافة العصرية أن المصلحين المجددين من أئمة الإسلام رحبوا بالعلم الحديث وانبروا لإثبات الموافقة بينه وبين حقائق القرآن الكونية وشرائعه الاجتماعية ، وكان دور التنبيه فى هذه الحركة من عمل السيد جمال الدين ودور التعليم من عمل صاحبه ومريده الأستاذ الإمام محمد عبده ومن خلفوه من تلاميذه المقربين .

قالت : « إن المسلمين أرادوا مطلبا أكثر من مجرد النهضة السياسية ، إذ كانت رسالة الإسلام الدينية تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التى جاءت فى ذيول العلم الحديث . وكانت دعوة الأفغانى إلى نهضة الإسلام الروحية ميراثا تسلمه محمد عبده وبرهانا فى هذه العصور الأخيرة على اشتباك المسائل السياسية والمسائل الدينية فى الديانة الإسلامية. وقد كان محمد عبده أقرب أعوان الأفغانى خلال الأيام التى قضياها منفيين بباريس ، فأصدرا صحيفتهما المشهورة باسم العروة الوثقى لسان حال الأفغانى فى الدعوة إلى الوحدة كما يدل اسمها المقتبس من القرآن ، وأدرك محمد عبده بعد بحثه فى أسباب انتشار الشكوك بين شباب المسلمين أن العقيدة الدينية تتطلب إعادة التوجيه كى لا تنفصم العروة الوثقى بين المسلم وضميره . ورأى الأستاذ أن العلم لا يناقض الإسلام بل ينفع المسلم لتعزيز إيمانه وتثبيت يقينه ، وأن القرآن إذا فهم على وجهه كان هو والعلم كلاهما عونا لصاحبه على الفهم والإيمان ، واجتهد فى تفسيره لآيات القرآن أن يوفق بينها وبين كشوف العلم لظواهر الطبيعة وقصد إلى إثبات المطابقة بين هذه الكشوف وما تقدم به الوحى القديم لا اختلاف بينهما إلا أن الكشوف الحديثة تقرير دراسى مفصل لما تمليه البصيرة الهادية ، فإذا كان العلم قد أثبت حقائقه بالتجارب أو المعادلات الرياضية فالنبى قد تلقاها بالوحى من عند الله العليم بكل شىء وأفضى بها إلى الناس فى رسالة النبوة الرفيعة وآياتها البليغة » .

واستطردت من شرح دعوة الأستاذ الإمام

إلى المقابلة بينها وبين دعاة التجديد من أتباع العقائد الكتابية. فقالت: إن شهادة الإنصاف لهذا الإمام الأزهرى تقتضينا أن نعلم أن طريقته لم تكن أغرب من طرائق اللاهوتيين المؤمنين بالتوراة والإنجيل حين ذهبوا يتتبعون كشوف أشور وبابل ليثبتوا أنها جاءت مؤيدة لأنباء العهدين القديم والجديد، وأن أقوالها عن الظواهر الكونية تقبل التأويل الذى يوفق بين العلم والإيمان.

ويحلو للكاتبة كما يحلو لكتاب الغرب جميعا أن يقرنوا بين يقظة المسلمين ونهضتهم لإصلاح مجتمعاتهم وبين أثر الحضارة الأوربية وتقاليدها الاجتماعية، ولكنها أقرب إلى العناية بما يهم المرأة على الخصوص من شئون الزواج والأسرة وأولها قضية تعدد الزوجات.

تقول: «إنه من الأمثلة التى طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذى يبيح تعدد الزوجات. فليس فى البلاد الإسلامية ـ ما عدا البلاد التركية ـ قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء العام أو القضاء الخاص بالأحوال الشخصية والمحاكمات الشرعية، فلا يزال تعدد الزوجات عملا مشروعا فى ج. ع. م والباكستان وإيران والعراق وأندنيسية، وأن العرف ليتجه ـ بتأثير القدوة الغربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات ـ إلى النفور منه، ويزداد هذا النفور مع الزمن فينظر المسلم المعاصر إلى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق، وتختلط هذه النظرة بشىء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر فى الطبقة الوضيعة، وأن المصلحين ليجدون السند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة فى آيات الكتاب. إذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة فى السورة الرابعة على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة».

وقد تكون الكاتبة غير بعيدة عن إيحاء طبيعتها الأنثوية حين تفرد للجهاد فى الإسلام بحثا خاصا تفسره فيه تفسيراً يزيل بعض الشبهات التى ترد على خواطر الغربيين كلما ذكروا كلمة «الجهاد» وفهموا منها أنه شريعة توجب على المسلم أن يقاتل غير المسلمين ويناصبهم العداء لإكراههم على الدخول فى الإسلام.

قالت فى شرحها لقواعد الإسلام: «إن النظرية الإسلامية فى القرون الوسطى تقسم العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب، ودار الإسلام تشمل البلاد التى انبسط عليها سلطان الإسلام عقيدة وحكما، ودار الحرب تشمل البلاد التى يصح من الوجهة النظرية فتحها للإسلام ولو بالسيف إذا اقتضى الحال، ولهذين الاصطلاحين شأن فى مبادئ السياسة الإسلامية والعلاقات الدولية وينبغى ـ لسوء فهمها بالمعنى الصحيح الذى تنطويان عليه ـ أن يبحثا ببعض التفصيل.

« إن كلمة الجهاد مشتقة من جذر فى اللغة يعنى الجهد أو المشقة ، ويمكن أن يصدق على الدراسة الفقهية وعلى تطبيق الشريعة وتنفيذ الأحكام ، إذ يسمى الفقيه أو القاضى إلى هذه الأيام بالمجتهد أى الباحث الذى يتوفر على المعرفة جادا فى بحثه . وقد أمر القرآن بجهاد الكفار ولم يعين الجهود التى تعمل لذلك ، وقد استثنى الإكراه فى الدين بنص الآية القرآنية . ولكن الجهاد اكتسب فى أيام الفتوح الظافرة بعد وفاة النبى معنى القتال بما يفيد أن الحرب فى هذه الحالة مقدسة تشهر فى سبيل نصر الله وتعظيمه ، وكاد أن يحسب ركنا من أركان الإيمان المفروضة على كل مسلم . ومن الوجهة النظرية تعد دار الحرب خاضعة لحكم الفتح ، ولكن خلفاء الإسلام وسلاطينه عقدوا المحالفات واتفقوا على عهود السلم والمودة والمعاملات التجارية مع الأمراء من غير المسلمين على الأقل ، منذ عهد هارون الرشيد وشرلمان .

« وقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة فى إخضاع البلاد التى لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسلاميه ، إذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل فى انتشار الفتوح حتى فى إبان القرن الأول بعد الدعوة ، وإنما تم معظم هذه الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح ، ووردت فى هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملة بالمرهقة فليست فكرة النار والحديد بالفكرة الصحيحة التى يؤيدها الواقع ، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبى أن نسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلوا فى تجسيم أثر الإكراه فى الدعوة الإسلامية إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى البلاد الانجليزية على عهد الملكة « إليصابات » .

« بل نحن نجد أن الوثنيين من أهل البلاد المفتوحة لم يعرضوا على السيف على قول الفقهاء المسلمين ، وهم أكثر الداخلين فى الإسلام عددا خلال القرون التالية ، وهم أصدق برهان على الخطة العملية التى لم تدر دائما للرأى وفاقا أى بصيغته النظرية » .

وتمضى المؤلفة على هذا النحو فى تفسير معنى الجهاد قولا وعملا إلى العصر الحاضر إذ يفهم من بعض تطبيقاته على أنه عمل واجب لاسترداد كل أرض مغصوبة أخرج فيها المسلمون من ديارهم عنوة وبغيا ، وهو بهذه المثابة دفاع محتوم .

° ° °

وانتهت المؤلفة إلى الكلام على « الدولة الإسلامية » فى العصر الحديث فأشارت إلى اعتقاد بعض الغربيين أن الإسلام لا يصلح

لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية ، وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقالت : إن تاريخ الحكم الإسلامى يدحض هذه الظنون ، وأن مفكرى الإسلام فى جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا لأممهم مذاهب فى السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا ، وقد اشتهر منهم اثنان هما ابن خلدون المتوفى (سنة ١٤٠٦ ميلادية) والفارابى الذى سبقه ببضعة قرون.

وتقول الكاتبة إن الفارابى رجع بآرائه عن الحكومة والدولة إلى أسس إغريقية ، أو أسس قائمة على الأفلاطونية الحديثة ، ولكن الفيلسوفين المسلمين لم ينحرفا عن قواعد الإسلام فى وصف الحكومة ، وإن كان كل منهما يصف المجتمع الإسلامى كما عهده بين أقوام زمانه .

والفصل الأخير من الكتاب يلم أطراف البحث ليضع العالم الإسلامى والعالم الغربى وجها لوجه فى موقف المقابلة وموقف الحاجة إلى الفهم المتبادل والمعاونة الإنسانية وتذكر المؤلفة طائفة من الغربيين يرون أن المسلم العصرى يحاول أن يجارى العصر ولكنه يغمض عينيه عن المناقضات التى تحول بينه وبين مجاراة عصره مع تسليمه السابق بصواب كل حكم من أحكام دينه وصلاح كل حالة من أحوال ذلك الدين لدواعى الزمن الحاضر ودواعى ، الأزمنة التى تتلوه . ولا ينتظر أن تجرى على منواله . وتعود ، فتذكر صعوبة الموقف من وجهة النظر الإسلامية مع سوء الظن بمقاصد الغرب وقلة الثقة بمزايا الحضارة الغربية ، وعندها أن التفاهم لا يأتى من جانب واحد ، وأن الصعوبة من هنا تقابلها صعوبة من هناك ، وكلتاهما عصية على التذليل مالم تكن عند الفريقين رغبة صادقة فى التقارب وأمل قوى فى إمكانه .

وتم الكتاب بهذه الأسطر القليلة التى عبرت بها المؤلفة عن نتيجة الواقع وأمنية المستقبل فى وقت واحد ، فقالت : « إن محاولة التوفيق والملاءمة بين الظروف فى هذه الدنيا العصرية المستحكمة آخذة لا تزال فى مجراها إلى غايتها من جانب الشرق ومن جانب الغرب ، وأن الغرب ينظر وهو يقنع بالمراقبة وقلما يقترح الحلول وإن عمل على رفع العوائق من حين إلى حين ، وعليه كيفما كانت الحال أن يحاذر الاستخفاف أو التعرض بوحى الطمع والأثرة لجهود الشرق فيما يعالجه من السعى إلى غايته لتقرير مكانه بين صفوف الإنسانية دون أن يفقد كيانه أو يفرط فى وجدانه » .

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

الإسراء

للدكتور أمجد الطرابلسي
وزير التربية والتعليم بالإقليم الشمالي

رقدت ملء عينها البيداء ... واحتوتها في سرها الظلماء
وأوى موكب الطيور إلى النخل ... وحنت لزغبها الورقاء
والمها أطبقت على الصفو عينيها ... ومالت إلى الكناس الظباء
سكن الليل لا هتاف ولا عز ... ف ولا آهة ولا ضوضاء
ليس إلا النجوم تهمس فرحى ... في الرحاب العلى فتصغي الجواء
وسجت مكة فلا اللهو لهو ... في حماها ولا الغناء غناء
أطفأت في الخيام كل سراج ... رقصت فوق ثغره الأضواء
وانقضى كل سامر أسكرته ... بالفنون الرواة والشعراء
وتهادى النسيم بين الروابي ... كلما هب هدهد الإعياء
ملء أعطافه أريج الخزامى ... وبقايا الكئوس والأنداء
نامت البيد هل رأيت سريراً ... رقدت فوق صدره عذراء ؟
الطيوف الفرحى تطوف حواليه ... كما طاف بالقلوب المناء
والمنى الضاحكات تلثم خديها ... فيفتر ثغرها الوضاء
يا جمال البيداء ماذا ينال الوصف منه وما يصيب الثناء
كلها السحر والرحيق المصفى ... كلها الشعر والهوى والبهاء
كلها المجد والبطولة والسؤدد ... والعز والندى والإباء

إيه يا منبع الصناديد يا بيـ ـد إذا رج جانبيك نداء
يا مهب الفرسان إن صرخ المجـ ـد يناديهم وهز اللواء
نام يا بيد في سكونك تدب حفظته وهدهدته السماء
سهرت حوله العناية ترعا ه وحامت من فوقه الآلاء
من ذؤابات هاشم كله طهر ونبل ورحمة ووفاء
أروع أين من عزيمته السيـ ـف ومن جود كفه الأنواء
عربي تهلل الكون كما كرمته النبوة الغراء
شاع منه الهدى فهاجت وماجت حنقا جاهلية رعناء
دينها البغي والتناحر والثا رات والبطش والأذى والدماء
فاحفظيه يا بيد فهو رجاء الكون وسط الظلام وهو الضياء
لا يدوم العمى إذا أسفر الحق ولا النور والظلام سواء
إيه يا نائما تداعب جفنيـ ـه الخيالات والرؤى الشماء
يا نبيا في صدره خفق الكو ن جميعا جراحه والدواء
يا رسولا ترنو لطلعته الأمـ ـلاء حيرى قد عمها الإدجاء
أيها النائم انتبه قد أتاك الروح يحدوه من علاه القضاء
البراق السعيد حمحم في البا ب اشتياقا فاهتزت الصحراء
طر عليه تمض القفار سراعا تحت وثباته ويطوى الفضاء
والسموات تستعد لمسرا ك وقد زغردت بها البشراء
تتغنى فيها الملائك فرحى وتهادى البشائر الأنبياء
رفرفا في سماء مكة فالر يح ذلول تحت البراق رخاء
وامضيا يمحي الفلا والمسافا ت وكأن ابتداءهن انتهاء
فإذا شمتما على البعد سينا ء ولاحت كثبانها السمراء
فاهبطا طرفة العيون إليها يا لربي لما رأت سيناء
يوم ناجى الكليم في جانبيها ربه ملء أصغريه الرجاء

فهوى مُرْعشاً وقدْ هالهُ النُّو ... رُ وأعشى عُيُونَهُ اللألاءُ
ثم سيرا حتى إذا بيتُ لحْمٍ ... دَوَّمتْ من بُرُوجها الأصداءُ
فاهبطا تُرْبها الزكىَّ فمنْهُ ... أسفر الرِّفقُ والهُدى والحياءُ
وأتيا المسجد الذى بارك اللهُ ... حواليهِ مَنْذُ كان البناءُ
فاسجُدا فيه للذى غمر الكوْ ... نَ نَداهُ وعطْفُهُ ورضاءُ
صلِّيا يبْسِم المصلى ابتهاجا ... لكما فى الدُّجى ويشْدُو الغناءُ
واعرُجا صاعديْن سبْعاً طباقا ... لا حِجابٌ لا دُجيةٌ لا غَماءُ
ألقٌ باهرٌ وبحْرٌ من النُّو ... رِ خِضَمٌّ ورَوْعةٌ وصفاءُ
ليْسَ إلا مَلائكٌ تَحْمِلُ البُشرى ورُسْلٌ أحبَّةٌ أصفياءُ
اصعَدا فى الجمالِ حَتى تجلَّى ... لكما سِدْرَةُ العَصْماءُ
وانظُرا من علٍ إلى هذه الأجْ ... رامِ طَراً يجلُّ عنها الهباءُ
نظْرةً تُنْظَمُ العوالِمُ والآ ... بادُ فيها وتلتقى الأملاءُ
اسْمُوَا ! اسْمُوا ! فما أعظمَ الأنفُسَ تفْنى منْ دُونها العَلياءُ
ما أجلَّ الأرْواح تعْلو وتعْلو ... ثُمَّ تعْلو وإنْ تَناهى العَلاءُ
إيه مَسرَى النبيِّ قد تنكرُ الأنـ ... ـوارَ والفجرَ مُقْلةٌ عمْياءُ
ما على جاحدَيْكَ لوْمٌ إذا ضَلوا . هل النَّاسُ كلُّهُم أنْبياءُ ؟
مَعْرَجَ المصطفى إليك التَّحايا ... شَعْشَعتْها دُمُوعُنا والدِّماءُ
بُورِكتْ أرْضُكَ النَّديَّةُ يا قُدْ ... سُ ووشَّتْ رِياضَكَ النَّعماءُ
أنت أم الدُّنى ومَهْدُ النُّبُوَّا ... تِ ومنْك استضاءَتْ الآناءُ
فيكَ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً ... بعْدَ أنْ طوَّحتْ به الأرْزاءُ
والمسيحُ العظيمُ فيك تجلىَّ ... يملأُ الأرْضَ من هُداهُ السَّناءُ
علَّم الكوْنَ رحمةَ العبْد للعبْدِ ، فلا قسْوةٌ ولا إيذاءُ
وغذاهُ الحُبَّ الطَّهُورَ فلا بُغْضٌ ولا نفْرَةٌ ولا أعداءُ
يا حُماة المسيحِ فى القُدْس ما فى ... دينهِ أنْ يُعَذَّبَ الضُّعفاءُ

ليس فيه طرد الهزار من الأيك لتحتل وكره ورقاء
ليس في شرعه هوان المواثيـ ـق إذا ما تواثق الشرفاء
بالدمع ما كان أصفا ه ولكن روحكم كدراء
سائلوا مهده المطهر هل صا نته إلا العروبة العرباء
سائلوه يا ناس عن عمر الفا روق ما كان عدله والوفاء
سائلوه عن ابن أيوب كما صنعت جنة بكم هوجاء
يوم جاءت جيوشكم مثل ما انحطت على المنهل النسور الظماء
تغرق المهد مثل ما تغرق المجد منها الدماء والأشلاء
يوم ضاقت عنها الأباطح في البر وناءت بحملها الدأماء
يلهب الحقد والعداء مآقيـ ـها وتنزو في صدرها الأدواء
وابن أيوب يطفئ النار بالحلـ ـم وتجري بنصره الأنباء
أنتم تعرفون عدل صلاح الدين وسط العجاج يا طلقاء
لم يهجكم للثأر دين ولكن جشع الذئب أملته الدماء
أي دين يحل ذبح اليتامى أي شرع تباد فيه النساء
إنما العرب نعمة الله في الأر ض وهم في ظلامها الأضواء
لهم العز والنبوة فيها ولهم دون أهلها الكبرياء
حملوا مشعل الحضارة والكو ن ظلام وحيرة وعماء
هم شموس الورى وصفوة خلق الله والمخلصون والحنفاء
كل مجد لمجدهم يخفض الرأ س خشوعا ولو نمته السماء
دمت، قدس، العلا ودام لك العز وذلت في غابك الدخلاء
دمت فوق السها ودام لك العر ب فداء ونعم هذا الفداء

دمشق — **أمجد الطرابلسي**

من وحي السد

للأستاذ محمود غنيم

على أساسين من عزم وإيمان ... نبنيه لا من جرانيت وصوان

ما كاليقين ولا كالعزم إن صدقا ... مخطط فوق ظهر الأرض أو بان

إن الألى رفعوا الأهرام شامخة ... هيهات يعجزهم إنشاء خزان

أطل من قبره فرعون مبتسما ... وقال : إن جمالا توءمى الثانى

فقلت . شتان يوم الفخر بينهما ... فما هما فى مجال الفخر سيان

بنى الحياة جمال والرخاء معاً ... لكن « خوفو » بنى قبراً لجثمان

من أطلق النيل أمسى وهو يحبسه ... جمال يثنى عليك المطلق العانى

يا بانى السد قد فندت ما زعموا ... بالأمس عن مصر من إفك وبهتان

أقسمت لم تبن الخزان منفرداً ... بل الكرامة والخزان فى آن

هيهات يعجزك البنيان من حجر ... وأنت بناء دولات وأوطان

أسست سداً به كانت معلقة ... كرامة العرب من أبناء عدنان

خلنا جنادله الصماء ألسنة ... تشدو بذكرك فى سر وإعلان

لأنت فى كل حرب سيف معركة ... وأنت فى كل سلم كف عمران

فليسمع الغرب إن كانت له أذن ... وليبصر الغرب . هل للغرب عينان ؟

أقسمت أن البراكين التى انفجرت ... فى الصخر كانت لها رنات ألحان

ما أعول الصخر لكن قد شدا طرباً ... كما شدا الطير فوق الأيك والبان

قد كان يشكوك صادينا وغارقنا — يا نيلُ . حالاك فى واديك ضدّانِ
ما عدتَ يا نيلُ بعد اليوم تظمئنا — أو عدتَ تطغى علينا أىَّ طغيانِ
إن صان ماءَكَ فى حرْز بنوك فكم — قدّوه من قبل هذا بالدم القانى
كأنه من فتات المسك نمرته — فلا نجود به إلا بميزانِ
يا أيها السدّ بشر بالرخاء فما — حويتَ ماءَ ولكنْ ذوبَ عقيانِ
ما أنتَ حرزُ مياه فاض زاخرها — بل أنت كنزُ يواقيت ومرجانِ
قالوا العجائبُ سبعٌ قلتُ ويحكمو — ما هذه السبعُ إلا سدُّ أسوانِ

محمود غنيم

أطوار الشعر العربى

إذا أخذت الشعر العربى كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحى وجدته قد تطور فى موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية ؛ فهو فى الجاهلية أنغام صبا ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة ، وفى الإسلام أناشيد جهاد . وثوران عصبية ، وأطماع حياة . ثم استحار شبابه واكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما عبث شباب ، وأغانى طرب ، ومظاهر ترف . ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل فى أوساطها فبدا فى شعر ابن الرومى وأبى تمام والمتنبى وأمثالهم دروس تجربة ، ونتائج حكمة ، وخواطر فلسفة . ثم أدركه الهرم فى أواخرها فظهر فى شعر المتأخرين تمويه صنعة ، وخرف شيخوخة ، ومعالجة روح . أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا فى علمه .

[من كتاب تاريخ الأدب العربى للأستاذ الزيات]

آراء وأحاديث

السينما من وجهة نظر الدين :

أدلى الأستاذ الأكبر بهذا الحديث إلى مجلة الإذاعة قال : إن السينما بالنظر إلى ذاتها وبغض النظر عن قصصها وموضوعها وما يقترن بها ، جهاز طيب صالح لاستخدامه فى الاسترشاد بالمبادئ الإنسانية التى تضمنها التاريخ والسنن الاجتماعيه « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض » ، والواقع أنه ما من شىء إلا وفيه جانب الخير وجانب الشر ، فلو خلينا جوانب الشر ونحيناها وأخذنا جوانب الخير وركزناها لكان لنا هذا الجهاز الصالح فى التهذيب والتوجيه والإرشاد وبناء جيل قوى فى مبادئه ومناهجه وأسسه وخططه ولعلك قد لمست الآن أن السينما عندنا بوضعها الحالى أداة تهدم ولا تبنى ، بل وتغرى بالفساد وقد تدفع إليه ؛ فإن أكثر جمهور نظارتها هم الشباب والشباب مشبوب العاطفة متأجج النظرات يتخطف ما يروى ظمأ وجدانه أو يرضى تياراته المتنازعة فى نفسه المتزاحمة تزاحما يطغى على نضوج العقل وسلامة التفكير .

وطبيعة الحياة تقضى بألا يقدم لكل إنسان إلا ما يناسبه فى حياته من طعام وشراب وكذلك فى جانب القراءة والمعرفة وفى جانب الاطلاع بأى لون كان ، سواء أكان فى الإذاعة أو فى السينما كذلك يجب أن ينتقى له ما يناسبه ويحفظ له كل مقوماته ويأخذ بيده إلى البناء لا إلى الهدم والشباب كالمريض الذى يمر بدور النقاهة عرضة للعدوى بأى جرثومة ومن أى ميكروبة ؛ لذا كان لابد من اتخاذ الحيطة والحذر بالنسبة له وخاصة فى الموضوعات السينمائيه التى تحتل من نفسه المكانة الأولى . فالآفة إذن هى فى الموضوع الذى يختار ليقدم لجيلنا ولمجتمعنا الذى نرجو له الخير فى كل نواحيه وكذلك فى شكل العرض وطريقة الإخراج .

وأنا لا أحب أبدا أن يقال إن الجيل الجديد من الشبان يتطلب كذا وكذا ويحتاج إلى مسايرة المدنية ولا بد أن تطوع أحكام الإسلام لمقتضيات الجيل ، لا أحب أبدا أن أقوله ولا أحب أن أسمعه فإن تطويع الدين لغير الجهة التى حددها خروج عن وضعه وإفساد لتعاليمه .

وإنما علينا أن نفهم ديننا فهما صحيحا

ولا تحكم فيه رغباتنا وشهواتنا والإسلام بطبيعته يدعو إلى التقدم الرزين وإلى النهضة القويمة وإلى المدنية السليمة ثم إلى العزة والكرامة وحسب الفتيات عندنا والفتيان أن تغرس فيهم هذه المبادئ فتعرج بهم فى مدارج الكمال وتسعى بهم صعداً إلى قمم المجد والسؤدد .

وأمتنا أمة ذات رسالة فلا يجوز أن تتخلى عنها ولا أن تتجاهل قيمتها ولا أن تتخلف عن حملها ؛ لأن التخلف عن حملها يؤدى إلى إيجاد ثغرة بين ماضينا الإسلامى الزاهر وحاضرنا فى النهضة المتوثبة المتوجهة إلى البناء والتعمير .

إن القصص الوافدة علينا فى أفلام براقة تطوى بين جنباتها سهاما قاتلة وتنفث فى مجتمعنا سموما تحطم الآمال فى هذا المجتمع الجديد وترسم فى عقول الشباب خطوط الفساد وقد تخط فى أذهانهم ما يدفعهم فى وقت ما إلى ما يؤذيهم أو يؤذى مجتمعهم وما هذه الحوادث التى تقع من كثير من الشباب إلا أثر من آثار الأفلام التى تعرضها دور السينما فى غير ما حياطة ولا حذر .

وإننا - نحن المتعاونين فى هذا البناء المخلصين فيه - يجب أن نرقب فى صحو ويقظة من يرى السوء ثم لا ينحيه ، فإننا أمة ذات حضارة وذات دين وذات موقف خاص فى الوسط الدولى الإسلامى فيجب ألا ننأى عن مقاييسنا ومبادئنا وقيمنا بل نظل على الحفاظ عليها والتمسك بها ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

القصص والموضوعات التى أرشحها :

السينما التاريخية الأخلاقية التى تجمع أمجاد المسلمين من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم وكذا كل من رسم خطا من خطوط النهضات الإصلاحية المتوالية ، والموضوعات الأخلاقية لها من الأثر فى دعم مجتمعنا دعما يقوم على الأسس السليمة حتى يصبح مجتمعا قويا صنع من فولاذ من الإيمان الذى لا تهده عواصف ولا تزعزعه صواعق ولا أعاصير ولا مبادئ هدامة وافدة وإن القصص التى تعرض من النوع التاريخى الأخلاقى سبيل للدعوة إلى إحياء الوعى التاريخى الخلاق بشرط أن تنقى مما يثير الغرائز وأن توجه عواطف الشباب بما يتفق مع الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

كما أننا نرى أن تكون سبيلا من سبل التعليم ونشره ؛ فإن التطبيق العلمى فى كل شىء مدعاة الفهم الصحيح ومتى فهمت الموضوعات فهما صحيحا استطعنا أن نحل مشاكلنا .

وأما الأفلام التى شاهدتها فهى أفلام تتصل كل الاتصال بما رسمنا وما نرجوه للأفلام المعروضة ، ولقد شاهدت قصة ظهور الإسلام

وهى تعريف بما ينبغى أن نعرفه فإنه من التاريخ الموجه الذى يبين مزايا التضحية وآثار العقيدة الصالحة القوية فى بناء المجتمع ودعمه وكيف يستسهل الصعب فى سبيل الفكرة السليمة والإيمان العميق. لقد لمسنا فيه التعبير عن مبادئ الإسلام من الحرية والمساواة وانعدام العصبية أن الناس جميعا سواء لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالعمل الصالح والإيمان المنتج وشاهدت كذلك قصة خالد بن الوليد واشتركت فى وضع أصول كثيرة من مشاهدها ، مثل هذه الأفلام التى تبرز المبادئ وتوضح المثل هى التى نحتاج إليها ويجب أن نحرص عليها ، لقد أصبح المشرفون على الأفلام الوافدة والمنتجون للأفلام المحلية لا يهمهم من أمر شبابنا ولا من أمر جيلنا شىء من فكرة الإصلاح التى يجب أن تكون رائدنا وهدفنا.

إن لمجتمعنا مشاكل لو أنها عولجت عن طريق السينما لحلت هذه المشاكل ولغدت السينما جهازاً قويا موجها وبانيا ولاعتبرت حقا جزء من مدنية يجب أن نخلقها نحن ونضع أسسها لنخرج إلى الناس مدنية تفيض بمبادئ الإسلام وتوجيهاته .

وليس يعنينا أن تكسد صناعة السينما أو تنجح فنجاح مجتمعنا هو الذى نرجوه وننشده ونحرص عليه وكل فكرة لا تحرص على ذلك فإنها فكرة غير صالحة ينبغى أن نطرحها ولا نعاون عليها وإن جمعت لصاحبها ما جمعت الدنيا لقارون .

وكلمة عامة صريحة يجب تنقية الإذاعة والصحف والسينما من كل ما يؤذى مجتمعنا أو يسبب انتكاس القوى التى ترفع شأنه وتقوى لبناته من أفراد وجماعات ، تقوية تجعل بناء المجتمع بناء مثالياً فاضلا .

وهذه دعوتى وتلك نصيحتى أوجهها إلى إخوانى موجهى هذه الأجهزة والمشرفين عليها فإنهم بعملهم ووطنيتهم شركاء فى الدعوة إلى الله وبناء أمتنا ومجتمعنا بناء على أساس الحق والقوة، هدانا الله جميعا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم .

الحياة فى الكواكب ورأى الدين فيها :

قال محرر الأهرام الاقتصادية للأستاذ الأكبر :

تحدث العالم الروسى «ديجل» بأنه من المعتقد وجود كائنات حية أرقى وأذكى من الإنسان وذلك فى القمر وغيره من الكواكب فما موقف الدين بالنسبة لهذا الزعم وهل فى الدين ما يؤيده ؟ .

فقال فضيلته : ليس فى القرآن ولا فى الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل دلالة قاطعة على أن فى القمر أو فى غيره من الكواكب كائنات حية ، نعم توجد آية فى سورة الشورى من القرآن الكريم وهى

قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » يدل ظاهرها — كما قال الإمام المفسر الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ قال : إن ظاهرها يدل على وجود كائنات حية فى السموات وفى الأرض (وما بث فيهما) ومعناه أن دلالتها على وجود الكائنات الحية فى السموات ليست قطعية وإنما هى ظن واحتمال . ثم قال ولا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور مختلفة وأحوال شتى لا نعلمها ولم تذكر الأحاديث شيئا منها ولا عنها . وقد قال الله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » واسترسل الألوسى فقال : وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم مخلوقات فى جرم القمر ولم يحققوا أمرها لنقص فيما لديهم من آلات الرصد . وعلى كل فرأينا فى الموضوع هو كما قال الإمام الألوسى : ليس فى الإسلام دليل قاطع يدل على الوجود أو العدم ولو فرضنا أن ذلك قد ثبت وبان بالكشف الإنسانى وبالأجهزة التى تفيد اليقين ما ضر ذلك شيئا فى العقيدة وكذلك إذا لم يثبت شىء فالمصادر الإسلامية ليس فيها قول قاطع لا بالثبوت ولا بالنفى وإذن فالإنسان فى حل من اعتقاد هذا أو ذاك مالم يقف أمامه الاكتشاف الصحيح الذى يفيد اليقين والله أعلم بما خلق ويخلق وهو على كل شىء قدير .

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بمكتبه السيد ريستر كليسترينا الدكتور فى الفلسفة الصينية التاووتية والمحرر فى مجلة فيكو جورنال السويدية .

فحياه الأستاذ الأكبر قائلا : أهلا وسهلا .

ثم دار بينهما هذا الحديث :

هل زرت القاهرة قبل اليوم ؟ .

فقال الزائر : نعم - زرتها فى العام الماضى .

فقال فضيلته : وهل زرت الأزهر ؟ .

قال : لم - أتشرف بزيارته قبل هذه المرة .

فقال فضيلته : أنت دكتور فى الفلسفة على المذهب الصينى التاووتى ؟ فما هى أهداف هذا المذهب .

فقال الزائر : هذه الفلسفة جزء من الفلسفة الإلهية وهدفها رفع المعانى الفاضلة فى الإنسان .

تحريم النسل :

ثم سأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن تحديد النسل .

فأجاب فضيلته قائلا : إن الإسلام يبيح التنظيم ويمنع التحديد ، أما التنظيم فهو مباح إذا كان يؤدى إلى حفظ صحة المرأة ، فهو إذن جائز أولا للسيدات اللاتى يسرع إليهن الحمل ، وثانياً بالنسبة لذوى الأمراض

المتنقلة ، أو بالنسبة للذين تضعف أعصابهم عن مواجهة المسئوليات ، إن تنظيم النسل لشيء منها إنما هو تنظيم فردى ، لا يتعدى مجاله إنه شيء علاجى تدفع به أضرار محققة والتنظيم بهذا المعنى لا يجافى الطبيعة ولا يأباه الوعى القومى ولا تمنعه الشريعة بل هى تطلبه وتحث عليه . وإذا كانت الشريعة تتطلب كثرة قوية لا هزيلة فهى تعمل على صيانة النسل من الضعف والهزال ، وتعمل أيضا على دفع الضرر الذى يلحق الإنسان فى حياته ومن هنا قرر العلماء منع الحمل - مؤقتا - بين زوجين بهما أو بأحدهما داء من شأنه أن ينتقل فى الذرية والأحفاد .

وهكذا ترى أن الشريعة تحافظ على قوة الأمة وقوة أفرادها وتباعد بينها وبين أسباب الضعف .

ثم سأل السيد الزائر فضيلته عن الإجهاض .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه اعتداء على « حى » فيه بذرة الحياة والإسلام لا يقره .

ثم سأل الزائر : ما رأيكم فى أن كثرة النسل قد ينحط معها مستوى المعيشة ؟ .

فرد فضيلته : إن كثرة النسل ، وخاصة النسل الذى ترعاه الأمة ، النسل القوى يتفق دائما مع روح التشريع الإسلامى ، وتحديده لا يتفق مع أمة تريد النهوض والقوة واتساع العمران ، وكثرة الأيدى العاملة فى الزراعة والصناعة والمشروعات الهامة ، والتحديد بمدلول هذا اللفظ ، لا يتفق أيضا مع ما حثت عليه الشريعة الإسلامية من الزواج وما بينته أيضا من امتنان المولى على البشرية بنعمة البنين والحفدة كأثر من آثار الزواج إذ يقول جل شأنه « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات » . وجاء فى وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم يوم القيامة » ، « وسوداء ولود خير من حسناء عقيم » ، « ومن ترك الزواج مخافة العيال فليس منا » ، والقرآن ينعى على أهل الجاهلية قتل أبنائهم مخافة الفقر . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

وأيضا قد أعد الله مائدة لعباده فى ظاهر الأرض وباطنها ، ولا يمكن أن تضيق عن حاجتهم وحاجة نسلهم مهما كثروا ، فالتحديد بهذا المعنى تأباه الطبيعة كما لا ترضاه حكمة الحكيم . وتنبه الوعى القومى يرده ، وكثرة المصانع وطلب الأيدى العاملة فيها والحرص على النهضة بالمجتمعات واستصلاح الأراضى الزراعية - كل ذلك - يرفض هذا التحديد ، فلا تدعوا الناس إلى التكاسل ؛ فإن كثرة العيال الأقوياء يدعو الآباء والأمهات إلى النشاط والجد ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الروحية والمادية :

ثم سأل الصحفى فضيلته ـ عن أن الثروة المادية فى السويد تطغى على الروحية وأما هنا فقد رأيت الروحية تطغى على المادية .

فردفضيلته : لأنهم هنا يؤمنون بالله وبرسله وذلك عميق فى نفوسهم ، ويعملون بمقتضى التعاليم الإسلامية ، والأديان تدعو إلى السمو فى الروح ، ومع ذلك فنحن لا نغفل جانب العمل لأن الدين يدعو إليه ويحرص عليه ، إن جميع الرسل قد جاءوا بما يعلى الروحية ويسمو بها وأكد ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى العمل وإلى الجد فيه ، فلو أن الناس جميعا رجعوا إلى كلمة الحق والتوحيد لنعمت البشرية واستقر أمرها .

إن المادة المظلمة لا ينبعث منها نور على القلب الإنسانى ، لكن الروحية تفتح على الإنسان باب العلم والمعرفة ، والخلق الكريم وتهدى الإنسان إلى أبواب السعادة الحقة .

وأما المادية فليس لأصحابها إلا الأحجار والأصنام يعبدونها من دون الله .

هذا .وقال الزائر : إننى أوافقكم على ذلك ولذا فإننا فى السويد بدأنا نتجه الاتجاه الروحى لتسلم لنا الحياة .

ثم قال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر حريص على نشر التربية الروحية . والشريعة الإسلامية تضمن للبشرية الخير والسعادة والرفاهية والمساواة التامة .

ثم سأل السيد الزائر : أليس هناك اتجاه سياسى من وراء هذه الروحية ؟.

فأجاب فضيلته : إن الاتجاه إنما هو التعاون على خير الإنسانية والعمل على إسعادها والوقوف فى وجه التخريب والتدمير ، ورد غائلة الطغاة والمستعمرين ، هذه هى الروحية ولو أخذ بها الشرق والغرب لعاش الناس جميعا فى أمن ورخاء .

التوحيد سبيل الإصلاح :

ثم سأل بعض الأسئلة التى تتصل بالتوحيد وما هو الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه أوربا وغيرها فقال فضيلته : إن الواجب هو الرجوع إلى التوحيد فهو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولا تصلح البشرية إلا به وأنت يا أخى أليس لك قلب واحد ولسان واحد ؟ فاعرف حينئذ أن خالقك وموجدك وبارئك ومصورك واحد لا إله إلا هو .

فقال الزائر : أجل ، وأنا أوافقكم على هذا الاتجاه وأنه لا صلاح إلا بالتوحيد ، وسأدعو إلى ذلك فى السويد فما أحوجنا إلى هذه الدعوة ، ثم أضاف أن هناك فى السويد بعض المبعوثين المسلمين ، وبعد أن التقيت

بكم ، واستمعت إلى حديثكم الذى يخرج من قلب مؤمن كامل فإنى سأعمل على الاتصال بهم . فقال فضيلته : هو واجب الإنسانية جميعا ، والفلسفة الصحيحة . وواجب عليك أن تنصح الشعب السويدى بالتوحيد ، وأنا أهنئكم بميلاد عيسى الذى جاء بالتوحيد ولقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم يؤكده ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين فادع قومك إلى ذلك فقال : نعم . وسأحمل هذه الرسالة إلى السويد ثم قال : أرجو من فضيلتكم أن تأذنوا لى بالزيارة إذا زرت القاهرة مرة أخرى ، وعند انصرافه قبل يد فضيلته .

رجال الأديان يقاومون الإلحاد :

قالت صحيفة « وطنى » الأسبوعية التى تصدر عن القاهرة :

إن موجات الإلحاد تزحف موجة بعد موجة ، تريد أن تحطم مقومات الأديان ، وأن تشكك الناس فى معتقداتهم ، وتمحو الفضائل التى قررتها الأديان السماوية يوم أن سمت بالبشرية إلى معارج الكمال ، وتقضى على أعز ما كسبته البشرية فى كفاحها الطويل؛ لتحقيق الخير الشامل والصالح العام ، وقد تحدثنا إلى فضيلة الأستاذ الأكبر وقداسة البابا وطائفة من رجال الدين والفكر فاتفقت آراؤهم جميعاً على الوقوف صفاً واحداً والعمل يداً واحـــدة على محاربة الإلحاد ومقاومتـه .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر :

إنه لمن دواعى سرورنا أن تلتقى الأديان من أجل المبادىء الإنسانية ، وقد قلت للبطريرك المسكونى « أثينا غوراس الأول » يوم زارنى فى الشهر الماضى : إننى أرجو أن يكون لهذه المقابلة التاريخية أعظم الأثر فى مستقبل ، تعمل فيه الأديان من أجل الإنسانية ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأدعو إلى أن يضع كل منا يده فى يد الآخر عاملا على خدمة الإنسانية والسلام .

هذا ما قلته لسيادة البطريرك وأزيد عليه أن تلاقى الأديان لمقاومة الإلحاد هو تحقيق لرسالة الأديان لخير البشرية ، واقتلاع لجذور الشر من النفوس ؛ لأن وازع الدين إذا تمكن فى القلوب ينهض بمعنوياتها ويحول بينها وبين الاستجابة لدعوات الإلحاد ، ويوجهها إلى الخير وإلى العمل المفيد .

والرأى عندى : هو الوقوف صفاً واحداً أمام تيارات المادية المظلمة التى لا تعرف دينا ولا ترعى خلقا ولا تقيم وزنا للإنسانية الحقة . وهذه التيارات إذا ترك لها الانتشار قضت على البشرية جمعاء ؛ لأنها لا تعرف إلا التحلل ، وإضعاف الأمم ، وتمزيق وحدتها . إن الأديان جميعا تدعو إلى الفضيلة ، وحبنا

لديننا ووطننا يقتضينا أن نقف سداً عالياً أمام هذه التيارات الهوجاء فالغرب حين يرسل إلينا مدنيته إنما يرسلها سافرة الوجه فعلينا نحن جميعا أن نوجه الناس إلى الخير والفضيلة ليتقوا هذه التيارات وبخاصة اللادينية ، التي أصابت كثيراً ممن لا يفقهون ولا يفهمون: « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني » : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

* * *

وقال قداسة البابا كيرلس السادس :

يقول معلمنا بولس الرسول في رسالته إلى أهل روما .

إن الذين يحيدون عن الأديان أو يلحدون لا تبقى لهم مثل عليا ، ولا دوافع خير ؛ لذلك ينحرفون عن الصواب وينتشر الفساد في مجتمعهم وتضطرب حياتهم . إن الرسالة الأولى للدين هي تقويم النفوس حتى تحظى بأكبر قدر من السلام القلبي والأمن والسيادة عن طريق التعاون مع الآخرين بالمحبة والفهم والتقدير المتبادل لمشاعر الناس ، ولو استطاع رجال الأديان فهم هذه الرسالة ، وتبليغ الدين بهذه الصورة إلى أتباعهم لتعاونوا معاً بروح المحبة والإخاء الذي تمليه الأديان ، ولوقفوا صفاً واحداً لمحاربة المادية والإلحاد اللذين يزعزعان كيان المجتمع البشري الحديث .

وقال صاحب الفضيلة الأستاذ حسن مأمون مفتي الإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية .

نحن نعتبر المسيحية دينا من الأديان السماوية تدعو إلى الإيمان بالله وحده ونفي الشرك عنه ، ومن هذه الناحية نعتبر المسيحية كالإسلام في الدعوة إلى هدم الإلحاد ومناهضته. لذلك أؤيد فكرة تعاون الدينين الإسلامي والمسيحي على محاربة الإلحاد في كل صورة من صوره .

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة :

إن القرآن الكريم يدعو إلى التعاون الكامل بين المسلمين وأهل الكتاب في مقاومة الإلحاد ، وأعتقد أن الخطوة الأولى في هذا الشأن يجب أن يتقدم بها الغرب المسيحي بأن يعترف بالحقوق الطبيعية للشعوب الشرقية ، فلا يرضى لها الاستعمار كما لا يرضاه لشعوبه ، ولا يرضى مثل الوضع الحالي للاجئين في فلسطين . كما لا يرضاه لأي شعب في أوروبا. إنهم إذا اتجهوا إلى هذا الاتجاه فقد اتجهوا إلى العدل والاستقامة على الطريق الطبيعي وبالتالي لا يكونون ملحدين بحقوق الشعوب، ولا يمكن أن يتجزأ الإيمان بالحق ؛ فإنني إذا آمنت بالحق في جانب ، وكفرت به

فى جانب ، كنت فى الواقع غير مؤمن به ، فالذين يلحدون بالحق فى جانب يظلون ملحدين ولو آمنوا به فى جوانب أخرى ؛ لذلك أكرر ما قلته من وجوب تقدم الغرب للشرق بالخطوة الأولى حتى يقوم التعاون فى مقاومة الإلحاد على أساس سليم من الإخلاص للحق ولله الذى سمى نفسه بالحق .

* * *

الأزهر يعمل على توثيق العلاقات الثقافية

بين البلاد العربية

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر السيد عبد الجواد فرج مدير جامعة ليبيا ، ودار الحديث حول العلاقات الثقافية والأخوية بين البلدين ، وقد قال سيادة الزائر : إنى أحمل إليكم تحيات أبناء ليبيا التى هى جزء من العالم العربى والإسلامى والتى تشعر نحوكم بشعور الأخوة والصداقة اللتين تربطان بين البلدين الشقيقين .

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الأزهر حريص دائما على أن يقوى العلاقات بين البلاد العربية والإسلامية . ويسعى جاهداً لمد هذه البلاد الشقيقة بما لديه من ثقافات وأفكار، لتتوطد الروح العربية والإسلامية بين أبنائها ولتأخذ طريقها دائما إلى الكمال وإننا إذا تكاتفنا ووضع كل منا يده فى يد الآخر أمكننا أن نكون قوة واحدة تقف فى وجه من تسول له نفسه النيل منا ومن وحدتنا .

كما أمكننا أن نعتز بإعلاء كلمة الله أينما كانت وحيثما قيلت « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، فنحن دائما فى خدمة قائلها بعلمائنا وثقافاتنا وأفكارنا . ثم أفضى الحديث حول أحاديث فضيلة الأستاذ الأكبر فى الإذاعة والصحف فقال السيد الزائر : إنها ليست مجاملة أن أذكر لفضيلتكم أننا نتتبع أحاديثكم فى الإذاعة والصحف ونهتدى بهديها . ونسترشد بها فى تفهم تعاليم الله وشريعة محمد السمحاء ، وإنه لمما يشرفنى أن كنت فى يوم من الأيام جنديا من جنود الأزهر وما زلت أعتبر نفسى هذا الجندى ، أعمل على هداه وتعاليمه . وإنه لعهد علينا نقطعه على أنفسنا، أن نعمل دائما على خدمة الإسلام والمسلمين . وأن نسلك السبيل الذى يوصلنا إلى وحدة الغاية وسلامة الهدف إن شاء الله .

ثم استقبل فضيلته السيد أبو الأعلى المودودى رئيس الجماعة الإسلامية فى باكستان يرافقه السيد محمد عاصم مترجم كتب سيادته إلى اللغة العربية والسيد غلام محمد .

وقد قال الأستاذ الأكبر : مرحبا بكم فى القاهرة ، ومرحبا بكم فى الأزهر ـ مهد العلم والمعرفة ـ الذى تخرج فيه وعلى رجاله كثير

من رجالات العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى أنت يا أخى نعرفك بعلمك وبكتبك ، وإننا ليهمنا أن يتضامن علماؤنا مع علماء المسلمين فى أنحاء الأرض للعمل على إظهار العقيدة الإسلامية بعيدة عن الشوائب ، خالية من البدع ، فنعود بالفكرة الإسلامية إلى الوضع الإسلامى الرصين ، إيمانا بكتاب الله وسنة رسوله .

قال السيد الزائر : نعم - يا فضيلة الأستاذ الأكبر : إن العالم فى حاجة ماسة إلى الدين الخالص .

فقال فضيلته : وليس هناك من طريق إلى الدين الخالص إلا عن طريق أهله الذين يفهمونه ويعدونه إعدادا كاملا ، ثم يعرضونه على الناس فيثمر ثمرته ، ويؤتى أكله بإذن الله وثق يا أخى أن الترابط الذى بيننا هو ترابط الفكر والدين ، وهما رباطان قويان لا يقوى على فصمهما شىء .

وإن الأديان لا تقف حائلا دون التقدم ، بل هى التقدم نفسه ولو أن أمم الغرب تمسكت بالأديان ، وارتبطت بها ، وعكفت عليها وحرصت على فهمها ما رأيت تطاحنا ولا تكالبا ، إنهم أصحاب إختراعات ولكنهم ينقصهم معين هذه الاختراعات الذى لا ينضب تنقصهم الروح ، فماديتهم مادية مظلمة لا تعرف الإنسانية طريقا يوصلها إلى الخير ، ثم اتجه مرة أخرى إلى زائره وقال اسمع يا أخى : نحن فى زمن السرعة ، فى زمن الصاروخ ، فى زمن يصعد فيه الإنسان إلى الكواكب ، فى زمن الوضوح وأنا أقول أيضاً : يجب أن يكون الإسلام فى وضوحه وفى سرعته مع الناس ملائما لهذا الزمن وعلى رجال الدين نشر ذلك . وأنا - وإن كنت أراك شيخا - لكنى ألمس فيك روح الشباب القوى المنتج ، وأرجو أن يكون عملك - يا أخى - وعمل العلماء جميعا فى شيخوختهم أقوى من عملهم فى ريعان شبابهم

إننا نريد أن نعاهد الله على توحيد الفكرة الإسلامية لتنتشر فى كافة بقاع العالم .

فسر السيد الزائر بهذه الفكرة .

ثم انصرف الوفد ليزور مجلة الأزهر، وقاعة المحاضرات، ودار الكتب الأزهرية، والجامع الأزهر .

الكتب

نقد وتعريف

ديوانان من الإقليم الشمالي

"نجوى" : لعدنان مردم - "مع الله" : لعمر بهاء الدين الأميري

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أما « نجوى » للشاعر عدنان مردم مجموعة من القصائد فى الغـزل والوصف والتاريخ والمتأمل فى هذا الديوان يدرك أن صاحبه يتخذ طريقا وسطا بين الابتداعية والاتباعيه. فلا يذهب فى الأولى مذهب ناجي وعلى طـه ولا يصنع فى الأخيرة صنيع الجارم ومحرم ، وإنما يلائم بين المذهبين كما ينبغى أن تكون الملاءمة ، فيأخذ من الابتداعية ، لقصائده العاطفية ، رقه اللفظ ، ورهافة الحس ، وعذوبة النغم ، ويأخذ من الاتباعية لقصائده الوصفية والتاريخية ، جزالة اللفظ ، وفخامة المعنى ، وقوة الجرس:

ولست أدرى ، ما الذى جعل شاعرنا يبدأ ديوانه بشعر الغزل ، وليس هـو خير ما جادت به قريحتـه ، وفاضت به عاطفتـه ، وأبدعه خياله ؟ وأشهد أنى حين أخذت فى قراءة هذا الشعر كدت أنزل بالشاعر عن مستواه الذى عرفتـه له . حين لم أجـد فيه الكثير من فورة العاطفة ، وثورة الوجدان وإن وجدت فيه الكثير من نصاعة اللفظ ، وبراعة المعنى ، وجمال الصياغة . ولكنى لم أكد أنتهى من شعر الغزل ، وأبدأ فى شعر الطبيعة حتى ملأنى الإعجاب بما يتجلى فى هذا الشعر من دقة الوصف وبراعة التصور وروعة الخيال ، إن شعر الوصف هو المجال الذى يسبق فيه شاعرنا الكثيرين من شعراء هذا العصر وهو القمة التى يتسنمها مع القليلين من شعراء هـذا الجيل . ونحن من خلال هـذا الشعر ، ندرك أن شاعرنا يحس الطبيعة إحساسا قويا ويشعر بها شعورا عميقا ، فيتمثلها قلوبا تنبض

ونفوسا تحس ، وأرواحا تشعر ، وليست الطبيعة عنده ظواهر مادية ، يعرف حقيقتها حين يعرف طبيعة وجودها الخارجي ، ولكنها كائنات حية تفصح عن جوهرها دخائل النفوس وخفايا الضمائر . وهو يرى الطبيعة المليئة بالحياة والإلهام في كثير مما يدركه البصر ويشمله الحس ... يراها في الربيع والخريف والشتاء ، وفي الصباح والأصيل والمساء ، بل إنه يراها ، بروعة تأثيرها ، وقوة تعبيرها ، في غير ما تعود الناس أن يروه من صور الطبيعة التي تأسر القلوب ، وتسحر الألباب وتفتن المشاعر ... يراها في الصحراء الصامتة الموحشة ، وفي النار المستعرة المتأججة ، وفي الدخان الكثيف المتصاعد ، لأنه لا يقف من الأشياء عند ظواهرها الخارجية . ولكنه يبلغ أعماقها الخفية ، فيرى ما لا يراه غيره ، ويدرك ما لا يدركه سواه .

وهو في شعره الوصفي لا يعرض في إطار القصيدة الواحدة ، صوراً صغيرة لا تأتلف كل صورة مع أختها ، كما يفعل بعض الشعراء ، ولكنه يعرض في كل قصيدة من قصائده الوصفية لوحة كبيرة تتسق فيها الظلال والألوان ، وتستقر كل لمسة فيها لأتمها من مكان يبدو ذلك في قصيدة الصحراء حين يقول:

عاينتها والصبح مؤتلق
ينساح موارا ويتسع
وهضابها راحت على ضجر
في شملة الإعياء تلتفع
أنست بوحشتها وأسعدها
صمت كداجي الليل متسع
واستسلمت للنوم ناعمة
بعميق صمت ليس ينقشع

وسر براعته في الوصف أنه يشعر بموصوفه شعوراً عميقا ، لأنه يجد نظيره ماثلا في حياته النفسية ، وتجربته العاطفية ، فهو يبرع في وصف النار التي تنتهي إلى رماد ، لأنه جرب النار الخالدة في قلوب المحبين .

ما كان حبك غير مؤتلق اللظى
تفرى لواعجه القلوب بباتر
كم في الهوى والنار من متقارب
ومشابه في باطن أو ظاهر
وأرى اللهيب إلى الرماد مآله
ولهيب حبك خالد بسرائري

وهو يبدع في وصف الخريف ، لأن أوراقه التي تبددها الرياح ، تذكره بآماله التي بددتها صروف الحياة ، ولأن خريف الطبيعة يقابله خريف عمره الذي يبكي فيه ربيعه الذي ذهب ولن يعود :

آمالنـــا ورق تقاذفه
يد عابث في لجة الحقب
وشبابنا الفينان فاكهة
لكنها نهب لمغتصب

أسفا ، أكل شبيبة سمقت
تلوى بدوحتها يد العطب ؟

ولشاعرنا فى شعره الوصفى لمسات إنسانية تهز المشاعر ، وتثير القلوب ، فحينما يرى موكب الخريف ، ويلبس حزن الطبيعة ، يذكر أخاه الذى فجعه الدهر بفقده ، فيقول فى حزن :

ألفيت كر الدهر ينسى
المرء أوطـانا وجارا
وحوادث الأيام تسـ
ـدل دون ماتهوى ستارا
لكن جرحى لم يزل
فى الصدر يستعر استعارا
أأروم بعدك يا أخى
سلوى وقد بدلت دارا ؟
إنى إذن ضيعت عهـ
ـدك ظالما ، وأتيت عارا
هيهات ينسينى الزما
ن العهد ، أو كر السنين

ومن لمساته الإنسانية التى تنم عن سماحة النفس ، ورجاحة العقل ، ونبل الخلق ، قوله فى قصيدته « غفران » :

إنى إذا ما أمكنتنى فرصة
من ظالم ، وقرعته بسنان
غلب الحنان على العداء ، ولم يعد
فى الصدر يحضرنى سوى الإحسان
سر السعادة أن تمد لخاطئ
يد راحم وتمن بالغفران
يسع الحنان لخاطئ أوزاره
ولكم أقال الدمع عثرة جان

ويبقى بعد ذلك أن نذكر بعض ما وجدناه فى هذا الديوان من هنات لا تغض من قيمة الشعر ، ولا تنقص من قدر الشاعر . من هذه الهنات أنه فى بعض صوره لا يحقق الملاءمة النفسية بين أجزاء الصورة الواحدة ، ففى قصيدته « وقفة على قبر أخى » يقول :

دعوتك والظـلال عليـ
ـك أرخت فضل أردان
وللأزهار من عبث الصبـ
ـا تهـويم سكران

و « عبث الصبا » و « تهويم سكران » لا يلائمان القبر الذى يثير الحزن ، ولا يوائمان الشاعر الذى يشعر بالفجيعة .

ومنها أنه لم يحسن الملاءمة بين المعطوف والمعطوف عليه ، حين عطف الماضى على المضارع فى هذا البيت :

ويكفك الدنيا تفيض سنا
من رحمة وتدفقت عطر

وأنه زاد وحدة صوتية « تفعيلة » فى هذا البيت من قصيدته « الأرز » :

وشهدتن مولد الملك الأمـ
ـثل حيرام سليل الأمجاد والأبطال[1] .

---

(١) يمكن تصحيح البيت على هذا النحو :
وشهدتن مولد الملك حيرا
م سليل الأمجاد والابطال
بإسكان لام « الملك » : نجا

وهناك بعض هنات أخرى يضيق المقام عن ذكرها .

ومهما يكن من شيء ، فهذا الديوان خليق بالدراسة ، وصاحبه جدير بالتقدير .

* * *

وأما (مع الله) للأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين الأيدى فالقول فيه إنه إذا كان الميدان الذى يسبق فيه شاعرنا عدنان هو ميدان الوصف، فإن المجال الذى يتفوق فيه شاعرنا عمر هو مجال التصوف ، فديوانه هذا لا يضم غير الجانب الإلهى من شعره ، ونحن من خلال هذا الشعر نلمس هذه الصوفية الرقيقة التى تضفى على الأشياء ألوانا من السحر والجمال ، وتسمو بالروح إلى سموات من الصفاء والإشراق . .

هذه الصوفية التى يصورها الشاعر أجمل تصوير فى مقطوعته « آفاق وآفاق » حيث يقول :

تمتد بالأبصار آفاقها
إلى التقاءات السما بالثرى
ويبلغ التمييز غاياته
عند حدود الأفق المقترى
لكن أهل الله تسرى بهم
بصائر الإيمان أنى سرى
وفى التقاءات جباه التقى
بالأرض آفاق لبعض الورى
تجتاز بالأرواح دنيا الفنا
حتى ترى فى الله ما لا يرى

وصوفية شاعرنا تخلو من « الشطحات » البعيدة التى يذهب الناس فى تفسيرها مذاهب شتى ؛ فإذا كان الحلاج يقول فى إحدى شطحاته : « ما فى الجبة إلا الله » فيثير بهذا القول كثيراً من الجدل والخصام ، فإن شاعرنا يرى نفسه قبسا من نور الله ، وهو يؤمن بربه لأنه يراه فى خلقه ، يراه فى الفجر، وفى الضحى ، وفى جنح الغلس :

كيف لا أومن بالله ، وهل
لذوى الألباب فيه ملتبس
كيف لا أبصره فى خلقه
فى الضحى ، فى الفجر ، فى جنح الغلس
كيف لا أحيا به والروح من
أمره فى غور ذاتى انبجس
كيف لا تسعد نفسى بسنا
نوره فى كل ترديد نفس
وأنا ، فى سر كنهى ، من أنا ؟
أنا من إبداعه السامى قبس

فصوفيته إذن صافية أرق الصفاء ، واضحة أشد الوضوح ، ليس فيها هذا الغموض الكثيف الذى يبلبل الأفكار ، ويحير العقول . وليس فيها هذا « الانجذاب » العنيف الذى يوشك أن يكون عند بعض الناس مرضا من أمراض النفس ، أو وسيلة

من وسائل العيش ، وليس من الكشف أو الوصول فى قليل أو كثير . وأى صفاء أرق من الصفاء الذى يتجلى فى هذه الأبيات :

فى تناجى القلوب بالحب روح
فيه للروح والحشا خير قوت
فيه صفو ونشوة وهناء
وانطلاق من الأسى المكبوت
حين تصغى بعض القلوب لبعض
فى الحديث النقى أو فى السكوت
يشرق الله بالصفاء عليها
وينادى أعماقها : هل رضيت ؟
فى تناجى القلوب بالحب
يتسامى بها إلى الملكوت

وهذه الصوفية الصافيه بعيدة كل البعد عن صوفية الغوغاء ، تلك الصوفية العاجزة البليدة التى يتخذها بعض الناس ستاراً للجهل ، ويلتزمها فراراً من السعى ، ولكنها صوفية عاقلة عاملة تتسم بالثقافة والمعرفة والإدراك ، وتعبر عن قوة الروح ، وسمو النفس ، وترى الأشياء فى جوهرها الداخلى لا فى مظهرها الخارجى . . . فقيمة الكعبة عند شاعرنا ليست بأحجارها المرفوعة ، وأستارها الموضوعة ، ولكن بأنها محور أمجاد الأمة العربية ، ومصدر أنوارها الربانية ، وهى لذلك معنى يجده المؤمن فى نفسه ، يطوف حوله أنى ذهب ، وحيثما كان :

الكعبة الشماء فى مذهبى
قيمتها ليست بأحجارها
والقرب من خالقها ليس فى
تشبث المرء بأستارها
قدسية الكعبة فى جمعها
أمتنا من كل أقطارها
وأنها محور أمجادها
وأنها مصدر أنوارها
وكعبة المؤمن فى قلبه
يطوف أنى كان فى دارها

* * *

والصوفية قد تكون مظهراً من مظاهر انطواء النفس ، واعتزال الناس ، وكره الحياة ، وهذه صوفية ضعيفة لا تقف أمام الإغراء ، ولا تثبت فى مجال الصراع ، وقد تكون الصوفية وليدة خبرة بالحياة ، ومعرفة بالناس . وصراع مع النفس ، وهذه هى الصوفية الراسخة التى لا تعصف بها الأعاصير ولا تذيبها الشهوات . ومن هذا الطراز صوفية شاعرنا التى تتجلى فى نفسه ، وتنعكس على شعره .

آمن بالله وبالإغراء
وزلل القلب مع الأهواء
والضعف أناه عن الإغواء
وغفوة العفة والإباء
وفتنة البهاء فى النساء
ومكرهن البارع المرائى

آمن إيمان خبير رائى
أحيط من أطرافه بالداء
وكاد أن يهوى فى البلاء
لو لم ير البرهان فى السماء

وشاعرنا كلما أظلمت من حوله الحياة ، اعتزل دنيا الناس ، ولاذ بنور الله ، فوجد فى هذا النور طمأنينة النفس ، وسكينة الحس وسعادة الروح ، وعزلته هذه ليست عزلة الجبان الذى يهرب من الميدان حفظا لنفسه ، وحرصا على حياته ، ولكنها عزلة الرابض المتحفز ، الذى يعد نفسه ، ويهيء سلاحه ، لمنازلة الأعداء فى ميدان الكفاح .

قالوا اعتزلت ، فقلت عزلة رابض
متحفز للوثبة الشماء
إنى لأرجو أن أحاول صادقا
فى صوغ ذاتى من تقى ومضاء
لأكون فى الجلى إذا الداعى دعا
سهما يصيب مقاتل الأعداء
فأجود بالنفس الزكية فى رضا
ربى ، وأرخص فى الإله دمائى

ولكن ماذا يبغى شاعرنا من الحياة ؟ إنه يبغى تحرر النفس من قيد الجسد ، وانطلاق الروح من أسر المادة ؛ لارتياد المجاهل ، والاستغراق فى النشوة ، حين تلامس النفس أسرار الوجود ، وتصافح الروح أنوار الإله ؛ فإذا احتدم الصراع بين الروح الذى من شأنه أن ينطلق ، والمادة التى من طبيعتها أن تمسك ، فإن شاعرنا يستسلم حينئذ لأمر الله ، الذى كتب على خلقه هذا الصراع الخالد بين الروح والمادة ، لحكمة لا يعلمها حق العلم أحد سواه :

سلمت للرحمن تسليم العزيز إذا عزم
ورضيت حكم الله فى الروح المضرج بالألم

وهكذا يبدأ الشاعر ديوانه مع الله ، ويختمه مستسلما لأمر الله .

إبراهيم محمد نجا
من خريجى الأزهر

بريد المجلة

أين كتب الأستاذ الأكبر؟:

ألقى إلينا البريد طائفة من الرسائل يقول فيها مرسلوها أن المجلة كتبت عن كتابى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر : (الإسلام عقيدة وشريعة) و (الفتاوى) ولم تذكر من الناشر ولا أين تباع .

ويقول السيد أحمد عبيد من دمشق أنه تعب فى الاستدلال على عنوان الناشر أو المعهد وكان يريد أن يطلبها رأسا من فضيلة الأستاذ الأكبر وطلب منا أن نساعده على ذلك ؛ ليستطيع إجابة الطلب الشديد المتصل على اقتناء هذه الكتب . ونحن نقول لهؤلاء السادة إن الأستاذ الأكبر لاصلة له بنشر هذه الكتب ولا بتوزيعها ، وإنما تبرع بها للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر فنشرتها على مألوف عادتها وفى حدود اختصاصها من نشر الكتب العربية أو الأجنبية التى تخدم الإسلام بتفقيه الناس فيه ، أورد الشبه عنه ، وهى توزعها على الهيئات العلمية والإسلامية بالمجان .

من أخلاق المحدثين :

قرأت ما كتبه الأستاذ السيد أحمد خيرى عن (المغير لاحمد الغمارى) فرجعت إليه وإلى غيره من مؤلفاته فرأيته يملخ فى الباطل ويهذى بما لا يرضاه عاقل لنفسه ، وهو فيما اطلعت عليه من كتبه يعوزه خلق المحدث .

وإنى أسوق الآن كلمات فى خلق المحدث ، ليستبين القارىء منها أنه ليس له طبع على أصيل يؤهله لتحرير ما يعرض له من البحوث الحديثية والفقهية وغيرها :

إن أول مايجب أن يستفيده حامل الحديث من الحديث هو كرم الطبع ولين الجانب والتلطف بالمسلمين ، والابتعاد عن هجر القول والعجرفة، كأنه عاش مع النبى صلى الله عليه وسلم وعاشره وتربى بسيرته فى إرشاد الأمة .

إن علم الحديث يطهر النفس فيكون المحدث صورة للخير والفضيلة : لايداهن ولا يشاحن ولا يختال ولا يحسد ولا يحقد ولا يسفه ولا يطعن ولا يلعن ولا يسب .

روى القاضي ابن خلكان أن سهل بن عبد الله التستري جاء لأبي داود صاحب السنن ، فقيل له يا أبا داود : هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجله . فقال سهل يا أبا داود : لي اليك حاجة ، قال وما هي ؟ قال حتى تقول قضيتها مع الإمكان ، قال قد قضيتها مع الإمكان . قال أخرج لسانك الذي حدثت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله . قال فأخرج لسانه فقبله .

ورووا عن الإمام يحي بن معين أنه كان يقول : حدثنا (اسماعيل بن علية) فنهاه الإمام أحمد وقال : قل (اسماعيل بن ابراهيم) فإنه بلغني إنه كان يكره أن ينسب إلى أمه ، فقال قد قبلنا منك يا معلم الخير .

هذا خلق المحدث ذي الفطرة السليمة والتربية المثلى . أما ذو الفطرة السيئة المنحرفة الذي نشأ في بيئة لا تعرف الحياء . إذا تشاغل بالحديث كان له كالماء يرتد عن الجلمود لا يرويه ولا يتروى به . طلب الحديث للفخر والرياء ، والجدال والمراء ، وتأكل به الأغنياء ، وهو ينسب نفسه إلى المحدثين ، وأخلاقه أخلاق سفلة الجاهلين .

قال ابن عيينة : إذا كان نهاري نهار سفيه ، وليلي ليل جاهل ، فما أصنع بالعلم الذي كتبت .

وأصدق مثل لهذا الخلق هو ما جاء في كتاب المغير لأحمد الصديق ، فقد طعن في الحافظ السيوطي والحافظ ابن الجوزي - من حملة الحديث النبوي - وغيرهما من العلماء أكثر من عشرين مرة ، لا بارك الله فيه .

وما اطلعت عليه من كتبه مشحون بمثل هذا ، فهو يلعن بعض العلماء والقضاة ، ويكفر بعضهم .

واللعنة ترجع إلى قائلها إذا لم تجد مساغاً . ومن دعا رجلا بالكفر وليس كذلك حار عليه . على ما في الصحيحين وغيرهما . والله يغار على العلماء ، ويفضح من يتنقصهم .

وهو ينال في بعض كتبه من أناس لعيب يراه فيهم ، ثم يتملق آخرين وهم متصفون بتلك الصفة ، مما يدل على أنه يكتب وهو حذر ، لأن اليقظان لا يتناقض .

قال الإمام الأعظم أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات شيخي حماد إلا استغفرت له مع والدي ، وما مددت رجلي نحو داره وإن بيني وبينها سبع سكك ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه او علمني .

وأحمد الغماري يرد بحور العلماء ثم يستلذ الوقيعة فيهم .

ترجم العلامة الأديب ابن خلكان لحماد عجرد فلما وصل إلى ذكر أبيات ماجنة قالها هذا الشاعر في أحد الأئمة لم يرض ابن خلكان أن يصرح باسم هذا الإمام بل قال : يحكى أنه

كانت بينه وبين أحد الأئمة الكبار، وما يليق التصريح باسمه ...

وهذا من سمو الأدب فى التأليف ورعاية حرمة العالم للعالم، وأما الجاهل المغرور فلا يحترم نفسه ولا الناس ولا الحق.

رووا أنه تغير خاطر الحافظ السيوطى على العلامة القسطلانى وقال : إنه ينقل من كتبي ولا ينسب إليها. فمشى القسطلانى من القاهرة إلى الروضة - وكان السيوطى بها منعزلا عن الناس، فدق عليه الباب وقال أنا القسطلانى جئت اليك حافياً ليطيب خاطرك على، قال طاب خاطرى عليك.

هذا هو أدب أهل الحديث النبوى.

وأختم قولى بنصيحة لهذا الرجل إذا كان السلف أبقى عنده مكاناً لقبولها :

قال الإمام الشعبي : (العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله. ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله. وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا). وفى هذا بلاغ للعاقل.

أبو الفضل محمد الحيدرى

هذا الرجل : ماذا وراءه ؟

فى العدد الفائت من المجلة كتبت مقالا عن هذا الرجل الذى يدعو إلى دين جديد مبتكر باسم الإسلام ليقوض به أركان الإسلام نفسه ...

وعقب نشر المقال وظهور العدد استفسر كثير من القراء عن هذه الشخصية العجيبة التى تعيش فى عالم غريب ...

ونحن نبادر أولا فنقول للقراء الأفاضل بأنه ما منعنا من ذكر اسمه إلا علمنا بأن هناك إجراءات رسمية قد اتخذت لمحاسبته على آرائه الشاذة ..

ومن الجدير بالذكر أن مجلة « صوت الإسلام » كانت قد نشرت ما يكشف ستر الرجل بقلم الأستاذ عطية خميس المحامى رئيس تحريرها، وتبجح الرجل ورد عليه مدعيا أنه إنما يستند إلى القرآن وحده ومتجنيا على الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر، زاعماً أن فضيلته قرر فى كتابه الأخير : الإسلام عقيدة وشريعة « الاستناد إلى القرآن وحده ففضح عقله قبل أن يفضحه لسانه، فالأستاذ الأكبر قرر فى كتابه : أن العقيدة لا تثبت إلا بخبر قطعى الدلالة والورود، سواء أكان قرآنا أم حديثا متواتراً ؛ وهذا ما عليه جمهور العلماء. وتجاهل هذا الرجل فى رده أن الأستاذ الأكبر حين تحدث عن مصادر الشريعة ذكر السنة كمصدر ثان بعد القرآن، وفند زعم القائلين بأن القرآن هو المصدر الأول والأخير، فذكر فضيلته فى ص ٤٢٥ : تحت عنوان : الرد على شبهة هؤلاء « ... إن الرأى السابق مخالف لإجماع الذين يعتد بإجماعهم

وأن ما ذكروه من الشبه لا قيمة له أمام العمل المستمر من عهد الرسول إلى يومنا هذا فى نزوع المسلمين فى تعرف أحكامهم إلى السنة المروية .

ويظهر أن الرجل نسى أن دعوته المزعومة تقوم على انكار الأحاديث جملة وتفصيلا ، وأن محمداً صلوات الله عليه — لم يقل حديثا واحدا ، وأنه من يدعى بأنه قال ولو حديثا واحداً يتهمه بالخيانه ، وهذا قول لا يجد تابعا واحدا إلا ممن سقطت عنهم التكاليف والعجيب مرة أخرى أن الرجل ذكر فى رده على مجلة (صوت الإسلام) أن كتاب الأستاذ الأكبر ص ٥٤ تضمن حديث) : من تحدث عنى فليتبوأ مقعده من النار) وبالرجوع إلى الكتاب اتضح أن للرجل جرأة على الاختلاق لا تجارى ، فإن صيغة الحديث كما وردت فى الكتاب : « من كذب على الخ .

أما الرجل فهو السيد / محمد المتولى نجيب سكرتير عام وزارة المواصلات الذى أصبح منذ أيام قلائل : وكيلا مساعداً لوزارة المواصلات أيضا ...

محمد عبد الله السمان

غلاة الشيعة لم ينقرضوا بعد :

قرأت فى عدد جمادى الآخرة من مجلة الأزهر مقالا للأستاذ محمد محمد المدنى بعنوان « رجعة البعث الجديد لفت نظرى منه قوله عن الشيعة الضالين عن سبيل الحق » وقد انقرضوا ولم يعد لهم أثر فى العلم الإسلامى وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونون من أهل السنة والشيعة ، أما إنهم مارقون من الإسلام ملعونون من المسلمين كافة فهذا أمر لا خلاف فيه ، وأما إنهم قد انقرضوا فهذا كلام فيه نظر ؛ فإن هذه الفرق من الشيعة الذين يقولون بألوهية على وأن جبريل أخطأ حين كان ينزل بالوحى فكان حقه أن ينزل على على " فنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الشرذمة ما زالت تعيش فى بلاد الشام ومنهم الدروز والنصيرية والإسماعيلية وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويفسرون القرآن بأهوائهم ويقولون إن علياً حل فى القمر ؛ وبعضهم يقول إنه حل فى الشمس ؛ ولذلك يعبدون الشمس والقمر ولا يعلمون الدين إلا لمن بلغ الثامنة عشرة من عمره ، ويحجبون المرأة عن كل ما له علاقة بالدين الذى يزعمون أنه جوهرة ثمينة والمرأة غير أمينة عليها ! والغريب من أمرهم أنهم يتسمون بالأسماء الإسلامية ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان . ومما يبشر بالخير ماحدث من انتشار الإسلام بينهم أى بين النصيرية والإسماعيلية ، فقد بلغ عدد المسلمين حتى الآن من النصيرية ما يزيد على خمسة آلاف مسلم ومسلمة ، وبين يدى

وأنا أحرر هذه الكلمة كتاب من أخ فاضل يبشرني بأن الإسلام ينتشر بين هؤلاء انتشاراً سريعا ، وأن لجنة التبشير الإسلامي المنبعثة عن جمعية العلماء في حمص قد نجحت في مهمتها مبدئيا ، غير أنه ينقصها المال الكافي حتى تستطيع أن تبلغ الرسالة وتؤدي الأمانة ، كما أنها أخذت تهتم بالاسماعيلية بعد أن تبين لها أن الاسلام يغزو هذه الطائفة في ديارها ، فقد بلغ عدد المسلمين من هؤلاء أكثر من سبعة آلاف في قضاء المسلمية وما حولها . وقد أرسل إليهم الأزهر هذا العام الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهري واعظاً وداعيا إلى الاسلام ، غير أنه لم يمكث بينهم إلا شهرا واحدا هو شهر رمضان وعاد إلى القاهرة .

وهكذا نجد أن هذه الطوائف لم تنقرض بعد ، وما ذلك إلا من إهمال المسلمين وعدم اهتمامهم بنشر الاسلام وبعث الروح الاسلامي من جديد . إنهم هم المسئولون وحدهم عن هؤلاء الذين لا يعلمون عن الاسلام قليلا أو كثيراً ، فلم لا يدرس الأزهر حياة هؤلاء وعقائدهم وأحوالهم الاجتماعية وأوضاعهم ثم يقوم بما تتطلبه أوضاعهم من عمل يرجى من ورائه هدايتهم ودخولهم في دين الله .

ولقد بذل المبشرون جهوداً جبارة في سبيل إدخالهم في النصرانية غير أنها باءت بالفشل رغم ما أغدقوا على كثير منهم من أموال وثياب ، وشتى أنواع المغريات .

وهناك طائفة أخرى غير هذه الطوائف الثلاث هي طائفة اليزيدية التي تقطن الجهات الشمالية من الإقليم السوري وهي تعبد الشيطان ، وأذكر أن عدداً من القرى من هذه الطائفة كان قد دخل في الإسلام منذ سنوات على قلة الدعاة والمرشدين ، وقد بعث المبشرون النصارى وفدا ليدرس أحوالهم الدينية والاجتماعية وحياتهم العامة وتقاليدهم الخاصة ، كل هذا وغيره يجرى والمسلمون في غفلة ساهون عن التبشير بدينهم في ديارهم وفي غير ديارهم .

حسن عمر عمر

with proper guidance or lead mankind in a way free from the factors of limitedness and subjectiveness.

It has been established from what we have already mentioned that the real problem of the youth is not a sexual one but of human nature and pertaining to the value and standard of humanity in the conceptions of the youth. It is how to make the adolescent a mature *human* being, so that he may not return to the childish characters or yield to the attraction of matter, and may, instead, seek to realize the values which represent the human standard of maturity and perfection.

This is the nucleus of the problem of the youth and the solution is dependent on what religion can do in making the youth appreciate the virtuous standaɹd of humanity. This in turn depends on how *ministers* of religion present the religious values. The more these *ministers* adopt modern methods in their pesentations and the nearer they come to the spirit of the Divine message, the closer they are to the hearts of the youth whose relation to religion will go stronger and stronger.

The value of religion is everlasting, and its necessity in man's life is unquestionable. The adherence of the youth to religion is indispensable to make them appreciative of their human values and guarantee good guidance on their part.

To make the youth associate themselves with religion tbere must be (a) a harmony between the various mediums of guidance in society ; (b) true understanding of the religious teachings and (c) a good presentation of the religious values on the part of those who have made religion their responsibility and mission in life.

These are the presequisite to the association of the youth with religion which is irreplaceable and which empowers the youth to strive for *independence, sovereignty* and values.

---

peace and avoidanee of aggression, propagate sincerity and love, guide to brotherly human relations and sacrifice in the way of noble causes, national and social alike. The mission of religion, therefore, is nothing but making a sound presentation of the human values which ordain the proper course of man's relations to his fellow human being.

If the youth become clearly aware of their human nature and their values in life, they will undoubtedly be desirous to strive for attainig their human standard and enjoying the sense of their existence as human beings endowed with peculiar values. And when the youth are determined to struggle for such noble aims, their resolution will remove their uncertainty, and their tension, anxiety, will disappear. Thus we can find the right solution to the problem of the youth. This solution is to busy the youth with a struggle to achieve a good end.

It is religion only, to which there is no alternative in this respect, which can familiarize the youth with their human standard and with the necessity of making distinction between materialism and spirituality. For religion there is no substitute in philosophy or historical studies or psychology or any other branch of humanities, beeause none of these subjects is exempt from partiality and limitation, and none of them can replace religion in making the youth familiar with their human standard and the position of spirituality in contrast to materialism in life.

Philosophy in some schools believes in *matter* only and pays no attention to the spiritual ideals; in some other schools it believes in ideals only apart from *matter* or rejects both *matter* and idealism as is the case with mystical philosophy. Philosophy in a broad sense could not get rid of these defects and could not evaluate materialism as such and spirituality as such. Consequently, it could not introduce the needed distinction between materialism and spirituality. It could not rid itself of the mentioned defects because it is man's production, it is man made, and he is limited by the social factors and environmental circumstances working in his society. Such a man is not the *universal* man who is qualified to draw the general course of humanity and lead mankind to the right way.

Similarly, psychological and historical studies together with other departments of humanities are not absolutely and thoroughly sound in their conclusions, interpretations and observations respectively. Hence they, too, cannot provide humanity

The crisis of instability and anxiety in the youth, or the problem of their uncertainty is actually due to the fact that they fluctuate between two opposite stages in man's life: childhood and maturity. The former stage is distinguished by the child's inclination and attraction to tangible objects of size, quantity, colour, tune, sound, picture and from. Contrary to that is the latter stage of maturity which is distinguished by man's inclination to ideas, values and ideals; and by his attraction to principles. In the stage of childhood the human being is subject to what he perceives of material objects, while in the stage of maturity he emancipates himself from the subjugation of the tangible and shows independence from the attraction by things of concrete nature or tangible characters.

There is a gap in the life of the youth. It is the gap between the irresponsible conduct of childhood and the sound behaviour of maturity. There is in the life of the youth a great deal of uncertainty and fluctuation: Will they remain subject and enslaved to the tangible objects or grow independent in their attitudes and mature in thier decisions? This is the real crisis and the acute problem of the youth. The remedy of this problem, which should be produced by the people of religion, is to make the youth have clear distinction between materialism and spirituality, between two different stages in life, which require different attitudes, the stage of childhood, of the sense, and the stage of maturity, of sound mind and values. The youth should be taught to understand that spirituality is not a request to shun the course of material life. They should understand that spiritnality means acquaintance with the significant role played by values and ideals in man's life besides the role played by the senses and material inclinations.

Nature and religion, then, are very necessary in man's life, Nature gives him the incentive to discover its wonders and perceive its aspacts, whereas religion inspires him with insight into the real value of man, a function of which nature is absolutely incapable. The necessity of religion in man's life is beyond doubt because religion makes him conscious of his value and, consquently, emancipates him from the attraction of nature. Religion enables man to be his own master and the master of nature itself in a way as to render it subservient and useful to him, instead of the reverse.

Religious principles teach hearty sympathy and co-operation, advocate

religious values in a wrong manner. Some of these programmes introduce the religious values in the same way as some European intellectuals used to do in the Age of Enlightenment. This attitude is marked with some features the most important of which is glorifying man as the maker of law, morals, society and the state on the one hand; and disregarding religion as the source of all these systems and institutions, on the other hand. Some radio programmes depict man as being above the level of any criticism and as endowed with absolute authority to define the course of life in his own personal realm or in the whole social sphere. These programmes picture man as a conpletely self - sufficient being who needs nothing besides his mind, whereas religion and its values, as a right source of guidance, are derided and misrepresented by these programmes.

These are the obstacles and barriers standing in the way of the youth to religion. The definition of the way which associates the youth with religion is far beyond the ability of any individual or group of individuals, however capable they may be. If this way to religion is to be found and followed, it must be a part of the state policy and an element in the guiding forces of society in such a manner as to make all divisions and systems of the state respect the religious values, represent them properly and finally seek them. When this is realized together with the proper function of the school and the mosque, which function aims at bringing up well - mannered youth, the public will become enlightened, discipline will prevale and public opinion will prove sound.

To attract the youth to the line of religion it is not sufficient to only present the religious values in a uniform way of guidance. But, in addition to that, religious teachers must produce good solutions to the psychological problems of the youth whose problems are not merely sexual, although sexual instincts play a dangerously important role in the period of adolescence. Yet the sexual dangers of adolescence can be arrested if the youth are provided with right guidance and clear instructions as to the way they should follow in their life and as to how to overcome the crisis of instability and anxiety in themselves. Hence we believe that the problems of the youth are not sexual ones. The acute real problem is how to make the youth aware of the attitude they should adopt and clear about the way they should follow in life, and how to give them solutions to their crisis of instability and anxiety.

immaterial. When it deals with social questions like marriage and divorce or like the freedom and equality of woman, Egyptian journalism does not make a fair presentation of these questions, nor does it discuss them with deep insight to and genuine understanding of the principles of Islam concerning the course of relations between man and woman in divorce and marriage and in the family system as a whole. On the contrary, it deals with such questions in a very biased and partial way and with a preoccupied mentality. It is not far from truth to say that the ideas and opinions propagated by journalism are imported ones. They are introduced from the outside world to our society with the intention of underminig the values which are considered the basic elements in our social and nationalist personality as Arabs and Muslims.

Similarly, when journalism deals with the problems of the youth, it adopts a sexual approach and concentrates all these problems in a certain point at which the relation between man and woman appears more chaotic and more licentious than disciplined and well-organized. On the subject of defeneing the freedom of woman journalism is both confused and misleading. It blames the customs and traditions of the people - and this may be justifiable - but it mixes, and perhaps intentionally, the meannig of customs and traditions with the conception of religious principles and values. And if it refers to these customs and traditions in a *critical* spirit, it does so in a very disrespectlu and sarcastic manner without trying to produce any substitute for them to serve as a social bond and a basis in the construction of our Arab - Muslim society. By so doing journalism diverts the youth from the way to religion. Even when it tries to produce a substitute for the prevaling customs and traditions, it advocates with no precaution the adoption of Western customs and traditions bad and good alike.

This is done in spite of the fact that in the West, as we know especially after the two World wars, human values have shaken, and the customs together with traditiois have faced a shocking crisis because of which the West is moaning with complaints and to which is trying to find a solution but in vain.

It should be borne in mind that the *attitude of* journalism is not the only example of the barriers in the way to religion. There are also books, the broadcasfing service, periodicals whose influence is very much the same like that of journalism in its attitude to Islam. The radio programmes, for example, present the

of modern mind. We know that the scientific mentality prevaled in Europe during the nineteenth century, and that it originated an attitude of hostility, deriding and carelessness towards religion as well as idealist values at large. The prevalence of this scientific mentality in Europe blew a wave of scepticism about religion and doubt in the abstract values. When the East came into close contact with the West, the effects of this scientific mentality and of its prevalence in Europe expanded to the Islamic East and caused some doubt and scepticism.

To challenge this wave of doubt and combat the attitude of carelessness about religion, it is necessary to present our religious values in a clear and healthy way. The method of presentation should be *modern* in the sense that it should be meant to lead to persuasion and conviction. Psychological and social studies are of great help in making any good presentation of ideals and religious or moral values. If the people of the past depended in their presentations on the Aristotelian logic and found it sufficient, it is indispensable for the people of modern time to employ psychology and sociology, so that they can make successful presentations of the religious values they cherish.

Thus we see that the absence of psychological and sociological appoaches in making presentation of the religious values has created another obstacle and caused an additional difficulty in the way of the youth to religion. Moreover, we see that there are two kinds of obstacles one of which is psychological and the other is material. The former kind is manifested in disrespectfulness to the religious values as a result of the educational policy of separation between religious and non - religious education. The latter one is demonstrated in the fäilure to make persuasive or at least interesting presentations of the religious values.

Besides these two kinds of psychological and material obstables, although their effects have mitigated for various reasons, there are barriers blocking the way of the youth to religion. These barriers serve the purpose of imperialism in the sense that they make the religious values continue to be disregarded and disdainedjust as imperialism pleased. The first of these barriers is the journalistic style and manners. Egyptian journalism, which has developed considerably and adopted itself to the latest developments in the field, abuses the advantages of its developments by way of presenting the religious values as insignificant or

two parties away from one another and struggling against one another. Accordingly, there was a section of the people ascribed only to the intellectual and spiritual legacy of the Muslim peoples and isolated, at the same time, from the course of contemporary life without being able to make any association between the past and the present. There was another secteon whose members completely abandoned the cultural legacy and the spiritual values of the Islamic history and turned their faces to the West to receive its guidance and follow its advice. The persons who constituted the former section stood stagnant and immutable in their respective homelands, whereas those of the latter section were strangers and foreigners in their countries in which they lived with their bodies only devoting their minds and loyalties to foreign places, Gibb concluded.

It is of particular interest to us here to point to the fact that the position of the latter group resulted from the educational policy followed in Egypt since and during the British occupation. That policy was planned on the basis of laying barriers between "religious" and "secular" education and stressing the differences between the "two" kinds of education. This policy made the school guides and instructors of all levels abandon our religious values, disrespect our historical glories and deny our cultural contributions to human civilization.

Among the values mocked at are those of religion. When these religious values are depreciated or rejected, it follows that they will be deserted by the people who depreciate or reject them, and consequently immaterial to many others, who will find psychological difficulties and perplexities to adhere to values considered as reactionary forces and disdained by the so - called secular intellectuals.

Thus the interference of imperialism in the policy of education aimed at creating this phenomenon of educational dualism and of separation between secular and religious education. The harmful results of this policy of separation appeared afterwards in a course of a generation or two.

Besides these psychological obstacles which blocked the way of the youth to religion and which were caused by the imperialist policy in education, there are obstacles of a different nature produced by internal factors amongst which is the form in which we present our religious values and our cultural and spiritual legacy, a form which does not satisfy the intellectual demand

HOW TO MAKE THE YOUTH ADHERE TO RELIGION

by
Dr. Muhammad El - Bahay
Director General of The Islamic Culture
Admin.stration.

The article we introduce here, although originally written for the Arab and Muslim youth, is addressed to youth of all faiths and nations as well as to people of responsibility for the guidance of youth. The context of the article may appear local and particular but the thesis of it is universal and concerned with humanity at larg. Youth of other nations may have different circumstances unlike those of the Arab and Muslim youth, yet we believe that youth everywhere face common problems and similar difficulties, and their adherence to " religion " is a 9reat service to peace and humanity.

Hammudah Abdul-Ati

There are obstacls in the way of the youth to conceive religion as a source of guidance. There are also barriers standing in their path to religion. Our youth of to - day find themselves living in an age marked with bad effects of imperialism in the sphere of educational policy in Egypt and the Muslim world as a whole. This imperiailstic policy was meant to disassociate the past of the youth from their present and make them derive their guidance from imperialistic sources without paying any attention to their glorious past and the values which history has throughont witnessed and recorded.

In a public lecture delivered in 1938 at the university of Hamburg, the English Orientalist Gibb pointed out that the educational policy followed in Egypt divided the people of the one and the same nation into

pledges and non-fulfilment of vows. Blood is mercilessly shed in Algeria, men, women, and children, including aged persons and infants have been forcibly driven out of their homeland, Palestine, and several other peoples, are still suffering man's oppression to his fellow human beings.

Let all people learn that this Charter, the declaration of which we are celebrating today, is simply a form of re-adherence to God's injunctions as advocated by Islam and by all other Divine religions,

I exhort all people, all the faithfull and all those who hold human rights in high esteem, to bo inspired with the dictates of their religion, seeking enlightenment and guidance by association with righteonsness.

" It is not righteousness that ye turn your faces to the East and the West; but righteous is he who believeth in God and the Last Day and the angels and the Scripture and the propherts; and giveth of his wealth, however cherished, to kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slaves free; and cbserveth proper worship and payeth the poor-due. And those who keep their treaty when they make one, and the patient in affliction and adversity and time of distress. Such are they who are sincere. Such are they who keep their duty " (2, 177).

---

father or mother, or a specific race or colour, but by being dutiful to Him, by obedience to His injunctions and becuase of benevolence to self, parents, husband or wife, sons and daughters, kinsfolk, neighbours and all brethren in humanity. This has been the reason for any person's distinction from others: " Lo ! the noblest of you, in the sight of God, is the best in conduct ".

O mankind, the above are God's injunctions, and it is for these reasons that He has sent His messengers and by these words of wisdom He appealed to you, through the last of His prophets, 1379 years ago.

Eleven years ago, a development of good augury loomed up in the horizon of human life in the form of the Universal Declaration of Human Rights. This Charter proclaimed that all people were born free and equal in dignity and rights. It also says that they are endowed with reason and conscience and should act towards one another in a spirit of brotherhood. This document further stresses that all human beings are entitled to all the rights and freedoms set forth in that Declaration, without distinction of any kind, such as race, colour, sex, language, religion, political or other opinion, material or social origin, property, birth or other status, without any distinction between men and women.

It also stipulates that everyone has the right to life, liberty and security of person.

Fourteen Centuries ago, the religion of Islam laid the foundations of all these rights as set forth in several verses of the Holy Qur'an.

It is a Day deserving special consideration. Human Rights Day should be an occasion of recalling the precepts of religion, and stressing the necessity for their application in a manner designed to bring happiness to the human race. It should act as a deterrant to big powers from undermining the status of small peoples. It should serve as an incentive to them to recognize these people's right to self-gevernment, restoring to them their full rights.

If these cherished aims were to be attained, then Human Rights Day should be celebrated by all humanity as a happy festival in which the entire human race should take pride.

O brethren throughout the world. All human beings, inspired with true faith in religion, should ever remember their own pledges and the vows enjoined upon them by Heaven to adopt an attitude of co-operation, solidarity and aid to the weak. They should consider the pains suffered by humanity here and there, as a result of the repudiation of

An Appeal to the World on the Occasion of Human Rights' Day

In the Name of God the Most Merciful, Most Copassionate

On the occasion of the celebration of the eleventh anniversary of the Universal Declaration of Human Rights, His Eminence Sheikh Mahmoud Shaltout, Rector of Al-Azhar University, has issued the following appeal to the members of the entire humanity throughout the world.

This is an appeal by the Almighty God Who says in the Holy Qur'an; " O mankind! Lo we have created you from a male and a female, and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo! the noblest of you, in the sight of God, is the best in conduct. Lo! Allah is Knower, Aware" (49: 13).

" O mankind Be careful of your duty to your Lord Who created you from a single soul and from it created its mate and from them hath spread abroad a multitude of men and women. Be careful of your duty toward Allah in Whom ye claim (your rights) of one another, and toward the wombs (that bare you). Lo ! Allah hath been a watcher over you "(4: 1)

O brethren in humanity, God has addressed you as " mankind " and since He created your religion, He has proclaimed your human fraternity. He has not appealed to a particular section, a particular nation, a specific race or a special colour. He has not addressed the rich, excluding the poor; the strong instead of the weak, the fully grown persons instead of these of tender age. He has appealed to the entire human race, as descendants of one father, Adam. This is why He has called you " Adam's Sons " to remind you of the fact that you have descended from Adam and that Adam was moulded from pure dust.

God has called upon you to be animated by a spirit of mutual compassion among yourselves by saying: "We have created you from a male and a female ". He has also appealed to you to resort to co-operation and solidarity saying: "We have made you nations and tribes that ye may know one another ". He has distinguished some of you not because they belong to a particular nation,

This is the understandable sense of the Qur'anic verses related to the end of Jesus with his people. It is easily conceivable by the reader of these verses, once he acquaints himself with the way of God concerning His prophets-when their opponents turn against them-and emancipates his mind from the stories and narratives to which the Qur'an is not to be subject. It is hard to perceive any other sense. One wonders as to how the salvation of Jesus by taking him from among his enemies and elevating his body to heaven could be considered *planning* of God, and how this could be described as *better* than and *superior* to the *planning* of the enemies who could not possibly resist or avoid the action of God which is beyond human power.

The confusion we come to from the thesis of this discussion is (a) There is nothing in the Qur'an or the genuine Traditions to establish the belief that Jesus was elevated with his body to heaven where he is alive now and will continue to live until he comes down to the earth near the end of the world. (b) All that which can be understood from the verses concerning that matter is a promise from God to cause the death of Jesus, exalt him and clear him of those who disbelieve, a promise which was thoroughly fulfilled and according to which Jesus was not killed nor crucified by his enemies but was made to enjoy his life fully and to exalt in God's presence. (c) The rejection of the notion that Jesus was raised to heaven by his body where he is alive now and wherefrom he will come down to the earth when the world comes near its end-does not drive a Muslim out of the way of Islam or faith. Such a rejection does not justify the virdict of apostasy passed against those who question the notion. They are Muslims, believers, and should be treated as such during their lives as well as upon their death; because the rejection of this notion does not imply a rejection of any fundamental principle of Islam.

It is obvious therefore that Jesus was exalted in God's presence, because the Arabic word *rafa*, is mentioned in the verse after the word death, and so it means exaltation of Jesus, not the elevation of his body to heaven. This meaning is supported by the statement in which God promised to clear him of those who disbelieved, which indicates that the whole matter signifies honour and veneration for Jesus. It is also supported by the usages of the word *rafa*, in many Qur'anic verses and various classical expressions. Consequently, the word used in connection with Jesus can reveal one sense only, the sense of care and protection by God. Any other interpretation would do injustice to the Qur'an and would only appease unfounded stories and fabricated narratives.

After all, Jesus is but a messenger, before him messengers have already passed away. His people opposed him and on their faces appeared signs of hostility and evil. He, like all other prophets and messengers, took refuge with God Who saved him with His might and wisdom and frustrated His enemies' planning. This is the proper sense embodied in the verses which read as follows : " But when Jesus perceived disbelief on their part, he said: 'Who will be my helpers in God's way ? ' The disciples said : ' We are God's helpers, we believe in God, and bear thou witness that we are submitting ones (Muslims). Our Lord, we believe in that which Thou hast revealed and we follow the messenger, so write us down with those who bear witness. And (the Jews) planned and God (also) planned. And God is the best of planners. When God said : " O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve and make those who follow thee above those who disbelieve to the day of Resurrection. Then to Me is your return, so I shall decide between you concerning that wherein you differ " (Surah. 3, Vs. 51 – 54). These verses explain that God's power of planning is far superior to that of His enemies who plotted the assassination of Jesus and whose tactics in that matter ended with mere frustration, while Jesus was saved and protected by God. This was the fulfillment of the promise of God Who said : " O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve". In that promise God gave him the good news that He would save him from the plots of the enemies and frustrate them, and that he would complete his course of life to die in a natural way without killing or crucifixion and then be exalted in His presence.

also unreasonable to say that the word death, *wafah*, in the passage means Jesus will die after his descension from heaven - accordiug to the opinion which presumes that he is alive in heaven and will come down at the end of the world. This is because the passage speaks in clear terms of his relations to his own people, not to the other people who will exist near the end of the world and who are unanimously conceived to be Muhammad's peole not the peole of Jesus.

The Meaning of Rafa (Exaltation) :

The above-mentioned verse in the chapter of Women, which reads: "Nay, God exalted him (Jesus) in His presence " is taken by the majority of interpreters to mean that the body of Jesus was elevated to heaven where he is alive now, and wherefrom he will come down to the earth at the end of the world to kill all pigs and smash all crosses. They derive this oPinion from narratives which indicate that Jesus will come down at a certain time near the end of the world. They do that in spite of the fact that these narratives are inconsistent and equivocal, and are reported through questionable sources. They hold this opinion unaware, perhaps, that they contradict themselves and twist the meanings of the Qur'an and the Traditions by ascribing to them senses which they cannot bear or suggest.

If we leave these interpreters aside, and come to reflect on the verse of the Family of Amran, in which God says: " O Jesus, I will cause thee to die, and exalt thee in My presence, " together with the verse of Women " Nay, God exalted him in His presence " - we shall find that the former verse indicates a promise from God the fulfillment of which is revealed and attested by the latter one. The promise of God as stated in the former verse, was that He would cause the death of Jesus, exalt him and clear him of those who disbelieve. The latter verse makes no reference to these meanings as such but is confined to the mention of exaltation in God's presence. This means that the two verses should be interpreted in the light of each other to be consistent, which - in turn - maens that God actually caused the death of Jesus, exalted him in His presence and cleared him of those who disbelieved. The great authority of Qur'anic exegesis al - Alusi interpreted the sentence " will cause thee die " in a way as to mean that God made Jesus complete his life and die a natural death without being let down by God to the enemies to kill him or do to him the afflictions they intended to.

is in Thy mind. Surely Thou art the great Knower of the unseen. I said to them naught save as Thou didst command me: Serve God, my Lord and your Lord; and I was a witness over them so long as I was with them, but when Thou didst cause me to die Thou wast the Watcher over them. And Thou art Witness of all things" (Surah. 5, Vs. 116—117).

These are the verses in which the Qur'an makes references as to how the life of Jesus with his people ended. The very last verses of *the Table* bear a special significance where they deal with Jesus and his mother as being worshiped by their people. They make it clear that Jesus, peace be upon him, did not say to his people anything except what God had commanded him to say i.e. "Serve God, my Lord and your Lord". They also state that he was a witness of his people when he was among them, but since the time God caused him to die, he knew nothing about what they did,

The Meaning of the word Tawaffa (to cause to die):

The word *tawaffa* is frequently mentioned in the Qur,an to mean to cause death. This is the first and foremost sense of the word whenever it is mentioned. If it is used to mean something other than that, there is always with it what points to the new meaning in which the word is used. The following verses show what the word and its derivations originally mean. The Qur'an says: "*Qul yatawaffakum malakul-mawt,*" which means "Say: The angel of death, who is given charge of you, will cause you to die" (Surah. 32, V. 11). "As for those whom the angels cause to die (*this is represented in Arabic by the words " tawaffahum al-Malaikah*) while they are unjust to themselves ... " (Surah. 4, V. 97). "And if thou couldst see when the angels cause to die those who disbelieve — this is represented in Arabic by the words '*yatawaffa al - ladhin kafarou al - malaikato*' - " (Surah. 8, V. 50). Besides these, there are many verses to support this notion.

It is logical, therefore, that the word *tawaffaytani* - mentioned above in connection with Jesus in the passage of *the Table* - should mean natural death in the normal way which people conceive and which the Arab-speaking people understand from both the text and the context. So if we take this passage in its original and proper sense, it should be concluded that Jesus died and that there is no argument to justify the notion which assumes that he is still alive and to him death never came. It is

THE "ASCENSION" OF JESUS

BY

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of Al-Azhar University

In three chapters the Glorious Qur'an deals with the question of Jesus' end. First, God says in the chapter of the Family of *Amran* : " But when Jesus perceived disbelief on their part, he said : Who will be my helpers in God's way ? The disciples said: We are God's helpers, we believe in God, and bear thou witness that we are submitting ones (the Arabic word used in the text is *Muslims*). Our Lord, we believe in that which Thou hast revealed and we follow the messenger, so write us down with those who bear witness. And (*the Jews*) planned and God (*also*) planned. And God is the best of planners. When God said : O Jesus, I will cause thee to die and exalt thee in My presence and clear thee of those who disbelieve and make those who follow thee above those who disbelieve to the day of Resurrection. Then to Me is your return, so I shall decide between you concerning that wherein you differ " (Surah 2, Vs. 51 — 54).

Secondly, in the chapter o *Women* God, exalted be He, says : " And for their disbelief and for their uttering against Mary a grievious calumny (we condemned them) : And for their saying: We have killed the Messiah. Jesus, son of Mary, the messenger of God, and they killed him not, nor did they crucify him, but a likeness of that was shown to them. And certainly those who differ therein are in doubt obout it. They have no knowledge about it, but only follow a conjecture, and they killed him not for certain. Nay, God exalted him in His presence. And God is ever Mighty, Wise " (Surah 4, Vs. 156 - 158).

Thirdly, in the chapter of *the Table* God, glorified be He, says: " And when God will say: O Jesus, son of Mary, didst thou say to men, Take me and my mother for two gods besides God. He will say Glory be to Thee : it was not for me to say what I had not right to (say). If I had said it, Thou wouldst indeed have known it. Thou knowest what is in my mind, and I know not what

the right of ownership and enterprise. When Islam came, it tightened the sphere of slavery and made an atonement charity and the emancipation of slaves. It also equilized man and woman so for as rights and duties are concerned. Moreover, Islam declared the freedom of conscience or belief ; as God says in the Qur'an : "There is no compulsion in religion ; the right way is indeed clearly distinct from error" (Surah 2, V. 256). "And if thy Lord had pleased, all those who are in the earth would have believed, all of them. Wilt thou then force men till they are believers" (Surah 10, V. 99).

Furthermore, it respected the beliefs of the people of the Scripture Jews and Christi a ns alike and guaranteed for them freedom of worship, security and justice. Muslim rulers and laymen are demanded to care for them, be kind and fair to them.

Besides all this, Islam declared the freedom of thought and opinion, and so rejected the faith of imitators and opposed the authority of dictators. With the same spirit Islam enjoined reflection upon the wonders of the heavens and the earth. It adopted a tolerant attitude towards politicians, intellectuals and jurists. And this is why there have been in the history of Islam many political parties, various intellectual trends and different schools of law. It is also why non-Muslims are allowed to propagate their religions and practise their rituals without being interfered with or argued against except in a way which is best.

In fine, Islam has restored due respect to the right of ownership and established it on solid bases. It has regulated the laws and systems of inheritance and set up the course of dealing accordingly. These are the substance of the natural rights which Islam guarantees for man irrespective of his colour, religion and tongue.

Thirteen and a half centuries ago, where ignorance and error as well as oppression prevaled, Muhammad son of Abdullah declared these rights. Thus he emancipated humanity from the fetters of materialism, fanaticism and egoism. Further, he honoured humanity and guided it to the straight path, to a far more perfect system, to a better world and a happier life. But humanity unfortunately went astray from this path and was misled by those hypocrites who to-day declare these rights and do emphasize from the depth of their hearts the existence of distinctions and differences of all sorts among people.

* * *

justice; facilitated the freedom of slaves by virtue of exhortation to the setting free of the slaves, and granted woman's rights in a manner of equality.

The weak upon whom God bestowed His mercy through the message of Muhammad were not confined to any particular race or country. They constituted a universal community of different races and regions where Arabs and Persians, Romans and Turks, Indians and Chinese, Barbars and Ethiopians all enjoyed the true justice of Islam and the protection of the califate.

Islam, whose Most Supreme Ordainer says: "Surely We have honoured the children of Adam", does not restrict its honour to any special colour or any particular class of people. On the contrary, it venerates all the children of Adam and so forbids them to prostrate to an idol or an image or a tree or an animal. It does not allow them to yield to the oppression of any monk or man of authority.

The Jews assumed that they alone were the beloved children of God and all other people were nothing. Likewise, the Romans claimed that they were created to be the masters of the world while pepole other than themselves were only servants. The Arabs also used to think of themselves as gifted from among all people with eloquence and privileged with rhetorical qualities. The Indians, too, had their own imaginations of distinction to which some classes were entitled at the expense of other classes which were disdained and *untouched*. Thus the universal social system was based on recognition of social, racial and religious superiority of some people over others. This was the rule until the Messemger Muhammad son of Abdullah came with guidance and true religion to make it above all other religions. He declared equality in the words of God " The blievers indeed are brothers ". " O mankind, We have created you from a male and a female and have made you nations and tribes so that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you (Surah 49, Vs. 10, 13).

The Prophet gave more emphasis to this point by saying: "All people are like comb teeth. No Arab is superior to non Arab except by virtue of dutifulness. You all belong to Adam, and Adam was created from the pure earth".

Before the coming of Islam slaves and women were not considered human beings, but were conceived as mere material things deprived of

the Red Indian of America, he is considered by the Sons of Uncle Sam as a mean and disdained creature who is to be burdened with all kinds of duty and deprived of every right. His unrecognized existence in the countries of liberal democrats is still, from the Muslim's point of view, a big lie in the democratic Constitution of Washington and a horrid curse on the Statue of Liberty in New york.

Likewise, the coloured and black man of Africa, or the yellow man of Asia is viewed by the French and the English imperialists as a worthless animal and a sort of row material. He is born to be exploited and developed to be invested, and his production is to be consumed by others. He is the subject of hostility in times of peace and the substance of spoil in war. Yet his blundered right in the constitutional and educated nations is still in the opinion of the Muslims a case against the soundness of culture taught in the universities of France and a flat refutaion of the truth of justice in the Parliament of England.

It is due to this false interpretation of the reality of man that the basis on which he is evaluated has been shaking and the criterion by which he is measured has been inaccurate. Accordingly, the value of man has been given different explanations. His race, colour and religion all have a special weight on and a particular significance in his account. Man is not venerated because he is a human being of virtue, but his honour and value depend entirely on his conditions of ability and weakness. Consequently, knowledge, wealth and Power are the means of mastery, whereas ignorance, poverty and impotency are the way to enslavement. Mastery in this sense means the enjoyment of all rights without having any obligation, and enslavement means the burdening with obligations without enjoying any right.

In contrast to this it is useful to say that it is the Muslims only who understand the true value of man because they are the followers of Muhammad, who alone declared the rights of man with a clear vision of his real value and natural status. This is so because Muhammad was the Messenger of God Who inspired him with these rights as he was sent from God to be a mercy for all people. God sent him to be a mercy to the weak who lack money or have no ally or supporting relatives, or who are weak by the nature of their creation like women. Thus he guaranteed provisions for the poor by means of obligatory alms ; assured the weak of dignity by way of

Muhammad the Messenger of God
The First to Declare Human Rights

Written on the occasion of the Eleventh anniversary of the Declaration of Human Fights in the United Nations Organization.

by

AHMED HASSAN EL-ZAYAT
Editor - in - Chief

On December 10, 1948 and with an artificial feeling of enthusiasm motivated by international hypocrisy, the politicians delegated to the General Assembly of the United Nations Organization adopted and proclaimed the Universal Declaration of Human Rights. A few weeks ago the officials of the organization together with other people concerned celebrated the Eleventh Anniversary of that historic declaration. On this occasion they gave glad tidings about the abiding boons, the copious prosperity and the perpetual peace. Before these *humane* ,politicians the leaders of the French Revolution had declared these very human rights in the year 1789, codified them in seventeen articles and made them a prologue of the Constitution of 1791.

It is easy for the social mind to reason out the utterance by the French revolutionsts of the human rights ater having so painfully suffered from the subjugation of nobility and the despotism of religious authorities. It is also easy to explain the adoption by the United Nations Organization of these rights after having seen the Communist monster obstructing the course of of life and opening its huge horrible mouth to devour the capitalist democracy and the spheres of its domination over people's sources of living and world markets through imperialism and influence. But it is difficult for the logical mind to conceive what the Europeans and Americans mean by the word *man* for whose sake they supposedly declared these rights and showed sympathy. Yet it seems probable that they mean by man entitled to these rights the luxurious white man who descended from Latin or Saxon origins. But as for

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء التاسع — رمضان سنة ١٣٧٩ هـ — مارس سنة ١٩٦٠ م — المجلد الحادي والثلاثون

الفهرس

يومان من أيام رمضان

يوم القرآن و يوم الفرقان

بقلم: أحمد حسن الزيات

يستقبل المؤمنون فى شهر رمضان ربيع القلوب ونعيم الأنفس وصيام الجوارح عن الأذى، وفطام المشاعر عن الهوى، بعد أحد عشر شهراً قضوها فى صراع المادة وجهاد العيش، تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير، فيجلو صدورهم بالذكر، ويطهر نفوسهم بالعبادة، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن فى دنيا الآمال والآلام بقية العام كله.

رمضان هو التمرين الرياضى السنوى للنفس، يشترك فيه المسلمون فى جميع أقطار الأرض، يصومون فى وقت واحد، ويفطرون فى وقت واحد، وينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله، فيغضوا أبصارهم عن المنكر، ويكفوا ألسنتهم عن الفحش، ويصموا آذانهم عن اللغو، ويغلوا أيديهم عن السوء؛ وتلك هى العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم، وهذه القيود والحدود التى تضمنها معنى الصوم هى المجاهدة التى تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة.

وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم. كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق. والرياضة الروحية هى حكمة الصيام فى الأديان كلها..

«يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» فتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة. وقد اجتمعتا فى قوله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى»، فالخوف من الله هو التقوى، ونهى النفس عن الهوى هو المجاهدة. أما قول من قال إن حكمة الصوم هى أن يذوق الغنى عذاب الجوع ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير فقول سطحى توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة، فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معانى الصوم، ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد.

خص الله شهر رمضان من بين الشهور بقيام الركن الرابع من أركان الإسلام فيه ، وهو الصوم ؛ ليومين من أيامه كان لهما فى تاريخ العالم أرفع الشأن ، وفى مصير الإنسان أبلغ الأثر : يومه السابع عشر من السنة الحادية والأربعين من مولد الرسول وهو يوم القرآن ، ويومه السابع عشر من السنة الثانية لهجرته وهو يوم الفرقان .

فأما يوم القرآن ففى ليلته المباركة تجلى الله لجبل النور كما تجلى من قبل لجبل الطور فأنزل الروح الأمين بالإشراقة الأولى من كتابه الكريم على قلب نبيه العظيم ، فاستعلنت منذ تلك الليلة معانى الحق ، واستبانت سبل السلام ، واستقامت موازين العدل ، وخرج الناس من ظلام حالك كانوا يعمهون فيه ، إلى نور ساطع أصبحوا يهتدون به . ولقد كان لصباح هذا اليوم المسفر تباشير كانت تلوح فى حياة محمد صلوات الله عليه فى هذا الشهر من كل عام ، كان كلما أقبل شهر رمضان هجر المهاد اللين ، وفارق الزوجة الحنون ، وتزود الزاد اليسير ، ثم صعد جبل حراء على ألف وخمسمائة متر من شمال مكة ، ليستعين بالصوم والاعتكاف والتأمل على استجلاء الحقيقة الإلهية التى خفيت بين جاهلية العرب ووثنية قريش ، وهناك على قمة الجبل المخروطى الشاهق ، وفى صمته الملهم الرائع ، وفى غيابة الفضاء الرهيب ، كان يفكر فى الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى فى الوجود المطلق . فإذا جنه الليل أرسل نظره وفكره فى أشعة القمر أو فى أضواء النجوم ، يستطلع المجهول ويستجلى الغامض ، ويرقب انبثاق النور عن الخالق ، وانكشاف الستور عن الحق ؛ حتى إذا أجهده التفكير وأرهقته الحيرة ، أوى إلى الغار الموحش النابى فيستلقى على صخره سويعات ثم يستيقظ قبل أن تغور النجوم فيتعبد ويتجه بروحه اللطيف الصافى إلى الملأ الأعلى حتى تهيأ بطول الرياضة والعبادة والخلوة لتبليغ الرسالة .

ففى الليلة المباركة وهى ليلة القدر رأى وهو نائم فى الغار أن رجلا جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب وقال له اقرأ . وكيف يقرأ محمد الأمى ولم يتل من قبل كتابا ولا خطه بيمينه ؟ قال للرجل بعد أن راعه ما سمع منه وآذاه ما صنع به : ماذا أقرأ ؟ قال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فقرأها وانصرف الرجل عنه وقد انتقشت فى لوح قلبه .

* * *

وأما يوم الفرقان فهو يوم التقى الجمعان : جمع المدينة وجمع مكة فى بدر ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان

المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش، فكان موقف الإسلام من الشرك يومئذ موقف محنة. كان بين العدوتين الدنيا والقصوى فى بدر مفرق الطريق: فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك. وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب. فكان طريق وعقبة، ونور وظلمة، وإله وشيطان؛ فإما أن يتمزق تراث الإنسانية على هذا الصخر، ويتبدد نور الله فى هذا القفر. وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذا الطريق، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة. وما هى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر وجاءت البشرى بالجنة، فغاب البدريون فى إشراق عجيب من الإيمان لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحور، ولا يصور فى أعينهم إلا الملائكة، وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض، من صخور بدر، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب، وانكشفت المعجزة الإلهية عن انتصار ثلاثمائة على قرابة ألف!.

موقعة بدر الكبرى لا نذكر بخطتها وعدتها ونفقتها فى تاريخ الحرب، وإنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم؛ لأنها كانت حكما قاطعا من أحكام القدر غير مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله ويؤدوا أمانة الحضارة ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان والصدق والإيمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح، وفيها الحب والإيثار، فلا تبالى العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر.

بهذا الإيمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك. وبهذا الإيمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة، عمرانا طبق الأرض بالخير، وملكا نظم الدنيا بالعدل، ودينا ألف القلوب بالرحمة.؟

أحمد حسن الزيات

تحية من الأستاذ الأكبر
إلى جميع المسلمين في شهر رمضان

إخوانى وأبنائى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ـ وبالسلام أحييكم أصدق تحية ، تحية من عند الله طيبة مباركة ـ أوجهها إليكم ، عنوانا على ما بيننا من الأخوة المشتركة ، والمحبة الصادقة والإيمان بالله ورسوله .

أيها السادة :

إن الله فى علمه الخلق والاصطفاء ، فهو يخلق ما يشاء لما يشاء ، ويصطفى من يشاء لما يشاء ، يخلق البشر ، ويصطفى منهم للقيادة من شاء ، يصطفى الأنبياء والمرسلين ، ويصطفى العلماء والفلاسفة ، ويصطفى القواد والمصلحين . ويخلق الأمكنة ، ويصطفى منها مهابط الوحى ، ومنابت الذكريات ، ومثابة التقديس والعبادة . يصطفى منها على سائر الأماكن ، ويجعل أفئدة من الناس تهوى إليها ، ويخلق الأزمنة ، ويصطفى منها مواسم لرحمته ، وأياما وليالى لنعمه وأفضاله .

ومصداق الخلق والاصطفاء فى القرآن على وجه عام قوله تعالى : « وربك يخلق مايشاء ويختار » ، وفى الاصطفاء الإنسانى يقول سبحانه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، ويقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ، ويقول : « يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى » ويقول : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات » .

وفى الاصطفاء المكانى يقول تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم » ، « يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك » .

وفى الاصطفاء الزمانى يقول « إن قرآن الفجر كان مشهودا » ، « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر » .

على هذه السنة ، سنة الاصطفاء فى الزمان

والمكان والخلق اصطفى شهر رمضان وكان هو الشهر الذى تهتز له قلوب المؤمنين ، ويذكرون به نعم الله وأفضاله ، ويرقبون فيه رحمته ورضوانه ، وكان مظهر اصطفاء رمضان جملة أمور :

أولا : أنه الشهر الوحيـــد الذى صرح القرآن باسمه .

ثانياً : أنه الشهر الوحيد الذى ظهرت فيه أكبر نعم الله على عباده وهى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ثالثاً : أنه فرض صومه وجعل صومه فريضة محكمة من أنكرها فقد خرج عن دائرة الإسلام واستحق اللعنة الأبدية ، وحرم جميع خصائص المسلمين ، فهو لا يدفن فى مقابر المسلمين ، ولا يرثهم ولا يرثونه ، وتبين منه زوجته ، وتنقطع ما بينه وبين أبنائه صلات البنوة والحفادة ، وكذلك تنقطع بينه وبين سائر المسلمين صلات المحبة والإخاء والولاية .

وصوم رمضان عبادة تلتقى فى هدفها مع أهداف القرآن كلاهما يربى العقول ويسمو بالأرواح .

ولرمضان فى صومه مظهر خاص ، فهو يوحد بين المسلمين فى أوقات الفراغ والعمل ، وأوقات الطعام والشراب ، ويفرغ عليهم جميعاً صبغة الإنابة والرجوع إلى الله ، ويرطب ألسنتهم بالتسبيح والتقديس ، ويعفها عن الإيذاء والتجريح ، ويسد عليهم منافذ الشر ، والتفكير فيه ، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله ، ويغرس فى نفوسهم خلق الصبر الذى هو عدة الحياة .

وشهر رمضان بعد هذا كله هو شهر الذكريات الإسلامية الاولى ، ففيه يذكر المسلمون نزول القرآن الكريم « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وفيه يذكر المسلمون تركيز الإسلام بالقوة على أساس من كبح جماح الشرك والوثنية وذلك كما نراه فى غزوة بدر الكبرى .

ويذكرنا بعودة المسلمين من المدينة إلى مكة المكرمة ، بعد أن أخرجوا منها لا لشىء سوى أنهم قالوا : « ربنا الله » وبذلك تم على أيديهم الفتح المبين ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

أيها السادة :

إن الصوم حرمان من الطعام والشراب وما ألفه الإنسان من شهوات ، ويجب أن تتنبه إلى أن هذا الحرمان ليس هو مقصود الله من الصوم ، وإنما مقصوده الذى يريده من عباده هو إعداد نفوسهم بالصوم للخير

البحث العلمى فى تاريخ الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتبنا فى مقال سابق عن فائدة البحث العلمى فى تمحيص تاريخ الأدب . ورأينا أن استخدام هـذا البحث قمين أن يبين لنـا موضع الصحة وموضع التلفيق من كل خبر وكل رواية ، لأنه يبين لنـا صعوبة التلفيق ، بل استحالته أحيانا على من يريده ويتعمده ، إذا تكشفت المقابلة بين الأخبار والروايات عن حقيقة علمية كانت مجهولة فى الزمن الذى ترجع إليه .

وقد تكشفت المقابلة بين أخبار امرىء القيس الذى عرضنا سيرته فى ذلك المقال

والتقوى ، واذكروا فى ذلك قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

عنى القرآن عناية خاصة بفرضية الصيام ، وجعل منه مظهر وحدة للمسلمين ، لا يؤثر على هذه الوحدة تباين أمكنتهم ، ولا اختلاف ألسنتهم ، ولا تعدد جنسياتهم . فالإسلام وحد بينهم فى العقيدة وفى العبادات ، وفى المعاملات ، وفى الأخلاق وفى المسئولية . فالكل يؤمنون برب واحد ، وإله واحد ، ويتجهون إلى قبلة واحدة ، ويصومون شهراً واحداً ، ويرقبون هدفا واحداً . ويرتبطون بالصالح العام .

أمام هذه الوحدة التى يرسمها الإسلام للمسلمين ، ويمد خطوطها شهر رمضان ، أمام هذا كله أهنئكم بشهر رمضان وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين فى جميع الأقطار للتكاتف والتعاون ، وسد منافذ الشر التى تنفذ إليهم من الاستعمار والاستغلال ، والإلحادية . « يأيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » .

وفقنا الله جميعا ، ووفق أولى الأمر منا فى أنحاء الأرض إلى خيرى الدين والدنيا ، والله المستعان ـ وكل عام وأنتم بخير .

محمود شلتوت

عن حقيقة القروح التى قيل إنه أصيب بها من أثر حلة مسمومة أرسلها إليه قيصر انتقاما منه - لمغازلته بعض حرمه . فإذا بالإصابة كلها تتمشى بأعراضها من أيام صباه ، إذ كان له - كما قالت إحدى صواحبه - عرق يفوح برائحة كلب . وكانت تلازمه حالة من حالات الخلل الجنسى تشاهد مع حالات الالتهاب الجلدى ، ولابد أن تنتهى مع إهمال العلاج إلى عواقبها - التى ظهرت قبيل وفاته .

ونود أن نتبسط الآن بعض التبسط فى أمثال هـذا الخبر عن موت امرىء القيس ، فإننى تبينت بعد المقابلة بين أخبار الكثيرين ممن توسعت فى درس سيرتهم وقيل عنهم بإجماع الرواة إنهم ماتوا مسمومين أن الآفة كلها فى هذه الأخبار إنما هى آفة العجز عن تطبيق النقد العلمى والتعجل فى صرف الحوادث التاريخية بالعلل القريبة ، على مثال التحقيقات الجنائية التى تختم بإحالة الأمر على القضاء والقدر ، إيثاراً للسهولة وإخلاداً إلى العفو والعافية .

ومن أصحاب السير التى توسعت فى درسها وانتهت حياة أصحابها على قول المؤرخين بدس السم لهم فى الطعام أو الدواء سيرة ابن الرومى فى الأقدمين وسيرة جمال الدين الأفغانى وعبدالرحمن الكواكبى فى المحدثين ، فإن أيسر مراجعة علمية للأعراض التى صحبت وفاتهم خليقة أن توجه النظر إلى تعليل الوفاة بأسباب غير السم ، وأن تصحح أخطاء المؤرخين فى أمور كثيرة ترتبط بتاريخ العصر كله ولا تنحصر فى سير أولئك الأدباء والزعماء .

فالمشهور عن وفاة ابن الرومى كما جاء فى تاريخ ابن خلكان وغيره : « أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش . فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم ، فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه ، فقال له : سلم على والدى . ! فقال له : ما طريقى على النار . . » .

وقد تداول المؤرخون من الشرقيين والمستشرقين هذه القصة وأعجبهم موقع النكتة منها مع وضوح الكذب فيها وسهولة الاهتداء إليه بالرجوع إلى تاريخ وفاة عبيد الله بن سليمان الذى طلب الوزير إلى الشاعر أن يبلغه سلامه فى العالم الآخر ، فإنه كان حياً بعد آخر تاريخ ذكره الرواة لوفاة ابن الرومى بأربع سنوات ، إذ مات سنة ثمان وثمانين ومائتين .

والعجيب فى قصور وسائل التحقيق عند المؤرخين أنهم لو راجعوا شعر الشاعر لعلموا أنه عاش إلى ما بعد سنة ثمانين لأنه بلغ الستين كما قال :

طربت ولم تطرب على حين مطرب
وكيف التصابى بابن ستين أشيب

أما سبب الوفاة الصحيح فلا ريب عندنا

فيه وهو تسمم جرح فسد فى جسم مريض مصاب بمرض السكر ، وليس أوضح من ذلك عند مراجعة جملة الأخبار والحقائق التالية :

١ — كان ابن الرومى مشهوراً بالنهم والإفراط فى أكل الحلوى والدسم .

٢ — أصيب بجرح غلط فيه الطبيب كما قال:

غلط الطبيب على غلطة مورد
عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما
غلط الطبيب إصابة الأقدار

٣ — زاره صديقه الناجم فى مرض وفاته فرآه يشكو من إلحاح البول وعنده ماء مثلوج ، فلما لاحظ الناجم ذلك قال الشاعر :

غـداً ينقطع البول
ويأتى الهـول والغول

وجعل الشاعر يشرب من الماء المثلوج ولا يروى فقال :

وأراه زائداً فى حرقتى
فكأن الماء للنار حطب

ولا حاجة إلى غير المقابلة بين هذه الأخبار والروايات لنعلم أننا أمام حالة مرضية معروفة لاشك فيها : حالة رجل منهوم مفرط منذ صباه إلى شيخوخته فى أكل الحلوى والدسم ، فقصده الطبيب وهو لايعلم خطر الفصد فى مثل حالته ثم فسد الجرح فاعتراه كل مايعترى مريض السكر من شدة الظمأ وإلحاح البول والشعور بمثل مايشعر به المسموم .

وليس بنا — هنا — أن نحاسب المؤرخين الأقدمين على قلة إدراكهم لهذه الحقيقة من جملة الأخبار التى رووها ، ولكننا نستدل على صدق رواياتهم بهذه المطابقة بينها وبين الأسباب العلمية ، ونخرج من ذلك إلى تحقيق جديد لرأى القائل : إن لسان الحال أصدق من لسان المقال ، وإننا مطالبون بأن نستمع اليوم إلى لسان الحال قبل أن نستمع إلى أقوال المؤرخين وآرائهم فيما يقصدونه ويتعمدونه من العلل والتفسيرات .

* * *

ولقد شاع عن أسباب وفاة السيد جمال الدين الأفغانى أنه مات بمرض السرطان فى فكه ، وأن هذا المرض أصابه من يد طبيب مدسوس عليه من قبل السلطان أو من قبل رئيس الشرطة .

لكن السرطان لم تكن له جراثيم معروفة يلقح بها المريض فى أوائل القرن العشرين ، وقد أصيب السيد بآلام فى فكه قبل أن يعرض حالته على الطبيب ، وقبل أن يسوء علاجه عمداً أو خطأ ، إن صح أنه ساء .

وليس من المستغرب أن يصاب السيد جمال الدين بالتهاب الفك مع إفراطه فى تدخين التبغ الحار وإفراطه فى تناول الشاى

المرير ، وأن يتعسر بعد ذلك علاج الداء كما تعسر علاج داء قريب من هذا فى فك (أحمدفؤاد) ملك مصر السابق ، مع الفارق الكبير فى العناية بالحالتين ، ومع التقدم فى فنون العلاج خلال ثلاثين سنه بعد أيام السيد جمال الدين .

* * *

وقد دعتنى الكتابة عن الكواكبى إلى استقصاء الأخبار عن سبب وفاته ، فكان أشهرها وأسبقها إلى خواطر أبناء عصره أنه مات مسموما ولم يستطع شهود الوفاة من صحبه أن يعللوا وفاته بعد هذه العلة .

ولكننى راجعت تفصيلات الخبر فى مراجع عدة فرأيت الأستاذ محمد كرد على يقول : « إنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا » .

ورأيت الأستاذ صالح عيسى يقول : إن السيد عبد الرحمن : « استدعانى إليه وكنت جالسا إلى قربه وقال لى : أحس بوجع شديد فى خاصرتى اليسرى » .

وجاء فى خبر نشرته مجلة الحديث الحلبية « أنه شرب قهوة مرة وبعد نصف ساعة أحس بألم فى أمعائه فقام للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة حنطور إلى الدار وظل يقىء حتى قارب الليل منتصفه فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة ... » .

وليس يحق للمؤرخ أن يبعد من ذهنه علة الذبحة الصدرية وهو يقابل بين هذه الأعراض من ألم الذراع وألم الخاصرة والنوبة القلبية على أثر القىء وألم الأمعاء ، وقد ذكر الأستاذ محمد لطفى جمعه فعلا فى مقال نشره بمجلة الحديث سنة ١٩٣٧ أن الكواكبى « ذهب ضحية ذبحة صدرية » .

* * *

تلك سير ثلاث ، لم أتعهد جمعها من عصر واحد ولم أبحثها فى وقت واحد ، ولكنها مصادفات تدل كل مصادفة منها على فائدة البحث العلمى للتمييز بين مواضع الصدق ومواضع التلفيق فى أقوال المؤرخين ، وأن التاريخ بحذافيره وشيك أن يتغير إذا عرضناه على ضوء المعارف التى كانت مجهولة من قبل ثم انجلت عنها غشاوة الجهل شيئا فشيئا حتى بلغت مداها من الوضوح والثبوت فى العصر الحاضر ، ونعود فى ختام هذا المقال إلى الرأى الذى بسطناه من قبل عن معنى التخصص للأدب أو للعلم فى الثقافة العصرية ، فلا بد لميزان النقد اليوم من تمام الأداة التى ينتفع بها فى هذه الصناعة ، ولا غنى للأديب ولا للعالم عن الإلمام بغير ثقافته الخاصة ، لتصحيح الحكم على حقيقة من حقائق المعرفة العامة . ؟

عباس محمود العقاد

المجتمع الحديث

للأستاذ الدكتور محمد البهي

— ٢ —

المجتمع الإسلامي تأثر بالصراع في البيئة الأوروبية مع الكنيسة أكثر من تأثر المجتمع الأوربي نفسه به :

وهكذا نرى المجتمع الأوربي الحديث حتى الآن لم يتأثر بما بشر به في دعواه من السير في خط « العلمانية » ومن التخلص بالتدريج من العرف والتقاليد الماضية فيما يحدثه ويصدره من تشريعات وقوانين ، وإذا كان هناك مجتمع إنساني حديث تأثر بالصراع في البيئة الأوربية مع الكنيسة . وقبل « العلمانية » في توجيهه ، وحاول أن يتخلص من ماضيه من عرف وتقاليد - فهو بعض المجتمعات الشرقية الإسلامية .

فـ « النهضة » التركية التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في أعقاب الحرب العالمية الأولى أقامت مجتمعاً حديثا ، له خصائص المجتمع الذي طالب به الصراع في البيئة الأوربية مع الكنيسة وهو المجتمع « العلماني » .

فالمجتمع التركي الحديث - كما يحدده دستور الثورة التركيـــة الكمالية - مجتمع ينزع إلى « العلمانية » ، أي ينزع إلى التغاضي عن الدين ، ودين الأمة والشعب ، وهو الإسلام . بل ينزع إلى تحديه ومحاولة إبعاده عن التوجيه في عنف وفي قوة .

وكما ينزع هـذا المجتمع إلى الأخذ بفكرة « العلمانية » ، فإنه ينزع كذلك إلى إهمال التقاليد والعرف اللذين كانا للشعب التركي في تاريخه الإسلامي .

ومصطفى كمال أقام هذا المجتمع تحت التأثر بالحركات العالمية الدولية - كالحركة الماسونية - وتحت التأثر كذلك بالفلسفة الوضعية ، فلسفة أوجست كومت . وهي الفلسفة التي قامت تمجد العلم الطبيعي وتدعو إلى تأليهه وإلى عبادته ، وإلى أن يتجرد محراب العبادة في المجتمع من كل إله آخر سوى إله هـذا العلم الواقعي الطبيعي . تأثر كمال أتاتورك بالشاعر التركي « ظياجوك ألب » ، فيما اتجه إليه من إقامة المجتمع التركي الحديث . وهـذا الشاعر كان من أنصار الفلسفة الوضعية ومن مؤيدي « العلمانية » والابتعاد عن الدين .

وعلى ذات الأسس التي أقام عليها أتاتورك المجتمع التركي حاول بورقيبة في تونس البلد العربي الصغير أن يقيم مجتمعا كهذا، تحت تأثير التوجيه الاستعماري واليهودي معا. ففي إحدى إذاعاته الرسمية الأسبوعية أعلن أن القرآن لم يعد صالحاً لهذا المجتمع الحديث، وأن من الواجب تركه. وفعلا أصدر من القوانين ما يبعد الشريعة الإسلامية عن الأحوال الشخصية في الميراث وفي الزواج وفي الطلاق.

والمجتمع التركي الحديث إذا أخذ في توجيهه بمبدأ «العلمانية»، وإبعاد الإسلام عن محيطه الداخلي وفي علاقاته مع الشعوب الأخرى، وإذا ابتعد عن أن يكون لعرف الشعب التركي وتقاليده صدى في قانونه الوضعي الحديث - فإن هذا المجتمع في حاضره يهتز في وضعه وفي مقوماته. لأنه لم يجد قانونا واحدا من القوانين الغربية يستعيض به عما كان للمجتمع التركي السابق من قوانين. إذ أن القوانين الغربية هي قوانين روعي فيها عرف الشعوب وتقاليدها. ولذا كانت قوانين مختلفة، وإن اشتركت القيم المسيحية فيها جميعا.

وسويسرا البلد المحايد في وسط أوربا قانونها ليس قانونا موحدا. وإنما هو قانون تمثلت فيه الاعتبارات والتقاليد والعرف الذي لمجتمعات الشعوب الإيطالية والفرنسية والألمانية، لأن الشعب السويسري يتكون من مجموعات تنتمي إلى هذه الشعوب. ولذا لو أرادت تركيا الحديثة أن تحاكي سويسرا في قانونها وتقتبس منه للشعب التركي - ففوق أنه أجنبي عن طباع الشعب وخصائصه وعرفه وتقاليده، فإنه نفسه لا يمثل الوحدة الواحدة.

ومن هنا كان هناك فراغ في المجتمع التركي الحديث، فراغ فقهي وقانوني لم تملأه بعد تلك الاقتباسات العديدة المختلفة من القوانين الغربية.

وبجانب هذا الفراغ في دائرة التشريع يوجد فراغ آخر في هذا المجتمع، وهو الفراغ الذي حدث بإبعاد الدين رسميا عن محيط التوجيه الداخلي وفي العلاقات الخارجية.

إن الدين في كل مجتمع هو مصدر الترابط الروحي والتماسك النفسي بين أفراد المجتمع نفسه. هو الذي يكون وحدتهم الداخلية كما يصون هذه الوحدة من التفتت أو الضياع. والشعب التركي في مجتمعه الحديث - وبالأخص الأجيال التي نشأت بعد قيام هذا المجتمع - يعاني أزمة دينية لم تستطع أية ثقافة أخرى أن تحل محل الإسلام هناك. ولذا كان توجيه هذه الأجيال توجيها مشتتا لا انسجام بين خطوطه. يميل إلى الغرب ويميل إلى

الشرق . وإذا مال إلى الغرب مثلا فلا يدرى إلى أى مجتمع فى الغرب يميل : أهو المجتمع الأوربى أم المجتمع الأمريكى . أهو المجتمع الانجليزى أم المجتمع الفرنسى . أهو المجتمع الألمانى أم المجتمع الإيطالى . أهو المجتمع السويسرى أم المجتمع الشمالى فى بلاد اسكانديناڤيا ؟

ومن هنا يعيش المجتمع التركى الحديث بعد أن نزع إلى « العلمانية » دون أن يستند إلى دعائم ماضية ، كما يعيش فى حاضره وهو لا يستطيع أن يعرف على وجه التحديد : أين يتجه . ومن هنا كان المجتمع التركى الحديث مجتمعا غير ذى شخصية ، مجتمعا مفككا مائعا ، وسياسة الحكم فيه لا ترسم من داخله وإنما يرسمها أصحاب النفوذ السياسى ؛ والاقتصادى فيه ، يرسمها الغربيون ، وعلى وجه الأخص الولايات المتحدة الأمريكية .

ولذا لا نعجب إذا رأينا صداقة قائمة بين إسرائيل عدوة البلاد العربية والإسلامية على السواء وبين تركيا الحديثة ، لا نعجب إذا رأينا أن تركيا تتحايل على حل أزمات إسرائيل الاقتصادية بتموينها من جيرانها العرب والمسلمين مرة ، وبترويج بضائعها فى هذه البلاد المجاورة مرة أخرى . لا نعجب لأن السياسة الأمريكية ـ وهى السياسة التى خلقت إسرائيل ، وأوجدت كيانها الدولى ، ومونتها حتى الآن عن طريق التبرعات من الأفراد والجمعيات الأمريكية ، وعن طريق المساعدات الرسمية الحكومية ـ إذا هى حفزت السياسة التركية الحديثة على أن تعين إسرائيل فى وجودها ، وفى حل أزماتها بما أشرنا إليه سابقا .

وإذا سار الحبيب بورقيبه فى المجتمع التونسى الحديث مثل ما سارت الثورة التركية ، ونزع إلى توكيد « العلمانية » ، وإبعاد الإسلام . وعمل على إبعاد العرف والتقاليد فى المجتمع التونسى من أن يكون لها صدى فى التشريع والقانون ـ فإن نفس المصير الذى صار إليه المجتمع التركى الحديث سيسير إليه المجتمع التونسى ونفس الفراغ الذى يوجد فى المجتمع التركى الحديث سيوجد فى المجتمع التونسى ، ونفس التخلخل فى العلاقات والتحلل فى المجتمع التركى الحديث سيحدث فى المجتمع العربى فى تونس ، إذا ما استمر الحبيب بورقيبه فى سياسته اليهودية العالمية .

وإذا كنا ذكرنا أن ما صنعه كمال أتاتورك من إقامة مجتمع تركى حديث ينزع إلى « العلمانية » ، وإلى التغاضى عن العرف والتقاليد إنما تم تحت تأثره بالاتجاه الدولى العالمى ، وهو الاتجاه الماسونى وباتجاه المذهب الوضعى الذى قدس العلم وحول محراب العبادة إليه ، فإنا لا ننسى أن نذكر هنا أيضاً أنه كان من

العوامل فى ذلك جمود العلماء فى فهمهم للدين وفى عرضهم لقيمه ، فلم يستبن له ولم يستبن لمرافقيه قيم هـذا الدين فى الحياة الإنسانية الفـردية والجماعية والدولية ، وهنـاك عامل آخر بجوار هـذا العـامل الداخلى يتصل بالاستعمار الغربى بصلة وبتلك العقدة النفسية التى خلفتها هزائم الحروب الصليبية فى نفوس الغربيين وانتصارات المسلمين عليهم فى صورة يفخر بها العرب والمسلمون على السواء ، وإذا كان أتاتورك قد أقام هذا المجتمع الحـديث بين الشعب التركى ـ فإن استمرار المحافظة على بقائه على نحو ماوصفنا يرجع إلى النفوذ الغربى أكثر ممـا يرجع إلى اطمئنان نفوس الشعب التركى إليه وقرة أعينهم به . إن السياسة الغربية تروج فى البلاد العربية والإسلامية للمجتمع التركى الحديث وتجعله نموذجاً للمجتمع الإنسانى طبيعى . يطلب من العرب والمسلمين على السواء أن يحاكوه ، إن هم أرادوا تقدما وتطورا ومدنية ، ويتجلى هـــذا الميل الاستعمارى الغربى فى صـور عديدة ، أهمها الكتابة ، والدعوة إليه عن طريق « العلماء » الأمريكان فى محاضراتهم وأحاديثهم فى مواجهة المسلمين والعرب وفى كتاباتهم لأبناء العروبة والإسلام .

ولـكن أصحاب هذا النفوذ الاستعمارى لا يكتبون بتمجيد هـذا النموذج التركى إلى أبنائهم وشعـوبهم إن هم واجهوهم بحقائق التـاريخ . بل على العكس نرى كثيراً من كتاب الغرب يسخرون من تركيا الحديثة لأنها فقدت كل مقوم من مقومات المجتمع الإنسانى دون أن تستعيض عنه بمقومات يمـكن اعتبارها مقومات ذاتية للشعب التركى فى مجتمعه الجديد .

— ٣ —

دور الثورة المصرية فى إعادة بناء المجتمع العربى والشرقى :

وربمـا كان يخشى من انتشار هذا النموذج للمجتمع التركى الحديث بين الشعوب العربية والإسلامية فى إفريقيا وآسيا ، بفعل الدعوة العنيفة إلى محاكاة هذا المجتمع بين الشرقيين والمسلمين والتغاضى عن إسلامهم وقيمهم وعرفهم وتقاليدهم والنزوح إلى « العلمانية » وتمجيد العلم الوضعى تمجيداً يدفع إلى التخلى عن العقيدة الأصيلة ـ لو أن هذه الثورة المصرية لم تقم ، ولو أن راعيها وزعيمها لم يكن جمال عبد الناصر .

فهذه الثورة ـ وهى من صنعه ـ يصح أن نسميها ثورة لإعادة بنـاء المجتمع العربى والشرقى . لم تـكن ثورة لمحاكاة أى مجتمع آخر حديث سواء فى منطقة النفوذ الشرقى الشيوعى أو فى منطقة النفوذ الغربى الصليبى وإنمـا كانت ثورة لخلق مجتمع حيادى يقوم

على سند من الماضى فى التوجيه والأخذ بالقيم الأخلاقية فى حياة الشعوب العربية والإسلامية . ويأخذ فى حاضره بما يأتى من العلم فى رفع المستوى الاقتصادى للشعوب . وبذلك يكون مجتمعا جمع فى مقوماته بين خصائص الشعوب الإسلامية والعربية وبين ثمرة العلم الطبيعى فى تطور الصناعة وإيجاد الإمكانيات العديدة فى الانتفاع بثروة البلاد التى تعيش فيها هذه الشعوب سواء منها ماكان فى باطنها أو يطفو على ظاهرها .

فسياسة الحياد الإيجابى التى يدعو إليها الرئيس عبد الناصر هى ليست رسما للعلاقات الخارجية فقط بين الجمهورية العربية المتحدة من جانب وبين شعوب الأمم الأخرى من جانب آخر ، وإنما هى مع ذلك وفوق ذلك رسم للبناء الداخلى للمجتمع العربى الحديث . ومنطق هذه السياسة ، سياسة الحياد الإيجابى يدعو إلى اعتبار القيم الروحية والدينية والأخلاقية والتاريخية من جديد التى للشعب العربى والشعوب الإسلامية – فى تخطيط سياسة التعليم والتوجيه . منطق هذه السياسة يدعو إلى الأخذ بالعلم الطبيعى ، ولكنه لا يدعو إلى « العلمانية » يدعو إلى تطوير القانون والتشريع ، ولكنه لا يهمل شأن العرف والتقاليد فيا يصدر من قوانين وتشريعات . يدعو إلى السلم فى العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة وبين المجتمعات الأخرى الحديثة ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو إلى عدم قبول أى نفوذ سياسى أو توجيهى أو ثقافى من الغرب أو من الشرق .

إنه يدعو إلى الاحتفاظ بخصائص الشعب العربى والشعوب الإسلامية واعتبار ما لها من قيم فى التوجيه ، وفى الوقت نفسه يدعو إلى العلم وإلى التصنيع . وليس هناك تضاد بين ما يدعو إليه هذا المنطق لأن العلم الحديث هو علم محايد ، هو علم الآلة والصناعة ، هو علم الكشف عن الطبيعة المجردة ، هو علم القوة والسيادة على الكون . وهو بهذا الوضع لا يرسم توجيها معينا فى الحياة لا يرسم توجيها إلى الشرق ولا إلى الغرب . وبذلك بقى مجال التوجيه فى حياة المجتمع العربى والمجتمعات الإسلامية للقيم الخاصة بهذه المجتمعات .

الحياد الإيجابى ليس كلمة وإنما هو شعار يحمل أهداف المجتمع العربى والإسلامى فى محيطه الخاص وفى المجال الدولى العام على سواء . نريد السلام ولا نحب الاعتداء ولكن ندفع الاعتداء بكل ما نملك من قوة النفس والمال والعدة يوم يعتدى علينا .

نحن عرب فى مجتمعنا نفخر بعروبتنا وبأمجادنا فى تاريخنا وبقيمنا الروحية والأخلاقية التى أتى بها ديننا ومع ذلك نحن إنسانيون على معنى أننا نسعى إلى تمجيد القيم الإنسانية ، لأنها لا تخرج عن القيم الروحية والأخلاقية التى جاءت بها وصايا الإسلام ، ولكننا لسنا إنسانيين

على معنى أن نذوب فى مجتمعات وشعوب أخرى، أو أن نبدد ما لنا من قيم وخصائص تميز مجتمعنا عن أى مجتمع آخر ، كما تحاول « العلمانية » فى المجتمعات الحديثة أن تبدد ما لهذه المجتمعات من قيم وعرف وتقاليد .

إن لغتنا لغة عربية ، وإن ديننا هو الإسلام ، وإن وطننا هو وطن الأمة العربية . هكذا ينطق دستور الثورة . **إن توجيهنا ينبثق مما لنا من قيم ، إن تعليمنا يجب أن يصدر عن هذه القيم ، وعمالنا من مواريث فى ثقافتنا العربية والإسلامية .**

إن البناء الداخلى لهذا المجتمع العربى يحتاج إلى تضافر وإلى تعاون . إلى تضافر وتعاون فى الإيمان به والعمل على تشييد معالمه بحيث يبقى عقيدة قوية فى مواجهة الأحداث والأزمات ، كما بقيت للروحية الإسلامية وللنظم الإسلامية قيمتها فى مواجهة هجمات الاستعمار ومحاولاته العديدة التى حاول أن يرهب بها تلك القيم ويفتت بعد ذلك المجتمع الإسلامى والعربى . لذا كان التعاون مقوما من مقومات مجتمعنا الجديد ، مجتمع الثورة المصرية والعربية كما كانت الديمقراطية مقوما آخر من مقوماته لأن الإيمان بهذا المجتمع لا يؤتى ثمرته إلا إذا كان من وحى الإرادة الحرة للفرد . والديمقراطية ليست صورة للتصويت الشعبى فحسب، وإنما هى أيضا عنوان على المشيئة والاختيار فى الإنسانية .

والتعاون إذا كان من مقومات هذا المجتمع فإنه لا محالة يتطلب أن تقوم الروابط بين الأفراد بعضهم مع بعض على أساس لا حقد فيه من حاقد ولا ظلم فيه من ظالم . **وذلك لا يكون إلا إذا كانت هناك اشتراكية فيما يثير الحقد وفيما يدفع إلى الظلم، اشتراكية فى مجال الملكية والاقتصاد .**

وهنا سياسة الحياد الإيجابى التى جعلت شعاراً لهذه الثورة . كان من مستتبعاتها حتما فى البناء الداخلى : التعاونية والديمقراطية والاشتراكية .

المجتمع العربى الجديد هو مجتمع مستقل تماما فى توجيهه وفى علاقاته ، ولكنه ليس فى عزلة عن المجتمعات الأخرى ولا عن تبادل النفع بينه وبينها .

إن الحياد الإيجابى الذى قام عليه مجتمعنا الجديد كما يعتبر صدا لاندفاع « العلمانية » فى الشرق العربى والإسلامى حتى لا تبقى المجتمعات الأوربية مستمرة فى ممارسة نفوذها وسلطانها فى هذا المجتمع إن هذا الحياد الإيجابى كما كان صدا لتيار « العلمانية » هو فى الوقت نفسه رسم لبناء المجتمع العربى والإسلامى : كيف تقوم المجتمعات الحديثة فى البلاد العربية والإسلامية دون أن تخضع لنفوذ الشرق أو الغرب ، ودون أن تفقد ما لها من قيم ،

ودون أن تترك الانتفاع بالعلم والصناعات الحديثة ؟ .

تجيب عن هـذا السؤال سياسة الحياد الإيجابى .

كيف يبنى المجتمع العربى أو الإسلامى وكيف تقام الدعائم فى بناء المحيط الداخلى حتى يكون مجتمعا متوازنا ؟ تجيب عن هذا السؤال الاشتراكية الديمقراطية التعاونية .

كيف نبتعد عن مناطق النفوذ للغرب والشرق وكيف لا نقع تحت نفوذ التوجيه الخارجى فى الشرق أو فى الغرب ؟ سؤال تجيب عنه سياسة الحياد الإيجابى .

دور الأزهر :

وإذا كان مجتمع الثورة الجديد هو بناء أعيد من لبنات الماضى فى ضوء ما للحاضر من علم وصناعة ، وإذا كانت تلك اللبنات هى ما للشعوب العربية والإسلامية من قيم فى التوجيه - فأجدر بالمعهد الذى يباشر تبليغ هذه القيم وصيانتها من العبث على مر الزمان وهو الأزهر ، أن يسهم إسهاما إيجابيا فى عرضه هذه اللبنات من جديد . وعرضها الجديد ليس إلا تفريغها مما آلت إليه من أفهام منحرفة وشحنها من جديد بتلك المعانى الخالدة التى جاء بها القرآن وبلغها للناس محمد صلى الله عليه وسلم ، وصانها من بعده صحابته رضوان الله عليهم . يجب عليه أن يعيد المفاهيم الأولى

(البقية على صفحة ٩٣١)

لتلك القيم الإسلامية وينحى عنها تلك المفاهيم التى آلت إليها بسبب الضعف السياسى والاقتصادى فى الشعوب الإسلامية ، وبسبب ركود الفكر وجمود الذهن لدى علماء المسلمين المتأخرين فى مثل قوله تعالى : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » ، وقوله « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ، وقوله « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، وقوله « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، لا بد من تصحيح مفاهيم التوكل والصبر والقناعة والزهد والقضاء والقدر وتحديدها على نحو يسمو بالنفس البشرية ويدفعها إلى القوة والاحتمال والسعى فى الحياة ومسايرتها فى نموها وتطورها .

ذلك دور الأزهر . أما دور المدارس والجامعات فهو أشبه بدور الأزهر ، لكن لا فى إعادة المفاهيم الأولى إلى القيم الإسلامية ولكن فى إعادة الاعتبار لتلك القيم الإسلامية والتخلى عن ذلك التغاضى لهذه القيم الذى أوجدته سياسة التعليم فى عهد الاستعمار وعهد الانفصال بين المدارس المدنية والمعاهد الدينية .

يجب على المدارس والجامعات أن تعيد فى نفس المترددين عليها أننا نعيش فى الشرق وبعقلية المتطلع إلى السيادة من جديد ، فيقدرون ما للشرق من قيم ويسعون إلى الأخذ بما هو وسيلة لتلك السيادة وهو العلم والصناعة ، يجب عليها أن تطرح زعامة الغرب الثقافية

الكرامة والعزة فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدنى

٢ — الكرامة

٤ — والقرآن فى تقريره للعقيدة الأولى : « لا إله إلا الله » يسمو بالإنسان سمواً عظيما ، إذ يغرس فى نفس كل فرد من أفراده أنه متساو مع غيره ، وأنه ليس فوقهم من يخضع له ويذعن لسلطانه إذعان الإيمان إلا الله ، وهذا غراس طيب ينبت الكرامة الإنسانية ويغذيها دائما وينميها ، مع ربط الروح برابطة الإيمان بالله ، وهو من جهة أخرى علاج لما عسى أن يخطر للحاكمين من عتو أو استعلاء ، ولذلك يقول الله تعالى مخاطبا رسوله فى سورة « محمد » بعد أن عرض لما يقاسيه من خصوم دعوته : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

فعلم المرء أن (لا إله إلا الله) يرفعه عن أن يحقر نفسه ، ويرفعه أيضاً عن أن يتجاوز مداه ، فهو فى الحالين صون لكرامته ، وحفظ لها فى مستواها الطبيعى الذى يورثها النزول عنه صفة الصغار والدناءة ، ويورثها العلو عنه الغرور والاستعلاء بالباطل .

وعلم المرء أن (لا إله إلا الله) يجعله أيضا فى نظر نفسه محتاجا إلى مغفرة ذلك الإله الواحد ، عارفا بأنه فى هذه الحاجة متساو مع من هو مثله من المؤمنين والمؤمنات ، فهو يطلب هذه المغفرة لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات .

* * *

٥ — والقرآن الكريم ينظر إلى حياة الإنسان من نواحيها المختلفة نظرة اعتداد واهتمام ، ويشرع لها على أساس من الرغبة فى صونها والحفاظ عليها .

(ا) فهو ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله فلا يحق لأحد أن يهدمه ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنما اعتدى على الإنسانية كلها ، ومن حقن نفسا واحدة ؛ فكأنما حقن دم الإنسانية كلها ، وذلك قوله تعالى : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

وفى هذه الآية تقرير للمبدأ الأول والأهم

الذى تستقر عليه حياة البشر وأمنهم ، فإن الإنسان ـ كسائر الحيوان ـ يعتمد على القوة وتنازع البقاء ، فإذا ترك إلى طبيعته عمد إلى قوته فاتخذها سبيلا إلى قضاء مآربه ، وإزاحة كل من حال بينه وبين هذه المآرب من بنى جنسه عن طريق سفك دمه ، وفى هذا ما فيه من تفانى هذا النوع وانقراضه وفيه كذلك انتشار الخوف بين الناس وفساد حياتهم ، واستحالة تعاونهم المثمر بسبب انعدام الثقة ، وفيه إهدار للكرامة الإنسانية واستهانة بهذا النوع الذى جعله الله خليفة فى الأرض . لكن إذا تقرر أن من قتل نفسا بغير حق كان كمن قتل الناس جميعا ، لأنه اعتدى على النوع كله باعتدائه على فرد منه ، ولأنه فتح باب الضراوة والبغى وهدم ما بنى الله ، فإن الناس حينئذ يشعرون بكرامة النوع شعورا يبعثهم على التعاون فى الضرب على يد المعتدى واعتبار أنفسهم معتدى عليهم ، ومن واجبهم رد هذا العدوان ، فيوجد التكافل على حفظ الحياة ، والتضامن على إقرار الأمن والسكينة وإقرار الصون والكرامة للجنس البشرى .

هذا فى جانب رد العدوان أما الشطر الثانى من المبدأ ، وهو قوله تعالى : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » ، فقد يمكن تفسيره بالقصاص ، وذلك أن فى القصاص من المعتدى حياة للناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، فإن المعتدى إذا اقتص منه علم كل من تحدثه نفسه بالاعتداء أنه سيلقى جزاء ما قدمت يداه ، فيكف عن عدوانه ، فتحيا النفوس .

وعندى أن هذا بعض ما تفيده العبارة ، وليس هو كل ما تفيده ، ولو شاء قائل أن يقول : إنها تشمل الإحياء بالعلم والهداية لكان له ذلك ، على نحو ما جاء تفسيراً لقوله تعالى : « أومن كان ميتاً فأحييناه » ، وحينئذ يدل هذا على أن الناس متكافلون فى ترقية الإنسانية ورفع مستواها العقلى ، كما هم متكافلون فى حفظ الحياة والأمن ، فمن أحيا نفسا بالعلم ورفع مستواها ، فإن إحياءه إنما هو صنيع جميل للإنسانية كلها ورعاية لما يقضى به روح تكريمها وكرامتها .

(ب) وكما ينظر القرآن الكريم إلى وجود الإنسان هذه النظرة السامية . فيحرص على عصمة دمه إلا بالحق ، ينظر مثل هذه النظرة إلى « العرض الإنسانى » .

ذلك أن العرض مصون فلا يجوز لأحد أن يعتدى على عرض غيره ، ولا أن يتقبل من غيره أن يعتدى على عرضه « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ، « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد

عذابهما طائفة من المؤمنين . الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » كما لا يجوز لأحد أن يخوض فى أعراض الناس بالباطل ، وأن يلغ فى كراماتهم « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » ، « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » .

(ج) والعقول مصونة فلا يجوز تناول ما يفسدها أو يغطيها من مسكر أو نحوه « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، كما لا يجوز أن تمتهن العقول بترويج الخرافات والتقليد الأعمى واتباع الظن « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .

* * *

(د) والأموال مصونة ، فمن سرق من مال لا شبهة له فيه وجب قطعه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، ولا يجوز أكل أموال الناس بالباطل أو استغلالها فى الرشوة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . وأموال السفهاء يجب أن تحفظ ولا تترك لهم يبددونها ، والقرآن يعتبرها أموالا للأمة يجب أن تقوم عليها وترعاها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

إلى غير ذلك ...

* * *

٦ - والقرآن الكريم ينظر إلى المخالفين فى الدين نظرة فيها سمو ورحمة وبر ، فبينما ينهى أشد النهى عن اتخاذهم أولياء يرتبطون بهم ارتباط المتناصرين بعضهم ببعض ، بأن يستعينوا بهم على المؤمنين ، ويعينوهم عليهم ؛ نراه يبيح للمؤمنين أن يعاملوهم معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منهم إيذاء لهم ، ولا تحريض عليهم ، ولا محاولة لفتنتهم عن دينهم « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » بل يذهب القرآن الكريم إلى أبعد من هذا فى التسامح ، فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساساً للتعامل بينه وبين

مخالفه وإن آذاه ، بشرط ألا يصل الأمر بينهما إلى حد الولاية والنصرة ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد الآية المتقدمة : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . فقد صرحت هذه الآية بأن المنهى عنه ـ فى شأن هؤلاء ـ هو اتخاذهم أولياء ، لا مجرد البر بهم ، والقسط إليهم .

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » . وفى هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة ، وأن القلوب تتغير وتتحول ، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس ، وتقريب القلوب ، وقد حدث فعلا فى تاريخ المسلمين أن كثيراً ممن كانوا أعداء لهم وحربا عليهم ، أسلموا وحسن إسلامهم ، وأبلوا فى الدفاع عن الإسلام بلاء حسنا .

فالله تعالى لا يرضى بأن يتخذ المؤمن مخالفه فى الدين وليا ومناصرا ، ولكنه مع ذلك يعطى هذا المخالف حقه فى علاقات المعاشرة والمواطنة ، ويقيم هذه العلاقات على البر والرحمة والقسط ، وكلا الأمرين هو غاية الحكمة والدستور الطبيعى للإنسانية فى كمال وعيها ، وكمال رقيها وسموها ، وما ينبغى لها من الكرامة .

٧ ـ والقرآن الكريم حين يذكر الخدم والأتباع لا يسميهم خدما ، ولا يعبر عنهم بلفظ فيه إيلام لهم ، أو جرح لكرامتهم ، وإنما يعبر عنهم بعبارة فيها كناية لطيفة . وفيها تكريم ، إذ يقول « الفتى » و « الفتيان » و « الفتيات » .

ومن المعلوم أن الفتى هو الشاب فى قوته وميعة صباه ، ولما كان من عادة الناس أن يستخدموا فى شئونهم فتى جلدا يستطيع أن يقوم بها ، ويصبر على متاعبها ويؤديها أداء حسنا ، كان من المناسب أن يعبر عن التابع أو الخادم بكلمة « الفتى » حفظاً لكرامته .

ولذلك نرى القرآن الكريم بينما يعبر عن الشبان الذين هجروا بيئة الشرك والبغى إلى الكهف فيقول : « إنهم فتية » ، ويعبر عن إبراهيم عليه السلام بقوله : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » ، نراه كذلك يعبر عن تابع موسى بالفتى فيقول : « وإذ قال موسى لفتاه » ، ويعبر عن أتباع عزيز مصر بالفتيان حيث يقول : « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم » ، ويعبر عن الإماء المملوكات بالفتيات حيث يقول : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » ، وفى آية أخرى « فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » .

وفى هذا إرشاد كريم إلى ما يجب علينا من الرفق والتلطف فى معاملة من تحت أيدينا

من عباد الله خدما كانوا أو أتباعاً أو عمالا أو أعواناً فإن لهم كرامة يجب أن نرعاها .

وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأدب القرآنى حيث يقول « ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى » . كما سمى عليه الصلاة والسلام « الخدم والخول » - أى الأعوان - إخوانا فقال : « إخوانكم خولكم » ، وقال فى تعبير عاطفى كريم : « فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يطعم . الخ » ونهر صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه حين قال لعبده : « يا بن السوداء » فقال له : « أعيرته بسواد أمه ؟ إنه ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء ، وإنك امرؤ فيك جاهلية » .

وقد قررت الشريعة تمشيا مع هذا الروح الإنسانى الكريم أن العبد المملوك يعتق على سيده جبراً إذا مثل به أو أساء عشرته .

* * *

٨ — والقرآن الكريم ، كما يثبت الكرامة الإنسانية على النحو الذى تبيناه فيما تقدم ، يقرر أن هذه الكرامة قابلة للنمو والزيادة ، وأنها تتفاوت فى الناس تبعاً .

ونستطيع أن نأخذ هذا من مثل قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أعطى كل إنسان قسطه الأول من الكرامة الإنسانية فى الخلق والإنعام والتشريع والاعتداد بالنوع ، فالناس جميعا من هذه الناحية متساوون لا فضل لأحد على أحد ، ولا لجنس على جنس ، ولكنه بعد ذلك فتح الباب للتفاوت والتفاضل وأن يمتاز فرد على فرد وأن يتطلب الناس المنازل الكريمة ويشرئبوا لتحصيل الغايات الشريفة .

وكل من هذا وذاك مقتضى الرحمة والحكمة وأساس الصلاح والعمران اللذين سخر لهما هذا الإنسان ، واستخلف من أجلهما فى هذا الكوكب ، فلم يكن يصلح أمر الناس على التفاوت فى أصل الكرامة تفاوتا مرجعه إلى الخلقة ، أو إلى الاختصاص بالإنعام أو التخويل أو العصمة فى الدماء والحقوق والأموال ، لأن التوازن حينئذ يكون مختلا ، ولأن التعاون الضرورى للعمران لا يوجد ، إذ يشعر بعض أفراد الإنسان أنهم مسخرون لغيرهم ، وأن مستواهم فى هذا العالم كمستوى الحيوان الأعجم بالنسبة للإنسان ، أو قريب من هذا المستوى ، واليوم الذى يشعر فيه فريق من البشر بهذا ، ويستقر هذا الشعور فى قلوبهم ، ويتواضع العالم عليه ، هو اليوم الذى تتعثر فيه الإنسانية ، وتنتابها الكوارث وتخطو خطاها السريعة إلى الزوال والفناء .

وهذا هو العالم الآن يشهد ألوان الاضطراب التى أحدثتها فكرة تقسيم الناس إلى سادة

ومسودين ، ومستعمِرين ومستعـمَرين ، تلك الفكرة التى غزت أوربا حينا من الزمان وسيطرت على عقول أبنائها ، فخيل لهم أن الشرق ما خلق إلا ليكون مادة للغرب يمدهم بما يحتاجون إليه ، وسوقا تصرف فيه بضائعهم وسلعهم ويعينهم على أن يكونوا فى مستوى عال من المعيشة على حساب المستهلكين الذين يستغلون ، ويفرض عليهم من الأوضاع ما يحقق ذلك ، ثم وصل الأمر بهم إلى أن الجيوش الأوربية كانت تستخدم الجنود من الشرق ليجعلوهم فى المقدمة فيلاقوا الموت فى أبشع صورة ، ويحصدوا حصدا لأن أرواحهم رخيصة لا ترتفع قيمتها إلى أرواح الذين استخدموهم أو ساقوهم إلى المذابح كما تساق القطعان .

هذا المبدأ الذى أجاز هذا الصنيع يتنافى مع « الكرامة الإنسانية » التى قررها الله للإنسان ، ولكنه فى الوقت نفسه سنة من سنن الله الكونية المطردة فى كل من فرط فى كرامته ، ولم يحتفظ بها ، ورضى بأن يكون مسوقا مسخراً مذللا لسواه ممن هو مثله وفى مستواه ، وله مثل حقوقه بحكم الخلق والتكوين والإنسانية ؟ .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

(بقية المنشور على صفحة ٩٢٥)

والتوجيهية ، لكن فى الوقت نفسه تأخذ بما له من أسباب القوة المادية والصناعية . وبذلك يعيش النشء فى صلة من ماضيه وفى حاضره .

أما الاتحاد القومى فدوره لا يقل عن دور الأزهر ولا دور المدارس والجامعات ، دوره أن يعيد إلى الشعب ما لموارثه الثقافية والروحية من قيم ، وفى الوقت نفسه يعده لتقبل الحضارة الصناعية واستخدامها فيما ينتج وفيما يحتاج فتكون له من روحانية الإسلام قوة الدفع والتماسك ويكون له من الحضارة الصناعية مزيد الإنتاج ويسر العيش .

إننا أمة عربية إسلامية ، ومجتمعنا يجب أن يظل عربيا إسلاميا . ولكن لا نظل عربا مسلمين فى وجه هذه القوى من الشرق والغرب التى تتربص بنا إلا إذا امتلأت نفوسنا بقيمنا وكان لنا من العلم سلاح ندفع به مع هذه القيم ما يواجهنا به المتربصون بنا من عدوان .

إننا شعب حيادى وفى الوقت نفسه شعب إنسانى . إن مجتمعنا مجتمع جديد ولكن لماضينا وتاريخنا القوة فى بنائه والدفع فى بقائه .

دكتور محمد البهى

المدير العام للثقافة الإسلامية

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

٤ — فى العلاقات الدولية

ذهب العرب والمسلمون ، كما عرفنا من الكلمات السابقة ، مثلا إنسانية فى الأولين والآخرين ؛ فى العدل ، والأمانة ، والوفاء بالعهود والمواثيق ، وفى غير ذلك من الخلال والأخلاق التى عرضنا لها . وذلك بفضل طباعهم الأصيلة النقية ، وبفضل الإسلام وشريعته وتعاليمه .

ونعرض اليوم فى هذه الكلمة إلى أن ذلك لم يكن شأنهم فيما بينهم وبين بعضهم فحسب ، وفى حال السلم وحدها ، بل إن ذلك كان شأنهم فى كل حال من السلم والحرب ، ومع الناس جميعاً حتى أعداء الدين والوطن .

إن الإسلام حين بين لنا القيم الأخلاقية النبيلة ، مثل العدل والأمانة والوفاء وأمرنا باتباعها وأن تكون الباعث القوى لسلوكنا وأعمالنا ومعاملاتنا ، أمرنا بها فى كل حال ومع الناس جميعاً ؛ فى السراء والضراء ، بلا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين قوى وضعيف .

والسبب فى ذلك ، كما قلنا فى كتاب ظهر منذ شهور[1] ، أن الإسلام ليس دينا مغلقا على شعب واحد أو أمة واحدة ، بل هو دين مفتوح لكل من يطلب الحق ويريد لنفسه الخير ، هو دين عالمى للناس جميعاً فى كل زمان ومكان . ولذلك كان من الطبيعى أن يطالب المسلمين برعاية هذه القيم بالنسبة للناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ودياناتهم .

ولذلك لا يأمر الإسلام أبناءه بمعاداة غير المسلم لأنه يخالفه فى العقيدة ، بل إنه ليأمر فى كثير من آيات القرآن بمودة المخالفين لنا فى الدين ماداموا لا يقفون منا موقف الأعداء الباغين المعتدين ؛ وإلا ، وجب علينا رد الاعتداء بمثله .

ومن أهداف الإسلام السامية أن يعيش العالم كله فى سلام ومحبة وتعاون وعدالة ، ولهذا يحرص الحرص كله على الوفاء بما يكون من مواثيق وعهود بين بنيه وغيرهم حتى ولو كانوا فى حالة حرب ، وحتى لو كان نقض العهد فى مصلحة المسلمين فى بادى الرأى وأول الأمر .

وهذا كلام يحتاج إلى شىء من التفصيل فيما يتعلق بالعلاقات الدولية بين الدولة العربية

---

(١) هو كتاب « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه » .

الإسلامية والدول الأخرى فى حالة الحرب ، فعلينا هنا أن نتعرض لهـذه العلاقات من جميع نواحيها فى حدود هـذا المقال ؛ أى من ناحية المقدمات التى تسبق الحرب . ثم متى نشبت فعلا ، ثم ما تنتهى به من محالفات ومعاهدات .

فنبين فى إجمال القواعد الإسلامية التى تحكم هذه الحالات جميعها ، والوصايا التى يجب اتباعها حالة الحرب كما أثرت عن الرسول وخلفائه الراشدين ، وكيف أظهرت الحوادث والتاريخ كيف كان العرب والمسلمون حريصين على اتباع تلك القواعد والوصايا ، ثم ننتهى بأثر ذلك كله وجدواه فى إقرار السلام العالمى :

لا يجيز الإسلام أن تفاجئ أمته أمة غيرها بالحرب ، بل لا بد من دعوتها أولا إلى دين الله الذى رضيه للإنسانية كلها ، ثم إلى طلب الإنصاف والعدل ؛ فإن أبى العـدو هذا وذاك ، كانت الحـرب حينئذ ضرورة لا بد منها ، ومن ثم يجب أن يتبع المسلمون وصايا الرسول وخلفائه الأمجاد حتى ينحصر الشر فى أضيق حدود ، وحتى لا يضار غير المحارب وينأله الشر والأذى .

فقد جاء فى الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه خيرا بتقوى الله تعالى ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ... » .

ومن البدهى أن يقتدى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم به فى هذه الوصايا والأوامر ، كما فى كل ما جاء به من تشريعات وآداب ، ولذلك نرى سيدنا أبا بكر الصديق يقول فى وصيته لأسامة بن زيد حين أرسله على رأس الجيش إلى الشام لينتصف من الروم بمـا كان منهم من قبل .

« لا تخونوا ولا تغـلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة [1] ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكذلك جاء فى كتاب لسيدنا عمـر ابن الخطاب لجيش من جيوشه : « لا تغـلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، واتقوا الله فى الفلاحين » ، كما كان من وصاياه لأمراء الجنود : « ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » .

أين هـــذه الأوامر الرائعة بمـا رأيناه

---

[١] لأنهم لا يحاربون .

فى أيامنا هذه من دول الحضارة الحديثة الزائفة من تدمير المدن بما فيها من نساء وشيوخ وأطفال أبرياء وغيرهم من العجزة غير المحاربين ؛ بل من تدمير مدينة بأسرها بما فيها من عشرات أو مئات الآلاف من السكان الآمنين وذلك فقط لتجربة قنبلة ذرية ومعرفة مدى ما تفعله من التدمير ! ...

* * *

هذا وقد حافظ أمراء العروبة والإسلام فى العصور المختلفة على ألا ينال غير المحاربين من النساء والأطفال ومن إليهم أى ضرر . وفى التاريخ أمثلة كثيرة فى هذه الناحية نذكر منها هنا مثالا واحدا وقع إبان اشتداد الحروب الصليبية فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

وذلك أن امرأة من هؤلاء الأعداء الصليبيين فقدت طفلها الرضيع ولم تقف له على أثر ، فباتت بشر حال تدعو بالويل والثبور طوال الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا لها : إن صلاح الدين رجل عادل رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج إليه ولقائه وطلب مساعدته حتى يردّ إليك طفلك .

فخرجت حتى وصلت إلى الحرس واستغاثت بهم مما نزل بها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فلقيته وهو راكب وفى خدمته خلق عظيم فبكت بكاءا شديدا واستغاثت به ولما علم بقصتها غضب غضبا شديدا ورق لها ودمعت عيناه .

ثم أمر بالبحث عن ولدها وإحضاره إليه حتى يسلمه لها ، فظهر أنه قد أخذ فى غارة من الغارات ، وأنه بيع فى السوق كما يباع الرقيق ، فأمر باسترداده ممن اشتراه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وتسلمته أمه الوالهة الباكية . فأرضعته ساعة ، ثم أمر السلطان فحملت على فرس إلى معسكر قومها مع طفلها !.

* * *

وقد يحدث فى أثناء الحرب أن يعطى بعض الجنود المسلمين أمانا للعدو أو للبعض منهم ، فما حكم الإسلام فى هذا ، وفى الأمان بصفة عامة ؟ أى سواء كان الذى أعطاه أمير الجيش ، أو أحد القادة ، أو رجلا آخر من عامة الجند حراً كان أو عبدا ؟ .

هنا نجد الإسلام يضرب للناس جميعا أروع الأمثال فى احترام « الأمان » ولو كان الذى أعطاه من عامة الجند أو رجلا رقيقاً والأصل فى هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » .

بل إنه صلى الله عليه وسلم أجاز تأمين « أم هانئ » بنت سيدنا على بن أبى طالب رجلا من المشركين ، وقال لها : « قد أجرنا من آمنت يا أم هانئ » .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقاد إليه « الهرمزان » أسيراً ، وهو كما نعلم

كان من رجال فارس الذين لقى منهم المسلمون عنتاً كثيراً ، فيقول له عمر : تكلم ، فقال الهرمزان : أكلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر : تكلم لا بأس ، فاعتبر الهرمزان هذه الكلمة أمانا له .

ولما أمر عمر بعد انتهاء الحديث بقتله جزاء ما قتل من المسلمين ، قال له بعض من كان حاضراً من الصحابة : ليس إلى قتله من سبيل ؛ إذ قلت له : لا بأس . يريد هذا القائل أن كلمة سيدنا عمر العابرة تعتبر تأمينا له ؛ فكانت النتيجة أن سيدنا عمر أطلق الهرمزان من إساره ، فأسلم وفرض له نصيبه من العطاء .

وكان هذا الصنيع منطقيا من عمر مع ما عرف عنه من قبل ؛ فهو الذى يقول فى كتاب له إلى سعد بن أبى وقاص حين وجهه إلى قتال الفرس : « فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفه بإشارة أو لسان (١) كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أمانا . فاجروا ذلك مجرى الأمان » .

ويروى « البلاذرى » فى كتابه فتوح البلدان : أن المسلمين حاصروا حصنا فى بلاد فارس حتى أوشك أن يقع بين أيديهم ، ولكن حدث أن عبدا مسلماً فى الجيش أمن أهل الحصن من نفسه دون أن يدرى أحد ، وكان هذا الأمان مكتوبا رمى به فى سهم إليهم .

وكان ذلك مشكلة بين أهل الحصن والمسلمين المحاصرين : فإن هؤلاء لم يعتبروا هذا أمانا ، وقالوا : ليس أمان العبد بشىء ، وقال أهل الحصن : لسنا نفرق الحر من العبد .

ولما استعصى حل هذ المشكلة على المسلمين هناك ، كتبوا بالأمر إلى سيدنا عمر ، فكتب إليهم يقول : إن العبد المسلم من المسلمين ، وذمته كذمتهم ، فلينفذوا أمانه ، فأنفذوه .

وفى رواية أخرى أنه كتب إلى أبى عبيدة وكان قائد الجيش هناك ، يقول : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ، فوفوا إليهم ، وانصرفوا عنهم .

* * *

هذا عن احترام العرب والمسلمين للأمان الذى يعطيه أى فرد من الجيش حال الحرب ، حتى ولو كان عبدا مملوكا ، أما عن الوفاء بالعهود والمواثيق التى تكون بيننا وبين الأعداء فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى حديث طويل . وذلك بعد أن أكد القرآن العظيم فى كثير من آياته . وكذلك الرسول فى كثير من أحاديثه وجوب الوفاء بالعهود على كل حال .

ونحب هنا أن نذكر بهذه الحقيقة التى أثبت التاريخ صحتها فى الأزمان المختلفة ، وهى أن الإسلام لا يعنيه من المبادىء الإنسانية السامية التى يقررها كالعدل والأمانة والوفاء بالعقود والعهود - حتى فى حالة الحروب مع الأعداء - لألاؤها وبريقها ، وإنما يعنيه إلى الدرجة

---

(١) قرفه : داناه ، أو ألق إليه .

القصوى تطبيقها والعمل بها فى كل حال من الرخاء والشدة .

وبعد ذلك نكتفى فى ناحية الوفاء فى العلاقات الدولية بحادثتين اثنتين ، ففيهما بيان أى بيان لتقديس العروبة والإسلام للوفاء ، وللحرص الشديد على صيانة المجتمع العربى الإسلامى من الغدر ، وذلك لما يكون منه من نزع الثقة بين الأفراد والمجتمعات والدول .

١ — روى أبو داود والترمذى ، وغيرهما من أصحاب السنن ، أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وبين الروم عهد ، فأخذ فى السير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ! فنظروا إليه فإذا هو عمرو ابن عبسة .

فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من كان بينه بين قوم عهد فليشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» ، فرجع معاوية بالناس .

٢ — وروى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ، عن أبى عبيدة وغيره من الرجال الثقات : أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز جاءه وفد من أهل «سمرقند» فذكروا أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر بما كان بينهم وبينه من عهد ، فكتب عمر رضى الله عنه إلى عامله هناك يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فى شكايتهم التى رفعوها إليه فان قضى بإخراج المسلمين، وجب إنفاذ قضائه.

ففعل العامل ذلك ، وبعد أن نظر القاضى فى الأمر حكم بأن يخرج المسلمون من المدينة على أن ينابذوهم على سواء ؛ فكره أهل سمرقند الحرب ، ورضوا بإقرار المسلمين على ما هم عليه ، وذلك بعد أن أمنوا إليهم وحمدوا سيرتهم فيهم ! .

ولا ريب فى أن هذا صنيع لا يعرف التاريخ مثيلا له ، إلا أن يكون فى تاريخ العرب والمسلمين ؛ وقد أقدم عليه سيدنا عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه حبا للوفاء الذى شدد الله ورسوله فى وجوبه ، واتقاء لشبهة الغدر الذى حرمه الله وتوعد عليه .

* * *

وبقى بعد ذلك كله أن نتكلم عن معاملة الأسرى فى الإسلام .وعن القواعد والأصول التى يجب اتباعها بشأنهم ، ثم عما كان للإسلام وتعاليمه بصفة عامة ، وسير رجالاته من أثر فى إقرار السلام العالمى وتقوية أركانه ودعائمه ؛ وذلك موعدنا به الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى ؟

الدكتور محمد يوسف موسى

الطاقة الدينية

للأستاذ محمد فتحي عثمان

إن إيقاع الدين على النفس البشرية ، يحتاج إلى ملاحظة وتأمل ... !

فالنفس البشرية قد تقتنع ، وقد تميل ، وقد تخشى ... والإنسان قد يتأثر من المنطق ، أو الرغبة أو الرهبة ... ولكن الطاقة التى يطلقها الدين فى الفرد والمجموع شىء أكبر من هذا كله وأعمق من هذا كله وأبقى من هذا كله .

ولنستمع إلى جوستاف لوبون يرصد هذه الطاقة الهائلة ، وسأنقل كلماته عن كتابه (روح السياسة) سواء منها ما كان للدين أو عليه ، ليتبين أن الذين يسجلون حقائق التأثير الدينى ليسوا من كهنة الدين المستسلمين لأمره المسبحين بحمده المتحمسين من أجله !! إنه يقول : « أحرار الفكر الذين يحملون على المعتقدات لا يفقهون شيئاً من تأثير الديانات ، فمع أن الديانات لا تشتمل إلا على قليل من الحقيقة من الوجهة العقلية .. ! دلنا التاريخ على أن أهم الحضارات قامت عليها ، وأنها زينت حياة ملايين من الرجال بما لا تقدر على فعله مذاهب الفلسفة من زهد وإخلاص وإنكار الذات ومحبة الغير ، فالديانات عبارة عن قوى يجب الانتفاع بها لا هدمها ، ولا يجوز أن يضطهد رجال الدين إلا إذا أرادوا أن يضطهدوا المعتقدات الأخرى . الديانات ـ وهى التى تورث النفوس آمالا كباراً ـ ملجأ البائسين فى كل وقت . فلنعد الخياليين الذين أوجدوا الآلهة وعبادتها من المحسنين إلى البشر ، والعلم الذى عرفهم أخذ يعدل عن مقاتلتهم ويعترف بشأنهم الكبير ، فقد كانوا فى الماضى عوامل فى ثبات الأمم الخلق ، وهم وإن كانوا سيتحولون فى المستقبل لن يزولوا ، ما دام البشر يحتاج إلى الأمل » .

وعندما غاب الدين عن التوجيه ، حاولت ديانات مصطنعة أن تكلف الناس فوق ما يكلفهم به أى دين لتحتل فى نفوسهم مكان الدين وتعبئ الطاقة الدينية المعطلة وتشغل الفراغ المهول[1] ... إن الفيلسوف الانجليزى الكبير برتراندرسل يحلل شعور (الوطنية)

---

[١] المقالان السابقان (عصر نبذ الإله الواحد فوقع فى شرك آلهة شتى !) ، (الديانات الجديدة) بمجلة الأزهر .

فيقول فى كتابه (نحو عالم أفضل) : «والوطنية شعور معقد أيما تعقيد ، يتكون من الغرائز الفطرية ومن المعتقدات الراسخة فى الذهن ... وفضلا عن ذلك كله هناك عنصر آخر ، هو عنصر العبادة ، عنصر التضحية الصادقة ، عنصر اندماج حياة الفرد وهو راضى النفس فى حياة الأمة ، وهذا العنصر الدينى من عناصر الوطنية ، عنصر جوهرى لقوة الدولة مذ كان يسجل أحسن ما تنطوى عليه صدور الذين يؤمنون بالفداء القومى » . والفيلسوف الفرنسى لوبون يتحدث عن النظريات التى روجها الاشتراكيون فى بلاده وغيرها بقوله : « ولا تنتشر الاشتراكية لما فى مثلها الأعلى المادى الذى تقترحه من قيمة ، إنها تنتشر لما تبذره فى النفوس من أمل دينى فى جنات دنيوية يتمتع فيها جميع الناس بسعادة سرمدية وقد أتيح لى مرات كثيرة أن أثبت أن الناس اقتتلوا فى غضون التاريخ فى سبيل المبادىء أكثر مما فعلوا فى سبيل قضاء حاجاتهم المادية ... عاش الناس للمبدأ والخيال أكثر ما للمادة ، فقد مجدوا رجال الحرب الذين أتوا بضروب البطولة وأحيوا ذكريات قادة الفكر وأرباب الفن الذين لم تكن لآثارهم فائدة عملية ، وأما الذين أتوا بالمخترعات التى لا غنى للناس عنها فيظهر أن أسماءهم طمرت فى عالم النسيان ، فكأن الناس ما عاشوا وما ماتوا إلا لأجل المبادىء » .

هذه حقيقة ينبغى ألا تغيب عمن يسجلون آثار الدين ... ويتناولون مدى الحاجة إليه . وما أصدق ما يقرره باستيد فى كتابه (مبادىء علم الاجتماع الدينى) : « لقد فرق كورتو فى رسالته عن (تسلل الأفكار الرئيسية) بين الغريزة الدينية وبين الأفكار التى تعبر عنها ، فمن الممكن أن تولد الديانات وأن تموت وأن تحل مكانها ديانات أخرى ، ولكن الأشياء التى تولد وتموت على هذا النحو ليست سوى مجموعات الأفكار والعقائد والأساطير ، أما الغريزة الدينية التى أثارت هذه الأمور وهى غريزة فطرية فى الإنسان فتبقى دائما ، لأنها تخلق صوراً دينية جديدة على أنقاض الصور القديمة » .

والفيلسوف الكبير برتراندرسل لا يتهم بالتحيز للدين ، ومع ذلك فإنه قد عرف جيداً نزوع الإنسان لإرضاء طاقته الروحية ، فهو يقول « ويمكننا أن نقول : إن الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بين بعضها كبير فرق إلا أنها تتميز عن بعضها البعض بما يكفى لتسميتها بأسماء مختلفة : الغريزة ، والعقل ، والروح . وحياة الروح هى التى تصنع الدين ... إن الغريزة هى التى تهبنا القوة ، وإن العقل هو الذى يهبنا وسيلة توجيه القوة إلى الغايات المنشودة . والروح هى التى توحى بالفوائد غير الشخصية للقوة التى تكون من نوع لا يستطيع العقل أن يحط من شأنه

بالنقد . ومن شأن حياة العقل بسبب انعزالها أن تفصل بين الإنسان وبين غيره من الناس فصلا داخليا ، طالما تكون غير متوازنة وحياة الروح . ولهذا السبب يستطيع العقل إذا استقل عن الروح أن يسبب فساد الغريزة وأن يلحق بها الهزال ... ولكى تحصل الحياة الإنسانية على الحيوية فلا بد من أن تكون النزعات الغريزية قوية ومستقيمة ، ولكن لكى تكون الحياة الإنسانية صالحة فلا بد أن تسيطر على هذه النزعات وتتولاها بالرقابة رغبات أقل شخصية وأقل قسوة ، أقل قابلية للإفضاء إلى النزاع من الرغبات التى توحى بها الغريزة وحدها .

نحن فى حاجة إلى شىء كلى وغير شخصى أولا وقبل كل شىء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردى ، وهذا هو ما تمنحنا إياه حياة الروح » .

* * *

ومن عناصر القوة فى الشعور الدينى أنه ليس إدراكا ونظرا فحسب ، إنه وجدان وانفعال ، والتقاء واتصال ، وتذوق ومناجاة مع تلك القوة العليا التى اقتنع وآمن بها الإنسان والأستاذ كليمانت وب يشير إلى هذه الخاصية التى يتفرد بها الدين فى بحثه الممتع (الدين والفلسفة والتاريخ ـ المجلة التاريخية المصرية اكتوبر ١٩٥٠) حيث يقول :

« يرى بنديتو كروتشى أن الدين ليس إلا صورة من صور الإدراك المحض للنشاط الروحى . وأعتقد أن ليس فى وسعنا أن ننكر أن الإنسان قد بدأ يتفلسف حين فكر فى الدين ، أى حين أخذ يكون فكرة عن العالم ككل ، وبما أنه لا شك فى أن هذه المهمة ـ تكوين فكرة عن العالم ككل ـ تقع بتقدم المدنية على عاتق الفلسفة شيئا فشيئا ، فإن النتيجة أن الفلسفة ـ إن كانت هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ـ لابد أن تغتصب فى نهاية الأمر مجال الدين كله . ولكنى لا أعتقد أن هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ، فنى الدين ينشد الإنسان الاتصال بما يظن أنه يقوم وراء كل تجاربه ، بل وراء نفسه التى تقوم فى نفس الوقت بهذه التجارب . إنه لا يقنع بأن يدركه باعتباره شاملا لمبدأ الحياة الأقصى ونعنى به سر الوجود ، بل يتوق إلى الائتلاف معه بحيث لا يصبح موضوعا المعرفة فحسب ، بل يصبح فريقا ... إن مدرسة معاصرة من متفلسفة رجال اللاهوت بألمانيا قد استرعت النظر إلى أن مخاطبتنا لله بضمير المخاطب لا الغائب فى الدعاء والصلاة يكشف عن عمق الصلة بين المؤمن وبين الله » .

وما أروع كلمات العقاد المنيرة الهادية فى كتابه (أبو الأنبياء) :

«إن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها إلى وجهة غير وجهتها . فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى ، بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ... أما ميزان العدل الإلهى فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ما عداها من دعامة فإنما هى دعائم القوة ممن يقدر عليها . وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض ... فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية ، فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ندان متساويان ومخلوقان أمام خالق واحد ...

والإله الواحد لم يكن حل مسألة ولم يكن سر أخبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد . بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب .

كانت عبادته (مسألة حية) تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الإنسان ... كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء» .

* * *

«إن الثورات الدينية يمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيرا ، وقد شوهد ذلك عند ماحول محمد بما جاء به قبائل العرب الضعيفة إلى أمة عزيزة . ولا يقتصر المعتقد الدينى الجديد على جعل الأمة متجانسة ، بل يأتى بما يتعذر على أى فيلسوف أو قانون أن يأتى بمثله ، إنه يغير عواطف الأمة الثابتة ... ولم تقتصر المسيحية على تحويل العادات بل أثرت تأثيراً كبيرا فى سير الحضارة مدى ألفى سنة فمتى يتم النصر لمعتقد دينى تلائمه الحضارة ملاءمة تتحول بها ، ولا يفعل الكتاب ورجال الأدب والفن والفلاسفة وقتئذ غير الإشارة إلى المعتقد الجديد فى تآليفهم» .

هذا ما يقرره لوبون فى كتابه (روح الثورات) .

والواقع أن الطاقة الدينية تظهر ثمارها فى الجماعات كما تظهر فى الأفراد .

فالدين يؤدى وظيفة هامة جداً فى تغيير بنية المجتمع ... وإذا أردنا أن نكون لأنفسنا فكرة أكثر دقة عن هذا التأثير

فربما كان من المستحسن أن نلجأ إلى تفرقة برجسون الشهيرة بين الديانات المغلقة والديانات المفتوحة ، فالديانات الأولى تنبثق على نحو تلقائي من البيئة الإنسانية لتحل فيها مكان الغريزة الاجتماعية المشرفة على الأفول ، ولكي تدفع عن المجتمعات أسباب الانهيار ، أما الديانات المفتوحة فتستخدم قوتها الديناميكية في نسف الحدود وفي القضاء على العادات التقليدية ، فتأثيرها يدعو إلى التحول بل هو تأثير ثوري ... يقول ديبار : « يحمل المسكن طابع الآراء الوهمية والاعتقادات والطقوس الخاصة » ... وزيادة النسل أو نقصانه تتأثر بالعامل الديني ... وترجع بعض النظم الاجتماعية إلى عامل ديني ... وهناك اتصال مستمر بين النظم الدينية والسياسية ، فإعلان حقوق الإنسان على أثر اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ يرتبط مباشرة — عن طريق التصريح الأمريكي السابق عليه — بالإصلاح البروتستنتي في القرن السادس عشر ، وتؤدي المطالب الاشتراكية إلى طبع كثير من الاتجاهات الروحية المسيحية بطابع مدني ...

وعلى الرغم مما كتبه أحد الماركسيين : « ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التي تجعل ظهورهما أمرا ممكناً » ، فقد يكون تطور الدين هو الذي يغير النظام الاقتصادي ، فلقد وضع جيفونز وفريزر وريناخ فرضاً يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانة التوتمية ، ويبدو لجرانت ألين وميتهوف ارتباط الزراعة بدفن الموتى ، وبين الاقتصادي دولافيلي أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها « وعندما يرى المرء أن البروتستنتيين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية وعندما يلاحظ أن تقدم البروتستنت أكثر سرعة واطراداً في نفس البلد وفي نفس الجماعة ومن نفس اللغة والأصل ، فمن العسير جداً ألا ينسب تفوق هؤلاء على أولئك إلى طبيعة العقيدة التي يؤمن بها كل منهم » . وأبرز ماكس فيبر وجود علاقة بين المذهب البروتستنتي والنظام الرأسمالي في أسمى درجاته وليس معنى هذا أن البروتستنتي يفوق الكاثوليكي في اتجاهه المادي فإن لدى (البيوريتان) فكرة تقوم على الزهد ، ولما كان الزهد يحفز على الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رءوس الأموال ، وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالي . ثم إن البروتستنتي لما كان يتخذ عمله المهني سبيلا إلى تحقيق سعادة أخروية فإنه يؤدي عمله على أكمل وجه طبقا لما يوحي به ضميره وهكذا يصبح مديراً صناعياً ممتازاً ـ باستيد : مبادىء علم الاجتماع الديني) . هذا هو أثر

« البقية على صفحة ٩٥١ »

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

الصوم عبادة صامتة، ولكنه مناجاة عظمى بين العبد وربه

(ا) يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام .
(ب) كما كتب على الذين من قبلكم .
(ح) لعلكم تتقون

(ا) شرع الصوم ركنا من أركان الإسلام الخمسة ، فهو — بعد الشهادتين — أحد مقوماته الأربعة . التى يشخص فيها كدين له كيانه ، وله شعائره التى ترتبط بها حياة المجتمع ، وينعكس ضوؤها فى مظهر الجماعة : هداية ، وخلقا ، وعملا نافعاً ، وحضارة ناضجة بريئة من شوائب : الزلل والفساد .

وفقدان الصوم أو غيره من الأركان المساوية له ينتقص من دين المرء ، ويجعله فى تدينه كالمتجمل بثوب تمزقت وشائجه ، فلم يعد واقيا له من عوادى السوء وليس الذنب ذنب الدين ، ولا العيب عيبه ، وإنما هى جناية أهله على أنفسهم بالمروق من حوزته أو من بعض نواحيها .

أما فقدان الركن الأول — الشهادتين — فهو انهيار الأساس من قاعدته الأصيلة ، ولا يستقيم شىء من الأركان الأخرى على غير أساس .

والصوم إمساك عن شهوتى البطن والفرج وجهاد للنفس بحرمانها من ملذاتها ، فهو غير هين الاحتمال : إذ النفس تكره الاحتباس ، وتجنح دائما إلى التحلل .

لذلك كانت الدعوة إليه فى أسلوب هين ، وتلطف مشوق ، وكان سياقها سياق تكريم بنداء رحيم — يا أيها الذين آمنوا —

فهذا تسجيل لإيمانهم ، وشهادة بأهلية المؤمنين للدعوة إلى خير يريده الله لهم ، وليس المؤمنون بالجفاة الذين يقسو عليهم الكتاب فى نجواه معهم ، كما يقسو على المتخلفين وإنما هم المصغون المستجيبون ، فحسبهم أن يسمعوا ليطيعوا ، وذلك ديدنهم ، وهو شأن الإيمان ،

وهكذا خطابهم فى كل مقام يراد به تزويدهم من تعاليم الدين وآدابه ، وتكميلهم بكماله .

ثم يقترن بهذا النداء ثلاث كلمات فى تشريع الصوم ، وتركيزه كركن من أركان الإسلام ، وما بعد هذه الثلاث فبيان لقدر أيامه ، وموعدها ، وبيان أحكام تتعلق به من ترخيص فى الفطر ، وقضاء للصوم ، أو فدية عنه إلخ ..

الكلمة الأولى ـ كتب عليكم الصيام ـ المراد : يا معشر المؤمنين ، فرض عليكم الصيام !! ولم يكن عليهم صيام مفروض قبل ذلك .

وكان هذا التشريع فى السنة الثانية للهجرة. وكانت الهجرة فى ربيع الأول ، من السنة الثالثة والخمسين من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد مضى عليه بعد رسالته ثلاثة عشر عاما فى مكة وبعد سنة من الهجرة يكون النبى عاش تسع سنوات فى المدينة ، وهى التى صام فيها رمضان .

(ب) الكلمة الثانية ـ كما كتب على الذين من قبلكم ـ .

يفيدنا أن الصوم ليس بدعا فى الإسلام ، بل كان فى الأمم السابقة ، وهذا مما يشهد بأن الديانات السماوية لا يباين بعضها بعضا ، بل هى على أصل واحد فى التوحيد والعبادة لله ، وإن اختلفت رسوم العبادات أحيانا فى شكلها ، كما تختلف صلاتنا عن صلاة غيرنا .

فصوم المسلمين أشبه بصوم غيرهم من ناحية أنه تشريع سماوى إيجابى ، وإن اختلف صومنا عن صومهم فى مدته وأوصافه ...

وقد يقال : إن صومهم كان أشبه بصومنا تماما ، غير أنهم أحدثوا تغييرات لم تكن ، حتى صار مخالفا لما نحن عليه .

وحسبنا أن يكون التشبيه بين الصومين فى أصل وجوبهما .

وذكر هذا التشبيه يحفزنا على القبول ، فالنفوس أميل إلى التقليد وإذا عرف أن شيئا كان مقبولا عند غيرنا هان علينا أن نأخذ به .

بل نحن أولى بالاستجابة ، والسبق إلى تحصيل الثواب ، وقد اعتبرنا الله خير أمة أخرجت للناس .

فلنكن أقوى صلة بالله ، وأحرص على الاتصال به ، ولنكن أحفظ لأمانة الصوم على ما ورد بها تشريعه ، فلا نزيد فيها ، ولا ننقص منها ، ولا نشوبها بتصرف من عندنا ... حتى لا نقع فيما وقع فيه سوانا من إلحاد فى دين الله ، وزعزعة لعقيدة الناس ، والله سبحانه يقول فى هذا وفى غيره « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ؟ ؟ أم : من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ ؟ اعملوا ما شئتم ، إنه بما

تعملون بصير ! ! » ـ وهذا تهديد شديد لا ينبغي أن يتعرض له عاقل .

أما الصوم المستحب فى نحو يوم عرفة وعاشوراء ، ومثلهما ، فليس زيادة على الفرض ، بل ذلك زيادة مسنونة ، كما نزيد فى الزكاة بصدقات التطوع ـ فمن تطوع خيرا فهو خير له ـ .

(ج) الكلمة الثالثة ـ لعلكم تتقون ـ .

يعنى : شرع الصوم وسيلة إلى التقوى ، ورجاء حصولها للصائمين ، وهى الهدف من التشريع .

وإذا كان الصوم حرمانا من الملاذ ، وحبساً للنفس عن حريتها ، فالحرمان يثير الألم ، ويحمل على الضيق والتذمر ، فكيف يكون مرضيا ، ومجلبة للتقوى التى لا تكون غالبا إلا عن طمأنينة وارتياح ؟ .

جواب ذلك أن الصائم يجد نفسه بين إحساس بالحرمان ، وشعور وجدانى بأنه يترفع أثناء الصوم عن الشهوات البهيمية التى لا تتجاوز بطنه وفرجه .

فهو يتشبه فى صومه بالملائكة فى تجردهم عن شواغل الملذات الحسية التى تسيطر كثيراً على روح الإنسان ، وتقعد به عن النشاط فى جانب الله سبحانه ، وتدفعه من شهوة إلى شهوة ، ومن لذة إلى لذة ـ والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع ـ .

وفى التشبه بالملائكة سيطرة على الشهوة ، وترويض للنفس على التزهد ، والصبر .

فإذا ماعاش المرء فى يسر فهو قادر على ضبطها عن الإسراف ، والتورط فى الجشع والتبذير ، ويذكرها بما عليه المحرومون من الحاجة المريرة ، والعجز عن ضروراتهم ، فتقوى فيه عاطفة الآدمية ، والأخوة الإنسانية ، والناس بحاجة إلى التراحم فى كل أوساطهم ، وظروفهم .

وإذا لم يكن فى حياة المرء يسر فالصوم تدريب على الصبر ، وتعويد على الرضا ، واعتبار بما تورط فيه بعض الموسرين ، والمترفون من الغرور بالنعمة والانهماك فى مطاوعة النفس ، وتتبع الأهواء ، حتى كأن النعمة أنستهم خشية الله ، فهم يحاربون ربهم بما أغدق عليهم من رزق ، ويتجاهلون أن وراءهم حسابا عسيراً ، وهذا عزاء ـ ولا شك ـ للمحروم .

وفى هذه المشاعر التى يوحى بها الصوم للواجد وللمعسر نمط كريم للتربية ، واتجاه إلى أطيب المسالك.

فإن يكن الصوم شاقا من ناحية ، فهو هناءة روحية من ناحية أرجح وأقوى : ناحية الوجدان .

وإن يكن تكليفا غير محبب عند المستهترين ، فهو عبادة صامتة ، وهو مناجاة

عظمى عند المهتدين : مناجاة لها شأنها ، ولها قدرها ، ولها ملذتها ... وعبادة كهذه كفيلة بتوثيق الصلة بين العبد وربه ، وكفيلة بإيقاظ الضمير ، وتبديد الغفلة ، والجنوح إلى توجيهات الله نحو الدين والدنيا ... وتلك كلها من معانى التقوى ... فلا جرم أن يكون الصوم سبيلا إليها كما جاءت به الآية — « لعلكم تتقون » .

ثم تنتقل بنا الآيات مرة ثانية إلى ناحية مما يتعلق بالصوم .

« أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له » .

ففى هذه المرحلة يبين الله أن الصوم المفروض إنما هو فى أيام محصورة العدد ، وأن العاجز لمرضه ، والمسافر فى أثناء الصوم لها أن يفطرا ، وعليهما القضاء فى أيام غير رمضان ، وهذا ترخيص للمعذور الذى يجهده الصوم أو يجلب عليه ضرراً .

والمرض المذكور يراد به ما يسمى فى العرف مرضا يكون الصوم معه شاقا ، والسفر كذلك ما يعتبر سفرا فى العرف ، وقد حدد العلماء مسافته بما يعادل ثمانين كيلو مترا وشرطوا فيه أن يكون سفراً مباحا : لا لمعصية .

ولا يمنع من رخصة السفر أن يكون المسافر فى قطار ، أو سيارة ، أو باخرة ، أو طيارة فالسفر نفسه سبب الترخيص ، ولو لم تكن معه مشقة ولا تعب ، أما الذين يطيقون الصوم — يعنى يؤدونه فى طاقة ، وهى غاية جهدهم ، كالعجوز الذى يشق عليه الصوم ويبلغ نهاية طاقته وقدرته ، وكالحامل ، والضعيف ، وصاحب العمل المجهد ، أو العمل الذى لا تؤمن عواقبه مع الصوم كالطبيب الجراح ، والقاضى بين الناس ، فكل أولئك لهم الترخص فى الفطر ، فإن كانت لهم فرصة القضاء فالأصل ذلك وجوبا . وإن لم تكن لهم فرصة القضاء لاستمرار العذر عندهم فعلى كل منهم الفدية بدلا من كل يوم .

وقدر الفدية إعطاء المساكين عن كل يوم ثمن قدح من القمح لكل مسكين أو قدحا بالكيل إن تيسر ، أو أكلة مشبعة تساوى ثمن القدح - لكل واحد ، والمقصود أن يظل الصوم محتفظا به ، أو يرمز إليه بتلك الصدقات على الفقراء .

والفداء عن أيام الصوم غير الزكاة الواجبة فى عيد الفطر . . والزيادة فى الفدية عن القدر الواجب طاعة مشكورة « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

والحديث عن الصوم فى تشريعه ، وفى ذكر أيامه المعدودات ، وفى الترخيص بفطره

للمريض ونحوه يثير فى النفس تطلعا إلى تعيين الأيام المعدودة ببيان موعدها ، والتعريف بشأنها ، حتى لا يكون فيها إبهام ، وحكمة الله تأبى أن يكون فى تشريعه إبهام ، ولذلك انتقلت بنا الآية مرة ثالثة إلى استيفاء هذا .

فقال تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » فهذا إفصاح بذكر الشهر الذى يصام ، وهو إفصاح يشفى غلة النفس ، ويجعل لذكر رمضان وقعا كريما فى السمع ، ومحبة فى القلب ، ويشعر بفضل هذا الشهر على غيره ، فهو الذى أنزل فيه القرآن ، وهو الذى ابتدأت فيه بعثة محمد إلى الناس كافة ، وفيه ليلة القدر ، أى ليلة الشرف التى كانت مستورة فى علم الله حتى أظهرها لعباده بنزول القرآن وببعثة محمد فيها ، وهى عند الله الليلة المباركة التى اختارها المولى سبحانه لهذه الأحداث الكريمة ، فهى لذلك خير من ألف شهر ، وهى ذات مناقب كثيرة ليست لليلة سواها ، ولا فى شهر غير رمضان .

ذلك هو الصوم ، وهذا شأن الشهر الذى شرع فيه ، فهل يغيب عن واع ألا يدع الصوم ، ولا يتخلف عن الفضل فى شهر من السنة ؟ .

ولكن : هل كل من صام يكون فى مستوى الصائمين حقا ؟ إن الصوم كما تحدثنا عبادة صامتة ، فقد يرى الناس بعضهم بعضا فى صلاة ، أو فى حج ، أو فى إمساك عن طعام وشراب ، ولكنهم لا يدرون شأن بعضهم فى ساعات الخلوة ، فقد يكون فيهم الصائم الكاذب ولا يعلم خلوته إلا الله وحده ، والخلوة هى مجال الاختبار ، حيث لا رقابة لأحد ولا حاجة إلى رياء وتظاهر .

وإنما هو خدعة كانت فى العلن ، والخلوة راحة منها ...

أو هى تقوى صادقة والخلوة والعلن فيها سواء ، فالمعتصم بربه من شيطانه والمتقى لله لا لعباده هم المناجون لربهم فى خشية دائمة ، وطاعة حقة ، والله يجزى على الطاعة أجرها الموعود ، ويضاعف ثوابا غير محدود ، وهو الذى يقول ـ كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به ـ كأن العبادات كلها بجانب الصوم دونه شأنا : أما الصوم فقد تمحض لله ، لما فيه من مزيد الإخلاص جهراً وسراً ، فثوابه موكول إلى الله يتولاه بكرمه الوفير .

والله نرجو أن يجعل طاعته محببة إلى قلوبنا ، وخالصة لوجهه الكريم ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

صيام رمضان
وصلته بصيام المانوية والصابئين والعرب فى الجاهلية

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

من أشهر النحل الدينية التى كان معتنقوها يزاولون قبل الإسلام صياما شبيها بصيام رمضان نحل المانوية والصابئين والعرب فى الجاهلية .

فقد ذكر ابن النديم فى كتابه «الفهرست»[1] أن شريعة الحـــرانيين المعروفين بالصابئة أو الصابئين والذين قد بقى فى دياناتهم رواسب كثيرة من الديانة البابلية القديمة القائمة على تقديس الكواكب « تفترض عليهم الصيام ثلاثين يوما أولها لثمان مضين من اجتماع آذار (مارس) » . ويظهر من عبارته أن صيامهم هذا كان إمساكا عن جميع أنواع الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأنه كان تكريما للقمر .

وذكر فى أثناء كلامه عن الثنوية الكلدانيين أو المانوية (ودياناتهم خليط من البابلية القديمة والمسيحية والفارسية ويقوم كثير من مظاهرها على تقديس الكواكب)[1] أنهم كانوا يصومون ثلاثين يوما تبدأ عندما « يهل الهلال وتنزل الشمس إلى الدلو ويمضى من الشهر ثمانية أيام » ، وأنهم كانوا يفطرون فى كل يوم منها « عند غروب الشمس » . ويظهر من عبارته أن صومهم هذا كان متصلا اتصالا وثيقا بالظواهر الفلكية وأنه كان يقوم على تقديس الكواكب كصوم الثلاثين عند الصابئين .

ولم يكن الصوم هو المظهر الفذ لتأثر الصابئين والمانوية بالديانة البابلية القديمة القائمة على تقديس الكواكب ، بل ظهر هذا التأثر كذلك فى صورة جلية فى صلواتهم وأوقاتها .

فقد جاء فى « فهرست » ابن النديم (وهو من أهم المراجع فى هاتين النحلتين) ما يدل على اتصال هذه الأوقات اتصالا وثيقا بحركات الشمس الظاهرة . أما الصابئون فقد ذكر فى صددهم أن المفترض عليهم من الصلاة « فى كل يوم ثلاث : أولها قبل طلوع الشمس

---

(١) انظر الجزء التاسع من كتاب الفهرست لابن النديم .

(١) يدعى زعيمهم الذى تنسب إليه هذه الديانة « مانى بن فتق » .

بنصف ساعة أو أقل لتنقضى مع طلوع الشمس وهى ثمانى ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة ، والثانية انقضاؤها مع زوال الشمس وهى خمس ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة ، والثالثة مثل الثانية انقضاؤها عند غروب الشمس » .

وعقب على ذلك بقوله . « وإنما ألزمت هذه الأوقات لمواضع الأوتاد الثلاثة التى هى وتد المشرق ووتد وسط السماء ووتد المغرب » « وصلواتهم النافلة التى هى بمنزلة الوتر فى لزومه للمسلمين ثلاث فى كل يوم : الأولى فى الساعة الثانية من النهار (وهى تقابل صلاة الضحى عند المسلمين) ، والثانية فى الساعة التاسعة من النهار (وهى تقابل العصر) والثالثة فى الساعة الثالثة من الليل (وهى تقابل العشاء) . ولا صلاة عندهم إلا على طهور » . —

وأما المانويون فقد ذكر ابن النديم أنه قد فرض عليهم من الصلوات أربعا . « فأما الصلاة الأولى فعند الزوال ، والصلاة الثانية بين الزوال وغروب الشمس ، ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات » . ووصف صلاتهم فى العبارات الآتية التى تدل على أنهم كانوا يقيمونها تقديساً للكواكب وبخاصة الشمس ، فقال : « وذلك أن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجارى أو غيره ، ويستقبل النير الأعظم قائما ، ثم يسجد ويقول فى سجوده مبارك هادينا الفار قليط رسول النور ومبارك ملائكته الحفظة ومسبح جنوده النيرون ، يقول هذا وهو يسجد ويقوم ولا يلبث فى سجوده ويكون منتصبا ، ثم يقول فى السجدة الثانية : مسبح أنت أيها النير أصل الضياء » .

* * *

هذا ، وقد حاول كثير ممن فى قلوبهم مرض ، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع صيام رمضان عند المسلمين إلى صيام الثلاثين عند المانوية والصابئين ، كما حاولوا أن يرجعوا صلواتنا إلى صلواتهم . فزعموا قبحهم الله ، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ـ أن محمدا عليه السلام قد نقل عن هاتين الديانتين ـ ديانة المانوية وديانة الصابئين ما جاء به من صيام وصلاة وأن الأوقات التى شرعت فيها صلوات المسلمين وصيامهم واتصال هذه الأوقات بحركات القمر والشمس والكواكب ، كل ذلك ينم على الأصول الصابئة والمانوية التى استمدت منها هذه العبادات .

ومن هؤلاء الدكتور جاكوب الألمانى . فقد قرر فى رسالة كتبها فى صيام رمضان ، بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات

بين التقويم العربي من جهة والتقويمين البابلي والميلادي من جهة أخرى ، أن أول سنة شرع فيها الصيام ، وهي سنة ٦٢٣ ميلادية (كانت فرضيته يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت الهجرة يوم الجمعة ١٦ يولية سنة ٦٢٢ ميلادية). كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آزار ، أى أن أول شهر صامه المسلمون كان موافقا فى مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الصابئين ، ويرى جاكوب فى هذا دليلا قاطعا على أن محمدا قد نقل صيام رمضان عن شريعة الصابئين [١] . وذهب وسترمارك الفنلندى إلى ما يقرب من هذا الرأى مع شىء من الاعتدال والحيطة فى التعبير ، إذ يقول : « إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الصابئين والمانوية لبالغة من الوضوح مبلغا يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة عن أصل واحد ، فمن الراجح أن يكون محمد قد نقل صيام رمضان عن الصابئين أو عن المانوية أو عنهما معا »[٢] .

وهذه لعمرى شنشنة عرفناها عن كل من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الإسلامى وشعائره . فتراهم قبل أن يفهموا الموضوع الإسلامى الذى يتصدون لدراسته حق الفهم ، يوجهون كل همهم إلى البحث عن نظير له فى الديانات الأخرى ولا يكادون يعثرون عليه حتى يوحى إليهم تعصبهم أنه لا بد أن يكون هذا منقولا عن ذاك ؛ ثم لا تعوزهم الحيل والمنافذ التاريخية لإلباس أهوائهم ثوب الحق .

ومع أن المقام لا يتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان لا نرى مندوحة عن الإشارة إلى بعض أمور أعماهم تعصبهم عن النظر إليها ، وهى خليقة أن تقوض مزاعمهم رأساً على عقب .

فمن ذلك أنه لم يحدث فى الجاهلية اتصال فكرى أو دينى بين قريش التى نشأ فيها الرسول عليه السلام وبين المانوية والصابئين وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة : منها اختلاف اللغة والرسم والثقافة والحضارة ومنها بعد المسافة بين مواطن هؤلاء وأولئك فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية على حدود فارس من الغرب ، على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز والمواطن المتاخمة له ، وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريق الشام واليمن ، يسلكون أحدهما فى رحلة

(1) Jacob (K. G.) : Der muslimisch Festenmonat Romadân; dans : VI Gesellschaft Zu Grefawald, 1ère partie 1893-96 p. 2 et suiv.

(2) Westermarck : Origine et Développment des Idées Morales. T. II. p. p. 301,302 (trad. fran).

الشتاء والآخر فى رحلة الصيف ، ولم يعرف عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بالصابئين والمانوية أو احتك بثقافتهم الدينية أو عنى بدراسة شرائعهم أو وقف على شىء منها ، وظل هذا حاله إلى ما بعد رسالته بأمد غير قصير .

ومما يرد به كذلك على أصحاب هذا الإفك أن صوم رمضان يختلف اختلافا جوهريا فى شروطه وقواعده ووقته وطريقة أدائه ومقاصده وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند المانوية والصابئين . فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق فى عدد الأيام وتتابعها . وهذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلا على أن أحدهما منقول عن الآخر . على أنهما فى هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافا غير يسير . فالصيام الإسلامى مدته شهر قمرى ، على حين أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوما تبدأ بالثامن من شهر شمسى . والصيام الإسلامى يبدأ بابتداء الشهر وينتهى بانتهائه ؟ أما صيامهم فيبدأ من الثامن من الشهر ولا ينتهى إلا فى الشهر التالى له .

وقد بين الله تعالى فى كتابه الكريم السبب الذى من أجله اختير شهر رمضان بالذات ليكون شهراً للصيام ، فذكر أن السبب فى ذلك يرجع إلى أنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن . قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . فالحادث الذى من أجله اختير شهر رمضان بالذات ليكون شهراً للصيام هو حادث إسلامى بحت ولا علاقة له مطلقاً بأى شأن من شئون المانوية ولا الصابئين .

هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سن لنا من الشرائع قد سن مثله لكثير من الامم من قبلنا ، قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » وقال عز وجل فى صيام رمضان نفسه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » . فمن المحتمل إذن أن يكون صيام الثلاثين عند الصابئة والمانوية مستمداً فى الأصل من شريعة سماوية تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل ، وبعدت عز غايتها وأصولها الأولى ، وصبغت بصبغة التقديس للكواكب ، وأن الدين الإسلامى قد كتب الصوم نفسه الذى كتبته هذه الشريعة ، فأحياها نقية طاهرة ، وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك .

وما قيل فى صيام رمضان يقال مثله فى جميع أنواع الصلاة عند المسلمين .

* * *

وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين

وغيرهم إلى أن صيام رمضان كان منتشراً عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية ولاسيما قريش . ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبى عليه السلام نفسه كان قبل بعثه يقضى فى غار حراء شهر رمضان من كل عام متحنثا صائما . وقد اختلفوا فى أصل هذا التشريع . فمنهم من يرى أنه كان من الشرائع التى جاء بها إبراهيم عليه السلام ؛ ويستدل على ذلك بأن الذين ثبت أداؤهم لهذه الشعيرة فى الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم لملة إبراهيم . ومنهم من يرى أن عبد المطلب جد النبى عليه السلام كان أول من سن هذا الصيام وعمل به . وقد أخذ بهذا الرأى موير فى كتابه عن « حياة محمد »[1].

ولكن لم يثبت بعد شىء من هذا كله بدليل قاطع . على أنه لا يضير الدين الإسلامى فى شىء أن يكون صيام رمضان متبعا قبل بعثة الرسول . فقد ثبت أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم فى الحج وغيره بعد أن خلصتها مما كان عالقا بها من أدران الشرك وعبادة الأصنام ؟ .

دكتور على عبد الواحد وافى

(1) Muir: Lif of Mohamed, II, 56.

« الطاقة الدينية » بقية المنشور على صفحة ٩٤١

الدين الاجتماعى الذى سجلته الملاحظات الدقيقة ....

إنه أثر شمل الفرد والجماعة ، وامتد من الماضى إلى الحاضر ... وتجاهل هذا الأثر تعطيل لطاقة ضخمة فى الإنسان ، وإضعاف لقواه الأخرى على مر الزمن .

لقد تألقت كشوف العلم فى فترة فوهبت الإنسان حماسة ونفحته بروح خيل له معها أنه لم يفقد بطرح الدين شيئا ... وومضت أمام عينيه أضواء النظريات فى عهد من تاريخ الإنسان يصح أن يسمى (بعهد الإزم ism) خلعت عليه هذا الاسم أكداس المذاهب التى تنتهى بهذه النهاية اللغوية فى شتى مجالات الفكر والحياة ، فاندفع الإنسان لا يلوى على شىء ، وأوهمته دفعة التعصب لمذهبه أن فى وسعه أن يستغنى بما عنده عن الوحى والدين ...

ومضت الأيام ، وفتر وميض الكشوف والمبادئ ، وبرد الإنسان ... .

وعاد يبحث من جديد :

ترى هل يستطيع الدين أن يعيد المعجزة ، ويبرئ أكمه الروح ويحيى موتى القلوب ؟ .؟

فتحى عثمان

البلاغة العربية بين منهجين

للأستاذ على العمارى

من المعروف عند دارسى البلاغة العربية أنها برزت إلى الحياة فى ثوبين متميزين ، ووصلت إلينا بطريقتين مختلفتين ، طريقة الأدباء ، وطريقة المتكلمين وأنها ظلت زمنا غير قليل تبدو فى معارض أنيقة من صنع الأدباء ، وتتنفس فى أجواء عبقة بنفحات الشعر .

قال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب . فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » .

فعلم الشعر الذى كان يطلبه الجاحظ ، والذى ظهر أثره فى كتبه ، ولا سيما كتاب (البيان والتبيين) قد كان عند أدباء الكتاب ، وعلم الشعر هذا هو المحاولات الأولى لعلوم البلاغة .

فلما تقدم الزمن ، ودخلت العلوم المترجمة على العربية ونشأ أصحاب العقول الفلسفية ، والأذهان المنطقية أخذت تتحول أصول البلاغة من جوها الأدبى إلى جو علمى فلسفى منطقى ، وقد كان ذلك مشهوراً متعارفا فى وقت مبكر ، يدل على ذلك قول أبى هلال العسكرى : « وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل »[1] .

ومن هذا النص الموجز نتبين أن المنهجين ، منهج المتكلمين ، ومنهج صناع الكلام من الشعراء والكتاب . كانا معروفين فى عصر أبى هلال ، ومن مراجعة الفصل الذى يشير إليه نتبين الفرق بين المنهجين .

فأبو هلال كان يتكلم فى الإبانة عن معنى الفصاحة وما يتشعب منه ، وعن موضوع البلاغة فى اللغة وما يجرى معه من تصرف لفظها ، وهو لم يطل فى هذا الفصل كما يقول ، بل اقتصر على بعض تعريفات البلاغة ، والفصاحة وبعض الأمثلة الجيدة ، وهذا مثل من هذا الفصل : « وشهدت قوما يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة فيكون مثل

---

(١) الصناعتين ص ٩ ط . الحلبى

قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

ومثل كلام الحسين بن علي رضى الله عنهما : « الناس عبيد الأموال ، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معايشهم ، فإذا محصوا بالابتلاء قل الديانون » ومثل المنظوم قول الشاعر :

ترى غابة الخطى فوق رءوسهم
كما أشرفت فوق الصوار قرونها

قالوا : وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة، ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمى بليغاً ولم يسم فصيحاً كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال : ما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بلا أنيس ؟ .

وقول آخر لأخ له : مددت إلى المودة يداً فشكرناك وشفعت ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك ، والرجوع إلى محمود الود أولى بك من المقام على مكروه الصد .

وأنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولى لابراهيم بن العباس :

تمر الصبا صفحا بساكنة الغضا
ويصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما
هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فالبيت الأول فصيح بليغ ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح » .

فإذا استحضرنا هذه الصورة فى الحديث عن البلاغة والفصاحة ثم رجعنا إلى تعريفها فى كتب البلاغة التقليدية التى ندرسها ، والتى ظلت قروناً طويلة موضع عناية الدارسين ، عرفنا الفروق بين هذه الطريقة الأدبية والطريقة الأخرى التى وسمها أبو هلال بأنها (مذهب المتكلمين) .

وليس من العسير على الناظر فى مختلف كتب البلاغة أن يتبين أن المنهج الأدبى لا يعنى بما يعنى به المنهج الكلامى من التعريفات المنطقية ومناقشة هذه التعريفات بدقة زائدة، وإطالة الجدل حول الألفاظ ، وما يؤخذ منها ، فى حين لم يعن بالشواهد وتحليلها ، وتبين موضع الجمال فيها ، وعلى كثرة ما ترى فى هذا المنهج من التقسيمات والتفريعات لا تجده يقف عند كل تقسيم ليتبين فيه ما يؤدى إليه من جودة أو ركة فى الكلام ، وإنما هو تقسيم خال من الهدف وربما كان الملحظ فيه عقلياً فحسب ، ولا طائل وراءه مما يعنى البلاغى الذى همه أن يميز بين الجيد والردىء ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ولقد اعتبر ابن خلدون عمل السكاكى فى هذا الفن عملا جليلا ، « لأن المتقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل

الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر ابن يحي والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه [١] » .

ولا شك أن عقلية ابن خلدون كانت عقلية عالية ، تعجب بالتحديد والتقييد ، وتحتفل للضوابط والقوانين ، ومن هنا - وهو أمر لا ينتهى العجب منه - أهمل الإمام عبد القاهر عند تاريخه لهذا الفن ، كأن صنيع عبد القاهر لا يعد شيئا يذكر ، أو كأنه لم يصل إلى علم ابن خلدون .

ومنذ قيد السكاكى هذا الفن بالسلاسل والأغلال والعلماء يدورون حول كتابه يلخصونه أو يشرحونه أو ينظمونه ، ومع هذا كان يظهر فى الفينة بعد الفينة من يترسم خطا المنهج الأدبى ، وينسج على منواله .

فضياء الدين بن الأثير يؤلف كتابه المثل السائر ، وينحو فيه هذا المنحى ، والسيوطى يتحدث عن نفسه فيقول : ورزقت التبحر فى سبعة علوم . ويذكر منها المعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

ومن هذا النص . ونص آخر جاء فى مقدمة ابن خلدون يقول فيه : « وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة » أقول من هذين النصين أخذ بعض الباحثين قضية عامة فوسموا المذهب الكلامى بأنه (مذهب العجم) والمنهج الأدبى بأنه (منهج العرب) بل خطا أحدهم خطوة أخرى فسماه (المذهب المصرى)

والحق أن وسم هذين المذهبين بالشعبين العربى والعجمى مجانف للصواب ، ذلك أن من الأعاجم من قضى حياته فى بلاد العجم وروحه روح أدبية فعبد القاهر الجرجانى لم يفارق جرجان ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، قد قضى حياته كلها فى بلاد الشرق البعيدة ، وهذان العالمان الجليلان يمثلان المذهب الأدبى أتم تمثيل ، وفى العلماء من عاش فى مصر ، وروحه روح كلامية كبهاء الدين بن السبكى ، وقد عده بعض الباحثين من رجالات المدرسة المصرية فى البلاغة ذات الطابع الخاص ، لأنه قال فى مقدمة كتابه (عروس الأفراح) : « أما أهل بلادنا يقصد المصريين - فهم مستغنون عن ذلك - يريد فن البلاغة - بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة فى المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه

[١] المقدمة ص ٥٠٢ ج ١ التجارية .

العلماء فضلا عن الاغمار الأعمار ويرون فى مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار » .

فى حين أن الرجل مبالغ فى النزع عن القوس السكاكية ، فقد حشا شرحـــه بالتحقيقات النحوية والمنطقية ، والمناقشات اللفظية ، بما لا يمكن أن نعتبره مع ذلك من المدرسة المصرية أو من مدرسة الأدباء بعامة .

ويكفى أنه ندب نفسه لحل معضلات مر عليها أسلافه وهم عن حلاوة حلها معرضون .

بل إننا لنجعل أسلوبه فى مقدمة كتابه أكبر دليل على تأثره بهذه المدرسة الكلامية وهذه فقرات منها « الحمد لله الذى فتق عن بديع المعانى لسان أهل البيان ، ورتق الأفواه عن تفسير المثانى إلى أن فتحها بلاغة آل عدنان ومحق ببراعة كتابه العربى ، وأسنة دينه القوى ما خالفهما من جدال اللسان ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشتمل على جناس القلب فتسكن بمد النصر لحبا يرمى بشرر كالقصر ... ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب الفصل والوصل فى الواقعة إذا وقف الصف يوم الحشر ، والمسند إليه الشفاعة إذا التفت الساق بالساق » . وهكذا يمضى مقتبسا اصطلاحات البلاغيين ويكفى أن نضع بجانب هذه المقدمة مقدمة مؤلف آخر عاش فى مصر زمنا ، وفى القرن الذى سبق قرن ابن السبكى هو ضياء الدين بن الأثير ، فإننا ندرك الفرق واضحا ونتبين أن بهاء الدين السبكى ، لم يكن من رجال المدرسة الأدبية ، وليس بينه وبين رجال المدرسة السكاكية فارق كبير .

فالطريق المأمون الذى نسلكه حين ننسب هذا المذهب أو ذاك ، أن نعدد الأشخاص ، فنقول مثلا : إن السعد والسيد والعضد الأيمن من رجال المذهب الكلامى ، وإن عبد القاهر وابن سنان الخفاجى ، وابن الأثير ، من رجال المذهب الأدبى ... وهكذا .

بعد هذا العرض الموجز للمذهبين الأدبى والكلامى ، نريد أن نحدد مواضع أقدامنا من دراسة البلاغة ، وأحب ألا تضيق بما أقوله صدور ، سواء كانت من هنا أو هناك وقبل أن نحدد الوضع الذى نريده نلمح بشىء عن الطرق التى تسير عليها دراسة البلاغة عندنا .

فالأزهر والمعاهد التى تحذو حذوه ، لا تزال كلها تدور فى فلك السكاكى ، تدرس التلخيص أو الإيضاح ، مشروحين على الطريقة القديمة ، أو على الطريقة الحديثة ، وإذا كان قد جد شىء فى السنوات الأخيرة ، فإنما هو لفتة ضعيفة إلى كتب عبد القاهر ، وحذف لبعض المجادلات اللفظية ، وإذن

فلا تزال آراء السعد والسيد والعضد والرازى والسكاكى هى التى تدرس ، ولا تزال طريقتهم هى الطريقة ، وقد قرأت قول الكافيجى : « والسيد الشريف وقطب الدين الرازى لم يذوقا علم العربية » . وقرأت أن ابن خلدون كان ينكر على الطريقة المتأخرة التى أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم من التوغل فى المشاحة اللفظية والتسلسل فى الحدية والرسمية اللتين أثارهما العضد وأتباعه ، وأن العلم - كما يقول ابن خلدون - وراء ذلك كله .

ورجال وزارة التربية والتعليم نظروا فى البلاغة الغربية ، فنقلوها إلينا جملة ، فالطريقة من هناك والأمثلة من هنا ولقد تقرأ الكتاب الموسوم بالبلاغة والنقد ، المقرر على الفرقة الأخيرة من المرحلة الثانوية فلا نجد فيه أثراً لقاعدة من القواعد . ولقد جاءنى كثير من التلاميذ ، وهم أشبه بالضالين فى بيداء لا يعرفون منها مخرجا .

نعم تعلم اللغة يكون أجدى لو كان بالممارسة فيخلى التلميذ ونفسه ليقرأ ويتحدث ويجد ويلحظ فيتذوق ويكتسب . ولكن كم من الوقت والجهد يحتاجه التلميذ ليصل بهذه الوسيلة إلى غايته . لو أن فى الوقت متسعاً ولو أن التلميذ لا يدرس إلا هذه المادة لقلنا : إن هذه أجدى طريقة ، ولكن إذا كانت العلوم الأخرى تملأ كل وقته ، وإذا كانت المدة التى يقضيها فى دراسة البلاغة مدة وجيزة فكيف نتوهم أنه يتمكن من اكتساب الذوق وتكوين الملكة .

إننى لا أدعو إلى حشو ذهن الطالب بالقواعد والضوابط ولكنى معه ذلك لا أرى أن يخرج من المرحلة الثانوية وهو يجهل قواعد البلاغة وضوابطها .

وأبعد من ذلك فى الخيال ، وفى توهم أن تثمر دراسة البلاغة أن تترك الأمر للمدرس نعم يرى بعض الذين قضوا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن تترك الأمر للمدرس ، وفى ذلك يقول أحدهم : « ولعلى فى هذا المقام أجهر بتتمية رأبى وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس - وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر بإقليمها أو بيئتها تأثراً شديداً - يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلاميذه مراجع لمذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها عليهم ، وما أهون أن يهيئ لهم ذلك إذا ما يسرت له الجهات الإدارية سبله ببذل قليل مما تنفقه ثمنا لهذه الكتب »[1] .

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا

---

(١) فن القول ص ٢٣ .

انحدار الأذواق

للأستاذ شفيق جبرى

زرت مرة وأنا فى الولايات المتحدة الأمريكية جامعة «يوتا» فكلفنى أستاذ اللغة الانكليزية أن أتلو على طلابه شيئاً من شعر العرب حتى يسمعوا نغمه ففعلت، ثم سألنى أن أشرح لهم بعض أوزان الشعر فأجبت، ولما انقضت الساعة ودعت الأستاذ والطلاب وانصرفت، فلحقتنى طالبة وأهدت إلى ديوان الشاعر: روبر فروست، وقد وجدت فى خلال مطالعتى لبعض هذا الديوان عبارة لشارحه وهذه ترجمتها:

«والذى يجعل شاعراً يختلف عن شاعر أو قصيدة تختلف عن قصيدة إنما هو سبيل التعبير

إن مثل هذا الرأى كثير فى كتب أدبنا فلا أجد فيه شيئاً من الطرافة بالنسبة إلينا معاشر العرب، ولكن الذى جعلنى أستشهد بهذه العبارة أنها وردت فى كتاب طبع فى «نيويورك»، وقد رسخ فى أذهان طائفة من شباب هذا العصر ان الأمم المبنية حضارتها الحديثة على المادة قليلة الاهتمام بمذاهب البيان فإن الفكر وحده هو الغالب على كتابة كتابها.

وقد جر مثل هذا الاعتقاد إلى عواقب غير محمودة نشهدها فى أدبنا فى هذه الأيام، وإنى لأقابل بين عناية شعرائنا وكتابنا بالبيان من نصف قرن أو أكثر وبين تهاوننا

(بقية) البلاغة العربية بين منهجين ص ٩٥٦

المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات، ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم ... .

والخلاصة أن على الذين يتمسكون بمنهج المتكلمين أن يتخلوا قليلا عن تعصبهم لهذا المنهج، وأن يلتفتوا إلى الكتب الأخرى التى ألفت على منهج آخر، فيأخذوا منها، ما يلطف هذا الجو الذى لا أجد وصفاً له إلا ما وصف به شعر أبى تمام، فقد قالوا إن أبا تمام «استكره الألفاظ والمعانى. ففسد شعره، وذهبت طلاوته، ونشف ماؤه»[1].

وعلى الذين يعيشون فى أجواء باريس أو لندن، أن يدركوا أن لنا بلاغة عربية مهما قيل فيها، فإنه لا غنى لعربى عنها، وأن الضوابط ليست عديمة الجدوى، بل ربما كانت ضرورية فى بعض الأحايين.

ويا حبذا لو تقاربت البلاغتان، فكان منهما مزج طيب يبقى على تراثنا القديم، ويسير بنا فى الطريق السوى، ويعطى الدارس ذوقا وعلما ؟.

على العمارى

[1] الموازنة ص ١٩ . ط محيى الدين .

بهذا البيان فى يومنا الذى نعيش فيه ، فأدهش كل الدهش من تفاوت الأمرين ولولا بقية صالحة من هذه الطبقة من الكتاب والشعراء الذين يقدسون لغتهم ويحرصون على بيان العرب لدخل اليأس على قلوبنا من انحدار الأذواق فى عصرنا ، لولا ما نشهده من سلاسة التعبير وإدماج الفكر القوى فى الصيغة القوية والحرص على بلاغة العرب والدفاع عن هذه البلاغة فى كتابات بعض الأئمة وفى مقدمتهم الدكتور طـه حسين والأستاذ العقاد والأستاذ الزيات ، لكدنا نقطع الأمل من حسن البيان :

هذه الطبقة من الأئمة وقليل من الكتاب غيرهم هم بقايا البلغاء الذين يقدرون لغتهم حق قدرها ، ويغارون عليها أشد غيرة ، ويدافعون عنها أقوى دفاع . ولست أدرى ما الذى حمل شبابنا فى هـذا العصر على الاستخفاف بمذاهب البيان ، فإذا قالوا إن العالم قد تطور ، فلم يبق للصيغة المقام الذى كان لها من نصف قرن وإنما القارئ همه الوقوف على الفكرة والوصول إلى هـذه الفكرة من أى وجـه كان ، إذا قالوا هذا القول . قلنا : لماذا تطور العالم فى نظرنا ولم يتطور فى نظر الأمريكان وغيرهم من الأمم الحريصة على المادة وأشكالها ، لماذا نجد فى آفاقهم من يرى أن سبيل التعبير وحده هو الذى يجعل الشاعر يختلف عن الشاعر ، والقصيدة تختلف عن القصيدة . أفلسنا أحق من كل أمة بمثل هذه العناية باللغة والبيان .

كان كتابنا وشعراؤنا من نصف قرن يجودون كتابتهم وشعرهم التجويد كله ، وكذلك كان أولئك الكتاب والشعراء فى خلال نهضتنا الحديثة ، وقد كان ميل الأدباء إلى التمتع بمحاسن شعرهم وكتابتهم لا يعدله ميل . وأذكر أن المنفلوطى كان إذا نشر نظرة من نظراته فى الصحف شغل الناس وكذلك كان الأدباء إذا اطلعوا على قصيدة للبارودى أو لإسماعيل صبرى أو لشوقى أو لحافظ أو لمطران ، كان شعر هـذه الطبقة فى مصر وفى بلاد العرب بمنزلة الكنز الذى لا يفنى على الإنفاق ، فلماذا تغيرت الأرض غير الأرض والسموات ، لماذا نجد الصحف الكبيرة فى هذه الأيام تهتم بسفاسف الأمور أشد من اهتمامها بمقال إمام من أئمة الأدب أو بقصيدة شاعر من كبار الشعراء ، لماذا انحدرت الأذواق فقد يكتب أحدنا مقالا أو ينشر قصيدة فلا نجد من يبالى بخطأ يستفيض فى هذا المقال أو بغلط يشيع فى هذه القصيدة وقد كان أئمة النقد قبل نصف قرن يقفون بالمرصاد لكل خطأ يقع ، وينبهون على كل غلط يحدث ، فكانوا يقومون اعوجاج الألسن على صفحات الجرائد حتى كان الكاتب أو الشاعر يشوق إلى التحفظ ويخاف الزلل ، فأين هذه الطبقة من البلغاء الذين نشئوا فى مصر وغيرها قبل أيامنا ؟ . أين الإمام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد

رضا ؟ أين المويلحى والمنفلوطى ؟ أين الشدياق واليازجى وأرسلان ؟ أين البازودى وشوقى ؟

حقاً إن العالم قد تغير ، ولكن تغير العالم لا يستلزم انحطاط الذوق وفساد البيان ، فقد يجوز أن تغير العالم يستوجب تغير صيغة الكتابة ، ولكن تغير هذه الصيغة لا يراد به النزول إلى ما يقرب من العامية ، فقد جاءت عصور كثيرة من عصورنا الأدبية ، وتغير فيها العالم ولكنه نشأ عن هذا التغير شىء من العلو فى الذوق والبيان ، ولم ينشأ عنه شىء من الانحدار ، فإن أبا تمام فى الماضى قد جدد الشعر ولكن تجديده لم يهبط بهذا الشعر إلى الدرك الأسفل ، وإنما رفعه إلى أعلى مراتب البلاغة ، والجاحظ قد عدل الكتابة ولكنه لم يمسخ البيان ولم يشوه الذوق ، وإنما رفع الكتابة بتعديله إلى الهضبة التى لا تعلوها هضبة . !

لماذا هذا الانحدار فى التعبير ؟ وما فائدة هذه القصص التى تستفيض فى العامة إذا لم تقوم أذواق العامة فهل خلقت القصص لتنحدر إلى مستوى العامة ؟ أم إنها خلقت لترفع مستوى العامة إلى مستوى لائق ؟ أفلا نجد فى لغتنا سهولة فى بلاغة ، وبلاغة فى سهولة ؟ ومتى كانت البلاغة الإتيان بكلام يدق على الأفهام .

إن فى لغتنا ما هو صالح بكل طبقة من الطبقات ، ولكن بعض الكتاب والشعراء فى هذه الأيام ، قد ضاقت أخلاقهم وضاقت أوقاتهم ، فهم يريدون السرعة فى كل شىء ، إنهم يريدون أن يعيشوا على الساحل ؛ لأنهم يخافون الإمعان فى العباب وما علموا أن الكاتب أو الشاعر لا ينضج بيانه إلا بعد أن يملأ ذهنه سنين طويلة من كتب البلغاء . وليس هذا الأمر أمرنا وحدنا ولكنه أمر الأمم الحديثة فى نشأتها وتاريخها فإنها ترى أن سبيل التعبير إنما هو رأس البلاغة . . . !

فى جمهوريتنا مجلس أعلى للفنون والآداب ينشط القرائح ويشجع الخواطر ، فلم يبخل على شاعر يجود ولا على كاتب يبرز ، ولا على قاص يحلق ، ولكنى أرجو أن يعاقب هذا المجلس المتهاونين بلغتهم وبيانهم كما يكافئ المعتنين بهذه اللغة . وبهذا البيان . فالذى أشهده ويشهده غيرى أن الطبقة الرفيعة من الكتاب والشعراء الذين كانوا زينة مصر وبعض بلاد العرب ، قد ذهبت فلم تأت بعدها طبقة مثلها ، ولا مشى على آثارها أحد ولولا أمل قوى فى بعض شعراء وكتاب ، يحافظون على عبقرية اللغة وروح البيان ، لما علم إلا الله وحده كيف تكون هذه اللغة وهذا البيان فى الآتى .

شفيق جبرى

الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي

للأستاذ منصور رجب

الاتجاهات الحديثة فى الفكر الإسلامى : موضوع يشغل الآن بال كثير من المفكرين ... يكتب فيه كل من ناحية . . كتب فيه أستاذ « أكسفورد » الأستاذ « جب » فاتهم الفكر العربى بأن من خواصه الفطرية : « الذرية » أى عدم القدرة على « التعميم » أو نزوعه إلى تناول مشكلات الحياة ذرة ذرة . . وعزا الحركة الإسلامية الحديثة إلى تأثير الثقافة الأوربية .. وإنى حين أتناول هذا الموضوع فى مجلة « الأزهر » أقدم جامعة تبنت الفكر الإسلامى - إذا استثنينا جامع الزيتونة «[1] - أقدم بكلمة يقتضيها المقام لهذا الموضوع مشيراً إلى الآيات .. أو بعض الآيات .. التى ذكرها الكرآن الكريم . . كتابنا العزيز . . مادة للتفكير .. وسلما يصعد فيه المفكر إلى حيث يحلق فى سماء الفكر الإنسانى . . وإن هذه الدعوة . . القرآنية . . القوية . . الحية . . هى التى جعلت للفكر العربى .. أو الإسلامى قدرة على « التعميم » وإن الفكر الإسلامى هو الذى أثر فى الفكر الأوربى فى ميدان .. العلم والأخلاق . . خلال القرون الوسطى وعصر النهضة .

وإذا كان الفكر الإسلامى قد توقف - إلى حد ما - عن الجهد العقلى . . بسبب اضطهاد العالم الإسلامى . . هذا الاضطهاد الطويل العريض الذى انتهى بقيام المزعومة « إسرائيل » فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. فلقد طلع الفجر . . وبدد ضباب « الغفلة » وإن أشعته لتضىء لنا الطريق .. طريق العزة .. والقوة . والكرامة .. وإن أنواره لتجذبنا إلى مبادئ الإسلام القوية التى تنادى بأن ليس لأحد أن يفخر إلا بما عمل .. : « لا فضل

---

(١) تم بناؤه عام ١٤١ هـ . . وتخرج فيه ابن خلدون . وأبو الحسن الشاذلى أما الأزهر فقد تم بناؤه عام ٣٦١ هـ وفتح للصلاة فى نفس الشهر الذى كمل فيه البناء . وأول تاريخ علمى له فى صفر من سنة ٣٦٥

لعربى على عجمى . . ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

أقول :

الفكر — بالكسر ويفتح — : إعمال النظر فى الشئ : كالفكرة والفكرى : بكسرهما .

ويعرفه المناطقة بأنه : ترتيب أمور معلومة للتأدى إلى مجهول .

ويقول بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن « الفرك » لكن : يستعمل الفكر فى المعانى : وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للحقيقة (١) .

والفكر — ككل معنى من المعانى — شئ مجرد لا وجود له إلا بآثاره : فى الدين : فى العلم : فى الأخلاق : فى السياسة : فى الاقتصاد : فى الاجتماع ، فى كل ناحية من مناحى الحياة .

والتفكر : جولان الفكرة بحسب نظر العقل : وذلك للإنسان دون الحيوان : فالإنسان تشاركه جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس : والحركة : والغذاء : والسكن : وغير ذلك : ويتميز الإنسان عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه : والتعاون عليه بأبناء جنسه : والاجتماع المهيء لذلك التعاون : وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تبارك وتعالى والعمل به : فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين : بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر .

وعن الفكر تنشأ العلوم ، والفنون ، والآداب ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة فى القلب : ولهذا روى : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » لأن الله تبارك وتعالى منزه عن أن يوصف بصورة .

والقرآن الكريم يطلب منا أن نفرك الأمور وأن نبحثها طلباً للوصول إلى الحقيقة فى كل مناحى الحياة .

يقول — فى سورة البقرة — : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة »(١) .

ويقول — فى سورة النحل — : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٢) .

ويقول — فى السورة نفسها — : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون : ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ص ٣٩٢ .

(١) آية ٢١٩ .

(٢) آية ٤٤ .

بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[١] .

ويقول — فى هذه السورة أيضا — : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون : ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »[٢] .

ويقول - فى سورة سبأ - : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا »[٣] .

ويقول - فى سورة الزمر - : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٤] .

ويقول - فى سورة الجاثية - : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٥] .

إلى آخر ما ورد فى هذه المادة أو ما يؤدى معناها كقوله تبارك وتعالى - فى سورة الذاريات - : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[٦] . وكقوله - فى سورة الحديد - : « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »[١] .

وكقوله تعالى - فى سورة الزمر - : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب »[٢] .

وكقوله - فى هذه السورة نفسها - : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »[٣] .

هذه الدعوة القرآنية . . القوية . . الحية إلى إعمال النظر فى كل شيء : فى الدنيا . . فى الآخرة . . فى الحيوان . . فى الطير . . فى الشجر . . فى النبات . . فى الماء . . فى الموت . . فى الحياة . . فى السماء . . فى الأرض . . فى النفس . . فى العلم . . فى الجهل . . فى كل شيء يدرك بالحس وبالعقل . . هذه الدعوة القرآنية القوية الحية . . إنما هى دعوة إلى « التعميم الذى لولاه ما كانت العلوم الإسلامية ولما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية . ولا أن يدرك الأشياء مجردة عن صفاتها . . فالقرآن الكريم يوجه الفكر إلى التعميم . . واتجه اليه الفكر الإسلامى بالفعل حتى أصبح التعميم من خواصه .

قدرة الفكر على التعميم هى التى أوجدت

---

(١) آية ٦٨ ، ٦٩ . (٢) آية ١١ .
(٣) آية ٤٦ . (٤) آية ٤٢ .
(٥) آية ١٣ . (٦) آية ٢٠ .

---

(١) آية ١٧ . (٢) آية ٩ .
(٣) آية ٢٧ .

لنا هذه الثروة الضخمة فى العلوم والفنون والآداب .

أنار القرآن الكريم طريق الفكر ودعا إليه : أناره لتمشى فيه مدركا بحواسك وعقلك سابحا بخيالك فى روعته وجماله . . ودعا إليه مبيناً فقهه .. والفهم له . والتوجيه إليه .

فى هندسة النحل آية للفكر . . فى إنزال الماء من السماء آية للفكر .. فى إنبات الزرع من التراب آية للفكر . . فى النوم والموت آية للفكر .. فى اختلاف الليل والنهار آية للفكر . . فى العلم والجهل آية للفكر . . فى تسخير كل ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً للإنسان آية للفكر . . فى كل ناحية من مناحى الحياة يدور الفكر .. وفى كل ناحية له آية لقوم يتفكرون .

والقرآن الكريم حين يدعو إلى التفكر يدعو الناس جميعاً : فالآيات التى ذكرها للتفكر فيها موجهة للكل . لتبين للناس ما نزل إليهم . . فيه شفاء للناس . . ينبت لكم به الزرع . . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض .. قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون .. إلخ .

والذين يعلمون ما نزل إليهم فقهت نفوسهم .. وأشد ما كانوا فقها فى فجر الإسلام .. ذلك أن حياة سيد المفكرين .. محمد صلى الله عليه وسلم كانت تفسيراً بليغاً للقرآن الكريم . سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلوات الله عليه فقالت : « كان خلقه القرآن » وجاء الصحابة من بعده رضوان الله عليهم . . فاقتدوا به صلوات الله عليه .

أحاط القرآن الكريم سياج الفكر بحائط من حديد ... تلك هى حرية الرأى ... حتى قال يخاطب سيد المفكرين . . محمداً صلى الله عليه وسلم : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [1] . وقال : « لا إكراه فى الدين »[2] وقال : « وما أنت عليهم بجبار » [3] . وقال : « إن عليك إلا البلاغ » [4] ، وقال : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » [5] . وعلى هذه الآية الأخيرة أرسيت قاعدة الفكر ، وهى « الشك أصل اليقين » من قبل أن يطنطن بها « ديكارت » وغير ديكارت ... ممن يأخذون منا ... ويبيعون علينا .

هناك شك مريب ... وشك هو لعب . . وشك الغرض منه ترجيح أحد الطرفين على الآخر ـ وهذا هو الذى عناه القرآن الكريم وسماه النبى صلى الله عليه وسلم : « صريح الإيمان » ، فقد وفد عليه من الصحابة من يقول :

---

(١) الكهف آية ٢٨ . (٢) البقرة آية ٢٥٦ .
(٣) ق آية ٤٥ . (٤) الشورى آية ٤٨ .
(٥) سبأ آية ٢٤ .

يا رسول الله ... إنا لنجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يقوله .. فقال صلوات الله عليه : أو قد وجدتموه ؟ ... قالوا : نعم . . قال : ذلك صريح الإيمان ، رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة .

وفى رواية أخرى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الوسوسة » فقالوا : إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة - الحمم الفحم ... أى يصير فحما من شدة الاحتراق - أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ... قال : (ذلك محض الإيمان) أخرجه مسلم .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أحرار الرأى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل به وحى فإذا نزل كفوا .. فها هو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يراجع رسول الله صلوات الله عليه فى صلح الحديبية ... وكان هذا الصلح قد تم على أن من أتى المسلمين من الكفار رد إليهم - فيما عدا النساء فقد نزل القرآن الكريم مبينا ذلك - ومن أتى الكفار من المسلمين لم يرد ... حتى إن « جندل ابن سهل بن عمر » جاء يرسف فى قيوده فاراً من مشركى قريش فرده النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبيه سهل وفاء بما شرطوه فى عقد الصلح .

قال عمر : يا رسول الله . . ألسنا على حق وهم على باطل ؟ ... قال : بلى .. قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ ... قال : بلى قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ . قال : يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولم يضيعنى الله أبداً . فانطلق عمر ولم يصبر متغيظا فأتى أبا بكر فقال له مثل ذلك ... فقال أبو بكر : إنه رسول الله ولم يضيعه الله أبدا ... ومضت فترة خالط المسلمين فيها الكآبة والحزن لشدة الإشكال عليهم والتباس الأمر . . فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح « سورة الفتح » فأرسل إلى عمر ... فأقرأه إياها : فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم « فطابت نفسه ورجع [1] » .

وهذا مثل آخر : فى غزوة الأحزاب . . لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الأمر بعث إلى اثنين من قواد المشركين هما : عيينة بن حصن الفزارى ، والحارث بن عوف المرى .. فى أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عنه . فجاءا مستخفيين من أبى سفيان .. فوافقاه على ذلك بعد أن طلبا النصف . . فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا وكتبا بذلك صحيفة .

---

(١) الموافقات للشاطبى ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

وفى رواية أحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضى الله عنه الصلح فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع الصلح على ذلك بعث إلى : « سعد ابن معاذ » و « سعد بن عبادة » رضى الله عنهما فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه . فقالا : يا رسول الله : أمراً تحبه فتصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بدلنا من العمل به ؟ إن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرنى الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة : وكالبوكم من كل جانب : فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله : والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك ، فأخذ سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شق الكتاب ، فشقه سعد : وقال لعيينة والحارث ارجعا بيننا وبينكم السيف[1] .

والفكر الإسلامى يدور على أصول كلية هى :

الدين : والنفس : والعقل : والنسل : والمال :

أما الدين : فما هو ؟ ولمصلحة من أمرنا بحدوده وقيوده ؟ ...

كلمة « دين » وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من ثمانين موضعا : وفى حوالى أربعين سورة - إن لم تخن الذاكرة - : وردت فى سورة «الفاتحة» آية ٤ : وفى سورة « البقرة » آية ٣٢ ، ١٩٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٦ : وفى سورة « آل عمران » آية ١٩ ، ٢٤ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٥ . وفى سورة « النساء » آية ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، : وفى سورة « المائدة » آية ٣ ، ٥٣ ، وفى سورة «الأنعام» آية ٧٠ ، ١٦١ : وفى سورة « الأعراف » آية ٢٩ ، ٥١ ، : وفى سورة « الأنفال » آية ٣٩ ، ٤٩ ، ٧٢ : وفى سورة « التوبة » آية ١١ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ : وفى سورة « يونس » آية ١٠٤ ، ١٠٥ : وفى سورة « يوسف » آية ٤٠ ، ٧٦ ، وفى سورة « الحجر » آية ٣٥ ، وفى سورة « النحل » آية ٥٢ ، وفى سورة « الحج » آية ٧٨ . وفى سورة « النور » آية ٢ ، ٢٥ ، وفى سورة « الشعراء » آية ٨٢ ، وفى سورة «العنكبوت» آية ٦٥ ، وفى سورة « الروم » آية ٣٠ ، ٤٣ وفى سورة « لقمان » آية ٣٢ ، وفى سورة « الأحزاب » آية ٥ ، وفى سورة « الصافات » آية ٢٠ ، ٥٣ ، وفى سورة « ص » آية ٧٨ ، وفى سورة « الزمر » آية ٣ ، ١٤ ، وفى سورة

---

(١) ص ٢١١ ، ج ٢١٢ — السيرة الحلبية .

« المؤمن » آية ٢٦ ، وفى سورة « الشورى » ١٣ ، وفى سورة « الحجرات » آية ١٦ ، وفى سورة « الذاريات » آية ٦ ، ١٢ ، وفى سورة « الواقعة » آية ٥٦ ، ٨٦ ، وفى سورة « الممتحنة » آية ٨ ، وفى سورة « المعارج » آية ٢٦ ، وفى سورة « المدثر » آية ٤٦ ، وفى سورة « الانفطار » آية ٩ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، وفى سورة « المطففين » آية ١١ ، وفى سورة « التين » آية ٧ ، وفى سورة « البينة » آية ٥ ، وفى سورة « الماعون » آية ١ ، وفى سورة « الكافرون » آية ٦ وفى سورة « النصر » آية ٢ .

وإذا رجعنا إلى مدلول كلمة « دين » فى لغة العرب ولسان القرآن الكريم نراها تعنى : الطاعة ، والذلة ، يقول الشاعر :

ويوم الحزن إذ حشدت معد
وكان الناس إلا نحن دينا

يعنى بذلك مطيعين على وجه الذل ، ومنه قول « القطامى » :

« كانت ، نوار ، تدينك الأديانا » .

يعنى تذلك - فى رواية أخرى كانت « جنوب » ، وكلا اللفظين اسم امرأة فلعل فى البيت روايتين - ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

هودان الرباب إذ كرهوا الديـ
ـن، دراكا بغزوة وصيال

يعنى بقوله : « دان » ذلل . وبقوله : كرهوا الدين « الطاعة » .

ويقول الله تبارك وتعالى - سورة آل عمران آية ١٩ - : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى الانقياد بالخضوع . والتذلل بالخشوع . فالفعل من الإسلام . . أسلم أى دخل فى السلم . . كما يقال : أقحط القوم إذا دخلوا فى القحط . وأربعوا إذا دخلوا فى الربيع . فكذلك أسلموا إذا دخلوا فى السلم . . وهو الانقياد بالخضوع وترك المخالفة .

وإذا كان ذلك كذلك . . فتأويل (الآية) إن الطاعة التى هى الطاعة عنده : الطاعة له . وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة . وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى . . وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه معه فى العبودية والألوهية [1] .

وتطلق كلمة (دين) العربية أيضا فى لسان القرآن على الجزاء والحساب . . ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : « مالك يوم الدين » روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير هذه الآية : يوم الدين . . يوم حساب الخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . .

(١) تفسير الطبرى ج ٣ ص ١٤١ طبعة المطبعة الأميرية .

إلا من عفا عنه فالأمر أمره . . ثم قال : ألا له الخلق والأمر .

ومن ذلك أيضا قول الله تبارك وتعالى - فى سورة « الانفطار » آية ٩ - : « كلا بل تكذبون بالدين » . (يعنى بالجزاء) . ويؤيد هذا قوله فى الآيات بعدها : « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين . وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

أما المعنى الشرعى لكلمة دين . . فالدين لا يكون إلا وحيا من الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله . . يقول الله تعالى - فى سورة « الرعد » آية ٣٠ - : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك » ويقول - فى سورة النحل آية ٤٣ : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

والدين - فى أصله - واحد لا فرق بين دين ودين ، لا فرق بين (يهودية) و(مسيحية) و(إسلام) ولذلك يقول الله تبارك وتعالى فى سورة « الشورى » آية ١٣ - : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . فالدين الذى أوصى الله سبحانه وتعالى به محمدا هو الذى أوصى به موسى وهو الذى أوصى به عيسى عليهما السلام . . وإنما الخلاف فى الشرائع . . ولذلك يقول القرآن الكريم - سورة « المائدة » آية ٤٨ - : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

والآية ٦٢ من سورة « البقرة » : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هذه الآية صريحة فى أن أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله . . والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء . . والعمل الصالح .

وبهذه المناسبة أقول : إن الذين لا يعتبرون « الدين » مقوما من مقومات القومية العربية بحجة أن بيننا من المسيحيين . حتى اليهود . منهم ما يمنع جعل الدين من مقومات القومية العربية . أقول : إن هؤلاء مخطئون . فالمسألة محلولة . ونحن الذين نعقدها . محلولة على معنى أن الأديان السماوية فى الأصل واحدة لا فرق بينها وإنما الفرق إنما هو فى الشريعة . فإذا قلنا : إن الدين مقوم لم يمنع

هذا أو لم يخرج ما عدا المسلمين . . على أن الأديان كلها تدعو إلى البر والخير . والإيمان بالله وباليوم الآخر ... وهل القومية العربية تخرج عن هذه الدعوة ؟ ...

والدين الإسلامى يأبى التحكم فى عقائد الناس . ويأمر بتركهم وما يدينون .

أما فى العقيدة : فيقول القرآن الكريم فى سورة البقرة آية ٢٥٦ : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له : « الحصين » كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ . فأنزل الله هذه الآية .

وأما فى الشريعة فإنه يأمر بتركهم يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ليحكم بينهم بحكم دينهم يقول القرآن الكريم — فى شأن الذميين ... : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... »[1] .

ويقول : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التواة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[2] .

هذه السياسة التى رسمها القرآن الكريم : والتى سار عليها العرب فى حكم البلاد التى خضعت لسلطانهم : هذه السياسة الحكيمة كانت المصدر الفقهى لإحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص: وهى قاعدة: « شخصية قوانين الأحوال الشخصية » التى تقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع « أكسفورد » سنة ١٨٨٢ : وفى مؤتمر « لاهاى » سنة ١٩٠٤ : وأخيراً فى اتفاقية « مونترو » سنة ١٩٣١[3] .

وإذا كان الإسلام يأبى التحكم فى عقائد الناس : ويأمر بتركهم وما يدينون : فإن المرتدين لهم حكم آخر : ذلك لأنهم قوم متلاعبون لا إرادة لهم : ولذلك يقول القرآن الكريم فى شأنهم : « ومن يرتدد منكم عن دينه

---

(١) المائدة : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) بحث الأستاذ صليب سامى نشر فى جريدة الأهرام ٥ / ٦ / ١٩٤٥ .

فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1] » .

ولقد قاتلهم الخليفة الأول أبو بكر رضى الله عنه وأمر ذلك مشهور معلوم مستفيض .

والإسلام دين الفطرة . يقول القرآن الكريم - سورة « الروم » آية ٣٠ - : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » - الحنف بالحاء : هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة وعكسه الجنف بالجيم : وهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويجمع الحنف على حنفاء . يقول الله تعالى : « واجتنبوا قول الزور حنفاء » - والإسلام دين مقوم لكل أمور المعاش والمعاد . يقول الله تعالى فى سورة « الأنعام » آية ١٦١ : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا » قيما : أى ثابتا مقوما - فالإسلام إذاً : دين ودنيا .

والأمة التى تقوم فى معاشها ومعادها بالقسط هى الأمة « القيمة » سماها القرآن الكريم بهذا فقال - فى سورة « البينة » آية ٥ - : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وأساس دين الإسلام وقواعده التى عليها يبنى وبها يقوم بينها رسول الله عليه وسلم فى قوله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان . رواه البخارى ومسلم .

وعلى جملة من القول يدعو الدين إلى التسامح والإيثار واحترام شخص الإنسان . . .

منصور رجب
الأستاذ بكلية أصول الدين

(١) البقرة آية ٢١٧ .

صاحب النفس العزيزة

قال : محمد بن على من : كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

الكواكبى والقومية العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

فى منتصف القرن الماضى نشأ الكواكبى ، وفى مستهل هذا القرن مات ...

نشأ فى سورية ، ومات فى مصر .

تنفس أول أنسام الحياة فى حلب ، ولفظ آخر أنفاسه فى القاهرة ..

وفيما بين حلب والقاهرة ، وفيما وراءهما من بلاد الأمة العربية ، ومن بلاد المسلمين ، كان له خطوات ، ونظرات ، وانفعالات ، ثم كان له من ذلك كله دعوة إلى الإصلاح جريئة وصريحة ...

نصف قرن عاش فى هذا العالم ، هو نصف القرن الذى يصنع للبشرية فى كل العالم اليوم تاريخها المعاصر ؛ لأنه نصف القرن الذى تماوجت فيه الأحداث والآراء ، فكان من تماوجها وقتذاك هذه المذاهب السياسية والاجتماعية التى تحكم عالمنا المعاصر : الفوضوية ، والاشتراكية ، والديمقراطية التى نراها اليوم فى شتى صورها . هى صور الحكم التى تمخض عنها اصطراع الآراء ، وانفعالات النفوس ، وأزمات القلب والعقل فى النصف الثانى من القرن الماضى . . . نصف القرن الذى عاشه الكواكبى على أرض البشر .

من تلك الصور التى كانت تتراءى للناس فى مرآة الحوادث ، خلال ذلك النصف الثانى من القرن الماضى ، كانت تتراءى لأعين الناس صورتان متشابهتان أعظم التشابه ، إحداهما : فى بلاط السلطان عبد الحميد ، والأخرى فى بلاط القيصر ...

أما فى بلاط السلطان عبد الحميد فكان الخليفة الذى يزعم أنه باسم الله يحكم ويستبد ويسيطر ، وباسمه يخنق ويغرق ويحرق ، وباسمه يسفك ويفتك ويهتك ، ومن حوله أبو لهدى الصيادى وأمثاله ، يزعمون للخليفة ، ولأنفسهم ، وللناس ، أن هذا اللون الفاسد من الحكم هو شرع الله ، وهو الدين ، وباسم الله ، وباسم الدين ، يجب أن يذل الناس ، وأن تطأطأ الرءوس ، وأن يعيش البشر كالرقيق ، أو كقطعان الماشية ، ليس لها حرية ولا رأى ولا إرادة ؛ لأن الحرية والرأى والإرادة هى حق الخليفة الجالس على عرش الله وحده . وليس لها عزة ولا كرامة ولا نعمة ؛ لأن العزة والكرامة والنعمة حق أبى الهدى الصيادى دون سائر المحكومين من رعية الخليفة .

هذه الصورة فى بلاط السلطان عبد الحميد

لعهد الكواكبي كانت تقابلها صورة أخرى مشابهة فى بلاط قيصر روسيا .

كان ثمة القيصر ، وكان فى بطانته راسبوتين ، وكان الخنق والإغراق والإحراق ، وكان السفك والفتك والهتك ، وكانت الشهوات والمباذل ، وكان الملايين من المحكومين كالرقيق أو كقطعان الماشية . بلا حرية ولا رأى ولا إرادة ، وبلا عزة ولا كرامة ولا نعمة ، وكان ذلك كله بفتوى راسبوتين هو الدين ، وهو شرع الله . وكان القيصر هناك ، مثل السلطان هنا ، هو ظل الله على الأرض ...

من هاتين الصورتين المتقابلتين فى استنبول وبطرسبورج ، كان تماوج آراء ، وكان اصطراع مذاهب ، وكانت أزمة العقيدة التى زلزلت إيمان الملايين بالله ، وبالديانات ، وأنشأت الخصومة بين الدين والحرية ...

فى إبان هذه الأزمة التى أوشكت أن تعصف بطمأنينة البشر وسلام العالم ، كان الفيلسوف العربى عبد الرحمن الكواكبي فى بلادنا ، وكان متفلسفة آخرون فى روسيا وفيما يجاورها من البلاد ...

أما عبد الرحمن الكواكبي فقال : لماذا الخصومة بين الدين والحرية ؟ إن الدين لا يخاصم الحرية ، إنه سلام العالم ، وطمأنينة البشر ، وضمير الكون ، وسلوك الإنسانية الراشدة ، وما تلك الصور التى يزيفها أمثال راسبوتين فى بلاط القيصر ، وأبى الهدى الصيادى فى بلاط السلطان - ما تلك الصورة من الدين إلا زيف وضلال وفضول وبدعة وباطل ... اعرفوا الدين الحق تعرفوا الحرية ، وتعرفوا الإرادة ، وتعرفوا العزة والكرامة ... فأصلحوا دينكم تصلح لكم الحياة ، وتعز وتكرم . .

وأما متفلسفة روسيا فلم يستطيعوا أن ينظروا إلى ما وراء الصورة الظاهرة ، فقالوا إنه أفيون الشعوب ، يخدر العقول ، ويسلب الإرادة ، ويناهض الحرية ...

فلسفتان متقابلتان هنا وهنالك ، أما إحداهما ففلسفة أصيلة عميقة تبحث عن الأسباب والعلل وتطب لأصل الداء ، وأما الأخرى فدعوة تدمير وهدم ورجعية ، تريد أن تنتكس البشرية وتعود أدراجها إلى حيث بدأت ، لا يوجه سلوكها ضمير ، ولا يربط بين آحادها إيمان ولا تهتدى بغير الغريزة . . .

فى أزمة العقيدة التى استحكمت خلال تلك السنين التى اصطدمت فيها العقيدة بالرغبة فى الحرية ، كانت دعوة الكواكبي إلى إصلاح الدين وتجريده ، وإلى وحدة الأمة العربية لتنهض برسالتها لدعم الحضارة وتقدم الإنسانية ، وكانت دعوة لينين ، مقترف الشيوعية الأول ، إلى تدمير الدين ومحوه ،

فى ضوء فلسفة الكواكبى كان الميلاد الجديد لفكرة القومية العربية كما يؤمن بها اليوم كل عربى بين الشاطئين .

وفى ضوء فلسفة لينين ، كان أول الشر الذى يتربص بالبشرية كلها الدمار فى هذه الأيام ، بما يتهددها من خطر الشيوعية الحمراء .

إننا إذ نحتفل اليوم بذكرى الكواكبى فى ضوء الانتصارات الباهرة التى حققتها القومية العربية خلال نصف القرن الذى مضى منذ وفاة صاحب هذه الدعوة ، ليقتضينا واجب الوفاء لصاحب الذكرى ، وواجب الوفاء لأنفسنا وقومنا ، وواجب الوفاء للقومية العربية ذاتها - أن نذكر بإعجاب وفخر أن هذه الانتصارات التى تضىء مشاعلها وترفرف راياتها على رءوسنا ، إنما حققها إيماننا بالله . .

إن إيماننا بالله هو أول أسباب نصرنا ... فمن هذا الإيمان بالله ، كان اقتحامنا على المصاعب ، وكان اصطبارنا على كل مانزل بنا من البلاء ، وكانت قوتنا فى مواجهة الأحداث ، وكانت استهانتنا بكل مايدبر لنا من أسباب الكيد .

فى بور سعيد ، حين أحاطت بنا أسباب الدمار والتهلكة من البر والبحر والجو . كانت « الله أكبر » هى درعنا الواقية ، وهى قوتنا المدافعة ، وهى ثباتنا الراسخ ، وهى يقيننا الذى لا يتزعزع ، وبهذا اليقين ، وهذا الثبات ، وهذه القوة ، كان النصر الذى تحقق لنا فى بور سعيد ...

وفى كل معركة قبل بور سعيد ، وفى كل معركة تلت أو تلى بور سعيد فى جمهوريتنا ، أو فيما وراء جمهوريتنا ، فى أرض فلسطين أو فى الجزائر أو فى عمان والبحرين وعدن - إيماننا بالله هو عدتنا ، وهو قوتنا ، وهو درعنا الواقية وسيفنا القاطع . . .

إن إيماننا بالله هو بعض قوميتنا ، لأن تراثنا الروحى هو بعض مشخصات وجودنا ...

نحن الأمة العربية ، فى هذا الوطن العربى ، وأول نسبنا أننا من أسرة محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأول خصائصنا أن بلادنا أرض النبوات ، على ثراها كان ابراهيم أبو الأنبياء ، ومن أفقها شعت أنوار الرسالات القدسية على موسى وعيسى ومحمد . . . .

ما نحن إن لم نعرف لأنفسنا هذا النسب !

ما نحن إذا انقطعت بيننا الأواصر التى تربطنا قلباً إلى قلب ، بسلوك وضمير وإيمان بالله الواحد ؟ .

والدين ، كل دين ، هو الارتفاع بنفس كل ذى دين فوق كل ذى قوة ، فلا سلطان عليه إلا سلطان الضمير المؤمن الذى لا يعنو إلا لله ، لله وحده ، لأن الله أكبر ... ولأن الله أكبر ، كانت الحرية .

إن بعض الذين ينتحلون الفلسفة من قومنا ، يزعمون أن الدين شيء ليس من القومية ، يقولونها ملقنين ، أو يقولونها مخدوعين ، وإنما هي دعوة ضلال وخيانة وفتنة . . .

لست أظلمهم فأزعم أنهم جميعاً يريدون لأمتهم ضلالا وخيانة ، ولكنهم أرادوا أن يوصفوا بعلم ، فترجموا كلاما يقوله بعض عدونا ويزعم أنه العلم فزعموا مثل الذين ترجموا عنهم أن القومية شيء غير الدين ...

أي قومية يعنون؟ .

ربما كان قصدهم أن يتحدثوا عن قوميات أخرى غير قوميتنا ، ولم يعرفوا فرق ما بين قوميتنا وقوميات أخرى ، فلم يحكوا بعقل وإنما تبيغوا . . . !.

إن الأمة العربية أمة ذات رسالة ، رسالة يؤمن بها مسيحيها ومسلمها على سواء ، وليس لأمة من الأمم التي عرفوا أو وصفت لهم ، رسالة مثل رسالتنا ... !.

رسالتنا ذات الطابع الروحي التي جعلت بلادنا منذ الأزل مهبط الأديان ومن آفاقها كان مشرق الحضارة على أيدي رسل المسيح وأتباع محمد . . !.

روحيتنا بعض قوميتنا العربية ؛ لأنها بعض تراثنا الروحي ؛ ولأنها طابعنا الأصيل الباقي على الزمن ، وليس لقومية من القوميات التي يحتضنون فكرتها ويدعون إلى مذهبها في القومية ، مثل تراثنا الروحي ... !.

إن العرب أمة لاتشبههم أمة في الأرض ، وخصائص قوميتنا لا تشبهها خصائص أمة غيرنا ، وأول خصائصنا ، إيماننا بالله ، فلسنا عربا ولا قوميين ، ولا أحراراً ، إذا لم يكن بعض إيماننا بالعروبة إيماننا بالله ، وبعض إيماننا بالحرية إيماننا بالله .

قوة الإيمان بالله . . .

إن الإيمان بالله قوة لكل ذي دين في دينه ، وقوة لكل ذي وطن في وطنه ، وقوة لكل فرد في جماعته ، وقوة لكل جماعة في مواجهة الأحداث ، وهو الرباط الإنساني الذي يشد كل إنسان إلى أخيه الإنسان . . . ! .

إن الدين ، كل دين ، في حقيقته الفطرية البسيطة هو التسامح ، وهو الحب ، وهو السلام ، وهو الأخوة الإنسانية ، فلا أخوة بلا دين ، إنما تلك أخوة القطيع ، أخوة ساعة على منفعة مشتركة ، ثم آكل ومأكول .

تلك هي دعوة الكواكبي للقومية العربية ، وكان معه على دعوته مسلمون ومسيحيون في كل بلد من بلاد الأمة العربية ، عرفوا الدين إيمانا بالله ، وسلوكا في المجتمع ، وضميراً يصرف الناس في الحياة على دستور ، فآمنوا بالقومية العربية دينا مشتركا يؤمن بها المسلم

العربى والمسيحى العربى ؛ لأن بينهما إيمانا مشتركا بالله الواحد ، وأخوة مشتركة فى الوطن العربى الواحد .

إن مقترف الشيوعية الأول ، لينين ، الذى زعم مضللا أو مضللا أن الدين أفيون الشعوب ، لم يلبث أن اتخذ لقومه ديناً جديداً غير دين الله ، وإلهاً جديداً غير الله ، وكانت الشيوعية هى ذلك الدين ،

إن كان الدين أفيونا كما زعم مقترف الشيوعية الأول ، فماذا فعل وفعل خلفاؤه غير أن أبدلوا بأفيون أفيونا ثم تألهوا ؟ أبدلوا بدين التسامح والأخوة والرحمة والتعاطف الإنسانى ، ديناً متعصباً صلب الرأى سفاكا لا يؤمن فرداً على حريته ولا يعترف له بكيان مستقل عن الجماعة ...

ناهضوا الدين باسم الحرية ، ليلفقوا لقومهم ديناً بلا حرية، ففقدوا الدين والحرية جميعاً . . !

إنى لا أخشى هنا ، فى وطنى ، دعوة أخرى تشاكل تلك الدعوة إذ يقول بعض أولئك الذين وصفت من منتحلى الفلسفة ، أو من مزيفى القومية ، إن القومية العربية شىء غير الدين . . .

طاشوا وضلوا . . !

إن هؤلاء الذين يبرءون من دينهم لأنهم ينكرون صلة الدين بالقومية ليسوا من أمتنا ، ولا من قومنا ، إنهم كالعناوين العربية على كتب مترجمة ليس فيها من معنى العروبة إلا صور الحروف .

إن الكواكبى الذى احتفلت الأمة العربية بذكراه منذ عهد قريب ، فى ضوء مشاعل النصر الذى حققناه بكفاحنا ، وإيماننا ، ودماء ضحايانا قد رسم الصورة الصحيحة للقومية العربية كما نؤمن بها اليوم وندعو لها . . .

- إنها دعوة القومية العربية المؤمنة بالله ، وبالقيم والمثل العربية الصحيحة .

- دعوة الوحدة الوطنية التى تجمع العرب فى شتى ديارهم على الولاء للأمة العربية .

- دعوة الاشتراكية التعاونية التى تقوم على أساس الشورى واختيار الحاكم بإرادة المحكومين .

- دعوة المساواة بين الطبقات والأفراد فى الحقوق والواجبات ، والتقارب فى الثروة ودرجات المعيشة .

- دعوة الأخوة العمومية بين الأفراد فى الأمة العربية .

- دعوة الاتحاد القومى العربى .

هذه دعوتنا منذ كنا ، هى دعوة الكواكبى أمس ، وهى دعوتنا اليوم ، وهى دعوة الأجيال فى غد ؛ لتبعث الأمة العربية من جديد وتنشر رسالتها الحضارية بين البشر ، ليتحقق للبشر السلام والأمن والحرية .

محمد سعيد العريان

أهكذا كان الحلاج؟

للأستاذ محمد خليل هراس

كتب أستاذنا الدكتور محمد غلاب فى العدد الماضى من مجلة الأزهر مقالا عن الحلاج يهدف منه إلى إنصافه وبيان منزلته بين المتصوفة. وقد حاول الدكتور جاهداً - بما أوتى من حسن العبارة - أن يجعل منه الصوفى الإسلامى الأول. وأن يجعل من حادث مقتله مأساة تصور الظلم والاضطهاد فى أبشع صورهما وتمثل الحلاج ضحية بريئة. تألبت عليها عوامل الحقد والحسد.

ونحن وإن كنا نقدر للدكتور هذه العاطفة فى الدفاع المتحمس عمن يظن أنه مظلوم برىء، إلا أننا نأخذ عليه الغلو فى الحب والإفراط فى الثقة والميل عن منهج العلماء فى دقة البحث ونزاهة الحكم وتمحيص الحقائق: يقول الدكتور: «إن حياة الحلاج وآراءه وعباراته وشطحاته قد استهوت ولا تزال تستهوى الجماهير وإن الكافة فى عدد غير يسير من البقاع الإسلامية لا تزال مؤمنة بأن الحلاج من أئمة الأولياء ذوى الكرامات التى لا نزاع فيها ولا شحناء».

فماذا يعنى الدكتور بهذا؟ هل يعنى أن ولاية الحلاج وكراماته قد أصبحت حقا لا ريب فيه لأن الجماهير التى استهوتها آراؤه وعباراته لا تزال مؤمنة بذلك. فمتى كان إيمان الجماهير وإعجابها مقياسا؟ سيما والولاية أمر باطنى لا يطلع عليه أحد فهى ليست مما يخضع لحكم الجماهير. وإن جماهير تستهويها عبارات وشطحات تمثل الغلو والانحراف وتجافى أبسط قواعد الإسلام لا يمكن أن يكون لرأيهم وزن ولا لحكمهم اعتبار.

فالعبرة فى صحة العقيدة وسلامتها ليس مرده إلى حكم الجماهير ولكن مرده إلى موافقة الكتاب والسنة أو مخالفتهما فإنهما الميزان الذى لا يضل ولا يجور، وقد أمرنا الله عز وجل أن نرد إليهما كل ما تنازعنا فيه وجعل ذلك من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر وأخبر أن ذلك خير وأحسن تأويلا.

وإنا لنربأ بالدكتور وأمثاله من رجالات الفكر أن ينخدعوا بهذا الهراء الصوفى وأن يجاروا العامة فى التأثر بهذه المخاريق والشعوذات التى تسمى باطلا كرامات، فما كانت الكرامة حرفة يحترفها نفر مخصوص من الناس ولكنها نوع من المعونة التى يكرم الله بها بعض عباده ممن يحسنون الاتباع

والموافقة لأحكام الشريعة ، ويتقربون إلى الله عز وجل بما شرعه لهم من أنواع الطاعات ويقفون عندما حده لهم بلا مغالاة ولا تقصير أما الذين يشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله ويعبدونه بالهوى والبدعة ، ويشاقون رسوله صلى الله عليه وسلم ويتبعون غير سبيل المؤمنين فهؤلاء مهما ادعوا محبة الله عز وجل والفناء فيه فلن يكونوا موضعا للتكريم الإلهى الذى لا يناله إلا المؤمنون المتقون .

ويقول الدكتور : « فقد تبين للمثقفين النزهاء واسعى الأفق أن الحلاج شخصية قوية قضت عليها بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية التى تمثل ذلك العصر أكثر مما تمثل روح الإسلام الحقيقية ومبادئه التأسيسية » .

ونحن لا ننكر أن الحلاج شخصية قوية لها قدرة عجيبة على التأثير والاستهواء ولكن القوة شىء غير استقامة القصد وسلامة الاعتقاد والتزام الحدود ؛ فإن القوة لها مظاهر كثيرة قد لا تكون كلها محمودة فهناك قوة فى المكر والدهاء وسعة الحيلة وهناك قوة فى الحكم والسياسة وهناك قوة فى الحق والتزام الجادة والقوة فى أى مظهر من مظاهرها قد تثير الإعجاب ولكنها لا يصح أن تحمل على الافتتان بصاحبها إلى حد التقديس والإجلال .

وقد يكون الحلاج كذلك قد قضت عليه بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية كما يقول الدكتور ولكن من الذى هيأ لتلك الظروف الفرصة لكى تطيح برأس الحلاج ؟ إنه هو وحده المسئول عن المصير الذى لقيه بما أظهر من أقوال وعقائد تنافى المبادىء الأساسية للإسلام كتصريحه بأن الله حل فيه حتى رووا عنه أنه قال :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

وكذلك كان يدعى أنه يسمع نداء الله من داخل نفسه ويعتقد أن هذا النداء وحى يلتزم العمل به ولا يرجع فى شىء من ذلك إلى كتاب ولا سنة إلى غير ذلك من ادعاءاته الكثيرة التى يكفى أحدها لإخراج صاحبه عن الإسلام .

ويقول الدكتور : ومن أولئك الأعلام الذين أعلنوا مناصرتهم للحلاج حجة الإسلام الغزالى وابن خفيف من الأشاعرة وابن عقيل والهروى وعبد القادر الكيلانى من الحنابلة ، وعلى القارى من الحنفية ، ونصير الدين الطوسى وصدر الدين الشيرازى من المتفلسفين ونور الله الششترى من الإمامية وغيرهم ،

وأحب فى هذا المقام أن أذكر أستاذنا الكبير بكلمة قالها أمير المؤمنين على بن أبى

طالب رضى الله عنه وهى : (اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله) فليست مناصرة هؤلاء الأعلام للحلاج فى باطله بمغنية عنه شيئا ما دام قد فعل ما يوجب مؤاخذته دينا وشرعا، وهؤلاء فى مناصرتهم للحلاج لم يتعدوا دائرة الاعتذار عنه بأنه قال ما قال وهو فى حال غيبوبة وسكر، ولكن لا أظن أن أحداً منهم يستطيع أن ينكر أن ظاهر قوله كفر إن قيل فى حال الوعى والإدراك ، والذى يذكره التاريخ أن الحلاج كان يلهج بهذه الكلمات ويبشر بمذهبه فى الحلول فى حالة من الصحو التام ، مما جعل أعلام الصوفية كالجنيد وغيره ، يقاطعونه وينكرون أحواله ، على أن كثيراً من هؤلاء الذين يذكر الدكتور أنهم ناصروه هم أيضاً متهمون فى بعض ما قالوه . ومن شاء دليلا فليقرأ ميزان العمل أو المضنون به على غير أهله للغزالى وليقرأ منازل السائرين للهروى ، وليقرأ بعض مؤلفات الطوسى ليعلم أن تأييد هؤلاء للحلاج ليس فى نظر المتدين البصير حجة على صحة ما يقوله الحلاج مهما اجتهدوا فى تخريجه وتأويله ، ويقول الدكتور: إن المصرع الوحيد لكارثته هو أنه باح بالسر الربانى ، الذى احتفظ غيره من الصوفية بكتمانه فعاقبه الله على ذلك بأن سلط عليه أشرار خلقه فرموه بما هو منه براء .

فأى سر هذا الذى باح به الحلاج فأحل سفك دمه ؟ لعل هذا السر هو ما كان يخفيه فى نفسه من اعتقاد الحلول والاتصال وسماعه نجوى المحبوب ، فلما باح بهذا الكفر وأظهره على لسانه فى مثل قوله :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا ـ وقوله أنا الله ـ ومافى الجبة إلا الله وغير ذلك كان هذا هو سر نكبته إذ لم يسع الدولة المسلمة بما فيها من حكام وقضاة وفقهاء ومفتين أن تسكت على هذا الهراء .

فكيف يصح أن يقال : إنهم رموه بما هو منه براء .

ويقول الدكتور فى سبب قطيعة الصوفية للحلاج : « إنه لم يرفض التصوف السلبى والخمول المجدب الذى يقوم على أداء العبادات على أكمل وجه دون رجوع إلى تأمل النفس واعتبار لانفعالاتها وما تحس به من فيض فأخذ هو يدعى أنه يسمع أحاديث باطنية يعتقد أنها آتية من جهة الله كما أنه أيضاً لم يرفض طريقة المحدثين الذين كانوا يرجعون جميع الطقوس الدينية إلى ظواهر المأثورات النبوية » .

وأظن أن هذا الكلام يكفى كل منصف ليتهم الحلاج بالمروق فإنه لم يكن فى منهجه وآرائه موضع رضى لا من أهل الحديث المتمسكين بظواهر النصوص، ولا من إخوانه

فى التصوف كالجنيد والمكى وغيرهما فكيف يمكن تبرئته مما نسب إليه وقد شهد عليه شاهد من أهله ؟ لا سيما وأن الذين قاطعوه كانوا من أعلام المتصوفة الذين تعتبر أقوالهم ميزانا للتصوف الصحيح .

ويقول الدكتور كذلك : « إنه بعد ما أدى فريضة الحج للمرة الثالثة عاد إلى بغداد وغير تيار حياته العملية وبدأ سلسلة من المواعظ العامة أعلن فيها مذهبه النهائى، وأنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام » .

ولا بد أن نقف عند قوله أنه كان يؤيد مذهبه بالخوارق التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل، فهل معنى هذا أن الدكتور يلحق الحلاج بأصحاب الرسالات ؟ إننا لا نحب أن نتهم الدكتور فى عقيدته ولكن كلامه هذا يبلبل الأفكار إلى حد كبير — إننا لا نعرف فى الإسلام صاحب مذهب كان يؤيد مذهبه بالخوارق، فإن الخوارق ما جعلها الله عز وجل إلا لتصديق رسله فيما يبلغون عنه، وأما أصحاب المذاهب فهم كسائر الناس يخطئون ويصيبون ولو صح أن الله أيد مذهب الحلاج بالخوارق لما وسع أحداً من الناس مخالفته ، ولوجب أن يكون كل أحد حلاجيا . إن الخوارق التى تتحدث عنها يا سيدى الدكتور قد قيل فيها الكثير من أهل عصر الحلاج وثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه كان يزيف الكرامات ويصطنع الحيل التى يخدع بها العامة والبسطاء وربما جازت على بعض الأذكياء لغرابتها .

كما روى أنه حرك يده ذات مرة فانتثر منها طيب، وحركها مرة أخرى فانتثرت منها دراهم فقال له بعض الأذكياء من الحاضرين ممن لم يخدعوا بترهاته إن أتيت بدراهم عليها اسمك واسم أبيك آمنت بكرامتك ، فقال له كيف هذا وهذا لا يصنع ؟ فقال له الرجل إن من أحضر ما ليس بحاضر لا يعجز أن يصنع ما ليس بمصنوع ! .

هذا وفى المقال كثير مما كنا لا نحب للدكتور أن يتورط فيه ولكنى سأقتصر على هذا القدر هذه المرة راجياً أن يكون منبها لكل من يكتب فى مثل هذه الموضوعات الشائكة الحساسة أن لا يخط حرفا قبل أن يقدر بنفسه ما يقول ...

والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

غصن يانع :

تكثر فى كلام الناس هذه العبارة . وقد سبق بتخطئتها اليازجى ؛ فهو يقول فى لغة الجرائد ١٠ : « ويقولون : غصن يانع أى نضير أو رطب ، وكذا زهرة يانعة وروض يانع . ولا يأتى ينع بهذا المعنى ، إنما يقال ثمر يانع وينيع أى ناضج ، وقد ينع الثمر وأينع إذا أدرك وحان قطافه ، واليانع أيضا الأحمر من كل شىء وثمر يانع : إذا لون . ومن الغريب أن هذا الوهم ورد فى كلام أناس من المتقدمين . وممن وهم فيه الحريرى صاحب درة الغواص ، قال فى المقامة النصيبية وكان يوما حامى الوديقة ، يانع الحديقة ؛ وفسر الشريشى يانع الحديقة بقوله : ناعم الروضة . وجاء للشريشى أيضا فى خطبة شرحه . ولم يزل فى كل عصر من حملته بدر طالع ، وزهر غصن يانع . ومن كلام القاضى شهاب الدين بن فضل الله : حتى تدفق نهره ، وأينع زهره ، رواه صاحب فوات الوفيات وقال الصفدى :

يامن حواه اللحد غصنا يانعا
وكذا كسوف البدر وهو تمام

وهو كثير فى كلامهم . ووقوع مثل هذا من أمثال هؤلاء الأئمة فى منتهى الغرابة ».

وقد يصحح ما خطـأه اليازجى ما جاء فى اللسان : « امرأة يانعة الوجنتين » فهذا معناه : نضارة الوجنتين لا نضجهما .

ورد على اليازجى كاتب فاضل فى مجلة المشرق سنة ١٩٠٦ فأورد شواهد تشهد للعبارة المنقودة . منها ما جاء فى اللسان (صخا) من قول الشاعر :

طربت وهاجتك الحمام السواجع
تميل بها صخوا غصون يوانع

وهذا البيت أورده ابن برى شاهدا على أن الصخو لغة فى الصخا . وابن برى لغوى ثقة لا يستشهد إلا بالصحيح من القول ، وله الحواشى الجليلة على الصحاح للجوهرى وكانت وفاته سنة ٥٨٢ هـ .

عدو لدود:

وهذه العبارة أنكرها أيضا اليازجي ، فهو يقول في لغة الجرائد ٢٨ : « ويقولون : عدو لدود ، وهو ألد أعداء فلان ، يريدون باللدود : الشديد العداوة ؛ وهو خلاف المعروف في استعمال العرب ؛ لأن اللدود عندهم : الذي يغلب في الخصومة ، يقال : لده يلده فهو لاد له ، وهو رجل لدود . ويقال : خصم ألد إذا كان شديد الخصام لا يذعن للحجة ومأخذه من اللديد ، وهو صفحة العنق ؛ لأن الخاصم ينصب لديديه عند الخصام » .

وقد تعقبه الأمير شكيب أرسلان في مجلة المشرق فقال : « يظهر أن اللدد من الصفات التي قد يتصف بها العدو ، ويتبعه الحنق والحقد وما أشبه ذلك . قال الشاعر - وهو ربيعة بن مقروم الضبي - :

وألد ذي حنق على كأنما
تغلي عداوة صدره في مرجل

فإذا كان يقال : ألد ذو حنق فكيف يمتنع أن يقال : عدو ألد ! » .

النجمة :

اشتهر استعمال النجمة في غير النيرين — الشمس والقمر من الكواكب . والصواب النجم ، وجمعه الأنجم والنجوم . فأما النجمة فواحدة النجم مقابل الشجر ، وهو ما لا ساق له من النبات . وقد حمل عليه قوله تعالى : والنجم والشجر يسجدان ، في أظهر الأقوال . وقد تقال النجمة للنبتة الصغيرة ، وهو من المعنى السابق .

الساقية :

الساقية في اللغة : نهير صغير ، كما في القاموس واللسان . وفي المصباح : « ويقال للقناة الصغيرة ساقية ؛ لأنها تسقي الأرض » . ويقول أبو الطيب المتنبي في مدحه لكافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

وفي سجعات الأساس : « من لقي جالينوس استجهل الرواقي ، ومن قصد البحر استقل السواقي » .

واشتهرت الساقية في عرف الناس في أداة يرفع بها الماء يديرها الحيوان لسقي الأرض . ويقال لها في العربية الناعورة والدولاب . وفي الناعورة يقول الشاعر[1] :

وناعورة قد ضاعفت بنواحها
نواحي وأجرت مقلتي دموعها

وقد ضعفت مما تئن فقد غدت
من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

---

(١) انظر مطالع البدور ١/ ٤٢ .

وفى الدولاب[١] يقول مجير الدين بن تميم :

تأمل تر الدولاب والنهر إذ جرى
ودمعهما بين الرياض غزير
كأن النسيم الرطب قد ضاع منهما
فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

وفى هذا الكتاب ١/٤٠ عن صاحب بدائع البدائه : « مررنا فى بعض العشايا على بعض البساتين المجاورة لبحر النيل ، فرأينا بئرا عليها دولابان متحاذيان قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ، ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأمانى بالمفاليس » .

واستعمال الساقية فى معناها المعروف قريب فى العربية ؛ لأن الناعورة سبب فى سقى الأرض ، فمن القريب إسناد السقى إليها على حد المجاز ، كما أسند إلى القناة فى الاستعمال القديم ، أو ذلك لأن الناعورة تصب فى القناة التى هى الساقية ، فكانت بسبب منها ، فخلع على الأداة اسم الساقية لهذه العلاقة والمناسبة . وجاء فى تاج العروس بعد عبارة القاموس التى سبق التنويه بها : « والآن يطلقونها على ما يستقى عليها بالسوانى » : والسوانى جمع السانية ، وهو البعير ونحوه يسنى عليه أى يستقى من البئر ونحوها .

وقد جاءت الساقية فى معناها المعروف اليوم فى نفح الطيب ١٦٦/٧ (بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين) فى قصة قوم كانوا فى سجن بعض الأمراء « فرأى أبو جمعة بن على التلائسى الجرائحى منهم كأنه قائم على ساقية دائرة ، وجميع قواديسها يصب فى نقير فى وسطها » . وجاء فى حسن المحاضرة ٢٢٩/٢ فى الكلام على بركة الحبش : « وفى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة أمر الناصر بن قلاوون بحفر خليج من النيل (عند) حائط الرصد ببركة الحبش ، وحفر عشر آبار كل بئر أربعون ذراعا يركب عليها السواقى ليجرى الماء منها إلى القناطر التى تحمل الماء إلى القلعة » .

وجاء فى عبارة نفح الطيب وعبارة صاحب بدائع البدائه ذكر القواديس - وهى جمع القادوس - لأوعية الساقية اللاتى تغترف الماء من البئر فترتفع إلى الحوض أو القناة . وهذا مما حرفته العامة عن سننه ، وصوابها الأقداس جمع القدس ، بالتحريك . وهذا الانحراف قديم نبه عليه الزبيدى الأندلسى فى كتابه « ما تلحن فيه العامة » . فقد جاء فيه - على ما نقله عنه الصفدى فى كتابه « تصحيح التصحيف » - : « ويقولون لبعض الآنية : قادوس ، ويجمعونه على قواديس ، والصواب قدس والجمع أقداس . وقال أبو إسحاق الزجاج : إنما سمى السطل قدسا لأنه يتطهر به ويتوضأ منه والقدس : الطهر » وكانت وفاة الزبيدى سنة ٣٧٩ هـ

---

(١) مطالع البدور ٤١/١ .

العفشة ، العفاشة ، العفش :

تطلق العفشة فى لسان العامة على ما فى كرش الحيوان من أمعاء وكبد وطحال وما إلى ذلك : يقول القائل : اشتريت عفشة الخروف ، وقد بدالى أن أصل العفشة العفج وهو المعى والمصير ، وجمعه الأعفاج ، وقد قلبت الجيم فى العفج شيناً ، ومن العرب من يقرب الجيم من الشين ، ويعبر سيبويه عن هذا الحرف بالجيم القريبة من الشين ، وهو نطق أعراب اليوم ، فليس بعيداً من العامة إبدال الجيم شيناً ، والجيم والشين متقاربان فى المخرج ، كما هو معروف ، وقد قيل فى الشماعة للشجب يعلق عليه الثياب : إن أصلها الجماعة ؛ لأنها تجمع ما يعلق عليها ، وقد زيدت التاء فى العفش لتأنيث اللفظ ، وأطلقت العفشة على الأمعاء وما يحل معها فى بطن الحيوان .

وعندى أنه جاء من العفشة بمعناها السابق العفاشة للقذارة والدنس ؛ إذ كانت الأمعاء مما يستقذر ويتقزز منه ، لما فيها من الروث وجاء من هذا رجل عفش للقذر والخبيث .

على أنه جاء فى اللغة العفش للجمع ، يقال : عفش الشىء : جمعه ، ويقال من هذا قوم عفاشة ـ بضم العين ـ لا خير فيهم ، كأنهم جمعوا من هنا وهناك ليس لهم أصل يجمعهم فهم أخلاط ، كما يقال فى العامية : لمامة . فقد يقال : إن العفاشة ـ بضم العين ـ أخذ منها الحقارة والهوان ، وما يتبع ذلك من القذارة ، فجاءت العفاشة ـ بفتح العين ـ وجاء من هذا رجل عفش . ولكن التخريج الأول أسوغ وأظهر .

وهناك فى العامية العفش لمتاع البيت وأثاثه وما يدخل فى هذا المعنى ، وهذا أصله الحفش ويجمع على الأحفاش ، وجاء فى القاموس أن أحفاش البيت قماشه ورزال متاعه . والقماش : ما على وجه الأرض من فتات الأشياء ، والعين والحاء يتبادلان ، يقال : بعثر المتاع وبحثره ، وضبعت الخيل وضبحت ونزل بحراه وعراه أى قريباً منه .

تعال عاد :

تجرى هذه العبارة وأمثالها فى بعض قرى الصعيد ، يأتون بكلمة (عاد) صلة فى الكلام وكأنما يريدون : تعال إذن . ويقولون : فى طلب الاكتفاء بأمر : بزيادة عاد ، أى حسبك أو نحو هذا .

وقد كنت بحثت عن أصل هذه الصلة فلم أهتد لها إلى تخريج ولا أولية ، حتى وقفت على أن (عاد) كانت فى لسان أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، فوقر فى نفسى أنها انتقلت من الأندلس إلى بلاد المغرب ،

ثم انتقلت إلى الصعيد مع المغاربة الذين كانوا يهاجرون إلى مصر ، وقد كان أكثر ما ينزلون بلاد الصعيد لمصاقبتها لبلادهم ، ولا يزال كثير من أسر الصعيد يرجعون إلى أصل مغربى .

وقد أنبأنا بشأن (عاد) عند الأندلسيين الزبيدى فى كتابه « ما تلحن فيه العامة » فقد جاء فيه : « ويقولون : لم أفعل هذا عاد ، بمعنى حتى الآن . والصواب : لم أفعل هذا بعد . وأما عاد فاسم الأمة . وعاد أيضا جمع عادة ، ولا وجه له هنا » .

وقد بدا لى أن (عاد) فى قول أهل الأندلس : لم أفعل هذا عاد ، أصلها بعد ، فحركوا العين بالفتح ، وهذا كثير عند بعض الناطقين ، ثم مدوا العين فقالوا : بعاد ، وقد نقل عن أهل الأندلس أنهم يقولون فى العنب : العناب ، ثم حذفوا الباء لكثرة الاستعمال فصار عاد . وقد قيل فى قول العامة : حيعمل كذا : إن أصله : رايح يعمل كذا ، وما هنا أقرب من اختصار (رايح) إلى حاء واحدة .

وإذا كانت هذه الصلة (عاد) فى أصل وضعها تأتى مع النفى كما هو ظاهر كلام الزبيدى فقد كثر فيها التصرف حتى صارت تستعمل مع غير النفى ، كما فى قول أهل الصعيد : تعال عاد .

وقد يسبق إلى الذهن أن (عاد) هنا فعل من العود ، فقوله : لم أفعل هذا عاد أى عاد الحديث إلى تأكيد هذا الخبر ، وكأنه أمارة الإصرار على الخبر أو الطلب ، ولكن الأقرب ما ذكرت أولا .

خذه بعبله :

يقولون : جاء بعبله أى غير معنى بهندامه وبزته ، ولا متنوق . ويقولون : خذ هذا الشىء بعبله ، أى كما هو ، على علاته . والعبل - كما فى القاموس - : « كل ورق مفتول غير منبسط ؛ كورق الطرف ، وثمر الأرطى أو هدبه إذا غلظ وصلح أن يدبغ به أو الورق الدقيق » وحاصله : أن العبل الورق . ويبدو لى أن مأخذ العبارة المشهورة أن الشجر أو الزرع إذا بقى بورقه ولم يشريف كان أدنى إلى التشعث ، وقد يفسد الزرع حينئذ فيدخله الدخل والمعاب . وفى القاموس : « شريفه : قطع شريافه » . وفيه : « والشرياف - كجريال - : ورق الزرع إذا طال وكثر حتى يخاف فساده فيقطع » . فإذا قطع ورق الزرع أو الشجر كان ذلك آية تهذيبه وتجويده . وإذا لم يقطع كان آية إهماله ورثاثته ، فمن هذا قيل : جاء بعبله . وقد يكون العبل محرفا عن العبالة بتشديد اللام وتخفيفها - وهى الثقل والكلفة . يقال : ألقى عليه عبالته . فمعنى خذه بعبله أى مكلفته وثقله وعيبه .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية
وعضو المجمع اللغوى

دراسات لأسلوب القرآن الكريم

للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة

— ١ —

المستثنى التام الموجب يجب نصبه وقد قرئ في الشواذ برفع المستثنى في قوله تعالى :

« ثم توليتم إلا قليلا منكم » . شواذ ابن خالويه ٧ البحر المحيط ٢٨٧/١ .

« فشربوا منه إلا قليلا منهم » . ابن خالويه - ١٥ - شواهد التوضيح ، والتصحيح لابن مالك ٤٣ البحر المحيط ٢٦٦٢

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس » ابن خالويه ٤ .

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس » . البحر المحيط ١٩٢/٥ .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا » . البحر المحيط ٢٧١/٥ .

وكذلك جاء رفع المستثنى التام الموجب في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله :

(كل أمتي معافى إلا المجاهرون) رواه البخاري .

(أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم) رواه البخاري .

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا امرأة أو مسافر أو عبد أو مريض - رواه الدارقطني) .

(الناس كلهم هالكون إلا العالمون ، والعالمون كلهم هالكون إلا العاملون ، والعاملون كلهم هالكون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم) . شرح الرضي للكافية ١ / ٢٢٧ فماذا صنع النحويون في هذا المسموع .

جمهور النحويين لا يجيز إبدال المستثنى من المستثنى منه في الموجب وإنما يجيز ذلك في المنفي وقد عرض سيبويه في كتابه ٣٦٩/١ لتعليل هذا الحكم قائلا: إن الإبدال إنما يجوز إذا صلح البدل لأن يحل محل المبدل منه وهذا إنما يصلح في النفي لا في الإثبات .

وكان اعتماد النحويين بعد سيبويه على ما ذكره في كتابه فالمبرد في كتابيه المقتضب والكامل يذكر هذا الحكم وعلته وكمال الدين الأنباري يفعل ذلك في كتابه أسرار العربية ٢٠٦ وغيرهما من المتأخرين

والزمخشري يؤول الفعل المثبت بفعل منفي في قوله تعالى : « فشربوا منه إلا قليلا » في قراءة من رفع قال أي لم يطيعوه هكذا

لجأ إلى التأويل ، وقد أجاز الإبدال في الاستثناء التام المثبت في غير الآيات المذكورة .

أجاز في قوله تعالى : « إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني » . أن يكون الذي بدلا من المجرور بمن .

وأبو البقاء العكبري في إعراب القرآن يمنع الإبدال في الآية « ثم توليتم إلا قليل منكم » بالرفع وجعل المرفوع فاعلا لفعل محذوف تقديره امتنع أو مبتدأ والخبر محذوف أو توكيدا للضمير المرفوع ، ويقول سيبويه يسميه نعتا .

إعراب القرآن للعكبري ١/٢٧ .

صحيح أن سيبويه يسمى التوكيد صفة كما ذكر ذلك في كتابه ١/١٤٠ ، ولكن من أي أقسام التوكيد يكون ذلك ، على أن العكبري قد أجاز البدلية في آيات أخرى .

قال في قوله تعالى : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » . ولو قرئ بالجر على البدل لكان مستقيما . العكبري ١-١١٩ .

وكذلك قال في قوله تعالى : « وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع » . العكبري ٢ - ٣٩ .

أما ابن مالك فقد عقد في كتابه شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح بابا لرفع المستثنى التام الموجب ٤١ . ذكر فيه بعض أحاديث البخاري ، وخرج المرفوع على أنه مبتدأ ثم قال :

ولا يعرف أكثر المتأخرين من البصريين في هذا النوع إلا النصب وقد أغفلوا وروده مرفوعا بالابتداء ثابت الخبر ومحذوفه .

والرضى يخرج الحديث الرابع على أن إلا صفة .

ويخرج قراءة الرفع في الآية : « فشربوا منه إلا قليل » .

على تأويل الفعل المثبت بفعل منفي كما صنع الزمخشري .

وأبو حيان خرج الرفع في الآية على أن إلا صفة ورد على من أول الفعل المثبت بفعل منفي كما رد إعراب ابن مالك له مبتدأ بقوله وهذه أعاريب من لم يمعن في النحو .

ينظر البحر المحيط ١ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢/٢٦٦-٢٦٧ .

وقد خرج أبو حيان في البحر الرفع بعد لولا التحضيضية في الآيتين السابقتين على البدلية لأن التحضيض يتضمن النفي وهو مذهب للفراء ينظر معاني القرآن للفراء ١ - ١٦٧ .

وقد جمع كل هذه التخريجات ابن هشام في المغني ٢/٧١-١٨٩ .

ونقل السيوطى فى اللمع ٢ / ٢٢٥ أن الإتباع فى الاستثناء التام الموجب لغة ، وألف ابن عمار المالكى رسالة سماها التاج المذهب فى رفع المستثنى من الموجب :

— ٢ —

عقد سيبويه فى كتابه /٣٧٠ بابا عنونه بقوله :

هذا باب ما يكون فيه إلا وما بعدها وصفاً .

ذكر فيه أمثلة وشواهد يصح فى بعضها الاستثناء ولا يصح الاستثناء فى بعض آخر .

وفيها التام المثبت والتام المنفى غاية الأمر أن الموصوف فى كل هذه الأمثلة والشواهد نكرة .

والمبرد فى المقتضب ٤٧٦ صرح بأنه ينعت بإلا ما ينعت بغير وذلك النكرة والمعرفة التى بالألف واللام على غير معهود .

وابن الحاجب شرط للوصف بإلا تعذر الاستثناء ثم قال وهذا مذهب المحققين . شرح الكافية لابن الحاجب ٤٧ وابن يعيش فى فى شرح المفصل ٢ / ٨٩ — ٩٠ — شرط للوصف بالاصلاحية الكلام للاستثناء . وأن يكون الموصوف نكرة أو معرفا بأل الجنسية .

وينقل أبو حيان أن الوصف بإلا يخالف سائر الأوصاف فيوصف بها النكرة والمعرفة والمضمر وغيره البحر ٢ / ٢٦٧ وكذلك ينقل السيوطى فى السمع ٢٢٩/١

وفى البرهان للزركشى ٢٣٩/٤ أن الوصف بإلا يكون فى الاستثناء المتصل وفى الاستثناء المنقطع ومثل له بآية من القرآن وهذه هى الآيات التى أجاز النحويون فيها الوصف بإلا

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ،

« والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » .

« وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع » .

« الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » .

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم »

— ٣ —

يترجح إتباع المستثنى للمستثنى منه فى الاستثناء التام المنفى المتصل عند النحويين وكذلك وقع فى القرآن .

وقد وقرأ ابن عامر من السبعة قوله تعالى « ما فعلوه إلا قليلا منهم » بنصب قليل .

وقد قرأ خمسة من السبعة قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك » .

بنصب التاء فى قوله إلا امرأتك وقد خرج هذه القراءة بعض النحويين على أن الاستثناء من قوله فأسر بأهلك حتى لا يجتمع أكثر السبعة على الوجه المرجوح .

وفى كتاب سيبويه ١ / ٣٦٣ حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق

بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلا زيدا وما أتانى أحد إلا زيدا .

وفى آيات كثيرة أجاز المعربون أن يكون المستثنى منصوبا على الاستثناء أو تابعا للستثنى منه وذلك فى المستثنى الذى لا تظهر عليه حركة الإعراب كقوله تعالى :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه» العكبرى ١/٣٦ البحر ١/٣٩٤ .

« ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة » البحر ٧/٣٥٣ .

« ليس لهم طعام إلا من ضريع » العكبرى ٢/١٥٣ البحر ٨/٤٦٢ .

فى كلمة التوحيد لا إله إلا الله :

يرى الرضى أن النصب على الاستثناء فيها أضعف منه فى نحو لا أحد فيها إلا زيد ، لأن العامل وهو خبر لا محذوف وكذلك يرى أبو حيان .

وفى كليات أبى البقاء لم يأت فى القرآن فيها غير الرفع .

جاء تكرير حرف الجر مع المستثنى عند الإبدال فى قوله تعالى :

« ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء »

الاستفهام كالنفى فى الاستثناء التام المنفى وقد جاء فى القرآن فى آيات كثيرة كقوله تعالى .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه » .

« ومن يغفر الذنوب الا الله » .

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »

« فماذا بعد الحق إلا الضلال » .

« كيف يكون للشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم » .

كما جاء بعد النهى فى آيات كثيرة

النساء - ٢٩ - ٩٠ - هود - ٨١ العنكبوت - ٤٦ .

جاء الاستثناء التام المنفى فى القرآن بعد هذه الأدوات من أدوات النفى

لا النافية للجنس وغير النافية للجنس

ما — لن — لم — ليس

تميم تجيز فى الاستثناء التام المنفى المنقطع الإتباع وقد جاء ذلك فى الشعر وفى بعض القراءات فى قوله تعالى

« وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

قرأ ابن وثاب ابتغاء بالرفع على البدل من موضع نعمة وهى لغة تميم، البحر المحيط ٨/٤٨٤ .

لا بد أن يتقدم إلا حكم فى الاستثناء التام فلو وجد فى الكلام جزء الجملة قدر الجزء الآخر المحذوف كما فى كلمة التوحيد وكما فى قوله تعالى « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره » إذا أعرب من مبتدأ فى من كفر أى فعليهم غضب من الله البحر المحيط ٥/٥٤٠ .

محمد عبد الخالق عضيمة

الحواجز التي أقمناها بأيدينا

للأستاذ محمد عبد الله السمان

منذ شهور وردت رسالة من أحد المسلمين بالبلدان البعيدة إلى أحد المسئولين من علماء الدين، يقول فيها: «إنه بعيد عن مسقط رأسه ببضع مئات من الأميال حيث تقتضى مصلحة عمله ذلك، وحاول أن تصحبه زوجه معه فأبى عليها والدها هذه الصحبة، فطلب بعد أن وصل مقر عمله صورة «فوتوغرافية» لها تبقى معه بمثابة تذكار له وتسلية فى غربته وعاصم من الانحراف الشكلى والموضوعى، فأبى الوالد أيضاً بحجة أن الإسلام يحرم ذلك وهو يطلب من المسئولين فتوى بحل الصورة «الفوتوغرافية» لإقناعه.

وكان المنتظر أن ترسل الإجابة فى كلمات معدودة تقضى بأن الإسلام يجيز التصوير الفوتوغرافى وكفى، ولكن الإجابة أرسلت فى أكثر من صفحتين عرض فيها آراء الفقهاء المتأخرين فى التصوير المؤيدين لها والمعارضين، دون أن تتضمن صراحة وبوضوح ما يقنع الوالد المتزمت، ومسكين ذلك السائل الذى لجأ إلى علماء الإسلام فلم يجد ما يشفى غلته، وما شككت لحظة فى أنه حين تصله الإجابة؟ سيصاب بصدمة نفسية وخيبة أمل

ومنذ أسابيع طلب أحد المسلمين من المحكمة الشرعية بالإقليم الشمالى أن تقر طلاق زوجه لأن صورتها نشرت فى بعض الصحف، ونشر بعد ذلك أن المحكمة أقرت الطلاق..

ومنذ أيام قدم إلى القاهرة مفكر إسلامى ومجاهد عظيم فى ميدان الفكرة الإسلامية، وله مؤلفات تدنو إلى المائة ترجم بعضها إلى اللغة العربية، وحين طلبت من سكرتيره الخاص صورة «فوتوغرافية» للعالم الكبير اعتذر بأن الرجل لا يحتفظ بصور لأنه يرى الكراهية فى التصوير الفوتوغرافى، ودهشت فى صمت.. وكفى...

ولا زال فى العواصم الإسلامية جمعيات دينية متطرفة تنادى بأن وجه المرأة وكفيها عورة، وبأن صوتها عورة، وبأن خروجها إلى ميدان العمل منكر يأباه الإسلام، ولو اضطرت إلى لقمة العيش وصون كرامتها وعفتها، وتتهم هذه الجمعيات نشاط المرأة بالمروق الوطنى والتوجيه الاستعمارى ومحاربة الإسلام.

وفى حى الزمالك أرقى أحياء القاهرة شيخ لازال يفتى فى مسجده بأن الصلاة فى «البدلة» مكروهة وأن على الموظف أن يدع فى حقيبته «جلابية» حتى يصلى فيها إذا حانت الصلاة.

وفى العاصمة أيضا جمعية «شرعية» دائبة

فى إنشاء المساجد الشرعية حتى إنها أنشئت فى قرية أكثر من عشرة مساجد شرعية ، والمسجد الشرعى فى نظرها يجب أن يكون بدون مئذنة ومحراب ، وأن يكون منبره ثلاث درجات بدون جدار ، والصلاة لا تجوز إلا فى هذه المساجد الشرعية التى تخيلتها عقلياتها .

وإزاء هذا التزمت البغيض يسوغ لنا أن نتساءل :

لم هذا الإعراض عن الإسلام حتى لم يعد لثقافته كيان فى نفوس المسلمين فضلا عن غير المسلمين ؟ ؟

لم هذا التفريط فى ثقافة الإسلام حتى لم يعد عقيدة تتفاعل فى قلوب الشباب كما تتفاعل الثقافات الأخرى الفنية .. ؟؟ .

لم لم نسمع بأن المجلس الأعلى لرعاية الفنون قد رصد جائزة للبحوث الإسلامية كما رصد الجوائز للبحوث الأدبية والعلمية وما إليها ؟؟

أليست للإسلام ثقافات واضحة المعالم والحدود والأهداف ؟؟ .

والإجابة عن هذا التساؤل أوضح من أن توضح ... ودليل وضوحها هذا التزمت الذى يعانى الإسلام منه الكثير . .

إن لدينا علماء إسلاميين ، ولكن الكثرة منهم إذا اشتغلت بالثقافة الإسلامية فنى حدود الشكليات التى لا تتصل بالثقافة الأصيلة للإسلام ، وإذا لم تشتغل وقفت بالمرصاد لكل رأى جرىء تتهمه إما بالإلحاد ، وإما بصلته بالاستعمار الأجنبى .

كم استنفدت من جهودنا معارك : التوسل ، وليلة النصف من شعبان ، وكرامات الأولياء ، والخلاف فى إسراء الرسول بالجسد أو الروح أو هما معاً ، والصلاة على الرسول بعد الأذان ؟ .

وإزاء هذه الجهود ، من من العلماء المتأخرين - إذا استثنينا القليل المعدود على الأصابع - من جارى المتقدمين فى تصانيفهم الضخمة التى لا زلنا عيالا عليها . . من أمثال الغزالى وابن حزم وابن تيمية ؟ .

ومن من العلماء المتأخرين من خرج عن حدود الفقه والتوحيد والسيرة والتفسير ، إلى الفنون الأخرى . الرياضة والفلك والهندسة والطبيعة والكيمياء والفلسفة ، كما فعل ابن سينا والخوارزمى والقزوينى والبيرونى والكندى والفارابى ؟ ؟ .

إن العقليات الإسلامية القديمة لو كانت تهضم كراهية التصوير « الفوتوغرافى » مثلا ، ولو أنها شغلت بتوافه الأمور ، ولو أنها فهمت أن الدنيا للكفرة ، والآخرة للسلمين ، لحرمت الإنسانية هذا التراث العلمى الضخم الذى تركته . والذى باركه خلفاء المسلمين وأئمتهم ..

فالحضارة بلغت أقصاها باسم الإسلام فى بغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وغرناطة ، والقيروان ، وتلمسان ، وسمرقند والقاهرة ..

والعلوم الإنسانية على اختلافها أسهم فيها بأوفى نصيب علماء مسلمون ..

فالخوارزمى بتكليف من الخليفة المأمون كان أول من وضع علم الجبر . .

وكان الكندى أحد اثنى عشر عبقريا فى العالم .. كما يقول « كار دانو » وقد ألف حوالى ٢٣٠ كتابا عدا رسائله فى المعادن والجواهر . .

وكان جابر بن حيان من ألمع علماء الكيمياء العالميين . .

وكان البيرونى أعظم عقلية فى التاريخ كما يقول « شاو » أحد علماء الغرب .

وكان البنانى أحد عشرين فلكيا مشهورين فى العالم . .

وكانت كتابات ابن الهيثم فى الضوء هى التى أوحت باختراع النظارات كما اعترفت بذلك دائرة المعارف البريطانية .

وكان الدينور صاحب مؤلفات ضخمة فى شتى العلوم ، وله فى القرآن مؤلف فى ثلاثة عشر مجلداً .

وكان ابن سينا صاحب مؤلفات عديدة فى كل شىء ، وكتابه الشفاء فى ثمانية عشر مجلداً فى المنطق والطبيعة والفلسفة والموسيقى . .

وكان الفخر الرازى حجة فى المنطق والفلسفة والهندسة وتفسيره للقرآن من الشهرة بمكان . .

وعلماء العرب المسلمون القدامى قد أسدوا جليل الخدمات إلى هذا العلم ، الذى تتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الإسلامى : كما يقول الدكتور « ماكس ماير هوف » .

وهذه هى العقليات الإسلامية المتحررة التى خدمت الإنسانية باسم الإسلام ، ولكن عقليات متزمتة خلفتها ، تزعم أن الإسلام دين غير متحضر ، لا يعنى إلا بالتوحيد والفقه والتفسير .

إن « سيكار » أحد المبشرين الفرنسيين فى المغرب ألف منذ ربع قرن كتابا ضد الإسلام يتهمه بالجمود وعدم الأخذ بأسباب الرقى والحضارة وحرمانه من المدنية ، ولم يستند فى هجومه إلا على العقليات المتزمتة وفى مقدمتها عقليات الطرق الصوفية ، التى تحاول أن تربط المسلم بالآخرة وتزهده فى الدنيا ، وقد رد عليه فى « المنار » أمير البيان « شكيب أرسلان » . ففند مزاعمه وأباطيله .

العرب المسلمون فتحوا الدنيا فى نصف قرن كما قال نابليون ، لأنهم كانوا يفهمون أن الإسلام يربط المسلم بالأرض قبل أن يربطه بالسماء ، ويربطه بالدنيا قبل أن يربطه بالآخرة ، ونحن فى عهد القنبلة الذرية ، وغزو القمر ، لازلنا باسم الإسلام نناقش الصورة « الفوتوغرافية » أحلال هى أم حرام ، أجائزة هى أم مكروهة ، ثم نشكو تخلف الشعوب والدول الإسلامية عن ركب الحضارة والمدنية . . ونشكو تخلف الثقافة الإسلامية عن ركب الثقافات الأخرى المتحفزة ، ونتجاهل أننا نحن الذين نقيم حاجزاً بأيدينا بين الإسلام والحياة . . !

محمد عبد الله السمان

حكم الاجتهاد في تقدير الشريعة الإسلامية

للأستاذ عباس طه

استرعى انتباهنا ما يكتبه صديقنا الأستاذ محمد محمد المدنى شيخ كلية الشريعة عن وظيفة الكلية التى يرأسها وما تؤديه من أعمال جسام للعالم الإسلامى فى المشرقين وما تميزت به من سمات فاضلة هى خلق مجتمع إسلامى بعيد الأثر فى المبادئ الإسلامية عميق المرامى فى النظريات الدينية محيط بإحكام الروابط فى كل ما ينجم عن مناحى الدين وآفاقه فى العبادات والمعاملات المنبثقة عن رضى الخالق ورضى المخلوق على السواء - وقد حفزنى إلى معالجة هذا الموضوع فى ساعتنا القائمة الراهنة أن نجم ناجم فيها ينادى بضرورة الخروج على أوضاع اعتبرها السلف الإسلامى والمجتمع الدينى جزءاً من الماضى الحبيب . إلى شغاف القلوب غير منفصل عنه ولا سابق عليه - صيحة اصطنعت من بيئات نائية عن المستويات الدينية نحلت نفسها صفة العلم ثم أطلقت صيحتها فى واد غير ذى زرع .

فأكبر رجائنا أن شيخ هذه الساعة وهو الأستاذ الأكبر يعنى بتلك الضجة المصطنعة التى اصطنعها المغرضون وجعلوها داخلة فيما يمارسونه من أعمال ليخرجوا بها على مجتمعنا الإسلامى الحصيف كعلاج يداوون به ناحية من نواحى هذا المجتمع المتعلقة بأحواله الشخصية فى ذات الإنسان .

١ - قال حجة الإسلام الإمام الغزالى :

(ا) فى المنخول « الاجتهاد ركن عظيم فى الشريعة لا ينكره منكر ، وعليه عول الصحابة بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم وتابعهم عليه التابعون إلى زماننا » والغزالى متوفى سنة ٥٠٥ هـ .

(ب) وقال فى المستصفى : « إنا نعتقد أن لله سراً فى رد العباد إلى ظنونهم حتى لا يكونوا مهملين ، متبعين الهوى ، مسترسلين استرسال البهم من غير أن يزمهم لجام التكليف ، فيردهم من جانب إلى جانب » .

٢ - وقال الإمام النووى فى شرح مسلم:

قال تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ؛ فالاعتبار بالاستنباط من آكد الواجبات المطلوبة ؛ لأن النصوص الصريحة لا تفى إلا باليسير من المسائل الحادثة ، وإذا أهمل الاستنباط فات القضاء فى معظم الحوادث والأحكام النازلة أو بعضها .

٣ ـــ وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوى:
أصول الفقه كملت فى العهد النبوى ، والفروع لا تنتهى أبداً ، لذلك شرع الاجتهاد
٤ ـــ وقال ابن برهان :
قد جعل الله المذاهب دولا ، والآراء نوبا ، ولذلك المعنى يحدث فى كل زمان مذهب تصغى إليه الأفئدة ، وتميل نحوه الأنفس .

إذن فما هو حكم الاجتهاد شرعا :

قال الإمام الجلال السيوطى :
١ ـــ الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفاية ، ولا يجوز شرعاً خلو العصر منه ونصوص العلماء من جميع المذاهب متفقة على ذلك .
٢ ـــ فقد نقل المزنى فى مختصره من الإمام الشافعى رضى الله عنه : أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ، ولا يمكن نهى الخلق كلهم عن التقليد ؛ لأن العوام يجوز لهم التقليد بالإجماع ، وإنما نهى الشافعى عن ذلك حتى لا يجمع أهل العصر كلهم على التقليد ؛ لأن فيه تعطيل فرض من فروض الكفايات ، وهو الاجتهاد ، فحث على الاجتهاد ليكون فى كل عصر من يقوم بهذا الفرض .
٣ ـــ وقال الإمام الماوردى فى الجزء السابع من كتابه الحاوى الكبير : فإن قيل : لم نهى الشافعى عن تقليده وتقليد غيره ، وتقليده جائز لمن استفتاه من العامة ؟ قيل : التقليد مختلف باختلاف أحوال الناس بما فيهم من آلة الاجتهاد المؤدى إليه أو عدمه ؛ لأن طلب العلم من فروض الكفاية ولو منع جميع الناس من التقليد ، وكلفوا الاجتهاد ، لتعين فرض العلم على الكافة ، وفى هذا اختلال نظام وفساد فلو كان يجمعهم التقليد لبطل الاجتهاد وسقط فرض العلم ، وفى هذا تعطيل الشريعة وذهاب العلم ، فلذلك وجب الاجتهاد عمن تقع به كفاية ، ليكون الباقون تبعا ومقلدين ، قال تعالى: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . فلم يسقط الاجتهاد عن جميعهم .ولا أمر به كافتهم .
٤ ـــ وقال الرويانى فى كتابه البحر :
إنما نهى الإمام الشافعى عن التقليد ليقتصر طالب العلم فى تعرف وجوه الأحكام ودلائلها ، ثم ينظر فيها لدينه ويحتاط لنفسه .
٥ ـــ وقال الإمام البغوى فى كتابه التهذيب :
العلم فرض عين وفرض كفاية وبعد أن تكلم على فرض العين قال : وفرض الكفاية : هو أن يتعلم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ، ومحل الفتوى والقضاء ، ويخرج من عداد المقلدين فعلى كافة الناس القيام بتعلمه ، غير أنه إذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقين ، فإذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعاً لما فيه من تعطيل أحكام الشرع .

٦ — وقال الإمام ابن سراقة فى كتابه إعجاز القرآن :

لو كان القرآن جميعه جليا محكما لعدم الثواب على الاستنباط ، وسقط حكم الاجتهاد المؤدى إلى شرف المنزلة ، وعظم المروءة ، ولهذا المعنى لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا ، بل أبان بعضها ، وذكر أشياء فى الجملة وكل بيانها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبان النبي صلى الله عليه وسلم منها ، ووكل ما يطرأ منها على العلماء بعده ، وجعلهم ورثته ، والقائمين مقامه فى إرشاد أمته إلى حكم التأويل . ولو كان جميع العلم جليا لا يحتاج إلى بحث واجتهاد ، ولا إلى نظر واستنباط لكان فى ذلك إبطال الشريعة .

٧ — وقال ابن سراقة أيضاً فى أحكام الموطأ :

إن طريق أقسام الفقه وحدوده ودلائله وتفريعه طريق استنباط وذلك يختلف فى الناس على حسب ما أراده الله من تفضيل بعضهم على بعض بقوة الاستنباط وصحة الاجتهاد .

٨ — وقال الإمام الغزالى فى كتابه البسيط :

أما سفر الولد للحج بعد الوجوب فإنه لا يتوقف على إذن الوالدين ؛ لأنه واجب متعين ، وأما سفر طلب العلم فإن كان متعينا لما يحتاج إليه فلا يحتاج إلى إذن ، بل أولى من الحج لأنه على الفور ، وكذلك إذا كان يطلب رتبة المجتهدين حيث شغر البلد عن المجتهد فلا يشترط الإذن كالحج بل أولى لأنه على الفور وإن كان يطلب رتبة الفتوى وفى البلد مفتون ففيه وجهان والظاهر أنه يجوز بغير إذن .

وقال جلال السيوطى تعليقا على هذا : انظر كيف جعل رتبة الاجتهاد فرضا وجعله على الفور مقدما على الحج حيث شغر البلد عن المجتهد .

٩ — وقال ابن القصار فى كتابه المقدمة وهو من أئمة المالكية :

أفتى أصحابنا بأن العلم على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية وتكلم على فرض العين ثم قال : أما فرض الكفاية فهو العلم الذى لا يتعلق بحالة الإنسان فيجب على الأمة أن تكون منهم طائفة يتفقهون فى الدين ليكونوا قدوة المسلمين ؛ حفظا للشرع من الضياع ، والذى يتعين لهذا من الناس من جاد حفظه وحسن إدراكه وطابت سجيته .

١٠ — أما أئمة الحنفية ، والحنابلة فقد نقل ابن الحاجب فى مختصره وابن الساعاتى فى كتابه البديع أنهم قالوا :

لا يجوز خلو العصر من مجتهد لأن الاجتهاد فرض كفاية ، والخلو منه يستلزم اتفاق الأمة على الباطل .

هل يجوز خلو الزمان من مجتهد ؟ :

قال الإمام الجلال السيوطى :

نص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد وأنه لا يجوز خلو العصر منه .

١ — فذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجوز خلو الزمان من مجتهد لقوله صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله). رواه الشيخان وغيرهما . قالوا : لأن الاجتهاد فرض كفاية فيستلزم انتفاؤه اتفاق المسلمين على الباطل ، وذلك محال لعصمة الأمة من اجتماعها على الباطل .

٢ — وقال الإمام الزركشى فى البحر : لم ينفرد بذلك الحنابلة بل جزم به أيضاً جماعة من الشافعية منهم الأستاذ أبو إسحق فقد قال: وتحت قول الفقهاء لا يخلى الله زمانا من قائم لله بالحجة ، سر عظيم وكأن الله تعالى ألهمهم ذلك . ومعناه : أن الله تعالى لو أخلى زمانا من قائم بالحجة لزال التكليف ، إذ التكليف لا يثبت إلا بالحجة الظاهرة ، وإذا زال التكليف بطلت أحكام الشريعة . ومنهم الزبيدى فقد قال فى المسكت : لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة فى كل وقت وعهد وزمان . لأنه لو فقد المجتهدون لم تقم الفرائض كلها ، ولو بطلت الفرائض حلت النقمة بذلك فى الخلق ، كما جاء فى الخبر : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

وقد نقل هذه العبارة الزركشى فى المحيط وقال : إن وجه ذلك أن الخلو من مجتهد يلزم منه اجتماع الأمة على الخطأ وهو ترك الاجتهاد الذى هو فرض كفاية .

٣ — وعلق الجلال السيوطى على عبارة الأستاذ أبى إسحق السابقة فقال : قول الأستاذ أبى إسحق : كأن الله ألهمهم ذلك ، يشعر بأنه لم يقف له على مستند من الحديث مع أن له مستندا : أخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « إن الله أجل على خلقه من أن يخلى الأرض من قائم له بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما باطنا مستوراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً » . وهذا موقوف له حكم الرفع لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأى .

٤ — وقال إمام الحرمين فى البرهان : إذا خلا الزمان من مجتهد صار كزمان الفترة أى فتتعطل أحكام الشريعة ويبطل التكليف .

٥ — ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام — وهما من أئمة المالكية : لا يخلو الزمان من مجتهد إلى زمن انقطاع العلم ، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم وإلا كانت الأمة مجمعة على الخطأ .

٦ — وقال الجلال السيوطى :

أقام الله فى الأعصار ، قائما لله بالحجة من العلماء الأحبار ، وضمن حفظ شريعة نبيه المختار ، بطائفة من أمته موعودين بالنصر والإظهار ، وخص شريعة رسوله محمد

بالاستمرار ، كما خص أمته ببقاء المجتهدين فيها على مرور الأعصار ، ولقد غلب على الناس الجهل ، فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدوه منكراً بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر .

هل يعتبر فى المجتهدين عدد التواتر ؟ :

١ — نقل ابن عرفة عن الفخر الرازى أنه قال فى المحصول :

لو بقى من المجتهدين واحد - والعياذ بالله تعالى - كان قوله حجة .

قال الجلال السيوطى : فاستعاذتهم تدل على بقاء المجتهدين فى عصرهم . والفخر الرازى توفى سنة ٦٠٦ هـ .

٢ — وقال التبريزى فى تنقيح المحصول :

لا يعتبر فى المجمعين عدد التواتر ، فلو انتهوا - والعياذ بالله تعالى - إلى ثلاثة ، كان إجماعهم حجة ؛ ولو لم يبق إلا واحد كان قوله حجة ؛ لأنه كل الأمة ، وإن كان ينبو عنه لفظ الإجماع .

٣ — وقال الزركشى فى البحر .

قال الأستاذ أبو إسحق : يجوز أن لا يبقى فى الدهر إلا مجتهد واحد ، ولو اتفق ذلك فقوله حجة كالإجماع ، ويجوز أن يقال للواحد أمة كما قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » . ونقله الهندى عن الأكثرين ، وبه جزم ابن شريح فى كتاب الودائع فقال : « وحقيقة الإجماع هو القول بالحق ، فإذا حصل القول بالحق من واحد فهو إجماع » .

كم يلزم لكل قطر من المجتهدين ؟ :

١ — قال إمام الحرمين فى النهاية يقوم الشرع بالمجتهدين ، ويجب أن يكون فى كل قطر من يراجع أحكام الله تعالى ، وقد قال الفقهاء : يجب أن يعتبر فى هذا مسافة القصر ، فإذا سكن مجتهد بقعة استقل به من هو على مسافة القصر منه فى الجوانب .

٢ — وقال الزركشى فى القواعد والبحر :

لا بد أن يكون وجود المجتهد من فروض الكفاية ، ولا بد أن يكون فى كل قطر من يقوم به الكفاية ، ولهذا قالوا : إن الاجتهاد من فروض الكفاية .

وهنا يبدو تساؤل من جانب أهل العلم .

هل الاجتهاد وهو فرض كفائى لا يزال ماثلا إلى عصرنا الذى نعيش فيه ولا تزال رسالته مرفوعة اللواء مبسوطة الرواق قائمة ماثلة ؟ .

يقيننا أن الاجتهاد ليس متحققا بمعناه الذى أفاضت فيه علماء الفروع فى أمهات أسفارهم مما قد نعود إليه فى فرصة سانحة إن شاء الله .

عباس طه

ظاهرة التفخيم بين الفصحى والعامية

للأستاذ الدكتور تمام حسان

يحلو لكثير من الناس أن ينتقصوا من خطر دراسة اللهجات العامية المعاصرة، ويرون الاهتمام بهذه الدراسة ضربا من مزاحمة الفصحى والانصراف عنها، أو نوعا من أنواع الترف العقلي الذي لا طائل تحته، إن لم يكن عبثا لا يقره عرف ولا مصلحة. والحق أن دراسة اللهجات العامية ليست جديدة على علماء العربية، فقد فطن الأقدمون من جلة العلماء إلى أن اللغة العربية الفصحى كانت تتأثر في نطقها ونظامها الصوتي بالعاميات القبلية، وكان من المعروف معرفة لا تحتاج إلى بيان أن العربي بين أهله وأبناء عمومته لم يكن يتكلم تلك اللغة الفصحى الأدبية التي ندرسها الآن في بطون الكتب، وإنما كان يتكلم لهجة خاصة بقبيلته، بينها وبين الفصحى رحم ونسب، ولكن بين هذه وتلك في نفس الوقت وجوه خلاف من الناحية الصوتية النطقية، ومن نواحي الصرف والنحو ومفردات المعجم. حتى إذا ما أراد صاحب هذه العامية القبلية أن ينطق باللغة الفصحى المعهودة فعل ذلك وهو واقع تحت سيطرة عاداته اللغوية في تلك النواحي المذكورة جميعا. ومن هنا جاءت التلتلة والطمطمانية والكشكشة والعنعنة وهلم جرا، كما جاءت الإمالة والتسهيل وغيرهما.

ونستطيع أن نقيس موقف القبائل العربية المختلفة في صبغ نطق الفصحى بصبغة لهجاتها العامية على موقف العرب المعاصرين حين يفعلون ذلك. فنحن إذ نسمع اللغة الفصحى على ألسنة المغاربة وأبناء الإقليم الجنوبي وأهل الشام وأبناء الجزيرة والعراقيين والسودانيين نستطيع بشيء من التأمل أن نرد ألفاظها الفصيحة إلى الإقليم الذي جاء منه من ينطقها. فالجيم الفصيحة في يومنا هذا حرف شمسي على ألسنة العراقيين وبعض أهل الصعيد، وحرف قمري عند غيرهم من العرب. ويمكن تحقيق ذلك بالاستماع إلى إذاعة بغداد، أو إعطاء نص أدبي لأحد أبناء العراق ليقرأه بصوت مسموع، والجيم نفسها تختلف في نطقها على ألسنة العرب في أقاليمهم المختلفة بين التعطيش والإرواء، وتستطيع أن تطلب إلى خليط من أبناء الأقاليم العربية المختلفة أن يتلوا بصوت مسموع قوله تعالى: «ما جعل الله لرجل

من قلبين فى جوفه » ؛ إنهم إذا لم يكونوا قد تمرسوا بأساليب القراء والمجودين فستسمع هذه الآية منهم وقد اختلف نطق جيماتها اختلافا كبيرا : إذ ينطقها القاهرى شديدة مرواة على حسب لهجته ، وينطقها الدمشقى رخوة ظاهرة التعطيش ،كما لو كانت شينا مجرورة ، وينطقها الصعيدى والسودانى مركبة من عنصرى الشدة والرخاوة إذ تبدأ شديدة وتنتهى رخوة معطشة ، وهلم جرا .

ونستطيع أن نستبين مثل هذا الاختلاف فى تفخيم الحروف وترقيقها فى نطق الفصحى بحسب العادات النطقية العامية ، حين يتكلم عدد من أبناء الأقاليم المختلفة بعبارة معينة ، فلو أعطينا عبارة « اتفاقية الهدنة » للمذيعين بإذاعة القاهرة لراعنا اختلافهم فيها تفخيما وترقيقا ، ولوجدنا أن مذيعاً كالسيد نبيل بدر مثلا يفخم الفاء فى هذه العبارة تفخيما واضحا ، على حين يختلف الآخرون فى ترقيقها بين الاعتدال والتطرف ، وإن طريقة نطق نبيل بدر من ناحية التفخيم والترقيق لتذكرنى بنطق أستاذنا السباعى بيومى ، مما يجعلنى أرجح انتسابهما إلى إقليم واحد ، ولهجة واحدة من لهجات مديرية الغربية ، ونستطيع كذلك أن ندرك اختلاف العرب فى نطق الفصحى بالنسبة للكلمات المنتهية بتاء التأنيث إذ يختلفون فى الفتحة التى قبل هذه التاء بين الصراحة والإمالة .

فإذا كان نطق الفصحى فى القديم والحديث عرضة لنفوذ اللهجات العاميسة ، فلا أرى وجها لموقف الذين ينتقصون من خطر دراسة اللهجات العامية ، ذلك بأن دراسة هذه اللهجات دراسة مستفيضة تفتح لنا آفاقا جديدة فى فهم الظواهر المختلفة فى اللغة الفصحى التى هى رباط القومية العربية ، ولغة الكتاب الكريم .

وأود الآن أن أوضح الفرق بين نظام التفخيم فى اللغة الفصحى وبينه فى لهجة عامية معاصرة هى لهجة الكرنك بمديرية قنا ، وهى ليست الكرنك الشهيرة بآثارها بمركز الأقصر وإنما هى قرية أخرى إلى الشمال منها بقرب فرشوط ، وترتبط مع عدد كبير من القرى المحيطة بها برباط الانتساب إلى قبيلة القليعات من قبائل هوارة ، تلك هى القرية التى نشأت فيها ، وأتيت منها ، ولا أزال أنتسب إليها .

والتفخيم أثر صوتى فى النطق ناشىء عن تكييف تجويف الفم بكيفية خاصة باعتباره حجرة رنين ، ويحدث هذا التكييف نتيجة لرفع مؤخر اللسان أثناء النطق حتى يقرب من الجزء اللحمى المتحرك من سقف الفم ، وهو الذى أسميه « الطبق » . ذلك أن سقف الفم مكون من ثلاثة أجزاء هى : اللثة أو مغارز الأسنان فى المقدمة ، والغار أو الجزء العظمى من سقف الفم وهو يوجد فيما يتلو اللثة إلى

الخلف ، ثم الطبق وهو الجزء اللحمى الذى يلى الغار وينتهى باللهاة ، وكل ارتفاع فى مؤخر اللسان المقابل للطبق يسمى «استعلاء» عند علماء التجويد ، ثم إن هذا الاستعلاء إلى الطبق لا يخلو من أن يكون إما نطقا فى مخرج الطبق وإما إطباقا ، فإذا بلغ اللسان فى ارتفاعه الطبق ولصق به فهذا نطق فى مخرج الطبق أى المخرج الذى كان علماء التجويد يسمونه « أدنى الحلق إلى الفم » ، وهو مخرج الغين والخاء ، ثم يقع مخرج القاف خلفهما فى اللهاة ، أما إذا لم يصل ارتفاع مؤخر اللسان إلى حد الالتصاق بالطبق ، وكان مخرج الصوت فى مكان آخر غير الطبق فذلك هو الإطباق وهو صفة الصاد والضاد والطاء والظاء ، ولما كان مفهوم الاستعلاء قاصرا على حالتى الإطباق والنطق فى مخرج الطبق ، كانت الأصوات المستعلية فى اللغة العربية هى الأصوات المطبقة والأصوات الطبقية ، وكل ما عدا ذلك فهو من الأصوات المستفلة لا المستعلية .

يقول ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتاب النشر فى القراءات العشر ص ٢١٥ : « فاعلم أن الحروف المستفلة كلها مرققة لا يجوز تفخيم شىء منها ، إلا اللام من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعا ، أو بعد بعض حروف الإطباق فى بعض الروايات ، وإلا الراء المضمومة أو المفتوحة مطلقا فى أكثر الروايات ، والساكنة فى بعض الأحوال ، كما سيأتى تفصيل ذلك فى بابه إن شاء الله تعالى . والحروف المستعلية كلها مفخمة ، لا يستثنى شىء منها فى حال من الأحوال » .

ويقول عند ذكر حروف الاستعلاء فى ص ٢٠٢ من نفس الجزء : « وهى سبعة يجمعها قولك : قظ خص ضغط ، وهى حروف التفخيم على الصواب . وأعلاها الطاء ، كما أن أسفل المستفلة الياء . وقيل حروف التفخيم هى حروف الإطباق ، ولا شك أنها أقواها تفخيما » .

ويمكن عند النظر فى هاتين العبارتين من عبارات ابن الجزرى أن نستخلص ما يأتى :

١ — أن التفخيم فى اللغة العربية الفصحى مرتبط بحروف معينة ، وفى كل موقع تقع فيه هذه الحروف ، وتلك هى حروف الاستعلاء .

٢ — أن بعض الحروف المستفلة كالراء واللام قد تستعلى فى بعض المواضع فيلحقها التفخيم ، ومفهوم أن الاستعلاء يكون برفع مؤخر اللسان أثناء نطقها .

٣ — أن التفخيم يقع فى درجتين على الأقل : إحداهما أقوى ، وهى درجة تفخيم الحروف المطبقة ، والثانية قوية ، وهى درجة تفخيم الحروف الثلاثة الطبقية .

٤ ــ أن القاعدة العامة فى الحروف المستفلة أن تكون مرققة دائما وفى كل المواضع .

تلك هى الخطوط العامة للتفخيم فى اللغة الفصحى ؛ أما فى اللهجات العامية فالأمر مختلف عن ذلك تمام الاختلاف . ولكل لهجة منها نظامها التفخيمى الخاص . وتلتقى هذه اللهجات جميعا مع الفصحى فى الالتزام بتفخيم الأربعة المطبقة وهى الصاد والضاد والطاء والظاء . أما الطبقية الثلاثة وهى القاف والغين والخاء فإن حكمها فى التفخيم والترقيق يباين حكم الأربعة المطبقة ، فتفخم فى هذه العاميات حينا وترقق حينا آخر ؛ وكذلك بقية الحروف يلحقها التفخيم أو يلحقها الترقيق بحسب الموقع .

لقد قلت إننى سأختار لهجة بعينها لمقارنتها باللغة الفصحى من حيث التفخيم والترقيق ، ووعدت بأن تكون هذه اللهجة هى لهجة الكرنك ، أى لهجتى التى نشأت عليها .

إن الحروف فى هذه اللهجة تنقسم بالنسبة لدراسة التفخيم إلى مجموعات خمس ؛ ولكل مجموعة منها سلوك تفخيمى خاص يختلف عن سلوك بقية المجموعات ، تلك المجموعات هى :

١ ــ ص ـ ض ـ ط ـ ظ ـ وهى المجموعة المطبقة أى التى يرتفع مؤخر اللسان فى نطقها مع أن مخرجها عند مقدم اللسان

٢ ــ ر ، وهى تكرارية مخرجها اللثة

٣ ــ خ ـ غ ـ ك ـ ك ، وهى المجموعة التى تخرج من مخرج الطبق فى هذه اللهجة ، ونطق الآخير وهو القاف منها كنطق الجيم القاهرية .

٤ ــ ب ، م ، و ، ف ثم ح ، ع ، ء ، ه وهى مجموعة المخارج القصوى ، حيث تخرج الأربعة الأولى من مخرج شفوى ، على حين تخرج الأربعة الأخيرة من مخرج حلق أو حنجرى .

٥ ــ ت ، د ، س ، ز ، ل ، ن ، ج ، ش ، ى ، ويضاف إليها الكسرة الصريحة والخفضة التى بين الكسرة والفتحة والتى تشبه صوت الإمالة ؛ وتلك هى مجموعة مقدم اللسان .

ونحن نرى من وصف هذه المجموعات بالإطباق والتكرار والطبقية وهلم جرا أن كل مجموعة منها تربطها رابطة مخرجية خاصة . والمجموعة الأولى مفخمة دائما وفى جميع الأحوال ، ولكن كل حرف من حروف المجموعات الأخرى إنما يلحقه التفخيم أو الترقيق بحسب الموقع . ومن هنا صح أن نعتبر التفخيم فى هذه اللهجة وغيرها من العاميات ظاهرة من الظواهر الموقعية ، مثله فى ذلك مثل همزة الوصل ، تظهر فى موقع من الكلام ، وتختفى فى موقع آخر فلا تنطق .

وإذ نجد الحروف مقسمة هذا التقسيم لا بد أن نتوقع وجود قاعدة تكمن وراء

هذه القسمة ، وهو توقع له ما يبرره ، لأن أى تقسيم دراسى لا بد أن يستند إلى سند من التوافق والتخالف بحيث يكون من الأقسام المتكاملة نظام عام تعبر عنه القاعدة المستنبطة من مفردات الاستقراء . هذه القاعدة هى :

١ — حروف المجموعة الأولى مفخمة فى كل المواقع والأحوال ، وكل ما يسبق حرفا منها فى الكلمة فهو مفخم مثله مهما كانت المجموعة التى ينتمى إليها . فالتفخيم صفة كل حرف من حروف الأفعال الماضية الآتية التى ينتهى كل منها بأحد حروف المجموعة الأولى :

رقص — خبص — خبط — سمط — هبط — عرض — نفض — لفظ — شفط

ثم هو صفة الحرف المطبق وما سبقه فى الأفعال الآتية :

وصف — رطن — قطع — سطل — رطز — حصب — حضن — لطف .

٢ — كل حرف يسبق الراء فهو مفخم مثلها ، إلا إذا سبق بكسرة أو خفضة تشبه الحركة الممالة ، وهما غير مسبوقتين بأحد حروف المجموعة الأولى ، وإلا إذا كانت الراء متلوة بحرف من حروف المجموعة الخامسة . فى هاتين الحالتين ترقق الراء وما قبلها .

مثال ما استوفى شروط التفخيم فى الكلمة بكل حروفها هو الأفعال الآتية :

خمر — قشر — عبر — بتر — نقر — زمر — ندر .

ومثال ما استوفاهما فى الحرفين الأولين :

شرم — برك — فرم — عرك — برق جرح — شرح — شرع .

ومثال ما فقد فيه شرط التفخيم لأن الراء متلوة بحرف من حروف المجموعة الخامسة ، ومن ثم رققت الراء وما قبلها :

غرز — قرش — جرس — شرد — هرس — حرث — فرش .

ومثال ما فقد منه شرط التفخيم لأن الراء مسبوقة بكسرة أو خفضة تشبه الحركة الممالة غير مسبوقتين بحرف من حروف المجموعة الأولى :

سيرة — خميرة — غيرة — سروال — غربال — برباوى . فإذا سبقت الكسرة أو الخفضة بحرف من المجموعة الأولى فخمت الراء نحو : طيرة — صيرة — فطيرة — ضراضر .

٣ — كل ما سبق حرفا من حروف المجموعة الثالثة فهو مفخم إلا :

(١) حين يكون أول الكلمة ووسطها من حروف المجموعة الرابعة أو الخامسة أو كلتيهما .

(ب) حين يكون الوسط حرفا من حروف المجموعة الخامسة .

مثال ما استوفى شروط التفخيم الأفعال الآتية :

رقم — رع — قع — صبغ — فقع — خمع — نكف .

ومثال ما كان أوله ووسطه من المجموعة الرابعة أو الخامسة أو كلتيهما بأى ترتيب :

مسك — دلق — سلق — نهب — تلف — سلب — جلب — شلف — بزق .

ومثال ما كان وسطه من المجموعة الخامسة :

رزع — خلف — غلب — خدم — كسف — كتب — هدم — ردم .

وهذه الكلمات التى لم تستوف الشروط مرققة بجميع حروفها .

٤ — إذا انتهت الكلمة بحرف من حروف المجموعة الخامسة فهى مرققة بجميع حروفها إلا إذا كان هذا الأخير مسبوقا بحرف من حروف المجموعة الأولى إذ يظل حرف المجموعة الأولى مفخما وينسحب التفخيم على ما قبله .

مثال ما لم يكن به حرف من حروف المجموعة الأولى :

غسل — كبس — غزل — حبس — هرش — فرش .

فإذا كان ثمة حرف من المجموعة الأولى بقى مفخما مع ما سبقه كما مضى بيان ذلك تحت قاعدة هذه المجموعة .

من هذا يتضح أن مسلك التفخيم فى اللغة الفصحى غيره فى العامية وأنا أعتقد أن طريقة تقسيم الحروف إلى مجموعات تفخيمية هى طريقة صالحة لأن تتبع فى كل اللهجات العامية فى البلاد العربية . وقد جربتها بنجاح فى دراستى للهجة عدن فى جنوب بلاد العرب وثبت لى أنها صالحة فى دراسة لهجة القاهرة .

وإذا كانت هذه اللهجات مجموعة من العادات النطقية التى تختلف فى إقليم عنها فى الإقليم الآخر ، وكانت هذه العادات من التأصل فى نفوس أصحابها والسيطرة على ألسنتهم ، بحيث تؤثر فى نطقهم اللغة الفصحى ، وقراءة القرآن الكريم ، وإذا كان أسلافنا العرب قد احتفلوا بأثر هذه اللهجات عند قبائل العرب فى كلام أفرادها باللغة الفصحى ، فسجلوا من ظواهرها ما سجلوا ، فلست أرى حجة لمن قام يهجن دراسة اللهجات الحديثة العربية ، فكما كانت دراسة اللهجات القبلية القديمة فى خدمة الفصحى فى القديم ، تكون دراسة اللهجات الحديثة فى خدمة الفصحى المعاصرة ؟ .

دكتور تمام حسان

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

الإسلام والثقافة الإفريقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

من تصانيف العصر النافعة كتب مخصصة لتسجيل مظاهر الثقافة ، يوشك أن تنحصر فى الأرقام والخرائط مع بعض التعليقات التى توضح بالكلام أغراض الرسوم والإحصاءات ، وهى رسوم تمثل النسب المتقابلة فى توزيع اللغات والعقائد والفنون والنظم الاجتماعية ، وتقرن أحيانا بالخرائط الجغرافية أو يكتفى فيها بجداول الإحصاء وعلامات النسب البيانية ، وقلما تشتمل هذه التصانيف على آراء خاصة لمؤلفيها أو على الأصح لجامعيها ومبوبيها ، بل هى تترك للقارئ أن يبحث لنفسه ويراجع ما شاء على حسب قصده ، ويبنى ما يعن له من الآراء على بحوثه ومراجعاته .

والقارة الإفريقية أوفر القارات الخمس حظا من هذه التصانيف ، وبخاصة فى هذه السنة الستين بحساب التقويم الميلادى ، لأنهم أطلقوا عليها اسم « سنة الفصل فى القارة القديمة » لاتخاذها فى كثير من أقطار القارة حدا فاصلا لتوقيت مواعيد الانتقال من نظام الانتداب إلى نظام الحكم الذاتى أو الاستقلال أو الحقوق الدستورية .

ولا يخفى على القارئ من النظرة العاجلة فى هذه الكتب مبلغ الاهتمام بالإسلام ومصيره فى القارة القديمة ، وما يتبين للباحث من عوامل الثبات أو عوامل المزاحمة التى تنازعه الغلبة على مقاليد الثقافة الروحية والفكرية .

وفى هذا المقال نعرض بعض الأمثلة لتلك التسجيلات مقتبسة من مصادر مختلفة أشهرها وأحدثها كتاب « الاستمرار والتغيير فى الثقافات الإفريقية »[1] من مطبوعات جامعة شيكاجو وشركائها فى البلاد الانجليزية » .

وأثر اللغة أول الآثار التى يدركها الإحصاء وتظهر فيها الفوارق بين موضع وموضع ، من البلاد التى تتكلم العربية إلى البلاد التى تتكلم بلهجات متعددة من الألسنة الزنجية ، ففى هذه البلاد تسرى الكلمات العربية بمخارجها الأصيلة أو المحرفة بين قبائل السود حيثما اتصلت بالمسلمين ، ولو لم يدخل أهلها فى الديانة الإسلامية .

---

(1) Continuity and Change in African Cultures.

ويؤخذ من الإحصاءات الأخيرة أن أبناء القارة يتكلمون بنحو سبعمائة لهجة ليس بينها غير أربع صالحات للكتابة بحروف أبجدية ، أولها العربية ثم الأمهرية الحبشية ثم لغة (تماشق) البربرية ثم لغة (فاى) فى ليبيريا ، وهذه إحدى العقبات الكبرى أمام المرسلين المبشرين الذين يفتحون المدارس لتعليم الإفريقيين ، فإنهم يلقون المصاعب الكثيرة لإقناع الإفريقيين بتعلم اللغات الأوربية ويلقون أكثر من هذه المصاعب فى نشر التعليم باللهجات الإفريقية ، ولكن هذه العقبات تتراجع أمام اللغة العربية التى يتكلمها فى القارة نحو سبعين مليونا ولا يتعسر على من يريدون نشرها ويبذلون الجهد فى تعليمها أن يجعلوها لغة الثقافة العامة ، لو أنهم توفروا على تعميم المدارس كما يتوفر المرسلون المبشرون على تعميم مدارس التبشير.

ويفهم من الإحصاءات أيضا أن الإسلام سريع الانتشار ولكن العلم به «سطحى» بين قبائل القارة الأصلاء ، ومن آثاره (الحضارية) حتى فى البلاد التى لا تدين به أن كهانها يتشبهون بشيوخ المسلمين فى أزيائهم وأن القبائل التى تهتم بمحاربة السحر والساحرات من أهل «النيجر» يشتركون مع المسلمين فى استخدام الذرائع التى يحسبونها ناجعة فى إبطال السحر والمكائد السحرية وربما اختلط الأمر فلا يدرى الباحث أى الفريقين يقتدى بالآخر فى استخدام الرقى والتعاويذ .

وقد لوحظ أن الشبان من قبائل (الموسى) Mossi أقرب إلى اقتباس العقائد الإسلامية ، ويعودون إلى أهلهم من بلاد (النيجر) مسلمين متحمسين فى الدعوة إلى عقيدتهم الجديدة ، ثم يقول مؤلفو الكتاب إن هؤلاء الشبان أصغر سنا من أن يسمع لهم بين قومهم ، ولكنهم إذا طال مقامهم بين القبائل الإسلامية وعادوا إلى أهلهم بعد مجاوزة الشباب تفتر حماستهم ويقنعون بما يعتقدونه بينهم وبين أنفسهم ولا يكترثون لإقناع الآخرين بما اكتسبوه من شعائر وأخلاق .

ويرجع فضل العناية بالأبنية وتزيينها بإفريقية الغربية إلى الحضارة الإسلامية التى تأصلت فى الشمال وسرت منه إلى الغرب والجنوب .. « فإن تأثير فن العمارة فى شمال إفريقية ظاهر على أنحاء الصحراء إلى المغرب ، حيث تزدان مساكن الوجهاء بالرسوم الهندسية » ... وقد يرجع كثير من الفضل إلى الاقتداء بالمسلمين فى اتخاذ الملابس حيث لا تستدعيها ضرورات الجو والحاجة ، ويتبع ذلك فضل الاهتمام بصناعات النسيج والحياكة وما إليها .

وتدل البقايا والآثار على قدم صناعة المعادن من الذهب والفضة والشبه فى أقطار

القارة ، ولكن العرب هم الذين توسعوا فى كشف المناجم بعد وصولهم إلى إفريقية الشرقية وتمكنوا من استخراج المقادير الوافرة وتصديرها إلى العالم الإسلامى كله فترة بعد فترة من القرون الوسطى .

ويذكر المؤلفون أثر العرب وأثر الأوربيين والأمريكيين فى حياة الفنون الإفريقية ، فيلاحظون أن سريان الذوق الفنى من قبل العرب لم يهدد كيان الفنون الوطنية بالزوال ولم يطمس معالمها التى تحفظ وجودها وتميزها من الفنون الطارئة عليها ، ولكن القدوة بالأوربيين والأمريكيين أوشكت أن تذهب بالمزايا « المشخصة » للروح الإفريقية وكادت أن تمحو معالمها جميعا لولا انتباه المسؤلين إلى هذا الخطر البالغ من الوجهة « الاثنولوجية » - أى وجهة علم الأجناس - وإسراعهم إلى تدارك البقية الباقية بإنشاء المعاهد والجماعات التى يتعاون فيها الأجانب والوطنيون على حفظ قواعد الفنون ، وإبرازها فى صورتها العصرية ، دون الإخلال بمعانيها التاريخية وسماتها القومية .

والموسيقى إحدى الفنون الجميلة التى انتفعت بدخول المسلمين إلى القاهرة فى كل جانب من جوانبها ، « وقد عرف أثر الموسيقى العربية - كما يقول المؤلفون - وتكرر الاعتراف به كرة بعد كرة ، إلا أنه لم يلق من الدراسة الوافية ما يحيط بجميع نواحيه ، فلا محل للخلاف فى تغلغل هذا الأثر بين أبناء إفريقية الصحراوية ، ولا بين أبناء غانة وشواطئها ، ولا بين أبناء السودان الشرقى وجهات الصومال ولكنه أثر غير واضح ولا مفسر إلى الجنوب من تلك الأقاليم ، وإن يكن ولا شك قويا فى الشاطئ الشمالى والأقاليم الوسطى » .

ويكثر المؤلفون من بيان المصطلحات الفنية وتطبيقها على الأنغام والأصوات ، فى موسيقى القبائل على تفاوت درجاتها من الحضارة والتهذيب ، ولكنهم يذكرون أن (الإيقاع الحار) ، يقل بين القبائل كلما توشجت علاقاتها بالمسلمين . ويعنون بالإيقاع الحار تلك الحركات العنيفة التى يتتابع فيها الدق والقفز ويوشك الرقص الذى يصاحبها أن يكون تخبطاً عارما ، كتخبط المصروع والمخبول ، ويضاف إلى هذا الأثر المهذب الملطف للذوق والشعور أثر مثله فى أصوات الغناء وتعبيرات الألفاظ ، فلا يصعب على السامع تمييز الأغانى التى ينشدها الزنوج المغرقون فى الهمجية من أغانى الزنوج الذين دانوا بالإسلام أو اتصلوا بالمسلمين ولو لم يدخلوا فى الديانة الإسلامية ، فإن الإيقاع « الحار » يندر بين أبناء القبائل التى فارقت همجيتها واقتربت من مواطن العرب المسلمين .

ويشير الكتاب إلى فعل التبشير فى تغيير

الثقافة فيعزو نجاحه حيث نجح إلى تنظيم المدرسة والإشراف على التعليم ، ويقول : « إن جماعات المرسلين ذات شأن فى بلاد النيجر وفى غيرها من البلاد الإفريقية ، ولا يحسب لها هذا الشأن لأنها جاءت إلى أهل البلاد بعقائد جديدة وشعائر مستحدثة وحسب ، بل يقوم شأنها بصفة خاصة على ولايتها لمعظم أعمال التدريس ، ولا يبدو أن هناك شيئاً فريداً فيما صنعه المرسلون ببلاد قبيلة (ألايبو) قياساً إلى سائر القبائل النيجيرية وإن كانت قد بدأت متأخرة بعد ابتدائها فى الجنوب الغربى . أما فى شمال نيجيريا فلم يتسع قط عمل المرسلين لقيام النفوذ الإسلامى هناك ، وإنه لواسع الأثر إلى الجنوب سعته إلى الشرق والغرب الجنوبيين » .

* * *

وتلم الإحصاءات أحيانا بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية التى ترتبط بها رعاية الأنساب والأعراض ، فيفهم منها أنها تغيرت كثيراً أو قليلا على قدر اتصالها بالديانتين الإسلامية والمسيحية ، ولكن هذا التغيير لم ينتزع جذور الخرافات القديمة ولم يبطل إيمان القوم بالسحرة والأرواح وأنواع المحظورات التى قدستها التقاليد من أقدم عصور التاريخ المجهول ، وهى بين جوانب القارة الإفريقية توغل فى القدم إلى ما قبل آلاف السنين ولم تنصرم بعد فى أرجاء منها تكتنفها ظلمات المجهول إلى اليوم ، وربما تسربت هذه الخرافات إلى شعائر الإسلام والمسيحية واعتبرها القوم مجالا منفصلا عن مجال العبادة والإيمان ، فهم يقتدون فيها بسحرتهم وشيوخهم ولا يبتغون فيها الهداية من الشيخ أو القسيس .

* * *

ونحن نختم هذا المقال وبين أيدينا بريد الغرب من الصحف والمجلات التى تفرد بعض أبوابها للمسائل الدينية ، نفتح إحداها على باب الدين فنقرأ فيها عنوان « الغزوة لصيد الأرواح » ويسمى الكاتب هذه الغزوة باسمها فى اللغة السواحلية وهو اسم « السفرة » من السفر باللغة العربية . . ويطلقونه على حملات الصيد التى تخرج إلى الغابات والقفار مزودة بعدتها الكاملة لاصطياد الفيلة والسباع .

أما هذه الغزوة لاصطياد الأرواح

Safari for souls

فقائدها هو الواعظ الإنجيلى المشهور بيلى جراهام وغايتها الطواف بالقارة والنزول بست عشرة مدينة من مدنها المشهورة خلال ستة أسابيع يلتقى فيها بالجموع التى تخف إلى استقباله أو يدفعها حكامها إلى محافله

واجتماعاته ، ويصطحب فى ركابه مترجمين من الوطنيين والأجانب يتكلمون لغات القبائل ويستطيعون أن ينقلوا منها ما يستمعونه من لسانه على أثر إلقائه . وقد بدأ الواعظ غزوته وهو يقول للصحف (إن سنة ١٩٦٠ ربما كانت أهم سنة فى تاريخ هذه القارة ونقلت الصحيفة طرفا من خطابه الأول فكان مثالا جلياً لخطة هذا الواعظ القدير فى سياسة التبشير ، لأنه بدأه باسم السيد المسيح الذى قال عنه إنه ليس بأبيض ولا أسود ، ولكنه حمل إلى القارة الإفريقية وهو طفل صغير للنجاة به من مظالم الملك هيرود ، ثم أنحى على الإنسان « ذى الريالين » يعنى به ظاهرا ذلك الإنسان المادى الذى لا يساوى أكثر من ريالات معدودة إذا قدرت قيمته بثمن لحمه وعظمه فى أسواق الأبدان ، ويعنى به من طرف بعيد أن قيمة الأسود بتقويم الروح أغلى من أثمان أصحاب الريالات ، ومن ثمن الإنسان ذى الريالين !

وستعقب هذه الغزوة غزوات على مثالها كما يظهر من البرنامج المرسوم لسنة الفصل - سنة ١٩٦٠ - فى تقدير الساسة والمرسلين ، وليس لنا أن نلوم غازيا من هؤلاء الغزاة على اجتهاده فى دعوته وتدبيره لنجاح مقصده ، بل ليس لنا أن نلوم أوربيا أو أمريكيا لأنه يحاول أن يعرف عن إفريقية والإفريقيين ما يتعلمه منه الإفريقيون ، ويكسب به من طريق الآخرة ما فاته من طريق الدنيا الحاضرة ... ولكننا نرجو أن نلحق بهم فى هذا المجال ، وأن نحفظ القارة التى تأوينا ذمار الوطن المستقل الآمن على فكره وضميره أن يقاد فى أذيال الواغلين عليه ، ليصطبغ بغير صبغته فى الحياتين ، ويخلص من فتح الديار إلى فتح الضمائر والأفكار ؟ .

عباس محمود العقاد

دمشق

سقى دمشق الشام غيث ممرع ... من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها ... فى سائر الدنيا ولا آفاقها
نسيم ريا روضها متى سرى ... فك أخا الهموم من وثاقها
لا تسأم العيون والأنوف من ... رؤيتها يوما ولا انتشاقها

مختار من الشعر القديم والحديث

الوحدة الخالدة

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أقبل النصر ناشرا أعلامه فشدا البشر مرسلا أنغامه
وبدا النيل فى الضفاف سعيدا حينما نال فى الحياة مرامه
بردى فى ضفافه الخضر أبدى شوقه نحوه ، وأهدى سلامه
وأتته أنسامه عطرات فأطالت عناقه والتزامه
ثم قالت فى رقة وحنان ها هنا .. ها هنا تطيب الإقامة
أنعم الله بالوصال علينا فلقينا بشكرنا إنعامه
سوف نحيا كما تشاء الأمانى لا نرى البعد ، أو نرى أيامه
أنت منى روحى وحبة قلبى وأنا منك روحك المستهامة
وحدة تجمع القلوب ، فينسى كل قلب أشجانه وانقسامه
ووفاء يبقى وتفنى الليالى وإخاء كان الوفاء وسامه

* * *

نحن شعب بنى من المجد صرحا باذخ الركن ، مستقر الدعامه
وسيعلى البناء حتى يراه يعجز النجم أن يقوم مقامه
عربى فى سلمه ، عربى حين يستل للنضال حسامه
لم يهن مرة أمام العوادى ولكم هانت العوادى أمامه
عرف الدين حين كان سواه للضلال البعيد ألقى زمامه
عرف العلم كوكبا بسناه كل أفق يرد عنه ظلامه

عرف العدل فى الحياة رفيقا ورعى عهده ، وصان ذمامه
فهو عند الفخار أبعدُ صوتا من سواه ، وأرفع الناس قامه
هكذا نحن أمة تعمل الخـــير ، وتهدى إلى الصديق سلامه
هكذا نحن أمة تصرع الشر (م) ويلقى العـــدو منها حمامه
من قديم قد وحدتنا الليالى وسنبقى حتى تقوم القيامه

* * *

يا رعى الله من بنى العُرْب فردا عزمه عزم أمة مقدامه
ناصرُ ، الحق بالكفاح ، جمال ، لحياة كانت تفيض جهامه
صارَع الظلم والفساد حصونا فمحا عزمه الحصون المقامه
ورأى الشعب مثقل الخطو من قيـــد يغطى حديدُه أقدامه
فدعا شعبه ، فثار على القيـــد ، وألقى إلى الدمار حطامه
وأقام الحياة عدلا ، فصارت فرحة فى قلوبنا وابتسامه
ودعانا إلى البناء ، وأرسى أصله ثابتا ، وخط نظامه
فبدأنا البناء صرحا جديدا وضمنا بعـــزمنا إتمامه
نحن نبنى لكى نعيش كراما فبناء الأمجاد سر الكرامه
نحن نبنى خيرا إذا راح يبنى غيرنا شره ، ويبنى أثامه
نحن نبنى فليعلم الغرب أنا قد صحونا ، وليطرح أوهامه
ورأينا طـــريقنا ، وعرفنا يوم سرنا على الطـــريق ختامه
ولدينا زعيمنا ، لعــلاه يتظر النجم ، ثم يخفض هامه
يجد الحق نصره فى حماه ويرى الباطل العتى انهزامه
رأيه فى دجى الخطوب منار ولدى مفرق الأمور عــلامه
وإذا أسرعت إلينا العوادى لم تطق رأيه ولا إقدامه
عربى الخلال ، لو رام شيئا فوق هام السها ، لنال مرامه
راجح العقل ، صائب القول يُلقى رأيه فى صراحة واستقامه
واسع العلم بالأمور ، فرفق حين يُغنى ، أو شدة وصرامه
عبقرى الذكاء يأتى إلى المبـــهم يمحو فى لمحـــة إبهامه

يجد الصعب بالإرادة سهلا ويرى الغيب ما ثلا قدامه
ويرى المستحيل عند سواه ممكنا عنده ، ينال اهتمامه
فجر الصخر ، ثم يعليه سدا تتحامى كل الجبال صدامه
يمنع الجدب أن يقيم ، ويدعو موكب الخصب أن يديم الإقامه
يعشق النيل عزمه ، فتراه ثاويا عنده يبث غرامه
فإذا حان للرحيل أوان ودع السد وهو يطوى خيامه
ومضى فى سبيله يتغنى فتغنى ضفافه البسامه
أينما سار ، فالحياة رخاء ونماء وبهجة ووسامه
ذلك السد من أيادى جمال حفظ الله ناصرا وأدامه
وجد الشعب فيه ما يتمنى فارتضاه زعيمه وإمامه
وعلى حبه توحد حتى لم يعد مغرض يثير انقسامه
وبنى دولة أقام بها المجد ، فصارت أيامها أيامه
هى للدين والعروبة حصن كلما أطلق الزمان سهامه
وقفت موقف الحياد قويا يردع الشر أن يميط لثامه
وبدت ماردا يروع الأعادى فتراهم يخشون حتى كلامه
وأقامت من العدالة حكما تتمنى كل الشعوب نظامه
كل فرد فيه يعين أخاه جاعلا نصب عينيه إكرامه
ويراه ما دام يعمل خيرا ، مستحقا تقديره واحترامه
لم يعد حاكم يجور عليه حينما صار أهله حكامه
هذه دولة يباركها الله (م) ويرعى فى ظلها إسلامه
ويعيش المسيح فيها وفيا لبنى ألقى عليه سلامه
قل لمن قد سعى لفك عراها ليس عقبى مسعاك إلا الندامه
ولمن رام أن يروع حماها هل يروع الأسود « بأس » النعامة ؟!
هذه دولة الخلود ، فأبشر أنت بالموت ، جانبتك السلامه

* * *

يا ابنة الشرق ، يا ابنت النور والإشراق ، يا رمز مجده وقوامه

من الأناشيد الدينية :

مُناجاة

للأستاذ علي محمد حسن العماري

يا إلهي . والمناجاةُ رحيق يا إلهي
لك أسلمتُ فبصّرني طريقي يا إلهي
يا ألهي يا كثيرَ الرّحمات كم تجلت
ضلت النفسُ بوادي الصّبوات وتجنّت

حدثي الغرب أننا قد نهضنا فملكنا من كل مجد زمامه
وملأنا الأيام عزا وعدلا وهي كانت ذليلة مستضامه
حدثيه أننا اتحدنا فصرنا دولة المجد والعلا والكرامه
وملكنا من قوة الخير والإصلاح ما يهدم القوى الهدامه
فإذا ما أراد حربا ، فحرب أو سلاماً ، فما نرد سلامه
نحن نبغي الحياة غصنا نضيرا تتغنى على ذراه حمامه

* * *

بارك الله في جمال وشكري فهما قبلة المنى البسامه
أنشآ وحدة ستكبر حتى يصبح الشرق صرحها والدعامه
فاهتفي ياربا الخلود وقولي هكذا المجد والعلا والزعامه

إبراهيم محمد نجا

ثم عاشتْ فى أليم الذكريات ما تهنت

فاعف عنها

وأعنْها

لا تهنها

يا إلهى والمناجاةُ رحيق يا إلهى

لك أسلمت فبصرنى طريق يا إلهى

يا إلهى

فى ظلام الليل فى هذا السكونْ لك شاهدْ

فى النجوم الزُّهر تهدى الحائرينْ فى الرّواعدْ

آية تنطق بالحق المبين أنت واحد

والبدورْ

كالزهورْ

منك نورْ

يا إلهى . والمناجاةُ رحيق يا إلهى

لك أسلمْت فبصّرنى طَريق يا إلهى

الطيور الزغبُ فى العش المنيعْ حالماتْ

والمرُوجُ الخضرْ فى السهّل الوَسِيعْ راقداتْ

ورُؤى الأطفالِ فى المهْد الوَدِيعْ بَاسِماتْ

ودُعاها

فى لغاها

وكفاها

يا إلهى .

يا إلهى . والمناجاةُ رَحِيق يا إلهى

لكَ أسلمتُ فبصرني طريقي يا إلهي
كم لهيف في هدوء الليل ماجا همّ قلبه
وجد الراحة في النجوى فناجى فضلَ ربه
لم يجد في غير نجواك علاجا فبحسبه

فلكَ كربي
أنتَ ربي
لك حبي

يا إلهي

يا إلهي والمناجاةُ رحيقي يا إلهي
لك أسلمت فبصرني طريقي يا إلهي
يا إلهي . يا رفيعَ الدرجات أنتَ نورْ
لك محياي وما بعد المماتْ والمصيرْ
ولكَ الملكُ تجودُ لي بالهباتْ يا قدير

وارض عنا
وأجرنا
حيث كنا

يا إلهي

يا إلهي . والمناجاةُ رحيقي يا إلهي
لكَ أسلمتُ فبصرني طريقي يا إلهي

علي العماري

الكتب

نقد وتعريف

تفسير القرآن

للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

أوشك الجزء الأول من هذا التفسير الكاشف عن أسرار الكتاب العزيز ومراميه أن يصدر عن (دار القلم) وقد صدره الأستاذ الدكتور محمد البهى بمقدمة وجيزة لخصت مزاياه وفصلت مناهجه و ننشرها اليوم ريثما يصدر الجزء فنعود إليه بالتعريف والإبانة .

كانت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية تود أن يكون هذا التفسير للقرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الأكبر ، إمام المسلمين وشيخ الجامع الأزهر ، الشيخ محمود شلتوت ، من بين المطبوعات التى تنشرها فى هذا العام ، بعد أن تبرع فضيلته — جزاه الله خيراً — بإنتاجه الخصب فى جميع المجالات الإسلامية لتلك الإدارة كى تضعه فى متناول المسلمين ليرجعوا إليه فى فهم تعاليم الإسلام ، وفهم كلام الله فى قرآنه المجيد . وهو إنتاج كرس له حياته العلمية فى غضون خمسين عاماً أو تزيد .

ولكن مارصد من مال فى بند نشر الثقافة الإسلامية لهذا العام لم يعد يسمح — بعد طبع الكتب الثلاثة لفضيلته — بشراء ورق يغطى حجم «التفسير» لو رغبت فى إخراجه ، وانتهزت تلك الفرصة العظيمة التى هيأها فضيلته للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بتبرعه بالطبعة الأولى من إنتاجه كله لتوزع على المسلمين فى جميع أنحاء العالم حسبة منه لله سبحانه وتعالى .

وعندئذ — ونظراً لحاجة المسلمين الماسة فى وقتنا الحاضر إلى كتاب لتفسير القرآن الكريم يكون نموذجا فى منهجه وفى يسر الوصول عن طريقه إلى القرآن الكريم وفهم أهدافه — تنازلت عنه الإدارة العامة للثقافة الإسلامية مكرهة غير راضية إلى «دار القلم» حباً فى الإفادة منه . وهاهى ذى دار القلم تدفع به بعد القيام بطبعه إلى العالم الإسلامى اليوم .

وبذلك ساهمت هذه الدار مساهمة مشكورة فى تلبية حاجة من أهم حاجات المسلمين اليوم فى وعيهم ويقظتهم الراهنة .

ورغم أن الإدارة العامة للثقافة الإسلامية تنازلت عن طبع التفسير لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت (لدار القلم) فإنه يطيب لها أن تقدمه للمسلمين وتكشف عما له من مزايا ، وهى مزايا تجعل منه طريقاً واضحاً يسير فيه القارئ إلى كتاب الله مباشرة ، دون أن يمر بصنعة المفسرين المختلفة ، فى أجيالهم العديدة وتحت ضغط مذاهبهم فى الفقه والعقيدة ، أو تحت تأثير ما اقتنعوا به مقدما من اتجاهات حملتها إليهم ثقافات الشرق والغرب فى صلاتهم بغيرهم ، بعدما اتسعت فتوحات المسلمين ، واشتد اختلاطهم بأرباب الثقافات القديمة السابقة على الإسلام .

والقارئ لهذا التفسير فى طريقه إلى القرآن الكريم ، وفى مروره بصنعة المفسرين المتعددة الطوابع والخصائص ، لا يمر بهذه الصنعة مروراً عابراً ، وإنما فى أثناء سيره يقف على ما كان لهذه الصنعة من أثر فى تفكيك وحدة المسلمين ، وفى تعقيد فهم كتاب الله ، وفى حجب المسلمين عن تلك الروح الصافية لهداية القرآن الكريم .

مزايا هذا التفسير :

هذا « التفسير » رسم لنفسه مرحلتين كى يقف مباشرة ووجهاً لوجه أمام كتاب الله ، أمام سوره وآياته ، ومدلولات ألفاظه وتراكيبه :

المرحلة الأولى : أنه يعقب على ما كان للتقدمين من آراء وهو سائر فى طريقه إلى استخلاص المعانى التى يرشد إليها الكتاب الكريم ، بعد أن يوضح هذه الآراء ويبين بُعد كثير منها عن أن يكون مصوراً لما يقصده الله جل شأنه فى كتابه العزيز .

المرحلة الثانية : أنه بعد أن يعقب على آراء المفسرين ، وخصوصاً أولئكم الذين تأثروا فى تفسيرهم بحزبية خاصة ، أو بعصبية لمذهب معين أو عقيدة معينة ، يضع القارئ أمام المعنى المقصود من القرآن وجهاً لوجه ، وبذلك يصل بين ما لله فى كتابه وبين ما للإنسان فى قلبه من إيمان بهذا الكتاب .

هذا « التفسير » هو أجدر أن يسمى : « تفسير » مشاكل التفسير . أو يسمى « نهضة » فى تفسير القرآن ، ورجوعاً به إلى طبيعته لرد المسلمين إليه نفسه ، لا إلى أقوال قد يحجب الكثير منها ما له من مدلول أو قيمة .

هو أجدر أن يسمى : « تعقيباً » على تفسير المفسرين ، ليرفض الصنعة ويرد الأمر إلى مصدره ، فيؤخذ منه فى وضوح ، وبذلك يرفع العقبات ويزيل الحواجز .

والقارئ لهذا التفسير لا يدرك هذه المزايا إلا إذا ألم بمناهج التفسير المختلفة السابقة عليه . فبعد تفسير الطبرى

(٢٥١ - ٣١٠هـ) - وهو التفسير بالمأثور ، كما يقال عنه ، أى تفسير القرآن بالقرآن أو السنة الصحيحة أو بما نقل عن الصحابة والتابعين - لم يعد القرآن يُستوحى فيوحى ، ولا يُستلهم فيلهم ؛ وإنما يقسر قسراً إلى رأى محدد سابق ، أو يحمل جبراً على مذهب معين ، ولو لم يكن هذا المذهب مذهب عقيدة ، أو فقه ، أو تصوف ، بل قد يكون مذهباً فى قواعد اللغة أو فى فقهها .

ولو استعرضنا فى هذا التقديم الموجز لكتابنا اليوم أربعة من التفاسير المتداولة والتى تعد من عمد كتب التفسير ، لو استعرضنا « الكشاف » للزمخشرى المتوفى ٥٣٨ هـ ، و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى المتوفى ٦٧١ هـ ، و « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوى المتوفى ٧٩١ هـ ، و « روح المعانى » الألوسى المتوفى ١٢٧٠ هـ — لوجدنا أن هذه التفاسير الأربعة تمثل ألوانا لها طوابع مختلفة :

فبينما « الكشاف » يعنى بإبراز مذهب الاعتزال فى العقيدة ، ويعنى بمسلكهم فى التأويل على نحو ما يحاول أن يستخرجه من قوله : « الذين يؤمنون بالغيب » لما هو معروف للمعتزلة من وضع « الفاسق » فى منزلة بين المؤمن والكافر ، وعلى نحو ما يشرح قول الله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » من قصد ما يتمذهب به رجال الاعتزال من أن الرزق المسند إلى الله هو الحلال فقط

إذا بالقرطبى يعنى باستنباط الأحكام الفقهية ويذكر التفاصيل الخاصة بموضوعات هذه الأحكام ، على نحو ما يعنى بشرح الصلاة مثلا وما لها من أركان وشروط فى تفسير قوله تعالى « ويقيمون الصلاة » .

وبينما البيضاوى فى تفسيره يعنى بذكر رأى أهل السنة والرد على آراء غيرهم على نحو ما يشرح (الإيمان) بأنه التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والبعث والجزاء ، دون ما يعرف لجمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج من أنه مجموع أمور ثلاثة : الاعتقاد بالحق والإقرار به والعمل بمقتضاه ، وذلك فى شرح قول الله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » إذا بالألوسى يسلك فى تفسيره مسلك التفسير الإشارى الذى عرف للمتصوفة ، وذلك على نحو ما يفسر به (التقوى) فى قول الله تعالى : « هدى للمتقين » من أنها هى : التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق ، وفى هذا الميدان تراكضت أرواح العاشقين وتفانت أشباح السالكين.

وبجانب أن لكل من هذه التفاسير الأربعة طابعاً خاصاً به ، يتصل بمذهب معين أو عقيدة معينة ، أو اتجاه معين فى التفكير ، أو فى التمذهب والاعتقاد . فإن بعضها يعنى كثيراً بالإعراب وقواعده ، على نحو ما يعنى البيضاوى والبعض الآخر يعنى بالبحوث اللغوية ، كالقرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » .

وبدخول صنعة الإعراب والبحث اللغوى تفتتت آيات القرآن إلى كلمات ، وتفتتت الكلمات إلى وحدات ، وأصبح ما يراد من القرآن عن طريق هذه التفاسير : إما مذهباً معيناً اجتمعت عليه مدرسة خاصة من مدارس الفكر الإسلامى ، أو معنى لغوياً ، أو قاعدة إعرابية ، أما ما يرشد إليه الله فكثيرا ما بقى غامضاً - بسبب هذه الصنعة - فى أفهام المسلمين

والقرون التى تلت عهود هذه التفاسير كانت تردد مناهجها فى صور مختصرة ، أو فى تعليقات عليها .

ولم يزل يتأثر بمناهجها إلى حد كبير فى عصرنا الحاضر كثير ممن يعالجون تفسير القرآن . فلم يتخلوا عن هذا الطريق فى التفسير ، وهو طريق التفكيك أو طريق القسر والإكراه على رأى خاص ، كما لم يتخلوا عما صاحب بعضها من أبحاث لغوية ، أو تفتيش عن قواعد إعرابية ، والذين يحددون من بين هؤلاء المتبعين لهذا المنهج فى وقتنا الراهن « يلفقون » فى النقل عنها ، فيضيفون إلى ما يؤخذ من واحد منها ما أخذ عن الآخر . وبذلك تبدو صنعة « الترقيع » بجانب تلك الصنعة التى عرفت لهذه النماذج المتعددة المشار إليها ، ومن هنا اشتد البعد - عن طريق هذه التفاسير الجديدة - بين المسلمين وبين ما يرشد إليه الله من قرآنه الكريم .

نعم ؛ قام بعض الخالدين - وهم قلة فى تاريخ الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى - بمحاولة فى تفسير القرآن الكريم ، يتميز بها تفسيرهم عن تفسير السابقين فى تضمين تراكيب القرآن وألفاظه ، المعانى الخلقية التى أمر بها الإسلام وشرعها الله سبحانه لتهذيب النفس ، وتزكية الوجدان ، ونهضة الشعوب، وتنمية المعرفة ، والسمو بالإنسانية عن الدنايا والخبائث فى السلوك والعلاقات العامة ، وبذلك يكون القرآن ملبياً لحاجات المسلمين فى كل وقت . والمبادئ أو القضايا التى استحدثتها الحضارات الإنسانية الحديثة أو أوجدتها بعض الأحداث العالمية ، أما الانتصار لمذهب على مذهب فقد بقى طابعاً غالباً لهذه المحاولة ، وإن تجنب اللجاجة فى الجدل ، ولكنها مع ذلك محاولة من غير شك تستحق التقدير ؛ لأنها فتحت المنفذ على التغيير ، فيما خلفه الأقدمون من المفسرين كما أعطت للقارئ لها والباحث فيها ، حرية الحكم على ما كان لهذه التفاسير من منهج ، أو ما تراكم فيها من صنعة .

وفى مقدمة هذه القلة من الخالدين فى الفكر الإسلامى المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده والعالم الإسلامى الكبير السيد محمد رشيد رضا فى « تفسير المنار » .

أما « التفسير » الذى نقدمه اليوم للمسلمين فهو تفسير للمسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان

العقيدة الكلامية ، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن .

فقد خلا من هذه العصبية التى فرقت وحدة المسلمين بعد أن وضح ضعفها ، كما خلا من تفتيت آيات القرآن إلى كلمات ليخرج بشاهد على قاعدة إعرابية أو معنى لغوى ، بعد أن أبان أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب تمرين واختبار، ولذا كان منهجه يتمثل فيما يلى :

أولا : جعل السورة وحدة واحدة ، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادئ إنسانية عامة .

ثانياً : عدم إقحام غير القرآن على القرآن من رأى خارج عنه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد ، دون أن يحمل على ما يراد .

ثالثاً : لم يكن له أن يدع القرآن ينطق بما يدل عليه ، إلا بعد أن يزيل العقبات التى كانت تحول دون ذلك ، فكان من منهجه التعقيب على آراء المفسرين السابقين .

ولأنه تفسير للمسلمين جميعاً آثر به فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر - منذ أن توفر عليه فى عام ١٩٤٩ - مجلة « رسالة الإسلام » ، التى تصدرها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة . وهى جماعة تألفت فى يناير سنة ١٩٤٧ .

وقد آثر فضيلته هذه المجلة بهذا « التفسير » لأنه اقتنع ، بعد أن كان من المؤسسين للجماعة بأنها اللسان الذى ينقل للمسلمين ما يريده الإسلام لهم فى قرآنه الكريم ، لا ما يريده مذهب معين ولا اتجاه فكرى خاص .

ولذا فهو تفسير سيلقاه العالم الإسلامى جميعه بالترحيب . سنيه وشيعيه ، وكل من آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

وكافينا الآن أنه « التفسير » الذى تخلص من تلك الحزبية السياسية والمذهبية والطائفية وبذلك يفتح قلب المؤمن وعقله إلى كتاب الله مباشرة ، ويصل بين روح المسلم ومبادئ الرسالة الإسلامية الخالدة .

وإذا أملنا فى شىء بعد صدور هذا الجزء من « التفسير » فإنا نؤمل أن يطيل الله فى حياة فضيلة الأستاذ الأكبر ليتم نعمته عليه فيتم تفسير القرآن الكريم على هذا المنهج ، وبذلك تلبى حاجة المسلمين إلى تيسير فهم كتاب الله تلبية غير كاملة منقوصة .

وإلى أن يخرج تفسير القرآن الكريم كاملا لفضيلة الأستاذ الأكبر ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى الانتفاع بما نقدمه لهم اليوم منه ، ووعى ما فيه من توجيهات ومبادئ ، تجمع قلوبهم على كلمة الإسلام ، وتصل بينهم وبين كتاب الله دون واسطة أو دخيل . والله الموفق والمعين ؟ .

دكتور محمد البهى
المدير العام
لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر

آراء وأحاديث

الأستاذ الأكبر

يعتذر من قبول ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية

كانت إدارة الثقافة الإسلامية وإدارة الجامعة الأزهرية قد رشحتا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ، وكتبتا بهذا الترشيح إلى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم الاجتماعية ولم يكد يعلم شيخ الشيوخ بهذا الترشيح حتى بادر إلى الاعتذار من قبوله ربوءا بجلالة منصبه أن تتعرض لما يتعرض له هذا الأمر من دعاية وتنافس وقد كتب إلى رياسة المجلس الأعلى هذا الكتاب :

السيد الأستاذ رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية :

السلام عليكم ورحمة الله وبعد: فقد تقدمت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية وإدارة الجامعة الأزهرية إلى سيادتكم بطلب ترشيحى لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ١٩٦٠ م .

وإنى مع عميق امتنانى لما قامت به الإدارتان المذكورتان ومع خالص شكرى للسيد رئيس المجلس الأعلى أود أن أعرب لسيادتكم عن رغبة خاصة فى هذا الصدد .

لكم كنت أرغب فى ترشيح نفسى لهذه الجائزة التقديرية لو لم تلق دواعى المصلحة العامة مقاليد الأمور فى الأزهر على شخصى فى الوقت الحاضر ، وكم كنت أحب أن أتوج حياتى العلمية والثقافية بهذا التقدير الكبير من الدولة ممثلا فى جائزتها التقديرية لو لم أكن أشغل منصب مشيخة الأزهر . وهو منصب له فى نفوس المسلمين هيبة وله فى عقول المفكرين ارتباط وثيق بالتوجيه العام وبالقيادة الدينية الواعية بين المسلمين وهى كلها أمور سجلها تاريخنا القومى والثقافى على مرور السنين ، ومما ارتبطت بها زعامة الجمهورية العربية المتحدة فى المجالين السياسى والثقافى فى الشرق الأوسط .

ومن أجل أن نحتفظ لهذا المنصب الخطير بهيبته فى نفوس المسلمين وبقيمته التوجيهية فى عقول المفكرين والموجهين ، ولكى تبق هذه الهيبة وتلك القيمة بعيدتين عن التعرض لهزات الانتخاب والتصويت والاقتراح ، وبعيدتين فى الوقت نفسه عن الاهتزاز فى نفوس المسلمين وعقولهم ، وحتى لا يكون هناك إحراج أدنى لأى مسئول ولا مخاطرة بقيمة المشيخة ومركزها ، رأيت أن أتقدم إلى سيادتكم راجيا اعتبار ترشيح الإدارتين المذكورتين كأن لم يكن ، ومعبراً فى الوقت نفسه عن خالص شكرى وعميق تقديرى لسيادتكم وللإدارتين المرشحتين .

وفق الله الجميع وسدد خطا العاملين لما فيه الخير والرشاد .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر

وقد أجاب السيد رئيس المجلس على كتاب فضيلته بهذا الكتاب :

فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

تحية طيبة وبعد :

فقد تلقيت كتاب فضيلتكم الذى تشيرون فيه إلى اعتبار ترشيح الإدارة العامة للثقافة الإسلامية ، وإدارة الجامعة الأزهرية لفضيلتكم لنيل جائزة الدولة التقديرية لعام ٩٥٩-٩٦٠ كأنه لم يكن .

وإنى إذ أقدر الأسباب التى أبديتموها فضيلتكم لعدم قبول الترشيح ، يهمنى أن أنوه بمكانتكم فى العالم العربى عامة وفى نفوس المسلمين خاصة ، والتى لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون موضع المفاضلة والمقارنة

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

رئيس المجلس

كمال الدين حسين

* * *

مجلة المعهد العالى للخدمة الاجتماعية

تسأل والأستاذ الأكبر يجيب

تقدم محرر مجلة المعهد العالى للخدمة الاجتماعية إلى الأستاذ الأكبر بعشرة أسئلة فى أمور مختلفة أجاب عنها فضيلته بما يلى :

س — ما دور الجامعة الأزهرية فى نشر الثقافة الاسلامية بالخارج ؟ .

ج — الأزهر هو الجامعة الوحيدة فى العالم التى تربط المسلمين والعرب بعضهم ببعض ، والتى يتجه إليها الناس لا بأنظارهم ولكن بقلوب تنشد الاصلاح وتتطلع إلى نواحى الكمال من الخلق والفضيلة . والأزهر كذلك هو الجامعة الوحيدة التى تضم أمم الأرض بين أحضانها فتحنو عليهم وتوجههم وتثقفهم فى دينهم ، وتجعل منهم رجالا يحبون مجتمعهم ويفهمون ويعملون على إسعاده ، فهو يضم

فوق الخمسين جنسية ، ففيه السودانى والحبشى والبولونى والروسى والتركى والأمريكى والأندونيسى والفلبينى وغير هؤلاء ، وهم بهذا الوضع يوم يتخرجون فيه يكونون ألسنة صادقة لجمهوريتنا العربية لدى أممهم فى أنحاء المعمورة .

وإننا لحريصين كل الحرص على العناية بطلاب البعوث وتطوير مناهج معهد البعوث الإسلامية تطويراً يتفق وما لهم من رسالة عظيمة ومهمة سامية ، فيفيد منه كل طالب ويهيأ لأن يعيش فى بيئته التى سيعيش فيها .

هذا جزء من رسالة الأزهر بالنسبة للعالم، ومن ناحية أخرى فإن للأزهر مبعوثيه من العلماء إلى البلاد العربية والإسلامية وهؤلاء وضعنا لهم أسساً وقواعد بحيث لا يوفد إلى شعوب الأرض إلا الصالح المؤمن برسالة الاسلام الحقة الصحيحة القادر على أداء مهمته خير أداء فإنها مهمة جمهوريتنا الناهضة ومهمة الدين الحنيف ورسالته الحقة .

وحتى البلاد الإسلامية التى لا تتكلم اللغة العربية أعددنا لها مبعوثين يجيدون لغات البلاد التى يوفدون إليها . فالأزهر الآن يدرس هذه اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والأندونيسية والأردية والسواحلية والفارسية فلم يعد بين الأزهر وبين العالم أجمع حجاب أو مانع ولم تقتصر العناية بالأزهر على ذلك بل أخذ العلماء يتنافسون فى التأليف وتوجيه العالم عن طريق العلم المكتوب والبحث المستفيض . واشترك فى ذلك كثير من رجالات العلم والفكر عن طريق القاعة الكبرى للأزهر ، تلقى فيها المحاضرات ثم تطبع بمختلف اللغات وتوزع على دوائر العلم والمعرفة فى أنحاء العالم كما تعتبر مجلة الأزهر الآن فى ثوبها الجديد — مجلة إسلامية عالمية يطلع عليها الكثيرون من العرب والمسلمين. والله المستعان ، ومنه نستمد الرعاية والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

س — ما أهم نواحى التطور الأخير فى فى المناهج بالجامعة الأزهرية ؟ .

ج — لقد عملنا - والحمد لله - على تطوير المناهج الأزهرية تطويراً يتفق ومهمة الأزهر العالمية والمحلية . ومعنى ذلك أنها ليست مقيدة ببيئة واحدة وإنما اتصالها بشتى البيئات المختلفة يقتضيها التسلح والتهيؤ لها . والعالم الذى يتصل به الأزهر عالم تعددت لغاته واختلفت نواحيه الاجتماعية لذلك أدخلنا فى مناهج التعليم العام فى الأزهر وفى كلياته اللغات الأجنبية الفرنسية والانجليزية وسندخل الألمانية قريباً - إن شاء الله .

ولم نقف عند هذا الحد وإنما أنشأنا معهداً للإعداد والتوجيه يدرس الطلاب فيه على مستوى عال اللغات المختلفة فوق دراسة

طبائع الشعوب وبيئاتهم وخصائصهم . والمتخرجون فى هذا المعهد هم الذين نرسل منهم بعثات الأزهر إلى العالم الإسلامى لتوجيه الشعوب التى لا تتحدث العربية بلغاتهم وتنوير بصائرهم بتعاليم الإسلام الخالدة . أو نرسل بهم إلى جامعات الغرب للاستزادة من دراسة اللغات، وحتى يكونوا نواة للارتفاع بدراسة اللغات فى الأزهر .

هذا من ناحية اللغات ولم يقف التطوير عند هذا الحد وإنما أدخلنا الدراسات القانونية فى كلية الشريعة من تجارية ومالية ومدنية وجنائية والمقارنة بينها وبين الشريعة الإسلامية حتى يتخرج الطلاب وقد اتسعت آفاقهم لحل مشاكل مجتمعهم الذى يتطور مع الزمن فإن المشاكل متعددة وكثيرة . والمتخرج فى الأزهر مقصد وملجأ يلجأ إليه الناس فى حل مشاكلهم فلابد أن يكون مزوداً وملما بكل النواحى .

وقد عملنا كذلك على تطوير الدراسة فى معهد البعوث الإسلامية وكليتى أصول الدين واللغة العربية وسنعمل — بمعونة الله ثم بهمة المخلصين من إخواننا وأبنائنا على ما من شأنه أن يرفع شأن الأزهر ويعلى من كرامته ويعيد إليه أمجاده السالفة ، فإن النهوض به نهوض بالفكرة الإسلامية الصحيحة .

س — هل كان لفضيلتكم مشروعات للنهوض بالمناهج الأزهرية ؟ .

ج — نعم ـ ويكفى أن تعرفوا أننى أستمد العون من الله فى تنفيذ ما أطمئن إليه فى النهوض بالأزهر ، فإننى لا أحب الحديث عن النفس وإنما أسأل الله تعالى أن يؤدى الأزهر مهمته بأمانة وإخلاص ، وهذا هو اليوم الذى أطمئن فيه ويهدأ بالى ، وتقر أعين المسلمين .

س — كان هناك مشروع لإنشاء معهد خاص للبنات ، فلماذا لم ينشأ بعد مع أنه كان سيساعد على نشر الوعى الدينى بين المثقفات ؟.

ج — نحن نؤمن بأن المرأة فى المجتمع قطب الرحى ، فلا بد من العناية بها وتوجيهها التوجيه الدينى الصحيح ، والسلوك بها السلوك الأخلاقى القويم ، فإنها فتاة اليوم وأم المستقبل ، وهى المدرسة الأولى التى تحتضن الجيل الجديد وتوجهه فلا بد من استقامة الدين والخلق والفكر ، وخاصة أمام تيارات المدنية العارمة فهى أولى إذن بأن ينشأ لها معهد يأخذ بيدها ويوجهها ويثقفها ، لكن الوقت بإنشاء معهد خاص لم يتهيأ بعد ، وعندما تسنح هذه الفرصة يكون أولى المشروعات بالتنفيذ ، على أننا لم نغفل هذه الناحية ، فإن السادة الوعاظ

فى الأزهر والسادة أئمة وخطباء وزارة الأوقاف يعنون كل العناية بتثقيف النساء وتوجيههن ، مما كان لذلك من أثر فى جيلنا من خلق مجتمع فاضل من النساء يؤمن بالمثل العليا ومن يدرى ؛ لعل هؤلاء يكن النواة الصالحة لإنشاء هذا المعهد النسوى الكبير .

س — نعلم أنه قد أنشئ قسم لدراسة الخدمة الاجتماعية بالأزهر فما شروط الالتحاق بهذا القسم؟.

ج — هذه الدراسات أنشئت لطلاب الكليات الأزهرية من السنتين الثانية والثالثة ويختار الطالب بعد اختيار شخصى يؤديه أمام لجنة تؤلف فى كل كلية ، ويمكن الحصول على معلومات أوسع من إدارة الشئون العامة بالأزهر .

س — ما دور الجامعة الأزهرية فى بث الدعوة للقومية العربية فى العالم الإسلامى ؟ وما موقفها إزاء المناهضين لهذه الدعوة ؟ .

ج — للجامعة الأزهرية الدور الخطير فى بث الدعوة للقومية العربية ، فالأزهر يتغذى منه آلاف الوافدين من مختلف الأقطار والشعوب ، والقومية العربية تقوم على دراسة اللغة العربية ومعرفة نواحيها واتجاهاتها وشعوبها ومقوماتها ، وذلك كله بعض من دراسات الأزهر فيتلقاها الطلاب فيه ثم يعودون إلى شعوبهم رسلا للمعرفة والهداية ، وإن البعوث التى يوفدها الأزهر من بين علمائه إلى العالم لهى خير سبيل لمناهضة أولئك المتعثرين فى فهم القومية العربية .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو صاحب الدعوة إلى توحيد الأمة العربية بما جمعهم عليه من كتاب الله الكريم الذى أنزل على رسوله العظيم ، وذلك بما طبعهم بطابع القومية العربية السليمة ، ورسالة الأزهر هى رسالة محمد بن عبد الله ، فالأزهر مؤمن بهذه القومية حريص عليها ، واللغة العربية جزء من مقوماته إذ هو حصنها وراعيها ، واللغـــة هى الثوب الذى لبسته الشريعة الإسلامية منذ فجر الدعوة وطافت به أنحاء العالم ، فملأت كل مسمع ، واستقرت فى كل قلب . حقق الله الآمال ، إنه سبحانه على كل شىء قدير .

س — ما أوجه الرعاية الاجتماعية التى يعتزمها الأزهر للطلاب المبعوثين إليه من العالم الإسلامى ؟ .

ج — إن لمدينة البعوث الإسلامية التى تضم الوافدين إلى الأزهر مشرفين يوجهونهم إلى كل أنواع النشاط الاجتماعى والثقافى والرياضى . ونحن نحرص على دمجهم فى المجتمع والتخلق بأخلاقنا الدينية التى تنبثق من القيم الإسلامية الصحيحة .

س – لقد خذلت فرنسا الضمير العالمى بتصميمها على تفجير قنبلتها الذرية فى صحراء الجزائر فما رأى فضيلتكم ؟.

ج – إن كل دولة لا تقيم وزنا للقيم الخلقية ولا للمثل العليا دولة هزيلة لا تفى بعهد ولا تحتفظ برباط ، وفرنسا مع أنها صاحبة الدعوة إلى الإيمان بحقوق الإنسان إلا أنها لا تؤمن بهذه الحقوق ولا ترعاها ، فهى تقتل النساء والأطفال والشيوخ فى الجزائر وتسلبهم التمتع بالحرية فى أوطانهم ، فهل تستكثر عليها ما تفعل بعد ؟ لا ، وفى الحديث : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

س – هناك جمعية لتحضير الأرواح ، وقد انضم إليها بعض أساتذة الجامعات فهل تؤمن فضيلتكم بحقيقة تحضير الأرواح ومخاطبتها ؟.

ج – إنه لم يقم دليل حتى الآن يثبت إمكان تحضيرها وتسخيرها لدعوة الإنسان كما لم يدل عليه حس موثوق به أو تجربة صادقة ، وكل ما نسمعه عن ذلك لا يعدو أن يكون خداعا وأوهاما لا تلبث أن ينكشف أمرها ، وما دام الأمر كذلك فنحن فى حل من رفضها إلى أن يقوم الدليل على صدق ما يذهبون إليه وحسب المؤمن أن يقف عند ما أخبر الله به ، وصح عن رسوله .

س – ما نصيحة فضيلتكم لطلاب العلم وطالباته ؟.

ج : أما نصيحتى لطلاب العلم وطالباته فهى التمسك بأهداب الخلق والفضيلة ، وذلك عن طريق معرفة الدين وما فيه من صفات خلقية حميدة واجتماعية قويمة – فالدين ملىء بالخير يدفع به الإنسان إلى الإمام ، ففيه التعاون الصادق . وتعاونوا على البر التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . وفيه التعاضد الوثيق . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وما أقوى دعوة المساواة التى يدعو إليها الدين « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ، والرسول يقول « لا عصبية فى الإسلام » ويقول « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

تلك المساواة الحقة التى تفتقر إليها مجتمعات الغرب . والإسلام لا ينظر إلى لون أو جنس بل الناس عنده سواسية كأسنان المشط لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لأحمر على أصفر ، ولكن المبدأ الذى يجمع بين الناس جميعا : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والشباب خير من يتجه بالحياة اتجاها سليما إذا استقامت موجهاته ، ولا يستقيم أبداً إلا إذا استقامت الحياة الروحية . وإن الكفايات العلمية لا خير فيها إذا لم تصحبها القوة الروحية ، فإن المادية المظلمة لا تؤمن

بمثل ، ولا تدين بقيم . والتيارات الوافدة من الغرب تضعف المثل والقيم عندنا ، فعلينا أن نحصن شبابنا بعمق الإيمان ، والمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

إن السموم القاتلة — دائما — تكون فى نواح يتجه إليها الشباب ، ويرتمى فى أحشائها ، فمن كتب تحمل هذه السموم إلى قصص إلى روايات تجىء إلينا من كل ناحية إلى أفلام تعرضها دور السينما ، إلى صور خليعة تحملها صحفنا وتقدمها إلى شبابنا ، تحرك بها الغرائز الهابطة فتثير كوامنها ، وتضعف عقلية الشباب ، فلا يفكر إلا فى إشباع هذه الغرائز مما يضعف قوة الإنتاج العملى عندنا

وإن الأغانى الرخيصة والمبتذلة لا تقل شأنا فى الانحدار بهذه المستويات ، ولست ألقى هذه التبعات على الشباب وحده - إنما ألقيها أيضا على أجهزة التوجيه عندنا — من صحافة وإذاعة وسينما وتمثيل ، فهؤلاء جميعا مسئولون عن كل انحدار فى مجتمعنا . إن النهضة فى حياتنا الجديدة لتحتاج إلى قوة فى التفكير وسمو فى الروح ، وذلك كله لا يستقيم إلا إذا اتجهت هذه الموجهات للشباب وجهتها السليمة وبعدت عن إغراء الشباب بما تنشره وتذيعه .

إننى أحذر أبناءنا وبناتنا أن يكونوا فريسة لهذه التيارات الجارفة وإذا ما حذرت فإننى أنصح بأن يأخذوا بأسباب الدين والخلق والفضيلة فإن ذلك خير لهم فى حياتهم وإذا ما نصحت الشباب عامة فإننى أخص شابات الخدمة الاجتماعية — فتيات اليوم وأمهات المستقبل - أخصهن بأن يتخيرن فى القراءة وفى السماع وفى المشاهدة الجيد البعيد عن مواطن الزلل وأن تكون لهن الشخصية القومية العربية الإسلامية بعيدات عن هذه « البدع » التى تفد إلينا سافرة مبتذلة .

والله أدعو أن يتولى شبابنا وشاباتنا بالخير والتوفيق .

محمود شلتوت

واستقبل فضيلته سير « جوزيف كونيكا » زعيم أوغندا الذى وفد إلى الأزهر ليبلغ فضيلته تحيات المسلمين فى أوغندا .

كما استقبل فضيلته وفدا من كبار علماء إيران على رأسهم آية الله الشيخ ميرزا خليل كمرا لشكر فضيلته على مؤلفاته القيمة وإذاعاته التى يستمعون إليها وقد قالوا لفضيلته : إن الخطوة المباركة التى ألفتم فيها بين قلوب المسلمين فى أنحاء الأرض آتت ثمارها الطيبة فلم يعد للطائفية أثر بين المسلمين جميعا .

وقال فضيلته : لا شكر على واجب مقدس ولولا أنى أحسست أنكم جميعا تؤمنون بهذا

وأنكم كنتم منتظرين هذه الوحدة ما استطعت أن أصل إلى شيء فيها فإن الإسلام لا يعرف الطائفية ولا العصبية إنما يعرف دينا واحدا وربا واحدا فالحمد لله على ما وفقت إليه.

هذا وقد أهدى الوفد إلى فضيلته كتابا عن قبلة الإسلام « الكعبة » كما أهدى إليهم فضيلته كتبه التي كان لها أعظم الأثر في نفوسهم.

ثم استقبل فضيلته الزعيم السنغالى الشيخ تورى الذى قال بعد أن حيا فضيلته : لقد قرأت كتابكم الإسلام عقيدة وشريعة الذى قدم لى فى المغرب وإنى أطلب ترجمته وتوزيعه على إفريقيا والسنغال ثم طلب معونة الأزهر للعلماء. وقوبل طلبه هذا بالترحيب من فضيلة الأستاذ الأكبر.

كما استقبل فضيلته الشيخ محمد بن داود المغربى الذى كان يرافق جلالة الملك محمد الخامس أثناء زيارته للدول العربية وتخلف فى بيروت من أجل زيارة فضيلة الأستاذ الأكبر الذى يعرفه منذ ٢٢ سنة وتلذ بعض الوقت عليه.

من جلالة ملك المغرب إلى الأستاذ الأكبر:

تلقى فضيلة الأستاذ الأكبر الرسالة التالية من السيد مدير الديوان الملكى نصها كما يأتى:

حضرة صاحب الفضيلة الفقيه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فقد رفعت إلى مقام مولاى صاحب الجلالة محمد الخامس — أعزه الله — الكتب التى تفضلتم بإهدائها إلى مقامه الرفيع : فتأثر — أعزه الله — من نبل عواطفكم التى حدت بكم إلى تقديم ثمار قرائحكم إليه « وهى أعز ما يهدى » وأثنى على الجهود العظيمة التى تبذلونها دون انقطاع لخدمة الثقافة العربية والدين الإسلامى الحنيف.

وأمرنى جنابه الشريف أن أبلغكم شكره السامى وتقديره لجهوداتكم ودعاءه لكم بمزيد التوفيق والنجاح.

وإنى إذ أبلغكم هذا العطف الملكى السامى أرجو أن تتكرم فضيلتكم بقبول خالص تقديرى.

مدير الديوان الملكى

من سيادة رئيس الجمهورية إلى الأستاذ الأكبر

الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر :

تلقيت بخالص التقدير برقيتكم التى أعربتم فيها عن أصدق المشاعر وأخلص التهانى بمناسبة بدء بناء السد العالى، وإنا لنحمد الله على أن حقق آمالنا بإقامة هذا الصرح

المنيع والذى نرجو أن يكون يأذن الله منبعاً للخير العميم ولرخاء طال ارتقابه ، ضارعين إليه تعالى أن يكتب لجمهوريتنا الفتية كل ما نبغيه لها من عزة وسؤدد ، وأن يحقق للأمة العربية والإسلامية فى ظل التضامن والتساند كل خير ومجد ، ويسرنى أن أبعث إليكم بأجل الشكر مقرونا بأطيب تمنيات الصحة والهناء .

(جمال عبد الناصر)

رخصة الإفطار للجنود المقاتلين :

قال فضيلة الأستاذ الأكبر بعد أن حمد الله وصلى على رسوله ، فإن الله جلت قدرته قد فرض صيام رمضان على المسلمين تصفية لروحهم، وتهذيباً لنفوسهم وتقوية لإرادتهم، وتربية لهم على تحمل المكاره ، ومخالفة المألوف ، ودربة لهم على ترك الشهوات ، كل ذلك فى سبيل الله وطاعته وابتغاء مرضاته وهو ما عبر عنه القرآن بالكلمة الجامعة « التقوى» فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

ولكن الله الرحيم بعباده أقام تشريع الصيام — كما أقام الشريعة كلها — على التيسير ودفع الحرج عن عباده ، فكان من ذلك ما شرعه جلت حكمته ، وعمت رحمته من الإفطار للمريض والمسافر فى رمضان ، قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

هذا وأولى الناس بالأخذ برخصة الإفطار فى السفرهم الجنودالمجاهدون، الذين يباشرون قتال العدو فعلا ، أو يتهيأون له مابين ساعة وأخرى — كالجنود الذين فى شرقى القناة الآن — ذلك لأنهم مسافرون أولا ،والسفر يبيح الإفطار ، وخاصه إذا صحبته المشقة والعنت .

وثانياً ، لأنهم مجاهدون فى سبيل الله ، والإسلام يريد أن يوفر كل أسباب القوة للمجاهد ، حتى تكون قوته شوكة فى جنب الأعداء ، وغصة فى حلوقهم ، وحتى لا يصيبه أدنى وهن أو ضعف فى منازلتهم وردهم على أعقابهم خاسئين ، فإذا كان صومه عن الطعام والشراب لله ، ولمرضاة الله ، فإن إفطاره عند النضال والنزال لله وفى سبيل الله ، لأنه به يقوى ويشتد فيحقق الله له الغلبة والنصر بإذنه .

ويستوى فى ذلك من يقاتل ، ومن يجهز للمقاتلين ويعد لهم ما يحتاجون إليه من تموين وغيره .

روت كتب السنة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنهم سافروا مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فى غزوة الفتح — وهم

صيام – فنزلوا منزلا قريبا من مكة – وهى يومئذ حصن المشركين – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة – أى لم يأمرهم أمر إلزام – فمنهم من صام ومنهم من أفطر ، ثم نزلوا منزلا آخر كانوا فيه أقرب إلى العدو ، فقال صلى الله عليه وسلم لهم : « إنكم مصبحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فأفطروا » .

وهكذا أصدر النبى أمره الصريح ، وعلله بهذا التعليل الواضح « فأنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا » .

قال أبو سعيد : فكانت عزمة فأفطرنا .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث الصحيح أن الفطر أولى للمجاهدين إذا كانوا فى مكان يظن فيه لقاء العدو ، أما إذا كان اللقاء مؤكدا فالإفطار واجب لا مجرد رخصة ، تقوية للمجاهد ، وإعانة له على مغالبة أعداء الله وما جعل عليكم فى الدين من حرج . وإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

وأما من كان بعيدا عن مواطن ملاقاة العدو ولكنه يتأهب للرحيل والزحف إلى إخوانه فى الخطوط الأمامية كالذين فى غرب القناة مثلا – فهؤلاء ما داموا غير مستقرين فى مناطقهم يعدون مسافرين ، لهم رخصة الإفطار ، ولهم أن يصوموا حسب قدرتهم ومن شق عليه الصوم كان عليه أن يفطر ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا فى سفر أجهده الصوم فيه حتى نصبوا عليه ظلة تظلله فقال : ماهذا ؟ فقالوا : إنه لصائم ، فقال ليس من البر الصوم فى السفر أى الصوم مع مثل هذه المشقة .

فلنتقبل رخصة الله التى رخص لنا فإنه سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ولتكن نيتكم أيها الجنود القوة على أعداء الله (ولكل امرئ ما نوى) ولتعلموا أن الجهاد فى سبيل الله أعظم عبادة وأجل قربة إلى الله وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما .

وفقكم الله لما يحب ويرضى ، وجعل هذا الشهر الكريم - شهر البشر وشهر الفتح المبين بشير نصر لكم ولأمتنا الكبيرة آمين .

هذا وأما من كان بعيدا عن منطقة القتال والتأهب للحاق بالمقاتلين - كالجنود الذين فى منقباد - فإنهم يعدون مقيمين مستقرين لا يباح لهم الفطر إلا إذا صدر إليهم أوامر بالرحيل فحينئذ يأخذون حكم الذين فى غرب القناة .

والله المستعان وهو ولى المتقين لا ملجأ منه إلا إليه وهو المولى ونعم النصير . هذا واعلموا أن ما قدمته لكم إنما هو حكم الله

تعالى بالنسبة لصيام المجاهدين والمقاتلين وبق الحكم بالنسبة لقضاء هذه الأيام ، فاعلموا جميعا أن من وجد وقتا يقضى فيه الصوم فعليه قضاء هذه الأيام التى أفطرها لقوله تعالى: «فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر».

وأما من لم يتيسر له هذا الوقت بأن ظل مشغولا فى مثل هذا العمل وكان عمله يقتضيه ذلك كأولئك الذين يعملون طول حياتهم فى المناجم وفى صهر الحديد فعلى من كان مثل ذلك فدية ، يطعم عن كل يوم مسكينا والله الموفق والمستعان .

من الأستاذ موسى عز الدين

إلى الأستاذ الأكبر

توحيد كلمة الأمة وجمع شتاتها لا تستحقون عليه شكرنا فحسب ، ولكن شكر الأجيال القادمة كذلك لأنه خير ما قام به روحانى جليل فى تاريخ أمتنا ، وفقكم الله وسدد خطاكم لكل ما يعود على الأمة الإسلامية والعرب أجمع بما فيه الخير والصلاح .

خادم العلم الشريف
موسى عز الدين
من كبار علماء الشيعة الإمامية فى لبنان

من الأستاذ الأكبر

إلى رئيس المؤتمر الآسيوى الإفريقى

السيد رئيس المؤتمر الآسيوى الإفريقى بالقاهرة :

إن مؤتمركم المنعقد اليوم ليعلن لكل مستهتر بحقوق الإنسان أننا بقوة الاتحاد والتعاون ، ومبدأ التضحية التى رسمتها لنا الأديان سنرد عليهم بغيهم وطغيانهم فلم يعد العالم يتحمل إثم هذه العقليات الاستعمارية المأفونة التى تنادى بمبادىء لا تستطيع حمايتها ولا تعتمل فى نفوس أصحابها ، فإن كل ما تأتى به إنما هو من الإنسانية التى يظنون أنهم منها وهى منهم براء .

لقد خلقنا الله من نفس واحدة ، فنحن إخوة متحابون تجمعنا الإنسانية فلو كانت فرنسا تؤمن بهذه المعانى ما أقدمت على تفجير الذرة ، وطالما نادينا بالكف عن الإقدام على تحطيم المعانى الإنسانية بتفجير هذه القنبلة فلم ترعو فرنسا ولا مؤيدوها ، وإنما كان إصرارهم إصرار المستبد الذى لا يحترم حقوقا ولا يعرف للإنسانية كيانا ، وكيف يتحقق هذا مع تشدقها بحق تقرير المصير ، ألا فلتبؤ هى وكل معتد بالخسران المبين .

ولنتوجه إلى الله تعالى أن يقوى وحدة القلوب المليئة بالرحمة التى لا تعرف القسوة ، والتى تحنو على بنى الإنسان وترعاهم .

أيدكم الله وأيد الحق بكم ، وأيد الزعيم العظيم والبطل القوى المؤمن بالله وبحقوق الوطن الأكبر السيد الرئيس جمال عبدالناصر وأدام الله له توفيقه فى خدمة الإنسانية حتى

لا نرى فى إفريقيا وآسيا إلا أمة حرة قوية تبنى مجدها على أساس من الاتحاد والصبر فتطهرها من كيد الكائدين .

محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر

الأستاذ الأكبر يستقبل

مدير اليونسكو

استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر بمكتبه الدكتور فيتورينو فيرونيز مدير عام منظمة « اليونسكو » وبعد أن حياه فضيلته وحيا مرافقيه قائلا لهم « مرحبا بكم فأنا أحب الهيئات ـ والأفراد الذين يعملون للإنسانية عامة ـ وهيئة اليونسكو ـ هيئة التربية والثقافة نحبها كذلك ما دامت تعمل للخدمات الإنسانية عامة . وأقوى ما فى هذه الخدمات أن تقيم وزنا لكل ما يبقى على آثار السلف الصالح ؛ فللقرآن اهتمام كبير بآثار السلف ما دامت نافعة وما دامت تحيى فكرة وتنير ذكرى وتحرك معانى يكون لها الأثر الصالح فى تربية الأجيال وتنشئتها « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

إن الآثار التى تعلن عن قوة الأمم ورفعة شأنها وقوتها فى الحضارة وعمقها فى الإيمان بالوطنية ، هذه يجب أن تتعاون الأمم جميعا على الحرص عليها والاحتفاظ بها فإنها رمز لأمم وأجيال تربعت على عرش الحضارة وخلدت ذكريات فى التاريخ .

وليست هذه عندنا فى مكانة آثار تدل على الضعف والاستكانة . فشتان ما بين هذا وذاك .

إن الأزهر قد قام على حفظ التراث القوى النافع المفيد وظل يدأب على ذلك أكثر من ألف عام وسيظل بإذن الله يؤدى رسالته ويقوم على مهمته فى قوة وإيمان وفهم لهذه المهمة . إنه رائد التربية والثقافة فى أنحاء العالم الإسلامى ، ومنظمة اليونسكو رسالتها التربية والثقافة وهى على هذا النحو شريكة الأزهر ، فلابد من التعاون بين البيئتين ـ بين البيئة التى وقفت على قدمها وبين البيئة التى بدأت تشارك فى هذه المهمة .

إن أول نداء وجه من المولى ـ جلت قدرته ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ـ النبى الأمى إنما كان رسالة تطارد الجهل فى كل أوكاره وتحث على العلم بكل أنواعه « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم » .

إننا ينبغى أن نحرص كل الحرص على ألا يبقى فى العالم إنسان جاهل فإن الجهل شر ما فى الوجود والله يقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ولا يحيا العلم ويموت الجهل إلا فى الأمم المستقرة

المطمئنة ، والاستقرار والأمن هما المائدة التى يطعم منها الناس طعام العلم والمعرفة ويستقون من مناهلها . فعلى كل متجه إلى العلم أن يعمل على دعم والاستقرار الأمان والطمأنينة فمن الواجب حينئذ أن نتضامن على تخفيف ويلات الإنسانية التى تحل بها وتخفيف الويلات التى يصبها الأقوياء على رءوس الضعفاء ، فإن أمة كالجزائر ـ كيف ينتشر العلم بينها والسهام مصوبة نحو أبنائها ، وذئاب البشرية يتربصون بهم ، ينحون الإنسانية جانبا ولا يذكرون إلا الطمع وحب السيطرة والنفوذ والاستعمار الذى يؤمنون به .

ثم كيف ينتشر العلم فى فلسطين المنكوبة التى شرد أهلها وذووها . إن أصحاب المثل وذوى المبادئ هم الذين يحرصون على أن يؤدوا للبشرية خدمات عامة وأولها الاطمئنان والاستقرار .

وهنا رد مدير اليونسكو قائلا :

أنا أتفق مع فضيلتكم فى العداء للجهل ، ونأمل أن تهيأ للثقافة والعلم كل هذه النواحى .

فقال الأستاذ الأكبر :

إن الإسلام يدعو إلى التعاون . فهذا كتاب الله يقول « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ومن البر تعليم الجاهلين . وإننى أرى أن مشكلات العالم التى يئن منها ويرزح تحت أعبائها لا يمكن حلها إلا عن طريق التربية والتثقيف .

ثم إن التربية لا تنفع وحدها إذا خلت من الضمير الذى يربط الفرد والجماعة بالرقيب الجبار ؛ فيحس الضمير معه فى كل عمل ، وبذا يستقيم الأمر وتحيا مقومات المجتمع لأن عوامل الهدم حينئذ ـ لا يكون لها أثر بين الأمم حيث لا غش ولا خداع ولا خيانة ولا سرقة ولا نهب ، وحيث الرحمة تعتمل فى النفوس ، فلا قسوة ولا ظلم ولا طغيان .

هذه بعض مثل الإسلام ومبادئه وقيمه ، وهى الأصول التى نستنير بها ، وهى تأخذ بأيدينا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم . هذه المثل هى مبادئ الأديان جميعاً . وأصل من أصولها لهذا لو سار الناس جميعا فى دربها واقتفوا آثارها . إن النفوس الخيرة هى التى تستطيع أن تتجاوب مع أوامر السماء بخلاف النفوس التى لم تطبع على الخير ، ولم يحرك الإيمان أوتار قلوبها فمن أولئك الذين يعيشون تحت تأثير المادية المظلمة فهؤلاء جميعا ندعو الله أن يوجههم إلى فهم معانى التراحم والتواد والتعاطف .

فقال السيد الزائر :

إنى لأشكر هذه الظروف التى أتاحت لى هذه الزيارة ، وإنه ليسرنى أن أعبر لكم عن خالص شكرى وتقديرى .

فقال فضيلته :

« وأنا أشكر لكم هذا التقدير » ...

بريد المجلة

من ذكريات رمضان

عادشهر رمضان شهر الخير والبركة والإحسان شهر الوئام والحب والتعاون عاد رمضان وعاد معه الخير الوفير والثواب الجزيل . عاد رمضان شهر الخيرات والبركات ففيه أنزل القرآن « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ففرض الله علينا صيامه تمجيداً له وتعظيما . وفى شهر رمضان فتحت مكة فقد فتحها الرسول الكريم فى العام الثامن للهجرة فكان لفتحها الأثر البالغ فى قلب العرب . وتم فتح مصر فى الشهر المبارك من العام العشرين للهجرة فأصبحت مصر بعد فتحها قطعة من الوطن العربى الكبير . وإنه لمن الصدف الحميدة أن الجامع الأزهر الشريف ذلك الرمز العظيم الذى يعتبر مركزاً عظيما من مراكز الإشعاع العلمى والثقافى والذى يفد إليه كل عام مئات الآلاف من شباب الوطن العربى يطلبون العلم والمعرفة من بين رحابه قد تم بناؤه فى شهر رمضان المبارك سنة « ٣٦١ هـ » فى عهد الفاطميين وفى شهر رمضان أيضاً تم انتصار صلاح الدين الأيوبى على أعدائه فاستطاع أن يوحد كلمة العرب وأن يوحد صفوفهم وأن يجمع شملهم . فما أعظمه من شهر تحققت فيه كثير من آمال العرب فهو حقاً شهر الخيرات والبركات .

ولكن ما هو الهدف من صيامنا وما هى الدروس التى نستخلصها من الصيام ؟ لقد فرض الله علينا صيام رمضان حتى نتعلم من الصيام أشياء كثيرة فنحن عندما نصوم نشعر بالجوع والعطش وهذا الإحساس يدفعنا إلى أن ندرك مدى ما يعانيه الفقير من آلام عندما يقرصه الجوع ولنلمس ما يكابده الفقير المحتاج من بؤس وشقاء فإن هذا الشعور يدفعنا دفعاً إلى أن نعطف على الفقراء والمساكين وإلى أن نمد لهم يد العون والمساعدة . ولنعطف عليهم عن طيب خاطر . والصوم يعلمنا الصبر والاحتمال على الشدائد وهما من أهم عناصر نجاح الإنسان فى الحياة كما أن الصوم يحد من كبريائنا ويجعلنا نبتعد عن التعالى ونشعر بالمساواة وبأننا جميعاً من جنس واحد فلا فرق بيننا إلا بما نقدمه من عمل صالح يرضى الله والرسول . ولقد فرض علينا الصيام لكى تصفو نفوسنا

وتبتعد عن الأحقاد وما أجمل أن تصفو نفس الإنسان وتبتعد عن المنكرات فليس الصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب فحسب بل الإمساك عن السب والشتم والقول الجارح أيضاً . انظر إلى قول رسول الله عليه السلام حين يقول : « ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل : إنى صائم إنى صائم » . ويقول فى حديث آخر :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فما أجمل أن نتعلم من شهر رمضان معنى الجمال والحب جمال الروح وحب الناس جميعاً فهو شهر كريم خليق أن يبعث فى نفوسنا الإيمان والتقوى وعمل الخير والبعد عما يغضب الله ورسوله وما أجمل أن يكون هذا الشهر باعثا لنا على التعاون والسعى من أجل رفع شأن وطننا ومرحبا بشهر رمضان شهر اليمن والبركات .

سعد توفيق حمدى

مجاهد إسلامى :

يزور القاهرة الآن مجاهد إسلامى هو الشيخ تورى رئيس الاتحاد الإسلامى الثقافى فى غربى إفريقيا .

وقد زار فضيلة الأستاذ الأكبر فى مكتبه حيث تحدثا طويلا فى شئون المسلمين ووضع الإسلام فى إفريقيا الغربية .

والشيخ تورى درس الإسلام والعربية فى دار جمعية العلماء بالجزائر ، وأعيد إلى مسقط رأسه « السنغال » حين شبت الثورة فى شمالى إفريقيا . ثم بدأ اتصاله بالمهتمين بالشئون الإسلامية من المثقفين ، وتأسس الاتحاد الإسلامى الثقافى واختير رئيسا له عام ١٩٥٣ م .

وبذل الاستعمار الفرنسى جهودا ضخمة ليعرقل الاتحاد ، وفشلت الجهود ، وعقد أول مؤتمر إسلامى عام لغربى إفريقيا ، حضره جميع المنظمات الإسلامية فى جميع المقاطعات الإسلامية ، واتخذ قرارات كان لها أثرها فى تعبئة الوعى الإسلامى .

هذا وقد أنشأ الاتحاد زهاء خمسين مدرسة ابتدائية لتدريس العربية ومبادئ الشريعة ، وشجع تسلل الشباب إلى البلاد العربية الإسلامية لا سيما شمالى إفريقيا ليتزودوا بأكبر قسط من الثقافة الإسلامية ، وأرسل بعثة إلى تونس للدراسة فى جامعة الزيتونة كان عددها ٣٢ طالبا منهم ثلاث فتيات .

والشيخ تورى شاب مسلم مجاهد ، لا يألو جهدا فى العمل المتواصل من أجل المحافظة على كيان الشعب المسلم فى غربى إفريقيا ، ولقد قابل السيد وزير الأوقاف ، والسيد

أنور السادات سكرتير المؤتمر الإسلامى ، واستطاع أن يتلقى وعداً بضرورة التعاون مع الاتحاد الثقافى الإسلامى ، الذى يتربص به الاستعمار الفرنسى الدوائر .

ويعتقد الشيخ تورى أن العاطفة الإسلامية من أقوى العواطف ويمكن استغلالها استغلالا خالصاً فى توحيد كلمة الشعوب الإسلامية فى سائر أنحاء العالم ، ويقول :

« لقد كانت معركة فلسطين من قبل ، كما أن حرب الجزائر اليوم ، تلهبان إحساسات المسلمين ومشاعرهم فى كل إفريقيا ، ولو كانوا يملكون من الأمر شيئاً لسعوا بأرواحهم يقدمونها قرباناً لفلسطين الشهيد . . والجزائر المكافحة المناضلة .

ولكن ماحيلتهم وهم فى قبضة استعمار تجرد من كل دوافع الشهامة والشرف . . »

م - ع - السمان

بل يجب أن تبقى هذه العقوبة !!

قرأت فى جريدة الجمهورية الصادرة فى ٩ / ٢ / ١٩٦٠ مقالا للأستاذ إبراهيم نوار رئيس التحرير يطالب فيه بإلغاء عقوبة الإعدام .

والمقال يفيض باللوعة والأسى من أجل فئة ضالة ، خرجت على القوانين ، وتمردت على الأديان ، وأحلت لنفسها ما حرم الله ، ويمتلىء رحمة وشفقة بأناس تجردوا من الإنسانية وانتزعت من قلوبهم كل رحمة ، فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، والكاتب القدير يولول وينتحب على مصيرهم السىء ، وحظهم العاثر ، مما يدعو إلى الدهشة والعجب .

ومما لاشك فيه أن حكمة الله بالغة ، وأن ما وضعه من حدود كفيل بسعادة المجتمع ورقيه وازدهاره ، وما رسمه للناس من تشريع يهىء لهم أسباب الحياة الوادعة الآمنة المطمئنة ، وما أروع قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » ، ويعلم الله أن فئة من القوم سوف يخرجون على هذه التعاليم ، ويتعدون تلك الحدود ، فحذرنا من ذلك « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وإذا كان السيد الكاتب يصف المجرم القاتل الأثيم بالمسكنة ، ويستجدى له الرأى العام الرحمة ويطالب من أجله بإلغاء العقوبة فبم يصف الضحية المسكينة البريئة ، التى سلبت حق الحياة ، وحرمت نعمة البقاء ؟ ؟ وبماذا يطالب من أجلها ؟ ؟ .

سيدى الكاتب : إن الجلاد يسلب المذنب حياته باسم القانون والعدالة وبحق الدين

والتقاليد ، ولكن القاتل الذى تدافع عنه.. بأى حق أراق الدماء ، ثم قل لى بربك ! ألو تركنا القاتل حيا ستنصلح حاله وتتحرر نفسه مما اعتراها من عقد وانحرافات ؟ قطعا لا ، فكم من قاتل لم يعدم ، وخرج من السجن ليعيد سيرته من جديد ، وليريق دماء الناس ظلما وعدوانا ، ثم ألا ترى أن أهل القتيل إذا أعدم القاتل هدأت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بينما لو لم يعدم انتظروا خروجه من سجنه ليأخذوا بالثأر وتصور نفسك والدا أو أخاً لقتيل ، فهل ستدافع عن القاتل هذا الدفاع المجيد ؟ ! وهل ستطالب له بحق البقاء ؟ !

وتأكد يا سيدى أن القانون حينما منح المحكوم عليه بالإعــدام حق الالتجاء إلى النقض لم يمعن فى تعذيبه كما قررت ، ولم يكرر موته كما قلت ، وإنما منحه فرصة يثبت فيها براءته إن كان بريئاً ، وأعطاه أملا يعيش عليه تلك الأيام الباقية فى حياته ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فالله عليم بما صنعوا وبما يصنعون - لو لم ينفذ فيهم الحكم - من سفك الدماء ، ونشر الخوف والفوضى بين الناس .

ثم هل دافعت عن كل المظلومين، ومهضومى الحقوق ، ولم يبق أمامك إلا الدفاع عن القتلة المجرمين ، شئ غريب !!

مصطفى أحمد أبو عبده

حول النصيرية والإسماعيلية :
فى الاقليم الشمالى

وبعد : فقد قرأت فى عدد شعبان ١٣٧٩هـ فى باب (بريد المجلة) تحت عنوان (غلاة الشيعة لم ينقرضوا بعد) كلمة للأستاذ حسن عمر عمر - بشر فيها بالخير لانتشار الإسلام بين طوائف (النصيرية والإسماعيلية) فى بلاد الشام وأن الأزهر قد أرسل إليهم هذا العام الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهرى واعظاً وداعياً إلى الإسلام غير أنه لم يمكث بينهم إلا شهراً واحداً هو شهر رمضان وعاد إلى القاهرة ... ثم وجه الأستاذ كلمة عتاب للمسلمين لإهمالهم نشر الإسلام بين هؤلاء. ورجا الأزهر أن يدرس حياتهم وعقائدهم وأحوالهم الاجتماعية ليقوم معهم بواجب الإرشاد لقاء ما يبذله المبشرون فى هذه المناطق .

وإنصافا للحقيقة أقرر - وأنا المشار إليه فى كلمة الأستاذ والذى أرسلنى الأزهر إليهم فى رمضان الماضى - أن أهل هذه المناطق لديهم استعداد طيب للهداية ولا ينقصهم إلا الواعظ المخلص المقيم بينهم ومما لمسوه منى وسمعوه فى هذه الفترة القصيرة ومما قمت به أثناءها من زيارات فى قرى الجبل والساحل والمدينة بمحافظة اللاذقية وهى معقلهم إذ يبلغ عدد السنيين فيها الخمس والباقى علويون ومسيحيون

أقول بما لمسوه أبرقوا إلى المسئولين بالقاهرة لانتدابى لهم بصفة دائمة ، وقد تم الانتداب ووافق الأزهر على سفرى إليهم لهذا الغرض السامى بعد دراسة مستفيضة عن أحوالهم ومذاهبهم ومبادئ المنطقه كلها ووصلت إليهم من أول شهر ربيع الآخر هذا العام وقمت بإلقاء المحاضرات والدروس وبالزيارات لبلاد المحافظة ، حتى جمع الله على يدى عناصر الشعب هناك (سنيين وعلويين ومسيحيين) ولأول مرة فى تاريخ اللاذقيه بالذات يجتمع العلوى فى المساجد بأخيه السنى ويجتمع المسيحى فى المسجد بأخيه المسلم تحت راية العروبة الصاعدة والقيادة الناصرية الرشيدة ، وكانت فرق العلويين تتوافد كل يوم علينا بالعشرات طالبة الهداية وطالبة زيارتهم وقمت بزيارة قضاء الحفة وبانياس وطرطوس وجبلة وقرى جسر الشغور وحريصون ودباش وقرداحه ويارتا وبيت سوهين ومزبرعه ... حتى أبرق العلويون ومفتوهم ومشايخهم إلى السيد الرئيس والمشير عامر والسراج وشيخ الأزهر يشكرونهم على انتدابى الذى وحد كلمتهم ونشرت هذه البرقيات فى جريدة (الأيام) السورية تاريخ ١٩٦٠/١/٨ وقد رد عليهم المسئولون ببرقيات شكر كما أرسل إلى السيد الرئيس - حفظه الله - لهذه المناسبة بطاقة شكر على تجميع العناصر وبسبب عشرات الألوف من البشر الزاحفين على بيوت الله كل يوم ، حتى ضاق وسع الجوامع عن استيعابهم مما دعا المجلس الإسلامى الأعلى لأوقاف الشام بجلسته ١٩٦٠/١/٧ إلى تقرير توسيع جامع (العجان) بمدينة اللاذقيه لشدة إقبال الرجال والسيدات كما قرر مفتش دار الفتوى العامة السورية بعد مروره على دروسى فى تقرير رفعه للسيد وزير الداخلية أن الإقبال منقطع النظير . ونشرت صحيفة الأيام مقالا من أربعه أعمدة بتاريخ ١٩٥٩/١٢/٣١ عن الأثر الطيب بين الشباب والسيدات لهذا الانتداب وأرسل لى الأزهر كتاب شكر على أداء الرسالة كاملة . وكنت كل يوم أنتقل من نصر إلى نصر فى إعلاء كلمة الله .

وغاظ تجمع المسيحيين والعلويين والسنيين عملاء الاستعمار من الملحدين والحزبيين ، فحاول أحدهم مقاومة موجة الإيمان والوحدة العربية الموحدة بربها ، فألقى بالمركز الثقافى العربى باللاذقية محاضرة عن العدالة الاجتماعية قرر فيها أن الإسلام حقق العدالة الاجتماعية فى النصوص أكثر منه فى الواقع وأن الرسول مات قبل تأدية رسالته وأن كارل ماركس هو نبى الاشتراكية . وأنه مع أنجلزهما اللذان حققا مبادئ العدالة فى منتصف القرن التاسع عشر ، وأن مدة الخلفاء الراشدين لم تكف لتكوين الفرد المدنى الصالح ؛ وأن

القانون الفرنسي غزا الفقه الإسلامي وأثر فيه وأنه العقل المدون وأول شريعة مكتوبة، وأن السلف حاولوا تحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن حال دون ذلك التطاحن على كراسي الحكم وتحكم الأغنياء في الفقراء وجهل علماء المسلمين ومشايخهم بأمور الحياة سوى العبادات وبعض المعاملات. وأن النصرانية حاولت تحقيق العدالة ولكن تكالب رهبانها على الشهوات حال دون ذلك وكان هذا المحاضر هو أحمد المحمود المحامي باللاذقية .

وقامت في المحافظة موجة من السخط والتذمر من المسلمين والمسيحيين على هذه المحاضرة، وجاءني مدير المركز الثقافي ووكيله وطلبا مني إلقاء محاضرة عن العدالة الاجتماعية في الإسلام وحضرها أكثر من ٢٥ ألفاً من المسيحيين والعلويين والسنيين، ومكثت ثلاث ساعات ونصف ساعة أرد فيها شبهاته وأفند ادعاءاته، وسجلت هذه المحاضرة التاريخية وهي معي، وقد نالت رضا الجميع وأعادت الطمأنينة إلى النفوس .

وما أشعر بعد ذلك بأسبوع إلا بالأمر من المسئولين في اللاذقية لأغادر عملي إلى القاهرة وحاولت أن أتعرف الأسباب فلم أستطع حتى أبرقت للأستاذ الأكبر وأنا بدمشق لأستأنس برأيه فمنعوا وصول البرقية إلا بعد خمسة أيام وبعد وصولي للقاهرة حيث أركبوني الطائرة بالقوة وقدمت تقريرا مفصلا للأزهر وأبرقت إلى السيد الرئيس بملخص الموضوع وطالبت بالتحقيق السريع لصالح الوطن — وقد قامت في المحافظة مظاهرات ضخمة من الشباب والسيدات والرجال للمطالبة بعودتي وجرح منهم من جرح وأرسلت مئات البرقيات للمسئولين بذلك وأبرق أعضاء الاتحاد القومي باللاذقية - وهم - ثلاثون عضوا منهم ثلاثة مسيحيون لإعادتي .

والمشكلة التي أقررها على مسئوليتي ان بعض المسئولين في المحافظة من حزب البعث المنحل ولا تزال روح الحزبية البغيضة تعمل عملها فيهم ولا يسرهم أبدا أن يروا مصلحا تجتمع عليه كلمة الأمة ويجمع عناصرها المختلفة تحت لواء العروبة - وأنا أحتفظ معي بالوثائق المثبتة لكل كلمة من مقالي وأقرر أخيراً أن الواجب يقتضي لصالح العروبة والإسلام أن نطهر البلد من بقايا النفعيين والملحدين وقد اقترحت في تقريري أن تسافر لجنة من العلماء والمسئولين إلى اللاذقية لترى وتسمع بنفسها عن الأثر الذي تركته في هذه المدة القصيرة « والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

عبد اللطيف مشتهري

مبعوث الأزهر لسوريا ـ اللاذقية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء العاشر ــ شوال سنة ١٣٧٩ هـ ــ أبريل سنة ١٩٦٠ م ــ المجلد الحادى والثلاثون

الفهـــرس

أمة التوحيد لا بد أن تتحد

بقلم: أحمد حسن الزيات

التوحيد أصل الأصول فى دين الله – عليه قامت العقيدة واجتمعت الكلمة واتحدت الأمة ؛ وبه فتح العرب أكثر الأرض وحكم المسلمون أكثر الناس .

وليس التوحيد أن تقول : لا إله إلا الله . ثم تجعل معناها الجامع ومرماها البعيد وراء عقلك ودون وعيك ؛ فإن توحيدك الله معناه اعتقادك بأن لا سلطان إلا سلطانه ، وأن لا دستور إلا قرآنه ، وأن لا سبيل إلا شرعه ، وشرع الله إنما قام على الوحدة والجماعة ؛ لأن شرع الجاهلية كان يقوم على الشتات والفرقة . والشتات سببه الضلالة ، والفرقة أصلها الجهالة ، والضلالة والجهالة لا تجتمعان فى طريق ولا تتوافيان على غاية .

والعالم كان يوم بعث الرسول وظهر الإسلام جائر السبيل حائر الدليل خائر العزيمة ، يكابد فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق الروح ، وعصبية تمزق الشمل وجاهلية تقطع الطريق . وكان العرب يومئذ على الأخص أشتاتا من غير جامع ، وهملا من غير رابط ، فاضت فى نفوسهم الحياة وزخرت فى صدورهم القوة فصرفوا هذا النشاط العارم إلى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر . فاقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون لباب الدعوة المحمدية الوئام والسلام والهداية . ومن أجل ذلك كانت الصفات الغالبة على شرع الله فى كتابه هى النور والهدى والاستقامة والرحمة : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » .

ومن أجل ذلك أيضا كانت عزائم الله

فى الكتاب قائمة على ما يحقق الوحدة ويوثق العقدة ويديم الألفة، «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا». «ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم». «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم». «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان».

فالتوحيد إذن من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة ، فهو يدل بمفهوم لفظه على توحيد الله ، ويلازم معناه على توحيد الرأى وتوحيد الحكم وتوحيد القبلة وتوحيد الخطة وتوحيد الغاية وتوحيد القوة وتوحيد القيادة . وفى سبيل هذا التوحيد قضى الإسلام على الفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة أن يقتل . وعلى الطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين أن تقاتل .

ومهما تختلف الآراء وتتشعب المذاهب وتتعدد الفرق فإن التوحيد الذى تضمن سر الإسلام كما تضمنت النواة سر النخلة ، يظل بنجوة من الخلاف لا يخرج عنه ولا يمارى فيه إلا مشرك أو مرتد . كذلك الوحدة التى انبثقت عنه انبثاق النور عن الشمس والعبير عن الروض والحياة عن الروح، لا يجوز فى عقل واع ولا إيمان خالص أن تفرقها عصبية لحزب أو مذهب ، ولا أنانية لزعيم أو حاكم .

والوحدة كما توجبها الشريعة لسلام الجماعة ، توجبها الطبيعة لسلامة الفرد ؛ لأن التشتت بعثرة للقوة وتوزيع للعدة ، وليس فى الرمل المتزايل شدة الجبل المتماسك ، ولا فى القطر المتفرق قوة السيل المجتمع . وإذا كان للقوى أن يعيش منفردا كالأسود ، فليس للضعيف إلا أن يعيش مجتمعاً كالقرود .

ومن أسرار الطبيعة فى الحى إذا خُلق أعزل من الناب الأعصل والظفر الحاد أن تنمى عدده بكثرة النسل ، وتقوى ضعفه بضرورة الاجتماع ، وتهبه الأخلاق التى تمسك المجتمع وتقويه من إيثار للغير وإنكار الذات واتحاد بالجماعة ؛ ليستطيع فى حمى جنسه أن يضمن القوت ويأمن العدو . ومن أعجب العجب أن العالم العربى وقد قل بالانقسام وذل بالتخاذل يرى الخطوب تتواثب على جوانبه ، والنوازل تتفاقم فى أحشائه ، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها لا تعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النحل والنمل من التكافل والتعاون ، ولا بما فرضته الشريعة على المستضعفين من التواصل والتضامن ، وقد كانوا أحرياء بحكم الطبع والشرع أن يتحدوا فى السياسة الموجهة والقوة المدافعة والدستور المشرع والرئيس الحاكم .

إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة ، فكانت تعيش فى ظلال الخلق الإنسانى العام حرة آمنة

لا تجد من جارتها الكبرى إلا ما يجد الصغير من عطف الكبير والفقير من عون الغنى .

فلما استكلب الطغيان واستشرى الطمع وامتدت أعين الأقوياء إلى ما فى أيدى الضعفاء ، عاش الناس عيش الوحش فى البر يفترس قويه ضعيفه ، أو السمك فى البحر يبتلع كبيره صغيره ، وسمى العادون المخربون هـذا البغى الكافر استعمارا والتمسوا له العلل والأسباب ، وعاقبوا عليه الأسماء والألقاب ، وأدخلوه بمصطلحاته المقررة ومسوغاته المزورة فى دنيا الاسترقاق من أبواب القانون الدولى العام ! وحينئذ ذل الحق وعزت القوة ، وخرس العقل وتكلم الهوى ، وأفلس المنطق وأغنى السلاح ، وشعرت الأمم التى لا تملك العدد ولا العتاد ولا المال ولا العلم حين رأت أشداق الجبارين المستعمرين من دول الغرب تتحلب طمعا فى احتلال الشرق واستغلاله ، شعرت أنها موضوع النزاع وموضع الصراع وغنيمة الحرب ، فاعتراها ما يعترى القطيع من التجمع والتضام حين يسمع من بعيد هيعة الذئب ، وسعى بعضها إلى بعض بالتعارف والتحالف على اختلاف الجنس وتباعد الموطن ليتحدوا . ولكن الاتحاد الذى ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ورابطة اللسان وشركة الدار لا بد أن ينتهى إلى وحدة .

وقد آن لأبناء الأمة الوسطى ووراث الدعوة العظمى أن يذكروا ما نسوا ، ويجددوا ما طمسوا ، ويعلموا أن الحق هو القوة ، وأن القوة هى الوحدة ، وأن وحدة العرب كانت معجزة دين التوحيد ، قام عليها تاريخهم القديم ولن يقوم على غيرها تاريخهم الجديد .

إن اتحاد الدول العربية ضرورة خلقتها غريزة حب البقاء وهو لا بد واقع . أما وحدة الأمة العربية فهى واقعة بالفعل ؛ لأن كتاب الله لا يزال مقروءا وسنة رسوله لا تزال متبعة . فمن يقل إن العراق منشق على الوحدة لأن فلانا انشق ليسمى نفسه الزعيم الأوحد ، وأن الأردن قد فارق الجماعة لأن علانا فارقها لينعم فى ظلال انجلترا بالعيش الأرغد ، وأن تونس تركت العقدة لأن (أبا جان) تركها لتصير عقدته بفرنسا أوثق وأعقد ، من يقل ذلك يكن من الذين لا يزالون يقولون بأن هوى الزعيم مشيئة الأمة ، وأن إرادة الملك شريعة المملكة ! .

إن الأمة العربية جمعاء لسان واحد وسيف واحد فى جهاد الاستعمار والبغى . فمن لم يكن معها فيه فهو عليها . ومن مالأ عدوها لغلول فى صدره أو نكول فى طبعه فليس منها .

ومن تسول له نفسه أن ينقض اليمين بعد توكيدها ، ويفرق الأمة بعد توحيدها ، فهو عربى من غير عروبة ، ومسلم من غير إيمان ، وإنسان من غير ضمير ؟

أحمد حسن الزيات

الإسلام وحدة وجماعة

لصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

أيها الإخوة المؤمنون :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإن الأعياد سنة فطرية جبل عليها الناس وعرفوها منذ فهموا التقاليد وأدركوا معنى الاجتماع ، ومرت بهم أحداث الخير والشر ومظاهر النصر والهزيمة . ويمقتضى هذه السنة الفطرية كان لكل أمة أعياد تظهر فيها أفراحها وتأخذ فيها زينتها ؛ تذكيراً بفضل أنعم الله عليها وتمكينا للمعانى السامية التى وصلت إليها وتركيزاً للمثل العليا التى اقتحمت بها عقبات الحياة ، وما أحرانا اليوم حين بزغت علينا شمس العيد مذكرة لنا بما أفاء الله علينا من نعمة النصر كأثر للوحدة التى كانت تلبية للمعانى المستقرة فى نفوسنا من إيمان عميق وعقيدة راسخة وقلوب متآلفة ولغة وأهداف واحدة ، ماتت معها العصبيات المفرقة والطائفية المشتتة واستيقظت معانى الإيثار ، وقويت التضحية ، استجابة للمعانى الإنسانية والمثل العليا التى حوتها شريعتنا الإسلامية الغراء وبينها لنا القرآن الكريم وتحدثت بها السنة النبوية الكريمة «إنما المؤمنون إخوة» ، «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» ، «وأمرهم شورى بينهم» «وشاورهم فى الأمر» ، «والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» .

ذلكم أن السلام رائدنا والوحدة هدفنا والوحدة هى دعامة السلام وأساس النظام وقوة للأمم المهيضة الجناح فأنعم بها يوم أن انبثقت من نفوس شعبينا فى قوة إرادة ، وصدق عزيمة فأيدها الله وملأ بها القلوب ، وها هى ذى تؤتى ثمرتها فترهق الأعداء بما أينعت ، ومن ثم دارت رءوسهم ، وتفطرت عقولهم فلا يجدون إلا أن يطلقوا شياطينهم توسوس هنا وهناك ظنا منهم أن ذلك البناء الأشم يستطيعون أن يتطاولوا إليه بعد أن غدا سامقا لا يرقى إليه طير ولا تصل إليه وسوسة وهيهات هيهات فإنها الوحدة التى صاغتها القلوب المتآلفة ووقفت من خلفها الأرواح الزاكية تحميها وتذود عنها ، ولكم ظلت آمال العروبة تهفو إليها بحرارة وشوق عاملة على جعل الحلم حقيقة واقعة . ولكم ظللنا نرقب ذلك وظل أملا تتطلع إليه النفوس المؤمنة حتى هيأ الله لهذه المعانى من أبرزها ، فإذا بالخيال يغدو واقعا ، وإذا بالأحلام تصبح حقائق .

وللجماعة فى نظر الإسلام شخصية مميزة شعارها الوحدة الكاملة وإن أبرز ما يطالعنا من النواحى التى كانت أساسا للوحدة والتى اتخذ منها الشعار العام للشخصية الإسلامية ما حكاه الله عن جدى العروبة والإسلام : ابراهيم وولده إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .

إنهما قد دعوا بالإسلام لله والإخلاص له والاعتصام بدعوته دون أن يكون لسلطان الدنيا أو شهوات النفس ومقتضيات العصبية سلطان عليهما ولا على قلبيهما ، وقد طلبا ذلك لذريتهما أيضا « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » . ومن ثم كانت الوحدة فى الإيمان والعمل أساسا وشعارا للجماعة فى نظر الإسلام منذ أن وضعت اللبنة الأولى فى بنائه على عهد جدى العروبة : ابراهيم وولده اسماعيل وبذا كانت العروبة والإسلام قوتين متعاونتين تشد إحداهما أزر الأخرى وتهيئان النفوس المستعدة للخير والإصلاح إلى اقتحام ما يكيد به أرباب الفساد والشر الأثيم ويضعونه عقبات فى طريق النمو الإنسانى الفاضل الكريم . وحينما اكتمل النمو البشرى السليم جاء الإسلام دين الوحدة والجماعة يحمله كتاب عربى على لسان رسول عربى كريم . وقد نحى عن أمته صبغة الجنسية والإقليمية ليجعل منها أمة واحدة متراصة متكاملة البناء قوية الدعائم فلطالما أغرت هذه العصبيات بين الناس العداوة والبغضاء ، وقضت على روح التعاون والتحاب والتواد والتراحم ، جاء الإسلام بوحدة العقيدة ووحدة العبادة ، ووحدة السلوك ، ووحدة الأهداف مع وحدة الرحم ، وأخذ ينادى الخلق بنداءات إلهية مختلفة تحرك فى نفوسهم كل معانى الوحدة الفاضلة وتبعث فى قلوبهم الألفة والمحبة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، « يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » . ولا بد لحماية هذه الوحدة من عوامل أخرى تتصل بالغير وترتبط به والله سبحانه وتعالى ينادى عباده بأن يكونوا إيجابيين فى بناء وحدتهم ويحذرهم من عوامل الفرقة والتفرق ويحذرهم أن يستمعوا إلى أراجيف المرجفين الذين يضيقون ذرعا بنتائج الوحدة والألفة فيحاولون العبث والإفساد « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » .

ونذكر فى هذا المقام موقف اليهودى الذى ساءته وحدة الأوس والخزرج فحاول أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء فهموا إلى السيوف يعيدون الحرب جذعة وكاد الفريقان يقتتلان لولا أن وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم وقال : « يا معشر المسلمين أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ الله .. الله ؛ الله فى دينكم الله فى إسلامكم ! » فأدرك القوم أن ما أريد لهم من فرقة إنما هى نزعة شيطان وكيد عدو ، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى سمع وطاعة ، وهكذا التأمت الجراح وعادت الوحدة إليهم ، وما أشبه الليلة بالبارحة حيث يسعى قوم بين وحدة العرب بالفساد ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . وينوه الله بنعمة الوحدة والألفة فيقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

إن الأجيال جميعا لترقب هذه الوحدة وإننا لندعوه سبحانه أن يكمل عقدها وأن تصبح شاملة فتقهر الاستعمار وتحيا فى ظلها أمم غلبت فيهم كلمة التفريق فأرغمتهم على حياة القهر والذل ، وحينئذ تكون هذه الوحدة مصدر سعادة العرب أجمعين يرتفع بها شأننا ، وتصد الغوائل عنا ، وتطهر أرضنا من المرجفين الذين ينفثون سمومهم « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » .

ولنتجه جميعاً إلى الحق الذى رسمه الله لنا ، أدام الله التوفيق لفتى العروبة والإسلام وبطل هذه الأمة جمال عبد الناصر .

ووفقنا الله وباعد بين العروبة وبين المفسدين الذين تدفعهم العصبية الهوجاء إلى الغل والحقد والضغينة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود شلتوت

عودٌ إلى الثقافتين

ليس في الإسلام مشكلة ثقافية

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا في إحدى مقالاتنا بمجلة (الأزهر) لمشكلة الثقافتين عند الأمم الغربية. والمقصود بها مشكلة الانفصال بين ثقافة العلم وثقافة الأدب ، واتساع الهاوية فترة بعد فترة بين تفكير العلماء وتفكير الأدباء وأصحاب الآراء النظرية، مما ينذر بإصابة « الشخصية الإنسانية» في هذا العصر بداء كداء الفصام ، ويجعل الإنسان الناشئ على إحدى هاتين الثقافتين دون الأخرى كأنه نصف إنسان .

وقد كانت هذه المشكلة مدار البحث في سلسلة المحاضرات الفلسفية التي ألقاها الكاتب - العلمي الأدبي - الأستاذ سنو Snow في شهر مايو الماضي ، فثارت حولها ضجة من النقاش والنقد والتعقيب لم تنقطع إلى هذه الأيام ؛ لأن المشكلة - على ما هو ظاهر ليست في المشكلات التي ينتهي الفصل فيها بسلسلة من المحاضرات ، أو بطائفة من الآراء تنشر ثم تطوى بعد أسابيع أو شهور ، ولا مناص فيها من إتباع القول بالعمل على منهاج متفق عليه ، فإن لم يبلغ التفاهم عليه مبلغ الاتفاق فلا أقل من أن يكون صالحا للتنفيذ والتقرير .

وقد عاد الأستاذ (سنو) إلى بحثه في مقال نشرته مجلة المساجلة Encounter في عددها الصادر في شهر فبراير الماضي ، وأراد بمقاله هذا أن يلم أطراف المناقشة ويعقب عليها بخلاصة رأيه بعد عرض أقوال الموافقين والمخالفين من الباحثين قبله أو بعده في مشكلة الثقافتين، وقد جمعهم إلى طوائف ثلاث : موافقين في الرأي والنتيجة، وموافقين في الرأي مخالفين في النتيجة ، ومخالفين يعارضون نظرته كل المعارضة في وصف المشكلة ويرون أن العصر الحديث كالعصر القديم في تعدد الثقافات ، مع اختلاف الموضوع والمقدار .

ولا يعنينا هنا تفصيل أسباب الخلاف بين آراء الموافقين والمعارضين . فذلك شرح يطول ولا علاقة له بالناحية التي نحول إليها البحث من أمر الثقافة الإسلامية .

ولكننا نجتزئ بالإشارة إلى رده المجمل على المخالفين ، ثم بالإشارة إلى الحل الذي يقترحه لعلاج المشكلة من الوجهة العامة .

فالمخالفون يقولون : إن الحال لم تتغير في جوهرها من أيام عصر النهضة إلى اليوم . فلو تلاقى عالم فقيه وشاعر فنان قبيل القرن

السادس عشر لما كان بينهما من التفاهم والتقارب أكثر مما يكون بين علماء العصر الحاضر وأدبائه أو مفكريه النظريين .

وجواب الكاتب على هؤلاء أنه لا يسلم بأن المسافة بين الفريقين كانت على هذا البعد منذ ثلاثة قرون ، ولا يقول إن العلم والأدب كانا قريبين متلاقيين فى القرن السادس عشر ، ولكنه يقول إن القنطرة بينهما كانت موجودة مستقرة وهى اليوم تتهدم شيئاً فشيئاً وتوشك أن تزول ، وأنه على أية حال لا يريد أن تتوحد معرفة العالم ومعرفة الأديب ، ولا أن يتم التفاهم على نمط واحد بين جميع المثقفين ، وإنما يريد أن تقام القنطرة وتظل قائمة لمن يعبرها ، ولا يعجز أحد عن عبورها إذا أراد .

أما حل مشكلة الثقافتين من الوجهة العامة عند الكاتب فهو تعميم التصنيع فى المجتمعات الحديثة ، ولا بد - على رأيه - من الاختيار بين البدائية الهمجية وبين تصنيع المجتمع وتعويد الناس جميعاً أن يعيشوا معيشة الحضارة العلمية ، فيصبح التثقف العلمى حقيقة واقعة يزاولها الناس فى البيوت والأسواق وفى ميادين الرياضة البدنية والنفسية ، وفى حينها تحول الإنسان بين العمل الصالح واللهو البرىء ، لاضطرارهم إلى استخدام الآلات .

والكاتب ، فيما نعتقد ، مصيب من الجانب الذى ينظر إليه ، وهو جانب (الإنسان الغربى) وارث العلم والأدب فى البلاد الأوربية أو الأمريكية من القرون الأولى بعد الميلاد .

فقد عاش هذا الإنسان على الدوام فى ميدانين متقابلين من عالم الثقافة : ميدان الروح وميدان الجسد ، أو ميدان ملكوت السماء وميدان ملكوت الأرض ، وكان الانفصال بين الميدانين بعيد الأمد يكاد ينتهى إلى عالمين متناقضين أحدهما ملعون منبوذ هو هذا العالم المشهود ، والآخر مقدس مطلوب ولكنه غائب وراء الحواس بل وراء العقول التى تتصرف فى الأمور الدنيوية .

وليس الانفصال بين العلم والأدب فى القرن التاسع عشر وما بعده إلا ميراثاً منه ولا من ذلك الفاصل القديم ، ولا غنى فى هذه الحالة عن تقريب القواعد قبل تقريب البناء الذى يقام عليها .

ولهذا لا غنى عن سؤال يجاب عليه قبل البحث فى الحلول العامة المقترحة ، سواء منها حل الكاتب الانجليزى وحل غيره من المفكرين العلميين والنظريين .

هذا السؤال هو : ما الرأى فى « الشخصية الإنسانية » على أى وضع من الأوضاع الاجتماعية فى العصر الأخير : عصر الصناعة وحضارة العلم الحديث أو عصور الزراعة والعلاقات الاقتصادية على اختلافها .

هل « الشخصية الإنسانية » هى موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما فى جميع الأحوال ، أو أن موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما شىء آخر لا يبالى مصير هذه الشخصية ؟ .

إن الإسلام لا مشكلة فيه من جهة الثقافة على أنواعها ؛ لأن « الضمير الإنسانى » هو المسئول دنيا وأخرى عما يعمله الإنسان وما يعلمه وعما يدين به فى نجواه وما يدين به بينه وبين غيره .

والتربية فى الإسلام هى تهذيب هذه « الشخصية » وتزويد قواها الفكرية والبدنية معا بكل ما يصلحها للعلم والعمل .

وكل تربية ينالها الإنسان فهى امتداد لقوة من قواه ، سواء منها قوة البدن وقوة الروح ، وإنما تعرف قيمتها بميزان القوة التى تمدها وتزيدها وتهيئها للعمل فى الحياة الخاصة أو الحياة الاجتماعية العامة .

فالتربية الصناعية تجعل للإنسان يدا أقوى من يده أو قدما أقوى من قدمه ، أو بصراً أقوى من بصره ، أو سمعا أقوى من سمعه ، وهى تربية ضرورية نافعة لا غنى عن تعميمها بين الناس فى المجتمعات الحديثة ، ولا غنى لهذه المجتمعات عنها فى عصر الصناعة والمخترعات .

هذه التربية الصناعية قوة تمنح الإصبع قدرة على أن يحرك الجبال بالضغط على زر صغير ، وتمنح العين قدرة على النظر بالمجاهر والمناظير إلى دقائق الخفاء وإلى آفاق السماء .

ولكن هذه القوى جميعا لن تبلغ فى القيم الإنسانية مبلغ القدرة التى ترفع ضميره وتوليه من الشعور والفكر وسيلة توسع أمامه آفاق الحياة وتبسط بين يديه كونا أعظم من الكون الذى يعيش فيه جسده ووجودا أتم من الوجود الذى يلابسه بأعضائه البدنية ولو بلغت غاية مداها من بسطة وامتداد .

إن « زرا » يضغطه الإنسان بإصبعه قد تمنحه قوة ألف إصبع أو آلاف من الأصابع تحسب بالملايين ، ولكن « الشخصية الإنسانية » لا تتوقف عليه ، وقد تصنعه للإنسان شخصية أخرى فيعمل به كل عمله المطلوب ، فليس فى الضرورى أن يكون صانع الزر هو المنتفع به أو هو المتعلم لتركيبه واستخدامه ، ولا شأن له فى إتمام « كيانه الإنسانى » ولا فى الارتفاع به إلى ما هو أهل له من مراتب الكمال .

ولكن القدرة الروحية إذا عرف بها الإنسان مزايا الخير والجمال وتذوق بها محاسن الحياة الفكرية والعاطفية تتوقف على « الشخصية » التى تستطيعها ولا تصنعها لها شخصية أخرى كما تصنع الأزرار والمجاهر والمناظير .

وهذا هو الفارق بين تربية وتربية، وبين إنسان مثقف وإنسان ناقص التثقيف، أيا كان نظام المجتمع وأيا كان حظه من التصنيع.

فإذا وجب التصنيع فإنما يجب لتمكين الإنسان من الانتفاع بصناعات عصره وتوزيع منافع الصناعات بين جميع أبناء المجتمع على سنة الإنصاف والتعاون في المصلحة والخير، ولكن المجتمع الذي سيصنع الأزرار والمجاهر والمناظير لأبنائه لا يعطيهم كل شيء ولا يزودهم بمقومات الحياة التي يحتويها كل ضمير بينه وبين الله وبينه وبين الناس ولا يستطيع أن يعول فيها على معمل من معامل التصنيع يتكفل بتوريد الضمائر لأبنائه كما تتكفل المعامل بتوريد هذه الأداة أو ذلك المخترع المصنوع.

ولن تتم في مجتمع من المجتمعات ثقافة عالية جديرة بأن تسمى ثقافة إنسان مالم تكن ثقافة شاملة يتم بها قوام « الشخصية الإنسانية » بريئة من داء الفصام موفورة الحظ من الضمير والجسد، ومن العلم والأدب ومن مطالب الأذواق ومطالب العقول.

عباس محمود العقاد

قلم الحبر اختراع عربي

قيل: إن قلم الحبر اخترع في القرن الثامن عشر الميلادي. وقيل إن الأمريكيين كانوا أسبق الناس إلى معرفته.

والحق أن الذي اخترعه هو المعز لدين الله الفاطمي فقد جاء في كتاب المجالس والمسامرات على لسان القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمي قاضي قضاة المعز المتوفى سنة ٣٦٣ هـ قال: ذكر الإمام المعز لدين الله القلم فوصف فضله.

ثم قال: « نحن نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة منه يجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد منه، ولا يكون ذلك إلا عند ما يبتغي منه فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنا قد سبقنا إليها، فقلت: أو يكون هذا يا مولانا عليك سلام الله؟ قال: يكون إن شاء الله.

فما مر بعد ذلك إلا أيام حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة ومعه قلم من ذهب فأودعه المداد وكتب به فكتب وزاد شيئا في المداد على مقدار الحاجة، وأمر بإصلاح شيء منه فأصلحه وجاء به وإذا هو قلم يقلب في اليد ويميل إلى كل ناحية، فلا يبدو منه شيء من المداد وإذا أخذه الكاتب وكتب به كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد.

أ - ح - الزيات

دور الأمومة فى الخدمة الاجتماعية

للأستاذ الدكتور محمد البهى

ما هى الخدمة الاجتماعية :

أول ما يتبادر إلى معالج لهذا الموضوع أن يسأل : ما هى الخدمة الاجتماعية ؟ ولكى يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال يجب أن يتعرض لجوانب المجتمع العديدة . والمجتمع البشرى ـ كمجتمع ـ يقوم على إقرار بهدف معين لأفراده . وهذا الهدف المعين المشترك بين الأفراد يدفع بالضرورة إلى إيجاد نوع من العلاقات بينهم ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يتركوها فتضعف ، فضلا عن أن يتخلوا عنها . وإلا انحل المجتمع من نفسه وصار مجموعة من الأفراد ، يعيشون وحدات مفرقة منثورة ، تختلف أهدافهم وتتعارض اتجاهاتهم تبعا لاختلاف أهدافهم فى الحياة .

المجتمع البشرى يصنع ، ولذا فهو طارىء فإذا ذهب الهدف الذى من أجله قام مجتمع من المجتمعات ، ذهب هذا المجتمع فى مجتمع آخر قائم بالفعل أو مجتمع ينشأ عنه وعندئذ ينشأ لهدف . وربما يكون هذا الهدف الهدف السابق نفسه فتكون نشأة المجتمع وقتئذ « نهضة » . فإذا كان الهدف على الضد من الهدف السابق كان مجتمعا آخر جديداً ، مع أن أفراد المجتمع السابق هم أفراد المجتمع الجديد .

جاء الإسلام فوجد مجتمعاً عربيا فى شبه الجزيرة العربية ، له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته . ووجد مجتمعاً فارسيا فى منطقة الامبراطورية الفارسية له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته ، ووجد مجتمعا رومانيا شرقيا فى رقعة الشرق الأدنى له عرفه وتقاليده ، وله هدفه وغايته . ووجد مجتمعا مصريا وآخر فى شمال إفريقيا لكل منهما عرفه وتقاليده ، وهدفه .

١ ـ فكان من العرف والتقاليد التى سادت هذه المجتمعات بصفة مشتركة ـ اضطراب التوازن الاجتماعى وتعدد الطبقات فى المجتمع ، مرة على أساس من النسب ، وأخرى على أساس من الثراء فى الملك والتجارة ، ومرة ثالثة على أساس من المعرفة الدينية ، ورابعة على أساس من جاه الحكم فكانت هناك الطبقة الاستقراطية فى الشرف والطبقة الأخرى الوضيعة المقابلة لها ، وكانت هناك الطبقة الرأسمالية والأخرى العاملة المستذلة ، وكانت هناك طبقة الكهان

أصحاب العرافة أو المعرفة الدينية والطبقة الأخرى التى تطيعها ولا تناقشها ،وهى طبقة المستسلمين أو التابعين ، وكان هناك البيت الحاكم أو الأسرة الحاكمة من جانب والرعايا المحكومون من جانب آخر .ووصل اختلال هذا التوازن الاجتماعى إلى أن أصبح الإنسان سلعة تباع وتشرى ، وأصبح الرق البشرى تجارة رابحة ، وأصبح الذل والاستذلال طابعا لحياة فريق فى المجتمع ، بينما الصلف ـ ومن توابعه الظلم ـ طابعا لفريق آخر فيه .

٢ ـ وكان من العرف والتقاليد التى تميزت بها هذه المجتمعات شيوع الترف القائم على الإسراف والفساد ، والانحراف عن خط الاستقامة والسلوك المهذب فى جانب ، وفى الوقت نفسه شيوع الفقر والفاقة فى جانب آخر .

وكما كانت « الفجوة » أو « التناقض والمقابلة » مظهرا مسيطرا بين طبقات المجتمع وفى جوانبه ـ كانت هذه الفجوة أو هذه المقابلة مظهرا مسيطرا كذلك بين نوعى الأفراد فى بعض هذه المجتمعات . فكان للرجل قيمة وللمرأةمن الأفراد قيمة أخرى، تقربها من أن تكون طبيعة منفعلة على الدوام ، ليس لها إيجابية فى المجتمع سوى أن تقبل التوجيه فى صوره المختلفة من الرجل.

٣ ـ وكان من العقائد وصور الإيمان التى كانت تحكم هذه المجتمعات ـ ولعل ذلك كان نتيجة لتلك المفارقات والفجوات الواضحة فيها ، التى قامت عليها الطوائف والطبقات هناك ـ أن رفع الإنسان إنسانا آخر فألهه وعبده ،أو دنا بنفسه فى التقدير فعبد ما هو دون الإنسان فى موجودات هذه الأرض من نار أو حجر ، وبذلك أضفى القدسية ، وأسند النفع والضر ، إلى مالا قدسية له من طبيعته ، ولا نفع أو ضر ينبثق أصلا عن ذاته . فكان الشرك فى العبادة، وكان الهوان فى الاعتقاد .

الإسلام خلق مجتمعا جديدا :

جاء الإسلام بنظام وبرسالة للبشرية . وحدد فى هذا النظام وفى هذه الرسالة هدف المجتمع الإسلامى . حدده برفع الظلم الاجتماعى ورفع الطائفية والطبقية من مجتمعه ، وأعلن قيمة الإنسان من خصائصه البشرية وحدها ، لامن أرستقراطيته فى شرف سابق فى النسب ولا من جاهه فى الثراء أو الحكم ، ولا من انتسابه للون معين من العرافة أو المعرفة ، فكان قول القرآن الكريم : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالناس جميعا بمقتضى هذه الآية من خلق واحد . فكل فرد جاء من ذكر وأنثى . وإذن أصل النشأة واحد . ثم هم بعد

التشابه وعدم التغاير في أصل النشأة يتميز بعضهم عن بعض بمدى تنمية طبيعته وتطوير إمكانياتها واستعداداتها البشرية ، وهى إمكانيات واستعدادات تختلف تماماً عن تلك التى يشارك فيها الحيوان . ولذا كان التعبير فى هــذه الآية عن هذا التميز بعد التشابه فى الطبيعة بقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ـ تعبيرا فى غاية الدقة . لأنه أفاد : أن أمارة هذا التميز هو الاتقاء والتجنب . وشأن الاتقاء والتجنب لأى أمر أو تصرف وسلوك لا يتم إلا بإرادة . والذى يدرك من الكائنات حــدود ما يُتقى ويُتجنب هو الإنسان وحده . ولذا الذى له إرادة من بينها ـ وبالأخص عند الاتقاء والتجنب ـ هو الإنسان وحده أيضا . إذ الحيوان لا يفرق بين ما ينبغى وما لا ينبغى ، ثم ليست له إرادة بجانب عدم إدراكه المميز . فشأن الحيوان أن يُدفع ويساق ، وأن يُحال بينه وبين أمر ما . وهو لا يعرف أن يُقدم ، فضلا أن يدرك : متى يقدم ؟ . لا يعرف أن يمتنع ، فضلا عن أن يدرك : متى يمتنع ؟ .

وبجانب إعلان الإسلام لقيمة الإنسان على هــذا النحو ـــ فألغى بذلك الطبقية والطائفية . وفى ضمن إلغاء الطائفية والطبقية إلغاء الرق والبيع والشراء للإنسان ـــ أعلن المساواة فى النشأة والأصل بين الذكر والانثى من الإنسان ، وذلك فيما تذكره هذه الآية الكريمة : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » ، إذ بمقتضى منطوق هذه الآية الكريمة أن كل جنس من أجناس الكائنات خلق منه زوجان ذكر وأنثى فى الإنسان ، والحيوان ، والنبات . وقابل وفاعل أو موجب وسالب فيما عدا الإنسان والحيوان والنبات .

وكما كانت نظرة الإسلام إلى البشر فى أنهم شعوب وقبائل هى للتعارف والائتلاف والانسجام ، وليست للتباين والتعارض والنفرة ـــ كذلك نظرته إلى خلق الزوجين من كل شىء كانت غايتــه أيضاً الائتلاف والانسجام وليس النفرة والتعارض . ويشير إلى هذه الغاية ما تنطق به آية أخرى هى قوله تعالى فى شأن الذكر والأنثى من الإنسان : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، وقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » .

وكان لابد من وجهة نظر الإسلام ـــ وقد أعلن مساواة البشر فى الطبيعة ، ومساواة الذكر والأنثى فى الأصل والنشأة ، وألغى تبعاً لذلك كل المفارقات والفجوات التى لا تتصل بالطبيعة الإنسانية ـــ أن يدعو الإنسان إلى الاحتفاظ بقيمته الإنسانية سواء فيما يتصور ، أو فيما يتصرف ، أو فيما يعتقد .

وهنا فى دائرة الاعتقاد لا ينبغى له إذن

أن يؤله مساويا له فى البشرية ، وبالأولى لا يؤله أقل منه فى الطبيعة . وإلا إن فعل واحد منهما — يكون قد عكس آية الوجود فيما يتصل بخلقه ووجوده .

وهنا كان منطق الإسلام فى دائرة العقيدة والإيمان أن يدعو الإنسان إلى أن يتجه بإيمانه وعبادته إلى حقيقة هى أعلى من الإنسان، وهى ذات المولى جل شأنه ، وأمارة كون هذه الحقيقة حقيقة عليا ، أنها ليست شبيهة لكائنات أى جنس من أجناس الوجود . وقد عرفنا أن أجناس الوجود تقوم جميعها على الزوجية الذكر والأنثى . أو الفاعل والقابل ، وأنه عن طريق هذه الزوجية يكون الولد وتكون الكثرة والزيادة . فإذا كانت هذه الحقيقة العليا لم تولد فهى لا تلد أيضا ، وإذن فهى فرد صمد . وهذا ما ذكره الإسلام فى سورة من السور القصيرة فى فى كتابه فى قوله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

وبهذا كله حدد الإسلام غاية رسالته ، وخلق من التابعين له والذين آمنوا به من أفراد المجتمعات السابقة عليه المختلفة فى الجنس أو الاعتقاد أو العرف والعادة ، مجتمعا جديدا . وأصبح التاريخ الإنسانى يتحدث عن «مجتمع إسلامى» دخل فيه العرب والفرس ومن سيطر عليهم الرومان فى الشرق الأدنى ، ثم امتد فوصل إلى ما وصل إليه انتشار الإسلام فى إفريقيا وآسيا ، وفيما وراء إفريقيا وآسيا من قارات العالم القديم .

وهنا نجد أنه نشأ مجتمع جديد انحلت فيه المجتمعات التى سبقته ، وكان لهذا المجتمع الجديد هدف يغاير أهداف تلك المجتمعات السابقة ، وتبعا لقيام هذا المجتمع الجديد وجد نوع من الروابط بين أفراده ، يقصد إلى تحقيق الهدف وصيانة المجتمع نفسه من الضعف أو الانحلال . وتحقيق الهدف هنا هو توكيد اعتبار القيم التى جاءت بها الرسالة الإسلامية ، وهذه القيم هى ما يتعلق بوضع الإنسان وضعا متساويا للإنسان الآخر فى الطبيعة والاعتبار ، وإلغاء الفوارق التى تقوم عليها عادة الطبقات والطوائف تبعا لذلك ، وكذا ما يتعلق بتحديد المقياس الذى يتميز بمقتضاه إنسان عن إنسان آخر ويفضل به شخص شخصا آخر ، وهو مقياس التنمية للمواهب والاستعدادات البشرية ، وليس مقياس النمو والتزيد فى الشرف أو المال أو الجاه .

وجدة المجتمع الإسلامى إذن أنه مجتمع لا يعترف بالطبقات ، ويقوم على أساس المساواة ، وإن كان يقر مبدأ التفوق والمفاضلة فى المعانى الإنسانية ، بينما المجتمعات

السابقة كانت مجتمعات طبقية ، أساس المفارقات بين الأفراد فيها عوارض تعرض لذات الإنسان ، دون طبيعة الذات نفسها ، وجدته أيضا فى أنه - بناء على رد الاعتبار للإنسان أى إنسان من حيث إنه طبيعة إنسانية - حول الإيمان بالشرك فى الألوهية - لأنه لا يتفق مع كرامة الانسان - إلى الإيمان بالوحدة ، لفت النظر إلى أن المعبود الواحد هو فوق الإنسان ، وأول الموجودات ، وأصل الوجود ونهايته كذلك « هو الأول والآخر » « كل شىء هالك إلا وجهه » .

* * *

هذا مثل يوضح كيف أن المجتمع الإنسانى يُصنع ، وأن صنع أى مجتمع جديد لابد أن تسبقه دعوة إلى تحديد هدف جديد ، ويتلو تحديد الهدف الروابط بين الأفراد ، تلك الروابط التى تساعد على تحقيق الهدف الجديد أو استمرار قيام المجتمع الناشئ .

الثورة المصرية نهضة فى مجتمع قائم :

ومثل آخر لا يوضح قيام مجتمع جديد ، ولكن يوضح «نهضة» المجتمع القائم بالفعل ، ونهضة أى مجتمع قائم تساوى قيام مجتمع جديد فى الحاجة إلى دعوة وفى الإيمان بما تتجه الدعوة إليه من هدف من قائد الدعوة نفسها ، والفرق بعد ذلك بين قيام مجتمع جديد ونهضة مجتمع قائم هو فى ذات الهدف ، فعند النهضة هدف المجتمع لم يتغير ، بينما عند قيام مجتمع جديد يستلزم الأمر تحديد هدف آخر يغاير تماما ما كان من هدف للمجتمع السابق عليه .

هذا المثل الآخر هو مجتمع « ثورة الإقليم المصرى» فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، فمجتمع الإقليم الجنوبى قبل الثورة هو مجتمع إسلامى فى رقعة الوطن العربى ولكن غشاه من الانحراف ما جعله مجتمعا لا يعبر عن هدف المجتمع الأصيل ، فالمساواة التى دعا إليها الإسلام تحولت فى المجتمع إلى طبقات وطوائف ، وكرامة الإنسان التى أعلن عنها الإسلام فى توجيه العبادة والإيمان إلى الله وحده سقط اعتبارها تبعا لنمو المعنى الطبقى والطائفى فى ذاك المجتمع ، وهنا ابتعد المجتمع المصرى السابق على الثورة عن هدفه ، وإذا ابتعد أى مجتمع عن هدفه ضعفت أو تلاشت الروابط التى ربطت بين أفراده لأن تلك الروابط وجدت لوجود الهدف وفى سبيل المحافظة عليه .

وعند ما قامت ثورة الإقليم الجنوبى أعلنت هدفها فى : المساواة، والكرامة الإنسانية، أى أعلنت الهدف الذى هو للمجتمع الإسلامى فى رقعة الوطن العربى - الإقليم المصرى - فهى ثورة لا انقلاب ، ولكن لإعادة المجتمع الإسلامى العربى فى الإقليم المصرى ، بعد ما ابتعد عن هدفه

وضعفت روابطه بين أفراده فيما قبل قيامها ورد أي مجتمع إلى هدفه الذى قام من أجله هو نهضة ، وليس إنشاء لمجتمع آخر جديد ، لأن الهدف لم يختلف عندئذ .

وإذن مجتمع الثورة العربية هو مجتمع إسلامى عربى ، أى مجتمع يرتبط بهدف المساواة ، ورفع الطبقية والطائفية ، وبالكرامة الإنسانية فى بلد عربى ، والقومية العربية لا تعنى إلا تحقيق هذا الهدف فى الوطن العربى ، ولا تعنى بحال شيئاً آخر فى ذلك ، وإلا كانت تعبيراً لا مدلول له ، وهدف المساواة والكرامة الإنسانية هو هدف الرسالة الإسلامية التى قام المجتمع الإسلامى على أساسها ، وحدد الروابط بين أفراده قصداً إلى تحقيقها ، وقد تجلى لنا هذا الهدف من توضيح قيام هذا المجتمع الإسلامى على أنقاض المجتمعات السابقة عليه .

وهنا نعود إلى شرح معنى : الخدمة الاجتماعية . ومعناها الآن بسيط كل البساطة : الخدمة الاجتماعية هى إذن كل عمل يصون هدف المجتمع من الضعف . هى كل عمل يسعى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى وقاية هذا الهدف من التخلخل فى نفوس أفراد المجتمع . هو كل عمل يتمثل فيه هذا الهدف .

كيف ؟ إن توجيه الناشئة إلى القيم التى تتبلور فى هذا الهدف خدمة اجتماعية . وإن دفع أفراد المجتمع بالقول أو بالعمل إلى تنمية الشعور المشترك بينهم ، ذلك الشعور الذى يعكس بدوره هدف المجتمع – خدمة اجتماعية : إن إشعار الإنسان لإنسان آخر فى مجتمعه بمساواته له فى معنى الإنسانية ، وفى الكرامة والاعتبار – خدمة اجتماعية . فمثلا إن أسند إليه عملا ، أو أعطاه شيئاً ما يدفع به حاجته أو يدفع عنه أذى – لا يشعره بأنه أقل منه فى معنى الإنسانية أو فى الاعتبار والقيمة .

الإحسان فى صوره العديدة – فى العشرة والمعاملة ، فى الإعطاء والمنح ، فى الرعاية والولاية ، فى التوجيه والقيادة – خدمة اجتماعية .

الزكاة والصدقة – إن لم يصحبهما عدم الزهو وعدم الرياء – يصوران معنى الخدمة الاجتماعية . « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » . والأذى الذى يتبع الصدقة ليس هو الأذى المادى وحده ، بل والأذى النفسى . ومصدر الأذى النفسى عند المتصدق هو فى زهوه وريائه بصدقته .

إن قيام كل فرد بواجبه فى نطاق ما يناط به – خدمة اجتماعية : فقيام الموظف بوظيفته ، وقيام العامل بعمله – فى إتقان – فى مصنعه أو متجره ، وقيام صاحب العمل فى المصنع أو المتجر برعاية حق المستهلك والعامل معاً ، وقيام الجندى فى الميدان بما يقتضى حق الدفاع عن الوطن ، وقيام رجل الشرطة بتنفيذ

القانون فى غير تحيز ، وقيام القاضى برسالة العدالة فى قضائه ، وقيام الطبيب برسالة الإنسانية فى مباشرته لعلاج زائريه .

كل ذلك خدمة اجتماعية . لأنه ينمى شعور الترابط بين الأفراد الذى أوجده هدف المجتمع من المساواة والكرامة . فهو بطريق غير مباشر يقى هدف المجتمع من الضعف أو التلاشى .

* * *

الأمومة والمجتمع :

وهنا يأتى الحديث عن دور الأمومة فى الخدمة الاجتماعية . والأمومة ترجع إلى « الأم » فى معناها . والأم هى المرأة ذات الحنو والعطف . وكل امرأة معدة بطبيعتها ـ التى تمثل فى الأنوثة ـ لأن تكون ذات حنو وعطف .

والحنو مشترك مع الانحناء فى المعنى ، والعطف مشترك مع الانعطاف وهو الميل كذلك فى معناه . وإذن من لوازم الأمومة الحنو والعطف أو الانحناء على الغير والانعطاف والميل نحوه . ودور الأمومة لذلك هو دور الانحناء على الغير والميل نحوه . ولأن الحنو والعطف أمر طبيعى فى الأم فالدور الذى تؤديه الأمومة من الانحناء على الغير والميل نحوه دور طبيعى ، ينبثق من طبيعة المرأة . وينميه فقط ممارستها لهذا الدور .

وكل عمل يقوم به الإنسان عن ميل واستعداد فطرى فيه ، يجد فيه متعة ، ويكون فى الوقت نفسه مثمراً . فأى جانب أو أية جوانب من جوانب المجتمع فى حاجة إلى حنو وعطف ، وبالتالى فى حاجة إلى دور الأمومة ؟ .

إنه جانب « الضعف » فى المجتمع ليقوى ، وجانب « الركود » ليستأنف حركته ، وجانب « الهبوط » لينهض .

إنه ميدان التربية والتنشئة ، ليسير الصغير ويعتدل فى سيره ، إنه ميدان التمريض ليدفع المريض عن كاهله ثقل المرض ويستأنف حركته فى الحياة » .

إنه ميدان الحرب ليزيل الجندى عن نفسه داعى الجبن وخور العزيمة ، وينهض بروح وثابة ملؤها الإقدام والأمل .

إن هذه الميادين يثمر فيها دور الأمومة ، دور الحنو والعطف ، أكثر وأسرع مما يثمر دور الرجل . بل إن قوة عضلات الرجل ، وصلابة إرادته قد تزيد ضعف الصغير والناشىء أو قد تدفعه إلى الاعوجاج فضلا عن أن تخلق من ضعفه هذا قوة واستقامة . وقد ترهق المريض بالإضافة إلى مرضه ، فضلا عن أن تعجل باستئنافه الحركة فى الحياة . وربما تكره الجندى على القتال ، ولكنها لا تجعل منه محبا للاستشهاد فى سبيل وطنه ومجتمعه .

إن الصغير والناشئ تستهويه نظرات الأم ويحن إليها كما يحن إلى أن يمتص اللبن من ثديها مباشرة ، فيطيعها ويتبعها فيما تفعل أو تقول فى يسر وفى هدوء وفى مقابل ذلك يخشى نظرات أبيه لأنها نظرات إنسان له من قوة الصوت وخشونة الحركة وضخامة بناء الجسم - بالقياس إلى المرأة - ما لا يغرى طفله بأن يسكن ويطمئن إليه كما يسكن ويطمئن إلى أمه . ومن هنا ندرك : أن رقة صوت المرأة ، وخفة حركتها ، ونعومة تكوينها الجسمى — هى التعبير الحسى المشاهد عما أودع فى طبيعتها من العطف والحنان . كما ندرك أن هذه الرقة فى الصوت ، وهذه الخفة فى الحركة، وهذه النعومة فى تكوينها الجسمى التى جعلها الرجل فى بعض الأحايين أمارة على ضعفها - هى التى تفعل فعلها فى تحويل الضعف فى الناشئ إلى قوة ، والجمود فى المريض إلى حركة ، والانحطاط النفسية ، وهبوطها عند الجندى المحارب إلى إقدام واستبسال عند الاشتباك فى ميدان الحرب والقتال .

وكذلك المريض فى سرير مرضه يستهويه ما يستهوى الصغير الناشئ من عطف الأمومة وحنانها إن قامت المرأة بتمريضه والعناية به إنه يشعر بما وهبها الله من طبيعة الأنثى ، عندما تلتقى نظرته بنظرتها ، أو عندما تقدم له يدها الناعمة ما يسكن ألمه من علاج ، أو يشبع نفسه من طعام ، أو عندما يقترب وقع قدميها من سريره فى غير إزعاج — إنه يشعر بذلك فتتحرك الحياة فى نفسه ويقوى أمله فى الحياة من جديد . وهنا إذا قوى الأمل فى الإنسان ارتفعت قدرته على اجتياز الأزمات ، واستهان بها . وذلك سر النجاح فى الحياة ، ليس على المرض وحده وإنما على كثير من العقبات .

وشأن الجندى فى ميدان الحرب لا يتخلف عن أن يتأثر بعطف الأم وحنوها ؛ لأنه إذا رأى هذه الرقيقة فى صوتها ، والخفيفة فى حركتها ، والناعمة فى تكوينها تقاسمه مخاطر الميدان بوجودها فيه أو بالقيام على خدمته فى صحته ، أو بالعناية به فى مرضه — تذكر أنه رجل قوى العضلات ، صلب الإرادة ، أعد بقوة عضلاته وصلابة إرادته للدفاع عن وطنه ومجتمعه. وفى وطنه ومجتمعه من ينتظر منه أداء دوره الخاص به فى الحياة . فى وطنه أمه ، وامرأته ، وطفله ، وأبوه الشيخ وأولو رحمه . فى وطنه ومجتمعه فوق ذلك « العلم » الذى يرمز إلى شخصية هذا الوطن . « العلم » الذى يعبر عن الهدف الذى قام أو نهض من أجله هذا المجتمع . فإذا تذكر رجولته ودوره الخاص به فى حياة مجتمعه ارتفعت معنويته وتملكه الاقدام وأصبح جنديا لا يهاب الموت لأنه سيرى فيه الحياة .

سبحانك اللهم فى خلقك ! كيف ميزت بين الرجل والمرأة ؟ وما ميزت بينهما إلا لتجمع بينهما . وما أفردت واحد منهما بطبيعته ليستغنى عن الآخر أو ليعتزله فى الحياة . ولكنك زودت كلا منهما بطاقة ليتم الوفاق بينهما، وليكون أحدهما عونا للآخر فى حياته .

وإن مجتمعا إنسانيا لا يستقيم أمره أبدا ، إذا كان مجتمع رجال فقط ، أو مجتمع نساء فقط ، أو عطلت فيه طاقة الرجل ، أو عطلت فيه طاقة المرأة . إنه عندئذ يكون غير مجتمع طبيعى . إنه عندئذ لا يكون هو المجتمع الذى أراده الله الخالق ، الذى ميز كلا من الرجل والمرأة بميزة تدفع إلى لقائهما ، وإلى الحركة معا فى طريق الحياة البشرية .

* * *

الأمومة والأسرة :

هذا الذى للمرأة بحكم أمومتها من ميادين الخدمة الاجتماعية إن بدا متفرقا فى حيـــاة المجتمع ، فهو مجتمع فى حياة الأسرة : فى الأسرة صغير وناشئ ، وفى الأسرة مريض ، وفى الأسرة من هو فى حاجة إلى أن ينهض كما ينهض الجندى فى الميدان .

فى الأسرة الولد ، وفى الأسرة المريض من الأولاد أو الزوج ، وفى الأسرة الزوج ، وهو فى حاجة - كالجندى سواء - إلى أن ينهض ويقدم فى حركته فى الحياة .

والأم لا غيرها بعطفها وحنانها ، برقة صوتها وخفة حركتها ، ونعومة تكوينها ، هى التى تستطيع أن تعين الصغير على السير والاعتدال فيه ، وتعطى الأمل للمريض فى الشفاء واجتياز أزمات المرض ، وتجعل من الزوج رجل إقدام وشجاعة فى الحياة .

إن هى قامت بدور الأمومة فى خدمة الأسرة خدمت المجتمع كله . ومن السهل عليها أن تقوم بدور الأمومة فى خدمة الأسرة لأنها أنثى وامرأة . والذى يصعب عليها أمر القيام بهذا الدور ليس هو طبيعتها . وإنما أمر خارج عما لها من طبيعة ، تميزت بالاستعداد للأمومة . قد تكون تنشئتها الأولى حرفت فيها هذه الطبيعة . وقد يكون عنادها للرجل أو تقليدها إياه قد استبد بها فكبتت ما لها من أنوثة . وبذلك ابتعدت عن أن تقوم بدور الأمومة . وهى إذ تبتعد عن أن تقوم بدور الأمومة ، لا تستطيع أن تقوم بدور الرجولة ، وإن حاولت أن تمثله لأن ذلك ضد طبيعتها الأولى . والإنسان لا يفقد خصائص طبيعته الأولى بحال ، وإن تعطل بعضها الحين بالقسر وقوة الإرادة ، أو بحكم التكوين والتنشئة فى أدوارها المختلفة .

والمرأة التى تحاكى الرجل ، والرجل الذى يحاكى المرأة كلاهما يعيش فى صراع مع نفسه . وطرفا هذا الصراع فى نفسه : الطبيعة الخاصة

بواحد منهما والأسلوب فى الحياة الذى يريد أن يكره طبيعته عليه .

وكما أن تفريغ المجتمع ، أو تعطيله من المرأة أو الرجل يجعله مجتمعا غير طبيعى وعلى الضد مما أراده الله الإنسان ـ كذلك محاولة المرأة لأن تكون رجلا ، أو محاولة الرجل ليكون امرأة أمر غير طبيعى وعلى الضد مما أراده الله للإنسان .

* * *

الأمومة والتربية :

ولكن متى يؤدى دور الأمومة خدمة للمجتمع الكبير وهو الوطن أو المجتمع الصغير وهو الأسرة ؟ .

ليس فقط فى أن يكون فى تلك الجوانب من حياة المجتمع التى تحتاج إلى عطف وحنو . وإنما مع ذلك بأن يكون ذا قيمة وعلى صلة بالهدف الذى قام من أجله المجتمع ، أو نهض لبعثه من جديد .

وعلى نحو ما تفعل « الراهبة » فى مدرسة الصغار ، وفى ملجأ اليتامى أو الأطفال غير الشرعيين ، وفى المستشفى ، وفى ميدان القتال ـ فى أنها تقوم بدورها فى أى واحد منها لتنفذ إلى رسالتها ، وهى رسالة التبشير بما آمنت به . يجب أن يكون دور الأم ـ وهى كل امرأة ـ فى مجال الأمومة فى حياة المجتمع والأسرة معا .

يجب أن تذكر الصغير برسالة المجتمع الذى يعيش فيه . ورسالة المجتمع هى التى تحقق هدفه . يجب أن توقفه على خطوط هذه الرسالة تباعا وبالتدريج . فى مجتمع ـ كمجتمعنا هذا ـ يجب أن تعرفه ما هو الإسلام ؟ وما هى القومية العربية ؟ .

يجب أن تذكر المريض بالله وبأنه محل الأمل ، وأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون . يجب أن تثير فى الجندى حماس الاستشهاد فى سبيل الله . وسبيل الله هو سبيل الصالح العام للمجتمع .

ليست التربية زيا ، ولا غدوا ورواحا إلى مكان التعليم ، ولا نجاحا وسقوطا آخر العام ولا شهادة بإتمام الدراسة . إنما التربية تكوين عقلية وتكوين روح وخلق . أما العقلية فلكى يهتدى بها الإنسان فى حياته ، فلا يتخبط فى أحكامه وإدراكه لأحوال مجتمعه . وأما الروح والخلق فلكى يسلك فى حياته السلوك السليم ، سلوك المهذب وسلوك المضحى فى سبيل مثل مجتمعه ، لا سلوك الأنانى أو سلوك المخدوع بما فيه من واقع .

والمرأة التى تقوم بدور أمومتها فى مجالات الأمومة فى حياة المجتمع ، هى التى تقوم أولا بهذا الدور فى أسرتها الخاصة . لأنها عندئذ كمن يقيم البناء من أساسه .

الدكتور
محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

نفحات القرآن

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

جانب من العبرة فى قصة آدم عليه السلام

ا وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة !!
ب قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟؟
ج قال : إنى أعلم مالا تعلمون !! .

تمهيد :

خلق آدم هو الومضة الأولى فى مجاهل الدنيا ، وكانت قصة آدم أول أحدوثة فى مطلع الحياة .

والقصص عن آدم ليس جديداً فى القرآن بل هو فيما اشتملت عليه الكتب السماوية ، وكتب الحديث النبوى عندنا ، وكتب التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى .

وقد عنى القرآن فتعرض لقصة آدم فى ست وستين آية أو تزيد ، وجاءت هذه الآيات مبثوثة فى سبع سور، وتناولت من شأن آدم جوانب عدة .

ولو أن القرآن الكريم أراد بنا استيعاب هذه الجوانب كلها من طريقة خاصة لأخذ فى تفصيل أوسع مما ورد فيه ، ولكن القرآن كما عودنا نهجه فى كثير من قضاياه وقصصه يكشف لنا الغطاء عما يكون مستوراً علينا ، وينبهنا فى قصد من البيان إلى ما ينبغى أن نحيط به ، ثم يكتفى بهذا الإيجاز فى توجيهنا إلى الاستقصاء من طريق بحثنا ، وتتبع ما يصل إليه جهدنا العلمى فى تراث الأنبياء والعلماء من أهل الذكر .

وفى هذا التوجيه مسايرة لقوله تعالى ـ إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ـ ومسايرة كذلك لقوله تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون

وإذا كان للحديث عن آدم شعاب تطول ، فإنا نكتفى بجانب من العبرة فيه ، وهو حسبنا فيما زيد من نفحات القرآن .

١ ـ أفادتنا الآيات السابقة أن الله أخبر ملائكته أنه سيجعل خليفة فى الأرض ، وأن الملائكة ـ وكانوا على شعور سابق بأن آدم هو الذى سيستخلف ـ أخذهم حب الاستطلاع أن يتعرفوا وجه الأرجحية لآدم عليهم .. إذ هم المسبحون بحمد الله، والمقدسون له . . أما آدم فليس ملكا متعبداً بل هو إنسان فيه ما فيه من طباع الشر ، فسيكون له فى الأرض فساد، وسفك الدماء ، فكيف يختار دونهم ، وكأنهم حسبوا أن الخلافة مسألة روحانية ، لمجرد العبادة ، لا لشىء آخر، فهم يستفهمون عن المرجح لآدم ، وهو دون مستواهم عبادة : لا مباهاة بأنفسهم ، ولا تدخلا فى فعل الله ـ فكان الجواب إجمالا فى قوله تعالى ـ إنى أعلم ما لا تعلمون ـ .

وقد كان فضلا من الله على الملائكة أن يخبرهم بشأن اقتضته حكمته ، وفى هذا توجيه لنا إلى سياسة رشيدة فى مجتمعنا : وهى مكاشفة الأعلى لمن هو دونه بما يفيده العلم به ، إذ لم يكن هذا النبأ استشاريا للملائكة ، ولا استعانة بهم ، ولا وفاء لهم بحق عند الله فيما يريد أن يفعله بملكه ، وهو لا يسأل عما يفعل .

بل كان ـ أولا ـ محض تلطف من جانبه ليشعر ملائكته أنه يكرمهم حين يفضى إليهم بما يريده ، ولعل هذا من مظاهر السمو حين يرى صاحب السلطان أن يطمئن المقربين إليه على مكانتهم عنده ، فيزيدهم ذلك عرفانا لفضله ، وشكراً على تلطفه معهم .

وكان هذا النبأ ـ ثانياً ـ سبقا إلى وضع معالم الهداية فى طريق الإنسان ، قبل أن يأخذ الإنسان طريقه فى دنياه ، فإذا برز الإنسان من أفقه المحدود فى عالم الغيب إلى أفقه الفسيح المهيأ لحياته ، ولحركاته وسكناته استطاع أن يقتبس لنفسه مما صنع الله مع ملائكته ، وأدرك أن الله قد بذر لعباده بذور المعرفة ، وعلمهم أن يفضى بعضهم إلى بعض بما يعنيهم من شأن ، وأن يجعلوا تدبيرهم جماعياً لا فردياً ، واستشارياً ، لا استبدادياً ، كما أفصحت عن ذلك الشرائع بعد .

وشاهد العبرة واضح فيما صنع الله ، فإذا لم يكن هذا الذى قررناه مستفاداً من صنيع الله ، فماذا يكون القصد الذى نلتمسه من إخبار الله للملائكة ؟ .

أيكون مجرد خبر لا غير ؟ ذلك بعيد !

وكان من مظاهر السمو والتلطف ـ مرة ثالثة ـ أن يتقبل الله استفهام الملائكة ، ويجيبهم إجمالا بأنه يعلم ما لا يعلمون .

فلم ينقم عليهم أن يسألوه، ولم يبخل عليهم بالتنبيه إجمالا على أن لديه حكمة يعلمها وحده

ومن هذا فطن الملائكة إلى أن الأمر فوق تقديرهم، فازدادوا طمأنينة إلى صنع الله وأيقنوا أن في آدم صلاحية للخلافة ليست فيهم.

ومن هذه الفقرة في القصة نستفيد أن توجيه الاستفهام من الأدنى إلى الأعلى رغبة في العلم ليس تطاولا، ولا مساسا فيه بأحد الجانبين.

وأن الاقتصاد في السؤال مع الأعاظم ضرب من الأدب الكريم كما تأدب الملائكة مع الله عز شأنه، وفي التأسي بهم كمال وفلاح.

ثم يتجه التدبير الإلهي نحو الإعراب عن مقام آدم، وكرامته على ربه، فيخلق الله في آدم علما بأسماء الكائنات من سموات، وأرض، وشمس، وقمر، وحيوان، ونبات، وهواء، ونور، وظلمة، وجبال، وبحار، ونحو هذا مما يلابس أهل الدنيا، ويحتاج المقيم فيها إلى معرفته، ليستطيع مزاولة الحياة فيها، وبخاصة من يكون خليفة يقيم العدل، ويدفع الظلم، وينهض بتدبير الأمر في مجتمعه.

علم الله آدم أسماء تلك المسميات تكميلا له، ورفعا لشأنه، ثم طرحت من جانب الله مناظرة علمية بين الملائكة ليذكروا أسماء هذه الكائنات إن كانوا أهلا - أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين - وكان هذا أمر تعجيز لا تكليف، وكيف يكلفون بما لا يعرفونه؟؟ وإنما هو ترفق حكيم في إشعارهم بفضل آدم، وبيان استعداده لما لم يكن فيهم استعداد له من معارف وتدبيرات تتصل بالعالم الأرضي.

فلم يسعهم إلا الاعتذار بقولهم: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم»

ثم أجاب آدم عما عجزوا عنه، ونهضت له الحجة، وثبتت له المكانة المرموقة عند الملائكة.

وتبينت لهم الحكمة التي كانوا يتوقون إلى معرفتها من قبل، وهي صلاحية آدم لأمر لا يلائمهم، ولا تتهيأ له فطرتهم.

وحينئذ سجل الله على الملائكة تكريم آدم، فأمرهم بالسجود له: سجود تعظيم لا سجود عبادة، وسجودا في صورة ما، لا سجودا على الجباه كما نسجد نحن!!.

فإن ذلك لم يشرع إلا عبادة لله وحده.

وما كان آدم في قدره بالغا ما بلغ إلا بفضل ما منحه الله من علم نافع وعندي - غير مبالغ - أن هذه الحفاوة بآدم لعلمه تعتبر إيذانا بعيد العلم الذي أخذنا به أخيرا... وأي شيء أجدر بالتكريم من العلم؟؟.

وكيف يكرم العلم في شخص آدم بالسجود له

من الملائكة بين يدى الله وفى الجنة ، ثم لا يكون ذلك عيدا مستحبا عندنا .

وإذا كان علم آدم تعريفا بمسميات وأسمائها وليس خصوص أمور روحانية ، فلنا أن نعتبر العلم كله قبسا من فيض الله ، وأن المشاهد الذى ندركه من طريق الحس لم يكن متاحا إلا بمعونة الله وهديه ، وعلى هذا يستوى فى مفهوم العلم ما يكون للدين أو للدنيا ولو أن علم الدين أحب إلى الله ، وأقرب مثوبة ، وأعم نفعا .

فعيد العلم بوجه عام لا يحبس على نوع دون نوع وإن تفاوتت قيم العلوم .

غير أن العلم - وهو كما عرفنا من غراس الجنة ، وإشراقة من إشراقات الله فيها ... وأول نفحة من نفحاته وأعياده كانت فى رياضها لا يليق بشأنه ، ولا بالإنسان الذى كرمه ربه بالعلم وأسجد الملائكة له من أجل العلم أن يضار أحد به .

بل يكون المرء ماجدا بالعلم فى نفسه وبين الناس ، ونافعا لنفسه وللناس .

ومن آفة العلم أن يسخر فى غير أهدافه ، أو يكون مضيعا بين أهله ، فربما كان ساعتئذ كالخمر : إثمه أكبر من نفعه .

ومع ما تم من تكريم آدم بالسجود له أبى الله إلا أن يكون للعلم خصوم لا يدينون به وأن يكون لآدم حاقد لا يسجد له ، وأن يكون من وراء هذه القصة الرحيمة قصة أخرى شقيت بها الإنسانية ، وعاشت فى مرارتها ، ولن تخمد نارها إلا إذا خلت الأرض من سكانها

وتلك القصة هى تمرد إبليس ، وعدم سجوده لآدم كما سجد الملائكة ، ووقوفه من الله موقف الجدل .

وقد انفردت سورة البقرة بذكر الجانب الأول المتعلق بخلق آدم ، وتعليمه ، وإقناع الملائكة بمكانته ، وبالسجود له .

ثم جاء الاستثناء لإخراج إبليس من الساجدين ، ووصفه بأقبح صفات ثلاث : إلا إبليس ، أبى ، واستكبر ، وكان من الكافرين .

ومع أن هذه القصة وردت فى خمس سور أخرى سوى البقرة ، فكلها تكتفى بالجانب السلبى المتعلق بتمرد إبليس ، وتقبيحه ، وطرده ، وتحذيرنا منه ، ومن ذريته وجنوده ، لأن جانب الحذر من إبليس ، والتخويف منه ، والحث على مخالفته أشد اتصالا بنا ، وأهم عناية به ، فأطبقت السور كلها على ترديد هذا الجانب الخطير فى حياتنا ، وإشعارنا بوجوب الحيطة له : دون حاجة إلى تكرار صدر القصة وما فيها من حوار مع الملائكة وأنت ترى فى سورة الأعراف - مثلا - ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس

لم يكن من الساجدين ـ وترى فى آية أخرى بسورة الحجر ـ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ـ وفى سورة الكهف ـ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ـ وفى سورة طه ـ فسجدوا إلا إبليس أبى ـ وفى سورة ص ـ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين .

ففى هذه المواطن كلها ترديد لا متناع إبليس وأنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه وتقبيح له بالاستكبار والإباء والكفر وفى كل موطن سئل فيه إبليس عن سبب امتناعه لم يكن له من معذرة يتعلل بها : غير أنه كان مخلوقا من النار ، وأن آدم من طين .

وليس هذا بجواب ، وإنما هو إمعان فى السفه ، وشطط فى العناد والتبجح ولم يكن أزكى من الملائكة ولا مثلهم ، حتى يستكبر عما لم يستكبروا عليه ، فهم من نور صاف ، وهو من مارج تختلط ناره بدخانه ، فليس له من وجه فى الحجاج ، وإنما هى شقوة غلبت عليه ، وغضب أحاط به .

ومن هذا التشبث بالجدل الذى عابه الله على إبليس ، وكرره بأسلوب التشنيع وقرنه باللعنة والمهانة يمكن أن ندرك معابة الجدل والمشادة فى النقاش ، والركون إلى الغلبة فى عنف وبذاءة ، ومما ورد فى كراهية الجدل قول النبى صلوات الله عليه (أنا زعيم ببيت فى أعلى الجنة لمن ترك المراء ولو كان حقا) .

وهنا موقف بين الآيات يحتاج إلى شئ من التمحيص فالقرآن يقول فى كل آيات القصة فسجدوا إلا إبليس ، أو فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس وهكذا مما يفيد أنه من الملائكة ، ثم يقول القرآن فى آية أخرى ــ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ــ وهذا يفيد أنه من الجن : لا من الملائكة . . وإبليس نفسه يقول ــ خلقتنى من نار ، وخلقته من طين فهذا قاطع بأنه من الجن والجن من النار لا جرم ــ والله يقول : والجان خلقناه من قبل من نار السموم ــ فكيف يطلق على إبليس أنه من الملائكة .

تكلف العلماء فى تحقيق هذا كلا ما كثيراً وأيسره قبولا أنه يذكر مع الملائكة تبعا لا استقلالا فقد كان يعيش فى زمرتهم ويحاكيهم فى أعمالهم، وبهذا تلقى الأمر بالسجود معهم ، فكان حريا به أن يستجيب .

ونحن نرى من شاهد أحوالنا أن المقيم فى أهل بلد يتابعهم فيما يطلب إليهم ، وأنه ما دام يعاشرهم ويساكنهم كواحد منهم فهو مسئول عما يسألون عنه ، وإلا كان شذوذه عنهم مجلبة لما لا يرضاه ، فكيف إذا كان شذوذا مقصودا يتشبث به ؟ .

لهذا كان من عدل الله فى جزائه ، ومن حكمته فى قضائه أن يطرد إبليس بعيداً

عن الملائكة ، وأن يبادره بقوله — فاهبط منها — من الجنة — فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين — وكان كذلك من العدل فى الجزاء والحكمة فى القضاء أن يسجل عليه اللعنة إلى يوم الدين — يوم القيامة .

وكان من رحمة الله بعباده أن يحذر آدم وزوجه من عدوهما هذا وأن يحذرنا نحن من عداوته لنا ، وفتنته إيانا ، حتى لا نقع فى شراكه كما أخرج أبوينا من الجنة .

وقد حدثنا الكتاب العزيز فى آيات القصة وفى مواطن غيرها أن الشيطان لا يفتر نشاطه فى إفسادنا ، وأنه وقد يئس من رحمة الله له أعلن أمام الله فى سفه وتبجح أنه ليفتنن أبناء آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .

وحدثنا الكتاب العزيز أن الله سيعصم من اعتصم بربه إلا الغاوين من أرباب الهوى والفساد ، وأنصار الضلال .

وعلمنا الكتاب العزيز أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما خشينا من غواية الشيطان — « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » — والأمر لا يكلفنا عند مخالجة الشيطان ، بل وفى كل حال غير استعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وحينئذ يندحر الشيطان ويخفت نشاطه ، وقد صدق الله فى وعده لنا برعايته « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون » — .

هذا وقد اكتفينا من القصة بما ذكرنا ، ولها جوانب أخرى فسيحة كما أسلفنا . والله يهدينا به إلى خير ما يحبه من عمل خالص ؟ .

عبد اللطيف السبكى

عضو جماعة كبار العلماء

وأستاذ فى كلية الشريعة

الهمة العالية [من الشعر الجيد]

ليس التعلل بالآمال من أربى	ولا القناعة بالإقلال من شيمى
وما أظن بنات الدهر تتركنى	حتى تسد عليها طرقها هممى
سيصحب النصل منى مثل مضربه	وينجلى خبرى عن صمة الصمم

مُثُل عُليا إسلاميّة عربيّة

للأستاذ الدكتور محمّد يوسف موسى

٥ - فى العلاقات الدولية (تتمة)

فى كل حرب يكون أسرى، فكيف يعامل الإسلام هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم ووقعوا فى الأسر أثناء الحرب أو بعدها ؟ كيف يعاملهم ، بخاصة بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وقد استقر بهم الأمر فى الأسر لا حول لهم ولا قوة ، وهم لا ينتظرون إلا القتل جزاء ما فعلوا بالمسلمين من كيد وقتال وأذى كبير ؟ .

إن الله اللطيف الخبير بالنفوس الإنسانية، وبما ينتابها أحيانا من الضعف الذى يضل بها عن الطريق المستقيم ، يطلب منا أن نرحم هذا الضعف ، وأن نطلب له الطب والشفاء بالخير والحسنى لا بالإعنات الذى ينتهى غالبا إلى العناد ، والضلال الذى لا هدى يعقبه بحال .

ومن ثم ، نجد الإسلام يضرب أروع الأمثال فى معاملة الأسرى معاملة إنسانية، إن ما أثر عنه فى هذه الناحية لا يعرف التاريخ ما يقرب منه فى أى دين آخر ، ولا فى أى قانون أو نظام وضعى فى قديم الزمن وحديثه حتى هذه الأيام ، أيام المدنية الحديثة كما يزعمون !.

وقد وضع القرآن الكريم الأساس الاول فيما يجب أن تكون عليه معاملة الأسرى ، ثم جاءت السنة النبوية بعد هذا بالتفصيل ، وصار هذا وذاك أمرا متبعا وقواعد ملزمة يجب أن تحكم هذه الحالة التى تتخلف عادة عن الحروب ، وذلك تخفيفا من ويلاتها التى تصيب الجميع ، الغالب والمغلوب كما هو مشاهد ومحسوس .

يقول الله تعالى فى سورة محمد عليه السلام: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها».

وبهذا النص القرآنى صار ولى الأمر له الخيار بين أمرين فيما يختص بالأسرى : إما أن يمن عليهم ، أو على من يشاء منهم ، ويخلى سبيلهم دون أى عوض، أى لوجه الله تعالى وحده ، وإما أن يكون إطلاقهم وتخلية سبيلهم نظير فدية ينتفع بها المسلمون ،

وليكون هذا فيه شيء من التعويض والجزاء بما فعلوه .

ولذلك ذهب كثير من الفقهاء ورجال العلم والتفسير إلى كراهة قتل الأسير [1] ، ومن هؤلاء عطاء والحسن وابن عمر وكثير آخرون غيرهم .

جاء فى كتاب أحكام القرآن للإمام الرازى الجصاص ، عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : من عليه أو فاده [2] . وجاء فيه أيضا أن رجلا سأل الحسن عما يصنع بالأسير ، فقال : يصنع به ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى بدر ؛ يمن عليه ، أو يفادى به .

وروى عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء « اصطخر » ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قول الله تعالى : « فإمّا منًّا بعدُ ، وإما فداء » .

* * *

على أن من الفقهاء من أجاز لولى الأمر قتل الأسير ، وذلك بالرجوع إلى القرآن وإلى فعل الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم . ففى القرآن قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ، وقوله فى سورة التوبة : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخِنَ فى الأرض » الآية . .

وهذه الآية الثانية نزلت فى أسارى « بدر » حين مال الرسول إلى رأى سيدنا أبى بكر وأخذ به ، ولم يرض بقول سيدنا عمر الذى أشار بقتلهم ، وكان أن أطلق الرسول الأسرى نظير الفدية التى أخذها المسلمون ، ولكن القرآن نزل مبينا أن القتل كان هو الرأى الصحيح الذى ينبغى الأخذ به .

وأما السنة ، فإن من المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل يوم « بدر » عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، بعد الأسر كما قتل يوم « أحد » أباعزة الشاعر بعد أن صار فى الأسر .

وكذلك كان الأمر فى بنى قريظة ، بعد أن نزلوا على حكم سعد بن معاذ فصاروا بذلك فى حكم الأسرى ، فقد حكم بقتل المقاتلة منهم وسبى الذرية ، وكذلك كان .

وهكذا نرى رأيين متعارضين فى بادئ الرأى ، ولكل منهما سنده من الكتاب والسنة وأنصاره من رجال التفسير والفقه .

ولكن ينبغى أن نفرق بين حالين مختلفين وبذا يزول التعارض : حال غزوة بدر وأمثالها وما كان فيها من ضراوة المشركين وفجورهم وإمعانهم فى الشر والاعتداء ،

---

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الكراهة فى ذلك الزمن كانت تطلق على التحريم ، ويشهد بذلك كثير من النصوص الفقهية عن الشافعى ومالك وغيرهم .

(٢) ج ٣ : ٤٨١ ، المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ .

وخروج صناديدهم وقادتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين .

وتلك حال شاذة يجب أن يكون لها حكم يناسبها ، وهو عدم المن على الأسرى ، وبذلك يكونون عبرة لغيرهم ، وتتمكن هيبة المسلمين ورهبتهم فى قلوب الأعداء الذين لا يصلح معهم العفو ، بل الخير أخذهم بالشدة والعقاب الغليظ .

وبجانب هذا الحال الشاذ ، الأحوال الأخرى العادية ، فهنا لا يكون القتل هو الواجب ، بل المنّ والعفو أو الفداء لعل الله يميل بهم إلى الإسلام ، ويكون منهم حماة وناشرون له فيما بعد .

* * *

ومهما يكن من جواز قتل الأسير أو كراهته فإن الإسلام يوصى بمعاملته معاملة تليق به باعتباره إنسانا ، كذلك كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة فى زمنه ، وكذلك ينبغى أن يفعل المسلمون فى كل زمان .

حدث أن وقع ثمامة بن أثال أسيرا بين أيدى المسلمين ، وكان سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإكرامه ، وذلك بقوله : « أحسنوا إساره » ، فكانوا يقدمون له لبن ناقة الرسول غُدُواً ورواحا ، وبهذا كان على خير حال يكون لأسير .

وكان من أمره أن النبى خرج إليه وقال له : « ماذا عندك يا ثمامة ؟ » ، قال : عندى يا محمد خير ! إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنْعِمْ تنعم على شاكر ! وإن كنت تريد المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت .

فتركه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كان الغد ، فخرج إليه كالمرة الأولى وقال : « ماعندك يا ثمامة » ؟ قال : عندى ما قلت لك فقال : « أطلقوا ثمامة » ، فأطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا محمد ! والله ما كان على الأرض أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إلىّ ! وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ أى ملت إلى الإسلام ، فقال : لا ، ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا تأتيكم من يمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وزاد ابن هشام على هذا أنه خرج فيما بعد إلى اليمامة فمنع أهلها أن يحملوا إلى مكة شيئا ، فكتب المشركون إلى النبى يذكرونه بما يأمر به من صلة الرحم ، فكان أن كتب إلى

ثمامة أن يخلى بين أهل مكة وما يريدون من حمل الحنطه إليهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يعنى عناية خاصة بالنساء ، ويجاملهن ويترفق بهن غاية الرفق .

حدث أن وقعت ابنة حاتم الطائى (أحد من ضرب بهم المثل فى الكرم) فى أيدى المسلمين، فأنزلوها بمكان يراها فيه الرسول إذا مر به ، فتعرضت له وقالت : هلك الولد ، وغاب الرافد (تعنى أخاها عديا) ، فامنن منّ الله عليك . فقال لها :

« قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك » .

فأقامت بين المسلمين حتى أتاها رهط من قومها وعزمت على الرجوع معهم ، فكساها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعطاها ما يلزمها من النفقة ، فخرجت معهم مكرمة ، وعادت إلى بلدها وقومها .

* * *

هذا عن المن بلا عوض وأثره الطيب فيمن يُمَنّ عليه . وفى الفداء بعوض كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرعى العدل دائما شأنه فى كل عمل يأتيه ، فلا يفرق فى هذا بين قريب أو حميم أو غيرهم .

روى الإمام القرطبى فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » [1] ، عن ابن إسحاق ، أن العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم كان من أسرى يوم « بدر » ، وقد بعثت قريش إلى الرسول فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا .

أما العباس فقال : يارسول الله إنى كنت مسلما ، فقال الرسول : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك بذلك ، فأما ظاهر أمرك فكان علينا ، فافد نفسك وابنى أخويك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمر أخا بنى الحارث بن فهر » .

فقال العباس : ماذاك عندى يا رسول الله قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل (وهى امرأة العباس) فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقثم ؟ » .

فقال أبا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أم الفضل » . ثم فدى نفسه وبنى أخويه وحليفه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه ، وكان فداؤه مائة أوقية من ذهب ، وكان هذا أكبر فداء لأنه كان رجلا موسراً .

وعن ابن شهاب أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إئذن لنا فلنترك

(١) جـ ٨ : ٥٢ - ٥٣ .

لابن أختنا عباس فداءه ، فقال : « والله لاتذرون درهما » ، بل قال : « أضعفوا الفداء على العباس » ، فأخذ منه المبلغ الذى ذكرناه على حين كان فداء كل واحد من الأسارى أربعين أوقية لاغير .

* * *

وبعد ! ما أكبر الفرق بين حكم الإسلام فى الأسرى ، وما وصى به رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم من معاملتهم برفق وإحسان وإكرام مما كان له أثر كبير طيب فيما بعد ، وبين ما نعرفه اليوم من معاملة الأسرى من الدول الغربية المتمدنة كما تزعم .

لقد رأينا بأنفسنا سنة ١٩٤٥ بأوربا نفسها عند سفرنا إليها كيف كانت فرنسا تعامل الأسرى الألمان ، إنها كانت تعتبرهم بمنزلة الحيوانات التى لا تحس ولا تشعر بكرامة أو إهانة تنزل بها ، وكانت تسومهم سوء العذاب ، وتنزلهم منزلة الهوان فى كل شىء .

إنهم كانوا يعاملونهم على أنهم أرقاء ملكوا رقابهم ، أو يسخرونهم فى الأعمال الشاقة التى لا يقوم بها عادة إلا الحيوان . وكانوا يتعمدون أن يشعروهم بالذل والهوان ، حتى لقد رأيت بنفسى أن الفرنسى الذى كان يحادث الأسير الألمانى ، كما يحادث الإنسان الإنسان كان يعتبر خائنا ويستحق العقاب ! .

ورأيت مثل ذلك ، أنا وكثير من إخوانى وزملائى ، بألمانيا بالمنطقة التى ابتليت منها بالاحتلال الأمريكى ، فقد كان الألمان فى هذه المنطقة وغيرها أذلاء حقا بكل معنى الكلمة ، وذلك إلى درجة أن كان اليأس يتمكن من قلوبهم أن يعودوا من بنى الإنسان كما كانوا من قبل .

من هذه المقارنة السريعة ، فى هذه الناحية وحدها فصلا عن النواحى الأخرى ، يتبين لنا بوضوح كيف يفهم الغربيون الحضارة وكيف يطبقونها فعلا فى حالة السلم والحرب وما هى تعاليم الإسلام العادلة وشرائعه الرحيمة ، وكيف فهمها رجاله الأمجاد وكيف يطبقونها فى كل زمان .

إن الإسلام وسير رجاله فى حالة السلم والحرب ، يظهر لنا ولكل منصف من غير المسلمين أنه الدين الحق العادل الرحيم ، وأنه الدين الذى يصلح للناس جميعا فى كل مكان وزمان .

وقد كان لتطبيق رجالاته تعاليمه وآدابه وتقاليده الطيبة أكبر الأثر على الغربيين غير المسلمين ، حتى لقد دخل الكثير منهم فيه وجعلوه دينا لهم ، وذلك من غير تبشير به من جانبنا .

هدانا الله للخير دائما ، وجعلنا بسيرتنا وأعمالنا من المبشرين بالإسلام الداعين له ، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم ؟

دكتور محمد يوسف موسى
مستشار وزارة الأوقاف للشئون الدينية والثقافية

الكرامة والعزة فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد محمد المدنى

(ب) العـــزة

– ١ –

« العزة » حالة يشعر معها صاحبها بأنه قوى منيع لا يسهل قهره واهتضامه والتغلب عليه .

وهذا الشعور الذى تنبعث عنه « العزة » قد يكون شعوراً صادقا له ما يبرره من واقع صاحبه ، وقد يكون شعوراً كاذبا منشؤه الغرور أو الجهل وعدم إدراك الواقع الصحيح للأشياء .

ولذلك تختلف « العزة » فتكون تارة ممدوحة ، وتارة مذمومة ، فإذا كان الشعور بالعزة ناشئا عن صفات وأحوال واقعية تثمرها وتؤدى إليها ، وتجعل صاحبها متسلحا بها أمام القوى المضادة له ، قادرا بها على أن يقاوم ويناضل ويغلب ويتفوق ، فإن العزة حينئذ تكون حقيقية . أما إذا كان الشعور بالعزة ناشئا عن غرور أو عدم تقدير للأمور ، ولم يكن لصاحبه من الصفات القوية ما يجعله منيعاً مصونا ؛ فإن العزة حينئذ تكون وهمية مصطنعة ، ولا يكون لها بقاء .

والقرآن الكريم يرشدنا إلى هذين النوعين المختلفين من العزة فى كثير من آياته ، فيعتبر العزة الأولى هى القوة بالإيمان والاستقامة على الطريقة المثلى فى كل شىء ، ويعتبر الثانية هى العزة بالإثم أو الكفر أو الالتواء عن الصراط المستقيم ، أو الجهل وفساد التصور . يقول الله تعالى :

١ — « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

وهذه الآية تقرر أن من كان يريد أن يكتسب العزة ويتحقق له معناها الدائم الحقيقى ، فليلتمس ذلك وليكتسبه من الله . فإن العزة لله كلها ، والتماسها من الله إنما هو بالسير على ما رسم ، وتوخى طاعته ورضاه والنزول

على حكمه ، والله تعالى لم يشرع لعباده إلا الخير والأعمال الصالحة المثمرة للصلاح والقوة سواء أكانت أعمالا شخصية أم أعمالا جماعية أو اجتماعية ، كما أنه عز وجل لم يمنع عباده من فعل شيء إلا إذا كان هذا الفعل منافيا للخير والرشد ومن شأنه أن ينزل بالإنسان عن المستوى اللائق بكرامته فى شخصه أو مجتمعه أو فيهما معا فإذا ترسم المرء ذلك فيما يأتيه من الأمر وفيما يتركه كان ملتمساً لأسباب العزة الحقيقيه من حيث تلتمس فى الواقع ، وكان حرياً بأن يصيب هذه الأسباب وبأن ينال بها ما يطلب من العزة التى هى القوة والمنعة والامتياز والأفضلية . فتكون عزته ثابتة قائمة على أصول سليمة ، مستقرة غير قابلة للتزلزل أو التحول .

وقد أتبع الله تقرير هذه الحقيقة بتقرير حقيقة أخرى توضحها وتبين سرها ، فعرفنا أن ما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل ، إما أن يكون طيبا صالحا ، فهذا هو الذى يصعد إلى الله ، وإما أن يكون عملا خبيثا ، ومكرا سيئا ، فهو لا يرتفع ولكن يرد فيبور ولا ينال صاحبه منه إلا العذاب والوبال .

ومعنى صعود القول الطيب إلى الله ، وارتفاع العمل الصالح ، هو تحقق الغاية ، وحصول الثمرة ، ونجاح القصد ، ومعنى بوار المكر والتدبير السيء هو عدم وصول ذلك إلى الغاية المرجوة منه ، فهو لا بد فاشل ضائع مهدر لا ثمرة له ولا انتفاع لصاحبه به .

وإذا فالعزة لها مصدر واحد ، هو ترسم ما رسم الله ، ولست أقصد بمجرد التزام الأوامر واجتناب النواهى فيما شرع الله من عبادات ، ولكن أقصد مع ذلك التزام المنهج الإلهى الذى رسمه الله فى احتفاظ الإنسان بكرامته ، وفى سعيه لأداء واجبه والقيام بنصيبه من الخلافة فى الأرض ، وفى ترفعه عن كل ما يهبط به عن تلك المنزلة الشريفة ، أو يلتوى به عن ذلك الصراط المستقيم .

٢ - « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » .

والمتبادر فى هذه الآية أن المقصود هم آلهة الشرك والوثنية التى يتخذها أهل الكفر اعتقادا بأنها تمنعهم يوم القيامة وتدرأ عنهم العذاب ، فيكونون بها ذوى عزة ومنعة ونجاة وأن الله تعالى يرد عليهم بأن ذلك لن يكون ، وإنما الذى يكون هو عكسه ، فهذه الآلهة ستنكر عبادتهم ، وتكفر بها أى تجحدها وتتبرأ منها وتكون عليهم ضدا ، فهم قد التمسوا العزة والمنعة من غير مصدرها فانتهى أمرهم إلى عكس ما التمسوا ، فذلوا بما به استعزوا .

هذا هو المتبادر ، و « الذى يشرح به الآية فعلا كثير من أعلام المفسرين .

ولكننا لا نجد مانعاً من أن نتوسع فى معنى الآلهة التى يتخذها الناس من دون الله ، وألا نقصرها على آلهـة الأحجار أو الأشجار ، أو الكواكب أو غيرها من آلهة الوثنية الحجرية أو الجمادية ، فإن الناس يتخذون آلهة أخرى من دون الله غير هذه الآلهة ، ويلتمسون بها العز ، فهم يتخذون الرؤساء آلهة معبودة ، ينزلون على حكمها ولو تعارضت مع حكم الله ، ويتخذون المال إلها معبوداً ، ويتخذون الأهواء والشهوات ويتخذون الجاه ، ويتخذون غير ذلك من الشئون العاجلة مؤثرين إياها على الآجلة ، يريدون بذلك العز والقوة والمنعة ، ويحسبون أنهم واصلون إليها . وربما اغتروا بأوائل الحال ، والله تعالى يذكر فى هذا المقام بسنته فى خلقه ، ويقول إن هذا اللون من التماس العزة والعلو باطل غير مؤد إلى المقصود منه ، بل هو مؤد إلى عكس هذا المقصود ، فإن هذا ما هو إلا التواء عن الطريق المستقيم ، وما هو إلا نزول عن مستوى المثل الرفيعة ، والغايات الشريفة ، وما هو إلا تزوير لعوامل العلو والعزة والمنعة لا بد أن ينكشف ، ولا يلبث أن يفتضح أمره ، ويسقط صاحبه .

٣ - « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » .

وهذه الآية أصرح فى المعنى الذى ذكرناه آنفاً فهى تذكر فريقاً من الناس يلتمسون العزة من غير وجوهها الصحيحة ، فيخرجون على « الكرامة الإنسانية » التى ينبغى لهم أن يحتفظوا بها ، حيث يرضون بأن يوالوا أهل الفساد وأهل الباطل المعبر عنهم « بالكافرين » دون أهل الحق والصلاح المعبر عنهم « بالمؤمنين » فليس من شأن الكريم الذى يعرف حق كرامته ، ونعمة الله فيها عليه ، أن يوالى الشر من دون الخير ، وأن يوالى الفساد من دون الصلاح ، وأن يوالى الباطل من دون الحق ، ذلك ما عبرت عنه الآية بقولها : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » ثم تساءلت عن البواعث الخفية التى تبعث مثل هؤلاء إلى هذا الالتواء عن الفطرة ، وعن الكرامة ، وعن المنطق الطبيعى الذى تستوى فيه العقول كلها ، تساءلت عن ذلك فى عبارة واضحة فاضحة تساؤلا كاشفاً واصفا : علنا منه أنهم إنما يبتغون عندهم العزة يريدون أن يتخذوا لديهم أيادى تنفعهم وتشفع لهم ولو على حساب الحق والخير والصلاح ، وما دروا أن ذلك سعى غير حميد ، وقصد لا يمكن أن يصل

بصاحبه إلى ما يريد ، فإن العزة كلها إنما هى لله ، وليس اتخاذ الأولياء من المبطلين والمفسدين من الله فى شىء فإن الله هو الحق المبين ، وأن الله لا يحب المفسدين .

ونحن ـ معاشر الشرقيين ـ قد ابتلينا بهذا النوع من الذين يبتغون العزة من غير سبيلها ويرجون أن يقتنصوها من غير ميدانها ، أو أن يستطلعوها من غير أفقها ، ابتلينا بهذا النوع من المواطنين: كانوا يوالون أعداءنا ، ويصانعون الغاصبين لحقوقنا العاملين على كل ما فيه ذلنا وموتنا ، وإذا كان بعض المؤمنين منا قد عرف هؤلاء فى بلد أو غيره من بلاد الإسلام ، ونادوا فى أقوامهم محذرين ، فإن خطرهم ما يزال ماثلا فى الشعوب والدول ، وإن علينا جميعا أن نفتح عيوننا لكى نراهم ونحذرهم ونحذر منهم ، كما حذر الله من أمثالهم سلفنا الصالحين الأولين .

٤ — يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون .

وهذه الآية تتحدث عن نوع آخر من المنافقين المرجفين الذين يغترون بظواهر العزة الكاذبة ، من الأغراض التى ليس لها بقاء ، وليس لها أمام الإيمان والثقة قوة ولا احتمال .

فهؤلاء ، المنافقون يرجفون على المؤمنين ويريدون أن يَفُتُّوا فى عضدهم ، ويقوضوا تكتلهم واجتماعهم على مقاومة الباطل ، ويريدون فى الوقت نفسه أن يقووا روح الباطل والشرك ، وأن ينفثوا فى روع الكافرين المقاومين لدعوة الحق طمأنينة وثقة ، فهم يلوحون بكثرة المبطلين ومظاهر عزتهم ونفوذهم ، وأن ذلك سيكون وبالا على المقاومين المناضلين ، لما هم فيه من القلة وضعف النفوذ ، فلذلك يتوقعون أن يخرج من المدينة أقل الفريقين عددا ، وأضعفهم مددا ، وأهونهم منعة وقوة ، ـ يريدون بذلك المؤمنين ـ والله تعالى لا يرد عليهم ظاهر قولهم ، ولكن يقرهم عليه ، والذين سيخرجون من المدينة هم الأذلون حقا ، والذين سيخرجونهم هم الأعزاء حقا ، ولكن العزة ليست فى هذا الأفق الذى يتطلع إليه المنافقون ، وإنما هى فى أفق آخر ، هو أفق الإيمان والحق « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » ، لأنهم انخدعوا بما يبدو من المظاهر البراقة ، والعناوين الخادعة ، وما دروا أن الإيمان حصن منيع إذا تحصن به صاحبه أمن وغلب ، وما دروا أن الله هو العزيز ، وأن الله هو الغلاب القاهر ، وأن رسوله هو المؤيد ، لأنه هو الداعى إلى الحق ،

والمدافع عن الحق « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

٥ — « ص . والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » يذكر الله تعالى فى مطلع هذه السورة الكريمة المانع الذى منع من الانتفاع بالقرآن الكريم وتصديقه ، وهذا المانع هو ما فيه هؤلاء الكفار من « عزة وشقاق » فالعزة فى هذا المقام هى التمنع والتعزز ، والاستكبار عن قبول الحق والإذعان له ، والشقاق : المشاقة والمخالفة وكونك فى شق غير شق صاحبك ، وكثير من الناس يأتيهم الفساد ، ويقعون فى الباطل من جهة الاستكبار عن قبول الحق والمشاقة فيه ، والمناهضة له ، وهؤلاء يظنون أن الرضوخ ضعف وذل ولو كان للحق وما استبان من الهدى ، مع أن الرجوع إلى الحق فضيلة والنزول على حكمه حكمة ورشد ، ولذلك تراهم يصرون على ما يرون فى عناد وتصميم مهما تبين لهم أنه خطأ أو ضلال ، يبتغون بذلك موقف الرجولة أو البطولة ، ويرونه عزاً ومنعة وقوة .

والحقيقة أن من أكبر مظاهر القوة المقدرة على قبول الحق بعد ما تبين ، وأن المرء لا يكون قويا حقيقة إلا إذا كان قويا أمام نفسه وهواه كما هو قوى أمام غيره ، وأن النزول على مقتضى الحق ليس ذلا وإنما هو العز كل العز ، وإذاً فهؤلاء الكافرون ليسوا أعزاء فى الحقيقة ، وإنما هم فى عزة مزورة ، وشقاق باطل .

٦ — وقد وصف الله بعض الناس بقوله « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » وقابل بينهم وبين عباد آخرين بقوله « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » .

وهما صورتان متقابلتان : إحداهما صورة الرجل المستكبر المتعنت الذى يرى نفسه فوق الناس ، وفوق الحق ، ويرى أنه أرفع وأكبر من أن ينبه إلى خطأ ، ومن أن يوجه إلى خير وصلاح ، فإذا نصحه ناصح ازور عنه مغضبا ، وولى مستكبرا ، وغضب وانتفخت أوداجه ، فهذا هو الذى أخذته العزة بالإثم ، أى أنه اعتز وتمنع لا بالحق ولا بالبر والصواب ، ولكن بالإثم والخطأ وأى إثم وخطأ أكبر من العناد واللجاج والاستكبار عن الحق بعد ما تبين ، وإيثار العزة الباطلة والقوة المفتعلة ، أما الصورة الثانية فهى صورة رجل يشرى نفسه أى يبيعها ابتغاء مرضاة الله ، ومعنى كونه يشريها أو يبيعها لله ، أنه لا يرى لنفسه حقا أمام الحق ، ولا يرى نفسه إلا مملوكة لله ، وهذا يقتضيه أن يؤدى حق هذا الملك فيبذل نفسه

عيد الفطر فى التاريخ والأدب

لأديب من العراق

ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى والنويرى فى نهاية الأدب فى فنون الأرب : أن الأعياد الإسلامية التى وردت بها الشريعة ـ اثنان : عيد الفطر وعيد الأضحى والسبب فى اتخاذهما ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما فقال صلى الله عليه وسلم ماهذان اليومان ؟ فقالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد بدلكم خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى فأول ما بدئ به فى العيدين عيد الفطر وذلك فى السنة الثانية من الهجرة وفيها كان عيد الأضحى [1] ولقد كان لهذين العيدين مظاهر إسلامية تعرض فيها عظمة الدولة وجلال الملك وكان فى العصور الإسلامية الزاهرة تبدو فيهما سطوة الإسلام وشوكته وإننا اليوم فى حاجة ملحة إلى تعزيز الروح القومية بالإشادة بمفاخرنا وأعيادنا الشعبية وحبذا لو أكثرنا من إقامة ذكريات لأعياد قومية منسية لتبعث فى الأمة الحياة والعزة وتثير فى الشباب النخوة والشعور القوى. فعلى المسلمين والعرب أن يحتفلوا اليوم بعيد ذكرى فتح العرب للأندلس، وعيد دخول العرب وتوغل جيوشهم فى فرنسا ، وعيد نزول جيوش العرب إلى إيطاليا بعد فتحهم صقلية ، وعيد فتح العــرب للمدائن عاصمة

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ونهاية الارب للنويرى.

لمالكها غير ضنين بها ، ولا حريص عليها ، ولا مستشعر ذلا فيما يفعل .

والصورتان متقابلتان تمام التقابل إحداهما لنفس مغرورة معتزة بالباطل لا تعبأ بالحق ولا تنزل عن كبريائها ، لشىء من الأشياء ، والأخرى نفس معتزة برضا الله ، حريصة على هذه المنزلة ، متنازلة عن أنانيتها فى سبيلها فالنفس الأولى معتزة بالإثم والنفس الثانية معتزة بالله .

وهكذا يبين لنا القرآن فى هذه الآيات وفى غيرها أن « العزة » الحقيقية الباقية المستقرة هى العزة التى تقوم على أساس من الاستقامة والعمل الصالح ، والتى يتجه صاحبها فى اتجاه الخير والبر ، أما العزة المصطنعة المفتعلة فهى التى تقوم على أساس من الباطل والإثم والاغترار والاستهتار والاستكبار .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

* * *

الأكاسرة ، وعيد فتح المسلمين للقسطنطينية على يد محمد الفاتح، وعيد إخراج الصليبيين فى فلسطين وأمثال ذلك فى الأعياد القومية الإسلامية التى تبعث فى النفوس نشوة الانتصار وتعيد ذكرى الفتوح التى سيطر بها آباؤنا على البلاد وهدوا العباد وأقاموا منار الرشاد . وعلينا أن ننخم الاحتفالات بالأعياد الدينية الشعبية التقليدية لأنها توحد الرأى العام فى الشرق العربى وتفهم سكانه وتذكرهم بالروابط الروحية والتاريخية التى تجمع بين أقطار الشرق الأدنى فى مراكش إلى إيران وتركستان والهند وأندونيسيا ومن تركيا وألبانيا إلى اليمن وزنجبار ضامة بين جناحيها الجمهورية العربية المتحدة والسودان ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق والحجاز ونجد والبحرين وحضرموت وعدن والأفغانستان وغير ذلك من الأقطار الإسلامية وإن الاحتفال بهذه الأعياد الإسلامية قديماً كان يشتد ويقوى حيث يكون الشعور الإسلامى أقوى حيث يعظم التنافس بين أتباع راية الإسلام وبين خصومهم : قال الأستاذ آدم متز Adam Metz فى كتابه القيم : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : كان عيد الفطر والأضحى هما العيدين الوحيدين الكبيرين اللذين كان يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالا رسمياً ، وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد عند أهل بغداد (كما يستفاد من تاريخ الطبرى) قال متز : « وكان الاحتفال بها يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى على أقواه مثل طرسوس حيث كان يأتى غزاة المسلمين فى كل أنحاء المملكة الإسلامية حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام ولما ضاعت طرسوس من المسلمين بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها » . [1]

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى) : « عنى المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين فى شىء كثير من الأبهة والعظمة وكانوا يحتفلون برمضان احتفالا شائقا ويتخذون غرة رمضان فى مواسمهم الدينية كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالا دينيا فيؤم خلفاء المسلمين الناس فى الصلاة ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وبما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بالعيدين فى البلاد الإسلامية وبخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة . وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز .

(٢) تاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن

فيها الشعور الإسلامى قويا مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين فى أنحاء البلاد الإسلامية وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم (٢) ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح لوقوع طرسوس على حدود المملكة الإسلامية فى قصد إظهار جلال الإسلام وأبهته وإظهار قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور وذلك بتعظيم شعائر الإسلام فى الاحتفال بعيدى الفطر والضحى فى تلك المدينة الاحتفالا فخما مما جعل العيدين هنالك من محاسن الإسلام كما عدهما المؤرخون ».

ولنعد إلى حديث العيد قال الأستاذ آدم متز فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) : « إن المسلمين لما أضاعوا طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها ويؤيد قوله ما قرأت فى كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للمقدسى وهو من كتب العرب فى الجغرافيا والمقدسى من مؤلفى القرن الرابع الهجرى وقد تحدث عن حسن العيدين بصقلية من بلاد الإسلام فذكر أن العيدين فى هذا الثغر يمتازان بمظاهرهما كما امتازت الجمعة فى بغداد مثلا (١) ».

[١] الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز .

هكذا كانت الجيوش الإسلامية المجاهدة تحتفل فى الثغور التى ترابط فيها وتعظم من الاحتفاء بالعيدين لأن ذلك مما يظهر شوكة الإسلام وجلال سلطانه .

لقد كانت المدن الإسلامية (١) ـ خصوصاً بغـداد فى عهد العباسيين والقاهرة فى عهد الفاطميين ـ تسطع فى أرجائها الأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات وتسطع فى جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الخاطفة الأبصار من قصور الخلافة ، وقد لبست الجماهير فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الطيالسة السود تشبها بالخلفاء العباسيين (يقول فى المنجد : الطيلسان كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم) . الذين اتخذوا السواد شعارا لهم وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة (القلنسوة نوع من ملابس الرأس على هيئات متعددة ويلبسون بدل الدروع دراريع كتب عليها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (والدراريع جمع دراعة ، وهى جبة مشقوقة المقدم) ولقد

[١] الدكتور حسن إبراهيم حسن فى (كتابه تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى) ج ٢ ص ٦٠٥ .

أفاض جميل نخله صاحب كتاب (حضارة الإسلام فى دار السلام) وأسهب فى وصف الحالة الاجتماعية فى بغداد على لسان رحالة فارسى أدخله بغداد ليلة عيد رمضان فأخذ يحدثنا الرحالة هذا عما شاهده فيها وقد اقتبس مؤلف الكتاب مواد بنائه من الكتب التاريخية الموثوقة متخذاً لها كمصادر اعتمد عليها وقال فى مقدمة الكتاب : « هذه رسائل وصفت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسى طوفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة » ونقتطف من هذا الكتاب اللطيف صفحة جميلة يصف بها بغداد ليلة العيد قال[1] :

« اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة هى : (الثلث الأول من الليل) وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات ترددها معهم أرجاء المدينة وتعذر المسير على مركبنا تجاه باب البصرة (وهو باب من أبواب بغداد) أو كاد، لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان مرصعة بأنوار القناديل الحسان حتى كأن دجلة فى الزوراء أشبه بالمجرة فى كبد السماء. ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر وعلى مطل من قصور الخلافة (فى المنجد : المطل : المكان يشرف منه) التى كانت تتلألأ بضوء الشان (نقلا عن الأغانى ج ٤ ص ١٨٩) فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس (فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع) وقد غص بجموع من الناس قد لبسوا الطيالس السود تشبها بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد فى شعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونعيا على بنى أمية فى قتلهم . وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمائم قلانس طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضا وبدل الدروع دراعات مكتوباً عليها بين كتفى الرجل « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » أخبرنى (نقلا عن ابن الأثير ص ٢٤٥ ج ٥ والأغانى ج ٥ ص ٩٥) بعض من لقيته فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتزيا حوزته (حوزة المملكة ما بين تخومها) بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين . قال ولما تجولت فى المدينة وانتهيت إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر وجدته كأحسن وأحفل ما يكون من الشوارع وله السيادة عليها بأمرين : الأول اتساعه إلى أربعين ذراعاً وإن كان يشاركه فيه غيره والثانى طوله من دار الخلافة إلى

---

[١] حضارة الإسلام فى دار السلام لجميل نخلة .

باب الشام على استقامة ليس فى الإمكان أصح منها فلما صرت فيه استقبلت فى دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء (عن المسعودى والقزوينى) التى رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد عن ثمانين ذراعاً ليشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين كما أنه عنى بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظائم الأعمال فكانت تظهر زينتها فى تلك الليلة وهى مرتفعة فى الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام . ثم إنى أقبلت فى صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فملت إليه فإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممراً بين جموعهم ووراءهم رجل طويل (عن العقد الفريد) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر أسود (عن ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر) من الأوبار الغالية الثمن وفى وجهه مهابة الملوك وجلالتهم فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيته إذ الشمس لا تخفى وإن سترت ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة (عن ابن خلدون) عليها حلية خفيفة من الفضة وكان لجامها فى يد حاجب من حجاب الخليفة وقد دخل صاحبنا بغداد فى عهد بانيها أبى جعفر المنصور ولم يلق المؤلف كلماته جزافا ومن دون سند تاريخى بل إنه اعتمد على أوثق المصادر .

والذى يظهر من قصيدة البحترى التى يهنئ بها المتوكل بعيد الفطر أنه كانت بغداد تشهد موكباً رائعاً للخلافة بتلك المناسبة الكريمة ويؤيد ذلك المؤرخون قال الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه (تاريخ الإسلام): « كانت تتجلى عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم فى الاحتفال بالعيد واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التى كانوا يمدونها فى الأعياد والمواسم وعنوا باحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا » .

ويعرض علينا ابن قتيبة فى عيون الأخبار خطبة طويلة للمأمون فى عيد الفطر قال فيها مخاطباً المسلمين :

(إن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج وجعله معقبا لمفروض صيامكم ومتنفل قيامكم فاطلبوا إلى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار) .

ولقد كان الخلفاء العباسيون يجلسون فى الأعياد لاستماع تهانى الشعراء . وجر ذلك إلى أن يتنافس هؤلاء فى تجويد روائع الشعر يمدحون بها جبابرة العباسيين لينالوا من هباتهم وعطاياهم الأموال الغزيرة إذ كانت ثروة الدولة الإسلامية تجبى إلى الخليفة ببغداد أو سامراء فينفقها كما يشاء ولمن يشاء .

وإنك لتجد الخلفاء عامة ، (والفاطميين خاصة) يحتفلون بعيد الفطر الذى كانوا يتبركون به وتعم خيراتهم الناس فيه ، فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة والكسوة وعمل السماط وركوب الخليفة لصلاة العيد . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر فى العشر الأخيرة من رمضان ، واتخذ الفاطميون فى القصر بابا خاصا أطلقوا عليه (باب العيد) ؛ لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد إلى المصلى شرقى القصر الكبير فى الفضاء الذى تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حى الحسينية (كما حقق ذلك الأستاذ ابراهيم حسن) .

أما الأستاذ آدم متز Adam Metz فإنه ينقل فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) عن المقريزى ج ١ ص٣٨٧ وعن النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص٤٧٣ وعن رحلة ناصر خسرو ص١٥٨) أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠ حمل يأنس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل من الحلوى وحمل أيضا على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر ، وعيد النحر . ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكن الناس من ذلك السماط (وهو مائدة طويلة ممدودة فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه [1] .

ويحدثنا المقريزى فى الخطط ج ٢ ص٣٢٢ أنه ركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر فأقبل فى زيه وبنوده وقبابه ، وصلى بالناس وأطال الصلاة وهى صلاة جده على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : فلما فرغ المعز من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالا ، ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر فخطب وراءهما على رسمه وكان فى أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل فجلس عليها بين

---

(١) الحضارة الاسلاميه فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ورحلة ناصر خسرو .

الخطبتين وكان معه على المنبر القائد جوهر ، وخطب وأبلغ وأبكى الناس ، وكانت خطبة بخشوع وخضوع فلما فرغ من خطبته انصرف فى عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ على الخيل بأحسن زى وساروا بين يديه بالفيلة ، فلما حضر فى قصره أحضر الناس فأكلوا وقدمت السمط ونشطهم على الطعام ، وعتب على من تأخر وهدد من بلغه صيامه العيد[1] ونقل المقريزى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠ هـ (نقلا عن المسيحى) بقيت مصاطب ما بين القصور إلى المصلى ظاهر باب النصر عليها المؤذنون حتى يتصل التكبير من المصلى إلى القصر وفيه تقدم أمر القاضى ابن النعمان بإحضار المتفقهة والمؤمنين يعنى الشيعة ، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزيه والإخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة (والزراقون هم الذين يقذفون بالنار اليونانية وقد اقتبسها العرب من الروم وهى فى الأصل من اختراع المشارقة وهى مواد مشتعلة تقذف نحـــو العدو باسطوانات نحاسية مستطيلة : نقلا عن كتاب الجندية فى الدولة العباسية لضابط عراقى)[2] وخرج الخليفة الفاطمى بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده على بن أبى طالب عليه السلام فصلى على رسمه (على عادته) .

ولما استوزر بعد الأفضل المأمون بن البطائحى انتقد عدم ظهور الخليفة وقال هذا نقص فى حق العيد ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر فقال الخليفة الآمر بأحكام الله فما تراه أنت؟ فقال : يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر ، فإذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب وتجوز العساكر فارسها وراجلها ، وتشملها بركة نظر مولانا إليها ، فإذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الأمراء والأجناد واجتاز بأبواب القصر ودخل الإيوان فاستحسن ذلك منه واستصوب رأيه وبالغ فى شكره . ثم عاد المأمون إلى مجلسه وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات وجملة العين ثلاثة آلاف وثلاثمائة دينار وسبعة دنانير ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الدار وغيرهم

---

(١) الخطط للمقريزى .

(٢) الجندية فى الدولة العباسية لضابط عراق .

قال : ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان من سنة ٥١٦ هـ وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار وهو عند الفاطميين الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجماعة وفى غيره للأعيان خاصة قال المقريزى ولما كان فى التاسع والعشرين من رمضان سنة ٥١٦ هـ خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة باسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر وحضر المأمون (الوزير) فى آخر النهار للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر المقرئون والمؤذنون ، وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات من أهل القصور بلاحى (فى معجم دوزى أنها ضرب من الأوانى لحفظ العطور) وموكبيات (فى معجم دوزى شمعدانات موكبية أى تستعمل فى المواكب) مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى (يقول دوزى هى قطع من النسيج يلف بها الرأس) ودبيقى (قماش صنع مدينة دبيق بمصر) وجعلت أمام المذكورين ليشملها بركة ختم القرآن واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا ، ثم خطب من أسمع ودعا ، فأبلغ ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ثم كبر المؤذنون وهللوا وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ، وقدمت جفان القطائف (طعام يسوى من الدقيق المرق بالماء) مع الحلوى فجروا على عاداتهم وملئوا أكمامهم ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ودراهم تفرق على المقرئين والمؤذنين ورسم أن تحمل الفطرة إلى قاعة الذهب وأن تكون التعبئة فى مجلس الملك حيث تمد الأسمطة وحضر الخليفة واستدعى المأمون (الوزير) وعرضت المظال المذهبة وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل « والله جعل لكم مما خلق ظلالا » إلى آخرها.

وجلس الخليفة الفاطمى ورفعت الستور وسلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم ووقفوا فى آخر الإيوان وحضر الأمراء ورجال الدولة واستعرضت الدواب وهى ما يزيد على ألف فرس عدا البغال وعرضت الوحوش بالأجلة والديباج والدبيقى بقباب الذهب والمناطق والأهلة وعرض السلاح وآلات الموكب جميعها ونصبت الكسوات على باب الذهب وحملت الفطرة الخاصة التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات (فى المنجد الجوارش نوع من الحلاوات) بالمسك والعود والكافور والزعفران والتمور المصبغة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم وسلمت للمستخدمين فى القصور وعبيت فى مواعين الذهب المكللة

بالجواهر وخرجت الأعلام والبنود وركب المأمون (الوزير) فلما حصل بقاعة الذهب أخذ فى مشاهدة السماط من سرير الملك إلى آخره وخرج الخليفة وطلع إلى سرير ملكه وبين يديه الصوانى التى فيها الفطرة الخاصة والمقرئون يتلون والمؤذنون يهللون ويكبرون فيفطر الخليفة ويدخل الناس فيأخذون جميع ما هناك فلما انقضى الفطور ضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها ورتبت الصفوف من القصر إلى المصلى[1] .

هذه صفحة رائعة من احتفاء الدولة الفاطمية بمصر بعيد رمضان ومن تعقب وخاض كتب التاريخ الإسلامى وجد الدول الإسلامية جمعاء تحتفى بهذا العيد فهذه الدولة البويهية يحدثنا الأستاذ آدم متز فى كتابه عن الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى الذى هو عصرها الذى ازدهرت فيها العلوم وأينعت الفنون — يحدثنا (نقلا عن معجم الأدباء لياقوت الحموى) أن ابن عباد وهو من وزراء البويهيين كانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نسمة تفطر فيها وأن أصدقاءه وأقرباءه فى هذا الشهر كانوا يزورونه بكثرة تبلغ مبلغ زيارتهم له فى جميع شهور السنة .

(١) الخطط للمقريزى.

عربى يصف قومه

وإنى من القـــوم الذين همُ همُ إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غار كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال منهم (حيث كانوا) مسوّد تسير المنايا حيث سارت كواكبه

شعراء الوحدة

للأستاذ علي العماري

منذ أكثر من ثمانية قرون، وعلى التحديد في النصف الثاني من القرن السادس الهجرى، وأوائل القرن السابع، كانت تعيش البلاد العربية في ظروف تشبه كل المشابهة الظروف التي نعيش فيها الآن؛ أعداء من خارج البلاد يتربصون بها الدوائر، ويبغون لها الغوائل، ويهاجمونها كلما عنت لهم فرصة، وأعداء في داخل البلاد، من أهلها، يتنكرون للشعوب ويعاونون الأعداء.

وفي ذلك التاريخ اصطفت الأقدار للعرب بطلا، خالص العقيدة، طاهر الطوية شديد البأس، هو السلطان الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب. الذي يتصل نسبه ببني أمية، فدحر الصليبيين، وخلص البلاد من شرورهم، ووحد الأقطار الإسلامية.

وفي أثناء هذه الحروب الشهيرة، برزت ظاهرة أفادت منها الأقطار الإسلامية، تلك هي الشعور بوحدة الدم والعقيدة والتاريخ، وقد كان للشعراء شأن أي شأن في الإشادة بهذه الوحدة، والعمل على إذكائها في النفوس، والشعر - يومذاك - بل الأدب بعامة هو الموجه والرائد، حتى قال صلاح الدين الأيوبي «ما فتحت البلاد بالعساكر، وإنما فتحتها بكلام الفاضل» يقصد وزيره القاضي الفاضل.

وقد ازدحم (بلاط) صلاح الدين بالشعراء الذين غنوا على قيثاراتهم أهازيج النصر، ورددوا أناشيد الوحدة، ومن هؤلاء: ابن سناء الملك، والعماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وغيرهم من شعراء الإقليم المصري في القرن السادس الهجرى.

وسنكتب كلمة عن كل واحد من هؤلاء، نتتبع فيها أثره في توحيد الصف، وإشاعة العزة والمجد في نفوس الشعوب، إذ ذاك.

ابن سناء الملك

— ١ —

نشأته:

هو أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد بن محمد بن هبة الله السعدي، ويلقب بالقاضي السعيد، ويعرف في الكتب بابن سناء الملك، وسناء الملك لقب أبيه جعفر، وقد ذكره ابن خلكان عقب (المعتمد) فيكون - على رأيه - لقبا لجد القاضي السعيد، ويدل لقب جده سناء الملك أنه كان من كبار الموظفين في الدولة

الفاطمية، فقد خلع هذا اللقب أيضاً على حسين ابن بدر الجمالى، الوزير الفاطمى المشهور، [١]

ولد ابن سناء الملك بمصر، فى أسرة غنية فى حدود سنة ٥٥٠ هـ . وقد حفظ القرآن وبرع فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية، وتفقه فى الدين الإسلامى على مذهب أهل السنة، وإن كان ابن سعيد المغربى يذكر أنه كان متشيعا، بل وغالياً فى التشيع، وقد انفرد ابن سعيد بهذا . ويظهر أنه بقيت فى نفس ابن سناء رواسب شيعية، وآية ذلك أننا نجد بعض العقائد الفاطمية فى شعره، وهو يمدح ملوك الأيوبيين، من ذلك ـ مثلا ـ قوله فى مدح صلاح الدين:

أعدت إلى مصر سياسة «يوسف»
وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته
فأنت (ابن يعقوب) وأنت (ابن مريما)

وقد وقفت طويلا عند هذين البيتين من شعر ابن سناء، وهما من قصيدة فى مدح القاضى الفاضل، قال:

أصبحت فى مدح الأجل موحداً
ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وغدوت فى حبى له متشيعاً
من ذا رأى متشيعاً متسنناً

ولم أستبعد أن يكون ابن سناء يخفى فى نفسه العقيدة الشيعية، ويبدو أمام الأيوبيين متمسكا بالمذهب السنى، وقد خدعه العقل الباطن فى هذا الشعر، فأجرى على لسانه التعجب من (متشيع متسنن) . ولا وجه للتعجب، فابن سناء نفسه هو ذلك الرجل .

وأياما كان فقد كان ابن سناء من رجالات الدولة الأيوبية، وكل آثاره التى بين أيدينا تدل على أنه كان فى ريعان الشباب وفى كهولته وفى شيخوخته (متسننا) على حد تعبيره .

وقد تولى ابن سناء القضاء . وتوثقت المودة بينه وبين القاضى الفاضل . وصنف كتبا، أهمها (دار الطراز) فى الموشحات، و (نصوص الفصوص، وعقود العقول) وهو لا يزال مخطوطا، واختصر كتاب الحيوان للجاحظ، وسمى المختصر (روح الحيوان) وقد أعجبت هذه التسمية (ابن خلكان) فقال: وهى تسمية لطيفة . وله ديوان شعر منه نسخة خطية فى مكتبة الأزهر، وهى نسخة كثيرة الأخطاء .

وتوفى ابن سناء باتفاق الذين ترجموا له فى سنة ثمان وستمائة، فى شهر رمضان من السنة المذكورة، وهى توافق سنة ١٢١١ م .

أدبه وخصائصه :

يعتبر ابن سناء من كبار الشعراء المصريين

---

(١) هامش جريدة القصر : القسم المصرى ج ١ ص ٦٤ .

فى العصر الأيوبى ، وديوان شعره يضم شعرا فى كل الأغراض التى تعنى الشعراء فى ذلك العصر من مدح ورثاء وغزل ووصف ، إلى هجو ، إلى إخوانيات .

أما الفن الذى نبغ فيه ابن سناء فهو فن الموشح وكتابه (دار الطراز) يعتبر الأول من نوعه فى موضوعه ، فقد قام فيه بمهمة وضع قواعد واضحة للموشح ، وليس معنى هذا أن أحدا قبله لم يتعرض لهذه الأصول ، فإن بعض هذه الأصول وردت – ولو بطريق الإشارة – فى بعض الكتب الأندلسية كالذخيرة لابن بسام ، وإنما معناه أن تحديد قواعد الموشح وتبيان خصائصه وطرق نظمه ، وأوزانه ، ثم تأييد هذه الأصول بأمثلة من الموشحات ، هذا العمل لم يعمله أحد قبل ابن سناء ، بل ، وكل الذين جاءوا بعده ، وتحدثوا عن الموشح كانوا عيالا عليه .

وكان ابن سناء منذ شبابه المبكر أظهر ميلا قويا للأدب ، ولاسيما الشعر ، وقد جاء فى مقدمته لدار الطراز أنه لم يأخذ فن الموشح عن أستاذ أو شيخ ، ولم يتعلمه فى كتاب ، وقد ظهرت عبقريته بشكل واضح فى الموشحات ومما قاله فى كتاب (النصوص الفصوص) الورقة (٢١) : « وكنت لما أولعت بعمل الموشحات قد نكبت عما يعمله المصريون من استعارتهم لخرجات موشحاتهم خرجات موشحات المغاربة ، فكنت إذا عملت موشحا لا أستعير خرجة غيرى ، بل أبتكرها وأخترعها ، ولا أرضى باستعارتها ، وقد كنت نحوت فيها نحو المغاربة وقصدت ما قصدوه واخترعت أوزانا ما وقعوا عليها ، ولم يبق شىء عملوه إلا عملته إلا الخرجات الأعجمية فإنها كانت بربرية ، فلما اتفق لى أن تعلمت اللغة الفارسية عملت هذا الموشح وغيره وجعلت خرجته فارسية بدلا من الخرجة البربرية [1] .

وظهرت فى شعر ابن سناء السمات التى طبعت شعر العصر الأيوبى ، من التأنق اللفظى والتكلف المقيت ، والقصد إلى المحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية ، حتى لقد كان الجناس يملأ تفكيرهم فنرى ابن سناء يتوهمه فى بعض الأفعال ، فهو يتحدث عن عين عشقت ، لأن عينا نظرت إليها ، فيحاول أن يتخذ من هذا دعوى قصد الجناس فيقول :

يا جور هذا الحب فى أحكامه
خد يحد ، وطرف عين قد زنا

وأظنه قصد الجناس لأنه

طرف زنا لما رأى طرفا رنا

فيدعى أن طرف العاشق إنما (زنا) بالنظر إلى المعشوق لأن طرف المعشوق (رنا) إليه ونظر ، وسبب هذا إنما هو قصد الجناس بين زنا ورنا .

---

[1] هامش دار الطراز ص ١٣٥ تحقيق دكتور جودت الركابى .

وللشعراء المصريين مذاهب فى هذا ومن ذلك قول الشاعر :

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى
مليحا ، دونه السمر الرقاق
فقلت وهل أنا إلا أديب
فكيف يفوتنى هذا الطباق

والشواهد كثيرة من شعر ابن سناء على تكلفه المحسنات البديعية ، حتى مقدمته فى دار الطراز جاءت مسجوعة ، مع أنها مقدمة جليلة من حيث ما تضمنته من أصول الموشحات.

كان القاضى الفاضل يثنى كثيرا على ابن سناء ، وعلى بلاغته ،وصناعته فى النظم ومن قوله فى ذلك : « أما بلاغته فقد بلغت الغاية، وأما قلبه فإنه به قد أعطى الراية » وكان معاصره العماد الأصفهانى الكاتب صاحب خريدة القصر يثنى عليه ، ويعجب به ، وكذلك أثنى عليه ياقوت الحموى فى أكثر من موضع فى كتابه « معجم الأدباء » ومما قاله : « أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين، ذاع صيته ، وسار ذكره » وامتدح قصيدته التى سارت بها الركبان — على حد قوله — والحماسية الغزلية . وهى :

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

وبعد أن ذكر أبياتا كثيرة منها قال : «والقصيدة طويلة، كل بيت فيها فريدة فى عقد، وشعره كثير ، وأكثره جيد» .وأثنى عليه القاضى ابن خلكان ، بأنه صاحب الشعر البديع والنظم الرائق . وأحد الفضلاء النبلاء الأدباء . وأعجب بوصفه لنقصان النيل وقال إنه أحسن ما يوصف به ،وعبارة ابن سناء : وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه و نقطعت أصابعه ، وتيمم العمود لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء » .

ابن سناء والوحدة :

ذكرت فيما سبق أن القاضى السعيد قال الشعر فى كل الأغراض التى كان يقول فيها الشعراء فى عصره ، وقلت : إن الفن الذى نبغ فيه هو فن الموشحات ، وأضيف هنا أن شعر المدح عند ابن سناء لا يقل أهمية عن موشحاته التى امتاز بها ، ذلك أننا يمكن أن نعتبر هذا الشعر وثائق تاريخية فيما يتعلق بالسياسة العامة . ولا سيما السياسة الحربية الأيوبيين ، كما يمكن أن نتخذه دليلا على شعور هذا الشاعر بما يمكن أن يطلق عليه (الوحدة العربية) وقبل أن نمضى فى دراسة هذا الشعر ، نقدم كلمة مجملة عن البيئة التى عاش فيها هذا الشاعر من الناحية السياسية.

ولد ابن سناء فى سنة خمسين وخمسمائة ، وتوفى فى سنة ثمان وستمائة ، فهو قد عاش زهاء الستين عاما عاصر فيها أواخر الخلفاء الفاطميين ، وعاصر من الأيوبيين السلطان صلاح الدين وابنه العزيز عثمان ، وولد

العزيز الملك المنصور محمد ، ثم الملك العادل ابن الأمير نجم الدين أيوب ، وهو أخو صلاح الدين ، وفى هذه الفترة كان ملوك آخرون من الأيوبيين فى دمشق وحلب واليمن ، ومنذ أن ولد ابن سناء إلى أن توفى ، وملوك المسلمين يشنون غزوات على الفرنج ، والفرنج يحاربون المسلمين ، ويغيرون على البلاد المصرية ، وينتصر المسلمون حينا ، وينتصر الفرنج حينا آخر ، وقد يعقد الصلح بين الفريقين ، وليس من شك أن الشعور العام للمسلمين فى ذلك العهد كان الضيق الشديد بحركات الفرنج ، والفرح المتزايد بكل انتصار يحرزه المسلمون .

ومما يدلنا على الشعور النبيل فى نفوس المسلمين فى ذلك ، وبغضهم الشديد للفرنج ، هذه القصة المعبرة : كاتب (شاور) وزير العاضد الفرنج ليحاربوا معه (أسد الدين شيركوه) فلما تأخر الفرنج خاف شاور وفعمل فى عمل دعوة لأسد الدين المذكور ولأمرائه ويقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل . وقال : والله لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرفن أسد الدين فقال له أبوه شاور : والله لئن لم نفعل لنقتلن كلنا ، فقال له ابنه الكامل : لأن تقتل والبلاد بيد المسلمين خير من أن تقتل والبلاد فى يد الفرنج » [1] . ولما بلغ أعيان الدولة أن شاور كاتب الفرنج اجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه وقالوا له : شاور فساد العباد والبلاد . وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الإسلام » . ومن الآراء التى قيلت فى موت شاور أن الأمراء قتلوه لما علموا بما فعل .

ولم يكن الفرنج وحدهم هم الذين يهددون وحدة المسلمين ، بل كان فى داخل البلاد أفراد يعملون على الثورة ولكن صلاح الدين قضى عليهم واحداً بعد آخر .

وكادت تقع الفتنة بين بنى أيوب أنفسهم بعد صلاح الدين لولا أن الله تداركهم بفضله فتم بينهم الصلح .

هذه صورة مصغرة لما كانت عليه البلاد الإسلامية فى السنوات التى عاشها القاضى السعيد ولابد أنه وهو رجل مسلم ، شاعر ، ومتقرب من السلاطين والأمراء كان أشد شعوراً بكل هذه الأحداث ، فلا عجب أن نجد فى شعره رنة الفرح كلما أحرز المسلمون انتصاراً أو ملكوا بلداً ، أو فتحوا حصناً ، وكان كل ذلك كثير الحدوث ، فقد فتح نور الدين محمود فى مدة ولايته نيفاً وخمسين حصناً ، وأما صلاح الدين فقد أعاد للإسلام سطوته ، وللعروبة قوتها ، بالانتصارات المتتالية التى أحرزها .

وقد أسهم ابن سناء بنصيب موفور فى تسجيل انتصارات صلاح الدين ، من ذلك قوله يهنئه بفتح حلب :

(١) ١ ، ٢ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥١ .

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر، وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة
بالفتح والصلح أو بالحرب والحرب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها
بمالك فطن أو سائس درب
بمالك لم يدبرها مدبرها
إلا برأى خصى أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب

ويمدح صلاح الدين فى قصيدة أخرى فيقول: إنه أنام بنى الإسلام فى كهف بأسه، هكذا (بنى الإسلام) لابنى مصر وحدها، ولابنى الشام وحدهم، ولابنى قطر من الأقطار وإنما هم (بنو الإسلام) بهذا العنوان مما يدلنا على شعور الشاعر بالوحدة الإسلامية ويمضى فى مدح صاحبه فيقول إنه عوض المسلمين من سخطهم رضا، ومن خوفهم أمناً وأنه أقام بدار الكفر تجبى له الجزية، والكفار صاغرون، وهذا غاية ما يتمناه كل مسلم.

ويقول فى قصيدة ثالثة فى مدح صلاح الدين:

لقد نصر الإسلام منه بناصر
يرى مغرما فى الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنده
فلولاهم ما كان بيتا محرما
ولولاهم ما كان زمزم زمزما
ولولاهم كان الحطيم محطما

وفى هذا ما يشير إلى ما كان عليه أعداء الإسلام من قوة هائلة، وأنه لولا صلاح الدين لتغيرت معالم الإسلام، ولكنه أعاد للدين حرمته وقوم ما كان قد طرأ عليه من اعوجاج.

وكان صلاح الدين فى الشام، فكتب ابن سناء يذكر له شوق مصر إليه، ويقول:

تغايرت الأقطار فيك فواحد
لبعدك يبكى أو لقربك يبسم
ولا شك فى أن الديار كأهلها
كما قيل تشقى بالزمان وتنعم
وما برحت مصر أحق بيوسف
من الشام لكن الحظوظ تقسم
بمصر كما بى من جوى وصبابة
كلانا معنى بالأحبة مغرم

فهذه البلاد التى (تغايرت) لا شك أنها بلاد واحدة، تنظر إلى زعيم واحد، ويجمعها الشوق إليه، والغيرة عليه، وهذا هو أصرح تعبير عن الوحدة التى عمل لها صلاح الدين والتى تمت فى عهده، وغذاها الشعراء والأدباء بما ينظمون وما ينثرون.

ويهنئ صلاح الدين بفتح الشام، فيقول:

لست أدرى بأى فتح تهنا
يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنيك أن تملكت شاما
أم نهنيك أن تملكت عدنا
إن دين الإسلام من على الخلـ
ـق وأنت الذى على الدين منا

قد ملكت البلاد شرقا وغربا
وحويت الآفاق سهلا وحزنا

وهـذه القطعة على صغرها علوءة بالمعانى تؤيد ما ذهبنا إليه من أن هـذا الشاعر كان من المغردين بالوحـدة ، وأن الشعور بهذه الوحدة كان يملأ نفسه،وأن شعره صورة صادقة لما كان عليه الشعراء فى ذلك العهد ، وواضح من هذه الأبيات أن الوحدة الكبرى تمت لصلاح الدين: الشام وعدن ، ومن قبل الجزيرة والفرات ، وفلسطين وعسقلان .

وقد لاحظت أن ابن سناء كان حريصاً على أن يقارن بين ماضى الإسلام وحاضره بين ماضيه مذ درست معالمه ، وضعف سلطان تعاليمه ، وبين حاضره حيث أحياه صلاح الدين من موت ، وأعتقه من عبودية ، وإن ما يثلج صدر كل مسلم أن يملك صلاح الدين (البلاد شرقا وغرباً) فهو جدير بأن يهنأ ، بل وأن يهنأ الإسـلام والمسلمون بهـذه الفتوحات العظيمة التى أنالت الإسلام ما كان يتمناه ، وهل كان يتمنى الإسلام إلا جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم . بل يصرح ابن سناء فى أبيات أخرى بأن صلاح الدين قد جمع شمل المسلمين فيقول عن فتحه لإحدى البلاد :

وصليت فيها جمعة بجماعة
تناديك للإسلام يا جامع الشمل
فحبك مفروض على كل مسلم
ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل

فلا عجب بعد هذا أن يقول أحد الكاتبين فى ابن سناء الملك ومدائحه : « أنت ترى خلال هذه المدائح نفسا عربية مخلصة تجيش بالإكبار والإجلال نحو الرجل الذى صان الديار الإسلامية وفرض احترامها على من حاول العبث بها ، وطهر بيت المقدس من المغـير على أرضه ، فيهجر الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث ، وترتفع نشوى فى أجواء النصر والمجد[1] » .

وظـل ابن سناء بعد صلاح الدين يمـدح ملوك الأيوبيين ، وفى كل مدائحـه تظهر الروح التى ظهرت فى مدائحه لصلاح الدين .

(وبعد) : فإن ابن سناء شاعر كبير ، وهو من الشعراء الذين خدموا الوحدة بين البلاد العربية بمـا نظموه فيها من أشعار .

ولقد أعاد التاريخ نفسه فجعل من عبد الناصر، الناصر صلاح الدين الثـانى ، فهل نجـد من شعرائنا من يكون ابن سناء الملك الثانى يتغنى بوحدة العرب ، ويسجل لنـا مظاهر النصر التى تملأ حياتنا الحاضرة .

ولولا أن الأناشيد ، والأغنيات الشعبية ملكت ناصية الأمر فى هذه الأيام لكنا نطمع، فى شعر كثير جميل يبقى على مر الأيام، يتحدث بانتصاراتنا ويسجل أروع صفحات تاريخنا ؟.

على العمارى

---

(١) مقدمة دار الطراز للدكتور جودت كامل ص ١١ .

الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين

لعالمين من علماء الأزهر

حملة قديمة – الايمان بالألوهية ضرورة عقلية – إرسال النبيين من آثار الرحمة الالهية – رسالة الاسلام – القرآن هو الآية الكبرى على رسالة محمد – القرآن آية وهداية أين المعارضون للقرآن – الاسلام عقيدة ونظام مزايا العقيدة الاسلامية – شبهات حول العقيدة « الجبر والاختيار » – حول الايمان بالآخرة – نظام الاسلام – عبادة الله وحده – العلاقات الانسانية – العلاقة بين الأغنياء والفقراء – بيت المال ملك الامة – الاسلام يقيم التوازن بين الأغنيا والفقراء .

الحملة على الأديان ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس وليست من مبتكرات المادية الماركسية التي زعمت أن الدين أفيون الشعوب .

قال الأديب الفرنسى « فولتير » أن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون الذين لقوا من يصدقهم من الحمق والسخفاء .

وفولتير أيضا لم يكن مبتكرا لهذا فمن قديم ظهر مثل هذا الزعم عند « السوفسطائيين » من اليونان الذين أنكروا حقائق الأشياء أو شككوا فيها وكان فيما روجوه من مغالطات وتشكيكات أن الإنسان فى أول نشأته كان لا يخضع إلا للقوة لا لخلق ولا لقانون ، ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء وتسمع كل شيء ، وتهيمن بحكمتها على كل شيء [١] .

ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت فى عصر ما أو أن يكون ثمت وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوبا مصنوعا فذلك سائغ فى العقل بل واقع بالفعل . أما فكرة التدين فى جوهرها ، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان .

---

(١) الدين للمرحوم الدكتور دراز ص ٧٤ .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . . وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بدون ديانة .

ويقول أرنست رينان فى تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية » .

ويعلق الأستاذ محمد فريد وجدى على هذه الكلمة فى دائرة معارفه فيقول فى مادة «دين» : « نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان بل إن هذا الميل سيزداد ... ففطرة التدين ستلاحق الإنسان مادام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه .

والحق أن الإيمان بقوة عليا — خلقت هذا الكون وقامت بتدبيره ورعايته على أحكم نظام — ضرورة عقلية بعد كونه ضرورة فطرية وجدانية ، فإن العقل الإنسانى بغير تعلم ولا اكتساب يؤمن بقانون السببية ولا يقبل فعلا من غير فاعل ، ولا صنعة من غير صانع .

وبدون التدين والإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن حائراً بغير جواب « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ؟ » ، وبداهة لم يخلقوا من غير شىء ، وطبعاً لم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يزعم أحد أنه خلق ذرة فى السموات أو فى الأرض ، فلم يبق إلا الاعتراف بوجود الخالق العليم الحكيم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

والذين فروا من الاعتراف بالألوهية الخالقة لأنها شىء غير مشاهد ولا محسوس ولا يدخل تحت التجربة ، لم يمكنهم إلا أن يلجئوا إلى قوة غامضة خفية هى الأخرى أطلقوا عليها « الطبيعة » .

وقد كان الوثنيون والجاهليون أقوم فكراً وأصرح رأياً حين اعترفوا بموجب الفطرة ومقتضى العقل فلم يلفوا ويدوروا كهؤلاء الذين يقولون : بالدهر والطبيعة ، فحين سئلوا من خلق السموات والأرض ؟ قالوا

فى صراحة وصدق : خلقهن العزيز العليم .
« قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله » .

* * *

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة ألا يترك الناس سدى أو هملا يتخبطون على غير هدى أو يختلفون بغير حكم ولا مرجع ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليضعوا لهم أسس الحياة الفاضلة ، وليرسموا لهم الطريق إلى الله وإلى سعادة الآخرة والأولى « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

وكان من حكمة الله أن يكون هؤلاء بشراً لا ملائكة يبعثون من بين أقوامهم ليكونوا آنس بهم وأعرف بأحوالهم وأقدر على التأسى بأخلاقهم وقد تعجب بعض الناس أن يرسل الله بشراً فرد الله عليهم « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » .

وقد أيد الله هؤلاء المرسلين بالحجة القاطعة والآيات البينات على صدق دعوتهم وأنهم رسل الله حتما ولم يملك المنصفون من معاصريهم إلا أن يذعنوا لهم ويؤمنوا برسالتهم « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » وأوضح مثل على ذلك سحرة فرعون الذين انتقلوا من الإيمان بربوبية فرعون إلى الإيمان الحق و « قالوا : آمنا برب هرون وموسى »... « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا » .

وقد تعهد الله البشرية فى شتى عصورها بأنبياء ومرسلين كانوا منارات هادية وقادة مبينين ومعلمين إلى أن أكمل الله الدين وختم الرسالات ببعثة النبى الأمى محمد بن عبد الله بالرسالة العامة الخالدة ليكون للعالمين نذيرا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

* * *

يخطىء كل الخطأ من يحاول أن ينعت الإسلام بأنه رسالة أرضية اخترعها بشر ونسقها فكر إنسان ، أو أنه ظاهرة اجتماعية أوحت بها أسباب تارخية أو عوامل اقتصادية .
... إن من يحاول هذه المحاولة يخدع نفسه أولا ويكذب على الناس ثانيا ... ذلك أنه يعصب عينيه ويستر عقله عن كل عوامل المعرفة الصحيحة ، فهو يتجاهل التاريخ الصحيح ، ويضل عن الواقع الاجتماعى والعملى فى جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده...

فإن أحوال القبائل العربية فى مكة وما حولها معروفة فى التاريخ كانت حياتها حياة انتجاع وسفر وتجارة ، وسمر ولهو ، وحرب وخصام على ناقة أو فرس — كما نعرف من حرب البسوس ، وداحس والغبراء .

ومن ناحية العقيدة معروف كذلك أنه كان لكل قبيلة وثن تعبده وتستعينه وتستقسم عنده ، وكانت الكعبة معظمة عندهم يتوارثون تعظيمها من قديم وكانت كل قبيلة تأتى بصنمها فتجعله حول الكعبة حتى بلغ عدد الأصنام فى الكعبة ثلثمائة وستين .

ولم تكن الوثنية سطحية فى بلاد العرب بل كانت متغلغلة فى أعماق حياتهم : ظهر ذلك فى حجهم ونذورهم وبحائرهم وسوائبهم وسائر شئونهم « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » .

والتحنف قبل الإسلام لم يعرف به إلا أفراد معدودون كانوا أسلم فطرة وأنضج عقولا من أن يجاروا تيار الوثنية فى قومهم فهجروا الأوثان وتعبدوا على ما بلغهم من دين أبيهم إبراهيم ، أو اعتنقوا ديانة كتابية كالنصرانية .

ومن هؤلاء أربعة نفر ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم ، فالقرشيون عمر بن نفيل بن عبد العزى العدوى ، وورقة بن نوفل الأسدى الذى قرأ الكتب القديمة ، وعرف النصرانية واتبعها ، وعثمان بن الحويرث الأسدى والرابع عبيد الله بن جحش ابن أسد بن خزيمة ...

ولم يكن لهؤلاء دعوة أو أثر فى قومهم يخفف من غلواء وثنيتهم وتمسكهم بأصنامهم حتى إن دعوة الرسول محمد إلى التوحيد لقيت استنكاراً بالغاً ورفضاً صارما « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشئ عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

ولمعرفة الرسول بعصبية قومه لوثنيتهم لم يفاجئهم بدعوته إلى التوحيد وتحسس طريقه إلى القلوب لمدة ثلاث سنوات ثم بدأ ينذر عشيرته الأقربين ويتدرج فى التبشير بالدعوة ومع هذا لم يكد يعثر إلا على الفرد بعد الفرد مدة ثلاثة عشر عاما لقى فيها مرير الأذى وصنوف العذاب هو وأصحابه واضطر أن يأمرهم بالهجرة إلى الحبشة مرتين .

وأعقب هذا الاضطهاد والناس فى مكة صراع دام فى المدينه دافعت به الوثنية عن نفسها وألقت بكل ما تملك من أرواح وأموال حتى لا يقوم فى الأرض دين التوحيد ...

فهل يمكن أن يقال بعد هذا إن الجزيرة العربيه كانت تتطور إلى التوحيد بتأثير

العوامل الاجتماعيه ، وأن التحنف كان ظاهرة عامة قبل الإسلام .

كان من حق الناس أن يقولوا لمن يدعى النبـــوة عن الله : ائت بآية إن كنت من الصادقين وقد أيد الله رسله بآيات كونية ناسبت عصرهم وما برع فيه قومهم من مثل قلب العصا حية لموسى ، وإحياء الميت وإبراء الأكمه لعيسى ..

ولما كانت دعوة محمد دعوة عامة خالدة للإنسانية كلها وللأجيال كلها شاءت حكمة الله أن يؤيده بآية عامة خالدة أيضاً ، آية عقلية معنوية هى (القرآن الكريم) .

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين »

« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ، وقد اشتمل القرآن على وجوه من الإعجاز خرست أمامها ألسنة المعارضين وانقطعت حجتهم أمام التحدى الواضح المثير « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

« قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

« قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » ، وحقت عليهم الغلبة والإذعان التى سجلها التاريخ والواقع .. وصدق قول القرآن نفسه « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

واستطاع هـذا الكتاب المبين أن يحدث أكبر ثورة نفسية واجتماعية غيرت وجه التاريخ وأنشأت أمة من العدم قوتها من ضعف وهدتها من ضلالة وجمعتها من شتات . فأصبح لها بفضل هـذا القرآن كيان واحد وتشريع يحتكم إليه وأخلاق توجه سلوكها وأعم لها وجهة الخير ، ورسالة عالمية تدعو الناس إليها « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

وقد امتاز القرآن عن آيات الأنبياء جميعا بأنه آية وهـداية معا أو كما وصف نفسه : « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

والآية المعجزة إذا كانت من جنس الرسالة والدعوة ، كانت أدل على صدق من أيد بها وأثبت عند العقل من الآيات الخارجة عنها .

وضرب بعض العلماء لذلك مثلا : رجلا ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه ألف كتابا فى علم الطب ، يداوى المرضى بما دونه فيه فيبرءون فاطلع عليه الأطباء البارعون ، فشهدوا بأنه خير الكتب فى الطب وما يتعلق به من عمل ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرئوا من عللهم ، وصاروا أحسن صحة ، فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعوى - دعوى الطبيب - مع هذين البرهانين العلمى والعملى ؟ .

كلا . وإن العلم بطب الأرواح أعلى وأعز منالا من طب الأجسام وإن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع أعسر من مداواة أعضاء الأفراد .

ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعى والمدنى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم عالج به أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة فى الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم من بدو وحضر ، مع أنه كان أميا لم يتعلم شيئا من العلوم ولم يتمرس فى سياسة الشعوب .

« كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم »

لو استدل ذلك الطبيب الجسدانى على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب ، لأمكن المراء فى صحة دعواه ، كذلك شأن هذا النبى فى ادعائه أنه مرسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمى المؤيد بنجاح العمل به ، أدل على كونه وحيا أوحاه الله إليه من جعل عصا حية أو إحيائه ميتا لأن هذين - على غرابتهما - ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست فى أنفسهما .

والإتيان بعمل خارق للمألوف فى العادة من سنن الكون ، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الإلهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب : الماضى والمستقبل ؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ .

فالقرآن إذا برهان على أن ما فيه من الطب الروحانى والاجتماعى وحى من المدبر الحكيم لا يمارى فيه إلا معاند مكابر أو مقلد جاهل [1] .

* * *

ظهر بعد نجاح الدعوة الإسلامية فى الجزيرة العربية - لأسباب نفسية وقبلية - بعض مدعى النبوة ، فماذا كانت حجتهم ؟

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢١٨ .

وما هى كتبهم التى دعوا إليها الناس ، وماهى أعمالهم التى ترجمت رسالاتهم ؟.

فى العام التاسع والعاشر من هجرة الرسول، ثم فى عهد أبى بكر ، تنبأ مسيلمة الذى ظهر فى اليمامة فى قومه بنى حنيفة ـ مناوئة لقريش أن تستأثر بالنبوة فى زعمهم وزعمه .

والأسود العنسى الذى تنبأ فى (اليمن) .

وطلحة بن خويلد الأسدى الذى ظهر فى قبيلة (أسد) .

وسجاح بنت الحارث والتى ظهرت فى (بنى تغلب) .

وقد تحدثت الروايات عن مسيلمة وغيره أنهم أنشئوا كتبا يعارضون بها القرآن ، لم تسع ذاكرة الأدب والتاريخ شيئا منها إلا ما تندرت به الروايات من مثل قول مسيلمة : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فإن التاريخ الذى ترك لنا تراثا هائلا من الشعر والحكم والأمثال وغيرها لم يجد شيئا ذا قيمة أدبية يمكن أن يسجله أو يحتفظ به .

ولم يستطع باطل هؤلاء أن يصمد طويلا أمام الإسلام الحق فسرعان ما انتهى أمرهم ، بعضهم بالموت وبعضهم بالإذعان للإسلام كما فعل طلحة الذى انضم إلى صفوف المجاهدين المسلمين بحماسة بالغة ، يكفر بها عن ماضيه فى مناوأة الإسلام .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

وفى عهد الدولة العباسة تحكى لنا بعض الروايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم « ابن المقفع » ، ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلانى أن ابن المقفع عندما انتهى إلى قوله تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور » ، إلى قوله تعالى : « وقيل بعداً للقوم الظالمين [1] » . عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، وترك المعارضة ، وأحرق ما كان قد اختلقه .

ويقول الباقلانى : إن قوما ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن فى كتابه « الدرة اليتيمة » ولم يجد الباقلانى فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن [1] .

ومن الذين اتهموا بهذه التهمة وهى محاولة محاكاة القرآن « أبو العلاء المعرى » فى كتاب الفصول والغايات ، وما ورد فى هذا الكتاب « أقسم بخالق الخيل . والريح الهابة بليل

---

(١) القرآن لمحمد صبيح ص ١٥٨ .

بين الشرط ومطالع سهيل. إن الكافر لطويل الويل . وإن العمر لمكفوف الذيل . فعد مدارج السبيل ، وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج » .

ويقول الرافعي في إعجاز القرآن (١) : ولا ريب أن هذا فرية على المعري أراده بها عدو حاذق ؛ لأن الرجل أبصر بنفسه ، وبطبقة الكلام الذي يعارضه ، وما أراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه ، والتواء مذهبه ... الخ .

ويقول طه حسين في كتابه « مع أبي العلاء في سجنه » (٢) هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ، نعم ، ولا .

نعم : إن فهمنا في المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة ، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في الفن الأدبي فتأثره ، وجد في تقليده ، كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل الفنية العليا . ذلك شيء لا شك فيه ، فأيسر نظر في كتاب « الفصول والغايات » يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها ، وليس المهم أنه وفق في هـذا التقليد أو لم يوفق بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره ، بل من المحقق أيضا أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان . ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب ولا تلزمه إثما ولا حوبا .

ولا : إن فهم من المعارضة الاستجابة للتحدي ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل القرآن فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبي العلاء ، فقد كان أشد تواضعاً من أن يبلغ به الكبر إلى هذا ، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ... إلخ .

وآخر ما عرفنا من محاولات المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحي السماء ، وأنه ينزل عليهم قرآنا ، كما كان ينزل القرآن على محمد هي محاولات :غلام أحمد الهندي القادياني وميرزا علي الباب ، وتلميذه البهاء .

ومن حسن الحظ أن أتباع هؤلاء لا يظهرون هذه القرآنات المزعومة ، بل يسترونها كما تستر العورات . . ومن استطاع بوسيلة ما أن يقرأ شيئا من هـذه الكتب لم يجد إلا الغثاثة والتفاهة الفكرية والبيانية ... وخرج منها بيقين أعمق بأن هذا القرآن من عندالله « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

والإسلام الذي بعث به محمد وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن القاصرون

---

(١) ص ١٨٩ .

(٢) ٣٣٦ .

دينا لاهوتيا ، وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحى للإنسان دون أن تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة ، وعلاقته بإخوانه بنى الإنسان أفراداً وأسراً ومجتمعات ودولا .

كلا إن الإسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمى كامل تقوم على أساسه أمة عالمية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القرآن : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

• • •

وللعقيدة الإسلامية مزايا وخصائص لا تتوافر لغيرها من العقائد الدينية فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ، تتلخص فى أن وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحداً ، خلقه ونظمه ، وقدر كل شىء فيه تقديراً وهذا الرب والإله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، « بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة . فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد والواقع المطرد يثبت أبداً أن تعدد الإرادات لا ينتج عنه أثر متكامل أو نظام متسق والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ، ولا مناقضة لها ، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وهى عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها ، أو يحور فيها ، وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبى الإسلام يقول : (من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد) أى مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » .

وعلى هـــذا فكل البدع والخرافات ، والإضافات التى لصقت بعقائد المسلمين أو دست فى بعض كتبهم ، أو أشيعت بين عامتهم - باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

• • •

مسألة الجبر والاختيار ، مسألة حار العقل البشرى فى الوصول إلى رأى قاطع فيها وتنازع

فيها الفلاسفة، وعلماء الأخلاق، والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم وبحث.

وعقيدة الإسلام في هذا هي العقيدة المتوازنة المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد.

فالإنسان بالنسبة لهذه العقيدة، حر مسئول عن نفسه وعمله — في دائرة أعماله الاختيارية — له أن يقدم وله أن يحجم كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه. وكما تشهد نصوص القرآن نفسه «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»، «إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا»، «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر»، «فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد»، «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها»، «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»، إلى غير ذلك من آيات تبلغ الستين أو تزيد، كلها تقرر حرية الإنسان وكسبه، ومسئوليته عن عمله «ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى».

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الإيجابي، ولكنه زاد على ذلك فحمل بقسوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر محتجين. بمشيئة الله تعالى في فعل ما فعلوا، أو ترك ما تركوا

وفي أربع سور من القرآن يرد الله تعالى على هذا الزعم الباطل في سورة الأنعام: «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون قل: فلله الحجة البالغة».

وفي سورة النحل «وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين».

وفي سورة يس «وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين».

وفي سورة الزخرف «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون».

وبهذه الردود الصريحة على الجبر من القدماء. قل هل عندكم من علم..؟ كذلك فعل الذين من قبلهم.. إن أنتم إلا في ضلال مبين — مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، عرف

موقف القرآن الحاسم من مشكلة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية .

بيد أن الإنسان - كما هو الواقع - ليس مطلق الإرادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان إلهاً .

ولم يستطع أحد - مهما بلغ فى الانتصار للحرية الإنسانية - أن ينكر محدودية الإرادة البشرية . فحكموا فيها الوراثة أو البيئة أو كليهما ، وعبر عن ذلك بعض الفلاسفة بقوله: « الإنسان حر فى ميدان من القيود » .

حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوا الإنسان بوسائل الإنتاج وظواهر الاقتصاد فهى التى تكيف تفكيره وسلوكه . وتوجه سير أحداثه . وبذلك نزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من الجبرية حين جعلوه عبداً خاضعاً لمظاهر المادة ، لا سيداً مهيمناً عليها كما يقرر الإسلام .

هذه الحقيقة المتفق عليها - محدودية الإرادة البشرية - قررها الإسلام فى صورة أشرف وأكرم للإنسان من الجبرية المادية أو التاريخية فالإنسان فى عقيدة الإسلام حر مختار فى دائرة ما رسم الله للوجود من سنن يجريها بقدرته ومشيئته ووفق علمه وحكمته - على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الإنسان .

الإنسان إذاً حر ، لأن الله أراد له الحرية أو هو يشاء ، لأن الله قدر له أن يشاء : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ولا عجب أن يذكر القرآن - بجانب حرية الإرادة الإنسانية عمل الإرادة الإلهية ، وهيمنة القدر الأعلى ، الذى يرعى الإنسان والكون جميعاً « إنا كل شىء خلقناه بقدر » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً » ، « فعال لما يريد » ، « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

وإيمان المسلم بقدر الله ليس إيماناً بعقيدة جبرية ولا بمذهب أهل الصدفة والاتفاق ، وإنما هو إيمان بأن الكون لا يمشى بغير غاية ولا يسير بغير تدبير ، كيف وكل ذرة من ذراته فى الأرض أو فى السماء يحيط بها علمه وتجرى عليها مشيئته وقدرته وفق حكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ... « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

هذا والإيمان بالقدر على هذا النحو لا ينافى الاجتهاد فى العمل ، واتخاذ كل ما يمكن من أسباب ، فإن الله كما كتب المسببات كتب الأسباب ، وكما قدر النتائج قدر المقدمات ، فهو لا يقدر للطالب مثلا النجاح فحسب بحيث يصل إلى هذه النتيجة عمل أو لم يعمل ولكنه تعالى قدر له النجاح ، بوسائله من

جد وحرص وانتباه ووعى وصبر ومداومة إلى آخر هذه الأسباب فهذا مقدر مكتوب وذاك مقدر مكتوب .

وإذا فالأخذ بالأسباب لا ينافى القدر بل هو من القدر أيضا ولهذا حين سئل صلى الله عليه وسلم عن الأدوية والأسباب التى يتقى بها المكروه : « هل ترد من قدر الله شيئا ؟ كان جوابه الفاصل : هى من قدر الله » .

ولما انتشر الوباء فى بلاد الشام قرر عمر بمشورة الصحابة . العدول عن دخولها والرجوع بمن معه من المسلمين ، فقيل له : أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن نزلت بقعتين من الأرض إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم - وهو أقوى الناس إيمانا بقدر الله - كان أكثر الناس اتخاذا للأسباب وعملا بمقتضاها ، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش ، وبعث الطلائع والعيون ، ولبس المغفر على رأسه ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة ... إلى آخر ما نعرف من سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه المهتدين .

ومع وضوح هذه القضية فى الإسلام على نحو ما رأينا قولا وعملا ، ونظرا وتطبيقا فإن النبى صلى الله عليه وسلم من الناحية العملية كمرب وقائد وإمام أمر أصحابه - سدا للذريعة ، ودرءا للفتن - أن يغلقوا أبواب الجدل العقيم حول المسائل الشائكة التى حارت فيها العقول من قديم ، وهدى الوحى الإلهى الناس فيها إلى القدر الذى فيه نفعهم فى الدين والدنيا ... ومنها « مسألة القدر » .

قال الشيخ محمد عبده : « ولكن وا أسفاه نأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين ... جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام ، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن التكلم فى القدر ، وخدعوا المسلمين بهرج القول وزوروا الكلام حتى كان ما كان من تفرق المسلمين شيعا ، والله يقول لنبيه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف (بالجبرية) ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يعذلها الحق ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجبر والعمل وصدق الإيمان ... إلخ .

يثير بعض الماديين المتحذلقين غبارا

حول ما ذكره القرآن ، بل الكتب السماوية جميعاً عن انتهاء هذه الحياة ، وقيام الساعة ، ويوم الجزاء ، والجنة والنار .

وكان مما أثاره هؤلاء : أن القرآن يقول : « لعل الساعة تكون قريباً » ، وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ولم تقم الساعة بعد ونسى هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية ، وألف عام أو أكثر ليس إلا زمناً يسيراً وعهداً قريباً بالنسبة لعمر الدنيا وخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من السنين والقرون ، ونضيف إلى هذا أن محمداً خاتم الأنبياء ، وأن رسالته هي الكلمة الأخيرة من الله للناس . وبذلك يكون معنى القرب واضحا . فلا نبي بعده ، ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة .

أما الحياة الآخرة فهي نشأة أخرى يستوفى فيها كل عامل جزاء عمله بالعدل التام والقسط الأوفى ، فكثيراً ما تقصر الحياة الأولى عن تكافئ الأخيار بما قدموا ، أو تجزى الأشرار بما أسرفوا ، والإيمان بوجود إله عادل حكيم يستوجب وجود هذه الدار الأخرى « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .

والإيمان بدار الجزاء والخلود ليس معناه اضطراح الدنيا ، واستدبار الحياة والعيش فيها عيشة التواكل والتمنى الفارغ ... كلا فإن استحقاق السعادة فى الآخرة لا ينال إلا بالعمل الدائب والجد المتواصل « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وحسبنا فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما فهموا الحياة ولا عاشوها إلا سعيا وكفاحا ، وضربا فى الأرض ، وسعياً فى كل ميدان من ميادين الحياة ، لم يقعدوا ولم يكسلوا انتظاراً للجنة وما فيها من نعيم ، وللآخرة وما فيها من راحة ، كيف وقرآنهم يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والنظام الإسلامى لا يقتصر على ناحية من نواحى النفس أو المجتمع أو الحياة ، أو يهتم بها على حساب غيرها .. كلا إنه يشمل كل النواحى وينظم كل العلاقات الروحية والمادية . الفردية والاجتماعية ، ويقيمها جميعاً على أساس من التوازن والعدل فيما بينها بالقسطاس المستقيم ، فلا يطغى المادة على الروح ، كما هو سمة اليهودية ، ولا يهضم جانب المادة من أجل الروح كما هو دعوى النصرانية ، ولا يطغى الفرد على حساب المجتمع كما هو نظام الرأسمالية ، ولا المجتمع على حساب الفرد كما هو الشأن والواقع فى الشيوعية .

ذلك أن هذا النظام لم يأت نتيجة ثورة جامحة كانت رد فعل لأوضاع فقاومت التطرف فى اليمين بالتطرف فى اليسار كما هو الشأن فى الثورات التى جمحت دائماً وجاءت بأنظمة شكا الناس منها وعدلوها بعد زمن قليل .

ولم يضع هذا النظام فرد أو مجموعة أفراد من البشر تحكم عليهم مواريثهم وبيئتهم وظروفهم وثقافتهم - فضلا عن أهوائهم وشهواتهم - فيتجهون بالنظام الذى يضعونه وجهة ذاتية توافق تكوينهم الشخصى ، وظرفهم الزمنى ، ووضعهم الإقليمى ونزوعهم القومى . ولذلك لا يلبث الناس بعد حين أن يتبينوا نقصا أو انحرافا فيما وضعوا أو وضع لهم من نظام .. فيقومون أو يطالبون بالتغيير والتعديل والتبديل . . . أما نظام الإسلام فواضعه هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس ، لا يتحيز لجنس على جنس ولا لطبقة على طبقة ، ولا لجيل على جيل لأنهم جميعاً عباده وهو رب العالمين ، كما أنه تعالى لسعة علمه لا تخفى عليه مصلحة ، ولسعة رحمته لا يريد لعباده عسراً ولا عنتاً « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وأول ما شرعه نظام الإسلام هو تنظيم العلاقة بين الله وبين عباده . فإن العباد لم يخلقوا أنفسهم ، ولا أنشئوا فى الأرض أو فى السماء شيئا مما حولهم من نعم غامرة ، ورحمة سابغة ، فحق الخلق لهم والإنعام عليهم ، والتكريم لهم على من سواهم من الخلق .. يقتضيهم أن يقوموا بشكر ربهم ويعرفوا له حقه ، فيعبدوه وحده لا شريك له ، ويخلصوا له الدين هذا ما تنادى به الفطرة السليمة وهو عين ما جاء به الإسلام « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وقد نقى الإسلام العبادة مما ألصقها به أهل الملل والنحل المختلفة ، من طقوس شركية ووساطات زعموها بين الله وعباده وابتداعات وثنية لم يأذن بها الله ، فالصلاة اتجاه إلى الله وحده لا يتوقف على إذن كاهن ، ومكان خاص « فالأرض كلها مسجد ، وأيما رجل مسلم أدركته الصلاة أذن وكبر وصلى » .

والإمام فى صلاة الجماعة — التى فضلها الإسلام على صلاة الفرد بدرجات كبيرة ليس رجل كهنوت وإنما هو واحد منهم ، يقدمونه لعلمه أو صلاحه ، يستمعون له إذا قرأ ويصححون له إذا أخطأ .. ومرد القبول فى صلاة الجميع إلى الله وحده الذى يعلم الصادق من غيره « إنما يتقبل الله من المتقين » .

وهذه الصلاة الإسلامية بكيفيتها ، ومواقيتها وشروطها ، وما يتلى فيها من أقوال ، وما يؤدى فيها من أعمال لم تعرف لدين ، ولا لمذهب من قبل ، إنها الصلة اليومية للمسلم بربه ، وهى طهارة للجسد ، وزكاة للنفس وتربية للخلق ، وتنمية للوازع الأدبى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » كما أنها بما شرع فيها من جمعة وجماعة رباط اجتماعى وثيق ومدرسة يتعلم فيها المسلم بطريقة عملية — النظام والإخاء والمساواة وهى بما اشترط لها من استقبال قبلة واحدة تعلم المسلمين فى أنحاء الأرض وحدة الغاية والفكرة والاتجاه ، والحج رحلة يتجه فيها المسلم بدينه وقلبه إلى بيت جعله الله رمز التوحيد والوحدة : ذلك البيت الذى بناه إبراهيم الخليل محطم الأصنام وهادم الشرك والوثنية وأبو الأنبياء المرسلين . والذى أمره الله بالتأذين بالحج فى الناس « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » .

لكن هذه العبادة التى وضع أساسها إبراهيم خالصة لله .. لم يلبث كر الأيام ومر السنين أن بعد بالناس عن شرع الله فيها ، وجرهم الجهل والهوى والخرافة ، فاتخذوا من دون الله أوثانا وضعوها فى بيت التوحيد وبدلوا فى شعائر الحج ومناسكه فطافوا بالبيت عرايا وقدموا القرابين للأصنام وخلطوا ما بقى من التوحيد بما ابتدعوا من شرك فكانوا يقولون فى تلبيتهم « لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك » يعنون بهذا الشريك أصناما لهم .

جاء الإسلام والقوم على هذه الحال فمحا معالم الشرك وحطم النبى بيده الأصنام التى نصبوها حول الكعبة — يوم الفتح — وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقا، وخلصت الكعبة للتوحيد، ورد النبي الحج إلى ما كان عليه في عهد أبيه إبراهيم وخلصه من آثار الوثنية الجاهلية وأصبح شعار الحج «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» وما ربط الله شعائر الحج بأماكن معينة في البلد الحرام مكة إلا لأنها أرض الذكريات وميراث إبراهيم، ومنبت الدعوة، فهي وصلة بين قديم المؤمنين وجديدهم وكل ما يقوم به المؤمنون من أعمال في الحج إنما هي رموز لها دلالتها وإيحاءاتها في أنفسهم مجردة من أي قصد ذاتي لها إلا قصد التعبد لله باتباع ما أمر وأداء ما أوجب، وقديماً وقف عمر أمام الحجر الأسود وقال: «أيها الحجر إني أقبلك وأنا أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».

أفيقال بعد هذا إن المسلمين إنما يحجون إلى حجر أسود أو أحمر يسجدون له ويتبركون به.

إنما كان الحج قوى في عين أعداء الإسلام لأنه المؤتمر الإلهي الجامع، الذي يتنادى إليه المسلمون من كل فج وصوب فيربط بين قلوبهم برباط الأخوة الإسلامية العامة، ويذكرهم بوحدة الهدف، ووحدة الآمال والآلام، ويوحي إليهم أن يعملوا ويتعاونوا ليعودوا من جديد خير أمة أخرجت للناس، وهذا ما تغص به حلوق أعداء الإسلام !!

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة في هاتين العبادتين، وهي كافية في التعبير عن روح الإسلام في تنظيم العلاقة بين الله والناس.

ولننظر الآن كيف نظم الإسلام العلاقات بين الناس هل أيد الإسلام الإقطاعيين؟ هل أقر الظلم الاجتماعي؟ هل أعان طبقة على طبقة أو قويا على ضعيف؟ هل ترك المجتمع تتحكم فيه الفوارق المصطنعة من عنصرية، أو وراثة حسب أو جاه؟.

ذلك ما نجيب عنه في الصفحات التالية:

إن أدنى دراسة لتعليم الإسلام تبين أنه ليس دين طبقة خاصة أو فئة معينة إنما هو دين قامت أسسه الاجتماعية على: الأخوة والعدالة، والمساواة وضح ذلك في شعائره وعباداته كما وضح ذلك في أنظمته الاقتصادية والسياسية.

اعترف الإسلام بالتفاوت الفطري المعقول في الأرزاق بين الناس، إذ قبل ذلك ثبت تفاوتهم الفطري في القدر والمواهب والملكات والطاقات.

والإسلام - كدين يعترف بالفطرة ويسمو بها ولا يقاومها - اعترف بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ليشبع بذلك الدوافع البشرية الفطرية فى حب التملك والمنافسة والادخار . ولكن الإسلام لا يحترم الملكية الفردية إذا نشأت عن سبب غير مشروع ، كالغصب ، والسرقة الجلية ، أو الخفية ، كالهدايا للحكام ، واستغلال النفوذ ، وأخذ الرشوة والتحايل على أكل أموال الناس بالباطل بل يصادر هذه الملكيات مهما طال عليها الزمن واختلف الليل والنهار ، فطول الزمن لا يبيح المحظور ، ولا يقلب الحرام حلالا .

والإنسان فى الإسلام ليس مالكا حقيقيا ، يتصرف فى ماله كيف يشاء ، لا ، فالمال مال الله ... ، ومعنى هذه العبارة أنه مال الجماعة ، والغـــنى موظف على رعايته وتنميته ، وإنفاقه بما يوافق صالح الجماعة لا بما يضارها ، فهو مستخلف على المال « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

فالملكية إذا : وظيفة اجتماعية ، والغنى إذا مطالب إزاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة ... وهى : ليست تبرعا ولا إحسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالمذلة والهوان ، بل هى حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الحكومة بواسطة « الجباة » العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين أو على المصالح العامة « وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله » .

والزكاة ليست تعليما فرعيا أو ثانويا من تعاليم الإسلام بل هى ركن من أركانه وأصل من أصوله لا يكون الفرد مسلما إلا بأدائها ، ولا تكون الدولة مسلمة إلا بالعمل على تحصيلها وجبايتها وقد حدثنا التاريخ أن أرباب المال من العرب عز عليهم دفع هذه الزكاة ، فأبى أبو بكر أن يقبل أى تهاون فى حق الفقير وجهز أحد عشر لواء لمحاربة الرأسماليين الأشرار وقال كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

وقد أشاع بعض المغرضين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى للدولة الإسلامية ، زاعمين أن هذا المال إنما يجمع للخلفاء والسلاطين وأن بيت المال إن هو إلا خزينة خاصة ينفقون منها كيف شاءوا دون معقب أو محاسب .

والحق الذى يعرفه كل من درس شريعة الإسلام وتاريخه ، أن بيت المال ليس ملكا للخليفة ، وإنما هو ملك للأمة جميعا ،

والخليفة إنما هو خازن أمين ، ليس له منه إلا راتبه بالمعروف كما قال أبو بكر (أعطونى كأوسط رجل من قريش ليس كأوكسهم ولا أعلاهم) ذلك أن أبا بكر صبيحة بويع بالخلافة ذهب إلى السوق كعادته ليتاجر ، ويقوت نفسه وأهله ، فلقيه عمر فقال له : إلى أين ؟ قال إلى السوق ، قال عمر : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : من أين أطعم عيالى ، فقال عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال . ، فانطلق إلى أبى عبيدة ، فقال للخليفة : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره .

وقال عمر : إنما أنا وهذا المال . كولى اليتم ، إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

وأبى على بن أبى طالب أن يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه وأهله هذا هو مسلك الراشدين من حكام المسلمين وخلفائهم ، أما انحرافات بعض الحكام فليست حجة على الإسلام ولا يسأل عنها .

واعتراف الإسلام بالتفاوت الطبيعى فى الرزق ، ليس معناه أن يدع الغنى يزداد غنى ، والفقير يزداد فقرا ، بل تدخل بتشريعه القانونى ، وتوجيهه الأخلاقى لتقريب الشقة بين الأغنياء والفقراء ، فحد من طغيان أولئك ، ورفع من مستوى هؤلاء ... حرم على الأغنياء الكسب بالباطل .

وحظر عليهم الربا قليله وكثيره ، جليه وخفيه ، واعتبر آكل الربا محاربا لله ولرسوله ولعن كل من شارك فى أمر الربا لأنه امتصاص الضعفاء لحساب الأقوياء « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الرأسمالية الجشعة وأعلن رسول الإسلام (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) .

وحرم عليهم السرف والتبذير ، وجعل للحاكم سلطة الحجر على المبذرين السفهاء .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » .

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

وحرم عليهم ألوان الترف الذى يفسد الأفراد والأمم ، فالخمر ممنوعة ، وأوانى الذهب والفضة محظورة ، ولبس الذهب والحرير للرجال محرم ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، (من شرب فى آنية ذهب أو فضة فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم) .

ثم حرم الكنز وأنذر القرآن الكانزين بوعيد تنخلع له القلوب « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ولم يحارب الكنز بالقول بل بالعمل ، فالزكاة محاربة عملية لكل مال يكنز إذ ينقص منه كل عام ٢٫٥ ٪ اثنان ونصف فى المائة ، فإن لم يعمل ويستثمر استهلكته الزكاة .

وبهذه الأساليب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف من جانب ، ومحاربة للكنز وإيجاب للزكاة من جانب آخر أصبح مفروضا على صاحب المال أن يوجه ماله إلى الاستثمار المشروع والنماء لمنفعة الجماعة ، فيتحقق التوازن العادل الذى يريده الإسلام ويشير إليه قوله تعالى : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ومن ناحية أخرى أتاح الإسلام الفرص المتكافئة للفقراء ليقفوا على قدم المساواة مع الأغنياء ، فباب العمل والكسب مفتوح للجميع ، ليس محتكرا لطائفة ولا مسدودا أمام أحد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ، ومن طرق باب تجارة فربحها له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز يدفع الخمس منه والباقى له .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر أن يهيئ له عملا ، فإن لم يهيئ له أو كان عاجزا عن العمل أو كان أجره من عمله لا يكفيه كان واجبا على ولى الأمر أن يرعاه ويهيئ له ما هو حق لكل مسلم أو ذمى فى ظل دولة الإسلام من مأكل ومشرب وملبس فى الصيف وملبس للشتاء ، ومسكن يكنه ويأويه كما قرر فقهاء الإسلام .

وللحاكم إذا لم تكف الزكاة ، والموارد العادية لسد هذه الحاجات أن يفرض على أغنياء المسلمين الضرائب الكافية التى تقيم مصالح المسلمين ... وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ : « إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد ، وقد اتخذ الإسلام طرقا مثمرة فى تفتيت الثروات أبرزها تشريع الميراث الذى يوزع ثروة الرجل الواحد بين زوجته وأبويه وأولاده جميعا ، أو عصبته أو ذوى أرحامه توزيعا عادلا حكيما شمل الذكور والإناث ، لا الذكور فقط كما كان يفعل العرب فى الجاهلية ، ولا الابن الأكبر فحسب كما تصنع بعض الدول اليوم كانجلترا مثلا .

ونظام الإسلام يتسع للأغنياء كأفراد يجمعون الثروات من حلها وينفقونها فى حلها ولا يبخلون بها عند الحاجة إليها ، يتسع لهم كأفراد لا كطبقة لها مزايا شرعية ، أو حقوق قانونية ، أو سيادة اجتماعية يتوارثها الآباء عن الأبناء ، والأحفاد عن الأجداد لجميع الناس أمام القانون وأمام الله وكتابه سواء ، لا يتفاضلون إلا بمقدار وفائهم لإنسانيتهم وإيمانهم بالله واحترامهم لحقوقهم العامة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، (الناس سواسية كأسنان المشط) .

وإذا فالأغنياء إنما هم أفراد يثرون بجهدهم ونشاطهم ، وقد لا يدوم لهم الثراء ، بل قد ينقص أو ينتقل ميراثه إلى غيرهم ، فالفقر أو الغنى فى المجتمع الإسلامى ليس شيئا ثابتا مؤبدا ، بل هو أمر دائم التغير بتغير ظروف الحياة وفرص الكسب ، وقوانين الميراث .

ليس فى الإسلام إذا طبقات بهذا المعنى الذى كان معروفا فى الغرب — بمعنى طبقة لها مزايا وحقوق متوارثة كطبقة الحكام وطبقة الأشراف ، أو النبلاء وطبقة الفرسان وطبقة رجال الدين ... الخ .

الحكام أفراد تختارهم الأمة بواسطة أهل الحل والعقد فيها أو بأى وسيلة تختارها ، وليسوا من فئة أو أسرة معينة بل قال الرسول : « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى يقودكم بكتاب الله » وقال عمر قبيل موته « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته » .

ونظام توارث الحكم والخلافة نظام دخيل على الإسلام فلا يقره ولا يعترف به.

والفقهاء فى الإسلام ليسوا طبقة كهنوتية كرجال الأديان الآخرين إنما هم علماء متخصصون فى دراسة الإسلام عقيدته وتشريعه وأخلاقه ، فهم فى الحقيقة علماء دين ، وعلماء قانون وعلماء أخلاق واجتماع وليسوا واسطة بين الله وعباده ، ولا هم يملكون مفاتيح الجنة ولا هم باعة لصكوك المغفرة والرضوان.

لا طبقات إذا فى الإسلام بالمفهوم الغربى لهذه الكلمة وإذا سمى بعض الناس الأفراد الأغنياء فى دولة الإسلام طبقة فلا ضير فى التسميه إذا وضحت المسميات فقد قسم بعض الباحثين الناس إلى ثلاث طبقات : غنية وفقيرة ، وميسورة ، وهو تقسيم على وجه التقريب والتشبيه كتقسيم الناس إلى أبيض وأسود وأصفر من حيث اللون . ووجود

الطبقة بهذا المعنى أمر اقتضاه نظام الوجود كله الذى قضى بالاختلاف والتفاوت حتى بين النباتات والجمادات ، فما بالنا بالإنسان وبين أفراده من التفاوت ما لا يوجد فى أى نوع من الأنواع الأخرى للكائنات ؟ ولقد زال رأس المال من روسيا وزال معه أغنياؤها وثرواتها وتبلاؤها ، وعلى هذا ظهرت فيها - كما قال الأستاذ العقاد طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة فى أشهر البلاد ، لاستبداد نظم الصناعة ورأس المال (١) .

ولقد كان الإسلام دين الفطرة والواقع حقا حين اعترف بالتفضيل الموجود فعلا فى كل بلاد الدنيا - رأسمالية أو شيوعية - قال تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ، « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

وإذا كان هذا صنع الله فالله لا يصنع شيئا عبثا ، إنما يصنعه لحكمة بالغة والحكمة هنا كما ذكر القرآن أمران : أولهما : الابتلاء الذى على أساسه يقوم التكليف والجزاء « ليبلوكم فيما آتاكم » ثانيهما التسخير - « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ، وهذا ليس تسخير القهر والإذلال كما يوهمه المدلول العرفى للكلمة إنما هو تسخير النظام والمصلحة المشتركة .

فلو كانت الحياة مصنعا لم يكن صلاحه أن يكون كل العاملين فيه مديرين أو مهندسين بل لابد من المدير والمهندس والكاتب والعامل والخفير .

وإذا كان التفاضل فى الرزق لا يمنح صاحبه ميزة أو مرتبة دينية أو تشريعية فى المجتمع المسلم ، فإن التفاضل الحقيقى المعترف به ، هو التفاضل فى مجال العلم والإيمان ، والعمل :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

« ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » .

وهكذا أقام الإسلام العلاقة بين الغنى والفقير على أساس العدل والمساواة والإخاء ، فهو يسوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات العامة .

ويتيح الفرصة للجميع ليكتسبوا .

ويقول للأغنياء بعد هذا : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

ويقول لولى الأمر : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »

ويقول للفقير : (لا تحقد ولا تحسد) .

---

(١) حقائق الإسلام ٢٠١

« لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم »
ثم يقول للجميع: (كونوا عباد الله إخوانا).
وكذلك فإن الإخاء يسود المجتمع الإسلامي كله ، فلم يحقد فقير على غني ، ولم يبغ غني على فقير ، وشعر الغني أن الفقير أخوه ، وشعر الفقير أن مال الغني ماله ...

فلا عجب أن رأينا بلال بن رباح ، وعمار ابن ياسر ، وأبا هريرة وأهل الصفة يعملون جنبا إلى جنب مع عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن عبادة ، لا يشعرون إلا بالحب والتعاون والإخاء .

ومن السهل بعد هذا أن نعرف إذا كان الإسلام يشجع الطبقية أو يعترف بالإقطاع والإقطاعيين !! .

جاء الإسلام فوجد العالم كله يعترف بنظام الرقيق : رق الأسرى في الحروب ، ورق السبي في إغارات القبائل بعضها على بعض ، ورق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

فماذا كان موقفه ؟ لم يرد نص واحد بالاسترقاق على حين وردت عشرات النصوص تدعو إلى العتق ، وتفتح أبواب التحرير للرقاب[1] ولم تدعه للأفراد وحدهم يكفرون به من خطاياهم أو يتقربون به إلى ربهم ، بل جعله واجبا على الدولة تساهم به من مال الزكاة « وفي الرقاب » .

ولم يقتصر على فتح أبواب العتق بل قبل ذلك سد كل ما يمكن سده من منافذ الاسترقاق ولم يبق منه إلا ما أبقاه العالم المتحضر الآن . فإن الأمم التي اتفقت على معاهدات منع الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة أو التعويض . أما في عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . وإذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب في الحروب الحديثة ، فالإسلام لم يجعله حتما مقضيا في جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف منه وجعل المن في التشريع أفضل الخطتين « فإما منا بعد وإما فداء » . وشريعة تجعل الرق في أضيق نطاق وتوسع مجالات التحرير وترفع من شأن الرقيق فتجعله عضوا في الأسرة (إخوانكم خولكم) لا يمكن أن توصف بأنها تشجع الرق أو ملاك الرقيق ، إنما هي في الحقيقة جاءت لتقوم بتصفية هذا النظام في العالم بتدرج حكيم وخطة مثلى ... فلم يكن من السهل إلغاء نظام تغلغلت جذوره في الحياة الاجتماعية

---
(١) العتق – التدبير – الكتابة – الكفارات – أمهات الأولاد – من ملك ذوي رحم محرم .

الأمة فى الإسلام هى الحاكمة وهى صاحبة السلطة . هى التى تختار حاكمها ، وهى التى تشير عليه ، وهى التى تنصح له وتعينه ، وهى التى تعزله إذا انحرف وجار .

والخليفة فى الإسلام ليس نائبا عن الله ولا وكيلا له فى الأرض ، إنما هو وكيل للأمة ونائب عنها .

والخلفاء الراشدون لم يكونوا خلفاء عن الله بل خلفاء لرسول الله فى حكم الأمة بما أنزل الله ، وسياستها بما أمر الله ورسوله .

أخرج الإمام أحمد عن ابن أبى مليكة قيل لأبى بكر : يا خليفة الله ، قال : أنا خليفة رسول الله ، وأنا راض به .

وحين ولى الخلافة خطب خطبته الشهيرة فقال : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وعمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة وبايعه الناس قام يخطب فقال : « إنما أنا كأحدكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملا » .

هذا هو الخليفة ، ليس أفضل الناس وإن كان أكثرهم مسئولية ، هو وكيل للأمة بل هو خادم وأجير لها . عرف ذلك الخلفاء أنفسهم ، وعرف ذلك العلماء ، وعرف ذلك الأدباء والشعراء ، وعرف ذلك عامة الناس .

يروى لنا الإمام البخارى عن عائشة قالت : لما استخلف أبو بكر قال : لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ، وسأحترف للمسلمين . .

هذه هى وظيفة الحاكم محترف للمسلمين ، وبعبارة أخرى مستخدم أو أجير للأمة . هى التى وظفته وهى التى منحته راتبه ، وهى التى تعينه إذا استقام ، وتقومه إذا اعوج .

ويدخل العالم الجليل أبو مسلم الخولانى على معاوية أمير المؤمنين ، فيقول له فى صراحة : السلام عليك أيها الأجير ، ويقول جلساؤه : قل السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير فيعيدون قولهم ، ويعيد قوله ، وهنا يقول معاوية ، دعوا أبا مسلم فهو أدرى بما يقول .

وينظم الشاعر المعروف أبو العلاء المعرى هذا المعنى ساخطاً على انحراف الأمراء والحكام عن وظيفتهم فى العدل والإصلاح للأمة فيقول :

ـل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويشيع هذا المعنى فى الناس جميعا متعلمهم وأميهم . حضريهم وبدويهم ، فلا يؤمنون بقداسة لخليفة ، أو بعلو حاكم على الناس حتى إن رجلا بدوياً دخل على أحد الخلفاء فوجده جالسا على مكان مرتفع والناس دونه فى مكان منخفض ، فقال له البدوى : هل أنت الله ؟ فقال الخليفة : لست الله ، فقال الرجل : هل أنت جبريل ؟ قال : لا . فقال لست الله ولا جبريل فلماذا تجلس مرتفعا ؟ انزل واجلس مع الناس .

وكان من ثمرات هذا الفهم أن شعر كل مسلم بمسؤليته وشخصيته فى رعاية الحق والعدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تخطىء امرأة خليفة على المنبر فلا يجد غضاضة أن يعلن على الناس: أصابت المرأة وأخطأتُ.

بعد ثلاثة عشر عاما من احتمال صنوف العذاب والأذى وهجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين ، وبعد أن أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وتركوا إخوانهم المستضعفين فى مكة يسامون سوء العذاب ، وبعد أن همت نفوسهم بالانتقام من الظالمين وردهم الرسول إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلا « لم أومر بقتال . لم أومر بقتال» ولما طال الصبر ولم يتحول المشركون عن اضطهادهم للمستضعفين ، ومصادرتهم الدعوة ، أنزل الله فى شأن القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

وابتدأ الصراع بين جبروت الشرك ودعوة الإسلام الذى استمر عدة أعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة فى السيرة النبوية ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفى الوقت الذى كان فيه الصراع دائراً داخل الجزيرة بين قوى الإيمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعان العالم إذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على أجزاء من بلاد العرب ... هما دولتا : فارس الوثنية التى تسيطر على العراق ، والروم المسيحية التى تسيطر على الشام .

ولم يكن المسلمون فى هذا الوقت بحيث يفكرون فى فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم أو العدوان عليها ، وإنما بدأ هؤلاء بالشر والعدوان :

بدأت فارس حين أرسل كسرى - رداً على دعوة الرسول له - إلى واليه باليمن «بأذان» يقول له : بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه ، أيكتب إلى هذا الكتاب وهو عبدى ؟!! .

ولم يكن هذا الغرور والاستهتار عند الفرس وحدهم ، فإن الروم أيضاً بدءوا بالتحرش والعدوان ، فقتلوا مبعوث رسول الله إلى والى الروم ببصرى، ولم يتركوا الحرية لمن شاء أن يسلم بل قتلوا وعذبوا ... ثم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك بالأردن تنذر وتهدد ، وعلم النبى أنهم ينوون مهاجمته فى عقر داره فكان من حسن السياسة أن يبادرهم قبل أن يبادروه ويهاجمهم قبل أن يهاجموه ، وبدأ قتال مريرة بسرية « مؤتة » ، « وغزوة تبوك » واستمر فى عهد الخلافة الإسلامية .

لم يكن المسلمون يبغون من ورائه إكراه أحد على دين ، أو إعلاء جنس على جنس أو طلب منفعة ، أو استرزاق ، كيف وقد سئل نبيهم : « يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه ، والرجل يقاتل حمية - أى عصبية - فأيهم فى سبيل الله ؟ فأجاب بالجواب الجامع : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولم يكن هذا الفتح فتح استعمار وسلب ونهب ، وإنما كان إزالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادئ العدل والمساواة ...

« أين هذا الفتح من فتوح أبادت أجناسا ، وقتلت شعوبا ، وخربت دياراً ؟ وقد صدق جوستاف لوبون حين قال : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

كانت المرأة فى الجاهلية متاعا أو كالمتاع لاتعرف لنفسها قيمة ، ولا يعترف لها برأى أو إرادة حتى شك بعض الناس ألها روح أم لا ؟ . وكانت نزعة الزراية بها والهضم لشخصيتها تسود العالم كله .. حتى جاء الإسلام فأعلن كتابه « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة» ، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» ، « إن المسلمين والمسلمات » ، وبذلك حطم الأغلال عن عنقها ، وأظهر شخصيتها وأعلن مساواتها للرجل فى الحقوق والواجبات إلا ما تقتضيه طبيعة كل منهما .

وحسبنا فى هذا أن الله يقول : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ، وأن النبى يقول : (إنما النساء شقائق الرجال) .

وخلق حواء من ضلع آدم — الذى يقال

إنه يوحى بطغيان الرجل على المرأة — لم تدل عليه آية صريحة فى القرآن ، وماذكره فى ذلك بعض المفسرين رده عليهم آخرون ، والذين ذكروه إنما استمدوه مما ذكر فى (سفر التكوين) من العهد القديم ، وقوله تعالى :

« خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » معناه خلق من جنسها زوجها ، كما علل ذلك فى آية أخرى : « ليسكن إليها » وذلك كقوله مخاطبا للجميع : « خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » أى من جنسكم .

كل ما للرجل من ميزة هو الدرجة التى ذكرها الله « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة القوامة والمسئولية عن البيت « الرجال قوامون على النساء » ليست درجة القهر والعنف ، ولا درجة الاستبداد ، إنما هى الرياسة التى تقتضيها الفطرة ، ويوجبها الواقع وطبائع الأمور . وهذه الرياسة لا تنال من حريتها الدينية ، ولا حريتها الفكرية ، ولا حريتها المدنية ، ولا تصرفها فى أحوالها الشخصية ، ولا تهضمها حقا مقرراً لها .

إن إعطاء القيادة للرجل أمر طبيعى ، فالحياة لا تنتظم من الوحدة الصغيرة إلى الوحـــدة الكبيرة — إلا بقائد أو مسئول ، والرجل أولى وأحق بهذه القيادة ؛ لأنه القائم بجلب القوت والمنفعة ، وبالمسئولية عن رعاية البيت وحمايته ، وهو أشد قوة وأعظم قدرة من المرأة ... بل كما ذكر فى عالم الحيوان نراه أقوى من الأنثى ... نرى ذلك فى الديك والدجاجة والكبش والنعجة ... الخ ، سنة من سنن الله .

وما يذكره بعض الجاهلين بالإسلام (شاوروهن وخالفوهن) فليس له أساس صحيح فى دين الله بل فيه ما يناقضه وينقضه ، تقرأ ذلك فى القرآن وفى السنة ، فالقرآن يجعل للمرأة حق المشاركة وإبداء الرأى فى رضاع ولدها وفطامه وتربيته « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » والسنة تجعل للأم رأيا فى زواج بناتها (آمروا النساء فى بناتهن) وتجعل الرأى الأخير للبنت نفسها (البكر تستأذن وإذنها صمتها والثيب أحق بنفسها) .

إذا كانت بعض الأديان تقول : أطفئوا نور العقل . . اطمسوا عين البصيرة ... أو تقول : اعتقد وأنت أعمى ... أو آمن ثم اعلم ... فإن الإسلام يقيم عقيدته من أول الأمر على أساس من النظر والتفكير لا التبعية والتقليد :

« قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » .

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » .

والقرآن هو الكتاب الذى يهيب بتاليه وسامعه دائما : « أفلا تتفكرون ... لو كانوا يعلمون ... أفلا تبصرون ... إن كنتم تعلمون .. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .. لقوم يتفكرون .. لقوم يعلمون .. آية للعالمين » .

والعلم فى الإسلام يقوم على الإيمان ، والإيمان ثمرة له ، ومترتب عليه ، اقرأ قوله تعالى : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ... الآية » .

والعلم الكونى فى القرآن سبيل إلى خشية الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ، كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وما ذكر فى الآيتين يشير إلى علوم الفلك والنبات والجيولوجيا والحيوان .. وكلها علوم كونية ، والقرآن يمجد العلم من حيث هو علم ، ولا يسوى بين من يعلم ومن لا يعلم بغض النظر عما يعلمه « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

ويحترم الاختصاص فى كل فرع من فروع المعرفة ، ويرد الناس إليه « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

ولا يرضى للمسلم أن يسير وراء الوهم أو الظن ويحكم بغير بينة أو علم « ولا تقف ما ليس لك به علم » « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

ويحارب التقليد والجمود على موروثات الآباء « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

كتاب يهيب بالعقل البشرى مثل هذه الإهابة ، ويصيح به هذه الصيحة المدوية لا يمكن أن يخشى نتيجة النظر أو التفكير ، وما يستتبع ذلك النظر من حقائق ومعلومات !

والقرآن أنزله الله كتاب هداية وتوجيه وتشريع ، وليس من مهمته التحدث عن نظريات العلوم الكونية أو الطبيعية ، وحسبه أن يدعو الناس للوصول إليها بوسائلهم وجهدهم ، ولم يمنع هذا أن يشير أثناء حديثه عن الكون وما فيه من آيات - إلى حقائق علمية كانت مجهولة للبشر ، كشف الزمن عن صدقها . وقد ألف علماء متخصصون مخلصون فى التنبيه إليها كتبا شتى ، ومن حسن الحظ أن هذه الكتب لم يؤلفها أحد من علماء الدين الذين اطلعوا على علوم الكون ، بل ألفها فى الغالب

متخصصون فى هذه العلوم اطلعوا على الدين وعلى القرآن الكريم .

ومع أننا لا نوافق على كل ما فى هذه الكتب ، ولا على منهج بعضها ، فإنا نجد فى مثل هذه الكثرة من الكتب أدلة واضحة على أن القرآن فى نظر المتبحرين فى العلوم الحديثة ليس غير مصادم لها فحسب ، بل هو هاد إليها ودال عليها ، وسابق فى بعض الأحيان لما قررته .

والقرآن لا يعارض حقيقة علمية قاطعة ، ولكنه قد يعارض بعض الآراء والفروض والنظريات التى لم تصل بعد إلى مرتبة الحقائق الثابتة ، ولا ضير على القرآن فى هذا . فكم من آراء ونظريات كانت عند أصحابها فى مرتبة اليقين الذى لا ريب فيه ، فإذا كر الغداة ومر العشى وتطور البحث العلمى يجعلها أوهاما فى أوهام .

وحسبنا ما كان يعتقده بعض من عرفوا بفلاسفة المسلمين : « كأبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا ، من إيمانهم بالنظريات الفلكية اليونانية إيمانا جعلهم يؤولون آيات القرآن ؛ فالأرض عندهم مركز الكون ، والافلاك عندهم لا تقبل الخرم ولا الالتئام ، والعناصر أربعة لا زيادة فيها ... الخ ثم يثبت العلم التجريبى أن هذا كله باطل لا يقوم على أساس فذهبت ظنونهم ... وبقى ما هدى إليه القرآن « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ولكن المعتدلين من المفكرين المسلمين لم يجدوا فى آيات القرآن شيئا يناقض ما ذهبوا إليه أو وصلوا إليه من ظواهر الطبيعة أو حقائق العلم ، ومن هؤلاء البيرونى العالم المؤرخ الفيلسوف المعروف .

ونتقل هنا ما قاله المستشرق الألمانى دى بوير فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » [١] قال : « لا شك أن البيرونى كان سنيا مستنيراً ، وهو لعلو كعبه فى العلم وسعة فكره ، وتنوع معارفه ، وتفطنه للحدود التى لا يصح أن تتجاوزها أحكام التجربة الإنسانية المعتمدة على المشاهدة - يتمسك بحقائق الدين العميقة فلا يعجبه التأويل الهازل للقرآن ، ولا الانكسار المتحذلق - من غير أساس كاف - لما يروى من غريب الأفكار . وهو يتمسك بالقرآن فيؤلف مثلا كتابا جليلا يسمى « لوازم الحركتين » مقتبسا أكثر كلماته عن القرآن (معجم لأدباء الياقوت ج ٦ ص ٣١١) .

ويقول فى كتابه عن الهند ص ١٣٢ : إن القرآن لم ينطق فى أمر صورة السماء والأرض وفى كل شىء ضرورى بما يحوج إلى تعسف فى التأويل . فهو فى الأشياء الضرورية معها

(١) ص ٣٠٢ ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة .

حذو القدة بالقدة ، ولم يشتمل على شيء مما اختلف أيسر من الوصول إليه ...

ويصف البيرونى كيد مظهرى انتحال الإسلام له ، وإدخالهما فى كتبهم فيه تصديق ذوى القلوب السليمة ـ الساذجة ـ لهم . وفى بعض الأحيان يذكر الزنادقة من أصحاب مانى ويذكر الحركات والاتجاهات غير الإسلامية ناقدا لها ، راجع كتابه عن الهند ص ٧٦ - ١٣٢ الآثار — ٢١٠ — ٢١٤ ٢٦٤ — ٢٦٥ — ١٩٦)

هذا هو الإسلام الذى قامت على أساسه حضارة علمية واسعة ممتدة فى وقت لم تكن أوربا ترى فيه النور إلا من سم الخياط ، وفى تاريخه الطويل لم يضق صدره بعالم أو باحث كما حدث فى أوربا من معارك بين العلم والدين ومجازر تقشعر لها الأبدان .

وما نقل من حوادث فردية وقع فيها صدام بين من اشتغلوا بالفلسفه وبين الفقهاء وعلماء الكلام ، فما كان صداما مع علم سليم الأسس والقواعد بل كان صداما على الجانب الميتافيزيقى الإلهى من الفلسفه الإغريقية بالذات ، وهو جانب يبحث فى أمور قطع الوحى فيها برأى حاسم لا مجال بعده لتخمين العقول ، وافتراض الفروض . وإضاعة الأوقات فى غير نفع ولا فائدة للإنسان والحياة

مصادر الإسلام :

للإسلام مصادر محددة ، تعرف منها رسالته ووجهته ، ولا يمكن أن يحكم له أو عليه بالاستمداد من غيرها ... وتنحصر هذه المصادر فيما يلى :

أولا : القرآن الكريم

وهو مصدر إلهى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وإنما هو قول رسول كريم هو جبريل ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم بلسان عربى مبين على قلب محمد فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ من أستاذه نصا من النصوص ولم يكن عمل بعد ذلك إلا : —

١ — الوعى والحفظ : « سنقرئك فلا تنسى » .

٢ — الحكاية والتبليغ : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

٣ — البيان والتفسير : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

٤ — التطبيق والتنفيذ : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

وقد نقل إلينا هذا القرآن كاملا متواترا نقلته أجيال عن أجيال تلاوة بالألسنة وحفظا فى الصدور ، وكتابة فى المصاحف ، وشهادة التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدانيها كشهادته لكتاب غيره ظهر على وجه الأرض . . .

هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لعقائد

الإسلام، وهو المصدر الأول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته.

وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل كل فى مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه أحكام دينهم وأصول مجتمعهم ... هذا فى مجال العقيدة وذاك فى مجال الفقه والتشريع وثالث فى مجال الآداب والأخلاق.

وقد وضعوا الأسس السليمة، والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ما عرفوه من أساليب لغتهم العربية، وما خطه لهم النبي من توجيهات، وما فهموه من جملة تعاليم الإسلام وروحه العامة ...

ولم يجد هؤلاء العلماء فى آيات هذا الكتاب إلا التناسق والائتلاف . فهى يصدق بعضها بعضا، ويفسر بعضها بعضا، وما يظنه القاصرون - الذين يجهلون أسرار العربية وأساليبها - تعارضا أو اختلافا، فما هو بالتعارض ولا الاختلاف ... وإنما هى نصوص عامة تقيدها نصوص خاصة أو آية مطلقة تفسرها آية مقيدة ... وهكذا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ».

نعم إن فى القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات، كما قال تعالى: « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ».

وليس المحكم هو الواضح، والمتشابه هو غير الواضح أو غير المفهوم، كما يظن أو يقال، فالقرآن كله واضح مبين. وإنما المحكم: هو المقطوع بدلالته جزما، والمتشابه هو: ما اختلفت الأذهان فى دلالته، ولعل سائلا يسأل: لماذا لم ينزل القرآن كله محكما ويريح الناس من التشابه؟

ومن عرف حكمة الابتلاء والتكليف للإنسان أولا، وعرف طبيعة اللغات وتنوع دلالتها ثانيا، وعرف طبيعة بنى آدم واختلاف عقولهم واتجاههم ثالثا، وعرف عموم القرآن لكل البيئات والأزمان، والأجيال المتطورة رابعا، وعرف طبيعة الإسلام الذى يحث على إعمال العقل والاجتهاد والاستنباط خامسا ... من عرف هذا كله لم يشتبه عليه الأمر ولم يحتج إلى هذا السؤال بل قال ما قاله الراسخون فى العلم: « آمنا به كل من عند ربنا ».

لقد اقتضت حكمة الله أن تكون الآيات المحكمات فى كتابه، هى الأصول التى لا خلاف عليها، والأسس التى يرد غيرها إليها، والمحور الذى يلتف حوله الجميع، أما الآيات الأخرى فقد جعلها الله من السعة والمرونة بحيث تتسع

لمختلف الأفهام المعقولة فى شتى البيئات والعصور بحيث يعذر بعض الفاهمين بعضا ، ولا يكفر بعضهم بعضا وشعارهم تلك الكلمة الحكيمة « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » وبهذا يكون القرآن مصدر تجميع لا مثير تفرقة ، يكون كتابا للإنسانية كلها ، فى كل أحوالها ، وجميع أزمنتها وشتى بلادها ولو كانت كل آياته محكمة قاطعة الدلالة ، لكانت هذه هى النقمة الكبرى التى تغلق على المجتهدين باب الفهم ، وتطفىء تألق الفكر ، وتشل حركة العقل . . . ولا تليق إلا بصنف واحد من الناس ولزاوية واحدة من النظر ، وما لهذا أنزل الله القرآن « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

ثانيا : السنة :

وهى الأقوال والأعمال الثابتة عن محمد رسول الله ، وضح بها مجمل القرآن ، وفسر بها مراد ربه ، وطبق بها شرائعه وآدابه تحقيقا لقول الله « لتبين للناس ما نزل إليهم » .

هذه السنة هى المصدر الثانى فى تعرف نظام الإسلام وتعاليمه . . . وإذا ثبت أن محمداً رسول موحى إليه ، كان لما يقوله ويهدى إليه فى تبيين هذا الإسلام ، وتوضيح معالمه ، وتطبيقه فى الحياة ، منزلة الوحى المعنوى ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة مشت فى رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة وموضحة وتركت للناس أبواب الفهم والتجديد فى أمور حياتهم المتطورة ، التى تتصل بوسائل المعايش التى تتغير بتغير البيئات والأزمان ، وفى ذلك يقول رسول الله « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية فى حفظها ، وجمعها ، وتنقيتها من الدخيل عليها ما لا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والإعجاب ...

فقد حاول أعداء الإسلام أن يدسوا فيها ما ليس منها ، ليكدروا نقاءها ، فوضعوا أحاديث مكذوبة ، وروايات ملفقة ، ونسبوها زوراً إلى رسول الله منتهزين ما حاق بالمسلمين من فتن فى فترة من الدهر ، ولكن سرعان ما وقف الأفذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرسوا حياتهم ، يطوفون البلاد ، ويجوبون القفار ، بحثا عن صحيح السنة ، وكشفا عن زائفها ... وكان العهد قريبا بالرسول وصحابته ، والأمة العربية أمة حفظ ووعى ، فوضع هؤلاء العلماء الأصول والقواعد للرواية ، وبحثوا عن الرجال ، وجرحوا وعدلوا ، وألفوا الكتب الكثيرة فى التاريخ والسير والأسماء ، ولم يأخذوا إلا عن ثقة عدل حافظ ضابط حتى لقد أفردوا كتبا للثقات من الرواة ، وكتبا للضعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لأمة فى صيانة تراث نبيها ...

وما يقال : إنهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه أو متنه ، فهذا كلام غير صحيح لأنهم اهتموا بالموضوع أيضا فردوا الحديث الشاذ المخالف لما عرفوا من أصول ، وردوا الأحاديث لعلل قادحة تتصل أحيانا بالموضوع كما تتصل بالسند ...

نعم إنهم وجهوا جل همتهم إلى السند والرواة لأن الموضوع تختلف العقول فى قبوله ورده حسب عصورهم وثقافاتهم ... وما كان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس ، قد يعد خطأ مرفوضا اليوم ، وبالعكس ...

فقاموا بما عليهم فى نقد الرواة وتجلية حالهم ، وتركوا لمن يأتى بعدهم الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين النقد ...

ثالثا : الاجتهاد :

لم يشرع الإسلام فى مصدريه : القرآن والسنة للمسلمين فى كل شىء ، فيضيق عليهم فيما لهم فيه فسحة ، ولم يدع التشريع فى كل شىء فيتركهم تائهين بلا أصل يعتمدون عليه ، ولكنه شرع وحدد فيما لا مجال للرأى فيه كالعبادات وفيما لا يختلف باختلاف الأزمان والأحوال كالقواعد الكلية ، والحدود والعقارات والمواريث وأكثر شئون الأسرة .

وترك التشريع أو النص والتحديد فيما يختلف باختلاف الأوقات والبيئات ، وأعطى بذلك العقل الإنسانى حقه فى الاجتهاد والقياس والاستنباط ، وجعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب .

وعلى هذا الأساس قامت حركة فقهية تساير تطور الزمن وحاجة الناس ... وقال الفقهاء « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أمور » .

ولم يوضع الفقه فى عهد الخلافة العباسية — كما قاله بعض الجاهلين — بل وجد الفقه منذ عهد الرسول ، ونما فى عهد الصحابة ، وزاد نمواً فى عهد التابعين ، وكان تدوينه فى عهد العباسيين .

وهنا لابد أن ننبه — إلى الفرق بين الشريعة الإسلامية ، والفقه الإسلامى .

فالشريعة هى النصوص المقدسة من الكتاب والسنة الثابتة ، والفقه هو : استنباطات الفقهاء فى دائرة النصوص ، أو فيما لا نص فيه .

الشريعة : ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، والفقه مرن متحرك يتغير ويتطور ، الشريعة وحى الله والفقه عمل الإنسان[1] .

ولكن مهما قلنا إن الفقه من صنعة العقل الإسلامى ، فإن فقهاء الإسلام كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهادهم داخل

---

[1] راجع مقال الدكتور محمد البهى فى مجلة الأزهر تحت عنوان مع المذاهب الاسلامية عدد صفر ١٣٧٩هـ.

إطار الشريعة ، وتبعاً لها محاولين التحرر من الهوى والذاتية ما استطاعوا ...

ولم يهدف الفقهاء فى فقههم إلا إلى ماهدفت إليه الشريعة ، من رعاية مصالح العباد ، من ضروريات ، وحاجيات ، وتحسينات — كما عبر الشاطبى .

«لم يهدفوا إلى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفة ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والقربى من الخلفاء ، وتحملوا الأذى فى سبيل تجردهم العلمى» .

رفض أبو حنيفة القضاء وتقبل السجن راضيا ، وروى أنه مات فيه .

وضرب مالك بالسياط فى سبيل أن يغير أو يكتم رأيا رآه فأبى .

وأوذى الشافعى من أجل تجرده وأمانته.

واحتمل أحمد بن حنبل من العذاب ما لا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة فى المسلمين .

وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها إنما هى اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء إلى غيره نظرة التعصب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة ، وتقدير آراء الآخرين .

قال أبو حنيفة : هذا رأينا فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعى : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب .

وما عرف فى بعض العصور والأقاليم من التعصب لمذهب ضد غيره ، فهو ثمرة من ثمرات الجهل ، والتأخر العقلى الذى أصيب به المسلمون حينذاك والإسلام وفقهاء الإسلام منه براء .

ونحب أن نقرر هنا أن الخلاف بين المذاهب السنية ، وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى أصول العقيدة ، وإنما وسع الهوة بينهما أهواء الحكام ، ودسائس خصوم الإسلام ، فالجميع من سنيين وشيعة ، يؤمنون بإله واحد ، ويقدسون كتابا واحدا ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون إلى قبلة واحدة .. هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون الزكاة ويصومون رمضان ، ويحجون البيت إن استطاعوا إليه سبيلا .

إن فى الفقه الإسلامى ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة فى كل مجال من مجالات الحياة : أسرية ، ومدنية ، وجنائية ودستورية ، ودولية ، اعترفت بقيمتها وصلاحيتها المؤتمرات الدولية التشريعية

الحديثة ، كمؤتمر « لا هاى » وغيره .

وهى ثروة صالحة لأن يقوم عليها صرح تشريعى مكين إذا توفر باب الفقه والقانون عليها ... ، وفعلا قد اقتبس واضعو القوانين المدنية فى البلاد العربية منها كثيرا من المواد والقواعد . . .

وبعد : فإن مبادئ الإسلام هى أفضل المبادئ لإصلاح الأفراد وإسعاد الأسر ، وتنظيم المجتمعات ، وتوجيه الحكومات ، وهداية الإنسانية كلها إلى الصراط المستقيم .

بيد أن المبادئ وحدها لاتغنى إذا لم تجد رجالا يؤمنون بها ، وينقلونها إلى واقع تراه الأعين ويلمسه الناس ، وبدون هذا سنظل نردد قول القائل :

« يا له من دين لو كان له رجال » .

وحسبنا أن تعلم أنه حين تهيأ للإسلام حكم عادل ، وخلافة راشدة فى عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدنيا فى مدى عامين - ٩٩ - ١٠١ هـ - من العدالة والنظام ، والقوة ، والرخاء ما لم تحققه عشرات السنين من بعد .

ومن كان يريد أن يستدل بالتاريخ فليستدل بأمثال هذه السير المنيرة . . وإلا فليعرف الإسلام من كتابه المنزل ، وسيرة نبيه الثابتة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

يوسف القرضاوى ، أحمد العسال

العلم

العلم مذ كان ، محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغنى عن القلم

وخير خيلك (إن غامرت فى شرف)
عزم يفرق بين الساق والقدم

لا يدرك المجد إلا كل مقتحم
فى موج ملتطم أو فوج مضطرم

ورب أمر يهاب الناس غايته
والأمر أهون فيه من يد لفم

تنمى قوى الشىء بالتدريج إن رزقت
لطفاً ويقوى شرار النار بالضرم

المذهبية والتقليد

للأستاذ محمود الشرقاوى

« التقليد إبطال منفعة العقل ، لأنه خلق للتدبر والتأمل »
[أبو الفرج ابن الجوزى]

المذهبية والتقليد مظهران من مظاهر الانحراف الذى ندعو إلى تقويمه فى الفكر الدينى ، ولكنهما مظهران أخذا يتحولان أو يزولان فى السنوات الأخيرة . ولكنى أعتقد أن الأمر لا يزال يحتاج إلى معالجة ، لأنه على وجه اليقين ، لا يزال كذلك موجوداً فى غير مصر من بلاد الشرق . ولا يزال التعصب للمذهب أساساً لا يحيد عنه كثير من رجال الدين فى بعض البلاد الإسلامية من شرقنا العربى . ونعتقد أن بعض رجال الدين عندنا لا يزال فى نفوسهم شىء كثير من هذا التقيد بالعصبية المذهبية والانتصار لما يتبعون من المذاهب . مع أنهم ورثوا تبعيتهم لهذه المذاهب عن آبائهم وأجدادهم ولا مدخل فيها للفهم والرأى والترجيح ولم يستمسك المقلدون بمتابعة مقلديهم إلا بعد أن فشت الجهالة بين الناس .

لذلك نجد العلماء وأصحاب الرأى لا يقلدون ولا يرضون لغيرهم أن يقلد .

من ذلك أن أحمد بن حنبل كان يقول : « من ضيق علم العالم أن يقلد فى اعتقاده رجلا » . وذكر له رأى لابن المبارك فقال : « إن ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقيل له : قال إبراهيم بن أدهم ، فقال : جئتمونى ببنيات الطريق ، عليكم بالأصل . فلا ينبغى أن يترك - أى الأصل - لقول معظم فى النفس ، فإن الشرع أعظم ، والخطأ فى التأويل على الناس يجرى » .

وقد نهى الإمام الشافعى عن التقليد . وروى عنه وعن غيره من الأئمة قوله : إذا صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحائط .

بل إن بعض العلماء — كأبى الفرج ابن الجوزى — يرى أن يجتهد العامى أيضا ، لا العلماء وحدهم ، واجتهاد العامى فى اختيار من يقلده : « وأما الفرعيات فإنها لما كثرت حوادثها واعتاص على العامى عرفانها ، وقرب له أمر الخطأ فيها كان أصلح ما يفعله العامى

التقليد فيها لمن سبر ونظر ، إلا أن اجتهاد العامى فى اختيار من يقلده »[1] .

ويقول ابن الجوزى فى التقليد رأيا هو : « إعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد . وفى التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنما خلق للتدبر والتأمل . وقبيح بمن اعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها ويمشى فى الظلمة » .

وكذلك يقول : « واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال . لأن النظر ينبغى أن يكون إلى القول لا إلى القائل »[2] .

ثم يروى أبو الفرج أن الحارث بن حوط قال لعلى رضى الله عنه : أيظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطل ؟ فقال له على : « ياحارث : إنه ملبوس عليك . إن الحق لا يعرف بالرجال ، إعرف الحق تعرف أهـله » .

ويقول الإمام ابن حزم : المقلد راض أن يغبن فى عقله » .

ومن الذين وقفوا موقف الخصومة من التقليد العالم المجتهد الذى كان فخر عصره علما وعملا وخلقاً : الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، الذى يقول :

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لايجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة له ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » .

ثم يصف الشيخ عز الدين كيف كان المتقدمون يتعبدون ويعرفون أمور دينهم فيقول :

« لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ، ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هـذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال ، كأنه نبى أرسل ، وهذا نأى عن الحق وبعد عن الصواب ، لا يرضى به أحـد من ذوى الألباب » .

فالتقليد عند عز الدين بن عبـد السلام : بعـد عن الحق ، وعن الصواب ، لا يرضى بهما عاقل .

وعز الدين بن عبد السلام من أعظم علماء الشافعية فى جميع العصور ، وكان أبرز علماء مصر فى القرن السابع الهجرى .

وفى شرح مسلم الثبوت لابن عبد الشكور البهارى أن من ألزم بالتقليد ، فقـد ألزم بشرع لم يأمر الله أحدا بالتزامه ، فهو يقول إن إيجاب التقليد « تشريع شرع جديد » .

[1] ص ٨٧ من كتابه : « نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس » السعادة ١٣٤ هـ .

[2] ص ٧٦ ـ ٨٧ من المصدر السابق .

وأن إلزام العمل بمذهب معين نقمه على الناس وشدة .

كانت المذهبية والتقليد تعصبا وعوجا ابتلى به الفكر الدينى عند ما ضعف العلم وفشا الجهل . حتى رأينا من (أوجب) هذا التقليد . كصاحب الجوهرة الذى يقول :

وواجب تقليد حبر منهم .

وقد كان لهذه العصبية المذهبية الضيقة أثرها فى حياة المجتمع الإسلامى حتى رأينا بعض الفقهاء يجعل من مسائل فقهه هذا السؤال : الابن الذى أبوه شافعى المذهب ، هل هو كفؤ للزواج من بنت الحنفى ؟ .

وحتى رأينا من يعرض بحنفى المذهب فيقول : إذا وقع النبيذ على طعام أو عجين ، فارم به إلى كلب أو إلى حنفى ، يريد أن بعض الحنفية يرى تحليل النبيذ وطهارته .

فانظر ماذا تفعل العصبية وضيق الفهم بأواصر المسلمين الذين جعلهم الله أمة واحدة وجعلهم الحديث الشريف كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وقد قلنا أول هذا المقال إن هذا الانحراف فى الفكر الدينى أخذ يتحول ويزول ، عندنا على الأقل ، وبقى أن يعمل رجال الفكر الدينى على القضاء على ما بقى منه فيها وفى غيرها وقد رأينا وجه الحق ورأى العلماء فيه .

حدود المذاهب الأربعة :

ننتقل بعد ذلك من (المذاهبية والتقليد) إلى أفق أوسع : إلى حدود المذاهب الأربعة فقد مضت على الفكر الدينى عصور من التخلف والضيق كان يرى فيها أن (الشريعة) هى مذهب أبى حنيفة ، كما كانت ترى دولة الخلافة العثمانية فى عصور طويلة . وكما كان غيرها يرى الرأى نفسه فى مذهب الشافعى ، أو مالك ، أو مذهب الشيعة ، كما فعلت الدولة الفاطمية زمنا ما . وكما يرى غيرهم الرأى نفسه فى مذهب الزيدية ، أو الوهابية .

ولكن هذه النظرة خاطئة بقدر ما هى ضيقة . وشريعة الله أفسح وأرحب من حدود هذه المذاهب ، ونحن لا نريد أن نفصل أمر هذه المذاهب الأربعة وما بعد الأربعة ولا أن نذكر أمر نشأتها وتداولها ، واستقرارها وأسباب الغلبة التى جعلت بعضها يشيع ويثبت ويستقر وبعضها الآخر يضيق ويتهافت ويضعف ، أو يتلاشى لا نريد أن نستطرد إلى شىء من ذلك الذى يستطيع أن يعرفه من يريده فى تاريخ التشريع

ولكن الذى نقوله إن العمل برأى ضعيف أو مرجوح فى هذه المذاهب ، وترك العمل بالراجح القوى فيها ، ليس خروجا على الشريعة ، وما دامت المصلحة هى الدافع على

ترك القوى الراجح إلى الضعيف المرجوح وترك العمل برأى فى هذه المذاهب بعضها أو كلها ، إلى رأى قيل به فى مذهب آخر وراء هذه المذاهب الأربعة ليس كذلك خروجا على الشريعة ما دامت المصلحة هى الدافع والغرض ، أو أن يرى صاحب الأمر ذلك لخير الجماعة . وصاحب الأمر الآن هو الدولة . وعلى رجال الفكر الدينى الفاقهين ، أن يهيئوا لها ذلك وأن يمكنوها منه .

أسباب السيادة لبعض المذاهب

ونحن نعرف أن السيادة قد تقررت لهذه المذاهب بشيوعها وغلبتها على بقية المذاهب وتداول كتبها ودراسة رجالها ومعرفة الناس لهم وتلبسهم بهذه المعرفة السنين الطوال . ولكننا نعرف بعد ذلك أن هذه السيادة المقررة وهذا الشيوع والغلبة على بقية المذاهب لم تكن لتفوق الأولى على الثانية من الوجهة العلمية أو الدقة فى الفهم ، بل لذلك أسباب هى إلى السياسة أقرب منها إلى العلم .

ونعرف أيضا أن بعض هذه المذاهب - غير الأربعة - كانت له فى يوم من الأيام وفى أزهر العصور من دول الإسلام مثل هذه الغلبة وهذا التفوق اللذين نجدهما الآن للمذاهب الأربعة . فقد بقيت السيادة فى الذهن وفى الحكم لأصحاب مذهب الاعتزال أكثر من خمسين سنة فى زمن الدولة العباسية .

يقول أبو بكر الصيرفى ، الفقيه الشافعى الأصولى ، « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله أبا الحسن الأشعرى فجزهم فى أقماع السمسم . ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار ، علم ما كانوا عليه من العدد والقوة » .

ونحن ليس من همنا أن نوازن بين المذاهب الأربعة وغيرها من وجهة التاريخ والسيادة بل نحن نزنها من جانب الفائدة العلمية وإمكان الاستفادة بما عند أهلها من الفروق والاختلاف عن المذاهب الأربعة الشائعة فى السعة واليسر ، « وكلهم من رسول الله ملتمس » . كما قال صاحب البردة .

هذه النظرة إلى هذه المذاهب وموازنتها بالمذاهب الأربعة والاستفادة بما قد يكون فيها من اليسر والسعة . سيظهرنا على ميادين فسيحة ، نجد فيها آراء ذات قيمة فى عصرنا الحاضر ، ومجتمعنا الحاضر . وقد نجد لهذه الآراء أيضاً رجحانا فى الفهم والحجة .

أربعة عشر مذهبا :

نحن واجدون أن فى الفكر الإسلامى القديم مذاهب لا يقل بعضها فى القيمة والقوة عن هذه المذاهب الأربعة ، وواجدون

فى هذه المذاهب من الكثرة ومن السعة ما نستطيع أن نفيد منه أكبر الفائدة فى تجديد تفكيرنا الدينى وإمداده بالطريف الصالح مما يوافق العصر والحاجة .

فقد كانت المذاهب فى العصر العباسى نحو أربعة عشر مذهبا كلها من الإسلام وكلها مفيد وكلها مستمد من كتاب الله .

نجد غير هذه المذاهب الأربعة مذهب الأوزاعى فقيه أهل الشام . ومذهب الحسن البصرى ، ومذهب سفيان الثورى ، ومذهب ابن عيينة ، والليث بن سعد فقيه مصر الذى قال فيه الشافعى : « الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه أضاعوه أى لم يدونوا فقهه ومذهبه . وهناك مذهب إسحق بن راهويه وأبى ثور . والطبرى وهناك من المتأخرين من لم يشتهر بأنه صاحب مذهب فقهى » . ولكن له آراء يخالف بها أصحاب المذاهب الأخرى ، كابن تيمية وابن حزم .

وبعض هذه المذاهب شاع فى بلاد الإسلام كما شاع مذهب الظاهرى فى فارس والأندلس وكان القضاء فى القرن الرابع للشيعة حتى نقله صلاح الدين إلى الشافعية لأنه شافعى .

ونجد فوق ذلك — وهو ما يهما لأنه مناط الفائدة — نجد من الفوارق بين هذه المذاهب ما يمكننا من نيل أكبر الفائدة حين ندرسها ونقتبس منها ما يوافق حاجة عصرنا ونحن فى كل ذلك ملتزمون حدود الإسلام وأصوله ما دامت هذه المذاهب منه .

وهذه الفوارق بين المذاهب تعد من دلائل اليسار والسعة ، وهى كنز لا يفنى للتجديد الدينى ومطاوعة الشريعة الإسلامية لكل عصر وجيل .

لست أقصد فى هذا البحث أن أتقصى هذه الفوارق بين المذاهب وما نجد فيها من الآراء الموافقة لعصرنا وحاجتنا من غير المذاهب الأربعة التى عكفنا عليها . بل إن مقصدى الأول هو لفت الأنظار إلى هذه المذاهب والفوارق بينها وأنه من الضرورى أن نعترف بها وأن ندرسها لنستفيد مما فيها . وأنا الضمين بأننا سنجد فى ذلك فائدة لا ندرك قيمتها الآن ، وهى تفوق كل ما يخطر على بالنا فى ذلك .

وأخص بالنص ولفت النظر من المذاهب ما يمتاز تفكير الرجال فيه بميزات فائقة من رجاحة العقل وحرية البصر وحدة الفهم ونفاذ الذهن والقوة فى الجدل والبراعة فى الإحاطة بالرأى ونقده وتقديره كمذهب المعتزلة ، وهذه الميزات التى نحتاج إليها لنلقح بها تفكيرنا الدينى الحديث .

وليس بدعا أن ندرس كتب المذاهب المختلفة ولا أن نعرف مقدار رجالها ونستفيد من مذاهبهم وتفكيرهم . فهم مسلمون

كأصحاب المذاهب الأخرى التى نعكف عليها . بل فيهم كثيرون هم الذين حملوا لواء الدفاع عن الإسلام وصمدوا فى خصومة المغيرين عليه من رجال التفكير النصرانى واليهودى فى عصرهم .

وبعض هذه المذاهب قريب غاية القرب من المذاهب الأربعة فى العقيدة والشريعة ، كما نجـــد فى مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

نظرة إلى الماضى :

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامى بعد العصر الأول خاصة رأينا ما كان لهذه الخلافات المذهبية من الأثر فى تفتيت المجتمع الإسلامى وتوهين وحدته التى أمر بها القرآن ، حين تمادى أصحاب الخلافات فيها ، فاستحالت بعد ذلك إلى خصومات . استغلتها المطامع والأهواء حتى وقعت بسببها حروب ، وجرت دماء .

نجد فى نظرتنا إلى هذا التاريخ أن الخصومات المذهبية لج فيها أصحابها وتمادوا وأخشوا حتى خشى منهم الفتنة ، فأصدر الحاكم الفاطمى مرسوما بأن يترك الناس هذا الجدل الفقهى والمذهبى .

ونجد فى فترة من تاريخ مصر أن الحاكم ، وهو المستنصر ، وأبوه وجده كانوا رافضة ، وكانت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى نفس الوقت ، على مذهب أهل السنة . وكان الناس فى كلا البلدين الإسلاميين تمزقهم هذه الخصومات المذهبية الحادة .

ولا أريد أن أسترسل فى أخبار هـذه الخصومات المذهبية التى كان لها أثر بالغ السوء فيما وقع من الخصومات السياسية والحروب بين البلاد الإسلامية فى تاريخها الطويل . فتلك أخبار مبسوطة فى كتب التاريخ ، ولو أنها تسردها وترويها وتقص عنها دون أن تستبطن أسبابها أو تستخلص عبرتها . وقد أوشكنا ولله الحمد أن نفىء إلى أمر الله ، ونستمسك بحبله ، ونعلو بديننا وعقيدتنا عن هذه الخصومات المفرقة .

لا أريد أن أسترسل فى ذلك . ولـكنى أقول إنه ليس من المبالغة القول بأن هـذه الخصومات المذهبية أفسدت فى الماضى حياتنا ، وسودت فترات من تاريخنـا ، بل ملأته فى بعض الأوقات ، بالشرور والآثام والدنا والخصومات والحروب والمظالم - ويكفى أن نذكر محنة ابن حنبل فى فتنة خلق القرآن وما يشبهها - .

وقد ظهر قليلون من عباقرة العقول والقلوب فى ظلمات هـذه الأيام ضاقوا ذرعا بهذه الخصومة السوداء واستطاعوا أن يظهروا

على الملأ سخطهم عليها ومنهم البيرونى [1] ، فقد كان يلبس فى إصبعه خاتما رسم عليه شعارين : أحدهما لأهل السنة والآخر للشيعة.

ونريد من رجال الفكر الدينى فى عصرنا الحاضر أن ينظروا إلى هذه الخلافات المذهبية كما يجب أن ينظر أهل العلم إلى الرأى المجرد ، نظرة التقدير وحسن الظن والإفادة من خلافاتها لمصلحة الشريعة نفسها ومصلحة الناس . وأن يكون تقديرهم لأصحابها الأول تقدير المجتهد الذى جعل الله له أجرين إن أصاب ، وأجراً إن أخطأ ، كما جاء فى الحديث الشريف . وأن ينظروا إلى أصحابها ومعتقديها الآن نظر الأخ إلى أخيه . وهو النظر الذى جدده قول الرسول الكريم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ونحن نعرف أن هناك مذاهب متعددة ونحلا كثيرة أدعو لدراسة هذه المذاهب دراسة موضوعية مجردة .

وأعتقد أن أحداً لا يجادل فى أن هذه الدراسة ، على الأسس التى بيناها ، كفيلة بأن تحقق للفكر الدينى ، وللحياة العامة جملة من الفوائد ، فهى ، فى الفكر الدينى ، تزيده نماءاً وخصباً وعمقاً وسعة ، هى ثروة من المعرفة يحتاج لها الفكر الدينى أكبر الحاجة وهى كفيلة بأن تظهر ما فى شريعة الإسلام من السعة والمرونة والكفاية لتحقيق حاجات مجتمعنا الحاضر ووضع الحلول لمشكلاته ، سيجد فيها المقنن والمشرع ما يبتغى أن يجد من القوانين والتشريعات لتنظيم مجتمعنا المعاصر على أسس الشريعة ، بدلا من تنظيمه على أسس دخيلة . وهى — بعد ذلك — ستكون عاملا قوى الأثر فى التقريب بين عواطف الناس فى الجماعة الإسلامية كلها ، وفى الأمة العربية التى تريد أن تبنى قوميتها وتقيم أسسها على عواطف الفهم والمحبة والقربى .

محمود الشرقاوى

---

(١) أبو الريحان البيرونى : من عباقرة الفكر الإسلامى ، أصله فارسى ولد بخوارزم سنة ٣٦٣هـ [سبتمبر سنة ٩٧٣ م] نبغ فى الفلك والرياضيات والطب والتقويم والتاريخ . وكان يراسل ابن سينا . وضع فى الفلك « القانون المسعودى » للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين فظل حجة فى علم الفلك قرونا . ورحل إلى الهند فأقام بها سنين طويلة يدرس الثقافة اليونانية واللغة السنسكريتية ثم وضع كتابه فى تاريخ الهند : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » فكان أشمل وأكمل كتاب عن تاريخ الهند وثقافتها القديمة ، قد طبع وترجم إلى الانجليزية فى لندن سنة ١٨٨٧ بإشراف المستشرق سخاو وله كتاب « آثار باقية عن القرون الخالية » كان ثمرة من ثمرات رسائله مع ابن سينا ، وقد طبعه سخاو أيضاً مع ترجمته الانجليزية فى ليبسك سنة ١٨٧٨ ، وله رسائل ومؤلفات أخرى ، وكان كذلك بارعا فى اللغة الفارسية وله بها مؤلفات فى صناعة التنجيم ، وله عند الأوربيين منزلة عظيمة

توفى البيرونى فى اليوم الثالث من رجب سنة ٤٤٨هـ « ١٣ من ديسمبر سنة ١٠٤٨ م » .

عمر الفاروق

فى بعض نواحيه الممتازه

للأستاذ عباس طه

لحياة عمر رضى الله عنه مناح شتى ، دينية واجتماعية وسياسية ، ولعل من أحفلها بالطرافة ناحيتها الفلسفية . وللفلسفة معاييرها فى تقدير الملكات العقلية ، وطرقها فى التنقيب عما ينطوى فى أعمال العاملين من البواعث الدالة على مميزاتهم الأدبية ومراتبهم الروحية ..

نشأ عمر وكبر فى الجاهلية ولم يظهر عليه شىء من السمو الذى ظهر به فى الإسلام ، فكل ما اشتهر به الشدة وقوة الإرادة فلما بعث النبى وبدأ يدعو إلى الله سرا ، بلغه أن أخته قبلت الإسلام دينا ، فغضب لذلك أشد الغضب ، فلما زارآها فى دارها فلما أسرعت فناولته صحيفة فيها من القرآن . فلما قرأها (وكان من القلائل الذين يقرءون) وقع فى قلبه من سمو الإسلام ما حفزه على أن يجتمع بالرسول الأعظم ، فلما التقيا عرض الرسول عليه الاسلام ، وتلا عليه آيات من الفرقان . فآمن بهما من فوره .

وكان أول ما عمله فى إسلامه أن قال : يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فأجابه رسول الله « إنا قلة وقد رأيت ما لقينا » . فقال له عمر والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ! فلقبه النبى بالفاروق من ذلك اليوم .

قرر علماء النفس أن العبقرية لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب ، ولكنها قد تكون فى الحكم أيضا . ولسنا نشك فى أن عمر وقد خلف أبا بكر كان عبقريا لما ظهر من ثمرات أعماله الماجدة الخالدة .

كانت الأداة الحكومية فى منتصف القرن السابع للميلاد على شىء من التركب الآلى ، بحيث تتأثر ما جريات الشئون وأطوارها الاجتماعية بوفاة عاهل وقيام عاهل آخر مقامه . وكانت الحكومات كلها من الضرب الاستبدادى الذى ترجع فيه الأمور إلى القائم بالأمر وخصائصه العقلية والخلقية .

والحكم فى الإسلام وإن كان حاصلا على جميع الأصول التى تدعو إلى إقامة أداة محكمة للحكم ، يكون من عملها تمثيل الأمة فى مجلس نيابى أو مجلسين ، وتقسيم السلطات على هيئات خاصة ، وضمان استقلال كل منها ، فإن الأحداث لا يمكن أن تسبق أزمنتها ،

فكان الحكم فى الإسلام موكولا لمن تراه الأمة أهلا لإقامة تلك الأصول ، اجتهادا من تلقاء نفسه .

وقد دلت الأحداث على أن عمر قد حقق الفراسة فيه ، وبلغ من إقامة الأصول الإسلامية مبلغاً رفعه إلى درجة العبقرية .

ليس من الهين فى دور الشكل الاستبدادى للحكومات أن يقيم القائم بالأمر جميع المثل العليا للتعاليم التى يصدر فى أعماله عنها تمثيلا كاملا ، مهما حرص على ذلك ، إلا إذا كان من الملهمين .

لأنه كيف يتسنى لعقل عادى فى أول عهد القرون الوسطى أن يفهم مغزى أصول مثالية لم نفهمها نحن اليوم إلا تحت ضوء العلوم الحديثة ، ولم ندرك مراسيها البعيدة إلا بعد ظهورها للعيان عقب انقلابات عالمية خطيرة .

نعم إن كلمات عدل وحق ومساواة إلخ ، كانت مدلولاتها معروفة منذ القدم ، ولكنها كانت مدلولات تنقص أهم مؤدياتها المطلقة ، حتى إن واضع الديمقراطية أرسطو لم يفهم مؤداها المطلق ، فقرر فى بحوثه السياسية حرمان العمال والأرقاء من الحقوق المدنية من الناحية السياسية ، الأولين : باعتبار أن نفوسهم ليست من نوع نفوس الأحرار ، والآخرين : لاشتغالهم بالمهن اليدوية ! فشتان بين ديمقراطية أمس وديمقراطية اليوم .

فنبوغ رجل كعمر يدركها وأمثالها على الوجه الذى أراده الإسلام مطلقة وخالصة من كل شائبة بشرية ، فوق ما كان يدركه منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأجيال ، أمر يستوقف النظر ويدعو إلى العجب العاجب . ولا مخرج منها إلا بتعليلها بالعبقرية فى الحكم .

كل ما فى الإسلام من التعاليم الاجتماعية لا تخرج عن إقامة منارة الحق ، ومراعاة المساواة بين الخلق ، والحكم بالعدل ، واحترام حرية القول والعمل ، واللجوء إلى الشورى فى الأمور الجامعة ، فكان عمر مثلا أعلى فى تطبيق هذه الأصول الكلية ، وله فى كل منها مواقف وكلمات نابغة بقيت أعلاما منصوبة ومبادئ عرفية ومكتوبة حتى يومنا الراهن .

ومن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخضوعه لرقابتها قوله من خطبة : « أيها الناس إذا رأيتم فى إعوجاجا فقوموه » فقام إليه رجل من الحاضرين وقال « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .

فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة وتجاوز عن مؤاخذة قائلها لعد ذلك له منقبة ومفخرة يتناقلها الناس ويعدونها دليلا على

وفور عقله وسعة حلمه، ولكنه أجابه بقوله: « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » .

قال كعب الأحبار :

« نزلت على رجل يقال له مالك ، وكان جاراً لعمر بن الخطاب ، فقلت له : كيف بالدخول على أمير المؤمنين ! فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس » .

وعن الحسن البصرى قال :

كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

تأمل فى قوله : لاخير فيكم إذا لم تقولوها ! إنها والله لكلمة من أنبغ الكلمات الاجتماعية، وهى كما تدل على مبلغ احترام عمر للمعارضة وهى ركن من أركان الحياة السياسية ، تدل أيضاً على تجرد الأمة التى تتهيب هذا الركن من الخير . وقوله : « ولا خير فينا إذا لم نقبلها » تقرير بأن الحكومة التى لا تطيق المعارضة تكون مجردة عن الخير أيضاً .

أبلغ من كل ما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطيه الحقة ، أنه لما دعى إلى بيت المقدس ليتفق والمدافعين عنها على التسليم ، كما شرط عليه ذلك ، شخص إليها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه فى الطريق ، ولما شارفوا المدينة كان الدور للسائس فكان راكباً وأمير المؤمنين أخذ عقود الجمل . فقال له خادمه : لو نزلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال ! فلم يجبه أمير المؤمنين إلى طلبه ، وقدم على مستقبليه راجلا يقود البعير لخادمه . فكانت المفاجأة المذهلة ، ولكن أحداً لم ينبس بكلمة لعلمهم من هو عمر وما هى ديمقراطيته .

وأبلغ مما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطية ، كما يريدها الإسلام مطلقة ، أنه لما كان فى بعض انتقالاته بفلسطين عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده ، فخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة كبير قواده : قد صنعت ياأمير المؤمنين صنعاً عظيماً عند أهل الأرض فصكه عمر فى صدره وقال : « أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله » .

وأعظم مما مر وأحفله بالمعانى التى لايدركها إلا المستبصرون ما رواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب

فى وفد من العراق ، قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجر بعباءة ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة .

فقال عمر : « يا أحنف دع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين » .

فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا .

فقال عمر « يا ابن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » .

إن عمر رضى الله عنه بقوله من : ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، وبتوليه عملا هو من مهن العبيد ، وبدعوته الأحنف ليعمل معه فيه ، قد ضرب الأرسطقراطية ضربة قاصمة لن تقوم بعدها لها قائمة فى المسلمين باسم الإسلام قط . وقد تتبعنا سير جميع الحكام النابهين فلم نعثر على مثال فى الديمقراطية يشبه هذا المثال .

وهكذا ثمرات العبقرية تأتى على غير مثال سابق .

ولما أقبل سفراء بيت المقدس لمقابلة أمير المؤمنين عمر ، سألوا أين هو ؟ فأشاروا لهم إليه ، وكان نائما على الأرض فى ظل شجرة ، فهالهم ما رأوا وأبوا أن يتفقوا مع من هذه حالته ، استنكاراً لها ، حتى يستأنسوا برأى كبرائهم . فلما رجعوا وقصوا عليهم ما رأوا قال لهم بطريقهم : ارجعوا أدراجكم إنه طلبتنا ، وهذه حليته فى كتبنا .

نقول : ليس هذا من سقوط الهمة ، ولكنها الديمقراطية يضع عمر بيديه أركانها ويشيد بنيانها ، ويقيم بقدوته أعلامها .

وإذا كان للعظمة معنى يرى بالعين ، فهو ما رآه الناس من أمثال هذا فى سيرة عمر عظمة عبر عنها (أمن وكوتان[1]) « إن هذا العاهل الذى كان يلبس ثوبا مرقعا كانت ترتعد فرائص الملوك عند ذكر اسمه » .

وخطب الفاروق يوما فقال « يا أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا[2] إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فو الذى نفس عمر بيده لأقصينه عنه » .

فوقف عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها فقال « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته أإنك لتقصينه عنه ؟ » .

---

(١) عالمان ومؤرخان فرنسيان فى كتابهما المسمى بالتاريخ العام .

(٢) ولاة .

فقال الفاروق :

« أي والذى نفس عمر بيده إنى لأقصينه عنه ، وكيف لا وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

إذا ادعت حكومة بأنها تقيم مبدأ المساواة بين الناس فلتكن من هذا الطراز المطلق ، وإلا فهى صورة ناقصة لها كأكثر ما نسمعه عنها وما نراه منها .

الديمقراطية تسوى بين السادة والعبيد :

من أمثلة المساواة التى كان يقيم عمر حكمه عليها ما رواه الحسن البصرى قال :

حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش بين تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من تلك الموالى[1] الذين شهدوا بدراً ، فخرج إذن عمر لهم وترك أولئك .

« فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينـا .

« فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم[2] ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذ ادعوا يوم القيامة وتركتم ؟ » .

ومن أجل ما صدر عن الفاروق فى تنفيذ مبدأ الديمقراطية المطلقة قوله وهو يجود بنفسه وقد دعى لأن يعهد بالخلافة لمن يثق به : والله لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا ماجعلتها شورى . أى أنه كان يعهد إليه بالخلافة ولا يحيلها إلى شورى .

هنا لا نجد عبارة تصور إكبارنا لهذه الديمقراطية التى تمثل روح الإسلام فى أبدع وأروع صورة .

وشكا أحد أهل مصر إلى الفاروق ابنا لعمرو بن العاص واليها مدعيا أنه ضربه قائلا له : أنا ابن الأكرمين . فلما ثبت لعمر أنه صادق فى دعواه ، أعطاه درته وقال له : « اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، ثم التفت للناس وقال لهم : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

إن الفاروق لم يرو بما فعل أن يذل ابن أحد ولاته ، ولكنه يرفع علم المساواة إلى أعلا ما يمكن أن يصل إليه ، وليس بعد هذا غاية .

ومن أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلى قال : « رأيت عمر ابن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ، ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا » .

(١) الذين كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء .
(٢) يريد دعوا إلى الإسلام .

أليس هـذا بعينه ما نكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور بالمواصم اليوم ؟ فلو كنت شرطيا لباهيت بوظيفتى التى وضع أساسها أكرم حكام الأرض فى أعظم أمة .

قال المسيب ابن دارم« رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا وهو يقول : حملت جملك ما لا يطيق .

فمن لى بمن يبلغ جماعات الرفق بالحيوان أن عمر بن الخطاب سبقهم إلى سن هذا النظام قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

وبعد : فإن هـذه السيرة التى تتجلى فيها المثل العليا للحكم فى غاية أبهتها ، وتطبق إلى أقصى حدودها ، لا تتأتى إلا إذا كان القائم بها عبقريا .

نعم : إن عمر لم يفعل أكثر من أن نفذ الأصول التى دونت فى الكتاب ، والسنة ، ولكن تنفيذها على هذا النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية ، فهى وحدها التى تلهم صاحبها المواقف الموفقة فى كل ما يعرض له من الشئون ، وللشئون مآزم لا يغنى فيها مجرد التشدد فى تطبيق حرفية المثل العليا . فلا بد فيها من تصرف وجدانى يضع الامور مواضعها وهناك مجال فسيح للعبقرية .

وإلا فلم قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم ؟ أليست أصول الأحكام القويمة مقررة مرسومة ؟

نعم . ولكن تطبيقها على الحوادث إلى سبيلها القيم ، واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الإخلال بسلطان تلك الأصول والإفادة من مرونتها فى حدودها المقررة وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها المناسبة، كل هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس وتجد العبقرية مكانها العالى منها .

هذه سيرة عمر وأنماطه فى الحياة المثالية.

وتلك همة نفس لو أراد بها
شم الجبال لما قرت رواسيها

عباس طه

الوطن

بلد صحبت به الشبيبة والصبا
ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته
وعليه أغصان الشباب تميد

لغويات

للأستاذ محمد على النجار

الأملوك :

كتب إلى الأستاذ محمد فكرى كمال القدوسى بالقوات المسلحة يقول : « ثار جدل بينى وبين أحد مدرسى اللغة العربية فى المدارس الثانوية بوزارة التربية والتعليم حول كلمة (أملوك) التى وردت فى قول الحجية بن المضرب يمدح يَعفر بن زُرعة من ملوك اليمن :

فإن كنت سآلا عن المجد والعلا
وأين العطاء الجزل والنائل الغمرُ

فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر
وعِش جار ظلّ لا يغالبه الدهر

أهى مفرد أم هى جمع ، أم هى اسم جمع فيقول الأستاذ متشبثا : إنها مفرد ، وحجته فى ذلك وجود الألف ، ولو حذفت لكانت جمعا . وقلت أنا : إنها اسم جمع بمعنى الملوك وبعد الرجوع إلى الجزء الأول من كتاب الأمالى للقالى ص ٥٣ ، والاطلاع على هذين البيتين ، وكتاب المزهر ص ٨٣ ، اتضح لى بأن (كذا والصواب أن) صوغ هذه الكلمة يمنىّ إنما تأثر بما جاوره من الصوغ الحبشى فى العهد الذى قيل فيه البيتان ، إذ أن الجمع عند الأحباش يأتى فى الأعم على وزن أفعول . وقد ذكر السيوطى مما جاء على وزن أفعول ثلاث كلمات فى العربية ، هى أمعوذ للقطيع من الظباء ، وأجعوش لجيل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب . وكنت أرى أنه لا يمنع أن تزيد كلمة (أملوك) على الثلاث التى ذكرها السيوطى ، أو ما يماثل هذه الكلمة » . والأستاذ يسألنى بعد هذا مزيدا من البحث فى هذه الكلمة .

ويحسن التعريف بالشاعر فهو حجية ابن المضرب الكندى ، والمضرب أبوه بفتح الراء المشدودة لا بكسرها ، كما جاء فى كتاب الأستاذ القدوسى تبعا لنسخة الأمالى ويقول البكرى فى اللآلى ٢٠٤ : « وإنما قيل لأبيه المضرّب لأنه ضُرب بسيف عدة ضربات

فما أحاك فيه ». وزرعة أبو يعفر ممدوح الشاعر كأنه زرعة الرهاوى الوارد ذكره فى سيرة ابن هشام على هامش الروض (٢ - ٣٤٦).

وأقول بعد : إنه جاء فى الحديث : أن الرسول عليه صلاة الله وسلامه كتب إلى أملوك رَدمان ، وردمان : موضع باليمن . وأكثر اللغويين على أن الأملوك مقاول حِمير . والمقاول جمع مِقْوَل ، وهو الأمير دون الملك الأعلى . ويقال أيضا الأقيال جمع القيل ، والقيل أصله القيّل بتشديد الياء خففت كما يقال : هَيْن فى الهيّن ومرجع ذلك إلى أن قوله نافذ ماض على رعيته لا يرد . فالأملوك على هذا من المُلك فى معنى جمع الملك ، فإن القَيل ملك صغير فى قومه : وقال قوم : إن الأملوك مفرد وهو دون الملك كما ذكره الخطابى فى تفسير الحديث ، وقال آخرون : إن الأملوك هو مالك من تبابعة اليمن ، ويريد الشاعر بقوله فنقب عن الأملوك . عن بنى هذا التبع . وعند بعضهم أن الأملوك قبيلة من حمير ، وهذا راجع إلى ما قبله ، فإن المراد قبيلة تسمى باسم أبيها الأملوك .

وإنى أسوق إليك بعض النصوص فى هذه الكلمة .

جاء فى القاموس : « والأملوك بالضم : اسم للجمع — أى لجمع ملك ، وقوم من العرب ، أو هم مقاول حمير » . وفى اللسان « والأملوك قوم من العرب من حمير . وفى التهذيب : مقاول حمير » . ويقول القالى فى يعفر بن زرعة : « أحد الأملوك أملوك ردمان » ، فيقول أبو عبيد البكرى فى اللآلى ٢٠٥ : « فالأملوك قبيلة من حمير . وقال الخطابى : « الأملوك واحد . وهو دون الملك » ويقول السهيلى فى الروض الأنف ٢٣/١ فى مالك الذى هو أبو شمر أحد التبابعة ومالك هو الأملوك . وفى بنى الأملوك يقول الشاعر :

فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر
وعش جار عز لا يساليه الدهر

وقد قيل : إن الأملوك كان على عهد منُوشِهر . وذلك فى زمن موسى عليه السلام » .

وأظهر هذه الأقوال أن الأملوك مقاول اليمن ، وهم كالولاة ورؤساء الأقاليم . وإذا صح أن الأفعول من صيغ الجمع فى لغة الحبش فالقريب أن هذه الصيغة كانت فى اليمنية إما بالأصالة أو بالاستعارة من الحبشية ، فيكون الأملوك جمعا لملك ، ويكون من هذا القبيل ما ذكره السيوطى ، فالأمعوز والأركوب والأحبوش صيغ يمنية وبقيت

فى المضرية : ويقابل هذه الصيغة فى المضرية الأفعال فيقابل الأملوك الأملاك والأحبوش الأحباش وقد جاء عن اليمنية أبنية لم تعهد فى المضرية :

فمن أسماء المواضع عندهم حوريت ، وهو لا يأتى على بناء من أبنية الأسماء التى دونها سيبويه فى كتابه ، وفى الخصائص ٢٠٧/٣ : « وأما حوريت فدخلت يوما على أبى على - رحمه الله - فحين رآنى قال : أين أنت أنا أطلبك . قلت : وما هو ؟ قال : ما تقول فى حوريت ؟ فخضنا فيه فرأيناه خارجا عن الكتاب (يريد كتاب سيبويه) . وصانع أبو على عنه بأن قال : إنه ليس من لغة ابنى نزار ، فأقل الحفل به لذلك » . ويريد بابنى نزار ربيعة ومضر .

شىء ملذ :

أنكر (١) اليازجى هذا الاستعمال . وذلك أنه يقال : لذذت الشىء أى أحسست له شهوة ومالت النفس إليه .

ويقال أيضاً : لذلى الشىء ، فهو لذ ولذيذ وفى الكتاب العزيز فى صفة خمر الجنة : يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين . وفى المصباح : « لذ الشىء يلذ لذاذا ولذاذة - بالفتح - : صار شهيا ، فهو لذ ولذيذ . ولذذته ألذه : وجدته كذلك ، يتعدى ولا يتعدى » . ولم أقف فى اللغة على ألذه من الإلذاذ .

على أن بعض الباحثين يرى صواب الملذ لما يحدث اللذة : وقد جاء فى الأساس فى مادة رذذ : « وباتت السماء ترذنا وتقول : إن السماء مرذ ، وإن السماع ملذ ، فهل أنت إلينا مغذ . أراد سماع الحديث والعلم ، لا سماع الغناء » . والظاهر أن الذى أوقع الزمخشرى فى هذا رغبته فى السجع وكلفه بالازدواج . فاستعمال الملذ إنما سوغه مشاكلته للمرذ والمغذ . ويدل على هذا أنه لم يذكر الملذ فى مادة (لذذ) . والسجع والازدواج يجوزان ما لا يجوز فى غيرهما .

وفى حديث (١) ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين بهذه الكلمات : أعيذكما بكلمة الله التامة ، من شر كل سامة ، ومن كل عين لامة ، قال أبو عبيد : قال : لامة ولم يقل ملمة ، وأصلها من ألممت بالشىء تأتيه وتلم به ليزاوج قوله : من شر كل سامة . وقد ذهب اليازجى فى مجلة الضياء ٤٢١/٨ هذا المذهب فى تخريج كلام الزمخشرى ، فهو يقول : « استدرجه إليه

---

(١) انظر لغة الجرائد ٤٦ .

(١) انظر اللسان فى [لمم] .

قصد التجنيس بين سماء وسماع ، ومرذ وملذ ولذلك عدل إلى تذكير السماء وهى أضعف اللغتين » .

فعلاه مندوب منه وزارة التربية :

عاب بعض النقاد هذا الأسلوب ، وذلك أن الفاعل قد حذف حين بنى الوصف للمفعول ، وقد ذكر بعد (من) فإن الوزارة هى التى قامت بالندب ، ففى هذا شبه النقض للغرض الذى ابتدئ به الكلام . وقد قيل : إن هذا ترجمة لأسلوب افرنجى ناب عن العربية .

ولم أر من نص من القدماء على إنكار هذا الأسلوب . فأما الحذف للفاعل ثم ذكره فقد يكون له غرض صحيح ، وهو الإجمال ثم التفصيل ، وهو من مقاصد البلغاء .
وقد جاء قريب مما نحن فيه فى قول الشاعر :

ليُبْكَ يزيدُ ضارع لخصومة
ومختبط مما تطيح الطوائح

وجاء قوله تعالى فى سورة النور : « يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ، بفتح الباء من (يسبح) فى قراءة أبى بكر عن عاصم ، وقراءة ابن عامر . فالفعل فى البيت والآية مبنى للمفعول ، ثم ذكر الفاعل مرفوعا بفعل محذوف . وهذا وإن كان الكلام فيه من جملتين فهما كالجملة الواحدة فى الاتصال ، فهو لا يختلف عما نحن فيه .

وقد جاء من هذا الأسلوب كثير فى الكتاب العزيز . فمنه قوله تعالى : « فمن عُفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . إذا أريد بالأخ ولى المقتول ، ويقدره بعض المفسرين : من دم أخيه أى المقتول فلا يكون من بابنا . ومنه قوله تعالى : « قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى » ، وقوله تعالى : « أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » . ؟

محمد على النجار

ما يقال عن الإسلام

"الله" فى العقيدة الإسلامية وفى أقوال علماء المقارنة بين الأديان

للأستاذ عباس محمود العقاد

علم « المقارنة بين الأديان » يسمى علما مع الحيطة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء لأنه من المعارف التى يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة كاختلافهم فى العقيدة الدينية وفى النظر إليها .

فمن علمائه من يؤمن بعقيدة يصدقها ولا يصدق غيرها ، فهو يبتدئ البحث بحكم قاطع على العقائد الأخرى يجزم بتكذيبها قبل الموازنة العلمية بين أدلة التصديق وأدلة التكذيب .

ومن علمائه من يؤمن بعقيدته ويؤمن بصدق العقائد الأخرى فى أوقاتها ومناسباتها ، ويرجع بالخطأ والنقص فيها إلى انتهاء زمانها أو إلى عوامل التشويه والتبديل التى طرأت عليها ، فهذا العالم يواجه البحث مفتوح العينين مستعدا لقبول الحسنة والسيئة ولكنه يرتبط بنتيجة سابقة لا يسمح للمقدمات أن تذهب به إلى نتيجة غيرها .

ومن علماء المقارنة بين الأديان من يؤمن بالغيب ويؤمن بالإله ، ولكنه يحكم على الأديان كأنها أعمال إنسانية تقاس بمقاييس النظر إلى الرسل والأنبياء وإلى التابعين لهم من الأمم والجماعات أو الآحاد . فهو يحفظ لموضوع البحث حرمته وقداسته ويقبل التفصيلات بعد ذلك أو يرفضها على حسب أسانيدها الإنسانية وظروفها الواقعية ، فيعالجها تارة بمقاييس الغيب المجهول وتارة أخرى بمقاييس الواقع المشهود التى تتردد بين الأنباء والأفكار .

ومن علماء المقارنة بين الأديان من ينكر الأديان أصلا ولكنه يؤمن بصلاحها لسياسة الأمم وتعزية النفوس ، ومنهم من ينكرها أصلا وينكر فائدتها وصلاحها ، بل يرى أنها خدعة مقصودة وغير مقصودة يخترعها الرؤساء وتمالئهم على اختراعها البديهة الشعبية فلا تستحق بعد فوات الخدعة غير التفنيد والتجريح .

وهؤلاء المنكرون جميعا يبحثون العقيدة غير معتقدين ، فيخفى عليهم جوهر العقيدة فى صميمه ولا يتأتى لهم أن يحكموا على شيء يجهلونه أو إحساس لا يشعرون به حكما يصدر عن فهم واع وإدراك محيط ، فإنهم

كن يحكم على الكائن الحى بعد وصوله إلى مائدة التشريح مفقود الحياة ، فـــلا يخلو حكمهم من النقص الذى يتعرض له كل حكم على مجهول غير محسوس به على وجهه الذى يتم به وجوده فى عالم العمل والحياة .

ومن أولئك الباحثين من يقارب موضوعه كما يقارب الشاعر موضوع ملحمة تاريخية يؤمن بحدوثها إيمانا لا شك فيه ولكنه يتصوره كما يتصور ملاحم البطولة بين المجاز والخيال والواقع ، فلا يعرضها ليقول للقارئ هل يؤمن بها أو يرفضها ولكنه يعرضها ليشهد القارئ ما فيها من بواعث الروعة والجمال وما تحدثه فى الخواطر من دواعى الشعور والتأثير ، وهؤلاء الباحثون يقرأهم القارئ فلا يحاسبهم بحساب الدين ولا بحساب العلم ، وإنما يحاسبهم بحساب الأسلوب ، أو بحساب العرض الفنى ، ولا يعطيهم من العناية فوق هذا المقدار .

من هؤلاء الأخيرين الأستاذ استاس هايدون Eustace Haydon صاحب كتاب « تراجم الأرباب » Biography of the Gods وقد كان أستاذا لعلم تاريخ الأديان بجامعة شيكاغو عند تأليف هذا الكتاب ، ويظهر أسلوبه وموضوعه من عنوانه القصصى ، لأنه يتكلم عن حياة الإله المعبود كأنها ترجمة تبدأ بظهور الديانة التى تدعو إليه وتتقدم بين النشأة والشباب والبقاء أو الزوال على حسب مصير الديانة من الشيوع والانتشار أو من الخمول والتبدل والانقراض .

وفى هذا الكتاب تتابعت تراجم أرباب الديانات المجوسية والصينية واليابانية ، ثم انتهى الكتاب بالكلام على « الله » بعد الكلام على « يهوا » كما يصفه كتاب العهد القديم ، فكانت فاتحة الكلام على الإله فى العقيدة الإسلامية أن الاعتقاد به غير مستعار من ديانات الأمم الأخرى ، وأن الدعوة إلى الإيمان بالله كان يمكن أن تظهر حيث ظهرت ولو لم تدخل الجزيرة العربية عبادة من خارجها ، لأن وحدانية الله فى الإسلام لم يسبقها مثيل لها فى صفة الوحدانية التى لا هوادة فيها ولا فى غيرها من جملة الصفات المستفادة من أسماء الله الحسنى .

ولا حاجة إلى بيان الخلاف بين المفهوم من صفات الله فى عقيدة المؤمن المسلم وبين المفهوم من هذه الصفات فى هذا الكتاب ، ولكن المؤمن المسلم لا ينتظر من غير المسلمين ولا من الكاتبين بهذا الأسلوب الذى يسوق الدراسات مساق القصة فكرة عن « الله » هى أقرب إلى « الاحترام » من فكرة الله فى كتاب تراجم الأرباب .

إن « الله » الذى يدين به المسلمون لم يخذلهم فى حياة البادية ولم يتركهم فى حياة الحضارة الممتزجة من بقايا الدول الفارسية والبيزنطية التى انتقل إليها المسلمون بعد انتشار الإسلام فى الأقطار الآسيوية والإفريقية ، وقد وصل إلى أبعد أقطار العالم المعمور فى هذه القارات قبل انتهاء

المائة الثانية من تاريخ قيام الدعوة المحمدية .

وفى خلال هذه الرحلات المتباعدة لقى المسلمون عقيدة الفلسفة اليونانية القديمة ، وسمعوا بإله يسميه أرسطو السبب الأول ، وتقول الأفلاطونية الحديثة إنه يكل تدبير العالم الأرضى إلى فيض بعد فيض من خلائقه العليا حتى ينتهى إلى ما دون فلك القمر فيتصل بعالم الفساد على بعد ويمهل عباده على الأرض إلى حين ، ريثما تعود عقولهم الهيولانية إلى الاتصال بعد الجهاد ، بالعقل الأول مصدر هذه الفيوضات .

ولو أن معبوداً آخر فهم المفكرون من عباده أنه لا يعدو أن يكون « سبباً أول » أو علة رياضية بعيدة عن هذه الحياة الإنسانية لما بقيت لعبادته بقية فى عقول قراء العلم والفلسفة ، ولأصابه ما أصاب المعبودات المهجورة من (الأنيميا) القاتلة للأرباب الباطلة على حد تعبير الكتاب .

ولكن الفلسفة اليونانية لم تزعزع عقيدة المسلم المفكر فى (الله) بل استطاع الضمير الإسلامى أن يخرج لتلك الفلسفة أنداداً لها من المفكرين على طريقة الإمام الغزالى : « برأس فيلسوف ، وقلب ناسك » أو على طريقة الإمام الأشعرى بتسليم صاحب البحث وبحث صاحب التسليم ، تخرج الإيمان بالله وصفاته المتعددة سليما ، منزه الوحدانية بعيداً من شبهات الفلاسفة وأتباع الزندقة المثنوية ويتخلل الكتاب خلط كثير يمتزج بالسخافة أحيانا كلما حاول تصوير الظروف الطبيعية، والاجتماعية ، التى يفسر بها ثبات المسلم على الإيمان بإله أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ولكنه يعود حينا بعد حين إلى عناصر قوية تكمن فى ذلك الإيمان وتهيئ له أسباب النجاة من الشكوك والبدع التى لا نسوقها تقلبات الزمن وعوارض الاحتكاك بالحضارات الأجنبية، وهذه العناصر القوية هى التى أنجدته مرة أخرى بعد محنة الفلسفة اليونانية عندما واجهته العصور المتأخرة بمحنة كبرى لاتذكر محنة الفلسفة اليونانية بالقياس إليها ،ففى هذه العصور المتأخرة استطاع الضمير الإسلامى أن يخرج للمحنة الجديدة أندادا لها من المفكرين المؤمنين خلفاء الغزالى والأشعرى وورثة الحكمة والتصوف وأعلام المحافظة والإصلاح ، « وأعظمهم الإمام المصرى الشيخ محمد عبده . فإنه حفظ العقيدة الموروثة دون أن يمس بها وجدد الإيمان بإله الإسلام السرمدى بلا أول ولا آخر ، فردا لا مثيل له فى قدرته وكماله ، حيا عالما مريدا سميعا متكلما بصيرا ، يخيل إلى من ينظر إلى هذه الصفات لأول وهلة أنها حكاية معادة من بقايا الماضى ، لولا أن الشيخ محمد عبده ينفض عن الدين ما علق به من جمود القدرية ويقرر نصيب الإنسان من التبعة وواجبه فى إصلاح العالم معتمدا على عون

الله له فى إقامة النظام الاجتماعى الصالح والقيم الأخلاقية الملائمة لذلك النظام » .

* * *

ومن متاعب علماء المقارنة بين الأديان ممن يعولون أولا وآخرا على طبيعة الأرض والسكان فى تعليل العقائد أن يعللوا هـذه القوة ـ قوة العقيدة الإلهية فى الإسلام ـ بعلة طبيعية يتواضعون عليها ويطبقونها على سائر العقائد ، إذا كان المسلمون قد انتشروا فى بقاع كثيرة بين أمم مختلفة فى أزمنة متفاوتة فلا تصلح العلل المتفرقة بين هـذه البقاع والأزمنة لتعليل عقيدة واحدة ، ولا معنى للتفسير إذا اشتركت جميع هذه العلل فى أثر واحد ...

ولكنهم ـ على وضوح الخطأ فى الاستناد إلى سبب طبيعى واحد لتفسير هذه الظواهر المتعددة يتلاقون عند وجهة يكررونها على نحو متشابه ، ولا يقع الخلاف فيها كثيرا بين مدارسهم المتناقضة ، ومنها المدارس التى تعطى الأديان حقها من أدب الرعاية والاحترام والمدارس التى تستخف بأسبابها ونتائجها ، ولا تتكلف لها ما ينبغى لموضوعها من التثبت والإمعان فى المراجعه والتحقيق .

تلك الوجهة الواحـدة هى غلبة العوامل « الجسدية » على عقائد الديانة الإسلامية ، وبرهان هذه الفلسفة الحسية عندهم هو الاعتماد على السيف فى نشر الدعوة وأوصاف النعيم السماوى فى الدار الآخرة .

وقد يكفى لإسقاط هـذا الرأى ما ألمعنا إليه من استحالة تفسير العـوامل المتناقضة بعلة طبيعية واحـدة ، أو يكفى لإسقاطه إحصاء المسلمين والمقابلة بين عددهم فى البلاد التى فتحت بالسيف ، والبلاد التى لم تحارب المسلمين ولم يحاربوها ، أو إحصاء عـدد الداخلين فى الإسـلام على أثر الفتح وعـدد الداخلين فيه مختارين بعد ذلك بعصور متطاولة ولكننا نكتب هذا المقال بين معالم شهر رمضان ونقنع منه بصبغة واحدة تدل على حكم الإسلام فى مسائل الحس وواجب المسلم نحوها ، ولا تحتاج إلى دلالة أخرى لتقرير موقف الإسلام بين الحياة الروحية ، والحياة الجسدية ، وتلك الصفـة هى تخصيص شهر كامل من شهور السنة ، تقوم فيه حياة المسلم خلال هـذا الشهر على حكم شهوات الحس وإخضاعها للإرادة فى أقوى مطالب الجسد من طعـام ومتاع ، وهى فريضة تعلم المسلم واجبه فى سائر أيام حياته ، وتلهمه أنه صاحب ضمير يملك زمام نفسه ويأخذ من الحس بمـا يشاء الإنسان العاقل المريد .

وكل فريضة من فرائض الإسـلام هى فى الواقع صورة أخرى من صور هذه الرياضة العامة فى جميع أوقات الحياة . فالمسلم لا يقف

بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ليكون (مخلوقا حسيا) مستغرقا فى مطالبه الجسدية ولا تجب عليه الزكاة لأنه (مخلوق حسى) ينقاد لمطامع النفس وشهوات الجسد ، وليس الحج بواجبه عليه لأنه (مخلوق حسى) يستسلم للدعة ويطمئن إلى الراحة ويحجم عن مشقة السفر وبذل المال والتضحية بشئ منه وهو مرتحل أو مقيم ، بل هو لا يشهد بوحدانية الله ليشرك معبودا آخر مع الله يتمثل فى عبادة الدنيا والاستسلام لغوايتها على وجه من الوجوه .

إنما العقيدة الإلهية فى الإسلام عقيدة حسية روحية كما ينبغى أن تكون كل عقيدة يؤمن بها كائن حى عاقل له جسد وروح .

والله خالق الحياتين ومانح السعادتين فى الدارين ، فلا ينبغى أن يكون قوام عبادته مسخ الجسد وازدراء الدنيا ، ولا أن يكون قوام عبادته تسليم الدنيا للشيطان والابتعاد منها كأنها من عمل عدو لله وليست من عمل الله ولا من نعمه التى ارتضاها لعباده بتدبيره وهـــداه .

* * *

ونختم هذا المقال كما بدأناه فنعيد فى ختامه أن علم (المقارنة بين الأديان) يسمى علما مع الحيطة ... لأنه معارف شخصية يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة ، ولكننا نعيده لنضيف إليه شاهدا من الشواهد « المحسوسة » على وجوب الحيطة فى تناول آراء الباحثين فى هذا العلم ، فإن بها لنقصا يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الإسلام ، فلا مناص من تغييرها أو تغيير التاريخ الثابت الذى لا ينكرونه إذا عادوا إليه بالتمحيص النزيه .

إذا صدق علم المقارنة بين الأديان على أسس الأسباب الطبيعية التى تفهمها مدرسة التعليل الطبيعى وجب أن يكون اعتقاد المسلم بالله كالاعتقاد (بشيخ عربى) كبير تضاعفت قواه الحسية عن النسبة التى تكون بين رئيس قبيلة وبين رئيس الخلائق جميعا .

وصاحب الأمر والنهى فى السماوات والأرضين .

ولكن علم المقارنة بين الأديان لا يصدق الحكم فى هذه القضية ، لأن « الله » فى عقيدة المسلم ينسخ آداب الشيخ العربى القديم وأولها العصبية وإيثار الآل والبنين . وأين يجد الباحثون أثرا من آثار الشيخ العربى فى معبود سرمدى لم يلد ولم يولد ولا فضل لأحد من العالمين عنده بغير التقوى ، وليس يحب العدوان والمعتدين ولا يأمر بغير البر والإحسان .

فإن دليل المقارنين بين الأديان ليتخبط فى طريق مضلة لا تهديه إلى شيخ ولا إلى شئ لأنه يولى وجهه إلى قبلة غير القبلة وعلى سبيل غير السبيل فإذا أدار وجهه عنها فأينما يول فثم وجه الله .

عباس محمود العقاد

مختار من الشعر القديم والحديث

نجد

للأستاذ حسن جاد
مبعوث الأزهر بالرياض

تلك الرياضُ وهــذه نجدُ ... الشعرُ والتاريخُ والمجــدُ
ماضى العروبة فى مفاخرها ... وعلى رُباها رفرف الخُلد
وأرومة الفصحى وقد درجتْ ... فى حِجرها وصفا لها الوِرْدُ
شبَّ البيانُ العبقرىُّ بها ... فرعتــه وهى لعبقرٍ مَهْدُ
وعلى ثراها من مشارعه ... هطل الحيا وتفجــر الصَّلْد
عُصمٌ إذا (ثهلان) رجَّعها ... صغت الرُّبا وتلفت الوَهْد (١)
يا نجد أين صباك مُلهمةً ... للشعر وهى رقيقةٌ رَوْدُ (٢)
مسكيةٌ النفحات ضمخها ... العَبْهرُ المنضور والرَّند (٣)
والبرق حزَّ لخفق وامضــه ... قلبُ المشــوق فكاد ينقد
كم شاقهُ اللهفان مُدَّكراً ... وتوهمتــه حُليَّها الخَوْدُ
وشميمُ ذياك العرارِ وقــد ... رقَّ العشىُّ وراق يا نجــد
طارتْ إليك بنا مجنحــة ... كالبرق أعجل ومضه الحفْدُ (٤)
ركبتْ سراة الريحُ ملجمة ... فعنا الجماحُ وذُلّل القوْدُ (٥)

---

(١) الوهد : الأرض المنخفضة وثهلان : جبل بنجد . (٢) رود : لينة .
(٣) العبهر : النرجس أو الياسمين ـ الرند : شجرة طيب الرائحة .
(٤) الحفد . الإسراع (٥) السراة : الظهر . والقــود : القيادة .

تطـوى الفضاء فلا يعوقهـا ... بحـر طغى موجا ولا طـودُ
وتشق جيب السحب عاتيـة ... وأزيزُها فى جوفها رعـــد
تنقض جارحة فإن صعدت ... فمُسدَّد لم يُخطه القصـــد (١)
وكأنما الجبل الأشم يُرىَ ... منها كثيب رَمْلُه مَهدُ (٢)
حتى أظلتنـــا سماءُ رُباً ... فى ظلها يستروح الجهد
يا ساهر الأشـــواق أرقه ... طولُ الحنين وشفه الوجد
يصـــبو لأهل بمصر وقد ... شط المزارُ وأوغل البُعْد
أقبلت من وطن إلى وطن ... حان فلا بُغض ولا حقـد
أهلوه أهلونا يظللنـــا ... علم ويجمع بيننا الود
هوِّن عليك فلست مغترباً ... تلك الديار لنا بها عهـــد
سـبق الخيال إلى مطارحها ... شوقا وطار بأفقها يشدُو
كم قد غدا والصبح منبلج ... وسرى وجنح الليل مُرْبَد
ولكم حكى عنها وصـــورها ... فكأنها لعيوننا تبدو
حملت صباها منه راوية ... يحدوه من نفحاتها النَّد (٣)
وعلى ضفاف النيل سامِرُه ... قد شافه الإنشادُ والسَّرْدُ (٤)
اليوم رَأىَ العين نُبصرها ... بعد الخيال ويصدُق الوعد
وعلى رمال البيد لاح لنا ... واد فسيحُ الأفق مُمتد
مشت الحضارةُ فى جوانبـــه ... فصبا إليها السَّهل والنَّجْدَ
وبدت حواشـــيه مطرزة ... فكأنه من وَشْيها بُرْد
يجلو (الرياض) على ترائبه ... ركنا وطيداً ليس ينهـد
شمماً بواذخ كلما نهضت ... عصماءُ منها طالها ندُّ (٥)
طلعتْ نجومُ الكهرباء بها ... وزانت الشرفاتُ والعُمُد

---

(١) الجارحة : واحدة الجوارح وهى سباع الطير . والمسدد : السهم
(٢) المهد : الأرض المستوية .   (٣) الند : الطيب والعنبر .
(٤) السرد : جودة سياق الحديث .
(٥) طالها : فاقها فى الطول . والند : المماثل ، والمراد بذلك تصور الرياض وعمائرها الضخمة

وترى المـوارق فى طرائقهـا ⁂ زُمراً ينوء بحصرها العـد (١)
مجنـــونة الأبواق نافرة ⁂ نفرَ الظباء يروعها الصَّيْـد
أين النواجى فى مفـاوزها ⁂ قُلصاً وأين عتاقها الجُـرْدُ (٢)
أنا من صبا للبيد يأسِرُه ⁂ منهـا فضاءٌ ما له حَـدُّ
وسكونها ذاب الضجيج به ⁂ إلا رسيمُ النوق والوَخْـد (٣)
ومساؤهـا الساجى يهيم به ⁂ سارى الخيال ويُقدَحُ الزَّنْدُ (٤)
ونجـــومها حبباً على ثبج ⁂ والليـل مدَّ عُبابه المـد (٥)
ورمالهـا تبر يفضِّضُه ⁂ بعـد الأصيل من الضحى رأدُ
وخيامُها السجواء قـد سعدت ⁂ فيهـا الحياة وأســعف الجد
والشاء والراعى ومعزفـة ⁂ والشيحُ والقيْصُوم والمرْدُ (٦)
قف سائل الطلل المحيل بهـا ⁂ إن كان فيه لسائل رد
أين المهلهل فى ملاعبها ⁂ غزل الشباب يروح أو يغـدو
وعلى (عنيزة) أو بذى حُسُم ⁂ كم شدةً وهو الفارسُ الجلد (٧)
يا نابغيَّ الليل كيف ترى ⁂ ليلا ليوم الحشر يمتـــد (٨)
كم ضاق قبلك ذو القروح به ⁂ فى (إثمد) وأمضَّه السُّهدُ
ناما بليـــل ما لأوله ⁂ من آخر أو يأتى الوعـد
أغفى به الأعشى وكان بها ⁂ صنَّاجة بسرى الدجى تحدو
شُــدت أنامله على وتر ⁂ يطويه فى (منفوحة) لحْدُ (٩)

---

(١) المقصود بالموارق : السيارات الكثيرة الصاخبة الأبواق بمدينة الرياض .

(٢) النواجى : جمع ناجية وهى الناقة تنجو براكبها وتجتاز المفاوز . والقلص : جمع قلوص وهى الشابة القوية والعتاق الجرد : الخيل الأصيلة . (٣) الرسيم والوخد : نوعان من سير الإبل .

(٤) الساجى : الساكن الهادى والزند : ما يقدح به الشرر . والمراد تفتح القريحة وتوقدها .

(٥) الحبب : ما يعلو الماء من فقاقيع والثبج : وسط الماء أو اضطرابه .

(٦) المرد : الغض من ثمر الأراك (٧) عنيزة وذو حسم من مواقع حروب البسوس . والجلد : القوى . (٨) كان النابغة وذو القروح (وهو امرؤ القيس) مشهورين بالشكوى من طول الليل . والمراد بالليل الآخر الموت .

(٩) منفوحة : قرية بجوار الرياض بها قبر الأعشى . وكان يسمى صناجة العرب للتغنى بشعره .

أيْك البيان الحُرّ منذ نما ... فى الجاهلية غُصنُه الملد (١)
ما زلت فى الإسلام حلبته ... وبه تدفق نبعُك العد (٢)
حتى أظلك بعد منبهة ... ليلُ الخمول وأطبق الرّقد (٣)
فالنبع شحّ وغاض دافقه ... والروض جفّ وصوح الوَرْد
والجهل أطفأ من خرافته ... نور العقول فأبهم القصد
ثم انتبهت على مُجلجلة ... للبعث يطلقها فتى نجْدُ (٤)
فسلى (عُيَيْنة) كيف ردّدَها ... مثل الأذان إمامُها الفردْ (٥)
(والدّرّاعيّة) كيف رنّ بها ... صوتُ البشير ورفرف البند (٦)
درع حبتْه حين لاذ بها ... وجنودها للوائه جند
والمشرفيةُ للهدى سند ... والدين نعم العونُ والأيْدُ (٧)
تقوى السيوف الفاتحاتُ به ... وبدعوة الإصلاح تشْتدُ
والملك ما لم يستقل على ... أسس من الأخلاق ينهد
قد ينهض الشعبُ الجريح إذا ... لم ينطفئْ من رُوحه الوَقْدُ
ويعود مرفوع اللواء وما ... لمُضيع أخلاقه عَوْدُ
والعبدُ حُر من تخلقه ... والحُرّ من شهواته عبد
قُلْ للبُدلّ بكل مُخترع ... يُشقِى الحياة ورُوحهُ صَلدُ (٨)
أعماه عن نور الهدى صلف ... وأضله الإلحاد والجحْد
أين السعادة فى مدمرة ... تفْنى ؟ وأين العيشةُ الرّغد
قالوا : السلام فقلت : ينشدهُ ... يا للأسى أعداؤه اللد
وبكوه موءوداً ومِنْ عجب ... يبكيه من بيمينه الوأدُ

---

(١) للد : الناعم اللين . (٢) العد : الكثير الماء . (٣) الرقد : النوم

(٤) النجد : الشجاع ، والمقصود به هو الإمام الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » الذى نهض بدعوة الإصلاح الدينى فى نجد بعد رقدتها الطويلة فى ليل الجهل والخرافات ، وذلك حوالى عام ١١٥٠هـ

(٥) عيينة : هى البلدة النجدية التى انبعث منها صوت إمام الدعوة « محمد بن عبد الوهاب » .

(٦) الدارعية : بلد الأمير سعود الذى ناصر دعوة الإمام « ابن عبد الوهاب » ـ البند العلم الكبير .

(٧) الأيد : القوة . (٨) صلد : متحجر .

مدنيةٌ خُدِعَ الغَرِيرُ بها ... لي في بريق طلائها زُهْدُ
قلق تعقَّدت النفوسُ به ... وتوقع للشر مُمْتَدّ
وصراعُ غاب من شريعته ... أن يستبدّ بأعزل وَرْدُ (١)
ولربما جر الخرابَ على ... دنيا الخلائق أحمق وغدُ
السيفُ لم يعتد حامله ... بعقيدة أولى به الغمد
والعِلمُ ذو حدين: نافعهُ ... حدٌ وجانبُ شره حد
إنّا ودينُ الله عدتنا ... لسنا بغير الله نعتد

• • •

زمن أدالك في تداوله ... تجرى عليك النحس والسعد
والدهر صفو بعده كدر ... والعيش صاب بعده شهد
قد أذن الفجر المطيء فلا ... يحجبْك عن أضوائه سدٌ
صُبْحُ العروبة لاح بعد دُجى ... من ليلها وتبين الرشد
خذى مكانك في انتفاضته ... نهضَ الأسير وحطّمَ القيْد
قومى انهضى وأبى ولا تهنى ... كيما يعود لأرضنا المجد
حيا صباح عُلاك مُطْلِعه ... وله الثناء الجم والحمد
(وسقى ديارك غير مفسدها) ... غدق عميمُ السّح يا نجد

حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية
ومبعوث الأزهر (بالرياض)

(١ الورد : الأسد القوى

الكتب

للأستاذ محمد عبد الله السمان

١ - تاريخ الإسلام فى الهند:

للأستاذ عبد المنعم النمر

للإسلام والمسلمين تاريخ حافل فى الهند استقر هناك خلال أكثر من ثمانية قرون ، والأستاذ عبد المنعم النمر المدرس بالأزهر الشريف حين كان مبعوثا للمؤتمر الإسلامى والأزهر فى الهند عام ١٩٥٦ جعل هدفه أن يكتب تاريخ الإسلام فى الهند ، حيث المراجع ميسرة والآثار الإسلامية قريبة منه والعلماء المؤرخون الهنود من المتأخرين لا زالوا على قيد الحياة .

ونحن نتعجب مع المؤلف لهذا الإهمال فى العناية بتدريس تاريخ الإسلام فى الهند ، فى الوقت الذى نعنى بتدريس تاريخ أوربا والغرب المزدحم بالصليبية الحمقاء .

لقد قدم المؤلف لسفره الضخم ببحث ألقى أضواء على الهند عامة تشمل أوضاعها السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وحضارتها ومراحل الغزو الأجنبى منذ الغزو الآرى إلى قبل الميلاد بقرون طويلة إلى الغزو الانجليزى الأخير ، ثم تحدث عن الأديان العديدة التى استقرت فى الهند قبل الإسلام ، وأبرزها الهندوكية والبوذية وعن تسرب الإسلام عن طريق العلاقات التجارية وعن فتح الإسلام للهند على يد الدولة الغزنوية وبطلها الفاتح محمد الغزنوى أواخر القرن الرابع الهجرى إلى أن صفى الاستعمار الانجليزى هذا الحكم الإسلامى فى متوسط القرن التاسع عشر .

وعرض المؤلف لمزايا الحكم الإسلامى فى الهند ، حيث استقر العدل والسلام والأمن وغرس فيها ضروبا من الحضارة فى أرقى أطوارها ، كما عرض لنماذج من البطولات الإسلامية التى صنعت بسواعدها أروع ما عرفته البشرية من الفدائية والتضحية .

وختم المؤلف مؤلفه الذى جاء فى زهاء خمسمائة صفحة ، ببحث عن الثورة الهندية

ضد النفوذ الانجليزى فى مايو عام ١٨٥٧ حيث استمرت أربعة شهور ، استقرت بعدها السيطرة الانجليزية التامة على شبه القارة الهندية وانهارت آخر لبنة فى الحكم الإسلامى .

وفى هذا البحث الأخير قدم المؤلف وصفا دقيقا للوحشية الانجليزية خلال الثورة الهندية ومهما بحثت عن مرادفات للخسة والنذالة والهمجية فى قواميس اللغة بأسرها ، فلن تفى بما هو أهل للوحشية الانجليزية القذرة ولقد تجلت وقاحة الانجليز فى معاملتهم بعد إخماد الثورة لآخر ملوك المسلمين (بهادورشاه) وأبنائه ، بما يجل عن الوصف ، ولا تحتمله الأعصاب .

والواقع أن الأستاذ عبد المنعم النمر قد منح المكتبة الإسلامية العربية مؤلفا كانت فى مسيس الحاجة إليه ، حيث سد فراغا كان لابد أن يملأ ، كما أدى إلى جانب مهمته - كمبعوث للأزهر والمؤتمر الإسلامى - واجب الوفاء ، فقد حقق هدفا أدبياً دينيا ، وليت مبعوثينا فى شتى البلاد الإسلامية يقتدون به فيستطيعون أن يسدوا للتاريخ والإسلام أجل الخدمات .

* * *

٢ — ديوان ابن الدمينة :

للأستاذ أحمد راتب النفاخ

تحقيق هذا الديوان شطر من رسالة الماجستير للمؤلف والشطر الآخر دراسة مطولة للشاعر والديوان معا ، وفى هذا المؤلف جعل دراسته ذات شطرين :

الأول عن ابن الدمينة الرجل ، والآخر عن ابن الدمينة الشاعر ، وجعل الشطر الأول فى فصلين . أولهما عن مصادر ترجمة ابن الدمينة وقيمتها التاريخية ليعتمد فى الحديث عن حياته على أساس نقدى صحيح ، والآخر عن حياة ابن الدمينة نفسها . وأما الشطر الثانى من الكتاب فقد جعله المؤلف فى ثلاثة فصول ، عن رواية شعر ابن الدمينة وتدوينه ، وعن اختلاط شعره بغيره ، ثم عن أغراض الشاعر الشعرية ومذاهبه فيها .

وابن الدمينة شاعر عربى ينتمى إلى قبيلة خثعم ، ولكن مولده ووفاته مقتولا مجهولان اضطربت فى إثباتهما آراء المؤرخين ، وبذل المؤلف المحقق فى هذا الصدد جهوداً ضخمة مضنية ، وخرج بأن الشاعر لم يكن إسلاميا ولا من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وإنما كان شاعراً عباسياً محدثا .

وحقق الأستاذ النفاخ شعر الشاعر تحقيقاً دقيقاً عميقا ، وقد اعتبر - كما ذكر فى المقدمة - أن الشطر الأكبر من شعر الشاعر جاء نسيباً عذريا وهو الذى اختلط بشعر غيره ، وأما الباقى فقد جاء نسيباً مشوبا بموضوعات وصفية

من أغراض أهل البادية ، ثم ألم ببعض عيوب القافية فى شعر ابن الدمينة ، وتناولها بالتحليل والتفسير .

إن الأستاذ النفاخ أديب متعمق من الإقليم الشمالى ، وفى تحقيقة لهذا الديوان قدم للمكتبة أثراً أدبيا له قدره ، والتقدير اللائق به ليس لأنه حقق ديوانا ، وإنما لأنه اختار شاعراً مغموراً لم تتفق روايتان على تاريخ مولده ووفاته والعصر الذى عاش فيه ، ولذلك بذل مجهوداً مضنياً وحسبنا دليلا هذه الأمهات من المراجع الأدبية والتاريخية والمخطوطات والمعجمات وهى مائة وستون مرجعا أثبتها فى تحقيقه عدا غيرها مما ضاق به الحصر ، ومع هذا فالأديب النفاخ يرى أن بين عمله وبين ما يريده لهذا الديوان بونا بعيدا ، وهو يأمل أن يجد من آراء الزملاء الدارسين ما يعين على استكمال أسباب التحقيق وفوق كل ذى علم عليم .

٣ — وجهة العالم الإسلامى :

للأستاذ مالك بن نبى

ترجمة الأستاذ عبد الصبور شاهين

الأستاذ مالك بن نبى أحد أبناء الجزائر المناضلة ، وهو من المفكرين القلائل الذين نشئوا فى أوربا وأفنوا زهرة شبابهم فى طلب العلم هناك ، وكان تعمقهم فى الثقافة الأوربية سببا فى تحررهم من نفوذها ومعرفتهم لمصادرها ومواردها .

وللأستاذ مالك مجموعة من المؤلفات القيمة اختار لها عنوان : مشكلات الحضارة ، وبحوثه جميعها ربطها ارتباطاً تاما بالثقافة الإسلامية ، ويقدمها ناضجة واعية ، تبدو عليها هندسة البناء ، فأصبحت تؤسس مدرسة على مستوى أعلى فى الأفكار الإسلامية ...

وكتابه هذا « وجهة العالم الإسلامى » دراسة عميقة ، قسمها إلى ستة فصول :

مجتمع ما بعد الموحدين ناقش فيه نظرية الظاهرة الدورية ، وقدم إنسان ما بعد الموحدين ، والاتصال الأول بين أوربا والإسلام ، والفصل الثانى : النهضة وناقش فيه « حركة الإصلاح » التى بدأت بكتب ابن تيمية وكانت الحركة الوهابية امتداداً لها ، ثم جاءت عقلية جمال الدين الأفغانى التى كان هدفها الأول تقويض نظم الحكم الموجودة آنذاك كما يعيد بناء التنظيم السياسى فى العالم الإسلامى على أساس الأخوة الإسلامية ، أما هدفه الثانى فهو مكافحة المذهب الطبيعى الذى كان متفشيا ، كما ناقش فى هذا الفصل « الحركة الحديثة » التى ليس لها فى الواقع نظرية محددة كما يذكر المؤلف - لا فى وسائلها ولا فى أهدافها ، وهى لم تتجه نحو الأعمال بل اتجهت إلى الأشكال ، كما لم تأت بعناصر

ثقافية جديدة لعدم اتصالها الواقعى بالحضارة الحديثة .

وفى الفصل الثالث تحدث المؤلف عن فوضى العالم الإسلامى الحديث وعواملها الداخلية والخارجية ، وفى الفصل الرابع عن فوضى العالم الغربى ، وفى الفصل الخامس عن الطرق الجديدة لبناء النهضة الشاملة ، وفى الفصل السادس عن بواكير العالم الإسلامى التى تبشر بمستقبل زاهر ، وختم المؤلف كتابه ببحث موجز عن الكمال الروحى لعالم الإسلام .

والحقيقة التى لا نكران فيها أن الأستاذ مالك بن نبى وثيق الصلة بالثقافة الغربية ، ووثيق الصلة بالأفكار الحديثة ، وواسع الاطلاع إلى درجة تفوق الوصف ، وهو فى مؤلفاته يعنى بالتخطيط الهندسى والتعمق فى الدراسة ، والواقعية فى معالجته المشكلات والقضايا .

٤ — أشعة خاصة بنور الإسلام :

للسيو إيتين دينيه

ترجمة الأستاذ راشد رستم

هذه الرسالة هى العدد السابع عشر من سلسلة الثقافة الإسلامية ، أما المؤلف فهو فنان فرنسى عاش زهرة شبابه فى خضم الفكر الإسلامى ، وبعد بحث وروية وتيقن وتفكر أعلن إسلامه عام ١٩٢٧ ، وجعل مهمته الانتصار للحق ، فبذل جهدا مشكورا فى الدفاع عن الإسلام ودحض المفتريات التى ألصقها بالإسلام - عن قصد - بعض المتشرقين الموتورين ، وأخرج للمكتبة الإسلامية عدداً من المؤلفات الجليلة .

وفى هذه الرسالة عرض المؤلف لمناقشة المعجزات وطابع الإسلام والإصلاحات الدينية إزاء حركة مصطفى كمال أتاتورك ، كما عرض المؤلف لمسائل : الخمر ، والوسيلة ، والعلم ووضعه فى الإسلام ، وتعدد الزوجات وغير ذلك ، وفى كل مسألة ينفى عن الإسلام الأباطيل التى صاغتها الأهواء .

ويقدم المؤلف لرسالته بأنه لا عدوان فى الإسلام . وأن وصية الله لنا معشر المسلمين ألا نعتدى على أحد مسالم لنا ، أما أهل السوء الذين لا ينفكون يهاجمون الإسلام بالأباطيل ويحاربونه بالمفتريات فليس علينا جناح بعد ذلك أن نظهر من نوع سلاحهم ، وندفع عن بيضة الإسلام بهتانهم فواحدة بواحدة والبادى أظلم .

والواقع أن السيد « ناصر الدين دينيه » وهذا هو الاسم الجديد بعد اعتناقه الإسلام، ناقش بعنف الزيغ فى بعض العقائد ، وكان لكتبه أثر بالغ سواء فى فرنسا مسقط رأسه ، أو فى الجزائر وطنه الثانى ، والذى أوصى أن يدفن فيه وقد نفذت وصيته عام ١٩٢٩ م .

محمد عبد الله السمان

بريد المجلة

الرئيس يشيد بالأزهر فى الهند :

الكلمة التى ألقاها السيد / الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى حفل الاستقبال الذى أقامته جمعية علماء الهند تكريما لسيادته :

« أيها السادة العلماء » :

إننى أحمل إليكم من القاهرة ـ مقر الأزهر الشريف ـ تحية إخوان لكم يعملون معكم لنفس الأهداف التى يسعى إليها مجتمعنا، وهى فى الواقع نفس القيم الإنسانية العالية التى يوصى بها ديننا، وهى فى الوقت نفسه جزء من التراث الروحى للجنس البشرى ـــ ذلك التراث الخالد الذى استطاع به الجنس البشرى أن يعبر على جسر من الإيمان فى عصور الظلام الأولى إلى الآفاق الروحية المشتركة .

« أيها السادة العلماء » :

إن الشعوب الإسلامية مدعوة اليوم للساهمة بنصيب وافر فى خدمة المبادئ العليا السامية التى نريد لها أن تسود، وإنى أيضا لتجد بين عقائدها حوافز تدفعها إلى العمل مع غيرها من الأمم التى تسعى خلال عقائدها الخاصة إلى نفس المثل العليا، التى أرادها الله للعالم الذى خلقه وأبدعه، وأراد له الخير وأراد له الهدى، وفقكم الله إلى أن تقوموا مع إخوانكم من علماء الإسلام فى النهوض بجزء من أعباء الرسالة العظيمة التى تعمل الشعوب الإسلامية على إقامتها مع غيرها من شعوب العالم المتطلعة إلى الحرية والعدل .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شكر الأستاذ الأكبر للسيد الرئيس :

بعث فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر إلى الرئيس جمال عبد الناصر فى الهند يشكره على الكلمة السابقة :

أحمد إليك الله وأشكره على ما أمدك من عونه وتوفيقه فى جمع كلمة العرب والمسلمين على التواصى بالخير والتعاون على البر والتناصر فى الشدة ثم أقدم إلى سيادتكم أخلص الشكر وأصدق الدعاء على تنويهك

برسالة الأزهر فى كلمتك الكريمة الحكيمة للسادة علماء الإسلام فى الهند ، وعلى دعوتك وارثى الدعوة المحمــدية وقادة الشعوب الإسلامية إلى العمل معا على نشر مبادئ الرسالة الخالدة: رسالة الوحدة والوئام رسالة الهدى والسلام : رسالة الله العامة التى لا تفرق بين دين ودين، ولا بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون . وعلماء الدين وزعماء الدنيا حريون أن يستجيبوا لهــذه الدعوة الجامعة فيتضافروا على رفع المنارة الروحية فى طريق القافلة البشرية ؛ لتهتدى بنور الله إلى السبيل الواضحة وتنتهى إلى الغاية الجامعة ، أيدك الله بنصره وأمدك بروح من عنده وجزاك جزاء المصلحين المخلصين .

رسالة الأستاذ الأكبر

إلى مسلمى الفيلبين :

يحرص إخواننا مسلمو الفيلبين على أن يسمعوا صوت إمام المسلمين وشيخ الأزهر فى الشئون الدينية ، فهم لا يصومون إلا إذا أشار ، ولا يفطرون إلا إذا أفتى ، وقد اتصل بهم فضيلته فى يوم عيد الفطر عن طريق اللاسلكى وأبلغهم هذه الرسالة .

إخوانى فى الدين وفى الله مسلمى الفيلبين .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد .

فإنه ليسرنى ، ويشرح صدرى أن أعود إليكم فأتحدث معكم مرة أخرى حديثاً متصلا بحديثنا السابق فى غرة رمضان المعظم ، وكان موضوع حـديثنا السابق التهنئة بحلول شهر رمضان أما موضوع حديث اليوم فهو التهنئة بحلول عيد الفطر المبارك .

إخوانى :

استقبلنا بالأمس القريب شهر رمضان وتلونا وسمعنا قول الله فيه « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وكنا أمام هذا الأمر الإلهى فريقين: فريقا آمن بربه وعرف مكانة الشهر عنده فقام بواجبه فيه فصامه ، وأخلص فى صومه ، واستمر الشهر كله صائما حتى أتم الله عليه نعمته بالامتثال والطاعـة ، وفريقا آخر انحرف قلبه عن أمر الله ، فانتهك حرمة الشهر بفمه ، فأكل وشرب ، وبقلبه ، فحسد وحقد ودبر الكيد ، وبنفسه فامتدت شهوته إلى ما حرم الله عليه واستمر هكذا حتى ودع رمضان ورمضان ساخط عليه .

فإلى الفريق الأول الذى قام بواجب الصوم نوجه التهنئة له بهذا التوفيق الذى ظفر به ، وتهنئة أخرى باستقبال العيد: عيد الفطر المبارك

الذى نستقبله بفرحة العبادة ، وشكر المولى على ما أنعم به علينا ، وأما الفريق الثانى فإننا ندعو الله أن يوجه قلبه إلى الهداية وأن يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم .

أيها السادة :

إن يومنا يوم عيد وقد انقضى شهر رمضان وثبتت رؤية هلال شوال عندنا فى مساء السبت ٢٦ من مارس وبهذا صار يوم الأحد ٢٧ من مارس عيد الفطر صلينا فى صباح العيد وأفطرناه وهنأ به بعضنا بعضا بعد أن ثبتت رؤية هلال شوال فى الجمهورية العربية المتحدة ، وإذا لم تعلموا أنتم برؤية هلال شوال إلا بعد ظهر يوم الأحد المذكور فإن اليوم التالى وهو يوم الاثنين ٢٨ من مارس يكون هو العيد عندكم وعليه يجب أن تعزموا من الآن على صلاة العيد صباح الغد وبهذا صحت الرواية عن النبى صلى الله عليه وسلم ، واختاره جمهور الفقهاء وبه نعمل ونفتى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأبعث إليكم ، وإلى سائر المسلمين فى جميع بقاع الأرض خالص التهنئة داعيا الله لنا جميعا بالألفة والمحبة ، واتحاد الكلمة ، وجمع الشمل وأن يؤيدنا تعالى فى نشر ديننا والعمل بما يرضيه ويقربنا إليه .

فلتفرحوا وليهنئ بعضكم بعضا متحدين قلبا وهدفا ، وغاية وسلوكا وأمنا وطمأنينة وليمد بعضكم إلى بعض ـ على ما بينكم ـ من بعد المسافات ، واختلاف اللغات وتباين الأقاليم ـ يد التهنئة والتعاون والتكتل ، والتآلف والمحبة التى تجمع قلوبكم وتوحد كلمتكم وتطهر أرضكم من أشواك الاستعمار وظلمه ومكايده والله معكم أينما كنتم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عيد الفطر عيد مبادئ ومثل :

أبرق فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة بمناسبة عيد الفطر المبارك يقول :

السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وبعد فإن عيدنا اليوم عيد مبادئ ومثل لأنه عيد القيام بالواجب الذى فرضه الله علينا، هو عيد التواد والتآلف والتحاب والتعاطف والتراحم والوحدة الجامعة بين القلوب والسلام لجميع الناس .

المعانى الفاضلة للصيام :

ففرحة المسلمين إنما هى فرحة زينة وعبادة تجمع بين حظى الجسم والروح فتبق على

المعانى الفاضلة التى اكتسبها المسلمون فى شهر الصيام من إيمان وصبر وعزم وقوة وإرادة ، وما أحوجنا إلى هذه المعانى تستقر فى نفوسنا لتكون لنا النور المشرق الذى نهتدى به فى نهضتنا الحديثة التى أرسيتم قواعدها وأقمتم بناءها الأشم .

الدين أساس القوة والمجد :

وإن مثل هذا البناء الضخم ليحتاج إلى أسس من الدين وقواعد من الخلق قوامها التربية الروحية الأصيلة ؛ لأن قوة الروح هى القوة الدافعة إلى الخير المحققة للنصر فى جميع الميادين .

وما أحرى أمتنا بالشكر تقدمه إلى مولانا وبارئنا على ما أولاها به من نعم النصر وجمع الكلمة ووحدة القلوب على يديكم .

وإنى إذ أهنئكم بالعيد — باسم الأزهر علمائه وطلابه — فإنما أهنئ فيكم المبادئ القوية التى آمنتم بها وآمن بها شعب من ورائكم يؤمن بالبناء والتعمير ولا يعرف التخريب ولا التدمير وبذلك سرتم بنا من نصر إلى نصر .

وإن المبادئ التى تتركز فى النفوس وتؤمن بها القلوب تصبح عند أصحابها أعز من نفوسهم ومن أموالهم ومن كل ما يملكون .

فسيروا على بركة الله تكلؤكم رعايته ، وتحدوكم عنايته والله معكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمود شلتوت

بدعة استحضار الأرواح :

كانت الروحية الحديثة أو الدعوة الخبيثة قد شغفتنى ردحا من العمر كنت أحسب خلالها أنى أحسن صنعا — وزين لى باطلها ما روجه لها المروجون وزيفها الداعون . إما عن حسن نية وسذاجة تفكير وإما عن سوء طوية وخبث تدبير ، فألبسوها ثوب العلم المتحرر والتجريب المتكرر حتى شغلت على تفكيرى وأفسدت على تدبيرى ؛ كيف لا وهى تزعم أنها تقتحم الغيب المجهول وكل غيب يستهوى الفؤاد وتتوق إليه العقول ؟ . حتى فجأنى الحق جل جلاله فى لحظة فأزال الله جل وعز ببركة روحانية رمضان المبارك عن عين قلبى غشاوة الضلال وأبان لى الحرام من الحلال فعلمت ما فى هذه الدعوة الخطيرة الماكرة من سموم تستهدف تمييع العقيدة وتهوين سلطان الدين فى النفوس وعدم الاكتراث بفرائض الله وأوامره بل وامتهانها والتشكيك فى قيمتها ويكفى ما يبثه ما يسمونه سلفربرش أو نبى

الروحية من عقائد زائفة فهو الذى يقول « إن ولاءنا لا لكتاب ولا لنبي ولا لعقيدة ولكن لله وحده » ويقول « دلونى على الرجل الذى لم يحن ركبته قط لله فلم يعترف به ولم يؤمن به بل أنكر وجوده وألحد فيه وهو مع ذلك يعامل الناس بخلق حسن لأقول لكم إنه هو الشخص السعيد الناجى فى عالم الروح » .

ولقد ثبت لى أخيراً ثبوتا قاطعاً لا شك فيه أن الشخصيات التى تحضر فى جلسات التحضير وتزعم أنها أرواح من سبقونا من الأهل والأحباب إن هى إلا شياطين وقرناء من الجن يلبسون على الناس ما يلبسون .

والآن وقد انقشع عن قلبي زيف الباطل ببركة إلحاحى فى الدعاء بقولى: اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى الباطل باطلا فأجتنبه ، لست أشك أن وراء هذه الحركة منذ نشأتها يهودى خبيث كابن سبأ شأن كل الدعوات الزائفة البراقة من إخوان الصفا قديما إلى الشيوعية والماسونية حديثا .

ولقد آليت على نفسى إبراء للذمة وانخلاعا عما كتبت أوحدثت ، ما جلست مجلساً دعوت فيه لهذه الدعوة الخبيثة عن حسن نية إلا جلست مثيله لهدمها ونقضها ولا كتبت فى صحيفة مؤيدا لها إلا كتبت مستنكرا معتذرا متبرئا ومحذرا إخوانى المسلمين من خداعها وزيفها مقررا بعد هذا الشوط الطويل أنى ما وجدت طريقا صحيحا إلى الله حقا إلا فى كتابه العزيز وسنة رسوله النبي الأمى الذى لا ينطق عن الهوى والتعلق بأهل البيت وعترته الطاهرين .

والآن وأنا أودع هذه الحقبة الشقية من عمرى أجدد فيها إسلامى وأستعيد فيها إيمانى أودع معها زملاء أعزاء وأصدقاء شرفاء لا أحمل لهم فى قلبي إلا كل عطف وإشفاق ورثاء ملحا على الله فى الدعاء أن ينير بصيرتهم وينقذهم من أوحال هذه العقيدة الفاسدة مؤكدا لهم أمرين . أولهما أنه كقاعدة لا تتخلف ما من مشتغل بهذه الحركة إلا أصيب بفقد أحب أهله لديه وأعزهم عليه ويمكنهم تتبع ذلك فى كل من يعرفون وأنا أولهم . وثانيهما أن معتنق هذه العقيدة لا يموت حين يموت مسلما أو مؤمنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاللهم إنى أعتذر إليك مما كتبت أو حدثت أو فعلت وأبرأ إليك من ذلك كله ومن كل عقيدة تخالف الإسلام فى أية صورة من الصور .

اللهم قد بلغت اللهم فاشهد .

حسن عبد الوهاب

السكرتير السابق لجمعية الأهرام الروحية

فهرس أبجدى عام
لموضوعات المجلد الحادى والثلاثين

حرف (ا)

(ب)

« ن »

« هـ »

« و »

« ى »

With the passing of time the Muslims began to feel impatient, and the idolators did not stop persecuting the weak Muslims nor did they slow down their oppression to the Call of Islam. At this critical stage the revelation of God came down to declare: " Permission (to fight) is given to those on whom war is made, because they are oppressed. And Surely God is able to assist them. Those who are driven from their homes without a just cause except that they say: Our Lord is God, And if God did not repel some people by others, cloisters, and churches, and synagogues and mosques in which God's name is much remembered, would have been pulled down. And surely God will help him who helps Him. Surely God is Strong, Mighty " (Surah. 22, Vs. 39—46).

The conflict between the Call of Islam and *disbelief* was a very serious one. It continued for several years and caused a number of battles by which the Muslims meant to repel the aggression of the disbelievers and the treacherous Jews. When this conflict was taking place inside the Arabian Peninsula, there were two great powers of imperialistic policy, viz., the Zoroastrian Persia and the Roman Empire with Christian foundations. These two powers rivaled each other in dominating the neighbouring regions and in extending the spheres of influence. At that time Persia exercized role over Mesopotamia, while the Roman Empire was in command over Syria.

Under such circumstances it was inconceivable for the Muslims to think of building for themselves a huge empire like the Roman and the Persian empires, or even of attacking them. What happened, however, was that aggression began from the non-Muslim side. When the Messenger Muhammad invited Chosroes the Emperor of Persia to embrace Islam, this wrote to his representative in the Yeman, Badhán, saying : " I have heard that there appeared in Mecca (Makkah) a man from the tribe of Quraysh pretending to be a prophet. Go to him and ask him to give up this claim completely, and if he refused to do that kill him and send his head to me. How could he risk writing to me when he is my slave ? "

Vanity and irresponsibility were not confined to the Persians alone. The Romans, too, began by provocation and aggression against the Muslims. They killed the Messennger's delegate to the Roman Mayor of Besra and did not let the people free to join Islam. They slaid and tortured those who were inclined to Islam or attracted by its call. Not only did the Romans do all that, but they further sent out their vanguards to Tabook

(Tobe continued)

to them and repeated his earlier words with the same frankness. They tried again their suggestive remark and he insisted on what he had already uttered. Then Muaawiyah interfered and said: " Let Abu Muslim go his way, he knows better what he says. "

This Islamic principle is well-established and affirmed, and has been observed by Muslim rulers so much so that it became known to all sections of the people. Muslims of different backgrounds consider the Califs and rulers as ordinary men whose infallibility and superiority to other people is no article of faith, and whose injustice and corruption instigate severe criticism from all public sides. This is not only in theory but olso in practice. It has been exercised on many occosions. For example, the famous poet Abu Al-Ala Al-Maarri launched his attacks against his contemporary rulers and governors, when they went wrong and abused their power forgetting their real status as hired employees. Moreover, a nomad once was admitted to the audience of a cretain Caliph, who was sitting on a higher place while the people were below him. Then the nomad asked the Caliph: " Are you God ? " " No, I am not God, " he replied. " Are you Gabriel ? " " No, " he said. The nomad added: " You are neither God nor Gabriel, so why do you sit higher ? Step down and sit with the people ".

These are a few examples but are very significant. Thay prove the practicability of the mentioned principle of the status of the ruler and the rights of the people. This principle was clearly conceived and properly observed by Muslims. The result was that every individual felt conscious of his responsibility and personality as to guard the truth and justice, command the good and shun the indecent. It is with such a spirit that an ordinary woman stood bravely in the mosque to oppose the Calif Umar who felt no humiliation or harm to declare to the people that the woman was right and he was mistaken.

The Policy of Islam in War:

For thirteen years starting from the advent of Islam the Muslims suffered all kinds of harm and persecution. They fled twice to Abyssinia and were finally driven from their homes and properties without any just cause, leaving behind their weak brethren in Mecca to face torture and cruelty from the idolators. Then they felt inclined to take revenge from the wrong enemy, but the Messenger exhorted them to patience and asked them to await the decree of God as he was not by then ordained to fight.

His viceroy on the earth. He is only a representative of the nation and its spokesman. The Four Wise Califs were clear about their position and knew that they were not successors to God but successors to His Messenger Muhammad in ruling the nation according to the Divine revelation. It is reported through Imam Ahmad that when it was said to Abu Bakr: O Calif of God, he said: I am the Calif of the Messenger of God, and I am satisfied with that. Moreover, when he was appointed to the Califate, he made a famous policy statement in which he said: " I have been chosen as your Head of State, but I am not the best of you. So if you find me right, help me; and if I am wrong correct me. The strong among you is weak with me until I take all dues from, and the weak among you is strong until I restore his right to him. Obey me as long as I obey God, but if I disobey Him, I have no right to your obedience."

Furthermore when Umar Ibn Abd-al-Azeez was appointed Calif, he made a public speech in which he said: " I am only like anyone of you, but God has shouldered me with a heavier burden." This is the real status of Califs in Islam. The Calif is not necessarily the best person, although he is charged with the heaviest responsibility. He is a representative of the nation and a paid employee. This fact was clear to the Califs themselves, to the learned men, the literary figures, the poets and finally to the majority of the public.

It is reported through the great authority of Traditions Imam Bukhari that Aishah, the prophet's wife and daughter of Abu Bakr the First Calif, said: " When Abu Bakr was appointed, he said: My people know well that my profession could produce sufficient provisions to maintain my family, but I have become concerned with the affairs of Muslims. So my family will depend in their livlihood on what they receive from the Treasury as I shall be working for Muslims."

This is the function and status of the Ruler in Islam. He is an employed servant paid by the nation which appoints him and supervises his deeds to help him when he is right and correct him should he deviate.

When Abu Muslim Khawlani, the reverend doctor of Islam, once came in where Muaawiyah the fifth Calif was sitting, he said to him in frank words; " Peace be upon you, O hired employee." The company of Muaawiyah suggested to Abu Muslim to say: Peace on you O prince, but he paid no attention

agreed to disallow slavery do allow taking prisoners of war and keeping them until a peace treaty is negotiated and the exchange of prisoners or ransom or heavy compensation is agreed to.

Nations at war develop very disturbing worries about their prisoners, and the ill-treatment received by these captives certainly justifies those worries. But with Islam it was a different story. During the propagation of the Islamic Call the prisoners taken by Muslims did not cause any worries to their people and states, because they were assured of fair treatment and did really enjoy it. we are told (Surah. 47, V. 4) that prisoners of war can only be taken after meeting an enemy in a regular battle, and even in that case they must be set free, either as a favour or after taking ransom. The former of these alternatives was the course adopted by the Prophet Muhammad in most cases, and there are many examples reported when thousands of prisoners were set free by the Prophet as a mere favour and with no reference whatsœver to redemption.

Prisoners of war were mentioned here because thier status is closely related to slavery. According to Islam, slaves are formerly prisoners of war taken after regular battles against disbelieving enemies who launch war against Muslims and try to hamper the spread of Islam. But, as already stated, Islam encourages the course of setting the prisoners of war free, and even if they are justifiably made slaves, their freedom is commendable. Thus we see that Islam has come to narrow the sphere of slavery and confine it to the minimum circle, and to enlarge the scope of liberty and raise the standard of slaves. It honours the slave by considering him a member of his master's family so far as treatment is concerned.

This is the attitude of Islam towards slavery. It is clear, therefore, that Islam cannot be said to encourage slavery or support slave-masters. It meant to abolish the slavery-system from the world by gradual and most wise steps. It resorted to this course because it was impracticable to eradicate overnight a system which was deeply rooted in social and economical life.

The Relation Between the Ruling and Ruled In Islam :

Authority in Islam belongs to the Nation, which is the possessor of sovereignty and is empowered to elect the Head of State, help him by good advice and oust him should he deviate or do injustice. The Calif is not the representative of God nor

taken as slaves. So were the captives in tribal and nomadic raids and indebted people who failed to pay back their debts.

When Islam came to find these conditions, it did not advocate slavery or even make any statement in support of it. On the contrary, it took every possible meassure to mitigate the practice of slavery and produced numerous revealed texts urging emancipation of slaves and opening all the possible ways to freedom. From the very beginning Islam did not address individuals only as to set free slaves in atonement for their sins and in seeking God's contentedness, but also made it incumbent upon the State to partake in setting free the slaves by means of contributing some amounts of collected alms to those who are trying to secure freedom through certain payments to their masters (Surah. 9, V. 60).

Nearly fourteen centuries ago Islam organized the emancipation of slave, and gave it full support and utmost encouragemeut. It ordained emancipation by means of exhorting the masters to set free their slaves. To realize this aim Islam encourages voluntary emancipation from the master,s side. Besides this commendable practice, there are other froms designed to help the slaves gain their liberty. For example, there is the *tadbeer*, which is a pledge making the slave's freedom conditional to his master's death. In this case the master makes a statement like " if I die, my slave becomes free, " and upon his death his slave's libeity immediately becomes effective. Another case is the *Kitabah* whereby the master and his slave reach an agreement according to which the latter gains his freedom in return for some payments to the former. Moreoves, when a slave-woman gives her master a child, she enters a transitional period in which she cannot be treated as a slave but enjoys a considerable deal of liberty which becomes complete upon the death of her present husband-like master. Furthermore, emancipation of slaves is enjoined in many cases as the only acceptable atonements for committing sins or making mistakes in swearing or fasting or the like.

The rule of Islam in fostering freedom was never confined to opening the doors of emancipation of the already enslaved people. But it was always concerned with the prevention of slavery and interested in combating it before it would take place. Whatever form of slavery that Islam kept was nothing more than what the civilized world has maintained nowadays. It is a well - known fact that the nations which have

Are those who know and those who know not alike ? Only men of understanding mind." (Surah. 39, V. 9.) "God will exalt those of you who believe, and those who are given knowledge, to high ranks" (Surah. 58, V. 11.) "And for all are according to their doings. And thy Lord is not heedless of what they do" (Surah. 6, V. 133).

It is on these bases of justice, equality and brotherhood that Islam has established the relationship between the rich and the poor. It equalizes them in right and public obligations, and provides them with fair opportunities to make earnings. Then, it says to the rich : ". . . Spend of the good things that you earn and of that which We bring forth for you out of the earth . . . (Surah. 2, V. 267,) It commands the Ruler to "Take alms of their (Muslim's) property-thou wouldst cleanse them and purify them thereby . . . ." (Surah. 9, V. 103), and tells the poor to shun spite and envy; "And strain not thine eyes toward that with which we have provided different classes of them, *of* the splendour of this world's life, that we may thereby try them. And the sustenance of thy Lord & better and more abiding" (Surah. 20, V. 131). And to all of them it appeals : "Be God's bondmen, brethren." "The believers are brethren" (Surah. 49, V. 10;) and ". . . remember God's favour to you when you were enemies, then He united your hearts so by His favour you became brethren" (Surah. 3, V. 102.)

Whenever Muslim society is guided by these Divine principles, mutual brotherhood prevails, and grudge against the rich does not find any means to the hearts of the poor nor does injustice to the poor develop in the rich. All will exchange feelings of mutual co-operation and brotherhood.

It is no wonder then that Bilal son of Rabah, Ammar son of Yasir, Abu Hurayrah and the people of Suffah-all belonged to the humble and poor section in the early Muslim society — stood side by side and worked with the richest and noblest people like Uthman son of Affan, Abd al-Rahman son of Auf and Saad son of Abadah. They did not develop feelings except of mutual love, co-operation and brotherhood. It is easily understood by now to know whether Islam supports the class-system or recognizes feudalism and the feudalists.

The Attitude of Islam towards Slavery :

Before the advent of Islam slavery was a universally recognized system. People practised it in various forms. Prisoners of war were

with approximate similarity in colour according to which people are divided into white, black and yellow. The existence of classes in this sense is an indispensable matter resulting from the order of the whole univeerse which order necessitates differences and dissimilarities even among plants and minerals, not to mention mankind among whom there are differences the like of which is not found in anyone of the being species.

It is true that Russia succeeded in eradicating the *Capital* with which were gone the wealthy Russians; Russian riches and nobles. Yet there appeared, accordidg to Aqqad, a ruling class of experts and engineers, who exercise power and despotism unexampled with other rulining classes even in the most capitalist states. (The Truths of Islam . . . by A. M. al-Aqqad, P. 207).

Islam proves itself to be the religion of reality and sound nature, when it recognizes the differences which actually exist in all countries, Capitalist and Communist alike. This recognition is declared in God's words : " We portion out among them their livelihood in the life of this world, and We exalt some of them above others in rank, that some of them may take others in service " (Surah. 43, V. 32) and "God has made some of you excel others in the means of subsistence ... " (Surah,. 16, V. 71).

This is the order of God Who never does anything in vain. Whatever He does is done with utmost wisdom and for profound reason. The mentioned classification of mankind was ordered by God, according to the Qur'an, for two reason. First, *trial* of man which is the basis of responsibility and rewarding. Trial is frequently stated in the Qur'an as the objective of many injunctions and ordinances, i. e. " So that He may try you in what He has given you." Secondly, *taking in services* as already mentioned in the verse. But this is not the service of oppression and humiliation as might be derived from the ordinary sense of term *service*. It is the service of common interest and order. Had life been a factory, it could not have been successfully managed if all people working wherein were made mangers or engineers, but there must be the managers, the engineers, the clerks, the labour and the watchmen.

Excellence in the means of subsistence does not entitle its people to any merit or religious or legislative rank in the Muslim society. The real excellence and recognized merit are those which consist in knowledge, faith and good deeds. "Say :

teeth of a comb; no Arab is better than a non - Arab except by dutifulness."

The rich therefore, are mere individuals who make fortunes through their endeavours and enterprise, yet their fortunes may not last; they may get less or be transferred to new owners. So poverty and wealth in the Muslim society are not fixed or continuous phenomena. On the contrary, they are changeable and subject to the alteration of circumstances and chances of earning, and the change of ownership according to the laws of inheritance.

There Are no Classes In Islam:

Islam then does not recognize existence of social classes in the western terminology. It is free from any class of inherited rights and prerogatives. Its teachings are not familiar with the so-called classes of rulers or nobles or knights or clergy or the like.

The rulers are only individuals chosen by the nation and appointed to office either through the people of authority in it or through any other means the nation may choose. They are not of a special group and do not belong to any particular family. Nay, the Prophet said : " Listen and obey, even if you are ruled by an Abyssinian negro as long as he leads you in accordance with the Book of God; the Qur'an. Just before his death the Calif Umar said: " Had Salim, a former slave of Hudhayfah, been alive, I would have appointed him to succeed me."

The system of inherited rule and califate is alien to Islam. It is not recognized by its teachings or admitted to them. The jurists of Islam do not constitute a priestly class with alleged Divine powers as is the case with the clergy of other religions. They are only specialized doctors of the Islamic faith, law and morals. Their actual status is that they are scholars of religion and law, of ethics and sociology. They are not, by any means, intercessors between God and His bondmen nor are they in possession of the keys of Paradise or dealers in the *bonds* of God's contentedness and forgiveness.

It is clear, therefore, that if we apply Western terminology and Western conceptions, we shall find no classes in Islam because Western terminology in this respect is inapplicable to Islam. Once this classification is pointed out, it is no harm then if some people call the rich individuals in the Islamic State a *class*, because serious researchers classify mankind to three classes : rich, average and poor. This classification is understandable; since it corresponds

that *whoever* quickens a dead land it belongs to him, and *whoever* trades the profit goes to him ; and *whoever* comes across any source of property or treasure without a known owner and covered by the ground pays only one fifth of it to the State and the rest is his.

It is the duty of the ruler in an Islamic state to find work for the unemployed. If he fails to do so, or if any citizen becomes jobless owing to his disability, or if the worker's wage dose not suffice his needs — it is the responsibility of the ruler to take good care of him. The Muslim ruler must secure for such a citizen, be he a Muslim or otherwise, the due rights of diet, winter and summer clothes and a proper lodge. When the collected alms and ordinary resources of the state do not meet these demands, the ruler is authorized to impose new taxes on the wealthy people to ensure the interests of Muslims. The doctors of Islam have laid down the principle which states that should the Muslims be endangered, their holdings automaticcally become a common property and nothing of it belongs to anybody in particular. Moreover, Islam has taken useful steps to break the big capitals into small units of property. One of the most important measures in this respect is the law of inheritance according to which the wealth of the deceased person is distributed among his wife, parents, his children and other entitled heirs from amongst his kins. This distribution must be carried out in a just manner as to include the male and the female alike, not the former only as the Arabs used to do before Islam nor the eldest son as is practised in some modern nations of today like England.

The Rich Are Not a Class :

The system of Islam accepts the rich as individuals who may ecquire properties by lawful means and use them in like ways without being niggardly or holding back in times of need. It accepts them as such, not as a privileged class of special prerogatives or endowed with social sovereignty inherited from generation to generation. This is because Islam consideresall people equal before God, the Law and the Qur'an; and no preference is granted to anyone except inasmuch as he is faithful to God, truthful to humanity and respectful of his general rights as the Qur'an says : " O mankind, surely We have created you from a male and a female, and made you tribes and families that you may know each other. Surely the noblest of you with God is the most dutiful of you " (Surah. 49. V· 13). In addition to that the Prophet said : " Mankind are equal like the

monopolizer cursed. The rich people are strictly forbidden to squander, and the ruler is authorized to decree interdictions against the immature and squandering people. He is authrised to arrest their wasteful use of proPerty. The Qur'an says: "And make not over your property, which God has made a *means of* support for you, to the weak of understanding" (Surah. 4, V. 5.) and "Surely the squanderers are the devil's brethren. And the devil is ever ungrateful to his Lord" (Surah. 17, V. 27.) Moreover, all kinds of luxurious squandering, which sopoils nations and individuals, are prohibited. This is why wine is strictly forbidden and this is why the lavish use of golden as well as silver articles and the adornment of men by wearing gold and silk are ordained unlawful. The Qur'an says: "And when we wish to destroy a town, we send commandments to its people who lead easy lives, but they transgress therein; thus the word proves true against it, so we destroy it with utter destruction" (Surah. 17, V. 16).

Furthermore, Islam prohibits the hoarding of gold, silver and the like. The Qur'an contains frightening warnings addressed to the hoarders; "And those who hoard up gold and silver and spend it not in God's way-announce to them a painful chastisement. On the day when it will be heated in the Fire of Hell, then their foreheads and their sides and their backs will be branded with it: This is what you hoarded up for yourselves, so taste what you used to hoard" (Surah 9. V. 34-35).

Islam does not compaign against hoarding by words only; it prescribes practical measures one of which is the ordained alms which amounts to two and a half percent of the capital. This is in itself an alarm to the proprietor meaning an eventual exhaustion by prescribed alms of his property if he hoards it up or fails to invest it.

It is through these said measures of forbidding usury, monopoly, squandering and lavishness, on the one hand; and of combating all kinds of hoarding and enjoining alms, on the other hand, that the proprietor is compelled to invest his property in a legal way for the common weal of society. Thus the fair balance which Islam seeks can be realized.

Conversely, Islam gives the poor people opportunities equal to those of the rich. The former are entitled to all possibilities and means to attain the standard of the latter and stand with them on equal footing. The door of business and earning is open for all people poor and rich alike. It is not confined to or monopolized by any group nor is it inaccessible to anybody. It is a well-established principle of Islam

man from among the Immigrants and supply you also with winter as well as summer clothes, which you will use till they are worn out and then bring back to take new ones instead of the old."

Moreover, Umar the Second Calif of Islam said : " My attitude towards the property of this Treasury is like that of the guardian of an orphan towards his property; when I am needless I will keep my hands off, but when I am in need I will satisfy my necessary needs therefrom without any excessiveness. Furthermore, Ali son of Abu Talib, the Prophet's cousin and Fourth Calif of the muslims, refused completely while in office to take anything from the Treasury for himself or his family.

This is the practice of the wise califs and pious leaders of Muslims. But the deviations from the right path of some *Muslims* rulers and their errors are not an argument against *Islam*, and Islam is, by no means, responsible for such errors.

Islam Ordains Balance Between the Rich and the poor.

The recognition by Islam of natural dissimilarity in sustenance does not mean that Islam lets the rich free to increase his wealth and the poor to worsen in his poverty. Nay, it interferes by virtue of its legislative system and moral instructions to narrow the gap between the rich and the poor. It has taken the necessary measures to prevent injustice from the former and to raise the standard of the latter.

Islam forbids the rich to make any wealth or earning through unlawful means. It forbids them to swallow usury in any form and by any quantity. It considers the swalawer of usury as fighting against God and His Messenger, and curses everyone who participates in a dealing of usury because it is an unjust deal in which the weak are exhaustively exploited for the interest of the strong. In support of this point the Qur'an says. "O you who believe, keep your duty to God and relinquish what remains (*due*) from usury, if you are *(true)* believers." "And God has allowed trading and forbidden usury." "God will blot out usury, and He causes charity to prosper" (Surah 2, Vs, 275-275, 278). In addition to that the Prophet said : "God will curse the recipient of usury, its giver, its scribe and its witnesses."

On the other hand, Islam forbids them to resort to monopoly which is the character of greedy capitalism. The Prophet of Islam declared that the *distributer of life stocks* would be sustained and the

contribution or a sort of kindness that would make the rich feel superior and exalted, and make the poor develop a sense of self-contempt and disdain. It is a known right, an ordained tax, which is to be collected by the government through appointed tax-collectors and is to be expended on the needy and the common interest "in the way of God and emancipation of slaves."

Alms-giving is not a supplementary principle of Islam, but is a fundamental pillar and without the distribution of which no man can be Muslim. If the State fails to collect the alms and expend it properly, it is not entitled to be called an Islamic state. It is a well-attested historical fact that when some Arab proprietors refused to pay their alms, Abu Bakr, the First Calif, showed no tolerance. He prepared eleven brigades to fight the greedy capitalists and said : " I swear by God, if they retain a camel's tether which they used to give to the Messenger of God, I will fight them for it. ".

The Treasury Belongs to the State:

Some biased people have spread vicious rumours about the Muslim Treasury and its contents of alms and other resources of the Islamic State. They pretend that the Treasury and its contents are nothing but personal propriety of the Califs and Sultans, who can expend of it as they please without any supervision or questioning. But the fact, which is well-known to anyone who has studied the law and history of Islam, is that the Treasury does not belong to the Calif but is a common property for all the people.

The Calif is only an entrusted treasurer who is entitled to nothing of it more than his regular and reasonable salary. It was Abu Bakr the First Calif who laid down this principle when he said : " Pay me as an average person of Quraysh, not like one of the low or one of the upper class." This happend after he was sworn fealty to the people. He went on the following day to the market for his daily business to maintain himself and his family. Then the great Companion Umar met him and said : " Where are you going ? He replied : I am going to the market to do business. Umar exclaimed saying : What ! how can you do that after having been chosen to administer the affairs of Muslims ? He said: How am I going to maintain my dependents ? Umar answered : Go to the Treasurer Abu Abaydah and ask him to fix a regular salary for you. Abu Bakr went to the Treasurer who said to him. " I shall fix for you victuals sufficient for an average

weak ? Has Islam left society to be dominated by artificial barriers of discrimination on the basis of race or colour or inherited nobility ? This is what we shall give answers to in the following pages.

The lightest examination of the teachings of Islam demonstrates that it is not a religion of any particular class or any special group, but is a religion socially founded on the bases of fraternity, justice and equality. These bases are clearly represented in the rituals and worships of Islam as well as in its economical and political systems.

The Relation Between the Rich and the Poor :

Islam admits the instinctive dissimilarity of people in abilities and natural gifts, faculties and capacities, and it accepts, therefore, their reasonable and instinctive dissimilarity in sustenance. Islam as a religion which recognizes the natural instincts of man and things, sublimes them and does not conflict with them accepts individual ownership as long as it comes from lawful sources. By this attitude Islam means to satisfy the instinctive motives and human desires for ownership competition and saving. But it does not regard the individual property which is obtained through illegal means like usurpation and stealing whether this latter is in apparent or hidden forms such as gifts presented to rulers, exploitation of influence, accepting bribes and taking other people's properties by subtle manners. On the contrary, it confiscates all holdings of this sort however long they remain in the holders' hands, because length of time and succession of day and night do not allow the forbidden or make the prohibited lawful.

In Islam man is not the real owner of property and cannot do with it what he pleases. All holdings belong in fact to God alone. This statement means that they belong to the entire society, and the rich man is a mere employee appointed to take care of what he holds, invest it and spend it in such a way as to agree with the interest of society, without inflicting any harm upon it. In other words, as the Qur'an puts it, the *rich* person is only a successor; "and expend of that unto which He has made you successors" (Surah 47, V. 6); "and give them (the earnest slaves who seek emancipation) of the wealth of God that He has given you" (Surah. 24, V. 33).

Ownership, therefore, is a social function, and the wealthy person is tasked with financial duties to his society the least of which is giving *alms* (zakah). This is not a voluntary

The rituals of pilgrimage are associated with certain place in the sacred city of Makkah only because it is the land of remembrances, the legacy of Abraham and the cradle of the Call. All the rituals performed by the believers in the course of pilgrimage are indicative symbols of suggestive revelation. They have no value or significance in themselves because they are meant for the glorification of God and submission to His ordinances. It is reported that Umar, the Second Caliph and great Companion of the Prophet, stood before the Black Stone in the Kaabah and said : " I kiss you although I know that you are a stone incapable of doing any harm or causing any benefit. And had I not seen the Messenger of God kiss you, I would have never done so. "

In view of these explanations, would there be any ground for the superficial outlook of those who say that the Muslims make pilgrimage to a stone and bow down in prostration before it, seeking its blessings or graces ? Any such allegation is a mere nonsense. Pilgrimage is a pointed mote in the eyes of the enemies of Islam because it is the most imperssive Divine convention to which the Muslims come from everywhere in the globe to enjoy the mutual feelings of a common Islamic brotherhood and joint aims, and to dicusss their affairs in co-operative and most understanding manners as to return to their previous state of dignity and power; to be new the best nation raised up for men by enjoining good and forbiddding evil and by believing in God.

It is these Divine principles that vex the blind enemies of Islam and make them hit at random. The advocates of chaos and enemies of humanity stay restless when they face any organized course of relationship either between man and man or between man and God. This is why they look to Islam with unhappy eyes and shamelessly invent all sorts of lies and allegations to set barriers between men and Islam. But we believe that all this will be in vain once Islam is properly presented and correctly represented. It is our hope, however, that the short account given of these two forms of worship (Prayer and Pilgrimage) will be a sufficient expression of the spirit of Islam in drawing the course of relations between God and man.

Human Relations :

Now let us consider how Islam organizes the course of human relations among people. Has Islam ever supported the feudalists, or recognized social injustice, or helped a class of society against another, or favoured the strong at the expense of the

to Islam as they were not known to any religion before Islam. They are the daily contact between the Muslim and his Lord. They are the effective means of purifying the body and the soul, of cultivating the sound conscience and developing decent morals; " Surely prayer keeps (one) away from indecency and evil ... " (Surah. 29, V. 45). They are, especially when performed in congregations, a strong social bond and a practical lesson by which Muslims practise discipline, brotherhood and equality. The condition which enjoins upon all Muslims to turn their face to one direction towards Mecca (Makkah) while praying is profoundly significant as it trains them to be whole-heartedly united in aim, opinion and tendency.

Pilgrimage, another fundamental pillar of Islam, is a journey in which the Muslim turns his heart and body to the House of God at Makkah, the House which was built by Abraham to be the symbol of monotheism and unity. When Abraham, father of the prophets and the enemy of idolatry, established it, God ordained him to proclaim to men the pilgrimage; " And when We pointed to Abraham the place of the House, saying : Associate naught with Me, purify My House for those who make circuits and stand to pray and bow and prostrate themselves. And proclaim to me the Pilgrimage : They will come to thee on foot and on every lean camel, coming from every remote path" (Surah. 22, Vs. 26-27).

This form of worship, started with Abraham as entirely pure for God, was abused and spoiled. The succession of time together with ignorance, caprices and superstitions drove the people out from the path of God to indulge in idolatry and associate images with God. They laid down idols in the House of God to worship them and offer oblations to them, mixing whatever was left of the monotheistic rituals with the accretion which they invented.

When Islam came to find the said condition, it removed all traces of idolatry and abolished the remaining forms of Pastnership in Divinity. Upon the triumphant return of the Prophet Muhammad to Makkah he smashed with his own hands the idols which were set around the House of God at Makkah (the Kaabah), saying : " The Truth has come and falsehood vanished. Surely falsehood is ever bound to vanish" (Surah. 17 V. 81). Thus the House was made pure for God alone and the institution of Pilgrimage restored to its fromer state in the days of Abraham. In forms and slogans, in intention and practice pilgrimage was one again designated to God.

made by an individual or any group of individuals directed by their cultural beckgrounds or environmental circumstances or legacies, not to mention their caprices or passions, to introduce a subjective system doomed to deficiency and change. Islam is the system of God Who is the Lord of men and is free from bias and partiality to any race or class or genertation. He is the Lord of them all and they are His servants. He knows their interest and His mercy is so comprehensive that He does not over-task them: "God desires ease for you, and He desires not hardship for you . . . " (Surah. 2. V. 185).

Worship is God's Alone:

The first article in the faith of Islam is the organization of relationship between God and His bondmen. Mankind do not create themselves nor do they invent any of the many embracing dooms and universa' graces in the heaven and the earth. But it is God Who creates them, bestows favours on them and honours them from among his creatures. This leads to one logical conclusion, that is, they ought to be thankful to Him as to know His rights on them and worship Him alone without associating any partner to Him. And this exactly what Islam ordains in the words of the Qur'an "And they are enjoined naught but to serve God, being sincere to Him in obedience, upright, and to keep up prayer and pay the poor-rate, and that is the right religion" (Surah 98, V. 5)

Moreover, Islam does not only confine worship to God alone, but also purifies the rituals from all the idolatrous accretions and innovations invented by the followers of different sects to lay barriers between God and His bondmen and to establish a system of priestly intercession between the Heaven and the earth. Prayer in Islam is a devotion to God only in which man turns his face wherever he happens to be to the Lord without dependence on the permission of any relegious minister. The prayer-leader in a congregational service, which is more preferable to private worship, is not a man of priestly rights but is one of the congregation. They let him lead their prayers for his knowledge or piety and check his recitations to correct him, if he makes any mistake. He cannot assure any member of the congregation that his prayer will be accepted by God; because the final word on acceptance is God's only Who knows the truthful from the otherwise, and Who "accepts only from the dutiful" (Surah. 5, V. 27).

The Islamic prayers with their manners, their time-tables, their conditions and recitations are peculiar

the Garden, and they will not be dealt with a whit unjustly " (Surah. 4, Vs 123 — 124).

It is sufficient to support this argument that the Messenger of God-peace and blessings be upon him-and his Companions as well as their pious successors did not conceive life or live it except as an aspect of serious undertaking and earnest endeavour. It was this spirit that made them surpass other peoples in every field of life. They did not remain stagnant or lazy awaiting the peace of the Hereafter and the boons of the Garden. They could not do it because the Qur'an, their right guide, says : " And say, Work; so God will see your work and (so will) His Messenger and the believers. And you will be brought back to the Knower of the unseen and the seen, then He will inform you of what you did " (Surah. 9, V. 105). " He it is Who made the earth subservient to you, so go about (working) in the spacious sides thereof, and eat of His sustenance. And to Him is the rising (after death) " (Surah. 97, V. 15). Again it says : " O you who belive, when the call is sounded for prayer on Friday, hasten to the remembrance of God and leave off traffic. That is better for you, if you know. But when the prayer is ended, disperse abroad in the land and seek of God's grace, and remember God much that you may be successful " (Surah. 62, V, 6 - 10).

The System of Islam:

Islam has a very unique and universal system which is closely associated with all aspects of life. It is concerned with the individual and the society and is interested in life at large. In a very fair manner and on a well-balanced scale Islam deals with all aspects of life, spiritual and material, personal and social, local and international. No matter is over-rated at the expense of another, but justice in all sides prevailes. Unlike other religions, it does not wear a material uniform or take a material view of life, nor does it over-estimate the spiritual elements of existence. It draws a balance-line between the individual and his society without making the former dominate the latter as is the case with capitalism, or vice-versa, as is the case with communism.

All this is because Islam is not the production of an unguided revolution resulting as a reaction to corrupt conditions or to oppose extreme right with extreme left, as was the case with the unguided revolutions which introduced weak and shaking systems that were the subject if common complaints and inevitable alterations. The system of Islam is not

especially if we take into consideration what geologists say about the estimated age of the world, which goes back millions and millions of years. The Materialists disregard another significant tact, when they do not realize that Muhammad is the last Prophet and his message is the final word from God to mankind. Should they conceive this fact, they would find it easy to clearly understand what the word " nigh " in the verse means, because they will then know that since there is no prophet after Muhammad nor is there any message after his until the day of Resurrection, the Hour is coming and nigh.

The Hereafter is another creation wherein every person will receive a fair return for what he or she has done in first life. In many cases this present life falls short of rewarding the good people for their deeds and punishing the mischievious for what they might have committed. Faith in a Wise, Just God leads by necessity to the belief in the existence of that other life to be. This is the logic of faith in God Who ordained the Hereafter " that He may reward those who do evil for that which they do, and reward those who do good with goodness" (Surah. 53, V. 31) Belief in Resurrection is the logical conclusion of man's creation and his responsibility; " Do you then think that We have created you in vain, and that you will not be returned to Us " (5. 23, V. 115) " And We created not the heaven and the earth and what is between them in vain. That is the opinion of those who disbelieve. So woe to those who disbelieve on account of the Fire. Shall We treat those who believe and do good like the mischief-makers in the earth ? Or shall We make the dutiful like the wicked ? (Surah. 38, Vs. 27 — 28) . If there were no belief in Resurrection, the justice of God and the very principle of laying responsibility on man's shoulder would be very critically questionable; an attitude which could produce nothing but chaos and destruction.

It should be borne in mind, however, that belief in the Hereafter does not mean giving one's back to life and being indifferent to the serious course of events on dependent on others with indulgence in vain wishful thinking. Happiness in the Hereafter is not attainable except through persistent work and serious endeavours. " It will not be in accordance with your vain desires nor the vain desires of the people of the Book. Whoever does evil, will be requited for it and will not find for himself besides God a friend or a helper. And whoever does good deeds, whether male or femal, and he (or she) is a believer — these will enter

The messenger of God, though having the strongest faith in God's Fate, was fully aware of the necessary measures and means to be taken. He therefore, had taken necessary precauitons, mobilzed armies,sent reconnaissance patrols, fought full - armed and had followed the most advanced rules of tactics and strategy.

Although the question of predestination and choice was clear enough in Islam, as we have already seen- through texts, practice, theory and application- the messenger of God, peace be upon him, had ordered his companions to block the way of fruitless discussion about such delicate questions in which the human mind had failed to reach a sound solution for long ago, in order they might escape dissension and divergence of views.

Refering to this question Shaykh Muhammad Abdu had said : " unfortunately some persons who have evil intentions appeared among the Muslims from amongst the Persian and Roman subjects who feigned to be muslims and who brought to Islam what they have had of dissension and hypocrisy. They disobeyed God and his messenger when they violated Their order of forbidding discussion of Fate, and misled Muslims through their ambiguous and absurd words. They even disintegrated their unity and God says to His messenger concerning this attitude : " As for those who split up their religion and became sects, you have no concern with them." (Surah. 6, V. 160).

"Such was a group of determinists who were weak and helpless whose plea could not stand sound reasoning, and whose actions had been so repulsive that they were expelled from the domain of religion. It was left lagging behind until it was fully uprooted. This gave impetus to the prevalence of the tendency calling the majority of Muslims to adopt the trend of moderation between detereminism and choice which is the trend calling to serious activities and true faith.

Faith In Resurrection :

Some Materialist pedants often try to spread doubts about the belief in resurrection and other eschatolgical doctrines, like that of the Day of Judgement, Paradise and Hell-Fire to which doctrines references are made in the Qur'an and all the other Divine Scriptures. In a sarcastic manner they comment on the Qur'ánic verse " Perhaps the Hour is nigh " (Surah. 42, V. 17) by remarking that a period of more than thirteen centuries has elapsed yet, the Hour has not come as yet. They forget or overlook that measurement of time is a relative question, and that a thousand years or more is only a short time in the accouut of history,

and wisdom, and which are applying to all creatures including man himself. Man is free because God wants him to enjoy liberty, and has his own will for God says: " But you will not except as God wills. " (Surah. 76, V. 30.)

There is no wonder then when we read in the Qur'an the combination of both the liberty of the human will and the mastery of Divine will which appears in the following verses: " Verily, all things have We created in porportion and measure." (Surah. 54, V. 49); " And if thy Lord had pleased, all those who are in the earth would have believed. " (Surah. 10, V. 99); "Doer of what He intends. " (Surah. 85, V. 16) and " Surely thy Lord makes plentiful the means of subsistence for whom He pleases, and He straitens. " (Surah. 17, V. 30).

Muslim's belief in Fate, however, does not represent any determinist dogma nor does it express the accidentalists trend, but it is rather the belief in that the universe is heading to an ultimate end and that it is regulated by a Supreme Power. How can it be otherwise while God's knowledge fully comprises every atom in heavens and earth, and directs it according to His conclusive wisdom and mercy? " And not the weigt of an atom in the earth or in the heaven is hidden from thy Lord, nor anything less than that nor greater, but it is (all) in a clear book ". (Surah. 10, V. 61).

Belief in Fate as such depicted does not at any rate contradict the exertion of efforts and the search of whatever possible means to carry out one's own affairs. This is simply because God had ordained causes and means, introductions and conclusions. He had not destine success without any work, but had ordained it through its due means of unflagging efforts, of caution, vigilance, patience, endurance and so forth.

Taking means then does not oppose Fate but in fact is implicitly included in God's Fate. Therefore when the messenger of God was asked this question: " could you prevent the occurance of God's Fate ? " in view of remedies and ways thereby evil might be evaded, his unequivocal answer was: " all happenings are ordained by God's Fate. " Furthermore when epidemic disease was prevailing in Syria Omar Ibn El-Khattab, after his consultation with the companions, had decided not to enter it and returned back with his company. Some companions said to him: " do you run away from God's destiny O Prince of Muslims ? " He said "yes; I run away from God's desting to face God's destiny in other from. "

have made anythig unlawful. Thus did those before them reject (the truth) until they tasted our punishment. Say : Have you any knowledge so you would bring it forth . to us ? You only follow a conjecture and you only tell lies." (V. 159). He also says in the chapter of th Bee : "And the idolators say : Had God pleased, we had not served aught but Him, (neither) we nor our fathers nor had we prohibited aught without (order from) Him. Thus did those before them. But have the messengers any duty except a plain delivery (of the message)." (V. 35). He further says in the chapter of Yasin : "And when it is said to them : Spend out of that which God has given you, those who disbelieve say to those who believe : Shall we feed him whom, if God please, He could feed ? You are in naught but clear error. " [V. 47]. And finally He says in the Chapter of Gold : " And they say : If the Beneficent had pleased, we should not have worshipped them. They have no knowledge of this; they only lie. " (V. 29).

By such strong and clear regoinders to the old determinists the decisive attitude taken by the Qur'an towards the question of *the human will and Divine will*, is obviously conceived.

Neverthless, man is not actually at absolut liberty or at complete choice in the sense that he does all what he pleases and abstains from all what he displeases; because if he were really free in that sense he would certainly be a God.

No one, whatever his staunch support to the human liberty may be, can deny the determinism of the human will. This is why the authorities concerned always refer it to hiriditary or environmental factors or to both of them. Some philosophors express this notion by saying: " Man is free in a domain of fetters and limits"

The dialictical materialists have even tied man to means of productions as well as to the economical phenomena which direct his way of thinking, his course of behaviour and his current affairs. Thus they degraded man and brought him to the most repugnant standard of determinism when they have made of him a humble slave of matter not a master of it as ordained by Islam.

This well attestad fact, the limitedness of the human will, is decreed by Islam in a way more honourable and dignified to man than that of the materialistic and traditional determinism. Man, from Islam's point of view, is at liberty and choice in the range of what God had ordained of rules being carried out by His will and power according to His knowledge

and still from amongst the most amazing and disputable topics which human mind failed to find out solution or reach a decisive conclusion, and in which philosophers, ethicalists, psychologists and educationalists had disputed so far as philosophy and research are concerned.

Islam in this connection is the balanced religion which is in complete harmony with sound nature and the tangible reality.

Man in view of the belife of predestination and choice is complyetly free and responsible for his actions and self in the domian of his optional activities. He is at absolute liberty to do or abstain according to his own common sense and feelings.

The Qur'an gives full support to this attitude in the following verses: " So let him who please believe, and let him who please disbelieve." (Surah. 81, V.29). "There is no compulsion in religion — the right way is indeed clearly distinct from error." (Surah. 2, V. 256). " Surely this is a Reminder; so whoever will, let him take away to his Lord." (Surah. 76, V. 29). " To him among you who will go forward or will remain behind " (Surah. 74, V. 37) " Whoever does good, it is for his own soul; and whoever does evil, it is against it. And thy Lord is not in the least unjust to the servants." (Surah. 41, V. 46) " If you do good, you do good for your own souls. And if you do evil it is for them. (Surah. 17. V. 7). " God imposes not on any soul a duty beyond its scope. For it is that which it earns (of good) and against it that which it works (of evil)." (Surah. 2, V. 289).

In addition to the above mentioned verses there are many in the Qur'an which stipulate and decree man's liberty, gains and responsibility; "That no bearer of a burden bears another's burden: And that man can have nothing but what he strives for: And his striving will soon be seen. Then he will be rewarded for it with the fullest reward." (Surah, 53, V. 5. 38-41).

This positive attitude adopted by the Qur'an has been backed by a strong campaign against the determinists who ascribe their blasphemy and sins to Fate under the pretext that their actions are directed by the will of God.

In four Suras (chapters) of the Qur'an God, the Almighty, refutes this false assumption. In the Cattle chapter He says: "Those who are polytheists say: If God pleased we would not have set up (aught with Him) nor our fathers, nor would we

merits and characteristics which other religions are lacking · It is a clear and simple belief which may be expressed in the idea that there is beyond this disciplined and unique universe One God who had created and regulated it, and who had destined every thing in this universe. This God has no associate, no counterpart, no wife and no son but "To Him belongs whoever is in the heavens and the earth." (Surah. 21, V. 19.).

This belief is plain and acceptable. Because the human mind seeks always association and unity beyond the apparent variation and multiplication. It incessantly tends to refer all things to one cause. The uniform fact also proves that the multiplication of wills does not produce an integral conclusion or lead to a coherent system. The glorious Qur'an assures this fact when stipulating that: "God has not taken to Himself a son nor is there with Him any (other) god-in that case would each god have taken away what he created, and some of them would have overpowered others." (Surah. 23, V. 92); "If there were in them gods besides God, they would both have been in disorder." (Surah. 21, V. 22),

Moreover it is not a belief alien to human nature nor does it contradict this nature at any rate. It is rather in complete harmony and accordance with this nature. The Qur'an illustrates this notion plainly when saying: "So set your face for religion, being upright, the made by God in which He has created men. There is no altering God's creation. That is the right religion-but most people know not. (Surah. 30, V. 30).

It is as well a fixed and defined belief which is not subject to increase or decrease, distortion or change. No ruler whosoever or scientific synod or religious congregation is alowed to make addition or adjustment in this belief. Any addition or adjustment will be held invalid and will only express the point of view of such innovator. The messenger of God in this respect says: " Whoso produces any idea alien to our injunctions will be responsible for this and his innovation will be only ascribed to him " and the Qur'an says : " Or have they associates who have prescribed for them any religion that God does not sanction" (Surah 42. V. 21).

Thus all innovations, superstitions and supplements maliciously entered into Muslim beliefs or foisted into their books or treachrously propagated among uneducated masses are false, unreliable and thoroughly rejected by Islam.

Misconception of predestination and choice

Predestination and choice were

the Qur'an until he reached at the following verse : "At length, behold ! There came our command, and the fountain of the earth gushed forth! " and went on reciting until God's saying : " Away with those who do wrong." (Surah. 11, Vs. 40-44), then he said with admiration : this can not be challenged at all by any human being " and burnt what he had invented. Furthermore, El-Bakellani goes on to say : "there had been persons who assumed that Ibn El Mokaffaa had opposed the Quran in his book titled *the Unique pearl* -Aldurratul Yatim-"; but El Bakellani failed to find any thing in Ibn El-Mukaffaa's work that might be held as an imitation of the Qur'an.

There was also Aboul - Alaa El Maarri who had been accused by the sin of imitating the Qur'an. But-El-Rafei, the Egyptian writer, refuted this charge very strongly. Dr. Taha Hussein, the contemporary Arab writer, refuted as well what had been attributed to Aboul El-Alaa.

The latest attempt of such fraudulent prophets, who claimed to be in touch with the divine revelation, is seen in the assumption made by Mirza Gholam Ahmed El Quadyani-the Indian-, Mirza Ali El-Bab and his disciple El Bahaa.

Fortunately, the followers of those fabulous prophets do not show us what they assume to be Qur'anic verses and hide it in such a manner as it was something to be ashamed at. Whoever manages to read their books will see nonsense and absurd words and ideas. He will be profoundly confident that the Qur'an is the genuine revelation of God; "This is a Book, with verses basic or fundamental (of established meaning), further explained in detail from One Who is Wise and Well - Acquainted (with al things). " (Surah. 11, V. 1).

Islam is a belief as well as a system of life.

Islam is not, as being held by short-sighted individuals, a theological religion nor is it a mere belief taking only into account the spiritual side of man while leaving aside the organization of his relations with the universe, with life and with his fellow human beings whether they are individuals or families or nations. In the contrary Islam is a comprhensive belief out of which an integral as well as a universal system comes forth on which a balanced and universal nation is based. Such nation is depicted in the Qur'an as follows: " And thus We have made you an exalted nation that you may be the bearers of witness to the people." (Surah. 2, v. 143) ; "You are the best nation raised up for men : you enjoin good and forbid evil and you believe in God." (Surah 3. V. 109).

The merits of the Islamic belief.

The Islamic religion has its own

Jesus brought forth alive. Because these two miracles, though unusual, are not a means of instruction and guidance nor are they pertaining to medicine. Therefore their indication is not intrinsic.

However, the doing of supernatural miracles is less important than the making of supreme, divine and legislative sciences without having any sort of knowledge. Yet the Qur'an anticipates the hidden matters in the past and the future, and its teachings lead to success and prosperity. The Qur'an thus is a clear proof that its spiritual as well as social remedy is only revealed by God, the Wise, the Sustainer, and no person whosover can oppose or doubt it.

Was there any opposition to the Qur'an ?

After the shining success of the Islamic call in the Arab peninsula there appeared, for psychological as well as tribal reasons, some persons who claimed themselves to be prophets. What their proofs, their books and their achievements ? The following may give answer to this question.

In the nineth and tenth years after the Immigration there had been some individuals who claimed themselves as prophets. They were : Musaylama of the tribe of Hanifa which had envied Quraysh because the messenger of God belongs to it, Al-Aswad El-Ensi who appeared at Yamama, Talha Ibn Khowayled El-Asadi who appeared within the tribe of Asd and Sagah daughter of of El-Harith who had Known christianity before and who appeared in the tribe of Taghlib.

The different narrations, however, tell us that such pseudo prophets had made books to oppose the Qur'an. But history and literature did not preserve any trace of their works except that had been introduced as anecdotes or Jokes.

The false allegation of these feigned prophets had not managed to stand upright in face of the strong march of Islam. No sooner had they proclaimed their absurd calls than they had met their utter defeat and profane destiny. Some of them had died and others embraced Islam and became sincere believers such as Talha who had joined the army and fought heroically in the way of God to atone for his Past attitude against Islam; " Nay, We hurl the truth against falsehood, and it knocks out its brain, and behold, falsehood does perish ! " [Surah. 21, V. 81].

In the Abbaside Caliphate some narrations stated that there had been an opposition to the Qur'an but these narrations were not backed by factual texts. For instance Ibn Kayyem al-Jozyyeh and al - Bakellani stated that Ibn al-Mokaffa had been reciting

others of them, who have not already joined them: And He is exalted in might, wise ". (Surah 62, Vs. 2-3).

The Qur'an is a miracle and guide.

Apart from all other Scriptures the Qur'an stands unique by being a miracle as well as a guide ; "a guide to mankind, also clear Signs ", Howevere if the miraclous sign proved to be in accordance with the spirit of the message, then it would be more indicative of the truthfulness of the messenger and would give him more support than the outward miracle. To illustrate this idea some learned men gave the following example. If there be a man in a city-wherein diseases are spread-claiming to be a physican, and forwarding as a proof of his plea a book written by himself dealing with medicine and adding that patients will find their cure in such a book. If such a book on being examined by other physicians well versed in their subject proved to be the best book bearing on that subject, and if such a physician diagnosed the people's illness and prescribed for them the medicine leading to their recovery; could such a plea be disputed after being confirmed by practical as well as theoritical proofs ? Definetly no one can doubt the authenticity of such clear plea.

If in a likewise manner we apply this reasoning to a more sublte matter that is curing of spiritual and moral maladies the result should be more striking because the treatment of physical maladies is not easy as the treatment of physical ailment. It is rather more subtle and difficult to be attained.

It is a well attested fact that the Qur'an includes the sound creeds, the sublime morals and the origins of social and civil legislation. It is well known too that the prophet, may the blessings and peace of God be upon him, had successfully treated by the virtue of his holy book a peo ple of long-established conflict illiteracy and idolatrous vices. Such people through his treatment recovered and became unified, sophisticated, wise and masters of numerous countries. However it is more striking to notice that the man who attained this success had been illiterate with no background either in science or politics. If the afore mentioned physician proved his claim by means of an action which is unfamiliar to the people and has no bearing on medicine, his claim would propably be suspected. Similar is the case with the prophet Muhammad in his claim that he was sent by God to guide the whole of mankind. His Book, which proved to be sound, is more indicative that it is a revelation from God than the rod of Moses which became snake and the dead womh

Because the message of Muhammad is conclusive, ever-lasting and addressed to all mankind the wisdom of God had backed him by a comprhensive and immortal miracle as well; which is an abstract and intellectual sign i,e., the glorious Qur'an. God refers to this miracle in the Quranic texts by saying : " Yet they say : ' why are not signs sent down to him from his Lord ? ' Say : the signs are indeed with God and I am indeed a clear warner. And is it not enough for them that we have sent down to thee the Book which is rehearsed to them ? Verily, in it is mercy and reminder to those who believe. " (Surah 29, Vs. 50-51). The glorious Qur'an constitutes so many miraclous aspects which lie in its inimitatability and which had strongly retorted the pretexts of the unbelievers, silenced their tongues and brought their arguments to naught ; "Let them then produce a recital like unto it,—If (it be) they speak the truth." (Surah 52, V. 34) ; " Or they may say : he forged it. Say ; bring ye then ten suras (chapters) forged, like unto it, and call (to your aid) whomsoever ye can, other than God — If ye speak the truth." (Surah 11, V. 13) ; " And if you are in doubt as to what we have revealed from time to time to Our servant, then produce a Sura (chapter) like thereunto ; and call your witness or helpers (if there are any) besides God ; if your (doubts) are true." (Surah 2, V. 23).

Thus the unbelievers had met their utter defeat and faced thir impotence thanks to the startling challenge of the Qur'an. Such defeat was recorded in history and expressed by the Qur'an when saying. " Say : if the whole of mankind and the Jinns were to gather together to produce the like of this Qur'an, they could not produce the like thereof, even if they backed up each other. " (Surah. 17, V. 88).

This clear Book had managed to create the most momentous revolution which turned the face of history. It was a psychological as well as social revolution which had led to the establishment of a strong nation by directing it to the right path and by unifying its scattered groups. Consequently it had attained, by virtue of the Qur'an, an integral status, an ideal legislation, morals to conduct its behaviour, means leading to prosperity, and a universal message to be addressed to the whole of mankind; " It is He Who has sent amongst the unlettered a messenger from among themselves, to rehearse to them His signs, to sanctify them, and to instruct them in Scripture and wisdom - Although they had been, before, in manifest error; - As well as (to confer all these benefits upon)

rejected to fall into the abyss of heathenism. They deserted the worship of idols and either followed the path trod by Abraham or embraced a divine religion such as christianity. The pioneers of this trend before the advent of Islam were of four persons : three of them were from the tribe of Quraysh namely; Amer Ibn Nofayl Ibn Abdu Ozza, Warake Ibn Nawfal-who already knew the old scriptures and adhered to christianity - and Othman Ibn Howayrith, and the fourth was Obaydullah Ibn Gahsh Ibn Asad. However, those four monotheists had utterly no impact upon their fellow men at any rate. This is why the call of the prophet Muhammad to monotheism was met at first by utter frustration and by entire rejection. The Qur'an in this respect says : " Has he made the gods all into one God ? Truly this is a wanderful thing. And the leaders among them go away (impatiently), (saying) Walk ye away, and remain constant to your gods ! For this is truly a thing designed (against you) ! We never heard (the like) of this among the people of these later days : This is nothing but a made - up tale. " (Surah 38, Vs. 5 - 7).

It was rather wise under such circumstances that the messenger of God, who was fully aware of the fanatical adherence of his people to their idols; did not openly declare his call to monotheism, and instead he sought the way to the fulfillment of this sacred objective in secret for three years long. Shortly afterwards and in response to God's command he began to announce his call in public to his close kinsfolk. Neverthless he did not find but a scores of sincere individuals who believed in his message. Simultanuously he togather with his companions had suffered torments and persecution for thirteen years of time. This persecution obliged him to give order to his followers to immigrate twice to Abyssinia. It was followed by a bleading conflict at Medina made by the heathens to defend their cult and to impede the upserge of the monotheist religion.

Is it logical then to assume that the Arab peninsula was evolving towards monotheism as a result of the interaction of some social factors, and that the belief in one God (tahannof) was a general phenomenon before the advent of Islam ?

The Qur'an is the clearest proof of the message of Muhammad.

It was natural that peoples in olden times might harbour doubt about the missions of the prophets and therefore had asked for evidence. God consequently had backed His messengers by cosmic miracles fashionable to their times and similar to dexterities exercised by their peoples such as magic vis-a-vis Moses and medicine in connection with Jesus.

and turned to sound faith. Saying, according to the Qur'an, : "We belive in the Lord of Aaron and Moses . . . " (Surah. 20, V. 70) and also saying : "Never shall we regard you as more than the clear signs that have come to us, or than Him Who created us." (Ibid V. 72).

Throughout all the ages God have sent prophets and messengers to be guiding lights to their peoples and sound educators and were counsellors to them. Such messengers were continuously sent to the people to lead them to the right path until God crowned religions by Islam and ended all messages by the ever-lasting mission of Muhammad son of Abdullah, who was sent to be a mercy to the whole universe; "We have not sent thee, save as a mercey unto all beings". (Surah 21, V. 105).

The message of Islam :

It would be a serious mistake to depict Islam as an unheavenly message merely invented by a human mind, or to illustrate it as a social phenomenon emerging from some historical effects or some economical factors. Whoso believes in such an idea is only deceiving himself and lying to the people as well. He is shutting his eyes and eclipsing his reason to the true facts around him. Furthermore, he ignores the authentic history and misconceives the practical and social facts of the Arab peninsula before and after Islam ; simply because the conditions of the Arab tribes at Mecca and its outskirts are well-known in history. It was the life of nomadism and travelling, commerce and amusments, ventures and raids.

As for their belief it is known that each tribe had its own idol to which it devoted worship. The Kaaba (Sanctuary) was honoured and glorified by all tribes. It was their habit to bring their idols around the Kaaba until the number of these idols reached three hundred and sixty. Paganism was not a superficial phenomenon in the life of the Arabs but it was penetrating deeply theirein. The manifestation of this was obviously seen in their pilgrimage, their vows and all their rituals. The Qur'an in this connection says : " Out of what God has produced in abundance in tilth and in cattle, they assigned Him a share : They say , according to their fancies : 'this is for God, and this for our partners' ! But the share of their partners reaches not God , whilst the share of God reaches their partners ! " (Surah 6, V. 136).

Belief in one God (Tahannof) was not known before Islam except to a throng of individuals who were so sound and reasonable that they

nature. Pagans and heathens as in this concern were more logical and reasonable. When they were asked to identify who had created both heavens and earth, they said : God;

"Say : 'Who provides you out of heaven and earth, or who possesses hearing and sight, and who brings forth the living from the dead and brings forth the dead from the living, and who directs the affairs ? They will surely say, 'God.". [Surah 10, V. 31).

Sending of prophets is a manifestation of God's mercy.

Thanks to the conclusive wisdom and to the comprhensive mercy of God, the people were not left to go astray or to wonder aimlessly. He sent them messengers and prophets from amongst themselves to warn them and, at the same time, to give glad tidings about the boons of the Hereafter. Those Messengers were provided with heavenly ScriPtures 'and commandments thereby they could set the people on the right path, to judge among them with equality and to lay down the foundations of a virtuous and dignified life. The Qur'an refers to that by saying : ". . . So that mankind might have no argument against God." (Surah. 4, V. 165).

Furthermore, the most pervaded wisdom of God necessitated that the messengers should be human individuals, not angels, selected from amongst their own people in order to be well-acquainted with their conditions, with their life, and to sympathise with their joys and sorrows. Some short-sighted persons, however, made an objection against the humanity of the prophets. The answer to this came in the Qur'an in the following verses : "Say, if there were settled, on earth, angels walking about in peace and quiet, we should certainly have sent them down from the heavens an angel for a messenger," (Surah. 12, V. 95) and : "God did confer a great favour on the believers when He sent among them a messenger from among themselves." (Surah 3, V. 164).

God purveyed those messengers with conclusive arguments as well as with clear proofs to show His approbation and to back their messengership. Such backing was so clearly defined that it convinced all fair and just people and made them believe wholeheartedly in the call of those prophets. The Qur'an refers to such an attitude by saying : " Lord, we believe in that You have sent down, and we follow the messenger. Inscribe us therefore with those who bear witness. " (Surah. 3, V. 46)

Another striking example of turning to the right is that related by the holy Qur'an about the magicians of Pharoah who, for their good fortune, had given up blasphemy

Dictionary states the following : "religious instinct is unanimously shared by all human races. It is even shared by the barbrous and savage races. The humanity at large takes great interest in pondering upon the heavenly concepts as well as the metaphysical concepts."

The philosopher Henrie Bergson says : "there had existed and still exist some human groups without sciences, arts and philosophies, but there had never existed any group of individnals without religion or belief."

Earnest Renan in a treatise on the *history of religion* says "it is feasible that any thing we like may decay and the freedom to use mind, sceience and industry may stop functioning, but it is quite impossible that religion can be abolished. It rather stands as a conclusive argument against the fallacious doctrines of materialism which desirously attempt to confine human thought to mean and narrow passages of the mundane life."

Mr. Muhammad Farid Wagdi comments on this quotation by saying: " Nay; It is impossible that the idea of religiousness can be eradicated because it represents the most sublime centiments of the human-being. Therefore the natural tendency to religion will continue deeply implanted in the heart of man so far as he has sound mind to differentiate between beauty and ugliness. "

Faith in God is an intellectual requirement.

It is evident that faith in a Supreme Power, which initiated this universe and maintained its discipline, is an intellectual necessity. This is because the naive human mind firmly believes in the principle of causation and always inclines to justification and reasoning. If there is no religion or faith, the question aroused by the Qur'an will have no answer; which question reads as follows: " or were they created out of nothing ? Or are they the creators ? " (Surah. 52, V. 35) .

Evidently they were not created from nothing nor did they create themselves, then it is inavoidable to recognize the existence of one God who is the Creator, the Knowing and the Wise.

As for those who evaded from the recognition of the creative Divinty because it is unseen, intangible and not subject to experimental tests could not deny utterly the existence of managing power. So they resorted, however, to another vague and esoteric power i, e.;

ISLAM: ITS ORIGIN AND ITS FUTURE

This is a rejoinder to Series number II of All-Union Society for Propagation of Political and Sicentific Knowledge which discusses the same topic under the same caption, and which appeared in Moscow in 1956 and was introduced to the Arab readers as "The Grey Note-Book."

An old Campaign.

The war waged against religions is not the outcome of the present age nor is it the innovation of the materialistic Marxism which assumes that religion is an opium given to the people. Voltaire, the French writer, had expressed such an idea long before the time of Marx, the Jewish thinker, when he said that deification had been an idea contemplated by clever priests to win the hearts of simpletons who enthusiastically took it to heart and believed in it. In such an attitude Voltaire in fact was following the example of the Greek Sophists who had denied or at least suspected the genuineness and naturalness of things. They propagated fallacies and diffused doubts. They alleged that man, since the dawn of humanity, had submiited only to power and not to any code of laws or set of values. Later on when laws were instituted the explicit performance of such chaotic and primitve deeds disappeared. This apparent features gave way to the prevalence of secret crimes which were incessantly committed. Such behaviour inspired certain genius - minded men to initiate the idea of an unforeseeble power which controls the lives of all creatures and masters their fates ; an eternal power all-seeing and all - hearing so as to convince the masses to behave well secretly and in public.

However, it is unwise to deny the assumption that at a certain historical period a new belief or a set of laws of worship had been institnted, for such assumption does not oppose reason or contradict facts. Such concession does not at all give any ground to convince us that the idea of religiousness was not as old as humanity itself.

Religiousness is innate instinct :

Twentieth Century Larousse